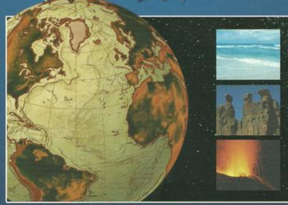
الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الأرض في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار
الأرض في القرآن الكريم
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

السماء في القرآن الكريم



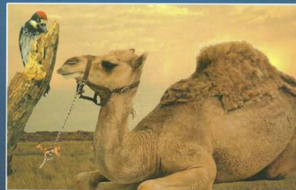
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار
السماء في القرآن الكريم
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الحيوان في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت - لبنان

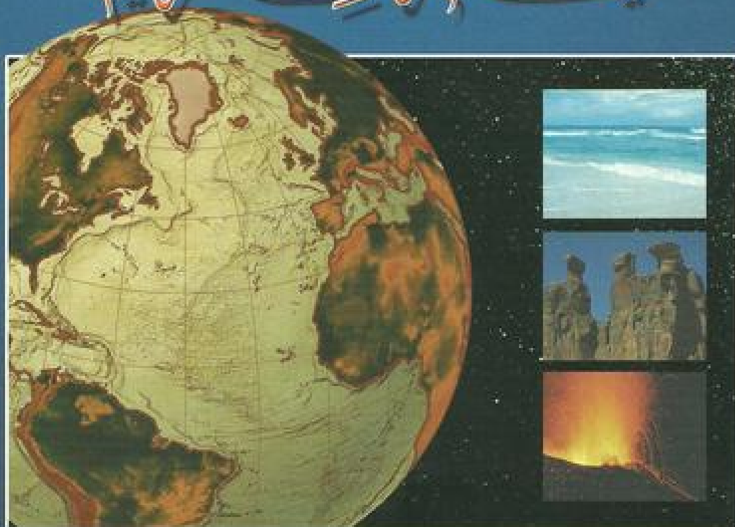
الدكتور زغلول راغب محمد النجار
الحيوان في القرآن الكريم
دار المعرفة
بيروت - لبنان

فهارس

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الأرض في القرآن الكريم



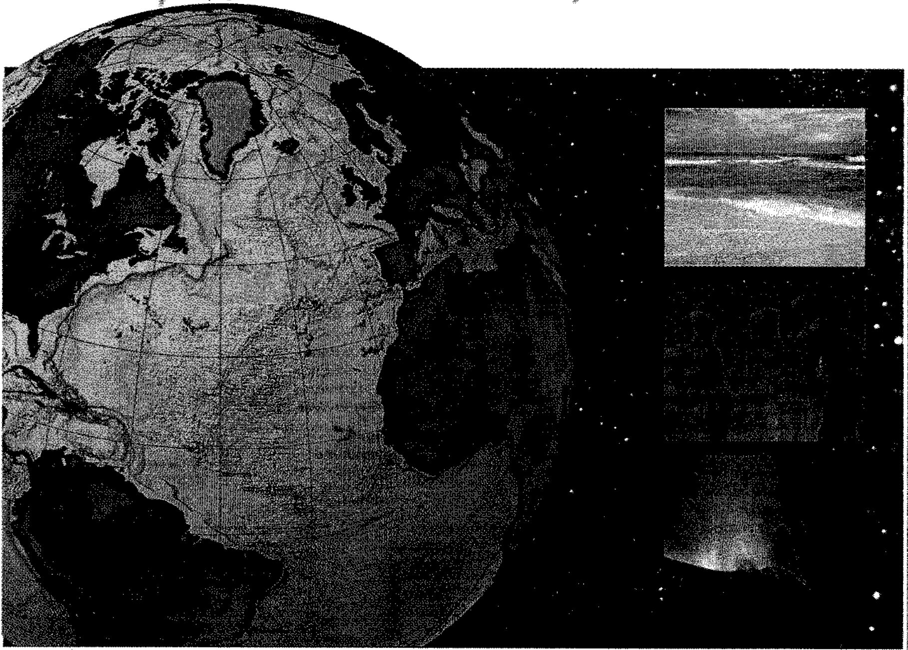
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار
الأرض في القرآن الكريم
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الأرض في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-85-006-2

الطبعة الأولى

1426 هـ 2005 م



DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

جسر المطار - شارع البرجاوي - ص.ب: ٧٨٧٦ - هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٣٠ - فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت - لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858830, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com
E.mail: info@marefah.com

بسم الله الرحمٰن الرحيم



الأستاذ/ الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار

- أستاذ/ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- رئيس لجنة الإعجاز العلمي بالقرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ج ـ م ـ ع.
- **زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.**
- ولد الدكتور زغلول النجار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربيّة في 17 نوفمبر عام 1933.
- تعلم القرآن الكريم منذ الصغر في كتّاب القرية وعلى يد والده الذي كان أحد رجال التعليم البارزين.
- تخرج من جامعة القاهرة عام 1955م حاصلاً على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، فمنحته الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.
- حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز/ بريطانيا عام 1963م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث فيما بعد الدكتوراه.
- عمل بشركة صحاري للبترول، المركز القومي للبحوث بالقاهرة، ومناجم الفوسفات بوادي النيل، ومناجم الذهب بالبرامية (صحراء مصر الشرقية)، وبمشروع الفحم (بشبه جزيرة سيناء)، وبكل من جامعات عين شمس، والملك سعود، وويلز، والكويت، وقطر، والملك فهد للبترول والمعادن. كما عمل أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجيليس ـ بالولايات المتحدة الأميركية، ومديراً لمعهد ماركفيلد للدراسات العليا ببريطانيا.
- حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي سنة 1970م وعلى درجة الأستاذية عام 1972م.
- له أكثر من 150 بحثاً وخمسة عشرين كتاباً منشوراً.

- أشرف على أكثر من خمسٍ وأربعين رسالة علمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية. وعضو في هيئة تحرير عدد من الدوريات العلمية.
- عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة، وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام ـ لندن ـ بريطانيا.
- شارك في عدد كبير من المؤتمرات العربية والإسلامية والدولية.
- عضو هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.
- مستشار في شؤون التعليم العالي بالمعهد العربي للتنمية.
- له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في صفحة كاملة صدر منه حتى الآن حوالي مائتي (200) مقال تعد للنشر الآن في سلسلة كتب متتابعة إن شاء الله تعالى ـ، وقد صدر أولها بعنوان (السماء في القرآن الكريم).
- كتب أكثر من ستين مقالاً عن الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف نشرته جريدة الأهرام المصرية خلال رمضان 1422هـ ـ 1424هـ وتم نشرها في كتاب من جزءين، تمت ترجمتهما إلى اللغة الإنجليزية. والجزء الثالث طور الإعداد.
- جاب كافة دول العالم محاضراً عن الإسلام وقضايا المسلمين، وعن الإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وذلك باللغتين العربية والإنكليزية.

الفهرس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله. ونصلي ونسلم على كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد النبي الأمين، الذي ختم الله ببعثته النبوات، وأكمل برسالته الرسالات، وأتمها في محكم كتابه ـ القرآن الكريم ـ الذي أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لُغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، فحفظه حفظاً كاملاً: حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الذي نجده مكتوباً في بلايين النسخ من المصحف الشريف، ومدوناً في وسائل التسجيل المختلفة، ومحفوظاً في صدور البلايين من الحفاظ منذ أربعة عشر قرناً، وسوف يبقى عهد الله قائماً إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، في الوقت الذي كانت كل صور الوحي السابقة قد فقدت، وتعرض ما بقي من ذكريات عن بعضها للتحريف والتبديل والتغيير الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها. وبذلك بقي القرآن الكريم هو الوحي السماوي الوحيد المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس اللغة التي أُوحي بها محفوظاً بحفظ الله ـ تعالى ـ الذي أنزل في محكم كتابه قضاءه الذي لا يرد والذي قال فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ **(الحجر: 9)**.

ولما كان القرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظة بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ كان لا بد وأن يكون معجزاً في كل أمر من أموره؛ لأنه مغاير لكلام البشر: فهو ليس بالشعر ولا بالنثر، ولكنه نمط من العربية فريد، وصياغة متميزة، لم يدركها فصحاء العرب وبلغاؤهم وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان، وعجزوا عن الإتيان بشيء من مثله رغم تحدي القرآن الكريم لهم بذلك.

وبما أن القرآن الكريم هو بيان من الله ـ تعالى ـ فلا بد وأن يكون كل ما فيه حقاً مطلقاً: حديثه عن العقيدة (وهي غيب مطلق)، وعن العبادة (وهي أوامر إلٰهية محضة)، وعن الأخلاق والمعاملات (وهي ضوابط للسلوك) ـ، والتاريخ يؤكد أن الإنسان كان عاجزاً دوماً عن وضع ضوابط في أيٍّ من هذه القضايا لنفسه بنفسه؛ ومن هنا كانت ضرورة الدين.

وبالمثل فإن إشارات القرآن الحكيم إلى الكون ومكوناته، وبعض أشيائه وظواهره هي حق مطلق لأنه كلام الخالق. ومن أدرى بالخلق من خالقه؟ وكذلك استعراضه لسير عدد من الأنبياء والمرسلين والأمم السابقة التي لم يدون لنا التاريخ شيئاً عنها هو حق مطلق، والاكتشافات الأثرية المتتابعة تثبت صدق ذلك.

والقرآن الكريم هو أيضاً معجز في دستوره التربوي الفريد، وفي خطابه إلى النفس الإنسانية وارتقائه بها في معارج الله إلى ما لا يمكن لأي خطاب آخر أن يصل، وفي إنبائه بعدد من الغيوب التي تحققت ولا تزال تتحقق، وفي تحدِّيه للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله دون أن يتمكن عاقل من التقدم ليقول: نعم لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم.

وعلى ذلك تتعدد جوانب الإعجاز القرآني (بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء من مثله) بتعدد الزوايا التي ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله، ومن هذه الجوانب:

1 ـ الإعجاز اللغوي (الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي، والدلالي).

2 ـ الإعجاز العقدي (الاعتقادي).

3 ـ الإعجاز التعبدي (العبادي).

4 ـ الإعجاز الأخلاقي (بمعنى مواءمة دستوره الأخلاقي للطبيعة البشرية بغير غُلوٍّ ولا إقلال).

5 ـ الإعجاز التشريعي.

6 ـ الإعجاز التاريخي (الذي تؤكده الاكتشافات الأثرية للأمم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم).

7 ـ الإعجاز التربوي.

8 ـ الإعجاز النفسي.

9 ـ الإعجاز الاقتصادي.

10 ـ الإعجاز الإداري.

11 ـ الإعجاز التنبئي.

12 ـ الإعجاز العلمي.

13 ـ إعجاز التحدي للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله دون أن يتمكن أحد من ذلك.

14 ـ إعجاز حفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد ـ وإلى قيام الساعة ـ دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد، في الوقت الذي تعرضت فيه كل صور الوحي السابقة للضياع التام، وتعرض ما بقي من ذكريات بعضها على هيئة ترجمات مهلهلة إلى التحريف تلو التحريف، والتحرير بعد التحرير، وإلى التبديل والتغيير، وإلى الحذف والإضافة، وإلى غير ذلك من صور التزييف الذي لا يزال مستمراً إلى يومنا هذا، مما أخرج تلك الرسالات السماوية السابقة عن إطارها الرباني، وردها إلى عدد من الوثنيات والشركيات القديمة، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها، وهذا هو السبب الحقيقي من وراء المظالم العديدة التي تجتاح مختلف بقاع الأرض اليوم، وتغرقها في بحار من الدماء والأشلاء، والدمار والخراب.

ولهذا الفارق الكبير بين كتب سماوية تركت لأصحابها فضيعوها وحَرَّفوا ما بقي من ذكريات نقلت شفاهاً عنها لقرون قبل تدوينها. وكتاب سماوي خاتم تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه فحفظ، وامتدح ربنا ـ تبارك وتعالى ـ القرآن الكريم في العديد من آياته والتي منها قوله ـ عز من قائل ـ:

• ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة: 1، 2).

• ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ (البقرة: 23).

• ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: 166).

• ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ (الأنعام: 92).

• ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾ (يونس: 37).

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (هود: 13، 14).

• ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الرعد: 1).

• ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ①﴾ (إبراهيم: 1).

• ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ (إبراهيم: 52).

• ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ (الحجر: 9).

• ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ (الحجر: 87).

• ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ (الإسراء: 88).

• ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ (الكهف: 1).

• ﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤﴾ (طه: 1 ـ 4).

• ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ (الحج: 54).

• ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ (الفرقان: 1، 2).

• ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾ (الفرقان: 6).

• ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾ (السجدة: 1 ـ 3).

• ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾ (سبإ: 6).

• ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ (الزمر: 1، 2).

• ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: 1ـ 3).

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: 41، 42).

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ (الشورى: 7).

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ (الشورى: 17).

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (الشورى: 52، 53).

• ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ (قٓ: 1).

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور: 33، 34).

• ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ (البروج: 21، 22).

والقرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية في أمر الدين بركائزه الأربع الأساسية: **العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات**، وهي من الأمور التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة ومن هنا كانت ضرورة الدين لتستقيم الحياة على الأرض، وليتمكن الإنسان من تحقيق الغاية من وجوده عليها.

ولكن الله ـ تعالى ـ يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل في يوم من الأيام إلى زمن كزمننا الراهن يُفْتَحُ فيه على الإنسان من أبواب المعرفة بالكون وسننه ما لم يفتح من قبل، فيغترُّ بالعلم ومعطياته وتطبيقاته في مختلف المجالات وبما يوصله ذلك إلى عدد من التقنيات المتقدمة التي تغرقه في ماديات الحياة فتنسيه الموت، والحساب، والآخرة، والجنة، والنار؛ خاصة وأن هذه المفاهيم وغيرها من ركائز العقيدة قد اهترأت اهتراءً شديداً في معتقدات غير المسلمين، مما دفع كثيراً من علمائهم إلى إنكارها والسخرية منها،

ولكي يقيم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الحجة على أهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية الذي نعيشه ـ أبقى لنا في محكم كتابه أكثر من ألف آية كونية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وهذه الآيات القرآنية تحوي من الإشارات الكونية ما لم يكن معروفاً لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعد زمن الوحي، مما يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وهذه الآيات الكونية في كتاب الله لها أهداف عديدة منها ما يمكن إيجازه فيما يلي:

أولاً: الشهادة لله الخالق بطلاقة القدرة في إبداعه لخلقه، ومن ثم الشهادة له سبحانه وتعالى بالألوهية، والربوبية، والوحدانية؛ لأن كل شيء في هذا الوجود قد خلق بقدر، وفي زوجية واضحة تشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ثانياً: الشهادة لله ـ تعالى ـ أنه كما أبدع هذا الكون من العدم، وعلى غير مثال سابق، فهو قادر على إفنائه إلى العدم، وعلى إعادة خلقه من جديد، خاصة وأننا نرى الخلق من العدم والإفناء إلى العدم يتكرر أمام أنظارنا في صفحة السماء، حيث أن المجرات تتباعد عن بعضها البعض بمعدلات تقترب من سرعة الضوء وتتخلق المادة والطاقة لملء المسافات الناتجة عن هذا التوسع من حيث لا نعلم، في الوقت الذي، نرى مختلف صور المادة والطاقة تُبْتَلَعُ بواسطة النجوم الخانسة الكانسة ـ الثقوب السود ـ إلى حيث لا نعلم، ونرى التقاء اللبنات الأولية للمادة بأضدادها فتفنى إلى ما لا نعلم..!! وعلى الرغم من ذلك بقيت قضية البعث وإنكار إمكانية وقوعه هي الحجة الرئيسة للكفار والملحدين، وللحائرين المتشككين، لأنهم من جهلهم يقيسون على الله ـ تعالى ـ بمقاييس البشر، وإرادة الله ـ تعالى ـ لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها عائق.

ثالثاً: هذه الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد صيغت صياغة مجملة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع ما توفر لهم من علم بالكون ومكوناته، وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، تصديقاً لنبوءة المصطفى ﷺ في وصفه للقرآن الكريم بأنه «**لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد**». وليس هذا لغير كلام الله ـ تعالى ـ...!! لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية في القرآن الكريم مصدراً غير الله الخالق، والقرآن الكريم كتاب قد أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها

الساحقة من الأميين، وفي فترة زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشيء من هذه الحقائق العلمية التي لم تكتشف إلا بعد أكثر من عشرة قرون كاملة من تنزل الوحي، ولا تزال تكتشف اليوم وإلى يوم الدين.

والإشارات الكونية في القرآن الكريم جاءت في أكثر من ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتشكل هذه الآيات الكونية حوالي سدس مجموع آيات القرآن الكريم.

وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهماً كاملاً في إطارها اللغوي فقط ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ؛ ولا يمكن الوصول إلى سبقها بالحقيقة الكونية ـ وهو ما نسميه بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم ـ دون توظيف الحقائق العلمية التي توافرت لأهل زمننا، لأن في هذه الآيات الكونية من المحتوى العلمي ما لا يقف على دلالته إلا الراسخون في العلم ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ ومن هنا كانت تلك الآيات القرآنية العديدة التي تشير إلى مستقبلية الاستكشاف في دلالات بعض الآيات القرآنية، وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

- ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ **(الأنعام: 67)**.
- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ **(النمل: 93)**.
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ **(صٓ: 87، 88)**.
- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ **(فصلت: 53)**.

وفي المقابل فإننا نجد الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات قد صيغت صياغة محكمة، محددة الدلالة، واضحة المعنى، لا تحتمل غير وجه واحد يفهمه البدوي في قلب الصحراء كما يفهمه أعلى الناس ثقافة وعلماً، وهذا أيضاً جانب من جوانب الإعجاز القرآني التي لا تحصى ولا تعد. ولذلك يحضنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حضاً على تدبُّر آيات القرآن الكريم فيقول ـ عز من قائل ـ:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ **(النساء: 82)**.
- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ **(الأنعام: 104)**.

• ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (صٓ: 29).

• ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: 24).

وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: **«أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»**[1].

وإعراب القرآن الكريم يقصد به معرفة معانيه، والتماس غرائبه يعني فهم ما غمض من معانيه على قارئه، ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الآيات الكونية التي تتسع دلالاتها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وذلك لندرة تلك المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره في الأزمنة القديمة، ولطبيعتها التراكمية مع الزمن، بمعنى اتساع دائرة المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وتعرفه على السنن المنتظمة الحاكمة له، والتي وضعها الله ﷻ فيه، ولولا انتظام تلك السنن واطرادها ما تمكن الإنسان من معرفة شيء منها، ولا عنها، وهذا الانتظام والاطراد في سنن الكون وظواهره هو من وسائل تسخير الكون للإنسان، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك التسخير في مواطن عديدة.

ومبررات الاهتمام بالإشارات الكونية في القرآن الكريم عديدة ومنها ما يمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه، والآيات الكونية لا تفهم فهماً كاملاً في إطار اللغة وحدها، والمعرفة كلٌّ لا يتجزأ.

2 ـ إن الإسلام والمسلمين يتعرضون اليوم لهجوم ظالم في جميع وسائل الإعلام العالمية والمحلية بسبب إنكار غير المسلمين لنبوة المصطفى ﷺ، وللوحي بالقرآن الكريم، والإشارات الكونية خير دليل لأهل عصرنا على حجية ذلك كله، وباللغة التي يفهمونها.

3 ـ إننا قصرنا في التبليغ عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ تقصيراً كبيراً، ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تكتل أهل الباطل علينا، وتآمرهم على ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وأموالنا وأراضينا، وخير وسيلة لتبليغ هؤلاء القوم اليوم عن فضل الإسلام العظيم على غيره من الأديان وفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب: هو ما ورد من حقائق علمية راسخة في كل من كتاب الله ﷻ وفي سنة رسولهﷺ؛ لأن العلم قد أصبح الوسيلة المقنعة لأهل عصرنا.

4 ـ إن العالم قد أصبح قرية كبيرة تلتقي فيها كل الحضارات بما فيها من معتقدات وفلسفات وثقافات، وثقافة عصرنا الراهن ترتكز على العلوم البحتة والتطبيقية وما تنتجه من

(1) رواه أبو يعلى في مسنده، والسيوطي في الجامع الصغير.

تقنيات مختلفة، ولكن هذا التقدم العلمي والتقني المذهل قد صاحبه انحسار ديني وأخلاقي وسلوكي كبير، ويريد الغرب بحكم قوته المادية الكبيرة أن يهيمن على العالم وأن يفرض قيمه الهابطة وسلوكياته الساقطة على غيره من الدول خاصة الدول الإسلامية، التي ظلت محتفظة بقدر من قيمها الروحية العليا، وسلوكياتها الصحيحة رغم انحسارها الحضاري وتخلفها العلمي والتقني، ومن أنجع وسائلنا في مقاومة ذلك الغزو الفكري تأكيد صدق الوحي بالقرآن الكريم، وصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وذلك بإثبات سبق كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون.

5 ـ إن المؤامرة الدولية على الإسلام والمسلمين قد أسقطت من أيدينا كل سلاح نستطيع به الدفاع عن أنفسنا، وأراضينا، وعن ديننا، ومقدساتنا، وأعراضنا، وكرامتنا، ولكن على الرغم من ذلك فقد بقي بأيدينا سلاح الدعوة إلى الله على بصيرة بلغة العصر ـ ومن أقواه: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ والذي لو أحسنّا توظيفه لفتح الله ـ تعالى ـ علينا الدنيا من أطرافها. والتجارب المحدودة في هذا المجال تثبت جدوى ذلك وأهميته.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد عارض نفر من أبناء المسلمين قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان السبب الرئيسي في معارضتهم هو ازدواجية التعليم والمفاصلة الكاملة بين تعليم ديني /إنساني/ نظري لم يعد له اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم، وتعليم مدني /علمي/ تقني لا يعطي للدارس الحد الأدنى من الثقافة الدينية التي تعينه على فهم أصول دينه، وعلى القيام الصحيح بعباداته، وعلى التبليغ عن الله ورسوله بالكلمة الطيبة والحجة البالغة، وعلى فهم رسالته في هذه الحياة فهماً صحيحاً. ونتيجة لهذه المفاصلة تخوف كل من الشرعيين والعلميين من الخوض في هذه التجربة التي بدأها علماء المسلمين منذ القرن الهجري الثالث واستمرت في مد وجزر حتى عصرنا الراهن.

وكان للمعارضين حجج ومبررات نذكرها ونرد عليها فيما يلي:

1 ـ اعتبارهم التفسير العلمي للقرآن الكريم نوعاً من التفسير بالرأي ـ وهو عندهم مذموم ـ. ولكن المقصود بالرأي المذموم هو الهوى، وليس الرأي المؤسس على الحقائق العلمية الثابتة التي يقبلها كل عقل سوي، وتؤيدها الحجة المنطقية المقبولة والدليل المادي الملموس.

2 ـ اعتبارهم أن الإسرائيليات كانت قد نفذت إلى التفسير أول ما نفذت عن طريق محاولات السابقين التعرض لشرح دلالة الآيات الكونية استناداً إلى ما جاء في سفر التكوين

وهو من أسفار العهد القديم، باعتباره محتوياً على عدد من الإشارات التي تصف بداية الخلق، وقد أثبت العلم خطأها، كما جاء في كتاب الدكتور الفرنسي «موريس بوكاي» والمعنون «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم».

3 ـ أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية؛ وبما أنه كلام الله ـ في صفائه الرباني ـ فهو حق كله، وثابت ثبوت الرواسي، والعلوم المكتسبة متغيرة، ولا يجوز مقابلة الثابت بالمتغير؛ أي لا يجوز مقابلة كلام الله بكلام الناس.

وللرد على ذلك نقول: إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه ولنتدبر آياته بإمكاناتنا البشرية المحدودة، والعلوم المكتسبة ليست كلها فروضاً ونظريات قابلة للتغيير، ولكن العلم يصل إلى العديد من حقائق الكون وقوانينه الثابتة الراسخة التي لا تتغير مع الزمن.

4 ـ أن العلوم الكونية انطلقت في زماننا من منطلقات مادية بحتة، لا تؤمن بما فوق المدرك الملموس من صور المادة والطاقة، ولذلك تصاغ أحياناً صياغات منافية لأصول الدين، نتيجة للصراع المرير الذي قام بين العلميين ورجال الكنيسة في العالم الغربي، وانتهى بانحسار دور الكنيسة.

وللرد على ذلك نقول إن هذا الموقف كان في البدايات الأولى لتطبيق المنهج العلمي في الغرب، أما اليوم فإن المعطيات الكلية للعلوم أصبحت تؤكد على العديد من حقائق الدين؛ ولذلك فإن من واجبات المسلمين اليوم تأصيل المعرفة الإنسانية بمختلف فروعها تأصيلاً إسلامياً صحيحاً خدمة للإسلام وللعلم وللإنسانية بصفة عامة. وهو دور لا يستطيع القيام به إلا المسلم المتميز في علمه والمتفقه في دينه: كل في حقل تخصصه.

5 ـ أن بعض الذين تعرضوا لتفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ـ بغير خلفية علمية سليمة ـ إما تكلفوا في تحميل الآيات ما لا تحمله، أو توسعوا أكثر من اللازم في إعطاء الآية القرآنية الكريمة من المعاني ما لا تقصده، والقرآن العظيم أجلُّ من ذلك وأكرم.

وللرد على ذلك نقول إن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة لا يتم إلا بواسطة المتخصصين ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ وعلى الناقلين عنهم أن ينسبوا كل قضية إلى محققها، وإلا لأصبح الأمر فوضى لا ضابط له.

وهذه الحجج مردود عليها في متن هذا الكتاب حجة حجة، غير أن خير رد إجمالي عليها هو الدعوة إلى الالتزام الدقيق بضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، والتي أفردت لها باباً كاملاًفي هذا الكتاب وأوجزها فيما يلي:

1 ـ حسن فهم النص من القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، وحسب قواعدها، وأساليب التعبير فيها؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولذلك فالنص مقدم على الظاهر، والظاهر مقدم على التأويل.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والإلمام بجهود المفسرين السابقين.

3 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، والقراءات الصحيحة لها، ورد بعضها إلى بعض مع مراعاة السياق القرآني، وعدم اجتزاء النص عما قبله وعما بعده، ومراعاة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتوظيف كل الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالموضوع الواحد في فهم النص القرآني المدروس؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما تفسره أقوال رسول الله ﷺ.

4 ـ عدم التكلف، أو محاولة ليّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ لأن القرآن الكريم أعزّ علينا وأكرم من ذلك انطلاقاً من كونه كلام الله الخالق، ومن حقيقة أن الخالق هو أدرى بخلقه من كل المخلوقين، وأن علم الله الخالق المنزل في محكم كتابه ـ القرآن الكريم ـ، والموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ هو بالقطع أكبر من علوم كل المخلوقين.

5 ـ البعد عن القضايا الغيبية غيبة مطلقة، وعدم الخوض فيها بأكثر مما أثبته القرآن الكريم وفسرته السنة النبوية المطهرة، وذلك من مثل قضايا الروح، وحياة البرزخ، وموعد قيام الساعة، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، والذات الإلهية، وغير ذلك من غيوب مطلقة.

6 ـ مراعاة التخصص الدقيق لكل دارس لموضوع الإعجاز العلمي في كتاب الله ـ كل في حقل تخصصه ـ؛ لأن هذا ليس مجالاً للخوض من كل خائض؛ وهنا يجب التفريق بين تحقيق المحقق ونقل الناقل.

7 ـ يجب تحري الدقة والأمانة في التعامل مع كتاب الله، والتجرّد عن كل هوى شخصي حتى يتحقق إخلاص النية في ذلك لله ـ تعالى ـ وحده.

8 ـ الالتزام بتوظيف الحقائق العلمية الثابتة التي لا رجعة فيها في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، باستثناء حالة واحدة، وهي حالة الآيات والأحاديث التي تفصّل قضايا الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاث ـ خلق كل من الكون والحياة والإنسان وإفنائهم جميعاً ثم بعثهم ـ؛ لأن هذه من القضايا التي لا

تخضع لإدراك الإنسان ولا لمشاهدته بطريقة مباشرة، وبذلك لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير ـ أي وضع نظرية من النظريات التي تتعدد بتعدد خلفية واضعيها ـ. وفي هذه الحالة يمكن للمسلمين الارتقاء بإحدى هذه النظريات السائدة إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله ﷻ أو في سنة رسوله ﷺ.

9 ـ يجب التفريق بين قضيتي التفسير العلمي والإعجاز العلمي لكلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ وذلك لأن التفسير العلمي هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية الكونية في هذين المصدرين من مصادر وحي السماء. ونحرص في التفسير العلمي على توظيف الحقائق العلمية كلما توافرت، ولكن لما كان العلم المكتسب لم يصل بعد إلى الحقيقة في كل أمر من الأمور، فلا أرى حرجاً من توظيف النظرية العلمية السائدة في تفسير الآية الكونية التي لم تتوافر بعد الحقائق اللازمة لتفسيرها ـ ولا حرج في ذلك حتى لو ثبت خطأ النظرية الموظفة في التفسير بعد ذلك ـ؛ لأن الخطأ هنا لا ينسحب على جلال القرآن الكريم ولكن ينسحب على جهد المفسر.

أما الإعجاز العلمي فهو موقف من مواقف التحدي، والمتحدي لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة؛ ولذلك لا يجوز أن يوظف في الإعجاز العلمي إلا القطعي الثابت من الحقائق العلمية كما أوضحنا في النقطة السابقة إلا في حالات الخلق والإفناء والبعث.

10 ـ يجب عدم التقليل من جهود السابقين الذين خدموا القرآن الكريم في حدود المعارف المتاحة لهم ـ كل في زمانه، وفي حدود سقف المعرفة الذي كان متاحاً له ـ.

من جوانب الإعجاز في كتاب الله:

كتب كثيرون في موضوع **الإعجاز اللغوي** للقرآن الكريم تحت عناوين مختلفة مثل: (الإعجاز البياني/ البلاغي/ الأدبي/ اللفظي/ النظمي/ الدلالي) ومنهم **الجاحظ** في القرن الهجري الثالث (ت255هـ)؛ وكل من **الواسطي** (ت306هـ)، **والرماني** (ت386هـ)، **والخطابي** (ت388هـ) من علماء القرن الرابع الهجري، وكل من **الباقلاني** (ت403هـ)، **والقاضي عبد الجبار** (ت415هـ). **والظاهري** (ت456هـ)، **والجرجاني** (ت471هـ)، **والغزالي** (ت505هـ)، من علماء القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري، وكل من القاضي عياض (ت544هـ) **والفخر الرازي** (ت604هـ) من علماء القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، وكل من **السكاكي** (ت626هـ) **والعز بن عبد السلام** (ت660هـ)، في القرن السابع الهجري؛ **والزركشي** (ت794هـ) من أعلام القرن الثامن الهجري؛

والبقاعي (ت885هـ) من القرن التاسع الهجري، **والسيوطي** (ت911هـ) من أعلام القرن العاشر الهجري، **والألوسي** (ت1270هـ) من أعلام القرن الثالث عشر الهجري.

ونشطت الكتابة في موضوع الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين نشاطاً ملحوظاً، وكان ممن خاض هذا المجال كل من: **الزرقاني، الرافعي، الجزائري، المراغي، دراز، أبو زهرة، النورسي، محمد رشيد رضا، بنت الشاطىء، والمطعني** وغيرهم.

أما الذين تناولوا **الإشارات الكونية** في القرآن الكريم بشيء من التفصيل فكان في مقدمتهم **الجاحظ** (ت255هـ) في كتابه «الحيوان»، **وابن حزم الأندلسي** (ت405هـ) في كتابه «المفصل»، **والغزالي** (ت505هـ) في كتابيه «إحياء علوم الدين» و «جواهر القرآن»، **والفخر الرازي** (ت606هـ) في تفسيره «مفاتيح الغيب»، **وطنطاوي جوهري** (ت1359هـ) في موسوعته «الجواهر في تفسير القرآن الكريم»، **ومحمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب، وعبد الله فكري، وعبد العزيز سيد الأهل، أحمد مختار الغازي، حنفي أحمد، محمد أحمد الغمراوي، محمد محمود إبراهيم، إبراهيم عبد القادر محمد فرج، محمد جمال الدين الفندي، عبد الرزاق نوفل، يوسف مروة، عبد الغني الخطيب، أحمد محمود سليمان، عبد الله شحاتة، مصطفى محمود، يوسف السويدي، منصور حسب النبي،** وجيش من المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع.

وقد بدأت الاهتمام بقضيتي التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منذ دخولي إلى كلية العلوم بجامعة القاهرة في سنة 1951م، حين تعرضت ـ وتعرض غيري من الطلاب المسلمين ـ لسيل من التحديات الوافدة مع تيارات التغريب المختلفة من مادية دهرية ـ يمينية أو يسارية ـ، وكانت تيارات عاتية بأيدي العديد من الأساتذة والإداريين والطلبة الذين سُخِّروا لمهاجمة الإسلام والمسلمين، وكان في مواجهة هذا التيار التغريبي تيار إسلامي قوي ينتصر لهذا الدين الخاتم بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة والمنطق السوي، وكان على رأس هذا التيار الراشد أستاذي وأستاذ جيل كامل ممن تخصصوا في علوم الأرض وهو الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد القادر محمد فرج ـ بارك الله في عمره وأحسن لنا وله الخاتمة ـ الذي كان يملأ محاضراته ومذكراته وأحاديثه بحسن الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فكوّن مدرسة علمية في هذا المجال أسأل الله تعالى أن يجزيه عنا وعنها خير الجزاء.

وكان من قادة هذه المدرسة الإيمانية الأستاذ الدكتور محمد محمود إبراهيم رحمه الله

الرئيس السابق لقسم هندسة التعدين والبترول بجامعة القاهرة، والذي كان أول من كتب كتاباً بعنوان «إعجاز القرآن الكريم وطبقات الأرض»، وصال وجال بهذا الأمر في العديد من المحاضرات والنقاشات على مستوى جامعة القاهرة وخارجها.

كما كان من الفرسان المجاهدين في هذا المجال الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي رحمه الله الذي عمل أستاذاً بكلية الصيدلة ـ جامعة القاهرة، وعميداً لكلية الصيدلة بجامعة الملك سعود بالرياض حيث سعدت بصحبته، ودرَّس بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف كتاباً من تأليفه بعنوان «في سنن الله الكونية».

هذا بالإضافة إلى التحديات التي كنت قد لقيتها من قبل في طفولتي وشبابي من الحملات التنصيرية التي كان يشنها المستشفى الأمريكي بطنطا، وكان مركزاً تنصيرياً نشطاً باءت جهوده كلها بالفشل. والتحديات التي لقيتها من بعد في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وقد سافرت إلى بريطانيا بعد حرب قناة السويس التي وقعت في سنة 1956م بفترة وجيزة، وكانت مشاعر البريطانيين لا تزال مشحونة بالكراهية ضد كل من مصر والمصريين والعروبة والإسلام، وكان عليّ أن أفند دعاوى هؤلاء المبطلين من الغلاة المتشددين بالأسلوب المناسب في كل حالة. ثم سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف السبعينيات من القرن العشرين وعملت أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجيليس، وحدث في أثناء إقامتي في هذه الغربة أن دخلت في عدد من الحوارات بين الإسلام والمسيحية واليهودية، واشتركت في مناظرات عديدة فيما يسمى باسم مجلس الحوار بين الأديان **(The Inter-Religeous Council)**، والذي يضم العديد من الملل والنحل. ثم حدث أن زار الولايات المتحدة الامريكية وأنا مقيم بها شيخ الأزهر الشريف فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله وفي صحبته كل من فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل رحمه الله وفضيلة الشيخ محمود خليل الحصري رحمه الله، وطلب مني فضيلة الإمام الأكبر مرافقته والترجمة له طوال رحلته الكريمة ودار خلالها من الحوارات الدينية ما أقنعني بجدوى الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ بصفة عامة، وباستخدام الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ـ بصفة خاصة ـ.

وبعد ذلك وقعت زيارة الرئيس السادات إلى القدس الشريف، واشتعلت المشاعر وانقسم المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية بين معارض لتلك الزيارة المفاجئة ومؤيد لها، وتحركت أقلام وألسنة عديدة بالقضية الفلسطينية، وباستنكار اغتصاب الصهاينة الغرباء لهذه الأرض العربية الإسلامية بمؤامرة دولية حاكتها القوى الصهيونية الصليبية العالمية

المستترة منها والمعلنة بدهاء وخبث ومكر شديد. ولقي ذلك صدى عند غلاة المتطرفين الغربيين الذين استردوا بذلك شيئاً من هزائمهم التاريخية. وقد أعان على تنفيذ هذا المخطط الشيطاني كل قوى الشر في العالم وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا وروسيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية وغير ذلك من دول الغرب والشرق على حد سواء.

وكان من دوافع هذا التآمر الدولي أن المسلمين لم يؤدوا الواجب الملقى على عواتقهم بتفنيد دعاوى الصهاينة الباطلة بحقٍ مزعوم لهم في أرض فلسطين، وهي دعاوى لا سند لها من دين، أو لغة، أو عرق، أو تاريخ. كذلك قصر المسلمون تقصيراً كبيراً في التبليغ عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ وتركوا الساحة مفتوحة لغلاة الحركة الصهيونية العالمية - وأغلب وسائل الإعلام بأيديهم - يسمّمون أفكار الناس بتخويفهم من الإسلام، وبملء قلوبهم بالكراهية للمسلمين، وبوصفهم الكاذب للمسلمين بالخطر الداهم على الحضارة الغربية وجميع منجزاتها، ومن هنا كان هذا التآمر الدولي الحقير على شعب فلسطين، ثم على المنطقتين العربية والإسلامية بصفة عامة.

وفي خضم هذه الحوارات ثبت لي أن عرض قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هو من أيسر وسائل الدعوة إلى دين الله الخاتم، وأكثرها إقناعاً لأهل عصرنا، لأنها تقدم لهم الدليل المادي الملموس على نبوة الرسول الخاتم ﷺ وعلى صدق رسالته، وعلى أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، وذلك دون الخوض في أية خلافات دينية أو تاريخية.

وانطلاقاً من ذلك كله كان اهتمامي بالإشارات الكونية في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وكان حرصي على زيارة أغلب دول العالم من كندا شمالاً إلى أستراليا جنوباً، ومن الأمريكيتين غرباً إلى إندونيسيا وماليزيا شرقاً أتحدث في هذه القضية، حتى استضافني سعادة السفير الدكتور غازي القصيبي في محاضرة عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بالمركز الإعلامي السعودي بلندن في سنة 1998م حضرها عدد غفير من الدبلوماسيين المسلمين، وعلق عليها الصحفي الكبير الأستاذ عرفان نظام الدين بزاويته المعنونة «من الحياة» في جريدة الحياة وذلك بتاريخ 5/ 3/ 1998 (الموافق 7/ 11/ 1418هـ)، «ثم استضافني الأخ الأستاذ أحمد منصور بعد ذلك بسنة في مقابلة على قناة الجزيرة في برنامجه المعنون «بلا حدود»، وكتبت الأخت الفاضلة الأستاذة ابتسام الهواري في يوميات الأخبار بتاريخ 6/ 10/ 1999م (الموافق 26/ 6/ 1420هـ) تحت عنوان «نحن أولى بعلمائنا» كلاماً فوق ما أستحق، فجزى الله - تعالى - الجميع عني خير الجزاء.

وبعد ذلك بقليل استضافني الأخ الكريم الأستاذ عاصم بكري في برنامجه بالقناة الثالثة المصرية في حوار عن قضية إعجاز القرآن أثار تعليق العديدين من المهتمين بالقضية، ومضيت أكتب وأحاضر في قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والدلالات العلمية للآيات الكونية في هذين المصدرين من مصادر الوحي الإلهي المحفوظين بحفظ الله في أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيهما ـ اللغة العربية ـ واللذين حفظا بكامل صفائهما الرباني، وإشراقاتهما النورانية، وذلك في محاولة لإبراز ما يحتويه كل من هذين المصدرين من مصادر الدين الخاتم من الحقائق الكونية التي لم تعرف إلا بعد تنزل الوحي بأكثر من عشرة قرون كاملة. ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذا الحق مصدراً غير الله الخالق ﷻ.

وفي صبيحة الأربعاء العاشر من رمضان سنة 1421هـ (الموافق السادس من ديسمبر سنة 2000م) مررت بالقاهرة في إحدى رحلاتي بين أوروبا والمشرق العربي. وكانت هذه الرحلة قد أخذتني من «ماركفيلد» إلى «لندن»، ثم إلى كل من دولة الإمارات العربية المتحدة والكويت للمشاركة في البرنامج الثقافي المصاحب لاحتفالات دبي بجائزتها الدولية للقرآن الكريم، ثم للمشاركة في برنامج الكويت الدعوي بمناسبة شهر رمضان المبارك وبدعوة كريمة من وزارة الأوقاف فيها. ومن الكويت اتجهت إلى البحرين بدعوة نبيلة من جمعية النور للبر لإلقاء محاضرة في برنامجها الثقافي بمناسبة الشهر الفضيل. ومن البحرين توجهت إلى القاهرة لأجد دعوة كريمة من الأخ العزيز الأستاذ أحمد فراج لاستضافتي في حلقتين من حلقات برنامجه التليفزيوني الشهير «نور على نور». وبعد إتمام هذا اللقاء بأقل من أربع وعشرين ساعة سافرت من القاهرة إلى «لندن» ومنها إلى «ماركفيلد» حيث كنت أعمل مديراً لمعهدها للدراسات العليا.

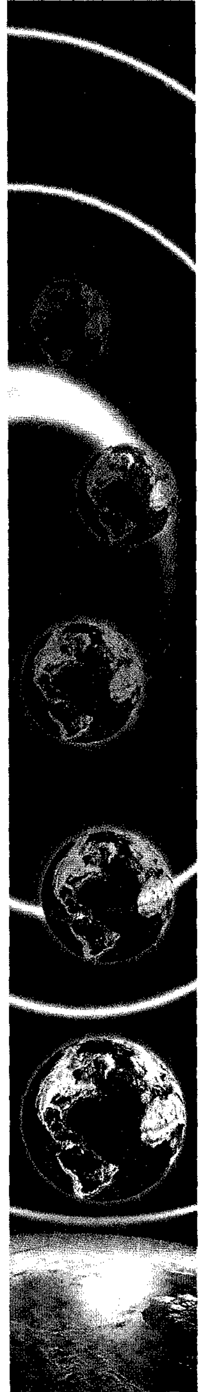
وبعد أسابيع قليلة أذيعت الحلقة الأولى لي من برنامج «نور على نور» ولم أشاهدها، ولكن بدأت الاتصالات الهاتفية والبرقية تترى تحمل قدراً هائلاً من تأثر الذين شاهدوها، ثم تلتها الحلقة الثانية وظلت اتصالات المشاهدين تترى معبرين عن إعجابهم بالطرح في الحلقتين، وتحمل ثناءهم المحمود على ما احتوتاه من معلومات جديدة عن الإشارات العلمية في القرآن الكريم لدرجة أن جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في مصر، بل في غالبية الدول العربية قد علقت على هاتين الحلقتين بإيجاب وقبول كبيرين، وتحت إلحاح المشاهدين قامت كل من القناة الأولى للتليفزيون المصري والفضائية المصرية ببث كل من الحلقتين لعدة مرات متتالية، وببث الحلقتين مجتمعتين لأكثر من مرة في سابقة لم تحدث من قبل.

ولم تتوقف الاتصالات بي بخصوص هاتين الحلقتين على مصرنا الحبيبة، بل جاءت من عدد من كبار الشخصيات العربية في العديد من دول العالم، وحمدت الله على ذلك حمداً كثيراً. وكان من أهم هذه الاتصالات بي اتصال مؤسسة الأهرام الصحفية ممثلة في رئيس مجلس إدارتها الأستاذ إبراهيم نافع (حفظه الله) الذي طلب مقابلتي في أول زيارة لي للقاهرة. وفي فجر الاثنين 11/ 11/ 1422هـ (الموافق 5/ 2/ 2001م) توجهت من «ماركفيلد» إلى «لندن»، ومنها إلى كل من الرياض، وجدة، والمدينة المنورة لحضور مؤتمر عن القرآن الكريم، ثم سافرت من المدينة المنورة إلى القاهرة حيث التقيت بالأستاذ إبراهيم نافع الذي عرض عليَّ مشكوراً تخصيص صفحة لي بجريدة الأهرام المصرية للكتابة في موضوع الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، فشكرته على ذلك ودعوت له بالخير.

وابتداءً من الإثنين 29/ 11/ 1422هـ (الموافق 23/ 4/ 2001م) بدأت في كتابة مقال أسبوعي بجريدة الأهرام تحت عنوان: «من أسرار القرآن: الآيات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية» وذلك في سلسلة صدر منها حتى اليوم حوالى مائتي مقال،ويمثل هذا الكتاب الذي يقع بين أيدي قارئه الكريم بضعاً وثلاثين من تلك المقالات التي جمعتها تحت عنوان «من آيات الإعجاز العلمي في كتاب الله»: آيات الأرض في القرآن الكريم»، وذلك بعد صدور المقالات الثلاث والثلاثين الأولى في مجلد خاص تحت عنوان: «**من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم**» وسوف يتبع ذلك إن شاء الله ـ تعالى ـ ببقية المقالات حسب أبوابها.

ولا يفوتني هنا أن أسجل لأخي الكريم، والصحفي الكبير الأستاذ إبراهيم نافع ـ حفظه الله ـ هذا القرار التاريخي الذي أفسح للقرآن الكريم صفحة كاملة أسبوعياً في أهم صحيفة عربية، ألا وهي جريدة الأهرام القاهرية، وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل ذلك ثقيلاً في ميزان حسناته وأن يجذل المثوبة لكل من أعان على تحقيق ذلك من رجالات مؤسسة الأهرام الغراء، وأن ينفع الأمة بما ينشر في هذه الصفحة والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه
زغلول راغب محمد النجار
٢٠/٦/١٤٢٦ هـ
(٢٥/٧/٢٠٠٥ م)



الباب الأول

إعجاز القرآن الكريم

في أي حديث عن القرآن الكريم لا بد لنا من التأكيد على أنه كلام الله تعالى، الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، والمحفوظ بين دفتي المصحف الشريف، بنفس اللغة التي أوحي بها: ـ اللغة العربية ـ محفوظاً حفظاً كاملاً: كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾. **(الحجر: 9)**.

وقد تحقق هذا الحفظ الكامل لكتاب الله الخاتم في الوقت الذي كانت كل صور الوحي السابقة على تنزُّل القرآن الكريم قد تعرضت للضياع التام، وكان كل ما بقي منها من ذكريات ـ نقلت شفاهاً لقرون قبل أن تدون في لغات غير لغة الوحي التي أوحيت بها ـ قد تعرَّض لقدر من التحريف والتبديل الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها. ومن هنا كان القول بإعجاز القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله الخالق، والإعجاز هنا معناه: عجز الخلق قاطبة عن الإتيان بشيء من مثله، ولذلك أنزل الله ﷻ في محكم كتابه قوله الحق:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾. **(البقرة: 23، 24)**.

كما أنزل قوله ﷻ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾. (يونس: 38).

وقال ﷻ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾. (هود: 13، 14).

وقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾. (الإسراء: 88).

وقال ﷻ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾. (الطور: 33، 34).

ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله تعالى فلا بد وأن يكون مغايراً لكلام البشر؛ أي متميزاً عنه بميزات يعجز البشر جميعاً عن تحقيقها: من الكمال، والشمول، والإحاطة، ودقة التعبير، وجمال النظم، وروعة الإشارة، وصدق الإخبار في كل قضية من القضايا التي تعرَّض لها كلام الله ـ الخالق البارىء المصور ـ، وهو كله حق، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا لا يتوفر إلا لكلام الله، فلا يمكن لمخلوق أن يتناول كم القضايا التي تناولها القرآن الكريم دون خطأ واحد في اللغة أو الصياغة أو المحتوى والدلالة، وهذا هو المقصود بالتعبير عن «إعجاز القرآن الكريم».

ونحن نعلم أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية للإنسان، في القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة، من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، والتي تشكل القواعد الأساسية للدين؛ وذلك لأن هذه القضايا إما أن تكون من أمور الغيب المطلق، الذي لا سبيل لوصول الإنسان إليه إلا عن طريق وحي السماء، أو هي أوامر تعبدية لا بد وأن تكون توقيفية على الله ورسوله ﷺ، ولا بد للإنسان فيها أيضاً من وحي السماء، أو هي ضوابط للأخلاق والسلوك والمعاملات.

والتاريخ يؤكد لنا أن الإنسان كان عاجزاً دوماً عن وضع الضوابط الصحيحة لأخلاقياته وسلوكه ومعاملاته في غيبة من الهداية الربانية، ومن هنا كانت ضرورة الدين.

وهذه القضايا المتعلقة بالعقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات ـ التي تمثل صلب رسالة القرآن الكريم ـ هي من أوضح صور الإعجاز في كتاب الله، إذا نظر إليها الإنسان بشيء من الموضوعية والحيدة، والتبصر والحكمة، ولكن الناس قد درجوا في غالبيتهم على

ميراث الدين، دون النظر فيه بعين البصيرة، فأخذوه بشيء من التعصب الأعمى، والحمية الشخصية، حتى لو لم يلتزموا به، مما جعل إقناعهم بالحق أمراً صعباً في أغلب الأحيان. . . إلا من أراد الله ﷻ له الهداية، وهم قلة قليلة ولكن لم يَخْلُ منهم عصر من العصور.

ونحن نعلم أن كلَّ نبي من أنبياء الله، وكل رسول من رسله قد آتاه الله ﷻ عدداً من المعجزات الحسية التي تشهد له بالنبوة أو بالرسالة، وأن هذه المعجزات الحسية كانت دائماً مما برع فيه القوم حتى تكون حجة عليهم؛ فموسى عليه السلام بعث في زمن كان السحر قد بلغ فيه مبلغاً عظيماً فآتاه الله ﷻ من العلم ما أبطل به سحر السحرة، وعيسى عليه السلام بعث في زمن كان الطب قد بلغ فيه شأواً عظيماً فأعطاه الله ﷻ من العلم ما تفوق به على أطباء عصره، ونعلم أن القرآن الكريم قد نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في زمنٍ كان العرب قد وصلوا إلى قمة الفصاحة العربية، والبلاغة في التعبير بها شعراً ونثراً، وجاء هذا الوحي الخاتم بأسلوب عربي مبين، مغاير لأساليب العرب، فهو ليس بالشعر وليس بالنثر، وجاء يتحدى العرب جميعاً أن يأتوا بقرآنٍ مثله، أو بعشر سورٍ مفتريات من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً، منذ أربعة عشر قرناً، دون أن يجرؤ عاقل على مجابهته، أما المجانين فلا عتب عليهم.

وقد دفع ذلك بنفر من المسلمين إلى قصر الإعجاز القرآني على جوانب بيانه ونظمه، وأفاض الأقدمون والمحدثون في ذلك؛ فأفصحوا عن جوانب من الإعجاز البياني في القرآن الكريم، تملأ العديد من المجلدات، دون أن يتمكنوا من إيفاء ذلك الجانب حقه كاملاً.

ومع تسليمنا بالإعجاز البياني للقرآن الكريم، وبأنه المجال الذي نزل كتاب الله يتحدى به العرب ـ وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة، والقدرة على حسن البيان أن يأتوا بشيء من مثله ـ إلا أن البيان يبقى إطاراً لمحتوى، والمحتوى أهم من الإطار الذي وضع فيه، ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وكل قضية من هذه القضايا تشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، وكذلك استعراض عدد من الأمم السابقة وأخبارها، والخطاب القرآني للنفس الإنسانية، والجوانب التربوية، والإدارية، والاقتصادية، والتنبؤية، والعلمية، وغير ذلك مما جاء في كتاب الله، وعلى ذلك فإن القرآن الكريم يبقى معجزاً في كل أمر من أموره، لأنه كلام الله الخالق البارىء المصور، فما من أمر من الأمور تعرَّض له هذا الكتاب الخالد إلا وهو

معجز حقاً، وما من زاوية من الزوايا ينظر منها إنسان عاقل بشيء من الموضوعية والحيدة إلى هذا القرآن الكريم إلا ويرى منها جانباً من جوانب الإعجاز؛ فالقرآن الكريم معجز في بيانه ونظمه، كما أنه معجز في محتواه من قواعد الدين الصحيح الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه، فهو معجز في عرضه لقضايا العقيدة، وأوامر العبادة، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، معجز في تشريعاته المحكمة الدقيقة العادلة، معجز في استعراضه التاريخي للعديد من الأمم السابقة أمة بعد أمة، موضِّحاً كيف تلقت وحي ربها، وتفاعلت مع أنبيائه ورسله، وكيف كان جزاؤها أو عقابها، معجز في خطابه للنفس البشرية، وتحريك كوامن الخير فيها، وتربيتها التربية الصحيحة، معجز في إشاراته العديدة إلى دخائل تلك النفس الإنسانية، وإلى إيحاءات الشيطان إليها، ومعجز في تنبؤاته المستقبلية، التي تحققت بعد نزوله بفترات طويلة ولا تزال تتحقق إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة، معجز في إشاراته إلى العديد من حقائق الكون وظواهره، وفي استعراضه لكيفية بداية الخلق، وإفناء الكون، وإعادة خلق كل ذلك من جديد، معجز في استعراضه للعديد من أمور الغيب، مثل البعث والحشر، والحساب، والصراط، والجنة والنار، معجز في كل كلمة من كلماته، وكل حرف من حروفه، وكل آية من آياته، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: إن هذا القرآن «**لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد**»[1].

وقد عالج كثير من العلماء عدداً من جوانب الإعجاز القرآني؛ إلا أن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لم تتضح لنا جوانبه الكثيرة إلا في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه في هذه الأيام؛ فأصبح أسلوباً فريداً في الدعوة إلى دين الله، في زمن فتح الله سبحانه وتعالى العديد من أسرار الكون ومكوناته للإنسان، وفتُن الناس فيه بالعلوم الكونية ومعطياتها فتنةً كبيرة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ **(الأنعام: 44)**.

الفرق بين التفسير العلمي، والإعجاز العلمي للقرآن الكريم

يحتوي القرآن الكريم على أكثر من ألف آية صريحة تتحدث عن الكون، ومكوناته وظواهره؛ بالإضافة إلى آيات أخرى كثيرة تقترب دلالاتها من الصراحة، وهذه الآيات لم ترد من قبيل الإخبار العلمي المباشر للإنسان؛ وذلك لأن الكشف العلمي قد ترك لاجتهاد الإنسان وتحصيله عبر فترات زمنية طويلة، نظراً لمحدودية القدرات الإنسانية، وللطبيعة

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (الحديث: 2906).

التراكمية للمعارف الكونية؛ ويؤكد ذلك أن كافة تلك الآيات الكونية قد جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق، وعلى أن الخالق المبدع ﷻ قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة هذا الخلق من جديد، وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير كما يحتاج غيرها من آيات هذا الذكر الحكيم، وهي بحكم طبيعتها لا يمكن أن تفهم فهماً دقيقاً في إطار اللغة وحدها. ومن هنا كان لزاماً علينا أن نوظف كافة المعارف الكونية الصحيحة والمتاحة في تفسير تلك الآيات الكونية الواردة في كتاب الله. ولمَّا كانت المعارف الكونية في تطور مستمر وجب على أمة الإسلام أن ينفر منها في كل جيل نفرٌ من علماء المسلمين، الذين يتزودون بالأدوات اللازمة، للتعرض لتفسير كتاب الله، من مثل الإلمام التام باللغة العربية، وعلومها المختلفة، وبأصول الدين، وبأسباب النزول، وبالناسخ والمنسوخ، وبالمأثور من التفسير، وبجهود السابقين من كبار المفسرين، وبأحدث العلوم المتاحة عن الكون، ومكوناته، وغير ذلك مما يحتاجه كل من يتشرف بالقيام بمثل هذه المهمة العظيمة.

وفي **التفسير العلمي للآيات الكونية** يجب أن توظف كل المعارف المتاحة من الحقائق والثوابت العلمية، ولكن بما أن العلم لم يصل بعد إلى الحقيقة في كل أمر من الأمور، ولا يزال أمامه من الغيوب الشيء الكثير، فلا أرى حرجاً في مجال **التفسير العلمي للقرآن الكريم** من توظيف: النظريات، والفروض، والمشاهدات إذا لم تتوفر الحقائق والقوانين؛ وذلك لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، لمن أصاب فيه أجران ولمن أخطأ أجر واحد. والخطأ في التفسير لا يمكن أن ينسحب على جلال القرآن الكريم.

أما **الإعجاز العلمي للقرآن الكريم** فلا يجوز أن يوظف فيه إلا القطعي من الثوابت العلمية؛ وذلك لأن المقصود بالإعجاز العلمي هو: إثبات أن القرآن الكريم، الذي أوحي به إلى نبيٍّ أميٍّ ﷺ في أمة أميَّة، قبل أربعة عشر قرناً، يحوي من حقائق هذا الكون ما لم يتمكن الإنسان من الوصول إليه إلا منذ عقود قليلة، وبعد مجاهدات طويلة استغرقت أعمار آلاف من العلماء عبر عدد من القرون المتواصلة، وهذا لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً إلا بوحي من الله الخالق البارىء المصور.

وعلى ذلك فلا يجوز توظيف غير الحقائق القطعية الثابتة في مجال الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، باستثناء آيات الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاث: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان وإفناء ذلك كله وإعادة بعثه؛ وذلك لأن هذه القضايا لا يمكن أن تخضع مباشرة لإدراك الإنسان؛ ومن ثم فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز فيها

مرحلة التنظير، وتتعدد النظريات في مجال الخلق بتعدد خلفيات واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو في حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعين المسلم على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد وصلت فيها إلى الحقيقة، ولكن لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ.

وهنا أيضاً لا بد من التأكيد على صعوبة التعرض لقضايا الإعجاز العلمي في كتاب الله إلا من قبل المتخصصين، كلٌ في حقل تخصصه، فلا يقوى فرد واحد على معالجة كل القضايا الكونية التي تعرض لها القرآن الكريم من خلق الكون وإفنائه، إلى خلق مراحل الجنين الإنساني المتعاقبة، إلى العديد من الظواهر الكونية المتكررة، إلى غير ذلك من مختلف الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، الخالد.

الباب الثاني

موقف المفسرين من الآيات الكونية في القرآن الكريم



طال الجدل حول جواز تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات علوم العصر وفنونه، وتفاوتت مواقف العلماء من ذلك تفاوتاً كبيراً بين مضيّقين وموسّعين ومعتدلين، مما يمكن أن نوجزه فيما يلي:

موقف المُضَيقِين:

وهو الموقف الذي يرى أصحابه أن تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، على ضوء ما تجمَّع لدى الإنسان من معارف هو نوع من التفسير بالرأي ـ الذي لا يجوز ـ استناداً إلى أقوالٍ منسوبة لرسول الله ﷺ منها: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[1]، و«**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[2]، وإلى أقوال منسوبة إلى كل من الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، من قول الأول: «أيّ سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2952) وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم (الحديث: 3505).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2950).

قلت في كتاب الله برأيي؟» وقول الثاني: «اتَّبِعُوا ما تبيَّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكِلوه إلى ربه»، وكذلك استناداً إلى قول كلٍّ من سعيد بن المسيب وعبدِ الله ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيح المنقول عن الأول: «إنا لا نقول في القرآن شيئاً»، وإلى الثاني: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير». وإلى القول المنسوب إلى مسروق بن الأجدع رضي الله عنه: «اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله».

الرد على المُضَيِّقِين

أولاً: الرد على الرافضين للتفسير بالرأي:

فات أصحاب هذا الموقف المُضَيِّق أن المقصود بالرأي في الحديث هو الهوى، لا الرأي المنطقي المبني على الحجة الواضحة والبرهان المقبول، ويؤكد ذلك عبارة «بغير علم» التي وردت في الحديث الثاني، هذا بِغَضِّ النظر عن كون الحديثين قد اعتبرا من ضِعاف السند. كذلك فاتهم أن ما قد ورد على لسان بعض الصحابة والتابعين مما يوحي بالتَّحَرُّج من القول في القرآن الكريم بالرأي الاجتهادي، إنما هو من قبيل الورع، والتأدب في الحديث عن كلام الله؛ خاصة أنهم كانوا قد فُطِرُوا على فهم اللغة العربية، وفَطِنُوا بها وبأسرارها، ودَرَجُوا على عادات المجتمع العربي، وألَمُّوا بأسباب النزول، وعايشوا رسول الله ﷺ عن قرب وهو الموصول بالوحي، وسمعوه ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم ويفسّره، واستعانوا به على فهم ماوقفوا دونه، وأدركوا تفاصيل سنّته الشريفة في ذلك وغيره، فهل يمكن لمن توافر له كل ذلك أن يكون له مجالٌ للاجتهاد بالرأي؟ خاصة وأن العصر لم يكن عصر تَقَدُّمٍ علمي كالذي نعيشه، وأنهم كانوا لا يزالون قريبي عهد بالجاهلية التي كان قد خَيَّم فيها ـ على شبه الجزيرة العربية، بل وعلى العالم أجمع ـ ركام من العقائد الفاسدة، والتصورات الخاطئة، والأفكار السقيمة، والأوهام والأساطير... ولم يسلم من ذلك الركام أحد حتى أصحاب الحضارات البائدة، وأن العصر كان عصر انتشار للإسلام، ودخول للكثيرين من أصحاب العقائد واللغات الأخرى في دين الله أفواجاً، ومعهم خلفياتهم الفكرية الموروثة، والتي لم يتمكنوا من التخلص منها كليّة بمجرد دخولهم في الإسلام، وأن أعداداً من هؤلاء كانوا قد دخلوا الإسلام دخولاً صورياً ليتآمروا عليه، ويكيدوا له وذلك بتأويل القرآن الكريم على وجوه غير صحيحة، من أجل تفتيت وحدة الصف الإسلامي، وبث بذور الفرقة فيه، وكان من نتائج ذلك هذا الفكر الغريب الذي دُسَّ على المسلمين، والذي عرف فيما بعد «بالإسرائيليات» نسبة إلى السلالات الفاسدة من بني إسرائيل (أي اليهود) الذين كثر النقل

عنهم، وكثر دَسُّهم على دين الله، وعلى أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين ـ، وكان من نتائجه كذلك بروز الشيع والفرق والطرائق المختلفة، ومحاولة كل فرقة منها الانتصار لرأيها بالقرآن، وهذا هو الهوى الذي عُبِّر عنه «بالرأي» فيما نُسب من أقوالٍ إلى رسول الله ﷺ وإلى عدد من صحابته الكرام وتابعيهم ـ عليهم رضوان الله أجمعين ـ.

كذلك فقد فات هؤلاء، وهم ينادون بعدم الاجتهاد بالرأي في فهم كتاب الله، والوقوف عند حدود المأثور؛ وهو ما نقل عن رسول الله ﷺ مباشرة، أو عن صحابته الكرام، أو عمن عاصر الصحابة من التابعين، موكلين ما لم يفسره التراث المنقول إلى الله وهو ما عرف «بمنهج التفسير بالمأثور أو التفسير بالمنقول»، وكلنا يعلم أن «التفسير بالمأثور» لم يشمل القرآن كله، فلحكمة يعلمها الله ـ وقد ندرك طرفاً منها اليوم ـ لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد في كل آية من آيات القرآن الكريم، وأن صحابته الكرام كانوا يجتهدون في فهم ما لم ينص عليه، وكانوا يختلفون في ذلك ويتفقون، وأن الثابت أنه ﷺ قد صوب رأي جماعة من أصحابه حين فسروا آيات من كتاب الله، وأنه قد دعا لابن عباس بقوله: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[1]، وأن ذلك وغيره من الأقوال المأثورة قد اتخذ دليلاً على جواز الاجتهاد في التفسير في غير ما حدده رسول الله ﷺ، فمما يروى عن علي رضي الله عنه حين سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ أنه قال: «ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة، وفهم يؤتاه الرجل في كتابه». وهذا يؤكد على أن فهم المسلمين لدلالة آيات القرآن الحكيم وتدبر معانيها هي ضرورة تكليفية لكل قادر عليها مؤهل للقيام بها، وذلك يقرره الحق سبحانه وتعالى في قوله وهو أحكم القائلين:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾. **(صٓ: 29).**

وهذه الآية الكريمة ـ وكثير غيرها من الآيات القريبة في المعنى ـ أمر صريح من الله سبحانه وتعالى بتدبر آيات القرآن الكريم وفهم معانيها، فالقرآن ينعي على أولئك الذين لا يتدبرونه، ويستنبطون معانيه، وهذه آياته تقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾.... **(النساء: 82، 83).**

وتقول: ...﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.. **(محمد: 24).**

(1) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة (الحديث: 6318).

وقد ساق الإمام الغزالي رحمه الله الأدلة على جواز فهم القرآن بالرأي (أي بالاجتهاد) ثم أضاف: «فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً. والمنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه».

وبناء على ذلك فقد أجاز الغزالي لكل إنسان أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله، ولو أن المبالغة في استخدام تلك الرخصة قد أفرزت نتاجاً لم يكن كله مستساغاً مقبولاً لدى العلماء، مطابقاً لمقاصد القرآن الكريم في الهداية، فقد خرج قوم من المفسرين بالآيات القرآنية (إما عن عمد واضح أو جهل فاضح) إلى ما لا يقبله العقل القويم، والصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه والتابعين لهم، وعن المنطق اللغوي، وأساليب العرب في الأداء، حقيقة ومجازاً؛ وذلك لانطلاق الفرق المختلفة والمذاهب المتنوعة من غير أهل السنة والجماعة (من فقهية، وكلامية، وصوفية، وباطنية) من منطلق التعصب لمذاهبهم ومحاولاتهم إخضاع التفاسير لخدمة مللهم ونحلهم؛ مما أدى إلى الموقف المتشدد من القول في القرآن بالرأي، ومن ثم رفض تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات المعارف الإنسانية المكتسبة في حقل العلوم البحتة والتطبيقية.

وهناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد في تفسير كتاب الله، ولكنهم حصروا ذلك في مناهج محددة منها «**المنهج اللغوي**» الذي يهتم بدلالة الألفاظ، وطرائق التعبير وأساليبه، والدراسات النحوية المختلفة، و«**المنهج البياني**» الذي يحرص على بيان مواطن الجمال في أسلوب القرآن، ودراسة الحس اللغوي في كلماته، و«**المنهج الفقهي**» الذي يركز على استنباط الأحكام الشرعية والاجتهادات الفقهية، كما أن من هؤلاء المفسرين من نادى بالجمع بين تلك المناهج في منهج واحد عرف باسم «**المنهج الموسوعي**» (**أو المنهج الجمعي**)، ومنهم من نادى بتفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات التي اشتمل عليها، وذلك بجمع الآيات الواردة في الموضوع الواحد في كل سور القرآن، واستنباط دلالاتها استناداً إلى قاعدة أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وقد عرف ذلك باسم «**المنهج الموضوعي في التفسير**».

ثانياً: الرد على الرافضين للتفسير العلمي:

أما «**المنهج العلمي في التفسير**» والذي يعتمد على تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله تعالى حسب اتساع دائرة المعرفة الإنسانية من عصر إلى عصر؛ وتبعاً للطبيعة التراكمية لتلك المعرفة فقد ظل مرفوضاً من غالبية المجتهدين في التفسير وذلك لأسباب كثيرة منها:

1 ـ أن «**الإسرائيليات**» كانت قد نفذت أول ما نفذت إلى التراث الإسلامي عن طريق محاولة السابقين تفسير تلك الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله، على أساس مما جاء في «سفر التكوين» وهو أحد أسفار خمسة توجد في مقدمة «العهد القديم» ويقال بأنها تمثل التوراة، علماً بأن هذه الفصول الخمس قد كتبت بعد وفاة موسى عليه السلام بأكثر من ثمانمائة سنة، وأنها قد تعرضت للعديد من التحريف والتزوير الذي أخرجها عن إطارها الرباني وملأها بالخرافات والأساطير التي يرفضها كل منطق سوي. وقد شاء الله تعالى أن يكل الناس في أمور الكشف عن حقائق هذا الكون إلى جهودهم المتتالية جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر. . . ؛ ومن هنا جاءت الإشارات الكونية في القرآن الكريم بصيغة مجملة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني، وتظل تلك المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية، في تكامل لا يعرف التضاد؛ ومن هنا أيضاً لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد من جميع الإشارات القرآنية إلى الكون ومكوناته وظواهره في أحاديثه الشريفة، التي تناول بها شرح القرآن الكريم، ولكن لما كانت النفس البشرية تواقة دوماً إلى التعرف على أسرار هذا الوجود، ولما كان الإنسان قد شغل منذ القدم بتساؤلات كثيرة عن نشأة الكون، وبداية الحياة، وخلق الإنسان ومتى حدث كل ذلك؟ وكيف تم؟ وما هي مبرراته وحكمته؟ وغير ذلك من أسرار الوجود، فقد تجمع لدى البشر في ذلك تراث ضخم عبر التاريخ اختلط فيه الحق بالباطل، والواقع بالخيال، والعلم بالدجل والخرافة، وكان أكثر الناس حرصاً على هذا النوع من المعرفة المكتسبة هم رجال الدين في مختلف العصور، وقد كانت الدولة الإسلامية في أول نشأتها محاطة بحضارات عديدة تباينت فيها تلك المعارف وأمثالها، ثم بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتوائها لتلك الحضارات المجاورة، ودخول أمم من مختلف المعتقدات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ إلى دين الله.. ووصول هذا التراث إلى اللغة العربية بعد قيامهم على ترجمته ونقده والإضافة إليه، حاول بعض المفسرين الاستفادة به في شرح الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم فضلوا سواء السبيل؛ لأن العصر لم يكن بعصر تطور علمي كالذي نعيشه اليوم؛ ولأن هذا التراث كان أغلبه في أيدي اليهود، وهم الذين تآمروا على الكيد للإسلام منذ بزوغ فجره، وإن النقل قد تم عمن أسلم ومن لم يسلم منهم، على الرغم من تحذير رسول الله ﷺ بقوله: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه**»[1].

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير (الحديث: 4485) وفي كتاب: الشهادات باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها . .

ويفسر ابن خلدون أسباب نقل هذه الإسرائيليات بقوله:

«والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمِّية، وإذا تشوفوا إلى معرفة شيء مما تتشوف إليه النفوس البشرية: في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذٍ هم أهل بادية مثلهم ولايعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لاتعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها...».

2 ـ أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية ـ كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات ـ بمعنى أنه كتاب دين الله الذي أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد الله تعالى بحفظه فَحُفِظ؛ وعلى ذلك لا بد من التأكيد على أن القرآن الكريم ليس كتاب علم تجريبي، وأن الإشارات العلمية التي وردت به جاءت في مقام الإرشاد والموعظة لا في مقام البيان العلمي بمفهومه المحدد، وأن تلك الإشارات ـ على كثرتها ـ جاءت في أغلب الأحيان مجملة، وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التفكر والتدبر وإمعان النظر في خلق الله، لا بهدف الإخبار العلمي المباشر.

3 ـ أن القرآن الكريم ثابت لا يتغير، بينما يعتقد المضيقون أن معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور، ويعتقدون كذلك أن ما تسمى بحقائق العلم ليست سوى نظريات وفروض يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم، فلا يجوز الرجوع إليها عند تفسير كتاب الله العزيز لأنه لا يجوز تأويل الثابت بالمتغير.

4 ـ أن القرآن الكريم هو بيان من الله ﷻ، بينما معطيات العلوم التجريبية لا تعدو أن تكون مجرد محاولات بشرية للوصول إلى الحقيقة، ولا يجوز ـ في ظنهم ـ رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر، كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله تعالى بمعطيات العلوم المكتسبة؛ لأن القرآن الكريم بصفته كلام الله هو حجة على البشر كافة، وعلى العلم وأهله.

5 ـ أن العلوم التجريبية تصاغ في أغلب دول العالم اليوم صياغة تنطلق من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية ـ البحتة والتطبيقية ـ مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله ﷻ وبملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبحياة البرزخ وبالبعث والنشور

والحساب، وبالحياة الخالدة في الدار الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

6 ـ أن بعض معطيات العلوم التجريبية ـ بصياغاتها الحالية ـ قد يتباين مع عدد من الأصول الثابتة في الكتاب والسنة نظراً لصياغتها من منطلقات مادية بحتة، منكرة لكل حقائق الغيب أو متجاهلة لها.

7 ـ أن عدداً من المفسرين الذين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحمله في تعسف واضح، وتكلف مفتعل بِلَيِّ أعناق الكلمات والآيات، وتحميلها من المعاني ما لا تحمله.

وهذه الحجج هي كلها حجج مردودة حجة بحجة كما يلي:

1 ـ أنه لا حاجة بنا اليوم إلى «**الإسرائيليات**» في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله؛ لأن الرصيد العلمي في مختلف تلك المعارف قد بلغ شأواً لم يبلغه من قبل، وإذا كان من استخدم «الإسرائيليات» من الأوائل قد ضل سواء السبيل، فإن من يستخدم حقائق العلم الثابتة اليوم في شرح تلك الآيات لا بد وأن يصل إلى فهمٍ لها لم يكن من السهل الوصول إليه من قبل، وأن يجد في ذلك من صور الإعجاز ما لم يجده السابقون، تأكيداً لوصف رسول الله ﷺ للقرآن الكريم بأنه: «**لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد**»[1].

2 ـ أنه لا تعارض البتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية، وإرشاد إلٰهي، ودستور عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وكتاب تشريع سماوي يشمل نظاماً كاملاً للحياة، وبين احتوائه على عدد من الإشارات الكونية الدقيقة التي وردت في مقام الاستدلال على عظمة الخالق المتجلية في إبداعه للخلق، والمثبتة لقدرته على إفناء ما قد خلق، وإعادة كل ذلك من جديد؛ وذلك لأن هذه الإشارات القرآنية تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، فلا بد وأن تكون حقاً مطلقاً، فمن أدرى بالخليقة من الخالق ﷻ؟ ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة في القرنين الماضيين لكان لهم في مجال الدراسات الكونية سبق ملحوظ، وتفوق غير ملحوق، فنحن ندرك اليوم ـ وفي ضوء ما تجمع لنا من معارف في مجال دراسات العلوم البحتة والتطبيقية ـ أن آيات الكونيات في كتاب الله تتسم جميعها بالدقة المتناهية في التعبير، والإحاطة والشمول في المعنى، والاطراد والثبات في الدلالة، والسبق لكثير من الكشوف العلمية بعشرات المئات من السنين، وفي ذلك شهادة قاطعة ـ لا يستطيع

---

(1) سبق تخريجه.

أن ينكرها جاحد ـ بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى قيام الساعة.

أما القول بأن تلك الإشارات قد تم سردها بصورة مجملة، فإنها بحق إحدى صور الإعجاز العلمي والبياني في القرآن الكريم؛ وذلك لأن كل إشارة علمية وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز، والدقة في التعبير، والإحكام في الدلالة، والشمول في المعنى ما يعجز الإنس والجن مجتمعين عن الإتيان بشيء من مثله، لأنه يُمَكِّنُ الناسَ ـ على اختلاف ثقافاتهم، وتباين مستويات إدراكهم وتتابع أجيالهم وأزمانهم ـ أن يدركوا لها من المعاني ما يتناسب والخلفيات العلمية لكل منهم، بحيث تبقى المعاني المستخلصة من الآية الواحدة يكمل بعضها بعضاً في تناسق عجيب، وتكامل أعجب لأنه تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندي من أروع صور الإعجاز في كتاب الله، فالإجمال في تلك الإشارات مع وضوح الحقيقة العلمية للأجيال المتلاحقة ـ كلٌّ على قدر حظه من المعرفة بالكون وعلومه ـ هو بالقطع أمر فوق طاقة البشر، وصورة من صور الإعجاز لم تتوفّر ـ ولا يمكن أن تتوفر ـ لغير كلام الله الخالق، ومن هنا كان فهم الناس للإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء ما يتجمع لديهم من معارف، فهماً يزداد اتساعاً وعمقاً جيلاً بعد جيل، وهذا في ذاته شهادة للقرآن الكريم بأنه لا تنتهي عجائبه، ولا يبلى على كثرة الرد كما وصفه المصطفى ﷺ.

وقد أدرك نفر من السابقين ذلك وفي مقدمتهم «الإمام الزركشي» الذي كتب في كتابه: «البرهان في علوم القرآن» ما نصه: «وما من برهان ودلالة وتقسيم، وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين: **أحدهما** بسبب ما قاله ﷻ: . . . ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾. **(إبراهيم: 4). والثاني**: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، وكذلك أخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم الحجة، وتفهم الخواص من أبنائها ما يوفي على ما أدركه الخطباء». . . ثم يضيف: «ومن ثم كان على كل من أصاب حظاً في العلم أوفر أن يكون نصيبه من علم القرآن أكثر، لأن عقله حينئذ يكون قد استنار بأضواء العلم، وهؤلاء الذين

اهتم القرآن بمناداتهم كلما ذكر حجة على الربوبية والوحدانية، أو أضاف إليهم أولو الألباب والسامعون والمفكرون والمتذكرون تنبيهاً إلى أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها».

من هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في كل عصر وفي كل جيل أن ينفر منهم من يستطيع أن يجمع إلى حقل تخصصه إلماماً بحد أدنى من علوم اللغة العربية وقواعدها وآدابها، ودلالات ألفاظها، وأساليب التعبير فيها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وجدله، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، ثم يعود هؤلاء إلى دراسة الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله ـ كل فيما يخصه ـ محاولين فهمها في ضوء معطيات العلم وكشوفه، وقواعد المنطق وأصوله حتى يدركوا ما يستطيعون من فهم لدلالة تلك الإشارات الكونية في القرآن الكريم حتى تتحقق نبوءة المصطفى ﷺ في وصفه لكتاب الله **«أنه لا تنتهي عجائبه..»**.

3 ـ إن القول بعدم جواز تأويل الثابت بالمتغير قول ساذج؛ لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله، ينأى بالناس عن واقعهم في كل عصر، حتى لايستسيغوه فيملوه ويهملوه، وثبات القرآن الكريم هو ثبات في أصول الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات ـ وهو من السمات البارزة له ـ ولكن هذا الثبات في أصول الدين لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من حقائق العلوم الكونية، حتى لو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية، لا يتوافر للإنسان منها في عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة، وتباين العصور تقدماً واضمحلالاً، وهذه الطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علماً ـ بصفة عامة ـ من الأمم السابقة؛ إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بأكملها للانتكاس والتدهور.

من هنا كانت معطيات العلوم الكونية ـ بصفة خاصة، والمعارف المكتسبة كلها بصفة عامة ـ دائمة التغير والتطور، إلا فيما ثبت منها، ووصل إلى مرتبة الحقيقة أو القانون، بينما كلمات وحروف وآيات وسور القرآن الكريم ثابتة لا تتغير، حتى في الإشارات العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره؛ لأنها صيغت بطريقة تمكنها من استيعاب المعرفة الإنسانية والهيمنة عليها مهما اتسعت دوائرها مع الزمن؛ وهذا وحده من أعظم شواهد الإعجاز في كتاب الله. فعلى الرغم من ثبات اللفظ القرآني، وتطور الفهم البشري لدلالاته ـ مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل ـ فإن تلك الدلالات يتكامل بعضها مع بعض في

اتساق لا يعرف التضاد، ولا يتوافر ذلك لغير كلام الله، ويظل اللفظ القرآني ـ في إشاراته إلى الكون ومكوناته وظواهره ـ ثابتاً، وتتوسع دائرة فهم الناس له عصراً بعد عصر.. وفي ذلك شهادة للقرآن الكريم بأنه يغاير كلام البشر، وأنه بالقطع بيان من الله، ولذلك فإننا نجد القرآن الكريم يحض الناس حضاً على تدبر آياته، وفهم دلالاتها، ويتحدى أهل الكفر والشرك والإلحاد أن يجدوا فيه صورة واحدة من صور الاختلاف أو التناقض على توالي العصور، وكثرة النظر فيه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

(النساء: 82).

وإذ يكرر هذا التساؤل التقريعي في سورة الرحمٰن إحدى وثلاثين مرة فيقول:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ويؤكد ضرورة تدبر القرآن وأنه ـ تعالى ـ قد جعله في متناول عقل الإنسان فيذكر ذلك أربع مرات في سورة القمر حيث يصدع التنزيل بقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **(القمر: الآيات 17 و22 و32 و40).**

والذكر هنا ـ كما يجمع المفسرون ـ يشمل التلاوة والتدبر معاً، ويشير إلى استمرار تلك العملية مع تبادل العصور وتجدد الأزمان، ومن هنا يبقى النص القرآني في أصول الدين ثابتاً لصياغته صياغة محكمة لا تقبل معنيين، وهي في نفس الوقت صياغة واضحة الدلالة يفهمها الإنسان قلَّت ثقافته أم زادت، فالأمر بتوحيد الله وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله لا يحتمل إلا معنى واحداً، والأمر بالصلاة أو بالزكاة، أو بالصيام أو بالحج لمن استطاع إليه سبيلاً لا يحتمل معنيين أبداً؛ كذلك يبقى النص القرآني الكوني ثابتاً، ويتجدد فهم الناس له كلما اتسعت دائرة معارفهم ونمت حصيلتهم العلمية، وذلك بالقطع ـ فيما لم يرد في شرحه شيء من المأثور الموثق، وليس في ذلك مقابلة بين كلام الله وكلام الناس ـ كما يدعي البعض ـ ولكنه المحاولة الجادة لفهم كلام الله وهو الذي أنزله للبشر لكي يفهموه ويتعظوا بدروسه، وفهم كلام الله على مستوى معارف العصر فيه معايشة للعصر، وفيه ـ في نفس الوقت ـ إدراك لجانب من جوانب الإعجاز في كتاب الله، لا ينكره إلا جاحد.

أما القول بأن ما يسمى بحقائق العلم ليست إلا نظريات وفروضاً، يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم فهو أيضاً قول ساذج، لأن هناك فروقاً واضحة بين الفروض والنظريات من جهة والحقائق والقوانين من جهة أخرى،

وهي مراحل متتابعة في منهج العلوم التجريبية الذي يبدأ بالفروض ثم النظريات وينتهي بالحقائق والقوانين، والفروض هي تفسيرات أولية للظواهر الكونية، والنظريات هي صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها، أما الحقائق الكونية فهي كل ما ثبت أو يثبت ثبوتاً قاطعاً في علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة، وهي جزء من الحكمة التي نحن أولى الناس بها، وكذلك القوانين العلمية فهي تعبيرات بشرية عن السنن الإلٰهية في الكون، تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهي كذلك جزء من الحكمة التي أُمرنا بأن نجعلها «**ضالة المؤمن**»[1]، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ.

لذا حرص كثير من علماء المسلمين على ألا يتم تأويل الإشارات العلمية، الواردة في القرآن الكريم إلا في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمها في فهم ذلك، وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظاً مبالغاً فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية ولا يجدون حرجاً في ذلك في غيبة نص ثابت مأثور، فإننا لا نرى حرجاً على الإطلاق في فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة؛ وذلك لأن العلوم المكتسبة لم تصل بعد إلى الحقيقة القاطعة في كل أمر من أمور الكون، وأن من أمور الكون ما لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيه مرحلة التنظير من مثل قضايا الخلق بأبعادها الثلاث: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، وهنا تكثر الفروض والنظريات، ويبقى للمسلم نور من الله الخالق في آية قرآنية صريحة، أو في حديث صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعين العالم المسلم على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة؛ ويبقى التفسير جهداً بشرياً خالصاً، بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، وعدم الكمال بسبب محدودية القدرة، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما؛ لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة الحقيقة، وقد لا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبداً، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبداً، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبي مسلماً بأنه لا يستطيع أن

(1) الحديث بنصِّه أخرجه الترمذي في كتاب: العلم (الحديث: 2687)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد (الحديث: 4169).

يتعدى تلك المرحلة في ذلك المجال بعينه أبداً، والأمثلة على ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لأصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد من النظريات، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أُخرى، أو تطوير لنظرية عن أُخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادعاء بالوصول إلى قانون قطعي، أو قاعدة ثابتة لذلك، فهذه مجالات فوق طاقة القدرة الإنسانية لأنها لا تخضع مباشرة لإدراك الإنسان. ولذلك فإن الإنسان إذا دخل إلى تلك القضايا الغيبية بغير هداية ربانية فإنه يضل ضلالاً بعيداً، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ **(الكهف: 51).**

وذلك لأنه على الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، في عمليات قابلة للتكرار والإعادة، إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك أبداً مثل قضايا الخلق خلق الكون، وخلق الحياة وخلق الإنسان وهي قضايا لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبداً بغير هداية ربانية، ولولا الثبات في سنن الله التي تحكم الكون وما فيه ما تمكن الإنسان من اكتشاف أي من تلك السنن. ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقاتهم، خاصة في فهم كتاب الله الذي أنزل إليهم، ويسّر لهم لقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **(القمر: الآيات 17، 22، 32، 40)**

ففي الوقت الذي يقرر القرآن الكريم أن الله لم يُشهد أياً من الجن أو الناسِ خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده في آيات أُخر يأمرهم بالنظر في كيفية بداية الخلق، وهي من أصعب قضايا العلوم الكونية قاطبة إذ يقول ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ **(العنكبوت: 19، 20)**

مما يشير إلى أن بالأرض سجلاً حافلاً بالحقائق التي يمكن أن يستدل منها على كيفية الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة، والأمر في الآية من الله تعالى إلى رسوله الكريم لِيَدْعُوَ الناس كافة إلى السير في الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهي قضية تقع من العلوم الكونية في الصميم، إن لم تكن تشكل أصعب قضية

عالجها الإنسان. وهذه القضايا: قضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه لها في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ من الإشارات اللطيفة ما يُمَكِّن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

وعلى ذلك فإني أرى جواز فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولاً، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة، فإن لم تتوافر فبالفرض العلمي المنطقي المقبول، حتى لو أدى التطور العلمي في المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو ذلك الفرض أو تطويرهما أو تعديلهما؛ لأن التفسير ـ كما سبق وأن أشرت ـ يبقى اجتهاداً بشرياً خالصاً من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيه المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد، قابلاً للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل، علماً بأن الخطأ في التفسير لا ينسحب على جلال القرآن الكريم.

ثالثاً: الرد على القائلين بعدم جواز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر:

إن في كون القرآن الكريم بياناً من الله ﷻ إلى الناس كافة، يفرض عليهم ـ بصفة عامة ـ وعلى المسلمين منهم ـ بصفة خاصة ـ أن يفهموا كل ما جاء فيه متعلقاً بأصول الدين ـ من العقيدة، والعبادة، والأخلاق والمعاملات ـ؛ وهذه كلها جاءت بصياغة محكمة لا تحتمل معنيين، يفهمها البدوي في قلب الصحراء كما يفهمها أساتذة التفسير؛ أما غير ذلك من القضايا التخصصية من مثل آيات الأنفس والآفاق فعلى المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموها ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ على ضوء ماتجمع له من معارف، وذلك بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة، فالقرآن نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم إن تفسير آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم التجريبية لا يشكل احتجاجاً على القرآن بالمعارف المكتسبة، ولا انتصاراً له بها، فالقرآن ـ بالقطع ـ فوق ذلك كله، والتفسير على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم في إطار لم يكن متوفراً للناس من قبل، ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله، سواء أصابت تلك المحاولات أم أخطأت، وإلا لما حفل القرآن الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التي تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر في مختلف جنبات الكون بمنهج علمي استقرائي دقيق؟. وذلك لأن الله تعالى قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد يمكّن حواس الإنسان المتأمل لها، المتفكر فيها، المتدبر لتفاصيلها من

إدراك أسرارها ـ على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس ـ، ويعين عقله على فهمها ـ على الرغم من حدود قدرات ذلك العقل ـ وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التي يزخر بها القرآن الكريم، ويمن علينا ربنا ﷻ ـ وهو صاحب الفضل والمنة ـ بهذا التسخير الذي هو من أعظم نعمه علينا نحن معشر العباد.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل في الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع في الكون صغر أم كبر، أدلة مدونة في صفحة السماء، وفي صخور الأرض، بصورة يُمَكِّنُ لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمي الاستقرائي الصحيح؛ فما من انفجار حدث في صفحة الكون إلا وهو مدون، وما من نجم انفجر أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهي مسجلة في صخور القشرة الأرضية، وما من تغير في تركيب الغلاف الغازي أو المائي للأرض إلا وهو مدون في صخورها، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولا تغير في المناخ إلا وهو مدون في صخور الأرض كذلك، وما من هبوط نيازك أو أشعة كونية على الأرض إلا وهو مسجل في صخورها. ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل في الكون واستخلاص سنن الله فيه وتوظيف تلك السنن في عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هي دعوة للناس في كل زمان ومكان، وهي دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل انطلاقاً من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى ـ دوماً ـ مهيمناً عليها، ومحيطاً بها، لأنه كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره، وإثبات جوانب الإعجاز فيه لا تنتقص من جلال الربوبية الذي يتلألأ بين كلمات هذا البيان الرباني الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتاً على إيمانهم، وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين؛ وحتى لو أخطأ المفسر في فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعود على المفسر نفسه ولا ينسحب على جلال كلام الله أبداً. والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ، فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من معارف لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهماً كاملاً، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها في حدود الدلالات اللغوية وحدها، وعليهم أن يلتزموا بالضوابط الموضوعة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله، حتى لا يخرجوا عن المنهج الصحيح للتعامل مع تلك القضية التخصصية، فيضروا من حيث أرادوا أن ينفعوا.

رابعاً: الرد على المدعين بكفر الكتابات العلمية المعاصرة:

إن الاحتجاج بأن العلوم الكونية ـ في ظل الحضارة المادية المعاصرة ـ انطلقت ولا تزال تنطلق ـ في معظمها ـ من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بعملية الخلق ولا بالخالق ﷻ، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فمرده بعيد عن طبيعة العلوم الكونية ومعطياتها، وإنما يرجع ذلك إلى العقائد الفاسدة التي أفرزتها الحضارة المادية المعاصرة، والتي تحاول فرضها على كل استنتاج علمي كلي، وعلى كل رؤية شاملة للكون والحياة، والإنسان. وقد حققت الحضارة المادية المعاصرة قفزات هائلة في مجال العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، بينما تخلف المسلمون في العديد من أمور الحياة ـ بصفة عامة ـ وفي مجال العلوم والتقنية ـ بصفة خاصة ـ مما أدى إلى انتقال القيادة الفكرية في هذه المجالات إلى أمم سبق للعلماء فيها أن عانوا معاناة شديدة من تسلط الكنيسة، واضطهادها، ورفضها للمنهج العلمي بكل معطياته، كما حدث في أوروبا في أوائل عصر النهضة. وانتهى هذا الصراع بانتصار العلم وأهله، وانكسار الكنيسة وانحسارها فانطلق العلماء الغربيون من منطلق العداوة للكنيسة إلى إنكار الغيب ورفض الدين كلية، فداروا بالعلوم الكونية ومعطياتها في إطارها المادي فقط، وبرعوا في ذلك براعة ملحوظة، ولكنهم ضلوا السبيل وتنكبوه حينما حبسوا أنفسهم في إطار المادة، ولم يتمكنوا من إدراك ما فوقها، أو منعوا أنفسهم من التفكير فيه، فأصبحت الغالبية العظمى من العلوم والمعارف تكتب من مفهوم مادي صرف. ثم انتقلت عدوى ذلك إلى عالمنا المسلم أثناء مرحلة اللهث وراء اللحاق بالركب التي نعيشها، وما صاحب ذلك من مركبات الشعور بالنقص، أو نتيجة لدس الأعداء، وانبهار البلهاء بما حققته الحضارة المادية المعاصرة من انتصارات في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وما وصلت إليه من أسباب القوة والغلبة، وما حملته معها حركة الترجمة من غث وسمين، فأصبحت العلوم تكتب اليوم في عالمنا المعاصر من نفس المنطلق المادي لأنها عادة ما تدرس وتكتب وتنشر بلغات أجنبية على نفس النمط الذي أرست قواعده الحضارة المادية، وحتى ما ينشر منها باللغة العربية، وبغيرها من اللغات المحلية، لا يكاد يخرج في مجموعه عن كونه ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للفكر الغريب الوافد، بكل ما فيه من تعارض واضح أحياناً مع نصوص الدين. وتقتضي الأمانة إثبات أن ذلك الموقف غريب على العلم وحقائقه، ومن هنا أيضاً كان من واجب المسلمين إعادة التأصيل الإسلامي للمعارف الإنسانية المكتسبة؛ أي إعادة كتابة العلوم بل والمعارف كلها

من منطلق إسلامي صحيح، خاصة وأن المعطيات الكلية للعلوم ـ بعد وصولها إلى قدر من التكامل في هذا العصر ـ أصبحت من أقوى الأدلة على وجود الله، وعلى تفرده بالألوهية، والربوبية والوحدانية، ومن أنصع الشواهد على حقيقة الخلق، وحتمية البعث، وضرورة الحساب، والعلوم الكونية كانت ولا تزال النافذة الرئيسة التي ينظر منها الإنسان السويّ إلى بديع صنع الله فيشهد بوجوده ﷻ، ويدرك شيئاً من صفاته العليا؛ وهي أيضاً النافذة المباشرة التي تتصل منها الحضارة المعاصرة بالفطرة الربانية. والمنهج العلمي ونجاحه في الكشف عن عدد من حقائق هذا الكون متوقف على اتساق تلك الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبات، وهما اطراد وثبات لا يمكن أن يكونا إلا نتاج تدبير وتقدير من إلٰه عليم خبير قدير. . . !!

خامساً: الرد على الادعاء بالتعارض بين معطيات العلم والدين:

إن القول بأن عدداً من المعطيات الكلية للعلوم الكونية ـ كما تصاغ في الحضارة المادية المعاصرة ـ قد تتباين مع الأصول الإسلامية الثابتة هو قول على إطلاقه غير صحيح؛ لأنه إذا جاز ذلك في بعض الاستنتاجات الجزئية الخاطئة، أو في بعض الأوقات المعينة كما كان الحال في مطلع هذا القرن ـ والمعرفة بالكون جزئية متناثرة، ساذجة بسيطة ـ أو في الجزء المتأخر منه ـ عندما أدت المبالغة في التخصص إلى حصر العلماء في دوائر ضيقة للغاية حجبت عنهم الرؤية الكلية لمعطيات العلوم ـ فإنه لا يجوز اليوم ترديد هذا الادعاء الباطل، وقد بلغت المعارف بأشياء هذا الكون حدًّا لم تبلغه البشرية من قبل، وقد أصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد على ضرورة الإيمان بالخلق، وبالخالق البارىء المصور، والتسليم بالغيب وبالوحي وبالبعث وبالحساب.

وإنه لمن المعطيات الكلية للعلوم الكونية المعاصرة ما يمكن إيجازه فيما يلي:

- إن هذا الكون الذي نحيا فيه متناهٍ في أبعاده مذهل في دقة بنائه، مذهل في إحكام ترابطه وانتظام حركاته.
- إن هذا الكون مبني على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته.
- إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها.
- إن هذا الكون ـ على قدمه ـ مستحدث مخلوق، كانت له في الماضي السحيق بداية حاول العلم التجريبي معرفتها، ووصل فيها إلى دلالات تكاد تكون ثابتة ـ لو استبعدنا الأخطاء التجريبية.

• إن هذا الكون عارض مستحدث كانت له بداية، وكل ما له بداية فلا بد وأنه ستكون له في يوم من الأيام نهاية؛ ونهاية كوننا تشير إليها كل الظواهر من حولنا.

• إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته.

• إن هذا الكون المتناهي الأبعاد، الدائم الاتساع، المحكم البناء، الدقيق الحركة والنظام إلى درجة أن كل ما فيه يدور في مدارات محددة وبسرعات مذهلة متفاوتة وثابتة، وكون هذا شأنه لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة.

• هذه المعطيات تفضي إلى حقيقة منطقية واحدة مؤداها أنه إذا كان هذا الكون الحادث لا يمكن أن يكون قد أوجد ذاته بنفسه، ولا يمكن أن يكون قد أوجد بمحض المصادفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والحكمة والقدرة وغير ذلك من صفات الكمال والتنزيه ما لا يتوافر لأحد من خلقه، بل ما يغاير صفات المخلوقات جميعاً، فلا تحده حدود المكان والزمان ولا قوالب المادة والطاقة، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا ينسحب عليه ما يحكم خلقه من سنن وقوانين، لأنه ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ **(الشّورى: 11)**

• هذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إزالته وإفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ **(الأنبياء: 104)**

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ **(النّحل: 40).**

• إن الوحدة في هذا الكون تشير إلى وحدانية هذا الخالق العظيم: وحدة بناء كل من الذرة والخلية الحية والمجموعة الشمسية والمجرة وغيرها، ووحدة تآصل العناصر كلها وردّها إلى أبسطها وهو غاز الإيدروجين، وتواصل كل صور الطاقة، وتواصل المادة والطاقة، وتواصل المخلوقات، هذا التواصل وتلك الوحدة التي يميزها التنوع في أزواج، وتلك الزوجية التي تنتظم كل صور المخلوقات من الأحياء والجمادات تشهد بتفرد الخالق البارىء المصور بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، كما تشهد بكبرياء واستعلاء هذا الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فوق خلقه بمقام الألوهية والربوبية الذي لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه على سلطانه منازع، ولا يشبهه من خلقه شيء.

• إن العلوم التجريبية في تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أن بالكون غيباً قد لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء، لأن أكبر الاكتشافات العلمية قد نمت نتيجة للبحث الدؤوب عن هذا الغيب.

• تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سراً لا نعرف كنهه، لأننا نعلم مكونات الخلية الحية، والتركيب المادي لجسد الإنسان، ومع ذلك لم يستطع هذا العلم أن يصنع لنا خلية حية واحدة، أو أن يوجد لنا إنساناً عن غير الطريق الفطري لإيجاده.

• إن النظر في أي من زوايا هذا الكون ليؤكد حاجته ـ بمن فيه وما فيه ـ إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده، وذلك لأن الكون مليء بالمخاطر، والأرض محاطة بها من كل جانب.

• إن العلوم الكونية إذ تقدر أن الكون والإنسان في شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها ـ وعلى غير قصد منها ـ لتؤكد حقيقة الآخرة، بل وعلى حتميتها، والموت يتراءى في مختلف جنبات هذا الكون في كل لحظة من لحظات وجوده، شاملاً الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هيئاتها، وتكفي في ذلك الإشارة إلى ما أثبتته المشاهدة من أن الشمس تفقد من كتلتها بالإشعاع ما يقدر بحوالي 4,6 مليون طن في كل ثانية وأنها إذ تستمر في ذلك فلا بد من أن يأتي الوقت الذي تخبو فيه جذوتها، وينطفىء أوراها، وتنتهي الحياة على الأرض قبل ذلك، لاعتمادها في ممارسة أنشطتها الحيوية على أشعة الشمس، وأن الطاقة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة بطريقة مستمرة في محاولة لتساوي درجات حرارة الأجرام المختلفة في الكون، ولا بد أن تنتهي بذلك أو قبله كل صور الحياة المعروفة لنا، وليس معنى ذلك أنه يمكن معرفة متى تكون نهاية هذا الوجود، لأن الآخرة قرار إلهي لا يرتبط بسنن الدنيا، وإن أبقى الله تعالى لنا في الدنيا من الظواهر والسنن ما يؤكد إمكانية وقوع الآخرة، بل حتميتها انصياعاً للأمر الإلهي «كن» فيكون.

وإن الإنسان الذي يحوي جسده في المتوسط ألف مليون مليون خلية يفقد منها في كل ثانية ما يقدر بحوالي 125 مليون خلية تموت ويتخلق غيرها بحيث تتبدل جميع خلايا جسد الفرد من بني البشر مرة كل عشر سنوات تقريباً، فيما عدا الخلايا العصبية التي إذا ماتت لا تتجدد، وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن انتقال «الالكترون» من مدار إلى آخر حول نواة الذرة يتم بسرعة مذهلة دفعت بعدد من العلماء إلى الاعتقاد بأنه فناء في مدار وخلق جديد في مدار آخر، كما تكفي الإشارة إلى ظاهرة اتساع الكون عن طريق تباعد

المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة تقترب من سرعة الضوء ـ أي حوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية ـ وتخلق المادة في المسافات البينية الجديدة الناتجة عن هذا التباعد المستمر بطريقة لا يعلمها إلا الله، وتباطؤ هذا التباعد الناتج عن ظاهرة الانفجار العظيم مع الزمن، مما يشير إلى حتمية تغلب الجاذبية في وقت ما لا يعلمه إلا الله على عملية الدفع إلى الخارج مما يؤدي إلى إعادة جمع كل الأمكنة والأزمنة، وكل مادة الكون، ومختلف صور الطاقة فيه في جرم واحد ذي كثافة بالغة، مما يجعله في حالة من عدم الاستقرار تؤدي إلى انفجاره على هيئة شبيهة بالانفجار الأول الذي تم به خلق الكون، فيتحول هذا الجرم إلى غلالة من دخان كما تحول الجرم الأول، وتتخلق من هذا الدخان أرض غير الأرض، وسمٰوات غير السمٰوات كما وعد ربنا ﷻ بقوله ﷻ:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ **(الأنبياء: 104).**

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ **(إبراهيم: 48).**

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن الذرات في جميع الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية تترتب ترتيباً يسارياً في أجساد كافة الكائنات الحية على اختلاف مراتبها، فإذا ما مات الكائن الحي أعادت تلك الذرات ترتيب نفسها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة محددة يمكن باستخدامها تحديد لحظة وفاة الكائن الحي إذا بقيت من جسده بقية بعد مماته، ويتعجب العلماء من القدرة التي مكنت الذرات من تلك الحركات المنضبطة بعد وفاة صاحبها وتحلل جسده!! فهل يمكن لعاقل بعد ذلك أن يتصور أن العلوم الكونية ومعطياتها ـ في أزهى عصور ازدهارها ـ تتصادم مع قضية الإيمان بالله؟ وهذه هي معطياتها الكلية، وهي في جملتها تكاد تتطابق مع تعاليم السماء، وفي ذلك كتب المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي رحمه الله في خاتمة كتابه «المستقبل للإسلام» ما نصه:

«إن كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي، هي تقرب إلى ديننا الفطري، حتى ينتهي الأمر إلى الإقرار الإجماعي بأنه الدين الحق».

ثم يضيف: «نعم إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد وإمعانه في النقد والتمحيص، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام، بخطوات متزنة ثابتة، لاتوجد قوة في الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية».

وقد بدأت بوادر هذا التحول الفكري تظهر جلية اليوم، وفي مختلف جنبات الأرض، بإقبال أعداد كبيرة من العلماء والمتخصصين وكبار المثقفين والمفكرين على الإسلام، إقبالاً لم تعرف له الإنسانية مثيلاً من قبل، وأعداد هؤلاء العلماء الذين توصلوا إلى الإيمان بالله عن طريق النظر المباشر في الكون، واستدلوا على صدق خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بالوقوف على عدد من الإشارات العلمية البارقة الصادقة في كتاب الله، هم في تزايد مستمر، وهذا واحد منهم: «**موريس بوكاي**» الطبيب والباحث الفرنسي يسجل في كتابه «الإنجيل والقرآن والعلم» مانصه:..

«لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير ـ إلى هذا الحد ـ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص دوِّن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً».

وعلى ذلك فإن فهم الإشارات الكونية في كتاب الله، على ضوء ما تجمع للبشرية اليوم من معارف، وتقديمها للعالم كواحد من الأدلة العديدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله بعلمه والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي حفظ بحفظ الله، بنفس اللغة التي أوحي بها، بدقائق حروفه وكلماته وآياته وسوره، يعتبر فتحاً جديداً للإسلام، وإنقاذاً للبشرية من الهاوية التي تتردى فيها اليوم بسبب تقدمها العلمي والتقني المذهل، وتضاؤل روح الإيمان بالله، وانعدام الخشية من عذابه في نفوس القطاع الأكبر من الناس خاصة في أكثر المجتمعات البشرية المعاصرة أخذاً بأسباب التقدم العلمي والتقني، فأغلب المجتمعات البشرية في الدول غير المسلمة تعاني اليوم من انفراط عقد الأسرة، وإباحية للممارسات الجنسية بدون أدنى رباط، فكثر حمل المراهقات، وأبناء الزنا، والأسر ذات العائل الواحد، وتفشت الأمراض والأوباء والعلل مما لم يكن معروفاً من قبل، وقننت الحكومات التشريعات للعلاقات الشاذة، وصرحت بتبني الأطفال وتنشئتهم في وسط الشواذ، وهي عمليات مدمرة للفطرة الإنسانية، كثرت بأسبابها الأزمات النفسية وأمراضها، وتضاعفت معدلات كلٍّ من الإدمان والجريمة والانتحار، وملئت أكثر المجتمعات البشرية ثراء وتطوراً مادياً بأخطر مشاكل المجتمعات الإنسانية تعقيداً على الإطلاق...!!!

ومن هؤلاء الذين لايعرفون لهم أباً، والذين خرجوا إلى الحياة بطرق غير مشروعة، ونشؤوا في بيئات فاسدة، وبين سلوكيات منحطة وضيعة، من يمكن أن يصل إلى مقام

السلطة في دول تملك من تقنيات ووسائل الغلبة المادية، من مختلف أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يعينه على البطش بالخلق، وإفشاء الظلم، وتدمير الحياة على سطح الأرض، وإفساد بيئاتها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها...!!! ولا يجد من دين، أو خلق، أو منطق، أو أسرة، أو مجتمع أي رادع يمكن أن يرده عن ذلك. . . !!!

وأغلب وسائل الإعلام في العالم قد وقعت اليوم في أيدي اليهود، في مؤامرة خسيسة على الإنسانية ـ واليهود هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا بصفة خاصة وللإنسان غير اليهودي بصفة عامة ـ فوظفوا كافة تلك الوسائل الإعلامية في تدمير البقية الباقية من عقائد وأخلاقيات وسلوكيات المجتمعات الإنسانية، وفي تشويه صورة الإسلام في أذهان الناس، في محاولات يائسة للصد عنه، وذلك لأن مما يسوءهم أن يروا الإسلام ينتشر في مجتمعاتهم في الوقت الذي يتصورون فيه أنهم قد أحاطوا بالإسلام والمسلمين إحاطة كاملة، وأحكموا قبضتهم عليهم. . . !!

واليوم يقبل على الإسلام في الغرب والشرق قمم الفكر والعلم والرأي، لأنهم يرون فيه المخرج الوحيد من الوحل النتن الذي غاصت فيه مجتمعاتهم، والذي يغوصون فيه إلى أذقانهم في غالبيتهم الساحقة.

ووسيلتنا في تحسين صورة الإسلام في العالم هي حسن الدعوة إليه بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي. وخير ما نقدمه في ذلك المضمار مما يتناسب مع طبيعة العصر ولغته هو **الإعجاز العلمي للقرآن الكريم،** لأننا نعيش في زمن أدار غالبية الناس ظهورهم فيه للدين، ولم تعد قضايا الغيب المطلق من بعث بعد الموت، وعرض أكبر أمام الله الخالق، وخلود في حياة قادمة: إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً، وغيرها من قضايا الدين لم تعد تحرك فيهم ساكناً، ولكنهم في نفس الوقت قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، فإذا أشرنا إلى سبق للقرآن الكريم في الإشارة إلى عدد من حقائق الكون قبل أن يصل الإنسان إلى شيء منها بعشرات المئات من السنين، وهو الكتاب الذي أنزل على نبي أميّ ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، فإن ذلك سوف يحرك عقولهم وقلوبهم، وسوف يحضهم على قراءة كتاب الله الذي ما اطلع عليه عاقل إلا وشهد أنه لا يمكن أن يكون إلا كلام الله الخالق ﷻ، وفي ذلك تحييد لحجم الكراهية الشديدة التي غرستها وسائل الإعلام الدولية للإسلام والمسلمين في قلوب الملايين، ودعوة مستنيرة إلى دين الله ما أحوجنا إليها في زمن التحدي بالعولمة الذي نعيشه، والذي يتهدد كافة شعوب الأرض بالذوبان في بوتقة الحضارة المادية الجارفة...!!!

ولا يمكن أن يصدنا عن ذلك دعوى أن عدداً من المفسرين السابقين الذين تعرضوا لتأويل بعض الآيات الكونية في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل تلك الآيات من المعاني ما لا تحتمله، وذلك بسبب نقص في وفرة المعلومات العلمية أو جهل بها.

وكما سبق وأن أوضحنا بأن التفسير لآي القرآن الكريم هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة تلك الآيات إن أصاب فيها المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والمعول في ذلك النية، وأن الخطأ في التفسير لا ينال من جلال القرآن الكريم، ولكنه ينعكس على المفسر، خاصة وأنّ الذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالتاريخ أصابوا وأخطأوا ـ ولم ينل ذلك من قدسية القرآن الكريم ومكانته في قلوب وعقول المؤمنين شيئاً، أما اليوم وقد توافر للإنسان من المعرفة بحقائق الكون وسننه ما لم يتوفر لجيل من البشر من قبل، فإن توظيف ذلك الكم من المعلومات من أجل حسن فهم دلالة الآيات الكونية في القرآن الكريم، وإثبات سبقها التاريخي لكافة المعارف البشرية يعتبر ضرورة إسلامية لتثبيت إيمان المؤمنين، ولدعوة الضالين من الكفار والمشركين؛ لأن ربنا ﷻ سوف يسألنا عن تبليغهم بهذا الدين، ودعوتهم إليه بالأسلوب الذي يفهمون وبالحكمة والموعظة الحسنة.

والأخطاء التي وقع فيها عدد من المفسرين الذين تعرضوا للآيات الكونية في كتاب الله، وتكلف بعضهم في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحمله ـ في تعسف واضح، وتكلف جليّ ـ يحملونه هم، ولا تتحمله آيات الكتاب المبين، لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً منسوباً لصاحبه، وموسوماً بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال، وإذا كان عدد من المفسرين قد جاوز الصواب في تأويله، فإن أعداداً أوفر قد وفقت في ذلك أيّما توفيق.

ولم تكن أخطاء المفسرين محصورة في محاولات تأويل الإشارات الكونية فقط، فهنالك أعداد من كتب التفسير التي تمتلىء «بالإسرائيليات» الموضوعة، والعصبيات المذهبية الضيقة، وغير ذلك مما لا يقبله العقل القويم، ولا الصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه المكرمين والتابعين، ولا يرتضيه المنطق اللغوي السليم.

فالمعتزلة على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ قد حاولوا في تفاسيرهم إخضاع الآيات لمبادئهم (في العدل والتوحيد وحرية الإرادة والوعد والوعيد وإنكار الرؤية وغيرها)، وتعسفوا في ذلك أيما تعسف.

وبعض الفرق الإسلامية يتأول عدداً من الآيات القرآنية تأويلاً لا يحتمله ظاهر الآيات. ولا السياق القرآني، ولا القرائن المنطقية المختلفة. وكذلك بعض المتصوفة

والإشاريين فهم ـ على الرغم من تسليمهم بالمأثور من التفسير، وقبولهم للمعنى الذي يدل عليه اللفظ العربي القويم ـ يسمحون لأنفسهم باستنباط معان للآيات تخطر في أذهانهم عند التلاوة وإن لم تدل عليها الآيات القرآنية الكريمة بطريق من طرق الدلالات المعروفة في الاستعمال العربي للغة وطرائق التعبير فيها.

كذلك فإن عدداً من أتباع الفرق الباطنية وإفرازاتها القديمة والحديثة قد ملأوا تفاسيرهم بالتعسف والافتعال، ومحاولات تطويع القرآن لمبادئهم في تكلف ملحوظ.

فهل معنى ذلك أن يتوقف علم التفسير عند حدود جهود السابقين من المفسرين؟ ويتوقف فهم الناس لكتاب الله الذي أنزل إليهم ليتدبروا آياته، ويعيشوا في معانيه، ويتخذوا منها دستوراً كاملاً لحياتهم عند جهود قدامى المفسرين ـ على فضلهم ـ وفضل ما قدموه لخدمة فهم القرآن الكريم في حدود المعرفة المتاحة في أزمنتهم؟ بالقطع لا، على الرغم من التسليم بأن هذه الانحرافات وأمثالها كانت من وراء الدعوة إلى الوقوف بالتفسير عند حدود المأثور، فكتب التفسير على تباينها تحوي تراثاً فكرياً وتاريخياً لهذه الأمة لا يمكن التضحية به، حتى ولو كانت به بعض الأخطاء أو التجاوزات، إلا إذا كان القصد الواضح هو التحريف، وهو أمر لا يصعب على عاقل إدراكه.

من كل ما سبق يتضح لنا أن حجج المضيقين في رفض تفسير الإشارات الكونية في كتاب الله على ضوء ما تجمع اليوم لدى الإنسان من معارف بالكون وعلومه هي كلها حجج مردودة، فالكون صنعة الله، والقرآن هو كلام خالق الكون وواضع نواميسه، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله الخالق مع الحقائق التي قد أودعها في خلقه، إذا اتبع الناظر في كليهما المنهج السليم، والمسلك الموضوعي الأمين؛ فمن صفات الآيات الكونية في كتاب الله أنها صيغت صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني في كل آية من تلك الآيات الدالة على شيء من أشياء الكون أو ظواهره أو نشأته أو إفنائه وإعادة خلقه، وتظل تلك المعاني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندي من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله؛ ومن هنا كانت ضرورة استمرارية النظر في تفسير تلك الآيات الكونية، وضرورة مراجعة تراجمها إلى اللغات الأخرى بطريقة دورية.

أما آيات العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة يفهم دلالتها كل مستمع إليها مهما قلت ثقافته، لأن تلك الآيات تمثل ركائز الدين الذي هو صلب رسالة القرآن الكريم.

وكذلك الآيات المتعلقة بصفات الله، وبالروح، وبالآخرة، وبالملائكة، والجن،

وغير ذلك من الأمور الغيبية غيبة مطلقة، فلا يملك المسلم حيالها إلا الإيمان بها، والتسليم في فهمها لنص القرآن الكريم أو للمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، لأن الإنسان لا يمكن له أن يصل إلى عالم الغيب المطلق إلا ببيان من الله الخالق، وذلك لأن قدرات عقل الإنسان المحدودة، وحواسه المحدودة لا يمكن لهما اجتياز حدود عوالم الغيوب المطلقة مهما أوتي الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة، ومن هنا كان امتداح القرآن الكريم للذين يؤمنون بالغيب...!!

موقف الموسعين في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

ويرى أصحاب هذا الموقف أن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد قصدت لذاتها أي لدلالاتها العلمية المحددة، مع التسليم بوجوب استخلاص الحكمة والعبرة منها، والوصول إلى الهداية عن طريقها، وانطلاقاً من ذلك فقد قام أصحاب هذا الموقف بتبويب الآيات الكونية في كتاب الله، وتصنيفها حسب مختلف التصانيف المعروفة في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، ثم اندفعوا في حماسهم لهذا الاتجاه إلى المناداة بأن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف. ولحسن فهم تلك الإشارات الكونية في كتاب الله لا بد من تفسيرها على ضوء اصطلاحات تلك العلوم والمعارف، ثم زاد البعض بمحاولة إثبات أن جميع حقائق العلوم البحتة والتطبيقية التي استخلصها الإنسان بالنظر في جنبات هذا الكون هي موجودة في القرآن الكريم استناداً إلى قوله ﷻ:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ **(الأنعام: 38).**

وقوله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ **(النّحل: 89).**

وهذا في رأينا موقف مبالغ فيه لأن السياق القرآني في الآيتين السابقتين لا يتمشى مع ما وصلوا إليه من استنتاج، لأنهما يركزان على رسالة القرآن الأساسية وهي الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وهي القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يضع فيها لنفسه ضوابط صحيحة. وهي التي استوفاها القرآن استيفاء لا يقبل إضافة، أما قصص الأمم السابقة والإشارات إلى الكون ومكوناته فقد جاء القرآن الكريم بنماذج منها تشهد للّه الخالق بطلاقة القدرة على الخلق وإفنائه وإعادته من جديد. وربما كان هذا الموقف وأمثاله من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تحفظ المتحفظين من الخوض في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، أو التعرض لإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها.

موقف المعتدلين في قضيتي التفسير والإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

يرى أصحاب هذا الموقف أنه مع التسليم بأن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، أساسها الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والأمر بالعبادات المفروضة، والحث على الالتزام بمكارم الأخلاق، وعلى التعامل بالعدل، أي أنه دستور كامل للحياة، في طاعة خالق الكون والحياة.

ومع التسليم كذلك بأن الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد جاءت في معرض التذكير بوحدانيته وبقدرته المطلقة، وببديع صنعه في خلقه، وشمول علمه، وكمال صفاته وأفعاله، إلا أنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن أعلم بالكون من خالقه؟

• من هنا كانت تلك الإشارات الكونية كلها حق، وكانت كلها منسجمة مع قوانين الله وسننه في الكون، وثابتة في دلالاتها ـ مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية ـ فلا تعارض ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله العظيم القائل:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ **(النِّساء: 82).**

• ومن هنا أيضاً كان من الواجبات الملحة على علماء المسلمين اليوم هي مدارسة تلك الآيات الكونية، مستفيدين بكل أنواع المعارف المتاحة في تفسيرها وإظهار جوانب الإعجاز فيها، وتوظيف ذلك في الدعوة إلى دين الله بالحجة الواضحة والمنطق السوي، تأكيداً لإيمان المؤمنين، ودحضاً لافتراءات المفترين، وتثبيتاً للحقيقة الراسخة أن القرآن هو كلام الله العزيز الرحمٰن الرحيم.

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ المباشر بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلٰهية قد تركت الكسب العلمي مجالاً مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين، يتنافس فيه المتنافسون، ويتبارى المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، فلو أن الإرادة الإلٰهية قد ارتضت بسط الكون بكل حقائقه كاملة أمام الإنسان، لانتفت الغاية من الحياة الدنيا، وهي دار ابتلاء واختبار، ولاختفى ذلك الغيب الذي يشد الإنسان إليه، ويشحذ جميع حواسه، وكل قواه العقلية والفكرية، ولتبلدت تلك الحواس والقدرات، ولمضت حياة الإنسان على الأرض رتيبة كئيبة بائسة، جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، بغير تجديد أو تنويع أو إبداع، وسط عالم يتميز بالتغير في كل أمر من أموره، وفي كل لحظة من لحظات وجوده،

هذا فضلاً عن أن العقل البشري عاجز عن تقبل الحقائق الكونية الكلية دفعة واحدة، وأنه يحتاج في فهمها إلى شيء من التدرج في الكشف، وفي استخراج الأدلة، وفي إثباتها وتكامل معطياتها على مدى أجيال متعاقبة.

• ويستدل أصحاب هذا الموقف بالحشد الهائل من الإشارات الكونية في كتاب الله، وبمطالبة القرآن الكريم للإنسان دوماً بتحصيل المعرفة النافعة على إطلاقها، وهذه أولى آيات القرآن العظيم تأمر بذلك وتحدد وسائله، وتحض على التأمل في الخلق، بل وتشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا بعد ذلك بقرون طويلة ألا وهي: ...﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ **(العَلق: 2)**، وهي حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد اكتشاف المجاهر المكبرة، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. **(العلق: 1 ـ 5)**

• ويستدل أصحاب هذا الموقف المعتدل على ذلك أيضاً بما يقرره القرآن من مسؤولية الإنسان عن حواسه وعقله، وما يفرضه من حسن استخداماتها في التعرف على الكون، واكتساب المعارف النافعة منه، وتوظيفها في حسن فهم كتاب الله، حيث يقرر الحق ﷻ ذلك كله بقوله في محكم كتابه:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ **(الإسراء: 36).**

• كما يستدلون برفض القرآن للتقليد والجمود على الآراء الموروثة الخاطئة، والحكم بالظن والهوى، وبمطالبته الإنسان دوماً بتأسيس الأحكام على الدليل العقلي الذي لا يقبل النقض، وهذه كلها من أخص خصائص المنهج التجريبي في دراسة الكون وما فيه، كذلك يستشهدون بتكريم القرآن الكريم للعلم والعلماء ـ بمن فيهم من علماء الكونيات ـ في العديد من آي الذكر الحكيم نختار منها قول الحق ﷻ:

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . . .﴾ **(الزُّمَر: 9).**

وقوله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾

(المجَادلة: 11)

وقوله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ **(آل عِمرَان: 18).**

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ **(فَاطِر: 28).**

والآية الأخيرة قد وردت بعد استعراض لكثير من المشاهد الكونية، مما يؤكد أن

الآية تشمل علماء الكونيات، إن لم يكونوا هم المقصودين بها مباشرة، فالآية تنطق:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ **(فاطر: 27، 28).**

● كذلك يستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل بمطالبة القرآن الكريم للإنسان ـ في تشديد واضح ـ بالنظر في كل ما خلق الله، وهذه أوامره صريحة جلية نختار منها قول الحق ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾. **(يونس: 101)**

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾. **(الأعراف: 185)**

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾. **(العَنكبوت: 20)**

وقوله ـ تبارك اسمه ـ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. **(الذاريات: 20، 21)**

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ **(الغاشية: 17 ـ 20).**

● وينتصر أصحاب هذا الموقف المعتدل لموقفهم كذلك بما ينعاه القرآن الكريم على الغافلين عن التفكير في آيات السمٰوات والأرض في كثير من آياته التي منها قول الحق ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ **(يوسف: 105).**

ووصفه لهؤلاء الغافلين بأنهم كالأنعام بل هم أضل، وتقديره بأن جزاءهم جهنم عقاباً لهم على إهمالهم نعم الله التي أنعم بها عليهم، وذلك في مثل قول الله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ **(الأعراف: 179).**

● ويستشهدون على ضرورة توظيف المعارف العلمية المتاحة لفهم دلالة الآيات الكونية في كتاب الله بربط القرآن دوماً بين الإيمان بالله والنظر فيما خلق الله، من مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. **(البقرة: 164)**

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. **(آل عمران: 190، 191)**

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ **(الأنعام: 75).**

وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(غافر: 57).**

- ويستشهد المنادون بضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية في كتاب الله بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ـ في استعراضه لأمور الكون ـ يتناول كليات الأشياء، تاركاً التفاصيل لاجتهاد الإنسان، ولكنه في نفس الوقت ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة في أشياء الكون مثل الكم والكيف وهما من أسس العلوم التجريبية، الكم الذي يتعلق بالحجم والكتلة وبالزمان والمكان، وبدرجات النمو والاندثار، وغيرها، يتمثل في كثير من الآيات القرآنية التي نختار منها قول الحق تعالى:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ **(الرعد: 8).**

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ **(الطلاق: 3).**

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ **(القمر: 49).**

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ **(الفرقان: 2).**

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **(المؤمنون: 18).**

- وبخصوص الكيف بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ومسبباتها، ومجرى الظواهر الكونية وحدوثها والسنن الإلهية وجريانها، فإن القرآن يشدد التنبيه عليها في مواضع كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ **(الروم: 50).**

وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (الفرقان: 45، 46).

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق: 6).

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 17 ـ 20).

• ويستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل كذلك على ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية بتأكيد القرآن الكريم على أن لكل شيء في هذا الكون فطرته السوية التي فطره الله عليها، والتي تخصه وتميزه، وهي قاعدة أساسية من قواعد المنهج العلمي التجريبي في الكشف عن حقائق هذا الكون ومكوناته وسنن الله فيه، ونقرأ في ذلك قول الحق ﷻ:

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: 50).

وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: 2 ـ 3).

• وأن هذه الفطرة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل لقول الحق ﷻ:

﴿... لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (الرُّوم: 30).

• وأن الفطرة التي فطر الله الخلق عليها خاضعة لقوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف إلا بإذن الله، وأنه لولا ثبات تلك الفطرة واطراد القوانين التي تحكمها ما تمكن الإنسان من اكتشاف أي أمر من أمور هذا الكون، وأن القرآن يصر على تسمية تلك القوانين بالحق، ويصر على أن الكون وما فيه خلق بالحق، ويطالب الإنسان بالتعرف على ذلك الحق والتزامه، فالتنزيل ينطق بقول الله ﷻ:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الأحقاف: 3).

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ (الروم: 8).

وقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ (الزمر: 5).

وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟

﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ **(يُونس: 5).**

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(الدخان: 38 ـ 39).**

• كذلك فإن الذين يرون ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، وفي الاستشهاد على الإعجاز العلمي لتلك الآيات ينتصرون لذلك بأن أكثر من أربعين سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها 114 سورة تحمل أسماء لبعض أشياء الكون وظواهره، ويستشهدون بعرض القرآن للعديد من القضايا التي هي في صميم العلوم الكونية من مثل خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واتساع الكون، وبدء خلق السماء بدخان، وخلق الحياة من الماء وفي الماء، واستعراض مراحل الجنين في الإنسان ووصفها بدقة بالغة وغير ذلك كثير مما لا يوفيه في هذا المقام حصر، ولكن تكفي الإشارة إلى آيات قليلة منها من مثل قول الحق ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ **(الأنبياء: 30).**

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ **(فُصّلَت: 11).**

وآيات الكتاب الحكيم في كل ما عرضت له من أمور الكون تتميز بمنتهى الدقة في التعبير، والشمول في المعنى، والإحاطة في الدلالة، وبالسبق الإخباري بحقائق لم يتيسر للإنسان الإلمام بها إلا في القرن العشرين أو في العقود المتأخرة منه. وهذا بالقطع يشكل صورة من صور الإعجاز لم تتوافر لجيل من الأجيال من قبل.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التي تشير إلى الكون وما به من كائنات ـ أحياء وجمادات ـ، وإلى صور من نشأتها، ومراحل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها، وقد أحصى الدارسون من مثل هذه الآيات حوالي ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أُخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، مما يبلغ بالآيات الكونية إلى سدس آيات القرآن الكريم تقريباً.

ويقف المفسرون من هذه الآيات الكونية في كتاب الله مواقف متعددة، فمنهم المضيقون والموسعون والمعتدلون، **فالمضيقون** يرون أن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله تعالى، وإبداعه في خلقه،

وقدرته على إفناء الخلق وإعادته من جديد؛ ومن ثم فلا يجوز تفسيرها في ضوء من معطيات العلوم الحديثة، وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس.

أما **الموسعون** فيرون أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولا بد لحسن فهم ذلك من تفسيره على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من رصيد علمي خاصة في مجال العلوم الكونية، ومن ثمّ فقد قاموا بتبويب آيات الكونيات في كتاب الله وتصنيفها حسب التصانيف المعروفة في مختلف مجالات تلك العلوم، و تميز ذلك بشيء من التكلف الذي أدى إلى رفض المنهج والوقوف في وجهه.

أما **المعتدلون** فيرون أنه مع التسليم بأن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد وردت في معرض التذكير بقدرة الله، وبديع صنعه، فإنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي كلها حق مطلق. ولا غرابة إذن من انسجامها مع قوانين الله وسننه في الكون، ومع معطيات العلوم الثابتة عن حقائق هذا الكون، كذلك فإنهم يرون أنه مع التسليم بأن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلهية قد اقتضت ترك ذلك لاجتهاد الإنسان على مر الزمن، إلا أنها تتميز بالدقة المتناهية في التعبير، والثبات في الدلالة، والشمول في المعنى بحيث يدرك فيها علماء كل جيل ما يتناسب ومستوياتهم الفكرية، وما وصلوا إليه من علوم عن الكون وما فيه، ثم إن تلك الدلالات تتميز كلها بالسبق إلى الحقيقة الكونية قبل أن تدرك الكشوف العلمية شيئاً منها بقرون طويلة.

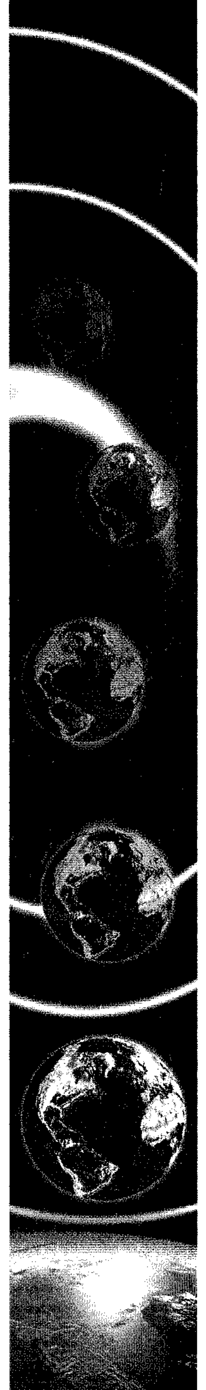
وهذا في حد ذاته يمثل الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي هو أحد أوجه الإعجاز العديدة في كتاب الله، ولكنه يبقى من أنسبها لعصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه في تثبيت إيمان المؤمنين، ودعوة الجاحدين من مختلف صور المشركين والكافرين والضالين، في زمن تحول فيه العالم إلى قرية كبيرة، ما يحدث في أحد أركانها يتردد صداه في بقية أرجائها، ولا يأمن أهل الحق أن يصيبهم ما أصاب الأمم الضالة من عقاب، أو أن يجرفهم تيار الحضارة المادية فيذيبهم في بوتقتها فيخسرون بذلك الدنيا والآخرة، وطوق النجاة في الحالتين يتمثل في الاعتزاز بالإسلام العظيم، والتمسك بالقرآن الكريم الذي بدأ إعجازه العلمي يتجلى يوماً بعد يوم في عصر العلم الذي نعيشه، ليقيم الحجة على أهل هذا العصر بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ؛ وأن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي،

ومعلماً من قِبَلِ خالق السمٰوات والأرض؛ وأنه ﷺ قد ختمت ببعثته النبوات، واكتملت الرسالات التي أنزلها الله ﷻ على فترة من الرسل، والتي بعث بها نفراً غفيراً من أنبياء الله، ولما كانت تلك هي الرسالة الخاتمة فقد تعهد ربنا ﷻ بحفظها فحفظت بنفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ: حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الموجود في بلايين النسخ من المصاحف، وآلات التسجيل الأخرى، وفي بلايين القلوب المؤمنة التي حفظته متواتراً عبر أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾. **(الحجر: 9).**

ولذلك بقي القرآن الكريم محتفظاً بصدقه الرباني، وإشراقاته النورانية في كل أمر من أموره، وهذا هو مناط إعجازه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ **(هود: 1).**



الباب الثالث

قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها

تعريف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

(الإعجاز) لفظة مشتقة من إثبات (العَجْز) وهو الضعف وعدم القدرة؛ يقال: (عَجَزَ) عن كذا أي لم يقدر عليه، فهو (عاجز) عن الإتيان به؛ وجمعه (عواجز)؛ يقال: (عَجَزَ) (عَجْزاً) و(عُجُوزاً)، و(عَجَزَاناً) و(مَعْجَزِاً) بفتح الجيم وكسرها، و(مَعْجَزَةً) أيضاً بفتح الجيم وكسرها؛ ولذا يقال رجل (عَجُزٌ) بضم الجيم وكسرها أي (عاجز)؛ وامرأة (عاجزة) و(عاجز)؛ كما يقال: (عجزه) الشيء أو الأمر بمعنى فاته ولم يقدر عليه، ويقال: (عَجَّزَهُ) و(أعجزه) و(استعجزه) أي صَيَّره (عاجزاً) نسبة إلى (العجز)، وتستعار لمعنى التثبيط بمعنى ثبطه. كما يقال: (عاجزه) (مُعَاجَزَةً) أي سابقه مسابقة؛ و(تَعَجَّزَ) أي ادعى (العجز)؛ و(الأعجز) هو العظيم العجز؛ ومؤنثه (العجزاء)؛ و(المِعْجَاز) هو الدائم العجز؛ و(المعجوز) الذي (أُعْجِزَ). ويقال: (عَجَزَ) (عُجُوزاً) أي صار (عجوزاً)، و(العجوز) وجمعه (عُجُزٌ) و(عجائز) المرأة المسنة. و(العَجِزُ) وجمعه (أعجاز) مؤخر الشيء أو الجسم (وتكتب بفتح العين وكسرها وضمها مع تسكين الجيم، أو بفتح العين وضم الجيم أو كسرها)؛ و(عَجُزُ) بيت الشعر هو الشطر الثاني منه؛ و(أعجاز) النخل هي أصولها.

ويقال: (أعجز) في الكلام أي أدى لمعانيه بأبلغ الأساليب.

و(الإعجاز) بمعنى السبق والفوت مصدر من (أعجز).

وعلى ذلك تعرف (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي لعجز البشر عن الإتيان بمثله.

«و(إعجاز) القرآن الكريم» معناه (عجز) الخلق أجمعين - إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين - عن أن يأتوا بشيء من مثله، ولذلك أنزل ربنا ﷻ في محكم كتابه هذا التحدي الأزلي الذي يقول فيه:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: 88).

ويقول ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (البقرة: 23، 24).

ويقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس: 37، 38).

ويقول ربنا ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود: 13).

ويؤكد الله ﷻ على كمال القرآن الكريم فيقول ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: 82).

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الواقعة: 77 - 80).

ويقول ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ (البروج: 21، 22).

ويقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ (البقرة: 2).

ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء: 105).

وإعجاز القرآن الكريم معناه عجز الخلق قاطبة عن الإتيان بشيء من مثله، فهو كتاب معجز في بيانه ونظمه، معجز في فصاحته وبلاغة أسلوبه؛ معجز في كمال رسالته ومضمونه، معجز في مجموع العقائد التي يدعو الناس إلى الالتزام بها، وفي مجموع العبادات التي يدعو الناس إلى ممارستها، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، وفي كل تشريع من تشريعاته المبهرة بدقتها، وعدلها، وشموليتها وتفاصيلها. . . !!

والقرآن الكريم معجز كذلك في استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها؛ معجز في أسلوبه التربوي، وخطابه النفسي، وفي إنبائه بالغيب، وفي إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره. وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز في كتاب الله هو المقصود بتعبير «الإعجاز العلمي للقرآن الكريم»، ويقصد به سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره، التي لم يتمكن العلم المكتسب من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم تزيد عن عشرة القرون الكاملة في أقل تقدير لها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه الحقائق العلمية مصدراً غير الله الخالق ﷻ؛ وفي إثبات ذلك تأكيد أن القرآن الكريم هو كلام هذا الإله الخالق، وتصديق للنبي والرسول الخاتم ﷺ في نبوته ورسالته وفي التبليغ عن ربه.

والإعجاز العلمي للقرآن الكريم أسلوب في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية وتطور الوسائل التقنية الذي نعيشه، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الأنعام: 44).

وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ (سبأ: 5، 6).

وقوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: 53).

وقوله ﷻ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء: 166).

وقوله ـ تبارك اسمه ـ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: 19).

وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنعام: 66، 67).

وقوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ (هود: 13، 14).

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ (الفرقان: 6).

وقوله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النمل: 93).

وقوله ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ (صٓ: 87، 88).

وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ (الشورى: 29).

الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

من الاستعراض السابق يتضح لنا بجلاء أن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه هو من مواقف التحدي للناس كافة ـ مسلمين وغير مسلمين ـ بأن كتاباً أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين ـ وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يحوي من حقائق الكون وسننه ما لم يتوصل إليه الإنسان إلا بعد مجاهدات طويلة قام بها عشرات الآلاف من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل، وتركز في القرون القليلة المتأخرة بصفة خاصة. والمتحدي لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة، وعلى ذلك فلا يجوز توظيف شيء في هذا المجال غير الحقائق القطعية الثابتة حتى يبلغ التحدي مداه في مجال إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

وهذا الالتزام واجب حتمي في التعرض للآيات الكونية في كتاب الله باستثناء آيات الخلق بأبعادها الثلاث: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان.

وذلك بسبب أن عملية الخلق لا تخضع للإدراك المباشر من المخلوقين وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ **(الكهف: 51).**

ولكن القرآن الكريم الذي جاء بهذه الآية الكريمة يأمرنا ربنا ﷻ فيه بضرورة التأمل في قضية الخلق ـ وهي قضية غير مشاهدة من قبل الإنسان ـ وذلك في عدد غير قليل من الآيات القرآنية الكريمة التي منها قوله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ **(العنكبوت: 19، 20).**

وقوله ﷻ:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ **(آل عمران: 190، 191).**

والجمع بين هذه الآيات الكريمة ـ وأمثالها كثير في كتاب الله ـ يؤكد على أن خلق كل من السمٰوات والأرض، وخلق الحياة، وخلق الإنسان قد تم في غيبة كاملة من الإنسان، ولكن الله من رحمته قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان ـ بإمكاناته المحدودة ـ على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق، إلا أن هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى مقام الحقيقة أبداً؛ لأن الحقيقة العلمية لا بد وأن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه ـ على الرغم من محدودية ذلك ـ ومن هنا فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق ـ بأبعادها الثلاث ـ مرحلة التنظير أبداً؛ ولذلك تتعدد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها: هل هم من المؤمنين الموحدين، أم من الكفار، أم المشركين، أم المتشككين؟ وهل هم من السعداء في حياتهم أم من التعساء والأشقياء والمهمومين؟ وهل هم من الأسوياء أم من المنحرفين؟... وفي هذا الخضم يبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد أثبتت ذلك، ولكن لمجرد وجود

إشارة إلى تلك الحقيقة في كتاب الله الخالق أو في سنة رسوله ﷺ، ونحن في هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم أو بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، ولم ننتصر بالعلم لأي منهما.

أما باقي الآيات الكريمة التي تعرض لها القرآن الكريم فلا يجوز أن يوظف في الاستشهاد على سبقها العلمي إلا بالحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها وبالضوابط المنهجية التالية:

1 ـ حسن فهم النص في القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة، وأساليب التعبير فيها؛ وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربي مبين.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ ـ إن وجدا ـ، وفهم الفرق بين العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصل من آيات هذا الكتاب الحكيم.

3 ـ فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين، وتابعيهم إلى الزمن الحاضر.

4 ـ جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة إن وجدت.

5 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، ورد بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك، وذلك لحسن فهم النص القرآني الكريم.

6 ـ مراعاة السياق القرآني للآية أو الآيات المتعلقة بإحدى القضايا الكونية، دون اجتزاء للنص القرآني عما قبله وعما بعده.

7 ـ مراعاة قاعدة أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

8 ـ عدم التكلف، أو محاولة لَيِّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ وذلك لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم عندنا من ذلك لأنه كلام الله الخالق، وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق، الكامل، الشامل، المحيط بكل شيء والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

9 ـ عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة: كالذات الإلٰهية والروح، والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث، والحساب،

والميزان، والصراط، والجنة والنار وغيرها من قضايا الغيب المطلق التي جاءت في كتاب الله تعالى أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وضرورة التسليم بالنصوص الواردة فيها تسليماً إيمانياً كاملاً انطلاقاً من الإيمان بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ، وبعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيوب المطلقة.

10 ـ التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا، وأنها لا تحتاج لهذه السنن الدنيوية الرتيبة، فهي كما وصفها ربنا ﷻ أمر فجائي منه ﷻ بـ «كن فيكون» أي بين الكاف والنون، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ **(الأعراف: 187).**

وعلى الرغم من ذلك فإن الله ﷻ ـ من رحمته بنا ـ قد أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء أعداداً كثيرة من الشواهد الحسية التي تقطع بفناء الكون، وبحتمية الآخرة، وإن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن يفسر بمحاولة التعرف على موعد الآخرة لأنها غيب من الغيوب المطلقة التي لا يعلمها إلا الله؛ ولأنها لن تتم بالسنن الكونية المشاهدة في هذه الحياة.

11 ـ توظيف الحقائق العلمية القاطعة ـ التي لا رجعة فيها ـ في الاستشهاد على الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية في الموضوع الواحد أو في عدد من الموضوعات المتكاملة، وذلك في جميع الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث، التي يمكن فيها توظيف الآية القرآنية الكريمة للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة.

12 ـ مراعاة التخصص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية الكريمة؛ لأن هذا مجال تخصصي على أعلى مستويات التخصص، ولا يجوز أن يخوض فيه كل خائض، كما لا يمكن لفرد واحد أن يغطي كل جوانب الإعجاز العلمي تحقيقاً في أكثر من ألف آية قرآنية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتتخطى هذه الآيات مساحة هائلة من العلوم المكتسبة من علم الأجنة إلى علم الفلك، وما بينهما من مختلف مجالات العلوم والمعارف الإنسانية.

13 ـ يجب التفريق بين دور كل من الناقل والمحقق في قضيتي الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن الكريم، حيث أنه من أبسط ضوابط الأمانة ما يوجب على الناقل

الإشارة إلى من نقل عنه حتى يأخذ كل ذي حق حقه، وحتى يكون النقل مدعماً بالسند المقبول. وتجاهل هذا الخلق الإسلامي، وهذه القاعدة الأصولية فيه من الإجحاف بحقوق الآخرين ما لا يتناسب مع موقف المدافع عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فضلاً عن إضعافه للقضية ككل.

14 ـ الأخذ في الاعتبار إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة للوصول إلى حقيقة كونية لم يتوصل العلم المكتسب إلى شيء منها بعد، انطلاقاً من الإيمان الكامل بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وأنه كله حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

15 ـ عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة تلك الآيات الكونية في حدود المعلومات المتاحة في زمانهم؛ وذلك لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها. وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

16 ـ التفريق بين قضيتي الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن الكريم، فالإعجاز العلمي يقصد به هنا «**إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون**».

أمَّا التفسير فهو «**محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيها المفسر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد**»، والمُعَوَّل عليه في ذلك هو نيته؛ وهنا يجب التأكيد على أن الخطأ في التفسير ينسحب على المفسر، ولا يمس جلال القرآن الكريم.

17 ـ يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك، والتجرد له من كل غاية، وتذكر قول المصطفى ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

من مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

لهذه القضية الملحة عديد من المبررات التي منها ما يلي:

أولاً: إن القرآن الكريم أنزل إلينا لنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهماً

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2950).

صحيحاً في إطار اللغة وحده؛ وذلك لشمول الدلالة القرآنية، ولكلية المعرفة التي لا تتجزأ.

ثانياً: إن الدعوة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة هو الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية ـ الذي فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ونبذوا الدين وراء ظهورهم ونسوه، وأنكروا الخلق والخالق، كما أنكروا البعث والحساب والجنة والنار، وغير ذلك من الغيبيات؛ لأن هذه الأصول قد شوهت في معتقداتهم تشويهاً كبيراً، ولم تعد مقنعة لهم؛ وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين قدر الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

ثالثاً: الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع، ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه، تحاول الحضارة المادية الغالبة ـ بما فيها من كفر بواح، أو شرك صراح ـ أن تمدّ هيمنتها بقيمها الهابطة، وأخلاقياتها الساقطة، وماديتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظف في ذلك كل ما توافر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها.

وقد أسقط الأعداء من أيدي المسلمين في هذه الأيام كل الوسائل المادية التي تمكنهم من الدفاع عن دمائهم، وأعراضهم، ومقدساتهم، وأراضيهم. وقد تم ذلك عبر سلاسل من المؤامرات الطويلة، التي بدأت باحتلال غالبية الدول المسلمة والعمل على تغريبها، ثم السعي الدؤوب من أجل إسقاط دولة الخلافة الإسلامية بعد إنهاكها وإضعافها حتى تم إسقاطها في سنة 1924 م، ثم العمل على تمزيق الأمة إلى أكثر من خمسة وخمسين دولة ودويلة، ونهب كل خيراتها وثرواتها، وتنصيب أنماط من الحكم المتعارضة عليها للحيلولة دون إمكانية توحدها، في زمن التكتلات البشرية الكبيرة الذي نعيشه، ثم غرس كيان صهيوني غريب في قلب الأمة لإفسادها، وإثارة الحروب والقلاقل والفتن بين أبنائها، ولترسيخ العداوات بين الأشقاء للحيلولة دون توحدهم، وإشاعة الأفكار الهدامة، والسلوكيات المنحطة، والأخلاقيات المنهارة لترسيخ تفتت الأمة؛ والعمل على المزيد من تغريبها لتيسير الهيمنة عليها. ولم يبق بأيدي أمة الإسلام في زمن الغربة الذي نعيشه إلا دينها، هذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه، وهو وسيلة الدفاع الوحيدة التي بقيت بين أيدي مسلمي اليوم، وأوضح وسائله لإقامة الحجة على العباد في زمن العلم الذي نعيشه هو الإعجاز العلمي في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ.

رابعاً: إن كلًّا من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس في كافة وسائل الإعلام بغير حق، وهم في هجومهم هذا ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن، ونبوة

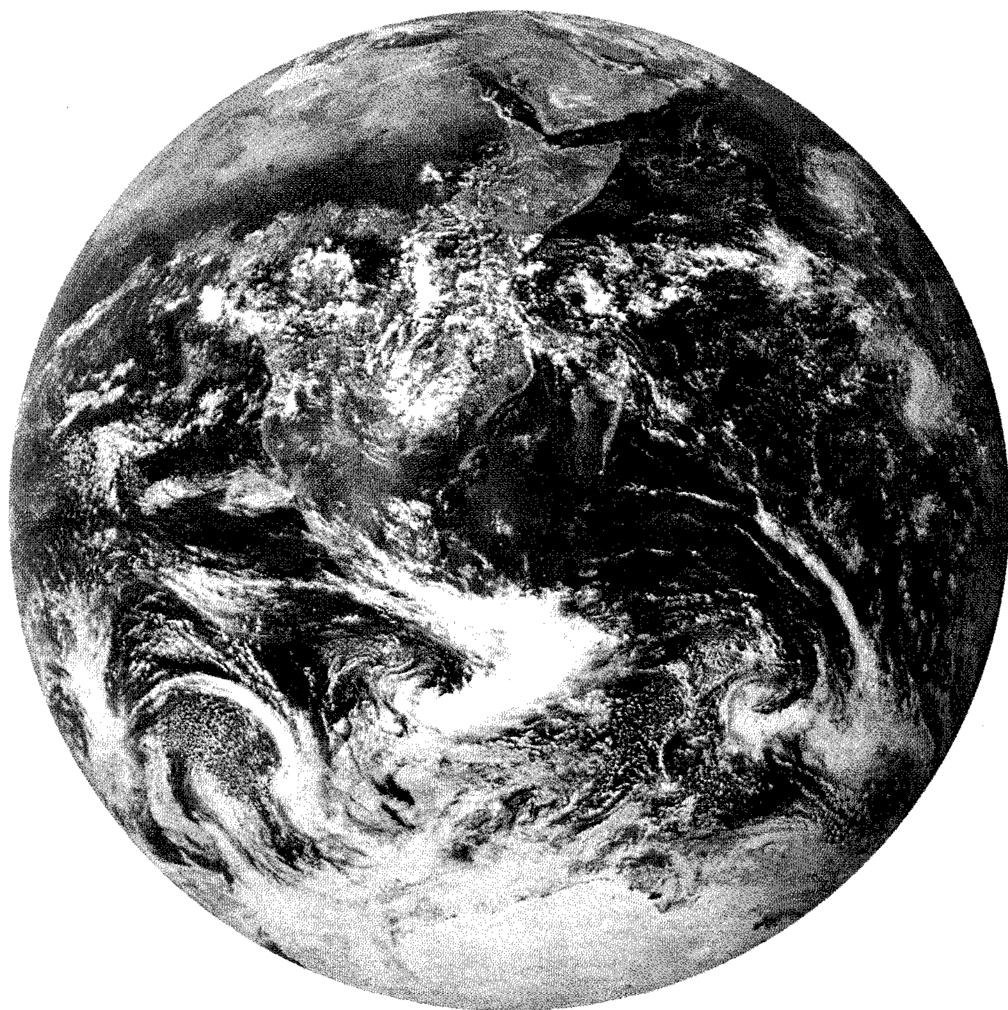
خاتم المرسلين ﷺ، في وقاحة سافرة، وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمي لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة البالغة، والمنطق السوي.

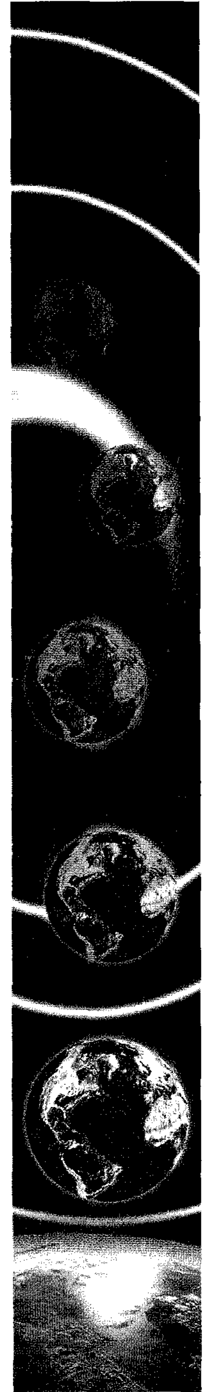
خامساً: إن العالم اليوم يتحرك في اتجاه كارثة كبرى، وقودها تطور علمي وتقني مذهل، يطغي أصحابه ويغريهم بإفناء وإبادة غيرهم، في غيبة الوعي الديني الصحيح، والالتزام الأخلاقي والسلوكي الذي يرعى حقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها، والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ من إعجاز علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

سادساً: إننا معشر المسلمين قصرنا كثيراً في التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ، وقد كُلِّفنا بالتبليغ عنهما، ونحن نجني ثمار ذلك التقصير اليوم: حروباً طاحنة على كل أرض إسلامية من فلسطين والعراق إلى البلقان، ومنها إلى أرض الشيشان، وكشمير، وأفغانستان، وأراكان، وجنوب الفلبين، والسودان والصومال وغيرها؛ ونجني حصاراً لأكثر من دولة مسلمة، ومصادرة لبلايين الدولارات من أموال المسلمين، واحتلالاً عسكرياً لكل من أرض فلسطين ودول الخليج العربي، والعراق، وأفغانستان، وسبته ومليلية وجزيرة ليلى، من الأراضي المغربية، وللعديد من الجزر الآسيوية، وجزر بحر إيجه التركية، وتجني تضييقاً على الملايين من الأقليات الإسلامية، ومطاردة للمسلمين في كل مكان من أماكن العالم وإحكام التآمر عليهم، ومحاولة إذلالهم، وتكفي في ذلك الإشارة إلى الجرائم والفظائع الأنجلو/أمريكية في سجون كل من العراق وأفغانستان، وفي جوانتانامو، والسجون الطائرة وسجون الجزر النائية مثل جزيرة دييجوجارسيا المحتلة في المحيط الهندي. وجرائم هذه الجيوش المحتلة يندى منها جبين كل حر، ويغضي من وحشيتها كل إنسان. وقد أثبت ما عرف من هذه الجرائم أن ما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة هي انتكاسة بالإنسانية إلى أحط مستوياتها، وانتكاسة جردتها من كل دين، وأخلاق، وقيم، في الوقت الذي تدعي بأنها حامية الحريات والديموقراطيات وحقوق الإنسان وهي في الحقيقة أبشع خطر على إنسان هذا العصر لأنها ـ مع وحشيتها البالغة ـ قد تزودت بكل وسائل الغلبة المادية من الأسلحة التقليدية وغير التقليدية بعد أن جردت العالمين العربي والإسلامي والمحايد منها جميعاً.

سابعاً: إن في إثارة قضية الإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاضاً لعقول المسلمين، واستثارة للتفكير الإبداعي فيها،

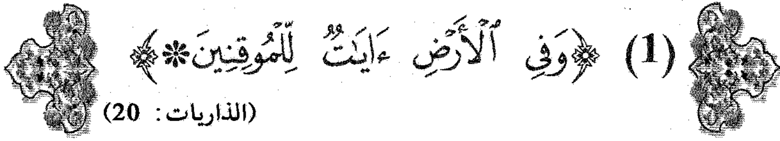
وتشجيعاً على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلفت فيها الأمة مؤخراً تخلفاً كبيراً، في الوقت الذي تقدمت فيها دول الكفر والشرك والضلال تقدماً مذهلاً، حتى أصبح كم المعارف المتاحة يتضاعف كل خمس سنوات تقريباً، وتقنياتها تتجدد مرة كل ثلاث سنوات تقريباً، وبذلك أخذت الهوة الفاصلة بيننا وبينهم في مجال العلوم والتقنية تزداد اتساعاً وعمقاً يوماً بعد يوم، وأصبحت مخاطر ذلك علينا تتضاعف مع تزايد تلك الهوة عمقاً واتساعاً.





الباب الرابع

من آيات الأرض في القرآن الكريم



(1) ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ (الذاريات: 20)

هذه الآية الكريمة جاءت في ختام الثلث الأول من «سورة الذاريات»، وهي سورة مكية، وآياتها ستون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم من الله تعالى بأحد جنده في الأرض وهي «الرياح» وسماها «الذاريات» لأنها تذرو تراب الأرض ذرواً فتقوم بدور هام من الأدوار اللازمة لجعل الأرض صالحة للعمران.

وبعد هذا الاستهلال بقسم من الله ـ تعالى ـ بالذاريات ذرواً وهو سبحانه الغني عن القسم ـ جاء القسم بعدد من آياته الكونية الأخرى على أن وعده لعباده وعد صادق، وأن الدين عنده حق واقع لا شك فيه وهو الإسلام الذي أنزله على فترة من الرسل، والذي أتمه وأكمله وحفظه في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، والذي لا يرتضي ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده ديناً سواه.

ثم عاود ربنا ﷻ القسم مرة أُخرى بالسماء ذات الحبك، على أن الناس مختلفون في يوم الدين بين مكذب ومصدق، وأن المكذبين الذين شغلتهم الحياة الدنيا عن التفكير في مصيرهم بعد الموت يصرفون عن حقيقة هذا اليوم الرهيب.

وتعرض الآيات لمصير كل من المكذبين والمصدقين بالآخرة، كما تعرض لعدد من صفات كل من الفريقين. وتعاود السورة الكريمة في سياقها الاستدلال بعدد من الآيات الكونية الأُخرى في الأرض وفي الأنفس وفي الآفاق، على أن وحي الله ـ تعالى ـ إلى عباده تكامل، وتم، وحفظ في القرآن الكريم الذي هو الصورة الوحيدة من وحي السماء المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس اللغة التي أوحي بها ـ اللغة العربية ـ محفوظاً بحفظ الله كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى قيام الساعة. في زمن ضاعت فيه كل صور الوحي السابقة، وما بقي من ذكريات نقلت شفاهاً عن بعضها قد تعرض للتحريف تلو التحريف، وللتزوير والتبديل والتغيير مما أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها، ومن هنا يبقى القرآن الكريم هو الحق المطلق الذي يجب على الناس تصديقه كما يصدقون ما ينطقون هم أنفسهم به. ومن هذه الآيات الكونية التي استشهد بها الحق ﷻ على صدق وحيه في آخر رسالاته وكتبه قوله وهو أصدق القائلين:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ **(الذاريات: 20)**

فما هي آيات الله في الأرض الدالة على طلاقة قدرته، وعظيم حكمته، وإحاطة سلطانه وعلمه؟ ما هذه الآيات التي استشهد بها ﷻ ـ وهو الغني عن كل شهادة ـ على صدق وحيه الذي أنزله على خاتم أنبيائه ورسله؟ هذا الوحي الذي تعهد ـ سبحانه ـ بحفظه فحُفِظ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد بنفس اللغة التي أوحي بها ـ اللغة العربية ـ، وحفظ حفظاً كاملاً: سورة سورة، وآية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، دون أدنى زيادة أو نقصان، وهذا وحده من أعظم الشهادات على صدق القرآن الكريم وإعجازه، وعلى أنه كلام الله الخالق، وعلى صدق الصادق الأمين الذي تلقاه عن ربه، وعلى صدق نبوته وعلى ربانية ورسالته ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة:

(الأرض) في اللغة العربية اسم جنس للكوكب الذي نحيا عليه، تمييزاً له عن بقية الكون الذي يجمع تحت اسم السماء أو السمٰوات. ولفظة (الأرض) مؤنثة، والأصل أن يقال لها: (أرضة) والجمع: (أرضات) و (أرضون) بفتح الراء أو بتسكينها، وقد تجمع على (أروض) و (آراض)، ولفظة (الأراضي) تستخدم على غير قياس.

ويعبر (بالأرض) عن أسفل الشيء، كما يعبر بالسماء عن أعلاه، فكل ما سفل فهو (أرض)، وكل ما علا فهو سماء، ويقال: (أرض أريضة) أي: حسنة النبت، زكية بينة

الزكاء أو (الأراضة)، كما يقال: (تأرض) النبت بمعنى: تمكن على الأرض فكثر، و (تأرض) الحيوان إذا تناول نبت (الأرض)، ويقال أيضاً: (الأرض النَّفِضَةُ) و (الأرض الرَّعِدَةُ) أي: التي تنتفض وترتعد أثناء حدوث الهزات الأرضية والثورانات البركانية.

و (الأَرَضَةُ) بفتحتين دودة (دويبة) تأكل الخشب، يقال: (أرضت) الأخشاب (تؤرض) (أرضاً) فهي (مأروضة) إذا أكلتها (الأرضة)، ولم تسم العرب فاعلاً لهذا الفعل.

الأرض في القرآن الكريم:

جاء ذكر الأرض في أربعمائة وواحد وستين (461) موضعاً من كتاب الله، منها ما يشير إلى الأرض ككل في مقابلة السماء، ومنها ما يشير إلى اليابسة التي نحيا عليها، أو إلى جزء منها. ومنها ما يشير إلى التربة التي تغطي صخور الغلاف الصخري للأرض. واليابسة هي جزء من الغلاف الصخري للأرض وهي كتل القارات السبع المعروفة والجزر المحيطية العديدة.

وفي هذه الآيات إشارات إلى العديد من الحقائق العلمية عن الأرض والتي يمكن سردها بإيجاز في النقاط التالية:

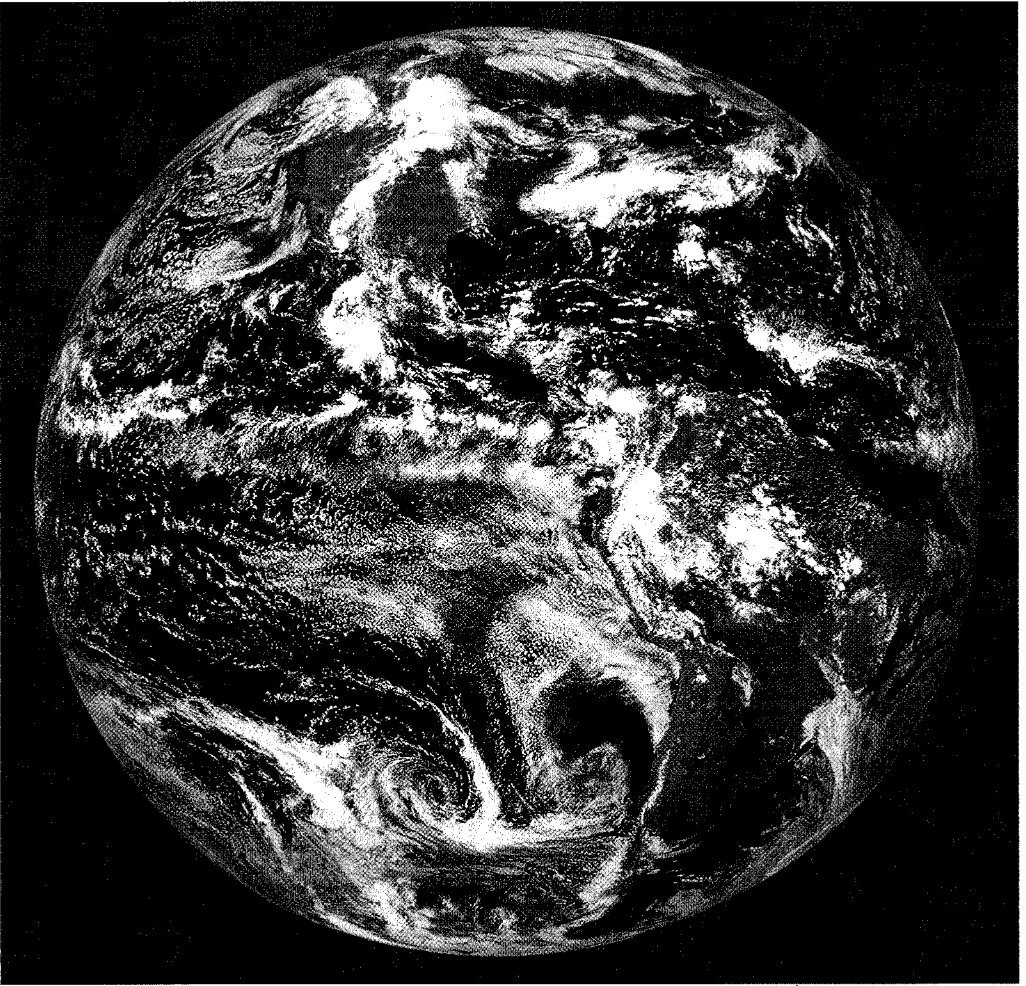
(1) ـ آيات تأمر الإنسان بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق، وهي أساس المنهجية العلمية في دراسة علوم الأرض.

(2) ـ آيات تشير إلى شكل وحركات وأصل الأرض: منها ما يصف كروية الأرض، ومنها ما يشير إلى دورانها، ومنها ما يؤكد على عظم مواقع النجوم منها، أو على حقيقة اتساع الكون من حولها، أو على بدء الكون بجرم واحد (مرحلة الرتق)، ثم انفجار ذلك الجرم الأوَّلي (مرحلة الفتق)، أو على بدء خلق كل من الأرض والسماء من دخان، أو على انتشار المادة بين السماء والأرض (المادة بين الكواكب وبين النجوم وبين المجرات)، أو على تطابق كل من السمٰوات والأرض (أي: تطابق الكون حول مركز واحد).

(3) ـ آية قرآنية واحدة تؤكد **أن كل الحديد في كوكبنا الأرض قد أنزل إليها من السماء إنزالاً حقيقياً،** وهو ما أثبتته الدراسات العلمية في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(4) ـ آية قرآنية واحدة تؤكد حقيقة **أن الأرض ذات صدع،** وهي من الصفات الأساسية لكوكبنا، وقد أثبتت له في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

(5) ـ آيات قرآنية تتحدث **عن عدد من الظواهر البحرية** المهمة من مثل ظلمات قيعان البحار العميقة والمحيطات، ودور كلٍّ من السحب والأمواج الداخلية والسطحية في تكوين



صورة للكرة الأرضية وتبدو القارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية

تلك الظلمة التامة، وتسجير بعض هذه القيعان بحرارة عالية على الرغم من امتلائها بالماء، وتمايز المياه فيها إلى كتل متجاورة لا تختلط اختلاطاً كاملاً؛ نظراً لوجود حواجز أفقية ورأسية غير مرئية تفصل بينها، ويتأكد هذا الفصل بين الكتل المائية بصورة أوضح في حالة التقاء كلٍّ من المياه العذبة والمالحة عند مصاب الأنهار، مع وجوده بين مياه البحر الواحد، أو بين مياه البحار المتصلة ببعضها البعض، كالتقاء مياه البحار شبه المغلقة من مثل كلٍّ من البحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط بمياه المحيطات المجاورة (كل من المحيط الهندي، والمحيط الأطلسي على التوالي).

(6) ـ آيات قرآنية **تتحدث عن الجبال،** منها ما يصفها بأنها أوتاد، وبذلك يصف كلًّا من الشكل الخارجي؛ الذي على ضخامته يمثل الجزء الأصغر من الجبل، والامتداد الداخلي: الذي يشكل غالبية جسم الجبل. كما يصف وظيفته الأساسية في تثبيت الغلاف الصخري للأرض، وفي اتزان دورانها حول محورها. وتتأكد هذه الوظيفة في اثنتين وعشرين آية قرآنية أخرى، وردت بها كذلك إشارات إلى عدد من الوظائف والصفات الإضافية للجبال من مثل انتصابها فوق سطح الأرض، ودورانها معها أو تكوينها من صخور متباينة في الألوان والأشكال والهيئات، أو دورها في إنزال المطر، وتغذية الأنهار، وشق الأودية والفجاج، أو في جريان السيول، وغير ذلك من العمليات الأرضية.

(7) ـ آيات قرآنية تشير إلى **نشأة كلٍّ من الغلافين المائي والهوائي للأرض،** وذلك بإخراج مكوناتهما من باطن الأرض، أو تصف الطبيعة الرجعية لغلافها الغازي، أو تؤكد حقيقة ظلام الكون، أو تناقص الضغط الجوي مع الارتفاع عن سطح الأرض، أو انتظام تبادل الليل والنهار، ورقة طبقة النهار حول نصف الأرض المواجه للشمس، أو تشير إلى أن ليل الأرض كان في بدء خلقها مضاءً كنهارها، ثم مَحَا الله ﷻ ضوء الليل.

(8) ـ آيات تشير إلى **رقة الغلاف الصخري للأرض،** وإلى تسوية سطحه وتمهيده وشق الفجاج والسبل فيه، وإلى تناقص الأرض من أطرافها.

(9) ـ آيات تؤكد **إسكان ماء المطر في كلٍّ من صخور الأرض وتربتها،** مما يشير إلى دورة الماء حول الأرض وفي داخل غلافها الصخري، أو تؤكد علاقة الحياة بالماء، أو تلمح إلى إمكانية تصنيف الكائنات الحية التي تحيا على كوكب الأرض.

(10) ـ آيات تؤكد **أن عملية الخلق قد تمت على مراحل متعاقبة عبر فترات زمنية طويلة.**

(11) ـ آيات قرآنية **تصف نهاية كل من الأرض والسمٰوات وما فيهما من كائنات؛** أي: الكون كله بعملية معاكسة لعملية الخلق الأول، كما تصف إعادة خلقهما من جديد، أرضاً غير الأرض الحالية وسمٰوات غير السمٰوات القائمة.

هذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة للإنسان قبل القرن العشرين، بل إن الكثير منها لم يتوصل الإنسان إلى معرفته إلا في العقود القليلة الماضية من نهايات ذلك القرن عبر جهود مضنية، وتحليل دقيق لكمٍّ هائل من الملاحظات والتجارب العلمية في مختلف جنبات الأرض، وفي الجزء المدرك من الكون، وجاء السبق القرآني بالإشارة إلى مثل هذه الحقائق بأسلوب يبلغ منتهى الدقة العلمية واللغوية في التعبير، والإحاطة والشمول في الدلالة؛ ليؤكد

جانباً مهماً من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهو جانب الإعجاز العلمي.

ومع تسليمنا بأن القرآن الكريم معجز في كل أمر من أموره، إلا أن الإعجاز العلمي يبقى من أنجح أساليب الدعوة إلى الله في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه.

ومن هنا تتضح أهمية القرآن الكريم في هداية البشرية، خاصة في زمن كالذي نعيشه اليوم، والذي فتح الله ـ تعالى ـ فيه على الإنسان من أبواب العلم بالكون ومكوناته ما لم يفتح به من قبل، وفتن الإنسان فيه بالعلوم الكونية وتطبيقاتها، ونسي الهدف الرئيسي من وجوده في هذه الحياة: عبداً لله مستخلفاً في الأرض لعبادة خالقه بما أمر، ولعمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها استعداداً للقاء الله. وفي نسيان أغلب الناس لرسالة الإنسان في هذه الحياة، أصبحت البشرية أحوج ما تكون إلى الهداية الربانية. كما تتضح أهمية دراسات الإعجاز العلمي في كتاب الله مهما تعددت تلك المجالات العلمية، وذلك لأن ثبات صدق الإشارات القرآنية في القضايا الكونية من مثل إشاراته إلى عدد من حقائق الأرض، (وهي من الأمور المادية الملموسة التي يمكن للعلماء التجريبيين قياسها وإثباتها)، لأدعى إلى التسليم بحقائق القرآن الأُخرى، خاصة ما يرد منها في مجال القضايا الغيبية والسلوكية: من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، والتي تمثل ركائز الدين، ولا سبيل للإنسان في الوصول إلى قواعد سليمة لها، وإلى ضوابط صحيحة فيها، إلا عن طريق بيان رباني خالص لا يداخله أدنى قدر من التصور البشري، والقرآن الكريم هو النص الوحيد الذي يمثل ذلك منذ أربعة عشر قرناً مضت وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

من آيات الله في خلق الأرض وجعلها صالحة للعمران:

الأرض هي أحد أفراد المجموعة الشمسية التي تتكون من تسعة كواكب أساسية، يدور كل منها حول نفسه، ويجري في مدار محدد له حول الشمس، وهناك مدار للكويكبات بين كل من كوكبي المريخ والمشتري يعتقد أنها بقايا لكوكب عاشر قد انفجر، وهناك احتمال بوجود كوكب حادي عشر تم التوقع بوجوده بواسطة الحسابات الفلكية. وكواكب المجموعة الشمسية المعروفة لنا هي من الداخل إلى الخارج على النحو التالي: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، الكويكبات، المشتري، زحل، يورانوس، نبتيون، بلوتو، بروسوبينا (أوبريينا). وهناك بعد ذلك نطق المذنبات التي تدور حول الشمس في مدارات مغلقة أو مفتوحة على مسافات بعيدة جداً، وتعتبر المذنبات جزءاً من المجموعة الشمسية.

ويقدر متوسط المسافة بين الشمس وأقرب كواكبها (عطارد) بحوالي58 مليون كيلومتر

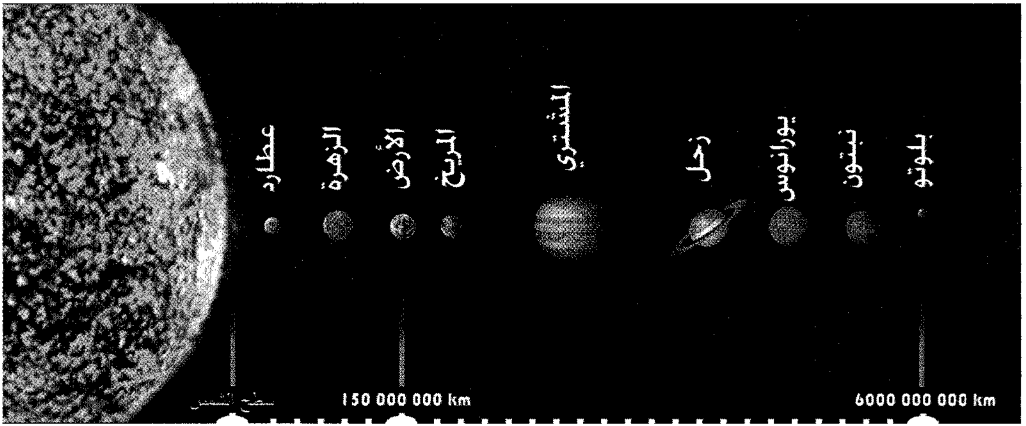
(بين 46 مليون، 69 مليون كيلومتر)، ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بحوالي150 مليون كيلومتر، ويبعد (بلوتو) عن الشمس بمسافة تقدر في المتوسط بحوالي6000 مليون كيلومتر، ويقدر متوسط بعد الكوكب المقترح (بروسوبينا) بحوالي ضعف هذه المسافة ـ أي: 12 بليون كيلومتر ـ، ويبعد نطاق (المذنبات) عن الشمس عشرات أضعاف المسافة الأخيرة.

وعلى ذلك فالأرض هي ثالثة الكواكب بعداً عن الشمس، وهي تجري حول الشمس في فلك بيضاني (إهليلجي) قليل الاستطالة بسرعة تقدر بحوالي30 كيلومتراً في الثانية (29.6 كيلومتراً في الثانية) لتتم دورتها هذه في سنة شمسية مقدارها = 365.25 يوماً تقريباً، وتدور حول نفسها بسرعة مقدارها حوالي30 كيلومتراً في الدقيقة (27.8 كيلومتراً في الدقيقة) عند خط الاستواء، فتتم دورتها هذه في يوم مقداره ـ 24 ساعة ـ تقريباً، يتقاسمه ليل ونهار، بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول، التي تنتج بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها ست وستون درجة ونصف درجة تقريباً، ويعزى للسبب نفسه تتابع الدورات الزراعية، وهبوب الرياح، وهطول الأمطار، وفيضان الأنهار بإذن الله ـ تعالى ـ.

والأرض كوكب فريد في كل صفة من صفاته، مما أهَّله بجدارة أن يكون مهداً للحياة الأرضية بكل مواصفاتها. ولعل هذا التأهيل هو أحد مقاصد الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها الحق ﷻ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾، ولعل من أوضح هذه الآيات البينات التي أشارت إليها هذه الآية القرآنية الكريمة ما يلي:

أولاً: بُعد الأرض عن الشمس:

يقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بحوالي مائة وخمسين مليوناً من الكيلومترات، وقد استخدمت هذه المسافة كوحدة فلكية للقياس في فسحة الكون، ولما كانت كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب في مجموعتها تتناسب تناسباً عكسياً مع بعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها، بينما يتناسب طول سنة الكوكب تناسباً طردياً مع بعده عنها (وسنة الكوكب هي المدة التي يستغرقها في إتمام دورة كاملة حول الشمس)، اتضحت لنا الحكمة البالغة من تحديد بعد الأرض عن الشمس، فقد قدرت الطاقة التي تشعها الشمس من كل سنتيمتر مربع على سطحها بحوالي عشرة أحصنة ميكانيكية، ولا يصل الأرض سوى جزء واحد من بليوني جزء من هذه الطاقة الهائلة، وهو القدر المناسب لنوعية الحياة الأرضية، ولتنشيط القوى



رسم لمجموعة الكواكب الشمسيّة ويظهر فيها موقع الأرض وحجمها بالنسبة للكواكب الأُخرى

الخارجية التي تعمل على تسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتحريك دورة الماء حول الأرض، وغير ذلك من الأنشطة الأرضية. ولطاقة الشمس الإشعاعية صور عديدة أهمها: الضوء الأبيض، والحرارة ـ الأشعة تحت الحمراء ـ، والأشعة السينية، والأشعة فوق البنفسجية، ونسب هذه المكونات للطاقة الشمسية ثابتة فيما بينها، وإن اختلفت كمية الإشعاع الساقط على أجزاء الأرض المختلفة باختلاف كلٍّ من الزمان والمكان.

وحزمة الضوء الأبيض تتكون من الأطياف السبعة المعروفة لنا وهي: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي، وتقدر نسبتها في الأشعة الشمسية التي تصل إلى الأرض بحوالي 38%، ولها أهمية بالغة في حياة كلٍّ من النبات والحيوان والإنسان، وتبلغ أقصى مدى لها عند منتصف النهار بصفة عامة، وعند منتصف نهار الصيف بصفة خاصة؛ لأن قوة إنارة أشعة الشمس لسطح الأرض تبلغ في الصيف ضعفي ما تبلغه في الشتاء.

أما الأشعة تحت الحمراء فتقدر نسبتها في أشعة الشمس التي تصل إلى الأرض بحوالي 53%، ولها دورها المهم في تدفئة الأرض وفي تدفئة ما عليها من صور الحياة، وفي تنشيط كافة العمليات الكيميائية التي تتم على سطح الأرض وفي غلافها الجوي، الذي يَرُدُّ عنَّا قدراً هائلاً من حرارة الشمس؛ فكثافة الإشعاع الشمسي والتي تقدر بحوالي2 سعر حراري على كل سنتيمتر مربع من جو الأرض في المتوسط، يتشتت جزء منها بواسطة جزيئات الهواء، وقطرات الماء، وهباءات الغبار السابحة في جو الأرض، ويمتص جزء آخر بواسطة كل من غاز الأوزون وبخار الماء، ومتوسط درجة الحرارة على سطح الأرض

يقدر بحوالي عشرين درجة مئوية، وإن تراوحت بين حوالي 74 درجة مئوية تحت الصفر في المناطق القطبية المتجمدة و55 درجة مئوية في الظل في أشد المناطق قيظاً.

أما الأشعة فوق البنفسجية فتقدر نسبتها بحوالي 9% من مجموع أشعة الشمس التي تصل إلى الأرض؛ وذلك لأن غالبيتها تمتص أو ترد بفعل كل من النطاق المتأيّن ونطاق الأوزون الذي جعلهما ربنا ﷻ من نطق الحماية للحياة على الأرض. ويقدر ما يصل إلى الأرض من طاقة الشمس بحوالي ثلاثة عشر مليونَ حصانٍ ميكانيكي على كل كيلومتر مربع من سطح الأرض في كل ثانية، وتقدر قيمته ببلايين الدولارات مما لا قبل للبشرية كلها بتحمله أو وفاء شكر الله عليه...!!!

ولو كانت الأرض أقرب قليلاً إلى الشمس، لكانت كمية الطاقة التي تصلها كافية لإحراق جميع صور الحياة على سطحها، ولتبخير مياهها، ولخلخلة غلافها الغازي.

فكوكب (عطارد) الذي

ألوان قوس قزح تظهر الأطياف السبعة التي تتألف منها حزمة الضوء الأبيض

يقع على مسافة تقدر بحوالي 0.39 من بعد الأرض عن الشمس تتراوح درجة حرارة سطحه بين220 درجة مئوية في وجهه المنير و27 درجة مئوية في وجهه المظلم، وكوكب (الزهرة) الذي يقع على مسافة تقدر بحوالي 0.72 من بعد الأرض عن الشمس تصل درجة الحرارة على سطحه المنير إلى 457 درجة مئوية (730 درجة مطلقة).

وعلى النقيض من ذلك، فإن الكواكب الخارجة عن الأرض (المريخ، المشتري، زحل، يورانوس، نبتيون، بلوتو) لا يصلها إلا نسب أقل من حرارة الشمس فتعيش في برودة لا تقوى الحياة الأرضية على تحملها.

ولذلك فإنه من الواضح أن بعد الأرض عن الشمس قد قدَّره ربنا ﷻ بدقة بالغة تسمح للأرض بتلقي قدر من طاقة الشمس يتناسب تماماً مع حاجات جميع الكائنات الحية على سطحها، وفي كلٍّ من مياهها، وهوائها بغير زيادة ولا نقصان، إلا في الحدود المواءمة لطبيعة الحياة الأرضية في مختلف فصول السنة.

فلو كانت الأرض على مسافة من الشمس تقدر بنصف بعدها الحالي؛ لزادت كمية الطاقة التي تتلقاها إلى أربعة أمثال كميتها الحالية؛ ولأدى ذلك إلى تبخير الماء وخلخلة الهواء واحتراق جميع صور الحياة على سطحها.

ولو كانت الأرض على ضعف بعدها الحالي من الشمس لنقصت كمية الطاقة التي تتلقاها إلى ربع كميتها الحالية، وبالتالي لتجمدت جميع صور الحياة واندثرت بالكامل.

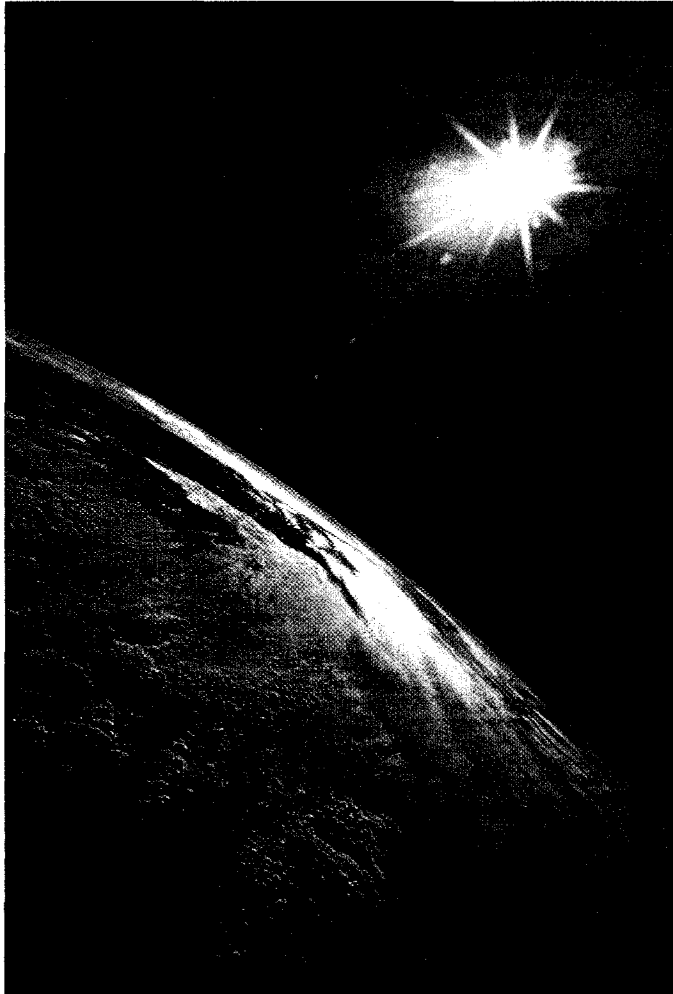
وباختلاف بعد الأرض عن الشمس قرباً أو بعداً يختلف طول السنة، وطول كل فصل من الفصول نقصاً أو زيادة، مما يؤدي إلى ميزان الحياة على سطحها، فسبحان من حدَّد للأرض بعدها عن الشمس وحفظها في مدارها المحدد، وحفظ الحياة على سطحها من كل سوء.

ثانياً: أبعاد الأرض:

يقدر حجم الأرض بحوالي مليون كيلومتر مكعب، ويقدر متوسط كثافتها بحوالي 5.52 جرام للسنتيمتر المكعب، وعلى ذلك فإن كتلتها تقدر بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن، ومن الواضح أن هذه الأبعاد قد حددها ربنا ﷻ بدقة وحكمة بالغتين، فلو كانت الأرض أصغر قليلاً لما كان في مقدورها الاحتفاظ بأغلفتها الغازية، والمائية، وبالتالي لاستحالت الحياة الأرضية، ولبلغت درجة الحرارة على سطحها مبلغاً يحول دون وجود أي شكل من أشكال الحياة الأرضية؛ وذلك لأن الغلاف الغازي للأرض به من نطق الحماية ما لا يمكن للحياة أن تتواجد في غيبتها، فهو يرد عنا جزءاً كبيراً من حرارة الشمس وأشعتها المهلكة، كما يرد عنا قدراً هائلاً من الأشعة الكونية القاتلة، وتحترق بالاحتكاك بمادته أجرام

الشهب وأغلب مادة (النيازك)، وهي تمطر الأرض بالعديد من الأطنان في كل يوم.

ولو كانت أبعاد الأرض أكبر قليلاً من أبعادها الحالية؛ لزادت قدرتها على جذب الأشياء زيادة ملحوظة مما يعوق الحركة، ويحول دون النمو الكامل لأي كائن حي على سطحها إن وجد؛ وذلك لأن الزيادة في جاذبية الأرض تمكنها من جذب المزيد من صور المادة والطاقة في غلافها الغازي، فيزداد ضغطه على سطح الأرض، كما تزداد كثافته فتعوق الحركة، كما تعوق العديد من العمليات الحيوية من مثل التنفس والنتح، وتمنع وصول القدر الكافي من أشعة الشمس إلى الأرض، كما قد تؤدي إلى احتفاظ الأرض بتلك الطاقة كما تحتفظ بها الصوب النباتية على مر الزمن فتزداد باستمرار وترتفع حرارتها ارتفاعاً يحول دون وجود أي صورة من صور الحياة الأرضية على سطحها.



طول الليل والنهار على الأرض مرتبط بثبات سرعة دوران الأرض حول محورها وحول الشمس

ويتعلق طول كلٍّ من نهار وليل الأرض وطول سنتها، بكلٍّ من بعد الأرض عن الشمس، وبأبعادها ككوكب يدور حول محوره، ويجري في مدار ثابت حول الشمس. فلو كانت سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس أعلى من سرعتها الحالية لقصر طول اليوم الأرضي - بنهاره وليله -

قصراً مخلاً، ولو كانت أبطأ من سرعتها الحالية لطال يوم الأرض طولاً مخلاً، وفي كلتا الحالتين يختل نظام الحياة الأرضية اختلالاً قد يؤدي إلى إفناء الحياة على سطح الأرض بالكامل، إن لم يكن قد أدى إلى إفناء الأرض ككوكب إفناءً تاماً؛ وذلك لأن قصر اليوم الأرضي أو استطالته ـ بنهاره وليله ـ يخل إخلالاً كبيراً بتوزيع طاقة الشمس على المساحة المحددة من الأرض، وبالتالي يخل بجميع العمليات الحياتية من مثل: النوم واليقظة، والتنفس والنتح، وغيرها، كما يخل بجميع الأنشطة المناخية من مثل: معدلات الدفء والبرودة، والجفاف والرطوبة، وحركة كل من الرياح والأعاصير والأمواج، ومعدلات تسارع أو تباطؤ عمليات التعرية المختلفة، ودورة الماء حول الأرض وغيرها من أنشطة.

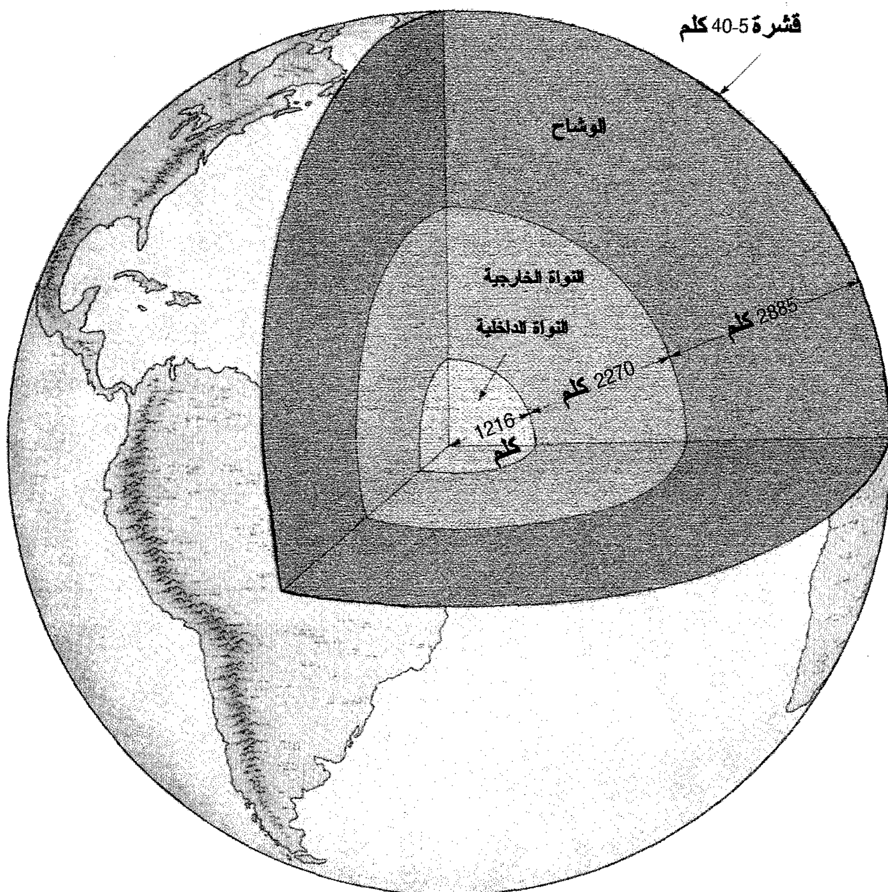
كذلك لو لم تكن الأرض مائلة بمحورها على مستوى مدار الشمس ما تبادلت الفصول، وإذا لم تتبادل الفصول اختل نظام الحياة على الأرض.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن تحديد مدار الأرض حول الشمس بشكله البيضاني (الإهليلجي)، وتحديد وضع الأرض فيه قرباً وبعداً على مسافات منضبطة من الشمس، يلعب دوراً مهماً في ضبط كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلى كل جزء من أجزاء الأرض، وهو من أهم العوامل لجعلها صالحة لنمط الحياة المزدهرة على سطحها، وهذا كله ناتج عن الاتزان الدقيق بين كل من القوة الطاردة (النابذة) المركزية التي دفعت بالأرض إلى خارج نطاق الشمس، وشدة جاذبية الشمس لها، ولو اختل هذا الاتزان بأقل قدر ممكن، فإنه كان لا بد وأن يعرِّض الأرض إما للابتلاع بواسطة الشمس حيث درجة حرارة قلبها تزيد عن خمسة عشر مليوناً من الدرجات المطلقة، أو أن يعرضها للانفلات من عقال جاذبية الشمس لتضيع في فسحة الكون المترامية فتتجمد بمن عليها وما عليها، أو تحرق بواسطة الأشعة الكونية، أو تصطدم بجرم آخر، أو تبتلع بواسطة نجم من النجوم، والكون من حولنا مليء بالمخاطر التي لا يعلم مداها إلا الله تعالى، والتي لا يحفظنا منها إلا رحمته ﷻ. ويتمثل جانب من جوانب رحمة الله بنا في عدد من السنن المحددة التي تحكم الأرض، كما تحكم جميع أجرام السماء في حركة دقيقة دائبة لا تتوقف ولا تتخلف حتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

ثالثاً: بنية الأرض:

أثبتت دراسات الأرض أنها تنبني من عدة نطق محددة حول كرة مصمتة من الحديد والنيكل تعرف باسم: **لب الأرض الصلب (الداخلي)** ولهذا اللب الصلب كما لكل نطاق من نطق الأرض دوره في جعل هذا الكوكب صالحاً للعمران بالحياة الأرضية في جميع صورها.

وتقسم النطق الداخلية للأرض على أساس من تركيبها الكيميائي أو على أساس من



رسم توضيحي لبنية الأرض الداخلية

صفاتها الميكانيكية باختلافات بسيطة بين العلماء، وتترتب بنية الأرض من الداخل إلى الخارج على النحو التالي:

(1) لب الأرض الصلب (الداخلي) أو الأرض السابعة:

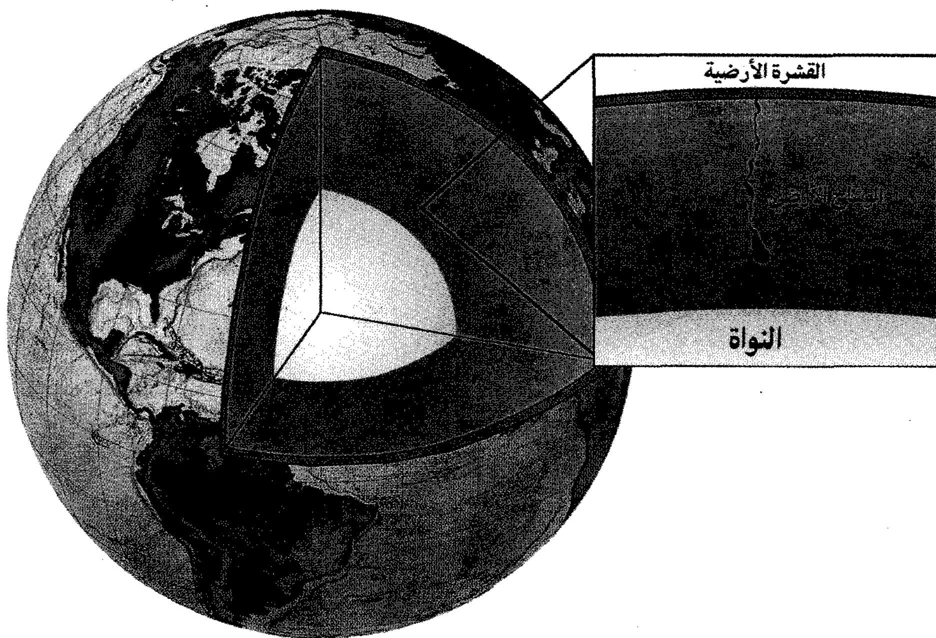
وهو عبارة عن نواة صلبة من الحديد (90%) وبعض النيكل (9%) مع قليل من العناصر الخفيفة من مثل: الفوسفور، الكربون، السيليكون (1%)،)وهو نفس تركيب النيازك الحديدية تقريباً). ويبلغ قطر هذه النواة حوالي2402 كيلومتر، ويمتد نصف قطرها من مركزها على عمق6371 كيلومتراً إلى عمق5170 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر.

ولما كانت كثافة الأرض في مجموعها تقدر بحوالي 5.52 جرام للسنتيمتر المكعب،

بينما تختلف كثافة قشرة الأرض بين 2.7 جرام للسنتيمتر المكعب لمادة القارات، وحوالي3 جرامات للسنتيمتر المكعب لمادة قيعان البحار والمحيطات، فإن الاستنتاج المنطقي يؤدي إلى أن كثافة لب الأرض لا بد وأن تتراوح بين 10 و13.5 جرام للسنتيمتر المكعب.

(2) نطاق لب الأرض السائل (الخارجي) أو الأرض السادسة:

وهو نطاق سائل يحيط باللب الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي تقريباً وإن كانت مادته منصهرة، ويبلغ سمكه 2285 كيلومتراً، من عمق 5170 كيلومتراً إلى عمق2885 كيلومتراً تحت سطح الأرض، ويفصل هذا النطاق عن اللب الصلب منطقة انتقالية يبلغ سمكها 450 كيلومتراً تمثل بدايات عملية الانصهار، وعلى ذلك فهي شبه منصهرة، وتمتد من عمق 5170 كيلومتراً إلى عمق4720 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر، ويُكَوِّن كل من لب الأرض الصلب ولبها السائل حوالي 31% من كتلتها.



(3)، (4)، (5) نطق وشاح الأرض أو الأرضين الخامسة إلى الثالثة:

يحيط وشاح الأرض بلبها السائل، ويبلغ سمكه حوالي2765 كيلومتراً من عمق2885 كيلومتراً إلى عمق120 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر، ويفصله إلى ثلاثة نطق مميزة مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل، يقع أحدهما على

عمق670 كيلومتراً، ويقع الآخر على عمق400 كيلومتراً من مستوى سطح البحر، وبذلك ينقسم وشاح الأرض إلى وشاح سفلي، يمتد من عمق2885 كيلومتراً إلى عمق670 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر، ووشاح متوسط يمتد من عمق670 كيلومتراً إلى عمق400 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر، ووشاح علوي يمتد من عمق400 كيلومتراً إلى عمق يتراوح بين65 كيلومتراً تحت قيعان المحيطات، وعمق120 كيلومتراً تحت سطح القارات.

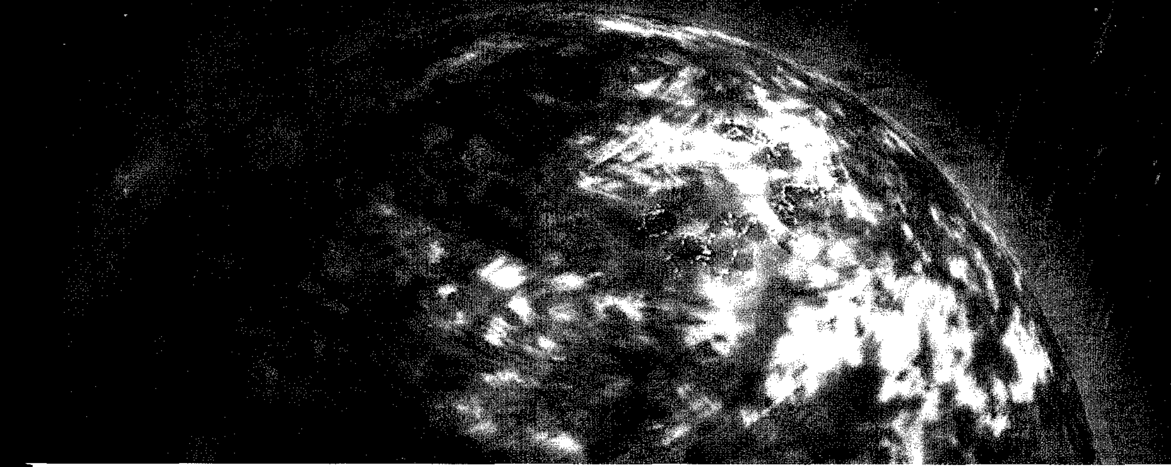
وقمة الوشاح العلوي، من عمق65 ـ 120 كيلومتراً إلى عمق200 كيلومتر تحت مستوى سطح البحر يعرف باسم: **نطاق الضعف الأرضي**، لوجوده في حالة لزجة، شبه منصهرة، أي: منصهرة انصهاراً جزئياً في حدود نسبة 1%.

(6)، (7) الغلاف الصخري للأرض أو الأرضين الثانية والأولى:

ويتراوح سمكه بين65 كيلومتراً تحت قيعان البحار والمحيطات و120 كيلومتراً تحت القارات، ويقسمه خط انقطاع الموجات الاهتزازية المسمى باسم: الموهو إلى **قشرة الأرض** وإلى **ما تحت قشرة الأرض**. وتمتد قشرة الأرض إلى عمق يتراوح بين5 و8 كيلومترات تحت قيعان البحار والمحيطات، وبين60 و80 كيلومتراً تحت القارات، ويمتد ما تحت القشرة إلى عمق120 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر.

وللأرض مجال جاذبية يزداد مع العمق حتى يصل إلى قمته عند الحد الفاصل بين وشاح الأرض ولبها (على عمق 2885 كيلومتراً) ثم يبدأ في التناقص بسبب الجذب الذي يحدثه عمود الصخور فوق هذا العمق حتى يصل إلى الصفر في مركز الأرض. ولولا جاذبية الأرض لهرب منها كل من غلافها الغازي والمائي، وذلك لأن هناك حداً أدنى لسرعة الهروب من جاذبية الأرض يقدر بحوالي 11.2 كيلومتراً في الثانية، بمعنى: أن الجسم لكي يستطيع الإفلات من جاذبية الأرض فعليه أن يتحرك في عكس اتجاه الجاذبية بسرعة لا تقل عن هذه السرعة. ولما كانت حركة جسيمات المادة في الغلاف الغازي للأرض أقل من تلك السرعة بكثير، فقد أمكن للأرض ـ بتدبير من الله تعالى ـ أن تحتفظ بغلافيها الغازي والمائي، ولو فقدتهما ولو جزئياً لاستحالت الحياة على الأرض، ولأمطرت بوابل من الأشعات الكونية والشمسية، ولرُجِمت بملايين الأطنان من (النيازك) التي كانت كفيلة بتدميرها بالكامل.

كذلك فإن للأرض مجالاً مغناطيسياً ثنائي القطبية، يعتقد أن له صلة وثيقة بلب الأرض الصلب وحركة لبها السائل من حوله. ويتولد المجال المغناطيسي للأرض كما يتولد لأي جسم آخر من حركة المكونات فيها؛ وذلك لأن الجسيمات الأولية للمادة ـ وهي في غالبيتها



المجال المغنطيسي المحيط بالأرض يحميها من الأشعة الكونية المتساقطة باتجاهها وبدونها تتعرض صور الحياة على الأرض للهلاك

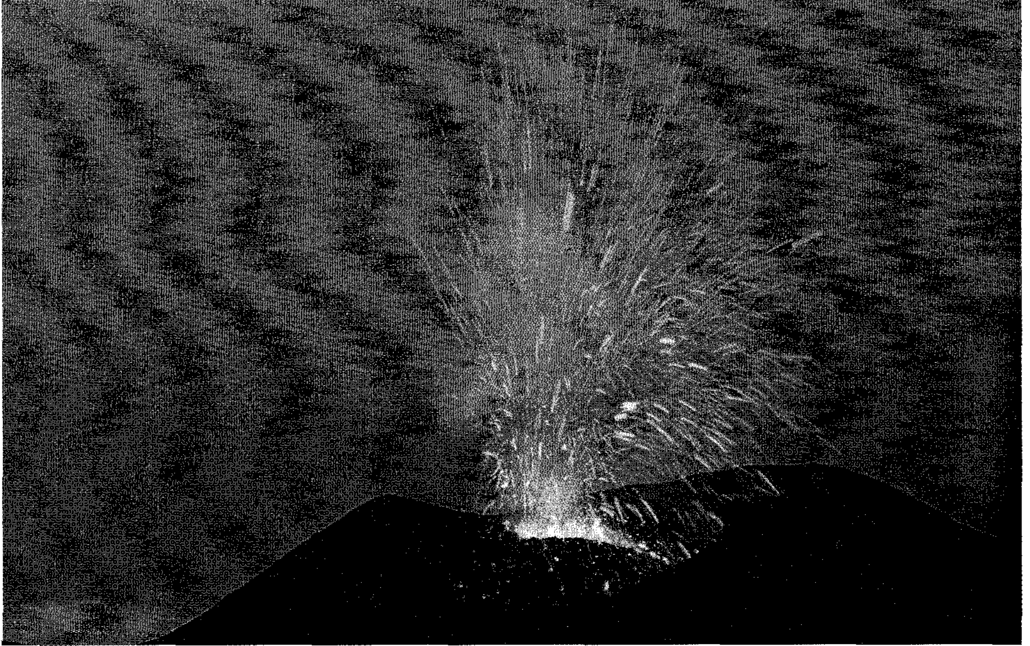
مشحونة بالكهرباء ـ تتحرك سواء كانت طليقة أو مرتبطة في داخل ذرات المادة، وهي حينما تتحرك تولد مجالاً مغناطيسياً، والمجال المغناطيسي لأية نقطة في فسحة الكون يمثل بمحصلة اتجاه تمتد من القطب المغناطيسي الجنوبي للمادة إلى قطبها الشمالي في حركة معاكسة لاتجاه عقرب الساعة، ومماثلة لحركة الطواف حول الكعبة المشرفة.

والمجال المغناطيسي للأرض كَوَّن لها ـ بإرادة الله تعالى ـ غلافاً مغناطيسياً يعرف باسم: **النطاق المغناطيسي للأرض،** وهذا الغلاف المغناطيسي يلعب دوراً مهماً في حماية الأرض من الأشعة الكونية بتحكمه في حركة الجسيمات المشحونة القادمة إلينا من فسحة الكون، فيجعلها تدور من أحد قطبي الأرض المغناطيسيين إلى الآخر، دون الدخول إلى المستويات المنخفضة من غلافها الغازي.

ويمتد **المجال المغناطيسي للأرض** إلى مسافة تقدر بخمسين ألف كيلومتر فوق سطحها، والجسيمات المشحونة القادمة من السماء والتي يأسرها المجال المغناطيسي للأرض كونت نطاقين من أحزمة الإشعاع على ارتفاع ألفي كيلومتر، وخمسين ألف كيلومتر على التوالي، يحيط كل نطاق منهما بالأرض إحاطة كاملة وإن رق كل منهما رقة شديدة فوق

قطبي الأرض وزاد سُمْكُهُ تجاه خط الاستواء حتى يصل إلى أقصاه. وهذه الحلقات من أحزمة الإشعاع تحاصر الأرض مع مستوى مركزي منطبق على المستوى الاستوائي المغناطيسي لها، وتحميها من وابل الأشعة الكونية المتساقط باتجاهها في كل لحظة، ولولا هذه الحماية الربانية لهلكنا وهلكت جميع صور الحياة من حولنا. والجرعة الإشعاعية في نطق الإشعاع تلك عالية الشدة لا تطيقها أية صورة من صور الحياة الأرضية، وتبلغ الشدة الإشعاعية مداها في المنطقة الاستوائية للحزام الإشعاعي للأرض.

وللأرض كذلك **نشاط ديناميكي** يتمثل في حركة ألواح الغلاف الصخري لها، الممزق بشبكة هائلة من الصدوع، وتتحرك تيارات الحمل العنيفة المندفعة من نطاق الضعف الأرضي لتحرك تلك الألواح إما متباعدة عن بعضها البعض وإما مصطدمة مع بعضها البعض. وفي الحالة الأولى تكوّن قيعان البحار والمحيطات، وتساعد على عملية اتساعها وتجديد مادة تلك القيعان باستمرار، وتكوّن السلاسل الجبلية في أواسط المحيطات، وفي الحالة الثانية تكوّن السلاسل الجبلية الأرضية، وتصاحب العمليتان بالعديد من الهزات الأرضية، والثورانات البركانية التي تثري سطح الأرض بالخيرات المعدنية والصخرية



الحمم المتصاعدة من البراكين تُغني التربة بالخيرات المعدنية والصخرية

المختلفة، خاصة عبر خطوط التصادم، كما قد تكون عقاباً إلٰهياً للعاصين، وابتلاءً للصالحين وعبرة للناجين.

والجبال لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً رئيساً في تثبيت كل من الأرض وغلافها الصخري، ولولا هذا التثبيت لألواح الغلاف الصخري للأرض ما تكونت التربة، ولا خزِّنت المياه تحت السطحية، ولا نبتت نبتة، ولا أمكن لمشروع بناء أن يقام، ولا رصف طريق أن يتم، ولا لكائن حي أن يستقر على سطح الأرض.

كذلك لعبت الجبال ـ ولاتزال تلعب ـ دوراً مهماً في تثبيت الأرض ككوكب يدور حول محوره، وتقلل من درجة ترنحه كما تقلل قطع الرصاص التي توضع في إطارات السيارات من معدل ترنحها. ولولا نطاق الضعف الأرضي ما أمكن لهذه العمليات الداخلية للأرض أن تتم، وهي من ضرورات جعلها صالحة للعمران.

هذه بعض آيات الله في الأرض وهي أكثر من أن تحصى، أشارت إليها هذه الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها ربنا ﷻ:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ **(الذاريات: 20)**

فسبحان من خلق الأرض بهذا القدر من الإحكام والإتقان، وترك فيها من الآيات ما يشهد لخالقها بطلاقة القدرة، وإحكام الصنعة، وشمول العلم، كما يشهد له ـ تعالى ـ بجلال الربوبية وعظمة الألوهية، والتفرد بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالقدرة على إفناء هذا الخلق، ثم إعادة بعثه، وحساب كل بعمله، وجزائه عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وكانت قضية البعث عبر التاريخ هي حجة الكافرين والمتشككين والفاسقين الذين أنكروا الغيب وكفروا به.

فسبحان الذي أنزل هذه الآية الكريمة من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ولم يكن لأحد من الخلق إلمام بتلك الآيات الأرضية والتي لم تتكشَّف أسرارها للإنسان إلا منذ عقود قليلة من الزمان، وفي ذلك من الشهادات ما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن نبينا محمداً ﷺ هو خاتم أنبياء الله ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلَّماً من قِبل خالق السمٰوات والأرض، وصدق الله العظيم إذ يصفه بقوله الحق:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ **(النجم: 3 ـ 10).**

بسم الله الرحمن الرحيم

(2) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ...﴾ (الأنعام: 1)



هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم، إذ يبلغ عدد آياتها (165) بعد البسملة، وهي السورة الخامسة بعد فاتحة الكتاب في ترتيب سور المصحف الشريف، والخامسة في عدد الآيات بعد كل من «البقرة»، و «الأعراف»، و «آل عمران»، و «النساء»؛ وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها.

ومن خصائص هذه السورة المباركة أنها نزلت دفعة واحدة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت سورة «الأنعام» بمكة ليلاً جملة واحدة، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح[1]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة تسد ما بين الخافقين، ولهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج**»[2] وأضاف هذا الصحابي الجليل أنس قوله: ورسول الله ﷺ يقول: «**سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم**».

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول القواعد الأساسية للعقيدة الإسلامية من مثل قضايا الألوهية، والربوبية، والوحدانية، وعبودية المخلوقين لخالقهم، وإنزاله الوحي رحمة بهم على سلسلة من الأنبياء والمرسلين، الذين كان آخرهم النبي والرسول الخاتم،

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.
(2) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (الحديث: 10992).

سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أنبياء الله ورسله أجمعين ـ، وكانت مهمتهم جميعاً إبلاغ الناس بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف، وإرشادهم إلى عبادة الله وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وعبادته تعالى بما أمر ـ بغير ابتداع ولا اختراع ولا إحداث بشري ـ، وإقامة عدل الله في الأرض، والسعي إلى اكتساب مكارم الأخلاق، والاستعداد للبعث والنشور والعرض الأكبر أمام الله ﷻ للحساب والجزاء، ثم الخلود في الجنة أبداً لمن أطاعوا داعي الله، أو في النار أبداً لمن كفروا بالله أو أشركوا به وكذبوا برسالاته. وهذه القضايا تمثل صلب رسالة الإنسان في وجوده، ومن هنا وجب أخذها مأخذ الجد، والنظر فيها بعين العقل، لا بالميراث والتقليد، وكلاهما لا ينفع صاحبه، ولا يصلح عذراً أمام الله ـ تعالى ـ في ساحة الحساب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء: 88، 89).

وتستهل سورة الأنعام بحمد الله ـ تعالى ـ الذي تشهد له بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبأنه خلق السمٰوات والأرض، وأوجد الظلمات والنور، وخلق الإنسان من طين، وحدد آجال الناس، وحدد يوم البعث والحساب، ويعلم بالسر والجهر، وبما تكسب كل نفس لأنه إلٰه السمٰوات والأرض ومن فيهن، وقيّومهما، ومليكهما، وعلى الرغم من ذلك يكفر به وبنعمه الكافرون، ويشرك به المشركون، ويزيغ عن هديه الضالون. . . !!

وانطلاقاً من ذلك كلة تبدأ السورة الكريمة بمواجهة الكافرين والمشركين والضالين في كل عصر، وفي كل حين بشكر الله والثناء عليه فتقول: **(الحمد لله)**؛ وهو شكر استهلت به خمس من سور القرآن الكريم هي: «الفاتحة»، «الأنعام»، «الكهف»، «سبأ»، و «فاطر».

وتتبع سورة «الأنعام» الحمد بعدد من الآيات الكونية الدالة على الخالق ﷻ، وعلى شمول علمه وكمال حكمته، وطلاقة قدرته، ثم تثني بعرض صور من مواقف المكذبين، ومصارع الغابرين، وتنصح بالسير في الأرض لإدراك كيف كان عاقبة المكذبين.

وتنتقل سورة «الأنعام» إلى استعراض عدد من الشواهد الحسية الدالة على ألوهية الخالق ﷻ وربوبيته ووحدانيته، ومنها خلق السمٰوات والأرض وخلق ما فيهن ومن فيهن، ورعاية كل ذلك وصونه من الهلاك، فالله ـ تعالى ـ هو رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو رب ما سكن في الليل والنهار، وهو ﷻ الرزاق الذي يطعم ولا يطعم، وهو ـ تعالى ـ الذي يملك أن يعذب من يشاء في الدنيا والآخرة، ويملك الضر والخير، وهو

على كل شيء قدير، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.

ثم تستعرض السورة الكريمة تأكيد الله الخالق ﷻ على صدق نبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي تطالبه السورة بإعلان المفاصلة التامة بينه وبين المشركين، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 19).

وتؤكد سورة «الأنعام» معرفة أهل الكتاب بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، تماماً كما يعرفون أبناءهم، وعلى الرغم من ذلك فهم لا يؤمنون به، انطلاقاً من ظلمهم لأنفسهم وخسرانهم لها، وتصف السورة الكريمة، افتراءهم الكذب على الله، وتكذيبهم بآياته بأنه من أبشع صور الظلم للنفس، وتشير إلى مواقف الحسرة والذلة والمهانة التي سوف يقفها هؤلاء المشركون يوم القيامة، وهم يسألون:

﴿. . . أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنعام: 22، 23).

وتذكر السورة الكريمة أن من الكفار والمشركين من يستمع إلى القرآن الكريم بآذان صمّ، وقلوب عمي فلا يكادون يفقهون شيئاً منه، ولا يدركون شيئاً من إعجاز آياته، ويصفونه زوراً بأنه من أساطير الأولين، وهم إذ ينهون غيرهم عنه، وينأون بأنفسهم هروباً منه يهلكون أنفسهم في الدنيا والآخرة وهم لايشعرون.

وتصور الآيات حال هؤلاء الكافرين والمشركين وهم موقوفون على النار نادمين على ما سبق منهم من تكذيب بآيات الله، طالبين من الله ـ تعالى ـ أن يردهم إلى الدنيا لكي لا يكذبوا بآيات الله ويكونوا من المؤمنين، وترد عليهم السورة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ وهو أعلم بهم:

﴿. . . وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (الأنعام: 28).

وهؤلاء الذين كذبوا بالبعث سوف يفاجأون بموقفهم أمام ربهم وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، وقد خسروا كل شيء لتفاهة الحياة الدنيا الفانية بالنسبة إلى الآخرة الباقية.

ثم تنتقل سورة الأنعام إلى مخاطبة رسول الله ﷺ بألا يحزن لتكذيب الكافرين والمشركين لبعثته الشريفة، فقد كُذِّب الرسل من قبله، وفي ذلك يقول له ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: 33، 34).

وتستمر الآيات في استعراض شيء من طبائع النفس البشرية في حالات الرخاء والشدة؛ فحين يتجلى لهم سلطان الله محيطاً بالعباد فإنهم يتجهون إلى الله ـ تعالى ـ وحده يرجون رحمته، فإذا كشف الضر عنهم رأيتهم يعودون إلى معصية الله، وإنكار الحق، والجور على الخلق، وقد قست قلوبهم وتحجرت مشاعرهم. . .!!

وتصف الآيات حال الكافرين والمشركين اليوم، وقد فتح الله عليهم أبواب كل شيء ليأخذهم بغتة وهم مبلسون، ويقطع دابر الظالمين. وعلى الرغم من ذلك كله فإن آيات سورة «الأنعام» تبشر التائبين بصدق بأن الله غفور رحيم وتؤكد إحاطة علم الله بالغيوب والأسرار، وبالأنفاس والأعمار، مع الهيمنة الكاملة على كل شيء في هذا الوجود، والسيطرة التامة في البر والبحر، وبالنهار والليل، وفي كل لحظة من لحظات الحياة والممات، وفي كل ذرة من لبنات بناء كل من الدنيا والآخرة.

وتروي السورة المباركة جانباً من سيرة نبي الله إبراهيم ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ مع الكفار والمشركين من قومه، وتعرض لاهتدائه إلى معرفة خالقه ﷻ بالتأمل في بديع صنع الله ـ تعالى ـ في الكون، ثم باصطفاء الله له، ووهبه النبوة والرسالة، ووهبه كذلك ذرية صالحة على الكبر.

كذلك ألمحت السورة إلى عدد من أنبياء الله ورسله من أمثال ساداتنا: نوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط ـ صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين ـ، مؤكدة وحدة رسالات السماء، وتكاملها في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وبصفتها الرسالة الخاتمة فقد تعهد الله ﷻ بحفظها حفظاً كاملاً إلى يوم الدين بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ.

وتصف الآيات في هذه السورة المباركة حال كلٍّ من الكافرين والمشركين في لحظات الاحتضار، وما يتعرضون له من مهانة وإذلال وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿. . . وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: 93).

ثم تعاود سورة «الأنعام» إلى الاستدلال بعدد من الآيات الكونية على أولوهية الخالق ﷻ، وربوبيته، ووحدانيته، وتأمر بعبادته وحده وفي ذلك تقول: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ **(الأنعام: 101 ـ 103)**.

وتذكر الآيات أن المشركين طالبوا رسول الله ﷺ ببعض المعجزات الحسية للتدليل على صدق نبوته، وترد عليهم بأن من عميت بصائرهم لا تفيدهم المعجزات الحسية ولو أنزلت عليهم وذلك لتأصل الضلال فيهم. وتؤكد الآيات في سورة الأنعام مرة أُخرى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن الكريم هو كلام الله، ولكنهم على الرغم من ذلك يصرون على الضلال، وتأتي الآيات للرد عليهم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فتقول:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ **(الأنعام: 114، 115)**.

وتفصل سورة الأنعام ما حرم الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين من الطعام، وتأمر بترك ظاهر الإثم وباطنه، وتمايز بين أهل الهداية وأهل الضلال والغواية فتقول:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾. **(الأنعام: 125)**.

وتذكر الآيات في سورة الأنعام أن من البشر من شرح الله ـ تعالى ـ صدورهم للإيمان، وأنار قلوبهم بنور اليقين فآمنوا واهتدوا، وأن منهم من أتبع نفسه هواها، وأطاع شياطين الجن والإنس فضلّ وغوى، وأن الله سوف يحشر الخلائق جميعاً إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدم كل واحد منهم في حياته الدنيا. كذلك تذكر الآيات أن المشركين من أهل الكتاب قد حرموا على أنفسهم أشياء لم يحرمها الله ـ تعالى ـ عليهم، تطاولاً وتجاوزاً وإجراماً، فكانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وصغارها تارة أُخرى، افتراء منهم واختلافاً على الله، وتقرر الآيات ظلم من كذب على الله ـ تعالى ـ فنسب إليه ما لم يشرع، وتأمر رسول الله ﷺ أن يبين للناس ما حرم الله ـ تعالى ـ عليهم.

وتـؤكـد الآيـات أن الله ـ تـعـالـى ـ هـو. . . ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ (الأنعام: 141).

وتأمر الآيات بالأكل من تلك الثمار، وبإعطاء حقها يوم حصادها دون إسراف، لأن الله ـ تعالى ـ لا يحب المسرفين، وتؤكد أنه أنزل ثمانية أزواج من الأنعام (ذكراً وأنثى من كل من الضأن، والمعز، والإبل، والبقر).

وتختم سورة الأنعام بعددٍ من الوصايا السلوكية الرفيعة، تحرم ما حرم الله، وتحل ما أحله بغير تقصير أو تجاوز أو مخالفة، وتدعو إلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وبسنة سيدنا محمد ﷺ، وتؤكد أن من أبلغ صور الظلم التكذيب بآيات الله، والإعراض عنها، وأن الله ـ تعالى ـ سيجزي الذين يصدفون عن آياته سوء العذاب بما كانوا يصدفون.

وتندد الآيات في ختام السورة بالذين حرفوا دينهم من أهل الكتاب وصاروا شيعاً، ويكذبون بعثة سيدنا محمد ﷺ فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ (الأنعام: 159).

وتنتهي السورة الكريمة إلى حديث على لسان الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ فتقول: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾. (الأنعام: 161 ـ 165).

هذا وقد احتوت سورة «الأنعام» على عدد من ركائز العقيدة الإسلامية، والتشريعات الإلهية، ومن قصص عدد من الأمم البائدة، وعلى عدد من الآيات الكونية التي تم استعراضها في أماكن أخرى من هذا المجلد.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على الآية الأولى من سورة «الأنعام»، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: 1).

• ذكر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله وحده دون غيره ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمات الليل، وجعل بمعنى: وأظلم ليلها، وأنار نهارها، ﴿وَٱلنُّورَ﴾ نور النهار ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يشركون، يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته به.

• وذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السمٰوات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ الظلمات، ووحد لفظ النور لكونه أشرف... ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا له شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عَزَّ وَجَلَّ عن ذلك علواً كبيراً....».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وهو الوصف بالجميل ثابت ﴿لِلَّهِ﴾ وهل المراد الإعلام بذلك للإيمان به، أو الثناء به، أو هما احتمالات أفيدها الثالث [أي للإيمان والثناء معاً] قاله الشيخ الجلال المحلي في تفسير أول سورة الكهف ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي: كل ظلمة ونور، وجمعها دونه لكثرة أسبابها، وهذا من دلائل وحدانيته ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مع قيام هذا الدليل ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوّون به غيره في العبادة».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «إنها اللمسات الأولى.. تبدأ بالحمد لله، ثناءً عليه، وتسبيحاً له، واعترافاً بأحقيته للحمد والثناء، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء،... بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى ـ الخلق ـ وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود ـ السمٰوات والأرض ـ ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السمٰوات والأرض وفق تدبير مقصود... الظلمات والنور... فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك... لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون، بل يجعلون

لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾...».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إعلام بأنه تعالى حقيق بالحمد والثناء، مستوجب لهما، لخلقه السمٰوات والأرض، على ما هما عليه من بديع الصنع والإحكام، وخلقه الظلمات والنور، أو ظلمات الليل ونور النهار، منفعة للعباد، وآيات للمتفكرين، ودلائل على وحدانيته وقدرته وتدبيره، ﴿وَجَعَلَ﴾ أي أحدث وخلق ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ثم الذين كفروا مع قيام هذه الدلائل الظاهرة يسوون بربهم غيره مما لا يقدر على شيء من ذلك، فيكفرون به، أو يجحدون نعمته، فأي شيء أعجب من ذلك وأبعد عن الحق ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ من العدل بمعنى التسوية، وقوله ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ متعلق بقوله ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، أو ثم الذين كفروا بربهم يميلون عنه، وينصرفون إلى غيره من خلقه، فيعبدون ما لا يستحق العبادة، من العدول...».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «الثناء والذكر الجميل لله، الذي خلق السمٰوات والأرض، وأوجد الظلمات والنور لمنفعة العباد بقدرته وعلى وفق حكمته، ثم مع هذه النعم الجليلة يشرك به الكافرون، ويجعلون له شريكاً في العبادة!».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه: بدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذة الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ندّ له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل ومعنى الآية: احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الأنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السمٰوات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة، ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمٰن منوّر الأكوان، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم....».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

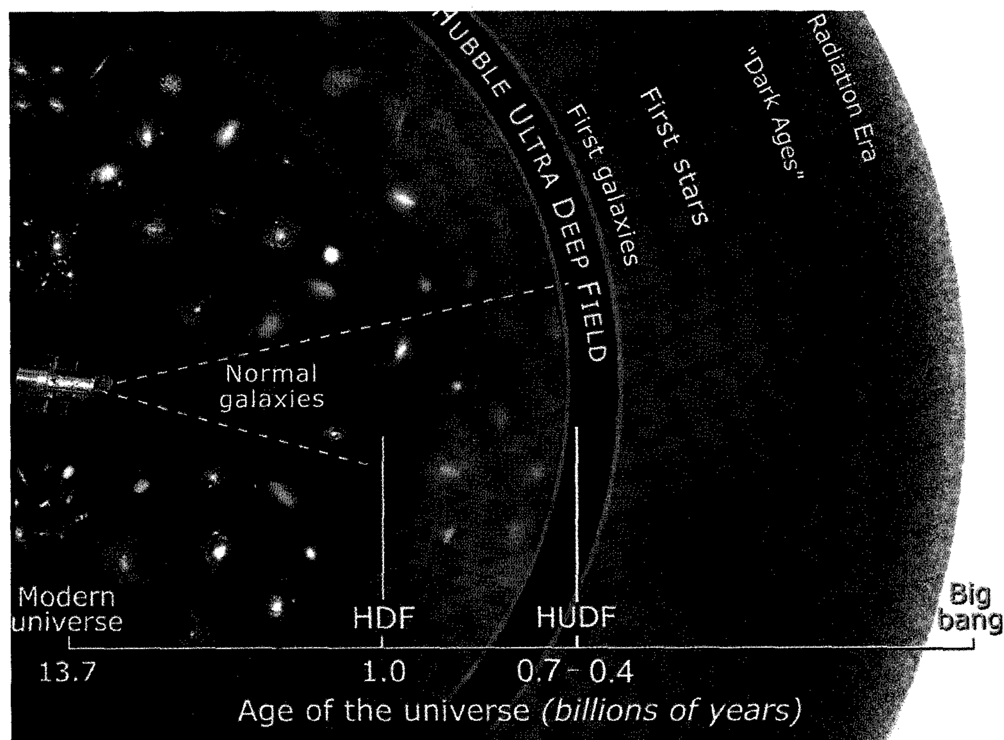
أولاً: خلق السمٰوات والأرض من أعظم الأدلة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة:

فقد أدرك العلماء حقيقة توسع الكون في مطلع القرن العشرين، وأدى إدراك تلك الحقيقة إلى الاستنتاج الصحيح بأن كوننا بدأ خلقه من نقطة متناهية الضآلة في الحجم، ومتناهية الضخامة في كم المادة والطاقة، وأن هذه النقطة انفجرت فتحولت إلى سحابة من الدخان الذي خلقت منه الأرض والسموات.

ومع توسع الكون تم تبرده من مئات البلايين من الدرجات المطلقة، إلى حوالي ثلاث درجات مطلقة (تقاس اليوم على جميع أطراف الجزء المدرك لنا من السماء الدنيا) وخلال هذا التبرد تخلقت المادة ونقائضها، كما تخلق مختلف صور الطاقة وأضدادها على مراحل متتالية يحددها العلماء في النقاط التالية:

(1) عصر الكواركات والجليونات:

وقد استمر لجزء من مائة ألف مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار العظيم وفيه خلقت اللبنات الأولية للمادة كما خلقت أضدادها من الدخان الكوني وذلك من مثل



رسم لعملية الانفجار العظيم للكون والذي يُقدر عمره ببلايين السنين، وتحديد للجزء المدرك من الكون بواسطة تلسكوب هابل

الكواركات وأضدادها والنيوترينوات ونقائضها.

وكان الدخان الكوني كثيفاً مظلماً معتماً، وكانت الجاذبية قوة منفصلة رابطة أجزاء هذا الدخان الكوني، بينما انفصلت القوة النووية الشديدة عن القوة الكهربية الضعيفة، ويعتقد علماء الفيزياء الفلكية أن أعداد هذه الجسيمات الأولية كان يفوق أعداد نقائضها وإلا ما وجد الكون، أو أن إرادة عليا فصلت بين تلك الجسيمات ونقائضها حتى تقوم السمٰوات والأرض بأمر الله. وكانت هذه الفترة فترة تمدد ملحوظ وتوسع مذهل للكون.

(2) عصر اللبتونات:

وقد استمر ـ كما تشير الحسابات في علم الفلك الفيزيائي ـ إلى جزء من مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه تمايزت اللبتونات (وهي أخف اللبنات الأولية المعروفة للمادة مثل الإليكترونات والنيوترينوات وأضدادها) عن الكواركات، كما تمايزت البوزونات، وانفصلت القوة الضعيفة عن اتحاد القوى المعروف باسم القوة الكهربية الضعيفة.

(3) عصر النيوكليونات وأضدادها:

وقد استمر إلى 225 ثانية بعد عملية الانفجار العظيم ـ كما تشير حسابات علماء الفلك الفيزيائي ـ، وفيه اتحدت الكواركات مع بعضها البعض لتكون النيوكليونات وأضدادها من مثل البروتونات ونقائضها، والنيوترونات ونقائضها، ويعتقد علماء الفيزياء الفلكية أن الطاقة كانت على قدر من الضعف لايسمح بتكون النيوكليونات وأضدادها على نطاق واسع وإلا ما وجد الكون.

(4) عصر تخلق نوى ذرات العناصر:

وقد استمر ـ حسب حسابات الفلكيين الفيزيائيين ـ في الفترة من 225 ثانية إلى ألف ثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه تكونت الديوترونات الثابتة وهي تنتج عن ترابط بروتون مع نيوترون، ومع تكوينها بدأت عملية الاندماج النووي في تكوين نوى ذرات الإيدروجين. وباتحادها تكونت نوى ذرات الهيليوم وبعض نوى الذرات الأثقل حتى وصلت نسبة الأيدروجين إلى74%، والهيليوم إلى25%، ونوى بعض العناصر الأثقل وزناً إلى1%.

(5) عصر تخلق الأيونات:

وقد استمر في الفترة من ألف ثانية إلى عشرة تريليونات ثانية بعد الانفجار العظيم ـ حسب الحسابات في علم الفلك الفيزيائي ـ، وفيه تكونت أيونات كل من غازي الإيدروجين والهيليوم، واستمر الكون في الاتساع والتبرد.

(6) عصر تخلق الذرات:

ويمتد في الفترة من عشرة تريليونات ثانية إلى ألف تريليون ثانية بعد عملية الانفجار العظيم ـ حسب حسابات الفلكيين الفيزيائيين ـ، وفية تكونت ذرات العناصر، وترابطت بقوى الجاذبية وأصبح الكون شفافاً.

(7) عصر تخلق النجوم والمجرات:

وقد امتد في الفترة من ألف تريليون ثانية (أي من نحو32 مليون سنة من سنيننا الراهنة) بعد عملية الانفجار العظيم إلى اليوم، أي: أنه استمد نحو عشرة بلايين من السنين، وفيه تخلقت أغلب العناصر المعروفة لنا (وهي أكثر من مائة عنصر) بعملية الاندماج النووي في داخل النجوم حتى تكون عنصر الحديد في داخل نجوم خاصة وفي لحظة من لحظات انفجارها تعرف باسم المستعرات والمستعرات العظمى. وأما العناصر الأعلى وزناً ذرياً من نوى ذرات الحديد فقد تكونت باصطيادها للبنات الأولية للمادة المنتشرة في صفحة السماء.

ولقد سبق القرآن الكريم هذه المعارف العلمية بأربعة عشر قرناً وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ **(الأنبياء: 30)**.

وقوله ـ عز من قائل ـ:

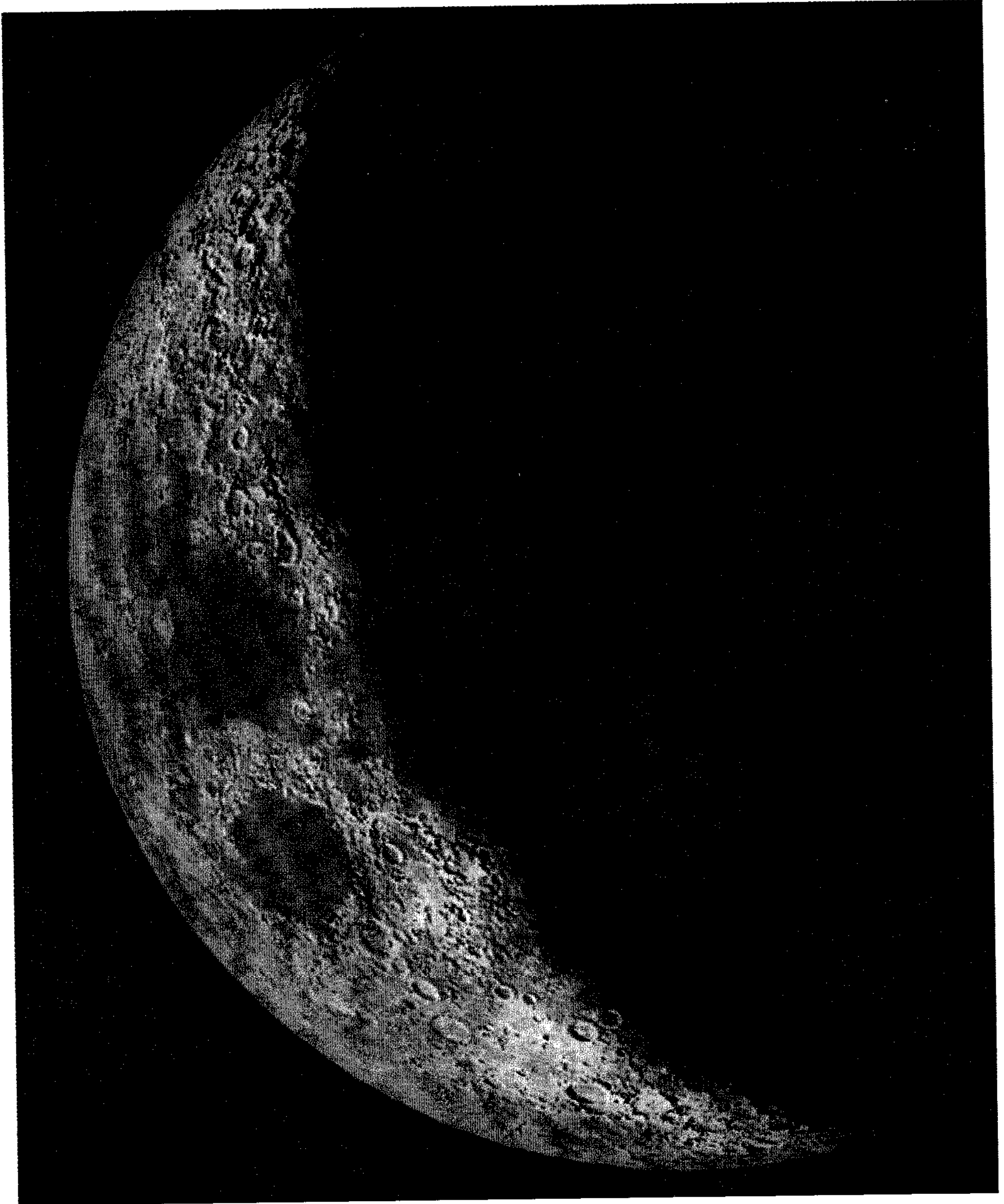
﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ **(فصلت: 11)**.

وقوله ﷻ:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ **(الذاريات: 47)**.

وهذة المراحل تؤكد الحكمة والتدبير الفائقين في خلق السمٰوات والأرض لأن أدنى مفارقة في الحساب كان من الممكن أن تبطل بناء الكون، وذلك يشمل حسابات الكم والكيف، ودرجات الحرارة، ومعدلات التوسع، وانضباط التفاعلات، خاصة أن العملية كلها ناتجة عن انفجار الجرم الأولي، وأن من طبيعة الانفجار أن يؤدي إلى الدمار وإلى بعثرة كل شيء وتناثره، لكن انفجاراً يؤدي إلى بناء كون بهذه السعة، والفخامة والدقة والإحكام في البناء وتجاوز أعداد الأجرام لكل حصر، وانضباط كل من حركاتها، وسرعات دورانها، وعلاقاتها ببعضها البعض، لابد وأن يكون قد سبقه وزامنه وتبعه من دقة

التقدير، وإبداع التكوين، وحسن الرعاية ما أوصله إلى ما نراه في الأنفس والآفاق من حولنا، وهو ما يشهد للخالق العظيم بطلاقة القدرة، وكمال الصنعة، ودقة التقدير...!!.



صورة حقيقية للقمر يسبح في ظلمة الكون وهو على شكل هلال ويظهر عليه انعكاس ضوء الشمس

ثانياً: خلق الظلمات والنور من الأدلة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة والمستوجبة الحمد لله ـ تعالى ـ:

من الراجح علميًّا أن كوننا بدأ بحالة من الدخان الداكن الكثيف التي استمرت على مدى ثلاثين مليون سنة من سنيننا الحالية على أقل تقدير، ثم بدأ الكون من بعدها في التحول من الشفافية القادرة على استقبال الضوء الناتج عن عملية الاندماج النووي في داخل نجوم استمرت على مدى فترة تقدر بعشرة مليارات من السنين على أقل تقدير ثم إلى زماننا الحالي، وإلى أن يشاء الله ـ تعالى ـ. ولما كان ضوء النجوم في غالبيته غير مرئي تعددت الظلمات في كوننا على النحو التالي:

(1) الظلمة الأولية للكون:

وقد استغرقت الفترة من بعد عملية الانفجار العظيم وحتى بدايات عملية الاندماج النووي، وتقدر بنحو الثلاثين مليون سنة من سنيننا الحالية. وقد تميزت هذه الفترة بالكثافة العالية لمادة الكون في صورها الأولية، وبالعتمة الكاملة، والإظلام التام.

(2) الظلمة الحالية للكون:

بعد عملية الانفجار العظيم بنحو ثلاثين مليون سنة تخلقت النجوم وبدأت عملية الاندماج النووي الحراري بداخلها، ولاتزال مستمرة إلى يومنا الحالي بعد أكثر من عشرة مليارات من السنين وإلى أن يشاء الله ﷻ، وبذلك بدأت النجوم في إرسال أضوائها إلى فسحة السماء وإن كانت أغلب تلك الأضواء غير مرئية لتكونها من سلسلة متصلة من الأمواج الكهرومغناطيسية التي تشمل موجات الراديو بمختلف أطوالها، والأشعة تحت الحمراء، وأطياف الضوء المرئي، والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية، وأشعة جاما، وهذة الموجات الكهرومغناطيسية لا تختلف فيما بينها إلا في تردداتها وأطوال موجاتها، ويمتد الطول الموجي للطيف الكهرومغناطيسي بين عدة كيلومترات لموجات الراديو (الموجات اللاسلكية) وبين جزء من بليون جزء من المليمتر لأشعة جاما، أما الأشعة البصرية فتتراوح أطوال موجاتها بين 0.01 ميكرون ومائة ميكرون (والميكرون = 0.001 مليمتر) وتضم موجات الضوء المرئي والأشعة تحت الحمراء، والأشعة فوق البنفسجية. وتميز عين الإنسان من أطياف الضوء المرئي: الأحمر (وهو أطولها وأقلها ترددًا) ثم البرتقالي، فالأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي والبنفسجي (وهو أقصر موجات الطيف المرئي وأعلاها ترددًا)، وهذه الموجات لا تُرى بوضوح إلا في طبقة النهار وهي جزء يسير من الغلاف الغازي للأرض المحيط بنصفها المواجه للشمس لا يتعدى سمكه مائتي

كيلومتر، وفية يتم انعكاس هذه الأطياف بواسطة هباءات الغبار وجزئيات الهواء والبخار وقطيرات الماء، واختلاطها مع بعضها البعض لتعطينا نور النهار الأبيض الذي يتمتع به أهل الأرض وأهل كل كوكب له غلاف غازي مماثل. وعلى ذلك فإننا إذا تجاوزنا طبقة النهار فإننا نرى الشمس قرصاً أزرق في صفحة سوداء شديدة الإظلام، وهذه هي ظلمة الكون الحالي التي وصفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله العزيز:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ **(الحجر: 14، 15)**.

وقوله ﷻ في وصف السماء: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ **(النازعات: 29)**.

هذه ظلمة ليل السماء، وهي ظلمة تزداد حلوكة عندما تلتقي مع ظلمة ليل الأرض، ويحدثها دوران الأرض حول محورها أمام الشمس فيتقاسم سطح الأرض الليل والنهار؛ الليل في نصف الكرة الأرضية غير المواجه للشمس، والنهار في نصفها المواجه للشمس.

(3) ظلمة أعماق البحار والمحيطات:

من الثابت علميًّا أن قيعان البحار العميقة والمحيطات تغرق في ظلام دامس، وذلك لأن أعماقها تتراوح بين مئات الأمتار، (11034 متراً)، بمتوسط يقدر بحوالي أربعة كيلومترات (3795 متراً)، وأشعة الشمس لايمكنها الوصول إلى تلك الأعماق أبداً؛ فمن الثابت أن نطاق الأوزون في الغلاف الغازي للأرض يرد أغلب الموجات فوق البنفسجية إلى خارج نطاق الأرض، بينما تعكس السحب نحو30% وتمتص نحو19% من باقي أشعة الشمس، وبذلك لا يصل إلى سطح الماء في البحار والمحيطات أكثر من51% من أشعة الشمس الساقطة عليها، وبمجرد سقوط هذه النسبة تعكس الأمواج السطحية5% منها، وتستهلك35% من الأشعة تحت الحمراء في تبخير الماء وفي عمليات التمثيل الضوئي التي تقوم بها بعض النباتات البحرية.

وعند نفاذ الجزء المتبقي من أشعة الشمس إلى داخل كتلة الماء فإنه يتعرض للعديد من عمليات الانكسار، والتحلل إلى أطيافه المختلفة التي تمتص بالتدريج حسب أطوال موجاتها بدءاً بالأحمر وانتهاء بالبنفسجي. وبذلك فإن معظم موجات الضوء المرئي من أشعة الشمس يمتص على عمق يصل إلى 100م تقريباً من مستوى سطح الماء في البحار والمحيطات، ويعرف هذا النطاق باسم النطاق المضيء، ويستمر 1% فقط من أشعة الشمس إلى عمق 150م، 0,01%، إلى عمق 200م، في الماء الصافي الخالي من العوالق، ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت

والامتصاص حتى يتلاشى تماماً على عمق لا يكاد يصل إلى ألف متر تحت مستوى سطح البحر حيث لا يبقى من ضوء الشمس شيء يذكر (جزء واحد من عشرة تريليونات جزء).

هذا إذا لم تحل الأمواج العميقة حيلولة كاملة دون وصول الضوء إلى تلك الأعماق، ويبدأ تكون تلك الأمواج على عمق 40م تقريباً من مستوى سطح البحر، وقد تتكرر على أعماق دون ذلك.. ويصف القرآن الكريم ظلمة قيعان البحار العميقة بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ **(النور: 40)**.

(4) ظلمات الأرحام:

ويصفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله:

...﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾**(الزمر: 6)**.

وقد فسرت هذه الظلمات الثلاث بظلمة البطن، يليها إلى الداخل ظلمة الرحم، يليها إلى الداخل ظلمة المشيمة بأغشيتها السلوية وما بها من سائل مخاطي.

(5) ظلمة القبر كنموذج لظلمة كل مكان مغلق في باطن الأرض أو على سطحها:

من السنة النبوية الشريفة أن يعمق القبر قدر قامة وبسطة، وأن يشق اللحد في جانب القبر جهة القبلة ويوضع فيه جسد الميت على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة، ثم على اللحد ينصب الطوب اللبن (الطوب النيء) ثم يملأ القبر بالرمال أو التراب، ويرفع قدر شبر عن الأرض. وقد يكتفي بشق حفرة في وسط القبر تبنى جوانبها باللبن، ثم يوضع فيها الميت ويسقف عليه بشيء مما لم يدخل النار من مثل الخشب ثم تهال عليه الرمال أو التراب إلى ارتفاع شبر فوق الأرض، إلا أن اللحد أولى. وبعد إغلاق القبر تكون الظلمة فيه كاملة، ومنها استعاذ رسول الله ﷺ.

وتشبه ظلمة القبر ظلمة الكهوف، والمغائر (المغارات) والمناجم، والحفر الأرضية العميقة، وكذلك ظلمة المخابىء، والأماكن المغلقة إغلاقاً محكماً.

أما نور النهار الأبيض الجميل فلا يرى إلا في الجزء السفلي من الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس إلى سمك مائتي كيلومتر فقط، حيث يتوافر القدر الكافي من هباءات الغبار وقطيرات الماء وجزيئات الغازات الهوائية التي تعكس وتشتت

وتخلط موجات الطيف المرئي، حتى تعطي لنا ذلك النور الأبيض المبهر الذي يميز النهار، الذي يصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾(الشمس: 1 ـ 3).

وأشار إلى رقة طبقة النهار بقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝٣٧﴾ (يس: 37).

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (غافر: 61).

فسبحان الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: 1).

فجمع الظلمات لتعددها وسيادتها في الكون، وأفرد النور لخصوصيته ومحدوديته في الوجود، وعدم تعدده، وهي حقائق لم تدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أُمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لممّا يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، وبأن الرسول الخاتم الذي تلقاه كان حتماً موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(3) ﴿... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ...﴾ (الحديد: 25)



هذا النص القرآني المعجز جاء في خواتيم سورة «الحديد»، وهي سورة مدنية وآياتها تسع وعشرون (29) بعد البسملة؛ وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي تحمل اسم عنصر من العناصر المعروفة لنا، والتي يبلغ عددها فوق المائة. ويعجب القارئ للقرآن الكريم من اختيار هذا العنصر بالذات اسماً لهذه السورة المباركة التي تؤكد على إنزال الحديد من السماء، وبأسه الشديد، ومنافعه للناس.

وتبدأ هذه السورة الكريمة بتأكيد أن كل ما في السمٰوات والأرض خاضع بالعبودية لله، مسبح بحمده، منزه له عن كل وصف لا يليق بجلاله؛ لأنه ـ تعالى ـ هو العزيز الحكيم، الذي له ملك السمٰوات والأرض، والذي يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وتواصل الآيات مزيداً من صفات هذا الخالق العظيم الذي هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء، وهو العليم بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وأنه ـ تعالى ـ خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله، وأنه ـ سبحانه ـ يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وأنه مع جميع خلقه أينما كانوا، وفي أي زمان كانوا، فلا الزمان ولا المكان يقف عائقاً أمام قدرة الله، لأنه تعالى خالق كل من الزمان والمكان؛ وهو ـ تعالى ـ مطّلع على جميع خلقه، بصير بما يعملون، وهو الذي له ملك السمٰوات والأرض، والذي إليه ترجع الأمور.

ومن الدلائل على طلاقة قدرته أنه - تعالى - يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وهو - سبحانه - عليم بذات الصدور، الكون كله خاضع لإرادته - تعالى - فهو خالقه ومبدعه، والمتصرف فيه بما يشاء، وهذه الصفات العليا من خصائص الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فلا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، فهو رب كل شيء ومليكه، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد؛ المسيطر سيطرة مطلقة على الوجود كله بكل ما فيه، ومن فيه، فكل شيء بيديه، وكل شيء راجع إليه، لايخفى شيء عن علمه، ولا يخرج شيء عن أمره، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وفي ذلك تقول الآيات في مطلع سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾. **(الحديد: 1 - 6)**

ثم تتحرك الآيات بعد ذلك في إيقاع رقيق يخاطب جماعة المؤمنين، وتدعوهم إلى تجسيد إيمانهم بالله ورسوله في بذل الأموال والمهج والأرواح دفاعاً عن هذا الدين، وإلى الإنفاق مما جُعِلُوا مستخلفين فيه حتى ينالوا الأجر الكبير من رب العالمين، فالذي يفعل ذلك كأنما يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة وله أجر كريم. وبالإضافة إلى عمومية الدعوة إلى تلك الحقيقة، فهي تذكرة دائمة لجماعة المؤمنين بما بذله السابقون من المهاجرين والأنصار في سبيل الله، حتى يتأسَّوا بهم في التجرد الكامل، والإخلاص الصادق لدين الله، والبذل والتضحية بالأموال والأنفس من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض، فلا تشدهم الحياة الدنيا عن الجهاد في سبيل الله مهما تكن المغريات، ومهما تكن العوائق والتضحيات وفي ذلك تقول الآيات:

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

﴿ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾. **(الحديد: 7 - 11)**

وبعد ذلك تعرض الآيات لحال كل من المؤمنين والمؤمنات في جانب، والمنافقين والمنافقات في جانب آخر يوم العرض الأكبر، وشتان ما بين الحالين. وتتساءل الآيات عن إمكانية أن يكون الوقت قد حان لكي تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله، ولما أنزل من الحق على خاتم أنبيائه ورسله حتى لايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون. وتؤكد مرحلية الحياة الدنيا، وأنها ليست إلا متاع الغرور، فلا يجوز لعاقل أن ينخدع بها، ويفني عمره في خدمتها، لاهياً عن الآخرة وهي دار القرار، ولذلك تنادي الآيات بالمسارعة إلى طلب المغفرة من الله، وإلى العمل المخلص الدؤوب من أجل الفوز بالجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله.

وفي ذلك تقول:

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾. **(الذاريات: 12 - 21)**

وتضيف الآيات أن كل خطب جلل نزل بالأرض أو بالأنفس مدون في كتاب الله من قبل وقوعه، وأن ذلك على الله يسير، كي ترضى كل نفسٍ مؤمنة بقدر الله ـ خيره وشره ـ وتؤمن أن فيه الخير كل الخير، فلا تبطر عند مسرة؛ لأن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور، ولا تجزع عند مضرة لإيمانها بأن ذلك قدر مقسوم، وأجل محتوم، وأنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

وفي ذلك تقول:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾. **(الذاريات: 22، 23)**

وتنعي الآيات على الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل؛ لأن الله ـ تعالى ـ كريم يحب كل كريم، ومن يتولَّ عن منهج الله فإن الله هو الغني الحميد وفي ذلك تقول:

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾. (الحديد: 24)

وبعد هذه المقدمة الطويلة يأتي قلب السورة وسر تسميتها في الآية التي يقول فيها ربنا ﷻ:

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾﴾ (الحديد: 25)

ثم تأتي الآيات الأربع الأخيرة في السورة لتعرض خط سير رسالة الهداية الربانية، وتاريخ هذا الدين ـ دين الإسلام العظيم ـ الذي علمه ربنا ﷻ لأبينا آدم عليه السلام، وأنزله على فترة من الرسل من لدن نبي الله نوح عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ، والذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه بعد أن أكمله، وأتمه، وحفظه في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ـ.

وأشارت الآيات إلى حال بعض من أهل الكتاب ومنهم أتباع نبي الله عيسى عليه السلام.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الحديد: 26، 27).

واختتمت السورة بالدعوة إلى الإيمان بالنبي الخاتم والرسول الخاتم، ففي ذلك دخول في رحمة الله، وفي نوره ومغفرته، وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم، والمنن العديدة التي يمن بها على من يشاء من عباده، وفي ذلك تقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحديد: 28، 29).

والآية الكريمة التي نحن بصددها تؤكد أن الحديد قد أنزل إنزالاً كما أنزلت جميع صور الوحي السماوي، وأنه يمتاز ببأسه الشديد، وبمنافعه العديدة للناس، وهذه كلها من الأمور التي لم يصل العلم الإنساني إلى إدراكها إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها بهذا الوضوح والتأكيد لمما يقطع بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، ويجزم بنبوة النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه لأنه لم يكن لأحد من الخلق إدراك لتلك الحقيقة في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده.

وهنا يبرز التساؤل: كيف أُنزِل الحديد؟ وما هو وجه المقارنة بين إنزال وحي السماء وإنزال الحديد؟ ما هو بأسه الشديد؟ وما هي منافعه للناس؟ وقبل الإجابة على تلك الأسئلة لا بد من استعراض سريع للدلالات اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة، وكذلك للمواضع التي ورد فيها ذكر (الحديد) في كتاب الله ـ تعالى ـ.

الدلالات اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة:

(النزول) في الأصل هو هبوط من علو، يقال في اللغة: (نزل)، (ينزل) (نزولاً)، و(منزلاً) بمعنى حل، يحل، حلولاً؛ والمنزل بفتح الميم والزاي هو (النزول) وهو الحلول، و(نزل) عن دابته بمعنى هبط من عليها، و(نزل) في مكان كذا أي: حط رحله فيه، و(النزيل) هو الضيف.

ويقال: (أنزله) غيره بمعنى: أضافه أو هبط به؛ و(استنزله) بمعنى: (نزله تنزيلاً)، و(التنزيل) أيضاً هو القرآن الكريم، وهو (الإنزال المفرق)، وهو الترتيب؛ و(التنزل) هو (النزول في مهلة)، و(النَّزَل) هو ما يهيأ (للنزيل) أي: ما يعد (للنازل) من المكان، والفراش، والزاد، والجمع (أنزال)؛ وهو أيضاً الحظ والريع، و (النزل) بفتحتين، و(المنزل) الدار والمنهل؛ أي: المورد الذي ينتهل منه؛ لأن به (ماء) أو هو عين ماء ترده الإبل في المراعي، وتسمى عيون الماء التي في المفاوز على طرق السفار باسم (المنازل)؛ و(المنزلة) مثله، أو هي الرتبة أو المرتبة؛ و(المنزلة) لا تجمع.

ويقال: استُنْزِلَ فلان (بضم التاء وكسر الزاي) أي: حط عن مرتبته أو قدره، و(المُنْزَلُ) بضم الميم وفتح الزاي هو(الإنزال)، تقول: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ **(المؤمنون: 29)**؛ و(إنزال) الله ـ تعالى ـ نعمه ونقمه على الخلق هو إعطاؤهم إياها، وقال المفسرون في قول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ **(النجم: 13)** إن (نزلة) هنا تعني: مرة أخرى.

وفي قوله ـ تعالى ـ ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ (**الكهف: 107**) قال الأخفش: هو من (نزول) الناس بعضهم على بعض، يقال: ما وجدنا عندك نُزُلاً؛ و(النازلة): الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس، وجمعها (نوازل)؛ و(النزال) في الحرب: (المنازلة)؛ و(النزلة) هي الزكمة من الزكام، يقال: به (نزلة)، وقد نُزِلَ بضم النون أي أصابته الزكمة.

الحديد في القرآن الكريم

ورد ذكر الحديد في كتاب الله ـ تعالى ـ في ست آيات متفرقات على النحو التالي:

(1) ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ (**الإسراء: 50**).

(2) ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ . . .﴾ (**الكهف: 96**).

(3) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾﴾ (**الحج: 21**).

(4) ﴿. . . وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ (**سبإ: 10**).

(5) ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾ (**قٓ: 22**).

(6) ﴿. . . وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ . . .﴾ (**الحديد: 25**).

وهذه الآيات تشير كلها إلى عنصرالحديد ما عدا آية «سورة قٓ» والتي جاءت لفظة (حديد) فيها في مقام التشبيه للبصر بمعنى أنه نافذ قوي يبصر به ما كان خفيًّا عنه في الدنيا.

من أقوال المفسرين

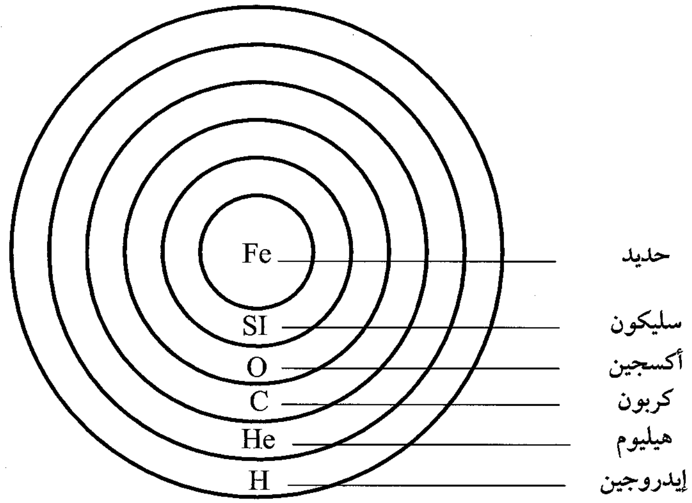
• في تفسير قول الحق ﷻ: ﴿. . . وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ . . .﴾.

ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره «أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبيناته ودلالاته، فلما قامت الحجة على من خالف، شرَّع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، وقد روى الإمام أحمد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»، ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ يعني: السلاح كالسيوف والحراب والسنان ونحوها ﴿وَمَنَٰفِعُ

﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: في معايشهم كالسكة والفأس والمنشار والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ وغير ذلك.. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: من نيته في حمل السلاح نصرة لله ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض».

● وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مختصره: «لقد أرسلنا رسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج القواطع ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: الكتب ـ و﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ العدل، ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: أنشأناه، وخلقناه، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ **(الزمر: 6)** أي: خلق، وقيل: أخرجناه من المعادن، ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح، يقاتل به من أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في معايشهم كالفأس والمنشار وسائر الأدوات والآلات، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ علم مشاهدة، معطوف على ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ بأن ينصر دينه بآلات الحرب من الحديد وغيره ﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من هاء ﴿يَنصُرُهُۥ﴾ أي: غائباً عنهم في الدنيا، قال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ لا حاجة له إلى النصرة لكنها تنفع من يأتي بها».

● وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «وفي النهاية يجيء المقطع الأخير في السورة، يعرض باختصار خط سير الرسالة، وتاريخ هذه العقيدة من لدن نوح وإبراهيم، مقرراً حقيقتها وغايتها في دنيا الناس، مُلِمًّا بحال أهل الكتاب، وأتباع عيسى عليه السلام بصفة خاصة.. فالرسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها، ومعظمهم جاء بالبينات الخوارق.. والنص يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بوصفهم وحدة، وبوصف الكتاب وحدة كذلك، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾.. مع الكتاب، فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض، وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية.. ميزاناً لايحابي أحداً؛ لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولايحيف على أحد لأن الله رب الجميع. فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ..﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾!. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ والتعبير بـ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ كالتعبير في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث... أنزل الله الحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو قوة الحرب والسلم ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ وهي إشارة إلى الجهاد بالسلاح، تجيء في موضعها من السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال. ولما تحدث عن الذين ينصرون



مراحل تحول قلب النجم إلى حديد

الله ورسله بالغيب، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم لله ورسله، فهو نصر لمنهجه ودعوته، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر: إن الله قوي عزيز..».

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن رحمه الله ما نصه: «.. و﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: خلقناه لكم، كقوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: هيأناه لكم، وأنعمنا به عليكم، وعلمناكم استخراجه من الأرض وصنعته بإلهامنا، ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: فيه قوة وشدة، فمنه جنة وسلاح، وآلات للحرب وغيرها، وفي الآية إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف، ليحصل القيام بالقسط، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في معاشهم ومصالحهم، وما من صنعة إلا والحديد آلتها، كما هو مشاهد، فالمنة به عظمى...».

وقال صاحب صفوة التفاسير جزاه الله خيراً ما نصه: «﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس شديد؛ لأن آلات الحرب تتخذ منه، كالدروع والرماح والتروس والدبابات وغير ذلك، ومنافع للناس أي: وفيه منافع كثيرة للناس كسكك الحراثة والسكين والفأس وغير ذلك، وما من صناعة إلا والحديد آلة فيها، قال أبوحيان: وعبر تعالى عن إيجاده بالإنزال كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تلقَّى من السماء جعل الكل نزولاً منها، وأراد بالحديد جنسه من المعادن، قاله الجمهور».

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «لقد

أرسلنا رسلنا الذين اصطفيناهم بالمعجزات القاطعة، وأنزلنا معهم الكتب المتضمنة للأحكام وشرائع الدين والميزان الذي يحقق الإنصاف في التعامل، ليتعامل الناس فيما بينهم بالعدل، وخلقنا الحديد فيه عذاب شديد في الحرب، ومنافع للناس في السلم، يستغلونه في التصنيع، لينتفعوا به في مصالحهم ومعايشهم، وليعلم الله من ينصر دينه، وينصر رسله غائباً عنهم، إن الله قادر بذاته، لا يفتقر إلى عون أحد». وفي الهامش جاء الخبراء ببعض من صفات الحديد وفوائده.

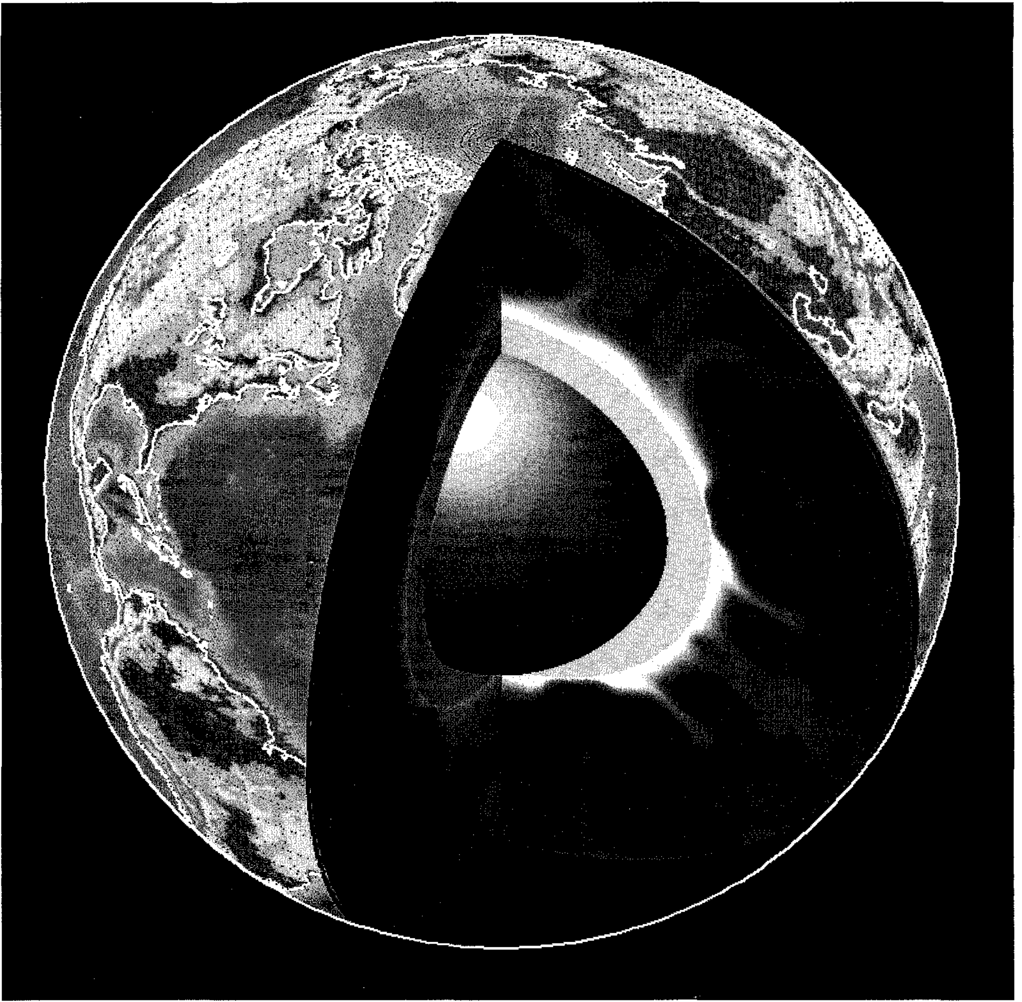
حديد الأرض في العلوم الكونية:

بينما لا تتعدى نسبة الحديد في شمسنا 0.0037% فإن نسبته في التركيب الكيميائي لأرضنا تصل إلى 35.9% من مجموع كتلة الأرض المقدرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن، وعلى ذلك فإن كمية الحديد في الأرض تقدر بأكثر من ألفي مليون مليون مليون طن، ويتركز الحديد في قلب الأرض، أو ما يعرف باسم: لب الأرض، وتصل نسبة الحديد فيه إلى 90% ونسبة النيكل (وهو من مجموعة الحديد) إلى 9% وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلى الخارج باستمرار حتى تصل إلى 5.6% في قشرة الأرض.

وإلى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين لم يكن لأحد من العلماء إمكانية تصور (ولو من قبيل التخيل) أن هذا القدر الهائل من الحديد قد أنزل إلى الأرض من السماء إنزالاً حقيقياً. كيف أنزل؟ وكيف تسنى له اختراق الغلاف الصخري للأرض بهذه الكميات المذهلة؟ وكيف أمكنه الاستمرار في التحرك بداخل الأرض حتى وصل إلى لبِّها؟ وكيف شكل كلاًّ من لب الأرض الصلب ولبها السائل على هيئة كرة ضخمة من الحديد والنيكل يحيط بها نطاق منصهر من نفس التركيب؟ ثم كيف أخذت نسبته في التناقص باستمرار في اتجاه قشرة الأرض الصلبة؟

لذلك لجأ كل المفسرين للآية الكريمة التي نحن بصددها إلى تفسير قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ بمعنى الخلق والإيجاد والتقدير والتسخير؛ لأنه لما كانت أوامر الله تعالى وأحكامه تلقى من السماء إلى الأرض جعل الكل نزولاً منها، وهو صحيح.

ولكن في أواخر القرن العشرين ثبت لعلماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الحديد لايتكون في الجزء المدرك من الكون إلا في مراحل محددة من حياة النجوم العملاقة التي تسمى: بالعماليق العظام، والتي بعد أن يتحول لبها بالكامل إلى حديد تنفجر على هيئة المستعرات العظام، وبانفجارها تتناثر مكوناتها بما فيها الحديد في صفحة الكون فيدخل



يتكون لب الأرض من 90٪ من الحديد

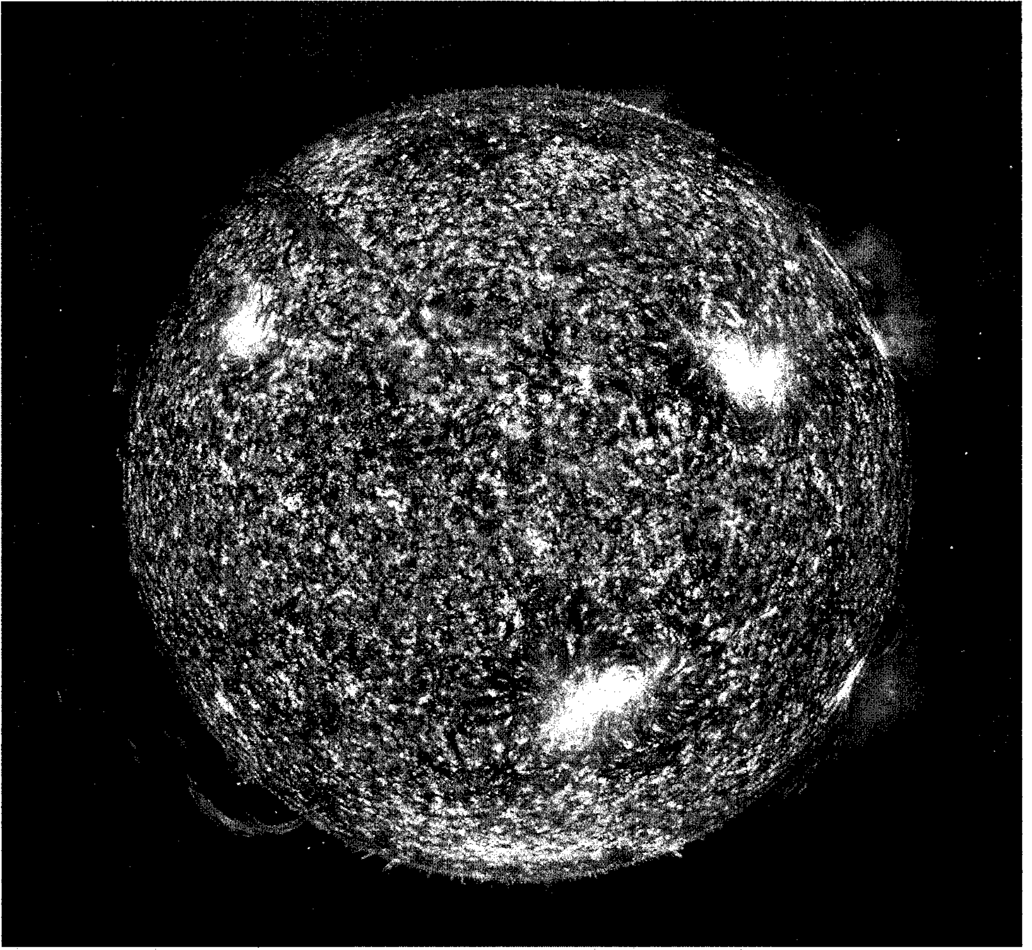
هذا الحديد بتقدير من الله ـ تعالى ـ في مجال جاذبية أجرام سماوية تحتاج إليه مثل أرضنا البدائية التي وصلها الحديد الكوني، وهي كومة من الرماد فاندفع إلى قلب تلك الكومة بحكم كثافته العالية وسرعته الكونية المندفع بها، فانصهر بحرارة الاستقرار في قلب الأرض البدائية وصهرها، ومايزها إلى سبع أرضين: لب صلب، يليه إلى الخارج لب سائل،ثم ثلاثة أوشحة متمايزة (وشاح أسفل، وأوسط، وأعلى)، ثم الغلاف الصخري للأرض وهو مكون من نطاقين: (قشرة الأرض وما دون القشرة)؛ وبهذا ثبت أن الحديد في أرضنا، بل في بعض أجرام مجموعتنا الشمسية قد أنزل إليها إنزالاً حقيقياً.

إنزال الحديد من السماء:

في دراسة لتوزيع العناصر المختلفة في الجزء المدرك من الكون لوحظ أن غاز «الإيدروجين» هو أكثر العناصر شيوعاً إذ يكون أكثر من 74% من مادة الكون المنظور، ويليه في الكثرة غاز «الهيليوم» الذي يكون حوالي 24% من مادة الكون المنظور، وأن هذين الغازين ـ وهما يمثلان أخف العناصر وأبسطها بناء ـ يكونان معاً أكثر من 98% من مادة الجزء المدرك من الكون، بينما باقي العناصر المعروفة لنا وهي أكثر من مائة عنصر مجتمعة تكوّن أقل من 2% من مادة الكون المنظور، وقد أدت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج المنطقي أن أنوية غاز «الإيدروجين» هي لبنات بناء جميع العناصر المعروفة لنا، والتي تخلقت باندماج أنوية هذا الغاز البسيط مع بعضها البعض في داخل النجوم بعملية تعرف باسم: **عملية الاندماج النووي**، تنطلق منها كميات هائلة من الطاقة التي تعرف باسم: طاقة النجوم، وتتم عملية الاندماج النووي في داخل نجوم السماء الدنيا بتسلسل من أخف العناصر إلى أعلاها وزناً ذرياً وتعقيداً في البناء حتى يتحول قلب النجم إلى الحديد فينفجر النجم وتتناثر أشلاؤه في صفحة السماء لتصطاد عدداً من اللبنات الأولية للمادة مكونة عناصر أعلى في وزنها الذري أو تهبط إلى أحد الكواكب أو النجوم التي تحتاج في تواجدها إلى الحديد.

فشمسنا تتكون أساساً من غاز «الإيدروجين» الذي تندمج أنويته مع بعضها البعض لتكون غاز «الهيليوم»، وتنطلق طاقة هائلة تبلغ عشرة ملايين درجة مئوية، ويتحكم في هذا التفاعل (بقدرة الخالق العظيم) عاملان هما زيادة نسبة غاز «الهيليوم» المتخلق بالتدريج، وتمدد الشمس بالارتفاع المطرد في درجة حرارة لبِّها، وباستمرار هذه العملية تزداد درجة الحرارة في داخل الشمس تدريجياً، وبازديادها ينتقل التفاعل إلى المرحلة التالية التي تندمج فيها نوى ذرات «الهيليوم» مع بعضها البعض في سلسلة من الاندماجات المتسلسلة حتى تصل إلى إنتاج نوي ذرات «الكربون» (12)، ثم «الأوكسجين (16)» ثم «النيون (20)»، وهكذا.

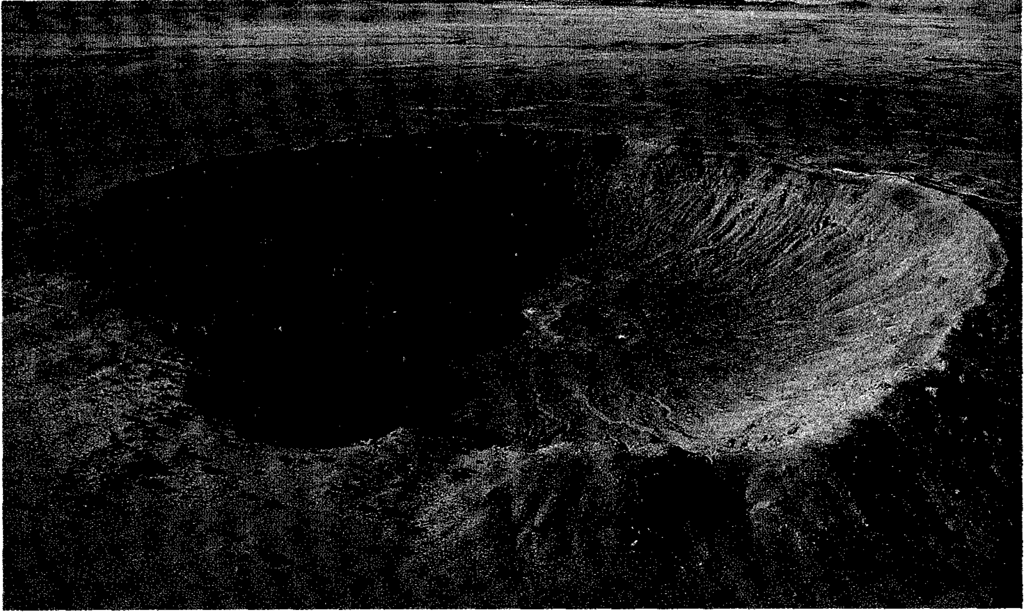
وفي نجم عادي مثل شمسنا التي تقدر درجة حرارة سطحها بحوالي ستة آلاف درجة مئوية، وتزداد هذه الحرارة تدريجياً في اتجاه مركز الشمس حتى تصل إلى حوالي15 مليون درجة مئوية، يقدر علماء الفيزياء الفلكية أنه بتحول نصف كمية «الإيدروجين» الشمسي تقريباً إلى «الهيليوم»، فإن درجة الحرارة في لب الشمس ستصل إلى مائة مليون درجة مئوية، مما يدفع بنوى ذرات «الهيليوم» المتخلقة إلى الاندماج في المراحل التالية من عملية الاندماج النووي، مكونة عناصر أعلى في وزنها الذري مثل الكربون ومطلقة كمًّا أعلى من الطاقة،



الشمس في أوج توهجها

ويقدر العلماء أنه عندما تصل درجة حرارة لب الشمس إلى ستمائة مليون درجة مئوية يتحول الكربون إلى صوديوم ثم إلى مغنيسيوم ثم إلى نيون، ثم تنتج عمليات الاندماج النووي التالية عناصر الألومنيوم، والسيليكون، والكبريت والفوسفور، والكلور، والأرجون، والبوتاسيوم، والكالسيوم على التوالي، مع ارتفاع مطرد في درجة الحرارة، حتى تصل إلى ألفي مليون درجة مئوية حين يتحول لب النجم إلى مجموعات التيتانيوم، والقاناديوم، والكروم، والمنجنيز، ومجموعة عناصر الحديد (الحديد والكوبالت والنيكل). ولما كان تخليق هذه العناصر يحتاج إلى درجات حرارة مرتفعة جداً لا تتوافر إلا في مراحل خاصة في حياة النجوم العملاقة تعرف باسم: العماليق العظام، وهي مراحل توهج شديد جداً؛ فإنها لا تتم

في كل نجم من نجوم السماء ولكن في مراحل خاصة من مراحل حياة النجوم العملاقة عند انفجارها تعرف باسم مرحلة المستعرات أو المستعرات العظمى، وحين يتحول لب النجم إلى الحديد، فإنه يستهلك طاقة النجم بدلاً من إضافة مزيد من الطاقة إليه؛ وذلك لأن نواة ذرة الحديد هي أشد نوى العناصر تماسكاً، وهنا ينفجر النجم على هيئة ما يسمى باسم: المستعر الأعظم من النمط الأول أو الثاني حسب الكتلة الابتدائية للنجم، وتتناثر أشلاء النجم المنفجر في صفحة السماء لتدخل في نطاق جاذبية أجرام سماوية تحتاج إلى هذا الحديد، تماماً كما تصل النيازك الحديدية إلى أرضنا بملايين الأطنان في كل عام.



فجوة ضخمة (يبلغ طول قطرها 32 كلم تقريباً) تكونت من جراء ارتطام نيزك بأرض ولاية أريزونا

ولما كانت نسبة الحديد في شمسنا لا تتعدى 0.0037%، وهي أقل بكثير من نسبة الحديد في كل من الأرض وعطارد والزهرة والمريخ، وفي النيازك الحديدية التي تصل إلينا من فسحة الكون، ولما كانت درجة حرارة لب الشمس لم تصل بعد إلى الحد الذي يمكنها من إنتاج السيليكون، أو المغنيسيوم، فضلاً عن الحديد، كان من البديهي استنتاج أن كلاً من الأرض والشمس وكواكب المجموعة الشمسية المشتملة على نسب مختلفة من الحديد قد استمد ما به من حديد من مصدر خارجي عن مجموعتنا الشمية في فسحة الكون. وعلى ذلك فإن أرضنا حينما انفصلت عن الشمس لم تكن سوى كومة من الرماد المكون من العناصر الخفيفة، ثم



صورة حقيقية لأحد النيازك التي تصل إلى الأرض سنوياً بمعدل مليون إلى 20 مليون طن ومنها النيازك الحديدية، والحديدية الصخرية، والصخرية

رجمت هذه الكومة بوابل من النيازك الحديدية التي انطلقت إليها من خارج المجموعة الشمسية، فاستقرت في لبها بفضل كثافتها العالية وسرعاتها الكونية الفائقة، فانصهرت بحرارة الاستقرار، وصهرت كومة الرماد ومايزتها إلى سبع أرضين: لب صلب على هيئة كرة ضخمة من الحديد والنيكل تصل فيها نسبة الحديد إلى (90%) والنيكل إلى (9%) وبعض العناصر الخفيفة من مثل: الكبريت، والفوسفور، والكربون إلى (1%)، يليه إلى الخارج لب سائل له نفس التركيب الكيميائي تقريباً، ويكون لبا الأرض الصلب والسائل معاً حوالي 31% من مجموع كتلة الأرض. ويلي لب الأرض إلى الخارج وشاح الأرض **(Mante)**، المكون من ثلاثة نطق (أسفل، وأوسط، وأعلى)، ثم الغلاف الصخري للأرض **(Lithosphere)**، وهو مكون من نطاقين (قشرة الأرض **(Crust)** وما دون القشرة **(Subcrust)**. وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلى الخارج باستمرار حتى تصل إلى 5,6% في قشرة الأرض.

من هنا ساد الاعتقاد بأن الحديد الموجود في الأرض والذي يشكل 35.9% من

كتلتها، لابد وأنه قد تكوّن في داخل عدد من النجوم المستعرة من مثل العماليق العظام، والتي انفجرت على هيئة المستعرات العظام فتناثرت أشلاؤها في صفحة الكون، ونزلت إلى الأرض على هيئة وابل من النيازك الحديدية، وبذلك أصبح من الثابت علمياً أن كل حديد الأرض قد أنزل إليها إنزالاً من السماء، وليس هذا فقط؛ بل إن الحديد في مجموعتنا الشمسية كلها قد أنزل كذلك إليها من السماء، وهي حقيقة لم يتوصل العلماء إلى فهمها إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وقد جاء ذكرها في سورة الحديد، وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي سميت باسم عنصر من العناصر المعروفة لنا، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذه الحقيقة الكونية في القرآن الكريم غير الله الخالق الذي أنزل هذا القرآن العظيم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظه حفظاً كاملاً: آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وأورد فيه مثل هذه الحقائق الكونية لتكون شاهدة على جميع الخلق إلى قيام الساعة بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمداً ﷺ ما كان ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

البأس الشديد للحديد:

الحديد عنصر فلزي عرفه القدماء، فيما عرفوا من الفلزات من مثل: الذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، والقصدير والزئبق، وهو أكثر العناصر انتشاراً في الأرض (9، 35%) ويوجد أساساً في الغلاف الصخري للأرض على هيئة مركبات الحديد من مثل: أكاسيد، وكربونات، وكبريتيدات، وكبريتات، وسيليكات ذلك العنصر، ولايوجد على هيئة الحديد النقي إلا في النيازك الحديدية التي تنزل إلى الأرض من السماء، وفي جوف الأرض.

والحديد عنصر فلزي شديد البأس، وهو أكثر العناصر ثباتاً وذلك لشدة تماسك مكونات النواة في ذرته التي تتكون من ستة وعشرين بروتوناً، وثلاثين نيوتروناً، ويدور حول نواة ذرة الحديد ستة وعشرون إليكتروناً، ولذلك تمتلك نواة ذرة الحديد أعلى قدر من طاقة التماسك بين جميع نوى العناصر الأخرى، بما في ذلك ما هو أعلى من الحديد في وزنه الذري، ولذا فإن نواة ذرة الحديد تحتاج إلى كميات هائلة من الطاقة لتفتيتها أو للإضافة إليها.

ويتميز الحديد وسبائكه المختلفة بين جميع العناصر والسبائك المعروفة بأعلى قدر من الخصائص المغناطيسية، والمرونة (القابلية للطرق والسحب وللتشكل)، والمقاومة للحرارة، ولعوامل التعرية الجوية. وتبلغ كثافة الحديد 7.874 جرام للسنتيمتر المكعب عند درجة

حرارة الصفر المطلق، وهو لا ينصهر قبل درجة1536 مئوية، ويغلي عند درجة3023 درجة مئوية تحت الضغط الجوي العادي عند سطح البحر. ومن هنا كان وصف الحديد في القرآن الكريم بالبأس الشديد سبقاً علمياً حقيقياً يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه وحي السماء.

منافع الحديد للناس:

للحديد منافع جمة وفوائد أساسية من أبرزها جعل الأرض صالحة للعمران بتقدير من الله ﷻ، فكمية الحديد الهائلة في كل من لب الأرض الصلب، ولبِّها السائل تلعب دوراً مهماً في جعلها قراراً أي كوكباً مستقراً، وفي توليد كل من جاذبية الأرض ومجالها المغناطيسي، وهذا المجال هو الذي يمسك بكل من الغلاف الغازي والمائي والحيوي للأرض بتقدير من الله سبحانه. وغلاف الأرض الغازي يحميها من الأشعة والجسيمات الكونية ومن العديد من أشعات الشمس الضارة، ومن ملايين الأطنان من النيازك التي تحترق كلها على هيئة الشهب أو يحترق أغلبها وتبقى منها فضلات على هيئة كل من النيازك الحديدية، والحديدية/ الصخرية، والصخرية، ويساعد الغلاف الغازي للأرض على ضبط العديد من العمليات المهمة من مثل: دورة كل من الماء، والأوكسجين، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون وغيرها من العمليات اللازمة لجعل الأرض كوكباً صالحاً للعمران.

وعنصر الحديد من اللبنات الأساسية في بناء الخلية الحية، إذ تدخل مركبات الحديد في تكوين المادة الخضراء في النباتات (الكلوروفيل) وهو المكون الأساسي للبلاستيدات الخضراء التي تقوم بعملية التمثيل الضوئي اللازمة لنمو النباتات، ولإنتاج الأنسجة النباتية المختلفة من مثل: الأوراق والأزهار، والبذور والثمار والتي عن طريقها يدخل الحديد إلى أنسجة ودماء كل من الإنسان والحيوان، وعملية التمثيل الضوئي هي الوسيلة الرئيسية لتكوين سلسلة الطعام على الأرض، ولتحويل طاقة الشمس إلى روابط كيميائية تختزن في أجساد جميع الكائنات الحية، وتكون مصدراً لنشاطها أثناء حياتها. وبعد تحلل أجساد تلك الكائنات بمعزل عن الهواء تتحول إلى مختلف صور الطاقة المعروفة كالقش، والحطب، والفحم النباتي، والفحم الحجري، والغاز الفحمي، والنفط، والغاز الطبيعي وغيرها.

والحديد يدخل في تركيب بروتينات نواة الخلية الحية الموجودة في المادة الحاملة للشيفرة الوراثية للخلية (الصبغيات) كما يوجد في سوائل الجسم المختلفة، وهو أحد مكونات الهيموجلوبين وهي المادة الأساسية في كرات الدم الحمراء المسؤولة عن نقل الأوكسجين إلى جميع أجزاء الجسم.

ويقوم الحديد بدور مهم في عملية الاحتراق الداخلي للأنسجة والتمثيل الحيوي بها.

ويوجد في كل من: الكبد، والطحال، والكلى، والعضلات والنخاع الأحمر. ويحتاج الكائن الحي إلى قدر محدد من الحديد إذا نقص تعرض للكثير من الأمراض التي من أوضحها فقر الدم.

والحديد عصب جميع الصناعات المدنية والعسكرية فلا تكاد صناعة معدنية أن تقوم في غيبة الحديد.

الوزن الذري والعدد الذري للحديد:

للحديد ثلاثة نظائر تقدر أوزانها الذرية بحوالي54، 56، 57 ولكن أكثرها انتشاراً (91.66%) هو النظير الذي يحمل الوزن الذري (55.847) أي حوالي 56.

Comparison of Estimated Abundances of Principal Elements in the Solid Earth and in Meteorites

Major Elements	Earth's Crust %	Total Earth %	Meteorites, Average %
1. Oxygen (())	45.00	28.00	32.00
2. Silicon (Si)	28.00	13.00	16.00
3. Aluminium (Al)	8.20	0.44	1.40
4. Iron (Fe)	5.60	35.00	29.00
5. Calcium (Ca)	4.20	0.61	1.50
6. Sodium (Na)	2.40	0.14	0.60
7. Potassium (K)	2.10	0.07	0.15
8. Magnesium (Mg)	2.00	17.00	12.00
9. Titanium (Ti)	0.57	0.04	
10. Phosphorus (P)	0.10	0.03	0.11
11. Manganese (Mn)	0.09	0.09	0.21
12. Sulphur (S)	0.03	2.70	2.10
13. Cromium (Cr)	0.01	0.01	0.34
14. Nickel (Ni)	0.007	2.70	1.60
15. Cobalt (Co)	0.002	0.20	0.12

جدول توزيع العناصر الرئيسة في كل من قشرة الأرض الصلبة والنيازك وكوكب الأرض ككل يبين أن عنصر الحديد يمثل أعلى نسبة لعنصر من عناصر تكوين الأرض

ومن الغريب أن رقم سورة الحديد في المصحف الشريف هو (57)، وهو يتفق مع الوزن الذري لأحد نظائر الحديد، ولكن هذا النظير ليس هو أكثر نظائر الحديد انتشاراً، فأكثرها وجوداً في كل من الأرض والنيازك القادمة إلينا من السماء هو النظير الذي وزنه الذري يقدر بحوالي (56). وبالرجوع إلى حقيقة أن القرآن الكريم يخاطب المصطفى ﷺ في سورة الحجر بقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ **(الحجر: 87).**

والسبع المثاني هي سورة الفاتحة بإجماع المفسرين، وعلى ذلك فإن هذه الآية الكريمة تفصل فاتحة الكتاب عن بقية القرآن الكريم، وتجعلها مقدمة له، وبذلك يصبح رقم سورة الحديد (56) وهو الوزن الذري لأكثر نظائر الحديد شيوعاً في الأرض، كذلك فإن وصف سورة الفاتحة بالسبع المثاني وآياتها ست يؤكد أن البسملة آية منها ومن كل سورة من سور القرآن الكريم ذكرت البسملة في مقدمتها، وقد ذكرت في مقدمة كل سور القرآن الكريم ما عدا سورة التوبة؛ وعلى ذلك فإذا أضفنا البسملة في مطلع سورة الحديد إلى رقم آية الحديد وهو (25) أصبح رقم الآية (26) وهو نفس قيمة العدد الذري للحديد، ولا يمكن أن يكون هذا التوافق الدقيق قد جاء بمحض المصادفة؛ وصدق الله العظيم الذي قال في وصفه للقرآن الكريم:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ **(النساء: 166).**

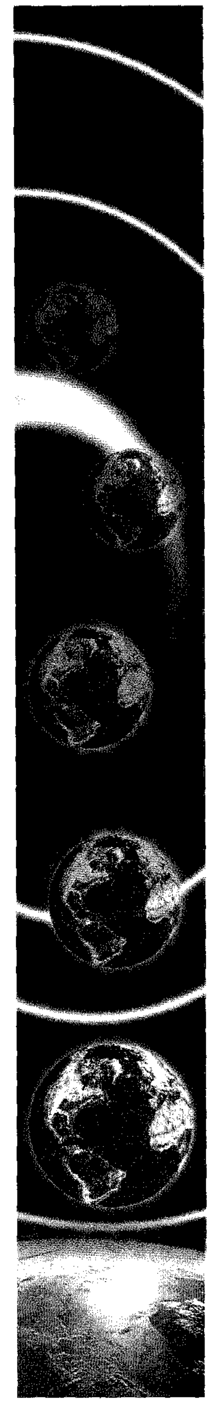
وقوله - تعالى - ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ **(النساء: 82).**

فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(4) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾

(النازعات: 30 ـ 31)



هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الربع الأخير من سورة «النازعات»، وهي سورة مكية، تعني كغيرها من سور القرآن المكي بقضية العقيدة، ومن أسسها: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وغالبية الناس منشغلون عن الآخرة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن قضايا البعث، والحساب، والجنة، والنار، وهذه القضايا هي محور هذه السورة ـ على قِصَرها ـ فآياتها ستة وأربعون بعد البسملة.

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله ـ تعالى ـ بعدد من طوائف ملائكته الكرام، وبالمهام المكلفين بها، على أن الآخرة حق واقع، وأن البعث والحساب أمر جازم فتقول:

﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ (النازعات: 1 ـ 5).

ثم تعرض الآيات في «سورة النازعات» لشيء من أهوال الآخرة مثل: (الراجفة والرادفة) وهما: إما وصفان لكل من الأرض والسماء وكل منهما يدمَّر في الآخرة الواحد تلو الآخر، أو يقصد بهما النفختان الأولى التي تميت كل حي، والثانية التي تحيي كل ميت بإذن الله. وتنتقل الآيات بعد ذلك إلى وصف حال الكفار، والمشركين، والملاحدة المتشككين، العاصين لأوامر رب العالمين في ذلك اليوم الرهيب، وقلوبهم خائفة وجلة، وأبصارهم خاشعة ذليلة، بعد أن كانوا ينكرون البعث في الدنيا، ويتساءلون عنه استبعاداً له، واستهزاءً به

سؤالاً أَبْلَهَ مضمونه: هل في الإمكان أن نبعث من جديد بعد أن تبلى الأجساد، وتنخر العظام؟ وترد الآيات عليهم حاسمة قاطعة بقرار الله الخالق أن الأمر بالبعث صيحة واحدة، فإذا بكافة الخلائق قيام يبعثون من قبورهم ليواجهوا الحساب، أو كأنهم حين يبعثون يظنون أنهم عائدون إلى الدنيا مرة ثانية فيفاجأون بالآخرة...!!

وفي ذلك تقول الآيات:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ **(النازعات: 6 ـ 14)**.

وبعد ذلك تلمِّح الآيات إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَئِهِ، من قبيل مواساة رسولنا ﷺ في الشدائد التي كان يلقاها من الكفار والمشركين، وتحذيرهم مما حل بفرعون وبالمكذبين من قومه من عذاب، وجعل ذلك عبرة لكل عاقل يخشى الله ـ تعالى ـ ويخاف حسابه إلى يوم الدين.

وفي ذلك تقول الآيات:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ **(النازعات: 15 ـ 26)**.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب إلى منكري البعث من كفار قريش ومن الناس عامة بسؤال تقريعي توبيخي تقول فيه: هل خلق الناس ـ على ضآلة أحجامهم، ومحدودية قدراتهم، وأعمارهم، وأماكنهم من الكون ـ أشد خلقاً من السماء وبنائها، ورفعها بلا عمد مرئية إلى هذا العلو الشاهق ـ مع ضخامة أبعادها، وتعدد أجرامها، ودقة المسافات بينها، وإحكام حركاتها، وتعاظم القِوى الممسكة بها وإظلام ليلها، وإنارة نهارها؟ وأشد من دحو الأرض، وإخراج مائها ومرعاها منها بعد ذلك، وإرساء الجبال عليها، وإرساء الأرض بها، تحقيقاً لسلامتهم وأمنهم على سطح الأرض، ولسلامة أنعامهم ومواشيهم...؟؟، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ **(النازعات: 27 ـ 33)**.

وبعد الإشارة إلى بديع صنع الله في خلق السمٰوات والأرض كدليل قاطع على إمكانية البعث عاودت الآيات الحديث عن القيامة وسمتها بالطامة الكبرى، لأنها داهية عظمى تعم بأهوالها كل شيء، وتغطي على كل مصيبة مهما عظمت. وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسان أعماله من الخير والشر، ويراها مدونة في صحيفة أعماله، وبرزت جهنم للناظرين، فرآها كل إنسان عياناً بياناً، وحينئذٍ ينقسم الناس إلى شقي وسعيد، فالشقي هو الذي جاوز الحد في الكفر والعصيان، وفَضَّل الدنيا على الآخرة، وهذا مأواه جهنم وبئس المصير، والسعيد هو الذي نهى نفسه عن اتباع هواها انطلاقاً من مخافة مقامه بين يدي ربه يوم الحساب، وهذا مأواه ومصيره إلى جنات النعيم بإذن الله تعالى، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ **(النازعات: 34 ـ 41)**.

وتُختَتَم السورة الكريمة بخطاب إلى رسول الله ﷺ متعلق بسؤال كفار قريش له عن الساعة متى قيامها؟. وترد الآيات بأن علمها عند الله الذي استأثر به دون كافة خلقه؛ فمردها ومرجعها إلى الله ـ تعالى ـ وحده، وأما دور النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ فهو إنذار من يخشاها. وهؤلاء الكفار والمشركون يوم يشاهدون قيامها فإن هول المفاجأة سوف يمحو من الذاكرة معيشتهم على الأرض، فيرونها كأنها كانت ساعة من ليل أو نهار، بمقدار عشية أو ضحاها؛ احتقاراً للحياة الدنيا، واستهانة بشأنها أمام الآخرة، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ **(النازعات: 42 ـ 46)**.

ويأتي ختام السورة متوافقاً مع مطلعها الذي أقسم فيه ربنا ﷻ على حقيقة البعث وحتميته، وأهواله وخطورته، لزيادة التأكيد على أنه أخطر حقائق الكون وأهم أحداثه، لكي يتم تناسق البدء مع الختام، وهذا من صفات العديد من سور القرآن الكريم.

وهنا يبرز التساؤل عن معنى دحو الأرض، وعلاقته بإخراج مائها ومرعاها، ووضعه في مقابلة مع إرسال الجبال ـ من جهة ـ ومع بناء السماء ورفعها ـ من جهة أخرى ـ على عظم هذا البناء وذلك الرفع كصورة واقعة لطلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق.

و(الدحو) في اللغة العربية: هو المد والبسط والإلقاء، يقال: (دحا) الشيء (يدحوه)

(دحواً) أي بسطه ومده، أو ألقاه ودحرجه، ويقال: (دحا) المطر الحصى عن وجه الأرض أي دحرجه وجرفه، ويقال: مر الفرس (يدحو) (دحواً) إذا جَرَّده على وجه الأرض فيدحو ترابها؛ و(مدحى) النعامة هو موضع بيضها، و(أدحيها) موضعها الذي تفرخ فيه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾.

• ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «فسره بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾، وقد تقدم في سورة «فصلت» أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن دحيت بعد خلق السماء، بمعنى: أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل. عن ابن عباس: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال، والسبل والآكام، فذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾....».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مُخْتصره: «﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ أي: بسطها ومهدها لتكون صالحة للحياة، وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو .﴿أَخْرَجَ﴾ حال بإضمار (قد) أي: دحاها مخرجاً ﴿مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ بتفجير عيونها، ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ ما ترعاه النعم من الشجر والعشب، وما يأكله الناس من الأقوات والثمار. وإطلاق المرعى عليه استعارة».

• وذكر صاحب الظلال ـ يرحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «ودحو الأرض: تمهيدها وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحةً للسير عليها، وتكوين تربة تصلح للإنبات...، والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع، أو ما ينزل من السماء فهو أصلاً من مائها الذي تبخر ثم نزل في صورة مطر؛ وأخرج من الأرض مرعاها، وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام، وتعيش عليه الأحياء مباشرة أو بالواسطة...».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «ودحا الأرض؛ بمعنى: بسطها، وأوسعها، بعد ذكر ذلك الذي ذكره من بناء السماء، ورفع سمكها، وتسويتها، وإغطاش ليلها، وإظهار نهارها. وقد بين الله الدحو بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون، وإجراء الأنهار والبحار العظام .﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: جميع ما يقتات به الناس والدواب بقرينة قوله بعد: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ وأخبرنا بعد ذلك بأنه هو الذي بسط الأرض، ومهدها لسكنى أهلها ومعيشتهم فيها: وقدم الخبر الأول: لأنه أدل على القدرة الباهرة لعظم السماء، وانطوائها على الأعاجيب التي تحار فيها العقول. فبعدية

الدحو إنما هي في الذكر لا في الإيجاد، وبجعل المشار إليه هو ذكر المذكورات من البناء وما عطف عليها لا أنفسها، كي لا يكون في الآية دليل على تأخر الدحو عن خلق السموات وما فيها».

• وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ بأي: والأرض بعد خلق السماء بسطها ومهدها لسكنى أهلها ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ بأي: أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس والأنعام».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «والأرض بعد ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها، وأخرج منها ماءها بتفجير عيونها، وإجراء أنهارها، وإنبات نباتها ليقتات به الناس والدواب. . .».

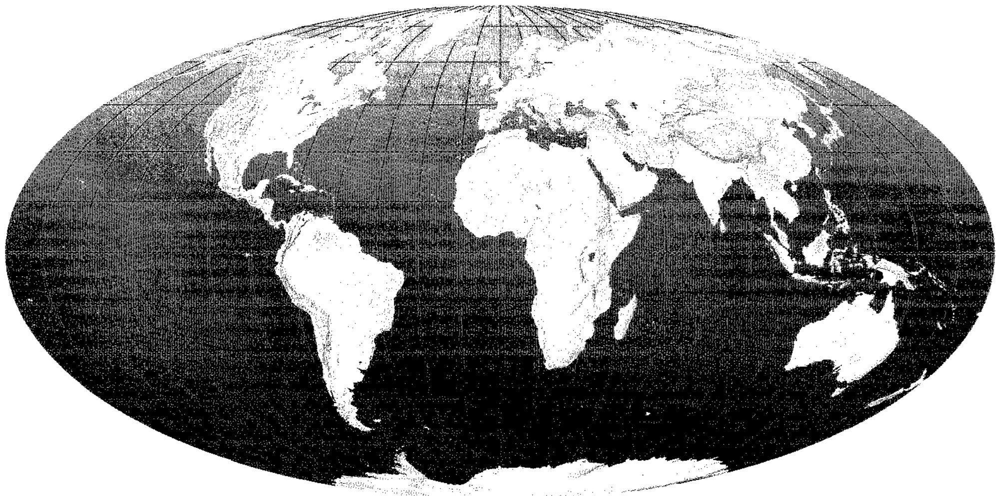
وهذا الاستعراض يدل على أن المفسرين السابقين يجمعون على أن من معاني دحو الأرض: إخراج الماء والمرعى من داخلها، على هيئة العيون وإنبات النبات.

دحو الأرض في العلوم الكونية

أولاً: دحو الأرض بمعنى إخراج كل من ماء الأرض وغلافها الغازي من داخلها:

كوكب الأرض هو أغنى كواكب مجموعتنا الشمسية في الماء، ولذلك يطلق عليه اسم: (الكوكب المائي) أو (الكوكب الأزرق). وتغطي المياه نحو 71% من مساحة سطح الأرض، بينما تشغل اليابسة نحو 29% من مساحة سطحها فقط، وتقدر كمية الماء على سطح الأرض بنحو1360 مليون كيلومتر مكعب (1.36×10^9)؛ وقد حار العلماء منذ القدم في تفسير كيفية تجمع هذا الكم الهائل من الماء على سطح الأرض، من أين أتى؟ وكيف نشأ؟

وقد وضعت نظريات عديدة لتفسير نشأة الغلاف المائي للأرض، تقترح إحداها أن ذلك قد تم بتفاعل كل من غازي الإيدروجين والأوكسيجين في حالتهما الذرية في الغلاف الغازي الأولى المحيط بالأرض في مراحل خلقها الأولى. وتقترح نظرية ثانية أن ماء الأرض أصله من جليد المذنبات، وترى ثالثة أن كل ماء الأرض قد أخرج أصلاً من داخل الأرض. والشواهد العديدة التي تجمعت لدى العلماء تؤكد أن كل ماء الأرض قد أخرج

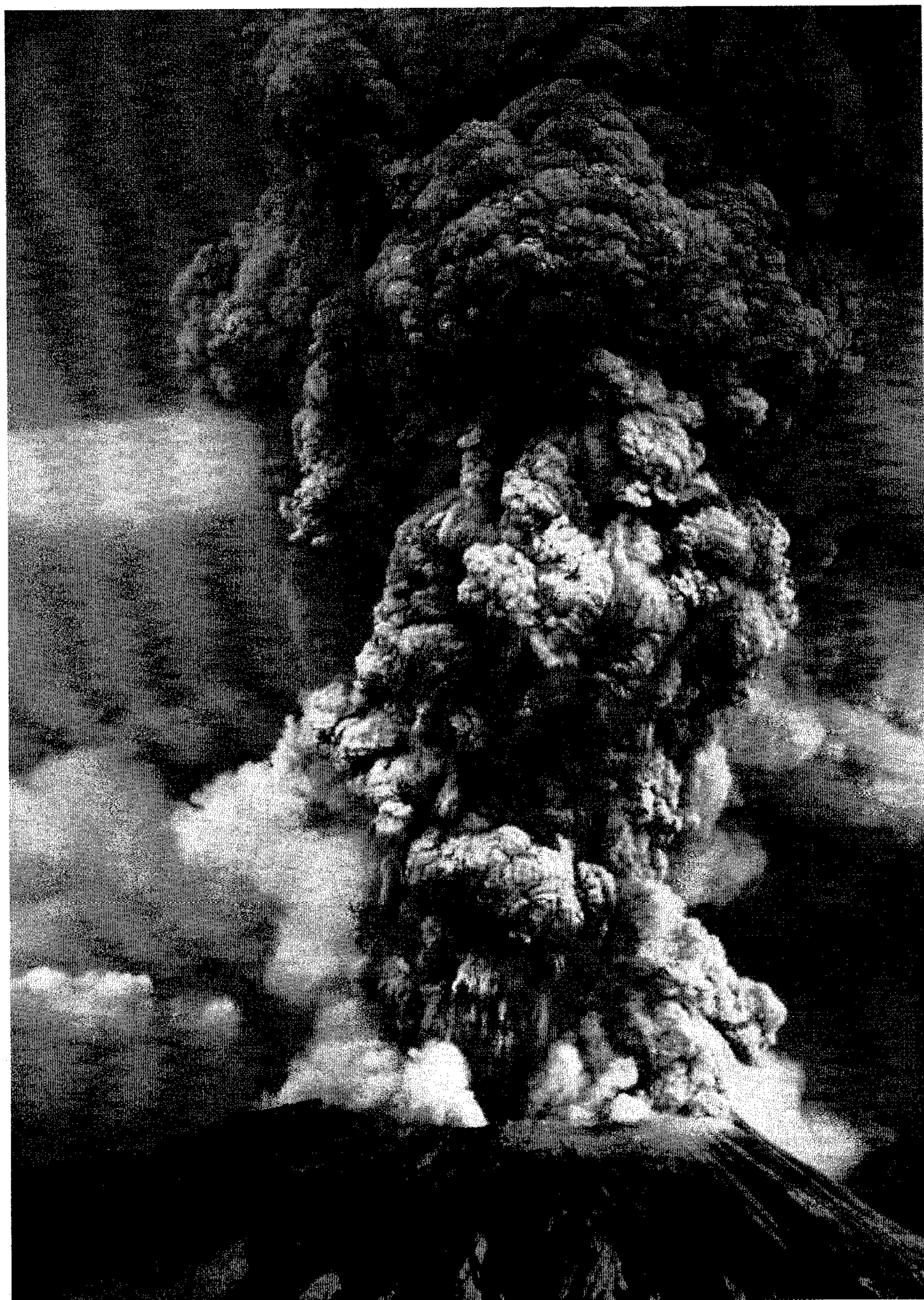


المياه تغطي نسبة 71٪ من مساحة سطح الأرض

أصلاً من داخلها، ولا يزال خروجه مستمراً من داخل الأرض عبر الثورات البركانية المتعاقبة.

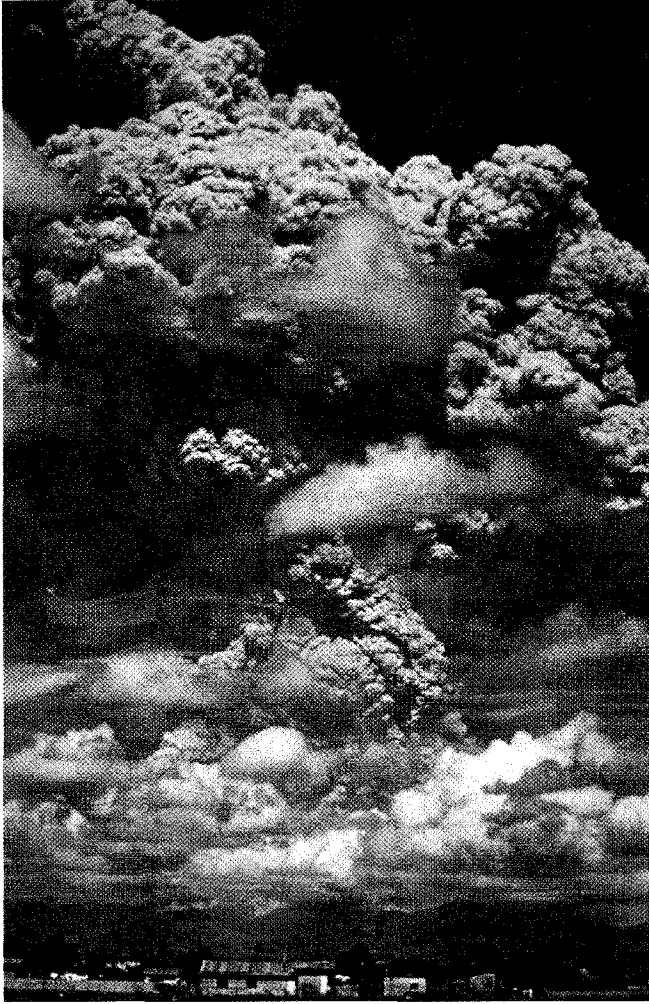
وبتحليل الأبخرة المتصاعدة من فوهات البراكين في أماكن مختلفة من الأرض اتضح أن بخار الماء تصل نسبته إلى أكثر من 70% من مجموع تلك الغازات والأبخرة البركانية، بينما يتكون الباقي من أخلاط مختلفة من الغازات التي ترتب حسب نسبة كل منها على النحو التالي: ثاني أكسيد الكربون، الإيدروجين، أبخرة حمض الأيدروكلوريك (حمض الكلور)، النيتروجين، فلوريد الإيدروجين، ثاني أكسيد الكبريت، كبريتيد الإيدروجين، غازات الميثان والأمونيا وغيرها.

ويصعب تقدير كمية المياه المندفعة على هيئة بخار الماء إلى الغلاف الغازي للأرض من فوهات البراكين الثائرة، علماً بأن هناك نحو عشرين ثورة بركانية عارمة في المتوسط تحدث في خلال حياة كل فرد منا، ولكن مع التسليم بأن الثورات البركانية في بدء خلق الأرض كانت أكثر تكراراً وأشد عنفاً من معدلاتها الراهنة، فإن الحسابات التي أجريت بضرب متوسط ما تنتجه الثورة البركانية الواحدة من بخار الماء من فوهة واحدة في متوسط مرات ثورانها في عمر البركان في عدد الفوهات والشقوق البركانية النشيطة والخامدة الموجودة اليوم على سطح الأرض، أعطت رقماً قريباً جداً من الرقم المحسوب لكمية الماء على سطح الأرض.



الأبخرة البركانية تساهم في تكوين الغلاف الغازي للأرض

الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي هي مصدر مياه وغازات الأرض:



بخار يتصاعد من فوهة بركان

ثبت أخيراً أن المياه تحت سطح الأرض توجد على أعماق تفوق كثيراً جميع التقديرات السابقة، كما ثبت أن بعض مياه البحار والمحيطات تتحرك مع رسوبيات قيعانها الزاحفة إلى داخل الغلاف الصخري للأرض بتحرك تلك القيعان تحت كتل القارات، ويتسرب الماء إلى داخل الغلاف الصخري للأرض كذلك، عبر شبكة هائلة من الصدوع والشقوق التي تنتشر أساساً في قيعان كل محيطات الأرض وفي قيعان أعداد من بحارها.

وشبكة الصدوع هذه تمزق الغلاف الصخري للأرض في مختلف الاتجاهات، وتحيط بالأرض إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين (65) كيلومتراً تحت قيعان البحار والمحيطات، ومائة وخمسين كيلومتراً على اليابسة.

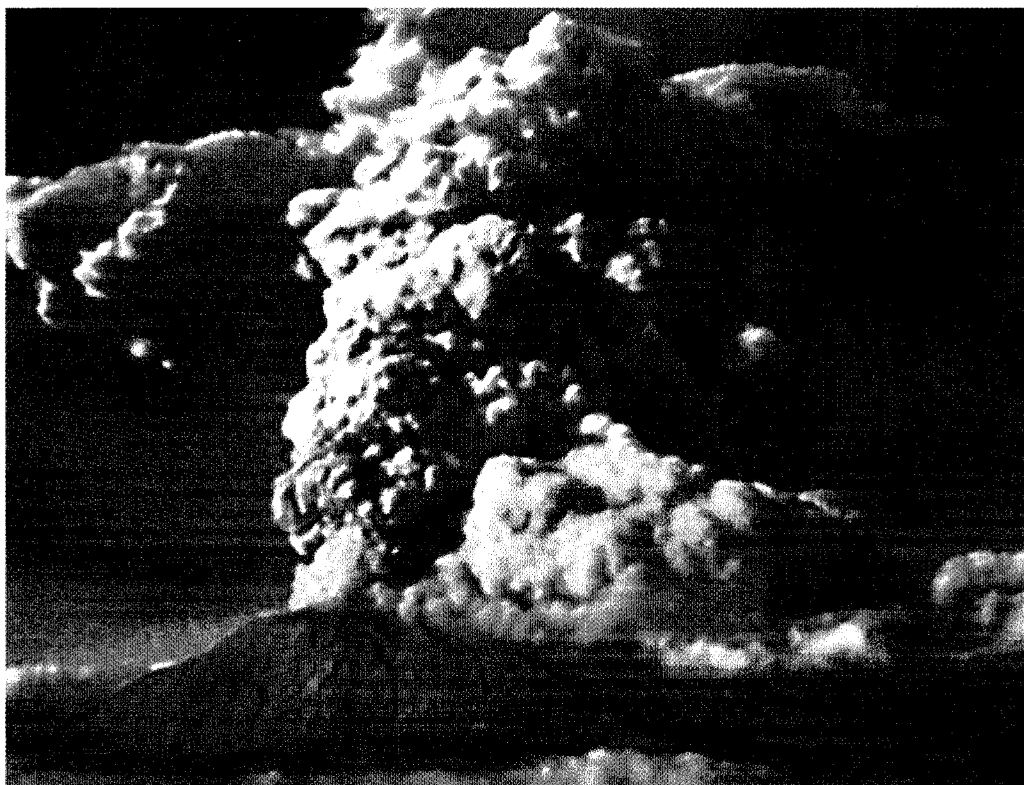
وقد ثبت أن الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي هي مصدر المياه الأرضية، وتلعب دوراً مهماً في حركة تلك المياه من داخل الأرض إلى السطح وبالعكس؛ وذلك لأنه لولا امتصاصها للمياه ما انخفضت درجة حرارة انصهار الصخور، وهي لو لم تنصهر لتوقفت ديناميكية الأرض بما في ذلك الثورات البركانية. وقد ثبت أنها المصدر الرئيسي

لكل من الغلاف المائي والغازي للأرض.

وعلى ذلك فقد أصبح من المقبول عند علماء الأرض أن النشاط البركاني الذي صاحب تكوين الغلاف الصخري للأرض في بدء خلقها هو المسؤول عن تكوُّن كل من غلافيها المائي والغازي، ولا تزال ثورات البراكين تلعب دوراً مهماً في إثراء سطح الأرض بالمياه، وفي تغيير التركيب الكيميائي لغلافها الغازي وهو المقصود بدحو الأرض، وذلك نابع من حقيقة أن الماء هو السائل الغالب في الصهارات الصخرية على الرغم من أن نسبته المئوية إلى كتلة الصهارة قليلة بصفة عامة، ولكن نسبة عدد جزيئات الماء إلى عدد جزيئات مادة الصهارة تصل إلى نحو 15%، وعندما تتبرد الصهارة الصخرية تبدأ مركباتها في التبلور بالتدريج، وتتضاغط الغازات الموجودة فيها إلى حجم أقل، وتتزايد ضغوطها حتى تفجِّر الغلاف الصخري للأرض بقوة تصل إلى مائة مليون طن على السنتيمتر المربع، فتشق ذلك الغلاف وتبدأ الغازات في التمدد والانفلات من الذوبان في الصهارة الصخرية، ويندفع كل من بخار الماء والغازات المصاحبة له والصهارة الصخرية إلى خارج فوهة البركان أو عبر الشقوق والفواصل والصدوع الأرضية المتصاعدة منها مرتفعة إلى عدة كيلومترات لتصل إلى كل أجزاء نطاق التغيرات المناخية (8 ـ 18 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر)، وقد تصل هذه النواتج البركانية في بعض الثورات البركانية العنيفة إلى نطاق التطبق (30 ـ 80 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر) وغالب مادة هذا السحاب الحار الذي تتراوح درجة حرارته بين (250)، (500) درجة مئوية يعاود الهبوط إلى الأرض بسرعات تصل إلى مائتي (200) كيلومتر في الساعة؛ لأن متوسط كثافته أعلى بكثير من متوسط كثافة الغلاف الغازي للأرض.

والماء المتكثف من هذا السحاب البركاني الحار يقطر مطراً من بين ذرات الرماد التي تبقى عالقةً بالغلاف الغازي للأرض لفترات طويلة فيجرف معه هذا الماء الهاطل كميات هائلة من الرماد والحصى البركاني المتجمع على سطح الأرض حول فوهة البركان مكوناً تدفقاً للطين البركاني على سطح الأرض في صورة من صور الدحو الذي قد يشكل خطراً داهماً على القرى والمزارع المجاورة. ومنذ فترة قصيرة ثار بركان في إحدى جزر الفلبين، فغمرت المياه المتكونة أثناء ثورته قريةً مجاورةً آهلةً بالسكان غمراً كاملاً.

وقد يصاحب الثورات البركانية خروج عدد من الينابيع والنافورات الحارة في ثورات دورية للمياه المتفاوتة في درجات حرارتها والأبخرة شديدة الحرارة، التي تندفع إلى خارج الأرض بفعل الطاقة الحرارية العالية المخزونة في أعماق القشرة الأرضية.



سحب بركانية ضخمة تتصاعد من بركان سانت هيلين بولاية واشنطن سياتل

ويعتقد علماء الأرض أن وشاح كوكبنا «الأرض» كان في بدء خلقه منصهراً انصهاراً كاملاً أو جزئياً، ولا يزال جزؤه الأعلى في حالة لدنة، شبه منصهرة، عالية اللزوجة والكثافة ـ نطاق الضعف الأرضي ـ، ويعتقد أن هذه الصهارة كانت هي المصدر الرئيسي لبخار الماء ولعدد من الغازات التي اندفعت من داخل الأرض. وقد لعبت هذه الأبخرة والغازات التي تصاعدت عبر كل من فوهات البراكين وشقوق الأرض ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً مهماً في تكوين وإثراء كل من الغلافين المائي والغازي للأرض ولعل هذا هو المقصود بالدحو.

دورة الماء حول الأرض:

شاءت إرادة الخالق العظيم أن يُسْكِنَ في الأرض هذا القدر الهائل من الماء، الذي يكفي جميع متطلبات الحياة على هذا الكوكب، ويحفظ التوازن الحراري على سطحه، كما يقلل من فروق درجات الحرارة بين كل من الصيف والشتاء صوناً للحياة بمختلف أشكالها.

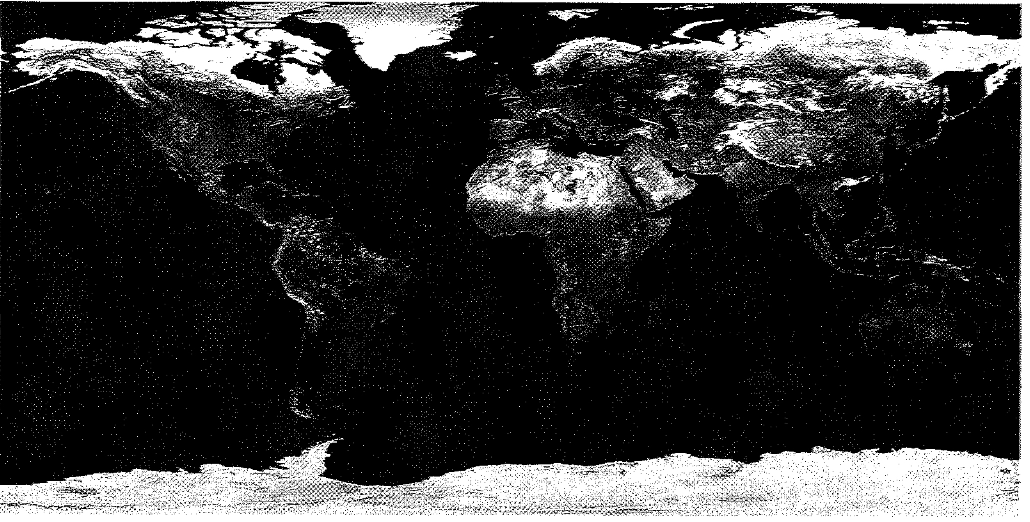


الثلوج على قمم الجبال تؤمن الرطوبة المطلوبة لنطاق المناخ من الغلاف الغازي للأرض

وهذا القدر الذي يكون الغلاف المائي للأرض أخرجه الله ـ تعالى ـ من داخل الأرض بكميات محسوبة بدقةٍ بالغة، فلو زاد قليلاً لغطى كل سطحها، ولو قل قليلاً لقصر دون الوفاء بمتطلبات الحياة عليها. وللتوفيق بين هذين الأمرين حبس ربنا ﷻ كماً من هذا الماء على هيئة سمك هائل من الجليد فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال كي يوفر للأرض مصدراً للرطوبة المطلوبة ويكشف من اليابسة ما يسمح للحياة بالانتشار عليها.

ولكي يحفظ ربنا ﷻ هذا الماء من التعفن والفساد، حَرَّكه في دورة معجزة تعرف باسم: دورة المياه الأرضية، وتحمل هذه الدورة في كل سنة 380,000 كيلومتراً مكعباً من الماء بين الأرض وغلافها الغازي. ولما كانت نسبة بخار الماء في الغلاف الغازي للأرض ثابتة، فإن كم سقوط الأمطار سنوياً على الأرض يبقى مساوياً لكم التبخُّر من على سطحها وإن تباينت أماكن وكميات السقوط في كل منطقة حسب الإرادة الإلٰهية، ولذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله: «**ما من عام بأقل مطراً من عام**»[1] (أخرجه البيهقي عن ابن مسعود)

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الحديث: 6275).



خارطة توضح تجمع الجليد فوق كل من جرينلاند والقارة القطبية الجنوبية

وقوله ﷺ: «**ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه**»[1] (أخرجه الحاكم عن ابن عباس).

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب؛ وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[2] (رواه البخاري عن زيد بن خالد الجهني).

ويبلغ متوسط سقوط الأمطار على الأرض اليوم بحوالي 85.7 سنتيمتراً مكعباً في السنة، ويتراوح بين 11.45 متراً مكعباً في جزر «هاواي» وصفر في كثير من صحاري الأرض.

وتبخر أشعة الشمس من أسطح البحار والمحيطات320,000 كيلومتراً مكعباً من الماء في كل عام، وأغلب هذا البخر يتم من المناطق الاستوائية حيث تصل درجة الحرارة في المتوسط إلى 25 درجة مئوية، بينما تسقط على البحار والمحيطات سنوياً من مياه المطر284,000 كيلومتراً مكعباً، ولكي يبقى منسوب المياه في البحار والمحيطات ثابتاً في زماننا فإن الفرق بين كمية التبخر من أسطح البحار والمحيطات وكمية ما يسقط عليها من مطر لابد وأن يفيض إليها من القارات.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (الحديث: 2/ 437).
(2) أخرجه البخاري في الصحيح (الحديث: 991).

وبالفعل فإن التبخر السنوي من أسطح القارات يقدَّر بستين ألف (60,000) كيلومتراً مكعباً، بينما يسقط عليها سنوياً ستة وتسعون ألفاً (96,000) من الكيلومترات المكعبة من ماء المطر، والفارق بين الرقمين بالإيجاب هنا هو نفس الفارق بالسلب بين كمية المطر وكمية التبخر في البحار والمحيطات (36,000 كيلومتر مكعب) فسبحان الذي ضبط دورة الماء حول الأرض بهذه الدقة الفائقة.

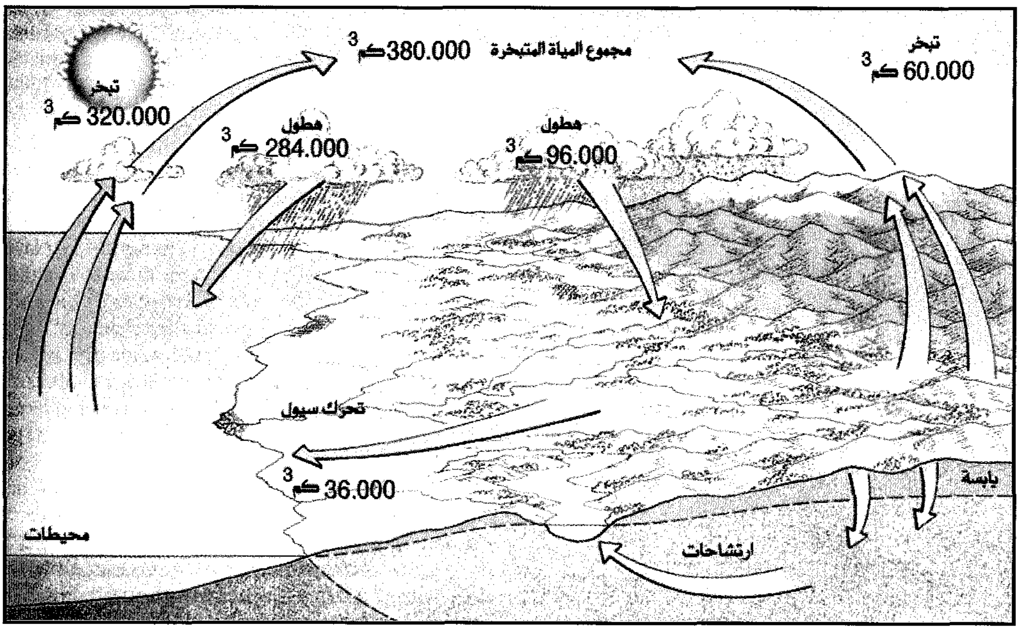
ويتم التبخر على اليابسة من أسطح البحيرات والمستنقعات، والبرك، والأنهار، وغيرها من المجاري المائية، ومن أسطح تجمعات الجليد، وبطريقة غير مباشرة من أسطح المياه تحت سطح الأرض، ومن عمليات تنفس وعرق وإفرازات الحيوانات، ونتح النباتات، ومن فوهات البراكين.

ولما كان متوسط ارتفاع اليابسة هو823 متراً فوق مستوى سطح البحر، ومتوسط عمق المحيطات3800 متراً تحت مستوى سطح البحر؛ فإن ماء المطر الذي يفيض سنوياً من اليابسة إلى البحار والمحيطات؛ ويقدر بستة وثلاثين ألفاً من الكيلومترات المكعبة ينحدر مولداً طاقةً ميكانيكيةً هائلةً تشق الفجاج والسبل في تضاريس الأرض المعقدة، وتفتت الصخور، وتكون الرسوبيات والصخور الرسوبية بما يتركز فيهما من ثروات أرضية، وتكون التربة الزراعية على اليابسة وهي لازمة لإنبات الأرض، ولو أنفقت البشرية كل ما تملك من ثروات مادية ما استطاعت أن تدفع قيمة هذه الطاقة التي سخرها لنا ربنا ﷻ من أجل تهيئة الأرض لكي تكون صالحةً للعمران...!!!.

توزيع الماء على سطح الأرض:

تقدر كمية الماء على سطح الأرض بنحو1360 مليون كيلومتراً مكعباً، أغلبها على هيئة ماء مالح في البحار والمحيطات تقدر نسبته بحوالي (97.20%) من مجموع ماء الأرض، بينما يتجمع الباقي (2.8%) على هيئة الماء العذب بأشكاله الثلاثة الصلبة، والسائلة، والغازية؛ منها (2.15% من مجموع ماء الأرض) على هيئة تجمعات من الجليد تغطي المنطقتين القطبيتين الجنوبية والشمالية بسمك يقترب من الأربعة كيلومترات، كما يغطي القمم الجبلية العالية، والباقي ويقدر بنحو 0.65% فقط من مجموع ماء الأرض يختزن أغلبه في صخور القشرة الأرضية على هيئة مياه تحت سطح الأرض، تليها في الكثرة النسبية مياه البحيرات العذبة، ثم رطوبة التربة الأرضية، ثم رطوبة الغلاف الغازي للأرض، ثم المياه الجارية في الأنهار وتفرعاتها.

وحينما يرتفع بخار الماء من الأرض إلى غلافها الغازي فإن أغلبه يتكثف في «نطاق



رسم تخطيطي يوضح دورة الماء حول الأرض

الرجع» ـ المعروف باسم نطاق الطقس أو نطاق التغيرات المناخية ـ والذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع يتراوح بين (16) و(17) كيلومتراً فوق خط الاستواء، وبين (6) و(8) كيلومترات فوق القطبين، ويختلف سمكه فوق خطوط العرض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية، فينكمش إلى ما هو دون السبعة (7) كيلومترات في مناطق الضغط المنخفض، ويمتد إلى نحو الثلاثة عشر كيلومتراً (13) في مناطق الضغط المرتفع. وعندما تتحرك كتل الهواء الحار في نطاق الرجع من المناطق الاستوائية في اتجاه القطبين، فإنها تضطرب فوق خطوط العرض الوسطى فتزداد سرعة الهواء في اتجاه الشرق متأثراً باتجاه دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق.

ويضم «نطاق الرجع» حوالي 66% من كتلة الغلاف الغازي للأرض، ويتناقص كل من درجة الحرارة والضغط فيه باستمرار مع الارتفاع حتى تصل في قمته المعروفة باسم: «مستوى الركود الجوي» إلى نحو 60 درجة مئوية تحت الصفر وإلى عشر الضغط الجوي العادي عند سطح البحر وذلك فوق خط الاستواء.

ونظراً لهذا الانخفاض الملحوظ في كل من درجة الحرارة والضغط الجوي، وإلى الوفرة النسبية لنوى التكثف في هذا النطاق، فإن بخار الماء الصاعد من الأرض يتمدد فيه تمدداً ملحوظاً مما يزيد من فقدانه لطاقته، ومن تبرده تبرداً شديداً، ويساعد على تكثفه



جريان الماء على سطح الأرض يشق الفجاج والسبل ويفتت الصخور مكوناً الرسوبيات ومهيئاً الأرض للإنبات

وعودته إلى الأرض مطراً أو برداً أو ثلجاً، وعودته بدرجة أقل على هيئة ضباب وندى في المناطق القريبة من سطح الأرض.

ثانياً: دحو الأرض بمعنى إخراج ثاني أكسيد الكربون من داخلها:

ثبت أن أكثر الغازات اندفاعاً من فوهات البراكين بعد بخار الماء هو ثاني أكسيد الكربون الذي يعتبر أساس عملية التمثيل الضوئي التي تقوم بتنفيذها النباتات الخضراء، مستخدمةً هذا الغاز مع الماء وعدد من عناصر الأرض لبناء العديد من الكربوهيدرات التي تبني منها خلايا النبات وأنسجته، وزهوره، وثماره، ومن هنا عبَّر القرآن الكريم عن إخراج هذا الغاز المهم وغيره من الغازات اللازمة لإنبات النبات من الأرض تعبيراً مجازياً بإخراج المرعى؛ لأنه لولا ثاني أكسيد الكربون ما أنبتت الأرض، ولا كستها الخضرة.

وقد عبَّر القرآن الكريم عن تلك الحقائق الكونية المتضمنة إخراج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض من داخل الأرض بأسلوبٍ لا يفزع العقلية البدوية في صحراء الجزيرة العربية وقت تنزله، فقال:

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ **(النازعات: 30، 31)**

والعرب في قلب الجزيرة العربية كانوا يرون الأرض تتفجر منها عيون الماء، فقالوا: هذا هو إخراج مائها منها، ويرون الأرض تُكسى بالعشب الأخضر بمجرد سقوط المطر عليها، فقالوا: هذا هو إخراج مرعاها منها ففهموا هذا المعنى الصحيح الجميل من هاتين الآيتين الكريمتين، ثم نأتي نحن اليوم فنرى في نفس الآيتين رؤية جديدة مفادها أن الله - تعالى - يمن على الأرض وعلى جميع من يحيا على سطحها بأن هيأها لهذا العمران بإخراج كلٍّ من أغلفتها الصخرية والمائية والغازية من داخلها حيث تصل درجات الحرارة إلى آلاف الدرجات المئوية، مما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبكمال العلم، وتمام الحكمة، كما يشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقَّى هذا الوحي الخاتم بأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قِبَل خالق السمٰوات والأرض، فلم يكن لأحدٍ من الخلق وقت تنزل القرآن الكريم ولا لقرونٍ متطاولةٍ من بعده إلمام بحقيقة أن كل ماء الأرض، وكل هواء الأرض قد أخرجه ربنا ﷻ من داخل الأرض، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلّا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في القرآن الكريم بهذه الدقة والشمول والإحاطة لمِمَّا يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بذلك إلى قيام الساعة ليبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين بأنه كلام رب العالمين. فسبحان منزل القرآن من قبل أربعة عشر قرناً واصفاً إياه بقوله الكريم:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾

(الفرقان: 6).

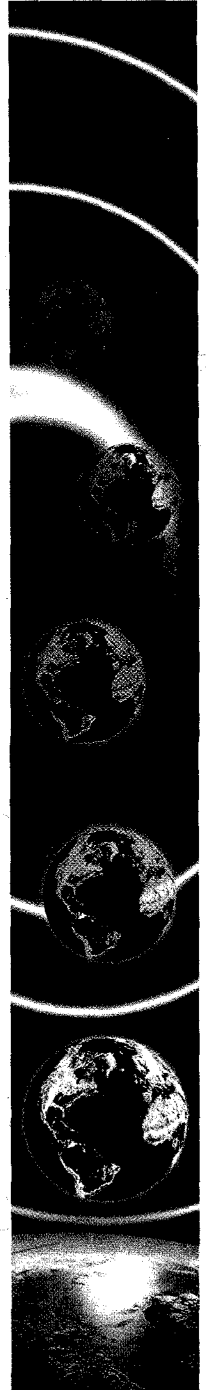
وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأمين الذي تلقَّى هذا الوحي الرباني فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، والذي وصفه ربنا ﷻ بقوله الكريم:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ **(النساء: 166).**

الثلوج والبحار صورة من صور توزيع الماء على سطح الأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

(5) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: 41)



هذه الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة «الرعد»، وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي تحمل اسم ظاهرة من الظواهر الجوية. وسورة «الرعد» توصف بأنها سورة مدنية. وإن كان الخطاب فيها خطاباً مكياً، يدور حول أسس العقيدة الإسلامية ومن أولها قضية الإيمان بالوحي المنزل من رب العالمين إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، والإيمان بما اشتمل عليه هذا الوحي الرباني من الحق، ومن ركائزه: الإيمان بالله، وبوحدانيته المطلقة فوق كافة خلقه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وما يستتبعه من بعث ونشور، وعرض أكبر أمام الله، وحساب وجزاء، وما يستوجبه هذا الإيمان من خشية لله وتقواه، وحرص على طلب رضاه بالعمل الصالح؛ لأن ذلك كله نابع من الإيمان بالوحي، وبأن الله ـ تعالى ـ هو منزل القرآن الداعي إلى عبادة الله بما أمر ﷻ، وبالقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن عمارتها، وإقامة عدل الله فيها. وتعجب الآيات من منكري البعث والحساب والجزاء؛ الذين كفروا بربهم، وكذَّبوا رسله، وجحدوا آياته، وتعرض لشيء من عذابهم في الآخرة، وخلودهم في النار.

وتستشهد السورة في مواضع كثيرة منها بالعديد من الآيات والظواهر الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق والإفناء، وفي الإماتة والإحياء، وفي النفع والضر، والشاهدة على أن كل ما جاء به القرآن الكريم هو حق مطلق وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون.

ثم تقارن الآيات بين كل من أهل النار وأهل الجنة، وبين أوصاف كل فريق منهم وخصاله وأعماله، وضربت لهما مثلاً بالأعمى والبصير، وبينت مصير كل من الفريقين، مع تصوير رائع لكل من الجنة والنار.

وتستطرد آيات «سورة الرعد» في الحديث عن عدد من الظواهر الكونية من مثل: حدوث الرعد، والبرق، والصواعق، وتكوين السحاب الثقال، وإنزال المطر، وتدفق الأودية بمائه حاملةً من الزبد والخبث الذي لا يلبث أن يذهب جفاء، ومما ينفع الناس من نفائس المعادن التي لا تلبث أن تمكث في الأرض، وتشبه الآيات الكريمة ذلك بكل من الباطل والحق، ولله المثل الأعلى.

ثم تعرض السورة لحقيقة غيبية تتمثل في تسبيح الرعد بحمد الله، وتسبيح الملائكة خشية لجلالهِ، وخيفة من سلطانه، وجميع من في السمٰوات والأرض يسجد لله طوعاً وكرهاً، حتى ظلالهم فإنها تسجد لله بالغدو والآصال؛ أي: مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، فيمد الظل ويقبض في حركة كأنها الركوع والسجود.

وتنعي الآيات على الكفار استهزاءهم بالرسل السابقين على بعثة المصطفى ﷺ، وفي الإشارة إلى ذلك ضرْبٌ من التثبيت لرسول الله ﷺ، ومن التأكيد له على أن الابتلاء هو طريق النبوات، وطريق أصحاب الرسالات من بدء الخلق إلى قيام الدعوة المحمدية وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها...!!!.

وتشير السورة الكريمة بالقرب من نهايتها إلى فرح الصالحين من أهل الكتاب بمقدم الرسول الخاتم ﷺ، في الوقت الذي حاول فيه الكفار والمشركون التشكيك في حقيقة بعثته، وفي صدق رسالته. وتؤكد الآيات إنزال القرآن حكماً عربياً مبيناً، وتدعو المصطفى ﷺ إلى الحذر من ضغوط الكافرين من أجل اتباع أهوائهم، وتؤكد أنه ما كان لرسول من الرسل أن يأتي بآية إلا بإذن الله، لأنه مبلغ عن رب العالمين بما يتلقاه من علم.

ثم تأتي الآية الكريمة التي نحن بصددها ناطقةً بحقيقةٍ كونيةٍ يقول عنها ربنا ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ **(الرعد: 41).**

ويتكرر معنى هذه الآية الكريمة مرة أُخرى في سورة الأنبياء التي يقول فيها ربنا ﷻ: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ **(الأنبياء: 44).**

وتتحدث سورة «الرعد» عن مكر الأمم السابقة الذي لم يضر المؤمنين شيئاً؛ لأن لله ـ تعالى ـ المكر جميعاً، وأن له ﷻ عقبى الدار، وتختتم بالإشارة إلى إنكار الكافرين لبعثة المصطفى ﷺ، وتأتي الآيات مؤكدةً أن الله تعالى يشهد له بالنبوة والرسالة، وكذلك كل من عنده علم من رسالات الله السابقة لوجود ذكره ﷺ في الآيات التي لم تحرَّف من بقايا كتبهم.

الإشارات الكونية في سورة «الرعد»

من الآيات الكونية التي استعرضتها سورة الرعد ما يلي:

(1) رفع السمٰوات بغير عمد مرئية.

(2) تسخير كل من الشمس والقمر إلى أجل مسمى.

(3) مد الأرض، وخلق كل من الرواسي والأنهار فيها.

(4) خلق الثمار ـ كما خلق كل شيء ـ في زوجية واضحة.

(5) إغشاء الليل بالنهار، والنهار بالليل.

(6) توزيع البركات في الأرض على قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ويفضل الله بعضها على بعض في الأكل.

(7) علم الله تعالى بما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار.

(8) تقسيم الكون إلى عالم الغيب وعالم الشهادة، وكله أمام علم الله واحد؛ لأن الغيب المكنون الذي لا تدركه عيون البشر وحواسهم مكشوف لعلم الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء..

(9) وصف عدد من الظواهر الكونية المبهرة كالرعد.، والبرق، والصواعق بدقة علمية بالغة.

(10) الإشارة إلى إنشاء السحاب الثقال وإنزال المطر منها.

(11) التأكيد على سجود كل من في السمٰوات والأرض لله ـ تعالى ـ طوعاً وكرهاً، وظلالهم بالغدو والآصال.

(12) الإقرار بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء.

(13) الإشارة إلى إنقاص الأرض من أطرافها، وهي حقيقة جامعة لم يدركها الإنسان إلا مؤخراً.

(14) تشبيه الباطل بزبد السيل أو زبد الفلزات المصهورة، وتشبيه الحق بما يمكث في الأرض مترسباً من ماء السيل من مثل: الجواهر والمعادن النفيسة والنافعة، أو بما يبقى بعد صهر الفلزات الثمينة والمفيدة مع عدد من المواد لتخليصها مما قد يكون فيها من شوائب على هيئة الخبث أو الزبد. وهنا يبرز التساؤل المنطقي: ما هو معنى إنقاص الأرض من أطرافها؟ وما هو مغزى دلالتها العلمية؟ وقبل الخوض في ذلك لابد من استعراض سريع لشروح المفسرين لهذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض»، ثم قال في مقام آخر: إنقاصها من أطرافها هو خرابها بموت علمائها، وفقهائها، وأهل الخير منها، وأضاف: والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ **(الأحقاف: 27)** الآية، وأشار إلى أن هذا هو اختيار ابن جرير. كذلك ذكر ابن كثير قول كل من مجاهد وعكرمة: «إنقاص الأرض من أطرافها معناه: خرابها، أو هو موت علمائها، وقول كل من الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، كما قالا: هو نقصان الأنفس والثمرات، وخراب الأرض، وقول الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك (أي: بستانك)، ولكن تنقص الأنفس والثمرات».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مختصره: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: أهل مكة وغيرها ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ نقصد أرضهم، ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ بالفتح على النبي ﷺ».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «أن يد الله القوية تأتي الأمم الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وقدرها وثرائها وتحصرها في رقعةٍ ضيقةٍ من الأرض بعد أن كانت ذات امتداد وسلطان».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أأنكروا نزول ما وعدناهم؛ أو شكوا ولم يروا أننا نفتح أرضهم من جوانبها ونلحقها بدار الإسلام؟! أولم يروا هلاك من قبلهم وخراب ديارهم كقوم عاد وثمود؟ فكيف يأمنون حلول ذلك بهم؟!».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: «أي: أو لم ير هؤلاء المشركون أنا نمكن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام؟ وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجز وعده لرسوله ﷺ».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وأن أمارات العذاب والهزيمة قائمة! ألم ينظروا إلى أنا نأتي الأرض التي قد استولوا عليها، يأخذها منهم المؤمنون جزءاً بعد جزء؟ وبذلك ننقص عليهم الأرض من حولهم، والله وحده هو الذي يحكم بالنصر أو الهزيمة، والثواب أو العقاب، ولا رادَّ لحكمه، وحسابه سريع في وقته، فلا يحتاج الفصل إلى وقت طويل؛ لأن عنده علم كل شيء، فالبينات قائمة». وفي الهامش ذكر الخبراء ما يلي: «تتضمن هذه الآية حقائق وصلت إليها البحوث العلمية الأخيرة، إذ ثبت أن سرعة دوران الأرض حول محورها، وقوة طردها المركزي يؤديان إلى تفلطح في القطبين وهو نقص في طرفي الأرض، وكذلك عرف أن سرعة انطلاق جزيئات الغازات المغلفة للكرة الأرضية، إذا ما جاوزت قوة جاذبية الأرض لها، فإنها تنطلق إلى خارج الكرة الأرضية، وهذا يحدث بصفة مستمرة فتكون الأرض في نقص مستمر لأطرافها، لا أرض أعداء المؤمنين، وهذا احتمال في التفسير تقبله الآية الكريمة».

من الدلالات العلمية لإنقاص الأرض من أطرافها

ترد لفظة (الأرض) في القرآن الكريم بمعنى الكوكب ككل، كما ترد بمعنى اليابسة التي نحيا عليها من كتل القارات والجزر البحرية والمحيطية، وإن كانت ترد أيضاً بمعنى التربة التي تغطي صخور اليابسة. ولإنقاص الأرض من أطرافها في إطار كل معنى من تلك المعاني عدد من الدلالات العلمية التي نحصي منها ما يلي:

أولاً: في إطار دلالة لفظة (الأرض) على (الكوكب) ككل:

في هذا الإطار نجد ثلاثة معان علمية بارزة يمكن إيجازها فيما يلي:

(أ) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى انكماشها على ذاتها وتناقص حجمها باستمرار:

يقدر متوسط قطر الأرض الحالية بحوالي12742 كم، ونصف ذلك أي نصف قطر الأرض يساوي (6371 كم)، ويقدر متوسط محيطها بنحو (40,042) كم، ويقدر حجمها بأكثر من مليون مليون كم^3. وتفيد الدراسات أن أرضنا مرت بمراحل متعددة من التشكيل منذ انفصال مادتها عن سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن عملية الانفجار العظيم، إما

مباشرةً أو بطريقةٍ غير مباشرة عبر سديم الدخان الذي تولدت عنه مجموعتنا الشمسية، وبذلك خلقت الأرض الأولية التي لم تكن سوى كومة ضخمة من الرماد ذات حجم هائل يقدر بمائة ضعف حجمها الحالي على الأقل، ومكونةً من عدد من العناصر الخفيفة. ثم ما لبثت تلك الكومة أن رجمتْ بِوابلٍ من النيازك الحديدية، والحديدية الصخرية، والصخرية، كتلك التي تصل الأرض في زماننا بكميات تتراوح بين الألف والعشرة آلاف طن سنوياً من مادة الشهب والنيازك على أقل تقدير.

وبحكم كثافتها العالية نسبياً اندفعت النيازك الحديدية إلى مركز تلك الكومة من الرماد حيث استقرت، مولدةً حرارةً عالية تعرف باسم حرارة الاستقرار أدت إلى صهر كومة الرماد وإلى تمايزها إلى سبع أرضين على النحو التالي:

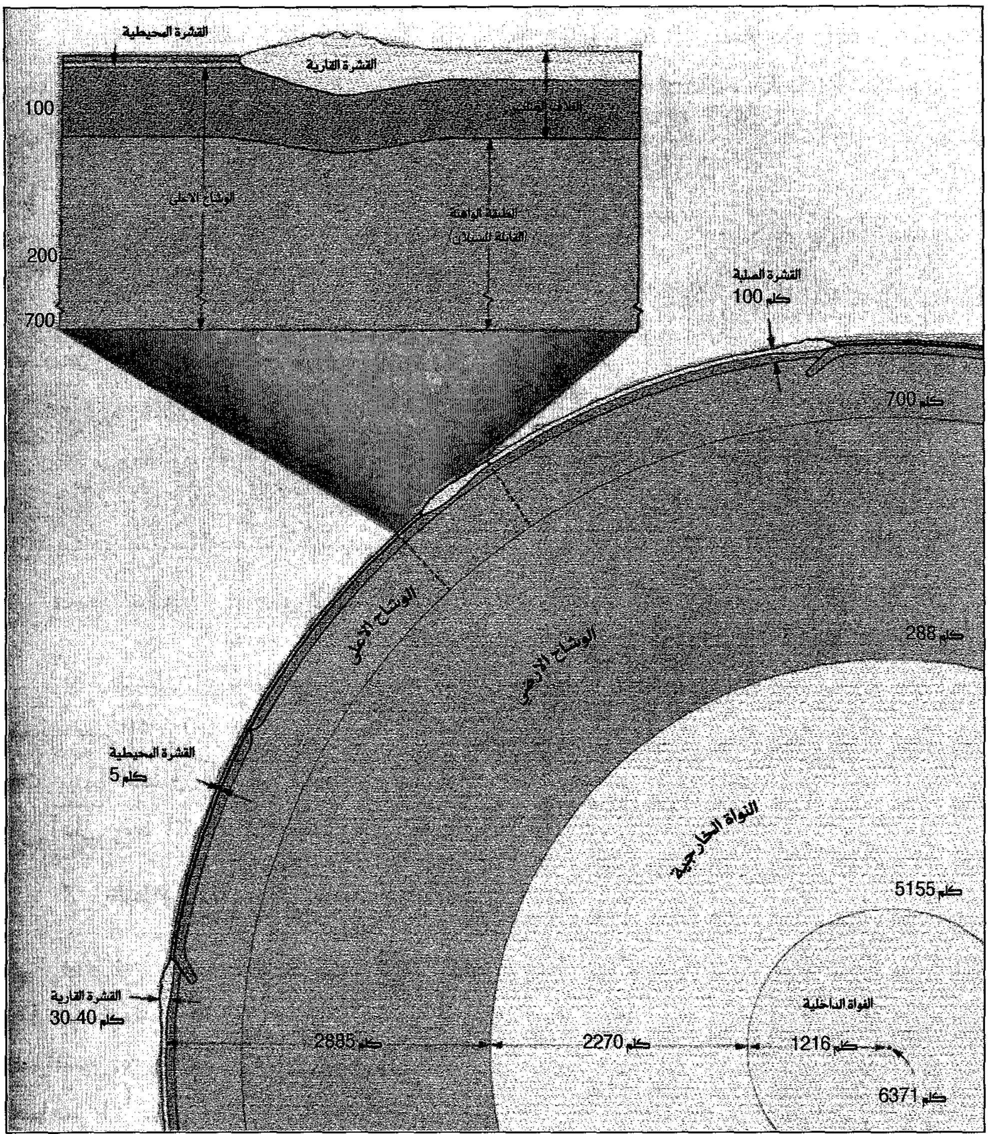
1 ـ لب صلب داخلي: عبارة عن نواة صلبة من الحديد (90%) وبعض النيكل (9%) مع قليل من العناصر الخفيفة مثل: الكربون والفوسفور، والكبريت والسيليكون والأوكسجين (1%) وهو قريب من تركيب النيازك الحديدية مع زيادةٍ واضحة في نسبة الحديد، ويبلغ قطر هذه النواة حالياً ما يقدر بحوالي2432 كم، وتقدر كثافتها بحوالي 10 إلى 13.5 جرام/ سم^3 (الأرض السابعة).

2 ـ نطاق لب الأرض السائل (الخارجي): وهو نطاق سائل يحيط باللب الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي تقريباً ولكنه في حالة انصهار، ويقدر سمكه بحوالي2270 كم، ويفصله عن اللب الصلب منطقة انتقالية شبه منصهرة يبلغ سمكها450 كم تعتبر الجزء الأسفل من هذا النطاق. ويكون كل من لب الأرض الصلب والسائل حوالي 31% من كتلتها. ويعتبر لب الأرض السائل ما يعرف باسم الأرض السادسة.

3 ـ النطاق الأسفل من وشاح الأرض (الوشاح السفلي): وهو نطاق صلب يحيط بلب الأرض السائل، ويبلغ سمكه نحو2215 كم (من عمق670 كم إلى عمق2885 كم) ويفصله عن الوشاح الأوسط الذي يعلوه مستوى انقطاع للموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل (الأرض الخامسة).

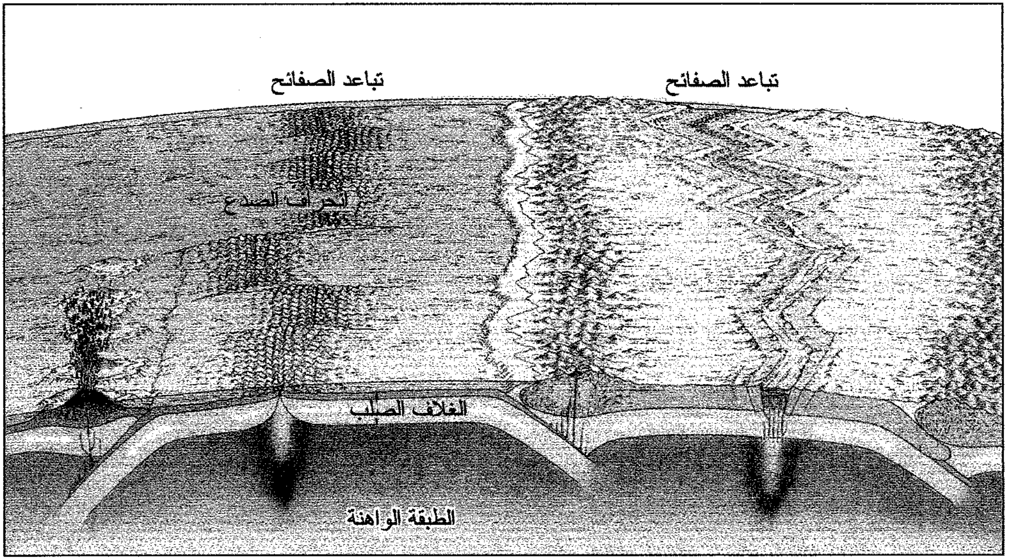
4 ـ النطاق الأوسط من وشاح الأرض (الوشاح الأوسط): وهو نطاق صلب يبلغ سمكه نحو270 كم، ويحده مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية يقع أحدهما على عمق670 كم ويفصله عن الوشاح الأسفل، ويقع الآخر على عمق400 كم ويفصله عن الوشاح الأعلى (ويعتبر الوشاح الأوسط هو الأرض الرابعة).

5 ـ النطاق الأعلى من وشاح الأرض (الوشاح العلوي): وهو نطاق لدن، شبه منصهر،



قطاع في الأرض يوضح بنيتها الداخلية

عالي الكثافة واللزوجة (نسبة الانصهار فيه في حدود 1%) يعرف باسم: «نطاق الضعف الأرضي» ويمتد بين عمق 65 كم وعمق400 كم تحت قيعان البحار والمحيطات، حيث يصل متوسط سمكه إلى 335 كم، وبين عمق 120 كم، 400 كم تحت القارات حيث يصل سمكه إلى 280 كم في المتوسط. ويعتقد بأن وشاح الأرض كان كله منصهراً في بدء خلق الأرض ثم أخذ في التصلب بالتدريج نتيجة لفقد جزء هائل من حرارة الأرض (الأرض الثالثة).



صورة لتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض

6 ـ النطاق السفلي من الغلاف الصخري للأرض (ما دون قشرة الأرض): ويتراوح سمكه بين40، 60 كم (بين أعماق60 و120 كم، أو بين 80 كم إلى عمق 120 كم) ويعتبر هذا النطاق الأرض الثانية، ويحده من أسفل الحد العلوي لنطاق الضعف الأرضي، ومن أعلى خط انقطاع الموجات الاهتزازية المعروف باسم: «الموهو».

7 ـ النطاق العلوي من الغلاف الصخري للأرض (قشرة الأرض):

ويتراوح متوسط سمكه بين (30، 40) كم تحت قيعان البحار والمحيطات وبين (60، 80) كم تحت القارات، ويتكون أساساً من العناصر الخفيفة مثل: السيليكون، والصوديوم، والبوتاسيوم، والكالسيوم، والألومنيوم، والأوكسجين مع قليل من الحديد (5.6%) وبعض العناصر الأُخرى وهو التركيب الغالب للقشرة القارية المكونة أساساً من الجرانيت والصخور الجرانيتية، أما قشرة قيعان البحار والمحيطات فتميل إلى تركيب الصخور البازلتية. وتعتبر قشرة الأرض الأرض الأولى لقول رسول الله ﷺ: «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»[1].

وأدى هذا التمايز في التركيب الداخلي للأرض إلى نشوء دورات من تيارات الحمل،

(1) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة، 355.

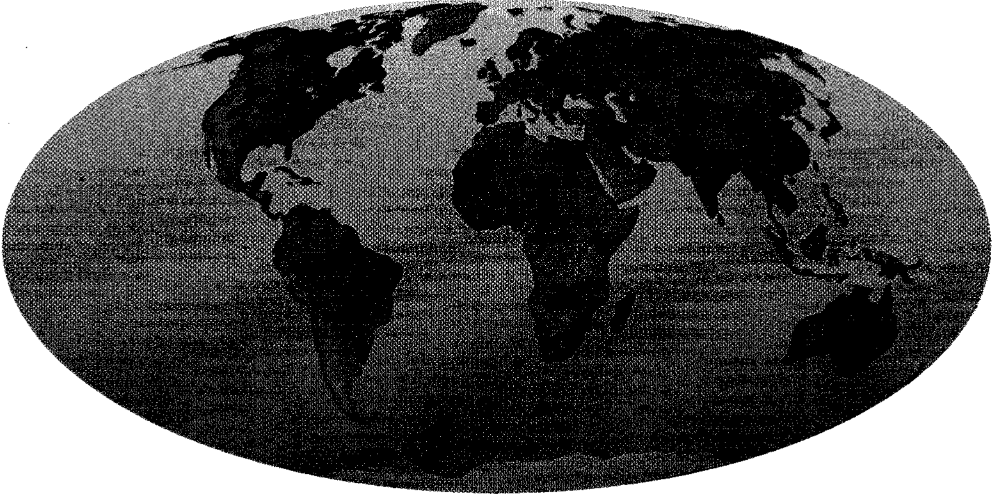
تندفع من نطاق الضعف الأرضي (الوشاح الأعلى) غالباً، ومن وشاح الأرض الأوسط أحياناً، لتمزق الغلاف الصخري للأرض إلى عددٍ من الألواح التي شرعت في التحرك حركة دائبة حول نطاق الضعف الأرضي، وتنشأ عن حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض دورات من الثورات البركانية، والهزات الأرضية، والحركات البانية للجبال، كما نشأ ولا يزال ينشأ عنها دحو الأرض بمعنى: إخراج كل من غلافيها المائي والغازي من جوفها وإخراج الصهارة الصخرية التي تكون كتل القارات.

وتشير حسابات ذلك الدحو إلى أن حجم الأرض البدائية كان على الأقل يصل إلى مائة ضعف حجم الأرض الحالية (والمقدر بأكثر قليلاً من مليون مليون كيلومتراً مكعباً)، وأن هذا الكوكب قد أخذ منذ اللحظة الأولى لخلقه في الانكماش على ذاته من كافة أطرافه. وانكماش الأرض على ذاتها سنة كونية لازمة للمحافظة على العلاقة النسبية بين كتلتي الأرض والشمس، هذه العلاقة التي تضبط بُعد الأرض عن الشمس؛ ذلك البعد الذي يحكم كمية الطاقة الواصلة إلينا. ويقدر متوسط بعد الأرض عن الشمس بنحو مائة وخمسين مليوناً من الكيلومترات، وإذا علمنا أن كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب من كواكب مجموعتها تتناسب تناسباً عكسياً مع بُعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها، بينما يتناسب طول سنة الكوكب تناسباً طردياً مع بُعده عنها ـ وسنة الكوكب هي المدة التي يستغرقها في إتمام دورة كاملة حول الشمس ـ، اتضحت لنا الحكمة من استمرارية تناقص الأرض وانكماشها على ذاتها أي: تناقصها من أطرافها.

ولو زادت الطاقة التي تصلنا من الشمس عن القدر الذي يصلنا اليوم قليلاً لأحرقتنا، وأحرقت كل حي على الأرض، ولبخرت الماء، وخلخلت الهواء، ولو قلت قليلاً لتجمدنا وتجمد كل حي غيرنا على الأرض ولقضي على الحياة الأرضية بالكامل.

ومن الثابت علمياً أن الشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية نحو خمسة ملايين من الأطنان على هيئة طاقة ناتجة من تحول غاز «الإيدروجين» بالاندماج النووي إلى غاز الهيليوم. وللمحافظة على المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس لابد وأن تفقد الأرض من كتلتها قدراً متناسباً تماماً مع ما تفقده الشمس من كتلتها، ويخرج ذلك عن طريق كل من فوهات البراكين وصدوع الأرض على هيئة الغازات والأبخرة وهباءات متناهية الضآلة من المواد الصلبة التي يعود بعضها إلى الأرض، ويتمكن البعض الآخر من الإفلات من جاذبية الأرض والانطلاق إلى صفحة السماء الدنيا، وبذلك الفقدان المستمر من كتلة الأرض فإنها

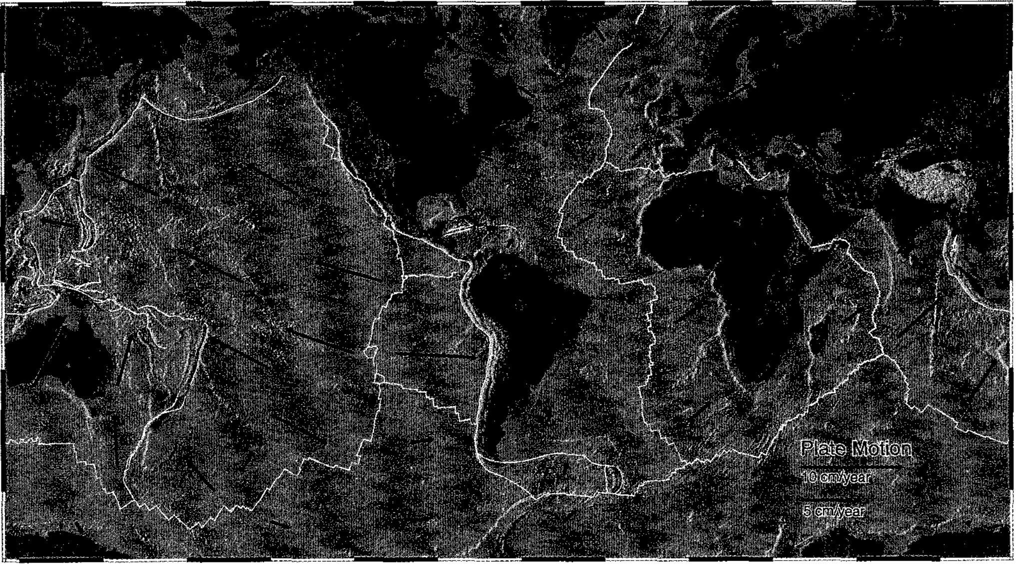
تنكمش على ذاتها، وتنقص من كافة أطرافها، وتحتفظ بالمسافة الفاصلة بينها وبين الشمس. ولولا ذلك لانطلقت الأرض من عقال جاذبية الشمس لتضيع في صفحة الكون وتهلك ويهلك كل من عليها، أو انجذبت إلى قلب الشمس حيث الحرارة في حدود15 مليون درجة مئوية فتنصهر وينصهر كل ما بها ومن عليها.



ومن حكمة الله البالغة أن كمية الشهب والنيازك التي تصل الأرض يومياً، تلعب دوراً هاماً في ضبط العلاقة بين كتلتي الأرض والشمس إذا زادت كمية المادة المنفلتة من عقال جاذبية الأرض عن القدر المقنن لها.

(ب) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى: تفلطحها قليلاً عند القطبين، وانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء:

في زمن الخليفة المأمون قيست المسافة المقابلة لكل درجة من درجات خطوط الطول في كل من تهامة والعراق، واستنتج من ذلك حقيقة أن الأرض ليست كاملة الاستدارة، وقد سبق العلماء المسلمون الغرب في ذلك بثمانية قرون على الأقل؛ لأن الغربيين لم يشرعوا في قياس أبعاد الأرض إلا في القرن السابع عشر الميلادي، حين أثبت «نيوتن» نقص تكور الأرض؛ وعلله بأن مادة الأرض لاتتأثر بالجاذبية نحو مركزها فحسب، ولكنها تتأثر كذلك بالقوة الطاردة المركزية (النابذة) الناشئة عن دوران الأرض حول محورها. وقد نتج عن ذلك انبعاج بطيء في الأرض ولكنه مستمر عند خط الاستواء، حيث تزداد القوة الطاردة المركزية حتى تصل إلى ذروتها، وتقل قوة الجاذبية إلى المركز إلى أدنى قدر



خارطة العالم توضح الصدوع في قيعان المحيطات

لها. ويقابل ذلك الانبعاج الاستوائي تفلطح - انبساط - غير متكافئ عند قطبي الأرض حيث تزداد قوتها الجاذبة، وتتناقص قيمة القوة الطاردة المركزية. والمنطقة القطبية الشمالية أكثر تفلطحاً من المنطقة القطبية الجنوبية. ويقدر متوسط قطر الأرض الاستوائي بنحو 12756.3 كم، ونصف قطرها القطبي بنحو 12713.6 كم وبذلك يصبح الفارق بين القطرين نحو 42.7 كم، ويمثل هذا التفلطح نحو 0.33% من نصف قطر الأرض، مما يدل على أنها عملية بطيئة جداً تقدر بنحو1 سم تقريباً كل ألف سنة، ولكنها عملية مستمرة منذ بدء خلق الأرض، وهي إحدى عمليات إنقاص الأرض من أطرافها.

(ج) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى: اندفاع قيعان المحيطات تحت القارات وانصهارها وذلك بفعل تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض:

يمزق الغلاف الصخري للأرض بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة التي تحيط بالأرض إحاطةً كاملةً، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات في الطول، وتتراوح أعماقها بين65 كم تحت قيعان البحار والمحيطات، و120كم، على اليابسة، وتقسم هذه الشبكة من الصدوع الغلاف الصخري للأرض إلى 12 لوحاً رئيسياً، وإلى عددٍ من الألواح الصغيرة نسبياً، ومع دوران الأرض حول محورها تنزلق ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق الضعف الأرضي متباعدة عن بعضها البعض، أو مصطدمة مع بعضها البعض،

ويعين على هذه الحركة اندفاع الصهارة الصخرية عبر مستويات الصدوع خاصةً خلال تلك المستويات التصدعية التي تمزق قيعان البحار والمحيطات والتي تشكل محاور حواف أواسط المحيطات، فتؤدي إلى اتساع قيعان البحار والمحيطات وإلى تجدد صخورها باستمرار؛ وذلك لأن الصهارة الصخرية المتدفقة بملايين الأطنان عبر مستويات صدوع أواسط المحيطات تؤدي إلى دفع جانبي قاع المحيط يمنة ويسرة لعدة سنتيمترات في السنة الواحدة، وينتج عن ذلك ملء المسافات الناتجة عن هذا التوسع بالطفوحات البركانية المتدفقة والتي تبرد وتتصلب على هيئة أشرطة متوازية تتقادم في العمر، في اتجاه حركة التوسع، وينتج عن هذا التوسع اندفاع صخور قاع المحيط يمنةً ويسرةً، في اتجاهي التوسع ليهبط تحت كتل القارات المحيطة في الجانبين بنفس معدل التوسع في الجانبين، أي: بنصفه في كل اتجاه. وتستهلك صخور قاع المحيط الهابطة تحت القارتين المحيطتين وذلك بالانصهار في نطاق الضعف الأرضي.

وكما يصطدم قاع المحيط بكتل القارتين أو القارات المحيطة بحوض المحيط أو البحر، فإن العملية التصادمية قد تتكرر بين كتل قاع المحيط الواحد فتتكون الجزر البركانية، وينقص قاع المحيط. كذلك يمكن أن تحدث عملية التصدع والتباعد في أواسط القارة فتؤدي إلى فصلها إلى كتلتين قاريتين ببحر طولي مثل: البحر الأحمر، ويظل هذا البحر الطولي في الاتساع حتى يتحول إلى محيط في المستقبل البعيد. وفي كل الحالات تستهلك صخور الغلاف الصخري للأرض عند خطوط التصادم، وتتجدد عند خطوط التباعد، وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها.

وتتخذ ألواح الغلاف الصخري للأرض في العادة أشكالاً رباعيةً يحدها من جهة خطوط انفصام وتباعد، يقابلها في الجهة الأُخرى خطوط التحام وتصادم، وفي الجانبين الآخرين حدود انزلاق، تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري منزلقة بِحُرية عن بعضها البعض. وتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض يؤدي باستمرار إلى استهلاك صخور قيعان كل محيطات الأرض، وإحلالها بصخور جديدة، وعلى ذلك فإن محاور المحيطات تشغلها صخور بركانية ورسوبية جديدة قد لا يتجاوز عمرها اللحظة الواحدة، بينما تندفع الصخور القديمة ـ التي قد يتجاوز عمرها المائتي مليون سنة ـ عند حدود تصادم قاع المحيط مع القارات المحيطة به، والصخور الأقدم عمراً من ذلك تكون قد هبطت تحت كتل القارات وهضمت في نطاق الضعف الأرضي وتحولت إلى صهارة، وهي صورة رائعة من صور إنقاص الأرض من أطرافها.

ويبدو أن هذه العمليات الأرضية المتعددة كانت في بدء خلق الأرض تتم بمعدلات أشد عنفاً من معدلاتها الحالية وذلك لتمتع جوف الأرض عند بدء الخلق بدرجات حرارة تفوق درجاتها الحالية، وذلك بسبب الكم الهائل من الحرارة المتبقية عن الأصل الذي انفصلت منه الأرض، والكم الهائل من العناصر المشعة وهي الآخذة في التناقص باستمرارٍ بتحللها الذاتي منذ بدء تجمد مادة الأرض.

ثانياً: في إطار دلالة لفظ الأرض على اليابسة التي نحيا عليها:

في هذا الإطار نجد معنيين علميين واضحين نوجزهما فيما يلي:

(أ) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى أخذ عوامل التعرية المختلفة من المرتفعات السامقة وإلقاء نواتج التعرية في المنخفضات من سطح الأرض حتى تتم تسوية سطحها: فسطح الأرض ليس تام الاستواء وذلك بسبب اختلاف كثافة الصخور المكونة للغلاف الصخري للأرض، وكما حدث انبعاج في سطح الأرض عند خط الاستواء، فإن هناك نتوءاتٍ عديدة في سطح الأرض حيث تتكون قشرة الأرض من صخور خفيفة، وذلك من مثل: كتل القارات والمرتفعات البارزة على سطحها، وهناك أيضاً انخفاضات مقابلة لتلك النتوءات حيث تتكون قشرة الأرض من صخور عالية الكثافة نسبياً وذلك من مثل: قيعان المحيطات والأحواض المنخفضة على سطح الأرض.

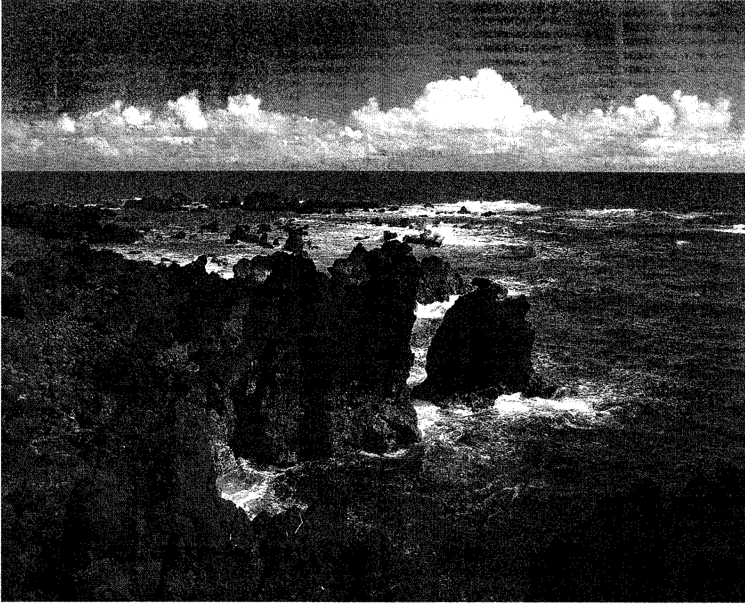
ويبلغ ارتفاع أعلى قمة على سطح الأرض وهي قمة جبل «إفريست» في سلسلة جبال «الهيمالايا» حوالي 8840 متراً فوق مستوى سطح البحر، ويقدر منسوب أخفض نقطة على اليابسة وهي حوض البحر الميت بحوالي 395 متراً تحت مستوى سطح البحر، ويبلغ منسوب أكثر أغوار الأرض عمقاً حوالي 11,020.0 متراً وهو غور «ماريانا» في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفليبين، والمسافة بين أعلى نقطة على سطح الأرض وأخفض نقطة عليها هو أقل من عشرين كيلومتراً (19860 متراً)، وهو فارق ضئيل إذا قورن بنصف قطر الأرض المقدر بحوالي 12742 كم في المتوسط.

ويبلغ متوسط ارتفاع سطح الأرض حوالي840 متراً فوق مستوى سطح البحر، بينما يبلغ متوسط أعماق المحيطات حوالي أربعة كيلومترات تحت مستوى سطح البحر (3729 متراً إلى 4500 متراً تحت مستوى سطح البحر) وهذا الفارق البسيط هو الذي أعان عوامل التعرية المختلفة على بري صخور المرتفعات وإلقائها في منخفضات الأرض في عمليات متكررة لتسوية سطحها، وهي سنَّة دائبة من سنن الله في الأرض، فإذا بدأنا بمنطقة مرتفعة ولكنها مستوية يغشاها مناخ رطب، فإن مياه الأمطار سوف تتجمع في منخفضات المنطقة

على هيئة عدد من البحيرات والبرك حتى يتكون للمنطقة نظام صرف مائي جيد، وعندما تجري الأنهار فإنها تنحر مجاريها في صخور المنطقة حتى تقترب من المستوى الأدنى للتحات فتسحب كل مياه البحيرات والبرك التي تمر بها، وكلما زاد النحر إلى أسفل تزايدت التضاريس تشكلاً وبروزاً، وعندما تصل بعض المجاري المائية إلى المستوى الأدنى للتحات فإنها تبدأ في النحر الجانبي لمجاريها بدلاً من النحر الرأسي، فيتم بذلك التسوية الكاملة لتضاريس المنطقة على هيئة سهول مستوية (أو سهوب) تتعرج فيها الأنهار، وتتسع مجاريها، وتضعف سرعات جريها وقدراتها على النحر، وبعد الوصول إلى هذا المستوى أو الاقتراب منه يتكرر رفع المنطقة وتعود الدورة إلى صورتها الأولى، وتعتبر هذه الدورة ـ التي تعرف باسم: دورة التسهب **(Peneplanation Cycle)** ـ صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها. وينخفض منسوب قارة أمريكا الشمالية بهذه العملية بمعدل يصل إلى 0.03 من المليمتر في السنة حتى يغمرها البحر إن شاء الله ـ تعالى ـ في القريب العاجل.

(ب) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى طغيان مياه البحار والمحيطات على اليابسة:

من الثابت علمياً أن الأرض قد بدأت منذ القدم بمحيط غامر، ثم بتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض والثورات البركانية المصاحبة له بدأت جزر بركانية عديدة في التكون في قلب هذا المحيط الغامر، وبتكرار تصادم تلك الجزر تكونت القارة الأم التي تَفَتَّتَتْ بعد ذلك إلى القارات السبع الحالية. وتبادل الأدوار بين اليابسة والماء هو سنة أرضية تعرف باسم: «**دورة التبادل بين المحيطات والقارات**»، وبواسطتها تحولت أجزاء من اليابسة إلى بحار أو العكس، ومن نماذجها المعاصرة كل من البحر الأحمر، وخليج كاليفورنيا، وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها. ليس هذا فقط بل إن من الثابت علمياً أن غالبية الماء العذب على اليابسة محجوز على هيئة تتابعات هائلة من الجليد فوق كل من قطبي الأرض وقمم الجبال، يصل سمكها في القطب الجنوبي إلى أربعة كيلومترات، ويقترب من هذا السمك قليلاً في القطب الشمالي (3800 متر)، وانصهار هذا السمك الهائل من الجليد يؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات لأكثر من مائة متر، وقد بدأت بوادر هذا الانصهار في الظهور، وإذا تم ذلك فإنه سوف يغرق أغلب مساحات اليابسة ذات التضاريس المنبسطة حول البحار والمحيطات، وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها، وفي ظل التلوث البيئي الذي يعم الأرض اليوم، والذي يؤدي باستمرار إلى رفع درجة حرارة نطاق المناخ المحيط بالأرض مباشرة، بات انصهار هذا السمك الهائل من الجليد أمراً محتملاً. وقد حدث ذلك مراتٍ عديدة في تاريخ الأرض

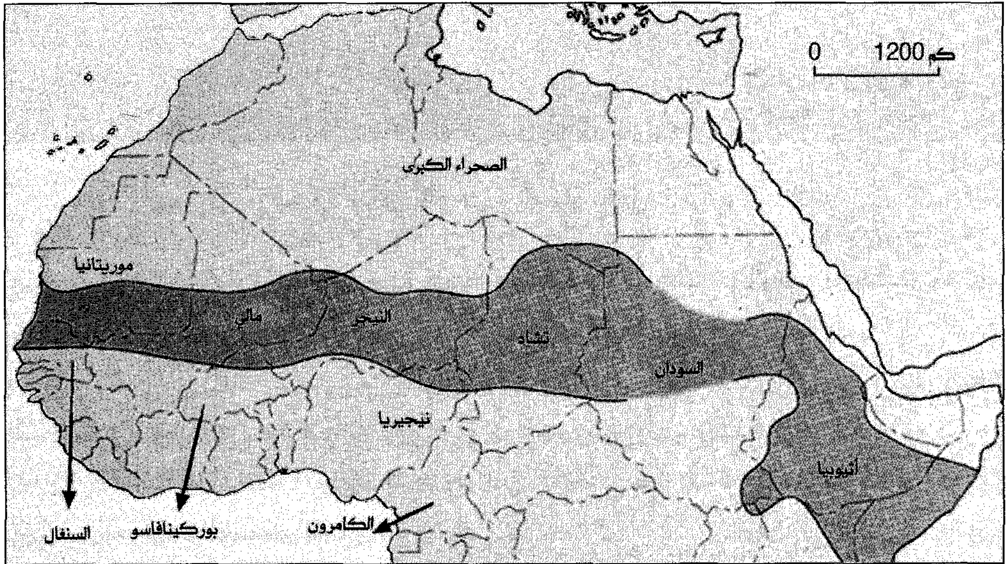


صورة لتآكل شواطىء البحار بفعل الأمواج

الطويل الذي تردد بين دورات يزحف فيها الجليد من أحد قطبي الأرض أو منهما معاً في اتجاه خط الاستواء، وفترات ينصهر فيها الجليد فيؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات، وفي كلتا الحالتين تتعرض حواف القارات للغمر وللتعرية بواسطة مياه البحار والمحيطات فتؤدي إلى إنقاص الأرض؛ أي: اليابسة من أطرافها؛ وذلك لأن مياه كل من البحار والمحيطات دائمة الحركة بفعل دوران الأرض حول محورها، وباختلاف كل من درجات الحرارة والضغط الجوي، وتباين نسب الملوحة من منطقة إلى أخرى، وتؤدي حركة المياه في البحار والمحيطات من مثل: التيارات المائية، وعمليات المد والجزر، والأمواج السطحية والعميقة إلى ظاهرة التآكل (التحات) البحري وهو الفعل الهدمي لصخور الشواطىء وهو من عوامل إنقاص الأرض (اليابسة) من أطرافها.

ثالثاً: في إطار دلالة لفظ الأرض على التربة التي تغطي صخور اليابسة:

إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى التصحر: أي: زحف الصحراء على المناطق الخضراء، وانحسار التربة الصالحة للزراعة في ظل إفساد الإنسان لبيئة الأرض. وقد بدأ زحف الصحاري على مساحاتٍ كبيرة من الأرض الخضراء بسبب ندرة المياه، ونتيجة لموجات الجفاف وللجور على مخزون المياه تحت سطح الأرض، وبسبب الرعي الجائر، واقتلاع الأشجار، وتحويل الأراضي الزراعية إلى أرض للبناء، مما أدى إلى تملح التربة، وتعريتها بمعدلاتٍ سريعة تفوق بكثير محاولات استصلاح بعض الأراضي الصحراوية. أضف إلى ذلك التلوث البيئي، والخلل الاقتصادي في الأسواق المحلية والعالمية، وتذبذب أسعار كل من الطاقة والآلات والمحاصيل الزراعية، مما يجعل العالم يواجه أزمة حقيقية تتمثل في انكماش المساحات المزروعة سنوياً بمعدلاتٍ كبيرة خاصة في المناطق القارية وشبه القارية نتيجة لزحف الصحاري عليها، ويمثل ذلك صورة من صور خراب الأرض بإنقاصها من أطرافها.

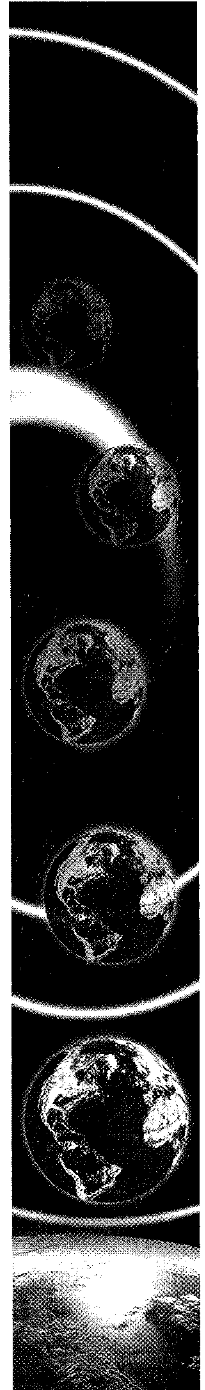


رسم يوضح حزام التصحر في قارة أفريقيا

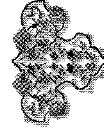
هذه المعاني الستة ـ منفردةً أو مجتمعةً ـ تعطي بعداً علمياً رائعاً لمعنى إنقاص الأرض من أطرافها، ولا يتعارض ذلك أبداً مع الدلالة المعنوية للتعبير؛ بمعنى خراب

الأرض الذي استنتجه المفسرون، بل يكمله ويجليه. وعلى عادة القرآن الكريم تأتي الإشارة الكونية بمضمون معنوي محدد، ولكن بصياغةٍ علميةٍ معجزة، تبلغ من الشمول والكمال والدقة ما لم يبلغه علم الإنسان، فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة هذه الإشارة العلمية الدقيقة إلى حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها، وهي حقيقة لم يدرك الإنسان شيئاً من دلالاتها العلمية إلا منذ عقود قليلة، وقد يرى فيها القادمون من بعدنا فوق ما نراه نحن اليوم؛ ليظل القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وتظل آياته الكونية شاهدة باستمرار على أنه كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ﷻ بذلك الحفظ إلى أن يرث الأرض ومن عليها. وتبقى هذه الآيات الكونية في كتاب الله شاهدة له بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية و شاهدة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.





بسم الله الرحمن الرحيم



(6) ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾



(الطارق: 12)

هذه الآية الكريمة جاءت في الخمس الأخير من سورة الطارق، وهي سورة مكية، آياتها (17) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود القسم في مطلعها بالسماء والطارق، وهو النجم الثاقب الذي فسر بالنجوم الراديوية التي ترسل بموجاتها إلى الأرض فتطرق سماءها كما يطرق الطارق على الباب.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول أمور العقيدة، ومنها قضية البعث، وقضية صدق الوحي بالقرآن الكريم، وهما قضيتان استحال فهمهما على كثير من الناس، واستحال التصديق بهما على المنافقين من الكفار والمشركين والمتشككين عبر التاريخ..!!!.

وتبدأ سورة الطارق بقسم من الله ـ تعالى ـ وهو الغني عن القسم ـ بالسماء وبالطارق. وفي القسم بهما تفخيم لشأنهما، وذلك لدلالة كل منهما على عظيم قدرة الخالق الذي أبدعهما ـ ﷻ ـ، ومن صور ذلك التفخيم السؤال الموجه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ ﷺ ـ عن ماهية الطارق، ثم يأتي الجواب بأنه النجم الثاقب، وهو نجم يمثل مرحلة مهمة في نهاية حياة النجوم العملاقة يعرف باسم النجم النيوتروني، والنجوم النيوترونية هي نجوم قليلة الحجم، عالية الكثافة تدور حول محاورها بسرعات فائقة مصدرة سيولًا من الموجات الراديوية، تتتابع كالطرقات المتلاحقة التي تثقب صمت السماء، وتصل إلينا وهي تدق سماء الأرض بطرقاتها المتلاحقة. ومن النجوم الراديوية أشباه النجوم وهي حالة من حالات المادة في أرق صورها، ترسل إلينا سيولاً من تلك الموجات الراديوية التي تثقب صمت السماء كذلك

وتصل إلى سماء الأرض بصوت الطرقات المتلاحقة ومن هنا كانت أيضاً من النجوم النوابض الطارقة.

ويأتي جواب القسم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ **(الطارق: 4)**، أي أن الله ـ تعالى ـ قد جعل على كل نفس رقيباً حافظاً من الملائكة يحفظها، ويحفظ عنها، ويحصي عليها كل ما تعمل من خير أو شر، في مراقبة دائمة دائبة، لا تتخلف، ولا تتوقف أبداً، حتى يتأكد الإنسان من أنه محاسب لا محالة، وأن أعماله محصية عليه بدقة، وأنه سوف يجزى عليها الجزاء الأوفى.

ثم تستمر الآيات بتذكير الإنسان بضرورة النظر في أول نشأته حتى يعرف فضل الله ـ تعالى ـ عليه فلا يكفر، ويعرف قدر نفسه فلا يتكبر ولا يتجبر، ويؤمن بأن الذي أنشأه من ماء مهين قادر على إفنائه، وقادر كذلك على بعثه بعد موته، وعلى محاسبته وجزائه الجزاء الأوفى، وفي ذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ **(الطارق: 5)** ويأتي جواب الاستفهام ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ **(الطارق: 6، 7)** ويأتي بعد ذلك القرار الإلهي القاطع: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ **(الطارق: 8)**.

أي أن الله ـ تعالى ـ الذي أبدع خلق الإنسان من ماء مهين، يتدفق أصلاً من بين الصلب والترائب قادر على إماتته، وعلى إعادة بعثه، أي إرجاعه إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت؛ ليقف بين يدي خالقه ومبدعه يوم القيامة فرداً، بغير أدنى قوة ذاتية فيه يمكنه أن يمتنع بها، ولا ناصر يمكنه أن ينتصر به، يقف مقراً بكل فعل فعله، وكل مال اكتسبه أو أنفقه، وكل كلمة تفوه بها، ثم يلقى جزاءه العادل في هذا العرض الأكبر أمام الله، في يوم تكشف فيه كل مكنونات الصدور، ويعلن عن جميع ما يكون قد أخفى فيها من العقائد والنيات، ويصف الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذا اليوم بقوله:

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ **(الطارق: 9، 10)**

ثم تستطرد الآيات بقسم آخر يقول فيه ربنا ـ عز من قائل ـ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، ويأتي جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ **(الطارق: 13، 14)**، أي أن هذا القول بالقرآن، الناطق بالبعث بعد الموت وبغير ذلك من أمور الغيب هو قول فاصل بين الحق والباطل، وهو قول جاد، حاسم لا هزل فيه، وفي ضوء هذا القول القاطع الحاسم الجازم يتجه الخطاب في ختام هذه السورة الكريمة إلى رسول الله ﷺ مباشرة، وإلى من معه من صحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، مثبتاً ومطمئناً إياهم وهم يعانون مكابدة الكافرين والمشركين من أهل مكة (كما نكابد اليوم

من غطرسة أهل الكفر واستكبارهم) منذراً ومعلناً بأن الله تعالى قادر على أن يقابل كيدهم البشري الهزيل بكيد رباني متين، لا يستطيعون له دفعاً ولا منعاً، والله على كل شيء قدير، يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وما ذلك على الله بعزيز، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾؛ أي لا تستعجل عقابهم، وانتظر أمر الله فيهم، فسوف يريكم فيهم عجباً، كما نطمع أن يرينا في أهل الكفر والشرك والضلال في زماننا عجبا إن شاء.. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 21).

وهنا يبرز السؤال المهم: لماذا أقسم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالسماء ذات الرجع وبالأرض ذات الصدع؟ وما هي الأهمية التي جعلت من كل منهما مادة لهذا القسم الإلهي، والله ـ تعالى ـ غني عن القسم؟

وقد سبقت الإجابة عن الشطر الأول من القسم في كتابنا الأول عن السماء، ونركز هنا على الشطر الثاني من القسم: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ وقبل الخوض في ذلك لابد لنا من استعراض شروح المفسرين السابقين لهذا القسم القرآني الجليل.

من أقوال المفسرين في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾

• أشار ابن كثير ـ يرحمه الله ـ إلى قول ابن عباس رضي الله عنهما بأنه: هو انصداعها عن النبات، وذكر أن كلاً من ابن جرير وعكرمة والضحاك والحسن، وقتادة، والسدي ـ عليهم جميعاً رحمة الله ورضوانه ـ قالوا به، كما قال به غيرهم؛ ومنهم صاحبا تفسير الجلالين ـ يرحمهما الله ـ اللذان قالا: هو الشق عن النبات، ولكن صاحب الظلال ـ يرحمه الله ـ قال: والصدع: النبت يشق الأرض وينبثق، ووافقه في ذلك صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ يرحمه الله ـ، إذ ذكر ما نصه: «ذات الصدع»؛ أي ذات النبات، لتصدعها وانشقاقها عنه، وأصل الصدع: الشق، وأطلق على النبات مجازاً، والنبات في الأرض إنما يكون بسبب المطر النازل من السماء. أقسم الله بهما على أحقية القرآن الناطق بالبعث...».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ورحم من مات منهم ـ: «أقسم بالسماء ذات المطر الذي يعود ويتكرر، وبالأرض ذات الانشقاق عن النبات الذي يخرج منها».

• وكذلك أشار صاحب صفوة التفاسير ـ بارك الله فيه ـ إلى قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ ما نصه: «أي وأقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار...».

ومن هذا العرض يتضح إجماع المفسرين قدامى ومعاصرين على أن القسم بالأرض ذات الصدع يشمل انصداعها عن النبات، أو يعني نبات الأرض ذاته؛ بمعنى: أن الصدع هو النبت يشق الأرض، وينبثق منها.

الأرض ذات الصدع في منظور العلوم الكونية

(الصدع) لغة هو الشق في الأجسام الصلبة، يقال: (صدعه) (فانصدع) وبابه قطع. و (صَدَّعته) (فتصدَّع)، وعنه استعير (صَدَع) الأمر أي فصله، و (صَدَع) بالحق تكلم به جهاراً. و (تصدَّع) القوم أي تفرقوا. و (الصدع) علمياً هو كسر في الأرض تتحرك الأرض على جانبي مستواه حركة أفقية، أو رأسية أو مائلة.

ومن المعاني الصحيحة التي فهمها الأولون من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع معنى انصداعها عن النبات، أي انشقاقها عنه وهو صحيح، ولكن لما كانت لفظة (الأرض) قد جاءت في القرآن الكريم بمعنى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وبمعنى كتل اليابسة التي نحيا عليها، وبمعنى كوكب الأرض كوحدة فلكية محددة، فإن القسم القرآني بالأرض ذات الصدع لا بد وأن يكون له دلالة في كل معنى من معاني كلمة الأرض كما نجده في الشرح التالي:

أولاً: انصداع التربة عن النبات:

تربة الأرض تتكون عادة من معادن الصلصال المختلطة أو غير المختلطة بالرمل، وهي معادن دقيقة الحبيبات (أقطارها أقل من 0,004 من المليمتر) وتتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم على هيئة راقات متبادلة من كل من السيليكا (ثاني أكسيد السيليكون) والألومينا (ثالث أكسيد الألومنيوم) مع عناصر أخرى كثيرة، ويحمل كل راقٍ على سطحه شحنة كهربائية موجبة أو سالبة على حسب نوع الصلصال المركب منه.

والصلصال من المعادن الغروية. والمواد الغروية لها قدرة على الانتشار في غيرها من المواد نظراً لدقة حبيباتها، كما أن لها القدرة على تشرب الماء والالتصاق بأيونات العناصر؛ ولذلك فإنه عند نزول الماء على التربة أو عند ريها بكميات مناسبة من الماء فإن ذلك يؤدي إلى انتفاشها وزيادة حجمها، فتهتز حبيباتها، وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق لتفسح طريقاً سهلاً لكل من الجذير المندفع إلى أسفل، والسويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة إلى أعلى حتى تتمكن من اختراق التربة بسلام وتظهر على سطح الأرض مستمرة في النمو لتعطي باقي أجزاء النبات.

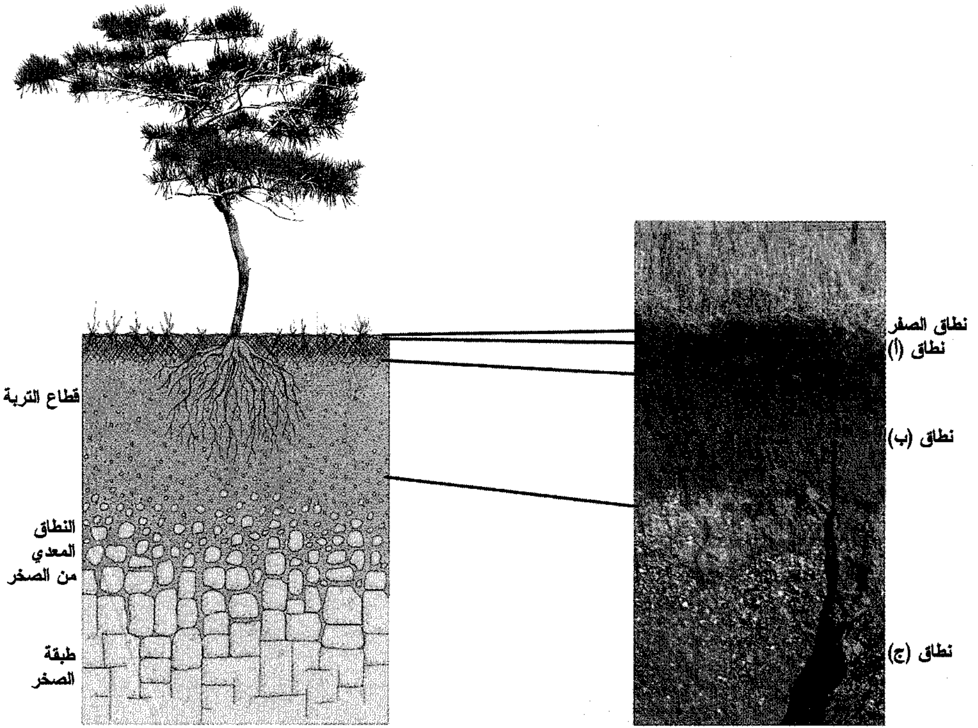
واهتزاز التربة بنزول الماء عليها له أسباب أخرى غير زيادة حجم حبيباتها بالتميؤ، ومن ذلك القطبية المزدوجة لجزيء الماء، ووجود الشحنات الكهربائية المتشابهة على أسطح الحبيبات، مما يؤدي إلى تنافرها، وتباعد الحبيبات عن بعضها البعض وعن جزيئات الماء المتسربة بينها، في حركة اهتزازية لا يمكن إيقافها إلا بتعادل تلك الشحنات بواسطة شحنات مخالفة ناتجة عن تأين أملاح التربة في ماء الري، ومنها دفع جزيئات الماء لحبيبات التربة في كل الاتجاهات لتفسح مكاناً لخزن المياه بين تلك الحبيبات، ومنها دفع جزيئات الهواء المختزن بين حبيبات التربة بواسطة الماء الذي يحل محله باستمرار حتى يطرده بالكامل، وكلما زادت كمية المياه المختزنة في التربة حجماً زاد انتفاشها، وأدى ذلك إلى زيادة حجمها، فكل حبة من حبات التربة لها القدرة على التشرب بالماء، وحمله على سطحها، واختزانه في المسافات بينها وبين ما حولها من حبيبات؛ وبذلك يتم التبادل بين الأيونات المختلفة على أسطح حبيبات التربة والأيونات المذابة في الماء المحفوظ بينها ليستفيد النبات من أيونات العناصر المغذية له في التربة بعد تحللها بواسطة الأنزيمات الخاصة التي تفرزها الجذيرات المندفعة إلى أسفل من البذرة النابتة. ولولا خاصية انصداع التربة عند نزول الماء عليها أو ريها ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ومن هنا كان ذلك وجهاً من أوجه القسم بالأرض ذات الصدع لأهميته البالغة في إعمار الأرض بالنبات وجعلها صالحة للحياة.

ثانياً: تصدع صخور اليابسة:

نتيجة لتعرض صخور قشرة الأرض للإجهاد بالشد أو بالتضاغط، فإنها تتكسر بواسطة مجموعات من الفواصل المتوازية والمتقاطعة على هيئة شقوق في قشرة الأرض، تمزق صخورها إلى كتل متجاورة دون حدوث قدر ملحوظ من الحركة على جوانب مستويات تلك الشقوق. كذلك تحدث الفواصل نتيجة لعمليات التعرية التي تقوم بإزاحة كميات كبيرة من الصخور الظاهرة على سطح الأرض، بما يعين على تخفيف الضغط عن الصخور الموجودة أسفل منها وبالتالي تخفيف شدة الإجهاد الذي كانت تعاني منه تلك الصخور فتستجيب بالتمدد وتتشقق على هيئة كسور تفصل أجزاء الصخور إلى كتل متجاورة دون حدوث حركة ملحوظة عبر تلك الفواصل.

وغالبية فواصل الأرض تقع في مجموعات متوازية ومتقاطعة في اتجاهين أو أكثر وإن كان بعضها قد لا يكون له اتجاه محدد، وأغلبها قليل العمق.

وتحدث فواصل قشرة الأرض كذلك نتيجة لتبرد الصهارة الصخرية المندفعة من باطن

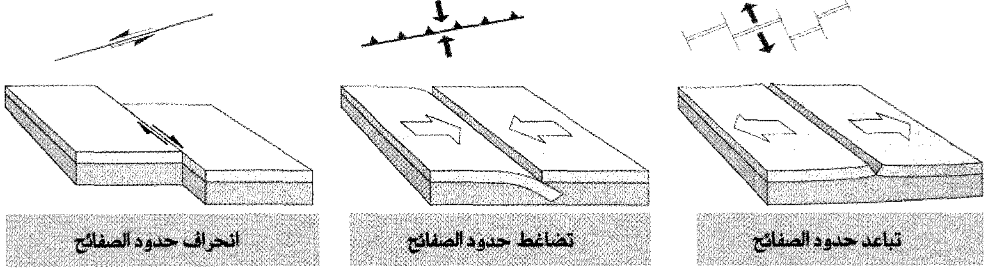


انصداع التربة بإنزال الماء عليها يفسح طريقاً سهلاً للنبتة المنبثقة من داخل البذرة النابتة كي تظهر سويقتها إلى ما فوق الأرض ويندفع مجموعها الجذري إلى أعماق التربة

الأرض قريباً من سطحها أو إلى سطحها على هيئة متداخلات نارية أو طفوح بركانية.

ولتكوّن فواصل قشرة الأرض حكمة بالغة، فهي خطوة مهمة لتجوية الصخور وتعريتها حيث أن تلك الفواصل والشقوق والصدوع تعمل كممرات لعوامل التعرية المختلفة إلى داخل الصخور. وبالتالي فإنها تعمل على تكوين كل من تربة الأرض وغيرها من الرسوبيات، والصخور الرسوبيّة، وبغير التربة لم تكن زراعة الأرض ممكنة، وبغير الصخور الرسوبية لم يتكون النفط ولا الغاز الطبيعي، ولا العديد من الثروات الترسيبية مثل الفحم، الفوسفات، المتبخرات وغيرها. كذلك فإن توزيع فواصل الغلاف الصخري للأرض قد يحدد مواقع لعدد من الركازات المعدنية المهمة مثل الذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، والقصدير وغيرها، كما قد يعين في تحديد مجاري بعض الأنهار، أو تكوين بعض الكهوف وحفر الإذابة في الصخور، وفي شق الفجاج والسبل وسط الجبال والهضاب وغيرها من مرتفعات الأرض.

أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها، يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية، أو رأسية، أو مائلة بدرجة ملحوظة، وتتباين أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيراً، فمنها ما لا يرى بالعين المجردة، ولا تكاد الحركة عبر مستواه أن تدرك، ومنها ما يمتد لعشرات الكيلومترات، وتبلغ الحركة عبر مستواه إلى آلاف الأمتار.



بعض نماذج صدوع الأرض التي تقسم غلافها الصخري إلى عدد من الألواح أو الصفائح المتباعدة عن بعضها البعض أو المصطدمة مع بعضها البعض

ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين متعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين متقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور عبر بعضها البعض. وتحرك صدوع الأرض النشطة يحدث عدداً من الهزات الأرضية، أما الصدوع القديمة فقد أصبح أغلبها خاملاً بلا حراك.

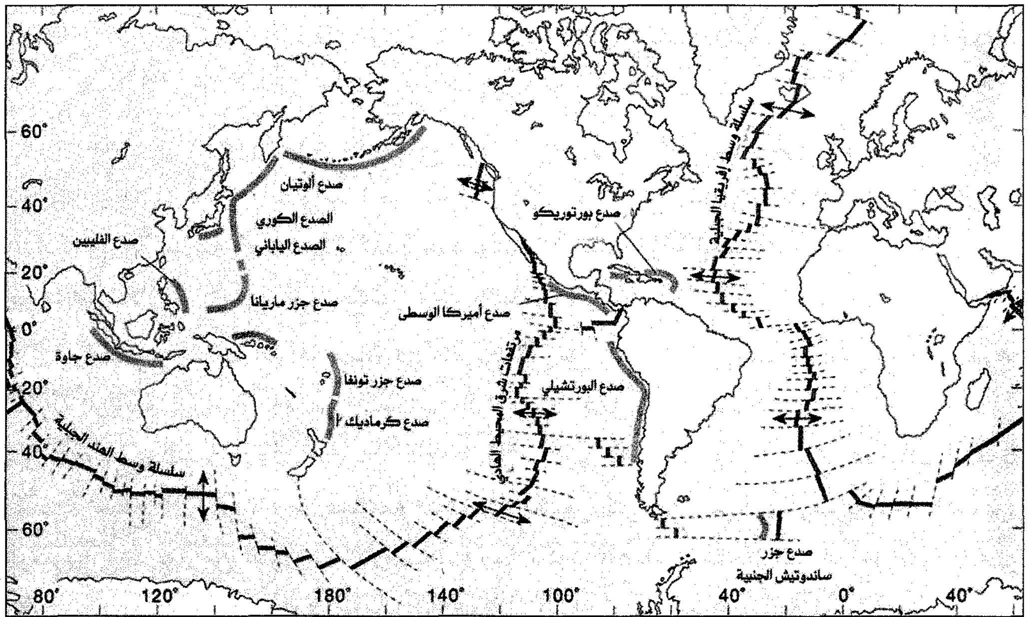
ولصدوع الأرض أهمية بالغة لأنها تمثل ممرات طبيعية بين باطن الأرض وسطحها، تتحرك عبرها الأبخرة والغازات المحملة بالثروات المعدنية، كما تتحرك المتداخلات النارية والطفوح البركانية المحملة كذلك بمختلف الصخور والمعادن الاقتصادية المهمة وبالعناصراللازمة لتجديد ثراء صخور وتربة سطح الأرض.

والصدوع تلعب أدواراً مهمة في تكوين كل من النتوءات والخسوف الأرضية، وعبرها تتكون الينابيع المائية، وبعض المكامن البترولية، كما تعين عمليات التعرية المختلفة في شق الفجاج والسبل، وفي تكوين الأودية والمجاري المائية، وفي جميع عمليات التعرية وتسوية سطح الأرض. وما يستتبعه ذلك من تكوين كل من التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من الثروات الأرضية. وكما تكون الصدوع عاملاً من عوامل الهدم على سطح الأرض فإنها قد تكون عاملاً من عوامل البناء تبني الجبال والتلال والهضاب، كما تبنى الأحواض، والأغوار، وتكون الخسوف الأرضية.

ثالثاً : تصدع الغلاف الصخري للأرض:

على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف والصدوع العملاقة على سطح الأرض منذ زمن بعيد، إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة والصدوع العملاقة التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة يشبهها العلماء باللحام على كرة التنس، وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين 65 و70 كيلومتراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها، وبين 100، 150 كيلومتراً تحت القارات، ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم «ألواح الغلاف الصخري للأرض». وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق الضعف الأرضي؛ وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى حيث تتبرد وتعاود النزول إلى أسفل فتدفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة عن بعضها البعض في إحدى حوافها، ومصطدمة مع بعضها البعض عند الحواف المقابلة، ومنزلقة عبر بعضها البعض عند بقية الحواف.

وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض عدد من الظواهر الأرضية



خارطة للعالم توضح صدوع الأرض

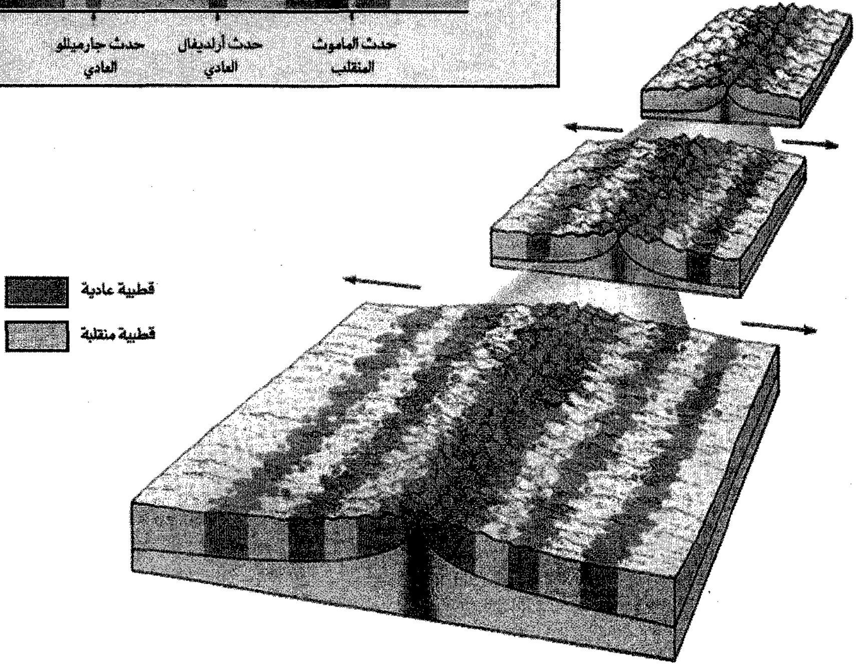
المهمة التي منها: اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتجدد صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتكون سلاسل من جبال أواسط المحيطات ومن الجزر البركانية، ومنها تتكون السلاسل الجبلية عند حواف التصادم حيث يستهلك قاع المحيط تحت كتلتي القارتين المتصادمتين واللتين كانتا على حدود المحيط الذي كان يفصلهما. وتصاحب العمليتان بالهزات الأرضية وبكم هائل من الطفوح البركانية، وبتكون أعلى السلاسل الجبلية مثل جبال الهيمالايا وبها قمة إفرست أعلى قمم الأرض. ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من 64000 كيلومتراً، وهي تتكون أساساً من الصخور البركانية المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وتحيط بالصدوع العملاقة. ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر هذه الصدوع العملاقة المكونة للوادي الخسيف في وسط سلسلة الجبال البحرية، يتجدد قاع



رسم يوضح تصدع قيعان المحيطات بشبكة متصلة من الصدوع وتكوّن سلاسل جبال أواسط تلك المحيطات (حيود أواسط المحيطات)

المحيط بأحزمة حديثة من الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخسيف، ويهبط كل نصف من نصفي قاع المحيط تحت القارة المقابلة له بنصف معدل اتساع قاعه عند وسطه، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط حول محوره الوسطي، وأقدمها عند هبوط قاع المحيط تحت كتل القارتين المحيطتين به.





مراحل اتساع قيعان المحيطات عبر ملايين السنين

وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات، وتجمعها، وتفتتها بصورة دورية، فيما يعرف باسم «دورة القارات والمحيطات»، وفيها قد تنقسم قارة ببحر طولي ـ مثل البحر الأحمر ـ إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان عن بعضهما البعض باتساع قاع البحر الفاصل بينهما حتى يتحول إلى محيط، كما قد يستهلك قاع محيط بالكامل تحت إحدى القارات بدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة حتى يصطدما مكونين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية،

وتكون سلسلة جبال الهمالايا، وبها قمة إفرست أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة ـ المكونة للأودية الخسيفة ـ التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة

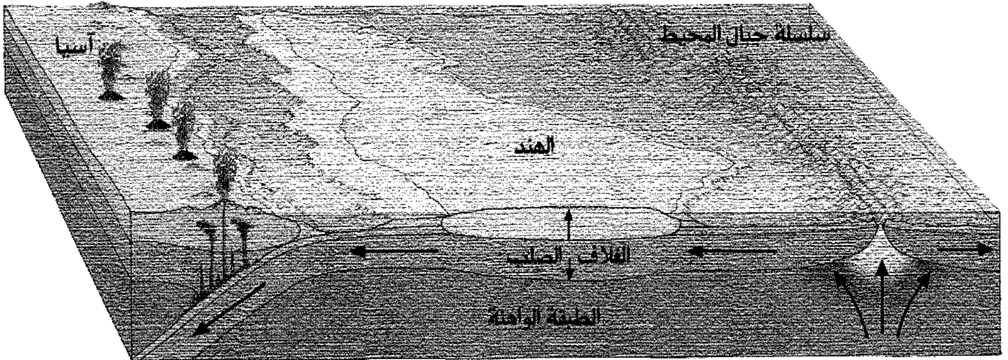


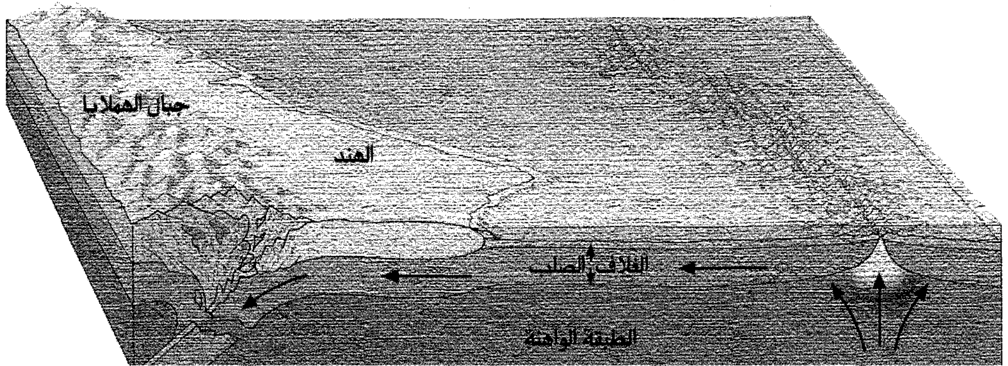
صورة للبحر الأحمر الذي يقسم القارة إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان بفعل اتساعه

كاملة بعمق يتراوح بين65 كيلومتراً، و150 كيلومتراً، وبطول يقدر بعشرات الآلاف من الكيلومترات في كل الاتجاهات، هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة أو مصطدمة أو منزلقة عبر بعضها البعض. وهذه الصدوع تعمل كممرات طبيعية للحرارة المختزنة في داخل الأرض، والناتجة عن تحلل العناصر المشعة فيها، ولولا هذه الشبكة من الصدوع لانفجرت الأرض.

وعبر هذه الشبكة المتصلة من الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية تثري سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال الحرارة الأرضية.

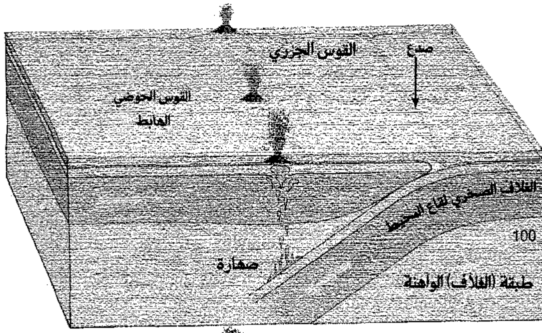
وعبر هذه الصدوع العملاقة وما صاحبها من فوهات البراكين، انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلافي الأرض المائي والغازي، ولا تزال تنطلق لتجددهما، وخلال

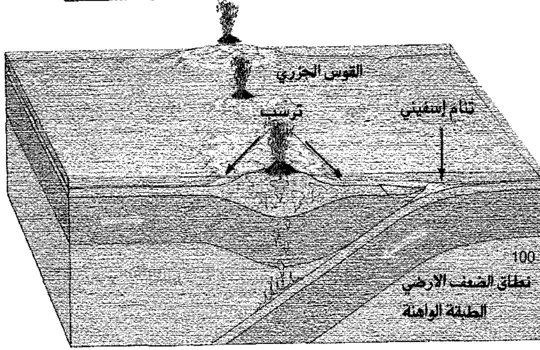




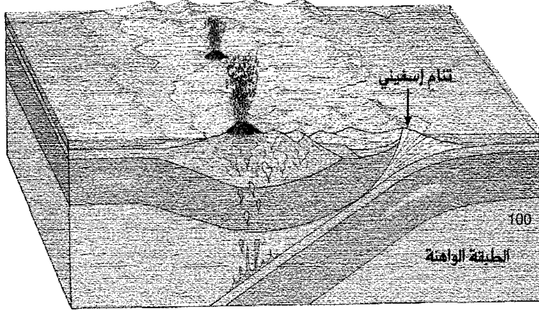
رسم تخطيطي يوضح تكوّن جبال هيمالايا بتصادم الهند بالقارة الآسيوية عبر ملايين السنين

تلك العملية تفقد الأرض من كتلتها إلى فسحة السماء بعضاً من مادتها وطاقتها تتناسب مع ما تفقده الشمس من كتلتها على هيئة طاقة حتى تظل المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، لا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس، أو تبتلعنا (ودرجة حرارة لبها 15 مليون درجة مطلقة)، ولا تزيد من بعدنا عن الشمس فتجمد وتتجمد الحياة من حولنا، أو تنفلت الأرض من عقال جاذبية الشمس فتضيع في فسحة الكون الشاسع. ليس هذا فقط؛ بل إن الغلاف الصخري للأرض قد تكوّن أيضاً عبر تلك الصدوع العملاقة؛ وذلك لأن الكثير من الشواهد الأرضية تشير إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مكوناً من صخور البازلت الشبيهة بصخور قيعان البحار والمحيطات الحالية، وبالصخور المندفعة عبر الصدوع التي تمزقها، وأن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد،





قوس جزري مكتمل



الصهارة البركانية تجدد شباب صخور الغلاف الصخري للأرض

وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات فوق قاعه على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسط هذا المحيط الغامر، وارتفعت قمم بعض تلك الحيود المحيطية لتكون عدداً من الجزر البركانية، ومع تحرك تلك الجزر البركانية في اتجاه بعضها البعض تصادمت لتكون نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم **(Mother Continent)** أو أم القارات

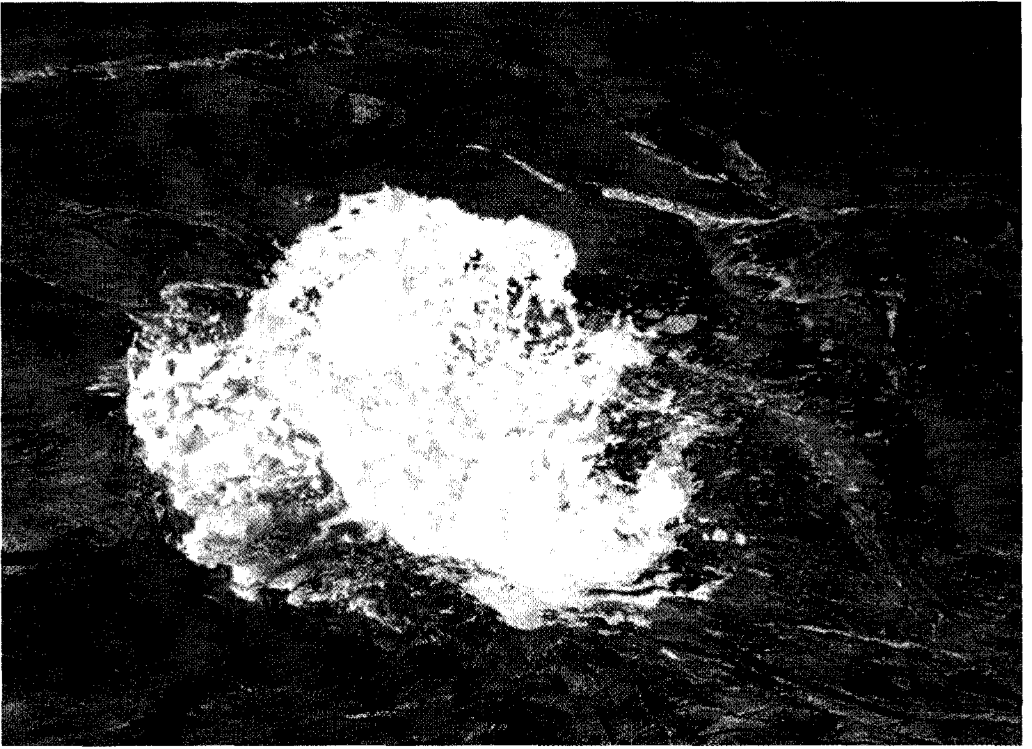
(Pangaea) التي ما لبثت أن تفتتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة إلى القارات السبع الحالية التي ظلت تتباعد عن بعضها حتى وصلت إلى مواقعها الحالية، وهي لا تزال تتحرك بالتباعد.

وعبر صدوع الأرض العملاقة تكونت القشرة القارية بتركيبها الذي تغلب عليه الصخور الجرانيتية، وأثريت تلك القشرة ـ ولا تزال تثرى ـ بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن والركازات ذات القيمة الاقتصادية، وتكونت السلاسل الجبلية التي تثبت بأوتادها كتل القارات في قيعان البحار والمحيطات، أو تثبت قارتين ببعضهما البعض بعد استهلاك قاع المحيط الفاصل بينهما تحت إحداهما. ومع تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض ثارت البراكين ورجفت الأرض بالزلازل، وتحركت دورات الماء والهواء، والصخور، وعوامل التعرية، وتكونت التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما تختزنه من الثروات الأرضية، وأصبحت الأرض صالحة لعمرانها بالحياة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها توجد أيضاً على اليابسة، وتعمل على تكوين بحار طولية شبيهة بالبحر الأحمر لتفتيت اليابسة إلى عدد أكبر من القارات وأشباه القارات. وتحاط تلك الصدوع القارية بعدد من الجبال البركانية العالية من مثل جبل أرارات في شرق تركيا (5100 م فوق مستوى سطح البحر) ومخروط بركان إتنا في شمال شرقي صقلية (3300 م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان فيزوف في خليج نابلي بإيطاليا (1300 م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كيليمنجارو في تنجانيقا (5900 م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كينيا في جمهورية كينيا (5100 م فوق مستوى سطح البحر).

فسبحان الذي وصف الأرض من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنها ذات صدع؛ لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين (65)، (150) كيلومتراً، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض وكأنها صدع واحد.

وسبحان الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء، وأشدها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للعمران بالحياة، فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض، ولا يزالان يتجددان. وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولي للأرض فتكونت الجزر البركانية، والقارات والسلاسل الجبلية، وتجددت قيعان



النشاط البركاني في قاع المحيطات هو السبب الرئيسي في تكوين القارة الأم

المحيطات ولا تزال تتجدد، وتزحزحت القارات ولا تزال تتحرك، وتبادلت اليابسة والمحيطات، وثارت البراكين لتخرج قدراً من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتواجد تلك الصدوع العملاقة، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال، ولا تزال ديناميكية الأرض تحرك ذلك كله بأمر الله الخالق ﷻ.

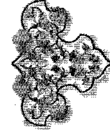
وهنا نرى في صدوع الأرض أبعاداً ثلاثة: بعداً لا يتعدى بضعة ملليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعداً آخر في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعداً ثالثاً في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساساً في قيعان المحيطات، كما توجد في بعض أجزاء اليابسة على هيئة أغوار سحيقة تتراوح أعماقها بين 100 كيلومتراً، و 150 كيلومتراً، وتقل هذه الأعماق تحت قيعان البحار والمحيطات إلى ما يتراوح بين (65) كيلومتراً، (70) كيلومتراً، وتمتد

لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة صدع واحد، ونرى أهمية كل بعد من هذه الأبعاد في تهيئة الأرض للعمران، ومن هنا كانت روعة الإشارة القرآنية إلى حقيقة ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾.

ومن هنا أيضاً كانت ومضة الإعجاز العلمي في القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة، والعلم الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين. ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو إدراك لشيء من جوانبها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لها قبل ألف وأربعمائة من السنين غير الله الخالق ﷻ.

وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية وإلى غيرها من الحقائق الكونية هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ، الذي أوحى إليه القرآن، كان دوماً موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى كل من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، اللهم آمين آمين آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

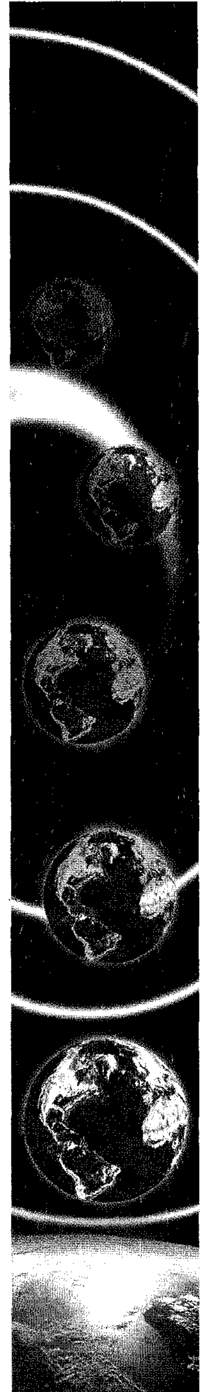
بسم الله الرحمن الرحيم



(7) ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾



(الطور: 6)



ضمن قسم بخمس من آيات الله في الخلق على حتمية وقوع العذاب بالمكذبين بالدين الخاتم، وعلى أنه لا دافع أبداً لهذا العذاب عنهم، جاء هذا القسم القرآني العجيب في مطلع سورة الطور، وسورة الطور مكية، وعدد آياتها (49) بعد البسملة. ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة بأبعادها المختلفة من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وبالبعث والجزاء، وبالخلود في الآخرة، إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً. شأنها في ذلك شأن كل السور التي أنزلت بمكة المكرمة.

وتبدأ السورة بعد هذا القسم، بمشهد من مشاهد الآخرة فيه استعراض لحال المكذبين برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهم يدفعون من ظهورهم إلى نار جهنم دفعاً، وقد كانوا من المكذبين بها...!!

ثم تنتقل الآيات إلى استعراض حال المتقين وهم يرفلون في جنات النعيم ثواباً لهم على الإيمان بالله وتقواه.

وتنتهي السورة بخطاب إلى النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ يحثه على المضي في دعوته إلى عبادة الله الخالق وحده، ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ مهما صادفه في ذلك من مصاعب في مواجهة الكم الهائل من مؤامرات المتآمرين، وكيد المكذبين وعنتهم، الذين يتهددهم الله ـ تعالى ـ بما سوف يلقونه من صنوف العذاب يوم القيامة، بل وبعذاب قبل ذلك في الحياة الدنيا.

ويأتي مسك الختام بمواساة وتعضيد لرسول الله ﷺ في صورة تكريم لم يسبق لنبي من الأنبياء، ولا لرسولٍ من الرسل أن نال

من الله ـ تعالى ـ تكريماً مثله، وذلك بقول الحق ﷻ موجهاً الخطاب إليه ﷺ:

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ **(الطور: 48، 49).**

والآيات الست التي سبق بها القسم في مطلع سورة الطور هي على التوالي: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ وهو الجبل المكسو بالأشجار، والجبل غير المكسو بالخضرة لا يقال له: طور، إنما يقال له: جبل إذا كان شاهق الارتفاع بالنسبة للتضاريس حوله، ويسمى: تلًّا إذا كان دون ذلك، وتليه الأكمة أو الربوة أو النتوء الأرضي، ويليه النجد أو الهضبة، ويلي ذلك السهل، من تضاريس الأرض.

والمقصود بالقسم القرآني بالطور هنا هو ـ على الأرجح ـ طور سيناء، الذي كلم الله ـ تعالى ـ عنده موسى عليه السلام والذي نزلت عليه الألواح. وأقسم الله سبحانه وتعالى بطور سيناء هذا تكريماً له، وتذكيراً للناس بما فيه من الآيات، والأنوار، والتجليات، والفيوضات الإلٰهية، مما جعله بقعة مشرفة من بقاع الأرض لاختيار الله ـ تعالى ـ له وتجليه عليه.

والآية الثانية التي جاء بها القسم هي ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾، وقيل فيه: إنه اللوح المحفوظ، وقيل: إنه القرآن الكريم الذي ختم الله (سبحانه) به وحي السماء، وقيل: هو التوراة التي تلقاها نبي الله موسى عليه السلام في الألواح التي أنزلت على جبل الطور، وقيل: هو إشارة إلى جميع الكتب التي أنزلها ربنا ﷻ على فترة من الرسل بلغ عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر كما أخبرنا المصطفى ﷺ؛ لأن أصلها واحد، ورسالتها واحدة. كذلك قيل: في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: (وكتاب مسطور) إنه: صحائف أعمال العباد.

والقسم الثالث جاء بالصيغة ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾، والرق هو: جلد رقيق يكتب فيه، وقد يشير إلى الورق الذي يكتب عليه وإلى الألواح التي ينقش فيها؛ لأن الرق هو كل ما يكتب فيه، والمنشور أي: المبسوط غير المطوي، وغير المختوم عليه، بمعنى أنه مفتوح أمام الجميع، يستطيعون قراءته أو الاستماع إليه بغير حجر أو منع مما يؤكد أن المقصود بقول ربنا تبارك وتعالى، (وكتاب مسطور) هو القرآن الكريم لأن القرآن الكريم يقرأه الخلق جميعهم، ويستمعون إليه بغير قيودٍ أو حدودٍ من أي نوع، وهكذا كانت الكتب السماوية التي سبقته بالنزول قبل ضياعها وتعرض ما بقي منها من ذكريات إلى التحريف والتبديل والتغيير، وفي النشر إشارة إلى سلامة القرآن الكريم من كل نقص وعيب.

وجاء القسم الرابع بصياغة ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾، وهو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة ـ أي: في مقابلتها إلى أعلى وعلى استقامتها تماماً، وهو ـ أيضاً ـ حيال

العرش إلى أسفل منه وعلى استقامته، تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً منهم ثم لا يعودون إليه كما روى ابن عباس ﵄، عن رسول الله ﷺ، وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «**فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملكٍ إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم**».

ويروى عنه ﷺ وصفاً مشابهاً للبيت المعمور في حديث الإسراء والمعراج، كما جاء في الصحيحين[1].

وجاء القسم الخامس بصياغة ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ وفيه قيل: هو السماء القائمة بغير عمد مرئية، كما جاء على لسان الإمام علي ـ كرم الله تعالى وجهه ـ، ووافقه على ذلك كثير من المفسرين، وإن قال الربيع بن أنس: إنه العرش الذي هو سقف لجميع المخلوقات.

أما القسم السادس والذي جاء بصياغة ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ فقد تعددت آراء المفسرين فيه، كما سنرى في الأسطر القليلة التالية، ولكن قبل التعرض لذلك لا بد لنا من استعراض الدلالة اللغوية للفظي البحر والمسجور.

المدلول اللغوي للبحر المسجور

(**البحر**) في اللغة ضد البر، وقيل: إنه سمي بهذا الاسم لعمقه واتساعه، والجمع (**أبحر**) و(**بحار**) و(**بحور**)، وكل نهر عظيم يسمى بحراً؛ لأن أصل البحر هو كل مكان واسع جامع للماء الكثير، وإن كانت لفظة (البحر) تطلق في الأصل على الماء المالح دون العذب، كذلك سمَّت العرب كل متوسع في شيء (بحراً) حتى قالوا: للمتوسع في علمه (بحراً)، وللتوسع في العلم (تبحر)، وقالوا: فرس (بحر) أي: واسع الخطى، سريع الجري، وقيل: ماء بحر، أي: ملح (مالح)، و(أبحر) الماء أي: ملح، و(أبحر) الرجل أي: ركب البحر، و(بَحَرَ) أذن الناقة أي: شقها شقاً واسعاً فشبهها بسعة البحر على وجه المجاز والمبالغة، ومنها سميت البَحِيرة؛ وهي: الناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها، وتطلق فلا تركب ولا يحمل عليها، والبحيرة ابنة السائبة وحكمها حكم أمها عند العرب في الجاهلية.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3207) و(الحديث: 3887) ومسلم في (الحديث: 415).

أما وصف البحر بصفة (**المسجور**) فالصفة مستمدة من الفعل (**سجر**) و(**السجر**) تهييج النار، يقال: (سجر) التنور أي: أوقد عليه حتى أحماه، و(**السجور**) هو ما يسجر به التنور من أنواع الوقود، كذلك يقال: (**سجر**) الماء النهر أي: ملأه، ومنه (**البحر المسجور**) أي: المملوء بالماء، المكفوف عن اليابسة، و(**الساجور**) خشبة تجعل في عنق الكلب فيقال له: كلب (مُسَوْجَر) أي: محكوم، و**المسوجر**: المغلق المحكم الإغلاق من كل شيء.

من شروح المفسرين

• في تفسير القسم القرآني بالبحر المسجور أشار ابن كثير ـ يرحمه الله ـ إلى قول الربيع بن أنس أنه: «هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها، أي: أنه بحر من ماء خاص محبوس عند رب العالمين، ينزله ﷻ يوم البعث فينبت كل مخلوق بواسطة هذا الماء من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من حبتها على ما روي عن رسول الله ﷺ من قول». وأضاف ابن كثير: «وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى المسجور فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ (**التكوير: 6**) أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف كما روي عن علي وابن عباس، وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور؛ لأنه لا يشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ يعني: المرسل، وقال قتادة: المسجور: المملوء، واختاره ابن جرير، وقيل: المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لِئلا يغمرها فيغرق أهلها، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مراتٍ يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عز وجل**».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ في شرح دلالة القسم القرآني ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ «. . . أي: المملوء، وذكرا أنه قول قتادة. وقالا: قال مجاهد: الموقد أي: الذي سيسجر يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾».

• وقال صاحب الظلال ـ يرحمه الله رحمة واسعة ـ كلاماً مشابهاً يشير إلى أن البحر المسجور هو المملوء بالماء في الدنيا، أو المتقد بالنار في الآخرة، أو أن هذا التعبير يشير إلى خلق آخر كالبيت المعمور يعلمه الله.

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ غفر الله له ـ في تفسير قول الحق ﷻ

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ ما نصه: «أي: المملوء ماء، يقال: سجر النهر: ملأه، وهو البحر المحيط، والمراد: الجنس، وقيل الموقد ناراً عند قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾؛ أي: أوقدت ناراً، من سجر التنور يسجره سجراً، أحماه، وصف البحر بذلك إعلاماً بأن البحار عند فناء الدنيا تحمى بنار من تحتها فتتبخر مياهها، وتندلع النار في تجاويفها وتصير كلها حمماً».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ: «إن البحر المسجور هو المملوء».

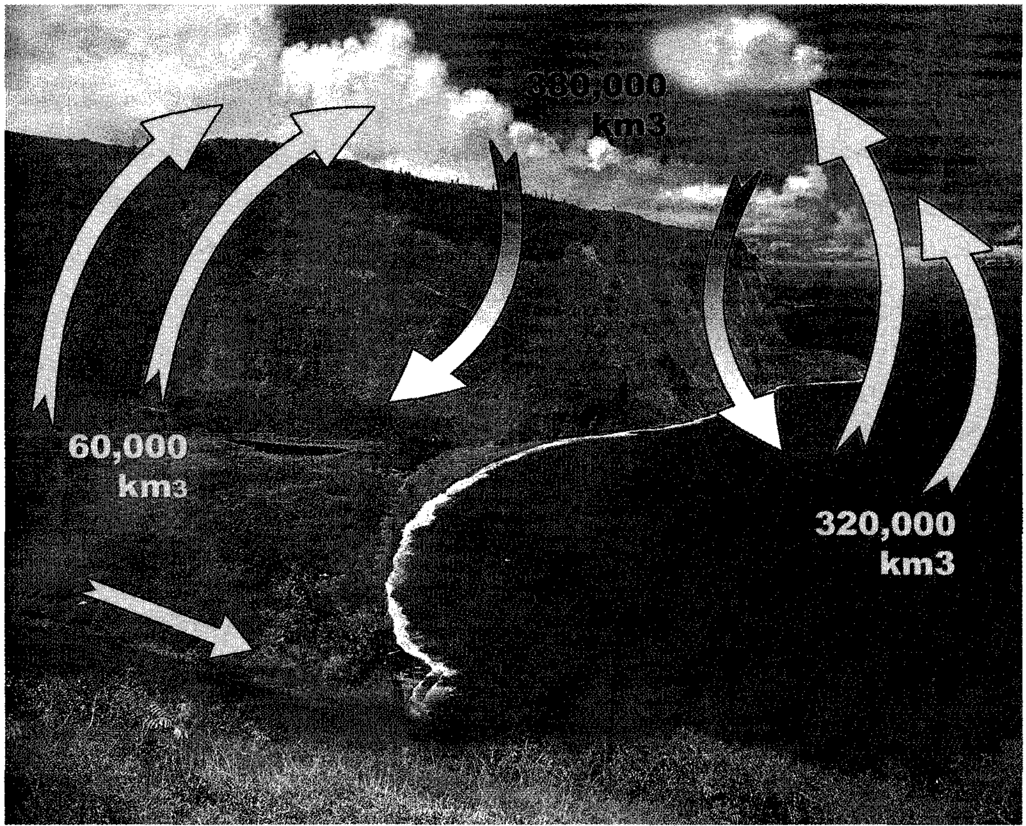
• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ بارك الله في عمره ـ: «أنه الموقد ناراً يوم القيامة لقوله ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾؛ أي: أضرمت حتى تصير ناراً ملتهبة تتأجج وتحيط بأهل الموقف».

البحر المسجور في منظور العلوم الحديثة:

من المعاني اللغوية للبحر المسجور هو المملوء بالماء، والمكفوف عن اليابسة، وهو معنى صحيح من الناحية العلمية صحةً كاملةً كما أثبتته الدراسات العلمية في القرن العشرين، ومن المعاني اللغوية لهذا القسم القرآني المبهر أيضاً أن البحر قد أوقد عليه حتى حمي قاعه فأصبح مسجوراً، وهو كذلك من الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان في العقود المتأخرة من القرن العشرين، والتي لم يكن لبشر إلمام بها قبل ذلك أبداً، وهذا ما نفصله في الأسطر التالية:

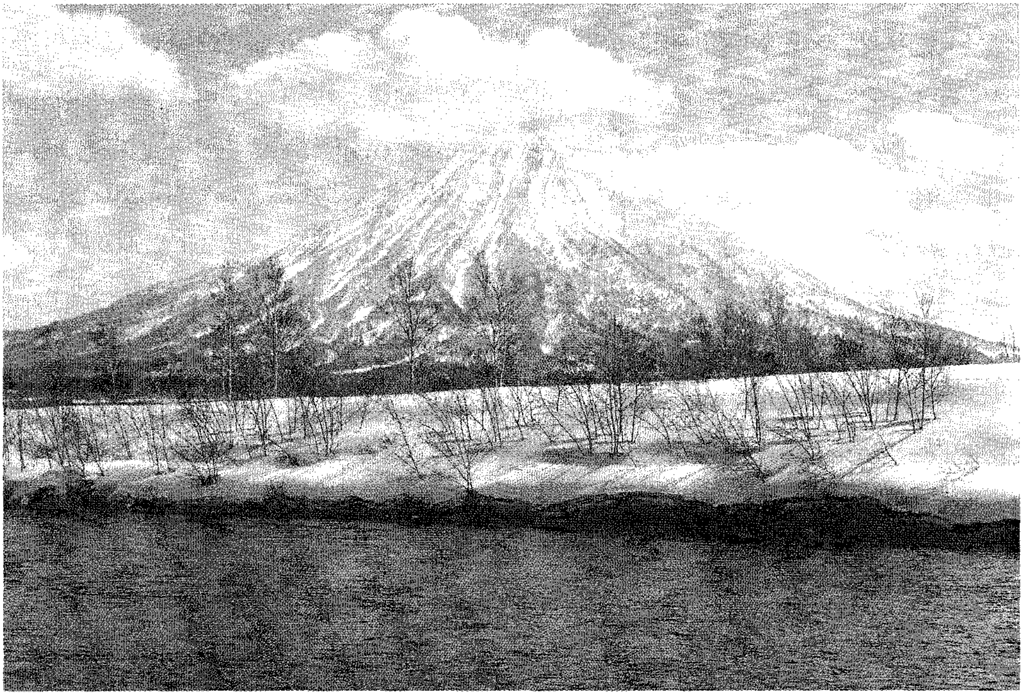
أولاً: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ بمعنى المملوء بالماء والمكفوف عن اليابسة:

الأرض هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته بحوالي1360 إلى 1385 مليون كيلومتراً مكعباً، وهذا الماء قد أخرجه ربنا ﷻ كله من داخل الأرض على هيئة بخار ماء اندفع من فوهات البراكين، وعبر صدوع الأرض العميقة ليصادف الطبقات العليا الباردة من نطاق التغيرات الجوية والذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع حوالي ستة عشر كيلومتراً فوق خط الاستواء، وحوالي العشرة كيلومترات فوق قطبي الأرض، وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته فوق خط الاستواء. وهذا النطاق يحوي حوالي ثلثي كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%) والمقدرة بأكثر قليلاً من خمسة آلاف مليون مليون طن، وهو النطاق الذي يتكثف فيه بخار الماء الصاعد من الأرض، والذي تتكون فيه السحب،



رسم بياني يوضح دورة الماء حول الأرض لحالتي التبخر والأمطار

وينزل منه كل من: المطر، والبرَد، والثلج، وتتم فيه ظواهر الرعد والبرق، وتتكون العواصف والدوامات الهوائية وغير ذلك من الظواهر الجوية، ولولا تبرد هذا النطاق مع الارتفاع ما عاد إلينا بخار الماء الصاعد من الأرض أبداً. وحينما عاد إلينا بخار الماء مطراً، وثلجاً، وبرداً انحدر على سطح الأرض؛ ليشق له عدداً من المجاري المائية، ثم فاض إلى منخفضات الأرض الواسعة ليكوّن البحار والمحيطات، وبتكرار عملية التبخر من أسطح تلك البحار والمحيطات، ومن أسطح اليابسة بما عليها من مختلف صور التجمعات المائية والكائنات الحية بدأت دورة الماء حول الأرض من أجل التنقية المستمرة لهذا الماء، وتلطيف الجو، وتفتيت الصخور، وتسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتركيز عدد من الثروات المعدنية، وغير ذلك من المهام التي أوكلها الخالق لتلك الدورة المعجزة التي تحمل 380,000 كيلومتراً مكعباً من ماء الأرض إلى غلافها الجوي سنوياً، لتردها إلى الأرض ماءً طهوراً، منها 320,000 كيلومتراً مكعباً تتبخر من أسطح البحار والمحيطات،



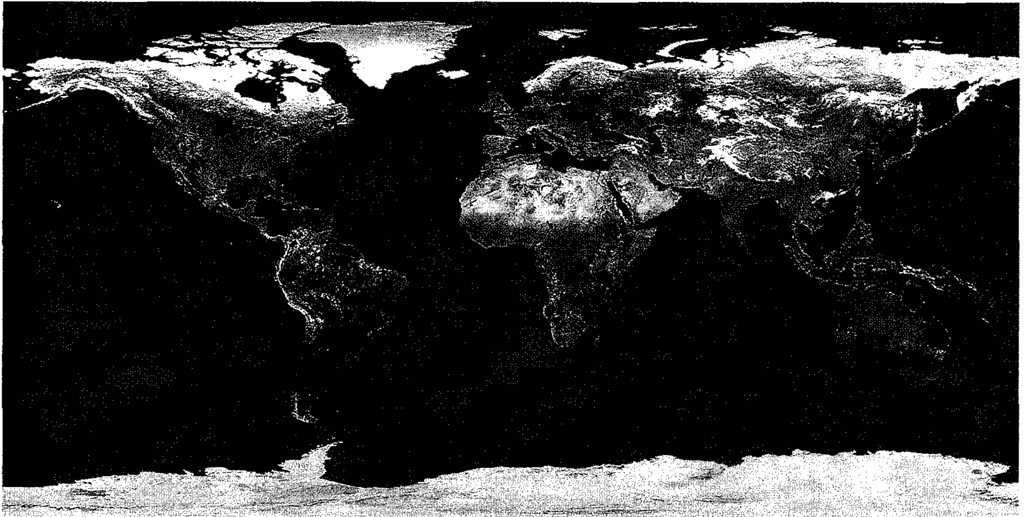
الثلوج على قمم الجبال صورة من صور تخزين الماء على سطح الأرض

60,000 كيلومتراً مكعب من أسطح اليابسة، يعود منها 284,000 كيلومتر مكعب إلى البحار والمحيطات، و96,000 كيلومتراً مكعباً إلى اليابسة التي يفيض منها 36,000 كيلومتر مكعب من الماء إلى البحار والمحيطات، وهو نفس مقدار الفارق بين التبخر من البحار والمحيطات والمطر.

هذه الدورة المحكمة للماء حول الأرض أدت إلى خزن أغلب ماء الأرض في بحارها ومحيطاتها (حوالي 97.2%)، وإبقاء أقله على اليابسة (حوالي 2.8%)، وبهذه الدورة للماء حول الأرض تملح ماء البحار والمحيطات، وبقيت نسبةً ضئيلةً من مجموع ماء الأرض على هيئة ماء عذب على اليابسة (2.8% من مجموع كمّ الماء على الأرض)، وحتى هذه النسبة الضئيلة من ماء الأرض العذب قد حبس أغلبها (2.14%) على هيئة سُمكٍ هائلٍ من الجليد فوق قطبي الأرض، وفي قمم الجبال، والباقي مختزن في الطبقات المسامية والمنفذة من صخور القشرة الأرضية على هيئة ماء تحت سطحي (حوالي 0.61%)، وفي بحيرات الماء العذب والأنهار والجداول (حوالي 0.01%)، وعلى هيئة رطوبة في تربة الأرض (حوالي 0.005%)، والباقي يتوزع بين بحيرات الماء العذب ورطوبة الغلاف الغازي للأرض (حوالي 0.0349%).

وتوزيع ماء الأرض بهذه النسب التي اقتضتها حكمة الله الخالق قد تم بدقةٍ بالغةٍ بين البيئات المختلفة بالقدر الكافي لمتطلبات الحياة في كل بيئة من تلك البيئات، وبالأقدار الموزونة التي لو اختلت قليلاً بزيادة أو نقص لغمرت الأرض وغطت سطحها بالكامل، أو انحسرت تاركةً مساحاتٍ هائلةٍ من اليابسة، ولقصرت دون متطلبات الحياة عليها.

ومن هذا القبيل يحسب العلماء أن الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال المرتفعة فوق سطحها إذا انصهر، ـ وهذا لا يحتاج إلا إلى مجرد الارتفاع في درجة حرارة صيف تلك المناطق بحوالي خمس درجات مئوية ـ، وإذا حدث ذلك فإن كم الماء الناتج سوف يؤدي إلى رفع منسوب الماء في البحار والمحيطات إلى أكثر من مائة متر، فيغرق أغلب المناطق الآهلة بالسكان والممتدة حول شواطىء تلك البحار والمحيطات إلى عمق لا يكاد يتجاوز الخمسمائة كيلومتراً في أغلب الأحيان. وليس هذا من قبيل الخيال العلمي، فقد مرت بالأرض فترات كانت مياه البحار فيها أكثر غمراً لليابسة من حدود شواطئها الحالية، كما مرت فترات أُخرى كان منسوب الماء في البحار والمحيطات أكثر انخفاضاً من منسوبها الحالي مما أدى إلى انحسار مساحة البحار والمحيطات وزيادة مساحة اليابسة، والضابط في الحالين كان كم الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال وفوق بعض الأجزاء الأخرى من اليابسة. فكلما زاد كم الجليد انخفض منسوب الماء في البحار والمحيطات فانحسرت عن اليابسة التي تزيد مساحتها زيادة ملحوظة،

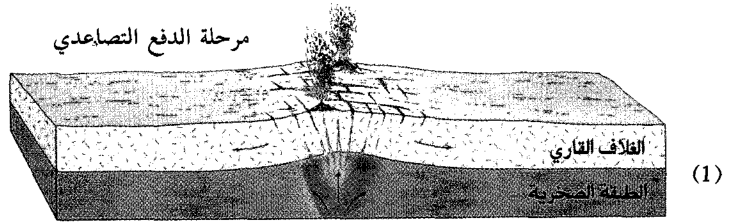


خارطة للعالم توضح المساحات التي يغطيها الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض الشمالي والجنوبي، وفوق قمم المرتفعات وفي بعض الأجزاء الأخرى من اليابسة

وكلما قل كم الجليد ارتفع منسوب المياه في البحار والمحيطات وطغت على اليابسة التي تتضاءل مساحتها تضاؤلاً ملحوظاً.

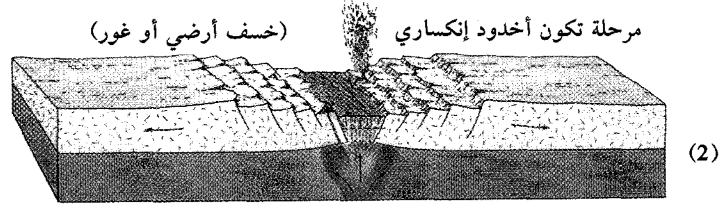
من هنا كان تفسير القسم القرآني بـ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ بأن الله تعالى يمنّ علينا ـ وهو صاحب الفضل والمنة ـ بأنه ملأ منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات، وحجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان على اليابسة، وذلك بحبس كمياتٍ من هذا الماء في هيئات متعددة، أهمها ذلك السُّمك الهائل من الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وعلى قمم الجبال، والذي يصل إلى أربعة كيلومترات في قطب الأرض الجنوبي وإلى ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي، ولولا ذلك لغطى ماء الأرض أغلب سطحها ولما بقيت مساحة كافية من اليابسة للحياة بمختلف أشكالها الإنسانية، والحيوانية، والنباتية، وهي

مرحلة الدفع التصاعدي



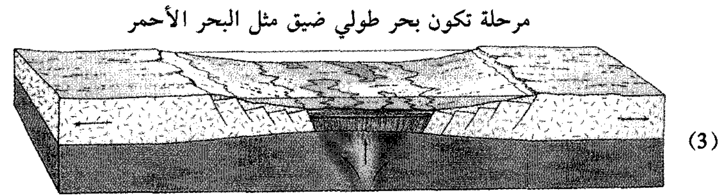
(1)

مرحلة تكون أخدود إنكساري (خسف أرضي أو غور)



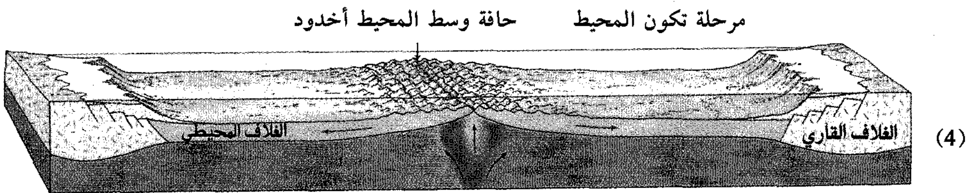
(2)

مرحلة تكون بحر طولي ضيق مثل البحر الأحمر



(3)

مرحلة تكون المحيط حافة وسط المحيط أخدود



(4)

شكل يوضح مراحل تكون المحيطات عن طريق تكون الخسوف الأرضية

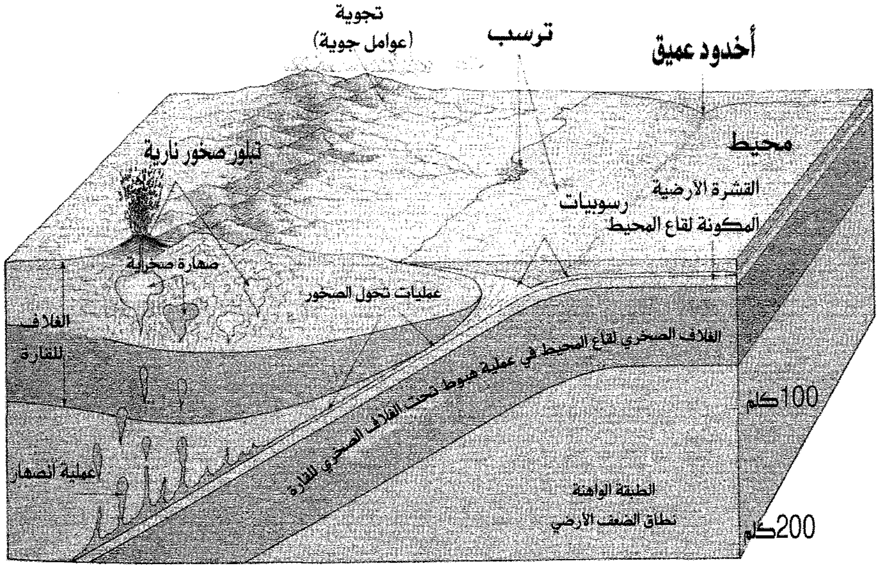
إحدى آيات الله البالغة في الأرض، من أجل إعدادها لكي تكون صالحةً للعمران.

من هنا كان تفسير القسم بـ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ بمعنى: المملوء بالماء المكفوف عن اليابسة ينطبق مع عدد من الحقائق العلمية الثابتة التي تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، وتشهد لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ بالنبوة وبالرسالة.

ثانياً: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ بمعنى: القائم على قاع أحمته الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض فجعلته شديد الحرارة:

في العقود المتأخرة من القرن العشرين تم اكتشاف حقيقة تمزق الغلاف الصخري للأرض بشبكةٍ هائلةٍ من الصدوع العملاقة المزدوجة والتي تكوِّن فيما بينها ما يعرف باسم: أودية الخسف أو الأغوار، وأن هذه الأغوار العميقة تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة، ويشبهها العلماء باللحام على كرة التنس ـ مع فارق التشبيه ـ، وتمتد هذه الأغوار في كافة الاتجاهات لعشرات الآلاف من الكيلومترات، ولكنها تنتشر أكثر ما تنتشر في قيعان محيطات الأرض، وفي قيعان عدد من بحارها، ويتراوح عمق الصدوع المشكلة لتلك الأغوار بين65 و70 كيلومتراً تحت قيعان البحار والمحيطات، وبين100 و150 كيلومتراً على اليابسة، (أي: في صخور القارات)، وتعمل هذه الصدوع على تمزيق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتقطيعه إلى عدد من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسميه العلماء باسم: **نطاق الضعف الأرضي**، وهو نطاق لدن عالي الكثافة واللزوجة تتحرك بداخله تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تتبرد وتعاود النزول إلى أسفل، وهي بتلك الحركة الدائبة تدفع بكل لوح من ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى التباعد عن اللوح المجاور في أحد جوانبه في ظاهرة تسمى: «**ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات**»، ومصطدماً في الجانب المقابل باللوح الصخري المجاور ليكون سلسلة من السلاسل الجبلية، ومنزلقاً عن الألواح المجاورة في الجانبين الآخرين.

وباستمرار تحركِ ألواح الغلاف الصخري للأرض تتسع قيعان البحار والمحيطات باستمرار عند خطوط التباعد بينها، وتندفع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية لتساعد على دفع جانبي المحيط يمنةً ويسرةً، وتُملأ المسافات الناتجة عن عملية توسع قيعان البحار والمحيطات بهذه الملايين من أطنان الصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض على هيئة ثوراتٍ بركانيةٍ عارمة، تحت الماء، تسجر قيعان جميع محيطات الأرض، وقيعان أعدادٍ من بحارها ـ مثل البحر الأحمر ـ، وتجدد مادتها الصخرية باستمرار.



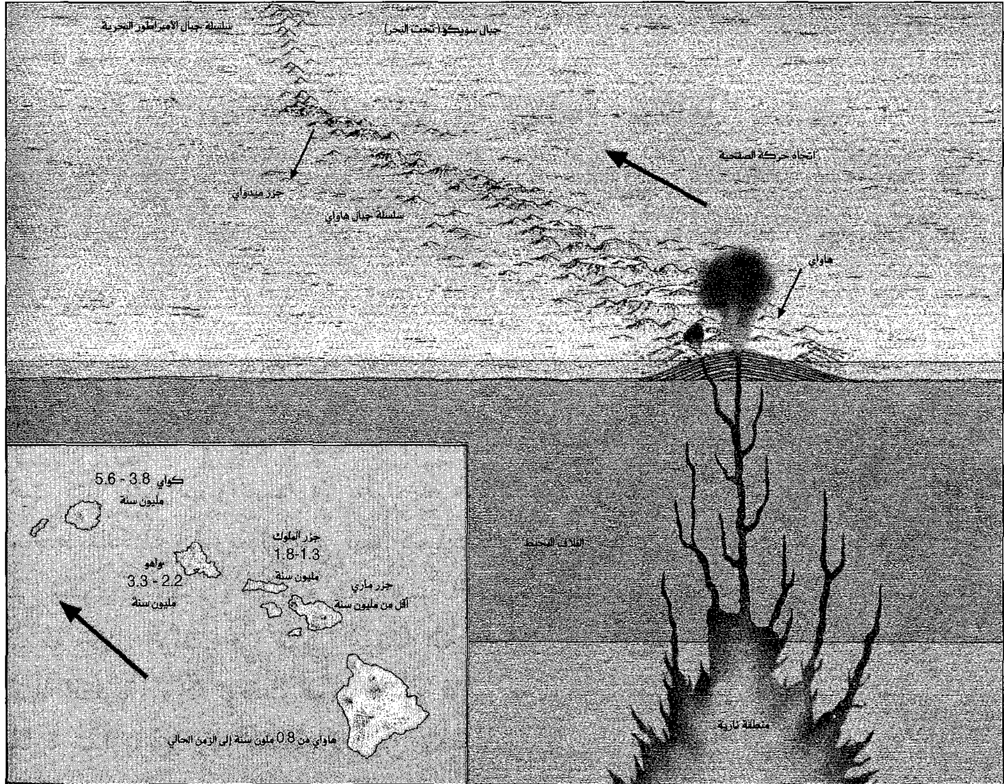
رسم تخطيطي لحركة الألواح الصخرية في قيعان المحيطات

وقد أدى هذا النشاط البركاني فوق قيعان كل المحيطات، وفوق قيعان عدد من البحار النشطة إلى تكون سلاسل من الحيود المرتفعة في أواسط تلك المحيطات والبحار تتكون في غالبيتها من الصخور البركانية، وقد ترتفع قممها في بعض الأماكن على هيئة أعداد من الجزر البركانية من مثل: جزر كل من إندونيسيا، ماليزيا، الفلبين، اليابان، هاواي، وغيرها. وفي المقابل تصطدم ألواح الغلاف الصخري عند حدودها المقابلة لمناطق اتساع قيعان البحار والمحيطات، ويؤدي هذا التصادم إلى اندفاع قيعان المحيطات تحت كتل القارات وانصهارها بالتدريج مما يؤدي إلى تكون جيوب عميقة عند التقاء قاع المحيط بالكتلة القارية تتجمع فيها كميات هائلة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة التي تطوى وتتكسر، لترتفع على هيئة السلاسل الجبلية على حواف القارات من مثل: سلسلة جبال الإنديز في غربي أمريكا الجنوبية، وهنا يستهلك قاع المحيط بالتدريج تحت الكتلة القارية، وإذا توقفت عملية توسع قاع المحيط فإن هذا القاع قد يستهلك بأكمله تحت القارة مما يؤدي إلى تصادم قارتين ببعضهما، وينشأ عن هذا التصادم أعلى السلاسل الجبلية من مثل: جبال الهيمالايا التي نتجت عن اصطدام الهند بالقارة الآسيوية بعد استهلاك قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما بالكامل في أزمنة أرضية سحيقة.

ويُصَاحبْ كل من عمليتي توسع قاع المحيط في محوره الوسطي واصطدامه عند أطرافه

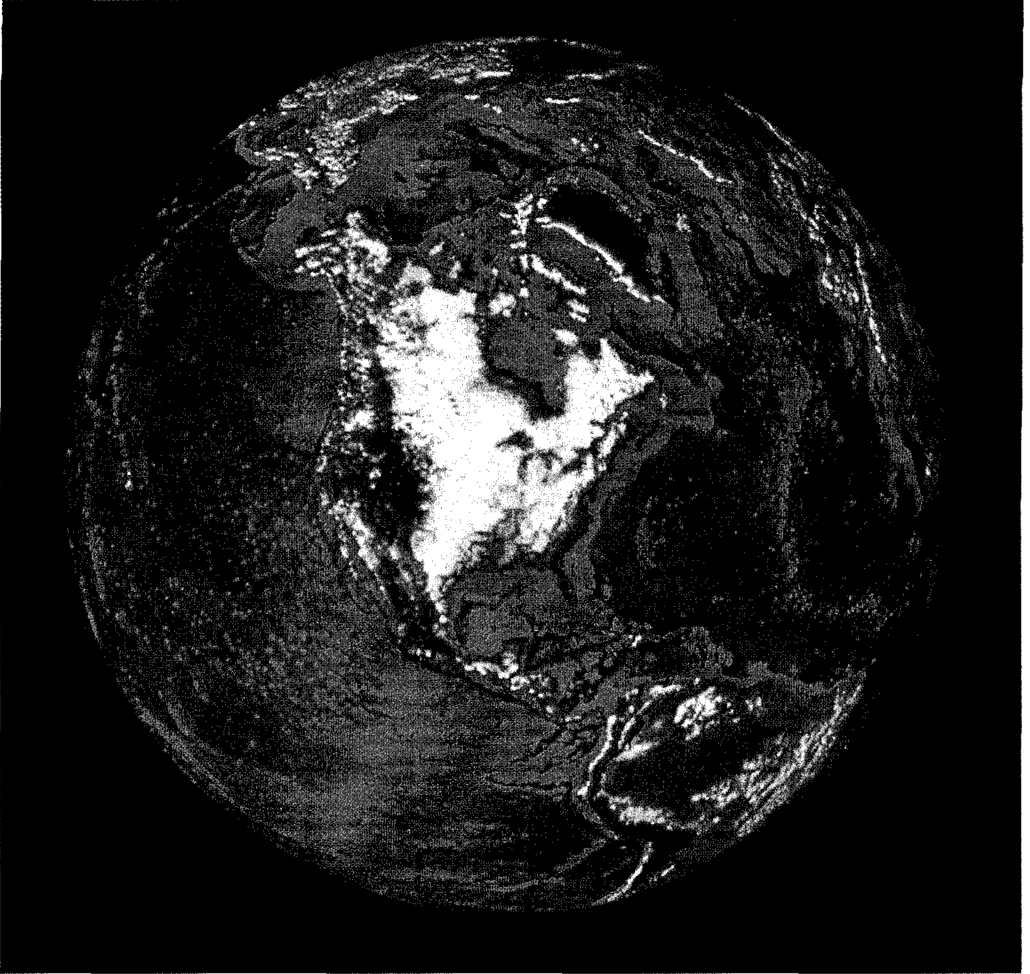
بعدد من الهزات الأرضية والثورات والطفوح البركانية التي تبلغ أشدها عند خطوط التصادم.

وتبلغ جبال أواسط المحيطات أكثر من أربعة وستين ألفاً من الكيلومترات في الطول، بينما يبلغ طول الصدوع العميقة التي اندفعت منها الطفوح البركانية لتكون تلك السلاسل الجبلية في أواسط المحيطات أضعاف هذا الرقم. وتتكون هذه السلاسل أساساً من الصخور البركانية المختلطة بالقليل من الرسوبيات البحرية وتحيط كل سلسلة من هذه السلاسل المندفعة من قاع المحيط بوادٍ خسيف ـ غور ـ مكون بفعل الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين خمسة وستين كيلومتراً وسبعين كيلومتراً ليخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل ويصل إلى نطاق الضعف الأرضي الذي تندفع منه الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجة حرارة تزيد عن الألف درجة مئوية لتسجر قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها النشطة باستمرار. ومع تجدد اندفاع

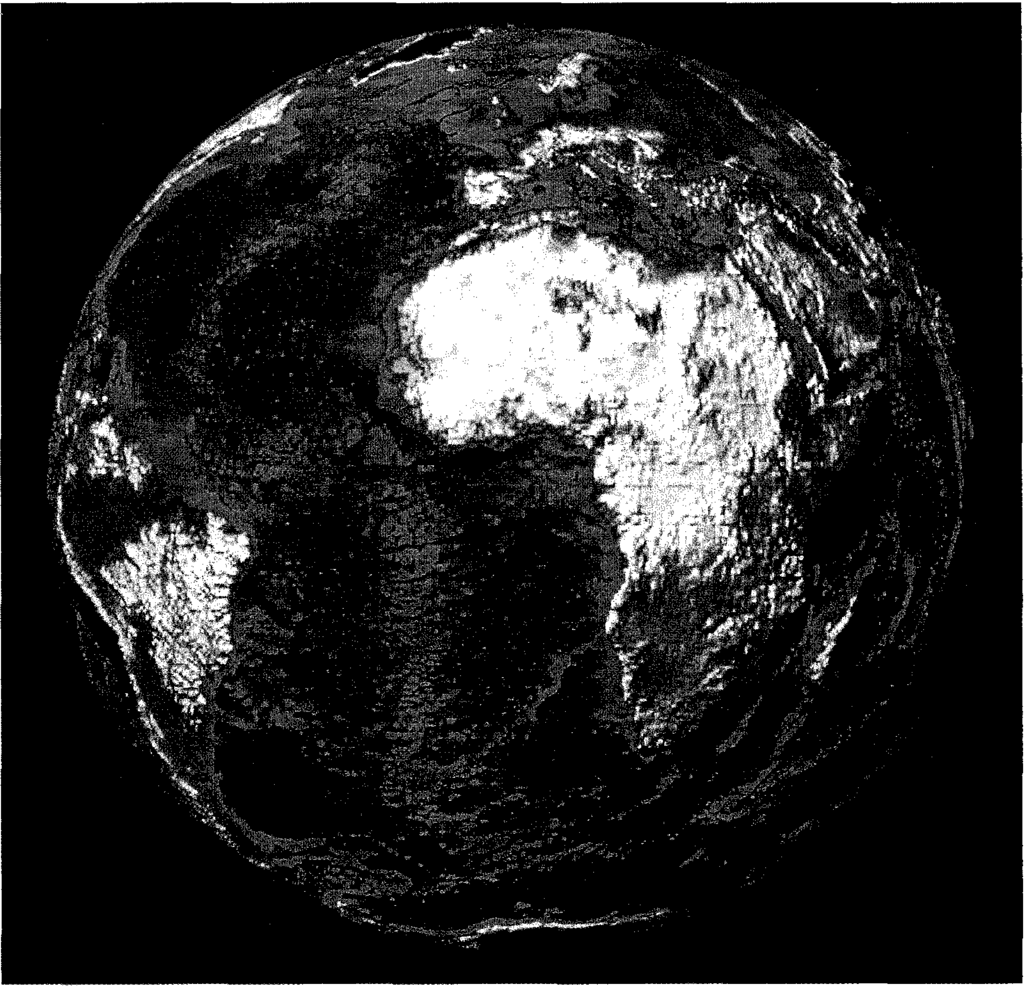


رسم تخطيطي لتكون الجزر البركانية ـ من مثل جزر هاواي ـ من جراء اندفاع الصهارة من نطاق الضعف الأرضي عبر صدوع قيعان المحيطات

الصهارة الصخرية عبر مستويات هذه الصدوع العملاقة يتسع قاع المحيط باستمرار، وتتجدد مادته بدفع الصخور القديمة في اتجاه شاطىء المحيط يمنة ويسرة ليحل محلها أحزمة أحدث عمراً تتكون من تجمد تلك الصهارة الجديدة وتترتب بصورة متوازية على جانبي أغوار المحيطات والبحار. ويهبط كل جانب من جانبي قاع المحيط المتسع بنصف معدل اتساعه الكلي في وسطه، وذلك تحت كل قارة من القارتين أو القارات المحيطة بشاطئيه، وبذلك يمتلىء محور المحيط بالصهارة الصخرية الحديثة المندفعة عبر مستويات الصدوع الممزقة لقاعه فتسجره، بينما تندفع الصخور الأقدم بالتدريج في اتجاه الشاطئين حيث توجد



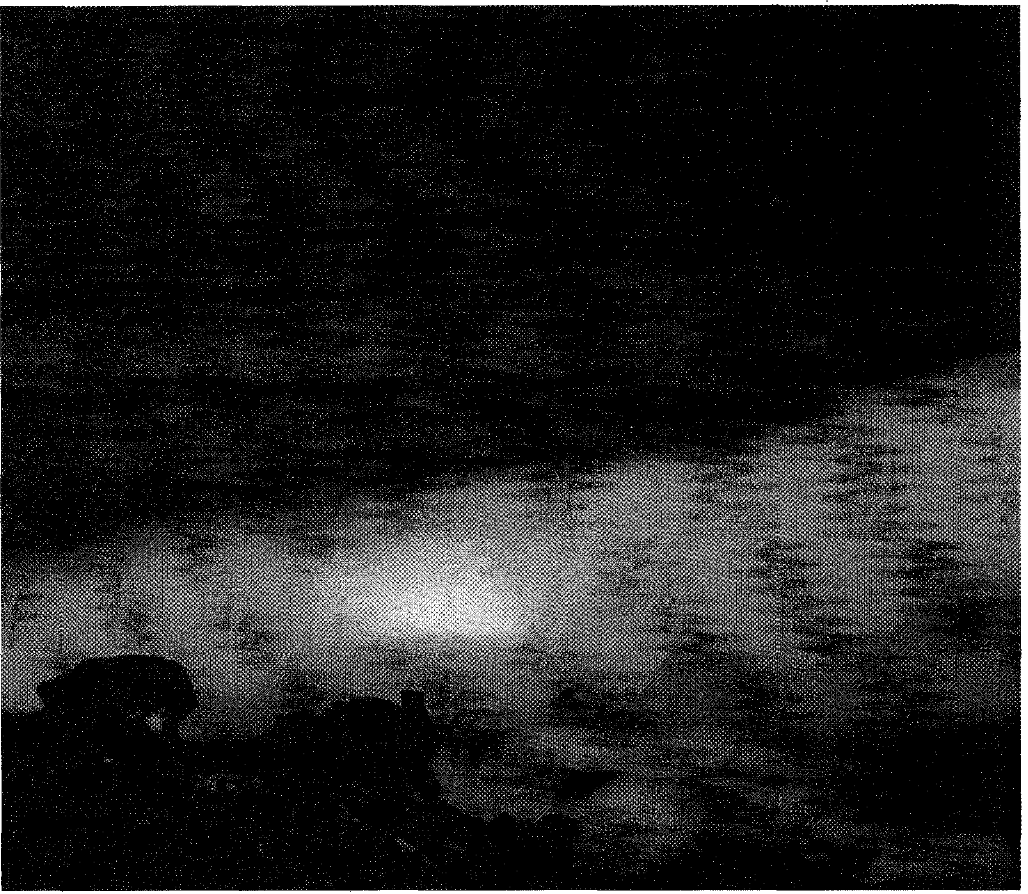
نموذج (1) للأرض يُبيِّن صدوع قاع المحيطات الناتج عنها توسع قيعان البحار وتباعد اليابسة



نموذج (2) للأرض يُبيِّن صدوع قاع المحيطات الناتج عنها توسع قيعان البحار وتباعد اليابسة

أقدم صخور ذلك القاع، والتي تستهلك باستمرار تحت القارات المحيطة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان عددٍ من بحارها (مثل: البحر الأحمر) توجد أيضاً على اليابسة، ولكن بنسب أقل منها فوق قيعان البحار والمحيطات، وتعمل على تكوين عددٍ من الأغوار (الأودية الخسيفة) والبحار الطولية (من مثل: أغوار شرقي إفريقيا والبحر الأحمر) التي تعمل على تفتيت الكتل القارية باتساعها التدريجي لتتحول تلك البحار الطولية إلى بحارٍ أكبر ثم إلى محيطاتٍ تفصل بين الكتل القارية التي كانت متصلةً على هيئة قارةٍ واحدةٍ. وتحاط تلك الخسوف القارية العملاقة بعدد من القمم البركانية السامقة.



الصهارة البركانية المندفعة إلى قيعان البحار والمحيطات من نطاق الضعف الأرضي لا يطفئها الماء، ولا تستطيع هي بدورها أن تبخر الماء بالكامل

بذلك ثبت لكل من علماء الأرض والبحار ـ بالأدلة المادية الملموسة ـ أن كل محيطات الأرض بما في ذلك المحيطان المتجمدان الشمالي والجنوبي، وأن أعداداً من بحارها من مثل: البحر الأحمر، قيعانها مسجرة بالصهارة الصخرية المندفعة بملايين الأطنان من داخل النطاق الضعيف في الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بالكامل وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي. وتتركز هذه الشبكة من الصدوع العملاقة أساساً في قيعان البحار والمحيطات، وأن كم المياه في تلك الأحواض العملاقة ـ على ضخامته ـ لا يستطيع أن يطفىء جذوة تلك الطفوح من الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض إطفاءً كاملاً، وأن هذه الجذوة على شدة حرارتها ـ أكثر من ألف درجة مئوية ـ لا تستطيع أن تبخر هذا الماء بالكامل؛ وذلك لأنه عندما يتبخر

الماء باندفاع الصهارة فيه فإنه يرتفع إلى أعلى ليلامس ماءً أبرد فيتكثف ويعود إلى قاع البحر مرة أخرى ليعاود الكرة من جديد، وهكذا ليبقى هذا الاتزان الدقيق بين الأضداد من الماء والحرارة العالية هو من أكثر ظواهر الأرض إبهاراً للعلماء في زماننا، وهي حقيقة لم يتمكن الإنسان من اكتشافها إلا في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين.

ومن الغريب أن رسول الله ﷺ ـ هذا النبي الأمي الذي لم يركب البحر في حياته الشريفة مرةً واحدةً، فضلاً عن الغوص إلى أعماق البحار ـ قال في حديث شريف أخرجه كل من الأئمة: أبو داود في سننه، والبيهقي في سننه، وابن شيبة في مصنفه، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ما نصه: «**لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً**»[1].

وجاء الحديث في مصنف ابن شيبة بالنص التالي: «**إن تحت البحر ناراً، ثم ماءً ثم ناراً**»، ويعجب الإنسان المتبصر لهذا السبق في كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الأرض التي لم يتوصل الإنسان إلى إدراكها إلا في نهايات القرن العشرين، هذا السبق الذي لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق، الذي أنزل هذا القرآن الكريم بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وعلم هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ من حقائق هذا الكون ما لم يكن لأحدٍ من الخلق إلمام به قبل العقود الثلاثة المتأخرة من القرن العشرين، لكي تبقى هذه الومضات النورانية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ شهادات مادية ملموسة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي حفظه ـ تعالى ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بذلك إلى قيام الساعة وحفظه بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ كلمةً كلمةً، وحرفاً حرفاً، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، دون أدنى تغيير أو تبديل أو تحريف، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض. فسبحان الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين هذا القسم القرآني «بالبحر المسجور»، وسبحان الذي علَّم خاتم أنبيائه ورسله بهذه الحقيقة فقال قولته الصادقة: «**إن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً**»، وسبحان الذي أكد على صدق القرآن الكريم، وعلى صدق هذا النبي الخاتم في كل ما رواه عن ربه. فأنزل في محكم كتابه قوله الحق:

(1) أخرجه أبو داود في سننه (الحديث: 2489).

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء: 166).

وقوله ـ سبحانه ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ (الفرقان: 6).

وقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النمل: 93).

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ (سبإ: 6).

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ (صٓ: 87، 88).

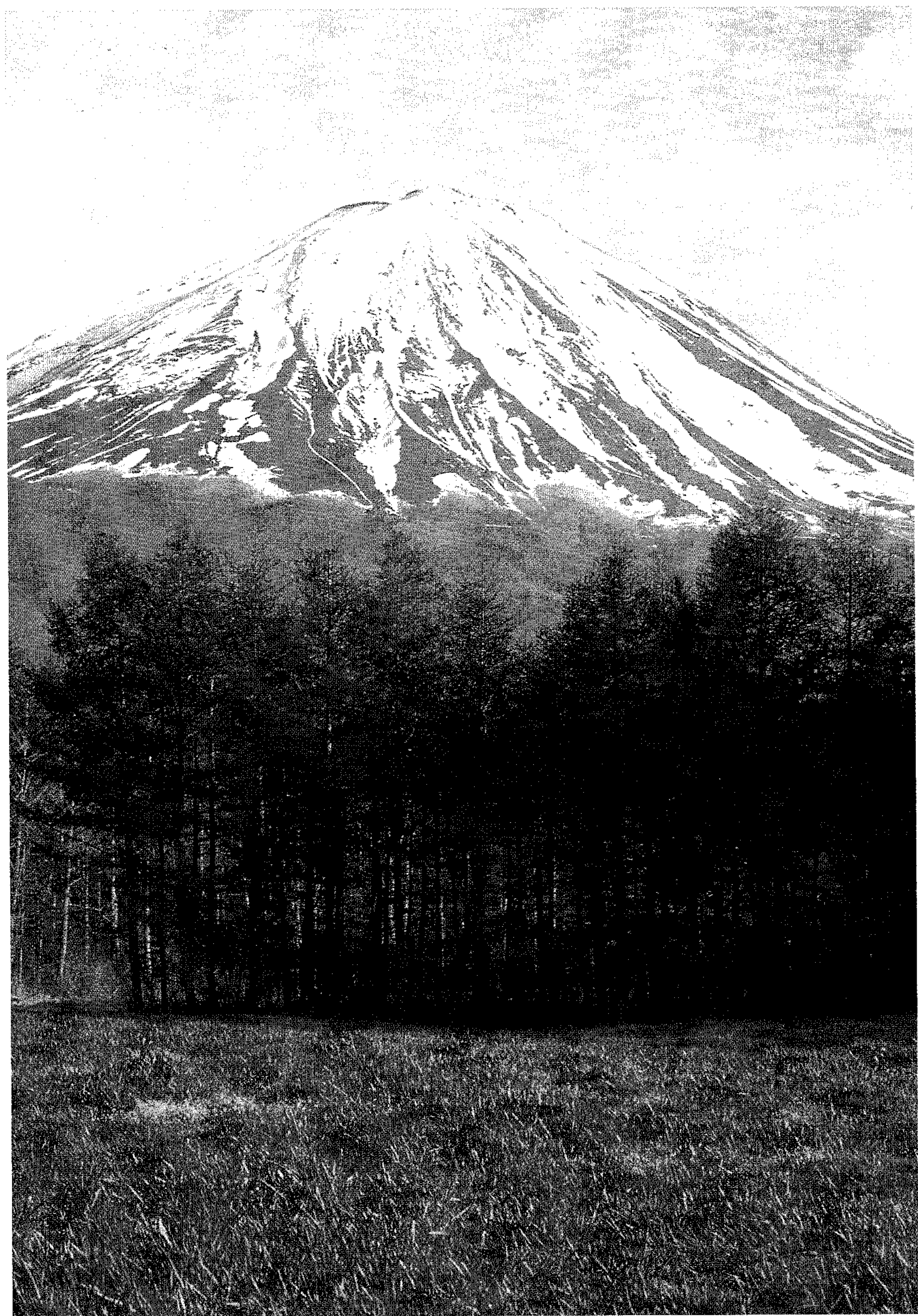
وقوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: 41، 42).

وقوله عز وجل:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: 53).

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام ـ وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

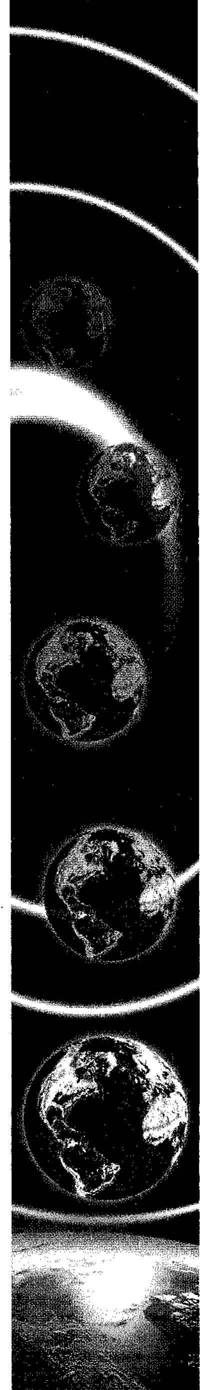




بسم الله الرحمن الرحيم

(8) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾

(النبإ: 6، 7)



هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في مقدمات سورة النَّبَإِ، وهي سورة مكية وعدد آياتها أربعون (40) بعد البسملة، ويدور محورها حول قضية العقيدة، والعقيدة هي تلك القضية الغيبية التي لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصورٍ صحيح أبداً بغير هدايةٍ ربانيةٍ؛ ومن هنا كانت من قواعد الدين الذي من لوازم صحته أن يكون وحياً ربانياً خالصاً لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية.

ومن أصول العقيدة الإسلامية: الإيمان بالبعث وبالحساب والجزاء، وبالخلود في حياةٍ قادمةٍ إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً. والإيمان بالبعث هو موضوع سورة النبإ ومحورها الأساسي؛ وذلك لأن إنكار البعث كان حجة كفار قريش، كما كان حجة الكفار والمتشككين عبر التاريخ في نبذهم للدين، كفراً برب العالمين، وجهلاً بطلاقة قدرته التي لا تحدها حدود، أو قياساً للقدرة الإلهية بقدرات البشر المحدودة ظلماً وعدواناً وجهلاً بمدلول الألوهية الحقة؛ ومن ثم عجز الكافرون عن تصور إمكانية البعث، أو تعاجزوا عنه انصياعاً لشهواتهم التي يرون ممارستها دون أدنى مسؤوليةٍ أو مساءلةٍ، فانطلقوا في إنكار البعث، وما يستتبعه من الحساب والجزاء، وفي التشكيك في كل ذلك وهو من صلب الدين الذي جاء به آلاف من الأنبياء، ومئات من المرسلين، وتكامل في بعثة النبي والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

ومن أجل التأكيد على حقيقة البعث بعد الموت وما يستتبعه من

حسابٍ وجزاءٍ ابتدأت سورة النبإ باستنكار تساؤل الكافرين عنه؛ تساؤل المنكر له أو المتشكك في إمكانية وقوعه، وألمحت بالتهديد القاطع لكل منكر أو متشكك في تلك الحقيقة الربانية الحاسمة، ثم أوردت عدداً من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق لكي تكون شاهدة على أن الخالق المبدع قادر على إفناء خلقه وعلى إعادة بعثه؛ ولذلك أكدت السورة على حقيقة يوم البعث وأهواله، وسمَّته باسم: يوم الفصل؛ لأنه يومٌ قد وقته ربنا ﷻ للفصل بين العباد، حيث سيجمع له كافة الخلق من الأولين والآخرين بعد فنائهم أجمعين وفناء الكون كله من حولهم، وذلك لحسابهم على ما قد قدموا في حياتهم الدنيا، ولجزائهم الجزاء الأوفى على ذلك.

ثم تعرج بنا السورة على بعض صور العقاب الذي أعده ربنا ﷻ للطاغين من الكفار والمشركين والمتجبرين في الأرض من المنكرين لدين الله، والمكذبين بآياته، والغافلين عن حسابه، وذلك بإدخالهم إلى جهنم ـ وبئس المصير ـ التي ترصد بهم، وتستعد لاستقبالهم وفيها من صور العذاب المهين ما نسأل الله تعالى أن يجيرنا منه.

وللمقارنة بين مصير هؤلاء الطاغين المكذبين ومصير عباد الله الصالحين، تحدثت السورة عن شيء من جزاء المتقين الذي تضمن جنات ونعيم مقيم فضلاً ورحمةً من رب العالمين.

وختمت السورة الكريمة بتصوير شيءٍ من أهوال يوم القيامة، وبدعوة الناس كافة إلى الاستعداد لهذا اليوم الذي سوف يعود الخلق فيه إلى الله، ليقفوا جميعاً بين يديه للحساب، وأن يأخذوا حذرهم حتى تحسن عودتهم، ويهون حسابهم فينجوا من العذاب المهين، ويرفلوا في جنات النعيم المقيم.

وتضمَّن ختام سورة النبإ، التحذير من عذاب يوم القيامة؛ حيث ينظر كل إنسانٍ صحيفة أعماله في هذه الحياة، وفيها كل ما قد قدمت يداه، فيحمد المتقون الله على حسن هدايته وتوفيقه، ويتمنَّى كل كافر لو يستحيل تراباً أملاً في تحاشي هول هذا اليوم وهول المصير الأسود من بعده، ولكن هيهات هيهات أن يفر أحد من حساب الله وجزائه العادل...!!!

ومن الآيات الكونية التي قدمها ربنا ﷻ بين يدي سورة النبإ شاهدةً له ـ سبحانه ـ بطلاقة القدرة في إبداعه لخلقه، ومؤكدةً إمكانية البعث بل حتميته وحقيقته، قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾

وهاتان الآيتان يمر عليهما الإنسان دون إدراك حقيقي لفضل الله تعالى في الإنعام بهما

ولا بعمق الدلالة العلمية في كل منهما؛ لأن حقيقة ذلك لم يدركها العلماء المتخصصون إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. وهذا السبق القرآني صورة من صور الإعجاز العلمي في كتاب الله سنعرض لها إن شاء الله ـ تعالى ـ في الأسطر التالية بعد شرح الدلالة اللغوية لألفاظ الآيتين الكريمتين واستعراض سريع لأقوال المفسرين فيهما.

الدلالة اللغوية:

أولاً: (المهاد):

(المهاد) والمهد في اللغة العربية: الممهد الموطأ من كل شيء، ويطلق على الفراش لبسطه وسهولة وطئه، يقال: (مهد) الفراش أي: بسطه ووطأه، و(المهد) ما يهيأ للصبي من فراش وثير و(تمهيد) الأمور إصلاحها وتسويتها، يقال: «مهدت» لك كذا، أي: هيأته وسويته، و (تمهيد) العذر هو بسطه وقبوله. وقد جاء ذكر لفظة (المهد) بتصريفاتها في القرآن الكريم خمس مرات على النحو التالي:

(1) ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ **(آل عمران: 46).**

(2) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ **(طه: 53).**

(3) ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ **(الروم: 44).**

(4) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ **(المدثر: 14).**

(5) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ **(الذاريات: 48).**

ثانياً: الجبال: (الجبال) والأجبال: جمع (جبل) وهو المرتفع عمَّا حوله من الأرض ارتفاعاً ملحوظاً يجعله يعظم ويطول، ودونه (التل) ودون التل (الربوة) أو (الأكمة)، ودون الأكمة (النجد) أو (الهضبة)، ودون الهضبة (السهل).

ويقال: (أجبل) القوم أي: صاروا إلى (الجبال) بمعنى وصلوا إليها، أو دخلوها وسكنوا فيها، ويقال للحية: (ابنة الجبل)؛ لأن الجبل مأواها، كما يقال لصدى الصوت: (ابن الجبل)؛ لأن (الجبل) يردده، ويقال للداهية: (ابنة الجبل)؛ لأنها تثقل على النفس كأنها (الجبل).

و (الجُبْلة) و(الجَبْلَة) و(الجِبْلَة) و(الجِبِلَّة) القوة البدنية أو صلابة الأرض؛ و(الجبال): البدن، يقال: فلان (مجبول) أو (خطير الجبال) أي: عظيم البدن تشبيهاً بالجبل، و(تجبل) ما عنده أي: استنظفه، و(الجبل) أيضاً ساحة البيت، أو الكثير من كل

شيء، يقال: (مال جبل) و(حي جبل) أي: كثير، و(الجبل) و(الجبلة) الجماعة من الناس، وفيها قراءات قرئ بها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ (يس: 62) ـ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ـ كما قرئ بضم أو فتح الجيم أو تسكين الباء، وبضم كل من الجيم والباء وتشديد اللام أو تخفيفها.

و(الجِبِلَّةُ): الخلقة أو الفطرة، وأصله: الوجه وما استقبلك منه، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: 184) بكسر الجيم أو ضمِّها وكسر الباء أو تسكينها، والجمع (الجبلات)، ومنها أخذت تسمية السائل الذي يملأ جدار الخلية الحية باسم الجبلة: (البروتوبلازم أو السيتوبلازم).

يقال: (جَبَلَهُ) الله (جَبْلاً) أي: خلقه وفطره، إشارة إلى ما ركب فيه من طباع، و(الجِبِلِيِّ) الفطري، و(الجِبِلَّةُ) الأصل، و(الجبل) الغليظ، يقال: فلان ذو (جَبَلة) أي: غليظ الجسم، و(جبل) أي: صار كالجبل في الغلظ، ويقال: (جَبَلَ) التراب (جَبْلاً) أي: صب عليه الماء ودعكه حتى صار طيناً، ويقال: (جبله) أي: قطعه قطعاً شتى، كما يقال: فلان (جبل) لا يتزحزح تصوراً لمعنى الثبات فيه.

ثالثاً: (أوتاداً)

و **(الأوتاد)** جمع **(وتد)** بكسر التاء وبفتحها، والكسر أولى، وفعله (وتد)، والأمر منه (تِدَّ) بالكسر، و(الأوتاد) قطع من خشب أو حديد غليظة الرأس، مدببة النهاية، تثبت بها أركان الخيمة في الأرض بدكها حتى يدفن أغلبها في الأرض، ويبقى أقلها ظاهراً فوق السطح، فتشد بذلك العمق أركان الخيمة إلى الأرض فتثبتها وتجعلها قادرة على مقاومة فعل الرياح، والعواصف الهوجاء.

ويأتي التعبير بِـ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ **(الفجر: 10)** في استعارة مجازية؛ بمعنى: كثير الجنود والعساكر الذين يشدون الملك ويثبتونه كما تشد الأوتاد أركان الخيام إلى الأرض فتثبتها نظراً لكثرة خيامهم التي يضربون أوتادها في أرض معسكراتهم، كما قد تأتي في معنى صاحب الأبنية العظيمة الشاهقة التي تشبه في عمق أساساتها أوتاد الجبال، وفي ارتفاعها علو الجبال وذلك من مثل قول الحق ﷻ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ .**(الفجر: 10)**.

من شروح المفسرين

• ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ في تفسير قول الحق ﷻ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾؛ أي: ممهدة للخلائق، ذلولاً لهم، قارة، ساكنة، ثابتة، وفي قوله تعالى ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾

أي: جعل لها أوتاداً، أرساها بها، وثبتها، وقررها حتى سكنت، ولم تضطرب بمن عليها.

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ غفر الله لهما ـ كلاماً مشابهاً؛ إذ قالا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ أي: فراشاً كالمهد صالحةً للحياة عليها ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ أي: تثبت بها الأرض كما تثبت الخيام بالأوتاد لئلا تميد بكم. والاستفهام للتقرير.

• وقال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ رحمة واسعة: والمهاد: الممهد للسير، والمهاد اللين كالمهد.. وكلاهما متقارب، وهي حقيقة محسوسة للإنسان في أي طور من أطوار حضارته ومعرفته، فلا تحتاج إلى علم غزير لإدراكها في صورتها الواقعية، وكون الجبال أوتاداً ظاهرةً تراها العين كذلك حتى من الإنسان البدائي، وهذه وتلك ذات وقع في الحس حين توجه إليها النفس، غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسه الإنسان البدائي لأول وهلةٍ بالحس المجرد، وكلما ارتقت معارف الإنسان، وازدادت معرفته بطبيعة هذا الكون وأطواره، كبرت هذه الحقيقة في نفسه، وأدرك من ورائها التقدير الإلهي العظيم والتدبير الدقيق الحكيم، والتنسيق بين أفراد هذا الوجود وحاجاتهم، وإعداد هذه الأرض لتلقي الحياة الإنسانية وحضانتها، وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والتفاهم معها.

وجعل الأرض مهاداً للحياة ـ وللحياة الإنسانية بوجه خاص ـ شاهد لا يماري في شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر، فاختلال نسبةٍ واحدةٍ من النسب الملحوظة في خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها، أو اختلال نسبةٍ واحدةٍ من النسب الملحوظة في خلق الحياة لتعيش في الأرض.. الاختلال هنا أو هناك لا يجعل الأرض مهاداً، ولا يبقي هذه الحقيقة التي يشير إليها القرآن الكريم هذه الإشارة المجملة، ليدركها كل إنسان وفق درجة معرفته ومداركه.

وجعل الجبال أوتاداً.. يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد، فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها. أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن، وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها.

وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال.. وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية، وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقطٍ معينةٍ فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية.. وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد.. وكم من قوانين وحقائق أشار إليها القرآن الكريم، ثم عرف البشر طرفاً منها بعد مئات السنين!

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله ـ ما نصه: ﴿مِهَٰدًا﴾ فراشاً موطأ

كالمهد، لتمكينكم من الاستقرار عليها والتقلب في أنحائها، والانتفاع بما أودعناه لكم فيها.

والمهاد: مصدر بمعنى ما يمهد، وجعلت به الأرض مهاداً مبالغةً في جعلها موطئاً للناس والدواب يقيمون عليها. أو بتقدير مضاف، أي: ذات مهاد، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ كالأوتاد للأرض، أي: أرسيناها بالجبال لئلا تميد وتضطرب، كما يرسى البيت بالأوتاد لئلا تعصف به الرياح. (والأوتاد) جمع (وتد) بفتح التاء وكسرها ـ وفعله كوعد.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: ألم يروا من آيات قدرتنا أنا جعلنا الأرض ممهدة للاستقرار عليها والتقلب في أنحائها؟!! وجعلنا الجبال أوتاداً للأرض تثبتها؟ وفي تعليق هامشي أضافوا ما نصه: «يبلغ سُمك الجزء الصلب من القشرة الأرضية نحو60 كيلومتراً، وتكثر فيه التجاعيد فيرتفع حيث الجبال وينخفض ليكوِّن بطون البحار وقيعان المحيطات، وهو في حالة من التوازن بسبب الضغوط الناتجة من الجبال، ولا يختل هذا التوازن إلا بعوامل التعرية، فقشرة الأرض اليابسة ترسيها الجبال كما ترسي الأوتاد الخيمة».

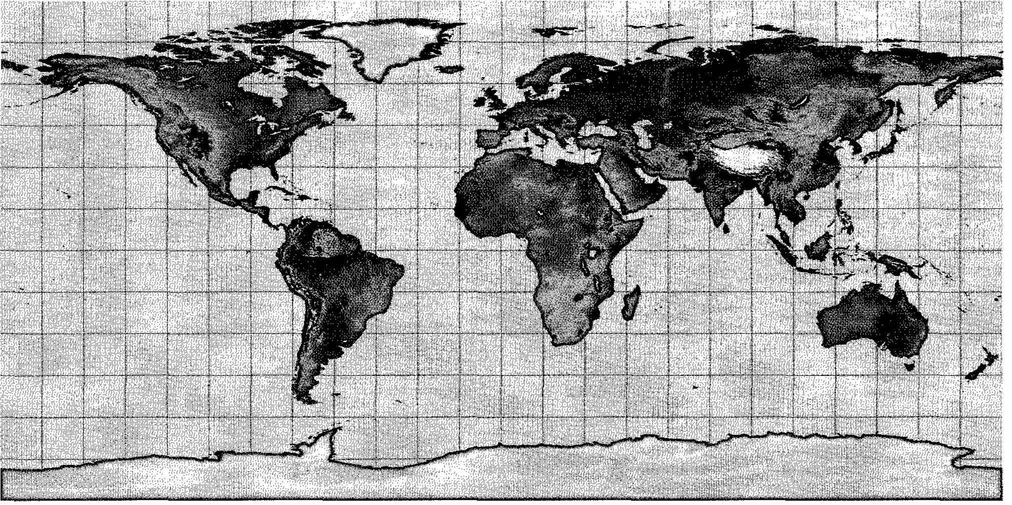
• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ بارك الله فيه ـ ما نصه:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ أي: ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أي: وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد، قال في التسهيل، شبهها بالأوتاد؛ لأنها تمسك الأرض أن تميد.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

أولاً: في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾. (النبإ: 6).

استضاءة بمفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض وصلت الدراسات الحديثة في هذا المجال إلى أن الأرض بدأت بمحيط غامر، ثم بتصدع قاع ذلك المحيط واندفاع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية (الصهير) عبر تلك الصدوع بدأ تحرك الألواح الصخرية المكونة لذلك القاع متباعدةً عن بعضها البعض في أحد أطرافها، ومصطدمةً في الأطراف المقابلة، ومنزلقةً عبر بقية الأطراف. ونتج عن ذلك تكون أعداد من أقواس الجزر البركانية عند الأطراف المتصادمة، ثم نمت تلك الجزر البركانية بالتدريج إلى القارة الأم أو أم القارات **(Pangaea)** التي تفتتت بشبكة هائلة من الصدوع إلى القارات السبع



خريطة العالم تبين توزيع السلاسل الجبلية

التي تعرفها اليوم. وظلت هذه القارات في الاندفاع متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية التي لا تزال تتزحزح عنها إلى اليوم. وباستمرار هذه العملية تمايزت ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى الألواح المحيطية، وتلك القارية، وبتصادم ألواح قيعان المحيطات بكتل القارات تكونت سلاسل الجبال الشبيهة بجبال الأنديز (على الحافة الغربية لأمريكا الجنوبية)، وبتصادم ألواح القارات مع بعضها تكونت أعلى السلاسل الجبلية على سطح الأرض من مثل: سلاسل جبال الهيمالايا التي نتجت عن اصطدام كتلة الهند بكتلة قارتي آسيا وأوروبا (أوراسيا).

ومع تكوُّن الأطواف، والمنظومات، والسلاسل، والأحزمة الجبلية ومجموعاتها المعقدة، أصبح سطح الأرض على درجة من وعورة التضاريس لا تسمح بعمرانها، ثم بدأت عمليات التجوية والتحات والتعرية في بري تلك المجموعات الجبلية والأخذ من ارتفاعاتها باستمرار، وبنقل الفتات الصخري الناتج عن تلك العمليات إلى أحواض المحيطات والبحار. وبتحرك هذه العمليات بدأت دورة الصخور التي لا تزال تتكرر إلى يومنا الراهن لتكسو منخفضات الأرض بالتربة اللازمة للإنبات والزراعة، ولتركز العديد من الثروات المعدنية، ولتزيد من ملوحة البحار والمحيطات بالتدريج حتى تجعلها صالحة لحياة البلايين من الكائنات الحية، ولتحفظ هذا الماء من الفساد، ولتركز معادن المتبخرات في صخور الأرض.

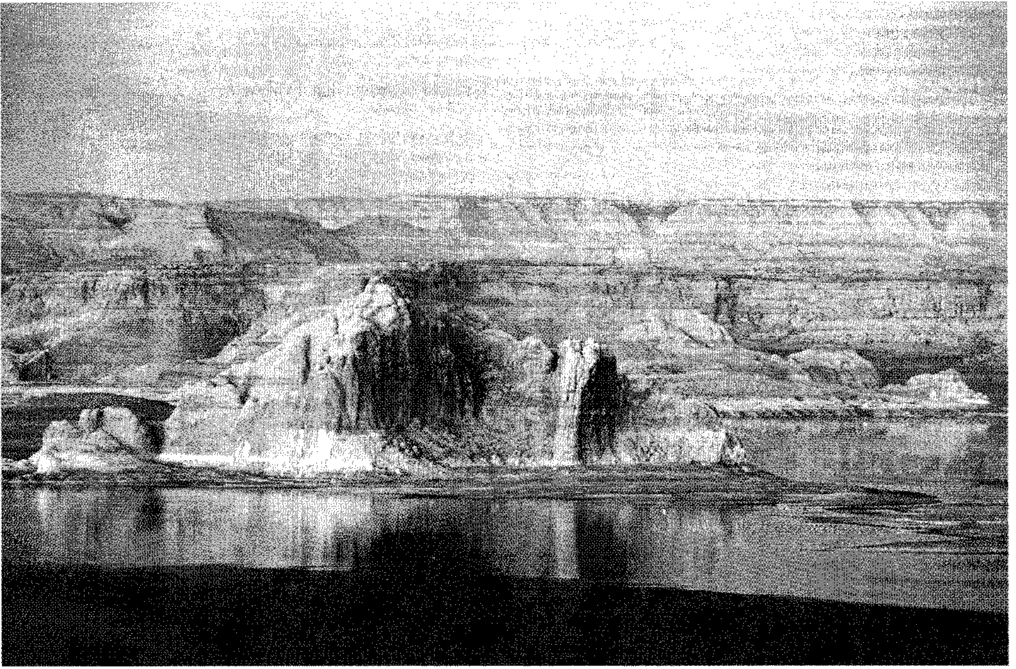
ولما كانت عمليات التجوية والتحات والتعرية تزيل كمياتٍ كبيرةٍ من الصخور المكونة

لمرتفعات سطح الأرض كان من ضرورات الاتزان الأرضي أن تتحرك الصهارة الصخرية تحت الغلاف الصخري للأرض لتعوض فقدان الكتل التي تمت تعريتها، ولتحقق الاتزان الأرضي بتعديل الضغوط في داخل الأرض، ويؤدي ذلك إلى رفع الجبال بطريقة تدريجية.

وباستمرار تفاعل تلك القوى المتصارعة من عمليات التجوية والتعرية المقترنة بعمليات تحرك الصهارة الصخرية تحت الغلاف الصخري للأرض وفي داخله، وعمليات رفع الجبال لتحقيق التوازن الأرضي لفترات زمنية طويلة، فإنها تنتهي بإنقاص سُمك سلسلة الجبال إلى متوسط سمك لوح الغلاف الصخري الذي تتواجد عليه، وذلك بسحب جذور الجبال ـ الامتدادات الداخلية للجبال ـ من نطاق الضعف الأرضي ورفعها حتى تظهر على سطح الأرض. وبخروج جذور الجبال من نطاق الضعف الأرضي الذي كانت طافيةً فيه كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات؛ فإن الجبال تفقد القدرة على الارتفاع إلى أعلى، وتظل عوامل التعرية في بريها حتى تسويها بسطح الأرض تقريباً وحينئذ تنكشف جذور الجبال، وبها من الثروات المعدنية ما لا يمكن أن يوجد، إلا تحت مثل ظروف أوتاد الجبال التي تتميز بقدر هائل من الضغط والحرارة.

وعلى هذا النحو فإن الجبال قد لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً مهماً في بناء قارات الأرض وفي الزيادة المستمرة لمساحة تلك القارات بإضافة الكتل الجبلية إلى حواف تلك القارات بطريقةٍ مستمرة.

ومعنى ذلك أن كل قارات الأرض بدأت بسلاسل من أقواس الجزر البركانية في وسط المحيط الغامر، وأنه باصطدام تلك الجزر تكونت القارة الأم التي تفتتت بشبكة هائلة من الصدوع إلى القارات السبع التي نعرفها اليوم والتي ظلت تنزاح متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى أماكنها الحالية والتي لا تزال تتزحزح عنها. وبقيت القارات على هيئة أطوافٍ ومنظوماتٍ وسلاسلَ وأحزمةٍ جبليةٍ معقدة، وأن تلك المرتفعات جعلت سطح الأرض على درجة من وعورة التضاريس لا تسمح بعمرانها، ثم بدأت سلسلة من الصراع بين العمليات الأرضية الداخلية البانية للجبال والرافعة لها، والعمليات الهدمية الخارجية التي تبريها وتعريها، وفي نهاية هذا الصراع تنتصر العوامل الهدمية الخارجية فتسوَّى الجبال، وتخفض من ارتفاعاتها بالتدريج في محاولة للوصول بها إلى مستوى سطح البحر؛ ولذلك فإن كل سهول ومنخفضات اليابسة الحالية كانت في يوم من الأيام جبالاً شاهقةً، ثم برتها عوالم التجوية والتحات والتعرية حتى أوصلتها إلى مستوياتها الحالية، وأن الكتل الصخرية القديمة التي تعرف باسم: الرواسخ أو المجن **(Shields or Cratons)** وهي كتل



العوامل الطبيعية تلعب دوراً مهماً في تعرية الصخور المكونة للمرتفعات

مستقرة نسبياً، موجودة في أواسط القارات ما هي في الحقيقة إلا جذور السلاسل الجبلية القديمة التي تم بريُها.

هذه العمليات المعقدة من الصراع بين القوى البانية في داخل الأرض والقوى الهدمية من خارجها هي التي أدت بأمر من الخالق ﷻ إلى بناء القارات، ورفعها فوق مستوى البحار والمحيطات على هيئة مجموعاتٍ من أطوافٍ ومنظوماتٍ وسلاسلَ وأحزمةٍ جبليةٍ شاهقةٍ ظلت تضاف إلى بعضها البعض بانتظام وبطء لتزيد من مساحة القارات، التي كانت في بادئ الأمر جبليةً وعرةً، لا تسمح وعورتها بعمرانها، ثم بدأت عوامل التعرية في الأخذ من تلك الجبال الشاهقة بالتدريج حتى حولتها إلى السهول الواسعة، والهضاب والنجود المنخفضة والأودية المحفورة والرواسخ الثابتة التي تشكل أواسط القارات اليوم حتى وصلت الأرض إلى صورتها المناسبة للعمران، ولذلك يمن علينا ربنا ﷻ بتمهيد الأرض، ويلوم المنكرين للبعث بتوجيه هذا اللون من الاستفهام التقريري، التوبيخي، التقريعي الذي يقول فيه الحق ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ أي: ألم نجعل لكم الأرض فراشاً موطأً كالمهد لتمكينكم من الاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها، والانتفاع بما أودعناه لكم فيها؛ لأن الأرض لو بقيت جبالاً شاهقة الارتفاع، متشابكة التضاريس، معدومة

الممرات والمسالك، لما أمكن العيش على سطحها، فسبحان الذي أنزل هذه اللفتة القرآنية المبهرة في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ثانياً: في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾:

من الأمور المشاهدة أن سطح الأرض ليس تام الاستواء، وذلك بسبب اختلاف التركيب الكيميائي والمعدني للصخور المكونة له، وبالتالي اختلاف كثافة الصخور المكونة لمختلف أجزاء الغلاف الصخري للأرض، فهناك قمم عالية للسلاسل الجبلية، وتنخفض تلك القمم السامقة إلى التلال، ثم الروابي أو الربى (جمع ربوة أو رابية) أو الآكام (جمع أكمة) أو النتوءات الأرضية، ثم الهضاب أو النجود (جمع نجد) ثم السهول، ثم المنخفضات الأرضية والبحرية، ويختلف مع ذلك متوسط كثافة الصخور المكونة لكل شكل من هذه الأشكال الأرضية.

ويبلغ ارتفاع أعلى قمة على سطح الأرض ـ وهي قمة جبل إفرست ـ في سلسلة جبال الهيمالايا 8840 متراً تقريباً فوق مستوى سطح البحر، بينما يقدر منسوب أخفض نقطة على سطح اليابسة ـ وهي حوض البحر الميت ـ بحوالي395 متراً لمستوى مائة تحت مستوى سطح البحر بينما يصل منسوب قاعه إلى 800م تحت المستوى العادي لسطح البحر. ويقدر متوسط منسوب سطح اليابسة بنحو840 متراً فوق مستوى سطح البحر، ويبلغ منسوب أكثر أغوار المحيطات عمقاً 11020 متراً (وهو غور ماريانا في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين) بينما يبلغ متوسط أعماق المحيطات نحو أربعة كيلومترات (4500 ـ 3729 متر) تحت مستوى سطح البحر.

ويبلغ الفارق بين أعلى قمة على اليابسة وأخفض نقطة في قيعان المحيطات (8840+11020 = 19860 متراً) أي: أقل قليلاً من عشرين كيلومتراً، وهذا الفارق بين أعلى قمة على سطح اليابسة وأخفض نقطة في أغوار قيعان البحار العميقة والمحيطات، إذا قورن بمتوسط نصف قطر الأرض والمقدر بنحو6371 كيلومتراً فإن النسبة لا تكاد تتعدى 0.30% وهذه النسبة الضئيلة تلعب دوراً مهماً في معاونة عوامل التعرية المختلفة على بري صخور مرتفعات الأرض، وإلقاء الفتات الناتج عنها في المنخفضات في دوراتٍ متعاقبةٍ تعمل على تسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتركيز الخامات المعدنية، وجعل الأرض صالحةً للعمران كما سبق وأسلفنا.

كذلك فإن الأدلة العلمية التي تراكمت على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين،

تشير إلى أن الغلاف الصخري للأرض في حالة توازنٍ تام، وإذا تعرض هذا التوازن إلى الاختلال في أية نقطة على سطح الأرض فإن تعديله يتم مباشرة بتحرك القدر المناسب من الصهارة في نطاق الضعف الأرضي تحت نقطة الاختلال مباشرة منها أو إليها.

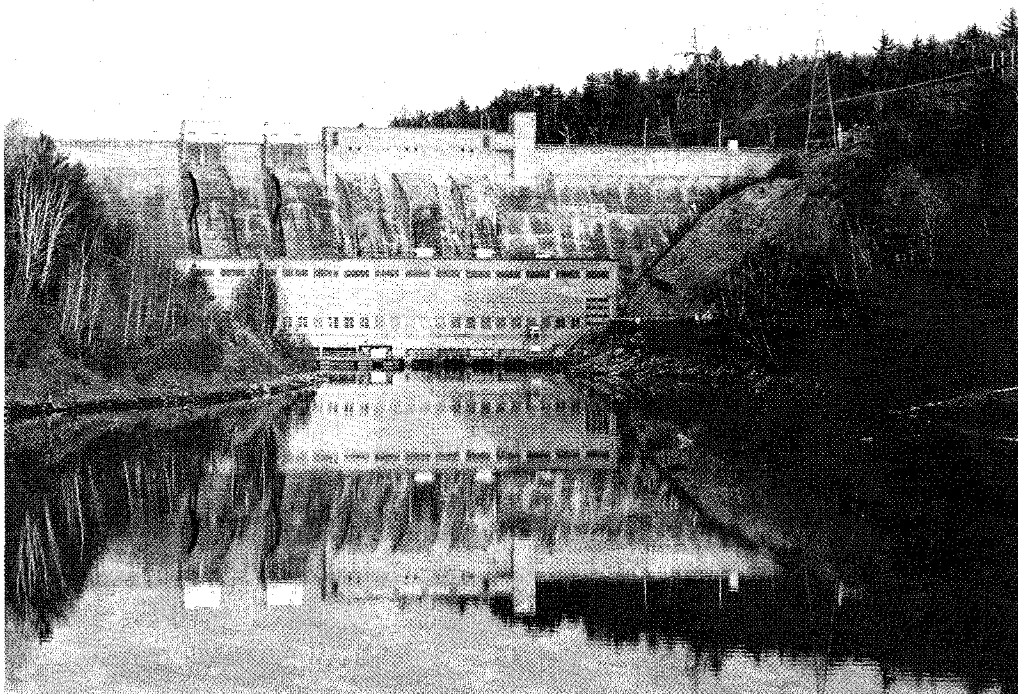
ومن هذه الأدلة أن القشرة الأرضية تنخفض إلى أسفل على هيئة منخفضات أرضية عند تعرضها لأحمالٍ زائدة، وترتفع إلى أعلى على هيئة نتوءاتٍ أرضية عند إزالة تلك الأحمال عنها، ويتم ذلك بما يسمى باسم «التضاغط والارتداد التضاغطي المرتد» الذي يتم من أجل المحافظة على الاتزان الأرضي، ومن أمثلة ذلك: ما ينتج عن تجمع الجليد بسمك كبير على اليابسة ثم انصهاره، أو عند تخزين الماء بملايين الأمتار المكعبة أمام السدود ثم تصريفه، أو بتراكم ملايين الأطنان من الترسبات أمام السدود، ثم إزالتها، أو بتساقط نواتج الثورات البركانية العنيفة حول عدد من فوهات البراكين ثم تعريتها.

ففي العهد الحديث من عمر الأرض **(Holocene)** بدأت في الانصهار تراكمات الجليد السميكة التي كانت قد تجمعت على بعض أجزاء اليابسة من نصف الكرة الشمالي منذ نحو مليوني سنة (خلال واحد من أكبر العصور الجليدية التي مرت بها الأرض)، ونتيجةً لذلك بدأت الأرض بالارتفاع التدريجي في مناطق الانصهار التدريجي للجليد لتحقيق التوازن التضاغطي المرن للأرض، وهو من سنن الله فيها، وقد بلغ ارتفاع الأرض بذلك330 متراً في منطقة خليج هدسون في شمال أمريكا الشمالية، ونحو مائة من الأمتار حول بحر البلطيق حيث لايزال ارتفاع الأرض مستمراً.

وأمام كثيرٍ من السدود التي أقيمت على مجاري الأنهار تسببت بلايين الأمتار المكعبة من المياه وملايين الأطنان من الرسوبيات التي تجمعت أمام تلك السدود في حدوث انخفاضاتٍ عامة في مناسيب المنطقة، وزيادةٍ ملحوظة في نشاطها الزلزالي، ويؤيد ذلك بأن ألواح الغلاف الصخري المكونة للقارات والتي يتراوح سمك كل منها بين المائة والمائة وخمسين كيلومتراً يغلب على تركيبها صخور ذات كثافة منخفضةً نسبياً، بينما يغلب على تركيب ألواح الغلاف الصخري المكونة لقيعان البحار والمحيطات صخور ذات كثافةٍ عاليةٍ نسبياً ولذلك لا يتجاوز سمك الواحد منها سبعين كيلومتراً فقط.

وكل من ألواح الغلاف الصخري القارية والمحيطية يطفو فوق نطاق الضعف الأرضي الأعلى كثافة وهو نطاق لدن (مرن)، شبه منصهر، عالي اللزوجة، ولذلك فهو يتأثر بالضغوط فوقه ويتحرك استجابة لها.

وفي المقابل فإن قشرة الأرض المكونة لكتل القارات يتراوح سمكها بين30 و40



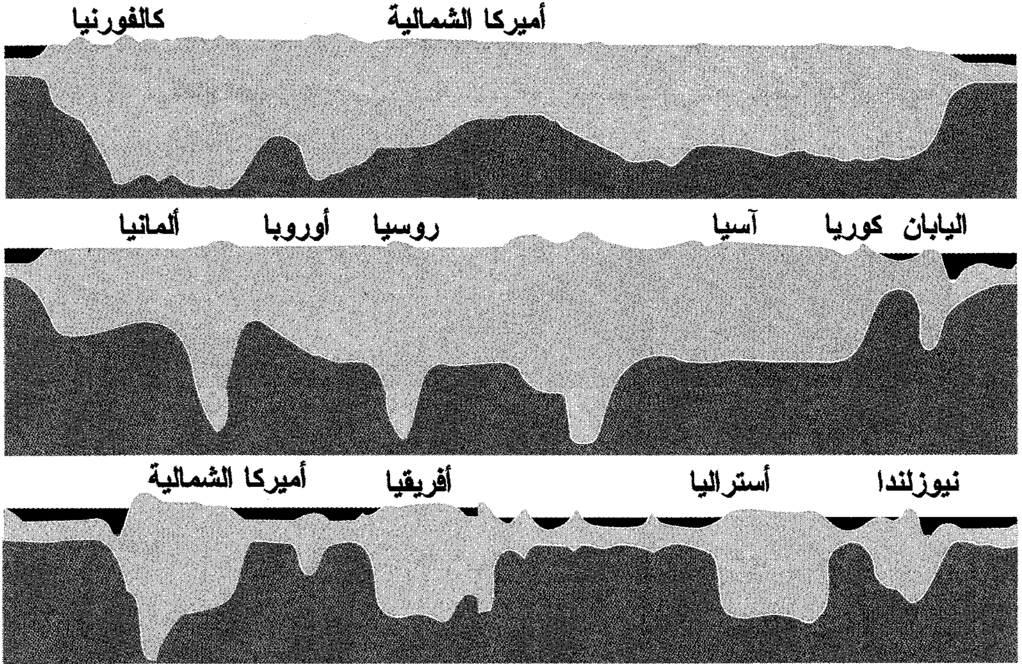
الرسوبيات المتجمعة أمام السدود المقامة على الأنهار لها تأثير على النشاط الزلزالي للمنطقة المقامة فيها تلك السدود

كيلومتراً تقريباً، ويغلب على تركيبها الصخور الجرانيتية والتي تغطي أحياناً بتتابعات رقيقة ومتفاوتة السمك من الصخور الرسوبية، ومتوسط كثافة الصخور الجرانيتية يبلغ 2.7 جرام للسنتيمتر المكعب، بينما يتراوح سمك قشرة الأرض المكونة لقيعان البحار والمحيطات بين5 و8 كيلومترات فقط، ويغلب على تركيبها الصخور البازلتية التي قد تتبادل مع الصخور الرسوبية أو تتغطى بطبقاتٍ رقيقةٍ منها، ويبلغ متوسط كثافة الصخور البازلتية 2.9 جرام للسنتيمتر المكعب، ولذلك تطفو كتل القارات فوق قيعان البحار والمحيطات.

وبنفس هذا التصور يمكن تفسير الاختلاف في تضاريس سطح الأرض على أساسٍ من التباين في كثافة الصخور المكوِّنة لكل شكل من أشكال تلك التضاريس، فالمرتفعات على سطح اليابسة لابد وأن يغلب على تكوينها صخور أقل كثافة من الصخور المحيطة بها؛ ومن ثم فلا بد وأن يكون لها امتداداتٌ من صخورها الخفيفة نسبياً في داخل الصخور

الأعلى كثافةً المحيطة بها، ومن هنا كان الاستنتاج **بأن الجبال لابد وأن لها جذوراً عميقة** تخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل لتطفو في نطاق الضعف الأرضي؛ وهنا تحكمها قوانين الطفو كما تحكم جبال الجليد الطافية في مياه المحيطات.

وقد أيدت قياسات عجلة الجاذبية الأرضية هذا الاستنتاج بإشارتها إلى قيم أقل من المفروض نظرياً في المناطق الجبلية، وإلى قيم أعلى من المفروض في المنخفضات

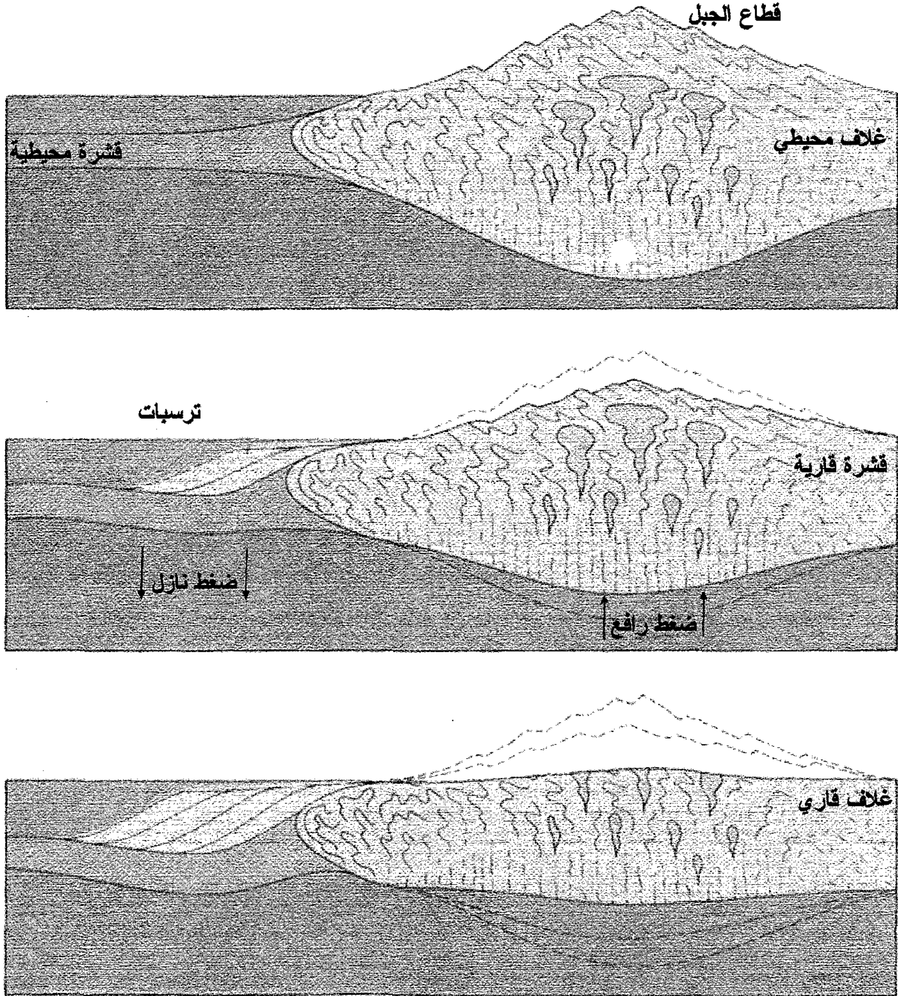


رسم يوضح قطاعات تخطيطية للغلاف الصخري للأرض وفيها امتداد كل من القارات والجبال داخل نطاق الضعف الأرضي

الأرضية وفوق قيعان البحار والمحيطات. وانكشاف جذور الجبال القديمة في أواسط القارات يعتبر من الشواهد المادية التي تثبت حدوث عمليات إعادة التعديل التضاغطي في الغلاف الصخري للأرض، وذلك لأنه مع بري عوامل التعرية لقمم تلك الجبال ظلت ترتفع إلى أعلى حتى ظهرت جذورها على سطح الأرض.

وبفهم دورة حياة الجبال ثبت أن كل نتوء أرضي فوق مستوى سطح البحر له امتداد في داخل الغلاف الصخري للأرض يتراوح طوله بين10 و15 ضعف ارتفاعه الخارجي، وكلما كان الارتفاع فوق مستوى سطح البحر كبيراً تضاعف طول الجزء الغائر في الأرض

امتداداً إلى الداخل؛ وعلى ذلك فإن قمةً مثل: إفرست لا يكاد ارتفاعها فوق مستوى سطح البحر يصل إلى تسعة كيلومترات (8848 متراً) لها امتداد في داخل الغلاف الصخري للأرض يزيد عن المائة والثلاثين كيلومتراً، ويخترق هذا الامتداد الداخلي لتلك السلسلة الجبلية الغلاف الصخري للأرض بالكامل ليطفو في نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق شبه منصهر، لدن أي: مرن، عالي الكثافة واللزوجة تحكمه في ذلك قوانين الطفو تماماً كما تحكم جبال الجليد الطافية في مياه المحيطات، فكلما برت عوامل التعرية قمم



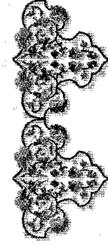
رسم يوضح حركة بروز الجذور كلما برت عوامل التعرية قمم الجبال

الجبال، ارتفعت تلك الجبال إلى أعلى، وتظل عملية الارتفاع تلك حتى يخرج جذر الجبل من نطاق الضعف الأرضي بالكامل، وحينئذ يتوقف الجبل عن الحركة، ويتم بريه حتى يصل سمكه إلى سمك اللوح الأرضي الذي يحمله، وبذلك يظهر جذر الجبل على سطح الأرض، وبه من الثروات الأرضية ما لا يمكن أن يتكون إلا تحت ظروف استثنائية من الضغط والحرارة لا تتوفر إلّا تحت ظروف مشابهة للبيئة في جذور الجبال.

فسبحان الذي وصف الجبال من قبل ألف وأربعمائة سنة بالأوتاد، وهي لفظةً واحدةً تصف كلًّا من الشكل الخارجي للجبل، وامتداده الداخلي ووظيفته؛ لأن الوتد أغلبه يدفن في الأرض، وأقله يظهر على السطح، ووظيفته التثبيت، وقد جاءت علوم الأرض في العقود المتأخرة من القرن العشرين بالأدلة المادية التي تثبت أن هكذا الجبال، بعد أن ظل وصف الجبال إلى مشارف التسعينيات من القرن العشرين، قاصراً على أنها مجرد نتوءات فوق سطح الأرض، واختلفوا في تحديد حد أدنى لارتفاع تلك النتوءات الأرضية اختلافاً كبيراً بين 310 متراً، 620 متراً، وبين اعتباره تعبيراً محدداً أو نسبياً يعتمد على تضاريس المنطقة.

وفي السبق القرآني بوصف الجبال بأنها (أوتاد) تأكيد قاطع على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقَّاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، حيث لم يكن لأحدٍ من البشر أدنى إلمام بإمكانية وجود امتدادات داخلية للجبال، أو حتى مجرد التفكير في ذلك الأمر، ولا بدور الجبال في تثبيت الأرض إلا بعد نزول القرآن الكريم بأكثر من اثني عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا العلم غير الله الخالق ﷻ الذي أنزله على نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل ألف وأربعمائة سنة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين على نعمة الإسلام، والحمد والشكر له على نعمة القرآن، وعلى حفظه هذا الحفظ الدقيق في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مر الدهور والأعوام وإلى قيام الساعة، والحمد لله على الدوام.

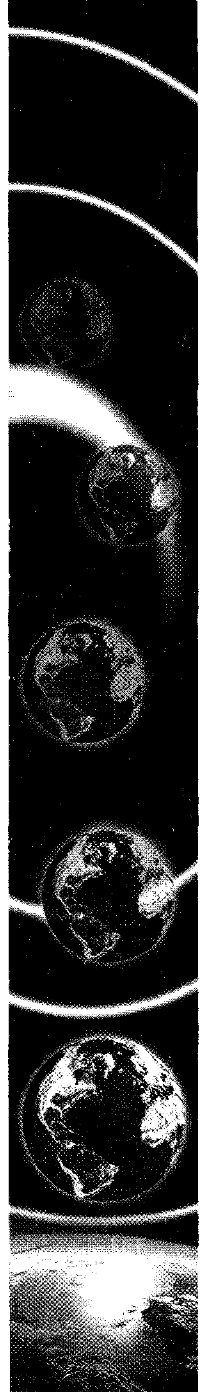
بسم الله الرحمن الرحيم



(9) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾



(النازعات: 32، 33)



هاتان الآيتان الكريمتان وردتا في مطلع الثلث الأخير من سورة «النازعات»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (46) بعد البسملة، وسورة «النازعات» تُعنى ـ كغيرها من سور القرآن المكي ـ بقضية العقيدة، والعقيدة هي أساس الدين، وهي من القضايا الغيبية غيبة مطلقة؛ ولذلك فالإنسان محتاج فيها دوماً إلى بيان من الله، بياناً ربانياً خالصاً لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية. ومن ركائز العقيدة بعد الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، الإيمان باليوم الآخر، وما سوف يحويه من بعث بعد الموت، ومن حساب وجزاء، ثم خلود في حياةٍ أبديةٍ قادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وتبدأ سورة النازعات بقَسم من الله تعالى ـ وهو الغني عن القسم ـ بعددٍ من طوائف ملائكته الكرام، وبالمهام المكلف بها كل منهم، على أن الآخرة حق، وأنها واقعة لا محالة، وأن كلاً من البعث والحساب والجنة والنار حق، وأن الخلود في أيٍّ منهما حتمي الحدوث، لا مفر منه، ولا انفكاك عنه. وتأتي هذه الآيات بصياغة القسم من أجل تنبيه الناس إلى أهمية الأمر المقسم به وجديته، وخطورته، وإلا فالله ـ تعالى ـ غني عن القسم لعباده.

ثم تعرض الآيات بعد ذلك لشيء من أهوال الآخرة من مثل: رجف الأرض (**الراجفة**)، ومور السماء (**الرادفة**)، وكل من الأرض والسماء سوف يدمر في الآخرة، وقد يكون المقصود بالراجفة والرادفة: النفختين، اللتين يموت كل حي بعد الأولى منهما، وترجف بها الأرض

ويبعث كل ميْتٍ بعد الثانية، وتمور السماء موراً.

وبعد ذلك تنتقل الآيات إلى وصف شيء من أحوال الكافرين في هذا اليوم العصيب الرهيب، حين يبعث الخلق فجأة بعد موتهم، فتخفق قلوب المبعثين وجلاً وخاصةً الكافرين والعصاة المجرمين منهم، وتخشع أبصارهم ذلاً، ويتساءلون في لهفة وذهول: هل نحن عائدون من حيث جئنا إلى الحياة الدنيا مرةً ثانيةً بعد أن كانت الأجساد قد بليت، والعظام قد نخرت؟ أم أن هذا هو البعث الذي سبق وأن أُخبِرنا به في حياتنا الدنيا فأنكرناه؟ وإن كان ذلك كذلك فقد رجعنا رجعة خاسرة، وقد يكون ذلك تذكيراً لهم بإنكارهم للبعث في الدنيا، وهنا يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ **(النازعات: 13، 14).**

والزجرة هي الصيحة، والساهرة هي سطح الأرض بصفةٍ عامةٍ وأرض المحشر بصفة خاصة؛ ويفهم من ذلك أن الأمر بالبعث يأتي بصيحةٍ واحدةٍ، فإذا بكافة الخلائق قيام يبعثون، ثم يساقون إلى أرض المحشر ليواجهوا حسابهم العادل، ويلقوا جزاءهم الأوفى...!!!

وفي إيجاز معجز تلمح الآيات بعد ذلك إلى جانب من قصة كليم الله موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، مبتدئة باستفهام رقيق موجه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ثم عرض للقصة في كلمات محدودة تثبيتاً له في مواجهة كفار قريش، وتثبيتاً لكل داعية إلى دين الله من بعده في مواجهة أهل الكفر والشرك والضلال والطغيان في كل عصر وفي كل مكان، كما يأتي سرد تلك القصة تحذيراً للناس جميعاً من مغبة سوء المصير الذي لقيه هذا الطاغية الملقب بفرعون مصر، والعذاب الذي حاق به وبالمكذبين الضالين من قومه في الدنيا، وما توعدهم الله ـ تعالى ـ به في الآخرة من عذاب أشد وأنكى...!! وتبقى هذه الآيات المباركات درساً يتلقاه كل كيِّس عاقل فيخشى الله ـ تعالى ـ حباً له ـ سبحانه ـ، وشكراً على نعمائه، وخوفاً من عذابه، ورجاءً لثوابه في الدنيا والآخرة.

ثم تتوجه الآيات في سورة «النازعات» ـ بعد سرد قصة موسى عليه السلام ـ بالخطاب مباشرة إلى منكري البعث من كفار قريش، وإلى الكفار في كل زمان ومكان بسؤال تقريعي توبيخي يقول: هل خلق الناس ـ على ضآلة أحجامهم، ونسبية زمانهم ومكانهم، ومحدودية قدراتهم ـ أشدُّ من خلق السماء؟ وبنائها المذهل في عظمة اتساعه، وإحكام ترابطه والتحامه، وتعدد أجرامه، وتكامل هيئاته، وإحكام أبعاده، وحركاته، وأحجامه، وكتله، والمسافات الفاصلة بين مختلف مكوناته، والارتفاعات السامقة الشاهقة التي رفعت إليها

السماء بغير عمدٍ مرئيةٍ، ولا دعاماتٍ مشاهدة، وتعاظم القوى الممسكة بمختلف أجزائها، وإتقان تسويتها مع تحرك كل جزئية فيها، وإظلام ليلها إظلاماً تاماً: بمعنى: أن الأصل في الكون الإظلام، وإخراج ضحاها بهذا النور الأبيض المبهج من بعد الظلام وكلها نعم كبرى من نعم الخالق ﷻ فهل يمكن أن يقارن ذلك بضآلة أحجام الناس، ونسبية زمان كل منهم ومكانه، ومحدودية قدراته؟

وهل خلق الإنسان ـ على روعة ذلك الخلق ـ أكبر إنجازاً من دحو الأرض، وإخراج كل من مائها ومرعاها من داخلها؟

وهل هذا المخلوق الضعيف أشد خلقاً من إرساء الجبال على سطح الأرض، وإرساء الأرض بالجبال كي لا تميد ولا تضطرب بسكانها تحقيقاً لسلامة العيش عليها؟

وهذه التساؤلات يوردها ربنا ﷻ في محكم كتابه، لعل منكري البعث من الطغاة والمتجبرين في الأرض أن يجدوا فيها ما يمكن أن يعينهم على إدراك شيء من مظاهر القدرة الإلهية المبدعة في الكون، والتي تؤكد حقيقة الخلق كما تؤكد إمكانية البعث، بل ضرورته وحتميته.

ثم عاودت السورة الكريمة الحديث عن القيامة، وسمتها باسم: «الطامة الكبرى» تعبيراً عن كونها داهية عظمى؛ تعم بأهوالها كل شيء، وتغطي على كل مصيبة مهما عظمت؛ حيث يعرض الناس لا تخفى منهم خافية، ويتذكر الإنسان أعماله في الحياة الدنيا خيرها وشرها، وتبرز جهنم حتى يراها الخلق جميعاً عياناً بياناً، ويقع الحساب العادل، وبعد الحساب ينقسم الناس إلى شقيٍّ وسعيدٍ، فالشقي هو كل ما قد جاوز الحد في الكفر والعصيان، والتجبر والطغيان، والجري وراء الشهوات، مفضلاً الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، وهذا مأواه جهنم وبئس المصير، والسعيد هو الذي خاف عظمة الله وجلاله فآمن به، وخضع لأوامره، ونهى نفسه عن اتباع هواها، وحسب حساب مقامه بين يدي الله يوم العرض الأكبر، وهذا مأواه جنات النعيم بإذن الله رب العالمين.

وتختتم سورة النازعات بخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ ردًّا على سؤال الكفار له عن الساعة متى قيامها؟ ويأتي جواب الحق ﷻ بأن علمها، ومردها، ومرجعها إلى الله ـ تعالى ـ وحده الذي استأثر به دون كافة خلقه، وعلى ذلك فإن دور النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ هو إنذار من يخشاها، وهي لهولها سوف تجعل الكفار والمشركين يرون حياتهم على الأرض ـ مهما طالت ـ كأنها بضع ساعات من يومٍ واحدٍ تقدر بمقدار عشيةٍ أو ضحاها، وذلك احتقاراً لها، واستهانةً بشأنها.

وهكذا يأتي ختام السورة متوافقاً مع مطلعها في التأكيد على حقيقة البعث وحتميته، والإنذار بأهواله وخطورته، حتى يستعد الناس للقاء ربهم بالإيمان الخالص به، والخضوع بالطاعة له، وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وهي من الركائز الأساسية للدين الذي علَّمه ربنا ـ ﷻ ـ لأبينا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبعث به عددا كبيراً من الأنبياء والمرسلين من بعد آدم، وأكمله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وأتمه في رسالته الخاتمة التي وجهها للناس كافة في القرآن الكريم، وفي أحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وتعهد بحفظ هذه الرسالة الخاتمة حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيها إلى يوم الدين.

وهنا يبرز التساؤل عن مدلول كل من إرساء الجبال على سطح الأرض، وإرساء الأرض بالجبال، وهي من الآيات الكونية الناطقة بكمال القدرة الإلهية المبدعة في خلق الأرض، والمؤكِّدة أن الذي يملك تلك القدرة الخلَّاقة المبدعة قادر على إفناء خلقه وعلى إعادة بعث كل شيء من جديد. وقبل الإجابة على هذا السؤال، لابد من استعراض موجز لكل من الدلالة اللغوية للفظي الجبل والإرساء، ولأقوال المفسرين في هاتين الآيتين الكريمتين.

من الدلالة اللغوية:

(الجبل) في اللغة: هو المرتفع من الأرض ارتفاعاً ملحوظاً يجعله يعظم ويطول على ما حوله من الأرض، وجمعه **(جبال)** و**(أجبال)**، ودونه في الارتفاع: (التل)، ودون التل: (الربوة) أو (الرابية) أو (الأكمة) وجمعها: (آكام)، ودون الأكمة باتساع: (النجد) أو (الهضبة)، ودون الهضبة: (السهل) ودونه: (المنخفض).

وللفظة (الجبل) بمشتقاتها واستعاراتها وتشبيهاتها معانٍ أُخرى كثيرة، لا أرى داعياً إلى ذكرها هنا.

أما الفعل **(رسا)**، **(يرسو)**، **(رسواً)** و**(رسواً)** فمعناه: ثبت وقر، من مثل قولهم: (رست) السفينة، أي: وقفت عن الحركة في الماء على الأنجر (وهو مرساة السفينة)، وفي هذا المعنى يقول ربنا ـ ﷻ ـ في محكم كتابه:

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ **(هود: 41)**.

واللفظان: **(مجراها)** و**(مرساها)** مصدران من جرى وأرسى ـ على التوالي ـ؛ بمعنى: باسم الله جريها وإرساؤها، ويستخدم الفعل (أرسى) مجازاً بمعنى: تهدئة الأمور، فيقال: رسوت بين القوم أي: أثبت بينهم إيقاع الصلح، ويقال: (أرساه) غيره أي: ثبته وأقره، من



مثل قول الحق ﷻ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾

و(المرسى) هو مكان الرسو أو زمانه، كما يقال للمصدر وللمفعول به، وفي معنى الزمان جاء قول الحق (سبحانه): ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾**(الأعراف: 187)**، أي: قيامها وزمان ثبوتها.

(والمرساة): الآلة التي تُرسى بها السفينة، و**(الرواسي)**: هي الجبال الثوابت الراسخة، واحدتها **(راسية)**، وجاءت لفظة **(رواسي)** بهذا المعنى في القرآن الكريم تسع مرات من مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾. **(المرسلات: 27)**.

وجاءت لفظة **(راسياتٍ)** مرةً واحدةً في كتاب الله وذلك في قوله ـ سبحانه ـ:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ **(سبإ: 13)**.

أي: قدور ثابتات على الأثافي؛ وهي الأحجار يوضع عليها القدر كي يوقد عليه ما تحته.

من أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق ﷻ:

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

• ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «أي: قرها وأثبتها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم... وثبت جبالها لتستقر بأهلها، ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «أثبتها على وجه الأرض لتسكن، ﴿مَتَٰعًا﴾ مفعول له لمقدر أي: فعل ذلك متعةً، أو مصدر، أي: تمتيعاً ﴿لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ جمع (نعم) وهي (الإبل والبقر والغنم)».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم ـ ما مختصره: «... وإرساء جبالها متاعاً للإنسان وأنعامه، وهي إشارة توحي بحقيقة التدبير والتقدير في بعض مظاهرها المكشوفة للجميع..».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أي: وأرسى الجبال، أي: أثبتها في الأرض كي لا تميد وتضطرب، وقوله: ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ تفسير للفعل المضمر قبله .﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ أي: تمتيعاً لكم ولأنعامكم، والآية تقريع لكفار مكة المنكرين للبعث، زاعمين صعوبته، بعد أن بيَّن الله كمال سهولته بالنسبة إلى قدرته...».

• وجاء في المنتخب: «والجبال ثبتها متاعاً لكم ولأنعامكم».

• وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبها خيراً) ما نصه: «﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أي: والجبال أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها، ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ أي: فعل ذلك كله... منفعة للعباد وتحقيقاً لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم...».

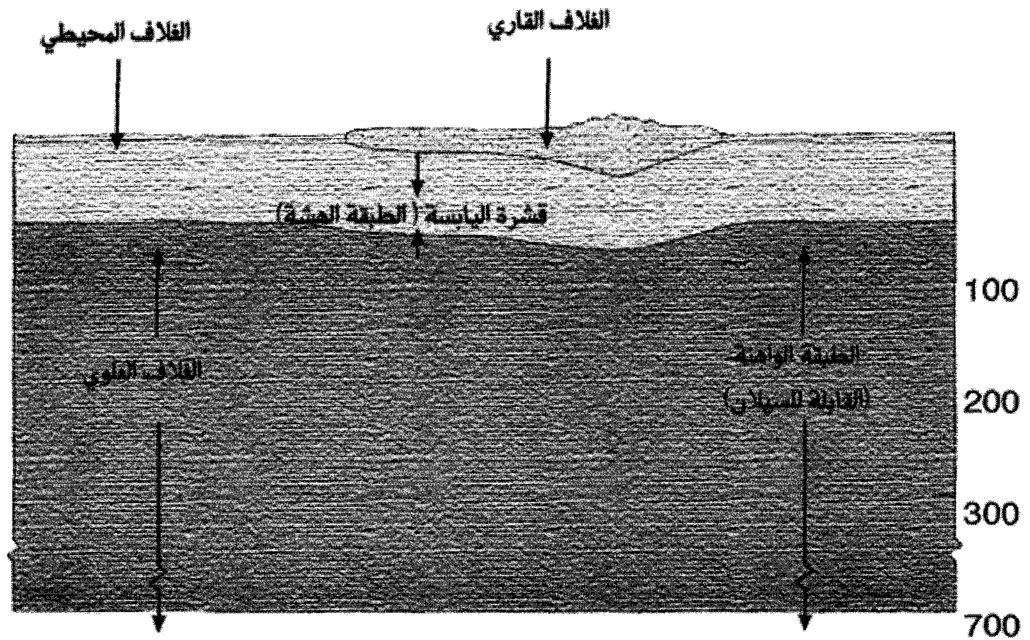
من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

فهِم المفسرون السابقون من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أن الضمير في ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ يعود على الجبال، ومن هنا قالوا: إن عملية الإرساء تتعلق بالجبال،

على أساس من أن الضمير في العربية يعود على أقرب اسم إليه، وانطلاقاً من ذلك فقد فهموا من الآية الكريمة معنى تثبيت الجبال في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بمن عليها، فلا تميد ولا تضطرب، وهذا الكلام يحمل في طيَّاته أيضاً تثبيت الأرض، لأن ضمير الغائب في الآيتين السابقتين ـ والذي جاء أربع مرات ـ يعود على الأرض، ولا يستبعد أن يكون كذلك في آية الجبال حيث يقول ربنا ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

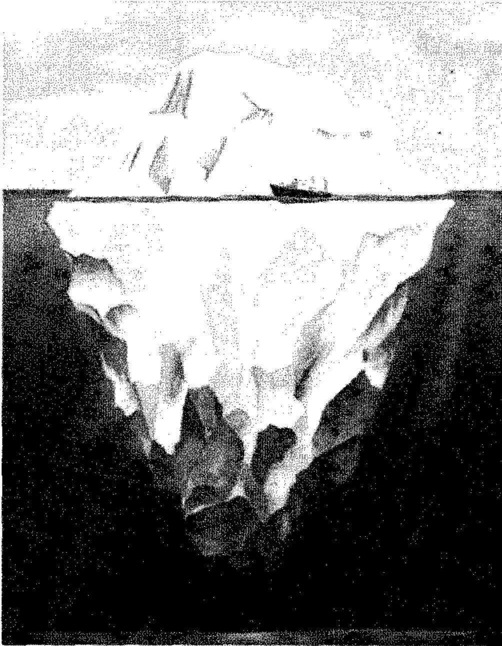
والصياغة هنا تحتمل معنى: وبالجبال أرساها، فيكون المعنى: إرساء الأرض بواسطة الجبال؛ بينما المعنى الأول يتعلق بإرساء الجبال على سطح الأرض، والمعنيان صحيحان صحةً كاملةً حسب معطيات علوم الأرض الحديثة، فالجبال مُثَبَّتَة في الغلاف الصخري للأرض، وهي أيضاً مُثَبِّتَة لهذا الغلاف الصخرى.

أولاً: في فهم معنى ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ **بمفهوم إرساء الجبال على سطح الأرض**:



نطق الغلاف الصخري للأرض

في خلال القرنين الماضيين تراكمت الأدلة العلمية التي تشير إلى أن الغلاف الصخري للأرض في حالة توازنٍ تام على الرغم من التباين الواضح في تضاريس سطحه، ومعنى ذلك أن كتلة المادة متساوية عبر كل أنصاف أقطار الأرض الممتدة من مركزها إلى مختلف النقاط على سطحها مهما تباينت تضاريس السطح، سواء كانت النقطة التي انتهى إليها نصف القطر أعلى قمة جبلية أو أخفض نقطة في أغوار المحيطات ولا يمكن تفسير ذلك إلا بتباين كثافة الصخور المكونة للأجزاء المختلفة من الغلاف الصخري للأرض، فالسلاسل الجبلية العالية تتكون من صخور أقل كثافة من الصخور المحيطة بها، والمناطق المنخفضة تتكون من صخور أعلى كثافة من صخور المناطق المرتفعة، وقد أكد ذلك أن الجزء العلوي من الغلاف الصخري للأرض المعروف باسم: **قشرة الأرض** يتباين كلٌّ من سمكه وكثافته في القارات عنهما في قيعان البحار والمحيطات، فيتراوح سمك القشرة القارية بين30 و40 كيلومتراً، ويغلب على تركيبها الصخور الجرانيتية (بمتوسط كثافة 2.7 جم/ سم^3) بينما يتراوح سمك قشرة قاع المحيط بين5 و8 كيلومتراً، ويغلب على تركيبها الصخور البازلتية (بمتوسط كثافة 2.9 جم/ سم^3) وبذلك تطفو كتل القارات فوق قيعان البحار والمحيطات. وبالمثل فإن ألواح الغلاف الصخري الحاملة للقارات يتراوح سمكها بين100 و150 كيلومتراً، ويغلب على تكوينها صخور ذات كثافة أقل نسبياً من الصخور المكونة لألواح قيعان البحار والمحيطات والتي لا يتعدى سمكها سبعين كيلومتراً؛ وكلا الصنفين من الألواح المكونة لغلاف الأرض الصخري ـ القارية والمحيطية ـ يطفو فوق نطاق أعلى كثافة، وهو نطاق شبه منصهر، لدن ـ مرن ـ يعرف باسم: «**نطاق الضعف الأرضي**»، وهذا النطاق يتأثر بالضغوط فوقه نظراً لمرونته، فيتحرك إلى أسفل كلما زادت عليه الضغوط، وإلى أعلى كلما قلت، ويتم ذلك بعمليتين متعاكستين تسمى الأولى منهما باسم: **التضاغط المرتد**،



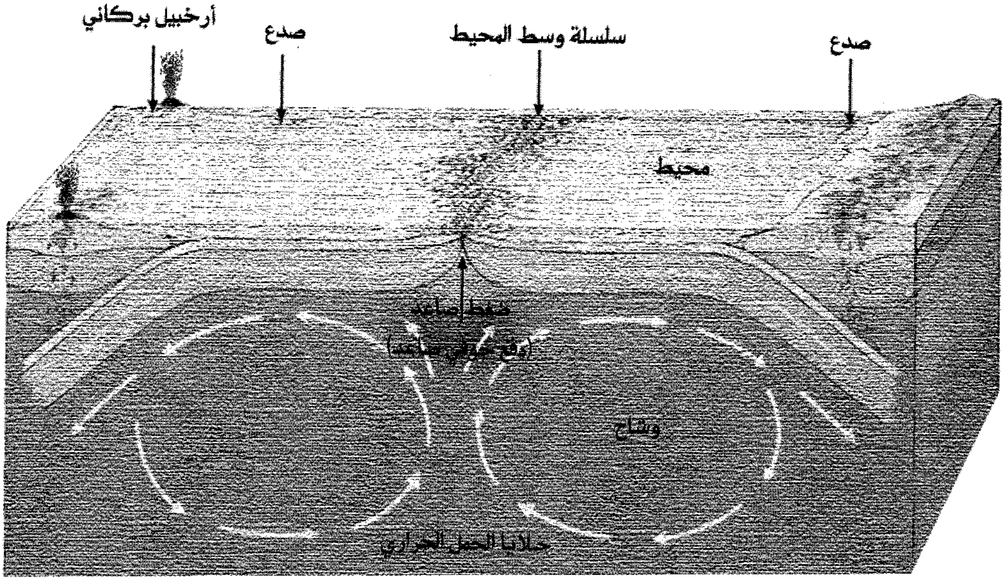
الجبال الجليدية لها امتداد في داخل المحيطات تبلغ أضعاف الجزء البارز فوق الماء. كما هي الحال بالنسبة للجبال فوق اليابسة

وتسمى الثانية باسم: «**الارتداد التضاغطي المرتد**»، وتتمان للمحافظة على الاتزان الأرضي، فإذا ارتفع الجبل بصخوره الخفيفة نسبياً إلى قمم سامقة، فلابد من إزاحة كمٍّ مساوٍ لكتلته من المادة شبه المنصهرة في نطاق الضعف الأرضي الموجود أسفل الجبل مباشرة، مما يساعد الصخور المكونة للجبل على الاندفاع إلى أسفل بامتدادات عميقة تسمى تجاوزاً باسم: «**جذور الجبال**»، وهذه الجذور الجبلية تخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل لتطفو في نطاق الضعف الأرضي، كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات، يحكمهما في الحالين قوانين الطفو. وبناء على كثافة الصخور المكونة للجبال بالنسبة إلى كثافة صخور نطاق الضعف الأرضي، وكتلة الجبل نفسه يكون عمق الامتدادات الداخلية لصخور الجبل؛ أي: جذوره. وقد ثبت أن كل نتوء على سطح الأرض له امتداد في داخلها يتراوح بين10 و15 ضعف ارتفاع هذا النتوء فوق مستوى سطح البحر، وكلما زاد هذا الارتفاع الخارجي لتضاريس سطح الأرض، زادت امتداداته الداخلية أضعافاً كثيرةً؛ وهكذا تثبت الجبال على سطح الأرض بانغراسها في غلافها الصخري، وطفوها في نطاق الضعف الأرضي. كما تعين هي على تثبيت الأرض، فتقلل من ترنحها في دورانها حول محورها، وتثبت ألواح الغلاف الصخري للأرض مع بعضها البعض بأوتاد الجبال، فتربط القارة بقاع المحيط، فإذا استهلك قاع محيط فاصل بين قارتين ارتطمت القارتان ببعضهما، ونتج عن ذلك أعلى السلاسل الجبلية التي تربط بأوتادها القارتين المصطدمتين فتقلل من حركة الألواح الصخرية الحاملة لهما، وبذلك تصبح الحياة على سطحي القارتين المرتطمتين أكثر استقراراً.

وكلما برت عوامل التجوية والتحات والتعرية قمة الجبل دفعته قوانين الطفو إلى أعلى، حتى يتم خروج جذور ـ أوتاد ـ الجبل من نطاق الضعف الأرضي بالكامل؛ وحينئذ يتوقف الجبل عن الارتفاع، وتستمر العوامل الخارجية في بريه حتى يصل سمكه إلى سمك لوح الغلاف الصخري الذي يحمله، فيضم إلى باقي صخور القارة الموجود فيها على هيئة راسخ **(Carton)** من رواسخ الأرض.

ثانياً: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ بمفهوم إرساء ألواح الغلاف الصخري للأرض بواسطة الجبال:

اختلف العلماء في فهم دور الجبال في إرساء الأرض اختلافاً كبيراً؛ وذلك لأن كتل الجبال على سطح الأرض ـ على الرغم من ضخامتها ـ تتضاءل أمام كتلة الأرض المقدَّرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن (10^{18} × 5876 طناً)؛ وكذلك فإن ارتفاع أعلى



شكل يوضح ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات وتكوَّن حواف أواسط المحيطات

قمم الأرض ـ وهو أقل قليلاً من تسعة كيلومترات ـ لايكاد يذكر بجوار متوسط نصف قطر الأرض (6371 كيلومتراً)، فإذا جمع ارتفاع أعلى قمم الأرض إلى أعمق أغوار المحيطات ـ أكثر قليلاً من أحد عشر كيلومتراً ـ، فإنه لايكاد يصل إلى عشرين كيلومتراً ونسبته إلى متوسط قطر الأرض لاتتعدى 0.3%.

من هنا يبرز التساؤل: كيف يمكن للجبال أن تثبت الأرض بكتلتها الهائلة وأبعادها الشاسعة، في الوقت الذي لا تكاد كتلة وأبعاد الجبال أن تبلغ من ذلك شيئاً؟

(أ) تثبيت الجبال لألواح الغلاف الصخري للأرض:

في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين، تمت بلورة مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض؛ فقد اتضح أن هذا الغلاف ممزق بشبكةٍ هائلةٍ من الصدوع تمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات، لتحيط بالكرة الأرضية إحاطةً كاملةً بعمق يتراوح بين65 و150 كيلومتراً، فتقسمه إلى عددٍ من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق الضعف الأرضي. وتتحرك في هذا النطاق من نطق الأرض التيارات الحرارية على هيئة دواماتٍ عاتيةٍ من تيارات الحمل تدفع بألواح الغلاف الصخري للأرض لتباعد بينها عند أحد أطرافها، وتصدمها ببعض عند حوافها المقابلة لحواف التباعد، وتجعلها تنزلق عبر بعضها البعض عند الحافتين الأخرتين، كما سبق وأن أوضحنا.

ويعين على تسارع حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، كما يعين على ذلك اندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر الصدوع الفاصلة بين حدود الألواح المتباعدة عن بعضها البعض، فيتكون باستمرار أحزمة متوازية من الصخور البركانية التي تتوزع بانتظام حول مستويات الصدوع الفاصلة بين الألواح المتباعدة في ظاهرة تعرف باسم «**ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات**». وتتكون الصخور الأحدث عمراً حول مستويات التصدع المتباعدة باستمرار، وتدفع الصخور الأقدم عمراً في اتجاه اللوح المقابل عند خط الاصطدام، وهنا يهبط قاع المحيط تحت القارة إذا كان اللوح المقابل يحمل قارة، ويتم ذلك بنفس معدل اتساع قاع المحيط في كل جهة من جهتي الاتساع حول مستوى تصدع وسط المحيط، الذي تتكون حوله سلاسل من الجروف البركانية تمتد فوق قاع المحيط لعشرات الآلاف من الكيلومترات وتعرف باسم «**حواف أواسط المحيطات**».

وينتج عن هبوط قاع المحيط تحت اللوح الصخري الحامل للقارة تكوُّن أعمق أجزاء هذا المحيط على هيئة جب عميق يعرف باسم «**الجب البحري**»، ونظراً لعمقه يتجمع في هذا الجب كمٌّ هائل من الرسوبيات البحرية التي تتضاغط وتتلاحم، مكونةً تتابعات سميكةٍ جداً من الصخور الرسوبية، ويتبادل مع هذه الصخور الرسوبية ويتداخل فيها كمٌّ هائل من الصخور النارية التي تعمل على تحول أجزاء منها إلى صخور متحولة.

وتنتج الصخور البركانية عن الانصهار الجزئي لقاع المحيط المندفع هابطاً تحت القارة، وتنتج الصخور المتداخلة عن كل من الصهارة الناتجة عن هذا الهبوط، وعن الإزاحة من نطاق الضعف الأرضي بدخول اللوح الهابط فيه.

هذا الخليط من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة، يكشط باستمرار من فوق قاع المحيط الهابط بحركته المستمرة تحت اللوح الصخري الحامل للقارة، فيُطوى ويتكسر هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة، ويضاف إلى حافة القارة مكوناً سلسلةً أو عدداً من السلاسل الجبلية ذات الجذور العميقة التي تربط كتلة القارة بقاع المحيط، فتهدِّىء من حركة اللوحين وتعين على استقرار اللوح الصخري الحامل للقارة استقراراً ولو جزئيًّا يسمح بإعمارها.

وتتوقف حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض بالكامل عندما تصل دورة بناء الجبال إلى نهايتها، حين تتحرك قارتان مفصولتان بمحيط كبير في اتجاه بعضهما البعض حتى يستهلك قاع المحيط كاملاً بدخوله تحت إحدى القارتين حتى تصطدما، فيتكون بذلك أعلى

السلاسل الجبلية ارتفاعاً، كما حدث عند ارتطام اللوح القاري الحامل للهند باللوح القاري الحامل لقارتي آسيا وأوروبا ونتج عن ذلك الارتطام تكوُّن سلسلة جبال الهيمالايا.

من هنا اتضح دور الجبال في إرساء ألواح الغلاف الصخري للأرض وتثبيتها، ولولا ذلك ما استقامت الحياة على سطح الأرض أبداً؛ لأن حركة هذه الألواح كانت في بدء خلق الأرض على درجة من السرعة والعنف لا تسمح لتربة أن تتجمع، ولا لنبتة أن تنبت، ولا لحيوان أو إنسان أن يعيش، خاصةً وأن سرعة دوران الأرض حول محورها كانت في القديم أعلى من معدلاتها الحالية بكثير؛ لدرجة أن طول الليل والنهار معاً عند بدء خلق الأرض كان يقدر بأربع ساعاتٍ فقط، وأن عدد الأيام في السنة كان أكثر من 2200 يوم، وهذه السرعة الفائقة لدوران الأرض حول محورها كانت بلاشك تزيد من سرعة انزلاق ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق الضعف الأرضي، وهي تدفع أساساً بظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات، وبملايين الأطنان من الصهارة الصخرية والحمم البركانية المندفعة عبر صدوع تلك القيعان.

وبتسارع حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض تسارعت الحركات البانية للجبال، وبتسارع بنائها هدأت حركة هذه الألواح، وهُيِّئت الأرض لاستقبال الحياة. وقبل مقدم الإنسان كانت غالبية ألواح الغلاف الصخري للأرض قد استقرت، بكثرة تكوُّن السلاسل والمنظومات الجبلية، وأخذت الأرض هيأتها لاستقبال هذا المخلوق المكرَّم الذي حمله الله تعالى أمانة ومسؤولية الاستخلاف في الأرض.

(ب) تثبيت الجبال لكوكب الأرض:

تساءل العلماء عن إمكانية وجود دور للجبال في اتزان حركة الأرض ككوكب وجعلها قراراً صالحاً للحياة وجاء الرد بالإيجاب؛ لأنه نتيجة لدوران الأرض حول محورها، فإن القوة الطاردة المركزية الناشئة عن هذا الدوران تبلغ ذروتها عند خط استواء الأرض، ممَا يؤدي إلى التقليل من دور الجاذبية والعكس تماماً يتم عند القطبين، ولذلك فإن الأرض انبعجت قليلاً عند خط الاستواء حيث تقل قوة الجاذبية، وتطغى القوة الطاردة المركزية، وتفلطحت قليلاً عند القطبين حيث تطغى قوة الجاذبية، وتتضاءل القوة الطاردة المركزية، ونتيجة لاستمرار هذه العمليات فإن طول قطر الأرض الاستوائي يزداد باستمرار بينما يقل طول قطرها القطبي، وإن كان ذلك يتم بمعدلاتٍ بطيئةٍ جداً، إلا أنه قد أخرج الأرض عن شكلها الكروي إلى شكل شبه كروي، وشبه الكرة لا يمكن لها أن تكون منتظمة في دورانها حول محورها؛ لأن الانبعاج الاستوائي للأرض يجعل محور دورانها يغير اتجاهه رويداً

رويداً في حركةٍ معقدةٍ مردها إلى تأثير جاذبية أجرام المجموعة الشمسية وبخاصة الشمس والقمر على الأرض، وتعرف هذه الحركة باسم: «**الحركة البدارية أو حركة الترنح والبدارية**».

وتنشأ هذه الحركة عن ترنح الأرض في حركةٍ بطيئةٍ تتمايل فيها من اليمين إلى اليسار بالنسبة إلى محورها العمودي الذي يدور لولبياً دون أن يشير طرفاه الشمالي والجنوبي إلى نقطة ثابتة في الشمال أو في الجنوب، ونتيجة للتقدم أو التقهقر، فإن محور دوران الأرض يرسم بنهايته دائرة حول قطب البروج تتم في فترة زمنية قدرها نحو (26,040) سنةً من سنيننا.

ويتبع ترنح الأرض حول مدارها مساراً متعرجاً بسبب جذب كل من الشمس والقمر للأرض، وتبعاً للمتغيرات المستمرة في مقدار واتجاه القوة البدارية لكل منهما، ويؤدي ذلك إلى ابتعاد الدائرة الوهمية التي يرسمها محور الأرض أثناء دورانها وترنحها فتتحول إلى دائرةٍ مؤلفةٍ من أعدادٍ من الأقواس المتساوية، التي يبلغ عددها في الدورة الكاملة 1400 ذبذبةٍ (أو قوسٍ) ويستغرق رسم القوس الواحد 18.6 سنةً أي أن هذه الدائرة تتم في (26,040) سنة، وتسمى باسم: **حركة الميسان (النودان أو التذبذب)**، وقد أثبتت الدراسات الفلكية أن لمحور دوران الأرض عدداً من الحركات الترنحية التي تستغرق أوقاتاً مختلفةً يبلغ أقصرها عشرة أيام، ويبلغ أطولها 18.6 سنةً من سنيننا.

ووجود الجبال ذات الجذور الغائرة في الغلاف الصخري للأرض، يقلل من شدة ترنح الأرض في دورانها حول محورها، ويجعل حركتها أكثر انتظاماً وسلاسةً، تماماً كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول إطار السيارة لانتظام حركتها، وقلة رجرجتها، وبذلك أصبحت الأرض مؤهلة للعمران.

وهنا يتضح وجه من أوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وذلك في قول ربنا ﷻ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾، وقد تكرر هذا المعنى في تسعة مواضع أُخرى من كتاب الله وصفت فيها الجبال بأنها رواسي، وهذه الآيات الكريمة بقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ **(الرعد: 3)**.
- ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ **(الحجر: 19)**.

• ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (النحل: 15).

• ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الأنبياء: 31).

• ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النمل: 61).

• ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ (لقمان: 10).

• ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت: 10).

• ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ (ق: 7).

• ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ (المرسلات: 25 ـ 27).

وهذه حقائق لم يتوصل الإنسان إلى إدارك شي منها إلا في القرنين الماضيين بصفةٍ عامةٍ، وفي أواخر القرن العشرين بصفةٍ خاصةٍ، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا السبق العلمي غير الخالق ﷻ وفي هذا من التأكيد القاطع، والحسم الجازم ما فيه بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ تلقى هذا القرآن عن ربه بواسطة الوحي الذي بقي موصولاً به حتى أتاه اليقين، وأنه ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ كان كما يصف القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ (النجم: 3)، فَصَلِّ اللّهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(10) ﴿... يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ...﴾

(الزمر: 5)



هذا النص القرآني الكريم جاء في مقدمة سورة «الزمر»، والتي سميت بهذا الاسم لحديثها عن زمر المتقين، السعداء، المكرمين من أهل الجنة، وزمر العصاة، الأشقياء المهانين من أهل النار، وحال كل منهم في يوم الحساب.

و سورة «الزمر» مكية، وعدد آياتها (75) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة ـ شأنها في ذلك شأن كل السور المكية ـ ولذلك فهي تركز على عقيدة التوحيد الخالص لله، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد.

واستهلت السورة بالحديث عن القرآن الكريم الذي أنزله ربنا ﷻ بالحق على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هدايةً للناس كافةً، وإنذاراً من رب العالمين، وجعله معجزة خالدة إلى يوم الدين، وملأه بالأنوار الإلٰهية، والإشراقات النورانية، التي منها الأمر إلى الناس كافة، بالتبعية لهذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ وبإخلاص الدين لله، وتنزيهه ـ جل في علاه ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله.

وذكرت السورة عدداً كبيراً من الأدلة المادية الملموسة، التي تشهد للخالق ﷻ بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبإحكام الخلق، وبالتالي تشهد له ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ومن هذه الأدلة المادية: خلق السمٰوات والأرض بالحق، وخلق كل شيء حسب مايشاء ـ سبحانه ـ، تكوير الأرض، وتبادل الليل والنهار عليها، وتسخير كل من الشمس والقمر، وخلق

البشر كلهم من نفسٍ واحدةٍ، وخلق زوجها منها (وكذلك الزوجية في كل خلق)، إنزال ثمانية أزواج من الأنعام، وصف مراحل الجنين التي يمر بها الإنسان وخلقه في ظلماتٍ ثلاث، إنزال الماء من السماء وخزن بعضه في صخور الأرض، إخراج الزرع ودورة حياته، حتمية الموت على كل مخلوق، تكافؤ النوم مع الوفاة، واليقظة من النوم مع البعث بعد الموت، وقبض الأرض، وطي السمٰوات يوم القيامة.

وتحدثت السورة الكريمة كذلك عن الإيمان الذي يرتضيه ربنا ﷻ من عباده، والكفر الذي لا يرضاه، وعن علم الله ـ تعالى ـ بكل ما في الصدور، وعن قدرته ﷻ على محاسبة كل مخلوق بعمله، وعن طبائع النفس البشرية في السراء والضراء، وعن الفروق بين كل من الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر في مواقفهما في الدنيا والآخرة، وبين الإخلاص في العبادة وبين الإغراق في المعاصي، وبين كل من التوحيد والشرك، وبين الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وتحدثت السورة الكريمة كذلك عن العديد من مشاهد القيامة وأهوالها؛ كما تحدثت عن نفختي الصعق والبعث، ومايعقبهما من أحداثٍ مروعة، وعن يوم الحشر حين يساق المتقون إلى الجنة زمراً، ويساق المجرمون إلى جهنم زمراً، ولكن شتان بين سوق التكريم، وسوق الإهانة والإذلال والتجريم، ويتم ذلك كله في حضرة الأنبياء والشهداء، والملائكة حافِّين من حول العرش، والوجود كله خاضع لربه، متجه إليه بالحمد والثناء، راجٍ رحمته، مشفق من عذابه، راضٍ بحكمه، حامد لقضائه.

ومن الأدلة المادية المطروحة في «سورة الزمر» للاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية على الخلق، وبالتالي على الشهادة للخالق ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه قوله ـ تعالى ـ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾

(الزمر: 5).

وهذه الآية آية جامعة، تحتاج في شرحها إلى مجلدات، ولذا فسوف أقتصر هنا على الإشارة القرآنية الكريمة إلى كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، في زمن ساد الاعتقاد بالاستواء التام للأرض بلا أدنى انحناء، وبثباتها التام دون أدنى حركة، وتمت الإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية في كتاب الله بأسلوب لا يفزع العقلية البدوية في زمن تنزّل الوحي، فجاء التكوير صفة لكل من الليل والنهار، وكلاهما من الفترات الزمنية التي تعتري الأرض، فإذا تكوّرا كان في ذلك إشارة

ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض، وإذا تكور أحدهما على الآخر كان في ذلك إشارة إلى تبادلهما، وهي إشارة ضمنية رائعة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، دون أن تثير بلبلة في زمن لم تكن للمجتمعات الإنسانية بصفةٍ عامةٍ والمجتمعات في جزيرة العرب بصفةٍ خاصةٍ أي حظ من الثقافة العلمية.

الإشارات الكونية في سورة «الزمر»

في سياق الاستشهاد على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، والاستدلال من ذلك على وحدانية الخالق ﷻ، وعلى حتمية البعث وضرورته جاء في سورة «الزمر» عدد من الإشارات إلى الكون وبعض مكوناته وظواهره يمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ وصف عملية خلق السمٰوات والأرض بأنها تمت بالحق أي حسب قوانين وسنن منضبطة تشهد لخالقها بأنه الحق ﷻ.

2 ـ الإشارة الضمنية الرقيقة إلى كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى جريها في مدارها، وجري كلٍّ من الشمس والقمر وبالتالي كل أجرام السماء إلى أجل مسمى.

3 ـ التأكيد على خلق البشر كلهم من نفس واحدة.

4 ـ ذكر عملية إنزال ثمانية أزواج من الأنعام، والإنزال هنا قد يشير إلى إنزال الشيفرة الوراثية الخاصة بكل منها.

5 ـ الإشارة إلى خلق جنين الإنسان في ظلمات ثلاث، وهو ما أثبته علم الأجنة مؤخراً.

6 ـ التأكيد على عدم المساواة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأن الذين يتدبرون ويفهمون ويتذكرون هم أولو الألباب والنهى.

7 ـ الإشارة إلى أن أصل الماء تحت سطح الأرض هو ماء المطر الذي يسلكه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ينابيع في الأرض، ثم يخرج به زروعاً مختلفة الأنواع والألوان والثمار، ثم بعد النضج ييبس الزرع ويجف بعد نضارته، ويصفر لونه، ثم يتحطم ويصبح فتاتاً متكسراً.

8 ـ المقارنة بين النوم والموت، وبين اليقظة من النوم والبعث في الآخرة، مما يشير إلى مفارقة الروح للجسد في حالتي النوم والممات، ثم يعاد إرسالها للنائم لحظة يقظته،

وإمساكها عن جسد الميت لحظة وفاته، ثم إعادتها إليه في لحظة البعث.

9 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل.

10 ـ الإشارة إلى أن الأرض سوف تكون في قبضة الخالق ﷻ في يوم القيامة، وأن السمٰوات سوف تكون مطويات بيمينه، وهذا من أمور الغيب المطلق، ولكنه حديث الخالق الباعث الشهيد.

11 ـ الإشارة إلى أن الأرض في الآخرة سوف تشرق بنور ربها كما أشرقت أرض الدنيا بنوره ﷻ؛ والعلوم المكتسبة تؤكد أن الأصل في الكون الحالي هو الظلام، وأن نور النهار هو نعمة يمن بها الله ـ تعالى ـ على عباده.

وهنا سوف نعالج قضية واحدة من القضايا التي تطرّقت إليها الإشارات الكونية لسورة الزمر والتي جاءت في الآية رقم (21) منها، وقبل الشروع في ذلك لا بد من استعراض سريع للدلالة اللغوية لألفاظ النص، ثم لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية المباركة.

الدلالة اللغوية:

يقال في اللغة العربية: (كار) الشيء (يكوره) (كوراً) و(كروراً)، و(يكوره) (تكويراً) أي: أداره، وضم بعضه إلى بعض، (ككور) العمامة، أي: جعلها كالكرة، ويقال: (طمنه فكوره) إذا ألقاه مجتمعاً، كما يقال: (اكتار) الفرس إذا أدار ذنبه في عدوه، وقيل للإبل الكثيرة: (كور)، و(كوارة) النحل معروفة، و(الكور) الرحل، وقيل لكل مصر: (كورة) وهي البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال عديدة، و(الكرة) التي تضرب بالصولجان، وتجمع على (كرين) بضم الكاف وكسرها، تجمع كذلك على كرات. وجاء الفعل (كور)، (يكور)، (تكويراً) في القرآن الكريم كله مرتين فقط إحداهما بصيغة الفعل المضارع (يكور) في الآية الكريمة التي نحن بصددها، وثانيتهما جاءت في سورة التكوير بصيغة المبني للمجهول وذلك في قول الحق ﷻ:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ **(التكوير: 1)**.

أي: جعلت كالكرة بانسحاب ألسنة اللهب المندفعة منها إلى آلاف الكيلومترات فوق سطحها إلى داخلها، كناية عن بدء انطفاء جذوتها. كما أن الشمس كجرم سماوي يدور حول محوره ويجري في مداره قد فقد شيئاً من تكوره ومع تباطؤ حركة الشمس قد تستعيد شيئاً من ذلك التكور.

من شروح المفسرين

في تفسير قوله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ **(الزمر: 5)**

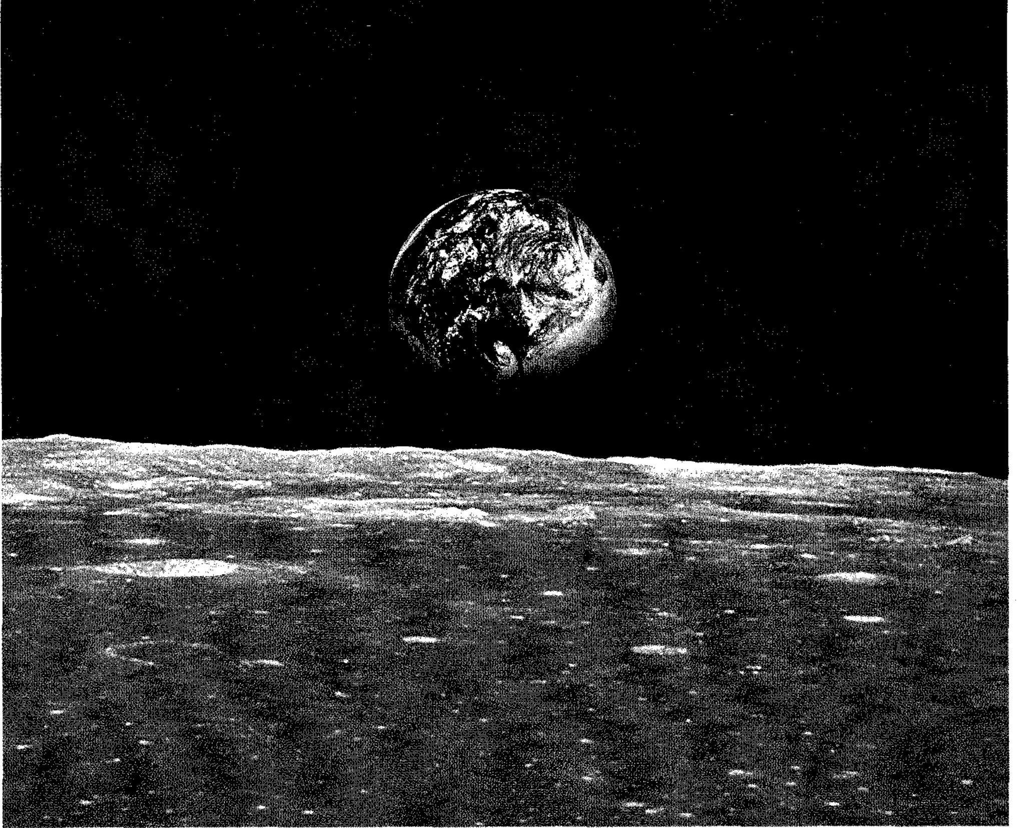
• ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «يخبر ـ تعالى ـ أنه الخالق لما في السمٰوات والأرض، ومابين ذلك من الأشياء، وبأنه مالك الملك، المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: سخرهما يجريان متعاقبين، ولا يفترقان، كل منهما يطلب الآخر طلباً...». ويضيف: وقوله عز وجل: «وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة، ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه، هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما نصه: ولحكمة، لا عبثاً باطلاً، متعلق بِ خلق. (يكور) أي: «يدخل ـ الليل على النهار ـ فيزيد (ويكور النهار) يدخله ـ على الليل ـ فيزيد». وجاء في الهامش التعليق التالي من أحد المحققين: «قوله تعالى ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ ما ذكره المؤلف الجلال المحلي في معنى التكوير: هو معنى الإيلاج الوارد في مثل قوله تعالى ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ **(الحجّ: 61)**، وهذا تفسير غير موافق لمعنى اللغة؛ لأن التكوير والإيلاج ليسا بمعنى واحد، وإلا فما معنى قوله تعالى ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾؟ قال في القاموس: التكوير في اللغة طرح الشيء بعضه على بعض، ومنه كور العمامة، فيكون معنى الآية: إن الله تعالى سخر الليل والنهار يتعاقبان، يذهب أحدهما فيعقبه الآخر إلى يوم القيامة، وفي الآية إشارة واضحة إلى أن الأرض لاتخلو من ليلٍ في مكان ونهارٍ في آخر، على مدار الساعة».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه:

«﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.. ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ **(البقرة: 213)**.. فهو الحق الواحد في ذلك الكون وفي هذا الكتاب.. وكلاهما صادر من مصدر واحد، وكلاهما آية على وحدة المبدع العزيز الحكيم، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ

ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾.. وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض، فهو يصور حقيقةً ماديةً ملحوظةً على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً، ولكن هذا الجزء لايثبت؛ لأن الأرض تدور، وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مكور، فالنهار كان عليه مكوراً، والليل يتبعه مكوراً كذلك، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأُخرى يتكور على الليل، وهكذا في حركة دائبة ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾.. واللفظ يرسم الشكل، ويحدد الوضع، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر...».



صورة حقيقية للأرض من على سطح القمر تظهر كروية الأرض وطبقة النهار المواجهة للشمس على كل من الأرض والقمر

• وذكر صاحب صفوة البيان ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ تكوير الشيء: إدارته، وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، أي: أن هذا يكر على هذا، وهذا يكر على هذا كروراً متتابعاً كتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض، إلا أن أكوار العمامة مجتمعة، وفيما نحن فيه متعاورة.. وقيل المعنى: يزيد الليل على النهار ويضمه إليه، بأن يجعل بعض أجزاء الليل نهاراً، فيطول النهار عن الليل، ويزيد النهار عن الليل ويضمه إليه بأن يجعل بعض أجزاء النهار ليلاً فيطول الليل عن النهار، وهو كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «خلق السمٰوات والأرض متلبساً بالحق والصواب على ناموس ثابت، يلف الليل على النهار ويلف النهار على الليل على صورة الكرة، وذلل الشمس والقمر لإرادته ومصلحة عباده، كل منهما يسير في فلكه إلى وقت محدد عنده.. وهو يوم القيامة، ألا هو ـ دون غيره ـ الغالب على كل شيء، فلا يخرج شيء عن إرادته، الذي بلغ الغاية في الصفح عن المذنبين من عباده». وجاء في الهامش هذا التعليق: «تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الأرض كروية تدور حول نفسها؛ لأن مادة التكوير معناها: لف الشيء على الشيء على سبيل التتابع، ولو كانت الأرض غير كروية (مسطحة مثلاً) لخيَّم الليل أو طلع النهار على جميع أجزائها دفعة واحدة ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾».

• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ بارك الله في جهده ـ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: «خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق الواضح والبرهان الساطع ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يغشي الليل على النهار ويغشي النهار على الليل، وكأنه يلف عليه لف اللباس على اللابس، قال القرطبي: و«تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة...».

كروية الأرض في المعارف المكتسبة

كان أول من قال بكروية الأرض فلاسفة الحضارة العراقية القديمة المعروفة باسم: حضارة ما بين النهرين في حدود سنة2000 ق.م. وعنهم أخذ فلاسفة اليونان ومنهم: «فيثاغورس» الذي نادى بها في منتصف القرن السادس ق.م. مؤكداً أن الشكل الكروي هو أكثر الأشكال الهندسية انتظاماً لكمال انتظام جميع أجزاء الكرة، بالنسبة إلى مركزها،

وعلى ذلك فإن الأرض وجميع أجرام السماء لابد أن تكون كروية الشكل، وبقي هذا الرأي شائعاً في الحضارة اليونانية القديمة حتى القرن الرابع ق.م. إلى أن عارضه «أرسطو» فشاع بين الناس الاعتقاد باستواء الأرض بلا أدنى انحناء.

وفي عهد الخليفتين العباسيين «الرشيد» و «المأمون» (في القرن الهجري الثاني وأوائل الثالث) نادى عدد من علماء المسلمين ومنهم: «البيروني» و «ابن سينا» و «الكندي» و«الرازي» وغيرهم بكروية الأرض التي استدلوا عليها بعدد من الظواهر الطبيعية التي منها ما يلي:

(1) استدارة حد ظل الأرض حين يقع على سطح القمر في أوقات خسوفه.

(2) اختلاف ارتفاع النجم القطبي بتغير مكان الراصد له قرباً من خط الاستواء أو بعداً عنه.

(3) تغير شكل قبة السماء من حيث مواقع النجوم وتوزيعها فيها باقتراب الراصد لها من أحد القطبين.

(4) رؤية الأفق دوماً على هيئة دائرة تامة الاستدارة واتساع دائرته بارتفاع الرائي فوق سطح الأرض.

(5) ظهور قمم الجبال البعيدة قبل سفوحها بتحرك الرائي إليها، واختفاء أسافل السفن قبل أعاليها في تحركها بعيداً عن الناظر إليها.

وقام علماء المسلمين في هذا العصر الذهبي بقياس محيط الأرض بدقةٍ فائقةٍ، وبتقدير مسافة درجة الطول في صحراء العراق وعلى طول ساحل البحر الأحمر، وكانوا في ذلك سابقين للحضارة الغربية بتسعة قرون على الأقل، فقد أعلن الخليفة المأمون لأول مرةٍ في تاريخ العلم بمنهجيّة استقرائية دقيقة أن الأرض كروية ولكنها ليست كاملة الاستدارة.

ثم جاء نيوتن في القرن السابع عشر الميلادي ليتحدث عن نقص تكور الأرض من منطلق آخر، إذ ذكر أن مادة الأرض خاضعة لقوتين متعارضتين: قوة الجاذبية التي تشد مادة الأرض إلى مركزها، والقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها والتي تدفعها إلى الخارج، والقوة الأخيرة تبلغ ذروتها عند خط استواء الأرض فتؤدي إلى انبعاجها قليلاً بينما تنقص إلى أقل قدر لها عند القطبين فيتفلطحان قليلاً، ثم جاء تصوير الأرض من الفضاء في أواخر القرن العشرين ليؤكد كلًّا من كروية الأرض وانبعاجها قليلاً عند خط استوائها.

كروية الأرض في القرآن الكريم

من الحقائق الثابتة عن الأرض أنها مكورة ـ كرة أو شبه كرة ـ، ولكن نظراً لضخامة أبعادها فإن الإنسان يراها مسطحةً بغير أدنى انحناء، وهكذا ساد الاعتقاد بين الناس بهذا التصور للأرض إلى زمن الوحي بالقرآن الكريم، وإلى قرون متطاولة من بعد ذلك، بل بين العوام إلى يومنا هذا، على الرغم من وجود عددٍ من الملاحظات القديمة التي تشير إلى كرويتها.

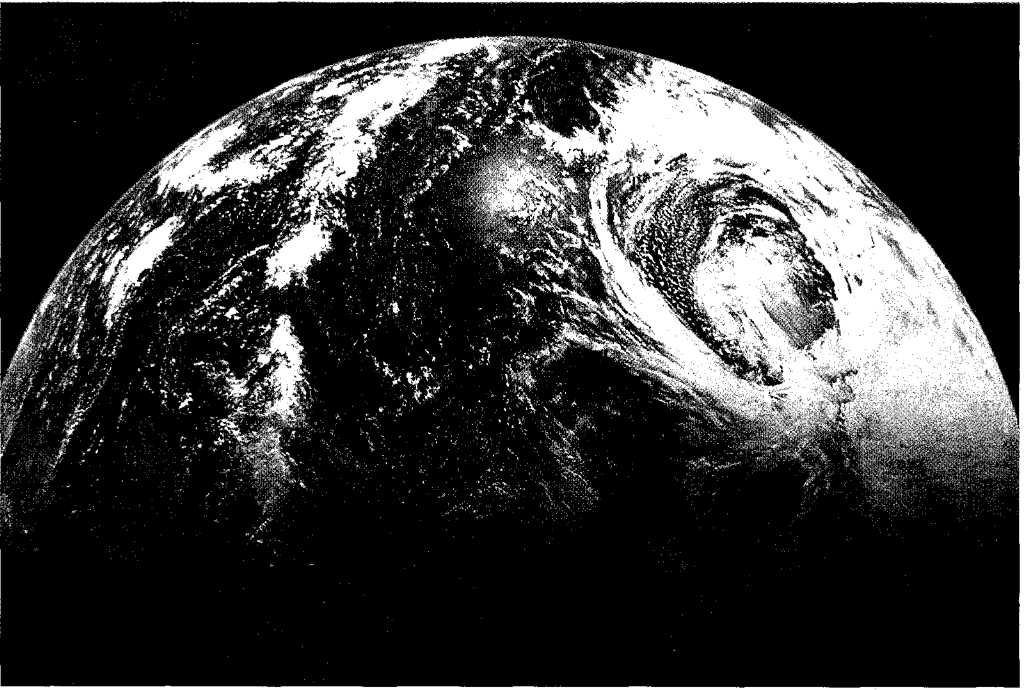
ولذلك فإن القرآن الكريم يتحدث عن هذه الحقيقة بطريقة غير مباشرة، وبصياغة ضمنية لطيفة، ولكنها في نفس الوقت بالغة الدقة والشمول والإحكام، وجاء ذلك في عدد من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن تكور كل من الليل والنهار على الآخر، وولوجه فيه، وانسلاخه منه، وعن مد الأرض وبسطها، ودحوها وطحوها، وعن كثرة المشارق والمغارب فيها مع بقاء قمة عظمى ونهايتين لكل منهما، ومن تلك الآيات قوله ـ تعالى ـ:

(١) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾

(الزمر: 5).

ومعنى **(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل)** أي: يغشي كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه، وهو وصف واضح الدلالة على كروية الأرض، وعلى دورانها حول محورها أمام الشمس؛ وذلك لأن كلًّا من الليل والنهار عبارة عن فترة زمنية تعتري نصف الأرض في تبادل مستمر، ولو لم تكن الأرض مكورة لما تكور أي منهما، ولو لم تكن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار، وكلاهما ظرف زمان وليس جسماً مادياً يمكن أن يكور، بل يتشكل بشكل نصف الأرض الذي يعتريه، ولما كان القرآن الكريم يثبت أن الله تعالى يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، وهما فترتان زمنيتان تعتريان الأرض، فلا بد للأرض من أن تكون مكورةً، ولابد لها من الدوران حول محورها أمام الشمس.

ومن هنا كان التعبير القرآني بتكوير كل من الليل والنهار فيه إعلام صادق عن كروية الأرض، وعن دورانها حول محورها أمام الشمس، بأسلوب رقيق لا يفزع العقلية السائدة في ذلك الزمان التي لم تكن مستعدةً لقبول تلك الحقيقة، فضلاً عن استيعابها. تلك الحقيقة التي أصبحت من البدهيات في زماننا، وإن بقي بعض الجهال على إنكارها إلى



صورة حقيقية للأرض من الفضاء تظهر نصفها المنير وجزءًا من نصفها المظلم وكرويتها الواضحة

يومنا هذا وسوف يبقون على ذلك إلى قيام الساعة، والتكوير يعني: جعل الشيء على هيئة مكورة ـ هيئة الكرة أو شبه الكرة ـ، إما مباشرة أو عن طريق لف شيء على شيء آخر في اتجاه دائري شامل: أي: في اتجاه كروي؛ وعلى ذلك فإن من معاني ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أن الله ـ تعالى ـ ينشر بالتدريج ظلمة الليل على مكان النهار من سطح الأرض المكور فيحوله إلى ليل مكور، كما ينشر نور النهار على مكان ظلمة الليل من سطح الأرض المكور فيحوله نهاراً مكوراً، وبذلك يتتابع كل من الليل والنهار على سطح الأرض الكروي بطريقةٍ دوريةٍ، مما يؤكد حقيقتي كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس بأسلوب لا يفزع الأفراد ولا يصدم المجتمعات التي بدأ القرآن الكريم يتنزل في زمانها والتي لم يكن لها حظ من المعرفة بالكون وحقائقه.

والإشارات القرآنية الضمنية إلى حقيقة كروية الأرض ليست مقصورةً على الآية الخامسة من سورة «الزمر» وحدها؛ وذلك لأن الله ـ تعالى ـ يؤكد في عددٍ من آيات القرآن الكريم على مد الأرض؛ أي: على بسطها بغير حافة تنتهي إليها؛ وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية الشكل؛ لأن الشكل الوحيد الذي لا نهاية لبسطه هو الشكل

الكروي، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

(1) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ (الرعد: 3).

(2) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ (الحجر: 19).

(3) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ (قٓ: 7).

كذلك يؤكد القرآن الكريم كروية الأرض في آيات التطابق؛ أي: تطابق كل من السمٰوات والأرضين؛ ولا يكون التطابق بغير انحناءٍ وتكويرٍ، وفي ذلك يقول ربنا ﷻ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾.. (الملك: 3)؛ أي متطابقة، يغلف الخارج منها الداخل فيها. ويشير القرآن الكريم إلى اتفاق الأرض في ذلك بقول الحق ﷻ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.. (الطلاق: 12)؛

أي سبع أرضين متطابقة حول مركز واحد يغلف الخارج منها الداخل فيها.

كذلك تشير آيات المشرق والمغرب التي ذكرت بالإفراد، والتثنية، والجمع إلى حقيقة كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى اتجاه هذا الدوران، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

(1) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الشعراء: 28).

(2) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ (الرحمٰن: 17).

(3) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ (المعارج: 40، 41).

فالمشرق هو جهة طلوع الشمس، والمغرب جهة غيابها، ووجود كل من المشرق والمغرب يؤكد كروية الأرض، وتبادلهما يؤكد دورانها حول محورها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق، والأرض لها مشرق حقيقي واحد، ومغرب حقيقي واحد عموديان على اتجاه الشمال الحقيقي الذي حدده لنا الخالق سبحانه وتعالى بالنجم القطبي. وفي الوقت الذي تشرق فيه الشمس على جهة ما من الأرض، تكون قد غربت في نفس اللحظة عن جهة أخرى، ولما كانت الأرض منبعجة قليلاً عند خط الاستواء كانت هناك قمة عظمى للشروق وأخرى للغروب ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، ولما كانت الشمس تشرق على الأرض في الفصول المختلفة من نقاطٍ مختلفةٍ؛ كما تغرب عنها من نقاط مختلفة؛ وذلك

بسبب ميل محور دوران الأرض بزاوية مقدارها 23.5 درجة على مستوى فلك دورانها حول الشمس كانت هناك مشارق عديدة، ومغارب عديدة ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، وكانت هناك نهايتان عُظميان لكل من الشروق والغروب تتبادلان فيصبح المشرق مغرباً، ثم يصبح المغرب مشرقاً: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾، وينتشر بين هاتين النهايتين العُظميين نقاط متعددة لكل من الشروق والغروب على كل من خطوط الطول وخطوط العرض، وعلى مدار السنة؛ لأن دوران الأرض حول محورها أمام الشمس يجعل النور المنبثق عن ضوء هذا النجم ينتقل على سطح الأرض الكروي باستمرار من خط عرض إلى آخر ومن خط طول إلى آخر، محدثاً عدداً غير نهائيّ من المشارق والمغارب المتعاقبة في كل يوم ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾.

ووجود كل من جهتي المشرق والمغرب، والنهايات العظمى لكل منهما، وتبادلهما فيصبح المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً، وما بينهما من مشارق ومغارب عديدة، وتتابع تلك المشارق والمغارب على سطح الأرض يؤكد كلاً من كرويتها، ودورانها حول محورها أمام الشمس، وميل محور دورانها على مستوى فلك دورانها، وكل ما ينتج عن ذلك من تعاقب الليل والنهار، وتبادل الفصول المناخية، واختلاف مطالع الشمس ومغاربها على مدار السنة. وكل ذلك من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت تنزُّل القرآن الكريم، ولا لقرونٍ متطاولةٍ من بعده إلا بصورة بدائية، ولنفر محدودين جداً من أبناء الحضارات السابقة التي لم تصل كتاباتهم إلى شبه الجزيرة العربية، إلا بعد حركة الترجمة التي بدأت في منتصف القرن الهجري الثاني؛ أي: منتصف القرن الثامن الميلادي في عهد الدولة العباسية.

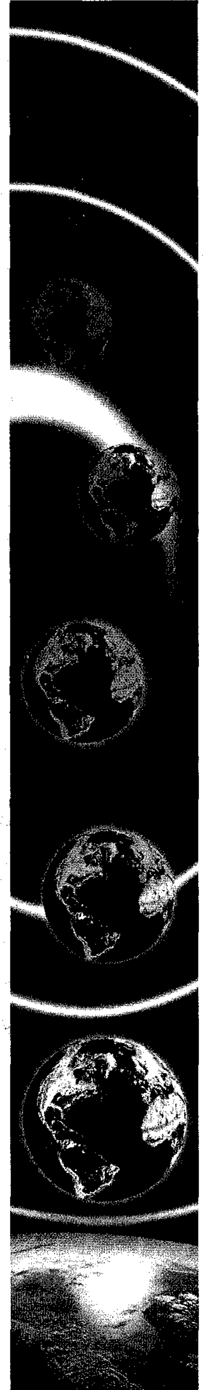
وورود مثل هذه الحقائق الكونية في ثنايا الآيات القرآنية الكريمة بهذه الإشارات اللطيفة والدقيقة في نفس الوقت لَمِمَّا يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وهذه من الحقائق الاعتقادية التي يحتاجها إنسان اليوم الذي توفر له من أسباب التقدم العلمي والتقني ما لم يتوفر لجيلٍ من البشر من قبل، ولكنه في ظل هذا التقدم فقدَ الصلةَ بخالقه، ففقد الكثير من القيم الأخلاقية النبيلة والضوابط السلوكية الصحيحة التي تدعو إلى الارتقاء بالإنسان إلى مراتب التكريم التي رفعه إليها رب العالمين، وتعينه على إقامة عدل الله في الأرض، بدلاً من المظالم العديدة التي تجتاحها في كثير من أجزائها اليوم، وبدلاً من الخراب والدمار الذي يصيبها، والدماء التي تغرقها،

في ظل غلبة أهل الباطل على أهل الحق، وفقدان هؤلاء الكفار والمشركين لأدنى علم بالدين الذي يرتضيه رب العالمين من عباده؛ ولعل في الإشارة إلى مثل هذا السبق القرآني بالعديد من حقائق الكون ومظاهره ما يمكن أن يمهد الطريق إلى الدعوة لهذا الدين، وإلى تصحيح فهم الآخرين لحقيقته من أجل تحييد هذا الكم الهائل من الكراهية للإسلام والمسلمين، والتي غرسها ـ ولا يزال يغرسها ـ شياطين الإنس والجن في قلوب الأبرياء والمساكين من بني البشر، فبدأوا بالصراخ بصراع الحضارات، وبنهاية العالم، وبضرورة إشعال حربٍ عالميةٍ ثالثةٍ بين الغرب والإسلام ـ والغرب في قمة من التوحد على الباطل، والتقدم العلمي، والتقني، والتفوق الاقتصادي والعسكري مع غيبة كاملة للدين، وانحسار للأخلاق الكريمة وللقيم النبيلة، وغَيبة كاملة لخشية الله، وللإيمان بوحي السماء، وبالبعث والحساب، ولمعنى الأخوة الإنسانية ـ، والعالم الإسلامي اليوم يمر بأكثر فترات تاريخه فرقةً، وتمزقاً، وانحساراً مادياً وعلمياً وتقنياً، وتخلفاً عسكرياً ـ، والمعركة التي يتوهمونها تدعى معركة «أرمجدون» وهي معركة وهمية جاء ذكرها في سفر رؤيا يوحنّا اللاهوتي ـ وهو رجل مجهول الهوية ـ في آخر العهد الجديد من كتاب نصارى اليوم، يشعلونها من أجل القضاء على دين الله الحق ..﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

(يوسف: 21).

بسم الله الرحمن الرحيم

(11) ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (النحل: 15).



هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف الربع الأول من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وآياتها 128 بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى النحل، وما وهبه الله ـ تعالى ـ من فطرة عجيبة مكَّنته من بناء خلاياه، وتنظيم حياته، وسلوك مختلف السبل بسهولة ويسر، وإخراج هذا الشراب الذي فيه شفاء للناس من بطون إناثه. وقد سميت حشرة النحل بهذا الاسم لأن الله ـ تعالى ـ قد نحلها هذه القدرة على إخراج العسل، وميّزها بها عن كثير من الحشرات.

وتعرض سورة «النحل» للركائز الأساسية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، ومنها حقيقة الألوهية، وأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وهو رب كل شيء ومليكه، وحقيقة الوحدانية المطلقة للإله الخالق فوق جميع خلقه، وحقيقة طلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود، وطلاقة الإرادة الإلهية التي لا يعوقها عائق، وحقيقة الوحي، والنبوة والرسالة، وقد أنزلها الله ﷻ على فترة من الرسل، وأتمها وأكملها وختمها في بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، ولذلك تعهد بحفظ رسالته الخاتمة حفظاً كاملاً بنفس لغة وحيها، بينما أوكل حفظ الرسالات السابقة لأصحابها فضيعوها، وما بقي منها من ذكريات نقلت شفاهاً لمئات من السنين قبل تدوينها في لغات غير لغة الوحي تعرض ـ ولا يزال يتعرض ـ للتحريف بعد التحريف، وللتحرير بعد التحرير، وللحذف والتغيير حتى تم إخراجها عن إطارها الرباني إخراجاً كلياً فأصبحت عاجزة كل العجز عن هداية أصحابها.

وتعرض سورة «النحل» لحتمية البعث، وهي حقيقة لازمة، أنكرها الكافرون واستبعدوا إمكانية وقوعها في القديم، كما ينكرونها اليوم ويستبعدون وقوعها، لعجزهم عن فهم مدلول الألوهية الحقة. ومن هنا أنكروا وقوع عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة.

وتؤكد السورة أن الحاكمية لله، ومن هنا كان له وحده ﷻ الحق في التحليل والتحريم، وتعرض لمهام الأنبياء والمرسلين في تبليغ أوامر الله لعباده الذين أعطاهم حرية الاختيار بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وجعل لهم على ذلك من الثواب والعقاب ما يستحقون.

وتدعو سورة «النحل» إلى إقامة عدل الله في الأرض، والإحسان إلى الخلق، والوفاء بالعهد، كما تدعو إلى الإنفاق في سبيل الله، وإلى الهجرة من أجل إعلاء دينه، والتعريف به، وتحذر السورة من الوقوع في الفتن، ومن أشدها الكفر بعد الإيمان، وتؤكد العديد من مكارم الأخلاق وضوابط السلوك، وقواعد المعاملات انطلاقاً من مخافة الله ـ تعالى ـ وخشية حسابه؛ وتذكر بأحوال الناس في حالات الضعف والقوة انتقالاً من مراحل الأجنة في بطون الأمهات إلى الشباب والفتوة، ثم الهرم والشيخوخة، وانتقالاً من أحوال النعمة والرخاء إلى أحوال الشدة والبلاء كما تذكر بلحظات الاحتضار وبمصارع الغابرين.

وتبدأ السورة الكريمة بالتحذير من فجائية الآخرة، في تحد واضح للذين يستعجلونها، وهي واقعة لا محالة، وللذين يستعجلون العذاب وهو طائلهم، لا فكاك منه ولا مهرب، ثم تثني بتسبيح الله وتنزيهه ـ تعالى ـ عن الشريك، وتؤكد حقيقة إنزاله الوحي على من يشاء من عباده الذين اصطفاهم من الأنبياء والمرسلين؛ لينذروا الناس بأنه لا إله إلا الله، وينصحوهم بتقواه ـ ﷻ ـ، وتعتب على الذين كفروا انطلاقاً من صلفهم وعنتهم أنهم طالبوا رسلهم بأن يأتوهم بالملائكة، أو بتهديد الله لهم، وتشير إلى عاقبة الذين طلبوا ذلك من قبل؛ وتنعي على الذين أشركوا ادعاءهم الكاذب بأن ذلك هو قدر الله عليهم. وتؤكد السورة الكريمة أنه ما على الرسل إلا البلاغ المبين، وأن الله ـ تعالى ـ قد بعث رسولاً في كل أُمة من الأمم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإلى اجتناب الطاغوت، فكان منهم مصدقون ومكذبون، وتذكر بعواقب المكذبين.

وتخاطب سورة «النحل» خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وهو الحريص على هداية الخلق أجمعين بأن الله ـ تعالى ـ لا يهدي من يضل، وأن الضالين لا نصير لهم.

وتشير السورة الكريمة في أكثر من موضع منها إلى إنكار الكافرين للبعث، وتؤكد أنه وعد الله الذي لا يخلف وعده، حتى يجازي كلاً بعمله، وأن أمر الله سريع النفاذ، وأنه بين الكاف والنون، كما تشير إلى الرسل السابقين وإلى رسالاتهم التي تكاملت كلها في القرآن الكريم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ تبياناً لما اختلف فيه أهل الكتاب، وتحذر من عقاب الله للذين يمكرون السيئات، وتؤكد حتمية الحساب، وحتمية الثواب والعقاب.

وتلمح سورة «النحل» إلى حقيقة أن كل ما في السمٰوات والأرض من دواب وملائكة خاضعون لله بالطاعة والعبادة، يسجدون له ـ تعالى ـ في غير استكبار، وتعاود التحذير من الشرك بالله رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وصاحب النعم على جميع الخلق، وكاشف الضر عنهم.

وتنكر السورة الكريمة على أهل الجاهلية القديمة كراهيتهم لخلفة البنات، تلك الكراهية التي كانت تدفع بالبعض منهم إلى وأد بناتهم أحياء. وتضرب عدداً من الأمثال لتقارن بين غير الفاعلين من البشر، والفاعلين منهم الذين يأمرون بالعدل وهم على صراط مستقيم.

وتؤكد سورة «النحل» أن الغيب المطلق في السمٰوات والأرض لا يعلمه إلا الله ـ سبحانه ـ، ومنه أمر الساعة الذي لا يأتي إلا بغتة، وأنه ـ تعالى ـ على كل شيء قدير.

وتستعرض السورة المباركة مواقف الظالمين من الكفار والمشركين في يوم القيامة، وما سوف يتعرضون له من المهانة والعذاب، وتؤكد أن الأنبياء سوف يشهدون على أممهم، وأن الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ سوف يشهد على أمته وعلى الذين كذبوا نبوته وجحدوا رسالته منهم ومن الأمم من بعدهم، وأن الله ـ تعالى ـ قد أنزل عليه القرآن العظيم ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. **(النحل: 89)**.

وتؤكد سورة «النحل» أن الله ﷻ يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وتطالب المسلمين بالوفاء بعهد الله إذا عاهدوا، وبعدم نقض الأيمان بعد توكيدها، وتشير إلى أن الله ـ تعالى ـ لو شاء لجعل الناس أُمة واحدة، ولكن منهم الضالّ والمهتدي، والطالح والصالح، وتقرر الآيات أن ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾. **(النحل: 97)**

وتأمر الآيات في هذه السورة المباركة بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل البدء في تلاوة القرآن الكريم، ومؤكدة أن ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا، والذين على

ربهم يتوكلون، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

وتشير سورة «النحل» إلى أن القرآن الكريم نزل به جبريل - عليه السلام - بالحق من لدن رب العالمين ليثبِّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين، كما تشير إلى الادعاء الكاذب من الكافرين بأن الرسول - صلوات الله وسلامة عليه - يتلقى ما أفاء الله - تعالى - عليه به من علم على يد بشر، وتستنكر افتراء الكذب على الله، والكفر به إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وتقرر أن على الكافرين غضباً من الله، وأن لهم عذاباً عظيماً.

وتعرض السورة الكريمة لشيء من **المحرمات في الطعام** من مثل **الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به،** إلا من اضطر غير باغ ولا عاد، فإن الله غفور رحيم، مؤكدة أن التحليل والتحريم من سلطة الله وحده، ولا يجرؤ عليه إلا كاذب على الله، وتلمح إلى اليهود ومخالفتهم لأوامر الله بالاعتداء في السبت، وتذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام بأنه كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين، وأن الله - تعالى - قد اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، وآتاه في الدنيا حسنة، وجعله في الآخرة من الصالحين، وتأمر الآيات رسول الله الخاتم ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً.

وتختتم سورة «النحل» بدعوة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - ومن بعده دعوة كل المؤمنين برسالته إلى أن يحملوا هذا الدين الخاتم المحفوظ بحفظ الله القادر إلى غيرهم من الأمم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن وبالصبر عليهم، والعفو عما يلقونه منهم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الله إليهم، وإن عاقبوا فلا يجوز للعقاب أن يتعدى المثل، وأن الصبر خير للصابرين. وتختتم السورة بالوصية إلى رسول الله - ﷺ - بأن يصبر وبألا يكون في ضيق مما يمكر الكافرون لأن الله - تعالى - ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ **(النحل: 128)** والوصية من بعد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - هي لكل مسلم يحمل راية الإسلام إلى يوم الدين.

الآيات الكونية في سورة النحل

استشهدت سورة النحل بالعديد من الآيات الكونية الدالة على حقيقة الألوهية التي تتجلى فيها عظمة الخلق، وشمول النعم على العباد، وتمام العلم، وعظيم الحكمة، ودقة التدبير ومن تلك الآيات ما يلي:

(1) خلق السمٰوات والأرض بالحق.

(2) خلق الإنسان من نطفة فإذا به يقابل خالقه بالجحود والنكران في أغلب الأحيان.

(3) خلق الأنعام وهي مصدر للعديد من المنافع للإنسان.

(4) خلق الخيل والبغال والحمير وغير ذلك من وسائل الركوب التي لم تكن معروفة في زمن الوحي، والتي ستظل في تطور مستمر مع تزايد علم الإنسان وقدراته التقنية، والله يخلق ما لا يعلمه الإنسان.

(5) تعدد معتقدات الناس بين الضلال والهداية، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

(6) إنزال الماء من السماء للشراب وإنبات الشجر والزرع ومن أهمها الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من الثمرات المباركات.

(7) تسخير الأرض بتبادل ليلها ونهارها ـ نتيجة لكرويتها ولدورانها حول محورها أمام الشمس ـ، وكذلك تسخير كلٍّ من الشمس والقمر والنجوم بأمر الله لاستقامة الحياة في هذا الكون.

(8) نشر مختلف صور الحياة في الأرض، وتعدد أشكال سطحها وصخورها وعناصرها ومركباتها ومختلف الدورات فيها (دورة الماء، ودورة الحياة، ودورة الصخور.. إلخ).

(9) تسخير البحر للإنسان بما فيه من أحياء ذات لحم طري، وهياكل تصلح لصناعة الحلي، وقدرته على حمل الفلك ذات الأحجام المختلفة جرياً بمصالح العباد تشق عباب مائه وما فوق الماء من هواء.

(10) إلقاء الجبال على الأرض رواسي لها كي لا تميد ولا تضطرب وإلا ما كانت صالحة للعمران، وارتباط تكونها بنبع الأنهار من قممها، ودور حركة الأنهار من منابعها إلى مصابها في تفتيت الصخور، وتكوين التربة، وتركيز العديد من المعادن والصخور النافعة والثروات الأرضية المتعددة، وفي تسوية سطح الأرض وشق الفجاج والسبل فيها.

(11) جعل تضاريس الأرض المختلفة علامات للاهتداء بها على اليابسة في وضح النهار، وجعل النجوم علامات للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

(12) أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، والمخلوقون لا قدرة لهم على الخلق.

(13) وصف عقاب بعض الأمم السابقة وصفاً ينطبق على ما تحدثه الزلازل في زماننا من قبل أن يدرك أحد من الخلق ميكانيكية حدوث تلك الهزات الأرضية.

(14) تأكيد أن الله ـ تعالى ـ خسف الأرض بالذين مكروا السيئات في الماضي وهو ﷻ قادر على أن يخسفها بهم في الحاضر والمستقبل، وفي ذلك تأكيد على أن فهمنا لميكانيكية حدوث الكوارث الأرضية لا يخرجها عن كونها من جند الله يسلطها على من يشاء من عباده عقاباً للعاصين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين.

(15) أن مد الظل وقبضه صورة من صور السجود التسخيري لله ـ تعالى ـ في خضوع وطاعة تامّين.

(16) خلق اللبن في ضروع الأنعام من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

(17) جعل ثمرات النخيل والأعناب مصدراً للرزق الحسن، كما قد يسيء الإنسان استخدامها فتصبح مصدراً للسُّكْر وفقدان الوعي.

(18) خلق النحل ومنح إناثه القدرة على بناء بيوتها في الجبال، وفي الأشجار، وفيما يعرش لها الناس، وعلى جمع الرحيق وحبوب اللقاح من مختلف الزهور والثمار، وذلك عبر مسافات شاسعة الاتساع دون أن تضل عن بيوتها.. وتحويل ذلك في بطونها إلى هذا الشراب المختلف الألوان والذي فيه شفاء للناس..

(19) الإشارة إلى أن دورة الحياة ـ بين الخلق والوفاة ـ حتمية على كل حي، ومن الأحياء الإنسان الذي منه من يتوفى صغيراً أو شاباً، ومنه من يرد إلى أرذل العمر، ومن مظاهره فقدان الذاكرة جزئياً أو كلياً.

(20) تقديم السمع على البصر في هذه السورة الكريمة، وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم.

(21) إن الله ـ تعالى ـ هو الذي يمسك الطيور مسخرات في جو السماء.

(22) الإشارة إلى نعمة الله على عباده بخلق الظلال، وبتكوين الكهوف في الجبال، وبستر الإنسان باللباس ليقيه من حرارة الشمس ومن مخاطر الأشعة المصاحبة لها، وبستره في حالات القتال بما يقيه بأس الآخرين من الدروع والزرود وغيرها، والتلميح بلفظة الحر إلى كل من الحر والبرد على أن كلًّا منهما يمثل بدرجات حرارة إيجاباً أو سلباً.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة علمية خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة العاشرة من القائمة السابقة والتي جاءت في الآية الخامسة عشرة من هذه السورة المباركة، وأرى ـ قبل ذلك ـ ضرورة الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾. **(النحل: 15)**

ذكر ابن كثير ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ ما مختصره: . . . «ثم ذكر الله تعالى الأرض وما أُلقي فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ **(النازعات: 32)**... وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام.. بحسب ما أراد الله وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه؛ وكذلك جعل فيها ﴿سُبُلًا﴾ أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى أنه ـ تعالى ـ ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ **(الأنبياء: 31)**.

- وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ كلام مشابه في اختصار غير مخل.

- كذلك جاء كلام مشابه في ـ الظلال ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعه جزاء ما قدم: وإن كان قد نعى على العلم الحديث أنه يعلل وجود الجبال والرواسي ولكنه لا يذكر وظيفتها. والقرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض....

- وجاء في صفوة البيان لمعاني القران ـ رحم الله كاتبها ـ ما نصه: «﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميد.. أو لئلا تميد، أي تميل بكم وتضطرب، يقال: مادت السفينة تميد ميداً، إذا تحركت ومالت، ومادت الأغصان: تمايلت».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وجعل الله في الأرض جبالاً ثابتة تحفظها أن تضطرب، وجعل فيها أنهاراً تجري فيها المياه الصالحة للشرب والزرع، وطرقاً ممهَّدة لتهتدوا بها في السير إلى مقاصدكم».

- وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً لا أرى لزوماً لتكراره.

الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية في هذه الآية الكريمة: استخدام تعبير الإلقاء لوصف تكوّن الجبال، ووصف الجبال بأنها رواسٍ للأرض خشية أن تميد بما عليها من خلق، وربط تكوّن كلٍّ من الأنهار والسبل بتكون الجبال، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولاً: وصف عملية تكون الجبال بتعبير الإلقاء:

توصف الجبال بأنها أشكال أرضية بارزة فوق سطح الأرض، تتسم بقممها العالية، وسفوحها المنحدرة، وبوجودها على هيئة أطواف، أو منظومات، أو سلاسل، أو أحزمة، أو مجموعات من تلك الأحزمة الجبلية التي تكون عادة متوازية أو قريبة من التوازي مع بعضها البعض، وإن كانت بعض الجبال توجد على هيئة مرتفعات فردية وحيدة بصورة جبل واحد. والمرتفعات الفردية تتكون عادة من الطفوح البركانية.

(1) تكون الجبال البركانية بعمليات إلقاء متتابعة للطفوح:

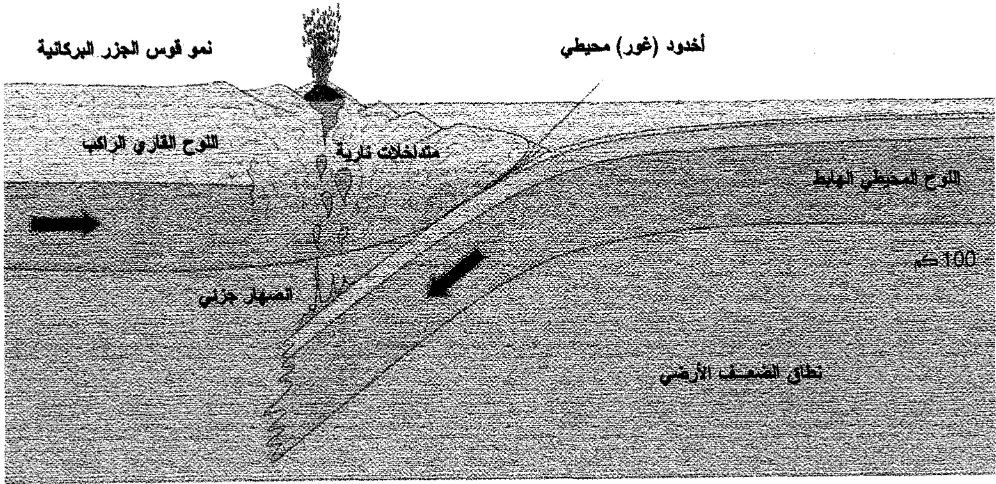
بواسطة عدد من الخسوف الأرضية التي تتراوح أعماقها بين65 كيلومتراً ـ في قيعان المحيطان وقيعان عدد من البحار، و150 كيلومتراً ـ على اليابسة ـ يقسم الغلاف الصخري للأرض إلى حوالي الاثني عشر لوحاً كبيراً بالإضافة إلى عدد أقل من ألواح الغلاف الصخري الصغيرة (اللويحات).

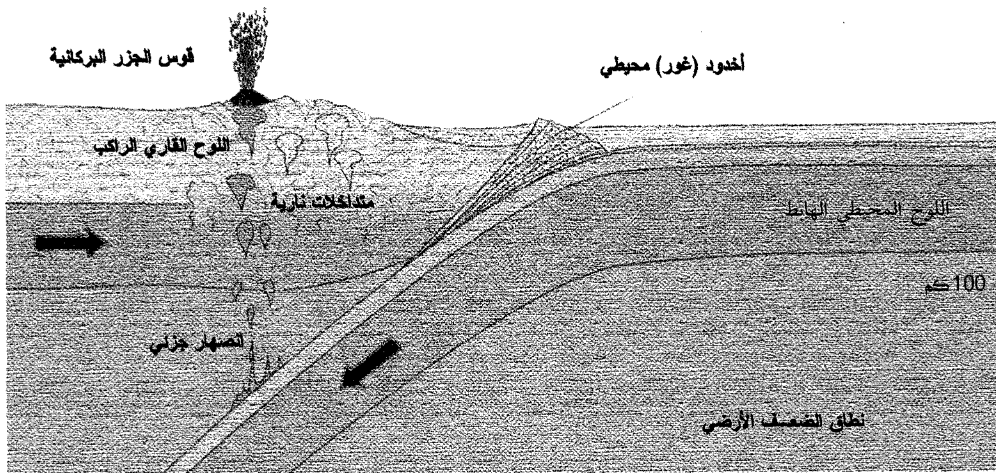
ولما كانت هذه الألواح تطفو فوق نطاق لدن شبه منصهر يعرف باسم «**نطاق الضعف الأرضي**» فإن البراكين تكثر عند الحدود الفاصلة بين تلك الألواح خاصة عند حدود التباعد بينها، ومعظم هذه البراكين تلقي بحممها من أسفل إلى أعلى، وتظل تلك الحمم تتراكم فوق بعضها البعض لتكوّن كتلاً جبلية معزولة من الصخور البركانية تصل ارتفاعاتها إلى آلاف الأمتار فوق مستوى سطح البحر؛ لأن معظم هذه البراكين يستمر في نشاطه لفترات تتراوح بين20 و30 مليون سنة، وإن كان بعضها قد يستمر نشاطه لأكثر من مائة مليون سنة. ومن أمثلة الجبال البركانية جبل أرارات (5100 متر) في تركيا، وجبل أتنا (3300 متر) في صقلية، وجبل فيزوف (1300 متر) في إيطاليا، وجبل كيليمنجارو (5900 متر) في تنزانيا، وجبل كينيا (5100 متر) في كينيا، وهذه الارتفاعات كلها فوق مستوى سطح البحر.

(2) تكون الجبال المطوية بعمليات إلقاء الصخور المتجمعة فوق قيعان المحيطات إلى حواف القارات: تمثل سلاسل الجبال المطوية ذروة التطور في تكوّن النطق الجبلية؛

ولذلك فهي تمثل بالمنظومات الجبلية الكبرى في العالم. وتتكون هذه النظم الجبلية من أنواع مختلفة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة (وكلها تنتج عن عملية إلقاء)، كما تعتريها أنماط بنيوية عديدة من الطي، والتصدع، والتصدع الراكب، والمتداخلات، والطفوح البركانية، ولعمليات الإلقاء من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل في كل نمط من هذه الأنماط البنيوية دور أساسي لا يمكن إغفاله.

وتدل الملاحظات الميدانية على أن تكون الجبال المطوية يسبقه تكون أحواض أرضية عملاقة تقدر أطوالها بمئات الكيلومترات، ويقدر اتساعها بعشرات الكيلومترات، وأعماقها بعدة مئات من الأمتار، ولكن قيعانها تهبط باستمرار تحت أوزان ما يتجمع فيها من





رسم يوضح اصطدام طبقة قاع المحيط بالقارة

رسوبيات وطفوح، مما يؤدي إلى تراكمات من الصخور الرسوبية المتبادلة مع الطفوح البركانية يزيد سمكها على1500 متر، وكلٌ من الفتات الصخري والرسوبيات التي تتكون بطريقة كيميائية أو بطريقة عضوية لتكون هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية تلقى كلها من أعلى ماء البحار إلى قيعانها بعملية إلقاء حقيقية، والطفوح البركانية المتداخلة فيها والمتبادلة معها تلقى أثناء الثورات البركانية من أسفل إلى أعلى.

كذلك فإن تلك الأحواض الأرضية تكونت بفعل أعداد من الصدوع الخسفية العميقة التي تظل في حركة دائبة للهبوط بتلك الأحواض ببطء؛ مما يعين على تجمع تلك التراكمات السميكة من الصخور الرسوبية والبركانية، وكلتاهما تتكون بعملية إلقاء من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى أو بهما معاً، واحداً تلو الآخر.

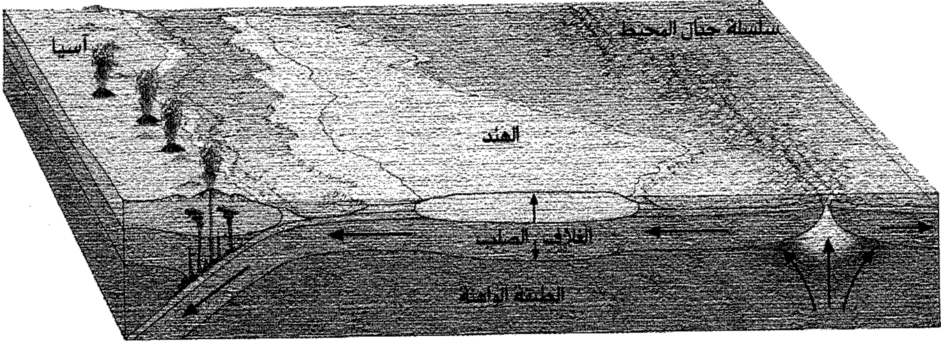
كذلك تشير الدراسات الميدانية إلى أن حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض تلعب دوراً مهماً في عملية بناء هذه السلاسل والمنظومات الجبلية الشديدة الطي والتكسر، فعند اصطدام لوحين من ألواح الغلاف الصخري المكون لقاع المحيط تتكون سلسلة من الجزر البركانية على هيئة أقواس فوق قاع المحيط.

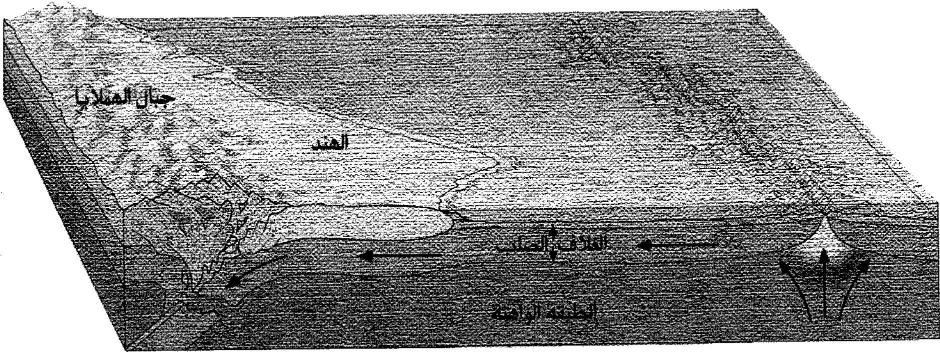
وعندما يصطدم قاع المحيط بإحدي القارتين المحيطتين به ويبدأ في الهبوط تحتها، تتكون أعمق أغوار هذا المحيط ويتجمع في هذا الغور بالإلقاء من أعلى إلى أسفل كم هائل من الرسوبيات التي تضاف بالتدريج إلى الصخور الرسوبية، كما يتبادل مع هذه الصخور الرسوبية كم هائل من الطفوح البركانية التي يلقى بها من أسفل إلى أعلى.

وتتّسم عملية انزلاق قاع المحيط تحت قارة مجاورة بكشط هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية والبركانية (المتجمعة في الغور الأخدودي العميق الناتج عن عملية هبوط قاع المحيط تحت القارة) وبتغضنه وإلقائه فوق حافة القارة الراكبة تتكون سلسلة جبلية من السلاسل المطوية والمتكسرة بمحاذاة الأخدود البحري الهابط بالتدريج تحت القارة، وباستمرار عملية الهبوط يكشط المزيد من الصخور الرسوبية البحرية وما تضمه من طفوح بركانية من فوق قاع المحيط الهابط تحت القارة. وتلقي فوق حافة القارة لتضاف إلى سلسلة الجبال المتكونة فوق طرف القارة، كذلك تنشط كل من الطفوح البركانية والمتداخلات النارية لتكون قلب وقواعد السلسلة الجبلية المتكونة وذلك بالانصهار الجزئي للوح الهابط، وبإزاحته كتلاً من الصهارة من نطاق الضعف الأرضي الذي تغوص فيه.

وفي بعض الأحيان قد تتحرك إحدى القارات في اتجاة قارة مقابلة لها دافعة أمامها قاع المحيط الفاصل بين القارتين، فيهبط تحت القارة المقابلة بالتدريج حتى يتم استهلاكه بالكامل،

فتصطدم القارتان ببعضهما اصطداماً عنيفاً يكون من نتائجه هبوط القارة الدافعة هبوطا جزئياً تحت القارة الراكبة، وينتج عن هذا الاصطدام تَكَوُّن أعلى السلاسل الجبلية على حافة القارة الراكبة وذلك بكشط كل الصخورالرسوبية والبركانية من فوق قاع المحيط الهابط وإلقائها من أسفل إلى أعلى على حافة القارة الراكبة، مع إلقاء كم هائل من المتداخلات والطفوح البركانية والصخور المتحولة في قلب السلسلة الجبلية المتكونة بالعديد من الطي والتكسر.





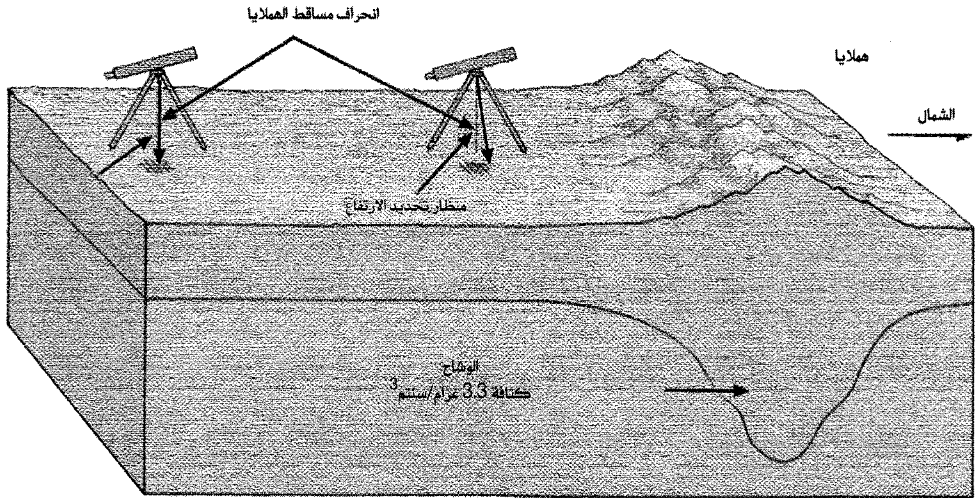
رسم تخطيطي لتحرك قارة الهند عبر ملايين السنين لتصطدم بالقارة الآسيوية/الأوروبية وتكون جبال الهيمالايا الشاهقة في موضع التصادم

وتكثر الصدوع بصفة خاصة على امتداد حواف سلاسل ونظم الجبال المطوية. وبعض هذه الصدوع من النوع العادي، ولكن معظمها من الصدوع التجاوزية (الدسرية) ذات الميول المنخفضة التي تمتد إلى مئات الكيلومترات دافعة أمامها كتلاً هائلة من الصخور المتباينة كتلة فوق الأُخرى لعدة كيلومترات، وهي صورة من أروع صور الإلقاء.

ثانياً: وصف الجبال بأنها رواسي:

كما سبق أن أشرنا، يقسم الغلاف الصخري للأرض إلى نحو اثني عشر لوحاً كبيراً بالإضافة إلى عدد من الألواح الصغيرة، وذلك بواسطة شبكة هائلة من الصدوع الخسفية (الخسوف الأرضية المكونة بواسطة عمليات تصدع الغلاف الصخري للأرض)؛ وهي خسوف تتراوح أعماقها بين 65 كم، و150 كم وتطفو ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يعرف باسم «**نطاق الضعف الأرضي**»؛ ولذلك فإن هذه الألواح الصخرية تنزلق فوق نطاق الضعف الأرضي مع دوران الأرض حول محورها، وباندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر الصدوع والخسوف الفاصلة بينها، خاصة تلك الخسوف الموجودة في ألواح الغلاف الصخري المكونة لقيعان كل محيطات الأرض وأعداد من بحارها، ولذلك تتسع قيعان هذه المحيطات والبحار باستمرار في ظاهرة تعرف باسم «**ظاهرة اتساع قيعان المحيطات**»، وبذلك تنتقل ألواح الغلاف الصخري للأرض على نطاق الضعف الأرضي باستمرار في حركة دائبة، لا يبطئ من عنفها إلا تكوّن السلاسل الجبلية التي تثبت القارات في قيعان البحار والمحيطات بواسطة أوتاد الجبال، كما يمكن بواسطتها تثبيت قارة في قارة أخرى.

فالجزء البارز من الجبال فوق سطح الأرض ليس إلا القمم لكتل هائلة من الصخور التي تطفو في نطاق الضعف الأرضي كما تطفو جبال الجليد في ماء البحر المحيط؛ ومن



رسم تخطيطي يوضح اندفاع جذر الجبل في نطاق الضعف الأرضي بما يزيد على ارتفاعه فوق سطح الأرض بعدة أضعاف

هنا كان وصف القرآن الكريم للجبال بالرواسي وصفاً معجزاً؛ لأن الجبال ترسو بأوتادها في نطاق الضعف الأرضي، كما ترسو السفينة في ماء البحر على مرساتها، و (الرواسي) من الجبال: هي الثوابت الرواسخ، ومفردها(راسية).

ووجود الجبال بكتلها الغائرة في الغلاف الصخري للأرض والطافية في نطاق الضعف الأرضي يقلل من شدة ترنح الأرض في دورانها حول محورها، ويجعل حركتها أكثر انتظاماً وسلاسة، تماماً كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول إطار السيارة للتقليل من رجرجتها والعمل على انتظام حركتها؛ وبذلك أصبحت الأرض مؤهلة للعمران.

ثالثاً: ربط تكون كلٍّ من الأنهار والسبل بتكوّن الجبال:

يعرّف النهر بأنه ماء يتدفق في مجرى محدد، له حواف تعرف باسم الشرف النهرية، ويندفع من منابعه في المناطق المرتفعة إلى مصابه في البحر، أو في بحيرة داخلية، أو في حوض صحراوي، أو في نهر أكبر.

وتغذى الأنهار بماء المطر الذي يسقط فوق مرتفعات الأرض من مثل الجبال، كما يمكن أن تغذى الأنهار من ماء العيون المتفجرة في مناطق مرتفعة، أو من تسربات الماء



إن الأنهار من أعظم وسائل شق الطرق بين الجبال - صورة لنهر كولورادو يشق طريقه بين الجبال الصخرية

المخزون في طبقات تحت سطح الأرض في تلك المناطق المرتفعة فوق مستوى سطح البحر، ومن ذوبان الجليد من أماكن تجمعه في قمم الجبال، ومن أطراف حقول الجليد، ولكن عند تكوّن أعداد من البحيرات في المناطق المرتفعة تكون قدرتها على إمداد الأنهار بالماء المتدفق أكبر.

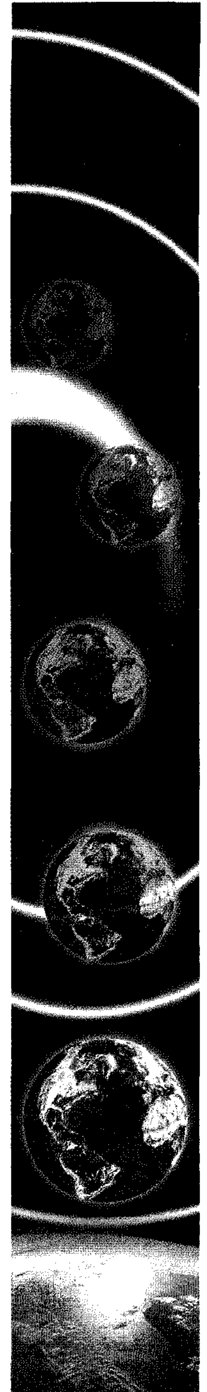
كذلك يمكن أن يُفقد جزء من ماء النهر بالبخر، أو بالتسرب إلى الخزانات المائية تحت سطح الأرض، والفرق بين كم الماء الذي يغذي النهر والفاقد منه هو الذي يتحكم في استمرارية أو انقطاع تدفق الماء في مجرى النهر. ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين تكوّن الجبال وتدفّق الأنهار في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القرآن العظيم من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في هذا الكتاب المجيد.

كذلك فإن مجاري الأنهار تتعرض للانتقال البطيء من مجراها مع الزمن، أو للجفاف وذلك مع تغير الظروف المناخية، أو تغير سرعة جريان الماء في مجراه، وهذا كله مرتبط بمعدل انحدار المجرى، وطبيعة الصخور التي شق فيها، وشكل المقطع الرأسي للمجرى. ومع جفاف مجرى النهر أو تغييره يترك المجرى القديم سبيلاً ميسراً لحركة كل من الإنسان والحيوان. ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين ذكر تكون الأنهار وشقّ السبل، حيث أن الأنهار من أعظم وسائل شق الطرق بين الجبال والتلال والهضاب في مناطق التضاريس الأرضية الوعرة.

هذه الحقائق العلمية عن كلٍّ من الجبال والأنهار والسبل بدأ الإنسان في جمع أطرافها في بطء شديد عبر القرون المتعاقبة، ولم يبدأ في بلورة تصور صحيح لها إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يكتمل هذا التصور إلا في منتصف الستينيات من القرن العشرين. وورود هذه الحقائق في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القرآن العظيم لمما يقطع بأن هذا الكتاب العزيز هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويجزم بنبوة النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ وبأنه كان موصولاً بوحي السماء، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (سبإ: 6).

فصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

(12) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ (الأنبياء: 33)

هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الأول من سورة «الأنبياء»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (112) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة ـ شأنها في ذلك شأن كل السور المكية ـ وسميت باسم: «الأنبياء» لورود ذكر عددٍ كبيرٍ من أنبياء الله فيها، وذكر جانب من قصصهم مع أممهم، وعدد من المعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ على أيدي كل منهم، وهم حسب تسلسل ورود أسمائهم في السورة الكريمة: إبراهيم، لوط، إسحاق، يعقوب، نوح، داود، سليمان، أيوب، إسماعيل، إدريس، ذو الكفل، ذو النون (يونس)، زكريا، يحيى، وعيسى ابن مريم ـ على نبينا وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ.

وتبدأ سورة الأنبياء بتذكير الناس أن وقت الساعة قد اقترب، وهم في غفلةٍ منشغلون عنها بالدنيا، وهي سوف تأتيهم بغتة، وقلوبهم لاهيةً عما أنزل إليهم ربهم من ذكر في رسالته الخاتمة، لذلك انطلقوا يشككون في بعثة الرسول الخاتم ﷺ، ويتهمونه زوراً ـ شرَّفه الله عن ذلك ـ بالكذب، والسحر، والشعر، استهزاء به والله ﷻ يطمئنه ﷺ بسرعة الانتقام من هؤلاء المستهزئين فيقول ـ عز من قائل ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الأنبياء: 41).

فما من أمة رفضت الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلا وعاقبها الله عقاباً شديداً في الدنيا قبل الآخرة.

ولقد طالب كفار قريش رسول الله ﷺ بالآيات المادية الملموسة الشاهدة على صدق دعوته، وآيات الله وسننه في الكون من المعجزات الدائمة لو تدبروها، فهي ناطقة بالشهادة لخالقها ـ سبحانه ـ بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة، وتمام الحكمة، وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالربوبية الحقة والألوهية التي لا ينازعه فيها منازع.

ومن رحمته بنا لم يكلنا ربنا ﷻ للتعرف عليه من خلال التأمل في أنفسنا، وفي الخلق من حولنا، وفي الآفاق البعيدة عنا فقط ـ على كمال دلالة ذلك ـ فأرسل الرسل، وبعث الأنبياء برسالة الهداية لخلقه، واقتضت حكمته ـ تعالى ـ أن يكون الأنبياء والمرسلون كلهم من البشر، وعلى ذلك فليس بمستغرب أن يكون الرسول الخاتم بشراً ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى جميع أنبياء الله ورسله ـ، وليس بمستغرب أيضاً أن تنقطع المعجزات والخوارق بعد تمام الرسالة الخاتمة، وليس بمستغرب كذلك أن يتعهد الله بحفظ تلك الرسالة الخاتمة بنفس لغة الوحي إلى قيام الساعة بعد أن أوكل حفظ الرسالات السابقة كلها إلى أصحابها فضيعوها، وحرفوا ما بقي منها من ذكريات تحريفاً أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها.

ومن سنن الله في الكون غلبة الحق على الباطل، وإن طالت دولة الباطل، ونجاة المؤمنين وهلاك المسرفين، حتى يرث الأرض عباد الله الصالحون، ومن ثم يرث الجميع رَبُّ العالمين.

وتحدثت السورة عن فضل إنزال القرآن الكريم، وعن عقاب الأمم الظالمة من السابقين، واستبدالهم بآخرين، وعن موقف الذل الذي سوف يقفه الظالمون في الآخرة، وبأس الله محيط بهم من كل جانب.

واستعرضت السورة الكريمة بعض مشاهد القيامة، كما استعرضت لقطات سريعة من سير عدد من الأنبياء، وطرفاً من قصصهم مع أممهم، وبعض المعجزات التي أجراها ربنا ﷻ على أيدي كل واحد منهم.

وأكدت سورة «الأنبياء» وحدة الأمة المؤمنة عبر التاريخ، وتوحيدها لله ـ تعالى ـ توحيداً خالصاً، كما أكدت وحدة رسالة السماء مع تعدد الرسل والأنبياء، وتباعد أزمانهم، وربطت بين الإيمان بالله الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر وأحداثه ومشاهده، وبين الآيات الكونية التي استعرضتها، والتي تشهد بوحدانية الخالق ـ سبحانه ـ فوق جميع خلقه؛ فكما أن الكون قائم على الحق الذي قامت به السمٰوات والأرض، فإن الإيمان بالله وتنزيهه عن الشبيه، والشريك، والمنازع،

والصاحبة والولد هو حق كذلك، بل هو أحق الاعتقاد وأصدقه في هذا الوجود.

وتختتم سورة «الأنبياء» ببلاغٍ للناس كافةً أن الرسول الخاتم ﷺ، قد بعثه ربنا ﷻ رحمةً للعالمين بالدين الذي يرتضيه من عباده، فمن أطاعه فقد نجا من فتن الدنيا، وعذاب الآخرة، ومن لم يستجب لندائه فقد نفض رسول الله ﷺ يده منه، وهؤلاء لا يعلم مصيرهم إلا الله الذي يعلم العلانية وما تخفي الصدور، وقد يكون في ذلك فتنة لهم ومتاع إلى حين!!

لذلك يتوجه رسول الله ﷺ إلى ـ ربه ـ بالدعاء طالباً حكمه العادل الحق بينه وبين المستهزئين ببعثته الشريفة والغافلين عن دعوته الحقة، ومستعيناً بالله ـ تعالى ـ على تكذيبهم وكيدهم، والله هو المستعان على كل ما يصف الكفار والمشركون وعلى ما يقولون.

ومن بديع آيات الله في الخلق التي استشهدت بها سورة «الأنبياء»: خلق السمٰوات والأرض بالحق من جرم واحد، فتَقه ربنا ﷻ فتحول إلى سحابة من دخان، خلق منه ـ سبحانه ـ السمٰوات والأرض وما بينهما، وما فيهما من مخلوقات من مثل: الملائكة الذين خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور، والذين يسبحون الله ليلاً ونهاراً لا يفترون، ومن مثل كل الأحياء الذين خلقهم من الماء؛ تأكيداً على وحدة الحياة مصدراً، وفناءً، ومصيراً، ومن ذلك خلق الجبال التي جعلها الله رواسي للأرض، وشق السبل والفجاج فيها ومن بينها، ومنها جعل السماء سقفاً محفوظاً، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون، والعمل على إنقاص الأرض من أطرافها، والوعد بطي السماء يوم القيامة كطي السجل للكتب. وهذه القضايا تحتاج إلى مجلدات لشرحها، ولذا فإني سوف أقتصر هنا على قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(الأنبياء: 33).

وقبل الدخول في ذلك لا بد من استعراض الدلالة اللغوية للألفاظ الأساسية الواردة في هذه الآية الكريمة، واستعراض أقوال عدد من المفسرين فيها:

الدلالة اللغوية:

1 ـ يقال في اللغة العربية: (خلق)، (يخلق)، (خلقاً)، بمعنى: قدر، يقدر، تقديراً، و(الخلق): أصله التقدير المستقيم، ويستخدم في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، أي: على غير مثال سابق، ولفظة (الخلق) تستخدم في معنى: (المخلوق)، و(الخليقة)

والفطرة، والجمع (خلائق)، و(الخلائق) أيضاً هم (خليقة) الله، وهم (خلق) الله، ومضغة (مخلّقة) أي: تامة (الخلق)، و(الخُلق) بضم اللام وسكونها: السجية، يقال: فلان (يتخلق) بغير (خلقه) أي: يتكلفه، يقال: فلان (خليق) بكذا، أي: جدير به كأنه مخلوق فيه، و(الخلاق): النصيب، أو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه. ويقال: ثوب (خَلِقٌ) أي: بالٍ، يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ لأنه في الأصل مصدر (الأخلق) وهو الأملس، والجمع (خلقان)، ويقال: (خلق) أو (أخلق) الثوب أي: بلي، و(أخلقه) صاحبه لأنه يتعدى ويلزم، و(الخَلوق): ضرب من الطيب؛ ويقال: (خلقه) (تخليقاً) أي: طلاه به (فتخلق) ويقال (خلق) الإفك، (اختلقه) و(تخلقه) (اختلاقاً) أي: افتراه افتراء.

2 ـ و(الفلك) هو مجرى أجرام السماء في المدار الذي يجري فيه كل جرم منها، وجمعه (أفلاك) و(فلك).

3 ـ و(السبح) هو المر السريع لجسم ذي كثافة أعلى من كثافة الوسط الذي يمر فيه وذلك من مثل سبح الإنسان في الماء أو في الهواء، يقال: (سبح) (يسبح) (سبحاً) و(سباحةً) أي: عام عوماً، واستعير لحركة النجوم الانتقالية في أفلاكها، ولسرعة الذهاب والمنقلب في العمل، و(السبح) أيضاً هو الفراغ، أو التصرف في المعاش.

من شروح المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **(الأنبياء: 33).**

• ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه ـ نوره ـ وأنسِه، يطول هذا تارة ثم يقصر أُخرى وعكسه الآخر، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هذه لها نور ـ ضياء ـ يخصها وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وسير آخر وتقدير آخر، ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن...».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ تنوينه عوض عن المضاف إليه

من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم، ﴿فِي فَلَكٍ﴾؛ أي: مستدير كالطاحونة في السماء وهو مدار النجوم، ﴿يَسْبَحُونَ﴾: يسيرون بسرعة كالسابح في الماء، وللتشبيه به أتي بضمير جمع من يعقل؛ أي: يسبحون».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها رحمة واسعة ـ ما نصه: «والليل والنهار ظاهرتان كونيتان، والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض، وبالحياة كلها. . . . . والتأمل في توالي الليل والنهار، وفي حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التي لا تختل مرة، وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة. . . . جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس، ووحدة الإرادة، ووحدة الخالق المدبر القدير».

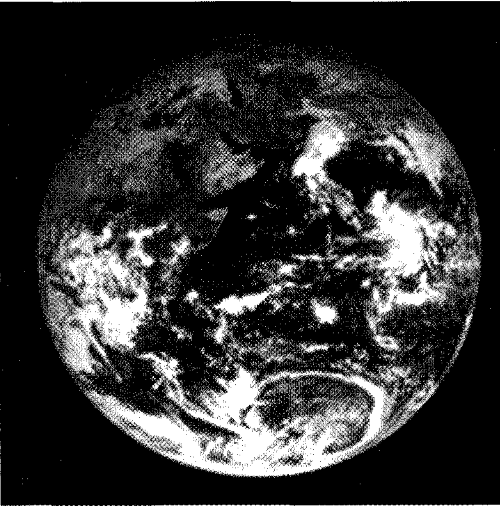
• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبها ـ ما نصه: «﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: كل واحد من الشمس والقمر يسير في فلكه بسرعة كالسابح في الماء، من السبح وهو المر السريع في الماء أو الهواء...».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيراً ـ ما نصه: «والله هو الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، وكل من هذه يجري في مجاله الذي قدره الله له، ويسبح في فلكه لا يحيد عنه». وجاء في الهامش التعليق التالي: «لكل جرم سماوي مداره الخاص الذي يسبح فيه، وأجرام السماء كلها لا تعرف السكون، كما أنها تتحرك في مساراتٍ خاصةٍ هي الأفلاك، ونحن نرى هذه الحقيقة ممثلةً واضحةً في الشمس والقمر، كما أن دوران الأرض حول محورها يجعل الليل والنهار يتعاقبان عليها كأنهما يسبحان».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه: «... أي: وهو تعالى بقدرته نوَّع الحياة فجعل فيها ليلاً ونهاراً، هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه ـ نوره ـ وأنسِه، يطول هذا تارة ثم يقصر أُخرى وبالعكس، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته، ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء».

حركات الأرض في القرآن الكريم

في الوقت الذي ساد فيه اعتقاد الناس بثبات الأرض وسكونها، تنزَّل القرآن الكريم بالتأكيد على حركتها، وعلى حركة باقي أجرام السماء، ولكن لما كانت تلك الحركات خفية على الإنسان بصفةٍ عامةٍ، وعلى إنسان القرون الماضية بصفة خاصة، جاءت الإشارات القرآنية إليها لطيفة، رقيقة، غير مباشرة، حتى لا تصدم أهل الجزيرة العربية وقت



تنزل القرآن الكريم فيرفضوه؛ لأنهم لم يكونوا أهل معرفة علمية، أو اهتمام بتحصيلها؛ فلو أن الإشارات القرآنية العديدة إلى حركات الأرض جاءت صريحة صادعة بالحقيقة الكونية في زمن ساد فيه الاعتقاد بسكون الأرض وثباتها واستقرارها، لكذَّب أهل الجزيرة العربية القرآن، والرسول، والوحي، ولحيل بينهم وبين الهداية الربانية، ولحُرِمت الإنسانية من نور الرسالة الخاتمة، في وقت كانت قد حرمت أنوار الرسالات السماوية السابقة كلها فشقيت وأشقت.

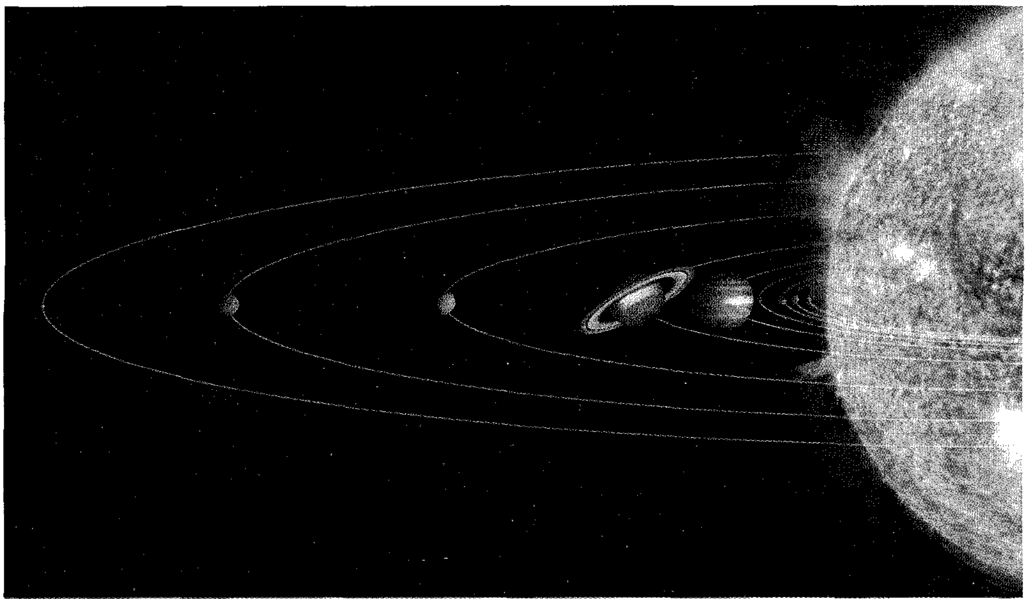
من هنا فإن جميع الإشارات القرآنية إلى حقائق الكون التي كانت غائبةً عن علم الناس كافة في عصر تنزُّل الوحي السماوي ومنها الإشارات المتعددة إلى حركات الأرض وإلى كرويتها ـ جاءت كلها بأسلوب غير مباشر، ولكن بما أنها بيان من الله الخالق فقد صيغت صياغةً محكمةً بالغة الدقة في التعبير، والشمول والإحاطة في الدلالة، حتى تبقى مهيمنةً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وتبقى شاهدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى أن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومن تلك الإشارات القرآنية ما يتحدث عن جري الأرض في مدارها حول الشمس، ومنها ما يتحدث عن دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وقد استعاض القرآن الكريم في الإشارة إلى تلك الحركات الأرضية بالوصف الدقيق لسبح كل من الليل والنهار، واختلافهما وتقلبهما، وإغشاء كل منهما للآخر، وإيلاج كل منهما في الآخر، وسلخ النهار من الليل، ومرور الجبال مر السحاب كما يتضح من الآيات القرآنية التالية:

أولاً: سبح كل من الليل والنهار:

يقول ربنا ﷻ في وصف حركات كل من الأرض والشمس والقمر:

(1) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **(الأنبياء: 33).**



رسم عام لكواكب المجموعة الشمسية تدور حول الشمس بتقدير من الله تعالى

(2) ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ **(يسٓ: 40)**.

فالليل والنهار ظرفا زمان لا بد لهما من مكان، والمكان الذي يظهران فيه هو الأرض، ولولا كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس لما ظهر ليل ولا نهار، ولا تبادل كلٌّ منهما نصفا سطح الأرض؛ والدليل على ذلك أن الآيات في هذا المعنى تأتي دوماً في صيغة الجمع ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ولو كان المقصود سبح كل من الشمس والقمر فحسب، لجاء التعبير بالتثنية «يسبحان»، كما أن السبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها، والسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم بحركة ذاتية فيه من مثل: حركات كل من الأرض والشمس والقمر في جري كلٍّ منها في مداره المحدد له، فسبح كل من الليل والنهار في هاتين الآيتين الكريمتين إشارة ضمنية رقيقة إلى كل من جري الأرض في مدارها حول الشمس، وإلى تكورها ودورانها حول محورها أمام الشمس.

ثانياً: مرور الجبال مر السحاب:

وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ **(النمل: 88)**.

ومرور الجبال مر السحاب هو كناية واضحة على دوران الأرض حول محورها، وعلى جريها حول الشمس ومع الشمس؛ وذلك لأن الجبال جزء من الأرض، ولأن الغلاف الغازي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط بالأرض بواسطة الجاذبية، وحركته منضبطة مع حركة الأرض، وكذلك حركة السحاب فيه، فإذا مرت الجبال مر السحاب كان في ذلك إشارةً ضمنيةً إلى حركات الأرض المختلفة التي تمر كما يمر السحاب.

ثالثاً: إغشاء كل من الليل والنهار بالآخر:

يقول الحق ﷻ في محكم كتابه:

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **(الرعد: 3)**.

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾. **(الشمس: 1 ـ 4)**.

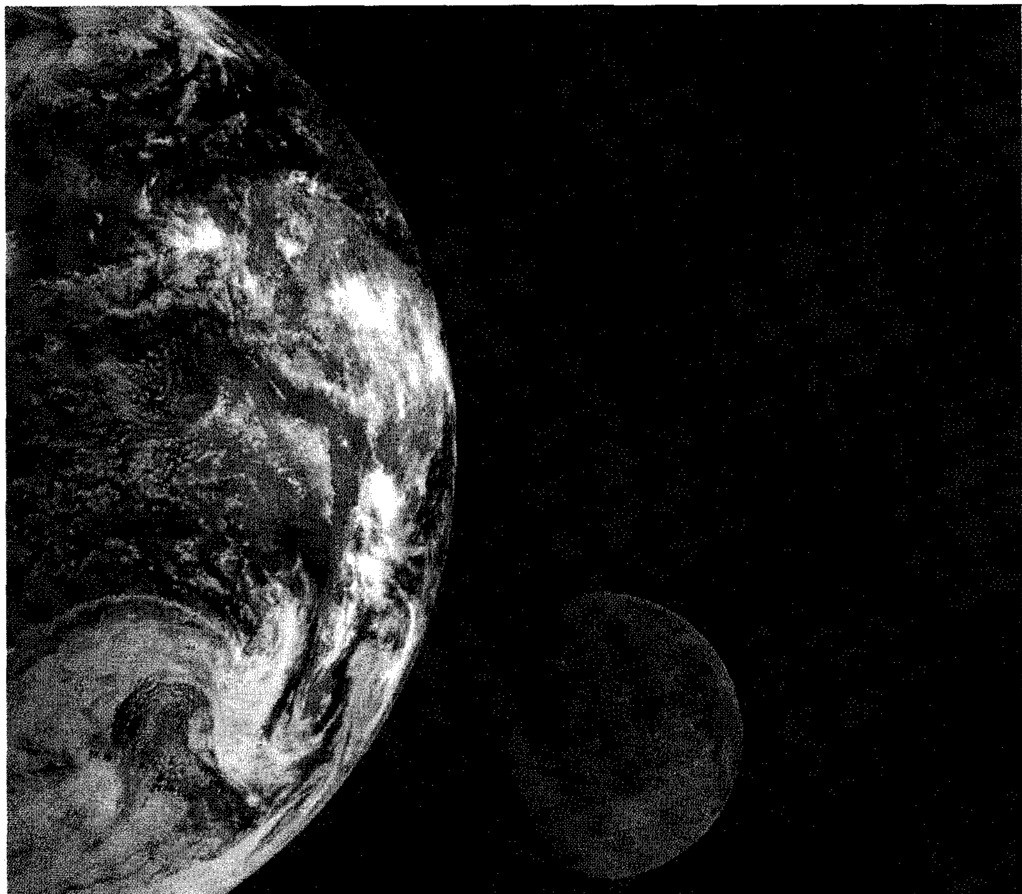
ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ **(الليل: 1، 2)**.

و(غشي) في اللغة تأتي بمعنى: غطى وستر، يقال: غشيه غشاوةً وغشاءً بمعنى: أتاه إتيان ما قد غطاه وستره؛ لأن الغشاوة ما يغطى به الشيء.

والمقصود من (يغشي الليل النهار): أن الله تعالى يغطي بظلمة الليل مكان النهار على الأرض فيصير ليلاً، ويغطي مكان الليل على الأرض بنور النهار فيصير نهاراً، وهي إشارة لطيفة لحقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس دورة كاملة كل يوم؛ أي: في كل أربع وعشرين ساعة، حالياً يتعاقب الليل والنهار بصورة تدريجية؛ أي: يحل أحدهما محل الآخر في الزمان والمكان مما يجعل زمن كل منهما يتعاقب على الأرض.

والليل والنهار يشار بهما في مواضع كثيرة من القرآن الكريم إلى زمان ومكان سيادة كل منهما أي: إلى نصفي الأرض الذي يعم أحدهما الليل، ويعم الآخر النهار (وبجمعهما معاً يشار بهما إلى الأرض). ويشار بتبادل كل من الليل والنهار إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، كما يشار بهما إلى الظلمة والنور، وإلى العديد من لوازمهما، ويتضح ذلك من قول الحق ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ أي: يقسم ربنا ﷻ ـ وهو الغني عن القسم ـ بالنهار إذ أظهر الشمس واضحة غير محجوبةٍ؛ وبالليل إذ يغيب فيه ضياء الشمس ويحتجب، وكان الناس إلى يومنا هذا يعتقدون أن



صورة حقيقية لكل من الأرض والقمر في مواجهة الشمس وتظهر طبقة النهار على كل منهما وسط ظلمة الكون

الشمس هي التي تجلي لنا نور النهار، ولكن لما كانت غالبية الأشعة الصادرة عن الشمس لا تراها عين الإنسان فيما عدا حزمة ضئيلة تعرف باسم الأشعة المرئية، وهي مكونة من أطياف عديدة تتشتت وتعكس من أسطح هباءات الغبار وجزيئات كل من بخار الماء والغازات المكونة للهواء حتى تعطي نور النهار الأبيض الجميل؛ وبذلك ثبت أن طبقة النهار حول نصف الأرض المواجه للشمس هي التي تجلي لنا الشمس وهو ما لم يدركه الإنسان إلا مؤخراً جداً وبعد مجاهدة كبيرة من العلماء خاصة بعد رحلات الفضاء.

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ حيث يقسم ربنا ﷻ بالليل الذي يحجب فيه ضوء الشمس فيعم الأرض الظلام، وبالنهار إذ تشرق فيه الشمس فيعم الأرض النور، ومن هنا كانت منة الله ـ تعالى ـ على عباده أن جعل لهم الليل

لباساً وسكناً، وجعل لهم النهار معاشاً وحركةً ونشاطاً حيث يقول ربنا ﷻ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (يونس: 67).

ويقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ (النبإ: 10، 11).

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (القصص: 71 ـ 73).

رابعاً: إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل:

يقول ربنا ﷻ في محكم كتابه:

(1) ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ (آل عمران: 27).

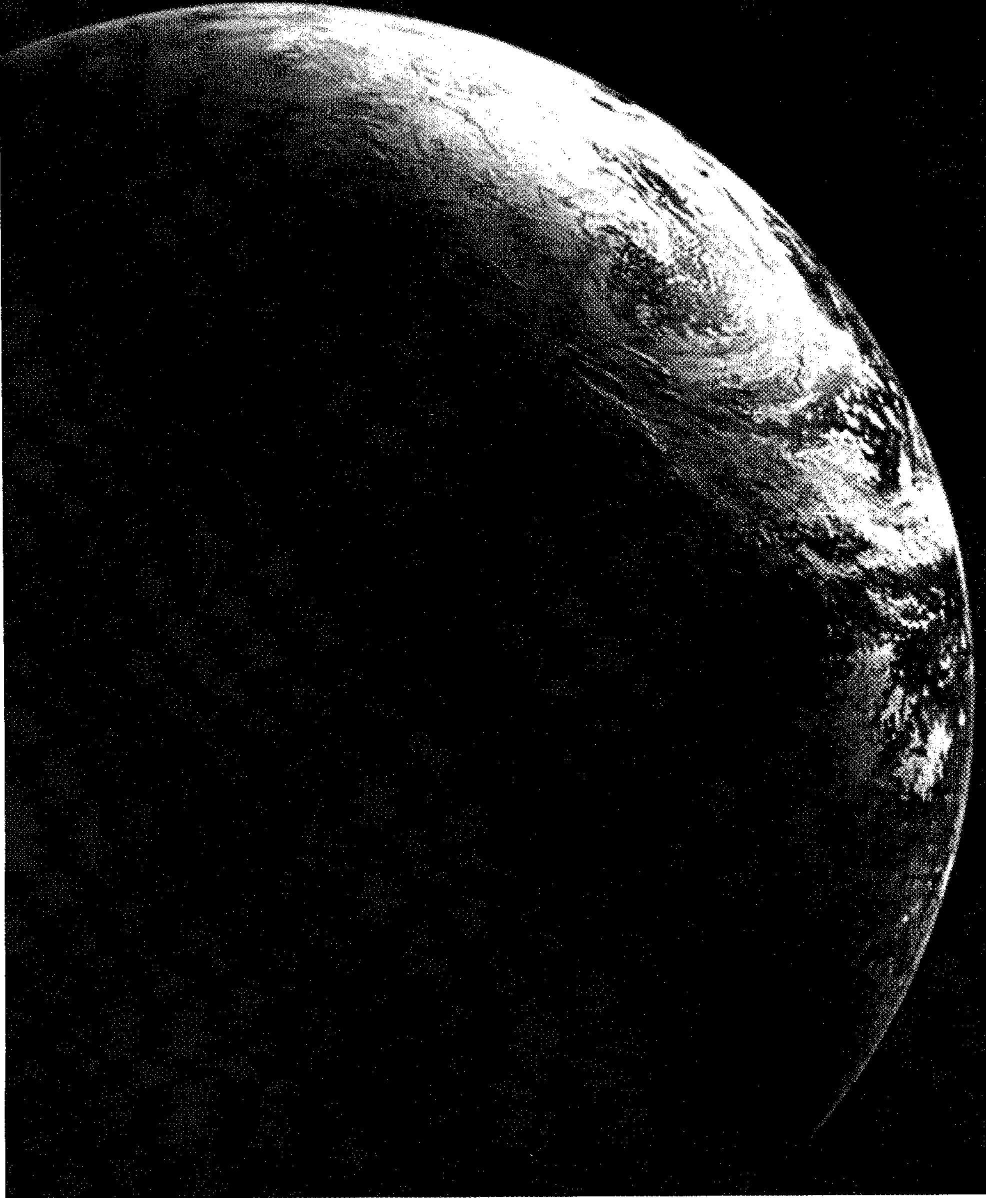
(2) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ (الحج: 61).

(3) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ (لقمان: 29).

(4) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ (فاطر: 13).

(5) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ (الحديد: 6).

والولوج لغة هو: الدخول؛ ولما كان من غير المعقول دخول زمن على زمن اتضح أن المقصود بكل من الليل والنهار ليس الزمن ولكن المكان الذي يتغشاه زمن كل من الليل والنهار، وهو الأرض؛ وعلى ذلك؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ



(الصورة لوكالة ناسا)

صورة حقيقية للأرض توضح طبقة نور النهار المحيطة بنصف الأرض المواجه للشمس والجزء الذي يخيم عليه الليل يدخل عليه نور النهار بالتدرج

﴿ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ﴾: أن الله تعالى يدخل الجزء من الأرض الذي يخيم عليه الليل بالتدريج في مكان الجزء الذي يعمه نور النهار، ويدخل الجزء من الأرض الذي يعمه نور النهار بالتدريج في مكان الجزء الذي يخيم عليه الليل وذلك باستمرار، وبطريقة متدرجة، إلى أن يغير الله ـ تعالى ـ هذا النظام بأمر منه أو إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وليس هنالك من إشارة أدق من ذلك في التأكيد على حقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وهذه الإشارة القرآنية تلمح أيضاً إلى كروية الأرض؛ لأنه لو لم تكن الأرض كروية الشكل، ولو لم تكن الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما أمكن لليل والنهار أن يتعاقبا بطريقة تدريجية ومطردة.

خامساً: سلخ النهار من الليل:

يقول ربنا ﷻ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧﴾ (يسٓ: 37).

والسلخ لغة هو: نزع جلد الحيوان عن لحمه، ولما كان من غير المعقول أن يسلخ زمن النهار من زمن الليل، كان المقصود بكل من الليل والنهار هنا كما أسلفنا هو مكان كل منهما على الأرض، الذي يتبادل فيه كل من النور والظلام وليس زمانهما، وعلى ذلك فمعنى قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧﴾: أن الله تعالى ينزع طبقة النهار من أماكن الأرض التي يتغشاها الليل كما ينزع جلد الحيوان عن لحمه، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس. وفي تشبيه إزالة نور النهار من غلاف الأرض بنزع جلد الحيوان عن لحمه تأكيد على أن نور النهار إنما ينشأ في طبقةٍ رقيقةٍ من الغلاف الغازي للأرض تحيط بكوكبنا (كما يحيط جلد الحيوان بجسده)، وأن هذا النور مكتسب أصلاً من ضوء الشمس وليس ذاتياً، وأنه ينعكس من سطح الأرض ويتشتت في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي المحيط بها؛ والذي يصبح ظلاماً ببعده عن الأرض، كما أن الظلام سائد في الفضاء الكوني بصفةٍ عامةٍ لعدم وجود جسيماتٍ كافيةٍ فيه لإحداث التشتت لضوء الشمس ولضوء غيرها من النجوم، وهذا الضوء لا يظهر إلا بالانعكاس على أسطح الكواكب وأسطح غيرها من الأجرام المعتمة أو بالتشتت في أغلفتها الجوية إن كانت بها جسيمات كافية للقيام بهذا التشتت.

سادساً: اختلاف الليل والنهار:

وفي إشارة أخرى إلى حركات الأرض وكرويتها يستخدم القرآن الكريم تعبير «اختلاف الليل والنهار» في آيات كثيرة منها قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فيما يلي من الآيات:

(1) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: 164).

(2) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران: 190).

(3) ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ (يونس: 6).

(4) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (المؤمنون: 80).

(5) ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ (الجاثية: 5).

(6) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ (الفرقان: 62).

وفي تلك الآيات يؤكد القرآن الكريم كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس بالوصف الدقيق لتعاقب الليل والنهار، كما سبق أن أكَّد ذلك في آيات سبح كل من الليل والنهار، ، ومرور الجبال مر السحاب، والتكوير، والإغشاء، والولوج، والسلخ، وهي تصف حركة تولد الليل من النهار، والنهار من الليل، وصفاً غاية في البلاغة الوصفية والدقة العلمية.

سابعاً: تقليب الليل والنهار:

كذلك يشير القرآن الكريم إلى كل من كروية الأرض وحركاتها بتقليب الليل والنهار وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ (النور: 44).

حركات الأرض في العلوم الحديثة

الأرض هي أحد كواكب المجموعة الشمسية، وتمثل الكوكب الثالث بعداً عن الشمس، وتبعد عنها بمسافةٍ تقدر بحوالي المائة وخمسين مليون كيلومتراً؛ ولما كانت كل أجرام السماء في حركةٍ دائبةٍ فإن للأرض عدة حركات منتظمة، منها: دورتها حول محورها

أمام الشمس التي يتبادل بواسطتها الليل والنهار، وجريها في مدارها حول الشمس بمحور مائل فيتبادل كل من الفصول والأعوام، وحركتها مع الشمس حول مركز المجرة، ومع المجرة حول عدد من مراكز أكبر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وقد عُرِف من حركات الأرض ما يلي:

أولاً: حركات الأرض حول محور دورانها:

(1) الحركة المحورية (الدورانية أو المغزلية) للأرض:

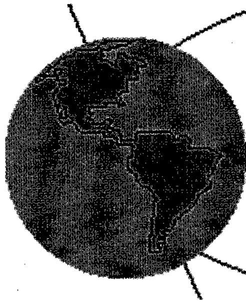
وفيها تدور الأرض حول محورها الوهمي من الغرب إلى الشرق أمام الشمس بسرعة (1674) كيلومتراً في الساعة لتتم دورةً كاملةً في يوم مقداره حالياً حوالي الأربع وعشرين ساعة (23 ساعة، 56 دقيقة، 4 ثوان) يتقاسمه ليل ونهار، بتفاوت في طول كل منهما نظراً لميل محور دوران الأرض بمقدار 23.5 درجة عن العمود النازل على مستوى مدارها، ويعرف هذا اليوم باسم: اليوم النجمي، أما اليوم الشمسي فيبلغ مدى زمنه24 ساعة تماماً.

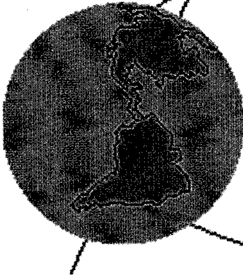
(2) الحركة الترنحية للأرض (Precession):

وهي حركة بطيئة تتمايل فيها الأرض من اليمين إلى اليسار بالنسبة إلى محورها العمودي، وتؤدي هذه الحركة إلى تأرجح؛ أي: زحزحة محور دوران الأرض حول نفسها تدريجياً مما يؤدي إلى تغير موقع كل من قطبي الأرض الشمالي والجنوبي، وهما يمثلان نقطتي تقاطع المحور الوهمي لدوران الأرض مع السطح الخارجي لذلك الكوكب، ويتأرجح محور الأرض المائل بقدر يكفي لرسم دائرةٍ كاملةٍ مرة كل حوالي 26000 سنة (25.800 سنة)، وبذلك يرسم المحور مخروطين متعاكسين تلتقي قمتاهما في مركز الأرض.

(3) حركة الميسان (النودان أو التذبذب) للأرض (Nutation):

وهي حركة تجعل من ترنح الأرض حول محورها مساراً متعرجاً بسبب جذب كل من القمر والشمس للأرض، ويؤدي ذلك إلى ابتعاد الدائرة الوهمية التي يرسمها محور الأرض في أثناء ترنحها ـ كنهاية للمخروطين المتقابلين برأسيهما في مركز الأرض ـ عن كونها دائرة بسيطة إلى دائرةٍ مؤلفةٍ من أقواس متساوية، ويقدر عدد الذبذبات التي ترسمها الأرض في مدارها بهذه الحركة بدءاً من مغادرة محورها لنقطة القطب السماوي وحتى عودته إليها بـ 1400 ذبذبة (قوس) نصفها إلى يمين الدائرة الوهمية، والنصف الآخر إلى يسارها، ويستغرق رسم القوس الواحد مدة 18.6 سنة، أي: أن هذه الحركة تتم دورةً كاملةً في (26.040 سنة) تقريباً.





الحركة الترنحية للأرض بالنسبة إلى محورها العمودي

(4) حركة التباطؤ في سرعة دوران الأرض حول محورها:

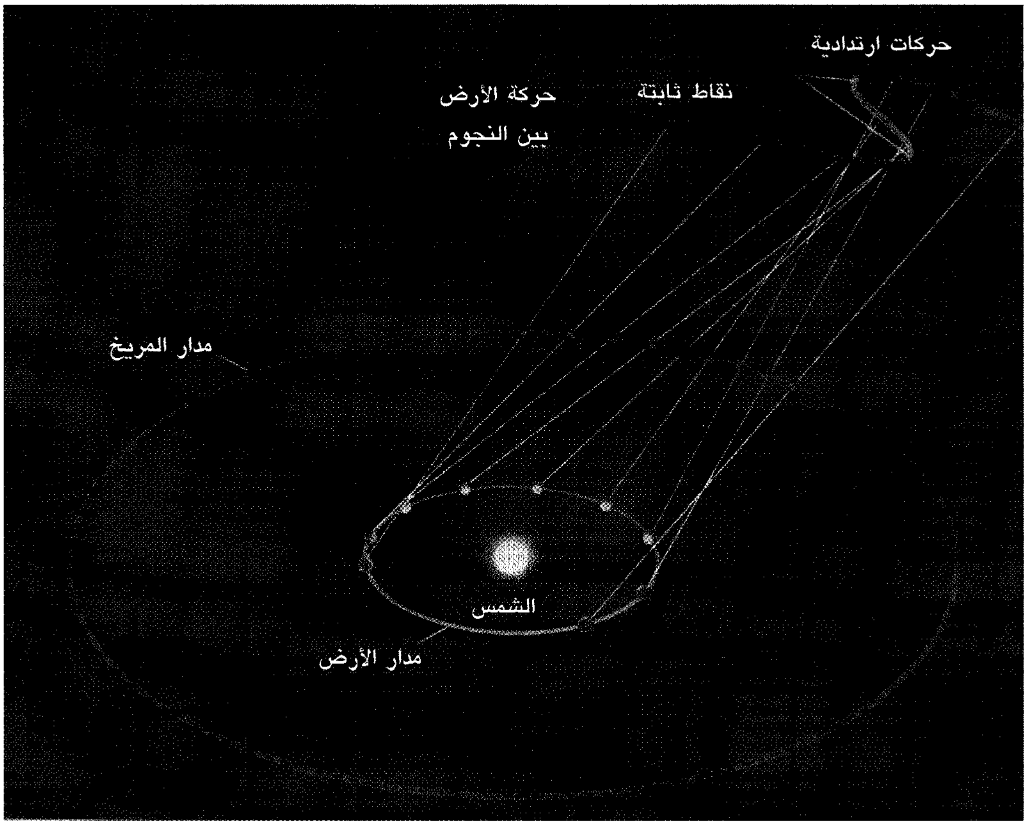
ويتم هذا التباطؤ بمقدار جزء من الثانية في كل قرن من الزمان، بينما يسرع القمر في دورته المحورية بنفس المعدل، ويؤدي ذلك إلى تغير تدريجي في حالة التوازن بين الأرض والقمر مما يؤدي في النهاية إلى انفلات القمر من عقال جاذبية الأرض، وارتمائه في أحضان الشمس، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ **(القيامة: 9).**

ثانياً: الحركات الانتقالية المدارية للأرض (سبح الأرض):

(1) جري الأرض في مدارها حول الشمس:

وفيها تجري الأرض في مدار بيضاني (إهليلجي) حول الشمس بسرعة تقدر بحوالي



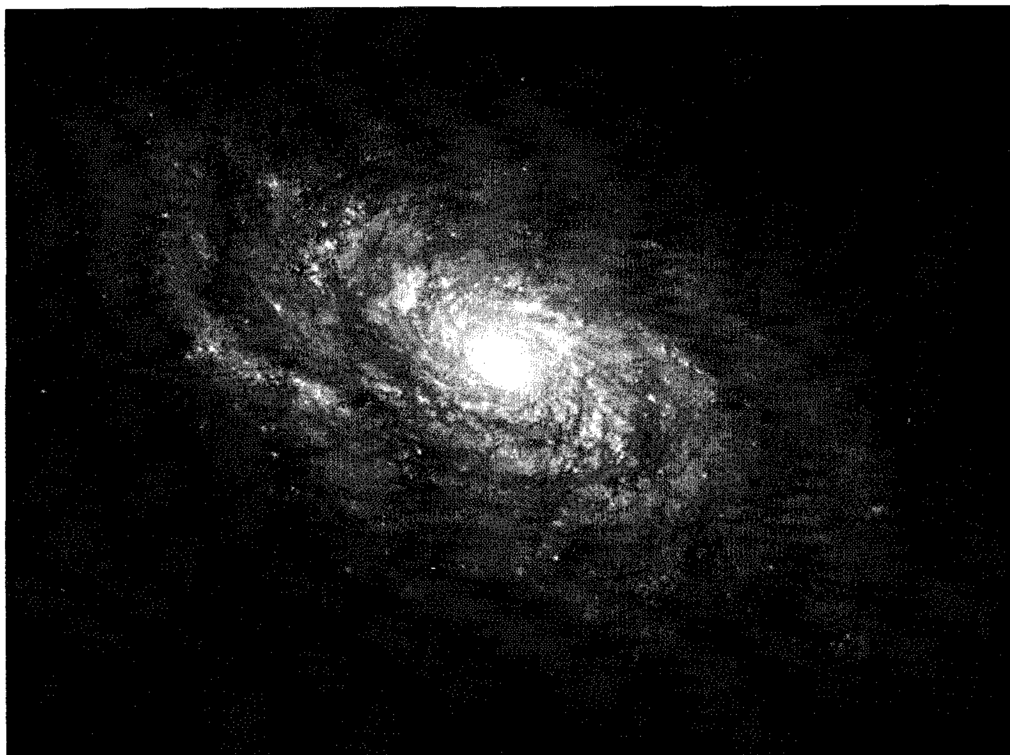
رسم يوضح حركة الأرض حول الشمس بين نجوم السماء

الثلاثين كيلومتراً في الثانية (29,76 كم/ث) لتتم دورةً كاملةً في مدة سنة شمسية مقدارها 365.24 يوم شمسي يتقاسمها اثنا عشر شهراً، وأربعة فصول.

(2) حركة استدارة فلك الأرض: وبها يتم تقريب مدار الأرض الإهليلجي حول الشمس إلى مدار أقرب ما يكون إلى شكل الدائرة، وتستغرق هذه الحركة (92,000) سنة لكي تقترب بؤرتا مدار الأرض من بعضهما البعض حتى تتطابقا، ثم تعاودان التباعد من جديد.

(3) حركة جري الأرض مع المجموعة الشمسية: في مسار باتجاه كوكبة الجاثي بسرعة تقدر بحوالي عشرين كيلومتراً في الثانية.

(4) حركة جري الأرض مع بقية المجموعة الشمسية حول مركز المجرة التي تتبعها (سكة التبانة): في مدار لولبي بسرعة تقدر بحوالي206 كيلومتراً في الثانية (741,600 كيلومتراً



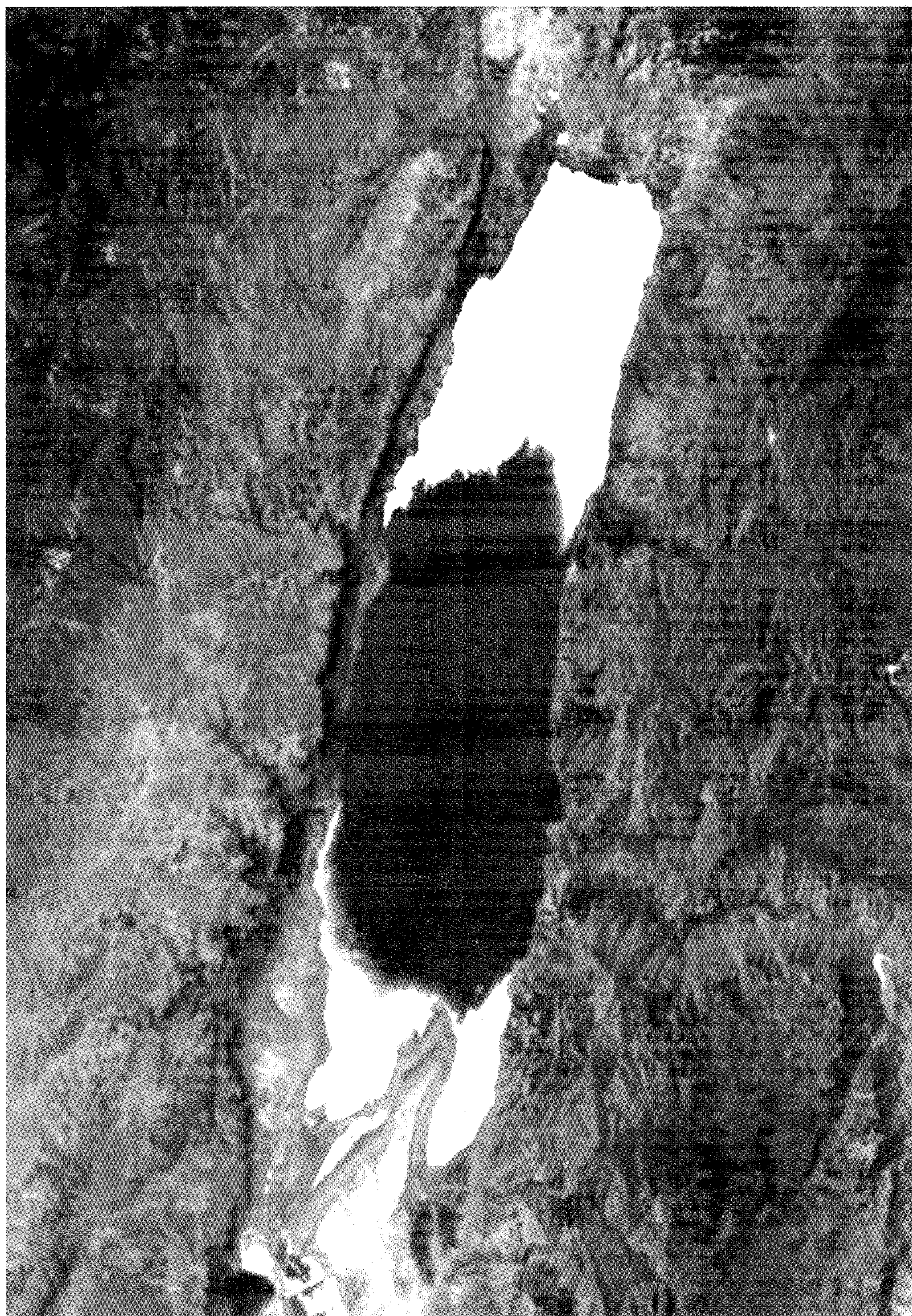
صورة لمجرة حقيقية تشبه مجرتنا تجري في مدار لولبي صورها التلسكوب الفضائي هابل

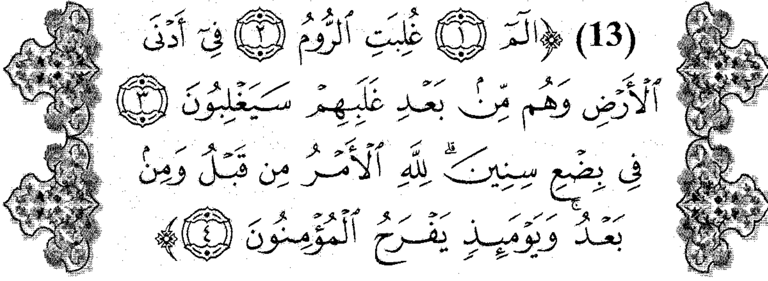
في الساعة) لتتم دورةً كاملةً في مدة تقدر بحوالي المائتين وخمسين مليوناً من السنين.

(5) حركة جري كل من الأرض والمجموعة الشمسية والمجرة: بسرعة تقدر بحوالي980 كيلومتراً في الثانية (3,528,000 كيلومتر في الساعة) لتؤدي إلى ظاهرة اتساع السماء بتباعد مجرتنا عن بقية المجرات في السماء الدنيا.

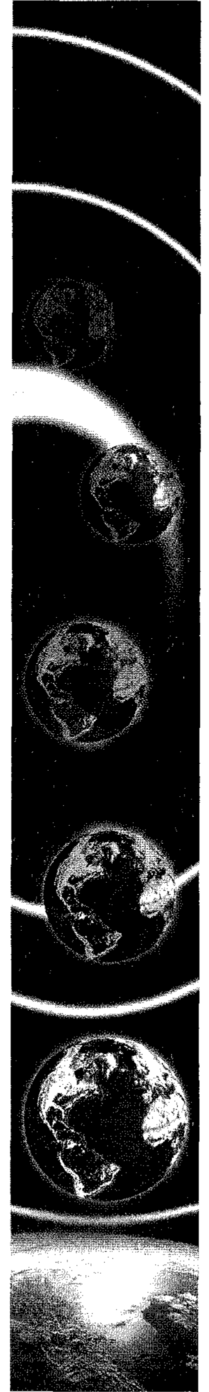
وقد يكون للأرض حركات أُخرى لم تكتشف بعد.

من هذا الاستعراض يتضح أن حركات الأرض حول محورها، وجريها في مدارها حول الشمس، ومع الشمس في مدارات متعددة، هي من حقائق الكون الثابتة، وإشارة القرآن الكريم إليها في أكثر من عشرين آية من آياته في زمن سيادة الاعتقاد بثبات الأرض وسكونها لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويؤكد أن الرسول الخاتم ﷺ الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.





(الروم: 1 ـ 4)



هذه الآيات القرآنية الكريمة جاءت في مطلع سورة «الروم»، وهي سورة مكية وعدد آياتها ستون (60) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة، شأنها في ذلك شأن كل القرآن المكي.

ومن قضايا العقيدة الأساسية التي جاءت في سورة «الروم»: الإيمان بوحدانية الخالق ﷻ، وبوحدة الرسالة السماوية، وبالأخوة بين الأنبياء وبين بني آدم أجمعين؛ والإيمان بالآخرة وأهوالها، ومنها هول البعث، وهول الحساب، وهول الميزان، وهول الصراط، وحتمية الجزاء، وحتمية الخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً...!!

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ بحدث غيبي قبل وقوعه بعدة سنوات؛ ألا وهو انتصار الروم على الفرس بعد هزيمتهم أمامهم قبل نزول هذه السورة المباركة بعدة سنوات. وتزخر السورة بالأمر بتسبيح الله، وتنزيهه ـ جل شأنه ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله، وحمده على نعمائه، كما تزخر بالاستشهاد بعدد كبير من الآيات الكونية الدالة على طلاقة قدرته وشمول علمه، وعدل قضائه (سبحانه وتعالى).

وتنصح السورة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ بأن يقيم وجهه لدين الإسلام الحنيف، الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً

سواه؛ لأنه دين الفطرة التي فطر الله ـ تعالى ـ الناس عليها، والتي لا تبديل لها، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك. وتأمر الآيات في سورة «الروم» المسلمين بالإنابة إلى الله وتقواه، كما تأمرهم بإقام الصلاة، وبالحذر من الوقوع في دنس الشرك بالله؛ لأن الذين أشركوا قد فرَّقوا دينهم، وكانوا شيعاً عديدةً حسب أهوائهم، وكل حزب منهم فرح بما لديه...!!!

وتحدثت السورة الكريمة عن شيء من التقلب في طبائع النفس البشرية، ذلك التقلب الذي لا تستقيم معه الحياة السوية، مثل: اللجوء إلى الله تعالى في الشدة، والإعراض عنه في الرخاء، والإيمان به ـ تعالى ـ في لحظات الضيق، والشرك أو الكفر به ـ تعالى ـ وبما أنزل من هداية ربانية بعد انفراج الأزمة وفي لحظات السعة والرحمة. وتضرب السورة مثلاً للناس من حياتهم على سخافة فكرة الشرك بالله إذا ناقشها العقل بشيء من الموضوعية والحيدة.

ومن أصول العبادات وضوابط السلوك ومكارم الأخلاق التي تدعو إليها السورة الكريمة: الأمر بإخراج الزكاة، وإيتاء ذي القربى والمساكين وأبناء السبيل، والنهي عن أكل الربا؛ على أن ينطلق ذلك كله من الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الخالق، الرزاق، المحيي، المميت. وتربط السورة الكريمة بين ظهور الفساد في البر والبحر وبين أعمال الناس وما كسبت أيديهم، وتأمر بالسير في الأرض لاستخلاص العبر من سير الأولين، ومصائر الظالمين.

وتؤكد سورة «الروم» مرة ثانية لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ضرورة استقامة العباد على الدين القيم من قبل أن تأتي الآخرة فيصدع بها كل الخلائق ثم يجزَى كلٌّ بعمله.

ومن الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة «الروم» على طلاقة القدرة الإلهية: خلق السمٰوات والأرض، وخلق الأحياء، وخلق الانسان، كل ذلك في زوجية تشهد للخالق وحده ـ سبحانه ـ بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ومنها: اختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وإعطاء الإنسان الاستطاعة على النوم بالليل أو في النهار، وعلى ابتغاء فضل الله، ومن آياته: الرعد والبرق، وإنزال المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وقيام السمٰوات والأرض بأمره، وخضوع كل من فيها أو عليها بأمره، وبعث الموتى بأمره، وأنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض.

ومن آياته إرسال الرياح برحمة منه وفضل، وجري الفلك بأمره، وإثارة السحاب، وما يستتبعه ذلك من أحداث بأمره، ومرور كل حي بمراحل من الضعف، ثم القوة، ثم

الضعف والوفاة بأمر الله. ومن آياته: أنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير.

وتُذكِّر السورة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بشيء من قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين، وما أصاب أقوامهم الظالمين من انتقام، والمؤمنين من نصر وإعزاز، كما تذكره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأن ما عليه إلا البلاغ المبين.

وتختتم السورة الكريمة بالحديث مرة أُخرى بالحديث عن البعث وأهواله، وعن مصير أهل الكفر والشرك والضلال في هذا اليوم العصيب من هوان وإذلال وعذاب، ومصير أهل الإيمان والتقوى من إعزاز وتكريم وتنعيم، وتكرر الإشارة إلى شيء من طبائع النفس البشرية، وقد ضربت لها آيات القرآن الكريم من كل مثل، ولكن الذين كفروا لايؤمنون ولا يعلمون والله ـ تعالى ـ قد طبع على قلوب الذين لايعلمون.

وتنتهي السورة بتثبيت خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بوصية من الله ـ تعالى ـ له بالصبر على استخفاف الكفار والمشركين بدعوته الحق، وإنكارهم لبعثته الشريفة، وهو ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، وتطمئنه الآيات في ختام سورة «الروم» بأن وعد الله حق، وهو واقع لا محالة. والوصية له ﷺ من الله ـ تعالى ـ هي وصية لجميع المؤمنين به في زمانه ومن بعده، ﷺ حتى لا ييأسوا من رحمة الله في زمن كزمن الفتن الذي نعيشه، والذي تطاول فيه أهل الكفر والشرك والضلال على أهل الإسلام لله ـ تعالى ـ والتوحيد الخالص لجلاله، كما تطاول الرعاع من صغار القوم على علماء الإسلام ورموزه، وتكلم كل «رويبضة» وهو كما وصفه رسول الله ﷺ هو كل تافه يتحدث في عظائم الأمور، ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله العلي العظيم.

والآيات الكونية الواردة في سورة «الروم» تحتاج إلى مجلدات لتفصيل دلالاتها، ولإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها، ولكني سأقتصر هنا على الإشارة القرآنية إلى الموقع الذي هزمت فيه جيوش الروم على أيدي جيوش الفرس بالتعبير القرآني: (أدنى الأرض)، وقبل الدخول في ذلك لا بد من عرض الدلالة اللغوية لهذا التعبير ولأقوال عدد من المفسرين فيه.

(أدنى الأرض) في اللغة العربية

يقال في اللغة: (دنا) (يدنو) (دنواً)؛ بمعنى: قرب بالذات أو بالحكم، ويستعمل في المكان، والزمان، والمنزلة، كما يُعدَّى فيقال (أدنى) (يدني) (إدناءة)، ويقال: (دانيت) أو (أدنيت) بين الأمرين أي: قاربت بينهما، حتى صارت بينهما (دناوةً) أي: قرب أو قرابةً..

و(الدنيّ) القريب، و(الدنيّ) بمعنى الدون، الخسيس، وقد (دنأ) (يدنأ)، وفيهما (دناءة)، ويقال: (دنؤا) بمعنى انحطوا، و(الدنيئة) هي النقيصة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ **(الأنعام: 99).**

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ **(النجم: 8، 9).**

وفي الحديث الشريف: «**إذا أكلتم فادنوا**» أي: كلوا مما يليكم.

ويعبر بـ(الأدنى) تارة عن الأقرب فيقابل بالأبعد (أو الأقصى) من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ **(الأنفال: 42).**

وتارةً ثانية يعبر بها عن الأخفض فيقابل بالأعلى وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ **(الأحزاب: 59).**

وتارة ثالثة تأتي بمعنى: الأقل في مقابل الأكثر، من مثل قوله ـ تعالى ـ: ....﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾... **(المجادلة: 7)**

وتارة رابعة يعبر بها عن الأرذل أو الأحقر فيقابل بالذي هو خير أو أعلى وأرفع وأنفع؛ وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ **(البقرة: 61).**

وتارة خامسة يعبر بها عن الأولى أي: ـ الدنيا ـ في مقابلة الآخرة وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ **(آل عمران: 152)**

وسميت (الدنيا) بهذا الاسم لدنوِّها، والجمع (الدُّنا)، وأصله: (الدنو) فحذفت الواو لاجتماع الساكنين، والنسبة إليها (دنياي)، وقيل (دنيوي) و(دني)، ويقال: (تدنى) فلان أي (دنا) قليلاً قليلاً، و(تدنى) المستوى بمعنى هبط، و(تدانوا) أي: (دنا) بعضهم من بعض.

من شروح المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ **(الروم: 1 ـ 5).**

- ذكر «ابن كثير» ـ يرحمه الله ـ قول «ابن عباس» رضي الله عنهما حيث قال: كان المشركون

يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم كانوا من أهل الكتاب، فذُكِرَ ذلك، «لأبي بكر» ﷺ، فذكره «أبو بكر» لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنهم سيغلبون**»، فذكره «أبو بكر» للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «**ألا جعلتها إلى دون العشر؟**»[1]، ثم ظهرت الروم بعد ذلك، قال فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾.

وأضاف «ابن كثير» عدة روايات أُخرى للحديث عن كل من «مسروق»، و«ابن مسعود»، و«عكرمة» ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ في المعنى نفسه، وزاد قوله: «... وأما الروم فهم من سلالة العيص ابن إسحاق بن إبراهيم، ويقال لهم: بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان؛ واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة، وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملكَ منهم الشام مع الجزيرة يقال له: «قيصر»؛ فكان أول من دخل في دين النصارى من الروم «قسطنطين»؛ وأمه مريم الهيلانية من أرض حِران وكانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها... واستمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم «هرقل»... فناوأه «كِسرى» ملك الفرس، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وكانوا مجوساً يعبدون النار، فتقدم عن «عكرمة» رضي الله عنه أنه قال: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن «كسرى» غزاه بنفسه في بلاده فقهره، وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة «قسطنطينية» فحاصره بها مدةً طويلةً حتى ضاقت عليه، ولم يقدر كسرى على فتح البلدة، ولا أمكنه ذلك لحصانتها؛ لأن نصفها من ناحية البر، ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هناك، ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ـ هي تسع ـ فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ يرحمهما الله ـ كلاماً موجزاً في المعنى نفسه، وأضافا تعليقاً على التعبير القرآني ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن المقصود به: «أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة، التقى فيها الجيشان، والبادي بالغزو: (هم) الفرس...».

---

(1) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34701).

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم في بضع سنين....» وأضاف رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مؤكداً أن هذا الحادث قد وردت فيه روايات كثيرة، تتفق كلها في المعنى والدلالة، وتختلف في الألفاظ وطرائق التعبير. وجمع الكاتب ـ رحمه الله ـ من هذه الآيات القرآنية الكريمة عدداً من الإيحاءات منها: «الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان؛ ومنها الثقة المطلقة في وعد الله كما تبدو في مقولة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في غير تلعثم ولا تردد، والمشركون يعجبون من قول صاحبه، فما يزيد على أن يقول: صدق، ويراهنونه فيراهن وهو واثق، ثم يتحقق وعد الله، في الأجل الذي حدده: في بضع سنين».

«والإيحاء الثالث وهو المسارعة برد الأمر كله لله، في هذا الحادث وفي سواه، وتقرير هذه الحقيقة الكلية؛ لتكون ميزان الموقف، وميزان كل موقف، فالنصر والهزيمة، وظهور الدول ودثورها، وقوتها وضعفها، شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال، مرده كله إلى الله...».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «احتربت الفرس والروم فيما بين أذرعات وبصرى من أرض الروم يومئذٍ، وهما أقرب أراضيها بالنسبة إلى مكة، وكان ذلك قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بست. فظهر الفرس على الروم، فلما بلغ الخبر مكة شق على المؤمنين؛ لأن الفرس مجوس لا يدينون بكتاب، والروم أهل كتاب؛ وفرح المشركون وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن والفرس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فنزلت الآية وفيها: «أن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين». والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع. و(غلبهم) كونهم مغلوبين».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيراً ـ ما نصه: «غلبت فارس الروم في أقرب الأرض من العرب، وهي أطراف الشام، وهم بعد انهزامهم سيغلبون الفرس قبل أن تمضي تسع سنوات.. وكان المشركون قد فرحوا بانتصار فارس، وقالوا للمسلمين: سنغلبكم كما غلبت فارس الروم التي هي من أهل الكتاب.. وقد حقق الله وعده فانتصر الروم على فارس في الأجل الذي سماه، فكان ذلك آيةً بيِّنةً على صدق محمد ﷺ في دعواه وصحة ما جاء به...».

وجاء في الهامش التعليق التالي: «في هذه الآيات الشريفة إشارة إلى حدثين: كان أولهما قد وقع بالفعل، وأما الثاني فلم يكن قد وقع بعد، وهو إخبار عن الغيب، (وحدد لوقوعه بضع سنين والبضع فيما بين الثلاث والتسع)».

وتفصيل الحدث الأول: أن الفرس والبيزنطيين قد اشتبكوا في معركةٍ في بلاد الشام على أيام خسرو أبرويز، أو خسرو الثاني (عاهل الفرس المعروف عند العرب بكسرى). وهيراكليوس الصغير الإمبراطور الروماني المعروف عند العرب بهرقل؛ ففي عام614 م استولى الفرس على أنطاكية أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية، ثم على دمشق، وحاصروا مدينة بيت المقدس إلى أن سقطت في أيديهم وأحرقوها ونهبوا السكان وأخذوا يذبحونهم...».

وتفصيل الحدث الثاني: أن هرقل قيصر الروم الذي مُنِي جيشه بالهزيمة لم يفقد الأمل في النصر، ولهذا أخذ يُعِدُّ نفسه لمعركة تمحو عار الهزيمة، حتى إذا كان عام622 الميلادي، ـ أي: العام الهجري الأول ـ أرغم الفرس على خوض معركة على أرض أرمينيا وكان النصر حليف الروم، وهذا النصر كان فاتحة انتصارات الروم على الفرس... فتحققت بشرى القرآن...».

وثمة حدث ثالث يفهم من سياق هذه الآيات الشريفة كان مبعث فرح المسلمين، وهو انتصارهم على مشركي قريش في غزوة بدر الكبرى التي وقعت في يوم الجمعة17 رمضان من العام الثاني الهجري (أي: سنة624 م)».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: « ...﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي: وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس، وينتصرون عليهم.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ أي: في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام؛ والبضع ما بين الثلاث والتسع...».

«وأشار صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ إلى أقوال المفسرين السابقين، وعلق على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ ما نصه: «وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب، وغلبت الروم الفرس وهزمتهم، وفرح المسلمون بذلك؛ قال أبو السعود: «وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله ﷻ، حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله العليم الخبير، ووقع كما أخبر، وقال «البيضاوي»: و«الآية من دلائل النبوة؛ لأنها إخبار عن الغيب...».

وأضاف صاحب صفوة التفاسير في شرح قول الحق ﷻ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ ما نصه: «وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر؛ قال ابن

عباس. كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران...».

ويوم بدر وقع في السنة الثانية من الهجرة (الموافق سنة624 م)؛ وعلى ذلك فإن هزيمة الروم على أيدي الفرس لابد أنها كانت قد وقعت في حدود سنة614 م أو 615 م».

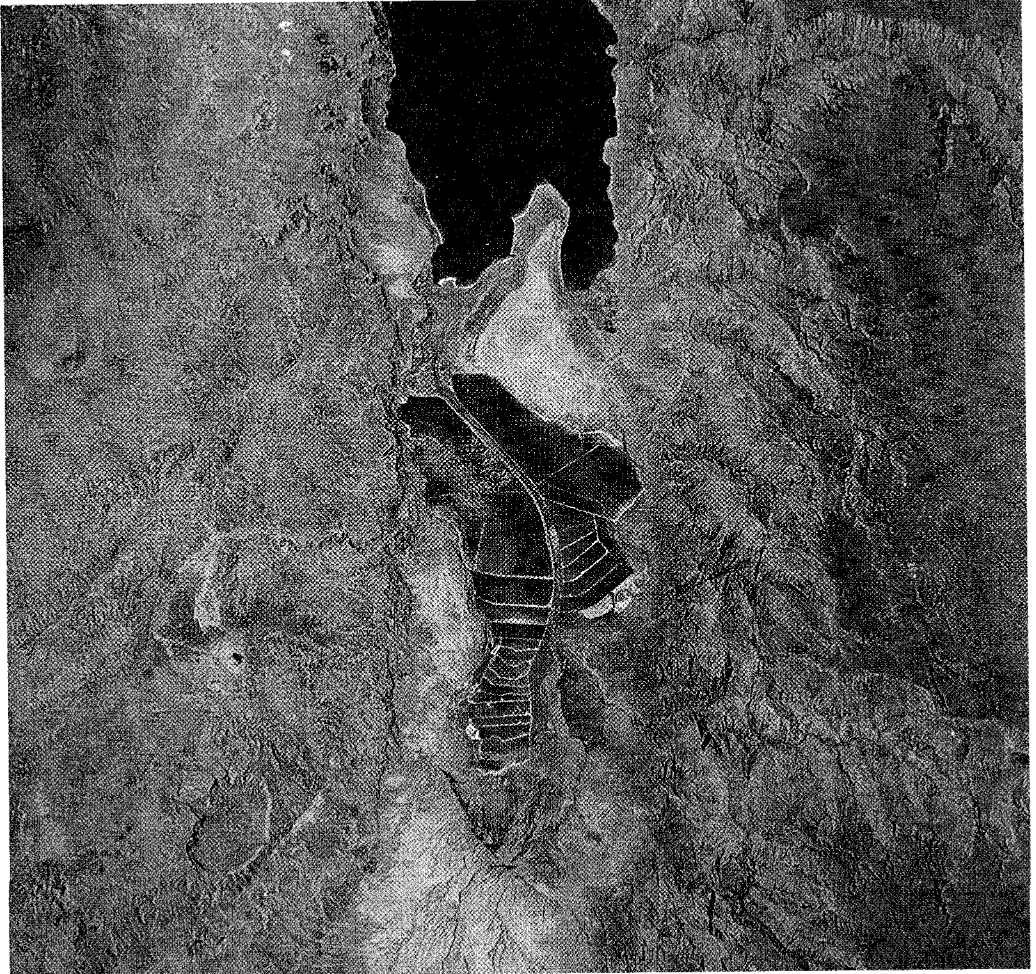
• وجاء في أطلس تاريخ الإسلام ـ على واضعه رحمة الله ـ ما نصه: «... وعندما تولى هرقل عرش الروم سنة 610 م ـ وهي سنة البعثة المحمدية ـ كان الفرس قد اجتاحوا بلاد الشام ومصر وهزموا البيزنطيين سنة613 م عند أنطاكية، واستولوا على فلسطين والقدس سنة614 م، وغزوا مصر ودخلوا الإسكندرية سنة618 م أو619 م، وبعد أن أقام «هرقل» دولته بدأ قتال الفرس سنة 622 م، وفي سنة 627 م أنزل بهم هزيمة قاصمة قرب «نينوى»، واسترد منهم أراضي الدولة البيزنطية في «أرمينيا» و«الشام» و«فلسطين» و«مصر»، وفي سنة 630 م استعاد بيت المقدس».

ومن استقراء كل هذه التواريخ السابقة يتضح أن هزيمة الروم الحقيقية على أيدي جيوش الفرس كانت في حدود سنة 614 م إلى 615 م، وأن استعادتهم النصر على الفرس كانت في حدود سنة 624 م، واستمر تقدم الروم على أرض الفرس حتى تم لهم احتلال بيت المقدس.

وواضح من شروح المفسرين أن المقصود بالتعبير القرآني في أدنى الأرض الذي يصف أرض المعركة التي تمت فيها هزيمة الروم أمام جحافل جيش الفرس هو أقرب الأرض إلى مكة المكرمة أو إلى الجزيرة العربية أو إلى أرض الفرس.. ولكن الدراسات الحديثة تؤكد أن منطقة حوض البحر الميت، بالإضافة إلى كونها أقرب الأراضي التي كان الروم يحتلونها إلى الجزيرة العربية هي أيضاً أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً، حيث يصل منسوب سطح الأرض فيها إلى حوالي أربعمائه متر تحت مستوى سطح البحر، وأن هذه المنطقة كانت من مناطق الصراع بين إمبراطوريتي الفرس والروم، وأن المعركة الحاسمة التي أظهرت جيوش الفرس على جيوش إمبراطورية روما الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) لابد أنها وقعت في حوض البحر الميت، وأن الوصف بـ «أدنى الأرض» هنا كما يعني أقربها للجزيرة العربية؛ يعني ـ أيضاً ـ أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً، وهذه الإشارة القرآنية العابرة تعتبر من السبق العلمي في كتاب الله؛ لأن أحداً لم يكن يعلم هذه الحقيقة في زمن الوحي بالقرآن الكريم، ولا لقرونٍ متطاولةٍ من بعده.

أدنى الأرض في العلوم الحديثة

ثبت علمياً بقياسات عديدة أن أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً هو غور البحر الميت. ويقع البحر الميت في أكثر أجزاء الغور انخفاضاً؛ حيث يصل مستوى منسوب سطح الماء فيه إلى حوالي أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، ويصل منسوب قاعه في أعمق أجزائه إلى قرابة ثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وهو بحيرة داخلية بمعنى أن قاعها يعتبر في الحقيقة جزءاً من اليابسة.



(الصورة لوكالة ناسا)

صورة حقيقية من الفضاء لغور البحر الميت ومستوى سطح الماء فيه ينخفض حوالي 400 متر تحت مستوى سطح الماء في كل من البحرين الأبيض المتوسط، والأحمر

وغور البحر الميت هو جزء من خسف أرضي عظيم يمتد من منطقة البحيرات في شرقي إفريقيا إلى بحيرة طبريا فالحدود الجنوبية لتركيا مروراً بالبحرالأحمر، وخليج العقبة، ويرتبط بالخسف العميق في قاع كل من المحيط الهندي، وبحر العرب وخليج عدن.

ويبلغ طول أغوار وادي عربة/ البحرالميت/ الأردن حوالي ستمائة كيلومتر، ممتدة من خليج العقبة في الجنوب إلى بحيرة طبريا في الشمال، ويتراوح عرضها بين العشرة والعشرين كيلومتراً. ويعتبر منسوب سطح الأرض فيها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً حيث يصل منسوب سطح الماء في البحر الميت إلى حوالي 400 متراً تحت المستوى المتوسط لمنسوب المياه في البحرين المجاورين: الأحمر والأبيض المتوسط، وهو أخفض منسوب أرضي على سطح اليابسة كما يتضح من الأرقام التالية:

جدول مناسيب أخفض البقاع على اليابسة

منسوب سطح الأرض في وادي عربة	=	355 ـ 400 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب أعمق نقاط قاع البحرالميت	=	794 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الماء في البحرالميت	=	400 م تحت مستوى سطح البحر.
مستوى سطح الأرض في غور الأردن	=	212 ـ 400 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الماء في بحيرة طبريا	=	209 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب قاع بحيرة طبريا	=	252 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الأرض في قاع منخفض القطارة في شمال صحراء مصر الغربية	=	133 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الأرض في قاع وادي الموت/ كاليفورنيا	=	86 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الأرض في قاع منخفض الفيوم/ مصر	=	45 م تحت مستوى سطح البحر.

ويتراوح عمق الماء في الحوض الجنوبي من البحر الميت بين الستة والعشرة أمتار، وهو بذلك في طريقه إلى الجفاف، ويعتقد أنه كان جافاً إلى عهد غير بعيد من تاريخه، وكان عامراً بالسكان، وأن منطقة الأغوار كلها من وادي عربة في الجنوب إلى بحيرة طبريا

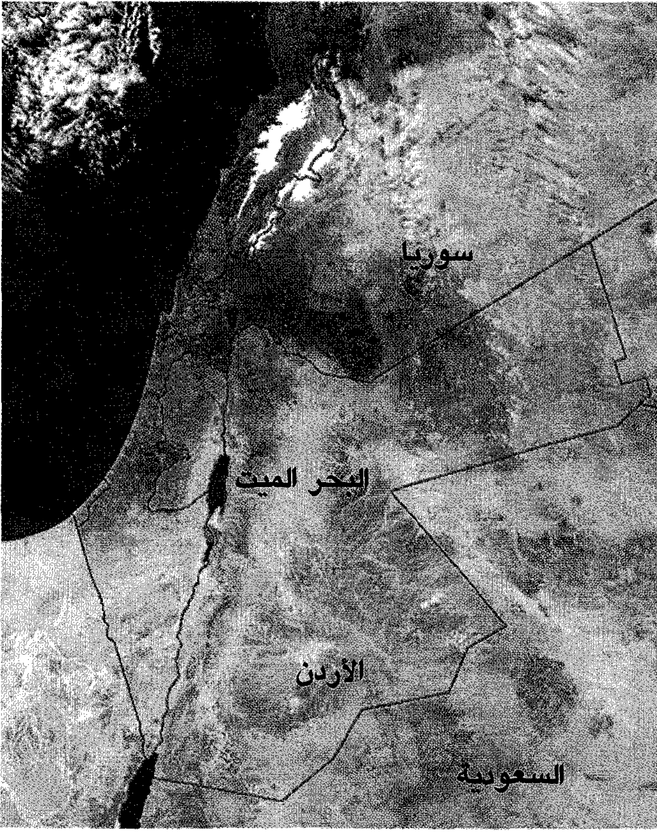


(الصورة لوكالة ناسا)

صورة بالأقمار الصنعية لغور البحر الميت - أدنى الأرض

في الشمال كانت كذلك عامرة بالسكان منذ القدم، حيث عرف البحر الميت في الكتابات التاريخية القديمة، ووصف بأسماء عديدة من مثل: «**بحر سدوم**»، «**بحيرة لوط**»، «**بحيرة زغر**»، «**البحر النتن**»، «**بحر عربة**»، «**بحر الأسفلت**» و«**البحر الميت**»؛ وذلك لأن المنطقة اشتهرت بخصوبة تربتها، ووفرة مياهها فعمرتها القبائل العربية منذ القدم، واندفعت إليها من كل من: العراق والجزيرة العربية وبلاد الشام ومنهم: قوم لوط عليه السلام الذين عمروا خمس مدن في أرض الحوض الجنوبي من البحرالميت هي: «سدوم»، و «عمورة»، و «أدمة»، و «صوبييم»، و «زغر»، وقد ازدهرت فيها الحياة إلى أواخر القرن العشرين قبل الميلاد

ودمرت بالكامل في عقاب إلٰهي أنزل بها، وجاء خبر عقابها في القرآن الكريم بقول الحق ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ (هود: 82).



(الصورة لوكالة ناسا)

صورة حقيقية من الفضاء وتظهر موقع البحر الميت في الأردن

والأرض في حوض البحر الميت ـ بصفةٍ عامةٍ ـ وفي الجزء الجنوبي منه بصفةٍ خاصةٍ تعرف باسم: الأرض المقلوبة وقد أثبتت الدراسات الجيولوجية مؤخراً أن تتابعات الصخور هنا مقلوبة فعلاً كما ذكر القرآن الكريم بقول ربنا (تبارك وتعالى): ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: 82، 83).

وقوله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الحجر: 74).

وتتميز منطقة غور البحر الميت بالحرارة الشديدة، وبتفجر كل من العيون المائية، والأبخرة الكبريتية الحارة فيها، وبتناثر كتل الأسفلت التي كثيراً ما كانت تطفو على سطح مياه البحر الميت إلى عهد غير بعيد.

وقرى قوم لوط التي كانت تشغل أرض الحوض الجنوبي من البحر الميت، والتي دمرت بالكامل بأمر من ربنا ﷻ لا علاقة لها بالحركات الأرضية التي شكلت تلك الأغوار

من قبل حوالي25 مليون سنة مضت، ولكن بعد تدميرها بالعقاب الالٰهي دخلت المنطقة برحمة من الله ـ تعالى ـ في دورةٍ مطيرةٍ غسلت مياهها ذنوب الآثمين من قوم لوط، وغمرت منطقة قراهم لتحولها إلى الحوض الجنوبي من البحر الميت، الذي يتجه اليوم إلى الجفاف مرة أُخرى ليصير أرضاً يابسةً.

وخلاصة القول أن منطقة «أغوار وادي عربة/ البحرالميت/ الأردن» تحوي أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، والمنطقة كانت محتلة من قبل الروم البيزنطيين في عصر البعثة النبوية الخاتمة، وكانت هذه الإمبراطورية الرومانية يقابلها ويحدها من الشرق الإمبراطورية الفارسية الساسانية، وكان الصراع بين هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين في هذا الزمن على أشده، ولابد أن كثيراً من معاركهما الحاسمة قد وقعت في أرض الأغوار، وهي أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، ووصف القرآن الكريم لأرض تلك المعركة الفاصلة التي تغلب فيها الفرس على الروم ـ في أول الأمر بـ «أدنى الأرض» وصف معجز للغاية؛ لأن أحداً من الناس لم يكن يدرك تلك الحقيقة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها بهذا الوضوح في مطلع سورة «الروم» يضيف بعداً آخر إلى الإعجاز الإنبائي في الآيات الأربع التي استهلت بها هذه السورة المباركة ألا وهو الإعجاز العلمي، فبالإضافة إلى ما جاء بتلك الآيات من إعجازٍ شمل الإخبار بالغيب، وحدد لوقوعه بضع سنين، فوقع كما وصفته. وكما حددت له زمنه تلك الآيات فكانت من دلائل النبوة، فإن وصف أرض المعركة بالتعبير القرآني **(أدنى الأرض)** يضيف إعجازاً علمياً جديداً، يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

وكما كانت هذه الآيات الكريمة من دلائل النبوة في زمن الوحي لإخبارها بالغيب فتحقق، فهي لا تزال من دلائل النبوة في زماننا بالتأكيد على أن المعركة الفاصلة قد تمت في أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، وهي أغوار البحر الميت وما حولها من أغوار ويأتي العلم التجريبي ليؤكد هذه الحقيقة.

وعلى كتاب التاريخ الذين تأرجحوا في وضع المعركة الفاصلة في هزيمة الروم على أرض «القسطنطينية»، أو على الأرض بين مدينتي «أذرعات» و «بصرى» من أرض الشام، أو على أرض «أنطاكية»، أو على أرض «دمشق»، أو أرض «بيت المقدس»، أو أرض «مصر» (الإسكندرية)، على هؤلاء جميعاً أن يعيدوا النظر في استنتاجاتهم؛ لأن القرآن الكريم يقرر أن هزيمة الروم على أيدي الفرس كانت على الأرض الواقعة بين شرقي الأردن

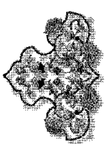
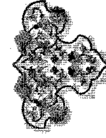
وفلسطين، وهي «أغوار وادي عربة/ البحر الميت/ الأردن» التي أثبت العلم أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً، والتي ينطبق عليها الوصف القرآني بأدنى الأرض انطباقاً تاماً ودقيقاً.

وعلى الذين قالوا أن معنى «أدنى الأرض» هو أقرب الأرض من بلاد فارس، أو من بلاد العرب، أو هي أطراف بلاد الشام، أو بلاد الشام، أو إنطاكية، أو دمشق، أوبيت المقدس أو غيرها أن يعيدوا النظر في ذلك؛ لأن حدود الإمبراطوريتين البائدتين كانت متلاحمةً مع بعضها بعضاً من جهة، ومع بلاد العرب من جهة أخرى، وعليه فلا يعقل أن يكون المقصود بتعبير أدنى الأرض في هذه الآيات الكريمة هو القرب من بلاد فارس أو بلاد العرب، فقط، وإن كانت أرض الأغوار هي أقرب الأرض إلى بلاد العرب، بل هي في الحقيقة جزء من أرض شبه الجزيرة العربية؛. فسبحان الذي أنزل هذا التعبير المعجز «**أدنى الأرض**» ليحدد أرض المعركة ثم ليثبت العلم التجريبي بعد أكثر من اثني عشر قرناً أن الأغوار الفاصلة بين أرض فلسطين المباركة والأردن هي أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً!! ومن هنا كانت جديرة بالوصف القرآني ـ **أدنى الأرض** ـ، وجديرة بأن تكون أرض المعركة التي هزم فيها الروم، وذلك لقول الحق ـ عز من قائل ـ:

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾ **(الروم: 1 ـ 5).**

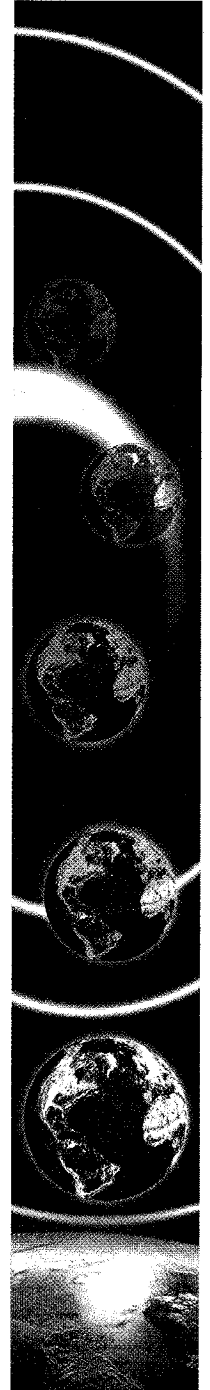
فسبحان الذي أنزل القرآن من فوق سبع سمٰوات وعلى خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، فحفظه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وسوف يبقى محفوظاً بحفظ الله ـ تعالى ـ إلى أن يشاء.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أتم الله ـ تعالى ـ بها النبوات، وختم الرسالات، وأكمل النعمة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(14) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا...﴾ (البقرة: 22)



هذا النص القرآني الكريم جاء في مقدمات سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وآياتها (286) بعد البسملة، وعلى ذلك فهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وأول سورة بعد فاتحة الكتاب في ترتيب سور المصحف الشريف، وقد عظمها رسول الله ﷺ تعظيماً كبيراً فقال: «**إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»(1).

ويدور المحور الرئيسي لسورة البقرة حول عدد من الأحكام الشرعية، والقضايا التعبدية، والضوابط الأخلاقية والسلوكية، والركائز العقدية التي يمكن إيجازها في النقاط الأساسية التالية:

(1) الإيمان بالله ـ تعالى ـ وحده رباً ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(2) هذا الإيمان يقتضي التسليم بوحدة الرسالة السماوية التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل، وختمها وأتمّها، وأكملها في القرآن الكريم، الذي تعهد ربنا ﷻ بحفظه، فحفظ حفظاً كاملاً في لغة وحيه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، ليبقى مصدراً لهداية الناس كافة حتى يوم الدين.

(3) الإيمان بوحدة الجنس البشري دون تمييز عرقي أو عنصري أو على أي أساس آخر لأن البشرية كلها ينتهي نسبها إلى آدم

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (الحديث: 780).

وحواء ـ عليهما من الله السلام ـ.

(4) الالتزام بركائز الدين من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

(5) عدم التفرقة بين رسل الله، وترك التفضيل بينهم لله، وتتويج الإيمان بهم جميعاً بالإيمان بالنبي الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ، وبالرسالة الخاتمة التي أُوحيت إليه والتي حفظت في القرآن الكريم وفي سنته الشريفة.

(6) الإيمان بضرورة تلقي الدين عن طريق القناعة العقلية والقلبية الكاملة، والتسليم بأن دين الله مبنيٌّ على اليسر، ورفع الحرج، وأن من أصوله الثابتة أنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ...﴾ (البقره: 256).

(7) التسليم بأن القتال مشروع في الإسلام لدفع المظالم، وللدفاع عن الأرض والعرض، وعن النفس والمال والولد والأهل، وعن الدين ومقدساته، ولتأمين سيادة عدل الله في الأرض، ولضمان حرية التدين، وللمحافظة على كرامة الإنسان من أي جور أو طغيان؛ ولذلك تدعو سورة البقرة إلى الجهاد في سبيل الله دون اعتداء، وإلى تعظيم منازل الشهداء، وإلى تقديس الجهاد وتكريم المجاهدين، وإلى تقدير مقامات الصابرين في البأساء والضراء، ومقامات الموفين بعهودهم إذا عاهدوا، وإلى غير ذلك من القيم الرفيعة والأخلاق الكريمة.

(8) الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، والتحذير من فجائية وقوعها وأهوالها، والعمل على الاستعداد لمواجهتها، وفي ذلك جاء قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ (البقرة: 281).

وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم بإجماع غالبية علماء الدين.

(9) الدعوة إلى التأمل بعين البصيرة في آيات الله العديدة المنتشرة في الأنفس والآفاق؛ لأنها هي كتاب الله المنظور كما أن القرآن الكريم هو كتابه المقروء.

(10) فصَّلت سورة البقرة أحكام الأُسرة من الزواج، والطلاق، والعدة، والرضاع وغيرها تفصيلاً ما بعده تفصيل.

(11) تدعو سورة البقرة في مواضع عديدة منها إلى الإنفاق في سبيل الله، وإلى الإحسان إلى الخلق بصفة عامة، وتدعو إلى إيثار الخير ونبذ الشر، كما تدعو إلى العمل الصالح المنطلق من الإيمان الصادق بالله، وإلى الاستعانة على كل جليل من الأمور بالصبر

والصلاة، وإلى ترك العصبيات العرقية والإقليمية الضيقة، وإلى نبذ الموروثات المغلوطة، والتقليد الأعمى، وإلى التمسك بتحكيم العقل من أجل الوصول إلى سلامة الحكم في كل أمر من أمور الحياة. وتنعي السورة الكريمة على كل من يدعو إلى الحق وفضائل الأعمال ثم ينسى نفسه، وتحذر بشدة من التعامل بالربا، وتهدد الواقعين فيه بحرب من الله ورسوله، كما تحذر من كتم الشهادة، وتؤكد المحافظة على حقوق الآخرين بكل وسيلة مشروعة، وتحذر من ديون العباد، وتضع الشروط الواجبة لحفظ حقوق الآخرين فيها.

(12) مايزت سورة البقرة في مواقع عديدة منها بين صفات كل من المتقين والمنافقين، وضربت نماذج لكل منهم، وألمحت إلى نعيم المتقين في الجنة، وإلى عذاب المنافقين من الكفار والمشركين في النار. وصورت جانباً من ذل الكفار والمشركين وحيرتهم يوم القيامة، وحذرت المؤمنين من موالاتهم أو الركون إليهم في الدنيا، كما حذرت من متابعة الشيطان الرجيم وأعوانه وجنده.

(13) وللتأكيد على هذه المعاني النبيلة والقيم الرفيعة ألمحت سورة البقرة لقصة أبينا آدم عليه السلام وزوجه، وإلى جوانب من قصة نبي الله إبراهيم ـ على نبينا وعليه السلام ـ، وأشارت إلى اختلاف أتباع نبي الله عيسى عليه السلام من بعده وانحرافهم وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في غالبيتهم عن دعوته: ﴿. . . وَلَكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ. . . ﴾ **(البقره: 253).**

كما تحدثت سورة البقرة عن واقعة تحويل القبلة، وعن قرار الله ـ تعالى ـ بجعل أُمة الإسلام أُمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليهم شهيداً.

(14) في أكثر من ثلث سورة البقرة جاء ذكر جانب من تاريخ العصاة اليهود من بني إسرائيل ـ لعنهم الله في الدنيا والآخرة ـ وقد حرفوا دين الله، ونقضوا عهوده، وكذبوا عليه سبحانه، وتآمروا على خلقه؛ وعبدوا العجل، وكتموا ما أنزل الله من الحق، واشتروا به ثمناً قليلاً، وبقوا عبر التاريخ ركائز للكفر، والفساد والضلال، ومعاول لهدم وتدمير كل قيمة أخلاقية نبيلة، وكل ضوابط سلوكية صحيحة، فقد قاتلوا أنبياء الله وقتلوهم، واندسوا وسط كل دعوة دينية صحيحة من أجل إفسادها، وتضليل أتباعها؛ وأسسوا العديد من الجماعات السرية والعلنية من أجل تحقيق مخططاتهم الشيطانية التي يهدفون من ورائها إلى إشاعة الفتن، وإثارة القلاقل، وإشعال نيران الحروب، وتحقيق الخراب والدمار في العالم، ونشر الفساد في الأرض، ولذلك حذرت سورة (البقرة) من اليهود وأشياعهم المتهودين، ووصفتهم بما يليق بهم، وبنفسيتهم الحقيرة من نعوت.

وتختتم بدعاء إلى الله ـ تعالى ـ يهز القلوب والعقول، ويحرك الضمائر والمشاعر حيث تقول:

... ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقره: 286).

من الآيات الكونية في سورة البقرة

(1) التأكيد على أن القرآن الكريم كتاب لا ريب فيه (الآية 2) والبحث العلمي يؤكد ذلك في كل كلمة وحرف وإشارة وردت فيه.

(2) الإشارة إلى أمراض القلوب ومنها الخوف والوسوسة والشك في زمن لم يكن معروفاً لأحد شيء من تلك الأمراض (الآية 10).

(3) التمييز بين كل من الضياء والنور والنار، والمقابلة بين الظلمات والنور وهي من الحقائق العلمية التي لم يدركها الإنسان إلا موخراً (الآية 17).

(4) ذكر الصَّيِّب من السماء، وهو المطر الغزير الذي يكثر هطوله بالليل، والمصحوب بالرعد والبرق والصواعق والعواصف (الآية 19) وهو تجمع فريد من الظواهر الكونية التي لم تدرك إلا موخراً.

(5) الإشارة إلى خطف البصر عن طريق البحلقة في ضوء البرق، وتقديم السمع على البصر (الآية 20)، وهي من الحقائق العلمية التي لم تعرف إلا في القرن العشرين.

(6) الإقرار بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق الخلق جميعاً (الآية 21).

(7) الإشارة إلى فرش الأرض وتمهيدها، وبناء السماء وإحكامها وحبكها، وإنزال الماء من السحاب، وإخراج مختلف الثمرات بواسطته، والنهي عن الشرك بالله تعالى (الآية 22).

(8) ضرب المثل بالبعوضة وما فوقها (الآية 26) وهي من الحشرات المميزة في بناء جسدها.

(9) التأكيد على أن الموت سابق للحياة ولاحق بها، وأن الله ـ تعالى ـ خلق ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم (الآية 29).

(**10**) التأكيد على واقعة فلق البحر لنبي الله موسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ، وفرقه إلى فرقتين، ونجاة موسى ومن معه، وهلاك فرعون وجنده (الآية 50) وهي من حقائق التاريخ.

(**11**) التأكيد على انفجار اثنتي عشرة عيناً من عيون الماء بضربة من عصا موسى عليه السلام على الضفة الشرقية من خليج السويس في منطقة تعرف اليوم باسم عيون موسى (الآية 60).

(**12**) الإشارة بالمشرق والمغرب إلى الكون كله (الآيتان 115، 142).

(**13**) اتخاذ المسجد الحرام قبلة للمسلمين (الآيات 144، 149، 150)، والعلم يؤكد مركزيته بالنسبة لليابسة.

(**14**) الإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وإلى إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وبث الدواب من كل نوع فيها، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض وجعل ذلك كله آيات لقوم يعقلون (الآية 164).

(**15**) التأكيد على حقيقة أن الأهلَّة هي مواقيت للناس والحج (الآية 189).

(**16**) التأكيد على ما في كلٍّ من: الخمر والميسر من آثام تفوق أي نفع يمكن أن يجتنى من ورائهما (الآية 219).

(**17**) التأكيد على ما في المحيض من أذى (الآية 222).

(**18**) التأكيد على حقيقة أن الجنة، أي: الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض بالربوة العالية إذا أصابها الوابل. أي: المطر الشديد، آتت أكلها ضعفين، وهو لا يضرها باحتمال إغراقها بالسيول لارتفاعها وسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه، وإن لم يصبها وابل فإن الطل؛ أي: المطر الخفيف أو الرذاذ، يكفيها لري نباتاتها وطيب عطائها؛ والمقصود أن هذه الجنة تزكو وتزدهر وتثمر سواء كثر المطر عليها أو قل، والآية الكريمة تصف بذلك إنفاق الصالحين ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم بأنه يزكو عند الله ويطيب، زاد قدره أم قل كما تزكو الجنة بالربوة زاد المطر عليها أو قل، وهو تشبيه قائم على حقيقة علمية راسخة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على فرش الأرض وتمهيدها. كما جاء في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**ٱلَّذِى جَعَلَ**

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ (البقرة: 22).

وقبل الدخول إلى شرح الدلالة العلمية لهذا النص الكريم أرى لزاماً على استعراض أقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في شرحه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾. (البقره: 21، 22).

● ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة؛ بأن جعل لهم الأرض فراشاً؛ أي: مهداً كالفراش، مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات؛ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وهو السقف، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنبياء: 32)؛ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والمراد به السحاب هٰهنا في وقته عند احتياجهم إليه؛ فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم. ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم؛ فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وأضاف: «قال ابن عباس: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين؛ أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. وعنه أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحل الذي لا شك فيه. وأضاف كذلك: قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: عدلاء شركاء؛ وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إلٰه واحد في التوراة والإنجيل».

وأضاف ابن كثير عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة والروايات في معنى هذه الآية الكريمة تؤيد ما ذهب إليه في تفسيرها ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

● وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ تفسيراً لهاتين الآيتين الكريمتين ما مختصره: «أنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من

قبلهم. ربهم الذي تفرد بالخلق، فوجب أن ينفرد بالعبادة... وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققونه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾... لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية، صورة العابدين لله، المتقين لله، الذين أدوا حق الربوبية الخالقة، فعبدوا الخالق وحده، رب الحاضرين والغابرين، وخالق الناس أجمعين، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ندٍّ ولا شريك. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ وهو تعبير يشير باليسر في حياة البشر على هذه الأرض، وفي إعدادها لهم لتكون لهم سكناً مريحاً وملجأً وافياً كالفراش... والناس ينسون هذا الفراش الذي مهده الله لهم لطول ما ألفوه، ينسون هذا التوافق الذي جعله الله في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع، ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليسر والطمأنينة. ولو فُقِدَ عنصرٌ واحد من عناصر الحياة في هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسي في غير البيئة التي تكفل لهم الحياة. ولو نقص عنصر واحد من عناصر الهواء عن قدره المرسوم، لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾... فيها متانة البناء وتنسيق البناء... ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾... والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء في الأرض جميعاً... وقصة الماء في الأرض، ودوره في حياة الناس، وتوقف الحياة عليه في كل صورها وأشكالها... كل هذا أمر لا يقبل المماحكة، فتكفي الإشارة إليه، والتذكير به، في معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب. وفي ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصورالإسلامي: وحدة الخالق لكل الخلائق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان، وسماؤه مبنية بنظام، معينه بالماء الذي تخرج به الثمرات رزقاً للناس... والفضل في هذا كله للخالق الواحد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾... تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وتعلمون أنه جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، وأنه لم يكن له شريك يساعد، ولا ند يعارض، فالشرك به بعد هذا العلم تصرف لا يليق!. والأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون (ولا يزالون).. فقد تكون الأنداد في صور أُخرى خفية؛ قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة، وفي الخوف من غير الله في أي صورة، وفي الاعتقاد بنفع أو ضر من غير الله في أي صورة...». وضرب صاحب الظلال ـ عليه

من الله أوسع الرحمات ـ عدداً من النماذج ثم أضاف: «هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفي والأنداد مع الله. . . فلننظر بحق أين نحن من هذه الحساسية المرهفة، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة!!!.

• وجاء في كل من تفسير الجلالين، وصفوة البيان لمعاني القرآن، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبيها خيراً ـ كلام مشابه لا حاجة بنا لإعادته.

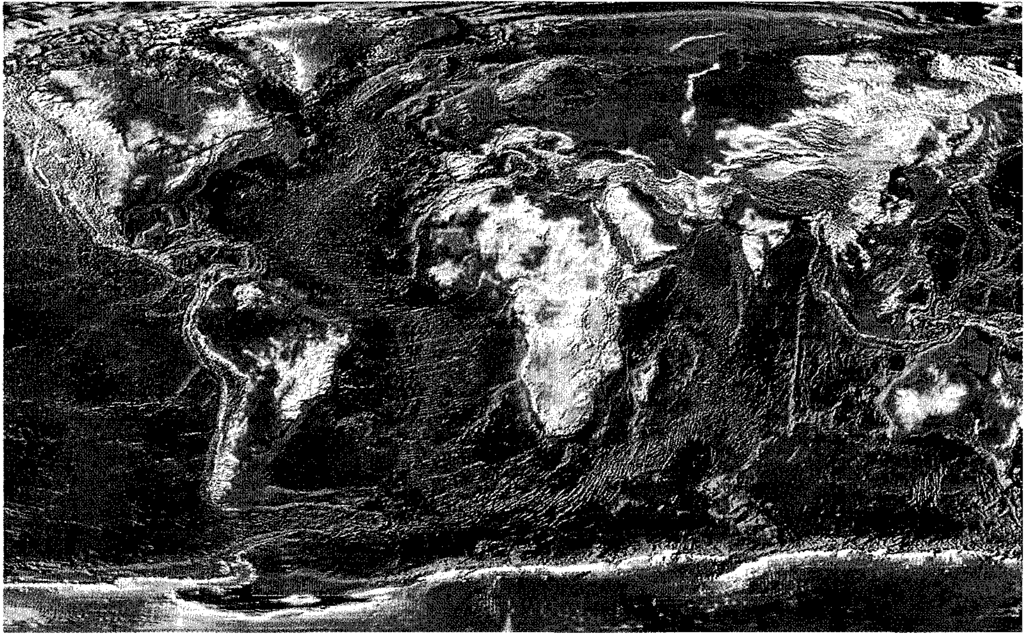
الدلالة العلمية للنص الكريم:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾. . .

سبق أن أشرنا إلى أن مساحة سطح الأرض الحالية تقدر بنحو510 ملايين كيلومتر مربع، منها29% (أي نحو 149 مليون كيلومتر مربع) يابسة، 71%، (أي نحو361 مليون كيلومتر مربع) مسطحات مائية، نصفها تقريباً (أي نحو 173,6 مليون كيلومتر مربع) أرصفة قارية أي أجزاء من حواف القارات مغمورة بالماء. وهذه الضخامة في أبعاد الأرض جعلتها تبدو مستوية بالنسبة إلى نظر الإنسان وإمكانات حسه.

وسبق أن أشرنا كذلك إلى أن كلًّا من سطح اليابسة وقيعان البحار والمحيطات ليس تام الاستواء، بل يتعرج في تضاريس متباينة. ويقدر ارتفاع أعلى قمة على سطح اليابسة وهي قمة «إفرست» بأقل قليلاً من تسعة كيلومترات (8,848م)، ويقدر منسوب أخفض نقطة على سطح اليابسة ـ وهي حوض البحر الميت ـ بنحو أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وقاع البحر الميت الذي تصل أعمق أجزائه إلى نحو ثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر يعتبر جزءاً من اليابسة لأنه بحر مغلق. ويصل منسوب أعمق أغوار المحيطات ـ وهو «غور ماريانا» ـ في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين ـ إلى أكثر قليلاً من الأحد عشر كيلومتراً (11,033 كم)؛ وبذلك يصل الفرق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية إلى أقل قليلاً من العشرين كيلومتراً (19.881 كم)، وبنسبة ذلك إلى نصف قطر الأرض (المقدر بنحو6371 كيلومتراً في المتوسط) يتضح أن الفارق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية لا يكاد يتعدى 0.30%. من طول نصف قطرها.

وإذا أخذنا مجموع متوسط ارتفاع اليابسة (والمقدر بنحو840م فوق مستوى سطح البحر) ومتوسط أعماق البحار والمحيطات والمقدر بنحو أربعة كيلومترات في المتوسط (3729م إلى 4500م) ونسبنا ذلك إلى نصف قطر الأرض (المقدر بنحو6371 كم) كانت النسبة في حدود0.076% وهذا يمثل قمة التسوية والتمهيد والفرش لسطح الأرض خاصة إذا



نموذج لسطح الكرة الأرضية يظهر عدم استواء كل من قيعان المحيطات وسطح الأرض

علمنا أن اليابسة بدأت بسلاسل من الجبال شديدة الوعورة، ثم سخَّر الله ـ تعالى ـ عوامل التعرية المختلفة من الرياح، والمياه الجارية، والمجالد، والتباين في درجات الحرارة، والجاذبية الأرضية، والكائنات الأرضية المختلفة للقيام بعمليات التجوية والتحات إلى النقل والترسيب في تسوية تلك السلاسل الجبلية إلى تلال قليلة الارتفاع أو متوسطة، وسهول منبسطة تشقها الأودية والمجاري المائية التي تحمل رسوبياتها إلى السهول والمنخفضات كما تحملها إلى البحار والمحيطات مكونة دالات عملاقة ظاهرة ومغمورة تتقدم في البحار التي تصب فيها، وهنا تنتهي عمليات تعرية سطح الأرض بوصوله إلى مستوى سطح البحر على هيئة سهل تحاتي منبسط.

وقد استمر الصراع بين العمليات الداخلية البانية لسطح الأرض، والعمليات الخارجية الهدمية التي تحاول أن تصل بسطح الأرض إلى مستوى سطح البحر في دورات متتالية تعرف باسم «**دورات شكل الأرض**» أو «**دورات التحات**»، ظلت تعمل على مدى 4.6 بليون سنة على الأقل حتى تم تمهيد سطح الأرض وبسطه، وجعله فراشاً للإنسان ولغيره من المخلوقات، وأمكن شق الفجاج والسبل فيه، وتكوين المجاري المائية، والبحيرات الداخلية، والأغوار والمنخفضات الأخرى، وسوف يظل الأمر كذلك حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها في تبادل مستمر بين اليابسة والماء، القارات والمحيطات. وبين

المرتفعات والمنخفضات، وبين دورات الصخور وغير ذلك من عمليات الاتزان الأرضي التي سخرها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في تهيئة الأرض لاستقبال الحياة ولا تزال هذه القوى المسخرة تعمل إلى اليوم وحتى قيام الساعة. وفي تلك الدورات المتبادلة بين البناء والهدم تكونت السهول الخصبة، والتربة الغنية، والركازات للمعادن المختلفة، والصخور الرسوبية التي تحوي في أحشائها الكثير من خيرات الأرض التي تجمعت عبر ملايين السنين، من مثل راقات الفحم، وطبقات الفوسفات، والمتبخرات، ومخزون النفط والغاز، ومخزون الماء في قشرة الأرض، وغير ذلك من خيرات الله في كوكبنا.

ومعدلات تجمع الرسوبيات تتراوح بين مائة ومائتين من السنين للسنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة، بينما تتراوح معدلات التعرية بين ثلاث سنوات وثلاثمائة سنة لإزالة سنتيمتر واحد من كتلة الصخور المتكونة، وهذا يعني أن عمليات تسوية سطح الأرض حتى أصبحت صالحة للعمران قد استهلكت من الزمن والطاقة ما لا تستطيع البشرية



الجبال والسهول والشواطىء هي من أشكال تمهيد الارض لجعلها فراشاً صالحة للسكن للإنسان والحيوان

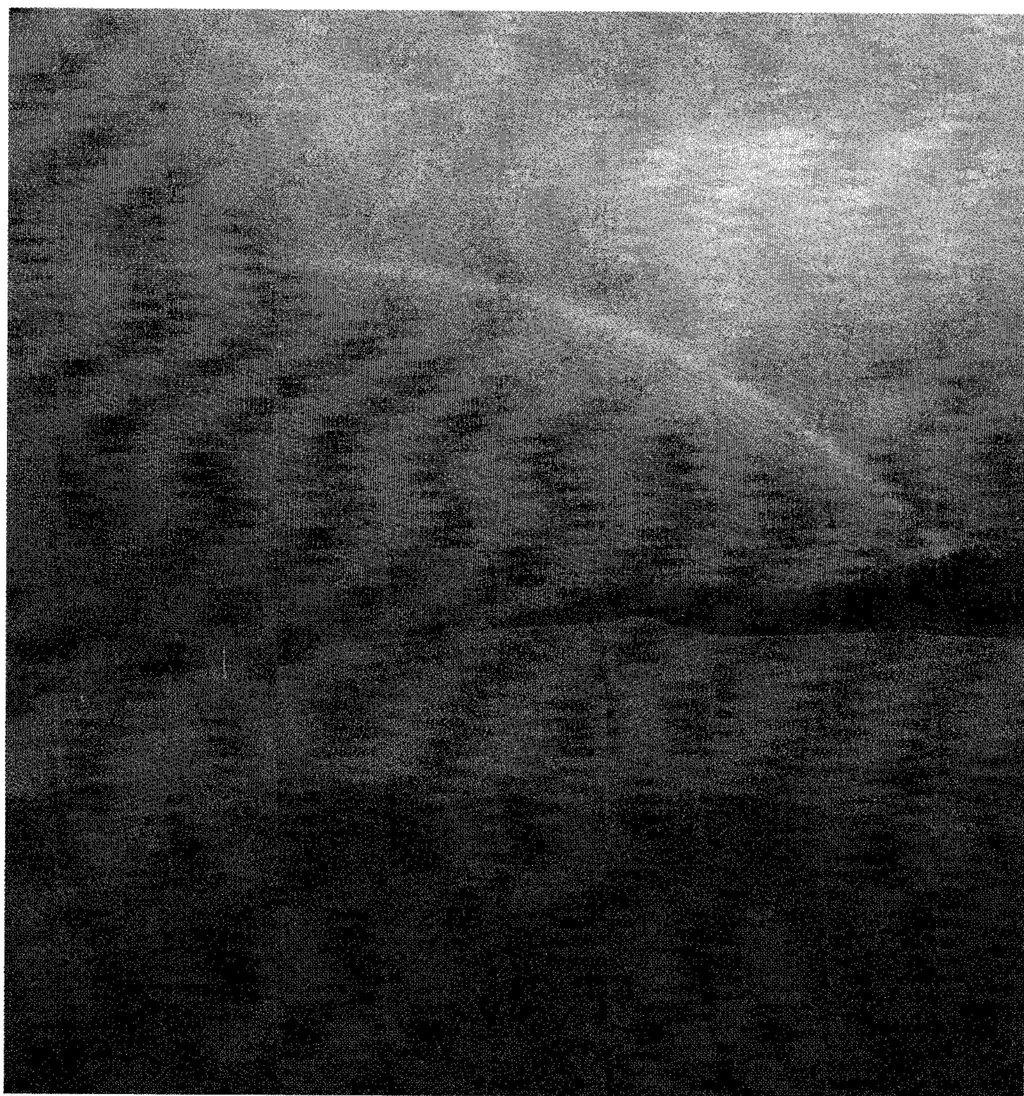
مجتمعة أن تقوم بالوفاء بتكلفته، ومن هنا يمنّ علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ـ عز من قائل ـ:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا . . .﴾.

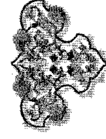
وذلك في مقام الاستدلال على ألوهيته ووحدانيته وطلاقة قدرته في إبداعه لخلقه.

هذه الحقائق التي ساقتها الآية الكريمة التي نحن بصددها لتنتهي إلى الأمر بتوحيد الله الخلاق الرزاق العليم، وإلى النهي عن الشرك به ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ذلك الشرك الذي وصفه ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير لفظة الأنداد بقوله: «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. . .».

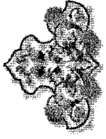
هذه الحقائق الكونية لم يصل إليها علم الإنسان إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وورودها في كتاب الله المنزل من قبل أربعة عشر قرناً لمما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه، كما يشهد بصدق ما جاء به من الدعوة إلى التوحيد الخالص لله، وعبادته ـ تعالى ـ وحده بما أمر ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ فأشهد أنه لا إلٰه إلا الله وأن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

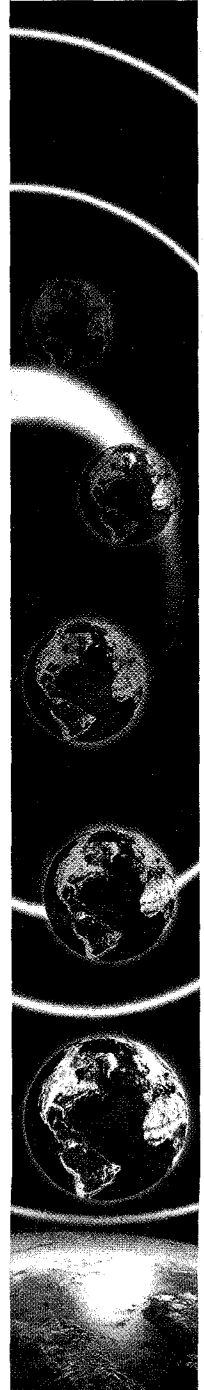


بسم الله الرحمن الرحيم



(15) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨)﴾ (الذاريات: 48)





هذة الآية الكريمة جاءت في الربع الأخير من سورة «الذاريات»، وهي سورة مكية وعدد آياتها ستون (60) بعد البسملة ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية، ومن ركائز العقيدة التي جاءت في سورة «الذاريات»: الإيمان بالبعث والجزاء؛ ولذلك بدأت السورة بالقسم بعدد من آيات الله في الكون على حقيقة البعث، وحتمية وقوع الجزاء، ثم تابعت بقسم آخر: (بالسماء ذات الحبك) على أن الناس في أمر البعث والحساب والجزاء غير مستقرين على رأي واحد؛ فمنهم المؤمن، ومنهم الكافر، وأنه لا يُصْرَفُ عن هذا الحق إلا صاحب هوى. وأكدت السورة الكريمة حتمية هلاك الكذابين المنكرين ليوم الدين، والقائلين فيه بالظن والتخمين، واللاهين عنه والمتشككين في حتمية وقوعه حتى يسألوا عنه سؤال المستهزيء به، المستبعد لإمكانية تحقيقه.

وتعرض سورة «الذاريات» لشيء من سوء مصير الكافرين في الآخرة، وتقابله بفيض التكريم والتنعيم الذي أعده ربنا ـ تبارك وتعالى ـ للمتقين من عباده جزاء إحسانهم في الدنيا.

وتدعو إلى تأمل آيات الله في الأرض، وفي الأنفس، وفي الآفاق، وإلى استخلاص الدروس والعبر من تأملها، وأردفت الآيات بقسم عظيم برب السماء والأرض على صدق ما وعد الله ـ تعالى ـ به الناس من البعث والحساب والجزاء، وعلى حتمية وقوع كل ما جاء به الدين الخاتم الذي بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وألمحت السورة إلى قصة أبي الأنبياء «إبراهيم عليه السلام» مع

ضيفه من الملائكة، وعرضت لبعض الأمم البائدة، وإلى ما أصابها من هلاك ودمار لانحرافها عن منهج الله، وتكذيبها لأنبيائه ورسله. ومن هذه الأمم التي أشارت إليها سورة الذاريات أقوام «لوط»، و «فرعون»، و «عاد»، و «ثمود» و «نوح».

ثم عاودت السورة استعراض عدد من **الآيات الكونية** الدالة على طلاقة القدرة الإلهية، وأردفت بالدعوة للرجوع إلى الله ـ تعالى ـ، وإلى التحذير من الشرك به، وتأكيد أن الرزق منه وحده ﷻ وذلك في مواضع عديدة من السورة التي كررت وصف الرسول الخاتم ﷺ بأنه نذير مبين من الله ـ تعالى ـ إلى الناس كافة، وأن عبادة الله وحده ـ بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع ولا صاحبة، ولا ولد ـ وتنزيهه، وتعظيمه عن كل وصف لا يليق بجلاله؛ هي الغاية من خلق كل من الإنس والجن.

وأنذرت السورة في ختامها الذين يكذبون ببعثة رسول الله ﷺ أو يحاولون التطاول على شخصه الكريم، وهم الأقزام الضالة، وتوعدتهم بمثل ما أصاب الأمم السابقة عليهم من عذاب...!!

والسورة في مجمل سياقها دعوة إلى الناس كافة لتوجيه القلوب إلى عبادة الله ـ تعالى ـ ولتخليصها من عوائق الحياة، ووصلها بخالقها الذي هو رب هذا الكون ومليكه.

والآيات الكونية المذكورة في سورة «الذاريات» أكثر من أن تحصى؛ ولذلك سأقتصر هنا على آية واحدة منها هي قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ **(الذاريات: 48).**

(1) **الأرض**: سبق لنا عرض الدلالة اللغوية للفظة **«الأرض»** في اللغة العربية، ولا حاجة بنا إلى تكرار ذلك هنا.

(2) **(فرشناها)**: يقال في اللغة: (فرش) الشيء (يفرشه) (فرشاً) و(فراشاً) بمعنى بسطه بسطاً، ويقال (للمفروش): (فرش) و(فراش)، وجمعهما (فُرُشٌ)، و(الفرش) هو (المفروش) أي المبسوط من متاع البيت.

قال ـ عز من قائل ـ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ **(البقرة: 22).**

وقال ـ تعالى ـ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ **(الرحمٰن: 54).**

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ **(الواقعة: 34).**

و(الفرش) يطلق أيضا على صغار الإبل ومنه قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ **(الأنعام: 142).**

وذلك لأن (الفرش) هو ما يفرش من الأنعام، أي يركب، قال الفراء: «ولم أسمع له بجمع»، وأضاف: و«يحتمل أن يكون مصدراً سمي به من قولهم: (فرشها) الله (فرشاً) أي بثها بثاً.

ويقال: (افترش) الشيء بمعنى انبسط، و(افترشه) أي وطئه، و(افترش) ذراعيه إن بسطهما تحته على الأرض أي اتخذهما كالفراش، و(تفريش) الدار تبليطها.

و(الفراشة) وجمعها (فراش) حشرة من رتبة حرشفيات الأجنحة **(Lepidoptera)** تتميز بزوجين من الأجنحة الحاملة للحراشيف الملونة والمزركشة، والفراش يحبُّ الضوء ويتهافت على مصادره حتى يهبط فيها فيحترق، ولذا قيل في المثل: «أطيش من فراشة»، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ **(القارعة: 4)**.

(3) **(الماهدون)**: و(المهد) في اللغة هو ما يهيأ للغير من فراش، يقال: مهد الفراش (يمهده) (تمهيداً) و(مهداً) أي بسطه يبسطه بسطاً، قال ـ تعالى ـ:

﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ **(مريم: 28)**.

(المهد) و (المهاد) أيضا هو المكان (الممهد) الموطأ. قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ **(طه: 53)**.

ويقال: (امتهد) السنام أي تسوى فصار (كالمهد) أو (المهاد)، و(الماهد) هو الذي (يمهد) وجمعه (ماهدون)، قال ـ تعالى ـ:

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ **(الذاريات: 48)**.

ويقال في اللغة: (مهدت) لك كذا أي هيأته وسويته، قال ـ تعالى ـ:

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾ **(المدثر: 14)**.

وقال ـ عز من قائل ـ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۝٤٤﴾ **(الروم: 44)**.

بسط الأرض وتمهيدها في القرآن الكريم

جاء ذكر الأرض في أربعمائة وواحد وستين موضعاً من كتاب الله؛ منها ما يشير إلى كوكب الأرض في مقابلة السماء أو السمٰوات؛ ومنها ما يشير إلى اليابسة التي نحيا عليها أو إلى جزء منها؛ ومنها ما يشير إلى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وتفهم الدلالة من سياق الآية الكريمة.

وجاء ذكر (فرش الأرض)، وبسطها، وتمهيدها، وتوطئتها، وتسويتها، وتذليلها في عشر آيات من آي القرآن الكريم على النحو التالي:

(1) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ (البقرة: 22).

(2) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ (طه: 53).

(3) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠﴾ (الزخرف: 10).

(4) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ (الذاريات: 48).

(5) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: 15).

(6) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ۝٢٠﴾ (نوح: 19، 20).

(7) ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧﴾ (النبإ: 6، 7).

(8) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١﴾ (النازعات: 30، 33).

(9) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ (الغاشية: 17، 20).

(10) ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ (الشمس: 6).

وجاء ذكر خلق الأرض وذكر عدد من صفاتها وظواهرها وأحداثها في أكثر من مائة وسبعين آية أخرى، لا أرى مجالاً لذكرها هنا.

من أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ (الذاريات: 48).

• ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «والأرض فرشناها؛ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾؛ أي: وجعلناها مهداً لأهلها».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما نصه: «﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ مهدناها، ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ نحن».

• وذكر صاحب الظلال ـ عليه من الله الرحمات ـ قوله: «فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهداً للحياة كما أسلفنا، و «الفرش» يوحي باليسر والراحة والعناية، وقد هيئت الأرض لتكون محضناً ميسراً ممهداً، كل شيء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿فَرَشْنَـٰهَا﴾ مهدناها كالفراش للاستقرار عليها .﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ المسوون المصلحون».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كل من شارك في إخراجه خير الجزاء ـ ما نصه: «والأرض بسطناها، فنعم المهيئون لها نحن كالمهاد».

• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ ما نصه: «﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾ أي: والأرض مهدناها لتستقروا عليها، وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات، وأنواع المزروعات. ولا ينافي ذلك كرويتها؛ فذلك أمر مقطوع به؛ فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة، فيها السهول الفسيحة والبقاع الواسعة، مع الجبال والهضاب ولهذا قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن، وصيغة الجمع للتعظيم...».

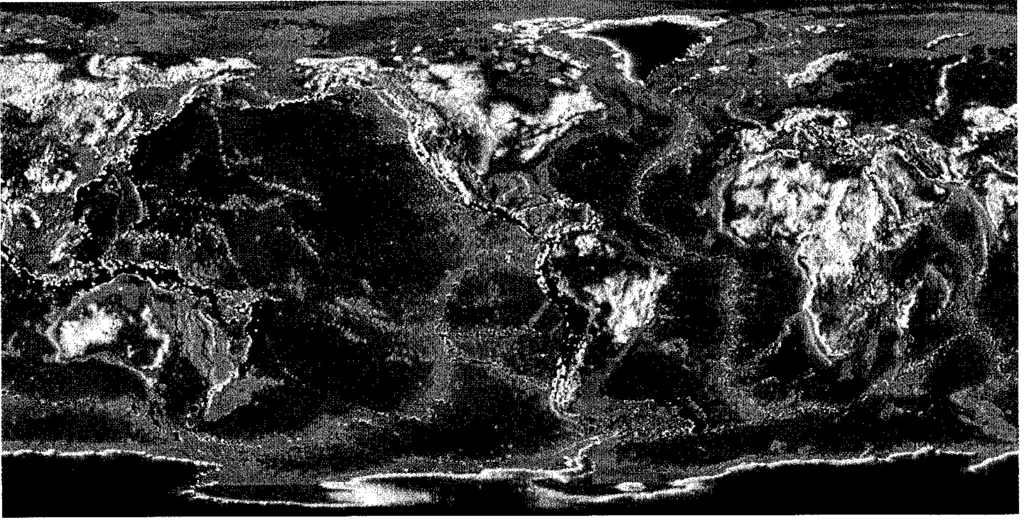
بسط الأرض وتمهيدها في العلوم الحديثة

أولاً: تضاريس الأرض الحالية:

تقدر مساحة سطح الأرض الحالية بحوالي 510 ملايين كيلومتر مربع، منها 149 مليون كيلومتر مربع يابسة تمثل حوالي 29% من مساحة سطح الأرض، و361 مليون كيلومتر مربع مسطحات مائية تمثل الباقي من مساحة سطح الأرض (71%). ومن هذه النسبة الأخيرة أرصفة قارية تعتبر الجزء المغمور بالمياه من حواف القارات وتقدر مساحتها بحوالي 173.6 مليون كيلومتر مربع.

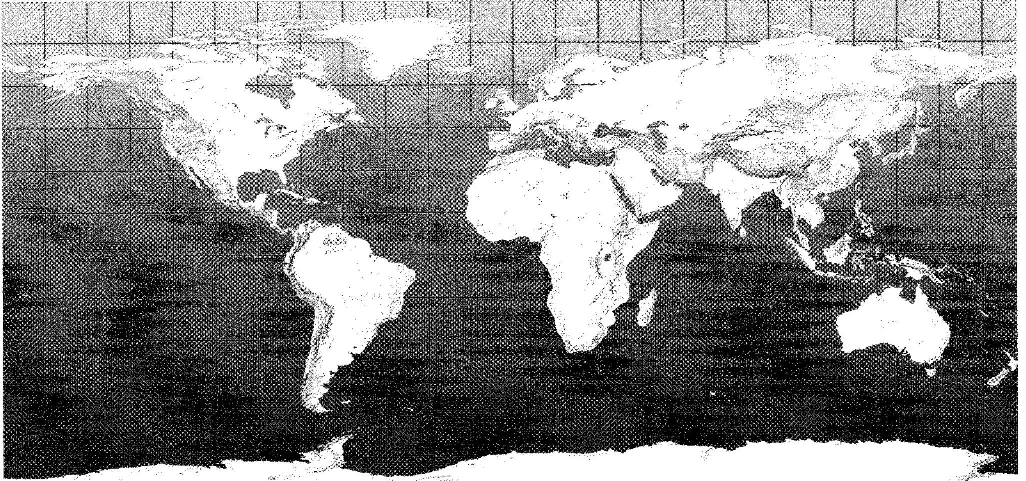
وكل من سطح اليابسة وقيعان البحار والمحيطات ليس تام الاستواء، ولكنها جميعاً متعرجة في تضاريس متباينة للغاية، فعلى اليابسة هناك سلاسل الجبال ذات القمم السامقة، وهناك التلال متوسطة الارتفاع، وهناك الروابي، والهضاب، والسهول، والمنخفضات الأرضية المتباينة.

وفي المسطحات المائية هنالك البحار الضحلة والبحيرات، كما أن هناك البحار العميقة والمحيطات التي تتدرج فيها الأعماق من الأرصفة القارية إلى المنحدرات القارية، ثم إلى أعماق وأغوار قيعان المحيطات.



رسم للكرة الأرضية ويظهر فيها اختلاف التضاريس على اليابسة وفي قيعان المحيطات، اللون الأحمر يدل على الارتفاع

وتضاريس سطح الأرض الحالية هي نتيجة صراع طويل بين العمليات الداخلية البانية والعمليات الخارجية الهدمية والتي استغرقت حوالي الخمسة بلايين من السنين (4600 مليون سنة).

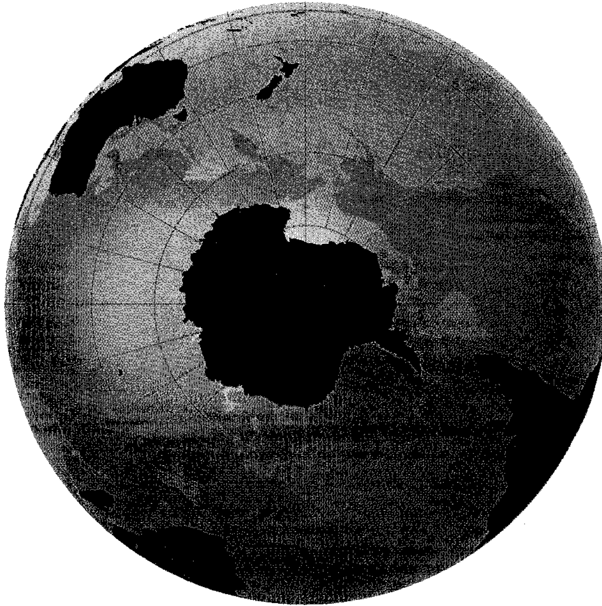


تُشكل اليابسة 29٪ من مساحة سطح الأرض، ويغطى الماء 71٪ من مساحة ذلك السطح



ثانياً: الاتزان الأرضي:

لما كان سطح الأرض في توازن تام مع تباين تضاريسه، فلا بد أن هذا التباين في التضاريس يعوضه تباين في كثافة الصخور المكونة لكل شكل من أشكال هذه التضاريس، فالمرتفعات على اليابسة لا بد وأن يغلب على تكوينها صخور كثافتها أقل من كثافة الصخور المكونة للمنخفضات من حولها، ومن ثم فلا بد وأن يكون لتلك المرتفعات امتدادات من صخورها الخفيفة نسبياً في داخل الصخور الأعلى كثافة المحيطة بها، ومن هنا كان الاستنتاج الصحيح بأن كل مرتفع أرضي فوق مستوى سطح البحر له امتدادات في داخل الغلاف الصخري للأرض يتناسب عمقها مع ارتفاعه، وأن كل جبل من الجبال له جذور عميقة من مكوناته الخفيفة تخترق الغلاف الصخري للأرض لتطفو في نطاق الضعف الأرضي حيث تحكمها قوانين الطفو المعروفة كما تحكم أي جسم طاف في مياه البحار والمحيطات من مثل جبال الجليد والسفن.



رسم تخطيطي للكرة الأرضية يظهر كبر المساحة المائية التي تبلغ أكثر من ضعفي مساحة اليابسة



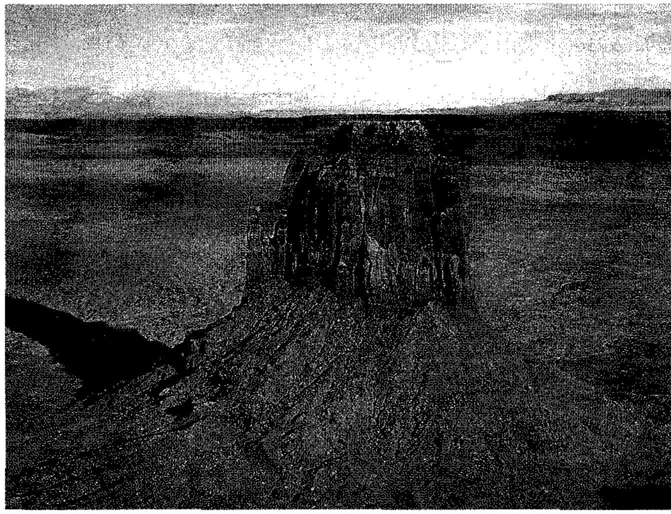
رسم يوضح الامتداد الداخلي للقارات والجبال داخل القشرة الأرضية

وهذه الامتدادات الداخلية للجبال تتراوح أطوالها من 10 إلى 15 ضعف الارتفاع فوق مستوى سطح البحر وذلك بناءً على كثافة صخورها، وكثافة الوسط الغائرة فيه، ومنسوب ارتفاعها، وكلما برت عوامل التحات والتجوية والتعرية من قمم الجبال فإن هذه الجبال تنسحب بالتدريج من نطاق الضعف الأرضي وترتفع إلى أعلى للمحافظة على ظاهرة الاتزان الأرضي، وتظل عملية الارتفاع إلى أعلى مستمرة حتى تخرج جذور الجبال من نطاق الضعف الأرضي بالكامل، وهنا يتوقف الجبل عن الارتفاع، وتظل عمليات التجوية والتحات والتعرية مستمرة في بريه حتى تكشف تلك الجذور، وبها من خيرات الله في الأرض ما لا يمكن أن يتكون إلا تحت مثل تلك الظروف العالية من الضغط والحرارة التي لا تتوافر إلا في جذور الجبال.

ثالثاً: بدايات تكوّن تضاريس سطح الأرض:

تشير الدراسات الحديثة للأرض إلى أن هذا الكوكب بدأ على هيئة كومة من الرماد الذي ليس فيه من العناصر أثقل من «السيليكون»، ثم رُجِم بوابل من النيازك الحديدية التي تحركت إلى قلبه بحكم كثافتها العالية فانصهرت وساعدت على صهر كومة الرماد تلك، وعلى تمايزها إلى سبع أرضين: لب صلب داخلي أغلبه الحديد والنيكل، يليه إلى الخارج لب سائل يغلب على تركيبه أيضاً الحديد والنيكل، ثم ثلاثة أوشحة متمايزة تقل كثافتها كما تتناقص نسبة الحديد فيها باستمرار من الداخل إلى الخارج، ثم الغلاف الصخري للأرض ويتكون من نطاقين: القشرة وما دون القشرة.

ومع تبرد قشرة الأرض وتيبسها، ومع بدء الأنشطة البركانية العنيفة فيها تصاعدت



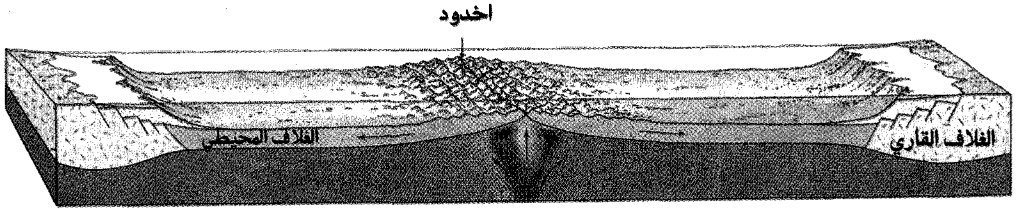
صورة لتربة سطح الأرض بفعل عوامل التعرية مع بقاء الصخور الصلبة بارزة وتآكل الصخور الهشة الضعيفة لتكون السهول المنبسطة

الغازات والأبخرة التي كونت غلافيها الغازي والمائي، كما تصاعدت الطفوح والحمم وفتات الصخور البركانية التي بنت الغلاف الصخري للأرض في مرحلة تعرف باسم «**مرحلة دحو الأرض**». وبتكون الغلاف المائي للأرض أحيط كوكبنا بمحيط غامر غطى سطحه بالكامل، وتحت مياه هذا المحيط الغامر بدأت عمليات التصدع في تمزيق قاعه إلى عدد من الألواح التي بدأت في التحرك متباعدة عن بعضها البعض، أو متصادمة مع بعضها البعض، أو منزلقة عبر بعضها البعض في حركية (ديناميكية) ساعدها دوران الأرض حول محورها، وتدفق الصهارة الصخرية والحمم البركانية عبر صدوع القاع، في هذا المحيط الغامر، وتيارات الحمل في نطاق الضعف الأرضي من تحتها؛ وبنمو تلك الجزر البركانية والتحامها مع بعضها تكونت القارة الأم التي طفت بصخورها الخفيفة نسبياً فوق قاع المحيط الغامر المكون أساساً من الصخور البازلتية الأعلى كثافة.

وبتكرار تصادم الألواح الصخرية المختلفة المكونة لقاع المحيط الغامر بكتلة القارة الأم تكونت السلاسل الجبلية التي ألصقت بحواف تلك القارة بالتدريج مضيفة إلى مساحتها مساحات جديدة باستمرار، ومبطئة لحركتها التي بدأت سريعة وعنيفة بشكل ملحوظ.

وبارتفاع درجات الحرارة تحت أحزمة محددة من الكتلة القارية الأولى بفعل التحلل النووي للعناصر المشعة فيها، وتكون ما يسمى بالنقاط الحارة تصدعت القارة الأم بشبكة هائلة من الصدوع التي مزقتها إلى سبع قارات، وبدفع تيارات الحمل في نطاق الضعف الأرضي من تحتها أخذت تلك القارات في التباعد عن بعضها، وبدأت الحركات الداخلية للأرض في دفع الألواح الصخرية المكونة لقيعان المحيطات متباعدة عن بعضها البعض

لتحقق ظاهرة توسع قيعان البحار والمحيطات، وتجدد مادتها باستمرار، وبالتصادم مع ما يقابلها من الألواح الصخرية المكونة لكتل القارات أخذت تضيف إليها مزيداً من السلاسل الجبلية باستمرار، ولا تتوقف هذه الحركات الأرضية العنيفة إلا باصطدام قارتين بعد تلاشي قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما تحت إحدي القارتين، وباصطدامهما تتكون أعلى السلاسل الجبلية كما حدث عند اصطدام الهند بالقارة الآسيوية/ الأوروبية.



رسم تخطيطي يوضح عملية اتساع قاع المحيط باندفاع الصهارة الصخرية في وسطه

وكما ينغلق محيط من المحيطات باصطدام قارتين كانتا مفصولتين عن بعضهما البعض بمياهه، قد تنقسم قارة من القارات بواسطة تصدع في أحد أجزائها يتحول إلى انهدام على هيئة وادٍ خسيف أو غور عميق من أغوار الأرض تنشط فيه عملية الهبوط إلى ما دون منسوب الماء في البحار والمحيطات المجاورة فتندفع مياهها إلى هذا الغور محولة إياه إلى بحر طولي شبيه بالبحر الأحمر، ثم تنشط فيه عملية اتساع القاع حتى تحوله إلى محيط.

وهذه الدورة من دورات الحركات الأرضية تسمى «**دورة المحيط والقارة**» يتحول بواسطتها المحيط إلى قارة أو يتلاشى بالكامل تحت إحدى القارات.

كذلك قد تنقسم القارة إلى قارتين بتكون بحر طولي فيها يظل يتسع حتى يصل إلى حجم المحيط.

رابعاً: دورات تغير شكل الأرض

بهذا المفهوم لنشأة محيطات وقارات الأرض والذي يعرف باسم «**مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض**» (**The Plate Tectonics' Concept**) ثبت أن القارات تبدأ بسلاسل من الجبال، شديدة الوعورة، قاسية التضاريس، لا تصلح لزراعة، ولا لانتقال، ولا لعمران، ثم يسخر الله تعالى عمليات التجوية المختلفة، وعمليات الحت والنقل والتعرية والترسيب بواسطة كل من الرياح، والمياه الجارية، والمجالد، والجاذبية الأرضية، في تفتيت وتعرية التضاريس من الأطواف، والمنظومات، والسلاسل، والأحزمة الجبلية

ومجموعاتها المعقدة، وتحويلها إلى تلال متوسطة الارتفاع يتم بريها إلى سهول منبسطة مع الزمن، كما يتم شقها بواسطة أودية عميقة تجري فيها الأنهار، وتحمل رسوبياتها إلى السهول والمنخفضات وفي النهاية إلى قيعان البحار والمحيطات مكونة دالات عملاقة تتقدم على حساب البحار التي تصب فيها، وهنا تنتهي دورة تعرية سطح الأرض وتبدأ دورة الصخور وغيرها من الدورات التي لعبت ـ ولاتزال تلعب ـ أدواراً هامة في تسوية سطح الأرض وتمهيدها، وشق السبل فيها وتكوين التربة اللازمة للزراعة وللإنبات، وتركيز العديد من الثروات المعدنية، وتزويد البحار والمحيطات بالأملاح اللازمة لحفظ مياهها من الفساد، ولتوفير البيئات المتعددة لبلايين الكائنات الحية التي تحيا فيها، والقادرة على ترسيب سمك هائل من أملاح وصخور المتبخرات منها عند تبخرها، وبصفة عامة تبدأ دورات عديدة لجعل الأرض صالحة للعمران.

وقد استمرت عمليات تشكيل سطح الأرض بواسطة العمليات الخارجية الأصل من التجوية والنقل والتآكل (التحات) التي تجمع كلها تحت مسمى «التعرية»؛ أي: تعرية الصخور بنقل حطامها الناتج عن عمليات التجوية والتحات إلى مكان آخر لتبقى الصخور مكشوفة تعاني من تلك العمليات من جديد، حتى تتحول المنطقة شديدة التضاريس إلى سهل تحاتِّي. ويكمل عمليات التعرية عمليات الترسب بمعنى توضع الفتات الصخري الناتج عن عمليات التعرية إما في مكان مؤقت أو في مكان تستقر فيه لتكون مختلف أنواع الرسوبيات؛ ومن ثم الصخور الرسوبية. وعمليات الترسب هذه إما أن تتم بطريقة ميكانيكية أو بطريقة كيميائية، أو بتدخل الكائنات الحية بعد خلقها على سطح الأرض.

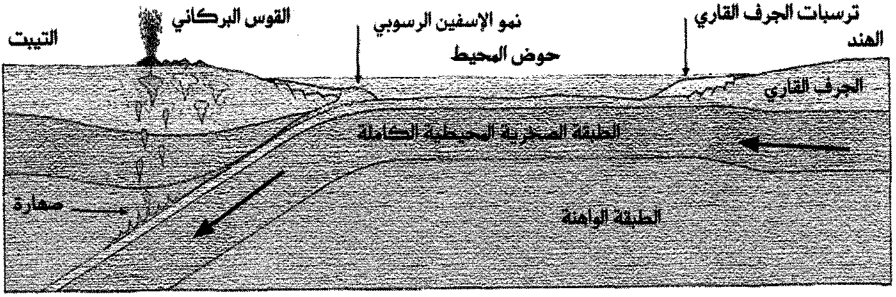
كذلك فإن العمليات الداخلية من مثل الهزات الأرضية، والثورانات البركانية ـ وغيرها من حركات الصهارات الصخرية، والحركات البانية للجبال ـ تلعب دوراً هاماً في إعداد سطح الأرض لدورة تضاريسية جديدة تتعرض لعوامل التعرية المختلفة حتى يتم تمهيد سطح الأرض وبسطه، وشق الفجاج والسبل فيه، وتكون المجاري المائية والبحيرات الداخلية والأغوار والمنخفضات الأخرى فيه، وتظل الأرض يتبادلها البناء والهدم، في دورات متتالية تسمى باسم «**دورات شكل الأرض**» أو «**دورات التحات**».

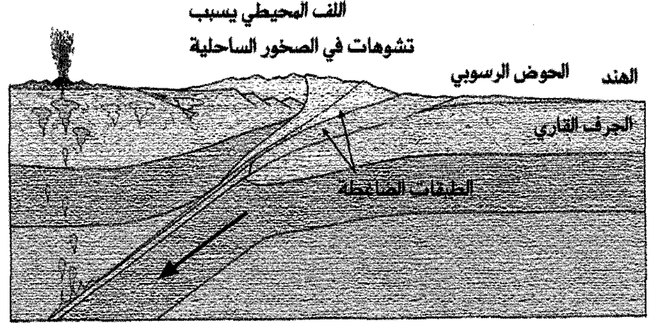
خامساً: عودة الاتزان الأرضي:

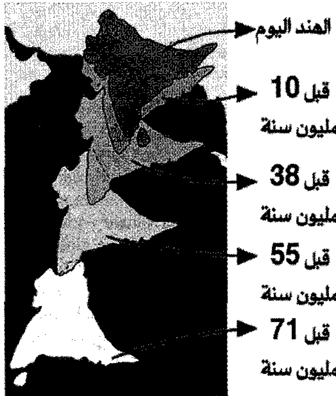
لما كانت ظاهرة الاتزان الأرضي تتأثر بفعل عوامل التعرية، كما تتأثر بترسب كميات كبيرة من الفتات الصخري الناتج عنها فوق مناطق أخرى من سطح الأرض، فإن قوى الجاذبية الأرضية تلعب دورها في إعادة التوازن من جديد، فعندما تنخفض القشرة الأرضية

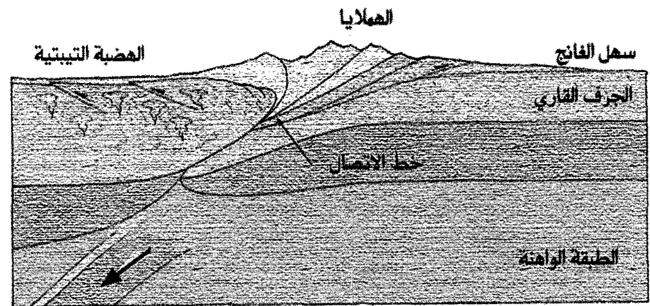
عند تعرضها لأحمال زائدة فإن ذلك ينتج عن تحرك وزن مكافئ من الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي تحت نفس المنطقة إلى المناطق التي بريت صخورها فتؤدي إلى رفعها، وتسمى العملية الأولى «**بالتضاغط الأرضي**»، والثانية «**بالارتداد التضاغطي**»، وبذلك تستمر عمليات الاتزان الأرضي مواكبة لعمليات التعرية باستمرار طوال دورات البناء والتحات؛ وبذلك يغطى الغلاف الصخري للأرض بغلالة مختلفة السمك من التربة الصلصالية أو الغرينية أو الرملية أو غيرها من الرواسب الصخرية المفروطة من مثل الرمال والحصباء والحصى، ويتباين سمك التربة بتباين نوع الصخور وتضاريس الأرض، والظروف المناخية السائدة فيها، وعوامل التعرية المؤثرة عليها من رياح أو مياه جارية، أو مجالد أو بحار ومحيطات وتتوقف عمليات التعرية عندما يصل سطح الأرض إلى مستوى سطح البحر الذي يعرف باسم «مستوى القاعدة» وإذا تغير منسوب هذا المستوى إما بارتفاع اليابسة أو بانخفاض منسوب سطح البحر، فإن عوامل التعرية تنشط من جديد حتى يصل مستوى سطح الأرض إلى مستوى القاعدة الجديد، وعلى العكس من ذلك فإنه إذا ارتفع منسوب الماء في البحار والمحيطات دون اختلاف في منسوب الأرض توقفت عوامل التعرية عند خط القاعدة الجديد، وقد تؤدي عمليات تسوية سطح الأرض إلى طغيان مياه البحار على أجزاء من اليابسة كما تؤدي عمليات بناء سطح الأرض إلى انحساره عنها مما كان له أعظم الأثر في تهيئة الأرض لاستقبال الحياة.

وظلت تضاريس الأرض تتعاورها عمليات البناء والهدم منذ اللحظة الأولى لنشأتها إلى يومنا الراهن، وسوف تستمر كذلك إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها؛ بمعنى تكون الجزر البركانية في أواسط المحيطات ونموها إلى قارات صغيرة أو شبه القارات، ثم اصطدامها والتحامها مع بعضها البعض على هيئة قارة أو عدد من القارات يبدأ كل منها بالنمو بإضافة سلاسل جبلية إلى حوافها حتى تصل إلى أقصى حجم لها، ثم تتقارب تلك القارات من بعضها البعض حتى تلتحم في النهاية لتكون قارة واحدة، ثم تعاود هذه القارة التفتت إلى عدد من القارات التي تبدأ في التباعد عن بعضها البعض تاركة بينها محيطات جديدة، ثم تبدأ قيعان المحيطات الجديدة في التصدع وممارسة عملية اتساع وتجديد في الصخور المكونة لها، فتصطدم قيعان المحيطات بالقارات المقابلة مكونة عددا من السلاسل الجبلية التي تضاف إلى حواف القارات فتنمو وتندفع بالتدريج مع هذا النمو إلى قلب القارة حيث تكون عوامل التعرية قد برتها وحولتها إلى ما يسمى بالدروع القديمة أو الرواسخ، وتكون سلاسل جبلية جديدة قد تكونت عند حافة القارة، وهكذا تتحول المحيطات إلى قارات، وتتفتت القارات لتفصلها بحار طولية تتسع بالتدريج لتتحول إلى









رسم بياني يظهر كيفية تصادم الجزر البركانية ببعضها البعض عبر ملايين السنين والتحامها لتكون قارة واحدة

محيطات جديدة في «**دورة القارة/ المحيط**»، والتي تؤكد لنا أن أرضنا التي بدأت بمحيط غامر تحولت إلى قارة جبلية شديدة التلاحم والوعورة، ثم تعرضت عبر ملايين السنين لعوامل الهدم الخارجية من رياح ومياه جارية ومجالد وعمليات من المد والجزر وأعمال الكائنات الحية منذ خلقها وقد تمكنت هذه العمليات مجتمعة من تسوية التضاريس الأرضية وشقت فيها السبل والمجاري المائية والسهول والوديان وكونت التربة التي تنتشر على هيئة غطاء رقيق للصخور وفي السهول والمنخفضات وفي قيعان البحار والمحيطات. ويظل هذا الصراع بين عوامل الهدم الخارجية لتضاريس الأرض حتى تصل بها إلى منسوب سطح البحر أو إلى



صورة لتشقق الجبال في المرتفعات وتكون السهول بينها

مستوى قريب من ذلك حين يتوقف الصراع، أو تتدخل عوامل البناء الداخلية فتعيد رفع أجزاء من سطح الأرض على هيئة عدد من التضاريس الجديدة فيبدأ الصراع من جديد.

وفي دورات تكون القارات وتبادلها مع المحيطات، ودورات البناء والهدم على سطح القارات تتكون السهول الخصبة، والتربة الغنية، والصخور الرسوبية المختلفة التي تحوي في أحشائها الكثير من الخيرات الأرضية من مثل النفط، والغاز الطبيعي، والفحم، والمياه تحت السطحية، وركازات العديد من المعادن الاقتصادية التي يمكن أن تتكون أثناء عمليات الترسب أو بواسطتها، ولولا ذلك كله ما أنبتت الأرض ولا كانت صالحة للعمران.

ومعدلات تجمع الرسوبيات تتباين تبايناً شديداً بتباين نوع الراسب المتكون، والعوامل المساعدة على ترسبه، وقد وجد أن ذلك يتراوح بين المائة والمائتي سنة لتجمع السنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة، بينما تتراوح معدلات التعرية بين ثلاث



صورة لقمة جبلية صامدة أمام عمليات التعرية المختلفة بينما تآكلت الصخور من حولها مكونة سهولاً فسيحة

سنوات وثلاثمائة سنة لإزالة سنتيمتر واحد من كتلة الصخور، وهذا يعني أن عمليات تسوية سطح الأرض حتى أصبح صالحاً للعمران قد استهلكت من الطاقة والوقت ما لا تستطيع البشرية مجتمعة عبر عصور وجودها على سطح هذا الكوكب، وبكل ما جمعت من ثروات أن تقوم بالوفاء بتكلفته، ومن هنا يمن علينا ربنا بقوله ـ عز من قائل ـ:

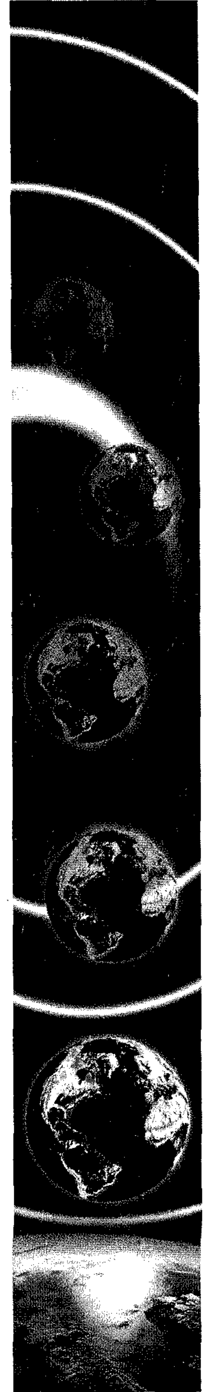
﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ **(الذاريات: 48)**.

وهذه الحقائق لم تصل إلى علم الانسان إلا في القرنين الأخيرين، وفي العقود المتأخرة منهما، ولم تتبلور أمام أنظار العلماء إلا منذ عقود قليلة، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة من السنين هو شهادة حق على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلَّى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(16) ﴿... وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾

(فاطر: 27)



هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الثاني من سورة «فاطر»، وهي سورة مكية وعدد آياتها (45) بعد البسملة، وقد استهلت بحمد الله ـ تعالى ـ فاطر السمٰوات والأرض؛ أي: خالقهما على غير مثال سابق، وجاعل الملائكة رسلاً إلى أنبيائه ورسله خاصة، وإلى بقية عباده بصفة عامة، والملائكة خلق غيبي متعددو الأجنحة. واستعرضت السورة عدداً من صفات الله وأسمائه ومنها: أنه ـ تعالى ـ الخالق، الرازق، القادر، القدير، العزيز، الحكيم، المنعم، الحليم، العليم، الغفور، البصير، الشكور، الخبير، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، صاحب الرحمات الواسعة، الذي يفتح للناس منها ما لا يمكن لأحد أن يغلقه، ويغلق ما لا يمكن لأحدٍ أن يفتحه...!!!

وتُذَكِّر السورة الكريمة الناس بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم، وتستنكر جحودهم لها..، وتثبت رسول الله ﷺ في مواجهة تكذيب الكافرين لنبوته بتقرير أن الرسل من قبل قد كذبوا، على الرغم من أنهم جاءوا أممهم بالمعجزات الواضحات والوحي المنزل بالهداية الربانية، فأخذ الله المكذبين بوحيه أخذاً شديداً عقاباً لهم على كفرهم، وأن الأمور كلها مردها إلى الله ـ تعالى ـ فيجازي كلًّا بما يستحق.

وتؤكد سورة «فاطر» أن وعد الله حق، وعليه فلا يجوز للخلق أن يغتروا بالدنيا فتلهيهم عن الآخرة، ولا أن ينخدعوا بالشيطان وهو عدو لهم فيثنيهم عن اتباع الهداية الربانية، ويمنيهم بالمغفرة مع الإغراق في معاصي الله، ومن ثم فلا بد من مقابلة الشيطان بالعداوة التي يستحقها؛

لأنه من خبثه وعداوته للإنسان يحرص على تزيين سوء عمله له حتى يراه حسناً فيقوده بذلك إلى النار...!!

وتؤكد السورة كذلك على أن العزة لله ـ تعالى ـ وحده، فمن أرادها فسوف يجدها في طاعة الله، وأن الذين كفروا سوف يلقون عذاباً شديداً، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم من الله مغفرة وأجر كبير، وأن الله ـ تعالى ـ يضل من يشاء ممن ارتضوا الضلال سبيلاً، ويهدي من يشاء ممن اختاروا الهداية سبيلاً، وتضرب السورة الأمثال للناس من حياتهم، وتوصي الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ ألَّا يحزن على مصير الضالين؛ لأن الله ـ تعالى ـ عليم بما يصنعون.

وتحذر سورة «فاطر» من الشرك بالله، وتؤكد عجز الشركاء المزعومين وحاجتهم، بل وحاجة الخلق جميعا إلى الله ﷻ، وأنه سبحانه غني عن العالمين. ومن قبيل التقريع تذكر سورة «فاطر» المشركين بالله بأن شركاءهم لا يستطيعون خلق شيء في الأرض، وليست لهم أدنى شراكة في السمٰوات، وأنهم لم يتلقوا تفويضاً من الله ـ تعالى ـ بذلك، وعلى الرغم من ادعائهم، وقسمهم كذباً بالله أنهم إذا جاءهم نذير فسوف يكونون أهدى من غيرهم من الأمم، فإنهم لما جاءهم النذير ازدادوا نفوراً من الحق، وأن هؤلاء الظالمين لا يَعِدُ بعضهم بعضاً إلا ظناً كاذباً، وقد استمرأوا الخروج على منهج الله استكباراً في الأرض، ومكراً سيئاً بأهلها، والمكر السيء لا يحيق إلا بأهله، ولم يعتبروا بما حدث للأمم السابقة عليهم، والتي كانت قد سارعت بالكفر، وعاجلهم الله ـ تعالى ـ بالعقاب على كفرهم وقد كانوا أكثر قوةً منهم، وهي سنة من سنن الله التي لا تبديل لها، ولا تغيير فيها.

وتؤكد السورة الكريمة أن الله ـ تعالى ـ قادر على استبدال الخلائق بغيرهم. وما أيسر ذلك عليه ـ سبحانه ـ ، كما تؤكد أن كل نفس مسؤولة عن عملها، وأنها لا تحمل وزر غيرها، وأن الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ مطالب بإنذار الذين يخشون ربهم بالغيب فيعبدوه بما أمر، وأن من يسعى إلى تزكية نفسه ففضل ذلك مردود عليه، وأن مصائر الخلق جميعاً إلى الله ـ تعالى ـ فيجازي كلًّا بما هو أهل له، وأن الأضداد لا يستوون أبداً..، وأن هذا النبي ﷺ الخاتم والرسول الخاتم قد أرسل بالحق الذي أرسل به الأنبياء والمرسلون من قبل، وأن الله ﷻ قد تعهد بحفظ رسالته الخاتمة حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ فحفظها كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الأرض ومن عليها وذلك لأن عدل الله ـ تعالى ـ يقتضي ألَّا يحاسب الخلائق بغير إنذار مسبق.

وتمتدح سورة «فاطر» الذين يتلون كتاب الله، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانيةً رجاء رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ الذي يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله. وتؤكد السورة الكريمة في ختامها أن خطايا الناس كثيرة، ولكن الله يؤخرهم إلى أجل مسمى، وهو ـ تعالى ـ البصير بهم.

وبالإضافة إلى التأكيد في أكثر من موضع من سورة «فاطر» أن الله ـ تعالى ـ عليم بكل شيء، ومحيط بكل شيء؛ فإن السورة تستشهد بعدد كبير من الآيات الكونية على صدق القضايا التي أوردتها، ومن ذلك: تصريف الرياح، وإرسال السحاب، وإنزال المطر، وإحياء موات الأرض، وخلق البشر من تراب، ثم من نطفة، وجعل الزوجين منها، واختلاط البحرين دون امتزاج كامل، وإخراج بعض ما يؤكل وما يتزين به منهما، وجري السفن فيهما، وولوج كل من الليل والنهار في الآخر، وتسخير كل من الشمس والقمر، واختلاف ألوان كل من الثمار، والجدد القاطعة لصخور الجبال، والناس، والدواب، والأنعام، والإمساك بالسمٰوات والأرض أن تزولا، والإمساك كذلك بكل ما هو في ملك الله ـ تعالى ـ وكل شيء ملكه لأنّه ـ تعالى ـ هو رب كل شيء ومليكه، وغيره من المخلوقين لا يملك شيئاً إلا ما قسمه له الله ـ سبحانه ـ، وأن الذين يعلمون ذلك من عباد الله هم الذين يخشون ربهم بالغيب.

وهذه الآيات الكونية تحتاج إلى مجلدات في دراستها، وإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها، إلى جانب ما تحمله من الدلالات المنطقية المقنعة على طلاقة القدرة الإلٰهية في إبداع الخلق، ولذلك سوف أقتصر هنا على نص واحد فقط منها وهو جزء من الآية السابعة والعشرين من سورة «فاطر» يصف اختلاف ألوان الجدد القاطعة لصخور الجبال، وقبل الدخول في ذلك لابد من استعراض الدلالات اللغوية لألفاظ الآية الكريمة ولأقوال عدد من المفسرين فيها؛ ألا وهي قول الحق ﷻ: ...﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ **(فاطر: 27)**.

الدلالة اللغوية

(1) **(الجبل)** في اللغة العربية: ما ارتفع من الأرض إذا عظم وطال، والجبل: هو الغليظ من كل شيء، جمعه (جبال) و(أجبال) و(أجبل)، وقد سبق لنا شرح الدلالة اللغوية لهذه اللفظة.

(2) **(جدد)**: (الجدة) في اللغة (بالضم): هي الطريقة أو العلامة الظاهرة والجمع

(جدد) والصفة (مجدود)، والجدد هي الطرائق المختلفة الألوان، قال الجوهري: «والجدة: الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه». قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ (فاطر: 27)، قيل في تفسيرها: هي طرائق تخالف لون الجبل، (والجادة) معظم الطريق، والجمع (جَوَادٌ) بتشديد الدال، و(جَدَّ) الشَّيْءُ (يجد) (جدة) بكسر الجيم فيهما أي: صار جديداً و(الجديد) جمعه (جُدُدٌ)، و(الجِدُّ) هو الاجتهاد في الأمر، تقول منه (جدَّ) (يجدُّ) و(يجد) و(أجد) في الأمر أي: اجتهد فيه.

و (الجِدُّ) بالكسر ضد (الهزل) تقول منه: (جَدَّ) (يَجِدُّ) و(يَجُدُّ) في الأمر أي: أخذه على محمل (الجد)، و(أجد) تأتي بمعنى عظم، وقوله (تعالى): ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ (الجن: 3) أي عظمة ربنا.

و (الجَدُّ): الحظ والبخت والثراء والجمع (الجدود)، والصفة (المجدود) أي: المحظوظ أو الثري، و(الجد) أيضاً هو أبو الأب، وأبو الأم، وهو كذلك قطع الأرض المستوية.

و (الجديد) هو كل ما أُحْدِثَ إنشاؤه، و(الجديدان) و(الأجدان) هما الليل والنهار، ولذلك قيل: و(جد) الشيء أي: قطعه.

(3) **(غرابيب)**: هي جمع (غربيب) ومعناه: شديد السواد أو المشبه بالغراب في السواد، وفي قول الحق ـ ﷻ ـ: (غرابيب سود) نجد أن لفظة (سود) بدل من (غرابيب)؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم اللون نفسه، فيقال: أحمر قاني ولا يقال: قاني أحمر، وكلمة (غربيب) قد تكون مستمدة من اسم (الغراب) لسواده، كما قد تكون مستمدة من (الغربة) و(الاغتراب)، أو من (التغريب)، أو من (الغرب) و(المغرب) لغيبة كل من ضوء الشمس ونور النهار فيه. ويعبر عن شدة السواد إذا قيل: أسود غربيب. وهو السائد، كما قد يقال: غربيب أسود وهو قليل.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ **(فاطر: 27، 28)**.

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في

خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها.... كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: 4)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي (الجدد) جمع (جدة) مختلفة الألوان أيضا، قال ابن عباس: (الجدد) الطرائق، ومنها غرابيب سود، قال عكرمة: (الغرابيب) الجبال الطوال السود، وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: سود غرابيب، وفيما قاله نظر.. فتبارك الله أحسن الخالقين...، ولهذا قال تعالى بعد هذا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر...».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ جزاهما الله خيراً ـ ما مختصره: « ...﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ جمع جدة، أي: طريق في الجبل وغيره ...﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدة والضعف، ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾: عطف على جدد أي: صخور شديدة السواد، يقال كثيرا: أسود غربيب، وقليلاً: غربيب أسود».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمةً واسعةً ـ ما مختصره: «... وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلةً عجيبةً في ظاهرها، ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية. ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ و(الجدد): الطرائق والشعاب. وهنا لفتة في النص صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها. مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأُخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود، حالكة شديدة السواد». «واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار تهز القلب هزاً، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي... هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول: إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله....».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: ذوو طرائق وخطوط تخالف لون الجبل: بيض وحمر وسود. جمع جُدَّة، وهي الطريقة في السماء والجبل، وأصلها الخُطَّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: أصنافها بالشدة والضعف. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمع غربيب، وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه. و (سود) بدل من (غرابيب) وهي معطوفة على (بيض)، وقيل: معطوفة على (جدد). أي: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد وهو السواد الشديد، والمراد: أنها مختلفة الألوان كثيراً...».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه: «... ومن الجبال جبال ذوو طرائق وخطوط بيض وحمر مختلفة بالشدة والضعف...». وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي: «ليس الإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة هو التنويه فقط بما للجبال من ألوان مختلفة ترجع إلى اختلاف المواد التي تتألف منها صخورها... ولكن الإعجاز هو الربط بين إخراج ثمرات مختلفات الألوان يروي شجرها ماء واحد. وخلق جبال حمر وبيض وسود يرجع أصلها إلى مادة واحدة متجانسة التركيب أصل معينها من باطن الأرض، ويسميها علماء الجيولوجيا بالصهارة (أو الماجما)، وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق في أماكن مختلفة من الأرض، وعلى أعماق مختلفة من السطح يعتري تركيبها الاختلاف، فتتصلب آخر الأمر في كتل أو جبال مختلفات المادة والألوان، وهكذا فسنة الله واحدة لأن الأصل واحد والفروع مختلفة متباينة وفي هذا متاع وفائدة لبني الإنسان».

• وجاء في صفوة التفاسير ما نصه: «﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق المختلفة الألوان ـ وإن كان الجميع حجراً أو تراباً ـ فمن الجبال جدد ـ أي: طرائق ـ مختلفة الألوان، بيض مختلفة البياض، وحمر مختلفة في حمرتها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: وجبال سود غرابيب أي شديدة السواد، قال ابن جزي: قدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وذلك لقصر التأكيد وكثيراً ما يأتي مثل هذا في كلام العرب، والغرض بيان قدرته تعالى، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ماهو أيضاً مختلف الألوان، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوانٍ عجيبةٍ...».

الجبال في القرآن الكريم

وردت اللفظة (**جبل**) بصيغة المفرد والجمع في القرآن الكريم39 مرة، منها: 6 مرات

بصيغة المفرد، 33 مرة بصيغة الجمع، وجاءت الإشارة إلى (الجبال) بتعبير (الرواسي) في تسع آيات أخرى، ويمكن تصنيف هذه الإشارات القرآنية (الثماني والأربعين) للجبال إلى المجموعات التالية:

(1) آيات تشير إلى شكل أرضي مرتفع ارتفاعاً ملحوظاً (البقرة: 260)، (هود: 43).

(2) آيات تشير بطريقة رمزية إلى ضخامة الكتلة الجبلية أو تدل على ارتفاعها، وطبيعتها الصلبة الهائلة: (الرعد: 31)، (إبراهيم: 46)، (الإسراء: 37)، (مريم: 90)، (الأحزاب: 72)، (الحشر: 21).

(3) آيات تذكر كلمة (جبال) في مقام التشبيه: (هود: 42)، (النور: 43).

(4) آيات تشير إلى (جبال) ذات أهمية تاريخية كجبال ثمود: (الأعراف: 74)، (الحجر: 82)، (الشعراء: 149).

(5) آيات تشير إلى (الجبال) التي شهدت بعض المعجزات كجبال نبي الله إبراهيم عليه السلام، ونبي الله موسى عليه السلام: (البقرة: 260)، (الأعراف: 143، 171).

(6) آيات تشير إلى استخدام كل من الإنسان والحيوان (للجبال) كملجأ: (النحل: 68، 81) أو كمصادر للمياه الجارية: (الرعد: 3)، (النحل15)، (النمل: 61)، (المرسلات: 27).

(7) مجموعة من الآيات تدور حول **(المفهوم العلمي للجبال)** في القرآن الكريم منها آية واحدة تصف الجبال بأنها أوتاد إشارة إلى أن أغلبها مدفون في الأرض، وأن أقلها ظاهر فوق سطح الأرض، وأن وظيفتها التثبيت: (النبإ: 7)، وآيات أُخرى تشير إلى دور الجبال في تثبيت الأرض: (الرعد: 3)، (الحجر: 19)، (النحل: 15)، (الأنبياء: 31)، (النمل: 61)، (لقمان: 10)، (فصلت: 10)، (قٓ: 7)، (المرسلات: 27)، (النازعات: 32)، و(الغاشية: 19).

وهناك فئة أُخرى من الآيات الكريمة في هذه المجموعة تشير إلى وجود جدد مختلفة الألوان بالجبال: (فاطر: 27)، أو إلى أن الجبال تتبع حركة الأرض في دورانها حول محورها (النمل: 88).

(8) آيات تشير إلى (الجبال) بوصفها من الخلق المسبح لله: (الأنبياء: 79)، (الحج: 18)، (صٓ: 18).

(9) آيات تصف مصير (الجبال) في الآخرة: (الكهف: 47)، (طه: 105)،

(الطور: 10)، (الواقعة: 5)، (الحاقة: 14)، (المعارج: 9)، (المزمل: 14)، (المرسلات: 10)، (النبإ: 20)، (التكوير: 3)، (القارعة: 5).

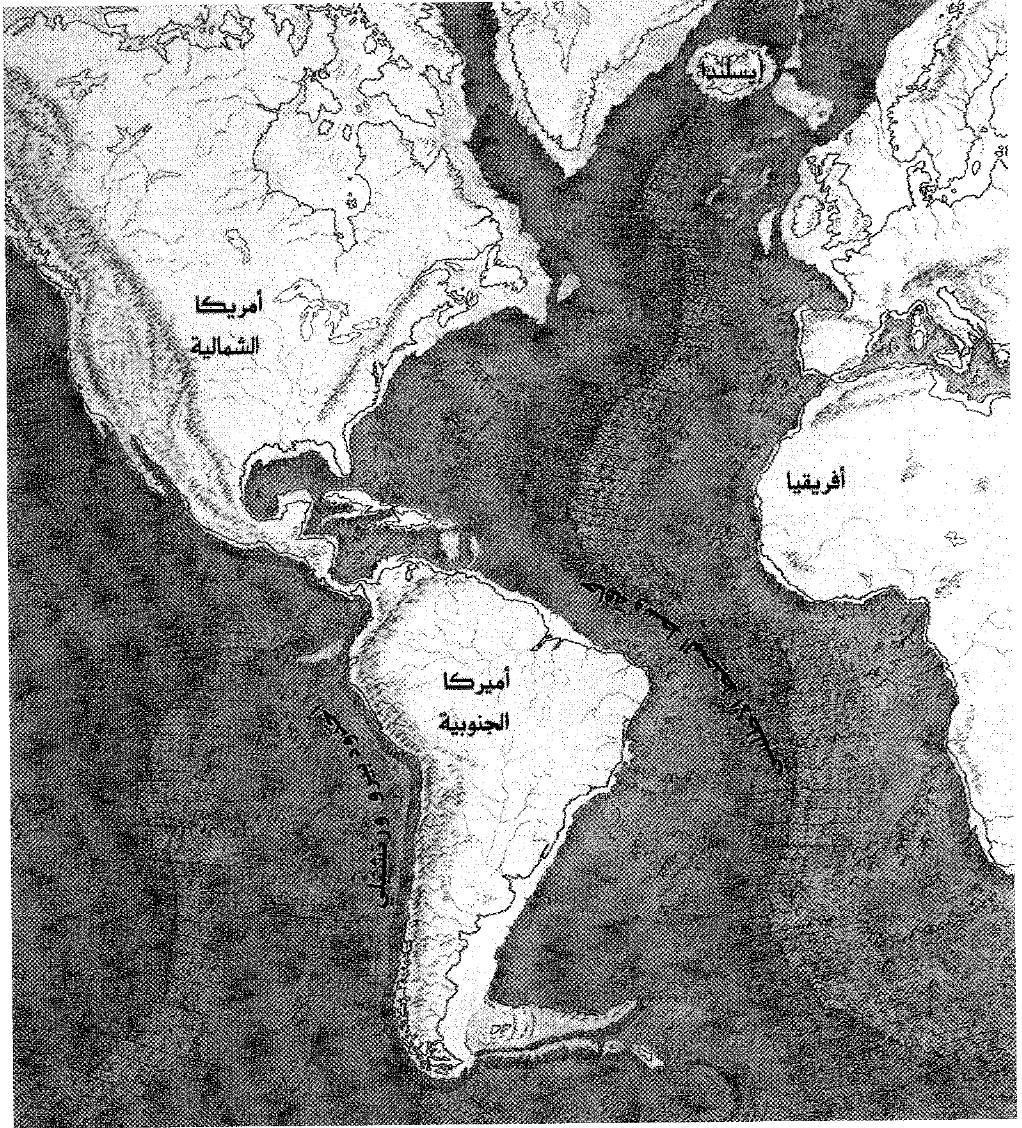
الجبال في علوم الأرض

يُعرَّف (**الجبل**) بأنه كتلة من الأرض ترتفع بارزةً فوق ما يحيطها من اليابسة بشكلٍ واضح، وتحيط بها حواف منحدرة، قد تكون أحياناً شديدة الانحدار. ويطلق مصطلح (الجبل) عادة على الارتفاعات التي تزيد عن ستمائة متر فوق مستوى سطح البحر، وإن



رسم توضيحي للكرة الأرضية يبين توزيع الجبال في أحزمة طولية لحواف القارات

كان هذا الارتفاع ليس محدداً؛ لأنه أمر نسبي يعتمد على تضاريس الأرض المحيطة، ففي منطقة سهلة التضاريس قد يكون نصف هذا الارتفاع مناسباً للوصف بتعبير الجبل. والجبال توجد عادةً متصلةً في أطواف، أو منظومات، أو سلاسل جبلية طويلة، ولكنها قد تكون أحياناً على هيئة مرتفعات فردية معزولة.



خارطة توضح حواف أواسط المحيطات والأخاديد الناتجة عن نزول قيعان المحيطات تحت القارات

وتتوزع الجبال عادة على سطح الأرض في أحزمة طولية موازية لحواف القارات إما في الاتجاه: من الشمال إلى الجنوب، أو من الشرق إلى الغرب، أو بانحرافاتٍ قليلةٍ عن هذين الاتجاهين الرئيسيين. من هذه الملاحظة تم الاستنتاج الصحيح بأن تكون الأحزمة الجبلية مرتبط بتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض وبخطوط التصادم بين تلك الألواح خاصة عندما يهبط اللوح الصخري المكون لقاع المحيط تحت اللوح الصخري الحامل للقارة المقابلة، فتتغضن وتتجعد الرسوبيات المتجمعة في الحوض العميق الناتج عن تحرك قاع المحيط تحت اللوح الصخري الحامل للقارة، وتكشط بالتدريج لتضاف إلى حواف تلك القارة، كما تضاف إليها كل الصخور النارية والمتحولة الناتجة عن الانصهار الجزئي للوح الصخري الهابط تحت القارة، وعن إزاحة كتل من الصهارة من نطاق الضعف الأرضي عند هبوط قاع المحيط فيه، وتشمل طفوحاً بركانيةً وهيئاتٍ كثيرةٍ للمتداخلات النارية، وللصخور المتحولة.

ومن هذا الخليط من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة تتكون الأطواف والمنظومات والسلاسل الجبلية، على هيئة أجزاءٍ سميكةٍ جداً من الغلاف الصخري للأرض، تنتصب شامخة فوق مستوى سطح البحر، وتمتد بأضعاف ارتفاعها إلى داخل الأرض لتطفو في نطاق الضعف الأرضي ـ وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة ـ، تحكمها في ذلك قوانين الطفو كما تحكم جبال الجليد الطافية فوق مياه المحيطات، وعملية الطفو هذه هي التي تساعد الجبال ـ بتقدير من الله تعالى ـ على أن تبقى منتصبة فوق سطح الأرض، وفي حالة من التوازن التضاغطي المعجز مع محيطها، وفي ذلك يقول الحق ﷻ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

(الغاشية: 17 ـ 20).

وتصل حركة ألواح الغلاف الصخري إلى نهايتها عندما يتحرك أحد هذه الألواح الحامل لقارة من القارات في اتجاه اللوح الصخري الحامل لقارة مقابلة، دافعاً أمامه قاع المحيط الفاصل بين القارتين حتى يدفنه بالكامل تحت القارة المقابلة، بعد سحب كل أو معظم الرسوبيات المتجمعة فوق هذا القاع وتكديسها مع ما يصاحبها من صخور نارية ومتحولة فوق حافة القارة الراكبة، وتصطدم القارتان اصطداماً عنيفاً يؤدي إلى تكون أعلى السلاسل الجبلية من مثل: جبال الهيمالايا. وعلى ذلك تتكون الجبال من خليط من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة شديدة الطي والتكسر.

الجدد الصخرية في علوم الأرض

بدأت قشرة الأرض بتبلور الصهير الصخري الذي نتج عن ارتطام أعداد كبيرة من النيازك الحديدية والحديدية الصخرية والصخرية بمادة الأرض الأولية، وبتبلور هذا الصهير الصخري نشأت «الصخور النارية» التي تعرف أيضاً باسم «الصخور الأولية» وتشكل اليوم حوالي 95% من مجموع صخور قشرة الأرض.

وبتعرض «الصخور النارية» لعوامل التعرية المختلفة من التجوية، والنقل، والتحات (التآكل) بعواملها المتعددة: من مثل الرياح، والمياه الجارية، والمجالد، والكائنات الحية، وفعل الجاذبية الأرضية وغيرها، تفتتت تلك الصخور الأولية وتحللت كيميائياً كلياً أو جزئياً، ونقل هذا الفتات الصخري ليرسب في كل من منخفضات اليابسة والبحار والمحيطات لينكبس ويتماسك ويتصلب على «**هيئة الصخور الرسوبية**» والتي تكوِّن اليوم



صورة لجدة قاطعة من الصخور النارية تقطع تتابعاً من الصخور المتحولة

غطاءً رقيقاً ينتشر فوق مساحات شاسعةٍ من الأرض مشكلاً حوالي 5% فقط من مجموع صخور القشرة الأرضية.

وبتعرض كل من الصخور النارية والرسوبية لعوامل التحول من الضغط، أو الحرارة،

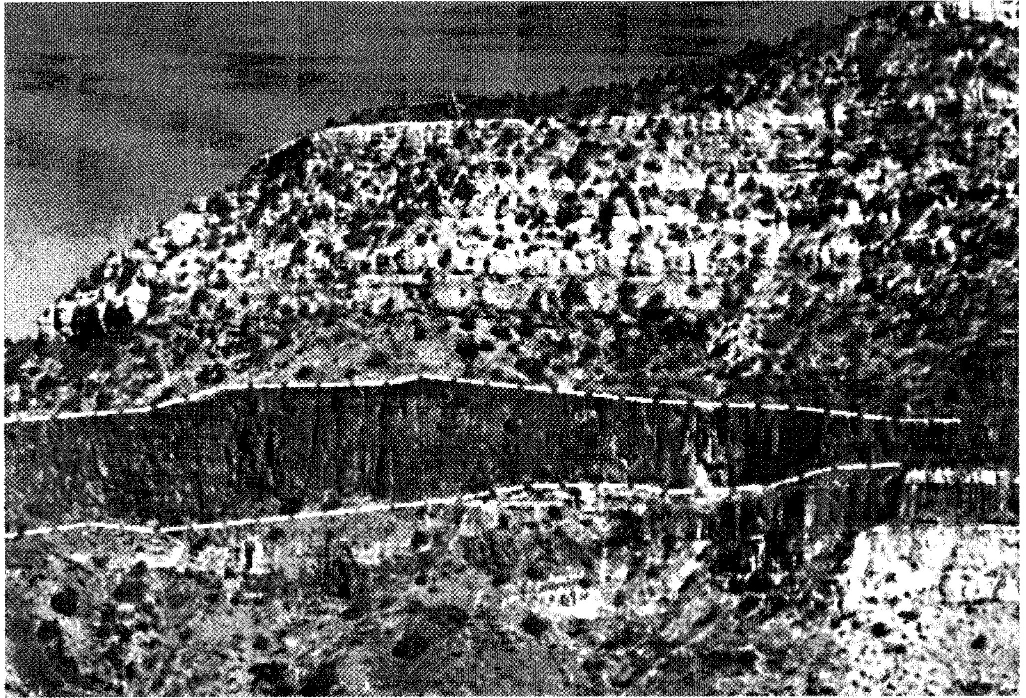


صورة لجبال كولورادو تظهر جدة عمودية قاطعة من صخور أكثر مقاومة لعوامل التعرية عما حولها فارتفعت بارزة فوقها

أو لكليهما معاً، تحولت تلك الصخور إلى ما يعرف باسم: «**الصخور المتحولة**» التي تكوِّن اليوم نسبةً ضئيلةً جداً من مجموع صخور القشرة الأرضية. وبتعرض الصخور المتحولة لمزيدٍ من الحرارة تنصهر متحولةً إلى صهارة صخرية تعاود دورتها المعروفة باسم: «**دورة الصخور**».

وقد تنقطع هذه الدورة عند أية مرحلة من مراحلها، أو تتجاوزها إلى المرحلة التالية من مثل: تحول الصخور النارية مباشرة إلى الصهير الصخري متجاوزة مرحلة الصخور المتحولة أو عبرها، أو دخول أي من الصخور الرسوبية والمتحولة في دورة تعرية جديدة دون الوصول إلى مرحلة الصخور النارية، وهكذا.

وعندما تندفع الصهارة الصخرية في القشرة الأرضية من نطاق الضعف الأرضي، فإنها إما أن تندفع إلى سطح الأرض على هيئة الثورات البركانية، مكونةً الطفوح البركانية، وإما أن تتداخل في أعماق القشرة الأرضية حتى تتبلور وتتجمد على هيئة المتداخلات النارية التي قد ترفعها الحركات الأرضية إلى سطح الأرض، ومنها الحركات البانية للجبال، فتعريها عوامل التعرية وتكشفها للناظرين بعد ملايين السنين.



صورة لجدد متوافقة (أفقية) في وسط الكتلة الصخرية لجبال أريزونا

والمتداخلات النارية تأخذ أشكالاً وأحجاماً متعددة منها: المتداخلات المستوية، اللوحية الشكل، ومنها: الكتلية، ومنها: المتوافق مع الصخور المتداخل فيها، ومنها: غير المتوافق (القاطع)، والأول يتداخل متوازياً مع بنيات الصخور المضيفة من مثل: مستويات التطبق في الصخور الرسوبية، والثاني يتداخل في الصخور قاطعاً لبنياتها.

ومن المتداخلات المستوية: **الجدد الموازية (المتوافقة)** وتتكون باندفاع الصهارة إلى داخل الشقوق والفواصل الموازية لمستويات التطبق، أو في مستويات التطبق ذاتها، وهناك المتداخلات غير المستوية، ومنها **الجدد القاطعة** إذا كانت رأسية أو مائلة.

والجدد الموازية (المتوافقة) إما أن تكون أفقية أو مائلة وموازية لمستويات التطبق، أو لغير ذلك من البنيات الأساسية للصخر المضيف. ومن المتداخلات النارية غير المتوافقة بقايا غرف الصهير العملاقة **(الباثوليثات)** والتي تعتبر أضخم المتداخلات النارية حجماً؛ إذ تمتد لآلاف الكيلومترات وتكون قلوب الجبال، ويغلب على تركيبها الصخور الجرانيتية والدايوريتية.

ومن المتداخلات النارية الكتلية المتوافقة أجسام عدسية الشكل تعرف باسم: **(اللاكوليثات)** سطحها العلوي محدب إلى أعلى، وسطحها السفلي أفقي تقريباً مما يعكس اتجاه اندفاع الصهير من أسفل إلى أعلى.

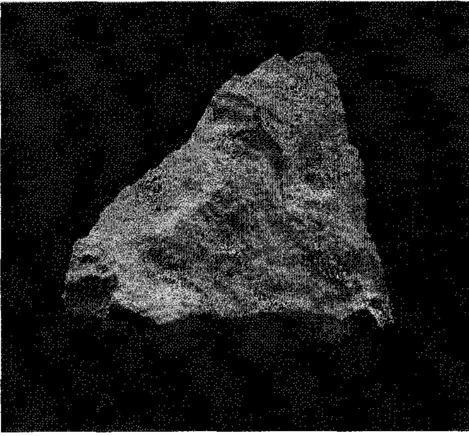
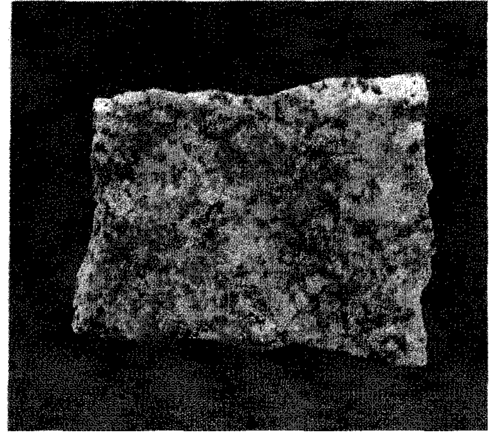
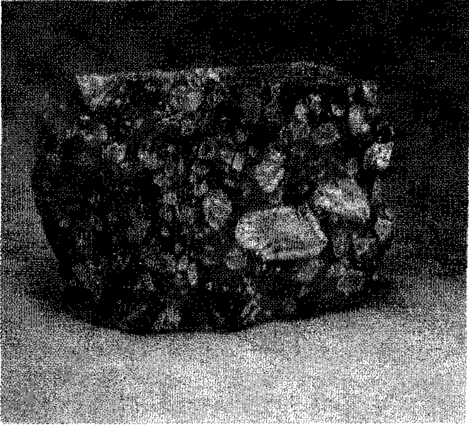
سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى ألوان الجدد باللون الأبيض والأحمر والأسود:

يقول ربنا ﷻ في محكم كتابه:

﴿... وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ...﴾ **(فاطر: 27)**.

والآية الكريمة تشير إلى أن **(الجدد)**: هي **الخطط** أو الطرائق المختلفة الألوان في الجبال والتي تخالف ألوانها ألوان الجبال، وعلى ذلك فهي ليست من أصل تكوين الجبال. والعلوم المكتسبة تؤكد على أن المتداخلات النارية في صخور الجبال تتكون بعد الصخور المضيفة لها بفترات متطاولة قد تقدر أحياناً بملايين السنين.

كذلك أثبتت دراسات علم الصخور أن العامل الرئيسي في تصنيف الصخور النارية هو تركيبها الكيميائي والمعدني الذي ينعكس انعكاساً واضحاً على ألوانها، وتقسم الصخور النارية على أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني إلى المجموعات الرئيسية الثلاث التالية:


صورة للصخور توضح التباين في ألوانها بناء على تركيبتها الكيمائية والمعدنية

(1) **صخور حامضية وفوق حامضية**، وتشمل عائلة الجرانيت التي تتكون أساساً من معادن المرو (الأبيض) والفلسبار البوتاسي (المقارب إلى الحمرة) والبايوتايت (الذي يتراوح بين اللونين الأصفر والبني المائل إلى الحمرة أو العسلي).

(2) **صخور متوسطة**، وتشمل عائلة الدايورايت التي تتكون أساساً من قليل من المرو ومعادن البلاجيوكليز الكلسي والصودي والأمفيبول والتي تتراوح ألوانها بين الأبيض والأحمر والرمادي.

(3) **صخور قاعدية وفوق قاعدية**، وتشمل عائلتي الجابرو والبريدوتايت، وتتميز بالألوان الداكنة التي تميل إلى السواد لوفرة معادن كل من الحديد والمغنيسيوم فيها من مثل: معادن البيروكسين والأوليفين والبلاجيوكليز الكلسي.

ومن ذلك يتضح بجلاء أن الجدد التي تتداخل في صخور الجبال هي في الأصل من الصخور النارية، وأن أفضل تصنيف لتلك الصخور هو التصنيف القائم على أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس على ألوانها على النحو التالي:

(1) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر وهي الصخور الحامضية وفوق الحامضية، وتشمل عائلة الصخور الجرانيتية (الرايولايت ـ الجرانيت).

(2) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر من جهة والألوان الداكنة من جهة أخرى، ولذا يغلب عليها الألوان الرمادية، وهي الصخور الموصوفة بالوسطية ـ بين الصخور الحامضية وفوق الحامضية من جهة، والصخور القاعدية وفوق القاعدية من جهة أخرى ـ، وتضم عائلة الصخور الدايورايتية (الأنديزايت ـ ديورايت)، وتقع تحت الوصف القرآني: مختلف ألوانها.

(3) صخور تميل ألوانها إلى الدكنة حتى السواد وهي الصخور القاعدية وفوق القاعدية، وتشمل عائلتي الجابرو (البازلت ـ الجابرو) والبريدوتايت.

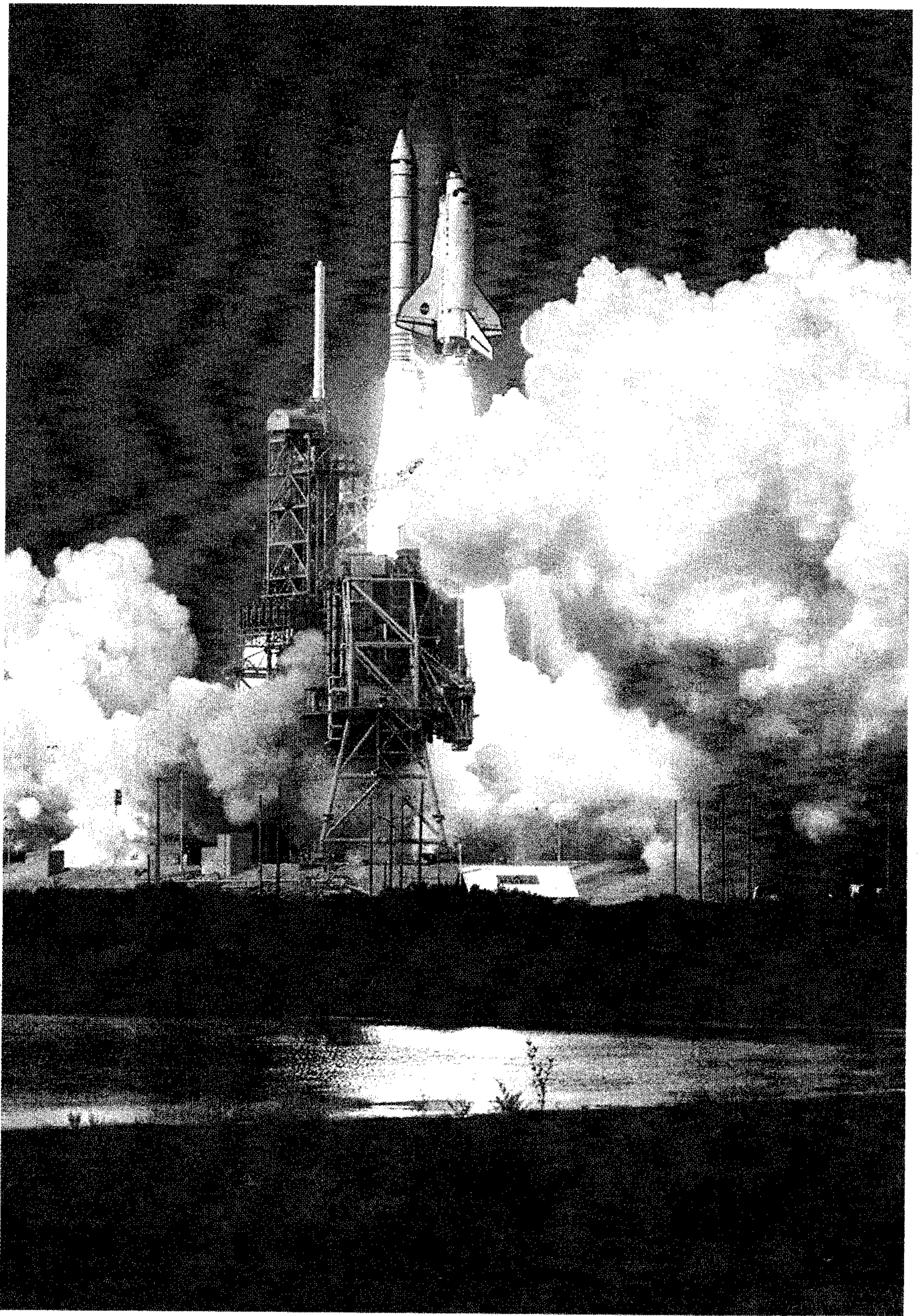
وهذا التصنيف لم يصل إليه العلماء إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء، وآلاف الساعات من البحث المضني، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليه في هذه الآية الكريمة بهذه الدقة البالغة التي تجمع الجدد البيضاء والحمراء في جهة، تعبيراً عن الصنف الأول من الصخور النارية (عائلة الجرانيت)، ثم تضيف هذه الإضافة المعجزة مختلف ألوانها لتعبر عن كل مراحل الانتقال في هذه المجموعة الحامضية وفوق الحامضية، ومنها إلى الصخور ذات التركيب الوسطي (مجموعة الصخور الدايوريتية)، وتخص المجموعة القاعدية وفوق القاعدية بهذا الوصف المبهر، وغرابيب سود (مجموعة صخور الجابرو والبريدوتايت).

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لو لم يكن هذا القرآن الكريم هو كلام الخالق ﷻ، ولو لم يكن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ موصولاً بوحي السماء فمن أين له بهذه المعلومات العلمية الدقيقة التي لم يكن لأحدٍ في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده أدنى علم بها؟

وهنا أيضاً يتضح جانب من الجوانب العديدة لحكمة الإشارة في كتاب الله الخاتم إلى عدد من حقائق الكون وظواهره، لتكون هذه الإشارات شاهدة لله الخالق بطلاقة القدرة فيما أبدع، وبطلاقتها على ما سوف يقوم به من إفناء ما قد أبدع، وإعادة خلقه من جديد، ولتكون دعوة للمسلمين خاصة، وللناس كافة، إلى دراسة كون الله، للتعرف على شيء من

صفات هذا الخالق العظيم الجدير وحده بالطاعة والعبادة، والتقديس، والحمد، والتسبيح ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ وتكون دعوة للكفار والمشركين في هذا العصر ـ عصر العلوم والتقنيات الذي نعيشه ـ وحجة بالغة عليهم أن يسلموا بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهدوا بنبوة هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ الذي وصفه ربه ﷻ بقوله ـ عز من قائل ـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ **(النجم: 3 ـ 5)**

فالحمد لله أولاً وآخراً، وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على خاتم أنبياء الله ورسله، وعلى جميع آله وصحبه، ومن تبع ملته، وأحيا سنته، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.






(17) ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ (الرحمٰن: 33)



هذه الآية الكريمة جاءت قرب نهاية النصف الأول من سورة «الرحمٰن»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (78) بعد البسملة، وقد سمِّيت بتوقيف من الله (تعالى) بهذا الاسم الكريم لاستهلالها باسم الله الرحمٰن، ولِما تضمنته من لمسات رحمته، وعظيم آلائه التي من أولها تعليم القرآن، ثم خلق الإنسان وتعليمه البيان.

وقد استعرضت السورة عدداً من آيات الله الكونية المبهرة للاستدلال على عظيم آلائه، وعميم فضله على عباده ومنها: جريان كل من الشمس والقمر بحساب دقيق، كرمز لدقة حركة كل أجرام السماء بذاتها، وفي مجموعاتها، ومركباتها وبجزيئاتها، وذراتها، ولبناتها الأولية، وسجود كل مخلوق لله، حتى النجم والشجر، ورفع السماء بغير عمد مرئية، ووضع ميزان العدل بين الخلائق، ومطالبة العباد بألا يطغوا في الميزان، وأن يقيموا عدل الله في الأرض، ولا يخلُّوا بهذا الميزان، وخلق الأرض وتهيئتها لاستقبال الحياة، وفيها من النباتات وثمارها ومحاصيلها ما يشهد على ذلك، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، وتكوير الأرض وإدارتها حول محورها، والتعبير عن ذلك بوصف الحق ﷻ بأنه رب المشرقين ورب المغربين، ومرج كل نوعين من أنواع ماء البحار دون اختلاط تام بينهما، وإخراج كل من اللؤلؤ والمرجان منهما، وجري السفن العملاقة في البحر، وهي تمخر عباب الماء وكأنها الجبال الشامخات، وحتمية الفناء على كل المخلوقات، مع الوجود المطلق للخالق سبحانه وتعالى،

صاحب الجلال والإكرام، الحي القيوم، الأزلي بلا بدايةٍ، والأبدي بلا نهايةٍ، والإشارة إلى مركزية الأرض من الكون، وضخامة حجمها التي لا تمثل شيئاً في سعة السمٰوات وتعاظم أبعادها، وذلك بتحدي كل من الجن والإنس أن ينفذوا من أقطارهما، وتأكيد أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً، إلا بسلطان من الله، وأن مجرد محاولة ذلك بغير هذا التفويض الإلٰهي سوف يعرض المحاول لشواظ من نار ونحاس فلا ينتصر في محاولته أبداً....!!!

ثم يأتي الحديث عن الآخرة وأهوالها، ومنها: انشقاق السماء على هيئة الوردة المدهنة، كالمهل الأحمر، ومنها: معرفة المجرمين بعلامات في وجوههم من الزرقة والسواد، وما سوف يلاقونه من صور الإذلال والمهانة، وهم يطوفون بين جهنم وبين حميم آن؛ أي: ماء في شدة الغليان؛ وعلى النقيض من ذلك تشير السورة الكريمة إلى أحوال المتقين، ومقامهم في جنات الخلد، جزاء إحسانهم في الدنيا، وتصف جانباً مما في هذه الجنات من نعيم.

وبين كل آية من آيات الله في هذه السورة المباركة، نجد آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ التي ترددت في سورة «الرحمٰن» إحدى وثلاثين مرة من مجموع آيات السورة الثماني والسبعين؛ أي: بنسبة 40% تقريباً في تقريع شديدٍ، وتبكيت واضح للمكذبين من الجن والإنس بآلاء الله وأفضاله وعلى رأسها دينه الخاتم الذي بعث به النبي والرسول الخاتم ﷺ ، الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه، بعد أن حفظه للناس كافةً في القرآن الكريم، وفي سنة الرسول الخاتم بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بذلك حتى يرث الأرض ومن عليها. وتختتم السورة الكريمة بقول الحق (سبحانه): ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾. **(الرحمٰن: 78)**

والإشارات الكونية في سورة «الرحمٰن»، يفوق عددها السبع عشرة آية صريحة، ولذلك سأقف هنا عند قول الحق ﷻ ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾. **(الرحمٰن: 33 ـ 35).**

وقبل ذلك لا بد من استعراض الدلالات اللغوية لألفاظ تلك الآيات الكريمات وأقوال عدد من المفسرين السابقين فيها.

الدلالة اللغوية

(1) **(نفذ)**: يقال في العربية: (نفذ) السهم في الرمية (نفوذاً) و(نفاذاً)، ونفذ المثقب في الخشب إذا خرق إلى الجهة الأخرى، و(نفذ) فلان في الأمر (ينفذ) (نفاذاً)، و(أنفذه) (نفاذاً)، و(نفذه) (تنفيذاً)، وفي الحديث الشريف: «**أنفذوا جيش أسامة**»؛ والأمر (النافذ) أي: المطاع، و(المنفذ) هو الممر (النافذ)، قال (تعالى): ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ بمعنى: أن تخرقوا السمٰوات والأرض من جهة أقطارها إلى الجهة الأخرى.

(2) **(أَقْطار)**: قُطْرُ كل شكل وكل جسم هو: الخط الواصل من أحد أطرافه إلى الطرف المقابل مروراً بمركزه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ ..**(الأحزاب: 14)**؛ ويقال في اللغة: (قَطَرْتُه) بمعنى: ألقيته على (قطره)، و(تَقَطَّر) أي: وقع على (قطره)، ومنه (قَطَرَ) المطر أي: سقط في خطوط مستقيمة باتجاه مركز الأرض، ويسمَّى لذلك (قَطْرَاً)، وهو كذلك جمع (قطرة)؛ و(قطر) و(تقطير) الشيء تبخيره ثم تكثيفه قطرة قطرة من أجل تنقية الماء وغيره من السوائل، وتساقطه (قطرة) (قطرة) وجمعه: (قُطُرٌ) بضمتين، و(قُطُراتٌ) بضمتين أيضاً، و(قطره) غيره يتعدى ويلزم، و(تقاطر) القوم جاءوا أرسالاً (كالقطر)، ومنه (قطار الإبل)؛ و(القُطر) بالضم الناحية والجانب وجمعه (أقطار)؛ و(قطران) الماء (تقاطره) قطرة قطرة و(القطران) ما يتقطر من الهناء (القار)؛ و(قطر) البعير طلاه (بالقطران) فهو (مقطور) أو (مقطرن).

قال ـ تعالى ـ: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ ...**(إبراهيم: 50)** أي: من القار، وقرئ (من قطر آن) أي: من نحاس منصهر قد أُنِي. أي: عظم؛ حره أي: زادت درجة حرارته؛ لأن (القطر) هو النحاس.

وقال ربنا ﷻ: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ **(الكهف: 96)**؛ أي: نحاساً منصهراً، هكذا قال كل من أهل اللغة والمفسرين.

(3) **شواظ**: (الشواظ) في العربية (بضم الشين وكسرها): اللهب الذي لادخان له.

(4) **نحاس**: الأصل في اللغة العربية أن النحاس هو اللهب بلا دخان، والنحاس ـ أيضاً ـ عنصر فلزي لونه يميل إلى الحمرة (بين القرمزي والبرتقالي) قابل للطرق والسحب،

موصل جيد لكل من الكهرباء والحرارة، ومقاوم للتآكل، وقد سمي بهذا الاسم لتشابه لونه مع لون النار بلا دخان. قال (تعالى): ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾.. (الرحمٰن: 35).

و(النحس) ضد السعد، وقرئ في قوله تعالى: ...﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (القمر19) على الصفة، والإضافة أكثر وأجود ...﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ ويقال: (نحس) الشي فهو (نحس) وفيه جاء قول ربنا ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ (فصلت: 16).

وقرئ (نحسات) بالفتح أي: مشؤومات، أو شديدات البرد، وأصل النحس: أن يحمر الأفق فيصير كالنحاس أو كاللهب بِلا دخان، فصار ذلك مثلاً للشؤم.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ (الرحمٰن: 33 ـ 35).

• ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم ....﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بأمر الله؛.... ولهذا قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ قال ابن عباس: «الشواظ هو لهب النار»، وعنه: «الشواظ الدخان» وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال الضحاك: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ سيل من نار، وقوله تعالى: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قال ابن عباس: «دخان النار» وقال ابن جرير: و«العرب تسمي الدخان نحاساً»، روى الطبراني عن الضحاك أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال: «هو اللهب الذي لا دخان معه... قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذي لا لهب له وقال مجاهد: النحاس الصفر...».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيها ـ ما نصه: «﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾: تخرجوا، ﴿مِنْ أَقْطَارِ﴾: نواحي ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هاربين من الحشر والحساب والجزاء، ﴿فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أمر تعجيز أي: فلن تستطيعوا ذلك ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ بقوة، ولا قوة لكم على ذلك ...﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ هو لهبها الخالص من الدخان أو: معه ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان لا لهب فيه أو هو النحاس المذاب...».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم من جهاد في سبيل نصرة الإسلام ـ ما نصه: «﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾... وكيف؟ وأين؟ ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾، ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان... ومرة أُخرى يواجههما بالسؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾؟ هل بقي في كيانهما شيء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان؟ ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها، والتهديد الرعيب يلاحقهما، والمصير المردي يتمثل لهما: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾...».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبها ـ ما نصه: « .....﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ أي: لا تقدرون على الخروج من أمري وقضائي إلا بقوة قهر وأنتم بمعزل عن ذلك، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ يصب عليكما ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ لهب خالص من الدخان ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أصفر مذاب، وقيل النحاس: الدخان الذي لا لهب فيه؛. أي: أنه يرسل عليهما هذا مرةً وهذا مرةً ».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه: «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السمٰوات والأرض هاربين فاخرجوا، لا تستطيعون الخروج إلا بقوة وقهر، ولن يكون لكم ذلك، فبأي نعمةٍ من نِعم ربكما تجحدان؟! يصب عليكما لهب من نارٍ ونحاسٍ مذاب، فلا تقدران على رفع هذا العذاب».

وجاء في تعليق هامشي ما يلي: «ثبت حتى الآن ضخامة المجهودات والطاقات المطلوبة للنفاذ من نطاق جاذبية الأرض، وحيث اقتضى النجاح الجزئي في ريادة الفضاء ـ لمدة محددة جداً بالنسبة لعظم الكون ـ بذل الكثير من الجهود العلمية الضخمة في شتى الميادين... فضلاً عن التكاليف المادية الخيالية التي أنفقت في ذلك ومازالت تنفق، ويدل ذلك دلالة قاطعة على أن النفاذ المطلق من أقطار السمٰوات والأرض التي تبلغ ملايين السنين الضوئية لإنس أو جن مستحيل. والنحاس هو: فلز يعتبر من أول العناصر الفلزية التي عرفها الإنسان؛.. ويتميز بأن درجة انصهاره مرتفعةً جداً (نحو1083 درجة مئوية)، فإذا ما صُب هذا السائل الملتهب على جسد، مثل ذلك صنفاً من أقسى أنواع العذاب ألماً وأشدها أثراً».

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم

يقول الحق ﷻ:

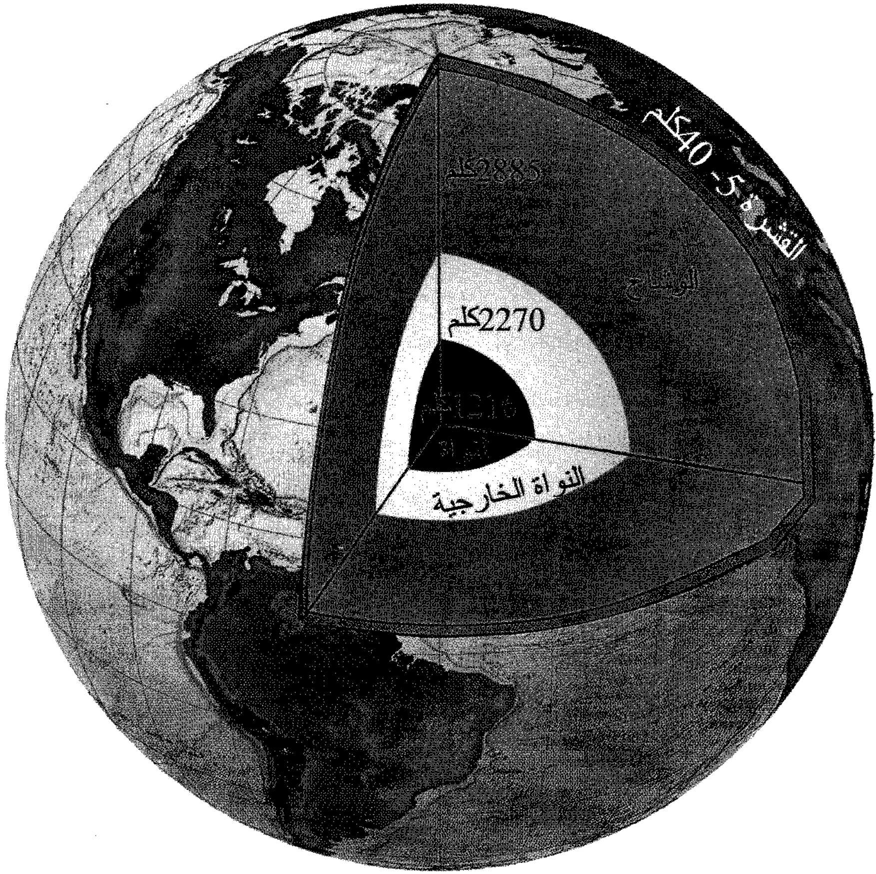
﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ **(الرحمٰن: 33 ـ 35).**

هذه الآيات الثلاث يتحدى القرآن الكريم فيها كلاً من الجن والإنس تحدياً صريحاً بعجزهم عن النفاذ من أقطار السمٰوات والأرض، وهو تحد يظهر ضآلة قدراتهما مجتمعين أمام طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الكون؛ لضخامة أبعاد السمٰوات والأرض، ولقصر عمر المخلوقات، وحتمية فنائها، والآيات بالإضافة إلى ذلك تحوي عدداً من الحقائق الكونية المبهرة التي لم يستطع الإنسان إدراكها إلا في العقود القليلة المتأخرة من القرن العشرين، والتي يمكن إيجازها في النقاط التالية.

أولاً: بالنسبة للنفاذ من أقطار الأرض:

إذا كان المقصود من هذه الآيات الكريمة إشعار كل من الجن والإنس بعجزهما عن النفاذ من أقطار كل من الأرض على حدة، والسمٰوات على حدة، فإن المعارف الحديثة تؤكد ذلك؛ لأن أقطار الأرض تتراوح بين و(12756) كيلومتراً بالنسبة إلى متوسط قطرها الاستوائي، (12713) كيلومتراً بالنسبة إلى متوسط قطرها القطبي؛ وذلك لأن الأرض ليست تامة الاستدارة لانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحها قليلاً عند القطبين.

ويستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز، مما لا تطيقه القدرة البشرية، ولا التقنيات المتقدمة التي حققها إنسان هذا العصر، فعلى الرغم من التطور المذهل في تقنيات حفر الآبار العميقة التي طورها الإنسان بحثاً عن النفط والغاز الطبيعي، فإن هذه الأجهزة العملاقة لم تستطع حتى اليوم تجاوز عمق 13 كيلومتراً من الغلاف الصخري للأرض، وهذا يمثل 0.10% تقريباً من طول نصف قطر الأرض الاستوائي، أو القطبي، وعند هذا العمق تعجز أدوات الحفر عن الاستمرار في عملها؛ لتزايد الضغط وللارتفاع الكبير في درجات الحرارة، إلى درجة قد تؤدي إلى صهر تلك الأدوات، فمن الثابت علمياً أن درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الأرض في اتجاه مركزها حتى تصل إلى ما يقرب من درجة حرارة سطح الشمس المقدرة بستة آلاف درجة مطلقة حسب بعض التقديرات، ومن هنا كان عجز الإنسان عن الوصول إلى



رسم تخطيطي للكرة الأرضية يوضح نطق الأرض الداخلية

تلك المناطق الفائقة الحرارة والضغط، وفي ذلك يقول الحق ﷻ مخاطباً الإنسان: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ **(الإسراء: 37)**.

ولو أن الجن عالم غيبي بالنسبة لنا، إلا أن ما ينطبق على الإنس من عجز تام عن النفاذ من أقطار السمٰوات والأرض ينطبق عليهم أيضاً. والآيات الكريمة قد جاءت في مقام التشبيه بأن كلًّا من الجن والإنس لا يستطيع الهروب من قدر الله أو الفرار من قضائه، بالهروب إلى خارج الكون عبر أقطار السمٰوات والأرض حيث لا يدري أحد ماذا بعد ذلك، إلا أن العلوم المكتسبة قد أثبتت بالفعل عجز الإنسان عجزاً كاملاً عن إمكانية تحقيق جزء من ذلك، والقرآن الكريم يؤكد لنا اعتراف الجن بعجزهم الكامل عن ذلك أيضاً، كما جاء في قول الحق ﷻ على لسان الجن:

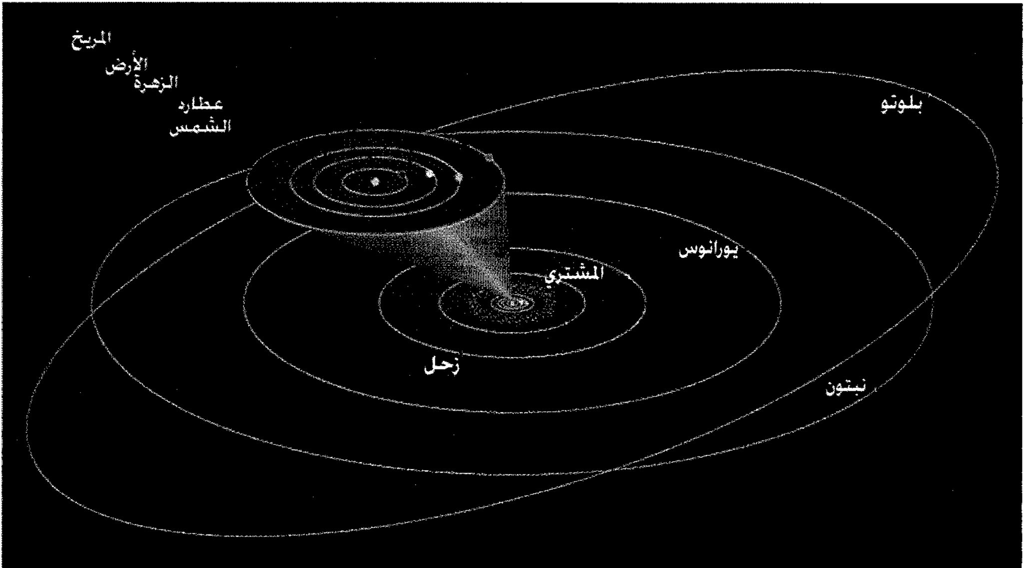
﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾﴾ **(الجن: 12)**

وذلك بعد أن قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾﴾ **(الجن: 8)**

ثانياً: بالنسبة للنفاذ من أقطار السمٰوات:

تبلغ أبعاد الجزء المدرك من السماء الدنيا من الضخامة ما لا يمكن أن تطويه قدرات المخلوقين من الإنس والجن، وهذا الأمر يشعر كلاً منهما بضآلته أمام أبعاد الكون، وبعجزه التام عن مجرد التفكير في الهروب منه،... أو النفاذ إلى المجهول من بعده...!

فمجرتنا (سكة التبَّانة) يقدر قطرها الأكبر بمائة ألف سنة ضوئية على أقل تقدير (100.000 × 9.5 مليون مليون كيلومتر تقريباً)، ويقدر قطرها الأصغر بعشرة آلاف سنة ضوئية على أقل تقدير كذلك (10.000 × 9.5 مليون مليون كيلومتر تقريباً)؛ ومعنى ذلك أن الإنسان لكي يتمكن من الخروج من مجرتنا، عبر قطرها الأصغر يحتاج إلى وسيلة تحركه بسرعة الضوء ليستخدمها؛ في حركة مستمرة لمدة تصل إلى عشرة آلاف سنة من سنيننا، وبطاقة انفلات خيالية لتخرجه من نطاق جاذبية الأجرام التي يمر بها من مكونات تلك المجرة، وهذه كلها من المستحيلات بالنسبة للإنسان الذي لا يتجاوز عمره في المتوسط خمسين سنة، ولم تتجاوز حركته في السماء ثانية ضوئية واحدة وربع الثانية فقط،



رسم للمجموعة الشمسية يبين مدار كل كوكب في دورته حول الشمس

وهي المسافة بين الأرض والقمر، على الرغم من التقدم التقني المذهل الذي حققه في صناعة أجهزة ريادة السماء، وعلى الرغم من أن حركة أي جسم مادي بسرعةِ الضوء تحوله إلى طاقة يستحيل استرجاعه منها بشكله الأول.

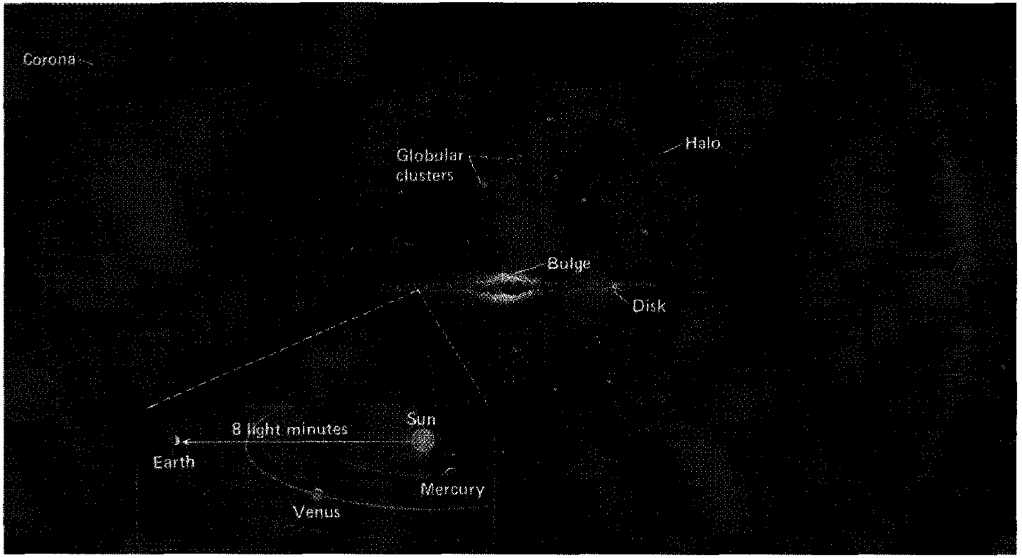
ومجموعتنا الشمسية تقع من مجرتنا على بعد حوالي ثلاثين ألفاً من السنين الضوئية من مركزها، وعشرين ألفاً من السنين الضوئية من أقرب أطرافها، فإذا حاول الإنسان الخروج من أقرب الأقطار إلى الأرض فإنه يحتاج إلى عشرين ألف سنة وهو يتحرك بسرعة الضوء لكي يخرج من أقطار مجرتنا، وهل يطيق الإنسان ذلك؟ أو هل يمكن أن يحيا إنسان لمثل تلك المدد المتطاولة؟ وهل يستطيع الإنسان أن يتحرك بسرعة الضوء؟ كل هذه حواجز تحول دون إمكان ذلك بالنسبة للإنسان، وما ينطبق عليه ينطبق على عالم الجان الغيبي بالنسبة لنا بالقياس على أنه من خلق الله الذي وصفه بالعجز عن ذلك.

ومجرتنا جزء من مجموعة من المجرات تعرف باسم: **المجموعة المحلية** يقدر قطرها بنحو ثلاثة ملايين وربع المليون من السنين الضوئية (3,261,500 سنة ضوئية)، وهذه بدورها تشكل جزءاً من **حشد مجري** يقدر قطره بأكثر من ستة ملايين ونصف المليون من السنين الضوئية (3,523,000) سنة ضوئية، وهذا الحشد المجري يكون جزءاً من **الحشد المجري الأعظم** ويقدر قطره الأكبر بمائة مليون من السنين الضوئية وسمكه بعشرة ملايين من السنين الضوئية.

وتبدو **الحشود المجرية العظمى** على هيئة كروية تدرس في شرائح مقطعية تقدر أبعادها في حدود 150 × 100 × 15 سنة ضوئية، والفلكيون يسمون أكبر تلك الشرائح مجازاً باسم: **الحائط العظيم**، وهذا الحائط يزيد طوله على مائتين وخمسين مليوناً من السنين الضوئية. وقد تم أخيراً اكتشاف نحو مائة من الحشود المجرية العظمى تكون تجمعاً أعظم على هيئة قرص يبلغ قطره الأكبر بليونين من السنين الضوئية.

والجزء المدرك من الكون يمثل جزءاً من السماء الدنيا التي زينها ربنا ﷻ بالنجوم فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ **(الملك: 5)**.

هذا الجزء المدرك من السماء الدنيا يزيد قطره على العشرين بليون سنة ضوئية؛ وهي حقائق تجعل الإنسان بكل إنجازاته العلمية يتضاءل تضاؤلاً شديداً أمام أبعاد الكون المذهلة، وكذلك الجان، وإمكانات كل منهما أقل من مجرد التفكير في إمكانية الهروب من ملك الله الذي لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه...!!!



رسم تخطيطي لقرص مجرتنا يوضح موقع مجموعتنا الشمسية منها

ثالثاً: بالنسبة للنفاذ من أقطار السمٰوات والأرض معاً:

تشير الآيات الكريمة إلى أن التحدي الذي تجابه به الجن والإنس معاً هو النفاذ من أقطار السمٰوات والأرض معاً إن استطاعوا، وثبت عجزهما عن النفاذ من أقطار أيٍّ منهما، وعجزهما أشد إذا كانت المطالبة بالنفاذ من أقطارهما معاً، وإذا كان هذا هو مقصود الآيات الكريمة، فإنه يمكن أن يشير إلى معنىً في غاية الأهمية، ألا وهو توسط الأرض للكون؛ وهو معنى لا تستطيع علوم الفلك إثباته لعجز الإنسان عن الإحاطة بأبعاد الكون، ولكن يدعم هذا الاستنتاج ما رواه كل من قتادة والسدي أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم**»[1].

ويدعمه كذلك قول المصطفى ﷺ: «**يا أهل مكة إنكم بحذاء وسط السماء**»[2].

وتوسط الأرض للكون معنى حارت فيه عقول العلماء والمفكرين عبر التاريخ.

(1) رواه الفاكهي في أخبار مكة (الحديث: 1615).

(2) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الحديث: 9/ 216).

وعجزت العلوم المكتسبة والتقنيات الفائقة عن إثباته، ولكن ما جاء في هذه الآيات القرآنية الكريمة، وفي عدد من الأحاديث النبوية الشريفة يشير إليه، ويجعل المنطق السوي يقبله.

رابعاً: بالنسبة إلى إرسال شواظ من نار ونحاس على كل من يحاول النفاذ من أقطار السمٰوات والأرض بغير سلطان من الله تعالى:

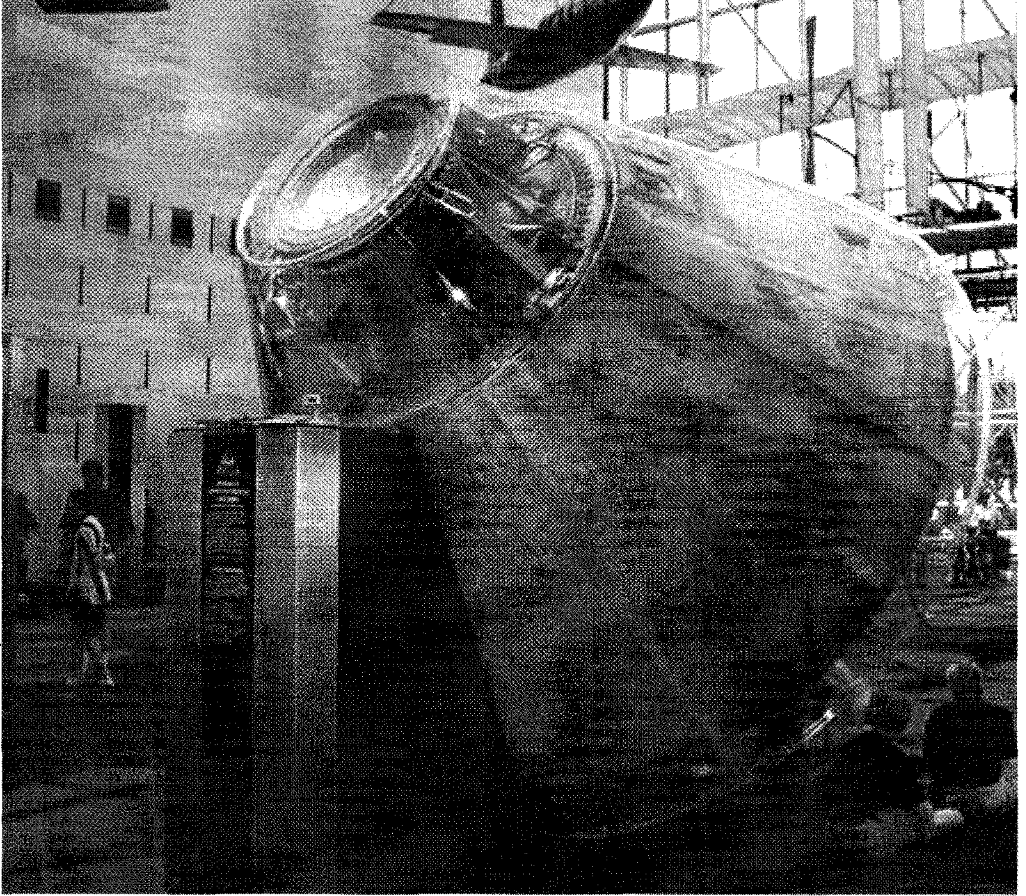
في الآية رقم (35) من سورة «الرحمٰن» يخاطب ربنا ـ ﷻ ـ كلًّا من الجن والإنس بقوله عز من قائل: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

وقد أجمع قدامى المفسرين ومحدثوهم على أن لفظة **شواظ** هنا تعني: اللهب الذي لا دخان له. وكلمة **نحاس** تعني: الدخان الذي لا لهب فيه؛ أو تعني: فلز النحاس الذي نعرفه جميعاً، وهو فلز معروف بدرجة انصهاره العالية (1083°م)، ودرجة غليانه الأعلى (2567°م).

ومن الثابت علمياً أن العناصر المعروفة لنا تتخلق في داخل النجوم بعملية الاندماج النووي لنوى ذرات الهيدروجين فينتج عن ذلك نوى ذرات العناصر الأثقل بالتدريج حتى يتحول لب النجم إلى حديد. والتفاعل النووي قبل تكوُّن ذرات الحديد هو تفاعل منتج للحرارة التي تصل إلى بلايين الدرجات المئوية، ولكن عملية الاندماج النووي المنتجة للحديد عملية مستهلكة للحرارة، وبالتالي لطاقة النجم حتى تضطره إلى الانفجار مما يؤدي إلى تناثر العناصر التي تكونت بداخله ـ بما فيها الحديد ـ في صفحة السماء لتدخل هذه العناصر في مجال جاذبية أجرام تحتاج إليها بتقدير من الله تعالى. أما العناصر ذات النوى الأثقل من ذرة الحديد فتتخلق بإضافة اللبنات الأولية للمادة إلى نوى ذرات الحديد السابحة في صفحة السماء، حتى تتكون بقية العناصر المعروفة لنا، والتي يزيد عددها على المائة عنصر وهذه أيضاً تنزل إلى جميع أجرام السماء بقدر معلوم. ولما كان عنصر النحاس أعلى من الحديد في كل من وزنه وعدده الذري (الوزن الذري لنظائر الحديد 54، 56، 57 والوزن الذري للنحاس 63.546 والعدد الذري للحديد26 بينما العدد الذري للنحاس 29)؛ وبناء على ذلك فإن عنصر النحاس يتخلق في صفحة السماء الدنيا باندماج نوى ذرات الحديد مع بعض اللبنات الأولية للمادة، وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذرات العناصر الثقيلة ومنها: النحاس.

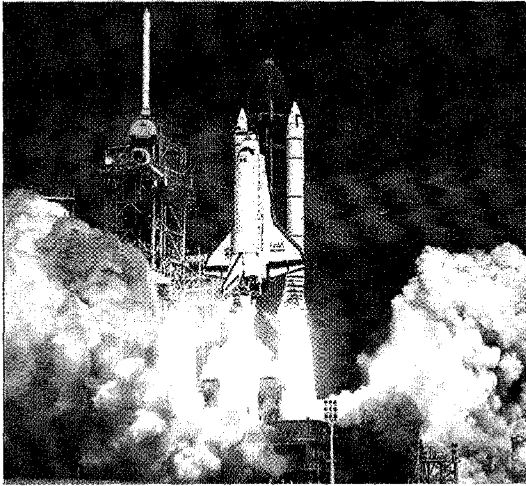
هذه الملاحظة تشير إلى أن لفظة (**نحاس**) في الآية الكريمة تعني: فلز النحاس؛ لأن التأويل هنا لا داعي له على الإطلاق، فالنحاس وهو منصهر في صفحة السماء، يعد عقاباً رادعاً لكل محاولةٍ لاختراق أقطار السمٰوات والأرض إلا بإذن الله ـ تعالى ـ.

وقد اتصل بي أخٌ كريمٌ هو الدكتور عبد الله الشهابي، وأخبرني بأنه زار معرض الفضاء والطيران في مدينة (واشنطن دي. سي.) الذي يعرض نماذج الطائرات من بداياتها الأولى إلى أحدثها، كما يعرض نماذج لمركبات الفضاء، وفي المعرض شاهد قطاعاً عرضياً في كبسولة «أبولو» وأذهله أن يرى على سطحها خطوطاً طوليةً عديدةً غائرةً في جسم الكبسولة ومليئة بكربونات النحاس **(جنزار النحاس)**، وقد لفتت هذه الملاحظة نظره فذهب إلى المسؤول العلمي عن تلك الصالة وسأله: هل السبيكة التي صنعت منها الكبسولة يدخل فيها عنصر النحاس؟ فنفى ذلك نفياً قاطعاً، فأشار إلى جنزار النحاس على جسم الكبسولة وسأله: من أين جاء هذا؟ فقال له: من نوى ذرات النحاس المنتشرة في صفحة السماء



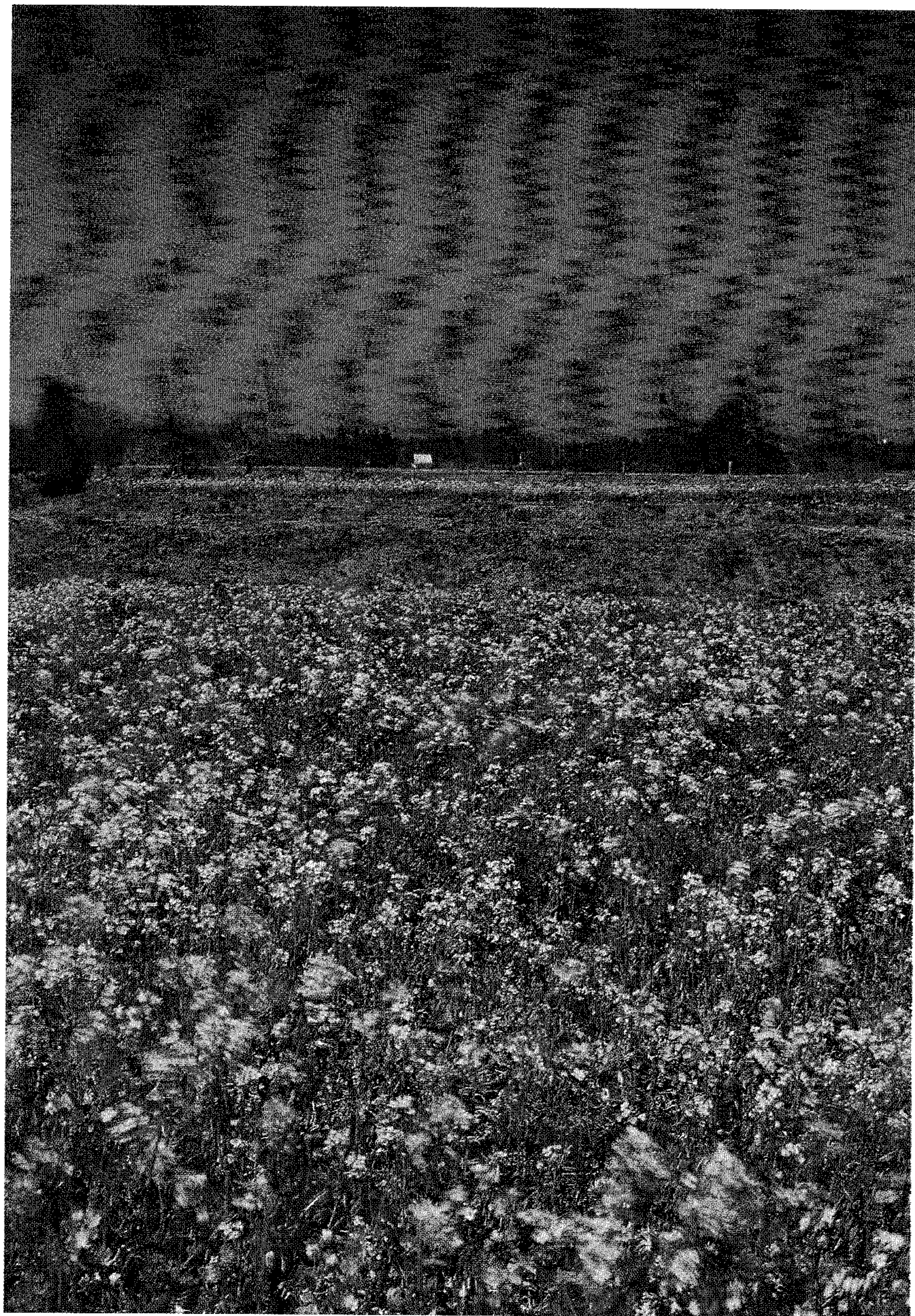
صورة للكبسولة الفضائية «أبولو 11» ويظهر على سطحها خطوط طولية لجنزار النحاس ـ معرض الفضاء والطيران ـ واشنطن دي.سي

التي تضرب جسم الكبسولة طوال حركتها صعوداً إلى السماء وهبوطاً منها، وفي طريقها إلى الأرض تمر الكبسولة بطبقات بها كميات عالية نسبياً من كل من الرطوبة وثاني أكسيد الكربون، فتتحول الذرات النحاسية التي لصقت بجسم الكبسولة بالتدريج إلى جنزار النحاس. ويقول الدكتور الشهابي إنه على الفور تراءت أمام أنظاره الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها ربنا ﷻ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ فسجد لله شكراً على هذا السبق القرآني المذهل.



صورة للمركبة الفضائية «ديسكفري» لحظة انطلاقها

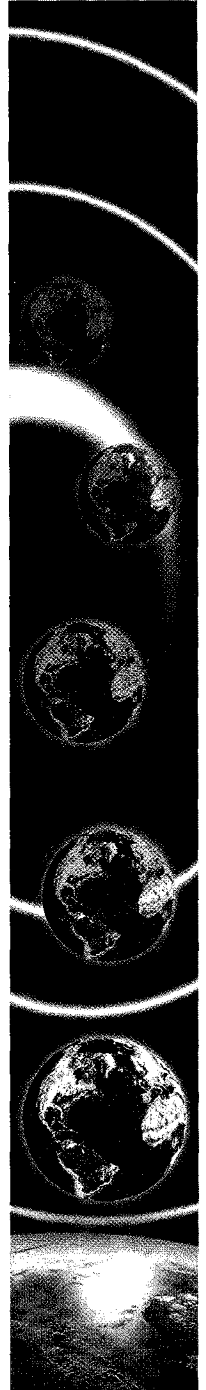
هذه الملاحظة أكدت لي ما ناديت به طويلاً بأن لفظة (**نحاس**) في الآية تعني: فلز النحاس ولا تحتاج إلى أدنى تأويل. فسبحان الذي أنزل هذه الآيات الكريمة من قبل 1400 من السنين وحفظها لنا في كتابه الكريم على مدى 14 قرناً أو يزيد، لتظهر في زماننا زمان رحلات الفضاء برهاناً مادياً ملموساً على أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، ويبقى ذلك برهاناً مادياً كذلك على أن النبي الخاتم الذي تلقى القرآن العظيم ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

(18) ﴿... وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

(الحج: 5)



هذه الحقيقة الكونية جاء ذكرها بهذا النص القرآني الكريم في ختام الآية الخامسة من سورة «الحج»؛ وهي سورة مدنية، مجموع آياتها: ثمان وسبعون (78) بعد البسملة، وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، وقد سميت باسم هذه الشعيرة الإسلامية الكبرى الحج، لورود الإشارة فيها إلى الأمر الإلهي إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بالأذان في الناس بالحج.

ويدور محور السورة حول العديد من التشريعات الإسلامية بأحكام الحج، والطعام، والإذن بالقتال والجهاد في سبيل الله دفاعاً عن النفس، وعن الدين، وشعائره، ومقدساته، وعن أعراض وأموال وممتلكات وأراضي المسلمين، ودفعاً لظلم الظالمين، ولبغي الباغين المتجبرين في الأرض بغير الحق...!!!

ويصحب هذه التكاليف الوعد القاطع من الله ـ تعالى ـ بنصر المجاهدين في سبيله؛ وبالتمكين للمؤمنين به؛ الذين ينهضون في غير تردد لرد كل عدوان باغٍ على المسلمين أو حتى على غيرهم من البشر المسالمين، ومع تأكيد قوة الله البالغة، وضعف الشركاء المزعومين، والإشارة إلى مصارع الغابرين من الكفار والمشركين والظالمين، وإلى سنن الله في ذلك، وهي سنن لا تتوقف ولا تتبدل ولا تتخلف أبداً.

ومن الأمور المسلَّم بها أن التشريع لم يؤمر به إلا بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ومن هنا كان الاستنتاج الصحيح بأن السورة مدنية النزول، وعلى الرغم من ذلك فإن «سورة الحج» قد ابتدأت بالتحذير الإلٰهي للناس كافة من هول الساعة، وبالتأكيد على حقيقة البعث، وبالتركيز على توحيد الله، وإنكار الشرك، وبذكر الدمار الذي لحق بالمكذبين من الأمم السابقة، وتفيض السورة بوصف مشاهد الآخرة، وأهوال البعث والحساب، وجزاء المؤمنين وعقاب الكافرين وهي من قضايا القرآن المكي، وإن كان لا ينفرد بها وحده.

وتكثر السورة من الأدلة الكونية المثبتة لطلاقة القدرة الإلٰهية في الخلق، وفي الإفناء والبعث، وفي الحساب والجزاء.

وقد استهلت السورة الكريمة بالأمر بتقوى الله، وبالتحذير الشديد من أهوال ما سمَّته زلزلة الساعة، وفيها يدمر كل شيء في الكون في آخر عمر الدنيا، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ **(الحج: 1، 2)**.

وتنتقل السورة بسرعة إلى الحديث عمن يضلهم الشيطان فيجادلون في الله ـ تعالى ـ بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، أي: بالجهل والباطل، وهؤلاء لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب شديد؛ لأن مهمة الشيطان في الدنيا هي محاولة إضلال الناس حتى يقود من يطيعه منهم إلى الجحيم...!!!

وتضرب سورة «الحج» برهاناً على حتمية البعث من حقيقة خلق الإنسان من تراب، مروراً بمراحل الجنين المتعاقبة، حتى يخرج إلى الحياة طفلاً نامياً، ثم يبلغ أشده فيحيا في هذه الدنيا كما أراد له الله، وليس له من بعد هذه الحياة إلا الموت، طال أجله أم قصر..!!

وشبهت السورة خلق الإنسان بخلق النبات، وذلك بإنزال الماء على الأرض الهامدة فتهتز وتربو إلى أعلى، حتى تنشق لتفسح طريقاً سهلاً للنبتة الطيبة المنبثقة ـ بقدرة الله ـ من داخل البذرة النابتة في زوجية بهيجة، وسوف يتم إحياء الموتى بنفس الطريقة التي يحيي بها الله ـ تعالى ـ الأرض الهامدة.

وتشير السورة الكريمة إلى ظاهرة من ظواهر النفس الإنسانية، مؤداها أن من الناس من يعبد الله ـ تعالى ـ طمعاً في عظيم عطائه فقط، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، وهو الخسران المبين. وحذرت السورة من

رجس الوثنية، ومن قول الزور، ومن الشرك بالله، وعرضت لشيء من أوضاع المشركين الذين يعبدون من دون الله ـ تعالى ـ شركاء لم ينزل بهم سلطاناً ـ والله منزه عن الشريك والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وعن كل أوصاف خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله ـ وتنكر «سورة الحج» هذه الشراكة المفتراة، وتؤكد عجز هؤلاء الشركاء عن نفع أو ضر من أشركوا بهم فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾

(الحج: 73).

كما تعرض سورة «الحج» لشيء من ثواب المؤمنين، ولعذاب الكافرين، وللفصل بين أصحاب الملل والنحل المختلفة، وتؤكد أن جميع ما في هذا الوجود يسجد لله ـ تعالى ـ في عبوديةٍ كاملةٍ، وأن هذا الخضوع بالعبودية لله الخالق هو قمة التكريم للمخلوقات، ومن يعرض عن ذلك الخضوع لله من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم، وأشارت سورة «الحج» إلى أن من ألوان الكفر بالله الصد عن سبيله، وعن المسجد الحرام، والإلحاد والظلم فيه، وأشارت إلى هداية إبراهيم عليه السلام إلى مكان البيت الحرام، وأمره برفع قواعده، وإعادة بنائه هو وولده اسماعيل عليه السلام، وتطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود، وشرعت لفريضة الحج وما فيها من تعظيم لشعائر الله، مما يؤكد أن هذا النسك الإسلامي قد شرع للأمم من قبل بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ حتى يشكروا الله ـ تعالى ـ على فضله.

وتكرر سورة «الحج» تأكيد وحدانية الله، وطلاقة قدرته، والأمر بالخضوع الكامل لجلاله بالإسلام له، وتبشر الذين تخشع قلوبهم بذكره والصابرين على قضائه والذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله بخيري الدنيا والآخرة، وتؤكد دفاع الله ـ تعالى ـ عن المؤمنين به، وأنه ـ تعالى ـ لا يحب كلَّ خوَّان كفور.

ويتكرر الإذن بالقتال الدفاعي للذين ظلموا من الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا: ربنا الله، كإخواننا أهل فلسطين المظلومين في زماننا الذين أخرجهم من ديارهم عصابات من حثالات الأمم ونفايات الشعوب من المستعمرين الغربيين الصهاينة الذين أخرجوهم بسلسلة من المؤامرات الدولية من أرضهم وممتلكاتهم ومساكنهم، وتؤكد السورة الكريمة أن الله ـ تعالى ـ على نصرهم لقدير، وتشجع على مناصرتهم بالتأكيد على أن الله ـ سبحانه ـ ناصر من ينصره. وتتحدث السورة الكريمة في أكثر من موضع منها عن جزاء المهاجرين في سبيل الله، والشهداء في ميادين الجهاد من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله في الأرض، وتكرر تعهد الله ـ تعالى ـ بنصرة المظلومين، وتقارن بين جزاء المؤمنين بآيات

الله، وعقاب المكذبين بها والساعين في محاولة يائسة لإطفاء نور الله في الأرض بإلقائهم في جهنم وبئس المصير، وتصف المؤمنين بالله بأنهم إن مكنوا في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وأن لله عاقبة الأمور.

وتخاطب السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مواسية إياه: بأن تكذيب الكافرين لنبوته ولرسالته ليس أمراً جديداً في طبائع البشر، فقد كذبت الأمم الكافرة من قبل كل أنبياء الله ورسله: قوم كل من أنبياء الله: نوح، وعاد، وثمود، إبراهيم، لوط، وشعيب (أصحاب مدين)، موسى وغيرهم، وكان عقاب المكذبين الدمار الذي تشهد به آثارهم من القصور المهجورة والآبار المعطلة. وتتساءل السورة الكريمة: أفلم يتحرك الناس في الأرض فيدركوا هذه الحقائق حتى تكون عبرة لهم؟ وتؤكد أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور...!!

ويتعجب سياق السورة الكريمة من استعجال الكافرين لعذاب الله، ومؤكداً أن الله ـ تعالى ـ لن يخلف وعده، وإن استبعد الكافرون ذلك لطول آماد الله فاليوم عنده ـ سبحانه ـ بألف سنة مما يعد أهل الأرض. وتأمر السورة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يبلِّغ الناس كافة بأنه نذير من الله مبين.

وتختتم سورة «الحج» بتقرير أن الله ـ تعالى ـ يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وتأمر بعبادة الله ـ تعالى ـ ركوعاً وسجوداً وذكراً بما أمر، كما تأمر بفعل الخيرات، وبالجهاد في سبيل الله حق الجهاد؛ حتى يفلح العباد. وتؤكد أنه ما في دين الإسلام من حرج، وأنه رسالة السماء إلى الأرض التي أنزلها الله ﷻ على فترة من الرسل وأكملها وأتمها، وحفظها في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم المرسلين ﷺ والتي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ **(الحج: 78)**.

ولكي نكون جديرين بهذه الشهادة على الناس تختتم السورة الكريمة بأمرنا بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبالاعتصام بالله ـ تعالى ـ هو مولانا ومولى كل موجود، وهو ـ سبحانه ـ نعم المولى ونعم النصير.

من الإشارات الكونية في سورة الحج

من الأدلة الكونية التي ساقتها سورة الحج تصديقاً لما جاء بها من أمور الغيب وأوامر الله ـ تعالى ـ ما يلي:

(1) خلق الإنسان من تراب، ودقة وصف مراحل الجنين المتتالية التي يمر بها حتى يخرج للحياة طفلاً، يحيا ما شاء له الله ـ تعالى ـ أن يحيا، ثم يتوفاه الله عند نهاية أجله المحدد، والكشوف العلمية تؤكد صدق كل ما جاء به القرآن الكريم عن ذلك.

(2) اهتزاز الأرض، وارتفاعها، واخضرارها، وإنباتها من كل زوج بهيج بمجرد إنزال الماء عليها، وشبه ذلك الإنبات من بين تربة الأرض بعملية خلق الإنسان من تراب. والعلم يؤكد ما جاء بالقرآن الكريم عن ذلك.

(3) التأكيد على سجود كل من في السمٰوات ومن في الأرض لله ـ تعالى ـ طوعاً أو كرهاً، والبحوث العلمية تكاد تقترب من إثبات ذلك.

(4) قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾. وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى سرعات فائقة لم يكن لأحد من الخلق إلمام بها وقت تنزل القرآن الكريم. ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك.

(5) التعبير عن دوران الأرض حول محورها باستخدام الوصف القائل بإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر.

(6) تسخير كل ما في السمٰوات والأرض بأمر الله، وجري الفلك في البحر بأمره.

(7) الإشارة إلى إمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله.

(8) التنبيه إلى حقيقة إحياء الإنسان؛ أي: خلقه من العدم، ثم إماتته، ثم إحياؤه مرة أُخرى؛ أي: بعثه، وكل النتائج العلمية تؤكد حقيقة ذلك.

(9) التأكيد على حقيقة عجز المخلوقين عن الخلق، وعن استنقاذ مايسلبهم الذباب من طعام أو شرب.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجةٍ مستقلةٍ؛ ولذا فسوف أقتصر هنا على النقطة الثانية فقط ألا وهي التي يصفها الحق ﷻ بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿. . . وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ **(الحج: 5)**.

وقبل ذلك لا بد من استعراض لدلالات الألفاظ في الآية الكريمة ولأقوال عدد من المفسرين فيها.

الدلالة اللغوية

من الألفاظ التي تحتاج إلى شيء من الإيضاح في هذا النص القرآني الكريم ما يلي:

(1) **هامدة**: يقال في اللغة: (همدت) النار أي: خمدت وأطفئت جذوتها وذهبت البتة؛ ومنه أرض (هامدة) أي: لا نبات فيها، ونبات (هامد) أي: يابس، و(الإهماد) هو الإقامة بالمكان كأنه صار (ذا همد)، وقيل (الإهماد): السرعة وهي عكس الخمود والخمول، وإن كان ذلك صحيحاً فتصبح الكلمة من الأضداد كالإشكاء في كونه تارةً لإزالة الشكوى، وتارةً لإثباتها، ومعنى قوله ـ تعالى ـ: (وترى الأرض هامدةً) أي: جافةً، قاحلةً لا نبات فيها، يقال: (همدت) الأرض (تهمد) (هموداً) أي: يبست ودرست، و(همد) الثوب أي: بلي.

وقد وردت الصفة (هامدةً) مرةً واحدةً في القرآن الكريم، وجاءت بنفس المعنى بالتعبير (خاشعة) في قول الحق ﷻ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ **(فصلت: 39)**.

(2) **اهتزت**: هذا الفعل بهذه الصياغة وفي نفس المعنى جاء في كتاب الله مرتين: (فصلت: 39، والحج: 5)، كما جاء بصيغة الأمر (هزي) مرةً واحدةً (مريم: 25)، وفي صيغة المضارع (تهتز) مرتين: (النمل: 10، القصص: 31).

ومعنى اهتزت هنا: انتفضت وتحركت في رأي العين، يقال: (هز) الشيء (فاهتز) أي: حركه فتحرك بشدة؛ لأن (الهز) هو التحريك الشديد، و(الهزة الأرضية) هي الزلزلة، و (الهزة) أيضاً هي النشاط والارتياح.

(3) **و(ربت)**: أي: زاد حجمها فانتفخت وعلت، يقال في اللغة: (ربا) الشيء (يربو) (ربواً) أي: زاد ونما، و(الربوة) و(الرابية) ما ارتفع من الأرض، وكذلك (الرباوة)، و(الربا) الزيادة في كل من المال والسلع بغير مقابل، يقال: (أربيت) إذا أخذت أكثر مما أعطيت، ويقال: (أربى) عليه بمعنى: ارتفع عنه فأشرف عليه، و(الربو) هو مرض النفس العالي، ويقال: (ربا) إذا أخذه مرض (الربو)، ويقال: (رباه) (تربية) و(ترباه) أي: تعهده بالرعاية والعناية حتى (نما) وهذا لكل ما (ينمو) كالولد، والزرع، ونحوه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾. **(الحج: 5).**

• ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السدي: ميتة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾؛ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت مافيها من ثمار وزروع، وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسن المنظر طيب الريح...».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: يابسة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ ارتفعت وزادت ﴿وَأَنۢبَتَتْ﴾، ﴿مِن﴾ زائدة ﴿كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «والهمود درجة بين الحياة والموت». وهكذا تكون الأرض قبل الماء، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء. فإذا نزل عليها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج. هل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون، وتنتفض بعد الهمود؟ وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلكهم في آيةٍ واحدةٍ من آياته. وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة، وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك، في الأرض والنبات والحيوان والإنسان».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ ما نصه: «﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يابسة لا نبات فيها، يقال: همدت الأرض تهمد هموداً، يبست ودرست، وهمد الثوب: بلي .﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت في رأي العين بسبب حركة

النبات، يقال: هز الشيء ـ من باب رد ـ فاهتز، حركه فتحرك. ﴿وَرَبَتْ﴾ زادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات. يقال: ربا الشيء يربو ربواً، زاد ونما، ومنه الربا والربوة. ﴿بَهِيجٍ﴾: نضر حسن المنظر، من بهج ـ كظرف ـ بهاجة وبهجة أي: حسن».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «... وأمر آخر يدلك على قدرة الله على البعث أنك ترى الأرض قاحلة يابسة، فإذا أنزلنا عليها الماء، دبَّت فيها الحياة وتحركت وزادت، وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء، وأظهرت من أصناف النباتات مايروق منظره، ويبهر حسنه، وتبتهج لمرآه».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خير الجزاء ـ ما نصه: «﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث؛ أي: وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾؛ أي: فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾؛ أي: وأخرجت من كل صنف عجيب ما سرَّ الناظر ببهائه ورونقه...».

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم

يقول الحق ﷻ:

﴿... وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞﴾ **(الحج: 5).**

سبق لنا وذكرنا أن لفظة الأرض وردت في القرآن الكريم بثلاثة معانٍ محددة تفهم من سياق الآية القرآنية؛ وهي إما الكوكب ككل، أو الغلاف الصخري المكون لكتل القارات التي نحيا عليها، أو قطاع التربة الذي يغطي صخور ذلك الغلاف الصخري للأرض. وواضح الأمر هنا أن المقصود بالأرض في النص القرآني الذي نتعامل معه، هو قطاع التربة الذي يحمل الكساء الخضري للأرض والذي يهتز ويربو بسقوط الماء عليه.

قطاع التربة الأرضية:

تتكون تربة الأرض بواسطة التحلل الكيميائي والحيوي لصخورها، كما تتكون نتيجة تفكك تلك الصخور بواسطة عوامل التعرية المختلفة التي تؤدي في النهاية إلى تكون غطاء رقيق لصخور الغلاف الصخري للأرض من فتات وبسيس الصخور. على هيئة حطام مفروط

يعرف باسم: **عادم الصخور**. وعلى ذلك فإن تربة الأرض تمثل الطبقة الرقيقة من عادم الصخور الناتج عن تحلل أجزاء من الغلاف الصخري للأرض. وتغطى صخور الأرض في كثير من الأحوال بقطاع التربة؛ سواء كان ناتجاً عن تحللها مباشرةً، أو منقولاً إليها ليغطيها. والتربة بذلك تمثل الحلقة الوسطى بين الغلاف الصخري للأرض وغلافيها الهوائي والمائي؛ ولذلك فهي خليط من المعادن التي تفككت من صخور الأرض بفعل عوامل التعرية المختلفة، ومن المركبات العضوية وغير العضوية الناتجة عن التفاعل والصراع بين تلك النطق الثلاثة من نطق الأرض، أو المتبقية عن الكائنات الحية التي تعمر قطاع التربة، وهي كثيرة من مثل: البكتيريا، والطحالب، والفطريات، والنباتات بمختلف هيئاتها ومراتبها، فالتربة هي مصدر كل الغذاء والماء لحياة النباتات الأرضية؛ لأنها وسَطٌ تتراكم فيه بقايا كل من العمليات الأرضية، والسلاسل الغذائية، التي تتحلل بواسطة الكائنات الدقيقة، التي تجهز بنشاطاتها كل العناصر اللازمة لنمو النباتات الأرضية في داخل تربة الأرض.

وتتكون التربة الأرضية أساساً من خليط من الماء (حوالي 25%) والهواء (حوالي 25%) والمواد العضوية (حوالي 5%) ومعادن الأرض والتي يغلب عليها معادن الصلصال، والرمال، وأكاسيد الحديد، وكربونات كل من الكالسيوم والمغنسيوم (حوالي 45%) .

وبالإضافة إلى التركيب الكيميائي والمعدني لتربة الأرض فإن حجم حبيباتها ونسيجها الداخلي له دور مهم في تصنيفها إلى أنواع عديدة، وتقسم التربة حسب حجم حبيباتها إلى التربة الصلصالية، والطميية، والرملية، والحصوية، وأكثر أنواع التربة انتشاراً هي خليط من تلك الأحجام المختلفة.

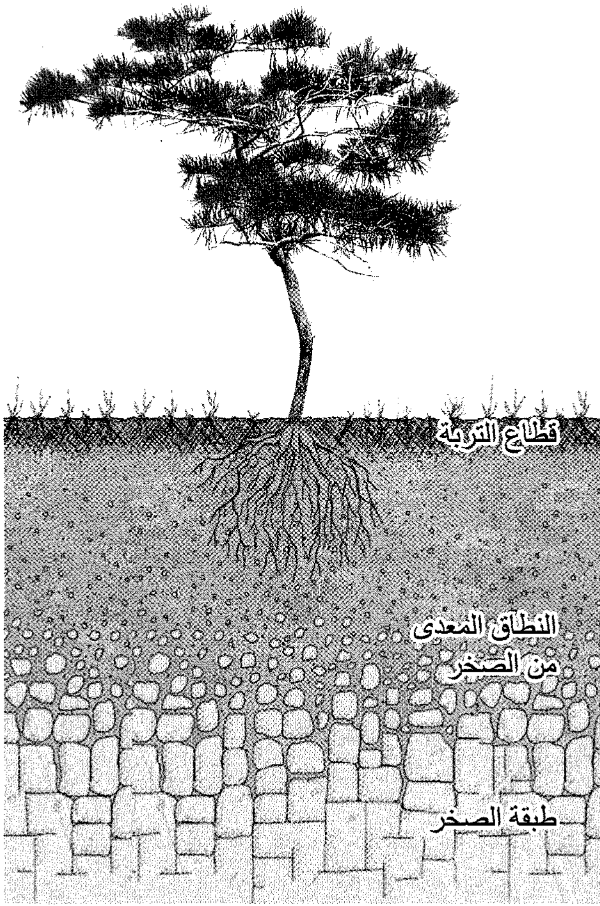
ويقسم قطاع التربة من سطح الأرض إلى الداخل إلى النطق الأربعة التالية:

(1) **نطاق السطح الأرضي أو (نطاق O)**: وهو غني بالمواد العضوية من مثل أوراق الأشجار وفتات زهورها، وثمارها، وأخشابها، وتزداد فيها نسبة المواد الدبالية **(Humus)** أي: العضوية المتحللة من أعلى إلى أسفل.

(2) **نطاق التربة العليا أو (نطاق-A)**: ويتكون أساساً من فتات المعادن الخشن نسبياً، والغني بالنشاط العضوي مما يزيد من محتواه في المواد الدبالية التي تصل إلى 30% من مكونات هذا النطاق في بعض الحالات.

(3) **نطاق ما تحت التربة العليا أو (نطاق ـB)**: وهو نطاق يتجمع فيه كثير من

العناصر والمركبات التي تحملها المياه الهابطة من النطاقين العلويين؛ ولذا يعرف باسم: نطاق التجمع. ومع كثرة هبوط حبيبات الصلصال الدقيقة من النطاقين العلويين إلى نطاق ما تحت التربة أو نطاق التجمع هذا، فإنه يحتفظ بالماء الهابط إليه من سطح الأرض.



رسم تخطيطي لقطاع التربة يوضح نطقها الأربعة

وتمثل النطق الثلاثة **(O,A,B)** ما يسمى باسم: «**التربة الحقيقية**» وهي التي تزخر بالعمليات الحيوية، وبكل صور الحياة التي يشتهر بها قطاع التربة، وتمتد إليها جذور النباتات من فوق سطح الأرض.

(4) نطاق الغلاف الصخري للأرض المتأثر ببعض عمليات التجوية:

وهذه النطق الأربعة لا تتمايز بهذا الوضوح إلا بعد تمام نضج قطاع التربة، فكثيراً ما تتكدس كلها في نطاق واحد.

وتمثل مجموعة الكائنات الدقيقة من مثل: البكتيريا، والفطريات، والطحالب أهم أنواع الحياة في تربة الأرض، وتشكل البكتيريا أغلبها (نحو 90%). وتنقسم بكتيريا التربة إلى ذاتية التغذية، وغير ذاتية التغذية، ومن الصنف الأول بكتيريا العقد الجذرية وقد أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على تثبيت غاز النيتروجين الموجود بالهواء المحيط بالأرض، وتحويله إلى مركبات نيتروجينية مهمة في التربة؛ ولذا تعرف باسم: «بكتيريا النيتروجين». وهناك «بكتيريا الإيدروجين»، و «بكتيريا الكبريت»، و «بكتيريا الحديد» وغيرها من مختلف أنواع البكتيريا التي تلعب دوراً مهماً في تزويد التربة بالأغذية المناسبة للنباتات الأرضية.

واستكمالاً لهذا الدور المهم، فإن البكتيريا غير ذاتية التغذية تقوم بتكسير المواد العضوية المعقدة من مثل: المواد السيليولوزية والكربوهيدراتية، والبروتينية، والدهنية وتحويلها إلى مواد يستطيع النبات الاستفادة بها.



الماء عنصر أساسي في إنبات الأرض، وبدونه ترى الأرض هامدة جرداء، قاحلة، متشققة خاصة إذا كانت التربة صلصالية

كيف تربو هذه التربة الأرضية بإنزال الماء عليها؟

يتكون جزيء الماء من اتحاد ذرة أكسجين واحدة مع ذرتي أيدروجين برابطةٍ قويةٍ لايسهل فكها، وتربط هذه الذرات مع بعضها البعض بشكل زاوٍ، له قطبية كهربية واضحة؛ لأن كلًّا من ذرتي الإيدروجين يحمل شحنةً موجبةً نسبيةً، وذرة الأكسجين تحمل شحنةً سالبةً نسبيةً، مما يجعل جزيء الماء غير تام التعادل كهربياً. وإلى هذه القطبية الكهربية

تعود صفات الماء المميزة له من مثل: قدرته الفائقة على الإذابة، وعلى التوتر السطحي، وشدة تلاصق جزيئاته مما يجعل له القدرة على التسلق ـ الخاصية الشعرية ـ، وعلى التكور في هيئة قطرات، وعدم امتزاج محاليله امتزاجاً كاملاً. والماء بهذه الصفات الطبيعية المميزة إذا نزل على تربة الأرض أدى إلى إثارتها كهربياً مما يجعلها تهتز وترتعش وتنتفش ويزداد حجمها فتربو وتزداد؛ وذلك لأن تربة الأرض تتكون في غالبيتها من المعادن الصلصالية التي يؤدي تميؤها إلى اهتزاز مكونات التربة، وزيادة حجمها، وارتفاعها إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق مفسحة طريقاً سهلاً آمنا لسويقة (ريشة) النبتة الطرية الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة بالتربة.

ومن أسباب اهتزاز التربة وانتفاشها وربوها ما يلي:

(1) تتكون التربة أساساً من المعادن الصلصالية، ومن صفات تلك المعادن أنها تتشبع بالتميؤ أي: بامتصاص الماء مما يؤدي إلى زيادة حجمها زيادة ملحوظة فيؤدي ذلك إلى اهتزازها بشدة وانتفاضها، فتؤدي إلى اهتزاز التربة بمجرد نزول الماء عليها.

(2) تتكون المعادن الصلصالية (سيليكات الألومنيوم المميأة) من رقائق من أكاسيد السيليكون والألومنيوم تفصلها مسافات بينية مملوءة بجزيئات الماء والغازات، وعند التسخين تطرد هذه الجزيئات المائية والغازية، فتنكمش تلك الرقائق بطرد هذه الجزيئات البينية، وعند إضافة الماء إليها تنتفض وتهتز وتربو إلى أعلى نتيجة لملء المسافات البينية الفاصلة لرقائق المعدن بالماء.

(3) نظراً لدقة حجم الحبيبات الصلصالية التي لايتعدى قطرها واحداً على 256 من المليمتر، أي أقل من 0.004 مم وهي المكون الرئيسي لتربة الأرض، فإن اختلاط الماء بتلك التربة يحولها إلى الحالة الغروية، وهي حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة وبأقدار غير متساوية في كل الاتجاهات، وعلى كل المستويات في حركة دائبة تعرف باسم: **الحركة البراونية**، نسبة إلى مكتشفها، وهي من عوامل اهتزاز التربة بشدة وانتفاضها، وكلما كان الماء المختلط بالتربة وفيراً كلما باعد بين حبيبات التربة لمسافات أكبر، وزاد من سرعة حركتها.

(4) تتكون المعادن الصلصالية أساساً من سيليكات الألومنيوم المميأة، وهذا المركَّب الكيميائي له قدرة على إحلال بعض ذرات الألومنيوم بذرات قواعد أخرى مثل: المغنيسيوم والكالسيوم، وكنتيجة لإحلال ذرات الألومنيوم بذرات غيرها من العناصر، ترتبط بعض الأيونات الموجبة الشحنة مثل: الصوديوم والكالسيوم على حواف وأسطح راقات الصلصال لمعادلة الشحنات السالبة الناتجة عن إحلال ذرة الألومنيوم الثلاثية التكافؤ بذرة الكالسيوم

أو المغنيسيوم الثنائية التكافؤ. والأيونات الموجبة مثل: أيونات الصوديوم والكالسيوم سهلة الإحلال بقواعد أخرى، مما يُحدِث اهتزازاً عنيفاً في مكونات رقائق الصلصال في وجود جزيء الماء ذي القطبية الكهربية.



التربة والماء هما العنصر الأساسي في إنبات الأرض وجعلها مروجاً تدر بالخير

(5) إن العمليات المعقدة التي كونت تربة الأرض عبر ملايين السنين أثرتها بالعديد من العناصر والمركبات الكيميائية اللازمة لحياة النباتات الأرضية، كما أن الكائنات الحية الدقيقة والكبيرة التي أسكنها الله ـ تعالى ـ تربة الأرض لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً هاماً في إثرائها بالمركبات العضوية وغير العضوية، وعند نزول جزيئات الماء ذات القطبية الكهربية، وإذابتها لبعض مكونات التربة، فإن ذلك يؤدي إلى تأيُّن تلك المكونات، وإلى تنافر الشحنات المتشابهة على أسطح رقائق الصلصال وفي محاليل الماء مما يؤدي إلى انتفاض تلك الرقائق واهتزازها بشدة.

(6) تحمل الرياح، والطيور، والحشرات، والكائنات الدقيقة إلى التربة بذور العديد من النباتات خاصة من البذور المجنحة، والأبواغ، وحبوب اللقاح والجراثيم التي تحملها الرياح لمسافات بعيدة، وعندما ينزل الماء على التربة الأرضية وتستقي منه تلك البقايا

النباتية خاصة تلك البقايا القابلة للإنبات مثل البذور فتنشط أجنتها، وتتغذّى على المواد المذابة في مياه التربة وتنمو، وتندفع جذورها إلى أسفل مكونة المجموعات الجذرية لتلك النباتات، وتندفع سويقاتها (ريشتها) إلى أعلى مسببة اهتزازات عنيفة لمكونات التربة.

(7) مع ازدياد هطول الماء على التربة تنتعش كل صور الحياة فيها من البكتريا، والفطريات، والطحالب، وغيرها، كما تغلظ المجموعات الجذرية للنباتات القائمة على سطح الأرض، ويؤدي النشاط الحيوي لكل من هذه الكائنات إلى زيادة حجم التربة، وإلى زيادة الأنشطة الكيميائية والفيزيائية فيها مما يؤدي إلى انتفاض مكوناتها واهتزازها وربوها وكثرة الإنبات فيها، وقد صورت هذه المراحل بالتصوير البطيء وأثبتت الصور صدق القرآن الكريم، في كل ما أشار إليه في هذه القضية.

وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا في العقود القليلة الماضية، وورودها في كتاب الله المنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين بهذه الدقة العلمية، والتسلسل المنطقي الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ **(الحج: 5)**.

وتكرار المعنى في مقام آخر من كتاب الله حيث يقول ـ عز من قائل ـ:

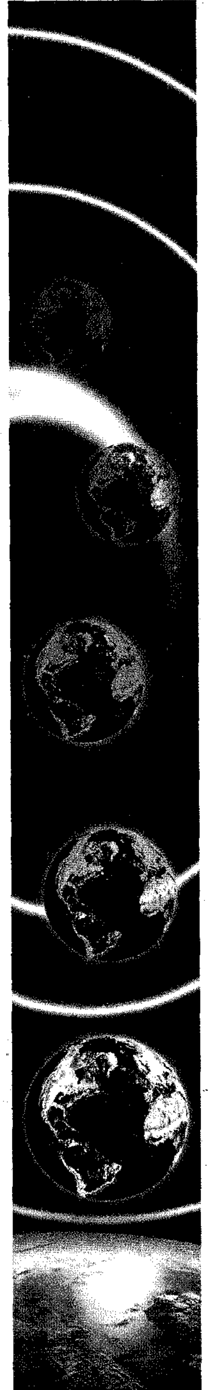
﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ **(فصلت: 39)**.

إن هذا كله لمن أبلغ الدلائل على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، وحفظه كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد ﷻ بذلك الحفظ إلى أن يرث ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وهو كذلك لمن أبلغ الدلائل على أن النبي الخاتم الذي تلقى القرآن الكريم كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة سيد الأنام: سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله الذي أنزل قوله الحق مخاطباً نبيه ورسوله الخاتم ﷺ الذي جاء فيه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ **(النساء: 166)**.

بسم الله الرحمن الرحيم

(19) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: 10)



هذه الآية الكريمة جاءت في الخمس الأول من سورة فصلت، وهي سورة مكية، وآياتها أربع وخمسون (54) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لوصفها القرآن الكريم في مطلعها بأنه كتاب فُصِّلَتْ آياته أي ميزت لفظاً ومعنى؛ لتناولها كلام الله وهدايته إلى الثقلين بأسلوب معجز في بيانه، ونظمه، وبلاغته، ومحتواه الذي يحمل قضايا الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات؛.. وهي إما من صميم الغيب المطلق الذي لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا ببيان من الله تعالى، بياناً ربانياً خالصاً لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية كقضايا العقيدة، أو هي أوامر ربانية خالصة كقضايا العبادة، والله تعالى يحب أن يعبد بما أمر، أو هي ضوابط للسلوك والمعاملات، والإنسان كان عاجزاً دوماً عن أن يضع لنفسه بنفسه ضوابط لسلوكه وتشريعات لمعاملاته، ومن هنا كان تميز القرآن الكريم.

وتبدأ سورة فصلت بالحرفين المقطعين (حم) ولذا تسمى أحياناً باسم (حم السجدة) لأن بها سجدة تلاوة واحدة؛ والحروف المقطعة التي افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم ـ في أحد الآراء ـ، وسبع وعشرون ـ في رأي آخر باعتبار كل من (طه) و (يسٓ) اسماً من أسماء رسول الله ﷺ، والتي تضم نصف أسماء حروف الهجاء الثمانية والعشرين، تعتبر سراً من أسرار القرآن الكريم التي لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ.

وبعد هذا الاستفتاح تحدثت السورة عن الوحي بالقرآن الكريم ووصفته بأنه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ (فصلت: 2، 3).

وتؤكد السورة الكريمة هذه الحقيقة في مقام آخر منها، يقول فيه الحق (تبارك وتعالى): ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ (فصلت: 44).

وتشير سورة «فصلت» إلى القرآن الكريم في عدد من آياتها، مؤكدة أنه كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتشير إلى كتاب موسى عليه السلام وإلى اختلاف قومه فيه، وتلفت النظر إلى أن القرآن الكريم هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو في آذان الذين لا يؤمنون به وقرٌ وهو عليهم عمى...!!!

وتتحدث السورة عن مواقف المعرضين عن كتاب الله، وعن انغلاق قلوبهم دون هدايته، ورفض أسماعهم للحق الذي جاء به، وعجز طبائعهم عن موافقة دعوته إلى توحيد الله الخالق، والاستقامة على أوامره، واجتناب نواهيه، والانصياع لتحذيره المتكرر من أخطار الوقوع في الكفر بالله ـ تعالى ـ، أو الشرك به، أو منع شرائعه، وقارنت السورة الكريمة بين الموقف الجاحد لهؤلاء الكفار والمشركين وما سوف ينالهم يوم القيامة من الويل والثبور، وبين موقف المؤمنين الذين سوف يعطيهم ربهم أجراً غير ممنون.

وفي محاجَّة ملجمة للكافرين استشهدت سورة «فصلت» على وجود الله ـ تعالى ـ، وعلى ألوهيته وربوبيته ووحدانيته، وعلى طلاقة قدرته بخلق الأرض في يومين أي: على مرحلتين؛ وبخلق الجبال، ومباركة الأرض، وتقدير أقواتها فيها في أربعة أيام؛ أي: أربع مراحل من أجل تهيئتها للعمران، والمرحلتان الأوليان داخلتان في المراحل الأربع التالية؛ ثم في مرحلتين تاليتين أتم الله ـ تعالى ـ بناء الكون، وجعل السمٰوات سبعاً، وزين السماء الدنيا منها بالنجوم وحفظها بها.

وبعد استعراض هذه الآيات الكونية المبهرة، تنذر السورة جميع المعرضين عن دين الله، والكافرين به بعقاب من مثل عقاب أقوام عاد وثمود، وعقاب أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، وفصلت السورة شيئاً مما حدث لكل منهم، وكيف نجَّى الله المتقين من بينهم.

واستشهدت السورة الكريمة ببعض مشاهد العذاب في الآخرة، ومن أخطرها أن الله ـ تعالى ـ سوف يُنطق سمع وأبصار وجلود أعدائه ليشهدوا عليهم بما كانوا يعملون، وتشير السورة إلى ما سوف يدور من حوار بين هؤلاء الخاطئين وجوارحهم التي سينطقها الله سبحانه وتعالى كي تشهد على جرائمهم...!!!

وتحذر السورة الكريمة الكافرين من الجحود بآيات الله، والانصراف عن الاستماع إلى القرآن الكريم، ومحاولة اللغو فيه إذا قرئ عليهم، وتهددهم بعذاب شديد، يوقفهم موقف الندم والاعتذار، ساعة لا ينفع الندم ولا يجدي الاعتذار...!!!

وتتحدث سورة «فصلت» عن شيء من مبشرات المؤمنين الذين آمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، واستقاموا على منهج الله بتنزل الملائكة عليهم في الدنيا وفي الآخرة، وفي لحظات الموت وسكراته، وحشرجة الصدر وضيقه، مطمئنة إياهم برضا الله عنهم وغفرانه لهم، ورحمته بهم، وتبشرهم بالنعيم الذي ينتظرهم...!!!

وتقارن السورة بين حسن حال المؤمنين في الدنيا والآخرة، وسوء حال الكافرين والمشركين في الدارين، وتتحدث عن شيء من أخلاق الدعاة إلى الله، وأساليبهم في الدعوة إليه، وتمايز بين الخير والشر، وبين الحسنة والسيئة.

وتُثَبِّتُ الآيات رسولَ الله ﷺ بحقيقة أن ما يقال له وعنه من الكافرين والمشركين قد قيل للرسل من قبله؛ وأن الله ـ تعالى ـ الذي وصف ذاته العلية بأنه صاحب المغفرة هو في الوقت نفسه ذو عقاب أليم...!!! وفي ذلك من التهديد والوعيد للكفار والمشركين ما فيه.

وتؤكد السورة الكريمة أن من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها... وأن الله ـ تعالى ـ ليس بظلام للعبيد، فهو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأنه ـ تعالى ـ يُرَدُّ إليه علم الساعة، وعلم كلّ شيء...!!!

وتنتهي السورة إلى الحديث عن شيء من طبائع النفس الإنسانية؛ وتختتم بهذا الوعد الإلٰهي القاطع بأن الله ـ تعالى ـ في مستقبل بعد زمن الوحي سوف يكشف للإنسان من الحقائق العلمية في آفاق الكون وفي دخائل كل من النفس الإنسانية والجسد البشري ما يؤكد صدق كل ما جاء في كتاب الله من الإشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى كل ما يتعلق بالإنسان ومراحل خلقه، وبناء جسده، وحديث نفسه. وإذا ثبت سبق القرآن بالإشارة إلى تلك الحقائق من قبل أن تصل إلى علم الإنسان بعدد متطاول من القرون، وثبت صدق القرآن الكريم في الإشارة إليها بقدر من الدقة والشمول والإحاطة التي لم يصل إليها علم الإنسان بعد في زمن التقدم العلمي والتقني المذهل الذي نعيشه؛... إذا ثبت كل ذلك أصبحت تلك الإشارات الكونية والإنسانية في كتاب الله من أعظم الآيات الدالة على أنه الحق، والشاهدة على صدق حديثه عن الغيب، وعن الدين بركائزه الأساسية، وصدق إخباره عن الأمم السابقة، وعن البعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وكان

الشك في إمكان البعث هو أحد الحجج الرئيسية لكفر الكافرين، وإعراضهم عن الإيمان بدين الله القويم، ولذلك تختتم السورة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ **(فصلت: 53، 54).**

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة:

(1) **(بارك)**: (البركة) هي ثبوت الخير الإلٰهي في الشيء بنمائه وزيادته بغير أسباب مدركة؛ و(المبارك) هو ما فيه ذلك الخير الإلٰهي؛ ولما كان الخير الإلٰهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة أنه (مبارك)، وأن فيه (بركة)؛ و(بارك) الشيء أي أودع فيه الخير الإلٰهي؛ ويقال: (بارك) الله؛ لك، وفيك، وعليك، و(باركك) أي أودع خيره فيك؛ و(تبارك) الله؛ أي اختص ـ تعالى ـ بكل خير؛ ويقال: (تبرك) بالشيء أو بالفرد من البشر أي: تيمن به.

(2) **(قدر)**: يقال في العربية (قدر) أو (قدر) الشيء (يقدره) (تقديراً)؛ أي: حدد كميته و(القدر) كمية الشيء أو مبلغه، و(مقدار) الشيء للشيء المقدر له أو به وقتاً كان أو زمناً أو كيلاً هو كميته؛ يقال: (قدرته) و(قدرته). ويقال: (قَدَّره) أي أعطاه (القدرة) وذلك من مثل قولك: (قدَّرني) الله على كذا أي قواني عليه؛ و(تقدير) الله الأشياء على وجهين: أحدهما بإعطاء القدرة وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ (المرسلات: 23)، والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة؛ وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: 3). وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49)، وقوله: ..﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ. . .﴾ (المزمل: 20)، وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ (عبس: 19)، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: 3).

و(التقدير) من الإنسان على وجهين أحدهما: التفكير في الأمر بحسب نظر العقل وبناء الأمر عليه وذلك محمود؛ والثاني أن يكون بحسب التمني والشهوة وذلك مذموم، يقول فيه الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (المدثر: 18، 19).

(3) **(أقوات)**: (القوت) هو كل ما (يقتات) به أو ما يمسك الرمق، أي: ما يقوم به بدن الإنسان (وغيره من الكائنات الحية) من الطعام، وجمعه (أقوات)؛ وفعله (قات)

أو (قوت)؛ فيقال: (قاته) (يقوته) (قوتاً) أي أطعمه قوته؛ و(أقاته) (يقيته) (قوتاً) أي جعل له ما يقوته؛ و(استقاته) (يستقيته) (استقاتة) أي سأله (القوت)؛ ويقال: (قته) (فاْقتات)؛ وهو (يتقوت) بكذا أو (يقتات) على كذا. كذلك يقال: (أقات) على الشيء اقتدر عليه؛ و(المقيت) هو القائم على الشيء يحفظه ويقيته، وقد يقصد به المقتدر والحافظ والشاهد، و(المقيت) من أسماء الله الحسنى ومن معانيه: خالق الأقوات وموزعها على الخلائق.

(4) **(أيام)**: (اليوم) في العربية وجمعه (أيام) الفترة من طلوع الشمس إلى غروبها، أو ما يعبر عنه بالنهار وهو فترة النور بين ليلين متتاليين؛ وقد يعبر بلفظة (اليوم) عن فترتي النهار والليل معاً وهو ما يعرف (باليوم الكامل) أو بيوم الأرض الشمسي، ويمثل الفترة التي تتم فيها الأرض دورة كاملة حول محورها أمام الشمس، ويعبر عنها بالفترة الزمنية بين شروقين متتاليين أو بين غروبين متتاليين للشمس ويساوي (في زماننا) أربعاً وعشرين ساعة كاملة.

ويقال في العربية: (من أول يوم) أي من أول أيام تاريخ محدد وقد يعبر بلفظ (اليوم) عن يوم محدد في السنة أو في الشهر أو في الأسبوع، وقد يعبر به عن الشدة التي يمر بها الفرد أو الجماعة من الناس وذلك مثل قولهم: (يوم كيوم عاد) أو (يوم) من (أيام) الدهر، وقد يعبر به عن واقعة محددة في التاريخ (كيوم الفتح)، أو (أيام الآخرة)، أو (أيام الله) التي لا يعرف مداها إلا هو ﷻ. وقد يعبر (باليوم) عن مدة من الزمان أيًّا كان طولها، أو عن فترة من الفترات أو مرحلة من المراحل بغض النظر عن الزمن الذي استغرقته. وقد استخدمت لفظة (يوم) في القرآن الكريم بهذه المعاني كلها.

(5) **سواء**: أي يعدل في الحكم بين الفرقاء، (فالسواء) العدل، وفعله (سوى) (يسوي) (تسوية) و(سواء) أي عدل؛ و(ساوى) (يساوي) (تسوية) أي عادل، وتسوية الشيء جعله سواء، فالمساواة هي المعادلة المعتبرة في كل شيء؛ ويقال: قسم الشيء بينهما بالسوية أي بالعدل؛ و(سوى) و(سواء) الشيء وسطه أو غيره، وتأتي بمعنى العدل، (كما تأتي بالفتح والكسر والضم للسين؛ فإذا ضممت السين أو كسرتها قصرت، وإذا فتحتها مددت)؛ يقال: مكاناً (سوي) و(سوى) و(سواء) أي عدل ووسط؛ و(سواك) و(سواك) و(سوائك) أي غيرك. يقال: هما في الأمر (سواء) أو (سواءان)، وهم (سواء) أو (أسواء) أو (سواسية). ويقال: (استوى) الشيء بمعنى اعتدل والاسم (السواء)؛ و(السي) و(السوى) صفة لكل ما يصان من الإفراط والتفريط من حيث القدر والكيفية وجمعه (أسواء). ومكان (سوى) و(سوي) و(سواء) بمعني (وسط)؛ أي: يستوي طرفاه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالى): ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ **(فصلت: 9، 10)**.

● ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، المقتدر على كل شيء ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾... أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم، وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ **(الأعراف: 54)** ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ الآية، فأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾ **(النازعات: 27 ـ 31)**، ففي هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص...، وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض؛ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام، وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السمٰوات في يومين...».

● وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما نصه: «﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾ بتخقيق الهمزة الثانية، وتسهيلها، وإدخال ألف بينهما ـ بوجهيها ـ وبين الأولى، وتركه ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ..﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ شركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ﴾ مالك ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم وهو ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون وتغليباً للعقلاء .﴿وَجَعَلَ﴾ مستأنف ولايجوز عطفه على صلة ﴿الَّذِي﴾ للفاصل الأجنبي ﴿فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت تثبتها ﴿مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بكثرة المياه والزروع والضروع ﴿وَقَدَّرَ﴾ قسّم ﴿فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ للناس والبهائم ﴿فِي﴾ تمام ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي الجعل وما ذكر معه ..﴿سَوَاءً﴾ منصوب على المصدر أي استوت الأيام الأربعة استواء لا تزيد ولا

تنقص ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عن خلق الأرض بما فيها...». وجاء في التعليق بالهامش ما يلي: قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾، ثم قوله بعد ذلك: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، ثم قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، هذا تفصيل لمثل قوله تعالى في سورة «قٓ»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: تعب وإعياء، فتمّ خلق الأرض وتقدير أقواتها في مقدار أربعة أيام، وتم خلق السمٰوات في مقدار يومين، كل ذلك بلا ترتيب زمني، لأن (ثم) في مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ لا تفيد في حق الله تعالى ترتيباً زمنياً، لأنه تعالى لايجري عليه زمان، فكان خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في مقدار ستة أيام من غير تحديد ولاتعيين على الصحيح...».

● وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ مانصه: «... إنه يذكر حقيقة خلق الأرض في يومين، ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض، يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.. وأنتم تكفرون به وتجعلون له أنداداً، وهو خلق هذه الأرض التي أنتم عليها، فأي تبجح وأي استهتار وأي فعل قبيح؟! وما هذه الأيام: الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض، والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسي وقدر فيهما الأقوات، وأحل فيهما البركة، فتمت بهما الأيام الأربعة؟ إنها بلا شك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها، وليست من أيام هذه الأرض.. والأيام التي خلقت فيها الأرض أولاً، ثم تكونت فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات، هي أيام أخرى، مقيسة بمقياس آخر لا نعلمه، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة. وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها هي الأزمان التي مرت بها الأرض طوراً بعد طور، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها... وبارك فيها وقدر فيها أقواتها..، وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامي في هذه الأرض وبعض ما خبأه الله في جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها..، فأما اليوم بعد ما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته في الأرض ومن أقواتها التي خزنها فيها على أزمان طويلة، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف في أذهاننا...».

● وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ ما نصه: «﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي أوجدها في مقدار يومين من أيام الدنيا. وقيل: اليوم منهما كألف سنة من أيامنا. والآية تنديد بالمشركين؛ لتماديهم في الشرك مع ظهور الدلائل الموجبة للإيمان بوحدانيته ـ تعالى ـ وكمال قدرته. ﴿أَندَادًا﴾

أمثالاً من مخلوقاته تعبدونها .﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾ لئلا تميد وتضطرب ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ جعلها مباركة قابلة للخير، كالإنبات وإخراج ما ينفع الناس. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ جعل أقوات أهلها التي يحتاجون إليها في معايشهم على مقادير معينة؛ بحيث جعل في كل قطر ما يناسب أهله، ليكون الناس محتاجاً بعضهم إلى بعض فيما يرتفقون به. وهو سبب عمارة الأرض ونظام العالم .﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلق ما في الأرض في تمام أربعة أيام ﴿سَوَآءً﴾ مستوية كاملة. مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لـ «أيام»؛ أي: استوت سواء أي استواء، وقيدت به لدفع توهم التجوز بإطلاقها على ما دونها بقليل ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها، المحتاجين إليها من المقتاتين. فمدة خلق كل من الأرض وما فيها مقدار يومين. وتمام المدتين أربعة أيام كاملة».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم جزاهم الله خيراً ما نصه: «قل: أيها الرسول، لهؤلاء المشركين: عجباً لكم! تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين، وأنتم ـ مع هذا ـ تجعلون له شركاء متساوين معه، ذلك الخالق للأرض مالك العوالم كلها ومربيهم. وجعل في الأرض جبالاً ثابتة من فوقها لئلا تميد بكم، وأكثر فيها الخير وقدر فيها أرزاق أهلها، حسبما تقتضيه حكمته، كل ذلك في يومين، وأنتم ـ مع هذا ـ تجعلون له شركاء، وقدر كل شيء لا نقص فيه ولا زيادة، هذا التفصيل في خلق الأرض وما عليها بيان للسائلين». وجاء في التعليق الهامشي ما يلي: «وحدات الزمن التي يستخدمها الناس مرتبطة بالأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس، فإذا ما غادر أحد الأرض إلى جرم سماوي اختلفت هذه الوحدات طولاً أو قصراً. والآيات الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة وإلى أن الزمن نسبي. . . ».

• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ ما نصه: «﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب أي: كيف تكفرون بالله وهو الإلٰه العلي الشأن القادر على كل شيء، خالق الأرض في يومين؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي تجعلون له شركاء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ذلك الخالق المبدع هو رب العالمين كلهم ..﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جعل في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تميد بالبشر ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه والزروع والضروع ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ أي قدر أرزاق أهلها ومعاشهم، قال مجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولانقصان للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها . . . ».

أيام الخلق الست في منظور العلوم الكونية:

يرى أهل العلوم المكتسبة مراحل خلق الكون الست حسب الترتيب التالي والله ـ تعالى ـ أعلم بخلقه:

(1) **مرحلة الرتق**: وهي مرحلة الجرم الأولى الذي بدأ منه خلق السمٰوات والأرض.

(2) **مرحلة الفتق**: وهي مرحلة انفجار الجرم الأولي وتحوله إلى سحابة من الدخان.

(3) **مرحلة الدخان أو تخلق العناصر** في السماء الدخانية عبر تكون نويات غازي الإيدروجين والهيليوم وبعض نويات الليثيوم.

(4) **مرحلة الإتيان؛ أي: تخلق كل من الأرض وباقي أجرام السماء** بانفصال دوامات من السحابة الدخانية الأولى وتكثفها على ذاتها بفعل الجاذبية، وإنزال الحديد عليها.

(5) **مرحلة دحو الأرض** وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية، وتصدع الغلاف الصخري للأرض، وبدء تحرك ألواحه، وتكوّن كل من القارات وقيعان المحيطات، والجبال، وبدء دورات كل من الماء، والصخور، وتبادل القارات والمحيطات، وشق الأودية والفجاج والسبل، والتعرية، وتسوية سطح الأرض، وتكون التربة، وخزن المياه تحت السطحية، وغير ذلك من العمليات الأرضية. وقد سبقت مناقشة هذه المراحل في مجلد «السماء في القرآن الكريم» وفي الصفحات السابقة من هذا المجلد ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على المرحلة السادسة والأخيرة وهي مرحلة مباركة الأرض وتقدير أقواتها فيها وهو ما نعرضه في النقطة التالية.

(6) **مرحلة خلق الحياة من أبسط صورها إلى خلق الإنسان:**

ويقدر عمر الكون بما يتراوح بين10 و15 بليون سنة، بينما يقدر عمر أقدم صخور الأرض بنحو 4.6 بليون سنة وهو نفس العمر الذي تم التوصل إليه بتحليل صخور وتراب سطح القمر، وبتحليل العديد من النيازك التي سقطت على الأرض. والفارق الكبير بين العمرين المقدرين لكل من الأرض والسماء ـ وقد خلقا في لحظة واحدة ـ سببه أن صخور الأرض تدخل في دورات عديدة، وأن العمر المقدر لها هو عمر لحظة تيبس قشرتها، وليس عمر تكون ذرات عناصرها. وعمر تيبس قشرة الأرض لا يشمل أياً من مراحل الأرض الابتدائية، ولا مراحل تخلق العناصر التي كونت أرضنا الابتدائية وما تلا ذلك من أحداث.

وتشير الآيات القرآنية رقم (29) من سورة البقرة، وأرقام (9 ـ 12) من سورة فصلت

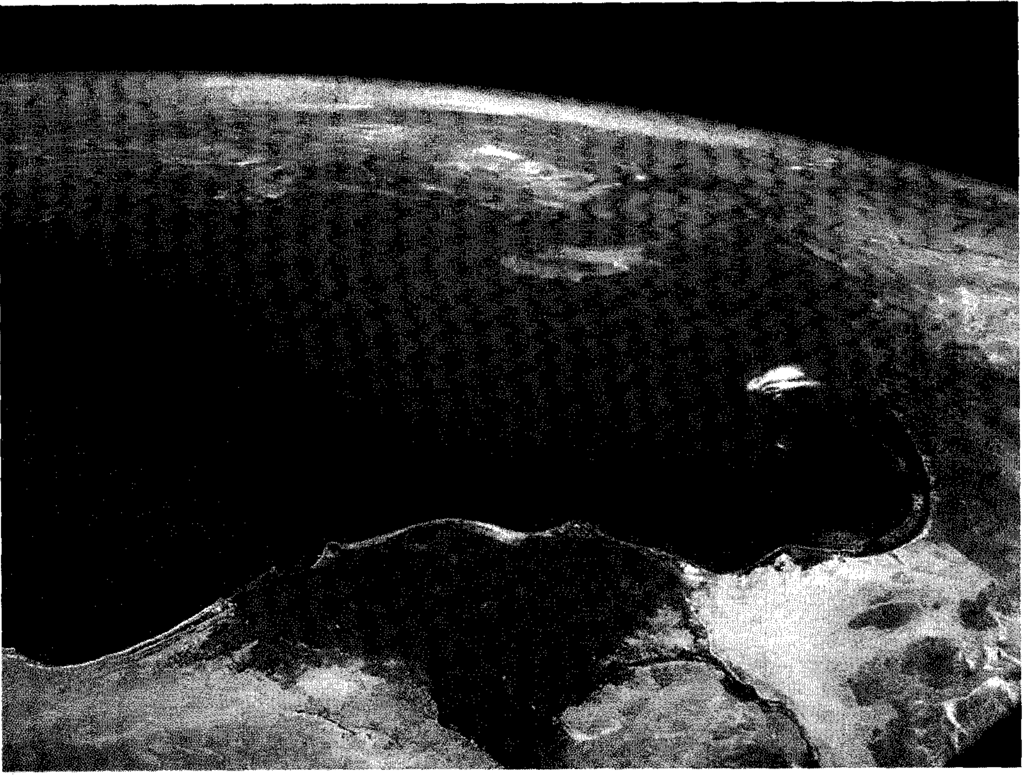
إلى سبق خلق الأرض لعملية تسوية السماء الدخانية الأولية إلى سبع سمٰوات؛ ويبدو أن المقصود هنا بالسبق هو خلق عناصر الأرض، والذي تلاه تجميع تلك العناصر على هيئة الأرض الابتدائية والتي تم رجمها بوابل من النيازك الحديدية، وتم تمايزها إلى سبع أرضين، ثم دحوها وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية وتشكيلها إلى صورتها الحالية، وذلك لأن خلق السمٰوات والأرض عمليتان متلازمتان ولايمكن لإحداهما أن تنفصل عن الأخرى.

تقدير أقوات الأرض في منظور العلوم الكونية:

الأرض هي ثالث الكواكب بعداً عن الشمس؛ وهي تجري حول هذا النجم في فلك بيضاني قليل الاستطالة (إهليلجي) بسرعة تقدر بنحو30 كيلومتراً في الثانية لتتم دورتها هذه في سنة شمسية مقدارها 365.25 يوماً تقريباً، وتدور حول نفسها بسرعة مقدارها نحو30 كيلومتراً في الدقيقة؛ لتتم دورتها هذه في يوم مقداره (24 ساعة تقريباً)، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول التي تتبادل بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها 66.5 درجة تقريباً، ويعزى للسبب نفسه هبوب الرياح، وهطول الأمطار، وفيضان الأنهار، وتتابع الدورات الزراعية.

ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بنحو150 مليون كيلومتراً، هذه المسافة التي حددتها كتلة كل من الشمس والأرض بتقدير من الخالق ﷻ تلعب دوراً مهماً في تقدير الأقوات في الأرض، وذلك لأن كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب في مجموعتنا تتناسب تناسباً عكسياً مع بعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها، والشمس هي المصدر الرئيسي لجميع صور الطاقة الأرضية. ومن هنا تتضح الحكمة البالغة من تحديد كل من كتلة الأرض ومتوسط بعدها عن الشمس؛ فقد قدرت الطاقة التي تشعها الشمس من كل سنتيمتر مربع على سطحها بنحو عشرة أحصنة ميكانيكية يصل إلى الأرض منها جزء من بليوني جزء من هذه الطاقة الهائلة التي تشكل مصدراً مهماً من مصادر أقوات الأرض بالقدر المناسب لنوعية الحياة الأرضية.

فلو كانت الأرض أقرب قليلاً إلى الشمس لكانت كمية الطاقة التي تصلها محرقة لجميع صور الحياة على سطحها ومبخرة لمياهها ومخلخلة لغلافها الغازي. ولو كانت أبعد قليلاً لتجمدت مياهها ولتوقفت الحياة على سطحها. ويرتبط ببعد الأرض عن الشمس بقية أبعاد هذا الكوكب، ويقدر حجم الأرض بنحو مليون كيلومتراً مكعباً، ومتوسط كثافتها بنحو



صورة من أحد الأقمار الصنعيّة لدلتا النيل على البحر الأبيض المتوسط

5.52 جم/سم3، وعلى ذلك تقدر كتلتها بنحو ستة آلاف مليون مليون مليون طن، وهذه الأبعاد قد حددها ربنا تبارك وتعالى بدقة بالغة منذ اللحظة الأولى لخلق السمٰوات والأرض؛ أي: خلق الكون، فلو كانت الأرض أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً ما كانت صالحة للحياة الأرضية.

وللأرض مجال جاذبية مكنها من الاحتفاظ بغلافها الغازي، ولو فقدته ولو جزئيًّا لاستحالت الحياة على الأرض. وقد بدأت الأرض بكومة من الرماد كما أسلفنا من قبل، ثم رجمت بوابل من النيازك الحديدية ـ والتي تحتوي العناصر من الحديد إلى أعلى العناصر وزناً ذرياً ـ، والنيازك الحديدية الصخرية والصخرية. وهذه النيازك بأنواعها الثلاثة لا تزال تصل إلى الأرض بملايين الأطنان سنويًّا، وهذه العناصر وإنزالها إلى الأرض بأقدار معلومة من تقدير الأقوات فيها.

ثم مرت الأرض بمرحلة الدحو، وهو إخراج كل من أغلفتها المائية والغازية والصخرية، ثم غمرتها المياه بالكامل.



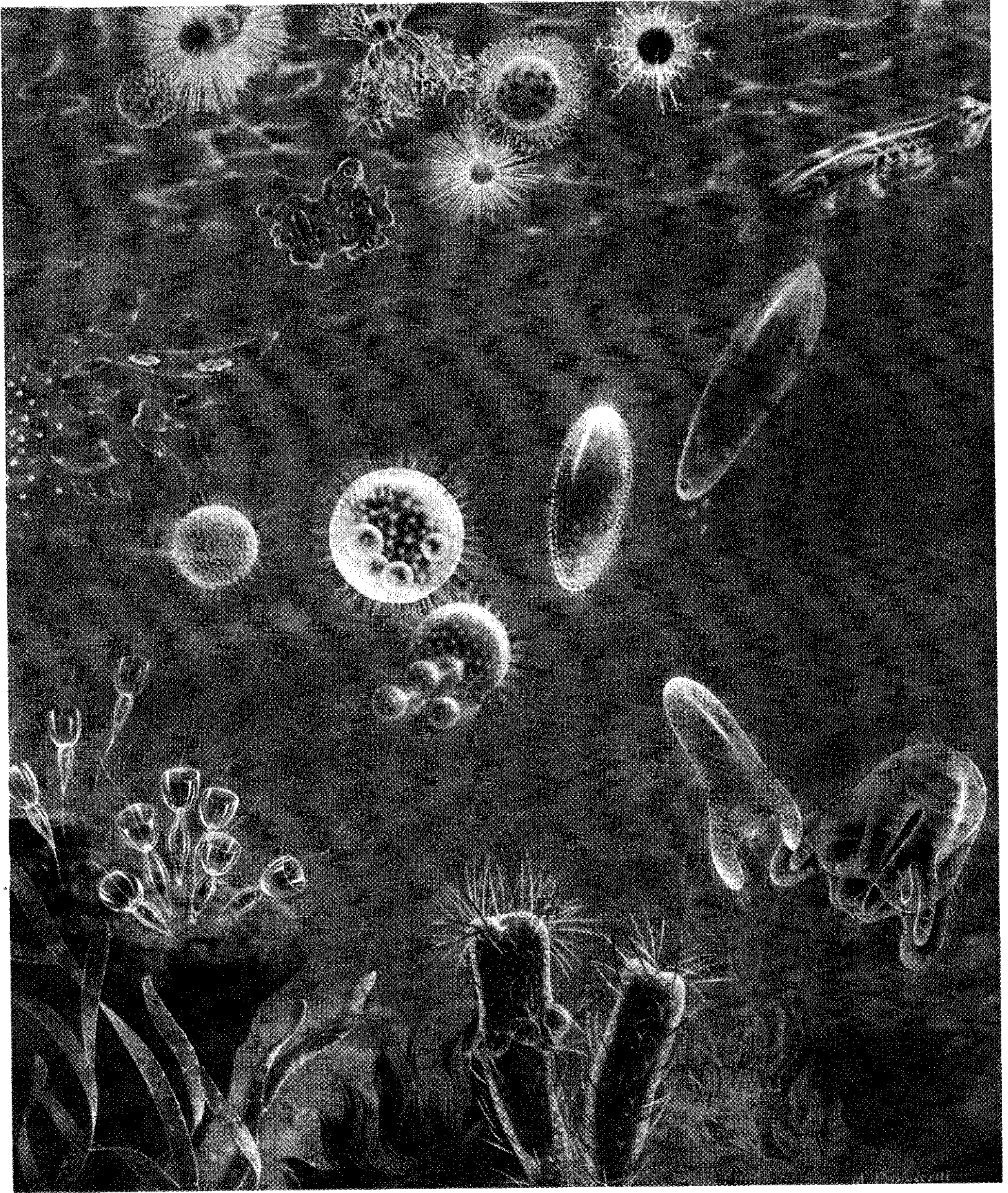
اندفاع الصهارة البركانية عبر الصدوع في قيعان المحيطات يتكون عنها الجزر البركانية

وبدأت عملية الدحو بتصدع الغلاف الصخري للأرض في قاع ذلك المحيط الغامر، واندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر تلك الصدوع، وعبر فوهات البراكين البحرية، ومن ثم بدأت عملية تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض والتي نتج عنها تكون الجزر البركانية في وسط ذلك المحيط الغامر، ثم أخذت تلك الجزر البركانية في التدافع تجاه بعضها البعض لتكون اليابسة بسلاسلها الجبلية الناتجة عن تصادم تلك الألواح الصخرية، وبدأت دورة التعرية تفتت صخور الأرض لتكون التربة، وبدأت دورات الصخور، والمياه، وتكون القارات وتفتتها حتى أصبحت الأرض مهيأة لاستقبال الحياة.

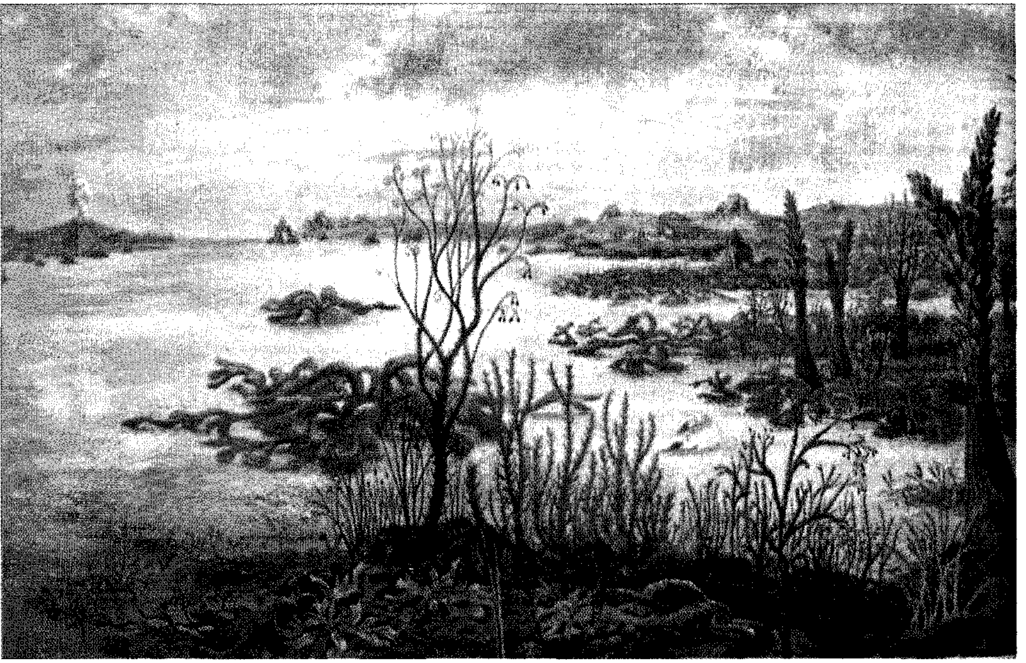
وبما أن عمر الأرض يقدر بنحو 4600 مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة الأرضية يقدر عمره بنحو 3800 مليون سنة؛ فإن إعداد الأرض لاستقبال الحياة قد استغرق ما لا يقلّ عن ثمانمائة مليون سنة.

وقد خلق الله تعالى الحياة الباكرة في مياه البحار والمحيطات، لأنها كانت الوسط المليء بالأملاح المذابة التي حملتها الأمطار والسيول والأنهار من اليابسة إلى قيعان البحار والمحيطات، وفي هذه الأثناء كانت صخور الأرض تُفَتَّتُ لتكوين التربة، وكانت مياه الأمطار تختزن فيها: بتهيئة حكيمة لاستقبال الحياة الأرضية.

ومن حكمة الله البالغة في الخلق أن النبات كان سابقاً في خلقه على الحيوان لأن الله - تعالى - قد أعطاه القدرة على صناعة غذائه بعملية التمثيل الضوئي مستفيداً من طاقة الشمس وغازات الجو وماء ومعادن الأرض، أما الحيوان فيعتمد في غذائه على النبات أو على



رسم للحياة الأولى على الأرض في مياه البحار والمحيطات قبل تكوين اليابسة



رسم للحياة البدائية على اليابسة ـ مرحلة النبات ـ بعد انحسار المياه

افتراس غيره من الحيوان إذا كانت له القدرة على ذلك.

وأقدم أثر للحياة على اليابسة لايتعدى عمره 450 مليون سنة، وقد بدأ بالنباتات الأرضية التي عمرت الأرض وسادت سيادة هائلة مما ساعد على تكوين راقات الفحم من بقاياها في عصر سمي باسم «عصر الفحم»، وامتد إلى نحو 300 مليون سنة مضت، واستمرت الحياة الأرضية في الازدهار حتى اكتملت بخلق الملايين من أنواع الحياة النباتية والحيوانية، ولعب كل نوع منها دوراً مهماً في استقبال المراحل التالية عليه، كما لعبت بقاياها دوراً أهم في تكوين النفط والغاز، ولعبت عوامل التعرية والحركات البانية للجبال دورها في تمهيد الأرض وتهيئتها لاستقبال هذا المخلوق المكرم المعروف باسم الإنسان، والذي لا يكاد أقدم أثر له على الأرض يتعدى المائة ألف من السنين.

فسبحان الذي خلق الأكوان، ومنها الأرض، وهيَّأها لاستقبال هذا المخلوق المكرم بهذه المراحل المتطاولة، وهو القادر على أن يقول للشيء كن فيكون.

وسبحان الذي بارك الأرض، وقدَّر فيها أقواتها في أربع مراحل متتالية: هي الرتق، الفتق، الدحو، وإرساء الجبال، فقال ـ عز من قائل ـ معاتباً الكافرين والمشركين من عباده:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾. **(فصلت: 9، 10)**

وهذه الحقائق لم يتضح للإنسان شيء منها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها وهو كتاب أنزل من قبل أربعة عشر قرناً على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، لمما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، ويجزم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، فحفظ حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وسيظل القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها حتى يبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، فالحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه، والحمد لله الذي بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والحمد لله الذي تعهد بحفظ هذا الدين القويم بمصادره الأساسية: كتاب الله، وسنة رسوله، في الوقت الذي تعرضت كل الرسالات السابقة للضياع التام وما بقي منها من ذكريات نقلت شفاهاً من الأجداد للأبناء والأحفاد والخلفاء، ومن الأبناء إلى من يليهم؛ وحينما دونت تم ذلك في لغات غير لغة الوحي فحرفت، وبُدِّلَتْ، وغُيِّرتْ، وظلت تتعرض للتحريف تلو التحريف، وللتبديل والتغيير، وللمراجعة والتحرير عقب المراجعة والتبديل والتغيير حتى أخرجوها عن إطارها الرباني، وجعلوها عاجزة عن هداية أتباعها، وبقي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة طوقا النجاة لكل مؤمن في الدنيا قبل الآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(20) ﴿... فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: 17)



هذا النص القرآني المعجز جاء قبل منتصف سورة «الرعد» بقليل، وهي سورة مكية مدنية، عدد آياتها ثلاث وأربعون بعد البسملة، وبها سجدة تلاوة واحدة، وقد سميت باسم هذه الظاهرة الجوية (الرعد)، لإشارتها إلى حقيقة تخفى على كل الغافلين من الخلق المكلفين، وهي أن الرعد كغيره من الظواهر الكونية، هو صورة من صور تسبيح تلك الظواهر لله الخالق الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق: ﴿. . . وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ..(الإسراء: 44).

ومحور سورة «الرعد» الأساسي هو قضية العقيدة بتفاصيلها من توحيد الألوهية، والربوبية، والدينونة لله الخالق وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، وبخاتمهم أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ، والإيمان بحتمية البعث، وبضرورة الحساب، وبالخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً.

وتبدأ سورة «الرعد» بأربعة حروف مقطعة (الٓمٓرٓ) والحروف المقطَّعة التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، والتي تضم أسماء نصف عدد حروف الهجاء العربية الثمانية والعشرين، تعتبر من الأسرار التي لم تكتشف بعد في كتاب الله.

وتؤكد السورة لرسول الله ﷺ أن القرآن الكريم الذي أنزل إليه من ربه هو الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، ثم تعرض لعددٍ من آيات

الله في الكون الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق؛ وذلك في مقام الاستشهاد على قدرته ﷻ في إفناء خلقه، وإعادة بعثهم من جديد، وبعث الكون كله من حولهم؛ وذلك لأن حجة الكافرين في كفرهم كانت ولا تزال هي عجزهم عن فهم إمكانية البعث بعد تحلل الأجساد وتحولها إلى تراب، ناسين أو متناسين أن الله على كل شيء قدير. وتعرض الآيات لعقاب المكذبين بالبعث يوم القيامة؛ وذلك لأن الكفر بالبعث كفر بالله ـ تعالى ـ وتكذيب لكتبه ورسله..!! وتعجب من استعجال الكافرين لعذاب الله، بدلاً من سؤال رحمته وهدايته، وكأنهم لم يعتبروا بما حصل للأمم من قبلهم، وتؤكد أن الله ـ تعالى ـ لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإنه لشديد العقاب..

وتذكر الآيات أن الكافرين كانوا يستعجلون نزول المعجزات الحسية، وكأن القرآن الكريم ـ مع عظم قدره ـ لم يكن كافياً لإقناعهم!!.

وتؤكد الآيات في سورة «الرعد» لرسول الله ﷺ أن هذا الموقف من الكفار لايضيره؛ لأنه قد أرسل للعالمين منذراً وهادياً، كما أرسل من قبله أعدادٌ من رسل الله لأقوامهم، وأن الله يعلم كل شيء، وهو ـ تعالى ـ علام الغيوب، وأن كل شيء عنده بمقدار، وأنه ﷻ هو الذي يحفظ خلقه، فقد أوكل بكل عبد من عباده ملائكة يحفظونه إلى أن يأتي أمر الله ـ الذي لا يغير ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ـ وأنه لا رادَّ لأمره، وأن له دعوة الحق، بينما دعاء الكافرين في ضلال!!

وتؤكد الآيات أن كل ما في الكون يسجد لله ـ تعالى ـ طوعاً وكرهاً، وحتى ظلالهم ـ في تحركها بالغدو والآصال ـ تمثل صورة من صور الخضوع لله بالطاعة لجلاله والامتثال لأوامره!!

وتأمر الآيات في سورة «الرعد» رسول الله ﷺ بسؤال الكافرين عن ربِّ السمٰوات والأرض، ويأتي الجواب صريحاً قاطعاً: الله رب السمٰوات والأرض، وانطلاقاً من ذلك تعيب الآيات على الكافرين اتخاذهم أولياء من دون الله، لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وهؤلاء الأولياء المتخذون من دون الله لم يخلقوا شيئاً، والله خالق كل شيء وهو الواحد القهار.

وتتساءل الآيات: هل يستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ وتشبه باطل الكافرين بالزبد الطافي على وجه الماء المتدفق في الأودية أثناء السيل، أو الصاعد على وجه ما يصهر من خامات المعادن الفلزية النفيسة والنافعة، وتشبه الحق الذي أنزله الله تعالى بما يمكث في مجاري السيل وتحت خبث الفلزات من نفيس المعادن

ونافعها. وتتحدث الآيات في سورة «الرعد» بعد ذلك عن مصير كل من المؤمنين والكافرين يوم القيامة، وتعرض لشيء من صفات كل منهم، مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، فلا يتخيل كافر أو مشرك أعطي في الدنيا حظاً وفيراً أن هذا يمكن أن يكون شاهداً له أنه على الحق، وتؤكد الآيات أن فرح الكافرين والمشركين بالحياة الدنيا هو مجرد غرور؛ لأنها متاع مؤقت زائل إذا قورنت بالخلود في الآخرة!!

وتكرر الآيات في سورة «الرعد» تساؤل الكافرين عن المعجزات الحسية التي كانوا يرون ضرورة تنزلها تأييداً لرسول الله ﷺ، وترد عليهم بأن الله ـ تعالى ـ يضل من يشاء ممن أراد الضلالة، ويهدي من يشاء ممن طلب الهداية، وأن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله؛ لأن القلوب المؤمنة لاتطمئن إلا بذكره..!

وتخاطب الآيات رسول الله ﷺ مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ قد أرسله في أمة قد خلت من قبلها أمم ليتلو عليهم الذي أوحي إليه، وتدعوه أن يعلن إيمانه بالتوحيد الخالص لله تعالى، والتوكل الكامل عليه وحده، والإيمان الصادق بأن إليه عَوْد ورجوع كل موجود!! وتذكر أنه لو أن كتاباً إذا تليت آياته تحركت بها الجبال عن مواضعها، وتصدعت بها الأرض وغارت عن مناسيبها، وخوطب بها الموتى فأجابوا من داخل قبورهم.. لكان هو القرآن الكريم، وعلى الرغم من ذلك فإن كثيراً من الكفار والمشركين في صد عنه، وتطاول عليه، وعناد له، وتآمر على أهله وخاصته، ولله الأمر جميعاً! وتُطَمْئِن الآيات الذين آمنوا بأن الله ـ تعالى ـ لو يشاء لهدى الناس جميعاً، وأنه ﷻ يعاقب الذين كفروا في الدنيا قبل الآخرة، فلا يزالون ـ بأعمالهم ـ تصيبهم القوارع الشديدة أو تنزل قريباً منهم.. حتى يأتي أمر الله، والله لا يخلف الميعاد.

وتثبِّت الآيات رسول الله ﷺ بأن الرسل من قبله قد استهزىء بهم، كما استهزأ الكافرون والمشركون ـ ولا يزالون ـ بما يدعو إليه من الحق، وأن الله ـ تعالى ـ قد أخذ الذين استهزأوا برسله أخذاً وبيلاً، وأن عذابهم في الآخرة أشد وأبقى، وأن ليس لهم من واقٍ من عذاب الله. ولضلال الكافرين، ومكرهم، وشركهم بالله ـ تعالى ـ أضلهم الله، وأكد أن عقباهم النار، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازي كلاًّ بما يستحق!!

وفي المقابل: تعرض الآيات لشيء من أوصاف الجنة التي وعد الله بها المتقين، وتؤكد أنه من المنطقي أن يفرح الذين أوتوا علم الكتب المنزلة من قبل بما أنزل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ؛ لأنه الصورة النهائية التي تكاملت فيها كل رسالات السماء

السابقة، وإن كفر بذلك عدد من الأحزاب المنكرة للدين، أو الجاحدة لنعم رب العالمين.

وتشير الآيات إلى أن إنزال القرآن الكريم حكماً عربياً، ومعجزة خالدة، باقية إلى يوم الدين، هو معجزة هذا النبي الخاتم، الذي يحذره ربه من اتباع أهواء الكافرين بعد الذي جاءه من العلم، وأنه ما كان لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله، وأن لكل أجل كتاباً، وأن الله ـ تعالى ـ يمحو ما يشاء ويثبت، وأن عنده أم الكتاب.

وتشير الآيات إلى إنقاص الأرض من أطرافها كإحدى الحقائق الكونية الشاهدة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة، وأن الله ـ تعالى ـ يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، كما تشير إلى مكر الأمم السابقة، وتؤكد أن لله المكر جميعاً فهو ـ تعالى ـ يعلم ما تكسب كل نفس، وسوف يعلم الكفار لمن عقبى الدار، وتختتم السورة الكريمة بخطاب لرسول الله ﷺ بأنه إذا كان الكافرون ينكرون بعثته الشريفة فالله ـ تعالى ـ يشهد بصدقها كما يشهد بها كل من عنده علم الكتاب، وتكفيه شهادة الله ـ تعالى ـ عن كل شاهد وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ **(الرعد: 43)**.

وقد سبق وأن ذكرنا الآيات الكونية التي استعرضتها سورة الرعد، وكل قضية من قضاياها تحتاج إلى فصل خاص بها، ولكني سوف أركز هنا فقط على قول الحق ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾

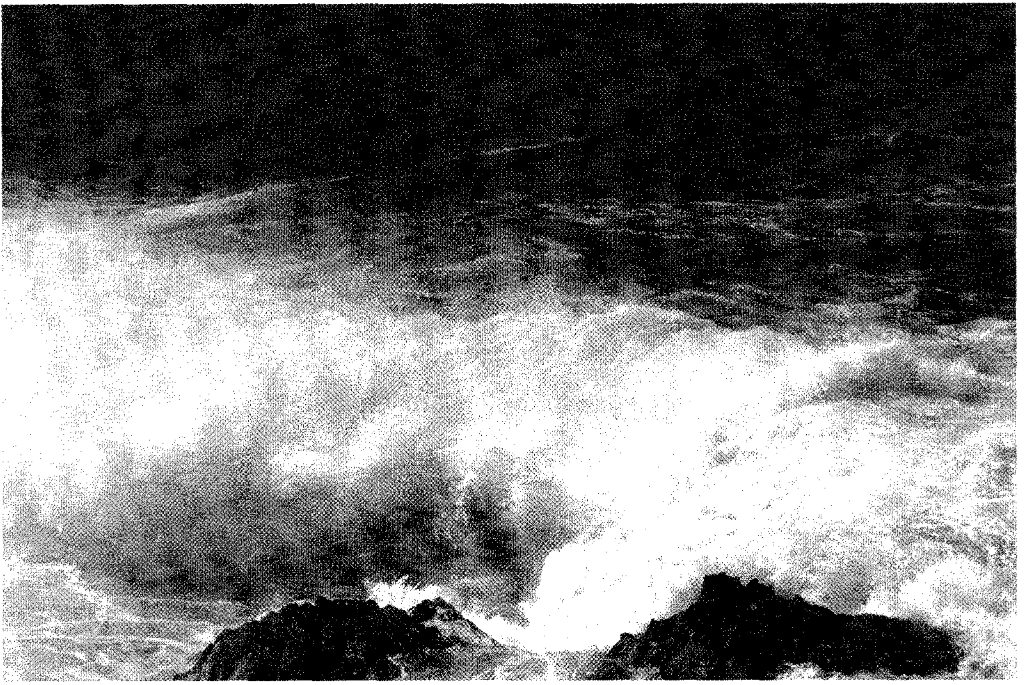
(الرعد: 17).

ولكن قبل ذلك لا بد من استعراض الدلالة اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة، ولأقوال عدد من المفسرين السابقين فيها.

الدلالة اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة:

من الألفاظ الواردة في الآية الكريمة والتي تحتاج إلى بيان دلالتها اللغوية ما يلي:

(1) **الزبد**: (الزبد) في العربية مثل: (زبد الماء)، و(زبد البعير)، و(زبد الذهب أو الفضة) وغيرها، هو فقاعات هوائية بها قليل من بخار الماء وبعض الدقائق الصلبة التي لا تكاد أن ترى على هيئة الرغوة: وينشأ (الزبد) عن التحريك الشديد للسوائل أو غليها أو تخمُّرها، وعن صهر الفلزات وغليانها، والزبد (الخبث) في الحالة الأخيرة قد يتصلب



تلاطم الأمواج في البحار واشتداد حركتها ينتج عنه الرغوة البيضاء وهي «الزبد»

ويجمد ولكنه يبقى مشابهاً لغثاء السيل في امتلائه بالفراغات والقاذورات، ولذلك تطلق لفظة (الزبد) على كل أمر تافه حقير؛ لأن هذا (الزبد) عادة لا قيمة له، ولا فائدة منه.

و (**الزبد**) عادة ما يعلو سطح الماء عند اشتداد حركته ويسمى: الغثاء (من مثل: غثاء السيل)، ويعلو سطح السوائل أو الجوامد عند غليانها على هيئة الرغوة ويسمى: الوضر أو الخبث ويقال: (أزبد) الشراب أي: صار ذا (زبد) إذا تخمر ويقال: بحر (مزبد) أي: مائج يقذف (بالزبد)، و(الزبد) اشتق اسمه من (الزُّبْد) لمشابهته إياه في اللون، ويقال: (زبده) أي: أطعمه (الزبد) كما يقال: (زبدته) (زبداً) أي: أعطيته مالاً وفيراً كالزبد كثرة، أو أطعمته (الزبد)، وفي الحديث الشريف: «**إنا لا نقبل زبد المشركين**»[1]، و(الزباد) نور يشبه الزبد بياضاً.

(2) **جُفَاء**: (الجفاء) في العربية هو القطيعة وكل ما هو ضد البر، ولذا يقال: (جفوته) (أجفوه) (جفوة) و(جفاء) أي: هجرته وقطعت كل صلة لي به، وهو بالنسبة لي

---

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الحديث: 9/ 216).

(مجفو)، ويقال: (تجافى) جنبه عن الفراش أي: نبا عنه، و(استجفاه) أي: عده (جافياً)، كما يقال: (جفت) القدر و(أجفت) و(أجفأت زبدها) (إجفاء) أي: ألقته إلى خارجها، و(أجفأت) الأرض أي: أصبحت قاحلة (كالجفاء) بذهاب خيرها.

(3) **مكث**: (المكث) بضم الميم وكسرها: اللبث والثبات والانتظار، يقال: (مكث) (مكثاً): و(مكثاً) و(تمكث) أي: بقي وتلبث فهو (ماكث) وهم (ماكثون)، والأمر (امكثوا) أي: ابقوا وتلبثوا.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ **(الرعد: 17).**

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «...اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطراً، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء وهذا صغير وسع بقدره ..﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾، أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: ليجعل حلية، أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾، أي: إذا اجتمعا؛ فلا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ﴾ أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء وكذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وجاء تفسير في الجلالين ـ رحم الله تعالى كاتبيه ـ ما نصه: «ثم ضرب مثلاً للحق والباطل فقال: ﴿أَنزَلَ﴾ تعالى ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ بمقدار

ملئها ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ عالياً عليه، والزبد هو ما على وجهه من قذر ونحوه ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ قرىء بالتاء والياء ﴿عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ من جواهر الأرض كالذهب والفضة والنحاس ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ طلب ﴿حِلْيَةٍ﴾ زينة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ ينتفع به كالأواني إذا أذيبت ـ أي: انصهرت ـ ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثل زبد السيل، وهو خبثه الذي ينفيه الكير ﴿كَذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يضرب مثلهما ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من السيل ومما أوقد عليه من الجواهر والمعادن ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ باطلاً مرمياً به، وهذا مثل الباطل ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والجواهر والمعادن ﴿فَيَمْكُثُ﴾ يبقى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ زماناً، وهذا مثل الحق، كذلك الباطل يضمحل وينمحق وإن علا على الحق في بعض الأوقات، والحق ثابت باقٍ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: المذكور ﴿يَضْرِبُ﴾: يبين ﴿ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾».

• وجاء في تفسير الظلال ـ رحم الله تعالى كاتبه رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «ثم نمضي مع السياق، يضرب مثلاً للحق والباطل، للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح، للخير الهادىء والشر المنتفخ، والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار، ولتدبير الخالق المدبر المقدر للأشياء، وهو من جنس المشاهد الطبيعية التي يمضي في جوها السياق: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾.. الآية. وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال في المشهد السابق، ويؤلف جانباً من المشهد الكوني العام الذي تجري في جوّه قضايا السورة وموضوعاتها وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار. وأن تسيل هذه الأودية بقدرها، كلٌّ بحسبه، وكلٌّ بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق عز وجل وتقديره لكل شيء.. وهي إحدى القضايا التي تعالجها السورة.. وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطاراً للمثل الذي يريد الله تعالى ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذي يمرون عليه دون انتباه. إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان، هذا الزبد نافش رابٍ منتفخ. ولكنه بعد غثاء، والماء تحته سارب ساكن هادىء، ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة، كذلك يقع في المعادن التي تذاب ـ تصهر ـ لتصاغ منها حليةً كالذهب والفضة، أو آنيةً أو آلةً نافعةً للحياة كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل، ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء. ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاءً مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي،

والمعدن الصريح ينفع الناس ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وكذلك يقرر مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال والأقوال.. وهو الله الواحد القهار، المدبر للكون والحياة، العليم بالظاهر والباطن، والباقي والزائل».

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً ـ ما نصه:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ضرب الله مثلين للحق هما الماء الصافي، والجوهر الصافي، اللذان ينتفع بهما، ومثلين للباطل: هما زبد الماء، وزبد الجوهر، اللذان لا نفع فيهما ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ فسالت المياه في الأودية بمقدارها الذي عينه الله تعالى، واقتضته حكمته في نفع الناس، أو بمقدارها قلة وكثرة بحسب صغر الأودية وكبرها، والأودية جمع وادٍ وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، ويطلق على الفرجة بين الجبلين .﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ أي: فحمل الماء السائل في الأودية ﴿زَبَدًا﴾ وهو ما يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته ويسمى: الغثاء، وما يعلو على القدر عند الغليان كالرغوة ويسمى: الوضر والخبث .﴿رَّابِيًا﴾ عالياً مرتفعاً فوق الماء، طافياً عليه، وهنا تم المثل الأول، ثم ابتدأ في الثاني فقال ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: ومن الذي يفعلون عليه الإيقاد في النار كالذهب والفضة والنحاس والرصاص وغيرها من المعادن، ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: لأجل اتخاذه حليةٍ للزينة والتجمل كالأولين ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أو لأجل اتخاذه متاعاً يرتفق به كالآخرين .﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثل ذلك الزبد في كونه رابياً فوقه، فقوله (زبد) مبتدأ مؤخر خبره ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يضرب مثلهما للناس للاعتبار، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ فأما الزبد الذي مِنْ كلٍّ منَ السيل ومما يوقدون عليه في النار فيذهب مرمياً به مطروحاً، يقال: جفأ الماء بالزبد أي: إذا قذفه ورمى به، وجفأت القدر: رمت بزبدها عند الغليان، وأجفأت به وأجفأته.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله تعالى خيراً ـ مانصه: «فهو الذي أنزل عليكم الأمطار من السحاب، فتسيل بها الأنهار والوديان كلٌّ بالمقدار الذي قدره الله تعالى لإنبات الزرع وإثمار الشجر، والأنهار في جريانها تحمل ما لا نفع فيه ويعلو على سطحها، فيكون فيها ما فيه نفع فيبقى، وما لا نفع فيه يذهب، ومثل ذلك الحق والباطل، فالأول يبقى والثاني يذهب، ومن المعادن التي يصهرونها بالنار مايتخذون منها حلية كالذهب والفضة ومنافع ينتفعون بها كالحديد والنحاس، ومنها ما لا نفع فيه يعلو السطح، وأن ما لا نفع فيه يُرمى وينبذ، وما فيه النفع يبقى، كذلك الأمر في

العقائد: ما هو ضلال يذهب، وما هو صدق يبقى، وبمثل هذا يبين الله سبحانه الحقائق، ويمثل بعضها ببعض لتكون كلها واضحةً بينةً». وجاء في الهامش: «بين الله شبيهين للحق هما الماء الصافي والمعدن الصافي ينتفع بهما، وبين شبيهين للباطل هما زبد الماء وزبد المعادن المذابة (المنصهرة) لا نفع منها فقال: أنزل من السحاب مطراً فسالت مياه أودية بمقدارها في الصغر والكبر فحمل الماء السائل زبداً عالياً على وجه الماء يسمى: غثاء، ومن بعض المعادن التي يوقد الناس عليها في النار كالذهب والفضة والنحاس والرصاص طالبين عمل حلية أو متاع ينتفع به كالأواني وغيره، زبد مثل زبد الماء في كونه عالياً فوق سوائل ـ والأصح هو منصهر ـ المعادن يسمى: خبثاً كهذا المذكور من الماء وزبده والمعدن وزبده، بيّن الله ﷻ للناس الحق والباطل، فالحق كالماء الصافي والمعدن الصافي والباطل كالزبد الذي لاينتفع به. فأما الزبد الناشيء عن السيل والمعادن فيذهب مرمياً به، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فيبقى في الأرض للنفع كهذين المثلين في الجلاء والوضوح، يبين الله ﷻ الأمثال للناس فيبصرهم بالخير والشر».

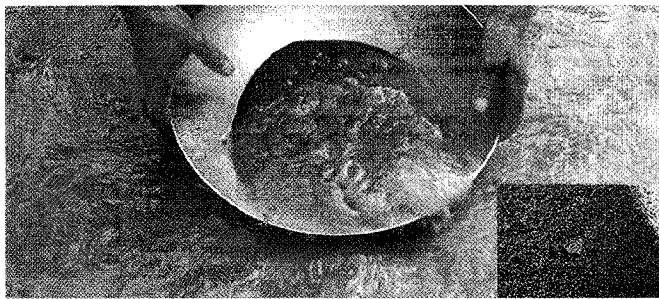
مفهوم الآية الكريمة في ضوء المعارف الحديثة:

يقول ربنا ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ **(الرعد: 17)**.

هذا المثل القرآني الرائع يشبه باطل الدنيا بالزبد الذي يطفو فوق أسطح السيول المتدفقة بالماء في الأودية الضيقة والواسعة على حد سواء، أو بما يشبهه من الزبد الذي يطفو فوق أسطح المعادن الفلزية النفيسة والنافعة حينما يتم صهرها مع بعض المواد لتنقيتها من الشوائب العالقة بها، وفي الحالتين يتضح أن الزبد الذي يحمله السيل ـ غثاء السيل ـ، والزبد الذي يطفو فوق أسطح الفلزات المصهورة ـ خبث الفلزات ـ لا قيمة لهما، ولا فائدة في أي منهما، وكلاهما نهايته النبذ والإلقاء،.. وكذلك الباطل...!!

وفي المقابل يشبه هذا المثل القرآني الحق بما يمكث في الأرض مما ينتفع به الناس في الحالتين: ففي حالة السيول الجارية في الأودية ينتفع الناس بمائها ـ والماء سر من أسرار الحياة ـ كما ينتفعون بما يحمله السيل من ثرواتٍ معدنيةٍ كبيرةٍ تترسب بالتدريج على طول قاع الوادي الذي يندفع فيه السيل، وذلك مع تباطؤ سرعة جريان الماء المتدفق في الأودية وتناقص قدرته على الحمل، فتترسب هذه المعادن كل حسب حجم حبيباته وكثافته

النوعية: الأثقل فالأقل كتلة بالتدريج حتى يتم تمايز حمولة تلك السيول من المعادن، وتركيز كل منها في مناطق محددة من مجاري السيول، وتعرف هذه الترسيبات المعدنية باسم:



البحث عن الذهب من خلال الرسوبيات القرارة ـ الترسبات المعدنية ـ الموجودة في مجاري السيول والأنهار

رسوبيات القرارة **(Placer Deposits)** وكثير من الثروات الأرضية كالذهب والفضة تتجمع بمثل هذه الطريقة لوجودها أصلاً بنسبٍ ضئيلةٍ في صخور الأرض، ويتم ذلك بتكرار هذه العملية لمرات عديدة عبر آلاف السنين، إن لم يكن عبر عشرات الآلاف من القرون، وهذه حقيقة لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد نزوله، ولذلك ركز الأقدمون من المفسرين على أن ما يمكث في الأرض بعد ذهاب غثاء السيل، (أي: زبده الذي يذهب جفاء) هو الماء، وما يستفاد به منه في حياة الناس من شرب، وسقيا للحيوانات، وري للنباتات والمزروعات..

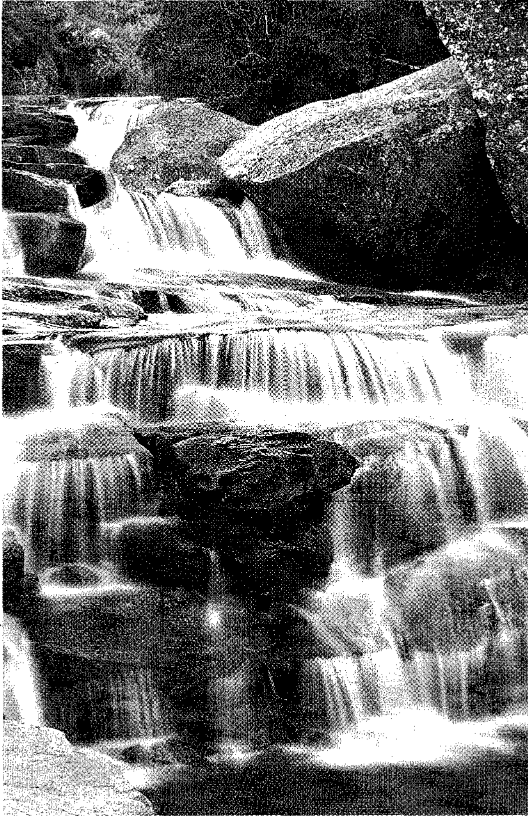
وفي حالة خامات الفلزات النفيسة كالذهب والفضة والبلاتين، والمفيدة كالحديد والنحاس والرصاص والقصدير وغيرها، فإنه يضاف إلى تلك الخامات بعض المواد التي تساعد على انصهارها، وعلى تنقيتها مما فيها من شوائب، وهذه المواد المساعدة من مثل الحجر الجيري، والرمل، وثاني أكسيد المنجنيز وغيرها تتحد مع ما بتلك الفلزات من شوائب عند صهرها وتطفو بها فوق سطح الفلز المنصهر مكونةً ما يعرف باسم: خبث الفلزات، وهذا الخبث ينفصل تماماً عن الفلز المنصهر الصافي، وحينما يترك ليتبرد يتجمد على هيئة طبقة زجاجية سوداء، مليئة بالفقاعات الهوائية، تشبه إلى حد بعيد غثاء السيل وما يحمل معه من شوائب، وبانفصال طبقة الخبث يصبح الفلز في درجة عالية من الصفاء والنقاء، وبه يشبه القرآن الكريم الحق في صفائه ونقائه.

والتشبيه في الحالتين: تشبيه الباطل بالزبد الجافي، وتشبيه الحق بما يمكث في الأرض فينتفع به الناس جاء على قدر من الدقة اللغوية والعلمية، والإحاطة والشمول بالمعنى المقصود لم تكن متوافرة لأحدٍ من الخلق وقت تنزل القرآن الكريم ولا لأكثر من عشرة قرون بعد تنزله.. مما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة

والرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقَّاه صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

ومن الأمور الثابتة اليوم أن دوراً من الأدوار المنوطة بماء الأرض ـ والماء أصلاً هو سر من أسرار الحياة ـ منذ اللحظة الأولى لانبثاقه من داخل الأرض إلى خارجها ـ خلال فترة دحوها ـ وبدء دورته حول الأرض هو شق المجاري المائية والأودية، وتسوية سطح الأرض، والتعاون على تعرية الصخور ونحتها وبريها، وتفتيت مكوناتها، وإذابة ما يقبل الذوبان من تلك المكونات وحمله إلى مياه البحار والمحيطات، وترك الباقي على هيئة تربة الأرض، أو حمله أيضاً إلى البحار والمحيطات والبحيرات والمنخفضات على هيئة الرسوبيات التي تتضاغط تدريجياً لتكوِّن الصخور الرسوبية.

ومن المعروف أن صخور الأرض تتكون من المعادن، وأن تلك المعادن تتباين في تركيبها الكيميائي، وفي صفاتها الفيزيائية ـ الفطرية ـ، فمنها ما يتحمل عمليات التعرية ويقاومها فيبقى لفترة طويلة، ومنها ما لا يقوى على ذلك فيبلى بسرعة فائقة، ومنها ما هو عالي الكثافة فيرسب في الماء، ومنها ما هو أقل كثافة من الماء فيحمله الماء إلى مسافات بعيدة ويظل عالقاً به لفترات طويلة، وحينما تحمل السيول الجارفة هذا الفتات الصخري منحدرة به من قمم الجبال الشاهقة إلى سفوحها الهابطة والسهول المحيطة بها، قد تنتهي به إلى قيعان البحار والمحيطات أو إلى دالات داخلية في قلب السهول والسهوب الصحراوية، وتقوى السيول على حمل الفتات الصخري طالما كانت مندفعة بسرعات عالية، ولكن حينما تضعف سرعة التيار المائي تتناقص قدرته على



اندفاع الماء في المجاري والأودية يساهم في شق الفجاج والسبل، وفي تسوية سطح الأرض وتعرية الصخور وحتِّها

حمل الفتات الصخري فيبدأ في ترسيبه في مجرى الوادي الذي يتحرك فيه السيل بالتدريج حسب كتلة ما يحمل من فتات، وبهذه الطريقة يتمايز هذا الفتات الصخري حسب حجم حبيباته، والكثافة النوعية لكل منها، فالمعادن ذات الكثافة العالية والحبيبات الخشنة تترسب أولاً، ويليها بالتدريج المعادن ذات الكثافة الأقل وحجم الحبيبات الأدق، وتؤدي عملية التمايز تلك إلى ترسيب عدد من جواهر الأرض كالألماس والياقوت، والزمرد، والزبرجد، والعقيق، والفيروز، وغيرها، وإلى تركيز عدد من الخامات الفلزية النفيسة من مثل: الذهب، والفضة، والبلاتين، وغيرها، والنافعة من مثل: الحديد، والنحاس، والرصاص، والقصدير، والزنك، والمنجنيز، والكروم، والنيكل، وغيرها، على هيئة تجمعات رسوبية في قيعان الأودية التي مرت بها تلك السيول، ولعل هذا هو من دلالات قول الحق ﷻ: ﴿... وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ...﴾ وليس ما يمكث في الأرض هو الماء فقط كما تصور السابقون من المفسرين (جزاهم الله خيراً).



المد والجزر يفتت الصخور ويعريها ويحمل الخفيف من المعادن المترسبة بفعل السيول ويركز الثقيل منها على الشواطىء

كذلك في قول الحق ﷻ.. ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ .. نرى بالإضافة إلى حجم الوادي ضِيقاً وسعةً (وبالتالي قلة في كم الماء المندفع فيه وكثرة) أنه يمكن إضافة إمكانية أن يكون من المقصود أيضاً الطريق الذي يسلكه الماء ماراً بمناطق مُمَعدنة أو غير ممعدنة وبأي نوع وقدر من التمعدن؛ لأن هذا من تقدير الله كمًّا ونوعاً.

أما المواد الخفيفة التي تحملها فقاقيع الهواء المتكوِّنة بسبب سرعة اندفاع الماء في الوادي على هيئة زبد السيل أو غثائه، فتتكون من الأتربة الدقيقة، وبقايا المعادن المسحوقة أو الرقيقة، والقش، وغيره من فتات النباتات، مما لا قيمة له، ولا نفع منه، ولذا تجمع تحت اسم: «غثاء السيل» ويعبَّر به عن كل تافه وحقير. ويحمل السيل غثاءه فوق سطح مائه حتى يلقي به على جوانب الوادي أو في دلتاه الداخلية أو في عرض البحر فلا يكاد يبقى له من أثر..!!

وعلى ذلك فإن عوامل التعرية ـ وبخاصة الماء، سائلاً ومتجمداً ـ قد لعبت، ولا تزال تلعب دوراً مهماً في تهيئة الأرض، لكي تكون صالحةً للعمران، ومن أهم هذه الأدوار ـ بالإضافة إلى كون الماء مصدراً من مصادر الحياة وسراً من أسرار الله فيها ـ هو دور الماء في تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة والرسوبيات المختلفة، وفرز ما فيها من معادن غير قابلة للذوبان في الماء، ومعادن مقاومة لعمليات البري والتفتيت، وتركيزها عبر نقلها من مكنوناتها في داخل الصخور بعد تفتيتها، وحملها بواسطة السيول، وترسيبها في مجاري الأودية والأنهار ودالاتها، وعلى شواطئ البحار وفي مستنقعاتها، مع تباطؤ سرعة جريان السيل، وتناقص قدرة الماء على الحمل، ومن هنا كانت تسمية تلك الرسوبيات باسم: **رسوبيات القرارة**، أما على شواطئ البحار فتقوم عمليات المد والجزر بحمل الخفيف من المعادن وتركيز الثقيل منها على الشواطئ تحت مسمًّى: «**الرمال السوداء**».

ويعد كل من الذهب والفضة والقصدير من الثروات الأرضية المهمة التي تركز في رسوبيات القرارة، وتستخرج من رواسب الأودية، ومن قيعان ودالات بعض الأنهار؛ ولذا تعتبر رسوبيات القرارة من المصادر التعدينية الهامة والميسرة على وجه الأرض.

وقد قامت السيول المائية في القديم ـ ولا تزال تقوم ـ بإزالة ما بطريقها من نباتات، وحملها إلى عدد من البحيرات الداخلية، والمستنقعات، وشواطئ البحار، حيث تم طمرها بالرسوبيات، وتفحمها بمعزل عن الهواء، مكونةً طبقاتٍ من الفحم ذات القيمة الاقتصادية العالية، وبزيادة الحرارة على تلك الطبقات الفحمية في بعض المناطق تحولت إلى الغاز

الطبيعي، وهو أيضاً ذو قيمةٍ اقتصاديةٍ عالية.

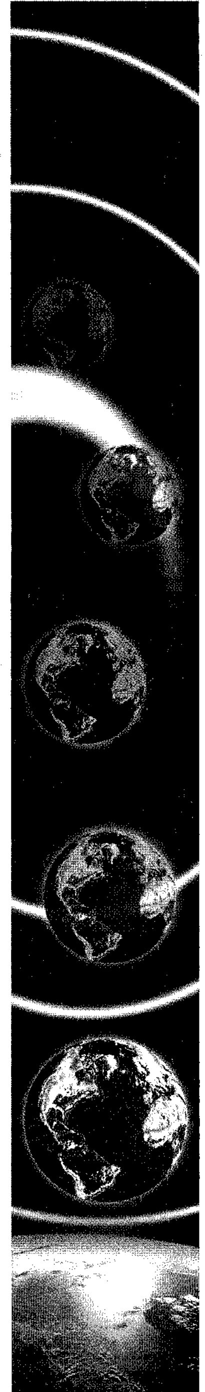
كذلك فإن العديد من صور الحياة الهائمة والسابحة في مياه البحار وفي دالات الأنهار، تهبط حين تموت إلى قيعان البحار حيث تطمر بالرسوبيات، وتدفن في الأعماق، فتتحلل تلك البقايا مكوِّنة كلًّا من النفط والغاز المصاحب له، واللذين لا تخفى أهميتهما اليوم على عاقل.

أما ما يحمل ماء السيول من عناصر ومركبات مذابة فيه فإنها تترسب أيضاً بالتفاعلات الكيميائية في مجاري الأودية والأنهار ودالاتها، وفوق قيعان البحار والبحيرات على هيئة عدد من الركازات المعدنية المهمة التي منها: الحجر الجيري، الفوسفات، البوتاس، الكبريت، الملح، الجبس، الأنهيدرايت، البوكسايت (ثالث أكسيد الألومنيوم)، الماجنيزايت (كربونات المغنيسيوم) وغيرها. ولعل هذا كله مما يمكن ضمه تحت مدلول النص القرآني المعجز .

هذه الدقة في التعبير، والشمول والإحاطة في الدلالة على عدد من العمليات الأرضية التي لم يصل الإنسان إلى فهمها إلا بعد مجاهدةٍ استغرقت عشرات الآلاف من العلماء لمئات من السنين.. ورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذا الأسلوب المعجز ـ وقد جاءت في مقام التشبيه ـ مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، دون أن ينتقص منه حرف واحد أو أن يضاف إليه حرف واحد، وسوف يظل محفوظاً بحفظ الله حتى يرث الأرض ومن عليها. هذا الحفظ الدقيق للقرآن الكريم ومحتواه المعجز يشهد كذلك للنبي الخاتم الذي تلقاه بأنه كان موصولاً بالوحي، ومعلَّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.. فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(21) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَـرَارًا...﴾ (غافر: 64)



هذا النص القرآني المعجز جاء في الربع الأخير من سورة «غافر» وهي سورة مكية، عدد آياتها: (85) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم الجليل (غافر) الذي هو صفة من صفات الله العليا لوروده في مطلع السورة، ومجيئه في ثناياها بصيغة (الغفار) وهو من أسماء الله الحسنى.

ويدور محور سورة «غافر» حول قضيتي: الإيمان والكفر، وصراع أهليهما عبر التاريخ، ومحاولات أهل الباطل للعلو في الأرض، والتجبر على الخلق بغير الحق ـ تماماً كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية وذنبها الأعوج المسمى باسم «إسرائيل»، وحلفاؤهما اليوم ـ وترد آيات السورة الكريمة باستعراض لبأس الله الذي يأخذ المتجبرين في الأرض أخذ عزيز مقتدر، وتشير إلى عدد من مصارع الغابرين الذين طغوا وبغوا في الأرض بغير الحق، فكان جزاؤهم من الله الإفناء الكامل، الذي نستعجل الله ـ تعالى ـ إنزاله بمتجبري اليوم، وما ذلك على الله بعزيز...!!

وتبدأ سورة «غافر» بالحرفين المقطعين (حمٓ) وبهما تبدأ سبع سور من سور القرآن الكريم وتسمى (بالحواميم)، والحروف المقطعة التي تفتتح بها سبع وعشرون (في أحد الآراء) وتسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم (في رأي آخر)، والتي تضم أسماء نصف حروف الهجاء العربية الثمانية والعشرين تعتبر من أسرار القرآن التي لم يتم اكتشافها بعد، وإن بذلت محاولات عديدة من أجل ذلك.

ويلي هذا الاستفتاح بيان من الله (تعالى) بأن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز العليم الذي وصف ذاته العَلِية بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ (غافر: 3)

و(الغفر): هو الستر والمحو والتكفير، و(الطول) هو الفضل والإنعام عن غنى وسعة واقتدار.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ بالحقيقة الواقعة: أنه لا يجادل في آيات الله بغير علم إلا الذين كفروا، وأنه لا يجوز أن يحزنه تقلب الكافرين في البلاد بشيء من السلطان والبطش (كما ينقلب الأمريكان والإسرائيليون وأعوانهم اليوم) فإن ذلك استدراج لهم، حتى إذا ما بالغوا في جرائمهم أخذهم الله بذنوبهم أخذ من سبقوهم من الأمم الكافرة والمشركة من أمثال قوم نوح والأحزاب الذين أفسدوا في الأرض إفساداً كبيراً، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وتؤكد السورة أن مصيرهم جميعاً إلى جهنم وبئس المصير...!!

وتحدثت السورة عن حملة العرش وعمن حولهم من الملائكة الذين يسبحون بحمد الله ويؤمنون به، ويستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، ويدعون للذين تابوا منهم بالنجاة من عذاب الجحيم، ويسألون الله ـ تعالى ـ لهم، ولمن صلح من آبائهم، وأزواجهم، وذرياتهم جنات عدن، وأن يجنبهم السيئات، كما تعرض لشيء من أحوال الكافرين والمشركين وهم يتذللون بين يدي الله يوم القيامة في انكسار واضح ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ (غافر: 11).

وتستشهد السورة بالعديد من آيات الله في الكون، وتوصي المؤمنين بالثبات على التوحيد الخالص لله ولو كره الكافرون، وتصفه ﷻ بأنه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ وهو يوم التقاء الخلق في المحشر، وهو يوم عصيب، يبرز فيه الخلق أمام الله ـ تعالى ـ لا يخفى على الله منهم شيء، وينادي فيهم المنادي: لمن الملك اليوم؟ ويأتي الجواب حاسماً، جازماً قاطعاً: لله الواحد القهار.

و(الروح) هنا هي الوحي والنبوة؛ لأن القلوب تحيا بهما كما تحيا الأجساد بأرواحها...!! ويأتي القرار الإلهي: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ (غافر: 17).

وتحذر الآيات من أهوال يوم القيامة فتقول: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾، وتؤكد أن الله ـ تعالى ـ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ **(غافر: 19، 20).**

وتعتب الآيات على الذين لم يعتبروا بمصارع الأمم البائدة فتقول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ **(غافر: 21).**

وتعرض السورة لقصة سيدنا موسى عليه السلام مع كل من فرعون وهامان وقارون، ومحاولة فرعون القضاء على الحق وأتباعه، قمعاً للإيمان، ونشراً للشرك والكفر والطغيان (تماماً كما يفعل الأمريكان وأذنابهم وحلفاؤهم اليوم) وتشير إلى مؤمن آل فرعون الذي كان يخفي إيمانه، وحديثه إلى قومه، وتحذيره إياهم من مصائر الغابرين، ومن أهوال يوم التناد، ومن إهمالهم دعوة يوسف عليه السلام من قبل، ومن اغترارهم بالدنيا ومتاعها الزائل بينما الآخرة هي دار القرار، وذلك كله بشيء من اللطف والحذر الشديد.

وتتحدَّث الآيات عن كيفية ضلال فرعون فتقول: ﴿. . . وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ . . .﴾ **(غافر: 37)** وتقول ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ **(غافر: 45)** ـ بغرقه في اليم هو وجنده وأعوانه ونجاة رسول الله موسى ومن آمن معه ـ، ثم ما يتعرضون له من عذاب في قبورهم، كما تؤكد الآيات، ويوم تقوم الساعة حيث يلقون أشد العذاب فتقول: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾. **(غافر: 46)**

وتعرض الآيات للحوار بين الذين اتُّبِعوا والذين اتَّبَعوا وهم في النار، ورجاؤهم في مذلة بادية إلى خزنة جهنم كي يدعوا الله ـ تعالى ـ أن يخفف عنهم يوماً من العذاب....!!

وفي عقب ذلك تؤكد الآيات أن الله ـ تعالى شأنه ـ ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وتعرض لشيء من أخبار سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وتأمر المصطفى ﷺ بالصبر والاستغفار والتسبيح بحمد الله بالعشي والإبكار، والاستعاذة بالله من الكبر الكاذب الذي يتخفَّى وراءه الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، من مثل المتطاولين على الإسلام في هذه الأيام من مختلف صور الكفار والمشركين.

وتؤكد الآيات أنه لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي المسيئون والصالحون، وتجزم بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وتطالب المؤمنين بالتوجه إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء، فيستجيب لهم؛ لأن الدعاء هو مخ العبادة وقمة الخضوع لله بالطاعة، وأن الذين يستكبرون عن الدعاء سوف يدخلون إلى جهنم داخرين...

وتصف الآيات شيئاً من أحوال المكذبين بكتب الله ورسله من الكفار والمشركين، وتوصي رسول الله ﷺ بالثبات على التوحيد الخالص لله، والصبر على ما يلقى من عناد الكافرين، وتؤكد أن وعد الله حق، وأن الله ـ تعالى ـ قد أرسل رسلاً من قبل، وقص شيئاً من أخبار بعضهم عليه، ولم يقصص عن البعض الآخر، وأنه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإذا جاءت الآية،... وجحد بها المكذبون..! استحقوا حينئذٍ عقاب رب العالمين فخسروا خسراناً مبيناً...!!

وتختتم هذه السورة المباركة بعتاب للمرة الثانية على الذين لم يعتبروا بمصارع الأمم البائدة من قبلهم وقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فتقول: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (غافر: 82)؛ لأنهم كذبوا رسل الله إليهم، واستعلوا عليهم بما كان عندهم من أسباب الغلبة المادية، فحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، فلما رأوا عقاب الله محيطاً بهم قالوا: آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين، ولكن ما كان ينفعهم هذا الإيمان الاضطراري بعد أن رأوا العذاب واقعاً بهم، وهي سنة الله التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون...!!

الإشارات الكونية في سورة غافر

من الآيات الكونية التي استشهدت بها السورة على توحيد الألوهية، والربوبية، وتنزيه الأسماء والصفات لهذا الخالق العظيم، والاستدلال على طلاقة قدرته في إبداعه لخلقه ما يلي:

(1) الإشارة إلى إنزال الرزق من السماء، والبحوث العلمية الحديثة تؤكد ذلك.

(2) تأكيد تضاؤل خلق الناس ـ على عظمته ـ بجوار خلق السمٰوات والأرض.

(3) التأكيد على حتمية الآخرة، وكل الدراسات الحديثة تشير إلى ذلك.

(4) الإشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ قد خصص الليل لراحة وسكون العباد، وجعل النهار مبصراً لجريهم على المعايش وعلى عمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها.

(5) التأكيد على حقيقة الخلق وعلى وحدانية الخالق، وكل المعطيات الكلية للعلوم تؤكد ذلك.

(6) الإشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ قد جعل الأرض قراراً، والسماء بناءً.

(7) تأكيد أن الله ـ تعالى ـ قد صوَّر بني الإنسان فأحسن صورهم، ورزقهم من الطيبات.

(8) ذكر أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الناس من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم يخرجهم طفلاً، ثم ليبلغوا أشدهم، ثم ليكونوا شيوخاً، حتى يبلغوا أجلاً مسمًّى، فيتوفاهم الله، ومنهم من يتوفى من قبل، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر.

(9) التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يحيي ويميت.

(10) الإشارة إلى خلق الله ـ تعالى ـ الأنعام ليركب الناس منها، ومنها يأكلون.

(11) التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي مكن بقدرته مياه البحار أن تحمل الفلك بقوانين الطفو حتى تكون وسيلة لنقل الناس وحمل أمتعتهم.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على جعل الأرض قراراً، وأبدأ بدلالة تلك اللفظة في اللغة العربية، وبأقوال عدد من المفسرين السابقين في شرح دلالة هذا النص القرآني الكريم.

مدلول اللفظة (قراراً) في اللغة العربية:

يقال في العربية: **(قرّ)** في مكانه **(يقرّ)** **(قراراً)** إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله من (القرّ) وهو البرد؛ لأنه يقتضي السكون، والحر يقتضي الحركة، و(القرار) المستقر من الأرض، و(القرار) في المكان (الاستقرار) فيه، تقول: (قررت) بالمكان، بالكسر (أقرّ) (قراراً)، و(قَرَرْتُ) أيضاً بالفتح (قراراً) و(قروراً)، و(استقرّ) فلان إذا تحرى (القرار)، و(الإقرار): إثبات الشيء.

قال ـ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾... أي: مستقراً تعيشون فيها، ويسأل ﷻ ـ سؤال التبكيت للكافرين بقوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾... **(النمل: 61)**؛ أي: مستقراً، وقال ـ تعالى ـ في صفة الآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ **(غافر: 39)**.

وقال في أصحاب الجنة:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ **(الفرقان: 24)**.

وقال ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ **(الفرقان: 76)**.

وقال في وصف النار: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ **(الفرقان: 66)**.

وقال ﷻ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ **(إبراهيم: 29)**.

وقال ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ **(البقرة: 36 والأعراف24)**.

وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ **(الأنعام: 98)**.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ (غافر: 64).

• ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «.... أي: جعلها لكم مستقراً، تعيشون عليها وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها...».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «أي: مكاناً لاستقراركم وحياتكم».

• وجاء في الظلال: ـ رحم الله كاتبها رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «.... والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها إجمالاً....».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ ما نصه: «﴿ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقراً تعيشون فيها..».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله المشاركين في كتابته خير الجزاء ـ ما نصه: «الله ـ وحده ـ الذي جعل لكم الأرض مستقرةً صالحةً لحياتكم عليها...».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خير الجزاء ـ ما نصه: «أي: جعلها مستقراً لكم في حياتكم وبعد مماتكم، قال ابن عباس: «جعلها منزلاً لكم في حال الحياة وبعد الموت...».

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم

جاء ذكر حقيقة أن الله ـ تعالى ـ قد جعل الأرض قراراً في كتاب الله مرتين: أولاهما في سورة النمل والثانية في سور غافر على النحو التالي:

(1) في سورة النمل يقول ربنا ﷻ:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النمل 61).

وتكرر هذا السؤال التقريري، التقريعي، الاستنكاري: «أءلٰه مع الله؟» خمس مرات في خمس آيات متتاليات من سورة النمل استنكاراً لشرك المشركين بالله...!! ويأتي الجواب قاطعاً جازماً حاسماً في كل مرة:

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل: 60).

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: 61).

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: 62).

﴿تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: 63).

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (النمل: 64).

وتسبق هذه الآيات الخمس بالحقيقة القاطعة التي يقررها ربنا ﷻ لذاته العَلِيَّة على لسان هدهد سليمان بقوله الحق: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ (النمل: 26).

(2) في سورة غافر يقول الحق ﷻ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

(غافر: 64).

وواضح من دلالة اللغة، ومن شروح المفسرين أن تعبير (جعل الأرض قراراً) يعني: مستقرة في ذاتها، وقراراً للحياة على سطحها، وهما قضيتان مختلفتان ولكنهما متصلتان اتصالاً وثيقاً ببعضهما على النحو التالي:

أولاً: جعل الأرض قراراً بمعنى: مستقرة بذاتها:

الأرض ثالثة الكواكب السيارة جرياً حول الشمس، ويسبقها من هذه الكواكب قرباً من الشمس كل من: عطارد والزهرة على التوالي، ويليها إلى الخارج؛ أي: بعداً عن الشمس بالترتيب: المريخ، المشتري، زحل، يورانوس، نبتون، وبلوتو، وهناك مدار لمجموعة من الكويكبات بين كل من المريخ والمشتري يعتقد

عطارد
الزهرة
الأرض
المريخ
المشتري
زحل
يورانوس
نبتون
بلوتو

رسم يوضح ترتيب ونسب أحجام كواكب المجموعة الشمسية التسعة

بأنها بقايا لكوكب عاشر انفجر منذ زمن بعيد، كما أن الحسابات الفلكية التي قام بها عدد من الفلكيين الروس تشير إلى احتمال وجود كوكب حادي عشر لم يتم رصده بعد، أطلقوا عليه اسم: «بروسوبينا أو برييننا».

وبهذا يصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية أحد عشر كوكباً، وهنا يبرز التساؤل عن إمكانية وجود علاقة ما بين هذه الحقيقة الفلكية ـ التي لم تكتمل معرفتها إلا في أواخر القرن العشرين ـ وبين رؤيا سيدنا يوسف ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ التي يصفها الحق ﷻ في محكم كتابه بقوله:

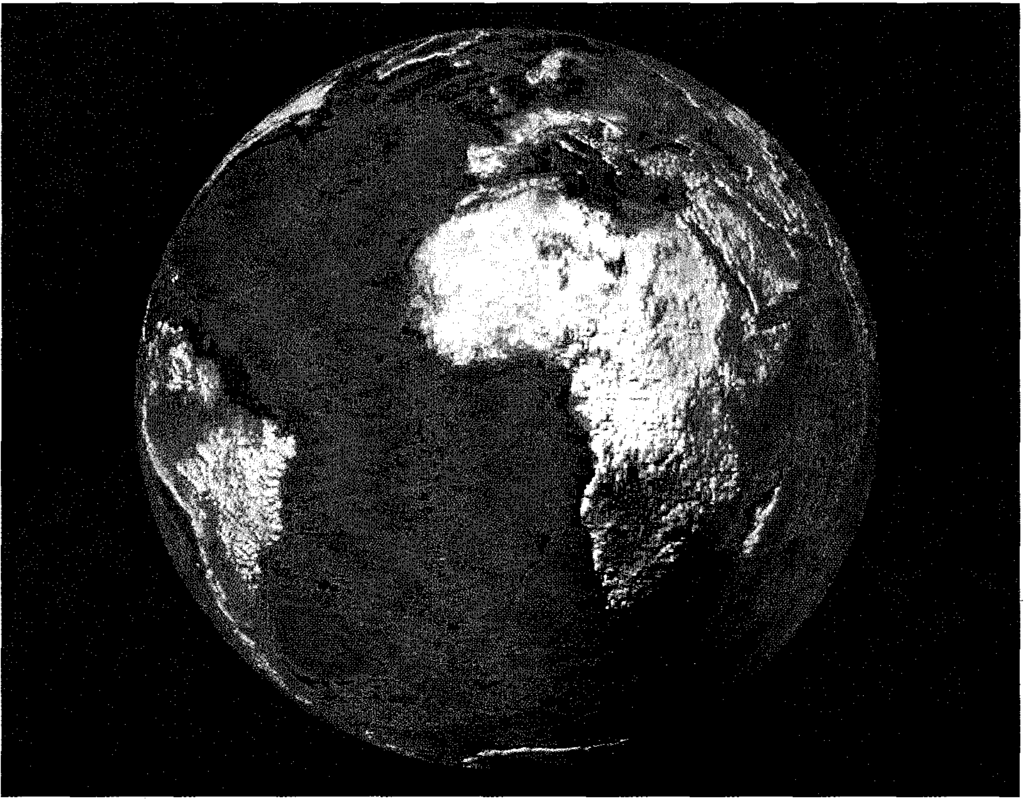
﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ **(يوسف: 4)**.

وإن كان ظاهر الأمر في السورة الكريمة أن المقصود هو ما تحقق بالفعل بعد تلك الرؤيا بسنين عديدة من سجود إخوة يوسف الأحد عشر وأبويه له عند قدومهم إلى مصر من بادية الشام، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه العلاقة لايمكن استبعادها.

والأرض عبارة عن كوكب صخري، شبه كروي له الأبعاد التالية:

• متوسط قطر الأرض	=	12.742 كم.
• متوسط محيط الأرض	=	40.042 كم.
• مساحة سطح الأرض	=	510.000.000 كم^2 منها: 149 مليون كم2 يابسة. و361 مليون كم2 ماء.
• حجم الأرض	=	108.000.000 كم^3.
• متوسط كثافة الأرض	=	5.52 جرام/ سم^3 .
• كتلة الأرض	=	5520 مليون مليون مليون طن.
• متوسط كثافة الصخور في قشرة الأرض	=	5.52 جرام/ سم^3 .
• متوسط كثافة الصخور الجرانيتية المكونة لكتل القارات	=	2.7 جرام/سم^3 .
• متوسط كثافة الصخور البازلتية المكونة لقيعان المحيطات	=	2.9 جرام/سم^3 .

وبمقارنة متوسط كثافة الصخور المكونة لقشرة الأرض والتي تتراوح بين 2.7، 2.9 جرام للسنتيمتر المكعب مع متوسط كثافة الأرض ككل والمقدرة بحوالي5.52 جرام للسنتيمتر



مجسم يبين أن الأرض كوكب صخري مليء بالتضاريس

المكعب، أمكن استنتاج أن كثافة المادة المكونة للأرض تزداد باستمرار من سطحها في اتجاه مركزها حيث تتراوح الكثافة من10 إلى 13.5 جراماً للسنتيمتر المكعب. ويفسر ارتفاع متوسط الكثافة بالقرب من مركز الأرض بوجود نسبةٍ عاليةٍ من الحديد، وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض، وتتناقص نسبة هذه العناصر الثقيلة بالتدريج في اتجاه قشرة الأرض.

وتقدر نسبة الحديد في الأرض بحوالي 35.9% من مجموع كتلة الأرض المقدرة بحوالي 5520 مليون مليون مليون طن؛ وعلى ذلك فإن كمية الحديد في الأرض تقدر بما يقرب من ألفي مليون مليون مليون طن، ويتركز هذا الحديد في قلب الأرض على هيئة كرة ضخمة من الحديد تقدر كتلتها بحوالي 1711 مليون مليون مليون طن، وتقدر نسبة الحديد فيها بحوالي (90%) والنيكل (9%) وبعض العناصر الخفيفة من مثل: السيليكون، والكربون والفوسفور والكبريت بحوالي 1% من كتلة هذه الكرة الحديدية التي تعرف باسم: لب الأرض، ويحيط بهذه الكرة الحديدية الصلبة لب سائل له نفس التركيب الكيميائي بما

يوصل نسبة الحديد في الأرض إلى ما يقرب من ألفي مليون مليون مليون طن (**10^{18} × 1981.68**) وتشكل كتلة لب الأرض الصلب والسائل حوالي 31% من كتلة الأرض، ويمثل طول قطرها حوالي 55% من طول قطر الأرض، أما باقي الحديد في الأرض فيتوزع على كل من وشاح الأرض وغلافها الصخري، بسمك يقدر بحوالي ثلاثة آلاف كم (2895 كم)، في تناقص مستمر يصل بنسبة الحديد في الغلاف الصخري للأرض إلى 5.6% وتركيز هذه الكتلة الهائلة من الحديد وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض هو من وسائل جعل هذا الكوكب جرماً مستقراً في ذاته، وفي مختلف حركاته.

وتأتي الإشارة القرآنية إلى تلك الحقيقة العلمية سبقاً يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة؛ لأن أحداً في زمانه ـ ولا لقرون متطاولة من بعده ـ لم يكن يعلم بهذه الحقيقة التي لم يكتشفها الإنسان إلا في القرن العشرين، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ **(الزلزلة: 1، 2)**.

والأثقال جمع ثقل (بكسر فسكون) وهو الحمل الثقيل، أو جمع ثقل (بالتحريك) وهو كل نفيس مصون. وفي الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه، يروي عن رسول الله ﷺ قوله: «**تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً**»[1].

وهذا الحديث الشريف يؤكد أن المقصود بأثقال الأرض في سورة «الزلزلة» هو الأحمال الثقيلة كما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة، وليست أجساد الموتى فقط كما تخيل العديد من المفسرين السابقين، وهذا سبق علمي قرآني ونبوي معجز؛ لأن أحداً من البشر لم يكن له علم بأن أثقال الأرض في جوفها حتى مشارف القرن العشرين.

ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بحوالي مائة وخمسين مليوناً من الكيلومترات، وهذه المسافة قد حددتها ـ بتقدير من الله الخالق ﷻ ـ كتلة الأرض تطبيقاً لقوانين الجاذبية، والتي تنادي بأن قوة الجذب بين جسمين تتناسب تناسباً طردياً مع كتلة كل منهما، وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما، وهذا يعني أنه كلما زادت كتلة كل من

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة (الحديث: 2338)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن (الحديث: 2208).

الجسمين المتجاذبين زادت قوة الجذب بينهما، وكلما زادت المسافة الفاصلة بينهما قلت قوة الجاذبية الرابطة بينهما.

والاتزان بين قوة جذب الشمس للأرض من جهة، وبين القوة النابذة المركزية التي دفعت بالأرض الأولية من الشمس، أو من الأصل الذي نشأت عنه المجموعة الشمسية كلها من جهة أخرى هو الذي حدد ـ بمشيئة الله الخالق ـ بُعد الأرض عن الشمس، وحدد الارتباط الوثيق بين كل من كتلتي الأرض والشمس بطريقةٍ منتظمة؛ بمعنى: أنه كلما تغيرت كتلة أحدهما تغيرت كتلة الآخر بنفس المعدل، وهو من الأمور التي تعمل على تثبيت بُعد الأرض عن الشمس، وجعلها مستقرة في دورانها حول محورها، وفي جريها حول الشمس في مدار محدد لها، مما يؤدي إلى تثبيت كمية الطاقة الشمسية التي تصل إلى الأرض وهي من عوامل تهيئتها لاستقبال الحياة، ومن مبررات استقرارها؛ وذلك لأن كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب من كواكبها تتناسب تناسباً عكسياً مع بُعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جري الكوكب في مداره حول الشمس.

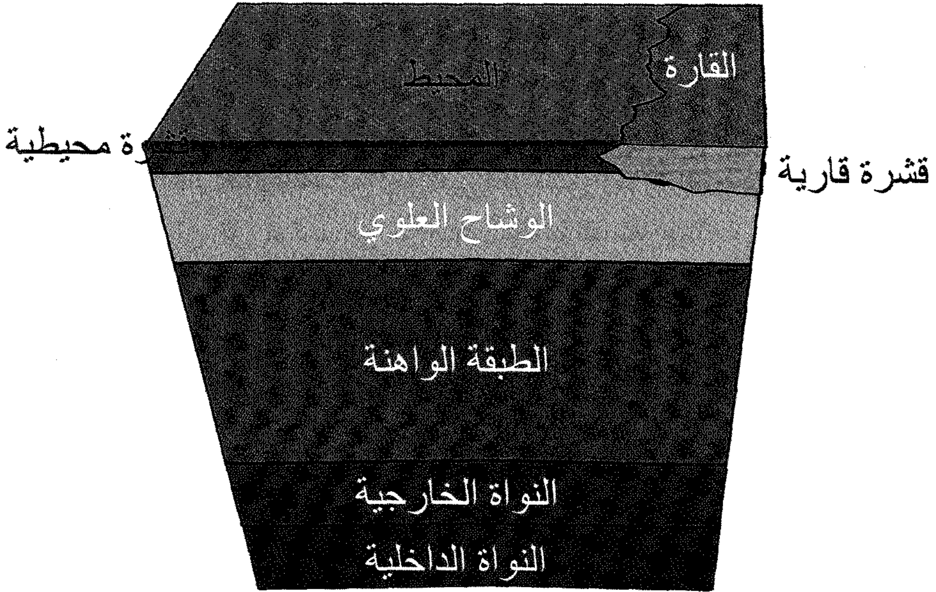
والأرض كوكب فريد في صفاته الفيزيائية والكيميائية والفلكية مما أهله بجدارة لكي يكون مهداً للحياة الأرضية النباتية والحيوانية والإنسية. فقد أثبتت دراسات الفيزياء الأرضية أن الأرض مبنية من عدد من النطق المتمركزة حول كرة مصمطة من الحديد والنيكل تعرف باسم: **لب الأرض الصلب** أو **اللب الداخلي للأرض**. وتقسم هذه النطق الأرضية على أساس من أي من تركيبها الكيميائي أو صفاتها الميكانيكية على النحو التالي:

(1) **قشرة الأرض** (أو الجزء العلوي من الغلاف الصخري للأرض) **The Earth's Crust (or the Upper Lithosphere)**: وتتكون من صخور نارية ومتحولة صلبة تتغطى بسمك قليل من الصخور الرسوبية أو الرسوبيات ـ التربة ـ في كثير من الأحيان، وتغلب الصخور الحامضية وفوق الحامضية على كتل القارات وذلك من مثل: الجرانيت والصخور الجرانيتية (بمتوسط كثافة 2.7 جرام/للسنتيمتر المكعب) بينما يغلب على قيعان كل من البحار الحقيقية والمحيطات الصخور القاعدية وفوق القاعدية من مثل: البازلت والجابرو (بمتوسط كثافة 2.9 جرام/ للسنتيمتر المكعب). ويتراوح متوسط سمك القشرة الأرضية في كتل القارات من 35 إلى 40 كيلومتراً، وإن تجاوز ذلك تحت المرتفعات الأرضية من مثل الجبال. بينما ترق القشرة الأرضية المكونة لقيعان البحار والمحيطات بشكل ملحوظ فيتراوح سمكها في المتوسط بين 5 و8 من الكيلومترات.

(2) **الجزء السفلي من الغلاف الصخري للأرض (The Lower Lithosphere)**:

ويتكون من صخور صلبة تغلب عليها الصخور الحامضية وفوق الحامضية في كتل القارات بسمك يصل إلى 5 و8 كيلومتراً، بينما تغلب عليها الصخور القاعدية وفوق القاعدية تحت البحار والمحيطات بسمك يقارب 60 كيلومتراً.

ويفصل هذا النطاق عن قشرة الأرض سطح انقطاع للموجات الاهتزازية يعرف باسم: الموهو **(The Moho Discontinuity)**.



رسم قطعي يظهر طبقات الأرض

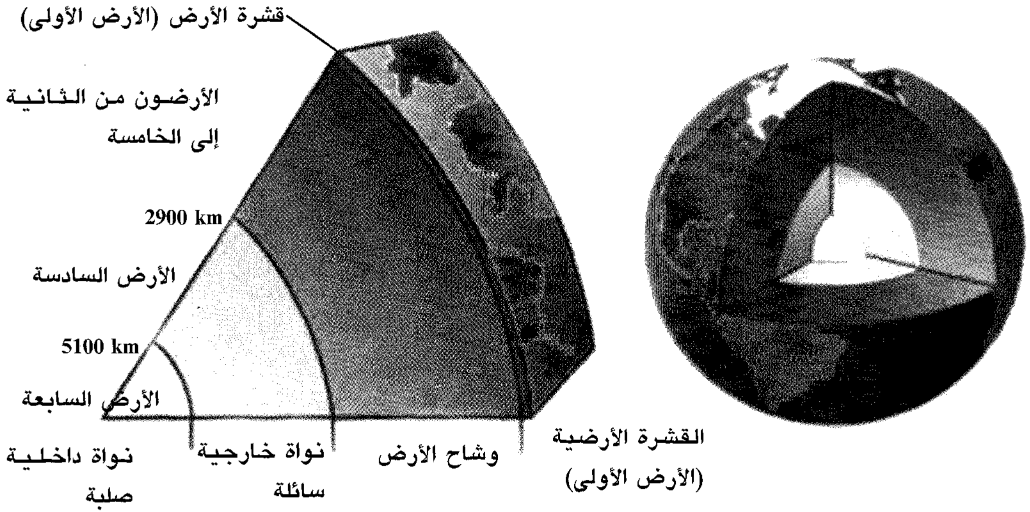
(3) الجزء العلوي من وشاح الأرض (نطاق الضعف الأرضي)

The Upper Mantle (The Asthenosphere):

وتوجد فيه الصخور في حالة لدنة، شبه منصهرة أو منصهرة انصهاراً جزئياً في حدود 1%، ويتراوح سمك هذا النطاق بين 280 كيلومتراً و335 كيلومتراً، وهو مصدر للعديد من نشاطات الأرض الداخلية من مثل: الزلازل، والبراكين، وتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتكون الجبال والسلاسل الجبلية، وغير ذلك من الحركات الأرضية الداخلية.

(4) الجزء الأوسط من وشاح الأرض (The Middle Mantle): ويتكون هذا النطاق من مواد صلبة، كثيفة، بسمك يقدر بحوالي 270 كيلومتراً، ويحده من أسفل ومن أعلى مستويان

من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل، يقع أحدهما على عمق يقدر بحوالي 400 كم من سطح الأرض، ويقع الآخر على عمق670 كم من سطح الأرض.



قطاع رأسي للكرة الأرضية يظهر نطق الأرض الداخلية (بنيتها الداخلية)

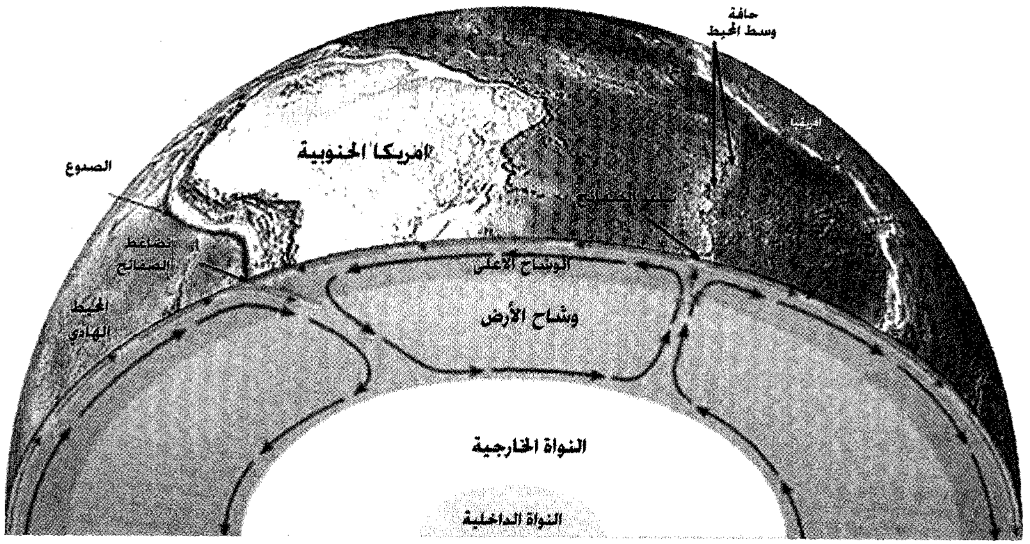
(5) الجزء السفلي من وشاح الأرض (The Lower Mantle): ويتكون من مواد صلبة تعلو لب الأرض السائل، ويحده من أعلى أحد مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل على عمق670 كم من سطح الأرض، ويحده من أسفل نطاق انتقالي شبه منصهر يفصله عن لب الأرض السائل على عمق2885 كم من سطح الأرض، وبذلك يقدر سمك هذا النطاق بحوالي2215 كم.

(6) لب الأرض السائل (الجزء الخارجي من لب الأرض):

The Outer (Liquid) Core

وهو نطاق سائل يحيط بلب الأرض الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي تقريباً، ويقدر سمكه بحوالي 2275 كم (من عمق 2885 كم إلى عمق 5160 كم تحت سطح الأرض)، وتفصله عن النطاقين الأعلى والأسفل منطقتان انتقاليتان شبه منصهرتين، أضخمهما المنطقة السفلى والتي يقدر سمكها بحوالي 450 كم.

(7) لب الأرض الصلب (اللب الداخلي للأرض) The Solid (Inner) Core: وهو عبارة عن كرة ضخمة من الحديد (90%) والنيكل (9%) مع القليل من العناصر الخفيفة من



رسم قطعي للكرة الأرضية يظهر نطق الأرض الداخلية وحركاتها، وتأثيرها على السطح

مثل: السيليكون، الكربون، الكبريت، الفوسفور والتي لاتكاد نسبتها أن تتعدى 1%. وهذا هو نفس تركيب النيازك الحديدية تقريباً، والتي تصل الأرض بملايين الأطنان سنوياً، ويعتقد بأنها ناتجة عن انفجار بعض الأجرام السماوية. ويبلغ طول قطر لب الأرض الصلب (1220) كم.

وهذه البنية الداخلية للأرض تدعمها دراسة النيازك التي تهبط على الأرض، كما تؤيدها قياسات الجاذبية الأرضية، والاهتزازات الناتجة عن الزلازل الأرضية.

ولولا هذه البنية الداخلية للأرض، ما تَكَوَّنَ مجالها المغناطيسي، ولا قوتها الجاذبية، ولولا جاذبية الأرض لهرب منها كل من غلافيها الغازي والمائي، واستحالت الحياة على سطحها، ولولا المجال المغناطيسي للأرض لدمرتها الأشعة الكونية المتسارعة القادمة إليها من الشمس ومن بقية نجوم السماء.

والأرض تجري حول الشمس في فلك بيضاوي قليل الاستطالة، بسرعة تقدر بحوالي 30 كم في الثانية، لتتم دورتها في سنة شمسية مقدارها 25. 365 يوماً تقريباً، وتدور حول محورها بسرعة تقدر اليوم بحوالي 30 كيلومتراً في الدقيقة عند خط الاستواء فتتم دورتها هذه في يوم مقداره 24 ساعة تقريباً، يتقاسمه ليل ونهار، بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول السنوية، التي تنتج بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها 66.5 درجة تقريباً.

كذلك فإن حركات الأرض العديدة ومنها: حركتها المحورية والمدارية، وترنحها في دورانها حول محورها، وتذبذبها (نودانها أو ميسانها)، وقربها وبعدها من الشمس في حركتها المدارية، والتغير التدريجي في توازن حركاتها مع حركات القمر من حولها، ومع باقي كواكب المجموعة الشمسية ومع الشمس حول مركز المجرة، وباتجاه كوكبة الجاثي، ومع المجرة حول مركز التجمع المجري، وغير ذلك من الحركات في فسحة الكون كلها حركات تحتاج إلى ضبط وإحكام حتى تصبح الأرض مستقرةً بذاتها، وقراراً للحياة على سطحها. وتكفي في ذلك الإشارة إلى دور الجبال في تثبيت الغلاف الصخري للأرض، وفي التقليل من ترنحها في دورانها حول محورها تماماً، كما تقوم قطع الرصاص التي توضع حول إطارات السيارات في التقليل من معدلات ترنحها يمنة ويسرة أثناء جري السيارة إلى الأمام أو تراجعها إلى الخلف.

ثانياً: كما جعل الله الأرض قراراً في ذاتها جعلها قراراً لسكانها:

ومن معاني جعل الأرض قراراً لسكانها هو جعل الظروف العامة للأرض مناسبة للحياة على سطحها؛ ومن أولها **مقدار جاذبية الأرض** الذي يمسك بكل من غلافيها المائي والغازي وبالأحياء على سطحها، والماء هو سر الحياة على الأرض، ولذا جعل ربنا ﷻ كوكب الأرض أكثر الكواكب التي نعرفها غناءً بالماء، حتى ليسميه العلماء بالكوكب الأزرق أو الكوكب المائي، وتقدر كمية المياه على سطح الأرض بحوالي1360 مليون كم^3، ويغطي الماء حوالي %71 من مساحة سطح الأرض.

كذلك **جعل الله ـ تعالى ـ للأرض غلافاً غازياً** تقدر كتلته بحوالي ستة آلاف مليون مليون طن، ويقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، وإن كان لا يكاد الإنسان أن يدركه بعد ألف كيلومتر لتناقص ضغطه مع الارتفاع باستمرار، فبينما يصل ضغط الغلاف الغازي للأرض إلى حوالي كيلوجرام على السنتيمتر المربع فوق مستوى سطح البحر فإنه يتناقص مع الارتفاع إلى واحد من مليون من ذلك الضغط في أجزائه العليا.

ويضم الجزء السفلي من هذا الغلاف الغازي (من 0 إلى 20 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر) حوالي %66 من كتلته، ويتكون من غازات النيتروجين (بنسبة %78.1 بالحجم) والأوكسجين (بنسبة %21 بالحجم) والأرجون (بنسبة %0.93 بالحجم)، وثاني أكسيد الكربون (بنسبة %0.03 بالحجم) بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء وغازات أخرى. ولولا هذا التركيب للغلاف الغازي ما استقامت الحياة على الأرض. وذلك لأن غاز

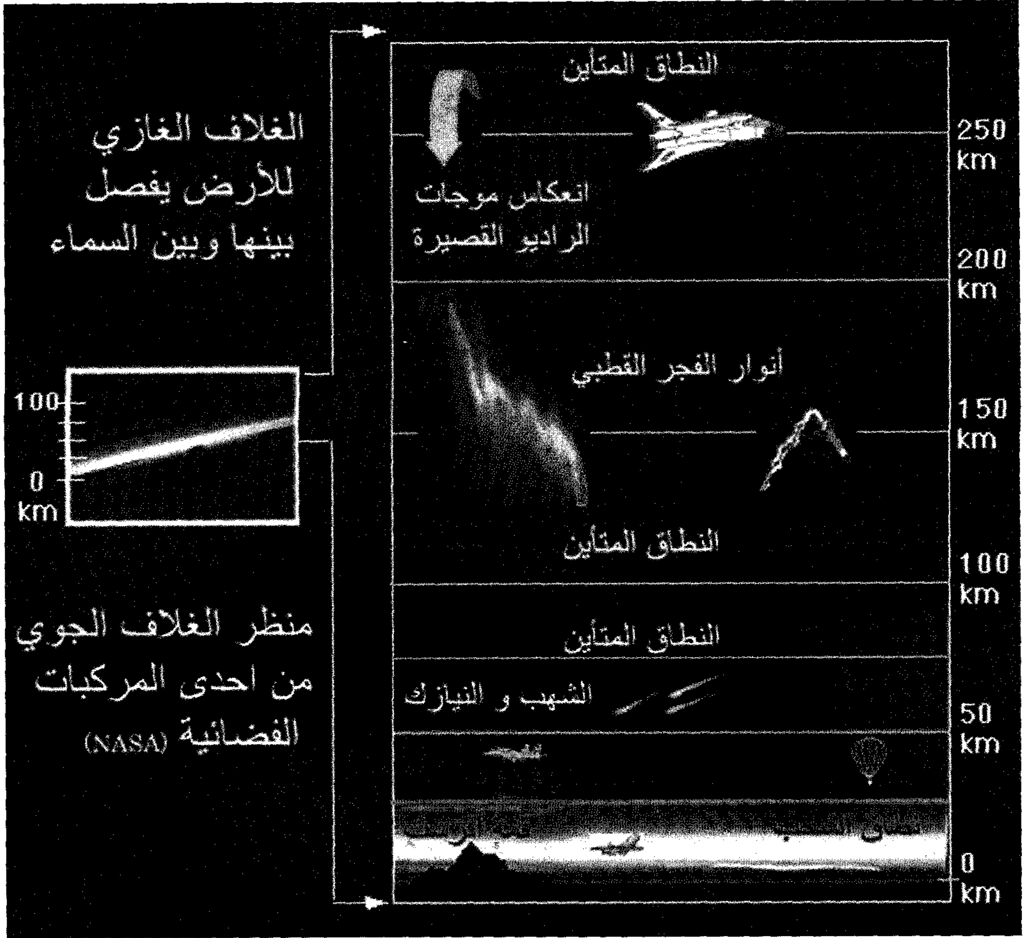


تغطي المياه حوالي 71٪ من سطح الكوكب الأزرق

الأوكسجين يشكل سراً من أسرار الحياة الأرضية.

كذلك فإن كلاً من كتلة وأبعاد الأرض، **وبعدها عن الشمس** قد قدر بدقة بالغة، فلو كانت كتلة الأرض أقل قليلاً من كتلتها الحالية لاندفعت بعيداً عن الشمس، ولفقدت الكثير من الطاقة التي تصلها من هذا النجم، ولما كان بمقدورها الاحتفاظ بغلافيها المائي

والغازي، وبالتالي لاستحالت الحياة على سطحها. ولو كانت كتلتها أكبر قليلاً لاندفعت إلى مسافة أقرب من الشمس ولأحرقتها حرارتها وبخرت غلافها المائي، وخلخلت غلافها الغازي، وقضت على الحياة فوق سطحها، ولزادت قدرتها على جذب الأشياء زيادة



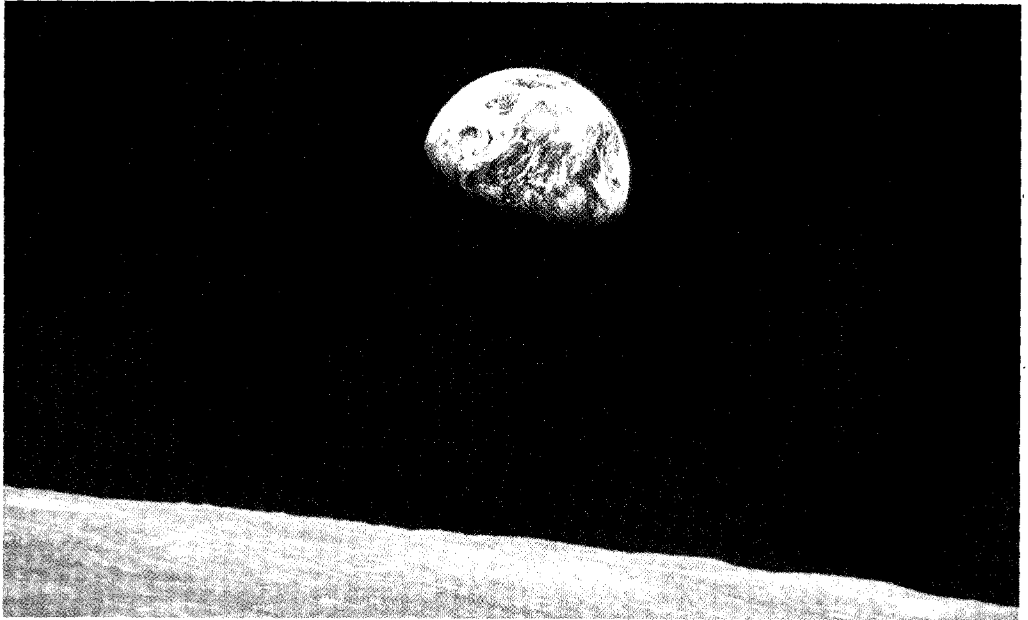
رسم تخطيطي يوضح نطق الغلاف الغازي للأرض

ملحوظة مما يعوق الحركة، ويحول دون النمو الكامل للأحياء إن بقي على سطحها حياة.

وكذلك يعتمد طول السنة الأرضية على بعد الأرض عن الشمس، ويعتمد طول يوم الأرض على سرعة دورانها حول محورها، وكل ذلك مرتبط بأبعاد الأرض، وكذلك يعتمد تبادل الفصول المناخية على ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج، فلو لم يكن مائلاً ما تبادلت الفصول، ولاختل نظام الحياة على الأرض.

ولولا تصدع الغلاف الصخري للأرض، وتحرك ألواحه متباعدة عن بعضها البعض ومصطدمة ببعضها البعض ما تكونت الجبال، ولا ثارت البراكين، ولاحدثت الهزات الأرضية، وكلها من صور ديناميكية الأرض، ووسائل تجديد وتثبيت غلافها الصخري، وإثرائه بالمعادن، وتكوين التربة وتحرك دورة الماء حول الأرض، ودورة الصخور، وبناء القارات وهدمها، وتكون المحيطات واتساعها ثم إغلاقها وزوالها؛ وهذه الحركات الأرضية (وغيرها كثير) لعبت ـ ولاتزال تلعب ـ أدواراً أساسيةً في جعل الأرض كوكباً مهيَّئاً لاستقبال الحياة وصالحاً للعمران.

فأرضنا تدور حول محورها بسرعة تقدر بحوالي 18.00 كم/ساعة، وتجري في مدارها حول الشمس بسرعة تقدر بحوالي 108.000 كم/ساعة، وتركض مع الشمس ومجموعتها حول مركز المجرة، وتدور مع **المجرة** حول **مركز للتجمع المحلي** ثم **حول مركز للتجمع المجري**، ومع الأخير حول **مركز للتجمع المحلي الأعظم**، ثم حول **مركز للتجمع المجري الأعظم**، ثم حول ما هو أكبر من ذلك إلى نهاية لا يعلمها إلا الله. ومع هذه الحركات كلها يبقى ما عليها من صور الحياة والعمران مستقراً فعلياً برعاية الله ورحمته.



(الصورة لوكالة ناسا)

الأرض كما تبدو من على سطح القمر

هذه بعض آيات الله في جعل الأرض كوكباً مستقراً في ذاته على الرغم من حركاته العديدة، وجريه في فسحة الكون، وفي تهيئته ليكون مستقراً للحياة التي أراد الله أن تزدهر على سطحه، على الرغم من المخاطر العديدة المحيطة به، حتى يؤمن الناس بحاجتهم إلى الرعاية الإلهية التي يحيطنا الله ﷻ بها في هذا الكون، ويستشعرون حاجتهم إلى هذا الخالق العظيم وإلى رحمته وعنايته في كل وقت وفي كل حين؛ لأننا لو تركنا لأنفسنا طرفة عين أو أقل من ذلك لهلكنا أجمعين، وسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ **(غافر: 64).**

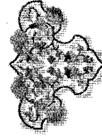
وسبحان الله الخالق البارىء المصور الذي عاتب الكافرين والمشركين والمتشككين بقوله الحق:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ **(النمل: 61).**

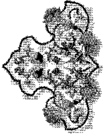
هذه الحقائق العلمية التي سبق القرآن الكريم جميع المعارف الإنسانية بالإشارة إليها تشهد لهذا الكتاب المجيد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، حتى يبقى حجة على جميع الخلق إلى قيام الساعة بما فيه من مختلف صور الإعجاز.

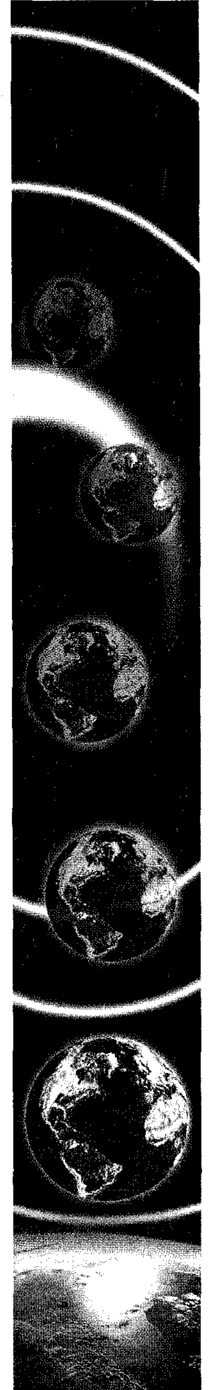
وأمثال هذه الحقائق العلمية العديدة والمتنوعة في كتاب الله تشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، وبأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فأكمل به الدين، وأتم به النعمة، وحفظ به الهداية الربانية لجميع البشرية إلى يوم الدين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم



(22) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ...﴾ (فصلت: 37)





هذا النص القرآني جاء في مطلع الثلث الأخير من سورة فصلت وهي سورة مكية، وآياتها: أربع وخمسون، ويدور محورها الرئيسي حول القرآن الكريم الذي هو ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، والذي أنزله الله الرحمٰن الرحيم هدًى وشفاءً للمؤمنين، على الرغم من صد المشركين والكافرين عنه، وعن دعوته الرئيسية إلى توحيد الله، ورفض الاستقامة على هديه، وعلى الرغم كذلك من تشكيكهم الباطل في ربانيته، وحجيته، وصدق وحيه، وفي نبوة النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ، دفاعاً عما بأيديهم من باطل، وحسداً من عند أنفسهم وانطلاقاً مما غرقوا فيه من ضلال.

وقد استهلت السورة الكريمة بقول الحق ﷻ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ **(فصلت: 1 ـ 3).**

و(حم) حرفان من حروف الهجاء تكررا بمفردهما مرات في مطلع ست من سور القرآن الكريم، وتكررا مرة سابعة في الصيغة الخماسية «حم * عسق» في مطلع سورة الشورى، والحروف المقطعة افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم ـ في أحد الآراء ـ وسبع وعشرون ـ في رأي آخر ـ، وتضم أسماء نصف عدد حروف الهجاء الثمانية والعشرين، وتعتبر من أسرار القرآن على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلت من أجل تفسير دلالاتها، كما أوضحنا ذلك في مقام سابق.

وبعد هذا الاستهلال، تحدثت السورة الكريمة عن أن القرآن

الكريم هو تنزيل من الله الرحمٰن الرحيم، وأنه كتاب فصلت آياته؛ أي: ميزت لفظاً ومعنىً، وأنه أنزل بلسان عربي ليخاطب العرب في المقام الأول، وليحمله العرب إلى غيرهم من الأمم. وقد يحتج نفر من غير العرب على إنزال القرآن الكريم باللغة العربية، ولو أنه أنزل بأية لغة أُخرى لأثير نفس التساؤل: لماذا أنزل بهذه اللغة دون غيرها؟ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: 54).

ويرد عليهم ربنا ﷻ في سورة فصلت ذاتها بقوله عز من قائل:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ...﴾ (فصلت: 44)

وتركز «سورة فصلت» على القرآن الكريم مؤكدة أنه كلام الله الذي أنزله بشيراً ونذيراً، ووصفه بقوله: ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: 41، 42).

وبينت السورة الكريمة موقف كل من المؤمنين والمشركين من هذا الكتاب العزيز، وأمرت رسول الله ﷺ بالتأكيد على بشريته، واصطفائه للنبوة وللرسالة ولتلقي الوحي من الله، وتبليغه للناس كافة في دعوة سماوية إلى التوحيد الخالص لله الخالق ـ بغير شريك ولاشبيه ولامنازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، والتحذير من الوقوع في جريمة الشرك بالله، والتأكيد على عواقبها الوخيمة في الدنيا والآخرة، واستشهدت السورة الكريمة بعدد من آيات الله في الكون على تفرد الخالق ﷻ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وعلى طلاقة قدرته في إبداع الخلق، ووظفت كل ذلك في إثبات قدرته ﷻ على الإفناء وإعادة الخلق من جديد في يوم البعث.

وتنذر سورة «فصلت» المعرضين عن دين الله بعقاب من مثل: عقاب قوم عاد وثمود، وعقاب غيرهم من الأمم التي قد خلت من قبلهم من كل من الجن والإنس، وتذكر ببعض مشاهد العذاب في الآخرة، ومن أخطرها حوار الخاطئين مع جوارحهم التي سوف تشهد عليهم وعلى جرائمهم التي ارتكبوها في حياتهم الدنيا، وحوار المشركين مع من أشركوا بهم.

كما تتحدَّث السورة الكريمة عن عدد من المبشرات للمؤمنين الذين آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، واستقاموا على منهج الله، ومنها: أن الملائكة تتنزل عليهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وفي لحظات الموت وسكراته، وفي أثناء حشرجة الصدر، وخروج الروح: مطمئنة إياهم برضاء الله ﷻ عنهم، ومغفرته لهم، ورحمته بهم، ومبشرة بالنعيم المقيم الذي ينتظرهم إن شاء الله تعالى.

وتقارن السورة الكريمة بين أحوال كل من المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة، وتتحدث عن شيء من أخلاق الدعاة إلى الله، وأساليبهم في الدعوة إليه، كما تمايز بين كل من الخير والشر، والحسنة والسيئة، وتؤكد أنهما لايستويان أبداً، وتثبت رسول الله ﷺ بأن من قبله من الأنبياء والمرسلين قد جوبهوا بمثل ما قوبل به من الكفار والمشركين، وتطمئنه بأن الله تعالى هو صاحب المغفرة وهو في الوقت نفسه ذو عقاب أليم....، وأن من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.. وأن الله ـ تعالى ـ ليس بظلام للعبيد، وأنه ـ تعالى ـ يُرَدُّ إليه علم الساعة، وعلم كل شيء، وهو ـ سبحانه ـ علام الغيوب. وتخلص سورة «فصلت» إلى الحديث عن شيء من طبائع النفس الإنسانية، وتختتم بهذا الوعد الإلٰهي القاطع والوعيد الحاسم لكل مكذب بالبعث والذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ (فصلت: 53، 54).

وفي هاتين الآيتين الكريمتين من التأكيد القاطع بأن مستقبل الإنسانية سوف يرى من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ما يشهد على صدق القرآن الكريم، وأن جدل الكافرين حول قضية البعث وشكهم في إمكانية وقوعه نابع من سقوطهم في خطأ القياس على الله تعالى بقدرات الإنسان المحدودة مما دفعهم إلى ما هم فيه من كفر وضلال...!!

والآيات الكونية التي استشهدت بها السورة الكريمة على طلاقة القدرة الإلٰهية عديدة سبق لي ذكرها من قبل، وسوف أقصر حديثي هنا على تبادل كل من الليل والنهار وأبدأ بأقوال المفسرين السابقين في تلك القضية.

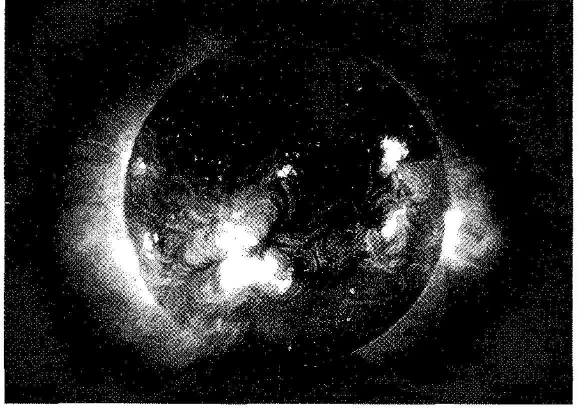
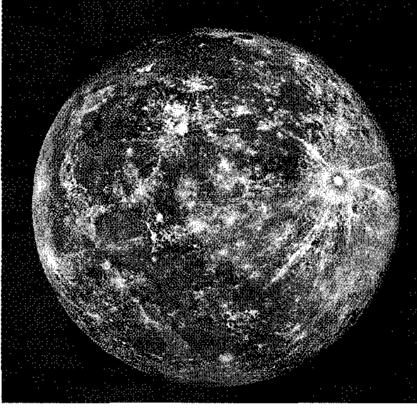
من أقوال المفسرين

• في قول الحق ﷻ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (فصلت: 37).

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قدير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه (نوره)، وهما متعاقبان لا يفتران. والشمس وإشراقها والقمر وضياؤه (ونوره) وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في

سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والشهور والأعوام؛ ويتبين بذلك حلول أوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كانت الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة...، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا، به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به...».

﴿هو الذي جعل لكم الشمس ضياء﴾ مصدر للضوء ﴿والقمر نوراً﴾ يتلقى الضوء فيعكسه نوراً. وصف قرآني دقيق للشمس والقمر

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمةً واسعةً ـ ما مختصره: «وهذه الآيات معروضة للأنظار، يراها العالم والجاهل، ولها في القلب البشري روعة مباشرة، ولو لم يعلم الإنسان شيئاً عن حقيقتها العلمية. فبينها وبين الكائن البشري صلة أعمق من المعرفة العلمية، بينها وبينه هذا الاتصال في النشأة، وفي الفطرة، وفي التكوين، فهو منها وهي منه، تكوينه تكوينها، ومادته مادتها، وفطرته فطرتها، وناموسه ناموسها، وإلٰهه إلٰهها.. فهو من ثم يستقبلها بحسه العميق في هزة وإدراك مباشر لمنطقها العريق!!».

«لهذا يكتفي القرآن غالباً بتوجيه القلب إليها، وإيقاظه من غفلته عنها، هذه الغفلة التي ترد عليه من طول الألفة تارةً، ومن تراكم الحواجز والموانع عليه تارةً، فيجلوها القرآن عنه، لينتفض جديداً حياً يقظاً يعاطف هذا الكون الصديق، ويتجاوب معه بالمعرفة القديمة العميقة الجذور...».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ أن في هذه

الآية الكريمة ردًّا قاطعاً على عبدة الشمس والقمر، كالصابئة الذين يعبدون الكواكب.

• وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبه خيراً - ما نصه: «... ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر، مسخرين لمصالح البشر!».

الليل والنهار في القرآن الكريم:

جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين مرةً، منها ثلاثة وسبعون بلفظ (الليل)، ومرةً واحدةً بلفظ (ليل)، وثماني مرات بلفظ (ليلة)، وخمس مرات بلفظ (ليلاً)، وثلاث مرات بلفظ (ليال)، ومرةً واحدةً بكل من اللفظين (ليلها) و(ليالي).

وفي المقابل جاء ذكر النهار في القرآن الكريم سبعة وخمسين مرة منها أربع وخمسون بلفظ (النهار)، وثلاث مرات بلفظ (نهاراً).

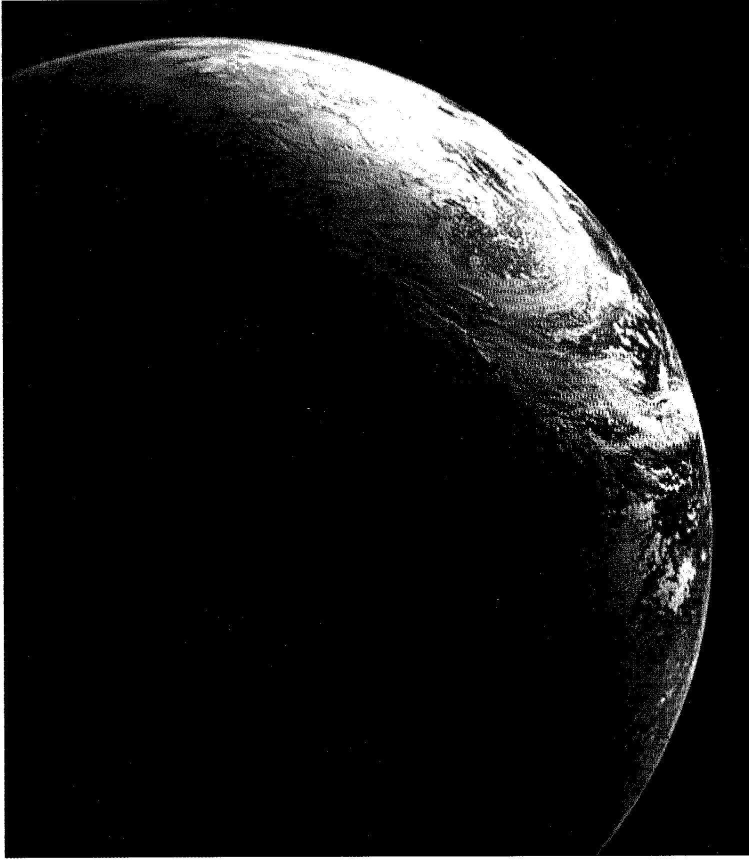
كما وردت ألفاظ (الصبح) و(الإصباح)، و(الفلق)، و(بكرة) ومشتقاتها بمدلول النهار في آيات أُخرى عديدة، كما جاءت كلمة (يوم) أحياناً بمعنى: النهار في عدد من آيات القرآن الكريم، وإن جاء أغلب ورودها بمدلول يوم الأرض الكامل الشامل لكل من النهار والليل.

وفي العديد من آي القرن الكريم يمنّ علينا ربنا ﷻ بتبادل الليل والنهار، ويعتبرهما من آياته الكبرى؛ لأن في ذلك استقامةً للحياة على الأرض، وعوناً للإنسان على تحديد الزمن، والتأريخ للأحداث المتتالية، ولأنه بدون هذا التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير تتوقف الحياة على الأرض، ويتلاشى إحساس الإنسان بمرور الزمن، وتتوقف قدرته على متابعة الأحداث والتأريخ لها.

والليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق، تشهدان على انتظام دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، ولذلك قال - تعالى -: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.... **(فصلت: 37)**

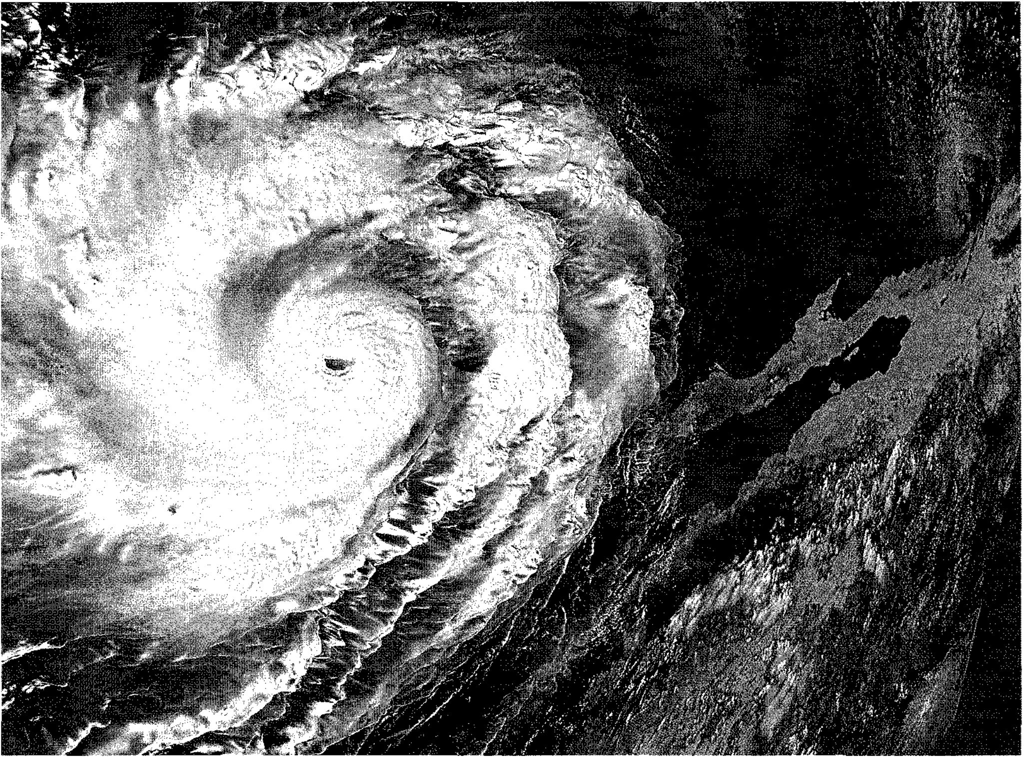
تبادل الليل والنهار في منظور العلوم الكونية:

إن التبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير على نصفي الأرض هو من الضرورات اللازمة للحياة الأرضية، ولاستمرارية وجودها بصورها المختلفة حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها؛ فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتم التحكم في توزيع ما يصل



صورة للأرض وتظهر فيها طبقة النهار للقسم المواجه للشمس وطبقة الليل في ظلمة الكون

إلى الأرض من الطاقة الشمسية، وبالتالي ما يعين على التحكم في درجات الحرارة، والرطوبة، وكميات النور والظلام في مختلف البيئات الأرضية، كما يعين على التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية من مثل: **التنفس والأيض في كل من الإنسان والحيوان، وعمليات النتح والتمثيل الضوئي في النباتات الخضراء**، كما يتم ضبط التركيب



صورة بالأقمار الصنعية لحركة الرياح والسحب ضمن الغلاف الغازي للأرض (أمريكا الشمالية ـ خليج كاليفورنيا)

الكيميائي للغلافين الغازي والمائي المحيطين بالأرض، وضبط الكثير من دورات النشاط الأرضي من مثل: **دورة الماء بين الأرض والسماء** (الطبقات الدنيا من غلافها الغازي)، **وحركات الرياح والسحاب، وتوزيع نزول المطر** بتقدير من الله ﷻ، كما تتم **دورة تعرية الصخور بتفتيتها**، ونقل هذا الفتات أو إبقائه في مكانه، من أجل تكوين التربة، أو الرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من خيرات أرضية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن اختلاف الليل المظلم والنهار المنير يُعْتَبَرُ تقسيماً لليوم الأرضي إلى فترة للحركة والعمل والنشاط، وفترة للراحة والاستجمام والسكون، فالإنسان ـ على سبيل المثال ـ محتاج إلى السكينة بالليل كي يخلد فيه إلى شيء من الراحة النفسية بالعبادة والتفكر، والراحة البدنية بالاسترخاء والإغفاء والنوم، حتى يستعيد كلًّا من نشاطه البدني والذهني، ويستجمع قواه فيتهيأ للعمل بالنهار التالي وما يتطلبه ذلك من القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وقد ثبت علمياً أن أفضل النوم يكون بالليل، وأقله

فائدة هو نوم النهار (فيما عدا فترة القيلولة)، كما ثبت أن كثرة النوم بالنهار تؤثر في نشاط الدورة الدموية في جسم الإنسان، وتتهدده بالتيبس في العضلات، وتؤدي إلى تراكم الدهون، وزيادة الوزن، وإلى العديد من صور التوتر العصبي والقلق النفسي، وربما كان من مبررات التوجيه الرباني بالنوم بالليل والنشاط بالنهار، أن طبقات الحماية التي أوجدها ربنا ﷻ في الغلاف الغازي للأرض، ومن أهمها النطق المتأينة **(Ionospheres)** وما بها من أحزمة الإشعاع **Radiation Belts** تتمدد بالنهار فتزداد قدراتها على حماية الحياة الأرضية، مما يسمح للإنسان بالحركة والنشاط دون مخاطر، وهذه النطق تنكمش انكماشاً ملحوظاً بالليل مما يقلل من قدراتها على الحماية فَيُنصَحُ الإنسان بالركون إلى النوم والراحة حماية له من تلك المخاطر، وفي ذلك يقول ربنا ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ **(النبإ: 10، 11).**

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ **(الأنعام: 96).**

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ **(يونس: 67).**

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ **(النمل: 86).**

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ **(القصص: 71 ـ 73).**

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ **(غافر: 61).**

وكما سبق وأن أسلفنا فإن التبادل بين الليل المظلم، والنهار المنير، يحدد لنا يوم الأرض، ويعيننا على إدراك الزمن، وعلى تحديد الأوقات بدقة وانضباط ضروريين للقيام بمختلف الأعمال، ولأداء كل العبادات، وإنجاز كافة المعاملات، والوفاء بمختلف العهود والمواثيق والعقود، وغير ذلك من النشاطات الإنسانية، وإن هذه النعمة لهي بحق من نعم

الله ـ تعالى ـ على الإنسان في هذه الحياة، وعلى كافة الأحياء الأرضية من حوله؛ لأنه بدونها لا تستقيم الحياة على الأرض، ولا يستطيع الإنسان أن يميز ماضياً من حاضر أو مستقبل، وبالتالي فإنه بدونها لا بد وأن تتوقف مسيرة الحياة.

من هنا كانت الدعوة إلى التدبر في ظاهرة تعاقب الليل والنهار دعوة إلى الإيمان بالله، وإلى إدراك شيء من بديع صنعه في هذه الحياة، ومن هنا أيضاً جاءت الآية الكريمة التي نحن بصددها، وغيرها من الآيات التي تشير إلى تبادل الليل والنهار في صياغة معجزة ـ شأنها في ذلك شأن كل آيات القرآن الكريم ـ ومن جوانب ذلك الإعجاز إشارتها إلى عدد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك مما يجزم بأنه لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة الحقة، والرسالة الخاتمة.

الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار:

(1) التأكيد على كروية الأرض: إن تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض، وتعاقبهما وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، في كل ذلك إشارات ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض؛ وذلك لأن كلًّا من الليل والنهار هي فترات زمنية تعتري الأرض، وليست أجساماً مادية تكور، فإذا تكوَّرا كان ذلك كناية عن تكور الأرض، ثم إنه لو لم تكن الأرض كرةً ما أمكن تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض.

هذه الحقيقة العلمية جاء بها القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين في وقت ساد كل الناس الاعتقاد باستواء الأرض، على الرغم من إثبات عدد من قدامى المفكرين غير ذلك.

ونزول الآيات القرآنية العديدة بهذه الحقيقة الكونية الثابتة من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدوية بسيطة ليس لها أدنى حظ من المعرفة العلمية ومناهجها ولا بالكون ومكوناته، لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه، والذي أنزل القرآن الكريم بعلمه وحكمته على خاتم أنبيائه ورسله فجاء بالحق المبين في كل آية من آياته، وكل كلمة من كلماته، وكل حرف من حروفه، كما يقطع ذلك بأن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

(2) التأكيد على دوران الأرض حول محورها أمام الشمس: هذه الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها وأشباهها من آيات هذا الكتاب العزيز تؤكد كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، لأنه لو لم تكن الأرض كرويةً ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار، وهذا الدوران عبرت عنه الآيات القرآنية في أكثر من عشرين آية صريحة، بتعبيراتٍ ضمنيةٍ رقيقة، ولكنها مصاغةً صياغةً علميةً دقيقةً، تبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم يبلغه العلم الحديث منها: **إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، واختلافهما، وتعاقبهما، وتقليبهما، وإدبار أحدهما وإقبال الآخر، وإغشاء النهار بالليل، وتجلية الليل بالنهار، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وجعل كل منهما خلفة للآخر، وسريان الليل وعسعسته بعد إظلامه وسجوه، وإسفار الصبح وتنفسه وطلوع ضحاه وتجليه بعد إغشاء الليل وإظلامه** (آل عمران: 27، الرعد: 3، الحج: 61، المؤمنون: 80، النور: 44، الفرقان: 62، لقمان: 29، الجاثية: 3 ـ 5، الحديد: 6، المدثر: 33 ـ 35، التكوير: 17 ـ 19، الفجر: 4، الليل: 1، 2، الضحى: 1، 2).

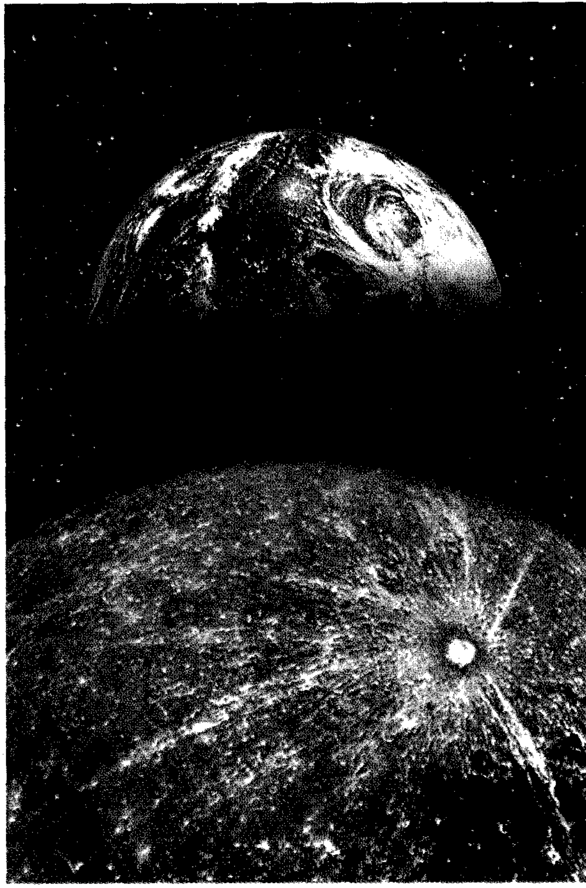
وقد أنزلت هذه الآيات القرآنية الكريمة من قبل ألف وأربعمائة سنة مؤكدة حقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس وهو أمر معجز للغاية لأنه جاء في وقت ساد الاعتقاد بثبات الأرض ورسوخها، بمعنى عدم دورانها أو تحركها.

(3) التأكيد على أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في المراحل الأولى لخلق الكون كانت أعلى من سرعتها الحالية: هذه الحقيقة لم يتمكن العلم المكتسب من إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وقد سبقها القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرناً بقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ **(الأعراف: 54)**.

وإغشاء النهار بالليل جاء في القرآن الكريم أربع مرات (الأعراف: 54، الرعد: 3، الشمس: 1 ـ 4، الليل: 1، 2)، والمرة الوحيدة التي جاء فيها الوصف: **(يطلبه حثيثاً)** أي: سريعاً، هي هذه الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف؛ لأنها تتحدث عن بداية خلق السمٰوات والأرض، وهي حقيقة مدونة في هياكل الحيوانات، وأخشاب النباتات بدقة بالغة، ولم يكن لأحدٍ من الخلق إلمام بأية فكرة عنها حتى جاءت العقود المتأخرة من القرن

العشرين حين اكتشف العلماء أن تبادل الليل والنهار كان يتم في العقود الجيولوجية القديمة بسرعة فائقة جعلت من عدد الأيام في السنة عند بدء الخلق أكثر من ألفي يوم، وجعلت من طول الليل والنهار معاً أقل من أربع ساعات، وكان إبطاء سرعة دوران الأرض حول محورها آية من آيات الله في إعداد الأرض لاستقبال الحياة؛ لأن صور الحياة ـ وفي مقدمتها الإنسان ـ ما كان ممكناً أن تتلاءم مع هذه السرعات الفائقة لدوران الأرض ولا لقصر طول كل من الليل والنهار.

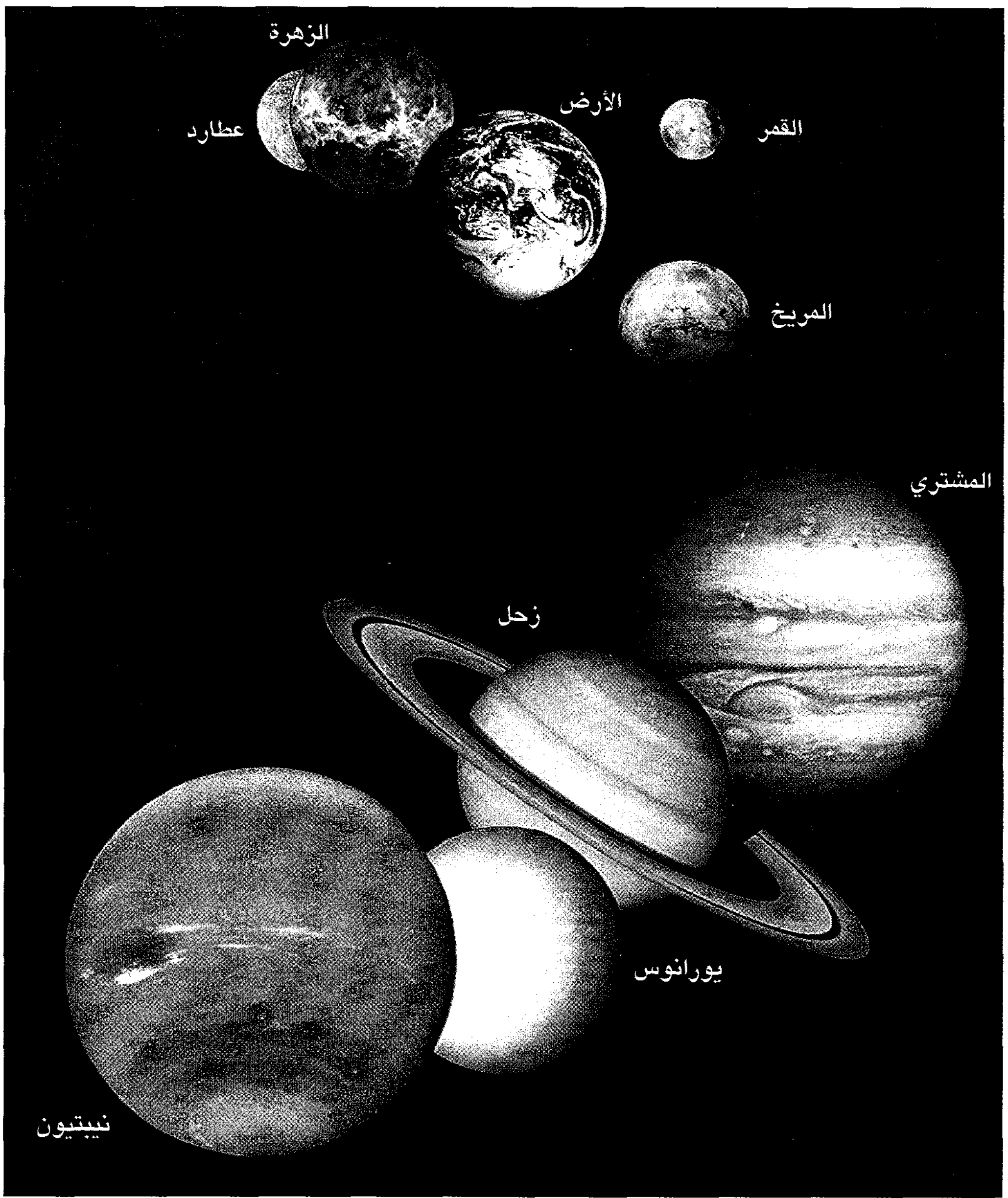

الأرض والقمر يسبحان في ظلمة الكون وتظهر رقة طبقة النهار في مواجهة الشمس

(4) التأكيد على سبح الأرض في مدارها حول الشمس:

يعبِّر القرآن الكريم عن الأرض في عدد من آياته بالليل والنهار كما جاء في قول الحق ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **(الأنبياء: 33).**

وفي قوله ـ عز من قائل ـ: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ **(يسٓ: 40).**

وذلك لأن كلًّا من الليل والنهار عبارة عن ظرف زمان، وليس جسماً مادياً، ولا بد للزمان من مكان يظهر فيه، والمكان في هذه الحالة هو كوكب الأرض الذي يقتسم الليل نصفه، والنهار النصف الآخر في حركة دائبة، وتبادل مستمر، فلو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تدور حول محورها أمام الشمس، لما تبادل على سطحها الليل والنهار في تعاقب مستمر، ولولا جريُ الأرض في مدارها حول الشمس ما تغيرت البروج، ولو لم تكن الأرض مائلةً بمحور دورانها على دائرة البروج بزاوية مقدارها 66.5 درجة تقريباً ما



صورة حقيقية لكواكب المجموعة الشمسية التقطتها سفينة الفضاء «فويدجر ـ 1» من خلف مدار كوكب نيبتيون (Voyager-1 Photograph for the Plantes of our Solar System)

تبادلت الفصول، ولولا علم الله بجهل الناس لتلك الحقائق في الأزمنة السابقة، لأنزل الحقيقة الكونية بلغة صادعة قاطعة؛ ولكن لكي لايفزع الخلق في وقت تنزل القرآن الكريم أشار إلى جري الأرض في مدارها المحدد لها حول الشمس بسبح كل من الليل والنهار،

والسبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها، فالسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم المادي بحركة ذاتية فيه من مثل: سبح الإنسان أو الحيوان في الماء، وسبح الطيور في الهواء، وحركات كلٍّ من الأرض والقمر والشمس وغيرها من أجرام السماء كلٌّ في مداره وحول جرم أكبر منه، ويؤكد هذا الاستنتاج صيغة الجمع ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ التي جاءت في الآيتين؛ لأنه لو كان المقصود بالسبح هو الشمس والقمر فحسب لجاء التعبير بالتثنية: (وكلاهما يسبحان).

(5) التأكيد على الرقة الشديدة لطبقة النهار في الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس: وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء، في منتصف الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين، وقد سبق القرآن الكريم هذا الكشف العلمي بأربعة عشر قرناً وذلك بقول الحق ﷻ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾. (يس: 37).

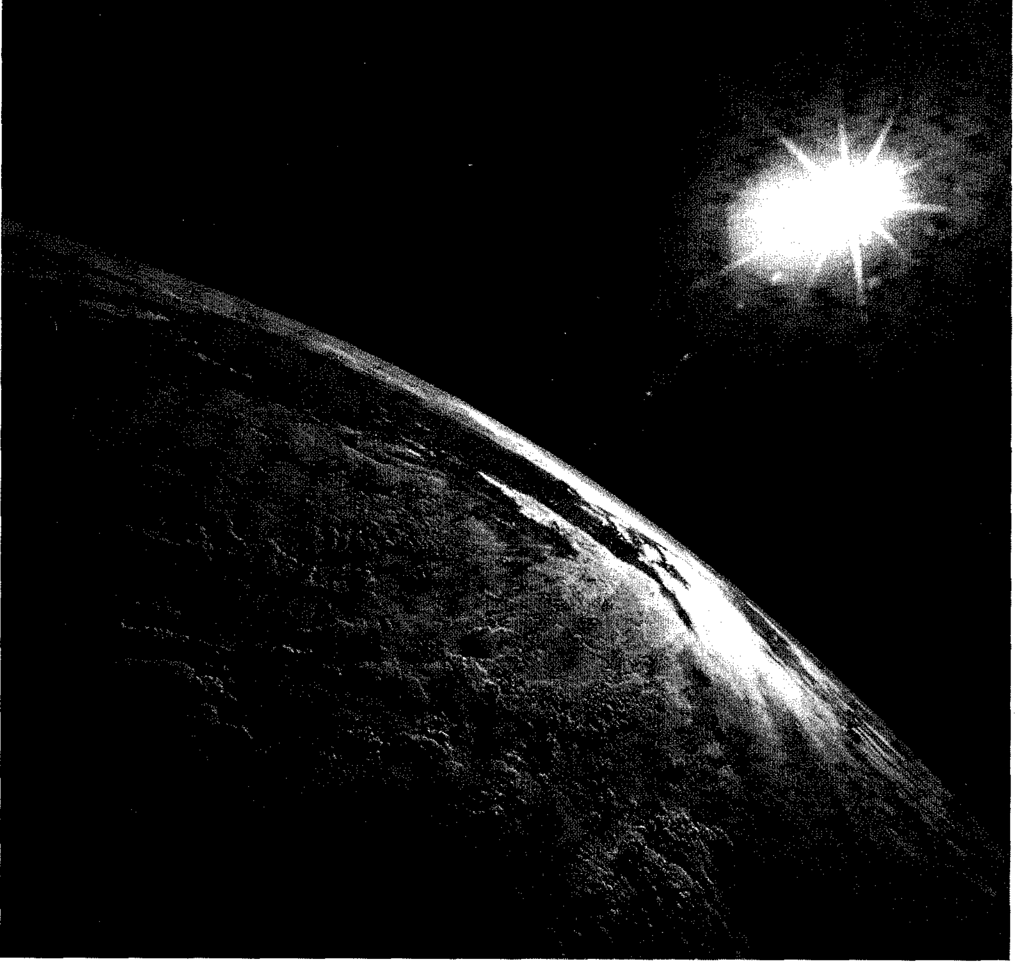
وهذه الآية الكريمة تؤكد أن الأصل في الكون الظلام، وأن طبقة النهار في الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس، والتي تتحرك باستمرار لتحل محل ظلام الليل بإشراق الفجر، هي طبقة بالغة الرقة لايكاد سمكها أن يتعدى مائتي كيلومتر فوق مستوى سطح البحر، وإذا نسبنا هذا السمك إلى المسافة بين الأرض والشمس وهي مقدرة بحوالي المائة والخمسين مليون كيلومتر كانت النسبة واحداً إلى سبعمائة وخمسين ألفاً تقريباً (200كم/ 150،000،000كم = 1/ 750،000 تقريباً).

وإذا نسبنا سمك طبقة النهار (على نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس) إلى نصف قطر الجزء المدرك من الكون والمقدر بأكثر من اثني عشر بليون سنةً ضوئيةً تضاءلت هذه النسبة تماماً إلى ما يقرب الصفر؛ ومن هنا تتضح ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، كما يتضح عدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطةٍ إلى أُخرى على سطح الأرض مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس. ويتضح كذلك أن تلك الطبقة الرقيقة من نور النهار تحجب عنا ظلام الكون الخارجي؛ لأن الذين تعدُّوا طبقة النهار من روّاد الفضاء رأوا الشمس في منتصف النهار قرصاً أزرق في صفحة سوداء.

وبهذه المعلومات التي اكتشفت منذ أقل من نصف قرن تتَّضح روعة التشبيه القرآني لانسلاخ نور النهار عن ظلمة الكون بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها، وهذا يؤكد أن الظلمة هي الأصل في الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرةً نورانيةً عارضةً رقيقةً جداً، لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض في نصفه المواجه للشمس،

وبواسطة دوران الأرض حول محورها أمام ذلك النجم ينسلخ النهار تدريجياً أمام ظلمة ليل الأرض، والتي تلتقي بظلمة السماء، فما أروع هذا التشبيه القرآني وما أجمله!!.

وتجلي النهار على الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض بهذا النور الأبيض المبهج هو من نعم الله الكبرى على عباده، ويفسر تشتت ضوء الشمس بانعكاساته المتكررة على هباءات الغبار وعلى جزيئات كلٍّ من بخار الماء والهواء بالغلاف الغازي القريب من سطح الأرض. وبعد تجاوز مائتي كيلومتر فوق مستوى سطح البحر يبدأ الهواء في التخلخل لتضاؤل تركيزه، وتناقص كثافته باستمرار مع الارتفاع، وندرة كل من جسيمات الغبار



صورة حقيقية للشمس وهي تبدو قرصاً أزرق في صفحة سوداء والنهار يظهر فقط ضمن الطبقة الرقيقة من الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس

وبخار الماء فيه، حتى تتلاشى؛ ولذلك تبدو شمسنا ـ كما يبدو غيرها من نجوم السماء الدنيا ـ بقعاً زرقاء باهتة في بحر غامر من ظلمة الكون.

(6) التأكيد على دقة الحساب الزمني بواسطة تتابع كل من الليل والنهار والشمس والقمر:

من المعروف أن السنة الهجرية هي سنة شمسية/ قمرية؛ لأن هذه السنة تحددها دورة الأرض حول الشمس دورةً كاملةً تتمها في 365.25 يوماً تقريباً، وأن هذه السنة تقسم إلى اثني عشر شهراً بواسطة دوران القمر حول الأرض، كما يقسم الشهر إلى أسابيع وأيام بمراحل القمر ومنازله، وإلى أيام وليال بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وقد تقسم الشهور بواسطة البروج التي تمر بها الأرض في أثناء جريها في مدارها حول الشمس، كما تدرك الأيام بتبادل كلٍّ من الليل والنهار، ويقسم النهار إلى وحدات أصغر بواسطة تحرك ظل الأجسام المعتمة مداً وقبضاً أمام الحركة الظاهرية لأشعة الشمس كما يتم ذلك بواسطة المزولة الشمسية، ومن هنا كان القَسم القرآني بالليل والنهار والشمس والقمر في خمس آيات قرآنية كريمة هي على التوالي (الأنعام: 96، إبراهيم: 33، النحل: 12، الأنبياء: 33، فصلت: 37).

(7) الإشارة إلى أن ليل الأرض كان في بدء الخلق ينار بعدد من الظواهر الكونية التي تلاشت بالتدريج ولا يزال لها بقايا حتى اليوم: وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ **(الإسراء: 12).**

ويستشف من هذه الآية أن ظاهرة الشفق القطبي وأطيافه **(Aurora and Auroral Spectra)** والتي تعرف أيضاً باسم: ظاهرة الأنوار القطبية **(Polar Lights)**، أو باسم: ظاهرة فجر الليل القطبي **(Polar Night's Dawn)** هي ظاهرة نورانية ترى بالليل في سماء المناطق القطبية وما حولها، أي ما يعرف باسم المناطق حول القطبية، وتتكون نتيجة ارتطام الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الجزء المدرك من الكون ـ على هيئة الجسيمات الأولية للمادة ـ بالغلاف الغازي للأرض، مما يؤدي إلى تأينه، أي شحنه بالكهرباء، وإصدار أشعة كونية ثانوية؛ ونتيجة لذلك تتصادم الأشعات بشحناتها الكهربية المختلفة مع كلٍّ من أحزمة الإشعاع ونطق التأين في الغلاف الغازي للأرض، ويؤدي ذلك التصادم إلى تفريغ شحناتها الكهربية فَتُوهِّجُها، والجسيمات الأولية للمادة متناهية في الدقة، وتحمل

شحناتٍ كهربيةً عاليةً، وتتحرك بسرعاتٍ تقترب من سرعة الضوء، ولم تكتشف إلا في سنة1936 م.



صورة تظهر فجر الليل القطبي ـ شمال النرويج

ولا يحمي الأرض من أخطار تلك الأشعة الكونية إلا ما جعل الله ـ تعالى ـ لها من المجال المغناطيسي **(The Magnetosphere)**، فتتحرك الأشعة الكونية بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض التي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين فتؤدي إلى تأين الغلاف الغازي للأرض فوق القطبين، ومن ثم إلى توهجه في المنطقتين القطبيتين وفيما حولهما.

ومن الثابت علميًا أن نطق الحماية المتعددة في الغلاف الغازي للأرض من مثل: **نطاق الأوزون، ونطق التأين، وأحزمة الإشعاع، والنطاق المغناطيسي** للأرض لم تكن موجودة في بدء خلق الأرض؛ ولذلك فقد كانت الأشعة الكونية تصل إلى المستويات الدنيا

من الغلاف الغازي للأرض فتؤدي إلى توهجه ليلاً حول جميع الأرض. وبعد تكون نطق الحماية المختلفة أخذت هذه الظاهرة في التضاؤل التدريجي حتى اختفت من فوق معظم سطح الأرض. فيما عدا مناطق محدودة حول القطبين، لتبقى شاهدة على أن ليل الأرض في المراحل الأولى من خلقها كان يضاء بوهج لايقل في شدته عن نور الفجر الصادق؛ وهنا تتضح روعة التعبير القرآني الذي أنزله الخالق ﷻ من قبل أربعة عشر قرناً فقال فيه:

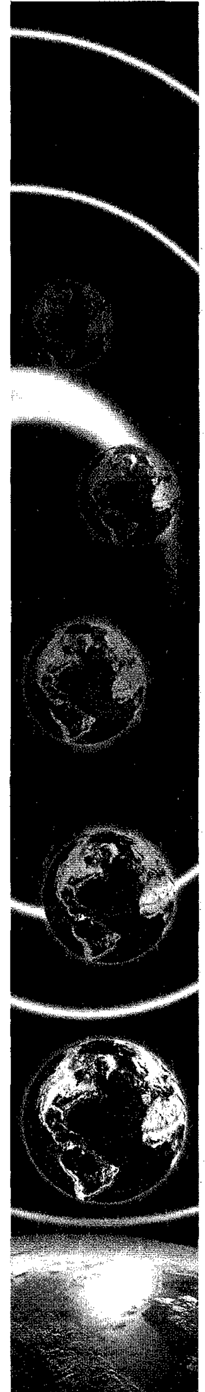
﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ **(الإسراء: 12).**

هذه الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار بدءاً بتأكيد **كروية الأرض**، ثم **دورانها حول محورها، وتباطؤ هذا الدوران مع الزمن، وجريها في مدارها المحدد حول الشمس، والرقة الشديدة لطبقة النهار، والدقة الفائقة لحساب الزمن بواسطة تتابع كل من الليل والنهار والشمس والقمر**، والإشارة إلى أن ليل الأرض كان يضاء في بدء الخلق بوهج لايقل في شدته عن **نور الفجر الصادق**، وأن من بقايا هذا الوهج القديم في زمننا الحالي **ظاهرة الفجر القطبي** التي لا ترى إلا فوق المنطقتين القطبيتين وما حولهما. هذه الشواهد لم يصل الإنسان إلى إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها من قبل أربعة عشر قرناً في كتاب الله الذي أنزل على نبيٍّ أميٍّ ﷺ في أمةٍ كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلَّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، ولذلك وصفه ربه ﷻ بقوله: **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾**

(النجم: 3 ـ 5).

بسم الله الرحمن الرحيم

(23) ﴿... وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: 17)



هذا النص القرآني المعجز جاء في السبع الأُول من سورة «المائدة» وهي سورة مدنية، وآياتها مائة وعشرون (120) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر المائدة التي طلبها الحواريون من نبي الله عيسى ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ منزلة من السماء وذلك في ختام السورة.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المائدة» حول التشريعات اللازمة لإقامة الدولة الإسلامية، وتنظيم مجتمعاتها على أساس من الإيمان بوحدانية الخالق ﷻ، وربوبيته وألوهيته، وتفرده بالسلطان في ملكه، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد. ومن ثم فلا بد وأن تتلقَّى الدولة الإسلامية دستور حياتها، وجميع تشريعاتها، ونظمها وقيمها من وحي السماء كما تكامل في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تعهد ربنا ﷻ بحفظه فحفظ، في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة للضياع التام، وما بقي من ذكريات مشوهة عن بعضها تعرض ـ ولا يزال يتعرض ـ للتحريف والتزوير في كل يوم إلى وقتنا الراهن وحتى قيام الساعة.

وأول بنود هذا الدستور الإسلامي: عقد الإيمان بالله ربًّا وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، وهو العقد الذي تقوم عليه سائر العقود في حياة الناس: أفراداً وجماعاتٍ: من عقيدة، وعبادة، ودستور أخلاق، وتشريعات للمعاملات؛ أي: يقوم عليه الدين بتفاصيله الربانية، بمعنى كل الضوابط السلوكية، والعقائد الغيبية،

والشرائع التعبدية كما قررها الله تعالى، ومن ذلك نصت السورة الكريمة على بيان الحلال والحرام في قضايا عديدة من مثل: قضايا الذبائح، والمطاعم، والمشارب، والزواج وغيرها، كما نصت على شرح العقيدة الصحيحة: وتوضيح علاقات المسلمين بغيرهم من أصحاب الملل والنحل، أفراداً، وجماعاتٍ، وأمماً، وتحذرهم من الافتتان بهؤلاء الكافرين عن بعض ما أنزل الله، كما تحذرهم من الحيود عن العدل تحت ضغوط المشاعر الشخصية، وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿... ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **(المائدة: 3)**.

وتعرض السورة الكريمة للصلاة، ولأحكام الطهارة لها، ويكل الله ـ تعالى ـ الإنسان في ذلك كله إلى القلوب، وتأمر الآيات المؤمنين أن يكونوا: قوامين لله شهداء بالقسط، وتبشرهم بالمغفرة والأجر العظيم، وتتهدد الذين كفروا وكذبوا بآيات الله بأن مصيرهم إلى الجحيم، كما تستعرض مواقف بعض أهل الكتاب من مواثيقهم، وما حل بالكافرين منهم من دمار نتيجة نقضهم لمواثيقهم، وتنادي على أهل الكتاب بنداء يتكرر عدة مرات يقول لهم فيه ربنا ﷻ:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ **(المائدة: 19)**.

ثم تعرض السورة الكريمة لعدد من الأحكام المتعلقة بحماية كل من النفس، والدين، والعقل والعرض، والمال، وحماية كلٍّ من الملكيات الفردية والعامة، والمجتمعات الإنسانية، وصيانتها، والمحافظة على السلطة وحقوقها، وتقدم لهذا كله بقصة ولدَيْ آدم كرمز للصراع بين الحق والباطل في هذه الحياة..!!

وتعرج السورة الكريمة إلى شيء من تثبيت رسول الله ﷺ في مواجهته لشرك المشركين وانحرافهم، ولكفر الكافرين، وكذبهم، وأكلهم السحت؛ ثم تنتقل بعد ذلك إلى قضية الحكم بما أنزل الله، وتجرِّم الخروج على ذلك؛ لأن حق التشريع بالحل والحرمة هو لله ـ تعالى ـ وحده، ولذلك كان قبول شرع الله، والرضى بحكمه هو إقرار لله بالألوهية، والربوبية، والوحدانية، والقوامة على خلقه بغير شريك ولا شبيه ولا منازع. وتؤكد سورة «المائدة» قضية الولاء والبراء على أنها من الوسائل النفسية الأساسية للتربية الإسلامية، ولضبط سلوك المسلمين أفراداً وجماعات.

وتنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن عدد من الأحكام الشرعية في الأيمان، وتؤكد تحريم كلٍّ من الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، كما تضع ضوابط للصيد، منها تحريمه والعبد في إحرامه، وتدعو إلى تعظيم كلٍّ من الكعبة المشرفة والأشهر الحرم، وتؤكد تعرض ٱنحراف أهل الكتاب عمَّا قد أنزل إليهم، وتأمر بطاعة الله ورسوله، وتنهى عن مخالفتهما خشية عذاب الله، وتذكر بحتمية الآخرة.

وتلمح السورة الكريمة لعدد من الضوابط التربوية الأُخرى في حياة المسلمين: أفراداً وجماعاتٍ، ومنها: عدم الانبهار بكثرة الخبيث، والالتزام بجميع آداب التعامل مع الله ورسوله، والدعوة إلى إبطال ما كان قد بقي من تقاليد الجاهلين المبتدعة، والتأكيد على حكم الإشهاد على الوصية في حالة السفر وغير ذلك من التشريعات التي ربطتها كلها بمراقبة الله وتقواه ومخافة معصيته.

ومن الأحكام الشرعية التي تناولتها سورة «المائدة» ما يلي: **أحكام العقود، الذبائح، الصيد، الإحرام، زواج الكتابيات، حد الردة، أحكام الطهارة، حد السرقة، حد البغي والإفساد في الأرض، أحكام الخمر والميسر، كفارة اليمين، تحريم قتل الصيد في الإحرام، أحكام الوصية عند الموت، أحكام البحيرة والسائبة، حكم ترك العمل بشريعة الله، وأحكام الولاء والبراء.**

وتختتم السورة الكريمة بذكر يوم القيامة الذي يجمع الله تعالى فيه كل الخلق ـ وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلين ـ وذلك للحساب والجزاء. ثم تشير إلى عدد من المعجزات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها عبده ورسوله عيسى ابن مريم، ومنها إنزال المائدة من السماء، وتنتهي إلى تبرئة السيد المسيح ـ على نبينا وعليه السلام ـ وتبرئة أمه الصديقة مما ألصق بهما من دعاوى الألوهية الكاذبة، فالله واحدٌ أحد، فردٌ صمد، لا منازع له في سلطانه، ولا شريك له في ملكه.

من التشريعات الإسلامية في سورة «المائدة»

1 ـ **الأمر بالوفاء بالعقود** أي العهود المؤكدة بين العباد وخالقهم، وبينهم وبعضهم البعض. ومن العقود المبرمة بين العباد وخالقهم والعباد بعد في عالم الذر: الإيمان بربوبيته، وألوهيته، ووحدانيته، وتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وعبادته تعالى بما أمر، وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض.

2 ـ **تأكيد ضرورة الحكم بما أنزل الله** ـ تعالى ـ، ومن ذلك أحكام القصاص،

والردة، والحنث في اليمين، وتأكيد قضية الولاء والبراء، والأمر بالعدل في القضاء، وبتقوى الله ﷻ في السر والعلن، وبالتوكل عليه حق التوكل، وبعدم خشية غيره، وبطاعة الله ورسوله، وبالحرص على عمل الصالحات ومن ذلك الإحسان إلى الخلق.

3 ـ **الأمر بالمحافظة على حرمات الدين وشعائره** من مثل حرمة الكعبة المشرفة، وحرمة كلٍّ من الحج ومناسكه، والأشهر الحرم، وما يهدى إلى البيت الحرام، وما يقلد به الهدي، وحرمة قاصدي البيت الحرام من الحجاج والمعتمرين، وحرمة أمنهم وسلامتهم.

4 ـ **الأمر بالتعاون على البر والتقوى**؛ أي: على حسن الخلق وفعل الطاعات، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان؛ أي: على فعل المنكرات والمنهيات، وعن مجاوزة حدود الله.

5 ـ **الأمر بالجهاد في سبيل الله**، طلباً لمرضاته، وابتغاء للوسيلة إليه ﷻ.

6 ـ **تحريم قتل النفس** التي حرم الله إلا بالحق، وتحديد عقوبة القتل.

7 ـ **تحريم قطع الطريق** والاعتداء على الخلق، وتحديد عقوبة القتل.

8 ـ **تحريم السرقة**، وأكل السحت بمختلف أشكاله وألوانه ومنه الرشوة، والربا، والغش في التجارة، وتطفيف الموازين والمكاييل، وعدم الأمانة في الصنعة والعمل، وتحديد عقوبة كل واحدة من تلك الأعمال السيئة والخاطئة.

9 ـ **تحليل أكل لحوم الأنعام وشرب ألبانها**، من مثل كل من الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وما يمثلها من الثدييات اللبونة المجترة والمقتصرة على أكل الأعشاب كالظباء، والغزلان، والزراف، وبقر الوحش. وأشباهها.

10 ـ **تحريم أكل كلٍّ من الميتة، والدم، ولحم الخنزير**، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما أُدْرِكَ ذكاؤه من الأصناف الخمسة الأخيرة أي إتمام ذبحه قبل أن يموت، وما ذبح على النصب، إلا من اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم.

11 ـ **تحريم الصيد على المُحْرِمِ** بالحج أو بالعمرة، وكفارة ذلك، وهذا التحريم يشمل مجرد الانتفاع بالصيد سواء كان المحرم في الحل أو في الحرم، ويقع في حكم المُحْرِمِ من كان مقيماً في الحرم وليس محرماً.

12 ـ **تحريم كل من الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام**؛ والاستقسام بالأزلام يشمل كل محاولة لاستشراف الغيب بواسطة القداح ـ وهي سهام كانت لدى أهل

الجاهلية ـ وذلك من مثل قراءة الطالع، أو الكف، أو الفنجان، أو فتح أوراق اللعب، وغيرها من وسائل الدجل والنصب المتعددة.

13 ـ **تحليل صيد البحر وطعامه**، وصيد البر المباح بعد ذكر اسم الله على وسيلة الصيد من الجوارح قبل إطلاقها.

14 ـ **تحليل طعام أهل الكتاب**، وتحليل ذبائحهم إذا ذكروا اسم الله ـ تعالى ـ عليها أثناء الذبح.

15 ـ **تحليل زواج المحصنات من المؤمنات**، أي: العفيفات المترفعات عن الرذائل، وزواج المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، بعد دفع مهورهن، ومع عدم الاختلاء بهن قبل الزواج.

16 ـ **تفصيل أحكام الطهارة** في جميع الحالات.

17 ـ **تفصيل أحكام الوصية**.

18 ـ الحكم بأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا...﴾ **(المائدة: 32)**.

19 ـ الحكم بأن حزب الله هم الغالبون وأن ﴿... ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **(المائدة: 36)**.

من ركائز العقيدة في سورة المائدة:

1 ـ **الإيمان بالله**، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبأن إلى الله المصير، وتحريم الشرك بالله تحريماً قاطعاً لقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ **(المائدة: 72)**.

2 ـ **الإيمان ببعثة الرسول الخاتم** ﷺ الذي أكمل الله سبحانه وتعالى ببعثته الدين، وأتم النعمة بتعهده ـ عز وجل ـ بحفظ القرآن الكريم، وبرضاه الإسلام ديناً لعباده.

3 ـ **الإيمان بوحدة رسالة السماء**، وبالأخوة بين الأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى جميعاً برسالة واحدة هي الإسلام الذي دعا إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وإلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وإلى الاتباع في الدين، وإلى عدم الابتداع فيه.

4 ـ **اليقين الجازم بأن المسيح عيسى ابن مريم هو عبد الله ورسوله**، وأنه قد خلت من قبله الرسل، وأن أمه صديقة، وأنهما كانا يأكلان الطعام، وأنه بشَّر بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وأن الإيمان بالمعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ له وعلى يديه كما رواها القرآن الكريم هو جزء لا يتجزأ من إيمان المسلمين، وأن الفضل فيها يعود لله ﷻ وحده.

5 ـ **التسليم بالحقيقة القرآنية** التي مؤداها أن اليهود قد زيفوا رسالة الله إليهم، وأنهم سمَّاعون للكذب، أكَّالون للسحت، مسارعون في الإثم والعدوان، ولذلك وصفهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ **(المائدة: 82)**.

من الإشارات العلمية في سورة المائدة

1 ـ **تحريم كل من**: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما ذُكِّي من الأنواع الخمسة الأخيرة قبل مفارقته للحياة. والتجارب المختبرية والسريرية تؤكد أخطار تناول كل هذه الأطعمة على صحة الإنسان.

2 ـ **التأكيد على أن لله ملك السمٰوات والأرض** وما بينهما في موضعين متتابعين من السورة (17، 18)، وأن له ـ تعالى ـ وحده ملك ما فيهن (120)، وهذه البينية الفاصلة بين السمٰوات والأرض بدأت العلوم المكتسبة في إدراكها مؤخراً، مع تبيين أن الغلاف الغازي للأرض هو خليط من مادتي كل من الأرض والسماء، وليس خالصاً لأي منهما. وهذه البينية أيضاً تشير إلى توسط الأرض للسمٰوات، وإلى مركزيتها بالنسبة إلى الكون، وهو ما لا يمكن للإنسان أن يثبته أبداً.

3 ـ **التأكيد على أن اليهود قد حرَّفوا دينهم** (41)، وأنهم سمّاعون للكذب أكّالون للسحت (42)، وأن كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان (62)، وأن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، وأن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى.. (82)، وأن كثيراً من الناس لفاسقون (49).

4 ـ **تحريم كل من** الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام (90)، والدراسات العلمية تؤكد حتمية ذلك التحريم.

5 ـ **جعل الكعبة المشرفة قياماً للناس** (97)، والعلم يثبت توسطها لليابسة، وتميز موقعها وتفرده بالعديد من الشواهد الحسية والمعنوية التي تشهد بخصوصية وكرامة المكان.

6 ـ **التأكيد على إنزال المائدة** التي طلبها حواريو عيسى عليه السلام من السماء (114، 115).

7 ـ **التأكيد على معجزات السيد المسيح** عليه السلام (110، 111)، وعلى بشريته الكاملة (117).

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك سوف أقصر الكلام هنا على قضيةٍ واحدةٍ وصفها القرآن الكريم بما بين السمٰوات والأرض، والتعبير بـ (رب السمٰوات والأرض وما بينهما) جاء في عشرين موضعاً من القرآن الكريم على النحو التالي:

(1) ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ **(المائدة: 17).**

(2) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ **(المائدة: 18).**

(3) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ **(الحجر: 85).**

(4) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ **(مريم: 64، 65).**

(5) ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ **(طه: 4 ـ 6).**

(6) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ **(الأنبياء: 16).**

(7) ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ **(الفرقان: 59).**

(8) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (الشعراء: 23، 24).

(9) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الروم: 8).

(10) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ (السجدة: 4).

(11) ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ (الصافات: 4، 5).

(12) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ (صٓ: 9، 10).

(13) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ (صٓ: 27).

(14) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ (صٓ: 66).

(15) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (الزخرف: 84، 85).

(16) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾ (الدخان: 7).

(17) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الدخان: 38، 39).

(18) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأحقاف: 3).

(19) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (قٓ: 38).

(20) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ (النبإ: 37).

و(**بين**) بالتخفيف في اللغة العربية ظرف مكان أو زمان بمعنى وسط، أو موضوع للخلالة بين الشيئين أو الزمنين، ووسطهما، يقال: لقد تقطع بَينَكُم أي: ما (بَينكُم) على الحذف، فإن جعلته اسماً فاعلاً أعربته تقول: لقد تقطع (بينكم) أي: وصلكم، فـ (البين)

هو الوصل و(البينونة)، وهو أيضاً الفراق لأنه من الأضداد؛ و(البون) و(البين) هو الفضل والمزية أو البعد، يقال: بينهما (بون) أو (بين) بعيد، والواو أفصح؛ فأما بمعنى البعد فيقال: إن بينهما (بيناً) لا تميد.

ما بين السمٰوات والأرض في أقوال المفسرين:

في قوله ـ تعالى ـ:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ **(المائدة17، 18).**

- جاء التعبير القرآني مرتين، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الأولى منهما: «أي: جميع الموجودات ملكه وخلقه، وفي تفسير الثانية قال: «أي: الجميع ملكه، وتحت قهره وسلطانه»...
- وقال صاحب الظلال رَحِمَهُ اللهُ؛ أي: «أن الله هو المالك لكل شيء».
- وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ في الأولى؛ «أي: من الخلق والعجائب» وفي الثانية: «أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه».
- وفي التعليق على نص مشابه (في الآية59 من سورة الفرقان) ذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم أن هذا النص يشير إلى سائر أجرام السماء من نجوم وكواكب وأقمار وأتربة كونية وغازات وطاقات يتألف الكون منها.

والحقيقة أن هناك آيتين من آيات القرآن الكريم تلقيان بعض الضوء على دلالة ما بين السمٰوات والأرض، في أولاهما يقول ربنا ﷻ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ **(البقرة: 164).**

ومن هذه الآية الكريمة يفهم أن السحاب هو مما بين السماء والأرض.

وفي الآية الثانية يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ **(الطلاق: 12)**.

ومن هذه الآية الكريمة يفهم أن الأمر الإلهي هو مما يتنزل بين السموات السبع والأرضين السبع.

وفي الحديث المروي عن رسول الله ﷺ يقول فيه: «**سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق...**»[1].

ويقول ﷺ في حديث آخر: «**أطت السماء وحق لها أن تئط... ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك قائم أو راكع أو ساجد يعبد ربه... لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[2]...

ما بين السموات والأرض في العلوم المكتسبة:

وصل معظم المفسرين ـ من القدامى والمعاصرين ـ إلى أن من دلالات قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أنه ـ تعالى ـ هو رب العوالم علويِّها وسفليِّها، فلا ربوبية لغيره، ولا شريك له في ملكه؛ وهذا صحيح، ولكنه لا يفسر لنا ماهية الموجود بين السموات والأرض، الذي تشير الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والعلوم المكتسبة إلى أنه يشمل فيما يلي:

(1) المكان والزمان في حدود نطاق يفصل بين السموات والأرض.

(2) المادة والطاقة في هذا النطاق.

(3) السحاب المسخر بين السماء والأرض في هذا النطاق.

(4) الملائكة وغيرهم من الخلائق في هذا النطاق.

(5) الأوامر الإلهية المتنزلة في هذا النطاق وعبره.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا اعتبر القرآن الكريم أن هناك فاصلاً بين السموات والأرض؟ وماذا تقول العلوم المكتسبة عن هذا الفاصل؟

---

(1) أخرجه أبو داود (الحديث: 1500) وأخرجه الترمذي (الحديث: 3568).

(2) أخرجه الترمذي (الحديث: 2312).

تجمع العلوم المكتسبة في مجالي علم الفلك والفيزياء الفلكية على أن خلق كل من المكان والزمان والمادة والطاقة قد تزامن مع عملية الانفجار العظيم؛ فلا يوجد في الكون الذي نعرفه مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لا يوجد مكان وزمان بغير مادة وطاقة.

فالمادة والطاقة موجودتان بين كل من الأرض والشمس، وبينهما وبين كافة أجرام المجموعة الشمسية، ليس هذا فقط، بل بين النجوم وحولها، وبين المجرات وحولها، بل في الجزء المدرك من الكون كله.

وعلماء الفلك والطبيعة الفلكية يتحدثون اليوم عن المادة حول الكواكب **(Circum-Planetary Matter)** وبين الكواكب **(Inter-Planetary Matter)** وحول النجوم **(Cirlum-Syellar Matter)** وبينهما **(Inter-Stellar Matter)** وحول المجرات **(Circum-galacter Matter)** وبينهما **(Inter-galacter Matter)**، وبين كل تجمع سماوي مهما تعاظم حجمه وفسحة السماء، وذلك لأن تحرك كل من المادة والطاقة بين أجرام السماء وبين المكان والزمان والمحيطين بهما من الأمور التي أكدتها الدراسات الفلكية مؤخراً، ومن أثقلتها تخلق النجوم من الدخان الكوني وعودتها إليه في دوره حياة النجوم.

ومن أمثلة المادة المنتشرة بين الأرض والسماء ما يلي:

أولا: المادة بين الكواكب (The Inter-Planetary Matter):

وهي عبارة عن خليط من الغازات والجسيمات الصلبة المتناهية في دقة الحجم (من 0.001 من المليمتر إلى 0.1 من المليمتر في القطر ـ وإن كانت أقطار تلك الجسيمات الصلبة قد تصل في حالات نادرة إلى أقطار كل من النيازك والكويكبات ـ وتنتشر مادة ما بين الكواكب بين الأرض والشمس، وبينهما وبين بقية كواكب المجموعة الشمسية، وتتراوح كثافة تلك المادة بين (10^{-21}، 10^{-23}) جراماً للسنتيمتر المكعب، وتقدر كميتها في مدار الأرض بحوالي واحد من مائة مليون من كتلة الأرض. وتتكون هذه المادة أساساً من غاز الإيدروجين المتأيّن؛ أي: من البروتونات والإليكترونات؛ ومن نوى ذرات الهيليوم.

ويقدر ما يصل إلى الأرض من مادة الشهب والنيازك بحوالي جزء من عشرة أجزاء من الطن إلى مائة طن في اليوم الواحد، وتختلف حركة الجسيمات الصلبة في مادة ما بين الكواكب حسب اختلاف أقطارها وحسب قوانين ميكانيكا السماء أو ما يعرف باسم الميكانيكا الكونية.

وفي نفس الوقت يتصاعد من فوهات البراكين الأرضية كميات هائلة من الغازات

والأبخرة التي يغلب على تركيبها بخار الماء (حوالي 70%)، بالإضافة إلى أخلاط من الغازات المختلفة التي تترتب حسب نسبة كل منها على النحو التالي: ثاني أكسيد الكربون، الإيدروجين، أبخرة حمض الكلور، النيتروجين، فلوريد الإيدروجين، ثاني أكسيد الكبريت، كبريتيد الإيدروجين، غازات الميثان والأمونيا وغيرها، بالإضافة إلى بعض الجسيمات الصلبة.

ثانياً: الغلاف الغازي للأرض:

باختلاط ما تصاعد ـ ولا يزال يتصاعد ـ من فوهات البراكين مع ما حول الأرض من مادة ما بين الكواكب تكون الغلاف الغازي للأرض، وهو خليط من كل من: مادة الأرض ومادة السماء الدنيا، ولا يمكن نسبته بالكامل إلى أي منهما؛ وذلك لتميزه تميزاً واضحاً عن كل منهما. ومن هنا كان حديث القرآن الكريم عن السمٰوات والأرض وما بينهما.

وتقدر كتلة الغلاف الغازي للأرض بأكثر قليلاً من خمسة آلاف مليون مليون طن (5.2×10^{15} من الأطنان)، ويقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، ويتناقص ضغطه من نحو الكيلوجرام على السنتيمتر المربع عند هذا المستوى إلى واحد من المليون من ذلك في أجزائه العليا.

ويقسم الغلاف الغازي للأرض إلى قسمين رئيسين على النحو التالي:

(أ) **الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض (The Lower Atmosphere)**: ويتكون أساساً من خليط من جزيئات النيتروجين والأوكسجين وعدد من الغازات الأُخرى ويعرف باسم: النطاق المتجانس (**The Homosphere**)، ويقسم إلى ثلاثة نطيقات (تصغير نطق) متميزة من أسفل إلى أعلى على النحو التالي:

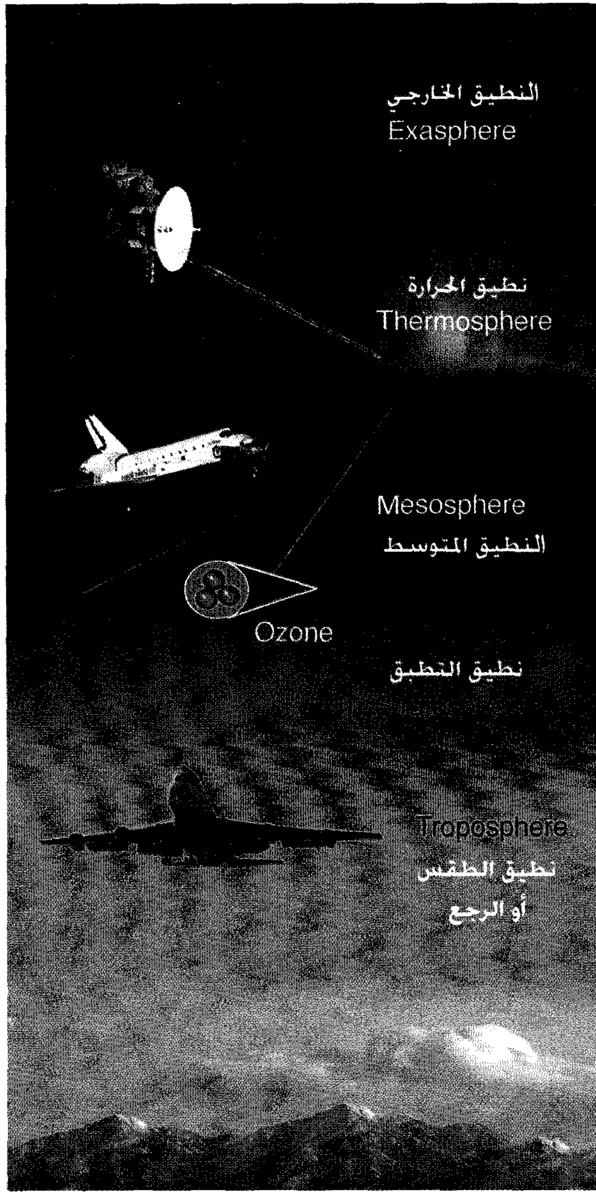
(1) **نطيق التغيرات الجوية أو نُطيق الطقس أو الرجع (The Troposphere)**:

وهو الجزء من الغلاف الغازي الملامس للأرض مباشرة، ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع حوالي17 كم فوق خط الاستواء، متناقصاً في السمك إلى ما بين 6 كم، 8 كم فوق القطبين، ويختلف سمكه فوق خطوط العرض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية، فينكمش إلى ما دون السبعة كيلومترات في مناطق الضغط المنخفض ويمتد إلى حوالي13 كم في مناطق الضغط المرتفع.

ويضم هذا النطيق حوالي ثلثي كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%)، وتتناقص درجة الحرارة فيه باستمرار مع الارتفاع بمعدل ست درجات مئوية كل كيلومتر ارتفاع ـ في

المتوسط ـ حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمة هذا النطيق المعروفة باسم: مستوى الركود الجوي **(The Tropopause)** وذلك لتناقص الضغط فيه إلى حوالي عُشر الضغط الجوي عند سطح البحر.

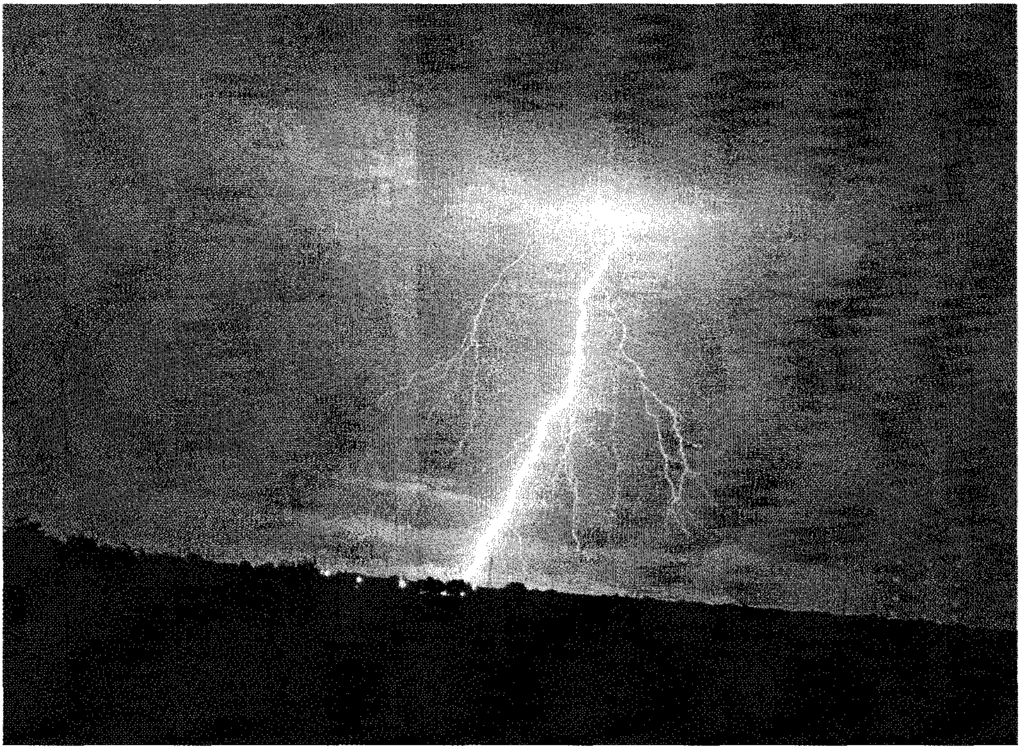
ويحدث هذا التناقص في درجة حرارة الغلاف الغازي للأرض مع الارتفاع نتيجة للبعد عن سطح الأرض، وهو مصدر التدفئة الصاعدة إلى هذا النطيق بعد امتصاص صخور الأرض لجزء من حرارة الشمس في كل نهار وإعادة إشعاعه إلى جو الأرض. ويتكثف بخار الماء الصاعد من الأرض في نطيق التغيرات الجوية، فتتكون السحب فيه، ويهطل كلٌّ من المطر والبرَد والثلج منه، وتحدث ظواهر الرعد والبرق، والعواصف، والدوامات، وتيارات الحمل الهوائية وغير ذلك من حركات الرياح فيه، ولذا يقول الحق ﷻ في محكم كتابه:



رسم تخطيطي لتركيب الغلاف الغازي للأرض

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ...(**البقرة: 164**).

ويتركب هذا النطيق أساساً من جزيئات كلٍّ من غازات النيتروجين (بنسبة 78.1% بالحجم) والأوكسجين (بنسبة 21% بالحجم)، والأرجون (بنسبة 0.93% بالحجم)، وثاني



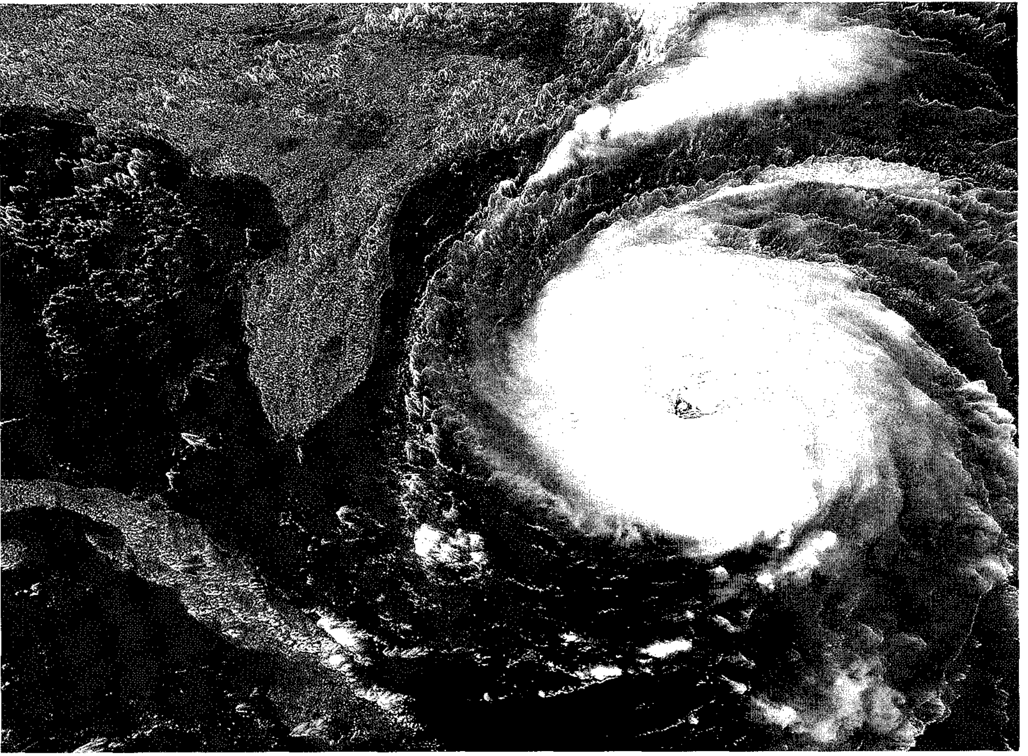
صورة للبرق الذي يحدث في نطيق المناخ (بين السماء والأرض)

أكسيد الكربون (بنسبة 0.03% بالحجم)، بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء، وآثار طفيفة من كلٍّ من غازات الميثان، وأكاسيد النيتروجين، وأول أكسيد الكربون، والإيدروجين، والهيليوم، والأوزون، وبعض الغازات الخاملة مثل: الأرجون.

(2) نطيق التطبق (The Stratosphere):

ويمتد من فوق مستوى الركود الجوي (**The Tropopause**) إلى قرابة الخمسين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر (ويتراوح سمكه بين33، 44 كيلومتراً) وينتهي بمستوى الركود الطبقي (**The Stratospause**).

وترتفع درجة الحرارة في هذا النطيق من حوالي الستين مئوية تحت الصفر عند قاعدته إلى نحو ثلاث درجات مئوية فوق الصفر عند قمته، ويرجع ذلك إلى امتصاص قدر من الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون المنتشرة فيما يسمى باسم: حزام الأوزون (**The Ozone Belt or The Ozonosphere**)، الموجود في الجزء السفلي من هذا النطيق (بين ارتفاعي18، 30 كم فوق مستوى سطح البحر).



العواصف والرياح تتكون في نطيق الرجع Troposphere

ويتركز غاز الأوزون في هذا الحزام بنسبة 0.001%، ولكنها على ضآلتها تعتبر نسبة كافية لحماية الحياة على الأرض من أضرار الأشعة فوق البنفسجية، وهي أشعة غير مرئية منبعثة من الشمس، وهي جزء من طاقتها ولها آثار ضارة على جميع الأحياء. وهي أشعة قصيرة الموجة عالية التردد ومكونة من ثلاثة أطوال موجية مختلفة أ، ب، جـ أطولها النوع أ (ويتراوح طول موجته بين 4000، 3150 أنجستروم) ويسبب حرق الشمس، ويليه في الطول النوع ب (ويتراوح طول موجته بين 3150، 2800 أنجستروم) والتعرض الطويل له يسبب سرطان الجلد؛ وأقصر وأخطر هذه الموجات الثلاث هو النوع جـ (ويتراوح طول موجته بين 2800، 150 أنجستروم) ويسبب العديد من الأورام السرطانية الخطيرة. وتقوم طبقة الأوزون في نطيق التطبق بامتصاص كل الأشعة قصيرة الموجة ومعظم الأشعة متوسطة وطويلة الموجة فلا يصل إلى الأرض منها إلا نسبة ضئيلة من الموجات أ، ب فيحمى الخالق ﷻ الحياة على الأرض من الدمار، ولولا هذه الحماية الربانية والعديد غيرها من صور الحماية الإلٰهية التي وضعها الخالق ﷻ ـ بين السماء والأرض ـ والتي لا يتسع المقام لسردها ـ لاستحالت الحياة على سطح هذا الكوكب.

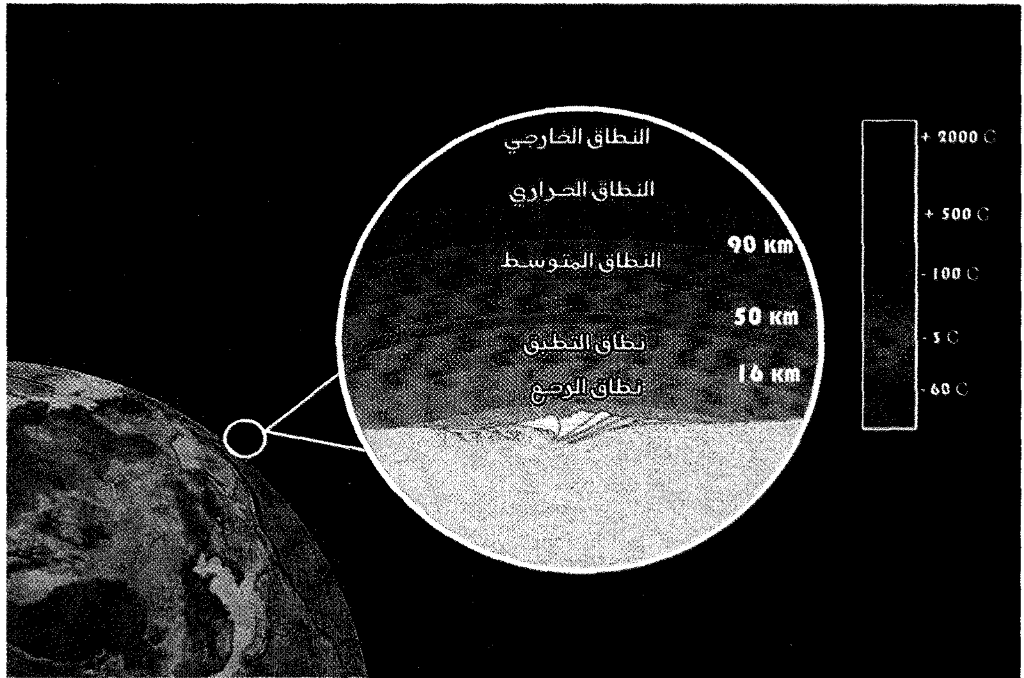
ويستمر الضغط الجوي في الانخفاض في نطيق التطبق من قاعدته إلى قمته حتى يصل إلى واحد من الألف من الضغط الجوي المقاس عند سطح البحر.

(3) النطيق المتوسط (The Mesosphere):

ويمتد من مستوى الركود الطبقي إلى ارتفاع80 ـ 90 كم فوق مستوى سطح البحر، فيتراوح سمكه بين30 ـ 40 كم، وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطيق بمعدل ثلاث درجات لكل كيلومتر ارتفاع تقريباً، حتى تصل إلى نحو مائة درجة مئوية تحت الصفر عند حده العلوي والمعروف باسم: مستوى الركود الأوسط **(The Mesopause)**، وإن كانت درجة الحرارة تلك تتغير باستمرار مع تغير الفصول المناخية، كذلك يستمر الضغط في الانخفاض مع الارتفاع حتى يصل في قمة هذا النطيق إلى أربعة من المليون من الضغط الجوي المقاس عند سطح البحر.

(ب) الجزء العلوي من الغلاف الغازي للأرض **(The Upper Atmosphere)**:

وهذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض يختلف اختلافاً كلياً عن جزئه السفلي ولذا يعرف باسم: نطاق التباين **(The Heterosphere)** وتبدأ جزيئات مكوناته في التفكك إلى



رسم يبين رقة طبقات الغلاف الغازي للأرض واختلاف الحرارة فيها

ذراتها وأيوناتها بفعل كل من أشعة الشمس والأشعة الكونية، كذلك تسود فيه ذرات الغازات الخفيفة مثل: الإيدروجين والهيليوم، على حساب الذرات الكثيفة نسبياً مثل: الأوكسجين والنيتروجين. وتواصل درجات الحرارة الارتفاع في هذا الجزء حتى تصل إلى أكثر من ألفي درجة مئوية، ويواصل الضغط في الانخفاض حتى يصل في قمته إلى أقل من واحد في المليون من الضغط الجوي المقاس عند مستوى سطح البحر، ويحوي هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض على نطيقين متميزين هما من أسفل إلى أعلى كما يلي:

(1) نطيق الحرارة (The Thermosphere):

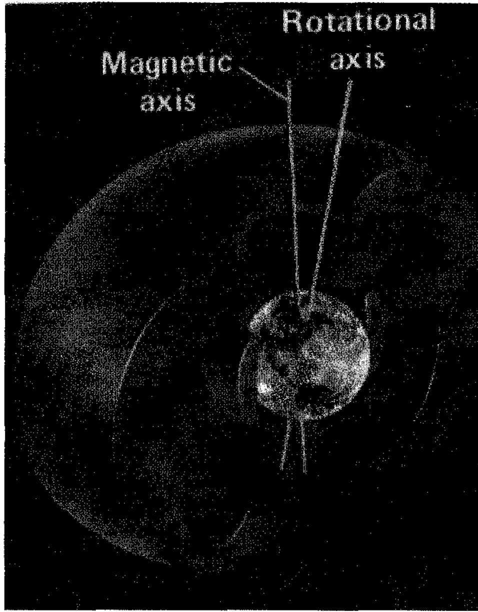
ويمتد من مستوى الركود المتوسط إلى عدة مئات من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، ويقدر سمكه بعدة كيلومترات، وتواصل درجة الحرارة في الارتفاع فيه من نحو مائة درجة مئوية إلى مابين227 ـ 500 درجة مئوية عند ارتفاع مائة وعشرين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وتبقى درجة الحرارة ثابتة تقريباً عند درجة 500°م إلى ارتفاع يتراوح بين300، 400 كم فوق مستوى سطح البحر، ثم تقفز بعد ذلك إلى مابين1500 ـ 2000 درجة مئوية في نهاية النطيق، وتزيد عن ذلك في فترات النشاط الشمسي.

(2) النطيق الخارجي (The Exosphere):

ويعلو النطاق الحراري مباشرة، وتثبت فيه درجة الحرارة نسبياً، ولذا يطلق عليه أحياناً اسم: نطيق التساوي الحراري **(The Isothermalsphere)**، ويتضاءل الضغط فيه وتتمدد الغازات بشكل كبير وتتحرك ذراتها بحرية كاملة في مساراتها، فتقل فرص التلاقي بينها بعد ارتفاع يطلق عليه اسم: الارتفاع الحرج **(The Critical Elevation)**، ويسمى أحياناً باسم خط ركود الضغط الجوي **(The Isopause)** أو باسم قاعدة العوالم الخارجية عن الأرض **(Base of the Extra-Terrestrial world)** وعند هذا الحد يبدأ الغلاف الغازي للأرض في الالتحام بقاعدة السماء الدنيا، حيث تسود الغازات الخفيفة وفي مقدمتها غاز الإيدروجين. وهنا تتضاءل سيطرة الجاذبية الأرضية على ذرات الغازات الخفيفة في الجزء العلوي من هذا النطيق الخارجي، مما يزيد من قدرات تلك الذرات على الانفلات من قيود الجاذبية الأرضية والهروب إلى فسحة الكون. وفي المنطقة من قمة النطيق المتوسط إلى أقصى الحدود العلوية للغلاف الغازي للأرض، تتأين ذرات الغازات الموجودة بفعل كل من الأشعة فوق البنفسجية، والسينية، القادمة مع أشعة الشمس، وبفعل بعض جسيمات كل من الأشعة الشمسية والكونية **(Solar and cosmic particles)**. ويطلق على هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض اسم: نطاق التأين **(The Ionosphere)**، والمنطقة التي تفوق فيها طاقة الأيونات الطاقة الحرارية تتحرك الأيونات بين خطوط قوى مجال الجاذبية

الأرضية مكوِّنة منطقة تعرف باسم: النطاق المغناطيسي للأرض **(The Magnetosphere)**، وتمتد إلى نهاية الغلاف الغازي للأرض. وقد تتداخل في نطاق المادة بين الكواكب.

كذلك تم اكتشاف زوجين من الأحزمة الإشعاعية **(The Radiation Belts)**، التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة كرتين متطابقتين تغلف الكرة الخارجة منهما الكرة الداخلة وكل نصف كرة منهما على هيئةٍ هلاليةٍ تزيد في السمك عند خط الاستواء، وترق رقةً شديدة عند القطبين، وفيها تحتبس الأيونات واللبنات الأولية للمادة التي يقتنصها المجال المغناطيسي للأرض، فتتحرك عبر ذلك المجال من أحد قطبي الأرض إلى الآخر وبالعكس في حركة دائبة.



شكل أحزمة الإشعاع التي ترجع عنّا الأشعة الكونيّة

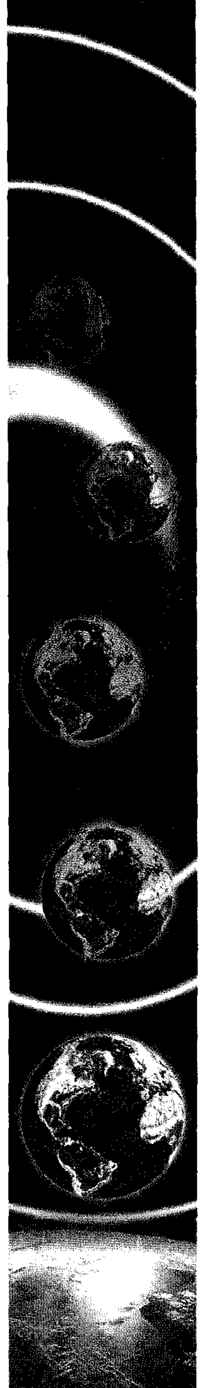
وهذه النطق والنطيقات المكونة للغلاف الغازي للأرض لم يدركها العلماء إلا في بداية الستينيات من القرن العشرين، وهي تمثل فاصلاً حقيقياً بين الأرض والسماء، ومن هنا فإن الإشارات القرآنية بقول الحق ﷻ: في أكثر من عشرين موضعاً من كتاب الله تأتي سبقاً علمياً يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً على مدى يزيد على الأربعة عشر قرناً وتعهد ﷻ بهذا الحفظ إلى أن يرث الأرض ومن عليها، حتى يبقى القرآن الكريم حجة لله الخالق فوق جميع خلقه، فلا يتعلل نفر منهم بأنه لم يأته بشير ولا نذير من لدن رب العالمين، وتبقى حقائق القرآن الكريم شاهدة له بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وشاهدة بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم



(24) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (المؤمنون: 18)





هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية السدس الأول من سورة «المؤمنون»، وهي سورة مكية، وآياتها مائة وثماني عشرة (118) آية بعد البسملة، وسميت بهذا الاسم إشادة بالمؤمنين، وعرضاً لبعض صفاتهم حتى يستطيع قارىء هذه السورة أن يقيس نفسه بمعاييرها المنضبطة فيعلم إن كان من المؤمنين، أو من المقصرين، أو ممن استزلهم الشيطان الرجيم فأغرقهم في أوحال الشرك أو الشك أو الكفر بالله.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المؤمنون» حول قضية الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً، واحداً أحداً، فرداً صمداً، وتنزيهه ـ سبحانه ـ تنزيهاً كاملاً عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل ادعاء الشريك أو الشبيه، أو الصاحبة، أو الولد له، وغير ذلك من صفات المخلوقين، والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع صفات خلقه: (الشورى: 11).

وقد استهلت هذه السورة الكريمة بإثبات الفلاح للمؤمنين، واستعراض جانب من صفاتهم، وإثبات ميراث جنات الفردوس لهم خالدين فيها أبداً، وفي ذلك تقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون: 1 ـ 11).

وقد أخرج الإمام أحمد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: قول رسول الله ﷺ في الآيات العشر الأولى من سورة «المؤمنون» حيث قال: «...**لقد نزلت عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**»[1].

ثم تابعت هذه السورة الكريمة بالإشارة إلى عدد من آيات الله في الأنفس والآفاق، تشهد له ﷻ بكمال الألوهية، والربوبية، والوحدانية، وبطلاقة القدرة المبدعة في الخلق، مما يثبت له ﷻ القدرة على الإفناء والبعث، وقد كانا دوماً من حجج الكافرين والمتشككين والمعاندين.

واستمرت سورة «المؤمنون» بعد ذلك في تأكيد حقيقة الإيمان كما دعا إليها رسل الله أجمعين، ومنهم الصفوة من لدن سيدنا نوح عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ابن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وعرضت لشيء من قصصهم وقد حملوا لأممهم الأمر الإلهي بالإيمان بالله ـ تعالى ـ ربًّا، وتوحيده، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله، والخضوع له بالطاعة والعبادة، مع الحرص على المطعم الحلال الطيب، والعمل الصالح المفيد، وتأكيد وحدة الإنسانية، ووحدة الدين. فهذه الإنسانية خالقها واحد، وأصلها واحد، ودينها واحد، فلا بد أن تكون هداية الله ـ تعالى ـ لها واحدة، أنزلت على فترة من الرسل، ثم أكملها وأتمها وختمها برسالته الخاتمة التي بعث بها خاتم أنبيائه ورسله، سيد الأولين والآخرين وإمام المتقين سيدنا محمد بن عبد الله، الذي ليس من بعده من نبي ولا من رسول، ولذلك تعهد الله ـ تعالى ـ بحفظ رسالته في نفس لغة وحيه إلى يوم الدين حين يرجع الجميع ويعودون إلى هذا الخالق العظيم الذي له ملك السمٰوات والأرض ومن فيهن، ليحاسَبوا على أعمالهم في حياتهم الدنيا بالإحسان إحساناً، وبالإساءة عقاباً أو غفراناً حسب مشيئة رب العالمين وأمره وعدله المطلق.

وتابعت السورة الكريمة باستعراض عدد من شبهات المكذبين لدين الله الحق، الضالين عن هدايته، المحاربين لرسله وأنبيائه وأوليائه إلى الحد الذي يدفع الرسل والأنبياء والأولياء إلى الاستنصار بربهم، فيهلك الله المكذبين (من أمثال الصهاينة المجرمين الذين يعيثون اليوم فساداً في أرض فلسطين، بدعم من الإدارة الأمريكية الفاجرة الكافرة، التي غزت كلاً من أرض أفغانستان والعراق متعدية بذلك على كل القوانين والأعراف الدولية، ومتجاوزة حقوق الإنسان تجاوزاً أسقط هذه الحضارة الغربية في موازين الله وعند خلقه، وجرَّدها من كل

---

(1) أخرجه الإمام أحمد «مسنده».

القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، والدليل على ذلك السلوكيات المنحطة للأمريكان والإنجليز وغيرهم من المحتلين مع المعتقلين في سجون العراق وأفغانستان وجوانتانامو، والتي تمت في ظل صمْت من بقية المشركين والكافرين والمتخاذلين في العالم الذي يدّعي لنفسه أنه عالم متحضر)، ومن سنن الله التي لا تتوقف، ولا تتخلف أن يهلك المكذبين الكافرين الفجرة، وأن ينجي عباده المؤمنين، كما سيحدث إن شاء الله ـ تعالى ـ على أرض فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وكشمير والشيشان وفي كل أرض محتلة أو محاصرة وفي كل شعب مظلوم.

وتمضي السورة الكريمة في استعراض اختلاف الناس بعد الرسل، مؤكدة مرة أُخرى وحدة الرسالة السماوية، ووحدة الجنس البشري، وإن افترقوا إلى مؤمن وكافر، وتكرر ذكر شيء من صفات كل من هاتين المجموعتين من البشر، وتشير إلى مصير كل منهم في الآخرة، وتؤكد أن مَدَّ الله ـ تعالى ـ لنفر من الكافرين والمشركين والطغاة المتجبرين في هذه الحياة الدنيا هو من قبيل استدراجهم، وليس دليل خير فيهم، فالمدد بالمال والبنين، والعلو الكاذب في الأرض، كما هو الحال مع كل من الأمريكيين الفاجرين والصهاينة الغاصبين، لا يمكن أن يكون إلا غضباً من الله تعالى عليهم وذلك من قبيل استدراجهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم إن شاء الله تعالى....!!!.

وتستنكر سورة «المؤمنون» المواقف المعادية من المشركين لرسول الله ﷺ في القديم، كما تستنكره في الحديث، وتشير إلى تعلل المشركين والكافرين بتشككهم في إمكانية البعث بعد الموت لجهلهم بطلاقة القدرة الإلهية، وقياسهم على الله ـ تعالى ـ ظلماً بمعايير البشر.

وتسأل الناس عدداً من الأسئلة المنطقية حتى يجيبوا بفطرتهم، وينطقوا بما يؤكد تفرد الله ـ تعالى ـ بالألوهية، والربوبية والوحدانية، وأنه تعالى قيوم السمٰوات والأرض ومن فيهن، المنزَّه عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد وأن ـ تعالى ـ بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولايجار عليه. ويأمر الله ـ تعالى ـ رسوله الكريم في هذه السورة المباركة ـ والأمر بالتالي لكل المسلمين ـ أن يدفع بالتي هي أحسن، وأن يستعيذ بالله من همزات الشياطين.

وتختتم السورة بمشهد من مشاهد الآخرة يهان فيه كل كافر ومشرك، ويؤاخذ على مواقفه الخاطئة في الدنيا، وتنتهي بإقرار التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ، وبالتوجيه بضرورة طلب الرحمة والمغفرة منه؛ فهو ﷻ أرحم الراحمين..

والإشارات الكونية التي استشهدت بها سورة «المؤمنون» على ما ورد فيها من حق إشارات عديدة منها ما يلي:

(1) خلق السمٰوات والأرض بالحق.

(2) اختلاف الليل والنهار.

(3) إنزال الماء من السماء بقدرٍ وإسكانه في الأرض.

(4) خلق الحياة بمختلف صورها.

(5) خلق الإنسان بمراحله المختلفة ـ الجنينية وما بعد الجنين ـ حتى يكتمل خلقه، ويتم ميلاده، ويستمر في مراحل نموه حتى وفاته، ثم بعثه وحسابه، وخلوده في حياة أبدية مقبلة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

(6) خلق السمع والبصر والأفئدة للإنسان، وبث جنسه في مختلف بقاع الأرض.

وتقديم السمع على كل من البصر والأفئدة هنا وفي العديد من آيات القرآن الكريم.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة علمية خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثالثة من القائمة السابقة، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض عدد من أقوال المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

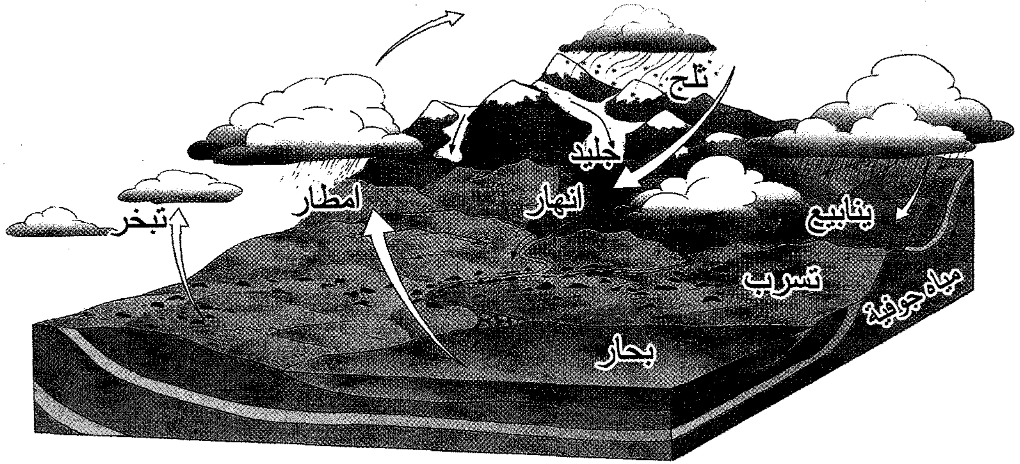
في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ **(المؤمنون: 18)**.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «يذكر الله تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله المطر من السماء بقدر، أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزرع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به...، فسبحان اللطيف الخبير الغفور، وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية إليه، تشربه، ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسُقيا لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى

مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقي به الزروع والثمار، تشربون منه وتشرب دوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه، وتتطهرون منه وتتنظفون، فله الحمد والمنة».

وجاء في باقي التفاسير كلام مشابه تماماً لما ذكره «ابن كثير»، فيما عدا المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيراً ـ والذي جاءت في هامشه إشارة إلى شيء من ارتباط هذه الآية الكريمة بدورة الماء حول الأرض وذلك بالنص التالي: «وتشير هذه الآية إلى الحكمة العالية في توزيع الماء بقدر أي: بتقدير لائق حكيم، لاستجلاب المنافع ودفع المضار.. ثم معنى آخر للآية الكريمة يفيد أن مشيئة الخالق ـ جل وعلا ـ اقتضت أن تسكن في الأرض كمية معلومة من المياه في محيطاتها وبحارها تكفي لحدوث التوازن الحراري المناسب في هذا الكوكب، وعدم وجود فروق عظيمة بين درجات حرارة الصيف والشتاء لا تلائم الحياة، كما في بعض الكواكب والتوابع كالقمر... كما أن مياه الأرض أُنزِلت بقدرٍ معلوم، لا يزيد فيغطي كل سطحها، ولا يقل فيقصر دون ري الجزء البري منها».



شكل تخطيطي يمثل دورة الماء حول الأرض وداخلها

دلالة الآية الكريمة في ضوء المعارف العلمية المكتسبة

هذا السبق القرآني بالإشارة إلى أن أصل الماء الذي يمكن أن يستفيد به الإنسان من تحت سطح الأرض هو ماء المطر، يعتبر صورة من صور الإعجاز العلمي في كتاب الله؛

وذلك لأن السائد في كل الحضارات السابقة على البعثة المحمدية الشريفة ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ من مثل: الحضارة اليونانية القديمة أن الماء المتجمع تحت سطح الأرض مندفع إلى داخل القارات من ماء البحار والمحيطات عبر هوة سحيقة تخيلوها وأسموها: تاتار **(Tatare)**، أو أن بخار ماء التربة يتكاثف في تجاويف الأرض كما افترض أرسطو. وقد استمرت هذه الافتراضات الخاطئة سائدة حتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي (1877 م)، ولم تتبلور العلاقة بين ماء المطر والماء تحت سطح الأرض إلا مع بدايات القرن العشرين، وإن كان فرنسياً باسم برنارد باليسي **(Bernard Palissy)** قد أشار إلى شيء من ذلك في أواخر القرن السادس عشر الميلادي (1580 م) وتبعه في ذلك «ديكارت» في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وأغلب الظن أنهما قد استمدا هذه المعلومات من عدد من المصادر الإسلامية المترجمة التي كانت متاحة لكلٍّ منهما.

والماء سائل شفاف، وهو في نقائه لا لون له ولا طعم ولا رائحة. ويتركب جزيء الماء من ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، وترتبط هذه الذرات الثلاث مع بعضها البعض برابطتين تَساهُميتين تشكلان زاوية مقدارها (105) درجات، مما جعل لجزيء الماء قطبين كهربيين يحمل أحدهما شحنة موجبة والآخر شحنة سالبة.

والماء من أهم ضرورات الحياة، فبدونه لا تقوم، ولذلك كان خلق الماء قبل خلق الحياة، وكان خلق الحياة الباكرة في الماء. وقد ظلت الحياة في الماء منذ 3.8 بليون سنة مضت وإلى يومنا الراهن، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، بينما لا يتعدى عمر الحياة الأرضية على اليابسة أربعمائة مليون سنة. وأجساد الكائنات الحية كلها يغلب على تركيبها الماء الذي تتراوح نسبته في جسم الإنسان بين 93% بالنسبة للجنين في أشهره الأولى (الثلاثة إلى الأربعة الأولى من حياة الجنين) إلى ما بين 54% و71% في الإنسان البالغ. هذا بالإضافة إلى أن جميع الأنشطة الحياتية من مثل: عمليات تصنيع الغذاء في النبات، وعمليات هضمه، وتمثيله، وإخراجه عند كل من الإنسان والحيوان، وعمليات الأكسدة والاختزال، والانقسام، والنمو، والتكاثر، وغيرها في أجساد جميع الكائنات الحية لا يمكن لها أن تتم في غيبة الماء. فالنبات ـ على سبيل المثال ـ يأخذ غذاءه من الأرض عن طريق العناصر والمركبات الذائبة في ماء التربة على هيئة محاليل مخففة يمتصها النبات امتصاصاً اختيارياً بواسطة الشعيرات الجذرية، وترتفع هذه العصارة الغذائية في الأوعية الخشبية للنبات بالقدرة التي أعطاها الله تعالى للماء على الارتفاع بالخاصية الشعرية في الأنابيب الضيقة مثل الأوعية الخشبية المنتشرة في مختلف أجزاء النبات، ويعين الماء على

ذلك ما وهبه الله ـ تعالى ـ من خصائص أخرى عديدة من مثل خاصية التوتر السطحي؛ كذلك فإن عمليات التمثيل الضوئي لا يمكن أن تتم في غيبة الماء الذي يحلله النبات باستخدام الطاقة الشمسية إلى مكونيه من الأكسجين والهيدروجين فيطلق الأول إلى الجو ويحتفظ بالثاني. كذلك يحلل النبات ما يمتصه من ثاني أكسيد الكربون من الجو بواسطة الطاقة المستمدة من الشمس أيضاً إلى مكونيه الكربون والأكسجين فيحتفظ بالأول، ويطلق الثاني إلى الجو، ثم بطاقة الشمس أيضاً يربط النبات ما احتفظ به من ذرات الكربون والهيدروجين في سلاسل متعددة من الكربوهيدرات ـ ومنها السكر بمختلف أنواعه، والنشاء، والسيليولوز ـ التي يبني منها النبات مختلف أجزائه، ويختزن بعضها في ثماره أو محاصيله المختلفة.



الماء أهم عنصر لاستمرار الحياة على الأرض

وبعد الاستفادة بالقدر الكافي من الماء في بناء خلاياه وأزهاره وثماره، يطلق النبات الماء الزائد عن حاجته إلى الجو بعمليات عديدة منها: النتح والتبخر. وبالمثل، فإن كلًّا من الإنسان والحيوان يأخذ القدر اللازم له من الماء عن طريق الطعام والشراب، ويفقد الزائد منه عن حاجته بواسطة العديد من العمليات من مثل: التنفس، والعرق، والدموع، والإخراج، وغيرها من الإفرازات الجسدية.

أولاً: من الصفات الطبيعية المميزة للماء

من الصفات الطبيعية التي خص الله ـ تعالى ـ بها الماء والتي جعل لها أهمية قصوى للحياة ما يلي:

(1) **البناء الجزيئي ذو القطبية المزدوجة**: يتكون جزيء الماء من ذرتي هيدروجين تحملان شحنة كهربية موجبة وترتبطان بذرة أكسجين تحمل شحنة كهربية سالبة بواسطة رابطتين تَساهُميتين تشكلان زاوية مقدارها 105 درجات، وهذا البناء الجزيئي المميز جعل للماء من الصفات الطبيعية والكيميائية مايميزه عن غيره من السوائل والمركبات الهيدروجينية.

(2) **درجتا التجمد والغليان**: يتجمد الماء عند درجة4 مئوية، ويغلي عند درجة مائة مئوية، ولهاتين الخاصيتين أهمية قصوى لاستمرارية الحياة، إذ يبقى الماء سائلاً في درجات حرارة أجساد كل الكائنات الحية ليساعد على إتمام جميع الأنشطة الحيوية ومنها: التغذية، وتمثيل الغذاء ونقله إلى الخلايا والأنسجة المختلفة وإتمام عملية الأكسدة والاختزال وإخراج الفضلات والنمو والتكاثر وغيرها.

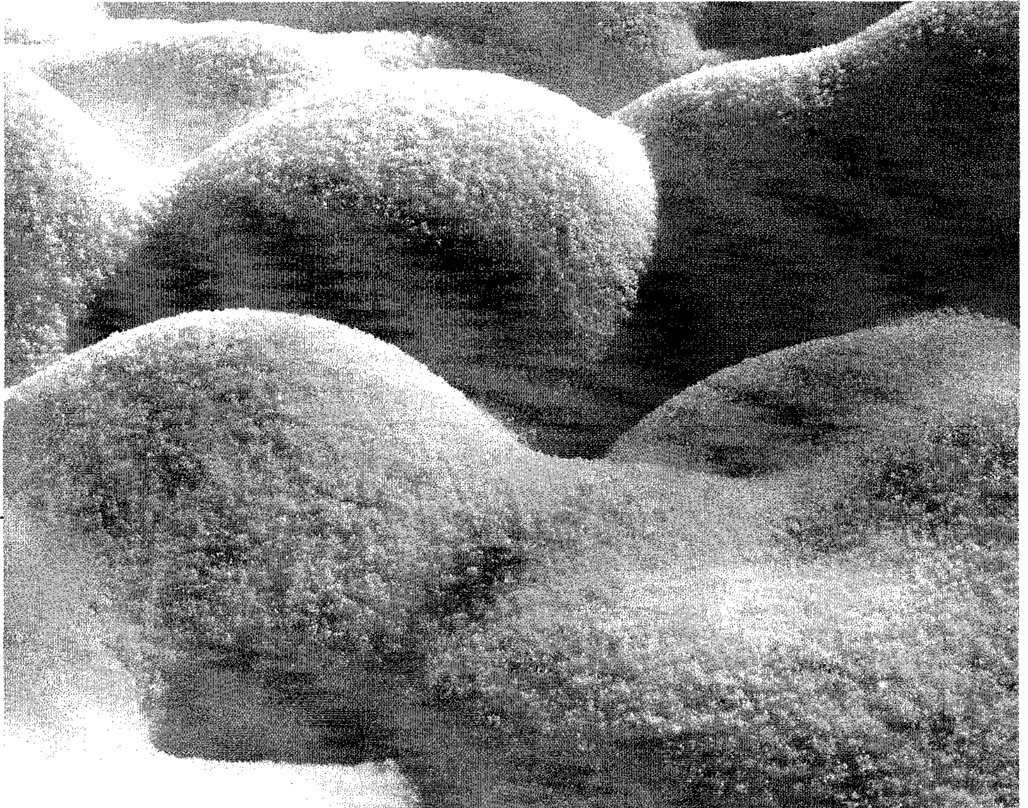
(3) **الحرارة النوعية**: ويقصد بها كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة جرام واحد من الماء عند درجة 4 مئوية بمقدار درجة مئوية واحدة. وهي حرارة نوعية مرتفعة مما يمكِّن جسم الإنسان وأجساد غيره من الكائنات الحية من مقاومة التغيرات الجوية المختلفة بدرجة كبيرة.

(4) **الحرارة الكامنة**: الحرارة الكامنة لتبخر الماء هي الحرارة اللازمة لتبخير جرام واحد من الماء دون أن تتغير درجة حرارته، وتبلغ 540 سعراً حرارياً، وكذلك فإن الحرارة الكامنة لانصهار الماء المتجمد (الجليد)، أي: كمية الحرارة اللازمة لصهر جرام واحد منه دون أن تتغير درجة حرارته تبلغ 80 سعراً حرارياً. وارتفاع قيم الحرارة الكامنة للماء يكسبه مقاومة كبيرة في التحول من الحالة الصلبة إلى السائلة إلى الغازية، وهذه الخاصية تجعل من الماء واحداً من أفضل السوائل المستخدمة في إطفاء الحرائق، إذ يستهلك كمية كبيرة من الحرارة من الوسط الذي يحترق قبل أن ترتفع درجة حرارته، مما يعين على خفض درجة الحرارة وإلى إطفاء الحرائق.

(5) **اللزوجة والتوتر السطحي**: وتعرف لزوجة السائل بمقاومته للحركة، أما التوتر السطحي فهو خاصية من خصائص السوائل الساكنة، وفيه يكون السطح الحر للسائل مشدوداً ليأخذ أقل مساحة ممكنة. ويتميز الماء بلزوجة عالية نسبياً بسبب انجذاب جزيئاته إلى بعض بفعل الرابطة الهيدروجينية، وتزيد هذه اللزوجة بانخفاض درجة حرارة الماء لزيادة قرب جزيئاته من بعضها البعض حتى درجة4 مئوية حين تبدأ في التباعد، وتتسبب الرابطة الهيدروجينية في زيادة التوتر السطحي للماء مقارنة بالسوائل الشبيهة وهاتان

الخاصيتان تساعدان على مزيد من التماسك بين مواد الخلية الحية، وعلى إكساب الخلايا شكلها الخاص، وتساعدان على امتصاص العصارة الغذائية بواسطة الشعيرات الجذرية، وعلى رفعها إلى أعلى ضد مقاومة الجاذبية الأرضية حتى تتمكن من الوصول إلى كلٍّ من الفروع والأوراق والقمم النامية في أعلى النبات بارتفاع يفوق الارتفاع الذي يحدثه الضغط الجوي ـ حوالي عشرة أمتار ـ، ويعين على ذلك فقدان الماء من الأوراق بواسطة عمليات النتح والتبخر حيث يصل الضغط المائي في داخل أوعية النبات عدة أضعاف الضغط الجوي، وإن كان ذلك يختلف حسب نوع النبات وظروفه البيئية، وذلك لكي يستمر ارتفاع العصارة الغذائية من الشعيرات الجذرية عبر السيقان والفروع إلى الأوراق والزهور والثمار.

وتساعد خاصيتا لزوجة الماء وتوتره السطحي أيضاً على إبطاء عملية فقدان الماء من الأوراق عبر ثغورها، ومن أجساد الإنسان والحيوان عبر مسام الجلد، وإذا خرج الماء



جزئيات الماء تصبح رباعية في حالة الجليد الرخو (Snow)

الزائد، يبقى على سطح كل من الأوراق والجلد برهة حيث يتبخر فيبردهما ويكسبهما شيئاً من الرطوبة في الجو الحار.

كذلك فإن الارتفاع النسبي لخاصيتي اللزوجة والتوتر السطحي للماء، تساعدان في حماية السفن والبواخر المحملة بالأحمال الثقيلة من الغوص في الأعماق، وذلك بدفعها إلى أعلى وزيادة قدرتها على الطفو.

(6) قلة كثافة الماء عند تجمده: من الثابت علمياً أن قوة الرابطة الهيدروجينية تتلاشى بين جزيئات الماء بارتفاع درجة حرارته، مما يجعل جزيئات الماء منفردة جزيئاً جزيئاً في حالة التبخر، ومزدوجة أو ثلاثية في حالة السيولة ـ حسب درجة الحرارة ـ، وفي حالة رباعية في حالة الجليد الرخو **(Snow)**، وفي حالة ثمانية في حالة الجليد الصلب **(Ice)**، وفي الحالة الأخيرة يزداد الحيز المكاني الذي تشغله ثماني جزيئات؛ مما يقلل من كثافة الجليد، وهي خاصية ينفرد بها الماء؛ لأنها لازمة لحياة الكائنات البحرية الحية في



تجمد سطح البحر ـ خاصية ينفرد بها الماء لحفظ درجة الحرارة المناسبة للحياة داخل الماء

المناطق المتجمدة حيث يتجمد الماء عند سطح البحر فيطفو ويبقى ما دونه من ماء سائلاً حتى لا يقضى على بلايين الأحياء التي تعيش فيه، ويعين سقف الجليد على حفظ درجة حرارة مناسبة للماء والأحياء من دونه.

ثانياً: من الصفات الكيميائية المميزة للماء

لقد خص الخالق ﷻ الماء بتركيب جزيئي فريد وبعدد من الصفات الطبيعية والكيميائية الخاصة. ومن الصفات الكيميائية المميزة التي خص الله تعالى بها الماء ما يلي:

(1) مقاومة جزيء الماء للتحلل إلى ذراته: نظراً للرابطة الهيدروجينية القوية لجزيء الماء، ولوجود الذرات في داخل الجزيء بشكل مائل؛ فإن هذا الجزيء يصعب تحلله إلى ذراته إلا بنسب ضئيلة (11%)، وفي درجات حرارة مرتفعة (2700 درجة مئوية)، وهذه الخاصية تعين المحاليل الحيوية المختلفة على البقاء في أجساد الكائنات الحية لأطول مدة ممكنة.

(2) قدرة الماء الفائقة على إذابة العديد من المواد الصلبة والسائلة والغازية: إن البناء الجزيئي للماء بميل ذراته، وثنائية قطبيته، وروابطه الهيدروجينية جعلت من الماء أعظم مذيب يعرفه الإنسان، خاصة بالنسبة للمواد المؤينة من مثل: الأملاح، والقواعد، والأحماض، ولذلك أطلق عليه اسم: المذيب العالمي **(The International Solvent)**.

ويذيب الماء ثاني أكسيد الكربون مكوِّناً حمض الكربون، بينما يذوب الأكسجين في الماء متخللاً جزيئاته، وفي الحالة الأولى يسهل الماء نقل ثاني أكسيد الكربون للاستفادة به في عمليات من مثل عملية التمثيل الضوئي التي تقوم عليها حياة النباتات الخضراء، كما يسهل عملية التخلص من ثاني أكسيد الكربون في كلٍّ من الإنسان والحيوان والنبات عن طريق التنفس والإخراج أو النتح والتبخر، وفي الحالة الثانية، يعتبر ذوبان الأكسجين في الماء من ضرورات الحياة للاستفادة به في عمليات التنفس بالنسبة للكائنات التي تعيش في الماء، وفي عمليات تطهير الماء وتعقيمه.

(3) قدرة الماء على الأكسدة والاختزال:

يدخل الماء في العديد من عمليات الأكسدة والاختزال، وفي الأكسدة تفقد العناصر إليكتروناً أو أكثر، بينما تكسب ذلك في عمليات الاختزال، والعمليتان أساسيتان في تفتيت الصخور، وتكوين التربة، وتركيز الخامات، وإعداد الغذاء لكلٍّ من النبات والحيوان والإنسان، وفي أكسدة الدم واختزاله، والدم يتكون أساساً من الماء.

(4) قدرة الماء الفائقة على التفاعل مع المركبات:

يتحد الماء مع أكاسيد الفلزات مكوِّناً إيدروكسيداتها ومطلقاً الحرارة، ومع أكاسيد غير الفلزات مكوناً أحماضاً، وهي عمليات مهمة في تفتيت صخور الأرض، وتكوين التربة، وإنتاج العديد من الثروات الأرضية وتركيزها، وفي إعداد العصارات الغذائية للنبات، وإنتاج مختلف أجزائه من أخشابه إلى زهوره وثماره أو محاصيله، وفي مساعدة كلٍّ من الإنسان والحيوان على هضم وتمثيل طعامه، وفي عمليات نموه وتكاثره، وغير ذلك من أنشطة حيوية مختلفة.

(5) قدرة الماء المحدودة على التأين:

يتأين الماء بصعوبة إلى أيون الهيدروكسيل السالب، وأيون الهيدروجين الموجب، ويساعد هذا التأين على إتمام العديد من العمليات الكيميائية اللازمة لاستمرارية الحياة.

(6) قدرة الماء على انصداع التربة وشقها:

تتكون التربة أساساً من المعادن الصلصالية، وهذه تتكون من صفائح رقيقة جدًّا، أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على التشبع بالماء (التميؤ)، فتتمدد إلى عشرات مرات أطوالها، ويؤدي ذلك إلى تباعد أسطحها عن بعضها البعض، فتهتز وتربو إلى أعلى، وترق رقة شديدة حتى تنشق لتفسح طريقاً سهلاً للسويقة الطرية المنبثقة من داخل البذرة النابتة، ولولا هذه الخاصية ما أنبتت الأرض، ولا كانت صالحة للعمران. وتتمدد صفائح الصلصال بالتميؤ كذلك لحملها شحنات كهربية سالبة على أسطحها، تمكنها من التنافر مع الشحنات السالبة على جزيء الماء، ومن التجاذب مع شحنات جزيء الماء الموجبة مما يؤدي إلى تشقق التربة وانصداعها وإلى جعل تلك الصفائح متباعدة عن بعضها البعض. والعكس من ذلك يحدث عند الجفاف؛ حيث تتلاشى الروابط الكهربية بين شحنات صفائح الصلصال وشحنات جزيء الماء لاختفائه عند الجفاف، فتتشقق الأرض لشقوق سداسية أو قريبة من السداسية، مما يعين على شيء من تهوية التربة.

ثالثاً: توزيع الماء الأرضي

يعتبر كوكب الأرض أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء؛ ولذا يسميه علماء الأرض باسم: «الكوكب المائي» أو «الكوكب الأزرق»، وتقدر كمية الماء الأرضي بحوالي 1337 مليون كيلومتر مكعب، ويوجد في الحالات السائلة والغازية والصلبة موزعاً في البحار والمحيطات والبحيرات وفي كلٍّ من الأنهار والجداول، والمجاري المائية الأخرى،

ويوجد على هيئة جليد فوق القطبين، وعلى قمم الجبال، وعلى هيئة مخزون مائي كبير تحت سطح الأرض، كما يوجد على هيئة قدر من الرطوبة في كل من التربة والغلاف الغازي للأرض.

ويغطي الماء السائل أكثر قليلاً من 71% من مساحة سطح الأرض، بينما يغطي الجليد نحو 9% من تلك المساحة. ويتعذر في الطبيعة وجود ماء نقي تماماً، غير أن ماء الأمطار والثلوج المتساقطة تعد من أنقى حالات الماء الطبيعي، ولكنه ما أن يصل إلى سطح الأرض حتى يبدأ في إذابة جزء من أملاح صخورها.

رابعاً: دورة الماء حول الأرض

ثبت أخيراً أن كل الماء الموجود على سطح الأرض قد اندفع إلى سطحها أصلاً من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وقد سبق القرآن الكريم كل المعارف المكتسبة بثلاثة عشر قرناً على الأقل حيث أشار إلى تلك الحقيقة التي يصفها الحق ﷻ في محكم كتابه بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ **(النازعات: 30 ـ 31).**

وعندما بدأ هذا البخار في التصاعد من فوهات البراكين إلى الغلاف الغازي للأرض، وجد أن الله ـ تعالى ـ قد هيأ له سطحاً بارداً يتكثف عليه في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية ـ نطاق الرجع ـ، الذي يتميز بتبرده مع الارتفاع حتى تصل درجة حرارته إلى أكثر من ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء؛ وذلك للبعد عن سطح الأرض الذي يمتص حرارة الشمس أثناء النهار ويعيد إشعاعها إلى غلافها الغازي بعد غروب الشمس.

وعند انخفاض درجة حرارة الهواء المحمل ببخار الماء مع الارتفاع فوق مستوى سطح البحر، فإن رطوبته النسبية ترتفع نظراً لانخفاض كثافته، وبالتالي انخفاض ضغطه، وعندما تبلغ رطوبته النسبية 100% فإن ضغطه يساوي ضغط بخار الماء، وتسمى درجة الحرارة تلك باسم: نقطة الندى **(Dew Point)**، أو درجة حرارة التشبع ببخار الماء.

وانخفاض درجة حرارة الهواء المشبع ببخار الماء بارتفاعه في نطاق التغيرات الجوية إلى ما دون نقطة الندى يؤدي مباشرة إلى تكثف قطرات الماء منه، وانفصالها عنه، فتتكون السحب على هيئة كتل من الهواء المشبع بقطيرات الماء المتناهية الضآلة في الحجم (نحو

عشرة ميكرونات في القطر)، وتبدأ السحب في التكون على ارتفاع كيلومترين إلى نحو 8 كيلومترات فوق مستوى سطح البحر في المتوسط؛ وإن تعدت ذلك الارتفاع في قليل من الأحوال.



تجمع السحب على هيئة كتل في نطاق التغيرات الجوية

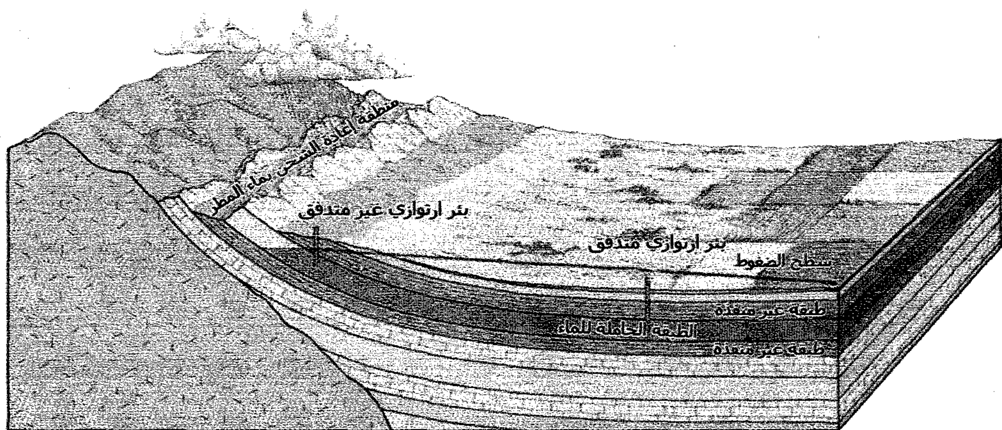
والهواء المحمل ببخار الماء يتبرد بارتفاعه إلى المستويات العليا من نطاق التغيرات الجوية (7 إلى 16 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر)، أو باصطدامه بقمم الجبال الشاهقة، أو بالتقائه مع موجة هوائية باردة.

والهواء الجاف يتبرد عادة بمعدل عشر درجات مئوية لكل كيلومتر ارتفاعاً فوق مستوى سطح البحر، ويتناقص هذا المعدل إلى ست درجات مئوية مع كل كيلومتر ارتفاع في حالة الهواء الرطب؛ نظراً لتأثير الحرارة الكامنة على تبخر جزء من الماء المحمول مع الهواء الرطب.

هذا بالإضافة إلى أن ارتفاع الهواء إلى أعلى يؤدي إلى تمدده لوجوده تحت ضغط منخفض، ويؤدي هذا التمدد إلى مزيد من الانخفاض في درجة الحرارة تبعاً لقوانين تمدد الغازات. وبالإضافة إلى انخفاض درجة حرارة الهواء المشبع ببخار الماء إلى ما دون درجة الندى، فإن سقوط ماء المطر يتطلب تكون نويات من البرد أو الثلج، أو وجود بعض هباءات من الغبار أو الأملاح القابلة للذوبان في الماء؛ وهذه تسهم في مزيد من تجميع قطيرات الماء إلى بعضها البعض، وبالتالي تؤدي إلى هطول الأمطار لعجز الهواء عن حمل القطيرات الكبيرة الحجم نسبياً من الماء (من عشري مليمتر إلى نصف مليمتر في القطر أو أكثر من ذلك)، فتبدأ بالتساقط على الأرض بفعل الجاذبية.

وبسقوط الماء على سطح الأرض، وعودته إليها ليجري على سطحها سيولاً جارفة، تُفَتِّتْ الصخور، وتُشَق الفجاج والسبل، وتتشكل الأودية ومجاري الأنهار والجداول، وتتكون التربة، وتتركز أعداد من ثروات الأرض، ثم يفيض الماء إلى المنخفضات مكوناً البحيرات، والبحار والمحيطات، كما قد يتجمد جزء من هذا الماء على هيئة طبقات الجليد فوق قطبي الأرض، وفي قمم الجبال العالية، أو يتسرب عبر ظاهر (منكشف) الطبقات المسامية والمنفذة إلى ما تحت سطح الأرض، على هيئة عدد من التجمعات المائية المختزنة في صخور القشرة الأرضية ذات المسامية والنفاذية العاليتين، ويبقى بعضه عالقاً بالتربة على هيئة رطوبة التربة، أو بالغلاف الغازي للأرض على هيئة بخار الماء (رطوبة الجو).

ومن هنا بدأت دورة الماء حول الأرض في ثبات واستقرار، يشهدان لله الخالق بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة، وإتقان الخلق؛ فبفعل حرارة الشمس يتبخر سنوياً 380,000 كيلومتر مكعب من الماء من الأرض إلى الجزء السفلي من غلافها الغازي، منها 320,000 كيلومتر مكعب يتبخر من أسطح البحار والمحيطات، ويتبخر الباقي (60,000 كيلومتر مكعب) من أسطح اليابسة (من الأنهار وغيرها من المجاري المائية، ومن البحيرات، ومن النتح والبخر من أسطح النباتات، ومن تنفس وعرق ودموع وإخراجات كلٍّ من الإنسان والحيوان، ومما يتبخَّر من الخزانات المائية تحت سطح الأرض، ومن رطوبة التربة)، وهذا البخار المائي تحمله الرياح وترفعه إلى الأجزاء العليا من نطاق التغيرات



رسم لحركة الماء وخزنه داخل قشرة الأرض

الجوية (7 ـ 16 كم فوق مستوى سطح البحر)، حيث يتكثف ما به من بخار الماء ويعود مرة أُخرى إلى الأرض مطراً، أو ثلجاً، أو برداً، أو ضباباً أو ندى، ليعاود الكرة من جديد حتى تستمر دورة الماء حول الأرض.

ومن سمات إحكام تلك الدورة أن مجموع كمية المطر النازلة على أسطح البحار والمحيطات سنوياً والمقدرة بحوالي (284,000 كيلومتر مكعب) تقل عما يتبخر منها بحوالي 36,000 كم^3، ومجموع كمية المطر الساقطة على اليابسة سنوياً والتي تقدر بحوالي (96,000 كم^3) تزيد بنفس الكمية (36,000 كم^3)، عن مجموع كمية التبخر من سطح اليابسة (60,000 كم^3) وهذه الزيادة تفيض إلى البحار والمحيطات حتى يبقى سطح الماء بها ثابتاً في الفترة الزمنية الواحدة، فأي إحكام هذا الذي تتم به دورة الماء حول الأرض التي لولاها لفسد كل ماء الأرض، ولتعرَّض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار، ولبرودة مجمدة بالليل، تقضي على جميع صور الحياة على سطحه؟

خامساً: خزانات الماء تحت سطح الأرض

تنقسم خزانات الماء تحت سطح الأرض إلى نوعين رئيسيين كما يلي:

(1) خزانات ماء مالح إلى شديد الملوحة: وهذا الماء محتبس بين مسام الصخور الرسوبية المتجمعة في البحار القديمة التي كانت تغمر مساحات كبيرة من يابسة اليوم ثم انحسرت عنها، وبقي هذا الماء المالح، بل الشديد الملوحة في بعض الأحيان محصوراً بين حبيبات تلك الصخور الترسيبية القديمة لملايين السنين، حيث تزداد ملوحته باستمرار تعرضه لشيء من التفاعلات الكيميائية (من مثل: إذابة المزيد من الأملاح) والفيزيائية (من مثل: التبخر). وهذا الماء المالح عادةً ما يوجد على أعماق بعيدة نسبياً من سطح الأرض، ومن أمثلته الماء المصاحب للنفط في مكامنه.

(2) خزانات ماء قليل الملوحة إلى متوسط الملوحة:

وهو ماء متجمع من مطر السماء؛ بمتوسط ملوحة دون20 جزءاً في المليون، وماء المطر عندما ينزل على الصخور المسامية والمنفذة، يتحرك فيها بفعل الجاذبية الأرضية متجهاً أولاً إلى الأسفل؛ أي: إلى مستويات أدنى من سطح الأرض حيث تزداد ملوحته بالتدريج، وتستمر هذه الحركة الرأسية للماء حتى تتضاءل المسامية والنفاذية، وهنا يبدأ ماء المطر في التحرك جانبياً فوق طبقات قليلة المسامية والنفاذية أو عديمتهما، لتكوّن خزاناً مائياً تحت سطح الأرض. وإن كانت الطبقات مائلة فإن الماء يتحرك في اتجاه ميل

الطبقات حتى يصل إلى البحر أو إلى الماء المالح المحصور بين حبيبات الرسوبيات التي تجمعت في البحار القديمة والتي انحسرت عن الأرض منذ ملايين السنين، فيتجمع الماء القليل الملوحة طافياً فوق كلٍّ من الماء المالح والشديد الملوحة للفرق بين كثافتي الماءين.

ولولا مسامية ونفاذية بعض صخور الأرض، ما تجمع ماء المطر، ولا أسكن في الأرض، ولولا التغيرات الرأسية والجانبية في كل من المسامية والنفاذية ما أمكن خزن أي من ماء المطر، ولا أمكن إسكانه في صخور الأرض على هيئة مكامن مائية لآلاف بل لعشرات الآلاف من السنين؛ إن لم يكن لملايين السنين في بعض الأحوال؛ حتى تستفيد به أجيال من الخلق قادمة في مستقبل لا يعلمه إلا الله، ـ تعالى ـ الذي خزنه لهم بعلمه وقدرته وحكمته ورحمته...!!!

ولولا حفظ هذه المكامن المائية من أخطار الحركات الأرضية الداخلية العنيفة من مثل: الخسوف والتصدعات الأرضية، والثورات البركانية، والمتداخلات النارية، ما بقيت تلك المكامن المائية، بل دمرت بالكامل، أو غارت إلى أعماق لا تصل إليها إمكانات الإنسان ولذلك قال ربنا ﷻ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ **(المؤمنون: 18)**.

وقال ـ عز من قائل ـ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ **(الملك: 30)**.

وقد يغور الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية بتكوُّن الصدوع والخسوف الأرضية، كما قد يغور بالضخ المفرط الزائد عن معدل تدفق الماء إلى البئر، وفي الحالتين لا يحفظ الماء في صخور الأرض أو يعوِّضه إذا نفد أو غار إلَّا ربُّ العالمين. ويخرج الماء من تحت سطح الأرض بقوة واندفاع إذا كان واقعاً تحت ضغوط عالية، وقد يخرج بطريقة طبيعية على هيئة العيون والينابيع الطبيعية التي قد تشارك في تغذية بعض الأنهار أو البحيرات، ولكن إذا كان الماء تحت سطح الأرض تحت ضغوط منخفضة، فإنه لا يمكن الوصول إليه إلا بتشقق الأرض عنه أو بالحفر عليه. ويصف القرآن الكريم هاتين الحالتين بقول الحق ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ . . .﴾ **(البقرة: 74)**.

وتتراوح **مسامية الصخور** الخازنة للماء تحت سطح الأرض **(Rock Porosity)** بين (20%) و(30%) في المتوسط وإن تدنت في بعض الحالات إلى (5%) أو زادت إلى (60%)، وتختلف درجة اتصال هذه الفراغات مع بعضها البعض باختلاف الصخور، وتعرف هذه الخاصية باسم: **النفاذية (Permeability)**، ويستدل بها على قدرة الصخور في

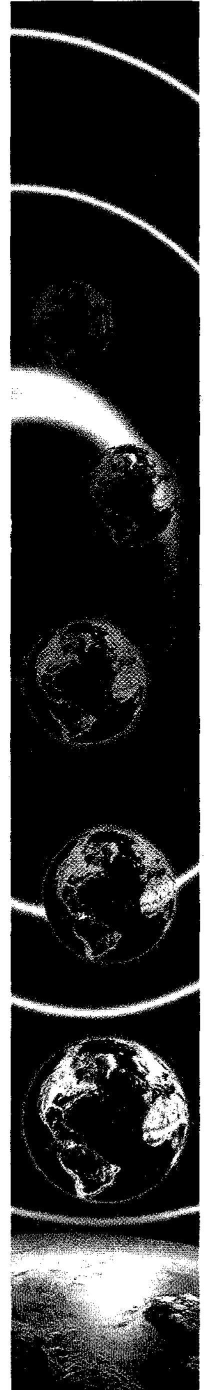
إنفاذ السوائل من خلالها؛ علماً بأن حركة السوائل في الصخور بطيئة بصفة عامة، وإن كانت مستمرة دائبة. ولولا هذا الإعداد المتقن لصخور الأرض، وتمايزها في مساميتها ونفاذيتها، وظهور تلك الطبقات المنفذة على سطح الأرض، وتبادلها مع طبقات مصمتة أو غير منفذة، ولولا الإحكام الشديد في دورة الماء حول الأرض، ولولا إخراج هذا الماء أصلاً من داخل الأرض، ما أمكن لهذا الكوكب أن يكون صالحاً للحياة، ولذلك يمنُّ علينا ربنا ﷻ بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ **(المؤمنون: 18)**.

وهذه كلها حقائق تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، كما تشهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة؛ لأنه لم يكن لأحد في زمن البعثة المحمدية الشريفة، ولا لقرون متطاولة من بعدها إلمام بأي من تلك الحقائق، فسبحان منزِّل القرآن بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحافظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها، حتى يبقى هذا الكتاب الخالد هادياً للبشر أجمعين وحجة عليهم إلى يوم الدين، والصلاة والسلام على خاتم أنبياء الله ورسله وعلى كل من تبع هداه ودعا بدعوته واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(25) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ (الزمر: 21)



هذه الآية الكريمة جاءت في الثلث الأول من سورة «الزمر»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (75) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أن الناس في يوم القيامة سوف يقسمون إلى زمر من أهل الجنة، وزمر من أهل النار، أي إلى جماعات جماعات، فيساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، ويساق الذين كفروا إلى جهنم زمراً.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول فضل القرآن الكريم، وتعظيم التوحيد الخالص لله رب العالمين، والأمر به، وتشنيع الشرك به سبحانه وتعالى، والنهي عنه، لأنه يحبط الأعمال، ويجعل الواقع في وحله من الخاسرين في الدنيا والآخرة، كما تركز السورة الكريمة على حقيقة الآخرة، وتصور لنا عدداً من مشاهدها، مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء من عباده، مادحة المؤمنين، وذاكرة طرفاً من إكرام الله ـ تعالى ـ لهم، وذامة الكفار والمشركين، وواصفة طرفاً من عقابهم.

وتشير سورة «الزمر» إلى شيء من طبائع النفس الإنسانية، وتلمح إلى عدد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الكون، وتضرب عدداً من الأمثال للناس، موجهة الخطاب بين الحين والآخر إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وتبدأ سورة «الزمر» بتأكيد الحقيقة الواقعة أن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز الحكيم، أنزله إلى خاتم أنبيائه ورسله، بالحق المبين الذي أمره بعبادة الله ـ تعالى ـ مخلصاً له الدين، وهو الإسلام العظيم، ذلك الدين الخالص لله تعالى وحده، بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله ﷻ منزه عن صفات خلقه أجمعين، وعلى ذلك يكون الشرك بالله كذباً عليه ـ سبحانه ـ، وكفراً به، والله لا يهدي من هو كاذب كفّار، ولذلك تنفي الآيات في سورة «الزمر» ـ كما تنفي في غيرها من سور القرآن الكريم ـ كل دعاوى المبطلين بنسبة الولد إليه ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ **(الزمر: 4).**

ثم تستعرض سورة «الزمر» عدداً من الآيات الكونية الشاهدة لله ـ تعالى ـ بأنه خالق الكون، وإلهه، وربه، ومليكه، مؤكدة أنه ـ تعالى ـ يرضى من عباده الشكر على نعمه، ولا يرضى منهم الكفر، فإن كفروا فإن الله ـ تعالى ـ غني عن العالمين، وتقرر أن نفساً لا تحمل إثمَ أُخرى، مؤكدة أن إلى الله مرجع الجميع، فينبئهم بما كانوا يعملون، إنه عليم بذات الصدور أي بما تكنه القلوب التي في الصدور.

وتتحدث الآيات في سورة «الزمر» عن جانب من جوانب النفس الإنسانية ومنها اللجوء إلى الله في الشدائد، ونسيان ذلك في حالات الرخاء والسعة، والتبجح بالشرك لإضلال الخلق عن الحق، وأن هذا الصنف من الناس قد يتمتع بكفره قليلاً، ولكن مصيره في الآخرة إلى جهنم وبئس المصير. . .!! وتقارن الآيات بين هذه الحالة من حالات النفس الإنسانية وبين الذين يرجون رحمة الله ويحذرون الآخرة، فيجتهدون في العبادة آناء الليل وأطراف النهار، وتقرر أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأنه لا يتذكر إلا أولو الألباب.

وتوجه الآيات الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يطالب الذين آمنوا من عباد الله بتقوى الله، مؤكداً أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأنه لا يجوز للمؤمن بالله أن يقبل الظلم أبداً، فأرض الله واسعة، وأن الصبر على مجاهدة الظلم والظالمين من أعظم القربات إلى رب العالمين، وأن الصابرين يوفّون أجرهم بغير حساب، وتطالبه الآيات ﷺ أن يقول للناس كافة:

﴿. . . إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى

﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ (الزمر: 11 ـ 15).

وتقارن الآيات بين عذاب الخاسرين من الكفار والمشركين يوم القيامة، وبين نعيم الذين اجتنبوا الطاغوت، وأنابوا إلى الله من أولي الألباب الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، مؤكدة أن الذي شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه يختلف حاله تماماً عن الذين أعرضوا عن دين الله، فضلوا ضلالاً بعيداً، وأصبحت قلوبهم قاسية إلى الحد الذي لا يحركها ذكر الله، ولا النظر في آياته. وتعاود إبراز قدر القرآن الكريم عند رب العالمين، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر: 23).

وتكرر سورة «الزمر» المقارنة بين مصائر كل من الصالحين والطالحين يوم القيامة، وتشير إلى عقاب المكذبين من الأمم السابقة بالخزي في الدنيا وبالعذاب في الآخرة، وتضرب للناس الأمثال بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الزمر: 27، 28).

ومن هذه الأمثال تشبيه المشرك برجل مملوك لعدد من الشركاء المتنازعين فيه، وتشبيه الموحد لله برجل ملكيته خالصة لفرد واحد، وواضح الأمر أنهما لا يستويان مثلاً، فالحمد لله الذي أقام الحجة على عباده وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بحقائق الموت والبعث والحساب، وذلك بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ له:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الزمر: 30، 31).

وتقرر الآيات أن من كذب على الله فنسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو كذَّب بالحق الذي أوحاه إلى أنبيائه ورسله، والذي أتمه، وأكمله، وحفظه في بعثة خاتمهم أجمعين فإنه قد ظلم نفسه لأن مثواه سيكون في جهنم، وهي مثوى الكافرين، أما الذين صدقوا الله ـ تعالى ـ وصدّقوا بما أنزله على خاتم أنبيائه ورسله فأولئك هم المتقون، المحسنون الذين لهم عند ربهم ما يشاءون.

وتؤكد سورة «الزمر» أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يكفي خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ويكفي المؤمنين برسالته من بعده كل ما يواجهون من تحديات الكفار والمشركين، فكفار قريش ومشركوها كانوا يتوعدون رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها من دون الله، والله يهدي من يشاء لعلمه أنه اختار الهداية على الضلالة، ويضلّ من يشاء لعلمه ـ سبحانه ـ أنه اختار الضلالة على الهدى، وفي ذلك تقول الآيات:

...﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الزمر: 36، 37).

وفي النهي عن الشرك والتحقير من شأنه تخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (الزمر: 38 ـ 40).

وفي التأكيد مرة ثالثة على قدر القرآن الكريم عند رب العالمين، وما فيه حق، وعلى قدرته الهادية للخلق تعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ (الزمر: 41).

وتنعي الآيات على المشركين اتخاذهم شفعاء يتقربون بهم إلى الله، وهم يعلمون حق العلم أن هؤلاء الشفعاء لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؛ ولذلك تؤكد حقيقة أن الشفاعة كلها لله وحده، لا ينالها أحد إلا برضاه، وهو وحده الذي له ملك السمٰوات والأرض، وهو الذي سوف يرجع الخلق جميعهم إليه فيحاسبهم على أعمالهم.

وتنتقد الآيات على المشركين أنهم إذا ذكر الله وحده ـ دون ذكر الذين أشركوهم في عبادته زوراً وبهتاناً ـ انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر شركاؤهم الذين أشركوهم في عبادة الله فإنهم لكفرهم يستبشرون، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر: 46).

وتعاود الآيات التحذير من الظلم بمختلف أبعاده، وأشكاله، وصوره، ومنها ظلم النفس بإغراقها في دياجير الكفر بالله أو الشرك به، وظلم الآخرين باغتيالهم، أو اغتيال حقوقهم، أو ممتلكاتهم، أو أعراضهم، أو حرياتهم، وفي ذلك تقول محذرة الواقعين في الظلم من سوء العاقبة:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الزمر: 47، 48).

وتتحدث الآيات مرة ثانية عن جانب من جوانب النفس الإنسانية فتقول:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الزمر: 49 ـ 52).

وتحذر الآيات من قنوط الذين أسرفوا في المعاصي من رحمة الله، ومن التكذيب بالرسالة الخاتمة وبالرسول الخاتم، ومن الاستكبار على الحق، وتدعو إلى سرعة التوبة والإنابة إلى الله وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ (الزمر: 53 ـ 59).

وتعرض الآيات لمشهد من مشاهد يوم القيامة فتقول:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾. **(الزمر: 60، 61).**

ومعنى هاتين الآيتين الكريمتين: أن الذين كذبوا على الله فنسبوا إليه من الصفات ما لا يليق بجلاله، (كالشريك أو الصاحبة أو الولد) سوف يأتون يوم القيامة ووجوههم مسودة من الكذب على الله في الدنيا، ثم يلقون في نار جهنم وبئس مثوى المكذبين بالحق، المتكبرين عليه وعلى أتباعه، بينما ينجي الله الذين اتقوه في الدنيا بفوزهم بالجنة، لا يمسهم السوء ولا يغشاهم شيء من الحزن الذي يغشى الكفار والمشركين في يوم الفزع الأكبر.

ثم تؤكد الآيات أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل، وأن له وحدة تصريف أُمور السمٰوات والأرض؛ ولذلك فإن الكافرين بالله وآياته المنظورة والمقروءة هم بالقطع الخاسرون في الدنيا والآخرة.

ولذلك تنعي الآيات على المشركين شركهم وتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾. **(الزمر: 64 ـ 66).**

وتؤكد الآيات أن الذين كفروا بالله ـ تعالى ـ أو أشركوا به ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ لم يعظموه التعظيم الذي يليق بجلاله، وسوف يرون جانباً من قدر الألوهية في يوم القيامة والأرض جميعاً في قبضته، والسمٰوات مطويات بيمينه ﷻ.

وبعد ذلك تشير الآيات إلى نفخة الصور، وما يتبعها من موت من في السمٰوات والأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أُخرى فإذا الجميع قائمون من قبورهم، وفي هذا اليوم ـ يوم الفزع الأكبر ـ، وكل واحد منتظر مصيره تشرق الأرض بنور ربها، ويوضع الكتاب، ويحضر النبيون والشهداء ليشهدوا على أممهم، فيفصل الله بين الخلائق بالحق، ويعطي كل نفس حقها جزاء ما عملت وهم لا يظلمون، والله أعلم بما يفعلون.

ثم تصور الآيات ختام الحساب الإلهي بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ

لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾. **(الزمر: 71 ـ 74).**

وتختتم سورة «الزمر» بتصوير مشهد آخر من مشاهد الآخرة يجسد الخشوع لله ـ تعالى ـ تقول فيه:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ **(الزمر: 75).**

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. **(الزمر: 21).**

• ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال ﷻ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كَمُن في الأرض ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروقاً في الأرض تغيره فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده، وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي...، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه أي أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطة اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء

والشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زرعاً وثماراً ثم يكون بعد ذلك حطاماً كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

(الكهف: 45).

• وجاء في كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعاني القرآن، والمنتخب، وصفوة التفاسير كلام مشابه، وإن تميز كل تفسير بأسلوب كاتبه، وطريقة عرضه.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: الإشارة إلى أن الماء المخزون تحت سطح الأرض كله من ماء المطر:

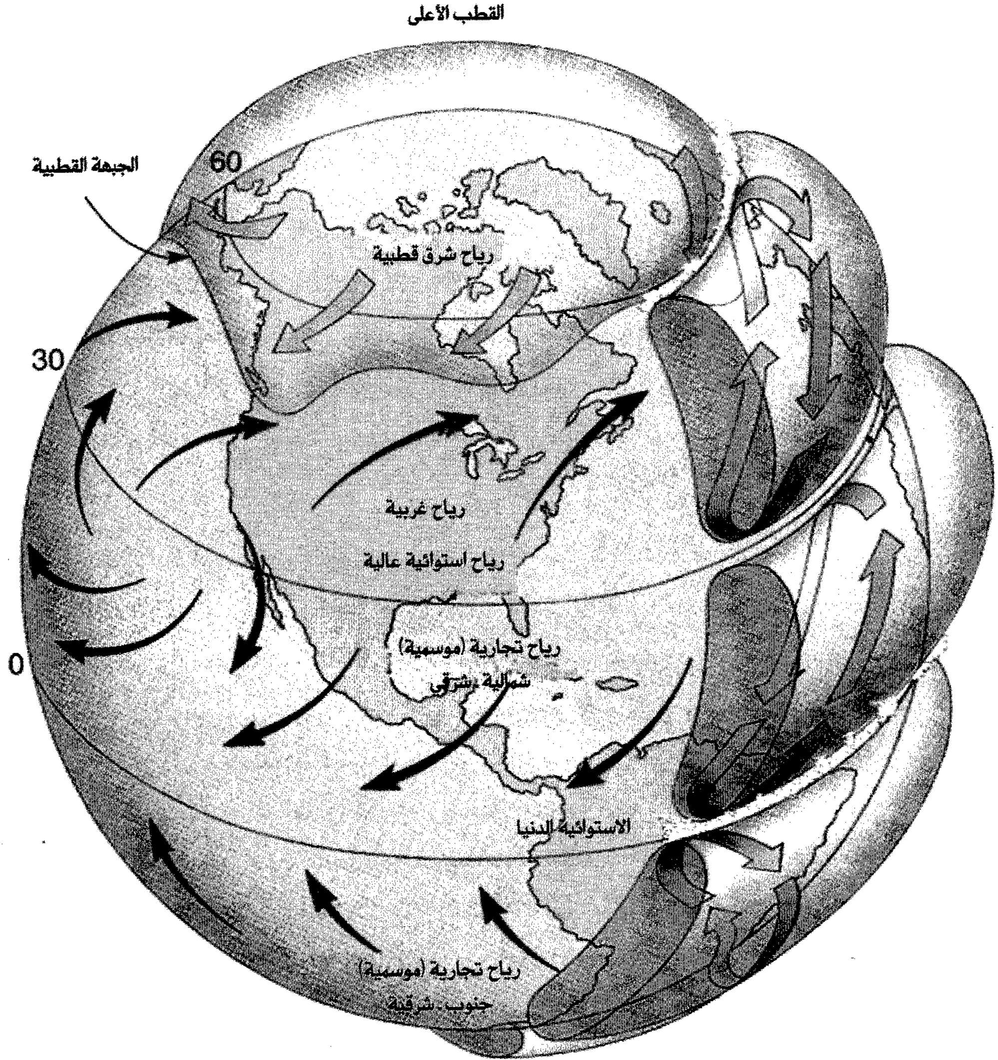
تشير هذه الآية الكريمة إلى دورة الماء حول الأرض وهي دورة لم تعرف إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ففي الوقت الذي ساد الاعتقاد بأن الماء المتجمع تحت سطح الأرض مندفع إلى داخل كتل القارات من ماء البحار والمحيطات بتأثير من حركة الرياح نزل القرآن الكريم مؤكداً أن كل ماء الأرض (والمقدرة كميتة حالياً بنحو1.4 بليون كيلومتر مكعب) قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كله من داخل الأرض، وذلك بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾

(النازعات: 30، 31).

ونعلم اليوم أن هذا الكم الهائل من الماء قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على هيئة بخار الماء المتصاعد من فوهات البراكين، ومن صدوع الأرض العميقة، وعند انبثاق هذا البخار المائي كان الله ـ تعالى ـ قد هيأ له وسائل التكثيف من الرياح التي حملته إلى الأجزاء العليا من نطاق المناخ الذي يتراوح سمكه بين 7 و 16 كيلومتراً، والذي يتميز بانخفاض درجات الحرارة فيه مع الارتفاع حتى تصل عند قمته إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر (60م) فوق خط الاستواء، وبوصول بخار الماء إلى تلك المستويات يكثف على هيئة السحب، ثم لقحت الرياح تلك السحب بهباءات الغبار وغيرها من نوى التكثف حتى تكونت السحب الممطرة (المزن أو السحب المزنية)، وتكونت فيها قطيرات الماء في بادىء الأمر دقيقة الحجم جداً حتى يتمكن هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض من حملها. وبتكرار عمليات التكثف يزداد حجم تلك القطيرات وكتلة كل منها بالتدريج حتى تسقط

بمشيئة الله وتقديره على هيئة زخات من المطر أو رشات من البرد أو الثلج نزلت إلى سطح الأرض وفاضت إلى منخفضاتها لتكون البحار والمحيطات، وبتعرض الماء في تلك المنخفضات لأشعة الشمس يتبخر جزء منه وبذلك بدأت دورة الماء حول الأرض.



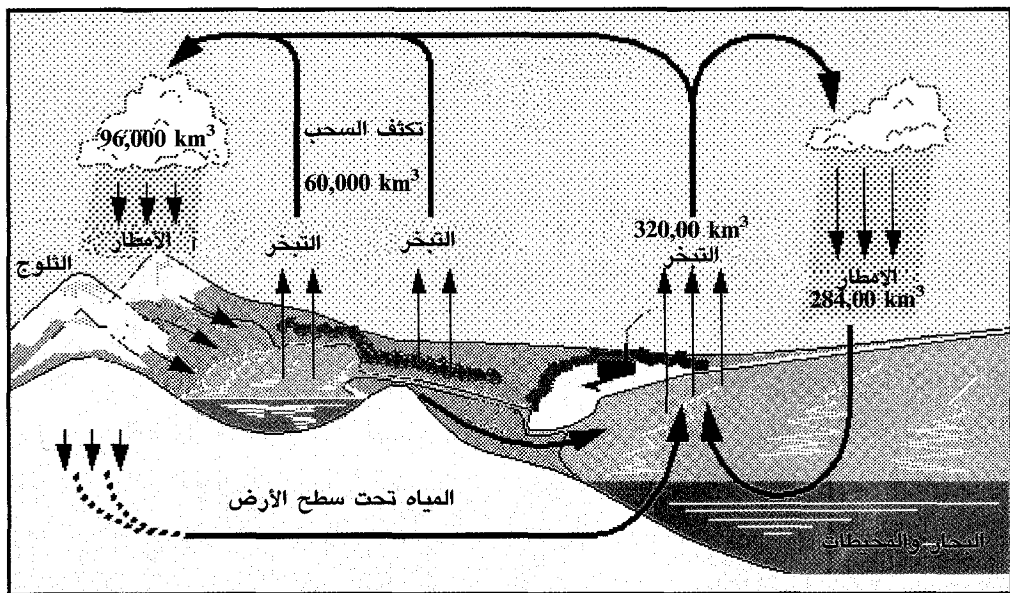
حركة تصريف الرياح وتداخل الكتل الهوائية

وبتصريف الرياح حسب مشيئة الله وإرادته تكونت السحب ولا تزال تتكون، وشحنت ولا تزال تشحن بمزيد من بخار الماء وذلك بالتفاعل بين الكتل الهوائية المختلفة وهي دافئة ورطبة فوق المسطحات المائية بالمناطق المدارية، وحارة جافة فوق صحاريها، وباردة جافة فوق المناطق القطبية، وبتداخل هذه الكتل الهوائية مع بعضها البعض بتصريف من الله - تعالى - لها تتكون السحب الممطرة والأعاصير، وغير ذلك من المظاهر الجوية التي تعقد تضاريس سطح الأرض من أنشطتها المختلفة.

وعندما يسخن الهواء بملامسته سطح الأرض بحيث يصبح أدفأ من كتل الهواء المحيطة به فإنه يتمدد، فتقل كثافته ويرتفع إلى أعلى، وبارتفاعه يتناقص ضغطه، وتنخفض درجة حرارته حتى تصل رطوبته إلى درجة التشبع فيبدأ ما به من بخار الماء في التكثف.

وبحمل مزيد من بخار الماء للسحب المتكونة، وبتوافر مزيد من نوى التكثف ، من مثل الهباءات الدقيقة من الغبار وبعض المركبات الكيميائية التي لها جاذبية لبخار الماء، من مثل كبريتات النشادر، وبعض دقائق الأملاح المتصاعدة مع بخار الماء، تزداد قطيرات الماء حجماً وكتلة حتى تسقط بفعل الجاذبية الأرضية متى وحيث يريدها الله، وبالكم الذي يقدره سبحانه وتعالى.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن حرارة الشمس تبخر من ماء الأرض سنويًّا 380،000 كيلومتراً مكعباً من الماء، منها 320،000 كيلومتر مكعب تتبخر من أسطح البحار والمحيطات، 60,000 كيلومتر مكعب تتبخر من ماء اليابسة السطحي ومما تحت سطح الأرض، ويتبخر أيضاً من نتح وبخر النباتات ومن تنفس وإفرازات كل من الإنسان والحيوان، وهذه الكمية المتبخرة من ماء الأرض تعود كلها إلى الأرض ثانية، ولكن يعاد توزيعها بعلم الله وحكمته وبفضل منه ورحمة، فيعاد إنزال 284,000 كيلومتر مكعب من ماء المطر على البحار والمحيطات، 96,000، كيلومتر مكعب منه على اليابسة (بفارق 36,000 كيلومتر مكعب من الماء تنقص من مجموع ما تبخر من ماء البحار والمحيطات وتزيد على مجموع ما تبخر من ماء اليابسة، فتجري على سطحها وتفيض في النهاية إلى البحار والمحيطات ليبقى منسوب الماء فيها ثابتاً عند مستوى محدد في كل فترة زمنية محددة. وماء المطر أثناء جريه على سطح الأرض يروي كلًّا من النبات والحيوان والإنسان، ويتسرب جزء منه إلى داخل القشرة الأرضية عبر الصخور المنفذة فيخزن فيها بمشيئة الله - تعالى - وإرادته وتقديره حتى يخرجه ربنا تبارك وتعالى لنا على هيئة العيون والينابيع الطبيعية، أو يصل إليه الإنسان بواسطة حفر الآبار مختلفة الأعماق.



رسم تخطيطي لدورة الماء حول الأرض

ويقوم ماء المطر عند هطوله بتفتيت صخور الأرض، وتكوين التربة وشحنها بقدر من الرطوبة، كما يقوم بشق الفجاج والسبل، وتسوية سطح الأرض، وتلطيف الجو، والمحافظة على رطوبة الهواء، وبإذابة العديد من الأملاح التي في الصخور وحملها إلى البحار والمحيطات، وتركيز العديد من الخامات المعدنية والثروات الأرضية المختلفة.

ولولا هذه الدورة لماء الأرض لفسد وتعفن وأسن، لأن الأوساط المائية يعيش ويموت فيها البلايين من الكائنات الحية في كل لحظة، ولذلك يمنّ علينا ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة وفي العديد غيرها من الآيات القرانية بإنزال الماء طهوراً مباركاً ثجاجاً من السماء وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

- ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ **(الحجر: 22).**
- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ **(المؤمنون: 18).**
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ **(الفرقان: 48)**
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ **(فاطر: 27).**

• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الزمر: 21).

• ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (الواقعة: 68، 69)

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الملك: 30).

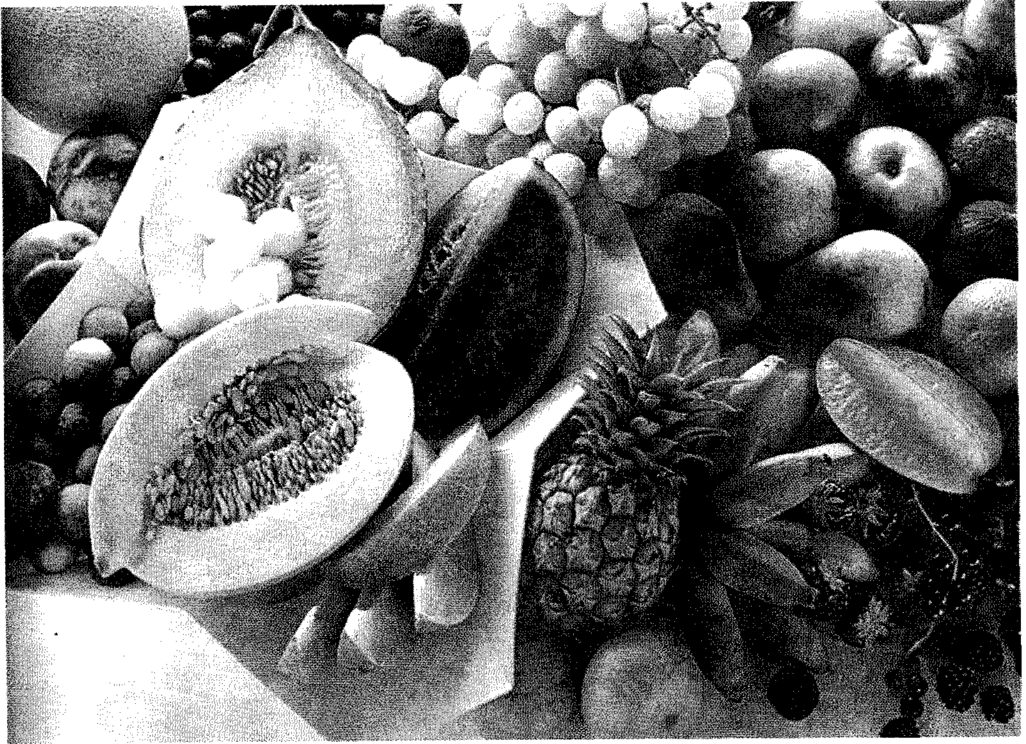
• ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ (النبإ: 14).

هذه الحقائق أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من قبل أربعة عشر قرناً، وكان فلاسفة الحضارة الإغريقية من قبل ذلك يعتقدون أن الماء المتجمع تحت سطح الأرض مندفع إلى داخل القارات من ماء البحار والمحيطات بتأثير حركة الرياح، وأن الماء المخزون في صخور الأرض يعاود الحركة إلى المحيطات عبر هوة خيالية سحيقة أطلقوا عليها اسم تاتار، وقد سادت هذه الخرافات فكر الحضارة الإغريقية وتبناها العديد من فلاسفتهم من أمثال طاليس في القرن السابع قبل الميلاد، وكل من أفلاطون وأرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد، وأضاف الأخير أن بخار ماء التربة يتكثف في التجاويف الباردة للجبال مما يشكل بحيرات تحت سطح الأرض تغذي الينابيع المائية، وقد تبعه في ذلك سينيكا في القرن الأول الميلادي، واستمر اعتقاد الأوروبيين في هذه الخرافات حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي (1877م) على الرغم من أن عالماً فرنسيًّا عُرف باسم برنارد باليسي **(Bernard Palissy)** كان قد أشار في سنة1580م؛ أي: بعد بدء تنزل القرآن الكريم بنحو القرون العشرة إلى أن الماء الأرضي يعود أصله إلى ماء المطر، ووافقه على ذلك كل من ماريوت **(E.Mariotte)** وبيرو **(P.Perraut)** في القرن السابع عشر الميلادي، وعارضهم جميعاً بالخرافات القديمة واحد من أبرز مفكري القرن السابع عشر الميلادي وهو رينيه ديكارت **(Réné Descartes)** المتوفى سنة1650 ميلادية.

ومن الثابت علميًّا اليوم أن الماء الذي خزن في صخور الأرض بتقدير من الله ﷻ أصله كله من ماء المطر الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترات متطاولة من الزمن، وأن هذا الماء يتحرك راسياً في مناطق التشبع السطحية، ثم يتحرك أفقيًّا أو مائلاً حتى يخزن في أحد مكامن الماء التي أعدتها الإرادة الإلهية بحكمة بالغة، لمدد قد تطول إلى عدة آلاف من السنين، وقد تتجدد بماء المطر السنوي أو لا تتجدد، وقد يصادف هذا الماء المخزون تحت سطح الأرض في حركته بعض الصدوع، أو الفواصل أو الشقوق فيصعد منها إلى سطح الأرض على هيئة ينابيع أو عيون مائية، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثانياً: إخراج الزروع مختلفة الألوان بمجرد إنزال المطر:

يعرف العلم في زماننا الراهن أكثر من350،000 نوع من أنواع النباتات، ويمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد، وكل نوع من هذه الأنواع له من صفاته الخارجية (الشكلية) والداخلية (التشريحية) ما يميزه عن غيره، وبعض هذه النباتات له زهوره، وثماره الخاصة به (النباتات المزهرة)، وكل ثمرة من تلك الثمار لها طعومها، وروائحها، وألوانها، وأشكالها المميزة لها. ومن هذه النباتات ما يزرع، ومنها ما ينبت بطريقة فطرية، وإن كان الله ـ تعالى ـ قد خلقها كلها في بادىء الأمر بطريقة فطرية لا دخل للإنسان فيها لأنها كلها سابقة على وجوده بمئات ملايين السنين.



مجموعة من الثمار المختلفة ـ لكل منها طعم ولون ورائحة وشكل ـ تسقى من ماء واحد

وإخراج كل هذه النباتات والزروع المتباينة في صفاتها، وكلها يسقى بماء واحد يشير إلى ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لكل نبتة من قدرة فائقة على اختيار ما يناسبها من عناصر الأرض ومركباتها، ولولا هذه القدرة الإلهية المبدعة في بناء الشيفرة الوراثية لكل نوع من

أنواع النبات، بل لكل فرد منها، ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ولولا إنزال الماء من السماء ما نشطت تلك الشيفرة الوراثية، ولولا ما أعطى الله ﷻ للبذرة النابتة من قدرة على امتصاص الماء، والازدياد في الحجم، وإحداث ضغوط هائلة على أغلفتها حتى تتشقق وتنفجر ما أنبتت تلك البذور، ولا كانت تلك النباتات...!! ولولا ما أعطى الله ﷻ للجنين في داخل البذرة أو النواة من قدرة على اليقظة من سباته بمجرد وصول الماء إليه وهو كامن، ساكن في داخل بذرته أو نواته، ثم النمو بسرعة ملحوظة، ما أنبتت تلك البذور، ولا كانت تلك النباتات والزروع. ولولا ما وضع الله ـ تعالى ـ في تربة الأرض من قدرة على التفاعل مع ماء السماء، والاتحاد معه، والانتفاش بتشربه، والارتفاع إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة ما استطاعت السويقة الطرية الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة من الصعود إلى سطح الأرض.

هذا إذا كان المقصود بألوان الزروع والنباتات هنا هو أنواعها وأصنافها العديدة، أما إذا كان المقصود ألوانها التي تتراءى بها لعين كلٍّ من الإنسان والحيوان نتيجة لامتصاصها بعض أطياف نور النهار الأبيض الناصع فإننا نعلم اليوم أن ألوان كلٍّ من الزهور، والثمار، والأوراق في النباتات المزهرة تصنعها يد القدرة الإلهية المبدعة عن طريق عدد من **الأصباغ الأساسية** (من مثل الكلوروفيلات الخضراء، والأنثوسيانينات الحمراء، والكاروتينات الصفراء) وعدد آخر من الأصباغ الثانوية التي تعرف باسم **أصباغ الإحساس**. وبتباين نسب تلك الأصباغ إلى بعضها البعض تكون هذه الأطياف المبهرة لألوان الزروع والنباتات المختلفة التي جعلها الله ـ تعالى ـ متعة للناظرين.

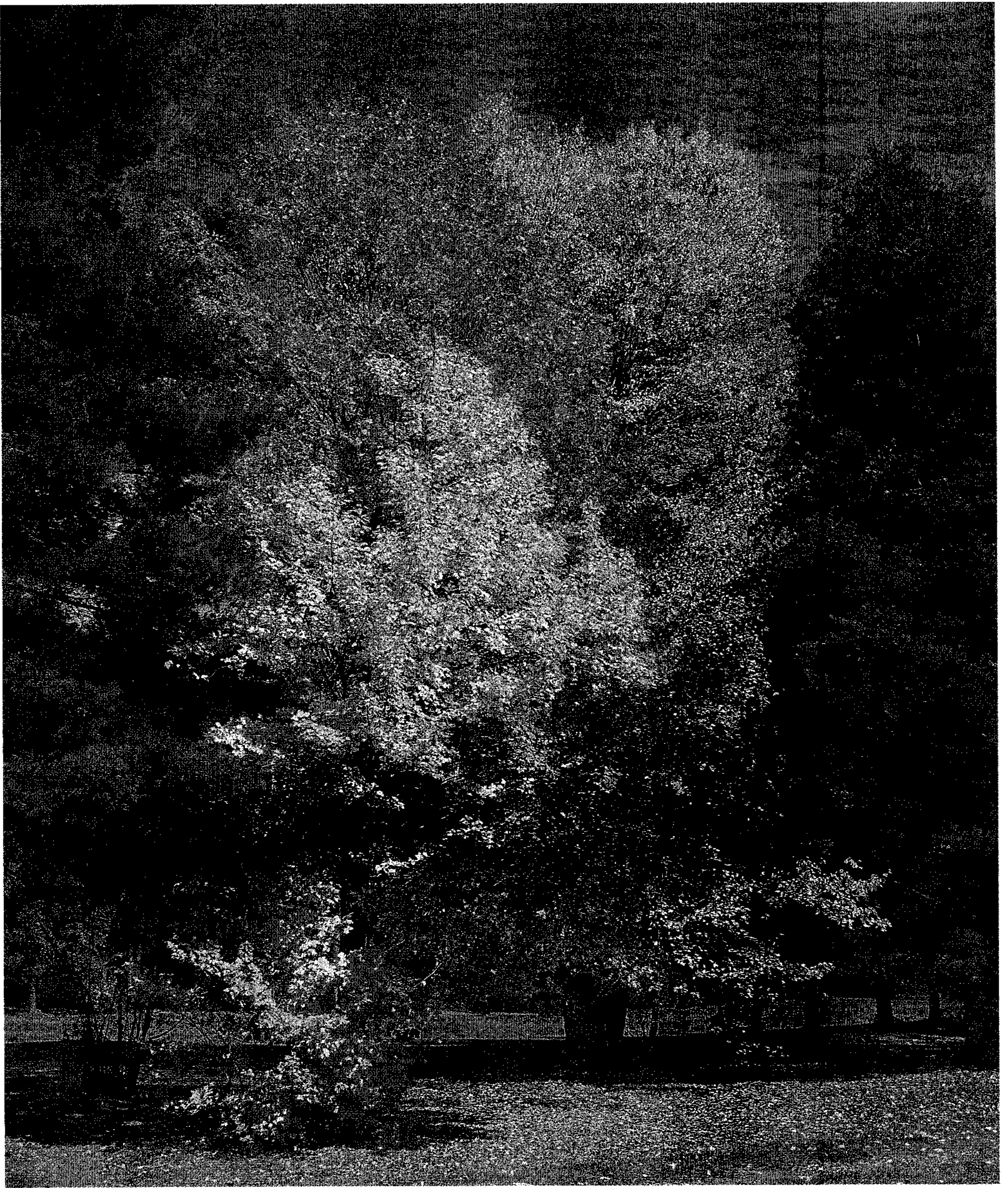
ثالثاً: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾:

في بدء حياة النبتة من الزروع المختلفة تطغى الأصباغ الخضراء على لونها، وذلك لحاجة النبات إليها في عملية التمثيل الضوئي التي يبنى بواسطتها غذاءه، وعند تمام نضج الثمار تتوقف حاجة النبات إلى الغذاء، وبالتالي تتوقف قدرته على إنتاج الأصباغ الخضراء، وما تبقى منها يبدأ في التحلّل والتحول إلى عدد من المركبات الكيميائية التي تفتقر إلى الخضرة، وهنا تبدأ الأصباغ الصفراء الشبيهة بأصباغ الجزر (الأصباغ الكاروتينية) في الظهور التدريجي حتى تسود. وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾.

رابعاً: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾.

يكون الماء أغلب أنسجة النباتات (نحو80% في المتوسط)، وعند نضج الثمار فإنها



اختلاف ألوان الأشجار وأنواعها

تفقد نسباً متباينة من مكوناتها المائية، خاصة في حالة الحبوب الجافة، وكذلك تفقد باقي أنسجة النبات ماءها في حالة المحاصيل الحولية، وتبقى موادها الصلبة، كما يبقى ما كان ذائباً في مائها من أملاح، وهنا تتوقف حياة النبات، وتبدأ مادته الجافة في التحلل بواسطة

العديد من النباتات المتطفلة مثل الحزازيات **(Mosses)**، والأشنات **(Lichens)**، والأبواغ **(Spores)**، والفطريات **(Fungi)** والتي تفرز أعداداً من الإنزيمات التي تساعد على تحلل بقايا النبات، وقد تأتي جيوش من البكتيريا لتتم عملية التحلل، كما قد تساعد عوامل التعرية المختلفة على تفتيت جسم النبات اليابس أو المتحلل حتى تجعله حطاماً، وقد يتحول هذا الحطام في النهاية إلى مكوناته الأساسية التي تمتصها التربة، وهي صورة مصغرة لدورة الحياة والموت التي يتعرض لها كل مخلوق ولذلك تختم الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾.

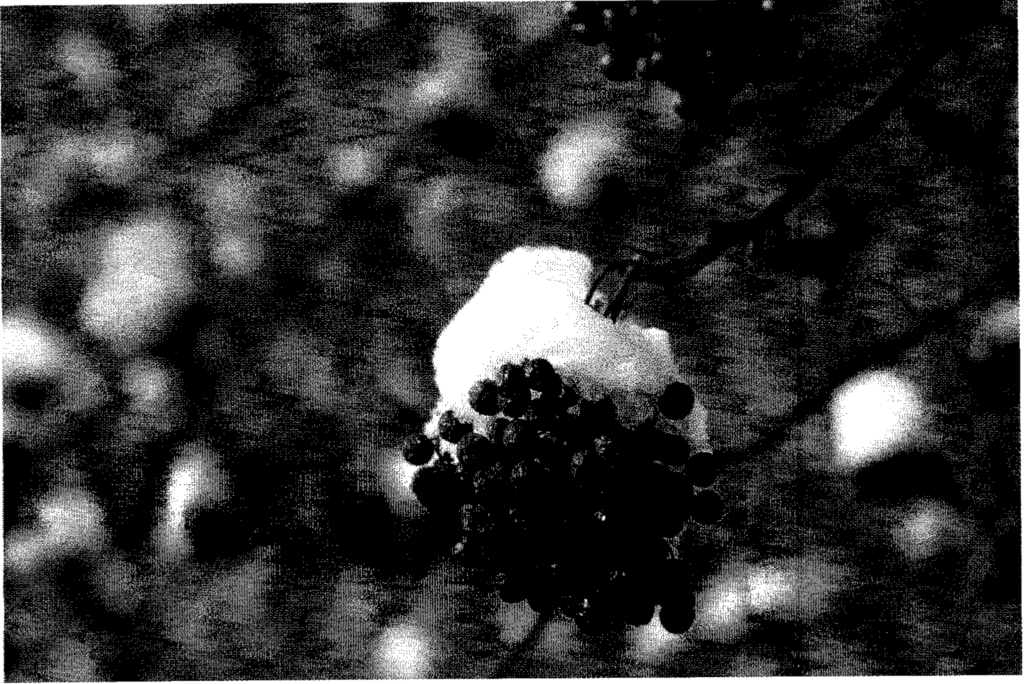


اختلاف الألوان في الأشجار والزهور هي متعة للناظرين ومن نعم الخالق علينا

هذه الحقائق لم تبدأ في التكشف للإنسان إلا على مراحل متطاولة في القرون الثلاثة الماضية ولم تتم بلورتها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وورودها في كتاب الله بهذه الدقة العلمية، والشمول والإحاطة، والكمال، وهو كتاب أنزل قبل معرفة الإنسان بتلك الحقائق بنحو عشرة قرون كاملة ـ على أقل تقدير ـ لمما يثبت لكل ذي بصيرة أن

القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ فحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى يزيد على الأربعة عشر قرناً، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وذلك تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾. **(الحجر: 9).**

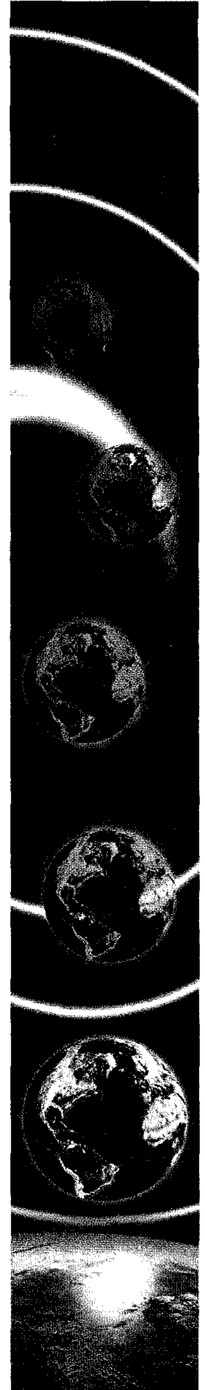


صورة من صور اختلاف ألوان الثمار على الأشجار

فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على هدى خير الأنام، سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، الذي بعثه الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(26) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (المعارج: 40)



هذه الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة «المعارج»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها أربع وأربعون (44) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود وصف من أوصاف الله ـ تعالى ـ فيها، يصف به ربنا ـ تبارك اسمه ـ ذاته العلية بوصف ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي ذي العلو والرفعة، لأن المعارج هي المصاعد والمدارج التي يُرْتَقى بها إلى الأعلى، جمع معرج ـ بفتح الميم وكسرها ـ؛ والقرآن الكريم يسمي الحركة في السماء دوماً بالعروج، ومنها معراج رسول الله ﷺ.

وعن أسباب نزول هذه السورة المباركة يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله بأن أحد كفار قريش (وكان اسمه النضر بن الحارث) حين سمع تحذير رسول الله ﷺ من عذاب الله ـ تعالى ـ قال مستكبراً قولته الخبيثة التي سجلها عليه القرآن الكريم في سورة الأنفال، بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ **(الأنفال: 32)**.

فأنزل الله ـ تعالى ـ رده الحق في مطلع سورة المعارج التي استهلها بقولة العزيز:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ **(المعارج: 1 ـ 4)**.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المعارج» حول حقيقة الآخرة،

وما يصاحبها من بعث، وحساب، وجزاء، يعقبه الخلود في حياة أبدية قادمة إما في الجنة أو في النار، كما يدور حول صعوبة استيعاب الكفار والمشركين لإمكانية البعث انطلاقاً من إنكارهم لوجود الله، أو من تشويه مفهوم الألوهية لديهم في عدد من المعتقدات الفاسدة والرائجة عندهم. . . !!

وتبدأ السورة الكريمة باستنكار هذا الموقف المستهتر الذي وقفه أحد كفار قريش مستهيناً بالآخرة وعذابها، فدعا بنزول العذاب على نفسه وعلى قومه، فنزل عذاب الله فوراً به وبهم، فقد هلك هذا الكافر في يوم بدر، ونزلت الهزيمة المنكرة بقومه يومها.

وتأكيداً على طلاقة القدرة الإلهية تصف الآيات بعد ذلك حركة كلٍّ من الروح والملائكة في السماء بالعروج إلى الله ذي المعارج، وإن كانت طبيعة كلٍّ من الملائكة والروح من الأمور الغائبة عن علم الإنسان وإدراكه غيبة مطلقة، إلا أن الآيات تشير إلى أن مثل هذا العروج يتم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وبعد ذلك توصي الآيات رسول الله ﷺ بالصبر الجميل أمام إنكار الكافرين، لبعثته الشريفة، ولما جاء به من الحق في زمانه، والوصية مستمرة إلى زماننا وحتى قيام الساعة توصي أتباع هذا النبي والرسول الخاتم بالصبر الجميل أمام كفر الكافرين، وشرك المشركين، وإصرارهم على إنكار بعثة خاتم المرسلين ﷺ، وإنكار ما بعث به من دين خاتم.

وتؤكد الآيات في سورة «المعارج» أن الكافرين يرون يوم القيامة بعيداً، ويراه ربنا قريباً لأن يوماً عنده بخمسين ألف سنة مما نعدّ نحن أهل الأرض؛ والزمن من خلق الله، فهو يحدنا ولا يحد الله ـ تعالى ـ لأن المخلوق لا يحد الخالق أبداً. . . !!

وبعد ذلك تبدأ الآيات في استعراض جانب من أهوال يوم القيامة التي يصفها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.
(المعارج: 8 ـ 10).

أي: يوم تنهار مادة السماء فتكون كالرصاص المصهور؛ وتتطاير الجبال فتكون كالصوف المندوف المنفوش، أو المصبوغ بالألوان، إشارة إلى احتفاظ مكونات الجبال بألوان صخورها رغم نسفها وتدميرها. . . !! وساعتها لايملك الإنسان السؤال عن أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه، وذلك من هول الفزع، على الرغم من رؤية بعضهم بعضاً، وتعرف بعضهم على بعض، وذلك لانشغال كل واحد منهم بنفسه وهمه ، وتمنيه لو يستطيع

أن يفديها من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وعشيرته التي ينتمي إليها، وبجميع من في الأرض من الخلق، ولكن هيهات أن يكون له ذلك...!! وهنا يأتي رد الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ **(المعارج: 15 ـ 18)**.

و (كلا) في العربية أداة زجر وردع، ولذلك تأتي الآيات من بعدها بشيء من أوصاف جهنم ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ، ومن ذلك أن نيرانها تشتعل بلهب خالص (وهو اللظى)، وأنها تنزع بشدة حرها جوارح المعذبين فيها، ثم تعاد تلك الجوارح إلى مواضعها ليتكرر العذاب، وذلك من قبيل الزيادة في التنكيل بكل كافر ومشرك وظالم، أعرض عن الحق، وأدار ظهره له، وأفسد في الأرض، وتجبّر على الخلق، ونسي الآخرة وما فيها من حساب، وركز على جمع المال وكنزه، وإمساكه في أوعيته، ولم يؤد حق الله فيه. و(الشوى) جمع (شواه) وهي من جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلاً.

ثم تعرض سورة «المعارج» لشيء من طبائع النفس البشرية التي تجزع عند الشدة، وتبخل وتبطر عند النعمة، فتميل إلى منع حقوق الفقراء والمساكين؛ ومن هذا الحكم العام تستثني سورة المعارج المصلين، فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ **(المعارج: 23 ـ 27)**.

فكل عاقل حصيف يسعى جاهداً في هذه الحياة، وهو حريص كل الحرص على اجتناب كل عمل يستوجب غضب الله وعذابه، وكل إنسان عفيف يستعف نفسه عن محارم الله، لأن الخوض فيها اعتداء على أوامره، وتجاوز لحدوده ﷻ.

وعقبت السورة الكريمة بشيء من صفات المؤمنين ومنها مراعاة الأمانات، وحفظ العهود، والقيام بشهادة الحق مهما كلفهم ذلك من ثمن، والمحافظة على الصلاة مهما كانت الظروف والملابسات، مؤكدة أن هؤلاء هم الذين سوف يكرمهم الله ـ تعالى ـ بإدخالهم إلى جنات النعيم، خالدين فيها أبداً، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر...!!

ثم تنتقل سورة «المعارج» بسؤال استنكاري عن الكفار والمشركين الذين كانوا يتسارعون إلى التجمهر حول رسول الله ﷺ عن اليمين وعن الشمال يستمعون إليه دون أن يؤمنوا به، ويدفعهم الغرور والتطاول إلى الادعاء الباطل بأنهم أولى بالجنة من أصحابه الذين آمنوا به، وأيدوه، ونصروه..، ويأتي الرد الإلهي عليهم بهذا الاستفهام التوبيخي

الاستنكاري الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ **(المعارج: 38)**.

ويزيدهم ﷻ تقريعاً بقوله ـ عز من قائل ـ: «كلا»؛ أي: ليس الأمر أبداً كما يطمعون، فليس لهم إيمان أو عمل صالح يؤهلهم لدخول الجنة، وهو ـ تعالى ـ عليم بخلقهم، ولذلك يقسم بذاته العلية أنه قادر على إهلاكهم وعلى استبدالهم بمن هم خير منهم فيقول ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾. **(المعارج: 40 ـ 41)**.

وتختتم السورة الكريمة بأمر من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يدع هؤلاء الكافرين والمشركين يخوضون في باطلهم، يلهون ويلعبون حتى يلاقوا يومهم الذي وعدهم الله إياه وتوعدهم به فيقول ﷻ: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾. **(المعارج: 42 ـ 44)**.

الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة المعارج

استشهدت سورة المعارج على صدق ما جاء بها من أُمور الغيب المطلق بالعديد من الآيات الكونية الشاهدة لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة على إبداع الخلق، وعلى إفنائه وإعادة خلقه من جديد، ومن هذه الآيات مايلي:

(1) وصف الحركة في السماء بالعروج، وأن كلًّا من الملائكة والروح تعرج إلى الله ـ تعالى ـ الذي وصف ذاته بالوصف ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾. والعروج بمعنى ارتفاع وتحرك كل شيء في صفحة السماء في خطوط متعرجة هو حقيقة علمية لم تدرك إلا في أواخر القرن العشرين.

(2) التعبير القرآني المعجز الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ **(المعارج: 4)** فيه إشارة إلى سرعات فائقة في الكون، وتأكيد على تواصل كلٍّ من المكان والزمان، وعلى تعاظم أبعاد الكون، وإلى نسبية كل شيء في العلم المكتسب بواسطة الإنسان بحكم نسبية مكانه من الكون، وزمانه؛ أي: عمره، ونسبية كل حواسه وقدرات عقله؛ أي: محدوديتها. والنسبية لم تدركها معارف الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين.

(3) وصف السماء بأنها سوف تكون يوم القيامة كالمهل، والحرارة الفائقة في داخل النجوم، والمستعرات، وما فوقها، تؤكد إمكانية ذلك مع اليقين بأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تماماً.

(4) وصف الجبال بأنها سوف تكون يوم القيامة كالعهن، وعوامل التعرية النشطة اليوم تشير إلى إمكانية ذلك، مع إيماننا بأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تماماً.

(5) وصف طبيعة النفس البشرية عامة بالهلع والجزع عند وقوع الشر، وبالبطر والشح عند نزول النعمة، إلا المصلين.

(6) القسم بالمشارق والمغارب، وفية إشارة ضمنية رقيقة إلى كلٍّ من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى كروية كل أجرام السماء ودورانها حول محاورها، وجريها في مداراتها، فلولا ذلك ما تعددت المشارق والمغارب أبداً.

(7) الإشارة إلى خلق الإنسان من ماء مهين.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذا فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة السادسة في القائمة السابقة والمتعلقة بتعدد المشارق والمغارب، ودلالاتها العلمية، وقبل مناقشة ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين من القدامى والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٤١﴾ **(المعارج: 40 ـ 41)**.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: ... ثم قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ أي الذي خلق السمٰوات والأرض، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي بعاجزين.... واختار ابن جرير ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي أمة تطيعنا ولا تعصينا... والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم....».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿فَلَآ﴾ لا زائدة [لتأكيد القسم] ﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ للشمس والقمر، وسائر الكواكب ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ نأتي بدلهم ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بعاجزين عن ذلك».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبه ـ ما مختصره: والأمر ليس في حاجة إلى قسم، ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب يوحي بعظمة الخالق. والمشارق والمغارب قد تعني مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسيح، كما أنها تعني المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض، وهي تتوالى في كل لحظة؛ ففي كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفي مغرب... وأيًّا كان مدلول المشارق والمغارب فهو يوحي إلى القلب بضخامة هذا الوجود، وبعظمة الخالق لهذا الوجود. فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب على أنه



الشمس في حالة الغروب لتشرق في مكان آخر من الأرض

سبحانه قادر على أن يخلق خيراً منهم وأنهم لايسبقونه ولايفوتونه ولايهربون من مصيرهم المحتوم؟».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه:

«أقسم، و (لا) مزيدة... والمشارق والمغارب: مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي بمغلوبين، أو عاجزين عن أن نأتي بقوم آخرين خير منهم».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه:

«فلا أقسم برب المشارق والمغارب... إنا لقادرون على أن نهلكهم ونأتي بمن هو أطوع منهم لله، وما نحن بعاجزين عن هذا التبديل». وجاء في الهامش ما يلي: «قد يكون المراد بالمشارق والمغارب: أقطار ملك الله على سعته التي لا تحد كما أشير في الآيه137 من سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ **(الأعراف: 137)**، للدلالة على أرجاء الأرض المشار إليها. وقد يكون المراد أيضاً مشارق الشمس والقمر وكافة النجوم والكواكب ومغاربها جميعاً للدلالة أيضاً على ملك الله كله. وترجع ظاهرة شروق الأجرام السماوية وغروبها إلى دوران الأرض حول محورها من الغرب نحو الشرق، ومن ثم تبدو لنا تلك الأجرام متحركة في قبة السماء على عكس ذلك الاتجاه مشرقه على الأفق الشرقي وغاربة من الأفق الغربي، أو على الأقل دائرة من المشرق إلى المغرب حول النجم القطبي في نصف الكرة الشمالي مثلاً، وإذا كان البعد القطبي للنجم أصغر من عرض مكان الراصد فالنجم لايشرق ولايغرب بل يرسم دائرة صغيرة وهمية حول القطب الشمالي، وبذلك تشير الآية كذلك إلى ساعات الليل، راجع قوله تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۢ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ **(النحل: 16)**.

وظاهرة الشروق والغروب إشارة إذن إلى دوران كرة الأرض، وهي نعمة كبرى من نعم الله على أحياء هذا الكوكب، فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة وحرم من الضوء تماماً النصف الآخر، وهذا ما لا تستقيم معه الحياة كما نعهدها.

وإذا اقتصرنا عند ذكر المشارق والمغارب على تدبير الشمس وحدها دون سائر النجوم والكواكب، كانت هذه إشارة إلى التعدد اللانهائي (غير النهائي) لمشارق الأرض ومغاربها يوماً بعد يوم في كل موضع على سطح الأرض، أو حتى في لحظة من لحظات

الزمان تمر على الكرة الأرضية، فالشمس في كل لحظة غاربة عند نقطة ومشرقة في نقطة أُخرى تقابلها. وهذا من محكم تدبير الله وإعجاز قدرته.

● وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: «أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها».

المشارق والمغارب في القرآن الكريم

جاء ذكر المشرق والمغرب في القرآن الكريم بالإفراد، والتثنية والجمع في أحد عشر موضعاً على النحو التالي:

أولاً: بالإفراد: جاء ذكر المشرق والمغرب في ست آيات قرآنية كريمة هي كما يلي:

1 ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ **(البقرة: 115).**

2 ـ ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ **(البقرة: 142).**

3 ـ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ **(البقرة: 177).**

4 ـ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **(البقرة: 258).**

5 ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **(الشعراء: 28).**

6 ـ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ **(المزمل: 9).**

ثانياً: وجاء ذكر المشرقين أو ذكر المشرقين والمغربين مرتين في كتاب الله على النحو التالي:

1 ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾

(الزخرف: 38).

2 ـ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ **(الرحمٰن: 17).**

ثالثاً: وجاء ذكر المشارق وحدها مرة وذكر المشارق والمغارب مرتين في كتاب الله على النحو التالي:

1 ـ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ (الصافات: 5).

2 ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: 137).

3 ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (المعارج: 40).

وهنا ثار تساؤل المفسرين عن سبب ذكر المشرق والمغرب بالإفراد، والمشرقين والمغربين بالتثنية، والمشارق والمغارب بالجمع وتعددت إجاباتهم، ومن هنا كانت ضرورة توظيف الحقائق العلمية التي توفرت في زماننا حتى يمكن فهم دلالة هذه الآيات الكريمة بشكل أعمق.

المدلول العلمي للآية الكريمة

بما أن المخاطبين بالقرآن الكريم هم أهل الأرض جميعاً، فمن المنطقي أن يكون المقصود بالتعبير القرآني (**رب المشارق والمغارب**) هو مشارق الأرض ومغاربها؛ ولكن بما



صورة في المنطقة الشمالية القطبية تبين ثبات النجم القطبي (تصوير بطيء)

أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي له ملك السمٰوات والأرض وما بينهما، فإن دلالة الآية الكريمة تتسع لتشمل مشارق ومغارب كل أجرام السماء، وعلى ذلك فلا بد من فهم دلالة الآية الكريمة في هذين الإطارين على النحو التالي:

أولاً: المشارق والمغارب بالنسبة إلى الأرض:

(1) مشرق الأرض ومغربها:

على الرغم من أن كل ما في صفحة السماء من أجرام يدور حول محوره، ويسبح جارياً في مداره إلا أن النجم القطبي يبدو ثابتاً في مكانه بالنسبة للأرض، ولا يشترك في الدوران الظاهري لقبة السماء وما بها من نجوم، والناتج عن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق دورة كاملة في كل أربع وعشرين ساعة في زماننا الراهن؛ والسبب في ذلك هو أن النجم القطبي يقع على امتداد محور دوران الأرض حول نفسها تماماً، وبذلك يحدد لنا اتجاه الشمال الحقيقي (المعروف باسم الشمالي الجغرافي)؛ ويتعامد على هذا الاتجاة يميناً شرق الأرض. ويساراً غربها أي **اتجاه الشرق الحقيقي والغرب الحقيقي** بالنسبة للأرض ككوكب؛ ويتضح من ذلك جانب من جوانب الحكمة الإلهية المبدعة بخلق هذه العلاقة حتى يبقى النجم القطبي بمثابة البوصلة الكونية المعلقة في السماء الدنيا لإرشاد أهل الأرض إلى الاتجاهات الأربعة الأصلية، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ **(النحل: 16)**.

ويقول: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾﴾ **(المزمل: 9)**.

(2) مشارق الأرض ومغاربها:

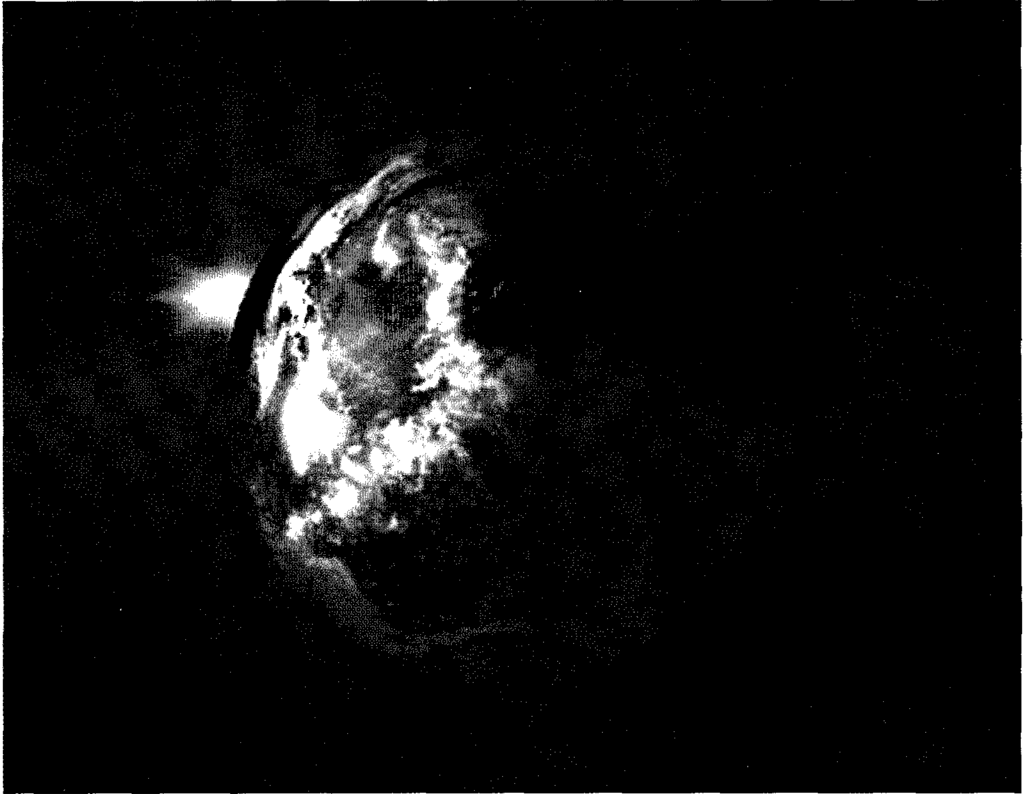
بدوران الأرض حول محورها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة في زماننا الراهن يتحدد يوم الأرض الذي يتقاسمه الليل والنهار. وبدوران القمر دورة كاملة حول محوره، وحول الأرض في مدة تقدر بحوالي 29.5 يوماً يتحدد شهر الأرض القمري الذي يمكن تقسيمه إلى أيام وأسابيع بتتابع مراحل شكل القمر من الميلاد إلى المحاق. ويتم القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض في كل دورة كاملة للأرض حول الشمس تقريباً وبذلك يتحدد طول السنة القمرية بحوالي 354 يوماً، وتقسم إلى اثني عشر شهراً قمرياً مخدداً.

ويسبح كلٌ من الأرض وقمرها حول الشمس في مدار محدد ليتما دورة كاملة في مدة تقدر بحوالي (365.25) يوماً تتحدد السنة الشمسية للأرض، وهي تزيد على السنة القمرية بحوالي 11 يوماً. وبسبب ميل محور دوران الأرض على الخط الواصل بين مركزي الأرض

والشمس تتبادل السنة الشمسية فصول أربعة هي الربيع والصيف والخريف والشتاء. وبواسطة تتابع بروج السماء التي تمر بها الأرض في أثناء سبحها في مدارها حول الشمس يمكن تقسيم السنة الشمسية إلى شهورها الاثني عشر.

وكان قدماء المصريين قد قدروا السنة الشمسية بحوالي 365 يوماً، وتلاهم البابليون في الربط بين محيط الدائرة الذي يبلغ 360 درجة، وبين عدد أيام السنة الشمسية، وشَكَّل هذا الربط أساس تقسيمات الساعة إلى 60 دقيقة، والدقيقة إلى 60 ثانية. وكانت ملاحظة تغير المواقع الظاهرية للشمس بالنهار بين شروقها وغروبها وسيلة من وسائل إدراك مرور الزمن وتتبع حركته.

وبفعل دوران الأرض حول محورها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة، فإن مساحة نصف الكرة الأرضية المغمور بنور النهار تتناقص من أحد طرفيها بولوجه في ظلمة الليل،

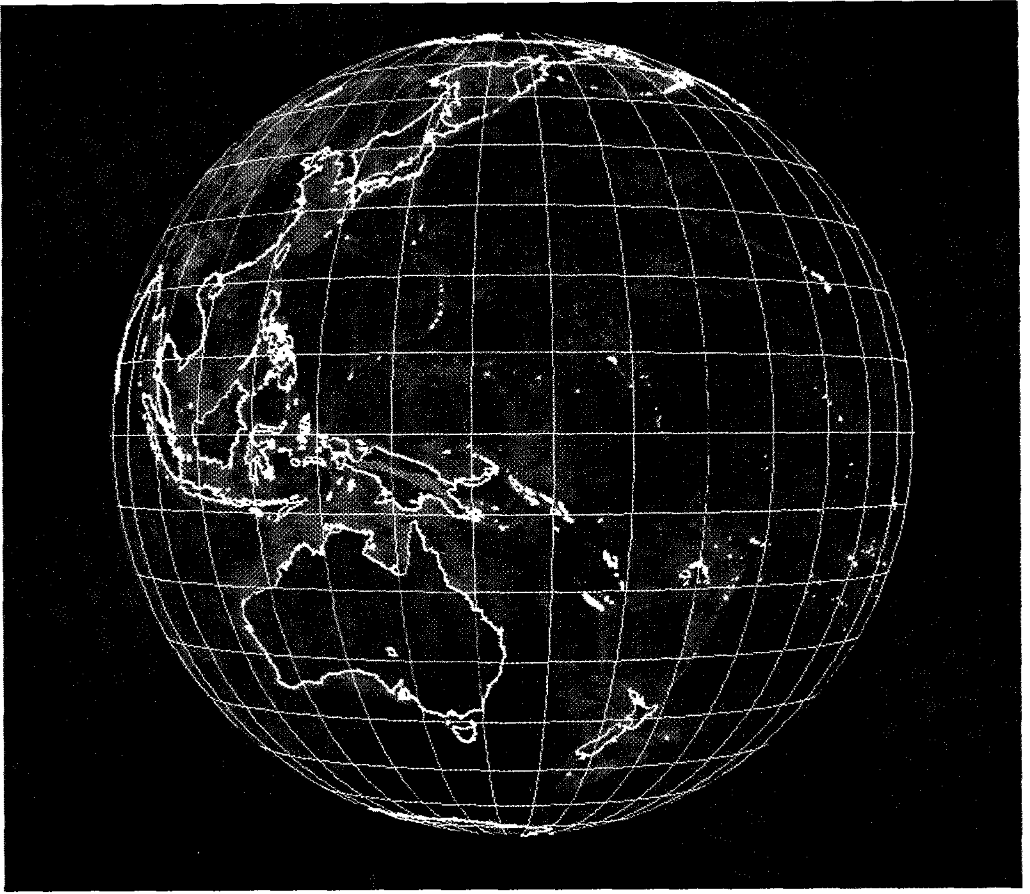


المشرق يظهر على القسم المواجه للشمس فقط وفي نفس الوقت يظهر الظلام على القسم الآخر للأرض

وتتزايد بنفس القدر من الطرف الآخر الذي يخرج من ظلمة الليل إلى نور النهار، ويستمر الحال كذلك في تبادل بطيء حتى يعم نور النهار نصف الأرض الذي كان مظلماً، ويعم ظلام الليل نصفها الذي كان منيراً، ومن هنا **تتعدد المشارق والمغارب على خط العرض الواحد**، ويتأخر شروق الشمس كلما اتجهنا إلى الغرب. ولما كانت الأرض تدور حول محورها دورة كاملة أي (360) درجة كل 24 ساعة، فإن ضوء الشمس ينتقل 15 درجة من درجات خطوط الطول في الساعة الواحدة من الشرق إلى الغرب؛ أي بمعدل 4 دقائق لخط الطول الواحد؛ ومعنى ذلك أن الفرق الزمني الناشيء عن اختلاف خطوط الطول على خط العرض الواحد يقدر بأربع دقائق لكل درجة من درجات خطوط الطول، ويضاف هذا الفرق إذا كان الموقع في نصف الأرض الشرقي، ويطرح إذا كان في نصفها الغربي. **ويعتبر خط الطول (180) هو الخط العالمي للتأريخ**، وباجتيازه من الشرق إلى الغرب يتأخر الزمن يوماً كاملاً؛ ويتعرج الخط العالمي **للتأريخ** شرقاً وغرباً عبر خط طول (180) وذلك بتأثير خطوط العرض، ويمر من مضيق بيرنج شمالاً إلى شرق جزيرة نيوزيلندا جنوباً. ويتغير الزمن من موقع لآخر على طول خط الاستواء بسبب الانتقال من خط طول إلى خط طول آخر.

أما الاختلاف في الزمن وبالتالي في لحظتي شروق الشمس وغروبها عند الانتقال من خط الاستواء إلى خطوط العرض شمالاً وجنوباً فهو أكبر من الانتقال على خط العرض الواحد؛ وذلك لأن الانتقال عبر خطوط العرض له أبلغ الأثر على زمني شروق وغروب الشمس، وهذا الأثر ليس ثابتاً على مر الأيام بسبب ميل محور دوران الأرض، كما أنه لا يتناسب تناسباً طردياً مع فروق خطوط العرض، ويتضح ذلك من أن مقدار الفرق الزمني لكل من شروق وغروب الشمس بين خطي العرض 50 و 60 درجة شمالاً أكبر بأضعاف كثيرة من مقدار الفرق الزمني بين خطي عرض 10 و 20 شمالاً.

أضف إلى ذلك أن هذه الفروق غير ثابتة على مدار السنة مما يعدد مشارق الأرض ومغاربها إلى أرقام لا تكاد تدرك. والفروق بين أزمنة الشروق والغروب في نفس اليوم عند موقعين على خط طول واحد ولكنهما على خطي عرض مختلفين هي أقل من الفروق بين موقعين بينهما نفس القيمة في مقدار خطي العرض، بينما يقعان على خطي طول مختلفين. كذلك إذا حسبنا زمني شروق وغروب الشمس في المكان الواحد من سطح الأرض على مدار السنة، فإننا نجدهما يتغيران تغيراً كبيراً خاصة عند خطوط العرض العليا. فالمكان الواحد على سطح الأرض له مشارق ومغارب عديدة على مدار السنة.

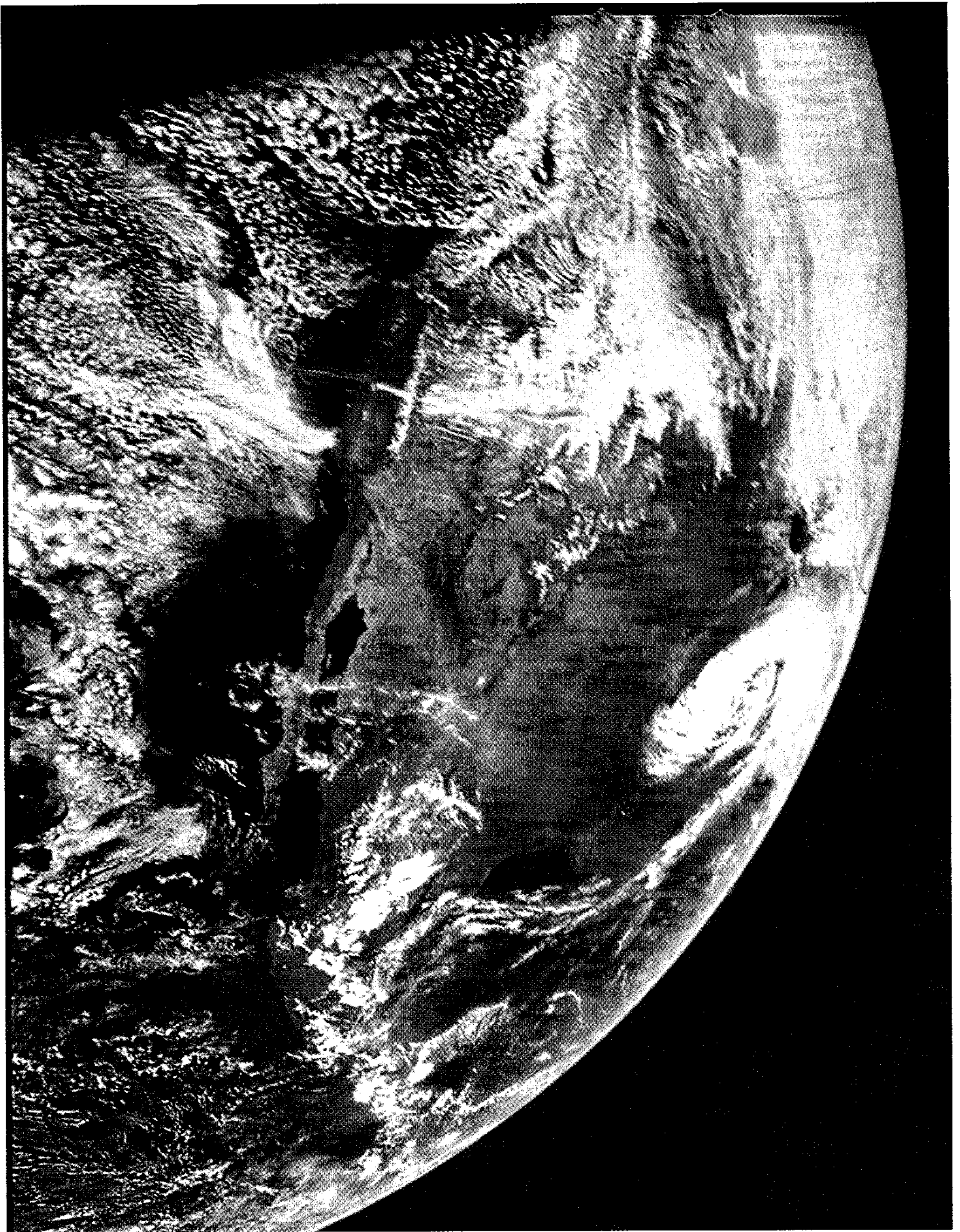


خطوط الطول والعرض الوهمية لقياس الوقت وتحديد المكان

والحركة الظاهرية للشمس في مستوى دائرة البروج تؤثر في مقدار الميل الاستوائي لها، وتجعله يتغير من يوم إلى يوم آخر؛ والميل الاستوائي له تأثير كبير في تحديد مكان وزمان لحظتي الشروق والغروب للشمس، ويزداد ذلك بزيادة قيم خطوط العرض.

وقد تتحد نقاط على خطوط طول وعرض مختلفة في لحظتي الشروق والغروب، والخطوط الواصلة بينها تعرف باسم «**خطوط اتحاد المطالع**» أو «**خطوط اتحاد المغارب**»، وهذه الخطوط يختلف شكلها من يوم إلى آخر: وهي في اليوم الواحد تكون موازية لبعضها البعض.

في 21 مارس/ آذار من كل عام يقع الاعتدال الربيعي، وفي 23 سبتمبر/ أيلول يقع الاعتدال الخريفي في نصف الكرة الشمالي فيتساوى الليل والنهار لتعامد أشعة الشمس على خط الاستواء.



NASA

ظهور طبقة النهار على القارة الأمريكية ـ ويبدو في الصورة خليج كاليفورنيا ـ وفي أعلى الصورة ـ المنطقة المظلمة تبدأ فيها حالة الشروق بفعل دوران الأرض حول محورها

وفي 21 يونيو/ حزيران من كل عام يقع الانقلاب الصيفي في نصف الكرة الشمالي لتعامد أشعة الشمس على مدار السرطان، ويكون النهار أطول نهار في السنة، وتتمتع المنطقة الواقعة حول القطب الشمالي بنهار يدوم 24 ساعة، ويحل ليل مدته 24 ساعة على المناطق الواقعة حول القطب الجنوبي. ويكون النهار أقصر ما يكون في نصف الكرة الجنوبي في 21/ يونيو، أما عند خط الاستواء فيتساوي طول كل من الليل والنهار على مدار السنة.

في 22 ديسمبر/ كانون الأول من كل عام يقع الانقلاب الشتوي في نصف الكرة الشمالي حيث تتعامد أشعة الشمس على مدار الجدي، وتتمتع المنطقة حول القطب الجنوبي بنهار يدوم 24 ساعة، بينما تتمتع المنطقة حول القطب الشمالي بليل يدوم 24 ساعة كاملة.

من هذا الاستعراض يتضح تعدد المشارق والمغارب بتبادل الأيام والفصول على الموقع الواحد في كل سنة، وبتعدد المواقع على خط العرض الواحد مع تعدد خطوط الطول، وعلى خط الطول الواحد بتعدد خطوط العرض، وبتعدد كل ذلك تتعدد المشارق والمغارب تعدداً مذهلاً فسبحان الذي أقسم برب المشارق والمغارب فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ .

3 ـ مشرقا الأرض ومغرباها:

نتيجة لدوران الأرض حول محورها، انبعجت قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحت قليلاً عند القطبين، ونتيجة لذلك أصبح لكلٍّ من المشارق والمغارب العديدة نهايتان تمثلان أقصى زمانين ومكانين لكلٍّ من شروق الشمس وغروبها على أقصى بقعتين من بقاع الأرض تمثل كلٌّ منهما مرة أقصى الشروق، ومرة أقصى الغروب، ومن هنا كان للأرض مشرقان ومغربان، فسبحان القائل ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾﴾ .

ثانياً: المشارق والمغارب بالنسبة لباقي أجرام السماء:

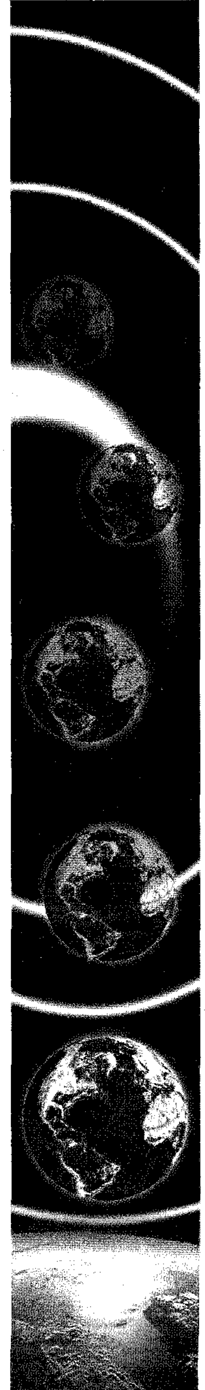
من الواضح أن المؤثرات السابقة كلها على زمني ومكاني شروق وغروب الشمس تشترك في التأثير على زمني ومكاني شروق وغروب القمر، ويزيد عليهما بالنسبة للقمر عامل آخر هو مقدار خط عرض القمر السماوي، وهو يتغير في حدود 5 درجات تقريباً إيجاباً وسلباً، وعندما يكون خط العرض السماوي للقمر صفراً فإنه يتحد في غروبه مع الشمس، وبذلك يكون للقمر العديد من المشارق والمغارب كما يكون له مشرق واحد

ومغرب واحد، ونهايتان لكل من شروقه وغروبه، وكذلك الحال مع بقية أجرام السماء والتي نتيجة لتكورها ولدورانها حول محاورها، ولسبحها حول أجرام أكبر فإن مشارقها ومغاربها تتعدد تعدداً كبيراً، مع وجود نهايتين عظميين لكل من الشروق والغروب، ووجود اتجاهات أصلية لكل جرم سماوي تحدد له شرقه وغربه الأساسيين.

من هنا جاءت الإشارة في كتاب الله إلى كلٍّ من المشرق والمغرب بالإفراد وبالمثنى وبالجمع تأكيداً على العديد من حقائق الأرض وحقائق أجرام السماء، وهي حقائق لم تدرك إلا في زمن العلم الذي نعيشه، فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه فحفظه على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، ولا يزال عهده ماضياً حتى قيام الساعة، وحفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً بكل إشراقاته الربانية، وحقائقه النورانية في كل قضية عرض لها، حتى يبقى حجة على الناس جميعاً، ومنهم أهل عصرنا من المسلمين وغير المسلمين، وشاهداً على الطبيعة الربانية لهذا الكتاب الخالد، وعلى صدق نبوة الرسول الخاتم والنبي الخاتم الذي تلقاه، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(27) ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (الأنعام: 96)



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الثاني من سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية، ومن طوال السور في القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها 165 آية بعد آية البسملة؛ وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة، وفي مقدمتها الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ نبيًّا ورسولاً؛ والإيمان بحقيقة الوحي، وبوحدة رسالة السماء؛ وبحتمية البعث والحساب، وبالخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً...!!

والإيمان بالله ـ تعالى ـ يقتضي توحيده توحيداً مطلقاً فوق كل خلقه، وتنزيهه عن كل وصف لايليق بجلاله من مثل الادعاء الكاذب له بالشريك أو الصاحبة أو الولد ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، والإقرار له ﷻ بطلاقة القدرة التي لا تحدها حدود، وبالسلطان المطلق الذي لا ينازعه فيه منازع، وبالألوهية والربوبية فوق كل خلقه، فهو ـ تعالى ـ رب هذا الكون ومليكه والمتصرف فيه وحده.

وقد سبق لنا استعراض سورة «الأنعام» تحت موضوع الآية الأولى منها، ولا أرى داعياً لتكرار ذلك هنا.

كذلك سبق لنا استعراض الإشارات الكونية الواردة في سورة «الأنعام»، وسوف أقصر الحديث هنا على الآية السادسة والتسعين منها التي تشير إلى جريان كلٍّ من الشمس والقمر بنظام محسوب بدقة بالغة

مما يعين على حساب الزمن، والتأريخ للأحداث، وأداء الحقوق والواجبات والعبادات في أوقاتها المحسوبة، وقبل الدخول إلى ذلك لابد من الاستعراض السريع لأقوال عدد من المفسرين السابقين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ **(الأنعام: 96)**.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي خالق الضياء ﴿ٱلنُّورِ﴾ والظلام كما قال في أول السورة ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ أي فهو سبحانه يغلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه (بنوره) وإشراقه.....، وقوله ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب؛ بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ **(يونس: 5)** الآية، وكما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ **(يس: 40)**، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ **(الأعراف: 54)**، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانَع، ولا يخالف، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم»....

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ مصدر بمعنى الصبح؛ أي: شاق عمود الصبح، وهو: أول ما يبدو من نور النهار عن ظلمة الليل... ﴿سَكَنًا﴾ يسكن فيه الخلق من التعب، ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب عطفاً على محل الليل.. ﴿حُسْبَانًا﴾ حساباً للأوقات، والباء محذوفة، وهو حال من مقدر أي: يجريان بحسبان... ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقه».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضاً، وهو الذي جعل الليل للسكون، وجعل الشمس والقمر

محسوبة حركاتهما، مقدرة دوراتهما.. مقدراً ذلك كله بقدرته التي تهيمن على كل شيء، وبعلمه الذي يحيط بكل شيء.

وانغلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انغلاق الحبة والنواة، وانبثاق النور في تلك الحركة، كانبثاق البراعم في هذه الحركة، وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة، ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك... وبين انغلاق الحب والنوى وانغلاق الإصباح، وسكون الليل صلة أُخرى...

«إن الإصباح والإمساء، والحركة والسكون، في هذا الكون أو في هذه الأرض ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة».



«فالق الإصباح» الشمس في حالة الشروق

«إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس، وكون القمر بهذا الحجم، وبهذا البعد من الأرض، وكون الشمس كذلك بهذا الحجم، وهذا البعد، وهذه

الدرجة من الحرارة هي تقديرات من ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ذي السلطان القادر ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ذي العلم الشامل؛ ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو، ولما انبثق النبت والشجر من الحب والنوى».

«إنه كون مقدر بحساب دقيق. ومقدر فيه حساب الحياة، ودرجة هذه الحياة، ونوع هذه الحياة. . . كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ ما نصه: «﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ الإصباح: مصدر سمي به الصبح؛ أي شاق ظلمة الصبح وهو الغبش في آخر الليل الذي يلي الفجر المستطيل الكاذب عن بياض النهار؛ فيضيء الوجود ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده ويجيء النهار بضيائه ـ والأصح هو بنوره ـ. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن إليه من يتعب بالنهار ويستأنس به لاسترواحه فيه. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي يجريان في الفلك بحساب مقدر معلوم، لا يتغير ولا يضطرب حتى ينتهيا إلى أقصى منازليهما؛ بحيث تتم الشمس دورتها في سنة، ويتم القمر دورته في شهر، وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها. والحسبان: مصدر حسبت المال حسباً من باب فتل: أحصيته عدداً».

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وهو الذي يشق غبش الصبح بضوء ـ والصحيح هو بنور ـ النهار؛ ليسعى الأحياء إلى تحصيل أسباب حياتهم، وجعل الليل ذا راحة للجسم والنفس، وجعل سير الشمس والقمر بنظام دقيق يعرف به الناس مواقيت عباداتهم، ومعاملاتهم. ذلك النظام المحكم، تدبير القادر المسيطر على الكون المحيط بكل شيء علماً».

وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي شاق الضياء ـ والصحيح هو النور ـ عن الظلام وكاشفه، قال الطبري: شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾؛ أي: بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد، ويعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾؛ أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء، العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة كونية مؤداها أن الله ـ تعالى ـ قد قدر للأرض أن تدور حول محورها أمام الشمس، كما قدر لكل جرمٍ من أجرام السماء أن يدور حول محوره، وأن يسبح في فلكه، وبذلك فإنه يفصل الأرض عن ليل السماء بطبقة نور النهار الرقيقة (التي لايتعدى سمكها مائتي كيلومتر بالنسبة إلى المسافة بين الأرض والشمس المقدرة بنحو 150 مليون كيلومتر) وتغطي طبقة نور النهار نصف الأرض المواجه للشمس، بينما تغمر ظلمة ليل الأرض نصفها البعيد عن مواجهة الشمس. ومع دوران الأرض حول محورها تتحرك طبقة نور النهار لتحل محل ظلمة الليل بالتدريج، وهي ملتحمة مع ظلمة الكون، وبذلك فهو ﷻ يفلق هاتين الظلمتين المتداخلتين بالتدريج فيحل النهار محل ظلمة ليل الأرض، وتبقى ظلمة السماء، ولذلك وصف ذاته العلية بأنه فالق الإصباح؛ أي: الصبح ولا يقوى على ذلك أحد غيره.

ثم يضيف وصفاً آخر لتلك الذات العلية هي قوله العزيز: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ﴾، ويصف تقدير ذلك بأنه: ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

وجاء التعبير ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ إشارة إلى تبادل كلٍّ من النهار والليل، وإلى جعل النهار لعمارة الأرض، وإقامة عدل الله فيها، وللجري وراء المعايش، وللكدح من أجل كسب الرزق الحلال، وجعل الليل للسكن والاستجمام، والراحة والاسترخاء، والتأمل والعبادة بعد كدح النهار؛ وتبادل كلٍّ من الليل والنهار لايتم إلا بدوران الأرض الكروية حول محورها أمام الشمس.

وهذه الدورة الأرضية التي تعرف باسم «**الدورة المحورية**»، أو «**المغزلية**»، أو «**الدورانية**» تتم بسرعة تقدر بنحو الثلاثين كيلومتراً في الدقيقة (465 متراً في الثانية × 60 = 27.9 كيلومتر في الدقيقة × 60 = 1674 كيلومتراً في الساعة) لتتم دورة كاملة في يوم مقداره 24 ساعة (23 ساعة 56 دقيقة 4 ثوان في المتوسط)، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت قليل في طول كلٍّ منهما؛ وذلك بسبب ميل محور دوران الأرض على مستوى مدار الأرض حول الشمس؛ مما ينتج عنه تبادل فصول السنة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء.

ويوم الأرض (الناتج عن دورانها دورة كاملة حول محورها) يختلف طوله على مدار السنة بسبب تغيير سرعة سبح الأرض في فلكها حول الشمس (**سرعة الحركة المدارية**

للأرض) تبعاً لبعدها عن الشمس، وبسبب **آثار ظاهرتي المد والجزر، والدوران الفعلي للغلاف الغازي المحيط بالأرض،** وبسبب **بعض التغيرات في لب الأرض.**

وقد حددت الثانية كوحدة للزمن على أساس أنها الفترة الزمنية المكافئة لـ 1:86,400 من متوسط طول اليوم الشمسي على مدار السنة (24 ساعة × 60 دقيقة × 60 ثانية = 86,400 ثانية).

ولتفادي ما ثبت من تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها، وبالتالي زيادة متوسط طول اليوم الشمسي بنحو0.001 من الثانية في القرن الواحد، فقد تم الاتفاق على تعيين طول الثانية ذريًّا بأنها الفترة التي يتردد منها قفز الإليكترون من مدار إلى آخر حول نواة ذرة نظير عنصر (السيزيوم 133) نحو تسعة بلايين مرة (9,192,631,770 مرة)، كما يمكن تقسيم الثانية إلى وحدات أقل.

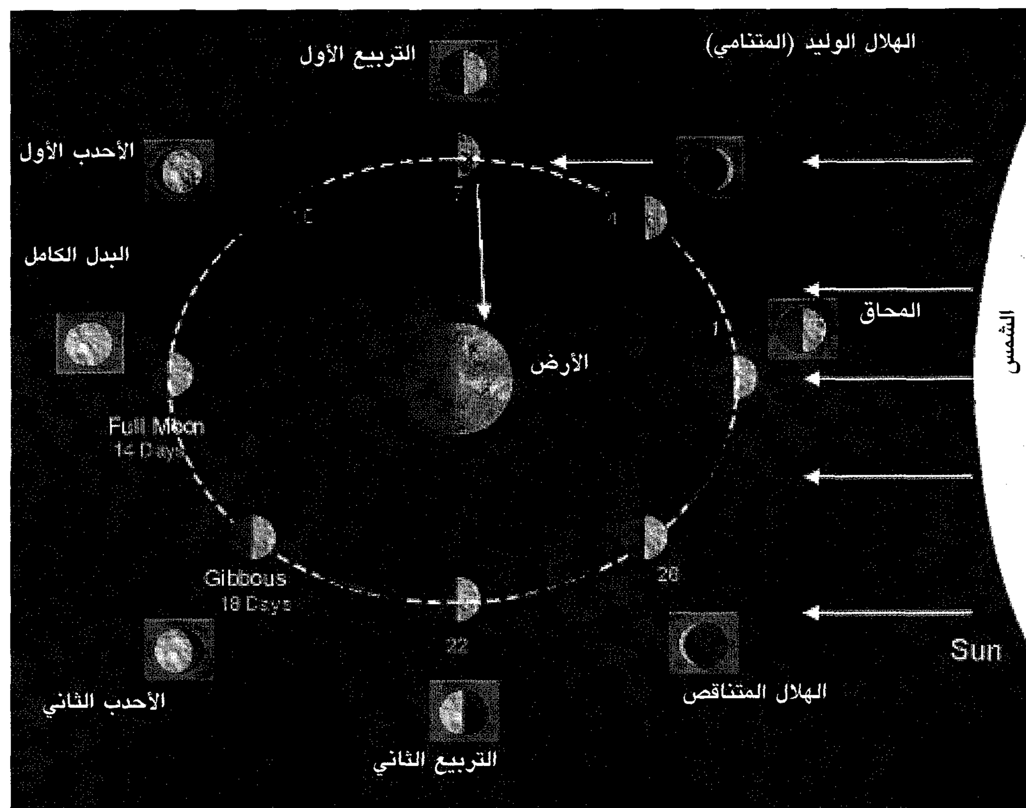
ومع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق يبدو لنا هذا النجم (الشمس) صاعداً من جهة الشرق، وغائباً في جهة الغرب في حركة ظاهرية تحدد لنا كلًّا من ليل ونهار ويوم الأرض؛ وباستخدام كل من المزولة، أو البندول المعلق من سقف مرتفع، أو الساعات ـ باختلاف أنواعها ودرجة دقتها حتى الساعة الذرية ـ يمكن تقسيم كل من الليل والنهار إلى الساعات والدقائق والثواني، وفي بعض الحالات إلى أجزاء من الثانية.

والدورة اليومية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها دورة كاملة في كل يوم تجعل جميع ما نراه في صفحة السماء الدنيا وكأنه يدور من حولنا، وليست الشمس وحدها؛ فبالمثل يبدو القمر وكأنه يطلع على الأرض من جهة الشرق، ويغيب عنها في جهة الغرب، وهذه دورة ظاهرية، وللقمر دورة حقيقية حول محوره المائل على مستوى مداره أمام الأرض بسرعة متوسطة تقدر بنحو 3675 كيلومتراً في الساعة؛ أي نحو كيلومتر واحد في الثانية (1.021كم/ث)، وهي نفس سرعة سبحه حول الأرض في مدار دائري يقدر طوله بنحو 2.4 مليون كيلومتر لتتم هذه الدورة في أكثر قليلاً من السبعة والعشرين يوماً (27.3217يوم)، ولكن نظراً لسبح الأرض حول الشمس في نفس الوقت مما يؤدي إلى تباعد نقطة البداية في كل دورة قمرية عن سابقتها فإن القمر يتم دورتة الشهرية فعلاً في نحو 29,5 يوم (29.5309يوم) هي مدة الشهر القمري. ويقدر متوسط بعد القمر عن الأرض بنحو 384 ألف كيلومتر؛ وبذلك يكون يوم القمر هو الشهر القمري للأرض، وهو يوم يقدر طول كلٍّ من ليله ونهاره بنحو 14,5 يوم أرضي.

ويشترك في تحديد الشهر القمري كلٌّ من الشمس، والقمر، والأرض بأوضاعها

المحددة بالنسبة لبعضها البعض، وكلٍّ من حركاتها الحقيقية، والظاهرية؛ فالقمر في سبحه في مداره حول الأرض، وهو يواجهها بوجه واحد يتم دورته في شهر قمري يتراوح طوله بين 29.53 يوماً (بمتوسط 29,53 يوم) فيبدأ بالخروج من **دور المحاق (طور الاقتران)** بميلاد **الهلال الجديد**، ثم بزيادة مساحة الجزء المنير من سطح القمر بالتدريج يتحرك إلى **التربيع الأول**، ثم **الأحدب الأول**، ثم **البدر الكامل (طور الاستقبال)**، وبعد ذلك تبدأ مساحة الجزء المنير من سطح القمر في التناقص بالتدريج إلى **الأحدب الثاني**، ثم **التربيع الثاني**، ثم **الهلال الأخير** حتى يدخل في **طور المحاق**، فيختفي نور القمر بالكامل لمدة يوم أو يومين حسب طول الشهر القمري، ويعاود الظهور في أول الشهر القمري التالي بميلاد هلال جديد، وهكذا إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الكون بما فيه، ومن فيه.

والأرض تسبح حول الشمس في فلك محدد لها ومعها قمرها؛ لتتم دورة كاملة في سنة شمسية يقدر طولها في زماننا الراهن بنحو (365.25 يوم) موزعة على اثني عشر شهراً



رسم توضيحي لمراحل أشكال القمر المتتالية في خلال الشهر القمري

بعدد بروج السماء. ونظراً لميل محور دوران الأرض فإن **فصول السنة** تتبادل: الربيع، والصيف والخريف، والشتاء، وذلك بتقدير العزيز الحكيم.

ولقد شاءت إرادة الله الخالق ﷻ أن يتحدد يوم الأرض ـ بليله ونهاره ـ عن طريق دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وأن يتحدد شهر الأرض القمري بواسطة دورة القمر الشهرية حول الأرض، ويتحدد شهرها الشمسي عن طريق بروج السماء، وأن يقسم شهرها القمري إلى أسابيع، وأيام بواسطة منازل القمر، وأطواره المتتالية في كل شهر.

والسنة القمرية هي الفترة الزمنية التي يتم فيها القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض، ويستغرق ذلك (354.37 يوم)، ولما كان كسر اليوم يجمع ليكون يوماً في كل ثلاث سنوات تقريباً، اعتبرت السنة القمرية البسيطة 354 يوماً، والكبيسة 355 يوماً؛ بينما تستغرق السنة الشمسية 365.25 يوم.

ومن الناحية الشرعية فإن الشهر القمري يبدأ برؤية الهلال الجديد بعد غروب شمس اليوم التاسع والعشرين أو الثلاثين من الشهر القمري السابق، وينتهي برؤية الهلال الجديد الذي يليه بعد غروب شمس التاسع والعشرين أو الثلاثين منه؛ وعلى ذلك فإن الفترة الزمنية للشهر القمري تكون عدداً صحيحاً من الأيام، إما تسعة وعشرين يوماً، أو ثلاثين يوماً.

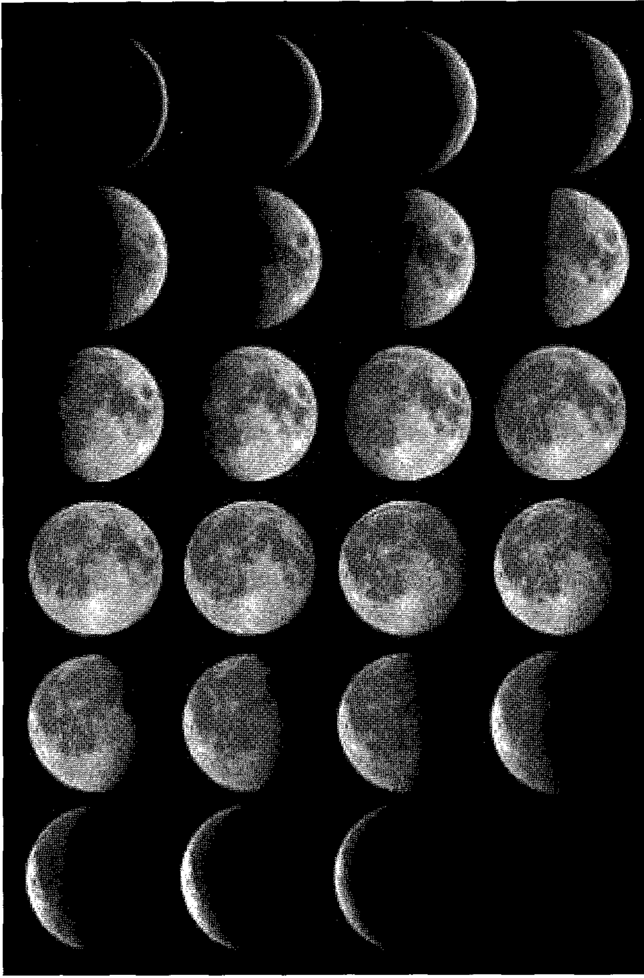
ومن المعلوم أن الطول الفعلي للشهر القمري يتراوح بين (29 يوماً، 5 ساعات)، و (29 يوماً، 19 ساعة أو أكثر قليلاً)؛ وعلى ذلك فإن مدته الوسيطة تقدر بنحو (29 يوماً، 12 ساعة، 44 دقيقة)، وانطلاقاً من ذلك فإن الأشهر الكاملة قد تتوالى مرة أو مرتين، كما قد تتوالي الأشهر الناقصة مرة أو مرتين، وسطح الأرض منقسم إلى قسمين يفصل بينهما **خط اتحاد المطالع**، وجميع الأماكن التي تقع إلى الغرب من هذا الخط إذا رأت الهلال بدأ عندها الشهر القمري الجديد من اليوم التالي للرؤية، بينما جميع الأماكن الواقعة إلى الشرق من خط اتحاد المطالع فإنها لا ترى الهلال إلا في اليوم التالي. واليوم يبدأ في التقويم القمري من غروب الشمس إلى غروبها التالي، وبذلك يكون الليل سابقاً للنهار؛ وفي التقويم الشمسي يبدأ اليوم من منتصف الليل إلى منتصفه التالي.

وعلى ذلك فقد أصبحت حركات كل من الأرض والقمر والشمس معلومة لنا بدقة كبيرة لدرجة أن الساعات الزمنية تضبط اليوم على حركاتها، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿**فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾**﴾ **(الأنعام: 96)**.

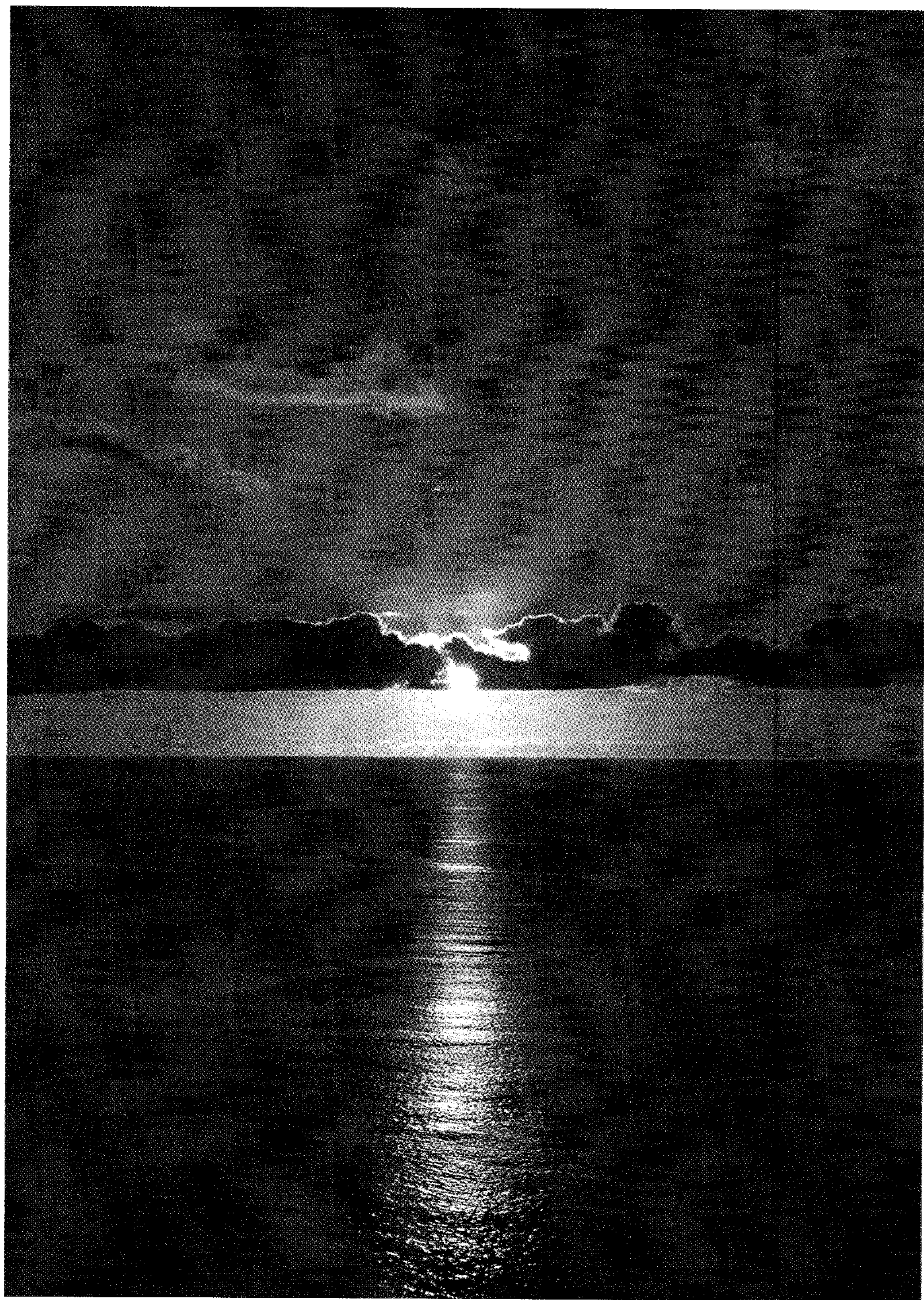
وصدق ربنا ـ العزيز الحكيم ـ الذي أنزل كذلك قوله الحق: ﴿**ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ**

بِحُسۡبَانٖ﴾ (الرحمٰن: 5)، أي بحساب محكم دقيق يعين الإنسان على إدراك الزمن وحسابه والتأريخ للأحداث، وأداء العبادات، والحقوق، والواجبات ولولا ذلك لتعذرت الحياة على الأرض.

وهي قضايا لم يدركها الإنسان إلا بعد قرون طويلة من تنزل القرآن الكريم؛ مما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة، والرسالة للرسول الخاتم الذي تلقاه بحق، وأبلغه بأمانة، وصدق، وجاهد في سبيله حتى أتاه اليقين، فصلَّى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



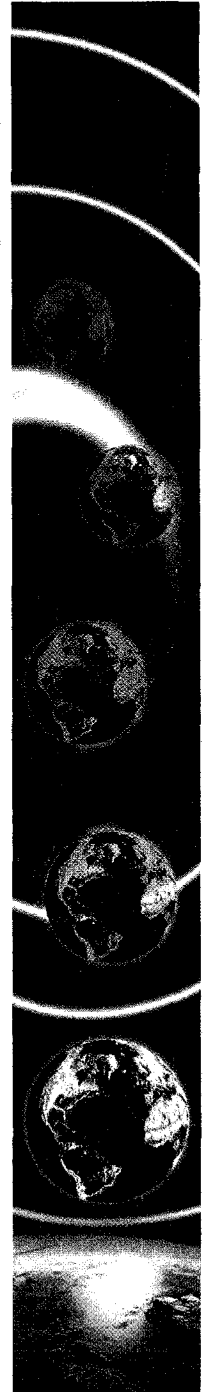
صورة توضح التدرج في زيادة الجزء المنير من سطح القمر مع الزمن في كل شهر قمري ثم تناقصه إلى المحاق.



بسم الله الرحمن الرحيم

(28) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(مريم: 65)



هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الأخير من سورة «مريم»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (98) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود قصة السيدة مريم ابنة عمران فيها، ومعجزة ولادتها للسيد المسيح عليه السلام، وهي عذراء لم يمسسها بشر، ومعجزة كلامه عليه السلام، وهو في المهد دفاعاً عن أمه ـ شرّفها الله ـ التي حاول اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ أن ينالوا من شرفها، كما لوثوا سيرة كل نبي وكل رسول!!

والمحور الرئيسي لسورة «مريم» يدور حول قضية العقيدة بأبعادها المختلفة، وفي مقدمتها توحيد الله، توحيداً مطلقاً فوق كل خلقه، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل نسبة الولد أو الشريك إليه، والتأكيد على طلاقة قدرته التي لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها عائق؛ وترسيخ عقيدة البعث، والحساب، والجنة، والنار، وإثبات وحدة رسالة السماء التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل، وسماها باسم (الإسلام)، والدعوة إلى الاجتهاد في القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن عمارتها، وإقامة عدل الله فيها، وإشاعة الأمن والفضيلة في أرجائها، والتذكير بالآخرة والتحذير من أهوالها...!!

ولتأكيد هذه المعاني تعرض سورة «مريم» لجوانب من القصص المتعلق بعدد من أنبياء الله، كما تعرض لمصارع مكذبيهم في الدنيا من الكفار والمشركين، ولمصيرهم الأسود في الآخرة...!!

وتبدأ سورة «مريم» بخمسة من الحروف المقطعة، وهي (كٓهيعٓصٓ)، وقد وردت بهذة الصيغة مرة واحدة في القرآن الكريم

كله. وهذة الفواتح الهجائية، أو الحروف المقطعة تتكون من أربعة عشر حرفاً، جمعت في أربع عشرة صيغة، ورد كل منها مرة واحدة إلا أربعاً منها هي: (الٓمٓ)، وقد تكررت ست مرات في القرآن الكريم، (الٓر)، وقد تكررت خمس مرات، (طسٓمٓ)، وقد تكررت مرتين، و(حمٓ)، وقد تكررت بمفردها ست مرات، وتكررت مرة سابعة في الصيغة الخماسية (حمٓ* عٓسٓقٓ)، وبذلك يكون مجموع الصيغ المكررة تسع عشرة، ومجموع الصيغ غير المكررة عشرة صيغ، وتضم هذه الفواتح الهجائية أسماء نصف حروف الهجاء الثمانية والعشرين، وقد استفتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم (في أغلب الآراء) وسبع وعشرين (في رأي آخر).

وهذه الفواتح الهجائية هي من أسرار القرآن العظيم، التي توقف عن الخوض فيها أعداد من علماء المسلمين، مكتفين بتفويض الأمر فيها إلى الله ﷻ، ورأى عدد آخر ضرورة الاجتهاد في تفسيرها وفهم دلالاتها ـ وإن لم يصلوا بعد إلى إجماع في ذلك ـ، فمنهم من رأى فيها رموزاً إلى كلمات أو معانٍ، أو أعداد معينة، أو أسماء للسور التي وردت في أوائلها؛ ومنهم من رأى فيها وسيلة قرع لأسماع وقلوب القارئين للقرآن أو المستمعين إليه، حتى يتهيأوا لتلقي كلام الله؛ ومنهم من رأى فيها معجزة لرسول الله ﷺ من حيث نطقه بأسماء الحروف، وهو أمي ـ والأمي ينطق بأصوات الحروف دون معرفة أسمائها ـ؛ ومنهم من رأى فيها تنبيهاً عن إعجاز القرآن الكريم الذي صيغ من جنس تلك الحروف الهجائية التي يتكلم بها العرب، وقد عجزوا ـ ولا يزالون عاجزين ـ عن الإتيان بشيء من مثله، وقد يكون فيها كل ذلك، وغيره مما لايعلمه إلا الله ـ تعالى ـ؛ هذا وقد جمع عدد من المفسرين هذه الحروف في مجموعات من الجمل من أشهرها: (نص حكيم قاطع له سر).

وبعد هذا الاستهلال المميز استعرضت السورة الكريمة ضراعة نبي الله زكريا عليه السلام إلى الله ـ تعالى ـ، خفية، أن يهبه ذرية صالحة، وقد بلغ منه الكبر مبلغاً، وكانت ٱمرأته عاقراً، وكيف استجاب الله لدعائه، ووهبه يحيى نبيًّا، وسيداً، وحصوراً، وكانت ولادته من أم عاقر، وأب طاعن في السن معجزة ناطقة بطلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود.

ثم انتقلت السورة إلى قصة السيدة مريم البتول ـ عليها رضوان الله ـ، وحملها دون أن يمسها بشر، ووضعها لنبي الله عيسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ؛ وإنطاق الله ـ تعالى ـ لهذا الوليد المبارك، وهو في المهد، وما رافق هذه المعجزات من مشاهد وأحداث تؤكد عبودية المسيح لله الخالق ﷻ، وذلك بنطقه المدون في سورة مريم بالنص التالي:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (مريم: 30 ـ 33).

وتستمر الآيات مؤكدة اختلاف كل من اليهود والنصارى حول شخص المسيح ـ على نبينا وعليه السلام ـ، وانحراف غالبية أتباعه عن منهجه، وانقسامهم إلى العديد من الفرق؛ وانغماسهم في بحور من الضلال المبين، ولذلك تتهددهم الآيات بيوم القيامة ومشاهده المفزعة كما تؤكد تنزيه الله ـ تعالى ـ عن الولد، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (مريم: 34 ـ 40).

وبعد ذلك تعرض سورة «مريم» لجانب من قصة نبي الله إبراهيم ـ على نبينا وعليه السلام ـ وحواره مع أبيه، وثباته على الحق الذي شرح الله صدره له، وإكرام الله ـ تعالى ـ له بذرية صالحة من الأنبياء على الرغم من كبر سنه؛ وأتبعت ذلك بالحديث عن سلسلة من أنبياء الله ـ على نبينا وعليهم من الله السلام ـ، ومنهم موسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وجميعهم من ذرية آدم عليه السلام، ومنهم من هو ممن حملهم الله ـ تعالى ـ مع نوح، ومنهم من هو من ذرية كل من إبراهيم، ويعقوب عليهما السلام، وممن هدى الله واجتبى، وقد استغرق الحديث عن هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء ثلثي سورة «مريم» تقريباً.

وقد ألمحت السورة الكريمة إلى انحراف الذين جاءوا من بعد هذه السلسلة الصالحة، فحادوا عن منهج الله، وفيهم تقرأ الآيات:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ (مريم: 59، 60).

واستعرضت السورة جانباً من وصف الجنة؛ ثم انتقلت إلى تأكيد حقيقة أن الملائكة لا تتنزل إلا بأمر الله، وتوصي الرسول الخاتم ﷺ ومن ثم توصي أتباعه بالاصطبار على

عبادة الله وجعلها محوراً للحياة، فتقول:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(مريم: 64، 65).

وتعرج السورة الكريمة إلى إنكار الكثيرين لحقيقة البعث، وتذكرهم بخلقهم الأول من العدم، وتهددهم بحشرهم جثيًّا على ركبهم حول جهنم، وإلقائهم جثيًّا فيها، ونجاة المتقين من هذا المشهد الرهيب.

وتشير سورة «مريم» إلى تفاخر الكفار والمشركين في هذه الدنيا بشيء من حطامها الفاني، ومتاعها الزائل، وتستنكر تعاليهم على المسلمين، وتعييرهم لهم بفقرهم، وترد عليهم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

(مريم: 75).

وتذكِّر السورة الكريمة بالهالكين من الأمم السابقة؛ وبأن الله ـ تعالى ـ يمدّ للضالين في غيّهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، ويزيد الذين اهتدوا هدى، وأنه لا يبقى من هذه الحياة الدنيا إلا العمل الصالح.

وتستعرض السورة مواقف بعض الكفار والمشركين في استعلائهم على الحق وأهله، وصلفهم في التعامل مع الله ومع خلقه، وتطالب الآيات رسول الله ﷺ أن يصبر على أذاهم وبألا يعجل عليهم، لأن حساب الله ينتظرهم في يوم يصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

(مريم: 85، 86).

وعاودت سورة «مريم» الاستنكار الشديد من قبل الله ـ تعالى ـ ومن الكون كله لادعاءات المبطلين نسبة الولد زوراً إلى الله تعالى، وهو ـ ﷻ ـ المنزه عن هذا النقص، المتصف بكل صفات الكمال المطلق، وفي ذلك نزلت الآيات بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (مريم: 88 ـ 92).

وتختتم السورة الكريمة بالقرار الإلهي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ **(مريم: 96).**

وبأن القرآن الكريم قد يسره ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على لسان هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لدًّا.

وتعاود سورة «مريم» التذكير في آخر آياتها بالأمم البائدة التي أهلكها الله ـ تعالى ـ عقاباً على كفرها، وتسأل رسول الله ﷺ: هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم همساً؟ كما توجه السؤال إلى كل الخلق لعلهم يعتبرون، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ۝٩٨﴾ **(مريم: 98).**

والحقائق التاريخية والعلمية التي أوردتها سورة «مريم» أكثر من أن تحصى في مقال واحد، ولذا فسوف أقصر الحديث هنا على آية واحدة هي الآية رقم (65)، التي جاءت فيها الإشارة إلى (السمٰوات والأرض، وما بينهما)، وقبل تبيان الدلالة العلمية التي يمكن استخلاصها من تلك الآية المباركة لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالتها.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾ **(مريم: 65).**

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: . . . «وقوله ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لامعقب لحكمه، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ قال ابن عباس: «هل تعلم للربّ مثلاً أو شبيهاً». وقال عكرمة، عن ابن عباس: «ليس أحد يسمى الرحمٰن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «وهو ﴿رَّبُّ﴾ مالك ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ أي: اصبر عليها ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أي مسمى بذلك؟ لا».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعه ـ ما مختصره: «رب السمٰوات والأرض وما بينهما فلا ربوبية لغيره، ولا شرك معه في هذا الكون الكبير. ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ . . . اعبده واصطبر على تكاليف العبادة، وهي تكاليف الارتقاء إلى أفق

المثول بين يدي المعبود، والثبات في هذا المرتقى العالي. اعبده واحشد نفسك وعبئ طاقتك للقاء والتلقي في ذلك الأفق العلوي... إنها مشقة، مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل مشاغل، ومن كل هاتف، ومن كل التفات... وإنها مع المشقة للذة لايعرفها إلا من ذاقها، ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة، وبالتجرد لها، والاستغراق فيها، والتحفز لها بكل جارحة وخالجة، فهي لاتفشي سرها، ولاتمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعاً».

«﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾... والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر؛ إنما هي كل نشاط: كل حركة، كل خالجة، كل نية، كل اتجاه، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دون سواه، مشقة تحتاج إلى الاصطبار ليتوجه القلب في كل نشاط من أنشطة الأرض إلى السماء، خالصاً من أوشاب الأرض، وأوهاق الضرورات، وشهوات النفس، ومواضعات الحياة».

«إنه منهج حياة كامل، يعيش الإنسان وفقه، وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله، فيرتفع في نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضيء. وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة. ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾.. فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود الذي تتجه إليه الفطر والقلوب.. ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾؟ هل تعرف له نظيراً؟ تعالى الله عن السميّ وعن النظير»...

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ نظيراً أو شبيهاً يستحق العبادة لربوبيته وألوهيته، وكمال تنزهه عن النقائص، واتصافه بصفاته الجليلة».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «فهو سبحانه الخالق المالك للسمٰوات والأرض وما بينهما، والمدبر لشؤونهما، والمستحق وحده للعبادة، فاعبده أيها المخاطب، وثابر على عبادته صابراً مطمئناً، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة، وليس له نظير يستحق العبادة، أو يسمى باسم من أسمائه».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ﴾ أي هو رب العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً؟.

السمٰوات والأرض وما بينهما في القرآن الكريم

ورد تعبير (السمٰوات والأرض وما بينهما) في ثمانية عشر موضعاً من القرآن الكريم، كما جاء تعبير (السماء والأرض وما بينهما) في موضعين من كتاب الله، وبذلك يكون مجموع مرات ورود هذه الإشارة العلمية الدقيقة عشرين مرة على النحو التالي:

(1) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ (المائدة: 17).

(2) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (المائدة: 18).

(3) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾. (الحجر: 85).

(4) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾. (مريم: 65).

(5) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾. (طه: 6).

(6) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾. (الأنبياء: 16).

(7) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾. (الفرقان: 59).

(8) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾. (الشعراء: 24).

(9) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾. (الروم: 8).

(10) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾. (السجدة: 4).

(11) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾. (الصافات: 5).

(12) ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾. (صٓ: 10).

(13) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾. (صٓ: 27).

(14) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾ (صٓ: 66).

(15) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾. (الزخرف: 85).

(16) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧﴾. (الدخان: 7).

(17) ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾ (الدخان: 38).

(18) ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾. (الأحقاف: 3).

(19) ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾. (قٓ: 38).

(20) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾.
(النبإ: 37).

وقد احتار المفسرون في شرح دلالة التعبيرين القرآنيين: (السمٰوات والأرض وما بينهما)، و (السماء والأرض وما بينهما)؛ فمنهم من قال: إنها دلالة على أن جميع الموجودات هي من خلق الله ـ تعالى ـ، وملك يمينه، وتحت قهره، وسلطانه؛ لأن الله تعالى هو المالك لكل شيء، ومنهم من قال: إن هذا النص يشير إلى سائر أجرام السماء من نجوم وكواكب وأقمار وأتربة كونية، وغازات وطاقات يتألف الكون منها، ومنهم من مر بها في صمت ودون أدنى تعليق، ولكن هناك آيتان من آيات القرآن الحكيم تلقيان الضوء على دلالة هذا النص القرآني المعجز (السمٰوات والأرض وما بينهما)، أو (السماء والأرض وما بينهما) في الأولى منهما يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾. (البقرة: 164).

ومن هذه الآية الكريمة يتضح أن السحاب هو مما بين السماء والأرض.

وفي الآية الثانية يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾. (الطلاق: 12).

ومن هذه الآية الكريمة يفهم أن هناك مسافات بينية تفصل كل سماء عن التي تليها، كما تفصل كل أرض عن التي تليها، وتفصل كلًّا من السماء الدنيا، وباقي السمٰوات السبع عن الأرض، ولايتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض في مركز السمٰوات.

ويروى عن رسول الله ﷺ قوله: «**سبحان الله عدد ما خلق في السماء، سبحان الله عدد ما خلق في الأرض، سبحان الله عدد ما بين ذلك، سبحان الله عدد ما هو خالق**»[1]. . .

وقوله ـ ﷺ ـ: «**أطت السماء، وحقّ لها أن تئط. . .، ما من موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك قائم أو راكع أو ساجد يعبد ربه**»[2]. . .

ما بين السمٰوات والأرض في العلوم المكتسبة

تجمع العلوم المكتسبة على أن كلًّا من المادة والطاقة يملأ فسحة الكون بتركيز مختلف، لأن خلق كل من المكان والزمان؛ والمادة والطاقة قد تزامن مع عملية الانفجار العظيم (فتق الرتق)، فلا يمكن تصور مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لايمكن تصور مكان وزمان بغير مادة وطاقة. فكل من المادة والطاقة يتكثف في مختلف أجرام السماء بتركيز مختلف، كما يوجد بكثافات قليلة ومتباينة بين كل جرم والآخر، وتحرك المادة والطاقة بين السماء الدنيا وأجرامها من الأمور الثابتة علميًّا التي أكدتها الدراسات الفلكية، ومن أمثلتها: تخلق النجوم من الدخان الكوني، وعودتها إليه بانفجارها في دورة حياة النجوم، ومن أمثلتها كذلك: انتثار الكواكب وعودة مادتها إلى الغبار الكوني أو إلى الشهب والنيازك التي إما أن تحترق أو تتهاوى على عدد من أجرام السماء.

وقد فصلنا في مقال سابق تركيب كل نطاق من نطق الغلاف الغازي للأرض، وتناقص تركيز كل من المادة والطاقة بالارتفاع فيه حتى يتداخل في تركيب الجزء الأسفل من السماء الدنيا مكوناً خليطاً من مادتهما لعله المقصود بالبينية الفاصلة بين الأرض والسماء الدنيا؛ وهذه المادة الفاصلة بين السماء والأرض تكونت باختلاط ما تصاعد من فوهات البراكين مع ما كان حول الأرض من مادة ما بين الكواكب، فتكون الخليط المعروف باسم الغلاف الغازي للأرض وهو خليط مكون من مادة الأرض، ومادة السماء الدنيا، فحق له أن يفصل بين كل منهما بوصف القرآن الكريم له بصفة البينية **(السماء والأرض وما بينهما)**.

وأول نطق الغلاف الغازي للأرض هو **نطاق الرجع** أو نطاق التغيرات الجوية أو نطاق

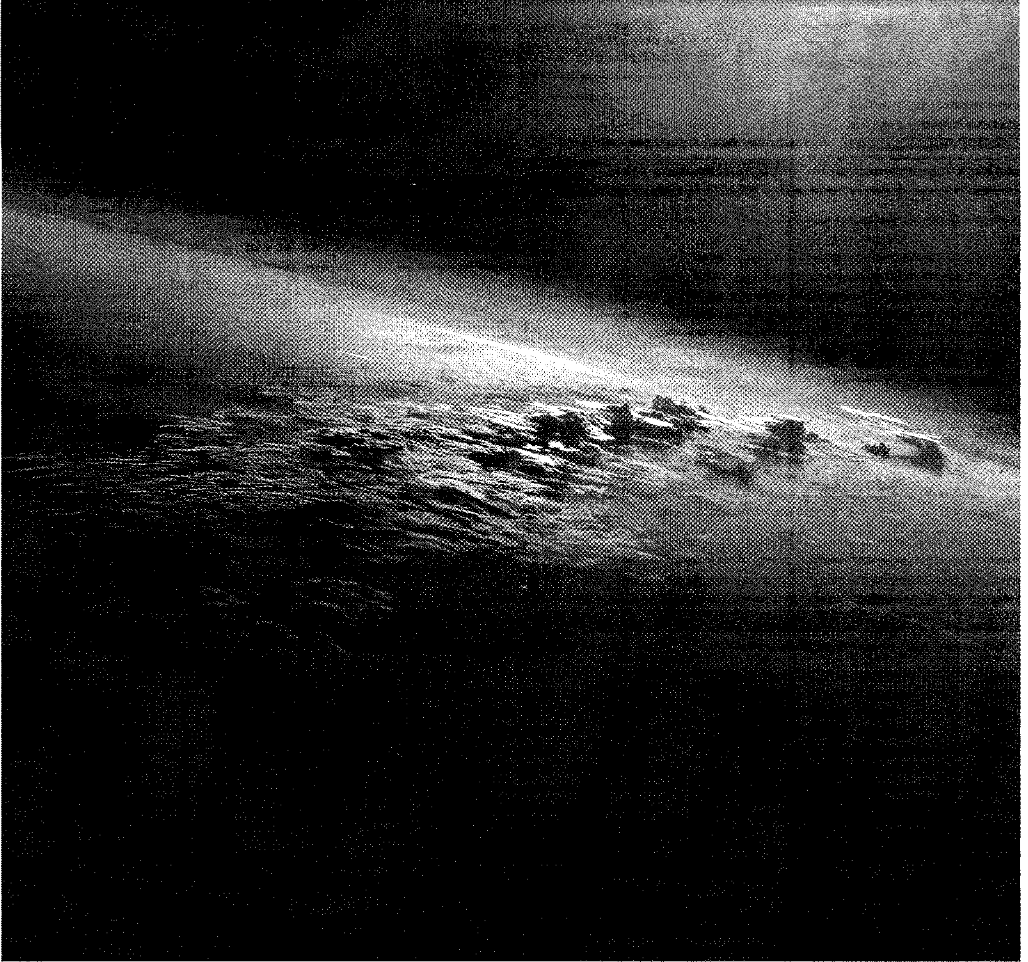
---

(1) أخرجه مسلم (الحديث: 780).

(2) تقدم تخريجه.

الطقس، ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع نحو 17 كيلومتراً فوق خط الاستواء (ويتناقص هذا السمك إلى ما بين 6، 8 كيلومترات فوق القطبين؛ ويختلف فوق مناطق العروض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية فينكمش إلى ما دون السبعة كيلومترات في مناطق الضغط المنخفض ويتمدد إلى نحو 13 كيلومتراً في مناطق الضغط المرتفع).

ويضم نطاق الرجع نحو ثلث كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%)، وتتناقص درجة الحرارة فيه باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط



صورة للأرض ويبدو فيها جَلياً نطاق الرجع الذي تتجمع فيه السحب ويمثل فاصلاً حقيقياً بين الأرض والسماء

الاستواء، وذلك في قمة هذا النطاق المعروفة باسم **مستوى الركود الجوي**، ويتناقص عنده الضغط إلى نحو عشر قيمته عند سطح البحر.

وفي هذا النطاق يتكثف بخار الماء الصاعد من الأرض مكوناً السحب، ومنها يهطل كل من المطر والبرد والثلج بإذن الله، وتحدث ظواهر الرعد والبرق، والعواصف، والدوامات وتيارات الحمل الهوائية، وغير ذلك من حركات الرياح، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:... ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. **(البقرة: 164)**.

وعلى ذلك فإن نطاق الرجع ومن فوقه بقية نطق الغلاف الغازي للأرض حتى حدود النطاق المغناطيسي يمثل فاصلاً حقيقيًا بين الأرض والسماء الدنيا، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه (**البينية**) من قبل ألف وأربعمائة سنة يعتبر ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله، لم يصل إليها علم البشر إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

الأهمية العلمية للتعبير القرآني (السمٰوات والأرض وما بينهما)

إضافة إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة في عشرين موضعاً منه إلى (ما بين السماء والأرض) أو (ما بين السمٰوات والأرض)، وهو سبق علمي حقيقي لم تدركه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، فإن هذه الإشارة المعجزة تحوي من الحقائق العلمية ما يفوق هذا الكشف العلمي أهمية وجدارة، وذلك لأن أول ما يمكن استنتاجه من هذا النص القرآني هو **توسط الأرض للسماء الدنيا وللسمٰوات السبع كلها**، لأنها متطابقة يغلف الخارج منها الداخل، وهي حقيقة لايمكن للإنسان أن يصل إليها لأنه على الرغم من تقدمه العلمي والتقني المذهل فهو محدود بحدود حسه وعقله، وبحدود مكانه؛ أي وجوده على كوكب الأرض، وبحدود زمانه؛ أي عمره؛ ومن هنا فإن الإنسان لايستطيع أن يدرك من الكون إلا جزءاً صغيراً من السماء الدنيا، وهذا الجزء الصغير مليء بالغيوب من مثل الثقوب السود، المادة الداكنة، الكتل المفقودة، وغيرها مما يرغم علماء الفلك والفيزياء الفلكية على الاعتراف بأن أقصى ما يمكن إدراكه في الجزء المشاهد من الكون لا يتعدى عشرة بالمائة من مجموع المادة والطاقة الموجودة فيه.

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يؤكدان توسط الأرض للكون

• إن مقابلة القرآن الكريم (في مئات من آياته) للأرض مع السماء أو مع السمٰوات على ضآلة أبعاد الأرض بالنسبة إلى أبعاد السمٰوات يؤكد أهمية موقع الأرض من الكون.

• إن ذكر القرآن الكريم للنصين (السمٰوات والأرض وما بينهما)، و (السماء والأرض وما بينهما) في عشرين موضعاً منه يؤكد مركزية الأرض من السماء الدنيا، ومن مجموع السمٰوات السبع؛ وذلك لأن هذه البينية لايمكن أن تتم لو لم تكن الأرض في مركز السمٰوات السبع.

• ويؤكد ذلك جمع القرآن الكريم لأقطار السمٰوات والأرض في وصف واحد كما جاء في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ (الرحمٰن: 33).

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه، مروراً بمركزه، فإذا توحدت أقطار السمٰوات والأرض؛ فمعنى ذلك أن الأرض لا بد وأن تكون في مركز الكون.

• ويؤكد ماسبق حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه مجاهد عنه بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»[1] أي في وضع متوسط منها؛ لأن الوصف (مناء) معناه قصده وعلى حذاه.

ومن أقوال رسول الله ﷺ: «**البيت المعمور منا مكة**»[2]؛ أي في مقابلتها وبمحاذاتها.

ويروى كل من قتادة والسدي عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه مسجد في السماء السابعة بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم**»[3].

(1) رواه ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (4/ 368)
(2) رواه ابن الجوزي في غريب الحديث (2/ 376)
(3) أخرجه الطبري في تفسيره (الحديث: 27/ 17)

• ويزيد ذلك تأكيداً حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «**كانت الكعبة خشعة على الماء، فدحيت منها الأرض**»(1)؛ والخشعة هي أكمة متواضعة.

وتأتي أبحاث الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعه ـ لتؤكد توسط مكة لليابسة، فتبرز جانباً من جوانب التكريم المادي الملموس لهذا المكان الطيب الطاهر الذي فضله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على كل أماكن الأرض فجعل فيه كعبته المشرفة أول بيت عبد الله فيه على الأرض، وجعلها قبلة للمصلين حيثما كانوا، وللحج والعمرة للقادرين من المسلمين، ولو لمرة واحدة في العمر ليتعرضوا لبركات هذا المكان الذي جعل الله ﷻ الصلاة فيه بمائة ألف صلاة كما أخبرنا الحبيب المصطفى ﷺ(2).

ويأتي العلم في أوج عطائه ليؤكد لنا توسط مكة ليابسة الأرض، وتأتي أحاديث رسول الله ﷺ مؤكدة قيام موقع الكعبة المشرفة الذي هو أصل اليابسة على حيال البيت المعمور في السماء السابعة، ويأتي القرآن الكريم مؤكداً توسط الأرض للسمٰوات السبع حتى تبقى الكعبة المشرفة مركز الكون بأسره، وهي حقيقة لايمكن للعلوم المكتسبة أن تصل إليها أبداً. . . !!

فسبحان الذي خلق الأكوان وأنشأ نظمها بعلمه وجعل الكعبة مركزاً لكونه. . . !!

وسبحان الذي أنزل القرآن، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه فحفظ بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظ حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الذي جمع به على عهد رسول الله ﷺ، والموجود في بلايين المصاحف والأسطوانات والأشرطة الممغنطة، والذي نقل لنا متواتراً عبر بلايين الصدور ولايزال يحفظ في البلايين منها، وذلك خلال الألف والأربعمائة سنة الماضية، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. . . !

فالحمد لله منزل القرآن الكريم، والصلاة والسلام على الرسول الخاتم الذي تلقاه، ونقله إلينا بأمانة، وعاش به وله، فأقام أعظم دولة عرفها التاريخ، ولعل الله تعالى يعيننا على أن نعيد للقرآن الكريم دولته وسط الفوضى العالمية التي اجتاحت الأرض كلها في غيبة الاحتكام إلى شريعة الله. . . !! ووسط السقوط بين مخالب طواغيت الأرض. . . !!! وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) رواه الزمخشري في غريب الحديث (1/ 286).

(2) أخرجه ابن ماجه في السنن (الحديث: 1406)، ورواه الفاكهي في أخبار مكة (الحديث: 1183)

بسم الله الرحمن الرحيم

(29) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾

(طه: 6)



هذه الآية الكريمة جاءت في مقدمات سورة «طه» وهي سورة مكية، وعدد آياتها (135) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم تكريماً لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ لأن (طه) اسم من أسمائه الشريفة بدليل توجيه الخطاب إليه مباشرة بعد هذا النداء، وإن اعتبره نفر من المفسرين من المقطعات الهجائية التي استهل بها عدد من سور القرآن الكريم.

والخطاب من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فيه من التكريم، والتشريف ما فيه، خاصة أنه قد جاء تطييباً لخاطره، وتسرية عنه، وتخفيفاً لثقل ما كان يلقاه من كفار قريش ومشركيها من إنكار لنبوته، وتكذيب لرسالته، وصد لدعوته، وتجريح لشخصه الكريم وهو الذي اشتهر بينهم بالصادق الأمين.

والسورة من بدايتها إلى نهايتها خطاب موجه من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ، وفي هذا الخطاب الإلهي تأكيد لنبوته، وتأييد لرسالته، وتهوين للأمر عليه بحصر رسالته في البلاغ عن الله ـ تعالى ـ، والإنذار والتبشير، وترك الخيار للناس، استجاب من استجاب، وأبى من أبى لأن أمرهم بعد ذلك متروك لله وحده... ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. **(البقرة: 284)**

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية، وفي مقدمتها الإيمان بالله، وتوحيده ﷻ وتنزيهه عن كل وصف لايليق بجلاله، والإيمان بملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبحقيقة الوحي، ونبوة الأنبياء والمرسلين، وحتمية البعث

والنشور، والحساب والجزاء بعد العرض الأكبر أمام الله ـ تعالى ـ، ولذلك أوردت السورة الكريمة بعض مشاهد القيامة، وأحداث يوم الحشر حتى يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار.

كذلك عرضت السورة الكريمة لقصة موسى وهارون عليهما السلام بتفاصيلها، ومن ذلك موقفهما مع فرعون مصر، وما دار بينهما من حوارات وجدل انتهى بتحدي السحرة وهزيمتهم، ثم خضوعهم لأمر الله وإيمانهم به سبحانه وتعالى وبما جاء به موسى، وغير ذلك من تفاصيل لموقف المناجاة، والتكليف بالرسالة، وتمتدح السورة القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى قرآناً عربياً، وصرّف فيه من الوعيد لعل الخلق يتقون أو يحدث لهم القرآن عظة واعتباراً.

وفي عجالة عرضت هذه السورة الكريمة ـ أيضاً ـ لقصة أبينا آدم عليه السلام الذي غفر الله سبحانه وتعالى له خطيئته، وهداه كما هدى ذريته بإرسال الأنبياء والمرسلين إليهم مبشرين ومنذرين، وترك الخيار للناس؛ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل.

وختمت سورة «طه» كما بدئت بخطاب إلى رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم أن يصبر على ما يقول الكفار والمشركون، وأن يسبح بحمد الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن آناء الليل وأطراف النهار، وأن يأمر أهله بالصلاة وأن يصطبر عليها، وأن ينفض يده من الكفار والمشركين بعد أن يخبرهم بقرار رب العالمين الذي يقول فيه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾. (طه: 135).

والخطاب كما كان موجهاً إلى كفار ومشركي قريش هو موجه إلى الكفار والمشركين، وإلى الظلمة المتجبرين على الخلق في كل زمان وعصر إلى قيام الساعة.. خاصة في زمن الفتن الذي يعيشه أهل عصرنا في هذه الأيام النحسات من تاريخ البشرية على هذه الأرض..!!

من ركائز العقيدة في سورة طه

(1) إن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرته السورة الكريمة باسم (طه)، وأنزلت السورة لتكون تذكرة لمن يخشى.

(2) إن الله ـ تعالى ـ هو خالق الأرض والسموات العلى الذي أعطى كل شيء خلقه

ثم هدى، وأنه ﷻ هو الرحمٰن على العرش استوى (استواء يليق بجلاله) وأن من صفاته ﷻ أنه لايضل ولا ينسى.

(3) وأن له ﷻ ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

(4) وأنه ﷻ يعلم السر وأخفى، وأنه وسع كل شيء علماً، وأنه يعلم مابين أيدي خلقه وما خلفهم، ولايحيطون به علماً، وأنه لا إلٰه إلا هو له الأسماء الحسنى.

(5) وأنه ـ تعالى ـ خلق الناس من الأرض، وفيها يعيدهم، ومنها يخرجهم تارة أُخرى.

(6) أن عبادة الله ـ تعالى ـ بما أمر، وإقامة الصلاة لذكره جلت قدرته هي من حقوق الله ﷻ على خلقه، ومن هنا فلا يجوز التقصير فيها أبداً، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾. **(طه: 124 ـ 127).**

(7) أن الساعة آتية لا محالة، يكاد الله ـ تعالى ـ يخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، وأن من لايؤمن بها كافر هالك، وأن العذاب على من كذب وتولى، وأنه قد خاب من افترى.

(8) أنــه ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾. **(طه: 74 ـ 76).**

(9) وأن من يحلل عليه غضب الله فقد هوى، وأن الله ـ تعالى ـ ﴿لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾. **(طه: 82).**

(10) أن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأن السحر من الكبائر.

﴿. . . وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ (طه: 69)، وأنه من أبشع أنواع الظلم..

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾. **(طه: 111).**

(11) أنه لا يجوز للمسلم أن يكشف عورات إنسان آخر، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾. **(طه: 131).**

من الإشارات الكونية في سورة طه

(1) إن الله ـ تعالى ـ هو خالق الأرض والسمٰوات العلى؛ بمعنى أنها كلها مخلوقة، وليست أزلية ولا أبدية، بل لها بداية يحاول العلم التجريبي حسابها، وكل ما له بداية لا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية (طه: الآية4).

(2) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾. (طه: 6).

في الآية الكريمة إشارة إلى مركزية الأرض من الكون، وإلى وجود حياة مزدهرة في قطاع التربة، وهي حقائق لم تكن معروفة لأحد من الخلق غير رسول الله ﷺ في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وتظل مجهولة لغالبية الناس في زمن تفجر المعارف العلمية الذي نعيشه اليوم.

(3) ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾. (طه: 7).

وهي إشارة إلى ثلاث مراتب من التعبير وهي: الجهر الذي يعلمه صاحبه، ويعلمه من سمعه، ويعلمه الله ـ تعالى ـ، والسر هو ما حدث الإنسان به غيره في خفاء، والذي يعلمه صاحبه ومن أسر به إليه ويعلمه الله، ويجهله من لم يسمع به، والأخفى هو الأخفى من السر، وقد يشير إلى الخواطر النفسية التي لا يحدث المرء بها غيره أو ما يعرف باسم حديث النفس، أو هو ما استقر في العقل الباطن ولا يدري به صاحبه ولكن الله ـ تعالى ـ يعلمه لأنه سبحانه وتعالى علام الغيوب.

(4) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾. (طه: 50).

وهي إشارة إلى حقيقة الخلق وربوبية الخالق سبحانه وتعالى وإلى السنن الحاكمة لكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون وهي كلها من أمر الله وهدايته.

(5) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾(طه: 53 ـ 55).

في هذه الآيات الكريمة إشارات إلى تمهيد الأرض، وشق السبل فيها، وإنزال الماء من السماء في دورته حول الأرض، وإخراج مئات الآلاف من أنواع النبات المختلفة، وكلها في زوجية واضحة، وهي سنّة عمّمها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على جميع خلقه حتى يبقى متفرداً بالوحدانية المطلقة دون سواه سبحانه وتعالى.

ثم تأمر الآيات الإنسان بالأكل مما خلق له الله ـ تعالى ـ من هذه النباتات، ويرعى فيها أنعامه، وأن يتأملها بنظرة العاقل البصير؛ لأن في كل منها آيات لأولي النهي.

وتؤكد الآيات خلق الخلق من الأرض، ودفنهم فيها، وحتمية إخراجهم منها.

(6) الإشارة إلى معجزة شق البحر لنبي الله موسى ﷺ ولمن آمن معه. والمعجزات خوارق للسنن، وبالتالي لا تستطيع العلوم المكتسبة تفسيرها، ولكن من رحمة الله بخلقه أن يترك لهم عدداً من الآثار الحسية المترتبة على وقوع المعجزة حتى يمكنهم التسليم بوقوعها، وليتنا نهتم بتحقيق تلك الشواهد الحسية وبإبرازها للناس على هيئة ورقة دعوية مقنعة في زمن العلم الذي نعيشه.

(7) وصف مصير الجبال في الآخرة وصفاً علمياً دقيقاً، وإن كنا نؤمن بأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تماماً، إلا أنه من رحمة الله بنا أن يبقي لنا من الشواهد الحسية في صخور الأرض، وفي صفحة السماء مايؤكد إمكانية حدوث ماوصفه الله ـ تعالى ـ في الآخرة، وفي وصف نهاية الجبال في الآخرة يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة (طه) ما نصه:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾. **(طه: 105 ـ 107).**

ونحن نرى في حياتنا الدنيا أن الجبال تتكون بعمليات الطي (العوج) أو عمليات التصدع وما لها من صفات لرفع سطح الأرض وخفضه (الأمت)، وقد تشترك العمليتان في تشكيل العديد من جبال الأرض اليوم، وهي حقائق لم تدرك إلا بعد تطور المعارف العلمية في مجال علوم الأرض عبر القرنين الماضيين، وورودها في كتاب أنزل من قبل أربعة عشر قرناً، على نبي أمي ﷺ، وفي أُمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمما يجزم بأن القرآن الكريم لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد ﷻ بحفظه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، فحفظ، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ولذلك بقي محتفظاً بجلال الربوبية الذي يتلألأ بين آياته وكلماته، وبعدد من صفاته التي تشهد بإعجازه ومن أوضحها الآيات الكونية في هذا الكتاب العزيز الذي قال عنه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾. **(الحجر: 9)**

وكل آية من هذه الآيات الكونية التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة (طه)

تحتاج إلى معالجة خاصة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية من القائمة السابقة، التي جاءت في الآية السادسة من سورة (طه)، وقبل البدء في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ :

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾. (طه: 6)

• ذكر ابن كثير رحمه الله مامختصره:... «وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته، وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه، وإلهه لا إله سواه، وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة...

وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ هو التراب الندي، والمراد: الأرضون السبع لأنها تحته..

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه:

.. «ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾.. والمشاهد الكونية تستخدم في التعبير لإبراز معنى الملك والإحاطة في صورة يدركها التصور البشري.

والأمر أكبر من ذلك جداً. ولله ما في الوجود كله وهو أكبر مما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى..

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبها ـ ما نصه:

..﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ الثرى: التراب الندي. يقال: ثريت الأرض كرضيت ثرياً فهي ثرية، إذا نديت ولانت بعد الجدوبة واليبس، والمراد: ماوراء الثرى وهو تخوم الأرض إلى نهايتها، وخص بالذكر مع دخوله في قوله: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لزيادة التقرير.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «له وحده سبحانه ملك السمٰوات وما فيها والأرض وما عليها، وملك ما بينهما، وما اختبأ في الأرض من معادن وخيرات.

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه:..

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كله: السمٰوات السبع، والأرضون وما بينهما من المخلوقات، وما تحت التراب من معادن ومكنونات، الكل ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه..

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: ما في السمٰوات: (السماء) لغة اسم مشتق من السمو بمعنى الارتفاع والعلو؛ وعلى ذلك فإن سماء كل شيء أعلاه، ولذلك قيل: كل ما علاك فأظلك فهو سماء، والسماء الدنيا هي كل ما يقابل الأرض من الكون؛ ويراد بها ذلك العالم العلوي من حولنا الذي يضم الأجرام السماوية المختلفة الموجودة على هيئات متعددة وما يوجد فيها أو حولها أو ينتج منها أو عنها من مختلف صور الطاقة التي تملأ فسحة الكون بصورة واضحة جلية، أو مستترة خفية.

وقد خلق الله ـ تعالى ـ السماء وهو خالق كل شيء ورفعها بغير عمد نراها، وجعل لها عماراً من الملائكة، ومما لا نعلم من الخلق، وحرسها من كل شيطان مارد، فهي محفوظة بحفظه ـ تعالى ـ إلى أن يرث هذا الكون بما فيه ومن فيه.

أما من الناحية الفلكية فإن علماء الفلك يقدرون الجزء المدرك من الكون المرئي بأكثر من أربعة وعشرين بليوناً من السنين الضوئية (24 بليوناً 9.5 مليون مليون كم = 228 ألف مليون مليون مليون كم)، وهذا كله في السماء الدنيا، وهي دائمة الاتساع بسرعات مذهلة إلى نهاية لايعلمها إلا الله ﷻ وذلك لقوله ـ تعالى ـ:

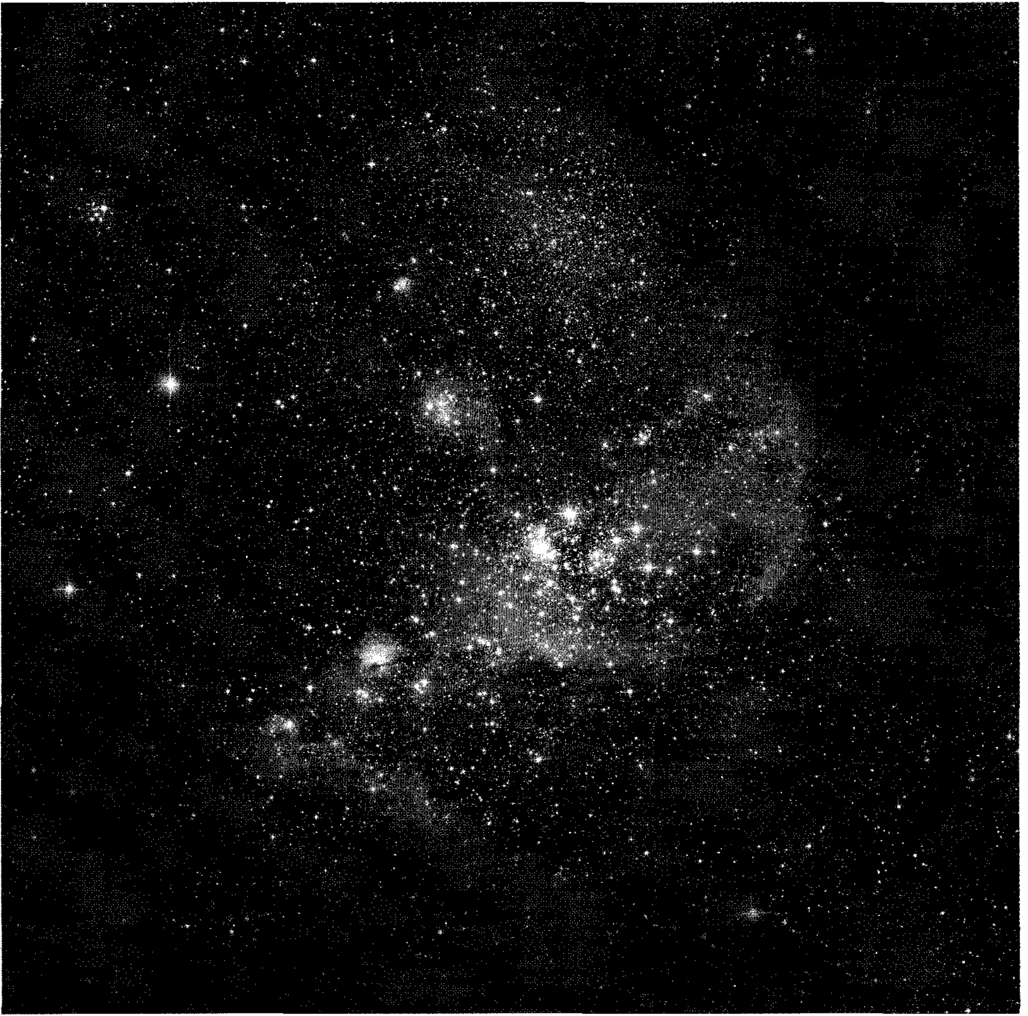
﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ . . . (الملك: 5).

ولقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ (الذاريات: 47).

وهذا الجزء المدرك من الكون مبني بدقة بالغة، وعلى نمط واحد، يبدأ بتجمعات عدد من الكواكب، والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والشهب، والنيازك حول نجم من النجوم التي تنتظم بملايين الملايين في مجرات، وتنتظم المجرات في مجموعات محلية، ثم في الحشود المجرية، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية، ثم في حشود مجرية عظمى، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية العظمى إلى ما هو أكبر من ذلك في تصاعد إلى نهاية لايعلمها إلا الله ﷻ.

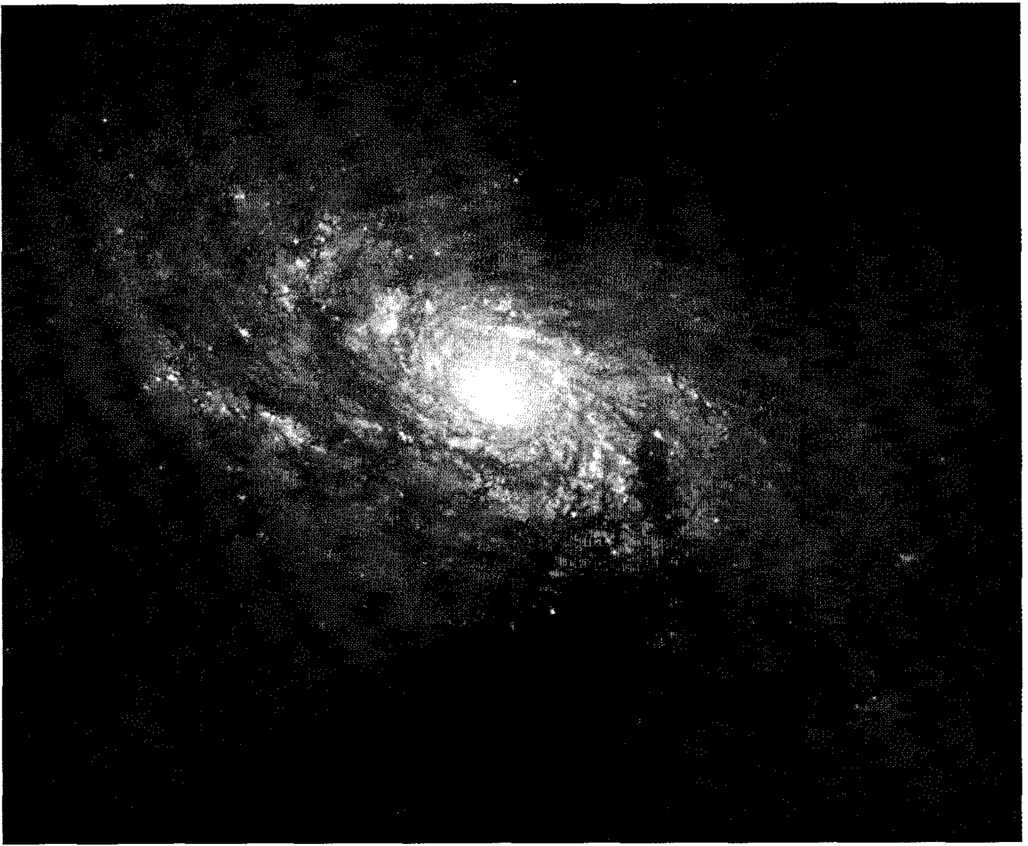
ويحصي العلماء في الجزء المدرك من السماء الدنيا أكثر من مائتي ألف مليون



السحب الدخانية والنجوم هي مما بين السماء والأرض

مجرة، بعضها أكبر كثيراً من مجرتنا (مجرة الطريق اللبني، درب اللبانة، أو سكة التبانة)، والبعض الآخر أصغر قليلاً منها، وبالمجرات أيضاً السدم بمختلف أشكالها وأحجامها، والمادة الداكنة أو المادة الخفية.

وتنتشر المادة بين النجوم، وبين المجرات على هيئة سحب دخانية يغلب على تركيبها غاز الأيدروجين المحمّل بهباءات متناهية الدقة من المواد الصلبة، وتتخلق النجوم من الدخان الكوني في داخل السدم. وللنجوم مراحل حياة من الميلاد والطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة والاحتضار لتعود إلى دخان السماء، ومن مراحل النجوم ما يعرف



صورة لإحدى المجرات وهي تشبه مجرتنا درب اللبانة

باسم النجوم الابتدائية (ومنها النجوم العادية، ومنها العماليق الضخمة)، وعند انفجار النجوم العادية تتحول حسب كتلتها إلى العماليق الحمر أو العماليق الحمر العظام، وبعد ذلك تتحول العماليق الحمر إلى السدم الكوكبية والأقزام البيض، ثم إلى المستعر الأعظم من النوع الأول ويتحول العملاق الأحمر الأعظم إلى المستعر الأعظم من النوع الثاني ثم إلى النجم النيوتروني أو إلى الثقب الأسود حسب الكتلة الابتدائية للنجم.

وهناك أيضاً أشباه النجوم وهي أجسام ضئيلة الكثافة جداً تنتشر على أطراف الجزء المدرك من السماء الدنيا وتصدر موجات راديوية عالية، وإن كان بعضها صامتاً لا يصدر مثل تلك الموجات.

وهذه الأجرام المعروفة لنا في الجزء المدرك من السماء الدنيا لا يعرف أحد من أهل العلم إن كانت معمورة بخلق من خلق الله أم لا، ولكن الآية القرآنية الكريمة التاسعة والعشرين من سورة الشورى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۢ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌۭ﴾ **(الشورى: 29)**.

وهذة الآية الكريمة تشير إلى وجود خلق في السمٰوات.

والعلوم المكتسبة لا تعرف إلا جزءاً يسيراً من السماء الدنيا، ولولا أن الله ـ تعالى ـ قد أخبرنا في محكم كتابه أنه خلق سبع سمٰوات طباقاً ما كان أمام الإنسان من وسيلة لإدراك ذلك، والسمٰوات السبع وما فيها ومن فيها ملك لله الخالق ﷻ وحده.

ثانياً: وما في الأرض:

يقدر حجم الأرض بمائة وثمانية ملايين كيلومتر مكعب، ومتوسط كثافتها بحوالي 5.25 جم/سم^3، تقدر كتلتها بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن، والأرض بداخلها ست أرضين على النحو التالي:

1 ـ **الأرض الأولى:** وتتمثل بقشرة الأرض الصلبة التي نحيا عليها، ويتراوح سمكها بين حوالي 5، 8 كيلومترات تحت المحيطات وبين 30، 40 كيلومتراً في القارات.

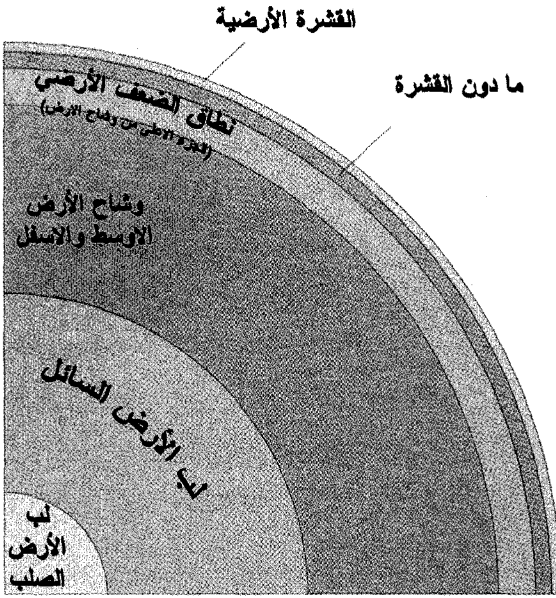
2 ـ **الأرض الثانية:** وتتمثل بما دون القشرة من الغلاف الصخري للأرض ويتراوح سمكها بين 60، 70 كيلومتراً تحت المحيطات، و80 و90 كيلومتراً تحت القارات.

3 ـ **الأرض الثالثة:** وتمثل بالجزء العلوي من وشاح الأرض والذي يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي وتوجد فيه الصخور في حالة لدنة، شبه منصهرة، عالية الكثافة واللزوجة، ويقدر سمكها بحوالي 280 كيلومتراً (من عمق 120 كم إلى عمق 400 كم).

4 ـ **الأرض الرابعة:** وتعرف باسم الجزء الأوسط من وشاح الأرض، وتوجد فيه الصخور في حالة صلبة جامدة، ويقدر سمكها بحوالي 270 كيلومتراً (من عمق 400 كم إلى عمق 670).

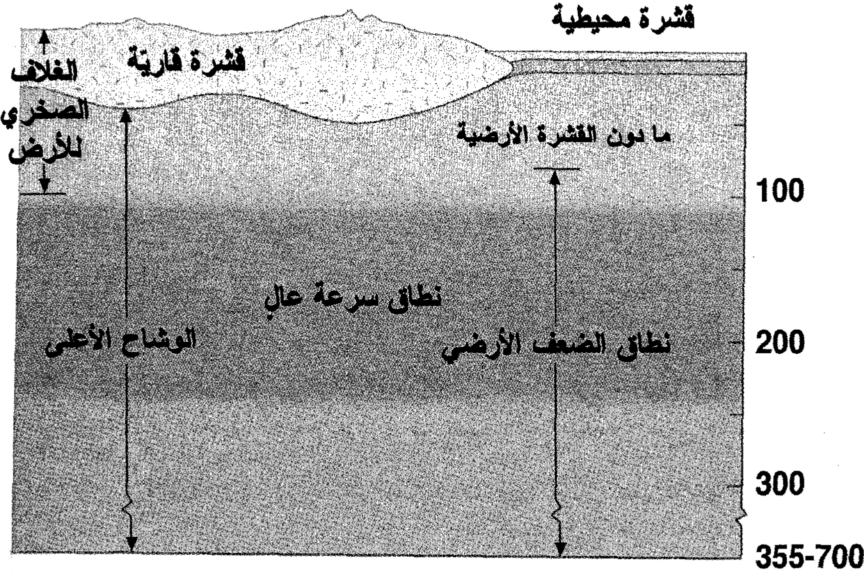
5 ـ **الأرض الخامسة:** وتعرف باسم الجزء السفلي من وشاح الأرض، وتوجد فيه الصخور في حالة صلبة جامدة، ويقدر سمكها بحوالي 2215 كيلومتراً (من عمق 670 كم إلى عمق 2885 كم تحت مستوى سطح البحر).

6 ـ **الأرض السادسة:** وتعرف باسم لب الأرض السائل، ويتكون أساساً من الحديد (90%) والنيكل (9%) وقليل من العناصر الخفيفة (1%) والكل في حالة منصهرة، ويبلغ سمك الأرض السادسة حوالي (2270) كيلومتراً (من عمق 2885 كم إلى عمق 5155 كم تحت مستوى سطح البحر).



7 ـ الأرض السابعة: وتعرف باسم لب الأرض الصلب وهو عبارة عن كرة مصمطة من الحديد (90%) والنيكل (9%) وبعض العناصر الخفيفة مثل الكبريت، والفوسفور، والكربون أو السيليكون (1%) ويبلغ نصف قطر هذه النواة حوالي (1216) كيلومتراً.

وعلى ذلك يقدر متوسط نصف قطر الأرض بحوالي 6371 كيلومتراً، ومتوسط محيطها بحوالي 40042 كيلومتراً، ومساحة سطحها بحوالي 510 ملايين كيلومتر.



ويقدر حجم الغلاف المائي للأرض بحوالي 1.4 بليون كيلومتر مكعب، تغطي مساحة 362 مليون كيلومتر مربع من مساحة سطح الأرض، تاركة 148 مليون كيلومتر مربع من اليابسة.

ويحيا على سطح الأرض اليوم أكثر من سبعة مليارات نسمة من الآدميين ترجع كلها إلى أب واحد هو آدم عليه السلام، وأم واحدة هي حواء ـ عليها رضوان الله ـ.

ويعيش على سطح الأرض وفي أوساطها المائية أكثر من مليون ونصف المليون نوع من أنواع الحياة، بالإضافة إلى وجود سجل أحفوري لأكثر من ربع مليون نوع من الأحافير المنقرضة، وبمعدل الاكتشافات السنوية لأنواع جديدة من أنواع الحياة المزدهرة اليوم والمنقرضة التي تكتشف بقاياها في صخور الأرض على هيئة الأحافير، يعتقد العلماء أن عدد أنواع الحياة على الأرض يصل إلى حوالي خمسة ملايين نوع، مُثِّل كل منها في الماضي أو يمثل اليوم ببلايين الأفراد.

ويقدر أقل عمر للأرض بحوالي الخمسة بلايين من السنين (4,600,000,000 سنة)، بينما يقدر عمر الكون بأكثر من عشرة بلايين من السنين، ويقدر متوسط عمر الإنسان بحوالي الخمسين سنة تقريباً.

والأرض بها العديد من الثروات المعدنية من مختلف العناصر، والمركبات الكيميائية، ومصادر الطاقة المتعددة، ومصادر الماء، والثروات النباتية والحيوانية. وغير ذلك مما نعلم وما لا نعلم من خيرات الله، وينزل عليها سنويًّا ملايين الأطنان من العناصر والمركبات، والإشعاعات والطاقات. وهذا كله ملك لله وحده، ومن فضله، وكرمه، وجوده وإحسانه.

ثالثاً: وما بينهما:

في عشرين آية قرآنية صريحة جاءت الإشارة إلى البينية الفاصلة للسمٰوات (على ضخامة أبعادها) عن الأرض (على ضآلة أبعادها بالنسبة إلى الجزء المدرك من السماء الدنيا)، وهذه البينية ـ بالإضافة إلى شواهد عديدة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة ـ تشير إلى أن الأرض ـ وهي تضم سبع أراضين في هيئة كروية، متطابقة يغلف الخارج منها الداخل فيها ـ تقع في مركز السمٰوات السبع التي خلقت كذلك بهيئة كروية مغلقة يغلف الخارج منها الداخل. وما بين السمٰوات والأرض هو حيز مكاني/ زماني يفصل بينهما، وهذا الحيز مليء بمختلف صور المادة والطاقة، ومسخر به السحاب بنص القرآن الكريم، ومسخرة به الملائكة، وربما غيرهم من خلق الله، وأن الأوامر الإلهية المنزلة تتنزل عبر هذا الحيز الفاصل بين السمٰوات والأرض.

وتشير العلوم المكتسبة إلى أن خلق السمٰوات والأرض بعملية كالتي تصفها نظرية الانفجار العظيم ـ والتي يؤيدها القرآن الكريم ـ تشير إلى أن خلق كلٍّ من المكان والزمان،

والمادة والطاقة قد تم في وقت واحد، فلا يوجد في الجزء المدرك لنا من الكون مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لايوجد مكان وزمان بغير مادة وطاقة، وعلى ذلك فالمادة والطاقة موجودتان بين كل أجرام السماء من مثل ما بين كل من الأرض والشمس، وما بينهما وبين بقية أفراد المجموعة الشمسية. ثم شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن تدحى الأرض بثورة براكينها، فأخرج الله ﷻ من داخل الأرض كلًّا من غلافيها المائي والغازي، والماء عاد بإرادة الله ـ تعالى ـ إلى الأرض ودار حولها في دورة مذهلة، وغازات الأرض حين اندفعت من داخل الأرض اختلطت بدخان السماء لتكون نطاقاً متميزاً عن كل من الأرض والسماء وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم وصف (ما بين السماء والأرض)؛ لأنه مغاير لكلٍّ منهما، وهذا النطاق يعرف اليوم باسم نطاق الرجع **(TheTroposphere)** وهو يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع يختلف باختلاف النطق المناخية، ويتراوح بين 6 كم و 17 كم، ويتكدس فيه أكثر من 66% من مادة الغلاف الغازي للأرض كله. وتتناقص فيه درجة الحرارة مع الارتفاع باستمرار حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء، ويعرف هذا المستوى باسم مستوى الركود الجوي، وذلك لتناقص الضغط الجوي فيه إلى حوالي عشر الضغط الجوي المقاس فوق مستوى سطح البحر.

ويتركب هذا النطاق الفاصل بين السمٰوات والأرض أساساً من جزيئات النيتروجين (بنسبة 78.1% بالحجم)، والأكسجين (بنسبة 21% بالحجم)، والأرجون (بنسبة 0.93% بالحجم)، وثاني أكسيد الكربون (بنسبة 0.03% بالحجم)، وذلك بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء، وآثار طفيفة من كل من غازات الميثان، وأول أكسيد الكربون، وأكاسيد النيتروجين، والأيدروجين، والهيليوم، والأوزون، وبعض الغازات الخاملة مثل الأرجون. وهذا التركيب مغاير تماماً لتركيب المادة بين الكواكب الأُخرى والنجوم، ومغاير لتركيب الدخان الكوني الذي خلقت منه السمٰوات والأرض ابتداء؛ ومن هنا كانت الإشارة إليه من المعجزات العلمية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ الذي يروى عنه قوله الشريف:

«**سبحان الله عدد ما خلق في السماء، سبحان الله عدد ما خلق في الأرض، سبحان الله عدد ما خلق بين ذلك، سبحان الله عدد ما هو خالق**»[1]. وهذا النطاق الفاصل بين السمٰوات والأرض بكل ما فيه ومن فيه هو ملك كامل للذي فطر السمٰوات والأرض، لا ينازعه في سلطانه أحد من خلقه، وليس له شريك في ملكه، ولاشبيه من عباده، ولا صاحبة، ولا ولد.

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه (الحديث: 1500)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الحديث: 837)

رابعاً: وما تحت الثرى:

احتار المفسرون في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ فقال بعضهم أن المقصود بذلك هو أن جميع الموجودات ملكه وخلقه، وتحت قهره وسلطانه، وقال آخرون: أي أن الله ـ تعالى ـ هو المالك لكل شيء من الخلق والعجائب.

و ﴿**الثرى**﴾ في اللغة هو التراب الندي، ومن المعروف علميًّا أن التربة الدبالية؛ أي المحتوية على الدبال ـ وهو المادة السمراء التي تنشأ عن تحلل المواد العضوية ـ نباتية كانت أو حيوانية ـ لها قدرة عالية على الاحتفاظ بالماء، وهي تربة غنية بمركبات معدنية عديدة مثل نترات وكبريتات العناصر، وهي جيدة التهوية، وتعطي ما بها من ماء بسهولة؛ ونتيجة لذلك فقد ثبت أن هذه التربة، وما تحتها من نطق قطاع التربة غنية جداً بالكائنات الحية التي تسكنها ومن ذلك ما يلي:

(أ) مجموعات من النباتات الدقيقة ومن البقايا الدقيقة للنباتات الكبيرة وذلك من مثل **البكتيريا**، و**الفطريات**، و**الطحالب** و**الأبواغ وحبوب اللقاح**، وغيرها بمختلف أشكالها وهيئاتها، ومن البكتيريا ما يعمل على تثبيت النيتروجين، أو الأيدروجين، أو ثاني أكسيد الكربون أو الكبريت، أو الحديد، أو المنجنيز أو غير ذلك من العناصر والمركبات التي تزيد من خصوبة التربة، ومنها مايقوم بتكسير المواد الكربوهيدراتية، أو السيليولوزية، أو البروتينية، أو الدهنية في البقايا العضوية الموجودة بالتربة فتثريها بما يحتاجه النبات النامي فوقها من غذاء.

(ب) مجموعات من الحيوانات المتباينة الأحجام والصفات منها الدقيقة مثل **الأوليات (الطلائعيات)**، والمتوسطة إلى الكبيرة مثل **الديدان**، و**الرخويات**، و**الحشرات ويرقاتها**، و**العناكب**، **وبعض القشريات والفقاريات الحفارة**، وغيرها.

وتقسم التربة عادة إلى ثلاثة نطق متميزة تعلو صخور الأرض التي استمدت منها بفعل عوامل التعرية المختلفة، وهذة النطق هي من أعلى إلى أسفل على النحو التالي:

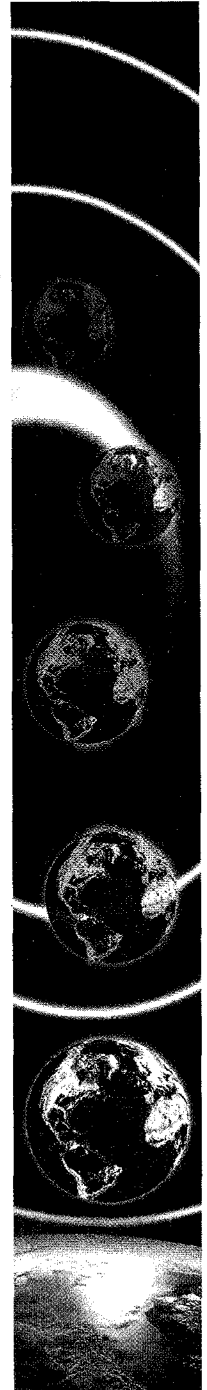
(1) **المنطقة العليا (نطاق الثرى)**: وهي أكثر أجزاء التربة تعرية ورطوبة وقد تمتد من سطح الأرض إلى الركام الصخري أو إلى الصخر غير المعرى ذاته. وتتجمع فيها بعض البقايا العضوية، ولكن حركة الماء فيها من أعلى إلى أسفل تنزع منها كثيراً من محتواها الغذائي للنبات، ويتراوح سمكها بين سنتيمترات قليلة إلى عشرات السنتيمترات.

(2) **المنطقة الوسطى (نطاق ما تحت الثرى)**: وتمتد من قاعدة نطاق الثرى إلى عمق يصل إلى قرابة المتر، وهي منطقة متوسطة التعرية لكن حركة الماء من أعلى إلى أسفل

تصلها وتثريها بالعديد من المركبات الكيميائية المهمة المنزوعة من منطقة الثرى ولذلك فهي أغنى قطاعات التربة في مختلف صور الحياة.

(3) **النطاق الصخري**: وهو الذي استمد منه النطاقان العلويان مادتيهما بفعل عوامل التعرية بصورها المختلفة.

وازدهار الحياة فيما تحت الثرى من قطاع التربة حقيقة لم تكن معروفة في زمن تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده، ووجود الإشارة إليها في هذا الكتاب العزيز يشهد له بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، وبأنه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



(30) ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...﴾ (التوبة: 36)

هذه الآية الكريمة جاءت في الثلث الأول من سورة «التوبة»، وهي سورة مدنية، آياتها 129، وهي من أواخر ما نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي لم تستفتح بالبسملة، لاستفتاحها بتبرئ الله ورسوله من عهود المشركين بعد أن نقضوها، وهذا التبرؤ منهم، ومن نجسهم كان عقاباً لهم على شركهم بالله ﷻ.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول التشريع الإسلامي بصفة عامة، وما يخص علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم بصفة خاصة.

وتؤكد هذه السورة الكريمة على فريضة الجهاد الإسلامي، وتنعي على المتثاقلين عنه؛ وتجرم النفاق والمنافقين، وتفضح دخائل نفوسهم، ووضيع تصرفاتهم، وحقيقة نياتهم وحيلهم، وتحذر المؤمنين من مكائدهم؛ كما تشير إلى ظاهرة تعدد المستويات الإيمانية في كل مجتمع من المجتمعات البشرية، وتقرر طبيعة البيعة مع الله على الجهاد في سبيله بالمال والنفس، من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله في الأرض، وتشجب التقاعس عن ذلك مهما كانت قوة الكافرين والمشركين؛ لأن الله تعالى قد تعهد بنصر عباده المؤمنين، والله تعالى لا يخلف وعده.

وحددت السورة الكريمة المصارف الشرعية للزكاة؛ وتساءلت:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ (التوبة: 63).

وأوردت هذا القرار الجازم:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾. (التوبة: 68).

وذكرت السورة بعدد من الأمم السابقة:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾. (التوبة: 70).

وفي المقابل تعرض السورة الكريمة لجانب من صفات المؤمنين فتقول:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (التوبة: 71).

وختمت سورة التوبة بآيتين كريمتين وجهت الخطاب في أولاهما إلى كفار قريش وهو من بعدهم خطاب إلى الناس كافة يقول لهم فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾. (التوبة: 128).

ثم توجهت السورة في آخر آية منها بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يقول فيه ربنا تقدست أسماؤه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾. (التوبة: 129).

وهو خطاب لكل مسلم يحمل لواء الدعوة إلى دين الله في مواجهة طواغيت الأرض من العصاة المتجبرين، ومن الكفار والمشركين حتى يوم الدين.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

(التوبة: 36).

● ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: «عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: **«ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذوالقعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»**[1].

وعن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: **«أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذوالقعدة، وذوالحجة والمحرم»**.

وقال سعيد بن منصور عن ابن عباس في قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة، وقوله ﷺ في الحديث: **«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض»** تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقص، ولانسيء ولاتبديل، كما قال في تحريم مكة: **«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة»**، وهكذا قال هٰهنا: **«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض»**؛ أي الأمر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السمٰوات والأرض؛ أي أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة كان في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة...

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه؛ وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد، وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهر وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج، ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعدة شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود لوطنه فيه آمناً.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 4662) وأخرجه مسلم في (الحديث: 4359).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها... وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي جميعكم ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي جميعاً ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

- وفي كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعاني القرآن، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم، وصفوة التفاسير - جزى الله كاتبيها خيراً - جاء كلام مشابه بتباين في طول السرد أو قصره، ولذلك لا داعي لتكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

هذه الآية الكريمة تتحدث عن عدة الشهور في سنة من سني الأرض؛ لأن الخطاب القرآني موجه لنا نحن أهل الأرض ولأن كل جرم من أجرام السماء له أزمنته الخاصة به من السنين، والشهور، والأسابيع، والأيام، وإذا كان الجرم جسماً معتماً كان له أيضاً ليله ونهاره، ويتضح هذا التباين في أزمنة كل جرم من أجرام السماء بالتباين بين أزمنة أجرام مجموعتنا الشمسية الذي بيانه كما يلي:

* سنة الشمس: 225 مليون سنة من سني الأرض.
* سنة عطارد = 0.24 من السنة الأرضية (= 88 يوماً من أيام الأرض).
* سنة الزهرة = 0.70 من السنة الأرضية (= 255 يومًا من أيام الأرض).
* سنة الأرض = 1 سنة أرضية (= 365.25 يوم من أيام الأرض).
* سنة المريخ = 1.88 سنة أرضية (= 686.67 يوم من أيام الأرض).
* سنة المشتري = 11.86 سنة أرضية (= 4332 يوماً من أيام الأرض).
* سنة زحل = 29.46 سنة أرضية (= 10760.27 يوم من أيام الأرض).
* سنة يورانوس = 84.02 سنة أرضية (= 30688.01 يوم من أيام الأرض).
* سنة نبتيون = 164.80 سنة أرضية (= 60193.20 يوم من أيام الأرض).
* سنة بلوتو = 247.70 سنة أرضية (= 90472.40 يومًا من أيام الأرض).

وهذا التباين في أزمنة كل جرم من أجرام مجموعتنا الشمسية، بل كل جرم من أجرام السماء يؤكد على نسبية كل شيء في وجودنا، حتى يبقى العلم الحقيقي المطلق، الكامل،

المحيط لخالق هذا الكون وحده، الذي هو فوق الخلق كله، فوق المادة والطاقة وأضدادهما، وفوق المكان والزمان بمختلف أشكالهما وأبعادهما: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(الشورى: 11).

وعلى الرغم من إيماننا بمحدودية علمنا فإننا ندرك أن من صور تسخير ما في السمٰوات، وما في الأرض لهذا الإنسان الضعيف، المحدود القدرات والحواس أن يمكنه ربه تبارك وتعالى من الوصول إلى شيء من الحق في صفحة السماء على تعاظم أبعادها مما يشهد للخالق سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية، والوحدانية، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع.

والخطاب الإلهي: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...﴾ كما يشمل سنة الأرض لا بد أن له دلالة كونية مهمة منطلقة من أن الأرض في مركز الكون حسبما جاء في العديد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون

يمكن استنتاج مركزية الأرض بالنسبة إلى السمٰوات من الإشارات التالية:

(1) يشير القرآن الكريم، كما تشير الأحاديث النبوية الشريفة في مئات المواضع إلى السمٰوات والأرض، فقد جاءت لفظة السماء في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة مواضع، منها مائة وعشرون مرة بالإفراد، ومائة وتسعون مرة بالجمع.

كذلك جاءت الإشارة إلى الأرض في القرآن الكريم في أربعمائة وواحد وستين موضعاً منها ما يشير إلى الكوكب ككل، ومنها ما يشير إلى كتل القارات التي نحيا عليها، وما بها من صخور، ومنها ما يشير إلى قطاع التربة الذي يغطي صخور الأرض، وفي معظم هذه الآيات نجد المقابلة القرآنية الصريحة بين الأرض على ضآلة حجمها (بالنسبة إلى بقية الكون) والسماء على ضخامة أبعادها، وقطر الجزء المرئي من السماء الدنيا يقدر بأربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية وهذه المقابلة لا يمكن أن تقوم إلا إذا كان للأرض وضع متميز بالنسبة إلى السماء الدنيا.

(2) في إحدى وعشرين آية قرآنية كريمة جاء ذكر الوصف الإلهي ﴿**ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ**﴾ وهذه البينية لا يمكن أن تتم إلا إذا كانت الأرض في مركز الكون.

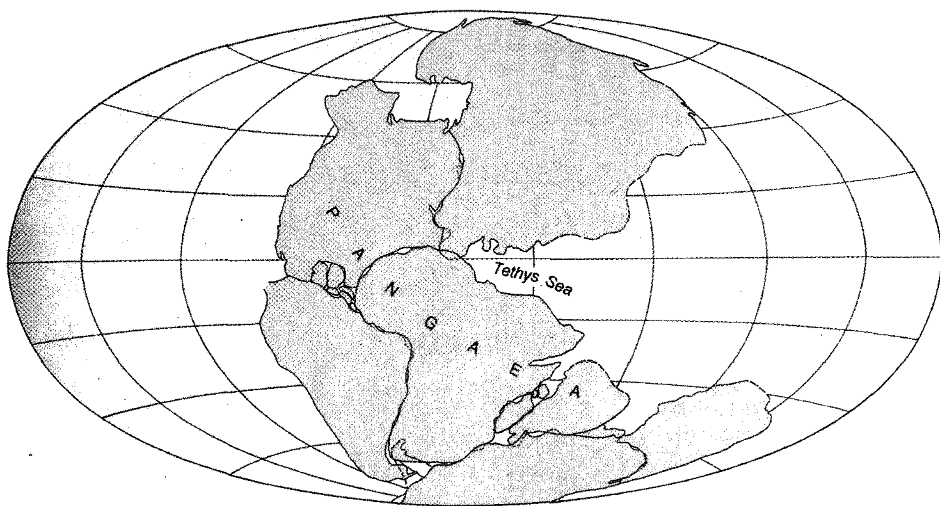
(3) جاء في سورة الرحمٰن قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾. (الرحمٰن: 33).

وقطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مروراً بمركزه. فإذا كانت أقطار السمٰوات والأرض واحدة فلا بد أن تكون الأرض في مركز الكون.

(4) في أغلب الحضارات القديمة اعتبرت الأرض مركزاً للكون. وكل المعارف الصحيحة في تلك الحضارات خاصة في القضايا الغيبية، هي بالقطع من وحي السماء، أو من بقايا قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾. (البقرة: 31).

(5) تبدو السماء للناظر إليها من أي مكان على سطح الأرض وكأنها كرة شاسعة الأبعاد تحيط بالأرض من كل جانب، ولذلك يسميها الفلكيون باسم **الكرة السماوية** ويرسمونها دائماً بجعل كوكب الأرض مركزاً لها، ومع توزيع أجرام السماء على سطح تلك الكرة السماوية.



رسم للقارة الأم Pangaea

(6) روى كلٌّ من الإمام الهروي في غريب الحديث (362/ 3)، والإمام الزمخشري في الفائق من غريب الحديث عن رسول الله ﷺ قوله: «**كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض**» والخشعة: الأكمة الصغيرة، والعلم يثبت اليوم توسط الكعبة المشرفة لليابسة، كما يثبت أن الأرض مرت في مرحلة من مراحل إعدادها لاستقبال الحياة بفترة

كانت مغمورة غمراً كاملاً بالماء، ولم تكن هناك يابسة، ثم فجر الله تعالى قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية من تحت الماء فكونت أول جزيرة بركانية في العالم، ثم دحيت بقية اليابسة حول هذه الجزيرة لتكون قارة وحيدة اسمها: القارة الأم أو **Pangaea**، ثم تفتت هذه القارة الأم إلى القارات السبع الحالية التي تتوسطها الكعبة المشرفة اليوم كما توسطتها في جميع مراحل نموها.

(7) كذلك روى مجاهد عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»، ولفظة (مناء) معناها: قصده، وفي حذاه، يقال: داري منا دار فلان أي في مقابلتها؛ ومعنى هذا الحديث الشريف أن الكعبة المشرفة هي مركز اليابسة في الأرض الأولى، ومن تحتها ست أرضين، وأن هذه الأرضون السبع محاطة إحاطة كاملة بالسمٰوات السبع، وعلى ذلك فإن الكعبة المشرفة هي مركز الكون.

وتأكيداً لذلك قال المصطفى ﷺ: «**البيت المعمور مناء مكة**»، وسأل جمعاً من الصحابة بقوله الشريف: «**أتدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «**هو بيت في السماء السابعة، على حيال الكعبة تماماً حتى لو خر لخر فوقها**».

كل ذلك يؤكد موقع الكعبة المشرفة من الكون كله، كما يشير إلى توسط الأرض للكون، ومن هنا كان لسنة الأرض المكونة من اثني عشر شهراً معنى كونياً لم يدركه العلم المكتسب بعد وتتضح دلالته من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...﴾.

ما هو الشهر القمري؟:

يعرف الشهر لغة بأنه مدة مشهورة بإهلال الهلال، وقيل: الشهر القمر، سمي بذلك لشهرته وظهوره؛ وقيل: هو العدد المعروف من الأيام يشهر بالقمر، وفيه علامة ابتدائه وانتهائه؛ والجمع أشهر وشهور؛ والعرب تقول: رأيت الشهر، أي: رأيت هلاله.

وقال الإمام الرازي: «وأما الشهر فهو عبارة عن حركة القمر من نقطة معينة من فلكه الخاص إلى أن يعود إلى تلك النقطة»...

هذا، وقد ذكرت لفظة الشهر بالإفراد في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، جاء نصفها تماماً بالصيغة المعرفة الشهر، والنصف الآخر بالصيغة غير المعرفة شهر أو شهراً.

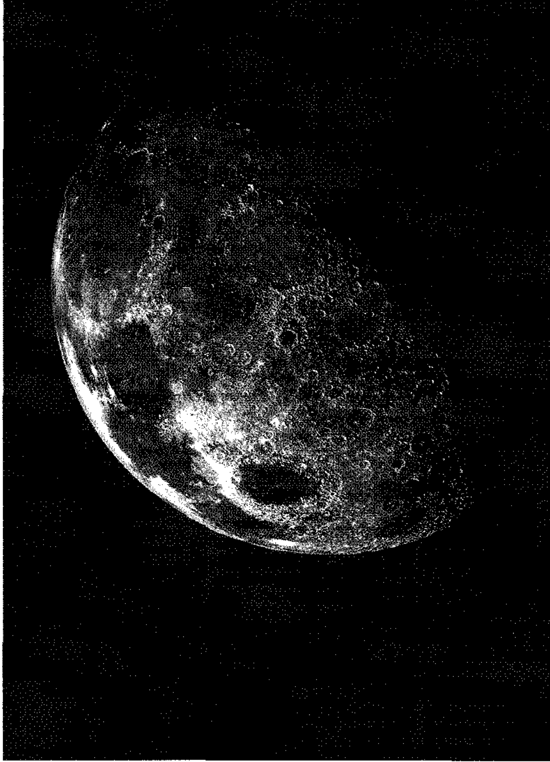
كما جاءت الإشارة إلى الشهر بالتثنية «شهرين» مرتين، وبالجمع سبع مرات، إحداها

بالصيغة المعرفة «الشهور»، والباقي بالصيغة غير المعرفة «أشهر».

ويعرف الشهر القمري فلكيًا بأنه دورة القمر حول الأرض، منسوبة إلى موقع الشمس في صفحة السماء، وهي دورة معقدة يدخل فيها دوران القمر حول الأرض، ودورانه مع الأرض حول الشمس، ومع باقي أفراد المجموعة الشمسية حول مركز المجرة، وما فوق ذلك من حركات لايعلمها إلا الله ـ تعالى ـ.

ولتباين سرعة كل دورة من هذه الدورات في جريها الحقيقي، وفي حركاتها الظاهرية التي نراها بها من على سطح الأرض فإن الحركة الظاهرية للشمس تبدو لنا أسرع من الحركة الظاهرية للقمر، وإن كان لكل منهما مداره المحدد الخاص به.

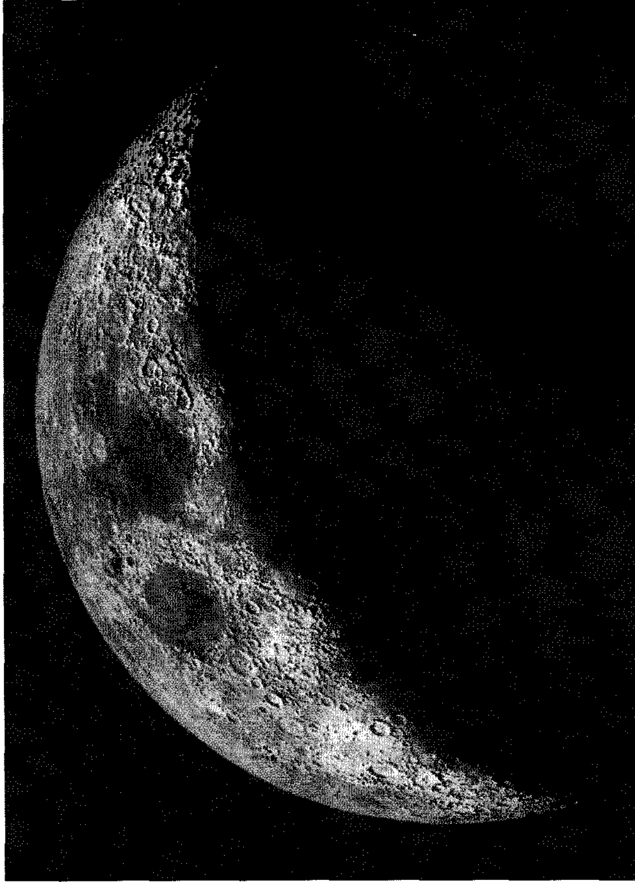
ونتيجة لهذه الحركات المتعددة فإن القمر يمر بين الأرض والشمس فيكون وجهه المنير في اتجاه الشمس، ووجهه المظلم في اتجاه الأرض، وتسمى هذه المرحلة باسم **مرحلة المحاق أو مرحلة الاقتران**؛ وبمجرد خروج القمر عن هذا الوضع يبدأ أهل الأرض في رؤية حافته المنيرة التي تؤذن بميلاد شهر قمري جديد.



صورة للقمر في إحدى مراحله وتبدو على سطحه الحفر النيزكية

وبتواصل دوران القمر حول الأرض تزداد مساحة الجزء المنير من سطحه المواجه لنا فيتحرك من **الهلال الوليد أو الهلال المتنامي**، إلى **التربيع الأول**، إلى **الأحدب المتنامي** إلى **البدر الكامل**، ثم تبدأ مساحة الجزء المنير من سطح القمر المواجه لنا في التناقص التدريجي حتى **المحاق**، ويمر خلال فترة التناقص تلك بمراحل **الأحدب المتناقص**، ثم **التربيع الثاني**، ثم **الهلال المتناقص** إلى **المحاق** ليختم شهراً قمرياً، ويؤذن بميلاد شهر جديد مع هلال وليد جديد.

والقمر يدور حول نفسه، وحول الأرض بنفس السرعة المتوسطة المقدرة بنحو كيلومتر واحد في الثانية، فيواجه الأرض دائماً بوجه واحد، وبذلك يصبح يوم القمر شهراً قمريًّا كاملاً نصفه ليل، ونصفه نهار، وتفصل بين هذين النصفين دائرة قريبة من الدائرة العظمى تعرف باسم **دائرة النور**، كما تفصل بين ما يرى وما لا يرى من سطح القمر دائرة أُخرى تعرف باسم **دائرة الرؤية**؛ وهاتان الدائرتان تنطبقان في مرحلتي البدر الكامل (الاستقبال)، والمحاق (الاقتران أو الاجتماع)، وتتقاطعان بزوايا مختلفة في المراحل المتوسطة بين هذين الحدين؛ وتنشأ عن تطابقهما وتقاطعهما الأشكال المختلفة لوجه القمر المواجه للأرض: من المحاق إلى البدر الكامل، ومنه إلى المحاق الذي يليه. فعند تطابق دائرتي النور والرؤية في وضع الاقتران يكون القمر في المحاق، وفي وضع الاستقبال يكون القمر في البدر الكامل، وعند تقاطع هاتين الدائرتين فإننا نرى جزءاً من نصف القمر المنير، وجزءاً من نصفه المظلم، ويبقى القمر في مرحلة الهلال المتنامي الذي يزداد حجمه بالتدريج حتى يصل إلى مرحلة التربيع الأول في اليوم السابع من الشهر القمري، ثم إلى مرحلة الأحدب المتنامي بعد مضي أحد عشر يوماً من بدء الشهر القمري، ويصل إلى البدر الكامل بعد مضي أربعة عشر يوماً أو نحوها من بداية الشهر القمري، ويصل إلى مرحلة الأحدب المتناقص بعد انقضاء أربعة أيام تقريباً على مرحلة البدر، وبعد مضي 22 يوماً تقريباً من الشهر القمري يصل إلى مرحلة التربيع الثاني، وفي الأيام الثلاثة التي تلي



القمر في مرحلة الهلال

التربيع الثاني يصل القمر إلى مرحلة الهلال المتناقص، وفي آخر يوم من الشهر القمري يكون القمر قد أصبح بين الأرض والشمس على استقامة واحدة فيدخل في مرحلة الإظلام الكامل أو المحاق، والمراحل الرئيسية في هذه الدورة: التربيع الأول، البدر الكامل، التربيع الثاني، المحاق التي يستمر كل منها قرابة الأيام السبعة كانت أساس تقسيم الشهر القمري إلى أربعة أسابيع.

وفي دورة القمر حول الأرض فإنه يمر عبر برج من بروج السماء الاثني عشر في كل شهر حتى يعود إلى البرج الذي بدأ به مع فروق تقدر بنحو 11 يوماً، وبذلك تتحدد سنة كاملة.

كذلك يمر القمر في كل ليلة بمكان معين من البرج الشهري، وينسب هذا المكان إلى عدد من النجوم التي تبدو ظاهريًّا أنها قريبة من القمر، وتعرف هذه المواقع باسم منازل القمر؛ أي أماكن وجود القمر في كل ليلة من ليالي الشهر القمري بالنسبة إلى نجم معين أو مجموعة نجمية محددة؛ وعدد هذه المنازل ثمانية وعشرون منزلاً بعدد الليالي التي يرى فيها القمر، ومتوسط مدة كل منها 13 يوماً بالنسبة إلى السنة الشمسية.

ما هي السنة القمرية؟:

تعرف السنة القمرية بالفترة الزمنية التي يتم فيها القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض؛ وتستغرق هذه الفترة (354.37 يوم؛ لأن متوسط عدد الأيام في كل شهر قمري هو نحو (29.53 يوم)؛ ولما كانت كسور الأيام لا تدخل في حساب الشهور، ولا في حساب السنين اعتبرت السنة القمرية مساوية للرقم الصحيح (354 يوماً)، **وتعرف بالسنة القمرية البسيطة**، وتتجمع الكسور لتتم يوماً كاملاً مرة كل ثلاث سنوات تقريباً تصبح مدة السنة القمرية فيها (355 يوماً)، **وتعرف باسم السنة القمرية الكبيسة**، وتظهر 11 مرة في كل 30 سنة تقريباً.

والتعبير اللغوي سنة مستمد من (سنا)، (يسنو)؛ بمعنى: دار يدور حتى يعود إلى مكانه الأول، وكذلك تعبير الحول مستمد من حال يحول، وهو بنفس المعنى، كما أن السنة هي أول السن.

ما هي السنة الشمسية؟:

السنة الشمسية تحددها دورة كاملة للأرض حول الشمس، وتقسم هذه السنة بواسطة بروج السماء الاثني عشر إلى اثني عشر شهراً، كما يمكن أن تقسم بواسطة اثنتي عشرة

دورة كاملة للقمر حول الأرض بفرق يقدر بنحو الأحد عشر يوماً، وهو الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية، لأن السنة الشمسية يقدر زمنها بنحو 365.25 يوم، بينما يقدر زمن السنة القمرية بنحو 354 يوماً.

ما هو الشهر الشمسي؟:

يقوم حساب الشهور الشمسية أساساً على مراقبة بروج السماء الاثني عشر الرئيسية، وهذه البروج هي تجمعات من النجوم تمر بها الأرض في دورتها السنوية حول الشمس، وتبدو هذه البروج من فوق سطح الأرض بأشكال محددة تميز برجاً عن الآخر؛ ودائرة البروج هي مسار الشمس السنوي بين النجوم كما يظهر لنا من على سطح الأرض؛ وهي في حركتها الظاهرية لنا تبدو وكأنها تمر باثني عشر برجاً تسمى باسم منازل الشمس، وتبقى في كل واحد منها نحو الشهر، ثم تعود في نهاية السنة الشمسية إلى البرج الذي بدأت منه، وهكذا دواليك. وهذه البروج هي: الجدي، الدلو، الحوت، الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، العذراء، الميزان، العقرب، والقوس؛ مبتدئين بالأول من شهر يناير، ومنتهين بشهر ديسمبر تقريباً، وإن سميت تلك البروج بأسماء مختلفة في الدول المختلفة.

الشهور في القرآن الكريم هي الشهور القمرية:

الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها تؤكد أن الشهر المقصود في القرآن الكريم هو الشهر القمري، وكذلك العديد من الآيات الأُخرى في كتاب الله، والشهور القمرية عرفتها أغلب الحضارات القديمة كما استخدمها العرب قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وكان هذا من بقايا وحي السماء الذي توارثوه عن كل من نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل ـ على نبينا وعليهما من الله السلام ـ.

ويؤكد هذا أن جميع التكاليف الشرعية قد ربطها الشارع الحكيم بالأهلة؛ وعلى ذلك فإن السنة المعتبرة في الإسلام هي **السنة القمرية**، وأن الشهور المعتبرة هي **الشهور القمرية**.

كذلك كان من تراث النبوة أن العرب قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كانوا يعظمون **الأشهر الحرم**؛ وهي: **ذو القعدة**، **وذو الحجة**، **والمحرم**، **ورجب** حتى في زمن شركهم وجاهليتهم. ومعروف شرعاً أن المعصية في هذه الشهور تلقى عقاباً من الله أشد، كما أن الطاعة تلقى أجراً أعظم وثواباً أكثر من بقية شهور السنة. وعلى المسلمين اليوم إدراك ذلك ومتابعته كي تتعزز مكانة هذه الأشهر الحرم في قلوبهم وعقولهم فتتحقق الحكمة من قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

ويأتي بعد ذلك أن القمر هو أقرب أجرام السماء إلينا، وحركاته هي أكثر حركات أي جرم من الأجرام الكونية وضوحاً لنا، وضبط الأزمنة به أحكم من ضبطها بأي وسيلة كونية أُخرى.

وتبقى الحكمة الإلهية واضحة جلية بوجود هذا الفارق الزمني الطفيف بين السنتين الشمسية والقمرية حتى لا ترتبط العبادات الشرعية بظروف مناخية محددة على مدار الزمن، بل تتحرك مع فصول السنة ومناخاتها المتباينة، فتؤدي في كل من الحر والقر، وفي طول أي من النهار والليل أو قصره، ومع ذلك فلا يوجد مايمنع من اعتبار كل من الشهور القمرية والسنة القمرية جنباً إلى جنب مع السنة الشمسية التي تحددها دورة الأرض حول الشمس دورة كاملة في كل اثنتي عشرة دورة كاملة للقمر حول الأرض، مع حساب الفارق المقدر بأحد عشر يوماً بينهما، بدلاً من استخدام أسماء الشهور الميلادية، وأغلبها من الوثنيات القديمة.

وبذلك تكون السنة الإسلامية شمسية/ قمرية تحدد السنة فيها دورة كاملة للأرض حول الشمس، وتقسم هذه السنة إلى اثني عشر شهراً دورة القمر حول الأرض في اثنتي عشرة دورة كاملة مع حساب الفوارق.

من أوجه الإعجاز العلمي في الآية الكريمة

بتحديد الآية الكريمة التي نحن بصددها عدة الشهور عند الله باثني عشر شهراً تحديد للسنة القمرية كما هو تحديد للسنة الشمسية، فكلاهما مكون من هذا العدد من الشهور على الرغم من تأكيد القرآن الكريم على الشهور القمرية ومن ثم على السنة القمرية.

وسنة أي كوكب هي الفترة الزمنية التي يستغرقها ليتم دورة كاملة حول النجم الذي يتبعه، وهو يجري في مدار محدد حول ذلك النجم، وبمتوسط سرعة محدد كذلك. ويحدد سنة الكوكب، كما يحدد متوسط سرعة جريانه عاملان ضابطان مهمان: هما طول مدار الكوكب حول النجم ويحدده متوسط نصف قطر هذا المدار، وكتلة الكوكب بالنسبة إلى كتلة النجم وكلاهما مرتبط بقوة الجاذبية بين كل من النجم والكوكب الذي يدور حوله.

ومدار كل الأجرام المعروفة لنا مثل مدار كلٍّ من القمر حول الأرض، والأرض حول الشمس هو مدار إهليلجي (بيضاوي) الشكل، على شكل القطع الناقص، ومن قوانين الحركة في مدار القطع الناقص **خضوع السرعة المحيطية لقانون تكافؤ المساحات مع**

الزمن، وهذا القانون يحتم اختلاف مقدار السرعة على طول المحيط، فعندما يقترب القمر من الأرض، أو يقتربان معاً من الشمس لابد من أن تزداد سرعة كلٍّ منهما المحيطية حتى تزداد بالتبعية قوة الطرد المركزي على كل منهما، وإلا انهار هذا النظام بالكامل بارتطام القمر بالأرض، أو باندفاعهما معاً إلى سعير الشمس.

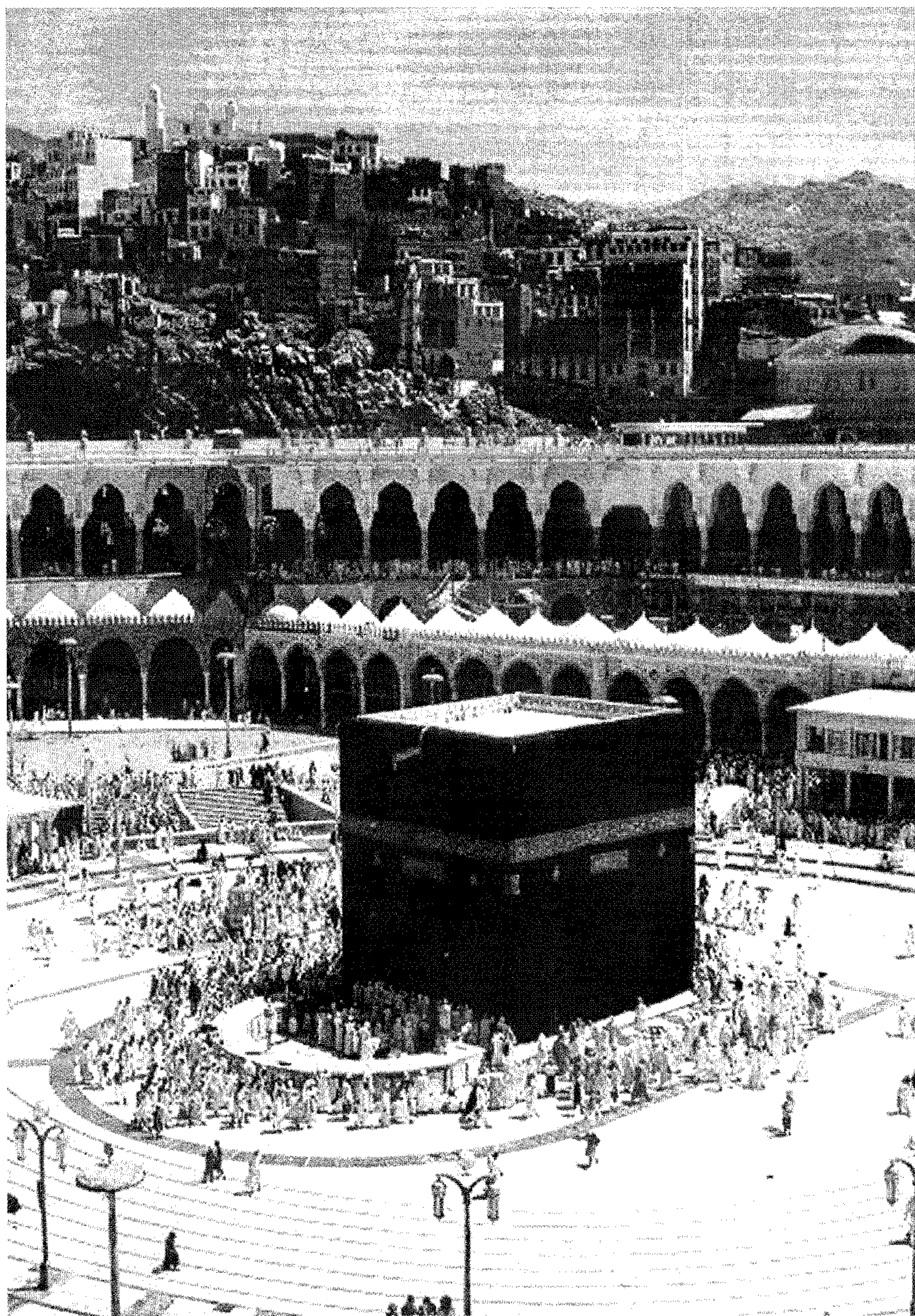
وبالمقابل فعندما يبتعد القمر في مداره عن الأرض، أو يبتعدان معاً عن الشمس، فإن السرعة المحيطية لكل منهما لابد وأن تتناقص بنسب محددة حتى تقل قوة الطرد المركزي لكل منهما، وإلا انفلت القمر من عقال جاذبية الأرض، أو انفلتا معاً من عقال جاذبية الشمس فيضيعان في فسحة الكون.

والإشارة القرآنية الكريمة إلى ثبات عدة الشهور باثني عشر شهراً منذ خلق الله السمٰوات والأرض تأكيد ضمني على انضباط كتل، وأحجام، وأبعاد وسرعات الأرض، وجميع أجرام السماء منذ اللحظة الأولى للخلق، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وإلا لانهار بناء الكون. وفي انضباط هذه المسافات ضبط لكميات الطاقة التي تصل من النجم إلى كل كوكب يدور في فلكه مثل الأرض، ولو زادت كمية الطاقة التي تصلنا من الشمس، ولو قليلاً لأحرقتنا ولأحرقت كل ما حولنا، ولو قلت قليلاً لجمدتنا، وجمدت كل شيء حولنا.

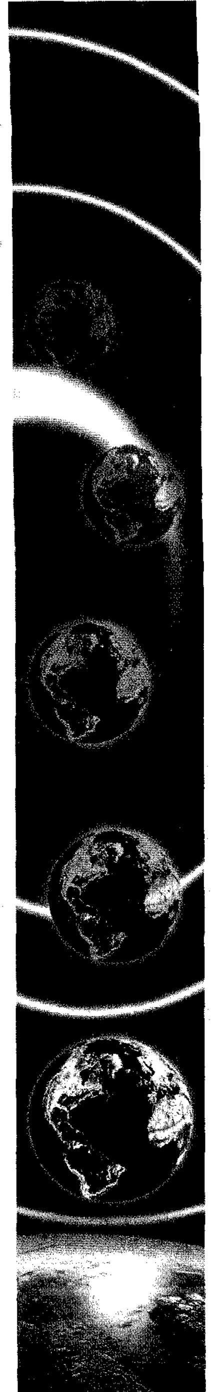
ولذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الحقائق التي لم تدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. كما يشير في مقام آخر إلى أن أولى بوادر إنهاء النظام الكوني هو انفلات القمر من عقال جاذبية الأرض، ووقوعه في جحيم الشمس، فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ **(المدثر: 9)**.

وقد ثبت أن بوادر ذلك قد ظهرت في قدر من التباعد بين القمر والأرض.

فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تلقاه بحق فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، والحمد لله رب العالمين في الأول والآخر.



بسم الله الرحمن الرحيم



(31) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾ (الأنعام: 92)

هذا النص القرآني المعجز جاء في مطلع النصف الثاني من سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها 165 بدون البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها في أكثر من موضع.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من العقائد والتشريعات الإسلامية، وقصص عدد من الأنبياء والمرسلين السابقين على بعثة سيدنا محمد ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وقصص عدد من الأمم البائدة، وعدد كبير من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية. وقد سبق لنا استعراض سورة «الأنعام» لذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقاط الرئيسة فيها كما يلي:.

أولاً: من العقائد الإسلامية في سورة «الأنعام»

(1) الإيمان بالله الخالق، الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور، الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد؛ الإله الحق، الذي لا إلٰه غيره، ولا معبود سواه، مالك الملك، ومحصي أعمال الخلق، فاطر السمٰوات والأرض وقيومهما، خالق الإنسان من طين، ومحدد الأجل والرزق له، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، السميع العليم، كاشف الضر، ومنزل الخير، القاهر فوق عباده، الذي يطعم ولا يطعم، الذي لا يشبهه أحد من خلقه، ولا ينازعه أحد في ملكه، ولا يشاركه أحد في سلطانه، الباعث الشهيد، البر الودود، الغفور الرحيم، بديع السمٰوات والأرض، ربّ كل شيء ومليكه، خالق كل شيء ومبدعه، والعليم بكل شيء من

السر والعلن، والقادر على كل شيء مهما عظم؛ عالم الغيب والشهادة، الحكيم الخبير؛ فالق الإصباح، وفالق كل من الحب والنوى، مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي؛ أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وخير الفاصلين الذي لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، الغني، ذو الرحمة الواسعة التي لا تضيق بشيء؛ منزل الكتاب؛ ومرسل الأنبياء والمرسلين؛ الذي يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

(2) الإيمان بملائكة الله، وكتبه، ورسله، وبخاتمهم أجمعين، وبأنهم ما أرسلوا إلَّا مبشرين ومنذرين.

(3) الإيمان بعوالم الغيب التي أخبرنا بها ـ تبارك وتعالى ـ دون الخوض في هذه العوالم الغيبية بغير علم.

(4) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ بجوده، وكرمه، وإحسانه يجازي الحسنة بعشر أمثالها (إلى سبعمائة ضعف) ولا يجازي السيئة إلا بمثلها، ومن هنا كانت ضرورة التوبة وحسن الاستغفار.

(5) الإيمان بحتمية البعث، وبحتمية الحساب والجزاء في الآخرة، التي هي خلود بلا موت، إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، ومن هنا كان وصف ربنا ـ تبارك وتعالى ـ للحياة الدنيا بأنها لعب ولهو كما جاء في قوله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.
(الأنعام: 32).

(6) اليقين بأن من عمل سوءاً بجهالة ممن يؤمنون بالله وبآياته ثم تاب من بعده وأصلح فإن الله غفور رحيم.

(7) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ قد أتم وحيه في القرآن الكريم، ـ رسالته الخاتمه ـ، وأنه ﷻ قد أكمل دينه الذي أنزله لعباده؛ على فترة من الرسل في هذه الرسالة الخاتمة، ولذلك تعهد ﷻ بحفظها من التبديل والتحريف الذي تعرضت له كل الرسالات السابقة.

ثانياً: من التشريعات الإلهية في سورة «الأنعام»:

(1) تحريم الشرك بالله.

(2) تحريم وقتل الأولاد من إملاق؛ أي من فقر.

(3) الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

(4) تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

(5) تحريم أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

(6) الأمر بالتزام صراط الله المستقيم وعدم اتباع السبل الملتوية فتتفرق بالناس عن سبيله، فيضيعون في الدنيا، ويذلون ويهلكون في الآخرة.

(7) الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وبتقوى الله ـ تعالى ـ في جميع الأحوال.

(8) تحريم الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(9) الأمر بوفاء الكيل والميزان بالقسط، وتحريم كل إخلال بذلك.

(10) الأمر بالعدل في القول، وبالإخلاص في العمل؛ وبالوفاء بعهود الله.

(11) تحريم أكل كل ما لم يذكر اسم الله عليه وما أهل لغير الله به؛ وكذلك تحريم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير إلا من اضطر غير باغ ولاعاد فإن الله غفور رحيم.

ثالثاً: من قصص الأمم البائدة في سورة الأنعام

(1) جاء ذكر عدد من أنبياء الله ورسله السابقين على بعثة النبي والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وهم: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، عيسى، إلياس، اليسع، ويونس ـ على نبينا وعليهم جميعاً من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ.

(2) وصف عناد الأمم الكافرة الباغية، ورفضها لآيات ربها، وإعراضها عنها، على الرغم من إهلاك أمثالها من الأمم السابقة عليها، وقد استمرت البشرية في تكرار أخطائها إلى زمن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ولاتزال مستمرة في ذلك إلى زماننا الراهن، وحتى قيام الساعة دون استخلاص للعبر، وأخذ للدروس.

(3) أكدت سورة «الأنعام» تحريف اليهود للتوراة، وانحرافهم عن منهج الله، كما أكدت تكامل كل رسالات السماء في القرآن الكريم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على خاتم أنبيائه ورسله لينذر به أهل مكة المكرمة ومن حولها أهل الأرض جميعاً.

(4) استنكار افتراء الكذب على الله، والادعاء الباطل من قبل بعض المشعوذين بتلقي شيء من الوحي، أو بالقدرة على الإتيان بشيء من مثل القرآن الكريم، وهي افتراءات وادعاءات صاحبت مسيرة الكفر والشرك وغيرهما من الانحرافات البشرية عبر التاريخ إلى زماننا الراهن، وحتى قيام الساعة.

الآيات الكونية التي استعرضتها سورة الأنعام:

(1) خلق السمٰوات والأرض بالحق.

(2) خلق الظلمات والنور في الكون.

(3) خلق الإنسان من طين، وتحديد أجله زماناً ومكاناً.

(4) خلق كائنات تسكن بالليل وأخرى تسكن بالنهار.

(5) إثبات أن كل خلق من خلق الله يشكل أُمة مثل أُمة بني الإنسان.

(6) الإخبار من قبل ألف وأربعمائة سنة مضت بالتقدم العلمي والتقني المذهل الذي تحققة اليوم الأمم الكافرة، وأن هذا التقدم دون التزام ديني، وأخلاقي وروحي سوف يكون وبالاً عليهم، ومن أسباب إفنائهم والقضاء عليهم، ونحن نرى بوادر ذلك الانهيار واضحة في مختلف أرجاء الأرض.

(7) التأكيد على أن بالكون أموراً غيبية غيبة مطلقة لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ.

(8) التأكيد على حقيقة أن النوم صورة من صور الوفاة، وأن اليقظة من النوم صورة مصغرة عن البعث بعد الموت.

(9) التأكيد على ظلمات كل من البر والبحر؛ بمعنى أن الظلمة هي الأصل في الكون، وأن النور نعمة يمنّ بها الخالق على خلقه.

(10) الإشارة إلى توسط مكة المكرمة بالنسبة إلى اليابسة.

(11) التلميح إلى معجزة فلق كل من الحب والنوى لحظة الإنبات.

(12) استخدام تبادل الليل والنهار في الإشارة اللطيفة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس.

(13) تشبيه طلوع الصبح من ظلمة الليل بفلق الحبة أو النواة لإخراج السويقة والجذير منها لحظة الإنبات.

(14) الإشارة إلى الحكمة الإلهية من جعل الليل للسكن، وجعل النهار لعمارة الأرض وللجري وراء المعايش.

(15) التأكيد على أن الشمس والقمر يجريان بنظام محكم دقيق يمكن الإنسان من حساب الزمن، والتأريخ للأحداث، وأداء العبادات والحقوق.

(16) خلق النجوم ومن فوائدها للإنسان الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

(17) الإشارة إلى خلق السلالة البشرية كلها من نفس واحدة.

(18) إخراج الحب المتراكب من الخضر الذي يخلقه الله ـ تعالى ـ في داخل كل نباتات الحبوب.

(19) إخراج القنوان الدانية وهي العراجين المتدلية من النخل، (جمع قنو، وهو العذق أو عنقود التمر) من طلوع النخل وهو أول ما يبدو من ثمر النخل وهو يخرج كالكيزان.

(20) كذلك إخراج جنات من أعناب، ومن الزيتون والرمان، مشتبهاً وغير متشابه وذلك بإنزال الماء من السماء إلى الأرض، واعتبار ثمره إذا أثمر وينعه من الآيات لقوم يؤمنون.

(21) إثبات أن التصعد في السماء ـ بغير وقاية حقيقية ـ يجعل صدر الصاعد ضيقاً حرجاً.

(22) إنشاء جنات من المعروشات وغير المعروشات، والنخل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه مما يؤكد طلاقة القدرة الإلهية الخلاقة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك سوف أقصر حديثي هنا على النقطة العاشرة من القائمة السابقة والتي تتحدث عن توسط مكة المكرمة لليابسة، وقبل الدخول إلى ذلك لا بد من الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرح هذه القضية.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ **(الأنعام: 92)**.

• ذكر ابن كثير رحمه الله ما نصه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾؛ يعني القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ يعني مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ

عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**» وذكر منهن: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[1]، ولهذا قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾؛ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن، ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ أي يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ قبله من الكتب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ بالتاء والياء، عطف على معنى ما قبله؛ أي: أنزلناه للبركة والتصديق ولتنذر به ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ أي: أهل



(وكالة ناسا)

صورة بالأقمار الصناعية للحرم المكي الشريف بعد التوسعة التي أمر بها ورعاها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز (يرحمه الله)

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 427) وأخرجه النسائي في (الحديث: 426).

مكة وسائر الناس والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون خوفاً من عقابها؛ أي خوفاً من عقاب تاركها، وخص الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات وأفضلها بعد الإيمان.

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعه ـ ما نصه: . . . إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل، وأن ينزل الله عليهم الكتب، وهذا الكتاب الجديد، الذي ينكرون تنزيله، هو كتاب مبارك، وصدق الله، فإنه والله لمبارك. . . ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهو يصدق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله في صورتها التي لم تحرف، لا فيما حرفته المجامع وقالت إنّه من عند الله . . . .

فأما حكمة إنزال هذا الكتاب، فلكي ينذر به الرسول ﷺ أهل مكة أم القرى وما حولها ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ وسميت مكة أم القرى لأنها تضم بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه وحده بلا شريك، وجعله مثابة أمن للناس وللإيحاء جميعاً، ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض، ولم تكن دعوة عامة من قبل. . .

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: ﴿مُبَارَكٌ﴾ القرآن، ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة والمراد أهلها؛ وسميت بذلك لأنها قبلة أهل القرى ومحجهم. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أهل المشارق والمغارب؛ لعموم بعثته ﷺ للناس كافة.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: وهذا القرآن كتاب أنزلناه كما أنزلنا التوراة كثير الخير، باق إلى يوم القيامة، مصدق لما تقدمه من الكتب المنزلة، مخبر عن نزولها، لتبشر به المؤمنين، وتخوف الكفار من أهل مكة ومن حولها في جميع أنحاء الأرض من غضب الله، إذا لم يذعنوا له، والذين يصدقون بيوم الجزاء يحملهم رجاء الثواب والخوف من العقاب على الإيمان به، وهم لذلك يحافظون على أداء صلاتهم كاملة مستوفاة.

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: . . . «أي وهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يصدق أصول كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل في أصولهما الصحيحة ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس؛ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي والذين يصدقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿وَهُمْ عَلَىٰ

صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها، قال الصاوي: خص الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات...

وتوسط مكة المكرمة لليابسة يفسر دلالة النص القرآني ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

لقد كانت حركة الاستشراق في جذورها حركة استخبارية، تجسسية، معادية للإسلام والمسلمين، حريصة على تصيد كل فرصة لمهاجمة دين الله الخاتم بدون وجه حق، ومن القضايا التي أثارها المستشرقون زوراً اقتطاع هذا النص الكريم الذي نحن بصدده (ولتنذر أم القرى ومن حولها) من مضمونه وقصره على أهل مكة وبعض القرى من حولها، واعتباره معارضاً للعديد من النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد عالمية الرسالة الخاتمة من مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ **(الأنبياء: 107)**.

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **(سبأ: 28)**.

وقول المصطفى ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**»... وذكر منهن:... «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[1].

وفي محاولة علمية جادة لتحديد الاتجاهات الدقيقة إلى القبلة، أي إلى الكعبة المشرفة من المدن الرئيسية في العالم باستخدام الحاسوب (الكمبيوتر) ذكر الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله برحمته الواسعة؛ الذي شغل درجة الأستاذية لمادة المساحة بكلية الهندسة في عدد من الجامعات والمعاهد العليا مثل جامعات **القاهرة**، وأسيوط، والرياض، وبغداد، والأزهر الشريف، والمعهد العالي للمساحة بالقاهرة أنه لاحظ تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزاً لليابسة، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا

(1) تقدم تخريجه.

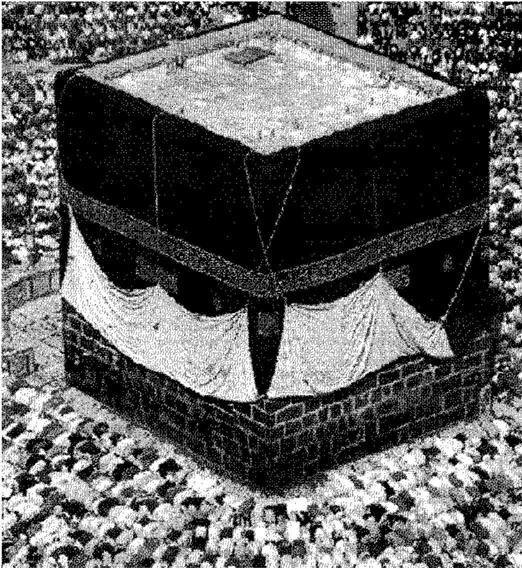


مكة المكرمة مركزاً لليابسة

رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾. (الشورى: 7).

وقد ثبت علميًّا أن القارات السبع التي تكون اليابسة على أرضنا في هذه الأيام كانت في الأصل قارة واحدة ثم تفتتت بفعل الصدوع والخسوف الأرضية إلى تلك القارات السبع التي أخذت في التباعد عن بعضها البعض ولا تزال تتباعد. وبمتابعة جهود الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله برحمته الواسعة ـ وجدت أنه في كل الحالات: واليابسة قطعة واحدة، وبعد تفتتها إلى القارات السبع مع قربها من بعضها البعض، وفي كل مراحل زحف هذه القارات ببطء شديد متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية، في كل هذه الحالات كانت مكة المكرمة دائماً في وسط اليابسة.

وقد ثبت علميًّا ـ أيضاً ـ أن أرضنا في مرحلة من مراحلها الابتدائية كانت مغمورة غمراً كاملاً بالماء، ثم فجر الله ـ تعالى ـ قاع هذا المحيط الغامر بثورة



الكعبة المشرفة مركز اليابسة

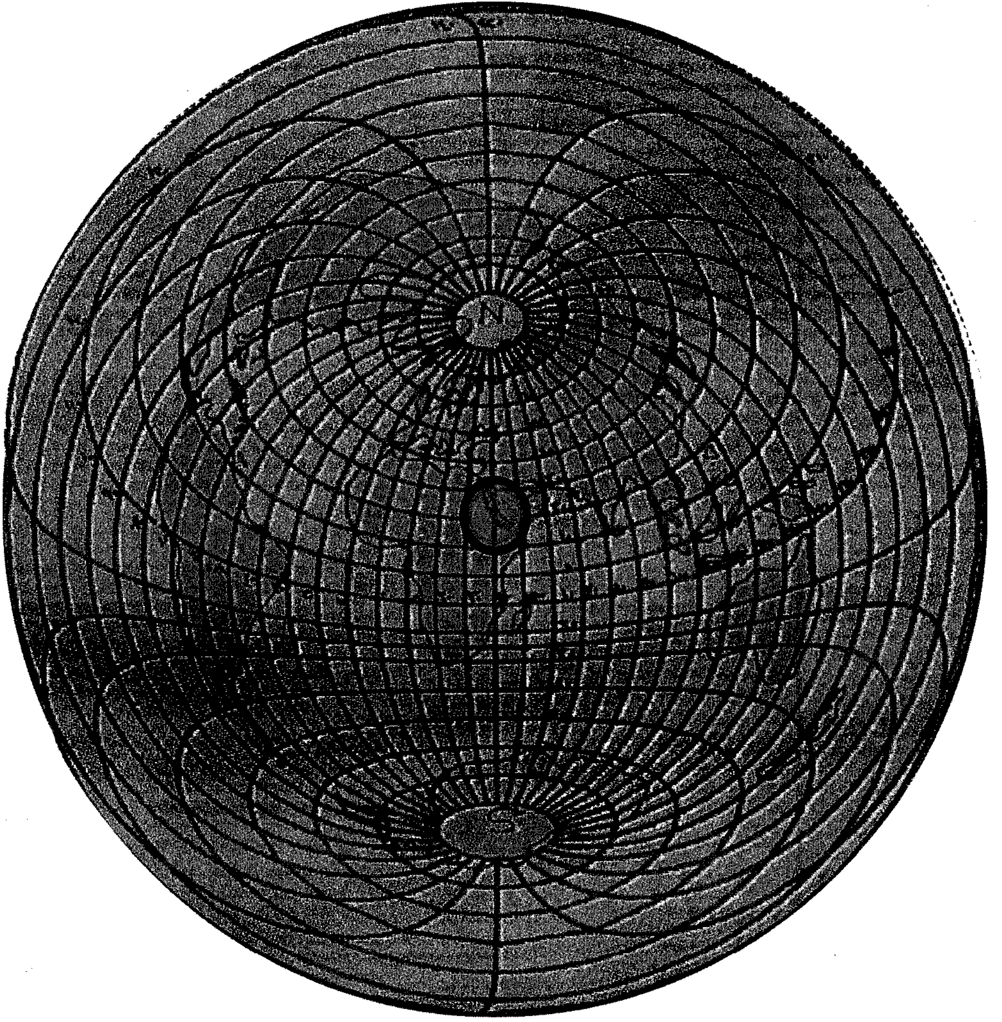
بركانية عارمة عن طريق تصدع وخسف هذا القاع، وأخذت الثورة البركانية تلقي بحممها فوق قاع هذا المحيط لتبني سلسلة من سلاسل جبال أواسط المحيطات، ومع ارتفاع أعلى قمة في تلك السلسلة فوق مستوى سطح ماء هذا المحيط الغامر تكونت أول مساحة من اليابسة على هيئة جزيرة بركانية تشبه العديد من الجزر البركانية المتكونة في أواسط محيطات اليوم كجزر اليابان، الفلبين، إندونيسيا، هاواي، وغيرها.

ويروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض**»؛ وهذا الحديث ذكره الهروي في غريب الحديث (362/ 3) وذكره الزمخشري في (الفائق في غريب الحديث) (371/ 1)، وذلك لأن مدلوله العلمي سابق لزمانه بألف وأربعمائة سنة؛ و(الخشعة) هي الأكمة المتواضعة؛ فهل يمكن أن تكون أرض الكعبة المشرفة أول جزء من اليابسة ظهر فوق سطح المحيط الذي غمر الأرض في مراحلها الأولى؟ هذا سؤال لم تكتمل الإجابة عليه بعد.

خصوصية انتفاء الانحراف المغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة

أضاف الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ في بحثه القيم المعنون «إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة» والمنشور في العدد الثاني من المجلد الأول لمجلة البحوث الإسلامية الصادرة بالرياض سنة 1395/ 1396هـ (الموافق 1975/ 1976م) أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول (39.817 شرقاً) تقع جميعها في هذا الإسقاط على خط مستقيم، هو خط الشمال/الجنوب الجغرافي المار بها؛ أي أن المدن التي تشترك مع مدينة مكة المكرمة في خط الطول يكون اتجاه الصلاة فيها إلى الشمال أو الجنوب الجغرافي تماماً، والمدن التي تتجه في الصلاة إلى الجنوب الجغرافي تبدأ من القطب الشمالي للأرض إلى خط عرض مكة المكرمة (21.437 شمالاً) وأما المدن التي تقع علىٰ خط الطول الممتد من جنوب مكة المكرمة إلى القطب الجنوبي فإن اتجاه القبلة فيها يكون ناحية الشمال الجغرافي تماماً.

وكذلك الحال على خط الطول المقابل لخط طول مكة المكرمة، وهو خط الطول المرقم (140.183 درجة غرباً) فإن المدن الواقعة عليه تصح الصلاة فيها نحو الشمال الجغرافي أو الجنوب الجغرافي تماماً حسب موقع خط عرض كل منها بالنسبة إلى خط عرض مكة المكرمة. فالمدن الواقعة إلى الجنوب من خط العرض المقابل لخط عرض أم



توسط مكة المكرمة لليابسة يجعلها في الإسقاط المساحي المكي مركزاً للعالم

القرى؛ أي من خط عرض 21.437 جنوباً إلى القطب الجنوبي تتجه في صلاتها إلى الجنوب الجغرافي تماماً، والمدن الواقعة شمالاً من خط العرض ذلك إلى القطب الشمالي تتجه في صلاتها إلى الشمال الجغرافي تماماً.

أما المدينة الواقعة على خط الطول المقابل لمكة المكرمة تماماً وعلى خط عرضها تماماً فإن الصلاة تجوز فيها نحو أيٍّ من الشمال أو الجنوب الجغرافيين تماماً، كما تجوز في كل الاتجاهات الأُخرى شرقاً وغرباً؛ وذلك لوقوع تلك المدينة على امتداد قطر الكرة

الأرضية المار بمكة المكرمة. معنى هذا الكلام أنه لايوجد انحراف مغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة وعند جميع الخطوط الموازية له، باستثناء حالة واحدة.

والسبب في ذلك أن قطبي الأرض المغناطيسيين في تجوال مستمر حتى يتم انقلابهما فيصبح القطب الشمالي جنوباً والقطب الجنوبي شمالاً، وعند ذلك يحدث الكثير من الكوارث الطبيعية واندثارات الحياة، وقد ثبت حدوث مثل هذه الانقلابات المغناطيسية في تاريخ الأرض عدة مرات.

وتعلل المغناطيسية الأرضية بوجود مغناطيس كبير يمر بمركز الأرض، ويميل محوره حالياً بمقدار 11.5 درجة بالنسبة للمحور القطبي الجغرافي للكرة الأرضية، ويعتقد بأن هذا المجال المغناطيسي ناتج عن حركة لب الأرض المائع مع دوران كوكبنا حول محوره.

وعلى ذلك فإن الاتجاه المغناطيسي الذي يحدد بالبوصلة أو بغيرها من الأجهزة المساحية التي تستخدم الإبرة الممغنطة تختلف عن الاتجاه الحقيقي بزاوية تعرف **باسم زاوية الانحراف المغناطيسي**، وهي تحدد على جميع أنواع الخرائط لكي يحسب الاتجاه الحقيقي بمعرفة كل من الشمال المغناطيسي والشمال الحقيقي.

ومن الثابت تاريخياً أن خط طول جرينيتش قد فرضته بريطانيا بالقوة إبان هيمنتها على العالم في سنة 1884م أثناء مؤتمر عقد في واشنطن/ كولومبيا لتحديد خط طول الأساس وكان اختباراً سيئاً فرضته الهيمنة البريطانية الغاشمة في العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر الميلادي؛ لأن زاوية الانحراف المغناطيسي في الجزر البريطانية كما قيست في سنة 1972 كانت في حدود 8.5 درجة إلى الغرب من الشمال.

يظهر ذلك خصوصية خط طول مكة المكرمة بانطباق الشمال المغناطيسي على الشمال الحقيقي، ومن هنا كان اختيار الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين رَحِمَهُ اللَّهُ لخط طول مكة المكرمة كخط طول أساسي للكرة الأرضية وإعادة إسقاط خطوط طول الكرة الأرضية بدءاً منه، أي بالنسبة إلى مكة المكرمة لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهلاً وتذكر المراجع العلمية أن هناك خطّاً من خطوط الطول يمر بمدينة (سنسنائي أوهايو) تتضاءل عنده زاوية الانحراف المغناطيسي إلى قرابة الصفر ويعرف باسم خط انعدام زاوية الانحراف المغناطيسي **(The Agonicline)** وعلاقة هذا الخط بخط طول مكة المكرمة لم تدرس بعد.

مكة المكرمة مركز الكون

استقراء لآيات القرآن الكريم ولأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يتضح بجلاء توسط مكة المكرمة بين السمٰوات السبع والأرضين السبع وهي حقيقة دينية لا يمكن للعلم المكتسب أن يصل إليها؛ وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى من فوق سطح الأرض إلا شريحة صغيرة من السماء الدنيا ووسيلته في ذلك هي النجوم التي تزين السماء الدنيا وحدها لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:



صورة للحرم المكي الشريف قبل التوسعة ويبدو في الخلف جبل أبو قبيس

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ . . .﴾ **(الملك: 5)**.

ومن مبررات ذلك ما يلي:

(1) ورود ذكر الأرض في مقابلة السماء في عشرات الآيات القرآنية على ضآلة حجم الأرض إذا ما قورنت بالسماء مما يشير إلى تميز موقع الأرض بالنسبة إلى السماء.

(2) إشارة القرآن الكريم إلى البينية الفاصلة للسماء أو السمٰوات عن الأرض، في عشرين آية صريحة، وهذه البينية لا يمكن أن تتم مع تناهي الأرض في الضآلة وتناهي السمٰوات في الضخامة إلا إذا كانت الأرض في المركز بين السمٰوات السبع والأرضين السبع.

(3) إشارة القرآن الكريم في سورة (الرحمٰن) إلى أقطار السمٰوات والأرض وقطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفين من أطرافه مروراً بمركزه، وإذا كانت أقطار السمٰوات والأرض واحدة فلا بد وأن تكون أرضنا في المركز من السمٰوات السبع.

(4) حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه مجاهد رحمه الله عنه بقوله: **إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»[1]، ولفظة (مناء) معناها القصد في الاتجاه والاستقامة مع كل من السمٰوات السبع والأرضين السبع؛ أي التواجد بينهما، وعلى استقامة مراكزها وتأكد ذلك بإثبات توسط الكعبة المشرفة للأرض الأولى أي اليابسة.

(5) حديث رسول الله ﷺ المروي عنه بقوله: «**البيت المعمور منا مكة**»[2] ووصف ذلك البيت المعمور في حديث آخر يروى عنه ﷺ بقوله: «**هو بيت في السماء السابعة على حيال الكعبة تماماً حتى لو خرّ لخر فوقها**»[3].

من ذلك كله تتضح ومضة الإعجاز القرآني في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فتتضح وسطية أم القرى ليابسة الأرض، ومن هنا يكون المنذرون هم جميع أهل الأرض بلا استثناء، ويتضح وضع الكعبة المشرفة في وسط الأرض الأولى وهي اليابسة ودونها ست أرضين، ويحيط بذلك كله سبع سمٰوات وفوق الكعبة المشرفة البيت المعمور زادها الله تشريفاً وتعظيماً.

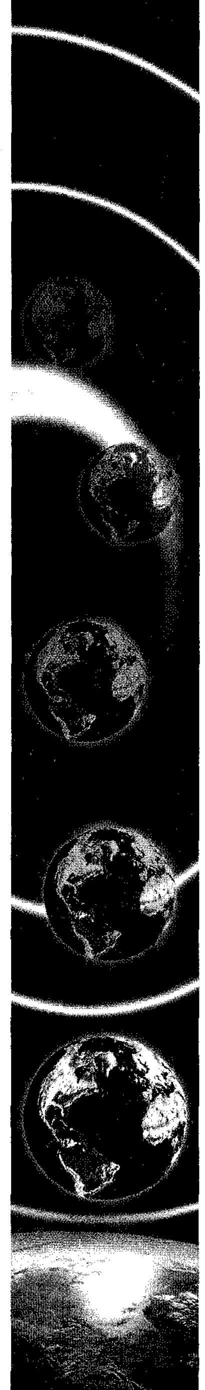
فالحمد لله على نعمة الإسلام والحمد لله على نعمة القرآن، وصلى الله وسلم وبارك على النبي الخاتم الذي تلقاه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.
(2) تقدم تخريجه سابقاً.
(3) تقدم تخريجه سابقاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

(32) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: 96)



هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها مائتي آية بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أسرة السيدة مريم ابنة عمران، أم نبي الله عيسى ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

(آل عمران: 33 ـ 34).

وتروي السورة الكريمة **قصة امرأة عمران،** وابنتهما مريم أم عيسى عليه السلام، كما تروي معجزة ميلاده من أم بغير أب، والمعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه.

كذلك جاءت الإشارة في هذه السورة الكريمة إلى كل من **نبي الله زكريا وولده يحيى** الذي وهبه الله له على الكبر، كما جاء بالسورة وصف تفصيلي لما حدث في معركة أحد.

ويدور المحور الرئيسي لسورة آل عمران حول **حوار أهل الكتاب،** ويتحدد من خلال هذا الحوار عدد من ركائز العقيدة الإسلامية وتشريعاتها.

وتستفتح السورة بالحروف المقطعة الثلاثة الٓمٓ التي تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم. وينقسم المفسرون حيال هذه الفواتح الهجائية إلى مجموعتين؛ ترى الأولى منهما ضرورة التوقف عن الخوض فيها وتفويض أمرها إلى الله، وترى المجموعة الثانية عدم التحرج من النظر فيها، والاجتهاد في فهم دلالاتها.

ويدور حوالي نصف عدد آيات السورة (من 1 ـ 83) في الحوار مع أهل الكتاب، ممثلين في وفد نصارى نجران الذي قدم المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة.

وتتضمن هذه الآيات الكريمة إشارات إلى اليهود، وحقيقة نواياهم، وما انطوت عليه نفوسهم المريضة من خبث، ومكر، ودهاء، وكراهية للحق، كما تتضمن تحذيرات للمسلمين من دسائسهم ودسائس غيرهم من المشركين والكفار والمنافقين.

وقد جاء الخطاب إلى أهل الكتاب في اثنتي عشرة آية نختار منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾. **(آل عمران: 59).**

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾. **(آل عمران: 64).**

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى تأكيد إيمان المسلم بجميع الرسالات السماوية، وبجميع أنبياء الله ورسله دون أدنى تفريق، مؤكدة أن رسالتهم جميعاً واحدة؛ ألا وهي الإسلام العظيم الذي بعث به كل نبي وكل رسول، وتتبع تلك الحقيقة بالقرار الإلهي الحاسم الجازم الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾. **(آل عمران: 85).**

وذلك بعد أن قرر في أوائل السورة الكريمة قراراً آخر يقول فيه ربنا (جلت قدرته):

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾. **(آل عمران: 19).**

وبعد ذلك تحدثت الآيات عن عقاب المرتدين، وعن حكم الله فيهم، ودعت إلى الإنفاق في سبيل الله، وحذرت من تحريف اليهود للتوراة، وأمرت باتباع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين..

وأشارت سورة (آل عمران) إلى الكعبة المشرفة بصفتها.. أول بيت وضع للناس...، وأكدت فريضة الحج على المستطيع من المسلمين، وعاتبت أهل الكتاب في أكثر من مقام، كما عاتبت أهل الكفر والضلال من العرب على كفرهم، وآيات الله تتلى عليهم، وفيهم رسوله، وأوصت بتقوى الله، وأكدت ضرورة الاعتصام بحبله جميعاً دون فرقة، وذكرت

بنعم الله على العباد، ودعت إلى نفرة أُمة من المسلمين للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووصفتهم بأنهم هم المفلحون.

ونهت السورة الكريمة عن فرقة الكلمة، وتحدثت عن مصائر كل من المؤمنين والكافرين في يوم الدين، وعن جزاء كل منهم، وأكدت أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، أنزله بالحق على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وأنه هدى وموعظة للمتقين..

وخاطبت السورة الكريمة أُمة الإسلام بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾. **(آل عمران: 110)**.

وعرجت الآيات مرة أُخرى إلى الحديث عن أهل الكتاب، وأكدت أن منهم المؤمنين، وأكثرهم الفاسقون، وأثنت على الذين يؤمنون منهم وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

(آل عمران: 115).

ثم انتقلت سورة (آل عمران) إلى الحديث عن **غزوة أحد**، وما أصاب المسلمين فيها من انكسار بسبب مخالفتهم لأوامر رسول الله ﷺ في ساحة المعركة، وذكرت بانتصارات بدر، وبمبررات ذلك الانتصار، وصاغت الأحداث صياغة ربانية معجزة لا تتوقف عند حدود وصف المعركتين وصفاً مجرداً، ولكن تتجاوز ذلك لتصبح توجيهات ربانية دائمة في بناء الجماعة المسلمة، وتوضيح سنن الله في النصر والهزيمة إلى يوم الدين.

وتؤكد السورة الكريمة في أكثر من آية أن لله ما في السمٰوات وما في الأرض، وأن الله ـ تعالى ـ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وأن الله غفور رحيم.

وتنهى هذه السورة عن أكل الربا، وتحذر من عذاب النار، وتأمر بطاعة الله ورسوله، كما تنصح بالمسارعة إلى طلب المغفرة من الله، وسؤاله الجنة التي أعدت للمتقين الذين أوردت شيئاً من صفاتهم، وتوصي بالسير في الأرض من أجل الاعتبار بعواقب المكذبين.

ثم عاودت سورة (آل عمران) إلى التذكير بغزوة أحد في مواساة رقيقة للمسلمين، مؤكدة لهم أنهم هم دائماً الأعلون ما داموا على إيمانهم بالله، على الرغم من تعرضهم لبعض النكسات والهزائم أحياناً، وأن النصر والهزيمة من سنن الله في الحياة، لكل منها قوانينه، وأن الأيام دول يداولها الله ﷻ بين الناس لحكمة يعلمها، لعل منها أن يتخذ من

المؤمنين شهداء، وأن يميز المؤمنين من المنافقين، وأن يطهر المؤمنين بهذا التمحيص من الذنوب، ويهلك الكافرين والمشركين والمنافقين بذنوبهم، والله تعالى لا يحب الظالمين من المعتدين ولا من المتخاذلين عن الدفاع عن دمائهم وأعراضهم ومقدساتهم وممتلكاتهم، وعن الحق وأهله، وهذا الخطاب كما كان لأصحاب رسول الله ﷺ ولأهل زمانه هو خطاب لنا اليوم في تقاعسنا عن الدفاع عن الحق وأهله!!.

وأكدت سورة (آل عمران) أن سيدنا محمد ﷺ هو رسول قد خلت من قبله الرسل، لا يجوز لأي ممن آمن به واتبعه أن يرتد عن ذلك إن مات أو قتل ﷺ، وفي ذلك إشارة إلى ما أشاعه الكافرون أثناء معركة أحد بأن رسول الله قد قتل، فتصور المنافقون المندسون في وسط المسلمين أن رسالته قد انتهت، وأن بإمكانهم الارتداد عن دينه، وتؤكد الآيات أن من يرتد عن الإسلام فلن يضر الله شيئاً، ولكنه يهلك نفسه بتعريضها لسخط الله وعذابه.

وتنتقل الآيات إلى **قضية الأجل** مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ قد جعل لكل نفس أجلاً محدداً لا تموت إلا عنده، وقد جعله الله سبحانه وتعالى غيباً حتى لا تتوقف عجلة الحياة، وأخبر بتلك الحقيقة تشجيعاً للمؤمنين على تجاوز حاجز الخوف من الموت، وتأييداً للانخراط في مواكب المجاهدين في سبيل الله دون مهابة.

وتؤكد الآيات في سورة (آل عمران) أن من قصد بعمله أجر الدنيا، أعطاه الله إياه، وليس له في الآخرة من نصيب، وأن من قصد بعمله أجر الآخرة أعطاه الله ـ تعالى ـ أجري الدنيا والآخرة، وأن الله ﷻ يجزي عباده بحسب شكرهم له، واعترافهم بعظيم نعمه عليهم، وإن كانت هذه أحكاماً عامة إلا أن فيها تعريضاً واضحاً بمن رغبوا في غنائم الحرب أثناء غزوة أحد فتسببوا في هزيمة جيش المسلمين.

ثم تنتقل الآيات في سورة (آل عمران) إلى الحديث عن أعداد كبيرة من **العلماء الربانيين، والمجاهدين الصادقين** الذين قاتلوا مع أنبياء الله ورسله، في سبيل الله، ومن أجل إعلاء دينه، فقتل منهم من قتل، وأصيب من أصيب ولكنهم لم يذلوا لعدوهم ولم يخضعوا له، واحتسبوا وصبروا في الشدائد والمحن وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ممتدحاً إياهم:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

(آل عمران: 146 ـ 147)

ثم يأتي قرار الله ـ تعالى ـ بأجرهم الذي يقول فيه ـ عز من قائل ـ:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾. (آل عمران: **148**).

وتعاود السورة المباركة إلى تحذير المؤمنين من موالاة كل من المشركين والكافرين، وتؤكد للمؤمنين أن الله ـ تعالى ـ هو مولاهم وهو خير الناصرين، وأنه ـ تعالى ـ يعدهم النصر بقوله الحق:

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾. (آل عمران: **151**).

ومرة أُخرى تستعرض الآيات (152 ـ 175) أحداث معركة أحد بهدف تربية المسلمين، وتصحيح مفاهيمهم وتصوراتهم، وتحذيرهم من مزالق الطريق، وتنبيههم إلى ما أحاط بهم من كيد قديم، وما يمكن أن يحيط بهم من كيد يتجدد إلى يوم الدين، (كالذي نحن فيه اليوم واقعون من مؤامرات، ومكائد، وفتن يخطط لها أعداء الإسلام المتربصون بنا الدوائر)، ويحاول الشيطان أن يعينهم على ذلك، لكي يجعل من أوليائه مصدر إرهاب وتخويف للمؤمنين، والآيات في سورة (آل عمران) تؤكد أن الخوف لا يكون إلا من الله ـ تعالى ـ.

وتطلب الآيات من رسول الله ﷺ ألا يحزن على الذين يسارعون في الكفر لأنهم لن يضروا الله ﷻ شيئاً، ولكن يضروا أنفسهم، ويريد الله ـ تعالى ـ ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة، ولهم عذاب عظيم، وإمهالهم في الدنيا بتمديد آجالهم والتمكين لهم ليس في صالحهم؛ لأنهم يزدادون بذلك معاصي وآثاماً فيتضاعف عذابهم في الآخرة، وفي المقابل فإن ابتلاء الله للمؤمنين هو ليميز الخبيث من الطيب (وهو أعلم بهم)، ويظهر ذلك لمن يشاء من عباده كما فعل في معركة أحد وقال ـ عز من قائل ـ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾. (آل عمران: **179**).

وتنصح الآيات في سورة (آل عمران) بالإيمان بالله وتقواه، وببذل المال في سبيل الله، وتتوعد الذين يبخلون بذلك لأنهم:

﴿... سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾. (آل عمران: **180**).

ثم عاودت السورة الكريمة الإشارة إلى شيء من جرائم اليهود المروعة، ودسائسهم الخبيثة، وأساليبهم الملتوية في التطاول على الله ـ تعالى ـ وعلى خلقه، وفي محاربة دينه، وأنبيائه ورسله، وفي نقض العهود والمواثيق، ونشر المعلومات الكاذبة، والإشاعات المختلقة، والادعاءات الباطلة.

كما عاودت إلى تأييد رسول الله ﷺ في وجه المكذبين لبعثته الشريفة فتخاطبه بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾. (آل عمران: 184)

وتؤكد الآيات أن الفناء هو مصير الخلائق كلها، وأن كل نفس ميتة لا محالة.. وأن الخلائق سوف تلقي جزاء أعمالها وافياً يوم القيامة، وأن الابتلاء من سنن الحياة، وتوصي في مواجهته بالصبر والاحتساب، وبتقوى الله، وتعتبر ذلك من عزم الأمور.

وتعاود السورة إلى استعراض بعض المواقف المخزية لبني إسرائيل، ومنها أن الله تعالى كان قد أخذ عليهم كل العهود والمواثيق اللازمة كي يظهروا للناس حقيقة ما أنزل على أنبيائهم ورسلهم من أحكام فكتموها، ونبذوها وراء ظهورهم، واشتروا بها أشياء حقيرة من حطام الدنيا الفانية. وتعليقاً على ذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾. (آل عمران: 188).

وتختتم هذه السورة الكريمة بتوجيه الناس كافة إلى التأمل في خلق السمٰوات والأرض، واستخلاص شيء من صفات الخلاق العليم بالتعرف على بديع صنعه في خلقه، وبتوجيههم كذلك إلى تكثيف الرجاء والدعاء إلى الله تعالى بالنجاة من النار، ومن خزي يوم القيامة، وبطلب المغفرة للذنوب، وتكفير السيئات، ورفع الدرجات.

ويستجيب لهم الله سبحانه وتعالى من فيض كرمه فيقول:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾. (آل عمران: 195).

ثم يأتي الخطاب إلى رسول الله ﷺ وإلى جميع المسلمين ألا يغتروا بتقلب الذين كفروا في البلاد في شيء من النعمة، والجاه، والسلطان، فمتاع الدنيا قليل، ومن ثم ينتهي

بهم إلى جهنم وبئس المصير، وفي المقابل فإن الصالحين المتقين قد يعيشون في الدنيا في شيء من الحرمان وشظف العيش، ولكن الله ـ تعالى ـ قد أعد لهم في الآخرة خيراً كثيراً.

وتعاود السورة في خواتيمها إلى ذكر أهل الكتاب، وتقرر أن منهم من سلك طريق الهداية فانتهى إلى نفس النهاية: آمن بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله بغير تفريق ولا تمييز، بما في ذلك إيمانهم بخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وبالقرآن الكريم الذي أنزل إليه، فمنَّ الله ـ تعالى ـ عليهم بالخشوع لله، والخضوع لكلامه، والاعتزاز به، وتعظيمه، وأكرمهم، بأن لهم أجرهم عند ربهم.

وتختتم سورة آل عمران بوصية من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين من خلقه يقول لهم فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾

وهي عدة المؤمن في مواجهة أهل الباطل في هذه الحياة.

من ركائز العقيدة في سورة آل عمران

تتلخص ركائز العقيدة التي جاءت بها سورة آل عمران في النقاط التالية:

● **أولاً**: الإيمان بالله تعالى رباً، وتوحيده توحيداً مطلقاً بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، وتنزيهه ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله، من مثل نسبة الزوجة أو الولد له وهما من صفات المخلوقين ولا تليق بجلال الله.

والإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الحي القيوم، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه ﷻ هو الذي يصور الخلق في أرحام أمهاتهم كيف يشاء، وأنه هو العزيز الحكيم، وبأنه هو البصير بالعباد، مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، وأن النصر منه وحده يؤيد بنصره من يشاء، وأن الهدى هدى الله، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهو رؤوف بالعباد، وفي الوقت نفسه هو عزيز ذو انتقام، يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، وأنه لا يخلف الميعاد.

● **ثانياً**: الإيمان بالوحي الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل، هداية للناس، وأتمه، وأكمله، وحفظه في رسالته الخاتمة ـ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ، وأن هذه الرسالة الخاتمة مصدقة لما سبقها من صور الوحي، ومهيمنة عليها،

وعلى ذلك فإن الإيمان برسل الله مكمل للإيمان بوحي السماء.

● **ثالثاً**: الإيمان بأن القرآن الكريم يضم آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات (لا يعلم تأويلهن إلا الله).

● **رابعاً**: الإيمان بأن كل نفس ذائقة الموت، وأن الله ـ تعالى ـ جامع الناس ليوم لاريب فيه؛ أي: الإيمان بحقيقة الآخرة وحتميتها، وبحقيقة ما فيها من أحداث كبرى من مثل البعث والحساب، والجنة والنار، وبأن الجنة مثوى المتقين، وبأن النار مثوى الكافرين، وبأن المؤمنين تبيض وجوههم في يوم القيامة بينما تسود وجوه الذين يكفرون بعد إيمانهم.

● **خامساً**: الإيمان بأن الدين عند الله الإسلام، وأن أهل الكتاب لم يختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، وبأن من يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب.

● **سادساً**: الإيمان بضرورة طاعة الله، وطاعة الرسول الخاتم ﷺ واتباع سنته، والاعتصام بحبل الله، ومحاربة فرقة الكلمة بين المسلمين.

● **سابعاً**: الإيمان بأن أُمة الاسلام هي خير أُمة أخرجت للناس؛ لأنها تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، فإذا لم تقم بذلك فقدت هذه الخيرية.

● **ثامناً**: الإيمان بقضاء الله وقدره، وبأن البلاء من سنن الحياة، ولابد من مقابلته بالتسليم والصبر والرضاء بقضاء الله.

من ركائز التشريع في سورة آل عمران

1 ـ تحريم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

2 ـ تحريم افتراء الكذب على الله، أو أن يشتري المرء بعهد الله وإيمانه ثمناً قليلاً.

3 ـ تحريم الردة في الإسلام، وعلى المرتد أن يستتاب، فإن تاب بصدق قبلت توبته إن شاء الله، وإن لم يتب ومات فإنه يموت على الكفر، ويخلد في النار أبداً في عذاب أليم، وما له من ناصرين.

4 ـ وجوب الإنفاق في سبيل الله.

5 ـ إن لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

6 ـ تحريم أكل الربا تحريماً قاطعاً.

7 ـ تحريم التولي يوم الزحف.

8 ـ تحريم الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة خفية.

9 ـ تحريم النفاق.

10 ـ الحث على الاستشهاد في سبيل الله.

11 ـ فرض الشورى كقاعدة إسلامية في الحكم.

من الآيات الكونية في سورة آل عمران

(1) إن الله ـ تعالى ـ هو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء.

(2) الإشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بذكر ولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل بأمر من الله تعالى.

(3) الإشارة إلى دورة الحياة والممات والبعث بإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي.

(4) الإشارة إلى خلق آدم من تراب.

(5) التأكيد على حقيقة أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً.

(6) التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ له ما في السمٰوات وما في الأرض، وأن إليه ترجع الأمور.

(7) التأكيد على أن كل نفس ذائقة الموت، وأنه ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً.

(8) الإشارة إلى معالجة الغم بغم جديد وهي قضية نفسية عرفها الإنسان مؤخراً..

(9) الإشارة إلى حقيقة أن خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار فيهما آيات لأولي الألباب، وأن تدبرهما والتفكر فيهما من وسائل التعرف على الخالق ﷻ وعلى شيء من صفاته العليا، وقدراته التي لا تحدها حدود في إبداعه لخلقه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، وسوف أقوم بذلك إن شاء الله ـ تعالى ـ تباعاً في فصول قادمة، ولكني أقصر حديثي هنا على النقطة الخامسة المتعلقة بأول بيت وضع للناس، ولكن قبل الشروع في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة.

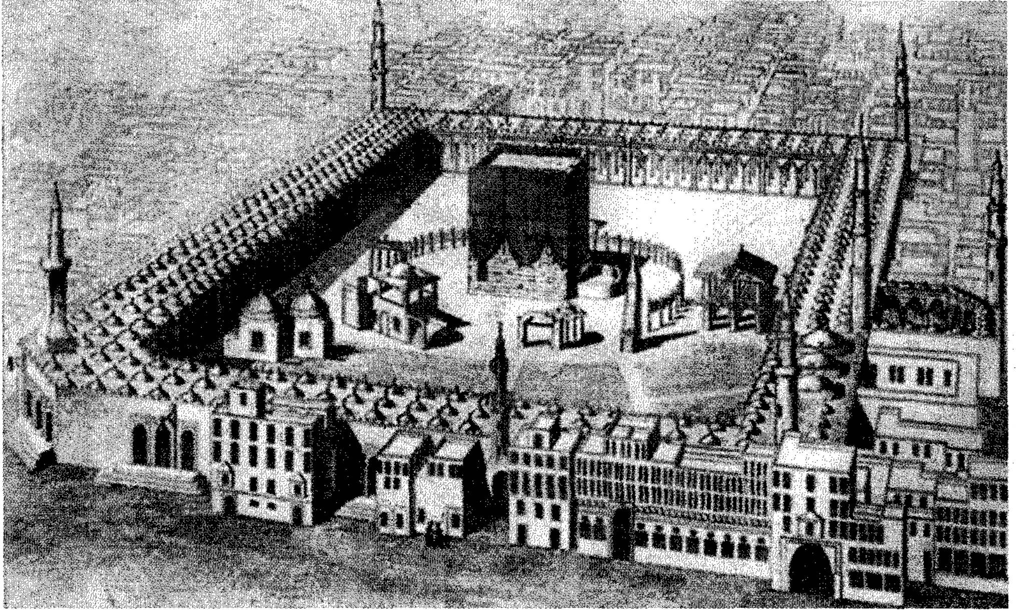
من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

(آل عمران: 96).

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس؛ أي لعموم الناس، لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به، ويصلون إليه، ويعتكفون عنده ـ للذي ببكة ـ يعني الكعبة التي بناها (رفع قواعدها) إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (وولده إسماعيل عليه من الله السلام)، ولهذا قال تعالى: **﴿مُبَارَكًا﴾** أي وضع مباركاً؛ **﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾**. عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم حيث أدركتك الصلاة فصلِّ فكلها مسجد**» (رواه أحمد، وأخرجه الشيخان بنحوه).



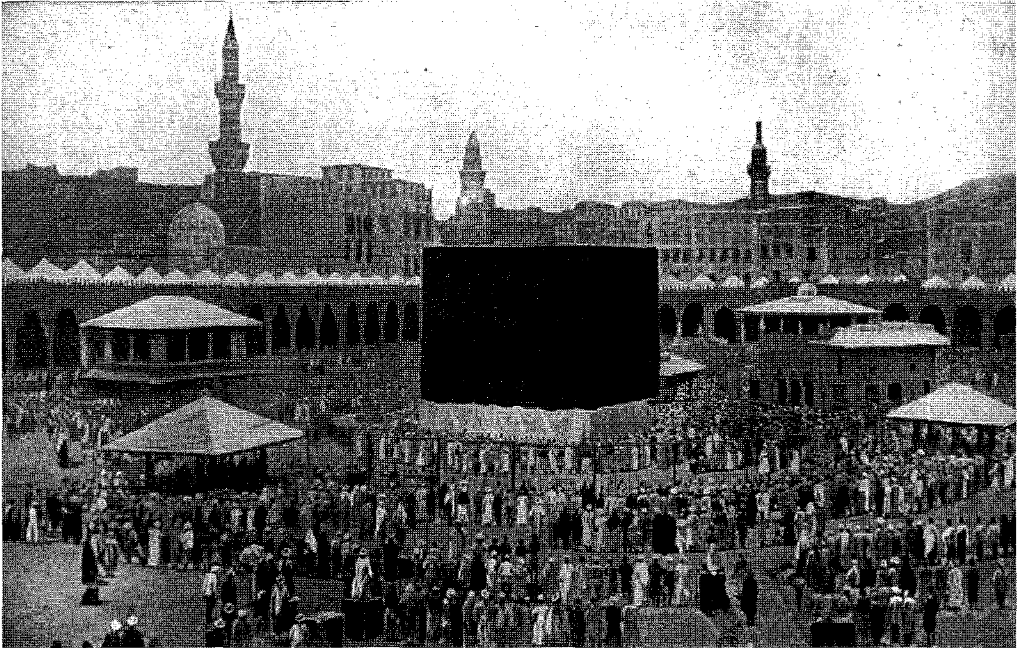
رسم للحرم المكي

وعن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ...... قال: «كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله». وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض، مطلقاً..، وهذا فهم رائع وسابق

لزمانه بقرون طويلة على الرغم من إضافة ابن كثير قوله: والصحيح قول علي رضي الله عنه.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ فإن (بكة) من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تبكّ أعناق الظلمة والجبابرة؛ بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون، قال قتادة: إن الله بكّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وقال شعبة عن إبراهيم: (بكة) البيت والمسجد، وقال عكرمة: البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة وقال مقاتل بن حيان: (بكة) موضع البيت وما سوى ذلك مكة، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة (مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والحاطمة، والرأس، والبلدة، والبنية، والكعبة).

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ متعبداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ في الأرض ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ بالباء لغة في (مكة) سميت بذلك لأنها تبكّ أعناق الجبابرة، أي: تدقّها، بناه الملائكة قبل خلق آدم، ووضع بعده الأقصى، وبينهما أربعون سنة كما في حديث الصحيحين، وفي حديث أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب



صورة أخذت للكعبة المشرفة عام 1297 هـ ـ 1880 م

عن ابن عمر موقوفاً عليه: أنه أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السمٰوات والأرض زبدة ـ بفتح الزاي ـ؛ أي: كتلة من الزبد) بيضاء فدحيت الأرض من تحته، ﴿مُبَارَكًا﴾ حال من ﴿ٱلَّذِى﴾؛ أي: ذا بركة ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم.

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «...ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل، فهي أول بيت وضع في الأرض للعبادة وخصص لها... وجعله مباركاً وجعله هدى للعالمين»..

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ ما نصه:

.... «إن أول بيت وضعه الله متعبداً للناس وقبلة للصلاة وموضعاً للحج والطواف، سواء العاكف فيه والباد، لهو الكعبة....»!، ﴿بِبَكَّةَ﴾ لغة في (مكة)، والميم والباء يتعاقبان لغة، كما في لازم ولازب، ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره، أو اعتكف فيه أو طاف حوله، لمضاعفة ثواب العبادة فيه؛ من البركة، وهي النماء والزيادة.

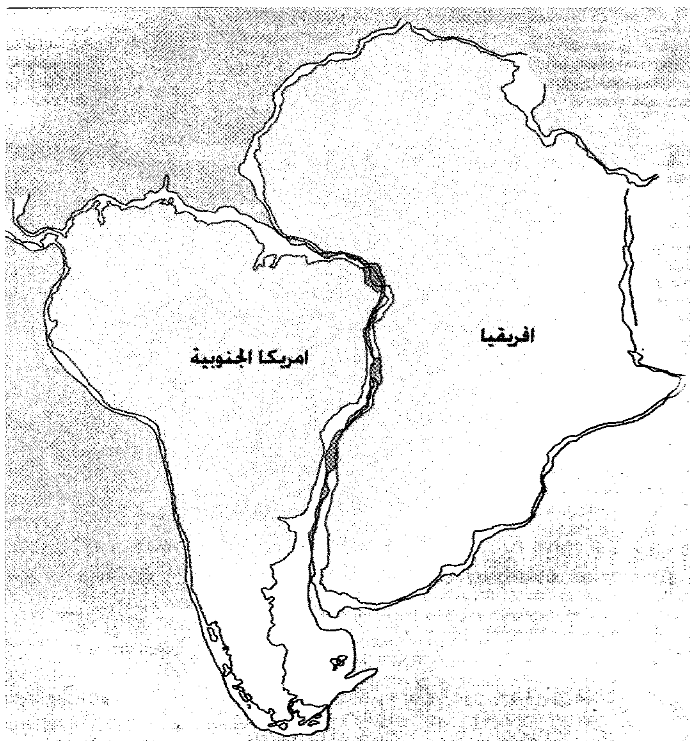
• وذكر كل من أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم وصاحب صفوة التفاسير ـ جزاهم الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً، لا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

الدلالة العلمية للآية الكريمة

بعد مجاهدة طويلة استغرقت آلافاً من العلماء، عبر عشرات من العقود ثبت لنا في منتصف الستينيات من القرن العشرين أن أرضنا في مرحلة من مراحل خلقها كانت مغمورة بالماء غمراً كاملاً، لم يدع فيها شيئاً مكشوفاً من اليابسة، ثم شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن يفجر قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية عنيفة ظلت تلقي بحممها التي تراكمت فوق بعضها البعض مكونة سلسلة جبلية في وسط هذا المحيط الغامر، وظلت هذه السلسلة في النمو والارتفاع حتى ظهرت قمتها فوق سطح الماء مكونة أول جزء من اليابسة على هيئة جزيرة بركانية من مثل الجزر البركانية العديدة والمنتشرة في محيطات اليوم (جزر اليابان، الفلبين، إندونيسيا، هاواي، وغيرها)، وباستمرار عمليات النشاط البركاني نمت هذه الجزيرة الأولية بالتدريج بواسطة الثورات البركانية المتلاحقة التي أضافت إليها مساحات جديدة من اليابسة محولة إياها إلى قارة كبيرة تعرف باسم القارة الأم أو بانجيا **(Pangaea)** وهذا النمو ـ بالإضافة على مراحل ـ يعرف باسم الدحو الذي يعرف لغة: بالمد والبسط والإلقاء وهو تعريف دقيق لعمليات بناء الأرض بواسطة الثورات البركانية.

وبعد اكتمال تكون القارة الأم شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن يمزقها بواسطة شبكة

هائلة من الصدوع العميقة التي شكلت خسوفاً أرضية غائرة، فصلت تلك القارة الأم إلى القارات السبع المشاهدة حالياً على سطح الأرض التي كانت في القديم أشد تقارباً إلى بعضها البعض ثم بدأت في الزحف والتباعد حتى وصلت إلى مواقعها الحالية على سطح الأرض والتي لا تزال في حركة دائبة منها اليوم.



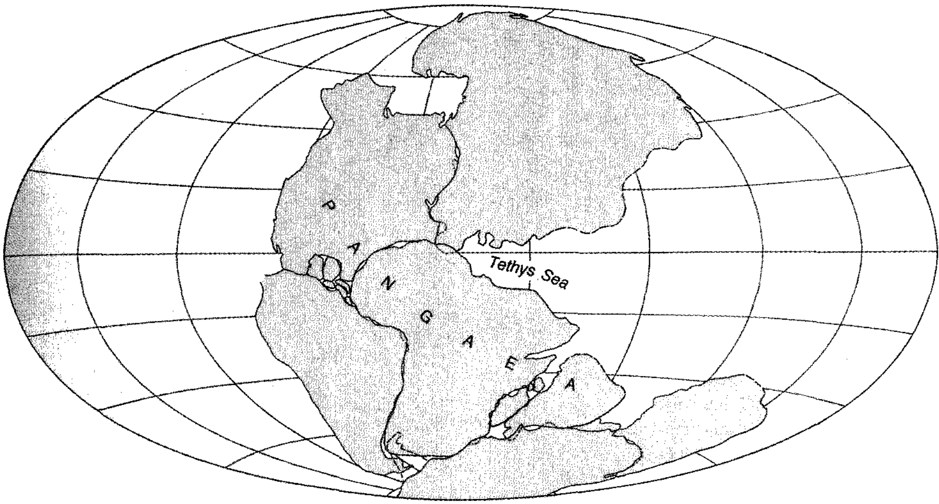
القارات كانت متقاربة وبدأت بالتباعد بواسطة تحرك الألواح والثورات البركانية

هذه الظاهرة التي يتحول فيها جزء من المحيط إلى أرض يابسة، أو تنشق الأرض اليابسة لتحتوي محيطاً فيما بينها تعرف باسم **«دورة المحيط واليابسة»**.

ويتم تحول المحيط إلى أرض يابسة بواسطة الثورات البركانية المتكررة من تحت قاع المحيط التي ترتفع بجزء من ذلك القاع إلى ما فوق سطح الماء على هيئة جزر بركانية تظل تنمو بالتدريج متحولة إلى قارة، ثم بواسطة تصدع وخسف أجزاء من تلك القارة تنفصل إلى كتلتين متوازيتين يفصلهما بحر طولي شبيه بالبحر الأحمر، يظل يتسع باستمرار حتى يتحول إلى محيط.

ومن قبل ألف وأربعمائة سنة روي عن رسول الله ﷺ قوله: **«كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض»** والحديث ذكره الهروي في غريب الحديث (362/ 3)، وذكره الزمخشري في الفائق في غريب الحديث (371/ 1) لأن دلالته العلمية سابقة لعصره بألف وأربعمائة من السنين.

و(الخشعة) أكمة لاطئة بالأرض، والجمع (خشع).



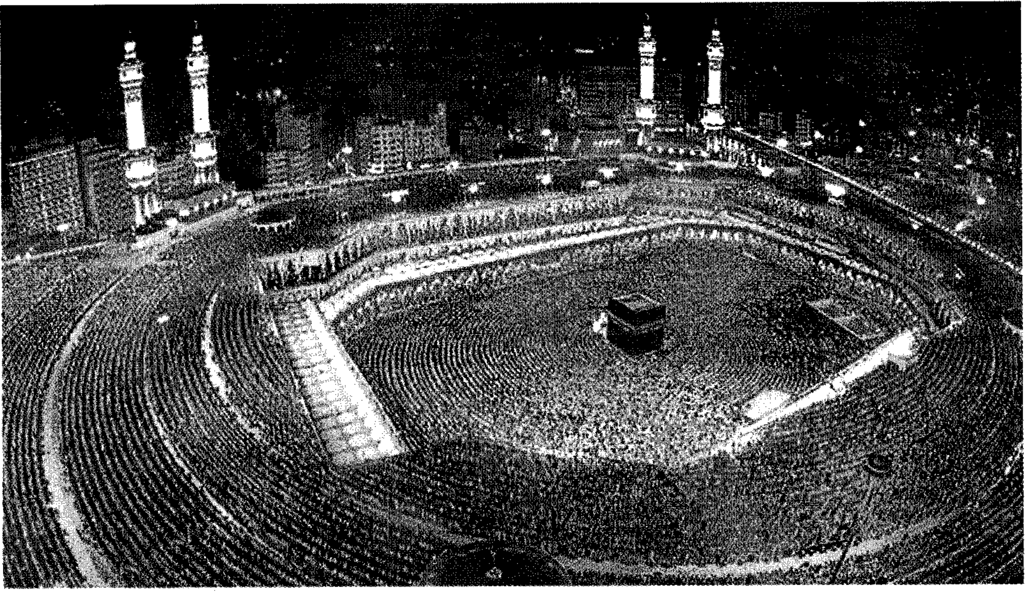
القارة الأم والتي تكونت منها القارات السبع بفعل الصدوع والتفتت (pangaea)

وهذا الحديث النبوي الشريف يدعمه حديث آخر أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً عليه: أنه؛ أي البيت الحرام أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السمٰوات والأرض زبدة ـ بفتح الزاي ـ؛ أي كتلة من الزبد بيضاء فدحيت الأرض من تحته.

وهذان الحديثان الشريفان يعتبران سبقاً علميًّا معجزاً لرسول الله ﷺ يشهد له بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض؛ لأنه لم يكن لأحد من الخلق قبل منتصف الستينيات من القرن العشرين إدراك لشيء من هذه الحقيقة.

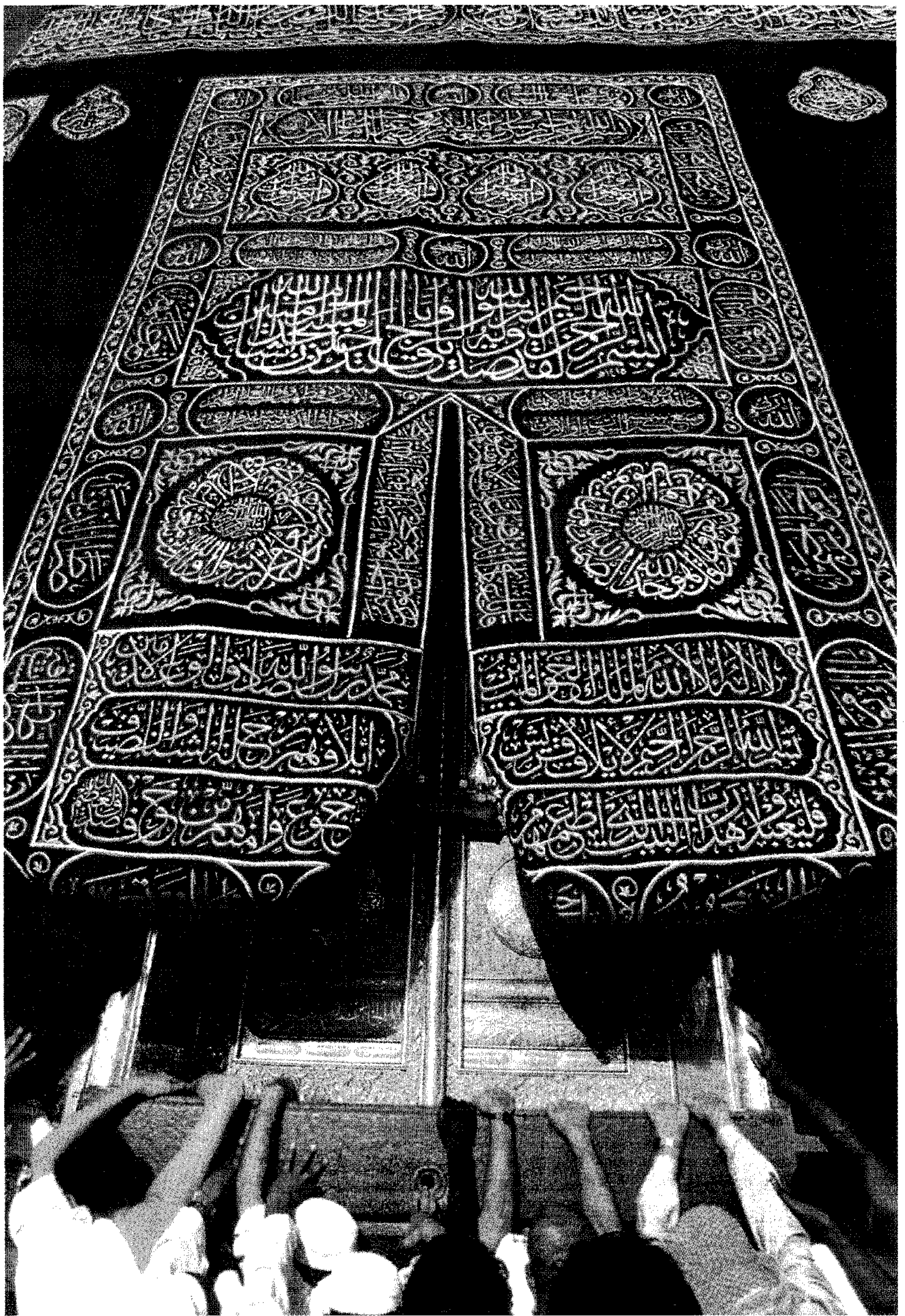
ولعل في هذين الحديثين الشريفين ما يدعم قول السدي رحمه الله في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾: إنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً. . . .

ويؤكد ذلك ما أشرنا إليه في مقال سابق عن توسط مكة المكرمة لليابسة، كما يحمل معنى أن اليابسة تحت الكعبة المشرفة تعتبر أقدم جزء من الغلاف الصخري للأرض على الإطلاق، وهو ما لم يحاول أحد إثباته بعد، وعلى علماء المسلمين أن يتحققوا من ذلك بتحديد العمر المطلق للصخور القائمة حول الكعبة المشرفة بواسطة العناصر المشعة الموجودة فيها حتى يمكن تقديم هذا الدليل إلى الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين مما يعتبر وثيقة مادية ملموسة، وحجة منطقية دامغة على الناس كافة بنبوة هذا النبي الخاتم ﷺ.



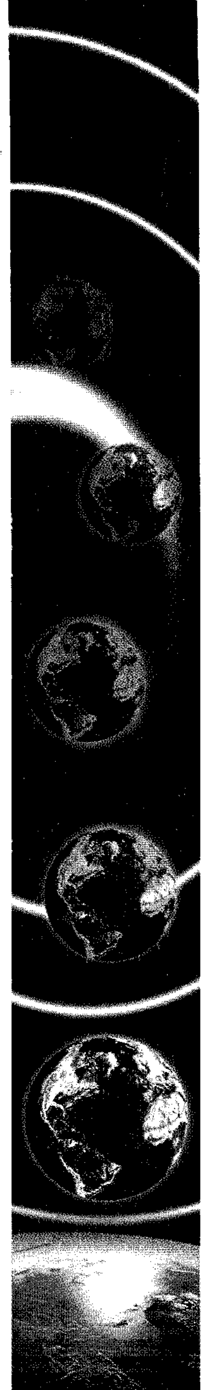
صورة للحرم المكي المكرم (في الليل)

فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه لنا بلغة وحيه، كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً ليكون للعالمين نذيراً وصلى الله وسلم وبارك على النبي الخاتم الذي تلقاه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

(33) ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ...﴾ (آل عمران: 97)



هذا النص القرآني الكريم جاء في منتصف سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها مائتي آية بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أسرة السيدة مريم ابنة عمران، أم نبي الله عيسى عليه السلام، وقصة ميلادها، وميلاده ونذرها لله من قبل أمها ـ عليها رضوان الله ـ.

وقد تطرقنا في المقال السابق إلى شرح ما تحويه سورة آل عمران من قضايا أساسية منها الردّ على أهل الكتاب في قضية العقيدة، والتأكيد على وحدة الرسالة السماوية، و وحدة النبوة، ووحدة الإنسانية، وقد ربطت رسالات السماء كلها بالكعبة المشرفة في مكة المكرمة وهي أول بيت وضع للناس، وذكرت العديد من القضايا المهمة، وقد استعرضنا ركائز العقيدة والتشريعات التي حفلت بها سورة آل عمران، وكذلك الآيات الكونية التي استشهدت بها، وفي هذا المقال نتوقف عند قوله ـ تعالى ـ في وصف أول بيت وضع للناس: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ (آل عمران: 97) وقبل الدخول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾. (آل عمران: 96، 97).

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يلي: وقوله تعالى ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ أي دلالات ظاهرة. . . ، وأن الله عظمه وشرفه، ثم قال تعالى: ﴿مَّقَامِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران؛ حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى آخره عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، في إمارته إلى ناحية الشرق، بحيث يتمكن الطواف منه، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف. . وقال ابن عباس في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾؛ أي فمنها مقام إبراهيم والمشاعر، وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بينة. . ، وقال ابن ابي حاتم عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَّقَامِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قال: الحرم كله مقام إبراهيم، وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية. . . وحتى أنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك. . . .

• وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لتفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورحمهم، ولا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾. **(آل عمران: 96، 97).**

ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المقصود بتعبير ﴿مَّقَامِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ هو تلك الصخرة التي استعان بها سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه السلام ـ بالوقوف عليها؛ وهو يرفع القواعد من البيت العتيق، وولده إسماعيل ـ على نبينا وعليه السلام ـ يناوله الحجارة حتى تم البناء.

وانطلاقاً من ذلك قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآيات البينات التي جاء ذكرها في هاتين الآيتين الكريمتين هي أثر قدمي سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في تلك الصخرة المعروفة باسم (مقام إبراهيم).

ولكن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ذكر أن المقصود بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿مَّقَامِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ هو الحرم على اتساعه، وأن الآيات البينات التي فيه منهن مقام إبراهيم

والمشاعر، وأيد ذلك عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ كما رواه ابن أبي حاتم فقال: الحرم كله مقام إبراهيم، ويؤيد ذلك قوله ـ تعالى ـ: (من دخله كان آمناً)، أي من دخل إلى الحرم المكي.



مقام سيدنا إبراهيم مواجهاً للكعبة المشرفة

وتقدر مساحة هذا الحرم المكي بحوالي 600 كيلومتراً مربعاً على هيئة سلسلة من الأودية والمنخفضات تمتد من مكة المكرمة غرباً إلى ساحة عرفات شرقاً، مروراً بكل من وادي منى ووادي المزدلفة.

ولهذا الحرم حدود حددها ربنا ـ تبارك وتعالى لأبينا آدم عليه السلام، وحملها جبريل عليه السلام إلى أبي الأنبياء إبراهيم ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ وقد نصبت على هذه الحدود أعلام في جهات خمس تعتبر المداخل الرئيسية للحرم المكي، وهذه الأعلام على هيئة أحجار مرتفعة قدر متر واحد، منصوبة على جانبي كل طريق من الطرق المؤدية إلى منطقة الحرم المكي.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ماهي الآيات البينات التي أشارت إليها الآية الكريمة التي نحن بصددها في هذه المساحة الكبيرة التي تشكل الحرم المكي؟ وما هي دلالاتها على شرف المكان وعظمته وبركاته؟ وللإجابة على ذلك نورد ما يلي:

الآيات البينات في الحرم المكي:

أولاً: توسط مكة المكرمة لليابسة: وقد قام بإثبات ذلك الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ وذلك في بحث قيم بهذا العنوان في أثناء تحديده لاتجاهات القبلة من المدن الرئيسية في العالم فلاحظ تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات السبع التي تُكَوِّن اليابسة.

فإذا كانت الأرض هي مركز السمٰوات السبع بنص الآية الكريمة التي يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الرحمٰن:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾. **(الرحمٰن: 33).**

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مروراً بمركزه، وأقطار السمٰوات على ضخامتها تنطبق على **أقطار** الأرض على ضآلتها النسبية بحسب نص الآية الكريمة، فلا بد أن تكون الأرض في مركز الكون.

ويدعم هذا الاستنتاج ورود الإشارة بذكر السمٰوات والأرض وما بينهما في عشرين آية قرآنية صريحة، ومقابلة السمٰوات بالأرض في عشرات الآيات القرآنية الأُخرى.

ويدعم هذا الاستنتاج كذلك ما روي عن المصطفى ﷺ من أقوال منها:

«**كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض**».

«**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**».

«**البيت المعمور منا مكة**» ووصفه بقوله ﷺ بأنه بيت في السماء السابعة على حيال الكعبة تماماً حتى لوخرّ لخرّ فوقها.

كل هذه النصوص تؤكد مركزية مكة المكرمة لليابسة أي الأرض الأولى، ومركزية الأرض للسمٰوات السبع، فالحرم المكي مركز بين السمٰوات السبع والأرضين السبع كما وصفه المصطفى ﷺ.

ثانياً: انتفاء الانحراف المغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة:

كذلك ذكر الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ في بحثه القيم المعنون «إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة» المنشور في العدد الثاني من المجلد الأول لمجلة البحوث الإسلامية الصادرة بالرياض سنة 1396/ 1395هـ (الموافق 1976/ 1975م) أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول ينطبق فيها الشمال المغناطيسي الذي تحدده الإبرة الممغنطة في البوصلة مع الشمال الحقيقي الذي

يحدده النجم القطبي، ومعنى ذلك أنه لايوجد أي قدر من الانحراف المغناطيسي على خط طول مكة المكرمة، بينما يوجد عند جميع خطوط الطول الأُخرى.

ثالثاً: ضبط اتجاه أضلاع الكعبة المشرفة:

الكعبة المشرفة مبنية بأركانها الأربعة في الاتجاهات الأربعة الأصلية تماماً. فركنها الشامي في اتجاه الشمال الحقيقي، ويقابله في اتجاه الجنوب الحقيقي تماماً الركن اليماني، وركن الحجر الأسعد يواجه الشرق الحقيقي تماماً ويقابله الركن المصري في اتجاه الغرب الحقيقي تماماً.

وتحديد تلك الاتجاهات بهذه الدقة في زمن موغل في التاريخ كالذي بنيت فيه الكعبة المشرفة ينفي إمكانية كونه عملاً بشريًا.

رابعاً: الحجر الأسعد من أحجار السماء:

روى أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحجر الأسود نزل به ملك من السماء**»[1].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم**»[2].



الحجر الأسعد

وروي عنه أيضاً قوله ﷺ لأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تطوف معه بالكعبة المشرفة حين استلم الركن: «**لولا ما طبع على هذا الحجر يا عائشة من أرجاس الجاهلية وأنجاسها إذن لاستشفي به من كل عاهة، ولألفي اليوم كهيئته يوم أنزله الله عز وجل، وليعيدنه إلى ما خلقه أول مرة، وأنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، ولكن الله سبحانه وتعالى غيره بمعصية العاصين، وستر زينته عن الظلمة والأثمة، لأنه لا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء كان بدؤه من الجنة**» رواه الأزرقي عن وهب بن منبه)[3].

(1) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34731).
(2) أخرجه الترمذي في سننه (الحديث: 877).
(3) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (الحديث: 29).

كذلك أخرج كلٌّ من الترمذي، وأحمد، والحاكم، وابن حبان قول رسول الله ﷺ: «**إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة**»(1).

وجاء في رواية للبيهقي أن رسول الله ﷺ أضاف: «**ولولا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضاءا ما بين المشرق والمغرب، وما مسهما من ذي عاهة ولا سقم إلا شفي**»(2).

وحينما قرأ المستشرقون هذه الأحاديث النبوية الشريفة ظنوا الحجر الأسعد قطعة من البازلت الذي جرفته السيول من الحرات المجاورة وألقت به إلى منخفض مكة المكرمة.



الكعبة المشرفة ويبدو موقع مقام سيدنا إبراهيم بالقرب منها

ومن أجل إثبات ذلك استأجرت الجمعية الملكية الجغرافية البريطانية ضابطاً بريطانياً باسم ريتشارد فرانسيس بيرتون (**Richard Francis Burton**) جاء إلى الحجاز في هيئة حاج أفغاني وذلك في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (1269هـ/ 1853م) بهدف سرقة جزء من الحجر الأسود والفرار به إلى بريطانيا، وبالفعل تم له ذلك، وبدراسة العينة المسروقة ثبت أنها من أحجار السماء، لأنها تشبه أحجار النيازك، وإن تميزت بتركيب كيميائي ومعدني خاص، وكان هذا الاكتشاف سبباً في إسلامه، وقد سجل قصته في كتاب من جزءين بعنوان: رحلة إلى مكة (**A Journey To Mecca**)، وتوفي بيرتون في سنة1890م/ 1308هـ.

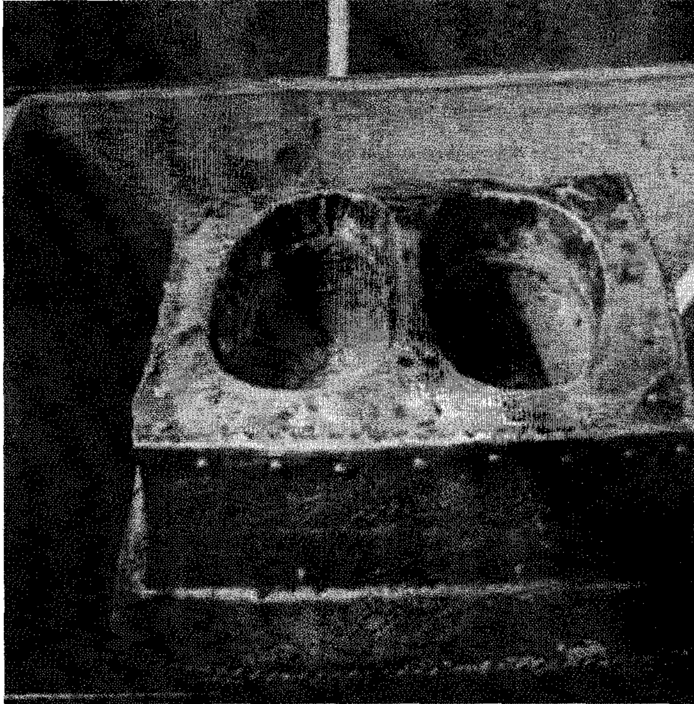
---

(1) أخرجه الترمذي (الحديث: 879) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده.
(2) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34742).

خامساً: مقام إبراهيم عليه السلام يحمل طبعة قدميه:

أشرنا مسبقاً بأن كلمة (المقام) ـ بفتح الميم الأولى وضمها ـ تأتي بمعنى (الإقامة)، من الفعل (أقام)، (يقيم)، (إقامة)، و (مقاماً)، ومن هنا أخذ التعبير القرآني (مقام إبراهيم) على أنه الحرم المكي بكامل حدوده، ولكن من مدلول الكلمة أيضاً (موضع القيام) من الفعل (قام) (يقوم) (مقاماً)، ولذلك فهم تعبير (مقام إبراهيم) بالصخرة التي (قام) عليها وهو يرفع القواعد من البيت، وبهذا المفهوم فإن هذه الصخرة تحمل آية بينة وهي أنه على الرغم من صلادتها (صلابتها) الشديدة فإنها تحمل طبعة غائرة لقدمي أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ولين هذه الصخرة الصلدة إلى الحد الذي يمكنها من حمل طبعة قدمي هذا النبي الكريم معجزة بكل المقاييس العلمية يقف العلم عاجزاً أمام إمكانية تفسيرها، لأن المعجزات خوارق للسنن والقوانين، ولذلك لايمكن للعلم المكتسب أن يفسرها، وهي آية محسوسة لكل ذي بصيرة.

وفي الأثر أن هذا المقام كان يرتفع بإبراهيم عليه السلام حتى يضع الحجر في مكانه المحدد من البناية، ثم يهبط به ليتناول حجراً آخر من ولده إسماعيل ـ عليه من الله السلام ـ.



أثر قدمي سيدنا إبراهيم في حجر مقامه

وفيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «**الركن والمقام من الجنة**»[1]، وقوله: «**الحجر والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة**»[2].

سادساً: بئر زمزم آية من آيات الحرم المكي:

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

إن تدفق الماء من بئر زمزم على مدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، من قلب صخور نارية ومتحولة شديدة التبلور هو أمر لافت للنظر. . على الرغم من طمرها وحفرها لعدة مرات، ولم يعرف مصدر هذا الماء المتدفق إلى البئر إلا بعد حفر الأنفاق حول مكة المكرمة، حين أدرك العاملون في حفر تلك الأنفاق أن الماء يتدفق من تشققات شعرية دقيقة تمتد لمسافات بعيدة خارج حدود مكة المكرمة وفي جميع الاتجاهات من حولها، وهذه الملاحظة تؤكد وصف المصطفى ﷺ لهذه البئر المباركة بأنها نتجت عن طرقة شديدة وصفها بقوله الشريف: «**هي هزمة جبريل وسقيا الله لإسماعيل**»[1]؛ لأن الهزمة في اللغة هي الطرقة الشديدة.

وبئر زمزم هي إحدى الآيات المادية الملموسة الدالة على كرامة المكان ويصف رسول الله ﷺ ماءها بقوله: «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام طعم وشفاء سقم**»[2]؛ وقوله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له**»[3].

سابعاً: أن أعداداً كبيرة من الأنبياء والصالحين مدفونون في الحرم المكي وفي مسجد **الخيف**، فعلى سبيل المثال يذكر أن سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه السيدة هاجر رضي الله عنها مدفونان في حجر إسماعيل، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**في مسجد الخيف قبر سبعين نبياً**»[4].

ويروى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قوله: لو كنت من أهل مكة ما أخطأتني جمعة لا أصلي فيه، ولو يعلم الناس مافيه لضربوا إليه أكباد الإبل. .

وقال مجاهد: حجّ خمسة وسبعون نبيًّا كلهم قد طاف بهذا البيت، وصلى في مسجد منى. وآثار هذه الأعداد الكبيرة من الأنبياء والصالحين لاتزال موجودة في هذه المنطقة المباركة من الأرض، وهي من الآيات البينات التي جاءت الإشارة إليها في الآية التي نحن بصددها والتي يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ . . .﴾.

وسوف أرجيء التعليق على بقية الآية إلى فصل آخر إن شاء الله، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد.

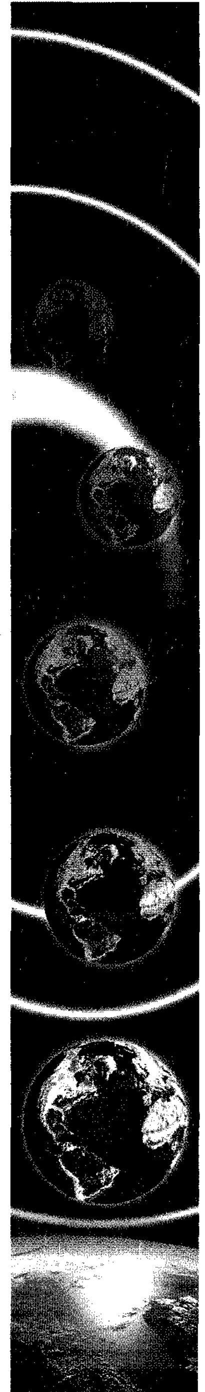
---

(1) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34784).
(2) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34779) وذكره الطبراني في المعجم الكبير.
(3) أخرجه البخاري (الحديث: 1636).
(4) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.

بسم الله الرحمن الرحيم

(34) ﴿...وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ...﴾

(آل عمران: 97)



هذا النص القرآني الكريم جاء حول منتصف سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها مائتين بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أسرة السيدة مريم ابنة عمران، أم نبي الله عيسى عليه السلام، وإلى المعجزات الإلهية المصاحبة لميلادها، وميلاده، وميلاد نبي الله يحيى لأبيه على الكبر وهو نبي الله زكريا عليه السلام، والمعجزات التي أجراها الله تبارك وتعالى على يد كل منهم حتى تكون شاهدة ومؤيدة له.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من القضايا التي سبق وأن عرضناها في المقالين السابقين، وكل قضية منها تحتاج إلى وقفة خاصة؛ ولما كان المقام لا يتسع لذلك فسوف أتوقف هنا على النص القرآني المعجز في وصف الحرم المكي بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ . . .﴾ وقبل شرح الدلالة العلمية لذلك أعرج إلى قول عدد من المفسرين فيه.

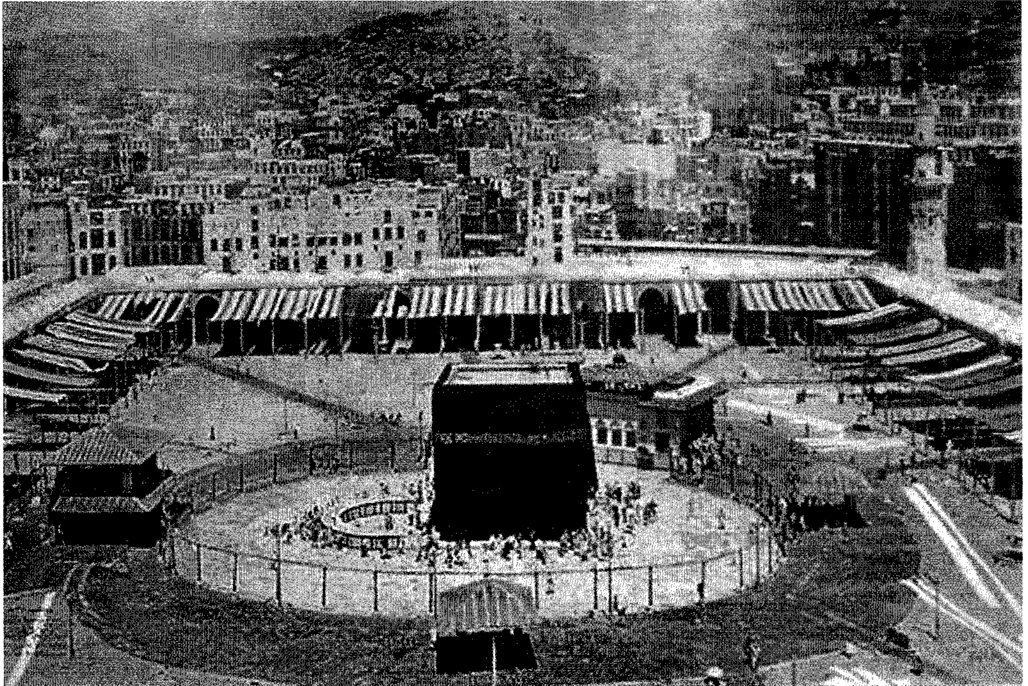
من أقوال المفسرين

• ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره ما نصه: «وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾؛ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لايؤوي ولايطعم، ولايسقي، فإذا خرج أخذ بذنبه،

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾. **(قريش: 3، 4)**.

وحتى أنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك.

ففي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**»[1]، وقال: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامه، وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة: لا يعضد شوكه، ولاينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه**»[2]، فقال العباس: يارسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم. فقال: «**إلا الإذخر**».



صورة للكعبة المشرفة ـ عام 1371 هـ ـ 1951 م

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 1737).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 3017) وأخرجه مسلم في (الحديث: 445).

وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: «ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قال به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به: أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«**إن مكة، حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فيها فقولوا له: إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب**»، فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لايعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة (أي سرقة إبل).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لايحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة**»، وعن عبد الله بن الحمراء الزهري، أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحرورة بسوق مكة يقول: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»[1].

وأضاف ابن كثير في نهاية هذه التطوافة المباركة قوله:

وقال بعضهم في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ قال: آمناً من النار، وهذا بعد بالمعنى عن الأمن الدنيوي الذي هو واضح القصد من النص.

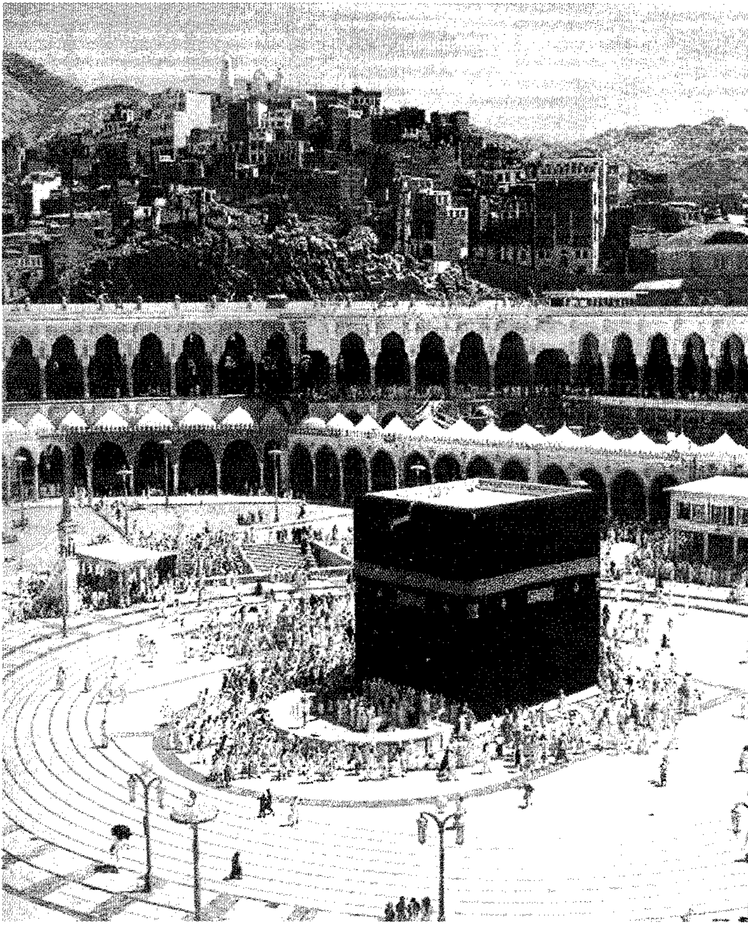
ولم يزد بقية المفسرين على هذا التفصيل شيئاً يستحق تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم

- رأي المفسرون في هذا النص القرآني الكريم الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:
﴿. . . وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ . . .﴾

التأكيد على أمن من دخل إلى الحرم المكي على اتساع مساحته، فكل من دخل في هذا الحرم صار آمناً على نفسه، مطمئناً على ماله ولو كان مطلوباً للثأر ولاذ به، كان ذلك في الجاهلية، من بقايا إجلال الناس هذا المكان، الذي كرمه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ، وفضله على جميع الأرض، وجعله أشرف بقاعها على الإطلاق، متبوعاً في هذا التشريف

(1) أخرجه الترمذي (الحديث: 3925) وأخرجه ابن ماجه (الحديث: 3108).



الكعبة المشرفة

الإلهي بالمدينة المنورة، ثم ببيت المقدس، ـ فك الله إساره من الاحتلال الصهيوني الجائر له ولجميع أرض فلسطين إن شاء الله رب العالمين اللّهم آمين آمين آمين ـ يا رب العالمين.

أما اليوم فمن اقترف جرماً فيه من جرائم الحدود أقيم عليه الحد.

وفي أثناء الفتح الإسلامي لمكة المكرمة أمر رسول الله ﷺ بمنادٍ ينادي: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وأشار بعض المفسرين إلى أن الأمن في الحرم المكي ليس للإنسان فقط، بل هو أيضاً للحيوان والنبات، فقد حرم رسول الله ﷺ أن يعضد شوكه، أو يقلع حشيشه، أو يقطع شجره، أو ينفر صيده.

وقد لاحظ المراقبون أن الحيوانات الضارية لا تصطرع في الحرم المكي، ولا يؤذي بعضها بعضاً، بل تخالط من الحيوانات ما تعودت على افتراسه خارج الحرم المكي، ولا تتعرض له فيه أبداً.

كما لاحظ المراقبون أن الطيور عادة لا تعلو الكعبة المشرفة، بل تنحرف عنها كلما طارت في اتجاهها، وكأنها هي الأُخرى في طواف حولها.

ويروي لنا التاريخ أن كل جبار قصد الحرم المكي بسوء أهلكه الله، ولم يمكنه من ذلك، كما حدث مع أصحاب الفيل.

وربنا ـ تبارك وتعالى ـ يقرر حمايته لبيته العتيق بقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **(الحج: 25)**، وتحقيقاً لهذا الوعد الإلهي تُعَجَّل العقوبة لمن انتهك حرمة في الحرم المكي. لذلك قال المصطفى ﷺ: «**الدجال يطوي الأرض كلها إلا مكة والمدينة**»[(1)].

قال يوم فتح مكة: «**لا تغزى مكة بعد هذا اليوم أبداً**»[(2)].

بعض الشواهد العلمية على أمن الحرم المكي:

أولاً: حماية مكة المكرمة من الهزات الأرضية والثورات البركانية:

على الرغم من انفتاح قاع البحر الأحمر بخسوف أرضية عميقة، واتساع هذا القاع بمعدل 1 ـ 3 سنتيمترات في كل سنة (تقاس عند باب المندب)، وعلى الرغم من تحرك الجزيرة العربية ككل في الاتجاه الشمالي الشرقي؛ أي في عكس اتجاه عقرب الساعة متباعدة عن القارة الإفريقية، وعلى الرغم من السجلات الزلزالية المدونة، و الثورات البركانية العنيفة التي تركت طفوحاً هائلة من الحمم والرماد البركاني في المنطقة قديماً وحديثاً، والتي تقدر بنحو 2586 حدثاً زلزالياً بقدر يتراوح من 3.1 إلى 6.7 درجة على مقياس ريختر) خلال الفترة من سنه627م إلى 1989م، وما تلا ذلك من زلازل حتى سنة1996م بلغ قدر أعلاها 6 درجات على مقياس ريختر، أو فوق ذلك قليلاً، وامتدت من اليمن جنوباً (مثل زلزال ذمار الذي حدث في 1982/ 12/ 13م) إلى العقبة شمالاً، فلم تسجل هزة أرضية واحدة في الحرم المكي كله الممتد من وادي الشميسي غرباً على بعد 15كم من مكة المكرمة إلى الجعرانة شرقاً على بعد 16كم، ومن أضاة جنوباً على بعد 12كم إلى التنعيم شمالاً على بعد 6كم، وإلى وادي نخلة في الشمال الشرقي من مكة

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (الحديث: 37491).
(2) أخرجه الحميدي في مسنده (الحديث: 572)

المكرمة على بعد 14كم؛ أي في منطقة تقدر مساحتها بنحو ستمائة كيلومتر مربع، وذلك على الرغم من وقوع زلزال مروع في المدينة المنورة سنة 1256م، صاحبته ثورة بركانية عنيفة، وعلى الرغم من وجود أكثر من تسعين ألف كيلومتر مربع من الطفوح البركانية وآلاف الفوهات البركانية على طول أرض الحجاز.

ثانياً: إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة:

في دراسة علمية دقيقة لتحديد اتجاهات القبلة من المدن الرئيسية في العالم، أثبت الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي أن اليابسة موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً، واستنتج من ذلك أن هذه المدينة المباركة تعتبر مركزاً لليابسة.

ثالثاً: انتفاء الانحراف المغناطيسي على مسار خط طول مكة المكرمة:

كذلك أثبت هذا العالم المصري الجليل ـ الذي نسأل الله تعالى له الرحمات ـ أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول (39.817 درجة شرقاً) تقع جميعها في الإسقاط الذي قام به على خط مستقيم هو خط الشمال الجنوب الجغرافي؛ بمعنى انعدام الانحراف المغناطيسي على طول هذا الخط، مع وجوده على باقي خطوط الطول الأُخرى، وهي ميزة ينفرد بها خط طول مكة المكرمة.

هذه الخصوصية لا (ولم) تمنع تعرض تلك الأرض المباركة لبعض التغيرات المناخية التي تسبب هطول الأمطار الموسمية بغزارة ـ على ندرة حدوث ذلك ـ، وقد تصاحب هذه الأمطار الغزيرة بالسيول الجارفة التي طاف فيها بعض الطائفين حول الكعبة المشرفة سباحة.

بعض الشواهد الإسلامية على كرامة الحرم المكي:

• في عشرات الآيات يقابل القرآن الكريم الأرض ـ على ضآلتها النسبية ـ بالسماء ـ على اتساعها المذهل ـ، وهذه المقابلة لابد أنها متعلقة بوضع خاص للأرض بالنسبة إلى السماء.

• يذكر القرآن الكريم تعبير السمٰوات والأرض وما بينهما في عشرين آية قرآنية صريحة، وهذه البينية لا تتم إلا إذا كانت الأرض في مركز السمٰوات، أي في مركز الكون.

• يؤكد هذا الوضع ـ قرآنياً ـ قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الرحمٰن:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾. **(الرحمٰن: 33).**

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مروراً بمركزه، فإذا انطبقت أقطار السمٰوات ـ مع ضخامتها النسبية ـ مع أقطار الأرض ـ على ضآلتها النسبية ـ فلابد أن تكون الأرض في مركز السمٰوات.

• إثبات الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ توسط مكة المكرمة لليابسة، وإثبات وجود الأرضين السبع كلها في أرضنا، انطلاقاً من حديث سيد المرسلين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ الذي قال فيه: «**من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»(1) ومن دراسات التركيب الداخلي للأرض ثبت ذلك، مما ينطبق وقول رسول الله ﷺ: «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»(2)، وقوله ﷺ: «**يامعشر قريش، يامعشر أهل مكة، إنكم بحذاء وسط السماء، وأقل الأرض ثياباً، فلا تتخذوا المواشي**»(3).

وقوله ﷺ: «**البيت المعمور منا مكة**»(4). ووصفه البيت المعمور بأنه «**بيت في السماء السابعة على حيال الكعبة تماماً حتى لو خرّ لخرّ فوقها**»(5).

كل ذلك يؤكد لنا أن الأرض في مركز الكون، وأن الكعبة المشرفة في مركز الأرض الأولى، ودونها ست أرضين، وحولها سبع سمٰوات، والكعبة تحت البيت المعمور مباشرة، والبيت المعمور تحت العرش، هذا الموقع المتميز للحرم المكي أعطاه من الشرف والكرامة، والبركة والعناية الإلهية ما جعل من هذا الوصف القرآني: ﴿... **وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ** ...﴾ حقيقة مدركة ملموسة لأنه دخل في أمان الله وظل عرشه، وهل يمكن أن يضام من نال شرف التواجد في هذا المكان؟؟

من هنا كان اختيار الحرم المكي ليكون أول بيت على الأرض، عبد الله ـ تعالى ـ فيه وجعله قبلة للمسلمين، ومقصداً لحجهم واعتمارهم، وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة،

---

(1) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 7620).
(2) تقدم تخريجه.
(3) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة(الحديث: 1615).
(4) تقدم تخرجه.
(5) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (الحديث: 3/ 81).

والحسنة فيه بمائة ألف حسنة، لذلك قال رسول الله ﷺ في حق مكة المكرمة عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد خصوصية المكان، ومكانته عند الله ﷻ ومنها قوله ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ:

«هذا البيت دعامة الإسلام، من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله إن قبضه أن يدخله الجنة، وإن رده أن يرده بأجرٍ وغنيمة»[1].

فسبحان الذي اختار مكة المكرمة موقعاً لأول بيت عبد فيه في الأرض، واختاره بهذه المركزية من الكون، وغمره بالكرامات والبركات، وقرر أن من دخله كان آمناً، وهذه حقائق ما كان للإنسان أن يدركها لولا نزول القرآن الكريم، وحفظه بلغة وحيه بحفظ الرحمٰن الرحيم، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة مكة المكرمة، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي قال فيه ربه ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾. **(الأحزاب: 45، 46)**.

فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

(1) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (الحديث: 9033).

بسم الله الرحمن الرحيم

(35) ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾

(الفجر: 7، 8)



هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في آخر الربع الأول من سورة «الفجر»، وهي سورة مكية، يدور محورها الرئيسي حول قضية البعث بعد الموت، وهي من القضايا الأساسية في العقيدة الإسلامية.

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله ـ تعالى ـ بالفجر، وهو يمثل الفترة الزمنية التي يبزغ فيها أول خيط من الشفق الصباحي على جزء من سطح الأرض، فيعمل ذلك على محو ظلمة الليل بالتدريج حتى شروق الشمس، ويبدأ ذلك بوضع الجزء من الأرض الذي يبزغ عليه الفجر في وضع تبدو الشمس منه وكأنها على بعد 18.5 درجة تحت الأفق، وتظل ترتفع في حركتها الظاهرية حول الأرض، والتي تتم بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس حتى ظهور حافة الشمس العليا عند الأفق فتشرق الشمس. والفجر الصادق يمثل أول النهار من الناحية الشرعية.

وظاهرة الفجر تدور مع الأرض في دورتها اليومية حول محورها أمام الشمس، فتنتقل من منطقة إلى أُخرى بانتظام حتى تمسح سطح الأرض كله بالتدريج، وهي ظاهرة تصاحب بقدر من الصفاء البيئي والنقاء لا تساويها فترة أُخرى من فترات اليوم في ذلك فتتميز بالنداوة، والرقة والهدوء، وبانعكاس ذلك كله على مختلف أنواع الخلائق، وربما كان ذلك وغيره من مبررات هذا القسم الإلهي بالفجر، والله ـ تعالى ـ غني عن القسم لعباده، والمقصود من ورود الآية القرآنية بصيغة القسم هو تنبيهنا إلى أهمية الأمر الذي جاء به القسم.

ويلي القسم بالفجر قسم ثانٍ بـ ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ وقد قيل فيها أنها الليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، ومن ضمنها ليلة القدر

التي وصفها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بأنها خير من ألف شهر، ويأتي في مقابلتها الأيام العشر الأوائل من شهر ذي الحجة، وفيها يوم عرفة الذي وصفه المصطفى ﷺ بأنه أفضل يوم عند الله، ووصف العشر من ذي الحجة بأنه ما من أيام بأفضل منها عند الله[1].

ثم يأتي قسم ثالث بالشفع والوتر وفية قيل أن المقصود بذلك الصلاة، ومنها الشفع كالصلاة الثنائية والرباعية، ومنها الوتر كالمغرب وختام الصلاة في آخر الليل.

ويلي ذلك قسم رابع بـ (الليل إذا يسر) وأصل السري هو السير بالليل، وإسناد ذلك إلى الليل قيل فيه أنه مجاز بمعنى (يسري فيه) ـ وحذفت ياؤه في الآية الكريمة وصلاً ووقفاً ـ، وقيل إنه ليس بمجاز؛ وذلك لتعاقب كل من الليل والنهار على سطح الأرض بفعل دوران الأرض حول محورها أمام الشمس حتى يخرج نصفها المظلم من انطباق ظلمة السماء على ظلمة الأرض وذلك بدخول طبقة نور النهار بينهما، وانتقال ظلمة ليل الأرض إلى جزء آخر منها كان يعمه نور النهار، ولا يخفى على عاقل فوائد تعاقب كل من الليل والنهار على سطح الأرض، وعلى الحياة الأرضية.

وبعد القسم بهذه الآيات الخمس، وبما لها من قيمة في انتظام حركة الحياة تتساءل سورة الفجر: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾.

أي لذي لب وعقل وبصيره؟

وجواب القسم محذوف وتقديره: ليعذبن الله ـ تعالى ـ كل كافر ومشرك ومنكر للبعث، وكل مفسد في الأرض، وكل متجبر على الخلق؛ ودلالة ذلك هو سرعة الاستشهاد بمصارع عدد من الأمم البائدة من مثل أقوام عاد وثمود وفرعون، وقد أشارت الآيات إلى صفة لازمت كل أُمة منهم، وألمحت إلى شيء من تجبرهم وطغيانهم وإفسادهم، وذكرت كيف صب الله ـ تعالى ـ على كل منهم عذابه صباً، جزاء ما اقترفوه من آثام.. وأكدت أن الله ـ تعالى ـ قائم دوماً بالمرصاد لكل متجبر على الخلق وكل مفسد في الأرض وأن سنة الله واحدة في أخذ الطغاة المفسدين في كل زمان ومكان بأقسى أنواع العقاب، وأشد ألوان العذاب..!!

وبعد أن جمعت الآيات في سورة «الفجر» مصارع عدد من عتاة المفسدين في الأرض، وأكدت أن الله ـ تعالى ـ لهم ولأمثالهم دوماً بالمرصاد، انتقلت بالحديث إلى شيء من طبائع النفس الإنسانية أمام قضية بسط الرزق وقبضه، وما فيها من ابتلاء للعباد،

---

(1) راجع ما أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (الحديث: 2839).

فالصالح يشكر النعمة، ويصبر على المحنة، وغير ذلك تبطره النعمة التي يراها تكريماً لشخصه، وتضجره المحنة التي يراها إهانة لكرامته، وترد الآيات بأن إنساناً هذا شأنه مخلوق أناني لا يفكر إلا في ذاته، قد جبلت نفسه على عدم الاكتراث بإكرام اليتيم، ولا بالتحاض على إطعام المسكين، وبالنهم الشديد في اقتسام الميراث، وبالحب الجم للمال، ثم تذكر الآيات فوراً بالآخرة وما فيها من أهوال حين تدك الأرض دكاً دكاً، كناية عن تدمير الكون كله، ثم بعثه وبعث كافة الخلائق فيعرضون أمام ربهم - لا تخفى منهم خافية - والملائكة وقوف صفاً صفاً بين يدي الله - تعالى - ثم يؤتى بجهنم في هذا الموقف العصيب الذي يتقرر فيه مصير كل واحد من الخلق، وحينئذ يتذكر الإنسان ما فرط فيه من حياته الدنيا حين لايفيد التذكر بشيء، ويتمنى لو أنه كان قد قدم شيئاً لهذا الموقف الرهيب..!!

وتصف الآيات جانباً من عذاب الكفار والمشركين في ذلك اليوم العصيب الذي يقول فيه الحق - تبارك وتعالى -:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

بينما يسمع نداء الحق ﷻ على كل نفس طيبة بقوله - عز من قائل - :

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾. **(الفجر: 27 - 30).**

والإعجاز في سورة «الفجر» يشمل فيما يشمل القسم بخمس من آيات الله لم تكن أهميتها معروفة في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده، بالإضافة إلى وصف شيء من دخائل النفس الإنسانية، ووصف عدد من المظاهر والأحداث المصاحبة للآخرة، وهي من الغيبيات المطلقة التي لا سبيل أمام الإنسان لمعرفة شيء عنها إلا من خلال وحي السماء.

أما الإعجاز التاريخي في هذه السورة المباركة فهو أبلغ جوانب الإعجاز فيها لاشتماله على ذكر ثلاثة من طواغيت التاريخ القديم هم قوم عاد، ومدينتهم إرم ذات العماد، وقوم كل من ثمود وفرعون الذين قالت الآيات الكريمة فيهم.. ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ **(الفجر: 9، 10)** وهذه الأمم كانت قد بادت قبل بعثة رسول الله ﷺ بمئات السنين، ولم تكن الأمة العربية أُمة تدوين وتوثيق؛ هذا فضلاً عن بعد أراضي تلك الأمم البائدة عن مكة المكرمة بمئات، بل بعشرات المئات من الكيلومترات في زمن لم تكن وسائل المواصلات ميسرة.

وذكر قوم عاد في القرآن الكريم يعتبر أكثر أنبائه بأخبار الأمم البائدة إعجازاً، وذلك لأن هذه الأمة قد أبيدت إبادة كاملة بعاصفة رملية غير عادية.. طمرتهم وردمت آثارهم

حتى أخفت كل أثر لهم من على وجه الأرض، وبسبب ذلك أنكرت الغالبية العظمى من الأثريين والمؤرخين وجود قوم عاد، واعتبروا ذكرهم في القرآن الكريم من قبيل القصص الرمزي لاستخلاص العبر والدروس، بل تطاول بعض الكتاب فاعتبروهم من الأساطير التي لا أصل لها في التاريخ، ثم جاءت الكشوف الأثرية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين بالكشف عن مدينة إرم وإثبات صدق القرآن الكريم في كل ما جاء به عن قوم عاد، وانطلاقاً من ذلك فسوف أقصر حديثي هنا على هذا الكشف الأثري المثير الذي سبق وأن سجلته سورة الفجر في الآيات (6 ـ 8) من قبل ألف وأربعمائة من السنين، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حقيقة أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه لنا بنفس لغة وحيه التي أوحى بها ـ اللغة العربية ـ فظل محتفظاً بصياغته الربانية، وإشراقاته النورانية، وبصدق كل حرف وكلمة وإشارة فيه.

وقبل البدء في الحديث عن ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ **(الفجر: 7، 8)** لا بد من استعراض سريع لقوم عاد في القرآن الكريم، ولشرح عدد من كبار المفسرين القدامى والمعاصرين لهذه الآيات القرآنية الثلاث.

قوم عاد في القرآن الكريم:

جاء ذكر قوم عاد في سورتين من سور القرآن الكريم سميت إحداهما باسم نبيهم هود عليه السلام وسميت الأُخرى باسم موطنهم الأحقاف، وفي عشرات الآيات القرانية الأُخرى التي تضمها ثماني عشرة سورة من سور القرآن الكريم جاء ذكرهم أيضا. ونختار من ذلك كله ما يلي:

(1) ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
۝٦٥ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ
لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ
فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن
رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا

مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾. (الأعراف: 65 ـ 72).

(2) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾. (الشعراء: 123 ـ 140).

(3) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾. (فصلت: 13 ـ 16).

(4) ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾. (الأحقاف: 21 ـ 26).

(5) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾. (القمر: 18 ـ 22).

(6) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾. (الحاقة: 6 ـ 8).

(7) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾. (الفجر: 6 ـ 8).

وفي غير هذه الآيات جاء ذكر قوم عاد في كل من سورة التوبة (70)، (هود: 50 ـ 60)، إبراهيم (9)، الحج (42)، صّ (12)، غافر (31)، قّ (13)، الذاريات (41)، الفرقان (38)، العنكبوت (38)، والنجم (50).

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾. (الفجر: 6 ـ 8).

• ذكر ابن كثير رحمه الله ما نصه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾؟ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾؟ وهؤلاء ـ عاداً الأولى ـ وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن أمن معه منهم وأهلكهم، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم، وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكرهم (هود) بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ

بَصۜۜطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾. (الأعراف: 69).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فصلت: 15) وقال هٰهنا: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾؛ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، وقال مجاهد: إرم أُمة قديمة يعني عاداً الأولى، قال قتادة والسدي: أن إرم بيت مملكة عاد، وكانوا أهل عمد لا يقيمون، وقال ابن عباس: إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ الضمير يعود على القبيلة، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم. . .، وسواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحهم يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما هٰهنا، والله أعلم. . .

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ قوم هود ﷺ. (إرم) هي: عاد الأولى، ف «إرم» عطف بيان أو: بدل، ومنع الصرف للعلمية والتأنيث ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أي: ذات الأبنية المرفوعة على العمد، أو البناء المرتفع؛ ففي الصحاح والعماد: الأبنية المرتفعة، وقيل: ذات الطول. . . ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ في بطشهم وقوتهم. .

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: . . . . . (عاد إرم) وهي عاد الأولى، وقيل: إنها من العرب العاربة أو البائدة، وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال في جنوب الجزيرة بين حضرموت واليمن، وكانوا بدواً ذوي خيام تقوم على عماد، وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ في ذلك الأوان. .

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ ما نصه: . . . . . وعاد هو: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ﷺ، سمى أولاده باسمه. . . وقيل لأوائلهم وهم الذين أرسل إليهم هود ﷺ (عاد الأولى تسمية لهم باسم أبيهم)، وإرم تسمية لهم باسم جدِّهم. . . وقيل لمن بعدهم عاد الآخرة، و (إرم) بدل أو عطف بيان لِـ(عاد). . . وقيل: إن (إرم) قبيلة من (عاد) وهي بيت ملكهم؛ فهي بدل من (عاد)، بدل بعض من كل. (ذات العماد) صفة لقبيلة (إرم) أي ذات الأعمدة التي ترفع عليها بيوت الشعر؛ إذ كانوا أهل خيام وعمد ينتجعون الغيوث ويطلبون الكلأ حيث كان،

ثم يعودون إلى منازلهم، وقيل: ذات الرفعة والعزة، (لم يخلق مثلها..) صفة أُخرى لها، أي لم يخلق في بلادهم مثلها في الأيد والشدة وعظم الأجسام...

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيراً ـ ما نصه: ألم تعلم كيف أنزل ربك عقابه بعاد قوم هود، أهل إرم ذات البناء الرفيع، التي لم يخلق مثلها في البلاد متانة وضخامة بناء...

• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ ما نصه: «... أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك ماذا فعل الله بعاد قوم هود؟» ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ أي عاداً الأولى أهل إرم ذات البناء الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضرموت أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم...

إرم ذات العماد في التراث الإسلامي

في تفسير ما جاء عن (قوم عاد) في القرآن الكريم نشطت أعداد من المفسرين والجغرافيين والمؤرخين وعلماء الأنساب المسلمين، من أمثال الطبري، والسيوطي، والقزويني والهمداني وياقوت الحموي، والمسعودي في الكشف عن حقيقة هؤلاء القوم فذكروا أنهم كانوا من العرب البائدة وهو تعبير يضم كثيراً من الأمم التي اندثرت قبل بعثة المصطفى ﷺ بمئات السنين، ومنهم قوم عاد، وثمود، والوبر وغيرهم كثير، وعلموا من آيات القرآن الكريم أن مساكن قوم عاد كانت بالأحقاف ـ جمع حقف أي: الرمل المائل ـ، وهي جزء من جنوب شرقي الربع الخالي بين حضرموت جنوباً، ومعظم الربع الخالي شمالاً، وعمان شرقاً، كما علموا من القرآن الكريم أن نبيهم كان سيدنا هود عليه السلام، وأنه بعد هلاك الكافرين من قومه سكن نبي الله هود أرض حضرموت حتى مات ودفن فيها قرب وادي برهوت إلى الشرق من مدينة تريم.

أما عن ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ فقد ذكر كل من الهمداني (المتوفى سنة 334هـ/ 946م) وياقوت الحموي (المتوفى سنة 627هـ/ 1229م) أنها كانت من بناء شداد بن عاد واندرست؛ أي: طمرت بالرمال فهي لا تعرف الآن، وإن ثارت من حولها الأساطير.

الكشف الحديث عن إرم ذات العماد

• في سنة 1984م زود أحد مكوكات الفضاء بجهاز رادار له القدرة على اختراق التربة الجافة إلى عمق عدة أمتار يعرف باسم جهاز رادار اختراق سطح الأرض

(Ground Penetrating Radar Or GPR). فكشف عن العديد من المجاري المائية الجافة مدفونة تحت رمال الحزام الصحراوي الممتد من موريتانيا غرباً إلى أواسط آسيا شرقاً.

وبمجرد نشر نتائج تحليل الصور المأخوذة بواسطة هذا الجهاز تقدم أحد هواة دراسة الآثار الأمريكان واسمه نيكولاس كلاب **Nicholss Clapp** إلى مؤسسة بحوث الفضاء الأمريكية المعروفة باسم ناسا **(NASA)** بطلب للصور التي أخذت بتلك الواسطة لجنوب الجزيرة العربية، وبدراستها اتضح وجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التي تملأ حوض الربع الخالي، وعدد من أودية الأنهار القديمة والبحيرات الجافة التي يزيد طول بعضها عن عدة كيلومترات.



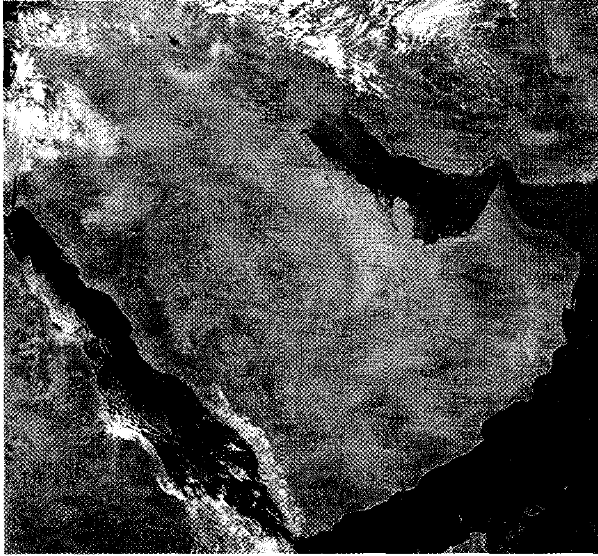
(وكالة ناسا)

صورة لصحراء الربع الخالي في المملكة العربية السعودية تم تصويرها بجهاز رادار (GPR) له قدرة اختراق التربة لأكثر من عشرة أمتار، أظهر بعد الدراسة وجود آثار أنهار وبحيرات مدفونة تحت الرمال

وقد احتار الدارسون في معرفة حقيقة تلك الآثار، فلجأوا إلى الكتابات القديمة الموجودة في إحدى المكتبات المتخصصة في ولاية كاليفورنيا وتعرف باسم مكتبة هنتنجتون **Huntington Library**.

كما لجأوا إلى عدد من المتخصصين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وفي مقدمتهم الأمريكي «جوريس زارينز» **Juris Zarins** والبريطاني راندولف فينيس **Randulph Fiennes**.

وبعد دراسة مستفيضة أجمع الدارسون على أنها هي آثار عاصمة ملك (عاد) التي ذكر القرآن الكريم أن اسمها (إرم) كما جاء في سورة الفجر، وقدر عمرها بالفترة من3000 ق.م. إلى أن نزل بها عقاب ربها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية. وعلى الفور قام معمل الدفع النفاث بكاليفورنيا (معهد كاليفورنيا للتقنية) **(The Jet Propulsion Laboratories, California Institute of Technology, J.P.L)**. بإعداد تقرير مطول يضم نتائج الدراسة، ويدعو رجال الأعمال والحكومات العربية إلى التبرع بسخاء للكشف عن تلك الآثار التي تملأ فراغاً في تاريخ البشرية، وكان عنوان التقرير هو: البعثة عبر الجزيرة **The Trans-Arabia Expedition**. وتحت العنوان مباشرة جاءت الآيتان الكريمتان رقما 7، 8 من سورة الفجر، وقد أرسل إليّ التقرير لدراسته، وقد قمت بذلك فعلاً وقدمت رأيي فيه كتابة إلى المسؤولين بالمملكة العربية السعودية.



(وكالة ناسا)

صورة بالأقمار الصناعية لشبه الجزيرة العربية - ويبدو الربع الخالي في الجنوب الشرقي منها

وقد ذكر التقرير أن اثنين من العلماء القدامى قد سبق لهما زيارة مملكة (عاد) في أواخر حكمها، وكانت المنطقة لا تزال عامرة بحضارة زاهرة، والأنهار فيها متدفقة بالماء، والبحيرات زاخرة بالحياة، والأرض مكسوة بالخضرة، وقوم عاد مستكبرون في الأرض، ويشكلون الحضارة السائدة فيها، وذلك قبل أن يهلكهم الله - تعالى - مباشرة، وكان أحد هؤلاء هو (بليني الكبير) من علماء الحضارة الرومانية الذي عاش في الفترة من 23م إلى 79م، والآخر كان هو الفلكي والجغرافي (بطليموس الإسكندري) الذي كان أميناً لمكتبة الإسكندرية. وعاش في الفترة من 100م إلى 170م تقريباً، وقام برسم خريطة للمنطقة بأنهارها المتدفقة، وطرقاتها المتشعبة التي تلتقي حول منطقة واسعة سماها باسم (سوق عمان).

ووصف (بليني الكبير) حضارة عاد الأولى بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أُخرى على وجه الأرض، وذلك في ثرائها، ووفرة خيراتها، وقوتها، حيث كانت على مفترق طرق التجارة بين كل من الصين والهند من جهة وبلاد الشام وأوروبا من جهة أُخرى التي كانت تصدر إليها البخور والعطور والأخشاب، والفواكه المجففة، والذهب، والحرير وغيرها.

وقد علّق كثير من المتأخرين على كتابات كل من (بليني الكبير) و (بطليموس الإسكندري) بأنها ضرب من الخرافات والأساطير، كما يتشكك فيها بعض مدعي العلم في زماننا ممن لم يستطيعوا تصور الربع الخالي، وهو من أكثر أجزاء الأرض قحولة وجفافاً اليوم، كان مليئاً في يوم من الأيام بالأنهار والبحيرات والعمران، ولكن صور المكوك الفضائي جاءت مطابقة لخريطة (بطليموس الإسكندري)، ومؤكدة ما قد كتبه من قبل كل منه ومن بليني الكبير كما جاء في تقرير معهد الدفع النفاث.

إرهاصات قبل الكشف عن إرم

• في سنه1975م تم اكتشاف آثار لمدينة قديمة في شمال غربي سوريا باسم مدينة (إبلا) **(Ebla)**. وتم تحديد تاريخها بحوالي 4500 سنة مضت، وفي بقايا مكتبة قصر الحكم في هذه المدينة القديمة وجدت مجموعة كبيرة من الألواح الصلصالية (حوالي 15,000 لوح) تحمل كتابات بإحدى اللغات القديمة التي تم معرفة مفاتيحها وتمت قراءتها.

• في عددها الصادر بتاريخ ديسمبر1978م نشرت المجلة الجغرافية الأهلية **(National Geographic Magazine)** مقالاً بعنوان: **«Ebla: Splendor of an unknown Empire» (vol.154, no 6, p.731-759)** لكاتب باسم **(Howard la Fay)**.

جاءت فيه الإشارة إلى أن من الأسماء التي وجدت على ألواح مدينة إبلا الاسم «إرم» على أنه اسم لمدينة غير معروفة جاء ذكره في السورة رقم 89 من القرآن الكريم.

• بعد ذلك بعام واحد (أي في سنة 1979م) نشر اثنان من غلاة الصهاينة هما: حاييم برمانت وميخائيل ويتزمان **(Chaim Bermant and Michael Wetzman)**. كتاباً بعنوان: **(Ebla-A Revelation In Archaeology)**.

ذكرا فيه أسماء ثلاثة وجدت مكتوبة على ألواح الصلصال المكتشفة في (إبلا) هي: شاموتو (أو ثمود)، و (عاد)، و (إرم) وذكرا أن هذه الأسماء الثلاثة ذكرت في السورة رقم 89 من القرآن الكريم.

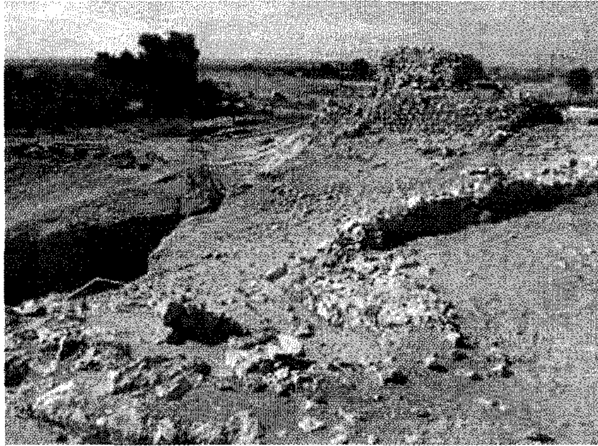
وأضاف هذان الصهيونيان أن (ثمود) اسم قبيلة ذكرها سارجون الثاني **(Sargon II)** في القرن الثامن قبل الميلاد، بينما الاسم (إرم) قد اختلف فيه فمن المؤرخين من اعتبره اسماً لإحدى القبائل، ومنهم من اعتبره اسماً لمكان، أما عن الاسم الثالث (عاد) فقد اعتبراه اسماً أسطورياً، وهذا من قبيل تزييف التاريخ الذي برع فيه الصهاينة منذ القدم، وقد سبقهم في ذلك جيش من مزيفي تاريخ الجزيرة العربية على رأسهم **Thomas Bertram**، الذي نشر في الثلاثينيات من القرن العشرين كلاماً مشابهاً.

• في يوليو سنة 1990م تشكل فريق من البحاث في وكالة الفضاء الأمريكية **(NASA)** برئاسة **(Charles Elachi)** ومن معهد الدفع النفاث **(J.P.L)** برئاسة **(Ronald Blom)** للبحث عن (إرم ذات العماد) تحت رعاية وتشجيع عدد من الأسماء البارزة منها: **(Armand Hammar, Sir Randulph Fiennes, George Hedges)**.

ولكن البحث تأجل بسبب حرب الخليج.

بعد الكشف عن إرم:

• في يناير (كانون الثاني) سنة 1991م بدأت عمليات الكشف عن الآثار في المنطقة التي حددتها الصور الفضائية واسمها الحالي الشيصار واستمر إلى مطلع سنة 1998م وأعلن خلال ذلك عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سميكة الجدران بأبراج في زواياها مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى 9 أمتار وقطرها إلى 3 أمتار ربما تكون هي التي وصفها القرآن الكريم.



صورة لبعض الآثار المكتشفة للمدينة الضائعة «إرم» ذات العماد

• في 17/ 2/ 1992م نشر في مجلة تايم **(Time)** الأمريكية مقال بعنوان **(Arabia Lost SandCastle By Richard Ostling)** ذكر فيه الكشف عن «إرم».

• بتاريخ 10/ 4/ 1992م كتبت مقالاً بعنوان اكتشاف مدينة «إرم ذات العماد» نشر بجريدة

الأهرام القاهرية لخصت فيه ما وصلني من أخبار ذلك الكشف حتى تاريخه.

• في سنة 1993م نشر بيل هاريس كتابه المعنون:

(Bill Harris: Lost Civilizations).

• بتاريخ 23/ 4/ 1998م نشر **(Nicholas Clapp)** كتابه المعنون:

«The Road to Ubar».

• بتاريخ 14/ 6/ 1999م نشر بيكو أير **(Pico Iyer)** كتابه المعنون:

(Falling off The Map: Some Lonely Places in The World).

صورة من الفضاء للفجوة الضخمة التي اكتشفت فيها مدينة «إرم» ذات العماد

وتوالت الكتب والنشرات والمواقع على شبكة المعلومات الدولية منذ ذلك التاريخ، ولكن تكتم القائمون على الكشف نشر مزيد من أخباره حتى يتمكنوا من تزييفه وإلحاقه بأساطير اليهود كما فعلوا من قبل في لفائف البحر الميت وآثار (إبلا) وغيرها من المواقع، ولكن كل ما نشر على قلته يؤكد صدق ماجاء بالقرآن الكريم عن قوم عاد بأنهم:

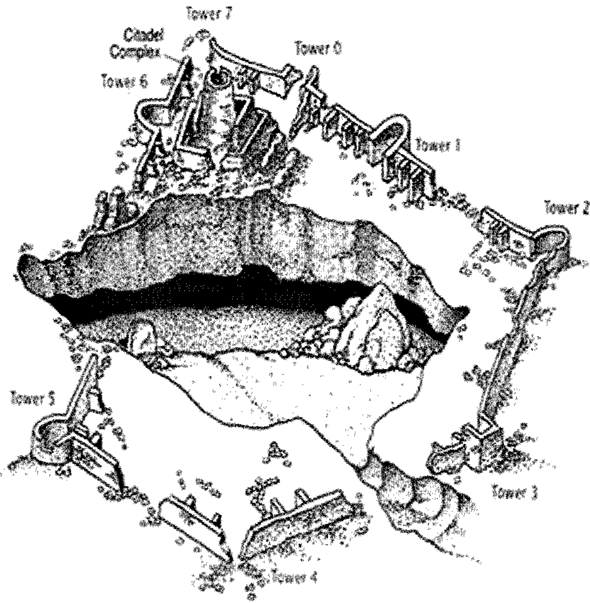
(1) كانوا في نعمة من الله عظيمة ولكنهم بطروها ولم يشكروها ووصف (بليني) الكبير لتلك الحضارة بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أُخرى كأنه ترجمة لمنطوق الآية الكريمة التي قول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ **(الفجر: 8).**

(2) إن هذه الحضارة قد طمرتها عاصفة رملية غير عادية وهو ما سبق القرآن الكريم بالإشارة إليه كما ذكرنا في الآيات السابقة عن قوم عاد.

(3) إن هناك محاولات مستميتة من

تصور لشكل القلعة التي كانت تحيط بمدينة «إرم» والمقامة على أعمدة ضخمة

اليهود لتزييف تاريخ تلك المنطقة ونسبة كل حضارة تكتشف فيها إلى تاريخهم المزيف، ولذلك كان هذا التكتم الشديد على نتائج الكشف حتى يفاجئوا العالم بما قد زيفوه، ومن ذلك محاولة تغيير اسم (إرم) إلى اسم عبري هو أوبار **(Ubar)**.



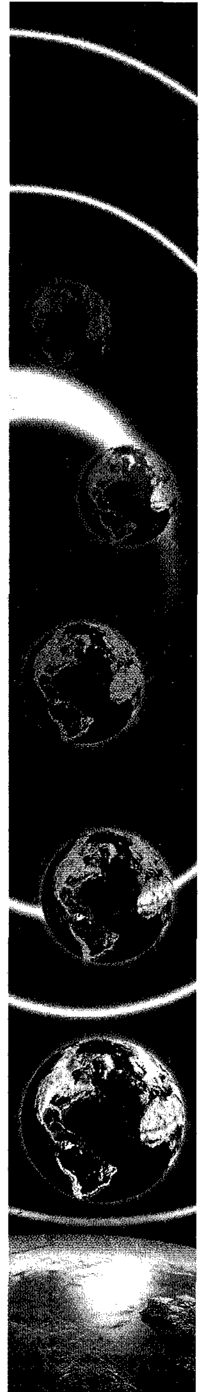
رسم تخطيطي يوضح شكل مدينة ـ «إرم ذات العماد» التي ذكرها القرآن الكريم

هذه قصة ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾ مدينة قوم عاد، التي جاءت الكشوف الأثرية الحديثة بإثبات ما ذكر عنها في القرآن الكريم؛ وإن كان نفر من الأقدمين قد حاول إنكار ذلك تطاولاً على الله وكتابه، فإن نفراً من المحدثين قد حاول إنكاره تطاولاً على العلم وأهله في زمن يتكلم فيه الرويبضة كما أخبرنا رسول الله ﷺ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويبقى ما جاء في القرآن الكريم من ذكر لقوم عاد ولمدينتهم ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾ ولما أصابها وأصابهم من دمار بعاصفة رملية غير عادية، صورة من صور الإعجاز التاريخي في كتاب الله تشهد له بصفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والصلاة والسلام على الرسول الخاتم الذي تلقاه وجاهد في سبيله حتى أتاه اليقين، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

الباب الخامس

خاتمة



جاءت لفظة (الأرض) في أربعمائة وواحد وستين (461) موضعاً من كتاب الله لتشير إلى الكوكب في مجموعه في مقابلة السماء، أو في مقابلة غيره من أجرامها، أو لتشير إلى اليابسة التي نحيا عليها كلها أو إلى جزء منها، واليابسة هي جزء من الغلاف الصخري للأرض المكون لكل من القارات السبع المعروفة، والجزر المحيطية العديدة (من مثل جزر اليابان، الفليبين، إندونيسيا، هاواي، وغيرها)، أو لتشير إلى قطاع التربة التي تغطي صخور الغلاف الصخري للأرض.

وهذه الإشارات الأربعمائة وواحد وستين تحوي العديد من الحقائق العلمية عن الأرض، والتي يمكن إيجازها في النقاط التالية:

(1) ـ آيات **تأمر الإنسان بالسير في الأرض**، والنظر في كيفية بدء الخلق، وهي أساس المنهجية العلمية في دراسة علوم الأرض.

(2) ـ آيات **تشير إلى شكل وحركات وأصل الأرض**: منها ما يصف كروية الأرض، ومنها ما يشير إلى دورانها، ومنها ما يؤكد على عظم مواقع النجوم منها، أو على حقيقة اتساع الكون من حولها و(الأرض جزء منه)، أو على بدء الكون بجرم واحد (مرحلة الرتق)، ثم انفجار ذلك الجرم الأوَّلي (مرحلة الفتق)، أو على بدء خلق كل من الأرض والسماء من دخان، أو على انتشار المادة بين السماء والأرض (المادة بين الكواكب وبين النجوم وبين المجرات)، أو على تطابق كل

من السمٰوات والأرض (أي: تطابق الكون حول مركز واحد).

(3) ـ آية قرآنية واحدة تؤكد **أن كل الحديد في كوكبنا الأرض قد أنزل إليها من السماء إنزالاً حقيقياً**، وهو ما أثبتته الدراسات العلمية في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(4) ـ آية قرآنية واحدة تؤكد حقيقة **أن الأرض ذات صدع**، وهي من الصفات الأساسية لكوكبنا، وقد أثبتت له في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

(5) ـ آيات قرآنية تتحدث **عن عدد من الظواهر البحرية** المهمة من مثل ظلمات قيعان البحار العميقة والمحيطات، ودور كل من السحب والأمواج الداخلية والسطحية في تكوين تلك الظلمة التامة. وتسجير بعض هذه القيعان بحرارة عالية على الرغم من امتلائها بالماء، وتمايز المياه فيها إلى كتل متجاورة لا تختلط اختلاطاً كاملاً، نظراً لوجود حواجز أفقية ورأسية غير مرئية تفصل بينها، ويتأكد هذا الفصل بين الكتل المائية بصورة أوضح في حالة التقاء كل من المياه العذبة والمالحة عند مصاب الأنهار، مع وجوده بين مياه البحر الواحد، أو بين مياه البحار المتصلة ببعضها البعض، كالتقاء مياه البحار شبه المغلقة من مثل كل من البحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط بمياه المحيطات المجاورة (كل من المحيط الهندي، والمحيط الأطلسي على التوالي).

(6) ـ آيات قرآنية **تتحدث عن الجبال**، منها ما يصفها بأنها أوتاد، وبذلك يصف كلًّا من الشكل الخارجي الذي على ضخامته يمثل الجزء الأصغر من الجبل والامتداد الداخلي الذي يشكل غالبية جسم الجبل، كما يصف وظيفته الأساسية في تثبيت الغلاف الصخري للأرض، وفي اتزان دورانها حول محورها. وتتأكد هذه الوظيفة في اثنتين وعشرين آية قرآنية أخرى وردت بها كذلك إشارات إلى عدد من الوظائف والصفات الإضافية للجبال من مثل انتصابها فوق سطح الأرض، ودورانها معها، أو تكوينها من صخور متباينة في الألوان والأشكال والهيئة، أو دورها في إنزال المطر، وتغذية الأنهار، وشق الأودية والفجاج، أو في جريان السيول، وغير ذلك من العمليات الأرضية.

(7) ـ آيات قرآنية تشير إلى **نشأة كل من الغلافين المائي والهوائي للأرض**، وذلك بإخراج مكوناتهما من باطن الأرض، أو تصف الطبيعة الرجعية لغلافها الغازي، أو تؤكد حقيقة ظلام الكون، أو تناقص الضغط الجوي مع الارتفاع عن سطح الأرض، أو انتظام تبادل الليل والنهار، ورقة طبقة النهار حول نصف الأرض المواجه للشمس، أو تشير إلى أن ليل الأرض كان في بدء خلقها مضاءً كنهارها، ثم محا الله ﷻ ضوء الليل.

(8) ـ آيات تشير إلى **رقة الغلاف الصخري للأرض**، وإلى تسوية سطحه وتمهيده وشق الفجاج والسبل فيه، وإلى تناقص الأرض من أطرافها.

(9) ـ آيات تؤكد **إسكان ماء المطر في كل من صخور الأرض وتربتها**، مما يشير إلى دورة الماء حول الأرض وفي داخل غلافها الصخري، أو تؤكد علاقة الحياة بالماء، أو تلمح إلى إمكانية تصنيف الكائنات الحية.

(10) ـ آيات تؤكد **أن عملية الخلق قد تمت على مراحل متعاقبة عبر فترات زمنية طويلة.**

(11) ـ آيات قرآنية **تصف نهاية كل من الأرض والسمٰوات وما فيهما من كائنات؛** أي: الكون كله بعملية معاكسة لعملية الخلق الأول، كما تصف إعادة خلقهما من جديد، أرضاً غير الأرض الحالية وسمٰوات غير السمٰوات القائمة.

هذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة للإنسان قبل القرن العشرين، بل إن الكثير منها لم يتوصل الإنسان إلى معرفته إلا في العقود القليلة الماضية من نهايات ذلك القرن عبر جهود مضنية، وتحليل دقيق لكمٍّ هائل من الملاحظات والتجارب العلمية في مختلف جنبات كل من الأرض وفي الجزء المدرك من الكون، وإن السبق القرآني بالإشارة إلى مثل هذه الحقائق بأسلوب يبلغ منتهى الدقة العلمية واللغوية في التعبير، والإحاطة والشمول في الدلالة ليؤكد جانباً مهماً من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهو جانب الإعجاز العلمي، ومع تسليمنا بأن القرآن الكريم معجز في كل أمر من أموره، إلا أن الإعجاز العلمي يبقى من أنجح أساليب الدعوة إلى الله في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه.

ومن هنا تتضح أهمية القرآن الكريم في هداية البشرية خاصة في زمن كالذي نعيشه اليوم، والذي فتح الله ـ تعالى ـ فيه على الإنسان من أبواب العلم بالكون ومكوناته ما لم يفتح به من قبل، وفتن الإنسان فيه بالعلوم الكونية وتطبيقاتها، ونسي الهدف الرئيسي من وجوده في هذه الحياة: عبداً لله مستخلفاً في الأرض لعبادة خالقه بما أمر، ولعمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها استعداداً للقاء الله. وفي نسيان أغلب الناس لرسالة الإنسان في هذه الحياة أصبحت البشرية أحوج ما تكون إلى الهداية الربانية. كما تتضح أهمية دراسات الإعجاز العلمي في كتاب الله مهما تعددت تلك المجالات العلمية، وذلك لأن ثبات صدق الإشارات القرآنية في القضايا الكونية من مثل إشاراته إلى عدد من حقائق علوم الأرض، وهي من الأمور المادية الملموسة التي يمكن للعلماء التجريبيين إثباتها، لأدعى إلى التسليم بحقائق القرآن الأُخرى، خاصة ما يرد منها في مجال القضايا الغيبية والسلوكية من مثل

قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات والتي تمثل ركائز الدين، ولا سبيل للإنسان في الوصول إلى قواعد سليمة لها، وإلى ضوابط صحيحة فيها، إلا عن طريق بيان رباني خالص لا يداخله أدنى قدر من التصور البشري، والقرآن الكريم هو النص السماوي الوحيد الذي يمثل ذلك منذ أربعة عشر قرناً مضت وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وقد تناولنا في هذا الكتاب خمساً وثلاثين قضية من إشارات القرآن الكريم إلى الأرض في الآيات التالية:

(1) ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الذاريات: 20).

(2) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (الأنعام: 8).

(3) ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ...﴾ (الحديد: 25).

(4) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ (النازعات: 30، 31).

(5) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ (الرعد: 41).

(6) ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ (الطارق: 12).

(7) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ (الطور: 6).

(8) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ (النبإ: 6، 7).

(9) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات: 32، 33).

(10) ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾... (الزمر: 5).

(11) ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (النحل: 15).

(12) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنبياء: 33).

(13) ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الروم: 1 ـ 5).

(14) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾... (البقرة: 22).

(15) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الذاريات: 48).

(16) ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر: 27).

(17) ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الرحمن: 33).

(18) ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ (الحج: 5).

(19) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت: 10).

(20) ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: 17).

(21) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾... (غافر: 64).

(22) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾... (فصلت: 37).

(23) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: 17).

(24) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (المؤمنون: 18).

(25) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ (الزمر: 21).

(26) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (المعارج: 40).

(27) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (الأنعام: 96).

(28) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ (مريم: 65).

(29) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ (طه: 6).

(30) ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾... (التوبة: 36).

(31) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الأنعام: 92).

(32) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (آل عمران: 96).

(33) ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (آل عمران: 97).

(34) ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾... (آل عمران: 97).

(35) ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ (الفجر: 7، 8).

ومن الحقائق العلمية التي سبقت بها هذه الآيات كل المعارف الإنسانية ما يلي:

1 ـ التلميح إلى مركزية الأرض من الكون بالإشارة إلى تطابق أقطار الأرض (مع ضآلتها وقلة حجمها النسبي) مع أقطار السمٰوات (على ضخامتها واتساع أبعادها).

2 ـ الإشارة إلى البينية الفاصلة بين السمٰوات والأرض ممثلة في الغلاف الغازي للأرض الذي هو خليط من كل من الغازات المندفعة من داخل الأرض مع ثورات البراكين والمواد المنتشرة بين كلٍّ من الأرض والقمر، والكواكب المجاورة وما يفصلها عن الشمس.

3 ـ التأكيد على أن كل الحديد في الأرض (أكثر من 35.9% من كتلتها) بل في كل مجموعتنا الشمسية قد أنزل إلى كل منهما إنزالاً حقيقياً.

4 ـ الإشارة إلى استقرار الأرض بقدرة الله ﷻ.

5 ـ إثبات أنه من صفات أرضنا أنها «أرض ذات صدع».

6 ـ إثبات صفة التسجير لقيعان عدد من البحار الخاصة التي تعرف باسم البحار المنفتحة والتي تتميز بتصدع قيعانها بأعداد من الصدوع العميقة التي تحوي بينها خسوفاً أرضية تصل إلى نطاق الضعف الأرضي المكون من صهارة في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية.

وهكذا أثبتت دراسات قيعان البحار والمحيطات بعد الحرب العالمية الثانية أن جميع محيطات الأرض بما في ذلك المحيط المتجمد الشمالي والجنوبي قيعانها مسجرة تسجيراً حقيقياً بالصهارة الصخرية المندفعة من نطاق الضعف الأرضي في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية. وكذلك أعداد من البحار التي تتوسع قيعانها بالتصدع من مثل البحر

الأحمر؛ وهذه حقائق لم تدرك إلا في أواسط الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين.

7 ـ التأكيد على كل من إرساء الجبال في الأرض وإرساء الأرض بالجبال.

8 ـ وصف الجبال بأنها (أوتاد)، والعلم يكتشف أن كل مرتفع أرضي له امتداد في داخل الأرض يتراوح طوله بين (10)، (15) ضعف ارتفاعه فوق مستوى سطح البحر.

9 ـ وصف الجبال بأنها مكونة من جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود وهي ألوان الصخور الأولية (النارية) الأساسية ووسيلة من وسائل تصنيفها العلمي الصحيح.

10 ـ الإشارة إلى كروية الأرض بتكور كلٍّ من الليل والنهار، وبتعدد المشارق والمغارب.

11 ـ الإشارة إلى تمهيد الأرض وتسوية سطحها والعلم يشير إلى أنها كانت في بداية الأمر وعرة التضاريس بشكل كبير لا تستقيم معه الحياة.

12 ـ الإشارة إلى إنقاص الأرض من أطرافها، والعلم يؤكد أن أرضنا الابتدائية كانت مائتي ضعف حجم أرضنا الحالية، وأن كتلة وحجم أرضنا في تناقص مستمر حتى تتوازن مع ما تفقده الشمس على هيئة طاقة وهو يساوي 4.6 بليون طن في كل ثانية.

13 ـ الإشارة إلى أن كل ماء الأرض، وجزءاً هاماً من غلافها الغازي قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من داخل الأرض بعلمه وحكمته وقدرته.

14 ـ التلميح إلى أن أصل الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية هو ماء المطر النازل من السماء بقدر معلوم، وبقدرة رب العالمين الذي هو قادر على أن يسلكه ينابيع في الأرض، وعلى تغويره وضياعه إن شاء.

15 ـ الإشارة إلى اهتزاز التربة وارتفاعها إلى أعلى بمجرد نزول الماء عليها.

16 ـ التأكيد على أن الزبد «يذهب جفاءً» وأما ما ينفع الناس «فيمكث في الأرض».

17 ـ الإشارة إلى أن المعركة الفاصلة بين كل من الفرس والروم كانت في منطقة تعتبر أكثر مناطق اليابسة انخفاضاً وأقربها إلى جزيرة العرب (أدنى الأرض) وهي أرض (وادي عربة/ وادي الأردن/ طبرية) والعلم يؤكد على أن منسوب الماء في البحر الميت يصل إلى 400 م تحت المستوى العادي لسطح البحر، وأن قاع البحر الميت يصل إلى (−800م) تحت مستوى سطح البحر العادي.

18 ـ وصف كلٍّ من الليل والنهار والشمس والقمر بأنها ضوابط لتحديد الزمن

الأرضي، ووسيلة جيدة للتأريخ للأحداث، وللقيام بالعبادات، وأداء الحقوق والواجبات.

19 ـ تشبيه فلق نور فجر الصبح من ظلمة الليل على سطح الأرض بفلق الحبة النباتية، أو البذرة، أو النّواة عند إنباتها بوصول القدر الكافي من الماء إليها. والتأكيد على أن الليل للسكن، والنهار للكد والكدح وإعمار الأرض، وإقامة عدل الله فيها. وأن الشمس والقمر وسيلتان دقيقتان من وسائل حساب الزمن.

20 ـ التأكيد على أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض، مما يؤكد ثبات بعد الشمس عن الأرض وثبات سرعة جري الأرض في مدارها المخصص لها حول الشمس وهما ما يحدد سنة الأرض، كما يحدد تقسيمها إلى شهور دورة القمر حول الأرض ومنازله بالنسبة إلى بروج السماء.

21 ـ التأكيد على مركزية مكة المكرمة من الأرض.

22 ـ الإشارة إلى أن أول بيت وضع للناس هو المسجد الحرام في مكة المكرمة.

23 ـ التأكيد على أن في المسجد الحرام آيات بينات، وأن منها «مقام إبراهيم»، وأن من دخله كان آمناً.

24 ـ الإشارة إلى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ والكشوف الأثرية قد كشفت بالفعل عن أسوار هذه المدينة.

وتأتي هذه الآيات القرآنية الكريمة ضمن أكثر من ألف آية صريحة تتحدث عن عدد من أشياء هذا الكون وظواهره. وهذه الآيات الكونية جاءت في مقام الاستدلال على ألوهية الخالق ﷻ وعلى ربوبيته ووحدانيته فوق جميع خلقه، كما جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة قدرته في الخلق، وعلى قدرته على الإفناء والبعث، وكانت قضية البعث عبر التاريخ هي حجة الكفار والمشركين والجاحدين المتشككين.

وتبقى هذه الإشارات الكونية في كتاب الله ـ تعالى ـ خطاباً للناس في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه في هذه الأيام، وحجة عليهم أجمعين بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه ﷻ بعهده الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝﴾ **(الحجر: 9)**.

وإذا ثبت لهم صدق القرآن الكريم في إشاراته المتعددة إلى الكون ومكوناته وظواهره فلا بد أن يكون صادقاً في إخباره عن الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة،

والأخلاق، والمعاملات. والعقيدة غيب مطلق لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا عن طريق وحي السماء، والعبادات هي أوامر ربانية خالصة لا يداخلها أدنى قدر من الصناعة البشرية أو التصورات المبتدعة.

من هنا كانت ضرورة الاهتمام بالإشارات الكونية الواردة في كلٍّ من كتاب الله وسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ؛ لأن مثل هذه الإشارات لا يمكن أن تفهم فهماً صحيحاً كاملاً في إطار اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ بل لا بد من توظيف كل الحقائق العلمية المتاحة من أجل تحقيق ذلك.

والقرآن الكريم أنزل إلينا لنفهمه ولنعمل به، وكذلك السنة النبوية المطهرة نطق بها الحبيب المصطفى ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ لكي نفهم دلالاتها ونعمل بها.

وفي فهم الدلالة العلمية للإشارة الكونية في كلٍّ من كتاب الله وسنة رسولهﷺ ترسيخ لإيمان المؤمنين، وإثبات لغيرهم بأن هذا السبق العلمي الذي جاء منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة لا يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق ﷻ. والغالبية من أهل الأرض اليوم لا تؤمن بحجية القرآن الكريم، ولا بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولا تؤمن في صدق إنبائه عن ربه وإخلاصه في تبليغ رسالته، وربما كان في لفت أنظارهم إلى هذا السبق العلمي في كل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أسلوب في الدعوة إلى دين الله يتواءم مع طبيعة العصر ومنطق الناس فيه، وتشجيع للعلماء المعاصرين على التعامل مع كلٍّ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ـ ولو في ترجمات لهما ـ وما اطلع عاقل محايد على شيء منهما إلا وأدرك ما في كلٍّ منهما من حق وعدل وصدق يفوق إمكانات البشر مجتمعين.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى إثبات ذلك الحق بكل الوسائل المتاحة حتى نتمكن من الخروج من طوق الفتن والمؤامرات المحيطة بنا، وهي فتن ومؤامرات مزودة بكل الإمكانات المادية والتقنية التي حققها الإنسان، وهي مجالات تفوق فيها أهل الباطل، وتخلف فيها أهل الحق، والحق لا ينتصر لمجرد كونه حقاً...!! بل يحتاج إلى جهاد المؤمنين به.

والسبب الحقيقي من وراء تآمر أهل الباطل علينا، وعملهم الدؤوب منذ انتهاء الحروب الصليبية على غزو العالم الإسلامي، وتمزيق جسده الواحد إلى أكثر من خمسة وخمسين دولة ودويلة، بحدود مصطنعة مختلف عليها، وتنصيب أنماط من الحكم متعارضة على هذه الكيانات الممزقة لدوام التصارع بينها، وللحيلولة دون توحدها من جديد، والتآمر

بليل من أجل إقصاء الإسلام عن مقامات اتخاذ القرار، والعمل الدؤوب على تخلف الأمة علمياً وتقنياً، وعلى بعثرة إمكاناتها المادية، والسبب الحقيقي في ذلك كله هو تخلف المسلمين عن الدعوة إلى دين الله، وتركهم الساحات مفتوحة للغلاة من كل لون وملة لتشويه صورة الإسلام، وإخافة الناس من إمكانية عودة وحدة المسلمين، وإقامة دولة الإسلام من جديد، وإذا وعى المسلمون هذه الحقيقة واهتموا بالدعوة إلى دين الله، واستخدموا في ذلك لغة العصر ـ وهي العلم ـ لإثبات حجية القرآن الكريم وصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فلعل الله ـ تعالى ـ أن يفتح القلوب لهذه الدعوة المخلصة، ويزيل من العقول الضالة التائهة، والقلوب المظلمة الصدئة ما ترسب فيها من الريب والشكوك حتى نحقق نبوءة المصطفى ﷺ التي قال فيها:

«**إن الله قد زوى لي الأرض من أطرافها فما رأيت بيت حجر ولا مدر ولا وبر إلا وقد دخله الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل**» وما ذلك على الله بعزيز.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

ثبت بالمصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

1 ـ **إبراهيم، محمد إسماعيل**: «القرآن وإعجازه العلمي» دار الفكر العربي ـ القاهرة.

2 ـ **إبراهيم، محمد محمود**: «إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض» ـ اتحاد طلاب كلية الهندسة جامعة أسيوط 1391 هـ/ 1972 م وهي مجموعة محاضرات ألقيت في الفترة من 1942 م ـ 1956 م. (133 صفحة).

3 ـ **إبراهيم، مدحت حافظ**: «الإشارات العلمية في القرآن الكريم» مكتبة غريب ـ القاهرة (1993).

4 ـ **أحمد، حنفي**: «التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن» ـ دار المعارف بمصر (454 صفحة) (1960 م).

5 ـ **الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود شكري (ت 1270 هـ)**: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة (بدون تاريخ)؛ دار الفكر ـ بيروت (1398 هـ/ 1978 م)؛ دار إحياء التراث العربي/ الحلبي/ مصر (ط 4) 1405 هـ/ 1985م.

6 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403 هـ)**: «إعجاز القرآن» ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1398 هـ/ 1978 م (89 صفحة).

7 ـ **ابن أبي الإصبع، العدواني المصري**: «بديع القرآن» ـ القاهرة (1377هـ/ 1957م).

8 ـ **ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد بن حزم الظاهري**: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني، المطابع الأميرية ـ القاهرة (1397 هـ/ 1977 م).

9 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد**: «المقدمة» ـ القاهرة (1322 هـ/ 1904 م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1419 هـ/ 1998 م)؛ دار الشعب ـ القاهرة بتحقيق د. علي عبد الواحد وافي (بدون تاريخ).

10 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد**: «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» ـ بيروت (1379 هـ/ 1959 م) ـ (1381 هـ/ 1961 م).

11 ـ **ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت 224 هـ)**: «فضائل القرآن»؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1411 هـ/ 1991 م).

12 ـ **ابن عاشور، محمد الطاهر**: «التحرير والتنوير في التفسير»، الدار التونسية للنشر ـ تونس (1391 هـ/ 1971 م)، (1404 هـ/ 1984 م).

13 ـ **ابن عبد السلام، العز**: «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز»، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

14 ـ **ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد اللّه (ت 543)**: «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ـ (1331 هـ/ 1912 م).

15 ـ **ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت 546 هـ)**: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ـ الدوحة) (1398 هـ)1978 م)؛ دار الكتب العلمية (1413 هـ/ 1993 م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

16 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774 هـ)**: «تفسير القرآن العظيم» (4 أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة (ط 2)، (1373 هـ/ 1954 م).

17 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774 هـ)**: «فضائل القرآن» ـ مطبعة المنار ـ (القاهرة 1327 هـ/ 1909 م).

18 ـ **أبو حيان الأندلسي، أبو عبد اللّه محمد بن يوسف**: «تفسير البحر المحيط» ـ مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ـ (1328 هـ/ 1910 م)، دار الفكر ـ بيروت (ط 2) (1403 هـ/ 1983 م).

19 ـ **أبو خليل، شوقي**: «الإنسان بين العلم والدين»، مطبعة الإنشاء بدمشق (1970 م) 271 صفحة.

20 ـ **أبو زهرة، محمد**: «المعجزة الكبرى»، دار الفكر العربي ـ القاهرة (1977 م).

21 ـ **أبو السعود، محمد بن محمد العماري**: تفسير أبي السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة ـ (1275 هـ/ 1858 م).

22 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403 هـ)**: «إعجاز القرآن» ـ تحقيق السيد أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة 1349 هـ ـ 1930 م)؛ دار المعارف ـ القاهرة (1391 هـ/ 1971 م). ومصطفى الحلبي (1398 هـ/ 1978 م)، وعالم الكتب ـ بيروت (1408 هـ/ 1988 م).

23 ـ **البغوي، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوي المسمى «معالم التنزيل» ـ تحقيق خالد عبد الرحمٰن العك، ومروان سوار، دار المعرفة ـ بيروت (1406 هـ/ 1986 م).
24 ـ **البقاعي، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة (ط 2)، (1413 هـ/ 1992 م)؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1415 هـ/ 1994 م).
25 ـ **بن نبي، مالك**: الظاهرة القرآنية، دار الفكر ـ بيروت 1968 م (364 صفحة).
26 ـ **بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمٰن)**: «الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية وبيانية»، دار المعارف (1393 هـ/ 1973 م)، الطبعة الثانية (1404 هـ/ 1984 م)، الطبعة الثالثة (1407 هـ/ 1987 م).
27 ـ **بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمٰن)**: «التفسير البياني للقرآن الكريم» (في جزأين) ـ دار المعارف ـ القاهرة (1382 هـ/ 1962 م).
28 ـ **بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمٰن)**: «القرآن والتفسير العصري» دار المعارف ـ القاهرة 1390 هعـ/ 1970 م، (175 صفحة).
29 ـ **البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد اللَّه بن عمر الشيرازي**: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية ـ القاهرة (1305 هـ/ 1910 م).
30 ـ **البيومي، محمد رجب**: «البيان القرآني» ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة (1421 هـ/ 2001 م).
31 ـ **التجيبي، أبو يحيى محمد بن صمادح**: «مختصر تفسير الإمام الطبري» ـ دار الفجر الإسلامي ـ دمشق (1422 هـ/ 2001 م).
32 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255 هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ دار الرفاعي بالرياض (1403 هـ/ 1983 م).
33 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255 هـ)**: «البيان والتبيين» تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ومكتب الهلال ـ بيروت.
34 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن (ت 471 هـ)**: «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي ـ القاهرة (ط 2)، مطبعة المنار ـ القاهرة (1331 هـ/ 1912 م)، أعيدت طباعته بواسطة دار المعرفة ـ بيروت 1398 هـ/ 1978 م وبالاتفاق بين مكتبتي الخانجي والأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (1420 هـ/ 2000 م).
35 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن (ت 471 هـ)**: «الرسالة الشافية في إعجاز القرآن» نشرت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله أحمد،

ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411 هـ/ 1991 م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

36 ـ **الجسر، نديم**: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة (1389 هـ/ 1969 م). منشورات المكتب الإسلامي ـ بيروت (الطبعة الأولى: 1380 هـ/ 1961 م).

37 ـ **جوهري، طنطاوي (ت 1359 هـ/ 1940 م)**: «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) ـ (في 26 جزءاً، 13 مجلداً) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ (1340 هـ/ 1920 م) (الطبعة الثانية: شوال 1350 هـ/ 1931 م).

38 ـ **حسب البنى، منصور محمد**: «القرآن الكريم والعلم الحديث»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1991 م).

39 ـ **الحمصي، نعيم**: «فكرة إعجاز القرآن»، مؤسسة الرسالة، بيروت (1980 م).

40 ـ **حوى، سعيد**: «الأساس في التفسير» ـ دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (1405 هـ/ 1985 م).

41 ـ **الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي**: تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل في معاني التنزيل» وبهامشه تفسير البغوي (في 7 أجزاء)، المطبعة الأميرية ـ القاهرة (1231/ 1232 هـ) الموافق (1815/ 1816 م). أعاد طباعته كل من دار المعرفة، ودار الفكر ـ بيروت.

42 ـ **الخطابي، أبو سلمان حمد محمد بن إبراهيم (ت 388 هـ)**: «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، الخطابي، والجرجاني بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (1411 هـ/ 1991 م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

43 ـ **خليفة، محمد محمد**: «مع آيات الله في كتاب الله» مكتبة النهضة المصرية (1983 م).

44 ـ **دراز، محمد عبد الله**: «النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن»، القاهرة (1376 هـ/ 1957 م)، دار القلم (الكويت) 1405 هـ/ 1984 م.

45 ـ **الذهبي، محمد حسين**: «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة (الطبعة الثانية: 1396 هـ/ 1976 م).

46 ـ **الراجحي، عبد الغني**: «الأرض والشمس في منظور الفكر الإسلامي»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر (1981 م).

47 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606 هـ)**: تفسير الرازي أو التفسير

الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (في 8 مجلدات)، المطبعة البهية ـ القاهرة (1307 هـ/ 1321 هـ) الموافق (1889 م/ 1903 م)، أعادت طباعته كلٌّ من دار الكتب العلمية ـ طهران (1411 هـ/ 1990 م)، ودار الفكر ـ بيروت (1415 هـ/ 1995 م).

48 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606 هـ)**: «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» تحقيق أحمد السقا (1992 م) دار الجيل ـ بيروت.

49 ـ **الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666 هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر ـ (الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (1384 هـ/ 1964 م).

50 ـ **الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت 503 هـ)**: «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» ـ تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي (1392 هـ/ 1972 م).

51 ـ **الرافعي، مصطفى صادق**: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»؛ المكتبة التجارية ـ مصر (1961 م، 1965 م).

52 ـ **رضا، محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» ـ دار المنار/ القاهرة (1373 هـ/ 1953 م)؛ دار المعرفة ـ بيروت (1414 هـ/ 1994 م).

53 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386 هـ)**: «النكت في إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411 هـ/ 1991 م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

54 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386 هـ)**: «معاني الحروف» تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر ـ القاهرة (1973 م).

55 ـ **الزرقاني، محمد بن عبد العظيم (ت 1367 هـ)**: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (في جزأين) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (1362 هـ/ 1943 م).

56 ـ **الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد اللَّه بن بهادر (ت 794 هـ)**: «البرهان في علوم القرآن» ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (في أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة، (1376 هـ/ 1957 م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة ـ بيروت (1391 هـ/ 1972 م).

57 ـ **الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» ـ (في أربعة أجزاء) ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1354 هـ/ 1935 م)، (1367 هـ/ 1948 م)، (1393 هـ/ 1972 م).

58 ـ **الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد عبد الكريم (ت 651 هـ)**: «البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن»، تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب ـ مطبعة العاني ـ بغداد 1394 هـ/ 1984 م.

59 ـ **زيدان، السيد محمد (1417 هـ/ 1996 م)**: «من إعجاز القرآن العلمي في نبات المحاصيل»، من نشرات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، نشرة رقم (20).

60 ـ **سعد، شكري إبراهيم (1975 م)**: «تصنيف النباتات الزهرية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الطبعة الثالثة) ـ الإسكندرية.

61 ـ **السعدي، عبد الرحمٰن بن ناصر**: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (1398 هـ/ 1978 م).

62 ـ **سعيد، عبد الستار فتح الله**: «المدخل إلى التفسير الموضوعي»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: 1411 هـ/ 1991 م).

63 ـ **السعيد، عبد اللّه عبد الرازق (1985 م)**: «الإعجاز الطبي في القرآن والأحاديث النبوية: الرطب والنخلة»، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

64 ـ **السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت 626 هـ)**: «مفتاح العلوم»، 1937 م ـ مطبعة الحلبي ـ مصر.

65 ـ **سليمان، أحمد محمود**: «القرآن والعلم» دار المعرفة (1968 م)، دار الكتاب العربي ـ طرابلس (1974 م) 173 صفحة.

66 ـ **سيد الأهل، عبد العزيز**: «من إشارات العلوم في القرآن الكريم» دار النهضة الحديثة ـ بيروت ـ لبنان 1392 هـ/ 1972 م (173 صفحة).

67 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911 هـ)**: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (في ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1314 هـ/ 1896 م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1403 هـ/ 1983 م).

68 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911 هـ)**: «الإتقان في علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: 1360 هـ/ 1941 م)، مصطفى الحلبي (الطبعة الرابعة: 1398 هـ/ 1978 م)، مكتبة دار التراث ـ القاهرة (الطبعة الخامسة: 1405 هـ/ 1985 م).

69 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911 هـ)**: «معترك الأقران في إعجاز القرآن» تعليق أحمد شمس الدين

(1988 م) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

70 ـ **شاكر، محمود**: «فصل في إعجاز القرآن» مقدمة الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي (1987 م) دار الفكر ـ دمشق.

71 ـ **شحاته، عبد الله**: «آيات الله في الكون تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (1422 هـ/ 2002 م).

72 ـ **شرباتي، محمد سليم**: «تعريف التعريف بالتفسير العلمي»، دار المنهل ـ دمشق (2003 م). (41 صفحة).

73 ـ **الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني**: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، مطبعة المدني بالرياض (1386 هـ/ 1966 م).

74 ـ **الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت 1250 هـ)**: «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر (1340 هـ/ج 1920 م)، (1349 هـ/ 1930 م)، دار الفكر ـ بيروت (1393 هـ/ 1973 م)، (1403 هـ/ 1983 م).

75 ـ **صالح، عبد المحسن**: «ومن كل شيء خلقنا زوجين»، عكاظ (1404 هـ/ 1984 م) (207 صفحة).

76 ـ **الصابوني، محمد علي**: «مختصر تفسير ابن كثير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402 هـ/ 1981 م).

77 ـ **الصابوني، محمد علي**: «صفوة التفاسير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402 هـ/ 1981 م).

78 ـ **طبارة، عفيف عبد الفتاح**: «روح الدين الإسلامي»، دار العلم للملايين 1397 هـ/ 1977 م (480 صفحة).

79 ـ **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ)**: تفسير الطبري المعنون «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة (في 15 مجلداً)، ودار المعارف ـ القاهرة (1321 هـ/ 1903 م)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (1358 هـ/ 1939 م)، (1373 هـ/ 1953 م)، (1415 هـ/ 1995 م)، (1420 هـ/ 1999 م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (1388 هـ/ 1968 م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (1398 هـ/ 1978 م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (1407 هـ/ 1987 م).

80 ـ **عارف، أبو الفداء محمد عزت محمد (1998 م)**: «شجرة المعجزات: التمر وفوائده الطبية»، دار الاعتصام.

81 ـ **عبد الباقي، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب ـ القاهرة (1364 هـ/ 1945 م).
82 ـ **عبد الجبار، القاضي**: «المغنى» وزارة المعارف المصرية.
83 ـ **عروة، أحمد (1417 هـ/ 1996 م)**: «أفرأيتم النار التي تورون»، من منشورات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة: نشرة رقم (19).
84 ـ **عشري، عبد المنعم السيد**: «تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1985 م).
85 ـ **العك، خالد عبد الرحمٰن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابي ـ دمشق (1388 هـ/ 1968 م).
86 ـ **العمري، أحمد جمال**: «مفهوم الإعجاز القرآني (حتى القرن السادس الهجري)» دار المعارف بمصر (1984 م).
87 ـ **عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي**: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، دار الكتب العلمية بيروت.
88 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة (1331 هـ/ 1912 م)؛ دار المعرفة ـ بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1377 هـ/ 1957 م).
89 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ)**: «جواهر القرآن»، مكتبة الجندي ـ القاهرة (1384 هـ/ 1964 م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (1401 هـ/ 1981 م).
90 ـ **الغمراوي، محمد أحمد والكرداني، أحمد عبد السلام**: «الإسلام في عصر العلم»، دار الكتب الحديثة القاهرة (1393 هـ/ 1973 م) (451 صفحة).
91 ـ **الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت 207 هـ)**: «معاني القرآن»، تحقيق النجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية (1374 هـ/ 1955 م).
92 ـ **فرج، إبراهيم محمد**: «علم الأرض» الجزء الأول والثاني، دار الكتاب المصري 1379 هـ/ 1959 م، (350 صفحة).
93 ـ **فرغلي، قطب عامر (1417 هـ/ 1996 م)**: «اختلاط الماء بالأرض الهامدة» من منشورات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، نشرة رقم (20).
94ـ **الفندي، محمد جمال الدين**: «من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم»، دار التحرير ـ القاهرة ـ 1969 م.
95 ـ **الفندي، محمد جمال الدين**: «الكون بين العلم والدين» المجلس الأعلى للشؤون

الإسلامية 1391 هـ/ 1972 م، (158 صفحة).
96 ـ **القاسمي، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1376 هـ/ 1957 م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي.
97 ـ **القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671 هـ)**: تفسير القرطبي المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» (في 20 مجلداً) دار الكتب المصرية (1352 هـ/ 1933 م)، (1358 هـ/ 1939 م)، (1370 هـ/ 1950 م)؛ (1387 هـ/ 1967 م)؛ دار القلم بيروت (1386 هـ/ 1966 م)؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1408 هـ/ 1988 م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1415 هـ/ 1995 م).
98 ـ **القطان، مناع خليل**: «مباحث في علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (1402 هـ/ 1982 م).
99 ـ **قطب، سيد**: «في ظلال القرآن» (في ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (1393 هـ/ 1973 م).
100 ـ **قطب، سيد**: «التصوير الفني في القرآن»، مكتبة وهبة ـ القاهرة (1369 هـ/ 1949 م).
101 ـ **الكرماني، محمد بن حمزة**: «البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان» تحقيق ناصر بن سليمان العمر ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض.
102 ـ **كمال الدين، حسين**: «إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة»، مجلة البحوث الإسلامية ـ الرياض ـ 1395/ 1396 هـ (ص 289 ـ 338).
103 ـ **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق (1404 هـ/ 1984 م).
104 ـ **لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع**: «المنتخب في تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة) 1393 هـ/ 1973 م). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع. القاهرة.
105 ـ **محمود، مصطفى**: «من أسرار القرآن» مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة (1976 م).
106 ـ **محمود، مصطفى**: «القرآن محاولة لفهم عصري»، دار الشروق (303 صفحات).
107 ـ **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعاني القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت الطبعة الثالثة (1407 هـ/ 1987 م).
108 ـ **المراغي، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغي» ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (1405 هـ/ 1985 م).
109 ـ **مروة، يوسف**: «العلوم الطبيعية في القرآن»، منشورات مروة العلمية ـ بيروت. 1968

م ـ (280 صفحة).
110 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في التفسير الموضوعي» دار القلم ـ دمشق، بيروت ـ الطبعة الأولى (1410 هـ/ 1990 م).
111 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في إعجاز القرآن» ـ دار المنارة ـ جدة (1408 هـ/ 1988 م).
112 ـ **المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد**: «خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية» مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ 1413 هـ/ 1992 م.
113 ـ **النجار، زغلول راغب محمد**: «سلسلة من آيات الإعجاز العلمي» الأجزاء 1 ـ 6 (942 صفحة) ـ دار الشروق الدولية (1422 هـ ـ 1426 هـ/ 2001 م ـ 2005 م).
114 ـ **النجار، زغلول راغب محمد**: «السماء في القرآن الكريم» دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان (الطبعة الأولى 1425 هـ/ 2004 م)، (الطبعة الثانية 1426 هـ/ 2005 م) (608 صفحات).
115 ـ **النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد**: تفسير النسفي المعروف باسم «الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (في مجلدين) مطابع الحلبي ـ القاهرة (1344 هـ/ 1925 م).
116 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز»؛ كليات رسائل النور (5) دار سوزلر للنشر ـ استانبول 1414 هـ/ 1994 م تحقيق إحسان قاسم الصالحي، (335 صفحة).
117 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «من الآيات الكونية في القرآن الكريم»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1380 هـ/ 1961 م) (104 صفحة).
118 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «الدين والعلم»، دار ومطابع الشعب (1964 م) (189 صفحة).
119 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «الله والعلم الحديث»، دار الشعب ـ القاهرة ـ (228 صفحة) (1982 م).
120 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «الآيات العلمية» مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
121 ـ **نوفل عبد الرزاق (1989 م)**: «علم وبيان في تفسير القرآن»، أخبار اليوم (191 صفحة).

ثانياً: الكتب الأجنبية المترجمة:

122 ـ **بوكاي، موريس**: «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة

في ضوء المعارف الحديثة» ـ دار المعارف ـ القاهرة (1398 هـ/ 1978 م).
(Maurice Bucaille (1976) "La Bible, le Coran et la Science", Editions Seghers, 6, Place Saint-Sulpice, 75006 Paris.

123 ـ مونسما، چون كلوڤر (مشرف على التحرير): «الله يتجلى في عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندي، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة.
(The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monasma; 1958; Published by G.P. Putnam's & Sons, New York).

ثالثاً: الكتب الأجنبية:

124 - Aury, G.B. (1855): On the Computation of the effect of the attraction of mountain — masses, as disturbing the apparent astronomical latitude of stations in geodetic surveys; Phil. Trans. Roy. Soc Lond. Ser. B., 145: 101-104.

125 - Ali, A. Yousuf (1934) the Holy Qur'an Text, Translation and commentary; Reprinted in 1975 by the M.S.A of the USA and Canada, 1862 pp.

126 - American Geological Institute (1976) Dictionary of Geological Terms; Revised edition, Anchor Books, 472pp.

127 - Athavale, R.N. (1973): Inferences from recent Indian Paleomagnetic results about he Nortern Margin of the Indian Plate and the Tectonic Evolution of the Himalayas; in Tarling and Runcorn (eds): Implications of Continental Drift to the Earth Sciences, vol. 1, pp. 117-130, 2 tables, 2 figs., Academic Press, London & New York.

128 - Beiser, A. and Krauskopf, K.B. (1975): Introduction to Earth Science; McGrawhill Book Co., 359 p., illustrated.

129 - Bermant, Chaim & Michael Weitzman (1979): "Ebla- A Revelation in Archaeology; Times Books, New York, New York.

130 - Bird, J.M. and Dewey, J.F. (1970): Lithospheric plate-continental margin tectonics and the evolution of the Appalachian orogen; Bull. Geol. Soc. Amer., vol.81 pp.1031-1060.

131 - Bouguer, P. (1749): La figure de la Terre, Paris, 365 pp.

132 - Cazeau, C.J., Hatcher, Jr., R.D. and Siemankowski, F.T. (1976): Physical Geology: Principles, Processes, and Problems; Harper & Row, Publishers; 518 pp;., illustrated.

133 - Cook, F.A; Brown, L.D. and Oliver, J.E. (1980): the Southern Appalachians and the Growth of Continents; Sci. Amer. (Coctober), pp. 156-168.

134 - Dewey, J.F. (1971): A model for the Lower Paleozoic evolution of the southern margin of the early Caledonides of Scothland and Ireladn; Scot. J. Geol. Vol. 7, pp.219-240.

135 -Dewey, J.F. (1972): Plate tectonics; Sci. Amer 226 (May), pp.56-66.
136 - Dewey, J.F. and Bird, J.M. (1970): Mountain Belts and the New Global Tecotonics; J. Geophys. Res., vol. 75, no. 14, pp. 2625-2647, 15 figs.
137 - Dickenson, W.R. (1970); Relations of andesites, granites and derivative sandstones to arc-trench tectonics; Rev. Geophys. Space Phys., 8, 813-860.
138 - Dickenson, W.R. (1971): Plate tectonics in geologic history; Science, 174, pp.107-113.
139 - Dietz, R.S. (1961): Continent and ocean basin evolution by spreading of the sea floor, Nature; 190, 584-857.
140 - Dietz, R.S. (1972): Geosynclines, Mountains, and Continent Building; in Wilson, J.T. (ed): Continents Adrift: Readings from Scientific American, pp. 124-132.
141 - Dutton, C.E. (1889): On some of the Greater Problems of Physical Geology, Bull. Phil. Soc. Washington, vol. 11, p. 51; reprinted in J. Washington Acad. Sci., vol. 15, p.259- 369, 1925; also in Bull. Natl. Res. Council (U.S.) vol. 78, p.203, 1931.
142 - El Naggar, Z.R. (1991): The Geological Concept Of Mountains In The Qur'an; Sources of scientific knowledge: The Association of Muslim Scientists and Engineers and the International Institute of Islamic Thought, Research Monographs Series no. (3), pp. 1-83, Text-figs 1-23.
143 - El Naggar, Z.R. (1999) Scientific Facts Revealed in the Glorious Qur'an, 34 pp. Ptoc. Qur'an conference, Univ. London.
144 - El Naggar, Z.R. (2004): "Treasures in the Sunnah Scientific Approach", Al-Falah Foundation, Cairo, pp. 1-145.
145 - Hallam, A. (1973): A Revolution in the Earth Sciences; From Continental Drift to Plate Tectonics; Clarendon Press- Oxford, 127 pp., 45 figs.
146 - Hamilton, W. (1969): Mesozoic California and the underflow of Pacific mantle; Bull. Geol. Soc. Amer., vol 80, pp. 2409-2430.
147 - Hawking, Stephen (1988, 1989, 1990): A Brief History of Time; Bantam books, pp. 1-198.
148 - Hess, H.H. (1962): History of ocean basins; In A.E.J. Engel and others (editors): Petrologic studies; a volume in honour of A. F. Guddington; Geol. Soc. Amer., New York; pp. 599-620.
149 - Hess, H.H. (1965): Mid-Oceanic Ridges and Tectonics of the Sea-Floor; in Whittard, W.F. and Bradshaw, R. (eds): Submarine Geology and Geophysics; Proc. 17th Symposium Closton Res. Soc., London, Butterworths.
150 - Jet Propulsion Laboratoires, California (1985): The Trans-Arabia Expedition (Internal Report, pp. 35).
151 - King, P.B. (1965): Tectonics of Quaternary Time in Middle North America; in Wright, H.E. and Frey, D.G. (eds): The Quaternary of the United States; Princeton University Press; pp. 831-870.
152 - La Fay, Howard (1978): Ebla: "Splendor of an unknown empire" National

Geographic magazine vol. 154, No.6, pp. 731-759.

153 - Leet, L.D. and Judson, S. (1971): Physical geology, 4th edition; Prentice Hall, Incl; 687 pp. illustrated.

154 - Le Pichon, X. (1968): Sea-Floor spreading and continental drift; J. Geophys. Res., vol. 73; No.12, pp. 3661-3697.

155 - McKenzie, D.P. (1969): Speculations on the consequences and causes of plate motions. Geophys. J.Roy. Astr. Soc. vol.18, pp. 1-32.

156 - Milligan, G.C. (1977): the Changing Earth; Mcgraw-Hill Ryerson Ltd., 706 pp., illustrated.

157 - Miyashiro, A. (1961): Evolution of metamorphic belts; J. Petrology, vol.2, pp. 277-311.

158 - Miyashiro, A. (1967): Orogeny, regional metamorphism and magmatism in the Japanese islands; Medd. Dan. Geol. Foren., vol. 17, pp.390-446.

159 - Monkhouse, F.J. and Small, J. (1978): a Dictionary of the Natural Environment; Edward Arnold, 320pp.

160 - Pratt, J.H. (1859) On the attraction of the Himalayas Mountains and of the elevated regions beyond upon the plum-line in India; Phil. Trans. Ry. Soc. Lond., Ser. B. 145: pp.53-100.

161 - Press, F. and Siever, R. (1982) Earth; W.H. Freeman and Co., San Francisco, 613 pp., illustrated.

162 - Tarbuk, Edward J. & Frederick K. Lutgens (1993): The Earth and Introduction to Physical Geology, 4th ed. Macmillan Pub. Co., New York, 654 pp.

163 - Thomas, Bertram (1932): Ũbãr- The Atlantis of the Sands of Rub' Al-khali; Royal Cott. Asian Soc., v. 20, Partz. pp. 259-265.

164 - Thomas, Bertram (1932): Arabia Felix.

165 - Thompson, G.A. and Talwani, M. (1964): Crustal Structure from Pacific Basin to Central Nevada; J. Geophys. Res., 69, 4813-4837.

166 - Webster, A.M. (1971): Webster's Seventh New Collegiate Dictionary; G & C. Merriam Co., Publishers, USA, 1223 pp.

167 - Wilson, J.T. (1963): Evidence from islands on the spreading of ocean floors, nature, 197, 536.

168 - Wilson, J.T. (1965a): Tranform faults, oceanic ridges, and magnetic anomalies southwest of Vancouver Island; Science, 150, 482.

169 - Wilson, J.T. (1965b): Evidence from ocean islands suggesting movement in the earth; in a symposium on continental Drift, edited by P.M.S. Blackett, E. Bullard and S.K. Runcorn; Phil. Trnas. Roy. Soc. London, A258, 145.

170 - Wilson, J.T. (1966): Did the Atlantic close and then reopen. Nature, 211, 676.

171 - Weinberg, Steven (1977, 1988): The First Three Minutes Basic Books, Inc. Publishers, N.Y., p. 1-198.



الدكتور زغلول راغب محمد النجار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والغربية
زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها
ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة



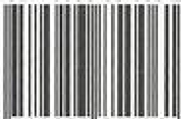
للطباعة والنشر

هاتف 834301 - 834332 - (01)658830 فاكس (01)835614

ص.ب 11/7876 بيروت ـ لبنان ـ البريد الإلكتروني e.mail: info@marefah.com

http://www.marefah.com

ISBN 9953-85-006-2



الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

السماء

في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار
السماء في القرآن الكريم
دار المعرفة
بيروت - لبنان

من آيات الإعجاز العلمي

السماء

في القرآن الكريم


بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

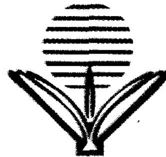
السماء في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

ISBN 9953-429-81-2

الطبعة الثالثة
1426 هـ 2005 م



DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

جسر المطار - شارع البرجاوي - ص.ب: ٧٨٧٦ - هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٣٠ - فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت - لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858930, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com E.mail: info@marefah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ/ الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار



- أستاذ/ علوم الأرض بجامعة قناة السويس - ج - م - ع
- رئيس لجنة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - ج - م - ع
- زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.

● ولد الدكتور زغلول النجار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربيّة في 17 نوفمبر عام 1933.

● تعلم القرآن الكريم منذ الصغر على يد والده.

● تخرج من جامعة القاهرة عام 1955م حاصلاً على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، فمنحته الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.

● حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز/ بريطانيا عام 1963م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث فيما بعد الدكتوراه.

● عمل بشركة صحاري للبترول، المركز القومي للبحوث بالقاهرة، ومناجم الفوسفات بوادي النيل، ومناجم الذهب بالبرامية - صحراء مصر الشرقية، وبمشروع الفحم بشبه جزيرة سيناء، وبكل من جامعات عين شمس، والملك سعود، وويلز، والكويت، وقطر، والملك فهد للبترول والمعادن، وعمل أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا - لوس أنجلس بالولايات المتحدة الأميركية، كما عمل مديراً لمعهد ماركفيلد للدراسات العليا ببريطانيا.

● حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي سنة 1970م وعلى درجة الأستاذية عام 1972م.

● له أكثر من 150 بحثاً وخمسة وعشرين كتاباً منشوراً.

● أشرف على أكثر من خمسة وأربعين رسالة علمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات العربية والأجنبية.

● عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية. وعضو في هيئة تحرير العديد من الدوريات العلمية.

- زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.
- شارك في عدد كبير من المؤتمرات العربية والإسلامية والدولية.
- عضو هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.
- مستشار في شؤون التعليم العالي بالمعهد العربي للتنمية ـ المملكة العربية السعودية.
- عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة، وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام ـ لندن ـ بريطانيا.
- له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في صفحة كاملة صدر منه حتى الآن أكثر من مائة وخمسين مقالاً تعد للنشر الآن في سلسلة كتب متتابعة إن شاء الله.
- كتب أكثر من ستين مقالاً عن الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف نشرته جريدة الأهرام المصرية خلال رمضان 1422هـ ـ 1424هـ وتم نشرها في كتاب من جزءين، تمت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية.
- جاب كافة دول العالم محاضراً عن الإسلام وقضايا المسلمين المختلفة بصفة عامة وعن قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بصفة خاصة وذلك باللغتين العربية والإنجليزية.

الفهرس



شكل (1) صورة ضوئية لسديم المخروط

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله. ونصلي ونسلم على كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله النبي الأمين، الذي ختم الله ببعثته النبوات، وأكمل برسالته الرسالات، وأتمها في القرآن الكريم الذي أنزله الله (تعالى) بعلمه، وتعهد بحفظه في نفس لُغة وحيه (اللغة العربية)، فحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وآية آية، وسورة سورة بنفس الترتيب الذي نجده مكتوباً في بلايين النسخ من المصحف الشريف، ومدوناً في وسائل التسجيل المختلفة، ومحفوظاً في صدور البلايين من الحفاظ منذ أربعة عشر قرناً وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها. فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله، وتنزيهاً له عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال الإلهي المقدس والمنزه عن جميع أوصاف خلقه.

وبعد: فلما كان القرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظة بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيها (اللغة العربية) كان هذا الكتاب الكريم معجزاً في كل أمر من أموره، لأنه لا بد وأن يكون مغايراً لكلام البشر، فهو معجز في بيانه ونظمه لأنه ليس بالشعر ولا بالنثر، ولكنه نمط من العربية فريد، وصياغة متميزة، لم يدركها فصحاء العرب وبلغاؤهم وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان، وعجزوا عن الإتيان بشيء من مثله.

وبما أن القرآن الكريم هو بيان من الله (تعالى) فلا بد وأن يكون كل ما فيه حقاً مطلقاً: حديثه عن العقيدة (وهي غيب مطلق)، وعن العبادة (وهي أوامر إلٰهية محضة)، وعن

الأخلاق والمعاملات (وهي ضوابط للسلوك)، والتاريخ يؤكد أن **الإنسان كان عاجزاً** دوماً عن وضع ضوابط في أيٍّ من هذه القضايا لنفسه بنفسه .

وكذلك إشاراته إلى الكون ومكوناته وبعض أشيائه وظواهره لأنه كلام الخالق ومن أدرى بالخلق من خالقه؟، واستعراضه لسير أعداد من الأنبياء السابقين، وأممهم التي لم يدون لنا التاريخ شيئاً عنهم، والاكتشافات الأثرية المتتابعة تثبت صدقه في جميع ما أورد.

والقرآن الكريم هو أيضاً معجز في دستوره التربوي الفريد، وفي خطابه إلى النفس الإنسانية وارتقائه بها في معارج الله العليا إلى ما لا يمكن لأي خطاب آخر أن يصل، وفي إنبائه بعدد من الغيوب التي تحققت من بعد ولا تزال تتحقق، وفي تحديه للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله دون أن يتمكن عاقل من التقدم بذلك.

وتتعدد جوانب الإعجاز القرآني (بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء من مثله) بتعدد الزوايا التي ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله، ومن هذه الجوانب:

1 ـ الإعجاز اللغوي، الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي، والدلالي.

2 ـ الإعجاز العقدي (الاعتقادي).

3 ـ الإعجاز التعبدي (العبادي).

4 ـ الإعجاز الأخلاقي (بمعنى مواءمته للطبيعة البشرية بغير غلو ولا إقلال كما يتضح في ضوابط السلوك).

5 ـ الإعجاز التشريعي (كما يتضح في فقه المعاملات).

6 ـ الإعجاز التاريخي (الذي تؤكده الاكتشافات الأثرية للأمم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم).

7 ـ الإعجاز التربوي.

8 ـ الإعجاز النفسي.

9 ـ الإعجاز الاقتصادي.

10 ـ الإعجاز الإداري.

11 ـ الإعجاز التنبؤي.

12 ـ الإعجاز العلمي.

13 ـ إعجاز التحدي للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله في أسلوبه، أو

مضمونه، أو محتواه، دون أن يتمكن أحد من ذلك.

14 ـ إعجاز حفظه بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد، في الوقت الذي تعرضت فيه كل صور الوحي السابقة للضياع التام، وما بقي من ذكريات عن بعضها على هيئة ترجمات مهلهلة لروايات بشرية نقلت شفاهاً تعرض إلى التحريف تلو التحريف، والتحرير بعد التحرير، وإلى التبديل والتغيير، وإلى الحذف والإضافة، وإلى غير ذلك من صور التزييف الذي لا يزال مستمراً إلى يومنا هذا، مما أخرج تلك الرسالات السماوية السابقة عن إطارها الرباني، وردها إلى عدد من الوثنيات والشركيات القديمة، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها، وهذا هو السبب الحقيقي من وراء المظالم العديدة التي تجتاح مختلف بقاع الأرض اليوم، وتغرقها في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار.

ولهذه المفاضلة بين كتب تركت لأصحابها فضيعوها وكتاب تعهد الله بحفظه فحفظ. امتدح ربنا (تبارك وتعالى) القرآن الكريم في العديد من آياته والتي منها قوله (عز من قائل):

- ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة: 1، 2).
- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ (البقرة: 23).
- ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: 166).
- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ (الأنعام: 92).
- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾ (يونس: 37).
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (هود: 13، 14).
- ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد: 1).

• ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ (إبراهيم: 1).

• ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢﴾ (إبراهيم: 52).

• ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: 9).

• ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ (الحجر: 87).

• ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ (الإسراء: 88).

• ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ (الكهف: 1).

• ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤﴾ (طه: 1 ـ 4).

• ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤﴾ (الحج: 54).

• ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾ (الفرقان: 1، 2).

• ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ (الفرقان: 6).

• ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾ (السجدة: 1 ـ 3).

• ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾ (سبأ: 6).

• ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ (الزمر: 1، 2).

• ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (فصلت: 1ـ 3).

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ (فصلت: 41، 42).

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ (الشورى: 7).

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ۝١٧﴾ (الشورى: 17).

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾ (الشورى: 52، 53).

• ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ (قٓ: 1).

• ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾ (الطور: 33، 34).

• ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ (البروج: 21، 22).

والقرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية في أمر الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، ولكن الله (تعالى) يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى زمن كزمننا الراهن يفتح الله (سبحانه وتعالى) فيه على الإنسان من معرفة بالكون وسننه ما لم يفتح من قبل، فيغتر الإنسان بالعلم ومعطياته وتطبيقاته في مختلف المجالات وبما وصل إليه من تقنيات متقدمة ويدفعه ذلك إلى إنكار الدين ونسيان الموت، والحساب، والآخرة، والجنة، والنار، خاصة وأن هذه المفاهيم وغيرها من ركائز العقيدة قد اهترأت اهتراءً شديداً في معتقدات غير المسلمين، مما دفع كثيراً من علمائهم إلى إنكارها والسخرية منها. ولكي يقيم ربنا (تبارك وتعالى) الحجة على أهل عصرنا أبقى لنا في محكم كتابه أكثر من ألف آية كونية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وهذه الآيات القرآنية تحوي من الإشارات الكونية ما لم يكن معروفاً لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعد زمن الوحي، وذلك لأهداف عديدة منها ما يمكن إيجازه فيما يلي:

أولاً: الشهادة لله الخالق بطلاقة القدرة في إبداعه لخلقه، ومن ثم الشهادة له سبحانه وتعالى بالألوهية، والربوبية، والوحدانية لأن كل شيء في هذا الوجود قد خلق بقدر، وفي زوجية واضحة تشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ثانياً: الشهادة لله (تعالى) أنه كما أبدع هذا الكون من العدم، وعلى غير مثال سابق، فهو قادر على إفنائه إلى العدم، وعلى إعادة خلقه من جديد، خاصة وأننا نرى الخلق من العدم والإفناء إلى العدم يتكرر أمام أنظارنا في صفحة السماء، حيث أن المجرات تتباعد عن بعضها البعض بمعدلات تقترب من سرعة الضوء وتتخلق المادة والطاقة لملء المسافات الناتجة عن هذا التوسع من حيث لا نعلم.

كذلك فإننا نرى مختلف صور المادة والطاقة تُبْتَلَعُ بواسطة النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) إلى حيث لا نعلم، ونرى التقاء اللبنات الأولية للمادة بأضدادها فتفنى إلى ما لا نعلم..!! وعلى الرغم من ذلك بقيت قضية البعث وإنكار إمكانية وقوعه هي الحجة الرئيسية للكفار والملحدين، وللحائرين المتشككين، لأنهم من جهلهم يقيسون على الله (تعالى) بمقاييس البشر، وإرادة الله (تعالى) لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها عائق.

ثالثاً: هذه الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد صيغت صياغة مجملة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع ما توفر لهم من علوم الكون ومكوناته، وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، تصديقاً لنبوءة المصطفى ﷺ في وصفه للقرآن الكريم بأنه «**لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد**».

وليس هذا لغير كلام الله (تعالى)...!! لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً غير الله الخالق لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية في القرآن الكريم وهو كتاب منزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي فترة زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشيء من هذه الحقائق العلمية التي لم تبدأ في التكشف للإنسان إلا في خلال القرنين الماضيين، ولا تزال تتكشّف إلى يوم الدين.

والإشارات الكونية في القرآن الكريم جاءت في أكثر من ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتشكل هذه الآيات الكونية حوالي سدس مجموع آيات القرآن الكريم.

وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهماً كاملاً في إطارها اللغوي فقط ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ، ولا يمكن الوصول إلى سبقها بالحقيقة الكونية ـ وهو ما نسميه بالإعجاز

العلمي للقرآن الكريم ـ دون توظيف الحقائق العلمية التي توفرت لأهل زمننا، لأن في هذه الآيات الكونية من المحتوى العلمي ما لا يقف على دلالته إلا الراسخون في العلم ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ ومن هنا كانت تلك الآيات القرآنية العديدة التي تشير إلى مستقبلية الاستكشاف في دلالات بعض الآيات القرآنية، وذلك من مثل قوله (تعالى):

• ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنعام: 67).

وقوله (عز من قائل):

• ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النمل: 93).

وقوله (سبحانه وتعالى):

• ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ (ص: 87، 88).

وقوله (عز وجل):

• ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: 53).

وفي المقابل فإننا نجد الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات قد صيغت صياغة محكمة، محددة الدلالة، واضحة المعنى، لا تحتمل غير وجه واحد يفهمه البدوي في قلب الصحراء كما يفهمه أعلى الناس ثقافة وعلماً، وهذا أيضاً جانب من جوانب الإعجاز القرآني التي لا تحصى ولا تعد. ولذلك يحضنا ربنا (تبارك وتعالى) حضاً على تدبُّر آيات القرآن الكريم فيقول (عز من قائل):

• ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: 82).

ويقول (عز وجل):

• ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: 104).

ويقول (سبحانه وتعالى):

• ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص: 29).

ويقول (تبارك وتعالى):

• ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: 24).

وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه**»[1].

وإعراب القرآن الكريم يقصد به معرفة معانيه، والتماس غرائبه أي معرفة ما غمض من معانيه على قارئه، ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الآيات الكونية التي تتسع دلالاتها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وذلك لندرة تلك المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره في زمن تنزل الوحي، ولطبيعتها التراكمية مع الزمن، بمعنى اتساع دائرة المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وتعرفه على السنن المنتظمة الحاكمة له، والتي وضعها الله (سبحانه وتعالى) فيه، ولولا انتظام تلك السنن واطرادها ما تمكن الإنسان من معرفة شيء منها، ولا عنها، وهذا الانتظام والاطراد في سنن الكون وظواهره هو من وسائل تسخير الكون للإنسان، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك التسخير في مواطن عديدة.

ومبررات الاهتمام بالإشارات الكونية في القرآن الكريم عديدة ولكن يمكن إيجازها فيما يلي:

1 - إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه، والآيات الكونية لا تفهم فهماً كاملاً في إطار اللغة وحدها، لأن المعرفة كلٌّ لا يتجزأ.

2 - إن الإسلام والمسلمين يتعرضون اليوم لهجوم ظالم في جميع وسائل الإعلام العالمية والمحلية بسبب إنكار غير المسلمين لنبوة المصطفى ﷺ، وإنكارهم للوحي بالقرآن، والإشارات الكونية خير دليل لأهل عصرنا على حجية ذلك كله، وباللغة التي يفهمونها.

3 - إننا قصرنا في التبليغ عن الله (سبحانه وتعالى) وعن رسوله ﷺ تقصيراً كبيراً، ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تكتل أهل الباطل علينا، وتآمرهم على ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وأموالنا وأراضينا، وخير وسيلة لتبليغ هؤلاء القوم اليوم عن فضل الإسلام على غيره من الأديان وفضل القرآن على غيره من الكتب: هو ما ورد من حقائق علمية راسخة في كل من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ لأن العلم قد أصبح الوسيلة الوحيدة المقنعة لأهل عصرنا.

4 - إن العالم قد أصبح قرية كبيرة تلتقي فيها كل الحضارات بما فيها من المعتقدات والفلسفات والثقافات، وثقافة عصرنا الراهن ترتكز على العلوم البحتة والتطبيقية وما تنتجه

---

(1) رواه أبو يعلى في مسنده والسوطي في الجامع الصغير.

من تقنيات مختلفة، ولذلك فإن إثبات سبق كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون هو من أنجح الوسائل لإقناع أهل عصرنا بحجة القرآن الكريم وبصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

5 ـ إن المؤامرة الدولية على الإسلام والمسلمين قد أسقطت من أيدينا كل سلاح نستطيع به الدفاع عن أنفسنا، وأراضينا، وعن ديننا، ومقدساتنا، وعن أعراضنا، وكرامتنا، ولكن على الرغم من ذلك فقد بقي بأيدينا سلاح الدعوة إلى الله على بصيرة بلغة العصر ـ ألا وهو سلاح الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ والذي لو أحسنّا توظيفه في الدعوة إلى دين الله لفتح الله (تعالى) علينا الدنيا من أطرافها، والتجارب المحدودة في هذا المجال تثبت جدوى ذلك وأهميته.

وعلى الرغم من ذلك فقد عارض نفر من أبناء المسلمين قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان السبب الرئيسي لذلك هو ازدواجية التعليم، وبمعنى المفاصلة الكاملة بين تعليم ديني، إنساني، نظري، لم يعد له اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم، وتعليم مدني، علمي، تقني، لا يعطي للدارس الحد الأدنى من الثقافة التي تعينه على فهم أصول دينه، وعلى حسن القيام بعباداته، وعلى التبليغ عن الله ورسوله بالكلمة الطيبة والحجة البالغة. ونتيجة لهذه المفاصلة تخوف كل من الشرعيين والعلميين من الخوض في هذه التجربة التي بدأها علماء المسلمين في القرن الهجري الثالث واستمرت في مد وجزر حتى عصرنا الراهن.

وكان من مبررات المعارضين ما يلي:

1 ـ اعتبارهم التفسير العلمي للقرآن الكريم نوعاً من التفسير بالرأي ـ والرأي عندهم مذموم ـ ولكن المقصود بالرأي المذموم هو الهوى، وليس الرأي المؤسس على الحقائق العلمية الثابتة التي يقبلها كل عقل سوي، وتؤيدها الحجة المنطقية المقبولة والدليل المادي الملموس.

2 ـ اعتبارهم أن الإسرائيليات كانت قد نفذت أول ما نفذت إلى التفسير عن طريق من أسلم من أهل الكتاب والذين حملوا معهم تصورات لشرح دلالة الآيات الكونية استناداً إلى ما جاء في سفر التكوين من العهد القديم، وقد أثبت العلم خطأها، كما جاء في كتاب الطبيب الفرنسي الدكتور موريس بوكاي.

3 ـ أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية، وبما أنه كلام الله ـ في صفائه الرباني ـ فهو حق كله، وثابت ثبوت الرواسي، والعلوم المكتسبة متغيرة، ولا يجوز مقابلة الثابت بالمتغير، أي لا يجوز مقابلة كلام الله بكلام الناس، وللرد على ذلك نقول: إن

القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه ولنتدبر آياته بإمكاناتنا البشرية المحدودة، وأن العلوم المكتسبة ليست كلها متغيرة ففيها الحقائق الثابتة، والقوانين المنضبطة.

4 ـ أن العلوم الكونية انطلقت في زماننا من منطلقات مادية بحتة، لا تؤمن بما فوق المدرك الملموس من صور المادة والطاقة، ولذلك تصاغ أحياناً صياغات منافية لأصول الدين، نتيجة للصراع المرير الذي قام بين العلميين ورجال الكنيسة في العالم الغربي، وانتهى بانحسار دور الكنيسة، وللرد على ذلك نقول أن هذا الموقف كان في البدايات الأولى لتطبيق المنهج العلمي في الغرب، أما اليوم فإن المعطيات الكلية للعلوم أصبحت تؤكد على العديد من حقائق الدين.

5 ـ أن بعض الذين تعرضوا لتفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ـ بغير خلفية علمية سليمة ـ إما تكلفوا في تحميل الآيات ما لا تحمله، أو توسعوا أكثر من اللازم في إعطاء الآية القرآنية الكريمة من المعاني ما لا تقصده، والقرآن العظيم أجل من ذلك وأكرم، وللرد على ذلك نقول أن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة لا يتم إلا بواسطة المتخصصين ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ وعلى الناقلين عنهم أن ينسبوا كل قضية إلى محققها، وإلا لأصبح الأمر فوضى لا ضابط له.

وهذه الحجج كلها مردود عليها في هذا الكتاب حجة حجة، غير أن خير رد عليها هو الالتزام بضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) والتي أفردت لها باباً كاملاً في هذا الكتاب وأوجزها فيما يلي:

1 ـ حسن فهم النص من القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، وحسب قواعدها، وأساليب التعبير فيها، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولذلك فالنص مقدم على الظاهر، والظاهر مقدم على التأويل.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والإلمام بجهود المفسرين السابقين.

3 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، والقراءات الصحيحة لها، ورد بعضها إلى بعض مع مراعاة السياق القرآني، وعدم اجتزاء النص عما قبله وعما بعده، ومراعاة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتوظيف كل من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالموضوع الواحد في فهم النص القرآني، لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما تفسره أقوال رسول الله ﷺ.

4 ـ عدم التكلف، أو ليّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية، لأن القرآن الكريم أعزّ علينا وأكرم من ذلك انطلاقاً من كونه كلام الله الخالق، ومن حقيقة أن الخالق هو أدرى بخلقه من كل المخلوقين.

5 ـ البعد عن القضايا الغيبية غيبة كاملة، وعدم الخوض فيها بأكثر مما أثبته القرآن الكريم وفسرته السنة النبوية المطهرة، وذلك من مثل قضايا الذات الإلهية والروح، وحياة البرزخ، وموعد قيام الساعة، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، ـ وغير ذلك من غيوب مطلقة.

6 ـ مراعاة التخصص الدقيق لكل دارس لموضوع الإعجاز العلمي في كتاب الله ـ كل في حقل تخصصه ـ لأن هذا ليس مجالاً للخوض من كل خائض. وهنا يجب التفريق بين تحقيق المحقق ونقل الناقل.

7 ـ يجب تحري الدقة والأمانة في التعامل مع كتاب الله، والتجرّد عن كل هوى شخصي حتى يتحقق إخلاص النية في ذلك.

8 ـ الالتزام بتوظيف الحقائق العلمية الثابتة التي لا رجعة فيها في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، باستثناء حالة واحدة، وهي حالة الآيات والأحاديث التي تفصّل قضايا الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاث (خلق كل من الكون والحياة والإنسان وإفنائهم جميعاً ثم بعثهم من جديد) لأن هذه من القضايا التي لا تخضع لإدراك الإنسان ومشاهدته بطريقة مباشرة، وبذلك لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير (أي وضع نظرية من النظريات التي تتعدد بتعدد خلفية واضعيها). وفي هذه الحالة يمكن للمسلمين الارتقاء بإحدى هذه النظريات السائدة إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله (ﷻ) أو في سنة رسوله ﷺ.

9 ـ يجب التفريق بين قضيتي التفسير العلمي والإعجاز العلمي لكلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وذلك لأن التفسير العلمي هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية الكونية في هذين المصدرين من مصادر وحي السماء. ونحرص في التفسير العلمي على توظيف الحقائق العلمية كلما توفرت، ولكن لما كان العلم الكسبي لم يصل بعد إلى الحقيقة في كل أمر من الأمور، فلا أرى حرجاً من توظيف النظرية العلمية السائدة في تفسير الآية الكونية التي لا تتوفر حقائق لتفسيرها، ولا حرج في ذلك حتى لو ثبت خطأ النظرية الموظفة في التفسير بعد ذلك، لأن الخطأ هنا لا ينسحب على جلال القرآن الكريم ولكن ينسحب على جهد المفسر. أما الإعجاز العلمي فهو موقف من مواقف التحدي، والمتحدي لا بد

وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة، ولذلك لا يجوز أن يوظف في الإعجاز العلمي إلا القطعي الثابت من الحقائق العلمية كما أوضحنا في النقطة السابقة.

10 ـ عدم التقليل من جهود السابقين الذين خدموا القرآن الكريم في حدود المعارف المتاحة لهم كل في زمانه، وفي حدود سقف المعرفة المتاحة له.

وقد كتب كثيرون في موضوع الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم تحت عناوين مختلفة مثل: (الإعجاز البياني/ البلاغي/ الأدبي/ اللفظي/ النظمي/ الدلالي) منهم **الجاحظ** في القرن الهجري الثالث (ت255هـ)، وكل من **الواسطي** (ت306هـ)، **والرماني** (ت386هـ)، **والخطابي** (ت388هـ) وهم من علماء القرن الرابع الهجري، وكل من **الباقلاني** (ت403هـ)، **والقاضي عبد الجبار** (ت415هـ)، **والظاهري** (ت456هـ)، **والجرجاني** (ت471هـ) **والغزالي** (ت505هـ) من علماء القرن الخامس الهجري، وكل من **القاضي عياض** (ت544هـ) **والفخر الرازي** (ت604هـ) من علماء القرن السادس الهجري، وكل من **السكاكي** (ت626هـ) **والعز ابن عبد السلام** (ت660هـ)، في القرن السابع الهجري؛ **والزركشي** (ت794هـ) من أعلام القرن الثامن الهجري؛ **والبقاعي** (ت885هـ) من القرن التاسع الهجري، **والسيوطي** (ت911هـ) من أعلام القرن العاشر الهجري، **والألوسي** (ت1270هـ) من أعلام القرن الثالث عشر الهجري، ونشطت الكتابة في موضوع الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين نشاطاً ملحوظاً، وكان ممن خاضوا هذا المجال: **الزرقاني، الرافعي، الجزائري، المراغي، دراز، أبو زهرة، النورسي، محمد رشيد رضا، بنت الشاطىء، والمطعني** وغيرهم.

أما الذين تناولوا الإشارات الكونية في القرآن الكريم بشيء من التفصيل فكان في مقدمتهم **الجاحظ** (ت255هـ) في كتابه «الحيوان»، **وابن حزم الأندلسي** (ت405هـ) في كتابه «المفصل»، **والغزالي** (ت505هـ) في كتابيه «إحياء علوم الدين» و «جواهر القرآن»، **والفخر الرازي** (ت606هـ) في تفسيره «مفاتيح الغيب»، **وطنطاوي جوهري** (ت1359هـ) في موسوعته السباقة «الجواهر في تفسير القرآن الكريم»، **ومحمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب، وعبد الله فكري، وعبد العزيز سيد الأهل، أحمد مختار الغازي، حنفي أحمد، محمد أحمد الغمراوي، محمد محمود إبراهيم، إبراهيم عبد القادر محمد فرج، محمد جمال الدين الفندي، عبد الرازق نوفل، يوسف مروة، عبد الغني الخطيب، أحمد محمود سليمان، عبد الله شحاتة، مصطفى محمود، يوسف السويدي، منصور حسب النبي**، وجيش من المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع.

وقد بدأت الاهتمام بقضيتي التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منذ دخولي إلى كلية العلوم بجامعة القاهرة في سنة 1951م، حين تعرضت ـ وتعرض غيري من الطلاب المسلمين ـ لسيل من التحديات الوافدة مع تيارات التغريب المختلفة من مادية دهرية، يمينية أو يسارية، وكانت تيارات عاتية بأيدي العديد من الأساتذة والإداريين والطلبة الذين سخروا لمهاجمة الإسلام والمسلمين، وكان في مواجهة هذا التيار التغريبي تيار إسلامي قوي ينتصر لهذا الدين الخاتم بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة والمنطق السوي، وكان على رأس هذا التيار الراشد أستاذي وأستاذ جيل كامل ممن تخصصوا في علوم الأرض وهو الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد القادر محمد فرج (بارك الله في عمره وأحسن لنا وله الخاتمة) الذي كان يملأ محاضراته ومذكراته وأحاديثه بحسن الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فكوّن مدرسة علمية في هذا المجال أسأل الله تعالى أن يجزيه عنا وعنها خير الجزاء.

وكان من قادة هذه المدرسة الإيمانية الأستاذ الدكتور محمد محمود إبراهيم (رحمه الله) الرئيس السابق لقسم هندسة التعدين والبترول بجامعة القاهرة، والذي كان أول من كتب كتاباً بعنوان «إعجاز القرآن الكريم وطبقات الأرض» وصال وجال بهذا الأمر في العديد من المحاضرات والنقاشات على مستوى جامعة القاهرة وخارجها.

كما كان من الفرسان المجاهدين في هذا المجال الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي (رحمه الله) الذي عمل أستاذاً بكلية الصيدلة ـ جامعة القاهرة، وعميداً لكلية الصيدلة بجامعة الملك سعود بالرياض حيث سعدت بصحبته، ودرَّس بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف كتاباً من تأليفه بعنوان «في سنن الله الكونية».

هذا بالإضافة إلى التحديات التي لقيتها في طفولتي وشبابي من الحملات التنصيرية التي كان يشنها المستشفى الأمريكي بطنطا، وكان مركزاً تنصيرياً نشطاً باءت جهوده كلها بالفشل. ومن بعد ذلك بسنوات طويلة كانت رحلتي مع جامعة القاهرة والتي امتدت من 1951م إلى 1955م، ثم التحديات التي لقيتها في بريطانيا وقد سافرت إليها بعد حرب قناة السويس التي وقعت في سنة 1956 بقليل، وكانت مشاعر البريطانيين مشحونة ضد كل من مصر والعروبة والإسلام، وكان عَليَّ أن أُفنِّدَ دعاوى هؤلاء المبطلين من الغلاة المتشددين بالأسلوب المناسب في كل حالة.

وبعد ذلك بقرابة الربع قرن سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف السبعينيات من القرن العشرين وعملت أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس، وحدث في أثناء إقامتي في هذه الغربة أن وقعت زيارة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور

الشيخ عبد الحليم محمود (رحمه الله) شيخ الأزهر الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية والتي رافقته في أغلب محطاتها وترجمت له وعنه، وتبع هذه الرحلة المباركة زيارة الرئيس السادات إلى القدس الشريف، واشتعلت المشاعر وانقسم المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية بين معارض لتلك الزيارة المفاجئة ومؤيد لها، وتحركت أقلام وألسنة عديدة بالقضية الفلسطينية، وباستنكار اغتصاب الصهاينة الغرباء لهذه الأرض العربية الإسلامية بمؤامرة دولية حاكتها القوى الصهيونية العالمية المستترة والمعلنة بدهاء وخبث ومكر شديد. ولقي ذلك صدى عند غلاة المتطرفين الغربيين الذين استردوا بذلك شيئاً من هزائمهم التاريخية أمام جيوش المسلمين، وأعان على تنفيذ هذا المخطط الشيطاني كل قوى الشر في العالم وفي مقدمتها بريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وروسيا وغير ذلك من دول الغرب والشرق على حد سواء. وكان من دوافع هذا التآمر الدولي أن المسلمين لم يؤدوا الواجب الملقى على عواتقهم بالتبليغ عن الله (ﷻ) وعن رسوله ﷺ وتركوا الساحة مفتوحة لغلاة الحركة الصهيونية العالمية (وأغلب وسائل الإعلام بأيديهم) يسمّمون أفكار الناس بالخوف من الإسلام، وبالكراهية للمسلمين، وبوصفهم بالخطر الداهم على الحضارة الغربية وجميع منجزاتها، ومن هنا كان هذا التآمر الدولي اليهودي/ الصليبي واللاديني/ الدهري على الإسلام والمسلمين.

وفي خضم هذه الحوارات ثبت لي أن عرض قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة هو من أيسر وسائل الدعوة إلى دين الله الخاتم، وأكثرها إقناعاً لأهل عصرنا، لأنها تقدم لهم الدليل المادي الملموس على نبوة الرسول الخاتم ﷺ وعلى صدق رسالته، وعلى أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، وذلك دون الخوض في أية خلافات دينية أو تاريخية.

وانطلاقاً من ذلك كله كان اهتمامي بالإشارات الكونية في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة منذ الخمسينيات من القرن العشرين، وكان حرصي على زيارة أغلب دول العالم من كندا شمالاً إلى أستراليا جنوباً، ومن الأمريكيتين غرباً إلى إندونيسيا وماليزيا شرقاً أتحدث في هذه القضية، حتى استضافني سعادة السفير الدكتور غازي القصيبي في محاضرة بالمركز الإعلامي السعودي بلندن في سنة 1998م كان لها من الصدى الطيب ما دفع الصحفي الكبير الأستاذ عرفان نظام الدين إلى التعليق عليها بزاويته المعنونة «من الحياة» في جريدة الحياة بتاريخ 5/ 3/ 1998 (الموافق 7/ 11/ 1418هـ). ثم استضافني بعد ذلك الأخ الأستاذ أحمد منصور لتلفزيون الجزيرة في برنامجه «بلا حدود»، وكتبت الأخت الفاضلة والصحفية الكبيرة الأستاذة ابتسام الهواري في يوميات الأخبار بتاريخ 6/ 10/ 1999م

(الموافق 26/ 6/ 1420هـ) تحت عنوان «نحن أولى بعلمائنا» كلاماً فوق ما أستحق، فجزى الله (تعالى) الجميع عني خير الجزاء.

وبعد ذلك بقليل استضافني الأخ الكريم الأستاذ عاصم بكري في برنامجه بالقناة الثالثة في حلقة عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم مما أثار تعليق العديدين من المهتمين بالقضية، ومضيت في مشواري الذي بدأته منذ أكثر من أربعين سنة أكتب وأحاضر في قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وفي الدلالات العلمية للآيات الكونية في هذين المصدرين من مصادر الوحي الإلهي المحفوظين بحفظ الله في أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيهما (اللغة العربية) وبكامل صفائهما الرباني، وإشراقاتهما النورانية وباحتواء كل منهما على قدر هائل من الحقائق الكونية التي لم تعرف إلا في القرن العشرين أو في العقود المتأخرة منه في أغلب الأحوال، والناس في مصر لا يكادون أن يعرفوني لكثرة تغيبي عن الوطن الحبيب.

وفي صبيحة الأربعاء العاشر من رمضان سنة 1421هـ (الموافق السادس من ديسمبر سنة 2000م) مررت بالقاهرة في إحدى رحلاتي بين أوروبا والمشرق العربي، وكانت هذه الرحلة قد أخذتني من ماركفيلد إلى لندن، ثم إلى كلٍّ من دولة الإمارات العربية المتحدة والكويت للمشاركة في البرنامج الثقافي المصاحب لاحتفالات دبي بجائزتها الدولية للقرآن الكريم بدعوة طيبة من القائمين على تنظيم احتفالات الجائزة، ثم للمشاركة في برنامج الكويت الدعوي بمناسبة شهر رمضان المبارك وبدعوة كريمة من وزارة الأوقاف فيها.

ومن الكويت اتجهت إلى البحرين بدعوة نبيلة من جمعية النور للبر لإلقاء محاضرة في برنامجها الثقافي بمناسبة الشهر الفضيل.

ومن البحرين توجهت إلى القاهرة لأجد دعوة كريمة من الأخ العزيز الأستاذ أحمد فراج لاستضافتي في حلقتين من حلقات برنامجه التليفزيوني الشهير «نور على نور». وبعد إتمام هذا اللقاء بأقل من أربع وعشرين ساعة سافرت من القاهرة إلى لندن ومنها إلى ماركفيلد حيث كنت أعمل مديراً لمعهدها للدراسات العليا.

وبعد أسابيع قليلة أذيعت الحلقة الأولى لي من برنامج «نور على نور» ولم أشاهدها، وبدأت الاتصالات الهاتفية والبرقية تترى تحمل قدراً هائلاً من تأثر الذين شاهدوها، وتلتها الحلقة الثانية، وظلت اتصالات المشاهدين تترى معبرين عن إعجابهم بالطرح في الحلقتين وذلك بدرجة لم أتوقعها، وتحمل ثناءهم المحمود على ما احتوتاه من معلومات جديدة عن الإشارات العلمية في القرآن الكريم لدرجة أن جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في مصر، بل في غالبية الدول العربية قد علقت على هاتين الحلقتين بإيجاب وقبول

كبيرين. وتحت إلحاح المشاهدين قامت كل من القناة الأولى للتليفزيون المصري والفضائية المصرية ببث كل من الحلقتين لعدة مرات متتالية، وببث الحلقتين مجتمعتين لأكثر من مرة في سابقة لم تحدث من قبل.

ولم تتوقف الاتصالات بي بخصوص هاتين الحلقتين على مصرنا الحبيبة، بل جاءت من عدد من كبار الشخصيات العربية في العديد من دول العالم، وحمدت الله تعالى على ذلك حمداً كثيراً. وكان من أهم هذه الاتصالات بي اتصال مؤسسة الأهرام الصحفية ممثلة في رئيس مجلس إدارتها الأستاذ إبراهيم نافع (حفظه الله) الذي طلب مقابلتي في أول زيارة لي للقاهرة.

وفي فجر الاثنين 11/ 11/ 1421هـ (الموافق 5/ 2/ 2001م) توجهت من ماركفيلد إلى لندن، ومنها إلى كل من الرياض، وجدة، والمدينة المنورة لحضور مؤتمر عن القرآن الكريم، وبعده سافرت إلى القاهرة حيث التقيت بالأستاذ إبراهيم نافع الذي عرض علي مشكوراً تخصيص صفحة لي بجريدة الأهرام المصرية للكتابة في موضوع الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، فشكرته على ذلك ودعوت له بالخير.

وابتداءً من الاثنين 29/ 11/ 1422هـ (الموافق 23/ 4/ 2001م) بدأت في كتابة مقال أسبوعي بجريدة الأهرام تحت عنوان: «من أسرار القرآن: الآيات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية» وذلك في سلسلة صدر منها حتى اليوم أكثر من مائة وخمسين مقالاً، ويمثل هذا الكتاب الذي يقع بين أيدي قارئه الكريم بضعاً وثلاثين من تلك المقالات التي جمعتها تحت عنوان «آيات السماء في القرآن الكريم»، وسوف يتبع ذلك إن شاء الله (تعالى) بقية المقالات حسب موضوعاتها.

ولا يفوتني هنا أن أسجل لأخي الكريم، والصحفي الكبير الأستاذ إبراهيم نافع (حفظه الله) هذا القرار الذي أفسح للقرآن الكريم لأول مرة في تاريخ جريدة الأهرام العريقة وهي صفحة كاملة أسبوعياً في أهم صحيفة عربية، وأسأل الله (تعالى) أن يجعل ذلك ثقيلاً في ميزان حسناته وأن ينفع الأمة بما ينشر في هذه الصفحة وأن يجعل ذلك ثقيلاً في موازين كل من أعان على تحقيق ذلك، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه

زغلول راغب محمد النجار

٢٧ رمضان المبارك سنة ١٤٢٤ هـ

(الموافق ٢١ من نوفمبر سنة ٢٠٠٣ م)

الباب الأول

إعجاز القرآن الكريم

في أي حديث عن القرآن الكريم لا بد لنا من التأكد على أنه كلام الله تعالى المعجز، الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، والمحفوظ بين دفتي المصحف الشريف، بنفس اللغة التي أوحي بها: (اللغة العربية) محفوظاً حفظاً كاملاً: كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية فقال ﷻ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾. (الحجر: 9).

وقد تحقق هذا الحفظ الكامل لكتاب الله الخاتم في الوقت الذي كانت كل صور الوحي السابقة على تنزُّل القرآن الكريم قد تعرضت إما للضياع التام أو لقدر من التحريف والتبديل الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها.

ومن هنا كان القول بإعجاز القرآن الكريم، لأنه كلام الله الخالق، والإعجاز هنا معناه عجز الخلق قاطبة عن الإتيان بشيء من مثله، ولذلك أنزل الله ﷻ في محكم كتابه قوله الحق:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾. (البقرة: 23، 24).

كما أنزل قوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾.(يونس: 38).

وقال ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾. (هود: 13، 14).

وقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾. (الإسراء: 88).

وقال ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾. (الطور: 33، 34).

معنى الإعجاز القرآني:

لما كان القرآن الكريم هو كلام الله تعالى فلا بد وأن يكون مغايراً لكلام البشر، أي متميزاً عنه بميزات يعجز البشر عن تحقيقها: من الكمال، والشمول، والإحاطة، ودقة التعبير، وجمال النظم، وروعة الإشارة، وصدق الإخبار في كل قضية من القضايا التي تعرض لها، وهو كله حق، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا لا يتوفر إلا لكلام الله، فلا يمكن لمخلوق أن يتناول كم القضايا التي تناولها القرآن الكريم دون خطأ واحد في اللغة أو الصياغة أو المحتوى والدلالة، وهذا هو المقصود بالتعبير عن «إعجاز القرآن الكريم».

ونحن نعلم أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية للإنسان، في القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة، من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، والتي تشكل القواعد الأساسية للدين، وذلك لأن هذه القضايا إما أن تكون من أمور الغيب المطلق، الذي لا سبيل لوصول الإنسان إليه إلا عن طريق وحي السماء، أو هي أوامر تعبدية لا بد وأن تكون توقيفية على الله ورسوله ﷺ، ولا بد للإنسان فيها أيضاً من وحي السماء، أو هي ضوابط للأخلاق والسلوك والمعاملات، والتاريخ يؤكد لنا أن الإنسان كان عاجزاً دوماً عن وضع الضوابط الصحيحة لأخلاقياته وسلوكه ومعاملاته في غيبة من الهداية الربانية، ومن هنا كانت ضرورة الدين.

وهذه القضايا المتعلقة بالعقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات ـ والتي تمثل صلب الدين، ولب رسالة القرآن الكريم ـ هي من أوضح صور الإعجاز في كتاب الله، إذا نظر إليها الإنسان بشيء من الموضوعية والحيدة، والتبصر والحكمة، ولكن الناس قد درجوا في غالبيتهم على ميراث الدين، دون النظر فيه بعين البصيرة والعقل، فأخذوه بشيء من التعصب

الأعمى، والحمية الشخصية الجاهلية، حتى لو لم يلتزموا به، مما يجعل إقناعهم بالحق أمراً صعباً في أغلب الأحيان... إلا من أراد الله ﷻ له الهداية.

ونحن نعلم أيضاً أن كلَّ نبي من أنبياء الله، وكل رسول من رسله قد آتاه الله ﷻ عدداً من المعجزات الحسية التي تشهد له بالنبوة أو بالرسالة، وأن هذه المعجزات الحسية كانت دائماً مما برع فيه القوم حتى تكون حجة عليهم، فموسى عليه السلام بعث في زمن كان السحر قد بلغ فيه مبلغاً عظيماً فآتاه الله ﷻ من العلم ما أبطل به سحر السحرة، وعيسى عليه السلام بعث في زمن كان الطب قد بلغ فيه شأواً عظيماً فأعطاه الله ﷻ من العلم ما تفوق به على أطباء عصره، ونعلم أن القرآن الكريم قد نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في زمنٍ كان العرب قد وصلوا إلى قمة الفصاحة العربية، والبلاغة في التعبير بها شعراً ونثراً، وجاء هذا الوحي الخاتم بأسلوب عربي مبين، مغاير لأساليب العرب، فهو ليس بالشعر وليس بالنثر، وجاء يتحدى العرب جميعاً أن يأتوا بقرآنٍ مثله، أو بعشر سورٍ مفتريات من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً، منذ أربعة عشر قرناً، دون أن يجرؤ عربيٌّ أن يُجابهه!!

وقد دفع ذلك بنفر من المسلمين إلى قصر الإعجاز القرآني على جوانب بيانه ونظمه، وأفاض الأقدمون والمحدثون في ذلك؛ فأفصحوا عن جوانب من الإعجاز البياني في القرآن الكريم، تملأ العديد من المجلدات، دون أن يتمكنوا من إيفاء ذلك الجانب حقه كاملاً.

ومع تسليمنا بالإعجاز البياني للقرآن الكريم، وبأنه المجال الذي نزل كتاب الله يتحدى به العرب ـ وهم في قمة من أعلى قمم الفصاحة والبلاغة، والقدرة على البيان أن يأتوا بشيء من مثله ـ إلا أن القرآن الكريم يبقى معجزاً في كل أمر من أموره، لأنه كلام الله الخالق البارىء المصور، فما من أمر من الأمور تعرَّض له هذا الكتاب الخالد إلا وهو معجز حقاً، وما من زاوية من الزوايا ينظر منها إنسان عاقل بشيء من الموضوعية والحيدة إلى هذا القرآن الكريم إلا ويرى منها جانباً من جوانب الإعجاز، فالقرآن الكريم معجز في بيانه ونظمه، كما أنه معجز في محتواه من قواعد الدين الصحيح الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه، فهو معجز في عرضه لقضايا العقيدة، وأوامر العبادة، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، معجز في تشريعاته المحكمة الدقيقة العادلة، معجز في استعراضه التاريخي للعديد من الأمم السابقة أمة بعد أمة، كيف تلقت وحي ربها، وتفاعلت مع أنبيائه ورسله، وكيف كان جزاؤها أو عقابها، معجز في خطابه للنفس البشرية، وتحريك كوامن الخير فيها، وتربيتها التربية الصحيحة، معجز في إشاراته العديدة إلى دخائل تلك النفس الإنسانية، وإلى إيحاءات الشيطان

إليها، ومعجز في تنبؤاته المستقبلية، التي تحققت بعد نزوله بفترات طويلة ولا تزال تتحقق إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة، معجز في إشاراته إلى العديد من حقائق الكون وظواهره، وفي استعراضه لكيفية بداية الخلق، وإفناء الكون، وإعادة خلق كل ذلك من جديد، معجز في استعراضه للعديد من أمور الغيب، مثل البعث والحشر، والحساب، والصراط، والجنة والنار، معجز في كل كلمة من كلماته، وكل حرف من حروفه، وكل آية من آياته، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: إن هذا القرآن «**لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد**»[1].

وقد عالج كثير من العلماء عدداً من جوانب الإعجاز القرآني، إلا أن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لم تتضح لنا جوانبه الكثيرة إلا في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه في هذه الأيام؛ فأصبح أسلوباً فريداً في الدعوة إلى دين الله، في زمن فتح الله للإنسان العديد من أسرار الكون ومكوناته، وفُتن الناس فيه بالعلوم الكونية ومعطياتها فتنةً كبيرة.

الفرق بين التفسير العلمي، والإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

يحتوي القرآن الكريم على أكثر من ألف آية صريحة تتحدث عن الكون، ومكوناته وظواهره؛ بالإضافة إلى آيات أخرى كثيرة تقترب دلالاتها من الصراحة. وهذه الآيات لم ترد من قبيل الإخبار العلمي المباشر للإنسان، وذلك لأن الكشف العلمي قد ترك لاجتهاد الإنسان وتحصيله عبر فترات زمنية طويلة، نظراً لمحدودية القدرات الإنسانية، وللطبيعة التراكمية للمعارف الكونية. ويؤكد ذلك أن تلك الآيات الكونية قد جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق، وعلى وحدانية الخالق العظيم، وعلى أن هذا الخالق المبدع ﷻ قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة هذا الخلق من جديد، وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير كما يحتاج غيرها من آيات هذا الذكر الحكيم، وهي بحكم طبيعتها لا يمكن أن تفهم فهماً دقيقاً في إطار اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك ـ. ومن هنا كان لزاماً علينا أن نوظف المعارف الكونية النافعة والمتاحة في تفسير تلك الآيات الكونية الواردة في كتاب الله. ولما كانت المعارف الكونية في تطور مستمر وجب على أمة الإسلام أن ينفر منها في كل جيل نفرٌ من علماء المسلمين، الذين يتزودون بالأدوات اللازمة، للتعرض لتفسير كتاب الله، من مثل الإلمام التام باللغة العربية، وعلومها المختلفة، وبأصول الدين، وبأسباب النزول، وبالناسخ والمنسوخ، وبالمأثور من التفسير، وبجهود السابقين من كبار المفسرين، وبالقدر اللازم من العلوم المتاحة عن الكون، ومكوناته، وغير ذلك مما يحتاجه

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (الحديث: 2906).

كل من يتشرف بالقيام بمثل هذه المهمة العظيمة.

وفي **التفسير العلمي للآيات الكونية** نوظف كل المعارف المتاحة من الحقائق والثوابت العلمية، ولكن بما أن العلم لم يصل بعد إلى الحقيقة في كل أمر من الأمور، ولا يزال أمامه من الغيوب أكثر الكثير، فلا أرى حرجاً في مجال **التفسير العلمي للقرآن الكريم** من توظيف: النظريات، والفروض المنطقية السائدة، والمشاهدات المتكررة، وذلك لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، لمن أصاب فيه أجران ولمن أخطأ أجر واحد. والخطأ في التفسير لا يمكن أن ينسحب على جلال القرآن الكريم.

أما **الإعجاز العلمي للقرآن الكريم** فلا يجوز أن يوظف فيه إلا القطعي من الثوابت العلمية، وذلك لأن المقصود بالإعجاز العلمي هو: إثبات أن القرآن الكريم، الذي أوحي به إلى نبيٍّ أميٍّ ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، من قبل أربعة عشر قرناً، يحوي من حقائق هذا الكون ما لم يتمكن الإنسان من الوصول إليه إلا منذ عقود قليلة، وبعد مجاهدات طويلة، وهذا لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً إلا بوحي من الله الخالق البارىء المصور.

وعلى ذلك فلا يجوز توظيف غير الحقائق القطعية الثابتة في مجال الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، باستثناء آيات الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان وإفناء ذلك كله، ثم بعثه، وذلك لأن هذه القضايا لا يمكن أن تخضع مباشرة لإدراك الإنسان، ومن ثم فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير. وتتعدد النظريات في مجال الخلق بتعدد خلفيات واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو في حديث نبوي صحيح منسوب إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد وصلت فيها إلى الحقيقة، ولكن لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ.

وهنا أيضاً لا بد من التأكيد على صعوبة التعرض لقضايا الإعجاز العلمي في كتاب الله إلا من قبل المتخصصين، كلٌّ في حقل تخصصه، فلا يقوى فرد واحد على معالجة كل القضايا الكونية التي تعرض لها القرآن الكريم من خلق الكون وإفنائه، إلى خلق مراحل الجنين الإنساني المتعاقبة، إلى العديد من الظواهر الكونية المتكررة، إلى غير ذلك من مختلف الآيات الكونية الواردة في كتاب الله.



صورة لسديم الجبار (The Orion Nebula) توضح جزءاً من غازاته وغباره (دخانه) بقطر يزيد عن 25 سنة ضوئية، ويضاء الدخان بواسطة أربعة من النجوم العملاقة المتولدة بالتفاعل النووي فيه على يمين مركز الصورة حيث تتولد مجموعات أُخرى من النجوم الأصغر كتلة

الباب الثاني

موقف المفسرين من الآيات الكونية في القرآن الكريم

طال الجدل حول جواز تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات علوم العصر وفنونه، وتفاوتت مواقف العلماء من ذلك تفاوتاً كبيراً بين مضيّقين وموسّعين ومعتدلين، مما يمكن أن نوجزه فيما يلي:

أولاً: موقف المضِّيقين:

وهو الموقف الذي يرى أصحابه أن تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، على ضوء ما تجمّع لدى الانسان من معارف هو نوع من التفسير بالرأي ـ الذي لا يجوز ـ استناداً إلى أقوالٍ منسوبة لرسول الله ﷺ منها: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[1]، و«**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[2]، وإلى أقوال منسوبة إلى كل من الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)، من قول الأول: «أيّ سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2952) وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم (الحديث: 3505).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2950).

قلت في كتاب الله برأيي؟» وقول الثاني: «اتبعوا ما تبيّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكِلوه إلى ربه». وكذلك استناداً إلى قول كلٍّ من سعيد بن المسيب وعبد الله ابن عمر (رضي الله عنهما)، في الصحيح المنقول عن الأول: «إنا لا نقول في القرآن شيئاً»، وإلى الثاني: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير». وإلى القول المنسوب إلى مسروق بن الأجدع رضي الله عنه: «اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله».

الرد على المضيّقين

(أ) في معنى قولهم «التفسير بالرأي»

فات أصحاب هذا الموقف المضيّق أن المقصود بالرأي في الحديث هو الهوى، لا الرأي المنطقي المبني على الحجة الواضحة والبرهان المقبول، ويؤكد ذلك عبارة «بغير علم» التي وردت في الحديث الثاني، هذا بغضّ النظر عن كون الحديثين قد اعتبرا من ضِعاف السند. كذلك فاتهم أن ما قد ورد على لسان بعض الصحابة والتابعين مما يوحي بالتحرّج من القول في القرآن الكريم بالرأي الاجتهادي، إنما هو من قبيل الورع، والتأدب في الحديث عن كلام الله، خاصة أنهم كانوا قد فطروا على فهم اللغة العربية، وفطنوا بها وبأسرارها، ودرجوا على عادات المجتمع العربي، وألمّوا بأسباب النزول، وعايشوا رسول الله ﷺ عن قرب وهو الموصول بالوحي، وسمعوه ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم ويفسّره، واستعانوا به على فهم ماوقفوا دونه، وأدركوا تفاصيل سنّته الشريفة في ذلك وغيره، فهل يمكن لمن توافر له كل ذلك أن يكون له مجالٌ للاجتهاد بالرأي؟ خاصة وأن العصر لم يكن عصر تقدمٍ علمي كالذي نعيشه، وأنهم كانوا لا يزالون قريبي عهد بالجاهلية التي كان قد خيّم فيها ـ على شبه الجزيرة العربية، بل وعلى العالم أجمع ـ ركام من العقائد الفاسدة، والتصورات الخاطئة، والأفكار السقيمة، والأوهام والأساطير..، ولم يسلم من ذلك الركام أحد، حتى أصحاب الحضارات البائدة. وأن العصر كان عصر انتشار للإسلام، ودخول للكثيرين من أصحاب العقائد واللغات الأخرى في دين الله أفواجاً، ومعهم خلفياتهم الفكرية الموروثة، والتي لم يتمكنوا من التخلص منها كليّة بمجرد دخولهم في الإسلام، وأن أعداداً غير قليلة من هؤلاء كانوا قد دخلوا الإسلام ليأتمروا به، ويتآمروا عليه، ويكيدوا له بتأويل القرآن على وجوه غير صحيحة، لتفتيت وحدة الصف الإسلامي، وبث بذور الفرقة فيه، وكان من نتائج ذلك كله هذا الفكر الغريب الذي دس على المسلمين، والذي عرف فيما بعد «بالإسرائيليات» نسبة إلى السلالات الفاسدة من بني إسرائيل (أي اليهود) الذين كثر النقل عنهم، وكثر دسّهم على

دين الله، وعلى أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين)، وكان من نتائجه كذلك بروز الشيع والفرق والطرائق المختلفة، ومحاولة كل فرقة منها الانتصار لرأيها بالقرآن..، وهذا هو الهوى الذي عبّر عنه «بالرأي» فيما نُسب من أقوالٍ إلى رسول الله ﷺ وإلى عدد من صحابته الكرام وتابعيهم (عليهم رضوان الله أجمعين).

(ب) في دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس بقوله الشريف: «اللهم فقهه في الدين»

كذلك فقد فات هؤلاء المضيقين، وهم ينادون بعدم الاجتهاد بالرأي في فهم كتاب الله، والوقوف عند حدود المأثور، وهو ما نقل عن رسول الله ﷺ مباشرة، أو عن صحابته الكرام، أو عمن عاصر الصحابة من التابعين، موكلين ما لم يفسره التراث المنقول إلى الله وهو ما عرف «بمنهج التفسير بالمأثور أو التفسير بالمنقول»، وكلنا يعلم أن «التفسير بالمأثور» لم يشمل القرآن كله، فلحكمة يعلمها الله ـ وقد ندرك طرفاً منها اليوم ـ لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد في كل آية من آيات القرآن الكريم، وأن صحابته الكرام كانوا يجتهدون في فهم ما لم ينص عليه، وكانوا يختلفون في ذلك ويتفقون، وأن الثابت أنه ﷺ قد صوب رأي جماعة من أصحابه حين فسروا آيات من كتاب الله، وأنه قد دعا لابن عباس بقوله: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»(1)، وأن ذلك وغيره من الأقوال المأثورة قد اتخذ دليلاً على جواز الاجتهاد في التفسير في غير ما حدده رسول الله ﷺ، فمما يروى عن علي رضي الله عنه حين سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ أنه قال: «ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة، وفهم يؤتاه الرجل في كتابه». وهذا يؤكد على أن فهم المسلمين لدلالة آيات القرآن الحكيم وتدبر معانيها هي ضرورة تكليفية لكل قادر عليها مؤهل للقيام بها، وذلك يقرره الحق سبحانه وتعالى في قوله وهو أحكم القائلين:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾. (صٓ: 29).

وهذه الآية الكريمة، وكثير غيرها من الآيات القريبة في المعنى ـ أمر صريح من الله سبحانه وتعالى بتدبر آيات القرآن الكريم وفهم معانيها، فالقرآن ينعي على أولئك الذين لا يتدبرونه، ويستنبطون معانيه، وهذه آياته تقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

(1) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة (الحديث: 6318).

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾.... (النساء: 82، 83).

وتقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾. (محمد: 24).

وقد ساق الإمام الغزالي رحمه الله الأدلة على جواز فهم القرآن بالرأي (أي بالاجتهاد) ثم أضاف: «فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، والمنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه».

وبناء على ذلك فقد أجاز الغزالي لكل إنسان أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله، ولو أن المبالغة في استخدام تلك الرخصة قد أفرزت نتاجاً لم يكن كله مستساغاً مقبولاً لدى العلماء، مطابقاً لمقاصد القرآن الكريم في الهداية، فقد خرج قوم من المفسرين بالآيات القرآنية (إما عن عمد واضح أو جهل فاضح) إلى ما لا يقبله العقل القويم، والصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه والتابعين لهم، وعن المنطق اللغوي، وأساليب العرب في الأداء، حقيقة ومجازاً، وذلك لانطلاق الفرق المختلفة والمذاهب المتنوعة من غير أهل السنة والجماعة (من فقهية، وكلامية، وصوفية، وباطنية) من منطلق التعصب لمذاهبهم ومحاولاتهم إخضاع التفاسير لخدمة مللهم ونحلهم، مما أدى إلى الموقف المتشدد من القول في القرآن بالرأي، ومن ثم رفض تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات المعارف الإنسانية المكتسبة في حقل العلوم البحتة والتطبيقية.

(جـ) الدعوة إلى الاجتهاد في التفسير:

هناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد في تفسير كتاب الله، ولكنهم حصروا ذلك في مناهج محددة منها «**المنهج اللغوي**» الذي يهتم بدلالة الألفاظ، وطرائق التعبير وأساليبه، والدراسات النحوية المختلفة، و«**المنهج البياني**» الذي يحرص على بيان مواطن الجمال في أسلوب القرآن، ودراسة الحس اللغوي في كلماته، و«**المنهج الفقهي**» الذي يركز على استنباط الأحكام الشرعية والاجتهادات الفقهية، كما أن من هؤلاء المفسرين من نادى بالجمع بين تلك المناهج في منهج واحد عرف باسم «**المنهج الموسوعي**» **(أو المنهج الجمعي)**، ومنهم من نادى بتفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات التي اشتمل عليها، وذلك بجمع الآيات الواردة في الموضوع الواحد في كل سور القرآن، وتفسير واستنباط دلالاتها استناداً إلى قاعدة أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وقد عرف ذلك باسم «**المنهج الموضوعي في التفسير**».

(د) المنهج العلمي للتفسير:

أما «**المنهج العلمي في التفسير**» والذي يعتمد على تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله تعالى حسب المعارف العلمية المتوفرة في كل عصر، وحسب اتساع دائرة المعرفة الإنسانية فيها من عصر إلى عصر، تبعاً للطبيعة التراكمية لتلك المعرفة فقد ظل مرفوضاً من غالبية المجتهدين في التفسير وذلك لأسباب كثيرة منها:

1 ـ إن «الإسرائيليات» كانت قد نفذت أول ما نفذت إلى التراث الإسلامي عن طريق محاولة السابقين تفسير تلك الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله، ولما لم يكن متوفراً في زمانهم علم بذلك فقد حمل إليهم بعض الذين أسلموا من أهل الكتاب أفكاراً قائمة على أساس مما جاء في «سفر التكوين» وهو أحد أسفار خمسة توجد في مقدمة «العهد القديم» ويقال بأنها التوراة أو شيء قريب مما جاء فيها بعد أن تعرض لقدر من التحريف، وذلك لأن هذه الفصول الخمسة قد كتبت بعد وفاة موسى عليه السلام بأكثر من ثمانمائة سنة، وأنها قد تعرضت للعديد من التحريف والتزوير الذي أخرجها عن إطارها الرباني وملأها بالخرافات والأساطير التي يرفضها كل منطق سوي وهكذا جاءت الإشارات فيها إلى الكون.

وقد شاء الله تعالى أن يكل الناس في أمور الكشف عن حقائق هذا الكون إلى جهودهم المتتالية جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر...، ومن هنا جاءت الإشارات الكونية في القرآن الكريم بصيغة مجملة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني، وتظل تلك المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية، في تكامل لا يعرف التضاد، ومن هنا أيضاً لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد من جميع الإشارات القرآنية إلى الكون ومكوناته وظواهره في أحاديثه الشريفة، التي تناول بها شرح القرآن الكريم. ولكن لما كانت النفس البشرية تواقة دوماً إلى التعرف على أسرار هذا الوجود، ولما كان الإنسان قد شغل منذ القدم بتساؤلات كثيرة عن نشأة الكون، وبداية الحياة، وخلق الإنسان ومتى حدث كل ذلك؟ وكيف تم؟ وما هي مبرراته؟ وغير ذلك من أسرار الوجود، فقد تجمع لدى البشر في ذلك تراث ضخم عبر التاريخ اختلط فيه الحق بالباطل، والواقع بالخيال، والعلم بالدجل والخرافة، وكان أكثر الناس حرصاً على هذا النوع من المعرفة المكتسبة هم رجال الدين في مختلف العصور وفي مختلف الحضارات. وقد كانت الدولة الإسلامية في أول نشأتها محاطة بحضارات عديدة تباينت فيها تلك المعارف وأمثالها، ثم بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتوائها لتلك الحضارات المجاورة، ودخول أمم من مختلف المعتقدات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ إلى دين الله.. ووصول هذا التراث إلى اللغة العربية بعد قيامهم على

ترجمته ونقده والإضافة إليه، حاول بعض المفسرين الاستفادة به في شرح الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم. ولأن العصر لم يكن بعصر تطور علمي كالذي نعيشه اليوم، ولأن هذا التراث كان أغلبه في أيدي اليهود، وهم الذين تآمروا على الكيد للإسلام منذ بزوغ فجره، وإن النقل قد تم عمن أسلم ومن لم يسلم منهم، على الرغم من تحذير رسول الله ﷺ لنا بقوله: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإن كان حقًّا لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم**»(1). ويفسر ابن خلدون أسباب نقل هذه الإسرائيليات بقوله: «والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوفوا إلى معرفة شيء مما تتشوف إليه النفوس البشرية: في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذٍ هم أهل بادية مثلهم ولايعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لاتعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها...».

2 ـ إن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، (كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات)، بمعنى أنه كتاب دين الله الذي أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد الله تعالى بحفظه فحفظ، وعلى ذلك فلا بد من التأكيد أن القرآن الكريم ليس كتاب علم تجريبي، وأن الإشارات العلمية التي وردت به جاءت في مقام الإرشاد والموعظة لا في مقام البيان العلمي بمفهومه المحدد، وأن تلك الإشارات ـ على كثرتها ـ جاءت في أغلب الأحيان مجملة، وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التفكر والتدبر وإمعان النظر في خلق الله، لا بهدف الإخبار العلمي المباشر.

3 ـ إن القرآن الكريم ثابت لا يتغير، بينما معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور، وأن ما تسمى بحقائق العلم ليست سوى نظريات وفروض يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما في الغد ما هو سائد اليوم، وبالتأكيد فلا يجوز الرجوع إليها عند تفسير كتاب الله العزيز لأنه لا يجوز تأويل الثابت بالمتغير.

4 ـ إن القرآن الكريم هو بيان من الله ﷻ، بينما معطيات العلوم التجريبية لا تعدو أن

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث أبي نملة الأنصاري.

تكون محاولة بشرية للوصول إلى الحقيقة، ولا يجوز ـ في ظنهم ـ رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر، كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله تعالى بمعطيات العلوم المكتسبة. لأن القرآن الكريم بصفته كلام الله هو حجة على البشر كافة، وعلى العلم وأهله.

5 ـ أن العلوم التجريبية تصاغ في أغلب دول العالم اليوم صياغة تنطلق كلها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية (البحتة والتطبيقية) مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله ﷻ وبملائكته وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره، وبحياة البرزخ وبالبعث والنشور والحساب، وبالحياة الخالدة في الدار الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

6 ـ أن بعض معطيات العلوم التجريبية (بصياغاتها الحالية) قد يتباين مع عدد من الأصول الثابتة في الكتاب والسنة نظراً لصياغتها من منطلقات مادية بحتة، منكرة لكل حقائق الغيب أو متجاهلة لها.

7 ـ أن عدداً من المفسرين الذين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحمله في تعسف واضح، وتكلف مفتعل بِلَيِّ أعناق الكلمات والآيات، وتحميلها من المعاني ما لا تحمله.

(هـ) الرد على الرافضين للمنهج العلمي في التفسير:

إن حجج المعارضين للمنهج العلمي للتفسير والتي أوردناها في الفقرات السابقة هي كلها حجج مردودة حجة بحجة كما يلي:

1 ـ إنه لا حاجة بنا اليوم إلى «الإسرائيليات» في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، لأن الرصيد العلمي في مختلف تلك المعارف قد بلغ اليوم شأواً لم يبلغه من قبل، وإذا كان من استخدم «الإسرائيليات» في تفسيره من الأوائل قد أخطأ في التفسير، فإن من يستخدم حقائق العلم الثابتة في شرح تلك الآيات لا بد وأن يصل إلى فهمٍ لها لم يكن من السهل الوصول إليه من قبل، وأن يجد في ذلك من صور الإعجاز ما لم يجده السابقون، تأكيداً لوصف رسول الله ﷺ للقرآن بأنه: «**لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد**»[1].

2 ـ إنه لا تعارض البتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية، وإرشاد إلٰهي، ودستور عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وكتاب تشريع سماوي يشمل نظاماً كاملاً للحياة،

---

(1) سبق تخريجه.

وبين احتوائه على عدد من الإشارات الكونية الدقيقة التي وردت في مقام الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته في إبداعه للخلق، وعلى إفناء ما قد خلق، وعلى إعادة كل ذلك من جديد، وذلك لأن الإشارات تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، فلا بد وأن تكون حقاً مطلقاً، فمن أدرى بالخليقة من الخالق ﷻ؟ ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة منذ القدم لكان لهم في مجال الدراسات الكونية سبق ملحوظ، وثبات غير ملحوق، فنحن ندرك اليوم ـ وفي ضوء ما تجمع لنا من معارف في مجال دراسات العلوم البحتة والتطبيقية ـ أن آيات الكونيات في كتاب الله تتسم جميعها بالدقة المتناهية في التعبير، والإحاطة والشمول في المعنى، والاطراد والثبات في الدلالة، والسبق لكثير من الكشوف العلمية بعشرات المئات من السنين، وفي ذلك شهادة قاطعة ـ لا يستطيع أن ينكرها جاحد ـ بأن القرآن لا يمكن أن يكون إلا كلام الله الخالق.

أما القول بأن تلك الإشارات قد تم سردها بصورة مجملة، فإنها بحق إحدى صور الإعجاز العلمي والبياني في القرآن الكريم، وذلك لأن كل إشارة علمية وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز، والدقة في التعبير، والإحكام في الدلالة، والشمول في المعنى ما يعجز الإنس والجن مجتمعين عن الإتيان بشيء من مثله، لأنه يُمَكِّنُ الناسَ ـ على اختلاف ثقافاتهم، وتباين مستويات إدراكهم وتتابع أجيالهم وأزمانهم ـ أن يدركوا لها من المعاني ما يتناسب والخلفيات العلمية لكل منهم، بحيث تبقى المعاني المستخلصة من الآية الواحدة يكمل بعضها بعضاً في تناسق عجيب، وتكامل أعجب لأنه تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندي من أروع صور الإعجاز في كتاب الله، فالإجمال في تلك الإشارات مع وضوح الحقيقة العلمية للأجيال المتلاحقة ـ كلٌّ على قدر حظه من المعرفة بالكون وعلومه ـ هو بالقطع أمر فوق طاقة البشر، وصورة من صور الإعجاز لم تتوافر ـ ولا يمكن أن تتوافر ـ لغير كلام الله الخالق، ومن هنا كان فهم الناس للإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء ما يتجمع لديهم من معارف، فهماً يزداد اتساعاً وعمقاً جيلاً بعد جيل، وهذا في ذاته شهادة للقرآن الكريم بأنه لا تنتهي عجائبه، ولا يبلى على كثرة الرد كما وصفه المصطفى ﷺ.

وقد أدرك نفر من السابقين ذلك وفي مقدمتهم الإمام الزركشي الذي كتب في كتابه: «البرهان في علوم القرآن» ما نصه: «وما من برهان ودلالة وتقسيم، وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين: **أحدهما** بسبب ما قاله ﷻ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ (إبراهيم: 4).

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، وكذلك أخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم الحجة، وتفهم الخواص من أبنائها ما يوفي على ما أدركه الخطباء». . . ثم يضيف: «ومن ثم كان على كل من أصاب حظاً في العلم أوفر أن يكون نصيبه من علم القرآن أكثر، لأن عقله حينئذ يكون قد استنار بأضواء العلم، وهؤلاء الذين اهتم القرآن بمناداتهم كلما ذكر حجة على الربوبية والوحدانية، أو أضاف إليهم أولو الألباب والسامعون والمفكرون والمتذكرون تنبيهاً إلى أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها».

من هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في كل عصر وفي كل جيل أن ينفر منهم من يستطيع أن يجمع إلى حقل تخصصه إلماماً بحد أدنى من علوم اللغة العربية وقواعدها وآدابها، ودلالات ألفاظها، وأساليب التعبير فيها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وجدله، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، ثم يعود هؤلاء إلى دراسة الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله ـ كل فيما يخصه ـ محاولين فهمها في ضوء معطيات العلم وكشوفه، وقواعد المنطق وأصوله حتى يدركوا ما يستطيعون من فهم لدلالة تلك الإشارات الكونية في القرآن الكريم حتى تتحقق نبوءة المصطفى ﷺ في وصفه لكتاب الله **«أنه لا تنتهي عجائبه..»**.

3 ـ إن القول بعدم جواز تأويل الثابت بالمتغير قول ساذج، لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله، ينأى بالناس عن واقعهم في كل عصر، حتى لايستسيغوه فيملوه ويهملوه، وثبات القرآن الكريم هو ثبات في أصول الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات ـ وهو من السمات البارزة له ـ ولكن هذا الثبات في أصول الدين لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من معطيات العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، حتى ولو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية، ولا يتوافر للإنسان منها في عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة، وتباين العصور، تقدماً واضمحلالاً، وهذه الطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علماً ـ بصفة عامة ـ من الأمم السابقة، إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بأكملها للانتكاس والتدهور.

من هنا كانت معطيات العلوم الكونية ـ بصفة خاصة، والمعارف المكتسبة كلها بصفة عامة ـ دائمة التغير والتطور، إلا فيما ثبت منها، ووصل إلى مرتبة الحقيقة، بينما كلمات وحروف وآيات وسور القرآن الكريم ثابتة لا تتغير، حتى في الإشارات العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره، لأنها صيغت بطريقة تمكنها من استيعاب المعرفة الإنسانية والهيمنة عليها مهما اتسعت دوائرها مع الزمن؛ وهذا وحده من أعظم شواهد الإعجاز في كتاب الله. وعلى الرغم من ثبات اللفظ القرآني، وتطور الفهم البشري لدلالاته ـ مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل ـ فإن تلك الدلالات يتكامل بعضها مع بعض في اتساق لا يعرف التضاد، ولايتوافر ذلك لغير كلام الله، ويظل اللفظ القرآني ـ في إشاراته إلى الكون ومكوناته وظواهره ـ ثابتاً، وتتوسع دائرة فهم الناس له عصراً بعد عصر.. وفي ذلك شهادة للقرآن الكريم بأنه يغاير كافة كلام البشر، وأنه بالقطع بيان من الله.... ولذلك فإننا نجد القرآن الكريم يحض الناس حضاً على تدبر آياته، وفهم دلالاتها، ويتحدى أهل الكفر والشرك والإلحاد أن يجدوا فيه صورة واحدة من صور الاختلاف أو التناقض على توالي العصور، وكثرة النظر فيه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

(النساء: 82).

وإذ يكرر التساؤل التقريعي في سورة الرحمٰن إحدى وثلاثين مرة:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ويؤكد ضرورة تدبر القرآن وأنه تعالى قد جعله في متناول عقل الإنسان فيذكر ذلك أربع مرات في سورة القمر حيث يصدع التنزيل بقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **(القمر: الآيات 17 و22 و32 و40).**

والذكر هنا ـ كما يجمع المفسرون ـ يشمل التلاوة والتدبر معاً، ويشير إلى استمرار تلك العملية مع تبادل العصور وتجدد الأزمان، ومن هنا يبقى النص القرآني في أصول الدين ثابتاً لصياغته صياغة محكمة لا تقبل معنيين، وهي في نفس الوقت صياغة واضحة الدلالة يفهمها الإنسان قلت ثقافته أم زادت، فالأمر بتوحيد الله وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله لا يحتمل إلا معنى واحداً، والأمر بالصلاة أو بالزكاة، أو بالصيام أو بالحج لمن استطاع إليه سبيلاً لا يحتمل معنيين أبداً. كذلك يبقى النص القرآني الكوني ثابتاً، ويتجدد فهم الناس له كلما اتسعت دائرة معارفهم ونمت حصيلتهم العلمية، وذلك بالقطع ـ فيما لم يرد في شرحه شيء من المأثور الموثق، وليس في ذلك مقابلة بين كلام الله وكلام الناس ـ كما يدعي البعض ـ ولكنه المحاولة الجادة لتدبر كلام الله وهو الذي أنزله للبشر لكي يفهموه

ويتعظوا بدروسه. وفهم كتاب الله على مستوى معارف العصر هو في نفس الوقت إدراك لجانب من جوانب الإعجاز في كتاب الله، لا ينكره إلا جاحد.

أما القول بأن ما يسمى بحقائق العلم ليست إلا نظريات وفروضاً، يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم فهو أيضاً قول ساذج، لأن هناك فروقاً واضحة بين الفروض والنظريات من جهة والحقائق والقواعد والقوانين من جهة أخرى، وهي مراحل متتابعة في منهج العلوم التجريبية الذي يبدأ بالفروض ثم النظريات وينتهي بالحقائق أو بالقواعد والقوانين. والفروض هي تفسيرات أولية للظواهر الكونية، والنظريات هي صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها، أما الحقائق الكونية فهي كل ما ثبت أو يثبت ثبوتاً قاطعاً في علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة، وهي جزء من الحكمة التي نحن أولى الناس بها. وكذلك القوانين العلمية فهي تعبيرات بشرية عن السنن الإلهية في الكون، تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهي كذلك جزء من الحكمة التي أُمرنا بأن نجعلها «**ضالة المؤمن**»[1]، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ.

لذا حرص كثير من علماء المسلمين على ألا يتم تفسير الإشارات العلمية، الواردة في القرآن الكريم إلا في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة أو القوانين والقواعد الثابتة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمها في ذلك. وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظاً مبالغاً فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية ولا يجدون حرجاً في ذلك في غيبة نص ثابت مأثور، فإننا لا نرى حرجاً على الإطلاق في فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة، وذلك لأن العلوم المكتسبة لم تصل بعد إلى الحقيقة القاطعة في كل أمر من أمور الكون، وأن من أمور الكون ما لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيه مرحلة التنظير من مثل قضايا الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، وهنا تكثر الفروض والنظريات، ويبقى للمسلم نور من الله الخالق في آية قرآنية صريحة، أو في حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة. ويبقى التفسير جهداً بشرياً خالصاً، بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص،

(1) الحديث بنصّه أخرجه الترمذي في كتاب: العلم (الحديث: 2687)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد (الحديث: 4169).

وعدم الكمال بسبب محدودية القدرة، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما. لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة الحقيقة، وقد لا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبداً، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبداً، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبي مسلماً بأنه لا يستطيع أن يتعدى تلك المرحلة في ذلك المجال بعينه أبداً، والأمثلة على ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لأصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد من النظريات، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أُخرى، أو تطوير لنظرية عن أُخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادعاء بالوصول إلى حقيقة ثابتة أو قانون قطعي، أو قاعدة راسخة لذلك، فهذه مجالات فوق طاقة القدرة الإنسانية لأنها لا تخضع للإدراك المباشر للإنسان، ولذلك فإن الإنسان إذا دخل إلى تلك القضايا الغيبية بغير هداية ربانية فإنه يضل فيها ضلالاً بعيداً، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ **(الكهف: 51).**

وذلك لأنه على الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، في عمليات قابلة للتكرار والإعادة، إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك أبداً مثل قضايا الخلق (خلق الكون، وخلق الحياة وخلق الإنسان) وهي قضايا لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبداً بغير هداية ربانية، ولولا الثبات في سنن الله التي تحكم الكون وما فيه ما تمكن الإنسان من اكتشاف تلك السنن... ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقاتهم، خاصة في فهم كتاب الله الذي أنزل إليهم، وَيُسّر لهم لقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ **(القمر: الآيات 17، 22، 32، 40)**

ففي الوقت الذي يقرر القرآن الكريم أن الله لم يُشهد أياً من الجن أو الإنس خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده في آيات أُخر يأمرهم بالنظر في كيفية بداية الخلق، وهي من أصعب قضايا العلوم الكونية قاطبة إذ يقول ﷻ:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: 19، 20)

والجمع بين هذه الآيات يشير إلى أن بالأرض سجلاً حافلاً بالحقائق التي يمكن أن يستدل منها على كيفية الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة، والأمر في الآية من الله تعالى إلى رسوله الكريم لِيَدْعُوَ الناس كافة إلى السير في الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهي قضية تقع من العلوم الكونية في الصميم، إن لم تكن تشكل أصعب قضية عالجها الإنسان. وهذه القضايا: قضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه لها في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ من الإشارات اللطيفة ما يمكن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات والمكتسبة والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

وعلى ذلك فإني أرى جواز فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولاً، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة، فإن لم تتوافر فبالفرض العلمي المنطقي المقبول، حتى لو أدى التطور العلمي في المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو ذلك الفرض أو تطويرهما أو تعديلهما لأن التفسير ـ كما سبق وأن أشرت ـ يبقى اجتهاداً بشرياً خالصاً من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيه المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد، قابلاً للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل، علماً بأن الخطأ في التفسير لا ينسحب على جلال القرآن الكريم بل ينسحب على المفسر.

(و) الرد على القائلين بعدم جواز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر:

إن في كون القرآن الكريم بياناً من الله ﷻ إلى الناس كافة، يفرض على المسلمين أن يفهموا كل ما جاء فيه متعلقاً بأصول الدين من العقيدة، والعبادة، والأخلاق والمعاملات؛ أما غير ذلك من القضايا التخصصية من مثل آيات الأنفس والآفاق فعلى المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموها ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ على ضوء ماتجمع له من معارف وذلك بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة، فالقرآن نزل للناس ليفهموه، وليتدبروا آياته. ثم إن تفسير آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم التجريبية لا يشكل احتجاجاً على القرآن بالمعارف المكتسبة، ولا انتصاراً له بها، لأن القرآن ـ بالقطع ـ فوق ذلك كله، ولأن التفسير على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم في إطار لم يكن متوفراً

للناس من قبل، ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله، سواء أصابت أم أخطأت تلك المحاولات، وإلا لما حفل القرآن الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التي تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر في مختلف جنبات الكون بمنهج علمي استقرائي دقيق. وذلك لأن الله تعالى قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد يمكّن حواس الإنسان المتأمل لها، المتفكر فيها، المتدبر لتفاصيلها من إدراك أسرارها (على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس)، ويعين عقله على فهمها(على الرغم من حدود قدرات ذلك العقل) وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التي يزخر بها القرآن الكريم. ويمن علينا ربنا ﷻ ـ وهو صاحب الفضل والمنة ـ بهذا التسخير الذي هو من أعظم نعمه علينا نحن معشر العباد.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل في الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع في الكون (صغر أم كبر)، وهي أدلة مدونة في صفحة السماء وفي صخور الأرض بصورة يمكن لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمي الاستقرائي الصحيح، فما من انفجار حدث في صفحة الكون إلا وهو مدون، وما من نجم توهج أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهي مسجلة في صخور القشرة الأرضية، وما من تغير في تركيب الغلاف الغازي أو المائي للأرض إلا وهو مدون في صخور الأرض، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولا تغير في المناخ إلا وهو مدون في صخور الأرض وفي بقايا الحياة المحفوظة في تلك الصخور، وما من هبوط نيازك أو أشعة كونية على الأرض إلا وهو مسجل كذلك في صخورها. ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل في الكون واستخلاص سنن الله فيه وتوظيف تلك السنن في عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هي دعوة للناس في كل زمان ومكان، وهي دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل انطلاقاً من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى ـ دوماً ـ مهيمناً عليها، ومحيطاً بها، لأنه كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته وحكمته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره وإفهامه للآخرين، وإثبات جوانب الإعجاز فيه لا تنتقص من جلال الربوبية الذي يتلألأ بين كلمات هذا البيان الرباني الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتاً على إيمانهم، وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين، وذلك لأن القرآن الكريم أنزل لنا لنفهمه، ونطبقه واقعاً في حياتنا، وندعو الآخرين إلى هدايته، وحتى لو أخطأ المفسر في فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعود على المفسر نفسه ولا ينسحب على جلال كلام الله أبداً، والذين فسروا

باللغة أصابوا وأخطأوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ، فليحاول العلماء التجريبيون المؤهلون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من مؤهلات التفسير ومن معارف تخصصية برعوا فيها. لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهما كاملاً، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها في حدود أطرها اللغوية وحدها، وعلى الذين يتعرضون لقضيتي التفسير العلمي للقرآن الكريم، والإعجاز العلمي لهذا الكتاب العزيز أن يلتزموا بالضوابط الموضوعة للتعامل مع هاتين القضيتين في كتاب الله، حتى لا يخرجوا عن المنهج الصحيح للتعامل معهم، فيضروا من حيث أرادوا أن ينفعوا.

(ز) الرد على المدعين بكفر الكتابات العلمية المعاصرة:

إن الاحتجاج بأن العلوم الكونية ـ في ظل الحضارة المادية المعاصرة ـ تنطلق في معظمها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بعملية الخلق ولا بالخالق ﷻ، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فمرده بعيد عن طبيعة العلوم الكونية، وإنما يرجع ذلك إلى العقائد الفاسدة التي أفرزتها الحضارة المادية المعاصرة، والتي تحاول فرضها على كل استنتاج علمي كلي، وعلى كل رؤية شاملة للكون والحياة، في وقت حققت فيه قفزات هائلة في مجال العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، بينما تخلف المسلمون في كل أمر من أمور الحياة بصفة عامة، وفي مجال العلوم والتقنية بصفة خاصة، مما أدى إلى انتقال القيادة الفكرية في هذه المجالات على وجه الخصوص إلى أمم سبق للعلماء فيها أن عانوا معاناة شديدة من تسلط الكنيسة عليهم، واضطهادها لهم، ورفضها للمنهج العلمي ولكل معطياته، ووقوفها حجر عثرة في وجه أي تقدم علمي، كما حدث في أوروبا في أوائل عصر النهضة. فانطلق العلماء الغربيون من منطلق العداوة للكنيسة أولاً ثم لقضية الإيمان بصفة عامة ثانياً، وداروا بالعلوم الكونية ومعطياتها في إطارها المادي فقط، وبرعوا في ذلك براعة ملحوظة، ولكنهم ضلوا السبيل وتنكبوه حينما حبسوا أنفسهم في إطار المادة، ولم يتمكنوا من إدراك ما فوقها، أو منعوا أنفسهم من التفكير فيه. فأصبحت الغالبية العظمى من العلوم والمعارف تكتب من مفهوم مادي صرف، وانتقلت عدوى ذلك إلى عالمنا المسلم أثناء مرحلة اللهث وراء اللحاق بالركب التي نعيشها، وما صاحب ذلك من مركبات الشعور بالنقص. أو نتيجة لدس الأعداء، وانبهار البلهاء بما حققته الحضارة المادية المعاصرة من انتصارات في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وما وصلت إليه من أسباب القوة والغلبة. وما حملته معها حركة الترجمة من

غث وسمين، فأصبحت العلوم تكتب اليوم في عالمنا المعاصر من نفس المنطلق لأنها عادة ما تدرس وتكتب وتنشر بلغات أجنبية على نفس النمط الذي أرست قواعده الحضارة المادية. وحتى ما ينشر منها باللغة العربية، وبغيرها من اللغات المحلية، لا يكاد يخرج في مجموعه عن كونه ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للفكر الغريب الوافد، بكل ما فيه من تعارض واضح أحياناً مع نصوص الدين. وهنا تقتضي الأمانة إثبات أن ذلك الموقف غريب على العلم وحقائقه، ومن هنا أيضاً كان من واجب المسلمين إعادة التأصيل الإسلامي للمعارف الإنسانية المكتسبة أي إعادة كتابة العلوم بل والمعارف كلها من منطلق إسلامي صحيح، خاصة وأن المعطيات الكلية للعلوم - بعد وصولها إلى قدر من التكامل في هذا العصر - أصبحت من أقوى الأدلة على وجود الله، وعلى تفرده بالألوهية، والربوبية والوحدانية ومن أنصع الشواهد على حقيقة الخلق، وحتمية البعث، وضرورة الحساب، وأن العلوم الكونية كانت ولا تزال النافذة الرئيسية التي ينظر منها الإنسان السوي إلى بديع صنع الله فيشهد وجوده ﷻ، ويدرك شيئاً من صفاته العليا. وهي أيضاً النافذة المباشرة التي تتصل منها الحضارة المعاصرة بالفطرة الربانية. وأن المنهج العلمي ونجاحه في الكشف عن عدد من حقائق هذا الكون متوقف على اتساق تلك الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبات، وهما اطراد وثبات لا يمكن أن يكونا إلا نتاج تدبير وتقدير من إله عليم خبير قدير...!!

(ح) الرد على الادعاء بالتعارض بين معطيات العلم والدين:

إن القول بأن عدداً من المعطيات الكلية للعلوم الكونية - كما تصاغ في الحضارة المادية المعاصرة - قد تتباين مع الأصول الإسلامية الثابتة هو قول - على إطلاقه - غير صحيح، لأنه إذا جاز ذلك في بعض الاستنتاجات الجزئية الخاطئة، أو في بعض الأوقات المعينة كما كان الحال في مطلع القرن العشرين، والمعرفة بالكون جزئية متناثرة، ساذجة بسيطة، أو في الجزء المتوسط منه عندما أدت المبالغة في التخصص إلى حصر العلماء في دوائر ضيقة للغاية حجبت عنهم الرؤية الكلية لمعطيات العلوم، فإنه لا يجوز اليوم ترديد هذا الادعاء الباطل وقد بلغت المعارف بأشياء هذا الكون حداً لم تبلغه البشرية من قبل، وقد أصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد ضرورة الإيمان بالخلق، وبالخالق البارىء المصور الذي ليس كمثله شيء، وعلى ضرورة التسليم بالغيب، وبالوحي، وبالبعث، وبالحساب، فمن المعطيات الكلية للعلوم الكونية المعاصرة ما يمكن إيجازه فيما يلي:

- (1) أن هذا الكون الذي نحيا فيه متناه في أبعاده مذهل في دقة بنائه، مذهل في

إحكام ترابطه وانتظام حركاته.

• (2) أن هذا الكون مبني على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته.

• (3) أن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها.

• (4) أن هذا الكون ـ على قدمه ـ مستحدث مخلوق، كانت له في الماضي السحيق بداية حاول العلم التجريبي معرفتها، ووصل فيها إلى دلالات تكاد تكون ثابتة ـ لو استبعدنا الأخطاء التجريبية.

• (5) أن هذا الكون العارض المستحدث الذي كانت له بداية، لا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية؛ ونهاية كوننا تشير إليها كل الظواهر من حولنا.

• (6) أن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته.

• (7) أن هذا الكون المتناهي الأبعاد، الدائم الاتساع، المحكم البناء، الدقيق الحركة والنظام الذي يدور كل ما فيه في مدارات محددة وبسرعات مذهلة متفاوتة وثابتة لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة.

• (8) هذه المعطيات تفضي إلى حقيقة منطقية واحدة مؤداها أنه إذا كان هذا الكون الحادث لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك من صفات الكمال والتنزيه ما لا يتوافر لشيء من خلقه بل ما يغاير صفات المخلوقات جميعاً، فلا تحده حدود المكان ولا الزمان، ولا قوالب المادة أو الطاقة، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا ينسحب عليه ما يحكم خلقه من سنن وقوانين، لأنه سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ **(الشّورى: 11)**

• (9) هذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إزالته وإفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ **(الأنبياء: 104)**

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ **(النّحل: 40).**

• (10) أن الوحدة في هذا الكون تشير إلى وحدانية هذا الخالق العظيم: وحدة بناء كل من الذرة والخلية الحية والمجموعة الشمسية والمجرة وغيرها، ووحدة تأصل العناصر كلها وردّها إلى أبسطها وهو غاز الأيدروجين، ووحدة تواصل كل صور الطاقة، وتواصل

المادة والطاقة، وتواصل المخلوقات، هذا التواصل وتلك الوحدة التي يميزها التنوع في أزواج، وتلك الزوجية التي تنتظم كل صور المخلوقات من الأحياء والجمادات تشهد بتفرد الخالق البارئ المصور بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، كما تشهد بكبرياء واستعلاء هذا الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فوق خلقه بمقام الألوهية والربوبية الذي لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه على سلطانه منازع، ولا يشبهه من خلقه شيء.

(11) • أن العلوم التجريبية في تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أن بالكون غيباً قد لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء، لأن أكبر الاكتشافات العلمية قد نمت نتيجة للبحث الدؤوب عن هذا الغيب.

(12) • تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سراً لا نعرف كنهه، لأننا نعلم مكونات الخلية الحية، والتركيب المادي لجسد الإنسان، ومع ذلك لم يستطع هذا العلم أن يصنع لنا خلية حية واحدة.

(13) • أن النظر في أي من زوايا هذا الكون ليؤكد حاجته ـ بمن فيه وما فيه ـ إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده، وذلك لأن الكون مليء بالمخاطر، والأرض محاطة بها من كل جانب.

(14) • أن العلوم الكونية إذ تقدر أن الكون والإنسان في شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها ـ وعلى غير قصد منها ـ لتؤكد حقيقة الآخرة، بل وعلى حتميتها، والموت يتراءى في مختلف جنبات هذا الكون في كل لحظة من لحظات وجوده، شاملاً الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هيئاتها، وتكفي في ذلك الإشارة إلى ما أثبتته المشاهدة من أن الشمس تفقد من كتلتها بالإشعاع على هيئة طاقة ما يقدر بحوالي 4,6 مليون طن في كل ثانية، وأنها إذ تستمر في ذلك فلا بد من أن يأتي الوقت الذي تخبو فيه جذوتها، وينطفىء أوارها، وتنتهي الحياة على الأرض قبل ذلك، لاعتماد كافة أنشطتها الفيزيائية والكيميائية والحيوية على أشعة الشمس. كذلك فإن الطاقة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة بطريقة مستمرة في محاولة لتساوي درجات حرارة الأجرام المختلفة في الكون، ولا بد أن تنتهي قبل ذلك كل صور الحياة المعروفة لنا. وليس معنى ذلك أنه يمكن للإنسان معرفة متى تكون نهاية الوجود، لأن الآخرة قرار إلهي لا يرتبط بسنن الدنيا، وإن أبقى الله تعالى لنا في الدنيا من الظواهر والسنن ما يؤكد إمكانية وقوع الآخرة، بل حتميتها انصياعاً للأمر الإلهي بـ «كن» فيكون.

ومن الشواهد على الفناء أن الإنسان الذي يحوي جسده في المتوسط ألف مليون مليون خلية يفقد منها في كل ثانية ما يقدر بحوالي 125 مليون خلية تموت ويتخلق غيرها بحيث تتبدل جميع خلايا جسد الفرد من بني البشر مرة كل عشر سنوات تقريباً، فيما عدا الخلايا العصبية التي إذا ماتت لا تتجدد. وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن انتقال الإلكترون من مدار إلى آخر حول نواة الذرة يتم بسرعة مذهلة دفعت بعدد من العلماء إلى الاعتقاد بأنه فناء في مدار وخلق جديد في مدار آخر، كما تكفي الإشارة إلى ظاهرة اتساع الكون عن طريق تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة تقترب من سرعة الضوء (أي حوالي ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية) وتخلق المادة في المسافات البينية الجديدة الناتجة عن هذا التباعد المستمر بطريقة لايعلمها إلا الله. وتباطؤ هذا التباعد مع الزمن يشير إلى حتمية تغلب الجاذبية في وقت ما (لا يعلمه إلا الله) على عملية الدفع إلى الخارج مما يؤدي إلى إعادة جمع كل المكان والزمان، وكل مادة الكون، ومختلف صور الطاقة فيه في جرم واحد ذي كثافة بالغة تؤدي إلى انفجاره على هيئة شبيهة بالانفجار الأول الذي تم به خلق الكون، فيتحول هذا الجرم إلى غلالة من دخان كما تحول الجرم الأول، وتتخلق من هذا الدخان أرض غير الأرض، وسمٰوات غير السمٰوات كما وعد ربنا ﷻ بقوله ﷻ:

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ **(الأنبياء: 104)**

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ **(إبراهيم: 48)**.

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن الذرات في جميع الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية تترتب ترتيباً يسارياً في أجساد جميع الكائنات الحية على اختلاف مراتبها، فإذا ما مات الكائن الحي أعادت تلك الذرات ترتيب نفسها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة محددة يمكن باستخدامها تحديد لحظة وفاة الكائن الحي إذا بقيت من جسده بقية بعد مماته. ويتعجب العلماء من القدرة التي مكنت الذرات من تلك الحركات المنضبطة بعد وفاة صاحبها وتحلل جسده!!

فهل يمكن لعاقل بعد هذا الاستعراض السريع أن يتصور أن العلوم الكونية ومعطياتها ـ في أزهى عصور ازدهارها ـ تتصادم مع قضية الإيمان بالله؟ وهذه هي معطياتها الكلية، وهي في جملتها تكاد تتطابق مع تعاليم السماء، وفي ذلك كتب المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي رحمه الله في خاتمة كتابه «المستقبل للإسلام» ما نصه:

«إن كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي، هي تقرب إلى ديننا الفطري، حتى ينتهي الأمر إلى الإقرار الإجماعي بأنه الدين الحق».

ثم يضيف: «نعم إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد وإمعانه في النقد والتمحيص، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام، بخطوات متزنة ثابتة، لاتوجد قوة في الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية».

وقد بدأت بوادر هذا التحول الفكري تظهر جلية اليوم، وفي مختلف جنبات الأرض، بإقبال أعداد كبيرة من العلماء والمتخصصين وكبار المثقفين والمفكرين على الإسلام، إقبالاً لم تعرف له الإنسانية مثيلاً من قبل، وأعداد هؤلاء العلماء الذين توصلوا إلى الإيمان بالله عن طريق النظر المباشر في الكون، واستدلوا على صدق خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بالوقوف على عدد من الإشارات العلمية البارقة الصادقة في كتاب الله، هم في تزايد مستمر، وهذا واحد منهم: «**موريس بوكاي**» الطبيب والباحث الفرنسي يسجل في كتابه «الإنجيل والقرآن والعلم» مانصه:..

«لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير ـ إلى هذا الحد ـ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص دوِّن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً».

وعلى ذلك فإن فهم الإشارات الكونية في كتاب الله، على ضوء ما تجمع للبشرية اليوم من معارف، وتقديمها للعالم كواحد من الأدلة العديدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي حفظ بحفظ الله، بنفس اللغة التي أوحي بها (اللغة العربية)، بدقائق حروفه، وكلماته، وآياته، وسوره، يعتبر فتحاً جديداً للإسلام، وإنقاذاً للبشرية من الهاوية التي تتردى فيها اليوم بسبب تقدمها العلمي والتقني المذهل، وتضاؤل روح الإيمان بالله، وانعدام الخشية من عذابه في نفوس القطاع الأكبر من الناس، خاصة في أكثر المجتمعات البشرية المعاصرة أخذاً بأسباب التقدم العلمي والتقني. فأغلب المجتمعات البشرية في الدول غير المسلمة تعاني اليوم من انفراط عقد الأسرة، وإباحية العلاقات الجنسية بدون أدنى رباط، فكثر حمل المراهقات، وأبناء الزنا، والأسر ذات العائل الواحد، وتفشت الأمراض والأوباء والعلل مما لم يكن معروفاً من قبل، وقننت الحكومات ـ للأسف الشديد ـ

التشريعات التي تبيح العلاقات الشاذة، وتسمح لهم بالتوارث، وتصرح بتبني الأطفال وتنشئتهم في وسط الشواذ، وهي عمليات مدمرة للفطرة الإنسانية، كثرت بأسبابها الأزمات النفسية وأمراضها، وتضاعفت معدلات كلٍّ من الإدمان والجريمة والانتحار، وملئت أكثر المجتمعات البشرية ثراء وتطوراً مادياً بأخطر مشاكل المجتمعات الإنسانية تعقيداً على الإطلاق...!!!

ومن هؤلاء الذين لايعرفون لهم أباً، والذين خرجوا إلى الحياة بطرق غير مشروعة، ونشؤوا في بيئات فاسدة، وبين سلوكيات منحطة وضيعة، من يمكن أن يصل إلى مقام السلطة في دول تملك من تقنيات ووسائل الغلبة المادية، من مختلف أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يعينه على البطش بالخلق، وإفشاء الظلم، وتدمير الحياة على سطح الأرض، وإفساد بيئاتها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها...!!! ولا يجد من دين، أو خلق، أو منطق، أو أسرة، أو مجتمع أي رادع يمكن أن يرده عن ذلك. . .!!! والذي جرى ولا يزال يجري على أراضي كل من فلسطين والعراق، وأفغانستان والبلقان، والهند وسيلان وجنوب كل من الفلبين والسودان ليس ببعيد عن ذلك الفساد في الأرض.

وأغلب وسائل الإعلام في العالم قد وقعت اليوم في أيدي اليهود، في مؤامرة خسيسة على الإنسانية ـ واليهود هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا بصفة خاصة، وللإنسان غير اليهودي بصفة عامة ـ فوظفوا كافة تلك الوسائل الإعلامية في تدمير البقية الباقية من عقائد وأخلاقيات وسلوكيات المجتمعات الإنسانية، وفي تشويه صورة الإسلام في أذهان الناس، في محاولات يائسة للصد عنه، وذلك لأن مما يسوؤهم أن يروا الإسلام ينتشر في مجتمعاتهم في الوقت الذي يتصورون فيه أنهم قد أحاطوا بالإسلام والمسلمين إحاطة كاملة، وأحكموا قبضتهم عليهم. . .!!

واليوم يقبل على الإسلام في الغرب والشرق قمم الفكر والعلم والرأي، لأنهم يرون فيه المخرج الوحيد من الوحل النتن الذي غاصت فيه مجتمعاتهم، والذي يغوصون فيه إلى أذقانهم في غالبيتهم الساحقة.

ووسيلتنا في تحسين صورة الإسلام في العالم هي حسن الدعوة إليه بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي. وخير ما نقدمه في ذلك المضمار مما يتناسب مع طبيعة العصر ولغته هو **الإعجاز العلمي للقرآن الكريم**، لأننا نعيش في زمن أدار غالبية الناس ظهورهم للدين، ولم تعد قضايا الغيب المطلق من بعث بعد الموت، وعرض أكبر أمام الله الخالق، وخلود في حياة قادمة: إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً، وغيرها من قضايا

الدين لم تعد هذه الحقائق الغيبية تحرك فيهم ساكناً، ولكنهم في نفس الوقت قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، فإذا أشرنا إلى سبق للقرآن الكريم بعدد من حقائق الكون قبل أن يصل الإنسان إلى شيء منها بعشرات المئات من السنين، وهو الكتاب الذي أنزل على نبي أميّ ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، فإن ذلك سوف يحرك عقولهم وقلوبهم، وسوف يحضهم على قراءة كتاب الله الذي ما اطلع عليه عاقل إلا وشهد أنه لا يمكن أن يكون إلا كلام الله الخالق ﷻ، وفي ذلك تحييد لحجم الكراهية الشديدة التي غرستها وسائل الإعلام الصهيونية والصليبية واللادينية للإسلام والمسلمين في قلوب الملايين، ودعوة مستنيرة إلى دين الله الخاتم ما أحوجنا إليها في زمن التحدي بالعولمة الذي نعيشه، والذي يتهدد كافة شعوب الأرض بالذوبان في بوتقة الحضارة المادية الجارفة...!!!

ولا يمكن أن يصدنا عن ذلك دعوى أن عدداً من المفسرين السابقين الذين تعرضوا لتأويل بعض الآيات الكونية في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل تلك الآيات من المعاني ما لا تحتمله، وذلك بسبب نقص في وفرة المعلومات العلمية أو جهل بها.

وكما سبق وأن أوضحنا بأن التفسير لآي القرآن الكريم هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة تلك الآيات إن أصاب فيها المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والمعول في ذلك النية، وأن الخطأ في التفسير لا ينال من جلال القرآن الكريم، ولكنه ينعكس على المفسر، خاصة وأنّ الذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالتاريخ أصابوا وأخطأوا ـ ولم ينل ذلك من قدسية القرآن الكريم ومكانته في قلوب وعقول المؤمنين شيئاً. أما اليوم وقد توافر للإنسان من المعرفة بحقائق الكون وسننه ما لم يتوفر لجيل من البشر من قبل، فإن توظيف ذلك الكم من المعلومات من أجل حسن فهم دلالة الآيات الكونية في القرآن الكريم، وإثبات سبقها التاريخي لكافة المعارف البشرية يعتبر ضرورة إسلامية لتثبيت إيمان المؤمنين، ولدعوة الضالين من الكفار والمشركين، لأن ربنا ﷻ سوف يسألنا عن تبليغهم بهذا الدين، ودعوتهم إليه بالأسلوب الذي يفهمون، وبالحكمة والموعظة الحسنة.

والأخطاء التي وقع فيها عدد محدود جداً من المفسرين الذين تعرضوا للآيات الكونية في كتاب الله، وتكلف بعضهم في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحمله ـ في تعسف واضح ـ يحملونه هم، ولا تتحمله آيات الكتاب المبين، لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً منسوباً لصاحبه، وموسوماً بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال. وإذا كان عدد محدود جداً من المفسرين قد جاوز الصواب في تأويله، فإن أعداداً أوفر قد وفقت في ذلك أيّما توفيق.

ولم تكن أخطاء بعض المفسرين محصورة في محاولات تأويل الإشارات الكونية فقط، فهنالك أعداد من كتب التفسير التي نفذت إليها بعض تمتلىء «الإسرائيليات» الموضوعة، والعصبيات المذهبية الضيقة، وغير ذلك مما لا يقبله العقل القويم، ولا الصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه المكرمين والتابعين، ولا يرتضيه المنطق اللغوي السليم. فالمعتزلة على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ قد حاولوا في تفاسيرهم إخضاع الآيات لمبادئهم (في العدل والتوحيد وحرية الإرادة والوعد والوعيد وإنكار الرؤية وغيرها)، وتعسفوا في ذلك أيما تعسف. وبعض الفرق الإسلامية تُحمِّل الآيات القرآنية تأويلاً لا يحتمله ظاهر الآيات. ولا السياق القرآني، ولا القرائن المنطقية. وكذلك بعض المتصوفة والإشاريين، فهم ـ على الرغم من تسليمهم بالمأثور من التفسير، وقبولهم للمعنى الذي يدل عليه اللفظ العربي القويم ـ يسمحون لأنفسهم باستنباط معان للآيات تخطر في أذهانهم عند التلاوة وإن لم تدل عليها الآيات القرآنية الكريمة بطريق من طرق الدلالات المعروفة في الاستعمال العربي للغة وطرائق التعبير فيها. كذلك فإن عدداً من أتباع الفرق الباطنية وإفرازاتها القديمة والحديثة قد ملأوا تفاسيرهم بالتعسف والافتعال، ومحاولات تطويع القرآن لمبادئهم في تكلف ملحوظ.

فهل معنى ذلك أن يتوقف علم التفسير عند حدود جهود السابقين من المفسرين؟ وهل معنى ذلك أن يتوقف فهم الناس لكتاب الله الذي أنزل إليهم ليتدبروا آياته، ويعيشوا في معانيه، ويتخذوا منها دستوراً كاملاً لحياتهم عند جهود قدامى المفسرين ـ على فضلهم ـ وفضل ما قدموه لخدمة فهم القرآن الكريم في حدود المعرفة المتاحة في أزمنتهم؟ بالقطع لا، على الرغم من التسليم بأن هذه الأخطاء كانت من وراء الدعوة إلى الوقوف بالتفسير عند حدود جهود الأولين، مع تسليمنا بأن كتب التفسير تحوي تراثاً فكرياً وتاريخياً لهذه الأمة لا يمكن التضحية به، حتى ولو كانت به بعض الأخطاء أو التجاوزات، إلا إذا كان القصد الواضح هو التحريف الدس على دين الله، وهو أمر لا يصعب على عاقل إدراكه.

من كل ما سبق يتضح لنا أن حجج المضيقين في رفض تفسير الإشارات الكونية في كتاب الله على ضوء ما تجمع اليوم لدى الإنسان من معارف بالكون وعلومه هي كلها حجج مردودة، فالكون صنعة الله، والقرآن هو كلام خالق الكون وواضع نواميسه، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله الخالق مع الحقائق التي قد أودعها في خلقه، إذا اتبع الناظر في كليهما المنهج السليم، والمسلك الموضوعي الأمين. فمن صفات الآيات الكونية في كتاب الله أنها صيغت صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني في كل آية من تلك الآيات

الدالة على شيء من أشياء الكون أو ظواهره أو نشأته أو إفنائه وإعادة خلقه، وتظل تلك المعاني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندي من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله، ومن هنا كانت ضرورة استمرارية النظر في تفسير تلك الآيات الكونية، وضرورة مراجعة تراجمها إلى اللغات الأخرى بطريقة دورية. أما آيات العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة يفهم دلالتها كل مستمع إليها مهما قلت ثقافته، لأن تلك الآيات تمثل ركائز الدين الذي هو صلب رسالة القرآن الكريم.

أما الآيات المتعلقة بالله، وبالروح، وبالملائكة، والجن، وبالآخرة، وبغير ذلك من الأمور الغيبية غيبة مطلقة، فلا يملك المسلم حيالها إلا الإيمان بها، والتسليم في فهمها لنص القرآن الكريم أو للمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، لأن الإنسان لا يمكن له أن يصل إلى عالم الغيب المطلق إلا ببيان من الله الخالق، وذلك لأن قدرات عقل الإنسان المحدودة، وحواسه المحدودة لايمكن لهما اجتياز حدود عوالم الغيوب المطلقة مهما أوتي الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة، ومن هنا كان امتداح القرآن الكريم للذين يؤمنون بالغيب...!!

ثانياً: موقف الموسعين في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

يرى أصحاب هذا الموقف أن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد قصدت لذاتها أي لدلالاتها العلمية المحددة، مع التسليم بوجوب استخلاص الحكمة والعبرة منها، والوصول إلى الهداية عن طريقها، وانطلاقاً من ذلك فقد قام أصحاب هذا الموقف بتبويب الآيات الكونية في كتاب الله، وتصنيفها حسب مختلف التصانيف المعروفة في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، ثم اندفعوا في حماسهم لهذا الاتجاه إلى المناداة بأن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف. ولحسن فهم تلك الإشارات الكونية في كتاب الله لا بد من تفسيرها على ضوء اصطلاحات تلك العلوم والمعارف، ثم زاد البعض بمحاولة إثبات أن جميع حقائق العلوم البحتة والتطبيقية التي استخلصها الإنسان بالنظر في جنبات هذا الكون هي موجودة في القرآن الكريم استناداً إلى قوله ﷻ:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ **(الأنعَام: 38).**

وقوله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ **(النّحل: 89).**

وهذا في رأينا موقف مبالغ فيه لأن السياق القرآني في الآيتين السابقتين لا يتمشى مع

ما وصلوا إليه من استنتاج، لأن هاتين الآيتين الكريمتين تشيران إلى رسالة القرآن الأساسية وهي الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وهي القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة. وهي التي استوفاها القرآن استيفاء لايقبل إضافة. أما قصص الأمم السابقة، والإشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، فقد جاء القرآن الكريم بنماذج منها تشهد للّه الخالق (سبحانه وتعالى) بالربوبية والألوهية والوحدانية، وبطلاقة القدرة على الخلق وإفنائه وإعادته من جديد. وربما كان هذا الموقف للموسعين من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى تحفظ المتحفظين من الخوض في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، أو التعرض لإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها.

ثالثاً: موقف المعتدلين في قضيتي التفسير والإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

يرى أصحاب هذا الموقف أنه مع التسليم بأن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، أساسها الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والأمر بالعبادات المفروضة، والحث على الالتزام بمكارم الأخلاق، وعلى التعامل بالعدل، أي أنه دستور كامل شامل للحياة، في طاعة خالق الكون والحياة. ومع التسليم كذلك بأن الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله هي مجرد نماذج من بديع خلق الله جاءت في معرض التذكير بألوهيته وربوبيته ووحدانيته، وبقدرته المطلقة، وببديع صنعه في خلقه، وشمول علمه، وكمال صفاته وأفعاله، إلا أنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، فلا بد وأن تكون حقاً مطلقاً فمن أعلم بالكون من خالقه؟

• من هنا كانت تلك الإشارات الكونية حقائق قاطعة، سابقة لعلم الإنسان بها بعشرات من القرون، وكانت منسجمة مع قوانين الله وسننه في الكون، وثابتة في دلالاتها ـ ومحتوية للمعرفة الإنسانية ـ مهما ـ اتسعت دوائرها ـ فلا تعارض ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله العظيم القائل:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النِّساء: 82).

• ومن هنا أيضاً كان من الواجبات الملحة على علماء المسلمين اليوم هي مدارسة تلك الآيات الكونية كل في حقل تخصصه ـ مستفيدين بكل أنواع المعارف المتاحة في

تفسيرها وإظهار جوانب الإعجاز فيها، وتوظيف ذلك في الدعوة إلى دين الله الخاتم بالكلمة الطيبة بالحجة الواضحة والمنطق السوي، تأكيداً لإيمان المؤمنين، ودحضاً لافتراءات المفترين، وتثبيتاً للحقيقة الراسخة أن القرآن الكريم هو كلام الله العزيز الرحمٰن الرحيم.

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ المباشر بالحقيقة العلمية، لأن الحكمة الإلٰهية قد تركت الكسب العلمي مجالاً مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين، يتنافس فيه المتنافسون، ويتبارى المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها. فلو أن الإرادة الإلٰهية قد ارتضت بسط الكون بكل حقائقه كاملة أمام الإنسان، لانتفت الغاية من الحياة الدنيا، وهي دار ابتلاء واختبار، ولاختفى ذلك الغيب الذي يشد الإنسان إليه، ويشحذ جميع حواسه، وكل قواه العقلية والفكرية، ولتبلدت تلك الحواس والقدرات، ولمضت حياة الإنسان على الأرض رتيبة كئيبة بائسة، جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، بغير تجديد أو تنويع أو إبداع، وسط عالم يتميز بالتغير في كل أمر من أموره، وفي كل لحظة من لحظات وجوده. هذا فضلاً عن أن العقل البشري عاجز عن تقبل الحقائق الكونية الكلية دفعة واحدة، وأنه يحتاج في فهمها إلى شيء من التدرج في الكشف، وفي استخراج الأدلة، وفي إثباتها وتكامل معطياتها على مدى أجيال متعاقبة.

- ويستدل أصحاب هذا الموقف بالحشد الهائل من الإشارات الكونية في كتاب الله، وبمطالبة القرآن الكريم للإنسان دوماً بتحصيل المعرفة النافعة على إطلاقها، وهذه أولى آيات القرآن العظيم تأمر بذلك وتحدد وسائله، وتحض على التأمل في الخلق، بل وتشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا بعد ذلك بقرون طويلة ألا وهي: ...﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ **(العَلق: 2)**، وهي حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد اكتشاف المجاهر المكبرة، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. **(العلق: 1 ـ 5)**

- ويستدل أصحاب هذا الموقف المعتدل على ذلك أيضاً بما يقرره القرآن الكريم من مسؤولية الإنسان عن حواسه وعقله، وما يفرضه من حسن استخداماتها في التعرف على الكون، واكتساب المعارف النافعة منه، وتوظيفها في حسن فهم كتاب الله، حيث يقرر الحق ﷻ ذلك كله بقوله في محكم كتابه:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ **(الإسراء: 36).**

- كما يستدلون برفض القرآن الكريم للتقليد والجمود على الآراء الموروثة الخاطئة،

والحكم بالظن والهوى، وبمطالبته الإنسان دوماً بتأسيس الأحكام على الدليل العقلي الذي لا يقبل النقض، وهذه كلها من أخص خصائص المنهج التجريبي في دراسة الكون وما فيه، كذلك يستشهدون بتكريم القرآن الكريم للعلم والعلماء ـ بمن فيهم من علماء الكونيات ـ في العديد من آي الذكر الحكيم نختار منها قول الحق ﷻ:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . . .﴾ (الزُّمر: 9).

وقوله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

(المجَادلة: 11)

وقوله ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عِمرَان: 18).

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فَاطِر: 28).

والآية الأخيرة قد وردت بعد استعراض لكثير من المشاهد الكونية، مما يؤكد أن الآية تشمل علماء الكونيات، إن لم يكونوا هم المقصودين بها مباشرة، فالآية تنطق:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

(فَاطِر: 27، 28).

● كذلك يستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل بمطالبة القرآن الكريم للإنسان ـ في تشديد واضح ـ بالنظر في كل ما خلق الله، وهذه أوامره صريحة جلية نختار منها قول الحق ﷻ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. (يونس: 101)

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.

(الأعراف: 185)

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾.

(العَنكبوت: 20)

وقوله (تبارك اسمه): ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

(الذاريات: 20، 21)

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 17 ـ 20).

● وينتصر أصحاب هذا الموقف المعتدل لموقفهم كذلك بما ينعاه القرآن الكريم على

الغافلين عن التفكير في آيات السموات والأرض، وذلك في كثير من آياته التي منها قول الحق ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: 105).

ووصفه لهؤلاء الغافلين بأنهم كالأنعام بل هم أضل، وتقديره بأن جزاءهم جهنم عقاباً لهم على إهمالهم نعم الله التي أنعم بها عليهم، وذلك في مثل قول الله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف: 179).

• ويستشهد أصحاب الموقف المعتدل على ضرورة توظيف المعارف العلمية المتاحة لفهم دلالة الآيات الكونية في كتاب الله بربط القرآن دوماً بين الإيمان بالله والنظر فيما خلق الله، من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. (البقرة: 164)

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. (آل عمران: 190، 191)

وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: 75).

وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: 57).

• ويستشهد المنادون بضرورة توظيف المعارف العلمية باعتدال في تفسير الآيات الكونية في كتاب الله بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ـ في استعراضه لأمور الكون ـ يتناول كليات الأشياء، تاركاً التفاصيل لاجتهاد الإنسان، ولكنه في نفس الوقت ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة في أشياء الكون مثل الكم والكيف وهما من أسس العلوم التجريبية، الكم الذي يتعلق بالحجم والكتلة وبالزمان والمكان، وبدرجات النمو والاندثار، وغيرها، يتمثل في كثير من الآيات القرآنية التي نختار منها قول الحق ﷻ:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: 8).

وقوله ﷻ: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: 3).

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القَمر: 49).

وقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفُرقان: 2).

وقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (المؤمنون: 18).

• وبخصوص الكيف بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ومسبباتها، ومجرى الظواهر الكونية وحدوثها والسنن الإلهية وجريانها، فإن القرآن يشدد التنبيه عليها في مواضع كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ (الروم: 50).

وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (الفرقان: 45، 46).

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق: 6).

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 17 ـ 20).

• ويستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل كذلك على ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية بتأكيد القرآن الكريم على أن لكل شيء في هذا الكون فطرته السوية التي فطره الله عليها، والتي تخصه وتميزه، وهي قاعدة أساسية من قواعد المنهج العلمي التجريبي في الكشف عن حقائق هذا الكون ومكوناته وسنن الله فيه، ونقرأ في ذلك قول الحق ﷻ:

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: 50).

وقوله ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: 2 ـ 3).

• وأن هذه الفطرة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل لقول الحق ﷻ:

﴿... لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الرُّوم: 30).

• وأن الفطرة التي فطر الله الخلق عليها خاضعة لقوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف إلا بإذن الله، وأنه لولا ثبات تلك الفطرة واطراد القوانين التي تحكمها ما تمكن الإنسان من اكتشاف أي أمر من أمور هذا الكون، وأن القرآن يصر على تسمية تلك القوانين بالحق،

ويصر على أن الكون ومافيه خلق بالحق، ويطالب الإنسان بالتعرف على ذلك الحق والتزامه، فالتنزيل ينطق بقول الله ﷻ:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الأحقاف: 3).

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ (الروم: 8).

وقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ (الزمر: 5).

وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

(يُونس: 5).

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: 38 ـ 39).

● كذلك فإن الذين يرون ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، وفي الاستشهاد على الإعجاز العلمي لتلك الآيات ينتصرون لذلك بأن أكثر من أربعين سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها 114 سورة تحمل أسماء لبعض أشياء الكون وظواهره، ويستشهدون بعرض القرآن للعديد من القضايا التي هي في صميم العلوم الكونية من مثل خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واتساع الكون، وبدء خلق السماء بدخان، وخلق الحياة من الماء وفي الماء، واستعراض مراحل الجنين في الإنسان ووصفها بدقة بالغة وغير ذلك كثير مما لا يوفيه في هذا المقام حصر، ولكن تكفي الإشارة إلى آيات قليلة منها من مثل قول الحق ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

(الأنبياء: 30).

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فُصّلت: 11).

وآيات الكتاب الحكيم في كل ما عرضت له من أمور الكون تتميز بمنتهى الدقة في التعبير، والشمول في المعنى، والإحاطة في الدلالة، وبالسبق الإخباري بحقائق لم يتيسر للإنسان الإلمام بها إلا في القرن العشرين أو في العقود المتأخرة منه. وهذا بالقطع يشكل

صورة من صور الإعجاز لم تتوافر لجيل من الأجيال من قبل.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التي تشير إلى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، وإلى صور من نشأتها، ومراحل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها، وقد أحصى الدارسون من مثل هذه الآيات حوالي الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أُخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، مما يبلغ بالآيات الكونية إلى سدس آيات القرآن الكريم تقريباً.

ويقف المفسرون من هذه الآيات الكونية في كتاب الله مواقف متعددة، فمنهم المضيقون والموسعون والمعتدلون، **فالمضيقون** يرون أن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله تعالى، وإبداعه في خلقه، وقدرته على إفناء الخلق وإعادته من جديد، ومن ثم فلا يجوز تفسيرها في ضوء من معطيات العلوم الحديثة، وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس.

أما **الموسعون** فيرون أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولا بد لحسن فهم ذلك من تفسيره على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من رصيد علمي خاصة في مجال العلوم الكونية، ومن ثمّ فقد قاموا بتبويب آيات الكونيات في كتاب الله وتصنيفها حسب التصانيف المعروفة في مختلف مجالات تلك العلوم، و تميز ذلك بشيء من التكلف الذي أدى إلى رفض المنهج والوقوف في وجهه.

وأما **المعتدلون** فيرون أنه مع التسليم بأن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد وردت في معرض التذكير بقدرة الله، وبديع صنعه، فإنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي كلها حق مطلق. ولا غرابة إذن من انسجامها مع قوانين الله وسننه في الكون، ومع معطيات العلوم الثابتة عن حقائق هذا الكون، كذلك فإنهم يرون أنه مع التسليم بأن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية، لأن الحكمة الإلهية قد اقتضت ترك ذلك لاجتهاد الإنسان على مر الزمن، إلا أنها تتميز بالدقة المتناهية في التعبير، والثبات في الدلالة، والشمول في المعنى بحيث يدرك فيها علماء كل جيل ما يتناسب ومستوياتهم الفكرية، وما وصلوا إليه من علوم عن الكون وما فيه، ثم إن تلك الدلالات تتميز كلها بالسبق إلى الحقيقة الكونية قبل أن تدرك الكشوف العلمية شيئاً منها بقرون طويلة. وهذا في حد ذاته يمثل الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي هو أحد أوجه الإعجاز العديدة في كتاب الله، ولكنه يبقى من أنسبها لعصر التقدم العلمي والتقني الذي

نعيشه في تثبيت إيمان المؤمنين، ودعوة الجاحدين من مختلف صور المشركين والكافرين والضالين، في زمن تحول العالم إلى قرية كبيرة، ما يحدث في أحد أركانها يتردد صداه في بقية أرجائها، ولا يأمن أهل الحق أن يصيبهم ما أصاب الأمم الضالة من عقاب، أو أن يجرفهم تيار الحضارة المادية فيذيبهم في بوتقتها فيخسرون بذلك الدنيا والآخرة. وطوق النجاة في الحالتين يتمثل في الاعتزاز بالإسلام العظيم، والتمسك بالقرآن الكريم الذي بدأ إعجازه العلمي يتجلى يوماً بعد يوم في عصر العلم الذي نعيشه، ليقيم الحجة على أهل هذا العصر بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ؛ وأن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قِبَلِ خالق السمٰوات والأرض؛ وأنه ﷺ قد ختمت ببعثته النبوات، واكتملت الرسالات التي أنزلها الله ﷻ على فترة من الرسل، والتي بعث بها نفراً غفيراً من أنبياء الله، ولما كانت تلك هي الرسالة الخاتمة فقد تعهد ربنا ﷻ بحفظها فحفظت بنفس لغة وحيها (اللغة العربية): حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة بنفس الترتيب الموجود في بلايين النسخ من المصاحف، وآلات التسجيل الأخرى، وفي بلايين القلوب المؤمنة التي حفظته متواتراً عبر أربعة عشر قرناً أو يزيد، وسوف يظل القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية فقال (عز من قائل):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾. (الحجر: 9).

ولذلك بقي القرآن الكريم محتفظاً بصدقه الرباني، وإشراقاته النورانية في كل أمر من أموره، وهذا هو مناط إعجازه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1).

الباب الثالث

الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

تعريف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

(الإعجاز) لفظة مشتقة من إثبات (العَجْز) وهو الضعف وعدم القدرة؛ يقال: (عَجَزَ) عن كذا أي لم يقدر عليه، فهو (عاجز) عن الإتيان به؛ وجمعه (عواجز)؛ يقال: (عَجَزَ) (عَجْزاً) و(عُجُوزاً)، و(عَجَزَاناً) و(مَعْجَزاً) بفتح الجيم وكسرها، و(مَعْجَزَةً) أيضاً بفتح الجيم وكسرها؛ ولذا يقال رجل (عَجُزٌ) بضم الجيم وكسرها أي (عاجز)؛ وامرأة (عاجزة) و(عاجز)؛ كما يقال: (عجزه) الشيء أو الأمر بمعنى فاته ولم يقدر عليه.

ويقال: (عَجَّزَهُ) و(أعجزه) و(استعجزه) أي صَيَّره (عاجزاً) نسبة إلى (العجز)، وتستعار لمعنى التثبيط بمعنى ثبطه.

كما يقال: (عاجزه) (مُعَاجَزَةً) أي سابقه مسابقة؛ و(تَعَجَّزَ) أي ادعى (العجز)؛ و(الأعجز) هو العظيم العجز؛ ومؤنثه (العجزاء)؛ و(المِعْجَاز) هو الدائم العجز؛ و(المعجوز) الذي (أُعْجِزَ).

ويقال: (عَجَزَ) (عُجُوزاً) أي صار (عجوزاً)، و(العجوز) وجمعه (عُجُزٌ) و(عجائز) المرأة المسنة.

و(العَجِزُ) وجمعه (أعجاز) مؤخر الشيء أو الجسم (وتكتب بفتح

العين وكسرها وضمها مع تسكين الجيم، أو بفتح العين وضم الجيم أو كسرها)؛ و(عَجُزُ) بيت الشعر هو الشطر الثاني منه؛ و(أعجاز) النخل هي أصولها.

ويقال: (أعجز) في الكلام أي أدى لمعانيه بأبلغ الأساليب.

و(الإعجاز) بمعنى السبق والفوت مصدر من (أعجز).

وعلى ذلك تعرف (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي لعجز البشر عن الإتيان بمثله.

«و(إعجاز) القرآن الكريم» معناه (عجز) الخلق أجمعين ـ إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين ـ عن أن يأتوا بشيء من مثله، ولذلك أنزل ربنا ﷻ في محكم كتابه هذا التحدي الأزلي الذي يقول فيه:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ (الإسراء: 88).

ويقول ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ (البقرة: 23، 24).

ويقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ (يونس: 37، 38).

ويقول ربنا ﷻ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ (هود: 13).

ويؤكد الله ﷻ على كمال القرآن الكريم فيقول ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ (النساء: 82).

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ (الواقعة: 77 ـ 80).

ويقول ﷻ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ (البروج: 21، 22).

ويقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ (البقرة: 2).

ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا

تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء: 105).

وإعجاز القرآن الكريم معناه عجز الخلق قاطبة عن الإتيان بشيء من مثله، فهو كتاب معجز في بيانه ونظمه، معجز في فصاحته وبلاغة أسلوبه؛ معجز في كمال رسالته ومضمونه، وقد أنزل للناس كافة بدين الإسلام الذي علمه ربنا ﷻ لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وكرر إنزاله على فترة من أنبيائه ورسله، وأكمله وأتمه وحفظه في هذه الرسالة الخاتمة المنزلة على خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين). وعلى ذلك فالقرآن الكريم معجز في مجموع العقائد التي يدعو الناس إلى الالتزام بها، وفي مجموع العبادات التي يدعو الناس إلى ممارستها، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، وفي كل تشريع من تشريعاته المبهرة بدقتها، وعدلها، وشموليتها وتفاصيلها...!!

والقرآن الكريم معجز كذلك في استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها؛ معجز في أسلوبه التربوي الفريد، وخطابه النفسي الدقيق، وفي إنبائه الحق بالغيب، وفي إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره.

وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز في كتاب الله هو المقصود بتعبير «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم»، ويقصد به سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره، التي لم يتمكن العلم الكسبي من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم تزيد عن العشرة قرون كاملة في أقل تقدير لها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه الحقائق العلمية مصدراً غير الله الخالق ﷻ. وفي إثبات ذلك تأكيد أن القرآن الكريم هو كلام الإله الخالق، وتصديق للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ في نبوته ورسالته وفي التبليغ عن ربه.

والإعجاز العلمي للقرآن الكريم أسلوب في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية وتطور الوسائل التقنية الذي نعيشه، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الأنعام: 44).

وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ (سبأ: 5، 6).

وقوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: 53).

وقوله ﷻ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء: 166).

وقوله (تبارك اسمه): ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: 19).

وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنعام: 66، 67).

وقوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ (هود: 13، 14).

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ (الفرقان: 6).

وقوله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النمل: 93).

وقوله ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ (صٓ: 87، 88).

وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ (الشورى: 29).

الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

من الاستعراض السابق يتضح لنا بجلاء أن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه هو من مواقف التحدي للناس كافة ـ مسلمين وغير مسلمين ـ بأن كتاباً أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين ـ وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يحوي من حقائق الكون وسننه ما لم يتوصل الإنسان إلى معرفته إلا بعد مجاهدات طويلة قام بها عشرات الآلاف من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل، وتركز في القرون القليلة المتأخرة بصفة خاصة. والمتحدي لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة، وعلى ذلك فلا يجوز توظيف شيء في

هذا المجال غير الحقائق القطعية الثابتة حتى يبلغ التحدي مداه في مجال إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

وهذا الالتزام واجب حتمي في التعرض للآيات الكونية في كتاب الله باستثناء آيات الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان. وذلك بسبب أن عملية الخلق لا تخضع للإدراك المباشر من المخلوقين وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ **(الكهف: 51).**

ولكن القرآن الكريم الذي جاء بهذه الآية الكريمة يأمرنا ربنا ﷻ فيه بضرورة التأمل في قضية الخلق ـ وهي قضية غير مشاهدة من قبل الإنسان ـ وذلك في عدد غير قليل من الآيات القرآنية الكريمة التي منها قوله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ **(العنكبوت: 19، 20).**

وقوله ﷻ:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ **(آل عمران: 190، 191).**

والجمع بين هذه الآيات الكريمة (وأمثالها كثير في كتاب الله) يؤكد على أن خلق كل من السمٰوات والأرض، وخلق الحياة، وخلق الإنسان قد تم في غيبة كاملة من الوعي الإنساني، ولكن الله من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان ـ بإمكاناته المحدودة ـ على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق، إلا أن هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى مقام الحقيقة أبداً، لأن الحقيقة العلمية لا بد وأن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه. من هنا فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق (بأبعادها الثلاثة) مرحلة التنظير أبداً؛ ولذلك تتعدد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها: هل هم من المؤمنين الموحدين، أم من الكفار، أو المشركين، أو المتشككين؟ وهل هم من السعداء في حياتهم أم من التعساء والأشقياء والمهمومين؟ وهل هم من الأسوياء أم من

المنحرفين؟... وفي هذا الخضم يبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو في حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد أثبتت ذلك، ولكن لمجرد وجود إشارة إلى تلك الحقيقة في كتاب الله الخالق أو في سنة رسوله ﷺ. ونحن في هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم أو بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، ولم ننتصر بالعلم لأي منهما.

أما باقي الآيات الكريمة التي تعرض لها القرآن الكريم فلا يجوز أن يوظف في الاستشهاد على سبقها العلمي إلا بالحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها وبالضوابط المنهجية التالية:

1 ـ حسن فهم النص القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة العربية، وأساليب التعبير فيها، وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربي مبين.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ (إن وجدا)، وفهم الفرق بين العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصل من آيات هذا الكتاب الحكيم.

3 ـ فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين، وتابعيهم إلى الزمن الحاضر.

4 ـ جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة إن وجدت.

5 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، ورد بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر، لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله ﷺ، ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك، وذلك لحسن فهم النص القرآني الكريم.

6 ـ مراعاة السياق القرآني للآية أو الآيات المتعلقة بإحدى القضايا الكونية، دون اجتزاء للنص القرآني عما قبله وعما بعده.

7 ـ مراعاة قاعدة أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

8 ـ عدم التكلف، أو محاولة لَيِّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية، وذلك لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم عندنا من ذلك لأنه كلام الله الخالق، وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق، الكامل، الشامل، المحيط بكل علم آخر، وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

9 ـ عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة: كالذات الإلٰهية والروح، والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار وغيرها، والتسليم بالنصوص الواردة فيها تسليماً إيمانياً كاملاً انطلاقاً من الإيمان بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ، وبعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيوب المطلقة.

10 ـ التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا، وأنها لا تحتاج السنن الدنيوية الرتيبة لحدوثها، فهي كما وصفها ربنا ﷻ أمر فجائي منه ﷻ بـ «كن فيكون» أي بين الكاف والنون، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ **(الأعراف: 187).**

وعلى الرغم من ذلك فإن الله ﷻ ـ من رحمته بنا ـ قد أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء أعداداً كثيرة من الشواهد الحسية التي تقطع بفناء الكون، وبحتمية الآخرة، وأن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن يفسر بمحاولة التعرف على موعد الآخرة لأنها غيب من الغيوب المطلقة التي لا يعلمها إلا الله، ولأنها لن تتم بالسنن الكونية المشاهدة في هذه الحياة.

11 ـ توظيف الحقائق العلمية القاطعة (التي لا رجعة فيها) في الاستشهاد على الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية في الموضوع الواحد أو في عدد من الموضوعات المتكاملة، وذلك في جميع الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث، التي يمكن فيها توظيف الآية القرآنية الكريمة للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة.

12 ـ مراعاة التخصص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية الكريمة، لأن هذا مجال تخصصي على أعلى مستويات التخصص لا يجوز أن يخوض فيه كل خائض، كما لا يمكن لفرد واحد أن يغطي كل جوانب الإعجاز العلمي في أكثر من ألف آية قرآنية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتغطي هذه الآيات مساحة هائلة من العلوم الكسبية من علم الأجنة إلى علم الفلك، وما بينهما من مختلف مجالات العلوم والمعارف الإنسانية.

13 ـ يجب التفريق بين دور كل من الناقل والمحقق في قضيتي الإعجاز العلمي

والتفسير العلمي للقرآن الكريم، حيث أنه من أبسط ضوابط الأمانة ما يوجب على الناقل الإشارة إلى من نقل عنه حتى يأخذ كل ذي حق حقه، وحتى يكون النقل مدعماً بالسند المقبول. وتجاهل هذا الخلق الإسلامي، وهذه القاعدة الأصولية فيه من الإجحاف بحقوق الآخرين ما لا يتناسب مع موقف المدافع عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فضلاً عن إضعافه للقضية ككل.

14 ـ الأخذ في الاعتبار إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة للوصول إلى حقيقة كونية لم يتوصل العلم الكسبي إلى شيء منها بعد، انطلاقاً من الإيمان الكامل بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وأنه كله حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

15 ـ عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة تلك الآيات الكونية في حدود المعلومات المتاحة في زمانهم، وذلك لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها. وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

16 ـ التفريق بين قضيتي الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن الكريم، فالإعجاز العلمي يقصد به «**إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون**»، أما التفسير فهو «**محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيها المفسر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد**»، والمعول عليه في ذلك هو نيته؛ وهنا يجب التأكيد على أن الخطأ في التفسير ينسحب على المفسر، ولا يمس جلال القرآن الكريم.

17 ـ يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك، والتجرد له من كل غاية، وتذكر قول المصطفى ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»(1).

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال هام مؤداه: **ما هي مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟**

وللإجابة على ذلك نوجز ما يلي:

أولاً: أن القرآن الكريم أنزل إلينا لنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهماً

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2950).

صحيحاً في إطار اللغة وحده، وذلك لشمول الدلالة القرآنية، ولكلية المعرفة التي لا تتجزأ.

ثانياً: أن الدعوة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة هي الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية ـ الذي فتن الناس ـ في غالبيتهم ـ فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ونبذوا الدين وراء ظهورهم ونسوه، وأنكروا الخلق والخالق، كما أنكروا البعث والحساب والجنة والنار، وغير ذلك من الغيوب؛ لأن هذه الأصول قد شوهت في معتقداتهم تشويهاً كبيراً، ولم تعد مقنعة لهم؛ وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين قدر الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين).

ثالثاً: الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع، ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه، تحاول الحضارة المادية الغالبة ـ بما فيها من كفر بواح، أو شرك صراح ـ أن تمدّ بقيمها الهابطة، وأخلاقياتها الساقطة، وماديتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظف في ذلك كل ما توفر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها.

وقد أسقط الأعداء من أيدي المسلمين في هذه الأيام كل الوسائل المادية في سلسلة من المؤامرات الطويلة، التي بدأت باحتلال غالبية الدول المسلمة والعمل على تغريبها، ثم السعي الدؤوب من أجل إسقاط دولة الخلافة الإسلامية بعد إنهاكها وإضعافها حتى تم إسقاطها في سنة 1924م. وتلى ذلك العمل على تمزيق الأمة إلى أكثر من خمسة وخمسين دولة ودويلة، وعلى نهب كل خيراتها وثرواتها، وتنصيب أنماط من الحكم المتعارضة عليها للحيلولة دون إمكانية رجوعها إلى دين الله، وإمكانية توحدها، في زمن التكتلات البشرية الكبيرة الذي نعيشه، ولإحكام المؤامرة تم غرس كيان صهيوني غريب في قلب الأمة لإفسادها، وإثارة الحروب والقلاقل والفتن بين أبنائها، ولترسيخ العداوات بين الأشقاء للحيلولة دون توحدهم، وإشاعة الأفكار الهدامة، والسلوكيات المنحطة، والأخلاقيات المنهارة لترسيخ تفتت الأمة؛ والعمل على المزيد من تغريبها لتيسير الهيمنة عليها، ولم يبق بأيدي أمة الإسلام في زمن الغربة الذي نعيشه إلا دينها، هذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه، وهو وسيلة الدفاع الوحيدة التي بقيت بين أيدي مسلمي اليوم، وأوضح وسائله لإقامة الحجة على العباد في زمن العلم الذي نعيشه هو الإعجاز العلمي في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ.

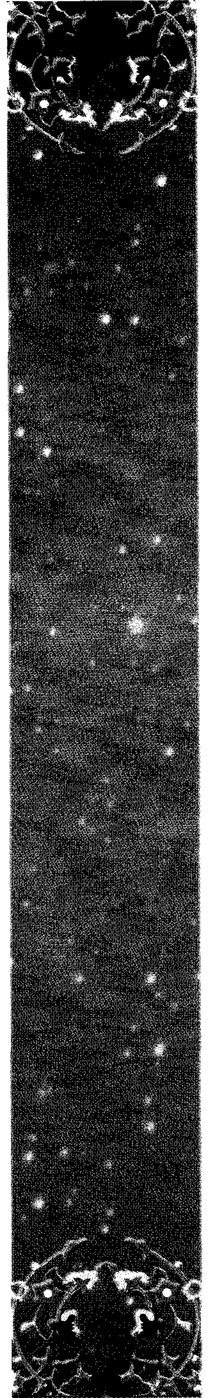
رابعاً: أن كلًا من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس في كافة وسائل الإعلام بغير حق. وأعداء الله في هجومهم هذا ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن، ونبوة خاتم المرسلين ﷺ، في وقاحة وبجاحة سافرة، وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا

الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمي لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة البالغة، والمنطق السوي.

خامساً: أن العالم اليوم يتحرك في اتجاه كارثة كبرى، وقودها تطور علمي وتقني مذهل، وانحسار ديني وأخلاقي وروحي أشد إذهالاً. والتطور العلمي والتقني يطغي أصحابه ويغريهم بإفناء وإبادة غيرهم، في غيبة الوعي الديني الصحيح، والالتزام الأخلاقي والسلوكي الذي يرعى حقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها. والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ من إعجاز علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

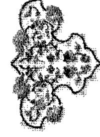
سادساً: أننا معشر المسلمين قصرنا كثيراً في التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ، وقد كلفنا بذلك، ونحن نجني ثمار ذلك التقصير كله اليوم: حروباً طاحنة على كل أرض إسلامية من فلسطين إلى البلقان، ومنها إلى أرض الشيشان، وكشمير، وأفغانستان، وأراكان، وجنوب الفلبين، والسودان والصومال وغيرها؛ ونجني أيضاً حصاراً لأكثر من دولة مسلمة، ومصادرة لبلايين الدولارات من أموال المسلمين، واحتلالاً عسكرياً لكل من أرض فلسطين ودول الخليج العربي، والعراق، وأفغانستان، وسبته ومليلية وجزيرة ليلى، من الأراضي المغربية، والعديد من الجزر الآسيوية، وجزر بحر إيجه التركية، وتضييقاً على الملايين من الأقليات الإسلامية، ومطاردة المسلمين في كل مكان من أماكن العالم وإحكام التآمر عليهم. وليست جرائم الغربيين البشعة في سجون جوانتانامو، وأبو غريب وغيرها من سجون عراقية وأفغانية عديدة إلا صورة مصغرة لما يخفيه الغرب الكافر أو المشرك للمسلمين من مصير!!

سابعاً: إن في إثارة قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاض لعقول المسلمين، واستثارة للتفكير الإبداعي فيها، وتشجيع على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلفت فيها الأمة مؤخراً تخلفاً كبيراً، في الوقت الذي تقدمت فيها دول الكفر والشرك والضلال تقدماً مذهلاً، حتى أصبح كم المعارف المتاحة يتضاعف كل خمس سنوات تقريباً، وتقنياتها تتجدد مرة كل ثلاث سنوات تقريباً، وبذلك أخذت الهوة الفاصلة بيننا وبينهم في مجال العلوم والتقنية تزداد اتساعاً وعمقاً يوماً بعد يوم، وأصبحت مخاطر ذلك علينا تتضاعف مع تزايد تلك الهوة عمقاً واتساعاً. وعلى المسلمين مسارعة العمل على جبر هذه الهوة بأسرع وقت ممكن، وإحدى وسائلنا في ذلك الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

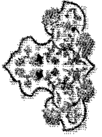


الباب الرابع

من آيات السماء في القرآن الكريم



(١) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: 47)



يشير القرآن الكريم في عدد من آياته إلى الكون وإلى العديد من مكوناته (السمٰوات والأرض، وما بكل منهما من صور الأحياء والجمادات، والظواهر الكونية المختلفة)، وتأتي هذه الآيات في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة، التي أبدعت هذا الكون، بجميع ما فيه ومن فيه، وفي مقام الاستدلال كذلك على أن الإله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته... قادر على إفنائه، وقادر على إعادة خلقه من جديد، وذلك في معرض محاجة الكافرين والمشركين والمتشككين، وفي إثبات الألوهية والوحدانية لرب العالمين (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد).

وكانت دعوى الكافرين منذ الأزل، وإلى يوم الدين، هي محاولة إنكار قضيتي الخلق الأول، والبعث بعد الإفناء، وهما من القضايا التي لا تقع تحت الإدراك المباشر للعلماء، على الرغم من أن الله تعالى قد أبقى لنا في أديم الأرض، وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية الملموسة ما يمكن أن يعين المتفكرين المتدبرين من بني الإنسان على إدراك حقيقة الخلق، وعلى استنتاج حتمية الإفناء والبعث، ويبقى فهم

تفاصيل ذلك في غيبة من الهداية الربانية شيئاً من الضرب في الظلام، وفي ذلك يقول الحق ﷻ رداً على الظالمين من الكافرين والمشركين والمتشككين من الجن والإنس:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ **(الكهف: 51)**.

وفي تشجيع الإنسان على التفكر والتدبر في خلق السمٰوات والأرض يقول ربنا ﷻ في محكم كتابه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ **(آل عمران: 190، 191)**.

وكان لنزول هاتين الآيتين الكريمتين وما تلاهما من آيات في السورة نفسها وقع شديد على رسول الله ﷺ، الذي يروى عنه أنه قال عقب الوحي بها: «**ويل لمن قرأ هذه الآيات ولم يتفكر فيها**»[1]. وواضح الأمر في ذلك أن التفكر في خلق السمٰوات والأرض فريضة إسلامية لا بد من قيام نفر من المسلمين بها، لأنها عبادة من أجلّ وأعظم العبادات للّه الخالق، ووسيلة من أعظم الوسائل للتعرف على كل من حقيقة الخلق، وحتمية الإفناء، وضرورة البعث، وللتأكيد على عظمة الخالقﷻ، وعلى تفرده بالألوهية والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. فالكون الذي نحيا فيه شاسع الاتساع، دقيق البناء، محكم الحركة، منضبط في كل أمر من أموره، مبني على وتيرة واحدة من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته، وكون هذا شأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور أنه قد وجد بمحض المصادفة، أو أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، بل لا بد له من موجد عظيم، له من طلاقة القدرة، وكمال الحكمة، وشمول العلم ما أبدع به هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه.

وهذا الخالق العظيم لا ينازعه أحد في ملكه، ولا يشاركه أحد في سلطانه، لأنه ربّ هذا الكون ومليكه، ولا يشبهه أحد من خلقه، لأنه تعالى خالق كل شيء، وهو بالقطع فوق كل خلقه، لا يحده المكان ولا الزمان لأنه سبحانه خالقهما، ولا يشكله أي من المادة أو الطاقة، لأنه تعالى مبدعهما، ولا نعرف عن ذاته العلية إلا ما عرف به نفسه بقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ **(الشّورى: 11)**.

وقوله سبحانه مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ **(الإخلاص: 1 ـ 4)**.

---

(1) ذكره السيوطي في «تفسير الدر المنثور» (2/ 111)، والزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (9/ 119).

من هنا كان التفكر في خلق السمٰوات والأرض مدخلاً عظيماً من مداخل الإيمان بالله، ولذا حض عليه القرآن الكريم، كما حضت عليه السنة النبوية المطهرة حضاً كثيراً.

تأكيد القرآن الكريم على ما في السموات والأرض من أدلة الخلق والإفناء والبعث:

يؤكد القرآن الكريم على ما في السمٰوات والأرض من الأدلة، التي تنطق بطلاقة القدرة الإلهية في خلقهما وإبداعهما، كما تنطق بحتمية إفنائهما، وإعادة خلقهما من جديد في هيئة غير التي نراهما فيها اليوم، وذلك في عدد غير قليل من الآيات التي منها قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ (الأنعام: 73).

وقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (العنكبوت: 44).

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ (الروم: 8).

وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم: 22).

وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الروم: 27).

وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن: 2).

وقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ (الزمر: 5).

وقوله ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: 57).

وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: 29).

وقولـه ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: 38، 39).

الله تعالى هو خالق السموات والأرض وخالق كل شيء:

جاءت مادة «خلق» بمشتقاتها في القرآن الكريم مائتين وإحدى وستين (261) مرة، لتأكيد أن عملية الخلق هي عملية خاصة بالله تعالى وحده، لا يشاركه فيها أحد، ولا ينازعه عليها منازع، ولا يقدر عليها غيره ﷻ إلا بإذنه.

كذلك وردت لفظة «السماء» في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة (310) مواضع، منها مائة وعشرون (120) بصيغة الإفراد (السماء)، ومائة وتسعون (190) بصيغة الجمع (السمٰوات) معرفة وغير معرفة. كما وردت لفظة «الأرض» بمشتقاتها في أربعمائة وواحد وستين (461) موضعاً، وذلك في مقامات كثيرة تؤكد أن الله ﷻ هو خالق السمٰوات والأرض، وخالق كل شيء، وذلك من مثل قوله ﷻ:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: 102).

وقوله ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: 54).

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ (يونس: 4).

وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ (الرّعد: 16).

وقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفُرقان: 2).

وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزُّمَر: 62).

وقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (غَافر: 62).

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القَمَر: 49).

وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ (الحشر: 24).

وقد أفاض القرآن الكريم في حسم قضيتي الخلق والبعث بنسبتهما إلى الله ﷻ وحده، وذلك لأن هاتين القضيتين كانتا من أصعب القضايا التي خاض فيها الجاحدون والمتشككون بغير علم ولا هدى عبر التاريخ، ولا يزالون يستخدمون هذا الجحود والإنكار في معارضة

قضية الإيمان بالله الخالق البارىء المصور، ويرد عليهم القرآن الكريم بقول الحق ﷻ:

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النّحل: 17).

وقوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ (النّحل: 20).

وقوله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ (الفُرقان: 3).

وقوله ﷻ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (الطور: 35، 36).

وقوله ﷻ: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ (يُونس: 34).

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (العنكبوت: 19، 20).

موقف الحضارة الإسلامية من قضية الخلق:

انطلق المسلمون من قضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلى الإيمان بحقيقة الخلق، وحتمية الموت والبعث، ليقيموا على أساس من تلك العقيدة الربانية الخالصة أعظم حضارة في التاريخ، لأنها كانت الحضارة الوحيدة التي جمعت بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، واستمرت لأكثر من عشرة قرون كاملة، تدعو إلى عبادة الله تعالى بما أمر، على التوحيد الخالص لذاته العلية، والتنزيه الكامل لأسمائه الحسنى وصفاته العليا عن الشبيه والشريك والمنازع، والصاحبة والولد، وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وإقامة عدل الله فيها، على أساس من شرعه المنزل على خاتم أنبيائه ورسله، والذي تعهد سبحانه وتعالى بحفظه بنفس اللغة التي نزل بها فحفظ حفظاً كاملاً، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد نزول هذا الوحي الخاتم، الذي تعهد الله تعالى بحفظه من الضياع والتحريف.

وبالجمع المتزن بين وحي السماء والاجتهاد في كسب المعارف النافعة، حملت حضارة الإسلام مشاعل المعرفة في كل مناشط الحياة الدينية والعمرانية، وأقامت قاعدة صلبة للدين والعلم والتقنية، وآمنت بوحدة المعرفة، وبأن الحكمة هي ضالة المؤمن، أنى

وجدها فهو أولى الناس بها، فجمعت المعارف من مختلف مصادرها مهما تباعدت أماكنها، واختلفت الحضارات التي انبثقت عنها، ومهما تباينت معتقدات أصحابها، ولكنها لم تقبل تلك المعارف قبول التسليم، فقامت بغربلة تراث الإنسانية المتاح لها بمعيار الإسلام العظيم، القائم على أساس من التوحيد الخالص للّه، وذلك لتطهير هذا التراث من أدران الشرك والكفر والجحود بالله، وأضافت إليه إضافات أصيلة عديدة في كل المجالات، مما مثّل القاعدة التي انطلقت منها النهضة العلمية والتقنية المعاصرة، كما يعترف بذلك المنصفون من العلماء المعاصرين غربيين وشرقيين.

ولم يكن الإيمان بالغيب حائلاً دون التقدم العلمي والتقني في الحضارة الإسلامية، بل حض عليه الإسلام حضًا، واعتبر التفكر في الخلق نمطاً من أنماط عبادة الله تعالى، ووسيلة منهجيَّة لاستقراء سنن الله في الكون، وتوظيفها في عمارة الأرض، وهي من واجبات الاستخلاف فيها، والوجه الثاني للعبادة التي يمثل وجهها الأول عبادة الله تعالى بما أمر، واتباع سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

موقف الحضارة المادية المعاصرة من قضية الخلق:

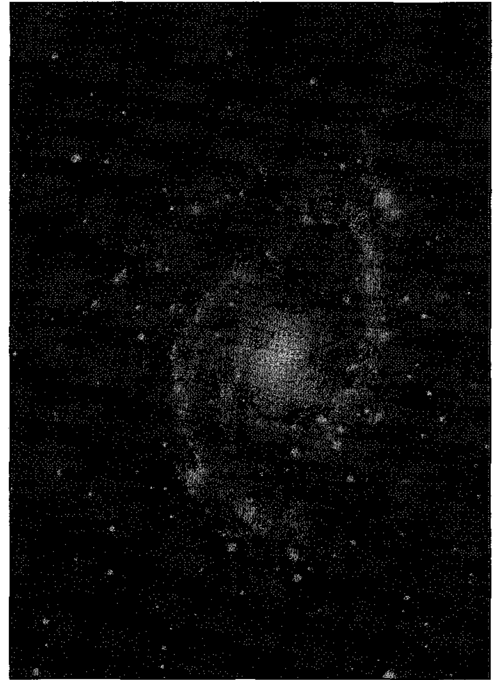
انطلقت الحضارة المادية المعاصرة في الأصل من بوتقة الحضارة الإسلامية، ولكن ـ على مغايرة من حضارة المسلمين ـ فإن الغرب بنى حضارته على أساس من المادية البحتة، فنبذ الدين، ووقف موقف المنكر لقضية الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، الرافض لكل أمر غيبي، في عداء صريح للدين، واستهجان واضح لقضية الإيمان بالغيب، فتنكب الطريق، وضل ضلالاً بعيداً، على الرغم من القدر الهائل من الكشوف العلمية، والإنجازات التقنية المذهلة التي حققها، والتي يمكن أن تكون سبباً في دماره في غيبة الالتزام الديني والروحي والأخلاقي، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ **(الأنعام: 44، 45)**.

وبنبذ الإيمان بالله، وصلت المجتمعات الغربية إلى مستوى متدنٍ من التحلل الأخلاقي، والانهيار الاجتماعي، ومجافاة الفطرة التي فطر الله الخلق عليها، في وقت ملكت فيه من أسباب الغلبة المادية ما يمكن أن يعينها على الاستعلاء في الأرض، والتجبر على الخلق، ونشر المظالم بغير مراعاة لرب، أو مخافة من حساب تماماً ـ كما يفعل كل من

الولايات المتحدة الأمريكية، وربيبتها المحتلة لأرض فلسطين، وغيرهما من دول الكفر والشرك والإلحاد التي تملأ الأرض في زماننا ـ مما يمكن أن يهدد البشرية بالفناء...!!

ولا تزال المعارف الإنسانية ـ بصفة عامة ـ والعلمية منها ـ بصفة خاصة ـ تكتب إلى يومنا هذا، من منطلقات مادية صرفة، لا تؤمن إلا بالمدرك المحسوس، وتتنكر لكل ما هو فوق ذلك، فدارت بالمجتمعات الإنسانية في متاهات من الضياع، فضلت وأضلت، على الرغم من الكم الهائل من المعلومات التي تحتويها، وروعة التقنيات التي أنجزتها.

وكان ضلال الحضارة المادية المعاصرة أبلغ ما يكون في القضايا التي لايمكن إخضاعها مباشرة لإدراك الإنسان، من مثل قضايا الخلق والإفناء والبعث (خلق الكون، خلق الحياة، خلق الإنسان، ثم إفناء كل ذلك وإعادة خلقه من جديد)، وهي من القضايا التي إذا خاض فيها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل ضلالاً بعيداً، وصدق الله العظيم إذ يقول في الرد على هؤلاء الظالمين من الكافرين والمشركين والمتشككين من الجن والإنس: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: 51).



شكل (٢) صورة لمجرة حلزونية تشبه في بنيتها مجرتنا ـ (درب التبانة)

وعلى الرغم من تأكيد القرآن الكريم أن أحداً من الجن والإنس، لم يشهد خلق السمٰوات والأرض، ولا خلق نفسه، فإنه يؤكد ضرورة التفكر في خلق السمٰوات والأرض، وخلق الحياة لأن ذلك من أعظم الدلائل على طلاقة القدرة الإلهية، وكمال الصنعة الربانية، وعلى كل من حتمية الآخرة وضرورة البعث والحساب والجنة والنار، وذلك لأن الخالق ﷻ قد ترك لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان على فهم قضيتي الخلق والبعث، بالرغم من محدودية قدراته الذهنية والحسية، واتساع الكون وضخامة أبعاده وتعقيد بنائه، وكذلك تعقيد بناء الجسد الإنساني وبناء خلاياه، وهي صورة رائعة لتسخير الكون للإنسان، وجعله

في متناول إدراكه وحسه، وفي ذلك يقول ربنا ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾... (العنكبوت: 20).

خلق السمٰوات والأرض في القرآن الكريم

من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، لخص لنا ربنا ﷻ في صياغة كلية شاملة عملية خلق السمٰوات والأرض وإفنائهما وإعادة خلقهما من جديد، في خمس آيات من القرآن الكريم على النحو التالي:

(1) ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذّاريَات: 47).

(2) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: 30)

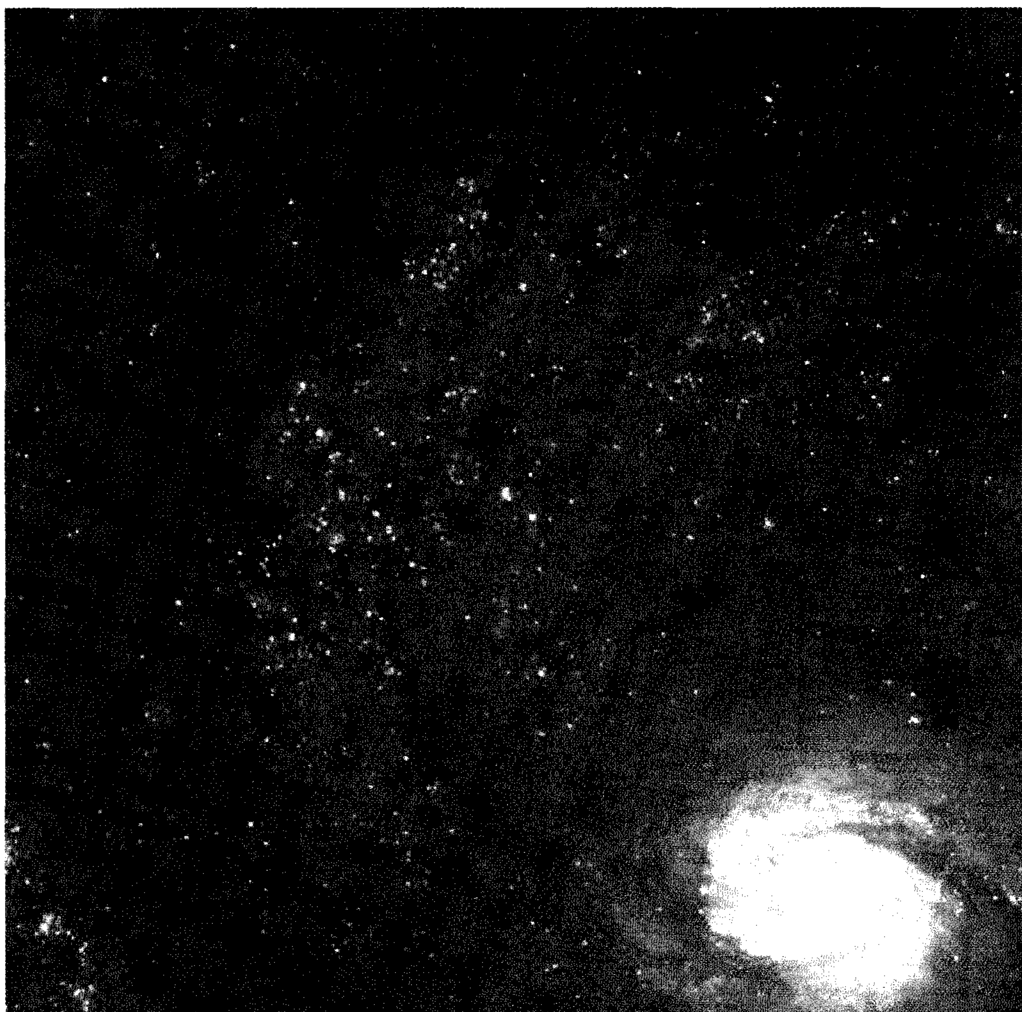
(3) ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فُصّلت: 11).

(4) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 104).

(5) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم: 48)

وهذه الآيات الكريمات تشير إلى أن الكون الذي نحيا فيه يتسع باستمرار، وأننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن فلا بد وأن يتكدس على هيئة جرم واحد **(مرحلة الرتق)**، وهذا الجرم الابتدائي انفجر بأمر من الله **(مرحلة الفتق)**، فتحول إلى سحابة من الدخان **(مرحلة الدخان)**، خلقت منه الأرض والسمٰوات **(مرحلة الإتيان)**، وأن الكون منذ لحظة انفجاره ظل في توسع مستمر، وأن هذا التوسع سوف يتوقف في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، بأمر منه تعالى، فيبدأ الكون في الانطواء على ذاته، والتكدس في جرم واحد كهيئة الجرم الابتدائي الأول، الذي بدأ منه خلق السمٰوات والأرض، فتتكرر عملية الانفجار والتحول إلى الدخان الذي تخلق منه أرض غير أرضنا الحالية، وسمٰوات غير السمٰوات التي تظللنا في الحياة الدنيا، وهنا تنتهي رحلة الحياة الدنيا وتبدأ رحلة الآخرة.

ومراحل **الرتق**، و**الفتق**، و**الدخان**، و**الإتيان** بالسمٰوات والأرض، وتوسع السماء ثم طيها تعطينا كليات مراحل الخلق والإفناء والبعث دون الدخول في التفاصيل. وهذه الحقائق القرآنية لم يستطع الإنسان إدراك شيء منها إلا في أواخر القرن العشرين، مما يؤكد سبق



شكل (٣) يوضح قرص المجرة وأحد أذرعها الحلزونية وبه بلايين النجوم

القرآن الكريم للمعارف الإنسانية كلها بأكثر من أربعة عشر قرناً، وهذا وحده مما يشهد للقرآن بأنه لايمكن إلا أن يكون كلام الله الخالق، كما يشهد لخاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) بأنه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، حيث إنه لم يكن لأحد من الخلق علم بهذه الحقائق الكونية في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعد نزوله.

وتشهد هذه الآيات الخمس بدقة الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله، وشمولها، وكمالها، وصياغتها صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع

المستوى العلمي للعصر، وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع توسع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهو من أبلغ صور الإعجاز العلمي في كتاب الله.

بدايات تعرف الإنسان على ظاهرة توسع الكون

إلى مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، ظل علماء الفلك ينادون بثبات الكون وعدم تغيره، في محاولة يائسة لنفي الخلق والتنكر للخالق ﷻ حتى ثبت عكس ذلك بتطبيق «ظاهرة دوبلر» على حركة المجرات الخارجة عن مجرتنا، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان العالم النمساوي دوبلر **(C.Doppler)** قد لاحظ أنه عند مرور قطار سريع يطلق صفارته فإن الراصد للقطار يسمع صوتاً متصلاً ذا طبقة صوتية ثابتة، ولكن هذه الطبقة الصوتية ترتفع كلما اقترب القطار من الراصد، وتهبط كلما ابتعد عنه، وفسر «دوبلر» السبب في ذلك بأن صفارة القطار تطلق عدداً من الموجات الصوتية المتلاحقة في الهواء، وأن هذه الموجات تتضاغط تضاغطاً شديداً كلما اقترب مصدر الصوت من الراصد، فترتفع بذلك طبقة الصوت، وعلى النقيض من ذلك، فإنه كلما ابتعد مصدر الصوت تمددت تلك الموجات الصوتية حتى تصل إلى سمع الراصد، فتنخفض بذلك طبقة الصوت. ولاحظ «دوبلر» أن تلك الظاهرة تنطبق أيضاً على الموجات الضوئية، فعندما يصل إلى عين الراصد ضوء منبعث من مصدر متحرك بسرعة كافية، يحدث تغير في تردد ذلك الضوء، فإذا كان المصدر يتحرك مقترباً من الراصد فإن الموجات الضوئية تتضاغط وينزاح الضوء المدرك نحو التردد العالي (أي نحو الطيف الأزرق)، وتعرف هذه الظاهرة باسم **«الزحزحة الزرقاء»**، وإذا كان المصدر يتحرك مبتعداً عن الراصد، فإن الموجات الضوئية تتمدد وينزاح الضوء المدرك نحو التردد المنخفض (أي نحو الطرف الأحمر من الطيف)، وتعرف هذه الظاهرة باسم **«الزحزحة الحمراء»**، وقد اتضحت أهمية تلك الظاهرة عندما بدأ الفلكيون في استخدام أسلوب التحليل الطيفي للضوء القادم من النجوم الخارجة عن مجرتنا في دراسة تلك الأجرام السماوية البعيدة جداً عنا.

ففي سنة 1914 م أدرك الفلكي الأمريكي «سلايفر» **(Slipher)** أنه بتطبيق ظاهرة دوبلر على الضوء القادم إلينا من النجوم، في عدد من المجرات البعيدة عنا، ثبت له أن معظم المجرات التي قام برصدها تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة، وبدأ الفلكيون في مناقشة دلالة ذلك، وهل يمكن أن يشير إلى تمدد الكون المدرك بمعنى تباعد مجراته عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة؟ وبحلول سنة 1925، تمكن هذا الفلكي نفسه **(Slipher)** من إثبات أن أربعين مجرة قام برصدها تتحرك فعلاً في معظمها بسرعات فائقة متباعدة عن مجرتنا (سكة التبانة)، وعن بعضها البعض.

وفي سنة 1929 م تمكن «إدوين هبل» **(Edwin Hubble)** من الوصول إلى الاستنتاج الفلكي الدقيق الذي مؤداه: **أن سرعة تباعد المجرات عنا تتناسب تناسباً طردياً مع بعدها عنا، والذي عرف من بعد باسم قانون هبل (Hubble's Law)** وبتطبيق هذا القانون تمكن هبل من قياس أبعاد وسرعات تحرك **32** من تلك المجرات الخارجية، وسرعة تباعدها عنا، وذلك بمشاركة من عامل كان يعمل معه في مرصد جبل ولسون بولاية كاليفورنيا اسمه «ملتون هيوماسون» **(Milton Humason)**، وذلك في بحث نشراه معاً في سنة 1934 م. وقد أشار تباعد المجرات عنا وعن بعضها البعض، إلى حقيقة توسع الكون المدرك، التي أثارت جدلاً واسعاً بين علماء الفلك، الذين انقسموا فيها بين مؤيد ومعارض حتى ثبتت ثبوتاً قاطعاً بالعديد من المعادلات الرياضية والقراءات الفلكية في صفحة السماء.

ففي سنة 1917 م أطلق «ألبرت أينشتاين» **(A.Einstein)** نظريته عن النسبية العامة لشرح طبيعة الجاذبية، وأشارت النظرية إلى أن الكون الذي نحيا فيه غير ثابت، فهو إما أن يتمدد أو ينكمش وفقاً لعدد من القوانين المحددة له، وجاء ذلك على عكس ما كان أينشتاين وجميع معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية يعتقدون، انطلاقاً من محاولاتهم اليائسة لمعارضة الخلق، وقد أصاب «أينشتاين» الذعر عندما اكتشف أن معادلاته تنبىء، رغم أنفه، بأن الكون في حالة تمدد مستمر، ولذلك عمد إلى إدخال معامل من عنده أطلق عليه اسم «**الثابت الكوني**»، ليلغي حقيقة تمدد الكون من أجل الادعاء بثباته واستقراره برغم دوران الأجرام التي يحتويها، ثم عاد ليعترف بأن تصرفه هذا كان أكبر خطأ علمي اقترفه في حياته.

وقد قام العالم الهولندي «وليام دي سيتر» **(William de Sitter)** بنشر بحث في نفس السنة(1917 م) استنتج فيه تمدد الكون انطلاقاً من النظرية النسبية ذاتها.

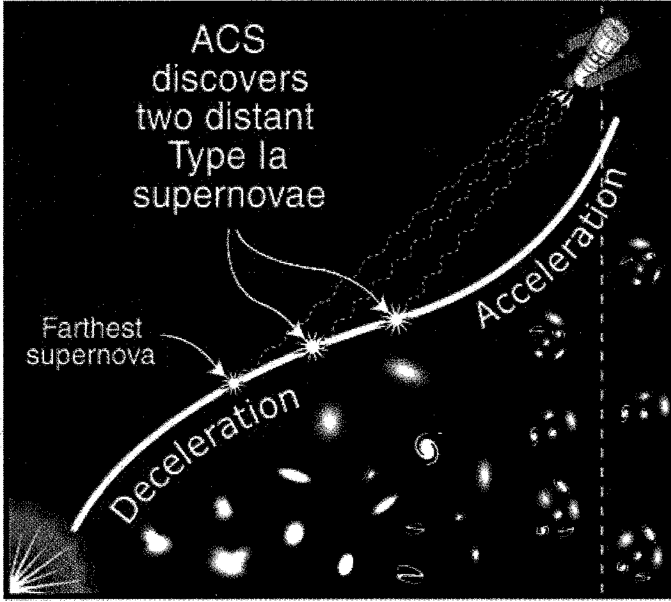
ومنذ ذلك التاريخ بدأ الاعتقاد في تمدد الكون يلقى القبول من أعداد كبيرة من العلماء، فقد أجبرت ملاحظات كل من سلايفر(1914)، ودي سيتر(1917)، وكل من هبل (1929م) وهبل و هيوماسون (1934) جميع الفلكيين الممارسين، وعدداً من المشتغلين بالفيزياء النظرية ـ وفي مقدمتهم ألبرت أينشتاين نفسه ـ على التسليم بحقيقة توسع الكون، أما مجموعة البحث العلمي بجامعة كمبردج، والمكونة من كل من «هيرمان بوندي» **(Herman Bondi)** و«توماس جولد» **(Thomas Gold)** و«فريد هويل» **(Fred Hoyle)** فقد ظلت إلى مشارف الخمسينيات من القرن العشرين تنادي بثبات الكون ـ ثم اضطرت اضطراراً إلى الاعتراف بحقيقة توسع الكون المدرك. وسبحان الله الخالق الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين قوله الحق:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ **(الذّاريَات: 47)**.

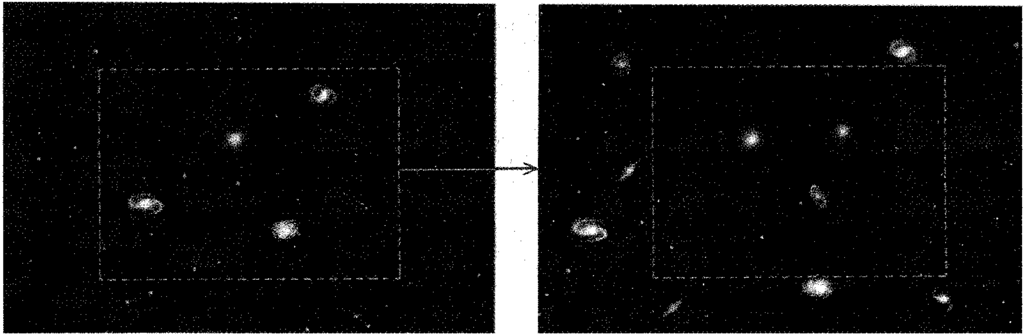
من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلى عدد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة لأحد من الخلق وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد تنزله، منها:

أولاً: أن السماء بناء محكم التشييد، دقيق التماسك والترابط، وليست فراغاً كما كان يعتقد إلى عهد قريب، وقد ثبت علمياً أن المسافات بين أجرام



شكل (٤) يوضح التوسع الكوني مع الزمن



شكل (٥) يوضح تباعد المجرات عن بعضها البعض مع الزمن مما يؤكد حقيقة توسع الكون

السماء مليئة بغلالة رقيقة جداً من الغازات التي يغلب عليها غاز الإيدروجين، وينتشر في هذه الغلالة الغازية بعض الجسيمات المتناهية في الصغر من المواد الصلبة، على هيئة هباءات من غبار دقيق الحبيبات، يغلب على تركيبه ذرات من الكالسيوم، والصوديوم،

والبوتاسيوم، والتيتانيوم والحديد، بالإضافة إلى جزيئات من بخار الماء، والأمونيا، والفورمالدهايد، وغيرها من المركبات الكيميائية.

وبالإضافة إلى المادة التي تملأ المسافات بين النجوم، فإن المجالات المغناطيسية تنتشر بين كل أجرام السماء لتربط بينها في بناء محكم التشييد، متماسك الأطراف، وهذه حقيقة لم يدركها العلماء إلا في القرن العشرين، بل في العقود المتأخرة منه. وعلى الرغم من قلة كثافة المادة في المسافات بين النجوم، والتي تصل إلى ذرة واحدة من الغاز في كل سنتيمتر مكعب تقريباً، وإلى أقل من ذلك بالنسبة للمواد الصلبة (الغبار الكوني) إذا ما قورن بحوالي مليون مليون مليون أي $(10)^{18}$ جزيء في كل سنتيمتر مكعب من الهواء عند سطح الأرض، فإن كمية المادة في المسافات بين النجوم تبلغ قدراً مذهلاً للغاية، فهي تقدر في مجرتنا (سكة التبانة) وحدها بعشرة بلايين ضعف ما في شمسنا من مادة، مما يمثل حوالي 5% من مجموع كتلة تلك المجرة.

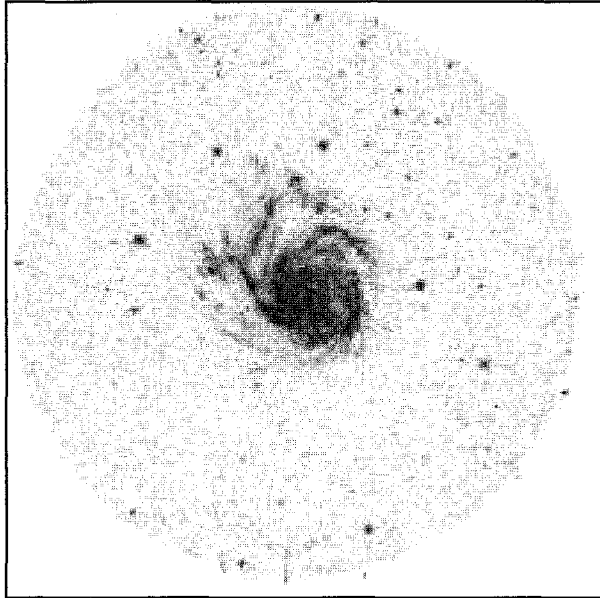
ثانياً: إن في الإشارة القرآنية الكريمة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ **(الذّاريَات: 47)** أي بقوة وحكمة واقتدار، تلميحاً إلى ضخامة الكون المذهلة وإحكام صنعه، وانضباط حركاته، ودقة كل أمر من أموره، وثبات سننه، وتماسك أجزائه، وحفظه من التصدع أو الانهيار، فالسماء لغة هي كل ما علاك فأظلك، ومضموناً هي كل ما حول الأرض من أجرام ومادة وطاقة السماء، التي لا يدرك العلم الكسبي إلا جزءاً يسيراً منها. ويحصي العلماء أن بهذا الجزء المدرك من السماء الدنيا مائتي بليون مجرة على أقل تقدير، بعضها أكبر كثيراً من مجرتنا (درب التبانة أو سكة التبانة)، وبعضها أصغر قليلاً منها، وتتراوح أعداد النجوم في المجرات بين المليون، والعشرة ملايين، وملايين الملايين، وتمر هذه النجوم في مراحل من النمو مختلفة (من الميلاد إلى الطفولة، والشباب، والكهولة، والشيخوخة ثم الوفاة)، ولما كان لأقرب النجوم إلينا (وهي شمسنا) توابع من الكواكب والكويكبات، والأقمار وغيرها، فإن القياس يقتضي أن يكون للنجوم الأخرى توابع قد اكتشف عدد منها بالفعل، ويبقى الكثير منها مما لم يتم اكتشافه بعد.

ثالثاً: تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الكون الشاسع الاتساع الدقيق البناء، المحكم الحركة، والمنضبط في كل أمر أموره، والثابت في سننه وقوانينه، قد خلقه الله تعالى بعلمه وحكمته وقدرته، وهو سبحانه الذي يحفظه من الزوال والانهيار، (وهو القادر على كل شيء).

والجزء المدرك لنا من هذا الكون شاسع الاتساع بصورة لايكاد عقل الإنسان إدراكها

(إذ المسافات فيه تقدر ببلايين السنين الضوئية)، وهو مستمر في الاتساع اليوم وإلى ما شاء الله، والتعبير القرآني ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذّاريَات: 47) يشير إلى تلك السعة المذهلة، كما يشير إلى حقيقة توسع هذا الكون باستمرار إلى ما شاء الله، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، حين ثبت لعلماء كل من الفيزياء النظرية والفلك أن المجرات تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات تتزايد بتزايد بعدها عن مجرتنا، وتقترب أحياناً من سرعة الضوء (المقدرة بحوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية).

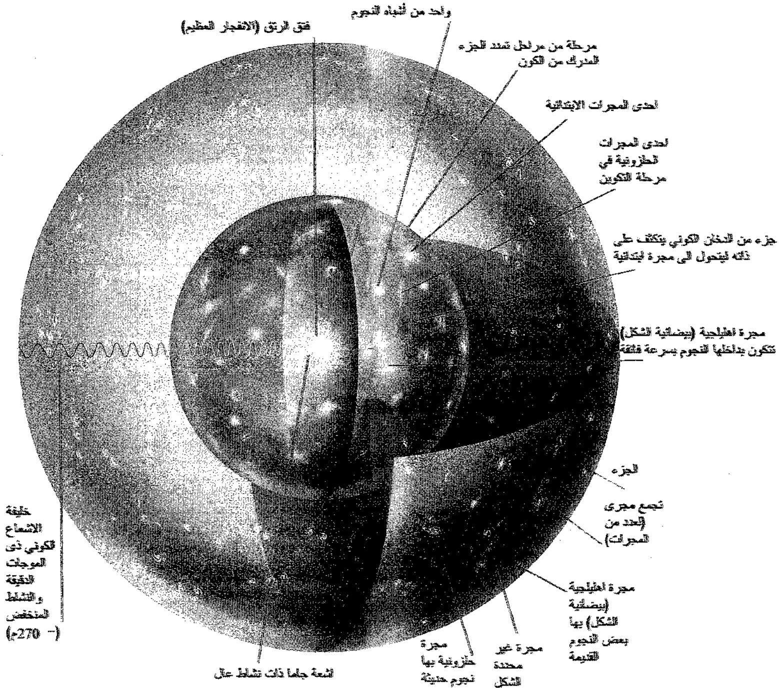
والمجرات من حولنا تتراجع متباعدة عنا، وقد أدرك العلماء تلك الحقيقة من ظاهرة انزياح الموجات الطيفية للضوء الصادر عن نجوم المجرات الخارجة عنا في اتجاه الطيف الأحمر (الزحزحة إلى الطيف الأحمر، أو حتى إلى ما هو دون الطيف الأحمر أحياناً)، وقد أمكن قياس سرعة تحرك تلك المجرات في تراجعها عنا من خلال قياس خطوط الطيف لعدد من النجوم في تلك المجرات، وثبت أنها تتراوح بين 60،000 كيلومتر في الثانية، و272،000 كيلومتر في الثانية، وقد وجد العلماء أن مقدار الحيود في أطياف النجوم إلى الطيف الأحمر (أو حتى إلى ما هو دون الأحمر في بعض الأحيان)، يعبر عن سرعة ابتعاد تلك النجوم عنا، وأن هذه السرعة ذاتها يمكن استخدامها مقياساً لأبعاد تلك النجوم عنا.



شكل (٦) يوضح توسع الكون وتكوره

رابعاً: تشير ظاهرة توسع الكون إلى تخلق كل من المادة والطاقة، لتملآ المساحات الناتجة عن هذا التوسع، وذلك لأن كوننا تنتشر المادة فيه بكثافات متفاوتة، ولكنها متصلة بغير انقطاع، فلايوجد فيه مكان بلا زمان، كما لا يوجد فيه مكان وزمان بغير مادة وطاقة، ولا يستطيع العلم حتى يومنا هذا، أن يحدد مصدر كل من المادة والطاقة اللتين تملآن

المساحات الناتجة عن تمدد الكون، بتلك السرعات المذهلة، ولا تفسير لها إلا الخلق من العدم.



شكل (٧) رسم تخطيطي لبناء الجزء المدرك من الكون

خامساً: أدى إثبات توسع الكون إلى التصور الصحيح بأننا إذا عدنا بهذا التوسع إلى الوراء مع الزمن، فلا بد وأن تلتقي كل صور المادة والطاقة كما يلتقي كل من المكان والزمان في نقطة واحدة، وأدى ذلك إلى الاستنتاج الصحيح بأن الكون قد بدأ من هذه النقطة الواحدة بعملية انفجار عظيم، وهو مما يؤكد أن الكون مخلوق له بداية، وكل ما له بداية فلا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية، كما يؤكد حقيقة الخلق من العدم، لأن عملية تمدد الكون تقتضي خلق كل من المادة والطاقة بطريقة مستمرة ـ من حيث لايدرك العلماء، وذلك ليملأ (في التو والحال) المسافات الناشئة عن تباعد المجرات بسرعات مذهلة، وذلك لكي يحتفظ الكون بمستوى متوسط لكثافته التي نراه بها اليوم، وقد أجبرت هذه الملاحظات علماء الغرب على هجر معتقداتهم الخاطئة عن ثبات الكون، والتي دافعوا عنها طويلاً، انطلاقاً من ظنهم الباطل بأزلية الكون وأبديته، لكي يبالغوا في كفرهم بالخلق،

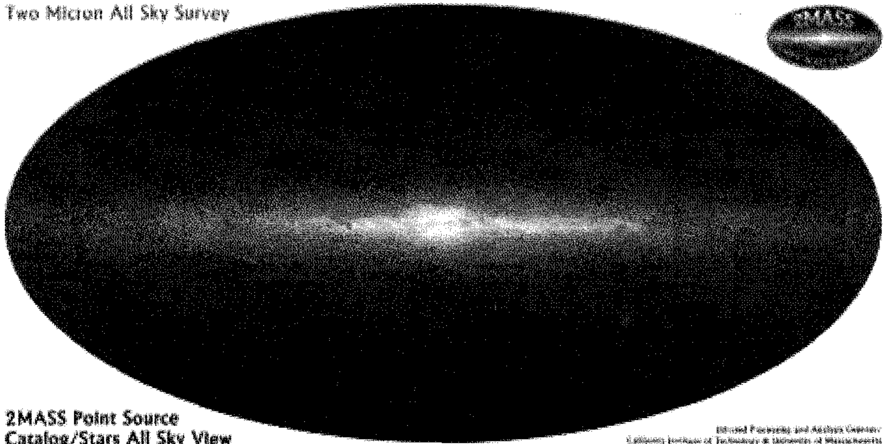
وجحودهم للخالق ﷻ.

/ هذه الاستنتاجات الكلية المهمة عن أصل الكون، وكيفية خلقه وإبداع صنعه، وحتمية نهايته، أمكن الوصول إليها من ملاحظة توسع الكون، وهي حقيقة من أهم حقائق علم الفلك، لم يتمكن الإنسان من إدراكها إلا في الثلث الأول من القرن العشرين، ودار حولها الجدل حتى سلم بها أهل العلم أخيراً، وقد سبق القرآن الكريم بإقرارها قبل أربعة عشر قرناً أو يزيد، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لتلك الإشارة القرآنية الباهرة غير الله الخالق ﷻ، فسبحان خالق الكون الذي أبدعه بعلمه وحكمته وقدرته، والذي أنزل لنا في خاتم كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ عدداً من حقائق الكون الثابتة، ومنها تمدد الكون وتوسعه فقال ﷻ:

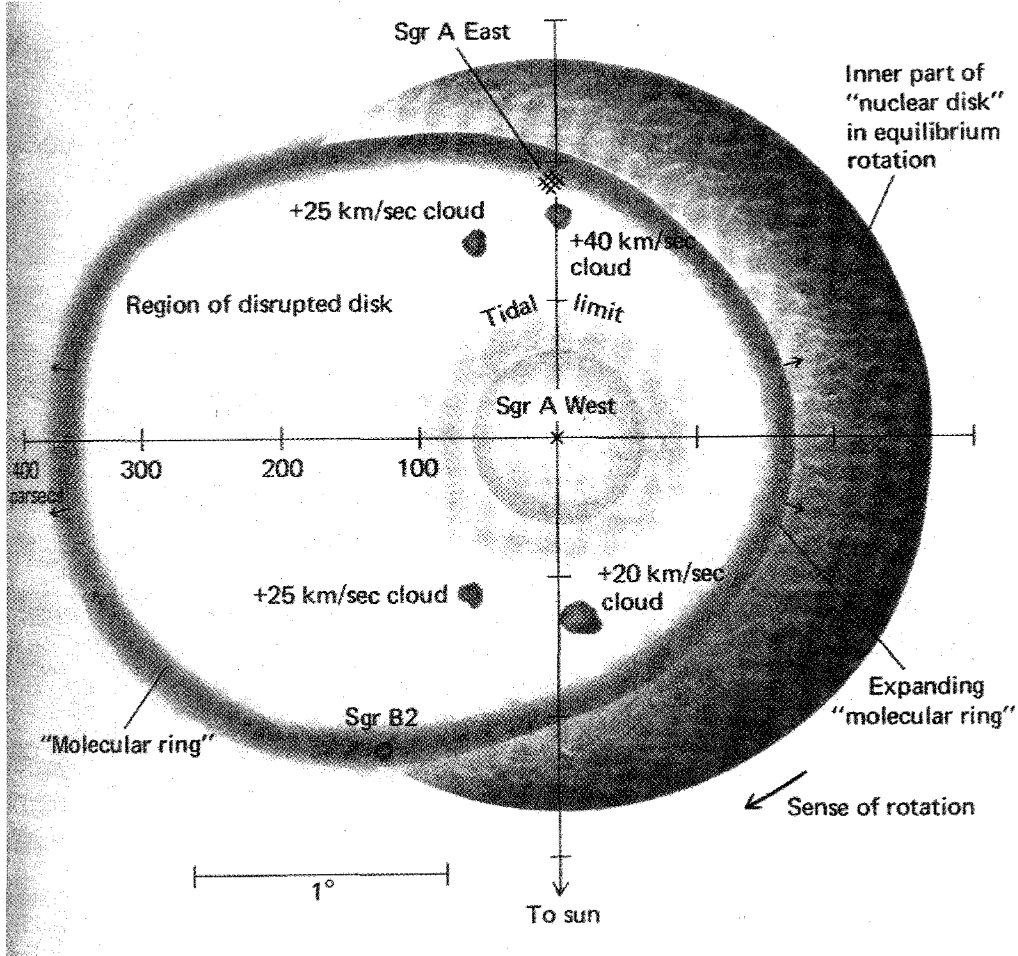
﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ (الذّاريَات: 47).

لتبقى هذه الومضة القرآنية الباهرة مع غيرها من الآيات القرآنية، شهادة صدق بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ هو خاتم أنبياء الله ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وأن القرآن الكريم هو معجزته الخالدة إلى قيام الساعة.

وإذا كان صدق القرآن الكريم جلياً في إشاراته إلى بعض أشياء الكون وظواهره، فلا



شكل (8) صورة لمجرتنا (الطريق اللبني)

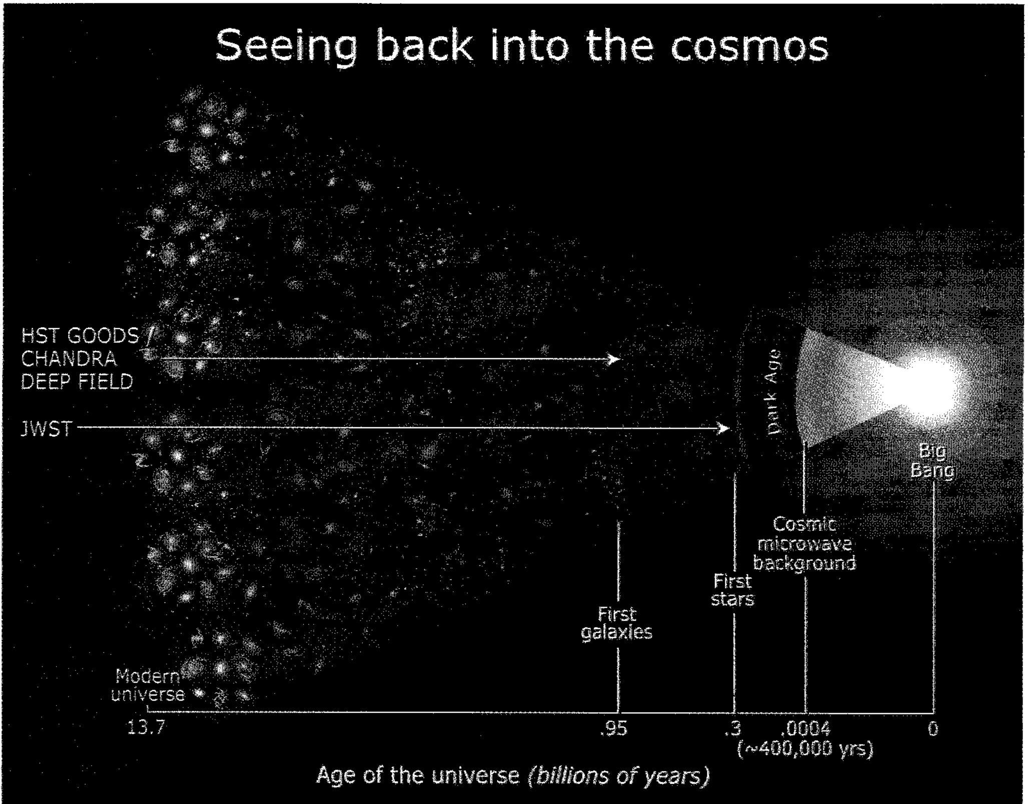


شكل (٩) رسم تخطيطي لمركز مجرتنا يوضح توسعها

بد وأن يكون صدقه في رسالته الأساسية (وهي الدين بركائزه الأربع: العقيدة، والعبادة، والأخلاق والمعاملات) جلياً كذلك. وهنا يتضح جانب من أهم جوانب الإعجاز في كتاب الله ـ وما أكثر جوانبه المعجزة ـ ألا وهو الإعجاز العلمي، وهو خطاب العصر ومنطقه، وما أحوج الأمة الإسلامية، بل ما أحوج الإنسانية كلها إلى هذا الخطاب في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، وزمن العولمة الذي تحاول فيه القوى الكبرى ـ على ضلالها ـ فرض قيمها الدينية والأخلاقية والاجتماعية المنهارة على دول العالم الثالث (وفي زمرتها الدول الإسلامية)، بحكم غلبتها العلمية والتقنية، وهيمنتها الاقتصادية والعسكرية، وقد عانت الدول الغربية ذاتها ـ ولا تزال ـ من الإغراق المادي الذي دمر مجتمعاتها، وأدى إلى تحللها

الأسري والاجتماعي والأخلاقي والسلوكي والديني، وإلى ارتفاع معدلات كل من الجريمة، والإدمان، والانتحار، وإلى الحيود عن كل قوانين الفطرة السوية التي فطر الله ﷻ خلقه عليها، وإلى العديد من المشاكل والأزمات النفسية والمظالم الاجتماعية والسياسية على المستويين المحلي والدولي لا يتسع المقام لسردها!...

وما أحوج علماء المسلمين إلى إدراك قيمة الآيات الكونية في كتاب الله فيقبلوا عليها بالتحقيق العلمي المنهجي الدقيق بعد فهم عميق لدلالة اللغة وضوابطها وقواعدها، ولأساليب التعبير فيها، وفهم لأسباب النزول، ومعرفة بالمأثور من تفسير الرسول ﷺ وجهود السابقين من المفسرين، ثم تقديم ذلك الإعجاز العلمي إلى الناس كافة ـ مسلمين وغير مسلمين. مما يعد دليلاً مادياً ملموساً على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وعلى أن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ هو خاتم أنبيائه ورسله، في غير تكلف ولا اعتساف، لأن



شكل (10) رسم توضيحي لعملية الانفجار العظيم (فتق الرتق)

القرآن الكريم غني عن ذلك، وهو أعز علينا وأكرم من أن نتكلف له. وهذا المنهج في الاهتمام بالآيات الكونية في كتاب الله، وشرح الإشارات العلمية فيها من قبل المتخصصين ـ كلٍّ في حقل تخصصه ـ هو من أكثر وسائل الدعوة إلى دين الله قبولاً في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه.



صورة لمركز مجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة)
مغطاه بغلالة من سحب الغاز والغبار

بسم الله الرحمن الرحيم

(2) ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا...﴾

(الأنبياء: 30).

في الوقت الذي ساد المجتمعات البشرية الاعتقاد الخاطىء بأزلية الكون بلا بداية ولا نهاية، وعدم محدوديته إلى ما لا نهاية، وسكونه وثباته (أي عدم حركته، على الرغم من حركة بعض الأجرام فيه)، بمعنى أن هذا الكون اللانهائي الساكن كان موجوداً منذ الأزل، وسيبقى إلى الأبد، وهي فرية أطلقها الكفار والملحدون من بني البشر في محاولة يائسة لنفي الخلق، والتنكر للخالق سبحانه وتعالى، في هذا الوقت نزل القرآن الكريم موجهاً أنظار هؤلاء الجاحدين من الكفار والمشركين والوثنيين إلى طلاقة القدرة الإلهية في إبداع خلق الكون من جرم ابتدائي واحد، وذلك في صيغة استفهام توبيخي، استنكاري، تقريعي يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

(الأنبياء: 30).

وهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة على أن الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية، بدأ الله تعالى خلقه من جرم ابتدائي واحد **(مرحلة الرتق)**، وهو القادر على كل شيء، ثم أمر الله تعالى بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق **(مرحلة الفتق)** وتحول إلى سحابة من الدخان **(مرحلة الدخان)**، وخلق الله تعالى من هذا الدخان كلاًّ من الأرض والسماء (أي جميع أجرام السماء وما ينتشر بينها من مختلف صور المادة والطاقة مما نعلم وما لا نعلم) وتعرف هذه المرحلة باسم **(مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء)**، وقد جاء وصف المرحلتين

الأخيرتين في الآية الحادية عشرة من سورة فصلت، والتي يقول فيها ربنا ﷻ موبخاً كلاً من الذين كفروا بالله تعالى فأنكروا الخلق، أو أشركوا مع الله تعالى معبوداً آخر: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

(فصلت: 9 ـ 12).

وهذه الآيات القرآنية الكريمة في كل من سورتي الأنبياء وفصلت تعرض لخلق السمٰوات والأرض في إجمال وشمول وإيجاز، كما تعرض لعدد من الحقائق الكونية الأخرى، وتربط بينها وبين عقيدة الإيمان بالله الخالق، الواحد الأحد، الفرد الصمد، لأنّ عقيدة التوحيد تقوم على أساس من الحق الذي قامت به السمٰوات والأرض، وكل ما فيهما من صور الخلق، ولكننا سوف نقصر حديثنا هنا على الإشارات الواردة في تلك الآيات عن خلق السمٰوات والأرض، وقبل أن نفعل ذلك لا بد من إشارة إلى الدلالة العلمية للآيات الكونية الواردة في كتاب الله الخالق.

الدلالة العلمية للآيات الكونية في القرآن الكريم

من المسلمات أن الآيات الكونية لم ترد في كتاب الله الخالد من قبيل الإخبار العلمي المباشر للإنسان، وذلك لأن التحصيل العلمي قد ترك لاجتهاد الناس، يجمعون شواهده جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، نظراً للطبيعة التراكمية للمعارف المكتسبة، ولمحدودية حواس الإنسان وقدرات عقله، ومحدودية كل من مكانه (في بقعة محددة من الأرض) وزمانه (أي عمره).

ومع تسليمنا بهذا الفهم، وتسليمنا كذلك بأن الآيات الكونية التي أشار إليها ربنا ﷻ في محكم كتابه جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق، وللاستشهاد على أن الله تعالى الذي أبدع هذا الخلق قادر على إفنائه، وعلى إعادة خلقه من جديد، كما تأتي هذه الآيات الكونية في مقام الاستدلال على وحدانية الخالق العظيم بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، وتتراءى هذه الوحدانية لكل ذي بصيرة في جميع جنبات الكون، وفي كل أمر من أموره، في السمٰوات وفي الأرض، في الأنفس وفي الآفاق، في كل سنة من سنن الكون، وفي كل ناموس من نواميسه، وفي كل جزئية من جزئياته، من

الذرة إلى الخلية الحية إلى المجرة، كما تتراءى في وحدة بناء الكون، ووحدة لبناته وتآصل عناصره التي ترد كلها إلى غاز الإيدروجين، وفي وحدة كل من المادة والطاقة، وفي تواصل كل من المكان والزمان، وفي وحدة بناء الخلية الحية، وفي وحدة الحياة والممات والمصير لكل حي.

وتتراءى وحدانية الخالق سبحانه وتعالى في تعميم الزوجية على جميع المخلوقات من الأحياء والجمادات، حتى يبقى الخالق في علاه متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ومع تسليمنا بكل ذلك فإن القرآن الكريم يبقى كلام الله الخالق، الذي أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد سبحانه وتعالى بحفظه باللغة نفسها التي أوحاه بها (اللغة العربية) فحفظه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية فقال ﷻ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ **(الحِجر: 9)**.

ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وكان الكون من صنعته وإبداع خلقه، فلا بد أن يكون كل حرف وكلمة وآية في القرآن الكريم حقاً مطلقاً، وأن تكون كل الإشارات الكونية فيه ناطقة بالحقيقة المطلقة للكون ومكوناته، ولو وعى المسلمون ذلك حق الوعي لكان لهم قصب السبق في الكشف عن العديد من حقائق هذا الكون قبل غيرهم من الأمم بقرون عديدة، ويظل هذا السبق من أفضل وسائل الدعوة إلى دين الله الخاتم في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه.

العلوم المكتسبة وعملية الانفجار العظيم

للعلوم المكتسبة شواهد تؤيد مفهوم الانفجار العظيم منها ما يلي:

(1) توسع الكون كدليل على الانفجار العظيم:

على الرغم من تأكيد القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة سنة حقيقة توسع الكون بقول الحق ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ **(الذّاريَات: 47)**.

فقد بقي الفلكيون إلى مطلع العشرينيات من القرن الماضي مصرين على ثبات الكون وعدم تغيره، وفي السنوات من1914 ـ 1925 م أثبت الفلكي الأمريكي (ف.م سلايفر) أن معظم المجرات التي قام برصدها خارج مجرتنا (درب التبانة) تتباعد عنا وعن بعضها بعضاً بسرعات كبيرة.

وفي سنة 1929 م تمكن «إدوين هبل» من تأكيد ظاهرة توسع الكون، وتوصل إلى الاستنتاج الصحيح أن سرعة تباعد المجرات الخارجية عن مجرتنا تتناسب تناسباً طردياً مع بعدها عنا، وفي سنة 1934 م اشترك هو وأحد مساعديه في قياس أبعاد وسرعات تحرك32 من تلك المجرات الخارجية بعيداً عن مجرتنا وعن بعضها بعضاً.



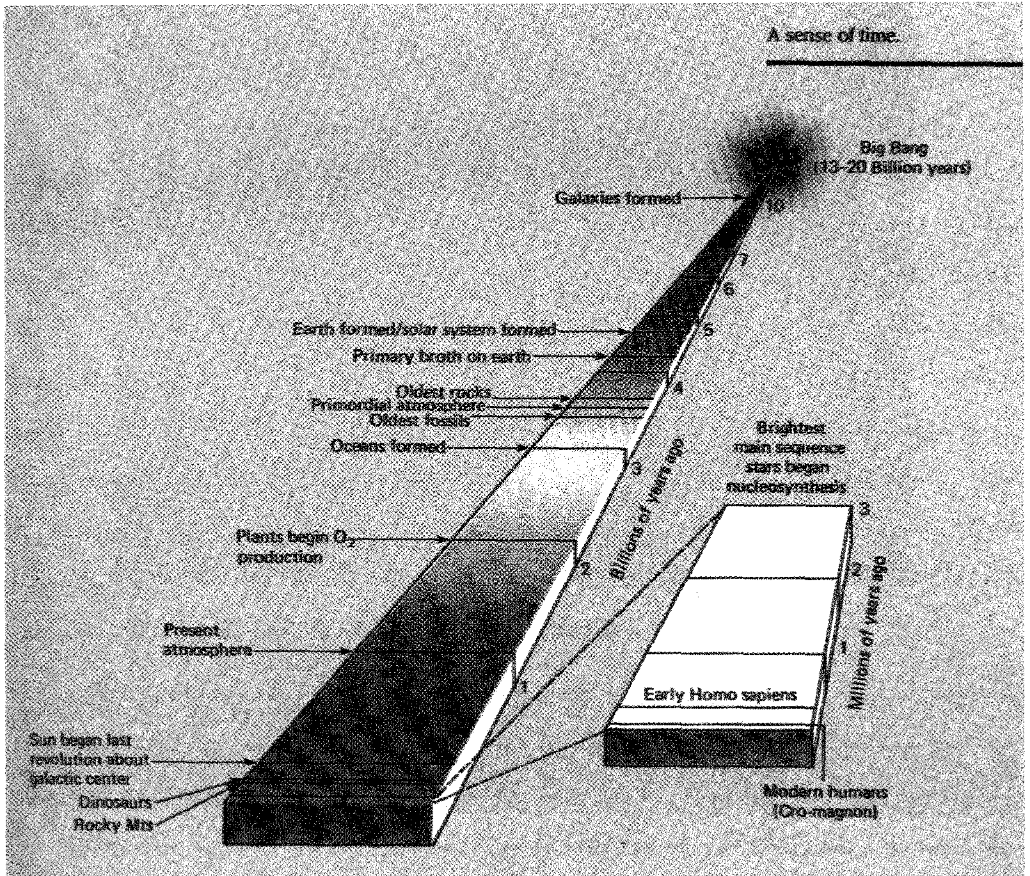
شكل (11) يوضح نشأة الكون بالانفجار العظيم

من جانب آخر استطاع علماء كل من الفيزياء النظرية والفلكية تأكيد حقيقة توسع الكون بتوظيف القوانين الرياضية في عدد من الحسابات النظرية، ففي سنة 1917 م أطلق «ألبرت أينشتاين» نظرية النسبية العامة لشرح طبيعة الجاذبية كقوة مؤثرة في الكون المدرك، وأشارت المعادلات الرياضية المستنتجة من تلك النظرية إلى أن الكون الذي نحيا فيه كون غير ثابت، فهو إما أن يتمدد وإما أن ينكمش وفقاً لعدد من القوانين المحددة له، وجاءت هذه النتيجة على عكس ما كان يعتقد «أينشتاين» وجميع معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية، ولقد أصاب «أينشتاين» الذعر حينما أدرك أن معادلاته تنبئ ـ رغم أنفه ـ بأن الكون في حالة تمدد مستمر، فعمد إلى إدخال معامل من عنده أطلق عليه اسم «الثابت الكوني» ليلغي به تمدد الكون، ويؤكد ثباته واستقراره برغم دوران الأجرام التي يحتويها، وحركاتها المتعددة، ثم عاد أينشتاين ليعترف ـ أمام سيل ملاحظات الفلكيين عن تمدد الكون ـ بأن تصرفه هذا كان أكبر خطأ علمي اقترفه في حياته.

في السنوات 1917 ـ 1924 م قام الروسي «أليكساندر فريدمان» بإدخال عدد من التحسينات على معادلات أينشتاين، وقدم نموذجين لتفسير نشأة الكون يبدأ كل منهما بحالة متفردة تتميز بكثافة لا نهائية، وتتمدد منها إلى حالات ذات كثافة أقل.

وتحدث «فريدمان» عن انحناء الكون، وعن تحدبه تبعاً لكمية المادة الموجودة فيه، فإن كانت تلك المادة أقل من قدر معين (كمية حرجة) وجب أن يستمر تمدد الكون إلى الأبد،

وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مفتوحاً، أما إذا كانت كمية المادة بالكون أقل من الكمية الحرجة غدت الجاذبية على قدر من القوة بحيث تجذب الكون إلى درجة تتوقف عندها عملية التمدد في لحظة معينة من المستقبل، عندها يبدأ الكون في الانطواء على ذاته ليعود إلى حالة الكثافة اللانهائية الأولى التي بدأ بها، وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مغلقاً. وقد أثبت كل من «**وليام دي سيتر**» في سنة 1917 م و«**آرثر إدنجتون**» في سنة 1930م أن الكون كما صورته معادلات أينشتاين هو كون غير ثابت، ولكن تصور كل منهما للكون كان تصوراً بدائياً، فبينما كان نموذج أينشتاين للكون نموذجاً مادياً دون حركة، ونموذج «دي سيتر» حركياً دون مادة، جاء نموذج «إدنجتون» وسطاً بين النموذجين بمعنى: أن الكون بدأ بحالة ساكنة، ثم أخذ في التمدد نظراً لطغيان قوى الدفع للخارج على قوى الجاذبية، ولكن انطلاقاً من فكر الإلحاد



شكل (12) يوضح مراحل خلق الكون بعد عملية الانفجار العظيم

السائد في عصره اضطر «إدنجتون» إلى أن يفترض للكون ماضياً لا نهائياً ليتخلص من حقيقة الخلق، ومن شبح نظرية الانفجار الكبير والذي سماه باسم «البداية الكارثة».

في السنوات1932 ـ 1934 م اقترح «**ريتشارد تولمان**» نموذجاً متذبذباً للكون يبدأ وينتهي بعملية الانفجار الكبير. وأخيراً اقترح «**آلان جوث**» نموذج الكون المتضخم، والذي يقترح فيه أن الكون المبكر تمدد في أول الانفجار تمدداً رأسياً سريعاً جداً مع سطوع فائق. ثم أخذت معدلات التوسع في التباطؤ إلى معدلاتها الحالية.

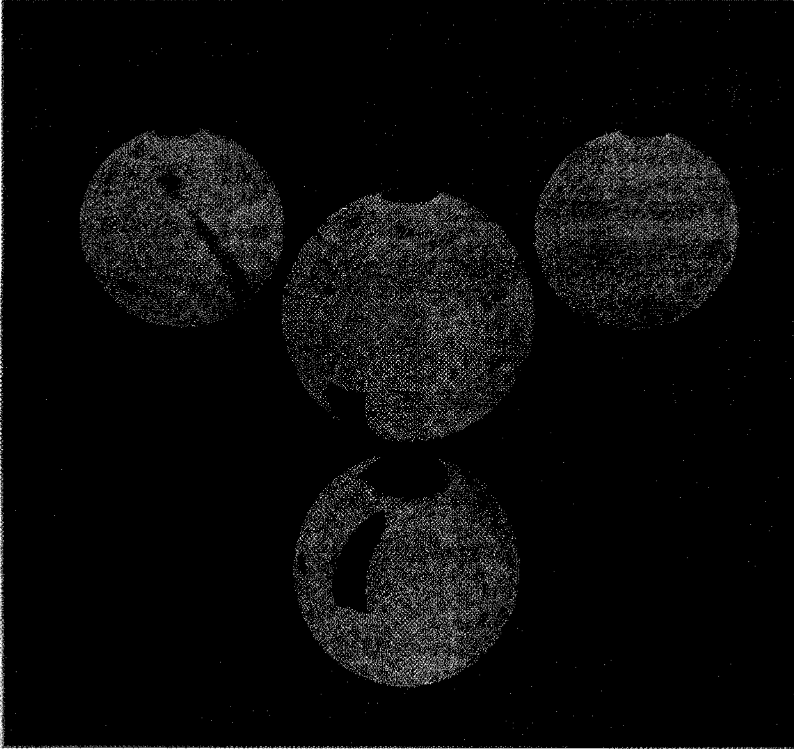
ومن منطلق إنكار الخلق، ينادي الفلكيون المعاصرون بفكرة الكون المفتوح أي: الذي يتمدد إلى ما لا نهاية، ولكن تقديرات الكتل المفقودة في حسابات توازن الكون المدرك تؤكد انغلاق الكون، هذا الانغلاق الذي سيقف بتمدده عند لحظة في المستقبل يعود الكون فيها إلى الانكماش والتكدس على ذاته ليعاود سيرته الأولى.

وبالتدريج بدأت فكرة «تمدد الكون إلى حد ما في المستقبل» تلقى القبول من الغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية، وإن بقيت أعداد منهم تدعو إلى ثبات الكون حتى مشارف الخمسينيات من القرن العشرين، ومن هذه الأعداد مجموعة علماء الفلك في جامعة كمبردج المكونة من كل من «**هيرمان بوندي**»، و«**توماس جولد**»، و«**فريد هويل**». وقد قام هذا الفريق بنشر سلسلة من المقالات والبحوث في السنوات 1946، 1948، 1949 م دفاعاً عن النموذج الثابت للكون، ثم اضطروا إلى الاعتراف بحقيقة تمدده بعد ذلك بسنوات قليلة، ومن عجائب القدر بهؤلاء الجاحدين لحقيقة الخلق، المتنكرين لجلال الخالق ﷻ، المنادين كذباً بأزلية العالم، أن يكون أحد زعمائهم وهو «فريد هويل» الذي حمل لواء الادعاء بثبات الكون واستقراره وأزليته لسنوات طويلة هو الذي يعلن بنفسه في سخرية لاذعة تعبير «الانفجار الكبير للكون»، وذلك في سلسلة أحاديث له عبر الإذاعة البريطانية في سنة 1950م كان ينتقد فيها ظاهرة تمدد الكون، ويحاول إثبات بطلانها، ثم جاء بعد ذلك بسنوات ليكون من أشد المدافعين عنها.

وكانت نظرية خلق الكون من جرم أولي واحد عالي الكثافة قد توصل إليها البلجيكي «**جورج لوميتر**» في سنة 1927 م وذلك في رسالة تقدم بها إلى معهد مساشوسيش للتقنية، دافع فيها وفي عدد من بحوثه التالية عن حقيقة تمدد الكون، ولم تلق أبحاثه أي انتباه إلى أن جاء «**إدنجتون**» في سنة 1930 م ليلفت إليها الأنظار، ومن هنا أطلق على «لوميتر» لقب «صاحب فكرة الانفجار الكبير في صورتها الأولى».

(2) بقايا الإشعاع الكوني كدليل على الانفجار العظيم:

في سنة 1948 أعلن كل من «**جورج جامو**» وزميله «**رالف ألفر**» أن تركيز العناصر في الجزء المدرك من الكون يشير إلى أن الجرم الأولي الذي بدأ به الكون كان تحت ضغط وفي درجة حرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما، وعند انفجاره انتقلت تلك الحرارة إلى سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن ذلك الانفجار، وسمحت بعدد من التفاعلات النووية التي أدت إلى تكون العناصر الأولية من مثل الإيدروجين والهيليوم.

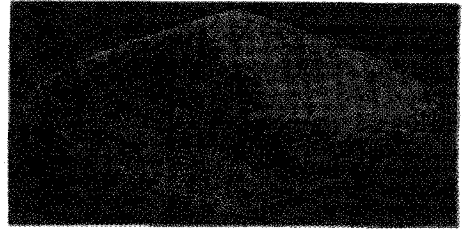


شكل (13) يمثل الخلفية الإشعاعية للجزء المدرك من الكون

وفي السنة نفسها (1948 م) قدم كل من «ألفر» و«هيرمان» اقتراحاً بأن الجرم الابتدائي للكون كان له إشعاع حراري يشابه إشعاع الأجسام المعتمة، وأن هذا الإشعاع تناقصت شدته مع استمرار تمدد الكون وتبرده، ولكن لا بد وأن تبقى منه بقية في صفحة السماء، إذا أمكن البحث عنها وتسجيلها، كانت تلك البقية الإشعاعية من أقوى الأدلة على بدء خلق الكون بعملية الانفجار الكبير.

وفي سنة 1964 م تمكن اثنان من علماء مختبرات «بل» للأبحاث وهما «**أرنو بنزياس**» و«**روبرت ويلسون**» بمحض المصادفة من اكتشاف تلك البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني على هيئة ضوضاء لاسلكية محيرة تفد بانتظام إلى الهوائي الذي كانا قد نصباه لغاية أخرى من جميع الجهات في السماء حيثما وجه الهوائي، وقدروها بثلاث درجات مطلقة (270 درجة مئوية تحت الصفر المئوي).

في الوقت نفسه كان كل من «**روبرت دايك**» وتلميذه «**بيبلز**» قد استنتجا من معادلاتهما الرياضية الفلكية أن النسب المقدرة لغازي الإيدروجين والهيليوم في الكون تؤكد الكمية الهائلة من الإشعاع التي نتجت عن الانفجار الكبير وتدعم نظريته، ومع تمدد الكون ضعف هذا الإشعاع بالتدريج وانخفضت درجة حرارته إلى بضع درجات قليلة فوق الصفر المطلق (الذي يساوي 273 درجة تحت الصفر المئوي).


A 3.3 mm


B 5.7 mm


C 9.5 mm

شكل (14) يوضح صورة السماء كما صورتها المركبة المكتشفة للخلفية الإشعاعية للكون

في سنة 1965 م قام كل من «بنزياس» و«ولسون» بتصحيح قيمة البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني وأثبتا أنها من الموجات الكهرومغناطيسية المتناهية في القصر.

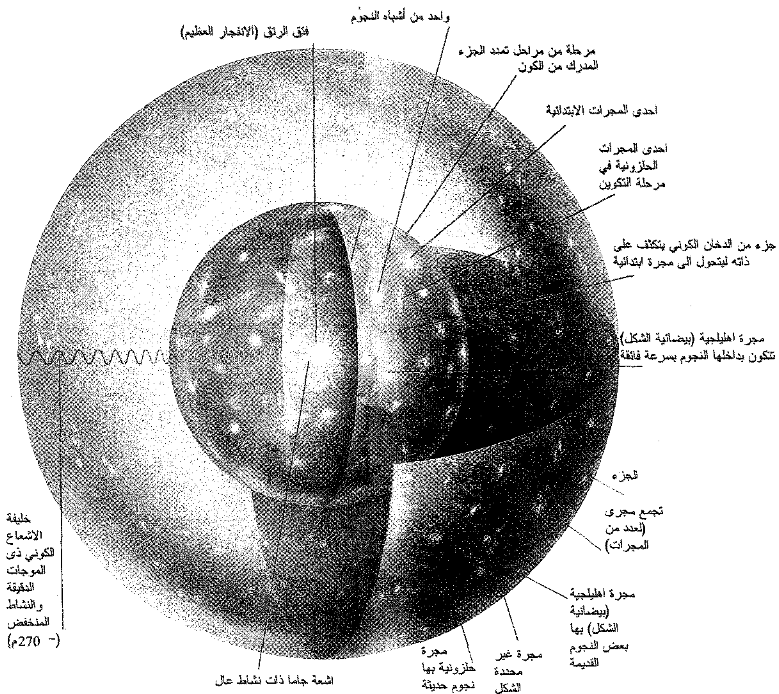
(3) تصوير بقايا الدخان الكوني كدليل على عملية الانفجار العظيم:

في سنة 1989 م أرسلت مؤسسة ناسا الأمريكية إلى الفضاء مركبة فضائية لجمع المعلومات حول الإشعاع الحراري الكوني أطلق عليها اسم مكتشف الخلفية الإشعاعية **(COBE)** «كوب» وزود بأجهزة فائقة الحساسية أثبتت وجود تلك الأشعة الأثرية المتبقية عن عملية الانفجار العظيم. وكان في هذا الاكتشاف التفسير المنطقي لسبب الأزيز اللاسلكي المنتظم الذي يعج به الكون، والذي يأتي إلينا من مختلف أطراف الكون المدرك، والذي

بقي على هيئة صدى لعملية الانفجار الكبير، وقد قامت هذه المركبة الفضائية بإرسال ملايين الصور إلى الأرض عن بقايا الدخان للأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم من على مسافة تقدر بعشرة مليارات من السنين الضوئية. وقد منح كل من «بنزياس» و«ولسون» جائزة نوبل في سنة 1978 م على اكتشافهما الذي كان فيه الدليل المادي الملموس لدعم نظرية الانفجار الكبير، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة شبه المؤكدة، ودفع بالغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية إلى الاعتقاد بصحتها، وسبحان الخالق الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وبدء خلق الكون بعملية انفجار كبرى هو من دلائل طلاقة القدرة الإلهية، لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدي إلى تناثر المادة وبعثرتها، ولا يخلف وراءه إلا الدمار،

رسم توضيحي لعملية انفجار وتمدد الكون (عملية فتق الرتق)

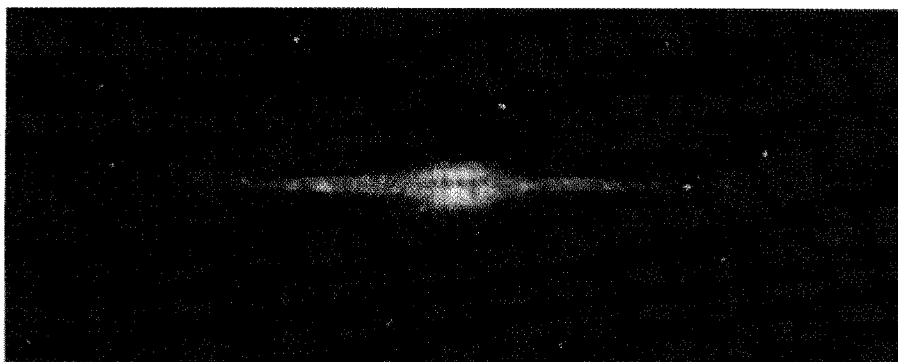


شكل (15) تصور عام للكون كما يراه علماء الفلك

أما هذا الانفجار الكوني (الفتق بعد الرتق) فقد أدى إلى إبداع نظام كوني له تصميم دقيق، محكم الأبعاد، والعلاقات، والتفاعلات، منضبط الكتل والأحجام والمسافات، منتظم الحركة والجري والتداخلات، مبني على الوتيرة نفسها من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته على الرغم من تعاظم أبعاده، وكثرة أجرامه، وتعقيد علاقاته، وانفجارٌ هذه نتائجه لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير حكيم، وتقدير مسبق عظيم، لا يقدر عليه إلا رب العالمين، وقد أشار العالم البريطاني المعاصر «**ستيفين هوكنج**» إلى شيء من ذلك في كتابه المعنون «تاريخ موجز للزمن» الذي نشره في كندا سنة 1988م، ولكن إشاراته جاءت على استحياء شديد نظراً لجو الإلحاد الذي يسود الغرب بصفة عامة في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه، والكتاب مملوء بالاستنتاجات المؤكدة لحقيقة الخلق، وعظمة الخالق ﷻ؛ وإن جاءت كلها مغلفة بسحابة من الاستحياء والتردد الشديدين.

القرآن الكريم وخلق السموات والأرض

في ظل سيادة الاعتقاد الخاطئ بأن الكون الذي نحيا فيه كان منذ الأزل، وسيبقى إلى الأبد، وأنه كون لا نهائي، لا تحده حدود، وأنه كون ساكن، ثابت في مكانه، لا يتغيّر، وأن النجوم مثبتة في السماء التي تدور بنجومها كقطعة واحدة حول الأرض، وأن الكون شامل للعناصر الأربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار، وحول هذه الكرات الأربع تدور السماء بنجومها، وغير ذلك من الخرافات والأساطير، في هذا الوقت جاء القرآن الكريم مؤكداً أن الكون مخلوق له بداية، ولابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية، وأنه محدود بحدود لا يتجاوزها، وإن كنا لا نستطيع أن ندركها، ومؤكداً أن جميع أجرام السماء في



شكل (16) يوضح صورة لمجرتنا بالأشعة القريبة من تحت الحمراء أخذتها المركبة المكتشفة للخلفية الإشعاعية للكون (COBE)

حركة دائبة، وجري مستمر إلى أجل مسمى، وأن السماء ذاتها في توسع دائب إلى أجل مسمى، وأن السمٰوات والأرض كانتا في الأصل جرماً واحداً ففتقهما الله ﷻ فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلى الدخان الذي خلقت منه الأرض والسماء، وأن هذا الكون سوف يطوى ليعود كهيئته الأولى جرماً واحداً مفرداً ينفتق مرة أخرى إلى سحابة من الدخان تخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، وسمٰوات غير السمٰوات التي تظلنا في حياتنا الدنيا، وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة، وفيها الحياة أبدية خالدة، خلوداً بلا موت. . . !!

وقد لخص لنا ربنا ﷻ عملية خلق السمٰوات والأرض وإفنائهما، وإعادة خلقهما في صياغة كلية شاملة من قبل ألف وأربعمائة سنة، وذلك في خمس آيات من آي القرآن الكريم على النحو التالي:

(1) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ **(الذّاريَات: 47)**.

(2) ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ **(الأنبياء: 30)**.

(3) ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ **(فصلت: 11)**.

(4) ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ **(الأنبياء: 104)**.

(5) ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ **(إبراهيم: 48)**.

وهذه الآيات القرآنية الكريمة تشير إلى عدد من حقائق الكون الكبرى والتي منها:

(1) ابتداء خلق الكون من جرم أولي واحد (مرحلة الرتق الأول).

(2) فتق هذا الجرم الأولي أي انفجاره (مرحلة الفتق الأول).

(3) تحول المادة في الجرم الأولي عند فتقه إلى الدخان (مرحلة الدخان).

(4) خلق كل من الأرض والسمٰوات من الدخان الكوني (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء).

(5) توسع الكون منذ اللحظة الأولى لخلقه وإلى أن يشاء الله ﷻ.

(6) حتمية عودة الكون بكل ما فيه ومن فيه إلى جرم ابتدائي واحد مشابه تماماً للجرم

الأولي الذي ابتدأ منه الخلق (مرحلة الرتق الثاني أو طي السماء أو الانسحاق الشديد للكون).

(7) حتمية فتق هذا الجرم الثاني أي انفجاره (مرحلة الفتق للرتق الثاني).

(8) حتمية تحول الرتق الثاني بعد فتقه إلى سحابة من الدخان الكوني.

(9) إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية، وسمٰوات غير السمٰوات التي تظللنا اليوم وبداية رحلة الآخرة؛ وهي دار الخلود.

وهذه الحقائق الكونية لم يستطع الإنسان إدراك شيء منها إلا في القرن العشرين، حين توصل العلم الحديث إلى إثبات توسع الكون في الثلث الأول من ذلك القرن، ثم اندفع بهذه الملاحظة الصحيحة إلى الاستنتاج المنطقي أننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن، فلا بد وأن تلتقي جميع صور المادة والطاقة المنتشرة في الكون، كما يلتقي كل من المكان والزمان، وجميع ما في الكون من موجودات في نقطة واحدة تكاد تقترب من الصفر (أي العدم) على هيئة ابتدائية للكون أو (مرحلة الرتق)، وأن تلك الهيئة الأولية كانت متناهية الصغر في الحجم، كما كانت بالقطع في مستوى من الكثافة ودرجة الحرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما فانفجرت (مرحلة الفتق)، ونتج عن هذا الانفجار الكوني العظيم (الفتق بعد الرتق) تحول هذا الجرم الأولي للكون ـ المتناهي في ضآلة الحجم وضخامة الكثافة وشدة الحرارة ـ إلى سحابة من الدخان (مرحلة الدخان الكوني) الذي خلق الله ﷻ منه الأرض والسماء (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء). ويتوقف العلم المكتسب عند ملاحظة أن عملية التوسع الكوني لا يمكن لها أن تستمر إلى ما لا نهاية، وذلك لأن قوة الدفع إلى الخارج الناتجة عن الانفجار الكوني التي بدأت بعنف بالغ هي اليوم في تناقص مستمر، وسوف يؤدي هذا التناقص التدريجي في سرعة توسع الكون إلى الوصول به إلى مرحلة تتغلب فيها قوى الجاذبية على قوى الدفع إلى الخارج، فيبدأ الكون في الانكماش والتكدس على ذاته حتى يعود إلى حالة مشابهة تماماً لحالته الأولى التي ابتدأ منها خلق الكون (مرحلة الرتق الأولى)، وتعرف هذه المرحلة المستقبلية باسم مرحلة الرتق الثانية (أو الرتق بعد الفتق أو طي السماء أو مرحلة الانسحاق الشديد للكون كما يحلو لبعض الفلكيين المعاصرين تسميتها).

وقد أخبرنا ربنا ﷻ من قبل ألف وأربعمائة سنة أنه ﷻ قد تعهد بإعادة السمٰوات والأرض إلى سيرتها الأولى وذلك بقوله ﷻ في محكم كتابه:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا

﴿عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 104).

وليس من قبيل المصادفة أن ترد الآيتان رقم (30) وهي المتعلقة بخلق الكون (الفتق بعد الرتق)، ورقم (104) وهي المتعلقة بإفناء الكون (الرتق بعد الفتق) في سورة واحدة وهي سورة الأنبياء. ولولا أن الله تعالى قد تعهد بإعادة خلق أرض غير أرضنا وخلق سماء غير سمائنا، وأخبرنا بذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة وذلك بقوله ﷻ:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم: 48).

ما كان أمام العلوم المكتسبة من سبيل إلى معرفة ذلك أبداً.

هذه الحقائق الكونية الكبرى في خلق السمٰوات والأرض، لم يستطع الإنسان الوصول إلى إدراك شيء منها إلا في منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك بقليل، حين تبلورت نظرية فلكية باسم «نظرية الانفجار العظيم». وهذه النظرية هي الأكثر قبولاً اليوم عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في تفسير نشأة الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها من قبل ألف وأربعمائة سنة وذلك بقول الحق ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: 30).

والرتق في اللغة عكس الفتق، لأن **الرتق**: هو الضم والالتحام والالتئام سواء كان ذلك طبيعياً أو صناعياً، يقال: رتقت الشيء فارتتق أي: فالتأم والتحم. **والفتق**: لغة: هو الفصل والشق والانشطار، والمعنى الواضح لنا من هذه الآية الكريمة أن السمٰوات والأرض كانتا في الأصل شيئاً واحداً متصلاً، ملتئماً، وملتحماً، ففتقه ربنا ﷻ بأمر منه إلى الأرض التي نحيا عليها، وإلى سبع سمٰوات من فوقنا.

والقرآن الكريم هنا يعطي الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكوني العظيم، ويترك التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين الذين يتفكرون في خلق السمٰوات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة في صفحة السماء لتؤكد في منتصف القرن العشرين صدق ما قد أنزله الله تعالى ـ من قبل ألف وأربعمائة من السنين ـ في آخر كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم).

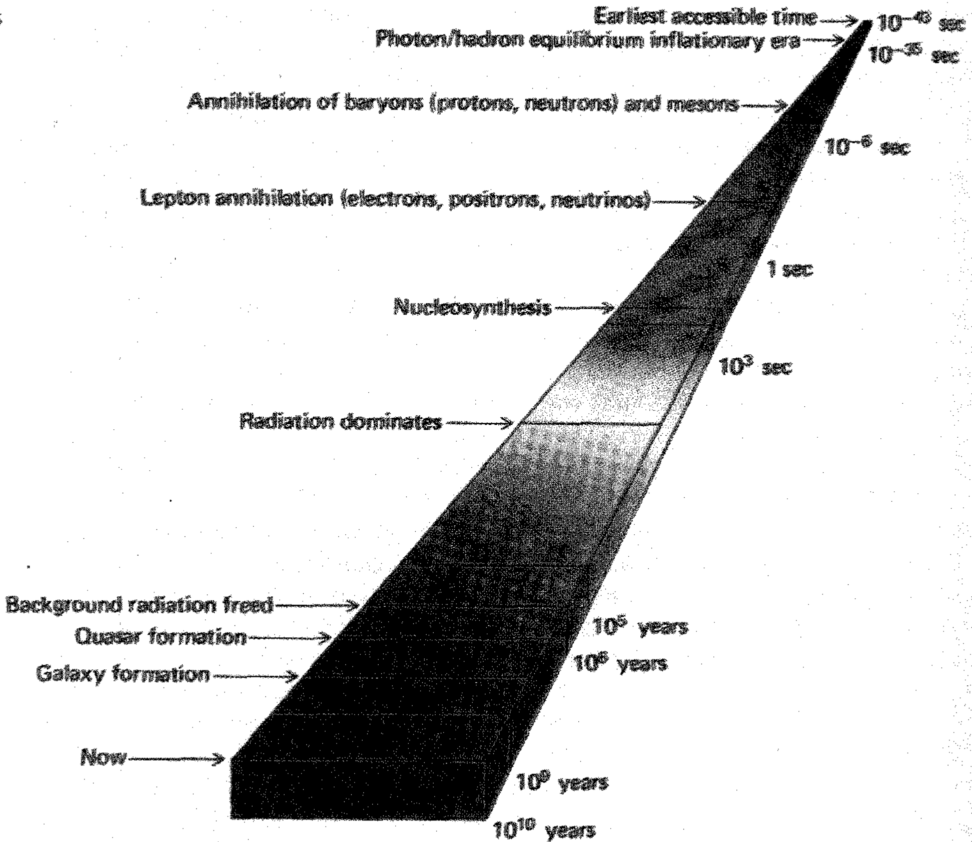
هذا السبق القرآني بحقيقة الفتق بعد الرتق يجعلنا نرتقي بنظرية الانفجار الكوني العظيم إلى مقام الحقيقة، ونكون هنا قد انتصرنا بالقرآن الكريم للعلم المكتسب، وليس العكس، والسبب في لجوئنا إلى تلك النظرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية رقم (30) من سورة

الأنبياء هو أن العلوم المكتسبة لايمكن لها أن تتجاوز مرحلة التنظير في القضايا التي لا تخضع لحس الإنسان المباشر أو إدراكه المباشر من مثل قضايا الخلق والإفناء وإعادة الخلق (خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان) وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: 51).

كذلك فإن نظرية الانسحاق الكوني العظيم يرتقي بها إلى مقام الحقيقة قول ربنا ﷻ:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 104).



شكل (17) يمثل الأحداث الكبرى في تاريخ الكون منذ الانفجار العظيم

هذا السبق القرآني بالإشارة إلى حقيقة الفتق بعد الرتق أو ما يعبر عنه بالانفجار الكوني العظيم، وإلى حقيقة توسيع السماء أو تمدد الكون، وإلى حقيقة الخلق من الدخان، وإلى حقيقة الرتق بعد الفتق (طي السماء أو الانسحاق الكوني العظيم)، وإلى حقيقة إعادة خلق أرض غير الأرض وسمٰوات غير السمٰوات الحالية، وإلى العديد غيرها من الحقائق التي صاحبت خلق السمٰوات والأرض أو التي تلازمهما اليوم، أو التي سوف تحدث عند إفناء الكون، هو من أعظم الشهادات بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ولايمكن له أن يكون كلام أحد غير الله، كما يشهد لهذا النبي الخاتم ﷺ بأنه كان موصولاً بوحي السماء، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، حيث لم يكن لأحد من الخلق علم بهذه الحقائق الكونية الكبرى في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعد نزوله.

وتشهد هذه الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وأمثالها من الآيات القرآنية الأخرى المتعلقة بالكون وظواهره وبعض مكوناته بالدقة والشمول والكمال، وبالصياغة المعجزة التي يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع المستوى العلمي للعصر، وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندي من أبلغ جوانب الإعجاز في كتاب الله.



بسم الله الرحمن الرحيم

(3) ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾

(فصلت: 11).

في الثلث الأول من القرن العشرين لاحظ الفلكيون عملية توسع الكون التي دار من حولها جدل طويل حتى سلم العلماء بحقيقتها، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة من قبل ألف وأربعمائة سنة بقول الحق ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

(الذّاريَات: 47).

وكانت هذه الآية الكريمة قد نزلت والعالم كله ينادي بثبات الكون، وعدم تغيره، وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى منتصف القرن العشرين حين أثبتت الأرصاد الفلكية حقيقة توسع الكون، وتباعد مجراته عنا، وعن بعضها البعض بمعدلات تقترب أحياناً من سرعة الضوء (المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية)، وقد أيدت كل من المعادلات الرياضية وقوانين الفيزياء النظرية استنتاجات الفلكيين في ذلك. وانطلاقاً من هذه الملاحظة الصحيحة نادى كل من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية بأننا إذا عدنا بهذا الاتساع الكوني إلى الوراء مع الزمن فلا بد أن تلتقي كل صور المادة والطاقة الموجودة في الكون (المدرك منها وغير المدرك) وتتكدس على بعضها البعض في جرم ابتدائي واحد يتناهى في الصغر إلى ما يقرب الصفر أو العدم، وتنكمش في هذه النقطة أبعاد كل من المكان والزمان حتى تتلاشى **(مرحلة الرتق)**.

وهذا الجرم الابتدائي كان في حالة من الكثافة والحرارة تتوقف عندهما كل القوانين الفيزيائية المعروفة، ومن ثم فإن العقل البشري لا يكاد يتصورهما، فانفجر هذا الجرم الأولي بأمر من الله تعالى في ظاهرة

يسميها العلماء «عملية الانفجار الكوني العظيم» ويسميها القرآن الكريم باسم «**الفتق**»، فقد سبق القرآن الكريم كل المعارف الإنسانية بالاشارة إلى ذلك الحدث الكوني العظيم من قبل ألف وأربعمائة من السنين بقول الحق ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ **(الأنبياء: 30)**.

وتشير دراسات الفيزياء النظرية في أواخر القرن العشرين إلى أن جرماً بمواصفات الجرم الابتدائي للكون عندما ينفجر لا بد وأن يتحول إلى سحابة من الدخان الذي تخلقت منه الأرض وكل أجرام السماء، وقد سبق القرآن الكريم بألف وأربعمائة سنة كل المعارف الإنسانية بإشارته إلى مرحلة الدخان في قول الحق ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ **(فصلت: 9 ـ 12)**.

وفي 8 نوفمبر سنة 1989 م أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية مركبة فضائية باسم «مكتشف الخلفية الإشعاعية» للكون وذلك في مدار على ارتفاع ستمائة كيلومتر حول الأرض بعيداً عن تأثير كل من السحب والملوثات في النطق الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وقد قامت هذه المركبة الفضائية بإرسال ملايين الصور والمعلومات إلى الأرض عن آثار الدخان الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم للكون من على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية، وهي حالة دخانية معتمة سادت الكون قبل خلق الأرض والسمٰوات، فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأبعمائة سنة قوله الحق:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

دخانية السماء بعد الانفجار الكوني العظيم (أي بعد فتق الرتق)

بعد التسليم بحقيقة توسع الكون، وبرد ذلك التوسع إلى الوراء مع الزمن حتى الوصول إلى جرم ابتدائي واحد متناه في الضآلة حجماً إلى الصفر أو ما يقرب من العدم، ومتناه في الكثافة والحرارة الي حد لا يكاد العقل الانساني أن يتخيله، لتوقف كل قوانين الفيزياء المعروفة عنده **(مرحلة الرتق)**، وبعد التسليم بانفجار هذا الجرم الابتدائي **(مرحلة الفتق)** في

ظاهرة كونية يسميها العلماء «الانفجار الكوني الكبير»، بدأ كل من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية في تحليل مسار الأحداث الكونية بعد هذا الحدث الكوني الرهيب.

ومع إيماننا بأن تلك الأحداث الموغلة في تاريخ الكون تقع في صميم الغيب الذي أخبر ربنا (تبارك وتعالى) عنه بقوله (عز من قائل):

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ۝٥١﴾ **(الكهف: 51)**

إلا أن السنن التي فطر الله (تعالى) الكون عليها لها من الاطراد، والاستمرار، والثبات، ما يمكن أن يعين الإنسان على الوصول إلى شيء من التصور الصحيح لتلك الأحداث الغيبية الموغلة في أبعاد التاريخ الكوني على الرغم من حس الإنسان المحدود، وقدرات عقله المحدودة، ومحدودية كل من زمانه ومكانه.

كذلك فإن التقنيات المتطورة من مثل الصواريخ العابرة لمسافات كبيرة في السماء، والأقمار الصنعية التي تطلقها تلك الصواريخ، والأجهزة القياسية والتسجيلية الدقيقة التي تحملها قد ساعدت على الوصول إلى تصوير الدخان الكوني الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم، والذي وجدت بقايا أثرية له علي أطراف الجزء المدرك من الكون، وعلى أبعاد تصل إلى عشرة مليارات من السنين الضوئية لتثبت دقة التعبير القرآني بلفظة دخان التي وصف بها حالة الكون قبل خلق السماوات والأرض.

الفيزياء الفلكية ودخانية الكون

بعد الانفجار العظيم تحول الكون إلى غلالة من الدخان الذى خلقت منه الأرض والسموات، وتشير الحسابات الفيزيائية إلى أن حجم الكون قبل الانفجار العظيم كاد يقترب من الصفر، وكان في حالة غريبة من تكدس كل من المادة والطاقة، وتلاشي كل من المكان والزمان، تتوقف عندها كل قوانين الفيزياء المعروفة **(مرحلة الرتق)**، ثم انفجر هذا الجرم الابتدائي الأولي في ظاهرة كبرى تعرف بظاهرة الانفجار الكوني العظيم **(مرحلة الفتق)** وبانفجاره تحول إلى كرة من الإشعاع والجسيمات الأولية أخذت في التمدد والتبرد بسرعات فائقة حتى تحولت إلى غلالة من الدخان.

فبعد ثانية واحدة من واقعة الانفجار العظيم تقدر الحسابات الفيزيائية انخفاض درجة حرارة الكون من تريليونات الدرجات المطلقة إلى عشرة بلايين من الدرجات المطلقة **(Stephen W. Hawking, 1988)** وعندها تحول الكون إلى غلالة من الدخان المكون من

الفوتونات (**Photons**) والإلكترونات (**Electrons**) والنيوترينوات (**Neutrinos**) وأضداد هذه الجسيمات في زوجية واضحة (**Particle and Antiparticle Pairs**) مع قليل من البروتونات (**Protons**) والنيوترونات (**Neutrons**).

ولولا استمرار الكون في التوسع والتبرد بمعدلات منضبطة بدقة فائقة لأفنت الجسيمات الأولية للمادة وأضدادها بعضها بعضاً، وانتهى الكون، ولكنه حفظ بحفظ الله الذي أتقن كل شيء خلقه. والنيوترونات (**Neutrons**) يمكن أن توجد في الكون على هيئة ما يسمى باسم المادة الداكنة (**Dark Matter**).

وقد نادى آلان جوث (**Alan Guth**) في سنة 1981 م بأن التمدد عند بدء الانفجار العظيم كان بمعدلات فائقة التصور أدت إلى زيادة قطر الكون بمعدل 10^{29} مرة في جزء من الثانية (**Inflationary Stage**)، وتشير حسابات الفيزياء النظرية إلى معدلات أعلى من ذلك (10^{100})، وإلى الاستمرار في انخفاض درجة حرارة الكون إلى بليون (ألف مليون) درجة مطلقة بعد ذلك بقليل، وعند تلك الدرجة اتحدت البروتونات (**Protons**) والنيوترونات (**Neutrons**) لتكوين نوي ذرات الإيدروجين الثقيل أو الديوتريوم (**Deuterium**) التي تحللت إلى الإيدروجين أو اتحدت مع مزيد من البروتونات والنيوترونات لتكون نوي ذرات الهيليوم (**Helium Nuclei**) والقليل من نوي ذرات عناصر أعلي مثل نوي ذرات الليثيوم (**Lithium Nuclei**) ونوي ذرات البريليوم (**Beryllium Nuclei**)، ولكن بقيت النسبة الغالبة لنوي ذرات غازي الأيدروجين والهيليوم، وتشير الحسابات النظرية إلى أنه بعد ذلك بقليل توقف إنتاج كل من الهيليوم والعناصر التالية له، واستمر الكون في الاتساع والتمدد والتبرد لفترة زمنية طويلة، ومع التبرد انخفضت درجة حرارة الكون إلى آلاف قليلة من الدرجات المطلقة حين بدأت ذرات العناصر في التكون والتجمع وبدأ الدخان الكوني في التكدس على هيئة أعداد من السدم الكونية الهائلة. ومع استمرار عملية الاتساع والتبرد في الكون بدأت أجزاء من تلك السدم في التكثف على ذاتها بفعل الجاذبية وبالدوران حول نفسها بسرعات متزايدة بالتدريج حتى تخلقت بداخلها كتل من الغازات المتكثفة، ومع استمرار دوران تلك الكتل الكثيفة في داخل السدم بدأت كميات من غازي الإيدروجين والهيليوم الموجودة بداخلها في التكدس على ذاتها بمعدلات أكبر، مما أدى إلى مزيد من الارتفاع في درجات حرارتها حتى وصلت إلى الدرجات اللازمة لبدء عملية الاندماج النووي فتكونت النجوم المنتجة للضوء والحرارة.

وفي النجوم الكبيرة الكتلة استمرت عملية الاندماج النووي لتخليق العناصر الأعلى في

وزنها الذري بالتدريج مثل الكربون والأوكسيجين وما يليهما حتى يتحول لب النجم بالكامل إلى الحديد فينفجر هذا النجم المستعر (**Nova**) على هيئة المستعر الأعظم (**Supernova**) وتتناثر أشلاء المستعرات العظمى (**Supernovae**) وما بها من عناصر ثقيلة في داخل المجرة لتتكون منها الكواكب والكويكبات، بينما يبقى منها في غازات المجرة ما يمكن أن يدخل في بناء نجم آخر بإذن الله.

وتحتوي شمسنا على نحو2% من كتلتها من العناصر الأثقل في أوزانها الذرية من غازي الإيدروجين والهيليوم، وهما المكونان الأساسيان لها، وهذه العناصر الثقيلة لم تتكون كلها بالقطع في داخل الشمس بل جاءت إليها من بقايا انفجار بعض من المستعرات العظمى.

وعلى الرغم من تكدس كل من المادة والطاقة في أجرام السماء (مثل النجوم وتوابعها) فإن الكون المدرك يبدو لنا متجانساً على نطاق واسع، في كل الاتجاهات، وتحده خلفية إشعاعية متساوية حيثما نظر الراصد.

كذلك فإن توسع الكون لم يتجاوز بعد الحد الحرج الذي يمكن أن يؤدي إلى انهياره على ذاته، وتكدسه من جديد، مما يؤكد أنه محكوم بضوابط بالغة الدقة والإحكام، ولا يزال الكون المدرك مستمراً في توسعه بعد أكثر من عشرة مليارات من السنين (هي العمر الأدنى المقدر للكون) وذلك بنفس معدل التوسع الحرج، ولو تجاوزه بجزء من مئات البلايين من المعدل الحالي للتوسع لانهار الكون على الفور، فسبحان الذي حفظه من الانهيار..!! والنظرية النسبية لا يمكنها تفسير ذلك لأن كل القوانين الفيزيائية، وكل الأبعاد المكانية والزمانية تنهار عند الجرم الابتدائي للكون قبل انفجاره (مرحلة الرتق) بكتلته، وكثافته وحرارته الفائقة، وانعدام حجمه إلى ما يقرب من الصفر، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لخلق هذا الكون بهذا القدر من الإحكام غير الخالق (ﷻ): الذي يصف هذا الأمر بقوله:
﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ **(يسٓ: 82)**

فعلى سبيل المثال لا الحصر يذكر علماء الفيزياء أنه إذا تغيرت الشحنة الكهربائية للإليكترون قليلاً، ما استطاعت النجوم القيام بعملية الاندماج النووي، ولعجزت عن الانفجار على هيئة ما يسمى المستعر الأعظم (**Supernova**) إذا تمكنت فرضاً من القيام بعملية الاندماج النووي.

والمعدل المتوسط لعملية اتساع الكون لابد وأنه قد اختير بحكمة بالغة لأن معدله الحالي لا يزال قريباً من الحد الحرج اللازم لمنع الكون من الانهيار على ذاته.

ويقرر علماء الفيزياء النظرية والفلكية أن الدخان الكوني كان خليطاً من

الغازات الحارة المعتمة، التي تتخللها بعض الجسيمات الأولية للمادة وأضداد المادة **(Particles of both Matter and Antimatter)** حتى تشهد هذه الصورة من صور الزوجية السائدة في الكون لله بالتفرد بالوحدانية المطلقة فوق كافة خلقه، ولا توجد كلمة توفي هذه الحالة حقها من الوصف مثل كلمة دخان، فسبحان الذي أنزلها في كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين.

وقد تكونت من تلك الجسيمات الأولية للمادة في الدخان الكوني الأولي نوي ذرات غازي الإيدروجين والهيليوم، وبعد ذلك وصلت إلى الحد الذي يسمح بتكوين ذرات ثابتة لعناصر أكبر وزناً وذلك باتحاد نوي ذرات الإيدروجين والهيليوم. وظل هذا الدخان المعتم سائداً ومحتوياً على ذرات العناصر التي خلق منها بعد ذلك كل من الأرض والسماء. وتفيد الدراسات النظرية أن الكون في حالته الدخانية كان يتميز بقدر من التجانس مع تفاوت بسيط في كل من الكثافة ودرجات الحرارة بين منطقة وأخرى، وذلك نظراً لبدء تحول أجزاء من ذلك الدخان بتقدير من الله (تعالى) إلى مناطق تتركز فيها كميات كبيرة من كل من المادة والطاقة على هيئة السدم. ولما كانت الجاذبية في تلك المناطق تتناسب تناسباً طردياً مع كم المادة والطاقة المتمركزة فيها، فقد أدى ذلك إلى مزيد من تكدس المادة والطاقة، والذي بواسطته بدأ تخلق النجوم وبقية أجرام السماء في داخل تلك السدم، وتكونت النجوم في مراحلها الأولى من العناصر الخفيفة مثل الإيدروجين والهيليوم، والتي أخذت في التحول إلى العناصر الأعلى وزناً بالتدريج مع بدء عملية الاندماج النووي في داخل تلك النجوم حسب كتلة كل منها.

تصوير الدخان الكوني

في الثامن من نوفمبر سنة1989 م أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية مركبة باسم مكتشف الخلفية الإشعاعية للكون **[(Cosmic Background Explorer (COBE)]** ارتفعت إلى مدار حول الأرض يبلغ ارتفاعه ستمائة كيلومتر فوق مستوى سطح البحر، وذلك لقياس درجة حرارة الخلفية الإشعاعية للكون، وقياس كل من الكثافة المادية والضوئية والموجات الدقيقة **(Microwave)** في الكون المدرك، بعيداً عن تأثير كل من السحب والملوثات في النطق الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وقام هذا القمر الصنعي المستكشف بإرسال قدر هائل من المعلومات وملايين الصور لآثار الدخان الكوني الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم للكون، من على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية، وأثبتت تلك الصور أن هذا الدخان

الكوني في حالة معتمة تماماً تمثل حالة الإظلام التي سادت الكون في مراحله الأولى.

ويقدر العلماء كتلة هذا الدخان المعتم بحوالي 90% من كتلة المادة في الكون المنظور، وكتب جورج سموت **(George Smoot)** أحد المسئولين عن رحلة المستكشف **(COBE)** تقريراً نشره سنة 1992 م بالنتائج المستقاة من هذا العدد الهائل من الصور الكونية كان من أهمها الحالة الدخانية المتجانسة التي سادت الوجود عقب الانفجار الكوني العظيم، وكذلك درجة الحرارة المتبقية على هيئة خلفية إشعاعية أكدت حدوث ذلك الانفجار الكبير، وكان في تلك الكشوف أبلغ الرد على النظريات الخاطئة التي حاولت ـ من منطلقات الكفر والإلحاد ـ تجاوز الخلق، والجحود بالخالق (ﷻ) فنادت كذباً بديمومة الكون بلا بداية ولا نهاية من مثل نظرية الكون المستمر **(The Steady State Universe)** التي سبق أن أعلنها ودافع عنها مجموعة من الفلكيين العاملين في جامعة كمبردج وعلى رأسهم كل من هيرمان بوندي **(Hermann Bondi)** وتوماس جولد **(Thomas Gold)** فريد هويل **(Fred Hoyle)** في سنة 1949 م، ونظرية الكون المتذبذب **(The Oscillating Universe)** التي نادى بها ريتشارد تولمان **(Richard Tolman)** من قبل.. فقد كان في إثبات وجود الدخان الكوني والخلفية الإشعاعية للكون بعد إثبات توسع الكون ما يجزم بأن كوننا مخلوق له بداية، ولابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية، وقد أكدت الصور التي بثتها مركبة المستكشف **(COBE)** للخلفية الإشعاعية والتي نشرت في أبريل سنة 1992 م كل تلك الحقائق.

انتشار مختلف صور الطاقة بالكون

كان الجرم الابتدائي للكون مفعماً بالمادة والطاقة المكدسة تكديساً رهيباً يكاد ينعدم فيه الحجم إلى الصفر، وتتلاشى فيه كل أبعاد المكان والزمان، وتتوقف كل قوانين الفيزياء المعروفة لنا كما سبق وأن أشرنا **(مرحلة الرتق)**، وبعد انفجار هذا الجرم الأولي وبدء الكون في التوسع، تمدد الإشعاع وظل الكون مليئاً دوماً بالطاقة الكهرمغناطيسية، على أنه كلما تمدد الكون قل تركيز الطاقة فيه، ونقصت كثافته، وانخفضت درجة حرارته.

ويرى علماء الفيزياء الفلكية أن أول صورة من صور الطاقة في الكون كانت هي قوة الجاذبية **(Gravitational Force)** وهي قوى كونية بمعنى أن كل جسم في الكون يخضع لقوى الجاذبية حسب كتلته أو كمية الطاقة فيه، وهي قوى جاذبة تعمل عبر مسافات طويلة، وتحفظ للجزء المدرك من الكون بناءه وأبعاده، ولعلها هي المقصودة بقول الحق (ﷻ):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ **(الرعد: 2)**

وقوله (عز من قائل):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ **(الحج: 65).**

وقوله (ﷻ):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ **(الروم: 25)**

وقوله (تبارك اسمه):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ **(لقمان: 10).**

وقوله (تعالى):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ **(فاطر: 41).**

ويقسم ربنا (تبارك وتعالى) وهو الغني عن القسم في مطلع سورة الطور بـ «السقف المرفوع» وهذا القسم القرآني جاء بالسماء المرفوعة بغير عمد مرئية..!!

والصورة الثانية من صور الطاقة المنتشرة في الكون هي القوى الكهربائية/ المغناطيسية ـ أو الكهرومغناطيسية **(The Electromagnetic Forces)** وهي قوى تعمل بين الجسيمات المشحونة بالكهرباء، وهي أقوي من الجاذبية بملايين المرات (بحوالي 10^{41} مرة)، وتتمثل في قوى التجاذب بين الجسيمات التي تحمل شحنات كهربية مختلفة (موجبة وسالبة)، كما تتمثل في قوى التنافر بين الجسيمات الحاملة لشحنات كهربية متشابهة، وتكاد هذه القوى من التجاذب والتنافر أن يلغي بعضها بعضاً، لأن حاصل القوى الكهرومغناطيسية في الكون يكاد يكون صفراً، ولكن على مستوى الجزيئات والذرات المكونة للمادة تبقى هي القوى السائدة.

والقوى الكهرومغناطيسية بما لها من تجاذب وتنافر هي التي تضطر الإليكترونات في ذرات العناصر إلى الدوران حول النواة بنفس الصورة التي تجبر فيها قوى الجاذبية والقوى النابذة المركزية الأرض (وغيرها من كواكب المجموعة الشمسية) إلى الدوران حول الشمس، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على وحدة البناء في الكون من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته، وهو ما يشهد للخالق (ﷻ) بالوحدانية المطلقة فوق كافة خلقه بغير شريك ولا شبيه ولا منازع. ويصور الفيزيائيون القوى الكهرومغناطيسية على أنها تنتج من تبادل أعداد كبيرة من جسيمات تكاد تكون معدومة الوزن تسمى بالفوتونات **(Photons)**.

والقوى الثالثة في الكون هي القوى النووية القوية **(The Strong Nuclear Forces)** وهي القوى التي تمسك باللبنات الأولية للمادة في داخل كل من البروتونات **(Protons)** والنيوترونات **(Neutrons)** في نواة الذرة، وهذه القوى تصل إلى أقصى قدراتها في المستويات العادية من الطاقة، ولكنها تضعف مع ارتفاع مستويات الطاقة باستمرار.

والقوة الرابعة في الكون هي القوى النووية الضعيفة **(The Weak Nuclear Forces)** وهي القوى المسئولة عن عملية النشاط الإشعاعي **(Radioactivity)**.

وفي الوقت الذي تضعف فيه القوى النووية القوية في المستويات العليا للطاقة، فإن كلًّا من القوى النووية الضعيفة والقوى الكهرومغناطيسية تقوى في تلك المستويات العليا للطاقة.

وحدة القوى في الكون

يوحد علماء الفيزياء النظرية بين كل من القوى الكهرومغناطيسية، والقوى النووية القوية والضعيفة فيما يسمى بنظرية التوحد الكبرى **(The Grand Unified Theory (GUT))** والتي تعتبر تمهيداً لنظرية أكبر توحد بين كافة القوى الكونية **(The Unified Forces Theory (UFT))** في قوة عظمى واحدة تشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة، وعن هذه القوة العظمى انبثقت القوى الكبرى الأربع المعروفة في الكون: قوة الجاذبية، القوة الكهرومغناطيسية وكل من القوتين النوويتين الشديدة والضعيفة مع عملية الانفجار الكوني الكبير مباشرة (الفتق بعد الرتق).

وباستثناء الجاذبية فإن القوى الكونية الأخرى تصل إلى نفس المعدل عند مستويات عالية جداً من الطاقة تسمى باسم الطاقة العظمى للتوحد، **(The Greatest Energy for Unification)** ومن هنا فإن هذه الصور الثلاث للطاقة تعتبر ثلاثة أوجه لقوة واحدة، لا يستبعد انضمام الجاذبية إليها، باعتبارها قوة ذات مدى طويل جداً، تتحكم في أجرام الكون وفي التجمعات الكبيرة للمادة ومن ثم يمكن نظرياً غض الطرف عنها من قبيل التبسيط عندما يقصر التعامل على الجسيمات الأولية للمادة، أو حتى مع ذرات العناصر.

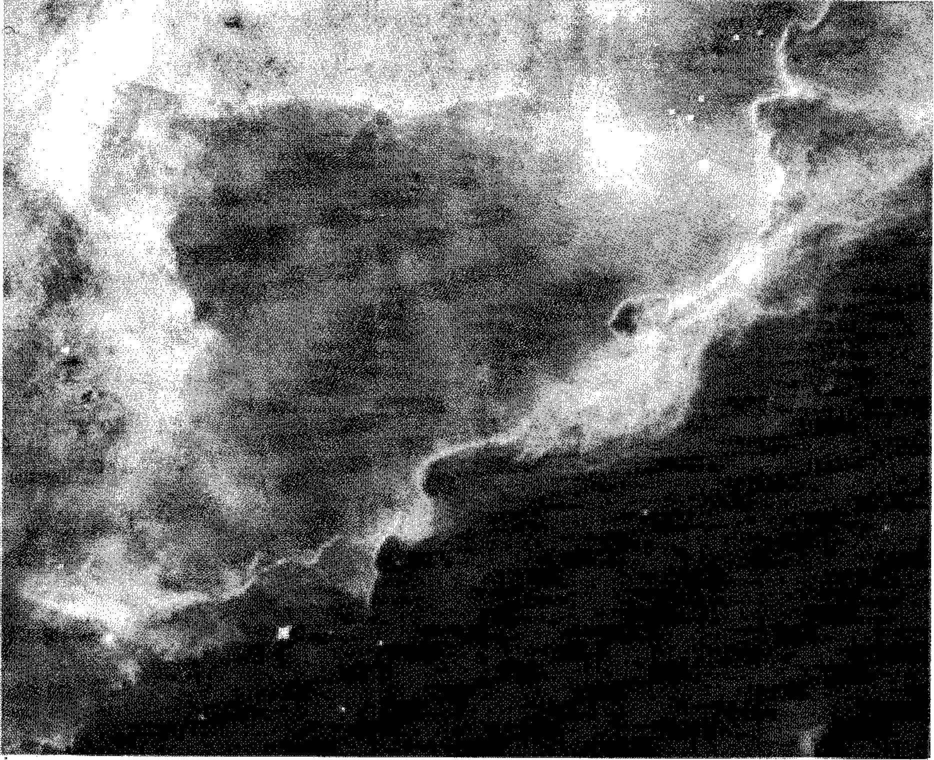
وهذه الصورة من وحدة البناء في الكون، ووحدة صور الطاقة فيه، مع شيوع الزوجية في الخلق - كل الخلق - هي شهادة الكون لخالقه (ﷻ) بالتفرد بالوحدانية المطلقة فوق كافة خلقه (بغير شبيه ولا شريك ولا منازع) وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ **(الذاريات: 49).**

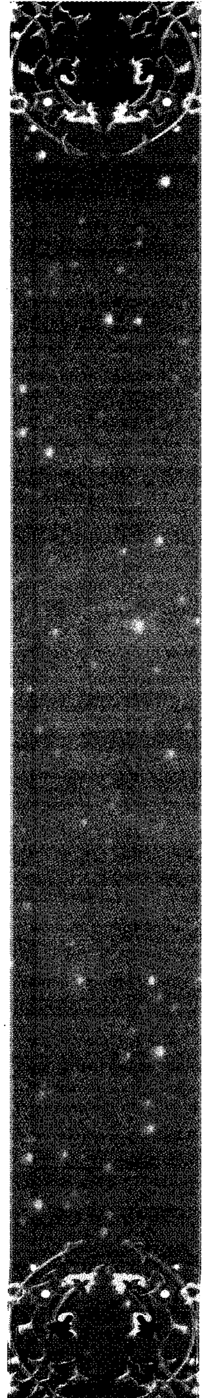
ويقول:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: 22).

وسبحانه وتعالى إذ أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: 11).



شكل (18) يوضح صورة للدخان الكوني
كما صورته المركبة الفضائية المعروفة باسم هابل



بسم الله الرحمن الرحيم

(4) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

(البقرة: 29)

أجمل القرآن الكريم خلق السمٰوات والأرض في ثلاثة مواضع، يقول فيها ربنا سبحانه وتعالى:

(1) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذّاريات: 47).

(2) ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: 30).

(3) ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (فصلت: 9 ـ 12).

وقد ثبت علمياً منذ الثلث الأول للقرن العشرين، أن من صفات الكون الذي نحيا فيه، أنه كون دائم الاتساع إلى ما شاء الله، بمعنى أن المجرات فيه تتباعد عن مجرتنا وعن بعضها البعض بسرعات تقترب أحياناً من ثلاثة أرباع سرعة الضوء.

وقد احتار العلماء والمفسرون في تحديد أيهما كان الأسبق بالخلق، الأرض أم السمٰوات؟ أم أنهما قد خلقا في وقت واحد؟ وينسون أن الزمن من خلق الله، وأن القبلية والبعدية اصطلاحات بشرية، لا مدلول لها بالقياس إلى الله تعالى، الذي لا يحده الزمان ولا المكان.

ففي تفسير الآية رقم(29) من سورة البقرة، رأى العديد من المفسرين أن معناها أن الله تعالى قد خلق جميع النعم الموجودة في الأرض لمنفعة الناس، ثم توجهت إرادته تعالى إلى السماء فجعل منها سبع سمٰوات، وهو تعالى محيط بكل شيء عالم بتفاصيله.

والاستواء الإلهي رمز للسيطرة الكلية، والقصد بإرادة الخلق والتكوين، والتسوية للكون بأرضه وسمائه، وهو تعالى خالق هذا الكون ومدبره، ربه ومليكه، ويأتي ذلك في معرض الاستنكار والاستهجان لكفر الكافرين من الناس بالخالق، المبدع، المهيمن، المسيطر على الكون، الذي سخر لهم الأرض بكل ما فيها، وسخر لهم السمٰوات بما يحفظ الحياة على الأرض ويحميها، ويجعل الأرض قراراً لهم.

أقوال المفسرين:

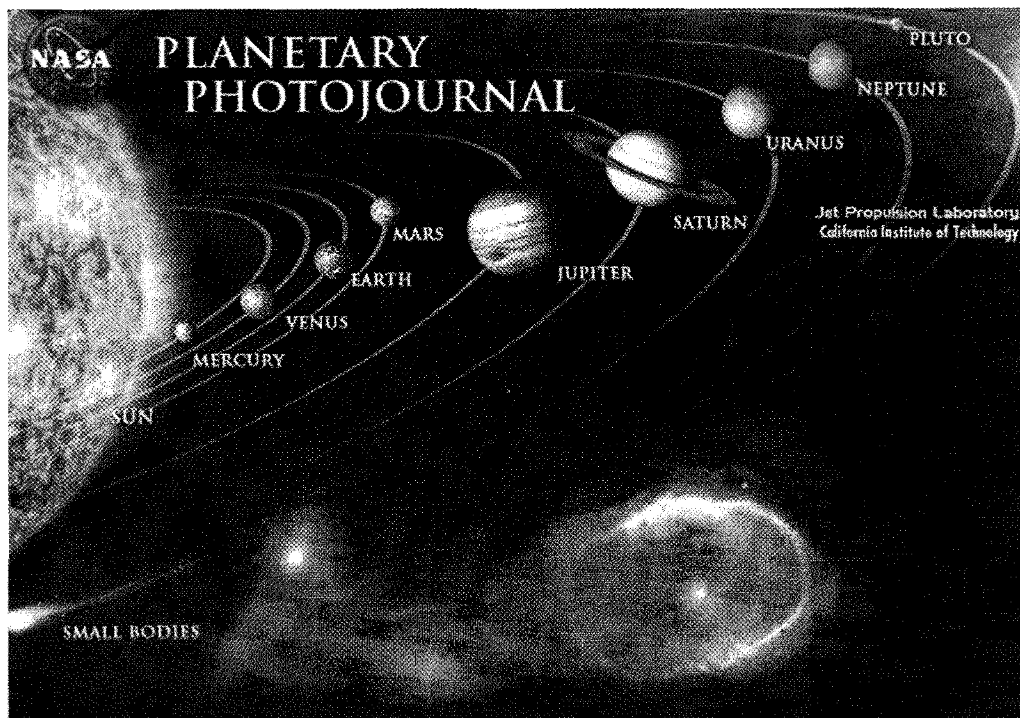
وقال ابن جزي في كتابه المعنون «التسهيل في علوم التنزيل» الجزء الأول ص43 ما نصه: «وهذه الآية: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ **(البَقَرَة: 29)** .. تقتضي أنه ﷻ خلق السماء بعد الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ **(النَّازعَات: 30)** ظاهره خلاف ذلك، والجواب من وجهين: أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء، ودحيت بعد ذلك، فلا تعارض، والآخر: تكون (ثم) لترتيب الأخبار».

وقال ابن كثير: (... والاستواء هنا يتضمن معنى القصد والإقبال لأنه عُدِّيَ بـ«إلى»، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ أي فخلق السماء سبعاً، والسماء اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ **(البَقَرَة: 29)**، أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق. ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً ثم خلق السمٰوات سبعاً....)، وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره، فأما قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ **(النازعات: 27 - 30]** فقد قيل: إن «ثم» هنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل...) وأضاف ابن كثير رحمه الله: (إن الدحي كان بعد خلق السمٰوات والأرض، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله ﷻ عنا وعنهم أجمعين).

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ **(البَقَرَة: 29)** قال مجاهد: (خلق الله الأرض قبل السماء....) فهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ

دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ (النازعات: **30، 32**) قالوا: (فذكر خلق السماء قبل الأرض، وفي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً....).

وقال عدد من المفسرين المحدثين إن لفظ خلق في هذه الآية الكريمة [رقم (29) من سورة البقرة] يعني التقدير دون الإيجاد، بمعنى أن جميع مكونات الأرض من نوى العناصر كانت جاهزة في الدخان الكوني الناتج عن عملية فتق الرتق (الانفجار العظيم)، ولو أن كوكب الأرض لم يكن قد تم تشكيله بعد، ثمّ توجهت إرادة الله إلى السماء وهي دخان فخلق منها سبع سمٰوات كما خلق الأرض، ويتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ



شكل (19) يوضح صورة عامة لمجموعتنا الشمسية

إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ (فصلت: 9 ـ 12).

ويستنتج من هذه الآيات الكريمة، أن الأرض قد خلقت من السماء الدخانية على مراحل أربع متتالية، بينما تم تشكيل السماء الدخانية على هيئة سبع سمٰوات على مرحلتين، وتم دحو الأرض بمعنى تكوين كل من أغلفتها الغازية، والمائية، والصخرية بعد ذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات: 27 ـ 33].


شكل (20) صورة حقيقية لميلاد نجم في أحد السدم الدخانية

وهذه الآيات الكريمة جاءت في مقام الاحتجاج على منكري البعث، فيسألهم ربنا ﷻ: هل خلقكم أكبر من خلق السماء التي بنيناها بهذه السعة المبهرة، والنظام الدقيق، والانضباط في الحركة، والإحكام في العلاقات، والارتباط بتلك القوى الخفية، والإشعاعات غير المرئية التي تتحرك كأمر كوني واحد بسرعات كونية عظمى لتربط بلايين النجوم والكواكب والكويكبات والأقمار والمذنبات في داخل المجرات، كما تربط مئات البلايين من المجرات مع بعضها البعض في ركن من السماء الدنيا التي لا يستطيع العلم إدراك أبعادها، ولا تحقيق ما فوقها.

وأما قوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ فمعناه جعل ارتفاعها عظيماً، إشارة إلى المسافات الفلكية المذهلة، التي تقدر بعشرات البلايين من السنين الضوئية.

وقوله ﷻ: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ أي أظلم ليلها، وجعله حالك السواد، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أنار نهارها بخلق النجوم مثل شمسنا وسط ظلام السماء الحالك، فأرسلت بضيائها إلى أرضنا في وضح النهار فقامت هباءات الغبار، وبخار الماء في الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض بتشتيت ضوء الشمس، وإظهاره بهيئة النور الأبيض الذي نراه في نهار الأرض. وبعد ذلك تذكر الآيات الكريمة أنه قد تم دحو الأرض الابتدائية إلى شكلها الحالي بأغلفتها المختلفة، والدحو لغة: هو المد والبسط والإلقاء، وهو كناية عن الثورانات البركانية العنيفة التي أخرج بها ربنا ﷻ من جوف الأرض كلاً من غلافها الغازي والمائي والصخري.

وهذه كلها مراحل متتالية في تهيئة الأرض لاستقبال الحياة، وقد تمت بعد بناء السموات السبع من الدخان الكوني الناتج عن عملية فتق الرتق (الانفجار الكوني العظيم).

علوم الكون وخلق السموات والأرض:

من بديع القدرة الإلهية، ومن الشهادات الناطقة لله تعالى بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع) أن يلتقي الكون في أكبر وحداته مع الكون في أدق دقائقه، فيلتقي علم الكون الحديث **(The Modern Cosmology)** بعلم الفيزياء الجزيئية أو فيزياء الجسيمات الأولية للمادة **(The Particle Physics Or The Elementary Particle Physics)** في وحدة واحدة.

فدراسات الجسيمات الأولية في داخل الذرة بدأت تعطي أبعاداً مبهرة لتفهم عملية خلق الكون، ومراحله المختلفة؛ ففي الثلث الأول من القرن العشرين، تساءل علماء الفلك

عن مصدر الطاقة في النجوم، واقترحوا إمكانية كونها عملية معاكسة للانشطار النووي **(Nuclear Fission)** وأطلقوا عليها اسم عملية الاندماج النووي **(Nuclear Fusion)** وهي عملية يتم بها اندماج نوى العناصر الخفيفة مثل الإيدروجين لتكوين عناصر أعلى في وزنها الذري.

وفي الثلاثينيات اقترح هانز بيته **(Hans Bethe)** عدداً من سلاسل التفاعلات النووية داخل النجوم، تتحد فيها أربع نوى لذرات الإيدروجين **(Hydrogen Nuclei)** لتكون نواة واحدة من نوى ذرات الهيليوم **(Helium Nuclei)** وذلك في قلب نجم كشمسنا تصل درجة الحرارة فيه إلى أكثر من 15 مليون درجة مطلقة، أما في النجوم الأشد حرارة من ذلك، فإن نوى ذرات الهيليوم تتحد لتكون نوى ذرات أثقل وزناً من مثل الكربون (C_{12})، وربما تستمر عملية الاندماج النووي لتخليق نوى ذرات أعلى وزناً.

وفي سنة 1957 م تمت صياغة نظرية تخليق نوى العناصر المختلفة في داخل النجوم **(Synthesis of the Elements in Stars)** بواسطة أربعة من الفلكيين المعاصرين هم: الزوجان مارجريت وجفري بيربردج، وليام فاولر، فرد هويل **(Margaret and Geoffrey Burbridge, William A. Fowler and Fred Hoyle).** وذلك في بحث قدموه إلى مجلة مراجعات في الفيزياء الحديثة **(Reviews of Modern Physics, no4., vol 29., October, 1957)**.

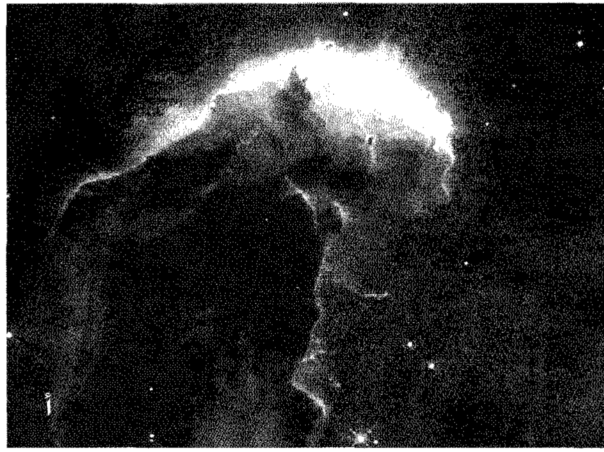
وقد تمكن علماء الفلك من تفسير التوزيع النسبي للعناصر المختلفة في الجزء المدرك من الكون بناء على هذه النظرية، كما تمكنوا من تفسير تطور الكون الابتدائي من دخان يغلب على تركيبه غاز الإيدروجين مع قليل من ذرات الهيليوم إلى الكون الحالي، الذي يضم في تركيبه أكثر من مائة من العناصر المعروفة، والتي تتدرج خواصها الطبيعية والكيميائية بناء على ما تحتويه ذرة كل منها من اللبنات الأولية للمادة، بحيث تم ترتيبها في جدول دوري حسب أعدادها الذرية، بدءاً من أخفها وأبسطها بناء (وهو غاز الإيدروجين) إلى أثقلها وأعقدها بناء وهو اللورنسيوم **[Lawrencium (Lw)]** وفق نظام محكم دقيق ينبىء بخواص العنصر من موضعه في الجدول الدوري للعناصر.

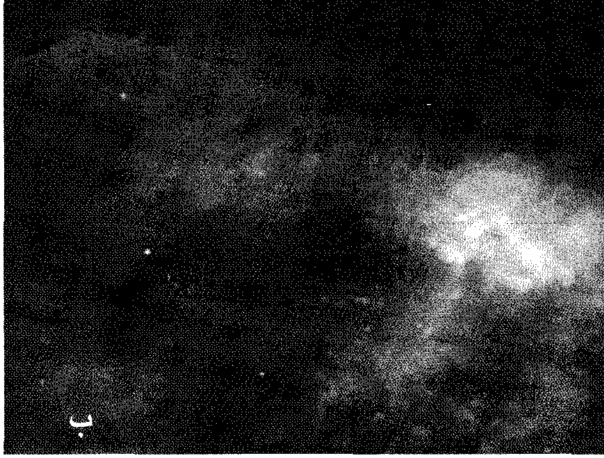
تخليق العناصر في الكون الابتدائي:

من الملاحظات العلمية المتوفرة يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أن تخليق العناصر المختلفة بعملية الاندماج النووي لنظائر كل من غازي الإيدروجين والهيليوم، قد بدأت منذ اللحظات الأولى للانفجار الكوني الكبير (أو فتق الرتق) وبدأت بتدرج يتفق مع ترتيب العناصر في الجدول الدوري الخاص بها، بمعنى أن العناصر الخفيفة بدأت في تخلقها قبل العناصر الثقيلة، وأن العناصر الثقيلة لا بد وأنها قد تكونت في داخل النجوم الشديدة الحرارة من

مثل المستعرات (Novae) أو في أثناء انفجارها أي: في مراحل ما يسمى باسم المستعرات العظمى (Supernovae).

ومن الاكتشافات الحديثة أن المادة (Matter) لها أضدادها (Antimatter) وأن كل جسيم من الجسيمات الأولية المكونة لذرات المواد له جسم مضاد بنفس الكتلة ولكنه يحمل شحنة مضادة، (Particle and Antiparticle)، وذلك من مثل البروتون وأضداد البروتون (Proton and Antiproton)، والنيوترون وأضداد النيوترون (Neutron and Antineutron)، والإليكترون وضده أو البوزيترون (Electron and Anti- electron or Positron)، وأن نوى الذرات تتكون من جسيمات دقيقة تسمى الباريونات (Baryons)، من مثل البروتونات والنيوترونات، وأن هذه أيضاً لها أضدادها (Antibaryons) وهكذا. وعند التقاء أي جسيم من جسيمات المادة وضده فإنهما يفنيان ويتحولان إلى طاقة على هيئة أشعة جاما حسب القانون:





شكل (21)

أ - صورة للمستعر الأعظم (supernova 1987 - A) **في سحب ماجلان الكبرى: قبل الانفجار**

ب - وصورة له بعد الانفجار (الذي حدث في 24 من فبراير سنة 1987م). ودل أنه ناتج عن انفجار نجم من العماليق الكبار الذي قدرت كتلته بعشرين ضعف كتلة الشمس

الطاقة الناتجة = الكتلة× مربع سرعة الضوء.

وقد ثبت علمياً أن المادة وأضدادها على مختلف المستويات قد خلقت بكميات متساوية عقب عملية الانفجار الكوني مما يؤكد حقيقة الخلق من العدم، وإمكان الإفناء إلى العدم.

وفي سنة 1980 م منح كل من جيمس و. كرونين، وزميله ڤال فيتش **(James W. Cronin and Val Fitch)** جائزة نوبل في الفيزياء لإثباتهما بالتجربة القابلة للتكرار والإعادة: أن إفناء بعض الجسيمات الأولية للمادة بواسطة أضدادها لا يتم بتماثل تام، ومن هنا كان بقاء المادة في الكون وعدم فنائها بالكامل.

وفي سنة 1983م حصل وليام فاولر **(William A.Fowler)** على جائزة نوبل في الفيزياء مناصفة مع آخرين لجهوده في تفسير عملية تخليق نوى ذرات العناصر المختلفة بواسطة عملية الاندماج النووي.

مراحل خلق الكون عند كلٍّ من الفلكيين والفيزيائيين:

باستخدام الحسابات التي وظفت فيها الحواسيب العملاقة، تمكن كل من الفلكيين والفيزيائيين المعاصرين من وضع تصور لمراحل خلق الكون على النحو التالي:

(1) بعد لحظات من عملية الانفجار الكوني العظيم (تقدر بنحو 10^{-35} من الثانية)، كان بالكون تساو بين الباريونات وأضدادها من جهة، وبين فوتونات الضوء **(Photons)** من جهة أُخرى، وكانت الباريونات وأضدادها يفني بعضها بعضاً منتجة الطاقة التي يعاد منها تخليق الجسيمات الأولية للمادة وأضدادها.

وهذه النظرية التي تشير إلى تساوي كميات المادة وأضدادها في الكون المدرك، تؤكد أن اختلافاً في هذا التساوي لا تتعدى نسبته واحداً في المائة مليون، يمكن أن يفسر غلبة نسبة المادة على نسبة أضدادها في الكون الراهن، وذلك بتحول نسبة من الفوتونات الناتجة عن إفناء الأضداد لبعضها البعض إلى باريونات (اللبنات الأولية المكونة لنوى ذرات العناصر)، وتتم هذه العملية عن طريق إنتاج باريون واحد عن كل مائة مليون فوتون، كما تؤكد ذلك الخلفية الإشعاعية الحالية للكون المنظور، وبعد فناء أغلب البروتونات وأضدادها بدأ الكون في الاتساع، ويحتمل وجود كمية من النيوترينوات **(Neutrinos)** باقية في كوننا المدرك، نظراً لضعف تفاعلها مع أضدادها فلم تفن بالكامل.

(2) بعد مضي ثانية واحدة على الانفجار الكوني العظيم، تقدر الحسابات النظرية أن كمية الطاقة المتوفرة في الكون أصبحت تسمح بتكون جسيمات مثل «الإليكترون» الذي يحمل شحنة سالبة، وضده «البوزيترون» الذي يحمل شحنة موجبة **(Electron or Negatron and Antielectron or Positron)** وقد أفنت هذه الجسيمات بعضها بعضاً، تاركة وراءها محيطاً من الإشعاع الحار على هيئة فوتونات الطاقة التي انتشرت في كل الكون، والتي تدرك



شكل (22) صورة حقيقية لدخان كوني تناثر من جراء انفجار نجم من نجوم السماء

آثارها اليوم فيما يعرف باسم «الخلفية الإشعاعية للكون»، والتي تشير إلى تناقص كل من كثافة الكون ودرجة حرارته باستمرار مع الزمن.

(3) بعد نحو خمس ثوان من عملية الانفجار الكوني، تشير الحسابات النظرية إلى أن درجة حرارة الكون انخفضت إلى عدة بلايين من الدرجات المطلقة، ولم يكن موجوداً بالكون سوى عدد من الجسيمات الأولية لكل من المادة والطاقة من مثل البروتونات **(Protons)**، والنيوترونات **(Neutrons)**، والإليكترونات **(Electrons)**، والنيوترينوات **(Neutrinos)**، والفوتونات **(Photons)**.

(4) بعد نحو مائة ثانية من الانفجار الكوني (فتق الرتق) تقدر الحسابات النظرية، أن درجة حرارة الكون قد انخفضت إلى نحو البليون درجة مطلقة، فبدأت البروتونات والنيوترونات في الاتحاد بعملية الاندماج النووي لتكون نوى ذرات نظائر كل من الإيدروجين والهيليوم والليثيوم على التوالي.

وتشير كل من الحسابات الرياضية والتجارب المختبرية، إلى أن أول النوى الذرية تكوناً كانت نوى ذرة نظير الإيدروجين الثقيل المعروف باسم ديوتيريوم**(Deuterium)**، ثم تلته نوى ذرات نظائر الهيليوم.

(5) بعد دقائق من الانفجار الكوني العظيم، تشير الحساب النظرية إلى أن درجة حرارة الكون قد انخفضت إلى مائة مليون درجة مطلقة، مما شجع على الاستمرار في عملية الاندماج النووي، حتى تم تحويل25% من كتلة الكون إلى غاز الهيليوم، وبقيت غالبية النسبة الباقية(75%) مكونة من غاز الإيدروجين، وينعكس ذلك على التركيب الحالي للكون المدرك، الذي لايزال الإيدروجين يشكل مكونه الأساسي بنسبة تزيد قليلاً على 74%، يليه الهيليوم بنسبة تبلغ 24%، وباقي المائة وخمسة من العناصر المعروفة تكون أقل من 2%.

ولذلك يعتقد الفلكيون المعاصرون أن تخلق العناصر في كوننا المدرك، قد تم على مرحلتين متتاليتين: في الأولى منهما تكونت العناصر الخفيفة عقب عملية الانفجار الكوني مباشرة، وفي المرحلة الثانية تكونت العناصر الثقيلة، بالإضافة إلى كميات جديدة من معظم العناصر الخفيفة، وذلك في داخل النجوم خاصة الشديدة الحرارة منها، مثل المستعرات، أو في مراحل انفجارها على هيئة ما يعرف باسم المستعرات العظمى.

دعوة قرآنية لإعادة التفكير

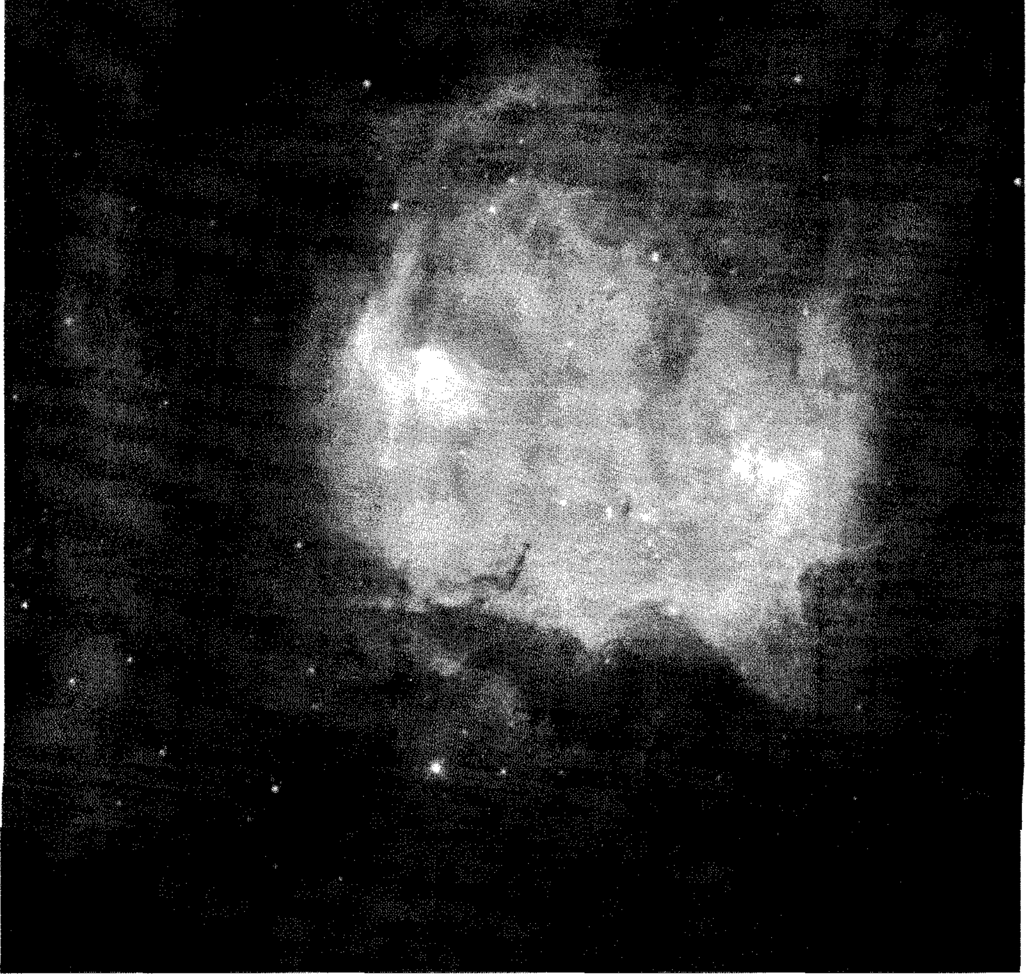
أشرنا في الأسطر السابقة إلى أن كلًّا من الحسابات النظرية في مجالات علمي الفلك والفيزياء الفلكية، تدعو إلى الاعتقاد بأن تخلق العناصر المعروفة لنا في الكون قد تم بعملية الاندماج النووي على مرحلتين كما يلي:

المرحلة الأولى: وقد تكونت فيها العناصر الخفيفة عقب عملية الانفجار الكوني مباشرة.

المرحلة الثانية: وقد تكونت فيها العناصر الثقيلة بالإضافة إلى كميات جديدة من العناصر الخفيفة، ولاتزالان تتكونان في داخل النجوم، وفي مراحل استعارها وانفجارها المختلفة. ولكن الآية التاسعة والعشرين من سورة البقرة تقرر أن الله تعالى قد خلق لنا ما

في الأرض جميعاً قبل تسوية السماء الدخانية الأولى إلى سبع سمٰوات.

ويؤيد ذلك ما جاء في الآيات (9 ـ 12) من سورة فصلت، ومعنى هذه الآيات مجتمعة أن كل العناصر اللازمة للحياة على الأرض، بل إن الأرض الابتدائية ذاتها كانت قد خلقت قبل تمايز السماء الدخانية الأولى إلى سبع سمٰوات. فهل يمكن لكل من علماء الفلك، والفيزياء الفلكية والنظرية، وعلماء الأرض المسلمين مراجعة الحسابات الحالية انطلاقاً من هذه الآيات القرآنية الكريمة، لإثبات ذلك، فيخلصون إلى سبق قرآني كوني



شكل (23) صورة لمنطقة تكون النجوم في سديم (MGC 2080)
أخذت بواسطة عدسات تليسكوب هابل

معجز يثبِّت المؤمنين على إيمانهم، ويكون دعوة مقنعة لغير المسلمين في زمن فتن الناس بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة؟

ترتيب خلق السموات والأرض

سبق وأن أشرنا إلى أن عملية الخلق (خلق الكون، خلق الحياة وخلق الإنسان)، هي من الأمور الغيبية التي لا تخضع مباشرة لإدراك الإنسان، كما قال ربنا ﷻ في محكم كتابه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: 51).

ولكن من رحمة الله تعالى بنا أنه قد أبقى لنا في صفحة السماء، وفي صخور الأرض من الشواهد الحسية، ما يمكن أن يعيننا على استقراء ذلك، كما أبقى لنا في محكم كتابه وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من الآيات والأحاديث، ما يمكن أن يدعم هذا الاستقراء أو أن يهذبه. وفي ذكره لآيات خلق السمٰوات والأرض، يقدم القرآن الكريم السماء/ السمٰوات على الأرض في الغالبية العظمى من الآيات التي تشير إليهما، فيما عدا خمس آيات قدم فيها ذكر الأرض على ذكر السماء، وهي على التوالي، قول الحق ﷻ:

(1) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً...﴾ (البقرة: 22).

(2) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 29).

(3) ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ (طه: 4).

(4) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً...﴾ (غافر: 64).

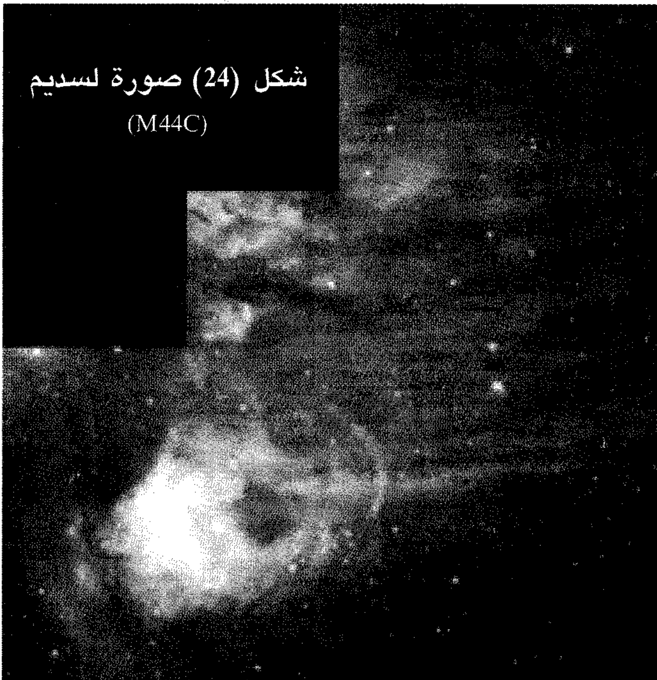
(5) ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ (فصلت: 9 ـ 12).

والآيتان الأولى والرابعة [البقرة: 22، غافر: 64) هما من الآيات الوصفية التي لا تتعرض لترتيب الخلق، والآية الثالثة (طه: 4) جاء الترتيب فيها لموافقة النظم في السورة التي ذكرت فيها السماء قبل الأرض بعد آية واحدة. أما الآية الثانية (البقرة: 29) فواضحة الدلالة على خلق جميع العناصر اللازمة لبناء الأرض قبل تمايز السماء الدخانية إلى السمٰوات السبع،

وذلك لأنه من الثابت علمياً، والراجح منطقياً أن خلق العناصر سابق على خلق الأرض وخلق جميع أجرام السماء، وأن خلق الوحدات الكونية الكبرى كالسدم والمجرات سابق على ما يتخلق بداخلها من نجوم وتوابع تلك النجوم، من الكواكب والكويكبات، والأقمار.

وأما الآيات في سورة فصلت: (9 ـ 12) فتشير إلى أن خلق الأرض الابتدائية كان سابقاً على تمايز السماء الدخانية الأولى إلى سبع سمٰوات، وأن دحو الأرض الابتدائية (بمعنى تكوّن أغلفتها الغازية والمائية والصخرية) جاء بعد ذلك، ويدعم هذه الاستنتاج ما جاء في سورة (النازعات) من قول الحق ﷻ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ **(النازعات: 27 ـ 33)**.

وفي الآيات (9 ـ 12) من سورة فصلت، يخبرنا ربنا ﷻ بأنه قد خلق الأرض في يومين (أي على مرحلتين) وجعل لها رواسي، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام (أي أربع مراحل)، ثم خلق السمٰوات في يومين (مرحلتين)، وهو القادر على أن يقول للشيء كن فيكون، ولكن هذا التدرج كان لحكمة مؤداها أن يفهم الإنسان سنن الله في الخلق. وقد يلتبس على القارىء لأول وهلة أن خلق الأرض وحدها قد استغرق ستة أيام (أي ست مراحل)، وأن خلق السماء قد استغرق يومين (أي مرحلتين)، فيكون خلق السمٰوات والأرض قد استغرق ثمانية أيام (ثماني مراحل)، والآيات القرآنية التي تؤكد خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام (أي ست مراحل) آيات عديدة، ولكن الآيات في سورة (فصلت) تشير إلى أن يومي خلق الأرض هما


شكل (24) صورة لسديم
(M44C)

يوما خلق السمٰوات السبع، وذلك لأن الأمر الإلهي كان للسماء وللأرض معاً، لقول الحق ﷻ:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪﴾ (فُصّلت: 11).

وإن كان بعض المفسرين يرون خلاف ذلك، إلا أن غالبيتهم ترى أن حرف العطف «ثم» لا يدل هنا على الترتيب والتراخي، ولكنه يدل على أن دحو الأرض قد تم بعد عملية الاستواء والتسوية للسمٰوات السبع من السماء الدخانية الأولى، لأن من معاني «ثم» في الآية الكريمة هو: هناك، وهو إشارة للبعيد وعلى أية حال، فإذا كان الزمان والمكان مقيدين لنا في هذ الحياة الدنيا، فإن الله تعالى هو مبدع كل من الزمان والمكان وخالقهما، وهو تبارك وتعالى ـ بالقطع ـ فوق قيودهما.

وعلماء الفيزياء الفلكية يقولون إن الذي يتحكم في سلوك الجرم السماوي، هو كم المادة والطاقة التي ينفصل بهما هذا الجرم عن غلالة الدخان الكوني، فالذي يجعل الأرض كوكباً ذا قشرة صلبة، له غلاف غازي، وغلاف مائي يجعلانها صالحة للعمران، هو كتلة المادة وكم الطاقة التي انفصلت بهما عن الشمس أو عن السديم الذي تكونت منه الشمس وكواكبها، والأمر الذي يجعل القمر تابعا صغيراً، ليس له غلاف غازي يمكن إدراكه ولا غلاف مائي، وغير صالح لحياة شبيهة بحياتنا الأرضية، هو الكتلة التي انفصل بها، والذي يجعل الشمس نجماً مشتعلاً، مضيئاً، متوهجاً بذاته هي الكتلة، وهكذا.

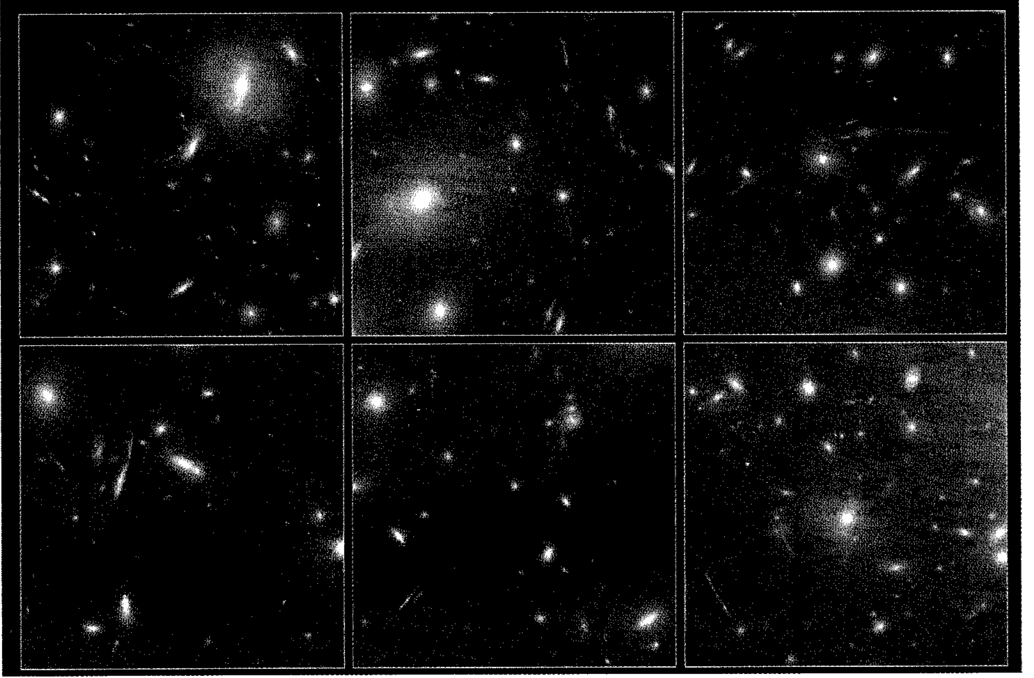
والسؤال الذي يفرض نفسه هو: من الذي قدر تلك الكتل؟ والجواب المنطقي الوحيد هو: الله خالق الكون، ومبدع الوجود..

ونعود مرة أُخرى إلى تلك الآية القرآنية المبهرة التي بدأنا بها، والتي يقول فيها الحق ﷻ:

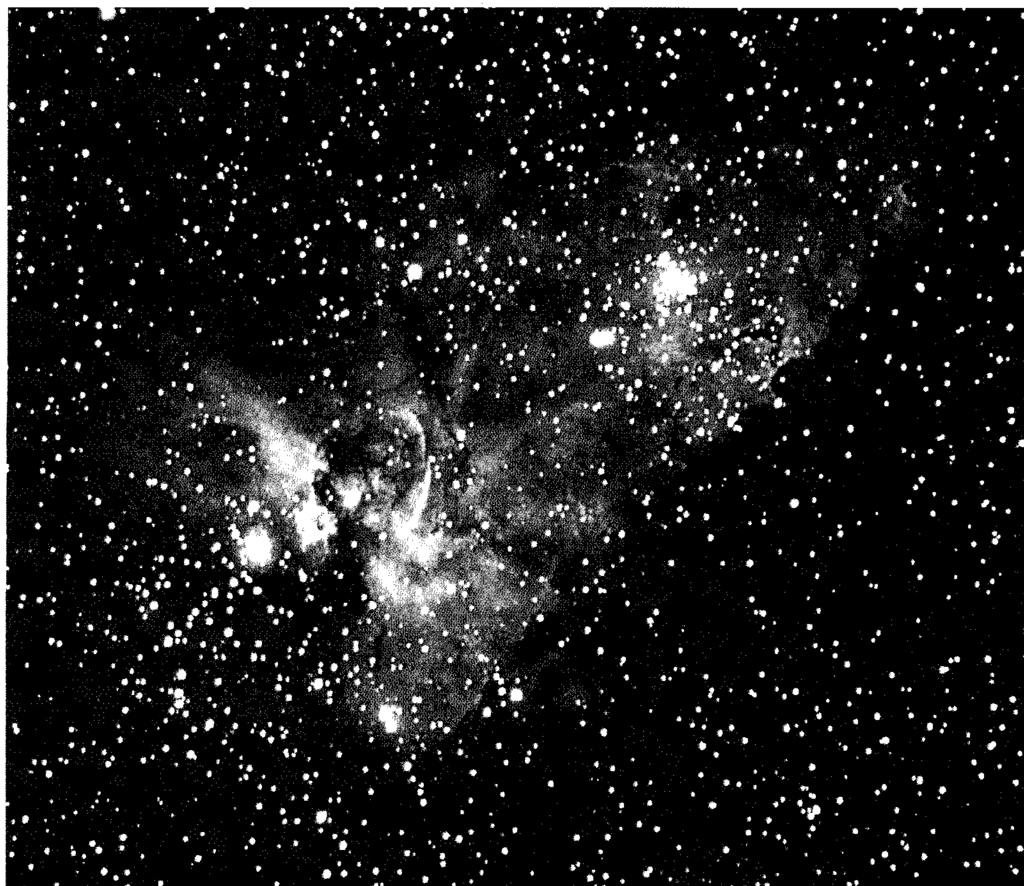
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 29).

ونتساءل: هل من علماء الكون والفيزياء النظرية المسلمين، من يمكنه أن ينطلق من هذه الآية القرآنية الكريمة ليثبت سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى حقيقة خلق جميع العناصر اللازمة للحياة على الأرض، قبل تسوية السماء الدخانية الأولى إلى سبع سمٰوات؟ في وقت يجمع فيه أهل هذا الاختصاص على أن العناصر الثقيلة في الكون لم تتخلق إلا في داخل

النجوم؟ هذا موقف تحد عظيم أرجو أن يتقدم له قريباً أحد علماء المسلمين في هذا الاختصاص فيجليه للناس، ويثبت سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة الكونية.



شكل (25) يوضح أقواس من عدسات الجاذبية في أحد التجمعات المجرية (Abell 1689) **صورتها عدسات التليسكوب الفضائي هابل**



بسم الله الرحمن الرحيم

(5) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾

(الطلاق: 12)

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في ختام «سورة الطلاق»، وهي سورة مدنية، وآياتها اثنتا عشرة آية بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تدور أساساً حول تفصيل أحكام الطلاق، وبيان التشريعات الإلهية التي يجب أن يتقيد بها المضطرون إلى اتخاذ هذا القرار الخطير، وكل الأمور المترتبة عليه تحقيقاً للعدل الإلهي في ظل ظروف نفسية معقدة ومتكدرة، ونفثات شيطانية متعددة ومتعاظمة مما قد يغري أحد الطرفين، أو يغريهما معاً بإيقاع أكبر قدر من الظلم والضرر على الطرف الآخر...!!

وتبدأ السورة الكريمة بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بهذا النداء التكريمي التشريفي من الله (تعالى) والذي يخاطبه فيه بقوله العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ...﴾ علماً بأن الخطاب جاء في أمر عام لجميع المسلمين، وفي قضية قد يتعرض لها أي منهم، وذلك من أجل التأكيد على جدية الأمر وخطورته.

وبعد ذلك شرعت الآيات الكريمة في إثبات الوقت المحدد لاتخاذ هذا القرار الخطير وذلك بقول الله (تعالى):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾ (الطلاق: 1).

واستمرت «سورة الطلاق» في بيان كل من حقوق المطلقة والواجبات المفروضة عليها والحقوق الممنوحة لها في فترة العدة من

بقائها في مسكنها الذي طلقت فيه، ومن وجوب الإنفاق عليها، وواجباتها وحقوقها فيما بعد العدة من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان مع الإشهاد في الحالين، وبينت الآيات كذلك مدة العدة للائي يحضن ولكل من الآيسة التي انقطع حيضها والتي لم تحض بعد، وللحامل حتى تضع حملها، والتي لها بالإضافة إلى المسكن والنفقة حق الرضاعة بحسب قدرة المطلق لها لأن الله (تعالى) لا يكلف نفساً إلا ما آتاها.

وفي ثنايا ذلك جاء الوعد من الله (تعالى) بالخير كله لمن امتثل أوامر الله، كما جاء الوعيد لمن تعدى حدوده.

والمتأمل لهذه الأحكام الإلٰهية في حال انهدام أسرة مسلمة استحالت الحياة فيها بين الزوجين، وما جاءت به تلك الأحكام من تفاصيل بلغت غاية الدقة من أجل تحقيق العدل الإلٰهي في لحظات قد يصعب على النفس الإنسانية الالتزام بقيوده، يجد أن تلك الأحكام في سياق من التذكير بضرورة الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم الكامل لأوامره المنزلة على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، والمحفوظة في محكم كتابه بنفس لغة الوحي حفظاً كاملاً [كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها]، وذلك تحقيقاً لوعده الذي قطعه (سبحانه وتعالى) على ذاته العلية، فقال (عز من قائل):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ **(الحجر: 9)**.

وكذلك جاءت تلك الأحكام في سياق من التأكيد على كرم الله لمن يقدم الخير ويؤثر الجميل، ومن ثم جاءت بالترغيب في السماحة والرفق، والإنصاف والكرم، والترهيب من الخروج على شرع الله، والتحذير من التعنت والقسوة، والجور والبخل، ولذلك كررت «سورة الطلاق» من الآيات الداعية إلى مثل هذا الخلق الكريم وذلك أمثال قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ **(الطلاق: 2، 3)**.

وقوله (عز من قائل):

﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ **(الطلاق: 4، 5)**.

وقوله (تعالى):

﴿... وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو

سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ (الطلاق: 6، 7).

وبذلك تحث السورة الكريمة على تقوى الله، وتذكر بنعمة الهداية الربانية التي أنزلها ربنا (تبارك وتعالى) على فترة من الرسل، وأكملها وأتمها وحفظها في رسالته الخاتمة المتمثلة بالقرآن الكريم وبسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وتذكر بعقاب الأمم السابقة التي خرجت على أوامر ربها، وهداية أنبيائه ورسله وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ (الطلاق: 8 ـ 11).

وفي التأكيد على حتمية الالتزام بأوامر الله (تعالى) وبهدى خاتم أنبيائه ورسله (عليه وعليهم أجمعين من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم) ختمت «سورة الطلاق» بتأكيد أن الله (تعالى) هو خالق السموات السبع والأرضين السبع، وهو (ﷻ) الذي ينزل أوامره بينهن بمعنى أنه لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه.

من الأسس الاجتماعية في سورة الطلاق

بالإضافة إلى تفصيل أحكام الطلاق بدقة بالغة منذ لحظة الشروع فيه حتى لحظة الرجوع عنه أو إتمامه، والتعامل مع كافة الأمور المترتبة عنه فإن «سورة الطلاق» تؤكد على عدد من الأسس الاجتماعية الإسلامية التي يرتضيها ربنا (تبارك وتعالى) من عباده، ولا يرضى عن غيرها، ومن هذه الأسس ما يلي:

(1) أن الأسرة هي لبنة بناء المجتمع المسلم، ولذلك ابتدأ الله (تعالى) خلق الإنسان بأسرة واحدة تكونت من أبينا آدم عليه السلام وزوجه أمنا حواء (رضي الله تبارك وتعالى عنها). وبنى هذه الأسرة الأولى على أساس من الإيمان بالله (تعالى)، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبالجنة والنار، وعلى أساس من العلم، وكلفها بعمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها، وجعل ذلك من واجبات الاستخلاف في الأرض، ومن ضرورات حمل الأمانة.

وعلى ذلك فإن من أوجب واجبات المجتمعات المسلمة اليوم هو مقاومة كل

المحاولات الشيطانية التي تبذل من أجل تحطيم مؤسسة الأسرة بتشريع المعاشرة الجنسية بلا رباط، أو بالخروج عن سوية الفطرة بتشريع الشذوذ الجنسي بمختلف صوره كما يحدث اليوم في المجتمعات غير المسلمة، أو بتشجيع أنماط من الارتباطات غير الشرعية من مثل الزواج العرفي، أو بهدم الأسرة عن طريق تشجيع الخلع كما بدأ ينتشر في العديد من البلدان المسلمة اليوم للأسف الشديد. . . !!

(2) لا بد من إقامة الأسرة المسلمة على أساس من الإيمان بالله الواحد الأحد، وبالأخوة الإنسانية، وبتوقير صلات الرحم بين الناس، وبتأكيد التراحم بين العباد، وعلى غير ذلك من الروابط الإنسانية الوثيقة القائمة على المودة والرحمة، والحميمية الزوجية حتى يكون كل منهما سكناً للآخر وقراراً واستكمالاً له، وستراً لمشاعره، وجمالاً لمظهره، وإسعاداً له، واستمراراً لنسله.

(3) ومن أجل تحقيق ذلك عظم القرآن الكريم من شأن الأسرة، وربطها بعبادة الله وتقواه، وغرس حبها في الجبلة الإنسانية، وفي نفس الوقت وضع لها من الضوابط الشرعية، والتشريعات الدينية ما يضمن قيامها على أسس ربانية صحيحة، ويؤكد استمرارها على ذلك في جميع أمورها، ومختلف مراحلها حتى لا يكل العباد إلى نوازعهم الفطرية، وقيمهم الروحية والأخلاقية فقط، لأن الإيمان يزيد وينقص، والإنسان يتذكر وينسى، والفطرة السوية يغشاها أحياناً كثير من الغبش، والالتزام الأخلاقي يقوى ويضعف والروح تصفو وتتكدر. . . !!

(4) وهذه العلاقة الزوجية يجب أن تؤسس على قواعد من التشريعات الإلٰهية التي فصلها ربنا (تبارك وتعالى) في رسالته الخاتمة المنزلة على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وارتفع بها إلى مقام المقدسات الإسلامية، واعتبرها إحدى الطاعات الدينية، وجعل الأصل فيها هو الاستقرار والاستمرار والسكن، فإذا لم تتوفر لها هذه الشروط فإن كثيراً من المظالم تتهدد أحد الزوجين أو الآخر. وقد تؤدي في النهاية إلى انهيار هذه المؤسسة الاجتماعية الهامة وإلى شقاء أفرادها.

(5) في الحالات التي يستحيل فيها الاستمرار في العلاقة الزوجية، بعد استنفاد كل وسائل التوفيق بين الزوجين شرع الله (تعالى) الطلاق، وحدد له أوقاته، وضوابطه، وواجباته، وحقوقه، بالنسبة لكل من الطرفين، وجعله أبغض الحلال، لأن الاستمرار فيه قد يعذب أحد الزوجين أو يعذبهما معاً، وفي ذلك تقدير للفطرة الإنسانية، وتأكيد على شمول علم الله وإحاطته بأحوال خلقه، وتجسيد لحكمته (ﷻ) ورحمته بعباده، وإشارة واضحة على

ربانية النظام الإسلامي في مواجهة النظم الوضعية التي حرمت الطلاق فأشقت العديد من الأسر وأشاعت الفاحشة والجريمة والرذيلة والشذوذ والانحراف في كثير من المجتمعات الإنسانية.

من الإشارات الكونية في سورة الطلاق

من الإشارات الكونية في «سورة الطلاق» ما جاء في ختامها من قول الحق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا...﴾.

وهذه هي الإشارة الوحيدة في كل القرآن الكريم إلى وجود الأرضين السبع، وإلى تطابقها حول مركز واحد، كما أن السمٰوات السبع متطابقة حول مركز واحد. وقد أفاض القرآن الكريم في ذكر السمٰوات السبع، وقصر الإشارة إلى الأرضين السبع في ختام سورة الطلاق، وذلك لعلم الله تعالى بأن الإنسان قادر على إدراك الأرضين السبع ولكنه عاجز عجزاً تاماً عن إدراك السمٰوات السبع لعجزه عن الخروج ببصره إلى أبعد من جزء صغير من السماء الدنيا، هو ما يدركه علماء الفلك اليوم على الرغم من التطور الهائل في أجهزتهم.

وقد حار الإنسان منذ القدم في إدراك حقيقة السموات السبع والأرضين السبع، ولا تزال هذه قضية محيرة لكل من علماء الفلك وعلماء الأرض، ولكن انطلاقاً من إيماننا بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فإننا ـ نحن معشر المسلمين ـ نؤمن إيماناً راسخاً بأن الله (تعالى) خلق سبع سماوات وسبعاً من الأرضين، وقد جاء ذلك في كل الرسالات والحضارات السابقة كبقايا للحق القديم الذي علمه ربنا (تبارك وتعالى) لأبينا آدم (على نبينا وعليه من الله السلام) لحظة خلقه، ثم علمه لجميع أنبيائه ورسله، فقد نزلت رسالة الله الخالق سبحانه وتعالى على فترة من الرسل، وتكاملت في بعثة النبي الخاتم، والرسول الخاتم، سيد الأولين والآخرين من بني آدم، سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، الذي حفظت رسالته حفظاً كاملاً (كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً) باللغة نفسها التي أوحيت بها ـ اللغة العربية ـ تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية فقال ﷻ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: 9).

وعلى ذلك فإن كل ما جاء في القرآن الكريم هو حق مطلق.

وقد جاء في هذا الذكر الحكيم المحفوظ بحفظ الله تأكيد حقيقة السمٰوات السبع والأرضين السبع، ولما كانت قدرات الإنسان قاصرة عن إدراك سوى جزء يسير من السماء الدنيا وجزءًا أيسر من قشرة الأرض، وأن هذا الجزء من السماء الدنيا الذي أدركه علماء الفلك ـ على ضخامة أبعاده ـ دائم الاتساع، بمعنى أنه كلما طور الإنسان أجهزته وجد هذا الجزء المدرك من الكون قد تضاعفت أبعاده إلى حدود لا تصلها أجهزة الإنسان ولا حواسه، فقد حار غير المؤمنين بهذا الدين الخاتم في قبول الحقيقة القاطعة بأن فوقنا سبع سمٰوات طباقاً، وليست سماء واحدة، وأن تحتنا سبعاً من الأرضين، كلها في داخل أرضنا التي نحيا على سطحها، وذلك لأن الإنسان ـ في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه ـ لم يستطع بأجهزة الحفر العملاقة التي بناها أن يصل إلى أكثر من واحد على خمسمائة من نصف قطر الأرض (فقد وصلت أعمق بئر حفرها الإنسان إلى عمق لم يتعد الاثني عشر كيلو متراً إلا قليلاً) وإذا قورن ذلك بنصف قطر الأرض المقدر بأكثر من 6370 كيلو متراً في المتوسط لاتضحت ضآلة الجزء المحفور في قشرة الأرض.

من هنا حاول بعض الكتّاب الهروب من التسليم بتلك الحقيقة القرآنية القاطعة بالقول بأن العرب كانوا قد اعتادوا استخدام الرقمين 7 و70 لما يفيد التعدد والكثرة لا الحصر، وقد قبل عدد من رجال التفسير ذلك، فقالوا إن الإشارة القرآنية الكريمة إلى السمٰوات والأرضين السبع؛ معناها عدة سمٰوات وعدة أرضين، دون تحديد، وذلك استناداً إلى إشارة قرآنية أخرى يقول فيها ربنا ﷻ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بخصوص عدد من المنافقين:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ **(التوبة: 80)**

ووجه المقارنة هنا بعيد بعد المشرقين، لأنه لا وجه للمقارنة بين تقرير حقيقة من حقائق الكون بوصف السمٰوات والأرضين بأنهن سبعاً، وبين تأكيد عدم قبول الاستغفار للمنافقين من الكفار والمشركين مهما استغفر لهم الرسول ﷺ.

فما حقيقة السمٰوات السبع والأرضين السبع في دين الله، كما قررها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؟ وهل استطاع العلم المكتسب من النظر في السمٰوات والأرض أن يصل إلى شيء من تلك الحقيقة؟

السموات السبع والأرضون السبع في القرآن الكريم

جاء ذكر السمٰوات السبع في القرآن الكريم في سبع آيات يقول فيها ربنا ﷻ:

1 ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ (الإسراء: 44).

2 ـ ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (المؤمنون: 86).

3 ـ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ (فصلت: 12).

4 ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ (الطلاق: 12)

5 ـ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ (الملك: 3)

6 ـ ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ (نوح: 15، 16)

7 ـ ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ (النبإ: 12)

كذلك جاءت الإشارة القرآنية إلى سبع طرائق في آية واحدة اعتبرها عدد من المفسرين إشارة إلى السمٰوات السبع، وإن كان الاشتقاق اللفظي يحتمل معنى آخر، والآية الكريمة يقول فيها ربنا ﷻ:

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ (المؤمنون: 17).

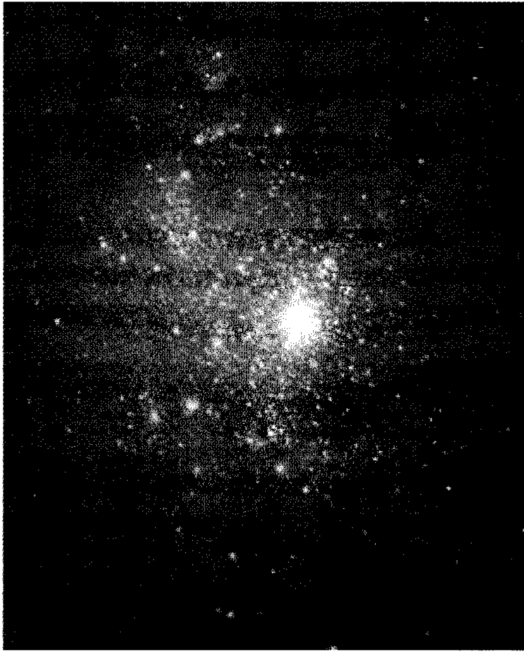
هذا التكرار القرآني في الإشارة إلى سبع سمٰوات في سبع آيات (وهو أمر معجز في حد ذاته)، لا بد وأن يكون القصد منه التحديد والحصر، لا مجرد التعبير عن التعدد والكثرة ـ والله تعالى أعلم بما خلق ـ كذلك فإن الإشارة في ختام سورة الطلاق بمثلية الأرض إلى السمٰوات في قول الحق ﷻ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ. . .﴾ تأكيد أن الأرض سبع متطابقة كما أن السمٰوات سبع متطابقة.

آراء المفسرين في السموات السبع والأرضين السبع

في شرح هذه الآية الكريمة التي جاءت في ختام سورة الطلاق ذكر ابن كثير (رَحِمَهُ اللَّهُ): «أن الله تعالى يقول مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ (نوح: 15)،وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ **(الطّلاق: 12)** أي سبعاً أيضاً. كما ثبت في الصحيحين[1] قول المصطفى ﷺ: «**من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين**»، وفي صحيح البخاري: «**خسف به إلى سبع أرضين**».

هذا، وقد ورد ذكر السمٰوات السبع والأرضين السبع في عدد غير قليل من أحاديث رسول الله ﷺ منها قوله الشريف: «**ما السمٰوات السبع وما فيهن وما بينهن، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة**».



شكل (26) صورة أخذتها عدسات تليسكوب هابل الفضائي لتجمعات نجمية مركزة في قرص إحدى المجرات

والواضح أنه لا خلاف بين العلماء على أن السمٰوات سبع، وأما الأرض فاختلف فيها فقيل: إنها سبع أرضين لظاهر الآية رقم12 من سورة الطلاق، والحديثين الشريفين اللذين سبقت الإشارة إليهما، وقيل إنها أرض واحدة، وأن المماثلة ليست في العدد وإنما هي في الخلق والإبداع، أي مثلهن في الإبداع والإحكام.

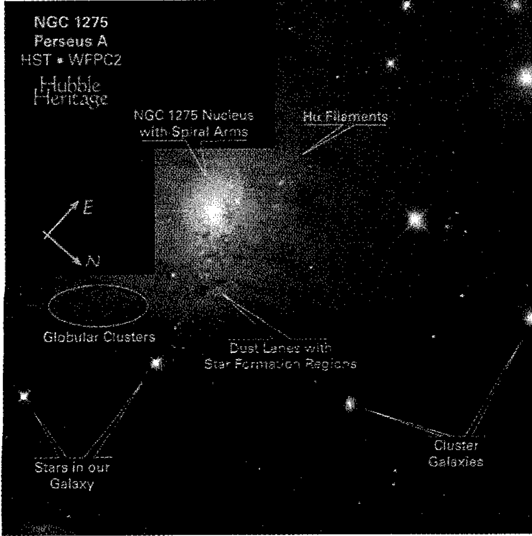
أما صاحب الظلال (رَحِمَهُ اللَّهُ) فقد ذكر أن السمٰوات السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها، وأبعادها ومساحاتها، وكذلك الأراضي السبع، فقد تكون أرضنا هذه

(1) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق (الحديث: 3196). وأخرجه مسلم في كتاب: المساقاة (الحديث: 4113).

التي نعرفها واحدة منهن، والباقيات في علم الله، وقد يكون معنى «مثلهن» أن هذه الأرض من جنس السمٰوات فهي مثلهن في تركيبها وخصائصها، وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا، لأن علمنا لا يحيط بالكون، حتى نقول على وجه التحقيق: هذا ما يريده القرآن، ولن يصح أن نقول هكذا إلى يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علما يقينياً... وهيهات...!

ما نراه في السموات السبع والأرضين السبع

إننا في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه، لا ندرك من السمٰوات السبع التي أخبرنا بها ربنا ﷻ، وأخبر بها خاتم أنبيائه ورسله ﷺ إلا جزءاً محدوداً من السماء الدنيا التي خصها الخالق سبحانه بالنجوم والكواكب، والنجوم هي وسيلة الإنسان للتعرف على الجزء المدرك من الكون، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿... وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (فُصِّلَت: 12).



شكل (27) صورة للمجرة رقم (NGC 1275) وما حولها من مجرات غير مجرتنا (الطريق اللبني)

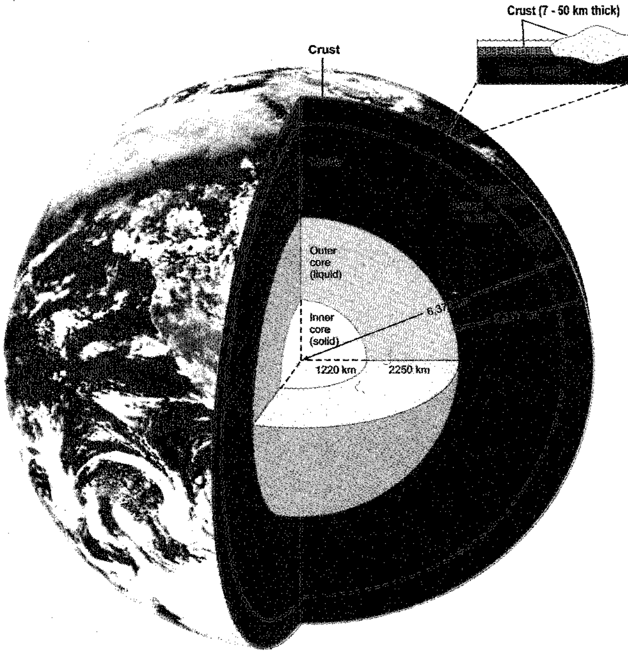
ويقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ **(الملك: 5)**.

ويقول جل وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ **(قٓ: 6)**

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ **(الصَّافات: 6)**.

وذكر السماء في هذه الآيات المباركة بالإفراد، وتخصيصها بالزينة الموصوفة بالنجوم والكواكب، وتحديدها بوصف السماء الدنيا، يؤكد حقيقة السمٰوات السبع، وعدم التخصيص بإضافة وصف الدنيا إلى السماء في الآية السادسة من سورة قٓ استعيض عنه

بالسؤال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ (قٓ: 6) لأن السماء الدنيا هي السماء الوحيدة التي يمكن للإنسان أن ينظر إليها. أما بالنسبة للسمٰوات الست الباقية فلولا أن الله تعالى قد أخبرنا عنها في محكم كتابه، وأن خاتم أنبيائه ورسله ﷺ قد ارتادها في ليلة الإسراء والمعراج، وأخبرنا عنها في العديد من أحاديثه، ما كان في وسع الإنسان أن يصل إلى خبرها، وكل ما نفهمه من وصف القرآن الكريم لها أنها متطابقة مع السماء الدنيا، ومحيطة بها إحاطة كاملة، انطلاقاً من قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا...﴾. (الملك: 3)



شكل (28) يوضح تكون أرضنا من سبع أرضين متطابقة يغلف الخارج منها الداخل

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح: 15 ـ 16).

ويتضح من هاتين الآيتين الكريمتين أن السمٰوات السبع متطابقة حول مركز واحد، يغلف الخارج منها الداخل، وإلا ما كان جميع ما في السماء الدنيا واقعاً في داخل باقي السمٰوات، فيكون كل من القمر والشمس ـ وهما من أجرام السماء الدنيا ـ واقعين في جميع السمٰوات السبع.

والقرآن الكريم يصف الحركة في السماء الواحدة وفي السمٰوات السبع بالعروج، والعروج لغة: هو سير الجسم في خط منعطف، منحن، وقد ثبت علمياً أن حركة الأجسام في الجزء المدرك من الكون لا يمكن أن تكون في خطوط مستقيمة أبداً، بل لا بد لها من الانحناء نظراً لانتشار المادة والطاقة في كل الكون، وتأثير كل من جاذبية المادة (بأشكالها

المختلفة) والمجالات المغناطيسية للطاقة (بصورها المتعددة) على حركة الأجسام في الجزء المدرك من الكون.

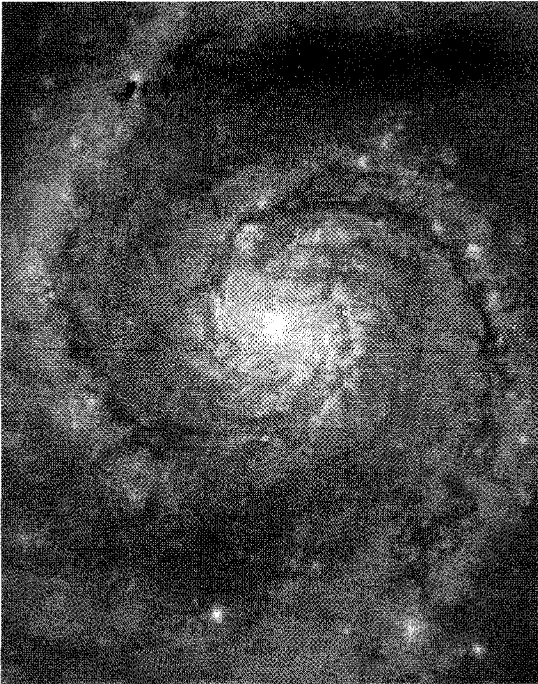
وسبحان القائل:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (الحجر: 14).

والقائل: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السَّجدَة: 5).

والقائل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ (سَبَإ: 2).

وفي مطلع القرن العشرين أثبتت الدراسات الفلكية والفيزيائية تحدب الجزء المدرك من الكون، وتحدب كل من المكان والزمان (وهما أمران متواصلان)، ولما كانت السمٰوات السبع متطابقة بنص القرآن الكريم، فلا بد أن تكون كلها كروية بالهيئة نفسها وحول مركز واحد.



شكل (29) صورة حقيقية لمجرة إم 51 الحلزونية من خلال عدسات التلسكوب الفضائي هابل

وإذا كان الإنسان قد توصل إلى تحقيق سرعة الإفلات من جاذبية الأرض فارتاد الفضاء، فإن سرعة الإفلات من الجزء المدرك من السماء الدنيا لا تطيقها القدرة الإنسانية، لضخامة الجزء المدرك منها ولقصر عمر الإنسان، وعليه فلا يمكن للإنسان الخروج عن السماء الدنيا إلا بإذن الله. أما بالنسبة لكل من الملائكة وقد خلقوا من نور، والجن وقد خلقوا من نار، فالأمر مختلف تماماً، لأن الله تعالى أعطى كلاً منهما من القدرة على الحركة في الكون بالقدر الذي يتواءم مع دوره فيه، وهي قدرات لا تطيقها الطبيعة البشرية المحبوسة في قوالب الطين، فإذا انطلقت الروح من عقال الطين ـ وهي من أمر الله ـ زادت سرعاتها

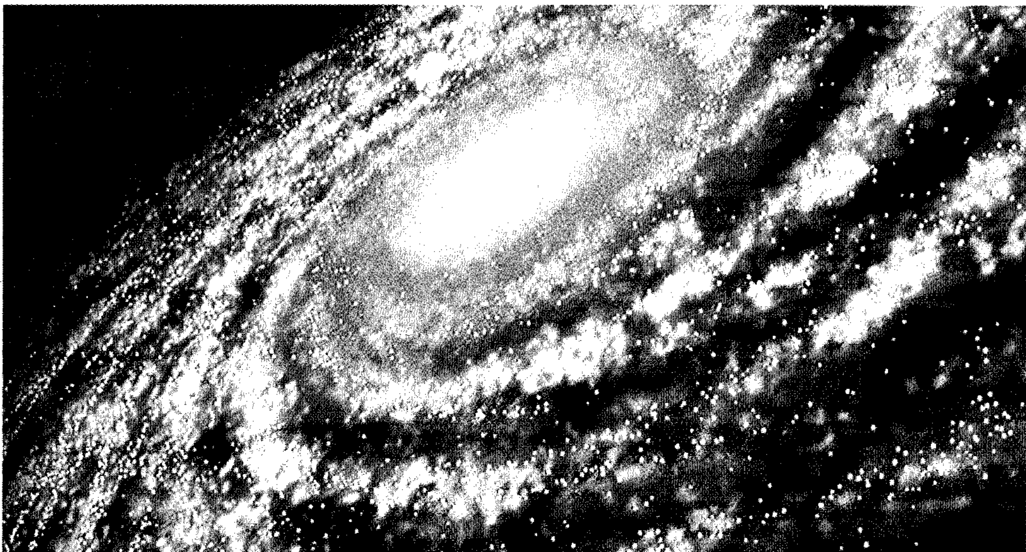
الحركية في كون الله الخالق زيادة فائقة لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ **(المعارج: 3، 4)**.

ومن ذلك يتضح أن القرآن الكريم يؤكد حقيقة أن السمٰوات سبع متطابقة، يغلف الخارج منها الداخل، وأنها جميعاً قد تمايزت عن السماء الدخانية الأولى في بدء خلق الكون، وأن الأرضين سبع متطابقة كذلك يغلف الخارج منها الداخل، وأنها قد تمايزت عن الأرض الابتدائية، وعلى ذلك فإنها كلها في أرضنا التي نحيا عليها، ويؤكد هذا الاستنتاج ختام سورة الطلاق (الآية رقم12)، كما يؤكده ذكر الأرض بالإفراد دوماً في كتاب الله بينما ذكرت السمٰوات بالإفراد والجمع، لأننا لا نرى من فوق هذه الأرض إلا جزءاً من السماء الدنيا، ولا سبيل إلى تعرفنا على السمٰوات الأخرى إلا بإخبار من الله ﷻ أو من رسوله ﷺ، بينما يعلم ربنا بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل في يوم من الأيام إلى إدراك الأرضين السبع تحت أقدامه، فاكتفى بذكرها في محكم كتابه بالإفراد في أربعمائة وواحد وستين موضعاً، وبالإشارة إلى مثليتها بالسمٰوات السبع في العدد والتطابق حول مركز واحد كما جاء في ختام سورة الطلاق.

السموات السبع في علوم الكون

يقدر قطر الجزء المدرك من الكون بأكثر من عشرين ألف مليون (أي عشرين بليوناً) من السنين الضوئية، وتقدر السنة الضوئية بنحو 9.5 مليون مليون (تريليون) كيلو متر؛ وهذا الجزء المدرك من الكون مستمر في الاتساع منذ لحظة الخلق الأولى وإلى أن يشاء الله، وذلك بمعدلات فائقة تتباعد بها المجرات عن مجرتنا (درب اللبانة) وعن بعضها البعض بسرعات تكاد تقترب أحياناً من سرعة الضوء (المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية)، وعلى ذلك فإننا كلما طورنا من أجهزة الرصد والقياس، وجدنا هذا الجزء من أطراف الكون المدرك قد تباعد واختفى عن إدراكنا، ولذا فإن الإنسان سوف يظل محصوراً في حيز محدد من السماء الدنيا، ولا سبيل له إلى معرفة ما فوق ذلك إلا ببيان من الله.

ويحصي علماء الفلك بالجزء المدرك من الكون مائتي ألف مليون مجرة على الأقل من أمثال مجرتنا (درب اللبانة)، بعضها أكبر كثيراً، وبعضها أصغر قليلاً منها، ومجرتنا على هيئة قرص مفلطح يبلغ قطره مائة ألف سنة ضوئية، ويبلغ سمكه عشر هذه القيمة (أي عشرة آلاف من السنين الضوئية). وتتخذ المجرات أشكالاً متعددة: فمنها ما يبدو حلزوني الشكل ومنها ما يبدو على هيئة شبه الكرة إلى بيضاني (بيضاوي) الشكل، ومنها ما هو غير منتظم



شكل (30) صورة لقرص إحدى المجرات الحلزونية الضخمة

الشكل، والمجرات شبه الكروية البيضانية (البيضاوية) تمثل ثلث المجرات المعروفة لنا تقريباً، وبعضها من العماليق، وبعضها دون ذلك، وبعضها يستطيل استطالة ملحوظة.

أما المجرات الحلزونية فتمثل أكثر المجرات إضاءة في الجزء المدرك من الكون، وتمثل الأغلبية في أعداد كبيرة من التجمعات المجرية، وتحتوي الواحدة من تلك المجرات الحلزونية على عدد من النجوم يتراوح بين البليون (الألف مليون) والتريليون (الألف بليون أي المليون مليون). ويحصي علماء الفلك أن بمجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبني) **(The Milky Way)** نحو التريليون نجم كشمسنا (ألف بليون أو مليون مليون نجم) وكما أن لشمسنا توابع، فبالقياس لا بد أن يكون لكل نجم من تلك النجوم توابع.

ويقدر علماء الفلك أن مركز مجرتنا عبارة عن ثقب أسود **(Black Hole)** أو أكثر من ثقب أسود واحد، بكتلة تقدر بمئات إلى آلاف مرات كتلة الشمس. وتوجد أغلب المجرات في مجموعات أو تجمعات تعرف باسم التجمعات المجرية **(Galactic Groups, Galactic Clusters or Clusters of Galaxies)**، ويتراوح عدد المجرات في مثل هذه التجمعات من العشرات إلى عشرات الآلاف. ويحصي علماء الفلك آلافاً من مثل هذه التجمعات في الجزء المدرك من الكون، وهناك تجمعات للتجمعات المجرية تعرف باسم التجمعات العظمى للمجرات **(Galactic Superclusters),**، والتجمع الأعظم الذي تنتمي إليه مجرتنا يضم أكثر من مائة تجمع مجري على هيئة قرص مفلطح يبلغ قطره مائة مليون من السنين

الضوئية، وسمكه عشرة ملايين من السنين الضوئية، على هيئة مشابهة لشكل مجرتنا (درب اللبانة) وبأبعاد مضاعفة ألف مرة.

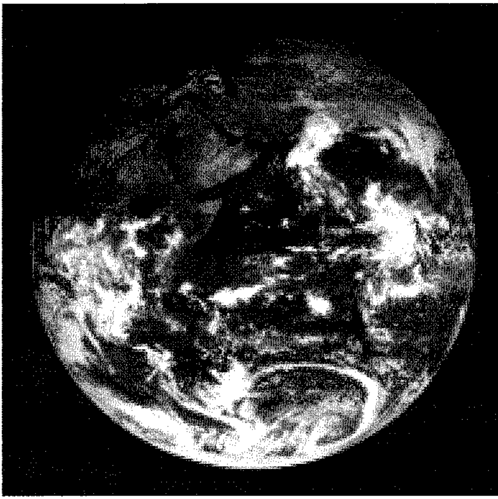
وقد اكتشف أخيراً مائة من تجمعات المجرات في حيز عظيم، يبلغ طول قطره بليوناً ونصف البليون من السنين الضوئية، وطول أقل أبعاده مائتا مليون من تلك السنين الضوئية. ويرى بعض الفلكيين وجود تجمعات أعلى من التجمعات العظمى للمجرات إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وقد اكتشف الفلكيون في سنة 1987 م ظاهرة تعرف باسم أقواس المجرات **(Galactic Arcs),** واتضح أن هذه الأقواس العملاقة تنتج عما يعرف باسم التكدس التجاذبي على هيئة عدد من العدسات **(Gravitational Lensing),** وتنتج عن انحناء الضوء في حقل من حقول الجاذبية الشديدة. وتبدو المجرات عادة بهيئة كروية كفقاعة الهواء، ولكن بالنظر إليها في قطاع من قطاعاتها فإنها تبدو كجدار عظيم أبعاده تقدر بنحو150 مليوناً × 100 مليون × 15 مليوناً من السنين الضوئية، ويبدو أضخم تلك القطاعات بطول يزيد على 250 مليون سنة ضوئية (250 مليوناً × 9.5 تريليون كيلو متر)، ويعرف عند الفلكيين تجاوزاً باسم الحائط العظيم **(The Great Wall)**، وأين يقع هذا الحائط الكوني العظيم من السماء الدنيا، والسمٰوات السبع؟ غيب لا يعلمه إلا الله، وكل ما نستطيع استنتاجه من بعض آيات القرآن الكريم ومن بعض أحاديث المصطفى ﷺ أن كل ما نشاهده في الكون المدرك هو جزء محدود من السماء الدنيا، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ **(فُصِّلَت: 12)**

وقوله ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(غافر: 57)**.

وهنا يقف العلم البشري ـ وهو في قمة من قممه ـ عاجزاً كل العجز عن إدراك حدود السماء الدنيا، فضلاً عما فوقها، وعاجزاً كل العجز عن إثبات أو نفي وجود سمٰوات فوق السماء الدنيا، لقصور قدراته، وقصور عمره عن ذلك، وهنا تتضح ضرورة وحي السماء ـ لا في أمور الدين وضوابطه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات فحسب ـ ولكن في قضية من أهم قضايا الوجود وهي قضية خلق السمٰوات والأرض، وتعدد السمٰوات والأرضين، وهنا أيضاً يتميز موقف المسلم الذي آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر دون أن يرى شيئاً من ذلك الحق، لأن الله تعالى قد تعهد بحفظ دينه في القرآن الكريم، وفي سنة النبي



شكل (31) صورة للأرض

الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وأنزل في هذا الوحي الخاتم قوله الحق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فيؤمن المسلم بصدق إخبار الله عن السمٰوات السبع دون أن يراها هو، لأنه يؤمن بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ومن أدرى بالخلق من الله؟ ويؤمن المسلم بأن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ هو خاتم أنبياء الله ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وأنه ﷺ قد وصفه ربه بالقول الحق:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (النجم: 3 ـ 5).

فإذا وصلنا عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ خبر من الأخبار، أو أمر من الأوامر فلا نملك حياله إلاّ التسليم التام، والخضوع الكامل، خاصة إذا كان هذا الخبر عن عوالم الغيب، أو كان الأمر من أمور العقيدة أو العبادة أو ضوابط الأخلاق والسلوك أو أحكام المعاملات، وهي أمور لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه بنفسه فيها تصوراً صحيحاً...!!!

الأرضون السبع في العلوم المكتسبة

الأرض هي أحد كواكب المجموعة الشمسية، وهي الثالثة بعداً عن الشمس، وتفصلها عنها مسافة تقدر بنحو مائة وخمسين مليوناً من الكيلو مترات، والأرض عبارة عن كوكب شبه كروي، له غلاف صخري، وتتلخص أبعاده في النقاط التالية:

متوسط نصف قطر الأرض = 6371 كيلو متراً.

متوسط قطر الأرض = 12742 كيلو متراً.

متوسط محيط الأرض = 40042 كيلو متراً.

مساحة سطح الأرض = 510 ملايين كيلو متراً مربعاً.

حجم الأرض = 108 ملايين كيلو متراً مكعباً.

متوسط كثافة الأرض = 5.52 جم/ سم^3.

كتلة الأرض = 6000 مليون مليون مليون طناً.

مساحة اليابسة = 148 مليون كيلو متراً مربعاً.

مساحة المسطحات المائية = 362 مليون كيلو متراً مربعاً.

أعلى ارتفاع على اليابسة = 8848 متراً.

متوسط ارتفاع اليابسة = 840 متر.

متوسط أعماق المحيطات = 3729 متراً.

أعمق أعماق المحيطات = 11033 متراً.



شكل (32) صورة للسديم ثلاثي الأطراف

ولما كانت أعمق عمليات الحفر التي قام بها الإنسان في الأرض لم تتجاوز بعد عمق12 كم أي أقل من (0.0942% من قطر الأرض) فإن الإنسان لم يستطع التعرف على التركيب الداخلي للأرض بطريقة مباشرة نظراً لأبعادها الكبيرة نسبياً، ومحدودية قدرات الإنسان أمام تلك الأبعاد، ولكن بدراسة الموجات الزلزالية وبعض الخواص الطبيعية والكيميائية لعناصر الأرض تمكن الإنسان من الوصول إلى عدد من الاستنتاجات غير المباشرة عن التركيب الداخلي للأرض التي من أهمها ما يلي:

1 ـ أن للأرض نواة صلبة عبارة عن كرة مصمطة من الحديد وبعض النيكل، مع قليل من عناصر أخف مثل الكبريت والفوسفور والكربون أو السيليكون، ويبلغ قطر هذه النواة2400 كيلو متر تقريباً، وتعرف باسم **لب الأرض الصلب.**

2 ـ يلي هذا اللب الصلب إلى الخارج نطاق له التركيب الكيميائي نفسه تقريباً ولكنه منصهر (يتكون من الحديد وبعض النيكل المنصهريْن مع قليل من العناصر الخفيفة)، ويعرف باسم **لب الأرض السائل**.، ويبلغ سمكه نحو ألفي كيلو متر. ويوجد بين لبي الأرض الصلب والسائل منطقة انتقالية يبلغ سمكها450 كيلو متراً.

3 ـ يلي لب الأرض السائل إلى الخارج نطاق يعرف باسم **وشاح الأرض** ويبلغ سمكه نحو2765 كيلو متراً (من عمق120 كم إلى عمق 2885 كم تحت سطح الأرض)، ويفصله إلى ثلاثة نطق مميزة، مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل، يقع أحدهما عند عمق400 كيلو متر من سطح الأرض، بينما يقع الآخر على

عمق670 كيلو متر من سطح الأرض، ويستخدم هذان المستويان في تقسيم وشاح الأرض إلى وشاح سفلي ومتوسط وعلوي (من عمق 1885 كم إلى عمق 670 كم، ومن 670 كم إلى 400 كم، ومن عمق 400 كم إلى عمق 120 كم، ويضم هذان النطاقان الأخيران فيما يعرف عادة باسم **نطاق الضعف الأرضي**.

4 ـ يلي وشاح الأرض إلى الخارج الغلاف الصخري للأرض ويصل سمكه إلى 65 كيلو متراً تحت قيعان المحيطات وإلى 120 كيلو متراً تحت القارات، ويقسمه خط الانقطاع الاهتزازي المسمى باسم الموهو (**Moho**) إلى قشرة الأرض ويتراوح سمكها بين 5، 8 كيلومترات تحت قيعان المحيطات، وبين 20، 80 كيلو متراً تحت القارات (بمتوسط 35 كم)، وما دون قشرة الأرض، ويمثل باقي سمك الغلاف الصخري للأرض.

وتقسم هذه النطق الداخلية للأرض حسب تركيبها الكيميائي أو حسب صفاتها الميكانيكية باختلافات طفيفة بين العلماء، ولكن من الواضح أنه يمكن جمعها في سبعة نطق متتالية من الخارج إلى الداخل كما هو مبين بالشكل المرفق (**شكل رقم 32**).

فهل يمكن أن تكون هذه النطق السبع هي المقصودة بالسبع أرضين؟ فتكون هذه الأرضون السبع كلها في أرضنا نحن، وتكون متطابقة كما أن السمٰوات السبع متطابقة في نطق متتالية حول مركز واحد يغلف الخارج منها الداخل؟ هذا ما أراه متطابقاً مع قول الحق ﷻ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ . . .﴾ **(الطلاق: 12)**.

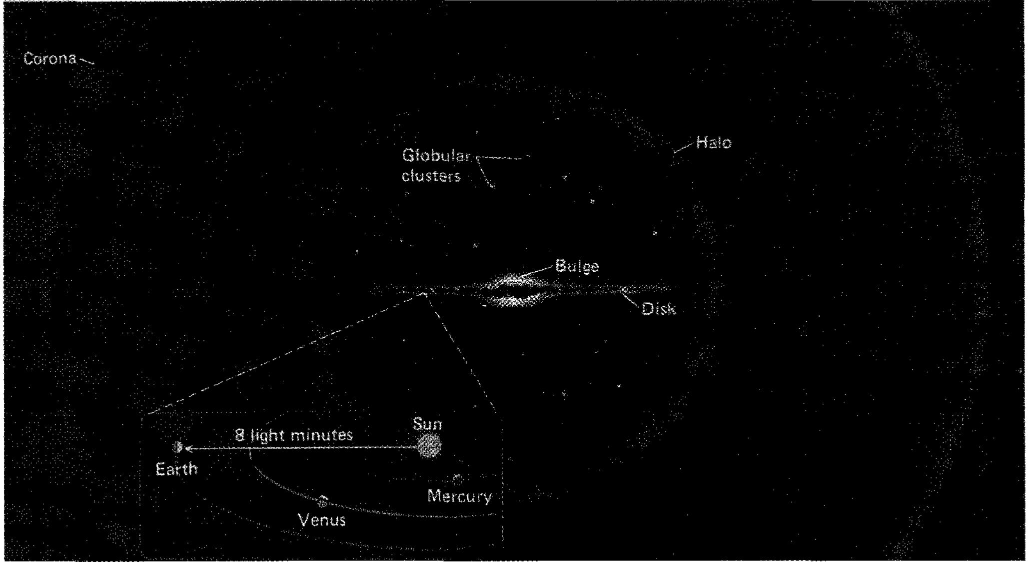
وقوله ﷻ: **﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ . . .﴾** **(الملك: 3)**

وقوله سبحانه: **﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾** **(نوح: 15، 16)**.

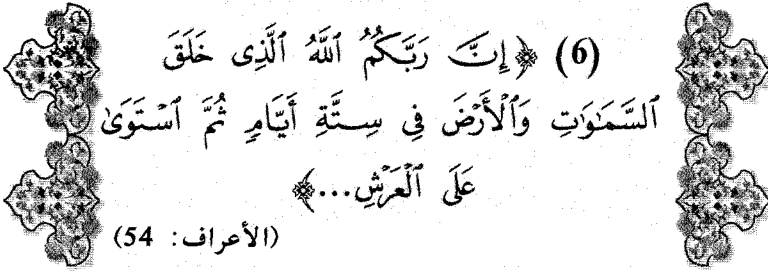
وهذا ما أراه أيضاً متطابقاً مع حديث المصطفى ﷺ الذي يروى عنه أنه قال فيه: «**من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين**»، وجاء في صحيح البخاري قوله ﷺ: «**خسف به إلى سبع أرضين**»[1]، وأراه متطابقاً كذلك مع المعطيات الكلية لعلوم الأرض والفيزياء الأرضية، مع اختلافات طفيفة بين العلماء في تحديد الفواصل بين تلك الأرضين، فهلا نهض من أبناء المسلمين من يحسم تلك الخلافات القياسية، ويثبت سبق القرآن الكريم وسبق أحاديث المصطفى ﷺ بالإشارة إلى إحدى حقائق الأرض الرئيسية التي لم يدرك

(1) تقدم تخريجه سابقاً، ص 144.

الإنسان طرفاً منها إلا في أوائل القرن العشرين، ولم يحسمها بعد، ونحن في بدايات القرن الحادي والعشرين، وسوف يكون ذلك انتصاراً للعلم وللدين الخاتم معاً، في زمن فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، وتركوا الدين وراء ظهورهم منسياً، فضلوا ضلالاً بعيداً، وشقوا وأشقوا غيرهم من خلق الله...!!



شكل (33) صورة لقرص مجرتنا توضح موقع مجموعتنا الشمسية منها



(6) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ...﴾

(الأعراف: 54)

جاءت الإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام في ثماني آيات قرآنية كريمة يقول فيها ربنا ﷻ:

1 ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: 54)

2 ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: 3)

3 ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ (هود: 7)

4 ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: 59)

5 ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة: 4)

6 ـ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (فصلت: 9 ـ 12)

7 ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (قٓ: 38)

8 ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: 4)

وقد اتفق جمهور المفسرين على أن أيام خلق السمٰوات والأرض الستة هي ست مراحل، أو وقائع، أو أطوار، أو أحداث كونية متتابعة، لا يعرف مداها إلا الله تعالى، وأنها لا يمكن أن تكون من أيام الأرض، لأن الأرض لم تكن قد خلقت بعد، ولذلك لم توصف أيام خلق السمٰوات والأرض بالوصف القرآني ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحجّ: 47) الذي جاء في آيات أخرى عديدة بمعنى اليوم الأرضي.

مدلول لفظة «اليوم» في القرآن الكريم:

وردت لفظة (يوم) بمشتقاتها في القرآن الكريم 475 مرة، منها 349 مرة بلفظ اليوم، 16 مرة بلفظ يوماً ومجموعهما 365 مرة (وهو نفس عدد أيام السنة في زماننا)، كذلك جاءت التعبيرات القرآنية: يومكم، يومهم، يومين، أيام، وأياماً 109 مرات لتحديد وقائع محددة، أو عدداً محدداً من الأيام، كما جاء التعبيران: يومَئذ، ويومِئذ لتحديد وقت معين. وفي اللغة العربية يقال (يوم) وجمعه (أيام) ليعبر به عن الفترة من طلوع الشمس إلى غروبها، أي فترة النور بين ليلين متتاليين، وقد يعبر به عن النهار والليل معاً (أو ما يعرف باليوم الكامل أو بيوم الأرض الشمسي) وهو الفترة التي تتم فيها الأرض دورة كاملة حول محورها أمام الشمس، أو بالفترة الزمنية بين شروقين متتاليين أو بين غروبين متتاليين للشمس ويساوي في زماننا أربعاً وعشرين ساعة كاملة.

ويقال في اللغة العربية: من أول يوم أي: من أول أيام تاريخ محدد، وربما عبروا باليوم عن الشدة التي يمر بها الفرد أو الجماعة من الناس، مثل قولهم: يوم كيوم عاد أو يوم كيوم ثمود، أو يوم من أيام العرب أو من أيام الدهر. وقد يعبر باليوم عن مدة من الزمان أيًّا كان طولها، ومعنى ذلك أن مصطلح (يوم) من الناحية اللغوية هو مصطلح عام يختلف مدلوله حول ما يقصد به في سياق الكلام.

ولفظة يوم جاءت في القرآن الكريم بهذه المعاني كلها، فجاءت بمعنى النهار كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ (البَقَرَة: 196).

وقوله سبحانه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (الحَاقَّة: 7)

وجاءت بمعنى اليوم الأرضي المطلق (أي زمن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس في أربع وعشرين ساعة كما هو الحال في زماننا). وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ . . .﴾ (البَقَرَة: 203)

وجاءت لفظة يوم في القرآن الكريم بمعنى يوم محدد من أيام الأسبوع من مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الجُمُعَة: 9)

وقوله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: 163)

وجاءت لفظة (يوم) في كتاب الله بمعنى يوم محدد من السنة كيوم الحج الأكبر وهو يوم عرفة (التاسع من ذي الحجة) أو يوم النحر (العاشر من ذي الحجة).

كما جاءت بمعنى واقعة محددة في التاريخ كيوم الزينة ويوم الظلة، ويوم الفرقان، ويوم حنين، ويوم الأحزاب، ويوم الفتح. وجاءت بمعنى بعض علامات تدمير النظام الكوني قبل البعث من مثل قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ (المُزمّل: 14)، و﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (الدّخَان: 10)، و﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ (الطُّور: 9)، وأمثالها.

وجاءت بمعنى يوم من أيام الله التي لايعلم مداها إلا هو ﷻ، ولكي يقرب ذلك إلى أذهاننا قارنها بعدد من سنيننا مضافاً إليها الوصف القرآني: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحَجّ: 47).

وقوله ﷻ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السَّجدَة: 5).

وجاءت لفظة (يوم) في كتاب الله بمعنى طور أو مرحلة، أو واقعة أو حدث كوني

وذلك من مثل الآيات: (7 من سورة الأعراف)، (3 من سورة يونس)، (7 من سورة هود)، (59 من سورة الفرقان)، (4 من سورة السجدة)، (38 من سورة قٓ)، (4 من سورة الحديد).

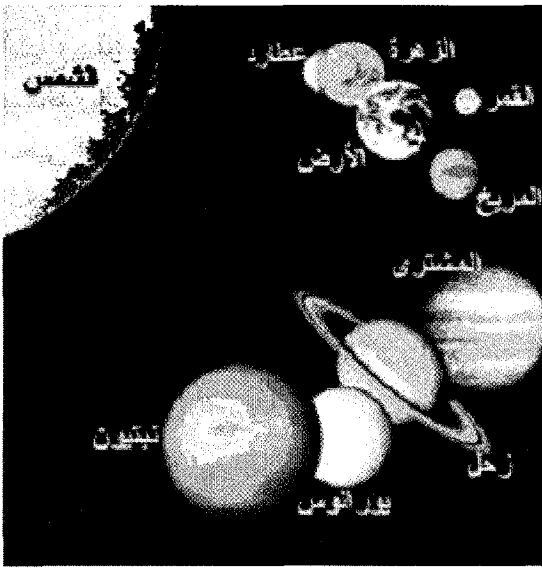
وجاءت بمعنى الآخرة: يوم الدين، يوم القيامة، يوم الساعة، يوم البعث، يوم الفصل، يوم الحساب، يوم الجمع، يوم التلاق، يوم التناد، يوم الآزفة، يوم الأشهاد، يوم الحسرة، يوم التغابن، يوم الوعيد، يوم الخروج، يوم الخلود، وغيرها من التعبيرات عن أيام البعث والحساب والخلود في الآخرة.

مدلول لفظة «اليوم» في العلوم الكونية:

يعرف يوم الأرض الشمسي بالفترة التي تتم فيها الأرض دورة كاملة حول محورها أمام الشمس، وتقدر هذه الفترة في زماننا الحالي بأربع وعشرين ساعة يتقاسمها ليل ونهار باختلافٍ طفيفٍ في طول كلٍّ منهما. أما يوم الأرض النجمي (ويقل في مداه عن يوم الأرض الشمسي بثلاث دقائق وست وخمسين ثانية) فيقدر بالمدة الزمنية الواقعة بين رؤية نجم ثابت في السماء من فوق نقطة محددة على سطح الأرض مرتين (أي حتى تعود نفس النقطة المحددة على سطح الأرض إلى رؤية هذا النجم الثابت من جديد)، والفارق الزمني الطفيف بين اليومين سببه أن الأرض عندما تتم دورة كاملة حول محورها تكون قد جرت في مدارها حول الشمس مسافة تقدر بحوالي365/ 1 من طول هذا المدار.

ولما كانت الأرض وكل مافي السماء يجري في فسحة الكون بسرعات متعددة، حول مراكز عديدة، ولما كان لكل جرم من تلك الأجرام دورة محورية كاملة ضمن عدد من الدورات المدارية والانتقالية، فإن أطوال تلك الدورات المحورية والمدارية تختلف من جرم إلى آخر، وبالتالي فإن طول يوم وسنة كل جرم من هذه الأجرام يختلف اختلافاً كبيراً، فيتراوح يوم كواكب المجموعة الشمسية بين 88 يوماً أرضياً في أقرب الكواكب إلى الشمس وهو كوكب عطارد، إلى بضعة أسابيع في كوكب الزهرة إلى 24 ساعة مقسمة إلى ليل ونهار في كوكب الأرض، إلى 24 ساعة 37 دقيقة 23 ثانية في كوكب المريخ، إلى 9 ساعات 53 دقيقة في كوكب المشتري، إلى 10 ساعات 14 دقيقة 24 ثانية في زحل، إلى 10 ساعات 48 دقيقة في يورانوس، إلى 15 ساعة 40 دقيقة في كوكب نبتون، وستة أيام أرضية في كوكب بلوتو (أي حوالي 144 ساعة).

كذلك يختلف طول سنة كل جرم من أجرام المجموعة الشمسية باختلاف طول مداره،



شكل رقم (34) يوضح أغلب كواكب المجموعة الشمسية، وهي صورة حقيقية التقطتها سفينة الفضاء فويجر ـ 1 (Voyager-1) **من مدار كوكب نبتيون**

وسرعة دورانه فيه، فالحركة الانتقالية السنوية حول الشمس لكوكب عطارد تقدر بحوالي 88 يوماً أرضياً، ولكوكب الزهرة بحوالي 224.7 يوم أرضي، وللأرض باثني عشر شهراً قمرياً (365 ـ 356، يوماً أرضياً)، وتصل في المريخ إلى 686.98 يوم أرضي، وفي المشتري إلى 11.86 سنة أرضية، وفي زحل إلى 29.46 سنة أرضية، وفي يورانوس إلى 84.07 سنة أرضية، وفي نبتون إلى 164.81 سنة أرضية، وفي بلوتو إلى 248.53 سنة أرضية، بينما تتم الشمس دورتها حول محورها (أي يومها) في زمن قدره 25 يوماً من أيام الأرض (في المتوسط)، وفي مدارها حول مركز المجرة (أي سنتها) في 225 مليون سنة من سني الأرض.

والمجموعة الشمسية هي جزء ضئيل من مجرة درب اللبانة والتي تشكل بدورها جزءاً من التجمع المجري، الذي يشكل جزءاً من التجمع المجري الأعظم، ثم تظل تنسب إلى وحدات أكبر باستمرار إلى نهاية الكون المدرك، وكل ذلك في حركة دائبة في صفحة السماء الدنيا التي زينها ربنا ﷻ بالنجوم، والتي هي بدورها في داخل السمٰوات الست العلا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿. . . وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحَجّ: 47).

وإذ يقول: ﴿. . . فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السَّجدَة: 5)

وإذ يقول ﷻ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المَعَارج: 4).

نسبية الزمن:

منذ القدم استخدم العرب المسافة للتعبير عن الزمن بصيغ مثل: مسيرة شهر، أو مسيرة

أسبوع، أو مسيرة يوم (عادة باستخدام الجمال أو بالسير على الأقدام)، وفي النظرية النسبية يستخدم الزمن كالبعد الرابع للأبعاد المساحية الثلاث، وبعض متصوفة المسلمين (من أمثال محيي الدين بن العربي) قد سبق ألبرت أينشتاين بمئات السنين في الإشارة إلى حقيقة أن الكون وجود مادي في كل من المكان والزمان، كما سبقه بالإشارة إلى تحدب الكون بتحدب الزمان، وهي قضية تعتبر اليوم من أهم نتائج النظرية النسبية العامة، بل إن في إشارة القرآن الكريم إلى يوم كألف سنة، ويوم كخمسين ألف سنة ليمثل أساس النسبية، ليس هذا فقط بل إن القرآن الكريم قد أشار إلى سرعات تقارب سرعة الضوء وسرعات تفوقها بدرجات عديدة وذلك بقول الحق ﷻ:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . .﴾

(النَّمل: 40).

وقد استخدم ابن عربي السنة الضوئية بنفس المفهوم الذي تستخدم به اليوم في علم الفلك انطلاقاً من هذه الآية القرآنية الكريمة، وفي مطلع القرن العشرين أعلن ألبرت أينشتاين نظريتي النسبية العامة والخاصة (في سنتي 1905 م، 1917 م) على التوالي.

وتقوم نظرية النسبية العامة على أساس من افتراض أن الجاذبية مكافئة لمفهوم التسارع، ووصفتها بأنها انحناء تحدثه الكتلة أو الطاقة (وهما وجهان لعملة واحدة) في متصل رباعي الأضلاع من الزمان والمكان بأبعاده الثلاثة.

وتقوم نظرية النسبية الخاصة على أساس من فرضين أساسيين:

أولهما: أن القوانين الفيزيائية تبقى ثابتة في أي جسم ثابت أو متحرك بسرعة ثابتة.

وثانيهما: أن سرعة الضوء في الفراغ تبقى ثابتة باستمرار بغض النظر عن سرعة المصدر الذي انطلقت منه، أو سرعة الراصد لها، وعلى ذلك فهي سرعة مطلقة. فضوء مصباح مثبت في قطار يقترب منا ينتشر بنفس السرعة التي ينتشر بها إذا كان يبتعد عنا.

ويهدف هذان الفرضان إلى تثبيت القوانين الفيزيائية (الميكانيكية والكهرومغناطيسية) سواء كان الجسم الذي تقاس فيه تلك القوانين ساكناً أو متحركاً بسرعة ثابتة، وذلك لأن كلًّا من الحركة والسكون ليسا مطلقين في الكون المدرك، بمعنى أن كافة العلاقات فيه نسبية، ماعدا سرعة الضوء لأنها ثابتة للمشاهد، ولا تتأثر بحركة أي من الراصد أو مصدر الضوء، وقد قدرت تجريبياً في الفضاء بحوالي 299792.5 كيلو متر في الثانية.

وقد تم رصد عروج الضوء (انحناء مساره) بين السماء والأرض سنة 1919 م، وثبت بذلك أن الكون كله بما فيه من مادة وطاقة في حالة انحناء تام، وأن أيًّا من مختلف صور

المادة أو الطاقة لا يمكنه التحرك في الكون في خطوط مستقيمة أبداً، وسبحان الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين وصف الحركة في السماء بالعروج في سبع آيات متفرقات.

ويترتب على ثبات سرعة الضوء إلغاء الادعاء الباطل بأن الزمان مطلق (مطلقية الزمان)، وإفراغ مفهوم الآنية من معناه، مما يفرغ الكون المدرك من أية مرجعية ذاتية فيه، بمعنى أنه إذا كان في الكون من مرجعية مطلقة فلا بد وأن تأتينا من خارج الكون المدرك، وليس من داخله، وهي مرجعية الوحي الإلهي المنزل من الخالق ﷻ. فقد ثبت لنا منذ الثلث الأول للقرن العشرين أن الكون الذي نحيا فيه دائم الاتساع، وأننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن فلا بد وأن تلتقي مادة الكون في نقطة متناهية الضآلة في الصغر، عديمة الأبعاد، لا نهائية في الكتلة والطاقة، وأن هذه الحالة القريبة من العدم (مرحلة الرتق) انفجرت بأمر من الله تعالى فنشأ عن انفجارها كل من المادة والطاقة (وهما وجهان لعملة واحدة)، والمكان والزمان (وهما أمران متواصلان)، وكل ذلك مترابط مع بعضه البعض وبالكون وما فيه من المخلوقات في الإيجاد من العدم والإفناء إلى العدم ثم إعادة الخلق من جديد، والخالق ﷻ فوق ذلك كله، محيط بالكون وما فيه، وبالزمن ماضيه وحاضره ومستقبله، لا يحده المكان ولا الزمان لأنه تعالى خالقهما، ولا تشكله المادة ولا يشبهه الطاقة لأنه تعالى مبدعهما، ولا من خلقه شيء ﷻ كما وصف ذاته العلية بقوله ﷻ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ **(الشّورى: 11)**.

وتفيدنا النظرية النسبية أن كتلة الأجسام المادية المتحركة تزداد بازدياد سرعتها، وتنكمش هذه الأجسام (أي يقل طولها) في اتجاه الحركة، وعندما تصل سرعتها إلى سرعة الضوء ينكمش طولها إلى الصفر أي تتلاشى وتتحول إلى طاقة حسب المعادلة التالية:

الطاقة الناتجة = كتلة الجسم المتحرك بسرعة الضوء × مربع سرعة الضوء.

وتؤكد النظرية النسبية أنه فيما عدا سرعة الضوء فكل زمن في الجزء المدرك لنا من الكون هو زمن نسبي يعتمد على سرعة تحرك الجسم، فكلما زادت سرعته (بالنسبة إلى جسم آخر) قل إحساسه بالزمن، فالنسبة بين زمن صاروخ متحرك في فسحة السماء والزمن على الأرض تزداد بزيادة سرعة الصاروخ حتى إذا وصلت سرعته إلى 99.995% من سرعة الضوء أصبحت سنته تعادل مائة سنة على الأرض، فالزمن على الأرض زمن خاضع لقياساتنا، ومرتبط بالمكان والسرعة أي بالحركة، وهو زمن نسبي، لأن كل جسم متحرك يحمل زمنه معه، وكل ما في الكون من أجرام يجري إلى أجل مسمى (الرعد: 2، يسٓ: 38). وبتحويل

آيتي سورة السجدة (5)، والحج (47) إلى معادلة رياضية، حصلنا على سرعات تفوق سرعة الضوء حسب الجدول المرفق وهي من المعجزات العلمية للقرآن الكريم أن يشير إلى مثل هذه السرعات الفائقة قبل ألف وأربعمائة سنة.

$$\text{سرعة الأمر الكوني} = \frac{\text{ألف سنة مما نعد}}{\text{يوم مما نعد}}$$

$$= \frac{\text{12 ألف شهر قمري}}{\text{24 ساعة} \times \text{60 دقيقة} \times \text{60 ثانية}}$$

$$= \frac{12000 \times \text{طول مدار القمر حول الأرض}}{\text{86,400 ثانية}}$$

$$= \frac{12000 \times 2405208,96 \text{ كم}}{\text{86,400 ثانية}} = 334056,8$$

وإذا ضربنا هذا الرقم في كل من المعامل الشهري والمعامل السنوي للقمر كما اقترح الأستاذ الدكتور منصور حسب النبي (رحمه الله برحمته الواسعة) وصلنا إلى الرقم التالي: 334056.8 × 0.9252 × 0.97 = 299792.5 كم/ ثانية وهي سرعة الضوء.

علماً بأن أدق قياس دولي لسرعة الضوء في الفراغ = 299792.45 كم/ثانية.

$$\text{وأن المعامل الشهري للقمر} = \frac{\text{الزمن النجمي للشهر القمري}}{\text{الزمن الاقتراني للشهر القمري}}$$

$$= \frac{\text{27,32 يوم}}{\text{29,53 يوم}} = 0.9252$$

$$\text{المعامل السنوي للقمر} = \frac{\text{309 سنة قمرية}}{\text{300 سنة ميلادية}} = 0.97087$$

وتتطابق القيمة المستقاة من هاتين الآيتين القرآنيتين الكريمتين مع القيمة المحسوبة لسرعة الضوء في الفراغ والمتفق عليها دولياً (في حدود الخطأ المسموح به في الحساب) بالضرب في كل من المعامل الشهري والمعامل السنوي للقمر.

وسبحان الذي أنزل في محكم كتابه قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

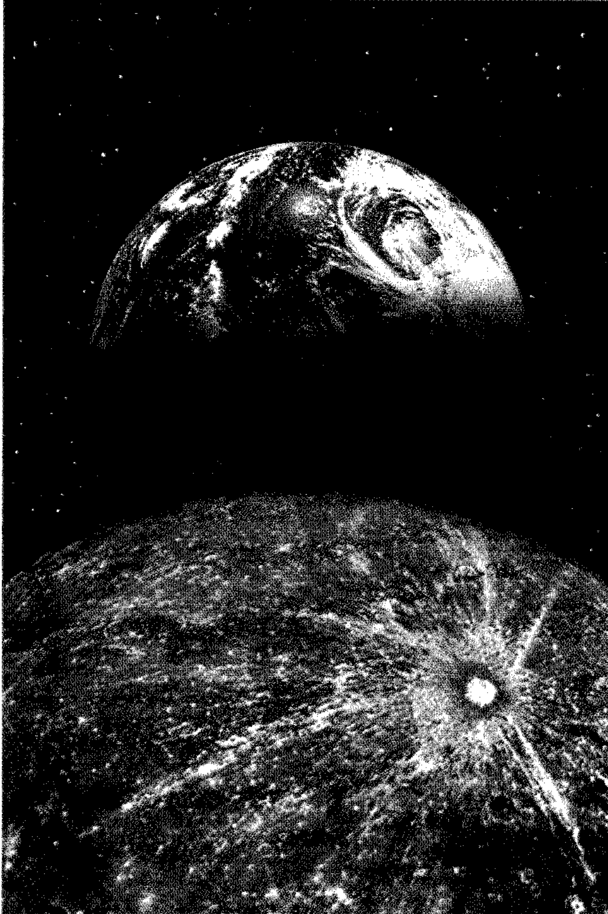
﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ **(السَّجدَة: 5)**

وقوله ﷻ: ﴿. . . وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ **(الحَجّ: 47)**

أيام الخلق الستة كما جاءت في القرآن الكريم:

جاءت هذه الأيام الستة مجملة في سبع آيات قرآنية كريمة ومفصلة في أربع آيات من السورة رقم(41) والتي سماها ربنا ﷻ باسم «فصلت»، وهو اسم معجز لتفصيل السورة مراحل خلق السمٰوات والأرض، والاستشهاد بذلك على طلاقة القدرة الإلهية، وعلى صدق القرآن الكريم، وصدق الرسالة المحمدية الخالدة وما جاءت به من قواعد العقيدة والعبادة، والأخلاق، والمعاملات وأركان الإيمان، وحقيقة الوحي الذي أنزله ربنا ﷻ على فترة من الرسل، وأتمه وأكمله وحفظه في الرسالة الخاتمة التي أنزلها على الرسول الخاتم والنبي الخاتم ﷺ، وجاءت سورة فصلت أيضاً بفيض من التحذير بمصارع بعض الأمم البائدة حينما كذبوا رسلهم، وتمادوا في معصية الله، وفي الإفساد بالأرض، كما جاءت بذكر أجر المتقين الذين آمنوا بربهم وبرسالته ورسله، وقد احتوت السورة الكريمة على إحدى عشرة آية كونية تعتبر من آيات الإعجاز العلمي المبهرة في كتاب الله، ثم ختمت بوعد من الله ﷻ للبشرية كافة، وللكافرين بخاصة بأنه سوف يفتح لهم في آخر الزمان بعض أسرار هذا الكون التي تشهد بصدق ما جاء به القرآن العظيم، وما أجراه الله تعالى على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

والآيات الأربع(9 ـ 12) من سورة فصلت تشير إلى أن خلق الأرض الابتدائية كان سابقاً على تمايز السماء الأولى الدخانية



شكل رقم (35) صورة للأرض من فوق سطح القمر

إلى سبع سمٰوات، ولذلك يخبرنا ربنا ﷻ بأنه خلق الأرض في يومين أي على مرحلتين (هما يوم الرتق ويوم الفتق) وأنه تعالى قد جعل لها رواسي من فوقها، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام (أي أربع مراحل متتالية)، ثم خلق السمٰوات في يومين (أي على مرحلتين هما نفس يومي خلق الأرض) وهو ﷻ قادر على أن يقول للشيء كن فيكون، ولكن هذا التدرج لحكمة بالغة كي يفهم الإنسان سنن الله في الخلق فيحسن توظيفها في عمارة الأرض وفي القيام بواجبات الاستخلاف فيها.

وقد يلتبس على قارئ تلك الآيات لأول وهلة أن خلق الأرض وحدها قد استغرق ستة أيام (أي ست مراحل)، وأن خلق السماء قد استغرق يومين، فيكون خلق السمٰوات والأرض قد استغرقا ثمانية أيام، وهو ما يتعارض مع الآيات العديدة التي تؤكد أن خلق السمٰوات والأرض قد تم في ستة أيام (أي ست مراحل)، ولكن لما كان خلق السماء والأرض عملية واحدة متداخلة فإن يومي خلق الأرض هما يوما خلق السمٰوات السبع، وذلك لأن الأمر الإلهي في ختام تلك الآيات الأربع كان للسماء وللأرض معاً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ **(فُصّلَت: 11)**

وإن كانت غالبية المفسرين ترى خلاف ذلك لاعتبارهم يومي خلق الأرض داخلين في الأيام الأربعة لجعل الرواسي، والمباركة، وتقدير الأقوات، إلا أنهم مجمعون على أن حرف العطف «ثم» لا يدل هنا على الترتيب مع التراخي، ولكنه يدل على بعد عملية الاستواء والتسوية للسمٰوات السبع من السماء الدخانية الأولى، لأن من معاني «ثم» هنا أنها إشارة إلى البعيد بمعنى هناك في مقابلة «هنا» للقريب. والشاهد على ذلك ما جاء في سورة النازعات من قول الحق ﷻ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ **(النازعات: 27 ـ 33)**.

مما يؤكد أن المراحل الأربع من جعل الرواسي، والمباركة وتقدير الأقوات يقصد بها دحو الأرض الابتدائية بمعنى إخراج مائها ومرعاها أي: تكوين أغلفتها المائية والغازية، وأن يومي خلق الأرض ـ وهما نفس يومي خلق السماء ـ يقصد بهما خلق العناصر المكونة للأرض الابتدائية في داخل السماء الدخانية بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ **(فصلت: 11 ـ 12)**.

وبدليل قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ **(البقرة: 29)**.

ولفظ «خلق» هنا معناه التقدير لمكونات الأرض.

أيام الخلق في منظور العلوم المكتسبة:

يرى أهل العلوم المكتسبة مراحل خلق الكون على النحو التالي:

(1) مرحلة الجرم الابتدائي الأولي الذي بدأ منه الخلق **(مرحلة الرتق)**.

(2) مرحلة انفجار الجرم الابتدائي الأولي **(مرحلة الفتق)** وبدء توسع الكون.

(3) مرحلة السماء الدخانية، وفيها تخلقت العناصر المختلفة، عبر تخلق المادة والمادة المضادة، وتكون نويات الإيدروجين والهيليوم وبعض الليثيوم.

(4) مرحلة انفصال دوامات من الغلالة الدخانية وتكثفها على ذاتها بفعل الجاذبية لتكوين كل من الأرض وباقي أجرام السماء.

(5) مرحلة دحو الأرض، وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية، وبدء تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتكوّن كل من المحيطات والقارات والجبال، وتكوّن التربة وبدء دورة الماء حول الأرض، وتسوية سطحها، وخزن الماء (مرحلة تكون الجبال).

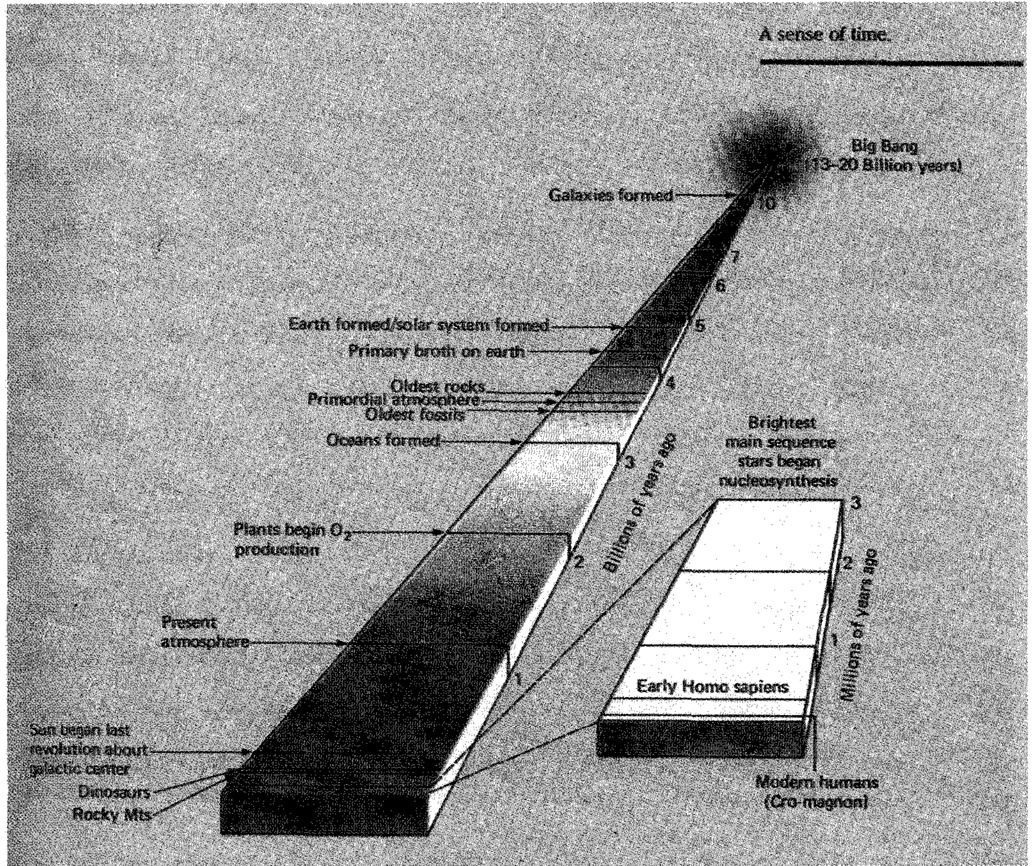
(6) مرحلة خلق الحياة من أبسط صورها إلى مختلف مستوياتها (مراحل المباركة وتقدير الأقوات) (والله تعالى أعلم بما قد خلق).

ويقدر علماء كل من الفلك والفيزياء الفلكية عمر الكون بحوالي10 ـ 15 بليون سنة، بينما يقدر علماء الأرض عمر ذلك الكوكب بحوالي 4.6 بليون سنة، وهو نفس العمر الذي توصل إليه العلم بتحليل تراب سطح القمر، وعمر النيازك العديدة التي نزلت إلى الأرض. ويبدو أن الفارق الكبير بين العمرين المقدرين لكل من الأرض والكون سببه أن العمر المقدر للأرض هو عمر تيبّس قشرتها الخارجية، وأن هذا العمر لا يشمل أيًّا من مراحل الأرض الابتدائية، ولا مراحل تخلق العناصر التي كونت تلك الأرض الابتدائية.

وتشير الآيات القرآنية في كل من سورة البقرة(29)، وفصلت (9 ـ12) إلى سبق خلق الأرض لعملية تسوية السماء الدخانية الأولية إلى سبع سمٰوات، ويبدو أن المقصود هنا هو خلق عناصر الأرض، ثم تلي تلك المرحلة خلق الأرض نفسها على هيئة الكوكب الابتدائي الذي تم دحوه وتشكيله إلى صورته الراهنة، وذلك لأن خلق السمٰوات والأرض عمليتان

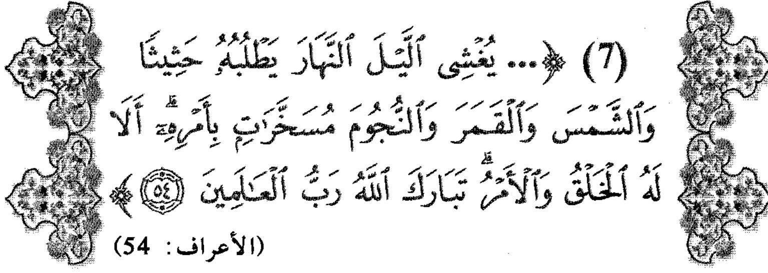
متلازمتان، ولا يمكن لإحداهما أن تنفصل عن الأخرى. فسبحان الذي أنزل من فوق سبع
سمٰوات، وقبل ألف وأربعمائة من السنين قوله الحق في صيغة استفهام استنكاري تقريعي
للمشركين والكافرين: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي
أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: 9 ـ 12).

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: 54).



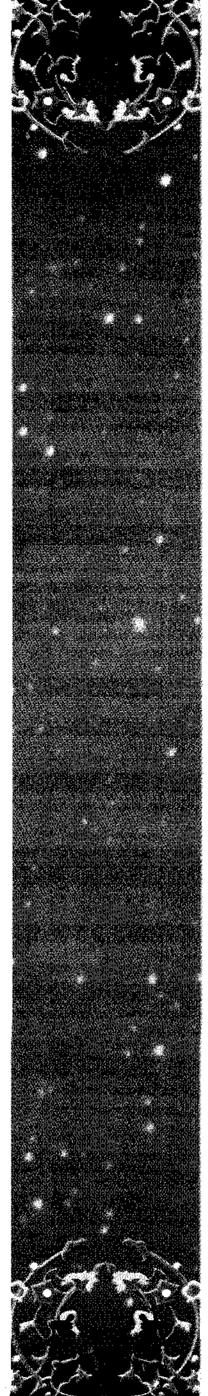
شكل رقم (36) يمثل نشأة الكون والأحداث الكبرى في تاريخه

بسم الله الرحمن الرحيم



(7) ﴿... يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

(الأعراف: 54)



في الوقت الذي ساد اعتقاد الناس بثبات الأرض وسكونها، جاء القرآن الكريم بالتأكيد على جريها وسبحها، وعلى جري كافة أجرام السماء وسبحها في فسحة الكون الرحيب، ولكن لما كانت هذه الحقائق خافية على الناس في زمن تنزل الوحي فقد جاءت الإشارات القرآنية إليها بصياغة لطيفة، رقيقة، غير مباشرة حتى لا تصدهم عن قبوله فيحرموا نور الرسالة الخاتمة، ويكون ذلك سبباً في حرمان البشرية من هديها..!!

من هنا جاءت الإشارات القرآنية إلى عدد من الحقائق الكونية التي كانت غائبة عن علم الناس في زمن الوحي ـ ومنها حركات الأرض ـ بصياغة مجملة، غير مباشرة، ولكنها في نفس الوقت صياغة محكمة، بالغة الدقة في التعبير، والشمول في الدلالة، والإحاطة بالحقيقة الكونية، لتبقى مهيمنة على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، كما تبقى شاهدة للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، وللنبي الخاتم الذي تلقى الوحي به ﷺ بأنه كان معلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، ومؤكدة على وصفه ﷺ للقرآن الكريم بأنه «**لا تنتهي عجائبه ولايخلق على كثرة الرد**».

الإشارات القرآنية إلى حركات الأرض:

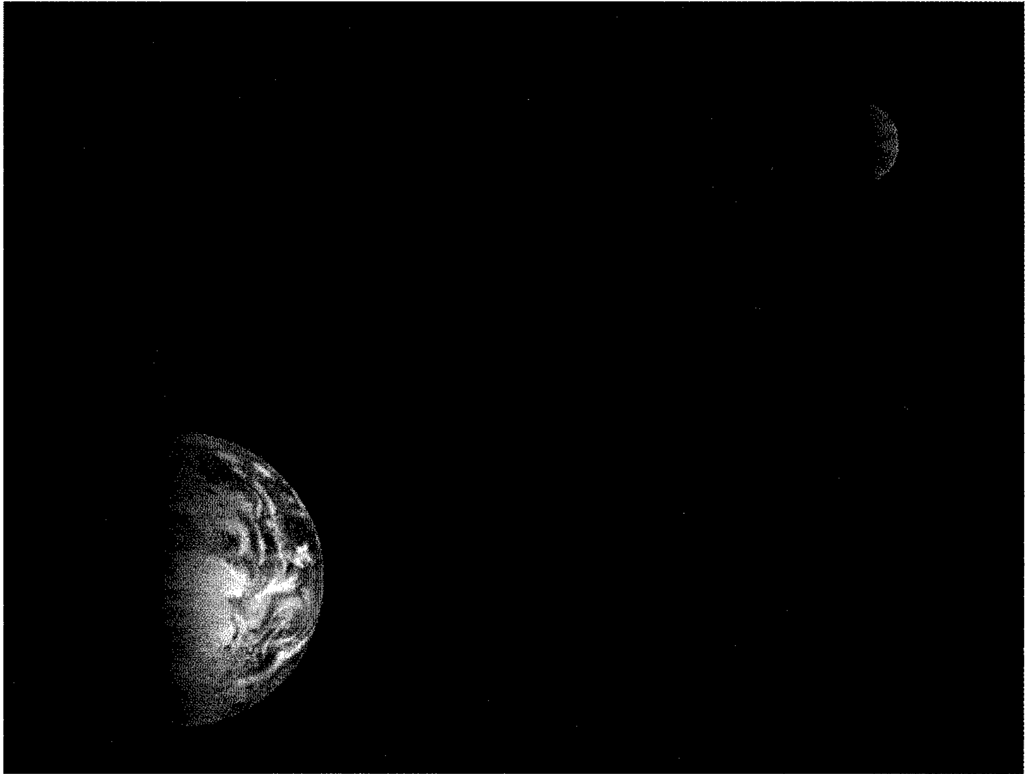
استعاض القرآن الكريم في الإشارة إلى حركات الأرض بغشيان (أو بتغشية) كل من الليل والنهار للآخر، واختلافهما، وتقلبهما، وولوج كل منهما في الآخر، وبسلخ النهار من الليل، وبمرور الجبال

مر السحاب، وبالتعبير القرآني المعجز عن سبح كل من الليل والنهار كناية عن الحركات الانتقالية للأرض، وذلك على النحو التالي:

أولاً: آيات غشيان الليل النهار: وجاء ذكرها في آيتي **الأعراف رقم (54)، والرعد رقم(3)** كما يلي:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ **(الأعراف: 54).**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ **(الرعد: 3).**



شكل رقم (37) الأرض والقمر في مواجهة الشمس، وكل في فلك يسبحون ليتبادل الليل والنهار على كل منهما

ثانياً: آيات اختلاف كل من الليل والنهار: وهي خمس آيات كريمة تؤكد كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، بالإضافة إلى ثلاثة آيات أخرى تحمل نفس المعنى ولكن بتعبيرات مختلفة، وفي ذلك كله يقول الحق ﷻ:

(1) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

(البقرة: 164).

(2) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ **(آل عمران: 190)**

(3) ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

(يونس: 6).

(4) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(المؤمنون: 80).

(5) ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ **(الجاثية: 3 ـ 5).**

ويؤكد القرآن الكريم اختلاف الليل والنهار بتعبير آخر يقول فيه ربنا ﷻ:

(6) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

(الفرقان: 62).

وبتعبير ثالث يقول فيه ﷻ:

(7) ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ **(المدثر: 33، 34).**

وبتعبير رابع يقول فيه ربنا ﷻ:

(8) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ **(التكوير: 17، 18).**

ثالثاً: آية تقليب الليل والنهار: وقد جاءت في سورة النور حيث يقول الخالق ﷻ:
﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ **(النور: 44).**

وفيها إشارة واضحة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس.

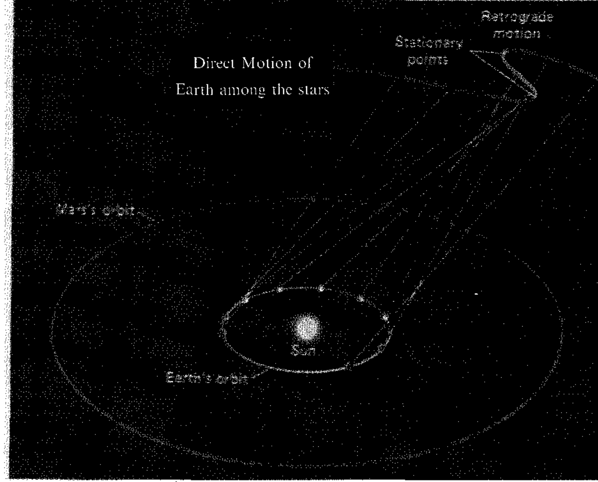
رابعاً: آيات إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل: وهي خمس آيات يقول فيها ربنا ﷻ:

(1) ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٢٧﴾ **(آل عِمرَان: 27)**

(2) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ **(الحج: 61)**.

(3) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٢٩﴾ **(لقمَان: 29)**.

(4) ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ **(فَاطِر: 13)**.



شكل (38) يوضح حركة الأرض حول الشمس بين نجوم السماء

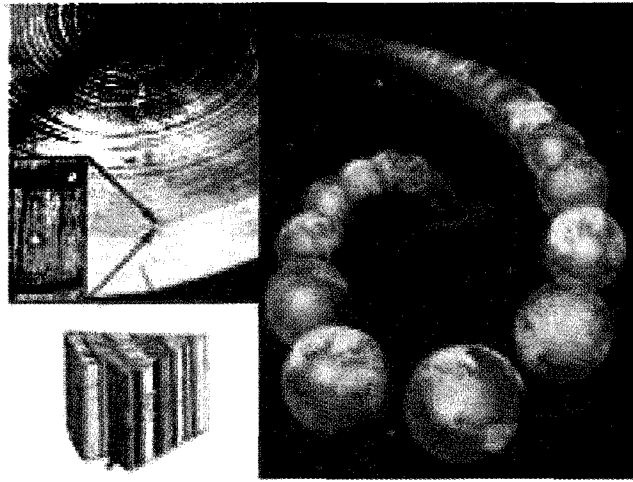
(5) ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ **(الحَديد: 6)**.

والولوج لغة: هو الدخول، ولما كان من غير المعقول دخول زمن في زمن آخر، اتضح لنا أن المقصود بكل من الليل والنهار هنا هو المكان الذي يتغشيانه أي الأرض، بمعنى أن الله تعالى يدخل نصف الأرض الذي يخيم عليه ظلام الليل بالتدريج في مكان النصف الذي يعمه النهار، كما يدخل نصف الأرض الذي يعمّه النهار بالتدريج في مكان النصف الذي تخيم عليه ظلمة الليل، وهو مايشير إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بطريقة غير مباشرة، ولكنها تبلغ من الدقة والشمول والإحاطة ما يعجز البيان عن وصفه.

خامساً: آية سلخ النهار من الليل: ويقول فيها ربنا ﷻ:

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ **(يسٓ: 37)**.

ومعنى ذلك أن الله تعالى ينزع نور النهار من أماكن الأرض التي يتغشاها الليل بالتدريج كما يُنْزَعُ جلدُ الذبيحة عن كامل بدنها بالتدريج، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وفي هذا النص القرآني سبق بالإشارة إلى رقة طبقة النهار في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث ثبت أن سمك طبقة النهار حول نصف الأرض المواجه للشمس لا يتعدي المائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر، وإذا نسب ذلك إلى المسافة التي تفصل بيننا وبين الشمس (والمقدرة بحوالي المائة والخمسين مليوناً من الكيلو مترات) فإنها لا تتجاوز الواحد إلى سبعمائة وخمسين ألفاً تقريباً، وإذا نسب إلى نصف قطر الجزء المدرك من الكون (والمقدر بأكثر من عشرة آلاف مليون من السنين الضوئية × 9.5 مليون مليون كيلو متر) اتضحت ضآلته، واتضحت كذلك لمحة الإعجاز القرآني في تشبيه انحسار طبقة النهار الرقيقة عن ظلمة الليل بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها، وفي التأكيد على أن الظلام هو الأصل في الكون، وأن نور النهار ظاهرة رقيقة عارضة لاتظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس، والذي يتحرك باستمرار مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس.



شكل (39) تباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها مع الزمن مدون في أخشاب النباتات وفي هياكل الحيوانات

سادساً: آيتا سبح كل من الليل والنهار: كناية عن سبح الأرض في مداراتها المختلفة: ويقول فيهما ربنا ﷻ:

(1) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

(الأنبياء: 33).

(2) ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

(يس: 40).

سابعاً: آية مرور الجبال مر السحاب: وفيها يقول الخالق ﷻ:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ **(النمل: 88).**

ومرور الجبال مر السحاب هو كناية عن دوران الأرض حول محورها، وعن جريها وسبحها في مداراتها، وذلك لأن الجبال جزء من الأرض ولأن الغلاف الغازي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط كذلك بالأرض برباط الجاذبية، وحركته منضبطة مع حركة كل من الأرض، والسحاب المسخر فيه.

ثامناً: والنهار إذا جلاها:

جاء ذكر غشيان (تغشية) الليل النهار في آيتين كريمتين من آيات القرآن العظيم هما [الأعراف: 54) و (الرّعد: 3)، كما أسلفنا.

كذلك جاء ذكر تجلية النهار للشمس، وتغشيتها بالليل في قول الحق ﷻ:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ **(الشمس: 1 ـ 4).**

وجاء ذكر تغشية الليل وتجلية النهار دون تفصيل في قول ربنا ﷻ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ **(الليل: 1، 2).**

والفعل (يغشي) مستمد من (الغشاء) وهو الغطاء الرقيق، بمعنى غطى وستر، ويقال: (غشاه) و(تغشاه) (تغشية) أي: غطاه تغطية، و(أغشاه) إياه غيره، و(الغشْوة) بفتح الغين وضمها وكسرها و(الغشاوة) ما يتغطى أو يغطي به الشيء، ويقال (غشيه) (غشياناً) و(غشاوة) و(غشاء) أي جاءه مجيء ما قد غطاه وستره، و(استغشى) بثوبه و(تغشى به) أي: تغطى به؛ و[الغاشية) كل ما يغطي الشيء كغاشية السرج، و(الغاشية) تستخدم كناية عن القيامة التي (تغشي) الخلق بأهوالها، وجمعها (غواش)، و(غاشية تغشاهم) أي أمر يأتيهم، سواء كان شراً أم خيراً من مثل نائبة تجللهم أو فرح يعمهم.

من ذلك يتضح أن من معاني: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أن الله تعالى يغطي بظلمة الليل مكان نور النهار على الأرض بالتدريج فيصير ليلاً، ويغطي بنور النهار مكان ظلمة الليل على الأرض بالتدريج فيصير نهاراً، وهي إشارة لطيفة إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس دورة كاملة في كل يوم مدته في زمننا الحالي 24 ساعة يتقاسمها ـ بتفاوت قليل ـ الليل والنهار، في تعاقب تدريجي ينطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، فلو لم تكن الأرض كروية الشكل ما استطاعت الدوران حول محورها، ولو لم تدر حول محورها



شكل (40) قطاع مستعرض في ساق إحدى الأشجار يوضح مراحل نموها على هيئة ما يعرف بالحلقات السنوية

أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار. والقرآن الكريم يستخدم تعبير الليل والنهار في مواضع كثيرة استخداماً مجازياً للإشارة إلى كوكب الأرض، كما يشير بهما إلى كل من الظلمة والنور ـ على التوالي ـ وإلى العديد من المظاهر المصاحبة لهما من مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾

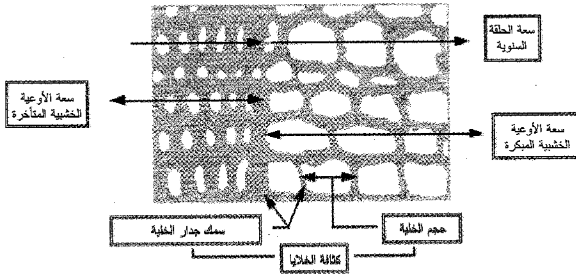
(الشمس: 1 ـ 4)

وفي هذه الآيات الكريمة يقسم ربنا ﷻ (وهو الغني عن القسم) بالنهار الذي يجلي الشمس أي: يظهرها واضحة جلية لسكان الأرض، وهي حقيقة لم يدركها العلماء إلا من بعد ريادة الفضاء في النصف الأخير من القرن العشرين، حين اكتشفوا أن نور النهار المبهج لا يتعدى سمكه مائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، وأن هذا الحزام الرقيق من الغلاف الغازي للأرض يصفو بالتدريج من هباءات

الغبار، وقطيرات الماء وبخاره ومن كثير من الملوثات، كما تقل كثافته بالارتفاع عن سطح الأرض، بينما تزداد كثافته ونسب كل من بخار الماء وهباءات الغبار فيه كلما اقترب من سطح الأرض، ويقوم ذلك التركيز وتلك الهباءات من الغبار بالمساعدة على تشتيت ضوء الشمس، وتكرار انعكاسه مرات عديدة حتى يظهر لنا باللون الأبيض المبهج الذي يميز النهار كظاهرة نورانية مقصورة على النطاق الأسفل من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس، بينما يعم الظلام الكون المدرك في غالبية أجزائه، وتبدو الشمس بعد تجاوز نطاق نور النهار قرصاً أزرق في صفحة سوداء، ومن هنا فهمنا المعنى المقصود من أن النهار يجلي الشمس، بينما ظل كل الناس إلى أواخر القرن العشرين وإلى يومنا الراهن ـ فيما عدا قلة قليلة من العلماء ـ وهم ينادون بأن الشمس هي التي تجلي النهار، فسبحان الذي أنزل تلك الحقيقة الكونية من قبل ألف وأربعمائة سنة، والتي لم يكتشفها العلم التجريبي إلا في النصف الأخير من القرن العشرين...!!!

كذلك يقسم ربنا ﷻ ـ وهو تعالى غني عن القسم ـ بقوله ﷻ: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (الليل: 1، 2).

وهو قسم بالليل (أي ليل الأرض) الذي يغشي أي يغطي نصف الكرة الأرضية المخفى عن الشمس بالظلام لعدم مواجهته لها، وأقسم بالنهار (أي نهار الأرض) الذي تشرق فيه الشمس على نصف الكرة الأرضية المواجه لها فيعمه نور النهار، وبتعاقبهما تستقيم الحياة على الأرض، ويتمكن الإنسان من إدراك مرور الزمن والتأريخ للأحداث، وحينما يغشي الليل بظلمته نصف الأرض المخفى عن الشمس تتصل ظلمة الأرض (أي ظل نصفها المنير) بظلمة السماء فيعم الظلام، وفي نفس الوقت يتجلى النهار في نصف الأرض المواجه للشمس بنوره المبهج فاصلاً الأرض عن ظلمة السماء بحزام رقيق من النور الأبيض لا يكاد يتعدى سمكه المائتي كيلو متر.



شكل (41) رسم تخطيطي لقطاع في ساق نبات يوضح تغير صفات كل من الحلقات السنوية والخلايا مع الزمن

ويمنّ علينا ربنا ﷻ بتبادل كل من الليل والنهار فيقول سبحانه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم

بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (القصص: 71 ـ 73)

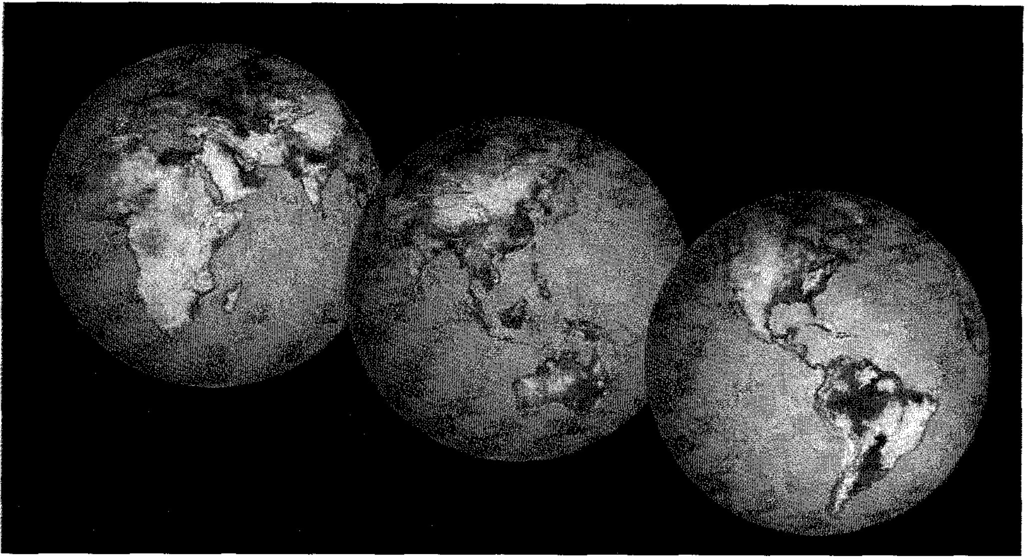
ويقول ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ: 10، 11).

تاسعاً: يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً:

يتساءل قارىء القرآن الكريم عن الوصف «حثيثاً» الذي جاء في الآية (رقم54) من سورة الأعراف في وصف تغشية الليل النهار، ولم يذكر في آية سورة الرعد رقم (3) والتي جاءت بنفس النص دون ذكر الوصف حثيثاً، كذلك لم يرد هذا الوصف في آيات أخرى ذكرت التغشية بغير تحديد، وللإجابة على ذلك أقول: إن آية سورة الأعراف مرتبطة بالمراحل الأولى من خلق السمٰوات والأرض، بينما بقية الآيات تصف الظاهرة بصفة عامة، واللفظة (حثيثاً) تعني مسرعاً حريصاً، يقال: (حثّه) على أمر ما بمعنى: شجعه وحضه عليه أو رده إليه، و(استحثه) على الشيء أي حضه عليه (فأحتث)، تحثيثاً و(حثحثة) بمعنى حضًّا، و(تحاثّوا) بمعنى تحاضّوا.

والدلالة الواضحة للآية الكريمة (رقم54) من سورة الأعراف هي التسارع الشديد في حركة تتابع الليل والنهار (أي حركة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس) في بدء الخلق والتي لا بد وأنها كانت سريعة متعاقبة بمعدلات أعلى من سرعتها الحالية وإلا ما غشي الليل النهار يطلبه حثيثاً.

وقد ثبت ذلك أخيراً عن طريق دراسة مراحل النمو المتتالية في هياكل الحيوانات وفي جذوع الأشجار المعمرة والمتأحفرة، وقد انضوت دراسة تلك الظاهرة في جذوع الأشجار تحت فرع جديد من العلوم يعرف باسم علم تحديد الأزمنة بواسطة الأشجار أو **(Dendrochronology)** وقد بدأ هذا العلم بدراسة الحلقات السنوية في جذوع الأشجار والتي تظهر عند عمل قطاعات مستعرضة فيها ممثلة مراحل النمو المتتالية في حياة النبات (من مركز الساق حتى طبقة الغطاء الخارجي المعروفة باسم اللحاء)، وذلك من أجل التعرف على الظروف المناخية والبيئية التي عاشت في ظلها تلك الأشجار حيث أن الحلقات السنوية في جذوع الأشجار تنتج بواسطة التنوع في الخلايا التي يبنيها النبات بدرجات متفاوتة في فصول السنة المتتابعة (الربيع، والصيف والخريف، والشتاء) فترق رقة شديدة في فترات الجفاف، وتزداد سمكاً في الآونة المطيرة.



شكل (42) صورة للأرض توضح تباطؤ سرعة دورانها حول محورها أمام الشمس مع الزمن

وقد تمكن الدارسون لتلك الحلقات السنوية من متابعة التغيرات المناخية المسجلة في جذوع عدد من الأشجار الحية المعمرة مثل أشجار الصنوبر ذات المخاريط الشوكية المعروفة باسم **(Pinus aristata)** والتي تعيش لأعمار تمتد إلى أكثر من ثمانية آلاف سنة، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى دراسة الأحافير عبر العصور الأرضية المتعاقبة، وطوروا تقنياتهم من أجل ذلك فتبين لهم أن الحلقات السنوية **(Annual Rings)** في جذوع الأشجار وخطوط النمو في هياكل الحيوانات **(Lines of Growth)** يمكن تصنيفها إلى السنوات المتتالية، بفصولها الأربعة وشهورها القمرية الاثني عشر، وأسابيعها وأيامها، ونهار كل يوم وليله، كما تبين لهم أن عدد الأيام في السنة يتزايد باستمرار مع تقادم عمر العينة المدروسة، ومعنى ذلك أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس كانت في القديم أسرع منها اليوم، حيث يتزايد عدد أيام السنة بتقادم عمر الأرض، وهنا تتضح روعة التعبير القرآني **(يطلبه حثيثاً)** في وصف إغشاء الليل والنهار عند بدء الخلق كما جاء في الآية رقم(54) من سورة الأعراف، وعلاقته بالسرعة الفائقة لدوران الأرض حول محورها أمام الشمس عند بدء الخلق كما أثبتت ذلك أحدث الدراسات العلمية.

ففي دراسة الظروف المناخية والبيئية القديمة كما هي مدونة في كل من جذوع النباتات وهياكل الحيوانات القديمة اتضح للدارسين أنه كلما تقادم الزمن بتلك الحلقات السنوية (أو خطوط النمو) زاد عدد الأيام في السنة، وزيادة عدد الأيام في السنة هو تعبير دقيق

عن زيادة سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس. وبتطبيق ذلك على الأحافير (البقايا الصلبة للكائنات البائدة) بدقة بالغة اتضح أن عدد أيام السنة في العصر الكمبري **(Cambrian Period)** أي منذ حوالي ستمائة مليون سنة مضت ـ كان 425 يوماً، وفي منتصف العصر الأوردوفيشي **(Ordovician Period)** أي منذ حوالي 450 مليون سنة مضت ـ كان 415 يوماً، وبنهاية العصر الترایاسي **(Triassic Period)** أي منذ حوالي مائتي مليون سنة مضت ـ كان 385 يوماً، وهكذا استمر التناقص في عدد أيام السنة (والذي يعكس التناقص التدريجي في سرعة دوران الأرض حول محورها) حتى وصل عدد أيام السنة في زماننا الراهن إلى 365.25 يوماً تقريباً. وباستكمال هذه الدراسة اتضح أن الأرض تفقد من سرعة دورانها حول محورها أمام الشمس واحداً من الألف من الثانية في كل قرن من الزمان بسبب كل من عمليتي المد والجزر، وفعل الرياح المعاكسة لاتجاه دوران الأرض حول محورها، كما يظن كثير من أهل العلم، أن كلا من هذين العاملين يعمل عمل الكابح (الفرامل) التي تبطىء من سرعة دوران الأرض حول محورها. وبمد هذه الدراسة إلى لحظة تيبس القشرة الخارجية للأرض (أي قريباً من بداية خلقها على هيئتها الكوكبية) منذ حوالي 4.600 مليون سنة مضت وصل عدد الأيام بالسنة إلى 2200 يوم تقريباً، وهذه الأيام كانت قصيرة المدى جداً، فلم يكن طول الليل والنهار معاً يصل إلى حوالي الأربع ساعات، ومعنى هذا الكلام أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس كانت ستة أضعاف سرعتها الحالية..!! فسبحان الله الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾. **(الأعراف: 54)**

وسبحان الله الذي أبقى لنا في هياكل الكائنات الحية والبائدة ما يؤكد تلك الحقيقة الكونية، حتى تبقى هذه الإشارة القرآنية الموجزة ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ مما يشهد بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وبأنه كلام الله الخالق، وبأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي تلقاه عن طريق الوحي كان موصولاً برب السمٰوات والأرض، كما وصفه ربه ﷻ بقوله الحق:
﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ **(النجم: 3 ـ 5)**.

طلوع الشمس من مغربها وارتباك دوران الأرض حول محورها قبل ذلك:

بمعرفة كل من سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في أيامنا الراهنة،

ومعدل تباطؤ سرعة هذا الدوران مع الزمن، توصل العلماء إلى الاستنتاج الصحيح أن أرضنا سوف يأتي عليها وقت تجبر فيه على تغيير اتجاه دورانها بعد فترة من الاضطراب، فمنذ اللحظة الأولى لخلقها إلى اليوم وإلى أن يشاء الله تدور أرضنا من الغرب إلى الشرق، فتبدو الشمس طالعة من الشرق، وغائبة في الغرب، فإذا انعكس اتجاه دوران الأرض حول محورها طلعت الشمس من مغربها وهو من العلامات الكبرى للساعة، كما أخبرنا المصطفى ﷺ، فعن حذيفة ابن أسيد الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قد اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «**ما تذاكرون؟**»، قلنا: نذكر الساعة فقال: «**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات**».

فذكر: «**الدخان، الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**»[1].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات خروجاً الشمسُ من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريب**»[2].

وفي حديث الدجال الذي رواه النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال.. قلنا: يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟ قال ﷺ: «**أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**»، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال ﷺ: «**لا، اقدروا له...**»[3].

ومن الأمور العجيبة أن يأتي العلم التجريبي في أواخر القرن العشرين ليؤكد أنه قبل تغيير اتجاه دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ستحدث فترة اضطراب نتيجة لتباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها، وفي فترة الاضطراب تلك ستطول الأيام بشكل كبير ثم تقصر وتنتظم بعد ذلك.

ويعجب الإنسان لهذا التوافق الشديد بين خبر المصطفى ﷺ وما أثبته العلم التجريبي في أواخر القرن العشرين، والسؤال الذي يفرض نفسه: من الذي علم ذلك لهذا النبي الأمي

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن (الحديث: 3812)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم (الحديث: 4142).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن (الحديث: 7309)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم (الحديث: 4141).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم (الحديث: 4152).

ﷺ؟ ولماذا أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه القضايا الغيبية التي لم تكن معروفة في زمن الوحي؟ ولا لقرون من بعده؟ لولا أن الله تعالى يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى اكتشاف تلك الحقائق الكونية فتكون هذه الإشارات المضيئة في كتاب الله وفي أحاديث خاتم أنبيائه ورسله ﷺ شهادة له بالنبوة وبالرسالة، في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه.

خطأ شائع يجب تصحيحه:

يظن بعض الناس أننا إذا أدركنا في صخور الأرض أو في صفحة السماء عدداً من معدلات التغيير الآنية في النظام الكوني الذي نعيش فيه فإنه قد يكون من الممكن أن نحسب متى ينتهي هذا النظام، وبمعنى آخر: متى تكون الساعة...!! وهذا وهم لا أساس له من الصحة لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا، وأنها تأتي فجأة بقرار إلهي: (كن فيكون) دون انتظار لرتابة السنن الكونية الراهنة التي تركها لنا ربنا ﷻ رحمة منه بنا، إثباتاً لإمكان حدوث الآخرة، وقرينة علمية على حتمية وقوعها والتي جادل فيها أهل الكفر والإلحاد عبر التاريخ، والذين كانت حجتهم الواهية هي الادعاء الباطل بأزلية العالم، وهو ادعاء أثبتت العلوم الكونية ـ في عطاءاتها الكلية ـ بطلانه بطلاناً كاملاً...!!!

فعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ تفقد شمسنا من كتلتها في كل ثانية على هيئة طاقة ما يساوي 4.6 مليون طن من المادة (أي نحو أربعمائة بليون طن في اليوم)، ونحن نعرف كتلة الشمس في وقتنا الحاضر فهل يمكن لعاقل أن يتصور إمكان استمرار الشمس حتى آخر جرام من مادتها؟ وحينئذ يمكن بقسمة كتلة الشمس على ما تفقده في اليوم أن ندرك كم بقي من عمرها؟

هذا كلام يرفضه العقل السليم، لأن الساعة قرار إلهي غير مرتبط بفناء مادة الشمس، وإن أبقى لنا ربنا ﷻ آيته الظاهرة من الإفناء التدريجي للشمس، ولغيرها من نجوم السماء دليلاً مادياً ملموساً على حتمية الآخرة، أما متى تكون؟ فهذا غيب مطلق في علم الله، لا يعلمه إلا هو ﷻ.

وبالمثل فإن الحرارة تنتقل في كوننا المدرك من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ويفترض قانون انتقال الحرارة استمرار تلك العملية حتى تتساوى درجة حرارة كل أجرام الكون وينتهي كل شيء، فهل يمكن لعاقل أن يتصور استمرار الوجود حتى تتساوى درجة حرارة كل الأجرام في الكون، أم أن الآخرة قرار إلهي: (كن فيكون) غير مرتبط بانتقال

الحرارة من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، وإن أبقاها الله تعالى قرينة مادية ملموسة على حتمية الآخرة؟ وعلى أن الكون الذي نحيا فيه ليس أزلياً ولا أبدياً، فقد كانت له بداية، ولابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية؟ وهذا ما أثبتته جميع الدراسات العلمية في عصر تفجر المعرفة الذي نعيشه، وأن تلك النهاية لن تتم برتابة الأحداث الدنيوية في الجزء المدرك من الكون، بل هي قرار إلهي فجائي لا يعلم وقته إلا الله سبحانه وتعالى، ولذلك أنزل لنا في محكم كتابه قوله الحق مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾**﴾ **(الأعراف: 187).**

كما أنزل سبحانه وتعالى كذلك في المعنى نفسه قوله الحق: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ **(النازعات: 42 ـ 46).**

وعلى ذلك جاء رد المصطفى ﷺ على جبريل عليه السلام حين سأله في جمع من الصحابة: «فأخبرني الساعة؟» بقوله الشريف: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[1].

فسبحان الله الذي أنزل القرآن الكريم بالحق، أنزله بعلمه، وجعله معجزة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ إلى قيام الساعة، وجعله مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها في كل أمر ذكر فيه، وجعل كل آية من آياته، وكل كلمة من كلماته، وكل حرف من حروفه، وكل إشارة، ودلالة، ووصف فيه مما يشهد بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم ﷺ بالنبوة والرسالة الخاتمة.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان (93).

بسم الله الرحمن الرحيم

(8) ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

(الأنبياء: 104)

يعتبر مجال الخلق، وإفنائه، وإعادة خلقه، من المجالات الغيبية التي لا يستطيع الإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح بغير هداية ربانية، ومن هنا فإن العلوم التجريبية لا يمكن لها أن تتجاوز في تلك المجالات مرحلة التنظير بمعنى وضع نظرية من النظريات أو اقتراح فرض من الفروض. وتتعدد الفروض والنظريات بتعدد خلفية واضعيها العقديّة والثقافية والتربوية والنفسية، ويبقى للمسلم في هذا المجال نور من الله الخالق في آية من كتابه الكريم، أو في حديث مروي بسند صحيح عن خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى تلك النظريات العلمية إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود إشارة إليها في أي من هذين المصدرين من مصادر وحي السماء، اللذين حفظا بحفظ الله باللغة نفسها التي نزل الوحي بها (اللغة العربية) على مدى أربعة عشر قرناً ـ أو يزيد ـ دون نقص أو زيادة، ونكون في هذه الحالة قد انتصرنا للعلم بالوحي الثابت من كتاب الله المحفوظ بحفظه، أو بسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وهي من الوحي، ولم ننتصر لهما بالعلم المكتسب لأنهما فوق ذلك وأعظم وأجل..!!

فمجرد ورود إشارة في كتاب الله أو في حديث مروي بسند صحيح عن خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) إلى ما يدعم إحدى النظريات العلمية التي لم يتوصل إليها العلم المكتسب إلا بعد مجاهدة كبيرة، عبر سنوات طويلة استغرقت جهود آلاف من العلماء، فإن ذلك يرقى بهذه النظرية إلى مقام الحقيقة،

ويعتبر إعجازاً علمياً في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ لمجرد السبق بالإشارة إلى تلك الحقيقة العلمية قبل وصول الإنسان إليها بفترة زمنية طويلة تقدر بأكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان، وفي ذلك يقول ربنا ﷻ في محكم كتابه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ (الكهف: 51)

والقرآن الكريم الذي يقرر أن أحداً من الإنس أو الجن لم يشهد خلق السمٰوات والأرض، هو الذي يأمرنا بالنظر في قضية الخلق (خلق السمٰوات والأرض، خلق الحياة، وخلق الإنسان) بعين الاعتبار والاتعاظ فيقول ﷻ:

﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ (الأعراف: 185).

ويقول ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (العنكبوت: 19 ـ 20).

ويقول: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (غافر: 57)

ويقول ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ (الغاشية: 17)

وبالنظر في السماء توصل علماء الفلك والفيزياء الفلكية إلى عدد من النظريات المفسرة لنشأة الكون وإفنائه، وأكثر هذه النظريات قبولاً في الأوساط العلمية اليوم هما نظريتا الانفجار العظيم **(The Big Bang Theory)** والانسحاق العظيم **(The Big Crunch Theory)** وكلاهما يستند إلى عدد من الحقائق المشاهدة.

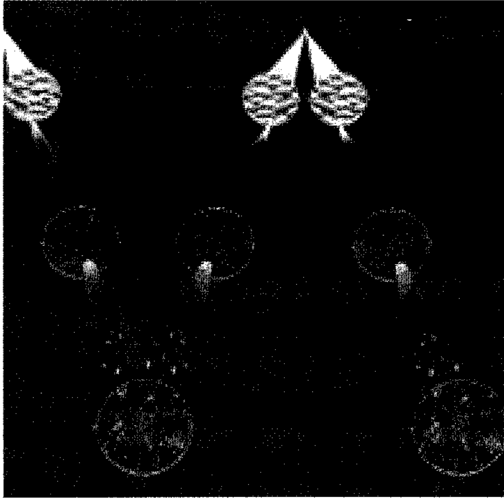
الشواهد العلمية على صحة نظرية الانفجار العظيم:

(1) **التوسع الحالي للكون المشاهد**: وهي حقيقة اكتشفت في الثلث الأول من القرن العشرين، ثم أكدتها حسابات كل من الفيزيائيين النظريين والفلكيين، والتي لا تزال تقدم مزيداً من الدعم والتأييد لتلك الحقيقة المشاهدة بأن المجرات تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات تكاد تقترب أحياناً من سرعة الضوء (المقدرة بحوالي 300000 كيلو متر في الثانية)، وقد سبق القرآن الكريم كل تلك المعارف بأكثر من ثلاثة عشر قرناً وذلك بقول الحق ﷻ:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذّاريَات: 47).

وإذا عدنا بهذا الاتساع الكوني الراهن إلى الوراء مع الزمن، فإن كافة ما في الكون

من صور المادة والطاقة والمكان والزمان لا بد وأن تلتقي في جرم واحد، متناه في ضآلة الحجم إلى ما يقترب من الصفر أو العدم، فيتلاشى كل من المكان والزمان، ومتناه في ضخامة الكتلة والطاقة إلى الحد الذي تتوقف عنده قوانين الفيزياء النظرية، وهذا الجرم الابتدائي انفجر بأمر من الله تعالى فنشر مختلف صور الطاقة، والمادة الأولية للكون في كل اتجاه، وتخلقت من تلك الطاقة المادة الأولية، ومن المواد الأولية تخلقت العناصر على مراحل متتالية، وبدأ الكون في الاتساع، ومع اتساعه تعاظم كل من المكان والزمان، وتحولت مادة الكون إلى سحابة من الدخان الذي خلقت منه الأرض وكل أجرام السماء، وما يملأ المسافات بينها من مختلف صور المادة والطاقة، وظل الكون في التمدد والتوسع منذ لحظة الانفجار العظيم إلى يومنا الراهن، وإلى أن يشاء الله تعالى، والانسحاق الشديد هو عملية معاكسة لعملية الانفجار الكوني الكبير تماماً.



شكل (43) يوضح عمليتي الانفجار العظيم والانسحاق الشديد للكون وإعادة خلق أرض غير الأرض وسماوات غير السماوات.

(2) اكتشاف الخلفية الإشعاعية للكون المدرك: وقد اكتشفها بمحض المصادفة باحثان بمختبرات شركة بل للتليفونات بمدينة نيوجرسي هما أرنو أ. بنزياس **(Arno A. Penzias)** وزميله روبرت و. ويلسون **(Robert W. Wilson)** في سنة 1965 م على هيئة إشارات راديوية منتظمة وسوية الخواص، قادمة من كافة الاتجاهات في السماء، وفي كل الأوقات دون أدنى توقف أو تغير، ولم يمكن تفسير تلك الإشارات الراديوية المنتظمة، السوية الخواص إلا بأنها بقية الإشعاع الذي نتج عن عملية الانفجار الكوني العظيم، وقد قدرت درجة حرارة تلك البقية الإشعاعية بحوالي ثلاث درجات مطلقة (أي ثلاث درجات فوق الصفر المطلق الذي يساوي ـ 273 درجة مئوية).

وفي نفس الوقت كانت مجموعة من الباحثين العلميين في جامعة برنستون تتوقع حتمية وجود بقية للإشعاع الناتج عن عملية الانفجار الكوني الكبير، وإمكانية العثور على تلك البقية

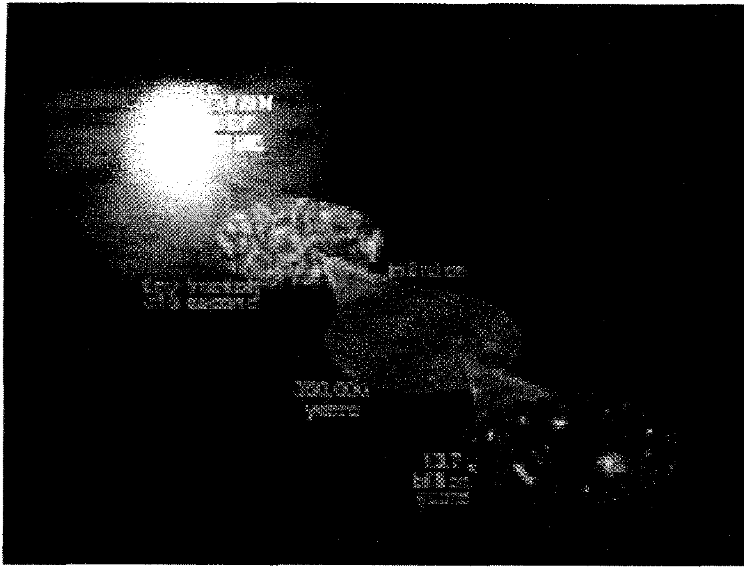
الإشعاعية بواسطة التليسكوبات الراديوية، وذلك بناء على الاستنتاج الصحيح بأن الإشعاع الذي نتج عن عملية الانفجار تلك قد صاحب عملية التوسع الكوني، وانتشر بانتظام وسوية عبر كل من المكان والزمان في فسحة الكون، ومن ثم فإن بقاياه المنتشرة إلى أطراف الجزء المدرك من الكون لا بد أن تكون سوية الخواص، ومتساوية القيمة في كل الاتجاهات، ومستمرة ومتصلة بلا أدنى انقطاع.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الإشعاع الكوني لا بد أن يكون له طيف مماثل لطيف الجسم المعتم، بمعنى أن كمية الطاقة الناتجة عنه في مختلف الموجات يمكن وصفها بدرجة حرارة ذات قيمة محددة، وأن هذه الحرارة التي كانت تقدر ببلايين البلايين من الدرجات المطلقة عند لحظة الانفجار الكوني لا بد وأن تكون قد بردت عبر عمر الكون المقدر بعشرة بلايين من السنين على الأقل، إلى بضع درجات قليلة فوق الصفر المطلق. وانطلاقاً من تلك الملاحظات الفلكية والنظرية كان في اكتشاف الخلفية الإشعاعية للكون دعم عظيم لنظرية الانفجار الكوني، وقضاء مبرم على نظرية ثبات الكون واستقراره التي اتخذت تكئة لنفي الخلق، وإنكار الخالق ﷻ.

ولم تكن مجموعة جامعة برنستون بقيادة كل من روبرت دايك **(Robert Dicke)**، ب.ج.إ. بيبلز**(P.J.E. Peebles)**، ديفيد رول **(David Roll)**، وديفيد ولكنسون **(David Wilkinson)** هي أول من توقع وجود الخلفية الإشعاعية للكون، فقد سبقهم إلى توقع ذلك كل من رالف ألفر **(Ralph Alpher)**، وروبرت هيرمان **(Robert Herman)** في سنة 1948 م، وجورج جامو **(George Gamow)** في سنة 1953 م، ولكن استنتاجاتهم أهملت ولم تتابع بشيء من الاهتمام العلمي فطويت في عالم النسيان.

(3) تصوير الدخان الكوني على أطراف الجزء المدرك من الكون:

في سنة 1989 م أرسلت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا **(NASA)** مركبة فضائية باسم مستكشف الخلفية الكونية أو (كوبي) **[Cosmic Background Explorer or (COBE)]** وذلك لدراسة الخلفية الإشعاعية للكون من ارتفاع يبلغ ستمائة كيلو متر حول الأرض، وقد قاست تلك المركبة درجة الخلفية الإشعاعية للكون وقدرتها بأقل قليلاً من ثلاث درجات مطلقة (أي بحوالي (2.735 ـ 0.06) من الدرجات المطلقة). وقد أثبتت هذه الدراسة تجانس مادة الكون وتساويها التام في الخواص قبل الانفجار وبعده أي: من اللحظة الأولى لعملية الانفجار الكوني العظيم، وانتشار الإشعاع في كل من المكان والزمان مع احتمال وجود أماكن تركزت فيها المادة الخفية التي تعرف باسم المادة الداكنة **(Dark Matter)**.



شكل (44) نشأة الكون كما تصوره عملية الانفجار العظيم وبانعكاسها تتم عملية الانسحاق الشديد، وبانعكاس عملية الانسحاق تخلق أرض غير أرضنا وسماوات غير السماوات التي تظلنا اليوم

كذلك قامت تلك المركبة الفضائية بتصوير بقايا الدخان الكوني الناتج عن عملية الانفجار العظيم على أطراف الجزء المدرك من الكون (على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية)، وأثبتت أنها حالة دخانية معتمة سادت الكون قبل خلق السمٰوات والأرض، وقد سبق القرآن الكريم جميع المعارف الإنسانية بوصف تلك الحالة الدخانية منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة بقول الحق ﷻ:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فُصّلَت: 11).

وكان في اكتشاف هذا الدخان الكوني ما يدعم نظرية الانفجار العظيم، والتي سبق وأن أشار إليها القرآن الكريم من قبل توصل العلماء إليها بأكثر من ثلاثة عشر قرناً.

(4) عملية الاندماج النووي وتآصل العناصر: تتم عملية الاندماج النووي في داخل الشمس وفي داخل جميع نجوم السماء بين نوى ذرات الإيدروجين لتكوين نوى ذرات أثقل بالتدريج وتنطلق الطاقة، وقد أدت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج الصحيح بتآصل العناصر، بمعنى أن جميع العناصر المعروفة لنا والتي يبلغ عددها أكثر من مائة عنصر قد تخلقت كلها في الأصل من غاز الإيدروجين بعملية الاندماج النووي، فإذا تحول لب النجم المستعر إلى حديد انفجر النجم وتناثرت أشلاؤه في صفحة السماء حيث يمكن لنوى الحديد تلقي اللبنات الأساسية للمادة من صفحة السماء، فتتخلق العناصر الأعلى في وزنها الذري.

وقد جمعت هذه الملاحظات الدقيقة بين فيزياء الجسيمات الأولية للمادة وعلم الكون، وأيدت نظرية الانفجار العظيم التي بدأت بتخلق المادة وأضدادها مع اتساع الكون، وتخلق كل من المكان والزمان، ثم تخلق نويات كل من الإيدروجين والهيليوم والليثيوم، ثم تخلق بقية العناصر المعروفة لنا، ولذا يعتقد الفلكيون في أن تخلق تلك العناصر قد تم على مرحلتين، نتج في المرحلة الأولى منهما العناصر الخفيفة، وفي المرحلة الثانية العناصر الثقيلة، والتدرج في تخليق العناصر المختلفة بعملية الاندماج النووي في داخل النجوم أو أثناء انفجارها على هيئة المستعرات العظمى هو صورة مبسطة لعملية الخلق الأول، يدعم نظرية الانفجار العظيم ويعين الإنسان على فهم آلياتها، والحسابات النظرية لتخليق العناصر بعملية الاندماج النووي تدعمها التجارب المختبرية على معدلات تفاعل الجسيمات الأولية للمادة مع نوي بعض العناصر، وقد بدأ هذه الحسابات هانز بيته **(Hans Bethe)** في الثلاثينات من القرن العشرين، وأتمها وليام فاولر **(William Fowler)** الذي منح جائزة نوبل في الفيزياء مشاركة مع آخرين في سنة 1983 تقديراً لجهوده في شرح عملية الاندماج النووي، ودورها في تخليق العناصر المعروفة، ومن ثم المناداة بتآصل العناصر، وهي صورة مصغرة لعملية الخلق الأول.

(5) التوزيع الحالي للعناصر المعروفة في الجزء المدرك من الكون: تشير الدراسات الحديثة عن توزيع العناصر المعروفة في الجزء المدرك من الكون إلى أن غاز الإيدروجين يكون أكثر قليلاً من 74% من مادته، ويليه في الكثرة غاز الهيليوم الذي يكون حوالي 24% من تلك المادة، ومعنى ذلك أن أخف عنصرين معروفين لنا يكوّنان معاً أكثر من 98% من مادة الكون المنظور، وأن باقي 105 من العناصر المعروفة لنا يكون أقل من 2%، مما يشير إلى تآصل العناصر، ويدعم نظرية الانفجار العظيم، لأن معظم النماذج المقترحة لتلك النظرية تعطي حوالي 75% من التركيب الكيميائي لسحابة الدخان الناتجة من ذلك الانفجار على هيئة غاز الإيدروجين، 25% من تركيبه على هيئة غاز الهيليوم، وهي أرقام قريبة جداً من التركيب الكيميائي الحالي للكون المدرك، كما لخصها عدد من العلماء (من مثل:

Alpher, Gamow, Wagonar, Fowler, Hoyle, Schramm, Olive, Walker, Steigman, Rang, etc.).

هذه الشواهد وغيرها دعمت نظرية الانفجار الكوني العظيم وجعلتها أكثر النظريات المفسرة لنشأة الكون قبولاً في الأوساط العلمية اليوم، ونحن المسلمين نرقى بهذه النظرية إلى مقام الحقيقة لورود ما يدعمها من كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة من السنين وذلك بقول الخالق ﷻ:

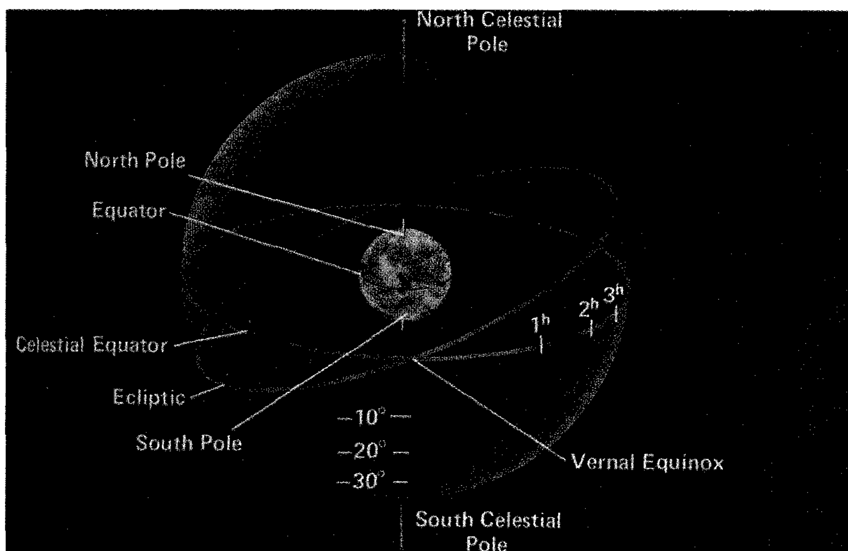
﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ **(الأنبياء: 30)**.

وهذه الآية القرآنية الكريمة التي جاءت بصيغة الاستفهام التوبيخي للكافرين والمشركين والملاحدة تشد انتباههم إلى قدرة الله التامة، وسلطانه العظيم اللذين يتضحان من إبداعه في خلقه ومن صور ذلك الإبداع خلق السمٰوات والأرض من جرم ابتدائي واحد سماه ربنا ﷻ باسم «**الرتق**»، والرتق في اللغة: هو الضم والالتئام والالتحام، وهو ضد الفتق (يقال رتق الشيء فارتتق أي التأم والتحم)، ثم أمر الله تعالى هذا الجرم الابتدائي بالانفتاق فانفتق وهي مرحلة يسميها القرآن الكريم باسم «**الفتق**»، وتحول إلى سحابة من الدخان (مرحلة الدخان) الذي خلق منه ربنا ﷻ كلًّا من الأرض والسماء، وما ينتشر بينهما من مختلف صور المادة والطاقة مما نعلم وما لا نعلم، ثم يأتي العلم المكتسب في منتصف القرن العشرين ليكتشف شيئاً من معالم تلك الحقيقة الكونية، ويظل يجاهد في إثباتها حتى يتمكن من شيء من ذلك بنهايات القرن العشرين، فينادي بنظرية سميت باسم «الانفجار العظيم» **(The Big Bang)**، ويتنبأ بحتمية انعكاس تلك العملية فيما سماه باسم نظرية «الانسحاق الشديد» **(The Big Crunch)**.

ويبقى هذا السبق القرآني بالإشارة إلى الفتق بعد الرتق، أو ما يسميه علماء الفلك باسم «الانفجار العظيم»، وما أدى إليه من تحول الجرم الابتدائي إلى سحابة دخانية خلقت منها الأرض والسمٰوات، وإلى توسع الكون إلى عصرنا الراهن وإلى أن يشاء الله، ثم طي ذلك كله مرة أخرى إلى جرم واحد، وانفجاره للمرة الثانية وتحوله مرة أخرى إلى دخان، وخلق أرض غير الأرض وسمٰوات غير السمٰوات، كما أخبرنا القرآن الكريم يبقى ذلك كله من أعظم الشهادات على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وعلى أن هذا النبي الخاتم الذي تلقاه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قِبَل خالق السمٰوات والأرض.

ماذا بعد اتساع الكون؟

أدت الملاحظات العلمية الدقيقة عن توسع الكون، واكتشاف كل من أشباه النجوم **(Quasars)**، والخلفية الإشعاعية للكون، وتصوير الدخان الكوني على أطراف هذا الجزء المدرك من الكون، كما أدى استنتاج عملية الاندماج النووي، وفهم عملية تخلق العناصر من غاز الإيدروجين في داخل النجوم، والتوزيع الحالي للعناصر المعروفة في الجزء المدرك من الكون أدى ذلك كله إلى دعم نظريتي «الانفجار الكوني العظيم»، و«الانسحاق الكوني



شكل (45) شكل عام للسمات حول الأرض

الشديد»، وإلى دحض غيرهما من النظريات وفي مقدمتها نظرية الكون الثابت والتي نادى بها كل من هيرمان بوندي **(Herman Bondi)**، وتوماس جولد **(Thomas Gold)** وفريد هويل **(Fred Hoyle)**. في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، والتي طرحت انطلاقاً من الاعتقاد الخاطىء بأزلية الكون والذي ساد الغرب طوال النصف الأول من القرن العشرين، واستمر معه إلى اليوم على الرغم من دحض المعطيات الكلية للعلوم لتلك الفرية الكبيرة..!!! ونحن كمسلمين نرتقي بنظريتي «الانفجار الكوني الكبير» و«الانسحاق الكوني الشديد» إلى مقام الحقيقة لوجود إشارة لهما في كتاب الله، على الرغم من وجود بعض المعارضين، والرافضين لكل من النظريتين، وحتى الذين اقتنعوا بالنظريتين ودافعوا عنهما انقسموا حيالهما إلى مجموعات في غيبة اتباعهم للهداية الربانية في أمور غيبية كأمر خلق الكون وإفنائه، وهي أمور تتعدد فيها الاحتمالات ولا يحسمها إلا بيان من الله الخالق أو من رسوله ﷺ.

الاحتمالات المتوقعة لعملية توسع الكون:

مع تسليم العلماء بحقيقة توسع الكون إلا أن أحداً منهم لا يستطيع أن يجزم بمستقبل هذا الاتساع الذي تنقسم حوله الاحتمالات على الوجه التالي:

(1) **الاحتمال الأول**: ويقترح فيه علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن يستمر الكون في التمدد والتوسع إلى ما لا نهاية (هروباً من الاعتراف بالخلق وبالآخرة)، وذلك بافتراض

استمرار قوة الدفع إلى الخارج بمعدلات أقوى من قوى الجاذبية التي تشد الكون إلى الداخل في اتجاه مركزه، وهذا افتراض خاطىء تماماً في ضوء الملاحظات الراهنة على الجزء المدرك من الكون، ومن أبسطها أن استمرار تمدد الكون واتساعه يؤدي إلى خفض درجة حرارته بالتدريج حتى تنطفىء جذوة نجومه بانفجارها، أو بتحولها إلى أجسام باردة كالكواكب، أو إلى ثقوب سود تبتلع كل مايدخل في دائرة جذبها من مختلف صور المادة والطاقة، ومن هنا كان تمدد الكون إلى مالانهاية (وهو ما يسمى باسم نموذج الكون المفتوح) أمراً مستبعداً في ضوء ماتفقده النجوم عن طريق إشعاعها من طاقة، والطاقة والمادة أمران متكافئان، واستمرار فقدان النجوم من طاقتها ينفي إمكانية استمرار الكون في الاتساع إلى ما لا نهاية. فشمسنا ـ على سبيل المثال ـ تفقد في كل ثانية من عمرها من الطاقة مايقدر بحوالي 4.6 مليون طن من المادة، وبافتراض استمرار الكون في التمدد فسوف يستمر انتقال الطاقة من الأجسام الحارة كالنجوم إلى الأجسام الباردة كالكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات، حتى تأتي على الكون لحظة تتساوى فيها درجة حرارة جميع أجرامه، فيتوقف الكون عن التمدد إن لم يكن عن إمكانية الوجود، فالاستمرار في توسع الكون مرتبط بالقوة الدافعة للمجرات إلى التباعد عن بعضها البعض، وهي القوة الناتجة عن عملية الانفجار العظيم، وإذا كانت الحرارة التي نتجت عن تلك العملية والتي تقدرها الحسابات الرياضية والفيزيائية ببلايين البلايين من الدرجات المطلقة في لحظة الانفجار قد انخفضت اليوم إلى أقل قليلاً من ثلاث درجات مطلقة فلا بد أن القوة الدافعة بالمادة إلى الخارج، والمؤدية إلى توسع الكون قد تناقصت بنفس المعدل، خاصة وأن الحسابات الرياضية تشير إلى أن معدلات التمدد عقب عملية الانفجار العظيم مباشرة كانت أعلى بكثير من معدلاتها الحالية، وهذا هو الذي دفع بفلكي مثل ألان جوث **(Alan Guth)** إلى وضع نظرية الكون المتضخم **(The Inflationary Universe)** ودفع من بعده بمجموعة من العلماء مكونة من: **Andrei Linde, Andreas Albrecht, and Paul steinhardt** إلى وضع نظرية التضخم الجديد **(The New Inflation theory)** ومن بعده إلى وضع نظرية التضخم المتحدد **(The Extended Inflation theory)**. التي تقرر أنه في وقت مبكر جداً من تاريخ الكون كان نموه نمواً أسِّيًّا فائق السرعة، فائق التمدد، وهذا أيضاً هو الذي دفع بكلّ من روبرت دايك **(R.H. Dicke)** وب.ج.أ. بيبلز **(P.J.E. Peebles)** إلى القول بأن الأرصاد الحالية للكون توحي بأن عصرنا الحالي إما أن يكون عصراً فريداً في التمدد عقب عملية الانفجار الكبير، أو أن الشروط الأساسية للتمدد يجب أن يتم تعديلها بشكل يحقق قدراً من التوافق مع هذه الأرصاد التي تثير تساؤلاً عما إذا كان الكون الآن **مفتوحاً** (أي مستمراً في التمدد إلى ما لا

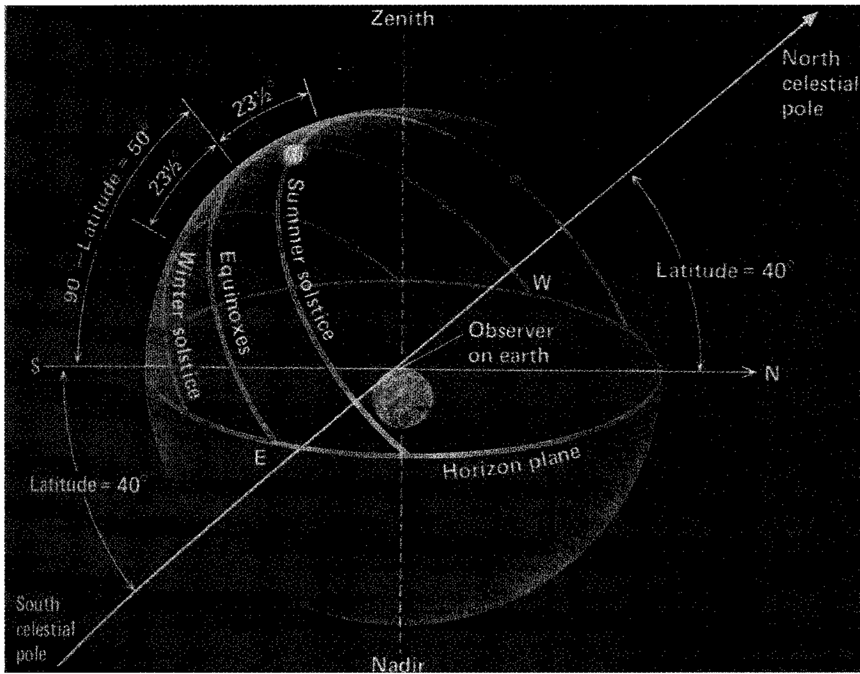
نهاية)، أو **مغلقاً** (سوف يتمدد إلى أجل محدد ثم يبدأ في التكدس على ذاته)، أو مستوياً بمعنى انتفاء تحدب الكون، وقد أشارت إلى ذلك أعداد من الحسابات الرياضية كالتي قام بها كل من أليكساندر فريدمان **(Alexander Freidmann)**، وألبرت أينشتاين **(Albert Einstein)** وغيرهما من الفيزيائيين النظريين والفلكيين.

والاستمرار في توسع الكون مرتبط بالقوة الدافعة بالمجرات للتباعد عن بعضها بعضاً وهي مايعبر عنها أحياناً بسرعة الإفلات من قوى الجاذبية **(Escape Velocity),** ولكل جرم سماوي مهما كانت كتلته سرعة إفلات محددة بالنسبة إلى قوة جاذبيته، فسرعة الإفلات من جاذبية الأرض تقدر بحوالي 11 ـ 22 كيلومتراً في الثانية، بمعنى أنه إذا أطلق صاروخ من الأرض بهذه السرعة أو بأعلى منها فإنه يستطيع التغلب على الجاذبية الأرضية، ولكن هل سرعة توسع الكون الحالية تبلغ سرعة الإفلات من مركز الجاذبية الكونية حتى يستمر في التوسع؟

يعتقد كثير من المشتغلين بكل من علمي الكون والفيزياء النظرية أن الأمر مرتبط بكثافة الكون، فإن كانت كثافته في حدود مايعرف بالكثافة الحرجة **(Critical Density)** فمعنى ذلك أن قوة الجاذبية الكونية تكفي لإيقاف توسع الكون في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، أما إذا كانت كثافة الكون أقل من الكثافة الحرجة فمعنى ذلك أن الكون سيبقى متوسعاً إلى ما لا نهاية، وهذا مالايمكن إثباته لأن الإنسان في زمن تفجر المعارف العلمية الذي نعيشه لا يدرك أكثر من 10% من مادة الكون المنظور، فأنى له أن يصل إلى معرفة كثافة هذا الجزء من الكون المليء بصور المادة غير المرئية من مثل الثقوب السود، والمادة الداكنة، وجسيمات النيوترينو **(Neutrino)** وغيرها، فضلاً عن معرفة كثافة الكون غير المدرك؟ ولذلك يتحدث علماء الفلك عما يسمونه باسم الكتلة المفقودة **(The Missing Mass)** في الجزء المدرك من الكون، والتي يعللون وجودها بأن كميات المادة والطاقة المشاهدة فيه أقل بكثير عن الكمية اللازمة لإبقاء أجزائه متماسكة مع بعضها بعضاً بفعل الجاذبية، بل يحتاج ذلك إلى عشرة أضعاف الكمية المدركة من المادة لكي يبقى الجزء المدرك من الكون في تماسك واتزان، ومن هنا كان التقدير بأن90% من مادة الجزء المدرك من الكون غائبة عن إدراكنا.

(2) **الاحتمال الثاني**: ويقترح فيه علماء الكون نموذجاً لما يسمونه باسم الكون المتذبذب **(The Oscillating Universe)** بغير بداية ولا نهاية ـ هروباً من الاعتراف بالخلق وجحوداً بالخالق ﷻ ـ ويبقى الكون في هذا النمو متذبذباً بين التكدس والانفجار أي بين الانكماش والتمدد في دورات متتابعة ولكنها غير متشابهة إلى ما لا نهاية، تبدأ بمرحلة

التكدس على الذات ثم الانفجار والتمدد، ثم التكدس مرة أخرى وهكذا، وهذا ما لا تؤيده الملاحظات العديدة في الجزء المدرك من الكون. وفي ذلك سبق وأن اقترح ريتشارد تولمان **(Richard Tolman)** في سنة 1934 م أن كل دورة من دورات تذبذب الكون لاتتشابه مع ماقبلها من الدورات، بافتراض أن النجوم تنشر إشعاعها في الكون فتتزايد أعداد فوتونات الطاقة ببطء، فيأتي كل انفجار كوني أعلى حرارة من سابقيه على الرغم من التدمير الكامل الذي يعم الكون في كل مرحلة، وهو افتراض ساذج ينسي أن في كل عملية انكماش من انطواء للكون على ذاته يتم بكل مافيه من مختلف صور المادة والطاقة والمكان والزمان، وانغلاق ذلك كله في كل عملية تكدس يمر بها الكون، ولذلك لم يستطع هذا النموذج المقترح الصمود في ضوء معطيات علم الفلك الحديثة.



شكل (46) يوضح الحركة الظاهرية للشمس حول الأرض في الأوقات المختلفة من السّنة

(3) **الاحتمال الثالث**: ويتوقع فيه العلماء تباطؤ سرعة توسع الكون مع الزمن وهي القوة الناتجة عن عملية الانفجار العظيم، فكما أن الحرارة التي نتجت عن تلك العملية والتي تقدر حسابيًّا ببلايين البلايين من الدرجات المطلقة لحظة الانفجار قد انخفضت اليوم

إلى أقل قليلاً من الثلاث درجات مطلقة، فلا بد أن القوة الدافعة إلى الخارج، والمؤدية إلى توسع الكون قد تناقصت بنفس المعدل، خاصة وأن الحسابات الرياضية تشير إلى أن معدلات التمدد الكوني عقب عملية الانفجار العظيم مباشرة كانت أعلى بكثير من معدلاتها الحالية (الكون المتضخم بسرعات فائقة). ومع تباطؤ سرعة توسع الكون تتفوق قوى الجاذبية على قوة الدفع بالمجرات للتباعد عن بعضها بعضاً، فتأخذ المجرات في الاندفاع إلى مركز الكون بسرعات متزايدة، لامّة مابينها من مختلف صور المادة والطاقة، فيبدأ الكون في الانكماش والتكدس على ذاته، ويطوي كلا من المكان والزمان حتى تتلاشى كل الأبعاد أو تكاد، وتتجمع كل صور المادة والطاقة المنتشرة في أرجاء الكون حتى تتكدس في نقطة متناهية في الضآلة، تكاد تصل إلى الصفر أو العدم، ومتناهية في الكثافة والطاقة إلى الحد الذي تتوقف عنده كل قوانين الفيزياء المعروفة، أي يعود الكون إلى حالته الأولى (مرحلة الرتق) ويسمى هذا النموذج باسم **نموذج الكون المنغلق (The Closed Universe)** وتسمى عملية تجمع الكون باسم «**نظرية الانسحاق الشديد**» **(The Big Crunch)** وهي معاكسة لعملية الانفجار الكبير.

ونحن المسلمين نؤمن بتلك النظرية لقول الحق ﷻ في محكم كتابه:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ **(الأنبياء: 104)**

ولا يستطيع أي إنسان كائناً من كان أن يتوقع شيئاً وراء ذلك الغيب المستقبلي بغير بيان من الله الخالق، والقرآن الكريم يأتينا بقول الحق ﷻ:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾

(إبراهيم: 48).

وبقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ **(الإسراء: 99)**

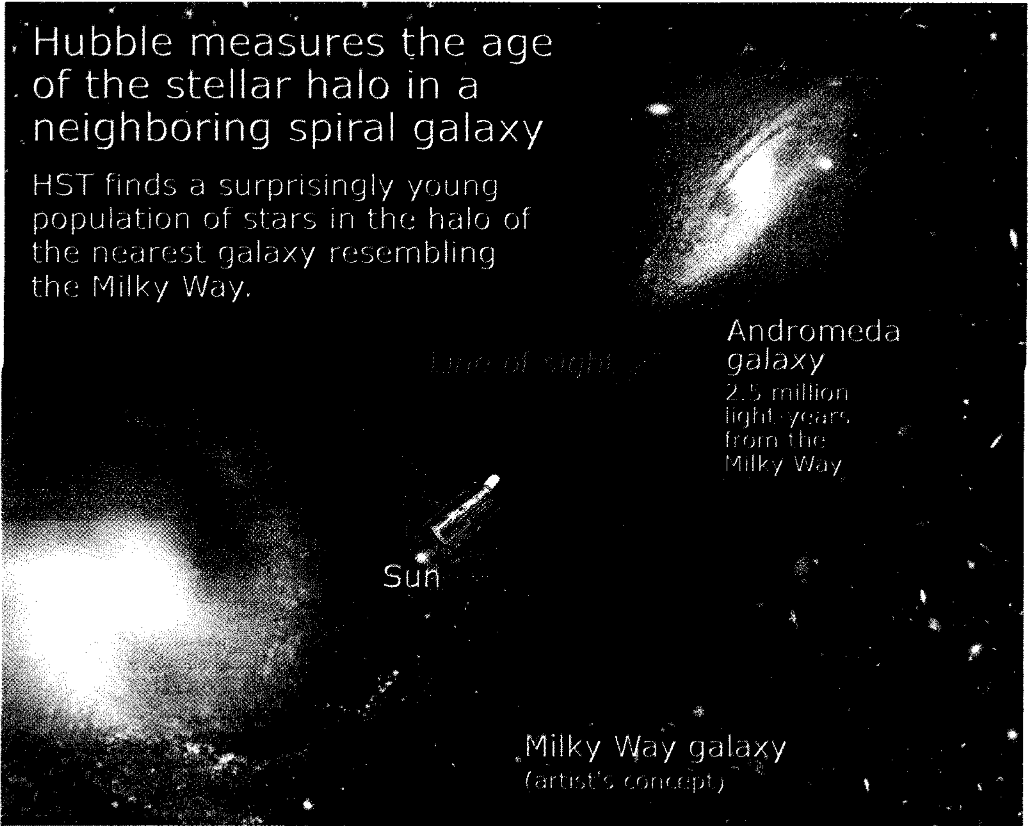
ومعنى هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى سوف يطوي الكون، جامعاً كل ما فيه من مختلف صور المادة والطاقة والمكان والزمان، على هيئة جرم ابتدائي ثان **(الرتق الثاني)** شبيه تماماً بالجرم الابتدائي الأول **(الرتق الأول)** الذي نشأ عن انفجاره الكون الراهن، وأن هذا الجرم الثاني سوف ينفجر بأمر من الله تعالى كما انفجر الجرم الأول، وسوف يتحول إلى سحابة من الدخان كما تحول الجرم الأول، وسوف يخلق الله تعالى من هذا الدخان أرضاً غير أرضنا الحالية، وسمٰوات غير السمٰوات التي تظلنا، كما وعد سبحانه وتعالى،

وهنا تبدأ الحياة الآخرة ولها من السنن والقوانين مايغاير سنن الحياة الدنيا، فهي خلود بلا موت، والدنيا موت بعد حياة، وسبحان القائل مخاطباً أهل الجنة:

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۢ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ (ق: 34).

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي يروى عنه قوله: **«والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»**[1].

ومن الأمور المعجزة حقاً أن يشير القرآن الكريم الذي أنزل قبل ألف وأربعمائة من السنين إلى أهم نظريتين في خلق الكون وإفنائه وهما نظريتا «الانفجار الكبير» و«الانسحاق الشديد»، ونحن نرتقي بهاتين النظريتين إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود إشارة إليهما في كتاب الله الخالد الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.



شكل (47) صورة لكيفية قياس تليسكوب هابل الفضائي لأعمار النجوم في مجرة المرأة المسلسلة

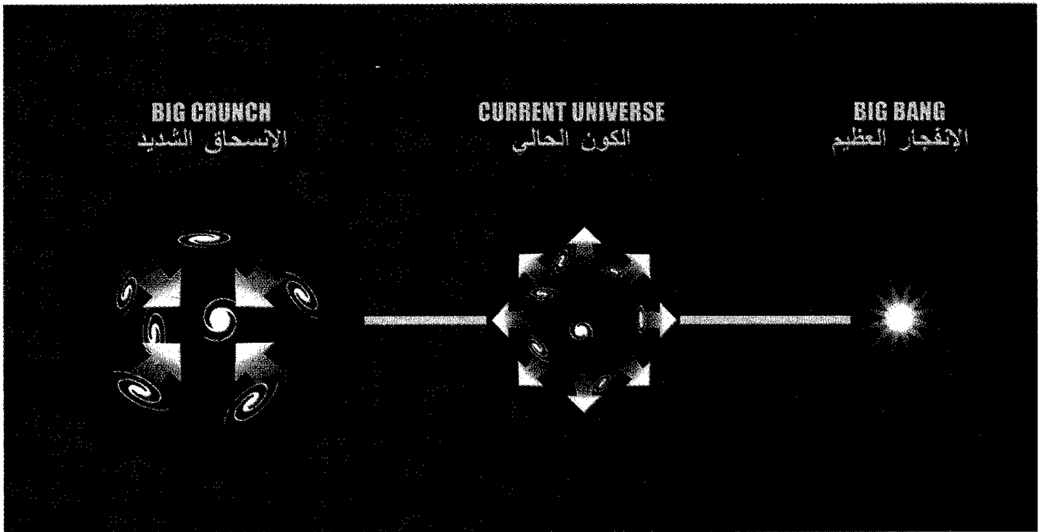
(1) أخرجه البيهقي في الشُعب.

ومن المعجز أيضاً أن ترد الآيتان المشيرتان إلى كل من هاتين النظريتين في سورة واحدة من سور القرآن الكريم وهي سورة الأنبياء (الآيتان: 30 و104) وفيهما يقول الحق (سبحانه وتعالى):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ **(الأنبياء: 30).**

ويقول (عز وجل):

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ **(الأنبياء: 104).**



ومن المعجز حقاً تلك الإشارة القرآنية المبهرة بإعادة خلق أرض غير الأرض الحالية، وسمٰوات غير السمٰوات الحالية، وهو غيب لايمكن للإنسان أن يصل إليه أبداً بغير هداية ربانية، وهي الهداية التي تحسم الجدل المحير في أمر من أمور الغيب المطلق، حار فيه علماء العصر، فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فقال مخاطباً إياه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ **(النِّساء: 166).**

بسم الله الرحمن الرحيم

(9) ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

(الواقعة: 75، 76)

في هاتين الآيتين الكريمتين يقسم ربنا ﷻ ـ وهو الغني عن القسم ـ بمواقع النجوم، ثم يأتي جواب القسم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الواقعة: 77 ـ 80).

والمعنى المستفاد من هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى يخبرنا بقوله ﷻ: أقسم قسماً مغلظاً بمواقع النجوم ـ و هذا القسم جليل عظيم ـ لو كنتم تعرفون قدره ـ أن هذا القرآن كتاب كريم، جم الفوائد والمنافع، لاشتماله على أصول الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وعلى غير ذلك من أمور الغيب وضوابط السلوك وقصص الأنبياء وأخبار الأمم السابقة والعبر المستفادة منها، وعلى عدد من حقائق ومظاهر الكون الدالة على وجود الله وعلى عظيم قدرته، وكمال حكمته وإحاطة علمه. ويأتي جواب القسم: أن الله تعالى قد تعهد بحفظ هذا الوحي الخاتم في كتاب واحد مصون بقدرة الله تعالى، محفوظ بحفظه من الضياع أو التبديل والتحريف، وهو المصحف الشريف، الذي لا يجوز أن يمسه إلاّ المطهرون من جميع صور الدنس المادي (أي المتوضئون الطاهرون)، ولا يستشعر عظمته وبركته إلا المطهرون من كل صور الدنس المعنوي أي: المؤمنون بالله، الموحدون لذاته العليا، المطهرون من دنس الشرك والكفر، والنفاق، ورذائل الأخلاق، لأن هذا القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهو معجزته الخالدة إلى يوم الدين، أنزله الله تعالى بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وربنا (ﷻ) وهو الإله الخالق، رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وقيوم الكون ومليكه ﷻ، يقول ﷻ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الواقعة: 75 ـ 80).

لماذا القسم بمواقع النجوم وليس بالنجوم ذاتها؟

هذا القسم القرآني المغلظ جاء بمواقع النجوم وليس بالنجوم ذاتها، علماً بأن النجوم من أعظم صور إبداع الله في الكون، وفي هذا القسم نلاحظ أن «**الفاء**» حرف عطف، يعطف بها فتدل على الترتيب والتعقيب مع الاشتراك، أو يكون ما قبلها علة لما بعدها، وتجري على العطف والتعقيب دون الاشتراك، وقد تكون للابتداء، ويكون ما بعدها حينئذ كلاماً مستأنفاً، وأغلب الظن أنها هنا للابتداء.

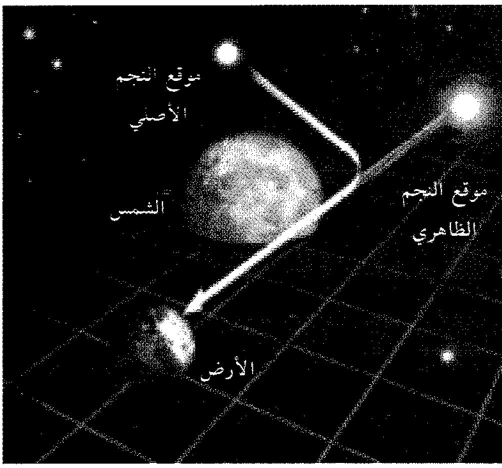
و «**لا**» أحد حروف الهجاء، اعتبرها نحاة البصريين حرفاً زائداً في اللفظ لا في المعنى، بينما اعتبرها نحاة الكوفيين اسماً لوقوعها موقع الاسم، خاصة إذا سبقت بحرف من حروف الجر، وهي تأتي نافية للجنس، أو ناهية عن أمر، أو جوابية لسؤال، أو بمعنى: غير، أو زائدة، وتارة تعمل عمل إن، أو عمل ليس، أو غير ذلك من المعاني. ومن أساليب اللغة العربية إدخال لا النافية للجنس على فعل القسم: لا أقسم من أجل المبالغة في توكيد القسم، بمعنى أنه لا يقسم بالشيء إلا تعظيماً له، كأنهم ينفون ما سوى المقسم عليه فيفيد تأكيد القسم به، وقيل: هي للنفي، بمعنى لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أصلاً فضلاً عن هذا القسم العظيم.

ومواقع النجوم هي الأماكن التي تمر بها في جريها عبر السماء وهي محتفظة بعلاقاتها المحددة بغيرها من الأجرام في المجرة الواحدة، وبسرعات جريها ودورانها، وبالأبعاد الفاصلة بينها، وبقوى الجاذبية الرابطة بينها، واللفظة: مواقع جمع موقع يقال: وقع الشيء موقعه، من الوقوع بمعنى السقوط.

والمسافات بين النجوم مذهلة للغاية لضخامة أبعادها، وحركات النجوم عديدة وخاطفة، وكل ذلك منوط بالجاذبية، وهي قوة لا ترى، تحكم الكتل الهائلة للنجوم، والمسافات الشاسعة التي تفصل بينها، والحركات المتعددة التي تتحركها، من دوران حول محاورها، وجري في مداراتها المتعددة، وغيرذلك من العوامل التي نعلم منها ولا نعلم....!!!

وهذا القسم القرآني العظيم بمواقع النجوم يشير إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون المبهرة، والتي مؤداها أنه نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم

السماء عن أرضنا، فإن الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبداً، ولكنه يرى مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها، وفوق ذلك أن هذه المواقع كلها نسبية، وليست مطلقة، لأن الضوء كأي صورة من صور المادة والطاقة لا يستطيع أن يتحرك في صفحة السماء إلا في خطوط منحنية، وعين الإنسان لا ترى إلاّ في خطوط مستقيمة وعلى ذلك فإن الناظر إلى النجم من فوق سطح الأرض يراه على استقامة آخر نقطة انحنى ضوؤه إليها، فيرى موقعاً وهمياً للنجم غير الموقع الذي انبثق منه ضوءه، فنظراً لانحناء الضوء في صفحة السماء فإن النجوم تبدو لنا في مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية، ليس هذا فقط، بل إن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت أن نجوماً قديمة قد خبت أو تلاشت منذ أزمنة بعيدة، والضوء الذي انبثق منها في عدد من المواقع التي مرت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السماء في كل ليلة من ليالي الأرض إلى اليوم الراهن، ومن هنا كان هذا القسم القرآني بمواقع النجوم، وليس بالنجوم ذاتها ـ على عظم قدر النجوم ـ التي كشف العلم عنها أنها أفران نووية كونية عجيبة يخلق الله تعالى لنا فيها كل صور المادة والطاقة التي ينبني منها هذا الكون المدرك، ثم إن عدد ما أحصاه علماء الفلك من النجوم في الجزء المدرك من السماء الدنيا إلى يومنا هذا تعدى سبعين مليار تريليون نجم.



شكل (48) رسم تخطيطي لتوضيح الوضع الظاهري لنجم يرى من فوق سطح الأرض وهو وضع مغاير تماماً لموضعه الحقيقي من الكون (وقد بالغ الرسم في درجة حيود أو عروج الضوء من أجل إبراز الفكرة)

ماهية النجوم:

النجوم هي أجرام سماوية منتشرة بالسماء الدنيا، كروية أو شبه كروية، غازية، ملتهبة، مضيئة بذاتها، متماسكة بقوة الجاذبية على الرغم من بنائها الغازي، هائلة الكتلة، عظيمة الحجم، عالية الحرارة بدرجة مذهلة، وتشع موجات كهرومغناطيسية على هيئة كل من الضوء المرئي وغير المرئي بجميع موجاته. ويمكن بدراسة ضوء النجم الواصل إلينا التعرف على العديد من صفاته الطبيعية والكيميائية من مثل درجة لمعانه، شدة إضاءته، درجة حرارته،


NASA©

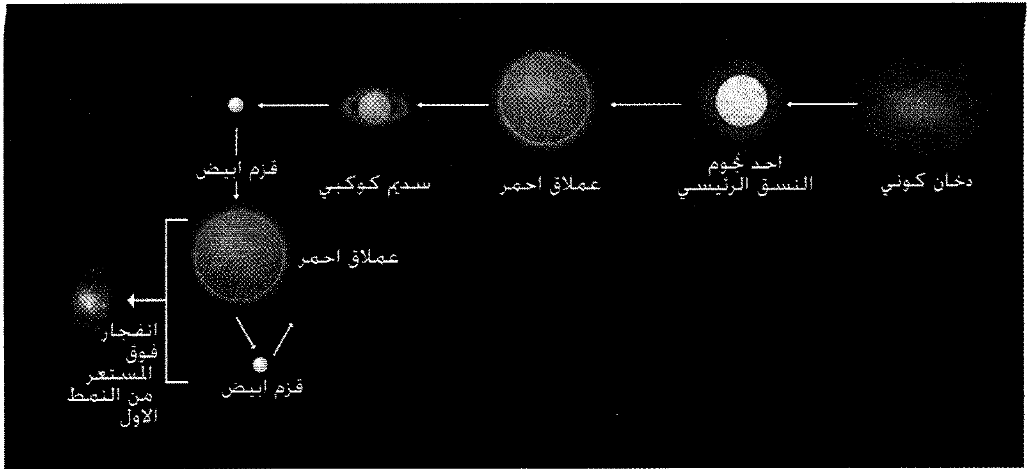
شكل (49) صورة للنجوم في مجرة على هيئة القلم (صورها المرصد الأسترالي / الإنجليزي)

حجمه، متوسط كثافته، كتلته، تركيبه الكيميائي، ومستوى التفاعلات النووية فيه، موقعه منّا، سرعة دورانه حول محوره، وسرعة جريه في مداره، وسرعة تباعده عنا أو اقترابه منا، إلى غير ذلك من صفات.

وقد أمكن تصنيف النجوم العادية على أساس من درجة حرارة سطحها إلى نجوم حمراء(3200 درجة مطلقة) وهي أقلها حرارة، إلى برتقالية، وصفراء، وبيضاء مائلة إلى الصفرة، وبيضاء، وبيضاء مائلة إلى الزرقة، وزرقاء(30،000 درجة مطلقة) وهي أشدها حرارة، وشمسنا من النجوم الصفراء متوسطة الحرارة إذ تبلغ درجة حرارة سطحها حوالي ستة آلاف درجة مطلقة، وتعرف باسم النجوم العادية.

والغالبية الساحقة من النجوم (90%) تتبع هذه الأنواع من النجوم العادية التي تعرف باسم نجوم النسق الأساسي **(The Main Sequence Stars)**، والباقي هي نجوم في مراحل الانكدار أو الطمس أو في مراحل الانفجار، من مثل الأقزام البيضاء، النجوم النيوترونية (النابضة وغير النابضة) من مجموعة النجوم المنكدرة والثقوب السود من النجوم المطموسة، والعمالقة الحمر، والعمالقة العظام والنجوم المستعرة (المستعرات)، والنجوم المستعرة العظمى من مجموعة النجوم المتفجرة. وأكثر النجوم العادية لمعاناً هي أعلاها كثافة، وبعضها يصل في كتلته إلى مائة مرة قدر كتلة الشمس، وتشع قدر إشعاع الشمس ملايين المرات.

وأقل نجوم السماء لمعاناً هي الأقزام الحمر **(The Red Dwarfs)** وتبلغ درجة لمعانها أقل من واحد من الألف من درجة لمعان الشمس (وعلى ذلك فهي تدخل في نطاق النجوم المنكدرة). وأقل كتلة لجرم سماوي يمكن أن تتم بداخله عملية الاندماج النووي فيسلك مسلك النجوم هو8% من كتلة الشمس (المقدرة بحوالي ألفي مليون مليون مليون



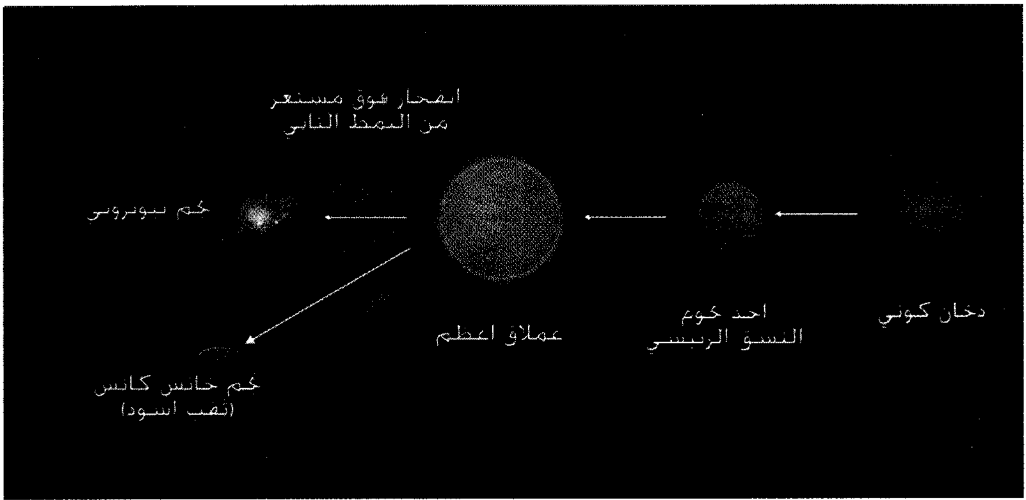
شكل (50) مراحل تطور النجوم من الكتل المتوسطة

طن)، والنجوم بمثل هذه الكتل الصغيرة نسبياً هي من النجوم المنكدرة من أمثال النجوم البنية القزمة أو مايعرف باسم الأقزام البنية **(The Brown Dwarfs)**.

والنجوم تمر بمراحل من الميلاد والشباب والشيخوخة قبل أن تنفجر أو تتكدس على ذاتها فتنكدر أو تطمس طمساً جزئياً أو كاملاً، فهي تولد من الدخان الكوني بتكدس هذا الدخان على ذاته (بإرادة الخالق ﷻ) وبفعل الجاذبية، فتتكون نجوم ابتدائية **(Prostars)**، ثم تتحول هذه النجوم الابتدائية إلى النجوم العادية **(The Main Sequence Stars)**، ثم تنتفخ متحولة إلى العماليق الحمر **(The Red Giants)**، فإذا فقدت العماليق الحمر هالاتها الغازية تحولت إلى مايعرف باسم السدم الكوكبية **(The Planetary Nebulae)**، ثم تنكمش على هيئة مايعرف باسم الأقزام البيض **(The White Dwarfs)**، وقد تتكرر عملية انتفاخ القزم الأبيض إلى عملاق أحمر ثم العودة إلى القزم الأبيض عدة مرات، وتنتهي هذه الدورة بالانفجار على هيئة مستعر أعظم من الطراز الأول **(Type I Supernova Explosion)**، أما إذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم العادي كبيرة (عدة مرات قدر كتلة الشمس) فإنه ينتفخ في آخر عمره على هيئة العمالقة الكبار **(The Supergiants),** ثم ينفجر على هيئة مستعر أعظم من الطراز الثاني **(Type II Supernova Explosion),** فينتج عن هذا الانفجار النجوم النيوترونية النابضة **(The Pulsating Neutron Stars or The Pulsars)**، وغير النابضة **(The Non-Pulsating Neutron Stars)**، أو الثقوب السود **(The Black Holes)** أو ما نسميه نحن باسم النجوم الخانسة الكانسة (كما سماها خالقها في القرآن الكريم) وذلك حسب الكتلة الابتدائية للنجم.

والنجوم العادية منها النجوم المفردة **(The Solitary Stars)** (مثل شمسنا)، والنجوم المزدوجة **(The Binary Stars)**، ومنها النجوم المتعددة **(The Multiple Stars)**، وتشير الدراسات الفلكية إلى أن أغلب النجوم مزدوجة أو متعددة، والنجوم المزدوجة تتشكل من نجمين يدوران في مدار واحد حول مركز ثقلهما **(Their Common Center of Mass)**، ومن النجوم المزدوجة ما يمكن أن يتقارب فيها النجمان من بعضهما البعض بحيث لايمكن فصلهما إلا عن طريق فصل أطياف الضوء المنبثق من كل منهما بواسطة المطياف الضوئي **(The Spectroscope)**، ومن هذه النجوم المزدوجة ما يمكن أن يخفي أحدهما الآخر لدرجة الكسوف الكلي لأحدهما فلا يرى.

والنجوم أفران كونية عملاقة، يتم في داخلها سلاسل من التفاعلات النووية التي تعرف باسم عملية الاندماج النووي **(The Process of Nuclear Fusion)** وهي عملية يتم بواسطتها



شكل (51) مراحل تطور النجوم من الكتل الفائقة (النجوم العملاقة)

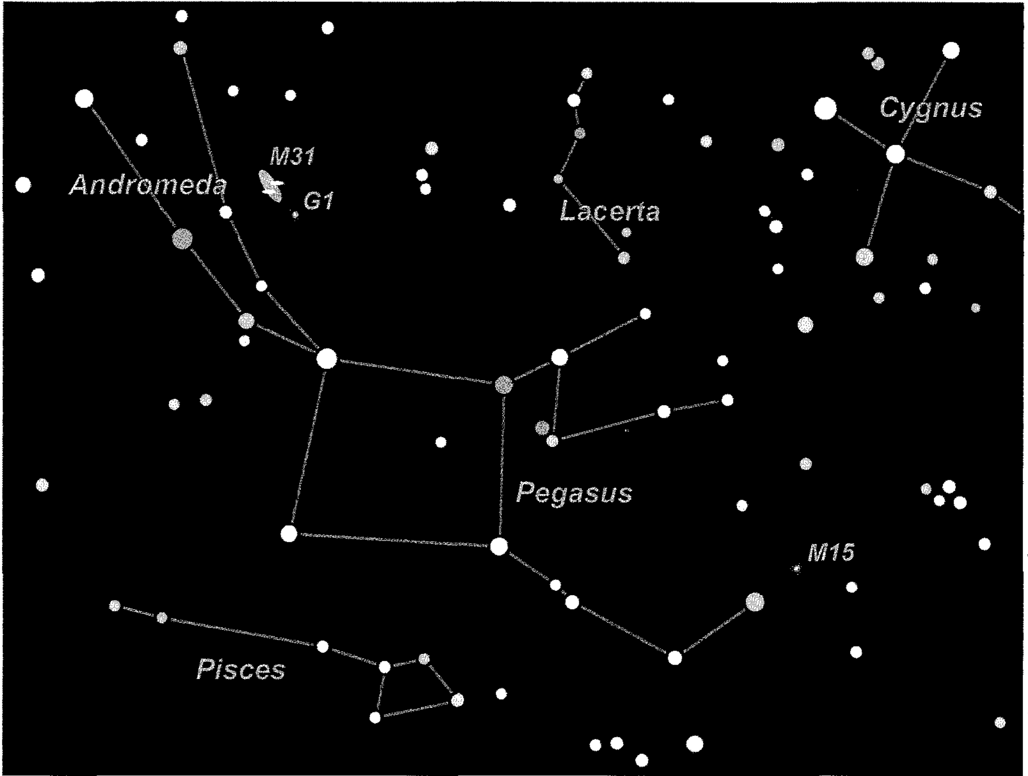
اندماج نوي ذرات الإيدروجين (أخف العناصر المعروفة) لتكون نوي الذرات الأثقل بالتدريج وتنطلق الطاقة التي تزيد من درجة حرارة النجم حتى يتحول إلى مايعرف باسم النجم المستعر (The Nova) والعملاق الأحمر (The Red Giant)، أو النجم العملاق الأعظم (The Supergiant). وحينما يتحول قلب النجم المستعر إلى حديد تستهلك طاقة النجم، وتتوقف عملية الاندماج النووي فيه، ثم ينفجر فيتحول إما إلى قزم أبيض، أو إلى نجم نيوتروني أو إلى ثقب أسود حسب كتلته الابتدائية، فينكدر النجم أو يطمس ضوؤه طمساً كاملاً.

وعند انفجار النجوم تتناثر أشلاؤها ـ ومنها الحديد ـ في صفحة السماء، فيبدأ بعض هذا الحديد في اصطياد الجسيمات الأولية للمادة لتكوين العناصر الأعلى في وزنها الذري بالتدريج، أو قد توجهه الإرادة الإلهية إلى أحد أجرام السماء التي تحتاج إلى الحديد أو إلى غيره من العناصر الأعلى في وزنها الذري.

الشمس نجم عادي من نجوم السماء الدنيا:

الشمس هي النجم الذي تتبعه أرضنا فتدور حوله مع باقي أفراد المجموعة الشمسية، وتدور معه حول مركز المجرة، ومع المجرة حول مراكز أعلى بالتدريج إلى نهاية لا يعلمها إلا الله (ﷻ). والشمس هي أقرب نجوم السماء إلينا، ويقدر بعدها عنا بحوالي مائة وخمسين مليوناً من الكيلو مترات، ويقدر نصف قطرها بحوالي سبعمائة ألف كيلو متر، وتقدر كتلتها

بحوالي ألفي مليون مليون مليون مليون طن)، ومتوسط كثافتها(1.41 جرام للسنتيمتر المكعب) أي أعلى قليلاً من كثافة الماء، ونظراً لبعدها الشاسع عنها تبدو الشمس لنا قرصاً صغيراً في السماء على الرغم من أن حجمها يزيد عن مليون ضعف حجم الأرض. وتقدر درجة حرارة لب الشمس بحوالي 15 مليون درجة مطلقة، ودرجة حرارة سطحها بحوالي ستة آلاف درجة مطلقة(5800 درجة مطلقة) بينما تصل درجة الحرارة في هالة الشمس (أي إكليلها) إلى مليوني درجة مطلقة، وهذه الدرجات العالية من الحرارة والانخفاض الشديد في كثافة مادة الشمس لا يسمحان للإنسان من على سطح الأرض برؤية الشمس بالعين المجردة، ولا باستخدام المناظير المقربة الا إذا احتجبت الكرة المضيئة للشمس **(Photosphere)** احتجاباً كاملاً بالكسوف الكلي للشمس، أو بواسطة عدد من الطرق المختبرية المختلفة. والكثافة في مركز الشمس تتراوح بين 90 و200 جراماً للسنتيمتر المكعب، وتتناقص في اتجاه سطح الشمس لتصبح جزءاً من عشرة ملايين من الجرام للسنتيمتر المكعب.



شكل (52) يُوضح مواقع عدد من المجرات الكروية في السماء

وتنتج الطاقة في الشمس أساساً من تحول الإيدروجين إلى هيليوم بعملية الإندماج النووي، وإن كانت العملية تستمر بمعدلات بسيطة لتنتج بعض العناصر الأعلى في وزنها الذري وتتكون الشمس بنسبة 70% إيدروجين، 28% هيليوم، 2% عناصر أُخرى. والشمس هي المصدر الأساسي للطاقة على سطح الأرض.

ونظراً لأن غالبية جسم الشمس غازي لاتمسك به إلا الجاذبية الشديدة، فإن دورانها حول محورها يتم بطريقة جزئية، قلب الشمس (حوالي ثلث قطرها) يدور كجسم صلب يتم دورته في5.36 يوم من أيام الأرض تقريباً، بينما الكرة الغازية المحيطة بذلك اللب (وسمكها حوالي ثلثي نصف قطر الشمس) يتم دورته حول مركز الشمس في حوالي 24 يوماً من أيام الأرض، وعلى ذلك فإن متوسط سرعة دوران الشمس حول محورها يقدر بحوالي27 وثلث يوم من أيامنا.

وتجري الشمس (ومعها مجموعتها الشمسية) في صفحة الكون بسرعة تقدر بحوالي19 كيلو متر في الثانية نحو نقطة في كوكبة هرقل بالقرب من نجم النسر الواقع **(Vega)** وهي تسمى علمياً باسم قمة الشمس، ولعلها هي ما يسميها خالقها (ﷻ) في محكم كتابه باسم «مستقر الشمس»، كما تجري الشمس (ومعها مجموعتها الشمسية) بسرعة تقدر بحوالي 220 كيلو متراً في الثانية حول مركز مجرتنا (درب اللبانة) لتتم هذه الدورة في 225 مليون سنة من سنين الأرض. وأقرب كواكب المجموعة الشمسية إلى الشمس (وهو كوكب عطارد) يبعد عنها بحوالي 58 مليون كيلو متر، وأبعدها عن الشمس (وهو كوكب بلوتو) يبعد عنها بحوالي ستة آلاف مليون كيلو متر. ويعتقد حسابياً أن هناك كوكب أبعد من «بلوتو» ولكن لم يتم رصده بعد.

وإذا خرجنا عن نطاق المجموعة الشمسية فإن هذه المقاييس الأرضية لاتفي بقياس المسافات التي تفصل بقية نجوم السماء الدنيا عنا، فاتفق العلماء على وحدة قياس كونية تعرف باسم السنة الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعته المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية في سنة من سنيننا، وهي مسافة مهولة تقدر بحوالي 9.5 مليون مليون كيلو متر.

أبعاد النجوم عن أرضنا:

اكتشف علماء الفلك أن أقرب النجوم إلينا بعد الشمس هو نجم يعرف باسم النجم المركزي الأول [**أو الأقرب القنطوري (Alpha Centaurus)**] ويبعد عنا بمسافة 4.3 من

السنين الضوئية، بينما يبعد عنا النجم القطبي بحوالي400 سنة ضوئية، ويبعد عنّا منكب الجوزاء بمسافة 1600 سنة ضوئية، وأبعد نجوم مجرتنا (درب اللبانة) يبعد عنّا بمسافة ثمانين ألف سنة ضوئية. ومجموعتنا الشمسية عبارة عن واحدة من حشد هائل للنجوم على هيئة قرص مفرطح يبلغ قطره مائة ألف سنة ضوئية، وسمكه نحو عشر ذلك، وتقع مجموعتنا الشمسية على بعد ثلاثين ألف سنة ضوئية من مركز المجرة، وعشرين ألف سنة ضوئية من أقرب أطرافها.

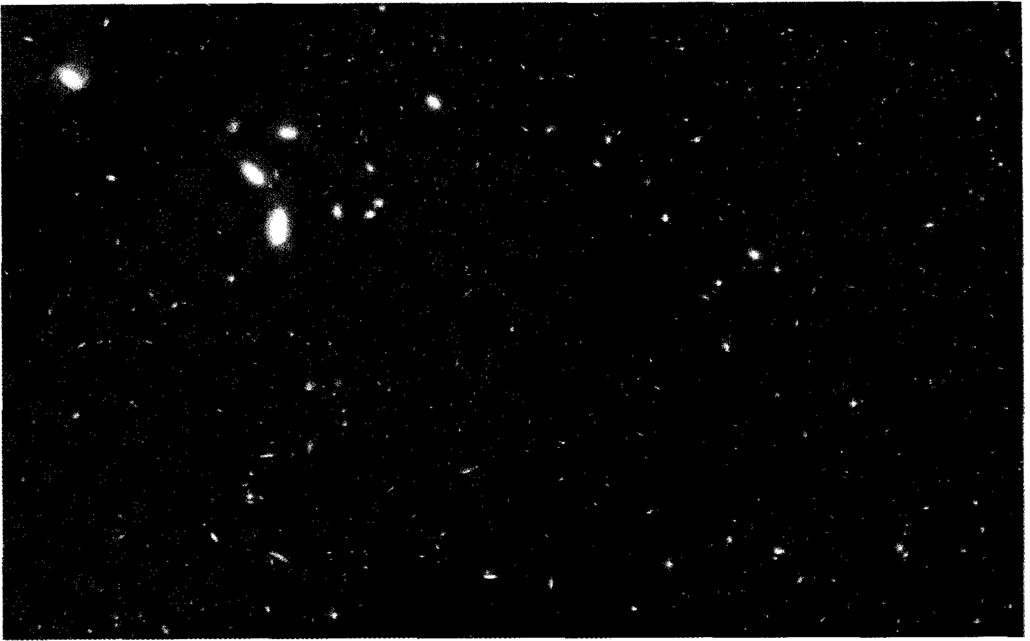
ومجرتنا «درب اللبانة أو الطريق اللبني» **(The Milky Way)** تحتوي على تريليون (مليون مليون) نجم، وبالجزء المدرك من السماء الدنيا مائتي ألف مليون مجرة على الأقل، تسبح في ركن من السماء الدنيا يقدر قطره بأكثر من عشرين ألف مليون سنة ضوئية. وأقرب المجرات إلينا تعرف باسم سحب ماجيلان **(The Magellanic Clouds)** وهي تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين ألف سنة ضوئية.

المجرات هي تجمعات للنجوم:

المجرات هي نظم كونية شاسعة الاتساع تتكون من التجمعات النجمية والغازات والغبار الكونيين [الدخان الكوني) بتركيز يتفاوت من موقع لآخر في داخل المجرة. وهذه التجمعات النجمية تضم عشرات البلايين إلى بلايين البلايين من النجوم في المجرة الواحدة، وتختلف نجوم المجرة في أحجامها، ودرجات حرارتها، ودرجات لمعانها، وفي غير ذلك من صفاتها الطبيعية والكيميائية، وفي مراحل دورات حياتها وأعمارها، فمنها النجوم العادية المفردة، والمزدوجة والعديدة، والعماليق الكبار، والأقزام الحمر، والنجوم القزمة البيضاء والبنية والسوداء، والنجوم النيوترونية، والثقوب السود، وأشباه النجوم وغيرها مما يتخلق باستمرار من الدخان الكوني، ويُفنى إليه.

ومن المجرات ما هو حلزوني الشكل، ومنها ما هو بيضاني (إهليلجي)، ومنها ما هو غير محدد الشكل، ومنها ما هو أكبر من مجرتنا كثيراً، ومنها ما هو في حجمها أو أصغر منها، وتتبع مجرتنا ما يعرف باسم المجموعة المحلية **(The Local Group)** وهي عبارة عن تجمع محلي لعدد من المجرات، وقد يتجمع عدد أكبر من المجرات على هيئة أكبر تعرف باسم عنقود مجري **(Galactic Cluster)** كما قد يتجمع عدد من العناقيد المجرية على هيئة عنقود مجري عملاق **(Galactic Supercluster)** يضم عشرات الآلاف من المجرات.

وتتراوح المجرات في شدة إضاءتها بين سحب ماجلان العظيمة، وعدد من النقاط



شكل (53) يوضح صورة لبعض المجرات الحديثة العمر نسبياً صورتها عدسات تليسكوب الفضاء هابل

الباهتة التي لا تكاد أن تدرك بأكبر المقاريب (المناظير المقربة)، وتقع أكثر المجرات ضياء في دائرة عظمى تحيط بنا في اتجاه عمودي تقريباً على مستوى مجرتنا، وتتراوح المسافات بين المجرات في التجمع المجري الواحد بين المليون والمليونين من السنين الضوئية، وتبلغ مائة مرة ضعف ذلك بين التجمعات المجرية التي تعتبر وحدة بناء السماء الدنيا.

وبالإضافة إلى المجرات وتجمعاتها المختلفة في الجزء المدرك من السماء الدنيا فإننا نرى السدم **(The Nebulae)**، وهي أجسام دخانية عملاقة بين النجوم وقد تتخلق بداخلها النجوم، وعلى ذلك فمن السدم ما هو مضيء وما هو معتم.

أشباه النجوم:

وهناك أشباه النجوم **(Quasrs)** وهي أجسام سماوية ضعيفة الإضاءة، ولكنها تطلق أقوى الموجات الراديوية في السماء الدنيا، وقد اشتق اسمها باللغة الإنجليزية من الوصف **(The Quasi-Stellar Radio Sources)** أي أشباه النجوم المصدرة للموجات الراديوية، وإن كان منها ما لا يصدر موجات راديوية **(The Radio-quiet Quasi Stellar Objects)** ـ وهي أجرام سماوية تتباعد عنا بسرعات فائقة، وتعتبر أبعد ماتم رصده من أجرام السماء إلى الآن

بالنسبة للأرض. وتبدو أنها حالة خاصة من حالات المادة غير معروفة لنا، وتقدر كتلة شبيه النجوم بحوالي مائة مليون ضعف كتلة الشمس، وتبلغ كثافته واحداً على البليون من الطن للسنتيمتر المكعب (واحد على ألف مليون مليون من الجرام للسنتيمتر المكعب)، وتبلغ الطاقة الناتجة عنه مائة مليون مرة قدر طاقة الشمس. وقد تم الكشف عن حوالي 1500 من أشباه النجوم على أطراف الجزء المدرك من الكون، وكشفت دراستها بواسطة المقربات الراديوية عن عدد من المفاجآت الفلكية المذهلة، ويتوقع الفلكيون وجود آلاف من هذه الأجرام السماوية العجيبة.

من أسباب القسم بمواقع النجوم:

هذه الصفات المذهلة للنجوم تركها القسم القرآني وركز على مواقع النجوم فقال ربنا ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ولعل من أسباب ذلك ما يلي:

أولاً: أنه نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عنا فإنه لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبداً، ولا بأية وسيلة مادية، وكل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها، إما بالجري في الفضاء الكوني بسرعات مذهلة، أو بالانفجار والاندثار، أو بالانكدار والطمس. فالشمس وهي أقرب نجوم السماء إلينا تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر، فإذا انبثق منها الضوء بسرعته المقدرة بحوالي *الثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية من موقع معين مرت به الشمس، فإن ضوءها يصل إلى* الأرض بعد ثماني دقائق وثلث الدقيقة تقريباً، بينما تجري الشمس بسرعة تقدر بحوالي 19 كيلومتراً في الثانية في اتجاه نجم النسر الواقع **(Vega)** فتكون الشمس قد تحركت لمسافة لا تقل عن عشرة آلاف كيلومتر عن الموقع الذي انبثق منه الضوء، ونحن لا نرى ضوءها إلا على هيئة صورة وهمية للموقع الذي انبثق منه الضوء الذي رأيناه. وهذا من رحمة الله بنا لأن الإنسان إذا نظر إلى النجم بطريقة مباشرة فإنه يفقد بصره في الحال.

وأقرب النجوم إلينا بعد الشمس وهو المعروف باسم النجم المركزي الأول (أو الأقرب القنطوري) يصل إلينا ضوؤه بعد 4.3 سنة من انطلاقه من النجم، أي بعد أكثر من خمسين شهراً يكون النجم قد تحرك خلالها ملايين عديدة من الكيلومترات، بعيداً عن الموقع الذي صدر منه الضوء، وهكذا فنحن من على سطح الأرض لا نرى النجوم أبداً، ولكننا نرى صوراً قديمة للنجوم انطلقت من مواقع مرت بها، وتتغير هذه المواقع من لحظة

إلى أخرى بسرعات تتناسب مع سرعة تحرك النجم في مداره، ومعدلات توسع الكون، وتباعد المجرات عنا، والتي يتحرك بعض منها بسرعات تقترب أحياناً من ثلاثة أرباع سرعة الضوء، وأبعد نجوم مجرتنا عنا يصلنا ضوؤه بعد ثمانين ألف سنة من لحظة انبثاقه من النجم، بينما يصلنا ضوء بعض النجوم البعيدة عنا بعد بلايين السنين، وهذه المسافات الشاسعة مستمرة في الزيادة مع الزمن نظراً لاستمرار تباعد المجرات عن بعضها البعض بسبب اتساع الكون. ومن النجوم التي تتلألأ أضواؤها في سماء ليل الأرض ما ثبت علمياً أنه قد انفجر وتلاشى، أو طمس واختفى منذ ملايين السنين، لأن آخر شعاع انبثق منه قبل انفجاره أو طمسه لم يكن قد وصل إلينا بعد، والضوء القادم منه اليوم يعبر عن ماض قد يقدر بملايين السنين.

ثانياً: ثبت علمياً أن الضوء مثل المادة ينحني أثناء مروره في مجال تجاذبي مثل الكون، وعليه فإن موجات الضوء تتحرك في صفحة السماء الدنيا في خطوط منحنية يصفها القرآن الكريم (بالمعارج)، ويصف الحركة ذاتها (بالعروج)، وهو الانعطاف والخروج عن الخط المستقيم، كما يمكن أن يفيد معنى الصعود في خط منعطف، ومن هنا كان وصف رحلة المصطفى ﷺ فيَ السمٰوات العلا (بالعروج)، وسميت الليلة باسم (المعراج) والجمع (معارج) و(معاريج)، وحينما ينعطف الضوء الصادر من النجم في مساره إلى الأرض فإن الناظر من الأرض يرى موقعاً للنجم على استقامة بصره، وهو موقع يغاير موقعه الذي صدر منه الضوء، مما يؤكد مرة أخرى أن الإنسان من فوق سطح الأرض لا يمكنه أن يرى النجوم أبداً.

ثالثاً: أن النجوم في داخل المجرة الواحدة مرتبطة مع بعضها بالجاذبية المتبادلة بينها، والتي تحكم مواقع النجوم وكتلها، فمع تسليمنا بأن الله تعالى هو الذي يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا كما أخبرنا ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ **(فَاطِر: 41)**

ويقول ربنا (ﷻ): ﴿... وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ **(الحَجّ: 65)**

إلا أن الله تعالى له سننه التي يحقق بها مشيئته ـ وهو القادر على أن يقول للشيء: (كن فيكون)، وهو (تعالى) وضع للكون هذه السنن المتدرجة لكي يستطيع الإنسان فهمها ويتمكن من توظيفها في حسن القيام بواجب الاستخلاف في الأرض، فمواقع النجوم على مسافات تتناسب تناسباً طردياً مع كتلها، ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقوى الجاذبية التي تمسك بها

في تلك المواقع، وتحفظ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله، ومن هنا كانت قيمة مواقع النجوم التي كانت من وراء هذا القسم القرآني العظيم...!!

رابعاً: أثبتت دراسات الفلك، ودراسات كل من الفيزياء الفلكية والنظرية أن الزمان والمكان شيئان متواصلان، ومن هنا كانت مواقع النجوم المترامية الأبعاد تعكس أعمارها الموغلة في القدم، والتي تؤكد أن الكون الذي نحيا فيه ليس أزلياً، إذ كانت له بداية يحددها الدارسون باثني عشر بليوناً من السنين على أقل تقدير، ومن هنا كان في القسم بمواقع النجوم إشارة إلى قدم الكون مع حدوثه، وهي حقائق لم يتوصل إليها العلم المكتسب إلا بنهاية القرن العشرين.

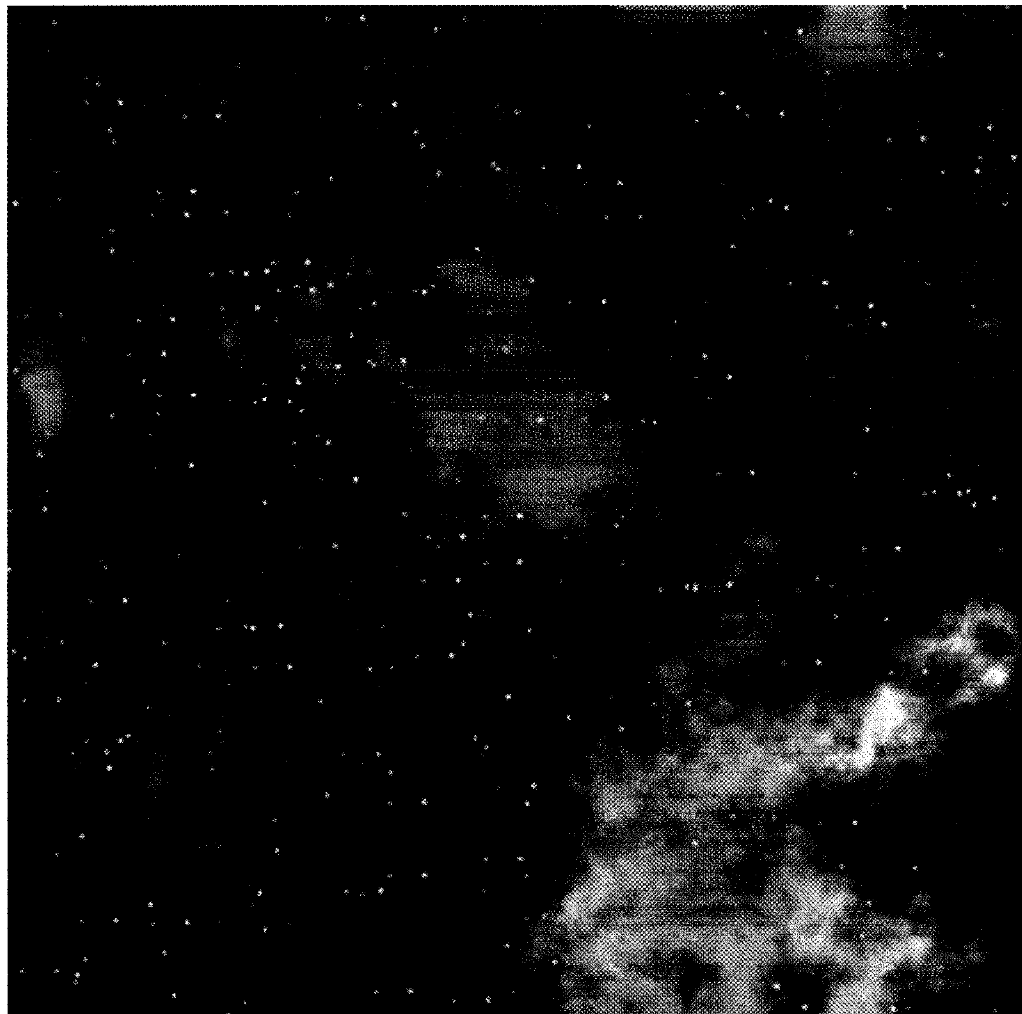
فقد كان اليونانيون القدامى يصرون على أن الأرض هي مركز الكون، أو أن الشمس هي مركز الكون، وأن كليهما ثابت لا يتحرك، غير متصورين وجود أية بنية سماوية إلا حول الشمس، وكان غيرهم من أصحاب المدنيات السابقة واللاحقة يؤمنون بديمومة الأرض والنجوم، وما بها من صور المادة والطاقة، بل ظل الغربيون إلى أوائل القرن الثامن عشر الميلادي يؤمنون بأن النجوم مثبتات بالسماء، وأن السماء بنجومها تتحرك كقطعة واحدة حول الأرض، وأن الكون في مركزه ثابت غير متحرك، ومكون من عناصر أربعة هي: التراب، والماء، والهواء والنار، وحول تلك الكرات الأربع الثابتة تتحرك السمٰوات...!!

ثم يأتي القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة من السنين ليقسم بمواقع النجوم هذا القسم العظيم، مؤكداً نسبية وأهمية وتعاظم تلك المواقع، وأن الإنسان لا يمكن له رؤية النجوم من فوق الأرض، وكل ما يمكن أن يراه هو صور نسبية لمواقع مرت بها النجوم، ويأتي العلم في نهاية القرن العشرين مؤكداً كل ذلك..!!

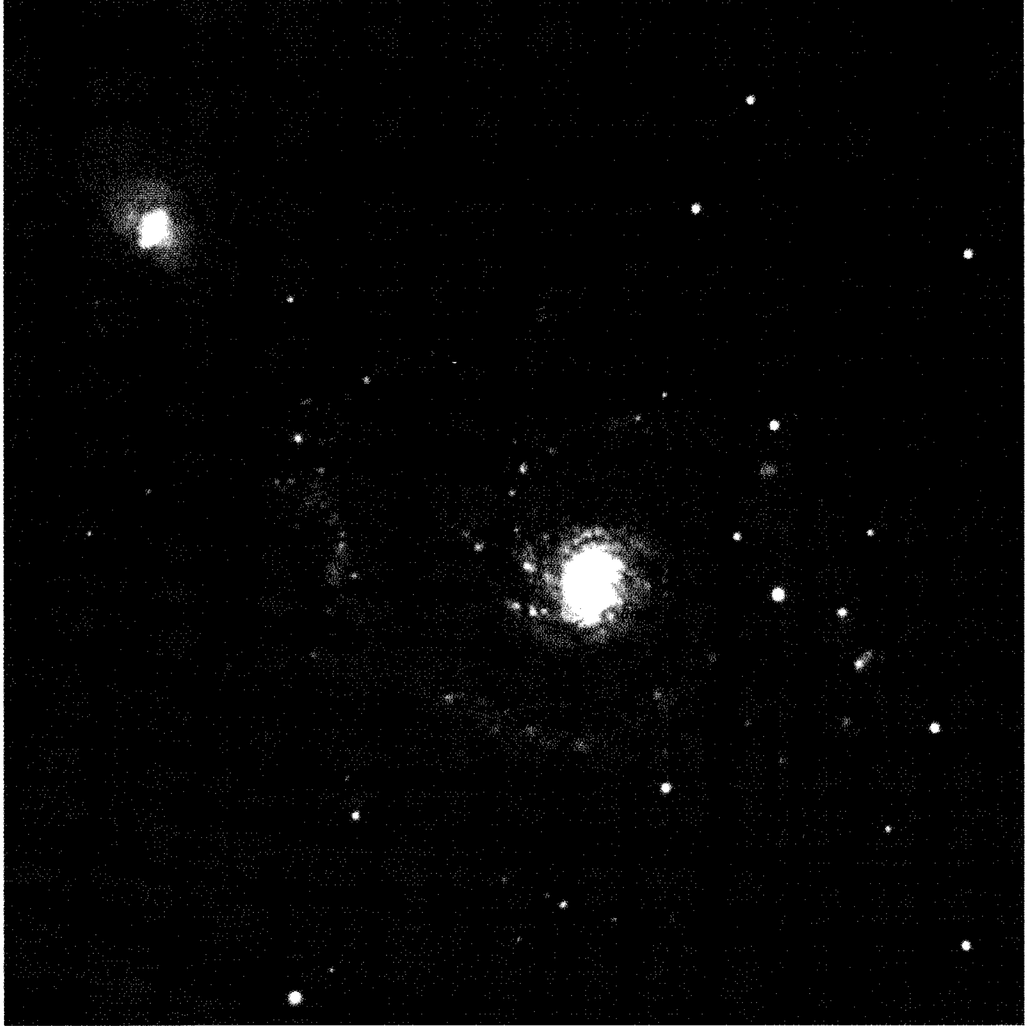
وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال المهم: من الذي علم سيدنا محمداً ﷺ كل هذه المعارف العلمية الدقيقة لو لم يكن القرآن الذي أوحي إليه هو كلام الله الخالق..!!؟ ولماذا أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه القضايا الغيبية التي لم يكن لأحد علم بها في زمان الوحي ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك؟ لولا أن الله (تعالى) يعلم بعلمه المحيط أن الناس سوف يأتي عليهم زمان يدركون فيه تلك الحقيقة الكونية، ثم يرجعون إلى كتاب الله فيقرأون فيه هذا القسم القرآني العظيم: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ فيشهدون بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، ويشهدون لهذا النبي الخاتم ﷺ أنه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وأنه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم كان ـ بحق ـ كما وصفه ربنا ﷻ:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾
(النجم: 3 ـ 5).

وحينما يتم لهم ذلك تخر أعناقهم للقرآن خاضعين بسلاح العلم الكوني الذي كثيراً ما استخدم من قبل ـ كذباً وزوراً ـ لهدم الدين ..﴿. . .وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 21)


NASA©

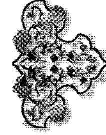
ما نراه من النجوم هو صورة وهمية للموقع الذي انبثق منه ضوء النجم ـ مواقع النجوم ـ



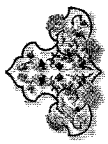
NASA©

صورة لعدد من المجرات الحلزونية

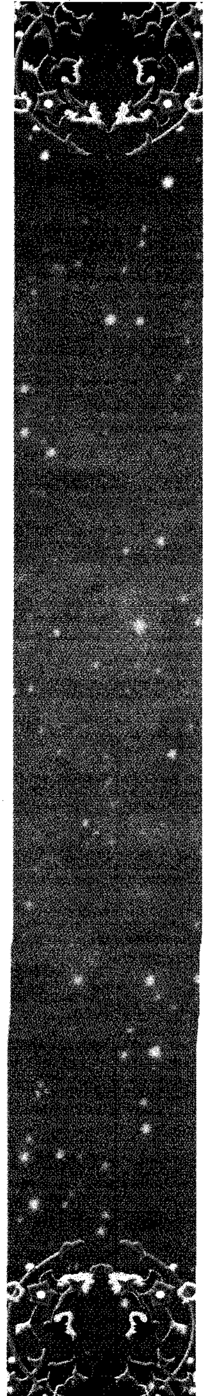
بسم الله الرحمن الرحيم



(10) ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾



(التكوير: 15، 16)



المدلول اللغوي لهاتين الآيتين الكريمتين هو: أقسم قسماً مؤكداً بالخنس الجواري الكنس، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما هي هذه الخنس الجواري الكنس التي أقسم بها ربنا ﷻ هذا القسم المؤكد، وهو تعالى غني عن القسم؟ وقبل الإجابة على هذا التساؤل لا بد لنا:

أولاً: من التأكيد على حقيقة قرآنية مهمة مؤداها أن الآية أو الآيات القرآنية التي تتنزل بصيغة القسم تأتي بمثل هذه الصياغة المؤكدة من قبيل تنبيهنا إلى عظمة الأمر المقسم به، وإلى أهميته في انتظام حركة الكون، أو في استقامة حركة الحياة أو فيهما معاً، وذلك لأن الله تعالى غني عن القسم لعباده.

ثانياً: أن القسم في القرآن الكريم بعدد من الأمور المتتابعة لا يستلزم بالضرورة ترابطها، كما هو وارد في سورة التكوير، وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم من مثل سور: الذاريات، الطور، القيامة، الانشقاق، البروج، الفجر، الشمس، والعاديات. ومن هنا كانت ضرورة التنبيه على عدم لزوم الربط بين القسم الأول في سورة التكوير: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ والقسم الذي يليه في الآيتين التاليتين مباشرة حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾. **(التكوير: 17 ـ 18)**

وهو ما فعله غالبية المفسرين، فانصرفوا عن الفهم الصحيح لمدلول هاتين الآيتين الكريمتين.

ثالثاً: تشهد الأمور الكونية المقسم بها في القرآن الكريم للخالق ﷻ بطلاقة القدرة، وكمال الصنعة، وتمام الحكمة، وشمول العلم، ومن هنا

فلا بد لنا من إعادة النظر في مدلولاتها كلما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية بالكون ومكوناته، وبالسنن الإلٰهية الحاكمة له حتى يتحقق وصف المصطفى ﷺ للقرآن الكريم بأنه: **«لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد»**[1]، وحتى يتحقق لنا جانب من أبرز جوانب الإعجاز في كتاب الله وهو ورود الآية أو الآيات في كلمات محدودة يرى فيها أهل كل عصر معنى معيناً، وتظل هذه المعاني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وليس هذا لغير كلام الله.

رابعاً: بعد القسم بكل من: الخنس، الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، يأتي جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ **(التكوير: 19)**

ومعنى جواب القسم أن هذا القرآن الكريم ـ ومنه الآيات الواردة في مطلع سورة التكوير واصفة لأهوال القيامة، وما سوف يصاحبها من الأحداث والانقلابات الكونية التي تفضي إلى إفناء الخلق، وتدمير الكون، ثم إعادة الخلق من جديد ـ هو كلام الله الخالق الموحي به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بواسطة ملك من ملائكة السماء المقربين، عزيز على الله تعالى، وهذا الملك المبلغ عن الله الخالق هو جبريل الأمين عليه السلام، وقد تمت نسبة القول إليه هو باعتبار قيامه بالتبليغ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

خامساً: إن هذا القسم القرآني العظيم جاء في سياق التأكيد على حقيقة الوحي الإلٰهي الخاتم الذي نزل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين)، والذي جاء للناس كافة لينقلهم من ظلمات الكفر والشرك والضلال إلى نور التوحيد الخالص للّٰه الخالق (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع)، ومن فوضى وحشية الإنسان إلى ضوابط الإيمان وارتقائها بكل ملكات الإنسان إلى مقام التكريم الذي كرمه به الله (سبحانه وتعالى)، ومن جور الأديان إلى عدل الرحمٰن؛ كما جاء هذا القسم المؤكد بشيء من صفات الملك الذي حمل هذا الوحي إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وعلى شيء من صفات هذا النبي الخاتم الذي تلقى الوحي من ربه، وحمله بأمانة إلى قومه، رغم معاندتهم له، وتشككهم فيه، وادعاءاتهم الكاذبة عليه ﷺ تارة بالجنون (وهو المشهود له منهم برجاحة العقل وعظيم الخلق)، وأخرى بأن شيطاناً يتنزل عليه بما يقول (وهو المعروف بينهم بالصادق الأمين)، وذلك انطلاقاً من خيالهم المريض الذي صور لهم أن لكل شاعر شيطاناً يأتيه بالنظم الفريد، وأن لكل كاهن شيطاناً يأتيه بالغيب البعيد.

(1) سبق تخريجه ص 30.

وقد تلقى رسول الله ﷺ كل ذلك الكفران والجحود والاضطهاد بصبر وجلد واحتساب، حتى كتب الله تعالى له الغلبة والنصر فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح البشرية، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين.

وتختتم سورة التكوير بالتأكيد على أن القرآن الكريم هو ذكر للعالمين وأن جحود بعض الناس له، وصدهم عنه، وإيمان البعض الآخر به وتمسكهم بهديه هي قضية شاء الله تعالى أن يتركها لاختيار الناس وفقاً لإرادة كل منهم، مع الإيمان بأن هذه الإرادة الإنسانية لا تخرج عن مشيئة الله الخالق الذي فطر الناس على حب الإيمان به، ومنَّ عليهم بتنزل هدايته على فترة من الرسل الذين تكاملت رسالاتهم في هذا الوحي الخاتم الذي نزل به جبريل الأمين على قلب النبي والرسول الخاتم ﷺ، وأنه على الرغم من كل ذلك فإن أحداً من الناس ـ مهما أوتي من أسباب الذكاء والفطنة ـ لا يقدر على تحقيق الاستقامة على منهج الله تعالى إلا بتوفيق منه سبحانه. وهذه دعوة صريحة إلى الناس كافة ليطلبوا الهداية من رب العالمين في كل وقت وفي كل حين.

والقسم بالأشياء الواردة بالسورة هو للتأكيد على أهميتها لاستقامة أمور الكون وانتظام حركة الحياة فيه، وعلى عظيم دلالاتها وعلى طلاقة القدرة الإلٰهية التي أبدعتها وصرفت أحوالها وحركاتها بهذه الدقة المبهرة والأحكام العظيمة.

(... الخُنَّسُ ★ الجوار الكُنَّسِ) في اللغة العربية

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس (المتوفى سنة395 هـ) تحقيق عبدالسلام هارون (الجزء الخامس، الطبعة الثانية 1972 م، ص 141، ص 223) وفي غيره من معاجم اللغة تعريف لغوي للفظي الخنس والكنس يحسن الاستهداء به في فهم مدلول الخنس الجوار الكنس كما جاءا في آيتي سورة التكوير على النحو التالي:

أولاً: (الخنس): (خنس): الخاء والنون والسين أصل واحد يدل على استخفاء وتستر، قالوا: (الخنس) الذهاب في **خفية**، ولذلك يقال: (خنست) عنه أي: تخفيت عنه، و(أخنست) حقه أي: غمطته إياه. و(الخنس): النجوم (تخنس) في المغيب، وقال قوم: سميت بذلك لأنها تختفي نهاراً وتطلع ليلاً، و(الخناس) في صفة الشيطان، لأنه (يخنس) إذا ذكر الله تعالى، ومن هذا الباب (الخنس) في الأنف انحطاط القصبة، ومن هنا فإن البقر كلها (خنس). ومعنى ذلك أن (الخُنَّس) جمع (خانس) أي مختف عن البصر، والفعل (خنس) بمعنى استخفى وتستر، يقال (خنس) الظبي إذا اختفى وتستر عن أعين المراقبين.

و(الخنوس) يأتي أيضاً بمعنى التأخر، كما يأتي بمعنى الانقباض والاستخفاء. و(خنس) بفلان و(تخنس به) أي غاب به، و(أخنسه) أي خلفه ومضى عنه.

ثانياً: **(الجوار)**: أي (الجارية) في أفلاكها وهي جمع جارية، من الجري أي: المر السريع.

ثالثاً: **(الكنس)**: (كنس): الكاف والنون والسين تشكل أصلين صحيحين، يدل أحدهما على سفر شيء عن وجه شيء وهو كشفه؛ والأصل الآخر يدل على استخفاء، فالأول من مثل (كنس) البيت، وهو سفر التراب عن وجه أرضه، و(المكنسة) آلة (الكنس)، و(الكناسة) ما (يكنس). والأصل الآخر: (الكناس): بيت الظبي، و(الكانس): الظبي يدخل (كناسه)، وعلى ذلك قيل: بأن (الكنس): هي الكواكب أو النجوم (تكنس) في بروجها كما تدخل الظباء (كناسها)، قال أبو عبيدة: (تكنس) في المغيب.

وانطلاقاً من هذا التفصيل اللغوي قيل: (الكُنَّس) إما جمع (كانس) أي قائم (بالكنس) أو مختف من (كنس) الظبي أي دخل (كناسه) وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر، وسمي كذلك لأنه (يكنس) الرمل حتى يصل إليه. وعندي أن (الكُنَّس) هي صيغة منتهى الجموع للفظة (كانس) أي قائم بعملية (الكنس)، وجمعها (كانسون)، أو للفظة (كناس) وجمعها (كنّاسون)، و(الكانس) و(الكناس) هو الذي يقوم بعملية (الكنس) أي: سفر شيء عن وجه شيء آخر، وإزالته.

ولا يعقل أن يكون المعنى المقصود في الآية الكريمة للفظة (الكنس) هي المنزوية المختفية وقد استوفى هذا المعنى باللفظ (الخنس)، ولكن أخذ اللفظتين بنفس المعنى دفع بجمهور المفسرين إلى القول بأن من معاني ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾: أقسم قسماً مؤكداً بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهار وتظهر بالليل وهو معنى الخنس، والتي تجري في أفلاكها لتختفي وتستتر وقت غروبها كما تستتر الظباء في كناسها (أي مغاراتها) وهو معنى الجوار الكنس.

قال القرطبي: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، وتكنس وقت غروبها أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار وهو الكناس.

وقال مخلوف: أقسم الله تعالى بالنجوم التي تخنس بالنهار أي يغيب ضوؤها فيه عن الأبصار مع كونها فوق الأفق، وتظهر بالليل، وتكنس أي: تستتر وقت غروبها أي نزولها تحت الأفق كما تكنس الظباء في كنسها.

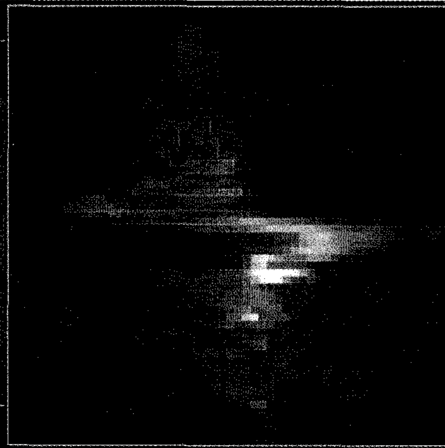
وقال بعض المتأخرين من المفسرين: هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية، وتجري في أفلاكها وتختفي.

ومع جواز هذه المعاني كلها إلا أني أرى الوصف في هاتين الآيتين الكريمتين: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ .ينطبق انطباقاً كاملاً مع حقيقة كونية مبهرة تمثل مرحلة خطيرة من مراحل حياة النجوم يسميها علماء الفلك اليوم باسم الثقوب السود **(Black Holes)**. وهذه الحقيقة لم تكتشف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في القرآن الكريم الذي أنزل قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه التعبيرات العلمية الدقيقة على نبيٍّ أمِّي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، هي شهادة صدق على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، وعلى أن سيدنا محمداً بن عبد الله كان موصولاً بالوحي، معلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وأنه ﷺ ما كان ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

(... الخنس ★ الجوار الكنس) في نظر بعض الفلكيين المسلمين المعاصرين

يرى بعض الفلكيين المسلمين المعاصرين في الوصف القرآني: (الخنس الجوار الكنس) أنه وصف للمذنبات **(Comets)**، وهي أجرام سماوية ضئيلة الكتلة (لا تكاد تصل كتلتها إلى واحد من المليون من كتلة الأرض) ولكنها مستطيلة بذنبها إلى مسافات طويلة جداً، مما يجعلها أكثر أجرام المجموعة الشمسية طولاً، وتتحرك المذنبات في مدارات بيضاوية حول الشمس، التي تقع في أحد طرفيها؛ ونحن نراها كلما اقتربت من الشمس، وهذه المدارات تتميز بشيء من اللامركزية وبميل أكبر على مستوى مدار الأرض، مما يجعل المذنبات تظهر وتختفي بصورة دورية على فترات تطول وتقصر. والمذنبات تتكون أساساً من خليط من الثلوج والغبار الكوني، وللمذنب رأس وذنب، وللرأس نواة يبلغ قطرها عدة كيلو مترات قليلة، وهي عبارة عن كرة من الثلج والغبار تحيط بها هالة من الغازات والغبار أيضاً، وتحيط بالهالة سحابة من غاز الإيدروجين قد يصل قطرها إلى مليون كيلو متر. والغبار المكون للمذنبات شبيه في تركيبه الكيميائي والمعدني بتركيب بعض النيازك، وأما الثلوج المكونة لرأس المذنب فتتكون من خليط من ثلج كل من الماء، وثاني أكسيد الكربون، والأمونيا (النوشادر)، وغاز الميثين.

وبالتفاعل مع كل من أشعة الشمس والرياح الشمسية يندفع من رأس المذنب ذيل من الغازات والأبخرة والغبار قد يصل طوله إلى 150 مليون كيلو متر، ومن هنا كانت التسمية «بالمذنبات». وللكثير من المذنبات ذيلان أحدهما ترابي ويبدو أصفر اللون في أشعة

شكل (54) صورة للآثار التي تركها أحد النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) كما صورتها عدسات التليسكوب الفضائي هابل

NASA©

الشمس، والآخر مكون من غازات متأينة في حالة البلازما ويبدو أزرق اللون في أشعة الشمس، والذنب الغازي يندفع بفعل الرياح الشمسية في خط مستقيم خلف رأس المذنب، بينما ينعقف الذنب الترابي بلطف إلى أعلى، وهذان الذنبان قد يتواجدان معاً في المذنب الواحد أو يتواجد أحدهما، في عكس اتجاه أشعة الشمس بانحراف قليل نظراً لدوران نواة رأس المذنب (التي تتراوح كتلتها بين مائة مليون، وعشرة مليون مليون طن). وللمذنب مجال مغناطيسي ثابت على طوله.

ووجه الشبه الذي استند إليه هذا النفر من الفلكيين المسلمين المعاصرين بين المذنبات والوصف القرآني (الخنس الجوار الكنس) هو أن المذنب يقضي فترة تتراوح بين عدة أيام وعدة شهور مجاوراً للشمس في زيارة خاطفة، فيظهر لنا بوضوح وجلاء ولكنه يقضي معظم فترة دورانه بعيداً عن الشمس فيختفي عنا تماماً ويستتر، فإذا ما اقترب من الشمس ظهر لنا وبان، ولكن سرعان ما يقفل راجعاً حتى يختفي تماماً عن الأنظار، واعتبروا ذلك هو الخنوس.

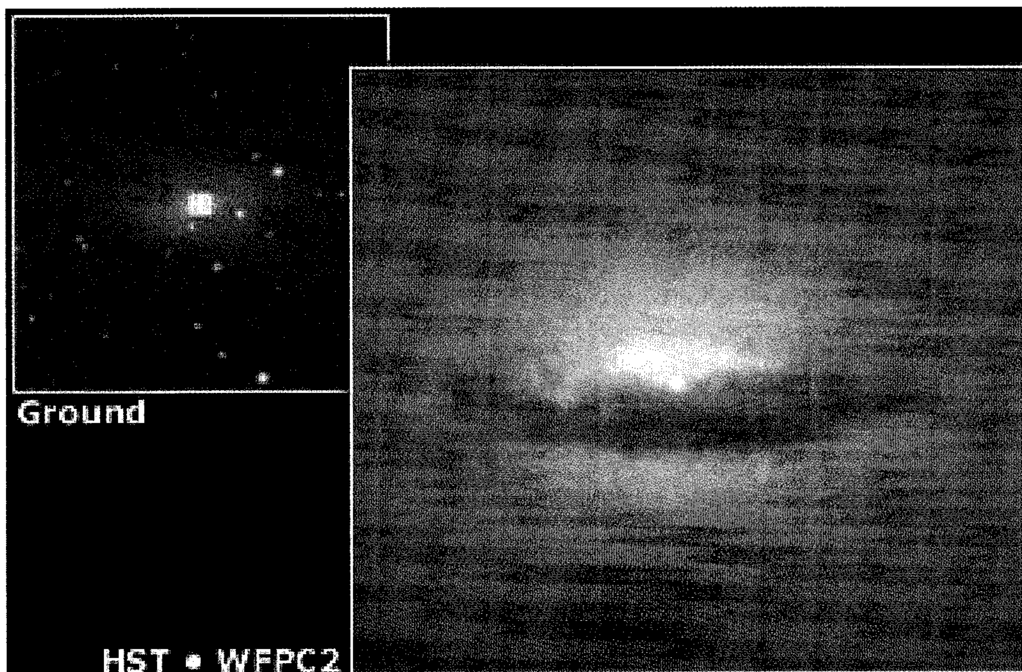
ولكن الوصف القرآني (بالخنس) يعني الاختفاء الكامل، ولا يعني الظهور ثم الاختفاء.

ما هي الثقوب السود؟

يعرف الثقب الأسود بأنه أحد أجرام السماء التي تتميز بكثافتها الفائقة وجاذبيتها الشديدة بحيث لا يمكن للمادة ولا لمختلف صور الطاقة (ومنها الضوء) أن تفلت من

أسرها. ويحد الثقب الأسود سطح يعرف باسم أفق الحدث **(The Event Horizon)**. وكل ما يسقط داخل هذا الأفق لا يمكنه الخروج منه، أو إرسال أية إشارة عبر حدوده. وقد أفادت الحسابات النظرية في الثلث الأول من القرن العشرين إلى إمكانية وجود مثل هذه الأجرام السماوية ذات الكثافات الفائقة والجاذبية الشديدة [كارل شفارز تشايلد **(Karl Schwarschild 1916)**، روبرت أوبنهايمر **(Robert Oppenheimer, 1934)**] إلا أنها لم تكتشف إلا في سنة 1971م، بعد اكتشاف النجوم النيوترونية بأربع سنوات.

ففي خريف سنة 1967 أعلن الفلكيان البريطانيان توني هيويش **(Tony Hewish)** وجوسلين بل **(Jocelyn Bell)** عن اكتشافهما لأجرام سماوية صغيرة الحجم (بأقطار في حدود 16 كيلو متر) تدور حول محورها بسرعات مذهلة بحيث تتم دورتها في فترة زمنية تتراوح بين عدد قليل من الثواني إلى أجزاء لاتكاد تدرك من الثانية الواحدة، مصدرة موجات راديوية منتظمة أكدت أن تلك الأجرام هي نجوم نيوترونية **(Neutron Stars)** ذات كثافة فائقة تبلغ بليون طن للسنتيمتر المكعب.



NASA©

شكل (55) نجم خانس كانس يدور حول محوره ويحاط بقرص رقيق من المواد المجتمعة حوله

وفي سنة 1971 م اكتشف علماء الفلك أن بعض النجوم العادية تصدر وابلاً من الأشعة السينية، ولم يجدوا تفسيراً علمياً لذلك إلا وقوعها تحت تأثير أجرام سماوية غير مرئية ذات كثافات خارقة للعادة، ومجالات جاذبية عالية الشدة، وذلك لأن النجوم العادية ليس في مقدورها إصدار الأشعة السينية من ذاتها، وقد سميت تلك النجوم الخفية باسم الثقوب السود **(Black Holes)**. لقدرتها الفائقة على ابتلاع كل ما تمر به أو يدخل في نطاق جاذبيتها من مختلف صور المادة والطاقة من مثل الغبار والغازات الكونيين، والأجرام السماوية المختلفة، ووصفت بالسواد لأنها معتمة تماماً لعدم قدرة الضوء على الإفلات من مجال جاذبيتها على الرغم من سرعته الفائقة المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية (299792.458 كم/ ث) وقد اعتبرت الثقوب السود مرحلة الشيخوخة في حياة النجوم العملاقة وهي المرحلة التي قد تسبق انفجارها وعودة مادتها إلى دخان السماء دون أن يستطيع العلماء حتى هذه اللحظة معرفة كيفية حدوث ذلك.

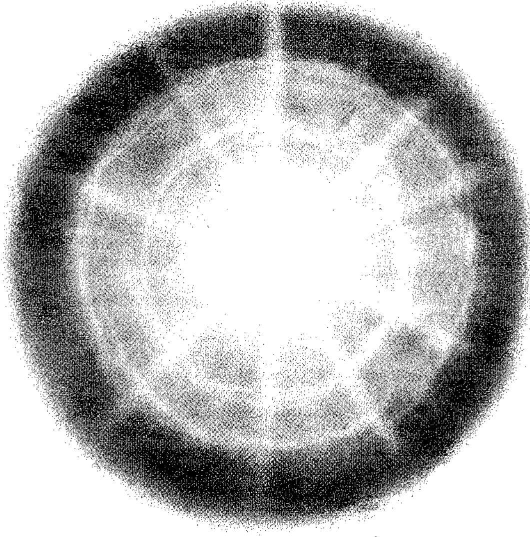
كيف تتكون الثقوب السود؟

تعتبر الثقوب السود كما ذكرنا من قبل مرحلة الشيخوخة في حياة النجوم العملاقة التي تبلغ كتلتها عدة مرات قدر كتلة الشمس، ولكي نفهم كيفية تكونها لا بد لنا من معرفة المراحل السابقة في حياة تلك النجوم. والنجوم هي أجرام سماوية غازية التركيب في غالبيتها، شديدة الحرارة، ملتهبة، مضيئة بذاتها، يغلب على تركيبها عنصر الإيدروجين الذي يكون أكثر من 74% من مادة الكون المنظور، والذي تتحد نوى ذراته مع بعضها البعض في داخل النجوم بعملية تعرف باسم عملية الاندماج النووي **(Nuclear Fusion)** مطلقة الطاقة الهائلة ومكونة عناصر أعلى في وزنها الذري من الإيدروجين (أخف العناصر المعروفة لنا على الإطلاق وأبسطها من ناحية البناء الذري ولذلك يوضع في الخانة رقم واحد في الجدول الدوري للعناصر التي يعرف منها اليوم أكثر من 105 من العناصر).

والنجوم تتخلق ابتداء من الدخان الكوني الذي يكون السدم، وينتشر في فسحة السماء ليملأها؛ وتتكون النجوم في داخل السدم بفعل دوامات عاتية تؤدي إلى تجاذب المادة تثاقلياً، وتكثفها على ذاتها حتى تتجمع الكتلة اللازمة ودرجات الحرارة المناسبة لتخليق النجم، فتبدأ عملية الاندماج النووي فيه، وتنطلق منه الطاقة، وينبعث الضوء.

وبعد الميلاد تمر النجوم بمراحل متتابعة من الطفولة فالشباب فالشيخوخة والهرم على هيئة ثقب أسود يعتقد أنّ مصيره النهائي هو الانفجار والتحول إلى الدخان الكوني مرة

أخرى، وإن كنا لا ندري حتى هذه اللحظة كيفية حدوث ذلك.



شكل (56) انفجار نجم مستعر أعظم قد ينتج عنه تكون ثقب أسود

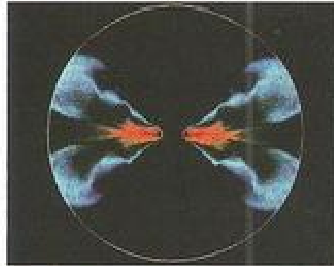
ومن المراحل المعروفة للفلكيين في دورة حياة النجوم ما يعرف باسم نجوم النسق العادي **(The Main Sequence Stars)**، والعمالقة الحمر **(The Red Giants)**، والأقزام البيض **(The White Dwarfs)**، والأقزام السود **(The Black Dwarfs)**، والنجوم النيوترونية **(The Neutron Stars)**، والثقوب السود **(The Black Holes)**. فعندما تبدأ كمية الإيدروجين بداخل النجم في التناقص نتيجة لعملية الاندماج النووي، وتبدأ كمية الهيليوم الناتجة عن تلك العملية في التزايد تبدأ طاقة النجم في الاضمحلال تدريجياً وترتفع درجة حرارة قلب النجم إلى عشرة ملايين درجة مطلقة (الصفر المطلق يساوي 273 درجة تحت الصفر المئوي) مؤدياً بذلك إلى بدء دورة جديدة من عمل الاندماج النووي، وإلى انبعاث المزيد من الطاقة التي تؤدي إلى مضاعفة حجم النجم إلى مئات الأضعاف فيطلق عليه اسم العملاق الأحمر **(The Red Giant)**، وبتوالي عملية الاندماج النووي يأخذ النجم في استهلاك طاقته دون إمكانية انتاج المزيد منها مما يؤدي إلى تقلصه في الحجم وانهياره إما إلى قزم أبيض **(White Dwarf)** أو إلى نجم نيوتروني **(Neutron Star)** أو إلى ثقب أسود **(Black Hole)** حسب كتلته الأصلية التي بدأ تواجده بها. فإذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم أقل من كتلة الشمس فإن الإليكترونات في مادة النجم تقاوم عملية تقلصه ابتداء ثم تنهار هذه المقاومة ويبدأ النجم في التقلص حتى يصل إلى حجم أقل قليلاً من حجم الأرض، متحولاً إلى قزم أبيض، وهذه المرحلة من مراحل حياة النجوم قد تتعرض لعدد من الانفجارات النووية الهائلة والتي تنتج عن تزايد الضغط في داخل النجم، وتسمى هذه المرحلة باسم النجوم الجديدة أو المستجدة **(The Novae)** وهي نجوم شديدة الحرارة ولذا تعرف باسم المستعرات.

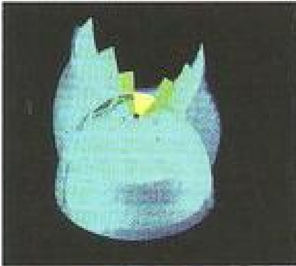
NASA©

شكل (57) صورة تخيلية لقرص الغازات الدوارة حول نجم خانس كانس (ثقب أسود) يجذب المادّة من عملاق أعظم بفعل جاذبيّته الفائقة

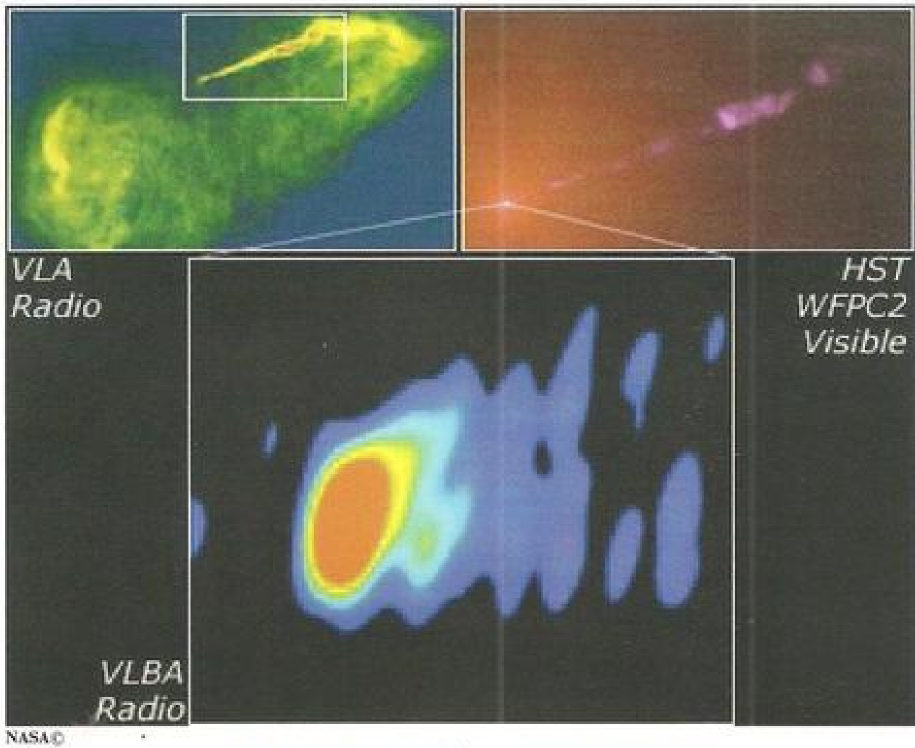
ولكن إذا زاد تراكم الضغط في داخل القزم الأبيض فإنه ينفجر انفجاراً كاملاً محدثاً نوراً في السماء يقارب نور بليون شمس كشمسنا، وتسمى هذه المرحلة باسم «النجم المستعر الأعظم» (The Supernova) يفنى على إثرها القزم الأبيض وتتحول مادته إلى دخان الكون،







شكل (58) رسومات تخطيطية توضح ابتلاع النجم الخانس الكانس (الثقب الأسود) للغازات المحيطة به في قرص التجمّع



شكل (59) يوضح صوراً لعدد من الثقوب السود

وتحدث هذه الظاهرة مرة واحدة في كل قرن من الزمان لكل مجرة تقريباً، ولكن مع الأعداد الهائلة للمجرات في الجزء المدرك لنا من الكون فإن هذه الظاهرة تكاد أن تحدث في الكون المدرك مرة كل ثانية تقريباً.

أما إذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم أكبر من كتلة الشمس فإنه ينهار عند استهلاك طاقته متحولاً إلى نجم نيوتروني، وفيه تتحد البروتونات والإليكترونات منتجة النيوترونات، وهذا النجم النيوتروني ينبض في حدود ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة ومن هنا يعرف باسم النجم النابض **(The Pulsating Star)**، أو النابض **(The Pulsar)**. ولكن هناك من النجوم النيوترونية ما هو غير نابض **(Non-Pulsating Neutron Star)**؛ وقد يستمر النجم النيوتروني في الانهيار على ذاته حتى يصل إلى مرحلة الثقب الأسود إذا كانت كتلته الابتدائية تسمح بذلك. فإذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم تزيد على كتلة الشمس بمرة ونصف المرة تقريباً (1.4 قدر كتلة الشمس) ولكنها تقل عن خمسة أضعاف كتلة الشمس فإن عملية التقلص تنتهي به إلى نجم نيوتروني لا يزيد قطره على ثمانية عشرة كيلومترات تقريباً، ويسمى بهذا

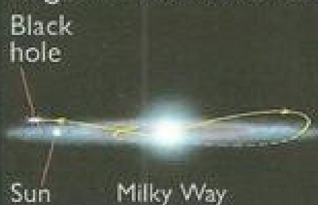


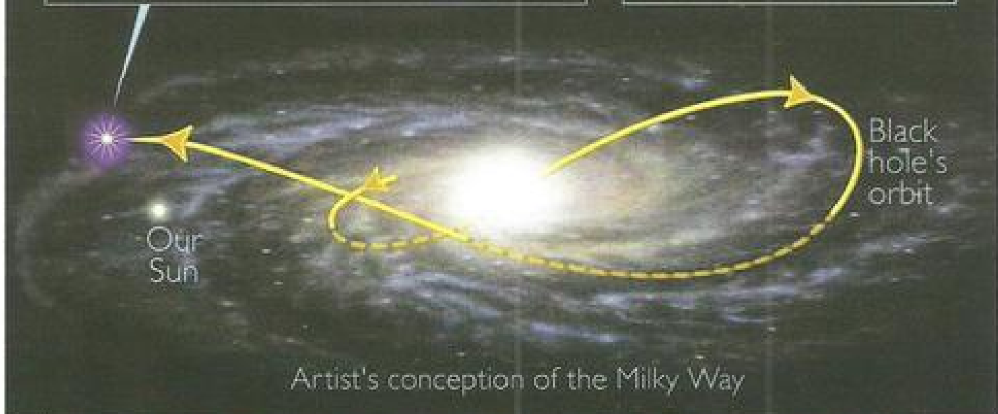
شكل (60) يوضح ثقباً أسود تنهار صور المادة والطاقة في أفق حدثه. قبل وبعد

الاسم لأن الذي يقوم بعملية مقاومة التقلص التثاقلي **(Gravitational Contraction)** فيه هي النيوترونات لأن الإليكترونات في داخل كتلة النجم تعجز عن ذلك.

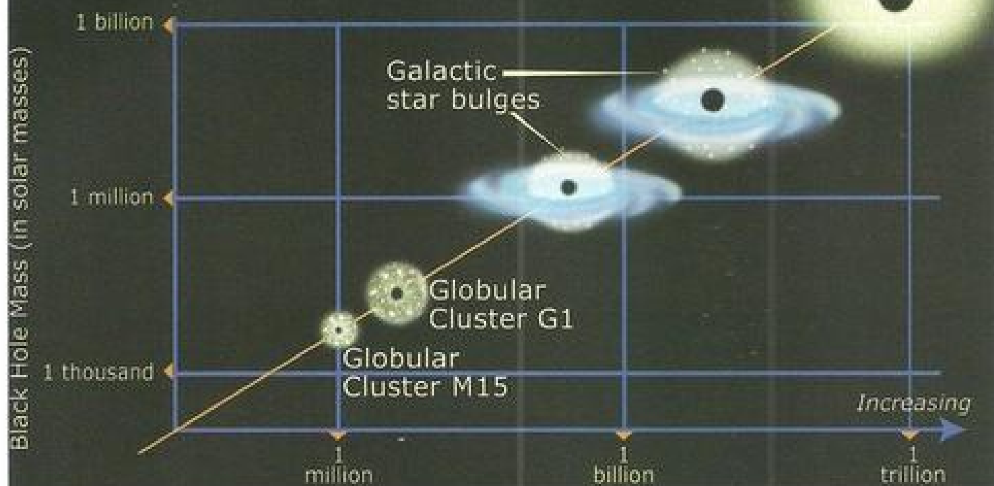
Black hole's wild ride through the Milky Way



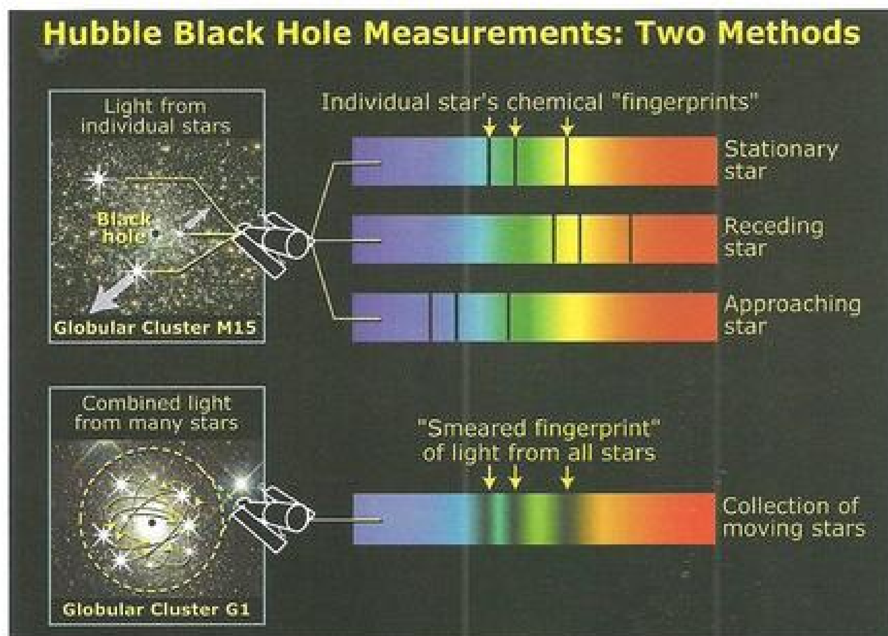




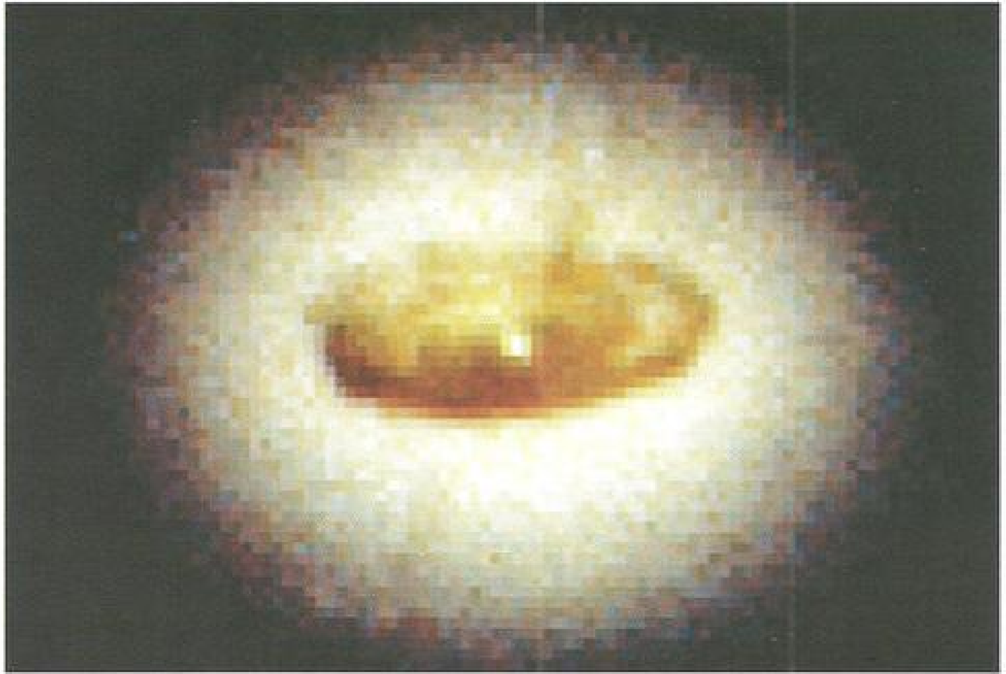
شكل (61) يوضح حركة نجم خانس كانس في مجرتنا (مجرة الطريق اللبني)



شكل (62) يوضح تقدير كتلة النجم الخانس الكانس بمقارنته بكتل النظم النجمية

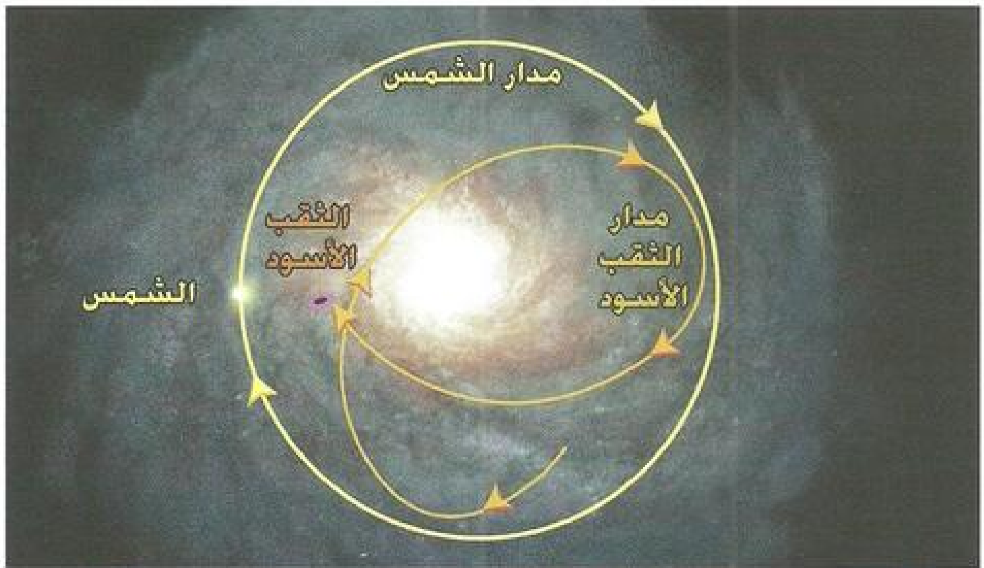


شكل (63) يوضح قياس تليسكوب هابل للنجوم الخانسة الكانسة بواسطة قياس تباعد النجوم المجاورة أو اقترابها منها بظاهرة الحيود إلى أي من الطيفين الأحمر أو الأزرق

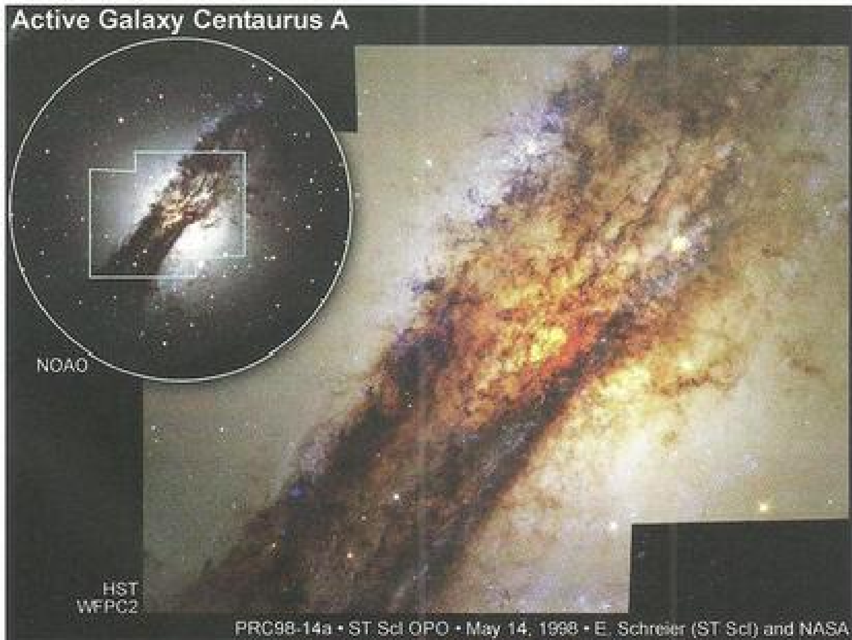


شكل (64) يوضح صورة لنجم خانس كانس يحيط به أفق حدثه

أما إذا زادت الكتلة الابتدائية للنجم على خمسة أضعاف كتلة الشمس فلا يتمكن أي من الإليكترونات أو النيوترونات من مقاومة عملية التقلص التاقلي للنجم فتستمر حتى يصل النجم إلى مرحلة الثقب الأسود، وهذه المرحلة لا يمكن إدراكها بصورة مباشرة، ولكن يمكن تحديد مواقعها بعدد من الملاحظات غير المباشرة من مثل صدور موجات شديدة من الأشعة السينية من الأجرام الواقعة تحت تأثيرها، واختفاء كل الأجرام السماوية بمجرد الدخول في مجال جاذبيتها. ومع إدراكنا لانتهاء حياة النجوم بالانفجار على هيئة نجم مستعر أو نجم مستعر أعظم، أو بفقدانه للطبقات الخارجية منه وتحوله إلى مادة عظيمة الكثافة شديدة الجاذبية مثل النجوم النيوترونية أو الثقوب السود، إلا أن طبيعة تلك الثقوب السود وطريقة فنائها تبقى معضلة كبرى أمام كل من علماء الفلك والطبيعة الفلكية، فحسب قوانين الفيزياء التقليدية لا يستطيع الثقب الأسود فقد أي قدر من كتلته مهما تضاءل، ولكن حسب قوانين فيزياء الكم فإنه يتمكن من الإشعاع وفقدان كل من الطاقة والكتلة إلى الدخان الكوني، وهي سنة الله الحاكمة في جميع خلقه، ولكن تبقى كيفية تبخر مادة الثقب الأسود بغير جواب، وتبقى كتلته، وحجمه، وكثافته، وطبيعة المادة والطاقة فيه، وشدة حركته الزاوية، وشحناته



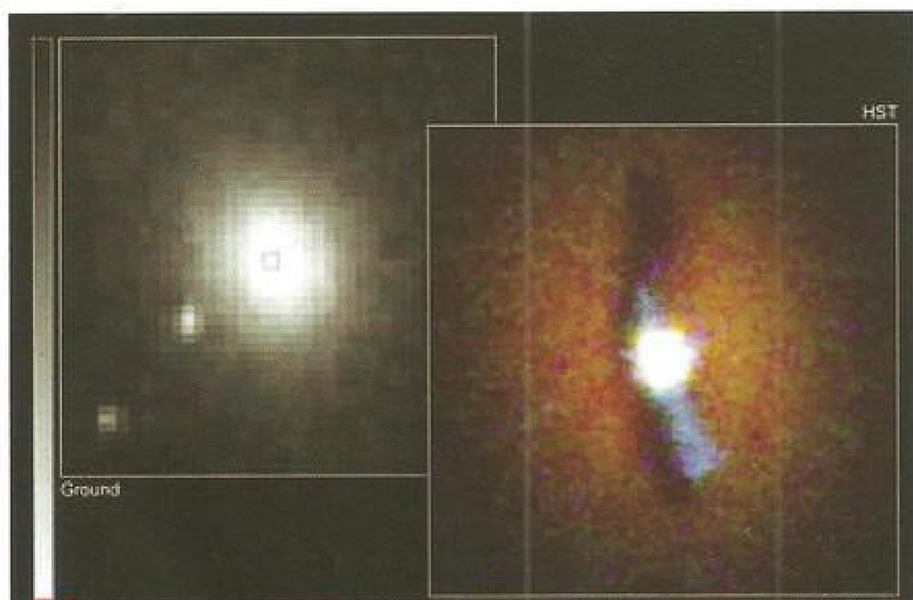
شكل (65) رسم يوضح مسار الثقب الأسود (GROJ 1655-40) انطلق من جراء انفجار نجم مستعر (Supernova) منذ زمن بعيد. وهو يدور مع الشمس حول نقطة مركزية في مجموعتنا الشمسية (Milky way).



شكل (66) يوضح جزءاً من قلب إحدى المجرات يعتقد أن بداخله نجم خانس كانس تظلله سحب من الدخان الكوني والغبار



شكل (67) يوضح صور النجم خانس كانس



شكل (68) يوضح صور النجم خانس كانس

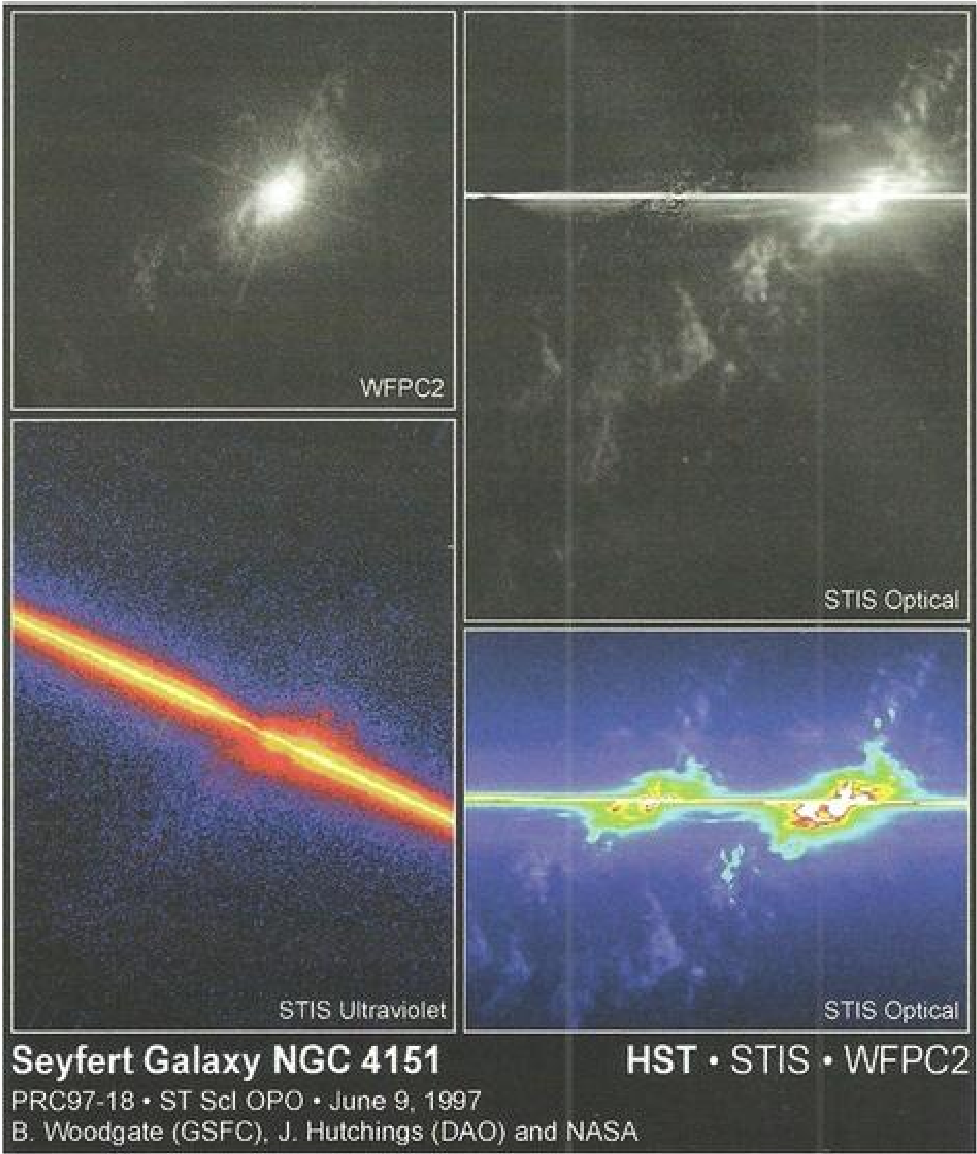


شكل (69) يوضح حشوداً نجمية كروية في مجرتين (أ) (M 31 G1)، ب (M 15)

الكهربية والمغناطيسية من الأسرار التي يكافح العلماء إلى يومنا هذا من أجل استجلائها.

فسبحان الذي خلق النجوم وقدر لها مراحل حياتها...، وسبحان الذي أوصلها إلى مرحلة الثقب الأسود، وجعله من أسرارالكون المبهرة...، وسبحان الذي أقسم بتلك النجوم المستترة، الحالكة السواد، الغارقة بالظلمة... وجعل لها من الظواهر ما يعين الإنسان على إدراك وجودها على الرغم من تسترها واختفائها، وسبحان الذي مكنها من كنس مادة السماء وابتلاعها وتكديسها، ثم وصفها لنا من قبل أن نكتشفها بقرون متطاولة بهذا الوصف القرآني المعجز فقال ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾. ولا أجد وصفاً لتلك المرحلة من حياة النجوم المعروفة باسم الثقوب السود أبلغ من وصف الخالق ﷻ لها بالخنس الكنس، فهي خانسة أي دائمة الاختفاء والاستتار بذاتها، وهي كانسة لصفحة السماء، تبتلع كل ما تمرّ به من المادة المنتشرة بين النجوم، وكل ما يدخل في نطاق جاذبيتها من أجرام السماء، وهي جارية في أفلاكها المحددة لها، فهي خنس جوار كنس، وهو تعبير أبلغ بكثيرمن تعبير الثقوب السود الذي اشتهر وذاع بين المشتغلين بعلم الفلك ..﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ **(النّساء: 122)**

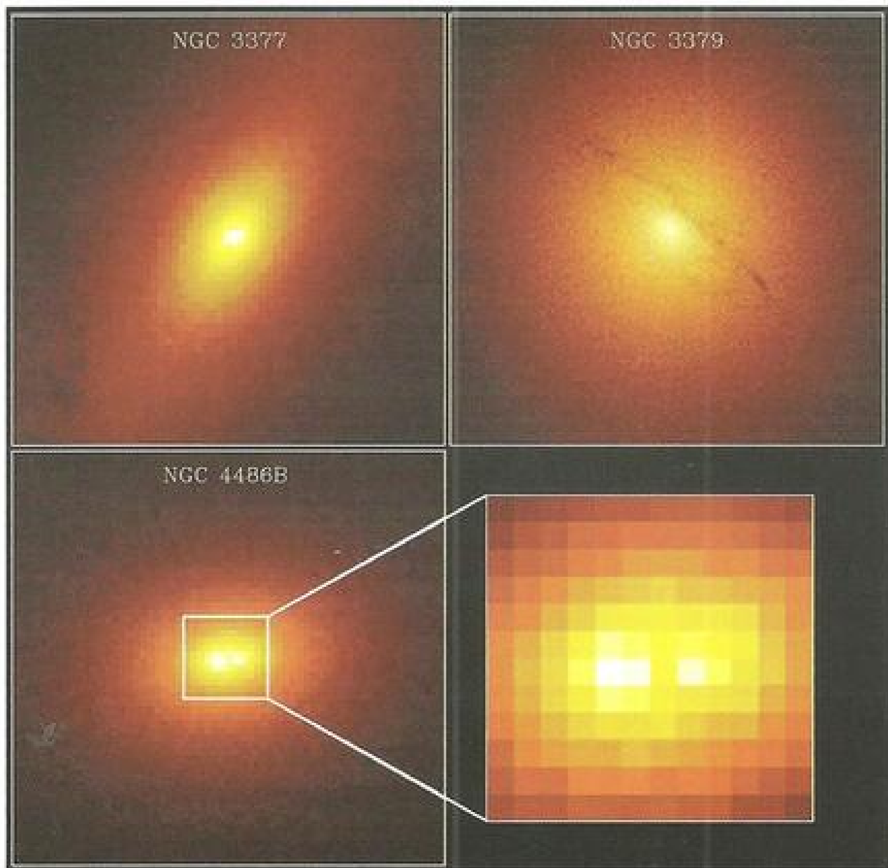
ومن العجيب أن العلماء الغربيين يسمون هذه الثقوب السود تسمية مجازية عجيبة



شكل (70) يوضح صوراً متفرقة لمستويات محاور عدد من المجرات المختلفة

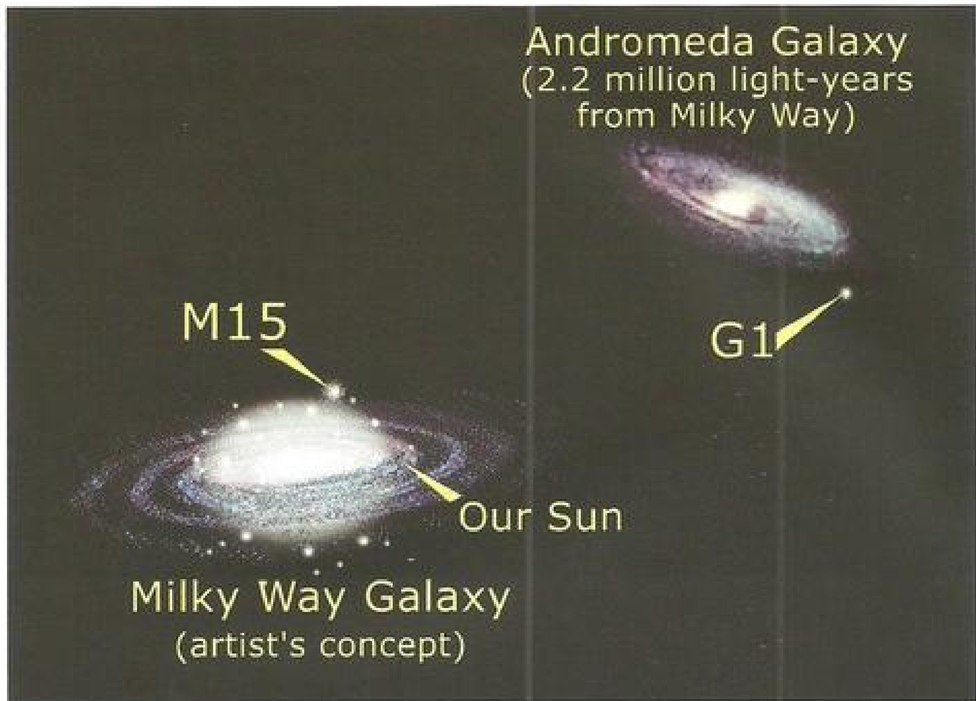
تنطبق انطباقاً دقيقاً على الوصف القرآني «**الخنس الجواري الكنس**» كما فصلناه آنفاً وذلك حين يسمونها بالمكانس الشافطة العملاقة التي تبتلع (أو تشفط) كل شيء يقترب منها إلى داخلها **(Supergiant Vacuum Cleaners that suck in everything insight)**.

وتبقى الثقوب السود صورة مصغرة للجرم الأول الذي تجمعت فيه مادة الكون ثم



شكل (71) يوضح صوراً متفرقة لنجوم خانسة كانسة في قلب عدد من المجرات المختلفة

انفجر ليتحول إلى سحابة من الدخان، وأن من هذا الدخان خلقت السمٰوات والأرض، وتتكرر العملية اليوم أمام أنظار المراقبين من الفلكيين حيث تتخلق النجوم الابتدائية من تركز المادة في داخل دخان السدم عبر دوامات تركيز المادة **(Accretion whirls)** أو **(Accretion Vertigos)** ومنها تتكون النجوم الرئيسية **(The Main Sequence Stars)** والتي قد تنفجر حسب كتلتها إلى عمالقة حمر **(Red Giants)** أو نجوم مستعرة **(Novae)** أو مستعرة عظمى **(Supernovae)**، وقد يؤدي انفجار العمالقة الحمر إلى تكون أعداد من السدم الكوكبية **(Planetary Nebulae)** والتي تنتهي إلى تكون الأقزام البيض **(White Dwarfs)** أو تستمر في التبرد حتى تنتهي إلى ما يعرف باسم الأقزام السود **(Black Dwarfs)** وهي من النجوم المنكدرة، كما قد يؤدي انفجار فوق المستعرات إلى تكون نجوم نيوترونية غير نابضة



شكل (72) وهو رسم تخطيطي لعلاقة مجرتنا (سكة التبانة) بعدد من المجرات المجاورة أهمها مجرة المرأة السلسلة التي تبعد عن مجرتنا مسافة تقدر بحوالى 2.2 مليون من السنين الضوئية

أو نابضة **(Non-Pulsating or Pulsating Neutron Stars or Pulsars)** أو إلى تكون ثقوب سود **(Black Holes)** حسب كتلتها الابتدائية، وقد تفقد الثقوب السود كتلتها إلى دخان السماء عن طريق تبخر تلك المادة على هيئة أشباه النجوم المرسلة لموجات راديوية عبر مراحل متوسطة عديدة، ثم تتفكك هذه لتعود مرة أخرى إلى دخان السماء مباشرة أو عبر هيئة كهيئة السدم حتى تشهد لله الخالق بالقدرة الفائقة على أنه وحده الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وأنه وحده على كل شيء قدير.

ومن المبهر حقاً أن يشهد علماء الفلك اليوم بأن90% من مادة الكون المنظور (ممثلة بمادة المجرات العادية) هي مواد خفية لا يمكن للإنسان رؤيتها بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة ولكن يمكن تقديرها حسابياً فقط. وأن من هذه المواد الخفية: الثقوب السود **(The Black Holes)**، والأقزام البنية غير المدركة **(The Undetected Brown Dwarfs)**، والمادة الداكنة **(The Dark Matter)**، واللبنات الأولية للمادة **(The Subatomic Particles)** وغيرها، وأن كتلة الجزء المدرك من الكون تقدر حسابياً بأكثر من مائة ضعف الكتلة الظاهرة.

فسبحان الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (الحاقة: 38، 39).

وسبحان الذي وصف لنا «الثقوب السود» بوصفه الرباني ﴿... بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ وهو وصف يفوق التسمية العلمية لها باسم «الثقوب السود» دقة، وشمولاً، وإحاطة، ويشهد لِمُنَزِّلِهِ في محكم كتابه بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة، كما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: 42).

كما يشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



صورة حديثة بواسطة تلسكوب هابل أثبتت في حال تصادم الثقوب السوداء فإنها لا تتحد فيما بينها لتشكل مجرة ضخمة كما كان يعتقد، بل إن قوة التصادم الإشعاعي يمكن أن تدفع الثقب الأسود بعيداً خارج مجرته



صورة في الفضاء للقمر وتظهر من خلفه هالة شعاع الشمس تطل على الجانب المظلم منه، بينما ينعكس عليه ضوء الأرض المواجه للشمس (من الجهة اليمنى)

بسم الله الرحمن الرحيم

(11) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ...﴾

(الأنعام: 1)

هذا النص القرآني المعجز جاء في مطلع «سورة الأنعام»، وهي سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم، إذ يبلغ عدد آياتها 165 بعد البسملة، وهي السورة الخامسة بعد فاتحة الكتاب في ترتيب سور المصحف الشريف، وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها.

ومن خصائص هذه السورة المباركة أنها نزلت دفعة واحدة وحولها سبعون ألفاً من الملائكة فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح»(1).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سَدَّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج»** ورسول الله ﷺ يقول: **«سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم»**(2).

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول القواعد الأساسية للعقيدة الإسلامية من مثل قضايا الألوهية، والربوبية، والوحدانية، وعبودية المخلوقين لخالقهم، وإنزاله الوحي رحمة بهم على سلسلة من الأنبياء والمرسلين، كان ختامهم أجمعين النبي الخاتم والرسول الخاتم، سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أنبياء الله ورسله أجمعين)، وكانت مهمتهم جميعاً إبلاغ الناس بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف، وإرشادهم إلى عبادة الله وحده

---

(1) أخرجه الطبراني.

(2) ذكره الحافظ «ابن مردويه» في تفسيره.

ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ وعبادته تعالى بما أمر ـ بغير ابتداع ولا اختراع ولا إحداث بَشَرِيٍّ ـ، وإقامة عدل الله في الأرض، والسعي إلى اكتساب مكارم الأخلاق، والاستعداد للبّعث والنشور والعرض الأكبر أمام الله ﷻ للحساب والجزاء، ثم الخلود في الجنة أبداً لمن أطاعوا داعي الله، أو في النار أبداً لمن كفروا بالله أو أشركوا به وكذبوا برسالاته. وهذه القضايا تمثل صلب رسالة الإنسان في وجوده، ومن هنا وجب أخذها مأخذ الجد، والنظر فيها بعين العقل، لا بالميراث والتقليد، وكلاهما لا ينفع صاحبه، ولا يصلح عذراً أمام الله (تعالى) في ساحة الحساب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

(الشعراء: 88، 89).

وتستهل سورة «الأنعام» بحمد الله (تعالى) الذي يشهد له بالألوهية، والربوبية، والوحدانية خلق السمٰوات والأرض، وإبداع الظلمات والنور، وخلق الإنسان من طين، وتحديد آجال الناس، وتحديد يوم البعث والحساب، وعلمه بالسر والجهر، وبما تكسب كل نفس لأنه إلٰه السمٰوات والأرض ومن فيهن، وقيومهما، ومليكهما، وعلى الرغم من ذلك



شكل (73) صورة حقيقية للقمر ينير ظلمة ليل الأرض

يكفر به وبنعمه الكافرون، ويشرك به المشركون، ويزيغ عن هديه الضالون. . .!! وانطلاقاً من ذلك كله تبدأ السورة الكريمة بمواجهة الكافرين والمشركين والضالين في كل عصر وفي كل حين بشكر الله والثناء عليه فتقول: (الحمد لله)، وهو شكر استهلت به خمس من سور القرآن الكريم (هي: الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، وفاطر)، وتتبع الحمد بعدد من الآيات الكونية الدالة على الخالق ﷻ، وعلى شمول علمه وكمال حكمته، وطلاقة قدرته، ثم تثنّي بعرض صور من مواقف المكذبين، ومصارع الغابرين، وتنصح بالسير في الأرض لإدراك «كيف كان عاقبة المكذبين».

وتنتقل «سورة الأنعام» إلى استعراض عدد من الشواهد الحسية الدالة على ألوهية الخالق ﷻ وربوبيته ووحدانيته، ومنها خلق السمٰوات والأرض وخلق ما فيهن ومن فيهن، ورعاية كل ذلك وصونه من الهلاك، فالله (تعالى) هو رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو رب ما سكن في الليل والنهار، وهو (سبحانه) الرزاق الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، وهو (تعالى) الذي يملك أن يعذب من يشاء في الدنيا والآخرة، ويملك الضر والخير، وهو على كل شيء قدير، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.

ثم تستعرض السورة الكريمة تأكيد الله الخالق ﷻ على صدق نبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي تطالبه السورة بإعلان المفاصلة التامة بينه وبين المشركين وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. **(الأنعام: 19).**

وتؤكد «سورة الأنعام» معرفة «أهل الكتاب» بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق تماماً كما يعرفون أبناءهم، وعلى الرغم من ذلك فهم لا يؤمنون به، انطلاقاً من ظلمهم لأنفسهم وخسرانهم لها. وتصف السورة الكريمة افتراءهم الكذب على الله، وتكذيبهم بآياته بأنه من أبشع صور الظلم للنفس، وتشير إلى مواقف الحسرة والندامة، والذلة والمهانة التي يقفها هؤلاء المشركون يوم القيامة، وهم يُسْأَلُون: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾. **(الأنعام: 22، 23).**

وتذكر السورة الكريمة أن من الكفار والمشركين من يستمع إلى القرآن الكريم بآذان صم، وقلوب عمي، فلا يكادون يفقهون شيئاً منه، ولا يدركون شيئاً من إعجاز آياته، ويصفونه زوراً بأنه من أساطير الأولين؛ وهم إذ ينهون غيرهم عنه، وينأون بأنفسهم هروباً

منه يهلكون أنفسهم في الدنيا والآخرة وهم لا يشعرون.

وتصور الآيات حال هؤلاء الكافرين والمشركين وهم موقوفون على النار نادمين على ما سبق منهم من تكذيب بآيات الله، طالبين من الله (تعالى) أن يردهم إلى الدنيا لكي لا يكذبوا بآياته ويكونوا من المؤمنين به وبملائكته وكتبه ورسله، وترد عليهم السورة بقول الحق (تبارك وتعالى) وهو أعلم بهم: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. **(الأنعام: 28)**.

وهؤلاء الذين كذبوا بالبعث سوف يفاجأون بموقفهم أمام ربهم وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، وقد خسروا كل شيء لتفاهة الحياة الدنيا الفانية بالنسبة إلى الآخرة الباقية.

ثم تنتقل «سورة الأنعام» إلى مخاطبة رسول الله ﷺ بألا يحزن لتكذيب الكافرين والمشركين لبعثته الشريفة، فقد كُذِّب الرسل من قبله، وفي ذلك يقول له ربنا (تبارك وتعالى): ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. **(الأنعام: 33، 34)**.

وتستمر الآيات في استعراض شيء من طبائع النفس البشرية في حالات الابتلاء والشدة، حيث يتجلى سلطان الله محيطاً بالعباد فإنهم يتجهون إليه (تعالى) وحده يرجون رحمته، فإذا كشف الضر عنهم رأيتهم يعودون إلى معصية الله، وإنكار الحق، والجور على الخلق، وقد قست قلوبهم وتحجرت مشاعرهم...!! وتصف الآيات كذلك حال الكافرين والمشركين اليوم، وقد نسوا ما ذكروا به ففتح الله عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذهم بغتة وهم مبلسون، ويقطع دابر الظالمين.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن آيات سورة الأنعام تبشر التائبين بصدق بأن الله غفور رحيم. وتؤكد إحاطة علم الله بالغيوب والأسرار، وبالأنفاس والأعمار، مع الهيمنة الكاملة على كل شيء في هذا الوجود، والسيطرة التامة في البرّ والبحر، وبالنهار والليل، وفي كل لحظة من لحظات الحياة والممات، وفي كل ذرة من ذرات بناء كل من الدنيا والآخرة.

وتروي السورة المباركة جانباً من سيرة نبي الله إبراهيم (على نبينا وعليه من الله السلام) مع قومه من الكفار والمشركين، وتعرض لاهتدائه إلى معرفة خالقه ﷻ بالتأمل في بديع صنع الله (تعالى) في الكون، ثم باصطفاء الله (تعالى) له، ووهبه النبوة والرسالة، ووهبه ـ كذلك ـ ذرية صالحة على الكبر.

كذلك ألمحت السورة إلى عدد من أنبياء الله ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليهم

أجمعين) من أمثال ساداتنا: نوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط (صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين).

وتؤكد الآيات في «سورة الأنعام» كذلك على وحدة رسالات السماء، وعلى تكاملها في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، وبصفتهما الرسالة الخاتمة فقد تعهد الله ﷻ بحفظهما حفظاً كاملاً إلى يوم الدين، بنفس لغة الوحي (اللغة العربية).

وتصف الآيات في هذه السورة المباركة حال كل من الكافرين والمشركين في لحظات الاحتضار، وما يتعرضون له من مهانة وإذلال واحتقار، وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. (الأنعام: 93).

ثم تعرض السورة لعدد من الآيات الكونية ـ مرة أخرى ـ في مقام الاستدلال على ألوهية الخالق ﷻ، وربوبيته، ووحدانيته (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد) وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالى): ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾. (الأنعام: 101).

ولذلك تأمر الآيات بعبادة الله (تعالى) وحده فتقول:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾. (الأنعام: 102، 103).

وتذكر الآيات أن المشركين طالبوا رسول الله ﷺ ببعض المعجزات الحسية للتدليل على صدق نبوته، وترد عليهم بأن من عميت بصائرهم لا تفيدهم المعجزات الحسية ولو أنزلت عليهم وذلك لتأصل الضلال فيهم.

وتؤكد الآيات في «سورة الأنعام» مرة أخرى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن الكريم هو كلام الله، ولكنهم ـ على الرغم من ذلك ـ يصرون على الضلال، وتأتي الآيات للرد عليهم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ لتقول:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ

﴿ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾. (الأنعام: 114، 115).

وتفصل سورة الأنعام ما حرم الله (تعالى) على عباده المؤمنين من الطعام، وتأمر بترك ظاهر الإثم وباطنه وتمايز بين أهل الهداية وأهل الضلال والغواية فتقول:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾. (الأنعام: 125).

وتذكر الآيات في «سورة الأنعام» أن من البشر من شرح الله (تعالى) صدورهم، وأنار قلوبهم فآمنوا واهتدوا، وأن منهم من أتبع نفسه هواها، وأطاع شياطين الجن والإنس فضَلَّ وغوى؛ وأن الله (تعالى) سوف يحشر الخلائق جميعاً إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدم كلٌّ واحد منهم في حياته الدنيا.

كذلك تذكر الآيات عن المشركين من أهل الكتاب أنهم حرّموا على أنفسهم أشياء لم يحرّمها الله (تعالى) عليهم تطاولاً وتجاوزاً وإجراماً، فكانوا يحرّمون ذكور الأنعام تارةً، وإناثها تارةً، وصغارها تارةً أخرى؛ افتراءً منهم على الله (تعالى) واختلاقاً، وتقرر الآيات ظلم من كذب على الله (تعالى) فنسب إليه ما لم يشرع، وتأمر رسول الله ﷺ أن يبيّنَ للناس ما حرم الله (تعالى) عليهم. وتؤكد الآيات أن الله (تعالى) هو ﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾. (الأنعام: 141).

وتأمر بالأكل من تلك الثمار، وبإعطاء حقها يوم حصادها دون إسراف، لأن الله (تعالى) لا يحب المسرفين؛ وتؤكد أن الله (تعالى) أنزل ثمانية أزواج من الأنعام (ذكراً وأنثى من كل من الضأن، والمعز، والإبل، والبقر). وتختتم «سورة الأنعام» بعدد من الوصايا السلوكية الرفيعة، تحرم ما حرم الله، وتحل ما أحله (بغير تقصير أو تجاوز أو مخالفة)، وتدعو إلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وبسنة سيدنا محمد ﷺ، وتؤكد أن من أبلغ صور الظلم التكذيب بآيات الله، والإعراض عنها، وأن الله (تعالى) سيجزي الذين يصدفون عن آياته سوء العذاب بما كانوا يصدفون. وتندد الآيات في ختام السورة بالذين حرفوا دينهم من أهل الكتاب وصاروا شيعاً، ويكذبون بعثة سيدنا محمد ﷺ فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ (الأنعام: 159).

وتنتهي السورة الكريمة بحديث على لسان الرسول الخاتم ﷺ فتقول: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾. (الأنعام: 161 ـ 165).

من ركائز العقيدة الإسلامية في «سورة الأنعام»:

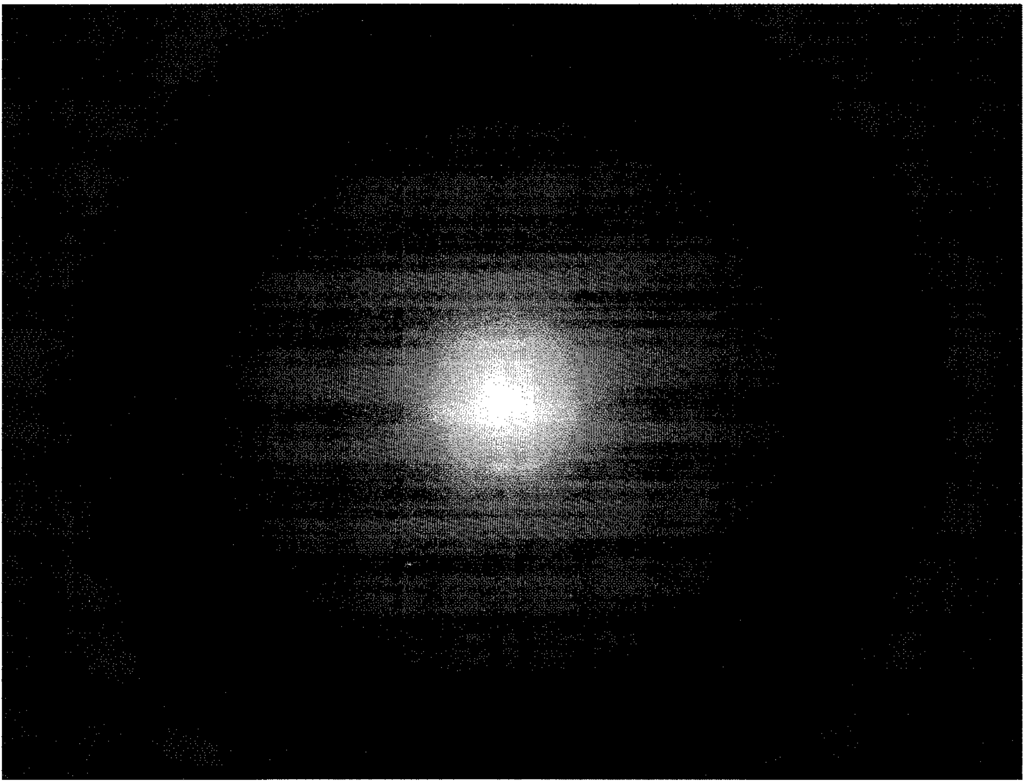
تضمنت «سورة الأنعام» عدداً من ركائز العقيدة الإسلامية يمكن إيجازه في النقاط التالية:

(1) أن الله (تعالى) هو خالق السمٰوات والأرض وما فيهن، ومبدع الظلمات والنور، وخالق كل شيء وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء وكيل، وهو ﷻ ربُّ كل ذلك ومليكه بغير شريك ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد لأنه (سبحانه) منزه عن الشريك والمنازع وعن الصاحبة والولد.

(2) وأن الله (تعالى) يعلم السر والجهر، ويعلم ما تكسب كل نفس، وهو الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَم، وهو الحكيم الخبير، كاشف الضر ومجري الخير، وهو القاهر فوق عباده، وهو الغني ذو الرحمة، وإنه سريع العقاب، وإنه لغفور رحيم، وهو ﷻ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

(3) وأن الله (سبحانه) هو فالق الحبّ والنّوى، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، وهو فالق الإصباح، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً وهو العزيز العليم، وهو الذي جعل النجوم لنهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به نبات كل شيء؛ وأنشأ البشر كلهم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، وحدد آجال الخلق، كما حدد يوم البعث والنشور، وهو يوم لا ريب فيه.

(4) أن الله (تعالى) أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، بما أوحاه (سبحانه) إليهم من الدين، وجعل مسك ختامهم سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) وأنزل إليه القرآن العظيم لينذر به الناس أجمعين، ويخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد الخالص لله (تعالى) وفي ذلك يقول ربنا (عز من قائل):



شكل (74) صورة للشمس تبدو فيها قرصاً أزرق في صفحة سوداء مما يؤكد على ظلمة الكون

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: 19).

ويقول (تبارك وتعالى):

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾. (الأنعام: 155).

(5) أن الذين يكذبون ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) هم من الظالمين الجاحدين بآيات الله، وليس هذا بالاستثناء فقد كُذِّبت من قبله الرسل.

(6) أن الموتى يبعثهم الله، وإليه يرجعون، وأن الحياة الدنيا لعب ولهو، والدار الآخرة خيرٌ للذين يتقون، وأن الساعة لا تأتي إلا بغتة، وأن إنكارها كفر بالله وبرسالاته.

(7) أن كل نفس بما كسبت رهينة، وفي ذلك يقول ربنا (عز من قائل):

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ . **(الأنعام: 164).**

من ركائز التشريع الإسلامي في «سورة الأنعام»

جاء في سورة الأنعام عدد من التشريعات المتعلقة بالتحليل والتحريم مؤكدة رد الحاكمية لله (تعالى) وحده دون غيره، ومن أمثلة ذلك ما يلي من المحرمات:

(1) تحريم الشرك بالله (تعالى) تنزيهاً له ﷻ عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وكلها من صفات المخلوقين، والخالق منزه عن صفات خلقه.

(2) تحريم قتل النفس التي حرم الله (سبحانه) إلا بالحق.

(3) تحريم عقوق الوالدين وهو محرم تحريماً قاطعاً ويعتبر من الكبائر.

(4) تحريم قتل الأولاد خشية الإملاق (أي الفقر).

(5) تحريم أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

(6) تحريم الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(7) تحريم أكل الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أُهلَّ لغير الله به ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . **(الأنعام: 145).**

(8) تحريم تطفيف الكيل والميزان وعدم الوفاء بحقوق الناس فيهما.

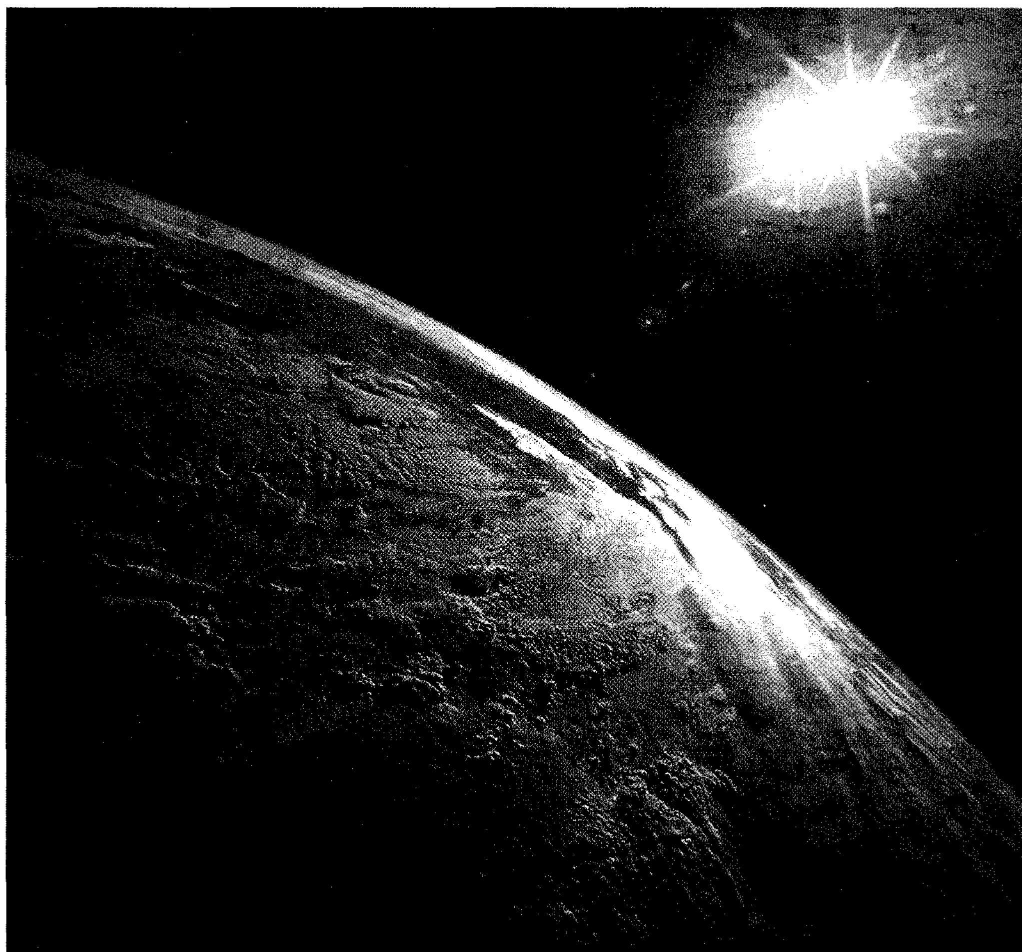
(9) تحريم الظلم بكل أشكاله وصوره، ولذلك تأمر السورة الكريمة كما يأمر القرآن كله بالعدل بين الناس بغض النظر عن أعراقهم وألوانهم ومعتقداتهم، ومستوياتهم الاجتماعية.

(10) تحريم الإخلال بعهد الله وعدم الوفاء به.

من الآيات الكونية في «سورة الأنعام»

حفلت «سورة الأنعام» بالعديد من الآيات الكونية الدالة على الخالق ﷻ، وعلى شمول علمه، وكمال حكمته، وطلاقة قدرته، ويمكن إيجاز ذلك في ما يلي:

(1) خلق السمٰوات والأرض بالحق، وإيجاد كل من الظلمات والنور.



شكل (75) صورة للأرض توضح رقة طبقة النهار وظلمة الكون

(2) خلق الإنسان من طين، وتحديد أجل مسمى لكل مخلوق، وأجل مسمى ليوم البعث.

(3) الإشارة إلى أن من الكائنات الحية ما ينام ويسكن بالليل، ومنها ما ينام ويسكن بالنهار.

(4) الإشارة إلى إمكانية تصنيف الكائنات الحية في أمم تشبه أمم البشرية.

(5) السبق بالإشارة إلى أن الله (تعالى) سيفتح على البشرية الضالة أبواب كل شيء وهو وصف دقيق لزماننا الراهن، وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا

هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

(الأنعام: 44، 45).

(6) الإشارة إلى أن الكون مليء بالغيوب المطلقة، وأن مفاتح تلك الغيوب بيد الله (تعالى) وحده ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾.

(7) اعتبار النوم صورة من صور الوفاة (الموتة الصغرى)، واعتبار اليقظة من النوم صورة من صور البعث (البعث الأصغر).

(8) الإشارة إلى توسط مكة المكرمة لجميع اليابسة وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾. (الأنعام: 92).

(9) ذكر أن الله (تعالى) هو فالق الحب والنوى، وأنه ﷻ يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي.

(10) الإشارة إلى أن الله (تعالى) هو ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ﴾. (الأنعام: 96).

(11) تقرير أن الله (تعالى) جعل لنا النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر.

(12) تأكيد حقيقة أن البشرية كلها خلقت من نفس واحدة.

(13) الإشارة إلى أن الله (تعالى) هو الذي ينزل الماء من السماء فيخرج به نبات كل شيء، وأن من النباتات ما يحمل الصبغة الخضراء التي تلعب دوراً أساسياً في تكوين غذاء النبات وكلاً من الثمار والحبوب والأنسجة النباتية كلها بإذن الله.

(14) الإشارة إلى حقيقة أن الارتفاع في السماء يؤدي إلى ضيق الصدر وحرجه.

(15) الإشارة إلى أن من النباتات المعروشات وغير المعروشات، وإلى اختلاف طعوم ثمار كل منها، لأن منها المتشابه وغير المتشابه كما هو الحال في كل من الزيتون والرمان.

وقد سبق لنا وأن تناولنا بالتعليق قضيتين من تلك القضايا، ونضيف هنا قضية ثالثة وهي القضية الأولى في القائمة السابقة والتي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالى): ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ وقبل الدخول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالى):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾. (الأنعام: 1).

● ذكر الطبري رحمه الله في مختصر تفسيره ما نصه: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله وحده دون غيره ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمات الليل، وجعل بمعنى: وأظلم ليلها، وأنار نهارها، ﴿وَٱلنُّورَ﴾ نور النهار، ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يشركون؛ يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته به».

● وذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما مختصره: «يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السمٰوات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ الظلمات، ووحد لفظ النور لكونه أشرف. . .، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا له شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبة وولداً، تعالى الله ﷻ عن ذلك علواً كبيراً. . .».

● وجاء في «تفسير الجلالين» (رحم الله كاتبيه) ما نصه: «﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وهو الوصف بالجميل ثابت ﴿لِلَّهِ﴾ وهل المراد الإعلام بذلك للإيمان به، أو: الثناء به، أو: هما؟ احتمالات أفيدها الثالث [أي للإيمان والثناء معاً قاله الشيخ الجلال المحلى في تفسير أول سورة الكهف] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي: كل ظلمة ونور، وجمعها دونه لكثرة أسبابها، وهذا من دلائل وحدانيته ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مع قيام هذا الدليل ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوون به غيره في العبادة».

● وذكر «صاحب الظلال» (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه: «إنها اللمسات الأولى. . تبدأ بالحمد لله، ثناءً عليه، وتسبيحاً له، واعترافاً بأحقيته للحمد والثناء، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء. . . بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى. . . الخلق، وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود. . . السمٰوات والأرض. . . ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السمٰوات والأرض وفق تدبير مقصود. . . الظلمات والنور. . . فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك. . . لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره

الحكيم، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون؛ بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾»...

• وجاء في «صفوة البيان لمعاني القرآن» (رحم الله كاتبه) ما نصه: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إعلام بأنه تعالى حقيق بالحمد والثناء، مستوجب لهما، لخلقه السمٰوات والأرض، على ما هما عليه من بديع الصنع والإحكام، وخلقه الظلمات والنور، أو ظلمات الليل ونور النهار، منفعة للعباد، وآيات للمتفكرين، ودلائل على وحدانيته وقدرته وتدبيره، ﴿وَجَعَلَ﴾ أي أحدث وخلق. ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ثم الذين كفروا مع قيام هذه الدلائل الظاهرة يُسَوُّون بربهم غيره مما لا يقدر على شيء من ذلك؛ فيكفرون به، أو يجحدون نعمته؛ فأي شيء أعجب من ذلك وأبعد عن الحق!، من العدل بمعنى التسوية، وقوله ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله ﴿يَعْدِلُونَ﴾. أو ثم الذين كفروا بربهم يميلون عنه، وينصرفون إلى غيره من خلقه، فيعبدون ما لا يَسْتَحِق العبادة؛ من العدول...».

• وذكر أصحاب «المنتخب في تفسير القرآن الكريم» (جزاهم الله خيراً) ما نصه: «الثناء والذكر الجميل لله، الذي خلق السمٰوات والأرض، وأوجد الظلمات والنور لمنفعة العباد بقدرته وعلى وفق حكمته، ثم مع هذه النعم الجليلة يشرك به الكافرون، ويجعلون له شريكاً في العبادة!».

• وجاء في «صفوة التفاسير» (جزى الله كاتبها خيراً) ما نصه: «بدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ند له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل ومعنى الآية: احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السمٰوات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة، ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمٰن منوّر الأكوان... ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم...».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية للآية الكريمة التي نحن بصددها ما يلي:

أولاً: خلق السمٰوات والأرض من أعظم الأدلة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة:

فقد أدرك العلماء حقيقة توسع الكون في مطلع القرن العشرين، وأدى إدراك تلك الحقيقة إلى الاستنتاج الصحيح بأن كوننا بدأ خلقه من نقطة متناهية الضآلة في الحجم، ومتناهية الضخامة في كم المادة والطاقة، وأن هذه النقطة انفجرت فتحولت إلى سحابة من الدخان الذي خلقت منه الأرض والسمٰوات.

ومع توسع الكون ثم تبرده من مئات البلايين من الدرجات المطلقة إلى حوالي الثلاث درجات مطلقِة تقاس اليوم على جميع أطراف الجزء المدرك لنا من السماء الدنيا. تخلقت المادة ونقائضها، ومختلف صور الطاقة وأضدادها على مراحل متتالية يحددها العلماء بحسابات تقديرية بحتة في النقاط التالية:

(1) عصر الكواركات والجليونات **(Age of Quarks and Gluons)**: وقد استمر لجزء من مائة ألف مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار العظيم وفيه خلقت اللبنات الأولية للمادة كما خلقت أضدادها من الدخان الكوني وذلك من مثل الكواركات وأضدادها **(Quarks and Antiquarks)**، النيوترينوات ونقائضها **(Neutrinos and Antineutrinos)**، وكان الدخان الكوني كثيفاً مظلماً معتماً، وكانت الجاذبية قوة منفصلة رابطة بين أجزاء هذا الدخان الكوني، بينما انفصلت القوة الشديدة **(Strong Force)** عن القوة الكهربية الضعيفة **(Electroweak Force)**؛ ويعتقد أن أعداد هذه الجسيمات الأولية كان يفوق أعداد نقائضها وإلا ما وجد الكون، أو أن إرادة عليا فصلت بين تلك الجسيمات ونقائضها حتى تقوم السمٰوات والأرض بأمر الله. وكانت هذه الفترة فترة تمدد ملحوظ وتوسع مذهل للكون.

(2) عصر اللبتونات **(Age of Leptons)**: وقد استمر إلى جزء من مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه تمايزت الليبتونات [وهي أخف اللبنات الأولية للمادة من مثل الإليكترونات وأضدادها **(Electrons and Positrons)** والنيوترينوات وأضدادها **(Neutrinos and Antineutrinos)**] عن الكواركات، كما تمايزت البوزونات **(Bosons)**، وانفصلت القوة الضعيفة **(Weak Force)** عن اتحاد القوى المعروف باسم القوة الكهربية الضعيفة.

(3) عصر النيوكليونات وأضدادها **(Age of Nucleons and Antinucleons)**: وقد استمر إلى 225 ثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه اتحدت الكواركات مع بعضها البعض لتكون النيوكليونات وأضدادها من مثل البروتونات ونقائضها **(Protons and Antiprotons)**، والنيوترونات ونقائضها **(Neutrons and Antineutrons)**، وكانت الطاقة على قدر من الضعف لا يسمح بتكون النيوكليونات وأضدادها على نطاق واسع وإلا ما وجد الكون.

(4) عصر تخلق نُوى ذرات العناصر **(Age of Nucleosynthesis)** وقد استمر في الفترة من 225 ثانية إلى ألف ثانية بعد عملية الانفجار العظيم، كما يقدرها العلماء تقديراً رياضياً محضاً، وفيه تكونت الديوترونات الثابتة **(Stable Deuterons)** وهي تنتج عن ترابط بروتون مع نيوترون **(A Proton and a Neutron bound together)**. ومع تكونها بدأت عملية الاندماج النووي في تكوين نوى ذرات الإيدروجين، وباتحادها تكونت نوى ذرات الهيليوم



NASA©

شكل (76) صورة للأرض في وسط ظلمة الكون

وبعض نوى الذرات الأثقل حتى وصلت نسبة الإيدروجين إلى حوالي 74%، والهيليوم إلى حوالي 25%، ونوى بعض العناصر الأثقل وزناً إلى حوالي 1%.

(5) عصر تخلق الأيونات (**Age of Ions**): وقد استمر في الفترة من ألف ثانية إلى عشرة تريليون ثانية بعد الانفجار العظيم، وفيه تكونت أيونات كل من غازي الإيدروجين والهيليوم، واستمر الكون في الاتساع والتبرد.

(6) عصر تخلق الذرات (**Age of Atoms**): ويمتد في الفترة من عشرة تريليون ثانية إلى ألف تريليون ثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه تكونت ذرات العناصر، وترابطت بقوى الجاذبية وأصبح الكون شفافاً.

(7) عصر تخلق النجوم والمجرات (**Age of Stars and Galaxies**): وقد امتد في الفترة من ألف تريليون ثانية (أي حوالي 32 مليون سنة من سنينا الراهنة) بعد عملية الانفجار العظيم إلى اليوم (أي لحوالي عشرة بلايين من السنين)، وفيه تخلقت أغلب العناصر المعروفة لنا (وهي أكثر من مائة وخمسة عنصر) بعملية الاندماج النووي في داخل النجوم حتى تكون عنصر الحديد في داخل المستعرات والمستعرات العظمى، وتكونت العناصر الأعلى وزناً ذرياً من نوى ذرات الحديد باصطيادها للبنات الأولية للمادة المنتشرة في صفحة السماء.

ولقد سبق القرآن الكريم هذه المعارف العلمية بأربعة عشر قرناً وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾. **(الأنبياء: 30)**.

وقوله (عز من قائل):

- ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾. **(فصلت: 11)**.

وقوله ﷻ:

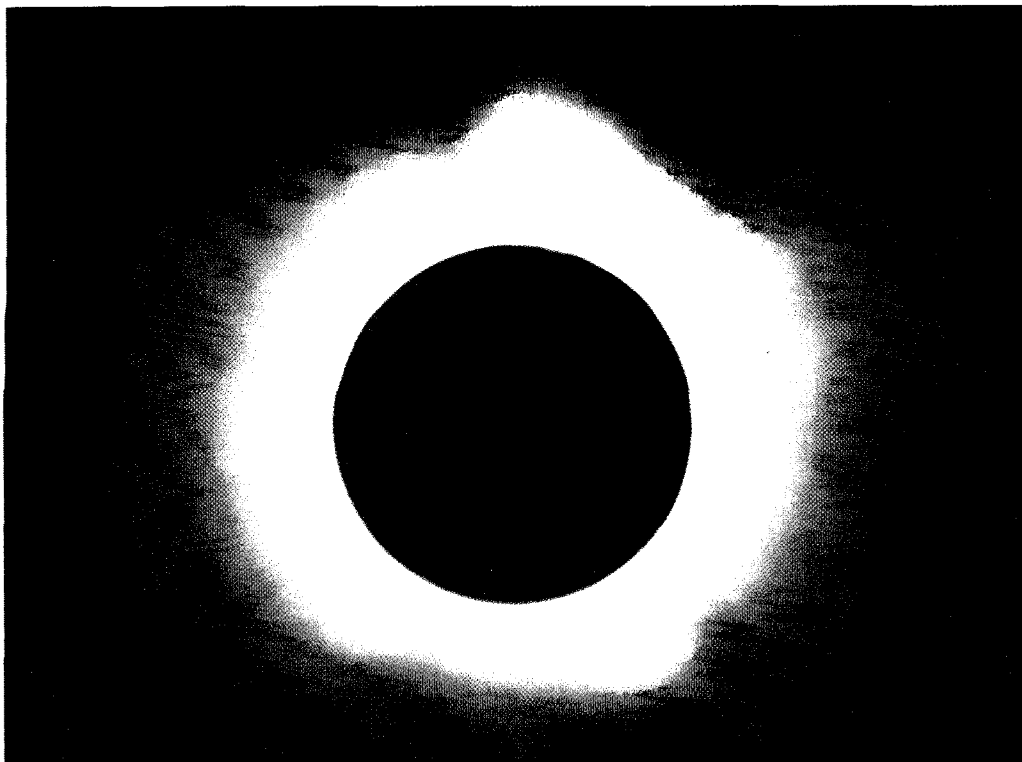
- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾. **(الذاريات: 47)**.

وهذه المراحل تؤكد على الحكمة والتدبير الفائقين في خلق السموات والأرض لأن أدنى مفارقة في الحساب كان من الممكن أن تبطل بناء الكون، وذلك يشمل حسابات الكم والكيف، ودرجات الحرارة، ومعدلات التوسع، وانضباط التفاعلات، خاصة وأن العملية

كلها ناتجة عن انفجار الجرم الأولي، وأن من طبيعة الانفجار أن يؤدي إلى الدمار وإلى بعثرة كل شيء وتناثره، أما انفجار يؤدي إلى بناء كون بهذه السعة، وضخامة أعداد الأجرام، وانضباط حركاتها، وسرعات دورانها، وعلاقاتها ببعضها البعض، لا بد وأن يكون قد سبقه وزامنه وتبعه من دقة التقدير، وإبداع التكوين، وحسن الرعاية ما أوصله إلى ما نراه في الأنفس والآفاق من حولنا، وهو ما يشهد للخالق العظيم بطلاقة القدرة، وكمال الصنعة، ودقة التقدير..!!

ثانياً: خلق الظلمات والنور من الأدلة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة والمستوجبة الحمد لله (تعالى):

من الراجح علمياً أن كوننا بدأ بحالة من الدخان الداكن الكثيف التي استمرت على مدى ثلاثين مليون سنة من سنينا الحالية على أقل تقدير، ثم بدأ الكون من بعدها في التحول



شكل (77) صورة للشمس في وضع الكسوف الكلي تؤكد على أن الأصل في الكون هو الظلمة

إلى حالة من الشفافية القادرة على استقبال الضوء الناتج عن عملية الاندماج النووي في داخل النجوم، والتي استمرت على مدى فترة تقدر بعشرة مليارات من السنين على أقل تقدير إلى زماننا الحالي وإلى أن يشاء الله (تعالى). ولما كان ضوء النجوم ـ في غالبيته ـ غير مرئي تعددت الظلمات في كوننا على النحو التالي:

(1) الظلمة الأولية للكون: وقد استغرقت الفترة من بعد عملية الانفجار العظيم وحتى بدايات عملية الاندماج النووي، وتقدر بحوالي الثلاثين مليون سنة من سنينا الحالية. وقد تميزت هذه الفترة بالكثافة العالية لمادة الكون في صورها الأولية، وبالعتمة الكاملة، والإظلام التام.

(2) الظلمة الحالية للكون: بعد عملية الانفجار العظيم بحوالي الثلاثين مليون سنة تخلقت النجوم وبدأت عملية الاندماج النووي الحراري بداخلها، ولا تزال مستمرة إلى يومنا الحالي بعد أكثر من عشرة مليارات من السنين وإلى أن يشاء الله ﷻ، وبذلك بدأت النجوم في إرسال أضوائها إلى فسحة السماء وإن كانت أغلب تلك الأضواء غير مرئية لتكونها من سلسلة متصلة من الأمواج الكهرومغناطيسية التي تشمل موجات الراديو بمختلف أطوالها، والأشعة تحت الحمراء، وأطياف الضوء المرئي، والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية، وأشعة جاما، وهذه الموجات الكهرومغناطيسية لا تختلف فيما بينها إلا في تردداتها وأطوال موجاتها، ويمتد الطول الموجي للطيف الكهرومغناطيسي بين عدة كيلومترات لموجات الراديو (الموجات اللاسلكية) وبين جزء من بليون جزء من الملليمتر لأشعة جاما، أما الأشعة البصرية فتتراوح أطوال موجاتها بين 0.01 ميكرون ومائة ميكرون (والميكرون = 0.001 ملليمتر)؛ وتضم موجات الضوء المرئي والأشعة تحت الحمراء، والأشعة فوق البنفسجية. وتميز عين الإنسان من أطياف الضوء المرئي: الأحمر (وهو أطولها وأقلها تردداً) ثم البرتقالي، فالأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي (وهو أقصر موجات الطيف المرئي وأعلاها تردداً)؛ وهذه الموجات لا ترى بوضوح إلا في طبقة النهار وهي جزء يسير من الغلاف الغازي للأرض المحيط بنصفها المواجه للشمس لا يتعدى سمكه مائتي كيلومتر، وفيه يتم انعكاس هذه الأطياف بواسطة هباءات الغبار وقطيرات الماء، وجزيئات الهواء، وعند اختلاطها مع بعضها البعض تعطينا نور النهار الأبيض الذي يتمتع به أهل الأرض وأهل كل كوكب له غلاف غازي مماثل. وعلى ذلك فإننا إذا تجاوزنا طبقة النهار فإننا نرى الشمس قرصاً أزرقاً في صفحة سوداء شديدة الإظلام وهذه هي ظلمة الكون الحالي التي وصفها الحق (تبارك وتعالى) بقوله (عز من قائل):

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ . (الحجر: 14، 15).

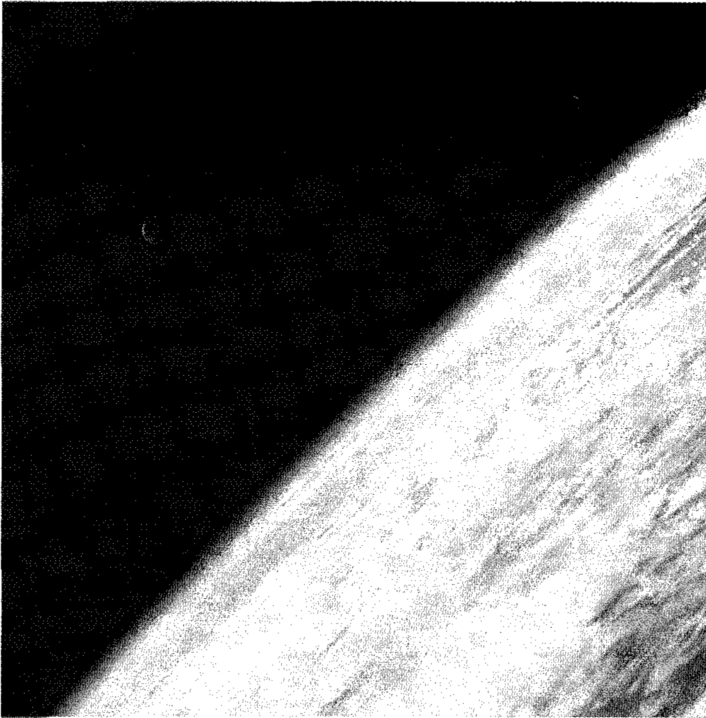
وقوله (سبحانه) في وصف السماء: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ (النازعات: 29).

هذه ظلمة ليل السماء، وهي ظلمة تزداد حلوكة عندما تلتقي مع ظلمة ليل الأرض، ويحدثها دوران الأرض حول محورها وأمام الشمس فيتقاسم سطح الأرض الليل والنهار، الليل في نصف الكرة الأرضية غير المواجه للشمس، والنهار في نصفها المواجه للشمس.

(3) ظلمة أعماق البحار والمحيطات: من الثابت علمياً أن قيعان البحار العميقة والمحيطات تغرق في ظلام دامس، وذلك لأن أعماقها تتراوح بين مئات الأمتار، 11034 متراً، بمتوسط يقدر بحوالي 3795 متراً، وأشعة الشمس لا يمكنها الوصول إلى تلك الأعماق أبداً، فمن الثابت أن نطاق الأوزون في الغلاف الغازي للأرض يرد أغلب الموجات فوق البنفسجية إلى خارج نطاق الأرض، بينما تعكس السحب حوالي 30% وتمتص حوالي 19% من باقي أشعة الشمس، وبذلك لا يصل إلى سطح الماء في البحار والمحيطات أكثر من 51% من أشعة الشمس الساقطة عليها.

وبمجرد سقوط هذه النسبة تعكس الأمواج السطحية 5% منها، وتستهلك 35% من الأشعة تحت الحمراء في تبخير الماء وفي عمليات التمثيل الضوئي التي تقوم بها بعض النباتات البحرية.

وعند نفاذ الجزء



شكل (78) يوضح رقة طبقة النهار في نصف الأرض المواجه للشمس بسمك لا يتعدّى 200 كم وباقي الكون ظلام دامس

المتبقي من أشعة الشمس إلى داخل كتلة الماء فإنه يتعرض للعديد من عمليات الانكسار، والتحلل إلى أطيافه المختلفة التي تمتص بالتدريج حسب أطوال موجاتها بدءاً بالأحمر وانتهاءً بالبنفسجي. وبذلك فإن معظم موجات الضوء المرئي من أشعة الشمس يمتص على عمق يصل إلى 100م تقريباً من مستوى سطح الماء في البحار والمحيطات، ويعرف هذا النطاق باسم النطاق المضيء، ويستمر 1% فقط من أشعة الشمس إلى عمق 150م، 0.01% إلى عمق 200م في الماء الصافي الخالي من العوالق، ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت والامتصاص حتى يتلاشى تماماً على عمق لا يكاد يصل إلى الألف متر تحت مستوى سطح البحر حيث لا يبقى من ضوء الشمس شيء يذكر (جزء واحد من عشرة تريليونات جزء)، هذا إذا لم تحل الأمواج الداخلية حيلولة كاملة دون وصول الضوء إلى تلك الأعماق، ويبدأ تكوّن تلك الأمواج على عمق 40م تقريباً من مستوى سطح البحر، وقد تتكرر على أعماق دون ذلك. ويصف القرآن الكريم ظلمة قيعان البحار العميقة بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. **(النور: 40)**.

(4) ظلمات الأرحام: ويصفها الحق (تبارك وتعالى) بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾. **(الزمر: 6)**.

وقد فسرت هذه الظلمات الثلاث بظلمة البطن، يليها إلى الداخل ظلمة الرحم، يليها إلى الداخل ظلمة المشيمة بأغشيتها السلوية وما بها من سائل مخاطي.

(5) ظلمة القبر كنموذج لظلمة كل مكان مغلق في باطن الأرض أو على سطحها: من السنة النبوية الشريفة أن يعمق القبر قدر قامة وبسطة، وأن يشق اللحد في جانب القبر جهة القبلة ويوضع فيه جسد الميت على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة، ثم على اللحد ينصب الطوب اللبن (الطوب النيء) ثم يملأ القبر بالرمال أو التراب، ويرفع قدر شبر عن الأرض. وقد يكتفي بشق حفرة في وسط القبر تبنى جوانبها باللبن ثم يوضع فيها الميت ويسقف عليه بشيء مما لم يدخل النار كلوح من الخشب ثم تنهال عليه الرمال أو التراب إلى ارتفاع شبر فوق الأرض، إلا أن اللحد أولى.

وبعد إغلاق القبر تكون الظلمة فيه كاملة، ومنها استعاذ رسول الله ﷺ.

ويشبه ظلمة القبر ظلمة الكهوف، والمغائر (المغارات) والمناجم، والحفر الأرضية

العميقة، وكذلك ظلمة المخابىء، والأماكن المغلقة إغلاقاً محكماً.

أما نور النهار الأبيض الجميل فلا يرى إلا في الجزء السفلي من الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس إلى سمك مائتي كيلومتر فقط حيث يتوفر القدر الكافي من هباءات الغبار وقطيرات الماء وجزيئات الغازات الهوائية التي تعكس وتشتت وتخلط موجات الطيف المرئي حتى تعطي لنا ذلك النور الأبيض المبهر الذي يميز النهار، والذي وصفه الحق (تبارك وتعالى) بقوله:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ . (الشمس: 1 ـ 3).

وأشار إلى رقة طبقة النهار بقوله (عز من قائل):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧﴾ . (يسٓ: 37).

وقوله:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ . (غافر: 61).

فسبحان الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ . (الأنعام: 1).

فجمع الظلمات لتعددها وسيادتها في الكون، وأفرد النور لخصوصيته ومحدوديته في الوجود، وعدم تعدده، وهي حقائق لم تدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لممّا يجزم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وبأن الرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



NASA©

بسم الله الرحمن الرحيم

(12) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾

(الطارق: 1 ـ 3)

يستهل ربنا ﷻ سورة الطارق بقسم عظيم يقسم به سبحانه ـ وهو الغني عن القسم ـ بكل من السماء والطارق، ثم يثني باستفهام تفخيمي عن ماهية الطارق ويحدده بالنجم الثاقب، فيقول ﷻ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين):

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾

وقد اختلف المفسرون في تحديد المقصود من تعبير «الطارق»، فمنهم من قال: إن الوصف ينطبق على كل نجم، ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته، ولا ضرورة لهذا التحديد، بل إن الإطلاق أولى ليكون المعنى: والسماء ونجومها الثاقبة للظلام، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء...، كما قال صاحب الظلال (يرحمه الله رحمةً واسعة).. ومنهم من قال: إنه «الثريا» أو النجم الذي يقال له: «كوكب الصباح»، أو نجم آخر محدد بذاته؛ ومنهم من قال: إن الوصف ينطبق على الشهب التي وصفها القرآن الكريم بأنها ثاقبة، كما في قول الحق ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

(الصَّافات: 10)

وذلك على الرغم من الفروق الضخمة بين كل من النجم والشهاب، ولكن، الواضح من الآيات أن القسم جاء هنا بنجم خاص بذاته سماه ربنا (ﷻ): «بالطارق»، ووصفه «بالنجم الثاقب»، فما هو هذا النجم المحدد الذي استوجب هذا القسم القرآني التفخيمي، وجاء مقروناً بالسماء على عظم شأنها؟

ومعنى «الطارق النجم الثاقب» لا ينجلي إلا بمعرفة دقيقة لطبيعة النجوم

وأنواعها ومراحل تكونها، لأن هذه قضية علمية صرفة، وكطبيعة كل الإشارات الكونية في القرآن الكريم، لا بد من توظيف المعارف العلمية لفهم دلالاتها، حيث لا يمكن لتلك الدلالات أن تتضح في الإطار اللغوي وحده.

المدلول اللغوي للفظة الطارق:

لفظة (الطارق) اسم فاعل من (الطرق) بمعنى: الضرب بشدة، وأصل (الطرق) الدق، ومنه سمِّيت (المطرقة) التي (يطرق) بها؛ وجمع (الطارق) (طُرَّاقٌ) و(أَطْرَاقٌ)؛ ومؤنثه (الطارقة)، وهي أيضاً الداهية وجمعها (الطارقات) و(الطوارق)، و(طَرَّقَ) الحديد أي مَدَّدَهُ ورققه؛ وهذا هو الأصل ولكن استخدمت اللفظة مجازاً لتدل على الطريق (أي: السبيل)، لأن السابلة تطرقها بأقدامها، ثم صارت اسماً لسالك الطريق باعتبار أنه يطرقها بقدميه أيضاً، ولفظة (الطريق) تذكر وتؤنث، وجمعها: (أطرقة)، و(طرق).

كذلك استخدم لفظ (الطريقة) بمعنى: الوسيلة أو الحالة. واستخدم (الطرق) و(المطروق) للإشارة إلى ماء السماء الذي (تطرقه) الإبل بأقدامها بعد سقوطه على الأرض، واستخدم لفظ (الطارق) على سبيل المجاز للتعبير عن كل ما جاء بليل، فسمي قاصد الليل: (طارقاً) لاحتياجه إلى (طرق) الأبواب المغلقة، يقال: (طَرَقَ) القومَ (طَرْقاً) و(طُرُوقاً) أي: أتاهم ليلاً. ثم اتسع هذا الاستعمال المجازي ليشمل كل ما ظهر بليل، ثم زيد في توسيعه حتى أطلق لفظ (الطوارق) على الصور الخيالية البادية لبعض الناس بالليل.

و(طريقة) القوم و(طرائقهم) أماثلهم وخيارهم، و(الطرائق) و(الطرق) الفرق.

و(الطَّرْقُ) أيضاً الضرب بالحصى، وهو من الكهانة والتكهن، و(الطراق): هم المتكهنون، و(الطوارق) هن المتكهنات.

من أقوال المفسرين في الطارق النجم الثاقب:

في تفسير قول الحق (ﷻ): ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾

ذكر ابن كثير قول قتادة وغيره من متقدمي المفسرين (يرحمهم الله جميعاً) ما نصه: «إنما سمي النجم طارقاً، لأنه إنما يرى بالليل، ويختفي بالنهار»، ويؤيده ما جاء بالحديث: **(إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن)**[1]، وأضاف قول ابن عباس (رضي اللّه ﷻ عنهما) في شرح الثاقب بالمضيء، وأشار إلى قول عكرمة رضي الله عنه: هو مضيء ومحرق للشيطان.

---

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ موطأ الإمام مالك.

وذكر صاحب الظلال (رحمه الله): «أن هذا الوصف ينطبق على جنس النجم، ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص، ولا ضرورة لهذا التحديد، بل إن الإطلاق أولى ليكون المعنى: والسماء ونجومها الثاقبة للظلام، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء»...

وذكر مخلوف (رحمه الله): أن «المراد هنا النجم البادي بالليل، وأضاف: (النجم الثاقب) أي المضيء، كأن يثقب الظلام بنوره فينفذ فيه، والمراد به الجنس، فإن لكل كوكب (والصحيح: هو لكل نجم) ضوءاً ثاقباً، أو هو معهود وهو الثريا، أو النجم الذي يقال له: «كوكب الصباح».

ووافق كل من الصابوني (أمد الله في عمره)، وأصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً)، ما قال به ابن كثير (رحمه الله)، على الرغم من أن القسم واضح الدلالة على نجم محدد بذاته، وفيه من التحديد والتخصيص ما لا يمكن تجاهله، فلو كان الوصف بالطارق ينطبق على كل نجم، ما خصص في هذه الآية الكريمة بهذا التحديد الدقيق، ولما أعطي اسماً محدداً «الطارق»، ولا صفة محددة «النجم الثاقب»، ولما ورد به القسم مع السماء بهذه الصورة المفخمة، ولما وجه السؤال إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) عقب القسم مباشرة بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾ ولما أتى الجواب قاطعاً حاسما من الله تعالى بقوله (عز وجل): ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾.

والنجوم قد ورد ذكرها في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، أربع منها بالإفراد (النجم)، وتسع بالجمع (النجوم)، ولم يوصف أي منها (بالطارق النجم الثاقب)، إلا في هذه السورة المباركة التي نحن بصددها، والتي حملت اسم الطارق تأكيداً أن الطارق نجم محدد بذاته، ولكي نفهم حقيقة هذا النجم الطارق الثاقب، لا بد لنا من التعرف على أنواع النجوم، لنجد ما يمكن أن ينطبق عليه هذا الوصف القرآني المحدد.

ماهية النجوم؟

النجوم هي مصابيح السماء الدنيا، وهذه المصابيح السماوية عبارة عن أجرام غازية في غالبيتها، ضخمة الحجم، ولكنها تبدو لنا ضئيلة لتعاظم أبعادها عنا، فأقرب النجوم إلينا وهي الشمس تبعد عنا بنحو مائة وخمسين مليون كيلومتر (149.6 مليون كيلومتر)، وأقرب نجوم مجرتنا إلينا بعد الشمس واسمه «أقرب المراكز» أو «الأقرب القنطوري» **(Proxima Centauri)** يقدر بعده عنا بأكثر من أربعة آلاف مليون مليون كيلومتر(4.3 من السنين الضوئية)، ومن النجوم ما يبعد عنا بأكثر من عشرة بلايين من السنين الضوئية. وقد

أحصى علماء الفلك من النجوم أكثر من سبعين بليون تريليون نجم إلى يومنا الراهن في الجزء المدرك من السماء. والنجوم أجرام سماوية شديدة الحرارة، ملتهبة، مشتعلة، ومضيئة بذاتها، يغلب على تركيبها غاز الإيدروجين، ويليه في الكثرة غاز الهيليوم، والقليل من العناصر الأخرى الأثقل وزناً، وتُحْتَوَى مادة النجم الغازية (في أغلبها) بعملية التجاذب الداخلي إلى مركز النجم، وهي العملية الناتجة عن دوران النجم حول محوره، وتؤدي هذه العملية إلى اتحاد نوى ذرات الإيدروجين مع بعضها البعض بالاندماج النووي **(Nuclear Fusion)**، وينطلق عن ذلك كميات هائلة من الطاقة على هيئة عدد من الإشعاعات الكهرومغناطيسية التي من أهمها الضوء والحرارة. ويؤدي تسلسل عملية الإندماج النووي من عنصر إلى آخر، إلى تكوين عناصر أعلى في وزنها الذري باستمرار، مما ينتهي إلى تعقيد كل من التركيب الكيميائي والبناء الداخلي للنجم، الذي يتقلص حجمه بالتدريج وتزداد كثافته بطريقة مطَّردة، وترتفع درجة حرارته باستمرار، فيمر بذلك في عدد من الأطوار المتتالية حتى نهاية حياته، وتسمى هذه المراحل المتتالية باسم دورة حياة النجوم.

دورة حياة النجوم:

بأمر من الله (تعالى) خلقت النجوم ابتداء من الدخان الكوني، الذي نشأ عن انفجار الجرم الأولي للكون **(فتق الرتق)**، ولاتزال النجوم تتخلق أمام أنظار الفلكيين اليوم من دخان السدم، عبر مراحل متتالية، وذلك بواسطة عدد من الدوامات العاتية التي تعرف باسم **دوامات تركيز المادة (Material Accretion Whorls or Vertigos)**. وتعمل هذه الدوامات على تكثيف المادة في داخل سحابات الدخان أو السدم (جمع سديم) بفعل عملية التجاذب التثاقلي **(Gravitational Attraction)** فتؤدي إلى إحداث تصادمات متكررة بين جسيمات المادة ينتج عنها الارتفاع التدريجي في درجة حرارتها حتى تصبح قادرة على بث الأشعة تحت الحمراء فيولد ما يسمى بالنجم الابتدائي **(The Pro-or Proto-Star)**. وتستمر جزيئات المادة في هذا النجم الأولي في التجمع والانجذاب أكثر نحو المركز حتى تتجمع الكتلة اللازمة لبدء عملية الاندماج النووي، فتزداد الاصطدامات بينها، ويزداد الضغط إلى الدرجة التي تسمح ببدء التفاعلات النووية الاندماجية بين نوى ذرات الإيدروجين، فيتوهج النجم الأولي وتنطلق منه الطاقة، وينبثق الضوء، وعند ذلك يكون النجم الابتدائي قد وصل إلى طور النضج المسمى باسم نجوم النسق الرئيسي **(The Main Sequence Stars)** ويستمر النجم في هذا الطور غالبية عمره (حوالي 90% من عمره)، حيث يتوقف انكماش مادته نحو المركز بسبب الحرارة والضغط البالغين المتولدين في مركز النجم.

شكل (79) رسم تخطيطي يوضح دورة حياة النجوم

وينتج عن استمرار التفاعلات النووية في داخل «نجم النسق الرئيسي» استهلاك كميات كبيرة من غاز الإيدروجين الذي يتحول إلى الهيليوم، وبالتدريج تتخلق العناصر الأثقل من مثل الكربون، والنيتروجين، والأوكسجين، والسيليكون، وفي مراحل لاحقة يتحول لب النجم إلى الحديد، فتتوقف عملية الاندماج النووي، ويدخل النجم في مرحلة الاحتضار عبر مراحل متتالية تعتمد على كتلته الابتدائية من مثل العملاق الأحمر، ثم السديم الكوكبي، ثم القزم الأبيض، ثم العملاق الأحمر مرة أخرى (وقد تتكرر عملية الانتقال من القزم الأبيض إلى العملاق الأحمر لأكثر من مرة) ثم ينفجر هذا العملاق الأحمر على هيئة النموذج الأول لانفجار المستعر الأعظم **(The Type I Supernova Explosion)** ينتهي به إلى دخان السماء. وهذه المراحل المتوسطة من العمالقة الحمر **(The Red Giants)** ثم مرحلة النجوم الزرقاء شديدة الحرارة والمحاطة بهالة من الإيدروجين المتأيِّن والمعروفة باسم السدم الكوكبية **(The Planetary Nebulae)** ثم مرحلة الأقزام البيض



شكل (80) صورة لموجات راديوية عملاقة قادمة من المجرة الراديوية (192 ـ 313) أخذت بواسطة تلسكوب «هابل» الفضائي

(The White Dwarfs). لا تتكون إلا إذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم في حدود كتلة الشمس تقريباً، أما إذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم تبلغ عدة مرات قدر كتلة الشمس، فإنه يمر في دورة حياته بمراحل من العمالقة العظام **(The Supergiants)** ثم النموذج الثاني لانفجار المستعر الأعظم **(The Type II Supernova Explosion)** الذي تتبقى عنه حسب كتلته الابتدائية ـ إما النجوم النيوترونية **(The Neutron Stars)** أو الثقوب السود **(The Black Holes)** والتي أسميها باسم النجوم الخانسة الكانسة **(The Concealed or Hidden Sweeping Stars)** كما يصفها القرآن الكريم، والتي تبتلع كل ما تمر به أو يصل إلى أفق حدثها **(Its Event Horizon)** من مختلف صور المادة والطاقة، ثم ينتهي بها المطاف إلى دخان السماء عن طريق تفككها وتبخر مادتها عالية الكثافة، كما يعتقد غالبية الدارسين لموضوعات الفيزياء الفلكية، وإن كانوا لم يتمكنوا بعد من تحديد كيفية حدوث ذلك. ويرى بعض الفلكيين أن أشباه النجوم **(Quasars)** مرشحة لتكون المرحلة الانتقالية من الثقوب السود إلى دخان السماء، وهي أجرام شاسعة البعد عنا، ضعيفة الإضاءة (ربما لبعدها الشاسع عنا)، منها ما يطلق أقوى الموجات الراديوية المعروفة في السماء الدنيا ويعرف باسم أشباه النجوم الراديوية **(The Quasi-Stellar Radio Sources or the Quasars)**، ومنها ما لا يصدر مثل تلك الموجات الراديوية ويعرف باسم أشباه النجوم غير الراديوية **(The Radio-Quiet Quasi-Stellar Objects or the QSOs)**.

وغالبية نجوم السماء من **النوع العادي**، أو ما يعرف باسم نجوم النسق الرئيسي **(The Main Sequence Stars)** التي تمثل مرحلة نضج النجم وأوج شبابه، وهي أطول مرحلة في حياة النجوم، حيث يمضي النجم حوالي 90% من عمره في هذه المرحلة، التي تتميز بتعادل دقيق بين قوى التجاذب إلى مركز النجم (والناتجة عن دوران النجم حول محوره)، وقوى دفع مادة النجم إلى الخارج (كنتيجة لتمدده بالحرارة الشديدة المتولدة من عملية الاندماج النووي في لبه)، ويبقى النجم في هذا الطور حتى ينفد وقوده من غاز الإيدروجين، أو يكاد أن ينفد، فيبدأ بالتوهج الشديد حتى تصل شدة إضاءته إلى مليون مرة قدر شدة إضاءة الشمس، ثم يبدأ في **الانكدار** التدريجي حتى يطمس **ضوؤه** بالكامل، ويختفي كلية عن الأنظار على هيئة النجم الخانس الكانس (أو الثقب الأسود) عبر عدد من مراحل الانكدار.

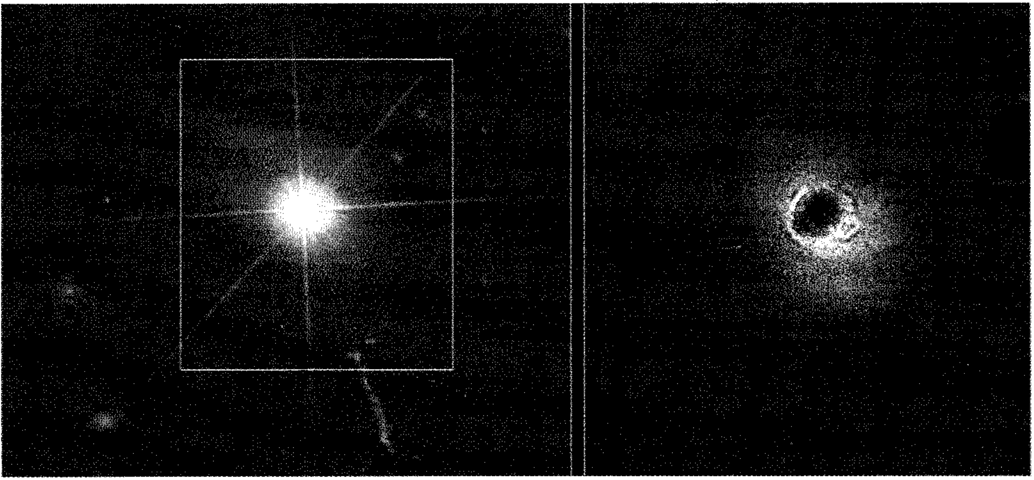
ومن **النجوم المنكدرة** ما يعرف باسم السدم الكوكبية **(Planetary Nebulae)**، والأقزام البيض **(White Dwarfs)**، والنجوم النيوترونية **(Neutron Stars)** ومنها غير النابض والنابض **(Non-pulsating and Pulsating Neutron Stars or Pulsars)** وغيرها من صور **انكدار** النجوم، وسبحان الذي أنزل من فوق سبع سمٰوات، ومن قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ **(التكوير: 1، 2)**.

وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ **(المُرسَلات: 8)**.

وهذه الآيات الثلاث من مظاهر الآخرة، إلا أنه من رحمة الله (سبحانه وتعالى) بنا، أن يبقى لنا في سماء الدنيا من ظواهر انكدار النجوم وطمسها، ما يؤكد إمكانية حدوث ذلك في الآخرة بكيفيات ومعدلات مغايرة لكيفيات ومعدلات الدنيا، لأن الآخرة لها من السنن ما يغاير سنن الدنيا تماماً.

أحجام النجوم:

تتفاوت نجوم النسق الرئيسي في أحجامها تفاوتاً كبيراً، إذ تتراوح بين ما يقارب كتلة الشمس، وما يصل إلى أكثر من 15 ضعف كتلة الشمس، وهذه النجوم العملاقة عند شدة توهجها تتحول إلى العماليق العظام **(The Super giants)** التي تزيد أقطارها عن أربعمائة مرة قدر قطر الشمس (أي أكثر من خمسمائة وستين مليون كيلومتر)، بينما تتحول النجوم التي تقترب في كتلتها من كتلة الشمس إلى العماليق الحمر عند شدة توهجها ثم إلى السدم الكوكبية وتنتهي إلى الأقزام البيض **(The White Dwarfs)** التي لا تتعدى أطوال أقطارها واحداً من مائة من طول قطر الشمس في المتوسط (أي في حدود 14000 كيلومتر). وفي



شكل (81) صورة لشبيه النجم (Quasar) صورتها عدسات تليسكوب هابل الفضائي

حالات الاحتضار يتقلص حجم العماليق العظام إلى النجوم النيوترونية **(The Neutron Stars)** التي لا يتعدى طول قطر الواحدة منها ستة عشر كيلومتراً، أو إلى النجوم الخانسة الكانسة وهي ما يعرف باسم الثقوب السود **(The Concealed or Hidden Sweeping Stars or Black Holes)** التي يتضاءل فيها قطر النجم إلى ما لا يستطيع العقل البشري أن يتصوره، وهي صورة واقعية راهنة تعيد إلى الأذهان نقطة البداية الأولى التي انفجرت فخلق الله تعالى منها كل السمٰوات والأرض (مرحلة الرتق)، مع الفارق الشاسع بين النقطتين في تناهي الحجم والكتلة، وكم المادة والطاقة وغير ذلك من الصفات، ولكنها رحمة الله تعالى بنا، أن يبقى لنا في صفحة السماء ما يمكن أن يعين أصحاب البصائر على تدبر كيفية الخلق الأول، وعلى تصور إمكانية إفنائه، وإعادة خلقه من جديد، على ضوء ما جاء في محكم كتابه، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وما يتراءى في صفحة السماء لكل ذي بصيرة، وهي من القضايا التي طالما جادل فيها الكافرون والمتشككون والمنكرون بغير علم ولا هدى ولا سلطان منير.

كثافة وكتل النجوم

كما تتفاوت النجوم في أحجامها، فإنها تتفاوت في كتلتها ومن ثم في متوسط كثافة مادتها؛ وبصورة عامة فإن كثافة النجم تقل كلما زاد حجمه، والعكس صحيح، بمعنى أن كثافته تزداد كلما قل حجمه، وقد لوحظ أن كثافة مادة النجوم تتفاوت بين واحد من مائة من



شكل (82) صورة لشبيه النجم (Quasar 0351 + 026) **يتفاعل مع مجرة باهته**

متوسط كثافة الشمس (المقدرة بنحو 1.41 جرام للسنتيمتر المكعب) في العماليق العظام **(The Supergiants)** إلى طن واحد للسنتيمتر المكعب(10^6 جرام/ سم^3) في الأقزام البيض **(The White Dwarfs)** إلى بليون طن للسنتيمتر المكعب (10^{15} جرام/ سم^3) في النجوم

النيوترونية إلى أضعاف مضاعفة لتلك الكثافة في النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود).

ويمكن تعيين كتل النجوم خاصة الثنائية والثلاثية منها، إما بصرياً أو طيفياً بتطبيق قانون الجاذبية، أو بتطبيق قوانين الإزاحة الطيفية **(The Red Shift)** (انزياح أضواء النجوم إلى الطيف الأحمر)، وهناك علاقة بين كتلة النجم ودرجة إضاءته (في مرحلة نجوم النسق الرئيسي)، وبين كم المادة التي يحتويها النجم، وبين كمية الطاقة المتولدة في جوفه، فإذا كان النجم في حالة اتزان بين قوى الجذب إلى مركزه وقوى الدفع إلى الخارج (أي لا يتمدد ولا ينكمش كما هو الحال في نجوم النسق الرئيسي) فإن جميع خواصه الفيزيائية تعتمد على كل من كتلته وتوزيع العناصر الكيميائية في مادته. وتعتبر كثافة النجم دالة قوية على مرحلة تطوره، فكلما زادت كثافة النجم، كان أكبر عمراً وأقرب إلى نهايته من النجوم الأقل كثافة.

درجات حرارة النجوم:

تتفاوت النجوم في درجة حرارة سطحها بين2300 درجة مطلقة في النجوم الحمراء، وأكثر من خمسين ألف درجة مطلقة في النجوم الزرقاء، ويتم قياس درجة حرارة سطح النجم بعدد من التقنيات التي منها قياسات لون النجم. لأن إشعاعه يخضع لقوانين إشعاع الجسم الأسود **(The Black Body Radiation)** فإذا كانت درجة حرارة النجم منخفضة نسبياً، مالت معظم الإشعاعات التي يصدرها إلى اللون الأحمر، وإذا كانت درجة حرارته عالية مالت إشعاعاته إلى الزرقة، ولذلك تسمى درجة الحرارة المقاسة بهذه الطريقة باسم درجة حرارة اللون **(Colour Temperature)**. ومن تقنيات التعرف على درجة حرارة النجم قياس شدة خطوط الامتصاص الطيفية لأشعته في مراحل مختلفة من التأين، وتسمى درجة الحرارة المقاسة في هذه الحالة باسم درجة الحرارة الطيفية **(Spectral Temperature)**. وتتفاوت النجوم أيضاً في درجة حرارة جوفها بين عشرات الملايين في نجوم النسق الرئيسي، ومئات البلايين من الدرجات المطلقة في المستعرات والمستعرات العظمى.

أقدار النجوم (أو درجة لمعان النجوم):

أقدار النجوم هي مقاييس عددية تعبر عن درجة لمعان النجم، وتقاس شدة الإضاءة الظاهرية للنجم بكمية الضوء الواصل منه إلى نقطة معينة في وحدة من وحدات الزمن، والقدر الظاهري للنجم قيمة عددية لوغاريتمية تعبر عن شدة إضاءته الظاهرية بالنسبة لغيره من النجوم، بمعنى أن الأرقام الأقل تعبر عن درجة لمعان أعلى، ويعتمد القدر الظاهري للنجم على كمية الطاقة المنطلقة منه في الثانية (القدر المطلق)، وعلى بعد النجم عنا، ويمكن

معرفة **القدر المطلق** للنجم بمعرفة بعده عن الأرض، وتقسم الأقدار النجمية المطلقة إلى 27 درجة، تتراوح بين القدر (−9) في أشدها لمعاناً، و(+18) في أخفتها. وتبلغ درجة لمعان الشمس أي قدرها المطلق (+5)، بينما يقترب ذلك من أقصى قدر(−9) في كل من العماليق الحمر، والعماليق العظام، والمستعرات وما فوقها، حيث تبلغ شدة إضاءة النجم أكثر من مليون مرة قدر إضاءة الشمس، وتتدنى شدة الإضاءة إلى واحد من ألف من شدة إضاءة الشمس في النجوم المنكدرة من مثل الأقزام البيض، والنجوم النيوترونية، وتنتهي إلى الطمس الكامل والإظلام التام في النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) وأشباهها من الأجرام المستترة في ظلمة الكون.

التغير في أقدار النجوم أو (النجوم المتغيرة الأقدار):

بالإضافة إلى التباين الشديد في درجة لمعان النجوم أو أقدارها، فإن بعض النجوم العادية **(The Main Sequence Stars)** تتفاوت شدة إضاءة النجم الواحد منها من وقت إلى آخر، عبر فترات زمنية تطول أو تقصر، وبشكل مفاجىء أو بصورة هادئة متدرجة، لا تكاد أن تدرك، ولذلك عرفت تلك النجوم باسم «**النجوم المتغيرة**» أو «**المتغيرات**» **(The Variables)**.

احتضار النجوم:

يبدأ النجم العادي (من نجوم مرحلة النسق الرئيسي) في الاحتضار، بالتوهج الشديد على هيئة عملاق أحمر **(Red Giant)** إذا كانت كتلته الابتدائية في حدود كتلة الشمس (أو قريبة من ذلك)، أو على هيئة عملاق أعظم **(Supergiant)** إذا فاقت كتلته الابتدائية كتلة الشمس بعدة مرات، وينشأ في الحالة الأولى نجم أزرق شديد الحرارة محاط بهالة من الإيدروجين المتأين (أي الحامل لشحنة كهربية)، ويعرف هذا النجم تجاوزاً باسم السديم الكوكبي **(The Planetary Nebula)** الذي سرعان ما يتبرد وينكمش على هيئة ما يعرف باسم القزم الأبيض، وقد يعاود القزم الأبيض نشاطه فيعاود الانفجار على هيئة عملاق أحمر، ثم تخبو جذوته إلى قزم أبيض، ويكرر معاودة النشاط عدة مرات حتى ينتهي به العمر إلى الانفجار على هيئة مستعر أعظم من النمط الأول **(Type I Supernova)** فتنتهي مادته وطاقته إلى دخان السماء لتدخل في دورة ميلاد نجم جديد بإذن الله تعالى.

وفي حالة النجوم فائقة الكتلة (والتي تتراوح في كتلتها بين عدة أضعاف كتلة الشمس إلى 15 ضعف تلك الكتلة أو أكثر من ذلك) فإن النجم يبدأ مرحلة احتضاره بتوهجه على

هيئة عملاق أعظم، ثم ينفجر على هيئة مستعر أعظم من النمط الثاني، عائداً إلى دخان السماء عودة جزئية، ومكدساً جزءاً كبيراً من كتلته على هيئة نجم نيوتروني أو ثقب أسود (نجم خانس كانس)، إما مباشرة أو عبر مرحلة النجم النيوتروني حسب الكتلة الابتدائية للنجم.

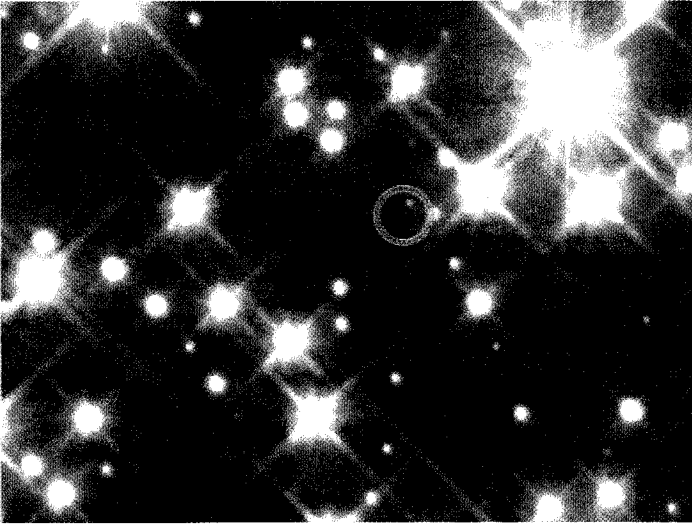
والمراحل المتأخرة من حياة النجوم مثل النجوم الزرقاء الحارة، والنجوم النيوترونية، والنجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود)، وأشباه النجوم ترسل بوابل من الأشعة والجسيمات الكونية، أو بأحزمة متصلة من الأشعة السينية أو الأشعة الراديوية عبر السماء الدنيا، فتفقد من كتلتها باستمرار إلى دخان السماء. ومن أهم هذه المراحل المتأخرة في حياة النجوم ما يعرف باسم النجوم النابضة (أو النوابض)، وهي نجوم نيوترونية شديدة التضاغط ترسل بنبضات منتظمة من الأشعة الراديوية المتسارعة في كل جزء من الثانية، أو في كل عدد قليل من الثواني، وقد يصل عدد النبضات إلى ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة، ويعتمد عدد النبضات على سرعة دوران النجم حول محوره، حيث أنه من المعتقد أن كل دورة كاملة للنجم حول محوره تصاحبها نبضة من نبضات الموجات الراديوية التي تسجلها المقربات (التليسكوبات) الراديوية بوضوح تام.

كيفية تكوّن النجوم النيوترونية:

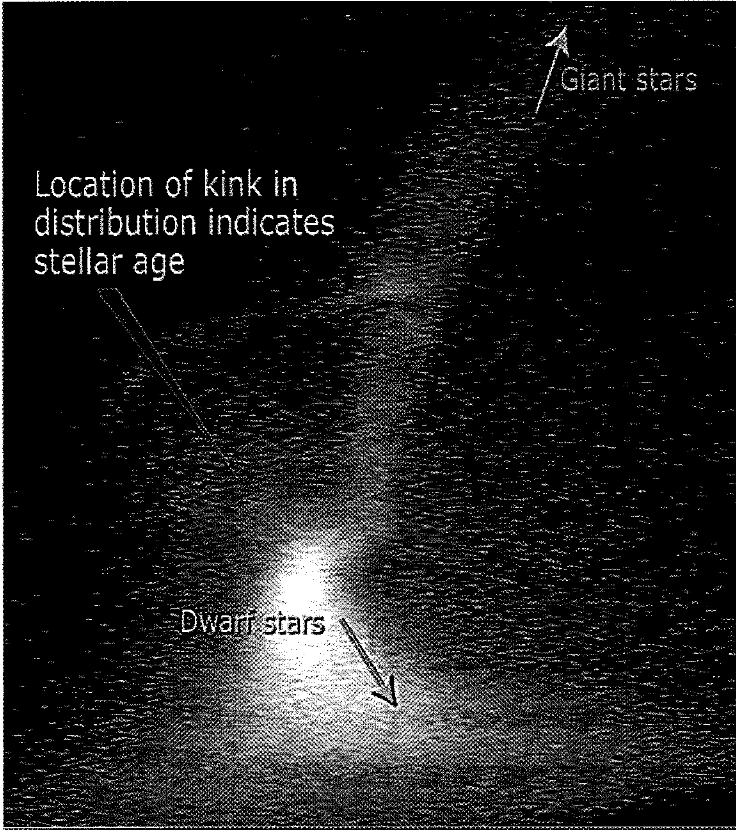
يعتبر انفجار العماليق العظام **(The Supergiants)** على هيئة مستعر أعظم من النمط الثاني **(The Type - II Supernova Explosion)**، واحداً من أعظم الانفجارات الكونية المروعة، التي تؤدي إلى تدمير النجم وإلى تدمير كل ما يدور في فلكه أو يقع في طريق انفجاره من أجرام سماوية في زمن قياسي، وذلك نتيجة لتكون تيارات حمل عنيفة في داخل النجم تدفع بواسطة وابل غزير من النيوترينوات **(Neutrino-Driven Convection Currents)** فتقوم بتكوين دوامات متفاوتة في أحجامها، وفي شدة دورانها يؤدي تصادمها إلى مزيد من تفجير النجم، وتندفع ألسنة اللَّهب بعنف شديد من داخل النجم إلى خارجه على هيئة أصابع عملاقة ملتوية ومتكسرة، وتظل طاقة النيوترينو تضخ في داخل النجم المتفجر لمسافة آلاف الكيلومترات في العمق، مما يؤدي إلى تكرار عمليات الانفجار مرات عديدة حتى يخبو هذا النشاط، فتنطلق رياح عاتية مندفعة بتيار النيوترينو من نجم ذي كثافة فائقة قد تكون داخل حطام النجم المنفجر، ويعرف هذا النجم الوليد باسم النجم النيوتروني الابتدائي، والذي سرعان ما يتحول إلى نجم نيوتروني عادي الحجم بجاذبية قليلة نسبياً، ثم إلى نجم نيوتروني شديد التضاغط بجاذبية عالية جداً، وهو نجم ضئيل الحجم جداً، سريع الدوران حول

محوره مطلقاً كمية هائلة من الأشعة الراديوية، ولذا يعرف هذا النجم النيوتروني باسم النابض الراديوي **(The Radio Pulsar)** أما باقي نواتج الانفجار فإنها تقذف إلى صفحة السماء على هيئة موجات لافحة من الكتل الغازية الملتهبة، تعرف باسم فضلات انفجار المستعرات العظمى، وهذه الفضلات الدخانية قد تدور في مدارات حول نجوم أخرى لتتخلق منها أجرام تتبع تلك النجوم، أو قد تنتهي إلى المادة بين النجوم لتشارك في ميلاد نجوم جديدة بإذن الله.

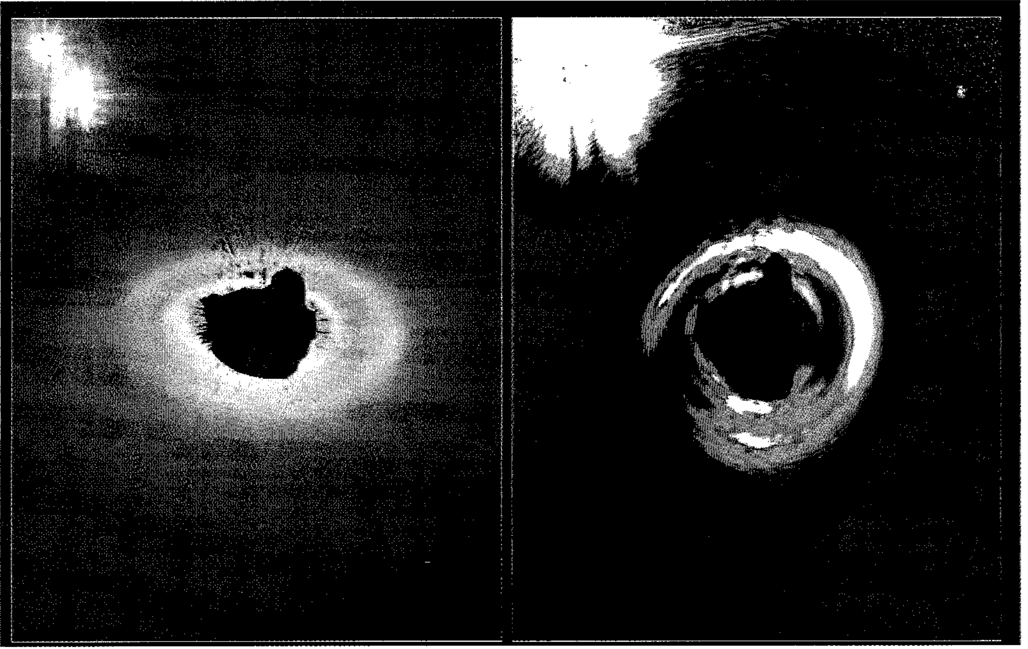
ومن رحمة الله بنا أن مثل هذه الانفجارات النجمية المروعة والمدمرة والمعروفة باسم انفجار المستعر الأعظم **(The Supernova Explosion)** قد أصبحت قليلة جداً بعد أن كانت نشطة في بدء الخلق كما تدل آثارها الباقية في صفحة السماء، فلا يتعدى وقوعها اليوم مرة واحدة كل عدة قرون، فحتى سنة 1987 م لم يعرف الفلكيون سوى ثلاث حالات فقط مسجلة في التاريخ المدون، وقعت إحداها في سنة 1054 م، وخلفت من ورائها نجماً نيوترونياً نابضاً في سديم السرطان **(The Crab Nebula)** الذي يبعد عنا بنحو ألف فرسخ فلكي (حوالي 3.262 سنة ضوئية)، ويدور هذا النابض حول محوره ثلاثين مرة في كل ثانية مطلقاً إشعاعاً دواراً من الأشعة الراديوية. وسجلت الحالة الثانية في سنة 1604 م في مجرتنا (درب اللبانة) ولا تزال آثار هذا الانفجار باقية على هيئة دوامات شديدة من الموجات الصدمية **(Shock Waves)** التي يمكن رصدها، ووقعت الثالثة في 1987/ 2/ 24 م في سحب ماجلان الكبيرة **(The Large Magellanic Clouds)**، وهي إحدى المجرات المجاورة لمجرتنا. والانفجار الواحد من هذه الانفجارات العظمى، تفوق شدته الطاقة المنطلقة من جميع النجوم في مجرة كاملة، ويكون الضوء المصاحب له أشد لمعاناً من ضوء المجرة بالكامل، ويتبقى عنه نفثات كونية من أشعة جاما **(Cosmological Gamma Ray Bursts)** يطلق عليها اسم المرددات الناعمة لأشعة جاما **(Soft Gamma Ray Repeaters or SGRs)** التي تصدر انبثاقات هائلة من الأشعة السينية لتختفي ثم تظهر من جديد بعد عدة شهور، أو عدة سنوات حسب بعدها عنا، والنفثة الواحدة التي ينفثها واحد من تلك المرددات في ثانية واحدة تساوي كل ما تنفثه الشمس من الأشعة السينية في سنة كاملة من سنينا. وفي سنة 1992 م تمكن الفلكيون من إثبات أن مرددات الأشعة السينية تلك، ما هي إلا نجوم نيوترونية شديدة المغنطة **(Super Magnetized Neutron Stars)** أطلقوا عليها اسم الممغنطات **(The Magnetars)** وأثبتوا لها حقلاً مغناطيسياً فائق الشدة، تفوق شدته شدة جاذبية الحقل المغناطيسي للأرض بأكثر من ألف وخمسمائة مليون مليون مرة (1667 مليون مليون مرة)، كما تفوق المجال المغناطيسي للشمس بنحو الألف مليون مليون مرة، وهذه



شكل (83) صورة للتجمع النجمي ($WFPC_2$) يضم في داخل الدائرة الخضراء أحد النجوم النابضة



شكل (84) يوضح كيفية استخدام العلاقة بين درجة حرارة النجم ودرجة لمعانه في تحديد عمره



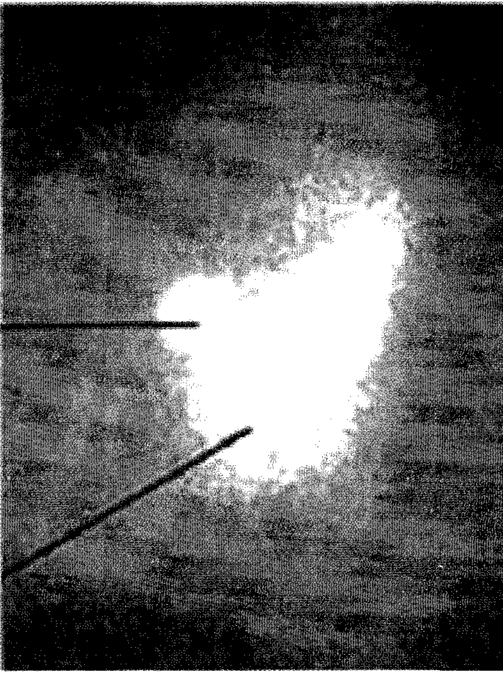
شكل (85) صورة لقرص شبه دائري معقد حول مجموعة من النجوم أخذتها عدسات التليسكوب الفضائي هابل

الممغنطات هي نجوم نيوترونية نابضة **(Pulsating Neutron Stars or Pulsars)** تدور حول محورها بسرعات فائقة مطلقة الأشعة السينية بكميات غزيرة.

ما هو الطارق النجم الثاقب؟:

أرى أن الوصف القرآني «بالطارق النجم الثاقب» ينطبق على مصادر الإشعاع الراديوي المميز بالسماء الدنيا ومن أهمها: النجوم النيوترونية شديدة التضاغط **(The ultra-compact Neutron stars)** والمعروفة باسم النجوم النابضة **(The Pulsating Stars)** أو النابضات أو النوابض **(The Pulsars)** وهي نجوم ذات كثافة وجاذبية فائقة وحجم صغير، ولذا فإنها تدور حول محورها بسرعات عالية، مطلقة كميات هائلة من الموجات الراديوية ولذا تعرف باسم النوابض الراديوية **(The Radio Pulsars)**، لأنها ترسل نبضات منتظمة من الأشعة الراديوية في كل جزء من الثانية أو في كل عدد قليل من الثواني حسب حجمها وسرعة دورانها حول محورها، وقد يصل عدد نبضات تلك النجوم إلى ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة، ويعتقد أن النابض الراديوي يطلق نبضة واحدة من الموجات الراديوية في كل دورة كاملة حول محوره، وتسجل المقربات (التليسكوبات) الراديوية تلك النبضات بدقة فائقة. ومن رحمة الله بنا أن

أقرب النوابض الراديوية إلينا يبعد عنا بمسافة خمسة آلاف من السنين الضوئية، وإلا لكان لنبضاتها المتسارعة أثر مدمر للحياة على الأرض، إذا كانت على نصف هذه المسافة منّا.



شكل (86) صورة بالأشعة السينية لسديم السرطان وبداخله نجم نيوتروني

ومن مصادر الإشعاع الراديوي المتميز أيضاً ما يعرف اليوم بين علماء الفلك باسم أشباه النجوم **(The Quasars)**، وهي أجرام سماوية شديدة البعد عنا، ضعيفة الإضاءة جداً (ربما لبعدها البالغ عنا)، ومنها ما يطلق أقوى الموجات الراديوية التي تصل إلينا من السماء الدنيا، ولذا تعرف باسم أشباه النجوم المصدرة للموجات الراديوية **(The Radio Sources Quasi-Stellar Objects or the Quasars)** تمييزاً لها عن غيرها من أشباه النجوم التي لاتصدر موجات راديوية **(The Radio-Quiet Quasi-Stellar Objects or the QSOs)**. وعلى الرغم من بعدها الشاسع عنا فإن أشباه النجوم تتباعد عنا بسرعات فائقة، وتعتبر أبعد ما قد تم رصده من أجرام السماء بالنسبة لنا حتى اليوم، وتبدو وكأنها على أطراف السماء الدنيا تطرق أبوابها لتوصل إشاراتها الراديوية إلينا. وأشباه النجوم في حالة من حالات المادة الخاصة غير المعروفة لنا، وتقدر كتلة شبيه النجم بنحو مائة مليون ضعف كتلة الشمس، وهو قليل الكثافة جداً إذ تقدر كثافته بحدود واحد من ألف مليون مليون من الجرام للسنتيمتر المكعب، وتقدر الطاقة الناتجة عنه بمائة مليون مليون مرة قدر طاقة الشمس، وقد تم الكشف عن حوالي ألف وخمسمائة من أشباه النجوم على أطراف الجزء المدرك من الكون، ويتوقع الفلكيون وجود آلاف أخرى منها لم تكتشف بعد.

وكل من المرحلتين المطلقتين للموجات الراديوية من مراحل حياة النجوم: من مثل النوابض الراديوية **(The Radio Pulsars)** وأشباه النجوم الراديوية **(The Radio Quasars)** يعتبر من أهم المصادر الراديوية **(The Radio Sources)** في السماء الدنيا، وكلتاهما من

مراحل احتضار النجوم وانكدارها التي تسبق الطمس والخنوس، كما في حالة النوابض، أو من مراحل التحول إلى دخان السماء اللاحقة بمرحلة الخنوس كما في حالة أشباه النجوم. ولعل هذه المراحل الراديوية المتميزة في ختام حياة النجوم هي المقصودة بالوصف القرآني (الطارق النجم الثاقب) لأنها تطرق صفحة السماء وتثقب صمتها بنبضاتها السريعة التردد، وموجاتها الراديوية الخاطفة، والله تعالى أعلم.

وإن في سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك المراحل من حياة النجوم والتي لم يعرفها الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين لهو من الشهادات الناطقة بربانية القرآن الكريم، وبنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين)، الذي تلقَّى هذا الوحي الخاتم من قبل ألف وأربعمائة من السنين بهذه الدقة العلمية المبهرة في مجتمع لم يكن له من العلم أي نصيب.

وبعد هذا القسم بالسماء والطارق يأتي جواب القسم:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ **(الطّارق: 4)**.

أي أن كل نفس عليها من الله تعالى حافظ موكل بها من الملائكة، يحفظها بأمر الله، ويحفظ عنها بأمر الله كذلك، في مراقبة دائمة، فكما يصلنا طرق النوابض وأشباه النجوم عبر بلايين السنين الضوئية فإن أعمالنا تعرج لحظة بلحظة إلى الله تعالى علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء!!

ثم أتبع تعالى ذلك بدعوة الإنسان إلى النظر في نشأته الأولى كي يعلم أن خالقه قادر على إعادة بعثه، وعلى محاسبته وجزائه، فيجتهد في عمل الخير حتى يجد ما ينجيه في الآخرة، حيث إن الأمر ليس بالهزل، ولذلك يختتم السورة الكريمة بعدد من الآيات الكونية الأخرى وبقوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ **(الطارق: 13 ـ 14)** ثم بإنذار ووعيد للكافرين بالله والمشركين به والمتمردين على أوامره تعالى بهذا الجزم الإلٰهي القاطع:

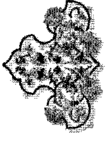
﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ **(الطارق: 15 ـ 17)**.



بسم الله الرحمن الرحيم



(13) ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾



(الشّمس: 5)

في مطلع سورة الشمس يقسم ربنا ﷻ - وهو الغني عن القسم - بعدد من حقائق الكون وظواهره فيقول ﷻ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾

(الشمس: 1 ـ 8)

ثم يأتي جواب القسم صادعاً، جازماً بالقرار الإلٰهي الذي منطوقه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾

(الشمس: 9 ـ 10):

وكثيراً ما يوجه القرآن الكريم الأنظار إلى التفكر في عملية الخلق: خلق الكون بسمٰواته وأراضيه، خلق الحياة بمختلف أشكالها، وخلق الإنسان، بكل ما في جسده ونفسه من أسرار ومعجزات، وما صاحب ذلك كله من مظاهر وموجودات، وهي وإن كانت من صفحات كتاب الله المنظور التي تشهد له (ﷻ) بطلاقة القدرة، وكمال الصنعة، وشمول العلم والإحاطة فهي تؤكد صدق ما جاء في القرآن الكريم لأنه هو كتاب الله المقروء، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية. وصدق إخباره في كل أمر، وكيف لا وهو وحي السماء الخاتم الذي تعهد ربنا (ﷻ) بحفظه فحفظ بنفس لغة الوحي (اللغة العربية)، وبنفس تفاصيل الوحي الذي أنزل بها سورة سورة، وآية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا (سبحانه) على ذاته العلية فقال ﷻ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 6)

وبقي هذا الوحي الخاتم ـ ولأنه الوحي الخاتم ـ محفوظاً بحفظ الله الخالق على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وسوف يبقى إن شاء الله (تعالى) بصفائه الرباني، وتمامه وكماله إلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها..

وسورة الشمس مليئة بالإشارات الكونية، ولكني سوف أركز هنا على قسم واحد مما جاء في هذه السورة المباركة بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ وقبل البدء في ذلك لا بد من استعراض الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة، ولأقوال عدد من المفسرين في شرحها.

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة

أولاً: (ما) في اللغة العربية:

تأتي (ما) في اللغة العربية على تسعة أوجه: أربعة منها أسماء، والخمسة الباقية حروف. والأسماء تأتي بمعنى (الذي)، أو للاستفهام، أو للتعجب أو تأتي للتعبير عن نكرة يلزمها النعت.

والحروف تأتي نافية بمعنى (ليس)، وتأتي جزائية (مسلطة) إذا أدخل عليها إذ (إذما) أو حيث (حيثما)، وتأتي بصيغة (إما) و(مهما)، كما تأتي (مصدرية) مع الفعل لتأويل المصدر، أي لتجعل ما بعدها بمنزلة المصدر، وتأتي كافة عن العمل إذا دخلت عليها إن وأخواتها ورب ونحو ذلك من مثل: (إنما)، (كأنما)، (ربما)، (قلما)، (طالما)، كما تأتي غير كافة من مثل (بما)، وتأتي محذوفاً منها الألف إذا ضم اليها حرف آخر من مثل: (لم)، (بم)، (عم)، كما تأتي زائدة لتوكيد اللفظ إذا دخلت عليها حروف أخرى من مثل: (إذما)، (فإما)، و(إما).

ثانياً: السماء في اللغة العربية:

السماء لغة: اسم مشتق من السمو بمعنى الارتفاع والعلو، تقول: (سما) (يسمو) (سموا) فهو (سام) بمعنى علا يعلو علوا فهو عال أو مرتفع، لأن السين والميم والواو.. أصل يدل على الارتفاع والعلو، يقال (سموت) و(سميت) بمعنى علوت وعليت للتنويه بالرفعة والعلو، وعلى ذلك فإن (سماء) كل شيء أعلاه، ولذلك قيل: كل ما علاك فأظلك فهو (سماء). ويقال فلان لا (يسامىٰ) أي: لا يبارىٰ، وقد علا من (ساماه) أي الذي باراه، و(تساموا) أي تباروا (في اكتساب المعالي عادة).

ولفظة (السماء) في العربية تذكر وتؤنث (وإن اعتبر تذكيرها شاذا)، وجمعها (سمٰوات)، و(أسمية)، و(سماو)، و(سمي)، وإن كان أشهرها ذيوعا (سمٰوات) وهو ما جاء بالقرآن الكريم. وانطلاقاً من ذلك قيل لسقف البيت (سماء) لارتفاعه، وقيل للسحاب (سماء) لعلوه واستعير اللفظ للمطر بسبب نزوله من السحاب، وللعشب لارتباطه بنزول ماء السماء.

و(السماء) ديناً: هي كل ما يقابل الأرض من الكون، والمراد بها ذلك العالم العلوي من حولنا والذي يضم الأجرام المختلفة من الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والنجوم والبروج، والسدم والمجرات، وغيرها من مختلف صور المادة والطاقة التي تملأ السماء الدنيا بصورة واضحة جلية، أو مستترة خفية. وقد خلق الله تعالى (السماء) ـ وهو خالق كل شيءٍ ورفعها بغير عمد نراها، وجعل لها عمارا من الملائكة ومما لا نعلم من الخلق، وحرسها من كل شيطان مارد من الإنس والجن، فهي محفوظة بحفظه تعالى إلى أن يرث (سبحانه) هذا الكون بمن فيه وما فيه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق (ﷻ): ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾

قال المفسرون برأيين يكمل أحدهما الآخر.

• فقال ابن كثير (يرحمه الله): «يحتمل أن تكون (ما) ها هنا مصدرية بمعنى: والسماء وبنائها، وهو رأي قتادة (رضي الله عنه)، ويحتمل أن تكون بمعنى (من) يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد (رضي الله عنه)، وكلاهما متلازم، والبناء هو الرفع. . .».

• وقال صاحب الظلال (يرحمه الله): «. . .(ما) هنا مصدرية، ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها، فأما حقيقة السماء فلا ندريها، وهذا الذي نراه فوقنا متماسكاً لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه، أما كيف هو مبني، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخراً... فذلك ما لا ندريه.....، إنما نوقن من وراء كل شيءٍ أن يد الله هي تمسك هذا البناء.....».

• وقال مخلوف رحمه الله: «﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي ومن أوجدها وأنشأها بقدرته وأضاف: وإيثار (ما) على (من) لإرادة الوصفية تفخيماً وتعظيماً، كأنه قيل: «والسماء والإله القادر العظيم الذي بناها»، وزاد بعد ذلك بقليل ما نصه: «وقيل إن (ما) في الآيات

الثلاث(5 ـ 7 من سورة الشمس) مصدرية، فيكون القسم ببناء السماء، وطحو الأرض، وتسوية النفوس في الخلقة».

• وقال الصابوني (أمد الله في عمره): «... أي وأقسم بالقادر العظيم الذي بنى السماء، وأحكم بناءها بلا عمد» وأضاف: «قال المفسرون (ما) اسم موصول بمعنى (من)، أي: والسماء ومن بناها، والمراد به الله رب العالمين بدليل قوله بعده (فألهمها فجورها وتقواها)، كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها، فدل بناؤها وإحكامها على وجوده، وكمال قدرته...».

وهذا هو عين الصواب لأن القسم بالسماء وبخالقها العظيم يحوي قسماً ببنائها المذهل في اتساعه، وتعدد أجرامه، وإحكام تماسكه وترابط مختلف أجزائه على الرغم من الطبيعة الدخانية الغالبة عليه، وهذه الأمور وغيرها مما يشهد للّه الخالق ﷻ بطلاقة القدرة، وإبداع الصنعة، وكمال العلم، وعظيم الحكمة، وبالتفرد بالألوهية، والربوبية، والوحدانية فوق جميع خلقه، ومن هنا كان القسم بالسماء هو قسم بخالقها الأعظم وببنائها المذهل البديع...!!!

ثم يستمر السياق القرآني بالقسم بالأرض وبالذي طحاها مع روعة هذا الطحو والدحو، وبالنفس وبخالقها المبدع الذي سواها فألهمها فجورها وتقواها، وجعلها على هذا القدر من عظمة البناء وتعقيده، وكَرَّمَهَا من فضله وجوده، ومنحها الإرادة الحرة، وحرية الاختيار، ثم يأتي جواب القسم:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ **(الشمس: 9 ـ 10).**

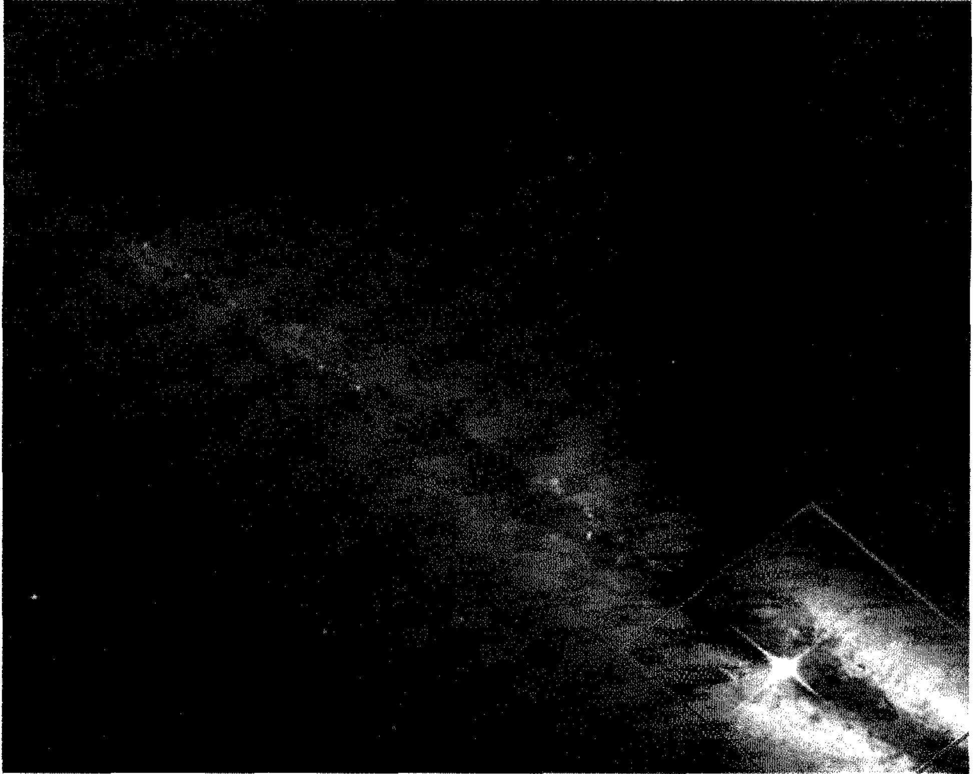
بمعنى أن كل من اجتهد في تزكية نفسه وتطهيرها، وتنمية الاستعدادات الفطرية للخير فيها، ومقاومة نوازع الشر المتداعية بين جوانبها فقد فاز وأفلح، ومن أهمل كل ذلك، وجافى هداية ربه، واتبع شهوات نفسه، وأطفأ أنوار الفطرة الربانية فيها، فقد خاب وخسر، وذلك لأن الله تعالى قد خلق الإنسان من الطين بما لهذا الطين من حاجات وشهوات، ونفخ فيه من روحه، وجعل لها قدراً من الأنوار والإشراقات، وغرس في الجبلة الإنسانية حب الخيرات وكراهية المنكرات، ومنح الإنسان العقل ميزاناً بين جميع الاتجاهات، وأنزل هدايته الربانية نوراً للإنسان يفرق بين ما ينبغي وما لا ينبغي له أن يفعل، فمن اتبع الهداية الربانية، ونمى تلك الإشراقات الفطرية النورانية في نفسه فقد فاز وأفلح، ومن أتبع نفسه هواها، وأغرقها في شهواتها فقد خاب وخسر، وهذا هو جواب القسم المفخم بالسماء وخالقها ومبدعها، وبروعة بنائها الذي أقسم به ربنا ﷻ ـ وهو الغني عن القسم ـ ليؤكد هذا

القرار الذي أنزله ﷻ من فوق سبع سمٰوات بقوله الحكيم (عز من قائل):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

السماء في القرآن الكريم

جاءت لفظة السماء في القرآن الكريم في ثلاثمائة وعشرة مواضع، منها مائة وعشرون بالإفراد (السماء)، ومائة وتسعون بالجمع (السمٰوات). كذلك جاءت الإشارة إلى السمٰوات والأرض وما بينهما في عشرين موضعاً من تلك المواضع (المائدة: 17، 18)، (الحجر: 85)، (مريم: 65)، (طه: 6)، (الأنبياء: 16)، (الفرقان: 59)، (الشعراء: 24)، (الروم: 8)، (السجدة: 4)، (الصافات: 5)، (صٓ: 10، 27، 66)، (الزخرف: 85)، (الدخان: 7، 38)، (الأحقاف: 3)، (قٓ: 38)، (النبأ: 37).



شكل (87) صورة للمجرة (NGC 4013) في الضوء المرئي

وجاء ذكر السحاب المسخر بين السماء والأرض في موضع واحد من الآية رقم 164 في سورة البقرة، والتي تشير إلى أن القرآن الكريم يفصل بين السماء والأرض بنطاق يضم السحاب، وهو ما يعرف بنطاق المناخ الذي لا يتعدى سمكه 16 كيلو متراً فوق خط الاستواء، ويحوي أغلب مادة الغلاف الغازي للأرض(75% بالكتلة). وعلى ذلك فإن السماء في القرآن الكريم تشمل كل ما يحيط بالأرض بدءاً من نهاية نطاق المناخ إلى نهاية الكون التي لا يعلمها إلا الله ﷻ.

ويشير القرآن الكريم إلى أن الله (تعالى) قد قسم السماء إلى سبع سمٰوات، كما قسم الأرض إلى سبع أرضين فقال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ **(الطلاق: 12)**

وقـال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ **(نوح: 15 ، 16)**

وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ **(الملك: 3).**

ويتضح من هذه الآيات بصفة عامة، ومن آيتي سورة نوح(15، 16) بصفة خاصة أن السمٰوات السبع متطابقة حول مركز واحد، يغلف الخارج منها الداخل، وإلا ما كان جميع ما في السماء الدنيا واقعاً في داخل باقي السمٰوات، فيكون كل من القمر والشمس ـ وهما من أجرام السماء الدنيا ـ واقعين في كل السمٰوات السبع.

وجاء ذكر السمٰوات السبع في سبع آيات قرآنية كريمة هي: (الإسراء: 44)، (المؤمنون: 86)، (فصلت: 12)، (الطلاق: 12)، (الملك: 3)، (نوح: 15، 16)، (النبأ: 12)

كذلك جاءت الإشارة القرآنية إلى سبع طرائق في الآية (17) من سورة (المؤمنون)، واعتبرها عدد من المفسرين إشارة إلى السمٰوات السبع، وإن كان الاشتقاق اللفظي يحتمل غير ذلك.

ويشير القرآن الكريم إلى أن النجوم والكواكب هي من خصائص السماء الدنيا وذلك بقول الحق (سبحانه وتعالى): ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ **(الصَّافات: 6)**

وقوله (ﷻ):

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ **(فُصّلَت: 12)**

وقوله (ﷻ): ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ **(المُلك: 5)**

وفي زمن تفجر المعارف العلمية، والتطور المذهل للوسائل التقنية الذي نعيشه لم يستطع الإنسان إدراك سوى جزء صغير من السماء الدنيا، ولم يتجاوز إدراكه لذلك الجزء حدود 10% مما فيه..!

السماء في علوم الفلك

يقدر علماء الفلك قطر الجزء المدرك من الكون بأكثر من أربعة وعشرين بليوناً من السنين الضوئية(24 بليون × 9.5 مليون مليون كيلو متر)، وهذا الجزء من السماء الدنيا دائم الاتساع إلى نهاية لا يعلمها إلا الله (ﷻ)، وبسرعات لا يمكن للإنسان اللحاق بها، وذلك لأن سرعة تباعد بعض المجرات عنا وعن بعضها بعضاً تقترب من ثلاثة أرباع سرعة الضوء المقدرة بنحو الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، وهذا الجزء المدرك من الكون مبني بدقة بالغة على وتيرة واحدة، تبدأ بتجمعات فلكية حول النجوم **كمجموعتنا الشمسية** التي تضم بالإضافة إلى الشمس عدداً من الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات التي تدور في مدارات محددة حول الشمس، وتنطوي أمثال هذه **المجموعة الشمسية** بملايين الملايين في مجموعات أكبر تعرف باسم **المجرات**، وتكون عشرات من المجرات المتقاربة ما يعرف باسم **المجموعة المحلية**، وتلتقي المجرات ومجموعاتها المحلية فيما يعرف باسم **الحشود المجرية**، وتنطوي تلك في **تجمعات محلية للحشود المجرية**، ثم في **حشود مجرية عظمى**، ثم في **تجمعات محلية للحشود المجرية العظمى** إلى ما هو أكبر من ذلك حتى نهاية لا يعلمها إلا الله ﷻ.

شمسنا:

هي عبارة عن كتلة غازية ملتهبة، مشتعلة، مضيئة بذاتها على هيئة نجم عادي متوسط الحجم ومتوسط العمر. ويقدر نصف قطر الشمس بنحو سبعمائة ألف كيلو متر، وتقدر كتلتها بنحو ألفي مليون مليون مليون مليون طن تقريباً، ويقدر متوسط كثافتها بحوالي 1.14 جرام للسنتيمتر المكعب، بينما يصل متوسط كثافة لبها إلى أكثر من 90 جراماً للسنتيمتر المكعب، وتتناقص الكثافة في اتجاه إكليل الشمس لتصل إلى جزء من عشرة ملايين جزء من الجرام للسنتيمتر المكعب.

ويزيد حجم الشمس على مليون مرة قدر حجم الأرض، كما تزيد كتلتها على كتلة الأرض بنحو 400.333 ضعف. وتقدر درجة حرارة سطح الشمس بنحو ستة آلاف(5800)

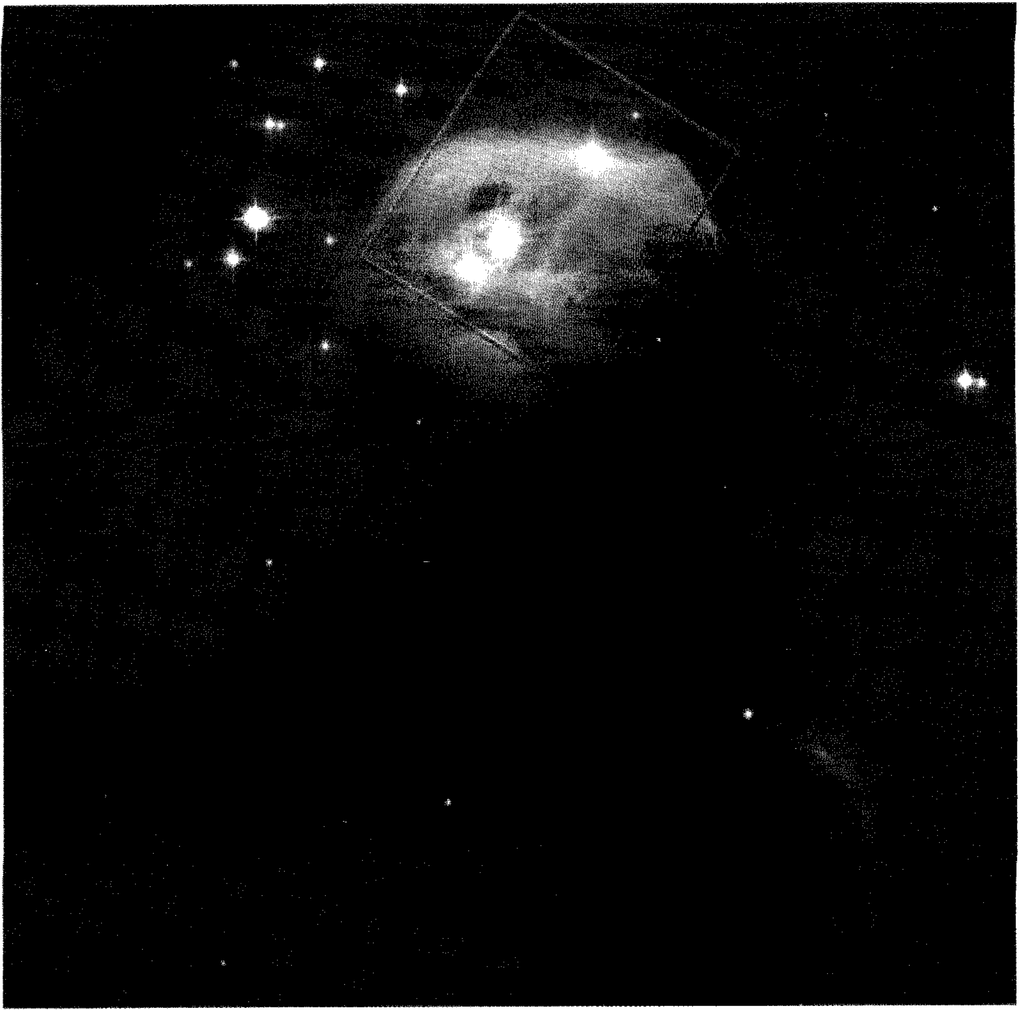


شكل (88) صورة للسديم ($WFPC_2$) أخذها المرصد الإنجليزي الأسترالي

درجة مطلقة، ودرجة حرارة لبها بنحو15 مليون درجة مطلقة، بينما تصل درجة حرارة هالتها (إكليلها) إلى مليوني درجة مطلقة.

وتتكون الشمس أساساً من غاز الإيدروجين (70%)، والهيليوم(28%) ومن نسب ضئيلة من عدد من العناصر الأخرى (2%). وتنتج الطاقة في الشمس ـ وفي أغلب النجوم أساساً ـ من تحول الإيدروجين إلى هيليوم بعملية الاندماج النووي، وتستمر العملية لإنتاج آثار طفيفة من عناصر أعلى في وزنها الذري.

ونظراً للطبيعة الغازية الغالبة على تركيب الشمس فإن دورانها حول محورها يتم بطريقة تفاضلية **(Differential Rotation)** وذلك لأن قلب الشمس يدور كجسم صلب يتم دورته في 5.36 يوم من أيامنا، بينما الكرة الغازية المحيطة بهذا القلب الشمسي (ويبلغ سمكها ثلثي نصف قطر الشمس) يتم دورته حول مركز الشمس في نحو 24 يوماً من أيامنا، وعلى ذلك فإن متوسط سرعة دوران الشمس حول محورها يقدر بنحو 27 يوماً وثلث يوم من أيام الأرض. وتجري الشمس (ومعها مجموعتها) نحو نقطة محددة في كوكبة هرقل (كوكبة



شكل (89) صورة لتخلق نجم في سديم المخروط

الجاثي) بالقرب من نجم النسر الواقع **(Vega)** بسرعة تقدر بنحو 19.5 كيلو متر في الثانية، وتسمى هذه النقطة باسم قمة (مستقر) الشمس. وتجري المجموعة الشمسية كذلك حول مركز مجرتنا (الدرب اللبني) بسرعة خطية تقدر بنحو 250 كيلومتراً في الثانية لتتم دورتها في حدود 225 مليون سنة من سنينا.

من مكونات السماء

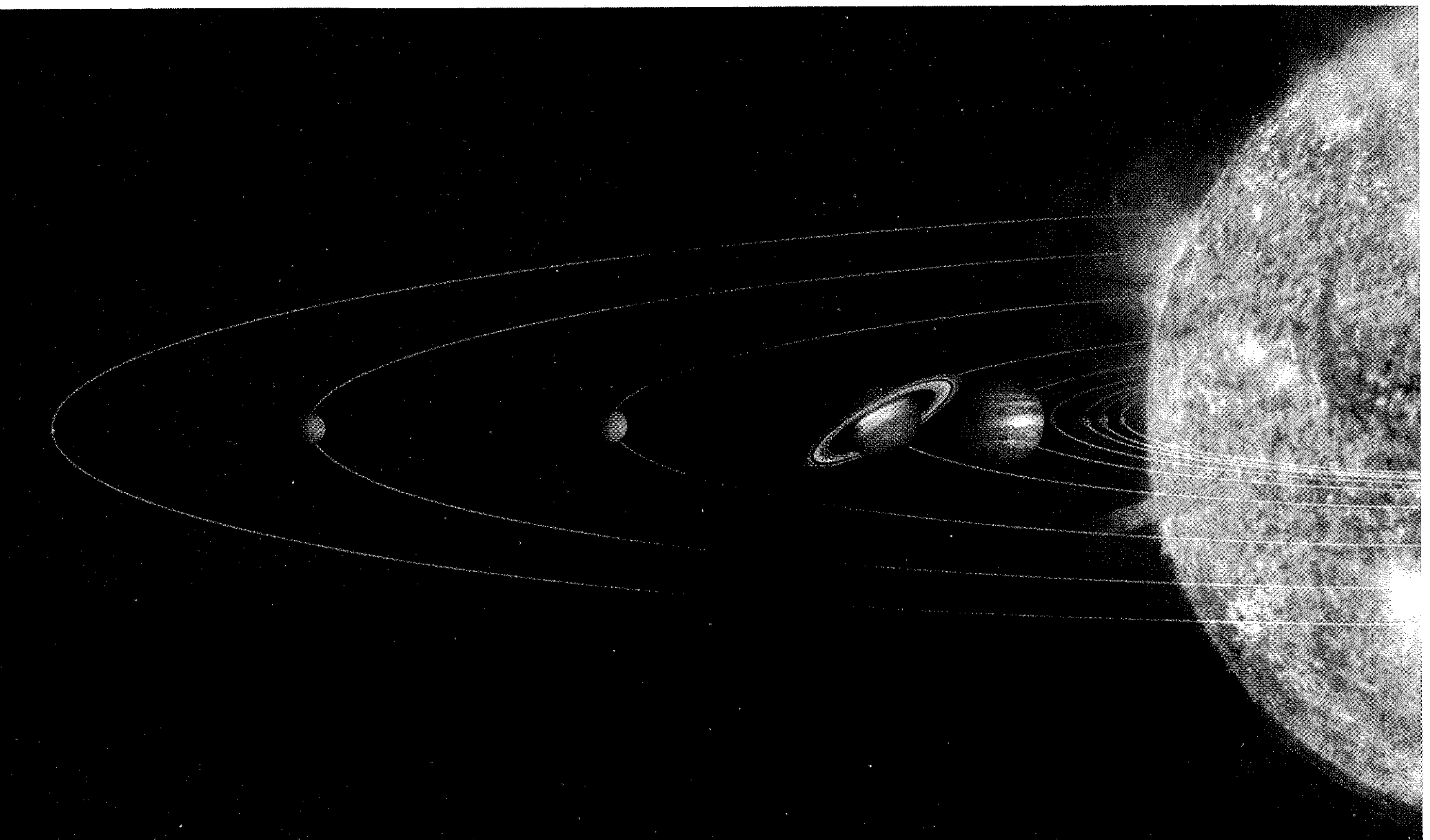
(1) مجموعتنا الشمسية:

بالإضافة إلى الشمس تضم مجموعتنا الشمسية عدداً من الكواكب هي (قرباً من الشمس إلى الخارج): عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، الكويكبات، (والتي يعتقد بأنها بقايا لكوكب منفجر) المشتري، زحل، يورانوس، نبتيون، بلوتو، ثم بروسوبينا، ثم مدارات المذنبات التي لم تعرف لها حدود بعد، هذا بالإضافة إلى عدد من التوابع (الأقمار) التي يقدر عددها بواحد وستين قمراً، تدور حول بعض من هذه الكواكب، وآلاف الشهب والنيازك، وكميات من الدخان.

والكواكب الأربعة الداخلية (عطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ) هي كواكب صخرية، والكواكب الخارجية (من المشتري إلى بلوتو) هي كواكب غازية تتكون من عدد من الغازات المتجمدة على هيئة جليد (من مثل بخار الماء، ثاني أكسيد الكربون، الأمونيا، الإيدروجين والهيليوم) حول لب صخري. أما كوكب بروسوبينا فلم يتم رصده بعد، وإن قدر موقعه حسابياً.

وكواكب المجموعة الشمسية تدور كلها حول الشمس في اتجاه واحد، وفي مستوى واحد تقريباً ما عدا بلوتو، وذلك في مدارات شبه دائرية (إهليلجية) بحيث تقع الشمس في إحدى بؤرتي كل مدار من هذه المدارات. وأبعد نقطة على المدار يصل إليها الكوكب تسمى الأوج، وأقرب نقطة تسمى الحضيض، ومتوسط مجموعهما يمثل متوسط بعد الكوكب عن الشمس، كذلك تزداد سرعة الكوكب بقربه من الشمس وتقل ببعده عنها بحيث يمس الخط الوهمي الواصل بينه وبين الشمس مساحات متساوية في وحدة الزمن. وتقدر المسافة بين الأرض والشمس بنحو المائة والخمسين مليون كيلو متر (149.6 مليون كم) وقد اعتبرت هذه المسافة وحدة فلكية دولية واحدة.

وتقدر المسافة بين الشمس وأقرب كواكبها (عطارد) بنحو الثمانية والخمسين مليوناً من الكيلومترات (57.9 مليون كم) كما تقدر المسافة بين الشمس وأبعد الكواكب المعروفة عنها (بلوتو) بنحو ستة بلايين من الكيلومترات (5,591.3 مليون كم)، ويلي مدار بلوتو إلى الخارج سحابة ضخمة من المذنبات التي تدور حول الشمس في مدارات يقدر بعد بعضها عن الشمس بأربعين ألف وحدة فلكية (أي نحو ستة تريليونات من الكيلومترات)، ومن الممكن وجود مدارات حول الشمس أبعد من ذلك ولكنها لم تكتشف بعد، وإذا كان امتداد



رسم للمجموعة الشمسية ومداراتها حول الشمس، وحجم كل منها بالنسبة لها.

- الشمس - عطارد - الزهرة - الأرض - المريخ - المشتري - زحل - يورانوس - نبتون - بلوتو

المجموعة الشمسية يعبر عنه بأبعد مسافة نعرفها حول الشمس تتم فيها حركة مدارية حول هذا النجم، فإن مدار بلوتو (أو مدار بروسوبينا) لا يمكن أن يعبر عن حدود مجموعتنا الشمسية، وعليه فإننا في زمن التقدم العلمي والتقني المذهل الذي نعيشه لم ندرك بعد الحدود الخارجية لمجموعتنا الشمسية...!!!

(2) مجرة الدرب اللبني (The Milky Way Galaxy):

تنطوي مجموعتنا الشمسية مع حشد هائل من النجوم يقدر بنحو التريليون (مليون مليون) نجم، فيما يعرف باسم مجرة الدرب اللبني (درب اللبانة) على هيئة قرص مفلطح يقدر قطره بنحو المائة ألف سنة ضوئية، ويقدر سمكه بعشر ذلك (أي حوالي العشرة آلاف سنة ضوئية)، وتقع مجموعتنا الشمسية على بعد يقدر بنحو الثلاثين ألف سنة ضوئية من مركزه، وعشرين ألف سنة ضوئية من أقرب أطرافه. وتتجمع النجوم حول مركز المجرة فيما يشبه النواة، وتلتوي الأجزاء الخارجية من قرص المجرة مكونة أذرعاً لولبية تعطي لمجرتنا هيئتها الحلزونية، وترتبط النجوم في مجرتنا (وفي كل مجرة) مع بعضها البعض بقوى الجاذبية، مشكلة نظاماً يتحرك في السماء كجسم واحد؛ وتتجمع النجوم في مجرتنا في أربع مستويات مجرية أو جمهرات نجمية **(Stellar populations)** على النحو التالي:

(1) انتفاخ النواة المركزية للمجرة (The Galaxy Nuclear Bulge):

ويوجد حول مركز المجرة بقطر يبلغ 32,000 سنة ضوئية محتوياً نواة المجرة **(The Galactic Nucleus)** التي يبلغ قطرها 16 سنة ضوئية، وتتكدس فيه أعداد هائلة من النجوم القديمة تكدساً شديداً مع قليل من الغاز والغبار اللذان يتواجدان عادة بين النجوم.

(2) قرص المجرة (The Galactic Disc):

ويتكون من طبقتين: قرص رقيق بسمك لا يتعدى الألف سنة ضوئية إلا بالقليل (1060 سنة ضوئية) أي حوالي 1% من سمك المجرة المقدر بأكثر من عشرة آلاف سنة ضوئية، ويمتد إلى مسافة 50,000 سنة ضوئية من مركز المجرة إلى كل طرف من أطرافها، ويحيط به قرص آخر سميك يبلغ سمكه أربعة أضعاف سمك القرص الرقيق (4238 سنة ضوئية من مستوى المجرة) وتقع شمسنا في منتصف أحد أطراف القرص الرقيق تقريباً (على بعد 28,000 سنة ضوئية من مركز المجرة). ويحتوي قرص المجرة على نجوم حديثة التكوين نسبياً بالإضافة إلى غازات وغبار ما بين النجوم.

ولما كان للمجرات الشبيهة بمجرتنا أذرع لولبية مكونة اساساً من الغاز الكوني والغبار ومن نجوم صغيرة نسبياً، يتوقع الفلكيون أن يكون لقرص مجرتنا أذرع مشابهة تماماً وذلك لوحدة البناء في الكون المدرك.

(3) الهالة الداخلية للمجرة (The Inner Galactic Halo):

وتنتشر حول قرص المجرة بامتداد يصل إلى 130,000 سنة ضوئية من مركز المجرة، وتختلط بقرصها السميك عند اتصالها به، وتشتمل على تجمعات كروية للنجوم **(Globular clusters)** وعلى العديد من الغازات والأتربة البينيّة للنجوم.

وتشير قراءات المركبة الفضائية المعروفة باسم «المستكشف الدولي بواسطة الأشعة فوق البنفسجية» [**The International Ultraviolet Explorer Spacecraft (I.U.E.)**] إلى أن بعض الغازات في هذه الهالة المجرية هي غازات حارة تصل درجة حرارتها إلى مائة ألف درجة مطلقة. وتحتوي الهالة الداخلية للمجرة على عدد من النجوم القديمة نسبياً.

(4) الهالة الخارجية للمجرة أو تاج المجرة

(The Outer Galactic Halo or the Galactic Corona):

وهي حالة معتمة للمادة في هيئة غير معروفة قد تكون مكونة من أعداد كبيرة من النجوم المنكدرة، أو الثقوب السود، أو كميات مكدسة من النيوترينوات **(Neutrinos)**، تتركز على مسافات تتراوح بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف سنة ضوئية من مركز المجرة مما يزيد في أبعاد مجرتنا من خمسة إلى ستة أضعاف ما كان معروفاً إلى أواخر السبعينيات من القرن العشرين.

ويوجد في تاج مجرتنا من خمسة إلى عشرة أضعاف ما في باقي أجزاء المجرة مجتمعة من كتلة، وهذه الكتل الإضافية الهائلة في مجرتنا توقعتها حسابات الجاذبية وعبرت عنها باسم «مشكلة الكتل المفقودة» **(The Missing Mass Problem)**، وقد أدت هذه الحسابات إلى الحقيقة القائمة والتي مؤداها أن 95% من كتلة مجرتنا مكون من مواد غير معروفة لنا تماماً وسبحان الذي أنزل من فوق سبع سماوات ومن قبل أربعة عشر قرناً قوله الحق:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ **(الحاقة: 38 ـ 40)**

وتنتشر بين النجوم سحب دخانية يغلب على تركيبها غاز الإيدروجين الحامل للغبار على هيئة هباءات متناهية في الدقة من المواد الصلبة مكونة ما يعرف باسم المادة بين النجوم **(The Interstellar Matter)** التي تمتص ضوء النجوم فتخفيها، ولذلك فإن الراصد لمجرتنا

من الأرض لا يرى بوضوح أكثر من 15% من مجموع مكوناتها إلا باستخدام المقربات (التليسكوبات) الراديوية.

وبالمقارنة بالمجرات الشبيهة يعتقد كثير من الفلكيين بأن قرص مجرتنا يجرّ معه أذرعه اللولبية التي قد ترتفع فوق مستوى النواة، ويعتقدون كذلك بأن السحب الدخانية في تلك الأذرع تتحرك بسرعات تتراوح بين الخمسين والمائة كيلو متر في الثانية، وتتراكم هذه السرعات الخطية على سرعة دوران محورية تقدر بنحو 250 كيلو متراً في الثانية دون أن تنفصل أذرع المجرة عن نواتها بسبب التفاوت في سرعة الأجزاء المختلفة منها.

وهذا الدوران التفاضلي (التفاوتي) يؤدي إلى تسارع المادة الدخانية بين النجوم، ثم إلى كبح سرعتها مما ينتج عنه تكثيفها بدرجة كبيرة وبالتالي تهيئتها لتخلق النجوم الابتدائية **(The Pro-or Proto-stars)** التي تتطور إلى ما بعد ذلك من مراحل. ومن نجوم مجرتنا ما هو مفرد، وما هو مزدوج، وما هو عديد الأفراد. وتدور نجوم مجرتنا في حركة يمينية أساسية منتظمة حول مركز المجرة في اتجاه القطر الأصغر لها، مع وجود الدوران التفاوتي لمختلف أجزائها.

(3) تجمعات المجرات (Galactic Groups):

ويحصي علماء الفلك في الجزء المدرك من السماء الدنيا مائتي ألف مليون مجرة - على الأقل - بعضها أكبر من مجرتنا كثيراً، وبعضها الآخر أصغر قليلاً، والمجرات عبارة عن تجمعات نجمية مذهلة في أعدادها، يتخللها الدخان الكوني بتركيز متفاوت في داخل المجرة الواحدة، والتي قد تضم عشرات البلايين إلى بلايين البلايين من النجوم.

وتتباين المجرات في أشكالها كما تتباين في أحجامها، وفي شدة إضاءتها، فمنها الحلزوني، والبيضاني (الإهليلجي)، وما هو غير محدد الشكل، ومنها ما هو شديد الإضاءة، وما يبدو على هيئة نقاط باهتة لا تكاد تدرك بأكبر المناظير المقربة (المقاريب)، وتقع أكثر المجرات ضياء في دائرة عظمى تحيط بنا في اتجاه عمودي تقريباً على مستوى مجرتنا. وتبلغ كتلة الغازات في بعض المجرات ما يعادل كتلة ما بها من نجوم وتوابعها، في حين أن كتلة الغبار تقل عن ذلك بكثير، وكثافة الغازات في المجرة تقدر بحوالي ذرة واحدة لكل سنتيمتر مكعب بينما يبلغ ذلك 1910 ذرات/ سم3 في الغلاف الغازي للأرض عند سطح البحر.

وتترتب المجرات في مجموعات تتعاظم في الكبر بالتدريج على النحو التالي إلى نهاية لا يعلمها إلا الله الخالق ﷻ:

أ ـ المجموعة المحلية (The Local Group):

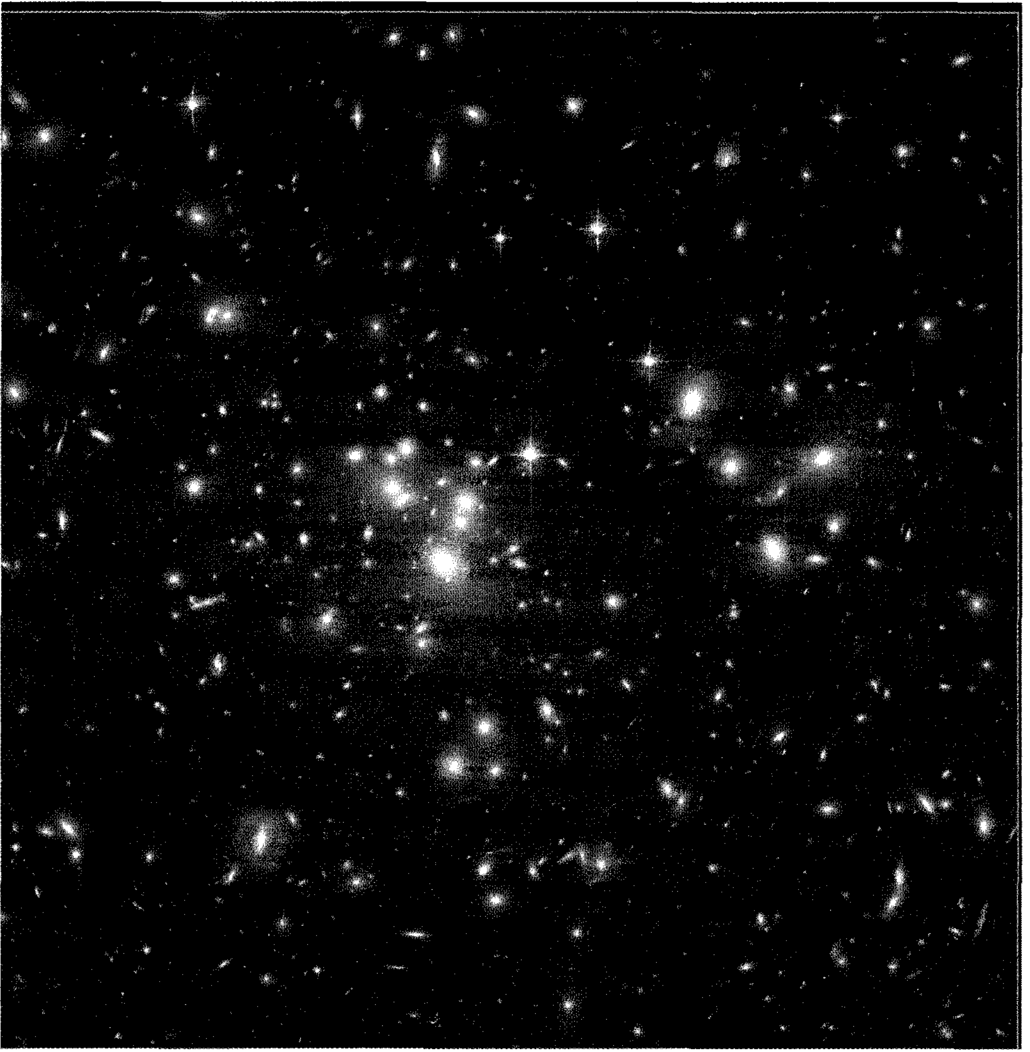
تحشد مجرتنا (درب اللبانة) في مجموعة من أكثر من عشرين مجرة في تجمع يعرف باسم المجموعة المحلية للمجرات **(The Local Group of Galaxies)** يبلغ قطرها مليون فرسخ فلكي أي يساوي 3,261,500 سنة ضوئية «لأن الفرسخ الفلكي الواحد **(Astronomical Parsec)** يساوي 3.2615 من السنين الضوئية». وتحتوي المجموعة المحلية التي تتبعها مجرتنا على ثلاث مجرات حلزونية، وأربع مجرات غير محددة الشكل، وأعداد من المجرات البيضانية العملاقة والقزمة، وقد تحتوي على عدد أكبر من المجرات الواقعة في ظل مجرتنا ومن هنا تصعب رؤيتها.

ب ـ الحشود المجرية والحشود المجرية العظمى:

(Galactic Clusters and Superclusters)

هناك حشود للمجرات أكبر من المجموعة المحلية من مثل حشد مجرات برج العذراء **(The Virgo Cluster of Galaxies)** والذي يضم مئات المجرات من مختلف الأنواع، ويبلغ طول قطره مليوني فرسخ فلكي أي أكثر من ستة ملايين ونصف من السنين الضوئية (6,523,000 سنة ضوئية)، ويبعد عنا عشرة أضعاف تلك المسافة (أي عشرين مليون فرسخ فلكي). وهذه الحشود المجرية تصدر أشعة سينية بصفة عامة، وتحوي فيما بينها دخاناً توازي كتلته كتلة التجمع المجري، وتتراوح درجة حرارته بين عشرة ملايين ومائة مليون درجة مطلقة، ويحوي هذا الدخان الإيدروجيني نسباً ضئيلة من هباءات صلبة مكونة من بعض العناصر الثقيلة بما في ذلك الحديد (بنسب تقترب مما هو موجود في شمسنا) وقد يشير ذلك إلى اندفاع تلك العناصر من نجوم متفجرة وصلت فيها عملية الاندماج النووي إلى مرحلة انتاج الحديد (من مثل المستعرات العظمى). وتحوي بعض الحشود المجرية أعداداً من المجرات قد يصل إلى عشرة آلاف مجرة، ويحصي علماء الفلك آلافاً من تلك الحشود المجرية التي ينادي البعض منهم بتكدسها في حشود أكبر يسمونها باسم الحشود المجرية العظمى **(Galactic Superclusters)** . وقد أحصى الفلكيون منها أعداداً كبيرة على بعد مليوني سنة ضوئية منا.

ومن المعتقد اليوم أن المجموعة المحلية **(The Local Group)** التي تنتمي إليها مجرتنا (درب اللبانة)، والحشود المجرية المحيطة بها من مثل حشد مجرات برج العذراء **(The Virgo Cluster of Galaxies)** تكون تجمعاً أكبر يعرف باسم الحشد المجري المحلي



شكل (90) صورة لتجمع نجمي من المجرة (Abell 1689) **صورتها عدسات تلسكوب هابل الفضائي**

الأعظم **(The Local Galactic Supercluster)** يضم قرابة المائة من الحشود المجرية على هيئة قرص واحد يبلغ قطره مائة مليون من السنين الضوئية، ويبلغ سمكه عشر ذلك (أي عشرة ملايين من السنين الضوئية) وهي نفس نسبة سمك مجرتنا (درب اللبانة) إلى طول قطرها، فسبحان الذي بنى السماء على نمط واحد بهذا الانتظام الدقيق ليشهد له بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

وتبدو الحشود المجرية والحشود المجرية العظمى على هيئة كروية تدرس في شرائح

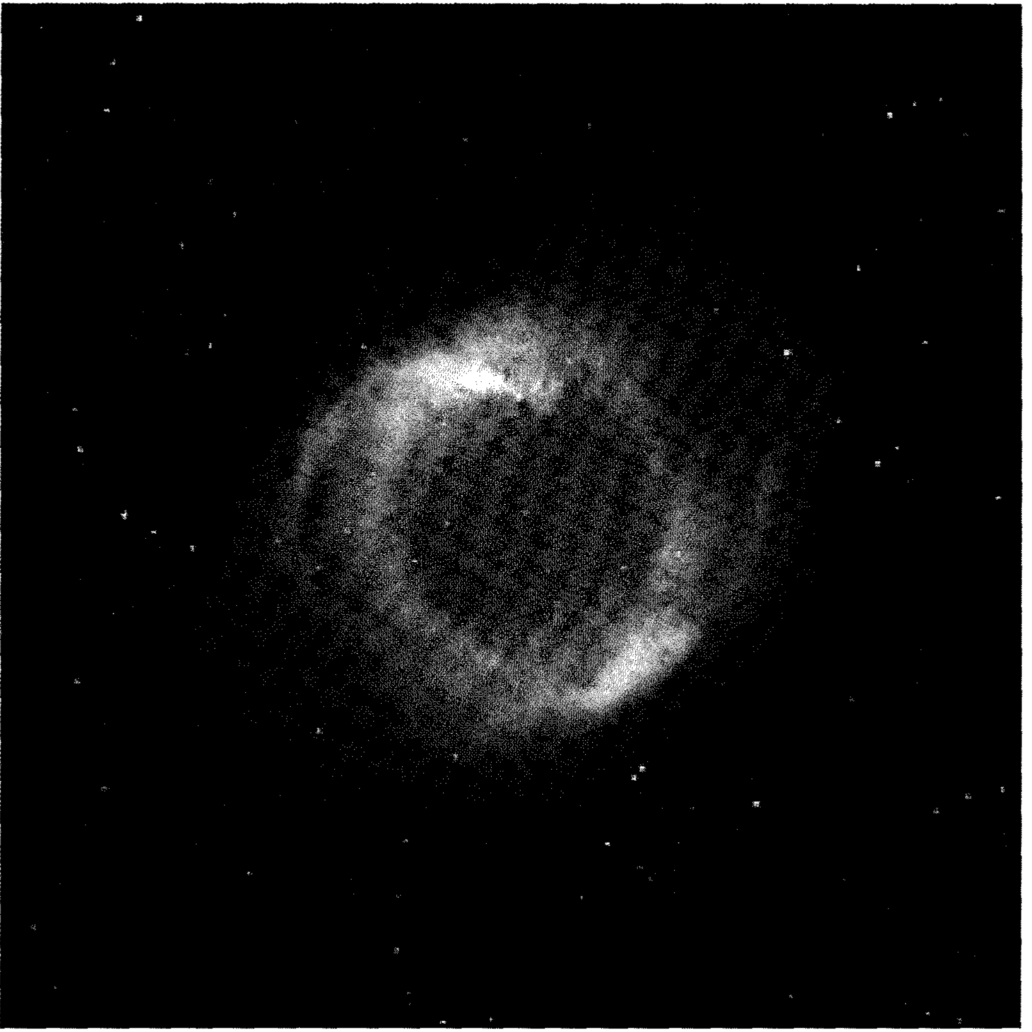


شكل (91) صورة لمجرتنا في وسط الجزء المدرك من السماء الدنيا

مقطعية تكون أبعادها في حدود(150 × 100 × 15) سنة ضوئية، وأكبر هذه الشرائح ويسمى مجازاً باسم الحائط العظيم **(The Great Wall)** يزيد طوله على 250 مليون سنة ضوئية. وقد تم الكشف أخيراً عن حوالي المائة من الحشود المجرية العظمى التي تكون حشداً أعظم على هيئة قرص يبلغ طول قطره 2 بليون سنة ضوئية، وسمكه مائتي مليون سنة ضوئية (وهي نفس نسبة سمك كل من مجرتنا إلى طول قطرها، وسمك الحشد المجري المحلي الأعظم الذي تنتمي إليه مجرتنا إلى طول قطره). ويعتقد عدد من الفلكيين المعاصرين بأن في الجزء المدرك من الكون تجمعات أكبر من ذلك.

والنجوم في مختلف تجمعاتها وحشودها، وعلى مختلف هيئاتها ومراحل نموها تمثل أفراناً نووية كونية يخلق الله تعالى فيها مختلف صور المادة والطاقة اللازمة لبناء الجزء المدرك من الكون بعمليات الاندماج النووي بين نوى العناصر الخفيفة كالإيدروجين والهيليوم لإنتاج العناصر الأعلى في وزنها الذري.

وبالإضافة إلى النجوم وتوابعها المختلفة هناك السدم **(Nebulae)** على تعدد أشكالها



شكل (92) صورة لسديم كوكبي مشع

وأنواعها، وهناك المادة بين النجوم **(The Inter-Stellar Matter)** ، وهناك المادة الداكنة **(The Dark Matter)**، وغير ذلك من مكونات الكون المدرك، المحسوس منها وغير المحسوس من مختلف صور المادة والطاقة المدسوسة في ظلمة الكون. ويقدر الفلكيون كتلة الجزء المدرك من السماء الدنيا بمائة ضعف كتلة المادة والطاقة المرئية والمحسوسة فيه، بمعنى أننا ـ في زمن تفجر المعرفة الذي نعيشه ـ لا ندرك إلا عشرة في المائة فقط من الجزء الذي وصل إليه علمنا من السماء الدنيا، وسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله ﷻ:

(1) ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 85).

(2) وقــولــه (ﷻ): ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(غافر: 57)**.

(3) وقوله الحق: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ **(الحاقة: 38، 39)**.

ومن هنا تتضح أهمية القسم بالسماء وما بناها في الآية الخامسة من سورة الشمس، هذا القسم التفخيمي الذي جاء تعظيماً لشأن السماء وتقديساً لخالقها (ﷻ)، وتنبيهاً لنا للتفكر في عظم اتساعها، ودقة بنائها، وانضباط حركتها، وإحكام كل أمر من أمورها، وغير ذلك من جوانب الإعجاز في خلقها، وإشارة ذلك كله إلى شيء من صفات خالقها، وبارئها، ومصورها، والممسك بها وحافظها من أن تقع على الأرض أو أن تزول إلا بإذنه، وهي قضايا لم يدركها الإنسان بشيء من التفصيل إلا منذ عشرات قليلة من السنين، وورود القسم بها في كتاب الله، مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد لخاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) بأنه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض. وذلك مما يزيد المؤمنين تثبيتاً على إيمانهم، ويدعو غيرهم من المشركين والكفار إلى الإيمان بالله الخالق، وطاعته وعبادته وحده بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ففي ذلك النجاة والنجاح في الدنيا والآخرة، ولا نجاة ولا نجاح في غير ذلك. ولما كانت السماء شاسعة الاتساع، دقيقة البناء، ومنضبطة الحركة فهي شاهدة على عظمة الله خالقها وخالق كل شيء (ﷻ)...!!!

من هنا كان قسم الله (ﷻ) بالسماء ـ وهو الغني عن القسم ـ وكان التأكيد القرآني على عظم شأنها في عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم نختار منها قول الحق ﷻ:

(1) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ **(الأنبياء: 16)**

(2) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ **(الفُرقان: 61)**

(3) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ **(صٓ: 27)**

(4) ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ **(البقرة: 164)**

(5) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: 190)

(6) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنعام: 73).

(7) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ (الحجر: 85).

(8) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الروم: 8).

(9) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (الروم: 22).

(11) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ (الشورى: 29).

(12) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: 57)

(13) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: 38، 39)

(12) ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الجاثية: 3).

ومن هنا أيضاً كانت أهمية القسم بالسماء في الآية الخامسة من سورة الشمس التي يقول فيها ربنا ﷻ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ (الشمس: 5).

وهو قسم يتواءم مع ضخامة وروعة بناء السماء وعظمة بانيها ﷻ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، فسبحانه وتعالى عن الشبيه والشريك والمنازع والصاحبة والولد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

(14) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾

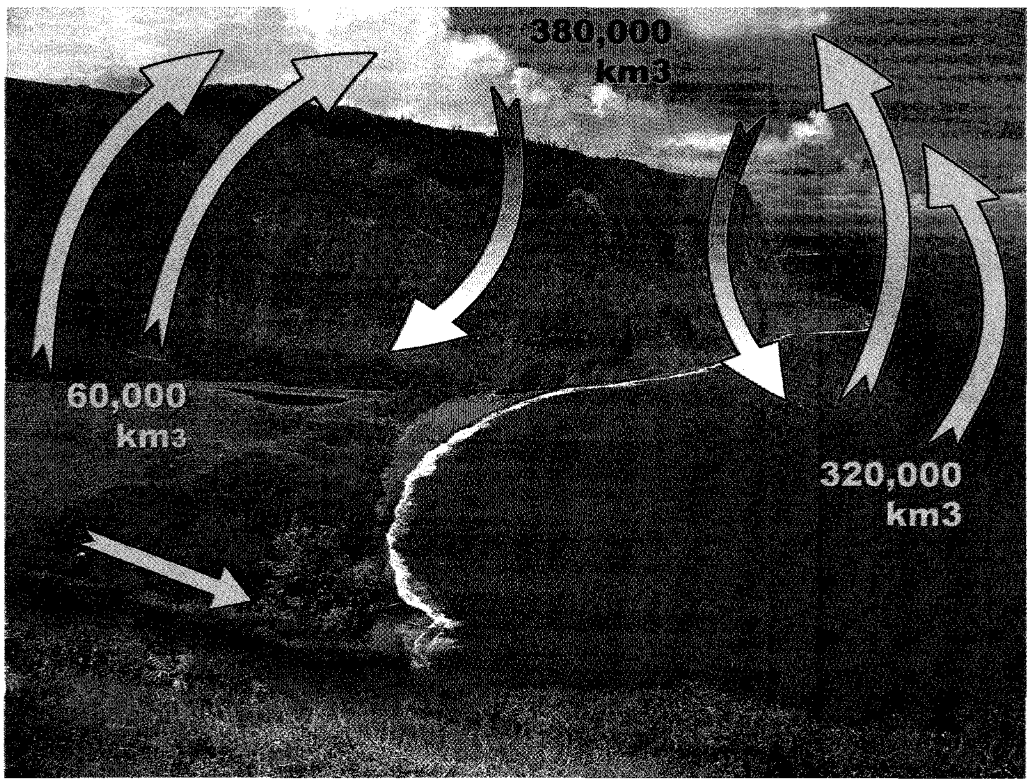
(الطّارق: 11)

هذه الآية الكريمة التي جاءت في منتصف سورة الطارق هي من آيات القسم في القرآن الكريم، والقسم في كتاب الله يأتي من قبيل تنبيهنا إلى أهمية الأمر الذي جاء به القسم. لأن الله تعالى غني عن القسم لعباده كما سبق وأن ذكرنا. والقسم هنا بالسماء وبصفة خاصة من صفاتها وهي أنها (ذات الرجع)، وفي ذلك قال قدامى المفسرين: إن (رجع) السماء هو المطر، وأنه سمي (رجعاً)؛ لأن بخار الماء يرتفع أصلاً من الأرض إلى السماء حيث يتكثف ويعود إلى الأرض مطراً بإذن الله، في عملية دائمة التكرار والإعادة، ولفظة (الرجع) هنا مستمدة من الفعل رجع بمعنى: عاد وآب ولذا سمي المطر (رجعاً) كما سمي أوباً، لأن (الرجوع) هو العود إلى ما كان منه البدء.

ومع تسليمنا بصحة هذا الاستنتاج يبقى السؤال المنطقي: إذا كان المقصود بالتعبير (رجع السماء) هو المطر فقط فلماذا فضل القرآن الكريم لفظة الرجع على لفظة المطر؟ ولماذا لم يأت القسم القرآني بالتعبير «والسماء ذات المطر» بدلاً من ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾؟

واضح الأمر أن لفظة (الرجع) في هذه الآية الكريمة لها من الدلالات ما يفوق مجرد نزول المطر ـ على أهميته القصوى لاستمرارية الحياة على الأرض ـ مما جعل هذه الصفة من صفات السماء محلاً لقسم الخالق سبحانه وتعالى ـ وهو الغنيّ عن القسم ـ تعظيماً لشأنها وتفخيماً. فما هو المقصود (بالرجع) في هذه الآية الكريمة؟

يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أن من معاني (الرجع) هنا: الارتداد، أي أن من الصفات البارزة في سمائنا أنها ذات رجع أي ذات ارتداد، بمعنى أن كثيراً مما يرتفع إليها من الأرض ترده إلى الأرض ثانية، وأن



شكل (93) رجع ماء الأرض إليها عبر دورة الماء حول الأرض بكميات متساوية ما بين التبخر وهطول الأمطار

كثيراً مما يهبط عليها من أجزائها العليا يرتد ثانية إلى المصدر الذي هبط عليها منه، فالرجع صفة أساسية من صفات السماء، أودعها فيها خالق الكون ومبدعه، فلولاها ما استقامت على الأرض حياة، ومن هنا كان القسم القرآني بها تعظيماً لشأنها، وتنبيهاً لنا للحكمة البالغة من إيجادها وتحقيقها...!!!

الرجع في اللغة العربية:

يقال في اللغة العربية: (رجع يرجع رجوعاً) بمعنى: عاد يعود عوداً، وغيره (رجعه) أو (أرجعه) بمعنى أعاده ورده، و(الرجوع) هو العود إلى ما كان منه البدء، ويقال: (رجعه، يرجعه، رجعاً) كما يقال: (رجع يرجع رجعاً وترجيعاً) بمعنى رد يرد رداً (فالرجع) لغة هو العود، والارتداد، والرد، والانصراف والإفادة، والإعادة، ولذلك يقال للمطر (رجعاً) لرد الهواء ما تناوله من ماء الأرض بطريقة مستمرة، كما يقال للغدير (رجعاً) بنسبته إلى المطر الذي ملأه، أو لتراجع أمواجه وترددها في مكانه، ويستند في ذلك إلى قول الحق ﷻ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ (الطّارق: 11)

أي ذات المطر وقيل فيها أيضاً: أي ذات النفع.

ويقال: (رجّع يرجّع ترجيعاً) أي ردّد يردّد ترديداً، (فالترجيع ترديد الصوت في الحلق بالقراءة وفي الغناء، وتكرير القول مرتين فصاعداً، ومنه (الترجيع) في الأذان، وكل تكرار في الكلام فهو (رجع) و(رجيع) ومعناه (مرجوع) أي: مردود، و(الرجع) أيضاً صدى الصوت. ويقال (راجع) أي: عاود، و(المراجعة) المعاودة، ويقال: (راجعه) الكلام أي ردّ عليه. و(الرجعة) العودة من الطلاق، والعودة إلى الدنيا بعد الممات. يقال: (رجعت) عن كذا (رجعاً) و(رجوعاً) أي رفضته بعد قبوله، و(رجعت) الجواب أي رددت عليه، و(المرجع) و(الرجعي) هو (الرجوع) والعود أو مكان العود وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾ (المائدة: 48). وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (الأعرَاف: 174) أي يرجعون عن الذنب أو يعودون إلى الله تعالى وهدايته الربانية وقوله ﷻ: ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ (النَّمل: 35) من الرجوع أو من رجع الجواب، وقوله ﷻ: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ (سَبَإ: 31)، أي يتلاومون، وقوله (تعالى): ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ (النَّمل: 28)، ويقال ليس لكلامه (مرجوع) أي مردود أو جواب، ودابة لها (مرجوع) أي لها مردود بمعنى أنه يمكن بيعها بعد استخدامها. و(الراجع) المرأة يموت عنها زوجها فترجع إلى أهلها (أما المطلقة فيقال لها مردودة).

و(الاسترجاع) الاسترداد، و(التراجع) الارتداد إلى الخلف أو (الرجوع) عن الأمر. يقال (استرجع) فلان منه الشيء أي أخذ منه ماكان قد دفعه إليه، و(استرجع) عند المصيبة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، و(الرجيع) الاستفراغ أو الرفث ويستخدم كناية عن أذى البطن عند كل من الإنسان والحيوان، وهو من (الرجوع) ويكون بمعنى الفاعل، أو من (الرجع) ويكون بمعنى المفعول؛ و(الرجيع) من الكلام المردود إلى صاحبه أو المكرر.

المفسرون ورجع السماء

في تفسير قوله (تعالى): ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ (الطارق: 11).

ذكر ابن كثير (رحمه الله) أن رجع السماء هو المطر، ذكره ابن عباس (رضي الله عنهما)، وعنه أيضاً أن (الرجع) هو السحاب فيه المطر، وأشار ابن كثير أيضاً إلى رأي قتادة (يرحمه الله) في (السماء ذات الرجع) أنها ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، وذكر الصابوني (أمدَّ الله في عمره) نفس المعاني. ويؤكد صاحب الظلال (يرحمه الله) على

هذا المعنى بقوله: الرجع: المطر ترجع به السماء المرة بعد المرة. وذكر مخلوف (يرحمه الله): (والسماء) أي المظلة، (ذات الرجع) أي المطر، وسمي رجعاً لأن السحاب يحمل الماء من بخار البحار والأنهار، ثم يرجعه إلى الأرض مطراً، أو لأنه يعود ويتكرر، من (رجع) إذا عاد، ولذا يسمي أوباً، وتكرراً، وكذلك ذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم أن القسم هنا بالسماء ذات المطر الذي يعود ويتكرر.

الفعل رجع في القرآن الكريم:

ورد الفعل (رجع) بمشتقاته في القرآن الكريم مائة وأربع مرات (104) في الصيغ التالية:

(رجع، رجعتم، رجعك، رجعنا، رجعناك، رجعوا، أرجع، ترجعونها، ترجعوهن، يرجع، يرجعون، ارجع، أرجعنا، ارجعوا، أرجعون، ارجعي، رجعت، ترجع، ترجعون، يرجع، يرجعون، يتراجعا، رجع، الرجع، رجعه، الرجعي، راجعون، مرجعكم، مرجعهم). وجاءت لفظة رجْع فيها ثلاث مرات على النحو التالي:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ (قٓ: 3).

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ (الطّارق: 8).

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ (الطّارق: 11).

وكلها بمعنى الرجوع، والعودة، والارتداد، والرّد والإعادة، وهو ما يمكن أن يعيننا في فهم دلالة الرجع في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ (الطّارق: 11)، وهو معنى أوسع وأشمل من مجرد رجوع ماء الأرض المتبخر من سطحها ومن تنفس إنسها وحيواناتها ونتح نباتاتها، وإلا لكان القسم بالسماء ذات المطر.

السماء في اللغة العربية:

(السماء) لغة: اسم مشتق من (السمو) بمعنى الارتفاع والعلو، تقول: (سما، يسمو، سمواً)، فهو (سام) بمعنى علا، يعلو، علواً، فهو عالٍ أو مرتفع، لأن السين والميم والواو أصل يدل على الارتفاع والعلو، يقال: (سموت وسميت) بمعنى: علوت وعليت للتنويه بالرفعة والعلو، وعلى ذلك فإن سماء كل شيء أعلاه ومن هنا قيل: كل ما علاك فأظلك فهو (سماء). ولفظة (السماء) في العربية تذكر وتؤنث (وإن كان تذكيرها يعتبر شاذاً)، وجمعها (سمٰوات) كما جاء في القرآن الكريم وهناك صيغ أخرى لجمعها ولكنها غريبة.

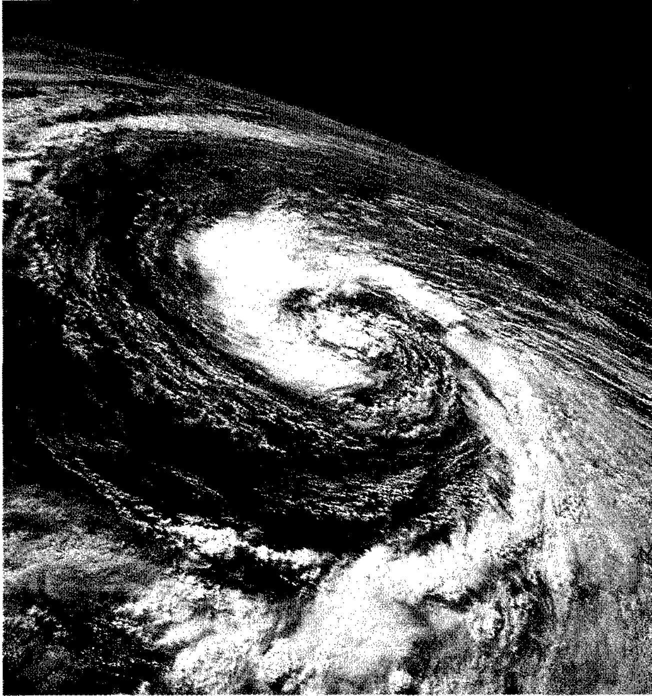
وانطلاقاً من هذا التعريف اللغوي قيل لسقف البيت: (سماء) لارتفاعه، وقيل للسحاب: (سماء) لعلوه، واستعير اللفظ للمطر بسبب نزوله من السحاب، وللعشب لارتباط نبته بنزول ماء السماء.

و(السماء) لدينا: هي كل ما يقابل الأرض من الكون، والمراد بها ذلك العالم العلوي من حولنا والذي يضم الأجرام المختلفة من الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والنجوم والبروج، وغيرها من مختلف صور المادة والطاقة التي تملأ الكون بصورة واضحة جلية أو مستترة خفية.

وقد خلق الله تعالى السماء ـ وهو سبحانه خالق كل شيء ـ ورفعها بغير عمد نراها، وجعل لها عماراً من الملائكة ومما لا نعلم من الخلق، وحرسها من كل شيطان مارد من الجن والإنس، فهي محفوظة بحفظه تعالى إلى أن يرث الكون بما فيه ومن فيه.

السماء في القرآن الكريم:

تكرر ورود لفظة (السماء) في القرآن الكريم ثلاثمائة وعشر مرات، منها مائة وعشرون بالإفراد (السماء)، ومائة وتسعون بالجمع (السمٰوات)، والجمع في غالبيته إشارة إلى كل ما حول الأرض من خلق أي: إلى الكون في جملته، والإشارات المفردة منها ثمان وثلاثون (38) يفهم من مدلولها الغلاف الغازي للأرض بسحبه ورياحه وكسفه، واثنتان وثمانون (82) يفهم منها السماء الدنيا غالباً والكون أحياناً. وقد جاءت الإشارة القرآنية إلى السمٰوات والأرض وما بينهما في عشرين موضعاً من كتاب



شكل (94) صورة للغلاف الغازي للأرض بسحبه ورياحه

الله، وأغلب الرأي أن المقصود بما بين السمٰوات والأرض هو الغلاف الغازي للأرض بصفة عامة، والجزء الأسفل منه (نطاق المناخ) بصفة خاصة، وذلك لقول الحق ﷻ:

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ **(البَقَرَة: 164).**

والسحاب يتحرك في نطاق المناخ الذي لا يتعدى سمكه 16 كيلو متراً فوق مستوى سطح البحر عند خط الاستواء، والذي يحوي أغلب مادة الغلاف الغازي للأرض (75% بالكتلة). والقرآن الكريم يشير إلى إنزال الماء من السماء في أكثر من آية، وواضح الأمر أن المقصود بالسماء هنا هو السحاب أو النطاق المحتوي على السحاب والمعروف علمياً بنطاق المناخ.

العلوم الكونية ورجع السماء:

إذا كان المقصود «**بالسماء ذات الرجع**» في سورة الطارق هو الغلاف الغازي للأرض بنطاق من نطاقاته (مثل نطاق المناخ) أو بكل نطقه، فإن دراسة ذلك الغلاف الغازي قد أكدت لنا أن كثيراً مما يرتفع من الأرض إليه من مختلف صور المادة والطاقة (من مثل هباءات الغبار المتناهية الدقة في الصغر، بخار الماء، كثير من غازات أول وثاني أكسيد الكربون، أكاسيد النيتروجين، النوشادر، الميثان وغيرها، الموجات الحرارية كالأشعة تحت الحمراء، والراديوية كموجات البث الإذاعي، والصوتية، والضوئية، والمغناطيسية، وغيرها) كل ذلك يرتد ثانية إلى الأرض راجعاً إليها. كذلك فإن كثيراً مما يسقط على الغلاف الغازي للأرض من مختلف صور المادة والطاقة يرتد راجعاً عنه بواسطة عدد من نطق الحماية المختلفة التي أعدها ربنا (ﷻ) لحمايتنا وحماية مختلف صور الحياة الأرضية من حولنا.

وإذا كان المقصود بـ «**السماء ذات الرجع**» في هذه السورة المباركة هو كل السماء الدنيا التي زينها ربنا (ﷻ) بالنجوم والكواكب فإن علوم الفلك قد أكدت لنا أن كل أجرام السماء قد خلقها الله تعالى من الدخان الكوني (دخان السماء) الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم التي يسميها القرآن الكريم: عملية الفتق (أو فتق الرتق)، وأن كل أجرام السماء الدنيا تمر في دورة حياة تنتهي بالعودة إلى دخان السماء عن طريق الانفجار أو الانتثار، لتتخلق من هذا الدخان السماوي أجرام جديدة تعيد الكرة في دورات مستمرة من تبادل المادة والطاقة بين أجرام السماء ودخانها (المادة المنتشرة بين النجوم في المجرة الواحدة، المجرات وتجمعاتها المختلفة، وفي السدم وفي فسحة السماء الدنيا، وربما في كل الكون الذي لا نعلم منه إلا جزءاً يسيراً من السماء الدنيا). وهذه صورة مبهرة من صور الرجع التي لم يدركها العلماء إلا بعد اكتشاف دورة حياة النجوم في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

وسواء كان المقصود بـ «**السماء ذات الرجع**» إحدى الصورتين السابقتين أو كليهما معاً فهو سبق قرآني مبهر بحقيقة كونية لم يدركها العلماء إلا منذ عشرات قليلة من السنين وذلك مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأنه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

نطق الغلاف الغازي للأرض:

تحاط الأرض بغلاف غازي يقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلو مترات، ويتناقص فيه الضغط مع الارتفاع من واحد كيلو جرام على السنتيمتر المكعب تقريباً (1.0336 كج/سم3) عند مستوى سطح البحر إلى قرابة الصفر عند ارتفاع ستين كيلو متراً تقريباً فوق مستوى سطح البحر.

ويقسم هذا الغلاف الغازي للأرض على أساس من درجة حرارته إلى عدة نطق من أسفل إلى أعلى على النحو التالي:

(1) نطاق التغيرات الجوية [نطاق المناخ أو نطاق الرجع (The Troposphere)]:

ويمتد من سطح البحر إلى ارتفاع 16 كيلو متراً فوق خط الاستواء ويتناقص سمكه إلى نحو عشرة كيلو مترات فوق القطبين وإلى أقل من ذلك فوق خطوط العرض الوسطى (7 ـ 8 كيلو مترات) وعندما يتحرك الهواء من خط الاستواء في اتجاه القطبين فإنه يهبط فوق هذا المنحنى الوسطي فتزداد سرعته، وتجبر حركة الأرض في دورانها حول محورها من الغرب إلى الشرق كتل الهواء على التحرك تجاه الشرق بصفة عامة وبسرعة فائقة، تجعل من هذا التيار ما يعرف باسم التيار النفاث **(The Jet Stream)**. وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته، فوق خط الاستواء، وذلك نظراً للابتعاد عن سطح الأرض الذي يعمل على تدفئة هذا النطاق بعد غياب الشمس، فسطح الأرض يمتص حوالي 47% من أشعة الشمس فترتفع درجة حرارته أثناء النهار، وعند غياب الشمس يبدأ في إعادة إشعاع الحرارة التي امتصها على هيئة أشعة تحت حمراء إلى الغلاف الغازي للأرض، خاصة إلى بخار الماء وجزيئات ثاني أكسيد الكربون الجويين، في السحب فترد هذه السحب 98% من تلك الأشعة على هيئة رجع حراري لولاه لتجمدت الأرض بما عليها من مختلف صور الحياة بمجرد غياب الشمس. وهذا الرجع الحراري لم يدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين؛ ومن هنا تنخفض درجة حرارة نطاق التغيرات الجوية مع الارتفاع للبعد عن مصدر الدفء وهو سطح الأرض، كما ينخفض الضغط إلى عشر الضغط الجوي في قمة نطاق الرجع.

وعندما تهب كتلة من هواء بارد فوق كتلة أخرى من هواء ساخن فإن الهواء البارد يهبط إلى أسفل، بينما يصعد الهواء الساخن إلى أعلى محدثاً تيارات حمل مستمرة في هذا النطاق أعطته اسم نطاق الرجع **(The Troposphere)** كما يعبر عن ذلك الأصل اليوناني للكلمة. ولولا الانخفاض المطرد لدرجات الحرارة في هذا النطاق السفلي من نطق الغلاف الغازي للأرض لفقدت الأرض مياهها بمجرد اندفاع أبخرة تلك المياه من فوهات البراكين، ولاستحالت الحياة على الأرض.

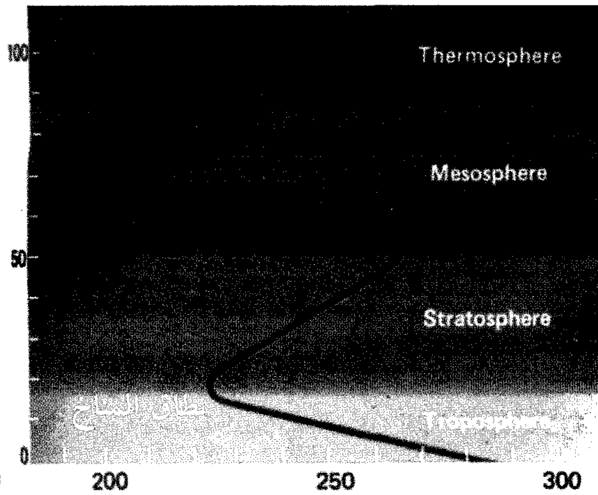
(2) نطاق التطبق (The Stratosphere):

ويمتد من فوق نطاق التغيرات الجوية إلى ارتفاع حوالي خمسين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وترتفع فيه درجة الحرارة من ستين درجة مئوية تحت الصفر في قاعدته إلى الصفر المئوي في قمته، ويعود السبب في ارتفاع درجة الحرارة إلى امتصاص وتحويل



شكل (95) صورة للسحب وهي مصدر من مصادر رجع السماء

الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس بواسطة جزيئات الأوزون التي تتركز في قاعدة هذا النطاق (حول ارتفاع يتراوح بين 18 و30 كم) مكونة طبقة خاصة تعرف باسم طبقة أو نطاق الأوزون (The Ozonosphere).



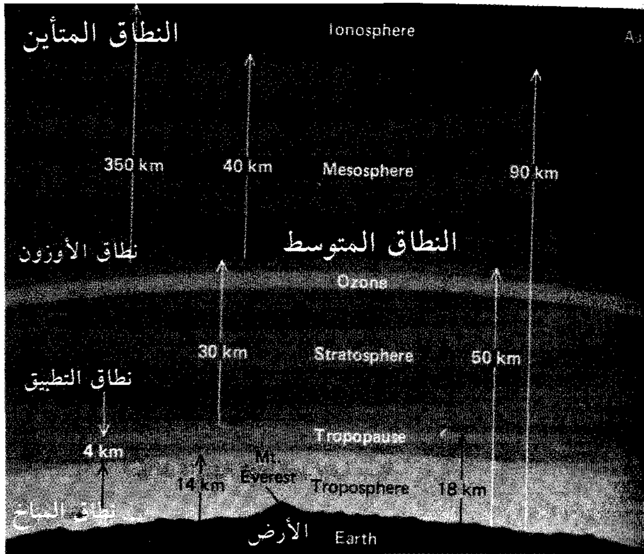
شكل (96) نطق الغلاف الغازي للأرض والتغير في درجة الحرارة فيها مع الارتفاع

(3) النطاق المتوسط (The Mesosphere):

ويمتد من فوق نطاق التطبق إلى ارتفاع يتراوح بين 80، 90 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وتنخفض فيه درجة الحرارة لتصل إلى مائة وعشرين درجة مئوية تحت الصفر.

(4) النطاق الحراري (The Thermosphere):

ويمتد من فوق النطاق المتوسط إلى عدة مئات من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، وترتفع فيه درجة الحرارة باستمرار إلى خمسمائة درجة مئوية عند ارتفاع مائة وعشرين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وتبقى درجة الحرارة ثابتة عند هذا الحد إلى أكثر من ألف كيلو متر، ولكنها تقفز إلى 1500 درجة مئوية في فترات نشاط البقع الشمسية.



شكل (97) بعض نطق الغلاف الغازي للأرض

وفي جزء من هذا النطاق (من ارتفاع مائة كيلو متر إلى

أربعمائة كيلو متر فوق مستوى سطح البحر) تتأين جزيئات الغلاف الغازي بفعل كل من الأشعة فوق البنفسجية والسينية القادمتين من الشمس، ولذا يسمى باسم النطاق المتأين **(The Ionosphere)**. وفوق نطاق التأين يعرف الجزء الخارجي من النطاق الحراري باسم النطاق الخارجي **(The Exosphere)** ويقلّ فيه الضغط ويزداد فيه التداخل مع دخان السماء أو ما يعرف تجاوزاً باسم الفضاء الخارجي.

(5) أحزمة الإشعاع (The Radiation Belts):

وهي عبارة عن كرتين تحيطان بالأرض إحاطة كاملة وتبدوان في القطاع على هيئة زوجين من الأحزمة الهلالية الشكل التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة وتزداد في السمك حول خط الاستواء، وترق رقة شديدة عند القطبين، وتحتوي على أعداد كبيرة من البروتونات والإليكترونات التي اصطادها المجال المغناطيسي للأرض. ويتركز الزوج الداخلي من هذه الأحزمة حول ارتفاع 3200 كيلو متر فوق مستوى سطح البحر، بينما يتركز الزوج الخارجي من هذه الأحزمة حول ارتفاع 25000 كيلو متر فوق مستوى سطح البحر.

من صور رجع السماء:

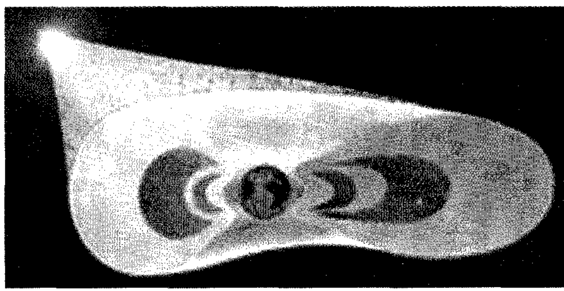
باعتبار المقصود من السماء في الآية الكريمة ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ هو الغلاف الغازي للأرض نجد الصور التالية من رجع السماء.

(1) الرجع الاهتزازي للهواء (الأصوات وصداها):

تحتوي الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض (نطاق التغيرات الجوية) على 75% من كتلة ذلك الغلاف الذي يتكون أساساً من غاز النيتروجين (78% حجماً)، والأوكسجين (21.95% حجماً)، وآثار خفيفة من بخار الماء، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون، وبعض هباءات الغبار، وآثار أقل تركيزاً من الإيدروجين، الأرجون، الهيليوم، وبعض مركبات الكبريت.

وكل من التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية لهذا النطاق يعتبر من الضرورات الأساسية للحياة الأرضية، ومنها القدرة على السمع، فلو لم يكن لنطاق الرجع هذه الكثافة الغازية المحددة ما أمكن للاهتزازات المحدثة للأصوات وصداها أن تسمع، فعندما تهتز أحبالنا الصوتية تحدث اهتزازاتها ضغوطاً في الهواء تنتشر على هيئة أمواج تتحرك في الهواء في كل الاتجاهات من حولنا، فتصطدم بالجوامد وترتد على هيئة صدى الصوت أو تتلقاها طبلة الأذن لأفراد آخرين فتحدث بها من الاهتزازات والارتدادات ما يمكنهم من سماعها

بوضوح، ولولا التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية المحددة لذلك النطاق ما سمع بعضنا بعضاً ولاستحالت الحياة. وذلك لأن الصوت لا ينتقل في الفراغ لعدم وجود جزيئات الهواء القادرة على نقل الموجات الصوتية.



شكل (98) يوضح نطق الإشعاع من الغلاف الغازي للأرض

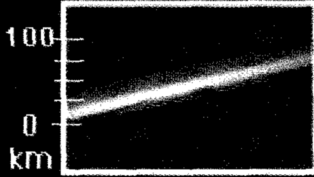
وتتحرك الموجات الصوتية في الهواء بسرعة 1200 كيلومتر في الساعة عند مستوى سطح البحر، وتزداد سرعة الصوت كلما زادت كثافة الوسط الذي يتحرك فيه، وتقل بقلة كثافته، ففي الماء تتضاعف سرعة الصوت أربع مرات تقريباً عنها في الهواء، وفي **النطق** العليا من الغلاف الغازي للأرض تتناقص حتى لا تكاد تسمع، ولذلك يتخاطب رواد الفضاء مع بعضهم بعضاً بواسطة الموجات الراديوية التي يمكنها التحرك في الفراغ.

وعندما تصطدم الموجات الصوتية بأجسام أعلى كثافة من الهواء، فإنها ترتد على هيئة صدى للصوت الذي له العديد من التطبيقات العملية. والرجع الاهتزازي للهواء على هيئة الأصوات وصداها هو أول صورة من صور رجع السماء، ولولاه ما سمع بعضنا بعضاً وما استقامت الحياة على الأرض.

(2) الرجع المائي:

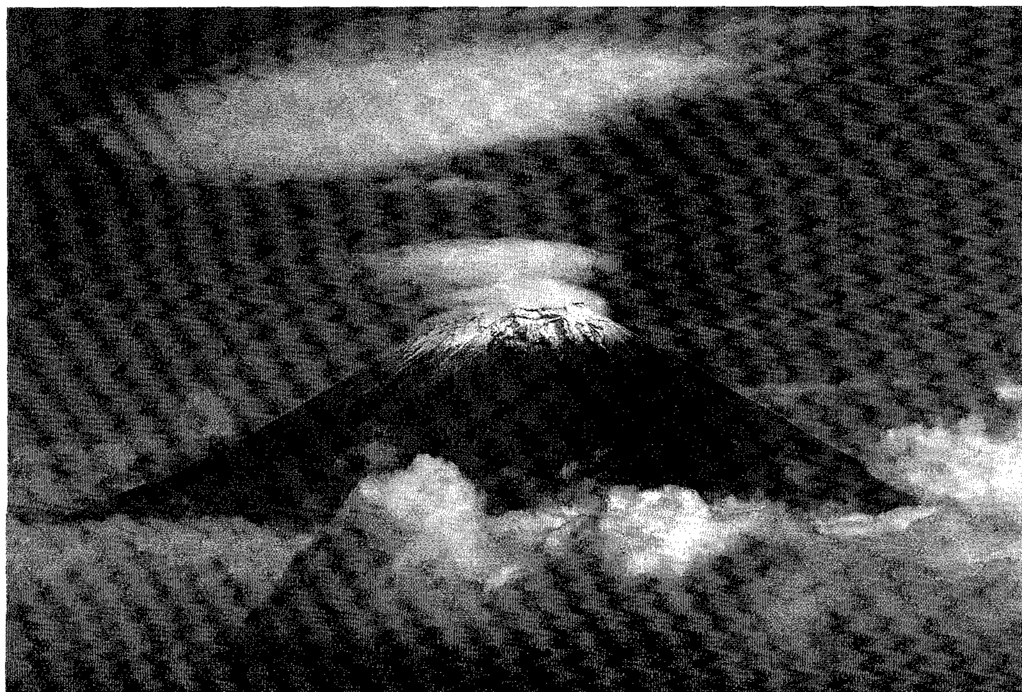
يغطي الماء أكثر قليلاً من 71% من المساحة الكلية للكرة الأرضية، وتبلغ كميته حوالي 1.4 (1.36) مليار كيلو متر مكعب (منها 97.2% في المحيطات والبحار، 2.15% على هيئة جليد حول القطبين وفي قمم الجبال، 0.65% في المجاري المائية المختلفة من الأنهار والجداول وغيرها، وفي كل من البحيرات العذبة وخزانات الماء تحت سطح الأرض. وهذا الماء اندفع كله أصلاً من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وتكثف في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية والتي تتميز ببرودتها الشديدة، فعاد إلى الأرض ليجري أنهاراً على سطحها ويفيض إلى منخفضاتها مكوناً البحار والمحيطات؛ ثم بدأ هذا الماء في حركة دائبة بين الأرض والطبقات الدنيا من الغلاف الغازي حفظته من التعفن ومن الضياع إلى طبقات الجو العليا؛ وتعرف هذه الدورة باسم «دورة الماء حول الأرض».

وماء الأرض يتبخر منه سنوياً (380,000) كيلو متر مكعب أغلبها(320000 كم^3)



شكل (99) يوضح بعض نطق الغلاف الغازي للأرض

يتبخر من أسطح المحيطات والبحار، والباقي (60,000 كم^3) يتبخر من سطح اليابسة، وهذا البخار تدفعه الرياح إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وتحمله السحب حيث يتكثف ويعود إلى الأرض مطراً أو ثلجاً أو برداً، وبدرجة أقل على هيئة ندى أو ضباب. وحينما ترجع أبخرة الماء من الجو إلى الأرض بعد تكثفها يجري قسم منها في مختلف أنواع المجاري المائية على اليابسة، وتصب هذه بدورها في البحار والمحيطات، كما يترشح جزء منها خلال طبقات الأرض ذات المسامية والنفاذية ليكون مخزون الماء تحت سطح الأرض، وهناك جزء يعاد تبخره إلى الجو مرة أخرى.



شكل (100) السحب ترد عنا حرارة الشمس في نهار الصيف، وفي الشتاء وتعمل على رجع الدفء المنبعث من صخور الأرض بعد تعرضها لحرارة الشمس

والماء المخزون تحت سطح الأرض هو أيضاً في حركة دائبة حيث يشارك في تغذية بعض الأنهار والبحيرات والمستنقعات، وقد يخرج إلى سطح الأرض على هيئة ينابيع، أو تحفر عليه الآبار، أو ينتهي بها المطاف إلى البحار والمحيطات.

وماء المطر يسقط على المحيطات والبحار بمعدل 284,000 كيلومتر مكعب في السنة، وعلى اليابسة بمعدل 96000 كيلومتر مكعب في السنة، وذلك في **دورة معجزة** في كمالها ودقتها، ومن صور ذلك أن ما يتبخر من أسطح المحيطات والبحار في السنة يفوق ما يسقط فوقها بمعدل 36,000 كيلومتر مكعب وأن ما يسقط من مطر على اليابسة سنوياً يفوق ما يتبخر منها بنفس المعدل (36,000كم^3)، ولما كان الفارق في الحالتين متساو تماماً فإنه يفيض من اليابسة إلى البحار والمحيطات ليحفظ منسوب الماء فيها عند مستوى ثابت في الفترة الزمنية الواحدة.

هذه الدورة المعجزة للماء حول الأرض هي الصورة الثانية من صور رجع السماء، ولولاها لفسد كل ماء الأرض الذي يحيا ويموت فيه بلايين الكائنات في كل لحظة، ولتعرض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار، ولبرودة شديدة بالليل.

(3) الرجع الحراري إلى الأرض وعنها إلى الفضاء بواسطة السحب:

يصل إلى الأرض من الشمس في كل لحظة شروق كميات هائلة من طاقة الشمس، ويعمل الغلاف الغازي للأرض كدرع واقية لنا من حرارة الشمس أثناء النهار، لأن ذراته وجزيئاته تمتص وتشتت وتعيد إشعاع أطوال موجات محددة من الأشعة الشمسية في كل الاتجاهات بعيداً عن الأرض. كما يعمل النطاق الأسفل منه (نطاق الرجع) كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت ويردها إلى الأرض.

وتعرف كمية الطاقة الشمسية التي تقع على السنتيمتر المربع من سطح الأرض في كل ثانية من فترات إشراقها وهي على متوسط المسافة بينها وبين الأرض باسم الثابت الشمسي **(The Solar Constant)**، ويقدر ذلك بحوالي 033 , ـ كالوري/ سم^2/ ثانية (أي حوالي 2 كالوري/ سم^2/ دقيقة) بافتراض عدم وجود غلاف غازي للأرض، علماً بأن غالبية هذه الطاقة تفقد بمرورها في هذا الغلاف الغازي.

ومن الأشعة الشمسية القادمة إلى الأرض يمتص ويشتت ويعاد إشعاع حوالي 53% منها بواسطة الغلاف الغازي للأرض، وتمتص صخور وتربة الأرض حوالي 47% منها، ولولا هذا الرجع الحراري إلى الخارج لأحرقت أشعة الشمس كل صور الحياة على الأرض، ولبخرت الماء وخلخلت الهواء.

وعلى النقيض من ذلك فإن السحب التي ترد عنا ويلات حرارة الشمس في نهار الصيف هي التي ترد إلينا (98%) من أشعة الدفء بمجرد غروب الشمس، فصخور الأرض تدفأ أثناء النهار بحرارة الشمس بامتصاص حوالي 47% من أشعتها فتصل درجة حرارتها إلى حوالي 15 درجة مئوية في المتوسط، وبمجرد غياب الشمس تبدأ صخور الأرض في إعادة إشعاع حرارتها على هيئة موجات من الأشعة تحت الحمراء تمتصها جزيئات كل من بخار الماء وثاني أكسيد الكربون فتدفيء الغلاف الغازي للأرض، كما تعمل السحب على إرجاع غالبية الموجات الطويلة التي ترتفع إليها من الأرض (98%) مرة أخرى إلى سطح الارض وبذلك تحفظ الحياة الأرضية من التجمد بعد غياب الشمس.

ولو لم يكن للأرض غلاف غازي لأحرقتها حرارة الشمس بالنهار، ولولا السحب المتكونة في الجزء السفلي من غلاف الأرض الغازي ما رجع إلينا الدفء المنبعث من صخور الأرض بعد تعرضها لحرارة الشمس، ولتشتتت هذه الحرارة إلى فسحة الكون، وتجمدت الأرض وما عليها من صور الحياة في نصف الكرة المظلم بمجرد غياب الشمس. وهذا الرجع الحراري بصورتيه إلى الخارج وإلى الداخل مما يحقق صفة الرجع لسماء الأرض.

(4) رجع الغازات والأبخرة والغبار المرتفع من سطح الأرض:

عندما تثور البراكين تدفع بملايين الأطنان من الغازات والأبخرة والأتربة إلى جو الأرض الذي سرعان ما يرجع غالبية ذلك إلى الأرض، كذلك يؤدي تكون المنخفضات والمرتفعات الجوية إلى دفع الهواء في حركة أفقية ينشأ عنها تصريف الرياح التي يتحكم في هبوبها (بعد إرادة الله تعالى) عدة عوامل منها: مقدار الفرق بين الضغط الجوي في منطقتين متجاورتين، ومنها دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، ومنها تنوع تضاريس الأرض، والموقع الجغرافي للمنطقة.

والغالبية العظمى من المنخفضات الجوية تتحرك مع حركة الأرض (أي من الغرب إلى الشرق) بسرعات تتراوح بين 20 و30 كيلومتراً في الساعة، وعندما تمر المنخفضات الجوية فوق اليابسة تحتكّ بها فتبطؤ حركتها قليلاً وتحمل بشيء من الغبار الذي تأخذه من سطح الأرض، وإذا صادف المنخفض الجوي في طريقه سلاسل جبلية معترضة فإنه يصطدم بها مما يعين على إبطاء سرعتها وعلى صعود الهواء إلى أعلى، ولما كان ضغط الهواء يتناقص بالارتفاع إلى واحد من ألف من الضغط الجوي العادي (أي عند مستوى سطح البحر) إذا وصلنا إلى ارتفاع 48 كيلومتراً فوق ذلك المستوى، وإلى واحد من مائة ألف من الضغط الجوي إذا وصلنا إلى ارتفاع ألف كيلو متر، فإن قدرة الهواء على الاحتفاظ بالغبار المحمول من سطح الأرض تضعف باستمرار مما يؤدي إلى رجوعه إلى الأرض وإعادة توزيعه على سطحها بحكمة بالغة، وتعين على ذلك الجاذبية الأرضية.

(5) الرجع الخارجي للأشعة فوق البنفسجية بواسطة طبقة الأوزون:

تقوم طبقة الأوزون في قمة نطاق التطبق بامتصاص وتحويل الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون (O_3) وترد نسباً كبيرة منها إلى خارج ذلك النطاق، وبذلك تحمي الحياة على الأرض من أخطار تلك الأشعة المهلكة التي تحرق كلاً من النبات والحيوان والإنسان، وتتسبب في العديد من الأمراض من مثل سرطانات الجلد، وإصابات العيون وغيرها، ويمكن أن تؤدي إلى تبخير ماء الأرض بالكامل.

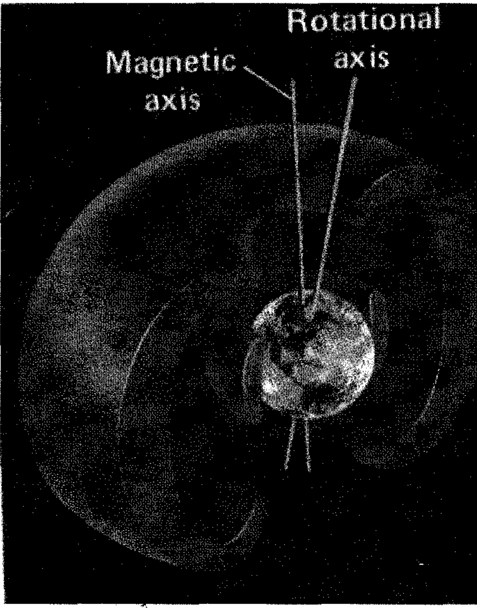
(6) رجع الموجات الراديوية بواسطة النطاق المتأين:

في النطاق المتأين (بين100 و400 كم فوق مستوى سطح البحر) تمتص الفوتونات النشيطة القادمة مع أشعة الشمس من مثل الأشعة السينية فتؤدي إلى رفع درجة الحرارة وزيادة التأين، ونظراً لانتشار الإليكترونات الطليقة في هذا النطاق فإنها تعكس الإشارات الراديوية القادمة مع أشعة الشمس إلى خارج نطاق الأرض، كما تعكس موجات الراديو المبثوثة من

فوق سطح الأرض وتردها إليها فتيسر عمليات البث الإذاعي والاتصالات الراديوية، وكلها تمثل صوراً مختلفة من الرجع.

(7) رجع الأشعة الكونية بواسطة كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض:

يمطر الغلاف الغازي للأرض بوابل من الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الكون فتردها، إلى الخارج كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض فلا يصل إلى سطح الأرض منها شيء، ولكنها تؤدي إلى تكوّن أشعة ثانوية قد يصل بعضها إلى سطح الأرض فتؤدي إلى عدد من ظواهر التوهج والإضاءة في ظلمة الليل من مثل ظاهرة الفجر القطبي.



شكل (101) أحزمة الإشعاع التي ترجع عنّا الأشعة الكونيّة

والأشعة الكونية بأنواعها المختلفة تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين، وذلك لعجزها عن عبور مجال الأرض المغناطيسي، ويؤدي ذلك إلى رد غالبية الأشعة الكونية القادمة إلى خارج نطاق الغلاف الغازي للأرض، وما يمكن أن يفلت منها ترده أحزمة الإشعاع، وهذه صورة من صور الرجع لم تعرف إلا بعد ريادة الفضاء في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

كذلك فإن بقية هذه الصور المتعددة لرجع السماء لم تعرف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وعلى ذلك فإن وصف السماء بأنها (ذات رجع) في القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين يجمع كل هذه الصور التي نَعْرفها اليوم، وربما العديد من الصور التي لم نَعْرفها بعد في كلمة واحدة وهي (الرجع)، وهذه الكلمة الجامعة هي شهادة صدق بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمداً ﷺ الذي تلقى هذا الوحي الحق هو خاتم أنبياء الله ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض؛ وصدق الله العظيم الذي وصف خاتم أنبيائه ورسله بقوله الحق:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ (النجم: 3 ـ 5).

بسم الله الرحمن الرحيم

(15) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾

(الذّاريَات: 7)

يستهل ربنا ﷻ سورة الذاريات بالقسم بعدد من آياته الكونية، الدالة على طلاقة قدرته، وكمال علمه، وتمام حكمته، وشمول سلطانه على أن ما وعد به خلقه من البعث والحساب، هو وعد صادق، وأن الجزاء على كل ما يفعله العبد في هذه الحياة الدنيا هو أمر محقق، واقع، لا فكاك منه، ولا هروب عنه...!!!

ثم يعاود ربنا ﷻ القسم مرة أُخرى، في نفس السورة (بالسماء ذات الحبك) على أن الناس ـ بصفة عامة ـ وكفار قريش ـ بصفة خاصة ـ مختلفون في أمور الدين اختلافاً كبيراً، وذلك لانطلاقهم فيه من منطلق التخرصات والظنون، والخلط بين ميراث البشرية من بقايا الهدايات الربانية القديمة، والانحرافات البشرية المبتدعة عن بواعث الهوى والضلال، فقد كان كفار قريش يعترفون بأن الله تعالى هو خالق السمٰوات والأرض، وخالق كل شيء، ولكنهم كانوا في نفس الوقت يعبدون الأصنام بدعوى أنها تقربهم إلى الله زلفى، وبزعم أنها تشفع لهم عند الله (ﷻ)، كما كانوا يعرفون عن سيدنا محمد ﷺ أنه الصادق الأمين، وصاحب الخلق العظيم، ولكن تغير حكمهم فجأة حين جاءهم بوحي السماء، فألقوا عليه من التهم الباطلة ما يتنافى مع كل ما عرفوه عنه، فاتهموه (شرفه الله تعالى وكرمه) بالسحر، والشعوذة، وبالشعر، والكهانة بل بالجنون، وكان ذلك كله في محاولة يائسة لصرف الناس عن التوحيد الخالص لله الخالق، وعن تنزيهه ﷻ عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والزوجة، والولد، وعن التسليم لهذا الدين الخاتم، ومن ركائزه الإيمان بالله الواحد الأحد، وبملائكته وكتبه ورسله، وبحتمية البعث والحساب، ثم الخلود في حياة أبدية قادمة، إما

في الجنة أبداً أو في النار أبداً...!!

وصرف الناس عن هذا الحق إضلال لهم، وهدر لحياتهم، وإفشال لدورهم في هذه الحياة، ومن هنا كانت الانحرافات البشرية عن منهج الله، وتحريفهم لدينه الحنيف جريمة من أفظع الجرائم وأقبحها عند الله، ولذلك وصفها ﷻ بالإفك، وهو صرف الشيء عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه من مثل الانصراف عن الحق إلى الباطل في الاعتقاد، وعن الصدق إلى الكذب في المقال، وعن الجميل إلى القبيح في الأفعال...!!!

ومن هنا، كان التعبير بالمأفوك في اللغة عمن صرف عقله، أي ضاع منه، فأصبح فاقد العقل والمنطق. ومن هنا أيضاً كان هذا القسم القرآني:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ (الذاريات: 7 ـ 14).

ومعنى ذلك: أن الكافرين في قول مختلف، مضطرب، وحيرة بالغة، وقلق دائم، وأوهام مفزعة، وظنون مضيعة في أمر الدين ـ بصفة عامة ـ وفي أمر الآخرة ـ بصفة خاصة ـ وما تستلزمه من بعث وحساب، وجنة ونار...!

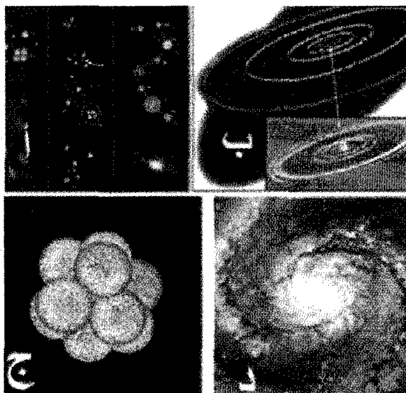
ومع التسليم الكامل بأن الله (ﷻ) غني عن القسم لعباده، وبأن القسم إنما يأتي في القرآن الكريم من قبيل تنبيهنا إلى أهمية الأمر الذي جاء به القسم في تنظيم الكون، واستقامة الحياة على الأرض، أو فيهما معاً يبقى السؤال: ما المقصود بالسماء ذات الحبك التي استوجبت هذا القسم القرآني العظيم؟

وللإجابة على ذلك، نبدأ أولاً بشرح المدلول اللغوي للفظة الحبك.

الحبك في اللغة العربية:

لفظة: (الحبك) مستمدة من الفعل (حبك)، بمعنى: شد وأحكم، يقال: (حبك) الأمر (يحبكه) (حبكاً)، كما يقال: (أحبك) الأمر (يحبكه) (حبكاً) و(إحباكاً) أحكمه. ويقال: (حبك) النساج الثوب، أي أجاد نسجه، و(حبك) الحائك الثوب أي أجاد صنعه، وضبط أبعاده، فالأمر (المحبوك) المحكم الصنعة، وكذلك (الحبيك) و (الحبيكة) أي (المحبوك) و(المحبوكة)، قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد (أحبكته). كذلك يقال في اللغة: (حبك) الأمر (يحبكه) (تحبيكاً)، أي وثقه وشدده ويقال: (تحبك) ثوبه أي التف به وشد (الحبكة)، و(احتبك) الثوب أي: (حبكه) حول جسده، و (احتبك) بالإزار أي

احتزم به، و(الحبكة) هي مشد الإزار أو ما يشدّ به الوسط، و(المحبك) هو مكان شد الإزار من الجسم، و(الاحتباك) شد الإزار، و(الحبكة) و(الحبيكة) تطلق على الحظيرة تكون بقصبات تعرض ثم تشد، أو هي الطريقة في الرمل ونحوه إذا هبت عليه رياح لطيفة أو أمواج متحركة، والجمع: (حباك) و(حبك) و(حبائك)، فالتموجات التي تظهر على صفحة الرمل إذا هبت عليه الرياح أو جرت عليه التيارات المائية تسمى: (حبكاً) و(حبائك) ومفردها (حبيكة) أو ما يطلق عليه اليوم اسم «علامات النيم»، ودرع الحديد لها (حبك).



شكل (102) صورة عن شدّة تماسك لبنات السماء من مرحلة الأيونات إلى مرحلة المجرّات

و(الحبيكة) وجمعها: (حبائك) و(حبك) هي الطريق من خصل الشعر ونحوه، فالشعرة الجعدة تكسرها (حبك)، وفي حديث الدجال أن شعره (حبك)، وعلى ذلك يقال: فلان رأسه (حبك) أي: شعر رأسه متكسر من الجعودة.

وقد جاءت لفظة (الحبك) في القرآن الكريم مرة واحدة فقط، وذلك في قول الحق ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ **(الذّاريَات: 7)**.

ومن الاستعراض اللغوي السابق، يتضح أن من معاني ذلك:

1 ـ السماء ذات الصنع المحكم والإبداع في الخلق.

2 ـ السماء ذات الروابط الشديدة والنسيج المحكم.

3 ـ السماء ذات التباين الواضح في كثافة المادة المكونة لها.

4 ـ السماء ذات المدارات المحددة لجميع الأجرام الجارية فيها.

من أقوال المفسرين

في تفسير القسم القرآني بقول الحق (سبحانه وتعالى): ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾.

● ذكر ابن كثير (رحمه الله) قول ابن عباس (رضي الله ﷻ عنهما): (ذات الحبك) أي: ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء، أي: ذات الخلق الحسن المستوي، وهو ما قال به أيضاً كل من مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، وقتادة وغيرهم من قدامى

المفسرين (يرحمهم الله جميعاً). كذلك أشار ابن كثير إلى قول الضحاك (رحمه الله): الرمل والزرع إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك (الحبك)، وإلى قول أبي صالح (رحمه الله) أن (ذات الحبك) أي ذات الشدة، وإلى قول خصيف (رحمة الله عليه) أن (ذات الحبك) تعني ذات الصفاقة أي الشفافية والرقة، وإلى قول الحسن البصري رضي الله عنه أنها حبكت بالنجوم، وإلى قول عبد اللّه بن عمرو (رحمه الله): ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ يعني: السماء السابعة، ويلخص ابن كثير كل هذه الأقوال بأنها ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس (رضي الله تعالى عنهما)، فإنها من حسنها مرتفعة، شفافة، صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالكواكب الزاهرات.

• وذكر مخلوف (رحمه الله) أن الله تعالى: أقسم بالسماء ذات الطرق التي تسير فيها الكواكب، وهي من بدائع الصنع، جمع (حبيكة) كطريقة وزناً ومعنى، أو (حباك) كمثل ومثال، و(الحبيكة) و(الحباك): الطريقة في الرمل ونحوه، ويقال: (حبك) لما يرى في الماء أو الرمل إذا مرت به الريح اللينة من التكسر والتثني، أو ذات الخلق السوي الجيد، من قولهم: (حبك) الثوب (يحبكه) (حبكاً)، أجاد نسجه، وكل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد (احتبكته)، وجواب القسم:

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ **(الذّاريَات: 8)**.

• وذكر صاحب الظلال (رحمه الله): يقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب، كتنسيق الزرد (أي الدرع) المتشابك المتداخل الحلقات...، وقد تكون هذه إحدى هيئات السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد، مجعدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح، وقد يكون هذا وضعاً دائماً لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة.

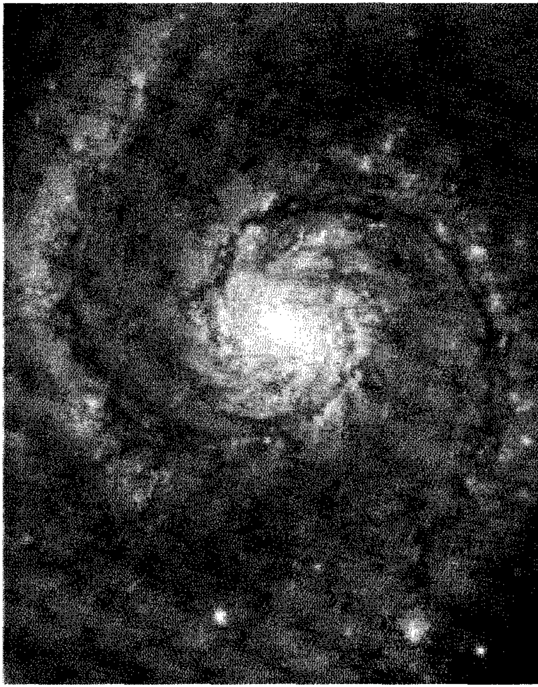
وذكر الصابوني (أمد الله في عمره) في شرح قول الحق تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: أي وأقسم بالسماء ذات الطرائق المحكمة والبنيان المتقن.

السماء ذات الحبك في المفهوم العلمي

تفيد المعلومات المتوفرة عن الجزء المدرك من السماء الدنيا، أن لتلك السماء من الصفات ما يلي:

(أ) أنها شاسعة الاتساع، عظيمة البناء، متقنة الخلق والصنعة.

(ب) أنها ذات ترابط محكم شديد في كل جزئية من جزئياتها.



شكل (103) صورة للمجرّة الحلزونية (M51) وهي شبيهة بمجرّتنا، فيها ملايين النجوم المرتبطة مع بعضها البعض برباط الجاذبية

(ج) أنها ذات كثافات متباينة في مختلف أجزائها.

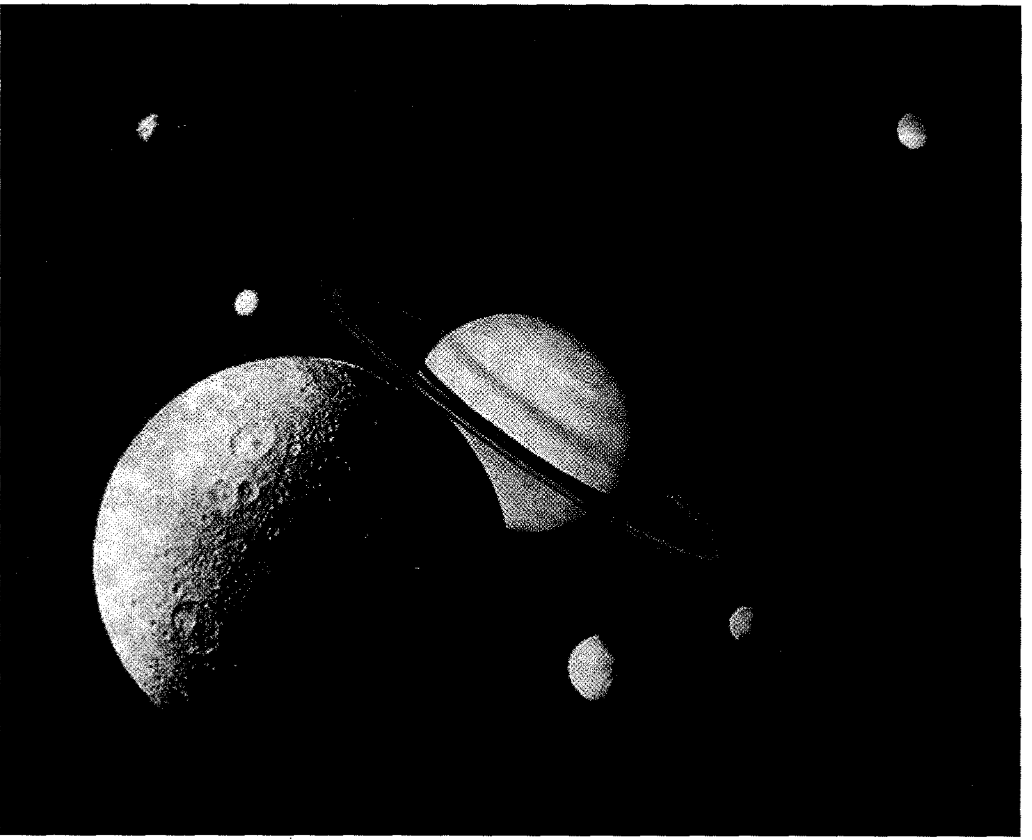
(د) أنهـا ذات مـدارات مـحـددة لكل جرم من أجرامها، على الرغم من تعاظـم أعدادهـا واستـمرارية دورانـهـا حول محاورها وسبحها في أفلاكها، كـل حـول مـحـوره، وفـي مـداره المخصص له. وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولاً: (والسماء ذات الحبك) بمعنى ذات الإحكام في الخلق:

يحصي علماء الفلك في الجزء المدرك من الكون مائتي بليون مجرة على الأقل[1]، وسبعين بليون تريليون نجم، وتتفاوت هذه المجرات في الشكل، والحجم، والكتلة، وفي سرعة الدوران حول محورها، وسرعة الجري في مداراتها، وفي تباعدها عنا وعن بعضها البعض، وفي مراحل تطورها وأعداد نجومها، وفي تباين مراحل حياة تلك النجوم (من ميلاد وشباب وكهولة وشيخوخة واحتضار واندثار)، فمنها المجرات البيضاوية، والحلزونية، وغير المحددة الشكل، ومنها المجرات القزمة (التي لا يكاد قطرها يتعدى 3200 سنة ضوئية)، ومنها المجرات العملاقة (التي يصل طول قطر الواحدة منها إلى 750.000 سنة ضوئية)، وتقدر كتلة أصغر المجرات المعروفة لنا بنحو مليون مرة قدر كتلة شمسنا، بينما تصل كتلة أكبر المجرات المعروفة لنا بنحو تريليون (أي مليون مليون) مرة قدر كتلة شمسنا، وتبلغ كتلة مجرتنا (الطريق اللبني) حوالي 230 بليون مرة قدر كتلة شمسنا. وتتجمع المجرات في مجموعات محلية **(Local Groups)** تضم العشرات من المجرات **(Galaxies)**، وتلتقي المجموعات المحلية في وحدات أكبر تسمى

---

(1) بلغت آخر الإحصاءات لعدد المجرات في الجزء المدرك من الكون ما بين مائتي بليون وثلاثمائة بليون مجرة، وتضاعف عدد النجوم المرصودة أضعافاً كثيرة.



شكل (104) يوضح مدارات بعض كواكب المجموعة الشمسيّة وهي محددة بدقة فائقة، وعلاقات الكواكب فيها شديدة الإحكام والانضباط

باسم «الحشود المجرية» **(Galactic Clusters)**، التي تضم مئات إلى عشرات الآلاف من مختلف أنواع المجرات، والتي تعرَّف العلماء على آلاف منها، وتلتقي تلك في وحدات أكبر تعرف باسم المجموعات المحلية العظمى **(The Local Supergroups)** التي تتجمع بدورها في وحدات أكبر تعرف باسم الحشود المجرية العظمى **(Galactic Superclusters)** والتي تحوي مائة تجمع مجري على الأقل، وقد حصي علماء الفلك منها 16 حشداً مجرياً أعظم في مسافة تقدر بحوالي عشرين بليون سنة ضوئية منا، وترتقي الحشود المجرية العظمى إلى وحدات أعظم، تعرف باسم حشود الحشود المجرية العظمى **(Clusters of Galactic Superclusters)** إلى نهاية لا يعلمها إلا الله (ﷻ).

والحشد المجري الأعظم الذي تنتسب إليه مجرتنا يضم مائة من الحشود المجرية على هيئة قرص يبلغ قطره مائة مليون من السنين الضوئية، وسمكه عشر ذلك (أي عشرة ملايين

من السنين الضوئية) وهي نفس النسبة بين طول قطر مجرتنا وسمكها. وقد اكتشف مؤخراً حشد مجري عظيم يبلغ طوله بليون ونصف البليون من السنين الضوئية، ويبلغ مائتي مليون سنة ضوئية في أقصر أبعاده. وتدرس السماء الدنيا حالياً في شرائح تقدر أبعادها بحوالي 150 مليوناً × 100 مليون × 15 مليوناً من السنين الضوئية، ووصل أطولها إلى 250 مليون سنة ضوئية، وتسمى تجاوزاً باسم الحائط العظيم **(The Great Wall)**.

وبعد إطلاق القمر الصناعي المعروف باسم: «مستكشف الخلفية الإشعاعية للكون» في سنة 1989م، تمكن العلماء من إدراك ستة نطق متمركزة حول ما يعتقد بأنه مركز الانفجار العظيم الذي نشأ عنه الكون، وذلك على النحو التالي:

(1) نطاق الانفجار العظيم (نطاق كرة النار الأولى): ويمتد بقطر يقدر بحوالي بليون سنة ضوئية حول نقطة يعتقد بأنها مركز الانفجار الكوني العظيم.

(2) النطاق الغامض: ويضم سحباً بيضاء كثيفة تحيط بنطاق الانفجار العظيم ويصل سمكه إلى بليوني سنة ضوئية.

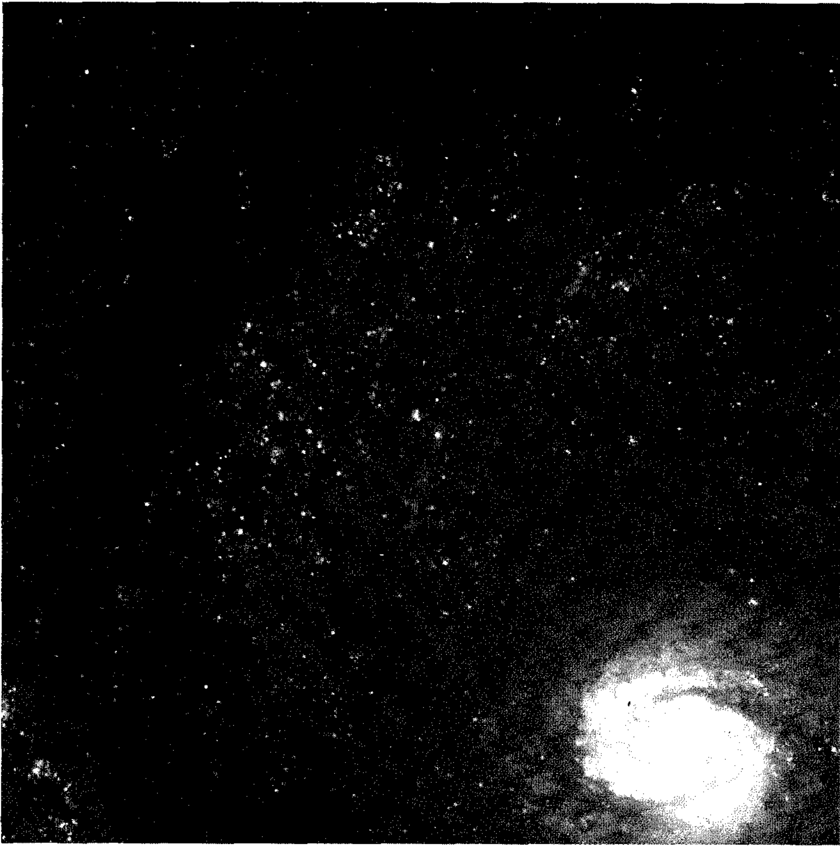
(3) ما بعد النطاق الغامض: وهو نطاق خاص يضم سحباً من دخان السماء تغلف النطاق الغامض بسمك يتراوح بين بليونين إلى ثلاثة بلايين من السنين الضوئية.

(4) نطاق أشباه النجوم السحيقة: ويضم أكثر أشباه النجوم بعداً عنا، ويمتد بسمك يقدر بحوالي خمسة بلايين من السنين الضوئية حول النطاق السابق.

(5) نطاق أشباه النجوم القديمة: ويضم أقرب أشباه النجوم إلينا، ويمتد بسمك يقدر بحوالي سبعة بلايين من السنين الضوئية حول نطاق أشباه النجوم السحيقة.

(6) نطاق المجرات: ويحيط النطق السابقة كلها بسمك يقدر بحوالي أربعة بلايين من السنين الضوئية.

وعلى ذلك، فإن قطر الجزء المدرك من السماء الدنيا يقدر بحوالي 22 بليون سنة ضوئية على الأقل. ومجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبني) تعتبر في هذا الحشد هباءة منثورة في السماء الدنيا، التي لا يعلم حدودها إلا الله تعالى. وهي عبارة عن قرص مفرطح يبلغ طول قطره ـ على أقل تقدير ـ حوالي مائة ألف سنة ضوئية، ويبلغ سمكه عشرة آلاف من السنين الضوئية، ويضم ما بين مائة بليون إلى تريليون (مليون مليون) نجم في مراحل مختلفة من العمر، منها نجوم النسق العادي كشمسنا، ومنها العماليق الحمر، والعماليق الكبار، ومنها النجوم الزرقاء شديدة الحرارة، ومنها الأقزام البيض الباردة نسبياً، ومنها النجوم النيوترونية، والنجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) ومنها السدم وغيرها.



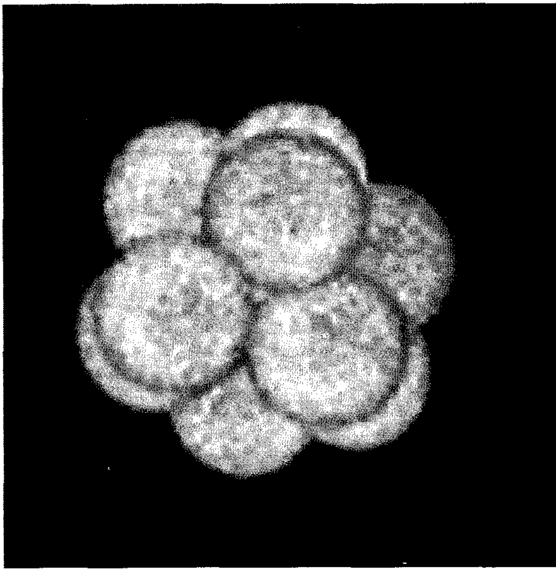
شكل (105) يوضح نواة مجرة حلزونية تشبه مجرتنا (سكة التبانة)

وكما أن لشمسنا توابع من الكواكب، والكويكبات، والأقمار، والمذنبات التي تُكوِّن مجموعتنا الشمسية، فإنه من المنطقي أن يكون لكل نجم من هذه الملايين من النجوم توابعه الخاصة به. وتقدر كتلة مجرتنا (سكة التبانة) بحوالي 4.6×10^{38} طن، أي بمائتين وثلاثين بليون مرة قدر كتلة شمسنا (والمقدرة بحوالي 333,000 مرة قدر كتلة الأرض والبالغة حوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن).

وتدور مجرتنا دورة كاملة حول مركزها في مدة تقدر بحوالي225 مليون سنة من سنينا، وهذا هو يومها. والنجوم في مجرتنا إما مفردة أو ثنائية أو عديدة، وهي تدور جميعاً حول مركز المجرة بطريقة موازية أو متعامدة أو مائلة على خط استواء المجرة.

ولمجرتنا نواة مركزيّة تحتوي على حشد كثيف من النجوم، وحلقة من غاز الإيدروجين تدور حول هذا الحشد النجمي، ويمتد قطر النواة لآلاف السنين الضوئية حول المركز

الهندسي للمجرة، والنواة ذات نشاط إشعاعي واضح بما يشير إلى وجود نجم خانس كانس (ثقب أسود) في مركزها تقدر كتلته بحوالي مائة مليون مرة قدر كتلة شمسنا. ويحيط **بنواة المجرة** انبعاج يعرف: باسم **الانبعاج المجري** (انتفاخ النواة المركزية للمجرة)، كما يحيط بالانبعاج المجري **قرص المجرة** بسمك يصل إلى خمسة وخمسين ألف سنة ضوئية، ويتكون من نجوم وغازات وأتربة (دخان) تزيد كتلتها عن نصف كتلة المجرة، وتبعد شمسنا عن مركز القرص بمسافة تقدر بحوالي ثلاثين ألف سنة ضوئية، وعن أقرب أطراف المجرة بمسافة تقدر بحوالي عشرين ألف سنة ضوئية، وتجري شمسنا ومعها مجموعتها الشمسية (شمس+ أحد عشر كوكباً + 61 قمراً+ عدد من الكويكبات والمذنبات) حول مركز المجرة بسرعة تقدر بثلاثمائة كيلومتر في الثانية، لتتم دورتها في حوالي 225 مليون سنة، ويقدر لمجرتنا وجود هالتين إحداهما داخلية وهي الأضعف، والأقوى خارجية تزيدان من أبعاد المجرة ما بين خمسة إلى ستة أضعاف أبعادها المعروفة، كما يقدر لمجرتنا ـ بالمقارنة مع المجرات الشبيهة ـ وجود أربعة أذرع حلزونية يبلغ سمك أطرافها 2600 من السنين الضوئية.



شكل (106) يوضح شدّة الترابط في داخل نواة ذرّة الكربون (10^{11} ملليمتر)

وهالة مجرتنا يمكن تقسيمها إلى نطاق داخلي يضم عدداً من النجوم المتباعدة عن بعضها البعض، ونطاق وسطي سميك يتكون من مادة قاتمة وغازات منخفضة الكثافة، ونطاق خارجي على هيئة حزام إشعاعي يمتد إلى مسافات شاسعة. وتجري مجموعتنا الشمسية في وضع مائل على خط استواء المجرة، دون تصادم أو خروج عن مداراتها المحددة. ويعتقد بوجود أكثر من نجم خانس كانس في مجرتنا، بالإضافة إلى الموجود في مركزها، تم اكتشاف أحدها في سنة 1971م في كوكبة الدجاجة مع نجم مرئي مرافق تقدر كتلته بحوالي ثلاثين مرة قدر كتلة الشمس.

ويتحرك كل من المادة والطاقة في مجرتنا ـ كما يتحرك في كل الجزء المدرك من السماء الدنيا ـ بين أجرام تلك المجرة ودخانها وبالعكس في حركة شديدة الانضباط والإحكام، فالنجوم الابتدائية تتولد من التكثف الشديد لدخان السماء فيما يعرف باسم السحب الجزيئية فتنكمش تلك السحب الكثيفة، وتنهار مادتها في المركز بمعدل أسرع من انهيارها في الأطراف، ولأن النواة المنهارة تدور بسرعات فائقة، فإن أجزاءها الخارجية تتشكل على هيئة قرص، وتظل عملية تكثيف المادة وتراكمها في تصاعد مما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة النواة باطراد، حتى تصل إلى الدرجة اللازمة لبدء التفاعلات النووية، فيولد النجم. ونجوم النسق الرئيسي تمثل المرحلة الأساسية في حياة نجوم السماء الدنيا (حيث تمثل 90% من حياة النجم)، وعند الشيخوخة تسلك النجوم الهرمة مسلكاً من اثنين حسب كتلة المادة والطاقة فيها، فإذا كانت كتلة النجم في حدود 1.4 من كتلة الشمس، فإنه يتوهج بدرجة فائقة على هيئة عملاق أحمر ثم يتحول إلى نجم أزرق شديد الحرارة وسط هالة من الإيدروجين المتأين (أي الحامل لشحنة كهربائية) يعرف باسم السديم الكوكبي الذي سرعان ما يتبرد وينكمش على هيئة تعرف باسم القزم الأبيض، وقد يتجدد نشاط ذلك القزم الأبيض، فيعاود الانفجار على هيئة عملاق أحمر، ويعود قزماً أبيض أكثر من مرة حتى ينتهي به العمر فينفجر على هيئة مستعر أعظم من النسق الأول، وتنتهي مادته وطاقته إلى دخان السماء فتدخل أو لا تدخل في دورة ميلاد نجم جديد.

أما إذا تراوحت كتلة النجم بين 1.4 من كتلة الشمس إلى ثلاثة أضعاف كتلة الشمس، فإن توهجه يزداد زيادة ملحوظة في شيخوخته متحولاً إلى عملاق أعظم **(Supergiant)**، ثم ينفجر على هيئة مستعر أعظم من النسق الثاني **(Type II Supernova)** عائداً جزئياً إلى دخان السماء على هيئة بقايا المستعر الأعظم **(Supernova Remnants)**، ومكدساً جزءاً من كتلته على هيئة ما يعرف باسم النجم النيوتروني **(Neutron Star)** وهو نجم قزم، منكدر، لا يتعدى قطره ستة عشر كيلومتراً، سريع الدوران حول محوره بمعدلات فائقة، تنتج أحياناً تياراً من الموجات الراديوية التي يمكن الاستدلال عليه بها، لما تبثه من نبضات راديوية منتظمة يمكن تسجيلها بواسطة المرقاب الراديوي. وإذا تعدى حجم النجم ثلاثة أضعاف كتلة الشمس، فإن ناتج الانفجار يكون نجماً خانساً كانساً **(ثقباً أسوداً)**.

هذه الصورة للجزء المدرك من الكون تعكس شيئاً عن ضخامة ذلك البناء، ودقة بنائه، وشساعة أبعاده، وإتقان صنعته، وروعة خلقه، وإحكام كل جزئية فيه وهي من معاني (حبك) الصنعة، ومن هنا كان وصف السماء بأنها ذات (حبك).

ثانياً: (السماء ذات الحبك) بمعنى: ذات الترابط المحكم الشديد:

هذه الأعداد المذهلة مما عرفنا من أجرام الجزء المدرك من السماء الدنيا (وهي لا تمثل أكثر من 10% من مجموع كتلة ذلك الجزء المدرك)، لا بد لها من قوى تعمل على إحكام تماسكها وتماسك كل من أجرامها ومختلف صور المادة وأشكال الطاقة فيها بشدة، وإلا لزالت وانهارت، وسبحان القائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ **(فَاطِر: 41)**

ولله في إمساك السمٰوات والأرض عدد من السنن، والقوى التي استطاع الإنسان التعرف على شيء منها، كما يلي:

(1) **القوة النووية الشديدة:** وهي القوة التي تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة (من مثل البروتونات والنيوترونات)، وعلى إلتحام نوى الذرات مع بعضها البعض في عمليات الاندماج النووي (التي تتم بداخل النجوم)، وهي أشد أنواع القوى المعروفة لنا في مادة الجزء المدرك من الكون، إذ تبلغ شدتها أكثر من مائة ضعف القوة الكهرومغناطيسية. وهذه الشدة البالغة تتجلى عبر الأبعاد الضئيلة ولكنها تتضاءل بشدة عبر المسافات الكبيرة، فدورها يكاد يكون منحصراً في داخل نوى الذرات، وبين تلك النوى ومثيلاتها، وتحمل هذه القوة على جسيمات تسمى: «اللاحمة أو جليون» **(Gluon)** لم تكتشف إلا في أواخر السبعينيات من القرن العشرين.

(2) القوة الذرية الضعيفة: وتساوي 10^{-13} من شدة القوة النووية الشديدة، وتعمل على تفكك الجسيمات الأولية للمادة في داخل الذرة، كما يحدث في تحلل العناصر المشعة، وتؤثر على جميع أنواع تلك الجسيمات، وتحمل هذه القوة على جسيمات تسمى البوزونات **(Bosons)** وهي إما سالبة أو عديمة الشحنة.

(3) القوة الكهرومغناطيسية: وتساوي 137/ 1 من شدة القوة النووية الشديدة، وتؤدي إلى حدوث الإشعاع الكهرومغناطيسي بموجاته المختلفة الممتدة من أشعة جاما (وهي أقصرها) إلى موجات الراديو (وهي أطولها)، والأولى تقاس أطوالها بجزء من مليون مليون جزء من المتر، والأخيرة تقاس أطوالها بالكيلومترات، ويتوسط بين هذين الحدين موجات هي (من الأقصر إلى الأطول): الأشعة السينية، ثم فوق البنفسجية، ثم المرئية، ثم تحت الحمراء على التوالي، وتخرج موجات الإشعاع الكهرومغناطيسي على هيئة «فوتونات» أو ما يعرف باسم «الكم الضوئي» تنطلق بسرعة الضوء لتؤثر على جميع الجسيمات التي تحمل

شحنات كهربية ومن ثم فهي تؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية.

(4) قوة الجاذبية: وهي أضعف القوى المعروفة على المدى القصير (وتساوي 10^{-39} من القوة النووية الشديدة)، ولكن نظراً لطبيعتها التراكمية فإنها تتزايد باستمرار على البعد حتى تصبح القوة الحاكمة على اتساع الكون (بإرادة الله الخالق سبحانه وتعالى) حيث تمسك بمختلف أجرام السماء وتجمعاتها، وتحدد أبعادها عن بعضها البعض في التجمع النجمي الواحد بالاتزان الدقيق بين قوى الجاذبية والقوة الطاردة المركزية الناتجة عن دوران تلك النجوم. ولو زال هذا الرباط الذي أوجده الخالقﷻ بعلمه وحكمته وقدرته أو اختل قليلاً لانفرط عقد الكون. ويفترض وجود قوة الجاذبية على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد، اقترح لها اسم «الجسيم الجاذب أو الجرافيتون» **(Graviton)**، ويعتقد أنه يتحرك بسرعة الضوء. وسبحان الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرناً قوله الحق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . .﴾ **(الرعد: 2)** وذلك قبل تعرف الإنسان على قوة الجاذبية بأكثر من عشرة قرون على الأقل.

وكما تم توحيد قوتي الكهرباء والمغناطيسية في قوة واحدة هي القوة الكهرومغناطيسية، يحاول العلماء جمع كل من القوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية الضعيفة فيما يسمى باسم القوة الكهربائية الضعيفة، حيث لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا، كما يحاولون جمع كل من القوة الكهربية الضعيفة والقوة النووية في قوة واحدة في عدد من النظريات: تسمى «نظريات التوحيد الكبرى»، وجمع كل ذلك مع الجاذبية فيما يسمى: بـ «الجاذبية العظمى». التي يعتقد العلماء: أنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء الخلق، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم، والتي ليست سوى أوجه أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة، التي تشهد للّه الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

وفي محاولة لجمع كل القوى المعروفة لنا في قوة واحدة اقترح علماء الفيزياء النظرية، مايعرف باسم «نظرية الخيوط العظمى» والتي تفترض أن اللبنات الأساسية للمادة تتكون من خيوط طولية في حدود 10^{-35} من المتر، تلتف حول ذواتها فتبدو كما لو كانت نقاطاً متناهية في الصغر، وتقترح النظرية وجود مادة خفية تتعامل مع المادة العادية عبر الجاذبية.

وهنا يتضح جانب من الوصف القرآني للسماء، بأنها «ذات حبك» أي ذات ترابط محكم شديد يربط بين جميع مكوناتها، من أدق دقائقها وهي اللبنات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة، إلى أكبر وحداتها وهي التجمعات المجرية العظمى، إلى كل الكون.

ثالثاً: (والسماء ذات الحبك) بمعنى ذات الكثافات المتباينة في مختلف أجزائها:

يتفاوت متوسط كثافة المادة في صفحة السماء الدنيا، بين واحد من ألف تريليون من الجرام للسنتيمتر المكعب (1×10^{-14} جرام/ سم^3) في أشباه النجوم، إلى حوالي14 من ألف من الجرام للسنتيمتر المكعب في العماليق العظام (أي واحد من مائة من كثافة الشمس تقريباً) إلى 1.41 جرام للسنتيمتر المكعب في شمسنا، إلى طن واحد للسنتيمتر المكعب (10^6 جراماً/ سم^3) في الأقزام البيض، إلى بليون طن للسنتيمتر المكعب (10^{15} جراماً/ سم^3) في النجوم النيوترونية، إلى أضعاف مضاعفة لتلك الكثافة في النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود).

وإذا انتقلنا من أجرام السماء إلى المادة بين كل من النجوم والمجرات، والمادة في السدم وفي دخان السماء، وجدنا درجة أخرى من التباين في كثافة المادة السماوية، يجعلها تبدو مجعدة كتجعد الرمل وغيره من أنواع الفتات الصخري، إذا مرت به أمواج المياه المندفعة، أو تيارات الرياح اللينة فتحدث بها من التكسر والتثني ما ينطبق مع المدلول اللغوي للفظة (الحبك).

وتتجسد هذه الصورة في داخل مختلف هيئات تجمع المادة في صفحة السماء من الكواكب إلى النجوم إلى المجموعات النجمية (من مثل مجموعتنا الشمسية) إلى المجرات، إلى ما فوق ذلك من حشود حتى الحشود المجرية العظمى وما فوقها، إلى نهاية ما يمكن أن يصل إليه علم الإنسان في الجزء المدرك من الكون.

رابعاً: (والسماء ذات الحبك) بمعنى: ذات المدارات (الطرق) المحددة لكل جرم من أجرامها:

من الأمور المبهرة حقاً للعلماء كثرة الأجرام في الجزء المدرك من السماء الدنيا، بصورة لا يكاد العقل البشري أن يتصورها، وتعدد مسارات تلك الأجرام، وتباين مستوياتها، دون أدنى قدر من التضارب أو الاصطدام إلا بالقدر المقنن والمحسوب بدقة بالغة لحكمة بالغة، حتى في لحظات احتضار النجوم وانكدارها، وطمسها، ثم انفجار وتناثر أشلائها، وتبخر مادتها، وكذلك في لحظات انفجار الكواكب وتناثرها على الرغم من كثرة المسارات وتعدد الحركات للجرم الواحد.

ومن هنا نفهم من القسم القرآني: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ شمول تلك المدارات المخططة بدقة فائقة، بالإضافة إلى روعة البناء، وإحكام الترابط، وتباين الكثافات، وكلها من معاني هذا الوصف المعجز (ذات الحبك).

فسبحان الذي أنزل هذا الوصف القرآني من فوق سبع سمٰوات، ومن قبل ألف وأربعمائة من السنين، أنزله بعلمه الشامل، الكامل، المحيط، على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ليصف بلفظة (الحبك) هذا الكم من صفات السماء التي لم تعرف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، ولايمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لها غير الإلٰه الخالق سبحانه وتعالى.

وقد يرى القادمون في هذا الوصف القرآني المعجز للسماء بأنها «ذات حبكِ» ما لا نراه نحن الآن، لتظل اللفظة القرآنية مهيمنة على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وتظل دلالاتها تتسع مع الزمن ومع اتساع دائرة معرفة الإنسان في تكامل لا يعرف التضاد، وليس هذا لغير كلام الله...! وتبقى هذه اللمحات الكونية في كتاب الله ـ في اتساع دلالاتها مع الزمن في تكامل لا يعرف التضاد ـ مصدقة لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ **(صٓ: 88).**

ولقوله عز وجل: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ **(الأنعام: 67).**

ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ **(فُصّلَت: 53)**

وتبقى أيضاً تصديقاً لنبوة المصطفى ﷺ في وصفه للقرآن الكريم بأنه «**لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ**»[1].

(1) سبق تخريجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

(16) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾

(البُرُوج: 1)

يستهل ربنا (سبحانه وتعالى) سورة البروج بقسم عظيم بثلاث من آياته أولاها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾

وفي شرح دلالة هذا القسم القرآني تعددت رؤى المفسرين بين قائل بأن المقصود منه هو التنبيه إلى روعة خلق السماء، وإتقان صنعها، وحسن بهائها، وقائل بأن المقصود بالتنبيه إليه: هي النجوم التي تنتشر فيها بتجمعاتها المبهرة، إلى قائل بأن المقصود بذلك: هي منازل الشمس والقمر عبر تجمعات تلك النجوم، إلى جامع بين هذه الرؤى جميعاً.

ولما كان القسم في القرآن الكريم يأتي من أجل تنبيهنا إلى أهمية الأمر الذي جاء به القسم ـ لأن الله تعالى غني عن القسم لعباده ـ فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة هو: ماهي تلك البروج التي في السماء والتي أقسم الله تعالى بها، وسمى سورة من سور القرآن الكريم باسمها؟ وما هي أهميتها لانتظام الكون ولاستقامة الحياة على الأرض والتي أراد الله سبحانه وتعالى تنبيهنا إليها؟ وقبل الإجابة عن هذين السؤالين لا بد لنا من توضيح دلالة لفظ [البروج) في كل من اللغة العربية والقرآن الكريم.

(البروج) في اللغة العربية:

يقال: (برج) الشيء (يبرج) (بروجاً) أي ظهر وارتفع؛ ويقال: (برج) و(أبرج) (بروجاً) و(تبريجاً) أي: بنى (برجاً)، و(البرج) وجمعه (بروج) و(أبراج) و(أبرجة) هو الحصن أو القصر أو البناء المرتفع على شكل مستدير، مستطيل أو مربع، ويكون منفرداً أو قسماً من بناية

عظيمة، فـ (برج) الحصن ركنه، و(البرج) واحد (بروج) السماء وهي تسمية تطلق على اثنتي عشرة كوكبة تحيط بوسط الكرة السماوية كما نراها من الأرض على هيئة حزام عند دائرة البروج وهي الدائرة التي تحيط بخط الاستواء الافتراضي للقبة السماوية.

وثوب (مبرّج) أي صورت عليه (بروج) فاعتبر حسنه، وقيل: (تبرجت) المرأة، أي: تشبهت بكل (مبرج) في إظهار المحاسن وقيل: ظهرت من (برجها) أي: قصرها، و(التبرج) سفور المرأة وإظهار زينتها ومحاسنها للرجال من غير المحارم، و(البرج) أيضاً هو سعة العين وحسنها تشبيهاً بـ (البَرج) في الأمرين السابقين، ويقال: (برجت) عينه إذا كان بياضها محدقاً بالسواد كله، (البرج) هو السعة في كل أمر، يقال: (برج) (برجاً) أي: اتسع أمره في الأكل والشرب ونحوهما، و(البرج) هو الجميل وجمعه: (أبراج)، يقال: (برج) و(برجت) أي: حسن وحسنت فهو (أبرج) وهي (برجاء)، وجمعهما: (برج)؛ و(البارج) هو الملاح الماهر، و(البارجة) وجمعها: (بوارج) سفينة قتالية كبيرة، ويقال: سفينة (بارجة) أي: لا غطاء لها، و(تباريج) النبات هي أزاهيره و(الإبريج) الممخضة يمخض (أي يخفق) بها اللبن لاستخراج القشدة منه.

لفظة (البروج) في القرآن الكريم:

وردت لفظة (البروج) مرتبطة بالسماء ثلاث مرات في القرآن الكريم على النحو التالي:

(1) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ **(الحِجر: 16)**

(2) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾
(الفُرقان: 61).

(3) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ **(البُرُوج: 1)**

كما جاءت لفظة (البروج) بمعنى: الحصن مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ **(النِّساء: 78)**

وجاء الفعل (تَبرَّجَ) والاسم (تَبرُّجٌ) والصفة (مُتَبرِّجَاتٍ) في النهي عن السفور وإبداء الزينة في قول الحق ﷻ: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾
(الأحزاب: 33)

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ **(النُّور: 60)**

من أقوال المفسرين

في تفسير الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها الحق ﷻ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ (البُرُوج: 1)

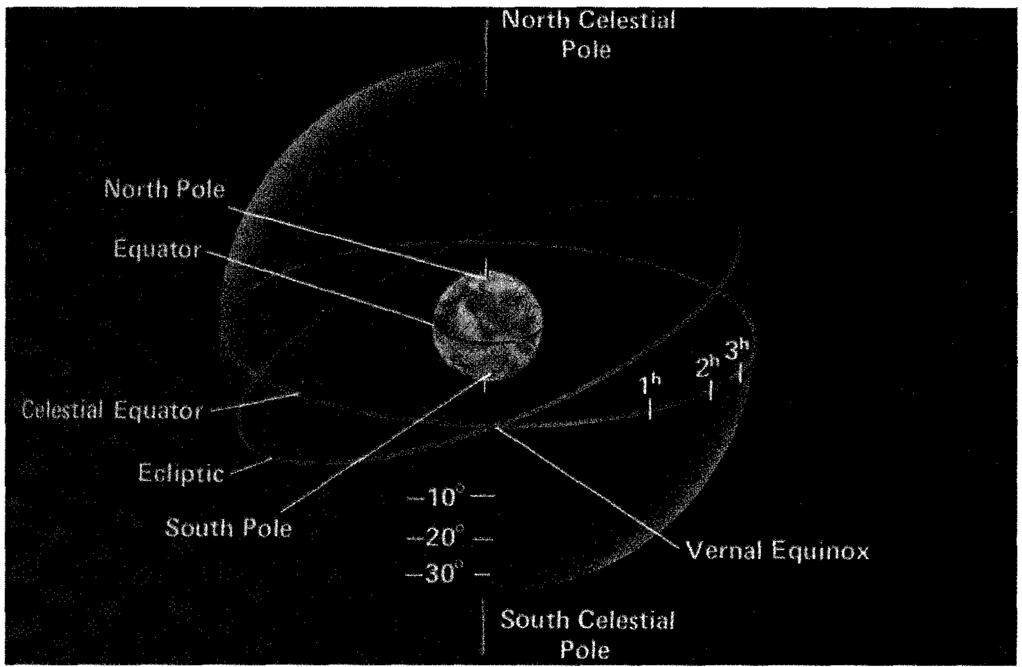
• ذكر ابن كثير (رحمه الله): «أن الله تعالى يقسم بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام، وأشار إلى قول ابن عباس (رضي الله ﷻ عنهما) أن البروج: هي النجوم، وإلى قول يحيى بن رافع (رحمه الله) أن البروج هي قصور في السماء، وإلى قول المنهال بن عمرو (رحمه الله) أنها هي الخلق الحسن، وإلى قول ابن جرير (رحمه الله) أنها منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر منزلاً (برجاً) تسير الشمس في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثاً، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً، ويستتر ليلتين».

• وذكر مخلوف (رحمه الله): «﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ أقسم الله بها وبما بعدها ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ ذات المنازل والطرق الاثني عشر التي تسير فيها الكواكب، شبهت بالقصور لنزول الكواكب بها، كما ينزل الأكابر والأشارف بالقصور، جمع (برج) وهو القصر العالي».

• وذكر صاحب الظلال (رحمه الله): «تبدأ السورة ـ قبل الإشارة إلى حادث الأخدود ـ بهذا القسم: والسماء ذات البروج، وهي إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أي قصورها المبنية.. وإما أن تكون هي المنازل التي تنتقل فيها تلك الأجرام في أثناء دورانها، وهي مجالاتها التي لا تتعداها في جريانها في السماء، والإشارة إليها توحي بالضخامة وهي الظل المراد إلقاؤه في هذا الجو...».

• وذكر أصحاب «المنتخب في تفسير القرآن الكريم» (جزاهم الله خيراً) في معنى هذه الآية الكريمة: «أقسم بالسماء ذات المنازل التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها». وفي التعليق الهامشي أشاروا إلى أن البروج في هذه المجموعات من مواقع النجوم التي تظهر على أشكال مختلفة في السماء مقسمة إلى اثني عشر قسماً تمر خلالها الأرض والكواكب في أثناء دورتها حول الشمس..».

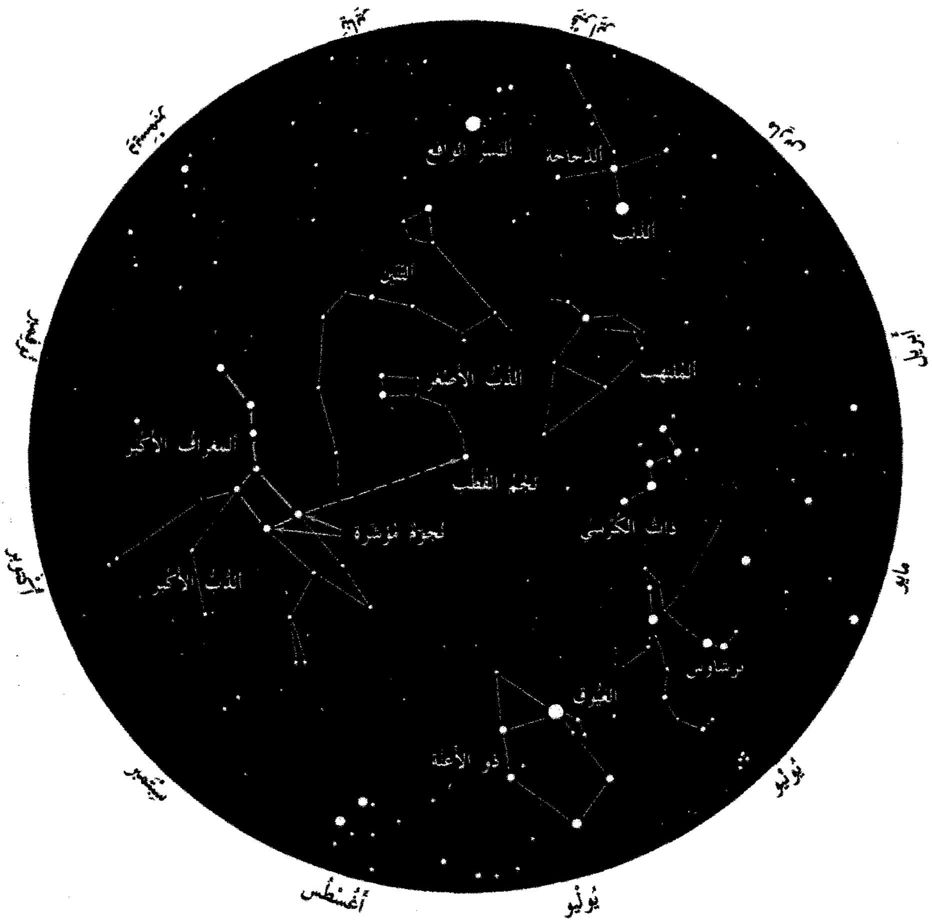
• وذكر الصابوني (أمد الله في عمره): «أي وأقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها، وأشار إلى أقوال عدد من المفسرين السابقين بأن هذه المنازل سمِّيت بروجاً لظهورها، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها؛ لأنها منازل للكواكب السيارة».



شكل (107) يوضح النظام المساحي للقبّة السماويّة

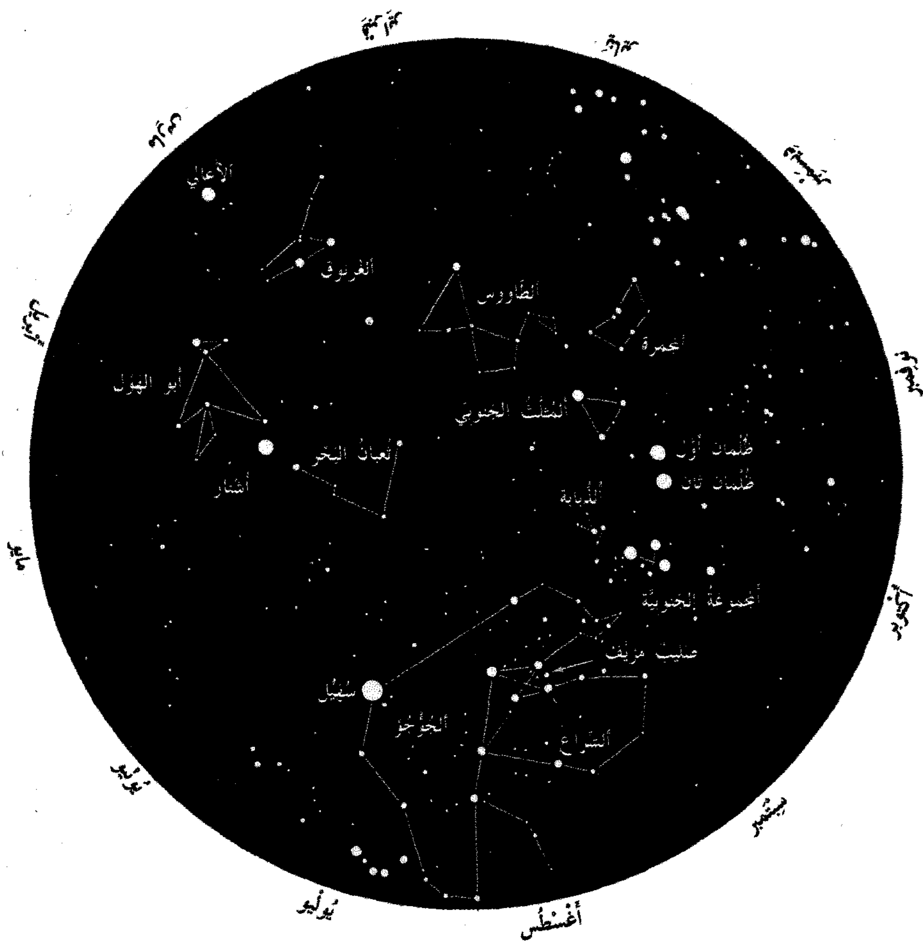
تحديد مواقع نجوم السماء:

نظراً لتعاظم أبعاد مواقع النجوم عنا، كان لا بد من وضع نظام مساحي يمكن بواسطته تحديد تلك المواقع على **القبة السماوية** باستخدام مجموعة إحداثيات مشابهة لتلك الإحداثيات الموظفة في المساحة الأرضية، وذلك بإسقاطها على القبة السماوية، فكما أن هناك خط استواء للأرض تم اقتراح خط إستواء للقبة السماوية، ينطبق على خط الاستواء الأرضي ويقع فوقه بارتفاع هائل، وكما أن هناك قطبين للأرض شمالي وجنوبي تم اقتراح قطبين مماثلين للقبة السماوية يقعان على امتداد محور دوران الأرض، وكما أن هناك خطوط طول وخطوط عرض للأرض تبدأ من خط طول أساسي ومن خط الاستواء (على التوالي) تم اقتراح خطوط مماثلة للقبة السماوية، وبواسطة تلك الخطوط يمكن تحديد مواقع النجوم. ولما كانت الأرض تدور حول محورها من الغرب إلى الشرق دورة كاملة كل 24 ساعة تقريباً (كل 23 ساعة، 56 دقيقة) فإن كلاً من النجوم وإحداثيات القبة السماوية تبدو بالنسبة لراصد من الأرض وكأنها هي التي تدور من الشرق إلى الغرب بنفس المعدل في نفس الفترة الزمنية.



شكل (108) يوضح بروج السماء كما ترى من نصف الأرض الشمالي

وبينما النجوم ثابتة في مواقعها من السماء الدنيا ثباتاً نسبياً لتعاظم أبعادها عنا، والشمس تبدو لنا وكأنها تجري على مقربة نسبية منا (مائة وخمسين مليون كيلو متر)، فإن مواقع الشمس تظهر للراصد الأرضي متحركة حركة ظاهرية في صفحة السماء، ويسمى مدار الشمس السنوي الظاهري على القبة السماوية (أي ممر مواقع الشمس في قبة السماء بالنسبة إلى النجوم البعيدة عنا) باسم دائرة البروج **(The Zodiac or The Ecliptic)** وهي دائرة تميل بمقدار (27َ 23ْ) على خط الاستواء السماوي، وتتقاطع الدائرتان في نقطتي الاعتدالين الربيعي والخريفي في نصف الكرة الشمالي (في حوالي 21 من مارس، 23 من سبتمبر على التوالي) وفي هذين الاعتدالين يتساوى طول كل من الليل والنهار. وفي حوالي 21/ 6،



شكل (110) يوضح بعض الهيئات التي ترى عليها بروج السماء

و21/ 12 من كل عام تصل الشمس إلى أقرب نقطتين إلى الشمال وإلى الجنوب (على التوالي) وهما بدايتا كل من الصيف والشتاء (على التوالي أيضاً) وتسميان نقطتي الانقلاب الصيفي والشتوي، وتحسب إحداثيات السماء باستخدام دوائر الساعة، وهي دوائر عظمى تمر بأقطاب القبة السماوية وتقطع خط استوائها عمودياً، وحيث أن الأرض تتم دورتها حول محورها في أربع وعشرين ساعة تقريباً، فإن كل ساعة تساوي خمس عشرة درجة (360 درجة ÷ 24 ساعة = 15 درجة)، وتقسم الدرجة إلى ستين دقيقة، وتقسم الدقيقة إلى ستين ثانية، وتشرق نجوم السماء وتغرب بزوايا على أفق السماء كما تشرق الشمس وتغرب بزوايا على أفق الأرض.

(البروج) في علوم الفلك:

البروج هي تجمعات للنجوم البعيدة عنا، تصورها الناس منذ القدم على هيئة أشكال معينة كوسيلة من وسائل التعرف المبدئي عليها، والتمييز بينها، وأعطوا لهذه الأشكال أسماء محددة، تباينت من دولة لأخرى، ومن حضارة إلى حضارة، ولكنها أجمعت كلها على تقسيم الحزام المحيط بوسط الكرة السماوية إلى اثني عشر برجاً بعدد شهور السنة، من مثل (برج الحمل) الذي يبدأ في الظهور في حدود الحادي والعشرين من شهر مارس، ثم (برج الثور) في حدود الحادي والعشرين من شهر أبريل، وهكذا لكل شهر زمني برج من هذه الأبراج بالترتيب التالي: **الحمل، الثور، الأسد، الجوزاء، السرطان، العذراء (السنبلة)، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت**. وتسمى هذه باسم كوكبات حزام البروج **(Zodiacal Constellations)**. وهي تشكل شريطاً ممتداً على جانبي خلفية مدار الأرض حول الشمس، بامتداد تسع درجات على كل من جانبيه، ويقسم إلى اثنتي عشرة منطقة أساسية يشغل كل منها حوالي30 درجة من درجات خطوط الطول السماوية بزيادة أو بنقص قليل في كل منطقة.

وتمثل هذه البروج الخلفية النجمية التي تجري عبرها المجموعة الشمسية على صفحة السماء خلال السنة الشمسية، وهذه البروج غير متساوية تماماً في الطول، ولا في تاريخ بداياتها، فبرج الحمل مثلاً لا يمثل نقطة بداية الاعتدال الربيعي التي تحدث حول الحادي والعشرين من مارس في كل عام. ومن المعروف: أن الدائرة المتوسطة لحزام البروج تميل على خط الاستواء السماوي بمعدل ثلاث وعشرين درجة ونصف تقريباً ($27' \ 23^{\circ}$) وتعرف هذه الدائرة: باسم دائرة البروج **(The Zodiac or the Ecliptic)** وتتقاطع مع دائرة خط الاستواء في نقطتين: الأولى هي نقط الاعتدال الربيعي، والثانية هي نقطة الاعتدال الخريفي. والإنسان يمكنه من فوق سطح الأرض أن يرى بالعين المجردة حوالي ستة آلاف نجم في الأجواء الصافية، ومنذ القدم حاول الإنسان التعرف على تلك النجوم، ووصفها وتسميتها أو ترقيمها، ومعرفة موعد ظهورها، وحاول رسم خرائط للسماء بواسطتها وقد سجل ذلك في أغلب الحضارات القديمة من مثل الحضارات المصرية، والكلدانية والفارسية، والهندية والصينية، والإغريقية والرومانية وغيرها. وكان أول ما فعله هؤلاء هو تقسيم النجوم التي ترى من فوق سطح الأرض في القبة السماوية بقسميها الشمالي والجنوبي في زمن واحد إلى نطق يتميز كل منها بتجمع خاص من تجمعات النجوم عرفت باسم البروج أو التجمعات النجمية **(Constellations)**، وتركز ذلك في بادئ الأمر على التجمعات النجمية

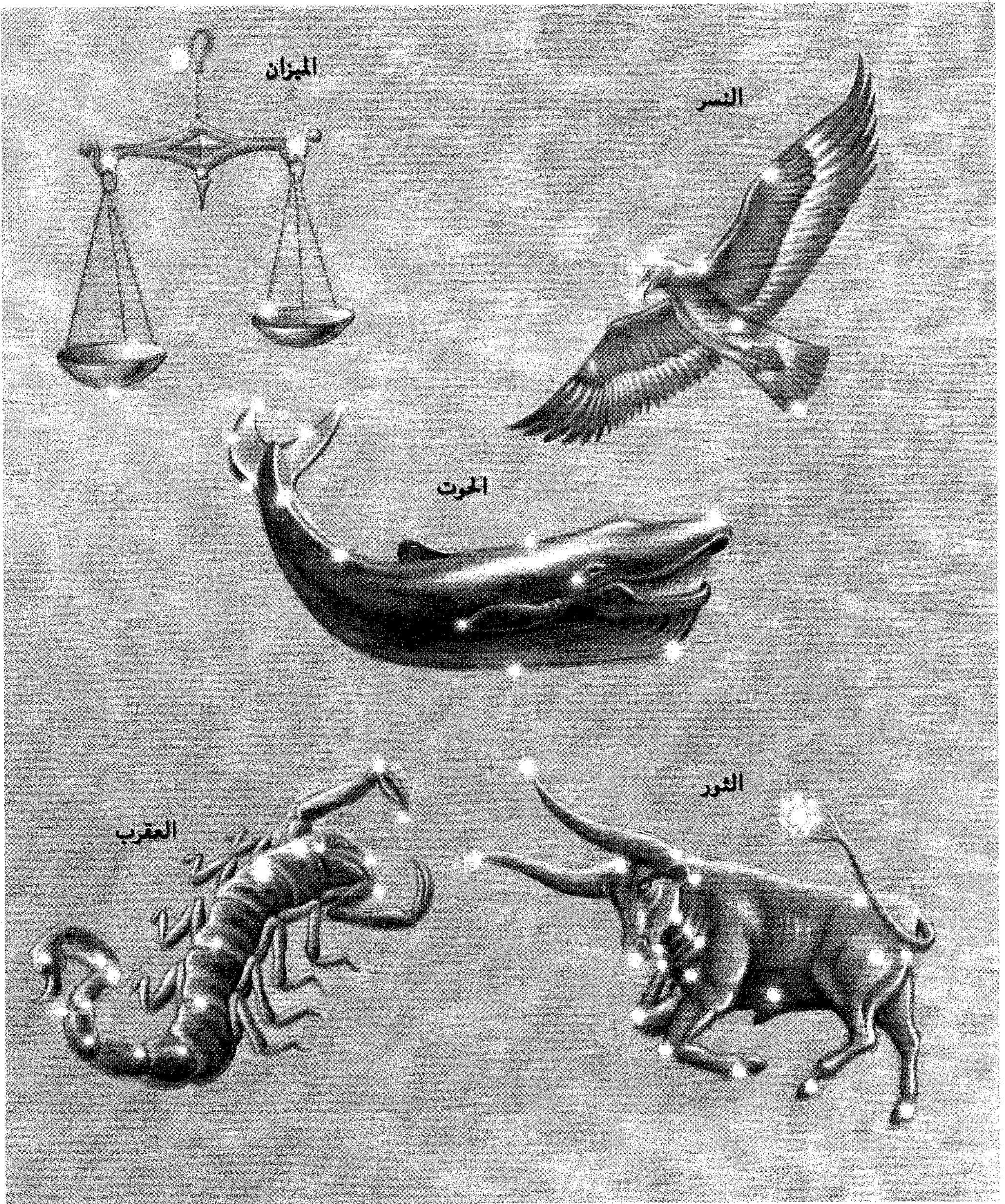
حول خط الاستواء الوهمي للقبة السماوية، وهي أيسر ما يرى بالعين المجردة من فوق سطح الأرض، وقد قُسِّمت تلك التجمعات النجمية إلى نطق محددة، يتميز كل منها بتجمع خاص من تجمعات النجوم عرفت باسم (البروج)، وسمي كل منها باسم خاص، وتعددت حولها الأسماء، وحيكت الخرافات والأساطير خاصة في ظل الوثنيات القديمة والحديثة.

وحقيقة هذه التجمعات النجمية (البروج)، أنها مساحات محددة من السماء الدنيا، يحوي كل منها في كل فترة زمنية محددة أعداداً من النجوم التي تبدو لنا متقاربة مع بعضها البعض رغم المسافات الشاسعة التي تفصلها نظراً لبعدها الشاسع عنا، ولوجودها في اتجاهات محددة، بالنسبة لنا، وهذه النجوم التي تبدو لنا من الأرض في نفس الاتجاه، قد تكون في مجموعات نجمية متفرقة تفرقاً بعيداً وليست في مجموعة واحدة. وتبدو هذه التجمعات النجمية وكأنها تتحرك حركة ظاهرية بطيئة في صفحة السماء من الشرق إلى الغرب تماثل الحركة الظاهرية للشمس في جريانها، وتقابل حركة دوران الأرض من الغرب إلى الشرق، فتبدو لنا النجوم وكأنها تشرق من الشرق وتغرب في الغرب، سواء في ذلك النجوم البطيئة (الثوابت) أو النجوم السيارة السريعة. لأن كل التجمعات النجمية ترى بتلك الهيئة في الحركة.

من محاولات الإنسان لرصد نجوم السماء:

في سنة 150م نشر أحد أبناء صعيد مصر وأحد تلامذة مدرسة الاسكندرية واسمه: بطليموس الفلوزي الاسكندري كتابه المسمى: باسم المجسطي **(Almagest)** الذي وصف فيه حوالي 48 كوكبة من كوكبات السماء.

وبين القرنين الثامن والسادس عشر قام علماء المسلمين بنقد وتصحيح العلوم الفلكية التي وجدوها في الحضارات السابقة عليهم، وأضافوا إليها إضافات جوهرية عديدة كان أهمها تحويل علم الفلك من الحيز النظري المليء بالخرافات والأساطير إلى الحيز العملي التطبيقي، وطهروه من أدران التنجيم والشعوذة، وجعلوه علماً استقرائياً يعتمد على الملاحظة الحسية، والمقاييس العلمية، والحسابات الرياضية والهندسية، فعرفوا منازل الشمس بالنسبة للبروج، وقسموها إلى أربعة منازل تمثل فصول السنة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وخصصوا لكل منزل ثلاثة بروج: (الحمل والثور والجوزاء) **للربيع**، (والسرطان والأسد والعذراء أو السنبلة) **للصيف**، و (الميزان والعقرب والقوس) **للخريف**، و(الجدي والدلو والحوت) **للشتاء**. والكثير من النجوم والبروج لا تزال تحمل أسماء عربية من مثل:



شكل (110) يوضح بعض الهيئات التي ترى عليها بروج السماء

سهيل، والجوزاء، والدب الأكبر، والدب الأصغر، والنسر الواقع، والنسر الطائر، والغول، وبيت الجوز، وغيرها، وكثير من التعبيرات الفلكية من مثل المجرة والسمت وغيرها هي تعبيرات عربية أصيلة. وكثير من الأجهزة الفلكية من مثل: البوصلة والمزولة،

والاسطرلاب والمراصد كانت إبتكارات عربية خالصة.

في سنة 1603 م قام أليكسندر مير **(Alexander Mair)** بنقش فلك المجموعات النجمية في مرسمه للسماء، وأضاف اثنتي عشرة كوكبة جديدة إلى ما كان قد ذكره بطليموس. وفي سنة 1664 م أضاف جاكوب بارتش **(Jocob Bartsch)** ثلاث كوكبات أُخرى، وأضاف نيكولاس لويز **(Nicolas Louis)** كوكبة جديدة في نفس الفترة تقريباً، ثم أضاف 14 كوكبة أخرى بعد ذلك بسنوات قليلة.

في سنة 1690 م أضاف جوهان هيفيليوس **(Johannes Hevelius)** تسعة كوكبات جنوبية جديدة، وأصبح عدد الكوكبات المعروفة الآن ثمانية وثمانين كوكبة، يختلف ظهورها في السماء باختلاف خطوط العرض الأرضية، وباختلاف الفصول المناخية (أي باختلاف موقع الأرض في مدارها حول الشمس على مدار السنة)، وعلى ذلك فإن هناك كوكبات للصيف، وكوكبات للربيع، وكوكبات للخريف، وكوكبات للشتاء مع بعض التداخلات الزمانية والمكانية.

وفي سنة 1928 م وافق الاتحاد الفلكي الدولي على تقسيم الكرة السماوية بنصفيها الشمالي والجنوبي إلى ثمان وثمانين مجموعة نجمية (كوكبة)، بحيث يمكن نسبة أي نجم في السماء إلى أي من هذه الكوكبات التي قد تختلف أسماؤها من بلد إلى آخر. وكل كوكبة من هذه الكوكبات (أي كل برج من هذه البروج) تبدو لنا ثابتة لتعاظم بعدها عنا، كما تبدو لنا متقاربة حتى لتوحي لنا باتصالها فتعطي هيئة معينة، أو شكلاً محدداً، وقد أعطى كل منها اسماً معيناً يتفق مع الشكل أو الهيئة المستوحاة من تقارب نجومه. وفي المنظور الفلكي يعتبر البرج أو الكوكبة منطقة على الكرة السماوية تظهر بها مواقع للنجوم يعطي تقاربها إيحاء بالشكل أو الهيئة المستوحاة من هذا التقارب. وحسب موقعها بالنسبة لخط الاستواء الوهمي للقبة السماوية يمكن التمييز بين كوكبات نصف الكرة السماوية الشمالي (الكوكبات الشمالية)، وكوكبات المنطقة الاستوائية السماوية (كوكبات دائرة البروج)، وكوكبات نصف الكرة السماوية الجنوبي (الكوكبات الجنوبية). ولما كانت الشمس في حركتها السنوية الظاهرية على البروج دائمة الانتقال إلى مناطق مختلفة من السماء، فإن الكوكبات التي ترى بعد غروب الشمس تتغير دورياً مع فصول السنة، وبذلك يمكننا أن نميز بين كوكبات صيفية (مثل السلياق والعقاب)، وكوكبات شتوية (مثل الجبار والكلب الأكبر). ولا يدل الانتظام الظاهري لأفراد الكوكبة عند رؤيتها من الأرض على أنها تكون وحدة حقيقية في صفحة السماء الدنيا، فقد تكون هذه المواقع النجمية بعيدة جداً عن بعضها البعض، ولكنها تظهر

لنا متقاربة لتعاظم أبعادها عنا، ولوقوعها في نفس الاتجاه بالنسبة للناظر إليها من فوق سطح الأرض، وترى تلك المواقع النجمية متساوية اللمعان تقريباً لتباين أبعادها عنا. ومع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس يشاهد الراصد الليلي تلك النجوم في حركتها الظاهرية ساعة بعد أخرى من مواقع مختلفة على سطح الأرض، أما في سبح الأرض عبر حركتها الانتقالية في مدارها حول الشمس فإن الراصد الليلي يشاهد مجموعات مختلفة من كوكبات النجوم في مواقع مختلفة من القبة السماوية حسب كل من موقع الراصد من الأرض وموقع الأرض في مدارها في كل شهر من شهور السنة.



إحدى المجرات

شكل (112) صورة للتجمع النجمي (NGC 6250) **مع سحابة سوداء ترى خلف مجرتنا**

أهمية بروج السماء:

البروج (أو الكوكبات) هي تجمعات للنجوم، وقد فَصَّل القرآن الكريم فوائد النجوم في كونها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وزينة للسماء الدنيا، ورجوماً

للشياطين، ومصدراً من مصادر الرزق في السماء، وجنداً مسخرة للإمساك بأطراف السماء الدنيا بما وهبها الله تعالى من قوى الترابط والتماسك والتجاذب وذلك على النحو التالي:

(1) البروج كوسيلة للاهتداء في ظلمات البر والبحر:

يقول ربنا (ﷻ) في محكم كتابه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ **(الأنعام: 97)**

ومن معاني هذه الآية الكريمة أن الخالق ﷻ رتب النجوم في مجموعات من الكوكبات (البروج) التي يمكن بواسطتها تحديد الاتجاهات الأربع الأصلية لأهل الأرض كما هو الحال مع النجم القطبي الذي يستخدم في تحديد الشمال الحقيقي ولذلك يعرف باسم **نجم القطبية**، أو نجم الجدي، أو كوكبة الشمال، أو «مسمار الفلك» كما يحلو لعدد من الفلكيين أن يسموه **(Polaris, Pole Star or Polar Star)** وهو نجم ثلاثي من العماليق العظام ويعتبر ألمع نجم في كوكبة الدب الأصغر، يبعد عنا مسافة 650 سنة ضوئية، ويقدر قطره بمائة مرة قدر قطر الشمس، وتقدر قوة إشعاعه بخمسة آلاف ضعف إشعاع الشمس، وقد أعطي هذا الاسم لقربه الشديد من قطب السماء الشمالي (الذي لا يبعد عنه إلا بأقل من درجة واحدة)، وتبلغ دورته حول محوره حوالي أربعة أيام (3.97 يوم) ولذلك فإنه يصنع دائرة صغيرة جداً حول القطب الشمالي لقبة السماء خلال الدوران اليومي الظاهري لها، ومن هنا كان دوره في تحديد اتجاه الشمال الحقيقي.

ونظراً لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق فإن القبة السماوية تبدو وكأنها تدور من الشرق إلى الغرب في حركة ظاهرية بكافة نجومها فيما عدا النجم القطبي الذي وضعه الخالق سبحانه وتعالى على الامتداد الشمالي لمحور دوران الأرض فيبدو لنا ساكناً، ويحدد بموقعه اتجاه الشمال الحقيقي، ومن ثم يعين على تحديد الجهات الأربع الأصلية على الأرض وفي صفحة السماء مما يساعد على التوجه الصحيح في ظلمات البر والبحر، وفي تحديد إتجاه القبلة، وفي تحديد غيرها من المواقع والاتجاهات على سطح الأرض وفي صفحة السماء.

ويحدد موقع النجم القطبي في قبة السماء بواسطة العربة الكبرى (المغرفة) في كوكبة الدب الأكبر وذلك بمد الخط الواصل بين خلفيتي العربة الكبرى (أي الدليلتين اللتين تسبقان في أثناء الحركة اليومية الظاهرية) حوالي خمس مرات قدر المسافة بينهما، ولولا وجود النجم القطبي ما استطاع الإنسان تحديد الاتجاهات الأربع الأساسية ولا استطاع التوجه في ظلمات البر والبحر أبداً.

(2) البروج زينة السماء الدنيا:

فالبروج مثل كل من النجوم والكواكب من خواص السماء الدنيا وزينتها لقول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ **(الحجر: 16)**

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ **(الصَّافات: 6).**

وقوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ **(فصلت: 12)**

وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ **(المُلك: 5).**

وكل من البروج والنجوم (المصابيح)، والكواكب والأقمار من أهم الوسائل في إنارة ظلمة الليل، الأولى بأضوائها الذاتية، والكواكب والأقمار بانعكاس أضواء النجوم عليها نوراً، ولولا ذلك لأصبح ليل الأرض حالك السواد، قابضاً للأنفس، مخيفاً مزعجاً.

(3) البروج والنجوم والكواكب رجوماً للشياطين:

يعتقد كثير من الناس أن رجوم الشياطين هي الشهب وحدها لقول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ **(الحجر،الآيات: 16 ـ 18)**

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ **(الصافات، الآيات: 6 ـ 10).**

وقوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ **(الجن: 8، 9).**

ولكن الذي يعلم حقيقة تبادل المادة بين دخان السماء وكافة أجرامها يدرك جانباً من روعة البيان القرآني في الإشارة إلى البروج في آيات سورة الحجر (16، 18)، وإلى الكواكب في آيات سورة الصافات (6، 10) وإلى الشهب في كل من السورتين الكريمتين، وفي سورة الجن (8، 9).

والشهب عبارة عن أجسام صلبة تدخل في نطاق الغلاف الغازي للأرض بسرعات كبيرة جداً تصل إلى 40 كيلومتراً في الثانية فتحتكّ بجزيئات ذلك الغلاف الغازي احتكاكاً

شديداً يؤدي إلى اشتعالها واحتراقها إما احتراقاً كاملاً أو جزئياً، وفي الحالة الأولى تتحول إلى رماد، وفي الحالة الثانية يتبقى عن احتراقها فضلات صلبة تعرف باسم «النيازك» التي ترتطم بالأرض بشدة بالغة.

وقد تنتج الشهب والنيازك عن بقايا انفجار أي من النجوم أو الكواكب، وهما من مكونات البروج.

ويروى عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن الملائكة تتحدث في العنان بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة فيقرها الواحد منهم في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون مائة كذبة**»[1].

شكل (113) صورة كاملة للمجموعة النجمية المعروفة بالرمز (CDF-SCXo-ACIS)

فالشياطين كانوا يحاولون استراق السمع في عملية من التجسس والتلصص على أخبار السماء الدنيا، ثم يلقون بشيء من ذلك إلى أعوانهم من الدجالين والمنجمين والكهان والعرافين من أجل إضلال بني آدم وصرفهم عن التوكل على رب العالمين. وقد حيل بينهم وبين استراق ذلك السمع بعد بعثة المصطفى ﷺ، وبقيت الشهب لهم بالمرصاد وهي من مادة نجوم وكواكب السماء.

(4) النجوم والكواكب كمصدر من مصادر الرزق في السماء:

يقول ربنا (ﷻ) في محكم كتابه:

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق (الحديث: 3288).



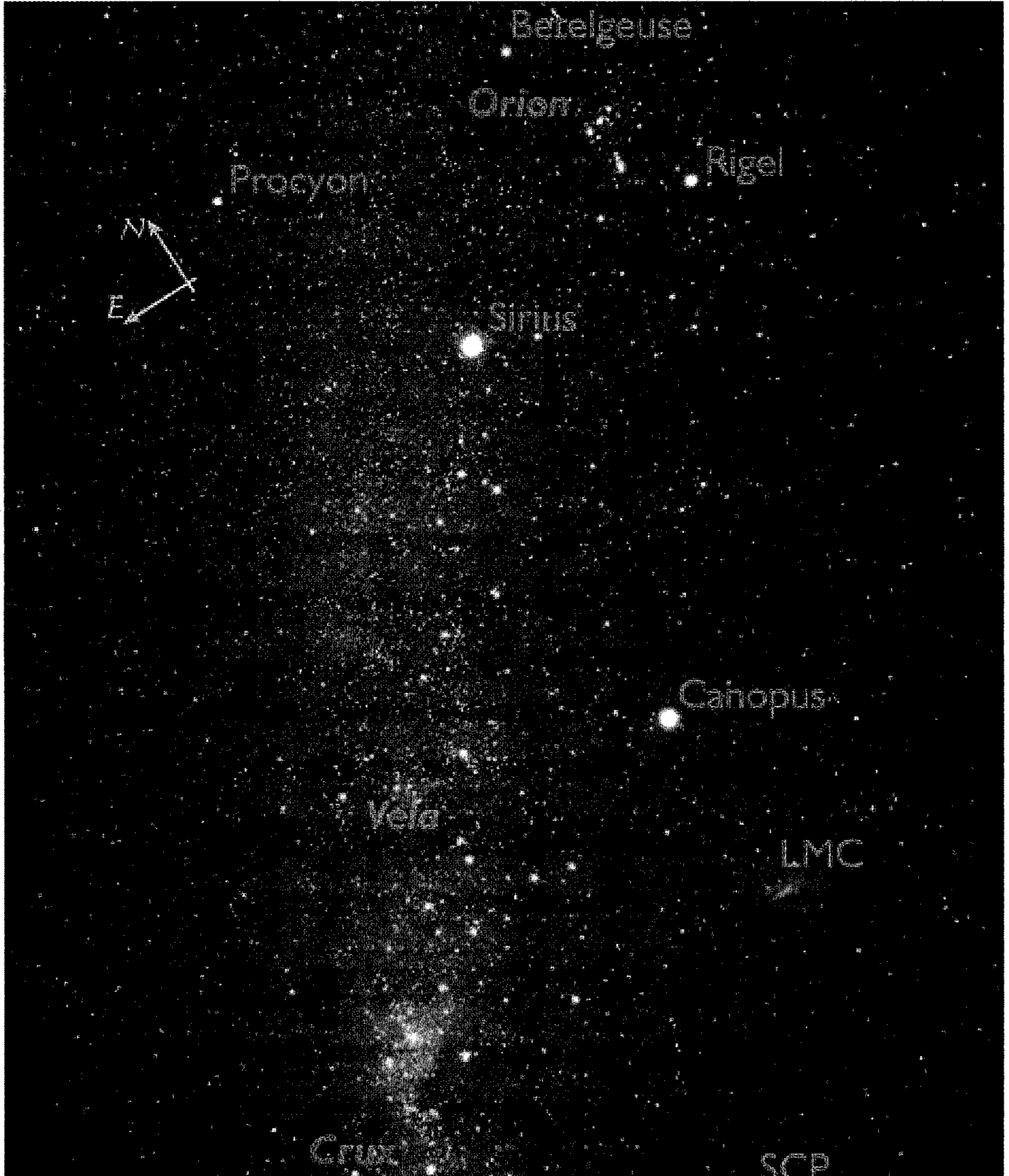
شكل (114) صورة توضح بقايا انفجار المستعر الأعظم ڤيلا وما حوله من كوكبات

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ **(الذّاريَات: 22)**

وقال بعض المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة أن بالسماء الأمر بالرزق وتقدير كل من الموعود والموعود به، والموعود به هو الجنة أو النار، والثواب أو العقاب؛ وفسرها البعض الآخر بأنه المطر، وانطلاقاً من ذلك فسر السماء بالسحاب، وهذا كله صحيح؛ ولكن يأتي العلم التجريبي في أواخر القرن العشرين ليؤكد لنا أن كافة العناصر يخلقها ربنا ﷻ في قلب النجوم، والذي لا يخلق في النجوم يتم خلقه في صفحة السماء، وأن الله تعالى ينزل منها إلى الأرض بقدر معلوم، فالنجوم والكواكب والشهب والنيازك من أهم مصادر الرزق لأهل الأرض.

(5) البروج بنجومها جند مسخرة للإمساك بأطراف السماء الدنيا :

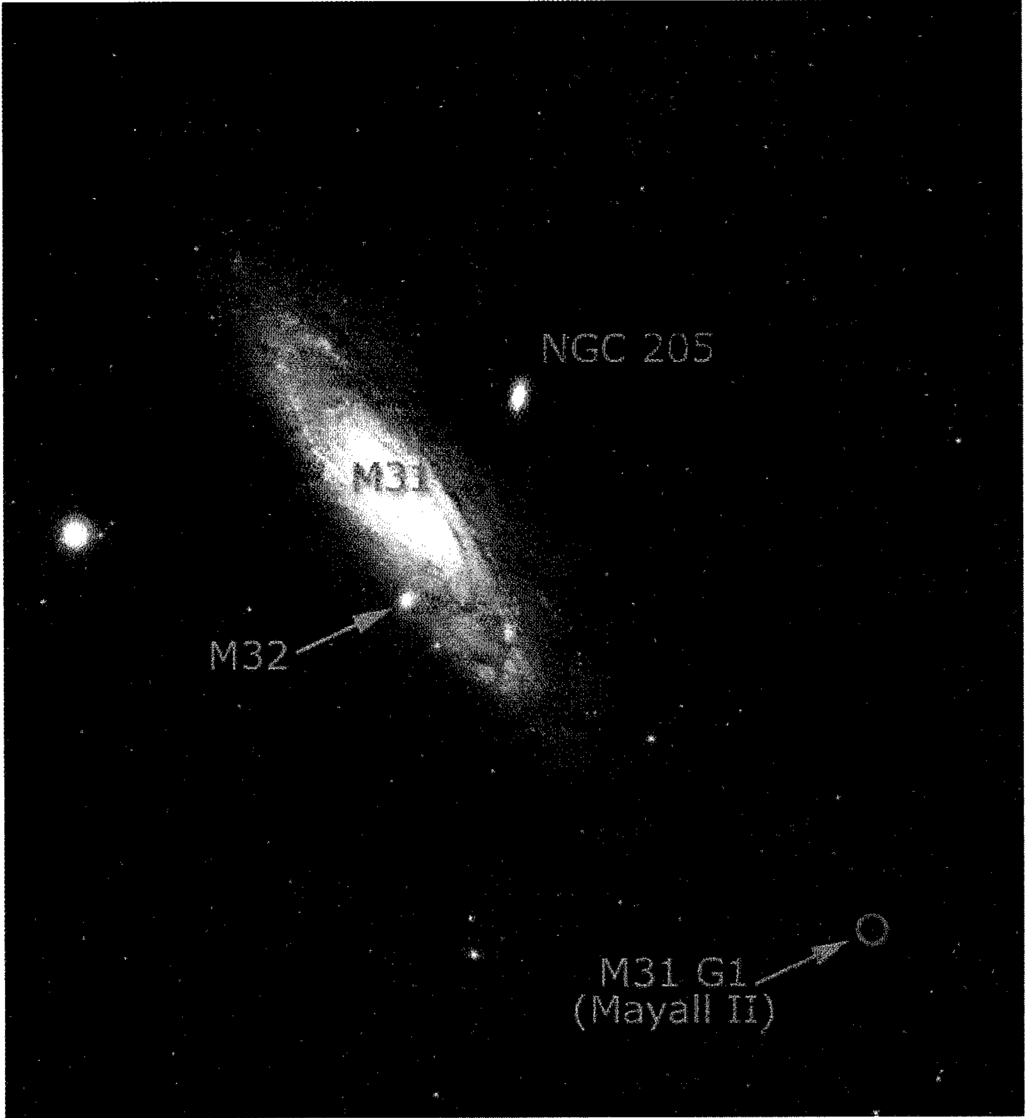
إن البروج بنجومها وباقي أجرامها، وكل ذلك بمواقعه، وكتله، وجاذبيته، وحركاته جند مسخرة من قبل الله (ﷻ) للإمساك بأطراف السماء الدنيا، على الرغم من المسافات



شكل (114) صورة توضح بقايا انفجار المستعر الأعظم ڤيلا وما حوله من كوكبات

الشاسعة التي تفصلها، فهي مرتبطة مع بعضها بالاتزان الدقيق بين كل من قوى الجاذبية والقوى الطاردة المركزية، على الرغم من تحركها بسرعات مذهلة في صفحة السماء، وفي حركات عديدة معقدة تشهد للّه الخالق العظيم بطلاقة القدرة وبديع الصنعة.

من هنا تتضح بعض جوانب الأهمية الكبرى للبروج والتي نبهنا ربنا ﷻ إليها بهذا



شكل (115) صورة لبعض التجمعات النجمية الكروية

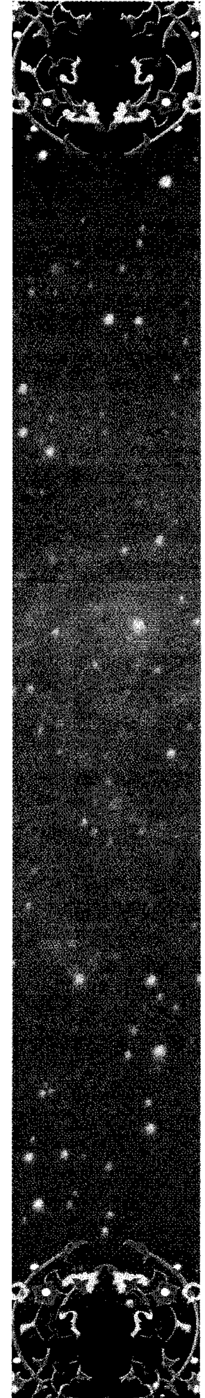
القسم الجامع الذي قال فيه (عز من قائل) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾؛ والذي علمنا منه اليوم خمساً من القضايا الهامة لاستقامة كل من الكون والحياة على الأرض.

فهي وسيلة للاهتداء في ظلمات البر والبحر، وزينة للسماء الدنيا، ورجوماً للشياطين، ومصدراً من مصادر رزق السماء لأهل الأرض، ولغيرها من الكواكب، والكويكبات، والأقمار والمذنبات وجند ممسكة بأطراف السمٰوات كي لا تقع على الأرض. وقد يرى القادمون من بعدنا في هذا القسم ما لا نراه نحن اليوم حتى تظل هذه الإشارات الكونية في كتاب الله شاهدة له بالربانية الخالصة، وللرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ بالنبوة والرسالة، وبأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض الذي وصفه (سبحانه وتعالى) بقوله الحق:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾
(النجم: 3 ـ 5).



بسم الله الرحمن الرحيم



(17) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾

(الرعد: 2)

يستهل ربنا ﷻ سورة الرعد بقوله ﷻ: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ (الرعد: 1، 2).

وفي هاتين الآيتين الكريمتين يؤكد ربنا ﷻ: أن الوحي بالقرآن الكريم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمنزل من الله تعالى، هداية للناس كافة، وقد تكاملت فيه كل صور الوحي السابقة، ولذلك تعهد ربنا (ﷻ) بحفظه فحفظ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى قيام الساعة إن شاء الله (ﷻ) بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) محفوظاً حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في حين تعرضت كل صور الوحي السابقة إما للضياع التام أو لقدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية البشرية، وعلى الرغم من ذلك كله فإن أكثر الناس لا يؤمنون بالقرآن الكريم، ولا بنبوّة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

والإيمان بالوحي من ركائز الإيمان بالله، ومن دعائم الإسلام (أي التسليم له ﷻ بالطاعة والخضوع له بالعبادة) لأن الذي يؤمن بأن الوحي هو كلام الله الخالق يسلم بمحتوى هذا الوحي من أمور الغيب، وضوابط السلوك من مثل قواعد العقيدة، وتفاصيل العبادة، ودستور الأخلاق، وفقه المعاملات، وما يصاحب ذلك من إنباء بالغيب، وخطاب إلى النفس، وتربية للذات، ودروس مستفادة من قصص الأمم

السابقة (الذي جاء للعظة والاعتبار)، وخطاب النفس الإنسانية في كتاب الله هو خطاب من خالقها وبارئها يهزها من الأعماق هزاً، ويرقى بها إلى معارج الله العليا...!!

وأول أسس العقيدة الصحيحة هو التوحيد الخالص للّه (ﷻ) بغير شريك ولاشبيه ولامنازع، ولا صاحبة، ولا ولد، والإيمان بما أنزل من غيب من مثل الإيمان به (ﷻ) وبملائكته وكتبه ورسله (بغير تفريق ولا تمييز)، وبالقدر خيره وشره (بكل الرضى والتسليم)، وبالبعث والحساب والجنة والنار، وبالخلود في حياة قادمة (بغير أدنى شك أو ريبة) إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً كما أخبرنا المصطفى ﷺ.

وهذا الإيمان الصحيح يستتبع الخضوع الكامل للّه تعالى بالعبادة والطاعة، وحسن القيام بواجب الاستخلاف في الأرض في غير استعلاء ولاتجبر، والسعي الحثيث لإقامة عدل الله (ﷻ) فيها، وكل ذلك من صميم رسالة الإنسان في هذه الحياة، ومن ضرورات تحقيق النجاح فيها.

والقرآن الكريم الذي أوحاه ربنا ﷻ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظه فحفظ حفظاً كاملاً بنفس لغة وحيه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله (ﷻ) الأرض ومن عليها، يستدل بآياته الكريمة ذاتها، وبما لها من جمال، وكمال وصدق على وحدانية الخالق العظيم الذي أنزله بعلمه، وعلى طلاقة قدرته، وكمال حكمته، كما يستدل على ذلك أيضاً بعدد من آيات الله الكونية الكبرى وفي مقدمتها رفع السمٰوات بغير عمد يراها الناس...!!! وهو من الأمور الظاهرة للعيان، والشاهدة على أن للكون إلٰهاً خالقاً، قادراً، حكيماً، عليماً، أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، وهو قادر على إفنائه، وعلى إعادة خلقه من جديد.

وعلى الرغم من ذلك فإن أكثر الناس غافلون عن كل هذه الحقائق، ومضيعون أعمارهم في شقاق، ونفاق، وعناد، من أجل الخروج على منهج الله، واتباع الشهوات المحرمة، والمتع الخاطئة المدمرة، والاستعلاء الكاذب في الأرض، والولوغ في الظلم والتجبر على الخلق وإفساد الحياة..!!! وأغلب المنكرين لدين الله الحق الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) ينطلقون من غفلتهم هذه لينكروا البعث، والحساب، والجنة، والنار، والخلود في حياة قادمة انطلاقاً من كفرهم بالله الخالق، وبملائكته، وكتبه، ورسله، ولا يجدون في رفع السماء بغير عمد يرونها آية من الآيات المادية الملموسة التي تشهد له تعالى بالألوهية، والربوبية، والوحدانية، كما تشهد له (ﷻ) بطلاقة القدرة، وكمال الحكمة، ودقة التدبير.

وتستمر الآيات القرآنية في نفس السورة باستعراض عدد غير قليل من آيات الله في الكون لعلها توقظ أصحاب العقول الغافلة، والضمائر الميتة إن كانت لديهم بقية من القدرة على التفكير السليم، أو التعقل الراجح. فإن أصروا على كفرهم بالله، وإنكارهم لرسالته الخاتمة، وما تضمنته من أمور غيبية، وفي مقدمتها قضية البعث، فليس من جزاء لهم أقل من الخلود في النار، والأغلال في أعناقهم، إمعاناً في إذلالهم جزاء كفرهم وإنكارهم لآيات الله الخالق، تلك الآيات البينات المقروءة في رسالته الخاتمة والمنظورة في كونه البديع..!!!

ورفع السمٰوات بغير عمد يراها الناس مع ضخامة أبعادها، وتعاظم أجرامها عدداً وحجماً وكتلة، هو من أوضح الأدلة على أن هذا الكون الشاسع الاتساع، الدقيق البناء، المحكم الحركة والمنضبط في كل أمر من أموره لايمكن أن يكون نتاج المصادفة المحضة، أو أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، بل لا بد له من موجد عظيم له من صفات الكمال، والجمال، والجلال، والقدرة مايغاير صفات خلقه قاطبة، ولذلك وصف ﷻ ذاته العلية بقوله الحق:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ **(الشّورى: 11)**

من أجل ذلك يؤكد القرآن الكريم حقيقة رفع السمٰوات بغير عمد يراها الناس، وإبقاءها سقفاً مرفوعاً، وحفظها من الوقوع على الأرض ومن الزوال إلا بإذن الله، وذلك في عدد من آيات أخرى من كتابه العزيز يقول فيها ربنا ﷻ:

(1) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ **(لقمان: 10)**.

(2) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ **(الأنبياء: 32)**.

(3) ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ **(الحج: 65)**.

(4) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ **(الرُّوم: 25)**.

(5) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ **(فَاطِر: 41)**.

(6) ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ **(الطُّور: 5)**.

(7) ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ **(الرَّحمٰن: 7)**.

(8) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾

(النازعات: 27، 28).

(9) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾﴾
(الغاشية: 17، 18)

(10) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ (الشّمس: 5).

فكيف رفعت السمٰوات بغير عمد يراها الناس؟ وهل معنى الآية الكريمة أن السماء لها عمد غير مرئية أم ليس لها عمد على الإطلاق؟ هذا ما سوف نفصله في السطور التالية بإذن الله تعالى، وقبل الدخول في ذلك لا بد لنا من شرح كلمة (عمد) في اللغة العربية وفي القرآن الكريم.

كلمة (العمد) في اللغة العربية:

(العَمَدُ) و(العُمُد) هي الدعائم، وهو اسم جمع مفرده (عماد)؛ و(العماد) هو ما (يعمد) إليه أي يستند إليه؛ و(العمد) على الشيء الاستناد إليه؛ ويقال: (عمد) الشيء (فانعمد) أي أقامه (بعماد) (يعتمد) عليه، و(عمدت) الشيء إذا أسندته، و(عَمَدْتُ) الحائط (أَعْمِدُه) (عمداً)، و(أعمدته) بمعنى دعمته، (فانعمد) واستند؛ و(العمود) ما تقام أو تعتمد عليه الخيمة من خشب أو نحوه، ويعرف باسم (عمود البيت)، وجمعه في القلة (أعمدة)، وفي الكثرة (عَمَد) بفتحتين و(عُمُد) بضمتين. و(عمود) القوم و(عميدهم) السيد الذي (يعمده) الناس، و(العُمْدة) بالضم ما (يعتمد) عليه وجمعه (عُمُد)، و(العِماد) بالكسر ما (يُعتَمَد)، أو هو الأبنية الرفيعة (تذكر وتؤنث)، والواحدة (عمادة) ويقال: (اعتمد) على الشيء بمعنى اتكأ عليه، و(اعتمد) عليه في كذا اتكل عليه، وفلان رفيع (العِمَادِ) أي هو رفيع عند الاعتماد عليه، يقال: (عَمَدَ) للشيء بمعنى قصد له أي: (تَعَمَّدَه)، و(العَمْد) و(التَّعَمُّد) هو قصد الشيء بالنية وهو ضد كل من السهو والخطأ، وكذلك يقال: سطع (عمود) الصبح أي ابتدأ طلوع نور الصبح، وجاء طلوع نوره تشبيهاً (للعمود)؛ والقلب (العميد) الذي يعمده الحزن، والجسد (العميد) الذي يعمده السقم، وقد (عَمَدَ) أي: توجع من حزن أو غضب أو سقم، و(عمد) البعير توجع من عقر ظهره.

كلمة (العمد) في القرآن الكريم:

وردت كلمة (عمد) في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع على النحو التالي:

(1) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ (الرعد: 2)

(2) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا . . .﴾ (لقمان: 10)

(3) ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝﴾ (الهمزة: 6 ـ 9).

ووردت لفظة (عماد) في موضع واحد يقول فيه ربنا ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ (الفجر، الآيات: 6 ـ 8)

وجاء الفعل (تعمد) ومشتقاته في كتاب الله الكريم في ثلاثة مواضع على النحو التالي:

(1) ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: 5)

(2) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النّساء: 93)

(3) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ (المائدة: 95).

من أقوال المفسرين

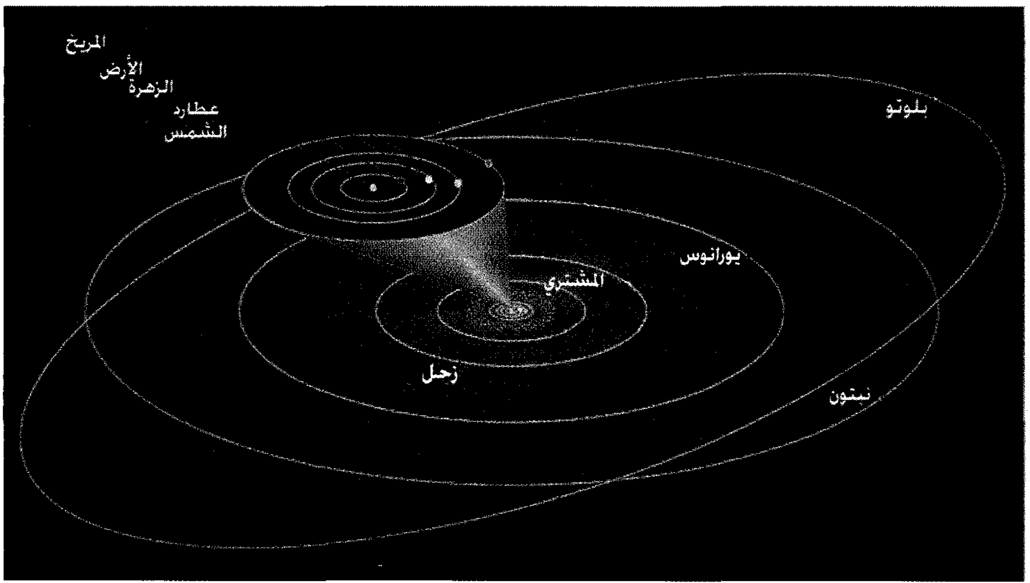
تعددت آراء المفسرين في شرح قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ (الرعد: 2).

وقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ (لقمان: 10)

• فقال ابن كثير (رحمه الله): «السماء على الأرض مثل القبة يعني بلا عمد، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿... وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ (الحجّ: 65) فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة». وفي هامش تفسيره أشار ابن كثير، إلى أن كلاً من ابن عباس (رضي الله عنهما) ومجاهد والحسن (عليهما رضوان الله) قالوا: لها عمد ولكن لا ترى، فتكون (ترونها) صفة (عمد) أي بغير عمد مرئية (أو بعمد غير مرئية)، وأضاف أن هذا التأويل خلاف الظاهر المتبادر ولذلك ضعفه ابن كثير.

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين (يرحمهما الله): «أن (العَمَد) جمع (عماد) وهو الأسطوانة، ...أي لا عمد أصلاً». وفي تعليقه على هذا التفسير ذكر كنعان (أمد الله في عمره) قوله ـ وهو صادق ـ: بأن لا عمد لها أصلاً هو إشارة إلى الوجه الثاني على القول



شكل (116) يوضح ثبات مدارات كواكب المجموعة الشمسية حول الشمس بالتعادل بين قوة الجاذبية والقوة الطاردة المركزية

بأن (ترونها) صفة لـ (عمد)، والضمير عائدٌ إليها والمعنى: رفعها خالية عن عمد مرئية، وانتفاء العمد المرئية يحتمل انتفاء الرؤية فقط أي: لها عمد ولكنها غير مرئية، ويحتمل انتفاء العمد والرؤية جميعاً أي: لا عمد أصلاً كما ذكر الجلال السيوطي (رَحِمَهُ اللهُ)، وفي قول آخر: (ترونها) مستأنفة، وضميرها يعود لـ (السمٰوات) والمعنى: رفعها بلا عمد أصلاً وأنتم ترونها كذلك. . .».

• وذكر محمد عبده (رَحِمَهُ اللهُ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ (الشّمس: 5) ما نصه: «السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ السماء هذا الكون الذي فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في مجاريها، وتتحرك في مداراتها، هذا هو السماء. وقد بناه الله أي رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك، وشد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به».

• وقال صاحب الظلال (رَحِمَهُ اللهُ): «والسمٰوات ـ أيًّا كان مدلولها، وأيًّا كان ما يدركه الناس من لفظها في شتى العصور ـ معروضة على أنظار هائلة ـ ولا شك ـ حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة، وهي هكذا لاتستند إلى شيء، مرفوعة (بغير عمد) مكشوفة (ترونها).. ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد ـ أو حتى بعمد ـ إلا الله...».

• وذكر الغمراوي (رحمه الله): «واعجب معي من إعجاز الأسلوب والمعنى معاً في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ في كل من خلق السماء ورفعها. فلو قيل (بغير عمد) فحسب لكان ذلك نفياً مطلقاً للعمد، مرئية وغير مرئية، والنفي المطلق يخالف الواقع الذي علم الله أنه سيهدي إليه عباده بعد نحو ألف وخمسين عاماً من اختتام القرآن، فكأن من الإعجاز المزدوج أن يقيد الله نفي العمد في الخلق والرفع بقوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾، والضمير المنصوب في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ يرجع أولاً إلى أقرب مذكور وهو (عمد) فيكون المعنى: بغير عمد مرئية، أي بعمد من شأنها وفطرتها ألا ترى، والفعل المضارع في اللغة يشمل الحال والاستقبال أو هو حال مستمر، لأن القرآن مخاطب به الناس في كل عصر. وإذا أعيد الضمير إلى السماء كان المعنى: أن السماء ترونها مخلوقة مرفوعة بغير عمد، وتكون العمد مايعهده الناس في أبنية الأرض، ونفيها بهذا المعنى عن السماء المرفوعة أيضاً أمر عجيب لا يقدر عليه إلا الله، وكلا الوجهين مفهوم من التعبير القرآني طبق اللغة، وإن كان الأولىٰ في اللغة هو الوجه الأول الذي يحوي الإعجاز العلمي، وإذن فالوجهان كلاهما مرادان بالتعبير الكريم إذ لامانع من أحدهما، والزمخشري فهم المعنيين على التخيير، وإن أعطي الأولوية للمعنى المستفاد من جعل (ترونها) صفة للعمد أي بغير عمد مرئية، يعني أن عمدها لا ترى، وهي إمساكها بقدرته». وأضاف الغمراوي رحمه الله:

«أما الفخر الرازي فلم يرصد إلا هذا المعنى الثاني إذ يقول: إنه رفع السماء بغير عمد ترونها، أي لا عمد في الحقيقة إلا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وإبقاؤه إياها في الحيز الحالي، وإنهم (أي الناس) لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك». وأضاف الغمراوي (رحمه الله) أيضاً قوله: «وقد عرف علماء الفلك الحديث كيفية ذلك عن طريق تلك السنة الكونية العجيبة المذهلة سنة الجاذبية العامة، التي قامت وتقوم بها السمٰوات والأرض بأمر الله كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ **(الرُّوم: 25)**».

ثم زاد قوله: «وقد بقي من صور التعبير صورة، وهي أن يقال: (بعمد لا ترونها) بدلاً من (بغير عمد ترونها) في الآيتين الكريمتين، وقد تجنبها القرآن لحكمة بالغة، فلو أنها جاءت فيه هكذا لاتجهت الأفكار بادىء ذي بدء إلى إثبات عمد في السماء أو للسماء، كالتي يعرفونها فيما يعلون من بنيان، ولأثبت العلم بطلان ذلك، وإن جاز على أهل العصور قبل، وجل وعز وجه الله أن يلم خطأ ما بكتابه من قريب أو بعيد».

• وذكر الصابوني (أمد الله في عمره) في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ ما نصه: «أي خلقها مرتفعة البناء، قائمة بقدرته لاتستند على شيء حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها بغير دعائم، وذلك دليل على وجود الخالق المبدع الحكيم».

العمد غير المرئية في العلوم الكونية:

تشير الدراسات الكونية إلى وجود قوى مستترة في اللبنات الأولية للمادة وفي كل من الذرات والجزيئات وفي كافة أجرام السماء، تحكم بناء الكون وتمسك بأطرافه إلى أن يشاء الله تعالى فيدمره، ويعيد خلق غيره من جديد. ومن القوى التي تعرف عليها العلماء في كل من الأرض والسماء أربع صور، يعتقد بأنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة تسري في مختلف جنبات الكون لتربطه برباط وثيق وإلا لانفرط عقده وهذه القوى هي:

(1) القوة النووية الشديدة (The Strong Nuclear Force):

وهي القوة التي تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة برباط متين من مثل البروتونات، والنيوترونات ولبناتهما الأولية المسماة بالكواركات **(Quarks)** بأنواعها المختلفة وأضدادها **(Anti-Quarks)** كما تقوم بدمج والتحام نوى الذرات مع بعضها البعض في عمليات الاندماج النووي **(Nuclear Fusion)** التي تتم في داخل النجوم، في العديد من التجارب المختبرية، وهي أشد أنواع القوى الطبيعية المعروفة لنا في الجزء المدرك من الكون، ولذا تعرف باسم القوة الشديدة، ولكن هذه الشدة البالغة في داخل نواة الذرة تتضاءل عبر المسافات الأكبر ولذلك يكاد دورها أن ينحصر في داخل نوى الذرات، وبين تلك النوى ومثيلاتها.

وهذه القوة تحمل على جسيمات غير مرئية تسمى باسم «اللاحمة أو جليون» **(Gluon)** لم تكتشف إلا في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، وفكرة القنبلة النووية قائمة على إطلاق هذه القوة التي تربط بين لبنات نواة الذرة.

وهذه القوة لازمة لبناء الكون لأنها لو انعدمت لعاد الكون إلى حالته الأولى لحظة الانفجار العظيم حين تحول الجرم الابتدائي الأولى الذي نشأ عن انفجاره كل الكون إلى سحابة من اللبنات الأولية للمادة التي لايربطها رابط، ومن ثم لايمكنها بناء أي من أجرام السماء.

(2) القوة الذرية الضعيفة (The weak Atomic Force):

وهي قوة ضعيفة وتساوي 10^{-13} من شدة القوة النووية الشديدة، وذات مدى لا يتعدى

حدود الذرة وتقوم بتنظيم عملية تفكك وتحلل بعض الجسيمات الأولية للمادة في داخل الذرة كما يحدث في تحلل العناصر المشعة، وعلى ذلك فهي تتحكم في عملية تحلل العناصر المشعة بعملية الإشعاع حيث أن لكل عنصر منها أجلاً مسمى، وتحمل هذه القوة على جسيمات إما سالبة أو عديمة الشحنة تسمى البوزونات **(Bosons)**.

(3) القوة الكهربائية/ المغناطيسية أو الكهرومغناطيسية (The Electromagnetic Force):

وهي القوة التي تربط الذرات بعضها ببعض في داخل جزيئات المادة مما يعطي للمواد المختلفة صفاتها الطبيعية والكيميائية، ولولا هذه القوة لكان الكون مليئاً بذرات العناصر فقط ولما كانت هناك جزيئات أو مركبات، ومن ثم ما كانت هناك حياة على الإطلاق. وهذه القوة هي التي تؤدي إلى حدوث الإشعاع الكهرومغناطيسي على هيئة فوتونات الضوء أو ما يعرف باسم «الكم الضوئي» **(Photons or Photon Quanta)**، وتنطلق الفوتونات بسرعة الضوء لتؤثر في جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربية ومن ثم فهي تؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية وفي العديد من العمليات الفيزيائية، وتبلغ قوتها 1/137 من القوة النووية الشديدة.

(4) قوة الجاذبية (The Gravitational Force):

وهي على المدى القصير تعتبر أضعف القوى المعروفة لنا، وتساوي 10^{-39} من القوة النووية الشديدة، ولكن على المدى الطويل تصبح القوة العظمى في الكون، نظراً لطبيعتها التراكمية فتمسك بكافة أجرام السماء، وبمختلف تجمعاتها. ولولا هذا الرباط الحاكم الذي أودعه الله تعالى في الأرض وفي كل أجرام السماء ما كانت الأرض ولا كانت السماء. ولو زال هذا الرباط لانفرط عقد الكون وانهارت مكوناته. ولا يزال أهل العلم يبحثون عن موجات الجاذبية المنتشرة في أرجاء الكون كله، منطلقة بسرعة الضوء دون أن ترى، ويفترض وجود هذه القوة على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد يطلق عليها اسم «الجسيم الجاذب أو الجراڤيتون» **(Graviton)**؛ وعلى ذلك فإن الجاذبية هي أربطة الكون الممسكة بكل أجرامه.

والجاذبية مرتبطة بكتل الأجرام وبمواقعها بالنسبة لبعضها البعض، فكلما تقاربت أجرام السماء، وزادت كتلها، زادت قوى الجذب بينها، والعكس صحيح، ولذلك يبدو أثر الجاذبية أوضح ما يكون بين أجرام السماء التي يمسك الأكبر فيها بالأصغر بواسطة قوى الجاذبية.

ومع دوران الأجرام حول نفسها تنشأ القوة الطاردة (النابذة) المركزية التي تدفع بالأجرام الصغيرة بعيداً عن الأجرام الأكبر التي انفصلت عنها، وتظل الأجرام الصغيرة في التباعد عن مصادرها الأصلية حتى تتساوى القوتان المتضادتان: قوة الجذب إلى الداخل، وقوة الطرد إلى الخارج فتتحدد بذلك مدارات كافة أجرام السماء التي يسبح فيها كل جرم سماوي دون أدنى تعارض أو اصطدام.

هذه القوى الأربع هي الدعائم الخفية التي يقوم عليها بناء السمٰوات والأرض، وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة. ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية أن هذه القوى الأربع لا بد وأن تلتقي في شكل واحد للقوة يمثل وحدة البناء في هذا الكون، ويشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

توحيد القوى المعروفة في الكون المدرك:

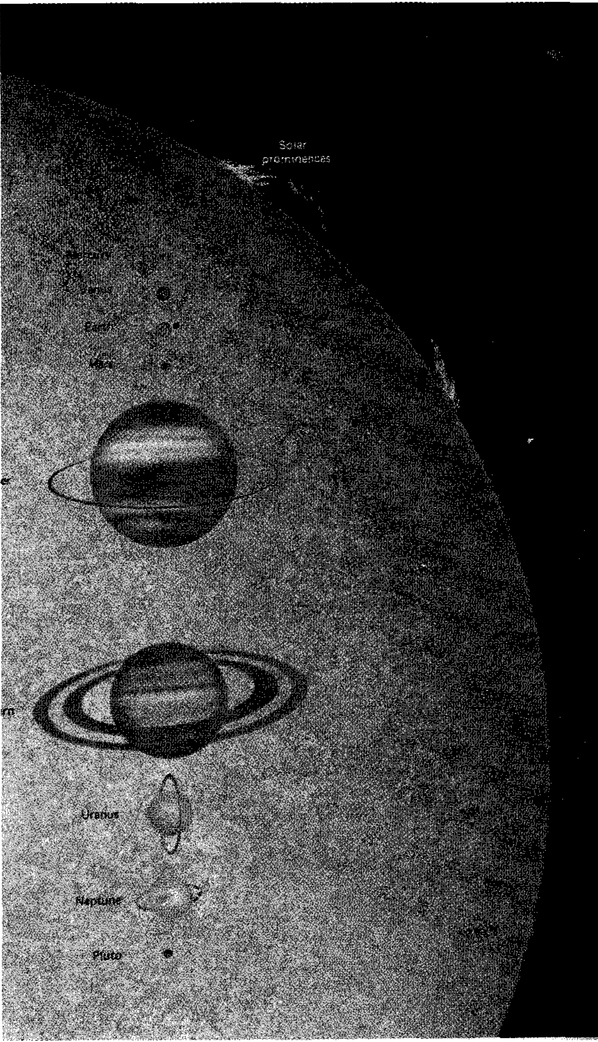
كما تم توحيد قوتي الكهرباء والمغناطيسية في شكل قوة واحدة هي القوة الكهرومغناطيسية، يحاول العلماء جمع تلك القوة مع القوة النووية الضعيفة باسم القوة الكهربائية الضعيفة **(The Electro-Weak Force)** حيث لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا التي بدأ بها الكون.

كذلك يحاول العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة والقوة النووية الشديدة في قوة واحدة وذلك في عدد من النظريات التي تعرف باسم «نظريات المجال الواحد أو النظريات الموحدة الكبرى» **(The Grand Unified or Unifying Theories)**، ثم جمع كل ذلك مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم الجاذبية العظمى **(Supergravity)** التي يعتقد العلماء بأنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء خلق الكون، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم، والتي ينظر إليها على أنها أوجه أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التي تشهد للّه الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. فالكون يبدو كنسيج شديد التلاحم والترابط، ورباطه هذه القوة العظمى الواحدة التي تنتشر في كافة أرجائه، وفي جميع مكوناته وأجزائه وجزيئاته، وذراته، ولبناته الأولية، وهذه القوة الواحدة تظهر لنا في هيئة العديد من صور الطاقة، والطاقة هي الوحدة الأساسية في الكون، والمادة مظهر من مظاهرها، وهي من غير الطاقة لا وجود لها، فالكون عبارة عن المادة والطاقة (وهما وجهان لعملة واحدة) ينتشران في كل من المكان والزمان بنسب وتركيزات متفاوتة فينتج عنها ذلك النسيج المحكم المحبوك في كل جزئية من جزئيات الكون.

الجاذبية العامة

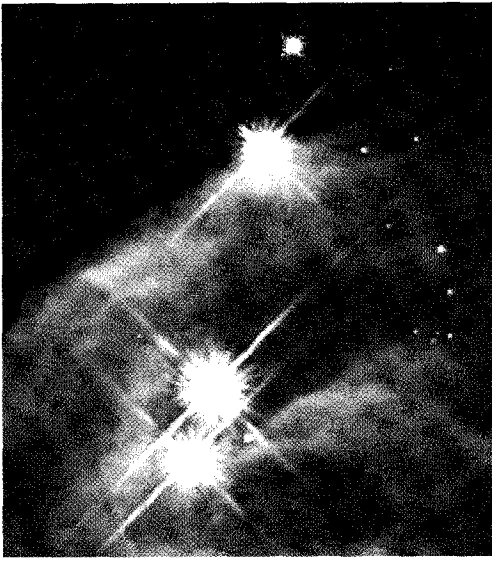
:(The General Gravity)

من الثوابت العلمية أن الجاذبية العامة هي سنة من سنن الله أودعها ربنا (ﷻ) كافة أجزاء الكون ليربط تلك الأجزاء بواسطتها، وينص قانون هذه السنة الكونية على أن قوة التجاذب بين أي كتلتين في الوجود تتناسب طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما، وعكسياً مع مربع المسافة الفاصلة بينهما، ومعنى ذلك أن قوة الجاذبية تزداد بازدياد كل من الكتلتين المتجاذبتين، وتنقص بنقصهما، بينما تزداد هذه القوة بنقص المسافة الفاصلة بين الكتلتين، وتتناقص بتزايدها، ولما كان لأغلب أجرام السماء كتل مذهلة في ضخامتها فإن الجاذبية العامة هي الرباط الحقيقي لتلك الكتل على الرغم من ضخامة المسافات الفاصلة بينها، وهذه القوة الخفية (غير المرئية) تمثل النسيج الحقيقي الذي يربط كافة أجزاء الكون كما هو الحال بين الأرض والسماء، وهي القوة الرافعة للسمٰوات (بإذن الله) بغير عمد مرئية. وهي نفس القوة التي تحكم تكور الأرض، وتكور كافة أجرام السماء، وتكور الكون كله، كما تحكم عملية تخلق النجوم بتكدس أجزاء من الدخان الكوني على بعضها البعض، بكتل محسوبة بدقة فائقة، وكذلك تخلق كافة الأجرام الأخرى بالسماء، كما تحكم دوران الأجرام السماوية كلٌ حول محوره، وتحكم جريه في مداره، بل في أكثر من مدار



شكل (117) يوضح حجم كواكب المجموعة الشمسية بالنسبة إلى الشمس

واحد له، وهذه المدارات العديدة لا تصطدم فيها أجرام السماء رغم تداخلاتها وتعارضاتها الكثيرة، ويبقى الجرم السماوي في مداره المحدد بتعادل دقيق بين كل من قوى الجذب إلى الداخل بفعل الجاذبية وبين قوى الطرد إلى الخارج بفعل القوة الطاردة (النابذة) المركزية. وقوة الجاذبية العامة تعمل على تحدب الكون أي تكوره، وتجبر كافة صور المادة والطاقة فيه على التحرك في السماء في خطوط منحنية (العروج)، وتمسك بالأغلفة الغازية والمائية والحياتية للأرض، وتحدد سرعة الإفلات من سطحها، وبتحديد تلك السرعة يمكن إطلاق كل من الصواريخ والأقمار الصناعيّة (الصنعية).



شكل (119) يوضح محاكاة بالحاسب الآلي لبناء التجمعات المجرية تشير إلى وجود

والجاذبية الكمية **(Quantum Gravity)** تجمع كافة القوانين المتعلقة بالجاذبية، مع الأخذ في الحسبان جميع التأثيرات الكمية على اعتبار أن إحداثيات الكون تتبع نموذجاً مشابهاً للإحداثيات الأرضية، وأن أبعاد الكون تتبع نموذجاً مشابهاً للأرض بأبعادها الثلاثة، بالإضافة إلى كل من الزمان والمكان كبعد رابع. وعلى الرغم من كونها القوة السائدة في الكون بإذن الله فإنها لا تزال سراً من أسرار الكون، وكل النظريات التي وضعت من أجل تفسيرها قد وقفت دون ذلك لعجزها عن تفسير كيفية نشأة هذه القوة، وكيفية عملها، وإن كانت هناك فروض تنادي بأن جاذبية الأرض ناتجة عن دورانها حول محورها، وأن مجالها المغناطيسي ناتج عن دوران لب الأرض السائل والذي يتكون أساساً من الحديد والنيكل المنصهرين حول لبها الصلب والذي له نفس التركيب الكيميائي تقريباً، وكذلك الحال بالنسبة لبقية أجرام السماء.

موجات الجاذبية (The Gravitational Waves):

منذ العقدين الأولين من القرن العشرين تنادى العلماء بوجود موجات للجاذبية من الإشعاع التجاذبي تسري في كافة أجزاء الكون، وذلك على أساس أنه بتحرك جسيمات

مشحونة بالكهرباء مثل الإليكترونات والبروتونات الموجودة في ذرات العناصر والمركبات فإن هذه الجسيمات تكون مصحوبة في حركتها بإشعاعات من الموجات الكهرومغناطيسية، وقياساً على ذلك فإن الجسيمات غير المشحونة (مثل النيوترونات) تكون مصحوبة في حركتها بموجات الجاذبية، ويعكف علماء الفيزياء اليوم على محاولة قياس تلك الأمواج، والبحث عن حامليها من جسيمات أولية في بناء المادة يحتمل وجودها في داخل ذرات العناصر والمركبات، واقترحوا له اسم «الجاذب أو الجراڤيتون»، وتوقعوا أنه يتحرك بسرعة الضوء، وانطلاقاً من ذلك تصوروا أن موجات الجاذبية تسبح في الكون لتربط كافة أجزائه برباط وثيق من نواة الذرة إلى المجرة العظمى وتجمعاتها إلى كل الكون، وأن هذه الموجات التجاذبية هي من السنن الأولى التي أودعها الله (تعالى) مادة الكون وكل المكان والزمان!!

وهنا تجب التفرقة بين قوة الجاذبية **(The Gravitational Force)** وموجات الجاذبية **(The Gravitational Waves)**، فبينما الأولى تمثل قوة الجذب للمادة الداخلة في تركيب جسم ما حين تتبادل الجذب مع جسم آخر، فإن الثانية هي أثر لقوة الجاذبية. وقد أشارت نظرية النسبية العامة إلى موجات الجاذبية الكونية على أنها رابط بين المكان والزمان على هيئة موجات تؤثر في حقول الجاذبية في الكون كما تؤثر على الأجرام السماوية التي تقابلها، وقد بذلت محاولات كثيرة لاستكشاف موجات الجاذبية القادمة إلينا من خارج مجموعتنا الشمسية ولكنها لم تكلل بعد بالنجاح.

والجاذبية وموجاتها والتي يعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية على أنها من القوى التي قامت بها السمٰوات والأرض منذ بدء خلقهما، ستكون سبباً في هدم هذا البناء عندما يأذن الله تعالى بتوقف عملية توسع الكون، فتبدأ الجاذبية وموجاتها في العمل على انكماش الكون وإعادة جمع كافة مكوناته على هيئة جرم واحد شبيه بالجرم الابتدائي الذي بدأ به خلق الكون، وسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ **(الأنبياء: 104)**

مفهوم الخيوط العظمى وتماسك الكون

(The Superstrings Concept and the Coherence of the Universe):

في محاولة لجمع القوى الأربع المعروفة في الكون (القوة النووية الشديدة والقوة الذريّة الضعيفة، والقوة الكهرومغناطيسية وقوة الجاذبية) في صورة واحدة للقوة اقترح علماء

الفيزياء ما يعرف باسم نظرية الخيوط العظمى **(The Theory of Superstrings)** والتي تفترض أن الوحدات البانية للبنات الأولية للمادة من مثل الكواركات والفوتونات، والإليكترونات وغيرها، تتكون من خيوط طولية في حدود 10^{-35} من المتر، تلتف حول ذواتها على هيئة الزنبرك المتناهي في ضآلة الحجم، فتبدو كما لو كانت نقاطاً أو جسيمات، وهي - في الحقيقة - ليست كذلك. وتفيد النظرية في التغلب على الصعوبات التي تواجهها الدراسات النظرية في التعامل مع مثل تلك الأبعاد شديدة التضاؤل حيث تتضح الحاجة إلى فيزياء كمية غير موجودة حالياً، ويمكن تمثيل حركة الجسيمات في هذه الحالة بموجات تتحرك بطول الخيط، كذلك يمكن تمثيل انشطار تلك الجسيمات واندماجها مع بعضها البعض بانقسام تلك الخيوط والتحامها. وتقترح النظرية وجود مادة خفية **(Shadow Matter)** يمكنها أن تتعامل مع المادة العادية عبر الجاذبية لتجعل من كل شيء في الكون (من نواة الذرة إلى المجرة العظمى وتجمعاتها المختلفة إلى كل السماء) بناء شديد الإحكام، قويّ الترابط، وقد تكون هذه المادة الخفية هي ما يسمى باسم المادة الداكنة **(The Dark Matter)** والتي أمكن التكهن بوجودها على أساس من حسابات الكتل الناقصة **(The Missing Masses)** في الجزء المدرك من الكون على أساس من كتل الأجرام والمسافات الفاصلة بينها، وقوى التجاذب، وقد تكون هذه المادة الخفية من القوى الرابطة للكون.

وتحاول نظرية الخيوط العظمى تفسير العلاقات المعروفة بين اللبنات الأولية للمادة، وبين كافة القوى المعروفة في الجزء المدرك من الكون. وتفترض أن اللبنات الأولية للمادة ما هي إلا طرق مختلفة لتذبذب تلك الخيوط العظمى في كون ذي أحد عشر بعداً، وعليه فإنه إذا كانت النظرية النسبية قد تحدثت عن كون منحن، منحنية فيه الأبعاد المكانية الثلاث (الطول، العرض، والارتفاع) في بعد رابع هو الزمن، فإن نظرية الخيوط العظمى تتعامل مع كون ذي أحد عشر بعداً منها سبعة أبعاد مطوية على هيئة لفائف الخيوط العظمى التي لم يتمكن العلماء بعد من إدراكها، بالإضافة إلى الأبعاد الأربعة التي تحدثت عنها النظرية النسبية وهي: الطول، والعرض، والارتفاع والزمان والمكان (أو الزمكان كما يحلو لبعض الفيزيائيين والفلكيين تسميته)، وسبحان القائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ والله قد أنزل هذه الحقيقة الكونية على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من قبل أربعة عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن ينسبها إلى مصدر غير الله الخالق ﷻ.

بسم الله الرحمن الرحيم

(18) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾

(قٓ: 6)

رداً على منكري البعث يعرض القرآن الكريم في مطلع سورة قٓ لعدد من الأدلة المنطقية المثبتة لكمال القدرة الإلٰهية المبدعة، والشاهدة على إحاطة علم الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة في الكون، والناطقة بعظيم حكمته في خلقه وفيما أنزل من علم، والمؤكدة أن الله تعالى الذي خلق هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه ـ على غير مثال سابق ـ هو القادر على إفنائه وعلى إعادة خلقه من جديد، وذلك لأن قضية البعث كانت دوماً حجة الكافرين والملحدين والمتشككين...!!!.

ومن أول هذه الأدلة: إحكام بناء السماء، ورفعها بغير عمد مرئية، وتزيينها بالكواكب والنجوم والبروج وغير ذلك من أجرام السماء، وسلامتها من كل نقص يمكن أن يعيبها في شيء، ومن كل خلل يمكن أن ينتابها حتى يأتي أمر الله بتدميرها فيفنيها ويعيد إبدالها وإبدال الأرض بغيرهما من جديد..!!!.

والاستشهاد بالسماء وببنائها وزينتها وبسلامتها من كل عيب ونقص وخلل منطلق من حقيقة أن السماء هي إحدى صفحات الكون المفتوحة أمام كل ذي بصر وبصيرة، الناطقة بطلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة، والصارخة في كل غافل عن الحق، وكل منكر للخلق، وكل جاحد للبعث، وكل متنكر للّه الخالق أو مشرك به ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ أن انظر إلى السماء وما حوت من أجرام، ومن مختلف صور المادة والطاقة، في سعة من المكان، وتقادم في الزمان، وترابط وإحكام، في حركة دائبة وانتظام، وارتفاعات مذهلة بغير عمد مرئية، وجمال وزينة، وتكامل واتساق، لا تشوبه شائبة، ولا يعتريه أدنى قدر

من الخلل أو النقص الذي يعيب الكمال من مثل التصدع أو الانفراج أو التشقق، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ **(قٓ: 1 ـ 6)**

ووصفُ السماء بتمام البناء، وجمال الزينة، والتكامل والاتساق الذي لا تشوبه شائبة جاء في عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم من مثل قول الحق ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ **(الملك: 3، 4)**

وهنا يبرز التساؤل عن بناء السماء، وعن زينتها، وعن كمال خلقها واتساقها وعدم وجود (فروج) فيها بمعنى أدنى قدر من الشقوق، أو التصدعات في بنائها، وقبل الإجابة على ذلك لا بد من التعرض لمدلول الألفاظ: «بناء، وزينة، وفروج» في كل من اللغة العربية والقرآن الكريم.

المدلول اللغوي لألفاظ الآية الكريمة:

● يقال في اللغة العربية: (بنى)، (يبني)، (بناء) أو داراً بمعنى شاد بيتاً، والبناء اسم لما يبنى بناء، ومن مرادفات (البناء): (البُنْية) و(البُنْيا) و(البُنَى) بضم الباء، و(البِنى) و(البِنية) بكسرها، وكذلك (البُنْيان) وهو واحد لا جمع له، وقيل هو جمع (بنيانة) وهذا النوع من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه. ويقال: (بنى) الرجل بعروسه بمعنى زف إليها، وكل داخل بأهله (بانٍ) وهذا من قبيل الاستعارة.

● أما عن الفعل (زين) فيقال (زَيَّن) الشيء (يُزَيِّنه) (تَزْييناً) بمعنى جمّله ورتبه بالقول أو بالفعل أو بهما معاً، وعلى ذلك فكل من الحجام والحلاق (مزيِّن)، كذلك يقال (زان) الشيء (يزينه) (زينة) بمعنى أضفى عليه من نفسه أو فعله شيئاً من الجمال، ويقال: (تزين) و(ازدان) أي تجمل، ويقال: (ازينت) الأرض [وأصله (تزينت) فأدغم] إذا اكتست بشيء من الخضرة، و(تزيين) الله للأشياء إبداعه لها بزينة وإيجادها كذلك، و(تزيين) الناس للشيء هو تزويقهم إياه بفعلهم (أي بإضافة شيء جميل إليه) أو بقولهم وهو أن يمدحوه، ويذكروه بما يرفع من قدره ويغري الناس به. و(الزينة) ما (يُتَزين) به أو ما (يَزين) الإنسان أو الشيء، أي

ما يجمله ولا يشينه في شيء من أحواله، و(يوم الزِّينة) هو يوم العيد، و(الزين) عموماً هو ضد الشين.

• أما عن (فروج السماء) فهي جمع (فرْج) بفتح ثم سكون، و(الفُرُجَات) جمع (فُرْجَة). وهو الشق بين الشيئين كفرجة الحائط وما أشبهها، ويقال في اللغة: (فرِّجَ) من الغم أو من الهم (فُرْجَةً) و(فَرَجاً) أي خرج منه، و(الفَرَج) هو انكشاف الهم والغم، ولذلك يقال: (فَرَّجَ) الله غَمَّه (وفَرَّجَهُ) (تفريجاً) أي أزاله عنه، و(الانفراج) هو السعة المادية أو المعنوية بعد ضيق، أو الاتساع بالشق أو الفتق في شيء متماسك ومتصل، وللفظة دلالات أخرى عديدة تخرج عن نطاق المقصود في الآية الكريمة التي نحن بصددها.

المدلول القرآني لألفاظ الآية الكريمة:

جاءت مادة (بنى) بمختلف مشتقاتها في القرآن الكريم في اثنين وعشرين موضعاً، منها سبع مرات متعلقة ببناء السماء، وخمس عشرة مرة متعلقة بالبنيان على الأرض، وفي كل الحالات خصت السماء بالوصف (بناء) وخص تشييد الإنسان على الأرض بالوصف (بنيان)، وهذا أمر له دلالته العميقة في الإشارة إلى الفرق بين صنع الله وصنع الإنسان في القضية الواحدة.

وجاء الفعل (زين) بمختلف مشتقاته في القرآن الكريم ستاً وأربعين مرة منها ست مرات متعلقة بالسماء، وأربعون مرة متعلقة بزينة الناس (أفراداً وجماعات)، أو بمناسباتهم المبهجة من مثل الأعياد، أو بزينة الأرض حينما تكسوها الخضرة، أو بتزيين الله تعالى العمل للأمم (أفراداً وجماعات)، أو بمعنى تزيين الشيطان للمعاصي وأعمال السوء في أنظار بعض الناس.

وقد سبق الحديث عن كل من بناء السماء وزينتها في عدد من الموضوعات السابقة، ولا أرى داعياً لتكرار ذلك هنا، حيث يجب التركيز على إثبات تماسك السماء ونفي كل صورة من صور الخلل أو الاضطراب فيها والتي عبر عنها القرآن الكريم بقول الحق ﷻ:

﴿. . . وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (قٓ: 6).

وجاء الفعل (فرج) بمشتقاته في القرآن الكريم تسع مرات، منها اثنتان متعلقتان بالسماء والباقي بمعنى صون العرض، والآيتان المتعلقتان بالسماء جاء فيهما قول الحق ﷻ:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (قٓ: 6).

بمعنى أن ما لها من شقوق أو فتوق؛ وقوله (ﷻ):

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ (المُرسَلات: 9) بمعنى انشقت. والمعنى في الحالتين يشير إلى سلامة السماء من العيوب في الدنيا، وانشقاقها في الآخرة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالى): ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (قٓ: 6).

• ذكر ابن كثير (رحمه الله): أن الله تعالى يقول منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبون منه مستبعدين وقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي بالمصابيح، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ قال مجاهد: يعني من شقوق؛ وقال غيره: فتوق؛ وقال غيره: صدوع والمعنى متقارب، لقوله ﷻ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (المُلك: 3)».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين (يرحمهما الله) ما نصه: «أفلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم حين أنكروا البعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ كائنة فوقهم ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ شقوق تعيبها».

• وذكر مخلوف (رحمه الله) ما نصه: «أفلم ينظروا.. شروع في بيان أدلة القدرة التامة على البعث، رداً لاستبعادهم إياه، وهو سبعة أدلة؛ أي أغفلوا أو عموا فلم ينظروا ـ حين أنكروا البعث ـ إلى السماء فوقهم كيف أحكمنا بناءها، ورفعناها بغير عمد، وزيناها بالكواكب، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ شقوق وفتوق وصدوع، جمع فرج وهو الشق بين الشيئين، والمراد سلامتها من كل عيب وخلل».

• ويذكر صاحب الظلال (رحمه الله) ما نصه: «أن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقوه، أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال، وبراءة من الخلل والاضطراب!!! إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا، ومع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال، ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج».

• ويقول الصابوني (أمد الله في عمره) ما نصه: «ثم ذكر الله تعالى دلائل القدرة والوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته!!! ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي كيف رفعناها بلا عمد،

وزيناها بالنجوم، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي ما لها من شقوق وصدوع. وقد أجمع المفسرون الذين تعرضوا لشرح هذه الآية الكريمة على اعتبار الحرف (ما) في قول الحق ﷻ: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أنه حرف نفي أي أن السماء خالية من الفروج التي قد تنبىء بخلل ما في بنائها وذلك لأن انفراج السماء وانفطارها وانشقاقها من علامات الآخرة كما جاء في عدد كبير من آيات القرآن الكريم من مثل قول الحق (ﷻ):

- ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ (المُرسَلات: 9).
- ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ (الفُرقان: 25).
- ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ (الدّخَان: 10).
- ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ (الرَّحمٰن: 37).
- ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ (الطُّور: 9).
- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ (الحَاقَّة: 16).
- ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ (المعَارج: 8).
- ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ (المُزمّل: 18).
- ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ (النّبَإ: 19).
- ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ (التّكوير: 11).
- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ (الانفِطار: 1).
- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ (الانشقاق: 1).

وهذه الآيات كلها تشير إلى الآخرة، وتصور القيامة وأهوالها وشيئاً من مشاهدها المرعبة، وأحداثها العظام، وتؤكد سلامة سماء الدنيا من كل هذه الأوصاف.

هل يمكن للآية الكريمة أن تحمل معنى وجود فروج في السماء؟

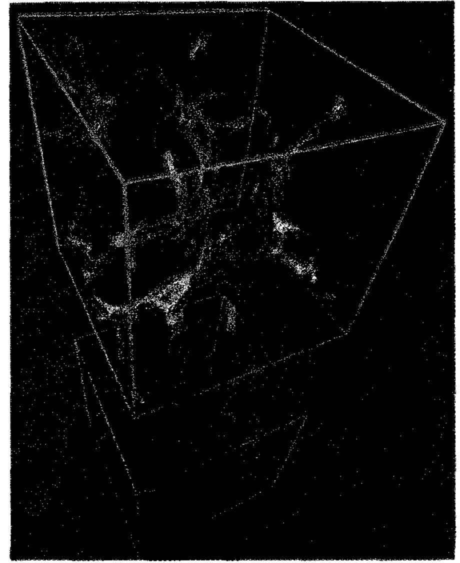
أجمع المفسرون كما سبق وأن أشرنا على أن الحرف (ما) في قول الحق ﷻ: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (قٓ: 6) هو حرف نفي ينفي وجود فروج بالسماء تنبىء بضعف أو خلل في بنائها، ولكن انطلاقاً من وجود مناطق مظلمة إظلاماً تاماً في السماء الدنيا نظراً لخلوها من النجوم وتجمعاتها، فقد سماها علماء الفلك مجازاً «بالفراغات أو الفجوات» نسبة إلى خلوها من الأجرام المضيئة، وانطلاقاً من ذلك اندفع نفر قليل من علماء المسلمين إلى

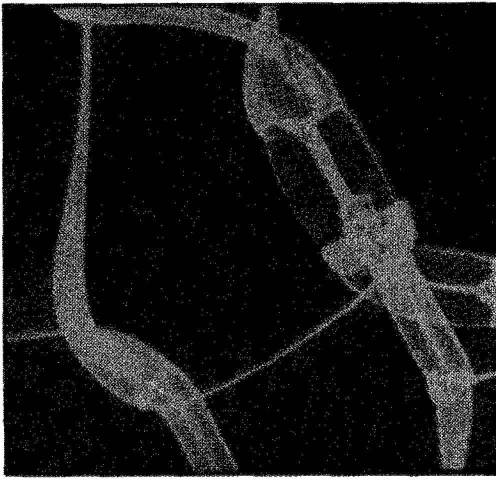
الاقتراح بأن (ما) في هذه الآية الكريمة قد تكون اسماً موصولاً بمعنى (الذي) وليست (ما) النافية وذلك في محاولة لإثبات وجود فروج في السماء، وتصوروا أن هذا الاستنتاج يجعل الآية كلها تقرأ في الصيغة التعجبية الاستفهامية التي بدأت بها الآية بمعنى: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها؟ وأفلم ينظروا إلى ما للسماء من فروج؟. وهذا الاستنتاج مخالف لنصوص القرآن الكريم التي تجمع على غير ذلك، وعلى أن انفراج السماء وانفطارها وانشقاقها هو من علامات الآخرة، ولا وجود لها في سماء الدنيا كما سبق أن أشرنا؛ ليس هذا فقط بل إن الدراسات الفلكية والفيزيائية تنفي إمكانية وجود فراغات في الجزء المدرك من الكون وذلك للأسباب التالية:

أولاً: المناطق المظلمة من الكون المدرك لا تعني وجود فراغات فيه:

في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين قام عدد من الفلكيين بعملية مسح للجزء المدرك من السماء لعمل خرائط جديدة له ثلاثية الأبعاد، وفي أثناء ذلك لاحظوا وجود العديد من المناطق المظلمة التي لا تحتوي نجوماً مضيئة بين المجرات، وسموها مجازاً (بالفجوات) أو (الفقاعات) وانطلقوا من ذلك إلى الاستنتاج بأن الكون المدرك يشبه قطعة الإسفنج المليئة بالفجوات، وتمثل المجرات فيها خيوط الاسفنج المنسوجة بإحكام حول تلك الفجوات، واعتبروا تلك الفجوات خيوطاً كونية عملاقة.

ولما كانت فجوات الإسفنج ليست فراغاً لامتلائها بالهواء أو بالماء، فإن المناطق المظلمة بالكون المدرك ليست فراغاً لامتلائها بالدخان الكوني، وبمختلف صور الأشعة الكونية، بل قد يكون فيها من صور المادة والأجرام الخفية ما يفوق كتل المجرات المحيطة بها مجتمعة، ويعتقد عدد من الفلكيين المعاصرين أن هذه المناطق المظلمة تتكون أساساً من المواد الداكنة الباردة التي تمثل الكتلة المفقودة من الكون المدرك، وقد تحتوي على أعداد من النجوم الخانسة الكانسة ذات الكثافات الفائقة والمعروفة باسم «الثقوب السود» والتي تفوق كتلتها مجموع الكتل من حولها، وأن هذه المادة الداكنة الخفية والنجوم الخانسة التي أمكن إدراكها بطرق غير مباشرة، أمكن حساب كتلتها بما يزيد على تسعين بالمئة من كتلة الجزء المدرك من الكون. ففي سنة 1981م اكتشف عدد من الفلكيين تلك المناطق المظلمة من الكون المدرك في «كوكبة العواء» أو «كوكبة راعي الشتاء» التي تقع في نصف الكرة الشمالي، وظنوها فراغات هائلة أو فقاعات عظيمة، تبين لهم بعد ذلك أن أمثال تلك المناطق المظلمة منتشرة في مختلف أرجاء الكون المنظور، وحتى في داخل مجرتنا، وأنها من أساسيات النظام الكوني، ومن أسرار بنائه، وأن لها دوراً مهماً في تماسك ذلك البناء.


أ


ب

شكل (119) يوضح محاكاة بالحاسب الآلي لبناء التجمعات المجرية تشير إلى وجود الأربطة الكونية بين مناطق مظلمة

وفي سنة 1989م تم اكتشاف ما يسمى باسم الحائط العظيم وهو عبارة عن حشد هائل من تجمعات المجرات يبلغ طوله نحو مائتين وخمسين مليوناً من السنين الضوئية، وعرضه نحو مائتي مليون سنة ضوئية، وسمكه نحو خمسة عشر مليوناً من السنين الضوئية، وقد اكتشف الفلكيون في داخل هذا الحائط العظيم العديد من المناطق المظلمة الشاسعة الأبعاد، التي تفصل بين كل من المجرات والتجمعات المجرية بمختلف مستوياتها، وتبدو هذه المناطق المظلمة وكأنها مناطق جذب فائقة الشدة، مرتبة ترتيباً دقيقاً وبأشكال هندسية محددة، وتتوزع المجرات حولها، وكأنها خلايا عظيمة البناء متصلة بشكل هندسي بديع حول المناطق المظلمة التي يبدو أنها مشدودة إلى مراكز تلك المناطق بقوى فائقة للغاية إلى ماقد أشير إليه آنفاً باسم المادة الداكنة التي يراها البعض أربطة كونية شديدة على هيئة جسيمات فائقة الكتلة لم يمكن اكتشافها بعد، أو على هيئة قوة كهرومغناطيسية ذات موجات غير معروفة تؤثر في المادة التي تنتشر حولها، وقد تكون ناتجة عن الحركة الدورانية الشديدة في كل أجرام السماء. وهذه الكتل المظلمة أو الفقاعات الدخانية الضخمة التي لا تحوي أية أجرام منظورة، قد تضم بجوار المادة الداكنة والأجرام غير المنظورة أعداداً هائلة من الجسيمات المادية والإشعاعات الكونية، وربما بعض الغازات المتأينة المعروفة باسم «البلازما» ويبدو أنها من أسرار بناء السماء، ومن ضرورات قيامها واتزانها، ومن لوازم

انتشار كل من المادة والطاقة في مختلف أرجائها، وأن لها دوراً مهماً في بناء التجمعات المجرية العظمى يفوق دور تجاذب المجرات فيما بينها. ويعتقد بأن هذه الفقاعات الدخانية قد تكونت عقب عملية الانفجار العظيم بعد فترة من الزمن كافية لتجمع اللبنات الأولية للمادة الناشئة عن ذلك الانفجار على هيئة ذرات، ويعتقد كذلك بأن المجرات قد تكونت بتكدس عدد من تلك الفقاعات الدخانية على ذاتها بفعل الجاذبية، كما يعتقد بأن تفكك المجرات في مراحلها النهائية قد يؤدي إلى تكون مثل هذه الفقاعات الدخانية، ويمكن بذلك أن يفسر نشأة أشباه النجوم التي تنتشر اليوم على أطراف الجزء المدرك من الكون. ففي يناير سنة 1988 م تم اكتشاف شبيه نجم على مسافة تقدر بنحو(16850) سنة ضوئية منا، وفي أغسطس من نفس السنة تمَّ اكتشاف مجرة راديوية تبعد عنا خمسة عشر بليوناً من السنين الضوئية، وفي نهاية سنة 1989 م تمَّ اكتشاف شبيه نجم يبعد عنّا بمسافة(17400) مليون سنة ضوئية، ويعتبر بعده أقصى حد وصل إليه علماء الفلك في الجزء المدرك من الكون الذي يتسع باستمرار.



ج



د

شكل (120) رسم تخطيطي لشريحتين من سور المجرات العظيم وتبدو فيها المجرات والمناطق المظلمة العملاقة الفاصلة بينها

ثانياً: اتساع الكون ينفي وجود فراغات فيه:

من الثابت علمياً أن كوننا دائم الاتساع، وأن هذا الاتساع ناشىء عن تباعد المجرات عنا وعن بعضها البعض بسرعات تكاد أن تقترب في بعض الحالات من سرعة الضوء، وبهذا التباعد تتخلق المادة والطاقة من حيث لا يدرك العلماء، لأن كلًّا من المكان والزمان والمادة والطاقة قد تم خلقه بعملية الانفجار العظيم، ويتجدد خلقه بتمدد الكون واتساعه، فلا يوجد مكان بغير زمان، ولا زمان بغير مكان، ولا يوجد مكان وزمان بغير مادة وطاقة. ويؤدي تباعد المجرات إلى اتساع أفق الكون بالنسبة لموقعنا منه، ونحن لا نستطيع أن نرى من هذا الموقع ما وراء الأفق، ومن المفروض أنه باتساع الكون وتباعد الأفق الكوني عنا في كل لحظة أنه يمكن لنا أن نرى أجراماً سماوية جديدة على حافة ذلك الأفق باستمرار، وأن تختفي عن

رؤيتنا أجرام قديمة وتخرج عن مجال رؤيتنا، ولكن أجهزتنا الفلكية الحالية لاتتيح لنا التحقق من ذلك على الرغم من تطورها المذهل، وذلك لأن أفق الكون يبتعد عنا بتمدده بسرعات تقترب أحياناً من سرعة الضوء (نحو 92% من سرعة الضوء)، وعلى الرغم من ذلك فإنه انطلاقاً من وحدة البناء في الجزء المدرك لنا من السماء فإننا نعتقد بأن القوانين الحاكمة للكون واحدة وسارية في كل أجزائه على الرغم من أن النقطة التي بدأت منها عملية الانفجار العظيم لم يتم تحديد موقعها بعد، وهي بالتأكيد أبعد بكثير من الحافة المدركة للجزء المرئي من السماء، الذي يقدر قطره بنحو 19 ـ 23 بليون سنة ضوئية.

ثالثاً: المادة المضادة في الكون تنفي وجود فراغات فيه:

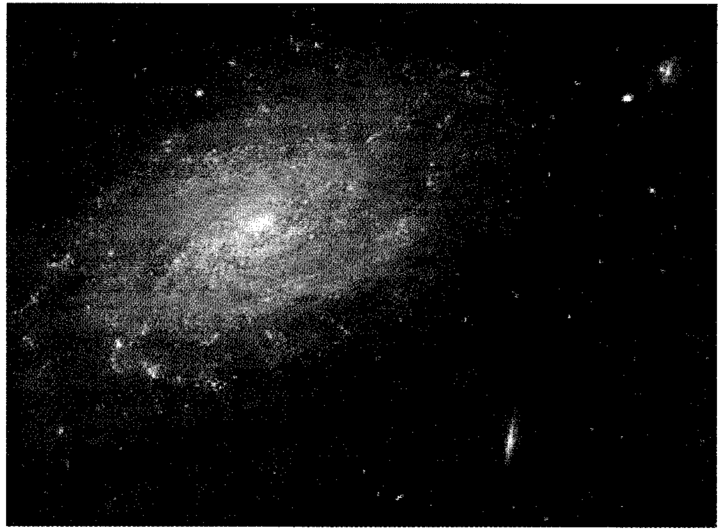
في سنة 1924 م أثبت العالم الفرنسي دي بروجلي **(de Broglie)** أن الإلكترون يتصرف أحياناً في ظروف معينة على أنه موجة إشعاعية غير مادية. وما ينطبق على الإلكترون ينطبق على أي لبنة أخرى من اللبنات الأولية للمادة.

وفي سنة 1925 م وضع كل من هايسنبرج الألماني **(Heisenberg)** وشرودنجر النمساوي **(Schroedinger)** منفردين القواعد الأساسية لكل من ميكانيكا الكم والميكانيكا الموجية، وكلاهما يبحث في الأسباب التي تؤدي بالكم الضوئي أو الفوتون لأن يتصرف أحياناً على هيئة جسيم مادي وأحياناً أخرى على هيئة موجة إشعاعية.

وفي نفس السنة (1925 م) أعلن باولي **(Pauli)** مبدأ الاستبعاد الذي يؤكد أن زوجين من الإلكترونات داخل الذرة الواحدة لايمكن أن يكون لهما نفس العدد الكمي، وبالتالي لا يمكن أن يكون لهما نفس المدار حول النواة، ونفس السرعة، وينطبق هذا القانون فقط على الجسيمات الأساسية التي تدخل في تركيب الذرة.

وفي سنة 1931 م أعلن ديراك **(Dirac)** النظرية المتناسبة للإلكترون التي أشار فيها إلى وجود إلكترون بشحنة وطاقة مختلفتين تم اكتشافه بعد ذلك بسنة واحدة (1932 م) في الأشعة الكونية بواسطة كارل أندرسون، وسمي باسم (البوزيترون) وتسلسل بعد ذلك اكتشاف نقائض لباقي الجسيمات الأولية للمادة من مثل نقيض البروتون، واعتبرت نقائض المادة في مواجهة المادة حقيقة من حقائق كوننا المدرك، حيث ثبت أن لكل جسيم مادي نقيضه أي جسيماً يماثله تماماً في الكتلة والحجم والسرعة ولكن له شحنة مضادة ويدور بطريقة معاكسة، وثبت أنه إذا التقى الضدان فإنهما يفنيان فناء تاماً. وقد تساءل العلماء عن كيفية بقاء عالمنا المادي مع وجود كل من المادة وأضدادها وكلاهما يفنى بلقاء الآخر. وقد فسر

ذلك بأن كلًّا من المادة والمادة المضادة قد تجمع على ذاته لتكوين تجمعات سماوية خاصة به بمعنى وجود عوالم من المادة المضادة مغايرة لعالمنا المادي لا نراها ولا نعلم عنها شيئاً، وهذا وحده يكفي لإثبات عدم وجود فراغات في السماء.



شكل (121) صورة لإحدى المجرات الحلزونية الشبيهة بمجرتنا

رابعاً: مراحل خلق الكون المدرك تنفي وجود أية فراغات في السماء:

تؤكد الدراسات الفيزيائية والفلكية أنه نتيجة لواقعة الانفجار العظيم (أو فتق الرتق) تم خلق كل من المكان والزمان، والمادة والطاقة في فترة تقدر بحوالي 10^{15} ثانية (أي ألف مليون مليون ثانية أي حوالي الثلاثين مليون سنة تقريباً بعد الانفجار العظيم) مر فيها الكون بمراحل يتصورها علماء الفيزياء الفلكية على النحو التالي:

(1) عصر الكواركات والجليونات (Age of Quarks of Gleons):

وتقدر له الومضة من 10^{-43} ثانية إلى 10^{-32} ثانية وتتميز بحالات كثيفة للمادة وأضدادها وإن كانت نسبة الكواركات تفوق أضدادها كما تميزت بالتضخم والتوسع الإنفجاريين، وبانفصال كل من قوة الجاذبية والقوة النووية الشديدة كقوتين متميزتين.

(2) عصر اللبتونات (Age of Leptons):

ويقدر له الومضة من 10^{-32} ثانية إلى 10^{-6} ثانية بعد الإنفجار العظيم وفيها تمايزت اللبتونات من الكواركات، وظهرت البوزونات **(Bosons)** وكانت فيه كل من القوة النووية الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية متحدتين على هيئة القوة الكهربية الضعيفة.

(3) عصر النيوكليونات وأضدادها (Age of Nucleons and Antinucleons):

تقدر له الفترة بين 10 ثوانٍ إلى 225 ثانية بعد الانفجار العظيم وفيها اتحدت الكواركات لتكوين النيوكليونات وأضدادها. وانفصلت القوى الأربع المعروفة (الجاذبية،

النووية الشديدة، النووية الضعيفة والكهرومغناطيسية).

(4) عصر تخليق نوى الذرات (Age of Atomic Nuclei):

وتقدر له الفترة من225 ثانية إلى ألف ثانية بعد الانفجار العظيم وفيها تخلقت نوى ذرات الإيدروجين (74%) والهيليوم (25%) وبعض النوى الأثقل قليلاً (1%) وفيه سادت المادة.

(5) عصر الأيونات (Age of Ions):

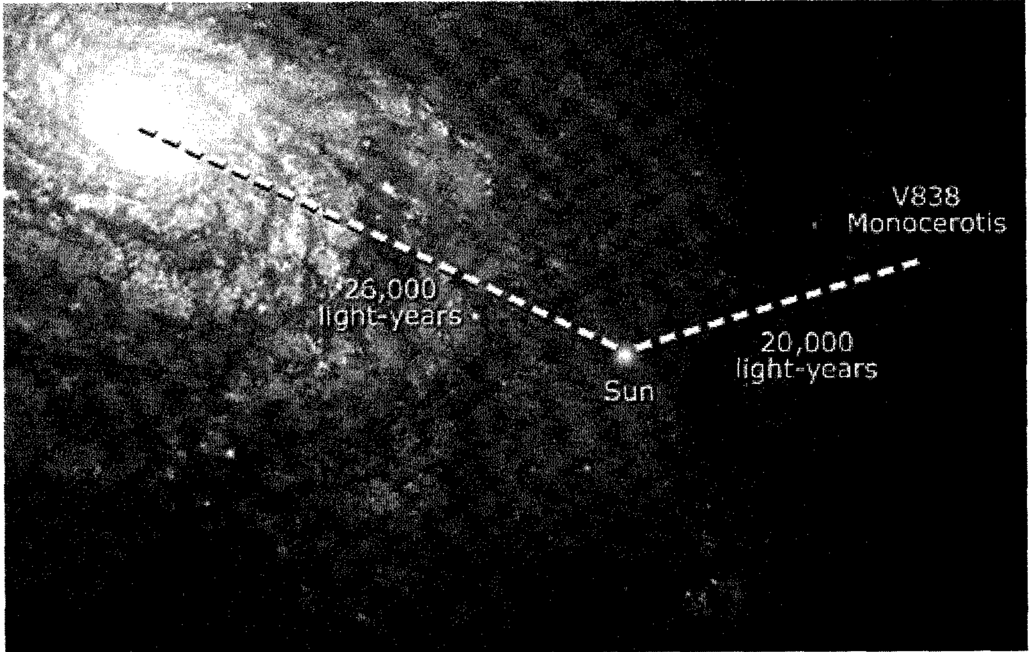
وتقدر له الفترة من 10^3 ثانية إلى 10^{13} ثانية بعد الإنفجار العظيم وفيه تكونت غازات من أيونات كل من الإيدروجين والهيليوم وأخذ الكون في الاتساع والتبرد التدريجي.

(6) عصر تخلق الذرات (Age of the Creation of Atoms):

وتقدر له الفترة من 10^{13} ثانية إلى 10^{15} ثانية وفيه تخلقت الذرات المتعادلة وارتبطت بالجاذبية وأصبح الكون شفافاً لمعظم موجات الضوء.

(7) عصر تخلق النجوم والمجرات (Age of the Creation of stars and Galaxies):

تقدر له الفترة من 10^{15} ثانية إلى اليوم وإلى أن يشاء الله، ويتميز ببدء عملية الاندماج النووي لتكوين نوى ذرات أثقل من الإيدروجين.

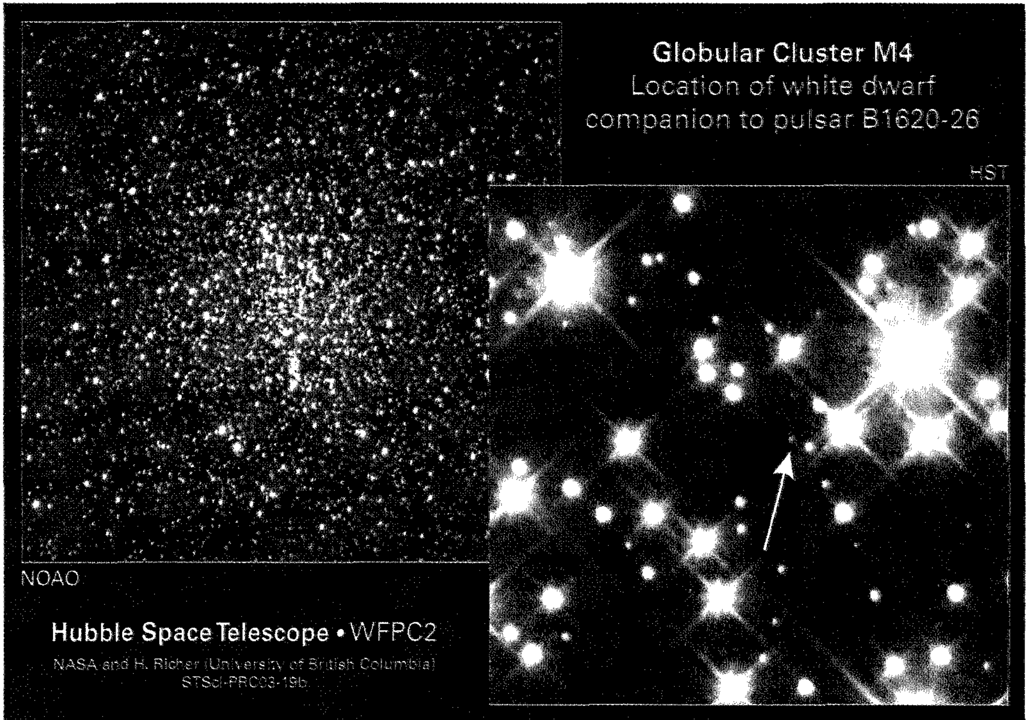


شكل (122) صورة للنجم (V 838 Monocerotis) في مجرتنا اخذتها عدسات تليسكوب الفضاء هابل

وهذه المراحل المتتالية تؤكد أن المادة والطاقة ملأتا المكان والزمان منذ اللحظة الأولى للانفجار العظيم وظلّا يملآنه مع استمرار تمدد الكون وإن كان ذلك يتم بتباين واضح في تركيز وجودهما من نقطة إلى أخرى في الجزء المدرك من الكون.

خامساً: المادة بين الكواكب والنجوم والمجرات تنفي وجود فراغات في الجزء المدرك من الكون:

إلى عهد قريب كان علماء الفلك يعتقدون أن أجرام السماء تسبح في فراغ تام، ولكن البحوث المتأخرة أثبتت أن المسافات بين كل من النجوم وتجمعاتها المختلفة (المجرات وتجمعاتها وحشودها إلى نهاية الجزء المدرك من الكون) تنتشر فيها الأشعة الكونية وما تحمله من جسيمات أولية، والدخان الكوني وما يحمله من هباءات المواد الصلبة (الرماد) بالإضافة إلى ما يعرف باسم المادة الداكنة والتي اقترح وجودها الفلكي السويسري فريتز

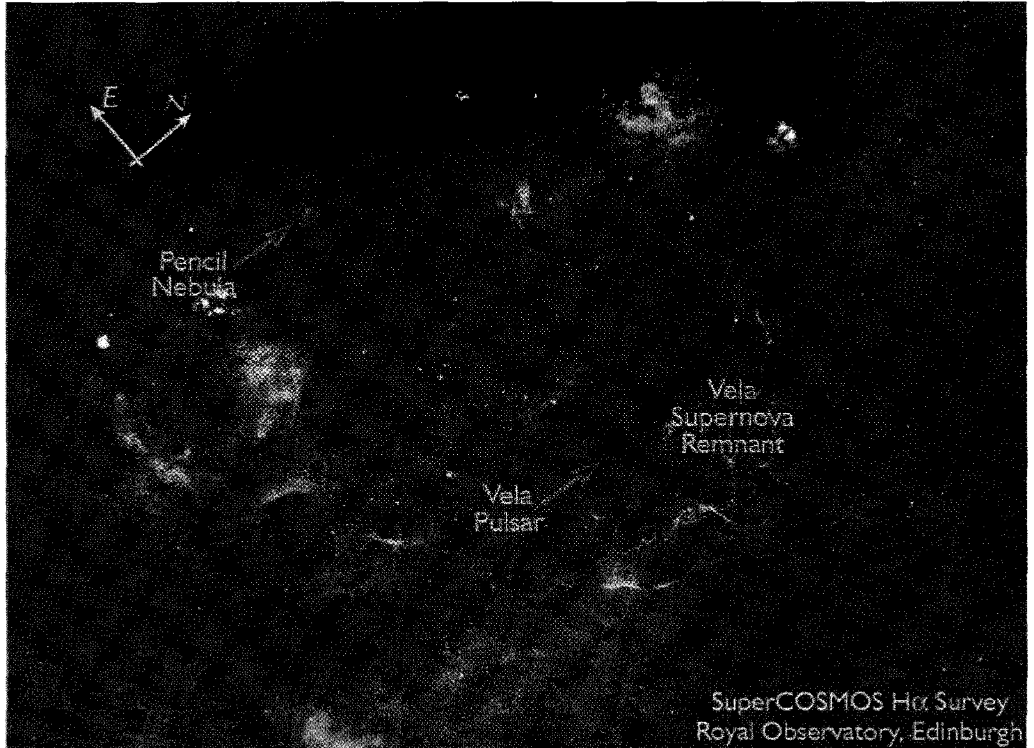


شكل (123) صورة للتجمع النجمي الكروي (M_4) أخذتها عدسات تلسكوب هابل وفي داخل المربع المكبر يرى بجواره قزم أبيض مرافق للنجم النابض (BI 620-26)

زفيكي **(Fritz zwicky)** في سنة 1933 م حين اكتشف أن الكتلة الكلية المحسوبة في كوكبة العذراء تفوق بكثير مجموع كتل المجرات المكونة لها. وفي سنة 1992 م أعلن علماء الفلك والفيزياء الفلكية الاحتمال الكبير بوجود تلك المادة الداكنة والتي لا ترى، والتي يقترحون أنها تتركب من جسيمات ذرية جديدة لم تكتشف بعد وتسمى «الويمبات» أو الجسيمات الثقيلة التي تمثل نوعاً من الخيوط الكونية التي تربط أجرام السماء وتحمل الأوامر الكونية كما تحملها لبنات الشفرة الوراثية في أجساد الكائنات الحية؛ وربما تفسر المادة الداكنة الكتلة المفقودة في الكون كالتي أدركها زفيكي في الثلث الأول من القرن العشرين، وكذلك يمكن أن تفسر طبيعة مناطق الجاذبية العملاقة التي تربط التجمعات المجرية العظمى مع بعضها البعض.

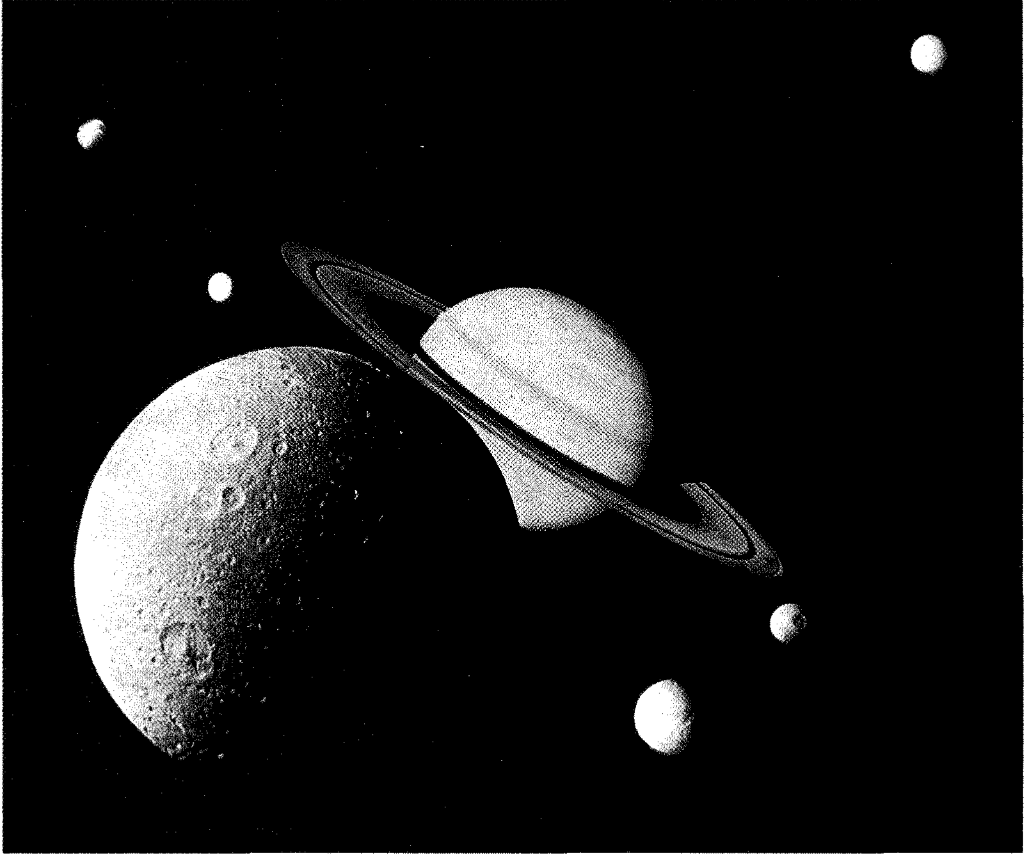
هذه الأدلة مجتمعة تنفي وجود فراغات في الكون المدرك، وسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة تأكيد هذه الحقيقة الكونية فقال ﷻ:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (قٓ: 6).



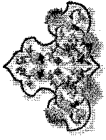
شكل (124) صورة لبقايا انفجار المستعر الأعظم (ڤيلا) صوره المرصد الملكي بإدنبره

وهي حقيقة لم يدركها العلم المكتسب إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه الصياغة الجازمة لَممّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها؟

بسم الله الرحمن الرحيم



(19) ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾



(الذّاريَات: 22)

يستهل ربنا (ﷻ) سورة الذاريات بقسم عظيم بأربع من آياته في الكون ـ والله تعالى غني عن القسم لعباده ـ بأن وعده لصادق، وأن الدين الإسلامي لحق واقع. وهو الدين الذي أنزله على فترة من الرسل، والذي أتمه وأكمله وحفظه في بعثة خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين).

ثم يكرر ربنا (ﷻ) القسم بالسماء (ذات الحبك) على أن الناس مختلفون في أمر يوم الدين بين مكذب ومصدق، وتستعرض الآيات حال كل من المجموعتين في هذا اليوم العصيب، وبعد ذلك تعود السورة إلى الاستدلال بآيات الله في كل من الأنفس والآفاق على صدق ما جاءت به من أنباء الغيب، ومن هذه الآيات قول الحق ﷻ:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذّاريَات: 22).

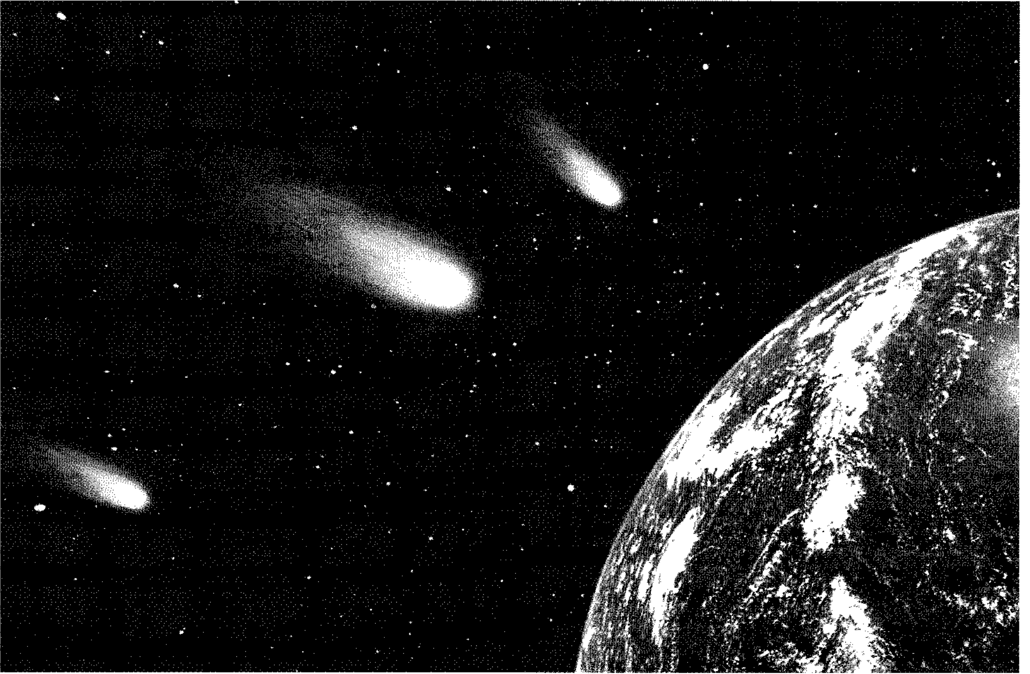
ثم يأتي القسم الحاسم الجازم «برب السماء والأرض» أن هذا كله حق، تماماً كما ينطق المنكرون في هذه الحياة الدنيا. وهم يدركون حقيقة ما ينطقون به، فلا يجوز لهم أن يشكّوا في هذا القسم العظيم من رب العالمين أو أن ينكروه كما لا يشكّون في نطقهم الذي ينطقون...!!

وبعد ذلك تتحرك بنا السورة إلى عرض شيء من الوقائع التاريخية من قبيل ضرب المثل، واستخلاص العبر، والدعوة إلى إخلاص العبادة للّه وحده بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ـ وذلك من مثل قصص سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ضيفه وقومه، وسيدنا لوط عليه السلام وما حاق بقومه من عذاب بعد أن انحرفوا عن الفطرة السوية، وسيدنا موسى عليه السلام وفرعونه الذي أغرقه الله تعالى وجنده في اليم، وقوم عاد وطمرهم بالرمال السافية

عقاباً على تكذيبهم لرسول الله إليهم، وعلى كبرهم، وغطرستهم؛ وقوم ثمود الذين دمروا بالصاعقة عقاباً لهم على فجرهم، وعصيانهم لأوامر ربهم؛ وقوم نوح عليه السلام الذين أغرقوا بالطوفان لفسقهم...!!

وتعاود السورة الكريمة القسم بالسماء وتوسيع الله المستمر لها، وبالأرض وفرشها وتمهيدها، وخلق كل شيء من زوجين تأكيداً لوحدانية الله تعالى بإطلاق كامل فوق جميع خلقه. ثم تعرج بنا السورة إلى حقيقة أن كل رسول جاء بالحق من رب العالمين قد اتهمه الكفار من قومه بالسحر أو بالجنون ظلماً وطغياناً من عند أنفسهم، وفي ذلك مواساة من رب العباد لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ الذي يطالبه بالاستمرار في التذكير بالله، والدعوة إلى دينه الحق على الرغم من كل ما لاقاه من كفار ومشركي قومه، لعل الذكرى أن تنفع المؤمنين.

ومن أهداف هذا الاستعراض المكثف لآيات الله في الكون، والاستعراض الخاطف لقصص عدد من الأمم البائدة هو وصل العباد بخالقهم، وربط قلوبهم بعوالم الغيب، كما يصفها خالق الكون ومبدع الوجود، لا كما تتصورها أوهام الغافلين الضالين من الكفار



شكل (125) رسم توضيحي للنيازك التي تصل للأرض سنوياً بكميات كبيرة بمعدل مليون إلى 20 مليون طن ومنها الحديدية، والحديدية/ الصخرية، والصخرية

والمشركين. والذي يرتبط قلبه بخالقه، حتى يمتلىء إيماناً به، وتوكلاً عليه، وحباً لذاته العلية، وتسليماً بالغيب الذي أنزله في محكم كتابه، وفي سنة نبيه، يتخطى الدنيا إلى الآخرة، دون أن يهمل واجباته في الأولى، ودون أن تشغله التكاليف المادية لهذه الحياة عن إخلاص العبادة للَّه، وفي مقدمة تلك التكاليف الجري على المعايش لكسب الرزق الحلال وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وإقامة عدل الله فيها. فقد يتخيل البعض أن الجري على المعايش يمكن أن يشغل الإنسان عن رسالته الحقيقية في هذه الحياة والمتمثلة في: عبادة الله تعالى بما أمر، وحسن القيام بواجب الاستخلاف في الأرض، وهما وجهان لعملة واحدة تمثل رسالة كل من الجن والإنس في هذه الحياة، والتي لخصها ربنا ﷻ في السورة نفسها بقوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ **(الذاريات: 56 ـ 58)**.

هذا وقد تعددت رؤى المفسرين في قول الحق ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

بين قائل بالمطر، وقائل بالقرار الإلهي في تقسيم الرزق وتوزيعه بين العباد، وقائل بالثواب والعقاب أو بالجنة والنار، أو قائل بها جميعاً، ولكن الدراسات الكونية الحديثة قد أضافت بعداً جديداً، فأكدت أن جميع ما يحتاجه الإنسان والحيوان والنبات من الماء، ومن مختلف صور المادة والطاقة إنما ينزل إلى الأرض من السماء بتقدير من الرزاق الحكيم العليم الذي ينزله بقدر معلوم لقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ **(الشّورى: 27)**

ولقوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ **(الحِجر: 21)**

رزق السماء في اللغة العربية:

● **(الرزق)** في اللغة العربية هو ما ينتفع به من النعم، والجمع (أرزاق)، و(الرزق) أيضاً هو العطاء الجاري دنيوياً كان أم أخروياً، وهو كذلك النصيب المقسوم للإنسان فيصل إلى يده سواء كان مما يصل إلى الجوف ويتغذى به، أو يكتسي ويتزين به، أو يتجمل به من مثل الخلق الحسن والعلم النافع، يقال: (رزقه) الله (يرزقه) (رزقاً) بكسر الراء، (والمصدر الحقيقي بفتح الراء)، والاسم يوضع موضع المصدر. ويقال: (ارتزق) بمعنى أخذ (رزقه)، و(الرزقة) ما يعطى دفعة واحدة، وقد تأتي لفظة (الرزق) بمعنى (شكر الرزق) من مثل قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ **(الواقِعَة: 82)** أي تجعلون نصيبكم من النعمة أو

شكركم عليها أنكم تكذبون رسالات ربكم.

ويقال: رجل (مرزوق) أي مجدود (محظوظ)، وقد يعتبر كل من المال والولد والجاه والعلم من (الرزق)، كما قد يسمى المطر (رزقاً)، ويمكن أن يحمل (الرزق) على العموم فيشمل كل ما يؤكل ويلبس ويستعمل، وكل ما يخرج من الأرض أو ينزل من السماء، و(الرازق) هو الله تعالى خالق (الرزق) ومعطيه، ومسببه، وموزعه بالقسط، وإن كانت هذه الصفة يمكن أن تستخدم للبشر، أما (الرزَّاق) فهو اسم من أسماء اللَّه الحسنى، وصفة من صفاته العليا لا يوصف بها غيره ﷻ.

● وعن **(السماء)** فهي اسم مشتق من (السمو) بمعنى الارتفاع والعلو، تقول: (سما)، (يسمو) (سمواً) فهو (سام) بمعنى علا، يعلو علواً، فهو عال، أي مرتفع، وذلك لأن السين والميم والواو أصل يدل على الارتفاع والعلو، يقال: (سموت) و(سميت) بمعنى علوت وعليت للتنويه بالرفعة والعلو، وعلى ذلك فإن (سماء) كل شيء أعلاه، ولذلك قيل لسقف البيت سماء لارتفاعه، وقيل للسحاب سماء لعلوه، واستعير اللفظ للمطر بسبب نزوله من السماء، وللعشب لارتباط منبته بنزول ماء السماء ومن هنا قيل: كل ما علاك فأظلك فهو سماء.

ولفظة (السماء) في العربية تذكر وتؤنث (وإن كان تذكيرها يعتبر شاذاً)، وجمعها (سمٰوات)، وهناك صيغ أخرى لجمعها ولكنها غريبة.

رزق السماء في القرآن الكريم:

● ورد الفعل **(رزق)** بمشتقاته في كتاب الله مائة وثلاثاً وعشرين (123) مرة، تنسب الرزق إلى الله تعالى، وإن كان بعضها يشير إلى إمكانية أن يرزق الإنسان غيره من البشر أو أن يتصدق على الحيوان، ومنها ما يشير إلى الرزق بمعنى ما يطعم وما يشرب، أو بمعنى المال، أو العلم، أو الجاه والسلطان، أو الأولاد والبنات والزوجات الصالحات. أو ما تنتجه الأرض من ثمار، أو ما يرزق الله من بهيمة الأنعام، أو من المطر أو من غير ذلك من الثروات الأرضية منها والسماوية، أو من الأرزاق الأخروية من مثل رزق الشهداء عند ربهم، ورزق أهل الجنة في الجنة، وفي ذلك يقول ربنا ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ **(النحل: 73)**

أي: ويعبدون من دون الله من هم ليسوا بسبب في رزق بوجه من الوجوه لا من السماء ولا من الأرض لأنهم لا يستطيعون ذلك أبداً.

وفي عطاء كل من الشهداء وغيرهم من أهل الجنة يقول الحق ﷻ:



شكل (126) رسم توضيحي للنيازك المتحركة في اتجاه الأرض

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

(آل عمران: 169)

أي يفيض الله تعالى عليهم من نعمه الأخروية، وذلك من مثل قوله تعالى:

﴿... وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ **(مريم: 62)**.

وتؤكد الآيات القرآنية العديدة أن (الرازق) هو الله تعالى لأنه خالق الرزق، ومسببه، ومعطيه، وموزعه بعلمه وحكمته، وقد يستخدم الوصف مجازاً للإنسان الذي يكون سبباً في وصول الرزق إلى يد غيره، أما (الرزاق) فهو من أسماء الله الحسنى، وهو وصف لا يليق إلا بجلال الله تعالى، ولا يجوز أن يقال لغيره (سبحانه وتعالى)، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ **(الذاريات: 58)**

ويقول عز وجل ... ﴿... وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ **(المنافقون: 7)**.

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ **(يونس: 31)**

ويعتب ربنا سبحانه وتعالى على الذين ينعمون في رزقه ويكفرونه أو يشركون به غيره فيقول عز وجل:

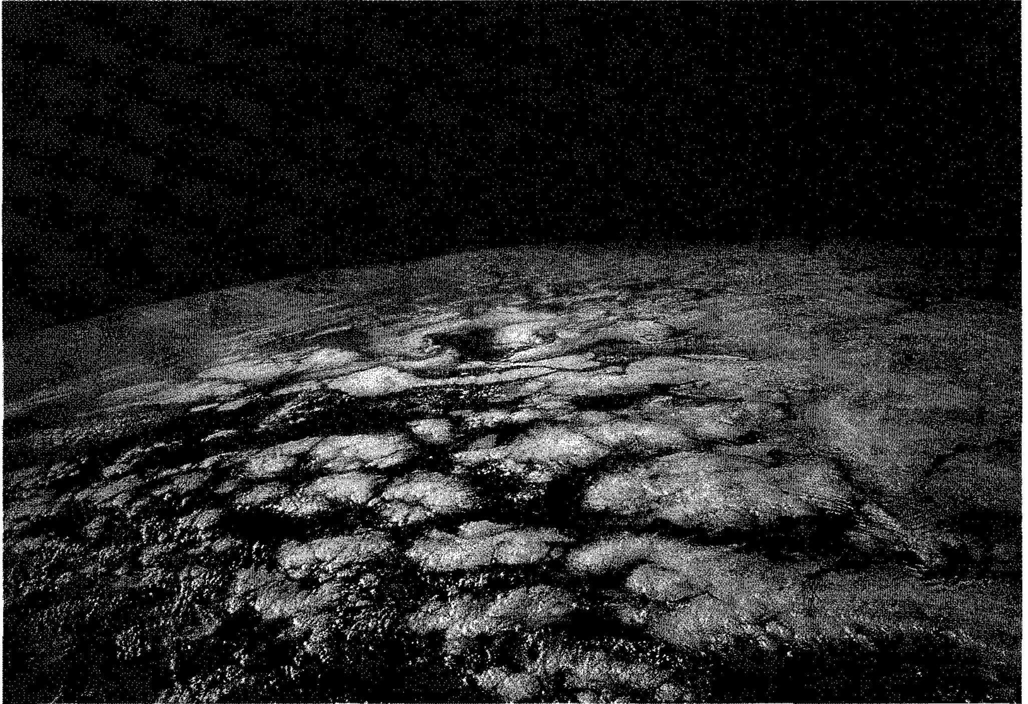
﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ (الطور: 37)

● أما عن لفظة **(السماء)** فقد وردت في القرآن الكريم في ثلاثمائة وعشرة مواضع، منها مائة وعشرون بالإفراد (السماء)، ومائة وتسعون بالجمع (السمٰوات). والسماء ترد في القرآن الكريم بمعنى الغلاف الغازي للأرض بسحبه ورياحه وكسفه، كما ترد بمعنى السماء الدنيا التي قد زينها ربنا ﷻ بزينة الكواكب والنجوم والبروج، كما ترد بمعنى السمٰوات السبع.

كذلك جاءت الإشارة القرآنية إلى السمٰوات والأرض وما بينهما في عشرين موضعاً من كتاب الله، ويبدو أن المقصود بذلك هو أيضاً الغلاف الغازي للأرض بصفة عامة، والجزء الأسفل منه ـ بصفة خاصة ـ وذلك لقول الحق ﷻ:

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (البَقَرَة: 164)

والسحاب يتحرك في نطاق المناخ الذي لا يتجاوز سمكه 16 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، ويحوي أغلب مادة الغلاف الغازي (75% بالكتلة)، والقرآن الكريم يشير في



شكل (127) صورة للسحب التي تنزل المطر بإذن الله وهو من رزق السماء

أكثر من موقع إلى إنزال الماء من السماء، ووواضح الأمر أن المقصود بالسماء هنا هو السحاب أو النطاق المحتوي على السحاب، والمعروف علمياً بنطاق التغيرات الجوية أو نطاق الرجع، والذي يقول فيه ربنا ﷻ:

(1) ﴿. . . ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **(البقرة: 22)**

(2) ﴿. . . وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ **(البقرة: 164)**

(3) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ **(الأنعام: 99)**

(4) ﴿...وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ **(الأنفال: 11)**

(5) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ **(يونس: 24)**

(6) ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ **(هود: 44)**

(7) ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ **(هود: 52)**

والآيات القرآنية بهذا المعنى أكثر من أن تحصى في هذا المقام، وكذلك الآيات التي تشير إلى السماء الدنيا وزينتها، وتلك التي تلمح إلى السمٰوات العلا.

من أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ **(الذّاريات: 22)**

• ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما مختصره: «﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني الجنة، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد».

• وذكر صاحبا الجلالين (يرحمهما الله) ما نصه: «﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي المطر المسبب عنه النبات الذي هو رزق، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الماء والثواب والعقاب أي: مكتوب ذلك في السماء».

• وذكر صاحب الظلال (رحمه الله) ما نصه: «. . وهي لفتة عجيبة، فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة في الأرض، حيث يكد فيها الإنسان ويجهد، وينتظر من ورائها الرزق والنصيب، فإن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء، إلى الغيب، إلى الله، ليتطلع

هناك إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم، أمّا الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة، فهي آيات للموقنين، آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله، ويتخلص من أثقال الأرض وأوهام الحرص، والأسباب الظاهرة للرزق، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذي أنشأ هذه الأسباب».

«والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها، ويفهمها على وضعها، ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها، فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها، إنما المقصود هو ألّا يعلق نفسه بها، وألّا يغفل عن الله في عمارتها، ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء، وليأخذ بالأسباب، وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه، فرزقه مقدر في السماء، وما وعده الله لا بد أن يكون، بذلك ينطلق قلبه من إسار الأسباب الظاهرة في الأرض، بل يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت السمٰوات، حين يرى في الأسباب



شكل (128) صورة لأشعة الشمس وهي من مصادر رزق السماء

آيات تدله على خالق الأسباب، ويعيش موصولاً قلبه بالسماء وقدماه ثابتتان على الأرض، فهكذا يريد الله لهذا الإنسان، هكذا يريد الله لذلك المخلوق الذي جبله من الطين، ونفخ فيه من روحه فإذا هو مفضل على كثير من العالمين».

«والإيمان هو الوسيلة لتحقيق ذلك الوضع الذي يكون فيه الإنسان في أفضل حالاته، لأنه يكون حينئذ في الحالة التي أنشأه الله لها: فطرة الله التي فطر الناس عليها، قبل أن يتناولها الفساد والانحراف. وبعد هذه اللمسات الثلاث في الأرض والنفس والسماء، يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ **(الذاريات: 23)**».

• وذكر مخلوف (رحمه الله): ما نصه «﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي سبب رزقكم وهو المطر، والسماء: السحاب، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي وفي السماء مكتوب ما توعدون به من الثواب والعقاب، والبعث والحساب، والخير والشر».

• وذكر الصابوني (أمد الله في عمره) ما نصه: «أي وفي السماء أسباب رزقكم ومعاشكم، وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد، وما توعدون به من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء؛ قال الصاوي: والآية قصد بها الامتنان والوعد والوعيد».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (أثابهم الله): «وفي السماء أمر رزقكم وتقدير ما توعدون».

رزق السماء في العلوم الكونية

من منظور العلوم الكونية يمكن فهم دلالات التعبير القرآني ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

في الأطر التالية:

أولاً: في إطار فهم مدلول السماء بنطاق التغيرات الجوية:

قد يفهم رزق السماء على أنه المطر الذي نرتوي به، ونروي زروعنا منه، وقد يفهم على أنه هو غاز الأوكسجين الذي يتنفسه الإنسان وجميع الحيوانات، أو على أنه ثاني أكسيد الكربون الذي تتنفسه النباتات؛ وغير ذلك من الغازات النافعة مثل غاز النيتروجين الذي تمتصه بعض البكتيريا لإخصاب التربة؛ وهنا ينحصر مفهوم السماء بالنطاق الأسفل من

الغلاف الغازي للأرض والمعروف باسم نطاق التغيرات الجوية أو نطاق الرجع **(The Troposphere)**، ويمتد من سطح البحر إلى ارتفاع 16 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر عند خط الاستواء، ويتناقص سمكه إلى نحو عشرة كيلومترات فوق مستوى سطح البحر عند قطبي الأرض، وإلى أقل من ذلك (7 ـ 8 كيلومترات) فوق خطوط العرض الوسطى.

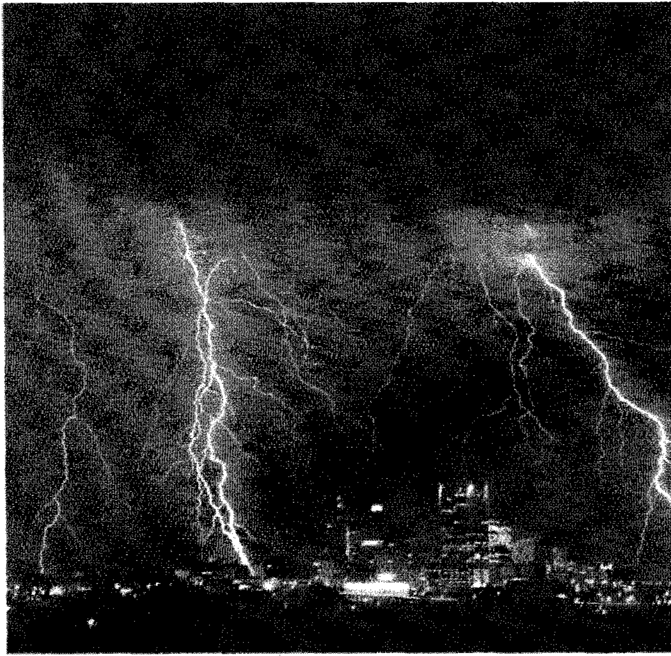


شكل (129) صورة للثورات البركانية وهي مصدر من مصادر رزق السماء وأهمه بخار الماء

وعندما يتحرك الهواء من فوق خط الإستواء في اتجاه القطبين فإنه يهبط فوق هذا المنحنى الوسطي، فتزداد سرعته ويميل إلى اتجاه الشرق وذلك بتأثير دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، ويعرف حينئذ باسم التيار النفاث **(The Jet stream)**. وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق مع الارتفاع باستمرار حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته، وذلك نظراً للابتعاد عن سطح الأرض (الذي يمتص 47% من أشعة الشمس فترتفع درجة حرارته، ويعيد إشعاع تلك الحرارة على هيئة أشعة تحت حمراء إلى الغلاف الغازي للأرض بمجرد غياب الشمس)، ومن هنا تنخفض درجة حرارة نطاق الطقس مع الارتفاع للبعد عن مصدر الدفء بالنسبة له ألا وهو سطح الأرض.

ولولا هذا الانخفاض في درجات حرارة نطاق الطقس لفقدت الأرض كل مائها بمجرد اندفاع أبخرته من فوهات البراكين في مرحلة دحو الأرض، ولاستحالت الحياة على سطحها.. ويغطي الماء في زماننا الحالي أكثر قليلاً من 71% من المساحة الكلية للكرة الأرضية، وتقدر كميته بنحو 1.36 مليار كيلومتر مكعب (منها 97.2%) في المحيطات والبحار، 2.15% على هيئة جليد فوق القطبين وحولهما وفوق قمم الجبال، 0.65% في

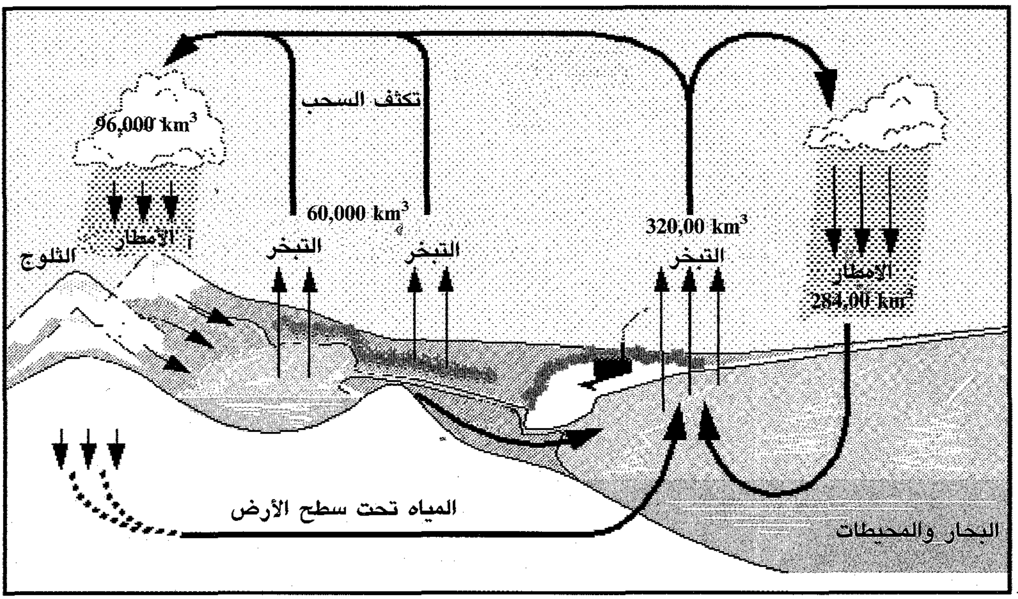
المجاري المائية المختلفة من الأنهار، والجداول وغيرها، وفي كل من البحيرات العذبة وخزانات الماء تحت سطح الأرض (التي تشكل أغلب هذه النسبة).



شكل (130) صورة للبرق الذي ينزل إلى الأرض عدداً من المركبات الكيميائية من مثل النيتروجين ومركباته وهي من رزق السماء

وهذا الماء أخرجه ربنا ﷻ أصلاً من داخل الأرض، ولا يزال يخرجه لنا عبر فوهات البراكين على هيئة بخار الماء الذي تكثف (ولا يزال يتكثف) في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية، والتي تتميز ببرودتها الشديدة، فعاد إلى الأرض، ولا يزال يعاود دورته بين السماء والأرض فيجري أنهاراً متدفقة، تفيض إلى منخفضات الأرض فتشكلها بحاراً ومحيطات، وبحيرات ومستنقعات، وظلت دورة الماء بين الأرض والسماء آية من آيات الله في إبداع الخلق حفظت ماء الأرض من التعفن، ومن الضياع إلى طبقات الجو العليا، وعملت على تفتيت الصخور، وتسوية سطح الأرض وتمهيده، وتكوين مختلف أنواع التربة، وتركيز العديد من المعادن والصخور الاقتصادية، وخزن الماء تحت سطح الأرض. فماء الأرض يتبخر منه سنوياً 380,000 كيلومتر مكعب، ينتج أغلبها (320,000 كيلومتر مكعب) من بخر أسطح البحار والمحيطات، والباقي (60,000 كيلومتر مكعب) من اليابسة، وهذا البخار تدفعه الرياح إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض حيث يتكثف في السحب ويعود إلى الأرض بإذن الله مطراً طهوراً، أو ثلجاً، أو برداً، وبدرجة أقل على هيئة ندى في الأجزاء القريبة من سطح الأرض.

ويجري ماء المطر على سطح الأرض لينتهي إلى البحار والمحيطات، كما يترشح جزء



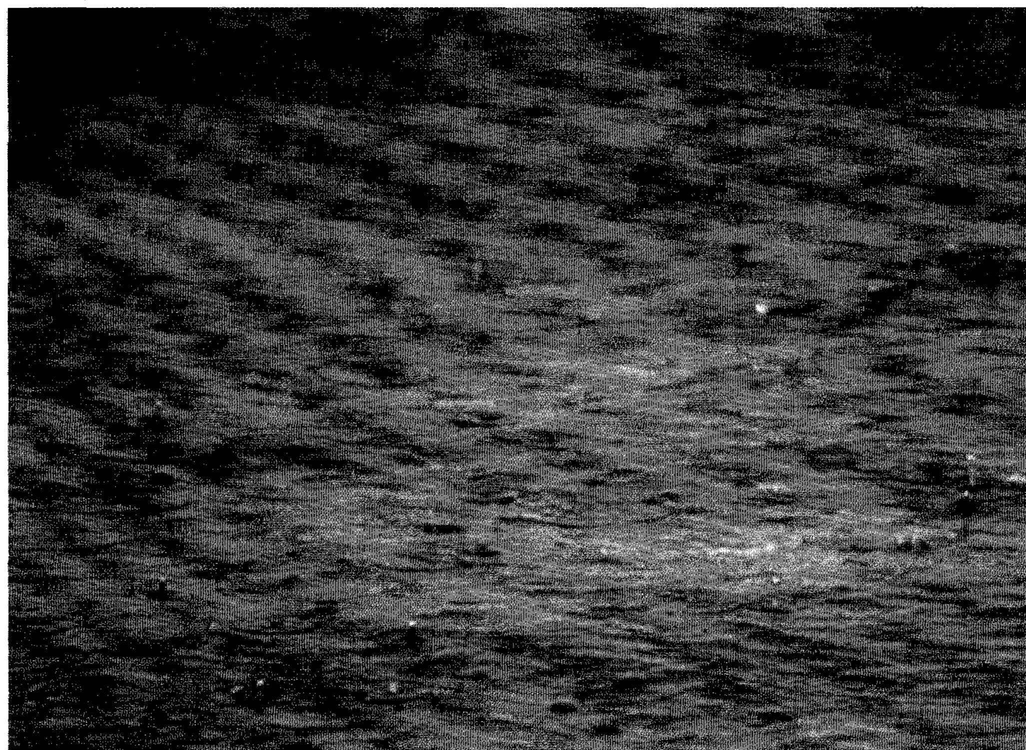
شكل (131) رسم تخطيطي لدورة الماء حول الأرض وهو من رزق السماء

منه خلال طبقات الأرض المنفذة ليكون مخزوناً مائياً تحت سطح الأرض له عدد من الحركات الدائبة فيشارك عن طريقها في تغذية بعض الأنهار والبحيرات والمستنقعات، وقد يعاود الخروج إلى سطح الأرض على هيئة ينابيع، أو بواسطة حفر الآبار أو ينتهي بها المطاف إلى البحار والمحيطات.

وماء المطر يسقط على البحار والمحيطات بمعدل سنوي يقدر بنحو 284,000 كيلومتر مكعب، وعلى اليابسة بمعدل سنوي يقدر بنحو 96,000 كيلو متر مكعب، والرقم الأخير يزيد بمعدل 36,000 كيلو متر مكعب عن معدل البخر من اليابسة، وهو الفرق نفسه بين معدل البخر من أسطح البحار والمحيطات، ومعدل سقوط الأمطار عليها، وتتم دورة الماء حول الأرض بصورة معجزة في كمالها ودقتها، لأنه لولاها لفسد كل ماء الأرض أو تعرض للضياع وترك كوكبنا الأرضي قاحلاً، أجرداً بلا حياة، تحرقه حرارة الشمس بالنهار، وتجمده برودة الليل كلما غابت الشمس.

والماء ضرورة من ضرورات الحياة، فبدونه لا يمكن لإنسان، ولا لحيوان، ولا لنبات أن يعيش، فجنين الإنسان يحتوي على 97% من وزنه ماء، وتقل هذه النسبة إلى 91% في جسد الطفل الوليد، ثم إلى حوالي 66% في جسد الفرد البالغ، وتختلف نسبة الماء في كل عضو من أعضاء جسد الإنسان باختلاف وظيفته، فهي في الرئتين 90%، وفي الدم 82%،

وفي خلايا الدماغ 70%. والإنسان يمكنه العيش أسابيع عديدة بدون طعام، ولكنه لا يستطيع العيش بدون ماء إلا لفترة محدودة جداً لا تتجاوز بضعة أيام.....!! وذلك لأن الماء يعين أجساد كل من الحيوان والإنسان على القيام بجميع وظائفه الحياتية من مثل عمليات الهضم، والتخلص من الفضلات، والتنفس، وتجديد الدم، كما يعين النبات على الاستفادة بمركبات الأرض المذابة في ماء التربة والتي يقوم النبات بامتصاصها من التربة والقيام بعملية التمثيل الضوئي، والنتح والتنفس. والماء هو المركب الوحيد المعروف لنا بالتواجد على الأرض، وفي غلافها الغازي بحالاته الثلاث: الصلبة، والسائلة والغازية. وللماء قدرة فائقة على إذابة العديد من العناصر والمركبات مما جعل منه لازمة من لوازم الحياة، كما له العديد من الخصائص الفيزيائية والكيميائية المميزة من مثل قطبيته الثنائية (الناتجة من أن ذرة الأوكسجين فيه تحمل شحنة سالبة بينما تحمل كل من ذرتي الإيدروجين شحنة موجبة مكافئة)، وقدرة الماء الفائقة على الالتحام والتماسك تجعله أشد السوائل تلاصقاً، وأشدها قدرة على التوتر السطحي بعد الزئبق، وتبدو قدرة الماء الفائقة على التوتر السطحي في ميله إلى التكور على هيئة قطرات



شكل (132) صورة للمطر وهو من رزق السماء

بدلاً من الانتشار أفقياً على السطح الذي يسكب عليه، كما تبدو في قدرة الماء الفائقة على تسلق جدران الوعاء الذي يوضع فيه خاصة إذا كان قطر الوعاء صغيراً، وتعرف هذه الخاصية باسم «**الخاصية الشعرية**»، وبواسطتها تتحرك السوائل من مثل العصارات الغذائية وما بها من عناصر ومركبات مذابة في الماء من جذور النباتات إلى فروعه وأوراقه وزهوره وثماره، وإلى قمته النامية، كما تتحرك الدماء والعصارات الغذائية المختلفة والفضلات في كل من الجهاز الهضمي والأوعية الدموية الدقيقة المنتشرة في أجساد كل من الإنسان والحيوان.

وخواص الماء الحرارية خواص متميزة، فالحرارة النوعية للماء تقدر بعشرة أضعاف الحرارة النوعية للحديد، وبخمسة أضعاف الحرارة النوعية لرمال الشواطيء، وكذلك فإن معامل الحرارة الكامنة لكل من تبخر الماء السائل وانصهار الجليد الصلب مرتفعين ارتفاعاً ملحوظاً مما يعطي للماء مجالاً واسعاً في جميع العمليات الحياتية. وللماء منحنى كثافة فريد ـ لا يشاركه فيه أي من السوائل الأخرى ـ فعندما تصل درجة حرارة الماء إلى أربع درجات مئوية يصل إلى أقل حجم له وأعلى كثافة، ولكن إذا انخفضت درجة الحرارة دون ذلك فإن حجم الماء يتمدد وتقل كثافته، وهذا يفسر طفو الجليد على سطح الماء في البحار والمحيطات، وعدم تجمد الماء أسفل منه مما يتيح فرصة الحياة للكائنات البحرية العديدة التي تعيش في أعماق البحار، فالماء هذا السائل العجيب هو من أعظم صور رزق السماء لأن بدونه لا يمكن للحياة الأرضية أن تكون...!!

وكذلك الهواء بما فيه من أوكسجين، وثاني أكسيد الكربون، ونيتروجين وبخار الماء، وغير ذلك من الغازات المهمة وهباءات الغبار يعتبر من رزق السماء لأن مكوناته كلها تعتبر من ضرورات جعل الحياة على الأرض ممكنة وممتعة، فبدونها يتعذر تشتيت ضوء الشمس إلى نور النهار.

ثانياً: في إطار تفسير السماء بالسماء الدنيا:

فإن رزق السماء يتمثل في كل صور المادة والطاقة المتولدة في داخل النجوم، (من مثل شمسنا) والتي تصل إلى الأرض بصور متعددة. فمن الثابت علمياً أن النجوم قد تكونت ابتداء من الدخان الكوني الذي نشأ عن انفجار الجرم الابتدائي للكون، وأنها لا تزال تتكون أمام أنظار الفلكيين اليوم من دخان السدم، وفي داخل تلك الغيوم الكونية عبر مراحل من النجوم الابتدائية **(Prostars)** وذلك بواسطة عدد من الدوامات العاتية التي تعرف باسم دوامات تركيز المادة، والتي تقوم بتكديس المادة وتكثيفها حتى تتجمع الظروف اللازمة لبدء عملية الاندماج النووي، وانطلاق الطاقة، وانبثاق الضوء فيتحول النجم الابتدائي إلى نجم



شكل (133) يوضح مذنب هالي في إحدى رحلات اقترابه من مجموعتنا الشمسية في سنة 1986م

عادي كشمسنا يعرف باسم (نجم التسلسل الرئيسي)، وأغلب النجوم التي تتراءى لنا في صفحة السماء هي من هذا النوع لأن النجم يقضي 90% من عمره في هذه المرحلة التي يعتبر فيها النجم فرناً نووياً كونياً تتخلق فيه العناصر من نوى ذرات الإيدروجين بعملية الاندماج النووي، وتتميز فترة (نجم النسق الرئيسي) بتعادل قوة الجذب إلى مركز النجم مع قوة دفع مكونات النجم إلى الخارج لتمدده بالحرارة الناتجة عن عملية الاندماج النووي، وبالعزم الزاوي الناتج عن دوراته حول محوره، ويبقى النجم في هذا الطور حتى ينفد وقوده من غازي الإيدروجين والهليوم، فيبدأ بالدخول في مراحل الشيخوخة بالانكدار ثم الخنوس والطمس إذا سمحت كتلته الابتدائية بذلك، حتى تنتهي حياة النجم بالانفجار وعودة مادته

إلى دخان السماء إما مباشرة عن طريق انفجار العماليق الحمر أو العماليق العظام أو المستعرات العظيمة بمختلف نماذجها، أو بطرق غير مباشرة عبر مرحلة من مراحل وفاة النجوم الفائقة الكتل من مثل النجوم النيوترونية والنجوم الخانسة الكانسة (أو ما يعرف باسم الثقوب السود)، والتي يعتقد العلماء بأنها تفقد مادتها بالتدريج إلى دخان السماء عبر مرحلة أشباه النجوم.

وباتحاد نوى ذرات الإيدروجين في قلب النجم العادي تتكون نوى ذرات الهليوم، وباتحاد نوى ذرات الهيليوم تتكون نوى ذرات البريليوم، وهكذا يتسلسل تخلق العناصر المختلفة في داخل النجوم خاصة النجوم العملاقة أو في أثناء انفجارها، ويؤدي انفجار النجوم إلى عودة ما تَكَوَّن بداخلها من عناصر إلى دخان السماء لكي يكون مادة لتخلق نجم جديد أو ليصل إلى بعض أجرام السماء في صورة من صور رزق السماء.

ومن المشاهد أن عملية الاندماج النووي في داخل النجوم فائقة الكتلة من مثل العماليق والمستعرات العظام تستمر حتى يتحول قلب النجم بالكامل إلى حديد، فتستهلك طاقة النجم لأن ذرة الحديد هي أكثر الذرات تماسكاً، وفي انفجار المستعرات العظام تصطدم نيوترونات دخان السماء بنوى الحديد المتطايرة من عملية الانفجار لتبني نوى ذرات أعلى كثافة مثل الفضة، والذهب، واليورانيوم، وغيرها، كما أن إهاب النجم المتفجر من المواد الأقل كثافة ينتقل أيضاً إلى دخان السماء بانفجار واشتعال شديدين وانبعاث موجات راديوية قوية.

وتتكون المادة فيما بين النجوم من الغازات والغبار (أي الدخان) المكون من جزيئات وذرات وأيونات، ومن اللبنات الأساسية للمادة ويغلب على تركيبه الإيدروجين، والهيليوم والأوكسجين، والنيتروجين، والكربون، والنيون والصوديوم والبوتاسيوم وبعض العناصر الأثقل. وتقدر المادة بين نجوم مجرتنا ببضعة بلايين المرات قدر كتلة الشمس، وتصل كافة العناصر المتخلقة في الكون إلى الأرض عن طريق تساقط الشهب والنيازك. ويصل إلى الأرض يومياً بين الألف والعشرة آلاف طن من مادة الشهب والنيازك والغبار الكوني لتجدد إثراء الأرض بالعناصر المختلفة التي تمثل صورة من صور رزق السماء الذي يوزع على الأرض بتقدير من العزيز الحكيم، ولم يكن لأحد من الخلق علم بها من قبل.

ومنذ فترة وجيزة أثبت العلماء أن نجماً من نجوم السماء قد تحول إلى كتلة من الألماس تفوق كتلة الأرض عدة مرات، ومن قبيل الفكاهة يذكرون أن هذه الكتلة إذا انفجرت ونزلت إلى الأرض فإن تجارة الألماس سوف تكسد بالقطع!

ويقدر ناتج الطاقة الكلية للشمس بنحو 3.86×10^{33} سعر/ ثانية ويعتبر فيض الطاقة الشمسية الواصلة إلى الأرض أكبر من الطاقة التي تستقبلها الأرض من ألمع النجوم بعشرة مليارات ضعف، وأكبر من الطاقة التي تستقبلها الأرض من القمر وهو في طور البدر مليون مرة. وطاقة الشمس من رزق السماء، فبدونها تستحيل الحياة على الأرض.

ثالثاً: في إطار تفسير السماء بالسمٰوات العلا:

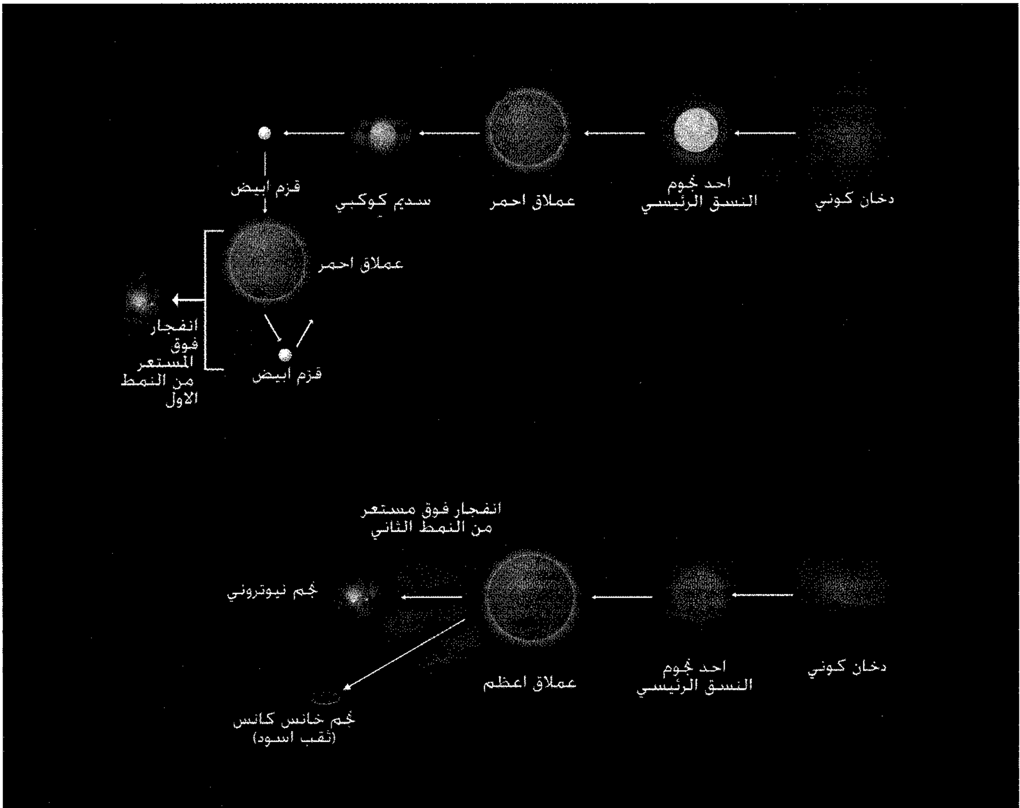
فإن رزق السماء يتمثل في قرار الرزاق ذي القوة المتين، فقد ثبت أن كوننا قد نتج عن عملية انفجار عظيم، وأنه من طبيعة الإنفجار أنه يؤدي إلى تناثر المادة وبعثرتها، ولكن انفجاراً يؤدي إلى بناء كون بهذه الضخامة في الأبعاد، وفي تعدد الأجرام، وفي إحكام الأحجام، والكتل والمدارات، والحركات والعلاقات المتبادلة من مثل التجاذب، وتبادل المادة فيما بينها هو انفجار لا بد وأن يكون قد تم بتقدير حكيم، من خالق عظيم له من صفات الكمال والقدرة والجلال ما مكنه من إبداع هذا الخلق بعلمه وحكمته وقدرته، وهذا الخالق العظيم لا بد وأن يكون مغايراً لكل خلقه فلا يحده المكان، ولا الزمان، ولا تشكله المادة ولا الطاقة، لأنه تعالى خالق كل ذلك ومبدعه، هذا الخالق العظيم لا يشبهه أحد من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ **(الشّورى: 11)**.

هو (تعالى) الذي يدبر أمر هذا الكون في كل صغيرة وكبيرة، ومن ذلك توزيع الأرزاق على العباد، فمن الأسماء الحسنى لهذا الخالق العظيم نجد اسم **(الوهاب)** أي صاحب الهبات والعطايا الخالية عن الأعواض والأغراض، كما نجد اسم **(الرزاق)** أي خالق المرزوقين وأرزاقهم، وموصل الأرزاق إليهم، وخالق الأسباب التي تمكنهم من التمتع بها.

وباقي أسمائه الحسنى (ﷻ) تحمل شيئاً من تلك المعاني والصفات الربانية ومنها: اسم (الفتاح) وهو الذي بيده مفاتيح الغيب والرزق، ومفاتيح كل منغلق ومشكل، واسم (القابض) و(الباسط) ومن معانيهما قبض الرزق حتى لا تبقى طاقة، وبسطه حتى لا يبقى فاقه، كما يقبض القلوب والأرواح ويبسطهما كيف يشاء، واسما (المعزّ) (المذلّ) الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، والملك من الرزق، والملك الحقيقي يكمن في الخلاص من ذل الحاجة، وقهر الشهوة، وعبء الجهل؛ ونجد من أسماء الله الحسنى اسم (المقيت) ومن معانيه خالق الأقوات وواهبها؛ واسم (الكريم) ومن معانيه المعطاء زيادة على منتهى الرجاء، و(المجيب) ومن معانيه مقابلة مسألة السائلين بالإجابة، و(الواسع) ومن معانيه ذو السعة المطلقة من العلم والخير والإحسان وبسط النعم، و(الودود) ومن معانيه الإنعام على سبيل الابتداء بمحبة ورأفة، و(البر) وهو المحسن المتفضل بكل بر وإحسان،

و(مالك الملك) أي صاحب المشيئة النافذة والإرادة الغالبة.

وخلاصة ذلك أن قرار توزيع الأرزاق على العباد يصدره ربنا ﷻ في علاه فتنزل به الملائكة إلى الأرض تصديقاً لقول المصطفى ﷺ: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد. . .»**[1].



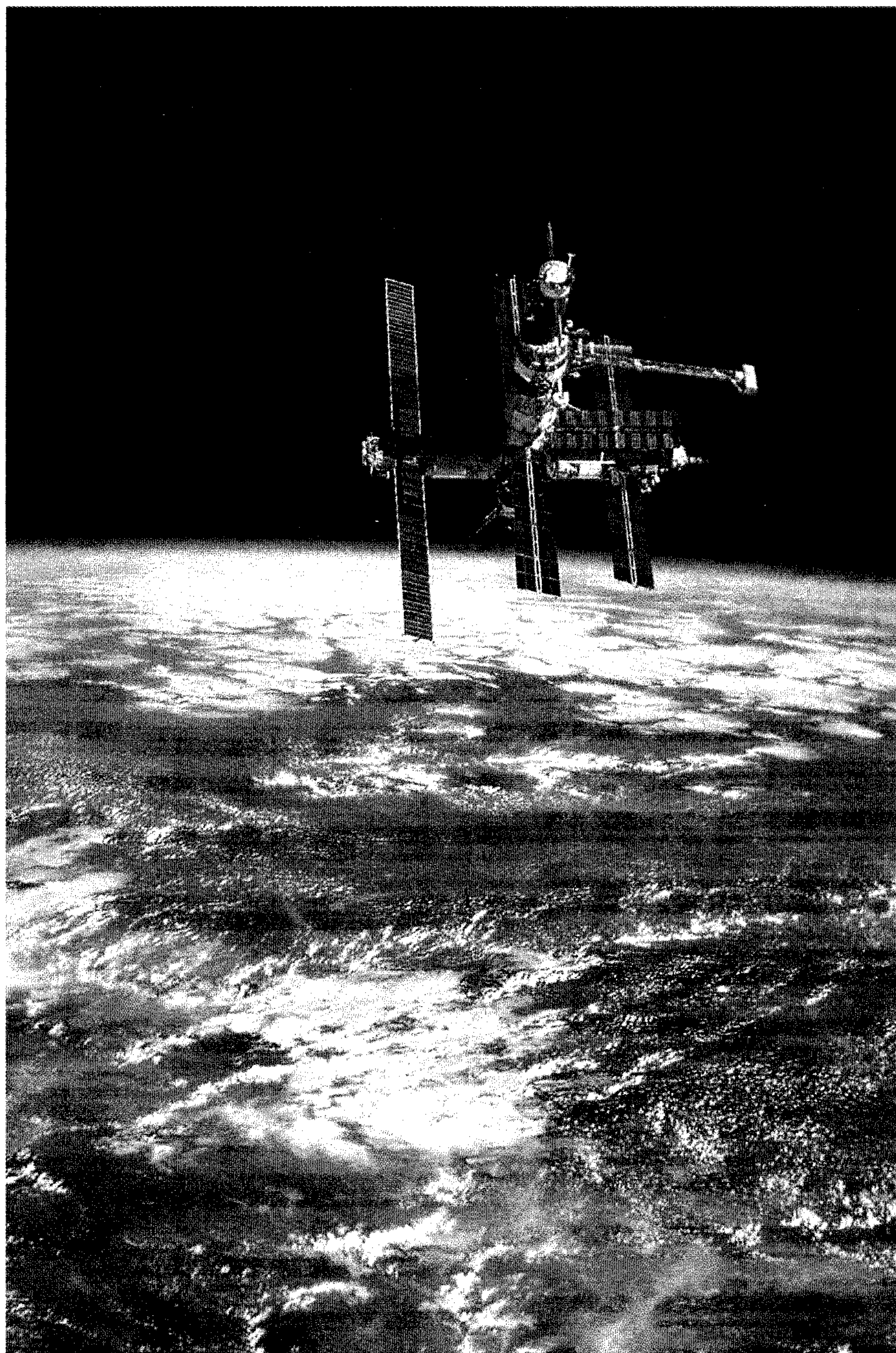
شكل (134) يوضح تخلق العناصر المختلفة في داخل النجوم أثناء مراحل تطورها المختلفة وهي من رزق السماء

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد (الحديث: 7454)، ومسلم في كتاب: القدر (الحديث: 6665)، والترمذي في كتاب: القدر (الحديث: 2137)، وأبو داود في كتاب: السنّة (الحديث: 4708)، وابن ماجه في المقدمة (الحديث: 76). والصياغة هنا لمسلم، وقد حقّق الحديث كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني المتوفى سنة 652هـ في كتاب: «البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن».

وصدق الله العظيم الذي أنزل من فوق سبع سمٰوات ومن قبل أربعة عشر قرناً قوله الحق: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ **(الذّاريات: 22)**.

وفي ذلك ما يشهد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين).



بسم الله الرحمن الرحيم

(20) ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

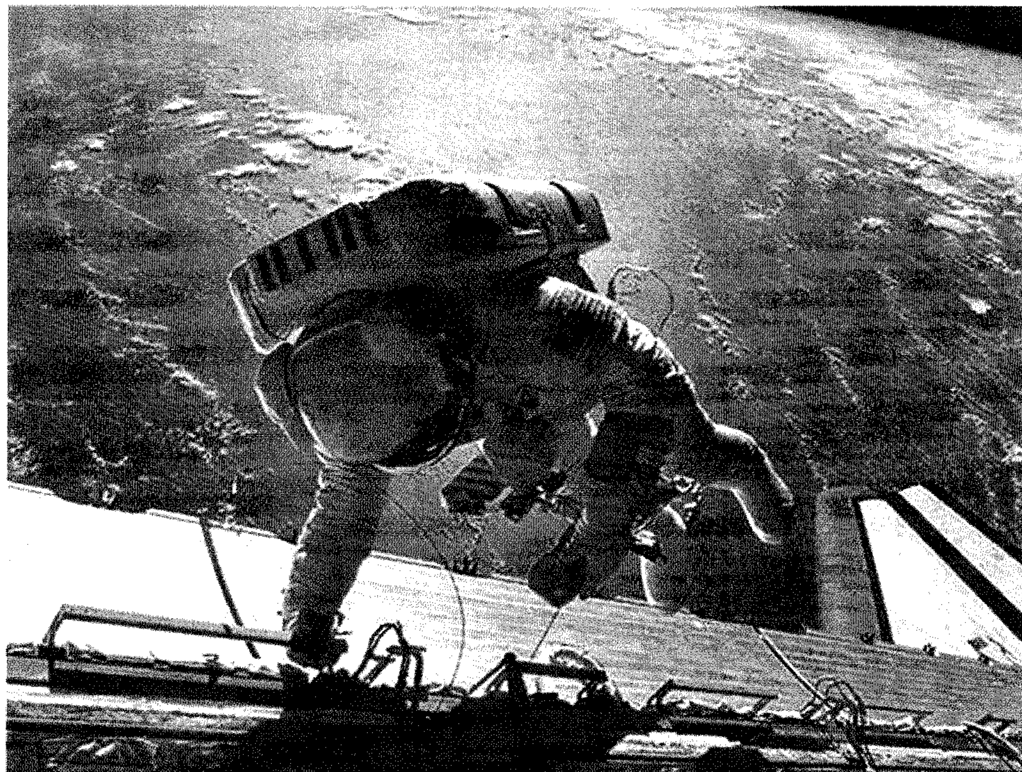
(الأنعام: 125)

جاءت هذه الآية الكريمة في الثلث الأخير من سورة الأنعام، وهي سورة مكية، يدور محورها الرئيس حول قضية العقيدة، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية، والعقيدة هي قضية وجود الإنسان في هذه الحياة، وقضية مصيره بعدها، فعلى أساس من العقيدة يحدد كل إنسان منا دوره على هذه الأرض، وعلاقاته مع نفسه، ومع غيره، ومع خالقه، ومع الكون، ومع جميع من فيه وما فيه...، كما يحدد مصيره بعد هذه الحياة...!!

ومن هنا كانت أهمية العقيدة، التي أفرد لها القرآن الكريم مساحة كبيرة في القرآن الكريم بصفة عامة، وفي السور والآيات المكية منه بصفة خاصة، وفي عمر الدعوة المحمدية التي قضى منها المصطفى ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو الناس فيها إلى عبادة الله (سبحانه وتعالى) وحده، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، وإلى إخلاص العبودية له، وتنزيهه (سبحانه وتعالى) عن كل وصف لا يليق بجلال ربوبيته وألوهيته ووحدانيته، وإلى الإيمان بملائكته، وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره، وباليوم الآخر، وبما فيه من بعث ونشور، وحساب وميزان وصراط، وخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وما يستتبعه كل ذلك من خضوع للّه بالطاعة، وعبادته (سبحانه وتعالى) بما أمر، مع حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، والعمل على إقامة عدل الله فيها، وهذه هي رسالة الدين

من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى بعثة المصطفى ﷺ وإلى أن يرث الله (سبحانه وتعالى) الأرض ومن عليها. وركائز الدين إما من الغيب المطلق كقضية العقيدة، أو من الأوامر الإلٰهية المطلقة كقضية العبادة، أو من ضوابط السلوك كقضيتي الأخلاق والمعاملات، ولما كان الإنسان عاجزاً دوماً عن أن يضع لنفسه بنفسه ضوابط صحيحة في أي من هذه القضايا، كانت ضرورة الدين، لكي يستقيم وجود الإنسان في هذه الحياة، ولكي يتمكن من تحقيق رسالته فيها.

والدين ـ بركائزه الأربع الأساسية ـ لا يمكن أن يكون «صناعة بشرية»، بل الإنسان محتاج فيه دوماً إلى الهداية الربانية، تلك الهداية التي أنزلها الله تعالى باسم «الإسلام»، على فترة من الأنبياء الذين فاق عددهم المائة والعشرين ألفاً (منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً)، وأتمها في الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم والنبي الخاتم ﷺ. ولكونها الرسالة الخاتمة تعهد ربنا سبحانه وتعالى بحفظها، فحفظت بنفس اللغة التي أوحيت بها (اللغة العربية)، ومن



شكل (135) يتزود رواد الفضاء بلباس خاص وأقنعة أوكسجين للوقاية من شح الأوكسجين في نطق الغلاف الغازي المرتفعة ومن تناقص الضغط فيها باستمرار مع الارتفاع.

هنا كان القرار الإلهي الذي أنزله ربنا (سبحانه وتعالى) من فوق سبع سموات، ومن قبل أربعة عشر قرناً بقوله (عز وجل): ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ **(آل عمران: 19)**

ومن هنا أيضاً كان التأكيد على هذا القرار الإلهي بقول الحق (سبحانه وتعالى) وفي نفس السورة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ **(آل عِمرَان: 85)**

ومن هذا المنطلق جاءت الآية الكريمة التي نحن بصددها والتي يقول فيها ربنا (سبحانه وتعالى): ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ **(الأنعَام: 125)**.

ويعجب الإنسان لهذا التشبيه القرآني المعجز الذي يقابل بين ضيق صدر العازفين عن الهداية الربانية، كلما ذكروا بها، وضيق صدر الذي يَصَّعَّدُ في السماء بغير وسيلة واقية، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان في أبعادها الصحيحة إلا بعد ريادته للفضاء، وقبل الدخول في تفصيل المغزى العلمي لهذا التشبيه القرآني المعجز لا بد من توضيح الدلالات اللغوية والقرآنية لعدد من الألفاظ الواردة في هذه الآية الكريمة.

الدلالات اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة:

● بالنسبة للفعل (**يشرح**) في قول الحق (سبحانه وتعالى): (يشرح صدره) فإن (الشرح) في اللغة هو الكشف والبسط وإظهار الغامض والخافي من المعاني. يقال: (شرح) المشكل أو الغامض من الأمر (يشرحه) (شرحاً) أي فسره، وبسطه، وأظهر ما خفي من معانيه، و(شرح) الله صدره للإسلام (فانشرح) أي انبسط في رضا وارتياح للأنوار الإلهية، والسكينة الروحية التي أنزلها ربنا (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله عليه وسلم) لأن من معاني (شرح) الصدر توسعته، وهي كناية عن القبول والرضا.

● أما عن (**الصدر الضيق الحرج**) فأصل (**الحرج**) و(الحراج) مجتمع الأشياء من مثل الشجر ونحوه، وانطلاقاً من ضيق ما بينها قيل للضيق (حرج)، وللإثم (حرج)، ومن ثم كان استخدام فعل (التحريج) بمعنى التضييق، وكانت تسمية الغيضة الملتفة الأشجار التي يصعب دخولها (حَرْجَة). وعلى ذلك فإن (الحَرَجَ) في اللغة هو الضيق (بصفة عامة) وضيق الصدر (بصفة خاصة)، يقال مكان (حرج) ـ بكسر الراء وفتحها ـ أي ضيق كثير الشجر.

و(الحرج) أيضاً الإثم، يقال: (أحرجه) بمعنى آثمه، و(تحرج) أي تأثم، و(حرَّج) عليه

الشيء أي: حَرَّمَهُ عليه، و(المُحْرِجُ) المتجنب من الحرج والإثم، ويقال: (حرج) صدره (حرجاً) فهو (حرج) أي: ضاق ضيقاً شديداً.

● وأما عن **(التصعّدُ في السماء)** فالتصعّد والتصاعد والصعود هو الذهاب إلى المكان العالي أي الإرتفاع، وهو ضد الحدور يقال: (صَعِدَ) بالكسر (يصعد) (صعوداً) في السلم أي ارتقاه ارتقاءً، و(صعد) و(تصعد) (يتصعد) في الجبل، أي: ارتفع عليه وعلاه، و(أصعد) في الأرض (صعوداً) أي مضى وسار في مناكبها. والصعود أيضاً العقبة الشاقة الكئود، ويستعار لكل شاق؛ و(أصعد) في الوادي و(صعد) فيه (تصعيداً) أي انحدر معه، ولو أن الصعود أصلاً ضد الهبوط، و(الصعد) و(الصعيد) واحد، ويقال عذاب (صعد) أي شديد و(الصعيد) هو أيضاً ما يصعد إليه، و(الصعداء): تنفس ممدود، ويقال (تصعد) النفس بمعنى صعب مخرجه، ويقال: (يصعد) وأصلها (يتصعد) أي يتكلف الصعود، فلا يستطيعه، و(تصعد) أيضاً تستخدم بمعنى شق من المشقة و(الإصعاد) هو الإبعاد في الأرض سواء كان في صعود أو حدور (هبوط)؛ و(الصعد) الشاق أو المشقة ويقال: (تصعدون) أي: تذهبون إلى المرتفعات هرباً من عدوكم من (الإصعاد) وهو الذهاب في صعيد الأرض، والإبعاد فيه، يقال: (أصعد) في الأرض إذا أبعد في الذهاب وأمعن فيه فهو (مصعد).

الدلالات القرآنية لبعض ألفاظ الآية الكريمة

جاء الفعل **(شرح)** بتصريفاته في أربعة مواضع من القرآن الكريم بالإضافة إلى الآية الكريمة التي نحن بصددها على النحو التالي:

(1) ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ **(الزُّمَر: 22)**.

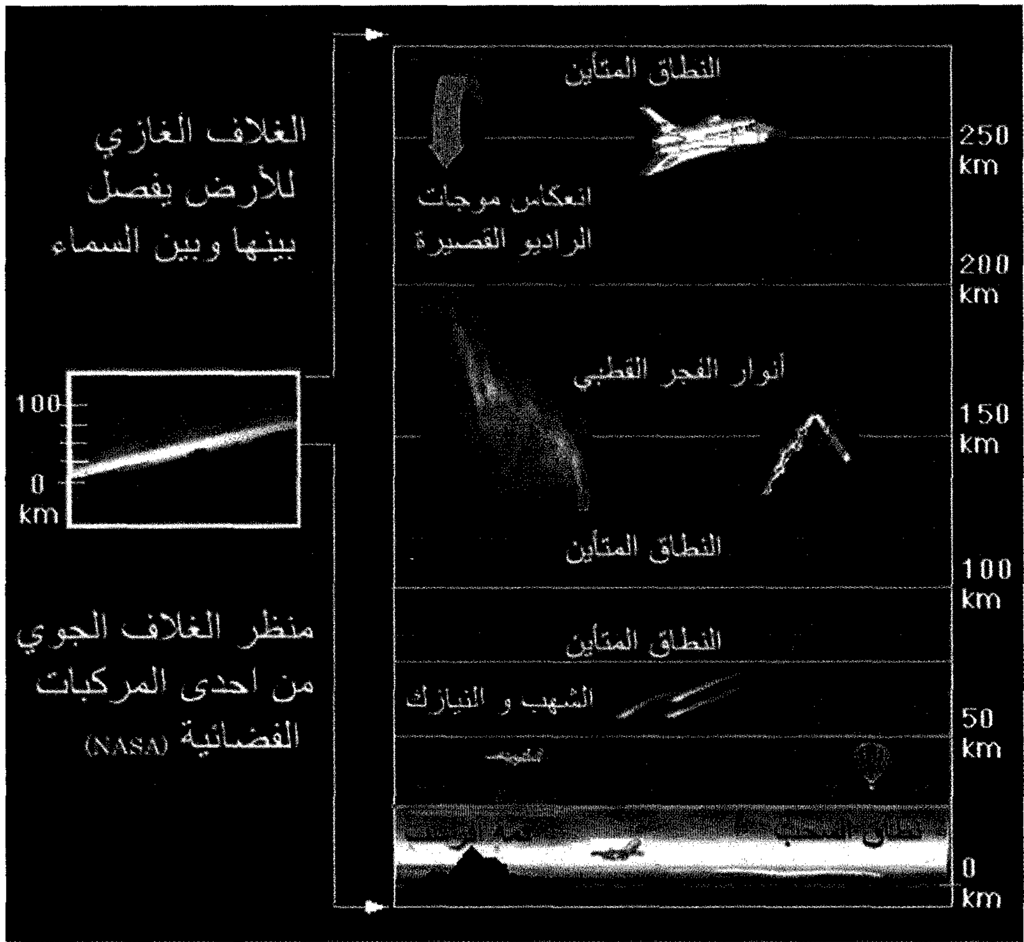
(2) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ **(الشّرح: 1)**.

(3) ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ **(طه: 25)**.

(4) ﴿... وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ **(النّحل: 106)**

وجاءت لفظة **(حرج)** في خمسة عشر موضعاً بمعنى الضيق في التشريع، أو شدة الضيق بصفة عامة، كما جاءت بمعنى الإثم أو الذنب.

أما الفعل **(صعد)** بمشتقاته فقد جاء في تسعة مواضع من كتاب الله (ﷻ) بمعنى



شكل (136) يوضح نطق الغلاف الغازي للأرض

الارتفاع، والقبول، والرضا منه (ﷺ)، وبمعنى الذهاب، والمضي هرباً، وبمعنى تكلف الصعود بمشقة بالغة، فلا يستطيعه، وبمعنى شديداً صعباً، وبمعنى العقبة المرتفعة الشاقة المصعد، وبمعنى وجه الأرض البارز سواء كان تراباً أو غيره، وقيل التراب ذاته.

أما لفظة (السماء) فقد جاءت في ثلاثمائة وعشرة مواضع من كتاب الله، منها مائة وعشرون بالإفراد (السماء)، ومائة وتسعون بالجمع (السمٰوات)، وصيغة الجمع توحي ببقية الكون في مقابلة الأرض، بينما الإشارات المفردة بلفظ (السماء) جاءت في ثمانية وثلاثين موضعاً بمعنى الغلاف الغازي للأرض بصفة عامة، والجزء الأسفل منه بصفة خاصة ـ أو ما يعرف باسم نطاق التغيرات المناخية أو نطاق الرجع ـ والذي يحتوي غالبية مادة الغلاف الغازي

للأرض، وجاء لفظ (السماء) أيضاً بالإفراد في اثنين وثمانين موضعاً يفهم الغالب منها على أنه السماء الدنيا التي زينها ربنا (ﷻ) بالكواكب والنجوم والبروج، ويفهم منها مجموع السمٰوات قبل فصلها إلى سبع، وبعد فصلها في بعض المواضع.

كذلك جاءت الإشارة في القرآن الكريم إلى السمٰوات والأرض وما بينهما في عشرين موضعاً، ويفهم هذا التعبير على أن المقصود منه هو الغلاف الغازي للأرض بصفة عامة، والجزء الأسفل منه بصفة خاصة، وذلك لقول الحق ﷻ:

﴿... وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (البَقَرَة: 164)

والسحاب يتحرك في نطاق المناخ، والقرآن الكريم يشير في أكثر من آية إلى إنزال الماء من السماء، وواضح الأمر أن المقصود بالسماء هنا هو السحاب. فإذا كان المقصود بالسماء في قول الحق ﷻ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأنعَام: 125) هو الغلاف الغازي للأرض فإن لذلك صعوباته ومشاقه التي تصل إلى حد الاستحالة، وإذا كان المقصود هو السماء الدنيا فإن الصعوبات والعقبات تتضاعف أضعافاً كثيرة حتى تصل إلى ما فوق الاستحالة، وذلك لأن الله تعالى قد حدد للإنسان نطاقاً معيناً من الأرض وغلافها الغازي تتواءم فيه ومعه بنيته الجسدية، ووظائف أعضائه المختلفة، وإذا خرج عن هذا النطاق فإنه يحتضر ويموت، كما يموت السمك إذا أخرج من الماء، ويتضح ذلك جلياً من دراسة الصفات الطبيعية والكيميائية لنطق الغلاف الغازي للأرض، ولكن قبل استعراض ذلك لا بد من الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح دلالة الآية الكريمة التي نحن بصددها.

شروح المفسرين للآية الكريمة

في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: 125).

● ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما مختصره: يقول تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الزُّمَر: 22) الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحُجرَات: 7)، وقال ابن عباس: معناه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به، وهو ظاهر. سئل رسول الله ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟

قال: «**أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم لما بعده استعداداً**»[1]، وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «**نور يقذف فيه، فينشرح له وينفسح**»، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت**»[2]..

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (**الأنعام: 125**) حَرَجاً بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ولا ينفذ فيه، وقد سأل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة؟ فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير؛ وقال ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً والإسلام واسع، وذلك حين يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (**الحجّ: 78**) يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق».

«وقال مجاهد والسدي: (ضيقاً حرجاً) شاكاً، وقال عطاء الخراساني: (ضيقاً حرجاً) أي ليس للخير فيه منفذ، وقال ابن المبارك: (ضيقاً حرجاً) بلا إلٰه إلا الله حتى لا تستطيع أن تدخل قلبه، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من شدة ذلك عليه، وقال سعيد بن جبير: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ لا يجد فيه مسلكاً إلا صعداً، وقال عطاء الخراساني: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء، وقال ابن عباس: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه، وقال الأوزاعي: كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً؛ وقال ابن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه يقول: فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته»..

وقال صاحبا «تفسير الجلالين» (يرحمهما الله) شيئاً مختصراً عن ذلك.

وذكر كل من صاحب «صفوة البيان لمعاني القرآن» (رحمه الله) وصاحب «صفوة التفاسير» أمد الله في عمره شيئاً مشابهاً أيضاً.

وذكر صاحب «الظلال» (رحمه الله) ما مختصره: من يقدر الله له الهداية ـ وفق سنته الجارية

---

(1) ذكره عبد الرزّاق في مصنفه.

(2) ذكره عبد الرزّاق في مصنفه.

من هداية من يرغب في الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء ـ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، فيتسع له، ويستقبله في يسر ورغبة، ويتفاعل معه، ويطمئن إليه، ويستريح به ويستريح له. ومن يقدر له الضلال ـ وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه ـ ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية من ضيق النفس، وكربة الصدر، والرهق المضني في التصعد إلى السماء»!.

التصعّد في السماء كما تراه العلوم الكونية

سبق وأن أشرنا إلى أن لفظة (السماء) تعني الكون في مقابلة الأرض، وأن التعريف اللغوي للسماء يشمل كل ما علاك فأظلك، بدءاً من نطق الغلاف الغازي للأرض وانتهاء بحدود الكون التي لا يعلمها إلا الله (تعالى).

السماء بمعنى الغلاف الغازي للأرض:

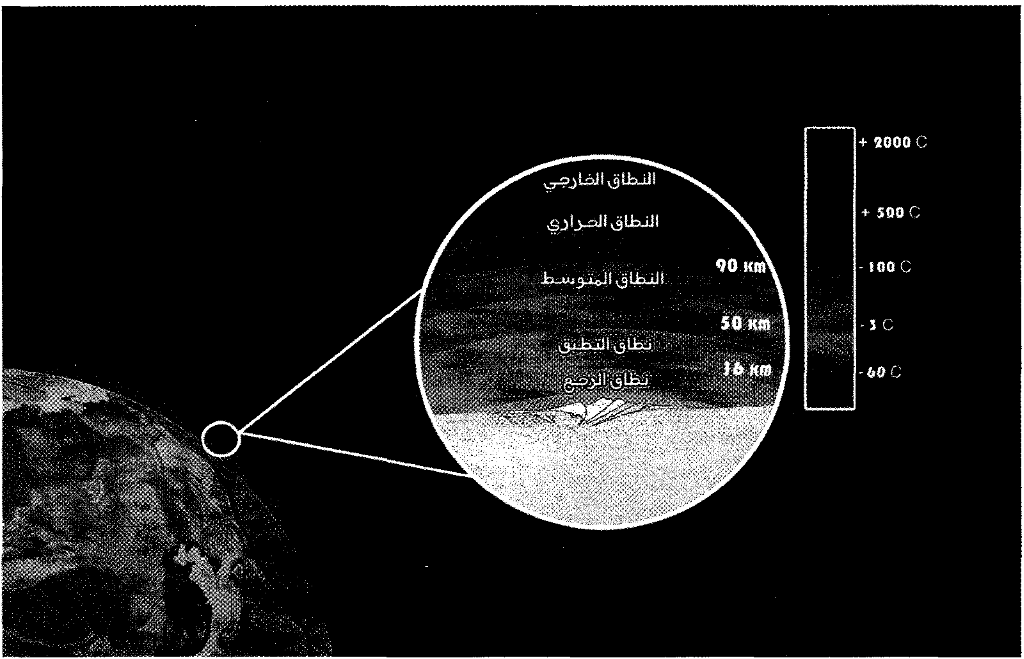
تحاط الأرض بغلاف غازي تقدر كتلته بما يزيد قليلاً عن خمسة آلاف مليون مليون طن (5.2×10^{15} طناً) ويقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، وإن كان لا يكاد أن يدرك بعد ألف كيلومتر نظراً لتناقص ضغطه من نحو الكيلو جرام على السنتيمتر المربع عند مستوى سطح البحر إلى واحد من المليون من ذلك في الجزء العلوي منه.

ويقسم الغلاف الغازي للأرض إلى قسمين رئيسيين على النحو التالي:

أولاً: ـ القسم السفلي من الغلاف الغازي للأرض (The Lower Atmosphere): ويتكون من خليط من جزيئات النيتروجين، والأوكسجين، وعدد من الغازات الأخرى، ويعرف باسم النطاق المتجانس **(The Homosphere)**، ويتراوح سمكه بين 70 و90 كيلومتراً في المتوسط، ويقسم إلى ثلاثة نطق متميزة من أسفل إلى أعلى على النحو التالي:

(1) نطاق التغيرات الجوية: نطاق الطقس أو نطاق الرجع (The Troposphere):

وهو نطاق قليل السمك، يلامس الأرض مباشرة، ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع 16 إلى 17 كيلومتراً فوق خط الاستواء، ويتناقص سمكه إلى ما بين 6 و8 كيلومترات فوق القطبين؛ وقد يصل إلى عشرة كيلومترات؛ ويختلف سمكه فوق خطوط العرض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية، فينكمش إلى ما دون السبعة كيلومترات في مناطق الضغط



شكل (137) رسم يبين النطق التي يتألف منها الغلاف الغاري المحيط بالأرض واختلاف درجات الحرارة في كل منها

المنخفض، ويمتد إلى نحو 13 كيلومتراً في مناطق الضغط المرتفع، وعندما تتحرك كتل الهواء الحار من خط الاستواء في اتجاه القطبين فإنها تضطرب فوق هذا المنحنى الوسطي، فتزداد سرعة الهواء مندفعاً تجاه الشرق بتأثير دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق، ويتم ذلك بسرعة فائقة تعطي كتل الهواء المتحركة بها اسم التيار النفاث **(The Jet Stream)**. ويضم هذا النطاق ثلثي كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%)، وتتناقص درجة الحرارة فيه مع الارتفاع باستمرار (بمعدل 6 درجات مئوية كل كيلومتر ارتفاع في المتوسط) حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته المعروفة باسم مستوى الركود الجوي **(The Tropopause)** وذلك لتناقص الضغط فيه إلى عشر الضغط الجوي تقريباً (مقاساً عند سطح البحر)، والسبب في هذا التبرد هو البعد عن سطح الأرض وهو مصدر التدفئة الصاعدة إلى هذا النطاق.

ونطاق الرجع هو نطاق تكثف بخار الماء الصاعد من الأرض، وتكوّن السحب، وهطول كل من المطر والبرد والثلج، وحدوث ظواهر الرعد والبرق، وتحرك الرياح، وتكون العواصف والدوامات، وتيارات الحمل الهوائية المختلفة، وغير ذلك من الظواهر الجوية.

ويتركب الغلاف الغازي في هذا النطاق أساساً من جزيئات كل من النيتروجين (بنسبة 78.1% بالحجم) والأوكسجين (بنسبة 21% بالحجم)، والأرجون (بنسبة 0.93% بالحجم) وثاني أكسيد الكربون (بنسبة 0.03% بالحجم)، بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء، وآثار طفيفة من كل من الميثان، وأكاسيد النيتروجين، وأول أكسيد الكربون، والإيدروجين، والهيليوم، والأوزون وبعض الغازات الخاملة مثل الأرجون، وبعض هباءات الغبار العالقة.

(2) نطاق التطبق (The Stratosphere):

ويمتد من فوق مستوى الركود الجوي **(The Tropopause)** أي من ارتفاع 16 ـ 17 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر (في المتوسط) إلى قرابة الخمسين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وبذلك يقدر سمكه بنحو 33 ـ 34 كيلومتراً، وينتهي بمستوى الركود الطبقي **(The Stratopause)**، وترتفع درجة الحرارة في هذا النطاق من أكثر من ستين درجة مئوية تحت الصفر عند قاعدته إلى نحو الثلاث درجات فوق الصفر المئوي عند قمته، ويرجع السبب المباشر في هذا الارتفاع الحراري إلى امتصاص قدر من الأشعة فوق البنفسجية المقبلة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون التي تتركز في الجزء السفلي من هذا النطاق (بين ارتفاعي 18 و30 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر) مكونة جزءاً مميزاً منه يعرف باسم نطاق الأوزون **(The Ozonosphere)** يتركز فيه هذا الغاز المهم بنسبة (0.001% ولكنها نسبة كافية لحماية الأرض، وما عليها من صور الحياة من كل من الحرارة العالية القادمة مع الأشعة الكونية ومن أضرار الأشعة فوق البنفسجية، وهي أشعة حارقة ومدمرة لجميع صور الحياة الأرضية، ولولا وجود طبقة الأوزون. وما أعطاها الله (تعالى) من قدرة على امتصاص وتشتيت وتحويل الأشعة فوق البنفسجية لكانت الحياة مستحيلة على الأرض. ويستمر الضغط في الانخفاض في نطاق التطبق من قاعدته إلى قمته حيث يصل فيه إلى واحد من ألف من الضغط الجوي مقاساً عند سطح البحر.

(3) النطاق المتوسط (The Mesosphere):

ويمتد من مستوى الركود الطبقي (أي من ارتفاع نحو خمسين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر إلى ارتفاع 80 إلى 90 كيلومتراً فوق هذا المستوى، ويتراوح سمكه بين 30 و40 كيلومتراً)، وتنخفض درجة الحرارة في نطاق التطبق بمعدل ثلاث درجات لكل كيلو متر ارتفاع تقريباً حتى تصل إلى نحو مئة درجة مئوية تحت الصفر عند حده العلوي والمعروف باسم مستوى الركود الأوسط أو **(The Mesopause)** وإن كانت درجة الحرارة تلك تتغير باستمرار مع تغير الفصول المناخية. كذلك يستمر الضغط في الانخفاض مع الإرتفاع حتى

يصل في قمة هذا النطاق إلى أربعة من المليون من الضغط الجوي مقاساً عند سطح البحر.

ثانياً: القسم العلوي من الغلاف الغازي للأرض (The Upper Atmosphere):

وهذا القسم من الغلاف الغازي للأرض يقدر سمكه بعشرات الآلاف من الكيلومترات، ويختلف اختلافاً كلياً عن القسم السفلي ولذا يعرف باسم نطاق التباين **(The Heterosphere)** وتبدأ فيه عملية تفكك جزيئات مكوناته الغازية إلى ذراتها وأيوناتها بفعل كل من أشعة الشمس والأشعة الكونية، كذلك تسود فيه ذرات الغازات الخفيفة من مثل الإيدروجين والهيليوم على حساب الذرات الكثيفة نسبياً من مثل الأوكسجين والنيتروجين، وتواصل درجات الحرارة الإرتفاع فيه حتى تصل إلى أكثر من ألفي درجة مئوية، ويواصل الضغط الجوي في الانخفاض حتى يصل في قمة هذا النطاق إلى أقل من واحد في المليون من الضغط الجوي (على سطح البحر). ويحوي هذا القسم نطاقين متميزين هما من أسفل إلى أعلى كما يلي:

(1) النطاق الحراري (The Thermosphere):

ويمتد من مستوى الركود المتوسط (أي من ارتفاع يتراوح بين 70 و90 كيلومتراً في المتوسط فوق مستوى سطح البحر) إلى عدة مئات من الكيلومترات فوق هذا المستوى عند مستوى الركود الحراري **(The Thermopause)** وتواصل درجات الحرارة في الإرتفاع في هذا النطاق من نحو المائة درجة مئوية تحت الصفر في أعلى النطاق الأسفل منه لتصل إلى ما بين 227 و500 درجة مئوية عند إرتفاع مائة وعشرين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وتبقى درجة الحرارة ثابتة تقريباً عند درجة 500 مئوية إلى ارتفاع يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، ثم تقفز بعد ذلك إلى درجات حرارة تتراوح بين 1500 و2000 درجة مئوية إلى نهاية النطاق، وتزيد عن ذلك في فترات النشاط الشمسي.

(2) النّطاق الخارجي (The Exosphere):

هو نطاق يعلو النطاق الحراري، تثبت فيه درجة الحرارة ثبوتاً نسبياً، ولذا يطلق عليه أحياناً اسم «نطاق التساوي الحراري» **(The Isothermal sphere)** ويتضاءل الضغط فيه، وتتمدد الغازات تمدداً كبيراً، وتتحرك ذراتها بحرية كاملة في مساراتها فتقل فرص التلاقي بينها بعد ارتفاع يطلق عليه اسم «الارتفاع الحرج» **(The Critical Elevation)** أو خط ركود الضغط الجوي **(The Baropause)** أو قاعدة العوالم الخارجية عن الأرض **(The Exobase)**؛ وعند هذا الحد يبدأ الغلاف الغازي للأرض في الالتصاق بقاعدة السماء الدنيا أو ما يطلق عليه اسم المادة بين الكواكب **(The Interplanetary Matter)** والتداخل أحياناً فيها لتضاؤل

سيطرة الجاذبية الأرضية على ذرات الغازات في الأجزاء العليا من هذا النطاق مما يزيد من قدرات تلك الذرات على الانفلات من قيود الجاذبية الأرضية والهروب بعيداً عن الأرض وعن غلافها الجوي.

وفي المنطقة من قمة النطاق المتوسط (أي من ارتفاع مائة كيلومتر تقريباً) إلى أقصى الحدود العلوية للغلاف الغازي للأرض تتأين ذرات الغازات (أي تشحن بالكهرباء) بفعل كل من الأشعة فوق البنفسجية والسينية المقبلة مع أشعة الشمس، وبعض جسيمات كل من الأشعة الشمسية والكونية، ويطلق على هذا السمك اسم نطاق التأين **(The Ionosphere)**.

والمنطقة من النطاق الخارجي التي تفوق فيها طاقة الأيونات الطاقة الحرارية فإن تلك الأيونات تتحرك بين خطوط قوى مجال الجاذبية الأرضية مكونة منطقة متميزة تعرف باسم النطاق المغناطيسي للأرض **(The Magnetosphere)** وتمتد إلى نهاية الغلاف الغازي للأرض، وقد تتداخل في نطاق المادة بين الكواكب.

كذلك تم اكتشاف زوجين من الأحزمة الإشعاعية **(The Radiation Belts)** يحيطان بالكرة الأرضية على هيئة هلالية مزدوجة تزيد فيها تلك الأحزمة في السمك زيادة ملحوظة عند خط الاستواء، وترق رقة شديدة عند القطبين. وفي هذه الأحزمة تحتبس الأيونات المشحونة بالكهرباء واللبنات الأولية للمادة (من مثل البروتونات والإليكترونات) والتي يقتنصها المجال المغناطيسي للأرض، فتتحرك عبر ذلك المجال من أحد قطبي الأرض للآخر وبالعكس في حركة دائبة.

ويتركز الزوج الداخلي من أحزمة الإشعاع على ارتفاع 3200 كيلومتر فوق مستوى سطح البحر، بينما يتركز الزوج الخارجي على ارتفاع 25000 كيلومتر فوق هذا المستوى.

تقسيم الغلاف الغازي للأرض من حيث مواءمته للحياة الأرضية

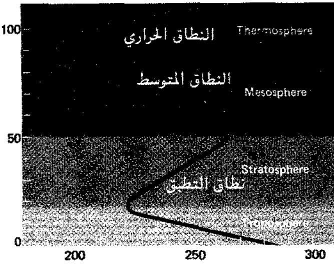
يقسم الغلاف الغازي للأرض من حيث مواءمته للحياة الأرضية إلى النطق التالية:

(1) نطاق المواءمة الكاملة للحياة الأرضية:

ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع لا يتعدى الثلاثة كيلومترات، وهذا الجزء الهوائي من نطاق الحياة هو نطاق المواءمة البيئية الكاملة لحياة الإنسان، أي التي يستطيع الإنسان العيش فيها بدون مخاطر صحية، لملاءمة تركيبه الكيميائي وصفاته الطبيعية لجسم

الإنسان ولوظائف كل أعضائه وأجهزته من مثل وفرة الأوكسجين، وتوسط كل من الضغط ودرجات الحرارة.

ومتوسط ارتفاع اليابسة لا يكاد يصل إلى ثلث هذا الحد من الارتفاع فوق مستوى سطح البحر ولذلك تكون التغيرات الطبيعية والكيميائية عنده محتملة. ولا تظهر على البشر الذين يعيشون في مثل هذه الارتفاعات أو يصلون إليها إلا أعراض طفيفة من أعراض نقص الأوكسجين أو تناقص الضغط على الرغم من الانخفاض في درجة الحرارة، وبعض الاختلافات في سلوك سائل مثل الماء في تلك الارتفاعات العالية.



شكل (138) يوضح التغير في درجة الحرارة مع الارتفاع في الغلاف الغازي للأرض

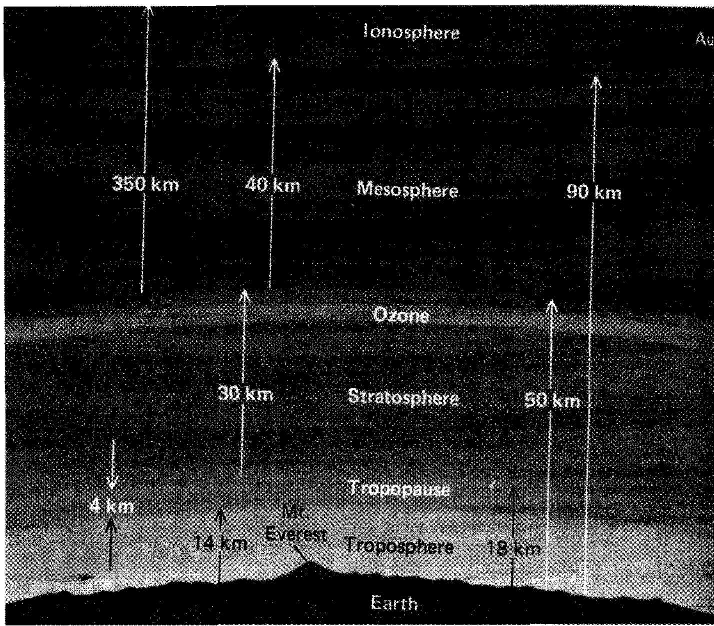
(2) نطاق شبه المواءمة للحياة الأرضية

ويمتد هذا النطاق من ارتفاع ثلاثة كيلومترات فوق مستوى سطح البحر إلى ارتفاع ستة عشر كيلومتراً فوق ذلك المستوى ويقترب في منتصفه من أعلى قمم الأرض ارتفاعاً (8848 متراً) ويتميز بنقص تدريجي في نسبة الأوكسجين. وتناقص الضغط بمعدلات ملحوظة، ويمكن للإنسان العيش في الأجزاء السفلى من هذا النطاق بصعوبة فائقة لصعوبة التنفس، والخلل الذي يعتري بعض وظائف أعضاء جسده نتيجة لانخفاض الضغط الجوي فتبدو عليه أعراض نقص الأوكسجين (هيبوكسيا **Hypoxia**) وأعراض انخفاض الضغط الجوي (ديسباريزم **Dysbarism**).

(3) نطاق استحالة وجود الإنسان بغير عوامل وقائية كاملة:

ويمتد من ارتفاع ستة عشر كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر إلى نهاية الغلاف الغازي للأرض، وهو نطاق يستحيل بقاء الإنسان فيه بغير عوامل كافية للوقاية من مخاطر هذا النطاق، وذلك بتكييف الجو المحيط به من حيث الضغط ودرجتي الحرارة والرطوبة، وإمداده بالقدر الكافي من الأوكسجين وتنقيته من ثاني أكسيد الكربون، وغير ذلك من النواتج الضارة، مع المراقبة المستمرة للأحوال الصحية ويتم ذلك بتزويده بحلل مشابهة لحلل رواد الفضاء المزودة بأجهزة كاملة لدعم حياة الإنسان في مثل هذه البيئات الخطرة من مثل النقص الحاد في كل من الضغط الجوي، ونسبة الأوكسجين، والتغيرات الشديدة في درجات الحرارة.

والحلل التي يرتديها رواد الفضاء في داخل مركباتهم الفضائية المكيفة بظروف موائمة لطبيعة الإنسان هي حلل محكمة غاية الإحكام غير منفذة للهواء ولا للأشعة الكونية ـ ومليئة بالهواء المضغوط بالقدر المطلوب لسلامة جسم الإنسان، وتتم مراقبة الضغط داخل تلك الحلل بأجهزة ضغط يمكن التحكم فيها بواسطة صمامات خارجية، ومزودة بجيوب لتجميع إفرازات الجسم والسوائل الخارجة منه، وتسمح في الوقت نفسه بالوصول إلى الجسد لمعالجته بالحقن الطبية اللازمة في حالات الضرورة.



شكل (139) يوضح بعض نطق الغلاف الغازي للأرض

أما في زيارة الغلاف الغازي للأرض خارج المركبات الفضائية، فيحتاج رواد الفضاء إلى حلل مزودة بضوابط بيئية تفوق الحلل المستخدمة داخل المركبات الفضائية في تعقيدها، وذلك بتزويدها بضوابط لدعم الحياة محمولة تسمى باسم نظم الدعم الحياتي المحمولة **(Portable Life-Support Systems)**، وتضم بالإضافة إلى حلل داخل المركبات الفضائية مصادر محمولة للتزويد بالأوكسيجين لها أنبوبتان إحداهما للشهيق والأخرى للزفير، وأجهزة اتصال لاسلكية، ووحدة تكييف للهواء، ولوحات تحكم في الضغط وخوذة وغطاء عازلان للحرارة ولكل من الأشعة الشمسية والكونية، وأحذية طويلة الرقبة، وقفازات عازلة لكل من الحرارة والأشعة ومقاومة لرجوم النيازك المتناهية في صغر الحجم.

الصعوبات التي يواجهها الإنسان حينما يتصعَّد في السماء بغير وقاية كافية

إذا تجاوز الإنسان ارتفاع الثمانية كيلومترات فوق مستوى سطح البحر فإنه يتعرض لمشكلات عديدة منها صعوبة التنفس لنقص الأوكسجين وتناقص ضغط الهواء، وهو مرض يسميه المتخصصون في طب الطيران باسم «مرض عوز الأوكسجين» **(Hypoxia)**، ومنها مشكلات انخفاض الضغط الجوي والذي يسمى باسم «خلل الضغط الجوي» **(Dysbarism)**، وتحت هذين العارضين لا يستطيع جسم الإنسان القيام بوظائفه الحيوية، فتبدأ في التوقف الوظيفة تلو الأخرى. وهنا يمكن تفسير ضيق الصدر الذي يمر به الإنسان عند الصعود إلى تلك المرتفعات بغير استعدادات وقائية كافية، فيبدأ بالشعور بالإجهاد الشديد، والصداع المستمر، وبالرغبة في النوم.

ونتيجة للنقص في الضغط الجوي تبدأ الغازات المحبوسة في داخل أنسجة الجسم وتجاويفه المختلفة في التمدد من مثل الجهاز التنفسي المكون من الحنجرة والقصبة الهوائية والرئتين وتشعباتهما، والأنف، والجيوب الأنفية؛ والجهاز الدوري المكون من القلب والأوردة والشرايين؛ والجهاز السمعي خاصة الأذن الوسطى، والجهاز الهضمي من مثل المعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة، (خاصة القولون)، والفم والأسنان والأضراس واللثة مما يؤدي إلى آلام شديدة في كل أجزاء الجسم، وإلى ضغوط شديدة على الرئتين والقلب وإلى تمزق خلاياهما وأنسجتهما، وبسبب ذلك كله يكون الشعور بضيق الصدر وحشرجة الموت.

كذلك تبدأ الغازات الذائبة في جميع سوائل الجسم وأنسجته في الانفصال والتصاعد إلى خارج حيز الجسد، وأهمها غاز النيتروجين الذي يصل حجمه في جسم الفرد البالغ إلى نحو اللتر موزعة بين الدم وأنسجة الجسم المختلفة، وتخرج هذه الغازات على هيئة فقاعات تندفع إلى الخارج بسرعة فائقة مما يزيد من تمزق الخلايا والأنسجة، ويؤدي إلى حدوث آلام مبرحة بكل من الصدر والمفاصل، وإلى ضيق شديد في التنفس نتيجة لتصاعد فقاعات النيتروجين من أنسجة الرئتين، ومن داخل الشعيرات الدموية، ومن الأنسجة المحيطة بها ومن الجلد ومن أنسجة وخلايا الجهاز العصبي. فتتأثر رؤية الشخص، ويختل توازنه، ويصاب بصداع شديد، ثم بإغماء كامل أو بصدمة عصبية أو بشلل جزئي أو كلي، وبزرقة بالجسم تنتهي بالوفاة بسبب توقف كل من القلب والرئتين، وانهيار الجهاز العصبي وفشل كامل في وظائف بقية أعضاء الجسم، ولعل ذلك هو المقصود بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ **(الأنعام: 125).**

وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين وإن بدأ يتحسسها منذ نهاية القرن الثامن عشر، وورودها في كتاب الله الذي أنزل قبل أربعة عشر قرناً على نبي أمي (صلى الله وسلم وبارك عليه) في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين مما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وأن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

بسم الله الرحمن الرحيم

(21) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾

(الحجر: 14، 15)

هاتان الآيتان الكريمتان وردتا في سياق الحديث عن عناد ومكابرة كفار قريش لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وتكذيبهم ببعثته، وتشكيكهم في الوحي الذي أنزل إليه من ربه، واتهامهم له بالجنون، وهم أعرف الناس بأنه ﷺ كان أرجح الناس عقلاً، وأعظمهم خلقاً، وأشرفهم نسباً، ولذلك نزلت الآيات في مطلع سورة الحجر لتشيد بالقرآن الكريم، ولتهدد هؤلاء الجاحدين بمشهد يوم عظيم يعانون فيه أهوال الآخرة فيتمنون لو كانوا في الدنيا قد أسلموا لرب العالمين، وآمنوا ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، وبآيات هذا الكتاب المبين، وبيوم البعث الذي كانوا به ينذرون، فيسخرون من هذا الإنذار ويستهزئون.

وليهون القرآن الكريم على هذا النبي الخاتم ﷺ صلف هؤلاء المتكبرين تطلب منه الآيات القرآنية أن يدعهم في غيهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام، ويشغلهم الأمل بطول الأجل عن التفكير فيما سوف يلقونه من عذاب مهين في الدنيا قبل الآخرة، وذلك جزاء كفرهم وعنادهم وكبرهم...!!!

وهذا التهديد والوعيد من الله تعالى لهؤلاء المجرمين من الكفار والمشركين، يتبعه تذكير بمصائر غيرهم من الأمم السابقة عليهم، وبأن الله تعالى لم يهلك أيًا من تلك القرى الظالمة التي كذبت بآياته ورسله إلا وجعل لهلاكها أجلاً محدداً.

وتذكر الآيات تحديات كفار قريش لرسول الله ﷺ، واستهزائهم

به، وإنكارهم لشرف بعثته حتى طلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له بصدق نبوته، فيرد الحق ﷻ عليهم بأن الملائكة لاتنزل إلا بالحق، وأن من هذا الحق أن يدمر المكذبون بآيات الله ورسله بعد أن جاءتهم نذر ربهم...!! ثم تؤكد تلك الآيات الكريمات على أن الله (ﷻ) هو الذي أنزل القرآن العظيم، وأنه (ﷻ) قد تعهد بحفظه فحفظ، فلا يمكن لمحاولة تحريف أن تطوله، ولا لمؤامرة تبديل أن تصيبه، مهما حاول المحرفون، وتضافر المتآمرون. وهذا الحفظ الرباني لآخر الكتب السماوية وأتمها وأكملها، لهو بحق أعظم المعجزات المبهرة لهذا الكتاب الخالد، وعلى الرغم من ذلك كله فقد كذب به هؤلاء المعاندون، كما يكذب به نفر من كفار هذا الزمان ومشركيه وملاحدته.

ومن قبيل تهوين الأمر على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وعلى أتباعه الصالحين (في زمانه وفي زماننا وفي كل زمان) تذكره الآيات وتذكرهم أنه ﷺ لم يكن متفرداً بجحود قومه له، وتكذيبهم لرسالته، ومكابرتهم، وعنادهم واستهزائهم، فقد سبقه من الأنبياء والمرسلين من تعرضوا لذلك وأشد منه، فاستحقت أقوامهم المكذبة عقاب الله في الدنيا قبل الآخرة...!!

ومن الغريب أن الجاحدين من الخلق، الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، أو كفروا به (ﷻ) وبملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر في كل زمان ومكان، لم يكن لينقصهم الدليل المنطقي على قبول وحي السماء، وما فيه من آيات بينات، ولكنه الصلف والعناد والمكابرة في مقابلة الحق، ومواجهة كل حجة أتتهم، وكل بينة جاءتهم، تماماً بتمام، كما كان موقف كفار قريش من خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ومما أنزل إليه من قرآن كريم، فتصور لنا الآيات في مطلع سورة الحجر نموذجاً صارخاً لمكابرة أهل الباطل وعنادهم في مواجهة الحق، وذلك بقول ربنا ﷻ:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ بمعنى أنه حتى لو فتح الله تعالى على هؤلاء المكابرين باباً من السماء، وأعانهم على الاستمرار بالعروج فيه بأجسادهم وكامل حواسهم، حتى يطلعوا على بديع صنع الله في ملكوته، وعلى عظيم قدرته في إبداع خلقه، وعلى اتساع سلطانه وملكه، وعلى حشود الخاضعين له بالعبادة والطاعة والتسبيح في خشية وإشفاق بالغين، لشكوا في تلك الرؤية المباشرة، ولكذبوا أبصارهم وعقولهم وباقي حواسهم، ولاتهموا أنفسهم بالعجز التام عن الرؤية تارة، وبالوقوع تحت تأثير السحر تارة أخرى، وذلك في محاولة لإنكار الحق من فرط مكابرتهم وصلفهم وعنادهم كما هو حال غالبية أهل الأرض اليوم...!!

وعلى الرغم من كون «لو» حرف امتناع الامتناع، وكون هاتين الآيتين الكريمتين قد وردتا في مقام التشبيه والتصوير لحال المكابرين من الكفار والمشركين وعنادهم وصلفهم، إلا أن صياغتهما قد جاءت ـ كما تجيء صياغة كل آيات القرآن الكريم ـ على قدر مذهل من الدقة العلمية، والشمول للحقيقة الكونية، والكمال المطلق في جمال الصياغة، وروعة التعبير مما يشهد بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، وأن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله (صلوات الله وسلامه عليه) كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض (ﷻ). وسوف أحاول في هذه السطور عرض عدد مما استطعت إدراكه من ملامح الإعجاز العلمي في هاتين الآيتين الكريمتين على النحو التالي:

(1) اللمحة الإعجازية الأولى:

وقد وردت في قول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. مما يؤكد أن السماء ليست فراغاً كما كان يعتقد الناس إلى عهد قريب، فقد ثبت لنا أن السماء بنيان محكم، يتعذر دخوله إلا عن طريق أبواب تفتح للداخل فيه.

والسماء لغة، هي: كل ما علاك فأظلك، واصطلاحاً، هي ذلك العالم العلوي الذي نراه فوق رؤوسنا بكل مافيه من أجرام. وعلمياً هي كل مايحيط بالأرض من مختلف صور المادة والطاقة بدءاً من غلافها الغازي، وانتهاء بحدود الكون، والذي أدرك العلماء منه مساحة يبلغ قطرها في حدود 24 ألف مليون سنة ضوئية على الأقل، وحصوا فيه أكثر من مائتي ألف مليون مجرة من أمثال مجرتنا المعروفة باسم (سكة التبانة) (أو درب اللبانة) أو (الطريق اللبني) والتي أحصي العلماء فيها حوالي مليون مليون نجم كشمسنا، والكون فوق ذلك دائم الاتساع إلى نهاية لايعلمها إلا الله ﷻ.

وقد ثبت مؤخراً أن السماء مليئة بمختلف صور المادة والطاقة التي انتشرت بعد انفجار الجرم الكوني الأول (والذي كان يضم كل مادة الكون، ومختلف صور الطاقة المنبثة في أرجائه اليوم) وذلك عند تحوله من مرحلة الرتق إلى مرحلة الفتق كما يصفهما القرآن الكريم، ويقدر علماء الكون أن ذلك قد حدث منذ فترة تقدر بحوالي العشرة بلايين من السنين على أقل تقدير. وعند انفجار ذلك الجرم الكوني الأول تحولت مادته ومختلف صور الطاقة المخزونة فيه إلى سحابة هائلة من الدخان ملأت فسحة الكون، ثم أخذت في التبرد والتكثف بالتدريج حتى وصلت إلى حالة من التوازن الحراري بين جسيمات المادة وفوتونات

الطاقة، وهنا تشكلت بعض نوى الإيدروجين الثقيل أو المزدوج (الديوتريوم **Deuterium**)، وتبع ذلك تخلق النوى الذرية لأخف عنصرين معروفين لنا وهما الأيدروجين والهيليوم، ثم تخلق نسب ضئيلة من العناصر الأثقل وزناً.

وبواسطة دوامات الطاقة التي انتشرت في سحابة الدخان التي ملأت أرجاء الكون تشكلت السدم وهي أجسام غازية في غالبيتها، تتناثر بين غازاتها بعض الهباءات الصلبة، وتدور المادة فيها في دوامات شديدة تساعد على المزيد من تكدسها وتكثفها على ذاتها في سلسلة من العمليات المنضبطة حتى تصل إلى مرحلة الاندماج النووي التي تكون النجوم بمختلف أحجامها، وهيئاتها ودرجات حرارتها، وكثافة المادة فيها، وغير ذلك من أجرام السماء مما يشكل المجرات والتجمعات المجرية، وغيرها من نظم الكون المبهرة. ومن أشلاء النجوم تكونت الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والشهب والنيازك، والأشعات الكونية التي تملأ فسحة الكون بأشكالها المتعددة، وغير ذلك مما لانعلم من أسرار هذا الوجود.



شكل (140) صورة لنور القمر وسط ظلمة السماء، ومنعكساً على مياه الأرض

وقبل سنوات قليلة لم يكن أحد من الناس يعلم أن السماء على اتساعها ليست فراغاً، ولكنها مليئة بالمادة على هيئة رقيقة للغاية، تشكلها غازات مخلخلة يغلب على تركيبها غازا الإيدروجين والهيليوم، مع نسب ضئيلة جداً من الأوكسيجين، والنيتروجين والنيون، وبخار الماء، وهباءات نادرة من المواد الصلبة، مع انتشار هائل للأشعات الكونية بمختلف صورها في مختلف جنبات الكون. ولقد كان السبب الرئيسي للتصور الخاطىء أن الكون فراغ تام هو التناقص التدريجي لضغط الغلاف الغازي للأرض مع الارتفاع عن سطحها حتى لايكاد يدرك بعد ألف كيلو متر فوق مستوى سطح البحر.

ومن أسباب زيادة كثافة الغلاف الغازي للأرض بالقرب من سطحها هو جاذبيتها، وانطلاق كميات هائلة من بخار الماء وغازات عديدة أغلبها النيتروجين والأوكسجين وأكاسيد الكربون من جوفها أثناء تبرد قشرتها، وعبر فوهات البراكين التي نشطت ولاتزال تنشط على سطحها وقد اختلطت تلك الغازات الأرضية بالسحابة الغازية الكونية، وساعدت جاذبية الأرض على الاحتفاظ بالغلاف الغازي المحيط بها بكثافته التي تتناقص باستمرار بالبعد عنها حتى تتساوى مع كثافة السحابة الغازية الأولية التي تملأ أرجاء الكون وتندمج فيها. وعلى ذلك فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن السماء بناء محكم، تملأه المادة والطاقة، ولا يمكن اختراقه إلا عن طريق أبواب تفتح فيه، وهو ما أكده القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة سنة في أكثر من آية صريحة، ومنها الآية الكريمة التي نحن بصددها ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ. . .﴾ وهي شهادة صدق على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، وأنزل القرآن الكريم على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظه فحفظ على مدى أربعة عشر قرناً وإلى أن يرث الله (ﷻ) الأرض ومن عليها، بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) محفوظاً حفظاً تاماً كاملاً دون إضافة حرف واحد أو إنقاص حرف واحد، وهذا الحفظ هو من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

(2) اللمحة الإعجازية الثانية:

وتتضح من وصف الحركة في السماء بالعروج: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾، والعروج لغة: هو سير الجسم في خط منعطف منحن، فقد ثبت علمياً أن حركة الأجسام في الكون لا يمكن أن تكون في خطوط مستقيمة، بل لا بد لها من الانحناء نظراً لانتشار المادة والطاقة في كل الكون، وتأثير كل من جاذبية المادة (بأشكالها المختلفة)، والمجالات المغناطيسية للطاقة (بتعدد صورها)، على حركة الأجسام في الكون، فأي جسم مادي مهما عظمت كتلته أو تضاءلت لا يمكنه التحرك في الكون إلا في خطوط منحنية، وحتى الأشعة الكونية على

تناهي دقائقها في الصغر (وهي تتكون من اللبنات الأولية للمادة مثل البروتونات والنيوترونات والإليكترونات)، فإنها إذا عبرت خطوط أي مجال مغناطيسي فإن هذا المجال يحني مسار الشعاع بزاوية قائمة على مساره. فانتشار كل من المادة والطاقة في الكون عبر عملية الفتق وما صاحبها من انفجار عظيم كانت من أسباب تكوره، وكذلك كان انتشار قوى الجاذبية في أرجاء الكون من أسباب تكور كل أجرامه، وكان التوازن الدقيق الذي أوجده الخالق العظيم بين كل من قوى الجاذبية والقوى الدافعة (النابذة أو الطاردة) المركزية الناتجة عن عملية الفتق هو الذي حدد المدارات التي تتحرك فيها كل أجرام السماء، والسرعات التي تجري بها في تلك المدارات والتي يدور بها كل منها حول محوره.

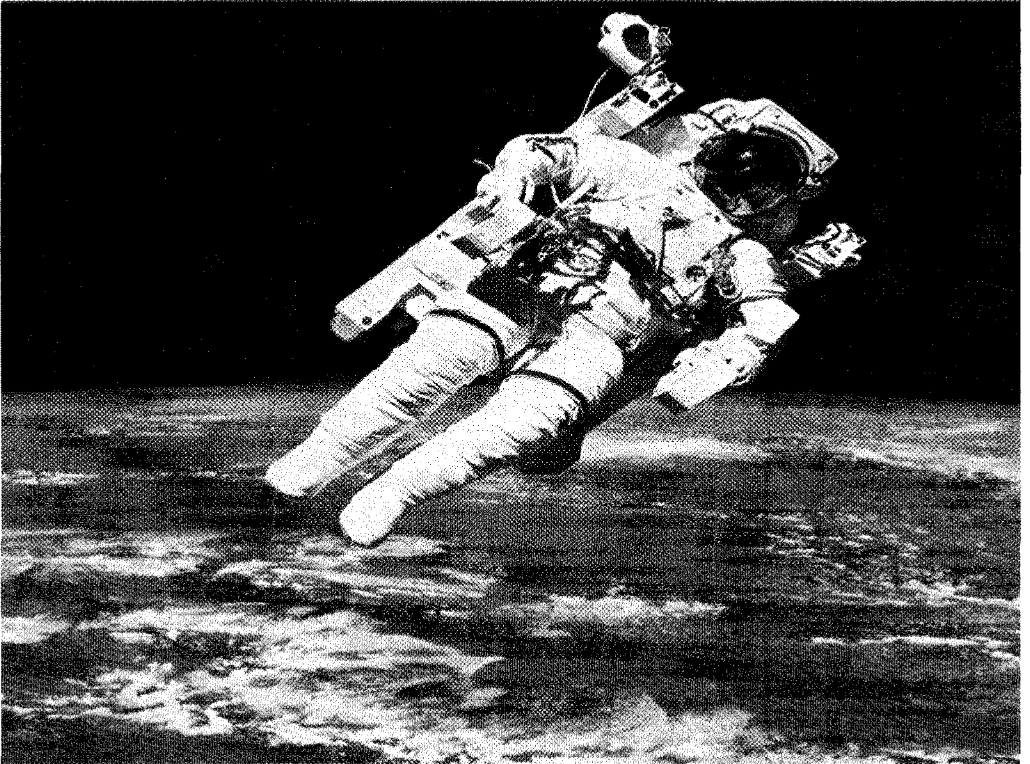
فعند انفجار الجرم الكوني الأول انطلق كل ما كان به من مخزون المادة والطاقة بالقوة الدافعة الناتجة عن ذلك الانفجار العظيم (عملية الفتق) والتي أكسبت كل صور المادة والطاقة المنطلقة إلى فسحة الكون طاقة حركة هائلة، وجعلتها بذلك واقعة تحت تأثير قوتين متعارضتين هما قوة التجاذب الرابطة بينها، والقوة الطاردة الناتجة عن ذلك الانفجار الكوني، والتوازن الدقيق بين هاتين القوتين المتعارضتين هو الذي حفظ ولا يزال يحفظ أجرام السماء في مداراتها، ويجعلها تتحرك فيها حركة دائرية بخطوط منحنية باستمرار، كما جعلها تدور حول محاورها بسرعات محددة، إلى أن يرث الله (تعالى) الأرض والسماء ومن فيهما.

ودوران الأجرام السماوية حول محاورها وفي مداراتها تخضع لقانون يعرف باسم **«قانون بقاء التحرك الزاوي أو قانون العروج»**، وينص هذا القانون على أن كمية التحرك الزاوي لأي جرم سماوي تقدر على أساس نسبة سرعة دورانه حول محوره إلى نصف قطره على محور الدوران، وتبقى كمية التحرك الزاوي تلك محفوظة في حالة انعدام مؤثرات أُخرى، ولكن إذا تعرض الجرم السماوي إلى مؤثرات خارجية أو داخلية فإنه سرعان ما يكيف حركته الزاوية في ضوء التغيرات الطارئة.

فعلى سبيل المثال: تزداد سرعة التحرك الزاوي للجرم كلما انكمش حجمه، وكما سبق وأن ذكرنا فإن جميع الأجرام الأولية قد تكثفت مادتها على مراحل متتالية من سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن انفجار الجرم الابتدائي الذي حوى كل مادة وطاقة الكون، تاركة كميات هائلة من الغازات والغبار والأشعّات الكونية، وعلى ذلك فقد كانت الكواكب الابتدائية ـ على سبيل المثال ـ أكبر حجماً بمئات المرات من الكواكب الحالية، وكانت أرضنا الابتدائية مائتي ضعف حجم الأرض الحالية (على الأقل)، وهذه الكواكب الابتدائية أخذت في التكثف على مراحل متتالية حتى وصلت إلى صورتها الحالية.

وبمثل عملية نشأة الكون تماماً، وبالقوانين التي تحكم دوران أجرامه حول محاورها، وجريها في مدارات محددة لكل منها حول جرم أكبر منه أو وحدة أكبر تتم عملية إطلاق الأقمار الصنعية ومراكب الفضاء من الأرض إلى مدارات محددة حولها، أو حول أي من أجرام مجموعتنا الشمسية، أو حتى إلى خارج حدود المجموعة الشمسية، وذلك بواسطة قوى دافعة كبيرة تعينها على الإفلات من جاذبية الأرض، من مثل صواريخ دافعة تتزايد سرعتها بالجسم المراد دفعه إلى قدر معين من السرعة، ولما كانت الجاذبية الأرضية تتناقص بزيادة الارتفاع عن سطح الأرض، فإن سرعة الجسم المرفوع إلى الفضاء تتغير بتغير ارتفاعه فوق سطح ذلك الكوكب، وبضبط العلاقة بين قوة جذب الأرض للجسم المنطلق منها إلى الفضاء والقوة الدافعة لذلك الجسم (أي سرعته) يمكن ضبط المستوى الذي يدور فيه الجسم حول الأرض، أو حول غيرها من أجرام المجموعة الشمسية أو حتى إرساله إلى خارج المجموعة الشمسية تماماً، ليدخل في أسر جرم أكبر يدور في فلكه.

وأقل سرعة يمكن التغلب بها على الجاذبية الأرضية في إطلاق جرم ما من فوق



شكل (141) صورة لرائد فضاء يعبر نطاق النهار ليفاجأ بظلمة الليل

سطحها إلى فسحة الكون تسمى باسم «**سرعة الإفلات من الجاذبية الأرضية**»، وحركة أي جسم مندفع من الأرض إلى السماء لا بد وأن تكون في خطوط منحنية وذلك تأثراً بكل من الجاذبية الأرضية، والقوة الدافعة له إلى السماء، وكلتاهما تعتمد على كتلة الجسم المتحرك، وعندما تتكافأ هاتان القوتان المتعارضتان يبدأ الجسم في الدوران في مدار حول الأرض مدفوعاً بسرعة أفقية تعرف باسم «**سرعة التحرك الزاوي أو سرعة العروج**»، والقوة الطاردة اللازمة لوضع جرم ما في مدار حول الأرض تساوي كتلة ذلك الجرم مضروبة في مربع سرعته الأفقية (المماسة للمدار) مقسومة على نصف قطر المدار (المساوي للمسافة بين مركزي الأرض والجرم الذي يدور حولها).

ولولا معرفة حقيقة عروج الأجسام في السماء لما تمكن الإنسان من إطلاق الأقمار الصنعيّة، ولا استطاع ريادة الفضاء. فقد أصبح من الثابت أن كل جرم متحرك في السماء ـ مهما كانت كتلته ـ محكوم بكل من القوى الدافعة له وبالجاذبية مما يضطره إلى التحرك في خط منحن يمثل محصلة كل من قوى الجذب والطرد المؤثرة فيه، وهذا ما يصفه القرآن الكريم «بالعروج»، وهو وصف التزم به هذا الكتاب الخالد في وصفه لحركة الأجسام في السماء في خمس آيات متفرقات وذلك قبل ألف وأربعمائة سنة من اكتشاف الإنسان لتلك الحقيقة الكونية المبهرة وذلك على النحو التالي:

(1) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ **(الحجر: 14)**

(2) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ **(السَّجدَة: 5)**:

(3) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ **(سَبَإ: 2)**:

(4) ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ **(الزّخرُف: 33)**

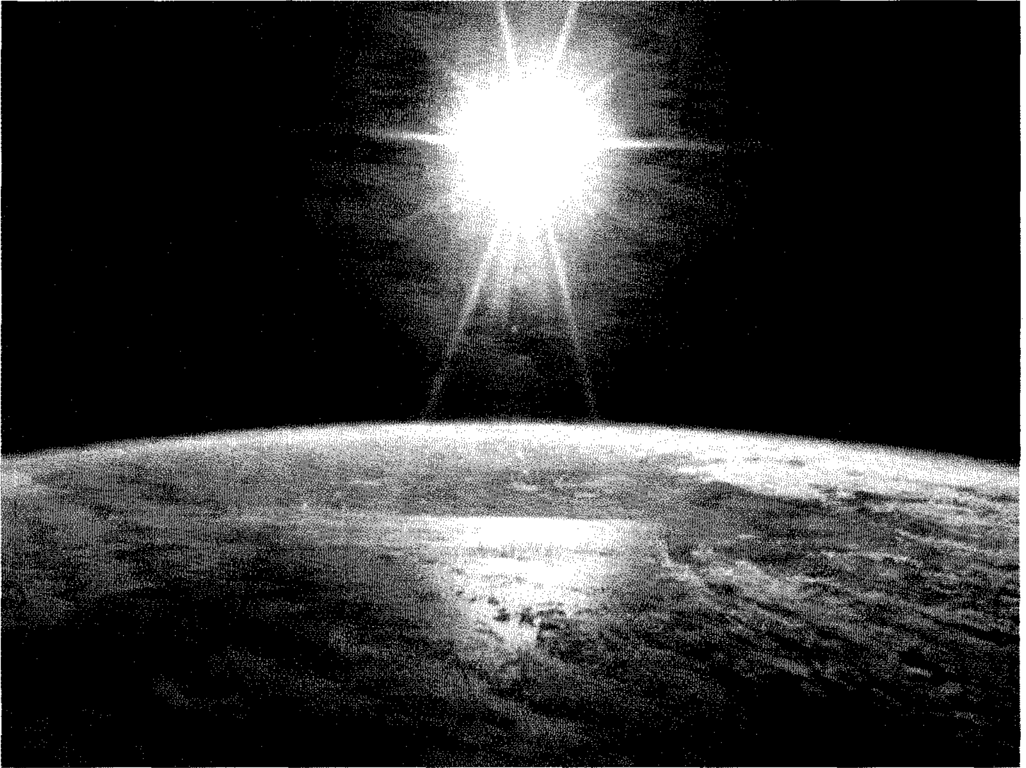
(5) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ **(الحَديد: 4)**.

(6) ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ **(المعارج: 3، 4)**

(3) اللمحة الإعجازية الثالثة:

وقد وردت في قول الحق ﷻ: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ ومعنى سكرت أبصارنا أغلقت عيوننا وسدت، أو غشيت وغطيت لتمنع من الإبصار، وحينئذ لا يرى الإنسان إلا الظلام.

ويعجب الإنسان لهذا التشبيه القرآني المعجز الذي يمثل حقيقة كونية لم يعرفها الإنسان إلا بعد نجاحه في ريادة الفضاء منذ مطلع الستينيات من القرن العشرين، حين فوجىء بحقيقة أن الكون يغشاه الظلام الدامس في غالبية أجزائه، وأن حزام النهار في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس لا يتعدى سمكه مائتي كيلومتر فوق مستوى سطح البحر، وإذا ارتفع الإنسان فوق ذلك فإنه يرى الشمس قرصاً أزرق في صفحة سوداء حالكة السواد، لا يقطع حلوكة سوادها إلا بعض البقع الباهتة الضوء في مواقع للنجوم.



شكل (142) صورة حقيقية توضح رقة طبقة النهار على نصف الأرض المواجه للشمس وعموم الظلام في الكون

وإذا كان الجزء الذي يتجلى فيه النهار على الأرض محدوداً في طوله وعرضه بنصف مساحة الكرة الأرضية المواجه للشمس، وفي سمكه بمائتي كيلو متر، وكان في حركة دائبة دائمة مرتبطة بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وكانت المسافة بين الأرض والشمس في حدود المائة وخمسين مليون كيلو متر، وكان نصف قطر الجزء المدرك من الكون يقدر باثني عشر بليون سنة ضوئية، اتضحت لنا ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، وعدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطة إلى أخرى على سطح الأرض مع دوران الأرض حول محورها، واتضح لنا أن تلك الطبقة الرقيقة تحجب عنا ظلام الكون، خارج حدود أرضنا ونحن في وضح النهار، فإذا جن الليل انسلخ منه النهار، واتصلت ظلمة ليلنا بظلمة الكون، وتحركت تلك الطبقة الرقيقة من النور لتفصل نصف الأرض المقابل بالتدريج عن تلك الظلمة الشاملة التي تعم الكون كله. وعلى ذلك فإن تجلي النهار على الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض (بسمك مائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر) بهذا النور الأبيض المبهج هو نعمة كبرى من نعم الله على العباد. وتفسر بأن الهواء في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض له كثافة عالية نسبياً، وأن كثافته تتناقص بالارتفاع حتى لا تكاد تدرك، وأنه مشبع ببخار الماء وبهباءات الغبار التي تثيرها الرياح من فوق سطح الأرض فتعلق بالهواء، وتقوم كل من جزيئات الهواء الكثيف نسبياً، وجزيئات بخار الماء، والجسيمات الدقيقة من الغبار بالعديد من عمليات تشتيت ضوء الشمس وعكسه حتى يظهر بالنور الأبيض الذي يميز النهار كظاهرة نورانية مقصورة على النطاق الأسفل من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس.

وبعد تجاوز المائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر يبدأ الهواء في التخلخل لتضاؤل تركيزه، وقلة كثافته باستمرار مع الارتفاع، ولندرة كل من بخار الماء وجسيمات الغبار فيه لأن نسبها تتضاءل كذلك بالارتفاع حتى تكاد تتلاشى، ولذلك تبدو الشمس وغيرها من نجوم السماء بقعاً زرقاء باهتة في بحر غامر من ظلمة الكون لأن أضواءها لا تكاد تجد ما يشتتها أو يعكسها في فسحة الكون. فسبحان الذي أخبرنا بهذه الحقيقة الكونية قبل اكتشاف الإنسان لها بألف وأربعمائة سنة، فشبه الذي يعرج في السماء بمن سكرت أبصاره فلم يعد يرى غير ظلام الكون الشامل، أو بمن اعتراه شيء من السحر فلم يعد يدرك شيئاً مما حواليه، وكلا التشبيهين تعبير دقيق عما أصاب رواد الفضاء الأوائل حين عبروا نطاق النهار إلى ظلمة الكون فنطقوا بما يكاد أن يكون ترجمة دقيقة إلى الانجليزية لمعنى الآية القرآنية دون علم بها:

﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾

(4) اللمحة الإعجازية الرابعة:



شكل (143) رقة طبقة النهار في الغلاف الغازي للأرض

وتتضح في قوله تعالى: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فالتعبير اللغوي «ظلوا» يشير إلى عموم الإظلام في وضح النهار، وشموله وديمومته بعد تجاوز طبقة النهار إلى نهاية الكون، بمعنى أن الإنسان إذا عرج به إلى السماء في وضح النهار فإنه يفاجأ بظلمة الكون الشاملة تحيط به من كل جانب مما يفقده النطق أو يجعله يهذي بما لا يعلم من هول المفاجأة. ومن الأمور التي تؤكد ظلمة الكون الشاملة أن باطن الشمس مظلم تماماً على الرغم من أن درجات الحرارة فيه تصل إلى خمسة عشر مليون درجة مئوية أو يزيد، وذلك لأنه لا ينتج فيه سوى الإشعاعات غير المرئية من مثل أشعة جاما، والأشعات فوق البنفسجية والسينية، وتحت الحمراء، وموجات الراديو (الموجات اللاسلكية)، أما ضوء الشمس المرئي فلا يصدر إلا عن نطاقها الخارجي فقط والذي يعرف باسم النطاق المضيء، ولا يرى بهذا النور إلا في الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض، وفي نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة من السنين قوله الحق: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾. والظل لغة ضد الضَّحِّ، ويقال لكل موضع لم يَصل إليه نور النهار، وهو أعم من الفيء الذي لا يقال إلا للأماكن التي زال عنها ضوء الشمس.

(5) اللمحة الإعجازية الخامسة:

وتتضح في إشارة الآيتين الكريمتين إلى الرقة الشديدة لغلالة النهار وذلك في قول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا﴾ لقالوا.. بمعنى أن القول بتسكير العيون، وظلمة الكون الشاملة تتم بمجرد العروج لفترة قصيرة في السماء، ثم تظل تلك الظلمة إلى نهاية الكون، وقد أثبت العلم الحديث ذلك بدقة شديدة، فإذا نسبنا سمك طبقة النهار إلى مجرد المسافة بين الأرض والشمس لاتضح لنا أنها تساوي 200 كيلو متر/ 150.000.000 كيلو متر= 1/ 750.000 تقريباً، فإذا نسبناها إلى نصف قطر الجزء المدرك من الكون اتضح أنها لا تساوي شيئاً البتة، وهنا تتضح روعة التشبيه القرآني في مقام آخر يقول فيه الحق ﷻ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (يس: 37)

حيث شبّه انحسار طبقة النهار البالغة الرقة من ظلمة كل من ليل الأرض وليل السماء بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها، مما يؤكد أن الظلام هو الأصل في الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرة نورانية، عارضة، رقيقة جداً، لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وفي نصفها المواجه للشمس في دورة الأرض حول نفسها أمام ذلك النجم، وبتلك الدورة ينسلخ النهار تدريجياً من ظلمة كل من ليل الأرض وحلكة السماء كما ينسلخ جلد الذبيحة عن بدنها.

وفي تأكيد ظلمة السماء يقرر القرآن الكريم في مقام آخر قول الحق ﷻ:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ **(النازعات: 27 ـ 29)**

والضمير في ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ عائد على السماء، بمعنى أن الله تعالى قد جعل ليل السماء حالك السواد من شدة إظلامه، فهو دائم الإظلام سواء اتصل بظلمة ليل الأرض (في نصف الكرة الأرضية الذي يعمه الليل) أو انفصل عن الأرض بتلك الطبقة الرقيقة التي يعمها نور النهار (في نصف الأرض المواجه للشمس) فيصفه ربنا ﷻ بقوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي أظهر ضوء شمس السماء لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض بالنور والدفء معاً في أثناء نهار الأرض، والضحى هو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر ضوؤها جليًّا للناس، بينما يبقى معظم الكون غارقاً في ظلمة السماء ويؤكد هذا المعنى قسم الحق ﷻ ـ وهو الغني عن القسم ـ بالنهار إذ يجلي الشمس أي يكشفها ويوضحها فيقول ﷻ:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾

(الشمس: 1 ـ 4).

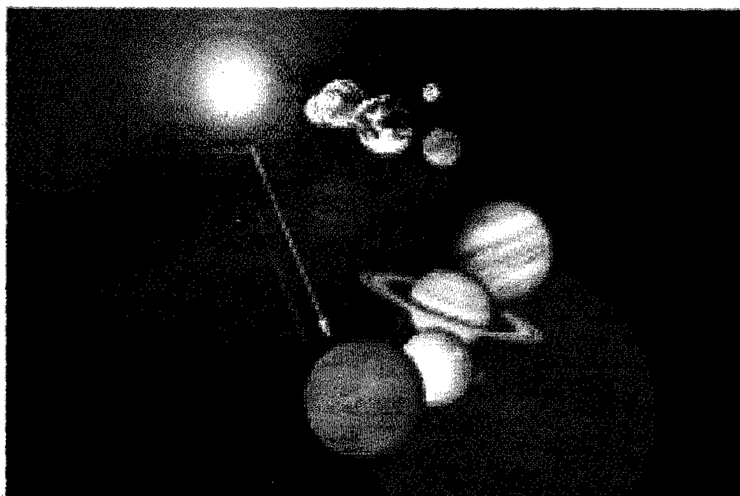
أي أن النهار هو الذي يجعل الشمس واضحة جلية لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض، وهذه لمحة أخرى من لمحات الإعجاز العلمي في كتاب الله تقرر أن ضوء الشمس لا يرى إلا على هيئة النور في نهار الأرض، وأن الكون خارج نطاق نهار الأرض ظلام دامس، وأن هذا النطاق النهاري لا بد أن به من الصفات ما يعينه على إظهار وتجلية ضوء الشمس للذين يشهدونه من أحياء الأرض.

فسبحان الذي أنزل القرآن بالحق، أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وجعله معجزاً في كل أمر من أموره، وفي كل آية من آياته، وفي كل إشارة من إشاراته، وفي كل

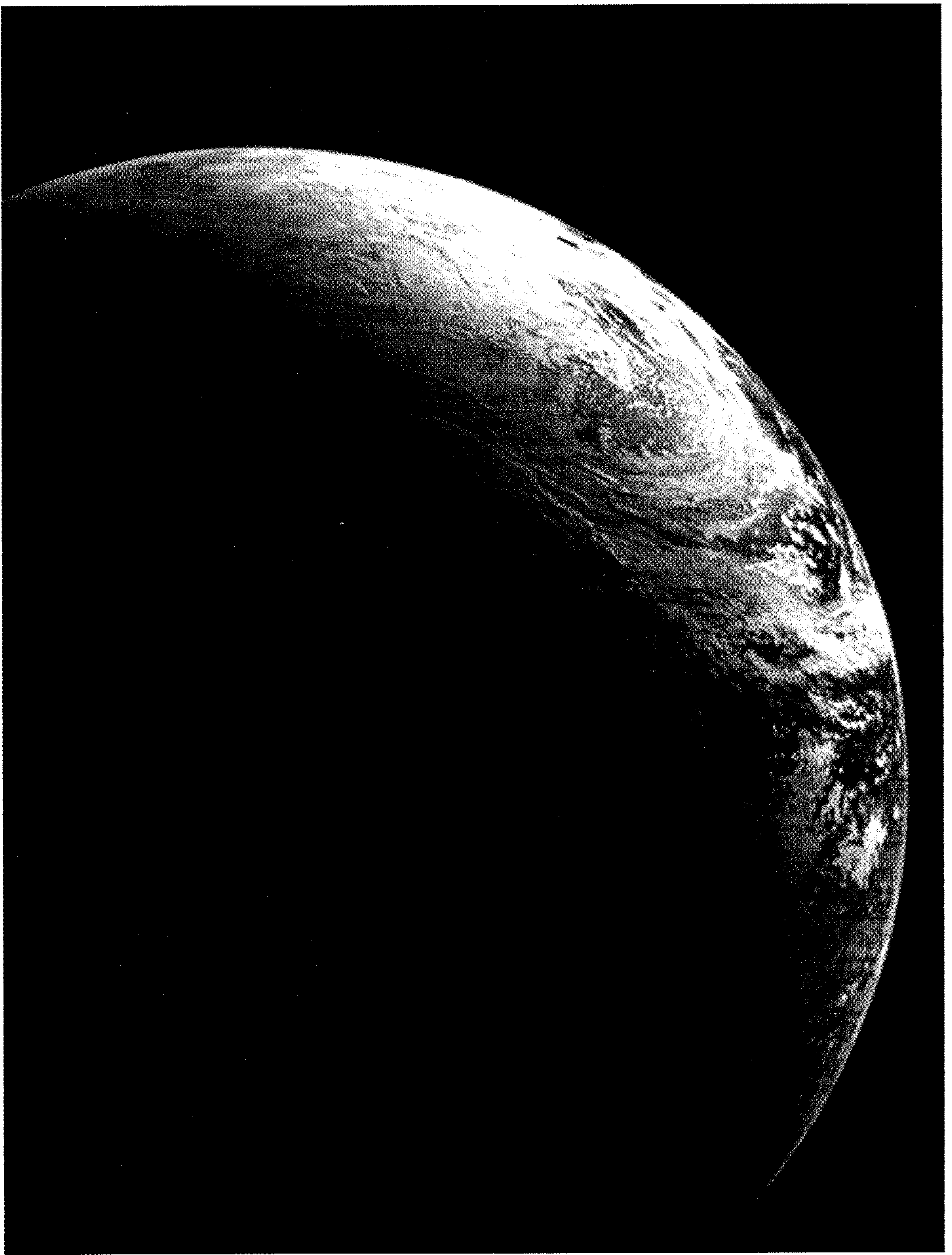
معنى من معانيه، وجعله معجزة أبدية خالدة على مر العصور، لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد إلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي شرفه ربه ﷺ بوصفه الذي يقول فيه:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾

(النجم: 3 ـ 5)



شكل (144) صورة لمجموعتنا الشمسية تسبح في ظلمة الكون



بسم الله الرحمن الرحيم

(22) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء: 12)

في هذه الآية الكريمة يذكرنا ربنا ﷻ بأنه قد جعل الليل والنهار آيتين من آياته الكونية المبهرة التي تدل على طلاقة قدرته، وبالغ حكمته، وبديع صنعه في خلقه، فاختلاف هيئة كل من الليل والنهار في الظلمة والنور، وتعاقبهما على وتيرة رتيبة، منتظمة لَيدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقاً قادراً عليماً حكيماً..

و(الآية) في اللغة هي العلامة الظاهرة البينة، أو المعجزة المبهرة القاطعة؛ والجمع (آي) و(آيات)، والآية من كتاب الله مجموعة حروف تكون كلمة أو مجموعة كلمات تبنى منها الآية لتحمل دلالة معينة، يعجز الثقلان مجتمعين متكاتفين أن يأتيا بشيء من مثلها.

من أقوال المفسرين

في شرح هذه الآية الكريمة يذكر عدد من المفسرين أن الله تعالى قد جعل من صفات الليل أنه مظلم، كما جعل من صفات النهار أنه منير، وربما كان ذلك هو آية كل منهما، وهذا الفهم دفع ببعض منهم إلى القول بأن من معاني قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: جعلنا الليل، وهو آية من آيات الله ـ مظلماً ـ وجعلنا من صفاته تلك الظلمة، وأن من معاني قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: وجعلنا الآية (التي هي النهار) منيرة تعين على الإبصار فيها، من نحو قول العرب: أبصر النهار إذا أنار وصار بحالة يبصر فيها، ولكن المقابلة بين

محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ربما تتحمل من المعاني ما هو فوق ذلك، مما يحتاج إلى توظيف العديد من الحقائق العلمية الحديثة من أجل حسن فهم دلالة تلك المقابلة. فواضح نص الآية الكريمة أن الله تعالى قد محا آية الليل، وأبقى آية النهار مبصرة لكي يتيح الفرصة للخلق لابتغاء الفضل منه، والسعي على كسب الرزق أثناء النهار، وللخلود إلى السكينة والراحة بالليل، وأن في هذا التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير وسيلة ميسرة لتحديد الزمن، ولتأريخ الأحداث، فبدون ذلك التتابع الرتيب لليل والنهار يتلاشى إحساس الإنسان بمرور الزمن، وتتوقف قدرته على متابعة الأحداث والتأريخ لها، ولذلك يمنّ علينا ربنا (ﷻ) في ختام هذه الآية الكريمة بأنه قد فصل لنا كل شيء في وحيه الخاتم (القرآن الكريم) الذي ليس من بعده وحي من الله، وليست من بعده أية رسالة ربانية أخرى، ولذلك جاء ذلك التفصيل الإلهي تفصيلاً دقيقاً واضحاً لكل أمر من أمور الدين الذي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيه أية ضوابط صحيحة.

محو آية الليل وإبقاء آية النهار مبصرة عند عدد من المفسرين:

في شرح معنى هذه الآية الكريمة ذكر نفر من المفسرين أن آيتي الليل والنهار هما نيّراهما، فآية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس، وإذا كان الأمر كذلك فكيف محيت آية الليل، والقمر لا يزال قائماً بدورانه حول الأرض ينير ليلها كلما ظهر؟

روي عن عبد الله بن عباس (رضي الله سبحانه وتعالى عنهما) أنه قال: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، وعلى ذلك فمعنى قول الحق ﷻ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ هو السواد الذي في القمر أي انطفاء جذوته، وأضاف: مدلول ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي ليلاً ونهاراً، وكذلك خلقهم الله ﷻ. وتبع ابن عباس في ذلك قتادة (يرحمه الله) الذي قال: أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي منيرة، وخلق الشمس أنور (والصحيح أنها أضوأ) من القمر وأعظم.

وفي الكلام إشارة دقيقة إلى الفارق الذي حدده القرآن الكريم في آيات عديدة بين ضوء الشمس ونور القمر، والذي لم يدركه العلماء إلا مؤخراً بأن الأول ينطلق من نجم ملتهب شديد الحرارة، مضيء بذاته، بينما الثاني ينتج عن انعكاس أشعة الشمس على سطح القمر البارد المعتم.

وقال نفر آخر من المفسرين إن آية الليل هي ظلمته، كما أن آية النهار هي نوره

ووضاءته، فالله تعالى جعل من الظلام آية لليل، كما جعل من النور آية للنهار، فيعرف كل منهما بآيته أي بعلامته الدالة عليه، ومن هؤلاء المفسرين ابن جريج (يرحمه الله) الذي نقل عنه عبدالله بن كثير (رحمة الله عليه) قوله: آيتا الليل والنهار هما ظلمة الليل، وسرف النهار.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: كيف يستقيم هذا الفهم مع قول الحق ﷻ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وظلمة الليل باقية مع بقاء نور النهار؟ وإذا كانت آية الليل هي ظلمته فكيف محيت تلك الظلمة وهي لاتزال باقية؟

وعلى الرغم من هذا التعارض فقد أيد عدد من المفسرين المعاصرين هذا الفهم بصورة أو أخرى، ومنهم صاحب الظلال (يرحمه الله) الذي كتب ما نصه:... «والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تشيان بدقة الناموس الذي لا يصيبه الخلل مرة واحدة، ولايدركه التعطل مرة واحدة، ولا يني يعمل دائباً بالليل والنهار، فما المحو المقصود هنا وآية الليل باقية كآية النهار؟ يبدو ـ والله أعلم ـ أن المقصود به ـ ظلمة الليل التي تخفي فيها الأشياء، وتسكن فيها الحركات والأشباح.. فكأن الليل محو إذا قيس إلى ضوء النهار، وحركة الأحياء فيه والأشياء، وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء (بالنور) يكشف كل شيء فيه للأبصار».

من هذا الاستعراض يتضح اختلاف آراء المفسرين ـ قدامى ومعاصرين ـ في اجتهادهم لفهم دلالة الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها (الآية الثانية عشرة من سورة الإسراء) فمنهم من قال بأن آية النهار هي نوره الوضاء، أو هي الشمس مصدر ذلك الضياء، بينما آية الليل هي ظلمته، أو هي القمر المتميّز بظلمة سطحه الذي لا ينير إلا بسقوط أشعة الشمس عليه، وانعكاسها من ذلك السطح المعتم المظلم، وقد دفع ذلك ببعض المفسرين إلى القول باحتمال كون القمر في بدء خلقه ملتهباً مشتعلاً شديد الحرارة، مضيئاً بذاته تماماً كالشمس، ثم انطفأت جذوته وخبت، فمحي ضوءه الأصلي، ولم يعد له إلا نور ما يسقط على سطحه من أشعة الشمس، وهذا الاحتمال لاتدعمه الملاحظات العلمية الدقيقة في صفحة الكون، وفي تاريخ الأرض القديم، فكتلة القمر المقدرة بحوالي 735 مليون مليون مليون طن (البالغة حوالي 1/ 80 من كتلة الأرض) لا تمكنه من أن يكون نجماً ملتهباً بذاته، فالحد الأدنى لكتلة الجرم السماوي كي يكون نجماً لا تقل عن 8% من كتلة الشمس (المقدرة بألفي مليون مليون مليون مليون طن)، أي لا يجوز للنجم أن تقل كتلته عن160 مليون مليون مليون مليون طن، وهو أكثر من مائتي ضعف كتلة القمر، ولو افترضنا جدلاً إمكانية أن يكون القمر نجماً لأحرق لهيبه الأرض لقربه النسبي منها ـ (380000 كيلومتر في المتوسط)، ولأدّت حرارته إلى خلخلة غلافها الغازي، وإلى تبخير كل مائها، وإلى تركها جرداء قاحلة لا أثر للحياة فيها على الإطلاق...!!!

آيتا الليل والنهار:

الليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق، تشهدان بدقة بناء الكون، وانتظام حركة كل جرم فيه، وإحكام السنن الضابطة له، ومنها تلك السنن الحاكمة لحركات كل من الأرض والشمس، والتي تتضح بجلاء في التبادل المنتظم للفصول المناخية، ولكل من الشهور والسنين، والتعاقب الرتيب لليل والنهار، وما يصاحب ذلك كله من دقة وإحكام بالغين..!! فنحن نعلم اليوم أن التبادل الرتيب بين الليل المظلم والنهار المنير هو من الضرورات اللازمة للحياة على الأرض، ولاستمرارية وجود تلك الحياة بصورها المختلفة حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

فبهذا التبادل بين الظلام والنور يتم التحكم في درجات الحرارة والرطوبة على سطح الأرض وفي غلافها الغازي القريب من ذلك السطح، ويتم التحكم كذلك في كميات الضوء اللازمة للحياة في مختلف البيئات الأرضية، كما يتم التحكم في العديد من الأنشطة والعمليات الحياتية من مثل التنفس، والنتح، والتمثيل الضوئي، والأيض وغيرها، ويتم ضبط التركيب الكيميائي للغلاف الغازي المحيط بالأرض، وضبط صفاته الطبيعية، وتتم دورة الماء بين الأرض والسماء والتي لولاها لفسد كل ماء الأرض، كما يتم ضبط حركات كل من الأمواج والتيارات المختلفة في البحار ومن أهمها حركات المد والجزر، ويتم التحكم كذلك في تصريف الرياح وتسخير السحاب، وإنزال المطر بإذن الله، ويتم من خلال ذلك كله تفتيت الصخور، وتكون التربة بمختلف أنواعها (ومنها الصالحة للإنبات، وغير الصالحة)، وترسب الصخور (ومنها القادرة على خزن الموائع من مثل الماء والنفط والغاز ومنها غير القادرة على ذلك)، وتركيز مختلف الثروات الأرضية، وإتمام غير ذلك من العمليات والظواهر التي بدونها لا يمكن للأرض أن تكون صالحة للعمران.

وتعاقب الليل والنهار على نصفي الأرض هو كذلك ضروري للحياة، لأن جميع صور الحياة الأرضية لا تتحمل مواصلة العمل دون راحة وإلا هلكت، فالإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك من أنماط الحياة البسيطة يحتاج إلى الراحة بالليل لاستعادة النشاط بالنهار أو عكس ذلك بالنسبة لأنماط الحياة الليلية.

فالإنسان ـ على سبيل المثال ـ يحتاج إلى أن يسكن بالليل فيخلد إلى شيء من الراحة والعبادة والنوم مما يعينه على استعادة نشاطه البدني والذهني والروحي، وعلى استرجاع راحته النفسية، واستجماع قواه البدنية حتى يتهيأ للعمل في النهار التالي وما يتطلبه ذلك من قيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وقد ثبت بالتجارب العملية والدراسات المختبرية أن

أفضل نوم الإنسان هو نومه بالليل، خاصة في ساعات الليل الأولى، وأن إطالة النوم بالنهار ضار بصحته لأنه يؤثر على نشاط الدورة الدموية تأثيراً سلبياً، ويؤدي إلى شيء من التيبّس في العضلات، والتراكم للدهون على مختلف أجزاء الجسم، وإلى زيادة في الوزن، كما يؤدي إلى شيء من التوتر النفسي والقلق، وربما كان مرد ذلك كله إلى الحقيقة القرآنية التي مؤداها أن الله (ﷻ) قد جعل الليل لباساً، وجعل النهار معاشاً، وإلى الحقيقة الكونية التي مؤداها أن الانكماش الملحوظ في سمك طبقات الحماية في الغلاف الغازي للأرض ليلاً، وتمددها نهاراً يؤدي إلى زيادة قدراتها على حماية الحياة الأرضية بالنهار عنها في الليل، حين يقل سمك طبقات الحماية الجوية تلك بدرجات كبيرة قد تسمح لعدد من الأشعات الكونية بالنفاذ إلى الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وهي أشعات مهلكة مدمرة لمن يتعرض لها لمدد كافية، وهنا كان ذلك الوصف القرآني بالاستخفاء في الليل والظهور في النهار ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ **(الرعد: 10)**، ومن هنا أيضاً كان أمره إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يستعيذ بالله تعالى من شر الليل إذا دخل بظلامه، وأن يلتجيء إلى الله ويعتصم بجنابه من أخطار ذلك فقال ﷻ: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ **(الفَلَق: 3)**.

فهذا الشر ليس مقصوراً على الظلمة وما يمكن أن يتعرض فيها المرء إلى مخاطر البشر، بل قد يمتد إلى مخاطر الكون التي لا يعلمها إلا الله (ﷻ).

ثم إن هذا التبادل في اليوم الواحد بين ليل مظلم ونهار منير، يعين الإنسان على إدراك حركة الزمن، وتأريخ الأحداث، وتحديد الأوقات بدقة وانضباط ضروريين للقيام بمختلف الأعمال، ولأداء جميع العبادات، وللوفاء بمختلف العهود والمواثيق والحقوق والمعاملات، وغير ذلك من الأنشطة الإنسانية، فلو كان الزمن كله على نسق واحد من ليل أو نهار ما استقامت الحياة وما استطاع الإنسان أن يميز ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، وبالتالي لتوقفت حركة الحياة، ولذلك يقول ربنا ﷻ في ختام الآية:

﴿... لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ **(الإسرَاء: 12)**

ولذلك أيضاً يمن علينا ربنا (وهو تعالى صاحب الفضل والمنة) بتبادل الليل والنهار في العديد من آيات القرآن الكريم، ومع إيماننا بذلك، وتسليمنا به يبرز التساؤل في الآية الكريمة التي نحن بصددها (رقم 12 من سورة الإسراء) عن مدلول آيتي الليل والنهار وعن كيفية محو آية الليل وإبقاء آية النهار مبصرة؟..

إضاءة السماء في ظلمة الليل كانت آية الليل، ومحوها هو حجبها عنا:

على الرغم من الظلام الشامل للكون، والذي لم يدركه الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء منذ مطلع الستينيات من القرن العشرين، وعلى الرغم من محدودية الحزام الرقيق الذي يُرى فيه نور النهار بسمك لا يتعدى المائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، حتى أن الإنسان في انطلاقه من الأرض إلى فسحة الكون في أثناء النهار فإنه يفاجأ بتلك الظلمة الكونية الشاملة التي يرى فيها الشمس قرصاً أزرق في صفحة حالكة السواد، لايقطع من شدة سوادها إلا أعداد من النقاط المتناثرة، الباهته الضوء التي تحدد المواقع المرئية من النجوم.

على الرغم من كل ذلك فإن العلماء قد لاحظوا في سماء الأرض عدداً من الظواهر المنيرة في ظلمة الليل الحالك نعرف منها ما يلي:

(1) ظاهرة توهج الهواء في طبقات الجو العليا:

(The Air glow phenomenon in the upper atmosphere)

وهي عبارة عن نور باهت متغير ينتج عن عدد من التفاعلات الكيميائية في نطاق التأين **(Ionosphere)** المحيط بالأرض من ارتفاع 90 إلى أكثر من 1000 كيلومتر فوق مستوى سطح البحر تقريباً، وهو نطاق مشحون بالكهرباء بواسطة تأين مكوناته مما يساعد على رجع الموجات الراديوية إلى الأرض، وعلى رد الجسيمات الكونية المتسارعة والتي تمطر سماءنا بكميات كبيرة جداً في كل لحظة.

(2) ظاهرة أنوار مناطق البروج (The Zodiacal Lights phenomenon):

وتظهر على هيئة مخروط من النور الباهت الرقيق الذي يُرى في جهة الغرب بمجرد غروب الشمس، كما يُرى في جهة الشرق قبل طلوعها بقليل، وتفسر تلك الأنوار بانعكاس وتشتت ضوء الشمس غير المباشر على بعض الأجرام الكونية التي تعترض سبيله في أثناء تحركها متباعدة عن الأرض أو مقتربة منها.

(3) ظاهرة أضواء النجوم (The Stellar Lights phenomenon): وتصدر من النجوم في مواقعها المختلفة، ثم تتشتت في المسافات الفاصلة بينها حتى تصل إلى غلاف الأرض الغازي.

(4) ظاهرة أضواء المجرات (The Galactic Lights phenomenon): وتصدر من نجوم مجرة من المجرات القريبة منا، والتي تتشتت أضواؤها في داخل المجرة الواحدة، ثم يعاد

تشتتها في المسافات الفاصلة بين المجرات حتى تصل إلى الغلاف الغازي المحيط بالأرض.

(5) ظاهرة الفجر القطبي وأطيافه:

(The phenomenon of the Aurora and The Auroral spectra)

وتعرف هذه الظاهرة أيضاً باسم الأضواء القطبية **(The Polar Lights)** أو باسم فجر الليل القطبي **(The Polar Night's Dawn)** وهي ظاهرة نورانية ترى بالليل في سماء كل من المناطق القطبية وحول القطبية **(The Polar and The Subpolar Regions)** وتتركز أساساً في المنطقتين الواقعتين بين كل من قطبي الأرض المغناطيسيين وخطي العرض المغناطيسيين 67 درجة شمالاً، 67 درجة جنوباً، وقد تمتد أحياناً لتشمل مساحات أوسع من ذلك.



شكل (145) صورة حقيقية لظاهرة الفجر القطبي

وتبدو ظاهرة الفجر القطبي عادة على هيئة أنوار زاهية متألقة جميلة، تختلف باختلاف الارتفاع الذي ترى عنده (ويغلب عليها اللون الأخضر والأحمر والأبيض المشوب بزرقة والبنفسجي والبرتقالي) وهي تتوهج وتخبو (أي تزداد شدة ولمعاناً ثم تهدأ) بطريقة دورية كل

عدة ثوان (قد تمتد إلى عدة دقائق)، وتتباين ألوان الشفق القطبي في أجزائه المختلفة تبايناً كبيراً، وإن تناقصت شدة أنوارها إلى أعلى بصفة عامة، حيث تتدلى تلك الأنوار من السماء إلى مستوى قد يصل إلى 80 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وتمتد أفقياً إلى مئات الكيلومترات لتملأ مساحات شاسعة من صفحة السماء، على هيئة هالات حلقية أو قوسية متموجة، تكوّن عدداً من الستائر النورانية المطوية والمتدلية من السماء، والتي يشبه نورها النور المصاحب لبزوغ الفجر الحقيقي (الصادق).

ويفسر العلماء حدوث ظاهرة الفجر القطبي كنتيجة لارتطام الأشعة الكونية الأولية بالغلاف الغازي للأرض مما يؤدي إلى تأينه (أي شحنه بالكهرباء)، وإلى إصدار أشعة كونية ثانوية، ثم تصادم تلك الأشعة الكونية بأنواعها المتعددة (وهي تحمل شحنات كهربية مختلفة) مع بعضها البعض ومع غيرها من الشحنات الكهربية الموجودة في الغلاف الغازي للأرض



شكل (146) يوضح ظاهرة الفجر القطبي (صورة حقيقية)



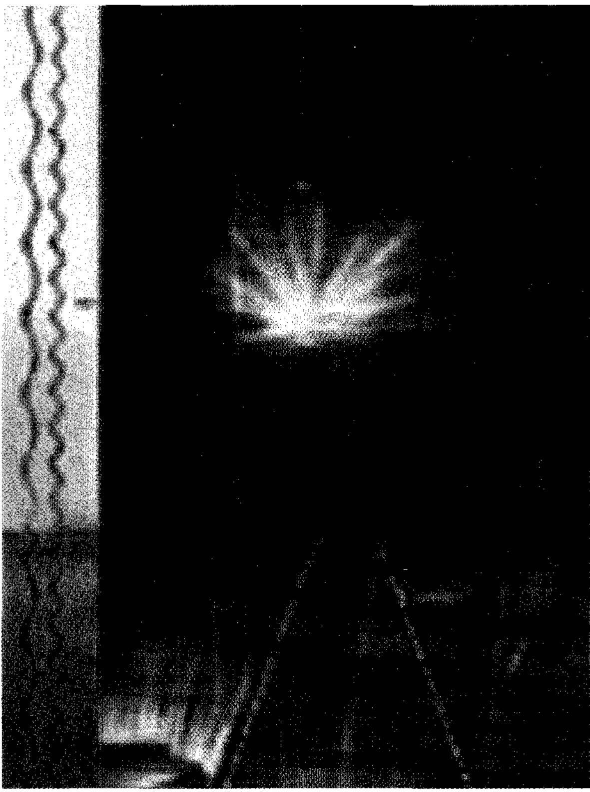
شكل (147) يوضح ظاهرة الفجر القطبي (صورة حقيقية)

مما يؤدي إلى تفريغها، وتوهجها. وتكثر الشحنات الكهربائية في الغلاف الغازي للأرض في كل من أحزمة الإشعاع **(The Radiation Belts)** المعروفة باسم:

أحزمة فان ألن **(The Van Allen's Belts)** والموجودة في داخل نطق التأين المحيطة بالأرض **(The Ionosphere) Zones)**، كما أنها تتواجد في نطق التأين ذاتها.

والأشعة الكونية الأولية **(The Primary Cosmic Rays)** تملأ فسحة الكون بصفة عامة على هيئة الجسيمات الأولية المكونة لذرات المادة **(The Elementary or The Subatomic particles)**، وهي جسيمات متناهية في الدقة، ومشحونة بشحنات كهربائية عالية، وتتحرك بسرعات تقترب من سرعة الضوء. وتنطلق الأشعة الكونية الأولية من الشمس، وإن كان أغلبها يصلنا من خارج المجموعة الشمسية، ولم تكتشف تلك الأشعة الكونية إلا في سنة 1936 م،وتتسرب الأشعة الكونية الأولية إلى الأرض عبر قطبيها المغناطيسيين لتصل إلى كل

من أحزمة الإشعاع ونطق التأين في الغلاف الغازي للأرض مما يؤدي إلى تكون الأشعة الكونية الثانوية (The Secondary cosmic Rays) التي قد يصل بعضها إلى سطح الأرض فيخترق صخورها، أما الأشعة الكونية الأولية فلا يكاد يصل منها إلى سطح الأرض قدر يمكن قياسه.



شكل (148) يوضح ظاهرة الفجر القطبي (رسم تخطيطي)

والأشعة الكونية بأنواعها المختلفة تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض، والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين ساحبة معها موجات الأشعة الكونية، وذلك لعجزها عن عبور مجال الأرض المغناطيسي، وحينما تنفذ تلك الأشعة من قطبي الأرض المغناطيسيين فإنها تؤدي إلى زيادة تأين الغلاف الغازي للأرض في هاتين المنطقتين القطبيتين، ويؤدي اصطدام الشحنات المختلفة إلى تفريغها كهربائياً، ومن ثم إلى توهج الغلاف الغازي للأرض في كل من المنطقتين القطبيتين المغناطيسيتين للأرض، في ظاهرة تعرف باسم «ظاهرة الوهج القطبي» أو «الشفق القطبي» أو «الأضواء القطبية» أو «فجر الليل القطبي»، وهي ظاهرة ترى بوضوح في ظلمة الليل الحالك حول القطبين المغناطيسيين للأرض، خاصة في أوقات الثورات الشمسية العنيفة حين يتزايد اندفاع الأشعة الكونية الأولية من الشمس، فتصل كميات مضاعفة منها في اتجاه الأرض، ويتزايد الإشعاع في الطبقات العليا من الغلاف الغازي للأرض إلى نسب مهلكة مدمرة خاصة في نطق التأين التي تحتوي على تركيز عال من البروتونات (الموجبة) والإليكترونات (السالبة)، ويحتبس المجال المغناطيسي للأرض الغالبية العظمى من تلك

الإشعاعات، ويوجهها إلى قطبيها المغناطيسيين في حركة لولبية موازية لخطوط المجال المغناطيسي للأرض والتي تنحني من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي وبالعكس، وعندما يقترب الجسم المشحون بالكهرباء من جسيمات الأشعة الكونية تلك من أحد قطبي الأرض المغناطيسيين فإنه يرده إلى الآخر وهكذا تحدد خطوط الحقل المغناطيسي للأرض اتجاهات تحرك الأشعة الكونية وتركزها حول قطبي الأرض المغناطيسيين.

ومن الثابت علمياً أن نطق الحماية المتعددة الموجودة في الغلاف الغازي للأرض (ومنها نطاق الأوزون، ونطق التأين المتعددة، وأحزمة الإشعاع، والنطاق المغناطيسي للأرض) لم تكن موجودة في بدء خلق الأرض، ولم تتكون إلا على مراحل متطاولة من تاريخ الأرض الابتدائية **(The Proto-Earth)**؛ وعلى ذلك فقد كانت الأشعة الكونية وباقي مصادر النور الأخرى المتعددة في صفحة الكون الحالي من مثل توهج الهواء، أضواء النجوم، أضواء المجرات وغيرها مما نشاهد اليوم تصل بكميات هائلة إلى المستويات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض ككل، فتؤدي إلى إنارتها وتوهجها ليلاً بمثل ظاهرة الفجر القطبي الحالية ولكن على نطاق أوسع وأشمل وأعم من حدودها الحالية وبمعدلات أشد وأقوى، إذ كان هذه التوهج وتلك الإنارة يشملان كل أرجاء الأرض فتنير ليلها إنارة تقضي على ظلمة الليل. وبعد تكوّن نطق الحماية المختلفة للأرض أخذت هذه الظواهر في التضاؤل التدريجي حتى اقتصرت على بقايا رقيقة جداً، وفي مناطق محددة للغاية مثل منطقتي قطبي الأرض المغناطيسيين، لتبقى شاهدة على حقيقة أن ليل الأرض في المراحل الأولى لخلقها كان يضاء بوهج لايقل في شدته عن نور الفجر الصادق، وشاهدة على رحمة الله بنا أن جعل للأرض هذا العدد الهائل من نطق الحماية المتعددة والتي بدونها تستحيل الحياة على الأرض، وتظل هذه الظاهرة الكونية شاهدة على حاجتنا إلى رحمة الله تعالى ورعايته في كل وقت وفي كل حين وإلى حمايته (ﷻ) لنا من الأخطار المحيطة بنا من كل جانب، وتبقى شاهدة على صدق تلك الإشارة القرآنية المعجزة التي يقول فيها ربنا ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾

(الإسراء: 12).

وهي حقيقة لم يدركها العلم المكتسب إلا على يدي العبد الفقير إلى الله، كاتب هذه الصفحات، وفي السنوات المتأخرة من القرن العشرين، ولم يكن لأحد من البشر إدراك لها وقت تنزل القرآن الكريم ولا لعدد من القرون المتطاولة بعد ذلك..!!

وانطلاقاً من ذلك يمن علينا ربنا (ﷻ) بتبادل الليل والنهار فيقول ﷻ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ **(القصص: 71 ، 73)**

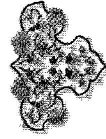
وجاء ذكر (الليل) في القرآن الكريم اثنتين وتسعين(92) مرة منها ثلاثة وسبعون(73) مرة بلفظة (الليل)، ومرة واحدة بلفظة (ليل)، وثماني(8) مرات بلفظة (ليلة)، وخمسة(5) مرات باللفظ (ليلاً)، وثلاث(3) مرات بلفظة (ليال)، ومرة واحدة بكل من اللفظين (ليلها) و(ليالي).

كذلك ورد ذكر النهار في القرآن الكريم سبعاً وخمسين(57) مرة منها أربعة وخمسون(54) مرة بلفظ (النهار)، وثلاث(3) مرات بلفظ (نهاراً)، كما وردت ألفاظ الصبح، و الإصباح، والفلق ومشتقاتها بمدلول النهار في آيات أخرى كثيرة، كذلك وردت كلمة اليوم أحياناً بمعنى النهار.

ونعمة الله تعالى على أهل الأرض جميعاً بمحو إنارة الليل، وإبقاء إنارة النهار نعمة مابعدها نعمة، لأنه لولا تبادل ظلام الليل مع نور النهار ما استقامت الحياة على الأرض، ولا استطاع الإنسان الإحساس بالزمن، ولا التأريخ للأحداث، ولتلاشت الحياة.

ومن هنا جاءت إشارة القرآن الكريم إلى تلك الحقيقة الكونية سبقاً لكافة المعارف الإنسانية. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، وعلى أن هذا النبي الخاتم الذي تلقاه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وأنه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: كان كما وصفه ربنا ﷻ بقوله العزيز: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ **(النجم: 3 ـ 5)**.

بسم الله الرحمن الرحيم



(23) ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾

(الشمس: 1)



هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع سورة الشمس، وهي سورة مكية، وآياتها 15 بدون البسملة؛ وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم من الله تعالى ـ وهو الغني عن القسم ـ بالشمس وضحاها، ضمن قسم بعدد من آيات الله في الكون، على فلاح الإنسان في الدنيا، ونجاته في الآخرة إذا عمل على تزكية نفسه بتقوى الله ـ (والتي فسروها بالخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل...) وعلى فشله في الدنيا، وخيبته وهلاكه في الآخرة إذا لم يلزم نفسه تقواها، ولم يزكها باستقامتها على منهج الهداية الربانية، بدلاً من تركها على هواها في ظلمات الشهوات والمعاصي والضلال والفجور، تندس في مستنقعاتها، ومتاهاتها.. حتى تهلك!!

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله ـ الغني عن القسم ـ بتسع من آياته الكونية المبهرة التي جاءت متتابعة على النحو التالي:

(1) ﴿وَالشَّمْسِ﴾: وهو قسم بالشمس وهي أقرب نجوم السماء إلينا ومصدر الطاقة والدفء للأرض ومن عليها.

(2) ﴿وَضُحَاهَا﴾: أي وبضحاها وهي لحظة إشراقها في حركتها الظاهرية إلى وقت الظهيرة.

(3) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾: أي وبالقمر إذا تبعها في إنارة الأرض بعد غروب الشمس.

(4) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾: أي وبالنهار الذي وضحها (أي وضح لنا الشمس) وجعلها ظاهرة للعيان لأن أشعة الشمس لا ترى إلا بعد تشتتها وانعكاساتها لمرات عديدة على الأجسام المتناهية الضآلة في

الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض مثل هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات الغازات المختلفة المكونة للهواء بتركيز معين.

(5) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾: أي وبليل الأرض إذ يغطيها عنا بطبقة ظلمته الرقيقة التي تلتقي مع ظلمة الكون، فلا ترى الشمس لمن هم في ظلمة الليل على الرغم من وجودها.

(6) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾: أي وبالسماء وبنائها المحكم الدقيق على ضخامته، والإلٰه القادر الحكيم العظيم الجليل الذي بناها.

(7) ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾: أي وبالأرض ومدها وبسطها، والمد بلا نهاية هو قمة التكوير وبالذي كورها فمدها وبسط سطحها.

(8) ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾: أي وبالنفس الإنسانية وبالذي خلقها.

(9) ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾: أي بيّن لها طريقي الخير والشر، وترك الخيار لها.

ثم يأتي جواب هذا القسم المغلظ بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (الشمس: 9، 10).

وتختتم السورة بعرض نموذج من النماذج البشرية، التي عصت أمر ربها، وحادت عن طريق هدايته، واتبعت هوى النفس فكان جزاؤها غضب الله ونكاله، وتركها عبرة لمن لا يعتبر، وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥﴾ (الشمس: 11 ـ 15).

وهذه الآيات تتحدث عن ثمود قوم نبي الله صالح (على رسولنا وعليه من الله السلام) وقد حذر قومه من المساس بالناقة ومن التعرض لشربها، وقد جعلها الله (تبارك وتعالى) لهم آية ومعجزة، فعقرها أشقاهم، وحمل الجميع تبعة ذلك الجرم لأنهم لم يستنكروا فعلته، ولم يمنعوه من القيام بجريمته، فنزل بهم جميعاً ما يستحقون من غضب الله وتنكيله وبطشه، وهو (تبارك وتعالى) أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، لا يخاف عقبي ما يفعل، لأنه (تعالى) رب هذا الكون، ومليكه، وخالقه ومدبر أمره؛ وهو (سبحانه):

﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ (الأنبياء: 23).

وكل آية من الآيات الكونية والنفسية التي جاءت الإشارة إليها في سورة الشمس تحتاج

إلى معالجة خاصة ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على الآية الأولى من هذه السورة المباركة، والتي تتحدث عن الشمس أقرب نجوم السماء إلينا، وأنفعها لنا. وقبل البدء في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسّرين

في تفسير قوله (تعالى): ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ (الشمس: 1).

• ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما نصه: قال مجاهد (والشمس وضحاها): أي وضوئها، وقال قتادة، (وضحاها) النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار.

• وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) كلام مشابه بإضافة أن «(إذا) هنا أي في قول الحق (تبارك وتعالى): ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ لمجرد الظرفية ـ فلا تفيد الشرطية ـ والعامل فيها فعل القسم، المقدر بـ: أقسم».

• وجاء في الظلال (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه: «يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها، ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى، وأن يوجه إليها القلوب تتملاها، وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا بها من دلالة، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم... وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها.. بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة، وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى. في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش، وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها....».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه) ما نصه: «في هذه السورة ترغيب في تزكية النفوس وتطهيرها بالإيمان والطاعة، وترهيب من خسرانها بالكفر والمعاصي، وإنذار لكفار مكة وأضرابهم أن يصيبهم من النكال ما أصاب ثمود حين كذبوا رسولهم، وعقروا الناقة، وهي آية الله على صدقه في رسالته، وقد أقسم الله تعالى فيها ـ أي في سورة الشمس ـ بكائنات عظيمة النفع والآثار، دالة بوجودها واختلاف أحوالها على كمال قدرته تعالى ووحدانيته، وأقسم بنفسه تعالى، إذ كان سبحانه الموجد والمبدع والمدبر لها أو بفعله الحكيم المتقن....». ثم فصل في شرح الآية الكريمة ـ التي نحن بصددها ـ بالمعاني السابقة نفسها تقريباً.

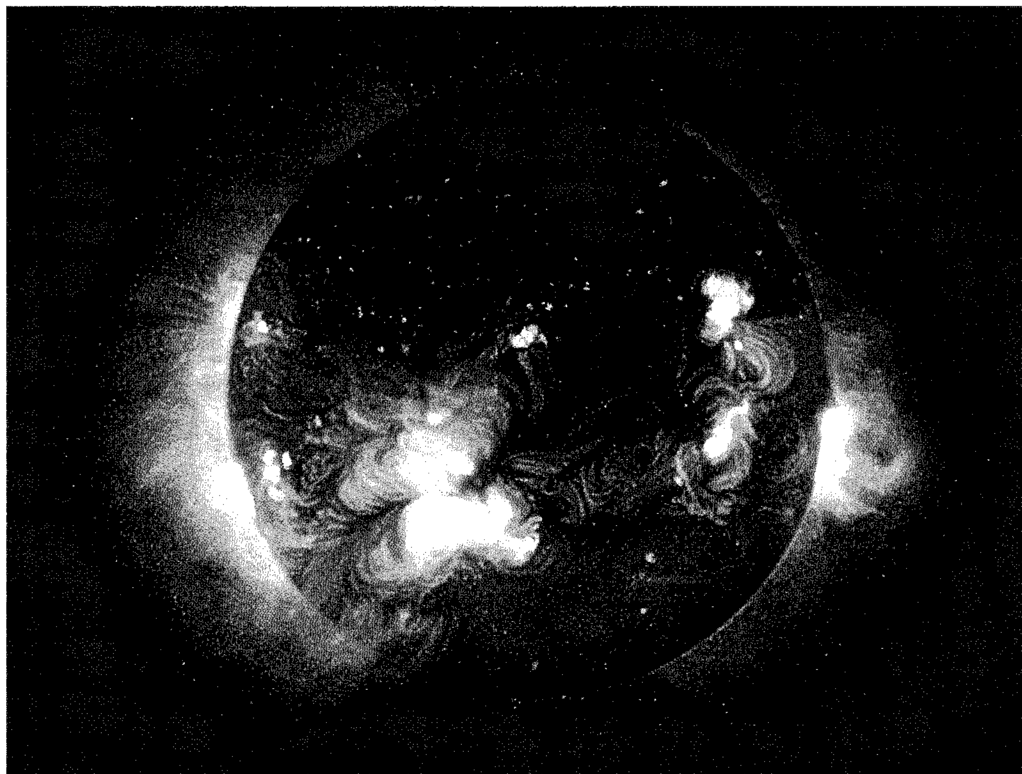
• وجاء في كل من «المنتخب في تفسير القرآن الكريم»، و«صفوة التفاسير» (جزى الله كاتبيهما خير الجزاء) كلام مشابه لا داعي لتكراره هنا.

ونحن نعلم أن الآية القرآنية الكريمة حين ترد بصيغة القسم فهذا من قبيل تنبيهنا إلى أهمية الأمر المقسم به لأن الله (تبارك وتعالى) غني عن القسم لعباده. فما هي أهمية الشمس التي تستوجب قسماً من الله (العلي العظيم) في أربع آيات متتاليات في مطلع سورة سميت باسمها؟

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: الشمس في القرآن الكريم:

ورد ذكر الشمس في القرآن الكريم 35 مرة، منها 33 مرة باسمها الشمس، ومرتان



شكل (149) صورة للشمس بالأشعة السينية

بوصفها بأنها سراج، وفي إحدى هاتين المرتين زيد في وصفها بأنها سراج وهاج.

وتصف هذه الآيات القرآنية الشمس بأنها ضياء ـ أي مصدر للضوء ـ وبأنها سراج ـ أي جسم متقد، مشتعل، مضيء بذاته ـ، وبأنها سراج وهاج ـ أي شديد الوهج ـ، وأنها والقمر آيتان من آيات الله، وأن الله تعالى قد جعل لنا من انضباط حركاتهما وسيلة دقيقة لحساب الزمن، والتأريخ للأحداث؛ وأنهما والنجوم مسخرات بأمر الله، مسبحات بحمده، ساجدات لجلال عظمته، وأن هذا التسخير لأجل مسمى ينتهي بعده كل هذا الوجود؛ وأن بداية تهدم الكون الحالي تتمثل في بداية تكور الشمس وانكدار النجوم كما أشارت إلى ذلك الآيات القرآنية بقول الحق ﷻ:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ (التكوير: 1، 2).

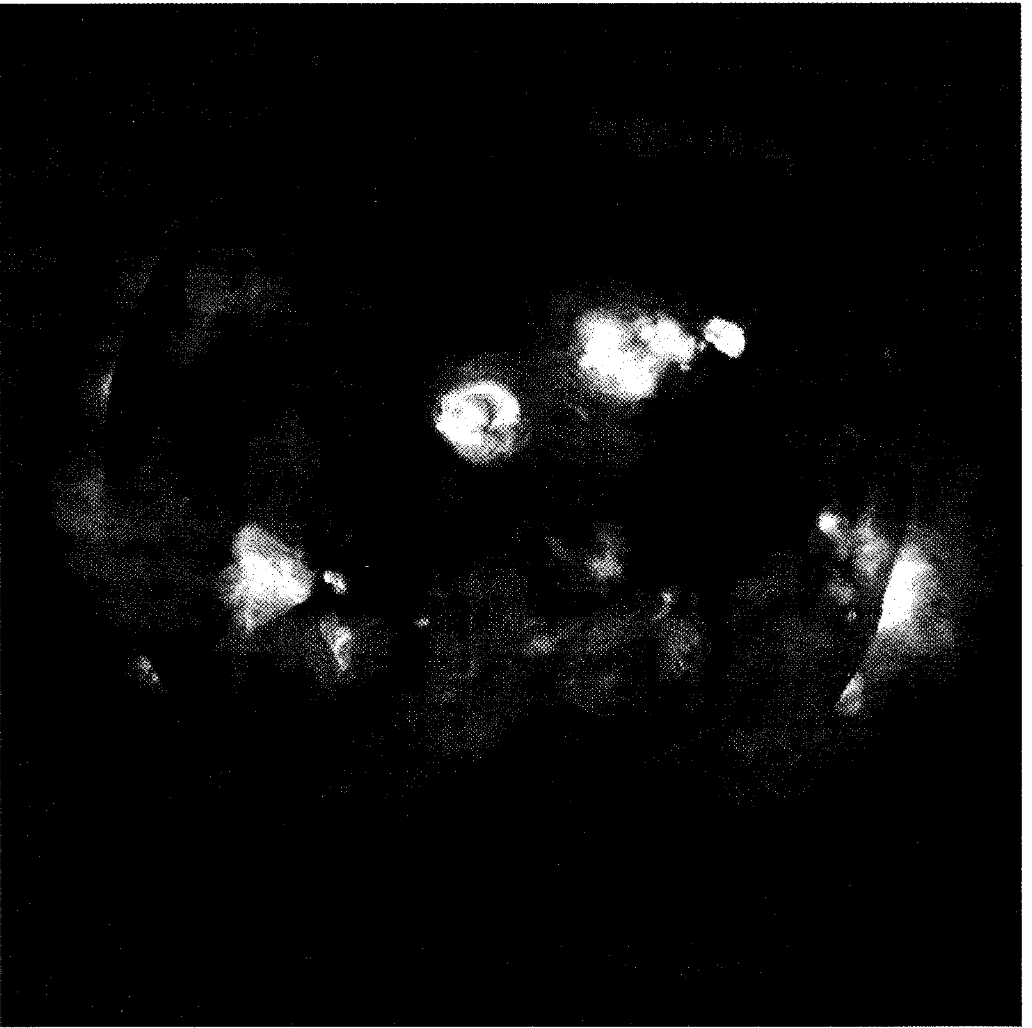
ثم في جمع كل من الشمس والقمر:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ (القيامة: 7 ـ 9).

وهذه كلها من الحقائق التي لم يصل العلم المكتسب إلى معرفتها إلا في أواخر القرن العشرين، وورودها في كتاب الله المنزل من قبل أربعة عشر قرناً بهذه الدقة، والإيجاز، والشمول من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في كتاب الله.

وتمييزِ الآيات القرآنية الكريمة باستمرار بين ضوء الشمس (الضياء) ونور القمر (النور)، واستخدمها لتبادل كل من الليل والنهار، ومد الظل وقبضه، ومرور الجبال مر السحاب في إشارات ضمنية رقيقة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، أعظم جوانب الإعجاز العلمي في كتاب الله لكونها من الحقائق العلمية التي لم يصل إليها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين أو لم يصل إليها بعد كما هو الحال في هذا التفريق الدقيق بين الضياء والنور.

الشمس نجم متوسط الحجم من النجوم العادية، يبعد عن الأرض بمسافة مائة وخمسين مليون كيلو متر في المتوسط، وهي على هيئة كرة من الغاز الملتهب يبلغ قطرها 1,400,000 كيلو متر (أي ما يزيد على110 مرات قدر قطر الأرض)، ويبلغ حجمها 142,000 تريليون كيلو متر مكعب (أي قدر حجم الأرض 1,300,000 مرة) ويقدر متوسط كثافها بنحو 1,4 جرام للسنتيمتر المكعب، وتقدر كتلتها بنحو ألفي تريليون تريليون طن (أي 333,000 مرة قدر كتلة الأرض) وتقدر جاذبيتها بنحو 28 ضعف قوة الجاذبية على سطح الأرض.



شكل (150) صورة للشمس لحظة النشاط الزائد

وتمثل كتلة الشمس وحدها نحو 99% من كتلة المجموعة الشمسية؛ وتتناقص الكثافة في داخل الشمس من 200 جرام للسنتيمتر المكعب في نواتها إلى جزء من عشرة ملايين جزء من الجرام لكل سنتيمتر مكعب عند سطحها.

ونظراً لارتفاع الضغط في قلب الشمس إلى ما يساوي أربعمائة مليار ضغط جوي فإن عملية الاندماج النووي بين نوى ذرات الأيدروجين تنشط منتجة نوى ذرات الهيليوم وتنطلق الطاقة التي ترفع درجة حرارة قلب الشمس إلى أكثر من 15 مليون درجة مطلقة.

وبواسطة عملية الاندماج النووي تفقد الشمس في كل ثانية نحو خمسة ملايين من الأطنان (4.6 مليون طن) من كتلتها على هيئة طاقة مما يؤكد أن الشمس تتحرك إلى فناء حتمي، لن يتم بهذه العملية، ولكن هذه الحقيقة تؤكده وتشير إليه، وسبحان القائل في أربع مواضع من كتابه الكريم: ...﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ....(الرعد: 2؛ لقمان: 29؛ فاطر: 13؛ الزمر: 5).

والقائل: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾... (الأحقاف: 3).

وتتركز الطاقة المنتجة في قلب الشمس، وتتناقص بالتدريج من حوالي 15 مليون درجة مطلقة في مركزها إلى نحو 6000 درجة مطلقة على سطحها عبر مسافة نصف قطر الشمس المقدرة بنحو 700,000 كيلو متر، أي بتدرج حراري يقدر بنحو 20 درجة مطلقة لكل كيلو متر تقريباً.

البنية الداخلية للشمس:

تنبني الشمس من نواة تتطابق عليها عدة نطق تتمايز من الداخل إلى الخارج على النحو التالي:

(1) نواة الشمس (The Solar Core):

ويبلغ قطرها نحو 346,000 كيلو متر، وتعتبر فرناً نووياً حرارياً هائلاً **(A Great Thermonuclear Reactor)**، تتم فيه عملية الاندماج النووي مولدة طاقة تقدر بحوالي من 15 مليون درجة مطلقة، تحت ضغط يقدر بنحو الأربعمائة مليار ضغط جوي، مما يؤدي إلى تزايد كثافة المادة في نواة الشمس حتى تصل إلى ما بين التسعين والمائتي جرام للسنتيمتر المكعب، ولذلك يتركز نحو60% من كتلة الشمس في نواتها التي لا تشغل سوى 2% فقط من حجم الشمس.

(2) نطاق الإشعاع الشمسي (The Solar Radiation Zone):

ويحيط بنواة الشمس بسمك يصل إلى 325,000 كيلو متر، والمادة في هذا النطاق أقل كثافة وحرارة من مادة النواة، وتمر به طاقة الشمس المنتجة في النواة على هيئة أشعة جاما، ثم تستكمل إلى بقية موجات الطيف الكهرومغناطيسي كاملاً في حدود هذا النطاق ابتداءً من تلك الأشعة إلى الأشعة الراديوية وما بينهما من الأشعة السينية، وفوق البنفسجية، وأشعة الضوء الأبيض (الأشعة المرئية)، والأشعة تحت الحمراء.

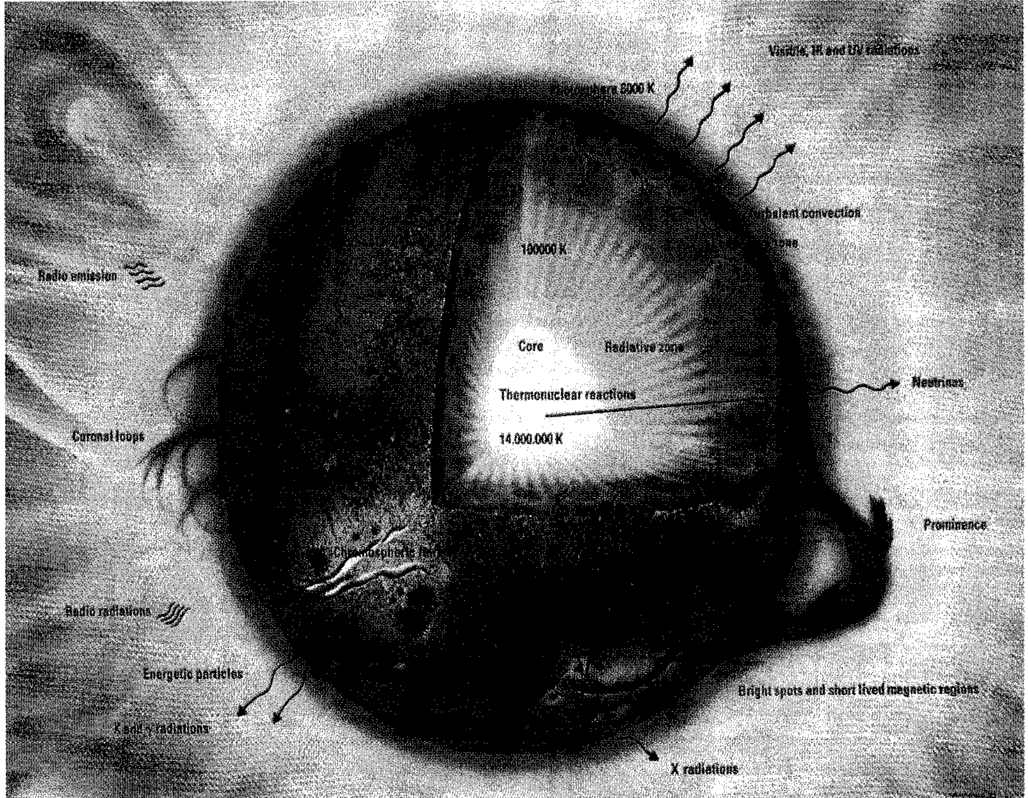
(3) نطاق تيارات الحمل في الشمس (أو نطاق الشمس الفقاعي):

(The Solar Convective Zone)

ويقدر سمكه بنحو 150,000 كيلو متر، وفيه تتبرد التيارات المندفعة من نواة الشمس عبر نطاق الإشعاع إلى هذا النطاق بطريقة مستمرة، فتهبط من قمته إلى قاعدته ثم تصعد إلى القمة وتهبط إلى القاعدة في ترددات كثيرة من تيارات الحمل ومن هنا جاءت تسميتها؛ وتبلغ كثافة المادة في هذا النطاق نحو 0.01 جرام للسنتيمتر المكعب، وتقدر درجة حرارتها بنحو المليون درجة مطلقة، وضغطها بنحو المليون ضغط جوي.

(4) نطاق الضوء الشمسي أو الكرة الشمسية المضيئة: (The Solar Photosphere)

وهو الجزء المرئي من الشمس، ويبدو من بعد على هيئة الأرض المملوءة بالحصي الذي يزيد قطر الواحدة منه في الحقيقة على مئات الكيلو مترات، ويتبدل هذا الحصي كل



شكل (151) رسم تخطيطي للبناء الداخلي للشمس

عشر دقائق لشدة الغليان؛ ويقدر سمك هذا النطاق بنحو خمسمائة كيلو متر، وتقدر درجة حرارته بنحو ستة آلاف درجة مطلقة، وكثافة المادة فيه بنحو جزءين من عشرة ملايين جزء من الجرام للسنتيمتر المكعب، وضغطها بنحو 0,1 من الضغط الجوي، ويتميز هذا النطاق بوجود ما يسمى بالبقع الشمسية ـ أو كلف الشمس ـ وهي مساحات داكنة باردة نسبياً إذ لا تكاد درجة حرارتها أن تتعدى 4000 درجة مطلقة ـ على هيئة مراكز لدوامات من الاضطرابات الغازية الحلزونية الحركة مع توليد مجال مغناطيسي يفوق مغناطيسية الأرض بملايين الأضعاف فتؤثر على الاتصالات اللاسلكية تأثيراً كبيراً.

(5) نطاق الألوان الشمسية أو الكرة الملونة للشمس: (The Solar Chromosphere)

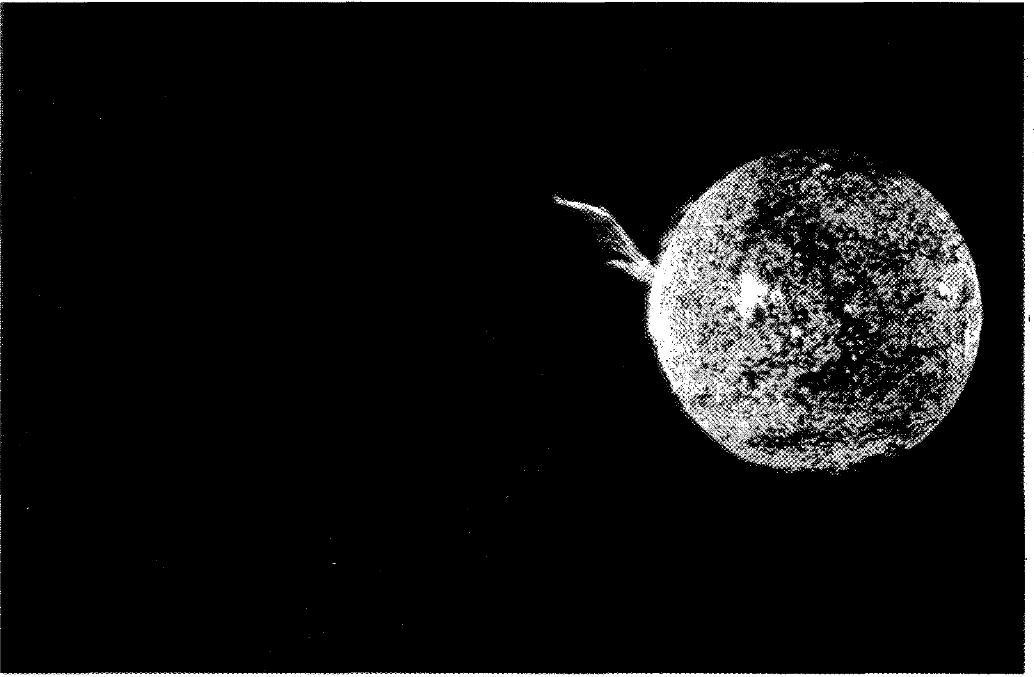
ويقدر سمكه بأكثر من عشرة آلاف كيلو متر، وتصل درجة حرارته إلى أكثر من عشرة آلاف درجة مطلقة، ويتناقص ضغطه إلى جزء من المليون من الضغط الجوي، وتبلغ كثافة المادة فيه (3×10^{-12} جرام للسنتيمتر المكعب)، ويعتبر جزءاً من الغلاف الغازي للشمس. وكل من درجة حرارة هذه الكرة الملونة، وكثافة المادة فيها لا تسمحان برؤيتها لا بالعين المجردة، ولا بواسطة المناظير المقربة إلا في حالة الكسوف الكلي للشمس، أو باستخدام وسائط صناعية لحجب نطاق الضوء.

(6) نطاق الأشواك الشمسية (The Solar Spicules Zone):

وهو نطاق يندفع فيه غاز الأيدروجين من حافة نطاق الألوان الشمسية إلى ارتفاع عشرة آلاف كيلو متر في دفعات متتالية تستمر الواحدة منها لمدة خمس عشرة دقيقة ثم تهبط فتبدو على هيئة الأشواك المتحركة على حافة الشمس. ومن هنا كانت التسمية، ويعتبره عدد من الدارسين جزءاً من نطاق الألوان الشمسي.

(7) هالة (إكليل) الشمس (The Solar Corona):

وتمثل بنطاق أكثر شفافية من النطق الموجودة في داخله، وتشكل مع النطاقين السابقين الغلاف الغازي للشمس، ويحدها من أسفل الحد الأعلى لنطاق الأشواك، ولا حد أعلى لها إذ تنتشر مادتها لتتداخل مع مادة الكون، ولأسباب لم تعرف بعد ترتفع درجة الحرارة في هالة الشمس إلى أكثر من مليون درجة مئوية، ولذلك تتأين كل الذرات الموجودة فيمكن رؤية الإكليل في الأشعة السينية الرخوة **(Soft X-Ray)** وتبلغ كثافة المادة في هالة الشمس واحداً من ألف تريليون (مليون مليون) من الجرام للسنتيمتر المكعب. ويصل الضغط إلى ستة من مائة مليون من الضغط الجوي. وتمتد ألسنة من نطاق الألوان الشمسية فتصل إلى هالة الشمس وتعرف باسم ألسنة اللهب (أو البروزات الشمسية) **(Solar Prominances)** وهي من



شكل (152) يوضح إحدى الاندفاعات الشمسية الكبيرة التي صورتها عدسات مختبر السماء أشعة لاب

الظواهر الشمسية المهمة التي تأتي في المقام الثاني بعد البقع الشمسية؛ وترتفع هذه البروزات الشمسية لمسافات تتراوح بين عشرة آلاف وأربعين ألف كيلو متر فوق هالة الشمس، وتتعدى ذلك في أوقات الانفجارات الشمسية فتصل إلى نحو السبعمائة ألف كيلو متر.

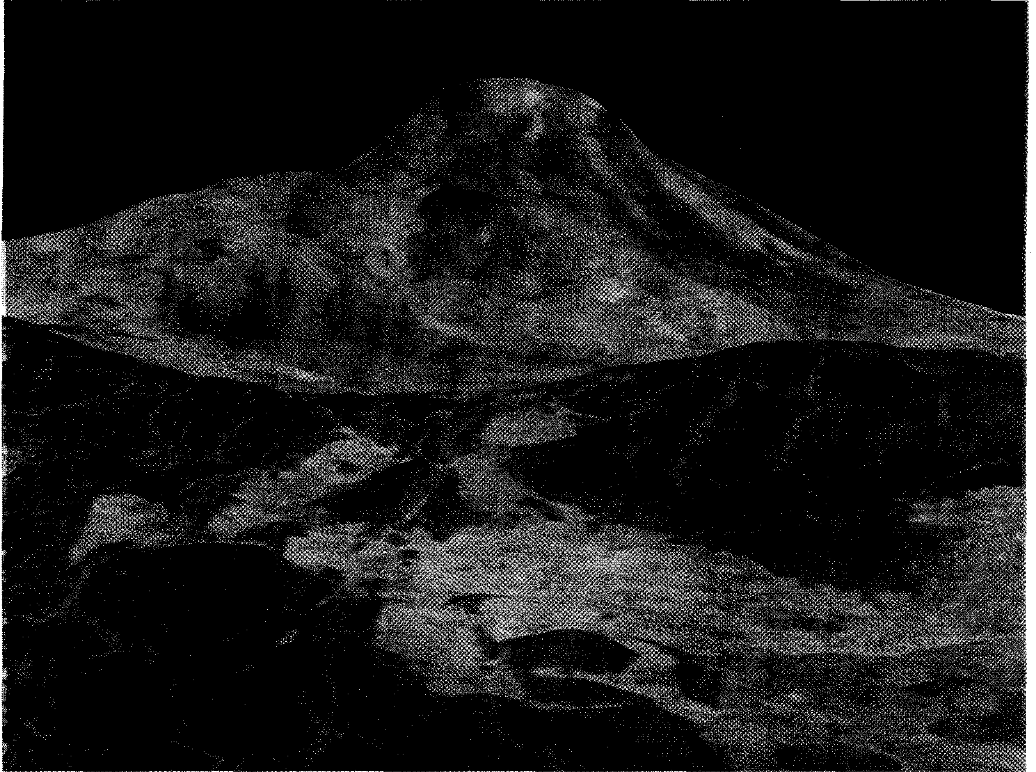
وهذه الألسنة من اللهب الشمسي ـ البروزات الشمسية ـ يمكن أن ترى بالعين المجردة في أوقات الكسوف الكلي للشمس، وبعضها ثابت تقريباً أو قليل التغير، والبعض الآخر مؤقت، وشديد التغير ويسمى باسم ألسنة اللهب الطائرة، وتتراوح فترات ثورانها بين دقائق معدودة وعدة أيام، ويؤكد تحليل أطياف مادتها وجود كل من الأيدروجين، والهيليوم، والكالسيوم المتأين بالإضافة إلى بعض العناصر الأخرى. وتتراوح درجة حرارة تلك البروزات الشمسية بين ستة آلاف وثمانية آلاف درجة مطلقة.

ومن الظواهر الشمسية الأخرى الهامة ما يعرف باسم الومض ـ أو الوهج الشمسي **(Solar Flares)** وتحدث نتيجة للزيادة المفاجئة في انبعاث نوى ذرات الأيدروجين من مناطق البقع الشمسية لفترات تتراوح بين ثوان قليلة وعشر دقائق، يصاحبها انطلاق كميات هائلة من

الطاقة؛ والشمس محاطة بسحابة من الجسيمات المشحونة بالطاقة، وتندفع تلك الجسيمات منها في كل الاتجاهات مكونة ما يسمى بالرياح الشمسية (**Solar Winds**)، التي تنطلق منها تلك الجسيمات بسرعات قد تصل إلى أكثر من720 كيلو متراً في الثانية.

الاتزان الدقيق في داخل الشمس:

تتكون الشمس أساساً من غاز الأيدروجين بنسبة 81,76%، وغاز الهيليوم بنسبة 18,17% من حجم الشمس، بالإضافة إلى نسب ضئيلة من عناصر أخرى لا يتعدى حجمها 0,07%، على ذلك فالشمس عبارة عن خليط ملتهب من غازي الأيدروجين والهيليوم بنسبة حجمية تبلغ 5.4: 1 تقريباً، بينما نسبة اتحاد نوى ذرات الأيدروجين لتكون نوى ذرات الهيليوم بعملية الاندماج النووي هي 4:1، حيث تتحد نوى أربع ذرات من الأيدروجين لتنتج نواة واحدة من نوى ذرات الهيليوم، وتنطلق الطاقة الهائلة. والشمس تحول في كل



شكل (153) صورة للأشواك الشمسية



شكل (154) صورة للشمس في وقت الغروب

ثانية 655 مليون طن من الأيدروجين إلى نحو 650 مليون طن من الهيليوم، ويتحول الفرق بين الكميتين (المقدر بنحو خمسة ملايين من الأطنان) إلى طاقة تمثل الطاقة المنبعثة من الشمس باستمرار وجودها.

ونظراً للجاذبية الهائلة التي تحدثها الشمس على مكوناتها فإن تلك المكونات تتجاذب كلها في اتجاه مركزالشمس، تجاذباً تنتج عنه ضغوط هائلة ترفع درجة حرارة لب الشمس إلى المستوى الذي يسمح ببدء واستمرار نشاط عملية الاندماج النووي.

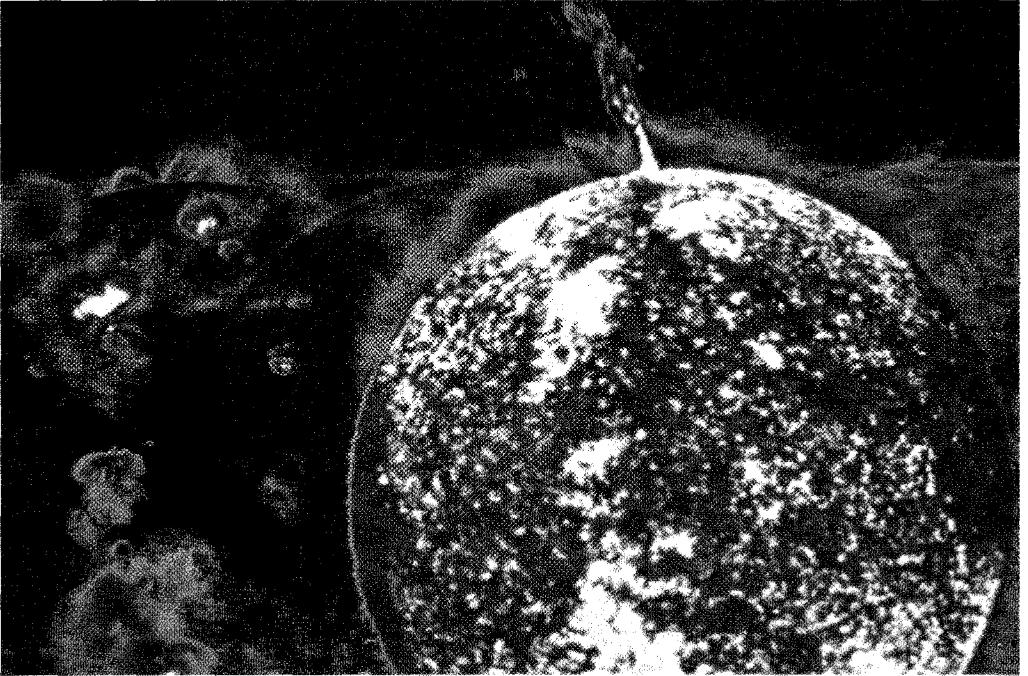
ولو كانت الشمس تتأثر بمجال جاذبيتها فقط لأدى ذلك إلى انهيارها خاصة أنها مجرد كرة من الغاز، والسبب في عدم انهيارها هو وجود قوى صادرة من داخلها إلى خارجها من مثل القوة الناتجة عن تمدد الغازات في درجات الحرارة المرتفعة، وبحساب كل من كتلة الشمس وشدة مجال جاذبيتها أمكن حساب درجات الحرارة اللازمة لإحداث هذا التوازن وهي أرقام مذهلة تتراوح بين15 مليوناً، و20 مليون درجة مطلقة.

والشمس عاشت طيلة فترة وجودها المقدرة بنحو عشرة بلايين من السنين (على أقل

تقدير) في اتزان دقيق بين جاذبيتها الهائلة على مكوناتها التي تضغطها في اتجاه المركز منها، ودرجات الحرارة الفائقة في مركزها التي تدفع بمكوناتها بعيداً عن ذلك المركز.

وعلى ذلك فإن الحجم الهائل للشمس، وكتلتها الرهيبة لا يمكِّنان مادتها إلا أن تكون في حالة شبه غازية، ملتهبة، متوهجة. ولو تغير حجم وكتلة الشمس ولو قليلاً عن القيم المحددة لها لتغير سلوك مادتها تماماً عن سلوكها الحالي، لأن السبب في إضاءة النجوم وتوهجها واندلاع عملية الاندماج النووي في قلوبها، وانطلاق الطاقة منها هو تكونها من كتلة وحجم معينين، فسبحان الذي قدر تلك الكتل ووضع تلك السنن.

والمادة في قلب الشمس توجد على هيئة تختلف عن الحالات الثلاث المعروفة بها على الأرض (الصلبة، والسائلة، والغازية) وتعرف هذه الحالة باسم حالة البلازما **(Plasma phase)**، وفيها تتفكك مكونات الذرات إلى نوى عارية، وإليكترونات حرة، فتستعيد قابليتها للانضغاط بتضاؤل المسافات بين اللبنات الأولية للمادة إلى واحد من مائة ألف من المسافات الفاصلة بين الذرات في حالات المادة العادية. ولذلك يمكن اعتبار حالة البلازما صورة من صور المادة الغازية المكدسة التي تصل فيها الكثافة إلى نحو مائة مليون



شكل (155) صورة مجمعة للشمس أخذتها عدسات المركبة المعروفة باسم مختبر السماء

طن للسنتيمتر المكعب وتعرف باسم الكثافة النووية، **(Nuclear Density)**. والشمس في تمدد مستمر نتيجة لعنف التفاعلات النووية في داخلها، ولولا ذلك لانفجرت كقنبلة هيدروجينية عملاقة.

الشمس ومجموعتها الشمسية:

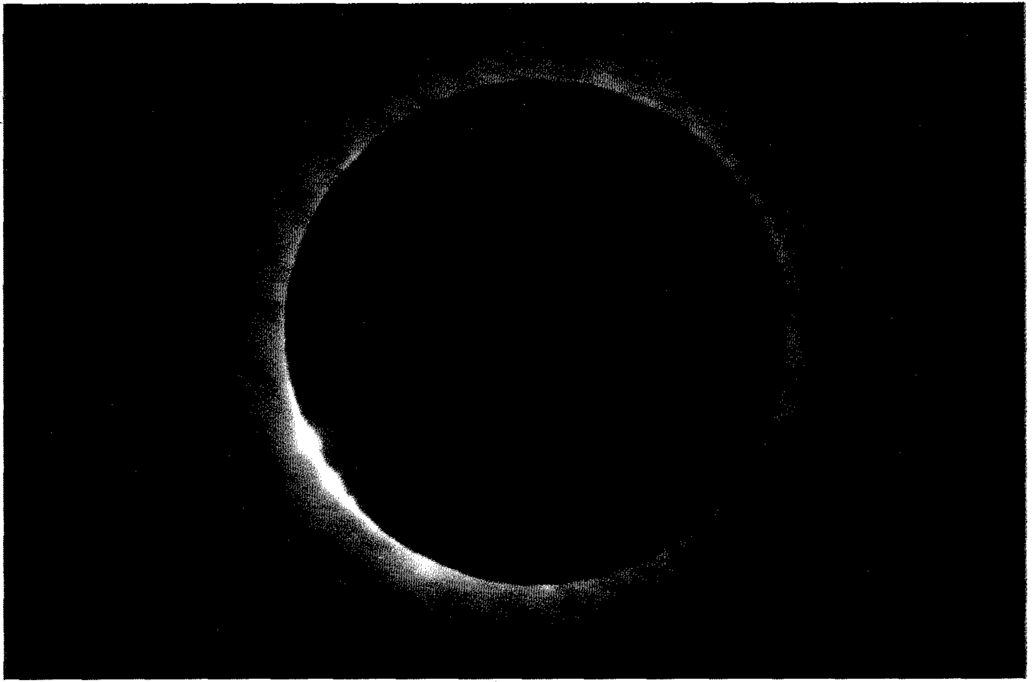
تتراوح المسافة بين الشمس والكواكب السيارة المرتبطة بها والدائرة في فلكها بين58 مليون كيلو متر وأكثر من6000 مليون كيلو متر. وتختلف الظروف الطبيعية على الكواكب في مجموعتنا الشمسية تبعاً لقربها من الشمس أو بعدها عنها، وتبعاً لحجم كل منها، وبالتالي حجم الغلاف الغازي المحيط بها.

والكواكب ـ في مجموعها ـ تدور حول الشمس في أفلاك شبه دائرية في الاتجاه نفسه، وهي في مساراتها تلك تختلف المسافة بين كل منها والشمس، كما تختلف سرعة جري الكوكب الواحد باختلاف بعده عن الشمس، فتصل سرعة الكوكب أقصاها وهو أقرب ما يكون من الشمس، وتقل بالتدريج بابتعاده عنها حتى تصل سرعته أدناها وهو أبعد ما يكون عن الشمس.

وحركات الكواكب حول الشمس يحكمها توازن دقيق بين قوتين متضادتين هما قوة جذب الشمس للكوكب، والقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الكوكب حول الشمس، والتعادل الدقيق بين هاتين القوتين هو الذي حدد للكواكب أفلاكها الثابتة، وحدد جريها فيها وحفظها من الانطلاق إلى فسحة الكون أو السقوط في سعير الشمس، وذلك كله بتقدير من الخالق الحكيم الخبير (ﷻ).

والكواكب في الوقت نفسه تتجاذب فيما بينها تجاذباً أقل من جذب الشمس لكل منها مما يعين على احتفاظها بأبعادها الثابتة فيما بينها. والنهار والليل يتعاقبان على كل كوكب في مجموعتنا الشمسية، ويتم ذلك في مدد متفاوتة تفاوتاً كبيراً لاعتماده على حجم وكتلة الكوكب، وعلى سرعة دورانه حول محوره. وكذلك تتفاوت سنة كل كوكب بتفاوت بعده عن الشمس، وبتفاوت سرعة جريه في مداره حولها حتى يتم دورة كاملة.

وبدوران الأرض حول محورها تتم الحركة الظاهرية لكل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب التي تتراءى لنا عبر السماء. وتتتابع الفصول على أرضنا بسبب ميل محور الأرض في دورانها حول الشمس.



شكل (156) توضح الكسوف الكلي للشمس.

طاقة الشمس:

تطلق الشمس من الطاقة ما يقدر بنحو خمسمائة ألف مليون مليون حصان في كل ثانية، ويصل إلى الأرض من طاقة الشمس منها واحد في الألف فقط تقريباً، ويمثل ذلك مصدر كل من الحرارة والضوء وغيرهما من مختلف صور الطاقة على الأرض (باستثناء الطاقة النووية)، وتعتمد كل الأنشطة الطبيعية على سطح الأرض على الطاقة الشمسية، فقد أعطى الله (تبارك وتعالى) للشجر الأخضر القدرة على اختزان جزء كبير من طاقة الشمس على هيئة روابط كيميائية فيما تنتجه من سكريات ونشويات وزيوت وغيرها من المنتجات النباتية، وذلك بتفاعل أشعة الشمس مع كل من العصارة الغذائية للنبات (المكونة من معادن الأرض والماء) وثاني أكسيد الكربون مطلقاً الأوكسجين؛ كما أعطى ربنا (تبارك وتعالى) كلًّا من الإنسان والحيوان القدرة على الاستفادة بتلك الطاقة الشمسية المخزونة في المنتجات النباتية في جميع الأنشطة الحيوية التي يقوم بها، وذلك بإحراقها في أثناء عمليات التمثيل الغذائي فتتحول هذه المواد مرة أخرى إلى ماء وثاني أكسيد الكربون. ثم من فضلات كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون مصادر أخرى للطاقة من مثل الخشب والقش وبقايا

الحيوان التي تتكون منها أغلب مصادر الطاقة الطبيعية (من مثل الفحم النباتي، الفحم الحجري، النفط، الغاز الطبيعي، وغيرها).

القسم بالشمس إشارة إلى أهميتها:

مما سبق يتضح لنا جانب من جوانب أهمية الشمس، تلك الآية الكونية البديعة التي تشهد لخالقها (ﷻ) بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وعظيم الحكمة، وإحاطة العلم، ومن هنا كان قسم الله (تبارك وتعالى) بها وهو سبحانه غني عن القسم لعباده، وإنما جاء هذا القسم من أجل تنبيهنا إلى تلك الأهمية القصوى للشمس، التي بدونها ما قامت الحياة على الأرض، وذلك حتى لا نمر عليها ونحن غافلون عنها، لأننا لو أدركنا أهميتها للحياة لأدركنا جانباً من جوانب العظمة المطلقة لخالقها، الذي أبدعها، وأبدع الكون كله في نظام بالغ الدقة والإحكام والتكامل مما يشهد له (ﷻ) بالألوهية، والربوبية والوحدانية المطلقة فوق كل خلقه (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، فقد تنزه جلت قدرته عن كل ذلك لأنها جميعها من صفات المخلوقين، والله تعالى منزه عن صفات خلقه).

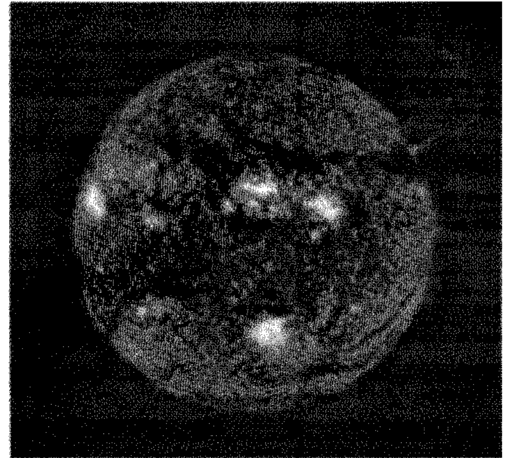
القسم بضحى الشمس:

يقال في اللغة العربية إن (ضحوة) النهار هي الفترة بعد طلوع الشمس، وبعدها (الضحى) وهي الفترة حين تنتشر الشمس في الجزء الشرقي من السماء حتى قبل الوصول إلى منتصفها أي إلى الظهيرة، وقد يكون (الضحى) جمع (ضحوة)، وقد تكون اسماً لظرف غير متمكن؛ وبعد (الضحى) يأتي (الضحاء) وهو عند ارتفاع النهار الأعلى. وقيل: إن المقصود بـ (الضحى) هو النهار كله، وذلك انطلاقاً من قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (الضحى: 1، 2).

وقوله (عز من قائل):

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا



شكل (157) صورة حقيقية للشمس توضح ألسنة اللهب الممتدة منها

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾. (النازعات: 27 ـ 29).

ولكن معاودة القسم بالنهار في سورة الشمس بقول الحق (ﷻ):

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾.

يوحي بأن المقصود بـ «ضحى الشمس» هو أول النهار، وليس النهار كله؛ وأول النهار هو الفترة من لحظة الشروق إلى ما قبل الظهيرة مباشرة.

وسواء كان المقصود بـ «ضحى الشمس» هو وقت ارتفاعها عن الأفق، أو النهار كله، فهي فترة يتزايد فيها وصول طاقة الشمس إلى الأرض مما له انعكاسات هائلة على كل من الأحياء والجمادات، وعلى سائر الأرض فقد ثبت علمياً أن نطق الحماية التي خلقها الله (تبارك وتعالى) للأرض ومن عليها من مثل نطاق الأوزون، والنطاق المتأين تتمدد تمدداً ملحوظاً مع شروق الشمس، ويصل هذا التمدد مداه عند الظهيرة، ثم تبدأ تلك النطق في الانكماش حتى تصل إلى أدنى سمك لها عند منتصف الليل؛ ومن هنا كان القسم بالشمس وضحاها.

ومن ذلك أيضاً ما ثبت علمياً بأن في وسط الدماغ غدة صغيرة تعرف باسم الغدة الصنوبرية، أعطاها الله (تبارك وتعالى) القدرة على إفراز هرمون معين أطلق عليه اسم «**الميلاتونين**»، وهذا الهرمون له تأثير فاعل في الجسد الحي من مثل جسد الإنسان، ويلعب دورا رئيسياً في المحافظة على سلامة هذا الجسد (الإنساني)، لكنه إذا زاد على قدر معين فإنه يصبح ضاراً بهذا الجسد؛ و«الميلاتونين» تفرزه الغدة الصنوبرية في غيبة الضوء (أي بالليل)، فإذا طلعت الشمس فإن عصباً محدداً في العين يتلقى أشعتها فيقوم على الفور بإرسال رسالة خاصة إلى الساعة الحياتية **(The Biological Clock)** التي تأمر الغدة الصنوبرية بالتوقف عن إفراز الميلاتونين، وعند غياب الشمس تنعكس الأوامر التي تصدر بإنتاج هذا الهرمون المهم إلى جميع خلايا الجسم.

فهل يمكن أن يكون هذا القسم من الله الخالق (ﷻ) إلا تأكيداً لأهمية الشمس وأهمية ضحاها لاستقامة الحياة على الأرض وفي الكون، وأن يكون في ذلك شهادة على عظمة الخالق الذي أبدعها، لأن في بناء الشمس، وفي انضباط حركاتها ما يقطع بأن ذلك لا يمكن إلا أن يكون نتاج تقدير محكم دقيق من الخالق العليم الخبير الذي أتقن كل شيء خلقه ولذلك أورد ذكر الشمس في خمسة وثلاثين موضعاً من محكم كتابه، وسمى باسمها سورة من سوره، وأقسم بها في مطلع تلك السورة الكريمة، كما أشار إلى شيء من صفاتها، وتسخيرها، وانضباط حركاتها، وحتمية فنائها، وذلك من مثل قوله (تعالى):

• ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (الأنعام: 96).

• ﴿... وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: 54).

• ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ (يونس: 5)

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ (الرعد: 2).

• ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ (إبراهيم: 33).

• ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (النحل: 12).

• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ...﴾ (الحج: 18).

• ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ (نوح: 16).

• ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ (القيامة: 7 ـ 9).

• ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ (النبأ: 13).

• ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ (التكوير: 1).

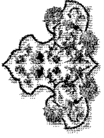
فسبحان الذي خلق الشمس كما خلق غيرها من أجرام الكون، وخلق الكون بكل ما فيه، ومن فيه من مختلف صور المادة والطاقة، والجمادات والأحياء، وضبط حركات كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، بعلمه وحكمته وقدرته، وأحاط بكل ذلك علماً، فأقسم بالشمس وضحاها من قبل ألف وأربعمائة سنة، في بيئة لم يكن لأحد من الخلق إدراك لقيمة الأمر المقسم به، ثم يأتي العلم الكسبي في أوج تقدمه مؤكداً عظمة المقسم والمقسم عليه، وشاهداً بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن الرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم



(24) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾





(الشمس: 2)

هذه هي الآية الثانية من سورة الشمس، وهي سورة مكية، آياتها 15 بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالقسم بالشمس في الآيات الأربع الأولى منها ضمن قسم مطول بتسع من آيات الله في الكون على فلاح الإنسان في الدنيا والآخرة إذا زكى نفسه بتقوى الله، وعلى خيبته فيهما إذا لم يلزمها بتقوى الله، ولم يزكها، وتركها على هواها تغرق في ظلمات الضلال، وتهوي في دياجير الفجور ومتاهاته، وتندس في وحل الرذيلة ودنسه فلا ترى النور أبداً..!!

والمحور الرئيسي لهذه السورة القصيرة يدور حول طبيعة النفس الإنسانية، واستعداداتها الفطرية لكل من الخير والشر، لأن الله تعالى قد خلق الإنسان، وجعل له إرادة حرة، يختار بها بين الإيمان والكفر، وبين الإصلاح في الأرض أو الإفساد فيها. وعلى أساس من اختياره يكون فلاحه في الدنيا والآخرة أوخيبته فيهما، وهذه هي مسؤولية الإنسان (صاحب الإرادة الحرة) عن نفسه في الدنيا، وعن مصيرها في الآخرة، فهو إما معتقها من العذاب أو موبقها فيه، وهي حقيقة يقسم عليها ربنا (تبارك وتعالى) ـ وهو الغني عن القسم ـ بثمان من آياته الكونية الكبرى في الآفاق والأنفس فيقول (عز من قائل):

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ **(الشمس: 1 ـ 8)**.

ويأتي جواب القسم:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ **(الشمس: 9، 10).**

وكنموذج للخيبة البشرية في الدنيا والآخرة تضمنت الآيات الخمس الأخيرة من تلك السورة المباركة قصة ثمود قوم نبي الله صالح (على نبينا وعليه من الله السلام وعلى كل أنبياء الله أجمعين)، وكيف أنهم بظلمهم وطغيانهم قد كذبوا رسول الله إليهم، وخالفوا نصحه لهم، وانبعث شقي من أشقيائهم ليتزعم إعلان المعصية على الله ورسوله، وتابعه قومه في ذلك فعقروا الناقة التي جعلها الله (تبارك وتعالى) لهم آية فاستحقوا بذلك غضب الله عليهم، وعقابه المدمر لهم الذي نزل عليهم فأهلكهم، ولا يخشى ربنا (تبارك وتعالى) عاقبة ما يفعل لأنه (ﷻ) رب هذا الكون ومليكه، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، وهو (سبحانه) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝﴾ **(الأنبياء: 23).**

وفي الصفحات السابقة ناقشنا الآية الأولى من هذه السورة المباركة، وسنناقش الآن الآية الثانية منها، والتي يقسم فيها ربنا تبارك وتعالى ـ وهو الغني عن القسم ـ بقوله العزيز: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝﴾، لنبين جانباً من جوانب القدرة الإلهية في إبداع خلق القمر، وفي قيمة هذا التابع الصغير للأرض في إنارتها بمجرد غياب الشمس، والسبق القرآني بالإشارة إلى موالاة القمر للشمس في غروبه وشروقه، وقبل الدخول في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذا القسم العظيم.

من أقوال المفسرين

في تفسير القسم الثاني من سورة الشمس والذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى): ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝﴾.

• ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما مختصره:.. «قال مجاهد: تبعها، وقال ابن عباس:.. يتلو النهار، وقال قتادة: إذا تلاها ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رئي الهلال، وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر..».

• وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه: «تبعها طالعاً عند غروبها، فنور القمر لا يظهر إلا إذا غربت الشمس».

• وجاء في الظلال (على كاتبه من الله الرحمة والرضوان) ما نصه: «... إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي.. وبين القمر والقلب البشري ودٌّ قديم موغل في السرائر والأعماق، غائر في شعاب الضمير، يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب في

أي حال. وللقمر همسات وإيحاءات للقلب، وسبحات وتسبيحات للخالق، يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب.. وإن القلب ليشعر أحياناً أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء، ويغسل أدرانه، ويرتوي، ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه: «﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ أي: تبعها وخلفها في الإضاءة (والصحيح هو: في الإنارة)، بأن يطلع مضيئاً (والصحيح هو: منيراً) بعد غروبها، آخذاً من نورها (والصحيح: من ضوئها)، سواء كان ذلك من غير تراخ، وهو في النصف الأول من الشهر، أو بعد مدة وهو في النصف الثاني منه.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً) مانصه: «وبالقمر إذا تبعها وخلفها في الإضاءة (والصحيح هو: في الإنارة) بعد غروبها».

• وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبه خيراً) مانصه:

«﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ أي وأقسم بالقمر إذا سطع مضيئاً (والصواب هو: منيراً)، وتبع الشمس طالعاً بعد غروبها، قال المفسرون: وذلك في النصف الأول من الشهر، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة - (والصحيح هو: في الإنارة) وخلفها في النور (والصحيح هو: بنوره) .... والشمس والقمر مخلوقان لمصالح البشر، والقسم بهما للتنبيه على مافيهما من المنافع العظيمة».



شكل (158) صورة توضح نصف القمر المنير

القمر في القرآن الكريم

جاء ذكر القمر في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة في ست وعشرين آية لتكرر ذكره مرتين في آية منها هي الآية رقم37 من

سورة فصلت، كما جاء ذكر القمر بالإشارة إلى مراحله تحت مسمى الأهلة مرة واحدة.

وهذه الآيات يمكن تصنيفها في ثماني مجموعات كما يلي:

(أ) آيتان تصفان القمر في رؤيتين من رؤى اثنين من رسل الله أحدهما إبراهيم والآخر يوسف (على نبينا وعليهما من الله السلام)، وإحدى هاتين الرؤيتين كان في حال اليقظة والأخرى في حالة المنام على النحو التالي:

(1) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ **(الأنعام: 77).**

(2) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ **(يوسف: 4).**

(ب) آيتان تصفان الشمس والقمر مرة بأنهما حسباناً (أي وسيلة لحساب الزمن) والأخرى بأنهما بحسبان (أي يجريان بحساب دقيق مقدر معلوم) على النحو التالي:

(1) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ **(الأنعام: 96).**

(2) ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ **(الرحمٰن: 5).**

(ج) إحدى عشرة آية تتحدث عن خلق كل من الشمس والقمر وسجودهما لله تعالى وتسخيرهما بأمر الله (ﷻ) ليكونا في خدمة خلق الله إلى أجل مسمى واعتبارهما آيتين من آيات الله، أو تنهى عن السجود لهما وتأمر بالسجود لخالقهما وحده، وذلك على النحو التالي:

(1) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **(الأعراف: 54).**

(2) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ **(الرعد: 2).**

(3) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ **(إبراهيم: 33).**

(4) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ (النحل: 12).

(5) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ (الأنبياء: 33).

(6) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (الحج: 18).

(7) ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ (العنكبوت: 61).

(8) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ (لقمان: 29).

(9) ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ (فاطر: 13).

(10) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾ (الزمر: 5).

(11) ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ (فصلت: 37).

(د) آيتان تؤكدان طبيعة كل من الشمس والقمر وتفرق بينهما بأن الشمس ضياء أو سراج، والقمر نور، وهو سبق علمي لم يدركه الإنسان إلا بعد تنزل القرآن الكريم بقرون طويلة، وكثير من علماء اليوم لا يدركونه وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

(1) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥﴾ (يونس: 5).

(2) ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ (نوح: 15، 16).

(هـ) ثلاث آيات تتحدث عن منازل القمر وأطواره (أي مراحله المتتالية) أو عن أحد هذه الأطوار، وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

(1) ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ (يسٓ: 39).

(2) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ . . .﴾ (البقرة: 189).

(3) ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ (الانشقاق: 18).

(و) آية واحدة تشير إلى دوران كل من الشمس والقمر في مدار محدد له وفيها يقول ربنا (تبارك وتعالى):

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يسٓ: 40).

(ز) آية واحدة تثبت معجزة حدثت لرسول الله ﷺ ألا وهي معجزة انشقاق القمر وفيها يقول الحق (تبارك اسمه):

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ (القمر: 1).

(حـ) آيتان كريمتان يقسم فيهما ربنا (تبارك وتعالى) بالقمر، وربنا غني عن القسم لعباده، ولكن تعظيماً لشأن القمر جاء القسم به على النحو التالي:

(1) ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ (المدثر: 32).

(2) ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾ (الشمس: 2).

(ط) آيتان تتحدثان عن نهاية القمر في يوم القيامة يقول فيهما ربنا (تبارك اسمه):

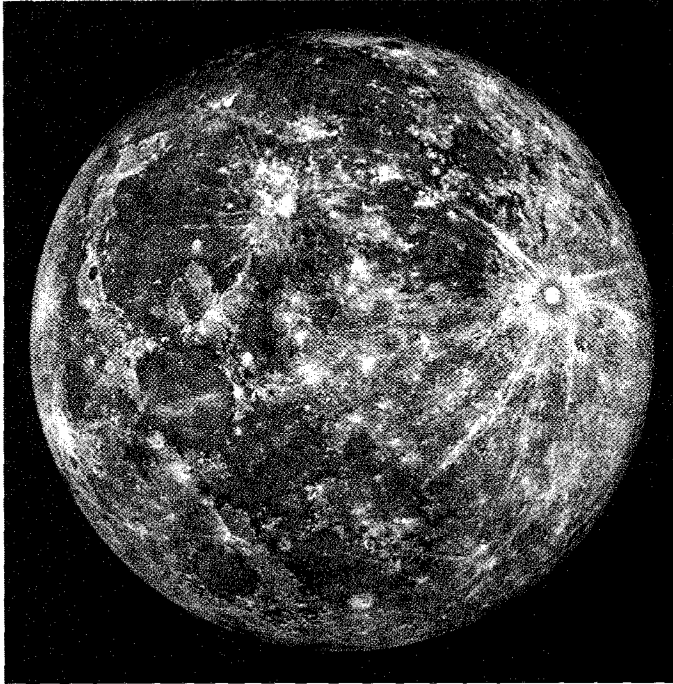
(1) ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾(القيامة: 7 ـ 9).

القمر في علوم الفلك:

القمر تابع صغير للأرض يبعد عنها بمسافة تقدر في المتوسط بحوالي 400، 384 كيلومتر، وهو على هيئة شبه كرة من الصخر غير كاملة الاستدارة إذ لها شكل البيضة التي تتجه بنهايتها الصغيرة تجاه الأرض، وتقدر كتلة القمر بحوالي 735 مليون مليون مليون طن (أي حوالي 12.25% أو 1/ 81 من كتلة الأرض)، ويقدر حجمه بحوالي22 مليون مليون كيلو متر مكعب (أي حوالي (1/ 50) من حجم الأرض)، ويقدر متوسط كثافته بحوالي 3.34 جرام للسنتيمترالمكعب (أي حوالي ثلثي متوسط كثافة الأرض)، ويقدر قطره بحوالي3474 كيلو متراً

(أي حوالي ربع قطر الأرض تقريباً) وتقدر مساحة سطحه بحوالي 38 مليون كيلو متر مربع (أي حوالي 7.45% من مساحة سطح الأرض) وتقدر جاذبيته بحوالي سدس جاذبية الأرض.

ويدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يقدر بحوالي 2.4 مليون كيلو متر بسرعة متوسطة تقدر بحوالي كيلومتر واحد في الثانية، ويدور حول محوره الذي يميل على مستوى مداره بزاوية تتراوح بين (18.3 و28.6 درجة) بنفس السرعة ليتم دورته الاقترانية حول الأرض في حوالي 29.5 يوم من أيام الأرض، ولا يظهر لسكان الأرض من القمر إلا وجه واحد (ولكن نظراً لترنح القمر فإننا نستطيع رؤية حوالي 59% من مساحة سطحه تقريباً) وذلك لأن القمر يدور حول الأرض في نفس الزمن الذي يكمل فيه دورته حول محوره، وبذلك يطول كل من الليل والنهار على سطح القمر إلى حوالي 14.5 يوم من أيام الأرض. ويصعب إدراك الغلاف الغازي للقمر لقلة كثافته، حيث تقدر كثافة غلافه الغازي بحوالي الواحد من ألف (0.001) من كثافة الغلاف الغازي للأرض. وتتراوح درجة حرارة سطح القمر في نصفه المواجه للشمس بين 110 درجات مئوية نهاراً و120 درجة مئوية تحت الصفر ليلاً.



شكل (159) صورة كاملة للقمر

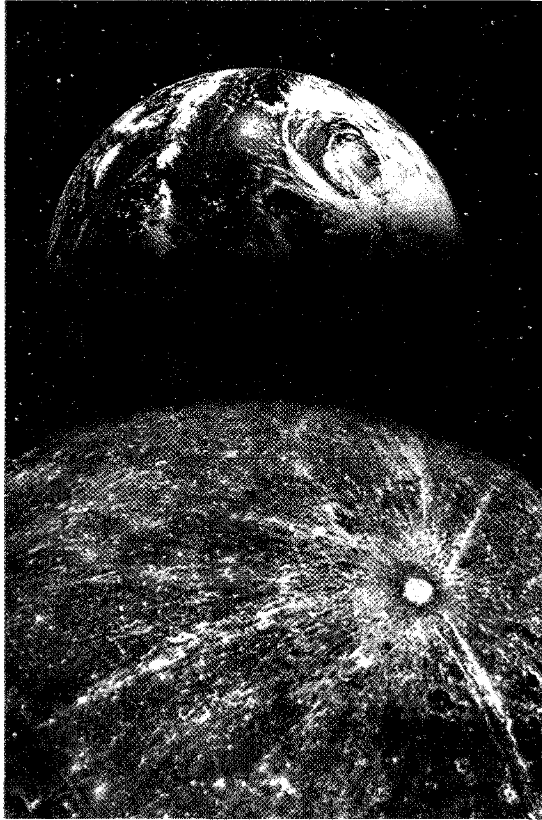
وسطح القمر معتم بصفة عامة، وعلى الرغم من ذلك فإن الله (تعالى) قد جعل له القدرة على عكس ما قيمته 7.3% من أشعة الشمس الساقطة عليه، وبذلك ينير القمر سماء الأرض بمجرد غياب الشمس بمراحله المتتالية من الهلال إلى التربيع الأول، إلى الأحدب الأول، إلى البدر الكامل، إلى الأحدب الثاني، إلى التربيع الثاني ثم إلى الهلال الثاني، ومن بعده إلى

الاختفاء الكامل في فترة المحاق.

ونظراً إلى قلة كثافة الغلاف الغازي للقمر فقد أصبح عرضة للرجم المستمر بواسطة كل من النيازك والتيارات الترابية وموجات الطاقة التي تصاحب الانفجارات الشمسية، ولذلك أصبح سطح القمر مليئاً بالحفر الدائرية العميقة والتي يصل قطر الواحدة منها إلى خمسة كيلو مترات، وهذه الحفر الناتجة عن اصطدام النيازك الضخمة بسطح القمر كان يظن قديماً أنها فوهات براكين، ولكن ثبت بعد ذلك أنها نشأت بواسطة تكرار اصطدام النيازك بنفس النقاط على سطح القمر مما أدى إلى تعميق بعضها إلى ما يقرب من عشرين كيلو متراً. ولا ينفي ذلك وجود فوهات بركانية على سطح القمر يعتقد أن بعضها لايزال نشيطاً نظراً لاكتشاف عدة نقاط ساخنة في بعض ما يعتقد بأنه فوهات بركانية على سطح القمر.

منازل القمر:

لوحظ من القدم أن القمر في دورته حول الأرض يتحرك في كل ليلة من ليالي الشهر القمري بين ثوابت من النجوم التي يسمى كل منها منزلاً من منازل القمر، وعلى ذلك فإن عدد منازل القمر هو28 بعدد الليالي التي يرى فيها القمر، ولما كان القمر في جريه مع الأرض حول الشمس يمر عبر البروج السماوية الاثني عشر التي تمر بها الأرض: فإن كل منزل من منازل القمر يحتل مكانا معيناً في كل برج من هذه البروج، والقمر يقطع في كل ليلة13 درجة تقريباً من دائرة البروج تلك (360 درجة/ 28 يوماً من أيام الأرض= 12.86 درجة) وعلى ذلك فإن البرج الواحد يقع فيه أكثر من منزل من منازل القمر، ويعتمد ذلك على مساحة البرج في السماء.



شكل (160) صورة للأرض من القمر

وقد تعرف العرب على منازل القمر من قبل البعثة المحمدية المباركة (على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، وعرفوا أهميتها في تحديد الزمن، وفي إعداد التقاويم الزراعية، وسموا الشمالية منها باسم المنازل الشامية، والجنوبية منها باسم المنازل اليمانية.

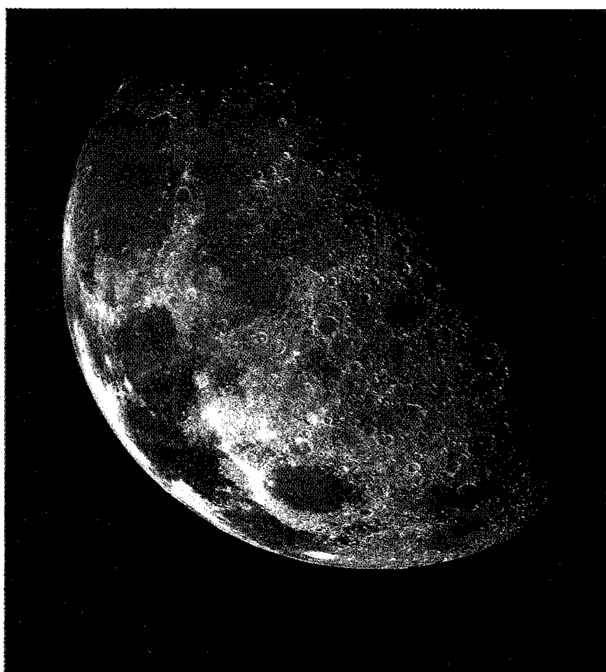
ويشير القرآن الكريم إلى منازل القمر بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ (يس: 39).

ويتضح من تلك الآية الكريمة مدى تداخل مراحل نمو مساحة الإنارة على وجه القمر المقابل للأرض (أي: مراحل تطور شكل القمر بالنسبة لأهل الأرض) مع منازل القمر حتى ليمكن التعبير بأحدها عن الآخر.

مراحل شكل القمر بالنسبة للأرض:

يدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يبلغ متوسط نصف قطره 384,400 كيلو متر، وفي أثناء هذه الدورة يقع القمر على خط واحد بين الأرض والشمس فيواجه الأرض بوجه مظلم تماماً، وتسمى هذه المرحلة مرحلة المحاق **(Wane)**، وتستغرق ليلة واحدة إلى ليلتين تقريباً، ثم يبدأ القمر في التحرك ليخرج من هذا الوضع الواصل بين مراكز تلك الأجرام الثلاثة فيولد الهلال الأول أو الهلال الوليد **(The Nascent Crescent)** الذي يحدد بمولده بدء الشهر القمري، ويقع هذا الهلال في أول منازل القمر، وتمكن رؤيته بعد ميلاده إذا أمكن مكثه لمدة لا تقل عن عشر دقائق بعد غروب الشمس، وكان الجو على قدر من الصفاء يسمح بتلك الرؤية. وباستمرار تحرك القمر في دورته



شكل (161) صورة للحفر النيزكية على سطح القمر

حول الأرض تزداد مساحة الجزء المنير من وجهه المقابل للأرض بالتدريج حتى يصل إلى التربيع الأول **(The First Quarter)** في ليلة السابع من الشهر القمري، ثم الأحدب الأول **(The First Gibbous)** في ليلة الحادي عشر، ثم البدر الكامل **(The Full Moon or The wax)** في حدود ليلة الرابع عشر من الشهر القمري، وفيه تكون الأرض بين الشمس من جهة والقمر من الجهة الأخرى على استقامة واحدة، وبخروج القمر عن هذا الخط المستقيم في دورته حول الأرض تبدأ مساحة الجزء المنير من وجهه المقابل للأرض في التناقص بالتدريج حتى يصل إلى مرحلة الأحدب الثاني **(The Second Gibbous)** في حدود ليلة الثامن عشر من الشهر القمري، ثم التربيع الثاني **(The Second Quarter)** في ليلة الثالث والعشرين، ثم الهلال الثاني **(The Second Crescent)** في ليلة السادس والعشرين من الشهر القمري والذي يستمر لمدة يومين أو ثلاثة حتى المحاق في آخر ليلة من الشهر القمري حين يعود القمر إلى وضع الاقتران بين الأرض والشمس.

من الظواهر المصاحبة لحركة القمر:

من الظواهر المصاحبة لدوران القمر في مداره حول الأرض ظاهرتان فلكيتان مهمتان هما: ظاهرة **كسوف الشمس**، وظاهرة **خسوف القمر**، وينتج كسوف الشمس من توسط القمر بين الأرض والشمس مما يحجب الشمس لفترة زمنية محددة، أما خسوف القمر فينتج من توسط الأرض بين القمر والشمس مما ينتج عنه إظلام القمر لوقوعه في منطقة ظل الأرض. وكسوف الشمس يتكرر في السنة من مرتين إلى ثلاث مرات، بينما يتكرر خسوف القمر لأكثر من أربع مرات في السنة نظراً لكبر حجم منطقتي ظل وشبه ظل الأرض بالنسبة لحجم القمر، وصغر حجم هاتين المنطقتين للقمر بالنسبة إلى حجم الشمس، ولذلك يرى خسوف القمر من جميع بقاع الأرض التي يكون فيها القمر فوق الأفق، ويبتدئ على الجانب الشرقي من القمر لأن القمر يدور حول الأرض من الغرب إلى الشرق، بينما يرى كسوف الشمس من نقاط محددة على سطح الأرض.

وقد يكون خسوف القمر كليًّا إذا دخل في منطقة ظل الأرض بالكامل، وقد يكون خسوفاً جزئياً إذا دخل في منطقة شبه الظل للأرض ويسمى هذا الخسوف الجزئي باسم **الاحتراق**، لأن القمر يبدو فيه أحمر نحاسي اللون.

كذلك فإن كسوف الشمس قد يكون **كسوفاً كلياً** إذا غطى ظل القمر كل قرص الشمس بالكامل، وقد يكون **كسوفاً جزئياً** حين يغطي ظل القمر جزءاً من قرص الشمس، وقد يكون



شكل (162) صورة الكسوف الحلقي للشمس حيث تظهر على هيئة حلقة مضيئة

كسوفاً حلقياً عندما يكون القمر في أبعد مواضعه عن الأرض فلا يستطيع ظله أن يغطي قرص الشمس بالكامل، بل يغطي جزءاً من وسطها ويترك الجزء الباقي من الشمس ظاهراً على هيئة حلقة مضيئة.

ويبتدىء الكسوف على جانب الشمس الغربي وذلك بسبب دوران القمر حول الأرض من الغرب إلى الشرق. ولا تتجاوز مدة الكسوف الكلي للشمس فترة (7 دقائق، 48 ثانية) بينما قد يصل الكسوف الحلقي إلى (12 دقيقة، 24 ثانية). والكسوف الكلي نادر الحدوث، وعند وقوعه تصطبغ السماء باللون القرمزي قبل بدئها في الإظلام الذي قد يصاحبه شيء من الانخفاض في درجة الحرارة.

البناء الداخلي للقمر:

يغطى سطح القمر بطبقة من الفتات الصخري يتراوح سمكها بين المتر والعشرين متراً، وتعرف هذه الطبقة باسم **(التربة القمرية)**، ويعتقد بأنها قد تكونت نتيجة لارتطام النيازك وجسيمات التراب الكوني القادمة مع الرياح الشمسية على سطح القمر، والعمر المطلق لهذه التربة القمرية يقدر بنحو 4.6 بليون سنة، وهو نفس العمر المقدر للأرض.

ويمتلىء سطح القمر بمناطق منخفضة عديدة تعرف باسم **(بحار القمر)** وإن كانت خالية تماماً من وجود الماء، وهذه المنخفضات عبارة عن أعداد لا حصر لها من الفوهات الدائرية العميقة التي يصل قطر الواحدة منها إلى أكثر من خمسة كيلو مترات، وتصل أعماقها إلى عدة كيلو مترات. وكان يعتقد قديماً بأنها فوهات بركانية، ولكن دراسة الصخور التي أحضرت من عدد منها أثبتت أنها نشأت عن اصطدام النيازك بنفس النقطة من سطح القمر لمرات متتالية حتى وصل عمق بعضها إلى عشرين كيلو متراً. وبجوار هذه الحفر العميقة توجد سلاسل جبلية تتراوح ارتفاعاتها بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات. وتمتلىء بحار القمر بطفوح من الحمم البازلتية. وتتكون الصخور القمرية وهي صخور قاعدية في غالبيتها من مثل (الجابرو ـ النورايت) من العناصر نفسها التي تتكون منها صخور الأرض باستثناء أن صخور القمر خالية تماماً من الماء، بينما تتراوح نسبة الماء في صخور الأرض بين 1% و2% على الأقل، وأن صخور القمر تتميز بتركيز أكثر في عدد من العناصر من مثل التيتانيوم، والحديد، والألومنيوم، والكالسيوم، وبفقر في عدد آخر من العناصر من مثل الصوديوم، والكربون، والأوكسجين، ويقدر عمر صخور القمر بنحو 3.7 بليون سنة، وهو رقم قريب من عمر أقدم صخور الأرض.



شكل (163) صورة حقيقية للقمر

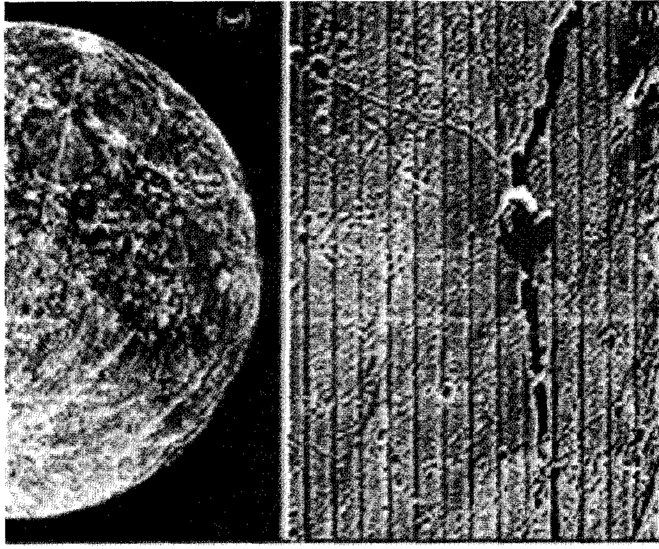
وبتشابه كبير مع البناء الداخلي للأرض تشير الدراسات القمرية إلى تكون القمر من عدة نطق من الصخور متمركزة حول نواة غنية في عنصر الحديد على النحو التالي:

(ا) الغلاف الصخري للقمر: وهو نطاق خارجي يتكون من الصخور القاعدية من مثل البازلت والجابرو، ويبلغ سمكه حوالي68

كيلو متر وينقسم إلى قسمين متميزين على النحو التالي:

(1) قشرة القمر المهشمة: ويبلغ سمكها نحو 28 كيلو متراً وهي مهشمة بفعل الارتطامات المتكررة بالنيازك، وتيارات التراب الكوني المصاحبة للرياح الشمسية.

(2) ما تحت القشرة القمرية: وهي قشرة قاعدية يبلغ سمكها نحو 40 كيلو متراً، ويغلب على تكوينها معادن الأنورثوزايت **Anorthosite**.



شكل (164) صور لشق في القمر

(ب) وشاح القمر: ويمتد من عمق 68 كيلو متراً تحت سطح القمر إلى عمق 1238 كيلو متر (وعلى ذلك يقدر سمكه بنحو 1170 كيلو متراً)، ويتكون من صخور قاعدية غنية بمعادن البيروكسين **(Pyroxene)**.

(ج) لب القمر: ويمتد من عمق 1238 كيلو متراً تحت مستوى سطح القمر تقريبا إلى مركز القمر الموجود على عمق 1738 كيلو متراً (وعلى ذلك يقدر سمكه بنحو 500 كيلو متر) وتشير الدراسات إلى إمكانية أن تكون المائة كيلو متر العليا منه في حالة منصهرة أو شبه منصهرة مما يعين على تقسيمه إلى:

(*) لب القمر الخارجي المنصهر: وهو في حالة مائعة ـ سائلة أو شبه سائلة ـ ويغلب على تركيبه مركبات السيليكون (السيليكات) ويبلغ سمكه نحو المائة كيلو متر (من عمق 1238 كيلو متراً إلى عمق 1338 كيلو متراً).

(*) لب القمر الداخلي الصلب: ويقدر نصف قطره بحوالي 400 كيلو متر (من عمق 1338 كيلو متراً إلى مركز القمر على عمق 1738 كيلو متراً) ويغلب على تركيبه عنصر الحديد.

ويعتقد غالبية الفلكيين بأن القمر قد تكون كجزء منفصل من النظام الشمسي، وإن كان بعضهم يقترح فكرة انفصاله عن الأرض بسبب تباعده الحالي عنها بمعدل ثلاثة سنتيمترات

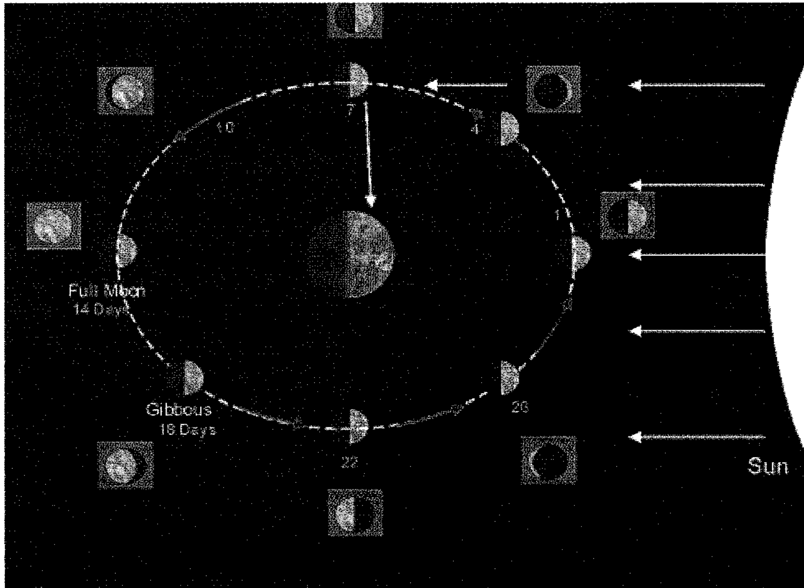
في السنة، ويرى البعض الآخر احتمال تكونه بعيداً عن الأرض ثم أسره إلى موضعه الحالي بفعل جاذبية الأرض له.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق دورة كاملة كل 24 ساعة فإن الشمس تبدو طالعة في كل يوم من جهة الشرق، وغائبة في جهة الغرب.

ونتيجة لميل مستوى مدار القمر حول الأرض على مستوى مدار الأرض حول الشمس بمقدار (5 درجات، 8 دقائق) فإن المسار الظاهري لكل من الشمس والقمر على صفحة السماء من نقطة الشروق إلى نقطة الغروب يبدو متقارباً، وإن استمرا في تسابق دائم.

وبصرف النظر عن دوران الأرض حول محورها، فإننا نجد أن القمر يسير في اتجاه الشرق درجة واحدة كل ساعتين تقريباً (360 درجة/ 30 يوماً = 12 درجة في اليوم/ 24 ساعة = نصف درجة في الساعة أو درجة واحدة في الساعتين) وأن الشمس تسير أقل قليلاً من درجة واحدة تقريباً كل يوم (أي كل24 ساعة) (360 درجة/ 365,25 يوماً)، ولذلك يبقى القمر في سباق دائم مع الشمس، ويلحق بها مرة كل شهر، فيولد الهلال الجديد في الأفق



شكل (165) رسم توضيحي لمراحل القمر المتتالية

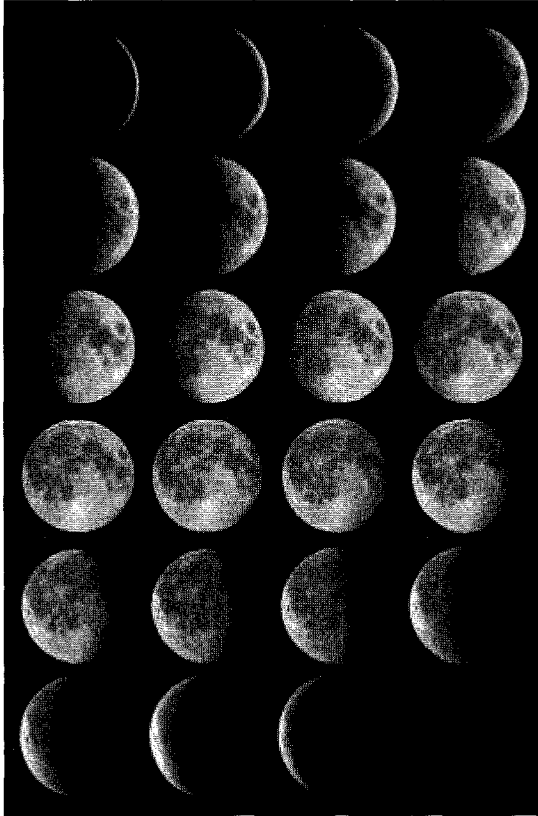
الغربي بعد غروب الشمس بقليل وبالقرب من المكان الذي تغرب فيه الشمس، وبعد ذلك يأخذ ظهور القمر في التأخر عن وقت غروب الشمس فيرى في طور التربيع الأول في وسط السماء بعد غروب الشمس، ويتأخر ظهوره لفترة أطول بعد الغروب في مرحلة الأحدب الأول ويرى وهو أقرب للأفق الشرقي، وفي مرحلة البدر يتفق شروق القمر من الأفق الشرقي مع غروب الشمس في الأفق الغربي لوجودهما على استقامة واحدة، وبعد ذلك يتأخر القمر في الشروق يومياً بمعدل خمسين دقيقة في المتوسط حتى يصل مجموع هذا التأخير إلى حوالي خمس ساعات بعد غروب الشمس في طور التربيع الثاني، ويستمر هذا التأخير في ظهور القمر حتى يرى الهلال الثاني في وضح النهار؛ وفي طور المحاق يغيب القمر مع غروب الشمس تماماً لوقوعهما على استقامة واحدة.

ولعل هذا هو المقصود من قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

(الشمس: 2)

ويتم القمر دورته حول الأرض في 27 يوماً، 7 ساعات، 43 دقيقة، 11.6 ثانية، ولكن نظراً لدوران الأرض حول محورها، ولجريها في مدارها حول الشمس، فإن القمر يحتاج إلى نحو يومين آخرين زيادة على هذه الفترة ليعود إلى نفس النقطة التي بدأ منها ولذلك فإن الشهر الاقتراني يطول إلى 29 يوماً، 12 ساعة، 44 دقيقة، 2.9 ثانية في المتوسط، وحيث إن الشهر القمري يعد بالأيام الكاملة بدءاً من غروب شمس اليوم الذي يرى فيه الهلال بعد غروب الشمس، فإن الشهر القمري إما أن يكون29 يوماً أو30 يوماً، ولأن حركة القمر هي من الغرب إلى الشرق فإنه يتأخر كل يوم في غروبه من40 إلى50 دقيقة عن اليوم السابق



شكل (166) صورة توضح التدرج في زيادة الجزء المنير من سطح القمر مع الزمن

تبعاً لاختلاف كل من خطوط الطول والعرض. وفي اليوم التاسع والعشرين قد يأتي غروبه قبل غروب الشمس ولذا تستحيل رؤيته، وقد يأتي غروبه بعد غروب الشمس فيمكن رؤيته تبعاً لمدة مكثه وللظروف الجوية المصاحبة لمكان إلتماس رؤية الهلال.

وللقمر عدد من الحركات الحقيقية والظاهرية والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

أولاً: الحركات الحقيقية للقمر:

1 ـ دورة القمر حول محوره وتتم في كل شهر عربي دورة واحدة ينتصفها ليل لمدة أسبوعين ونهار لمدة أسبوعين تقريباً.

2 ـ دورة القمر حول الأرض وتتم في 29.5 يوم بالنسبة للأرض (وفي 27.3 يوم بالنسبة للنجوم).

3 ـ دورة القمر مع الأرض حول الشمس بسرعة تقدر بنحو30 كيلو متراً في الثانية وتتم في سنة شمسية مدتها اثنا عشر شهراً ينزل القمر فيها منازل الشمس الإثني عشر شهراً بعد شهر.

4 ـ دورة القمر مع المجموعة الشمسية حول مركز مجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة)، وتتم في حدود 225 مليون سنة أرضية.

5 ـ دورة القمر مع المجرة ومع التجمعات الأكبر من ذلك بالتدريج حول مراكز متدرجة في الكون الفسيح إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

ثانياً: الحركات الظاهرية للقمر:

1 ـ دورة القمر الظاهرية حول الأرض مرة في كل يوم، نتيجة لدوران الأرض حول محورها.

2 ـ دورة القمر الظاهرية في منازله التي بالسماء مرة كل شهر.

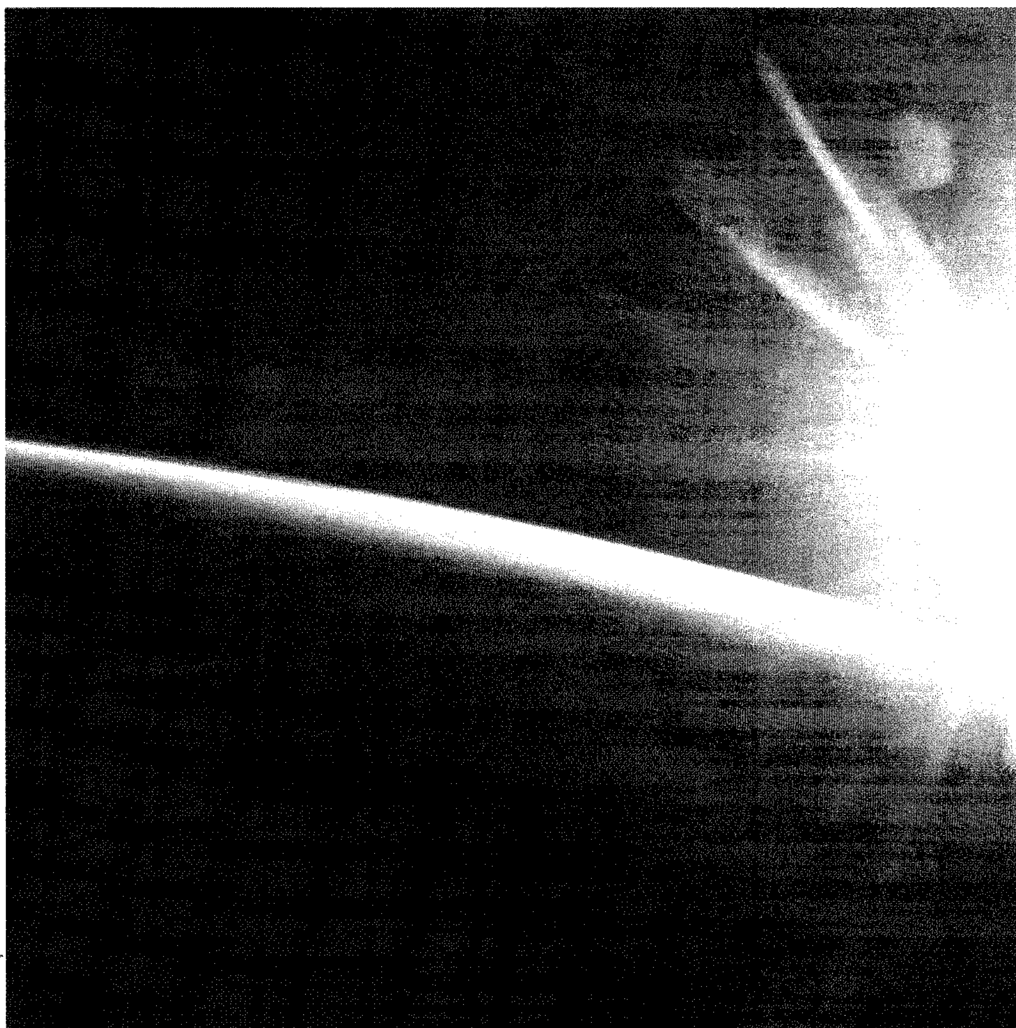
3 ـ دورة القمر السنوية ووقوعه في برج من بروج السماء الإثني عشر واحداً بعد الآخر.

وقد شاءت إرادة الله وحكمته البالغة ألا تظلم سماء الأرض إظلاماً تاماً بمجرد غياب الشمس الظاهري عن الأرض، فأبقى لنا القمر والنجوم تنيرظلمة ليل الأرض، فبمجرد غياب الشمس عنا يصلنا ضؤوها المنعكس من فوق سطح القمر نوراً لا حرارة فيه، ويرى نور القمر في مراحله المتتالية، من الميلاد إلى المحاق، ونظراً لقربه من الأرض فإن أثره في إنارة ظلمة ليل الأرض أبلغ من أثر النجوم حتى وهو في مرحلة الهلال. وتصف هذه الآية

الكريمة متابعة القمر للشمس في حركاتهما الظاهرية حول الأرض، وهي حقيقة لم تدرك إلا بعد نزول القرآن الكريم بقرون عديدة، فسبحان الذي خلق القمر، وأنزل في محكم كتابه هذا القسم الإلٰهي بموالاة القمر لغروب الشمس فقال (عز من قائل): ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ وهي موالاة في أمور عديدة وليس فقط في حركاته الحقيقية والظاهرية. وورد ذلك في القرآن الكريم في زمن لم يكن لأحد من الخلق إدراك لحقيقة أن الشمس هي مصدر النور المنبعث من القمر هو من آيات الإعجاز العلمي في كتاب الله، فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه لنا في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث الله (تبارك وتعالى) الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله في الآخرة والأولى، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.



شكل (167) صورة لكل من الأرض والقمر مأخوذة من فوق سطح القمر توضح رقة طبقة نور القمر وسط ظلمة الكون

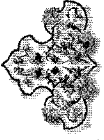


رقة طبقة النهار على الأرض وسط ظلمة السماء التي تظهر فيها الشمس قرصاً أزرق باهت الزرقة في صفحة سوداء حالكة السواد

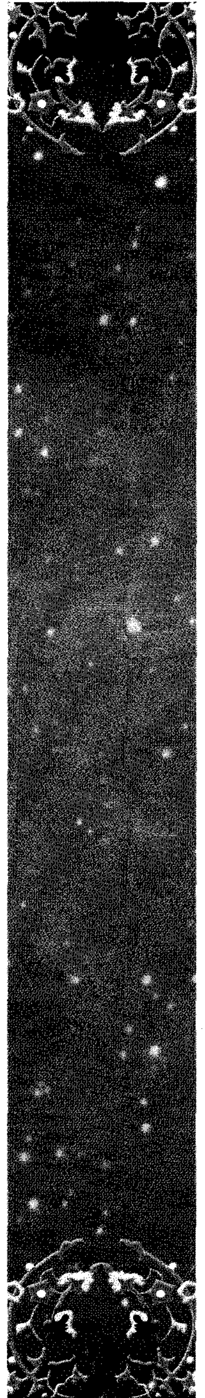




(25) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾



(الشمس: 3)



هذه الآية الكريمة تمثل القسم الثالث بأقرب النجوم إلينا ألا وهي الشمس التي أنزل الله (تبارك وتعالى) سورة باسمها في محكم كتابه، واستهلها بالقسم أربع مرات بهذا النجم الذي جعله (سبحانه وتعالى) مصدراً للدفء والنور على الأرض، ولغير ذلك من مصادر الطاقة العديدة، التي بدونها لم يكن ممكناً لأي شكل من أشكال الحياة الأرضية أن يوجد.

من هنا يتضح لنا جانب من جوانب الهدف من هذا القسم المغلظ بالشمس، والذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى):

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ (الشمس: 1 ـ 4).

ويتلخص هذا الهدف في تنبيه الغافلين من بني البشر إلى أهمية أقرب النجوم إلينا، وإلى روعة الإبداع الإلٰهي في خلق الكون، ودلالة ذلك على شيء من صفات هذا الخالق العظيم، وعلى أنه (تبارك وتعالى) هو رب هذا الكون ومليكه، وإلٰهه الأوحد وموجده، والمتفرد بالسلطان فيه، بغير شريك ولاشبيه ولامنازع، وعلى أن الخضوع لجلاله بالعبادة، والنزول على أوامره بالاستسلام والطاعة هما من أوجب واجبات الوجود في هذه الحياة، لأنهما يمثلان طوق النجاة للعباد في الدنيا والآخرة، وإلا فإن الله (تبارك وتعالى) غني عن القسم لعباده.

وصفات الشمس التي أقسم بها ربنا (تبارك وتعالى) ضمن سلسلة طويلة من القسم بثمان من آياته في الأنفس والآفاق يأتي جواب القسم بها كلها في قول الحق (سبحانه):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (الشمس: 9، 10).

بمعنى أن فلاح الإنسان قائم على تزكية نفسه بتقوى الله تعالى، والعمل بكتابه الخاتم وبسنة رسوله الخاتم ﷺ، وبالاستعداد ليوم الرحيل من هذه الدنيا، وما يستتبعه من حساب وجزاء، وخلود في حياة قادمة، إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً كما علمنا كل أنبياء الله ورسله وعلى رأسهم خاتمهم أجمعين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم وعلى من تبعه وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين).

وعلى النقيض من ذلك تكون خيبة الإنسان في الدنيا وخسارته في الآخرة إذا لم يحرص على الإيمان الصادق، والعمل الصالح، وداوم على تزكية النفس ومحاسبتها، وذلك لأن الإنسان ـ إنطلاقا من غروره وكبره، أو من غبائه وجهله ـ عرضة لغواية الشيطان له على الكفر بالله، أو الإشراك في عبادته، أو الخوض في معاصي الله، ثم يدركه الأجل قبل توبة نصوح يبرأ بها إلى الله فيكون في ذلك خيبته الكبرى، وخسرانه المبين.

وهذا هو المحور الرئيسي لسورة الشمس الذي يدور حول طبيعة النفس الإنسانية، واستعداداتها الفطرية لقبول أيٍّ من الخير والشر، لأن الإنسان مخلوق ذو إرادة حرة تمكنه من الاختيار بين هذين السبيلين، وعلى أساس من اختياره بإرادته الحرة يكون جزاؤه في الدنيا والآخرة.

وتختتم سورة الشمس بنموذج من نماذج الأمم التي عصت أوامر ربها، وكذبت رسله فكان عقابها ما أنزل الله (تبارك وتعالى) بها من عذاب ونكال تستحقه، وأمر الله نافذ لامحالة، وهو (سبحانه) لا يخشى أحداً فيما يتخذ من قرار لأنه رب هذا الكون ومليكه الذي لايسأل عما يفعل. وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالى):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ (الشمس: 11 ـ 15).

وفي الصفحات السابقة قمنا باستعراض القسم بالآيتين الأولى والثانية من سورة الشمس، وفي هذه الصفحات نستعرض دلالة القسم بالآية الثالثة التي يقول فيها ربنا (عز من قائل):

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ (الشمس: 3).

وقبل الدخول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لدلالة اللفظين (النهار) و (جلاها)

من الناحية اللغوية، ومن تلخيص لآراء عدد من المفسرين السابقين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة:

• **(النهار)** لغة هو ضد الليل، وهو نصف اليوم الذي تشرق فيه الشمس، وينتشر النور، ويعرف بالفترة الزمنية بين طلوع الشمس وغروبها، وإن كان في الشريعة الإسلامية هو الفترة الزمنية من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، وقد سمي بذلك بسبب شق نور النهار لظلمة الليل، وانفتاح تلك الظلمة عن نور النهار.

ولفظة (النهار) لا تجمع كما لا يجمع، كثير من الكلمات العربية من مثل السراب والعذاب، وإن كان البعض يحاول جمعه على (أنهر) للقليل، وعلى (نُهُر) للكثير، وهو نادر الاستعمال.

ويقال (أنهر) أي: دخل في النهار، كما يقال (نهار أنهر) أي شديد النور، لأن أنهر هنا اسم تفضيل، ويقال: (أنهر) الماء جرى وسال، و (النهر) ـ بسكون الهاء وفتحها ـ واحد (الأنهار) وهو مجرى الماء الفائض المتدفق، و (النهر) أيضا هو السعة تشبيهاً بنهر الماء.

وقوله (تبارك وتعالى): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ **(القمر: 54).**

فسر أهل العلم (نهر) هنا بالأنهار أو بالضياء والسعة (والصواب هو: بالنور والسعة)، والمعنى الأول أولى لمواءمته لسياق الآية الكريمة.

ويقال (نهر) الماء أي: جرى في الأرض حافراً مجراه جاعلاً منه نهراً، ويقال: (نهر نهر) أي كثير الماء، وكل كثير جرى فقد (نهر) و (استنهر)، ويقال (أنهر) الدم أي أساله وأرسله، ويستخدم الفعل (نهر) (نهراً)، و (انتهر) (انتهاراً) بمعنى زجر زجراً بغلظة وشدة.

• أما عن الفعل (جلاها) فيقال في العربية: (جلا) (يجلو) (جلاءً) بمعنى أوضح وكشف، لأن أصل (الجلو) هو الكشف الظاهر، و (الجلي) هو كل ماهو ضد الخفي.

يقال: (جلا) لي الخبر (يجلوه) (جلاء) أي أظهره ووضحه، و (الجلية) هي الأخبار اليقينية، و (تجلى) بمعنى تكشف.، و (انجلى) عنه الهم بمعنى انكشف عنه، و(جلاه) عنه أي أذهبه، ولذلك يقال: (جلى) السيف (جلاه) (تجلية) أي كشفه ويقال: (جلا) السيف (يجلوه) (جلياً) و(جلاء) أي صقله، ويقال: (جلا) بصره بالكحل (جلاء) أي قواه، أو جعله أكثر قدرة على الإبصار، ولذلك يقال للكحل (الجلاء).

و(التجلي) قد يكون بالذات كما في قوله (تبارك وتعالى): ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ **(الليل: 2).**

وقد يكون بالأمر والفعل من مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف: 143).

ويقال: (جلا) العروس (يجلوها) (جلاء) و (جلوة)، و (اجتلاها) بمعنى نظر إليها (مجلوة)، و(المجلو) هو المنظور إليه؛ ويقال: فلان ابن (جلا) أي مشهور.

و (الجلاء) هو الأمر (الجلي) أي الواضح البيّن، و(الجلاء) أيضاً هو الخروج من البلد والإخراج منه، يقال: لقد (جلوا) عن أوطانهم ولقد (جلاهم) أو (أجلاهم) غيرهم (فأجلوا) عنها، ويقال كذلك: (أجلوا) عن الشيء إذا انفرجوا عنه.

النهار في القرآن الكريم:

ورد ذكر النهار في مقابلة الليل في القرآن الكريم سبعاً وخمسين (57) مرة، منها أربع وخمسون (54) مرة بلفظ النهار، وثلاث (3) مرات بلفظ نهاراً، كذلك وردت ألفاظ الصبح والإصباح، وبكرة، والفلق والضحى ومشتقاتها بمدلول النهار أو بمدلول أجزاء منه في آيات أخرى كثيرة، كما وردت كلمة اليوم أحياناً بمعنى النهار.

وذلك من مثل قوله (تبارك وتعالى):

* ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ (طه: 59).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الجمعة: 9).

* ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . . .﴾ (البقرة: 184).

* ﴿. . . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ (البقرة: 196).

* ﴿. . . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ . . .﴾ (المائدة: 89).

* ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ (الحاقة: 7).

* ﴿. . . وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ (سبأ: 18).

والنهار في القرآن الكريم يمتد من الفجر الصادق إلى الغروب وذلك لقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ . . .﴾ (هود: 114).

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تبارك وتعالى): ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ (الشمس: 3)

• ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما مختصره:

«... قال مجاهد: أضاء (والصواب هو أنار)، وقال قتادة: إذا غشيها النهار، وتأول بعضهم ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة لدلالة الكلام عليها. قلت: ولو أن القائل تأول ذلك بمعنى ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي البسيطة لكان أولى، ولصح تأويله في قوله (تعالى): ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ إنه كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (الليل: 2)، وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على الشمس لجريان ذكرها».

• وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه برحمته الواسعة) ما نصه: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ بارتفاعه أي: ظهرت فيه.

• وذكر صاحب الظلال (رحمه الله) ما نصه:

«ويقسم بالنهار إذا جلاها.. مما يوحي بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار.. والضمير في (جلاها).. الظاهر أنه يعود إلى الشمس المذكورة في السياق.. ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة. وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق لأنها معهودة في الحس البشري يستدعيها التعبير استدعاءً خفياً. فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها. وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها. وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره. فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه: «﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ أي جلى الشمس وأظهرها، فإنها تتجلى إذا انبسط النهار ومضت منه مدة، وهو وقت الضحى والضحاء. وقيل: جَلِيُّ الدنيا، أي وجه الأرض وماعليه.

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً) ما نصه: «و(أقسم) بالنهار إذا أظهر الشمس واضحة غير محجوبة».

* وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبه خيراً) ما نصه:

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾﴾ أي وأقسم بالنهار إذا جلا ظلمة الأرض بضيائه وكشفها بنوره ـ وقال ابن كثير: إذا جلا البسيطة وأضاء الكون بنوره.

الدلالة العلمية للآية الكريمة

في الآيات الأربع الأولى من سورة الشمس يقول ربنا (تبارك وتعالى):

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾.

وضمير الغائب في هذه الآيات يعود على الشمس كما هو واضح من سياق السورة الكريمة، ومن قواعد اللغة العربية، ومن شروح المفسرين الذين لم تختلف شروحهم إلا في تفسير قول الله (تبارك وتعالى): ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾﴾ فأعادوا ضمير الغائب هنا مرة إلى الشمس، ومرة إلى الظلمة، وثالثة إلى البسيطة أي الأرض، وذلك لأن الناس قد درجوا عبر التاريخ على فهم أن طلوع الشمس هو الذي يجلي ظلمة الليل وينير وضح النهار؛ وما كان ممكناً لأحد أن يتصور إمكانية أن النهار هو الذي يجلي لنا الشمس.

أولاً: كيف يمكن للنهار أن يجلي لنا الشمس؟

في مطلع الستينيات من القرن العشرين بدأ نشاط ريادة الفضاء، وفوجىء هؤلاء الرواد بحقيقة مذهلة مؤداها أن الكون يغشاه الظلام الدامس في غالبية أجزائه، وأن طبقة النهار المنيرة عبارة عن حزام رقيق جداً لا يتعدى سمكه مائتي كيلومتر فوق مستوى سطح البحر، يغلف نصف الأرض المواجه للشمس ويتحرك على سطحها بمعدل دورانها حول محورها أمام الشمس، وأنه بمجرد تجاوز تلك الطبقة الرقيقة من نور النهار تبدو الشمس قرصا أزرق باهتاً في صفحة سوداء حالكة السواد، وكذلك تتضح مواقع النجوم بنقاط زرقاء باهتة لا تكاد ترى. وهذه الحقيقة المبهرة سبق للقرآن الكريم أن أشار إليها من قبل ألف وأربعمائة سنة بقول الحق (تبارك وتعالى):

* ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ **(الحجر: 14، 15).**

* وبقوله (سبحانه):

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ **(يس: 37).**

* وبقوله (عز من قائل):

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ **(النازعات: 27 ـ 29).**

والسبب في ظلمة الكون يرجع إلى أن نظرنا إلى السماء يردنا في الحقيقة إلى أزمنة قديمة، توغل في القدم كلما امتدت إلى مسافات أبعد عن الأرض، ويمتد هذا القدم إلى أكثر من عشرة آلاف مليون سنة مضت (وهو أقل عمر مقدر للكون المدرك)، فهذا الكون مستمر في الاتساع منذ اللحظة الأولى لانفجاره إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، ولذلك فإن الضوء الواصل إلينا من مواقع النجوم الحالية قد انطلق أصلاً من تلك النجوم من قبل عدة ملايين من السنين حتى وصل إلينا، والضوء كصورة من صور الطاقة يفقد جزءاً من طاقته مع تطاول الزمن، ومع انزياحه إلى الطيف الأحمر بسبب استمرار تباعد تلك النجوم عنا بعملية توسع الكون، ومن هنا كانت ظلمته السائدة.

وفي محاولة لتفسير السبب في نور طبقة النهار المحدودة بحدود نصف الأرض المواجه للشمس وبسمك لا يتعدى المائتي كيلومتر، على الرغم من ظلمة الكون، اتضح أن الغالبية العظمى من أشعة الشمس هي أشعة غير مرئية، وأن الجزء المرئي منها لا يرى إلا بعد انعكاسه وتشتته لمرات عديدة على عدد من الأجسام من مثل جزيئات العناصر والمركبات المكونة للطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وما بها من هباءات الغبار، وقطيرات الماء، وبخاره.

ولما كان الغلاف الغازي للأرض تتضاءل كثافته بالارتفاع حتى لا يكاد أن يدرك، كما يتضاءل محتواه من هباءات الغبار والرطوبة بصفة عامة، توقفت عمليات تشتيت ضوء الشمس وعكسه على المائتي كيلو متر السفلى من هذا الغلاف الغازي فقط والتي يرى فيها نور النهار، وبقي الكون في ظلام دامس، وبقي موقع الشمس على هيئة قرص أزرق وسط هذا الظلام، كما بقيت مواقع النجوم نقاطاً زرقاء باهتة في بحر غامر من ظلمة الكون الشاملة.

ويؤكد ذلك تناقص ضغط الغلاف الغازي للأرض من نحو الكيلو جرام على السنتيمتر المربع عند مستوى سطح البحر إلى أقل من واحد من المليون من هذا الضغط في الأجزاء العليا من غلاف الأرض الغازي، وتحت مثل هذه الضغوط التي لاتكاد أن تدرك تبدأ الجزيئات في هذا الغلاف الغازي في التفكك إلى ذراتها وأيوناتها بفعل الأشعة الكونية القادمة من الشمس ومن غيرها من نجوم السماء، فيؤدي ذلك إلى التقليل من ضغط الهواء. ويساعد على مزيد من قلة الضغط سيادة الغازات الخفيفة من مثل الإيدروجين والهيليوم على



شكل (168) يوضح ظلمة الكون خارج نطاق الغلاف الغازي الملامس للأرض ورقة طبقة إنارة القمر لسطح الأرض بالليل

حساب الغازات الأثقل نسبياً من مثل الأوكسجين والنيتروجين، ويعين على تخلخل هذا الهواء الخفيف الارتفاع الشديد في درجات الحرارة التي تصل إلى أكثر من ألفي درجة مئوية في الجزء المسمى بالنطاق الحراري، وفي النطاق الخارجي من الغلاف الغازي للأرض، وعلى ذلك فإن الجزء المرئي من موجات الإشعاع الشمسي لايكاد يجد ما ينعكس أو يتشتت عليه فلا يرى إلا في المائتي كيلومتر السفلى من الغلاف الغازي للأرض، حيث تتوفر جسيمات الانعكاس والتشتت فيتضح هذا النور الأبيض الجميل الذي يميز فترة النهار على

الأرض والذي يعطي (بتقدير من الله الخالق) لكل شيء لونه من مثل زرقة السماء، وصفرة الشمس، وبياض أو سواد السحاب، وزرقة ماء البحر وغيرها، وذلك بسبب تحلل هذا النور الأبيض إلى أطيافه السبعة وامتصاص بعضها، وعكس البعض الآخر.

ومعنى ذلك أن النهار هو الذي يجلي لنا الشمس، أي يجعلها واضحة جلية لأحاسيس المشاهدين من أهل الأرض، وليس العكس كما ظل الناس يعتقدون عبر التاريخ، فلولا طبقة النهار ـ وهي المائتي كيلو متر السفلى من الغلاف الغازي الملاصق لسطح الأرض في نصفها المواجه للشمس ـ وما به من كثافة غازية، ورطوبة، وهباءات غبارية ما تجلت لنا الشمس أبداً.، وهذه حقيقة علمية لم يدركها الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء. ولذلك يصف القرآن الكريم النهار بأنه مبصر في أكثر من آية وذلك من مثل قوله (تعالى):

* ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ **(النمل: 86).**

ويصف الصبح بأنه هو الذي يسفر أي ينير وينكشف فيقول (سبحانه):

* ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ **(المدثر: 33، 34).**

ويصف النهار بأنه هو الذي يتجلى فيقول (عز من قائل):

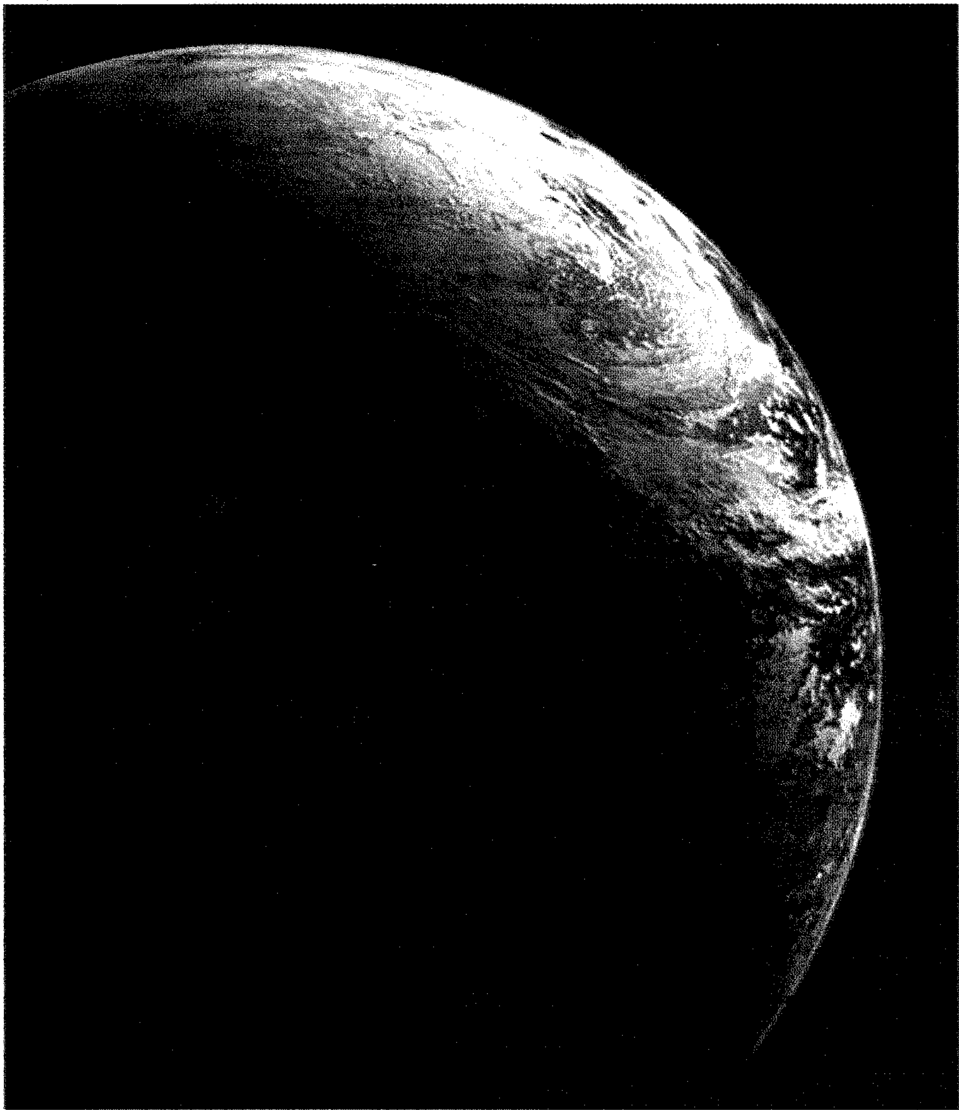
* ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ **(الليل: 1، 2).**

ثانياً: طبيعة أشعة الشمس:

تنتج الطاقة في الشمس من عملية الاندماج النووي لنوى ذرات الإيدروجين حيث تتحد كل أربع ذرات من غاز الإيدروجين لتنتج نواة واحدة من نوى ذرات الهيليوم، ولما كانت كتلة ذرة الإيدروجين تساوي 1.0078 وحدة ذرية فإن كتلة أربع ذرات منها تساوي $4\times1.0078 = 4.0312$ وحدة ذرية.

ولما كانت كتلة ذرة الهيليوم = 4.003 وحدة ذرية. فإن الفرق بين كتلة ذرات الإيدروجين الأربع المندمجة مع بعضها البعض، وكتلة ذرة الهيليوم الناتجة عن هذا الاندماج وهو عبارة عن 0.0282 وحدة ذرية ينطلق على هيئة طاقة مما يشير إلى تساوي كل من المادة والطاقة.

وتبعث هذه الطاقة في كميات متتابعة تسمي الفوتونات (جمع فوتون) في موجات كهرومغناطيسية لاتختلف عن بعضها البعض إلا في طول موجة كل منها ومعدل ترددها،



شكل (169) صورة توضح طبقة النهار المحيطة بنصف الأرض المواجه للشمس وباقي الأرض غارق في ظلام السماء

تعرف باسم أطياف الموجات الكهرومغناطيسية **(Electromagnetic wave spectra)**.

فالطيف الكهرومغناطيسي عبارة عن سلسلة متصلة من مجموعات تلك الأمواج المكونة من الفوتونات والتي لاتختلف فيما بينها إلا في سرعة تردداتها، وأطوال موجاتها. وتتفاوت موجات الطيف الكهرومغناطيسي في أطوالها بين جزء من مليون مليون جزء من المتر بالنسبة

لأقصرها وهي **أشعة جاما**، وبين عدة كيلو مترات بالنسبة لأطولها وهي **موجات الراديو** (أو الموجات اللاسلكية)، ويأتي بين هذين الحدين عدد من الموجات التي تترتب حسب تزايد طول الموجة من القصير إلى الطويل على النحو التالي: **الأشعة السينية**، و**الأشعة فوق البنفسجية**، و**الأشعة المرئية**، و**الأشعة تحت الحمراء**.

أما الإشعاعات المرئية فيتراوح طولها الموجي بين (0.4 و0.7) ميكرون (والميكرون = جزء من مليون جزء من المتر) وتميز عين الإنسان من أطياف الضوء المرئي: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي. والطيف الضوئي في الحقيقة عبارة عن عدد لا نهائي من الألوان المتدرجة في التغير، وإن كانت عين الإنسان لا



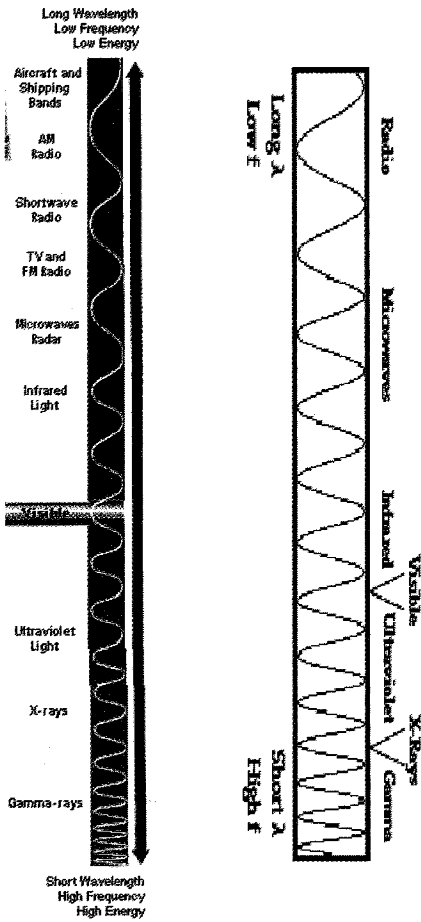
شكل (170) صورة للغبار والرطوبة في الطبقات السفلى من الغلاف الغازي للأرض وهي التي تشتت وتعكس أطياف الضوء المرئي إلى نور النهار الأبيض الذي يجلي لنا الشمس

تستطيع أن تميز منها إلا هذه الألوان السبعة فقط. والطيف الأحمر هو أطول موجات الضوء المرئي وأقلها تردداً، بينما الطيف البنفسجي هو أقصرها وأعلاها تردداً.

والمسافة بين قمتين متجاورتين للموجة يعرف باسم طول الموجة، وعدد مرات ارتفاع وانخفاض الموجة في الثانية الواحدة يعرف باسم تردد الموجة، وحاصل ضرب الرقمين ثابت ويساوي سرعة الضوء (حوالي300،000 كيلو متر في الثانية).

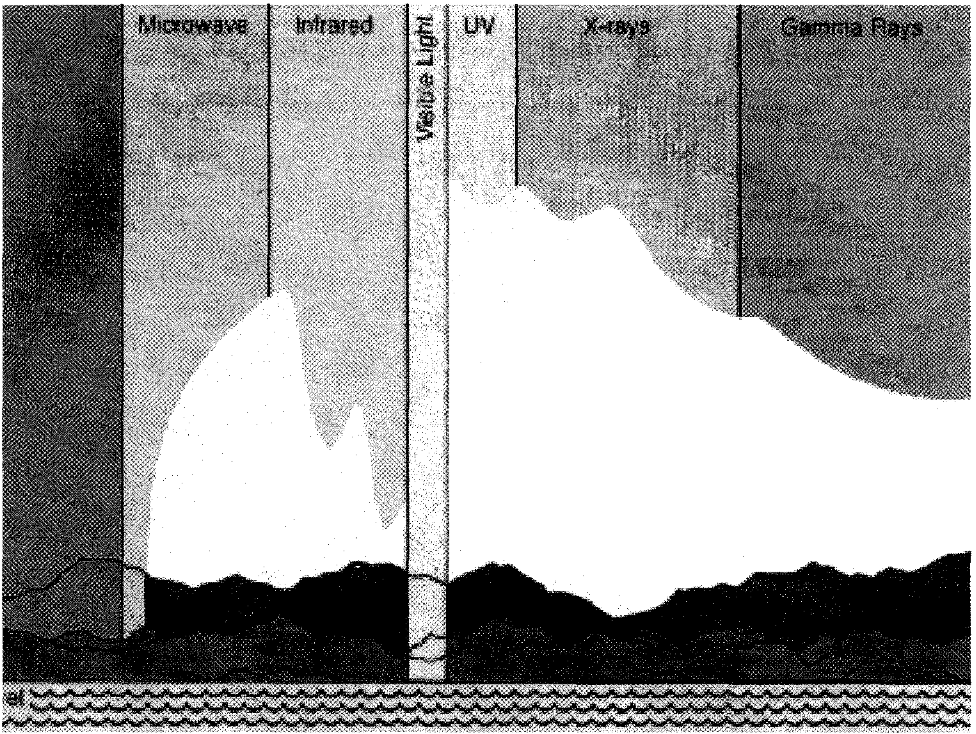
وكل موجات الطيف الكهرومغناطيسي لها صفات الضوء المرئي إلا أنها لا ترى، فهي قابلة للانعكاس، وقادرة على الانكسار وعلى التحرك في الفراغ، (على عكس الموجات الصوتية التي لا تتحرك في الفراغ).

والأشعة الصادرة من الشمس تمثل كل موجات الطيف الكهرومغناطيسي من أقصرها وهي أشعة جاما إلى أطولها وهي موجات الراديو، وأغلبها أشعة غير مرئية لعين الإنسان، وهي متداخلة تداخلاً شديداً مع بعضها البعض ولذلك لا يرى الضوء الأبيض إلا بعد العديد من عمليات الانعكاس والتشتت لأشعة الشمس على ملايين الجسيمات الصلبة والسائلة والغازية الموجودة في الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض من مثل هباءات الغبار، وبخار الماء وقطراته، وجزيئات الغازات المختلفة من مثل النيتروجين والأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون، فالضوء المنظور لابد من انعكاسه وتشتته حتى يمكن لعين الإنسان أن تراه.



شكل (171) يوضح أطوال موجات الإشعاع الكهرومغناطيسي القادم من الشمس وفي وسط حزمة الضوء المرئي

وهنا يتضح لنا جانب من جوانب الإعجاز العلمي في هذا القسم القرآني الذي يقسم فيه ربنا (ﷻ) بالنهار الذي يجلى لنا الشمس فيقول (ﷻ):



شكل (172) امتصاص مختلف أطياف الموجة الكهرومغناطيسية القادمة مع أشعة الشمس في مياه البحار تحدث قدراً من الظلمة فوق قيعان البحار العميقة والمحيطات.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ (الشمس: 3).

لأن الذي يجلي الشمس لعين الإنسان هو كثرة انعكاس الجزء المرئي من الضوء الصادر منها وتشتته على الجسيمات الصلبة والسائلة والغازية الموجودة بتركيز معين في نطاق الجزء الأسفل من الغلاف الغازي للأرض (إلى ارتفاع مائتي كيلو متر تقريبا فوق مستوى سطح البحر) وباقي المسافة بيننا وبين الشمس (والمقدرة بحوالي150 مليون كيلو متر في المتوسط) بل باقي الجزء المدرك لنا من الكون يغرق في ظلام دامس بالنسبة لعين الإنسان التي ترى الشمس خارج نطاق طبقة نور النهار قرصاً أزرقَ في صفحة سوداء. وهذه الطبقة الرقيقة من نور النهار تدور مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وعندما يدخل ضوء الشمس إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض فإنه يتعرض للعديد من عمليات الانعكاس والتشتت، فيعطي لكل شيء لونه الخاص به، وهذا معناه أن النهار هو الذي يجلي لنا الشمس أي يجعلها واضحة جلية لأحاسيس المشاهدين لها من أهل الأرض،

وليست الشمس هي التي تجلي لنا النهار كما كان يعتقد كل الناس عبر التاريخ حتى بدء رحلات الفضاء في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

وعلى ذلك فإن هذه الآية وحدها تكفي لإقامة الحجة على أهل عصرنا ـ عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه ـ بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بحفظه وإرادته وقدرته، بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، محتفظاً بروعة أسلوبه وجمال آياته، وضبط حروفه وكلماته، وسمو دعوته، ووضوح إشراقاته بجلال الربوبية المتلألئة بين كلماته، وبصدق حديث الخالق عن خلقه، وبكمال ما جاء به من دين، ودقة ما رواه من سير الأولين، وتحقق نبوءاته، وروعة وقعه على أسماع وعقول وقلوب المستمعين، وجميل خطابه إلى كل ذي عقل سليم..!!

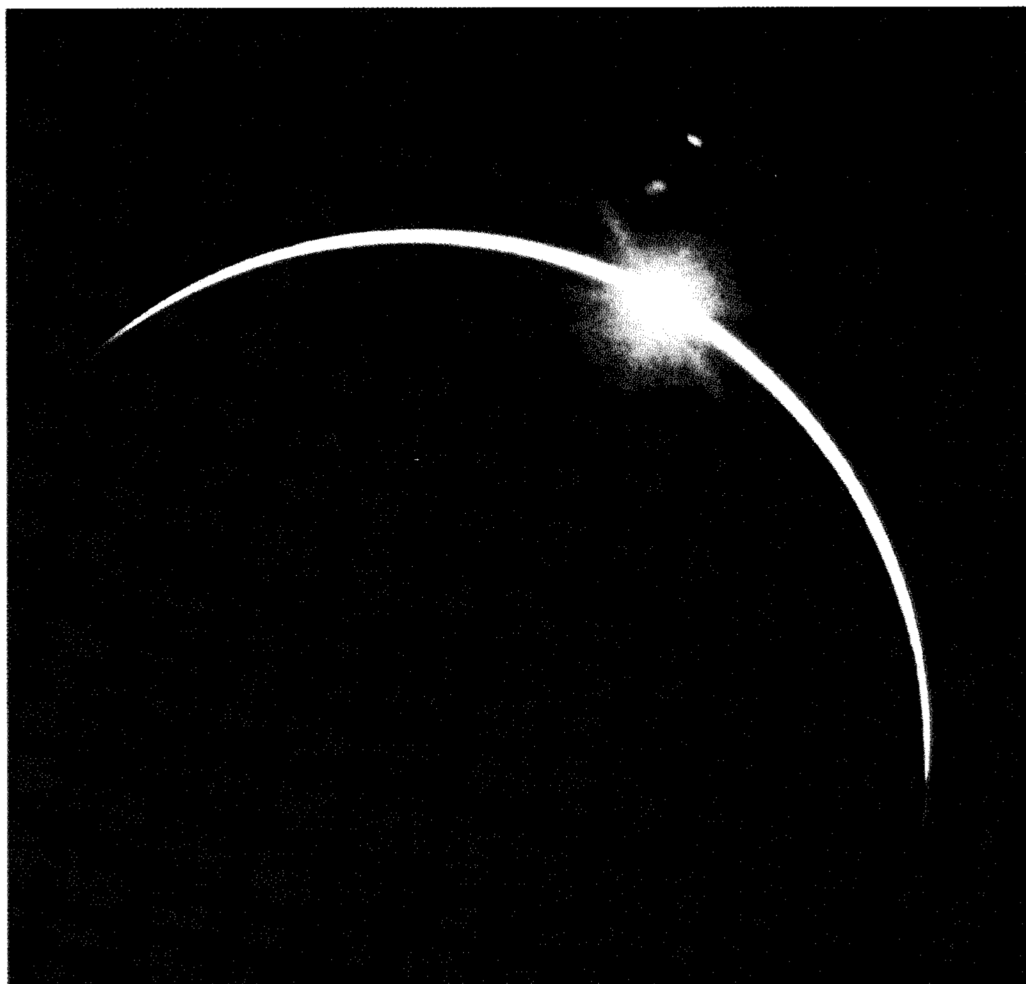
وقد جاء كل ذلك في زمن لم يكن للإنسان فيه نصيب من العلم الكوني، وفي بيئة لم يتوافر فيها شيء من ذلك، وقد ظل العالم لقرون طويلة لا يعرف حقيقة أن النهار هو الذي يجلي لنا الشمس حتى بدأت رحلات الفضاء في تجلية ذلك وفهم العلماء طبيعة المادة ومساواتها بالطاقة، وبناء المركبات من جزيئات المادة، وبناء الجزيئات من الذرات، وبناء الذرة من نواة في الوسط تحمل أغلب كتلة الذرة وفيها الجسيمات الموجبة (البروتونات) والمتعادلة (النيوترونات) ويدور حولها عدد مكافىء من الجسيمات السالبة (الإليكترونات)، ويتكون كل جسيم من هذه الجسيمات من لبنات بناء أقل عرفت باسم اللبنات الأولية للمادة التي بدأ اكتشافها يتوالى حتى تم اكتشاف جسيمات كسرية الشحنة يعرف أحدها باسم الكوارك، وتم اكتشاف تلك الكواركات **(Quarks)** في منتصف الستينيات من القرن العشرين، ثم في سنة 1984 م تم اقتراح نظرية الأوتار الفائقة **(The Superstrings Theory)** والتي تفترض أن اللبنات الأولية للمادة تتكون من أوتار متناهية الضآلة، فائقة الدقة، سريعة الاهتزاز وذلك في محاولة لتوحيد القوى الثلاث في الذرة وهي القوة الكهرومغناطيسية، والقوة النووية الشديدة والضعيفة، وهناك آمال عريضة لدى علماء العصر في ضم قوى الجاذبية إلى هذه القوى الثلاث في قوة واحدة تعبر عن وحدة البناء في الكون، ومن ثم تشهد بوحدانية الخالق الأعظم.

ونظرية الأوتار فائقة الدقة التي تصور اللبنات الأولية للمادة على أنها مكونة من أوتار متناهية الضآلة في الحجم، فائقة الدقة في الحركة والاهتزاز، تصور تلك الجسيمات على هيئة حلقات من أوتار رنينية دقيقة جداً بدلاً من أن تكون على هيئة نقاط مادية، وأن

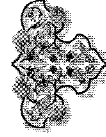
الاهتزازات الرنينية المختلفة لتلك الأوتار هي التي تحدد ملامح الجسيم الأولى للمادة من حيث الكتلة والشحنة، وهي بذلك تؤكد التساوي بين المادة والطاقة وتعتبرهما وجهان لعملة واحدة تؤكد الزوجية في الخلق كما تؤكد وحدانية الخالق العظيم. وتدعم تحول المادة في قلب الشمس إلى طاقة، وانبثاق تلك الطاقة على هيئة أطياف من الموجات الكهرومغناطيسية المتداخلة والتي تتحلل في النطاق السفلى من الغلاف الغازي للأرض فتعطينا هذا النور الأبيض الجميل الذي يشق ظلمة الليل وينير نهار الأرض ويجلي لنا الشمس.

فسبحان الذي أنزل هذه الآية القرآنية المعجزة ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

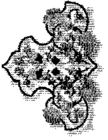
التي تؤكد أن فترة النهار التي تعتري نصف الأرض المواجه للشمس بسمك لا يتعدى المائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر بما فيها من هباءات الغبار، والرطوبة، وكثافة الغازات، هي التي تعكس موجات الضوء المنظور من أشعة الشمس وتشتته فيظهر لنا بهذا النور الأبيض المبهج ويجلي لنا الشمس. وهي حقيقة استغرقت جهود الآلاف من العلماء والعديد من القرون حتى أمكن لعدد قليل من العلماء أن يتعرفوا عليها، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذا الوضوح القطعي لمما يجزم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من تبع هداه ودعا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



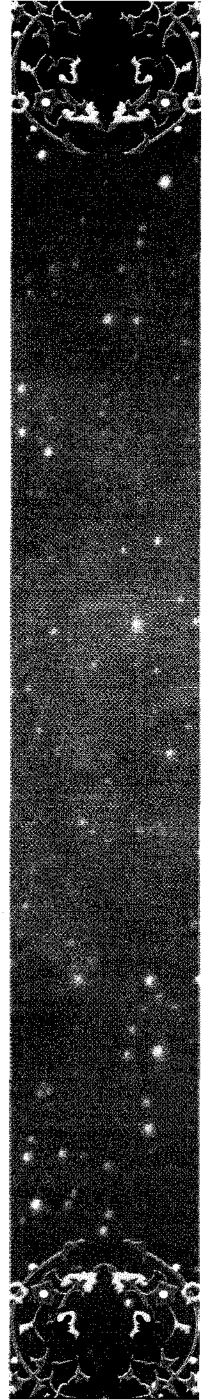




(26) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾



(الشمس: 4)



هذه هي الآية الرابعة بعد البسملة في سورة الشمس، وهي السورة التي استهلها ربنا (تبارك وتعالى) بالقسم بالشمس وبأربع من صفاتها المميزة فقال (عز من قائل):

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ (الشمس: 1 ـ 4).

وسورة الشمس سورة مكية، يدور محورها حول ضرورة تزكية النفس الإنسانية بالتعرف على خالقها ورازقها ومدبر أمرها، والخضوع له (تبارك وتعالى) وحده بالعبادة الخالصة (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد)، وبالطاعة لأوامره، واجتناب نواهيه، والاجتهاد في عمارة الأرض، وإرساء القواعد الأساسية لإقامة عدل الله فيها، وهذا هو مفتاح الفلاح في الدنيا، ومفتاح النجاة في الآخرة، لأن الإنسان إذا لم يجتهد في تزكية نفسه بهذا المنهج الرباني، أغواه الشيطان باتباع الهوى، والإغراق في إشباع الشهوات، والانصراف عن معرفة الله، وعن فهم حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة، فيضل ويشقى كما يشقى غيره، ويظل كذلك حتى يدركه الموت ولم يحقق شيئاً من رسالته في هذه الحياة الدنيا، فيكون بذلك قد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

فالإنسان مخلوق ذو إرادة حرة يختار بها طريقه في هذه الحياة إما إلى الخير أو إلى الشر، وعلى أساس من هذا الاختيار يكون نجاحه أو فشله في الدنيا، ونجاته أو هلاكه في الآخرة، ومن طبائع النفس الإنسانية، ومن استعداداتها الفطرية قبولها للخير أو للشر بإرادة مطلقة، واختيار حر، يعقبهما حساب عادل دقيق، ولذلك يستمر القسم في

سورة الشمس بأربع آيات أخر من آيات الله في الآفاق والأنفس على صدق هذه الحقيقة فيقول ربنا (تبارك وتعالى):

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ (الشمس: 5 ـ 8).

ثم يأتي جواب هذا القسم المغلظ واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار يقول فيه الخالق (سبحانه وتعالى):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (الشمس: 9، 10).

وهاتان الآيتان الكريمتان تلخصان رسالة الإنسان في هذه الحياة: عبداً لله (تبارك وتعالى) يعبده بما أمر، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، بإقامة عدل الله فيها حتى يلقى الله (تعالى) وهو راضٍ عنه، لأن حياته تكون بذلك ترجمة دقيقة لما أمر به ربنا (تبارك وتعالى) من الإيمان الصادق والعمل الصالح. ولا يمكن أن يتحقق ذلك للإنسان إلا بالتعرف على دين الله من مصادره الربانية الخالصة التي لم يداخلها أدنى قدر من العبث الإنساني، أو التقول على الله بالتحريف والتبديل والتغيير في الدين الذي أنزله لعباده، ولا يتوفر ذلك لإنسان اليوم إلا في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وقد تعهد الله (تبارك وتعالى) بحفظهما فحفظا في صفائهما الرباني، وإشراقاتهما النورانية في الوقت الذي تعرضت فيه كل صور الوحي السابقة إما للضياع التام أو للتحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية البشرية.

وبعد تعرف الإنسان على هذا الحق الرباني عليه أن يلزم نفسه بأوامر الله، وأن يجنبها نواهيه في عملية مستمرة من التزكية لهذه النفس الإنسانية، ومن محاسبتها أولاً بأول، حتى يصل صاحبها إلى تحقيق مرضاة الله فيفلح في الدنيا، وينجو من أهوال الآخرة، لأنه إذا لم يفعل ذلك فإنه سوف يترك نفسه على هواها و ...﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ ..(يوسف: 53) فيغرق في بحور من ضلال الكفر أو الشك أو الشرك، أو الفساد والنفاق وسوء الأخلاق، والانحراف عن منهج الله في الحياة، فيخيب ويشقى ويشقى غيره في الدنيا، ويخسر ويهلك في الآخرة وهذا هو الخسران المبين..

وللتحذير من هذا المصير الوخيم تشير سورة الشمس إلى قصة ثمود قوم نبي الله صالح (على نبينا الكريم وعليه وعلى أنبياء الله أجمعين من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، وقد بغوا وطغوا في الأرض وعصوا أمر ربهم، وكذبوا رسول الله إليهم، وعقروا الناقة التي جعلها الخالق (سبحانه وتعالى) لهم آية ومعجزة واختباراً فشلوا فيه، فحق عليهم عقاب الله

ونكاله، وفي ذلك جاءت الآيات في ختام السورة الكريمة بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ (الشمس: 11 ـ 15).

فالله تعالى لا يخشى عقبى قرار يتخذه لأنه أولاً وقبل كل شيء هو رب هذا الكون ومليكه، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، وهو تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء: 23)، ثم إن قراره (ﷻ) هو العدل المطلق الذي لا يخالطه أدنى قدر من الجور أو الظلم، ولذلك ختمت سورة الشمس بالقرار الإلهي:

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

وفي الصفحات السابقة عرضنا لجوانب من الإعجاز العلمي في الآيات الثلاث الأولى من سورة الشمس، ونعرض هنا لشيء من تلك الجوانب في الآية الرابعة التي نحن بصددها، وقبل الدخول إلى ذلك لابد من التعرض للدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة ولأقوال عدد من المفسرين السابقين في شرح معانيها.

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة:

* **(الليل)** واحد بمعنى جمع، وواحدته (ليلة) وقد جمع على (ليالٍ) فزادوا فيها الياء لتصبح (ليالي) على غير قياس، كما فعلوا في أهل وأهالٍ فصيروها أهالي، ويجمع (ليل) على (ليائل) و(ليلة) على (ليلات) ويقال: (ليل لائل) و(ليلة ليلاء) وأصلها (ليلاة) للتعبير عن الطول وشدة الظلمة، ويقال: (لايله ملايلة) أي عامله (بالليلة) مثل قولهم مياومة أي باليوم.

* و(الليل) هو الفترة الزمنية من اليوم الممتدة من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق كما حدده القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿... وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ...﴾ (البقرة: 187).

وإن كان غير المسلمين يحددون الليل بالفترة الممتدة بين غروب الشمس وشروقها.

* يأتي الفعل (غشي) (غشياً) و(غشاية) و(غشاوة) و(غشاء) و(غشياناً) و(تغشيةً) بمعنى غطي وستر. لأن (الغشاء) هو الغطاء الرقيق، وكذلك (الغشوة) والجمع (غواش). يقال: (غشيه) و (تغشاه) و (غشيته) كذا أي: غطيته به، و (أغشاه) إياه غيره، ويقال: (استغشى) بثوبه

و (تغشى) به أي تغطى به، كما يقال: (غشيه) (غشياناً) بمعنى جاءه، يقال: (غشيت) موضع كذا أي أتيته، و (غشيه) بالسوط بمعنى ضربه به، و(الغاشية) هي القيامة لأنها تغشي الخلائق بأفزاعها، و(الغاشية) أيضاً هي (غاشية) السرج أي غطاؤه، ويقال: (غُشِيَ) عليه (غشيةً) و(غشياً) و(غشياناً) فهو (مغشي) عليه أي غائب عنه وعيه، أو قد حجب عنه عقله وإدراكه.

الليل في القرآن الكريم

ورد ذكر الليل في القرآن الكريم في اثنين وتسعين (92) موضعاً، منها ثلاثة وسبعون (73) بلفظ الليل، وثمانية (8) بلفظ ليلة، وخمسة (5) بلفظ ليلاً، وثلاثة (3) بلفظ ليال، ومرة واحدة بكل من الألفاظ الثلاثة (3) ليل، وليلها، وليالي.

وفي أغلب هذه المواضع يمن علينا ربنا (تبارك وتعالى) بتبادل الليل والنهار، لما في ذلك من استقامة للحياة على الأرض، وعون للإنسان على تحديد الزمن، وتأريخ الأحداث المتتابعة، لأنه بدون ذلك التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير يتلاشى إحساس الإنسان بمرور الزمن، وتتوقف قدرته على متابعة الأحداث والتأريخ لها. فالليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق، تشهدان على دقة بناء الكون، وانتظام حركة الأرض حول محورها أمام الشمس، وعلى حكمة ميل هذا المحور من أجل تبادل الفصول المناخية على الأرض، في ظل تبادل الليل والنهار بانتظام دقيق، وإحكام بالغ.

والتبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير على نصفي الكرة الأرضية هو من الضرورات اللازمة لاستقامة الحياة على سطحها، فبهذا التبادل يتم التحكم في كل من درجات الحرارة، والرطوبة، وكميات الضوء اللازمة لمختلف الأنشطة الحياتية من مثل التنفس والنتح، والتمثيل الضوئي، والأيض وغيرها، وتكفي في ذلك الإشارة إلى نشاط الغدة الصنوبرية بالليل في إنتاج أحد الهرمونات الهامة لحياة الإنسان ألا وهو هرمون «الميلاتونين» بالليل، وتوقفها عن ذلك بالنهار، وهذا الهرمون يلعب دوراً هاماً في المحافظة على جسد الإنسان لأنه من مضادات الأكسدة **(Anti-Oxidants)** فيقلل من فرص التعرض لأمراض القلب والشرايين بالتقليل من فرص تجلط الدم، ويعمل على المحافظة على الخلايا العصبية وخلايا الدماغ، كما يعمل على تقوية جهاز المناعة بالجسم، ويؤخر ظهور آثار الشيخوخة عليه، ويبدو أن التعرض لطاقة الشمس بالنهار يزيد من قدرة الغدة الصنوبرية على إفراز هرمون «السيروتونين» بالنهار وعلى إفراز الميلاتونين بالليل، بينما تعرض الإنسان بالليل للأضواء الاصطناعية لا يساعد على إنتاج السيروتونين ويثبط من قدرة هذه الغدة على

إفراز الميلاتونين الذي تتناقص معدلات إنتاجه بزيادة شدة الضوء الذي يتعرض له الإنسان، وتزيد تلك المعدلات كلما اشتد الظلام.

ومن بديع صنع الله في جسم الإنسان أنه بمجرد أن تلتقط عيناه شعاع النور في النهار ترسل رسالة إلى الساعة الحياتية في جسده عن طريق جهازه العصبي فيتوقف إنتاج الميلاتونين، ويبدأ الجسد في إنتاج غيره من الهرمونات ـ مثل هرمون النهار المعروف باسم «السيروتونين»، وتنعكس هذه العملية مباشرة بمجرد غياب الشمس، ومن هنا يتضح جانب من الجوانب الكثيرة لأهمية تعاقب الليل والنهار، والتي لا يمكن حصرها في هذه العجالة.

كذلك فإنه بهذا التعاقب يتم ضبط التركيب الكيميائي للغلاف الغازي المحيط بالأرض، وضبط دورة الماء بين الأرض والسماء، وتنظيم حركة كل من الرياح، والسحب، وتوزيع المناخ، ونزول الأمطار بإذن الله وحسب مشيئته.

وبتبادل درجات الحرارة بين الليل والنهار يتم تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة الصالحة للإنبات، والصخور الرسوبية ومابها من مختلف الثروات الطبيعية، وغير ذلك من العمليات والظواهر الأرضية التي بدونها لم يكن ممكناً للأرض أن تكون صالحة لاستقبال الحياة.

وفي مقدمة تلك العمليات توزيع مايصيب الأرض من الطاقة الشمسية، أثناء النهار على كافة أرجاء هذا الكوكب بالنسبة الملائمة لعمران كل منها، وتوفير القدر الكافي من الظلمة لاستكمال أسباب الراحة والهدوء والسكينة أثناء الليل، وهي من ضرورات استمرارية الحياة لكل من الإنسان والحيوان والنبات.

من أجل ذلك كله، ومن أجل تنبيهنا إلى عظيم أهميته، وإلى عميق دلالته على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة لهذا الكون أقسم ربنا (تبارك وتعالى) وهو الغني عن القسم بالليل والنهار، وبتبادلهما، وتعاقبهما، واختلافهما، وإيلاج كل منهما في الآخر، وإدبار أحدهما لاستقبال الآخر، وبجعل كل منهما خلفة للآخر، وتقليبه على الآخر، وإغشاء أحدهما بالآخر، وطلب أحدهما للآخر، وكلها إشارات ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس، وسبحها في مدارها حول هذا النجم العظيم، وعلى رقة طبقة النهار بالنسبة إلى الظلمة الشاملة للجزء المدرك من الكون، وكلها من الحقائق التي لم يدركها الإنسان إدراكاً كاملاً إلا بانتهاء القرن العشرين، ولايزال نفر كثير من بني الإنسان لا يعرف شيئاً عنها أو ينكرها إذا سمع بها...!!.

وهذا السبق القرآني بهذه الحقائق الكونية وبالعديد من غيرها لمِمّا يجزم بأن القرآن

الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ليكون هداية للبشرية منذ نزوله وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولذلك يمن علينا ربنا تبارك وتعالى ـ وهو صاحب الفضل والمنة بتبادل الليل والنهار في عدد كبير من آيات القرآن الكريم نختار منها قوله (عز من قائل):



شكل (173) يوضح كيف أن ظلمة ليل الكون ورقة طبقة النهار تجعلان الشمس تبدو قرصاً أزرق في صفحة سوداء بعد اجتياز طبقة النهار.

* ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ (يونس: 6).

وقوله ﷻ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ (النور: 44).

وقوله (تبارك اسمه):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ (الفرقان: 62).

وقوله (سبحانه):

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ (القصص: 71 ـ 73).

وآيات القرآن الكريم تفرق في وضوح تام بين ليل الأرض وليل السماء، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا بعد رحلات الفضاء. فحينما يقول ربنا (تبارك وتعالى):

﴿... يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ ...﴾ (الزمر: 5).

أو يقول (عز من قائل):

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣﴾ (الروم: 23).

والآيات الأخرى الكثيرة التي تتعلق بالأرض وحركاتها، ويستعاض عن الأرض فيها بذكر الليل والنهار فإن المقصود بالليل فيها هو ليل الأرض، ولكن في سورة النازعات تأتي الإشارة إلى ليل آخر هو ليل السماء الذي يصفه الحق (سبحانه) بقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾ (النازعات: 27 ـ 29).

وضمير الغائب في كلمة (ليلها) الواردة في الآية رقم (29) من سورة النازعات عائد على السماء حقاً، وأغطش ليلها أي أظلمه ـ من الغطش وهو العمش، أو التعامي عن الشيء، ولذلك يقال: (فلاة غَطْشَاء، وغطيش، وغطشى أي لا يهتدى فيها، واستعير ذلك للظلمة التي لا يهتدى فيها لشيء.

ومعنى الآية الكريمة أن الله (تبارك وتعالى) قد جعل السماء حالكة السواد من شدة إظلامها، فهي في ليل دائم سواء اتصل ليلها بليل الأرض - في نصف الكرة الأرضية التي يعمها الليل - أو انفصل ليل السماء عن الأرض بطبقة النهار في نصف الأرض المواجه للشمس، وذلك لأن هذه الطبقة لا يتعدى سمكها مائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر، فإذا قيست بالمسافة المتوسطة بين الأرض والشمس والمقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون كيلو متر، أو بنصف قطر الجزء المدرك من الكون والمقدر بأكثر من عشرة بلايين من السنين الضوئية اتضح مدى رقة طبقة نور النهار على نصف الأرض المواجه للشمس إذا قورن بظلمة الكون أو بما سماه القرآن الكريم باسم «ليل السماء».

كذلك فإننا نجد في لفظة (ضحاها) الواردة في نفس الآية الكريمة رقم (29) من سورة النازعات والتي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالى): ..﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أن ضمير الغائب يعود على السماء، ويصبح ضحى الأرض هو ضحى السماء، وهي هنا النطاق السفلي من الغلاف الغازي للأرض إلى ارتفاع مائتي كيلو متر من مستوى سطح البحر المحيط بنصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، والذي ينعكس فيه ضوء الشمس ويتشتت على ملايين الجسيمات الصلبة والسائلة والغازية في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض من مثل هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات النيتروجين والأوكسجين وثاني أكسيد الكربون وغيرها، فيتحول الجزء المرئي من موجات الطاقة القادمة من الشمس إلى هذا النور الأبيض المبهج وما يصاحبه من دفء في نهار الأرض، فتدركه أحاسيس المشاهدين من أهلها.

والضحى في الأصل هو انبساط الشمس في الجزء الشرقي من سماء الأرض وامتداد النهار إلى ما قبل الظهيرة، ثم سمي به الوقت المعروف باسم صدر النهار، حين ترتفع الشمس (في حركتها الظاهرية الناتجة عن دوران الأرض حول محورها)، ويظهر نور النهار جلياً للعيان في نصف الأرض المواجه للشمس، بينما يبقى معظم الكون غارقاً في ليل السماء الذي يلتقي بليل الأرض في نصف الأرض البعيد عن مواجهة الشمس، وكذلك الحال بالنسبة لكواكب السماء التي لها غلاف غازي مقارب إلى الغلاف الغازي للأرض.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تبارك وتعالى): ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾

* ذكر ابن كثير (رحمه الله رحمة واسعة) ما مختصره: «... وقالوا في قوله (تبارك وتعالى): ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ يعني إذ يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق...».

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه: «﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ يغطيها بظلمته، و (إذا) في الآيات الثلاثة لمجرد الظرفية (فلا تفيد الشرطية)، والعامل فيها فعل القسم (المقدر: أقسم)».

* وجاء في الظلال (رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) مانصه: «... والتغشية هي مقابل التجلية. والليل غشاء يضم كل شيء ويخفيه، وهو مشهد له في النفس وقع، وله في حياة الإنسان أثر كالنهار سواء».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (على صاحبه من الله الرحمات) ما نصه: «... أي يغشى الشمس فيغطي ضوءها، أو يغشي الدنيا بظلمته».

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله جميعاً خير الجزاء) ما نصه: «وبالليل إذا يغشى الشمس، فيغطي ضوءها».

* وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبها خيراً) ما نصه:

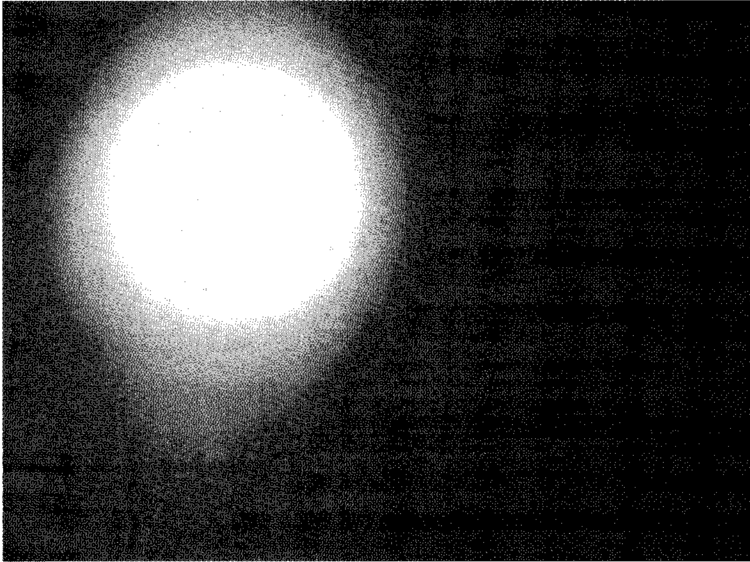
«. . . أي وأقسم بالليل إذا غطى الكون بظلامه، ولفه بشبحه، فالنهار يجلي المعمورة ويظهرها، والليل يغطيها ويسترها...».

الدلالة العلمية للآية الكريمة

السياق القرآني الكريم في مطلع سورة الشمس واضح الدلالة على أن ضمير الغائب في الآيات الأربع الأولى من هذه السورة المباركة يعود على الشمس، وكان هذا واضحاً للمفسرين السابقين من الناحية اللغوية دون أدنى شك، ولكن صعوبة فهم كيفية تجلية النهار للشمس، وكيفية غشيان الليل لها دفع بعدد من المفسرين إلى نسبة ضمير الغائب في الآيتين الثالثة والرابعة إلى الأرض أو إلى السماء أو إلى الكون، وذلك لأن الناس منذ الأزل يؤمنون بأن الشمس هي التي تجلي النهار، ولم يكن أحد من الخلق يتصور إمكانية أن يكون النهار هو الذي يجلي الشمس...!! ولكن بعد ريادة الفضاء اتضح للعلماء أن طبقة النهار التي تحيط بنصف الكرة الأرضية المواجه للشمس هي طبقة رقيقة جداً لا يتعدى سمكها المائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر، وإذا قورن هذا السمك بطول المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس والمقدرة بحوالي المائة والخمسين مليون كيلو متر في المتوسط اتضحت لنا الرقة الشديدة لطبقة النهار الأرضي وتحركها باستمرار مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وجرياً معها في مدارها حول هذا النجم...!! كذلك إذا قورن سمك طبقة النهار الأرضي بنصف قطر الجزء المدرك لنا من الكون (والمقدر بأكثر من عشرة بلايين من

السنين الضوئية) زاد إحساسنا بضآلة سمك طبقة النهار (على أهميتها البالغة)، وثبت لنا أن الأصل في الجزء المدرك لنا من الكون هو الإظلام التام بالنسبة للإنسان، ومعنى ذلك أن ضوء الشمس لا يرى بواسطة الإنسان إلا في طبقة النهار الأرضي الرقيقة حيث يتم انعكاس وتشتت هذا الضوء على ملايين الهباءات من الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات النيتروجين والأوكسجين وثاني أكسيد الكربون وغيرها من مكونات هذا الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض.

ولما كانت هذه المكونات تتضاءل كمًّا وكثافة حتى تكاد أن تتلاشى، وذلك بالارتفاع في الغلاف الغازي للأرض لأكثر من مائتي كيلو متر، فإن الشمس ترى بعد هذا الارتفاع على هيئة قرص أزرق في صفحة سوداء وكذلك النجوم، والسبب في ظلمة الكون ـ كما سبق وأن أشرنا ـ يرجع إلى أن ما نراه في صفحة السماء هو صورة لأزمنة قديمة، ترتد إلى الأقدام كلما امتدت رؤيتنا إلى مسافات أبعد عن الأرض، ويمتد هذا القدم إلى أكثر من عشرة آلاف مليون سنة مضت (وهو أقل تقدير لعمر الجزء المدرك من الكون). ولما كان هذا الكون مستمراً في الاتساع منذ اللحظة الأولى لانفجاره، وإلى نهاية لا يعلمها إلا الله فإن الضوء الواصل إلينا من المواقع المرئية لنجوم السماء هو ضوء قديم انطلق أصلاً من قبل عدة ملايين من السنين حتى وصل إلينا، وعانى في رحلته إلينا العديد من الانزياح إلى الطيف الأحمر بسبب استمرار تباعد تلك النجوم عنا بعملية توسع الكون، والضوء لواحد من صور الطاقة يفقد جزءاً من طاقته مع تقادم الزمن، ومع تكرار انزياحه إلى الطيف الأحمر،



شكل (174) عندما يأتي الليل تلتحم ظلمة الأرض مع ظلمة السماء فيغشى الليل الشمس فلا ترى

ومن هنا سادت الظلمة كوننا. وبذلك ثبت لنا أن الأصل في الكون هو الإظلام، وأن نور النهار هو نعمة من الله الخالق مَنَّ بها على عباده وخلقه من أهل الأرض، وأن فترة النهار على الأرض وهي فترة المواجهة مع الشمس هي التي تجلي لنا الشمس بما تحدثه من تردد انعكاس ضوء الشمس وتشتيته على ما بها من بلايين الجسيمات الصلبة والسائلة والغازية في الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض، ولولا ذلك ما كان نور النهار، ولا أمكن للإنسان أن يرى الشمس التي لا يجليها لنا بأمر ربها إلا طبقة النهار في الغلاف الغازي للأرض، وهذه حقائق لم يمكن إدراكها إلا بعد رحلات الفضاء التي ابتدأت منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة عام على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي زمن لم يكن لأحد من الخلق إدراك لتلك الحقيقة لمما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، كما يشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

ولكون الإظلام هو الأمر السائد في السماء، فقد وصفه ربنا (تبارك وتعالى) باسم ليل السماء تمييزاً له عن ليل الأرض فقال (عز من قائل): ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾

(النازعات: 27 ـ 29).

وضمير الغائب في كل من اللفظين (ليلها) و (ضحاها) عائد على السماء كما أسلفنا، وعلى ذلك فالسماء في ليل دائم، وهو ليل مختلف عن ليل الأرض وإن اتصلا على نصف الأرض البعيد عن مواجهة الشمس، وينفصل ليل السماء عن الأرض بطبقة نور النهار الرقيقة التي تعتبر في بدء تكونها ضحى للأرض، وهي في نفس الوقت ضحى للسماء. ولذلك قال ربنا (تبارك وتعالى) في سورة النازعات ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾

وقال في سورة الشمس: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾

والليل في الآيتين هو ليل السماء لأنه هو الذي يغشى الشمس ويظلم السماء، أما ليل الأرض فلا علاقة له بإغشاء الشمس لأنه يمثل ظل نصف الأرض المواجه للشمس، وإن اتصل بظلمة السماء. فليل الأرض هو الفترة الزمنية من الإظلام التي تعتري نصف الأرض البعيد عن مواجهة الشمس من لحظة غروبها إلى طلوع الفجر الصادق، وهو إظلام مؤقت متحرك مع حركة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، أما ليل السماء فهو إظلام دائم يبدو فيه موقع الشمس قرصاً باهت الزرقة في صفحة سوداء حالكة السواد، وكذلك تبدو مواقع النجوم على هيئة نقاط متباعدة باهتة الزرقة في صفحة سوداء، والسبب في ذلك هو التناقص الشديد في كثافة المادة بين الكواكب وفيما بينها وبين الشمس، والمادة بيننا وبين

الشمس عبارة عن خليط من الغازات الخفيفة والمفككة والمتأنية من مثل غاز الإيدروجين المتأين (على هيئة بروتون موجب وإليكترون سالب منفصلين عن بعضهما) وكذلك نوى بعض ذرات الهيليوم وبعض الجسيمات الصلبة من الغبار المتناهي الدقة، وتقدر كثافة المادة بين الأرض والشمس بحوالي جزء من مائة ألف مليون مليون جزء من الجرام للسنتيمتر المكعب (10^{-23} جرام/ سم3) إلى مائة ضعف ذلك أي جزء من ألف مليون مليون جزء من الجرام للسنتيمتر المكعب (10^{-21} جرام/ سم3) على الرغم من وجود كمية ضئيلة من الهباءات الترابية المتناهية الدقة.

من هنا يغشى ليل السماء الشمس كما يغشى ليل الأرض ويلتحم به، ومن هنا كانت هذه الإشارة المعجزة في سورة الشمس والتي يقسم فيها ربنا (تبارك وتعالى) وهو الغني عن القسم بالليل إذا يغشى الشمس، وهو هنا ليل السماء لأن ليل الأرض أبعد من أن يطول الشمس وإن التحم بليل السماء.

هذه الحقائق لم تتوصل إليها العلوم المكتسبة إلا بعد ريادة الفضاء في منتصف الستينيات من القرن العشرين، وورودها في القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه الدقة والإحاطة التي تؤكد ظلمة الكون في عدد غير قليل من الآيات، كما تؤكد رقة طبقة النهار، ووضوح الشمس فيه، وتمايز بين كل من ليل الأرض وليل السماء، وتؤكد أن الذي يغشى الشمس هو ليل السماء، وأن الذي يجليها هو نهار الأرض، وتساوي بين ضحى الأرض وضحى السماء، وتجعل منهما شيئاً واحداً، وتجمع بين ليل الأرض وليل السماء، وتجعل منهما شيئاً متواصلاً كل ذلك آيات بينات لكل ذي بصيرة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن الرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فسبحان الذي أنزل القرآن.. أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وسبحان الذي حفظه على مدى هذه القرون الأربعة عشر بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأبقى لنا فيه من جوانب الإعجاز ما لا يحصى ولا يعد، وما يمكنه من محاجة أهل كل عصر، وأن يخاطبهم بما برعوا فيه ويقيم الحجة عليهم مهما اتسعت دوائر معارفهم، وتشعبت تخصصاتهم.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والصلاة والسلام تامان أكملان على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تلقى هذا الوحي الخاتم فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح البشرية، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فنسأل الله (تبارك وتعالى) أن يجزيه خير ما جزى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن تبليغ رسالته... اللّهم آمين... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(27) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

(يونس: 5)

هذه الآية الكريمة جاءت في بدايات «سورة يونس»، وهي سورة مكية، آياتها 109 بدون البسملة، وقد سميت باسم نبي الله يونس (على نبينا وعليه من الله السلام) وذلك لورود ذكره، وذكر قومه، وقبول الله لتوبتهم، ورفعه العذاب عنهم بعد أن كاد يقع بهم، وفي ذلك دعوة للعاصين أن يتداركوا أنفسهم بتوبة نصوح إلى رب العالمين قبل فوات الآوان...!!

والمحور الرئيسي للسورة يدور حول قضية الإيمان بالله رباً، واحداً، أحداً، فرداً صمداً، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، والإيمان بالإسلام ديناً واحداً، أنزله الله تعالى على فترة من الرسل، وأتمه وأكمله في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وعلى ذلك لا يكمل إيمان العبد بالله حتى يؤمن بنبوة هذا الرسول الخاتم وبرسالته، وبالكتاب الذي أنزل إليه، وبكافة كتب الله السابقة ورسله وأنبيائه، وبالبعث، والحساب، والجنة والنار، وكلها من ركائز العقيدة الإسلامية.

وتؤكد «سورة يونس» أن الإيمان بالقرآن الحكيم هو ركيزة الركائز في قضية الدين، وذلك بصفته آخر الكتب السماوية، وأتمها، وأكملها، والكتاب الوحيد من بينها الذي تعهد ربنا (تبارك وتعالى) بحفظه فحفظ كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً بنفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وبقي على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله (تبارك وتعالى)

الأرض ومن عليها سليماً من أي تحريف أو تغيير، ليبقى معجزة هذه الرسالة الخاتمة إلى قيام الساعة..!!!

واستهلت سورة يونس بالحروف المقطعة الثلاث ﴿الٓر﴾، والحروف المقطعة التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم وتضم أسماء نصف عدد حروف الهجاء العربية الثمانية والعشرين، تعتبر من أسرار القرآن الكريم التي لم تكتشف بعد، على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلت من أجل فهم دلالاتها، وإن اكتفى البعض بتفويض الأمر فيها إلى الله.

وبعد هذا الاستهلال تشير سورة يونس إلى القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ **(يونس: 1).**

ثم تتعجب الآيات من استنكار كفار مكة لاختيار الله (تعالى) لرجل منهم كي يحمل رسالة الله الخاتمة إليهم وإلى العالمين، فاتهموه (شرفه الله تعالى) بالسحر، تماما كما يتهمه كفار اليوم وملاحدته ومشركوه.

وتؤكد «سورة يونس» أن إرسال الرسل وإنزال الرسالات هي سنة من سنن الله في خلقه، وفي ذلك يقول ربنا سبحانه في سورة فاطر مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ **(فاطر: 24).**

وتؤكد السورة الكريمة أن الله (تبارك وتعالى) هو خالق السمٰوات والأرض، وخالق كل شيء، ومن ثم فهو سبحانه وتعالى المستحق للخضوع له بالعبادة والطاعة وحده (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد) لأنه سبحانه هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، وهو الذي إليه مرجع كل الخلائق، ثم يوفيهم حسابهم كل بحسب عمله في هذه الحياة الدنيا.

وتستشهد «سورة يونس» بعدد من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس على ألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته، وعلى طلاقة قدرته في إبداعه لخلقه، وكمال حكمته في تدبير كل أمر من أمور هذا الخلق.

وتعرض السورة الكريمة في أكثر من موقع منها إلى الفوارق الهائلة بين كل من المؤمنين والكافرين، وبين مصائرهم في يوم الدين. وتصف جانباً من جوانب النفس البشرية في حالات الرخاء والشدة، وتحذرهم من بأس الله الذي يأتي بغتة، وتذكر بهلاك أقوام من القرون البائدة لما ظلموا وتجاوزوا حدود ما شرع الله، وتشير إلى تلقي كفار قريش للقرآن

الكريم بشيء من الصلف، والكبر، والرفض، والمناوأة وإلى إصرارهم على الشرك بالله (تماماً كما يفعل كفار اليوم وملاحدته ومشركوه)، وتذكرهم بيوم القيامة، وبحتمية الرجوع إلى الله (تبارك وتعالى)، والوقوف بين يديه للحساب، وتهون من أمر الدنيا وتحذر من أهوال الآخرة، وتذكر بأن الله (تعالى) هو رب هذا الكون ومليكه ومدبر أمره، وأنه سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين.

وتعرض السورة الكريمة لموقف مشركي الجزيرة العربية (وهو نفسه موقف مشركي اليوم) من رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وترد على الذين ادعوا وعلى الذين لايزالون يدعون ـ كذباً ونفاقاً وزوراً ـ أن الرسول الخاتم هو الذي كتب القرآن الكريم، مؤكدة أن هذا الذكر الحكيم لا يمكن أن يفترى، أي لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، وأنه جاء مصدقاً لما أنزل قبله من كتب سماوية، ومهيمناً عليها بكماله وتمامه وحفظه، وأنه يحوي تفاصيل الدين كما أنزله رب العالمين، وفي ذلك يرد القرآن الكريم على هؤلاء الأفاكين باستفهام استنكاري تقريعي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى):

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس: 38).

وتؤكد هذه السورة الكريمة أن من الناس من يؤمن حقاً بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن منهم من لا يؤمن بذلك، وأن الله تعالى الذي أنزله هو أعلم بالمفسدين. كذلك تعرض «سورة يونس» لمواقف الكافرين من مشاهد الآخرة، وتلوم الذين يتجرأون على الله تعالى بالتحليل والتحريم دون إذن منه سبحانه وتعالى، كما ترد بهذا الرد الإلهي القاطع على الذين يدعون ـ زوراً وبهتاناً ـ على الله (تعالى) أنه قد اتخذ ولداً (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) فتقول:

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (يونس: 68 ـ 70).

ولبيان سنة الله في نصرة المؤمنين وإهلاك الكافرين، أوردت «سورة يونس» جوانب من قصص عدد من أنبياء الله وتفاعل أقوامهم معهم من مثل نوح، وموسى، وهارون، ويونس (على نبينا وعليهم من الله السلام).

وتختتم السورة الكريمة بتوصية رسول الله ﷺ أن يتمسك بشريعة الله، وأن يصبر على

ما يمكن أن يلقى من أذًى في سبيل ذلك، والخطاب موجه إلى كل مسلم سائر على خطى رسول الله ﷺ، وإلى كل مسلمة ملتزمة بمنهجه ﷺ إلى يوم الدين، لأن هذا الطريق ما سلكه أحد إلا ولقي من العنت ما لقيه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، ويلقاه الدعاة اليوم وإلى يوم الدين، ولذلك يأتي ختام السورة بهذه الدعوة المباركة:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ (يونس: 108، 109).

من الآيات الكونية في سورة يونس

الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة يونس عديدة نوجزها فيما يلي:

(1) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (أي في ست مراحل متتالية).

(2) أن الله تعالى هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده.

(3) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

(4) أن لله اختلاف الليل والنهار.

(5) هو الذي وهب السمع والبصر، وقدم خلق السّمع على خلق البصر، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر.

(6) وصف الليل بأنه للسكن ووصف النهار بأنه مبصر، أي منير، كي يكون مناسباً للجري وراء المعايش وإعمار الأرض.

(7) الإشارة إلى مثقال الذرة وإلى أن هناك ماهو أصغر وماهو أكبر منه.

(8) الإشارة إلى نجاة فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية.

(9) التحدي بالقرآن الكريم وبعجز الخلق أجمعين عن أن يأتوا بسورة من مثله.

وسوف نقتصر هنا على مناقشة النقطة الثالثة فقط من هذه القائمة الطويلة؛ وقبل الدخول في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ (يونس: 5).

* ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما مختصره: «يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول مايبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ (يسٓ: 39). وقوله تعالى: ﴿. . . وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا . . . .﴾ (الأنعام: 96)، ﴿وقدره﴾ أي القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام، ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا . . .﴾ (صٓ: 27)، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾، (المؤمنون: 115)، وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ـ أي يبين الحجج والأدلة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾».

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه برحمته الواسعة) ما نصه: «﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ ذات ضياء ...﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ﴾ من حيث سيره ﴿مَنَازِلَ﴾ ثمانية وعشرين منزلاً في ثمان وعشرين ليلة من كل شهر، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً، أو: ليلة إن كان تسعة وعشرين يوماً ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ بذلك ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾. . . المذكور ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ لا عبثاً، تعالى عن ذلك ﴿يُفَصِّلُ﴾: يبين ﴿ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبرون».

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) مانصه:

«﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ فيها اشتعال .﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾.. فيه إنارة. ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ ينزل في كل ليلة منزلاً يكون فيه على هيئة خاصة، كما هو مشهود في القمر ...﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾.. ولاتزال المواقيت والمواعيد تضبط بالشمس

والقمر لكافة الناس. هل هذا كله عبث؟ هل هذا كله باطل؟ هل هذا كله مصادفة؟ كلا لايكون كل هذا النظام، وكل هذا التناسق، وكل هذه الدقة التي لاتتخلف معها حركة، لايكون هذا كله عبثاً ولا باطلاً ولا مصادفةً عابرة: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.. الحق قوامه، والحق أداته، والحق غايته، والحق ثابت راجح راسخ، وهذه الدلائل التي تشهد به واضحة قائمة دائمة: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.. فالمشاهد التي تعرض هنا في حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) مانصه: «﴿جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾... شروع في بيان أدلة كمال قدرته تعالى وعظيم حكمته وتدبيره، رداً على منكري البعث. أي هو الذي جعل الشمس ذات ضياء في النهار، والقمر ذا نور في الليل، وقدر سير القمر في منازله الثمانية والعشرين في كل شهر، تقديراً بديعاً محكماً، ليعرف بذلك ابتداء الشهور والسنين وانتهاؤها وعددها والحساب بالأوقات من الأشهر والأيام. وبذلك تنتظم مصالح في العبادات والمعاملات وسائر الشؤون المعاشية.. وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة يتعاقبان دائماً بحسب طلوع الشمس وغروبها، ويتفاوتان بحسب الأمكنة طولاً وقصراً. ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ صير القمر ذا منازل يسير فيها».

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خير الجزاء) مانصه: «وربكم الذي خلق السمٰوات والأرض والذي جعل الشمس تشع الضياء، والقمر يرسل النور، وجعل للقمر منازل ينتقل فيها، فيختلف نوره تبعاً لهذه المنازل، لتستعينوا بهذا في تقدير مواقيتكم، وتعلموا عدد السنين والحساب، وماخلق الله ذلك إلا بالحكمة، وهو سبحانه يبسط في كتابه الآيات الدالة على ألوهيته وكمال قدرته لكي تتدبروها بعقولكم وتستجيبوا لما يقتضيه العلم».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي: «... الشمس جرم سماوي ملتهب مضيء بذاته، وهو مصدر الطاقات على الأرض ومنها الضوء والحرارة بينما القمر جرم غير مضيء بذاته بل يعكس أو يرد مايقع عليه من ضوء الشمس فيبدو منيراً».

* وذكر صاحب صفوة التفسير (جزاه الله خيراً) ما نصه:

«﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج ﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خصت بالضياء، لأنه هو الذي له سطوع ولمعان، قال الطبري: المعنى أضاء الشمس وأنار القمر

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي قدر سيره في منازل وهي البروج ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ أي لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي يبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته، قال أبو السعود: أي يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جلّ وعلا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

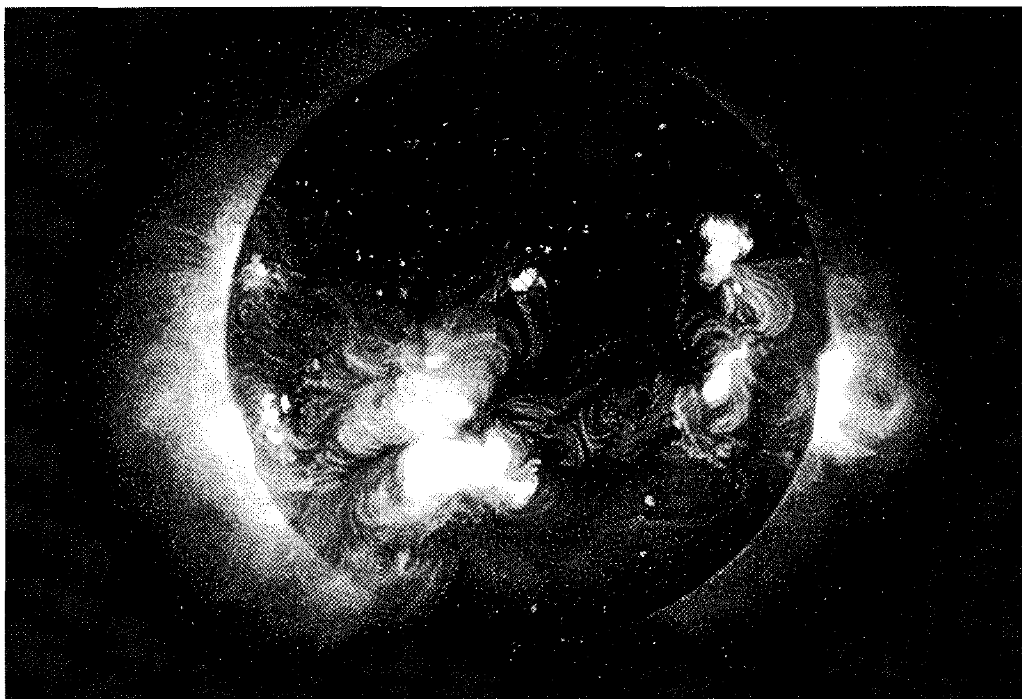
أولاً: السبق العلمي للآية الكريمة في التفريق بين كل من الضياء والنور:

الضوء (الضياء) هو الجزء المرئي من الطاقة الكهرومغناطيسية (الكهربية/ المغناطيسية) والتي تتكون من سلسلة متصلة من موجات الفوتونات التي لاتختلف عن بعضها البعض إلا في طول موجة كل منها، وفي معدل ترددها.

وتتفاوت موجات الطيف الكهرومغناطيسي في أطوالها بين جزء من مليون مليون جزء من المتر بالنسبة إلى أقصرها وهي أشعة جاما، وبين عدة كيلومترات بالنسبة إلى أطولها وهي موجات الراديو (المذياع أو الموجات اللاسلكية) ويأتي بين هذين الحدين عدد من الموجات التي تترتب حسب تزايد طول الموجة من أقصرها إلى أطولها ونعرف منها: الأشعة السينية، والأشعة فوق البنفسجية، والضوء المرئي، والأشعة تحت الحمراء.

وعين الإنسان لا تستطيع أن تلتقط من هذه الموجات سوى الضوء المرئي بأطوال أمواج تتراوح بين4000، 7000 أنجستروم (والأنجستروم يساوي جزءاً من عشرة بلايين جزء من المتر) وطول الموجة يتناسب تناسباً عكسياً مع ترددها ـ أي عدد مرات ارتفاع الموجة وانخفاضها في الثانية الواحدة ـ، وحاصل ضرب هاتين الكميتين يساوي سرعة الضوء (حوالي 300,000 كيلو متر في الثانية) وموجات الضوء المرئي أسرع من موجات الراديو بحوالي بليون مرة، وبالتالي فإن أطوال موجاتها أقصر ببليون مرة من أطوال موجات الراديو.

والضوء الأبيض هو عبارة عن خليط من موجات ذات أطوال محددة عديدة متراكبة على بعضها البعض، ويمكن تحليلها بإمرارها في منشور زجاجي أو في غير ذلك من أجهزة



شكل (175) صورة للشمس في وقت توهجها

التحليل الطيفي، وقد أمكن التعرف على سبع من تلك الموجات أقصرها هو الطيف البنفسجي (ويقترب طول موجته من4000 أنجستروم) وأطولها هو الطيف الأحمر (ويقترب طول موجته من7000 أنجستروم)، وبينهما البرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، وغير ذلك من الألوان المتدرجة في التغير فيما بين تلك الألوان السبع، وإن كانت عين الإنسان لا تستطيع أن تميز منها سوى هذه الألوان السبعة فقط.

وتنتج طاقة الشمس من عملية الاندماج النووي والتي يتم فيها اتحاد أربعة من نوى ذرات الأيدروجين لتنتج نواة واحدة من نوى ذرات الهيليوم، وينطلق الفرق بين مجموع كتلة الأربع نوى لذرات الإيدروجين وكتلة نواة الهيليوم على هيئة طاقة (تساوي0282،0 وحدة ذرية لكل تفاعل) وهذه الطاقة الناتجة عن تلك العملية يكون أغلبها على هيئة أشعة جاما (حوالي96%) وجزء قليل على هيئة النيوترينونات **Neutrinos** (في حدود 4%)، وسرعان ما تتحول أشعة جاما إلى حرارة، بينما تهرب النيوترينونات في الحال وتفقد.

وتشير الدراسات الشمسية إلى أن هذا النجم المتواضع قد بدأ بتركيب كيميائي يغلب عليه عنصراً الإيدروجين (حوالي 90%)، والهيليوم (حوالي 9%) مع اثار طفيفة من عناصر

أخرى مثل الكربون، النيتروجين والأوكسجين (في حدود 1%).

وبالتركيز التجاذبي لتلك الكتلة الغازية بدأت درجة حرارتها في الارتفاع، وعند وصول الحرارة إلى المليون درجة مئوية بدأت عملية الاندماج النووي في التفاعل وانطلقت الطاقة النووية للشمس التي رفعت درجة حرارة لبها إلى حوالي 15 مليون درجة مئوية، ورفعت درجة حرارة سطحها إلى ستة آلاف درجة مئوية.

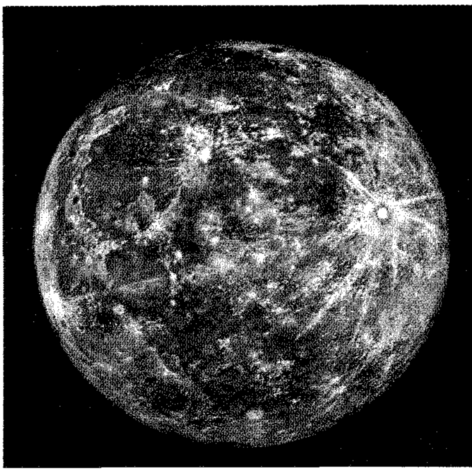
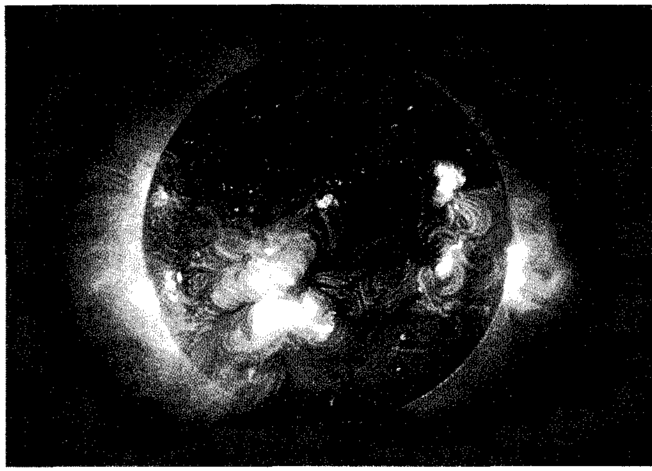
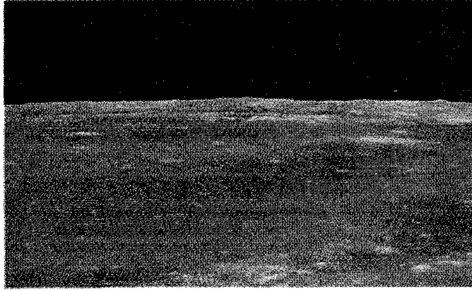
وعملية الاندماج النووي في داخل الشمس عملية معقدة للغاية ولا داعي للدخول في تفاصيلها هنا حتى لا يغيب عنا الهدف، ولكن محصلة هذه العملية هي الارتفاع بنسبة الهيليوم في قلب الشمس من 9% إلى حوالي 30%، وإنتاج طاقة الشمس المتمثلة في الطيف الكهرومغناطيسي، الذي زود الأرض وغيرها من أجرام المجموعة الشمسية بأغلب الطاقة التي تحتاجها.

والطيف المرئي من مجموعة أطياف الطاقة الكهرومغناطيسية المنطلقة من الشمس هو المعروف باسم ضوء الشمس، وعلى ذلك فالضوء عبارة عن تيار من الفوتونات المنطلقة من جسم مشتعل، ملتهب، متوقد بذاته سواء كان ذلك بفعل عملية الاندماج النووي كما هو حادث في داخل الشمس، وفي داخل غيرها من نجوم السماء، أو صادر من جسم مادي تستثار فيه الإليكترونات بعملية التسخين الكهربائي أو الحراري، فيقفز الإليكترون من مستوى عال في الطاقة إلى مستوى أقل، والفارق بين المستويين هو كمية الطاقة المنبعثة **(Quantum Energy)** على هيئة ضوء وحرارة، وتكون سرعة تردد موجات الضوء الناشىء مساوية لسرعة تحرك الشحنات المتذبذبة من مثل الإليكترونات بين مستويات الذرة المختلفة.

وعلى ذلك فإن مصادر الضوء هي أجسام مادية من مثل الإليكترونات وغيرها من اللبنات الأولية للمادة، لها حشد هائل من الجسيمات المستثارة بواسطة رفع درجة الحرارة. وأهم مصادر الضوء بالنسبة لنا (أهل الأرض) هي الشمس ووقودها هو عملية الاندماج النووي.

والمصابيح الكهربائية تنتج الضوء عن طريق تسخين سلك من معادن الإشعاع، وكلما ارتفعت درجة الحرارة زادت كمية الضوء المشع وارتفعت معدلات تردد موجاته.

وبنفس الطريقة يحترق فتيل السراج بإشعاله بواسطة احتراق الزيت من مثل زيت الزيتون أو النفط (الكيروسين) أو الكحول فيشع بواسطة الترددات التي يمتصها، وكلما ارتفعت درجة حرارته زادت قدرته على إشعاع الضوء، وذلك بزيادة كمية الضوء الصادر منه، وارتفاع معدلات تردده. وعلى ذلك فإن الجسم المادي عندما يسخن فإنه يشع بمقدار الطاقة التي يمتصها برفع درجة حرارته بأية واسطة متاحة.


شكل (176) صورة توضح الفرق بين ضوء الشمس ونور القمر

وتختلف الصفات البصرية للمواد في درجات الحرارة الفائقة، وذلك لأن ذبذبة أي من الفوتونات أو الإليكترونات تتم بعنف شديد فتتداخل موجات الطيف الكهرومغناطيسي (ومنها موجات الضوء المرئي) مع بعضها البعض تداخلاً كبيراً مما يؤدي إلى حدوث الكثير من الظواهر غير المتوقعة، وذلك لأن الموجات الكهرومغناطيسية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمصادرها وكواشفها.

وضوء الشمس عند مروره في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض (في حدود مائتي كيلومتر فوق مستوى سطح البحر) فإنه تعرض للعديد من عمليات الامتصاص والتشتت والانعكاس على كل من هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات الهواء الموجودة بتركيز عال نسبياً في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض فيظهر بهذا النور الأبيض المبهج الذي يميز فترة النهار.

كذلك يتعرض ضوء الشمس للعديد من عمليات التشتت والانعكاس عندما يسقط على سطح القمر المكسو بالعديد من الطبقات الزجاجية الرقيقة والناتجة عن ارتطام النيازك بهذا

السطح، والناتجة أيضاً عن الانصهار الجزئي للصخور على سطح القمر بفعل ذلك الارتطام. فالقمر ـ وغيره من أجرام مجموعتنا الشمسية ـ هي أجسام معتمة باردة لا ضوء لها، ولكنها يمكن أن ترى لقدرتها على عكس أشعة الشمس فتبدو منيرة بالليل، وهذا هو الفرق بين ضوء الشمس ونور القمر. فنور القمر ناتج عن تشتيت ضوء الشمس على سطحه بواسطة القوى التي يبذلها الحقل الكهرومغناطيسي على الشحنات الكهربية التي تحتويها كل صور المادة. فالحقل الكهرومغناطيسي المتذبذب لضوء الشمس الساقط يحدث قوة دورية ضاغطة على كل شحنة إليكترونية مما يجعلها تقوم بحركة متناسقة مع تردد موجات الطيف الأبيض.

ومن الثابت علمياً أن شحنة متذبذبة تشع في جميع الاتجاهات ـ فيما عدا اتجاه حركتها ـ مما يبرر عمليات تشتت الضوء، وهي عمليات تعتمد على عدد وحجم، وبنية، وهيئة واتجاهات، وتفاعل كل من الجسيمات القائمة بمثل هذه العمليات من التشتت مع بعضها البعض، والصفات الحرارية/ الديناميكية للوسط الذي تتشتت فيه. ومن المعروف أن تردد الضوء الساقط يتفق تماماً مع تردد الشعاع الساقط مع تباعد قليل بين خطوط الأطياف المختلفة بسبب حركة الجسم المشتت للضوء الساقط عليه، ولذلك تأتي خطوط أطياف الشعاع المشتت بشكل أضعف من خطوط أطياف الشعاع الساقط من أشعة الشمس.

ثانياً: ثبات القرآن الكريم على التفريق المستمر بين الضياء والنور:

انطلاقاً من هذه الحقائق العلمية التي تمايز بين الضوء الصادر من جسم مشتعل، ملتهب، مضيء بذاته في درجات حرارة عالية وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد يتلقى شعاع الضوء فيعكسه نوراً، ركز القرآن الكريم باستمرار على التمييز الدقيق بين ضياء الشمس ونور القمر، وبين كون الشمس سراجاً وكون القمر نوراً فقال (عز من قائل):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ (يونس: 5).

* وقال (تبارك اسمه):

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾.. (نوح: 15، 16).

* وقال (سبحانه):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ (الفرقان: 61).

وقابل القرآن الكريم الظلمات بالنور وليس بالضياء في آيات كثيرة من مثل قوله (تبارك وتعالى): ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ (الأنعام: 1).

ووصف الشمس بأنها سراج وبأنها سراج وهاج فقال (سبحانه وتعالى):

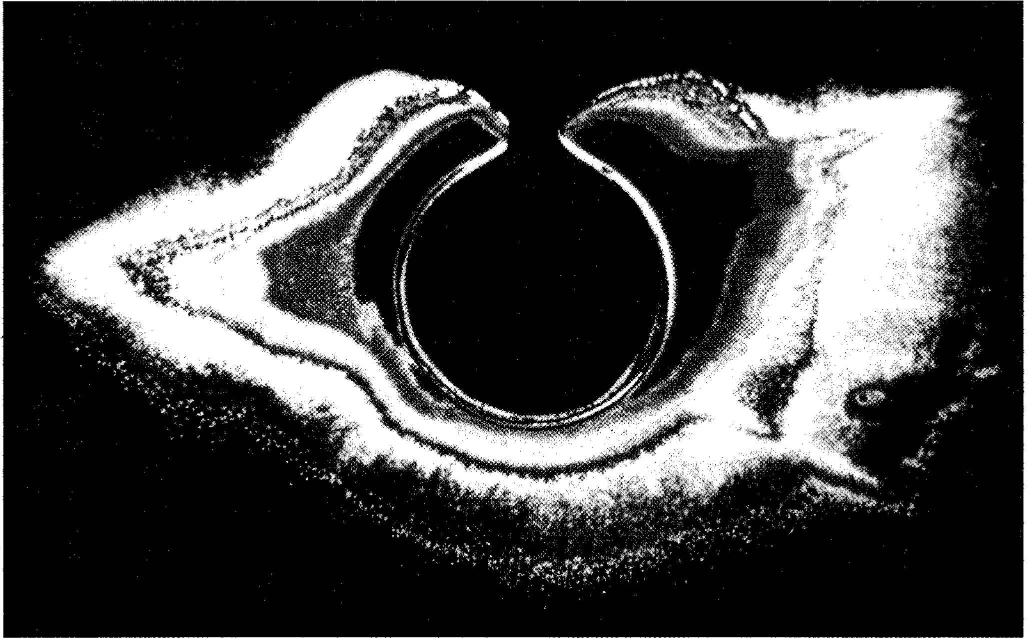
﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾. (النبأ: 13).

وحينما وصف خاتم أنبيائه ﷺ بأنه سراج (بمعنى أنه مضيء بذاته) أضاف إلى وصف السراج أنه منير بهداية ربه المنزلة إليه فقال (عز سلطانه):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾. (الأحزاب: 45، 46).

وحينما وصف النار وصفها بالضياء ووصف أشعتها الساقطة على من حولها بالنور فقال (عز من قائل): ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧﴾. (البقرة: 17).

ووصف أشعة البرق بأنها ضوء فقال (وهو أصدق القائلين): ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ



شكل (177) صورة لهالة الإشعاع حول الشمس في وقت الكسوف الكلي

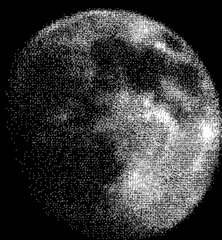
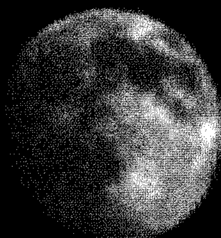
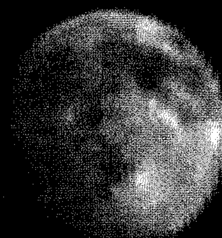
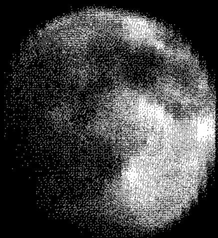
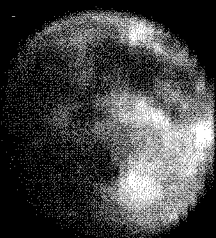
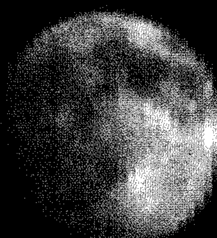
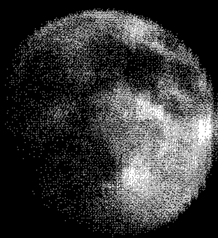
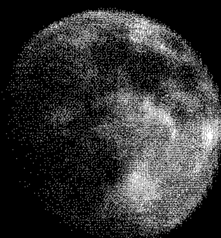
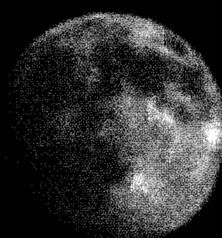
﴿... أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ . . .﴾ (البقرة 20).

ووصف (سبحانه وتعالى) ذاته العلية بأنه نور السمٰوات والأرض، وأعطى مثلاً لذلك النور الإلٰهي، ولله المثل الأعلى، ووصف في هذا المثل الزيت بأنه يضيء، ووصف سقوط ضوئه على ما حوله بالنور فقال (تبارك وتعالى): ...﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (النور: 35).

وقال عن غيبة الشمس: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ (القصص: 71).

هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب، مشتعل، مضئ بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نوراً من سطحه وبطريقة مطردة في كل القرآن الكريم لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيق لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه!

فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم، أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظه فحفظ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ دون زيادة حرف واحد، أو نقص حرف واحد، وأبقى فيه تلك الومضات النورانية من حقائق الكون وسنن الله فيه شاهدة على صدقه، وحجة على أهل عصرنا وأهل كل عصر يأتي من بعده إلى قيام الساعة، فاعتبروا يا أولي الألباب!! واحمدوا الله (تعالى) على نعمة الإسلام، واحمدوا له (سبحانه) على نعمة القرآن، وحمدوا له (تبارك وتعالى) نعمة إرسال النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.


Df

Cf

Bf

Af

An

Aa

Ba

Ca

Da

بسم الله الرحمن الرحيم

(28) ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾

(يسٓ: 39)

هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية النصف الأول من سورة يسٓ، وهي سورة مكية، وآياتها (83) بعد البسملة، ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن أسسها الإيمان بالله الخالق: إلهاً واحداً لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، والإيمان بالقرآن الكريم، آخر كتب الله المنزل على خاتم أنبيائه ورسله، والمحفوظ بين دفتي المصحف الشريف وفي قلوب وعقول البلايين من الخلق بنفس لغة وحيه (اللغة العربية)، محفوظاً بحفظ الله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا (تبارك وتعالى) على ذاته العلية فقال (عز من قائل): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: 9)، والإيمان ببعثة هذا النبي والرسول الخاتم ﷺ الذي ختمت ببعثته النبوات، وتكاملت في رسالته كل رسالات السماء، والإيمان بالبعث والنشور، والحساب وبالخلود في الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وقد سميت السورة بهذا الاسم لاستهلالها بالحرفين المقطعين (يسٓ)، والحروف المقطعة التي استفتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، والتي تضم نصف عدد أسماء حروف الهجاء الثمانية والعشرين تعتبر سراً من أسرار القرآن الكريم التي لم يتم اكتشافها بعد، وإن بذلت محاولات عديدة في سبيل ذلك.

وقد تكون هذه الأحرف الهجائية المقطعة رموزاً إلى كلمات، أو معان، أو أعداد معينة، أو أسماء للسور التي وردت في أوائلها، أو وسيلة قرع للأسماع والقلوب كي تنشط وتتنبه لتلقي القرآن الكريم، أو

أنها جعلت للدلالة على صدق رسول الله ﷺ من حيث نطقه بأسماء الحروف وهو أمي، والأمي لا يعرف أسماء الحروف وإن نطق بأصواتها، وقد تكون للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم الذي صاغه الله ﷻ من جنس تلك الحروف الهجائية التي يتكلم بها العرب.. ويعجزون من الإتيان بشيء من مثله، وقد تكون كل ذلك وغيره.

ويروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قوله: أن يسّ معناها: يا أيها الإنسان في لهجة طيء، وقيل إنها من أسماء رسول الله ﷺ بدليل توجيه الخطاب إليه في جواب القسم بالقرآن الحكيم وذلك بقول الحق ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ وقيل إن معناها: ياسيد البشر، والله ﷻ أعلم.

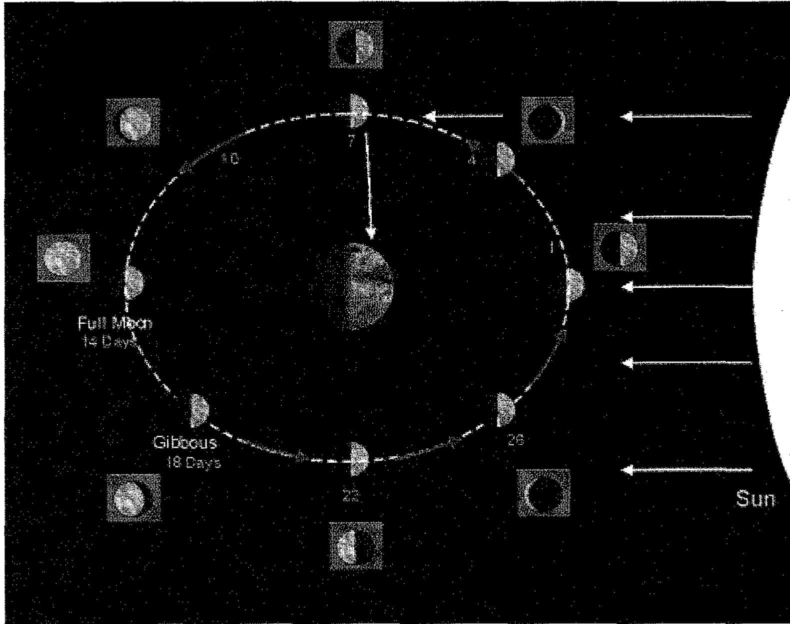
إلا أن (يس) إذا اعتبرت من أسماء رسول الله ﷺ فإنها لا تعتبر من الأحرف الهجائية المقطعة؛ وتعتبر هذه المقطعات قد استفتحت بها ثمان وعشرين سورة من سور القرآن الكريم وهو عدد حروف الهجاء.

وبعد هذا الاستهلال يقسم ربنا ﷻ - وهو الغني عن القسم - بالقرآن الحكيم (أي المتضمن للحكمة والناطق بها، والمحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمصون من الضياع والتحريف) وهذا القسم بالقرآن الحكيم جاء تأكيداً على صدق نبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ التي حاول نفر من الكفار والمشركين التشكيك فيها قديما كما فعل كفار قريش، وحديثا كما يفعل الذين لا يزالون يحاولون من كفار ومشركي اليوم..!! وأقسم الله ﷻ بالقرآن الحكيم على أن الإسلام العظيم هو صراطه المستقيم، وهو دينه القويم الذي أوحي به إلى كل نبي وإلى كل رسول، وأن القرآن الكريم هو تنزيل من اللهالعزيز الرحيم يحمله هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ إلى قومه الذين لم يسبق لآبائهم أن تلقوا مثل هذا الوحي فبقوا في غفلة عن الدين، الذي جاء المصطفى ﷺ لينذرهم به، وينذر من بعدهم العالم بأسره، وذلك لأن الغالبية العظمى من كفار قريش، ومن بعدهم غالبية أهل الأرض اليوم هم من غير المؤمنين، الذين تمادوا في الغي والضلال، وفي تكذيب الرسالة الخاتمة فحق عليهم عذاب اللهوانتقامه...!! وتصف الآيات بعد ذلك جانبا من أحوال هؤلاء الكافرين المعرضين عن الحق، وهم نمط للكفر في القديم والحديث واحد..!!

واستعرضت «سورة يسّ» عدداً من الشواهد الكونية المبهرة الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة، والناطقة بألوهية الخالق ﷻ، وربوبيته ووحدانيته، والمنذرة - في نفس الوقت - من عواقب التكذيب بالوحي الخاتم. ومن أجل ذلك أوردت السورة الكريمة قصة

أهل القرية التي كذبت رسل ربها، وجحدت نصح الناصحين من أبنائها، بعد أن بعث الله ﷻ إليهم بثلاثة من رسله فكذبوهم، وأوفد إليهم رجلاً منهم ينصحهم بضرورة الإيمان الخالص بالله، والتوحيد المطلق لجلاله فقتلوه، وأدخله الله ﷻ الجنة، ولم يمهل قومه المجرمين فدمرهم من بعده تدميراً..!! ومن الغريب أن الناس لايعتبرون بسير الأمم البائدة والتي أهلكها الله ﷻ بكفرها، وما أكثر القصص القرآني في ذلك..!!.

واستعرضت السورة الكريمة موقف المعرضين عن الهداية الربانية، والمكذبين بالآخرة، ووصفت جانباً من سلوكياتهم، وصوراً لنفسياتهم، وطرائق تفكيرهم، وعرضت لجوانب من ضلالهم وحيرتهم في الدنيا، ولضياعهم وهلاكهم في الآخرة، ومن مواقفهم يوم البعث الذي استعرضت جانباً من أهواله، من مثل نفخة الصور الأولى التي تعرف باسم نفخة الفزع الأكبر، والتي تصدر إعلاناً عن نهاية الحياة الدنيا، وقد تكون هي نفخة الصعق التي



شكل (178) رسم توضيحي لمراحل القمر المتتالية

يصعق بها كل من في الأرض فيموتون، ثم تكون بعد ذلك نفخة البعث والنشور التي يخرج بها الناس مذهولين من القبور، فيعلموا أن وعد الله حق..!!

وتمايز السورة الكريمة بين مصائر أهل الجنة ومصائر أهل النار في الآخرة، فالضالون المكذبون الذين اتبعوا خطوات الشيطان ـ وهو عدو لهم ـ فأضلهم عن طريق الهداية الربانية

الحقة خسروا الدنيا والآخرة، وهم في النار يصطلون، وأصحاب الجنة في النعيم يرفلون.

وتؤكد «سورة يس» أن طول الأجل في الحياة الدنيا منتكس للإنسان من القوة إلى الضعف، ومن الزيادة إلى النقص مما يؤكد عجز الإنسان أمام قدرة خالقه، وحتمية الضعف والموت عليه.

وتدافع الآيات عن رسول الله ﷺ الذي اتهمه كفار قريش ـ زورا ـ بالشعر، كي يدعموا إدعاءهم الباطل أن القرآن الكريم من نظمه هو... فيرد ربنا ﷻ عليهم بقوله (عز من قائل):

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (يسٓ: 69، 70).

وتثبت الآيات رسول الله ﷺ بخطاب من الحق ﷻ إليه يقول فيه ﷻ:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (يسٓ: 76).

وتنتهي «سورة يسٓ» إلى تمجيد الله ﷻ وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله، هذا الاله الخالق العظيم الذي بيده ملكوت السمٰوات والأرض وملكوت كل شيء، والذي إليه وحده مرجع كل الخلائق للحساب والجزاء، ولذلك ختمت بهذه الآية الجامعة التي تهتز لها القلوب والعقول والأبدان والتي تنطق بالحق الذي لا مراء فيه فتقول:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (يسٓ: 83).

من الآيات الكونية في سورة يس

الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة يسٓ على صدق ماجاء بها من عقائد وقصص وأحكام هي آيات كثيرة منها مايلي:

(1) قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

(2) قدرته ﷻ على تدوين أعمال الخلق وآثارهم.

(3) إحياء الأرض الميتة بإنزال المطر عليها وإنباتها بالنباتات المنتجة للحبوب، وملئها بجنات من نخيل وأعناب، وتفجير العيون من خلالها.

(4) خلق كل شيء من زوجين.

(5) سلخ النهار من الليل إشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، والى رقة طبقة النهار، وإلى حقيقة أن الظلمة هي الأصل في الكون، وأن النور نعمة عارضة فيه.

(6) جري الشمس لمستقر لها.

(7) دوران القمر حول الأرض في منازل محددة، متدرجاً في مراحل متتالية حتى يعود هلالاً كالعرجون القديم.

(8) جري كل من الشمس والقمر والأرض وبقية أجرام السماء كل في فلكه المحدد له، والذي يسبح فيه.

(9) حمل الأفراد من ذرية آدم الذين نجوا من الطوفان مع نوح (على رسولنا وعليه من الله السلام) في الفلك المشحون.

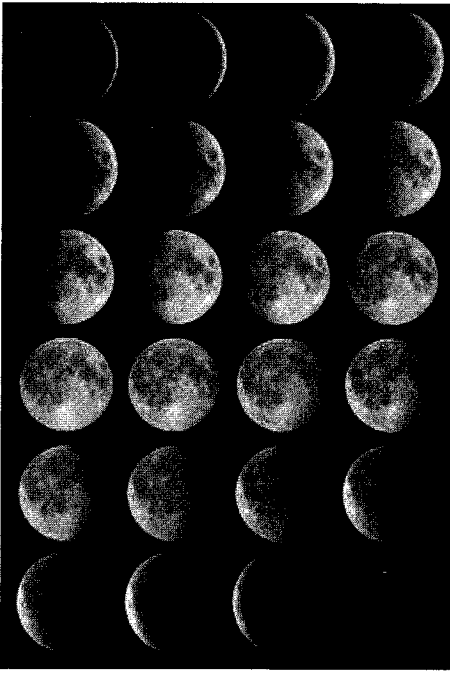
(10) خلق وسائل الركوب المختلفة.

(11) شهادة الأيدي والأرجل على أصحابها يوم القيامة.

(12) خلق الأنعام وتذليلها للإنسان.

(13) خلق الإنسان من نطفة.

(14) أن الذي خلق قادر على البعث، لأنه ﷻ هو العليم بكل خلق.



شكل (179) صورة توضح التدرج في زيادة مساحة الجزء المنير من القمر مع الزمن

(15) جعل الشجر الأخضر مصدراً للنار (أي للطاقة).

(16) أن خالق السمٰوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وهو الخلاق العليم.

(17) أن من صفات الألوهية أن يقول اللهﷻ للشيء: كن فيكون.

(18) أن اللهﷻ بيده ملكوت كل شيء، وأن كل شيء عائد إليه ﷻ.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة، ولذا فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة السابعة فقط في القائمة السابقة ألا وهي نقطة دوران القمر حول الأرض في منازل محددة، ومتدرجاً في مراحل متتالية حتى يعود هلالاً كالعرجون القديم، والحكمة من هذه المنازل، وهذا التشبيه، وجوانب السبق العلمي في هذه الآية الكريمة، وقبل الخوض في ذلك لابد من استعراض أقوال عدد من المفسرين السابقين في شرحها.

من أقوال المفسرين

في تفسيرقوله ﷻ:

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ (يسٓ: 39).

* ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «... ثم قال جل وعلا: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي جعلناه يسير سيراً آخر، يستدل به على معنى الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال (عز وجل): ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ (البقرة: 189). وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ (يونس: 5) الآية، وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ۝١٢﴾ (الإسراء: 12)، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار....، أما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء (والصحيح هو إزداد نوراً) وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: وهو أصل العذق، وقال مجاهد (العرجون القديم): أي العذق اليابس، يعني أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، ثم بعد هذا يبديه الله تعالى جديداً في أول الشهر الآخر.

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه: (والقمر) بالرفع والنصب، وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده (قدرناه) من حيث سيره (منازل) ثمانية وعشرين منزلاً في ثمان وعشرين ليلة من كل شهر، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً، وليلة إن كان تسعة وعشرين يوماً (حتى عاد) في آخر منازله في رأي العين (كالعرجون القديم) كعود الشماريخ (جمع شمراخ وهو عيدان عنقود النخيل الذي عليه الرطب) إذا عتق، فإنه يرق ويتقوس ويصفر.

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين) ما نصه: «... والعباد يرون القمر في منازله تلك، يولد هلالاً، ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى

يستدير بدراً، ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم. والعرجون هو العذق الذي يكون فيه البلح من النخلة.....».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه رحمة واسعة) ما نصه: «(والقمر قدرناه منازل) أي قدرنا سيره في منازل، ينزل كل ليلة في منزل لا يتخطاه، ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستو من ليلة المستهل إلى الثمانية والعشرين، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر تاماً، وليلة إن نقص يوماً فإذا كان في آخر منازله رق وتقوس (حتى عاد) أي صار في رأي العين (كالعرجون القديم) أي العتيق اليابس، وهو عود العذق ما بين الشماريخ إلى منبته من النخلة، والعذق: القنو من النخل وهو كالعنقود من العنب، والشماريخ: جمع شمراخ وشمروخ، وهو العيثكال الذي عليه البسر. وسمي عرجوناً من الانعراج وهو الانعطاف، شبه القمر به في دقته وتقوسه واصفراره».

* وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزى الله كاتبيه خيراً) ما نصه: «والقمر جعلناه بتدبير منا منازل، إذ يبدو أول الشهر ضئيلاً، ثم يزداد ليلة بعد ليلة، إلى أن يكتمل بدراً، ثم يأخذ في النقصان كذلك، حتى يعود في مرآه كأصل العنقود من الرطب إذا قدم فدق وانحنى واصفر».

* وذكر صاحب صفوة التفاسير (جزاه الله خيراً) مانصه:

«(والقمر قدرناه منازل) أي والقمر قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمان وعشرين ليلة ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعداها، فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس (حتى عاد كالعرجون القديم) أي حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس....».

القمر في القرآن الكريم

أولاً: مرات ذكر القمر في القرآن الكريم:

جاء ذكر القمر في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة، كما جاءت الإشارة إلى مراحله المختلفة تحت مسمى الأهلة مرة واحدة، ويكون مجموع ذلك ثمان وعشرين مرة وهي أيام رؤية القمر في كل شهر، وعدد منازله اليومية، ولا يمكن أن يأتي هذا التوافق الدقيق بمحض الصدفة لأن مثل هذه المقابلات في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى، وأنها لو خدمت خدمة إحصائية دقيقة لأصبحت من أوضح جوانب الإعجاز العددي في القرآن الكريم.

وهذه الآيات يمكن تصنيفها إلى عدد من المجموعات التي نوجزها فيما يلي:

(1) آيتان تصفان القمر في رؤيتين من رؤى اثنين من رسل الله، إحداهما في حال اليقظة والأخرى في المنام (الأنعام: 77، يوسف: 4).

(2) آيتان تصفان الشمس والقمر مرة بأنهما حسباناً (أي وسيلة لحساب الزمن) والأخرى بأنهما بحسبان (أي يجريان بحساب دقيق مقرر معلوم) (الأنعام: 96، الرحمٰن: 5).

(3) إحدى عشرة آية، منها ما يتحدث عن خلق كل من الشمس والقمر، وسجودهما لله تعالى، وتسخيرهما بأمره ليكونا في خدمة خلق الله إلى أجل مسمى، واعتبارهما آيتين من آيات الله، ومنها ما ينهى عن السجود لهما، ويأمر بالسجود لخالقهما وحده (الأعراف: 54، الرعد: 2، إبراهيم: 33، النحل: 12، الأنبياء: 33، الحج: 18، العنكبوت: 61، لقمان: 29، فاطر: 13، الزمر: 5، فصلت: 37).

(4) آيتان تؤكدان طبيعة كل من الشمس والقمر، وتفرقان بينهما بأن الشمس ضياء، والقمر نور (يونس: 5، نوح: 16).

(5) ثلاث آيات تتحدث عن منازل القمر وأطواره، أو عن أحد تلك الأطوار (البقرة: 189، يسٓ: 39، الانشقاق: 18).

(6) آية واحدة تشير إلى دوران كل من الشمس والقمر والأرض في مدار محدد له (يسٓ: 40).

(7) آية واحدة تثبت معجزة انشقاق القمر لرسول الله ﷺ (القمر: 1).

(8) آيتان يقسم في كل منهما ربنا ﷻ بالقمر تعظيماً لإبداع خلقه لأن الله ﷻ غني عن القسم لعباده (المدثر: 32، الشمس: 2).

(9) آيتان تتحدثان عن نهاية القمر في يوم القيامة (القيامة: 8، 9).

ثانياً: منازل القمر في القرآن الكريم:

عرف الناس منذ القدم دورة القمر من المحاق إلى المحاق أو من الهلال إلى الهلال، واستخدموها في تحديد الزمن، والتأريخ للأحداث، ولاحظوا أن القمر في دورته تلك يقع في كل ليلة من ليالي الشهر القمري بين ثوابت من النجوم أو من تجمعاتها الظاهرية، وسموا

كلاً منها منزلاً من منازل القمر، وعرفوا أن عدد تلك المنازل ثمانية وعشرين بعدد الليالي التي يرى فيها القمر.

ويشير القرآن الكريم إلى منازل القمر بقول الحق ﷻ:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ (يس: 39).

وقوله (عز من قائل):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ (يونس: 5)

وقوله ﷻ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ...﴾ (البقرة: 189)

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: منازل القمر في علم الفلك:

يدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يبلغ طوله حوالي 2.4 مليون كيلو متر تقريباً، ويبلغ متوسط نصف قطره 384,400 كيلو متر، وفي أثناء هذه الدورة يقع القمر على خط واحد بين الأرض والشمس فيواجه الأرض بوجه مظلم تماماً، وتسمى هذه المرحلة باسم **مرحلة الاقتران**، ويعرف شكل القمر فيها باسم **المحاق**، وتستغرق هذه المرحلة ليلة إلى ليلتين تقريباً، ثم يبدأ القمر في التحرك ليخرج من هذا الوضع الواصل بين مراكز تلك الأجرام الثلاث فيولد الهلال الذي يحدد بمولده بداية شهر قمري جديد، ويقع هذا الهلال في أول منزل من منازل القمر، ويمكن رؤيته بعد ساعات من ميلاده إذا أمكن مكثه لمدة لا تقل عن عشر دقائق بعد غروب الشمس، وكان الجو على درجة من الصفاء تسمح بذلك.

وباستمرار تحرك القمر في دورته البطيئة حول الأرض تزداد مساحة الجزء المنير من وجهه المقابل لكوكبنا بالتدريج، حتى يصل إلى **التربيع الأول** في ليلة السابع من الشهر القمري، ثم إلى **الأحدب الأول** في ليلة الحادي عشر، ثم **البدر الكامل** في ليلة الرابع عشر، وفيها تكون الأرض بين الشمس من جهة، والقمر من الجهة الأخرى على استقامة واحدة.

وبخروج القمر عن هذه الاستقامة مع كل من الأرض والشمس تبدأ مساحة الجزء

المنير من وجهه المقابل للأرض في التناقص بالتدريج فيتحول إلى مرحلة **الأحدب الثاني** في حدود ليلة الثامن عشر، ثم إلى **التربيع الثاني** في ليلة الثالث والعشرين، ثم إلى **الهلال الثاني** في ليلة السادس والعشرين من الشهر القمري، ويستمر في هذه المرحلة لليلتين حتى يصل إلى **مرحلة المحاق** في آخر ليلة أو ليلتين من الشهر القمري حين يعود القمر إلى وضع الاقتران بين الأرض والشمس من جديد.

ولما كان القمر يقطع في كل يوم من أيام الشهر القمري حوالي12 درجة من درجات دائرة البروج (360 درجة على 29.5 يوم = 12,2 درجة) فإنه يقع في كل ليلة من ليالي الشهر القمري في منزل من المنازل التي تحددها ثوابت من النجوم أو من تجمعاتها الظاهرية حول دائرة البروج، وهذه المنازل ثمانية وعشرون منزلاً بعدد الليالي التي يرى فيها القمر، وتعرف باسم **منازل القمر.**

ولما كان القمر في جريه السنوي مع الأرض حول الشمس يمر عبر البروج السماوية الاثني عشر التي تمر بها الأرض في كل سنة من عمرها، والتي تحدد بواسطتها شهور السنة الشمسية، فإن كل منزل من منازل القمر اليومية يحتل مساحة في برج من هذه البروج.

ونتيجة لميل مستوى مدار القمر حول الأرض على مستوى مدار الأرض حول الشمس بمقدار (5 درجات، 8 دقائق) فإن المسار الظاهري لكل من الشمس والقمر على صفحة السماء من نقطة شروق كل منهما إلى نقطة غروبه يبدو متقاربا بصفة عامة، وإن تبع القمر الشمس في أغلب الأحوال.

وبصرف النظر عن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق أمام الشمس، ودوران القمر حول الأرض في نفس الإتجاه فإن كلا من الشمس والقمر يظهران في الأفق مرتفعين من جهة الشرق، وغائبين في جهة الغرب، وإن كان أغلب ظهور القمر هو بالليل لصعوبة رؤيته في وضح النهار.

والقمر يسير في اتجاه الشرق بمعدل 12 درجة تقريباً في كل يوم أي بمعدل نصف درجة تقريباً في المتوسط في كل ساعة (360 درجة/ 29.5 يوم من أيام الشهر القمري = 12.3 درجة). (12.2 درجة/ 24 ساعة في اليوم = 0.51 درجة في الساعة)، بينما تقطع الشمس درجة واحدة في اليوم تقريباً: (مجموع زوايا دائرة البروج = 360 درجة على 365.25 يوم (من أيام السنة الشمسية) = 0.99 درجة/ يوم تقريباً).

معنى ذلك أن القمر يبقى في سباق دائم مع الشمس، إلا أنه يتأخر كل يوم في غروبه من40 إلى 50 دقيقة عن اليوم السابق، تبعا لاختلاف كل من خطوط الطول والعرض.

فالهلال الجديد يولد ويرى في الأفق الغربي بعد غروب الشمس بقليل، ويأخذ ظهور القمر في التأخر عن غروب الشمس فيرى في طور التربيع الأول في وسط السماء، ويتأخر ظهوره لفترة أطول بعد الغروب في مرحلة الأحدب الأول، ويرى وهو أقرب إلى الأفق الشرقي، وفي مرحلة البدر يتفق ظهور القمر في الأفق الشرقي مع غياب الشمس في الأفق الغربي لوجودهما على استقامة واحدة مع الأرض، وبعد الخروج عن هذه الاستقامة يأخذ القمر في التباطؤ في الظهور يوماً بعد يوم بمعدل خمسين دقيقة في المتوسط حتى يصل مجموع التأخير في ظهوره إلى حوالي خمس ساعات بعد غروب الشمس وذلك في طور التربيع الثاني، ويستمر التباطؤ في ظهور القمر حتى يرى الهلال الثاني في وضح النهار، وفي طور المحاق الذي لا يرى فيه القمر من فوق سطح الأرض (لوقوعه بينها وبين الشمس) يغيب القمر مع مغيب الشمس تماماً لوجودهما على استقامة واحدة.

وبمجرد خروج القمر من مرحلة المحاق ورؤية الهلال الوليد بعد غروب الشمس يولد شهر قمري جديد مع بدء إشراق الشمس على جزء من وجه القمر المقابل للأرض، والذي كان يعمه ليل القمر في وقت الاقتران. ويتفاوت زمن اقتران النيرين (الشمس والقمر) بسبب أن كلاً من مدار القمر حول الأرض ومدار كل من الأرض والقمر حول الشمس ليس تام الاستدارة بل على شكل بيضاني (أي على هيئة قطع ناقص)، ومن قوانين الحركة في مدار القطع الناقص أن السرعة المحيطية تخضع لقانون يسمى باسم قانون تكافؤ المساحات مع الزمن، وهذا القانون يقتضي اختلاف مقدار السرعة على طول المحيط، فعندما يقترب القمر من الأرض تزيد سرعته المحيطية فتزداد بالتالي القوة الطاردة (النابذة) المركزية بينهما للحيلولة دون ارتطام القمر بالأرض وتدميرهما معاً، وعلى العكس من ذلك فإنه عند ابتعاد القمر في مداره البيضاني عن الأرض فإن سرعته المحيطية تتناقص وإلا انفلت من عقال جاذبية الأرض إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وتتراوح سرعة دوران القمر في مداره بين 3483 كيلو متراً في الساعة، 3888 كيلو متراً في الساعة (بمتوسط 3675 كيلو متراً في الساعة). كذلك تتفاوت سرعة سبح الأرض في فلكها حول الشمس بين 29.274 كيلو متر في الثانية، 30.274، كيلو متر في الثانية. وبجمع الفرق بين أعلى وأقل سرعتين لكل من القمر في مداره، والأرض في مدارها اتضح أنه يقابل الفرق في أطوال الأشهر القمرية بين (27.3215) يوماً في مدة الدورة النجمية للقمر، (29.5306) يوماً في دورته الاقترانية. والدورة النجمية للقمر حول الأرض تحسب باعتبار أن الأرض ثابتة لا تتحرك حتى يتم القمر دورته الكاملة حولها، والدورة الاقترانية للقمر تأخذ في الحسبان دوران الأرض حول محورها مع دوران القمر حول محوره.

ثانياً: من أوجه الإعجاز العلمي في الآية الكريمة:

* نظراً للارتباط الشديد بين مراحل أشكال القمر المتتالية من الهلال الوليد إلى التربيع الأول إلى الأحدب الأول، إلى البدر، ثم الأحدب الثاني، ثم الهلال الثاني، ثم المحاق، إلى الهلال الوليد للشهر القمري الجديد، وبين منازل القمر الثمانية والعشرين وهي مواقعه اليومية المتتالية في السماء بالنسبة إلى نجوم تبدو مواقعها قريبة ظاهرياً، فإن التعبير «**منازل القمر**» يمكن إطلاقه على مراحل القمر المتتالية وعلى منازله المتوافقة مع تلك المراحل (أي مواقعه المتتالية في السماء) باعتبار المنازل جمع (منزل) وهو المنهل والدار.

* والقمر يبدأ ميلاده بهلال دقيق، ثم يتدرج في النمو حتى يصبح بدراً كاملاً، ثم يعاود التناقص في الحجم حتى يصير كالعرجون القديم، ثم يختفي لمدة يوم أو يومين في مرحلة المحاق، وتتكرر هذه الدورة في كل شهر قمري حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

* وضوء الشمس يغمر نصف القمر باستمرار فينعكس من فوق سطحه المظلم نوراً ينير ظلمه ليل الأرض، وكل ما يستطيع أهل الأرض إدراكه من هذا النور يختلف من يوم إلى يوم تبعاً لموضع كل من الأرض والقمر والشمس في صفحة السماء.

والجزء المرئي من نور القمر قبل اكتماله بدراً يعرف باسم **(قوس النور)**، أما البدر الكامل فيعرف باسم **(دائرة النور)**، ونظراً لترنح القمر في دورانه حول محوره، ولضخامة حجم الشمس بالنسبة إلى حجم القمر فإن ضوء الشمس ينير أكثر من نصف سطح القمر بقليل، ولذلك فإنه يمكن أن يرى خيط رفيع من النور يحيط بالقمر عند ميلاد الهلال.

* والدائرة التي يراها سكان الأرض من القمر تعرف باسم **دائرة الرؤية**، والمساحة التي يمكن لهم رؤيتها من القمر تعرف باسم **(قوس النور)** وهو نتيجة العلاقة الوضعية بين كل من دائرة النور ودائرة الرؤية، وهما يتطابقان في كل من مرحلة البدر والمحاق، ويتعامدان في كل من التربيع الأول والأخير، وبين هذين الموضعين يتحرك القمر عبر مراحل وسطية من الأحدب إلى الهلال.

* وتقدير هذه المنازل القمرية فيه من الدلالة على طلاقة القدرة الإلهية ما فيه لأهميته في معرفة الزمن، وتقديره، وحسابه باليوم والأسبوع والشهر والسنة، وفي التأريخ للعبادات والأحداث والمعاملات والحقوق، ولما فيه من تأكيد على ضبط سرعة القمر ضبطاً دقيقاً من أجل الحيلولة دون ارتطامه بالأرض فيفنيها وتفنيه، أو انفلاته من عقال جاذبيتها فينتهي إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، وفي نفس الوقت الارتباط الدقيق بين سرعة دوران كل منهما حول

محوره، فإذا زادت إحداهما قلت الأخرى بنفس المعدل. ولما كانت سرعة دوران الأرض حول محورها في تناقص مستمر بمعدل جزء من الثانية في كل قرن من الزمن، فإن سرعة دوران القمر في تزايد مستمر بنفس المعدل تقريباً مما يؤدي إلى تباعد القمر عن الأرض بمقدار ثلاثة سنتيمترات في كل سنة، وهذا التباعد سوف يخرج القمر في يوم من الأيام من إسار جاذبية الأرض ليدخله في نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه تحقيقاً للواقعة القرآنية التي يصفها الحق ﷻ بقوله:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ **(القيامة: 7 ـ 9)**

ومن هنا كانت هذه الإشارة القرآنية المعجزة إلى وصف مراحل القمر المتتالية في كل شهر والتي يقول فيها ربنا ﷻ:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ **(يسٓ: 39)**



ويضاف إلى هذه المعجزات القرآنية التي لا تنتهي أبداً، وصف المرحلة الأخيرة من مراحل الدورة الشهرية للقمر بالعرجون القديم. وهو العنقود من الرطب (العذق) إذا يبس وانحنى واصفر لونه، وهو عند يبوسه على النخلة ينحني تجاهها فكذلك الهلال الثاني ينحني بطرفيه تجاه الأرض، بينما الهلال الوليد ينحني بهما بعيداً عنها.. فما أروع هذا التشبيه القرآني المعجز. . !

هذه الحقائق عن القمر لم يدركها العلم الكسبي إلا بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء وعشرات القرون، وورودها في آية واحدة من كتاب الله الذي أنزل على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ومن قبل ألف وأربعمائة سنة مما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه فحفظ بنفس لغة وحيه (اللغة العربية)، حفظ حفظاً كاملاً، حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، كما هو مرتب في بلايين النسخ المطبوعة والمستنسخة على الشرائط الممغنطة وعلى غيرها من وسائط التسجيل، والمنقول نقلاً متواتراً عبر أربعة عشر قرناً، والمحفوظ في بلايين الصدور بنفس ترتيب المصحف الشريف، فظل محتفظاً بجلال الربوبية والألوهية الذي يتراءى بين آياته، وبإشراقاته النورانية، ودقته العلمية، وصدق حديثه في كل قضية من قضاياه، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والصلاة والسلام على النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، وعلى آله وصحبه، وعلى كل من تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(29) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

(الأنعام: 96)

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الثاني من «سورة الأنعام»، وهي سورة مكية، ومن طوال السور في القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها 165 آية بعد آية البسملة؛ وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها، ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة، وفي مقدمتها الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ نبياً ورسولاً؛ والإيمان بحقيقة الوحي، وبوحدة رسالة السماء؛ وبحتمية البعث والحساب وبالخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً...!!

والإيمان بالله سبحانه وتعالى يقتضي توحيده توحيداً مطلقاً فوق كل خلقه، وتنزيهه عن كل وصف لايليق بجلاله من مثل الادعاء الكاذب له بالشريك أو الشبيه أو المنازع أو الصاحبة أو الولد (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، والإقرار له سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة التي لاتحدها حدود، وعظيم السلطان الذي لاينازعه فيه منازع، وبالألوهية والربوبية فوق كل خلقه، وبأنه رب هذا الكون ومليكه والمتصرف فيه وحده.

وتبدأ «سورة الأنعام» بحمد الله سبحانه وتعالى: «... الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور...»، وباستنكار شرك المشركين بالله؛ وبإقرار عدد من حقائق الكون في الأنفس والآفاق مستدلة بها على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى وحدانيته، وطلاقة قدرته؛ وأنه سبحانه وتعالى له ملك السمٰوات والأرض، ويعلم السر والجهر، ويعلم ما تكسب كل نفس....!!

وتنعي السورة الكريمة على الكافرين إعراضهم عن آيات الله،

وتكذيبهم للحق بعد أن جاءهم، وتنطعهم في طلب المعجزات الحسية من رسول الله ﷺ؛ ولذلك تتهددهم الآيات مذكرة إياهم بهلاك الأمم من قبلهم، وبحتمية جمعهم إلى الله ﷻ في يوم لاريب فيه...!!

وتثبِّت الآيات رسول الله ﷺ بتقرير أن ما لقيه من قومه من تكذيب واستنكار قد لقيه كل الرسل من قبله، وأن الكافرين لايكذبونه هو ﷺ ولكنهم بآيات الله يجحدون، وأن الله ﷻ شهيد بينه وبينهم على صدق نبوته ورسالته، وعلى صدق ما جاء به، وأن القرآن الكريم هو هديه الخاتم الذي أنزله ﷻ وحياً من عنده إلى خاتم أنبيائه ورسله لينذر به قومه، وينذر الناس جميعاً إلى يوم الدين؛ وأن أهل الكتاب يعرفون ذلك فيما بقي من كتبهم كما يعرفون أبناءهم.

وتذكر الآيات الكفار بإنكارهم للبعث، وتصور لهم تذللهم إلى الله (تعالى) في الآخرة أن يردهم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى حتى لا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين، وتذكرهم بمباغتة الساعة، وبأهوال يوم الحشر، وبإيقافهم على النار، وتصور لهم ندمهم على كفرهم ساعة لاينفع الندم، والله ﷻ يعلم أنهم لو ردوا لعادوا إلى مانهوا عنه، وتؤكد الآيات أن الحياة الدنيا لعب ولهو، وأن الآخرة خير للذين يتقون؛ وتذكر كلاً من الكفار والمشركين بنعم الله عليهم، وبأنه قادر على أخذها منهم كما منحها لهم، وتتهددهم بالعذاب بغتة أو جهرة، وبأن الله (تعالى) على كل شيء قدير.

وتأكيداً على بشريته ﷺ تطالب الآيات رسول الله ﷺ أن يبلغ الكافرين بأنه لايملك خزائن الله، ولايعلم الغيب، وليس بملك، بل هو بشر ممن خلق الله، لايتبع إلا ما يوحى إليه من ربه، وينذر الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم.

وتقرر الآيات في «سورة الأنعام» أن الغيب المطلق لايعلمه إلا الله ﷻ، وأنه يعلم كل صغيرة وكبيرة، وكل حركة وسكنة في الوجود، وأن كل ذلك مدون في اللوح المحفوظ؛ وأن الله ﷻ يتوفى الأنفس في منامها بالليل، ويبعثها في النهار، ويعلم ماتكسب كل نفس فيه، ويظل الأمر كذلك إلى انتهاء الأجل، ثم الرجوع إلى الله ﷻ بعد البعث لينبئ كلًّا بما عمل في حياته الدنيا.

وتنتقل الآيات إلى الحديث عن بعض طبائع النفس الإنسانية، وتأمر رسول الله ﷺ (ومن بعده كل المؤمنين) بعدم الجلوس في مجلس يتجرأ الحضور فيه على الله ﷻ وعلى آياته، وتأمر بهجرالذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا، وتأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يذكر بالقرآن الكريم كل الناس مخافة الهلاك بسوء الأعمال وفساد المعتقدات.

وتأمر الآيات بإقامة الصلاة، وبتقوى الله ﷻ في جميع الأحوال لأننا سوف نحشر إليه فيجازي كلاً بعمله، وهو الذي خلق السمٰوات والأرض بالحق، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الذي قوله الحق، الذي له ملك الدنيا والآخرة، وملك يوم الفزع الأكبر، يوم ينفخ في الصور فيخرج الناس من قبورهم كالجراد المنتشر، وهو ﷻ العليم بكل ما خفي وماظهر، وهو الحكيم في أفعاله، الخبير بشؤون عباده.

وبعد استعراض عدد من الأدلة القاطعة بوحدانية الله، وببطلان الشرك وبطلان عبادة الأوثان عرجت هذه السورة المباركة إلى جانب من قصة سيدنا إبراهيم (على نبينا وعليه من الله السلام)، وإلى حواره مع أبيه آزر، واستنكاره عبادة قومه للأصنام، وكيف أراه الله ﷻ ملكوت السمٰوات والأرض، وآتاه الحجة على قومه، وأكرمه ـ على الكبر ـ بالذرية الصالحة، فتأكد له أن الأمن كل الأمن في معية الله، وأن الأمن لايتحقق مع الشرك بالله أبداً.....!!

وأشارت السورة الكريمة إلى عدد آخر من أنبياء الله منهم: نوح، وإسحاق، ويعقوب، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط (على نبينا وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم).

وسجلت «سورة الأنعام» تحريف اليهود للتوراة، وأكدت أن القرآن الكريم قد تكاملت فيه كل الرسالات السماوية السابقة؛ وأن الله ﷻ قد أنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين لينذر به أهل مكة، وأهل الأرض جميعاً من حولها.

وتستنكر «سورة الأنعام» افتراء الكذب على الله، أو الادعاء الكاذب من قبل بعض الضالين بتلقي الوحي، أو ادعاء القدرة على الإتيان بمثل هذا القرآن، وتستعرض حالة هؤلاء الضالين، وهم في غمرات الموت وسكراته فتقول:

﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ **(الأنعام: 93، 94).**

وتعاود السورة المباركة الاستشهاد بعدد من آيات الله في الخلق، واستنكار الشرك بالله، وتنزيهه (ﷻ) عن كل وصف لايليق بجلاله، فتقول:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ **(الأنعام: 101 ـ 103).**

وتأمر الآيات رسول الله ﷺ باتباع ما أوحي إليه من ربه، وبالإعراض عن المشركين الذين لن يؤمنوا بوحدانية الخالق العظيم ولو جاءتهم كل آية، وذلك لأن مشاهدة المعجزات الحسية لن تغني من عميت بصائرهم شيئاً؛ وتؤكد أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن الكريم حق، منزل من الله الخالق، وقد تكامل فيه وحي السماء، ولكنهم من كفرهم وشركهم يراوغون ويخادعون.

وتأمر الآيات في «سورة الأنعام» بالأكل مما ذكر عليه اسم الله، وقد بين الله ﷻ الحلال والحرام من المطعومات، وأحل الحلال، وحرم الحرام، إلا في حالات الاضطرار؛ وتقرر الفرق الشاسع بين الهداية والضلال، وأن الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وتخاطب الآيات كلاً من الجن والإنس بقول الحق ﷻ لهم يوم القيامة:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾

(الأنعام: 130، 131).

وتنعي آيات «سورة الأنعام» على الكافرين جرأتهم على التحليل والتحريم بغير ما شرع الله، وتتهددهم بأن الله ﷻ ... ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

(الأنعام: 138).

وأوضحت الآيات أن ما حرم الله ﷻ على اليهود من الطعام إنما كان بسبب إفسادهم في الأرض، وعصيانهم لأوامر الله، وتحريفهم للتوراة، وبغيهم على عباد الله، وطغيانهم بقتل الأنبياء، وأكل الربا، واستحلال أموال ودماء وممتلكات الناس بالباطل (تماماً كما يفعل الصهاينة المجرمون على أرض فلسطين اليوم)، وفي خواتيم السورة المباركة جاءت بعدد من وصايا الله ﷻ لعباده يقول فيها ربنا ﷻ:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **(الأنعام: 151 ـ 153).**

وتختتم سورة الأنعام بختام يهز القلوب والعقول معاً يقول فيه ربنا ﷻ على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ **(الأنعام: 161 ـ 165).**

من الآيات الكونية في سورة الأنعام

الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة الأنعام على صدق ما جاء بها من قضايا، آيات عديدة نوجزها فيما يلي:

(1) خلق السمٰوات والأرض بالحق، أي حسب قوانين شديدة الانضباط.

(2) جعل الظلمات والنور، ومقابلتهما ببعض.

(3) التأكيد على خلق الإنسان من طين.

(4) الإشارة إلى أن لله خلق يسكنون بالليل وخلق يسكنون بالنهار.

(5) تأكيد حقيقة أن كل خلق من خلق الله هو أمة من أمثال أمم البشر.

(6) التنبؤ بأن الله ﷻ سيفتح على الإنسان من أبواب العلم مما نشهده اليوم.

(7) تأكيد حقيقة أن بالكون غيوباً مطلقة لايعلمها إلا الله.

(8) تأكيد حقيقة أن النوم صورة من صور الوفاة، وأن اليقظة من النوم صورة من صور البعث بعد الموت.

(9) تأكيد ظلمات البر والبحر أي أن الظلمة هي الأصل في الكون.

(10) الإشارة إلى وسطية موقع مكة المكرمة بالنسبة لليابسة.

(11) الإشارة إلى معجزة فلق كل من الحب والنوى لحظة الإنبات.

(12) الإشارة بتبادل الليل والنهار إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس.

(13) تشبيه طلوع الصبح بعد ظلام الليل بفلق النواة لحظة الإنبات.

(14) الحكمة من جعل الليل للسكن، والنهار لعمارةالأرض وللجري وراء المعايش.

(15) تأكيد أن الشمس والقمر يجريان بنظام محكم دقيق يمكن من حساب الزمن، والتأريخ للأحداث ولأداء العبادات في أوقاتها.

(16) خلق النجوم ومن فوائدها للإنسان الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

(17) خلق السلالة البشرية كلها من نفس واحدة.

(18) إخراج الحب المتراكب على هيئة السنابل من الخضر الذي يخلقه الله (تعالى) في النبات.

(19) إخراج القنوان الدانية وهي العراجين المتدلية من النخل (جمع قنو، وهو العذق أو عنقود التمر) من طلع النخل، وهو أول مايبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان.

(20) الإشارة إلى أن التصعد في السماء بغير وقاية يجعل الصدر ضيقاً حرجاً حتى يقضي على الصاعد بالموت.

(21) إنشاء جنات من المعروشات وغير المعروشات من النباتات، ومن النخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فإني سوف أقصر حديثي هنا على النقطة الخامسة عشرة التي تشير إلى جريان كل من الشمس والقمر بنظام محسوب بدقة بالغة مما يعين على حساب الزمن، والتأريخ للأحداث، وأداء الحقوق والواجبات والعبادات في أوقاتها المحسوبة، وقبل الدخول إلى ذلك لابد من إستعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ﷻ:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

* ذكر ابن كثير يرحمه الله ما مختصره: «﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ﴾ أي خالق الضياء والظلام (والصواب هو خالق النور والظلام) كما قال في أول السورة ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ أي فهو سبحانه يغلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود (والصواب هو: فينير الوجود)، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه (والصواب هو: بنوره) وإشراقه.....، وقوله ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ﴾ أي يجريان بحساب مقنن مقدر لايتغير ولايضطرب، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ (يونس: 5) الآية، وكما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يسٓ: 40)، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (الأعراف: 54) أي الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانع، ولا يخالف، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم....».

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما مختصره: «﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ مصدر بمعنى الصبح أي شاق عمود الصبح، وهو: أول مايبدو من نور النهار عن ظلمة الليل... ﴿سَكَنًا﴾ يسكن فيه الخلق من التعب، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب عطفاً على محل الليل ..﴿حُسْبَانًاۚ﴾ حساباً للأوقات، والباء محذوفة، وهو حال من مقدر أي: يجريان بحسبان ...﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه».

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) مانصه: «إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضاً، وهو الذي جعل الليل للسكون، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما، مقدرة دوراتهما.. مقدراً ذلك كله بقدرته التي تهيمن على كل شيء، وبعلمه الذي يحيط بكل شيء».

«وانغلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انغلاق الحبة والنواة، وانبثاق النور في تلك الحركة، كانبثاق البراعم في هذه الحركة، وبينهما من مشابه الحركة والحيوية

والبهاء والجمال سمات مشتركة، ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك... وبين انغلاق الحب والنوى وانغلاق الإصباح، وسكون الليل صلة أخرى.... إن الإصباح والإمساء، والحركة والسكون، في هذا الكون ـ أو في هذه الأرض ـ ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة».

«إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس، وكون القمر بهذا الحجم، وبهذا البعد من الأرض، وكون الشمس كذلك بهذا الحجم، وهذا البعد، وهذه الدرجة من الحرارة... هي تقديرات من (العزيز) ذي السلطان القادر (العليم) ذي العلم الشامل... ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو، ولما انبثق النبت والشجر، من الحب والنوى... إنه كون مقدر بحساب دقيق. ومقدر فيه حساب الحياة، ودرجة هذه الحياة، ونوع هذه الحياة... كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه....».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ الإصباح: مصدر سمي به الصبح، أي شاق الظلمة عن الصبح. وهو الغبش في آخر الليل الذي يلي الفجر المستطيل الكاذب ـ عن بياض النهار؛ فيضيء الوجود ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده ويجيء النهار بضيائه (والأصح هو بنوره). ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ يسكن إليه من يتعب بالنهار ويستأنس به لاسترواحه فيه. ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ﴾ أي يجريان في الفلك بحساب مقدر معلوم، لايتغير ولا يضطرب حتى ينتهيا إلى أقصى منازليهما، بحيث تتم الشمس دورتها في سنة، ويتم القمر دورته في شهر، وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها. والحسبان: مصدر حسبت المال حسباً ـ من باب فتل ـ أحصيته عدداً.

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً) مانصه: «وهو الذي يشق غبش الصبح بضوء النهار (والصحيح هو: بنور النهار)، ليسعى الأحياء إلى تحصيل أسباب حياتهم، وجعل الليل ذا راحة للجسم والنفس، وجعل سير الشمس والقمر بنظام دقيق يعرف به الناس مواقيت عباداتهم، ومعاملاتهم. ذلك النظام المحكم، تدبير القادر المسيطر على الكون المحيط بكل شيء علماً».

* وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبه خيراً) ما نصه:

«﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ أي شاقّ الضياء عن الظلام (والصحيح هو: النور عن الظلام) وكاشفه، قال الطبري: شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ﴾ أي بحساب دقيق

تتعلق به مصالح العباد، ويعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لايستعصي عليه شيء، العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة كونية مؤداها أن الله (جلت قدرته) قد قدر للأرض أن تدور حول محورها أمام الشمس وأن تجري في فلك محدد لها حول ذلك النجم، ومعه حول عدد من المراكز الأخرى (كما قدر لكل جرم من أجرام السماء أن يدور حول محوره، وأن يسبح في فلكه)، وبذلك فإنه ﷻ يفصل الأرض عن ليل السماء بطبقة نور النهار الرقيقة (التي لا يتعدى سمكها مائتي كليومتر في نصف الكرة الأرضية المقابل للشمس) وبنسبة طبقة النهار تلك إلى المسافة بين الأرض والشمس المقدرة بنحو 150 مليون كيلومتر)، يتضح لنا مدى رقة طبقة النهار، بينما تلتقي ظلمة الكون مع ظلمة الأرض في نصف الكرة المقابل، وعلى ذلك فإن الله ﷻ يفلق هاتين الظلمتين المتداخلتين ـ ظلمة الأرض وظلمة السماء ـ بالتدريج، فيحل النهار محل ظلمة الأرض على مراحل متتالية، ويبقي ظلمة السماء فوق نور النهار، ولذلك وصف ذاته العلية بأنه فالق الإصباح أي الصبح، وشبه هذه العملية بفلق نواة النبات أو بذرته بعملية الإنبات وأوضح أنه لا يقوى على ذلك إلا الله الخالق (سبحانه وتعالى).

ثم يضيف وصفاً آخر لتلك الذات العلية هي ﴿. . . وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ . . .﴾، ويصف تقدير ذلك بأنه: ﴿. . . تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

وجاء التعبير «فالق الإصباح وجعل الليل سكناً» إشارة إلى تبادل كل من النهار والليل، وإلى جعل النهار لعمارة الأرض، وإقامة عدل الله فيها، وللجري وراء المعايش، وللكدح من أجل كسب الرزق الحلال، وجعل الليل للسكن والاستجمام، والراحة والاسترخاء، والتأمل والعبادة بعد كدح النهار؛ وتبادل كل من الليل والنهار لايتم إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس.

وهذه الدورة الأرضية التي تعرف باسم الدورة المحورية، أو المغزلية، أو الدورانية تتم بسرعة تقدر بنحو الثلاثين كيلومتراً في الدقيقة (465 متراً في الثانية ×60 = 27.9 كيلومتر في الدقيقة ×60 = 1674 كيلومتراً في الساعة) لتتم دورة كاملة في يوم مقداره 24 ساعة (23 ساعة، 56 دقيقة، 4 ثوان في المتوسط)، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت قليل في



شكل (180) صورة توضح فلق الصبح

طول كلٍّ منهما، وذلك بسبب ميل محور دوران الأرض على مستوى مدارها حول الشمس، مما ينتج عنه تبادل فصول السنة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء.

ويوم الأرض (الناتج عن دورانها دورة كاملة حول محورها) يختلف طوله على مدار السنة بسبب تغيير سرعة سبح الأرض في فلكها حول الشمس (سرعة الحركة المدارية للأرض) تبعاً لبعدها عن الشمس، وبسبب آثار ظاهرتي المد والجزر، والدوران الفعلي للغلاف الغازي المحيط بالأرض، وبسبب بعض التغيرات في لب الأرض.

وقد حددت الثانية كوحدة للزمن على أساس أنها الفترة الزمنية المكافئة لـ (1:86,400) من متوسط طول اليوم الشمسي على مدار السنة (24 ساعة ×60 دقيقة ×60 ثانية = 86,400 ثانية).

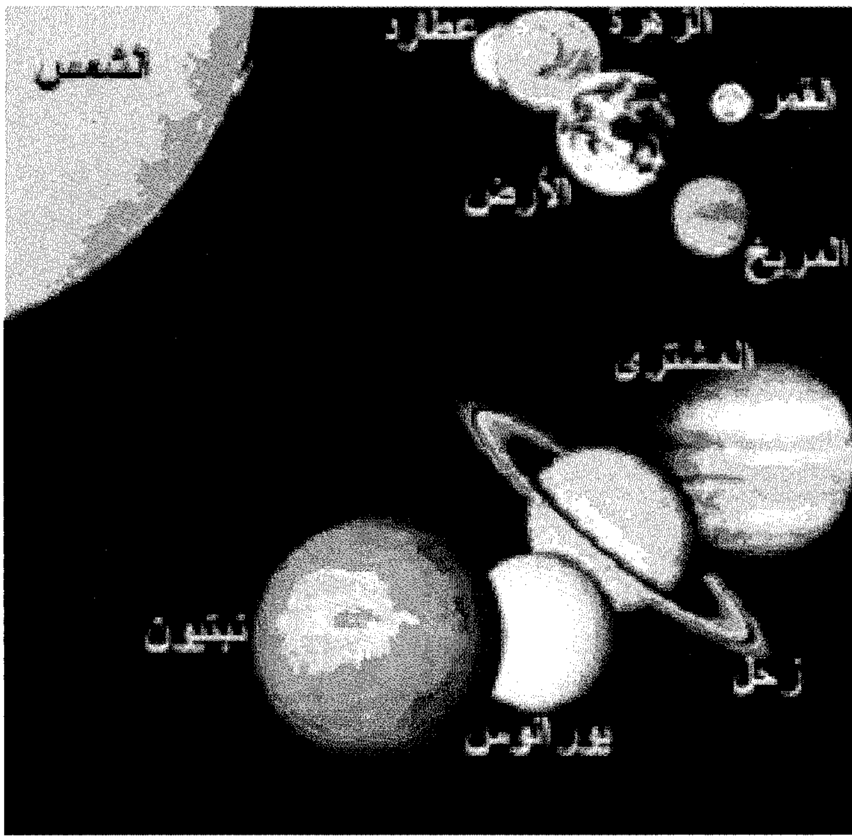
ولتفادي ماثبت من تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها، وبالتالي زيادة متوسط طول اليوم الشمسي بنحو 0.001 من الثانية في القرن الواحد، فقد تم الاتفاق على تعيين طول الثانية ذريًّا بأنها الفترة التي يتردد فيها قفز الإليكترون من مدار إلى آخر حول نواة ذرة

نظير عنصر (السيزيوم ـ 133) نحو تسعة آلاف ومائتي مليون مرة (9,192,631,770 مرة)، كما يمكن تقسيم الثانية إلى وحدات أقل.

ومع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق يبدو لنا هذا النجم (الشمس) صاعداً من جهة الشرق، وغائباً في جهة الغرب في حركة ظاهرية تحدد لنا يوم الأرض بليله ونهاره؛ وباستخدام كل من المزولة، أو البندول المعلق من سقف مرتفع، أو الساعات (باختلاف أنواعها ودرجة دقتها حتى الساعة الذرية) يمكن تقسيم كل من الليل والنهار إلى الساعات والدقائق والثواني، وفي بعض الحالات إلى أجزاء من الثانية.

والدورة اليومية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها دورة كاملة في كل يوم تجعل جميع مانراه في صفحة السماء الدنيا، وكأنه يدور من حولنا، وليست الشمس وحدها؛ فبالمثل يبدو القمر وكأنه يطلع على الأرض من جهة الشرق، ويغيب عنها في جهة الغرب، وهذه دورة ظاهرية، وللقمر دورة حقيقية حول محوره المائل على مستوى مداره أمام الأرض بسرعة متوسطة تقدر بنحو3675 كيلومتراً في الساعة، أي أكثر قليلاً من كيلومتر واحد في الثانية (1.021 كم/ت)، وهي نفس سرعة سبحه حول الأرض في مدار شبه دائري يقدر طوله بنحو 2.4 مليون كيلومتر لتتم هذه الدورة في أكثر قليلاً من سبعة وعشرين يوماً (27.3217 يوم)، ولكن نظراً لسبح الأرض حول الشمس في نفس الوقت مما يؤدي إلى تباعد نقطة البداية في كل دورة قمرية عن سابقتها فإن القمر يتم دورته الشهرية فعلاً في نحو29.5 يوم (29.5309 يوم) هي مدة الشهر القمري؛ ويقدر متوسط بعد القمر عن الأرض بنحو384 ألف كيلومتر، وبذلك يكون يوم القمر هو الشهر القمري للأرض، وهو يوم يقدر طول كل من ليله ونهاره بنحو 14.5 يوم أرضي تقريباً.

ويشترك في تحديد الشهر القمري كل من الشمس، والقمر، والأرض بأوضاعها المحددة بالنسبة لبعضها البعض، وكل من حركاتها الحقيقية، والظاهرية؛ فالقمر في سبحه في مداره حول الأرض، وهو يواجهها بوجه واحد يتم دورته في شهر قمري يتراوح طوله بين29 و30 يوماً (بمتوسط 29.53 يوم) فيبدأ بالخروج من **دور المحاق (طور الاقتران)**، فيولد **الهلال الجديد**، ثم بزيادة مساحة الجزء المنير من سطح القمر بالتدريج يتحرك إلى **التربيع الأول**، ثم **الأحدب الأول**، ثم **البدر الكامل (طور الاستقبال)**، وبعد ذلك تبدأ مساحة الجزء المنير من سطح القمر في التناقص بالتدريج إلى **الأحدب الثاني**، ثم **التربيع الثاني**، ثم **الهلال الأخير** حتى يدخل في **طور المحاق**، فيختفي نور القمر بالكامل لمدة يوم أو يومين حسب طول الشهر القمري، ويعاود الظهور في أول الشهر القمري التالي بميلاد هلال جديد، وهكذا



شكل (181) صورة طبيعية لمجموعتنا الشمسية التقطتها مركبة الفضاء فوييجير (Voyager-1) من خلف مدار كوكب نبتون

إلى أن يرث الله ﷻ الكون بما فيه، ومن فيه.

والأرض تسبح حول الشمس في فلك محدد لها (ومعها قمرها) لتتم دورة كاملة في سنة شمسية يقدر طولها في زماننا الراهن بنحو (365.25 يوم) موزعة على اثني عشر شهراً بعدد بروج السماء.

ونظراً لميل محور دوران الأرض فإن فصول السنة تتبادل: الربيع، والصيف والخريف، والشتاء، وذلك بتقدير العزيز الحكيم.

ولقد شاءت إرادة اللهالخالق ﷻ أن يتحدد يوم الأرض (بليله ونهاره) عن طريق دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وأن يتحدد شهر الأرض القمري بواسطة دورة القمر الشهرية حول الأرض، ويتحدد شهرها الشمسي عن طريق بروج السماء، وأن يقسم شهرها

القمري إلى أسابيع، وأيام بواسطة منازل القمر، وأطواره المتتالية في كل شهر.

والسنة القمرية هي الفترة الزمنية التي يتم فيها القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض، ويستغرق ذلك في زماننا الحالي (354.37 يوم)، وكسر اليوم يجمع ليكون يوماً في كل ثلاث سنوات تقريباً، ومن هنا اعتبرت السنة القمرية البسيطة354 يوما، والكبيسة 355 يوماً؛ بينما تستغرق السنة الشمسية 365.25 يوم، في زمننا الراهن.

ومن الناحية الشرعية فإن الشهر القمري يبدأ برؤية الهلال الجديد بعد غروب شمس اليوم التاسع والعشرين أو الثلاثين من الشهر القمري السابق، وينتهي برؤية الهلال الجديد الذي يليه بعد غروب شمس التاسع والعشرين أو الثلاثين منه؛ وعلى ذلك فإن الفترة الزمنية للشهر القمري تكون عدداً صحيحاً من الأيام، إما تسعة وعشرين يوماً، أو ثلاثين يوماً.

ومن المعلوم أن الطول الفعلي للشهر القمري يتراوح بين (29 يوماً و 5 ساعات)، و (29 يوماً و19 ساعة أو أكثر قليلاً)، وعلى ذلك فإن مدته المتوسطة تقدر بنحو (29 يوماً، 12 ساعة، 44 دقيقة)، وانطلاقاً من ذلك فإن الأشهر الكاملة قد تتوالى مرة أو مرتين، كما قد تتوالى الأشهر الناقصة مرة أو مرتين. وسطح الأرض منقسم إلى قسمين يفصل بينهما خط اتحاد المطالع، وجميع الأماكن التي تقع إلى الغرب من هذا الخط إذا رأت الهلال بدأ عندها الشهر القمري الجديد من اليوم التالي للرؤية، بينما جميع الأماكن الواقعة إلى الشرق من خط اتحاد المطالع فإنها لاترى الهلال إلا في اليوم التالي.

واليوم يبدأ في التقويم القمري من غروب الشمس إلى غروبها التالي، وبذلك يكون الليل سابقاً للنهار؛ وفي التقويم الشمسي يبدأ اليوم من منتصف الليل إلى منتصفه التالي.

واليوم أصبحت حركات كل من الأرض والقمر والشمس معلومة لنا بدقة كبيرة لدرجة أن الساعات الزمنية أصبحت تضبط على حركاتها، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ **(الأنعام: 96).**

وصدق ربنا (العزيز الحكيم) الذي أنزل كذلك قوله الحق:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ **(الرحمٰن: 5).**

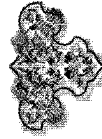
أي بحساب محكم دقيق يعين الإنسان على إدراك الزمن وحسابه والتأريخ للأحداث، وأداء العبادات، والحقوق، ولولا ذلك لتعذرت الحياة على الأرض، وهي قضايا لم يدركها

الإنسان إلا في أزمنة متأخرة بقرون طويلة بعد تنزل القرآن الكريم، مما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة، والرسالة للرسول الخاتم الذي تلقاه بحق، وأبلغه بأمانة وصدق، وجاهد في سبيله حتى أتاه اليقين، فَصَلّ اللَّهم وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم



(30) ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾



(القمر: 1)

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع سورة القمر، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (55) بعد البسملة وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بذكر معجزة انشقاق القمر كرامة لرسول الله ﷺ.

ويدور المحور الرئيس لسورة القمر حول قضية الإيمان بوحي السماء الذي أنزله ربنا ﷻ على فترة من الرسل، وأتمه وأكمله، وحفظه في الوحي الخاتم المنزل على الرسول الخاتم ﷺ؛ ولذلك تحمل السورة على المكذبين ببعثته الشريفة، وبالآيات التي أيده الله ﷻ بها، وفي مقدمتها القرآن الكريم، وذلك انطلاقاً من غرورهم، وكبرهم، وغطرستهم، وصلفهم، وتتوعدهم الآيات بالشقاء في الدنيا وبالمصير المخزي في الآخرة كما حدث مع جميع الذين كذبوا بالرسالات السابقة.

وتطالب سورة القمر رسول الله ﷺ بالإعراض عن هؤلاء الكافرين، وإمهالهم إلى يوم البعث العظيم، يوم يخرجون من قبورهم كأنهم جراد منتشر... وهو يوم الفزع الأكبر، والهول الأكبر الذي نسأل الله ﷻ أن يجيرنا من فزعه وأهواله... اللهم آمين.

وقد ابتدأت سورة القمر بالتحذير من اقتراب وقت الساعة، ومن الثابت عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**بعثت أنا والساعة هكذا**»[1] وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى.

ثم تابعت السورة بذكر تلك المعجزة الحسية ـ معجزة انشقاق

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن (الحديث: 7329).

القمر ـ التي أجراها ربنا ﷻ تأييداً لخاتم أنبيائه ورسله في مواجهة تكذيب مشركي قريش لنبوته ولرسالته، وعلى الرغم من وقوع المعجزة ـ التي لم ينكرها أحد منهم ـ فإنهم بدلاً من أن يؤمنوا بها اتهموا رسول الله ﷺ بالسحر، وهم الذين لم يشهدوا عليه كذباً أبداً، وذلك انطلاقاً من كبرهم وعنادهم واتباعهم لأهوائهم، ولم تزجرهم عن ذلك الأنباء، ولم تغنهم النذر...!!

ومن قبيل تذكير هؤلاء الكافرين بمصائرهم استعرضت سورة القمر مصارع المكذبين في عدد من الأمم السابقة ومنهم أقوام نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وفرعون، مؤكدة أن كفار قريش لم يكونوا أقوى ولا أشد من تلك الأمم السابقة عليهم (والخطاب هنا يشمل المتجبرين من الكفار والمشركين في زماننا، وفي كل زمان من أمثال الصهاينة المجرمين واعتداءاتهم المستمرة على شعب فلسطين العربي المسلم، والأمريكان وأعوانهم من المتجبرين على كل من شعبي العراق وأفغانستان المسلمين، وعلى غيرهما من شعوب العالميْن العربي والإسلامي، وكل من الروس، والهندوس، والبوذيين واستباحتهم لأراضي كل من الشيشان، وكشمير، وأراكان، وجنوب الفلبين، وغير هؤلاء من الظلمة الذين يستبيحون أراضي الصومال، والسودان، وسبتة ومليلة والجزر المحيطة بهما، أو يقوم بمحاصرة العديد من الدول المسلمة الأخرى مثل إيران، وسوريا ولبنان، وليبيا، والسودان).

وفي نهاية كل خبر من أخبار الأمم البائدة تدعو السورة الكريمة كفار قريش ـ كما تدعو الكفار والمشركين في زماننا وفي كل زمان ومكان ـ إلى الاعتبار والتذكر وذلك بقول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ **(القمر: 4).**

وقوله (سبحانه): ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ **(القمر: 15).**

أو بقوله (عز من قائل):

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ **(القمر: 16، 21، 30).**

وقد تكررت هذه الآية الكريمة ثلاث مرات في سياق السورة المباركة.

وقوله (ﷻ): ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **(القمر: 51).**

وبين كل خبر من أخبار تلك الأمم الهالكة والذي يليه تنبه سورة القمر إلى حقيقة أن القرآن الكريم ميسر لكل من يطلبه، ويطلب العظة والاعتبار منه، ولذلك تكرر في ثنايا هذه السورة المباركة أربع مرات قول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **(القمر: 17، 22، 32، 40).**

وبعد هذا الاستعراض التاريخي المعجز عاودت سورة القمر توجيه الحديث إلى كفار قريش ـ كما توجهه إلى كفار اليوم وإلى كفار كل يوم حتى قيام الساعة ـ محذرة إياهم من مصير كمصائر المكذبين السابقين أو أشد وأنكى، في الدنيا قبل الآخرة، ومذكرة إياهم بمواقف الذل والمهانة التي سوف يتعرضون لها في الآخرة، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾

(القمر: 43 ـ 48)

وبعد تأكيد أن الله ﷻ هو خالق كل شيء بتقدير دقيق، وحكمة بالغة، وأن أمره سبحانه ﴿وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ (القمر: 50)، وأن الاعتبار بهلاك الأمم البائدة من صميم التعقل ومن حسن الاستفادة بدروس التاريخ، وأن كل ما فعلته تلك الأمم، ويفعله غيرهم من الخلق مدون، ومسطر، ومسجل عليهم، وأنهم سوف يواجهون به، ويحاسبون عليه يوم القيامة.

بعد استعراض ذلك كله ختمت سورة القمر ببيان منازل التكريم التي أعدت للمتقين من عباد الله الصالحين والتي وصفها الحق ﷻ بقوله (عز من قائل):

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

(القمر: 54، 55).

ومن جوانب الإعجاز في سورة القمر ما يشمل إثبات حقيقة انشقاق القمر، ومواقف كفار قريش منها، ووصف خروج الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر، ويشمل ذكر عدد من الأمم السابقة، وذكر مواقفهم من أنبيائهم ورسلهم، ومن وحي الله ﷻ إليهم، وذكر ما أصابهم من مختلف صور العذاب جزاء استكبارهم وصلفهم وإنكار رسالة السماء إليهم، ثم جاءت الكشوف العلمية والأثرية في القرن العشرين مؤكدة صدق كل ما جاء في هذه السورة المباركة، وفي غيرها من سور القرآن الكريم عن تلك الأمم البائدة.

وسوف يتم التركيز هنا على قضية انشقاق القمر، وهي معجزة خارقة، لا يكاد العقل البشري أن يتصورها، ولكن من رحمة الله بنا أن أبقى لنا في صخور القمر من الشواهد الحسية ما يؤكد وقوعها...!! وأعان الإنسان على الوصول إلى تلك الشواهد حتى تقوم الحجة البالغة على الناس في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وقبل الحديث عن معجزة انشقاق القمر لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية القرآنية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾

* ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ **(النحل: 1)**، وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ **(الأنبياء: 1)**، وقد وردت الأحاديث بذلك... وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات».

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه برحمته الواسعة) ما مختصره: «﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ قربت القيامة ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ انفلق فلقتين على جبلي أبي قبيس وقعيقعان، آية له ﷺ، وقد سئلها (أي: سأله أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر) فقال: «**اشهدوا**» رواه الشيخان[1].

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه: «مطلع باهر مثير، على حادث كوني كبير، وإرهاص بحادث أكبر، لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني الكبير: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ فيا له من إرهاص! ويا له من خبر، ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر؛ والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة، تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث....».

وبعد استعراض لعدد من الروايات أضاف صاحب الظلال رحمه الله: «فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث، وتحديد مكانه في مكة ـ باستثناء رواية لم نذكرها عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، أنه كان في منى ـ وتحديد زمانه في عهد النبي ﷺ قبل الهجرة، وتحديد هيئته ـ في معظم الروايات أنه انشق فلقتين، وفي رواية واحدة أنه كسف (أي خسف).. فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة».

«وهو حادث واجه به القرآن المشركين في حينه، ولم يُرْوَ عنهم تكذيب لوقوعه، فلابد أن يكون قد وقع فعلاً بصورة يتعذر معها التكذيب، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات، لو وجدوا منفذاً للتكذيب. وكل ما روي عنهم أنهم قالوا: سحرنا!

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب (الحديث: 3636)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين (الحديث: 7002)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 3285).

ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر، فعرفوا أنه ليس بسحر؛ فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه».

وأضاف ﷺ: «بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول: إن المشركين سألوا النبي ﷺ آية، فانشق القمر. فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله، لسبب معين: ﴿**وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ** . . .﴾ (**الإسراء: 59**) فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات ـ أي الخوارق ـ لما كان من تكذيب الأولين بها... فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية ـ أي خارقة ـ يبدو بعيداً عن مفهوم النصوص القرآنية، وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده، وما فيه من إعجاز ظاهر، ثم توجيه هذا القلب ـ عن طريق القرآن ـ إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق، وفي أحداث التاريخ سواء... فأما ما وقع فعلاً للرسول ﷺ من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراماً من الله لعبده، لا دليلاً لإثبات رسالته... ومن ثم نثبت الحادث ـ حادث انشقاق القمر ـ بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته، ونتوقف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات، ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة، باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب....».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه رحمة واسعة) ما نصه: «﴿**ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ**﴾ قربت القيامة جداً .﴿**وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ**﴾ وانفلق فلقتين معجزة له ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين، حين سأله أهل مكة أن يريهم آية تدل على صدقه، فأراهم القمر فلقتين حتى رأوا جبل حراء بينهما، فقال ﷺ: «**اشهدوا**»!! وقد رآه كثير من الناس؛ والأحاديث الصحيحة في هذه المعجزة كثيرة. وقيل: اقتربت الساعة، فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية».

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً) ما نصه: «دنت القيامة وسينشق القمر لا محالة».

* وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبها خيراً) ما نصه: «... أي دنت القيامة وقد انشق القمر».

واقعة انشقاق القمر في التراث الإسلامي

رويت واقعة انشقاق القمر عن طريق عدد كبير من صحابة رسول الله ﷺ، منهم عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وجبير بن مطعم وغيرهم (رضي الله ﷻ عنا وعنهم أجمعين).

* فقد روى الإمام البخاري في صحيحه وأخرج الإمام أحمد في مسنده، وروى كل من الإمامين أبي داود والبيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحر بن أبي كبشة، قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السفار فقالوا ذلك. وفي لفظ: انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به، قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل جهة، فقالوا: رأينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾. وروي عنه أيضاً قوله: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**».

* كذلك روى كل من الإمامين البخاري وأحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر.

* وروى الإمام البيهقي، كما أخرج كل من الأئمة البخاري ومسلم والترمذي (جزاهم الله خيراً) عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قوله: «... وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين، فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل»، فقال النبي ﷺ: «**اللهم اشهد**».

* وروى كل من الإمامين البخاري ومسلم (رحمهما الله) عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قوله: «انشق القمر في زمان النبي ﷺ». كذلك روى ابن جرير عن ابن عباس قوله: «... قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه».

* وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قوله: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، وقال غيرهم: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم».

* وروى الإمام ليث عن مجاهد رضي الله عنه قوله: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «**اشهد يا أبا بكر**»، فقال الكافرون: سحر القمر حتى انشق».

* وفي إحدى المخطوطات الهندية القديمة والمحفوظة في مكتبة المركز الهندي بالمتحف البريطاني بمدينة لندن (تحت رقم 2807/ 152 ـ 173) ذكر المفكر الإسلامي

الكبير الأستاذ الدكتور محمد حميد الله (رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم) في كتابه المعنون «محمد رسول الله» أن أحد ملوك ماليبار (وهي إحدى مقاطعات جنوب غربي الهند) وكان اسمه شاكرواتي فارماس **(Chakarawati Farmas)** شاهد انشقاق القمر على عهد رسول الله ﷺ وأخذ يحدث الناس بذلك.

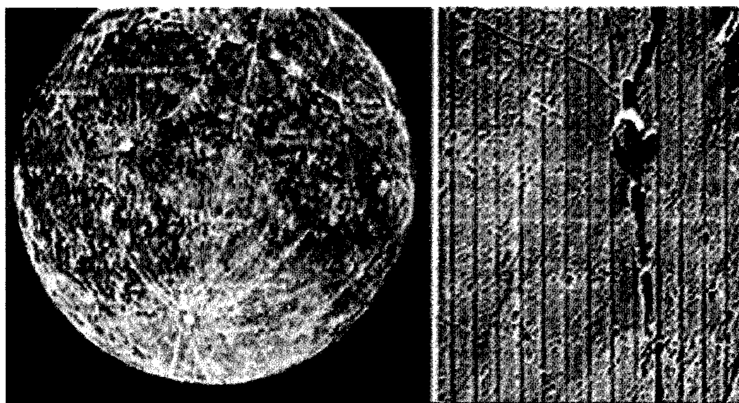
وحدث أن مر عدد من التجار المسلمين بولاية ماليبار، وهم في طريقهم إلى الصين، وسمعوا حديث الملك شاكرواتي فارماس عن انشقاق القمر فأخبروه أنهم أيضاً قد رأوا ذلك، وأفهموه أن انشقاق القمر معجزة أجراها ربنا ﷻ تأييداً لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ في مواجهة تكذيب مشركي قريش لنبوته ولرسالته. فأمر الملك بتنصيب ابنه وولي عهده قائماً بأعمال مملكة ماليبار وتوجه إلى الجزيرة العربية لمقابلة المصطفى ﷺ. وبالفعل وصل الملك الماليباري إلى مكة المكرمة وأعلن إسلامه أمام رسول الله ﷺ، وتعلم ركائز الدين الأساسية، وأقل راجعاً، ولكن شاءت إرادة اللهﷻ أن ينتهي أجله قبل مغادرته أرض الجزيرة العربية فمات ودفن في أرض ظفار، وحين وصل الخبر إلى ماليبار كان ذلك حافزاً لدخول أهلها الإسلام زرافات ووحداناً.

شاهد من عصرنا على انشقاق القمر:

عقب محاضرة لي عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ألقيت باللغة الإنجليزية في كلية الطب بجامعة كاردف عاصمة مقاطعة ويلز في غربي الجزر البريطانية، دار حوار ممتع مع جمهور الحضور من المسلمين وغير المسلمين، ومن جملة الأسئلة التي أثيرت من أحد الحضور سؤال عن واقعة انشقاق القمر كما جاء ذكرها في مطلع سورة القمر، وهل تمثل لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في كتاب الله؟

وعلى الفور أجبت بأنها معجزة من المعجزات الحسية العديدة التي حدثت تأييداً لرسول الله ﷺ في مواجهة تكذيب كفار قريش لبعثته الشريفة، وأن المعجزات هي خوارق للسنن والقوانين الحاكمة للكون، فلا يستطيع العلم الكسبي تفسيرها، ولو استطاع تفسيرها ما كانت معجزة.

وأضفت أن المعجزات الحسية التي جاء ذكرها في كتاب الله، أو في سنة رسوله ﷺ هي حجج على من شاهدها من الخلق، وبما أننا لم نشاهدها فهي ليست حجة علينا، ولكننا نؤمن بوقوعها لورود ذكرها في كتاب الله أو في الأقوال الصحيحة المنسوبة إلى رسول الله ﷺ، وكتاب الله كله حق مطلق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ورسول الله ﷺ



شكل (182)

أ ـ صورة حقيقية لأحد الشقوق الكبرى الظاهرة على سطح القمر والمعروف باسم غور هايجينس (The Hyginus Rille)

ب ـ صورة حقيقية للقمر وقت البدر الكامل توضح شق القمر في منتصف سطحه تقريباً

يصفه القرآن الكريم بقول الحق ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾

(النجم: 3 ـ 5).

وحادثة انشقاق القمر جاء ذكرها في مطلع سورة القمر، على أنها قد وقعت بالفعل تحدياً لكفار ومشركي قريش، وتأييداً لرسول الله ﷺ في مواجهة تكذيبهم لنبوته ولرسالته، ولم يرو عن أحد منهم تكذيب تلك الواقعة التي نسبوها تارة لتعرضهم هم لعملية سحر، وتارة أخرى لتعرض القمر للسحر، حتى هيئ لهم أنه قد انشق بالفعل مما يفهم منه تأييدهم لوقوع تلك المعجزة، وإن حاولوا التقليل من شأنها بنسبتها إلى السحر...!!، ثم عاودوا نفي فرية السحر بأنفسهم وذلك بقول نفر من عقلائهم ـ كما جاء في روايات الواقعة: لئن كان قد سحرنا فإنه لا يمكن أن يكون قد سحر معنا المسافرين خارج مكة؛ فتسارعوا إلى مداخل المدينة في انتظار الركبان القادمين من السفر، وعند سؤالهم شهدوا بأنهم في الليلة نفسها التي شاهد فيها أهل مكة تلك الواقعة رأوا هم كذلك انشقاق القمر إلى فلقتين تباعدتا عن بعضهما البعض لعدة ساعات ثم التحمتا، فآمن من آمن وكفر من كفر. ولذلك تقول الآيات في مطلع سورة القمر:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ (القمر: 1 ـ 5).

كذلك روى حادثة انشقاق القمر بصورة متواترة عدد غير قليل من كبار صحابة رسول الله ﷺ من أمثال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وجبير بن مطعم (رضي الله ﷻ عنا وعنهم أجمعين)، ولا يمكن أن تجتمع كلمة هؤلاء جميعاً على باطل، وهم من أهل التقى والورع (ولا نزكي على الله أحداً). وقد حقق أحاديث انشقاق القمر عدد كبير من أئمة علماء الحديث في مقدمتهم البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، والبيهقي، وغيرهم كثير مما يجزم بوقوعها، ومن هنا فإننا نرفض قول بعض المفسرين إن الحادثة من إرهاصات الآخرة انطلاقاً من استهلال السورة بقول الحق ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾؛ وهؤلاء قد لا يعلمون أن عمر الأرض التي نحيا عليها يقدر بنحو خمسة آلاف مليون سنة (على أقل تقدير)، وأن عمر مادة كل من الأرض والكون المحيط بها يقدر بنحو عشرة آلاف مليون سنة (على أقل تقدير)، وأن بعثة المصطفى ﷺ كانت منذ أربعة عشر قرناً فقط، ونسبة هذا التاريخ إلى ملايين السنين التي مضت من عمر كل من الأرض والكون يؤكد قرب نهاية العالم. ولذلك يروي عنه (عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم) قوله الشريف: «**بعثت أنا والساعة هكذا**»[1] وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى. وهي قولة حق خالص، وإعجاز علمي صادق لأنه لم يكن لأحد في زمانه ﷺ أدنى تصور عن قدم الأرض إلى مثل تلك الآماد الموغلة في القدم؛ وهذا كافٍ للرد على الذين قالوا إن في استهلال سورة القمر بالقرار الإلهي ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إيحاء بأن انشقاق القمر مرتبط باقتراب الساعة، بمعنى أنها إذا جاءت انشق القمر، لأن المعجزة قد وقعت فعلاً على زمن رسول الله ﷺ. وقد يشير إلى ذلك وجود شق كبير بالقرب من القطب الجنوبي للقمر على الوجه الذي لا يرى من فوق سطح الأرض يزيد طوله على 225 كيلومتراً؛ ويدعمه عدم تماثل نصفي القمر الحالي، ويؤكده وصف القرآن الكريم لنهاية القمر بابتلاع الشمس له (لا بانشقاقه) وذلك كما جاء في قوله ﷻ:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ **(القيامة: 7 ـ 9).**

ويأتي العلم في قمة من قممه مؤكداً تباعد القمر عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة مما يشير إلى حتمية دخوله في مجال جاذبية الشمس فتبتلعه، وإن كان ذلك ـ كغيره من إرهاصات الآخرة ـ سوف يتم بالأمر الإلهي: كن فيكون، وليس بالسنن الدنيوية

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

التي يبقيها لنا ربنا ﷻ لإثبات إمكان وقوع الآخرة؛ بل حتميتها.

وبعد فراغي من الإجابة على سؤال السائل الكريم وقف بريطاني مسلم عرف نفسه باسم داود موسى بيدكوك **(David Musa Pidcock)** وبمنصبه كرئيس للحزب الإسلامي البريطاني، واستأذن في إمكان إضافة شيء إلى ما قلته في إجابتي فأذنت له بذلك فقال: إن هذه الآية كانت مدخلي لقبول الإسلام ديناً، فقد شغفت بعلم مقارنة الأديان، وأهداني صديق مسلم نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم فأخذتها منه شاكراً وتوجهت بها إلى مسكني، وعند تصفحها لأول مرة فوجئت بسورة القمر فقرأت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ ثم توقفت متسائلاً: كيف يمكن للقمر أن ينشق ثم يعود ليلتحم؟ وما هي القوة القادرة على إعادته إلى سيرته الأولى؟ فتوقفت عن القراءة وكأن هذه الآية الكريمة قد صدتني عن الاستمرار في ذلك...!!

ولكن لعلم اللهﷻ بمدى إخلاصي في البحث عن الحقيقة وحرصي على الوصول إليها أجلسني أمام التلفاز لأشاهد حواراً بين مذيع بريطاني يعمل بقناة التليفزيون البريطاني **(B.B.C.)** واسمه جيمس بيرك **(James Burck)** وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين، وجرى عتاب من هذا المذيع على الإسراف المخل في الإنفاق على رحلات الفضاء في الوقت الذي تتعرض جماعات بشرية عديدة لأخطار المجاعات، والأمراض، وانتشار الأمية بين البالغين، ولمختلف صور التخلف العمراني والعلمي والتقني، وأنه كان من الأولى إنفاق هذا المال الوفير في معالجة تلك القضايا الملحة وإعمار الأرض فضلاً عن التسابق في رحلات الفضاء.

ووقف علماء الفضاء مدافعين عن مهنتهم بأن الإنفاق على رحلات الفضاء ليس مالاً مهدراً لأنه يعين على تطوير عدد من التقنيات المتقدمة التي تطبق في مختلف المجالات الطبية والصناعية والزراعية، ويمكن أن تعود بمردودات مادية وعلمية كبيرة، وفي غمرة هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رجل على سطح القمر على أنها كانت من أكثر هذه الرحلات كلفة فقد تكلفت عشرات المليارات من الدولارات. فسأل المحاور: هل كان كل ذلك لمجرد وضع العلم الأمريكي على سطح القمر؟ وجاءت الإجابة بالنفي، وبأن الهدف كان دراسة علمية لأقرب أجرام السماء إلينا؛ فسأل المحاور: ألم يكن من الأجدى إنفاق تلك المبالغ الطائلة على عمارة الأرض؟ وجاء الجواب بأن الرحلة أوصلتنا إلى حقيقة علمية لو أنفقنا أضعاف هذا المبلغ لإقناع الناس بها ما صدقنا أحد...!!

فسأل المحاور: وما هذه الحقيقة العلمية؟ فكان الجواب أن هذا القمر كان قد انشق



شكل (183) صورة حقيقية للقمر توضح الحفر النيزكية والبركانية على سطحه

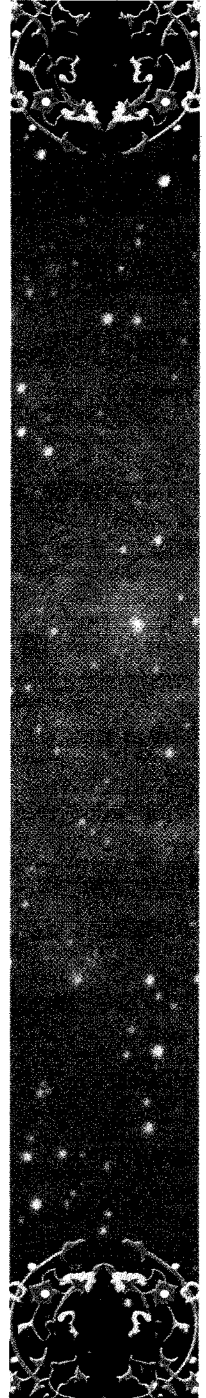
في يوم من الأيام ثم التحم بدليل وجود تمزقات طويلة جداً وغائرة في جسم القمر، تتراوح أعماقها بين عدة مئات من الأمتار وأكثر من الكيلو متر وأعراضها بين نصف الكيلو متر وخمسة كيلو مترات وتمتد إلى مئات من الكيلو مترات في خطوط مستقيمة أو متعرجة. وتمر هذه الشقوق الطولية الهائلة بالعديد من الحفر التي يزيد عمق الواحدة منها على تسعة كيلو مترات، ويزيد قطرها على الألف كيلو متر، ومن أمثلتها الحفرة العميقة المعروفة باسم بحر الشرق **(Mare Orientalis)**. وقد فسرت هذه الحفر العميقة باصطدام أجرام سماوية بحجم الكويكبات **(Impact of Asteroid-Sized Objects)** أما الشقوق التي تعرف باسم شقوق القمر **(Rimae or Lunar Rilles)** فقد فسرت على أنها شروخ ناتجة عن الشد الجانبي **(Tensional Cracks)** أو متداخلات نارية على هيئة الجدد القاطعة، ولكن أمثال هذه الأشكال على الأرض لا تصل إلى تلك الأعماق الغائرة، ومن هنا فقد فسرت على أنها من آثار انشقاق القمر وإعادة التحامه.

يقول السيد بيدكوك: حين سمعت هذا الكلام انتفضت من فوق الكرسي الذي كنت أجلس عليه أمام التلفاز، وتساءلت: معجزة تحدث لمحمد ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة

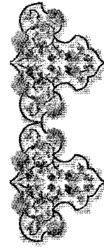
يثبتها العلم في زمن التقنية الذي نعيشه بهذه البساطة، وبهذا الوضوح الذي لا يخفى على عالم في مجال علم الفلك اليوم، فلابد أن يكون القرآن حقاً مطلقاً، وصادقاً صدقاً كاملاً في كل خبر جاء به؛ وعلى الفور عاودت القراءة في ترجمة معاني القرآن الكريم، وكانت هذه الآية التي صدتني في بادئ الأمر عن الاستمرار في قراءة هذا الكتاب المجيد هي مدخلي لقبول الإسلام ديناً.

ولا أستطيع أن أصف لكم وقع هذه الكلمات، ووقع النبرة الصادقة التي قيلت بها على كل الحضور من المسلمين وغير المسلمين فقد هزت القلوب والعقول، وأثارت المشاعر والأفكار، ولم أجد ما أقوله أبلغ من أن أردد قول الحق ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ **(فصلت: 53)**.



بسم الله الرحمن الرحيم



(31) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(مريم: 65)



هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الأخير من سورة مريم، وهي سورة مكية، وعدد آياتها 98 بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود قصة السيدة مريم ابنة عمران فيها، ومعجزة ولادتها للسيد المسيح عليه السلام، وهي عذراء لم يمسسها بشر، ومعجزة كلامه عليه السلام، وهو في المهد دفاعاً عن أمه (شرفها الله) التي حاول اليهود (عليهم لعنة الله) أن ينالوا من شرفها، كما لوثوا سيرة كل نبي أرسل إليهم....!!

والمحور الرئيسي «لسورة مريم» يدور حول قضية العقيدة بأبعادها المختلفة، وفي مقدمتها توحيد الله، توحيداً مطلقاً فوق كل خلقه، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن كل وصف لايليق بجلاله من مثل نسبة الصاحبة أو الولد أو الشريك أو الشبيه إليه، والتأكيد على طلاقة قدرته التي لا تحدها حدود، ولايقف أمامها عائق؛ وترسيخ عقيدة البعث، والحساب، والجنة، والنار، وإثبات وحدة رسالة السماء التي أنزلها ربنا سبحانه وتعالى على فترة من الرسل، وسماها باسم الإسلام، والدعوة إلى الاجتهاد في القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن عمارتها، وإقامة عدل الله فيها، وإشاعة الأمن والفضيلة في أرجائها والتذكير بالآخرة والتحذير من أهوالها...!!

ولتأكيد هذه المعاني تعرض سورة مريم لجوانب من القصص المتعلق بعدد من أنبياء الله، ولمصارع مكذبيهم في الدنيا من الكفار والمشركين، ولمصيرهم الأسود في الآخرة....!!

وتبدأ «سورة مريم» بخمسة من الحروف المقطعة، وهي (كٓهيعٓصٓ)، وقد وردت بهذه الصيغة مرة واحدة في القرآن الكريم كله.

وهذه الفواتح الهجائية أو (الحروف المقطعة) تتكون من أربعة عشر حرفاً، جمعت في أربع عشرة صيغة، ورد كل منها مرة واحدة إلا أربعاً منها هي: (الٓمٓ)، وقد تكررت ست مرات في القرآن الكريم، (الٓر)، وقد تكررت خمس مرات، (طسٓمٓ)، وقد تكررت مرتين، و (حمٓ)، وقد تكررت بمفردها ست مرات، وتكررت مرة سابعة في الصيغة الخماسية (حمٓ* عٓسٓقٓ)، وبذلك يكون مجموع الصيغ المكررة تسع عشرة، ومجموع الصيغ غير المكررة عشر صيغ، وتضم هذه الفواتح الهجائية أسماء نصف حروف الهجاء الثمانية والعشرين، وقد استفتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، إلا إذا اعتبرنا (يسٓ) اسماً من أسماء رسول الله ﷺ فيكون عدد السور التي استفتحت بها الحروف المقطعة ثمانية وعشرين سورة وهو نفس عدد حروف الهجاء العربية.

وهذه الفواتح الهجائية هي من أسرار القرآن العظيم، التي توقف عن الخوض فيها أعداد من علماء المسلمين مكتفين بتفويض الأمر فيها إلى الله ﷻ، ورأى عدد آخر ضرورة الاجتهاد في تفسيرها وفهم دلالاتها، وإن لم يصلوا بعد إلى إجماع في ذلك، فمنهم من رأى فيها رموزاً إلى كلمات أو معان، أو أعداد معينة، أو أسماء للسور التي وردت في أوائلها؛ ومنهم من رأى فيها وسيلة قرع لأسماع وقلوب القارئين للقرآن أو المستمعين إليه، حتى يتهيأوا لتلقي كلام الله. ومنهم من رأى فيها معجزة لرسول الله ﷺ من حيث نطقه بأسماء الحروف، وهو أمي، والأمي ينطق بأصوات الحروف دون معرفة أسمائها؛ ومنهم من رأى فيها تنبيهاً على إعجاز القرآن الكريم الذي صيغ من جنس تلك الحروف الهجائية التي يتكلم بها العرب، ويعجزون عن الإتيان بشيء من مثله، وقد يكون فيها كل ذلك، وغيره مما لايعلمه إلا الله (تعالى)؛ هذا وقد جمع عدد من المفسرين هذه الحروف في مجموعات من الجمل من أشهرها: «نص حكيم قاطع له سر».

وبعد هذا الاستهلال المميز استعرضت السورة الكريمة ضراعة نبي الله زكريا ﷺ إلى الله (تعالى)، خفية، أن يهبه ذرية صالحة، وقد بلغ منه الكبر مبلغاً، وكانت امرأته عاقراً، وكيف استجاب الله لدعائه، ووهبه يحيى نبياً، وسيداً، وحصوراً، وكانت ولادته من أم عاقر، وأب طاعن في السن معجزة ناطقة بطلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود.

ثم انتقلت السورة إلى قصة السيدة مريم البتول (عليها رضوان الله)، وحملها دون أن يمسها بشر، ووضعها لنبي الله عيسى (على نبينا وعليه السلام)؛ وإنطاق الله (تعالى) لهذا الوليد المبارك، وهو في المهد، وما رافق هذه المعجزات من مشاهد وأحداث تؤكد عبودية المسيح لله الخالق ﷻ، وذلك بنطقه المدون في سورة مريم بالنص التالي:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: 30 ـ 33).

وتستمر الآيات مؤكدة اختلاف كل من اليهود والنصارى حول شخص المسيح (على نبينا وعليه السلام)، وانحراف غالبية أتباعه عن منهجه، وانقسامهم إلى العديد من الفرق؛ وانغماسهم في بحور من الضلال المبين، ولذلك تتهددهم الآيات بيوم القيامة ومشاهده المفزعة كما تؤكد تنزيه الله (تعالى) عن الولد، وذلك بقول الحق ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (مريم: 34 ـ 40)

وبعد ذلك تعرض «سورة مريم» لجانب من قصة نبي الله إبراهيم (على نبينا وعليه السلام) وحواره مع أبيه، وثباته على الحق الذي شرح الله صدره له، وإكرام الله (تعالى) له بذرية صالحة من الأنبياء على الرغم من كبر سنه؛ وأتبعت ذلك بالحديث عن سلسلة من أنبياء الله (على نبينا وعليهم من الله السلام)، ومنهم موسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وجميعهم من ذرية آدم عليه السلام، ومنهم من حملهم الله (تعالى) مع نوح، ومنهم من هو من ذرية كل من إبراهيم، ويعقوب عليهما السلام، وممن هدى الله واجتبى، وقد استغرق الحديث عن هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء «ثلثي سورة مريم تقريباً».

وقد ألمحت السورة الكريمة إلى انحراف الذين جاءوا من بعد هذه السلسلة الصالحة، فحادوا عن منهج الله، وفيهم تقرأ الآيات:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ (مريم: 59، 60).

واستعرضت السورة جانباً من وصف الجنة؛ ثم انتقلت إلى تأكيد حقيقة أن الملائكة لاتتنزل إلا بأمر الله، وتوصي الرسول الخاتم ﷺ ـ ومن ثم توصي أتباعه من بعده ـ بالاصطبار على عبادة الله وجعلها محوراً للحياة، فتقول:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ

رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ (مريم: 64، 65).

وتعرج السورة الكريمة إلى إنكار الكثيرين لحقيقة البعث، وتذكرهم بخلقهم الأول من العدم، وتهددهم بحشرهم جثيًّا على ركبهم حول جهنم، وإلقائهم فيها جثيًّا، ونجاة المتقين من هذا المشهد الرهيب.

وتشير «سورة مريم» إلى تفاخر الكفار والمشركين في هذه الدنيا بشيء من حطامها الفاني، ومتاعها الزائل، وتستنكر تعاليهم على المسلمين، وتعييرهم لهم بفقرهم، وترد عليهم بقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ (مريم: 75).

وتذكر السورة الكريمة بالهالكين من الأمم السابقة؛ وبأن الله (تعالى) يمدّ للضالين في غيهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، ويزيد الذين اهتدوا هدى، وأنه لايبقى من هذه الحياة الدنيا إلا العمل الصالح.

وتستعرض السورة مواقف بعض الكفار والمشركين في استعلائهم على الحق وأهله، وصلفهم في التعامل مع الله ومع خلقه، وتطالب الآيات رسول الله ﷺ أن يصبر على أذاهم وبألّا يعجل عليهم لأن حساب الله ينتظرهم في يوم يصفه الحق ﷻ بقوله:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم: 85، 86).

وعاودت «سورة مريم» الاستنكار الشديد لادّعاءات المبطلين نسبة الولد ـ زوراً ـ إلى الله (تعالى)، وهو ﷻ المنزه عن هذا النقص، المتصف بكل صفات الكمال المطلق، وفي ذلك نزلت الآيات بقول الحق ﷻ:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ (مريم: 88 ـ 92).

وتختتم السورة الكريمة بالقرار الإلهي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ (مريم: 96).

وبأن القرآن الكريم قد يسره ربنا ﷻ على لسان هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ليبشر به المتقين، وينذر به قوما لداً.

وتعاود «سورة مريم» التذكير ـ في آخر آياتها ـ بالأمم البائدة التي أهلكها الله (تعالى)

عقاباً على كفرها، وتسأل رسول الله ﷺ، كما توجه السؤال إلى كل الخلق لعلهم يعتبرون، وذلك بقول الحق ﷻ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم: 98).

والحقائق التاريخية والعلمية التي أوردتها سورة مريم أكثر من أن تحصى، ولذا فسوف أقصر الحديث هنا على آية واحدة هي الآية رقم (65)، التي جاءت فيها الإشارة إلى (السمٰوات والأرض، ومابينهما)، وقبل تبيان الدلالة العلمية التي يمكن استخلاصها من تلك الآية المباركة لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح دلالتها.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالى):

﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

* ذكر ابن كثير ﵀ ما مختصره: «... وقوله ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لامعقب لحكمه، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمي الرحمٰن غيره ﷻ وتقدس اسمه.

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما مختصره: «... ﴿رَّبُّ﴾ مالك ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ﴾ أي: اصبر عليها ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي مسمى بذلك؟ لا....».

* وجاء في الظلال (رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) ما نصه: «.... رب السمٰوات والأرض ومابينهما فلا ربوبية لغيره، ولا شرك معه في هذا الكون الكبير .﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ﴾... اعبده واصطبر على تكاليف العبادة، وهي تكاليف الارتقاء إلى أفق المثول بين يدي المعبود، والثبات في هذا المرتقى العالي. اعبده واحشد نفسك وعبئ طاقتك للقاء، والتلقي في ذلك الأفق العلوي.... إنها مشقة، مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل مشاغل، ومن كل هاتف، ومن كل التفات... وإنها مع المشقة للذة لايعرفها إلا من ذاقها، ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة، وإلا بالتجرد لها، والاستغراق فيها، والتحفز لها بكل جارحة وخالجة، فهي لاتفشي سرها، ولاتمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعاً».

«﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾... والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر، إنما هي كل نشاط: كل حركة، كل خالجة، كل نية، كل اتجاه، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دون سواه، مشقة تحتاج إلى الاصطبار ليتوجه القلب في كل نشاط من أنشطة الأرض إلى السماء، خالصاً من أوشاب الأرض، وأوهاق الضرورات، وشهوات النفس، ومواضعات الحياة».

«إنه منهج حياة كامل، يعيش الإنسان وفقه، وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله، فيرتفع في نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضيء. وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة .﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾.. فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود الذي تتجه إليه الفطر والقلوب ..﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ هل تعرف له نظيراً؟ تعالى الله عن السميّ وعن النظير....».

* وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن (رحمة الله رحمة واسعة) مانصه: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ نظيراً أو شبيهاً يستحق العبادة لربوبيته وألوهيته، وكمال تنزهه عن النقائص، واتصافه بصفاته الجليلة».

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً) ما نصه: «فهو سبحانه الخالق المالك للسمٰوات والأرض وما بينهما، والمدبر لشؤونهما، والمستحق وحده للعبادة، فاعبده أيها المخاطب، وثابر على عبادته صابراً مطمئناً، فهو سبحانه المستحق - وحده - للعبادة، وليس له نظير يستحق العبادة، أو يسمى باسم من أسمائه....».

* وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبه خيراً) مانصه:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ أي هو رب العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً؟.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: السموات والأرض وما بينهما في القرآن الكريم:

ورد تعبير ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ في ثمانية عشر موضعاً من القرآن الكريم، كما جاء تعبير (السماء والأرض ومابينهما) في موضعين من كتاب الله، وبذلك يكون مجموع مرات ورود هذه الإشارة العلمية الدقيقة عشرين مرة على النحو التالي:

(1) ﴿. . . وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (المائدة: 17).

(2) ﴿. . . وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾(المائدة: 18).

(3) ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ (الحجر: 85).

(4) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ (مريم: 65).

(5) ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾. (طه: 6).

(6) ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الأنبياء: 16).

(7) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾﴾ (الفرقان: 59).

(8) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (الشعراء: 24).

(9) ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الروم: 8).

(10) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة: 4).

(11) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ (الصافات: 5).

(12) ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ (صٓ: 10).

(13) ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ (صٓ: 27).

(14) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ (صٓ: 66).

(15) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (الزخرف: 85).

(16) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾ (الدخان: 7).

(17) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (الدخان: 38).

(18) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأحقاف: 3).

(19) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (قٓ: 38).

(20) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (النبإ: 37).

وقد احتار المفسرون في شرح دلالة التعبيرين القرآنيين: ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، و ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فمنهم من قال: إنها دلالة على أن جميع الموجودات هي من خلق الله ﷻ، وملك يمينه، وتحت قهره، وسلطانه، لأن الله تعالى هو المالك لكل شيء، ومنهم من قال: إن هذا النص يشير إلى سائر أجرام السماء من نجوم وكواكب وأقمار وأتربة كونية، وغازات وطاقات يتألف الكون منها، ومنهم من مر بها في صمت ودون أدنى تعليق، ولكن هناك آيتين من آيات القرآن الحكيم تلقيان الضوء على دلالة هذا النص القرآني المعجز ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، و﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ في الأولى منهما يقول ربنا ﷻ:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164).

ومن هذه الآية الكريمة يتضح أن السحاب هو مما بين السماء والأرض.

وفي الآية الثانية يقول ربنا ﷻ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق: 12).

ومن هذه الآية الكريمة يفهم أن هناك مسافات بينية تفصل كل سماء عن التي تليها، كما تفصل كل أرض عن التي تليها، وتفصل كلًّا من السماء الدنيا، وباقي السمٰوات السبع عن الأرض، ولايتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض في مركز السمٰوات.

ويروى عن رسول الله ﷺ قوله: «**سبحان الله عدد ماخلق في السماء، سبحان الله عدد ماخلق في الأرض، سبحان الله عدد ماخلق بينهما، سبحان الله عدد ماهو خالق....**».

وقوله ﷺ: «**أطت السماء أطًا، وحقَّ لها أن تئطّ...، ما فيها موضع ثلاثة أصابع إلا ملك ساجد أو ملك راكع أو ملك قائم لله تعالى**»[1].

ثانياً: ما بين السموات والأرض في العلوم المكتسبة:

تجمع العلوم المكتسبة على أن كلًّا من المادة والطاقة يملأ فسحة الكون، لأن خلق كل من المكان والزمان؛ والمادة والطاقة قد تزامن مع عملية الانفجار العظيم (فتق الرتق)، فلا يمكن تصور مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لايمكن تصور مكان وزمان بغير مادة وطاقة. فكل من المادة والطاقة يتكثف في مختلف أجرام السماء بتركيز مختلف، كما يوجد بكثافات قليلة ومتباينة بين كل جرم والآخر، وتحرك المادة والطاقة بين السماء الدنيا وأجرامها من الأمور الثابتة علمياً، التي أكدتها الدراسات الفلكية، ومن أمثلتها تخلق النجوم من الدخان الكوني، وعودتها إليه بانفجارها في دورة حياة النجوم، ومن أمثلتها كذلك انتثار الكواكب وعودة مادتها إلى الغبار الكوني أو إلى الشهب والنيازك التي إما أن تحترق أو تتهاوى على عدد من أجرام السماء.

ولقد سبق وأن فصلنا تركيب كل نطاق من نطق الغلاف الغازي للأرض، وتناقص تركيز كل من المادة والطاقة بالارتفاع فيه حتى يتداخل في تركيب الجزء الأسفل من السماء الدنيا مكوناً خليطا من مادتهما لعله المقصود بالبينية الفاصلة بين الأرض والسماء الدنيا؛ وهذه المادة الفاصلة بين السماء والأرض تكونت باختلاط ما تصاعد من فوهات البراكين مع ما كان حول الأرض من مادة مابين الكواكب، فتكون الخليط المعروف باسم الغلاف الغازي للأرض، وهو خليط مكون من مادة الأرض، ومادة السماء الدنيا، فحق له أن يفصل بين كل منهما بوصف القرآن الكريم له بصفة البينية (السماء والأرض ومابينهما).

وأول نطق الغلاف الغازي للأرض هو نطاق الرجع أو نطاق التغيرات الجوية أو نطاق

---

(1) رواه الإمام أحمد في (الحديث: 5/ 173).

المناخ، ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع نحو17 كيلومتراً فوق خط الاستواء (ويتناقص هذا السمك إلى ما بين 8.6 كيلومترات فوق القطبين؛ ويختلف فوق مناطق العروض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية فينكمش إلى ما دون السبعة كيلومترات في مناطق الضغط المنخفض ويتمدد إلى نحو13 كيلومتراً في مناطق الضغط المرتفع).

ويضم نطاق الرجع نحو ثلث كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%)، وتتناقص درجة الحرارة فيه باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء، وذلك في قمة هذا النطاق المعروفة باسم «**مستوى الركود الجوي**»، ويتناقص عنده الضغط إلى نحو عشر قيمته عند سطح البحر.

وفي هذا النطاق يتكثف بخار الماء الصاعد من الأرض مكوناً السحب، ومنها يهطل كل من المطر والبرد والثلج بإذن الله، وتحدث ظواهر الرعد والبرق، والعواصف، والدوامات، وتيارات الحمل الهوائية، وغير ذلك من حركات الرياح، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿ ...وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ....﴾ **(البقرة: 164)**.

وعلى ذلك فإن نطاق الرجع ومن فوقه بقية نطق الغلاف الغازي للأرض حتى حدود النطاق المغناطيسي يمثل فاصلاً حقيقياً بين الأرض والسماء الدنيا، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه (البينية) من قبل ألف وأربعمائة سنة يعتبر ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله، لم يصل إليها علم البشر إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

ثالثاً: الأهمية العلمية للتعبير القرآني (السموات والأرض وما بينهما):

إضافة إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة في عشرين موضعاً منه إلى (ما بين السماء والأرض) و(ما بين السمٰوات والأرض)، وهو سبق علمي حقيقي لم تدركه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، فإن هذه الإشارة المعجزة تحوي من الحقائق العلمية مايفوق هذا الكشف العلمي أهمية وجدارة، وذلك لأن أول مايمكن استنتاجه من هذا النص القرآني هو توسط الأرض للسماء الدنيا وللسمٰوات السبع كلها، لأنها متطابقة يغلف الخارج منها الداخل، وهي حقيقة لايمكن للإنسان أن يصل إليها لأنه ـ على الرغم من تقدمه العلمي والتقني المذهل ـ فإن الإنسان محدود بحدود حسه وعقله، وبحدود مكانه (أي وجوده على كوكب الأرض)، وبحدود زمانه أي عمره، ومن هنا فإن الإنسان لايستطيع أن يدرك من الكون إلا جزءاً صغيراً من السماء الدنيا، وهذا الجزء الصغير مليء بالغيوب من

مثل الثقوب السود، المادة الداكنة، الكتل المفقودة، وغيرها مما يرغم علماء الفلك والفيزياء الفلكية على الاعتراف بأن أقصى مايمكن إدراكه في الجزء المشاهد من الكون لا يتعدى العشرة بالمائة من مجموع المادة والطاقة الموجودة فيه.

رابعاً: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يؤكدان توسط الأرض للكون:

(1) إن مقابلة القرآن الكريم (في مئات من آياته) للأرض مع السماء، أو مع السمٰوات ـ على ضآلة أبعاد الأرض بالنسبة إلى أبعاد السمٰوات ـ يؤكد أهمية موقع الأرض من الكون.

(2) إن ذكر القرآن الكريم للنصين (السمٰوات والأرض وما بينهما)، و (السماء والأرض وما بينهما) في عشرين موضعاً منه كما يؤكد مركزية الأرض من السماء الدنيا، ومن مجموع السمٰوات السبع؛ وذلك لأن هذه البينية لايمكن أن تتم لو لم تكن الأرض في مركز السمٰوات السبع.

(3) ويؤكد ذلك جمع القرآن الكريم لأقطار السمٰوات والأرض في وصف واحد كما جاء في قول الحق ﷻ:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ **(الرحمٰن: 33).**

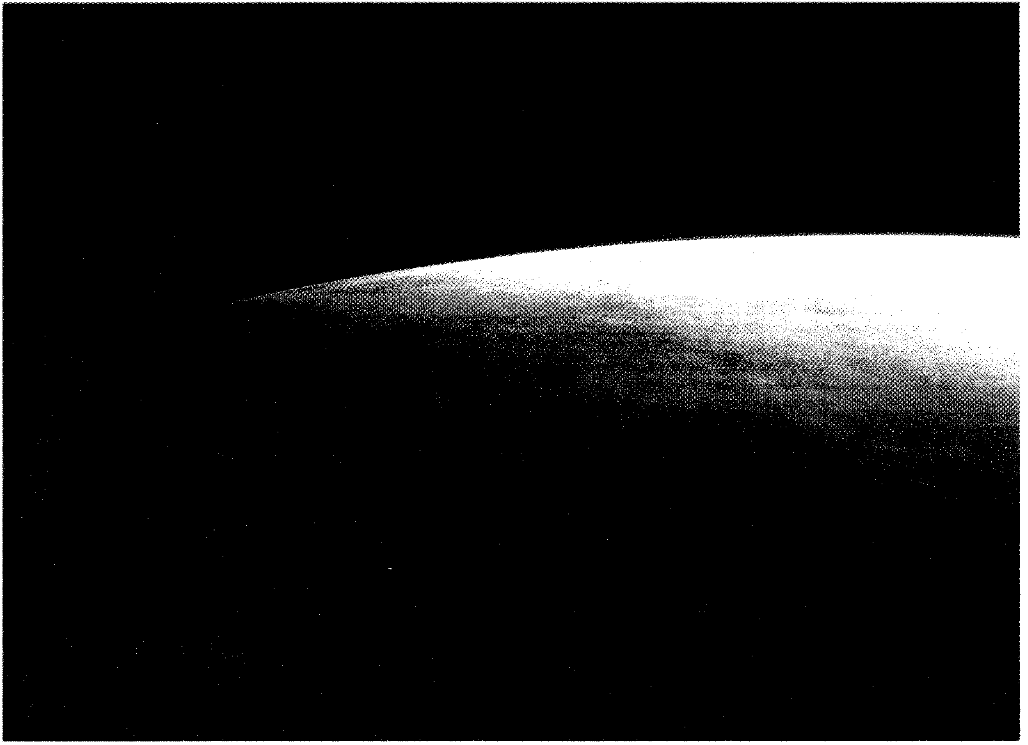
وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه، مروراً بمركزه، فإذا توحدت أقطار السمٰوات والأرض فمعنى ذلك أن الأرض لابد وأن تكون في مركز الكون.

(4) ويؤكد ماسبق حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه مجاهد عنه بقوله (عليه الصلاة والسلام): «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**» أي في وضع متوسط منها؛ لأن الوصف (مناء) معناه قصده وعلى حذاه.

ومن أقوال رسول الله ﷺ: «**البيت المعمور مناء مكة**» أي في مقابلتها وبمحاذاتها.

ويروي كل من قتادة والسدي عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه مسجد في السماء السابعة بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم**».

(5) ويزيد ذلك تأكيداً حديث رسول الله ﷺ الذي يروى عنه أنه قال فيه: «**كانت الكعبة خشعة على الماء، فدحيت منها الأرض**»؛ والخشعة هي أكمة متواضعة.



شكل (184) صورة توضح جزءاً من الغلاف الغازي للأرض وهو يفصل بينها وبين السماء

وتأتي أبحاث الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين (رحمه الله رحمة واسعة) لتؤكد توسط مكة لليابسة، فتبرز جانباً من جوانب التكريم المادي الملموس لهذا المكان الطيب الطاهر الذي فضله ربنا ﷻ على كل أماكن الأرض، فجعل فيه كعبته المشرفة أول بيت وضع للناس في الأرض، وجعلها قبلة للمصلين حيثما كانوا، ومكان للحج والعمرة للقادرين من المسلمين، ولو لمرة واحدة في العمر ليتعرضوا لبركات هذا المكان الذي جعل الله ﷻ الصلاة فيه بمائة ألف صلاة كما أخبرنا الحبيب المصطفى ﷺ.

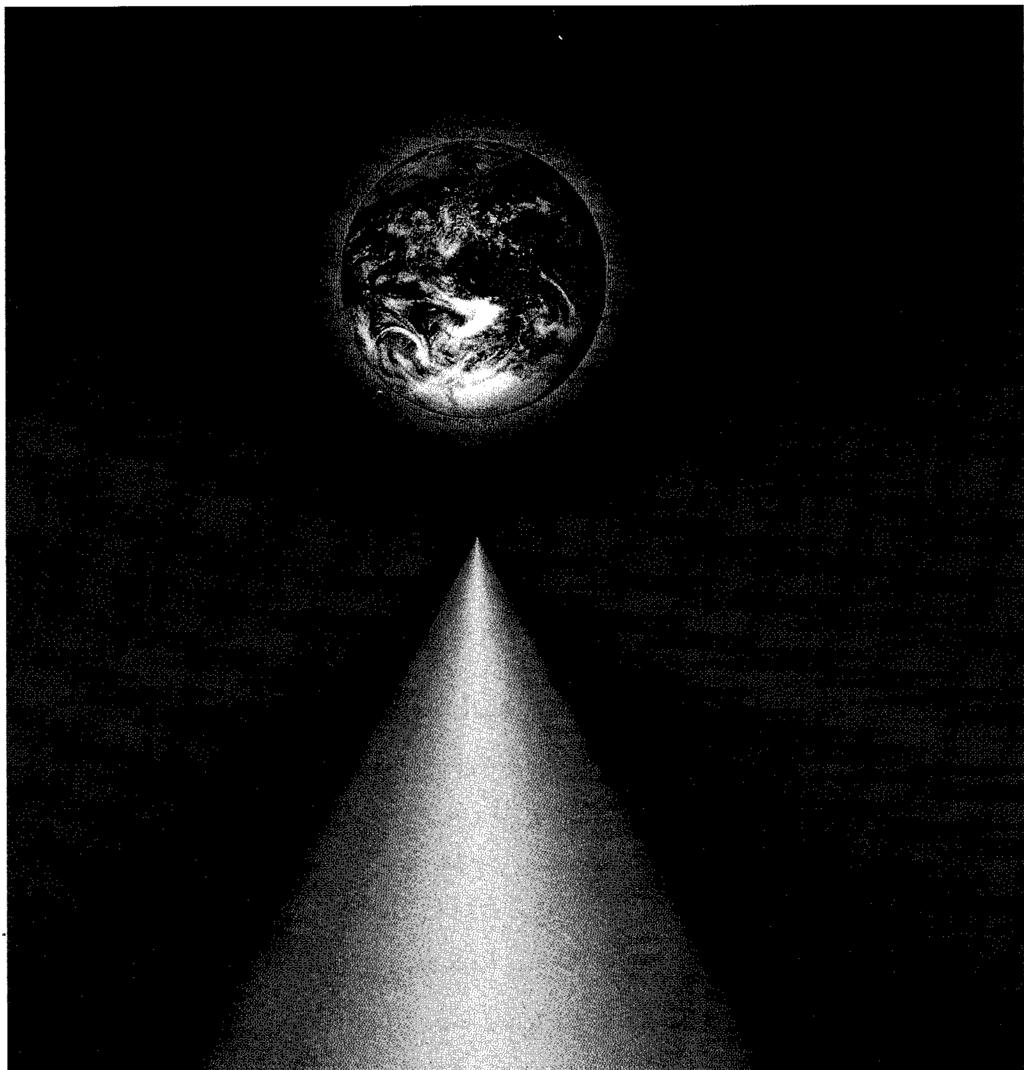
ويأتي العلم في أوج عطائه ليؤكد لنا توسط مكة ليابسة الأرض، وتأتي أحاديث رسول الله ﷺ مؤكدة قيام موقع الكعبة المشرفة الذي هو أصل اليابسة على حيال البيت المعمور في السماء السابعة، ويأتي القرآن الكريم مؤكداً توسط الأرض للسمٰوات السبع حتى تبقى الكعبة المشرفة مركزاً للكون بأسره، وهي حقيقة لايمكن للعلوم المكتسبة أن تصل إليها أبداً...!!

فسبحان الذي خلق الأكوان وأنشأ نظمها بعلمه وجعل الكعبة مركزاً لكونه...!!

وسبحان الذي أنزل القرآن الكريم، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه

فحفظ بنفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظ حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وآية آية، وسورة سورة بنفس الترتيب التوقيفي الذي جمع به على عهد رسول الله ﷺ، والموجود في بلايين المصاحف والأسطوانات والأشرطة الممغنطة، والذي نقل لنا متواتراً عبر بلايين الصدور ولايزال يحفظ في البلايين منها وذلك خلال الألف والأربعمائة سنة الماضية، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها...!

فالحمد لله منزل القرآن الكريم، والصلاة والسلام على الرسول الخاتم الذي تلقاه، ونقله إلينا بأمانة، وعاش به، وله، فأقام أعظم دولة عرفها التاريخ، ولعل الله تعالى أن يعيننا على أن نعيد للقرآن الكريم دولته وسط الفوضى العالمية التي اجتاحت الأرض كلها في غيبة الاحتكام إلى شريعة الله...!! ووسط السقوط بين مخالب طواغيت الأرض....!!! وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.



بسم الله الرحمن الرحيم

(32) ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج: 65)

هذا النص القرآني المعجز جاء في الربع الأخير من سورة الحج، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها 78 بعد البسملة، وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الأمر الإلهي فيها إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج. ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من العقائد والتشريعات الإسلامية التي منها:

أولاً: في مجال العقائد:

(1) الإيمان بالله (تعالى) رباً، خالقاً، واحداً (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع) ولا صاحبة ولا ولد، وأن هذه الإله الخالق هو الحق، وهو القوي العزيز، وأنه (تعالى) مالك الملك، وأنه هو السميع، العليم، البصير، الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويفعل ما يشاء، وهو على كل شيء شهيد، وأنه (تعالى) يدافع عن الذين آمنوا، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وقد أخذ على ذاته العلية العهد بنصرة من ينصره، وأن من يهن الله فما له من مكرم، وأن له (سبحانه) يسجد كل من في السموات والأرض، وأن إليه ترجع الأمور، وأنه (تعالى) يفصل بين أصحاب الملل المختلفة يوم القيامة.

(2) الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله، وبخاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) وبالكتاب الخاتم الذي أنزل إليه (القرآن الكريم)، وبأن الله (تعالى) يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

(3) تقوى الله (ﷻ) ومخافته، والاعتصام به، وتعظيم شعائره وأولها المسجد الحرام الذي وصفه الحق (تبارك وتعالى) بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ **(الحج: 25).**

(4) الإيمان بالبعث وبالحساب وبالجنة وبالنار.

(5) عدم المجادلة في الأمور الغيبية غيبة مطلقة، وعدم اتباع خطوات الشيطان، وتحريم كل من الشرك بكل صوره، وعبادة الأوثان، وقول الزور والعمل به.

ثانياً: في مجال العبادات:

(1) الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

(2) الأمر بالحج إلى بيت الله لكل من استطاع إليه سبيلاً.

(3) الأمر إلى كل قادر بالجهاد في سبيل الله دفعاً للظلم.

(4) التواصي بفعل الخيرات ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(5) الأمر بالصبر في كل الحالات.

ويصاحب هذه التكاليف وعد من الله (تعالى) بالنصر للمجاهدين في سبيله، وبالتمكين للمؤمنين به الذين ينهضون لرد كل عدوان غاشم على المسلمين وعلى غيرهم من خلق الله المسالمين، مع تأكيد أن قوة الله لا تحدها حدود، وتستشهد السورة الكريمة على ذلك بمصارع الغابرين من الكفار والمشركين والظالمين، وبتأكيد أن ذلك من سنن الله في خلقه، وسنن الله نافذة، لا تتوقف ولا تتبدل ولا تتخلف.

وتبدأ سورة الحج بدعوة الناس جميعاً إلى تقوى الله، وبتحذيرهم من أهوال الآخرة، وبوصف جانب من تلك الأهوال، مؤكدة حقيقة البعث ومستشهدة على ذلك بخلق الإنسان، ومحذرة من متابعة الشيطان الذي يضل أتباعه ويقودهم إلى النار، ومركزة على توحيد الله، وإنكار الشرك به (تعالى).

وتفيض السورة الكريمة بوصف عدد من مشاهد الآخرة، وما فيها من نجاة للمؤمنين، وهلاك للكافرين والمشركين والظالمين، وتعرض للعديد من الأدلة الكونية المثبتة لطلاقة القدرة الإلهية.

وتنتقل السورة إلى الحديث عمن يضلهم الشيطان فيجادلون في الله (تعالى) بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وهؤلاء لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب شديد.

وتضرب سورة الحج مثالاً للبعث من تراب وفيه: خلق الإنسان من تراب، مروراً بمراحل الجنين المتعاقبة حتى خروجه إلى الحياة طفلاً، ثم بلوغه أشده، وحياته كما أرادها له الله، ثم ليس له من بعد ذلك إلا الموت. وتشبه السورة الكريمة خلق الإنسان من تراب بخلق النبات من تراب بعد إنزال الماء من السماء على الأرض الهامدة فتهتز وتربو إلى أعلى حتى تنشق فتفسح طريقاً سهلاً للسويقة المندفعة من البذرة النابتة فتخرج بقدرة الله في زوجية بهيجة، وكذلك يكون إحياء الموتى بقدرة الله.

وتشير سورة الحج إلى أن من الناس من يعبد الله (تعالى) طمعاً في كريم عطائه فقط، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن ابتلي بفتنة انقلب على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة، وهذا هو الخسران المبين.

وحذرت السورة الكريمة من الشرك بالله، ووصفته بالضلال البعيد، وأكدت عجز الشركاء المزعومين عن نفع أو ضر من أشركوا بهم، وأثبتت أن الله (تعالى) قد أنزل القرآن الكريم آيات بينات، وأنه (تعالى) يهدي إليه من يريد، وفوضت إلى الله (تعالى) أمر الفصل بين أصحاب الملل والنحل المختلفة في يوم القيامة، مؤكدة أن جميع من في هذا الوجود يسجد لله (تعالى) طوعاً أو كرهاً في عبودية كاملة، وخضوع تام يمثلان قمة التكريم للمخلوقات، ومن هذا السجود ما هو تسخيري جبري رغم أنف صاحبه، وما هو إرادي، اختياري بمشيئة صاحبه، لأن من يعرض عن ذلك من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم. ومايزت السورة بين نعيم المؤمنين في يوم القيامة وعذاب الكافرين، وذلهم فيها، وشتان ما بين الحالين.

وأشارت سورة الحج إلى أن من صور الكفر بالله: الصد عن سبيله، وعن المسجد الحرام، والظلم والإلحاد فيه، كما أشارت إلى أن الله (تعالى) قد هدى إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد الخالص، وإلى مكان البيت الحرام، وأمره برفع قواعده، وإعادة بنائه، والعمل على تطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود، وأن يؤذن في الناس بالحج يأتوه من كل فج عميق، وشرعت بذلك فريضة الحج وما فيها من إقامة لشعائر الله، وأكدت تعظيم حرماته، وأمرت بالحلال من الطعام، وباجتناب الرجس من الأوثان، واجتناب قول الزور، وأكدت أن أمثال هذا النسك كان قد شرع للأمم من قبل شكراً لله (تعالى) على فضله. وتكرر سورة الحج تأكيد وحدانية الله، وطلاقة قدرته، ووجوب الخضوع الكامل لجلاله بالإسلام له، وتأمر خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) أن يبشر بخيري الدنيا والآخرة الذين تخشع قلوبهم بذكر الله والصابرين على قضائه، والذين يقيمون الصلاة،

وينفقون مما رزقهم الله، وتؤكد دفاع الله (تعالى) عن المؤمنين، وأنه (سبحانه) لا يحب كل خوان كفور.

ويتكرر في سورة الحج الإذن بالقتال الدفاعي للذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، كما حدث ولا يزال يحدث مع إخواننا أهل فلسطين الذين أخرجوا من ديارهم وأرضهم وممتلكاتهم بمؤامرة دولية قذرة اشتركت فيها كل قوى الشر في العالم بقيادة بريطانيا في النصف الأول من القرن العشرين، وبخلافة الولايات المتحدة الأمريكية لها في هذا الشر طوال النصف الثاني من القرن العشرين وإلى اليوم وحتى يأذن الله تعالى بتطهير الأرض من الصهاينة المجرمين الذين دنسوا تلك الأرض المباركة باحتلالها ظلماً وعدواناً، وأغرقوا أهلها في بحور من الدماء والدمار والخراب، دون أن يكون لهم أدنى حق في هذه الأرض من دين أو تاريخ أو عرق لأنهم في مجموعهم من حثالات الأمم، ونفايات الشعوب الأوروبية والأمريكية الذين احتلوا تلك الأرض العربية الإسلامية انتقاماً لهزيمتهم في الحروب الصليبية، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وتؤكد سورة الحج أن الله (تعالى) سوف ينصر من ينصره حتماً وهو القوي العزيز، فعلينا بالرجوع إلى الله بصدق وهو قادر على دحر كل المعتدين مهما تعاظمت أسلحتهم وخبث مكرهم..!!

وتصف الآيات أنصار الله بقوله (عز من قائل):

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ **(الحج: 41).**

وتخاطب الآيات رسول الله ﷺ بأن الكفار والمشركين من أهل الجزيرة إن كذبوا ببعثته الشريفة فقد كذبت رسلَ الله قبلهم أمم من أهل الكفار والكبر والاستعلاء في الأرض، فأضلهم الله بظلمهم وأنزل بهم عذابه في الدنيا قبل الآخرة، وتندد الآيات بالذين يرون آثار الدمار الذي نزل بهؤلاء الظالمين دون اعتبار، وتؤكد أنه: ﴿... أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ **(الحج: 46)** وتندد بمن يستعجل نزول عذاب الله، والله لا يخلف وعده وإن استبعد الكافرون ذلك الطول الآماد عند الله، فاليوم عنده بألف سنة مما نعد، وتطالب «سورة الحج» خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأن يعلن للناس كافة أنه نذير مبين لهم، وتعلمه بأن الذين كفروا لا يزالون في شك من القرآن الكريم:

﴿... وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ **(الحج: 55).**

وتتحدث سورة الحج في أكثر من موضع منها عن جزاء المهاجرين في سبيل الله، والمجاهدين من أجل إعلاء كلمته، وإقامة عدله في الأرض. وتقارن بين جزاء المؤمنين وعقاب المكذبين فتقول: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَتِنَا مُعَجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَبُ الْجَحِيمِ ۝٥١﴾ (الحج: 50، 51).

وتختتم سورة الحج بتقرير حقيقة أن الله (تعالى) يصطفي من الملائكة رسلاً من الناس، وأنه (سبحانه) هو السميع، البصير، العليم، الذي إليه ترجع الأمور، وتؤكد عبادة الله (سبحانه) ركوعاً وسجوداً كما أمر، وتنصح بفعل الخيرات حتى يفلح العباد، وتأمر بالجهاد في سبيل الله حق جهاده فهو الذي اجتبى عباده المسلمين، واختارهم، وتؤكد خلو دين الإسلام من أي حرج، وتصفه بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿... وَجَهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: 78).

ولكي نكون جديرين بهذه الشهادة يأمرنا ربنا (تبارك وتعالى) في ختام السورة بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبالاعتصام بالله (تعالى) هو مولانا فنعم المولى ونعم النصير.

من الإشارات الكونية في سورة الحج

والأدلة الكونية التي ساقتها سورة الحج تصديقاً لما جاء فيها من أمور الغيب المطلق أدلة عديدة نوجزها فيما يلي:

(1) خلق الإنسان من تراب، ووصف مراحل الجنين المتتالية له بدقة بالغة في زمن لم تتوفر وسيلة تكبير واحدة، ومتابعة ذلك بدقة بالغة كذلك حتى يخرج إلى الحياة طفلاً يحيا ما شاء الله (تعالى) له أن يحيا، ثم يتوفاه الله (ﷻ) عند نهاية أجله المحدد، وقد يرد بعضهم إلى أرذل العمر حتى تضعف ذاكرته في أغلب الأحوال فلا يعلم من بعد علم شيئاً.

(2) اهتزاز الأرض وارتفاعها وإنباتها من كل زوج بهيج بمجرد إنزال الماء عليها، وتشبيه خلق الإنسان من تراب، وبعثه من تراب كذلك بإنبات الأرض.

(3) تأكيد سجود جميع من في السموات والأرض لله تعالى طوعاً أو كرهاً.

(4) تأكيد نسبية كل من المكان والزمان، وعظمة اتساع الكون وذلك بقول الحق

(تبارك وتعالى): ﴿... وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحج: 47).

(5) تأكيد أن الذين أوتوا العلم يعلمون أن القرآن الكريم هو الحق من الله (تعالى).

(6) التعبير عن كل من كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس بولوج كل من الليل والنهار في الآخر.

(7) الإشارة إلى اخضرار الأرض بمجرد إنزال الماء عليها من السماء.

(8) تسخير كل ما في الأرض للإنسان، وجري الفلك في البحر بأمر الله.

(9) إمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله.

(10) خلق الإنسان من العدم، ثم إماتته، ثم بعثه من جديد.

(11) عجز المخلوقين عن عملية الخلق فضلاً عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة التاسعة في القائمة السابقة التي يمن فيها ربنا (تبارك وتعالى) علينا بالإمساك بالسماء كي لا تقع على الأرض إلا بإذنه، وقبل الدخول في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالى):

﴿... أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ (الحج: 65).

* ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما مختصره: «... أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مع ظلمهم...».

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه: «... ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ من ﴿أَن﴾ أو لئلا ﴿تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ فتهلكوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ في التسخير والإمساك».

* وجاء في الظلال (رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) ما نصه: «... وهو الذي خلق

الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له، وحكم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضاً... والله سبحانه ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ بفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها وهو من صنعه ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ وذلك يوم يعطل الناموس الذي يعمله ليعطله كذلك لحكمة.

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه) ما نصه: «... إمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بمشيئته تعالى...».

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً) ما نصه: «... وأمسك الكواكب في الفضاء بقدرته حتى لا يختل نظامها، أو تقع على الأرض إلا إذا اقتضت إرادته ذلك، إن الله سبحانه شديد الرأفة والرحمة بعباده فيهيىء كل سبل الحياة الطيبة لهم، فكيف بعد ذلك كله لا يخلصون في شكره وعبادته؟».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي: تتضمن هذه الآية الكريمة معاني علمية دقيقة، فالسماء ـ وهي كل ما علانا ـ تبدأ بغلاف الأرض الهوائي، فالفضاء، فأجرام السماء، المشع منها بذاته مثل النجوم فالمجموعات النجمية والسدم والمجرات، وغير المشع بذاته كالأقمار، والكواكب والمذنبات والنيازك والجزيئات والذرات والغبار الكوني، وجميع هذه العوالم تحتفظ بكيانها وتماسكها تحت تأثير عدة قوى أهمها الجاذبية والقوى الناشئة عن الحركة، ولقد تجلت مشيئة الله ورأفته بالعباد بأن هيأ للأرض غلافاً جوياً يحتوي على العناصر الغازية التي لا غنى للحياة عنها، كما أنه يحمي سكان الأرض من الإشعاعات الكونية، وأسراب الشهب، والنيازك التي تهيم في الفضاء والتي عندما تدنو من الأرض تحترق في جوها العلوي (احتراقاً جزئياً أو كلياً) قبل أن تصل إلى السطح العلوي للأرض».

«ومن إرادته تعالى ورحمته أن سقوط النيازك التي تدمر سطح الأرض نادر الحدوث جداً، وهو يتم في الأماكن الخالية من السكان، وهذه الظاهرة تدل على عناية الله تعالى ورحمته بعباده، وفي هذا تأييد وتصديق لقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾».

* وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبه خيراً) ما نصه: «... أي ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي إلا إذا شاء، وذلك عند قيام الساعة...».

من الدلالات العلمية للنص الكريم

إن أقرب أجرام السماء إلينا هو القمر الذي يبعد عنا في المتوسط بمسافة (383,942 كيلومتراً)، وتقدر كتلته بنحو سبعين مليون مليون مليون طن، ويدور في مدار حول الأرض يقدر طوله بنحو 2.4 مليون كيلومتر بسرعة متوسطة تقدر بنحو كيلومتر واحد في الثانية، وهي نفس سرعة دورانه حول محوره، ولذلك يرى منه وجه واحد لأهل الأرض.

ومدار القمر حول الأرض، وكذلك مدار الأرض حول الشمس بيضاوي الشكل (أي أنه على شكل قطع ناقص)، ومن قوانين الحركة في المدار البيضاوي (أو مدار القطع الناقص) أن السرعة المحيطية فيه تخضع لقانون تكافؤ المساحات مع الزمن؛ وهذا القانون يقتضي اختلاف مقدار السرعة على طول المحيط، فتزداد بالاقتراب النسبي من الأرض، وتزداد بزيادتها قوة الطرد المركزي على القمر فتدفعه بعيداً عن الأرض، وإلا اصطدم القمر بالأرض فدمرها ودمرته؛ وتقل السرعة المحيطية للقمر كلما بعد نسبياً عن الأرض، فتقل القوة الطاردة المركزية على القمر لئلا يخرج عن نطاق جاذبية الأرض، فينطلق إلى فسحة السماء أو تبتلعه الشمس، وأعلى مقدار لسرعة سبح القمر في مداره حول الأرض يقدر بما قيمته 3888 كيلومتراً في الساعة؛ وأقل مقدار لتلك السرعة يقدر بنحو 3483 كيلومتراً في الساعة، وهذا يجعل السرعة المتوسطة لسبح القمر في مداره حول الأرض تقدر بنحو 3675 كيلومتراً في الساعة.

ونفس القانون (قانون الجري في القطع الناقص) ينطبق على سبح الأرض حول الشمس، وسبح باقي أجرام السماء كل في مداره حول الجرم الأكبر، أو التجمع الأكبر. ويؤكد علماء الفلك أن أبعد كواكب مجموعتنا الشمسية يبعد عن الشمس بمسافة متوسطة تقدر بنحو ستة آلاف مليون كيلومتر، وأن مجرتنا تحوي قرابة تريليون نجم. كذلك يحصي علماء الفلك أن بالجزء المدرك من الكون أكثر من مائتي بليون مجرة تتفاوت في أشكالها، وأحجامها، وكتلها، وسرعة دوران كل منها حول محورها، وسرعة جريها في مدارها؛ وسرعة تباعدها عنا وعن بعضها البعض، كما تتباين في أعداد نجومها، وفي مراحل تطور تلك النجوم؛ فمن المجرات البيضاوي، والحلزوني، وغير ذلك من الأشكال، ومنها المجرات العملاقة التي يصل قطر الواحدة منها إلى (750 ألف سنة ضوئية)، وتصل كتلتها إلى تريليون مرة قدر كتلة الشمس، ومنها المجرات القزمة التي لا يكاد يتعدى طول قطرها (3,200 سنة ضوئية)، ولا تكاد كتلتها تتعدى مليون مرة قدر كتلة الشمس؛ وتقدر كتلة

مجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبني) بنحو (230 بليون) مرة قدر كتلة شمسنا (المقدرة بنحو ألفي مليون مليون مليون مليون طن).

وتتجمع المجرات في وحدات تضم العشرات منها تعرف باسم المجموعات المحلية، وتتجمع تلك في وحدات أكبر تضم المئات إلى عشرات الآلاف من المجرات وتعرف باسم التجمعات المجرية، وتلتقي هذه في تجمعات أكبر تعرف باسم المجموعات المحلية العظمى التي تلتقي بدورها في التجمعات المجرية العظمى، ثم تجمعات التجمعات المجرية العظمى، إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وفي كل الأحوال يدور الصغير حول الكبير في مدار بيضاوي على هيئة قطع ناقص، تحكمه في ذلك قوانين الحركة في مثل هذا المدار.

والتجمع المجري الأعظم الذي تنتمي إليه مجرتنا يضم مائة من التجمعات المجرية ينتظمها قرص يبلغ قطره مائة مليون من السنين الضوئية وسمكه عشر ذلك (وهي نفس أبعاد مجرتنا مضروباً في ألف).

وفي أيامنا هذه تدرس السماء الدنيا في شرائح تقدر أبعادها بنحو (150 مليون × 100 مليون × 15 مليون من السنين الضوئية)، ووصل أضخمها إلى 250 مليون سنة ضوئية في الطول، وقد أطلق عليه اسم الحائط العظيم. وهذه الأعداد المذهلة مما قد علمنا من أجرام الجزء المدرك من السماء الدنيا لا تمثل إلا نحو 10% من مجموع كتلة ذلك الجزء المدرك، وهي ممسوكة بشدة إلى بعضها البعض، وإلا لزالت وانهارت، ولذلك قال ربنا (تبارك وتعالى):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

وقال (عز من قائل):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ **(فاطر: 41).**

وقال (سبحانه وتعالى):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

(الرعد: 2).

وقال (سبحانه):

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾

(الغاشية: 17، 18).

وقد تمكنت العلوم المكتسبة من التعرف على عدد من القوى التي تمسك بأجرام السماء على النحو التالي:

(1) **قوة الجاذبية**: وهي أضعف القوى المعروفة على المدى القصير، ولكن نظراً لطبيعتها التراكمية فإنها تتزايد باستمرار على المسافات الطويلة حتى تصبح القوة الرابطة لكل أجزاء السمٰوات والأرض بإرادة الخالق (ﷻ)، حيث تمسك بمختلف أجرام السماء الدنيا على الأقل، وتجمعاتها من الكواكب وأقمارها، والنجوم وتوابعها، وتجمعاتها على كل المستويات إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، ولولا هذا الرباط المحكم الذي أوجده الخالق (ﷻ) لانفرط عقد الكون.

ويفترض وجود قوة الجاذبية على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد واقترح لها اسم الجسيم الجاذب، أو الجرافيتون **(The Graviton)** الذي يعتقد بأنه يتحرك بسرعة الضوء، ليربط بين مختلف أجزاء الكون حسب قانون محكم دقيق تزداد فيه قوة الجاذبية بزيادة الكتلة للجرمين المتجاذبين، وتتناقص بزيادة المسافة الفاصلة بينهما، وقد لعبت الجاذبية دوراً مهماً في تكثيف الدخان الكوني الذي نشأ عن واقعة الانفجار العظيم على هيئة كل صور المادة الموجودة في السماء الدنيا (على أقل تقدير) كما لعبت ولا تزال تلعب دوراً مهماً في إمساك الأرض بغلافيها الغازي والمائي، وبكل صور الحياة والتربة والهيئات الصخرية غير المتماسكة من فوقها.

(2) **القوة النووية الشديدة**: وهي القوة التي تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة، والتي تعمل على التحام نوى الذرات الخفيفة مع بعضها البعض لتكون سلاسل من نوى الذرات الأثقل في عمليات الاندماج النووي؛ وهي أشد أنواع القوى المعروفة لنا على الأبعاد المتناهية الصغر، ولكنها تضعف باستمرار عبر المسافات الطويلة، وعلى ذلك فدورها يكاد يكون محصوراً في داخل نوى الذرات، وبين تلك النوى ومثيلاتها. وتُحمل هذه القوة على جسيمات تسمى باسم القوة اللاحمة أو الجليون **(The Gluon)**.

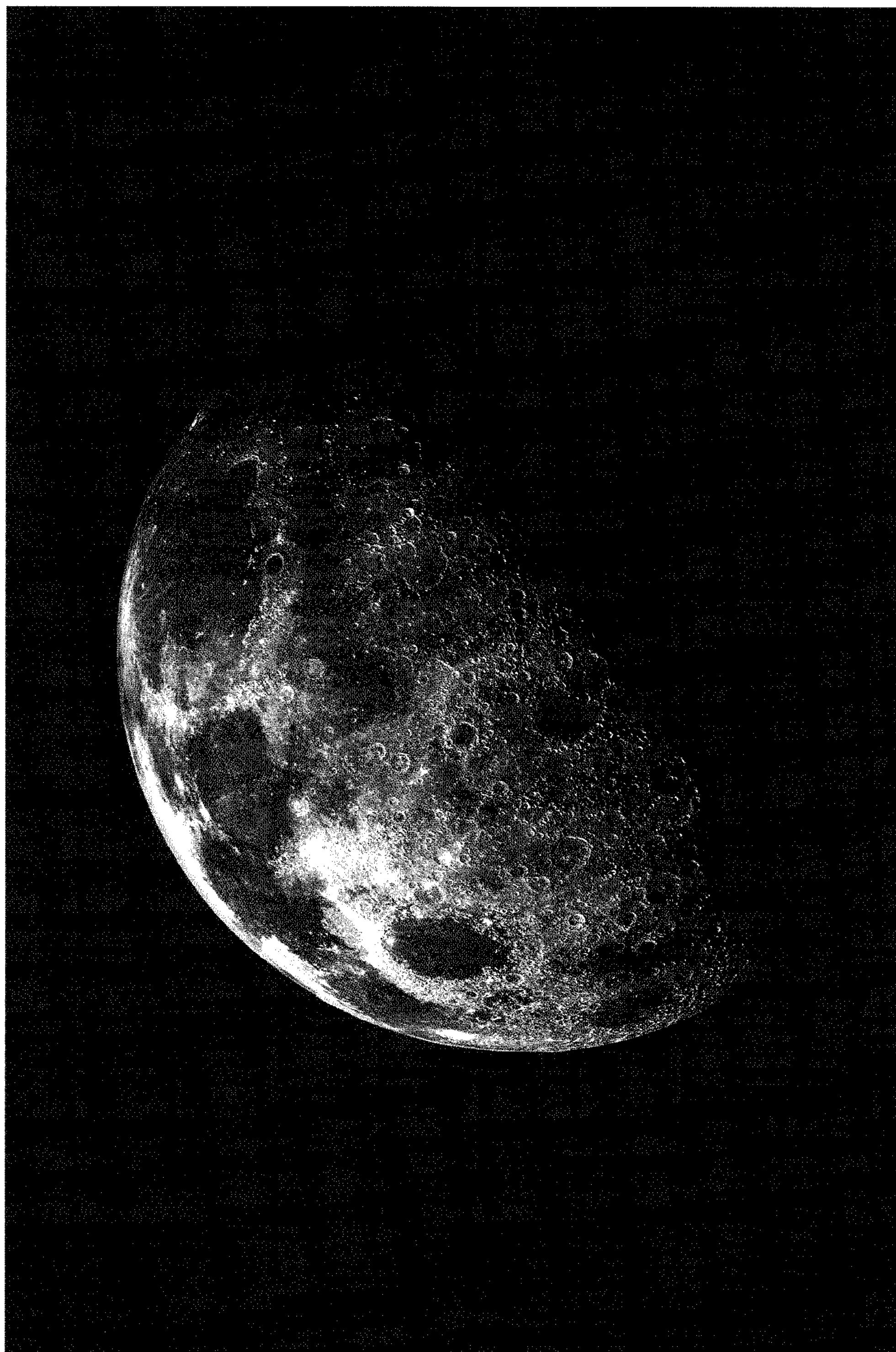
(3) **القوة الذرية الضعيفة**: وتحمل على جسيمات تسمى باسم البوزونات **(The Posons)** وهي إما سالبة أو عديمة الشحنة، وتربط الإلكترونات الدائرة في فلك النواة، وهي لضعفها تؤدي إلى تفكك تلك الجسيمات الأولية للمادة كما يحدث في تحلل العناصر المشعة.

(4) **القوة الكهرومغناطيسية**: وتُحمل على هيئة فوتونات الطاقة أو ما يعرف باسم الكم الضوئي، وهذه الفوتونات تنطلق بسرعة الضوء لتؤثر على جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربائية، ومن ثم فهي تؤدي إلى تكون الإشعاع الكهرومغناطيسي وتؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية.

وكما تم توحيد قوتي الكهرباء والمغناطيسية في قوة واحدة، يحاول العلماء جمع هذه القوة مع القوة الذرية الضعيفة، فيما يعرف باسم «القوة الكهربائية الضعيفة» لأنه لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا. وفي نظريات التوحيد الكبرى يحاول عدد من العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة مع القوة النووية الشديدة في قوة كبرى واحدة؛ بل ضم تلك القوة الكبرى مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم «الجاذبية العظمى» التي تربط كل صور المادة في الكون اليوم، والتي يعتقد أنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء خلق الكون، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم والتي تعتبر وجوهاً أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التي تشهد لله (تعالى) بالوحدانية المطلقة فوق كل خلقه، ومن هنا ظهرت نظرية الخيوط فائقة الدقة التي تفترض تكون اللبنات الأساسية للمادة من خيوط فائقة الدقة تلتف حول ذواتها فتبدو كما لو كانت نقاطاً متناهية الضآلة في الحجم مشابهة بذلك شريط الحمض النووي في داخل نواة الخلية الحية الذي يتكدس على ذاته في حيز لا يزيد على الواحد من مليون من الملليمتر المكعب، ولكنه إذا فرد يبلغ طوله قرابة المترين، بضمان 18.6 بليون قاعدة كيميائية في ترتيب غاية في الإحكام وغاية في الإتقان، وتقترح نظرية الخيوط فائقة الدقة، وجود مادة خفية تتعامل مع المادة الظاهرة بواسطة قوة الجاذبية.

وهنا تتضح روعة النص القرآني المعجز الذي نحن بصدده، والنصوص الأخرى المشابهة له في التعبير عن العديد من الحقائق العلمية التي لم يصل إليها إدراك الإنسان، إلا بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء، وعشرات العقود حتى وصلوا إلى إدراك شيء منها في السنوات المتأخرة من القرن العشرين.

وورود تلك الحقائق في كتاب الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله من قبل ألف وأربعمائة سنة، في مجتمع سادته أمية القراءة والكتابة، وأمية العلم لمما يقطع بالشهادة للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة، وبالرسالة، فصلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



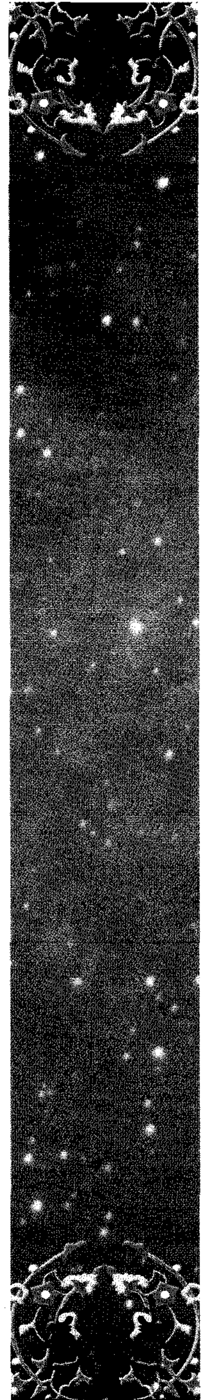
بسم الله الرحمن الرحيم



(33) ﴿... وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾

(الرعد: 2)





هذا النص القرآني المعجز جاء في مستهل سورة الرعد، وهي سورة مكية/ مدنية، وعدد آياتها ثلاث وأربعون بعد البسملة، وبها سجدة تلاوة واحدة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى حقيقة أن الرعد كغيره من ظواهر الكون يمثل صورة من صور التسبيح التسخيري للكائنات غير المكلفة لله الخالق الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ **(الإسراء: 44)**.

ويدور المحور الرئيسي لسورة الرعد حول قضية العقيدة ومن ركائزها الإيمان بالله الخالق الواحد القهار، وبالوحي الخاتم المنزل من الله الخالق على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وبأنه الحق الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت، وبالحساب وبالجنة وبالنار.

وتبدأ سورة الرعد بأربعة من الحروف الهجائية المقطعة وهي (المر) وقد وردت مرة واحدة في القرآن كله. وهذه الفواتح الهجائية (أو الحروف المقطعة) هي من أسرار القرآن الكريم، التي توقف عن الخوض فيها أعداد من علماء المسلمين، مكتفين بتفويض الأمر فيها إلى الله (تعالى)، بينما يرى عدد منهم ضرورة الاجتهاد في تفسيرها، وفهم دلالاتها، وإن لم يصلوا بعد إلى إجماع على رأي واحد في ذلك.

وتؤكد سورة الرعد لرسول الله ﷺ أن القرآن الذي أنزل إليه من ربه هو الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون؛ ثم تعرض لعدد من آيات الله في الكون للاستشهاد بها على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في إنشاء الخلق، والاستدلال بذلك على قدرته (ﷻ) على إفناء خلقه، وإعادة بعثه من جديد، وذلك لأن حجة الكافرين والمتشككين في كفرهم أو تشككهم كانت ـ ولا تزال ـ هي عجزهم عن فهم إمكانية البعث بعد تحلل الأجسام وتحولها إلى تراب، متجاهلين أن قدرة الله (تعالى) لا تحدها حدود؛ ولذلك ترد عليهم الآيات بصورة من صور عقاب المكذبين بالبعث يوم القيامة. وتعجب الآيات من استعجال الكافرين لعذاب الله وكأنهم لم يعتبروا من قصص الأمم السابقة، وتؤكد أن الله (تعالى) لذو مغفرة للناس على ظلمهم وأنه (تعالى) لشديد العقاب.

وتعجب الآيات كذلك من طلب الكافرين للمعجزات الحسية من رسول الله ﷺ وكأن القرآن الكريم ـ على عظم قدره ـ لم يكن معجزة كافية لهم، ولقد أرسل الرسول منذراً به وهادياً إليه، كما أرسل كل الرسل إلى أقوامهم من قبل؛ وأن الله (تعالى) هو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وأنه (سبحانه) قد أوكل بكل عبد من عباده ملائكة يحفظونه إلى أن يأتي أمر الله، وأنه (تعالى) لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأنه (سبحانه) شديد المحال وأن له دعوة الحق ولله يسجد من في السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال.

وتعيب الآيات على الكافرين اتخاذهم أولياء من دون الله، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولم يخلقوا شيئاً، والله خالق كل شيء وهو الواحد القهار؛ وتتساءل الآيات: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾. **(الرعد: 16).**

وتتحدث «سورة الرعد» عن مصائر كل من المؤمنين والكافرين يوم القيامة، وتعرض لشيء من صفات كل منهم، وتؤكد أن الله (ﷻ) يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه (تعالى) يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وتكرر تساؤل الكافرين عن المعجزات الحسية وترد عليهم بأن الله (تعالى) يضل من يشاء ممن أراد الضلالة، ويهدي من يشاء ممن طلب الهداية، وأن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله لأن القلوب المؤمنة لا تطمئن إلا بذكره.

وتؤكد الآيات لرسول الله ﷺ أن الله (تعالى) قد أرسله في أمة قد خلت من قبلها أمم، ليتلو عليهم الذي أوحي إليه، ويعلن إيمانه بالتوحيد الخالص لله (تعالى)، والتوكل الكامل عليه وحده، والإيمان بأن مرد كل موجود إليه!!

وتؤكد الآيات في سورة الرعد أنه لو أن كتاباً تحركت به الجبال عن مواضعها إذا تليت آياته، وتصدعت الأرض وغارت أجزاء منها، وخوطب به الموتى فأجابوا من قبورهم. . . لكان هو القرآن الكريم؛ وعلى الرغم من ذلك فإن كثيراً من الكفار والمشركين (قديماً وحديثاً) في صدود عنه، وتآمر عليه وعلى أهله وخاصته، ولله الأمر جميعاً. . .!! وتطمئن الآيات المؤمنين بأن الله (تعالى) لو يشاء لهدى الناس جميعاً، وأنه (تعالى) يعاقب الذين كفروا في الدنيا قبل الآخرة، فلا يزالون ـ بأعمالهم السيئة ـ تصيبهم القوارع الشديدة أو تنزل قريباً منهم، حتى يأتي أمر الله بإفنائهم والقضاء عليهم، والله لا يخلف الميعاد.

وتثبت الآيات رسول الله ﷺ بأن الرسل من قبله قد استهزىء بهم كما استهزأ الكافرون والمشركون ـ ولا يزالون يستهزئون ـ بما يدعو إليه من الحق، وأن من سنن الله (تعالى) أن يأخذ الذين يستهزئون برسله أخذاً وبيلاً في الدنيا، وأن يجعل لهم في الآخرة من العذاب ما هو أشد وأنكى، وأن ليس لهم من واق من عذاب الله أبداً.

وبسبب كفر الكافرين ومكرهم أضلهم الله، وجعل عقابهم النار، وهو (سبحانه) القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازي كلاً بما يستحق. وفي المقابل تعرض الآيات لشيء من أوصاف الجنة التي وعد الله المتقين، وتؤكد أن من المفروض أن يفرح أهل الكتاب بما أنزل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) لأنه الصورة النهائية التي تكاملت فيها رسالة السماء، ولكن قطاعاً غفيراً منهم قد كفر بها وجحدها جحوداً كبيراً. .!! وتؤكد الآيات أن إنزال القرآن الكريم حكماً عربياً هو معجزة الرسول الخاتم والنبي الخاتم، وأنه ما كان لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله، وأن لكل أجل كتاب، وأن الله (تعالى) يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب؛ وأنه (تعالى) يحكم ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب. . .!!

وتشير الآيات إلى مكر الأمم السابقة (والذي لا يكاد يختلف عن مكر الأمم الكافرة والمشركة اليوم، وفي كل زمان) وتؤكد أن لله المكر جميعاً، فهو (تعالى) يعلم ما تكسب كل نفس، وسوف يعلم الكفار لمن عقبى الدار. . .!! وتختتم السورة الكريمة بخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ بأنه إذا كان الكافرون والمشركون والضالون ينكرون بعثته الشريفة فإن الله (تعالى) يشهد بصدقها، كما يشهد كل من كان عنده علم من الكتاب، ويكفيه ذلك عن كل شاهد، والآيات تنطق بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ (الرعد: 43).

من الآيات الكونية في سورة الرعد

تأكيداً على صدق ما جاء بها من قواعد الدين، وأمور الغيب المطلق استشهدت سورة الرعد بعدد كبير من الآيات الكونية التي يمكن إيجازها فيما يلي:

(1) رفع السمٰوات بغير عمد مرئية (أي بعمد غير مرئية أو بواسطة أخرى غير العمد المرئية).

(2) تسخير كل من الشمس والقمر، وجعل كل منهما يجري لأجل مسمى، تأكيداً على نهاية الكون.

(3) مد الأرض، والمد بلا نهاية هو قمة التكوير، وخلق الجبال رواسي لها، ومنابع للأنهار الجارية على سطحها.

(4) خلق كل شيء في زوجية واضحة حتى يبقى الله (تعالى) متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

(5) إغشاء الليل بالنهار في إشارة واضحة إلى كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس.

(6) الإشارة إلى تقسيم الغلاف الصخري للأرض بواسطة شبكة من الصدوع وذلك بالوصف القرآني المعجز الذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى): «وفي الأرض قطع متجاورات. . .».

(7) الإشارة إلى تفضيل الله (تعالى) بعض الثمار على بعضها في الأكل، على الرغم من تشابهها أحياناً وتباين أشكالها في أحيان أخرى، وعلى الرغم من نموها على أرض واحدة وسقياها بماء واحد. وهي إشارة إلى شيء من طلاقة القدرة الإلٰهية في إبداع الخلق.

(8) الإشارة إلى علم الله (تعالى) بما تحمل كل أنثى، وبما تغيض الأرحام وما تزداد، وأن كل شيء عنده بمقدار.

(9) التأكيد على أن الله (تعالى) لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأن الغيب المكنون الذي لا تدركه حواس الإنسان مكشوف لعلم الله (تعالى)، الذي يتساوى فيه كل من عالمي الغيب والشهادة، في الماضي والحاضر والمستقبل.

(10) الإشارة إلى عدد من الظواهر الكونة المبهرة كالرعد، والبرق، والصواعق.

(11) الإشارة إلى إنشاء السحاب الثقال وإلى إنزال المطر منه.

(12) التأكيد على سجود كل من في السمٰوات والأرض لله (تعالى) طوعاً وكرهاً،

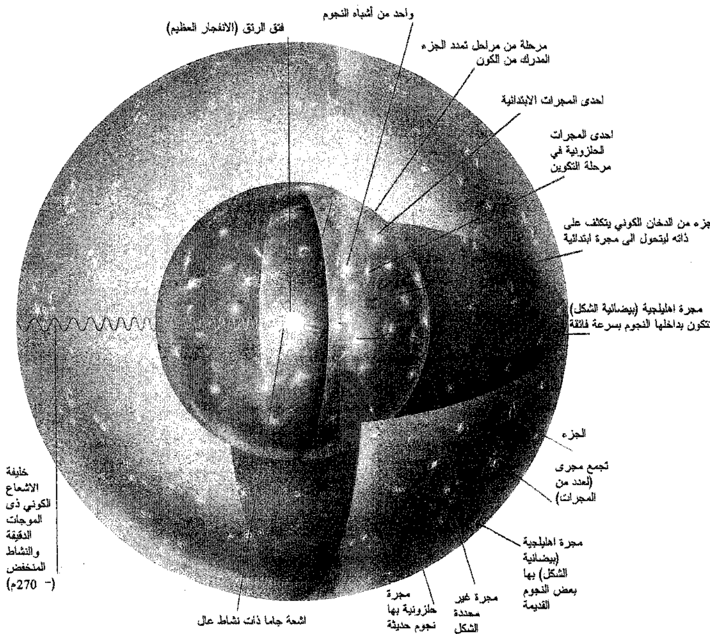
وسجود ظلالهم لله (ﷻ) بالغدو والآصال.

(13) الإقرار بأن الله (تعالى) هو خالق كل شيء.

(14) التأكيد على إنقاص الأرض من أطرافها، وهي حقيقة لم تدرك إلا في القرن العشرين.

(15) تشبيه الباطل بزبد السيل، أو بزبد الفلزات المصهورة، وتشبيه الحق بما يمكث في الأرض مترسباً من ماء السيل من الجواهر والمعادن النفيسة والنافعة، أو بما يبقى بعد صهر الفلزات الثمينة والمفيدة مع خلطة من المركبات الكيميائية لتخليصها مما فيها من شوائب تطفو على هيئة الخبث (الزبد).

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على قضية تسخير كل من الشمس والقمر، وجعل كل منهما يجري إلى أجل مسمى، وقبل الوصول إلى ذلك أرى لزاماً على استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذا النص القرآني المعجز.



شكل (١٨٥) رسم تخطيطي للكون يوضح تماسك مكوناته وحفظها من الانهيار فوق الأرض

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالى):

﴿... وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2].

* ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما مختصره: «... وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش...».

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه: «...﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلك ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى﴾ في فلكه ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يوم القيامة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يقضي أمر ملكه ﴿يُفَصِّلُ﴾ يبين ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ دلالات قدرته ﴿لَعَلَّكُم﴾ يا أهل مكة وغيرها ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ بالبعث ﴿تُوقِنُونَ﴾...».

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه: «... ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير، تسخير الشمس والقمر، تسخير العلو المنظور للناس على ما فيه من عظمة أخّاذة؛ أخذت بألبابهم في اللمسة الأولى، ثم إذا هي مسخرة بعد ذلك لله الكبير المتعال...!، ثم نمضي مع السياق... فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾... وإلى حدود مرسومة، ووفق ناموس مقدر سواء في جريانهما في فلكيهما... لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه. أو جريانهما إلى الأبد المقدر لهما قبل أن يحول هذا الكون المنظور. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾... الأمر كله، على هذا النحو من التدبير الذي يسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى.. والذي يمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء فيجريها لأجل لا تتعداه، لا شك عظيم التدبير جليل التقدير. ومن تدبيره الأمر أنه (يفصل الآيات) وينظمها وينسقها، ويعرض كلاً منها في حينه، ولعلته، ولغايته ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ حين ترون الآيات مفصلة منسقة، ومن ورائها آيات الكون، تلك التي أبدعتها يد الخالق أول مرة، وصورة لكم آيات القرآن ما وراء إبداعها من تدبير وتقدير وإحكام... ذلك كله يوحي بأن لا بد من عودة إلى الخالق بعد الحياة الدنيا، لتقدير أعمال البشر، ومجازاتهم عليها. فذلك من كمال التقدير الذي توحي به حكمة الخلق الأول عن حكمة وتدبير».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه: «. . . بين الله تعالى في هذه الآية والآيتين بعدها عشرة أدلة من العالم العلوي والسفلي على كمال قدرته وعظيم حكمته: خلقه السمٰوات مرتفعة بغير عمد، وتسخيره الشمس والقمر لمنافع الخلق، وخلقه الأرض صالحة للاستقرار عليها، وخلقه الجبال فيها لتثبيتها، والأنهار لتسقي الزرع، وخلقه زوجين اثنين من كل نوع من الثمرات، ومعاقبته بين الليل والنهار، وخلقه بقاعاً في الأرض متلاصقة مع اختلافها في الطبيعة والخواص، وخلقه جنات من الأعناب للتفكه، وخلقه أنواع الحبوب المختلفة للغذاء. . ، وخلقه النخيل صنواناً وغير صنوان، وجميعها تسقي بماء واحد لا تفاوت فيه، مع اختلاف الثمار والحبوب في اللون والطعم والرائحة والشكل والخواص. . . ».

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً) ما نصه: «إن الذي أنزل هذا الكتاب هو الله الذي رفع ما ترون من سمٰوات تجري فيها النجوم بغير أعمدة ترى ولا يعلمها إلا الله، وإن كان قد ربط بينها وبين الأرض بروابط لا تنقطع إلا أن يشاء الله، وذلل الشمس والقمر بسلطانه ولمنفعتكم، وهما يدوران بانتظام لزمن قدره الله ﷻ، وهو سبحانه يدبر كل شيء في السمٰوات والأرض، ويبين لكم آياته الكونية رجاء أن توقنوا بالوحدانية».

* وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبه خيراً) ما نصه:

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلل الشمس والقمر لمصالح العباد، كل يسير بقدرته تعالى إلى زمن معين هو زمن فناء الدنيا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يصرف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشؤون الملكوت من إيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة وغير ذلك ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي يبينها ويوضحها ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لتصدقوا بلقاء الله، وتوقنوا بالمعاد إليه، لأن من قدر على ذلك كله فهو قادر على إحياء الإنسان بعد موته.

الدلالة العلمية للنص الكريم

من معاني تسخير كل من الشمس والقمر ضبط حركة كل منهما لما فيه صلاح الكون واستقامة الحياة على الأرض.

ومن معاني أن كلاً منهما يجري إلى أجل مسمى: أن الكون ليس بأزلي ولا بأبدي، بل كانت له في الأصل بداية تحاول العلوم المكتسبة تحديدها، وكل ما له بداية لا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية، لها من الشواهد الحسية في كل من الشمس والقمر ما يؤكد على حتميتها.

أولاً ــ من جوانب تسخير الشمس:

إن الحقائق القاطعة بتسخير الشمس عديدة جداً نوجز منها ما يلي:

(1) الاتزان الدقيق بين تجاذب مكونات الشمس وتمددها:

الشمس هي أقرب نجوم السماء إلى الأرض التي تبعد عنها بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر في المتوسط؛ والشمس نجم عادي، متوسط الحجم على هيئة كرة من الغاز الملتهب يبلغ قطرها 1,400,000 كيلومتر، وحجمها 142 ألف مليون مليون كيلومتر مكعب، ومتوسط كثافتها 1.4 جرام للسنتيمتر المكعب، ولذلك تقدر كتلتها بنحو ألفي تريليون تريليون طن. ويمثل ذلك حوالي 99% من كتلة المجموعة الشمسية كلها.

والشمس عبارة عن فرن نووي كوني عملاق عمره أكثر من عشرة بلايين من السنين، يرتفع الضغط في داخله إلى ما يساوي أربعمائة مليار ضغط جوي، وبذلك تبدأ عملية الاندماج النووي بين نوى ذرات الإيدروجين منتجة نوى ذرات الهيليوم، وتنطلق الطاقة التي ترفع درجة حرارة لب الشمس إلى أكثر من 15 مليون درجة مطلقة تتناقص بالتدريج إلى حوالي ستة آلاف درجة مطلقة عند سطحها، وإن تجاوزت المليون درجة في ألسنة اللهب المندفعة من داخلها.

والشمس تتكون أساساً من غازي الإيدروجين (81.76%) والهيليوم (18.17%) بالإضافة إلى آثار يسيرة (لا تتعدى 0.07%) من عدد من العناصر الأخرى، وعلى ذلك فإن الشمس عبارة عن خليط ملتهب من غازي الإيدروجين والهيليوم بنسبة حجمية تقدر بحوالي 1:4 وهي نفس النسبة المطلوبة لاتحاد أربع من نوي ذرات الإيدروجين مع بعضها البعض لتكوين نواة ذرة هيليوم واحدة، وتنطلق الطاقة؛ والشمس تحول في كل ثانية من عمرها الحالي حوالي 655 مليون طن من الإيدروجين إلى حوالي 650 مليون طن من الهيليوم، ويتحول الفرق بين الكتلتين (والمقدر بحوالي 4.6 مليون طن إلى الخمسة ملايين طن) إلى طاقة تمثل الطاقة المنبعثة من الشمس في كل ثانية من وجودها.

ونظراً للجاذبية الرهيبة التي تحدثها كتلة الشمس الهائلة على مكوناتها فإنها تتجاذب كلها في اتجاه المركز تجاذباً تنتج عنه ضغوط هائلة ترفع درجة حرارة لب الشمس إلى المستوى الذي يسمح ببدء واستمرار عملية الاندماج النووي فيه.

ونظراً للتوازن الدقيق بين جاذبية الشمس لمكوناتها في اتجاه مركزها، ودفع تلك

المكونات بعيداً عن المركز بواسطة القوى الناتجة عن تمدد الغازات المكونة لها بفعل الحرارة الفائقة في مركزها، فقد بقيت الشمس مستمرة في الوجود تحت هذا التوازن العجيب على مدى عشرة بلايين من السنين (على أقل تقدير) وإلى أن يرث الله (تعالى) الكون ومن فيه؛ ولولا هذا التوازن الدقيق لانفجرت الشمس كقنبلة نووية عملاقة، أو لانهارت على ذاتها تحت ضغط جاذبيتها خاصة أنها مجرد كرة ضخمة من الغازات.

وعلى ذلك فإن تقدير الخالق (ﷻ) حجم وكتلة الشمس بهذه الدقة البالغة هو الذي مكّنها من تحقيق هذا التوازن الدقيق بين قوى الدفع إلى الخارج، وقوى التجاذب إلى الداخل، ومن البقاء في حالة غازية أو شبه غازية، ملتهبة، متوهجة بذاتها لأكثر من عشرة بلايين من السنين وإلى أن يرث الله الخلق والخلائق. ولو تغير حجم وكتلة الشمس ولو قليلاً لتغير سلوك مادتها تماماً، أو انفجرت أو انهارت على ذاتها، وذلك لأن السبب في اندلاع عملية الاندماج النووي في قلب النجم وانطلاق الطاقة منه هو تكونه من كتلة وحجم معينين يحافظان على الاتزان الدقيق بين التمدد والتجاذب، وهل هناك من التسخير صورة أبلغ من ذلك؟

(2) تسخير طاقة الشمس من أجل ضبط حركة الحياة على الأرض:

تطلق الشمس من مختلف صور الطاقة ما يقدر بحوالي خمسمائة ألف مليون مليون مليون حصان في كل ثانية من ثواني عمرها، ويصل إلى الأرض من هذا الكم الهائل من الطاقة حوالي الواحد في الألف، ومجموع ميزانيات دول العالم لا تكفي ثمناً لهذا الكم من الطاقة الشمسية التي تصل إلينا فتمثل كل مصادر الطاقة المباشرة وغير المباشرة على الأرض (باستثناء الطاقة النووية)، وبدون هذه الطاقة الشمسية تستحيل الحياة على كوكبنا، لأن كلاً من النبات، والحيوان، والإنسان يعتمد في وجوده ـ بعد إرادة الله الخالق ﷻ ـ على قدر الطاقة الذي يصله من أشعة الشمس، كذلك فإن كل الظواهر الفطرية التي تحدث على الأرض ومن حولها تعتمد على الطاقة القادمة إلينا من الشمس: فتصريف الرياح، وإرسال السحاب، وإنزال المطر، وشق المجاري للأنهار والجداول في حجارتها، وخزن الماء تحت سطح الأرض، وتكوين التربة والصخور الرسوبية، وتركيز العديد من الركائز المعدنية، وحركات الأمواج في البحار والمحيطات وعمليات المد والجزر وغير ذلك من عمليات وظواهر تحركها طاقة الشمس بإرادة الله تعالى.

كذلك فإن الله (ﷻ) قد أعطى الشجر الأخضر القدرة على خزن جزء من طاقة الشمس على هيئة عدد من الروابطة الكيميائية التي تمثل المصدر الرئيسي للغذاء على الأرض ولكل

أنواع الطاقة الحرارية والضوئية والكهربائية والكيميائية من مثل الحطب والقش والخشب، وكلاً من الفحم النباتي والحجري، والنفط والغاز الطبيعي، والزيوت والدهون النباتية والحيوانية وكلها ترجع إلى الطاقة الشمسية.

(3) تكوين نطق الحماية المختلفة للأرض بفعل طاقة الشمس:

شاءت إرادة الله (تعالى) أن يحمي الحياة على سطح الأرض بعدد من نطق الحماية التي لعبت أشعة الشمس (ولا تزال تلعب) الدور الأول في تكوينها (بعد إرادة الله) وأولها من الخاج إلى الداخل:

(أ) النطاق المغناطيسي للأرض **(The Magnetosphere)**.

(ب) أحزمة الإشعاع **(The Radiation Belts)**.

(جـ) النطاق المتأين **(The Ionosphere)**.

(د) نطاق الأوزون **(The Ozonosphere)**.

وهذه النطق تتعاون في حماية الأرض من كل من الأشعات الكونية وفوق البنفسجية، ومن العديد من الجسيمات الكونية الدقيقة والكبيرة والتي منها النيازك والشهب. ولو لم تكن هذه النطق موجودة لاستحالت الحياة على الأرض، ولو لم تكن الشمس موجودة ما تكونت تلك النطق على الإطلاق، ووجودها صورة من صور التسخير التي لم تكن معروفة في زمن الوحي بالقرآن الكريم، ولا بعد قرون متطاولة من نزوله حتى نهايات القرن العشرين.

(4) تحديد الزمن:

يتحدد كل من الليل والنهار ويوم الأرض وشهورها وفصولها وسنينها بدورة الأرض حول محورها، وبسبحها في مدارها حول الشمس، وبذلك يستطيع الإنسان إدراك الزمن وتحديد الأوقات والتأريخ للأحداث، فبدورة الأرض حول محورها أمام الشمس يتبادل الليل والنهار، ويتحدد يوم الأرض، وبسبح الأرض في مدارها حول الشمس بمحور مائل على الأفق تتحدد الفصول المناخية من الربيع والصيف والخريف والشتاء، كما تتحدد سنة الأرض التي يتقاسمها اثنا عشر شهراً شمسياً تحددها بروج السماء الاثنا عشر المتتابعة.

ثانياً ــ تسخير القمر:

القمر تابع صغير للأرض يبعد عنها بمسافة تقدر بحوالي 384,400 كيلومتر في المتوسط، وهو على هيئة شبه كرة من الصخر، يقدر قطرها بحوالي 3474 كيلومتراً، ومساحة سطحها بحوالي 38 مليون كيلومتر مربع، وحجمها بحوالي 22 مليون مليون كيلومتر

مكعب، ومتوسط كثافتها بحوالي 3.34 جرام للسنتيمتر المكعب، وكتلتها بحوالي 735 مليون مليون طن، ويتمثل تسخير القمر في النقاط التالية:

(1) تحديد الشهر القمري بدورة القمر حول الأرض:

يدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يقدر طوله بحوالي 2.4 مليون كيلومتر بسرعة متوسطة تقدر بحوالي كيلومتر واحد في الثانية ليتم دورته الاقترانية حول الأرض في حوالي 29.5 يوم من أيام الأرض، هي الشهر القمري الاقتراني للأرض.

(2) تسخير أطوار شكل القمر لتقسيم الشهر إلى أسابيع وأيام:

إن كلاً من منازل القمر، وأطواره المتتالية والتي يحددها مساحة وشكل الجزء المرئي من سطح القمر المنير وهو يتزايد سعة من الهلال الوليد حتى يصل إلى البدر الكامل، ثم يبدأ في التناقص حتى يصل إلى الهلال الأخير، ومن بعده يدخل في طور المحاق لمدة يوم أو يومين إلى ميلاد الهلال الجديد، وبذلك يمكن تقسيم الشهر القمري إلى أسابيع متتالية، وتقسيم كل أسبوع إلى أيام متتابعة بدقة فائقة.

(3) إضاءة سماء الأرض بمجرد غياب الشمس:

سطح القمر زجاجي معتم تماماً، وعلى الرغم من ذلك فإن الله (تعالى) قد أعطاه القدرة على عكس ما قيمته 7.3% من أشعة الشمس الساقطة عليه، وبذلك ينير سماء الأرض بمجرد غياب الشمس، وذلك بمراحله المتتالية من الهلال الوليد، إلى ميلاد الهلال الجديد في أول الشهر التالي. وعلى ذلك فإن القمر في دورته الشهرية حول الأرض قد سخره ربنا (تبارك وتعالى) مصدراً للنور في ليل الأرض.

(4) تسخير القمر وسيلة من وسائل إتمام عمليتي المد والجزر:

وهما قوتان من قوى الأرض يعملان على تفتيت صخور الشواطىء، وتكوين أنواع عديدة من الرسوبيات والصخور الرسوبية على طول تلك الشواطىء، كما تعملان على تركيز العديد من الثروات المعدنية من المعادن ذات الكثافة العالية في رمالها (أو ما يعرف باسم الرمال السوداء).

هذا قليل من كثير من صور التسخير التي أعدتها الإرادة الإلهية بحكمة بالغة لكي يكون كل من الشمس والقمر لبنات صالحة في بناء الكون وفي انتظام حركة الحياة على الأرض.

ثالثاً ـ من الشواهد الحسية على حتمية فناء كل من الشمس والقمر:

جاءت الإشارة القرآنية إلى تسخير كل من الشمس والقمر وإلى جريهما إلى أجل مسمى (أو لأجل مسمى) في أربعة مواضع من القرآن الكريم على النحو التالي:

(1) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ **(الرعد: 2)**.

(2) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ **(فاطر: 13)**.

(3) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ **(الزمر: 5)**.

(4) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩﴾ **(لقمان: 29)**.

ومعنى ذلك أن كلاً من الشمس والقمر يجري إلى نهايته المحتومة بقيام الساعة وأن هذا الأجل المسمى صورة من صور التسخير؛ والساعة لا تأتي إلا بغتة كما جاء في قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(الأعراف: 187)**.

ولذلك فقد أبقى ربنا (تبارك وتعالى) في صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يؤكد لكل ذي بصيرة حتمية فناء كل من الشمس والقمر.

فالشمس تفقد في كل ثانية من عمرها (على هيئة طاقة) ما يعادل 4.6 مليون طن من كتلتها، مما يعني أن الشمس تحترق بتدرج واضح ينتهي بها حتماً إلى الفناء التام، ولكن الآخرة لن تنتظر فناء الشمس باحتراقها بالكامل، وذلك لأن الآخرة أمر إلٰهي بـ «كن فيكون»، وعلى ذلك لا تأتي إلا بغتة دون انتظار لحركة السنن الراهنة والتي أبقاها الله (تعالى) شاهدة على حتمية الآخرة، وإن كانت الآخرة لن تتم بواسطتها..!!

ولما كانت الشمس تفقد من كتلتها باستمرار، فلا بد أن تفقد الأرض من كتلتها قدراً متناسباً من أجل بقاء المسافة بينهما ثابتة، وهي محكومة بكتلتي هذين الجرمين ويتحدد بواسطتها قدر الطاقة التي تصل من الشمس إلى الأرض، والتي إن زادت أحرقت الأرض ومن عليها، وإن قلت جمدت الأرض ومن عليها. والأرض تفقد من كتلتها ملايين الأطنان من الغازات والأبخرة والأتربة عن طريق نشاطها البركاني، ويعود جزء من ذلك مرة أخرى إلى الأرض بينما تهرب الغازات والأبخرة والهباءات الخفيفة إلى فسحة السماء متفلتة من عقال جاذبية الأرض بالقدر الكافي الذي يبقي المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، وذلك كله بتقدير من الخالق الحكيم الخبير العليم.

كذلك فإن المسافة بين القمر والأرض تحكمها ـ بعد إرادة الله تعالى ـ قوانين الجاذبية المعتمدة على كتلة كل منهما؛ ولما كانت الأرض تفقد من كتلتها بمعدلات ثابتة، ومتوازية مع ما تفقده الشمس، كان لا بد للقمر لكي يبقى على نفس المسافة من الأرض أن يفقد من كتلته قدراً موازياً. كذلك فإنه لما كان مدار القمر حول الأرض، ومدار كل من الأرض والقمر حول الشمس مداراً بيضائي الشكل (أي على هيئة القطع الناقص)، ولما كان من قوانين الحركة في مدار القطع الناقص أن السرعة المحيطية تخضع لقانون تكافؤ المساحات مع الزمن، بمعنى اختلاف مقدار السرعة على طول المحيط باختلاف مقدار البعد عن مركز الثقل، فإن القمر عندما يقترب من الأرض في مداره حولها تزداد سرعته المحيطية فتزداد قوة الطرد المركزي له من الأرض، وإلا ارتطم بها فدمرها ودمرته. وعندما يبتعد القمر عن الأرض وهو يسبح في مداره حولها فإن سرعته المحيطية تقل، فتقل قوة الطرد المركزي له، وإلا انفلت من عقال جاذبية الأرض حتى يضيع في فسحة السماء أو تلتهمه الشمس، ولذلك تتراوح سرعة سبح القمر في مداره حول الأرض بين 3483و3888 كيلومتراً في الساعة، بمتوسط 3675 كيلومتراً في الساعة، أي في حدود كيلومتر واحد في الثانية تقريباً، وهي نفس سرعة دورانه حول محوره، ولذا نرى منه وجهاً واحداً.

ولكن نظراً لوجود غلاف مائي غامر لثلاثة أرباع سطح الأرض تقريباً، ووجود غلاف غازي ممتد لآلاف الكيلو مترات حول الأرض، وانعدام ذلك تقريباً حول القمر وعلى سطحه، فقد ثبت أن الأرض تفقد من سرعة دورانها حول محورها ـ بفعل كل من الأمواج البحرية (خاصة عمليتي المد والجزر في البحار الضحلة)، وحركة الرياح ـ ما يقدر بحوالي الواحد من الألف من الثانية في كل قرن من الزمان.

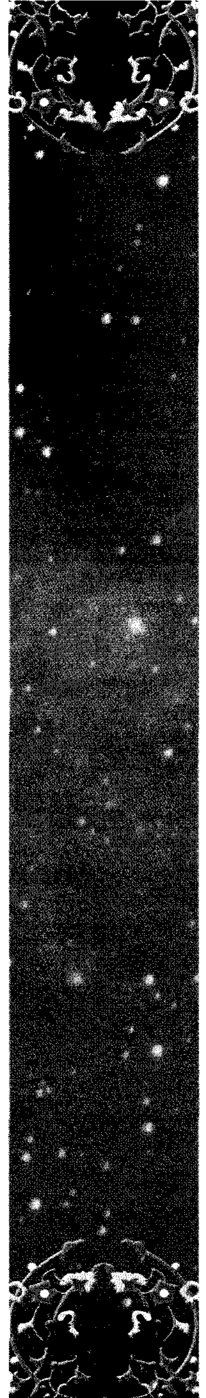
وهذا النقص في سرعة دوران الأرض حول محورها ـ على ضآلته ـ يؤدي إلى تزايد

مطرد في سرعة دوران القمر حول محوره مما يدفعه إلى التباعد عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة، ويقدر علماء الفلك أن هذا التباعد التدريجي للقمر سوف يخرجه حتماً في لحظة من اللحظات من نطاق أسر الأرض له إلى نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه وتكون في ذلك نهايته الحتمية، وهنا تكفي الإشارة إلى سبق القرآن الكريم بتقرير حتمية ابتلاع الشمس للقمر من قبل ألف وأربعمائة سنة وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ **(القيامة: 7 ـ 9)**.

وقد يقول قائل أننا إذا عرفنا معدل ما تفقده الشمس من كتلتها أو معدل تباعد القمر عن الأرض في كل سنة فإنه بإمكاننا أن نحدد لحظة ابتلاع الشمس له، ولحظة انهيارها وفنائها وهي بداية الآخرة، والآخرة من الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله (تعالى). وللرد على ذلك أكرر أن الآخرة أمر إلٰهي، لا علاقة له بسنن الدنيا، ولكن الله (تعالى) من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يقطع بحتمية فناء الكون حتى لا يتشكك متنطع في الإيمان بحتمية الآخرة فإنها إذا لم تقع بالأمر الإلٰهي ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ـ كما لا يريد الكافرون أن يؤمنوا ـ فسوف تقع حتماً بالسنن القائمة الحاكمة لدنيانا الراهنة، وهي واضحة لكل ذي بصيرة. . !!

كذلك فإن في قوله (تعالى) في أربعة مواضع من القرآن الكريم بتسخير الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى أو إلى أجل مسمى، تأكيد على حتمية فناء الكون.

فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم: أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه بنفس لغة وحيه (اللغة العربية)، فحفظه حفظاً كاملاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها، حفظه الله (تعالى) بصفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وحقائقه الكونية، وعقائده الصحيحة، وعباداته المفروضة من الله (تعالى)، ودستوره الأخلاقي الفريد، وتشريعاته العادلة، واستعراضه التاريخي الدقيق لعدد من الأمم البائدة، وصدق إنبائه بالغيب، حتى يكون حجة على الناس جميعاً إلى قيام الساعة. فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، وصلى الله وسلم وبارك على الرسول الخاتم الذي تلقاه، وعلى آله وصحبه من تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الباب الخامس

خاتمة

جاءت لفظة «السماء» بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة (310) مواضع من القرآن الكريم، منها مائة وعشرون (120) موضعاً جاءت الإشارة فيها إلى «السماء» بصيغة الإفراد، ومائة وتسعون (190) موضعاً جاءت بصيغة الجمع (معرفة وغير معرفة) «السمٰوات أو سمٰوات». وصيغ الجمع تشير في غالبيتها إلى السمٰوات السبع، أي إلى كل ما حول الأرض من المكان والزمان وما فيهما من مختلف صور المادة والطاقة، سواء ما تجمع على هيئة أجرام السماء المتباينة في أبعادها، وأحجامها، وكثافة المادة فيها، وكتلها، وهيئاتها، وصفاتها الطبيعية والكيميائية، ودرجات نشاطها، أو ما انتشر منها على هيئة دخانية رقيقة بين تلك الأجرام والتي تعرف عادة باسم «المادة بين النجوم والكواكب»، كما نرى في الجزء المدرك من السماء الدنيا من حولنا، لأن الإنسان بكل إمكاناته العلمية والتقنية الحديثة لا يستطيع إدراك سوى جزء يسير من السماء الدنيا فقط، وهذا الجزء دائم الاتساع باطراد إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، فكلما طوّر الإنسان أجهزته وجد أن الله (تعالى) قد وسع الكون بمعدلات أعظم بكثير، حتى يبقى الإنسان على الأرض محصوراً في جزء صغير من السماء الدنيا لا يقوى على تجاوزه أبداً. وعلى ذلك فلولا أن الله (تعالى) قد أخبرنا بأنه قد خلق سبع سمٰوات طباقاً ما كان أمام الإنسان من وسيلة للتعرف على ذلك أبداً.

أما الإشارات القرآنية إلى «السماء» بصيغة الإفراد فقد جاءت في ثمانية وثلاثين (38) موضعاً من المائة والعشرين موضعاً التي وردت فيها، بمدلول الغلاف الغازي للأرض بما فيه من رياح تصرف، وسحب تتحرك، وكسف تسقط، وأمطار تهطل، ورعد وبرق، وصور مختلفة للطاقة، ونور النهار، وحلكة ظلام الليل وإنارته بنور القمر والنجوم، وأصداء الأصوات، ورجع الماء، والرجع الحراري، ونطق حماية متعددة للحياة الأرضية، وغير ذلك مما خلق الله (تعالى) وأبدع.

وجاءت الإشارة إلى السماء بالإفراد في الاثنتين والثمانين (82) موضعاً الآخر من كتاب الله بمدلول السماء الدنيا التي زينها ربنا (تبارك وتعالى) بالنجوم والكواكب؛ ويفهم منها في بعض هذه المواضع كل ما هو حول الأرض وفوقها إلى نهاية الكون.

وقد تناولنا في هذا الكتاب بضعاً وثلاثين من آيات السماء في القرآن الكريم بهدف إظهار ما في هذه الآيات الكريمة من سبق علمي أنزله ربنا (تبارك وتعالى) في محكم كتابه من قبل أربعة عشر قرناً، أي من قبل أن يصل إليه علم الإنسان بقرون عديدة حيث لم يصل علم الإنسان إلى شيء من ذلك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، والآيات التي تناولناها في هذا الكتاب يمكن تسجيلها على النحو التالي: .

1 - ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ **(الذاريات: 47).**

2 - ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ **(الأنبياء: 30).**

3 - ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ **(فصلت: 11)**

4 - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ **(البقرة: 29).**

5 - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ **(الطلاق: 12).**

6 - ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ. . .﴾ **(الأعراف: 54)**

7 - ﴿. . . يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ **(الأعراف: 54).**

8 ـ ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ (الأنبياء: 104).

9 ـ ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ (الواقعة: 75، 76).

10 ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ١٦﴾ (التكوير: 15، 16).

11 ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١﴾ (الأنعام: 1).

12 ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾ (الطارق: 1 ـ 3).

13 ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾ (الشمس: 5).

14 ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ١١﴾ (الطارق: 11).

15 ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ٧﴾ (الذاريات: 7).

16 ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ١﴾ (البروج: 1).

17 ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ . . .﴾ (الرعد: 2).

18 ـ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق: 6).

19 ـ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ (الذاريات: 22).

20 ـ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢٥﴾ (الأنعام: 125).

21 ـ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ١٥﴾ (الحجر: 14، 15).

22 ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ١٢﴾ (الإسراء: 12).

23 ـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ (الشمس: 1).

24 ـ ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ (الشمس: 2).

25 ـ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ (الشمس: 3).

26 ـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ (الشمس: 4).

27 ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ (يونس: 5).

28 ـ ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ (يسٓ: 39).

29 ـ ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ (الأنعام: 96).

30 ـ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ (القمر: 1).

31 ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾ (مريم: 65)

32 ـ ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحج: 65)

33 ـ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد: 2).

ومن الحقائق العلمية التي جاءت في هذه الآيات والتي سبق القرآن الكريم بها كل المعارف البشرية بأكثر من عشرة قرون كاملة، ما يمكن إيجازه فيما يلي:

1 ـ أن السماء بناء محكم وليست فراغاً كما درج على الاعتقاد به كل الناس.

2 ـ حقيقة توسع الكون أي: أن من صفات كوننا أنه دائم الاتساع إلى نهاية لا يعلمها إلا الله (تعالى).

3 ـ حقيقة أن السمٰوات والأرض كانتا رتقاً ففتقهما الله بقدرته، وأنه (تعالى) قد جعل من الماء كل شيء حي.

4 ـ أن الكون قد بدأ بحالة من الدخان وأن الله (تعالى) قد خلق من هذا الدخان الأرض وباقي أجرام السماء، والمادة الفاصلة بينهما.

5 ـ أنه على الرغم من تزامن خلق الأرض والسمٰوات إلا أن عملية تمايز كل منهما إلى سبعة أمثال هي عملية لاحقة تمايزت فيها الأرض إلى سبع أرضين، كما تمايزت السمٰوات إلى سبع سمٰوات. وتؤكد الآية الكريمة خلق كل ما في الأرض قبل تمايز

السمٰوات سبعاً، وهي حقيقة لا يستطيع العلم الكسبي الوصول إليها وذلك لأن علم الإنسان لا يكاد يتعدى الأرض وجزءاً يسيراً من السماء الدنيا.

6 ـ أن الأرضين السبع كلها في أرضنا يغلف الخارج منها الداخل فيها، وهي محاطة بسبع سمٰوات متطابقة حول الأرض، يغلف الخارج منها الداخل فيها كذلك تأكيداً على وحدة البناء في الكون التي تشير إلى وحدة الخالق (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ).

7 ـ أن خلق السمٰوات والأرض قد تم في ست مراحل متمايزة يحاول العلم الكسبي استقراءها، لما لكل منها من شواهد حسية في صخور الأرض، وفي صفحة السماء.

8 ـ حقيقة أن دوران الأرض حول محورها كان سريعاً جداً في بدء الخلق مما جعل تعاقب كل من الليل والنهار يتم بسرعة فائقة وهو ما أثبتته الدراسات العلمية المتأخرة كما هو مدون في جذوع الأشجار، وهياكل الحيوانات القديمة من مثل حيوان المرجان وشعبه.

9 ـ حقيقة أن كوننا كون منغلق لا يمكنه أن يستمر في الاتساع إلى ما لا نهاية كما يدعي بعض علماء الفلك والفيزياء الفلكية المعاصرون، بل لا بد له من التوقف عن التوسع في وقت قد حدده الله (تعالى)، وعندها يبدأ الكون في الالتمام على ذاته ليعود سيرته الأولى في نقطة واحدة شبيهة بالنقطة التي بدأ بها خلق الكون.

10 ـ أن الإنسان من فوق سطح الأرض لا يمكنه أن يرى النجوم أبداً، لضخامة أبعادها عنا، ولقدمها السحيق، ولتحرك الضوء منها إلينا في خطوط منحنية، ولذلك يرى الإنسان من فوق سطح الأرض صوراً وهمية لمواقع النجوم ولا يرى النجوم أبداً.

11 ـ الإشارة إلى حقيقة النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) والتي لم تدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

12 ـ مقابلة الظلمات بالنور، والتأكيد على أن الأصل في الكون هو الظلمة وأن النور هو فترة زمنية يمن الله (تعالى) بها على سكان الأرض في حزام ضيق يحيط بنصف الأرض المواجه للشمس، ولذا وصف في القرآن الكريم بالرقة الشديدة.

13 ـ الإشارة إلى النجوم الراديوية (من مثل النجوم النيوترونية النابضة وأشباه النجوم الراديوية) باسم «الطارق النجم الثاقب» لأن موجاتها الراديوية تطرق سماء أرضنا في طرقات متتابعة تماماً كدق الطارق للباب، وأنها تثقب صمت السماء بتلك الطرقات الشديدة.

14 ـ التأكيد على أن السماء بناء محكم شديد الإحكام والترابط بمعنى أنه لا وجود للفراغ التام فيها، والإشادة ببنائها وببانيها (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ).

15 ـ التأكيد على أن من صفات سماء الأرض أنها ذات رجع أي عود المفيد النافع من صور المادة والطاقة المرتفعة من الأرض إليها، وارتداد الضار المهلك من صور المادة

والطاقة المتجهة إلى الأرض عنها، ويرى العلماء اليوم عشر صور من ذلك الرجع جمعها لنا ربنا (تبارك وتعالى) في لفظة واحدة هي لفظة (الرجع)، وقد يرى القادمون من بعدنا في هذه اللفظة ذاتها من المعاني فوق ما نراه نحن اليوم.

16 ـ الإشارة إلى إحكام نسج السماء، وشدة ترابط مكوناتها بوصفها بأنها «ذات الحبك». وهو ما أثبتته الدراسات المتأخرة في مجالي علم الفلك والفيزياء الفلكية.

17 ـ وصف السماء كذلك بأنها «ذات البروج» وهي وسيلة تحديد الشهور في كل سنة من سني الأرض، بالإضافة إلى دورة القمر حول كوكبنا دورة كاملة كل شهر.

18 ـ التأكيد على أن السمٰوات مرفوعة بقدرة الله (تعالى) بغير عمد مرئية، وقد يكون في ذلك إشارة إلى قوى الجاذبية العظمى الحاكمة للأجرام المرئية في السماء الدنيا كما يتصورها علماء الفلك والفيزياء الفلكية.

19 ـ التأكيد على عدم وجود فراغات في السماء أبداً بتعبير «وما لها من فروج» وهو ما ألمح إليه الوصف القرآني للسماء بأنها ذات الحبك، وأكدته الدراسات المتأخرة في الجزء المدرك لنا من الكون.

20 ـ الإشارة إلى تخليق كل العناصر التي تحتاجها الحياة الأرضية في السماء، وإلى إنزال كل من الماء والقرارات الإلهية بتوزيع الأرزاق منها وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ **(الذاريات: 22)**.

21 ـ التأكيد على تناقص الضغط الجوي وانعدام الأكسجين في طبقات الجو العليا وإلى كثرة ما فيها غير ذلك من مخاطر وذلك بالإشارة إلى «جعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء» وهو وصف دقيق للأمراض التي تصيب الذين يصلون إلى تلك الارتفاعات الشاهقة بغير وقاية كافية، ولو أن الآية جاءت في مقام التشبيه إلا أنها صيغت صياغة علمية دقيقة بحقائق لم تعرف إلا بعد رحلات الفضاء.

22 ـ الإشارة إلى أن المرور من خلال السماء لا بد وأن يكون عن طريق فتح أبواب فيها، وإلى أن الحركة في السماء تسير في خطوط متعرجة، وإلى ضخامة أبعاد السماء، وإلى الظلمة الكاملة للكون، ورقة طبقة النهار في نصف الأرض المواجه للشمس وهو ما أثبتته رحلات الفضاء منذ منتصف الخمسينيات من القرن العشرين.

23 ـ الإشارة إلى بعض ظواهر الإضاءة الليلية التي تشاهد في المناطق القطبية للأرض اليوم، وإلى أنها كانت سائدة لكل الأرض عند بدء خلقها لأن نطق الحماية المختلفة في غلافها الغازي لم تكن قد اكتملت بعد، وهي حقيقة لم يتوصل إليها العلم التجريبي بعد،

وقد استنتجتها من الآية الثانية عشرة في سورة الإسراء، وكل الملاحظات المتوفرة تشير إلى تأكيد ذلك ودعمه.

24 ـ الإشارة إلى معجزة كل من الشمس وضحاها.

25 ـ التأكيد على حقيقة متابعة القمر للشمس في عملية شروقه وغروبه.

26 ـ الإشارة إلى حقيقة أن طبقة النهار المحيطة بنصف الكرة الأرضية المواجه للشمس هي التي تجلي لنا هذا النجم وليس العكس كما كان سائداً إلى ما قبل رحلات الفضاء، وذلك لأن غالبية الموجات الكهرومغناطيسية المنطلقة من إشعاع الشمس هي موجات لا ترى، وأن الحزمة الصغيرة منها والتي يمكن لعين الإنسان أن تراها تصدر من الشمس وهي مفككة إلى أطيافها المتعددة ولا يتم جمعها في نور النهار الأبيض إلا بعد تشتت أطيافها وتردد انعكاساتها على هباءات الغبار، وجزيئات بخار الماء والهواء والتي تنتشر بكثافة تسمح بذلك في الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض.

27 ـ الإشارة إلى أن كلاً من ليل الأرض، وظلمة السماء تغشى الشمس، فإذا جن ليل الأرض التقت ظلمته بظلمة السماء فلا ترى الشمس. وحتى في وضح النهار ترى الشمس خارج نطاق طبقة النهار على هيئة قرص أزرق في صفحة سوداء.

28 ـ التمييز القاطع بين كل من الضياء والنور، والأول يصدر من جسم ملتهب بذاته، والثاني ينتج عن انعكاس الضوء من فوق سطح معتم غير مضيء.

29 ـ إثبات منازل القمر في دورته الشهرية حول الأرض.

30 ـ تشبيه انشقاق ضوء الصبح عن ظلمة الليل بفلق البذرة أو النواة عن النبتة المنبثقة من داخلها عند إنباتها، وإلى أن الله (تعالى) قد جعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً للزمن.

31 ـ إثبات انشقاق القمر كإحدى المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ.

32 ـ إثبات البينية الفاصلة للسمٰوات عن الأرض مما يؤكد مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون، وهو ما لم يستطع العلم المكتسب إثباته بعد، ولن يستطيعه أبداً لمحدودية قدرات الإنسان.

33 ـ الإشارة إلى الإمساك بالسماء بأجرامها المختلفة ومادتها ومختلف صور الطاقة فيها من أن تقع على الأرض فتفنيها، وذلك بقدرة الله البالغة، وفي ذلك إشارة إلى القوى المختلفة التي أودعها الله (ﷻ) في الكون.

34 ـ التأكيد على أن الشمس والقمر مسخران لخدمة الحياة على الأرض لأجل مسمى، ونهاية محتومة لا يعلمها إلا الله (تعالى)، وقد أثبتت الدراسات المتأخرة أن الشمس

تفقد من كتلتها على هيئة طاقة ما يقدر بحوالي 4.6 مليون طن في كل ثانية، مما يؤكد على حقيقة أنها إلى زوال، وأن القمر يبتعد عن الأرض بمعدل ثلاث سنتيمترات في كل سنة مما يؤكد على حتمية ابتلاع الشمس له، وكلاهما من حقائق الآخرة التي لن تتم بهذه السنن الدنيوية ولكن بأمر من الله (تعالى) لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة والله (تعالى)، أعلم بها، وهو (سبحانه) القائل: ﴿. . . ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾. (الأعراف: 187)

وقد بدأنا بهذا العدد من آيات السماء، وبعض الظواهر المرتبطة بها لتنوع ما فيها من حقائق كونية جاءت واضحة جلية، وضوح الشمس في رابعة النهار؛ أما باقي آيات السماء فسوف نستكمل استعراضها في كتاب قادم إن شاء الله (تعالى).

وبمثل هذه الإشارات القرآنية إلى السماء، وما فيها من حق، جاء في كتاب الله أكثر من ألف وأربعمائة آية صريحة بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتصف هذه الآيات أعداداً أخرى من حقائق الكون بجماداته، وأحيائه، وظواهره وسنن الله الحاكمة له. وهذه الآيات جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في هذا الكون، والشاهدة للخالق (ﷻ) بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

وتأتي هذه الآيات كذلك في مقام الاستدلال على أن الإله الخالق، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد الذي لا شبيه له من خلقه، ولا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، والمنزه عن الصاحبة والولد، هذا الإله قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة بعث ذلك الخلق من جديد. وكانت قضية البعث هي حجة الجاحدين الضالين من الكفار والمشركين، والحائرين التائهين من المتشككين عبر التاريخ.

وتبقى هذه الإشارات الكونية في كتاب الله خطاباً لأهل عصرنا ـ عصر التقدم العلمي والتقني المذهل الذي نعيشه اليوم ـ والذي فتن أهله بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، تبقى لهم هذه الإشارات أدلة مادية ملموسة شاهدة على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية فقال (عزّ من قائل): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: 9). وطمأن ربنا (تبارك وتعالى) النبي الخاتم الذي تلقاه ﷺ بأنه (تعالى) هو الذي تعهد بجمع آيات القرآن الكريم، بنفس لغة الوحي التي أنزل بها (اللغة العربية) فجمعه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وآية آية، وسورة سورة، بنفس ترتيب السور في المصحف الشريف، وتعهد ربنا (تبارك وتعالى) بحفظ تلاوته

الصحيحة على ألسن عباده المؤمنين، وأن يوضح لمن يشاء من عباده بيان آياته، ودلالاتها، وما فيها من معجزات في كل كلمة من كلماته، وكل حرف من حروفه، وكل آي من آياته، لأنه كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولذلك قال ربنا (تبارك وتعالى) مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ الذي كان يجهد نفسه الشريفة في متابعة الوحي، قال له ربه (تبارك اسمه): ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ **(القيامة: 16 ـ 19).**

من هنا كانت ضرورة الاهتمام بالآيات الكونية في كتاب الله، ومحاولة تفسيرها بالحقائق العلمية المتوفرة اليوم، لأن هذه الآيات لا يمكن فهمها فهماً كاملاً في إطار اللغة وحدها ـ على ضرورة اللغة وأهميتها ـ والقرآن الكريم أنزل لنا لنفهمه، ولنعمل بأوامر الله فيه، ونجتنب نواهيه، حتى نحقق وجودنا في هذه الحياة الدنيا بنجاح، وتحقق النجاة في الآخرة من النار، والفوز بالجنة إن شاء الله (تعالى).

وفي فهم الدلالة العلمية للآية القرآنية الكريمة إثبات لسبق القرآن العظيم بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون التي لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون عديدة من بعد تنزله، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا الحق غير الله الخالق (ﷻ). وما أحوج المسلمين إلى إثبات ذلك لكل ذي بصيرة في زمن الفتن التي يعيشها عالم اليوم، والذي يهاجم فيه الإسلام والمسلمون من كل جاهل به وبهم، أو حاقد عليه وعليهم، لأن المسلمين قصروا ـ في قرون التخلف الأخيرة التي عاشوها ـ تقصيراً كبيراً في التبليغ عن الله (ﷻ) وعن رسوله ﷺ الذي قال: «**بلغوا عني ولو آية**[1] **فرب مبلَّغ أوعى من سامع**»[2].

وإثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون قبل أن يصل إليها علم الإنسان بقرون يعرف باسم «الإعجاز العلمي» للقرآن الكريم، بمعنى أن النص القرآني الذي يقرر حقيقة لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولم يكن ممكناً للناس في هذا الوقت أن يعرفوها لأسباب كثيرة، ثم جاء العلم بعد عدد من القرون المتطاولة وبمجاهدة العديد من العلماء ليؤكد صحة ما جاء بالنص القرآني فإن ذلك مما يشهد للنص القرآني بالإعجاز العلمي. كذلك فإنه يمكن بالبحث في بعض الإشارات الكونية في كتاب الله أن يتوصل المسلمون إلى الكشف عن عدد من القضايا التي لا تزال غامضة أمام العلم، كما يمكن الارتقاء ببعض النظريات العلمية إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله أو

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3461) والترمذي في (الحديث: 2669) وأبو داود في (الحديث: 3516).
(2) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2657).

في حديث صحيح منسوب إلى رسول الله ﷺ.

كما يمكن بالتنسيق بين الأفراد والهيئات المختلفة المهتمة بهذه القضية، ووضع الضوابط المتشددة للتعامل معها، والدعوة إلى تدريس مقررات في هذه القضية بمختلف مراحل التعليم، ووضع المناهج المناسبة لكل مرحلة من تلك المراحل التعليمية، وتشجيع البحث العلمي في تحقيق الإشارات الكونية في الكتاب والسنة على مستوى الدرجات العلمية المختلفة وبعدها، ونشر نتائج هذه البحوث في الدوريات العلمية المعتبرة، والدعوة إلى عقد المؤتمرات المحلية والعالمية لقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، والعمل على إصدار ونشر الدوريات التي تهتم بتلك القضية، ثم العمل على إعادة تفسير الآيات الكونية في القرآن والسنة في ضوء الحقائق العلمية المتوفرة، وتصحيح ذلك في ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، ونشر نتائج تلك الجهود من أجل إيجاد قواعد صحيحة لدعوة إسلامية راشدة بلغة العصر وأسلوبه، وأن نحيد هذا الحجم الرهيب من الكراهية العنصرية البغيضة التي يشنها غلاة الصهاينة المجرمين، وغلاة الضالين من النصارى والمشركين ضد الإسلام والمسلمين دون أن يتعرفوا على حقيقة هذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا (تبارك وتعالى) من عباده ديناً سواه.

وقد تجسدت كراهية الكفرة والمشركين والملحدين الضالين للإسلام والمسلمين في احتلال نفايات من نفايات الأمم، وحثالات من حثالات الشعوب لأرض فلسطين المباركة، بمؤامرة دولية قادتها بريطانيا الكافرة وشاركت فيها كل قوى الشر في العالم، فأغرقوا أرض فلسطين في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار بغير أدنى حق. كما تجسدت هذه الكراهية في الغزو الأنجلو أمريكي الصهيوني/ الصليبي لأرض كل من أفغانستان المسلمة والعراق الشقيق دون وجه حق، وتجسدت في إغراق مساحات شاسعة من أراضي المسلمين في بحار من الدماء والدمار والخراب كما حدث ولا يزال يحدث في بلاد البلقان، وفي أرض الشيشان، وفي كل من كشمير وأراكان، وجنوب كل من الفلبين والسودان، وفي كل من نيجيريا وليبيريا والصومال، وذلك بسبب تقصيرنا في التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ، وإذا أدرك حكامنا ذلك فاهتموا واهتممنا معهم بحسن التبليغ بالإسلام العظيم فلعل الله (سبحانه وتعالى) أن يرفع عن أمتنا هذه الابتلاءات وأن يوصل دين الله الخاتم إلى كل بيت حجر، ومدر، ووبر، كما بشر بذلك المصطفى ﷺ، وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

Works cited

- Adams, P.J., **The Moon,** Natural Environment Research Connicl, Institute of Geological Sciences (London, 1968).
- Allan Sandage, **The Hubble Atlas of Galaxies** (Washington, DC: Carnegie Institution of Washington, 1961). publication No. 618.
- Bart J. Bok and priscilla F. Bok, **The Milky Way, 5th ed. (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981).**
- Bevan M. French, **The Moon Book** (New York Penguin, 1977).
- Bradley W. Carroll & Dale A. Ostlie, **An Introduction to Modern Astrophysics** (Addison Wesley Publishing Co., 1996).
- Cecilia Payne-Gaposchkin, **Stars and Clusters** (Cambridge, MA: Harvard University press, 1979).
- Charles A. Whitney, **The Discovery of Our Galaxy** (New York: Alfred A. Knopf, 1971).
- Carl Sagan, **Pale Blue Dot: A Vision of the Human Future In Space** (Headline Book Publishing, London, 1995).
- Charles & Ray Eames, **Powers of Ten, A Flipbook** (Eames Office, Box 268, Venice, CA90294. 2000).
- Charles A. Whitney, **Whitney's Star Finder, 3rh ed. (New York: Alfred A. Knopf, Inc., 1981).**
- Clark R. Chapman, **Planets of Rock and Ice: From Mercury to the Moon of Saturn** (New York: Charles Scribner's Sons, 1982).
- David A. Allen, Infrared, **The New Astronomy** (New York: John Wiley & Sons, 1975).
- David D. Morrison and Jane Samz, **Voyages to Jupiter** (NASA SP 439, 1980).
- David Levy, **Observing Variable Stars** (Cambridge Univ. Press, 1989).
- David Malin and Paul Murdin, **Colours of the Stars** (Cambridge Univ. Press, 1984).
- David Morrison and Tobias Owen, **The Planetary System** (Addison-Wesley, 1988).
- Donald A. Cooke, **The Life and Death of Stars** (New York: Crown, 1985).
- Donald Goldsmith and Tobias Owen, **The Search for Life in the Universe** (Menlo Park, CA: Benjamin/Cummings, 1980).

- Donald H. Menzel and Jay M. Pasachoff, **A field Guide to the stars and Planets,** 2nd ed. (Boston: Houghton Mifflin co. 1983).
- Donat Wentzel, The **Restless Sun** (Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 1989).
- Edward Harrison, **Marks of the Universe** (New York: Macmillan, 1985). Fred Espenak, **Fifty Year Canon of Lunar Eclipses:** 1868-2035 (NASA Ref. Pub. 1216, 1989).
- Fred Espenak, **Fifty Year Canon of Solar Exlipses** (NASA Ref. Pub. 1178, Rev. 1987).
- Fred L. Whipple, **Orbiting the Sun: Planets and Satellites of the Solar System,** Enlarged edition of Earth, Moon and Planets (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981).
- Fred L. Whipple, **The Mystery of Comets** (Washington, DC. Smithsonian, 1986).
- George Gamow, **One, Two, Three... Infinity** (New York: Bantam Books, 1971).
- George Greenstein, **Frozen Star** (New York: New American Library, 1985).
- Gerrit L. Verschuur, **The Invisible Universe Revealed** (New York: Springer-Verlag, 1987).
- Halton C. Arp, **Atlas of Pecular Galaxies** (Pasadena, CA: California Institute of Technology, 1966).
- Harlow Shapley, Ed., **Source Book in Astronomy 1900-1950** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1960) Reprints.
- Harold Zirin, **Astrophysics of the Sun** (Cambridge Univ. Press, 1988).
- Henry L. Shipman, **Black Holes, Quasers, and the Universe,** 2^{nd} ed. (Boston: Houghton Mifflin Co., 1980).
- J. Kelly Beatty, Brian O'Leary, and Andrew Chaikin, **The New Solar System,** 3^{rd} ed. (Cambridge, MA: Sky Publishing Corp., 1980).
- J. Trefil, **Space, Time and Infinity** (Washington, DC: Smithsonian Press, 1985).
- James B. Kaler, **Stars and Their Spectra** (Cambridge Univ. Press, 1989). OBAFGKM.
- James Elliote and Richard Kerr, **Rings** (Cambridge, MA: MIT Press, 1984).
- Jay M. Pasachoff and John R. Percy, **The Teaching of Astronomy** (Cambridge Univ. Press, 1990). The proceedings of International Astronomical Union Colloquium #150.
- Jay M. Pasachoff, **Peterson's First Guide to Astronomy** (Boston: Houghton Mifflin

Co., 1988).
- Jay M. Pasachoff, **Peterson's First Guide to the Solar System** (Boston: Houghton Mifflin Co., 1990).
- Jay M. Pasachoff, Astronopmy: **From the Earth to the Universe**, Fourth Edition (Saunders College Publishing, Philadelphia, Fort Worth, Chicago, san Francisco, Montreal, Toronto, London, Sydney, Tokyo, 1991).
- Jean Audouze and Guy Israel, eds., **The Cambridge Atlas of Astronomy,** 2ndedition. (Cambridge Univ. Press, 1988).
- John D. Barrow and Joseph silk, **The Left Hand of Creation** (New York: Basic Books, 1983).
- John D. Kraus, **Radio Astronomy,** 2nded., (Cygnus-Quasar Books, P.O. Box 85, Pawell, OH43065, 1986).
- Joseph Silk, **The Big Bang** (Freeman, 1989).
- Laurence Marschall, **The Supernova Story** (Plenum, 1988).
- Laurence H. Aller, **Atoms, Stars, and Nebulae,** Revised ed. (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971).
- Otto Struve and Velta Zebergs, **Astronomy of the Twenteith Century** (New York: Macmillan, 1962).
- Paul and Leslie Murdin, **Supernovae** (Cambridge Univ. Press, 1985).
- Paul W. Hodge, **Galaxies** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1986).
- Richard Beredzen, Richard Hart, and Daniel Seeley, **Man Discovers Galaxies** (New York: Neale Watson Academic Publication, 1976).
- Robert W.Noyes, **The Sun, Our Star** (Cambridge: MA: Harvard University Press, 1982).
- Ronald Giovanelli, **Secrets of the Sun** (Cambridge Univ Press, 1984).
- Stephen W. Hawking, **A Brief History of Time** (New York: Bantam Books, 1988).
- Steven Weinberg, the First Three Minutes (New York: Basic Books, 1977).
- Svend Laustsen, Claus Madsen, and Richard M. West, **Exploring the Sout-hern Sky: A Pictorial Atlas from the European Southern Obeservatory** (New York: Springerverlag, 1987).
- Terence Dickinson, **The Universe... And Beyond** (Revised And Expanded; Camden House Publishing, Ontario, Buffalo, New York, 1986-1993).
- Timothy Ferris, **Comming Of Age in the Milky Way** (New York: Morrow, 1988).
- Timothy Ferris, **Galaxies** (New York: Stewart, Tabori, and Chang, 1982).

- Timothy Ferris, **The Red limit,** 2nd ed. (New York: Morrow/Quill, 1983).
- W. and K. Tucker, **The Cosmic Inquirers** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1986).
- Wallace H. Tucker, **The Star Splitters: The High Energy Astronomy Observatories** (NASA SP-466).
- Wallace Tucker and Riccardo Giacconi, **The X-Ray Universe** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1985).

ثبت بالمصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم وعلومه:

1 ـ **الألوسي**: أبو الفضل شهاب الدين محمود شكري (ت 1270هـ): «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة (بدون تاريخ)؛ دار الفكر ـ بيروت (1398هـ/ 1978م)؛ دار إحياء التراث العربي/ الحلبي/ مصر (ط 4) 1405هـ/ 1985م.

2 ـ **ابن أبي الإصبع، العدواني المصري**: «بديع القرآن» ـ القاهرة (1377هـ/ 1957م).

3 ـ **ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد بن حزم الظاهري**: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني، المطابع الأميرية ـ القاهرة (1397هـ/ 1977م).

4 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد**: «المقدمة» ـ القاهرة (1322هـ/ 1904م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1419هـ/ 1998م)؛ دار الشعب ـ القاهرة بتحقيق د. علي عباد الواحد وافي (بدون تاريخ).

5 ـ «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» ـ بيروت (1379هـ/ 1959م) ـ (1381هـ/ 1961م).

6 ـ **ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت 224هـ)**: «فضائل القرآن»؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1411هـ/ 1991م).

7 ـ **ابن عاشور، محمد الطاهر**: تفسير «التحرير والتنوير»، الدار التونسية للنشر ـ تونس (1391هـ/ 1971م)، (1404هـ/ 1984م).

8 ـ **ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت 543)**: «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ـ (1331هـ/ 1912م).

9 ـ **ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت 546هـ)**: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ـ الدوحة) (1398هـ/ 1978م)؛ دار الكتب العلمية (1413هـ/ 1993م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

10 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774هـ)**: «تفسير القرآن العظيم» (4 أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة (ط 2)، (1373هـ/ 1954م).

11 ـ «فضائل القرآن» ـ مطبعة المنار ـ (القاهرة 1327هـ/ 1909م).

12 ـ **أبو حيان الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن يوسف**: «تفسير البحر المحيط» ـ مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ـ (1328هـ/ 1910م)، دار الفكر ـ بيروت (طـ 2) (1403هـ/ 1983م).
13 ـ **إمام، محمد سعيد**: «حديث الإسلام عن الأشجار» المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر ـ (1400هـ/ 1980م).
14 ـ **أبو السعود، محمد بن محمد العماري**: تفسير أبي السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة ـ (1275هـ/ 1858م).
15 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ)**: «إعجاز القرآن» ـ تحقيق أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة 1349هـ/ 1930م)؛ ومصطفى الحلبي (1398هـ/ 1978م)، وعالم الكتب ـ بيروت (1408هـ/ 1988م).
16 ـ **البغوي، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوي المسمى «معالم التنزيل» ـ تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة ـ بيروت (1406هـ/ 1986م).
17 ـ **البقاعي، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة (طـ 2)، (1413هـ/ 1992م)، دار الكتب العلمية ـ بيروت (1415هـ/ 1994م).
18 ـ **بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن)**: «الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية، وبيانية»، دار المعارف (1393هـ/ 1973م)، الطبعة الثانية (1404هـ/ 1984م)، الطبعة الثالثة (1407هـ/ 1987م).
19 ـ «التفسير البياني للقرآن الكريم» (في جزأين) ـ دار المعارف ـ القاهرة (1382هـ/ 1962م).
20 ـ **البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي**: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية ـ القاهرة (1305هـ/ 1910م).
21 ـ **البيومي، محمد رجب**: «البيان القرآني» ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة (1421هـ/ 2001م).
22 ـ **التجيبي، أبو يحيى محمد بن صمادح**: «مختصر تفسير الإمام الطبري» ـ دار الفجر الإسلامي ـ دمشق (1422هـ/ 2001م).
23 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجي ـ القاهرة؛ دار الرفاعي بالرياض (1403هـ/ 1983م).
24 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471هـ)**: «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي ـ القاهرة (ط 2)، مطبعة المنار ـ القاهرة (1331هـ/ 1912م)، أعيدت طباعته بالاتفاق بين مكتبتي الخانجي والأسرة بالاشتراك

مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (1420هـ/ 2000م).

25 ـ «الرسالة الشافية في إعجاز القرن» نشرت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411هـ/ 1991م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

26 ـ **الجسر، نديم**: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة (1389هـ/ 1969م). منشورات المكتب الإسلامي ـ بيروت (الطبعة الأولى: 1380هـ/ 1961م).

27 ـ **جوهري، طنطاوي (ت 1359هـ/ 1940م)**: «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) ـ (في 26 جزءاً، 13 مجلداً) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ (1340هـ/ 1920م) (الطبعة الثانية: شوال 1350هـ/ 1931م).

28 ـ **حوى، سعيد**: «الأساس في التفسير» ـ دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (1405هـ/ 1985م).

29 ـ **الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي**: تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل في معاني التنزيل» وبهامشه تفسير البغوي (في 7 أجزاء)، المطبعة الأميرية ـ القاهرة (1231/ 1232هـ) الموافق (1815/ 1816م). أعاد طباعته كلٌّ من دار المعرفة، ودار الفكر ـ بيروت.

30 ـ **الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت 388هـ)**: «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (1411هـ/ 1991م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

31 ـ **دراز، محمد عبد الله**: «النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن»، القاهرة (1376هـ/ 1957م).

32 ـ **الذهبي، محمد حسين**: «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة (الطبعة الثانية: 1396هـ/ 1976م).

33 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606هـ)**: تفسير الرازي أو التفسير الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (في 8 مجلدات)، المطبعة البهية ـ القاهرة (1307هـ/ 1321هـ) الموافق (1889م/ 1903م)، أعادت طباعته كلٌّ من دار الكتب العلمية ـ طهران (1411هـ/ 1990م)، ودار الفكر ـ بيروت (1415هـ/ 1995م).

34 ـ **الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر ـ (الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (1384هـ/ 1964م).

35 ـ **الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت 503هـ)**: «معجم

مفردات ألفاظ القرآن الكريم» ـ تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي (1392هـ/ 1972م).

36 ـ **رضا، محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» ـ دار المنار/ القاهرة (1373هـ/ 1953م)، دار المعرفة ـ بيروت (1414هـ/ 1994م).

37 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386هـ)**: «النكت في إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411هـ/ 1991م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

38 ـ **الزرقاني، محمد بن عبد العظيم (ت 1367هـ)**: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (في جزأين) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (1362هـ/ 1943م).

39 ـ **الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت 794هـ)**: «البرهان في علوم القرآن» ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (في أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة، (1376هـ/ 1957م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة ـ بيروت (1391هـ/ 1972م).

40 ـ **الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» ـ (في أربعة أجزاء) ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1354هـ/ 1935م)، (1367هـ/ 1948م)، (1393هـ/ 1972م).

41 ـ **السعدي، عبد الرحمن بن ناصر**: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (1398هـ/ 1978م).

42 ـ **سعيد، عبد الستار فتح الله**: «المدخل إلى التفسير الموضوعي»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: 1411هـ/ 1991م).

43 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن كمال الدين ـ أبي بكر ـ الأسيوطي أو السيوطي (ت 911هـ)**: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (في ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1314هـ/ 1896م)، دار الفكر ـ بيروت (1403هـ/ 1983م).

44 ـ **السيوطي (ت 911 هـ)**، «الإتقان في علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: 1360هـ/ 1941م)، مصطفى الحلبي (الطبعة الرابعة: 1398هـ/ 1978م)، مكتبة دار التراث ـ القاهرة (الطبعة الخامسة: 1405هـ/ 1985م).

45 ـ **شحاته، عبد الله**: «آيات الله في الكون، تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (1422هـ/ 2002م).

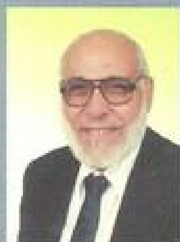
46 ـ **الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني**: «أضواء البيان في إيضاح القرآن

بالقرآن»، مطبعة المدني بالرياض (1386هـ/ 1966م).
47 ـ **الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت 1250هـ)**: «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر (1340هـ/ 1920م)، (1349هـ/ 1930م)، دار الفكر ـ بيروت (1393هـ/ 1973م)، (1403هـ/ 1983م).
48 ـ **الصابوني، محمد بن علي**: «مختصر تفسير ابن كثير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402هـ/ 1981م).
49 ـ **الصابوني**، «صفوة التفاسير»(في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402هـ/ 1981م).
50 ـ **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ)**: تفسير الطبري المعنون «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة (في 15 مجلداً)، ودار المعارف ـ القاهرة (1321هـ/ 1903)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (1358 هـ/ 1939)، (1373 هـ/ 1953م)، (1415هـ/ 1995م)، (1420هـ/ 1999م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (1388هـ/ 1968م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (1398هـ/ 1978م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (1407هـ/ 1987م).
51 ـ **عبد الباقي، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب ـ القاهرة (1364هـ/ 1945م).
52 ـ **العك، خالد عبد الرحمن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابي ـ دمشق (1388هـ/ 1968م).
53 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة (1331هـ/ 1912م)؛ دار المعرفة ـ بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1377هـ/ 1957م).
54 ـ **الغزالي (ت 505 هـ)**، «جواهر القرآن»، مكتبة الجندي ـ القاهرة (1384هـ/ 1964م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (1401هـ/ 1981م).
55 ـ **الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت 207هـ)**: «معاني القرآن»، تحقيق النجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية (1374هـ/ 1955م).
56 ـ **القاسمي، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1376هـ/ 1957م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي.
57 ـ **القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671هـ)**: تفسير القرطبي المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» (في 20 مجلداً) دار الكتب المصرية (1352هـ/ 1933م)، (1358هـ/ 1939م)، (1370هـ/ 1950م)، (1387هـ/ 1967م)؛ دار القلم ـ بيروت (1386هـ/ 1966م)؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1408هـ/ 1988م)؛ دار الفكر ـ

بيروت (1415هـ/ 1995م).
58 ـ **القطان، مناع خليل**: «مباحث في علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (1402هـ/ 1982م).
59 ـ **قطب، سيد**: «في ظلال القرآن» (في ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (1393هـ/ 1973م).
60 ـ **قطب، سيد**: «التصوير الفني في القرآن»، مكتبة وهبة ـ القاهرة (1369هـ/ 1949م).
61 ـ **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق (1404هـ/ 1984م).
62 ـ **لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع.**: «المنتخب في تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة) (1393هـ/ 1973م). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع. القاهرة.
63 ـ **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعاني القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت، الطبعة الثالثة (1407هـ/ 1987م).
64 ـ **النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد**: تفسير النسفي المعروف باسم «الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (في مجلدين) مطابع الحلبي ـ القاهرة (1344هـ/ 1925م).
65 ـ **المراغي، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغي» ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (1405هـ/ 1985م).
66 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في التفسير الموضوعي» دار القلم ـ دمشق، بيروت ـ الطبعة الأولى (1410هـ/ 1990م).
67 ـ «مباحث في إعجاز القرآن» ـ دار المنارة ـ جدة (1408هـ/ 1988م).

ثانياً: الكتب العامة:

68 ـ **بوكاي، موريس**: «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ـ دار المعارف ـ القاهرة (1398هـ/ 1978م). (Maurice Bucaille (1976): «La Bible, le Coran et la Science», Editions Seghers, 31 Rue Falguière, Paris, Cedex 15).
69 ـ **مونسما، چون كلوڤر (مشرف على التحرير)**: «الله يتجلى في عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندي، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة («The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monsma; 1958; Published by G. P. Putnam's Sons, New York).



الدكتور زغلول راغب محمد النجار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والغربية
رئيس الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها
ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة



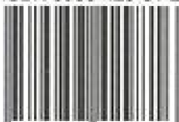
للطباعة والنشر

هاتف 834301 - 834332 - 858830(01) فاكس 836614(01)

ص.ب 11/7876 بيروت ـ لبنان ـ البريد الإلكتروني e.mail: info@marefah.com

http://www.marefah.com

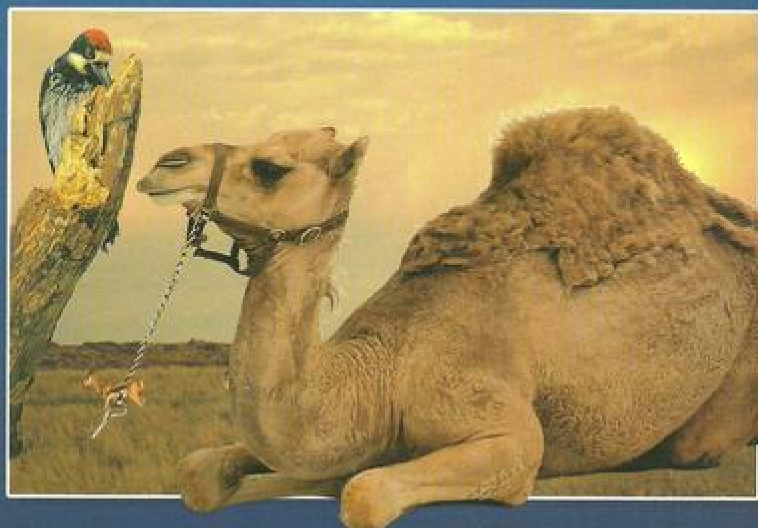
ISBN 9953-429-81-2



الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الحيوان في القرآن الكريم



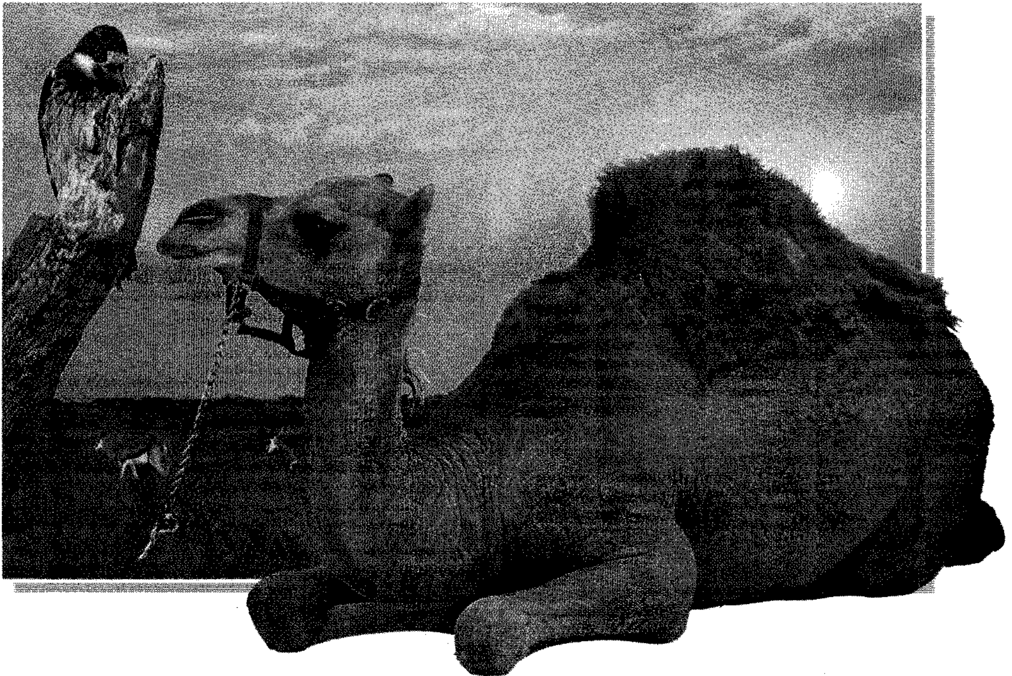
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار
الحيوان في القرآن الكريم
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الحيوان في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-85-016-X

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

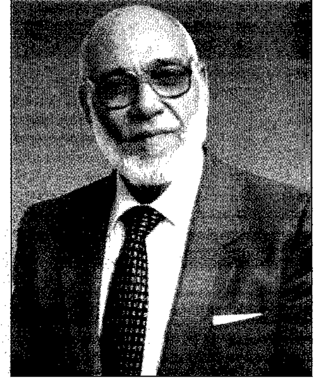


DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

جسر المطار - شارع البرجاوي - ص.ب: ٧٨٧٦ - هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٣٠ - فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت - لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858830, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com E.mail: info@marefah.com

بسم الله الرحمن الرحيم



الأستاذ الدكتور زغلول راغب محمد النجار

- ❖ أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- ❖ رئيس لجنة الإعجاز العلمي بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ج.م.ع.
- ❖ زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.

ولد الدكتور زغلول النجار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربيّة في 17 نوفمبر عام 1933م.

- ❖ تعلم القرآن الكريم منذ الصغر على يد والده.
- ❖ تخرج من جامعة القاهرة عام 1955 حاصلاً على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، فمنحته الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.
- ❖ حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز/ بريطانيا عام 1963م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث.
- ❖ عمل بشركة صحاري للبترول، المركز القومي للبحوث بالقاهرة، ومناجم الفوسفات بوادي النيل، ومناجم الذهب بالبرامية ـ صحراء مصر الشرقية، وبمشروع الفحم بشبه جزيرة سيناء، وبكل من جامعات عين الشمس، الملك سعود، ويلز، الكويت، قطر، والملك فهد للبترول والمعادن وعمل أستاذاً بجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجيليس بالولايات المتحدة الأميركية، كما عمل مديراً لمعهد ماركفيلد للدراسات العليا ببريطانيا.

- حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي 1970م، وعلى درجة الأستاذية عام 1972م.
- له أكثر من 150 بحثاً منشوراً وأكثر من خمسة وعشرين كتاباً.
- أشرف على أكثر من خمس وأربعين رسالة علمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية، وعضو هيئة تحرير عدد من الدوريات العلمية.
- زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.
- شارك في العديد من المؤتمرات العربية والإسلامية الدولية.
- عضو هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.
- مستشار في شؤون التعليم العالي في المعهد العربي للتنمية.
- عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامية- مكة المكرمة وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام - لندن - بريطانيا.
- له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في صفحة كاملة صدر منه حتى الآن أكثر من مائتي مقال.

الفهرس

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد النبي والرسول الأمين الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فأسأل الله ـ تعالى ـ أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة من الجنة، وأن يجزي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين خير ما جازى به عباده الصالحين إن ربي لا يخلف الميعاد.

وبعد: ففي أي حديث عن القرآن الكريم لا بد لنا من التأكيد على أنه الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ محفوظاً حفظاً كاملاً بحفظ الله وتحقيقاً لوعده الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۞﴾ «سورة الحجر، الآية: 9». وكان المصطفى ﷺ يجهد نفسه الشريفة في متابعة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى لا يتفلّت منه حرف واحد فنزل الوحي الكريم مؤكداً له أن الله ـ تعالى ـ قد تعهد بجمع القران الكريم كما أنزل، وبنفس ترتيب المصحف الشريف، وحفظه في صدر رسول الله ﷺ وعلى لسانه، وفي صدور الحفاظ من بعده وعلى ألسنتهم إلى يوم الدين، وأنه ـ تبارك وتعالى ـ قد تعهّد ببيان معانيه لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ ولمن يشاء من صالحي عباده إلى قيام الساعة فقال ربنا ـ تبارك اسمه ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۞﴾ «سورة القيامة، الآيات: 16 ـ 19».

وهذه العهود من رب العالمين لم تقطع لرسالة سابقة أبداً، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد أوكل حِفْظ تلك الرسالات السابقة لأتباعها فضيَّعوها. وقد أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد بعث لهداية البشرية مائة وعشرين ألف نبي، وأنه ـ تعالى ـ تخير من بين هذا العدد الكبير من الأنبياء ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، ولا يوجد بين أيدي الناس اليوم من وحي السماء سوى القرآن الكريم وأحاديث الرسول الخاتم ﷺ.

فقد روى الإمام أحمد عن أبي ذرٍ الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال ﷺ: «**آدم**»، قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: «**نعم نبي مُكلَّم**»؛ قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «**ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً**». وفي رواية لأبي أمامة قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدد الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً**» (رواه الإمام أحمد في مسنده).

وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى:

- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ «سورة النحل، الآية: 39».

وقال ـ عز من قائل ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

«سورة فاطر، الآية: 24».

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ

- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ «سورة آل عمران، الآية: 144».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

«سورة المائدة، الآية: 75».

وقال ـ عز من قائل:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ «سورة البقرة، الآية: 87».

وقد أنزلت آيات القرآن الكريم منجَّمة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكتبت كلها عقب الوحي بكل منها مباشرة، ثم رتبت تلك الآيات في مائة وأربع عشرة سورة، وسميت السور ورتبت بتوقيف من الله ـ تعالى ـ الذي تعهد بحفظ آخر كتبه المنزّلة فحفظه حفظاً كاملاً، بنفس اللغة التي أنزل بها ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد سبحانه وتعالى بهذا الحفظ إلى ما شاء الله.

وعندما التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى كان القرآن الكريم كله مكتوباً على رقائق الجلد، وصحاف النخل، وقطع الفخار، وصالح الأحجار في عشرات النسخ التي كتبها كتّاب الوحي، ونقلها القادرون على الكتابة من صحابة رسول الله ﷺ وكان محفوظاً في صدور الألوف منهم كما أنزل: سورة سورة، وآية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً وحرفاً، وحركة حركة.

ثم تمّ جمع القرآن الكريم من مصادره الأصلية في عهد الخليفة الأولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه بأيدي كتّاب الوحي أنفسهم وتأكيد حفاظه المعاصرين.

وفي زمن الخليفة الثالث ذي النورين عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ عرف العرب الورق فجمع كتاب الوحي ليكتبوا سبعة نسخ من القرآن المجموع على عهد رسول الله ﷺ ثم على عهد أبي بكر الصديق، وأرسلت نسخة من هذه النسخ مع عدد من الحفاظ إلى كل مصر من أمصار بلاد المسلمين، فنسخ عنها كتاب المصحف الشريف الذي حوته صدور مئات الآلاف من الحفاظ المؤمنين المتقنين حتى وصلنا متواتراً كما أنزل، بلا أدنى شبهة، وكما قرأه المصطفى ﷺ. ولا تزال بعض النسخ من مصحف عثمان محفوظة في كل من طشقند، وإستنبول، والمدينة المنورة، والقاهرة، ولا تختلف في حرف واحد عن بلايين المصاحف التي خطت أو طبعت على مرّ العصور، أو سجلت على مختلف صور التسجيل.

والسبب في هذا الحفظ الدقيق للقرآن الكريم بعهد من الله ـ تعالى ـ هو قضاؤه العادل الذي قرّر فيه أنه لا يعذّب قوماً دون إنذار مسبق فقال ـ عزّ من قائل ـ:

- ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 15».

وقال ـ وهو أحكم القائلين ـ:

- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ «سورة الإسراء، الآية: 15».

وقال ـ وقوله الحق ـ:

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

«سورة المائدة، الآية: 19».

ولما كان سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين لقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ «سورة الأحزاب، الآية: 40».

أي: أنه ليس من بعده ﷺ من نبي ولا من رسول، فلو لم يحفظ القرآن الكريم هذا الحفظ الإلهي المحكم الدقيق ما بقيت لله حجة على عباده، ولو حاسبهم على أعمالهم ما تحقق الوعد الإلهي الذي قال فيه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فحفظ القرآن الكريم على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ، والتعهد الإلهي بحفظه إلى ما شاء الله ـ تعالى ـ يمثل قيام البشير والنذير بين أهل الأرض أجمعين إلى قيام الساعة، ويحقق العدل الإلهي الذي فرضه الحق ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته العلية بألا يعذّب عبداً من عباده دون إنذار كامل، ولذلك قال ـ تبارك وتعالى ـ بعد اكتمال تنزل القرآن الكريم:

- ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...﴾

«سورة المائدة، الآية: 3»

وقال ـ عز من قائل ـ في وصف القرآن الكريم:

- ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ *﴾

«سورة فصلت، الآيتان: 41 ـ 42».

وقال ـ تعالى ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *﴾

«سورة النحل، الآيتان: 43 ـ 44».

وقال له أيضاً:

- ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

«سورة النحل، الآية 89».

ومن أسباب أخذ الله ﷻ العهد على ذاته العلية بحفظ القرآن الكريم أيضاً هو ضياع جميع الرسالات السابقة التي ترك حفظها لأصحابها فضيعوها، وتعرض ما بقي من ذكريات عند بعضها للتحريف والتبديل والتغيير إلى يومنا الراهن. فبعد ضياع الألواح التي أنزلت عليها كل رسالة من تلك الرسالات السابقة، وبعد ذهاب الصالحين الذين اتبعوا هديها، بدأ الانحراف عن تعاليمها شيئاً فشيئاً وانتقل كل دين من هذه الأديان إلى سلسلة من القصص الذي ظل ينقل شفاهاً من الأجداد للأحفاد، ومن الآباء للأبناء، لعدة قرون كقصص لا علاقة له بوحي السماء، يضاف إليه وينتقص منه، ويبتدع فيه، ويزور ويحرف، ويبدل ويغير حتى حان وقت تدوينه فدونته أيدٍ غير أيدي الرسل الذين تلقوه، في لغات غير لغات الوحي الذي نزلت به، فزادته هذه الأيدي تشويهاً فوق تشويه، وتحريفاً بعد تحريف. وحينما قررت المجامع المعنية لملمة هذا التراث تم ذلك بعد الرسل الذين تلقوا الوحي بقرون طويلة، وتمّت لملمة هذا التراث الذي كتب بأقلام متعددة، في أزمنة متباعدة، وفي أماكن متفرقة فأتى خليطاً عجيباً يمثل التراث الشعبي لعشرات بل مئات الشعوب التي عاشت منذ بعثة أبينا آدم إلى ما بعد عيسى ـ على نبينا وعليهما من الله السلام .. وجاء القرآن الكريم مؤكداً تحريف أهل الكتاب لكتبهم، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ *﴾

«سورة آل عمران، الآيات: 65 ـ 71».

ويقول عز من قائل :

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ *﴾

«سورة المائدة، الآيات: 15 ـ 19».

وانطلاقاً من الفارق الكبير بين كلام الله المحفوظ بحفظه، وبين كلام البشر المزور على الله ـ تعالى ـ امتدح ربنا ـ تبارك وتعالى ـ القرآن الكريم في العديد من آياته وذلك بقوله ـ تعالى ـ:

- ﴿* الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ *﴾ «سورة البقرة، الآيتان: 1 ـ 2».

وقال مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

- ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا *﴾ «سورة النساء، الآية 166».

وقال مخاطباً إياه ﷺ أيضاً:

- ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ «سورة الأنعام، الآية:93».

وقال ـ سبحانه ـ مقرراً هذه الحقيقة:

- ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ «سورة يونس، الآية: 37».

وقال ـ وقوله الحق ـ:

- ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ «سورة الرعد، الآية: 1».

وقال ـ عز من قائل ـ:

- ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ «سورة إبراهيم، الآية: 1».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ «سورة الكهف، الآية: 1».

وقال ـ سبحانه ـ:

- ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ «سورة طه، الآيات: 1 ـ 4».

وقال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ «سورة الفرقان، الآية: 1».

وقال ـ تبارك اسمه ـ:

- ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ «سورة السجدة، الآيتان: 1 ـ 2».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ *﴾ «سورة الزمر، الآيتان: 1 ـ 2».

وقال ـ عز من قائل ـ:

- ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *﴾ «سورة فصلت، الآيات: 1 ـ 3».

وأقسم به ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو الغني عن القسم فقال:

- ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ *﴾ «سورة قٓ، الآية: 1».

وقال ـ وقوله الحق ـ:

- ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ *﴾ «سورة البروج، الآيتان: 21 ـ 22».

ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ـ في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية ـ فلا بد وأن يكون مغايراً لكلام البشر: في نظمه، ومحتواه، وإشاراته العلمية والتاريخية، والتربوية والنفسية وفي ضوابطه الإدارية والاقتصادية، وفي إنبائاته المستقبلية، وفي صموده أمام كل محاولات التحريف، وفي تحدّيه للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بقرآن مثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يتقدم عاقل فيقول: لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم. وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا *﴾ «سورة الإسراء، الآية: 88».

وقال ـ سبحانه ـ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ *﴾ «سورة هود، الآيتان: 13 ـ 14».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ «سورة البقرة، الآية: 23».

وقال ـ وقوله الحق ـ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ «سورة يونس، الآية: 38».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴾ «سورة الطور، الآيتان: 33 ـ 43».

وقد عجزت القدرات البشرية ـ ولا تزال عاجزة ـ عن أن تداني كتاب الله في روعة بيانه، وجمال نظمه، أو في كمال مضمونه، ودقة دلالاته، أو في صدق إنبائه، وسمو معانيه، أو في نبل مقاصده وعدالة تشريعه، أو في إتمام إحاطته بطبائع النفس البشرية، وقدرته على التعامل معها، وعلى هدايتها والارتقاء بها في معراج الله، أو في دقة استعراضه لمسيرة البشرية من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ أو في تحديه للجن والإنس مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله، أو في صموده أمام كل محاولات التحريف والتغيير، ومن هنا كان القول بإعجاز القرآن.

ولما كان كل نبي وكل رسول قد أوتي من المعجزات ما شهد له بصدق دعواه، ولما كانت كل هذه المعجزات مما تميز فيه أهل العصر، ولما كان القرآن الكريم هو معجزة النبي والرسول الخاتم ﷺ وكانت الميزة الرئيسية للعرب في زمانه هي الفصاحة والبلاغة وحسن البيان، فقد تصور كثير من علماء المسلمين أن إعجاز القرآن الكريم ـ بمعنى عجز البشر فرادى ومجتمعين عن الإتيان بشيء من مثله ـ متجسّد في نظمه وبلاغته وفصاحته، خاصة وأن القرآن الكريم قد أدهش فصحاء الكفار والمشركين من العرب حين سمعوه، وأذهل عقولهم، ولما لم يجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه لجأوا إلى وصفه بالشعر أو بالسحر، إقراراً بعجزهم عن الإتيان بشيء من مثله. لذلك ركزت الكثرة الكاثرة من القدامى والمعاصرين من علماء المسلمين على الإعجاز البياني، النظمي، البلاغي للقرآن الكريم،

وظنوه هو مجال التحدي الوحيد لهذا الكتاب العزيز. ومع تسليمنا بأن القرآن المجيد معجز في نظمه لأنه ليس بالشعر ولا بالنثر، ولكنه نمط فريد من الصياغة العربية لم تعرفه العرب من قبل، إلا أن النظم هو مجرد إطار لمحتوى، والمحتوى أهم من الإطار. ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية: **العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات.** واستعراض كل قضية من هذه القضايا بشيء من الموضوعية والحيدة يؤكد إعجاز القرآن الكريم، ويشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهّد بذلك الحفظ ما شاء الله ﷻ ليبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى قيام الساعة بأنه كلام رب العالمين.

والقرآن الكريم الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هداية للخلق أجمعين إلى يوم الدين لا يمكن أن ينحصر إعجازه في لغته فقط، والتي لا يدرك إعجازها إلا العرب، وحتى عرب اليوم ـ في جملتهم ـ فقد فقدوا الحس اللغوي الذي تميز به أسلافهم فما عادوا يتذوقون ذلك، إلا القليل من علماء اللغة منهم.

ولما كان التحدي بالقرآن الكريم للإنس والجن متظاهرين هو تحد مستمر قائم إلى يوم الدين، فلا بد وأن يكون في القرآن الكريم من صور الإعجاز ما يتجاوز حدود اللغة. وقد دفع ذلك عدداً من علماء القرآن الكريم إلى البحث في **الإعجاز العقدي، الإعجاز التعبدي، الإعجاز الأخلاقي والإعجاز التشريعي** للقرآن الكريم.

ويعلم ربنا بعلمه المحيط أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى قدر من المعرفة بالكون ومكوناته وبسنن الله الحاكمة له لم يصل إليه جيل من البشر من قبل. فيغير بما حقق منذ إنجازات علمية وتقنية، وينسى حقيقة رسالته في هذه الحياة: عبداً لله يعبده ـ تعالى ـ بما أمر، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها، وينسى الدين، والموت، والبعث، والحساب، والخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً. خاصة وأن هذه الأصول قد اهترأت اهتراءً شديداً في معتقدات غير المسلمين، مما دفع الغالبية الساحقة من علمائهم إلى إنكارها، والسخرية منها. ويصف القرآن الكريم هذا الموقف بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ

حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ «سورة الأنعام، الآية 44». وفي ظل الركض وراء الكشوف العلمية، خاصة وأن العلم في الغرب قد انطلق من منطلقات مادية بحتة، منكرة أو متجاهلة كل ما هو فوق المادة، وفي ظل سيادة معتقدات من صناعة البشر بعد أن فقدت أغلب أمم الأرض صلتها بوحي السماء، أصبح الحوار الديني يدور بالناس في حلقات مفرغة خاصة مع رجال الدين الذي يحرص كل واحد منهم على منصبه وما يوفوه له من منافع مادية ومعنوية. ولكي يقيم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الحجة على أهل عصرنا باللغة التي يفهمونها أبقى لنا في محكم كتابه أكثر من ألف آية قرآنية كريمة تتحدث عن الكون وبعض مكوناته وظواهره بدقة علمية بالغة لم تصل العلوم المكتسبة، إلى فهم شيء منها إلا في القرنين الماضيين. وهذا السبق بالإشارة إلى كمٍ هائلٍ من حقائق الكون قبل أن يصل إليه علم الإنسان بأكثر من عشرة قرون كاملة هو ما نسميه **بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم** وهي اللغة الميسرة لجميع أهل عصرنا لفهم فضل الإسلام العظيم على غيره من المعتقدات، وفَضْل القرآن الكريم على غيره من الكتب ـ أياً كانت لغة المخاطب.

والحقيقة الواقعة هي أن هذه الآيات لم ترد في كتاب الله ـ تعالى ـ من قبيل الإخبار العلمي المباشر، لأن الكسب المعرفي في مجال الكون ومكوناته وظواهره قد ترك لاجتهاد الناس جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، أولاً لمحدودية القدرات البشرية، وثانياً للطبيعة التراكمية للمعرفة في هذه المجالات.

والسياق القرآني للآيات الكونية في كتاب الله يؤكد مجيئها في مقام الشهادة لله الخالق ﷻ بطلاقة القدرة على الخلق، ومن ثم الشهادة للخالق بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وقد خلق كل شيء فيه ـ من اللبنات الأولية للمادة، إلى الإنسان ـ من في زوجية واضحة حتى يبقى الخالق ـ في علاه ـ متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالمغايرة الكاملة للمخلوقين.

وتأتي الآيات الكونية في كتاب الله للشهادة كذلك على إمكانية البعث، لأن الخالق ﷻ كما أبدع الخلق بعلمه وحكمته وقدرته فهو قادر على إفناء خلقه وعلى بعثه ـ أي على إعادة خلقه ـ من جديد.

والإشارات الكونية في القرآن الكريم صاغها الخالق ﷻ صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع ما توافر لهم من علم بالكون ومكوناته وظواهره،

وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وليس هذا لغير كلام الله.

ولا يمكن لعاقل أن يتخيَّل مصدراً لهذا الكم من الحقائق العلمية في القرآن الكريم غير الله الخالق ﷻ وذلك لأنه كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمّي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي فترة زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشيء من هذه الحقائق العلمية التي لم يبدأ الإنسان في الوصول إلى معرفة شيء عنها إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

والآيات الكونية في كتاب الله لا يمكن فهمها فهماً دقيقاً في إطار اللغة العربية وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ، بل لا بد من توظيف الحقائق العلمية المتاحة لحسن فهم دلالة الآية الكونية فيما يعرف باسم «التفسير العلمي للقرآن الكريم»، ولإثبات سبق تلك الآيات بالإشارة إلى هذه الحقيقة العلمية، وهو ما يعرف باسم «الإعجاز العلمي للقرآن الكريم»، وهو مجال تخصصي على أعلى مستويات التخصص لا يقف على دلالته، إلّا الراسخون في العلم ـ كل في حقل تخصصه ـ وهذه الحقيقة يشير إليها القرآن الكريم في العديد من آياته التي تتحدث عن مستقبل الاستكشاف في دلالات القرآن الكريم ومنها قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ «سورة الأنعام، الآية: 67».
- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ «سورة النمل، الآية: 93».
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝﴾ «سورة ص، الآيتان: 87 ـ 88».
- ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ «سورة الحج، الآية: 54».
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ «سورة سبإ، الآية: 6».

- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ «سورة فصلت، الآية: 53».

لذلك فإننا نجد العديد من آيات القرآن الكريم يحضنا فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حضًا على تدبر آيات هذا الكتاب العزيز ومنها قوله ـ تعالى ـ:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ «سورة النساء، الآية: 82».
- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 104».
- ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «سورة ص، الآية: 29».
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ «سورة محمد، الآية: 24».

وفي ذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: **«أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»**[1].

والمقصود بإعراب القرآن معرفة دلالة آياته، والمقصود بالتماس غرائبه هو معرفة ما غمض من معانيه على قارئيه. ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الآيات الكونية التي تتسع دلالة معانيها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تلك المجالات جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وذلك لندرة تلك المعارف في زمن الوحي، ولطبيعتها التراكمية مع الزمن بمعنى ازدياد المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وزيادة تعرفه على سنن الله الحاكمة له.

أما الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة إلى العبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة، يفهمها البدوي في قلب الصحراء كما يفهمها أكثر الناس علماً، وهذا جانب آخر من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهي جوانب لا تحصى ولا تعد.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (الحديث: 2/ 439) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (الحديث: 7/ 163).

وعلى الرغم من هذا الوضوح الذي لا لبس فيه فقد اختلف الأصوليون، وعلماء التفسير، والمتخصصون في علوم القرآن الكريم في القديم والحديث حول توظيف المعارف المكتسبة في مجال العلوم الكونية في تفسير الآيات الكونية في كتاب الله تحت مسمى «التفسير العلمي للقرآن الكريم» وفي إثبات سبق هذا الكتاب العزيز لكل المعارف المكتسبة وذلك بأكثر من عشرة قرون كاملة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون وهو ما يعرف «بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم».

وكان السبب الرئيسي في هذا الاختلاف هو مرض الازدواجية في التعليم ـ الذي انتقل إلينا من الغرب ـ والذي بسببه تمت المفاصلة الكاملة بين تعليم ديني/ إنساني/ نظري لم يعد له أدنى اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم المكتسبة، وتعليم مدني/ علمي/ تقني أو نظري/ إنساني/ أو فني لا يعطي للدارس القدر الأدنى من الثقافة الدينية التي تمكنه من فهم أصول دينه، وتعينه على القيام بعبادته قياماً صحيحاً، وعلى فهم رسالته في هذه الحياة: عبداً لله ـ تعالى ـ يعبده بما أمر ويجتهد في القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها، وإقامة عدل الله فيها، وبالتبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونتيجة لهذه المفاصلة تخوف كل من الأصوليين وعلماء التفسير والمتخصصون في مختلف علوم القرآن ـ من جهة ـ، والمتخصصون في العلوم البحتة والتطبيقية وغيرها من التخصصات المدنية ـ من جهة أخرى ـ من الخوض في هذا الأمر الذي بدا غريباً على كل منهم، على الرغم من أن أعداداً من علماء المسلمين قد خاضوا هذه الدراسة من قبل القرن الهجري الثالث وإلى اليوم وأثبتوا جدواها إذا تقيد القائمون بالدراسة بالضوابط الشرعية والعلمية الصحيحة للتعامل مع هذه القضية الحساسة.

وكان من قدامى المؤيدين لقضية التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم كل من الجاحظ (ت 255 هـ)، وابن حزم الأندلسي (ت 450 هـ)، وأبو حامد الغزالي (ت 505 هـ)، والفخر الرازي (ت 606 هـ)، وغيرهم.

وازداد عدد المؤيدين للقضية في العصور المتأخرة زيادة مطردة وكان منهم: طنطاوي جوهري (ت 1359هـ)، عبد الرحمٰن الكواكبي، مصطفى صادق الرافعي، محمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب، عبد الله فكري، عبد العزيز سيد الأهل، أحمد مختار الغازي، حنفي

أحمد، محمد أحمد الغمراوي، محمد محمود ابراهيم، ابراهيم محمد فرج، محمد جمال الدين الفندي، عبد الرزاق نوفل، يوسف مروة، عبد الغني الخطيب، أحمد محمود سليمان، عبد الله شحاته، مصطفى محمود، يوسف السويدي، محمد رشاد الطوبي، أحمد مجاهد، أحمد عبد الوهاب ومنصور حسب النبي، وجيش من المعاصرين الذين يقصر المقام عن الإحاطة بأسمائهم.

وكان من المعارضين للقضية في القديم الإمام الشاطبي، وفي الحديث بشيء من التحفظ كل من الإمامين محمد مصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، والشيخ أمين الخولي وزوجته عائشة عبد الرحمٰن (بنت الشاطئ)، وجيش من المعاصرين أيضاً يقصر المقام عن حصرهم.

وفي كتابين سابقين بعنوان «**السماء في القرآن الكريم**»، «**الأرض في القرآن الكريم**»، قمت باستعراض آراء كل من المتوسعين في هذا الأمر والمضيقين والمعتدلين، كما قمت بالرد على المعارضين للقضية، ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا، ولكن أرى من الضروري إيجاز ضوابط التعامل مع القضية، ومبررات الاهتمام بها.

قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

أولاً: تعريف لفظة «الإعجاز»

(الإعجاز) لفظة مشتقة من إثبات (العجز) وهو الضعف وعدم القدرة. يقال: (عجز) عن كذا: أي لم يقدر عليه، فهو (عاجز) عن الإتيان به، وجمعه (عواجز). يقال: (عجز) (عجزاً) و(عجوزاً)، و(عجزانا) و(معجزاً) بفتح الجيم وكسرها، و(معجزة) أيضاً بفتح الجيم وكسرها، ولذا يقال: رجل (عجز) بضم الجيم وكسرها أي (عاجز)، وامرأة (عاجزة) و(عاجز)، كما يقال: (عجزه) الشيء أو الأمر بمعنى فاته ولم يقدر عليه.

ويقال: (عجزه) و(أعجزه) و(استعجزه) أي صيَّره (عاجزاً) نسبة إلى (العجز)، وتستعار لمعنى التثبيط أي بمعنى ثبطه.

كما يقال: (عاجزه) (معاجزة) أي سابقه مسابقة، و(تعجز) أي ادعى (العجز)؛ و(الأعجز) هو العظيم العجز، ومؤنثه (العجزاء)؛ و(المعجاز) هو الدائم العجز، و(المعجوز) الذي (أعجز).

ويقال: (عجز) (عجوزاً) أي صار (عجوزاً)، و(العجوز) وجمعه (عجز) و(عجائز) المرأة المُسنّة.

و(العجز) وجمعه (أعجاز) مؤخر الشيء أو الجسم (وتكتب بفتح الجيم وكسرها وضمها وبفتح العين وضم الجيم أو كسرها)، و(عجز) بيت الشعر هو الشطر الثاني منه، و(أعجاز) النخل هي أصولها.

ويقال: (أعجز) في الكلام أي أدى لمعانيه بأبلغ الأساليب. و(الإعجاز) بمعنى السبق والفوت مصدر من (أعجز).

وعلى ذلك تعرف (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي لعجز البشر عن الإتيان بمثله.

«و(إعجاز) القرآن الكريم» معناه (عجز) الخلق أجمعين ـ إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين ـ عن أن يأتوا بشيء من مثله، وذلك لأن القرآن الكريم كتاب معجز في بيانه ونظمه، معجز في فصاحته وبلاغة أسلوبه، معجز في كمال رسالته ودقة مضمونه، وقد أنزل للناس كافة بدين الإسلام الذي علّمه ربنا ﷻ لأبينا آدم ـ عليه السلام ـ لحظة خلقه وكرّر إنزاله على عدد من أنبيائه ورسله وأكمله وأتمّه وحفظه في هذه الرسالة الخاتمة المنزّلة على خاتم الأنبياء والمُرسلين ـ صلى الله وسلّم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ. وعلى ذلك فالقرآن الكريم معجز في مجموع العقائد التي يدعو إلى الإيمان بها، وفي مجموع العبادات التي يأمر بأدائها، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، وفي كل تشريع من تشريعاته الناطقة بدقتها، وعدلها، وشموليتها وتفاصيلها!!

والقرآن الكريم معجز كذلك في استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها، معجز في أسلوبه التربوي الفريد، وخطابه النفسي السوي، وفي إنبائه الدقيق بالغيب القريب والبعيد، وفي إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى الإنسان وخلقه ومراحله الجنينية.

وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز في كتاب الله هو المقصود بتعبير «الإعجاز العلمي للقرآن الكريم» ويقصد به سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكن العلوم المكتسبة من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم؛ يزيد طولها على عشرة قرون كاملة في أقل تقدير لها. ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه الحقائق العلمية مصدراً غير الله الخالق ﷻ حيث لم يكن ممكناً لأي من البشر إدراكها في زمن الوحي ولا لقرون عديدة من بعده، وفي إثبات ذلك

تأكيد لأهل العلم في عصرنا أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتصديق للنبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ في نبوته ورسالته، وفي التبليغ عن ربه، والإعجاز العلمي للقرآن الكريم أسلوب فريد في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية الذي نعيشه.

ثانياً: تأصيل التعامل مع قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

من الاستعراض السابق يتَّضح لنا بجلاء أن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه هو من مواقف التحدي للناس كافة ـ مسلمين وغير مسلمين ـ بأن كتاباً أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أُمّي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأُمّيين، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يحوي من حقائق الكون ما لم تتوصل إليه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد مجاهدات طويلة قام بها عشرات الآلاف من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل وتركز في القرنين الماضيين بصفة خاصة، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا العلم الحق في ذلك الزمن البعيد غير الله الخالق ﷻ الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ فحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ليبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين. والمتحدى لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة، وعلى ذلك فلا يجوز توظيف شيء في هذا المجال غير الحقائق القطعية الثابتة حتى يبلغ التحدي مداه في مجال إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

وهذا الالتزام واجب حتمي في التعرّض للآيات الكونية في كتاب الله باستثناء آيات الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان. وذلك لأن عملية الخلق عملية غيبية غيبة مطلقة لم يشهدها أحد من الإنس ولذلك فلا تخضع للإدراك المباشر من الإنسان، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝﴾ «سورة الكهف، الآية: 51».

ولكن القرآن الكريم الذي جاء بهذه الآية الكريمة يأمرنا ربنا ﷻ فيه بضرورة التأمل في قضية الخلق ـ وهي قضية غير مشاهدة من قبل الإنسان ـ وذلك في عدد غير قليل من

الآيات التي منها قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ «سورة العنكبوت، الآيتان: 19 ـ 20».

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *﴾

«سورة آل عمران، الآيتان: 190 ـ 191».

والجمع بين هذه الآيات الكريمة ـ وأمثالها كثير في كتاب الله ـ يؤكد على أن خلق كل من السمٰوات والأرض وخلق الحياة وخلق الإنسان قد تمّ في غيبة كاملة من الوعي الإنساني، ولكن الله من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان ـ بإمكانياته المحدودة ـ على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق، إلا أن هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى مقام الحقيقة أبداً؛ لأن الحقيقة العلمية لا بد أن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه ـ على الرغم من محدودية ذلك الحس وهذا الإدراك ـ ومن هنا فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق ـ بأبعادها الثلاثة ـ مرحلة التنظير أبداً، وتتعدّد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها: هل هم من المؤمنين أو من الكفار أو المشركين أو المتشككين؟ وهل هم من السعداء في حياتهم أم من التعساء والأشقياء والمهمومين؟ وهل هم من الأسوياء أم من المنحرفين؟.. وفي هذا الخضم العميق يبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة؛ لا لأن العلوم المكتسبة قد أثبتت ذلك، ولكن لمجرد وجود إشارة إلى تلك الحقيقة في كتاب الله الخالق أو في سنّة رسوله ﷺ. ونحن في هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم أو بسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ولم ننتصر بالعلم لأي منهما.

أما باقي الآيات الكونية الكريمة التي تعرض لها القرآن الكريم ـ وأغلبها من الآيات الوصفية ـ فلا يجوز أن يوظف في الاستشهاد على سبقها العلمي إلا الحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها، وبالضوابط المنهجية التالية:

1 ـ حسن فهم النص القرآني الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة وأساليب التعبير فيها؛ وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربي مبين. على ألا يخرج باللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية، وعند الضرورة القصوى؛ ومن هنا فلا يمكن إثبات الإعجاز العلمي بتأويل النص القرآني أبداً.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ ـ إن وجدا ـ وفهم الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل من آيات هذا الكتاب الحكيم.

3 ـ فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعهيهم إلى الزمن الحاضر.

4 ـ جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة إن وجدت.

5 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، ورد بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك.

6 ـ مراعاة السياق القرآني للآية المتعلقة بإحدى القضايا الكونية دون اجتزاء للنص عما قبله وعما بعده مع التسليم الكامل بأن من طبيعة القرآن الكريم إيراد العديد من الحقائق المتتابعة كما هو الحال في آيات القسم والتي قد لا تكون بالضرورة مرتبطة ببعضها البعض.

7 ـ مراعاة قاعدة: أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

8 ـ عدم التكلف أو محاولة ليّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ وذلك لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم من ذلك؛ لأنه كلام الله الخالق وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق الكامل الشامل المحيط بكل علم آخر، وهو العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

9 ـ عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة كالذات الإلٰهية، والروح، والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار وغيرها، والتسليم بالنصوص الواردة فيها تسليماً إيمانياً كاملاً انطلاقاً من الإيمان بكتاب الله تعالى وبسنّة رسوله ﷺ، ويقيناً راسخاً بعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيبيات المطلقة.

10 ـ التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وأنها لا تحتاج هذه السنن الدنيوية الرتيبة، فهي كما وصفها ربنا ﷻ أمر فجائي منه بـ «كُنْ فَيَكونُ»، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ «سورة الأعراف، الآية: 187».

وعلى الرغم من ذلك فإن الله ﷻ من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء أعداداً كثيرة من الشواهد الحية التي تقطع بفناء الكون وبحتمية الآخرة، وأن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن تفسر بمحاولة التعرف على موعد الآخرة؛ لأن الآخرة من الغيبيات المطلقة التي لا يعملها إلا الله؛ ولأنها لن تتم بالسنن الكونية المشاهدة في هذه الحياة.

11 ـ توظيف الحقائق العلمية القاطعة في الاستشهاد على الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية في الموضوع الواحد أو في عدد من الموضوعات المتكاملة؛ وذلك في جميع الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث، التي يمكن فيها توظيف الآية أو الآيات القرآنية الكريمة أو الحديث النبوي الصحيح للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة مع التأكيد على أن الحقيقة العلمية لا تبطل مع الزمن ولكنها قد تزداد تفصيلاً وتوضيحاً باجتهاد العلماء جيلاً بعد جيل وأن المعرفة العلمية إذا وصلت إلى مستوى الحقيقة أو القانون فهي لا تتغير ولكن تزداد إيضاحاً، وذلك لأن حقائق العلوم المكتسبة جزئية، وقوانينه كذلك جزئية لأنها تعبّر عن حقيقة محدّدة. ومن طبيعة العلوم المكتسبة النمو المطرد مع استمرار مجاهدة العلماء في توضيح ما سبقت معرفته دون إلغاؤه.

12 ـ ضرورة التمييز بين المحقق لدلالة النص القرآني والناقل له مع مراعاة التخصص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية الكريمة (التحقيق العلمي)؛ لأن هذا مجال تخصصي على أعلى مراحل التخصص لا يجوز أن يخوض فيه كل خائض كما لا يمكن لفرد واحد أن يغطي كل جوانب الإعجاز العلمي في أكثر من ألف آية قرآنية صريحة بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالاتها من الصراحة؛ خاصة وأن هذه الآيات تغطي مساحة هائلة من العلوم المكتسبة تمتد من علم الأجنة إلى علم الفلك وما بينهما من مختلف مجالات العلوم والمعارف الإنسانية، إلا إذا ردَّ كل قضية إلى محققيها من المتخصصين بوضوح وإثبات كاملين.

13 ـ التأكيد على أن ما توصل إليه المحقق العلمي في فهم دلالة الآية الكريمة ليس منتهى الفهم لها؛ لأن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

14 ـ أن النص القرآني الكريم قد ينطبق على حقيقة علمية ثابتة، ولكن ذلك لا ينفي مجازاً مقصوداً؛ كما أن الآية القرآنية الكريمة قد تأتي في مقام التشبيه أو المجاز وتبقى صياغة الآية دقيقة دقة فائقة من الناحية العلمية وإن لم تكن تلك الناحية مقصودة لذاتها.

15 ـ الأخذ في الاعتبار إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة للوصول إلى حقيقة كونية لم يتوصل العلم المكتسب إلى شيء منها بعد انطلاقاً من الإيمان الكامل بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق في صفائه الربّاني وإشراقاته النورانية، وأنه كلّه حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

16 ـ عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة تلك الآيات الكونية في حدود المعلومات التي كانت متاحة لهم في زمانهم؛ وذلك لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها. وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

17 ـ التفريق بين قضيتي الإعجاز العلمي و«التفسير العلمي» للقرآن الكريم، فالإعجاز العلمي يقصد به «إثبات سبق القرآن الكريم» بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون

أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون. وفي زمن لم يكن لأي من البشر إمكانية الوصول إلى تلك الحقيقة عن طريق العلوم المكتسبة أبداً. وأما التفسير فهو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيها المفسر فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، والمعول عليه في ذلك هو نيته. وهنا يجب التأكيد على أن الخطأ في التفسير ينسحب على المفسر، ولا يمسّ جلال القرآن الكريم.

18 ـ اليقين في صحة كل ما جاء بالقرآن المجيد؛ لأنه كلام الله الخالق، المحفوظ بحفظ الله على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى أن يشاء الله، والمحفوظ في نفس لغة وحيه فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وعلى ذلك فلا يمكن لحقيقة كونية أن تصطدم بحق قرآني أبداً، فإذا حدث وبدا شيء من ذلك فلا بد من وجود خلل ما؛ إما في صياغة الحقيقة العلمية أو في فهم الدارس للنص القرآني الكريم.

19 ـ يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك والتجرّد له من كل غاية، وتذكر قول المصطفى ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

من مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يلي:

أولاً: إن القران الكريم أنزل إلينا لنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً في إطار اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ انطلاقاً من شمول الدلالة القرآنية، ومن كلية المعرفة التي لا تتجزأ.

ثانياً: إن الدعوة بالإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة هي الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية ـ الذي فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ونبذ أغلب أهل الأرض الدين وراء ظهورهم ونسوه وأنكروا الخلق والخالق،

---

(1) أخرجه الترمذي الحديث: (2950 ـ 2951)، والإمام أحمد الحديث: (1/ 233).

كما أنكروا البعث والحساب والجنّة والنار وغير ذلك من الغيبيات؛ لأن هذه الأصول قد شوّهت في معتقداتهم تشويهاً كبيراً ولم تعد مقنعة لهم، أو دفعت بالبعض منهم إلى التعصب الأعمى دون أدنى بصيرة، والانطلاق بهذه العصبية العمياء لمحاربة الحق وأهله متمثلاً في الإسلام العظيم كما تكامل وحفظ في بعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ، وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين الإسلامي الحنيف قدر إقناع الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنّة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

ثالثاً: الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع، ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه تحاول الحضارة المادية الغالبة ـ بما فيها من كفر بواح أو شرك صراح ـ أن تفرض من قيمها الهابطة، وأخلاقياتها الساقطة، ومادياتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظف في ذلك كل ما توفر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها ـ وليس احتلال شراذم الصهاينة المجرمين لأرض فلسطين، وتجبرهم في تعذيب وإذلال أهل الأرض الأصليين، ومحاولات القضاء عليهم، وليس الغزو الغربي الأنجلو أمريكي الجائر لكل من أفغانستان والعراق، ولا جرائم كل من الصرب والكروات على أرض البلقان، ولا الدعوات الباطلة بحتمية الصراع بين الحضارات، أو تبرير العديد من الجرائم والاعتداءات على حقوق الإنسان وعلى أراضي دول أعضاء في هيئة الأمم تحت مظلة الدعوة الباطلة المسماة بالحرب ضد الإرهاب، أو الدعاوى الكاذبة تحت مسمى الخوف من الإسلام إلا حلقات في هذا المخطط الشيطاني اللعين. وقد أسقط الأعداء من أيدي المسلمين في هذه الأيام كل الوسائل المادية التي يمكن لهم الدفاع بها عن دمائهم وأعراضهم وأراضيهم وممتلكاتهم ودينهم ومقدساتهم، وذلك في سلسلة طويلة من المؤامرات التي بدأت باحتلال أراضي غالبية الدول المسلمة، والعمل على تغريبها، ثم السعي الدؤوب من أجل إلغاء دولة الخلافة الإسلامية بعد إنهاكها وإضعافها حتى تم إسقاطها في الربع الأول من القرن العشرين (سنة 1924م)، ثم العمل على تمزيق الأمة إلى أكثر من خمس وخمسين دولة ودويلة، ونهب كل خيراتها وثرواتها، وتنصيب أنماط من الحكومات المتعارضة عليها للحيلولة دون إمكانية توحدها، بل العمل الدؤوب من أجل المزيد من تفتيتها في زمن التكتلات البشرية الكبيرة الذي نعيشه، ثم غرس كيان صهيوني غريب من حثالات الأمم

ونفايات الشعوب في قلب الأمة لإفسادها، وإثارة الحروب والقلاقل والفتن بين أبنائها، ولترسيخ العداوات بين الأشقاء للحيلولة دون توحدهم وإشاعة الأفكار الهدامة والسلوكيات المنحطة والأخلاقيات المنهارة لإخراج الأمة عن دينها وأخلاقها وقيمها وأعرافها والعمل على المزيد من تغريبها لتيسير الهيمنة عليها.

ولم يبق بأيدي أمة الإسلام من طوق للنجاة في زمن الغربة الذي نعيشه إلا المحافظة على دينها؛ هذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه وهو وسيلة الدفاع الوحيدة التي بقيت بين أيدي مسلمي اليوم لحماية أنفسهم ولإنقاذ غيرهم من الأمم الضائعة من حولهم، والتي تهدد العالم كله بالدمار.

رابعاً: إن كلا من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس في كافة وسائل الإعلام بغير حق. والقائمون على تلك الوسائل من غلاة الصهاينة وغلاة الصليبيين، وأعداء الدين، ومن الشواذ جنسياً وسلوكياً والداعين إلى ذلك علناً بلا أدنى حياء أو خجل، هؤلاء جميعاً ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن الكريم، ونبوة خاتم المرسلين ﷺ أو ينكرون الدين كلية في وقاحة سافرة. وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمي لكتاب الله ولسنّة رسوله ﷺ بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة البالغة والمنطق السوي.

خامساً: إن العالم اليوم يتحرك في اتجاه كارثة كبرى، وقودها تطور علمي وتقني مذهل، يطغي أصحابه ويغريهم بإفناء وإبادة غيرهم في غيبة الوعي الديني الصحيح والالتزام الأخلاقي والسلوكي اللذين يرعيان حق الله وحقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها. والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما في كتاب الله تعالى وفي سنّة رسوله ﷺ من إعجاز علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. يقنع المنبهرين بالعلم ومعطياته في زمن تفجر المعارف العلمية الذي نعيشه كما قد لا يقنعهم أي أسلوب آخر.

سادساً: إننا ـ معشر المسلمين ـ قصرنا كثيراً في التبليغ عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وقد كلفنا بالتبليغ عنهما. ونحن اليوم نجني ثمار ذلك التقصير كله: حروباً طاحنة على كل أرض إسلامية من فلسطين والعراق إلى البلقان، ومنها إلى أرض الشيشان، وكشمير، وأفغانستان، وجنوب الفلبين، وأراكان، والصومال، والسودان وغيرها من أراضي المسلمين

الغارقة في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، وإنا لله وإنا إليه راجعون. هذا بالإضافة إلى حصار لأكثر من دولة مسلمة، ومصادرة لبلايين الدولارات من أموال المسلمين واحتلال عسكري مقنع لكل دولة من دول الجزيرة العربية وغالبية بلاد الشام والعراق، وأفغانستان، ومن الأراضي المغربية سبتة ومليلة وجزيرة ليلى، والعديد من الجزر الآسيوية.

وفي غمرة هذه المؤامرات الغربية لا ننسى مطاردة المسلمين في كل مكان من أماكن العالم ومحاولة اعتقالهم وتجريمهم وإذلالهم، وتشويه سمعتهم بوصفهم بالإرهاب تارة وبالتخلف أخرى، وليس ببعيد عن الأذهان ما يجري للمسلمين اليوم من إذلال وامتهان وتجاوزات لكل حقوق الإنسان في معتقلات وسجون كل من الولايات المتحدة والبحر الكاريبي من مثل (معتقل جوانتانامو) والعراق من مثل (سجن أبو غريب وأفغانستان وغيرها).

سابعاً: إن في إثارة قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم، وسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاضاً لعقول المسلمين واستثارة للتفكير الإبداعي فيها وتشجيعاً على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلفت فيها الأمة مؤخراً تخلفاً كبيراً، في الوقت الذي تقدمت فيه دول العالم الصناعية تقدماً مذهلاً حتى أصبح كم المعارف المتاح يتضاعف كل خمس سنوات، وتتجدّد تقنياته مرّة كل ثلاث سنوات تقريباً، وبذلك أخذت الهوة الفاصلة بيننا وبينهم في مجال العلوم والتقنية تزداد اتساعاً وعمقاً يوماً بعد يوم، وأصبحت مخاطر ذلك علينا تتضاعف مع تزايد تلك الهوة عمقاً واتساعاً.

هذا بالإضافة إلى حاجة العلوم المكتسبة اليوم إلى التأصيل الإسلامي الدقيق إنصافاً لكل من العلم والدين، وذلك لأن هذه المعارف لم تنطلق في بدء عصر النهضة إلا بعد معارك شرسة بين الكنيسة وطلاب العلم، وقد انتهت هذه المعارك بهزيمة منكرة للكنيسة فانطلقت العلوم المكتسبة كلها في الغرب من منطلقات مادية بحتة، منكرة أو متجاهلة كل القضايا الغيبية، فأنكرت الدين والروح والأخلاق والقيم، وتقدمت علمياً وتقنياً تقدماً مذهلاً دون فهم لرسالة الإنسان في هذه الحياة مما يشكل واحدة من أكبر الكوارث التي تواجه عالم اليوم، وصدق الله العظيم إذ يقول:

● ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝﴾

«سورة البينة، الآية: 1»

ثامناً: إن القرآن الكريم نزل للناس كافة: عربهم وعجمهم وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝﴾ «سورة إبراهيم، الآية: 52». ومعنى الآية الكريمة أن القرآن الكريم بلاغ لكل الناس في كل مكان وزمان. ويؤكد ربنا ـ عز من قائل ـ هذا المعنى الكريم بقوله الجليل مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ آمراً إياه بأمره:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝﴾

«سورة الأنعام، الآية 19».

وإذا كان جانب الإعجاز اللغوي ميسراً للعرب كي يفهموه فلا بد وأن يكون في القرآن الكريم من الجوانب الأخرى الميسرة لغير العرب كي يؤمنوا به: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ «سورة الأنفال، الآية 42».

الحيوان في القرآن الكريم

جاءت الإشارة إلى عدد من حيوانات الأرض في أكثر من مائة وأربعين آية من آيات القرآن الكريم، وسمى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ستة من سور هذا الكتاب العزيز بأسماء عدد من الحيوانات الأرضية المعروفة لنا وهي:

البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، والفيل.

وجاء ذكر الحيوانات بصفة عامة تحت مسمى الدواب أربع مرات، وتحت مسمى دابة (14) مرة، كما جاءت لفظة (الحيوان) بمعنى الحياة مرّة واحدة.

وجاء ذكر مجموعة من أهم مجموعات الحيوان للإنسان تحت مسمى (**النعم**) مرة واحدة، وتحت مسمى (**الأنعام**) ستة وعشرين (26) مرة، وجاءت بلفظة (**أنعاماً**) مرتين، و(**أنعامكم**) ثلاث مرات، و(**أنعامهم**) مرة واحدة وذلك بمجموع (33) مرة للأنعام. وتشمل الأنعام الإبل، والبقر والغنم والماعز وما شابهها من الحيوانات اللبونة المجترة ذات الحافر وآكلة العشب. كذلك جاء ذكر (**الإبل**) مرتين، وجاءت لفظة (**بعير**) مرتين، وجاء ذكر (**بقرة**) أربع مرات، و(**البقر**) ثلاث مرات، و(**بقرات**) مرتين بمجموع تسع مرات للبقر، وجاءت لفظة (**عجل**) عشر مرات. وجاء ذكر (**نعجة**) و(**نعاج**) أربع مرات، ومرة خامسة بتعبير (**ذبح**) عظيم.

وورد ذكر (**الفيل**) في كتاب الله مرة واحدة. و(**الجياد**) مرة واحدة، ولكن جاء ذكر (**الخيل**) أربع مرات.

وجاء ذكر (**الحمير**) و(**الحمار**) و(**الحُمُر**) و(**حمارك**) خمس مرات و(**البغال**) وهي نتاج خليط بين الحصان والحمار ذكرت مرة واحدة.

وذكر (**الذئب**) في القرآن الكريم ثلاث مرات، و(**السبع**) مرة واحدة وإن قيل أن تعبير (**قسورة**) تعني الأسد أيضاً. وجاء ذكر (**الكلب**) خمس مرات، و(**الخنزير**) أربع مرات،

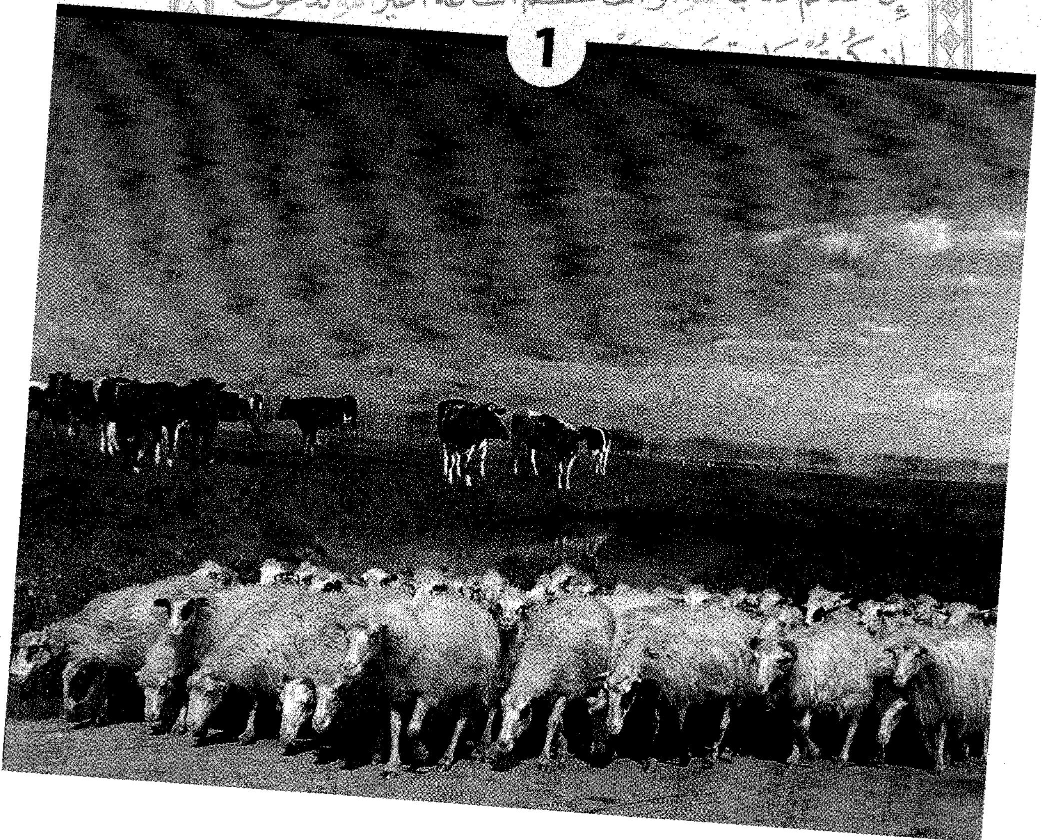
و(**الحوت**) خمس مرات ثلاثة منها بمعنى الأسماك، ومرتين بمعنى (**الحيتان**). وجا ذكر (**الزواحف**) بالإشارة إلى طريقة مشيها مرّة واحدة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، كما جاءت الإشارة إلى الحيّة في آية واحدة (طه: 20). وجاء ذكر (**الضفادع**) ممثلة للبرمائيات مرة واحدة.

أما (**الطيور**) فقد جمعت في عشرين من المواضع، منها ستة عشر جاءت بلفظة (**الطير**)، ثلاث مرات بلفظة (**طيراً**)، ومرة واحدة بلفظة (**طائر**) وجاء ذكر (**الغراب**) مرتين، وذكر (**الهدهد**) مرة واحدة وذكر (**السلوى أو الحجل**) ثلاث مرات.

و(**الحشرات**) ذكرت في كتاب الله ستة عشر مرة، فقد جاء ذكر (**النحل**) مرة واحدة، و(**النمل**) ثلاث مرات، و(**العنكبوت**) مرتين، و(**الذباب**) مرتين، و(**البعوضة**) مرة واحد، و(**الجراد**) مرتين، و(**الفراش**) مرة واحدة، و(**المن**) ثلاث مرات، و(**القمل**) مرة واحدة.

وقد جاءت هذه الإشارات في حوالي مائة وأربعين آية من آيات القرآن الكريم، عالجنا منها في هذا الكتاب أكثر من ثلاثين آية، وسوف نعرض لباقي الإشارات في مؤلف قادم إن شاء الله تعالى...

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ٣٦ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٧ وَمَا مِن
دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم
مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ٣٨
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٩ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ
إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم...﴾

«سورة الأنعام، الآية: 38».

1



هذه الآية الكريمة جاءت في الربع الأول من سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية وعدد آياتها (165) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها، ولوجود إشارة إلى قاعدة من أهم قواعد تصنيف صور الحياة المختلفة في إحدى آياتها.

وكطبيعة القرآن المكي ركزت السورة الكريمة على العقيدة الإسلامية، وإن جاءت بها بعض التشريعات، وبعض الإشارات إلى عدد من الأمم البائدة، وإلى موقف كل أمة من تلك الأمم من رسولها الذي أرسله الله ـ تعالى ـ لهدايتها، وإلى عدم اعتبار كل منها بمن أهلك من الأمم السابقة عليهم جزاء عصيانهم لأوامر ربهم، ولا بما حل بهم من عقاب تأكيداً على غفلة الناس وقصر أنظارهم.

وفي التأكيد على وحدة الدين السماوي من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ جاءت الإشارة إلى عدد من أنبياء الله ورسله الذين بعثوا جميعاً بالإسلام.

كذلك استشهدت السورة الكريمة بعدد من الآيات الكونية للتدليل على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق الكون، وعلى قدرته سبحانه وتعالى على البعث، وللتدليل كذلك على وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ لأن ذلك كله من صفات المخلوقين، والله ـ تعالى ـ منزه عن صفات خلقه. وتبقى هذه الإشارات الكونية ـ فوق رسالتها الأصلية ـ خطاباً لأهل عصرنا، الذين فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة؛ تقيم الحجة عليهم بالدليل العلمي القاطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

من ركائز العقيدة في سورة «الأنعام»:

1 ـ الإيمان بخالق السمٰوات والأرض وبديعهما، وفاطرهما، وقيومهما، خالق الإنسان من طين، وخالق كل شيء، وربه ومليكه، ومبدعه، وقيومه، جاعل الظلمات والنور، ومبدع الظل والحرور، إلٰهاً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وبأنه ـ تعالى ـ هو مالك الملك، ومحصي أعمال الخلق، محدد الآجال والأرزاق، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، كاشف الضر، ومنزل الخير، القاهر فوق عباده، الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمْ، السميع العليم، والغفور الرحيم، البر الودود، والباعث الشهيد، الحكيم الخبير، والغني القادر، الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، العليم بالسر والعلن وبكل ما تخفي الصدور، عالم الغيب والشهادة، فالق كل من الإصباح والحب والنوى، مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي، خير الفاصلين الذي لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، منزل الكتاب، ومجري السحاب؛ ومرسل الأنبياء والمرسلين لينذروا الناس بيوم الدين.

2 ـ الإيمان بملائكة الله، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وتتويج كل ذلك بالإيمان بالرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي والرسول الخاتم ﷺ؛ لأنها قد تكاملت فيها كل رسالات السماء السابقة، ولذلك تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظ هذه الرسالة الخاتمة لأنه ليس من بعد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من نبي ولا من رسول، وربنا ـ تبارك وتعالى ـ تعهد بعدم عذاب أحد من خلقه المكلفين بغير إنذار مسبق من رسول مرسل ورسالة سماوية محددة.

3 ـ الإيمان بعوالمِ الغيب التي أخبرنا بها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ دون الخوض فيها بغير علم؛ لأن عالم الغيب يختلف في طبيعته وسننه وقوانينه عن عالَم الشهادة الذي نعيشه.

4 ـ التسليم بحتمية الآخرة وبضرورتها، وبما فيها من بعث وحساب وجزاء وعرض أكبر أمام الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. ومن هنا تصف سورة الأنعام الحياة الدنيا بأنها لهو ولعب، وتصف الآخرة بأنها خير للذين يتقون.

5 ـ اليقين بأن من عمل سوءاً بجهالة ممن يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ثم تاب من بعد ذلك وأصلح فإن الله غفور رحيم.

6 ـ التصديق بأن الله ـ تعالى ـ يجازي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وإلى ما فوق ذلك لمن يشاء، ولا يجازي السيئة إلا بمثلها.

7 ـ الإيمان بأن الله ﷻ قد ختم وحيه بالقرآن الكريم، وبسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وأكمل لنا ديننا، وأتم علينا نعمه، ورضي لنا الإسلام ديناً، وحفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في كل آية من الآيات، وفي كل سورة من السور وفي موضع الآية من السورة، وبترتيب السور في المصحف الشريف،حتى يبقى الإسلام هادياً للبشرية كلها وحجة عليها إلى يوم الدين.

من التشريعات الإلهية في سورة «الأنعام»:

1 ـ تحريم كلٍّ من الشرك بالله، وقتل الأولاد من إملاق (أي: من فقر)، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وما أُهلّ لغير الله به، وأكل أي من الميتة، أو الدم، أو لحم الخنزير ـ إلا من اضطر غير باغ ولا عاد ـ، وتحريم الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، أو افتراء الكذب على الله، ومن ذلك الادعاء الباطل بتلقي شيء من الوحي، أو بالتظاهر بالقدرة على الإتيان بشيء من مثل القرآن الكريم.

2 ـ الأمر بالتزام صراط الله المستقيم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتقوى الله ـ تعالى ـ ومراقبته في كل الأحوال، والإحسان إلى الوالدين، ووفاء كل من الكيل والميزان بالقسط، والعدل في القول، والإخلاص في العمل، والوفاء بعهود الله كلها.

من القصص القرآني في سورة «الأنعام»:

1 ـ جاء في سورة «الأنعام» ذكر عدد من أنبياء الله ورسله الذين بعثوا قبل بعثة خاتمهم سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وهم: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب،

يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، عيسى، إلياس، اليسع، ويونس (على نبينا وعليهم من الله السلام).

2 ـ عرضت هذه السورة الكريمة لعدد من الأمم البائدة التي رفضت رسالات ربها، وجحدت آياته، وقاومت رسل الله وأنبياءه إليهم، على الرغم من علمهم بهلاك الأمم التي سبقتهم إلى هذه المعاصي.

3 ـ أكدت سورة الأنعام ـ كما أكدت أكثر من سورة غيرها من سور القرآن الكريم ـ حقيقة انحراف اليهود عن منهج الله، وكذبهم عليه جَلَّ جَلَالُهُ، فحرم الله ـ تعالى ـ عليهم كثيراً من أطايب الطعام.

4 ـ كذلك أكدت هذه السورة المباركة تكامل جميع رسالات السماء في هذا الدين الخاتم الذي بعث به النبي الخاتم ﷺ، لينذر به أهل مكة المكرمة، ومن حولها أهل الأرض جميعاً؛ وذلك لثبوت توسط هذه المدينة المباركة لليابسة بالكامل.

من الآيات الكونية في سورة «الأنعام»:

1 ـ التأكيد على قضية الخلق، وعلى أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء بالحق، وأنه على كل شيء وكيل، وعلى أن من بديع صنع الله خلق كل من السمٰوات والأرض، والظلمات والنور، والنجوم وتوابعها ـ من الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والشهب والنيازك وغيرها ـ، وخلق الإنسان من طين، وخلق السلالة البشرية كلها من نفس واحدة، وخلق ما يسكن بالليل وما يسكن بالنهار من الكائنات.

2 ـ جاءت في السورة الكريمة الإشارة إلى أن كل نوع من أنواع الحياة عبارة عن خلق يشبه خلق الإنسان في انبثاقه عن أصل واحد، وترابطه في أمة واحدة.

3 ـ الإشارة إلى أن بالكون غيبيات مطلقه لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ، وأن النوم هو صورة مصغرة للوفاة، وأن اليقظة من النوم تمثل البعث بعد الموت، وأن ظلمة الكون هي الأصل، وأن النور هو نعمة يمنّ الله ـ تعالى ـ بها على من يشاء من خلقه، وأن فلق الصبح من ظلمة الليل في كل يوم، وفلق الحب والنوى لإخراج كل من السويقة والجذير من البذرة النابتة عمليتان متشابهتان، وتشهدان لله ـ تعالى ـ

بطلاقة القدرة في إبداع الكون، وأن الليل مخصص للسكن، وأن النهار مخصص لعمارة الأرض وللجري وراء المعايش.

4 ـ استخدام ظاهرة تبادل الليل والنهار للإشارة إلى حقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وأن كلاً من الشمس والقمر يجري بنظام محكم دقيق يُمَكِّنُ الإنسان من حساب الزمن والتأريخ للأحداث.

5 ـ التأكيد على أن الحب المتراكب في النبات يخرج أصلاً من الصبغة النباتية الخضراء المعروفة باسم «اليخضور»، وأن القنوان الدانية تخرج من طلوع النخل، وأنه بإنزال الماء من السماء أخرج ربنا ـ تبارك وتعالى ـ جنات معروشات وغير معروشات من الأعناب، والنخل، والزيتون، والرمان، متشابهاً وغير متشابه، ومن الزرع المختلف أكله، وأن ثمره إذا أثمر وينعه لهو من أروع الآيات لقوم يؤمنون.

6 ـ الإشارة إلى أن التصعّد في السماء بغير وقايات حقيقية يجعل صدر الصاعد ضيقاً حرجاً.

7 ـ الإشارة إلى توسط مكة المكرمة لليابسة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، وكلها يدخل من العلوم الكونية في الصميم؛ ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية فقط من القائمة السابقة التي تشير إلى خلق كل صور الحياة في تجمعات شبيهة بالتجمعات الإنسانية في انبثاقها عن أب واحد وأم واحدة، وترابطها في أمة واحدة، كما جاء في الآية الكريمة رقم (38) من سورة الأنعام، ولكن قبل الوصول إلى ذلك لا بد لنا من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 38».

- ذكر ابن كثير - يرحمه الله تعالى - ما مختصره: «... قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة».

وقال السدي: «﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ أي خلقٌ أمثالكم....».

- وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما نختار منه قوله: «وهي حقيقة هائلة... حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات من حولهم في أمم.. لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك.. وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر، ولكن علمهم لا يزيد شيئاً على أصلها!! وإلى جانبها الحقيقة الغيبية الموصولة بها، وهي إحاطة علم الله اللدني بكل شيء، وتدبير الله لكل شيء... وهي الحقيقة التي تشهد بها تلك الحقيقة المشهودة....».

- وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن - رحمه الله رحمة واسعة - ما نقتطف منه قوله: «﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ طوائف مختلفة أمثالكم في الخلق والموت، والحاجة إلينا في الرزق والتدبير في جميع أمورها، والدلالة على كمال القدرة، وبديع الصنعة في تسخيرها وتصريفها بقدرتنا....».

- أما أصحاب المنتخب «في تفسير القرآن الكريم» - جزاهم الله خيراً - فقد ذكروا ما نصه: «وإن أقوى دليل على قدرة الله وحكمته ورحمته أنه خلق كل شيء، وليس في الأرض حيوان يدب في ظاهر الأرض وباطنها، أو طائر يطير بجناحيه في الهواء، إلا خلقها الله جماعات تماثلكم، وجعل لها خصائصها ومميزاتها ونظام حياتها، ما تركنا في الكتاب المحفوظ عندنا شيئاً إلا أثبتناه. وإن كانوا قد كذبوا، فسيحشرون مع كل الأمم للحساب يوم القيامة».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «تنتظم الكائنات الحية في مجموعات يختص كل منها بصفات تكوينية ووظيفية أو طبائع مميزة، وفي الآية الكريمة تنبيه إلى تباين صور المخلوقات وطرائق معيشتها، فكما أن الإنسان نوع له خصائصه فكذلك سائر أنواع الأحياء. وهذا ما يكشفه علم التصنيف كلما تعمقنا في دراسة نوع منها».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

يتعرف علماء الأحياء اليوم على أكثر من مليون ونصف مليون نوع من أنواع الأحياء التي تعمر مختلف البيئات المائية والأرضية والهوائية. وبالإضافة إلى ذلك تعرف علماء الأحافير على أكثر من ربع مليون نوع من أنواع الحياة البائدة، وبمعدلات الاكتشافات السنوية في هذين الميدانين يقدر العلماء أن المجموع المتوقع لأنواع الأحياء على كوكبنا الأرض قد يصل إلى نحو أربعة ملايين ونصف مليون نوع. ولمّا كان كل نوع من هذه الأنواع يمثل ببلايين الأفراد المتزامنين والمتعاقبين ـ حيث أن المدى الزمني لكل نوع من أنواع الحياة يتراوح بين نصف مليون سنة وخمسة ملايين من السنين (بمتوسط مليونين وسبعمائة وخمسين ألف سنة)، وإن أقدم أثر للحياة على الأرض يمتد إلى ثلاثة بلايين وثمانمائة مليون سنة ـ؛ فإنه يصبح من العسير تتبع كل فرد من هذه البلايين من ملايين الأنواع مهما أوتي الإنسان من علم ومهما توافر له من وسائل الإحصاء، ومن هنا كانت ضرورة التصنيف الذي أشارت إليه سورة الأنعام بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 38».

والآية الكريمة تشير إلى أن وحدة التصنيف الأساسية هي النوع الذي ينقسم إلى جماعات تضم أعداداً من هذا النوع، تعيش في منطقة معينة من مناطق الأرض ـ أمة من الأمم ـ فبنو الإنسان ينقسمون إلى أعراق مختلفة، يمثل كل عرق منها أمة من الأمم، وتنتهي هذه الأمم كلها إلى أصل واحد، وأب واحد هو آدم عليه السلام الذي وصفه ربنا ـ تبارك تعالى ـ بقوله العزيز:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ «سورة النساء، الآية: 1».

وبقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 189».

وبقوله ـ وقوله الحق ـ:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ «سورة الزمر، الآية: 6».

ويصف خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هذا الأصل الواحد لبني البشر فيقول:

«كلكم بنو آدم، وآدم من تراب»[1].

والآية الكريمة التي نحن بصددها تشير إلى أنه كما أن البشر ينقسمون إلى أعراق مختلفة، يمثل كل عرق منها بأمة من الأمم، وتنتهي أمم البشر جميعهم إلى أصل واحد، فكذلك كل نوع من أنواع الأحياء، ينقسم إلى عدد من الجماعات أو الأمم (Populations) التي تنتهي إلى أصل واحد، مما يؤكد تعدد النوع الواحد إلى جماعات أو أمم شتى، وعلى استقلالية كل نوع من أنواع الأحياء عن غيره من الأنواع، وإن كان هناك قدر من التشابه في البناء يشير إلى وحدانية الخالق ﷻ فجميع الخلق من الذرة إلى المجموعة الشمسية إلى المجرة، ومن الخلية الحية المفردة إلى جسد الإنسان كل ذلك مبني على نسق واحد، ونظام واحد في زوجية واضحة تشهد للخالق ـ تقدست أسماؤه ـ بالخالقية والألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

النوع في القرآن الكريم وفي علم التصنيف:

في محاولة للإلمام بهذه الأعداد غير النهائية من الخلق، قام علماء الأحياء بتصنيفها إلى مجموعتين رئيسيتين هما: النباتات والحيوانات على أساس من أن النباتات الرئيسية مثبتة في الأرض بواسطة جذورها، وقد أعطاها الخالق ﷻ القدرة على تصنيع غذائها بنفسها، أما الحيوانات فقد أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على الحركة الذاتية، وعلى جمع والتهام وهضم وتمثيل الغذاء الذي تحصل عليه من غيرها. وقد بقي تقسيم الكائنات الحية إلى هاتين المجموعتين الكبيرتين سائداً إلى أوائل القرن العشرين، على الرغم من اكتشاف الكثير من الكائنات الحية التي يصعب تصنيفها مع أي من النبات أو الحيوان وذلك باستخدام المجهر الذي تم بناؤه في القرن السابع عشر الميلادي، وقد كان من بين هذه المكتشفات العديد من

(1) رواه الهيثمي في «مجمع الزوائد» والبزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه.



الكائنات الدقيقة ذات الخلية الواحد التي تضم أفراداً لها شبه بالنبات، وأخرى لها شبه بالحيوان، وثالثة تضم مميزات المجموعتين معاً. وقد وضعت هذه الكائنات وحيدة الخلية في مجموعة مستقلة عرفت باسم الطلائعيات (Protista).

وباكتشاف البكتيريا اتضح افتقارها إلى التركيب الخلوي الذي يميز أفراد الممالك الثلاث الكبرى وهي: الطلائعيات، النباتات، والحيوانات، فخلية البكتيريا تفتقر إلى النواة المحددة التي تميز خلايا المجموعات الثلاث الكبرى، ويشبه البكتيريا في ذلك كائنات بسيطة تعرف باسم الطحالب الخضراء المزرقة (Blue Green Algae) وكلها كائنات وحيدة الخلية، وليس لخليتها نواة محددة بل تنتشر حاملات الوراثة فيها في سائل الخلية دون أدنى قدر من التحديد.

كذلك مع اكتشاف الفيروسات (Viruses) اتضح أن لها ما يميزها أيضاً؛ فهي تعيش متطفلة على غيرها من الكائنات، وتتكاثر بإدخال مادتها الوراثية البسيطة إلى الخلايا النباتية أو الحيوانية أو الطلائعية؛ ولما كانت المادة الوراثية في هذه الكائنات البدائية غير مترابطة بشكل محدد فإن الفيروسات تسمى أحياناً باسم المورثات (الجينات) العارية.




وعلى ذلك قسمت الأحياء في أربعة ممالك هي: البدائيات (Monera) والطلائعيات (Protista) والنباتات (Plantae) والحيوانات (Animalia)، ثم ثبت بالدراسة أن الفطريات تختلف عن الأوليات في أنها تمتص غذاءها من خلال جدرها الخلوية كالنباتات، ولكنها لا تقوم بتصنيع غذائها بنفسها كالنباتات، كما أنها لا تقوم بالتهام غذائها كالحيوانات؛ ولذلك كان لا بد من فصلها في مملكة مستقلة، وبفصلها أصبحت ممالك الحياة المعروفة لنا خمساً كما يلي:

1 - مملكة البدائيات: (Kingdom Monera) وتشمل كلاً من: الفيروسات والبكتيريا والطحالب الخضراء المزرقة، وهي غالباً وحيدة الخلية، والخلية منها ليست لها نواة محددة.

2 - مملكة الطلائعيات: (Kingdom Protista) وتشمل الأوليات وبقية الطحالب وهي وحيدة الخلية وخليتها لها نواة محددة.

3 - مملكة الفطريات أو الفطور: (Kingdom Fungi).

وتشمل كلاً من الفطريات الغروية، والفطريات الحقيقية، والفطريات الطحلبية والأشنات، وقد تكون وحيدة الخلية أو عبارة عن تجمعات خلوية، ولكل خلية من خلاياها نواة محددة. وتختلف الفطريات عن النباتات في خلوها من الصبغة الخضراء؛ ولذلك فإنها تعتمد في غذائها على غيرها من الكائنات الحية أو على المواد العضوية المتحللة، فمنها الفطريات الرميّة التي تعيش على الجيف الميتة وبقايا النباتات المتحللة ومنها الفطريات الطفيلية التي تعيش على حساب غيرها من الكائنات الحية.

4 ـ مملكة النبات: (Kingdom Plantae) وتشمل كائنات عديدة الخلايا، ولكل خلية منها نواة محددة. والخلايا متخصصة في أنسجة وأعضاء، وتحمل الصبغات النباتية التي تمكنها من القيام بعملية التمثيل الكربوني لإعداد غذائها. والخلية جدارها غير حي، والنبات غالباً مثبت بالتربة.

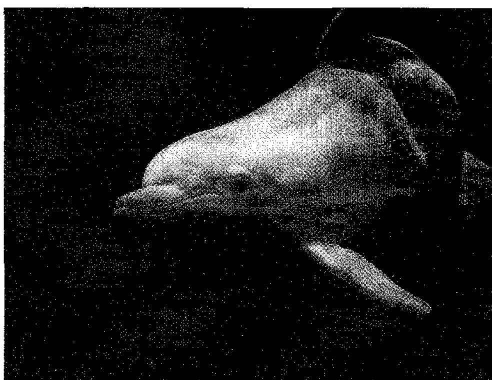
5 ـ المملكة الحيوانية: (Kingdom Animalia) وتشمل كائنات حية، عديدة الخلايا، ولكل خلية نواة محددة. وجدار حي، وهي كائنات قادرة على الحركة الذاتية والتغذي على غيرها من النباتات أو الحيوانات.

وهذا التقسيم الوضعي هو وسيلة من وسائل الحصر التي تعين دارسي الأحياء على الإلمام ولو بصورة تقريبية بهذا الكم من المخلوقات الحية الذي لا يكاد إنسان أن يحصيه، ولذلك يصفه أحد علماء الحياة البارزين في زماننا هذا وهو ريتشارد أ. جولدزبي في كتابه المعنون: «علم الأحياء» الجزء الأول، ص: 394 بقوله:

«ومع أن النظام المبني على أساس أن هناك خمس ممالك هو المفضل في هذا الكتاب إلا أنه كغيره من الأنظمة التقسيمية الأخرى لا يخرج عن كونه من صنع العقل الإنساني؛ ولهذا فهو محاولة لوضع حدود اعتباطية للطبيعة؛ ولما كانت الطبيعة تتميز بالتنوع الكبير فإن عمل تقسيمات دقيقة ومتجانسة يعتبر أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً» ([Richard A. Goldzbi (1980): Biology]).

التصنيف الحالي للكائنات الحية

في محاولة للإحاطة ببلايين البلايين من أفراد الحياة، قسمت كل مملكة من هذه الممالك الخمس للأحياء إلى عدد من القبائل (Phyla) وقسمت كل قبيلة إلى عدد من الطوائف (Classes)، كما قسمت كل طائفة إلى عدد من الرتب (Orders) وقسمت كل رتبة إلى عدد من العائلات (Families) وقسمت كل عائلة إلى عدد من الأجناس (Genera)، وقسم كل جنس إلى عدد من الأنواع (Species) وقسم كل نوع إلى عدد من الأصناف (Varieties) وقسم الصنف الواحد إلى عدد من السلالات (Strains) وتشتمل كل سلالة على العديد من الأفراد.





وزيادة في التعقيد فتح الباب لمضاعفة كل وحدة من هذه الوحدات التصنيفية إلى ثلاثة أضعافها؛ وذلك بالسماح بإضافة وحدة قبلها تسبقها المقدمة: فوق أو (Super) ووحدة بعدها؛ وذلك بتوظيف الإضافة: تحت أو (Sub) فيقال: فوق المملكة، المملكة، وتحت المملكة وهكذا بالنسبة لجميع الوحدات التصنيفية المقترحة.

وهذا كله تم في محاولة يائسة من أدعياء التطور لإلغاء حقيقة الخلق، وإنكار الخالق ﷻ ونسبة كل شيء إلى الطبيعة، ولكن الكشوف العلمية المتلاحقة ـ وفي مقدمتها علم الوراثة ـ بدأت تؤكد لنا أن الوحدة التصنيفية الحقيقية للأحياء هي النوع الذي ميزه الخالق ﷻ إلى بلايين الأفراد التي نشرها في الأرض وجمعها في عدد من الأمم أو الجماعات (Populations)، يعيش كل منها في منطقة محددة من الأرض، وتحت ظروف بيئية خاصة، وينتهي نسبها إلى أصل واحد أوجده الخالق ﷻ بعلمه وحكمته وقدرته. ويبقى النوع (Species) هو الوحدة التصنيفية الوحيدة المؤكدة في جميع التصنيفات الحديثة لكل المخلوقات الحية، وما فوق ذلك من وحدات هو محض افتراضات ظنية، تدخل فيها اعتبارات شخصية عديدة، فالشخص الذي يقوم بعملية التصنيف يختار صفات ويتجاهل أخرى من أجل تيسير عملية حصر هذا الكم الهائل من الخلق.

وعلى ذلك فإن كل نوع من أنواع الكائنات الحية يشمل مجموعة من الأمم أو الجماعات (Populations) التي تجمعها صفات خارجية، شكلية، وصفية، واحدة، وصفات تشريحية داخلية واحدة، ووظائف أعضاء واحدة، وبنية كيميائية حيوية واحدة، وصفات

وراثية أساسية واحدة، وظروف بيئية متقاربة وإن باعدت بينها المسافات الأرضية، وقدرة على التزاوج فيما بينها وإنتاج سلالة خصبة نتيجة لهذا التلاقح. وهذه الصفات تجمع بين أفراد كل أمة من هذه الأمم كما تجمع بين جميع أفراد كل أمم النوع الواحد ـ وإن قامت بين تلك الأمم بعض الفوارق الناتجة عن الاختلافات البيئية، أو العزل الجيني ـ حيث إن جميع هؤلاء الأفراد قد استلوا من شيفرة وراثية واحدة.

وعلى ذلك فإن الأفراد من نوعين مختلفين من أنواع الأحياء لا يمكن أن يتم بينهما تلاقح يؤدي إلى سلالة خصبة أبداً، وكل نوع من هذه الأنواع لا يمكن أن ينسل خارج نوعه الذي ينتسب إليه أبداً، وإنما تتباين أفراده عن بعضها البعض تبايناً قليلاً في الأمة الواحدة، أو الجماعة الواحدة من أمم هذا النوع على أساس من تنوع نصيب كل فرد من الأفراد من الميراث الجيني الذي وضعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في أصل هذا النوع من أنواع الأحياء. وقد تزيد الفروق الفردية قليلاً بين الأفراد في أمتين منفصلتين نتيجة للعزل الوراثي (الجيني) وللاختلاف في الظروف المناخية والبيئية.

وهذه الملاحظة وحدها تكفي لنفي فكرة التصنيف الرأسي لمجموعات الأحياء المبني على افتراض صلات القربى بين أفراد المملكة الواحدة من النوع أو السلالة إلى المملكة وبين الممالك كلها انتصاراً لفكرة التطور العضوي التي هزمها وحسمها العلم بمعطياته المتلاحقة، وأهمها قراءة الشيفرة الوراثية للإنسان وللعديد غيره من الكائنات الحية التي بدأ الإنسان بمحاولة تصنيفها في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي حين قام الطبيب وعالم الأحياء السويدي كارولس لينيوس (Carolus Linnaeus or Carl von Linné) بنشر كتابه المعنون: النظم الطبيعية (Systema Naturae) في سنة 1758م وذلك قبل نشر كتاب «أصل الأنواع» لتشارلس داروين (Charles Darwin) بمائة سنة، وقد نادى لينيوس في كتابه بضرورة تصنيف الأحياء وتسميتها حسب نظام وضعه باسم نظام التسمية الثنائية. وهو نظام قائم على افتراض تأصل كل أنواع الحياة ونسبتها إلى أصل واحد، ولكن الآية القرآنية التي نحن بصددها والتي يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 38»... تشير إلى أن كل نوع من أنواع الأحياء؛ بأممه وأفراده هو كيان خاص معزول عن غيره من الأفراد والأمم والأنواع، وأن كل صلات القربى المتعلقة به محصورة في أفراده، ولا تمتد إلى غيره من الأنواع، وهي حقيقة

بدأت نتائج العلوم المتلاحقة من مثل علوم الوراثة، علم الأحياء الجزيئي، علم الكيمياء الحيوية وغيرها تتحدث عنها بوضوح.

وسبقُ القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة من قبل ألف وأربعمائة من السنين لمما يؤكد أن هذا الكتاب الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى يزيد على الأربعة عشر قرناً وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، و ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 43». والصلاة والسلام على النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن العظيم من ربه ـ تعالى ـ، فحمله إلينا بأمانة كاملة في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية، وبكل ما أنزل فيه من حق ـ وهو كله حق ـ والصلاة والسلام على آل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين، وعلى كل من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.



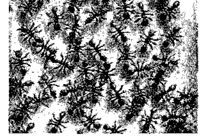
وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ
عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ**
نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ
وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ
رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 18».

2



هذه الآية الكريمة جاءت في الخُمس الأوّل من سورة «النمل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (93) بعد البسملة؛ وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى وادي النمل الذي مر به نبي الله سليمان عليه السلام وجنوده، فنطقت نملة ـ بلغتها الخاصة بها ـ محذرة رفاقها من إمكانية أن يطأهم سليمان وجنوده بأقدامهم أو بحوافر خيلهم فيحطمونهم وهم لا يشعرون؛ ولذلك أمرتهم بدخول مساكنهم. وفي هذه الواقعة من الدلالة على وجود قدر من الوعي والنطق والإدراك عند أمة النمل، وكذلك عند جميع المخلوقات وهي ما أكدته الدراسات العلمية في أواخر القرن العشرين.

وسورة «النمل» هي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية بنفس ترتيبها في المصحف الشريف وهي: الشعراء، النمل، والقصص، ويكاد منهاجها أن يكون واحداً، في استعراض قصص عدد من الأمم السابقة، والتعرف على كيفيات تعاملها مع رسالة السماء، وذلك من أجل استخلاص العبرة، والتدبر في سنن الله الواقعة بعباده دون تغير، أو تحول، أو توقف، وفي المقارنة بين مواقف مشركي قريش من خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ومواقف أعداد من الكفار والمشركين أمثالهم من رسل الله السابقين، ومواقف أعداد أخرى من اللاحقين من بعدهم من الظلمة المتجبرين على الخلق خاصة على الدعاة الصادقين إلى الله واستمرار ذلك عبر التاريخ إلى يومنا الراهن، وحتى قيام الساعة.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النمل» حول إخلاص الإيمان بالله تعالى وحده، وإخلاص العبادة له ـ سبحانه ـ وحده بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله تعالى منزه عن جميع صفات خلقه؛ ولذلك

كان توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله هو صلب رسالة السماء إلى المخلوقين من لدن أبينا آدم إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، ولذلك أيضاً تكرر في سورة «النمل» هذا السؤال التقريري، التقريعي، التوبيخي الشديد: (أإله مع الله؟) خمس مرات في سياق الاستدلال على الوحدانية المطلقة لله ـ تعالى ـ فوق جميع خلقه من خلال دراسة هذا الخلق. ويأتي الجواب في كل مرة صادعاً، قوياً، عنيفاً: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

وبالإضافة إلى التركيز على وحدانية الله ـ تعالى ـ، وتجريم وتكفير الشرك به شددت سورة النمل على قواعد أخرى من ركائز العقيدة الإسلامية، ومنها حقيقة كل من النبوة والرسالة والوحي، وحقيقة الآخرة التي استشهدت السورة الكريمة بعدد من علاماتها، والمظاهر المصاحبة لها. وأشارت إلى البعث وأهواله، والحساب ودقته، والجزاء وعدله، وأكدت حقيقة الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ، الخلاق، الرزاق، العليم، واهب النعم، ومجري الخيرات، رب هذا الكون ومليكه، صاحب الحول والطَّول والقوة المطلقة، ولا حول ولا طول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى.

وقد استهلت سورة «النمل» بالحرفين المقطعين ﴿طسٓ﴾، ومثل هذه المقطعات من حروف الهجاء التي افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم تعتبر من أسرار هذا الكتاب الخالد، وهذا السر فَوَّضَ غالب المفسرين الأمر فيه إلى الله، وحاول البعض منهم إيجاد تفسير له. ومن هؤلاء من رأى في هذه المقطعات وسائل تنبيه كالتي استخدمها العرب في مطالع أحاديثهم لاستثارة انتباه المستمعين إليهم، ومنهم من رأى فيها رموزاً إلى كلمات أو أعداد أو معان محددة أو أسماء للسور التي وردت في أوائلها، ومنهم من رأى فيها وجهاً من أوجه تحدي العرب بالقرآن الكريم، وإثبات إعجازه؛ من باب أن هذه الحروف الأربعة عشر تشير إلى بقية حروف الهجاء التي هي في متناول أيديهم، وعلى الرغم من ذلك فهم عاجزون ـ وسوف يظلون عاجزين ـ عن الإتيان بسورة من مثله.

وقد تحداهم القرآن الكريم بذلك في أكثر من موقع، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يتقدم عاقل بسورة من مثل سور القرآن الكريم. ومن المفسرين من رأى في الفواتح الهجائية

التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم معجزة للرسول الخاتم ﷺ تتمثل في نطقه بأسماء الحروف ـ وهو الأمي ـ والأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها.

ومن المفسرين من يميل إلى الجمع بين هذه الآراء جميعها، ومنهم من يدعو إلى المزيد من الاجتهاد لعل الله ـ تعالى ـ أن يأذن بمعرفتها فيفتح لأحد الصالحين المجتهدين باب علم فيها، وما ذلك على الله بعزيز.

وبعد الفاتحة الهجائية تلك، تأخذ أول آيتين في سورة «النمل» بالثناء على القرآن الكريم وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ * هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ *﴾

«سورة النمل، الآيتان: 1 ـ 2».

ثم تصف الآيتان التاليتان المؤمنين بأنهم هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 3».

كما تصف الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ أي: يتيهون في ضلالاتهم التي يتحيرون فيها كثيراً ويترددون.

وتؤكد الآيات بعد ذلك حقيقة أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق؛ وذلك بتوجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ له:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ «سورة النمل، الآية: 6».

كذلك استعرضت الآيات في سورة «النمل» لمحات من سير عدد من أنبياء الله ورسله تأكيداً على وحدة الرسالة السماوية التي كانت كلها إسلاماً لله تعالى، وتكاملت كلها في بعثة الرسول الخاتم ﷺ.

وتبدأ السورة الكريمة في هذا السرد الإلهي بحلقة من قصة موسى عليه السلام ناجاه فيها ربه سبحانه وتعالى بالبقعة المباركة من أرض سيناء ـ جبل المناجاة ـ وكلفه بإبلاغ رسالته إلى فرعون وقومه، وأعطاه تسع آيات تشهد له بالنبوة وبالرسالة فكذبوا بها، وأنكروها لما جاءتهم، واعتبروها ضرباً من السحر على الرغم من تيقنهم من صدقها، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:



﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۞ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۞﴾

«سورة النمل، الآيتان: 13 ـ 14».

ثم جاء ذكر كل من داود وولده سليمان عليهما السلام في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۞ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۞ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞﴾

«سورة النمل، الآيات: 15 ـ 19».

وكان الهدهد من ضمن ما حشر لسليمان من الطير، ولكنه عندما تفقّده لم يجده، فتوعَّده بعذاب شديد، ثم فاجأه الهدهد بنبأ جاء به من مملكة سبأ، حيث وجد امرأة تحكمهم، وقد أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وانتقد الهدهد ذلك كما جاء في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ على لسانه إذ يقول:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ۞﴾

«سورة النمل، الآيات: 24 ـ 26».

فأرسل سليمان الهدهد برسالة منه إلى أهل مملكة سبأ، وتلقته ملكتهم فقالت ـ كما يقول الحق ـ تبارك وتعالى:

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ *﴾ «سورة النمل، الآيات: 29 ـ 31».

وبعد مشاورات مع أهل الرأي عندها قامت ملكة سبأ بإرسال هدية إلى سليمان فرفضها، وتوعدها بالحرب، وأمر بالإتيان بعرشها فجيء به إليه، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾ «سورة النمل، الآيات: 38 ـ 40».

ثم جاءت ملكة سبأ لملاقاة سليمان، وقد سبقها عرشها إليه، فقالت كما تروي الآيات في سورة النمل:

﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ «سورة النمل، الآية: 44».

وبعد ذلك انتقلت سورة «النمل» إلى جانب من قصة نبي الله صالح عليه السلام، وكان أغلب قبيلته ثمود من المفسدين في الأرض فدعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار، وأبرز لهم من المعجزات الحسية ما يشهد له بالنبوة ولكنهم كفروا برسالته، وتآمروا عليه، ومكروا به فدمرهم الله ـ تعالى ـ أجمعين، ونجّى صالحاً ومن آمن معه، ويذكرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بما حدث لهم قائلاً:

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ *﴾ «سورة النمل، الآيات: 51 ـ 53».

ثم عرجت سورة «النمل» إلى جانب من قصة نبي الله لوط عليه السلام، وقصة الكافرين المفسدين في الأرض من قومه، وهمهم بإخراجه ومن آمن معه من قريتهم بدعوى أنهم أناس يتطهرون، فأنزل الله تعالى عقابه بهم، ونجّى لوطاً والذين آمنوا معه.

وفي خواتيم سورة «النمل» وجهت الآيات الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞﴾ «سورة النمل، الآيات: 59 ـ 64».

وتعاود الآيات في سورة «النمل» وصف كل من منكري الآخرة والمتشككين في وقوعها بالعمى، وتطالب خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالرد عليهم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞﴾ «سورة النمل، الآية: 69».

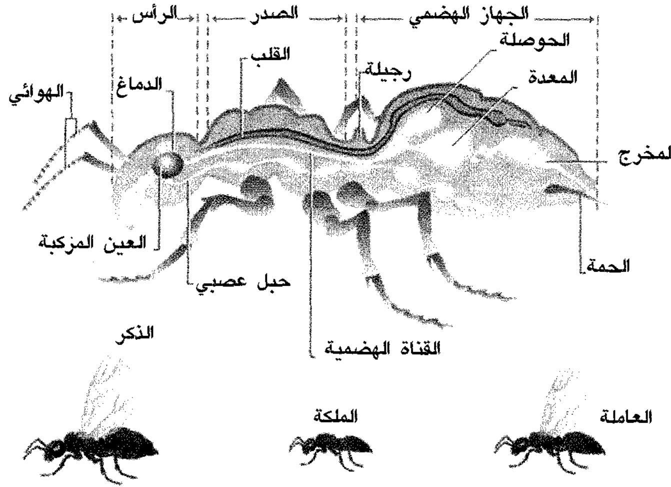
وتؤكد الآيات أن اليهود قد حرفوا دينهم واشتروا به ثمناً قليلاً، ممتدحة في نفس الوقت القرآن الكريم وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۞ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞﴾ «سورة النمل، الآيتان: 76 ـ 77».

وتُذَكِّرُ سورة «النمل» بواحدة من العلامات الكبرى للساعة، مؤكدة جحود أغلب الناس بآيات الله، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 82».

البنية التشريحية للنملة



ثم تذكّر الآيات كذلك بيوم البعث وأهواله، وبعدد من الأحداث المصاحبة له، وتصف تمايز الناس فيه بين محسنين ومسيئين، وتوضح جزاء كل منهم، وتنتهي إلى قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝﴾ «سورة النمل، الآيتان: 91، 92».

وتختتم هذه السورة المباركة بأمر من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 93».

وفي هذه الخاتمة الكريمة إشارة إلى التقدم العلمي والتقني الذي حققته مسيرة البشرية في زماننا الراهن، وما كان لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إدراك إمكانية تحقيق ذلك أبداً.

من ركائز العقيدة في سورة «النمل»:

1 ـ الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً، هو رب العالمين، وهو العزيز الحكيم، وهو رب العرش العظيم ورب هذا الكون ومليكه، وصاحب الحول والطول والقوة المطلقة، ولا حول، ولا طول، ولا قوة إلا به ﷻ، والإيمان بأنه ﷻ هو الخلاق، الرزاق، الفتاح، العليم، واهب النعم، ومجري الخيرات، وهو الغفور الرحيم.

2 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ منزه عن جميع خلقه: في ذاته وصفاته وأسمائه، فلا يجوز دعاؤه بغير ما سمى به ذاته العلية من أسماء، ولا يجوز وصفه إلا بما نعت به ذاته العلية من نعوت، ولا يجوز تحديده بمكان أو زمان لأنه خالق كلٍّ من المكان والزمان، ولا يجوز تجسيده في شكل مادة أو طاقة لأنه ﷻ، هو مبدعهما، والمخلوق لا يحد خالقه أبداً؛ ومن هنا فإن من أبشع صور الكفر بالله ـ تعالى ـ ادعاء الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة، أو الولد له ﷻ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله ﷻ منزه عن جميع صفات خلقه، لذلك كان توحيد الله ـ تعالى ـ هو رسالته الأولى إلى جميع خلقه يوم خلق السمٰوات والأرض، ثم علمها لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم أنزل بها سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأكملها وأتمها في رسالته الخاتمة: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولذلك تعهد بحفظهما إلى يوم الدين، كما حفظهما على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية.

3 ـ الإيمان بوحي السماء، وبوحدة الرسالة السماوية، وبالأخوة بين الأنبياء، وبأن جميع الرسالات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ قد تكاملت في الرسالة الخاتمة التي تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظها إلى يوم الدين.

4 ـ الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، وبالعلامات الدالة على بدء وقوعها والتي استشهدت السورة الكريمة بأعداد منها مثل دابة الأرض التي تكلم الناس، والإيمان بجميع المظاهر المصاحبة للآخرة ومنها النفخ في الصور مرتين، وما يصحب كل واحدة منهما من فزع، والبعث وأهواله، والعرض الأكبر أمام الله ـ تعالى ـ ورهبته، والحساب بعدل الله وقسطاسه، والميزان ودقته، والصراط وحدَّته، والجزاء وإنصافه، ثم الخلود بعد ذلك إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً.

5 ـ التسليم بالغيوب المطلقة التي تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لأن مثل هذه الغيوب لا يمكن للإنسان الوصول إليها بنفسه مهما تطورت قدراته البشرية، واتسع علمه المكتسب.

6 ـ اليقين بأن القرآن الكريم هو كلام الله الحكيم العليم، وهو ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وإنه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأنه يقص على أهل الكتاب ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

7 ـ التصديق بكل ما جاء في القرآن الكريم من قصص الأولين، وبكل المعجزات التي أجراها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على أيدي أنبيائه تأييداً لهم، ودعماً لصدق رسالتهم.

8 ـ الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الذي ينبت نبات الأرض وأشجارها بعلمه وحكمته وقدرته، وهو الذي جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، وهو الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو الذي يرزق خلقه من السماء ومن الأرض، وهو الذي يعلم غيب السمٰوات والأرض.

9 ـ اليقين بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ «سورة النمل، الآيتان: 89 ـ 90».

10 ـ الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ قد حرم مكة المكرمة يوم خلق السمٰوات والأرض، فهي أرض محرمة إلى يوم القيامة.

11 ـ التصديق بأن الله ـ تعالى ـ سوف يري خلقه عظيم آياته التي أنزلها في محكم كتابه والتي أبرأها في الأنفس والآفاق حتى يشهد كل ذي بصيرة أن القرآن الكريم هو كلام الله الحق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله؛ وحفظه بعهده، في نفس لغة وحيه دون أدنى تبديل أو تحريف أو تغيير حتى يبقى حجة على جميع الخلق إلى يوم يبعثون.

من التشريعات الإسلامية في سورة «النمل»:

1 ـ التشريع بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

2 ـ تحريم الشذوذ الجنسي تحريماً قاطعاً، على الرغم من محاولة حكومات الغرب تحليله والتشريع لتبنيه، ولتبني زواج الشواذ مما يقضي على مؤسسة الأسرة، ويؤدي إلى إفناء الجنس البشري بالكامل.

3 ـ تحريم الظلم لأنه من صور الإفساد في الأرض، ولأن عواقبه وخيمة.

4 ـ الحث على صحبة الصالحين لما فيها من خير عميم.

5 ـ تحريم السجود لغير الله ـ تعالى ـ لأنه صورة من صور الشرك الذي حرمه الله.

6 ـ الحث على مداومة الشكر لله ـ تعالى ـ على عظيم نعمه، وعلى استغفاره طلباً لرحمته، وعلى التوكل عليه استعانة به.

8 ـ الحث على تلاوة القرآن الكريم وعلى تدبر آياته، وهو الكتاب المبين الذي تلقاه النبي الخاتم من لدن الله الحكيم العليم، الذي أنزله ﷻ هدى، ورحمة، وبشرى للمؤمنين.

من الإشارات الكونية في سورة «النمل»:

1 ـ الإشارة إلى حقيقة الآخرة، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الكون مستحدث فَانٍ، كانت له في الأصل بداية، وأنه لا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية لا يعلم موعدها إلا الله ﷻ؛ لأن العلوم المكتسبة لا تستطيع تحديدها رغم الشواهد المادية الكثيرة التي تؤكد حتمية وقوعها.

2 ـ الإشارة إلى عالمي الغيب والشهادة، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الغيبيات في الكون المدرك تفوق المشاهد منه بتسعة أضعاف على أقل تقدير؛ لأن المعلوم لنا من الجزء المدرك من الكون لا يتعدى 10٪ من مجموع الكتل المحسوبة رياضياً وفيزيائياً وفلكياً من أجل انتظام وجوده.

3 ـ إثبات أن لكل خلق من خلق الله كالنمل والطير، وغير ذلك من الكائنات الحية، وحتى النباتات والجمادات ـ لكل واحد منها ـ قدراً من الوعي، والإدراك،

والذاكرة، والشعور، والإحساس، وله إيمان فطري بالله ـ تعالى ـ، وله عبادة تسخيرية، وتسبيح غير إرادي، ولا يدرك ذلك إلا من وهبه الله ـ تعالى ـ شفافية خاصة، كما أن لكل منها صورة من صور التعبير عن الذات، والتفاهم والاتصال بالغير، وتبادل المعلومات، وقدرة على إصدار الأوامر وتلقيها وعلى تنفيذها في أحسن صورة، وعلوم سلوك الحيوان والنبات، وحتى سلوك الجمادات قد بدأت في التعرف على بعض الجوانب في هذا المجال الغامض.

4 ـ إن في الإتيان بعرش الملكة من أرض سبأ إلى بيت المقدس في أقل من طرفة عين إشارة إلى سرعات فائقة تقترب من سرعة الضوء، ومثل هذه السرعات الفائقة لم يعرف إلا في القرن العشرين، والإشارة إليها في القرآن الكريم وهو كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين يعتبر سبقاً علمياً معجزاً يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

5 ـ التأكيد على خلق السمٰوات والأرض بالحق. وعلى أن الله ـ تعالى ـ يبدأ الخلق ثم يعيده، والمشاهدات في الكون كما تدونها العلوم الحديثة تؤكد ذلك وتدعمه.

6 ـ الإشارة إلى كلٍّ من تصريف الرياح، ودورة الماء حول الأرض بالتأكيد على إنزاله من السماء، وإلى إنبات الأرض بمجرد إنزال الماء عليها.

7 ـ ذكر العديد من صفات الأرض ومنها أن الله ـ تعالى ـ قد جعلها قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، وكلها من الحقائق التي لم يتمكن العلم من إثباتها إلا مؤخراً.

8 ـ الإشارة إلى هداية الله ﷻ لعباده في ظلمات البر والبحر بواسطة كل من أضواء نجوم السماء، وأنوار القمر، وكلها من نعم الله العديدة على خلقه، ومن صور رزقه المتعددة لهم وهو الذي يرزقهم من السماء والأرض.

9 ـ التلميح إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بذكر تبادل كل من الليل والنهار، وبالإشارة إلى مرور الجبال مر السحاب وهي تبدو للناظر إليها وكأنها جامدة راسخة في أماكنها.

10 ـ الإشارة إلى أن مستقبل البشرية في تطورها العلمي سوف يؤكد صدق ما جاء به

القرآن الكريم من حقائق علمية، وتاريخية، ونفسية، وتربوية، وسلوكية ترددت في ثنايا رسالته الأساسية وهي الدين، بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات؛ كي يكون في استمرارية ذلك ما يؤكد على صدق ما جاء به القرآن الكريم من غيب. وعلى صدق النبي الخاتم الذي تلقاه، وليقيم هذا الكتاب العزيز الحجة بهذا الدين على الخلق أجمعين حتى يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها؛ ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثالثة فقط من القائمة السابقة والتي أشارت إليها الآية الثامنة عشرة من سورة «النمل».

وقبل البدء في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 18».

- ذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله برحمته الواسعة ـ ما نصه:

«لقد سار الموكب؛ موكب سليمان من الجن والإنس والطير في ترتيب ونظام يجمع آخره على أوله، وتضم صفوفه، وتتلاءم خطاه، حتى إذا أتوا على وادٍ كثير





النمل.. قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي ـ ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تتنوع فيها الوظائف، وتؤدى كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال ـ قالت هذه النملة للنمل بالوسيلة التي تتفاهم بها أمة النمل، وباللغة المتعارفة بينها، قالت للنمل: ادخلوا مساكنكم كيلا يحطمنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون بكم».

- وجاء في تعليق الخبراء على شرح أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «يتَّضح من هذه الآية الشريفة أن النمل يعيش في جماعات؛ أي أن له مجتمعاً، وأن من خصائصه اليقظة والحذر.. وقد عرف لمجتمع النمل منذ القدم خصائص عدة تشهد بأن له مجتمعاً منظماً، له نظام دقيق في الحكم، وأنه على قدر كبير من الذكاء والدهاء، وقوة الذاكرة، وحب العمل والمثابرة، والجهاد الذي لا يعرف الكلل ولا اليأس، كما عرف سعة الحيلة فيما يقوم به من أعمال، وآية ذلك أن مجتمع النمل.. يقوم بدفن موتاه، وتحرص جماعاته المختلفة على الالتقاء في صعيد واحد من حين إلى آخر؛ ولهذا خصص أياماً معينة لإقامة سوق تجتمع فيها جماعات لتبادل السلع وللتعارف. وهذه الجماعات حين تلتقي تتجاذب أطراف الحديث باهتمام بالغ، ويسأل بعضها البعض أسئلة تتصل بشؤونها. ومن مظاهر مجتمعها المترابط قيامها بمشروعات جماعية مثل إقامة الطرق الطويلة في أناة ومثابرة تثيران الدهشة.. ولا تكتفي هذه الجماعات بالعمل نهاراً بل تواصله ليلاً في الليالي القمرية، ولكنها تلزم مستعمراتها في الليالي المظلمة. ولأعضاء هذا المجتمع في جمع المواد الغذائية وحملها وتخزينها والمحافظة عليها طرق فريدة في نوعها، فإذا لم تستطع النملة حمل ما جمعته في فمها كعادتها لكبر حجمه حركته بأرجلها الخلفية ورفعته بذراعيها. ومن عاداتها أن تقضم الجذور، وتفلق بعض الحبوب قبل تخزينها حتى لا تعود إلى الإنبات مرة أخرى، وتجزىء البذور الكبيرة لكي يسهل عليها إدخالها في مستودعاتها، وإذا ما ابتلت بفعل المطر أخرجتها إلى الهواء والشمس لتجف».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: أن النمل يحيا في جماعات منظمة:

ويشير إلى هذه الحقيقة كل من اسم السورة والآية التي نحن بصددها، فاسم السورة جاء بصيغة الجمع - النمل - ولم يأت بصيغة الإفراد التي سميت بها سور قرآنية كريمة أخرى مثل سورة العنكبوت، والعنكبوت يحيا حياة فردية، والنمل لا يحيا إلا في جماعات، وإذا ضلت نملة منها عن جماعتها أو انفصلت عنها بسبب من الأسباب، فإنها إما أن تنضم إلى جماعة أخرى أو تموت.

وكذلك استخدمت الآية الكريمة التي نحن بصددها تعبير (وادي النمل) وقد ثبت أن النمل يحيا في جماعات يتفاوت عدد أفرادها بين بضع عشرات، وعشرات الملايين، يحكمها تنظيم دقيق، تتنوع فيه المسؤوليات والوظائف والأعمال التي تؤدى كلها بمستويات مبهرة من الإتقان في الأداء، والتفاني في العطاء، والثبات والاجتهاد والمثابرة التي يفتقر إليها كثير من الناس.



وتبدأ جماعة النمل بالملكة المخصبة التي تضع بيضها في مكان آمن ترعاه فيه حتى يفقس وتخرج منه اليرقات التي تتعهدها الملكة حتى يتم نموها إلى الحشرة الكاملة، والملكات هي الإناث الخصبة من النمل التي أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على التكاثر، ووضع البيض، ورعاية صغارها حتى تصبح قادرة على العمل؛ وحينئذ تبدأ الشغالات القيام بمسؤولية مستعمرة النمل قياماً كاملاً حتى تأتي ملكة جديدة، وتستغرق هذه الدورة عدة سنوات تتفاوت من نوع من النمل إلى نوع آخر.

والشغالات التي تشكل الغالبية الساحقة في مستعمرة النمل هي إناث النمل العاقرة (العواقر) التي لا دور لها في عملية التكاثر ولكنها تقوم بمسؤوليات الجماعة كاملة، أما ذكور النمل فيتحدد دورها في إخصاب الملكات، وكل من الملكات وذكور النمل لها أجنحة تطير بها بعد نضجها مباشرة في أسراب تتم خلالها عملية التزاوج وإخصاب الملكات، وبعد ذلك تموت الذكور مباشرة، وتعود الملكة المخصبة إلى عش النمل لتضع بيضها، وتقصف أجنحتها حتى لا تتكرر عملية الإخصاب لها، وتستمر الملكة في إدارة أمور جماعة النمل طيلة حياتها التي قد تمتد إلى خمس عشرة سنة، بينما تعيش الشغالات لفترات تتراوح بين الأربع وسبع السَّنَوات ثم تموت، ولذلك تقوم على مستعمرة النمل ملكة واحدة، أو عدة ملكات بحسب حجم المستعمرة، وتقوم الشغالات ببناء المستعمرة ـ عش أو أعشاش النمل ـ وشق الطرقات المؤدية إليها، ونظافتها وصيانتها، وحراستها، والدفاع عنها، كما تقوم بجمع الطعام، وتجهيزه وتخزينه، وغير ذلك من الأعمال.

وقد يحتوي عش النمل على كائنات أخرى تتعايش مع النمل في تكافل عجيب، وذلك من مثل حشرة المن وبعض الخنافس.

وأمة النمل هي من أكثر الأمم الحية عدداً، وأوسعها انتشاراً إذ يعرف منها اليوم أكثر من ثمانية عشر ألف نوع، يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد التي تنتشر في جميع مناطق الأرض ما عدا المناطق القطبية، ويزدهر انتشار النمل في المناطق الحارة بمتوسط 150 نملة في المتر المربع، وهذه الأسراب من النمل تبني ملايين البيوت ـ الأعشاش ـ وتقضي على بلايين الحشرات سنوياً التي لو تركت لدمرت الكساء الخضري للأرض؛ وعلى ذلك فإن أسراب النمل تلعب دوراً رئيسياً في عملية الاتزان البيئي للأرض، وتمثل حلقة هامة منها، وبالإضافة إلى ذلك فإن النمل بحفره المستمر في الأرض يقوم بدور هام في تهوية التربة،

وتسميدها، وتعقيمها، وتطهيرها من العديد من الآفات، وبحركته وسط النباتات يقوم بدور في تلقيح بعض الزهور، ونشر عدد من البذور عبر مساحات متباعدة من الأرض.

ثانياً: أن لأمة النمل لغات خاصة بها:

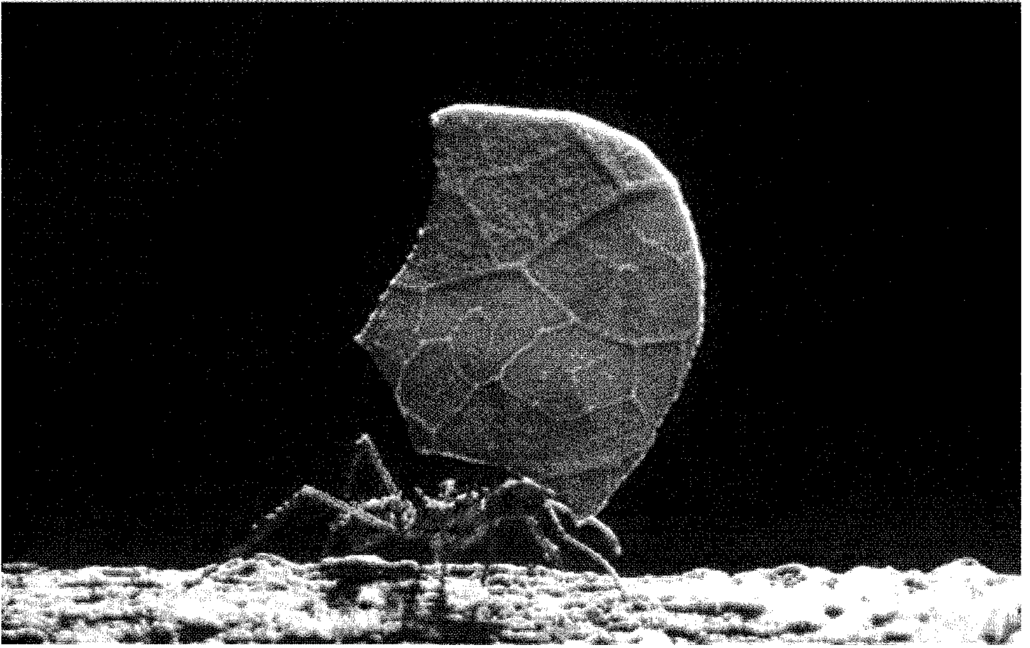
وهذه الحقيقة أثبتتها الآية الكريمة التي نحن بصددها بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 18».

وقد سمع نبي الله سليمان عليه السلام نصيحة النملة لرفاقها، وفهم لغتها بنعمة من الله وفضل، ولغات النمل ظل عدد من علماء الحشرات يحاولون فك رموزها لعشرات من السنين دون جدوى، وقد وظفوا في ذلك كل وسائل المنهج العلمي وتقنياته المتطورة، وأصبحت لغات التخاطب ووسائل الاتصال عند الحيوان علماً من العلوم المستحدثة في زماننا ينطوي تحت ما يعرف باسم «علم سلوك الحيوان»، إلا أن هذا المنهج البشري في استقراء لغات الحيوان وفهم سلوكه يبقى منهجاً جزئياً استنتاجياً، تجريبياً يحتمل الصواب والخطأ؛ بينما العلم الذي تلقاه نبي الله سليمان عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ هو علم يقيني، كامل، صحيح، علم به سليمان لغات عدد من الحيوانات كالطير والنمل وهي معجزة من المعجزات الحسية التي خصه الله ـ تعالى ـ بها، وجعلها خارقة من الخوارق تخالف المألوف عند الناس. وكانت هذه أول إشارة مؤكدة إلى وجود لغات محددة لكل أمة من المخلوقات العديدة التي أوجدها الخالق العظيم بعلمه وحكمته وقدرته.

وأحدث ما كتب عن النمل يؤكد أن هذه الحشرة العجيبة التي يتراوح طول الفرد من أفرادها بين المليمتر الواحد وسبعة المليمترات، ولا يتعدى حجم مخه حجم حبة الملح المسحوق الناعم، ولها قدرة هائلة على التخاطب بأكثر من لغة واحدة، فلكل مستعمرة من مستعمرات النمل لغتها الخاصة بها التي يتحدث ويتفاهم بها أفرادها مع بعضهم البعض، ولها لغة أخرى تتفاهم بها مع النمل من غير مجموعتها، ومع غيرها من الحشرات والحيوانات الأخرى.

ولم يستطع العلم بكل تقنياته الراهنة المتطورة أن يستشف من لغات النمل إلا بعض الظواهر والحركات والأصوات المصاحبة للكلام والتي تم تلخيصها فيما يلي:



1 ـ **اللغة الكيميائية:** التي تتمثل في إفراز عدد من المركبات الكيميائية الطيارة من جسم النملة لتعبر بكل مركب منها عن معنى محدد من مثل إصدار الأوامر والتعليمات، والتوجيهات والتحذيرات، وغير ذلك من عمليات الاتصال، وتبادل المعلومات والرسائل للإرشاد إلى بعض الأمور من مثل مواقع الغذاء أو مواد البناء التي تريد أن توجه أنظار الشغالات إليها.

وقد ثبت أن هذه الإفرازات الكيميائية تختلف في أنواع النمل المختلفة وتعرف عند علماء الحشرات باسم: **الإفرازات الدالة على الأثر.**

ومن هذه الإفرازات الكيميائية ما يستخدم للإنذار في حالات الأخطار وتعرف باسم: **إفرازات الإنذار.**

2 ـ **اللغة الحركية:** وتتم بواسطة تحريك كل من الأرجل والبطن والملامسة بواسطة قرون الاستشعار، وقد رصدت هذه الحركات بدقة شديدة في محاولة لإيجاد تفسير لها.

3 ـ **اللغة الصوتية:** وهذه لم يفهم منها علماء السلوك الحيواني سوى ذبذبات صوتية

مترددة كالصرير تلتقطها خلايا سمعية في أرجل كل واحدة من النمل. وهذه الذبذبات الصوتية ـ وإن أكدت أن للنمل قدرة على التخاطب ـ إلا أنها تبقى دون اللغة التي سمعها سليمان عليه السلام وفهم دلالاتها.

ثالثاً: أن للنمل قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور:

وهي حقيقة أكدتها الآية الكريمة بتعرف النملة على شخص نبي الله سليمان ومن معه من الجنود.. وبتخويفهم من إمكانية أن يطأ الجند النمل بأقدامهم أو بحوافر خيلهم، وبنصيحتها لأقرانها أن يدخلوا مساكنهم نجاةً من تلك المخاطر، وبإدراكها أن من صفات النبوة الرحمة بالخلق فأضافت هذه الجملة الراقية... ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، بمعنى أنها تدرك أن من صفات المؤمنين الرفق بالخلق فإن حدث غير ذلك فإنما يكون عفواً بغير قصد منهم ولا شعور.

وقد أكدت الدراسات المتخصصة في علم سلوك الحيوان كل هذه الحقائق باكتشاف أن النمل ـ كغيره من المخلوقات ـ له من الغرائز الفطرية ما يعطيه قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور الذي يمكِّنه من معرفة الأشياء والأماكن والاتجاهات والأوقات والأشخاص ويعينه على التمييز بين الحق والباطل، وعلى توقِّي المخاطر وتجنبها، وفي



الإقدام على المغانم واقتناص فرصها، وفي ترتيب وتنظيم وضبط حياته الاجتماعية بعدد من القواعد الدقيقة. وفوق ذلك كله فإن الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة تؤكد أن أمة النمل ـ كغيرها من الأمم غير المكلفة ـ مفطورة على الإيمان بالله ـ تعالى ـ وحده رباً وإلٰهاً، وفاطراً ومعبوداً ورازقاً ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ـ ومفطورة على عبادته وتقديسه، والتسبيح بحمده، عبادة وتقديساً وتسبيحاً تسخيرياً لا إرادة لها في شيءٍ منها، ولكنها تدركه وتعلمه وتعيشه. وهذا يفسر تعرف النملة على نبي الله سليمان، والإشارة بهذا الأدب الجم إلى مقام النبوة الذي أفاء الله ـ تعالى ـ به على هذا العبد الصالح.

وهذا العلم الوهبي الذي منَّ الله ـ تعالى ـ بأقدار منه على جميع مخلوقاته تتفاوت بتفاوت الأدوار المطلوبة من كل منها في هذه الحياة، وفي الحدود التي وضعها الله تعالى لكل أمة من أمم الوجود الحيوي على الأرض.

ولذلك تبسم نبي الله سليمان عند سماعه مقولة النملة، والتي فهمها بما وهبه الله ـ تعالى ـ من علم، وأعجب بقدرة الله البالغة التي أعطت النملة الضئيلة في الحجم هذا القدر من الإدراك والأدب والحكمة، وأعطت رفاقها قدرة الفهم عليها، والانصياع لأوامرها، وأعطته هو القدرة على إدراك ذلك فتوجه إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء أن يلهمه شكر النعم العديدة التي أسبغها عليه وعلى والديه، وأن يوفِّقه إلى عمل الخير الذي يرتضيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ، وأن يدخله الجنة مع عباده الصالحين.

ومن الأدلة المتجمعة على ذكاء النمل، ووعيه، وإدراكه: دقة تنظيم مجتمعاته، وتوزيع العمل بين أفراده، وبناء أعشاشه وبيوته، وتنظيم المخارج منها والمداخل إليها، والمهارة في اصطياد وجمع طعامه، وحسن تجهيزه وتخزينه وصيانته ورعايته، وقدرته على زراعة بعض النباتات ـ مثل الفطر ـ، وحمايتها من الميكروبات بإفراز العديد من المضادات الحيوية، وقدرته كذلك على التعايش في توازن وتكافل تامّين مع العديد من الحشرات الأخرى مثل المن والخنافس.

هذه الحقائق لم يدركها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالوحي بها من قبل أربعة عشر قرناً في زمن لم يتوافر لأي من البشر أدنى إلمام بشيء منها؛ مما يؤكد أن هذا الكتاب الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو

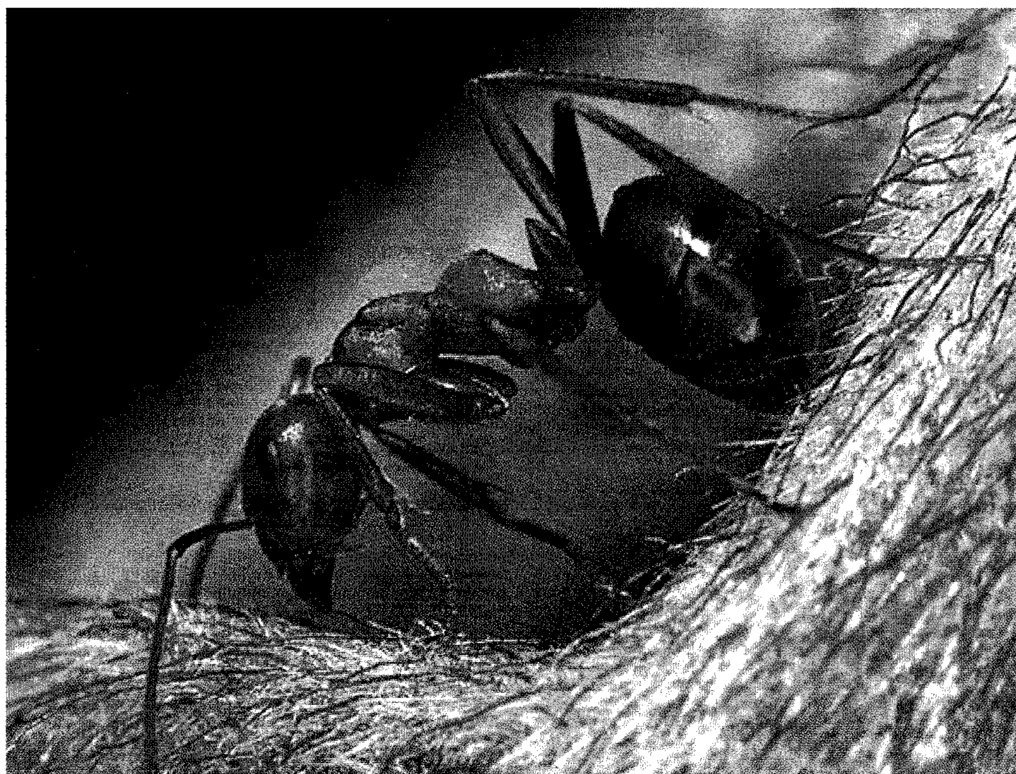
كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً تحقيقاً لوعده الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عزّ من قائل ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9».

وهكذا بقي القرآن الكريم محتفظاً بنصه الإلهي، وإشراقاته النورانية، والحق المطلق الذي جاء به على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها بقي المصدر الوحيد للهداية الربانية في أمر الدين الذي تعرضت كل رسالاته السابقة للضياع التام وبقيت من بعضها ذكريات متناثرة ظلت تتناقل شفاهاً، تفسرها الأهواء، وتضيف إليها، وتحذف منها، وتحرفها كيفما تشاء حتى تم إخراجها عن إطارها الرباني، وإلقاؤها في أحضان عدد من الوثنيات القديمة والفلسفات الوضعية التي جعلتها عاجزة عن هداية أتباعها، وهذا هو السبب الحقيقي من وراء المظالم التي تسود الأرض في زماننا...!!

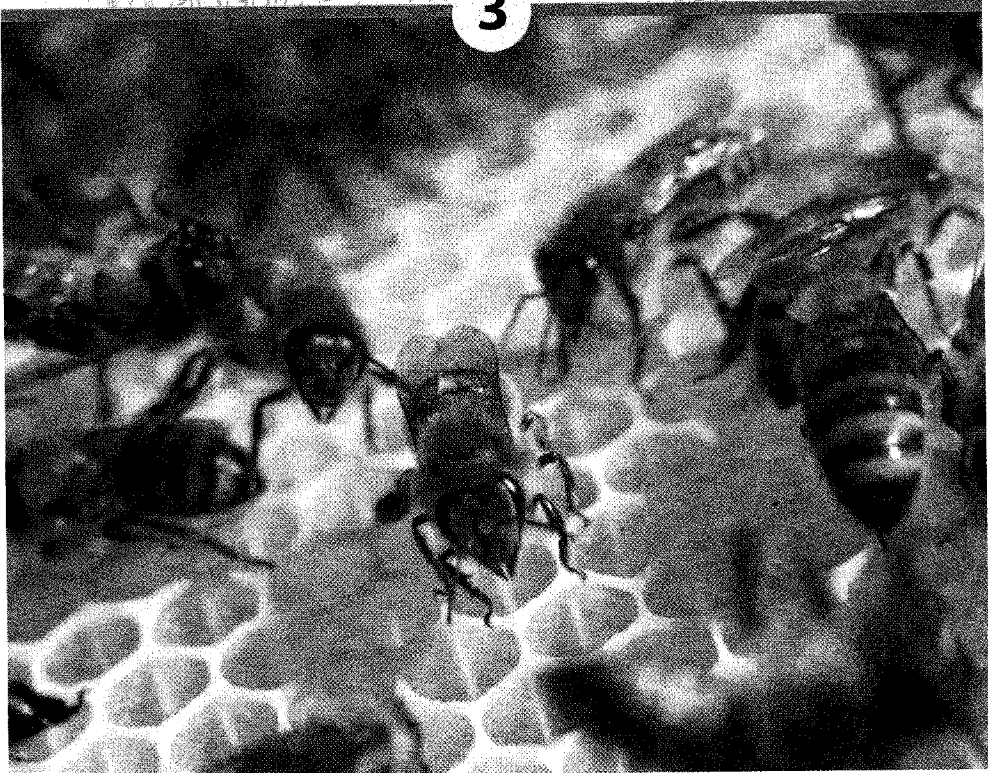
وحين تم التدوين لبعض هذه الذكريات القديمة تم بلغات غير لغات الوحي، وبواسطة أقلام متفرقة في أماكن متعددة، وفي أزمنة متباعدة وصلت إلى العديد من القرون بعد موت أو رفع الرسول الذي تلقى الرسالة الأصلية والتي فقدت أصولها السماوية بالكامل، ولذلك تعددت الأسفار، وتناقضت المعلومات، وكثرت المراجعات إلى يومنا الراهن وستظل كذلك إلى ما شاء الله.

وللخروج من هذه الدوامات العاتية من الشك والشرك والشقاق والنفاق فإننا ندعو كل مؤمن بالله إلى قراءة القرآن الكريم بحيدة وموضوعية ثم الحكم بنفسه إن كان هذا هو كلام الله الخالق أم كلام البشر المخلوقين؟ ونحن معشر المسلمين نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا نفرق بين أحد من رسله، ونؤمن بوحدة الدين، وبوحدة جميع رسالات السماء، وبالأخوة الإنسانية، وبأنه لا إكراه في الدين، وانطلاقاً من ذلك كله نقدم القرآن العظيم للبشرية التائهة، عسى الله تعالى أن يهديها إلى طريقه القويم، وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.



وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٦٧ وَأَوْحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْ... فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِى ذَٰ...

3

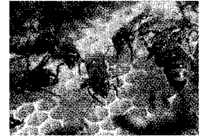


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

«سورة النحل، الآية: 68».

3



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بداية النصف الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المجموعة المباركة من الحشرات المعروفة باسم النحل، لأن الله ـ تعالى ـ قد نحل إناثها القدرة على جمع رحيق الأزهار، وما بها من غبار الطلع (حبوب اللقاح) من العديد من النباتات المزهرة، وهضمه وتحويله في بطونها إلى ذلك الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس والمعروف إجمالاً باسم عسل النحل، ولو أنه يشمل مركبات عديدة بالإضافة إلى هذا العسل من أهمها غذاء ملكات النحل، والشمع، وحبوب اللقاح، والعكبر (صموغ النحل)، وسم النحل.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضيتي العقيدة الإسلامية، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وكلتاهما من ركائز الإسلام، واستشهدت في سبيل الدعوة إلى تلك الركائز بالعديد من الإشارات الكونية التي صيغت صياغة علمية غاية في الدقة والشمول والكمال مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

من ركائز العقيدة في سورة «النحل»:

1 ـ الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وتوحيده ـ تعالى ـ توحيد الألوهية فلا يعبد سواه، وتوحيد الربوبية فلا يخلق ولا يرزق غيره، وتوحيد الأسماء والصفات فلا يسمى ولا يوصف

إلا بما سمى به ذاته العلية من الأسماء الحسنى، ووصف به جانباً من صفاته العليا. والإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء وربه ومليكه يجعل كل ما سواه مخلوقاً بأمره، والخالق يختلف اختلافاً كلياً عن خلقه، كما أن المخلوقين يختلفون اختلافاً كلياً عن خالقهم؛ ومن هنا فلا يجوز لهم أن يضربوا الأمثال للخالق ﷻ وهو الذي يعلم كل شيء وهم لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا. ومن صفات الله ـ تعالى ـ التي أوردها لنا في سورة النحل أن له غيب السمٰوات والأرض، وأن أمره نافذ عاجل لا يرد؛ وهو بين الكاف والنون، وأن الدين له ﷻ وحده، لا يشاركه في ذلك شريك، ولا ينازعه منازع، وأن الله على كل شيء قدير.

واليقين بأن الخلق يشهد لخالقه بالربوبية، والألوهية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله ﷻ، فالخلق يشهد لخالقه بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، وبالعلم المحيط، والهيمنة الكاملة على جميع ما في السمٰوات والأرض وكلهم له عبد، يسجد لجلاله طوعاً وكرهاً.

2 ـ الإيمان بحقيقة الوحي. ومن معانيه أن الله ـ تعالى ـ ينزل ملائكته بالهداية الربانية لخلقه على من يشاء من عباده الذين يصطفيهم بعلمه وحكمته، وهم الأنبياء والمرسلون الذين يبعثهم الله ـ سبحانه ـ بتعاليم الدين. والدين قائم على ركائز أربع من العقيدة وهي غيب مطلق لا يستطيع الإنسان الوصول إليه بعقله ولا بحواسه منفرداً، والعبادة وهي: أوامر إلٰهية كاملة لا يليق بالإنسان أن يكون له فيها رأي، وعلى كل من الأخلاق والمعاملات وهي: ضوابط للسلوك. والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان دوماً عن وضع ضوابط صحيحة للسلوك من عند نفسه الأمَّارة بالسوء.

ومن رسالة الوحي: دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، ودعوتهم إلى توحيد الله ﷻ توحيداً خالصاً لا تشوبه أدنى شبهة من شرك، وتدعوهم كذلك إلى عبادته ـ تعالى ـ بما أمر، وإلى تقواه في كل أمر، وإلى اجتناب الطاغوت، ويؤكد الوحي الخاتم أن الله ﷻ قد أكمل للإنسانية دينها، وأتم نعمته عليها، ورضي لها الإسلام ديناً ببعثه الرسول الخاتم ﷺ، وأنه ما على الرسول إلا البلاغ المبين.

3 ـ اليقين بحقيقة الآخرة، وبحتميتها، وفجائيتها، وبأن موعدها قد اقترب، والتصديق بحقيقة كل من البعث، والحساب، والجنة، والنار، وبأن الجنة هي مثوى المتقين، وبأن النار هي مثوى المتكبرين الذين لم يؤمنوا بالله ولا برسالته، أو أشركوا غيره في عبادته، ولم يعتبروا بتكرار عقاب الأمم العاصية من قبلهم.

وتؤكد الآيات في سورة النحل أن الله ـ تعالى ـ سوف يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم في يوم القيامة، وأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ سوف يشهد على أمته، وعلى جميع الأمم من بعدها إلى يوم الدين لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبعوث للناس كافة.

4 ـ الإيمان بأن كل نعمة اختص الله ـ تعالى ـ بها عبداً من عباده هي من فضل الله العلي العظيم الذي لا تحصى نعمه ولا تعد أفضاله، وأن الله جل جلاله قد فضل بعض خلقه على بعض في الرزق، لحكمة يعلمها، وأن من نعمه ـ تعالى ـ على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً، وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة حتى يكتسبوا بها المعارف والعلوم لأن الله ـ سبحانه ـ يخرج المواليد من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً.

5 ـ التصديق بأن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وبأن الهجرة في سبيل الله أجرها عظيم في الدنيا، وثوابها في الآخرة أعظم. وأن الذين مكروا السيئات في الدنيا لا يأمنون أن يخسف الله ـ تعالى ـ بهم الأرض أو أن يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. وأن من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فسوف يحييه الله حياة طيبة ولسوف يجزيه أجره بأحسن ما كان يعمل، وأن الذين زين لهم الشيطان أعمالهم سوف يكون هو وليهم يوم القيامة، وأن لهم عذاباً أليماً، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكن يؤخرهم إلى نهاية الأجل حيث لا مهرب منه، ولا تأخر عنه.

6 ـ التسليم بأن الحاكمية لله ـ تعالى ـ وحده، ومن ثم فإن له وحده حق التحليل والتحريم، ولا يجوز ذلك لأحد من المخلوقين أبداً.

7 ـ القناعة بأن الله ـ تعالى ـ قد وهب الناس عقولاً مدركة تفكر، وإرادة حرة تختار وتوجه، وتبين لهم طريق الاستقامة الموصل إلى الخير، وطرق الانحراف المفضية

إلى الشر، وترك الخيار كاملاً لكل فرد، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه.

من مكارم الأخلاق في سورة «النحل»:

1 ـ الدعوة إلى إقامة عدل الله في الأرض، وإلى الإحسان إلى الخلق، والوفاء بالعهد، واحترام الأيمان، على أن ينطلق ذلك كله من منطلق تقوى الله، ورجاء رضوانه، ومخافة عقابه بعد القناعة الكاملة بضرورة ذلك من أجل استقامة الحياة على الأرض.

2 ـ الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله وإيتاء ذي القربى.

3 ـ الدعوة إلى رفض الظلم بكل أشكاله وصوره، وبضرورة مقاومته بكل وسيلة مشروعة، فإن تعذر ذلك فلتكن الهجرة في سبيل الله.

4 ـ التحذير من الوقوع في الفتن ما ظهر منها وما بطن، ومن أخطرها فتن الكفر بالله أو الشرك به، وما أكثرها في هذه الأيام.

5 ـ النهي القاطع عن الوقوع في الفحشاء أو المنكر أو البغي، والتذكير الدائم بنعم الله العديدة على الخلق، والحض المستمر على دوام شكرها، فبالشكر تدوم النعم، وتنكسر حدة الغرور في النفس الإنسانية التي تدرك أن ليس لها من مخرج في كل شدة من الشدائد التي تمر بها إلا اللجوء إلى الله ﷻ، والتذكير كذلك برحلة الإنسان في هذه الحياة الدنيا من النطفة إلى النطفة الأمشاج، إلى العلقة ثم المضغة المخلقة وغير المخلقة، ثم خلق العظام، ثم كسوتها باللحم، ثم إنشاء الجنين خلقاً آخر، ثم إخراجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ثم ما بعد ذلك من مراحل الطفولة، ثم الشباب والفتوة، ثم الكهولة، والشيخوخة، والضعف والهرم حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً، ثم الاحتضار والموت، وما يتخلل ذلك العمر من فترات الرخاء والنعمة، وفترات الابتلاء والشدة، ومحصلة ذلك عند لحظة الموت.

من الإشارات الكونية في سورة «النحل»:

1 ـ التأكيد على قضية خلق السمٰوات والأرض، وخلق كل شيء، وإفراد الله ﷻ بذلك، ومنه خلق الإنسان من نطفة لا ترى بالعين المجردة، وعلى الرغم من ذلك

فإنه بمجرد بلوغه مرحلة الشباب والفتوة كثيراً ما يقابل فضل ربه عليه بالجحود والنكران، وقد خلق له الأنعام من مثل الإبل والبقر والضأن والماعز، وجعل فيها منافع كثيرة، وخلق له الخيل والبغال والحمير وغير ذلك من وسائل الركوب والزينة وحمل الأثقال المعروفة في زمن الوحي والتي استجدت من بعده، والله الخالق قادر على أن يخلق ما يعلمه الناس وما لا يعلمون.

2 ـ الإشارة إلى دورة الماء حول الأرض بذكر إنزاله من السماء مصدراً للشراب ولإنبات الشجر والزروع من مثل الزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، وجعل ذلك آية للذين يتفكرون.

3 ـ الاستشهاد على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في جنبات الكون بتسخير الأرض كي تكون صالحة للعمران وذلك بتكويرها وتدويرها حول محورها أمام الشمس، حتى يتبادل عليها الليل والنهار، وتسخير كل من الشمس والقمر والنجوم بأمر من الله ـ تعالى ـ كي تستقيم الحياة على الأرض وفي الكون كله. وتؤكد السورة الكريمة دوران الأرض حول محورها كذلك بالإشارة إلى ظاهرة مد الظل وقبضه واعتباره صورة من صور السجود الفطري التسخيري لله ـ تعالى ـ.

4 ـ الإشارة إلى ظاهرة مد الظل وقبضه كنتيجة لدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، واعتبار ذلك صورة من صور سجود كل شيء لله ـ تعالى ـ سجوداً تسخيرياً جبرياً، يختلف عن السجود الإرادي الاختياري عند الخلق المكلفين.

5 ـ الإشارة إلى نشر مختلف صور وأشكال وألوان المخلوقات من الأحياء والجمادات في الأرض، وإعطاء الإنسان قدرات من مختلف صور الحس تعينه على تمييزها والتمتع بها حتى يشهد بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة في جنبات الكون.

6 ـ ذكر تسخير الله ـ تعالى ـ البحر للإنسان بما فيه من أحياء ذات لحم طري يؤكل، وهياكل للحيوانات تصلح لصناعة الحلي التي تلبس، وقدرة على حمل الفلك ذات الأحجام المختلفة التي تجري بمصالح العباد شاقّة عباب مائه، وعباب ما فوق الماء من هواء.

7 ـ الاستشهاد بإلقاء الجبال على الأرض، وجعلها رواسي لها كي لا تميد ولا تضطرب،

وارتباط قمم الجبال بتكون منابع الأنهار، ودور تلك المجاري المائية في تفتيت الصخور، وشق الفجاج والسبل، وتكوين تضاريس الأرض التي تصبح علامات دالة للاهتداء بها في وضح النهار، كما جعل النجوم علامات للهداية بالليل.

8 ـ وصف عقاب بعض الأمم السابقة وصفاً ينطبق بدقة فائقة على ما تحدثه الهزات الأرضية العنيفة (الزلازل) في زماننا، وذلك من قبل أن يدرك أحد من الخلق تفاصيل حدوث تلك الهزات الأرضية. والإشارة إلى خسف الأرض بعدد من الأمم الباغية في القديم والحديث مما يؤكد أن الزلازل ـ كغيرها من صور الابتلاءات الدنيوية ـ هي جند من جند الله يسلطها على من يشاء من عباده: عقاباً للمذنبين المجاهرين بالمعاصي من الكفار والمشركين وعصاة المسلمين، وابتلاءً للصالحين، وعبرةً للناجين.

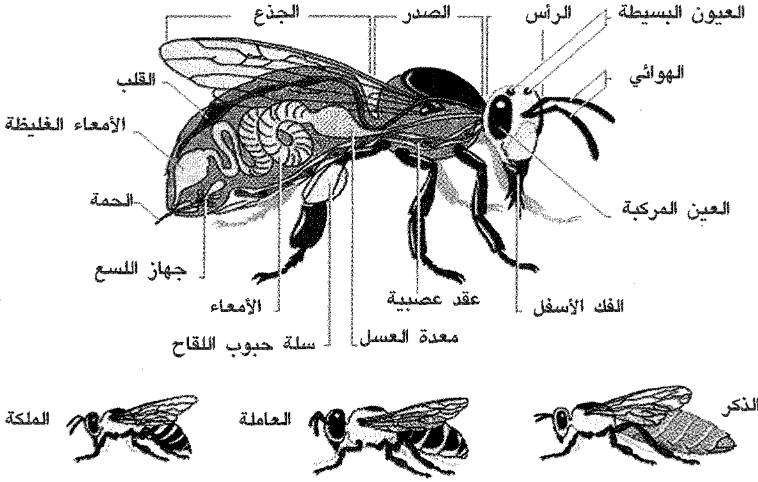
9 ـ تأكيد لمحة الإعجاز في خلق الأنعام، وفي تكوين اللبن في ضروعها من بين فرث ودم، وخروجه من تلك الضروع لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

10 ـ الاستشهاد بما في ثمرات كلٍّ من النخيل والأعناب من الرزق الحسن، وإن أساء بعض الناس استخدامها في صناعة المسكرات.

11 ـ الإشارة إلى خلق أمة نحل العسل، وإلى إعطائها قدراً من الوعي والإدراك، ومنحها القدرات الفطرية على تنظيم مجتمعاتها تنظيماً مبهراً دقيقاً تتوزع فيه الاختصاصات والمسؤوليات والمهام في عيش جماعي تكافلي رائع؛ ومن هنا كانت الإشارة إليها بالجمع في تسمية السورة (سورة النحل) وفي الآيات التي جاء ذكر النحل فيها. وإعطائها كذلك قدراً من الحرية الكبيرة في اختيار بيوتها من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون، وقدراً من معرفة الأماكن والاتجاهات، وقوة على الطيران بسرعات فائقة حتى تغطي أكبر مساحة ممكنة من الأرض تجني الرحيق وحبوب اللقاح من أزهار نباتاتها، ومنحها القدرة على تحويل ذلك في بطونها إلى شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

12 ـ الاستشهاد على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق الإنسان باستخراج هذه البلايين من الرجال والنساء من نفس واحدة هي نفس أبينا آدم عليه السلام التي خلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، وخلق من هذه الأزواج البنين والحفدة في دورة مبهرة

البنية التشريحية للنحلة العاملة



للحياة، وجعل من كل هؤلاء من يتوفى مبكراً، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر وضعف البنيان الجسدي، ومن أبرز مظاهره فقدان الذاكرة جزئياً أو كلياً.

13 ـ الإشارة إلى السمع قبل البصر في هذه السورة المباركة وفي العديد من السور القرآنية الأخرى. والدراسات العلمية تؤكد السبق في نشاط حاسة السمع على حاسة البصر في أجنة الإنسان وفي أجنة غيره من المخلوقات، وبعد الميلاد مباشرة. فالجنين يسمع في بطن أمه ولا يرى، ويسمع بعد ميلاده مباشرة بينما تتأخر قدرة الرؤية عنده إلى ما بعد ذلك.

14 ـ التلميح إلى الإمساك بالطيور مسخرات في جو السماء، وإلى حقيقة أنه لا يمسكهن إلا قدرة الله البالغة.

15 ـ استخدام تعبير ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ بمفهوم كلٍّ من الحرارة والبرودة؛ لأن كلها درجات حرارة نسبية فإذا كانت درجة الحرارة فوق المعتاد كانت تعبيراً عن الحر، وإذا كانت دون المعتاد كانت تعبيراً عن البرد، وهي حقيقة علمية لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده.

16 ـ تحريم أكل كلٍّ من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والبحوث العلمية أثبتت أخطار ذلك كله على صحة الإنسان.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها؛ ولهذا فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة العاشرة من القائمة السابقة التي عبرت عنها الآية الكريمة رقم (68) من سورة النحل.

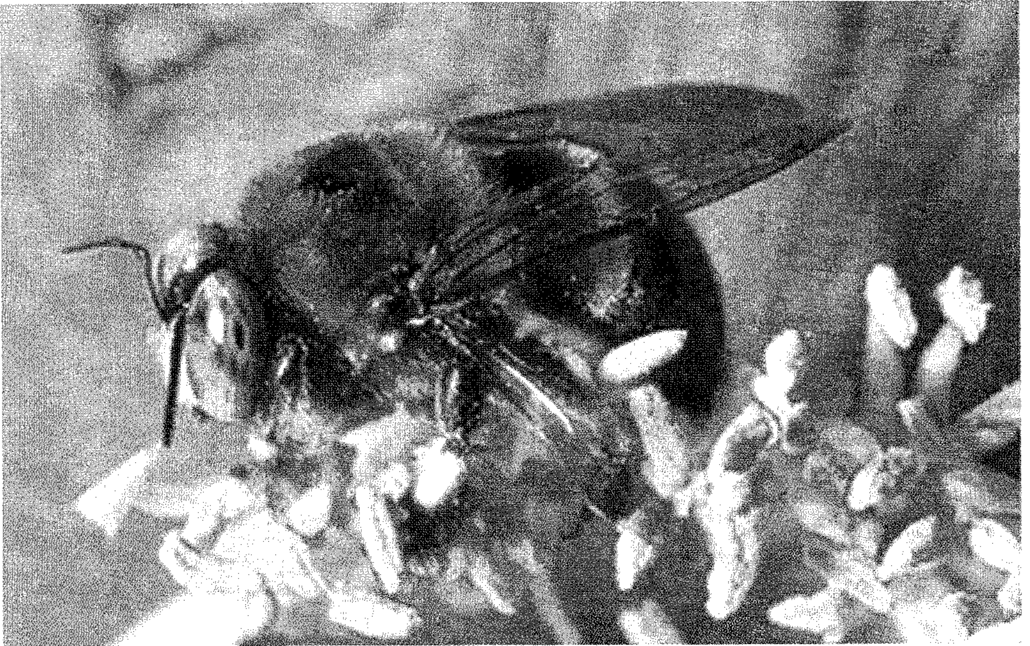
وقبل استعراض دلالتها العلمية لا بد من الرجوع إلى كلام عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

«سورة النحل، الآية: 68».



- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «المراد بالوحي ـ هنا ـ: الإلهام والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون».

- **وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه:** «والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحي تعمل بمقتضاه، وهي تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى؛ وهي تتخذ بيوتها حسب فطرتها في الجبال والشجر ومما يعرشون أي ما يرفعون من الكروم وغيرها...».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة لإعادته هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في الخطاب بالتأنيث وبالجمع وفي الماضي:

واضح من هذه الآية الكريمة أن النحل المقصود هنا هو نحل العسل بدليل قوله ـ تعالى ـ في الآية التي تليها:... ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾

«سورة النحل، الآية: 69».

و(الواو) حرف عطف لا يدل على الترتيب، وقد تكون بمعنى (مع) لما بينهما من المناسبة لأن (مع) تعني المصاحبة، وواضح الأمر هنا أنها للجمع بين الشيئين دون الترتيب، فبعد أن ذكر الله ـ تعالى ـ عدداً من دلائل قدرته في إبداع خلقه، ومنها إخراج اللبن إلى ضروع الأنعام من بين فرث ودم، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ـ وإن أساء بعض الناس استخدامه ـ، ذكر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآية الكريمة قدرته البالغة في الإيحاء إلى الشغالات من نحل العسل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم أن تأكل من كل الثمرات وتسلك سبل الله المذللة لها، وأن تخرج من بطونها ذلك الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس؛ ولذلك جاء الخطاب في هذه الآيات موجهاً إلى أنثى عسل النحل من الشغالات؛ لأنها هي التي تبني البيوت، وهي التي تطير إلى عشرات الكيلومترات لتجمع رحيق الأزهار وحبوب اللقاح من

العديد من النباتات المزهرة، وهي التي أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على إنتاج ذلك الشراب المعروف إجمالاً باسم عسل النحل.

والفعل (أوحى) هنا من معانيه الإلهام والتسخير، ومن معاني الوحي: الإلقاء بالأمر أو بالخبر في خفاء وسرعة، والوحي من الله ـ تعالى ـ إلى نحل العسل قد يكون نوعاً من الإلهام الفطري الغريزي الذي زرعه الله ـ تعالى ـ في جبلتها أو في الشيفرة الوراثية الخاصة بنوعها، أو ألقاه في روعها بعلمه، وحكمته، وقدرته وكلا الأمرين يشي بشيء من الغرائز الفطرية لدى نحل العسل تعطيه قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور والإحساس الذي يمكنه من تمييز الأشياء، والأماكن، والاتجاهات، والأوقات، كما يمكنه من تنظيم وترتيب وضبط حياته الاجتماعية بعدد من القواعد الدقيقة التي وهبه الله ـ تعالى ـ إياها.

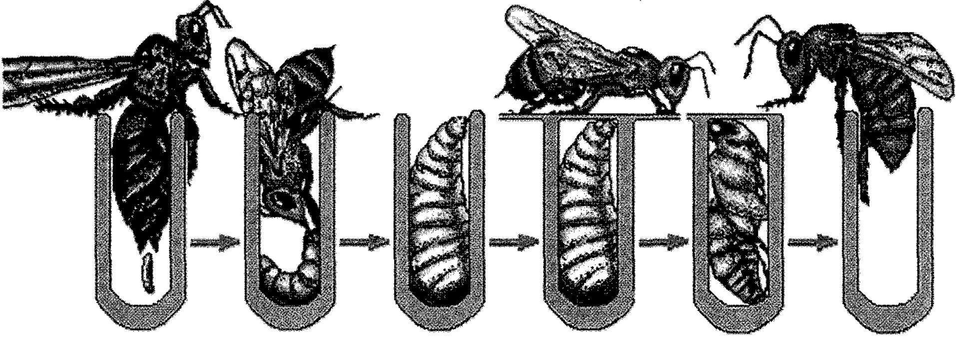
وهذا العلم الوهبي الذي منّ الله ﷻ به على نحل العسل، لم يحرم منه أياً من مخلوقاته التي وهب كل أمة منها قدراً منه يتفاوت بتفاوت الدور المخطط لها في هذه الحياة، وفي الحدود التي خططها لها الله ـ سبحانه ـ بعلمه وحكمته وقدرته.

وقد تعرف علماء الحشرات على أكثر من 12000 نوع من أنواع النحل، منها حوالي 600 نوع يَحْيَون حياة جماعية في مستعمرات متباينة الأحجام، والباقي يحيون حياة فردية.

ونحل العسل المقصود في الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها يحيا في جماعات منظمة تنظيماً دقيقاً للغاية؛ ولذلك جاء اسم السورة الكريمة بصيغة الجمع ـ النحل ـ، وجاءت الإشارة في الآيتين الكريمتين المتعلقتين بهذه الحشرة المباركة بصيغة الجمع أيضاً حيث يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾.

ويتراوح عدد الأفراد في خلية نحل العسل سنوياً من 40000 إلى 80000 شغالة من إناث النحل العاقرات (العواقر)، وحوالي المائتين من ذكور النحل، وملكة واحدة تبيض حوالي 1500 بيضة في اليوم، وما يلقح من هذا البيض ينتج إناثاً وملكات، وما لا يلقح ينتج الذكور. ووظيفة ذكر النحل منحصرة في إخصاب الملكة، بينما تقوم شغالات النحل العقيمة بجميع أعمال الخلية. والملكة تمثل أكبر الأحجام في الخلية، يليها في الحجم الذكور، ثم الشغالات.



وتتمثل دورة حياة نحل العسل في المراحل الأربع التي تتحرك فيها من طور البيضة إلى طور اليرقة، إلى طور العذراء (الخادرة)، ثم إلى طور الحشرة الكاملة.

وواضح الأمر أن النحل المقصود في الآية الكريمة التي نحن بصددها هو نحل العسل، ويوجد منه أربعة أصناف هي كما يلي:

1 ـ النحل الكبير (Apis dorsata).

2 ـ النحل الصغير (Apis florea)

3 ـ النحل الهندي (الشرقي) (Apis cerana)

4 ـ النحل الغربي (Apis melifera)

والأصناف الثلاثة الأولى لا تزال تحيا حياة برية في العديد من دول جنوب شرق آسيا، والرابع هو الصنف المستأنس والمنتشر في غالبية دول عالم اليوم، ولذلك فهو أهم هذه الأنواع الأربعة.

ونحل العسل لا يستطيع العيش إلا في جماعات منظمة تنظيماً دقيقاً، فإذا انعزلت

إحداها عن جماعتها لسبب من الأسباب فعليها أن تنضم إلى جماعة أخرى من صنفها إذا قبلتها أو أن تموت.

وجاء التعبير عن وحي الله ـ تعالى ـ إلى النحل بصيغة الماضي ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾؛ لأن ذلك يشمل الزمن كله من الماضي إلى الحاضر والمستقبل.

وذلك لأن الزمن الذي يحد المخلوقين بحدود آجالهم، كما يحد أقوالهم وأفعالهم في حياتهم، هذا الزمن نفسه هو من خلق الله ـ تعالى ـ، والمخلوق لا يحد خالقه أبداً؛ وعلى ذلك فإن الزمن لا يحد الله جَلَّ جَلَالُهُ، ولا يحد أفعاله وأوامره، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 73».

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ «سورة النحل، الآية: 40».

ويقول جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

«سورة مريم، الآية: 35».

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ «سورة يس، الآية: 82».

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ «سورة غافر، الآية: 68».

وانطلاقاً من ذلك فإن كلاً من الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ هو حاضر، لأن الله ـ تعالى ـ فوق الكون بأماكنه، وأزمنته، ومختلف صور المادة والطاقة فيه، ومرجعية كل شيء في الكون ومرجعية الكون كله إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بالإضافة إلى ذلك فإن أقدم أثر للنحل في صخور القشرة الأرضية يرجع إلى أكثر من مائة وخمسين مليوناً من السنين، وأمر الله ـ تعالى ـ إلى النحل، وإلهامه إياه بهذا السلوك المنظم الدقيق قد غرسه أو غرزه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في جبلة نحل العسل؛ أي في شيفرته الوراثية منذ الخلق الأول لأمة النحل، وجعل ذلك جزءاً من فطرتها التي فطرها الله ـ تعالى ـ عليها؛

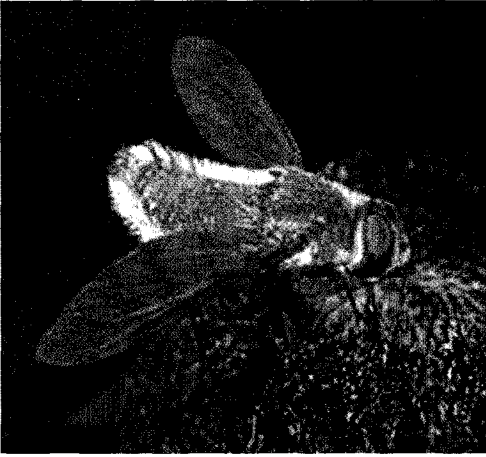


ولذلك تعرف باسم الفطرة أو الغريزة؛ ولما كان ذلك قد تم منذ أكثر من مائة وخمسين مليوناً من السنين فهو بالنسبة لنا يرجع إلى ماضٍ بعيد جداً.

ولما كان الأمر أو الإلهام الإلٰهي إلى النحل مستمراً من هذا الماضي البعيد جداً إلى زمننا الراهن، وممتداً في المستقبل إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها كان التعبير عن عملية الوحي هذه بصيغة الماضي هو الأنسب لتغطية هذا الحدث القديم والمستمر إلى أن يشاء الله ـ تعالى ـ.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾:

و(رب) كل شيء هو مالكه، والمتكفل برزقه وقضاء حاجاته ومنشئه ومنمّيه ومربّيه والرقيب عليه والمتكفل بإصلاح حاله، و(الرب) اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ، ولا يقال لغيره إلا بإضافة، وقد استخدم هنا التعبير (ربك) ليفيد بأن الله ﷻ هو رب كل شيء ومليكه، وهو واهب النعم، ومجري الخيرات، وموزع الأرزاق، ومسخر الكائنات لخدمة بعضها بعضاً ولخدمة ذلك المخلوق المكرم المعروف باسم الإنسان أو بني آدم، ولم يستخدم تعبير (إلٰهك)؛ لأن الإلٰه هو المعبود المقدس المنزه عن صفات خلقه، وعن كل







وصف لا يليق بجلاله. والمقام هنا مقام التحدث بنعمة هي من أعظم صور رزق الله على الإنسان؛ ألا وهي نعمة عسل النحل الذي فيه شفاء للناس. والأنسب في حال ذكر النعم هو مقام الربوبية، كما أن الأنسب في حال ذكر وجوب الخضوع للخالق الأعظم بالطاعة والعبادة هو مقام الألوهية.

وضمير المخاطب في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾. يعود في المقام الأول إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ثم من بعد ذلك إلى كل من يقرأ هذه الآية الكريمة أو يسمعها ليعلم أن له رباً كريماً، عليماً، حكيماً أنشأ له هذه الحشرة المباركة التي وهبها من القدرة على صناعة هذا الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس، ما تعجز عنه البشرية مجتمعة.

ثالثاً: في قوله ـ تعالى ـ:... ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾:

والخطاب هنا على الرغم من أنه موجَّه إلى النحل كله، إلا أنه جاء بصيغة الضمير المفرد المؤنث ليختص إناث النحل من الشغالات اللائي يقمن بالبحث عن المكان المناسب لبناء بيوت النحل، ويقمن بالبناء بذواتهن، وبصيانة وتنظيف وترميم البناء، وعلى حمايته وتهويته، وهذا القدر من الحرية الكبيرة الذي أعطاه الله تعالى إلى

أمة نحل العسل في اختيار مسكنها ـ أي: المكان الذي تبني فيه بيوتها من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون ـ له حكمة بالغة؛ لأنه يتيح لهذه الحشرة الصغيرة الحجم فرصة الاستفادة بأكبر عدد ممكن من البيئات المختلفة وبما فيها من متنوع النباتات حتى تنوع ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرج من بطونها والذي فيه شفاء للناس، ويجعل الله تعالى من أنواعه المختلفة شفاء لأمراض متباينة، وهذا بخلاف العديد من الحيوانات بصفة عامة ومن الحشرات بصفة خاصة التي حدد الله ـ تعالى ـ لها بيئات لا تستطيع الخروج عنها وإلا هلكت.

واتخاذ أي تجمع من تجمعات أمة نحل العسل القرار ببناء بيوت لها يحتاج إلى عمليات استطلاع وبحث وتشاور مكثفة حتى يتم الإجماع على اختيار المكان. وتبدأ الشغالات في بناء مستعمرة النحل من الشمع الذي تفرزه من غدد خاصة في أسفل بطن كلٍّ منها تعرف باسم **الغدد الشمعية** وعددها أربعة أزواج.

ومن إلهام الله ـ تعالى ـ للشغالات بناء بيوت النحل على الهيئة السداسية الأضلاع للقضاء على المسافات البينية التي يمكن أن تنشأ عن الأشكال الأخرى؛ ولبناء أكبر عدد ممكن من البيوت في مساحة محددة، ولملاءمة هذه الأشكال السداسية لنمو يرقات النحل الأسطوانية الشكل. ويقوم على حراسة الخلية عدد من الشغالات بالتناوب على باب الخلية من الداخل، فإذا حضر مهاجم لدغته النحلة الحارسة وماتت على الفور.

ويقوم فريق آخر من الشغالات بأعمال صيانة وترميم ونظافة خلايا النحل باستمرار، ومن عجائب الأمور أن النحل لا يتغوط أبداً في داخل الخلية، ولا يُبْقِي فيها أدنى قدر من القاذورات، كما تقوم بعض شغالات النحل بتلميع وترميم وصيانة الخلية من الداخل باستمرار، وبسد أي شقوق يمكن أن تحدث فيها باستخدام **صموغ (غراء) نحل العسل**، وهي مواد صمغية (راتنجية) لزجة، تجمعها شغالات النحل من براعم بعض النباتات ومن قلف بعض الأشجار، وتستخدمها أيضاً في الإحاطة التامة ببقايا بعض الحشرات المهاجمة بعد قتلها كي لا تتعفن قبل إلقائها إلى خارج الخلية.

ويقوم فريق ثالث بتهوية الخلية وتكييفها، وفريق رابع يقوم على العناية بالصغار في مراحل النمو المختلفة من البيضة إلى الحشرة الكاملة.

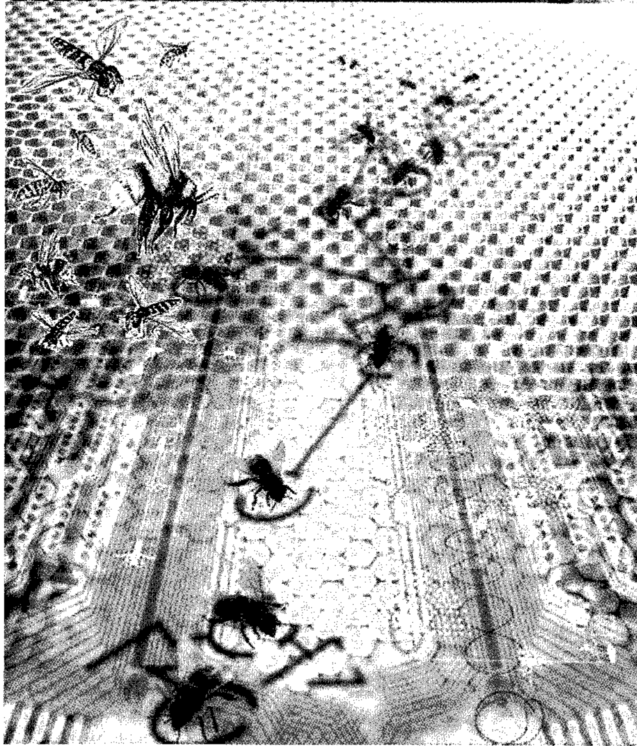
والآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها تشير إلى سبق خلق النحل لخلق الإنسان، وهي حقيقة علمية ثابتة، وإلى أن النحل سكن الجبال والأشجار قبل أن يغرس له الإنسان المناحل المختلفة، كما تشير إلى أفضلية أنواع عسل النحل الجبلي على الشجري على عسل المناحل الاصطناعية.

واستخدام حرف الجر (من) بدلاً من (في) يفيد التبعيض لأن النحلة لا تبني بيتها في كل الجبل ولا في كل الشجر. والله تعالى أعلم.

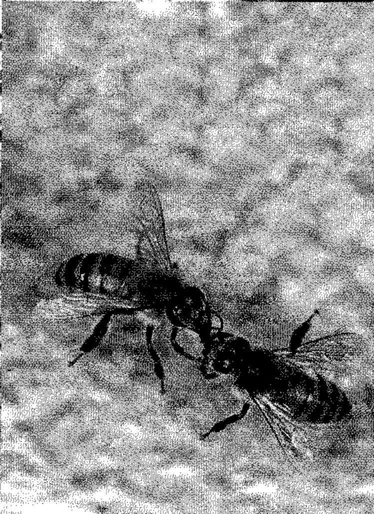
هذه الدقة العلمية الفائقة في الإشارة إلى ما وهب الله ـ تعالى ـ النحل من ذكاء فطري وعلم وهبي تحاول المعارف المكتسبة اليوم الكشف عن شيء منه، والذي أشارت إليه الآية الكريمة بالفعل (أوحى) واستخدام صفة الربوبية للخالق ﷻ بدلاً من صفة الألوهية في مقام التحدث عن نعمة من نعمه، ومن توحيد الربوبية لله الخالق وصفه ـ تعالى ـ بأنه وحده هو واهب النعم ومجري الخيرات، بينما توحيد الألوهية يقتضي ألا يعبد سواه.

كذلك فإن استخدام ضمير المخاطب في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾ قصد به في المقام الأول خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولكنه ينسحب أيضاً على كل قارىء أو مستمع لهذه الآية الكريمة، ثم إن في الإشارة إلى النحل بصيغة الجمع ـ ونحل العسل لا يعيش إلا في جماعات كبيرة ـ وفي توجيه الخطاب إلى المفردة من إناث النحل ـ الشغالات ـ بالفعل (اتخذي) وهن اللائي يقمن بالبحث عن السكنى، كما يقمن على بناء البيوت وصيانتها وحراستها ونظافتها وترميمها وتكييفها، وتهويتها، وفي هذه المساحة الهائلة من البيئات المتعددة التي وهبها الله ـ تعالى ـ لأمة نحل العسل على عكس غيرها من المخلوقات، كل ذلك يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد، وسوف يبقى القرآن الكريم محفوظاً كذلك إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

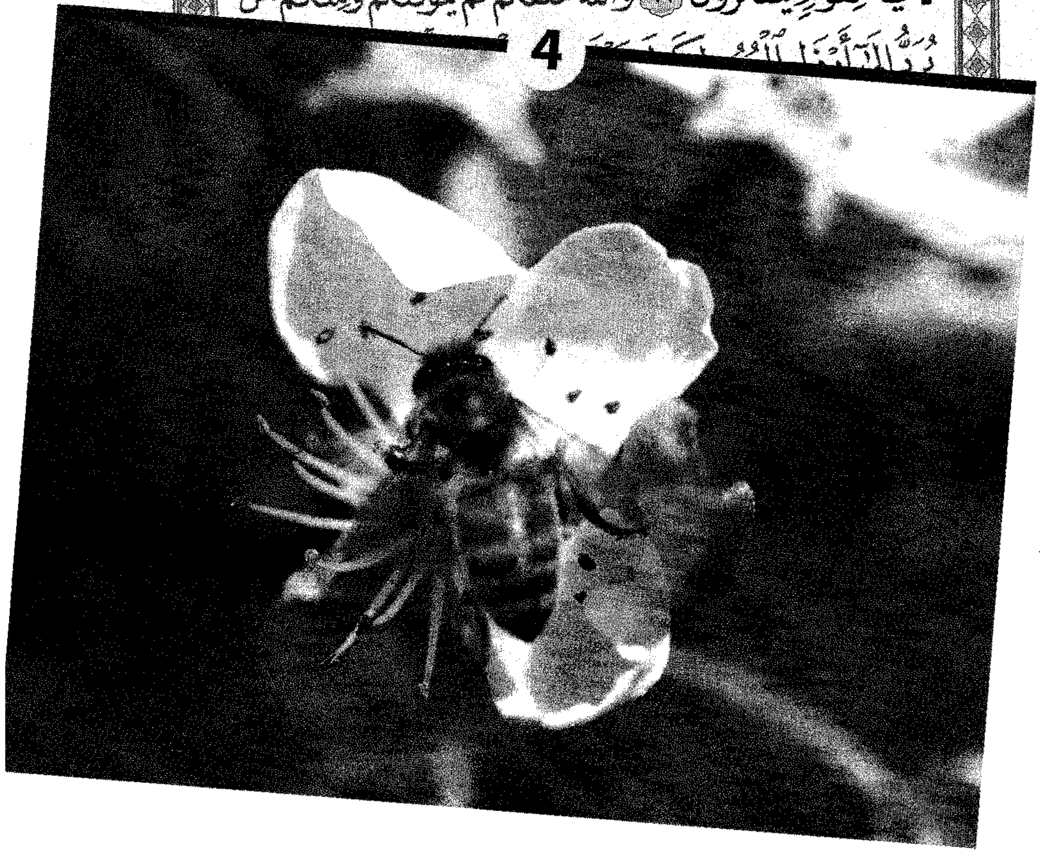
فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والصلاة والسلام على النبي الخاتم الذي تلقاه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.







وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ
نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا
لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ
سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن



﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ ...﴾ «سورة النحل، الآية: 69»

4

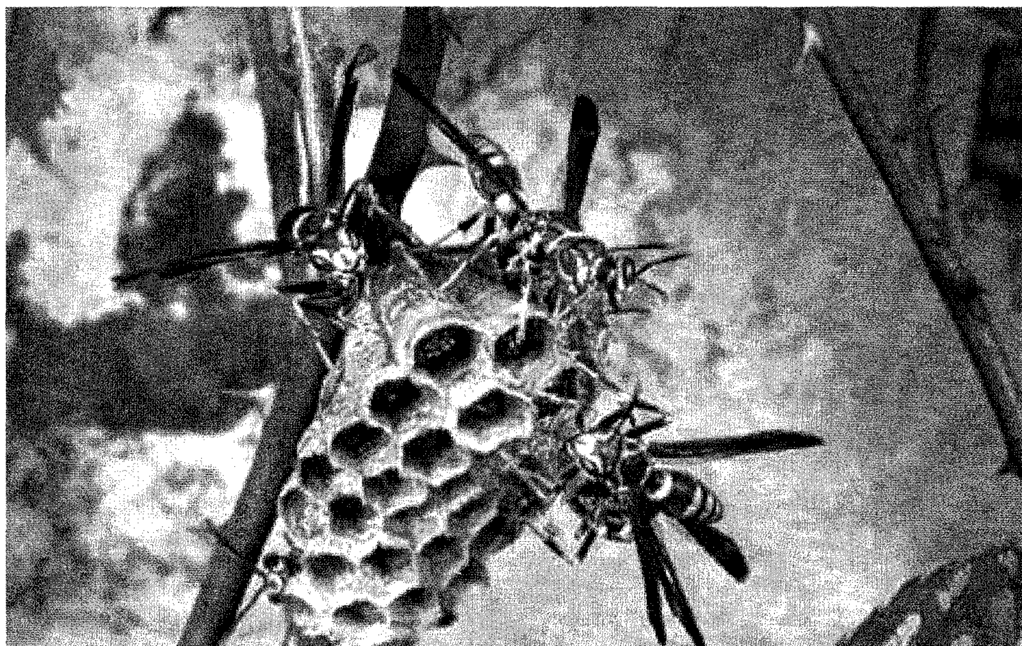


هذا النص القرآني الكريم جاء في بدايات النصف الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المجموعة من الحشرات المعروفة باسم نحل العسل، والتي نحلها الله ـ تعالى ـ القدرة على جمع رحائق الزهور، وغبار طلوعها، وهضمه وتحويله في بطونها إلى ذلك الشراب المختلف الألوان، الذي جعل الخالق سبحانه وتعالى فيه شفاء للناس.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النحل» حول قضيتين من ركائز الدين الإسلامي الحنيف وهما: العقيدة، ومكارم الأخلاق، وفي سبيل الاستشهاد على حجية ما دعت إليه أوردت السورة الكريمة عدداً من آيات الله في الكون، تنطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، وتشهد على حتمية البعث، وعلى وحدانية الخالق سبحانه وتعالى: بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والخالق منزه تنزيهاً كاملاً عن صفات خلقه.

وقد صيغت هذه الإشارات الكونية في سورة «النحل»، كما صيغت في باقي سور القرآن الكريم صياغة فائقة الدقة والشمول والكمال، مما يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم، الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة؛ حيث لم يكن لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بشيء من تلك الحقائق التي لم يصل إليها علم الإنسان إلا في خلال القرنين الماضيين على أقصى تقدير.

ولما كنا قد ذكرنا في المقال السابق كلاً من الإشارات الكونية وركائز العقيدة ومكارم الأخلاق الواردة في سورة النحل فسوف أقصر حديثي هنا على الإعجاز في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ ...﴾. وقبل استعراض الدلالة العلمية لهذا النص الكريم لا بدّ من الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرحه.



من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «.. ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها؛ أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل فتبني الشمع... وتقيء العسل من فيها...».
- وذكر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ، كلاماً مشابهاً لا داعي لتكراره.
- وجاء كل من «الزمخشري» و «أبي حيان» بتفسير للسبل، بمعنى الطرق التي ألهمها الله ـ تعالى ـ لشغالات النحل في عمل العسل، مع عدم إنكار المعنى السابق أي الطرق.
- وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «والنحل تعمل بإلهام من

الفطرة التي أودعها إياها الخالق... وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق...».

- وجاء في «صفوة البيان لمعاني القرآن» ـ رحم الله كاتبها رحمة واسعة ـ ما نصه: «... وفي غدوها لاقتطاف الأزاهير والثمار، ورواحها إلى خلياتها من مسافات بعيدة دون أن تخطئها، وفي تنصيب أمة النحل في الخلايا ملكة عليها نافذة الحكم والسلطان، وإقامة حاجب على كل خلية يحرسها ولا يمكن غير أهلها من الدخول فيها مع صغر حجم النحلة وضعف بنيتها، ودأبها على العمل بنظام دقيق أدلة متضافرة على كمال قدرة مبدعها، وبداعة صنع ملهمها...، ﴿سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ مذللة، ذللها الله تعالى وسهلها لك ـ جمع ذلول ـ وهو حال من (سبل) أي الطرق التي هداها الله إليها وهي راجعة إلى خلاياها وبيوتها...».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «ثم هداها الله سبحانه للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهل لها أن تسلك لذلك طرقاً هيأها لها ربها مذللة سهلة فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم، ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم بالتأمل فيفوزون بالسعادة الدائمة». وبالهامش تعليق للخبراء على تركيب عسل النحل.

- وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه: «﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها....، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾؛ أي ادخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرة لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب...».

ومن الغريب حقاً، أن يصل عدد من قدامى المفسرين من أمثال الزمخشري (في الكشاف)، وأبو حيان (في تفسير البحر المحيط)، والنسفي (في مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، والعز بن عبد السلام في (فوائد في مشكل القرآن) إلى تفسير قول الحق (تبارك وتعالى): ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ بالطرق التي يرشح منها الغذاء الذي تأكله شغالات النحل إلى فمها فيخرج عسلاً، ويأتي العلم الحديث مؤكِّداً أن الله ـ تعالى ـ قد زوَّد

شغالات النحل بأربع مجموعات من الغدد التي تنتقي من غذائها: **العسل، والغذاء الملكي، والشمع، والخمائر، والسموم**، وليس هذا لغير شغالات النحل.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

أولاً: في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

واضح الأمر أن المقصود بالثمرات هنا، هي الزهور بما فيها من الخلايا التناسلية التي تنتجها النباتات المزهرة، والرحائق المصاحبة لها، وهذه الخلايا التناسلية منها الأنثوية (بويضات الزهور)، والذكرية (حبوب اللقاح أو غبار الطلع)، وباتحادهما تتم عملية إخصاب الزهور وإنتاج الثمار المعروفة لنا في أغلب الأحوال؛ لأن بعض الثمار قد تنتج عن تضخم مبيض الزهرة وحده أو الكأس وحده أو غير ذلك من أجزاء الزهرة. ونستند في ذلك إلى قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الرعد:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ...﴾ «سورة الرعد، الآية: 3».

فزهور النباتات تحمل كلاً من أعضاء التأنيث (مبيض الزهرة)، وأعضاء التذكير (أسْدِية الزهرة التي تنتج حبوب اللقاح)، وقد ينفصل الجنسان على شجرة مؤنثة وأخرى مذكرة، كما هو الحال في نخيل البلح، وقد يوجدان في نفس الزهرة الواحدة، كما هو الحال في زهرة التين.

وفي الحالتين الأخيرتين تتم عملية إخصاب الزهرة بما يعرف باسم عملية التلقيح الخلطي، حيث تقوم الحشرات أو الرياح أو كلاهما بنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى بويضات زهرة أخرى؛ وذلك لأن تلقيح بويضات الزهرة بحبوب لقاحها هي، يتسبب في إضعاف كلٍّ من ثمرتها ونسلها تماماً كما يحدث في تكرار زواج الأقارب لأجيال متعاقبة.

ولذلك فإن من حكمة الله البالغة في خلقه أننا نجد تفاوتاً كبيراً في أطوال الأسدية والبويضات المجتمعة في زهرة واحدة، أو تفاوتاً في أزمنة نضج كل منهما حتى يلقح بنظير من زهرة مختلفة من نبات آخر من نفس النوع؛ وذلك لتحسين كل من النسل والثمار،

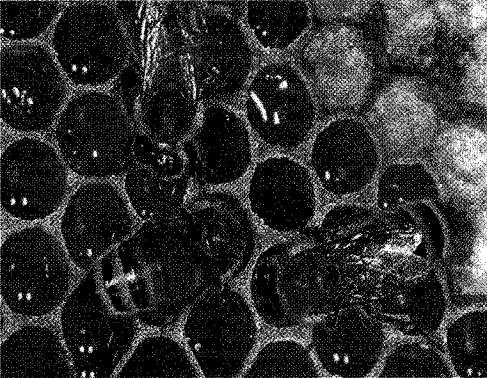
وتقوم الشغالات من إناث النحل بالدور الأكبر في عملية التلقيح الخلطي للزهور، وذلك في أثناء امتصاصها للرحائق وحملها قدراً من حبوب اللقاح.

فشغالات النحل تتغذى على كل من رحيق الأزهار وحبوب اللقاح الموجودة فيها، والرحيق عبارة عن محلول مائي غني بالكربوهيدرات التي أهمها السكريات، أما حبوب اللقاح فهي غنية بكل من البروتينات، والأحماض الأمينية، والفيتامينات، والخمائر، بالإضافة إلى عدد من العناصر المعدنية.

ويفرز الرحيق بواسطة غدد خاصة في الزهرة، توجد عادة في قاعدة السداة (أعضاء التذكير)، وهي غدد معقدة البناء تقوم على تنظيم عمليات تركيب الرحيق وتدفقه إلى داخل الزهرة باستمرار طوال فترة حياتها.

وقد ألهم الله ـ تعالى ـ الشغالات، من إناث نحل العسل، اختيار فرق من المستكشفات من بينهن يغادرن الخلية للبحث عن الأزهار الحاملة للرحيق، ثم يعدن لإخبار بقية الشغالات عن أمكنة وجود تلك الزهور، وعن أنواعها، وأنواع ما تحمله من الرحيق، وتحدد لها الموقع بدقة فائقة، فتتحرك جامعات الرحيق من الشغالات إلى تلك المناطق، متنقلة من زهرة إلى أخرى لجمع ما تستطيع جمعه من الرحيق ومن حبوب اللقاح، ومع تنقلها تحمل بعض حبوب اللقاح من زهرة إلى أخرى، فتعين على إخصابها، مما يؤدي إلى إنتاج الثمار والبذور التي تساعد على تكاثر النبات واستمرارية سلالاته.

وتتغذى الشغالات الجانية لعسل النحل على جزء مما تجمعه، وتغذي عدداً من أفراد خليتها على جزء آخر منه، ويمكنها الباقي من صناعة الشراب الشافي من العسل، والغذاء الملكي، والشمع والسم.



ولكي تنتج الواحدة من شغالات النحل كيلو جراماً واحداً من العسل الناضج، فعليها أن تجمع ما بين 3، 4 كيلوجرامات من رحيق الأزهار، ويستلزم ذلك ما بين ستمائة ألف وثمانمائة ألف طلعة، والوقوف على ما يتراوح بين ستة الملايين وثمانية الملايين زهرة.

ويتفاوت مجموع أطوال المسافات التي تقطعها شغالة النحل لتحقيق ذلك، بتفاوت بعد الزهور عن الخلية، وإن كان يصل في المتوسط إلى نحو نصف مليون كيلومتر، وهي مسافة تعادل أكثر من عشرة أضعاف محيط الأرض، المقدر بنحو أربعين ألف كيلومتر (40،075 كم) عند خط الاستواء، (وهو أقصى طول لمحيط الأرض)؛ وذلك لأن كيس العسل في الشغالة من إناث النحل يتَّسع لنحو خمسين ملليجراماً من الرحيق في المتوسط، ويستغرق ملؤه بالرحيق قرابة الساعة تزور خلالها الشغالة ما يقرب من مائة زهرة، وعادة ما تركز على نوع معين من الزهور في كل فصل من فصول السنة، وبذلك تقطع آلاف الكيلومترات ذهاباً وإياباً بين الخلية وموضع الزهور الحاملة للرحيق[1].

وبالإضافة إلى الرحيق تجمع الشغالة حبوب اللقاح، ويبلغ متوسط ما تجمعه الشغالة الواحدة من تلك الحبوب نحو عشرين ملليجراماً في كل طلعة، وهي حبوب متناهية الصغر، الواحدة منها عبارة عن خلية كاملة محاطة بغلاف داخلي هش وغلاف خارجي مقاوم لكلٍّ من التفكك، والتعفن، والحرارة العالية، وكلٍّ من الحموضة والقلوية الشديدتين، وتجمع شغالة النحل حبوب اللقاح في سلال خاصة على أرجلها الخلفية وتعود إلى خليتها مثقلة بما تحمله من الرحيق وحبوب اللقاح؛ لتفرغه في عيون خاصة بالخلية.

وبعد ذلك تقوم العاملات من الشغالات في داخل الخلية بتفتيت حبوب اللقاح وخلطها بالقدر المناسب من العسل، وكبسها في عيون خاصة بخلية النحل لكي تتغذى عليه اليرقات الكبيرة. أما اليرقات الصغار فتتغذى على مادة هلامية بيضاء تفرزها الشغالات تعرف باسم **الهلام الملكي** ثم يستبدل ذلك بعد أيام برحيق الأزهار وحبوب اللقاح. أما اليرقات التي تعد لمنصب الملكات فإنهن يغذين باستمرار **بالهلام الملكي (المعروف باسم غذاء ملكات النحل)** وقد زود الله ﷻ تلك الحشرة بحواس متطورة للبصر والشم والتذوق وبأجهزة خاصة لتقدير المسافات والاتجاهات والأزمنة بواسطة ما يعرف باسم **الساعة الحيوية**. ومن هذه الأجهزة: ثلاث عيون بسيطة وزوج من العيون المركبة التي تحتل مكاناً مناسباً من رأسها وتتكون كل عين منها من 6300 عدسة صغيرة متجانسة، وهذا النظام الإبصاري المعقد والمكون من العيون المركبة والبسيطة يعين النحلة على الرؤية من مسافات بعيدة ومرتفعات

---

(1) وجوه الإعجاز في آيات النحل، د. رضا فضيل بكر.

شاهقة حيث تستطيع شغالة النحل الطيران لمسافة تتراوح بين 7، 11 كم ذهاباً، ومثلها إياباً من الخلية وإليها بسرعة تصل إلى60 كم/ ساعة في الذهاب، ونصف ذلك في الإياب. وقد أعطى الله ﷻ عيون النحلة القدرة على تمييز عدد من أطياف النور الأبيض بالإضافة إلى الأشعة فوق البنفسجية التي لا تراها عين الإنسان؛ وبذلك تستطيع تمييز ألوان الزهور بدقة فائقة، كما أعطاها الخالق العظيم قدرات عالية لكل من حاستي الشم والتذوق؛ لتمايز بين الزهور بواسطة روائحها وروائح ما بها من الرحيق ومن حبوب اللقاح، ولتمايز بين طعوم ما بها من سكريات فتقبل على المناسب منها وتتجنب غير المناسب.

كذلك زود الله ـ تعالى ـ شغالات النحل بزوجين من الأجنحة الغشائية موزعين على جانبي جسمها، وبفم قارض لاعق، وبعدد من قرون الاستشعار التي يتألف الواحد منها من (13) عقلة تحتوي العقل الست الأولى منها على حفر صغيرة يحف بها من أسفل أقراص سمعية مرنة يتصل كل منها بعصب حسي دقيق وبمراكز لكل من اللمس والشم، ويبلغ عدد المراكز الحسية على قرن الاستشعار الواحد ما يصل إلى نحو ألفين وأربعمائة مركز، كل هذه التجهيزات أعانت الإناث من شغالات النحل على جمع أكبر قدر ممكن من رحيق الأزهار وطلوعها.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً...﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

إن ورود هذه الجملة القرآنية الكريمة على هذا النحو قد بين الأمر إلى إناث النحل من الشغالات بالأكل من كل الثمرات، وقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد ذلك:

﴿...يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ جعل من معاني ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ ما يتجاوز مجرد تمكن شغالات النحل من التحرك من خلاياها إلى مناطق الزهور والرحائق ثم العودة إلى خلاياها دون أن تضل الطريق مهما تباعدت المسافات بعد أن تكون قد أكلت من كل الثمرات، وحملت من رحيق الأزهار وحبوب اللقاح الخاصة بها إلى معنى آخر يشمل الطرق التي ألهمها الخالق ﷻ أن تصنع عبرها ذلك الشراب الشافي مما جمعته بواسطة العديد من الخلايا الحيوية والغدد الخاصة التي تقوم على تجهيز هذا الشراب الشافي عبر الطرق التي تصل بين معدة النحلة والغدد المختلفة التي تقوم بتحويل الغذاء إلى هذا الشراب الذي جعل الله

ـ تعالى ـ فيه شفاءً للناس. ومعدة النحلة تختلف في تركيبها عن معي سائر الحشرات، والوسائل الفطرية التي ألهم الله ـ تعالى ـ بها النحلة، كي تستطيع بواسطتها تحويل ما جمعته من غذاء إلى عسل، وشمع، وسم، وغذاء الملكات، والإنزيمات التي تحول السكريات المعقدة في رحيق الأزهار إلى سكريات بسيطة، هي وسائل خص الله ـ تعالى ـ بها النحل دون العديد من الحشرات.

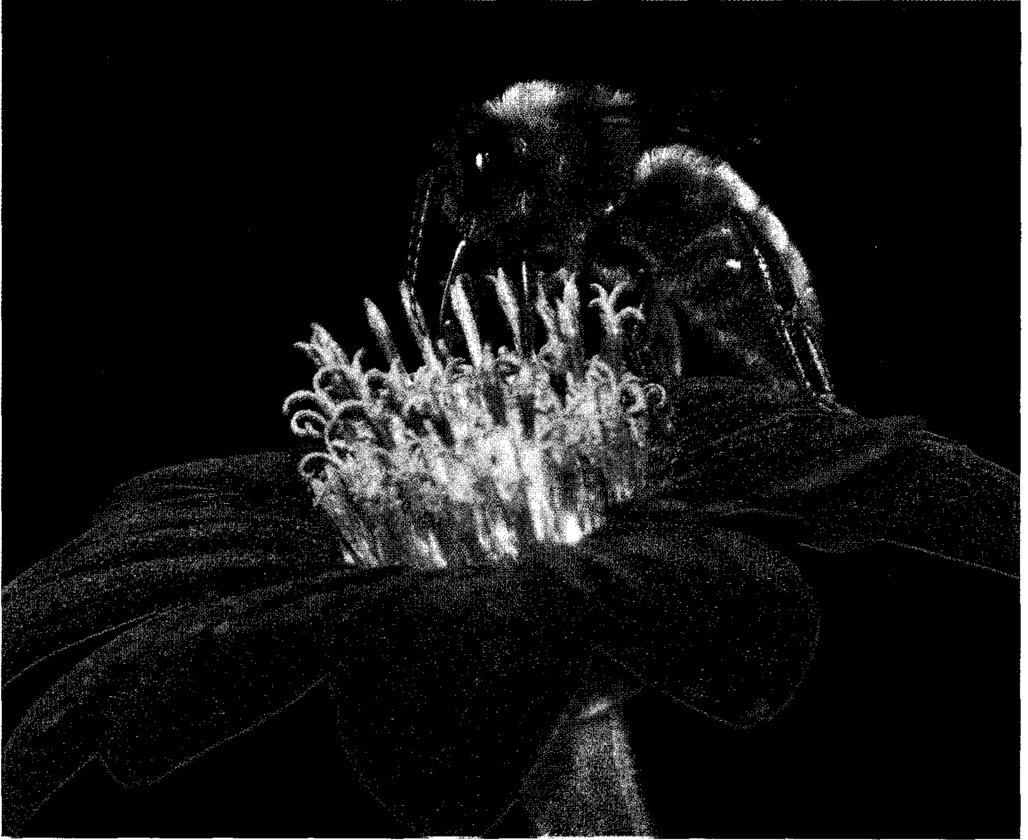
ومن السبل التي يسرها الخالق ﷻ للشغالات من إناث النحل؛ كي يمكنها من إنتاج هذا الشراب العجيب الذي جعل فيه شفاء للناس: فم قارض، ماص، لاعق، وشفاه ملعقية، وخرطوم ماص وجهاز هضمي مميز يختلف عنه في بقية الحشرات يبدأ بعد الفم بالبلعوم، ثم المريء الذي يمتد حتى البطن الذي ينتفخ في جزء منه، مكوناً معدة العسل التي أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على إفراغ محتوياتها إلى أقراص شمع الخلية عن طريق الخرطوم لتخزين العسل فيها، ثم المعدة الوسطى التي تقوم بعملية هضم الغذاء، ثم المعي السفلي التي تنتهي بجهاز الإخراج. ويتكون العسل بإفراز عدد من الإنزيمات الخاصة من الغدد اللعابية على الرحيق لتحول ما به من السكريات الثنائية ـ مثل سكر القصب ـ إلى سكريات أحادية من مثل كل من سكر العنب وسكر الفواكه، التي تختلط بعدد آخر من الإنزيمات والهرمونات، التي تحول الرحيق المهضوم إلى عسل النحل. وبالإضافة إلى ذلك تقوم الغدد البلعومية بإفراز **غذاء ملكات النحل**، وتقوم الغدد الشمعية بإفراز **شمع العسل**، ويتحول المبيض في شغالات النحل إلى جهاز لاسع يفرز **سم النحل**، الذي تدافع به النحلة عن ذاتها وعن خليتها، والذي جعل الله ـ تعالى ـ فيه كذلك شفاءً لعدد من الأمراض، هذا بالإضافة إلى عدد من الغدد الأخرى التي هيأ الله ـ تعالى ـ كلاً منها لإفراز مادة خاصة مما تحتاجه شغالات النحل في القيام بنشاطاتها المختلفة، وتأدية وظائفها المتعددة.

وبذلك يكون من معاني الأمر الإلهي إلى شغالات النحل:

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾؛ أي فاصنعي من رحيق الأزهار وطلوعها ـ حبوب اللقاح ـ عسلاً وغذاء ملكياً وشمعاً وخمائر ـ إنزيمات ـ وسموماً بالسبل التي يسرها الخالق ﷻ لك، أي القنوات المختلفة في جهازك الهضمي المعقد الذي خصك الخالق القادر به، والذي يمر به غذاؤك الذي جمعته من كل الثمرات فتتغذين على جزء منه، وتخرجينه على هيئة فضلات، وتحولين أغلبه إلى هذا الشراب المختلف الألوان الذي أعطاك الله ـ تعالى ـ

الإلهام والقدرة على إعادة إخراجه من بطنك إلى فمك فتصبينه في خليتك شراباً جعل الله ـ تعالى ـ فيه شفاءً للناس؛ ولذلك جاءت لفظة (سبل) جمعاً منكراً، ونسبت إلى رب النحل (سبل ربك) تعظيماً لشأنها، ولشأن الدور الذي وهبها الله ـ تعالى ـ القدرة على القيام به لإخراج هذا الشراب، وإشارة إلى ما في ذلك من إبداع الله في الخلق، وروعة التقدير الذي خص به إناث النحل من الشغالات دون غيرها من الحشرات.

وهذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وجمعُها في هذا النص القرآني المعجز بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ ...﴾ «سورة النحل، الآية: 69»؛ لَممّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٦٧ وَأَوْحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن

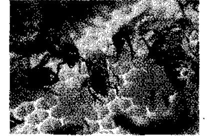
5



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ...﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

5



هذا النص القرآني المعجز، جاء في أوائل النصف الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت كذلك باسم «سورة النعم» لورود ذكر كل من اللبن والعسل فيها، وهما من أعظم نعم الله على الإنسان في مجال الطعام والدواء.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النحل»، حول العقيدة الإسلامية وما تحمله من دعوة إلى الإيمان بالله ـ تعالى ـ وتوحيده وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله، وما يتطلبه هذا الإيمان من التزام صادق بمكارم الأخلاق، التي تمثل ركيزة من ركائز الإسلام.

وفي مقام الاستشهاد على حجية هذا الدين القيم أوردت السورة الكريمة عدداً من آيات الله في الكون مدللة بها على أن هذا الكون بما فيه ومن فيه لايمكن أن يكون نتاج الصدفة المحضة، ولا أن يكون قد أوجد نفسه بذاته، بل لا بد له من موجد عظيم له من كمال العلم، وتمام الحكمة، وطلاقة القدرة ما مكَّنه من إبداع خلقه، وله من صفات الربوبية والألوهية والوحدانية المطلقة ما يغاير صفات خلقه.

وقد سبق لنا تلخيص سورة «النحل» وإبراز محاورها الرئيسية من ركائز العقيدة إلى ما استشهدت به من إشارات كونية وإلى ما تدعو إليه من مكارم أخلاقية في المقالين السابقين وسوف أقصر حديثي هنا على إعجاز الله ـ تعالى ـ في منح أمة النحل القدرة على تحويل ما تجنيه من رحيق وحبوب لقاح في بطونها إلى شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. وقبل شرح الدلالة العلميّة للنص الكريم سنمر سريعاً على أقوال عدد من المفسرين.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ... ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ...﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

● ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «.. ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها...».

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه، لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا...﴾.

أصل (البطن) الجارحة أي الفراغ الحاوي على الأحشاء الرئيسية لجسم كل حيوان أو إنسان، وجمعه (بطون)، ويعرف (البَطْن) لغة بأنه ضد الظهر في كل شيء، ولفظة (البطن) تذكر وتؤنث، ويقال (بَطْن) الوادي أي وسطه، و(استَبْطَنَه) أي دخل في بطنه، و(بَطْنان) الجنة وسطها.

ويقال: (بَطِنَ) الأمر أي عرف باطنه، و(بَطِنَ) بفلان أي: صار من خواصه، و(بطانة) الرجل هي وليجته الذين يختصهم بالاطلاع على باطن أمره؛ ولذلك يقال: (أبْطنه) أي جعله من خواصه، و(استبطن) الشيء أي أخفاه أو طلب ما في بطنه، ومن هنا جاءت بطانة الثوب بمعنى ظهارته، ويقال: (بَطِنَ) الثوب (تبطيناً) أي جعل له بطانة.

ويقال: (بُطِنَ) الرجل أي اشتكى بطنه، و(المبطون) هو عليل البطن، و(المُبطِن) هو الضامر البطن، ويقال: (بطنه) أي أصاب بطنه، و(بَطِنَ) الرجل أي عظم بطنه من الشبع فصار (بطيناً) أو (مِبْطاناً)، و(البِطْنة) هي الامتلاء الشديد للبطن بالطعام، و(البَطِن) الذي لا يهمه إلا بطنه، ويقال لكل غامض أو غير مدرك بالحواس (بَطْن) أو (باطن)، ولكل جلي تدركه الحواس ظهر أو ظاهر.

و(البَطْن) تصنيفاً هو ما دون القبيلة، ودونه الفَخْذ ثم العائلة.

وضمير الهاء في (بُطُونها) يعود على إناث النحل من الشغالات، وهن اللائي يصنعن الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس، وهي حقيقة لم تدرك إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم.

وبطن الشغالة من إناث النحل (تقع داخل جذعها) الذي يأتي بعد كل من الرأس والصدر،

ويتألف بطنها من ثماني حلقات رقيقة مرنة، تحوي بداخلها كلاً من الجهاز الهضمي والتنفسي والدوري والعصبي بالإضافة إلى الجهاز التناسلي الذي يتحول في الشغالات إلى الجهاز اللاسع كما يحتوي بطن الشغالة من إناث النحل على عدد من الغدد المهمة.

فالجهاز الهضمي لشغالات النحل يبدأ **بالفم** وأجزائه المختلفة. ومن أهمها الغدد الفكية والوجناتية، وغدد خلف المخ، وكلها يفرز مواد مساعدة لتطرية وتليين ولصق قشور الشمع التي تفرزها غدد الشمع من بطن الشغالة، والغدد اللعابية وهي مسؤولة عن إفراز الخمائر المهمة ـ الإنزيمات ـ اللازمة لتحويل السكريات المعقدة في رحائق الأزهار إلى سكريات بسيطة سهلة الهضم والتمثيل والامتصاص، ويلي الفم **البلعوم** وحوله الغدد البلعومية، وهي تقوم بتكوين الغذاء الملكي، ويلي البلعوم **مريء طويل** يصل إلى **المعدة،** ومعدة شغالة النحل تختلف عن معي جميع الحشرات؛ إذ تنتفخ في أولها مكونة حوصلة خاصة تعرف باسم **حوصلة العسل** يجمع فيها هذا الشراب المختلف الألوان، وقد أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على إفراغ محتوياتها إلى أقراص الشمع بالخلية، عن طريق خرطومها الفمي؛ وذلك لتخزين العسل في الخلية، وحوصلة العسل تلك تقابل القونصة في بقية الحشرات، وتليها **المعدة الأمامية،** ثم **المعدة الخلفية** ثم **قنوات ملبيجي،** ثم **الأمعاء الدقيقة،** ويليها **المستقيم** المزود بغدد خاصة تعمل على تنظيم التوازن المائي في جسم الشغالة، وفي تجويف نهاية البطن يقع **الجهاز اللاسع** ويتكون من غدتين، إحداهما قلوية والأخرى حامضية، تفرزان سم النحل الذي فيه شفاء كذلك للعديد من الأمراض؛ وهذا الجهاز اللاسع متحور عن آلة وضع البيض في إناث النحل، التي تقلع بتقدير من الخالق ﷻ عن هذه الوظيفة، تاركة إياها للملكة حتى تتفرغ إناث الشغالات لمسؤولياتها الأخرى، وهي عديدة جداً، ولعل ما في بطن شغالة النحل من أجهزة وغدد مختلفة هي المقصودة بالسبل في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:... ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾... أي فاسلكي بما أكلت من كل الثمرات تلك السبل التي يسرها لك ربك لتخرجي من بطونك هذا الشراب المختلف الألوان، الذي جعل الله ـ تعالى ـ فيه شفاء للناس، ونسبتها إلى رب النحلة من قبيل التكريم تعظيماً لشأن تلك السبل التي لا يقدر على خلقها إلا الله ﷻ. وهذا لا ينفي السبل التي تأخذها شغالات النحل من خلاياها إلى مواطن الزهور والرحائق ثم العودة إلى خلاياها عبر مئات من الكيلومترات دون أن تضل عنها مهما تباعدت المسافات وتشعَّبت الطرق.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ:... ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ...﴾:

وهذا الشراب المختلف الألوان يشمل كلاً من **عسل النحل** و **الغذاء الملكي**، وما بهما من **حبوب اللقاح** و **صمغ النحل (العكبر)**، و **شمع النحل** و **سم النحل**، وكلها يخرج من بطون الشغالات من إناث النحل في حالة سائلة ـ شراب ـ تحمل بعض المعلقات، ثم يجمد أو يتبلور بعد ذلك، ولذا جاءت الإشارة إلى هذا الخليط العجيب إشارة عامة ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ...﴾، وقد فهم جميع المفسرين من هذه الإشارة أنها تقصد عسل النحل؛ لأن بقية ما يخرج من بطن النحلة الشغالة لم يعرف إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومكونات ذلك الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس، يمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ **عسل النحل**: وهو سائل حلو، كثيف القوام لزج، يختلف في صفاته الطبيعية (من مثل ألوانه وروائحه ونكهاته وكثافته ودرجة رطوبته وقابليته للتبلور)، وفي تركيبه الكيميائي وذلك باختلاف كلٍّ من نوع الزهور المستمد منها الرحيق وحبوب اللقاح، ونوع الشغالة التي جمعت كل ذلك، وأوان جمعها له.



ويتكون عسل النحل أساساً، من السكريات التي تشكل نحو77٪ من كتلته (من مثل سكر العنب وسكر الفواكه وسكر القصب)، والماء الذي تتراوح نسبته بين10٪ و20٪ في المتوسط، بالإضافة إلى نسب متفاوتة من الأحماض العضوية والبروتينات وبعض المواد الدهنية والإنزيمات والفيتامينات والهرمونات، وآثار للعديد من العناصر (من مثل الحديد والنحاس والسيليكون والمنجنيز، والألومنيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والفوسفور والكبريت) وبعض المضادات الحيوية وعناصر ومركبات أخرى غير معروفة.

ويتراوح لون عسل النحل بين الأبيض المائي والعنبري الغامق مع كل المراحل الوسطى الممكنة. وهذا التباين مرده إلى اختلاف نسب المكونات الصبغية القابلة للذوبان في الماء والتي تستمدها الشغالات من رحائق الزهور، وهي غنية بالصبغات النباتية من مثل الكلوروفيل الأخضر والكاروتين الأصفر والأكزانثوفيللات الحمراء.

كذلك تختلف رائحة العسل باختلاف نسب المواد الطيارة الموجودة فيه، والتي استخلصتها شغالات النحل من رحائق الأزهار أيضاً. والكثافة النوعية لعسل النحل تساوي في المتوسط مرة ونصف كثافة الماء (حوالي 1.5 جرام للسنتيمتر المكعب) وتزداد لزوجة هذا العسل بازدياد تركيزه؛ أي كلما قلت نسبة الماء فيه. وبعض أنواعه تصل كثافته إلى حد كثافة المواد الجيلاتينية (الهلامية).

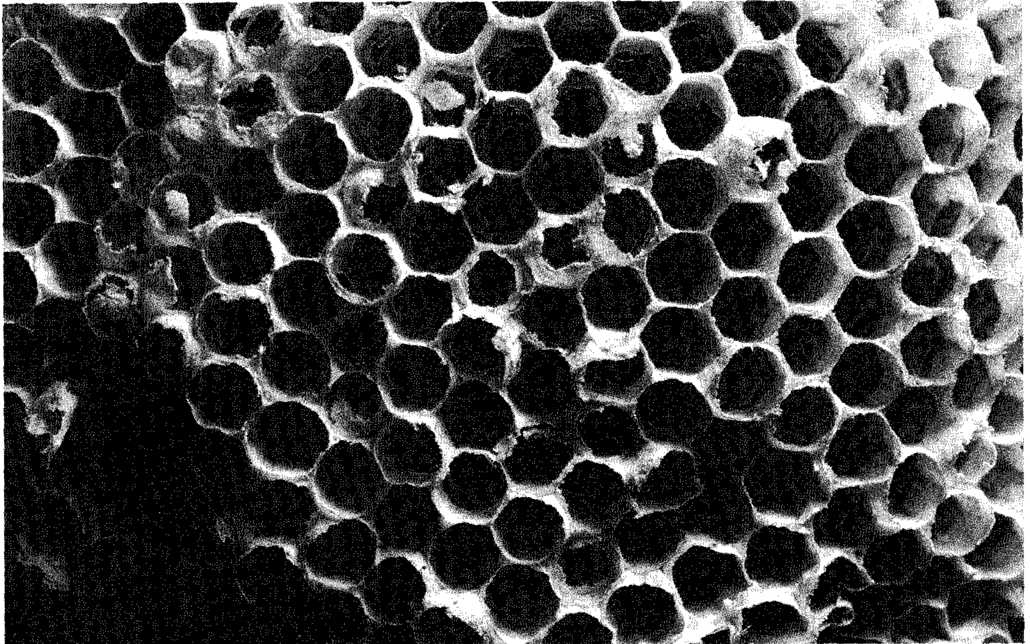
وتختلف قابلية العسل للتبلور باختلاف تركيبه الكيميائي، فبعضه يبقى سائلاً لعدة سنوات، والبعض الآخر يتبلور بعد إنتاجه مباشرة. وتتباين سرعة تبلور عسل النحل بتباين نسب الأنواع المختلفة من السكريات فيه (من مثل نسبة سكر العنب إلى سكر الفواكه) وتباين نسب كلٍّ من المواد الغروية والرطوبة فيه؛ ليس هذا فقط بل إنه من الثابت أن نسبة الماء في عسل النحل إذا تجاوزت 21٪ من كتلته، فإنه يتخمر على الرغم من أن الخمائر العادية لا يمكنها النمو في عسل النحل نظراً للتركيز العالي للسكريات فيه، فإذا انخفض هذا التركيز بزيادة نسبة الماء تمكنت بعض الخمائر من العيش في عسل النحل، والعمل على تخمره (أي تحوله إلى أنواع مختلفة من الكحول وثاني أكسيد الكربون) وبعد ذلك تتحلل تلك الكحولات في وجود الأكسجين إلى كلٍّ من الخل والماء، ولذلك تقف بعض الشغالات أمام عيون الخلية ضاربة بأجنحتها لفترة طويلة من أجل تبخير أكبر قدر ممكن من ماء العسل كي لا يفسد.

2 ـ **الغذاء الملكي**: وهو مركب كيميائي معقد هلامي القوام فاتح اللون، يميل إلى الاصفرار حتى يصل إلى لون القشدة، تفرزه الغدد البلعومية لشغالات النحل، ويتكون أساساً من البروتينات والأحماض الأمينية والدهنية والماء والسكريات، وبعض العناصر المعدنية والمواد المختزلة، والفيتامينات والهرمونات والإنزيمات، وبعض مكونات الحمض النووي، وغير ذلك من المركبات التي لم تعرف بعد.

ولقيمته الغذائية العالية وتمثله بأكمله في الجسم ومروره مباشرة إلى الدم دون حاجة إلى هضم، يصل وزن يرقة ملكة النحل التي تتغذى على هذا الغذاء الملكي طيلة حياتها عند تمام نموها إلى نحو (1800) مرة قدر وزن غيرها من أفراد الخلية المختلفة، وتعمر لمائة ضعف عمر قريناتها من الشغالات والذكور، وتضع أكثر من مليوني بيضة في المتوسط طيلة حياتها.

3 ـ **شمع النحل**: وهو عبارة عن مادة شمعية بيضاء شفافة خفيفة ذات تركيب كيميائي معقد تفرزها الشغالات من إناث النحل من غدد خاصة في أسفل بطنها على هيئة سائلة ثم تجف بمجرد تعرضها للهواء، وتختزن في جيوب خاصة على هيئة قشور تعاود الشغالة نقلها بأرجلها إلى فمها لتعجنها بفكوكها وتصنع منها أقراص الشمع التي تبنى بها خلية النحل. وشمع العسل عازل للحرارة ولا يتأثر بأيٍّ من الماء أو الكحول الباردين.

ويغلب على تركيب شمع العسل مركب كيميائي يعرف باسم «بالميتات المريسيل» (Mericyl Palmitate) وينتج عن اتحاد الأحماض الدهنية مع بعض أنواع



الكحول، هذا بالإضافة إلى نسبة من الأحماض الدهنية الحرة والمواد الكربوهيدراتية المشبعة والمواد العطرية.

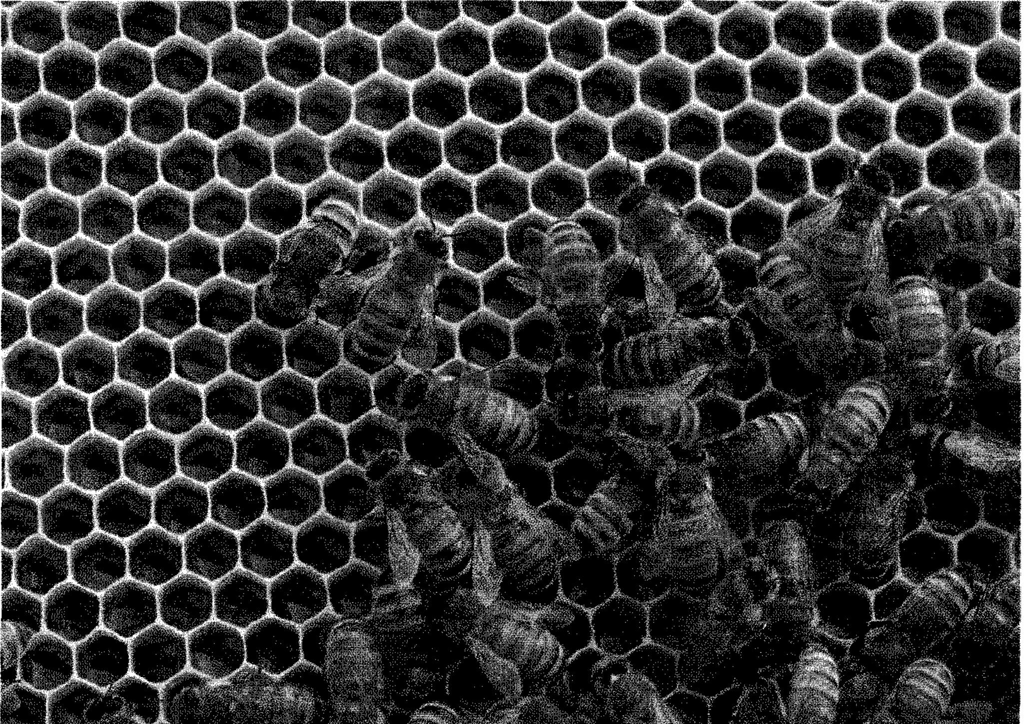
4 ـ **صموغ النحل وغراؤه (العكبر)**: وهي مواد صمغية راتنجية لزجة تجمعها الشغالات من إناث النحل من قلف الأشجار وبعض براعمها، ثم تفرز عليها من غدد وجناتها ما يحولها إلى صموغ تستخدمها في تثبيت الأقراص الشمعية وفي ملء الشقوق الفاصلة بينها، وفي تبطين عيونها السداسية من الداخل وتضييق مداخل الخلايا في فصل الشتاء، كما تستخدمها في تحنيط الآفات الحيوانية التي تتسلل إلى داخل الخلية بعد قتلها حتى لا تلوث البيئة. ويتكون العكبر من صموغ وراتنجات وزيوت طيارة، وبعض الأحماض العضوية والفيتامينات، وبعض المضادات الحيوية القاتلة للبكتيريا والفطريات.

5 ـ **سم النحل**: وهو سائل شفاف سريع الجفاف، ذو رائحة عطرية لاذعة وطعم مر، يفرزه جهاز اللسع في الشغالات من إناث النحل للدفاع عن نفسها وعن خليتها، ويتكون أساساً من البروتينات والزيوت الطيارة، والأحماض والإنزيمات (نحو155 إنزيماً) وبعض مركبات العناصر، ويستخدم في علاج عدد من الأمراض، كما هو الحال في غيره من أنواع الشراب الذي يخرج من بطون شغالات النحل.

6 ـ **خبز النحل**: وهو من مكونات ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرج من بطون الشغالات من إناث النحل، التي تقوم بتغذية يرقات النحل في الأيام الثلاثة الأولى من حياتها بالغذاء الملكي، وابتداء من اليوم الرابع تقدم لليرقات التي سوف تصبح شغالات أو ذكوراً غذاء مكوناً من حبوب اللقاح المخلوطة بالعسل، يعرف باسم خبز النحل، بينما تستمر اليرقات التي ستصبح ملكات على الغذاء الملكي طيلة حياتها، وعلى ذلك فإن كلاً من خبز النحل وحبوب اللقاح يصبح جزءاً من مكونات ذلك الشراب الذي يخرج من بطون الشغالات من إناث النحل. غذاء الملكات يتكون أساساً من كل من مستخلصات الرحيق وحبوب اللقاح؛ أما خبز النحل فيتكون من فتات حبوب اللقاح المخلوط بالعسل، وتتراوح نسبة البروتينات في حبوب اللقاح بين7٪ و30٪، ويتكون الباقي من الأحماض الأمينية والدهون والهرمونات والخمائر (الإنزيمات الممثلة بأكثر من97 إنزيماً)،

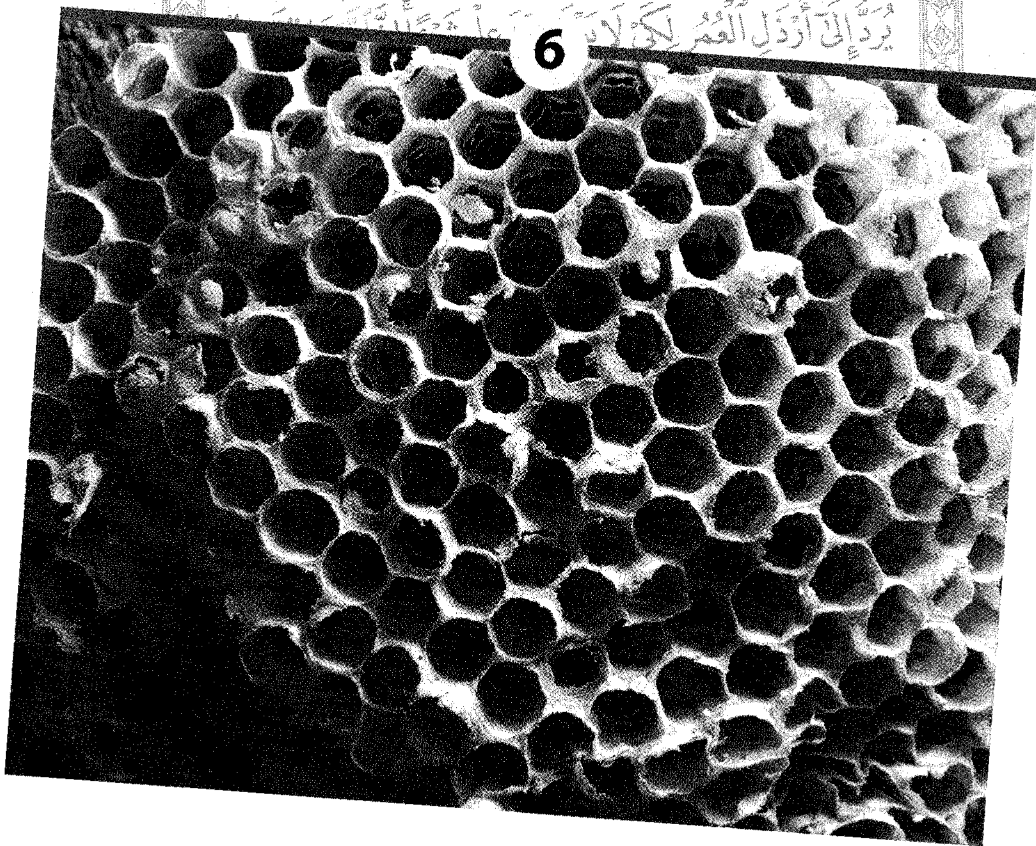
والفيتامينات والسكريات والمواد الطيارة، وبعض مكونات الحمض النووي بالإضافة إلى العديد من مركبات العناصر المعدنية والماء وبعض الأصباغ.

هذا الخليط العجيب الذي تعجز أكبر المصانع التي بناها الإنسان عن إنتاج شيء من مثله، يخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من بطون الشغالات من إناث النحل، ولذلك جاءت الإشارة إليها وإلى بطونها وإلى هذا الخليط العجيب بالتسمية (شراب مختلف ألوانه)، وهي حقائق لم يبدأ الإنسان في التعرف عليها إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وورودها في كتاب الله بهذه الصياغة العلمية الفائقة الدقة، وهو كتاب أنزل على نبي أميٍّ ﷺ من قبل أربعة عشر قرناً، وفي أرض كانت غالبية قاطنيها من الأميين، لممّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

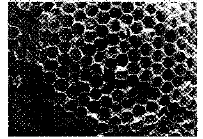




وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن
يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا



﴿...فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».



6

هذا النص القرآني المعجز جاء في أوائل النصف الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت كذلك باسم «سورة النعم»، وذلك لورود الإشارة فيها إلى كل من اللبن والعسل وهما من أعظم نعم الله ـ تعالى ـ على الإنسان في مجالي الطعام والدواء.

وقد سبق لنا تلخيص سورة «النحل» وإبراز محاورها الرئيسية من ركائز العقيدة الإسلامية إلى ما تدعو إليه السورة من مكارم الأخلاق وفضائل العبادات، وما استشهدت به من إشارات كونية عديدة في أكثر من سبع عشرة آية من آياتها الكريمة، ولذلك فإني أركز هنا على هذا النص المعجز الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عن ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرجه ـ سبحانه ـ من بطون الشغالات من إناث النحل ما نصه:

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

وقبل استعراض ما في هذا النص من سبق علمي أرى لزاماً علي تلخيص أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالته.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿...فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

- ذكر القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره ما نصه: «اختلف العلماء في قوله ـ تعالى ـ ....﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾: هل هو على عمومه أم لا، فقالت طائفة: هو على العموم في كل حال ولكل أحد، فروي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً،

حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلاً. وقالت طائفة: إن ذلك على الخصوص ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل إنسان، بل إنه خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض الأحوال، وعلى حال دون حال، ففائدة الآية إخبار منه سبحانه وتعالى في أنه دواء ولذلك كثر الشفاء به وصار خليطاً ومعيناً للأدوية في الأشربة والمعاجين؛ ومما يدل على أنه ليس على العموم: أن (شفاء) نكرة في سياق الإثبات، ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول.. ولكن حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان».

- وجاء في مختصر تفسير ابن كثير رحمه الله ما نصه: وقوله ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم عن الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده.. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي**». وقال البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن كان في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذغة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي**». وفي الحديث: «**عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن**».. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إلهام الله لهذه المخلوقات الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء ﴿لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم....».

- وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لا أرى حاجة إلى تكراره فيما عدا من أصر على أن الشفاء هنا للعموم ومنهم: الشنقيطي رحمه الله في كتابه (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم) والذي جاء فيه: «... كون الفكرة في قوله ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ للعموم لأنها سيقت للامتنان (فهي إحدى النكرات الأربع التي تعم)، كما نص عليه السيوطي في الإتقان وغيره كالعطار في (جمع الجوامع)، وصاحب نشر البنود، وغير واحد من المحققين....».

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عن الشراب المختلف الألوان الذي يخرجه بقدرته من بطون الشغالات من إناث النحل ما نصه:

﴿...فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

أولاً: الشفاء بين الإطلاق والتقييد

اعتبر غالبية المفسرين أن المقصود بهذا الشراب هو عسل النحل، علماً بأن ذكر الشراب مطلقاً يشمل كل ما يخرج من بطون الشغالات ومنه العسل والغذاء الملكي وسم النحل وخبز النحل وشمع النحل وصموغ النحل وغراؤه، والتي جمعها القرآن الكريم في كلمة واحدة هي (شراب). واختلف المفسرون بين تعميم الشفاء بهذا الشراب وتخصيصه، فالمعممون أطلقوا الشفاء به لجميع الأمراض استناداً إلى أن لفظة (شفاء) بمشتقاتها جاءت ست مرات في القرآن الكريم بيانها كما يلي:

1 ـ جاءت نسبة الشفاء إلى الله ـ تعالى ـ في قول نبي الله إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ «سورة الشعراء، الآية: 80».

2 ـ في ثلاث آيات متفرقات ينسب ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الشفاء بمعناه الشامل (المادي والمعنوي) للقرآن الكريم وذلك بقوله ـ عز من قائل ـ:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ «سورة يونس، الآية: 57».
- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 82».
- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ «سورة فصلت، الآية: 44».

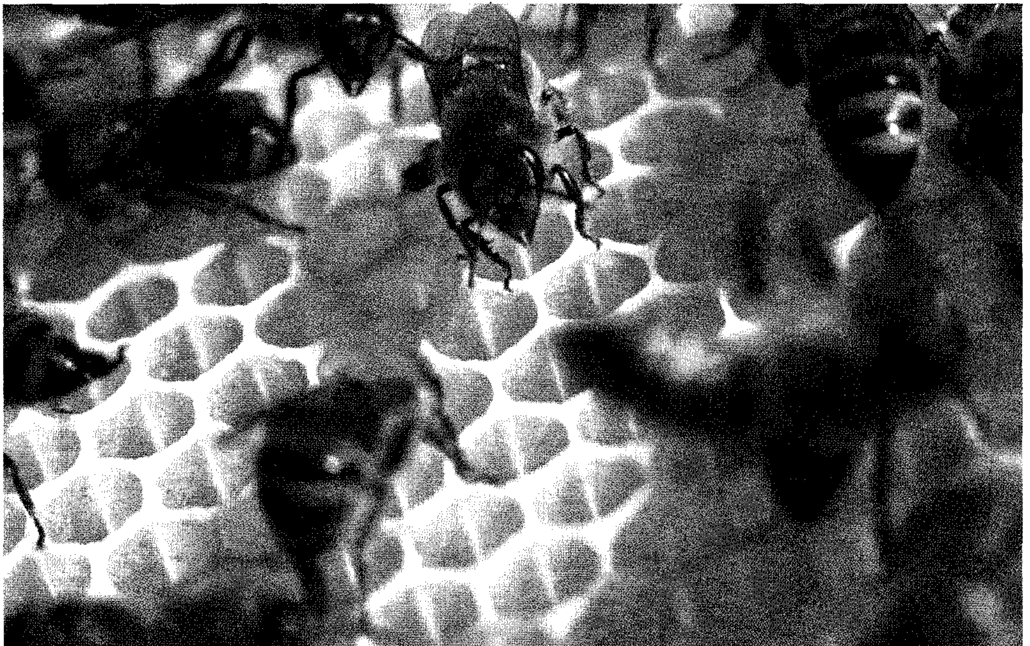
3 ـ وفي آية خامسة يشير القرآن الكريم إلى الشفاء المعنوي لما في الصدور، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ «سورة التوبة، الآية: 14».

4 ـ والآية السادسة هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي ربط فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الشفاء بأمر مادي من أمور الدنيا وهو ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرجه ـ بطلاقة قدرته ـ من بطون الشغالات من إناث النحل فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ «سورة النحل، الآيتان: 68، 69».

وانطلاقاً من ذلك اندفع بعض المفسرين وبعض المشتغلين بعلوم النحل وإفرازاته في فهم دلالة هذه الآية الكريمة (رقم 69 من سورة النحل) إلى أن هذا الشراب المختلف الألوان هو علاج شامل لجميع الأمراض التي يتعرض لها الإنسان، وأن الله سبحانه وتعالى قد



جعل فيه عمومية الشفاء، واستندوا في ذلك إلى عدد من أحاديث رسول الله ﷺ من مثل أقواله الشريفة التي جاء فيها:

- «**عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن**»[1].
- «**إن كان في شيء من أدويتكم خير** ـ أو ـ **إن يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذغة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي**»[2].
- «**الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي**»[3].

وبرروا ذلك الفهم أيضاً بورود لفظة (شفاء) نكرة غير معرفة في سياق الامتنان لتؤكد أن عسل النحل شفاء من كل داء، وعَلَّلُوا وصف رسول الله ﷺ لبعض العلاجات الأخرى بأنها بدائل في حال غيبة عسل النحل أو عدم توفره.

وذهب البعض الآخر من كل من المفسرين وعدد من المشتغلين بعلوم النحل وإفرازاته إلى أنه نظراً لتباين الأمراض، والأفراد، والظروف، ونظراً للاختلاف بين أعسال النحل في صفاتها الطبيعية والكيميائية باختلاف نوع النحل ومصادر طعامه، والظروف البيئية التي ينبت فيها هذا الطعام، فإن كل خلية نحل تتميز بعسل خاص بها، ويندر التشابه بين العسل المجموع من خليتين مختلفتين تشابهاً كاملاً. وانطلاقاً من ذلك وصل هؤلاء إلى أن الآية (رقم 69 من سورة النحل) قد ساقها الله ـ تعالى ـ في سياق التفكر والاعتبار، قبل أن تكون للامتنان، وأن النكرة في هذا السياق ليست قطعية في دلالتها على العموم خاصة أن القرائن تدل على التخصيص، وأن هناك إرشادات نبوية شريفة للتداوي بغير عسل النحل من مثل التداوي بالحبة السوداء أو بالحجامة، ويدعم ذلك رد رسول الله ﷺ على نفر من الأعراب حين سألوه: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال ﷺ: «**نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا وأنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[4].

---

(1) رواه ابن ماجه في كتاب الطب، (الحديث: 3452).

(2) رواه البخاري في كتاب: الطب (الحديث: 5683)، ومسلم في كتاب: السلام (الحديث: 5707).

(3) رواه البخاري في كتاب: الطب (الحديث: 5680)، وابن ماجه في كتاب: الطب (الحديث: 3489).

(4) رواه الإمام أحمد في أول مسند الكوفيين، عن أسامة بن شريك رضي الله عنه.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله عز وجل**»[1].

من هنا كان الاستنتاج المنطقي أنه لا يلزم أن يكون العسل علاجاً لكل داء، على الرغم من أن الدراسات المختبرية قد أثبتت أن الشراب المستخرج من بطون شغالات النحل له فوائد علاجية عديدة، وأنه منظم لطبيعة الجسم البشري، وأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه القدرة على إعادة هذا الجسد إلى توازنه الفطري كلما اختل هذا التوازن بالمرض أو بغيره، خاصة إذا وجد الإيمان بذلك انطلاقاً من اليقين الجازم في كتاب الله، والتصديق الكامل بسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

ثانياً: من الفوائد العلاجية للشراب المختلف الألوان

أ ـ من الفوائد العلاجية لعسل النحل:

1 ـ أثبتت الدراسات المختبرية لعسل النحل أنه مضاد حيوي قوي ومطهر من الطراز الأول، وأن دوره في ذلك يفوق أدوار العديد من المضادات الحيوية المصنعة؛ ولذلك فإن لعسل النحل دوراً متميزاً في علاج الجروح والحروق والقرحات المختلفة وفي تطهيرها مما يمكن أن ينتج عنها من نتانات، وفي تنشيط بناء الأنسجة الحية مما يساعد على سرعة التئام الجروح.

2 ـ ثبت للعسل دور فعال في علاج كل من قروح الفراش، وأمراض الجلد وتشققاته وحروقه وتقرحاته، من مثل ما ينتج عن أمراض الجمرة الحميدة، والتهابات الغدد العرقية وغيرها.

3 ـ لعسل النحل دور بارز في علاج حالات التهاب الجهاز الهضمي من مثل التهاب بطانة المعدة والأمعاء وقرحات كل من المعدة والاثني عشر، وفي علاج الاضطرابات المعدية من مثل الدوزنتاريا والتقيؤ والإمساك، والإسهال غير واضح الأسباب، وفي علاج التهابات الفم والبلعوم، وفي القضاء على الجراثيم المسببة

(1) رواه مسلم في كتاب: السلام (الحديث: 5705)، والإمام أحمد في مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

لذلك. وتعالج مثل هذه الحالات بأخذ ثلاث ملاعق كبيرة من العسل قبل الفطور وقبل النوم، ويفضل أن تذاب في كأس من الماء الفاتر وأن يضاف إليها شيء من خل التفاح (ولو قليل)، فالعسل أعطاه الله ـ تعالى ـ القدرة على إعادة التوازن لجسم الإنسان بعد أن يختل أثناء فترة الإصابة بالأمراض. وعسل النحل سائل كامن القلوية على الرغم من احتوائه على نسب من الأحماض الأمينية، وذلك بسبب ما يحتويه من العناصر المعدنية، وتعينه هذه الخاصية على معادلة الحموضة الزائدة في المعدة والتي عادة ما تتسبب في إحداث قرحات الجهاز الهضمي.

4 ـ ثبت للعسل دور واضح في تحسين وظائف الكبد وتنشيطه، وفي علاج كل من الالتهابات الكبدية المختلفة، وحالات التسمم الكبدي، وفي تنشيط عمل البنكرياس، وفي علاج داء البول السكري الذي يفيد في علاجه تناول كمية صغيرة جداً من عسل النحل قبل وجبة الفطور صباحاً في حالات الظهور المتأخر للمرض (بعد سن الأربعين)، وليس في حالات الإصابة به في أعمار مبكرة.

5 ـ كذلك للعسل دور مهم في تقوية القلب وضبط نبضاته، وتقوية الأوعية الدموية، وضبط ضغط الدم خاصة في حالات القصور التاجي المتزامنة مع الذبحة الصدرية وغير المتزامنة معها، وفي زيادة نسبة الهيموجلوبين في الدم، وفي المساعدة على سرعة تخثره في حالات النزيف، وفي علاج غير ذلك من أمراض القلب والشرايين.

6 ـ وثبت للعسل دور في علاج حالات المثانة البلهارسية المزمنة، وحالات اضطرابات الجهاز البولي/ التناسلي.

7 ـ وللعسل تأثير إيجابي في علاج آلام المفاصل الروماتيزمية.

8 ـ لعسل النحل دور مهم في علاج العديد من أمراض الجهاز التنفسي من مثل حالات النزلات الشعبية والربو، والالتهاب التحسسي (من مثل حمى القش)، والتهابات الأنف والجيوب الأنفية والقصبة الهوائية، والرئتين وأمراضها.

9 ـ ثبت للعسل دور واضح في علاج أمراض الجهاز العصبي من مثل التوتر والأرق،

وتقلصات الجفون أو تقلصات زاوية الفم، وتشنجات العضلات من مثل عضلات الكفين والساقين والقدمين، والشلل، وفي علاج حالات الإدمان وغيرها.

10 ـ كذلك ثبت للعسل دور كبير في علاج بعض أمراض العيون من مثل التهابات الجفون، والملتحمة، والقرنية، وأمراض الرمد المزمنة، وتقرحات العين بصفة عامة، ويجهز العسل لذلك بهيئة قطرات أو مراهم مناسبة لكل حالة، أو بتشريد محلول العسل المائي (بنسبة 10٪ إلى20٪) كهربائياً واستخدامه على هيئة قطرات للعين أو بحقنة تحت الملتحمة.

11 ـ لعسل النحل تأثير إيجابي في علاج حالات التسمم أثناء الحمل الذي من أعراضه ارتفاع ملحوظ في ضغط الدم في أواخر أيام الحمل، وانتفاخ واضح في الساقين مع زيادة في نسبة الزلال في البول، ويقترح لعلاجه ثلاث ملاعق صغيرة من عسل النحل المذاب في كأس من الماء الفاتر قبل الفطور بساعة، وبعد كل من الغداء والعشاء، أو تناول ملعقة صغيرة من حبوب الطلع بعد كل واحدة من الوجبات اليومية الثلاثة.

12 ـ ثبت لعسل النحل دور واضح في تقوية جهاز المناعة، وزيادة عدد كريات الدم البيضاء والحمراء زيادة ملحوظة، ولذلك يعتقد بأن تناول العسل الطبيعي بشمعه والغذاء الملكي المصاحب له وسم العسل الموجود فيه، وما قد يصاحبه من حبوب اللقاح (خبز العسل) وصموغ النحل يمكن أن يكون له دور في الوقاية من عدد من الأمراض الخطيرة كالسرطان والشلل.

13 ـ كذلك ثبت للعسل دور في علاج الشعر، وفي المحافظة على صحة فروة الرأس وذلك بخلطه مع زيت الزيتون (بنسبة 1 عسل: 2 زيت زيتون) وتدليك الشعر بهذا المزيج مرة كل شهر، ثم غسله وتجفيفه.

14 ـ وفي علاج الأطفال الخدج (المبتسرين) أي المولودين قبل أوانهم ثبت لعسل النحل دور بارز.

15 ـ المستحضرات الطبية التي تحتوي على العسل تساعد على تجديد حيوية الجلد بتغذيته وترطيبه.

ب ـ من الفوائد العلاجية للغذاء الملكي:

أثبتت الدراسات المختبرية والسريرية أن لغذاء ملكات النحل عدداً من الفوائد العلاجية الواضحة منها:

1 ـ أنه مطهر قوي لاحتوائه على نسب عالية من المضادات الحيوية الطبيعية، ولذلك يفيد في علاج العديد من الأمراض ومنها الأمراض الجلدية.

2 ـ علاج التهابات المفاصل والتقليل من الآلام المصاحبة لها.

3 ـ الوقاية من الإصابة بسرطانات الدم.

4 ـ التأثير الإيجابي على الصحة العامة للفرد ورفع قدراته البدنية والمعنوية، وزيادة نشاط غدده التناسلية.

5 ـ زيادة قدرة كلٍّ من المخ والقلب والكبد على التزود بالأكسجين مما يزيد من نشاط هذه الأجهزة ويضاعف من قدرتها على العمل وتحمل المشاق وينعش الذاكرة.

6 ـ علاج عدد من الأمراض العصبية من مثل التشنج وتصلب شرايين الدماغ، والربو العصبي، وارتعاش الأطراف.

7 ـ خفض نسبة الكوليسترول الضار في الدم مما يعين على تجنب الذبحات الصدرية.

8 ـ رفع كفاءة جهاز المناعة في الجسم مما يعين في الوقاية من العديد من الأمراض الخطيرة مثل السرطان.

9 ـ تجديد حيوية كل من قرنية العين، والملتحمة، والأجفان خاصة في حالات الحروق (ويستخدم الغذاء الملكي في هذه الحالة كمرهم بنسبة 1٪).

ويؤخذ الغذاء الملكي عادة قبل تناول وجبة الفطور بجرعة في حدود (40 إلى50 ملليجرام) يومياً إما مباشرة أو مخلوطاً بالعسل (بنسبة 1:100) بمعدل ملعقة صغيرة (حوالي7 جرامات)، كما يمكن أن يجهز على شكل جيلاتيني مثل غروي عسل النحل، أو على هيئة أقراص أو كبسولات أو برشام يحتوي كل منها على (1 ـ 5 ملليجرام) من الغذاء الملكي الجاف، وإن كان يفضل تناوله بهيئته الطبيعية، وقد يعطى الغذاء الملكي في بعض الحالات على هيئة مستحضرات خاصة حقناً تحت الجلد.

جـ ـ من الفوائد العلاجية لشمع العسل:

يفيد شمع العسل في المساعدة على تسليك مجاري الجهاز التنفسي من مثل الأنف والجيوب الأنفية والقصبة الهوائية والرئتين، وذلك بمضغ قطع صغيرة من شمع العسل الذي يساعد على انكماش الأنسجة المبطنة لتلك الأجهزة، والتي عادة ما تتضخم نتيجة للالتهابات التي تتعرض لها عند الإصابة بالأمراض مثل الانفلونزا (الرشح) والتحسس (مثل حمى القش).

ويساعد في ذلك أخذ ملعقتين صغيرتين من العسل مع كل وجبة غذائية. ويمكن الوقاية من مرض حمى القش بأخذ مضغة واحدة يومياً من شمع العسل لمدة شهر قبل الموعد المتوقع للإصابة بالمرض، فإذا وقعت الإصابة تؤخذ المضغة مرة واحدة في اليوم مع ملعقتين صغيرتين من العسل السائل بعد كل وجبة من وجبات الطعام الثلاث، ويزاد عدد المضغات في اليوم مع زيادة شدة الحالة المرضية. وفي الحالات بالغة الشدة ينصح بأخذ ملعقة كبيرة من العسل بعد كل وجبة غذائية، وملعقة كبيرة في نصف كوب من الماء الفاتر قبل النوم. كما ينصح بأخذ خليط من ملعقتين صغيرتين من العسل وملعقتين صغيرتين من خل التفاح مخففتين في كوب من الماء الفاتر قبل تناول وجبة الفطور وقبل النوم مع الاستمرار في أخذ ملعقة كبيرة من العسل بعد كل من وجبتي الغداء والعشاء.

وقد ثبت أن مضغ شمع العسل من (3 ـ 4) مرات أسبوعياً لمدة ثلاث سنوات يمكن أن يستأصل مرض حمى القش تماماً من المصاب به وأن يكسب جسمه مناعة ضد هذا المرض.

د ـ من الفوائد العلاجية لسم النحل:

أثبتت الدراسات المختبرية أن سم النحل يحتوي على عدد من الأحماض الأمينية وعلى غيرها من المركبات الكيميائية المضادة للالتهابات والتي تعطي تسكيناً عاماً للمجموعة العصبية المركزية، كما تنشط المقاومة العامة للجسم، ولذلك فإن سم النحل الذي توجد منه نسبة في العسل تضخها الشغالات في عيون الخلية كنوع من التعقيم بعد ملئها بالعسل وختمها بالشمع، هذا السم له فوائد علاجية كثيرة منها ما يلي:

1 ـ في علاج آلام المفاصل الناتجة عن عدد من الأمراض الروماتيزمية، والآلام

العصبية مثل تلك الآلام الناتجة عن أمراض عرق النسا، وتجويف النخاع (Syringomylia)، وآلام العمود الفقري.

2 ـ في مداواة بعض حالات الصداع النصفي المعروف باسم الشقيقة.

3 ـ في علاج بعض الأمراض الجلدية مثل الذئبة الوجهية، وداء الصدفية، والأكزيما، وتقرحات الركبتين، والتهابات البشرة، وغير ذلك من أمراض التهاب الجلد.

4 ـ في مداواة بعض حالات التهاب العين.

5 ـ في العلاج من أمراض سلس البول، والملاريا، والتسمم الدرقي.

هـ ـ من الفوائد العلاجية لخبز النحل:

يطلق تعبير خبز النحل على عجينة من حبوب اللقاح وفتاتها وعسل النحل، والدور الفعال فيها هو لحبوب اللقاح وفتاتها والتي توجد بكثرة مع عسل النحل، وهذه لها فوائد علاجية كثيرة منها ما يلي:

1 ـ في علاج العديد من التهابات الأنف التحسسية من مثل حمى القش والربو.

2 ـ في حالات التعرض لجرعات عالية من الإشعاع وما يصاحب ذلك من أمراض.

3 ـ في مداواة حالات التهاب البروستاتا.

4 ـ في تناول مستحضرات تجمع بين حبوب الطلع والغذاء الملكي وعسل النحل مثل مستحضر (Melbrosia P.L.D) أو مستحضر (Anplamil) ما يساعد على تحسن حالة الجسم عامة، وعلى تقوية الغدد التناسلية، وفي علاج حالات الإجهاد النفسي والتوتر العصبي، والخمول البدني بدرجة تفوق درجة أي من هذه المكونات وحدها.

5 ـ في التخفيف من أعراض سن اليأس عند النساء مثل الصداع، خفقان القلب، الارتفاع في درجة الحرارة والتوتر العصبي.

6 ـ في تركيب مستحضرات للتجميل تعين على إعادة حيوية الجلد.



و ـ من الفوائد العلاجية لصموغ وغراء النحل:

أثبتت الدراسات المختبرية أن صموغ وغراء النحل قاتلة للجراثيم من البكتيريا والفطريات والفيروسات، وأنها تزيد من مناعة الجسم ولذلك فلها عدد من الفوائد العلاجية في حالات منها:

1 ـ أمراض الجهاز التنفسي مثل الرشح (الزكام) والتحسس.

2 ـ آلام المفاصل الروماتيزمية، وتأخر نمو العظام.

3 ـ بعض الأمراض الجلدية.

4 ـ بعض أمراض العيون.

5 ـ تطهير الجروح خاصة جروح الحروب والمساعدة على التئامها.

6 ـ التهابات جوف الفم وتسوس الأسنان.

7 ـ تقوية المناعة ومقاومة الإجهاد، والتلوث البيئي وذلك لوفرة مضادات الأكسدة فيه.

وقد أضاف الأخ الكريم الأستاذ الدكتور عز الدين الدنشاري الأستاذ بكلية الصيدلة ـ جامعة القاهرة ـ في رسالة بعث بها إلى بريد الأهرام بتاريخ 11/ 12/ 2003 تحت عنوان: «أسرار النحل» تعليقاً على ما سبق وأن كتبت عن هذه الآية المباركة، ولخص في تعليقه عدداً من الحقائق التي تدعم ما ذكرته آنفاً وهي كما يلي:

1 ـ أكدت الدراسات فاعلية عسل النحل في علاج الأمراض والوقاية منها، حيث بينت أن النحالين في روسيا وغيرها، والذين يعتبر عسل النحل جزءاً من غذائهم اليومي، نادراً ما يصابون بالأمراض الروماتيزمية أو السرطان أو الشلل أو أمراض الكلى، كما يتمتعون بقوة الإبصار ويعمر الكثيرون منهم لأكثر من 130 سنة.

2 ـ يفيد العسل في تنظيم وظائف الكلى والأمعاء، ويهدئ الأعصاب ويقوي الأوعية الدموية لكل من القلب والمخ، ويعالج الأرق ويساعد على زيادة الهيموجلوبين، وهو مفيد في علاج النزلات الشعبية والربو الشعبي، والتهاب البروستاتا، وأمراض القلب والشرايين، والأورام، والسعال، والانفلونزا، والقرحة، والتهاب بطانة المعدة والأمعاء والقيء والإسهال والإمساك.

3 ـ تساعد المستحضرات التي تحتوي على العسل في تغذية الجلد وترطيبه وتليينه، وعلاج التجاعيد التي تظهر حول العين.

4 ـ يفيد العسل الرياضيين الذين يمارسون تسلق الجبال، والذين يشتركون في سباحة المسافات الطويلة حيث يساعد على تنشيطهم بدنياً وذهنياً، ويمكنهم من تحمل التعب.

5 ـ يحتوي سم النحل على مركبات مضادة للالتهابات، ولقد تم إجراء تجارب عليه بينت أنه يساعد في الشفاء من التهاب المفاصل الروماتويدي، وذلك بحقنه في مكان الإصابة، كما يفيد في علاج آلام الأعصاب والتهابها وفي علاج بعض الأمراض الجلدية، وأمراض العيون، والملاريا، والتسمم الدرقي.

6 ـ بوحي من الله ـ تعالى ـ تلتقط شغالات النحل مادة صمغية وهي صمغ النحل (أو البروبولس) من أماكن محددة من الأشجار ثم تضع الصمغ في الشقوق والثقوب

الموجودة في بيوت النحل لمنع تسرب الحشرات إليها، ويتميز صمغ النحل بقدرته على مقاومة الميكروبات، ولذلك فإن النحل يقوم برش أرضية البيت بهذه المادة حتى تتمكن الملكة من وضع البيض في مكان خال من الجراثيم. كما يقوم النحل بتغطية الحشرات الميتة بهذه المادة حتى لا تتعفن داخل بيت النحل وتفسد هواءه.

7 - تعلم الإنسان من النحل، فاستخدم صمغ النحل لمقاومة البكتيريا والفطريات والفيروسات وتطهير الجروح، كما استعان به في علاج القرحة وفي علاج كل من أمراض الأسنان والأورام، وتنشيط كل من نمو العظام والمناعة، ولقد أظهرت البحوث أن صمغ النحل يحتوي على مضادات الأكسدة التي تساعد في الوقاية من أمراض الإجهاد، والتدخين والتلوث البيئي. اهـ.

وهذه شهادة من أستاذ قدير في صميم التخصص نعتز بها وندعوه وزملاءه الكرام في كليات الصيدلة والطب والعلوم والطب البيطري والزراعة إلى إخراج هذا العلم الإسلامي العظيم إلى حيز التطبيق في عالمنا العربي والإسلامي الذي لا يزال يعتمد في صناعة الدواء على دول أجنبية لا تعرف القرآن الكريم ولا تهتدي بهديه، ولا تزال تتخبط في ساحات التجربة العلمية بغير هداية ربانية، فضلّت وأضلّت، واستغلّت حاجة الناس إلى الدواء فابتزتهم أبشع ابتزاز ولا تزال.

والقدرات الشفائية الهائلة لكل من عسل النحل وشمعه وغذاء ملكاته وسمومه وصموغه ولما يحتويه من حبوب اللقاح، والتي جمعها القرآن الكريم في الوصف ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾، والقيمة العلاجية الواضحة لهذا الشراب ولكلٍّ من مكوناته قد أثبتتها دراسات قام بها غير المسلمين، وفي مستشفيات دول حكمت في معظمها بواسطة نظم شيوعية، حتى لا يقول قائل إن المسلمين تحيزوا لقرآنهم فأذاعوا هذه المعلومات عن القدرات الشفائية لعسل النحل وملحقاته. فقد أقيم أول مركز طبي عالمي للاستشفاء بمنتجات نحل العسل في مدينة بوخارست برومانيا سنة 1975م، وتلته مراكز طبية مماثلة في كلٍّ من روسيا والصين واليابان وغيرها من دول العالم. وقد أثبتت هذه الدراسات صدق ما جاء بالقرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ «سورة النحل، الآيتان: 68، 69».

ومن قول النبي المصطفى والرسول المجتبى ـ عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ: «**عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن**»[1].

وقوله: «**الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار وأنهى أمتي عن الكي**»[2].

والقدرات الشفائية الهائلة للشراب المختلف الألوان الذي يخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من بطون الشغالات من إناث النحل بطلاقة قدرته لم تكتشف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبْقُ كلٍّ من القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ لتلك الكشوف بأربعة عشر قرناً أو يزيد، لممّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ
٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ
خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ مَثَلُ
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ

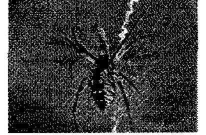


بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿...وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾

«سورة العنكبوت، الآية: 41»

7



هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع النصف الثاني من سورة «العنكبوت»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (69) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود التشبيه فيها للجوء الكفار والمشركين إلى أولياء من دون الله بلجوء العنكبوت إلى بيتها وهو أوهن البيوت على الإطلاق. وهذا هو المقام الوحيد الذي جاء به ذكر العنكبوت في كتاب الله.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية الإيمان بالله وتكاليف ذلك الإيمان مما قد يتعرض له المؤمنون، بسبب تمسكهم بدين الله ودعوتهم إليه، نتيجة للصراع المحتوم بين الباطل وأهله، والحق وجنده.

وتأكيداً لهذه السنة الدنيوية عرضت السورة الكريمة لقصص عدد من أنبياء الله ورسله، ولما لقوه من العقبات في طريق دعوتهم إلى دين الله، كما عرضت لعدد من الشخصيات والأمم الطاغية المتجبرة وكيف أخذهم الله بذنوبهم، وحقرت من شأن هؤلاء الكافرين والمشركين وضربت بهم الأمثال، وربطت بين الحق في دين الله، والحق الذي في السمٰوات والأرض، وأكدت وحدانية الله تعالى، ووحدت بين رسالات السماء ودعت المؤمنين إلى الثبات على إيمانهم، أو الهجرة بدينهم في أزمنة الفتن، وعظمت من شأن الجهاد والمجاهدين في سبيل الله، وأكدت سنة الابتلاء، ومسؤولية الفرد وفردية التبعات، ووضحت مصائر كلٍّ من المؤمنين والمنافقين والكافرين، وختمت بالبشرى للمجاهدين وبتثبيت الله ـ تعالى ـ لهم في الدنيا والآخرة.

عرض موجز لسورة العنكبوت:

تبدأ سورة العنكبوت بالحروف المقطعة الثلاثة ﴿الٓمٓ﴾ التي تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم.

وهذه الفواتح الهجائية التي جاءت في مطلع تسع وعشرين من سور القرآن الكريم إما أن تكون رمزاً إلى كلمات أو معان أو أعداد معينة، أو أن تكون أسماء للسور التي جاءت في مطلعها، أو هي من قبيل التحدي للعرب بالقرآن الكريم وإثبات إعجازه، أو هي من وسائل قرع الأسماع والقلوب كي تنشط وتتنبه لتلقي القرآن الكريم، أو أنها مجرد فواتح تميز أسلوب القرآن الكريم عن غيره من الأساليب، أو أن كل حرف منها عبارة عن كلمة لها معنى محدد في كلام العرب، أو أنها من الشهادات المادية الملموسة على صدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من حيث نطقه بأسماء الحروف، وهو النبي الأمي، والأمي لا يستطيع إلا النطق بأصوات الحروف دون أسمائها، أو فيها كل ذلك، أو هي من الغيب الموكول إلى الله ـ تعالى ـ حتى يفتح على واحد من أبناء المسلمين إلى رأي قاطع فيه.

وبعد هذا الاستهلال تؤكد السورة أن الابتلاء بالفتن للمؤمنين من سنن الله في الأرض كوسيلة من وسائل إعدادهم لتحمل أمانة التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞﴾ «سورة العنكبوت، الآيتان: 2 ـ 3».

ومن هذه الفتن: فتن النفس وشهواتها، وفتن إقبال الدنيا على أهل الكفر والشرك والمعصية، وفتن الشعور بالغربة وسط عوالم الضياع التي يعيشها إنسان اليوم، وفتن استبطاء نصر الله لعباده الصالحين، وفتن الأهل والأحباء في زمن اختلال الموازين واضطراب المقاييس وانقلاب المعايير، ولا يستطيع المؤمن الثبات على إيمانه إلا بالانتصار على الشهوات، والاستعلاء على الدنيا وما فيها، والإيمان بأنّه لو أنها تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. ومن عوامل ثبات المؤمن: الأنس بمعية الله والثقة الراسخة في نصره وتأييده وثوابه، والصبر على فقد الأهل والأحباب. وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل**

فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في بلائه»[1].

وذلك لأن النفس الإنسانية تصقلها الشدائد وتطهرها وتوقظ كوامن الخير فيها، وتأخذ بزمامها إلى مسارات الجد الذي لا هزل فيه، وتصرفها عن كل تافه وحقير في هذه الحياة وتحفظها من الضياع والضلال في دروبها المتشعبة، وذلك على مستوى الأفراد والجماعات، فلا يبقى صامداً صابراً في الابتلاءات إلا من زكت نفسه وشرفت خصاله، وخلصت نواياه وأعماله لله الخالق البارئ المصور وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ فيبقى المؤمن ثابتاً على عهد الله حتى يلقاه وهو ـ تعالى ـ راضٍ عنه، وقد أسلم الراية من بعده إلى من يكمل المسيرة من ورائه، فلا يحرم أجر ذلك حتى قيام الساعة.

أما الذين يفتنون المؤمنين ويعملون السيئات فلن يفلتوا أبداً من عقاب الله في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مقيم. ولذلك تقول الآيات:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞﴾ «سورة العنكبوت، الآيات: 4 ـ 6».

وتؤكد الآيات أجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتوصي الإنسان بوالديه، ثم تقابل مواقف الثابتين في الفتن بمواقف المستخذين فيها، وهو موقف من مواقف النفاق والله لا يحب المنافقين. وهناك فرق واضح بين تجاوز الفتنة قدرات الاحتمال فيضعف المؤمن ويبقى واثقاً من نصر الله، وبين اليأس والقنوط من رحمة الله.

ثم تعرض الآيات لوناً آخر من الفتن وهو فتنة الإغراء والإغواء التي يقوم بها كثير من الكفار، مع فساد تصورهم للمسؤولية، ولكل من التبعة، والجزاء.

وتحدد الآيات بجزم ووضوح أن المسؤولية والتبعة والجزاء على قدر القيام بحق هذه المسؤولية أو الإهمال فيها.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (الحديث: 2398)، وابن ماجه في كتاب: الفتن (الحديث: 4023)، والإمام أحمد في مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وتستعرض الآيات بعد ذلك قصص نفر من أنبياء الله ورسله، ومواقف أقوامهم منهم، وما نزل من عقاب الله على تلك الأقوام جماعات وأفراداً، وكان منهم أقوام نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وهود (وقومه عاد)، وصالح (وقومه ثمود)، وكان من الأفراد كل من قارون، وفرعون، وهامان، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 40».

وبعد استعراض مصارع هؤلاء الكفار والمشركين من الطغاة المتجبرين في الأرض والمفسدين فيها، تعود الآيات للتأكيد على أنه لا سلطان في هذا الوجود لغير الله، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ﷻ، وأن قوى أهل الشر هزيلة ضعيفة واهنة، مهما تعاظمت وتجبرت، وأن اللجوء إليها والاحتماء بها كاحتماء العنكبوت ببيتها الهزيل الواهن الضعيف، والذي تصفه السورة الكريمة بأنه أوهن البيوت فتقول:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 41».

ثم تنتقل الآيات بالخطاب إلى رسول الله ﷺ فتقول:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 45».

وتأمر المسلمين بحسن مجادلة أهل الكتاب فتقول:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

«سورة العنكبوت، الآية: 46».

وفي ذلك أبلغ الرد على بعض المنغلقين على أفكارهم المريضة الذين شنوا حملة ظالمة على الإسلام وهم أجهل الناس به. فعبر السنتين الماضيتين ألقى جنرال أمريكي

مسئول عن الاستخبارات ويشغل منصباً قيادياً في وزارة الدفاع الأمريكية واسمه «وليام بويكن» عشرات المحاضرات هاجم فيها الإسلام والمسلمين بجهل فاضح، وسذاجة بلهاء ذكر فيها جدلاً دار بينه وبين أحد القواد العسكريين الصوماليين المسلمين قال فيه: أنا أعلم أن إلٰهي أكبر من إلٰهه، وأعلم أن إلٰهي إلٰه حقيقي وإلٰهه وثن. وكرر مراراً ادعاءه الباطل أن عدو أمريكا هو الشيطان وأن هذا العدو لا بد وأن يهزم إذا حاربناهم باسم المسيح.

وهذا الجاهل وأمثاله لا يعلم أن الإسلام هو دين التوحيد الخالص لله الواحد الأحد الذي لا يشبهه أحد من خلقه، ولا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، والمنزه عن الصاحبة والولد؛ ولا يعلم أن السيد المسيح - عبد الله ورسوله - بريء منه ومن بذاءاته، ومن أمثاله وبذاءاتهم، وأن الله ـ تعالى ـ سوف يعاقبه وأمثاله على هذه البذاءات في الدنيا قبل الآخرة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرضى من عباده الظلم.

وتعاود الآيات في سورة العنكبوت توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ رداً على أهل الكتاب في زمانه ـ ومن بعده إلى زماننا وحتى قيام الساعة ـ فتقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۞ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ۞﴾ «سورة العنكبوت، الآيات: 47 ـ 49».

وتستمر الآيات في حوار الكفار والمشركين، وفي تعظيم شأن القرآن الحكيم، وفي التحذير من فجائية عذاب الآخرة، وأن جهنم بنيرانها قريب من الكفار والمشركين والمفسدين، ثم تنتقل الآيات بالخطاب مرة أخرى إلى المؤمنين: تدعوهم إلى الهجرة بدينهم إذا ضيق عليهم في بلادهم، فأرض الله واسعة، ويكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنسبتهم إلى ذاته العلية وذلك بندائهم بقوله ـ عز من قائل ـ: «يا عبادي الذين آمنوا...» مؤكداً لهم أن أقصى ما يمكن أن يتعرض له العبد في هذه الحياة هو الموت، وهو حق على كل مخلوق؛ وأن جزاء الصابرين المتوكلين على ربهم هو الجنة ـ ونعم أجر العاملين ـ، وأن الله ـ تعالى ـ هو الذي...﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 62».

وإنه من تناقضات المشركين أنهم لا ينكرون أن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلق السمٰوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وهو الذي نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وعلى الرغم من ذلك يشركون به، والله سبحانه وتعالى يحذِّرهم بقوله العزيز: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 64».

وتستمر الآيات في عرض ما وقع فيه المشركون من قريش ـ وجميع المشركين من بعدهم ـ من تناقضات أفضت بهم إلى الكفر بأنعم الله ـ ولا تزال ـ من أجل التمتع الزائل ببعض قشور الحياة الدنيا الفانية، وهم الذين أكرمهم الله ـ تعالى ـ بحرم مكة الآمن، ومن حولهم القبائل في اقتتال وتناحر مستمر، ولا يجدون الأمن إلا في ظل هذا البيت الحرام، وبدلاً من تعظيمه ملأوا ساحته بالأصنام التي أشركوها في عبادة الله ـ تعالى ـ.

وتختتم السورة الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ * وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ*﴾

«سورة العنكبوت، الآيتان: 68 ـ 69».

من الإشارات الكونية في سورة «العنكبوت»:

1 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يبدئ الخلق ثم يعيده وأن ذلك على الله يسير، ونحن نرى صورة مصغرة لذلك في دورة الحياة والموت التي تتكرر بالتناسل المستمر إلى أن يشاء الله، ودورة تخلّق أجرام السماء من دخان الكون وإفنائها إلى دخان الكون، وإعادة خلقها منه بإرادة الله ـ تعالى ـ، ودورة الماء حول الأرض، ودورة الصخور، ودورات تشكّل سطح الأرض، ودورات تخلّق كلٍّ من المادة والطاقة وتبادلهما وإفنائهما، وإعادة خلق كل منهما إلى غير ذلك من دورات.

2 ـ الإشارة إلى أن السير في الأرض وتأمل صخورها ودراسة بقايا الحياة في تلك الصخور هي وسيلة تعرف الإنسان على تاريخ الأرض، وعلى كيفيه بدء الخلق، وهذا ما أثبتته الدراسات في مجال علوم الأرض.

3 ـ تأكيد أن النشأة الآخرة بعد تدمير الكون سوف تسير على نفس الخطى التي بدأ بها الخلق، وتتبع نفس النظام.

4 ـ تأكيد أن بيت العنكبوت هو أوهن البيوت على الإطلاق من الناحيتين المادية والمعنوية، وهو ما أثبتته الدراسات المتأخرة في علم دراسة حيوانات الأرض.

5 ـ هذا بالإضافة إلى العديد من الإشارات التاريخية والنفسية التي تقع من الدراسات العلمية في الصميم، ولكنها تخرج عن إطار دراستنا للإشارات الكونية في كتاب الله.

وكل حقيقة من هذه الحقائق تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذا فسوف أركز هنا على قضية وهن بيت العنكبوت التي ضرب الله ـ تعالى ـ بها المثل في الآية الحادية والأربعين من سورة العنكبوت، وقبل الدخول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية القرآنية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 41».

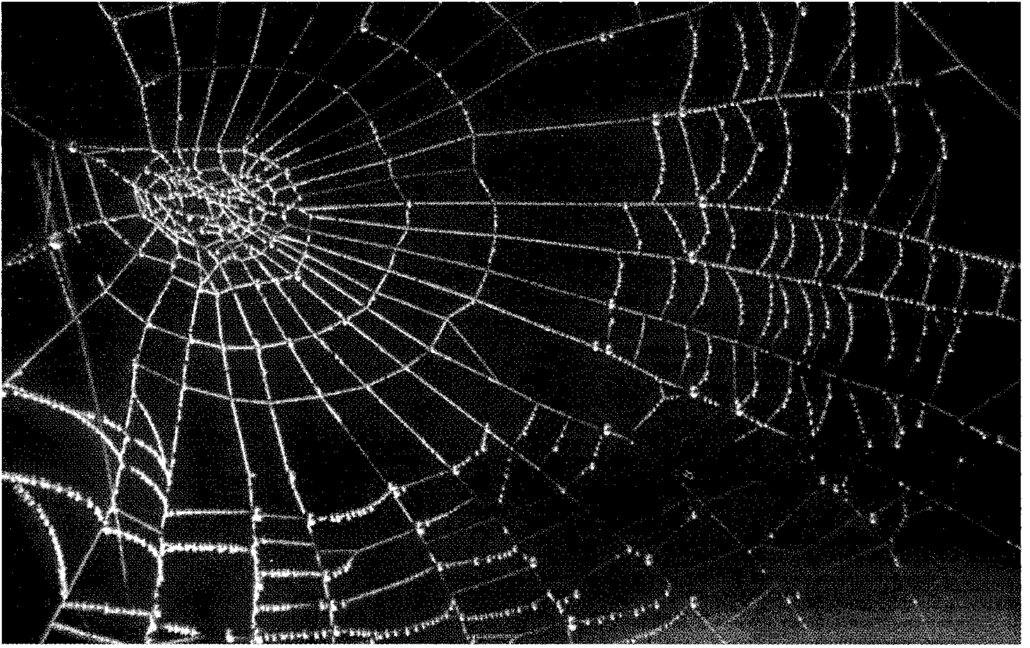
- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسَّكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه بالله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها...».

- وجاء في تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ بتحقيق وتعليق الشيخ محمد كنعان ـ جزاه الله خيراً ـ ما نصه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أصناماً يرجون نفعها ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ﴾ لنفسها تأوي إليه ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ أضعف ﴿ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ﴾ لا يدفع عنها حراً ولا برداً، كذلك الأصنام لا تنفع عابديها. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ما عبدوها.

وجاء في التعليق بالهامش ما نصه: «قوله تعالى ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾: قال في حياة الحيوان الكبرى[1]: (العنكبوت) دويبة تنسج في الهواء، وجمعها (عناكب) والذكر (عنكب) وفي هذه الآية إشارة إلى أن الأنثى هي التي تقوم بنسج البيت دون الذكر، وبيتها هذا يضرب مثلاً على الضعف وعدم القوة أو المتانة....».

- وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «... إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود. الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً، فيسوء تقديرهم لجميع القيم... وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض... وتخدعهم قوة المال... وتخدعهم قوة العلم... وتخدعهم هذه القوى الظاهرة... تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول، فيدورون حولها ويتهافتون عليها كما يدور الفراش على المصباح، وكما يتهافت على النار...!! وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة.... وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي أفراد، أو جماعات، أو.... هو كالتجاء العنكبوت... حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الواهن. وليس هناك إلا حماية الله.. وإلا حماه، وإلا ركنه القوي الركين. هذه الحقيقة الضخمة هي التي عنى القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها، وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض، ودكت بها المعاقل والحصون. لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس، وعمرت كل قلب، واختلطت بالدم، وجرت معه في العروق ولم تعد كلمة تقال باللسان، ولا قضية تحتاج إلى جدل، بل بديهية مستقرة في النفس، ولا يجول غيرها في حس ولا خيال. فقوة الله وحدها هي القوة، وولاية الله وحدها هي الولاية، وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل. إنها العنكبوت: وما تملك من قوى ليست سوى خيوط العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. وإن

(1) للإمام الدميري.



أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى، وللإغراء والإغواء، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة: هذه تضر بهم وتحاول أن تسحقهم، وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم... وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله، وفي حساب العقيدة حين تصح العقيدة، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التقويم والتقدير».

- وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ ما نصه: «﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي مثل هؤلاء في اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها ويعتمدون عليها، ويرجون نفعها وشفاعتها، كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً واهياً من نسجها لا يغني عنها في حر ولا قر، ولا في مطر ولا أذى. والعنكبوت: دويبة معروفة تنسج نسجاً رفيعاً مهلهلاً في الهواء، وتطلق على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، والغالب في استعمالها التأنيث، والواو والتاء زائدتان، كما في طاغوت. وجمعها عناكب وعناكيب».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه:

«شأن المبطلين الموالين لغير الله في الضعف والوهن والاعتماد على غير معتمد كشأن العنكبوت في اتخادها بيتاً تحتمي به، وبيتها أوهى البيوت وأبعد عن الصلاحية للاحتماء، ولو كان هؤلاء المبطلون أهل علم وفطنة لما فعلوا ذلك».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي: «... بيوت العنكبوت التي تبنيها لسكانها، وللقبض على فريستها دقيقة الصنع لأنها مكونة من خيوط على درجة عظيمة من الرقة تفوق رقة الحرير، وهذا مما يجعل نسيجها أضعف بيت يتخذه أي حيوان مأوى له».

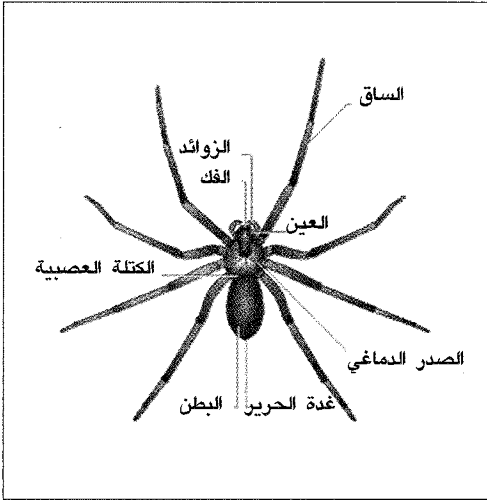
- وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره.

العنكبوت في منظور العلم:

العنكبوت حيوان من مفصليات الأقدام (Arthropoda)، يصنف في طائفة العنكبيات (Class Arachnida) التي تجمع رتبة العناكب أو العنكبوتيات (Order Araneida) مع عدد من الرتب الأخرى التي تشمل مجموعات العقارب، والفاش، والقراد.

والعنكبوت (Spider) ينقسم فيه الجسم إلى مقدمة يلتحم فيها الرأس مع الصدر، ومؤخرة غير مقسمة تشمل البطن. وتحمل المقدمة أربعة أزواج من الأقدام، وزوجين من اللوامس، وزوجاً من القرون الكلابية (Chelicerae) على هيئة الكماشة أو المخالب التي تحتوي على غدد السم، ويفصل مقدمة الجسم عن مؤخرته خصر نحيل.

وللعنكبوت عيون بسيطة يصل عددها إلى الثماني، وقد يكون أقل من ذلك، وهو حيوان مفترس يعيش على أكل الحشرات، وله جلد سميك مغطى بالشعر، ينسلخ عنه من سبع إلى ثماني مرات حتى يصل إلى اكتمال النضج. وعلماء الحيوان يعرفون اليوم أكثر من (30000) ثلاثين ألف نوع من العناكب التي تتباين في أحجامها (بين أقل من المليمتر والتسعين مليمتراً) وفي أشكالها وألوانها، ومعظمها يحيا حياة برية فردية في الغالب إلا في حالات التزاوج وفقس البيض عن الذرية. وتمتد بيئة العناكب من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع خمسة آلاف متر، وللعنكبوت ثلاثة أزواج من نتوءات بارزة ومتحركة في أسفل البطن لها ثقوب دقيقة يخرج منها السائل الذي تصنع منه خيوط نسيج البيت الذي تسكنه، ولذلك تعرف باسم



المغازل، وهذه المادة السائلة التي تخرج من عدد من الغدد الخاصة إلى خارج جسم العنكبوت عبر مغازل المؤخرة تجف بمجرد تعرضها للجو، وينشأ عن جفافها خيوط متعددة الأنواع والأطوال والشدة، تختلف باختلاف الغدد التي أفرزتها.

وقد يمكث العنكبوت في بيته الذي يزاول فيه جميع أنشطته الحياتية، وقد يتخذ له عشاً أو مخبأً غير البيت يرتبط به بخيط يعرف باسم خيط المصيدة ويهرب إلى هذا المخبأ في حالات الخطر.

من الدلالات العلمية للنص الكريم

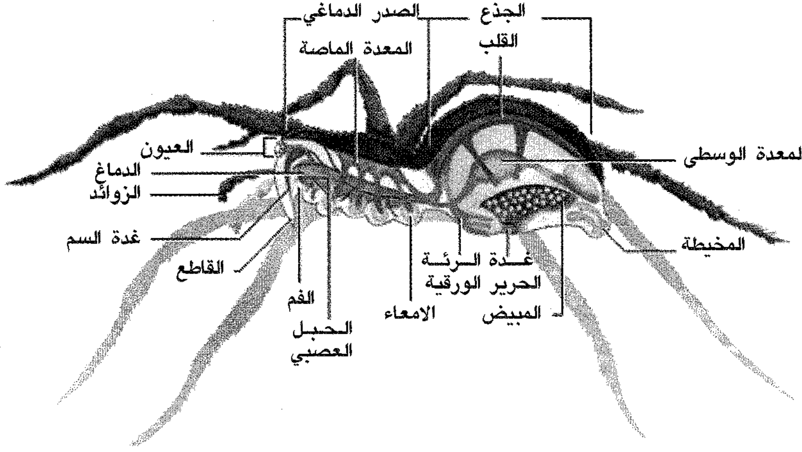
أولاً في الإشارة إلى العنكبوت بالإفراد:

جاء في لسان العرب تحت مادة (عنكب) أن (العنكبوت) دويبة تنسج في الهواء وعلى رأس البئر نسجاً رقيقاً مهلهلاً، مؤنثة، وربما ذكرت في الشعر. ويقال لبيت العنكبوت: (العُكْدُبة). وقال الفرّاء: العنكبوت أنثى، وقد يذكرها بعض العرب، والجمع (العنكبوتات)، و(العناكب)، و(العناكيب)، وتصغيرها (عُنَيْكِب)، وهي بلغة اليمن (عَكَنْبَاة) ويقال لها أيضاً (عَنَكباء)، وعنكبوه، وحكى سيبويه (عنكباء) مستشهداً على زيادة التاء في (عنكبوت)، فلا أدري أهو اسم للواحد أم للجمع. وقال ابن الأعرابي: (العَنكب) الذكر منها، و(العنكبة) الأنثى. وقيل: (العنكب) جنس العنكبوت، وهو يذكر ويؤنث، أعني العنكبوت. قال المبرد: العنكبوت أنثى ويذكر.

والغالب أن لفظة (العنكبوت) اسم للواحدة المؤنثة المفردة، والجمع (العناكب).

وتسمية السورة الكريمة بصياغة الإفراد (العنكبوت) يشير إلى الحياة الفردية لهذه الدويبة فيما عدا لحظات التزاوج وأوقات فقس البيض، وذلك في مقابلة كل من سورتي النحل والنمل والتي جاءت التسمية فيها بالجمع للحياة الجماعية لتلك الحشرات التي سميت باسمها السورتان الكريمتان الأخيرتان.

البنية التشريحية للعنكبوت



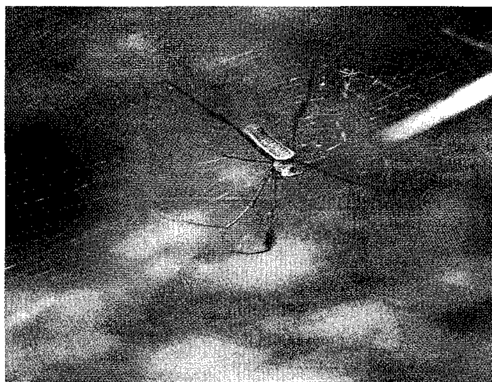
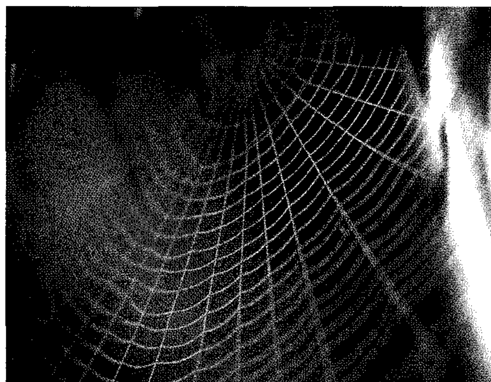
ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾:

في هذا النص القرآني الكريم إشارة واضحة إلى أن الذي يقوم ببناء البيت أساساً هي أنثى العنكبوت، وعلى ذلك فإن مهمة بناء بيت العنكبوت هي مهمة تضطلع بها إناث العناكب التي تحمل في جسدها غدد إفراز المادة الحريرية التي ينسج منها بيت العنكبوت. وإن اشترك الذكر في بعض الأوقات بالمساعدة في عمليات التشييد أو الترميم أو التوسعة، فإن العملية تبقى عملية أنثوية محضة، ومن هنا كان الإعجاز العلمي في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾.

ثالثاً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾

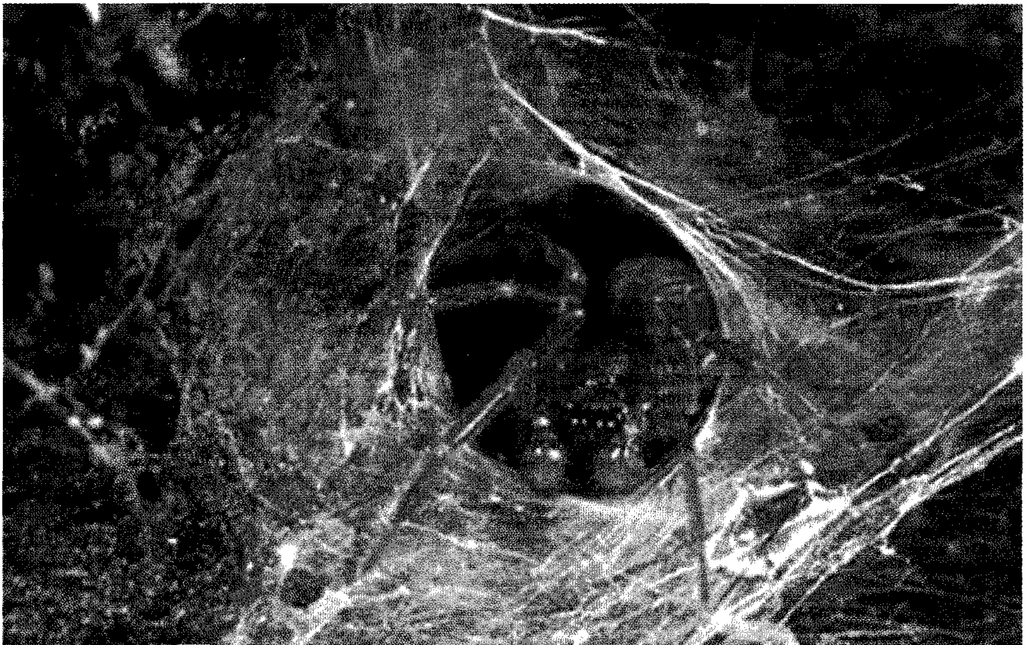
هذا النص القرآني المعجز يشير إلى عدد من الحقائق المهمة التي منها:

1 ـ إن بيت العنكبوت هو من الناحية المادية البحتة أضعف بيت على الإطلاق، لأنه مكون من مجموعة خيوط حريرية غاية في الدقة تتشابك مع بعضها البعض تاركة مسافات بينية كبيرة في أغلب الأحيان، ولذلك فهي لا تقي حرارة شمس، ولا زمهرير برد، ولا تحدث ظلاً كافياً، ولا تقي من مطر هاطل، ولا من رياح

عاصفة، ولا من أخطار المهاجمين، وذلك على الرغم من الإعجاز في بنائها، فخيوط بيت العنكبوت حريرية دقيقة جداً، يبلغ سمك الواحدة منها في المتوسط واحداً من المليون من البوصة المربعة، أو جزءاً من أربعة آلاف جزء من سمك الشعرة العادية في رأس الإنسان، وهي على الرغم من دقتها الشديدة أقوى خمس مرات من نظيرها من الصلب، وتتميز بمقاومة للشد أكبر من مثيلتها من الصلب سواء نسبت تلك المقاومة لوحدة الحجوم أو لوحدة الوزن من الخيط المختبر، بل إن الدراسات الحديثة قد أثبتت أن الخيط من حرير عنكبوت من نوع نيفيلا (Nephila) وهو من مجموعة الحائك الدوار (Orbweaver) يعد أقوى ثلاث مرات من مثيله المصنوع من المادة المعروفة باسم كيفلار (Kevlar)، وهي مادة ذات أساس بترولي تستخدم في صناعة الصديرية الواقية من طلقات الرصاص. لذلك يعد حرير العنكبوت واحداً من أقوى المواد الموجودة على سطح الأرض لأنه يتحمل شداً يصل إلى 42000 كيلو جرام على السنتيمتر المربع مما يكسبه قابلية هائلة للمط (Stretching) وأعطاه قدرة على الإيقاع بالفريسة من الحشرات دون أن يتمزق، خاصة وأن العنكبوت يبني بيته من ضفائر تضم الواحدة منها عدداً من هذه الخيوط المضفرة والمجدولة تجديلاً قوياً، ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾، ولم يقل أوهن الخيوط، وبقي بيت العنكبوت هو أوهن البيوت وأضعفها على الإطلاق، على الرغم من شدة وقوة خيوطه.

2 ـ إن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية هو أوهن بيت على الإطلاق لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد، وذلك لأن الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقضي على ذكرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب وذلك بقتله وافتراس جسده لأنها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة، وفي بعض الأنواع تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذي عادة ما تحتضنه في كيس من الحرير، وعندما يفقس البيض تخرج صغار العناكب (Spider lings) فتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معاً فيقتل الأخ أخاه وأخته، وتقتل الأخت أختها وأخاها حتى تنتهي المعركة ببقاء عدد قليل من العنيكبات التي تنسلخ من جلدها، وتمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى، والواحد تلو الآخر بذكريات تعيسة، لينتشر الجميع في البيئة المحيطة وتبدأ كل أنثى في بناء بيتها، ويهلك في الطريق إلى ذلك من يهلك من هذه العنيكبات. ويكرر من ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت



شراسة ووحشية، وانعداماً لأواصر القربى، ومن هنا ضرب الله ـ تعالى ـ به المثل في الوهن والضعف لافتقاره إلى أبسط معاني التراحم بين الزوج وزوجه، والأم وصغارها، والأخ وشقيقه وشقيقته، والأخت وأختها وأخيها..!!

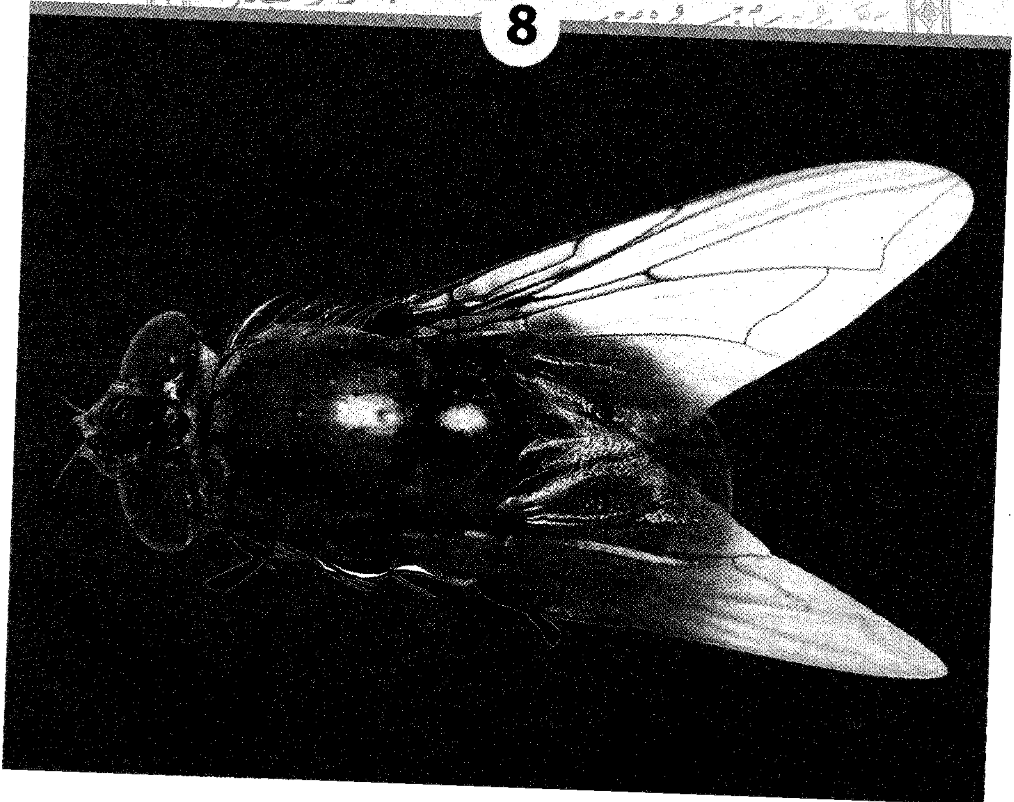
رابعاً: في قوله ــ تعالى ــ : ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾:

هذه الحقائق لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، حيث لم تكتشف إلا بعد دراسات مكثفة في علم سلوك حيوان العنكبوت استغرقت مئات من العلماء لمئات من السنين حتى تبلورت في العقود المتأخرة من القرن العشرين، ولذلك ختم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الآية الكريمة بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

وعلى ذلك فإن الوصف القرآني لبيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت، هذا الوصف الذي أنزل على نبي أمي ﷺ، في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل ألف وأربعمائة سنة يعتبر سبقاً علمياً لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد سبحانه وتعالى بذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حتى يبقى هذا الكتاب العزيز حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، ويبقى ما فيه من الحق شاهداً على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وشاهداً كذلك بالنبوة وبالرسالة للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ والذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين...!! فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده إن ربي لا يخلف الميعاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ
وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ
ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ
مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ

8



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝﴾
«سورة الحج، الآية: 73»

8



هذا النص القرآني المعجز جاء في خواتيم سورة «الحج»، وهي سورة مدنية، ومجموع آياتها ثمان وسبعون بعد البسملة، وهي السورة الوحيدة من بين سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى الأمر الإلٰهي الصادر إلى أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ بالأذان في الناس بالحج.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من التشريعات الإسلامية بأحكام كلٍّ من الحج، والطعام، والإذن بالقتال والجهاد في سبيل الله دفاعاً عن النفس، وعن الدين وشعائره ومقدساته، وعن أعراض وأموال وممتلكات وأراضي المسلمين، دفعاً لظلم الظالمين، ولبغي الباغين المتجبرين في الأرض بغير الحق.

ويصحب هذه التكاليف وعد قاطع من الله ـ تعالى ـ بنصر المجاهدين في سبيله، وبالتمكين لعباده المؤمنين الذين ينهضون في غير تردد لدفع كل عدوان باغٍ على المسلمين، أو على غيرهم من البشر المسالمين، مع تأكيد قوة الله البالغة، وضعف الشركاء المزعومين، والإشارة إلى مصارع الغابرين من الكفار والمشركين والبغاة الظالمين، وإلى سنن الله ـ تعالى ـ في ذلك وهي سنن لا تتوقف ولا تتبدل ولا تتخلف.

عرض موجز لسورة «الحج»

تبدأ سورة الحج بدعوة الناس جميعاً إلى تقوى الله وتحذرهم من هول الساعة وما يصاحبها من أحداث جسام، ومن اتباع الشيطان لأنه يضل من يتبعه ويهديه إلى عذاب

السعير، وتحذر كذلك من الخوض في الذات الإلٰهية بغير علم، وتؤكد حقيقة البعث، مستشهدة على حتميته بخلق الإنسان من تراب، ومشبهة ذلك بإنبات الأرض بعد إنزال الماء عليها، واتخاذه دليلاً على إحياء الموتى، مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وتعاود السورة الكريمة الحديث عمن يضلهم الشيطان فيجادلون في الذات الإلٰهية: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ «سورة الحج، الآية: 8»، ليضلوا غيرهم عن سبيل الله، وهؤلاء لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب شديد. وتشير إلى أن من الناس من يعبد الله ـ تعالى ـ طمعاً في كريم عطائه فقط، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن ابتلي بفتنة انقلب على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وتحذِّر سورة الحج من الشرك بالله، واصفة إياه بالضلال البعيد، ومؤكدة عجز الشركاء المزعومين عن نفع أو ضر من أشركوهم مع الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

وتؤكد السورة الكريمة جزاء العمل الصالح بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ «سورة الحج، الآية: 14».

وتضيف مؤكدة أن الله ﷻ قد تعهد بنصر خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وبنصر أتباعه في الدنيا والآخرة رغم كيد الكائدين وحقد الحاقدين.

وفي الإشارة إلى القرآن الكريم يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ «سورة الحج، الآية: 16».

وفوَّضت الآيات الأمر إلى الله ـ تعالى ـ في الفصل بين أصحاب الملل والنِّحَل المختلفة في يوم القيامة، مؤكدة أن جميع ما في هذا الوجود ومن فيه يسجد لله ﷻ في عبودية كاملة وخضوع تام، يمثلان قمة التكريم للمخلوقات، لأن من يعرض عن ذلك من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم.

ومايزت سورة الحج بين عذاب الكافرين في الآخرة، ونعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأشارت إلى أن من الكفر بالله: الصد عن سبيله، وعن المسجد الحرام، والظلم

والإلحاد فيه، وأكدت أن الله ـ تعالى ـ قد هدى إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد الخالص، وإلى مكان البيت الحرام، وأمره برفع قواعده وإعادة بنائه، والعمل على تطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود، وأن يؤذن في الناس بالحج يأتوه من كل فج عميق؛ وبذلك أقامت فريضة الحج وما فيها من تعظيم لشعائر الله، وحذرت من انتهاك حرمات الله، وأمرت بالحلال من الطعام، وباجتناب الرجس من الأوثان، واجتناب قول الزور، كما أمرت بالحنيفية السمحة ونهت عن الشرك بالله، وحذرت من عقاب المشركين في يوم الدين، وأكدت أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، وأشارت إلى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل على كل أمة قرباناً تقدمه لله شكراً على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

وتكرر سورة الحج تأكيد وحدانية الله، وضرورة الخضوع الكامل لجلاله بالإسلام له، وتأمر خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم أن يبشر بخيري الدنيا والآخرة كلاً من المتواضعين لله ـ تعالى ـ، والمطمئنين إلى حكمه، والذين تخشع قلوبهم بذكره، والصابرين على قضائه، والمقيمين للصلاة خالصة له، والمنفقين مما رزقهم الله طلباً لمرضاته. وأكدت أن من شعائر الحج النحر لله، فإذا ذبحت البدن بعد ذكر اسم الله عليها أكل منها مقدمها وأطعم السائل وغير السائل ممن يتعرضون له، ولذلك سخرها الله ـ تعالى ـ لهم. ومن قبيل الشكر لله على وهب تلك الأنعام، وعلى هدايته سبحانه وتعالى لهؤلاء المحسنين الذين قدَّموها قرباناً إلى الله بشرهم الله ـ تعالى ـ بالقبول فيقول ـ عز من قائل ـ:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *﴾ «سورة الحج، الآيتان: 37، 38».

ويتكرر في سورة الحج الإذن بالقتال الدفاعي للذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، كما حدث ـ ولا يزال يحدث ـ مع إخواننا الفلسطينيين، والعراقيين، والأفغان ومسلمي كلٍّ من البلقان، والشيشان، وكشمير، وأراكان، وجنوب الفليبين، والصومال، والسودان، وسبتة ومليلة وغيرها من أراضي المسلمين المستباحة اليوم على أيدي المعتدين الظلمة من غلاة الكافرين والمشركين، الذين أغرقوا بلاد الإسلام في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، وبقية المسلمين من حولهم يتفرجون في تخاذل وانهزام مذلِّين وقد تجاوزت أعدادهم المليار ونصف المليار.

وتؤكِّد هذه السورة الكريمة أن الله ـ تعالى ـ سوف ينصر من ينصره وهو القوي العزيز، فعلينا بالرجوع إلى الله بصدق، وهو القادر على دحر كل المعتدين مهما تعاظمت أسلحتهم، ومهما خبث مكرهم.

وتصف سورة الحج أنصار الله بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ «سورة الحج، الآية: 41».

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في مواساة رقيقة من الله ـ تعالى ـ لتكذيب الكافرين والمشركين لبعثته الشريفة فيقول له رب العالمين:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ *﴾

«سورة الحج، الآيات: 42 ـ 48».

وتطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ بأن يعلن للناس جميعاً أنه نذير مبين لهم فتقول:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ *﴾

«سورة الحج، الآيات: 49 ـ 51».

وتؤكد سورة الحج أن الله العليم الحكيم قد أحكم آيات كتابه العزيز، وحفظها من كل تدخُّل شيطاني حتى يبقى كتاب الله في صفائه الرباني محتفظاً بالحق الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ، وفي ذلك يقول:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۞﴾ «سورة الحج، الآيتان: 54، 55».

وتكرر السورة الكريمة التفريق بين نعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الآخرة، وجحيم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، مؤكدة ثواب المهاجرين في سبيل الله والمجاهدين من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله على الأرض، وأن الله ـ تعالى ـ قد أخذ على ذاته العلية نصرة كل مظلوم.

واستشهدت السورة الكريمة بعدد من الآيات الكونية على حقيقة الألوهية فتقول:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ «سورة الحج، الآية: 62».

وركزت الآيات على زجر المعارضين لرسول الله ﷺ من أهل الكتاب في زمانه وإلى زماننا وحتى قيام الساعة وتحذرهم من مخالفته وعصيانه، مؤكدة خروجهم على ما جاءهم من كتب وما أنزل لهم فيها من الشرائع والعقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات (النسك) وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞﴾ «سورة الحج، الآيتان: 71، 72».

وتختتم سورة الحج بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ * وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ *﴾

«سورة الحج، الآيات: 75 ـ 78».

من أسس العقيدة الإسلامية في سورة «الحج»:

1 ـ الإيمان بالله سبحانه وتعالى رباً، خالقاً، واحداً أحداً بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد وأنه ـ تعالى ـ هو الحق، وهو القوي، العزيز، السميع، العليم، البصير، مالك الملك، الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويفعل ما يشاء، وهو على كل شيء شهيد ووكيل، وهو ـ سبحانه ـ يدافع عن الذين آمنوا، وقد أخذ على ذاته العلية العهد بنصرة من ينصر دينه ومن يجاهد من أجل إعلاء كلمته وإقامة عدله على الأرض، وأن من يهن الله فما له من مكرم، وأن له يسجد كل من في السمٰوات والأرض، وأن إليه ترجع الأمور، وأنه ـ تعالى ـ يفصل بين أصحاب الملل المختلفة يوم القيامة.

2 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله وبخاتمهم أجمعين، وبالكتاب الخاتم الذي أنزل إليه ـ القرآن الكريم ـ المهيمن على كل الكتب السابقة والناسخ لها.

3 ـ التسليم بضرورة تقوى الله سبحانه وتعالى ومخافته، والاعتصام بحبله المتين، وتعظيم شعائره، وأولها المسجد الحرام الذي قال ـ تبارك وتعالى ـ فيه:

﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ «سورة الحج، الآية: 25».

4 ـ التصديق بحقيقة البعث وحتميته وضرورته، وبالحساب والجزاء، وبالجنة والنار.

5 ـ التسليم بعدم جدوى الجدل في الأمور الغيبية غيبة مطلقة.

من العبادات المفروضة في سورة «الحج»:

1 ـ إقامة الصلاة على وقتها.

2 ـ إيتاء الزكاة إلى مستحقيها وبقدرها.

3 ـ حج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً.

4 ـ الجهاد في سبيل الله دفعاً لظلم الظالمين ولبغي الباغين.

5 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

6 ـ التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

7 ـ محاربة الشيطان وعدم اتباع خطواته.

8 ـ التخلص من الشرك بكل صوره وأشكاله ومراتبه.

9 ـ الامتناع التام عن قول الزور والعمل به.

من الإشارات الكونية في سورة «الحج»:

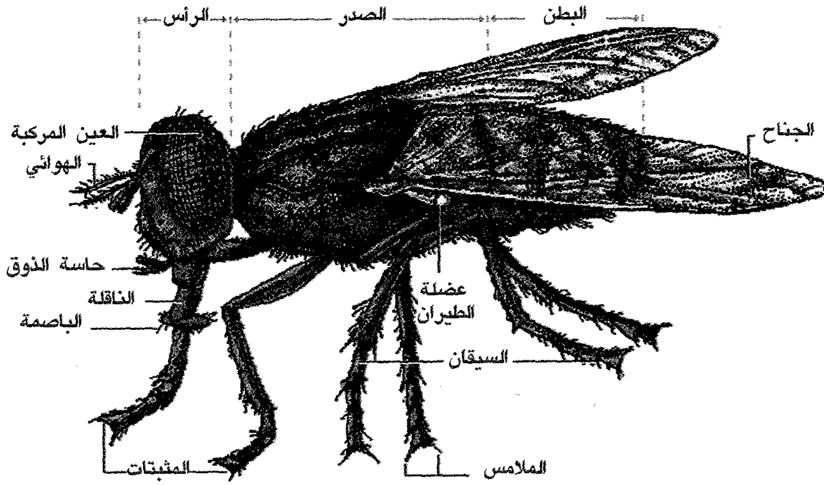
1 ـ الإشارة إلى خلق الإنسان من تراب، ووصف مراحل الجنين المتتالية بدقة بالغة حتى يخرج إلى الحياة طفلاً، يحيا ما شاء الله ـ تعالى ـ له أن يحيا، ثم يتوفاه الله ﷻ عند نهاية أجله، والذي يرد من البشر إلى أرذل العمر تضعف ذاكرته في أغلب الأحوال حتى لا يكاد أن يعلم من بعد علم شيئاً.

2 ـ الإشارة إلى اهتزاز الأرض وارتفاعها، وإنباتها من كل زوج بهيج بمجرد إنزال الماء عليها، وتشبيه خلق الإنسان من تراب الأرض وبعثه منها بعملية إنبات النبات.

3 ـ تأكيد حقيقة أن جميع من في السمٰوات والأرض يسجد لله ـ تعالى ـ طوعاً أو كرهاً.

4 ـ الإشارة إلى نسبية كلٍّ من المكان والزمان في منظور الإنسان، وإلى ضخامة أبعاد الكون وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ «سورة الحج، الآية:47».



5 ـ التعبير اللطيف عن كروية الأرض، وعن دورانها حول محورها أمام الشمس بولوج كلٍّ من الليل والنهار في الآخر.

6 ـ الإشارة إلى اخضرار الأرض بمجرد إنزال الماء عليها من السماء.

7 ـ تأكيد أن كلّ ما في الأرض مسخر للإنسان، وكذلك كل ما في البحر بما في ذلك جري الفلك بأمر الله ﷻ.

8 ـ الإشارة إلى حقيقة أن الله ـ تعالى ـ يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

9 ـ تأكيد عجز كل المخلوقين (من الأصنام والأوثان والأشخاص منفردين ومجتمعين) عن خلق ذبابة واحدة، فضلاً عن إمكانهم استنقاذ ما يسلب الذباب منهم مما يقدم لهم من قرابين أو مما يلطخون به من طيب، أو مما يأكل الناس ويشربون بصفة عامة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأخيرة في القائمة السابقة التي جاءت في الآية الثالثة والسبعين من سورة الحج، وقبل شرح دلالتها العلمية لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالاتها اللغوية والمعنوية.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ «سورة الحج، الآية: 73».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «يقول ـ تعالى ـ منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك...، ثم قال ـ تعالى ـ أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، واختاره ابن جرير، وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم...».
- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم ـ ما مختصره:

«إنه النداء العام والنفير البعيد الصدى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾... فإذا اجتمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب، لا حالة خاصة ولا مناسبة حاضرة: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾... هذا المثل يضع قاعدة ويقرر حقيقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾... كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة: من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه... كلهم ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾... والذباب صغير حقير، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ـ ولو اجتمعوا وتساندوا ـ على خلق هذا الذباب الصغير الحقير! وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل، لأن الذباب يحتوي على

ذلك السر المعجز؛ سر الحياة فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل... لكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير. وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب! ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾... والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده. وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير، وهو في الوقت نفسه يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس: يسلب العيون والجوارح، وقد يسلب الحياة والأرواح... إنه يحمل ميكروبات السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد... ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير!».

«وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجز... ولو قال: وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها... لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف. والسباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب! لكنه الأسلوب القرآني العجيب!. ويختم ذلك المثل المصور الموحي بهذا التعقيب: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب!».

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه:

«يا أيها الناس: إنا نبرز أمامكم حقيقة عجيبة في شأنها، فاستمعوا إليها وتدبروها: إن هذه الأصنام لن تستطيع أبداً خلق شيء مهما يكن حقيراً تافهاً كالذباب، وإن تضافروا جميعاً على خلقه بل إن هذا المخلوق التافه لو سلب من الأصنام شيئاً من القرابين التي تقدم إليها فإنها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تمنعه عنه أو تسترده منه، وما أضعف الذي يهزم أمام الذباب عن استرداد ما سلبه منه، وما أضعف الذباب نفسه، كلاهما شديد الضعف، بل الأصنام كما ترون أشد ضعفاً، فكيف يليق بإنسان عاقل أن يعبدها ويلتمس النفع منها؟».

وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلًا لما يعبد

من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر، واعقلوا ما يقال لكم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي أن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك. فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله! قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجج وأوضح البراهين ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الصنم، فكلٌّ منهما حقير ضعيف».

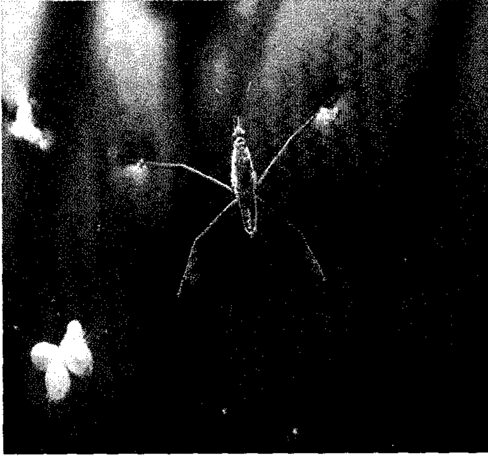
من الدلالات العلمية للنص الكريم:

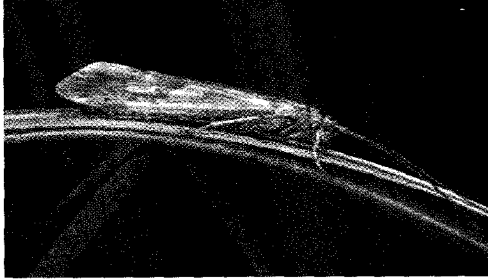
أولاً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿...وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا...﴾

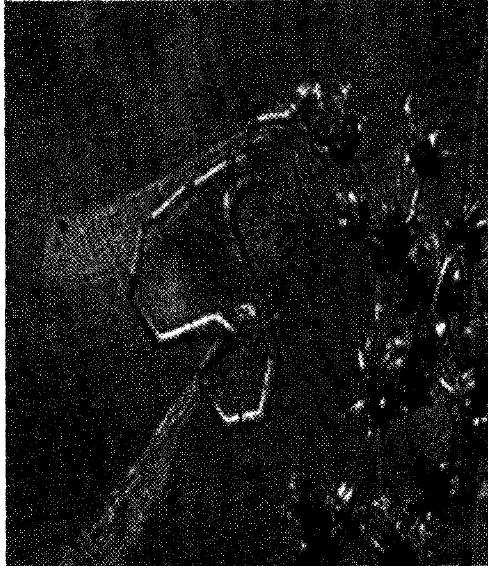
و(**الاستلاب**) في اللغة هو الاختلاس، والسلب هو نزع الشيء من الغير على القهر، و(السلب) و(السليب) هو الشخص المسلوب، والناقة التي سلب ولدها، و(السلب) أيضاً هو الشيء المسلوب، ويقال للحاء الشجر المنزوع منه.

وفي استخدام القرآن الكريم تعبير ﴿...وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا...﴾ ومضة معجزة لأن الذباب يختلس ما يأخذه من أشربة وأطعمة الناس اختلاساً، وينزعها منهم نزعاً على القهر لعجزهم عن مقاومته في أغلب الأحوال.

فحركات الذبابة المنزلية على درجة عالية من التعقيد إذ تبدأ في الاستعداد للطيران بتحديد العضلات التي سوف تستخدمها، ثم تأخذ وضع التأهب للطيران وذلك بتعديل وضع أعضاء التوازن في الجهة الأمامية من الجسم حسب زاوية الإقلاع، واتجاه وسرعة الريح وذلك بواسطة خلايا حسية خاصة موجودة على قرون الاستشعار في مقدمة الرأس. وهذه العمليات المعقدة لا تستغرق أكثر من واحد من مائة من الثانية. ومن الغريب أن الذبابة لها قدرة على الإقلاع عمودياً من المكان الذي تقف عليه، كما أن لها القدرة على







المناورة بالحركات الأمامية والخلفية والجانبية بسرعة فائقة لتغيير مواقعها، وبعد طيرانها تستطيع الذبابة زيادة سرعتها إلى عشرة كيلو مترات في الساعة، وهي تسلك في ذلك مساراً متعرجاً ثم تحط بكفاءة عالية على أي سطح بغض النظر عن شكله وارتفاعه واستقامته أو انحداره، وملاءمته أو عدم ملاءمته لنزول شيء عليه. ويساعد الذبابة على هذه القدرة الفائقة في المناورة جناحان ملتصقان مباشرة بصدرها بواسطة غشاء رقيق جداً مندمج مع الجناح؛ ويمكن لأي من هذين الجناحين أن يعمل بشكل مستقل عن الآخر، وإن كانا يعملان معاً في أثناء الطيران على محور واحد إلى الأمام أو إلى الخلف يدعمهما نظام معقد من العضلات يعين هذين الجناحين على أن يتما إلى مائتي خفقة في الثانية الواحدة كما هو الحال في الذباب الأزرق وعليها أن تستمر على ذلك لمدة نصف الساعة وأن تتحرك لمسافة ميل كامل على هذه الحال. وتستمد الذبابة مهاراتها الفائقة في الإقلاع والطيران والهبوط من التصميم المثالي لجسدها ولأجنحتها، إذ أن النهايات السطحية للأوردة المنتشرة في تلك الأجنحة تحمل شعيرات حساسة جداً لقياس ضغط الهواء واتجاه الرياح، كذلك فإن أجهزة الحس الموجودة تحت الأجنحة

وخلف رأس الذبابة تقوم بنقل معلومات الطيران إلى دمائها باستمرار ثم إلى رأسها الذي يرسل أوامره إلى العضلات باستمرار أيضاً لتوجيه الأجنحة في الاتجاه الصحيح، وبذلك يتم توجيه الذبابة في أثناء الطيران بدقة وإحكام فائقين مما يعينها على إصابة الهدف وتجنب المخاطر بكفاءة عالية.

ويعين الذبابة في ذلك أيضاً عينان مركبتان، لا يزيد حجم الواحدة منهما على نصف المليمتر المكعب، وتتكون كل عين منهما من ستة آلاف عيينة سداسية لها القدرة على الرؤية في جميع الاتجاهات، وكل واحدة من هذه العيينات مرتبطة مع ثمانية أعصاب مستقبلة للضوء، اثنان منها للألوان، وستة متخصصة في ضبط تحركات الذبابة لأنها تكشف كل شيء في المجال البصري لها وبذلك يكون مجموع الخيوط العصبية في الواحدة من عيني الذبابة ما يقدر بـ 48 ألف خيط عصبي يمكنها معالجة أكثر من مائة صورة في الثانية الواحدة.

هذا بالإضافة إلى مليون خلية عصبية متخصصة بالتحكم في حركة الذبابة من أعلى إلى أسفل وبالعكس، ومن الأمام إلى الخلف وبالعكس. كل ذلك يعين الذبابة على الانقضاض على الشراب أو الطعام فتحمل منه بواسطة كل من فمها والزغب الكثيف المتداخل الذي يغطي جسمها ما تحمل ثم تهرب مبتعدة في عملية استلاب حقيقية بمعنييها: الاختلاس، ونزع الشيء على القهر.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾:

يعرف العلماء اليوم من أنواع الذبابة الحقيقية المجموعة في رتبة ثنائيات الأجنحة (Diptera) حوالي100 ألف نوع، وتنتشر هذه الأنواع من الذباب انتشاراً هائلاً في مختلف بيئات الأرض، وتسيطر على مساحات شاسعة من أماكن انتشارها بسيطرة كاملة لا تمكن الإنسان من مجرد اجتيازها، فضلاً عن العيش فيها.

ومن حيث الانتشار على الأرض تأتي الحشرات في المقام الأول بين مختلف مجموعات الحياة، ويأتي الذباب في المرتبة الثالثة بعد كل من النمل والبعوض. ولولا التوازن الدقيق الذي وضعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بين مختلف مجموعات الحياة لغطت جيوش الذباب سطح الأرض بالكامل وجعلت الحياة عليها مستحيلة؛ وذلك لأن الذبابة تضع نحو400 بيضة في المرة الواحدة في المتوسط، وأن من أنواع الذباب ما يتكاثر بمعدلات أعلى من ذلك بكثير بحيث لو قدر لجميع بيضها أن يفقس وأن يعيش كل



ما يخرج منه ويتوالد لنتج عن الزوج الواحد من الذباب خلال فصل واحد من فصول السنة ما تعداده يفوق الرقم عشرة مسبوقاً بستين صفراً، ولكن الله ـ تعالى ـ ـ من عظيم حكمته ـ يسلط من مخلوقاته مثل الطيور والنمل وغيرها ما يستهلك أغلب بيض الذباب كطعام له.

والذباب يتغذى عادة على النفايات المختلفة، وإن كانت أشربة الناس وأطعمتهم لا تسلم من هجماته. والذبابة المنزلية تتذوق الشراب أو الطعام بمجرد أن تحط عليه، وذلك بواسطة خلايا حساسة منتشرة في كل من شفتها وأقدامها، فإن راقها سلبت منه ما تستطيع وهربت بسرعة فائقة كما يفعل اللصوص، فإن كان ما سلبته شراباً امتصته بواسطة خرطومها ليصل إلى جهازها الهضمي المزود بالقدرة على إفراز الخمائر القادرة على هضمه وتمثيله تمثيلاً كاملاً في ثوان معدودة، وبذلك لا يمكن استنقاذه منها. أما إذا كان الطعام صلباً فإن الذبابة المنزلية تفرز عليه من بطنها عدداً من الإنزيمات والعصائر الهاضمة بالإضافة إلى لعابها، وهذه تبدأ في إذابة ما تقع عليه من الطعام الصلب فوراً مما يمكن الذبابة من امتصاصه بخرطومها وبأجزاء فمها ذات الطبيعة الإسفنجية، ومن ثم لا يمكن استرجاعه أبداً، أو استنقاذه بأي حال من الأحوال.

وحتى الذباب الذي يعيش على امتصاص بعض رحائق الأزهار أو امتصاص دماء غيره من الحشرات فإنه يقوم بتحقيق ذلك بواسطة خرطوم الفم الماص، وأجزائه الإسفنجية المهيأة لذلك.

هذا بالإضافة إلى أن جسم الذبابة مغطى بزغب كثيف متداخل يغطي كلاً من رأسها وصدرها وبطنها وأرجلها الست وأقدامها وجناحيها، فإذا غطت نفسها في سائل من السوائل أو مسحوق من المساحيق حمل هذا الزغب منه ما لا يمكن استنقاذه أبداً.

ثالثاً: في قوله ـ تعالى ـ : ... ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ :

من الثابت علمياً أن البشرية كلها عاجزة كل العجز عن خلق خلية حية واحدة في الزمن الراهن ـ زمن التقدم العلمي والتقني المذهل وغير المسبوق في تاريخ البشرية كله ـ وهي بالتالي أعجز عن خلق ذبابة واحدة، ونحن نعلم اليوم أن جسد الذبابة مكون من ملايين الخلايا المتخصصة الموزعة في أنسجة متخصصة، وفي أجهزة متعددة تعمل في توافق تام من أجل حياة هذه الحشرة الصغيرة التي ينقسم جسمها إلى **رأس وصدر وبطن**، وهو مكون من حلقات مغطاة بزغب كثيف، **ومزودة بثلاثة أزواج من الأرجل، وبأقدام مغطاة أيضاً بزغب كثيف على هيئة الخف** تفرز مواد لاصقة تعين الذبابة على الالتصاق بأي سطح من الأسطح بهيئة معتدلة أو مقلوبة كالتصاقها بأسقف الغرف.

وإذا علمنا أن بجسم الذبابة أكثر من مليون خلية عصبية متخصصة بتحركات تلك الحشرة الضعيفة، وأن هذه الخلايا العصبية مرتبطة بثمانية وثلاثين زوجاً من العضلات منها سبعة عشر زوجاً من هذه العضلات لحركة الجناحين، وواحد وعشرون زوجاً لحركات الرأس. وإذا علمنا أيضاً أن للذبابة زوجاً من العيون المركبة التي تتكون الواحدة منهما من ستة آلاف عيينة سداسية، يتصل بكل واحدة منها ثمانية خيوط عصبية مستقبلة للضوء بمجموع 48 ألف خيط عصبي للعين الواحدة يمكنها معالجة مائة صورة في الثانية الواحدة. وإذا فهمنا غير ذلك من الأجهزة المتخصصة وتعقيداتها في جسم الذبابة لأدركنا مدى التحدي الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الحج بقوله ـ عز من قائل ـ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ «سورة الحج، الآية: 73».

والطالب في هذه الآية الكريمة هو المسلوب الذي سلبه الذباب شيئاً مما هو له، والمطلوب هو الذباب السالب. وسواء كان المسلوب هو المعبود من دون الله صنماً كان أو بشراً، أو نظاماً أو قيماً أو أوضاعاً معينة فإنهم جميعاً عاجزون عن خلق خلية حية واحدة، فضلاً عن ذبابة واحدة، فما بالنا بمائة ألف نوع معروف من أنواع الذباب، ويمثل كل نوع منه بلايين البلايين من الأفراد.

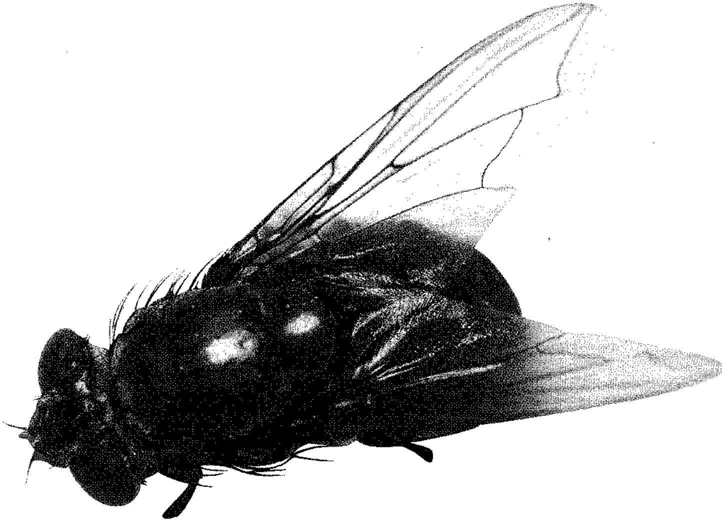
ويستمر القرآن الكريم في تحديه بأن الإنسان الكافر أو المشرك، وما يعبد من دون الله من وثن أو صنم أو بشر أو نظام لن يعجزوا فقط عن خلق الذباب، بل إنهم عاجزون عن استنقاذ ما يسلبه الذباب منهم من طعام أو شراب أو طيب أو دهون. فالذباب عندما يحط على شيء من ذلك فإن كان سائلاً سلب قطرة منه وأوصلها فوراً إلى جهازه الهضمي الذي يمتصها ويحولها إلى جهازه الدوري ومنه إلى مختلف خلاياه، وإن كان مادة صلبة صب عليها لعابه وإنزيمات معدته وعصائرها الهاضمة فيفككها فوراً ويذيبها، أي يهضمها قبل أن يمتصها ويوصلها مهضومة إلى جهازها الهضمي ومنه إلى جهازها الدوري ثم إلى مختلف خلايا جسم الذبابة، حيث يتحول جزء من هذا الطعام إلى طاقة، ويتحول جزء آخر إلى مكونات الخلايا والأنسجة، وإلى عدد من المركبات العضوية التي يستخدمها الجسم، ويتحول الباقي إلى فضلات تتخلص منها الذبابة، ولا سبيل أبداً إلى استرجاع أي من ذلك.

هذه الحقائق لم يصل إليها علم الإنسان إلا في القرن العشرين وفي العقود المتأخرة منه، وورودها في كتاب الله بهذه الإشارات الدقيقة المحكمة الموجزة لممّا يشهد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده، في لغة وحيه نفسها ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد بذلك الحفظ إلى قيام الساعة، ليبقى هادياً للناس جميعاً، وحجة على أهل العلم منهم خاصة وذلك:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

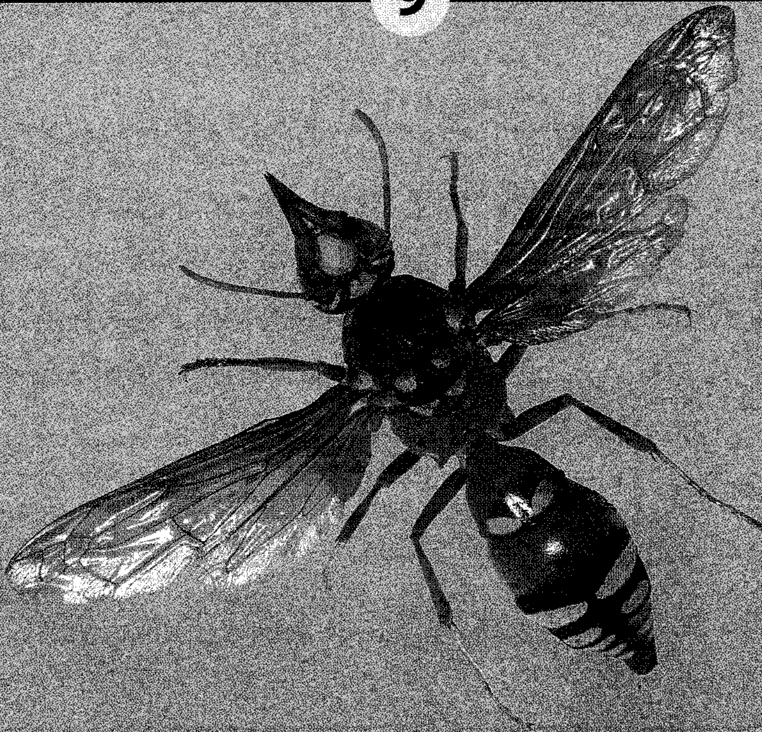
«سورة الأنفال، الآية: 42».

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة النبي والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا
مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ
مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥
۞ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً**
فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا
مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ
بِهِۦٓ إِلَّا

9

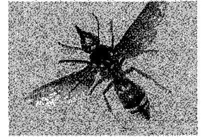


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾

«سورة البقرة، الآية: 26».

9



هذا النص القرآني الكريم جاء في العشر الأول من سورة «البقرة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (286) بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التي أجراها الله ﷻ على يدي نبيه موسى عليه السلام حين تعرض شخص من بني إسرائيل في زمانه للقتل ولم يُعرف قاتله، فأوحى الله - تعالى - إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله، ثم يموت، إحقاقاً للحق، وشهادة لله ﷻ بالقدرة على إحياء الموتى.

ومن مزايا سورة «البقرة» أن رسول الله ﷺ قال فيها:

- **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»**(1).
- **«من قرأ الآيتين من آخر سورة «البقرة» في ليلة كفتاه»**(2).
- **«يأتي القرآن وأهله الذين يعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة، وآل عمران.. تأتيان كأنهما غيابتان وبينهما شرف، أو كأنهما غمامتان سوداوان، أو كأنهما ظلة من طير صواف تجادلان عن صاحبهما»**(3).

---

(1) رواه الترمذي في (الحديث: 2877).

(2) رواه البخاري في (الحديث: 4010)، ومسلم في (الحديث: 1875) والترمذي في (الحديث: 2881).

(3) أخرجه مسلم في (الحديث: 1873)، والترمذي في (الحديث: 2883).

- «اقرأوا سورة «البقرة»، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»[1].

ويدور المحور الرئيسي لسورة «البقرة» حول قضية التشريع الإسلامي في العبادات والأخلاق، والمعاملات، وإن لم تغفل قضية العقيدة الإسلامية لأنها صلب الدين، كذلك حددت السورة الكريمة صفات كلٍّ من المؤمنين والمنافقين والكافرين، وسجلت قصة خلق الإنسان بدءاً بأبوينا آدم وحواء ـ عليهما من الله السلام ـ.

وأشارت السورة إلى عدد من أنبياء الله ورسله منهم إبراهيم وولده إسماعيل وحفيده يعقوب، ومن نسله موسى، وداود، وسليمان، وعيسى ابن مريم، على نبينا وعليهم من الله السلام.

وبتفصيل بلغ أكثر من ثلث السورة تناولت سورة «البقرة» قضية أهل الكتاب وموقفهم من الرسالة الخاتمة، ومن النبي والرسول الخاتم ﷺ، وختمت بإقرار حقيقة الإيمان وبدعاء يهز القلب والروح والوجدان، على لسان العبد مناجياً ربه سبحانه وتعالى بما يجب أن يقول فيقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 286».

ويمكن إيجاز أهم معطيات سورة البقرة فيما يلي:

أولاً: من التشريعات الإسلامية في سورة «البقرة»:

1 ـ فصلت سورة «البقرة» أحكام الأسرة المسلمة من الخطبة إلى الزواج، والإنجاب، والطلاق ـ في بعض الحالات ـ والمتعة، والرضاعة، والعدة، وغيرها، وأمرت باعتزال النساء في المحيض، ونهت عن نكاح المشركات والمشركين حتى يؤمنوا.

2 ـ وعددت المحرمات من الطعام من مثل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه، كما حرّمت كلاً من الخمر والميسر.

3 ـ وشَرَّعت سورة «البقرة» للقصاص في القتلى حماية للمجتمعات الإنسانية من إجرام المجرمين.

(1) رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

4 ـ وحضَّت على كتابة الوصية قبل الموت، وحرمت وجرمت تبديلها أو إخفاءها.
5 ـ وحرمت أكل أموال الناس بالباطل مهما صغرت القيمة.
6 ـ ووضعت ضوابط للتعامل بالدَّيْن وكيفية كتابته، والشهادة عليه وطبيعة شهوده.
7 ـ وحرمت التعامل بالربا تحريماً قاطعاً، وهددت الواقعين فيه بحرب من الله ورسوله، والغالبية الساحقة من بنوك العالمين العربي والإسلامي لا تتعامل اليوم إلا بالربا المعلن، والقليل من البنوك الإسلامية تحارب في كل أرض.
8 ـ وحضَّت على رعاية اليتيم حتى يبلغ أشده، وحددت ضوابط الإنفاقِ في سبيل الله.
9 ـ وحرمت «سورة البقرة» إنكار أي معلوم من الدين بالضرورة.

ثانياً: من قواعد العبادة في سورة «البقرة»:

1 ـ أمر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة «البقرة» بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وحدد آداب كل عبادة من تلك العبادات وضوابطها الشرعية، وشَرَّعَت السورة الإنفاق في سبيل الله والإحسان إلى الخلق بصفة عامة، وأكدت بأن ذلك كله كان من قواعد العبادة في كل الشرائع السماوية السابقة، وكلها كانت إسلاماً لله ـ تعالى ـ، علمه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لأبينا آدم عليه السلام وأنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين، وأكمله وأتمه في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.
2 ـ الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، ردعاً للمعتدين والغاصبين والمتجبرين في الأرض، ودفعاً للمعتدين على أراضي المسلمين، وعلى دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، ومقدساتهم، وللمعتدين على غيرهم من المستضعفين في الأرض من غير المسلمين، وذلك صوناً لكرامة الإنسان، وإقامة لعدل الله في الأرض.
3 ـ الدعوة إلى التوجه بالدعاء لله ـ تعالى ـ وحده دون سواه وتحديد الأوقات المفضلة لذلك، وآدابه والتزام تقوى الله في كل حال.
4 ـ مراعاة الأشهر الحرم وتوقيرها، وإقامة السنن التي سنها لنا رسول الله ﷺ فيها.
5 ـ إكرام الوالدين والإحسان إليهما، وإلى كلٍّ من ذوي القربى واليتامى والمساكين، وإلى الناس جميعاً دون منٍّ أو أذى.

ثالثاً: من ركائز العقيدة في سورة «البقرة»:

1 ـ الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

2 ـ التصديق بالقرآن الكريم، آخر وأتم وأكمل الكتب السماوية التي أنزلها الله ـ تعالى ـ بالحق على فترة من الرسل، ثم جمعها في هذا الكتاب الخاتم الذي أنزله على خاتم أنبيائه ورسله، وأبقاه محفوظاً بحفظه في نفس لغة وحيه، هدى للمتقين إلى يوم الدين.

3 ـ التسليم بالغيب الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، انطلاقاً من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وانطلاقاً من الإيمان بملائكته وبجميع كتبه وأنبيائه ورسله، بغير تمييز ولا تفريق، ومن الإيمان باليوم الآخر الذي ترجع فيه كل الخلائق إلى الله خالقها، ثم ترد إلى الخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وهذه كلها من الغيبيات التي يطالبنا الله ـ تعالى ـ بالإيمان بها، ويصف المؤمنين بها بوصف المتقين الذين يؤمنون بجميع رسالات الله دون أدنى تفريق، ويؤمنون بالآخرة بيقين لا يتزعزع.

4 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن من خلقه السمٰوات السبع والأرضين السبع ومن فيهن، وأنه سبحانه وتعالى قد خلق الخلق من العدم، وأنه سوف يميتهم فرداً فرداً، ثم يحييهم بعثاً واحداً ليعودوا إلى بارئهم الذي يعلم غيب السمٰوات والأرض، ويعلم ما تكسب كل نفس فيحاسبهم ويجازيهم، وهو الرحمٰن الرحيم، وهو شديد العقاب، وهو ـ تعالى ـ سريع الحساب، وقد وصف ذاته العلية بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ «سورة البقرة، الآية: 255».

5 ـ الإيمان بوحدة الجنس البشري وبانتهاء نسبه إلى أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وانطلاقاً من ذلك لا بد من نبذ جميع أشكال العصبيات العرقية، والاجتماعية، والدينية، وغيرها من أشكال التمييز بين الناس على أي أساس غير تقوى الله.

6 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ قد علم آدم الأسماء كلها، وبذلك يكون الإنسان قد بدأ وجوده عالماً عابداً، وليس جاهلاً كافراً كما يدعي أصحاب الدراسات الوضعية في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا).

7 ـ اليقين بوحدة رسالة السماء، وبأخوَّة جميع الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله ـ تعالى ـ بالإسلام الصافي، والتوحيد الخالص لله ـ سبحانه ـ، وقد تكاملت رسالاتهم جميعاً في الرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ الذي أرسله الله ـ تعالى ـ بشيراً ونذيراً للعالمين إلى يوم الدين.

8 ـ التصديق بضرورة تنزيه الله ـ تعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله من أمثال الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله ـ تعالى ـ منزَّه عن جميع صفات خلقه، والإيمان بأن الشرك من أبشع صور الاعتقاد وأبغضها إلى الله، وهو من صور الكفر بالله، وأن من هذا الكفر منع مساجد الله ـ تعالى ـ أن يذكر فيها اسمه، أو السعي في خرابها وكلها من الأعمال التي لا يرضاها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ.

9 ـ الإيمان بأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأنه يأمر بالسوء والفحشاء ويغري الضالين من العباد بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، ومن هنا فإن مخالفته واجبة على كل مسلم ومسلمة، وللنجاة من حبائل هذا اللعين، لا بد من الاعتصام بحبل الله المتين. وتأكيداً على هذه الحقيقة عرضت السورة الكريمة لقصة الشيطان الرجيم مع أبوينا آدم وحواء عليهما السلام حتى تم إخراجهما من الجنة بوسوسته وغوايته، ثم كانت توبتهما وقبول الله ـ تعالى ـ منهما تلك التوبة، وبذلك لا يمكن أن يطول أحداً من ذريتهما أثر من معصيتهما، انطلاقاً من عدل الله القائل:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 164».

وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «سورة البقرة، الآية: 37».

10 ـ اليقين بأن دين الله ـ الإسلام ـ قائم على السماحة واليسر، وعلى رفع الحرج عن الخلق، وأن من أصوله الثابتة أنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ «سورة البقرة، الآية: 256».

11 ـ التصديق بحتمية الآخرة وبضرورتها، وبالخوف من فجائيتها وأهوالها، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 281».

رابعاً: من مكارم الأخلاق التي دعت إليها سورة «البقرة»:

1 ـ الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

2 ـ الوفاء بالعهود والمواثيق.

3 ـ الشجاعة والإقدام وحب الاستشهاد في سبيل الله.

4 ـ الجرأة في مناصرة الحق، وإعلان الرأي، وعدم كتمان الشهادة.

5 ـ الجود والكرم والإنفاق في سبيل الله.

6 ـ الحرص على قول المعروف، والعمل الصالح، والعفو عن الناس.

7 ـ بر الوالدين الذي أمر به الله ـ تعالى ـ بعد الأمر للناس جميعاً بألا يعبدوا إلا إياه.

8 ـ الإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين وإلى الناس كافة دون منٍّ أو أذى.

9 ـ تجنب المال الحرام بكافة صوره وأشكاله، ومن أبرزها الربا والرشوة، والسرقة، والغش وغير ذلك من صور التحايل الباطل على الكسب الحرام.

خامساً: من القصص القرآني في سورة «البقرة»:

جاء في سورة البقرة ذكر عدد من أنبياء الله ورسله، وذكر عدد من الحوادث التي تمت في حياتهم أو حدثت لعدد من الصالحين من بعدهم، وذلك للاعتبار بها وأخذ الدروس منها، وهذه يمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ قصة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام.

2 ـ قصة نبي الله موسى عليه السلام وقومه مع فرعون مصر، وخروجهم منها وعبور موسى بهم البحر بمعجزة من الله ـ تعالى ـ، ثم تفجير الأرض لهم بالماء الزلال بعد العبور (عيون موسى)، وعصيانهم لله ـ تعالى ـ بعد كل هذه المعجزات التي رأوها رأي العين، وارتدادهم عن التوحيد إلى الشرك وإلى عبادة العجل، ثم صعقهم عقاباً على ذلك، وإحيائهم ورفع الطور فوقهم، وقصتهم مع القتيل، وأمر الله لهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل ببعضها فيبعثه الله ـ تعالى ـ من موته حتى يخبر عن قاتله ثم يموت. ومسخ الذين اعتدوا منهم في السبت إلى قردة وخنازير. وتلا ذلك كفرهم بآيات الله وتحريفهم للتوراة، وقتلهم للأنبياء من بعد موسى عليه السلام بغير الحق، وعصيانهم لأوامر الله وتعديهم لحدوده، وقصتهم مع كل من طالوت ملكهم من جهة، ومع كل من جالوت وداود عليه السلام ومن آمن معهما من جهة أخرى.

3 ـ قصص بعض أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا من بعد موسى عليه السلام وذلك من أمثال كل من داود وسليمان عليهما السلام.

4 ـ قصة نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وتعاونهما في رفع قواعد الكعبة المشرفة وإعادة بنائها، ودعوتهما إلى الله ـ تعالى ـ أن يبعث خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة، وكذلك الإشارة إلى حوار إبراهيم عليه السلام مع نمرود بن كنعان (أول من ادعى الألوهية كذباً وبهتاناً).

5 ـ قصة نبي الله يعقوب عليه السلام مع بنيه إذ حضره الموت، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

«سورة البقرة، الآية: 133».

6 ـ قصة الرجل الصالح عزير.. الذي مر على بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر، وفي ذلك تقول سورة البقرة:

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة البقرة، الآية: 259».

7 ـ قصة نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام.

8 ـ حادثة تحويل القبلة بعد حوالي سبعة عشر شهراً من مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، وإنكار كلٍّ من اليهود والمشركين والكافرين ذلك على المسلمين، لجهلهم بأنه أمر من الله ـ تعالى ـ الذي يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم.

سادساً: من الإشارات الكونية في سورة «البقرة»:

1 ـ التفرقة الدقيقة بين كلٍّ من الضياء، والنور، والظلمات، وهي من الحقائق العلمية التي لم تدرك إلا مؤخراً.

2 ـ تقديم حاسة السمع على حاسة البصر في هذه السورة الكريمة وفي كثير غيرها من سور القرآن الكريم، وقد ثبت علميًّا أن حاسة السمع تتطور جنينياً قبل حاسة البصر، وتتكامل وتنضج في الشهر الخامس من حياة الجنين، بينما لا يتكامل نضج حاسة البصر إلا عند السنة العاشرة في عمر الطفل.

3 ـ وصف التلازم الدقيق بين الظلمات، والرعد، والبرق، والصواعق، وهطول الأمطار الغزيرة، والإشارة إلى إمكانية خطف البصر بواسطة البرق.

4 ـ الإشارة إلى المراحل المتتالية في إعداد الأرض لعمارتها بالإنسان، وذلك من قبيل تمهيد سطحها وإنزال الماء عليها وإحياء الأرض بعد موتها، وبث من كل دابة فيها، وإخراج الثمرات منها رزقاً للعباد.

5 ـ ذكر معجزات فلق البحر لنبي الله موسى عليه السلام ونجاته ومن كان معه من مطاردة فرعون وجنوده لهم، وهلاك فرعون وجنده بالغرق في اليم، وكذلك تفجر اثنتي عشرة عيناً بالماء بضربة من عصا موسى، ولا تزال واحدة من هذه العيون المائية موجودة حتى اليوم بالمنطقة الشرقية من خليج السويس والمعروفة باسم (عيون موسى).

6 ـ الإشارة إلى أمراض القلوب ومنها الخوف والقلق والوسوسة والشك والاكتئاب، وقد أثبتت الدراسات النفسية أنها حقائق علمية لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم.

وتشبيه قسوة قلوب اليهود بأنها أشد من قسوة الحجارة، لأن من الحجارة ما يلين عند تفجرها بالأنهار أو عند تشققها وخروج الماء منها، أو عند هبوطها من خشية الله ـ تعالى ـ، وقسوة قلوب اليهود لا تلين أبداً حسب ما أثبت التاريخ من جرائمهم التي جاوزت كل حدود الرحمة، وكل حقوق الإنسان إذا كانت بأيديهم الغلبة، وما الذي يحدث على أرض فلسطين اليوم وفي كل من العراق وأفغانستان المحتلتين من جرائمهم الوحشية إلا صورة من تلك القسوة البالغة التي وصفهم القرآن الكريم بها من قبل أربعة عشر قرناً أو يزيد، وقد كانوا كذلك عبر التاريخ، وسوف يظلون كذلك حتى يهلكهم الله ـ تعالى ـ بقدرته وما ذلك عليه بعزيز.

7 ـ الإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض، وإلى اختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وإلى المشرق والمغرب وتأكيد أن ذلك كله لله.

8 ـ الإشارة إلى تصريف الرياح، وإلى السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهي حقائق لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده.

9 ـ الإشارة إلى أذى المحيض، والنصيحة باعتزال النساء فيه، وقد أثبتت الدراسات الطبية صحة ذلك.

10 ـ التأكيد على ما في كلٍّ من الخمر والميسر من آثام تفوق أية منافع يمكن أن تجتنى من وراء الخوض في أي منهما، مما أثبتت صحته التجارب الإنسانية عبر التاريخ، وعلى الرغم من ذلك فإن غالبية الدول المسلمة المعاصرة تقرهما وتسمح بهما.

11 ـ الإشارة إلى أن الأشجار تزكو وتزدهر، وتجود بعطائها من الثمار في الربى المرتفعة سواء كثر عليها المطر أو قل وهو مما أثبتته الدراسات العلمية مؤخراً.

12 ـ الإشارة إلى البعوضة وما فوقها من الخلق، وهي من أبسط الحشرات. ولكنها تبلغ في روعة بنائها ودقة خلقها ما تعجز البشرية كلها عن الإتيان بشيء من مثلها، كما تبلغ في خطرها على حياة الإنسان أنها تعد اليوم واحدة من أخطر الآفات الحشرية على الإطلاق.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذا فإنني سوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأخيرة من القائمة السابقة والتي جاءت الإشارة إليها في الآية السادسة والعشرين من سورة البقرة، ولكن قبل الدخول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

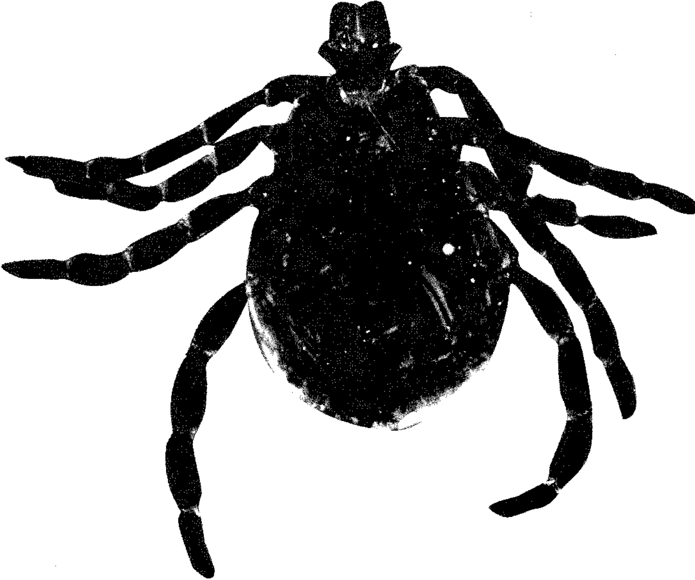
من أقوال المفسرين

في تفسير قوله - تعالى -:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾

«سورة البقرة، الآية: 26».

- ذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن رَحِمَهُ اللَّهُ ما نصه: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي ليس الحياء بمانع لله تعالى من ضرب الأمثال بهذه المخلوقات



الحقيرة والصغيرة في نظركم، كالبعوض والذباب والعنكبوت، فإن فيها من دلائل القدرة وبدائع الصنعة ما تحار فيه العقول، ويشهد بحكمة الخالق. وقد جعلوا ضرب المثل بها ذريعة إلى إنكار كون القرآن من عند الله تعالى. وفي الآية إشعار بصحة نسبة الحياء إليه ـ تعالى ـ. ومذهب السلف إمرار هذا وأمثاله على ما ورد، وتفويض علم كنهه وكيفيته إلى الله ـ تعالى ـ، مع وجوب تنزيهه عما لا يليق بجلاله من صفات المحدثات. واختاره الألوسي وذهب جمع من المفسرين إلى تأويله لإرادة لازمة، وهو ترك ضرب الأمثال بها، لأن الاستحياء من الحياء، وهو تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب ويذم به، أو هو انقباض النفس عن القبائح. وهذا المعنى محال في حقه ـ تعالى ـ، فيصرف اللفظ إلى لازم معناه وهو الترك. ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ البعوض: ضرب من الذباب، ويطلق على البق المعروف وعلى الناموس. ﴿فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ أي في الحجم. أو في المعنى الذي وقع التمثيل فيه، وهو الصغر والحقارة. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الفسق: الخروج عن الطاعة.. ويقع بالقليل والكثير من الذنوب، ولكن تعورف فيما كان كثيراً، وهو أعم من الكفر...».

- ولم يخرج كلام بقية المفسرين عن ذلك فنكتفي به.

من الدلالات العلمية للنص الكريم

أولاً: النص الكريم يشمل ما فوق البعوضة حجماً وما هو أقل منها، وما هو أشد منها خطراً وما هو أهون منها:

من معاني هذا النص الكريم أن قدرة الله المبدعة في الخلق تتجلّى في أدق المخلوقات حجماً كما تظهر في أضخمها بناء، وتجليها في الكائنات المتناهية الضآلة في الحجم قد يكون أبلغ من وضوحها في الكائنات العملاقة، وكان الجهل بأخطار البعوض وبوجود كائنات أدق منه بكثير من وراء استنكار كل من الكفار والمشركين والمنافقين ضرب المثل في القرآن الكريم ببعض الحشرات من مثل البعوض، والذباب، والنحل، والنمل، والنمل الأبيض، والفراش، والجراد، والقمل، والمن، وببعض العناكب الصغيرة مثل العنكبوت.

ولما لم يكن في زمن الوحي من يدرك من الكائنات الحية ما هو أدق من البعوضة (وذلك من مثل: الفيروسات، البكتيريا، الطحالب وغيرها من البدائيات، والأوليات

(الطلائعيات)، والفطريات أو الفطور، وغير ذلك من الكائنات الدقيقة ومنها المتطفل وغير المتطفل فقد جاءت الصياغة القرآنية المعجزة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ «سورة البقرة، الآية: 26».

وتعبير ﴿فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ يشمل المعنيين المتضادين معاً أي ما يفوقها ضآلة في الحجم حتى لا يرى بالعين المجردة، وما يفوقها ضخامة في البنيان، وكذلك يشمل هذا التعبير القرآني أخطار البعوضة كما يشمل أخطار غيرها من كل من الكائنات الدقيقة التي لم تكن معروفة في زمن الوحي بالقرآن الكريم، والكائنات التي تفوقها حجماً؛ لأن الفوقية في اللغة تعني الزيادة والعلو في صفة يوضحها السياق.

وقد استهان الناس في القديم بالبعوضة لضآلة حجمها، فاستنكر القرآن الكريم عليهم ذلك، واتخذها مثلاً يتحدى به الكفار والمشركين قبل أن يعرف دورها في نقل العديد من الأمراض الفتاكة بكل من الإنسان والحيوان، بل من قبل أن يعرف الإنسان من ناقلات الأمراض ما هو دونها حجماً بما يزيد على اثني عشر قرناً من الزمن.

ثانياً: النص القرآني يشير إلى خطر البعوضة:

والبعوضة هي حشرة ضئيلة الحجم من ثنائيات الأجنحة (Diptera)، تتبع عائلة ضخمة من الحشرات تعرف باسم (Family Culicidae)، وتضم ما بين الألفين والثلاثة آلاف نوع من البعوض. وتأتي في المرتبة الثانية تعداداً بعد النمل.

ويتراوح طول البعوضة بين الثلاثة والتسعة مليمترات، وهي مع ضآلة حجمها فإن جسمها يتكون كما تتكون أجساد غيرها من الحشرات من **رأس وصدر وبطن،** ولها **ثلاثة أزواج من الأرجل** الطويلة النحيلة، **وزوج من الأجنحة الدقيقة** القوية والقادرة على الخفق المتواصل السريع الذي يصل إلى ستمائة خفقة في الثانية الواحدة، ولها **قرنا استشعار** في قمة الحساسية والكفاءة، **وعين البعوضة عين مركبة** تتألف من مئات العيينات المستقلة تشريحياً والمتكاملة وظيفياً مما يعطيها قدرة هائلة على الرؤية بالليل وبالنهار في كل أطياف الضوء، ولها جميع الأجهزة الحيوانية كاملة على الرغم من ضآلة حجمها.

وأنثى البعوض تتغذى على دماء ذوي الدماء الحارة ولذلك فإن لها فماً ثاقباً ماصاً



تستخدمه في امتصاص الدم من الإنسان ومن كل حيوان ذي دم حار، وعندما تغرس مثقابها في جلد الإنسان أو الحيوان فإنها تفرز لعابها الذي يحمل مركبات عضوية تؤدي إلى احتقان الجلد، وأخرى تمنع الدم من التجلط حتى يسهل امتصاصه، بينما يتغذى ذكر البعوض على رحائق الأزهار فقط. وتضع أنثى البعوض البالغة ما بين مائة وأربعمائة بيضة في المرة الواحدة، والذي ينجو من افتراس الحيوانات الأخرى من بيض البعوضة قد يفقس بعد يوم أو يومين، أو يبقى في فترة كمون قد تمتد إلى الأسبوعين، ويعتمد ذلك على عوامل كثيرة منها وفرة الماء؛ لأنه ضروري لفقس البيض ولحياة كل من اليرقات والعذارى.

ومع ضآلة حجم البعوضة فإنها تمثل خطراً لا يستهان به على صحة كل من الإنسان والحيوان، فالبعوض الأنثى التي تتغذى على دماء الإنسان وعلى دماء غيره من الحيوانات ذوات الدم الحار تصبح وسيلة خطيرة لنقل العديد من مسببات الأمراض من مثل الفيروسات، البكتيريا، الطحالب، وغيرها من البدائيات والأوليات (الطلائعيات)، ومن مثل الفطريات، وغير ذلك من الكائنات الدقيقة التي تصيب كلاً من الإنسان والحيوان.

ومن الأمراض التي تنقلها البعوضة: الملاريا، الملاريا الخبيثة، داء الفيل، الحمى الصفراء، الحمى الدماغية، الحمى الشوكية، الحمى النازفة، مرض حمى أبي الركب (أو

حمى تكسير العظام أو حمى الركب النازفة)، حمى الوادي المتصدع، مرض دودة القلب، الالتهاب السحائي، الالتهاب المخي، الالتهاب المخي الشوكي، وأمراض ضعف المناعة ومنها الإيدز. ومن أخطر ما تحمله البعوضة فيروسات تغزو الجهاز العصبي للإنسان مما قد يصيبه بعدد من الأمراض فائقة الخطورة من مثل مرض التهاب الدماغ والسحايا (Encephalo meningitis)، ومرض التهاب الدماغ والنخاع (Encephalo myelitis).

والأمراض التي تنقلها البعوضة قد أدت إلى هلاك الملايين من البشر منذ بدء الخليقة وإلى يومنا الراهن حيث لا تزال تصيب الملايين في كل عام إلى أن يشاء الله، ولذلك تعد هذه الحشرة الضئيلة الحجم واحدة من أخطر الآفات الحشرية المعروفة. ومن هنا كان ضرب المثل بها في القرآن الكريم على شدة خطرها مع ضآلة حجمها، وعلى وجود ما هو أخطر وأدق منها وما هو أعظم منها حجماً وخطراً من مخلوقات الله الأخرى.

ومن هنا أيضاً كان تحدي الله ﷻ كل الكافرين والمنافقين والمشركين من أهل الجزيرة العربية، وغيرهم من أهل الأرض إلى قيام الساعة بهذه الحشرة المتناهية الصغر في الحجم. وفي زمن الوحي لم يكن أحد من الناس يدرك حقيقة خطر البعوضة فكانوا يستهينون بها، وفي زماننا ـ زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه ـ تقف البشرية عاجزة أمام أخطار هذه الحشرة الصغيرة على الرغم من كل مستويات التقدم التي حققها إنسان هذا العصر.

والبعوض يتراوح عدد أنواعه بين ألفين وثلاثة آلاف نوع من أخطرها الأنواع الثلاثة التالية:

1 ـ بعوضة الأنفيل (Anopheles) التي تنقل طفيل مرض الملاريا (مرض البرداء) وهذا الطفيل معروف باسم (Plasmodium)، كما تنقل طفيليات العديد من الأمراض الأخرى مثل طفيل مرض الفيلاريا (Filaria) الذي يسبب داء الفيل (Elephantiasis). وتنقل فيروس حمى التهاب الدماغ المعروف باسم الحمى الدماغية (Encephalitis).

2 ـ بعوضة الكيولكس (Culex) التي تنقل كلاً من طفيل مرض الفيلاريا، وفيروس الحمى الدماغية.

3 ـ البعوضة الزاعجة (Aedes) التي تنقل فيروسات الحمى الصفراء (Yellow Fever) والحمى الدماغية وحمى الضنك (Dengue Fever) المعروفة باسم حمى أبي الركب أو حمى الركب النازفة أو حمى تكسير العظام.

وتتم دورة طفيل مرض الملاريا (البرداء) بين بعوضة الأنفيل والإنسان حيث تنفذ البعوضة مسببات المرض إلى مجرى دم الإنسان عند قرصه، فتحملها مجاري الدم إلى الكبد حيث يبدأ الطفيل في التكاثر لاجنسياً وفي مهاجمة خلايا الدم الحمراء التي تنفجر لتملأ مجرى الدم بجراثيم المرض التي تبدأ في التكاثر جنسياً بعد عدد من الأجيال فتؤدي إلى الحمى وإلى تضخم الطحال، وإذا تعرض هذا المريض لقرصة أخرى من ناموسة الأنفيل فإن هذا الطور الجنسي من الطفيليات ينتقل إلى معدة البعوضة حيث يتم تكاثره لاجنسياً وانتقاله إلى غددها اللعابية فيصبح جاهزاً لإصابة إنسان آخر تهاجمه هذه البعوضة، وبذلك يصاب أكثر من 270 مليون إنسان بالملاريا سنوياً في كل أنحاء الأرض، ويتوفى منهم قرابة المليونين من الأفراد مما يجعل الملاريا من أكثر الأمراض انتشاراً في كوكبنا الأرضي، وقد عجزت أكثر دول العالم تقدماً في مجال العلوم البحتة والتطبيقية عن مقاومة أخطار البعوضة، ففي أغسطس من سنة 1995م انتشرت في مدينة نيوجيرسي (في شرق الولايات المتحدة الأمريكية) أسراب من البعوضة الزاعجة المعروفة باسم (Aedes albopictus)، وكانت تهاجم الناس بشراسة بقرصاتها المؤلمة حتى في وضح النهار وقد عرفت باسم النمر الآسيوي (The Asian Tiger) لأصولها الآسيوية ولشراستها في الهجوم، وكانت هذه الحشرة قد ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في سنة 1985م بعد أن غزت كلاً من جزر هاواي ومناطق من المحيط الهادي عقب الحرب العالمية الثانية (1945م)، ولا تزال هذه الحشرة الصغيرة تجتاح آلاف الأنفس من أبناء القوة العسكرية الكبرى في العالم دون أن تنفعها أسلحتها في الدفاع عنهم، ﴿...وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ «سورة الفتح، الآية: 4».

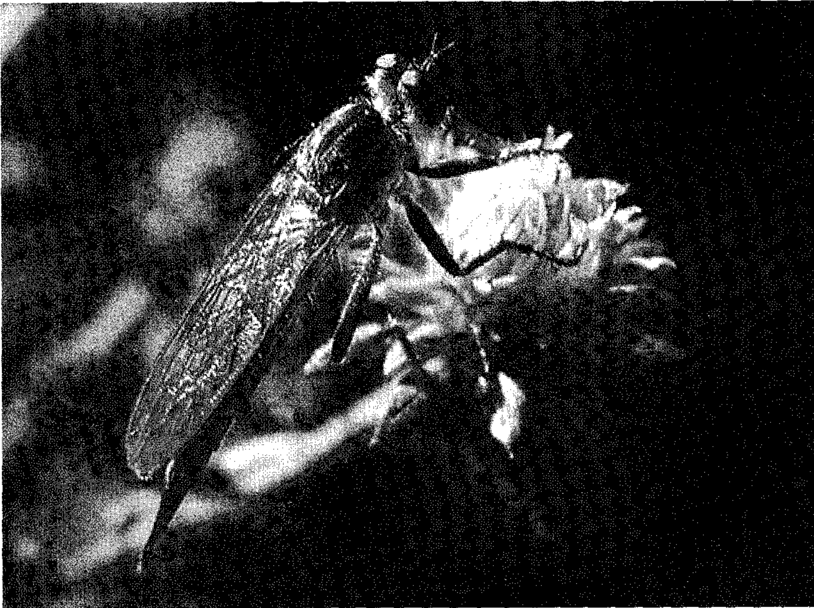
ثالثاً: النص القرآني يفيد أن أنثى البعوض وحدها هي الناقلة للأمراض ومن ثم كانت مناط التحدي:

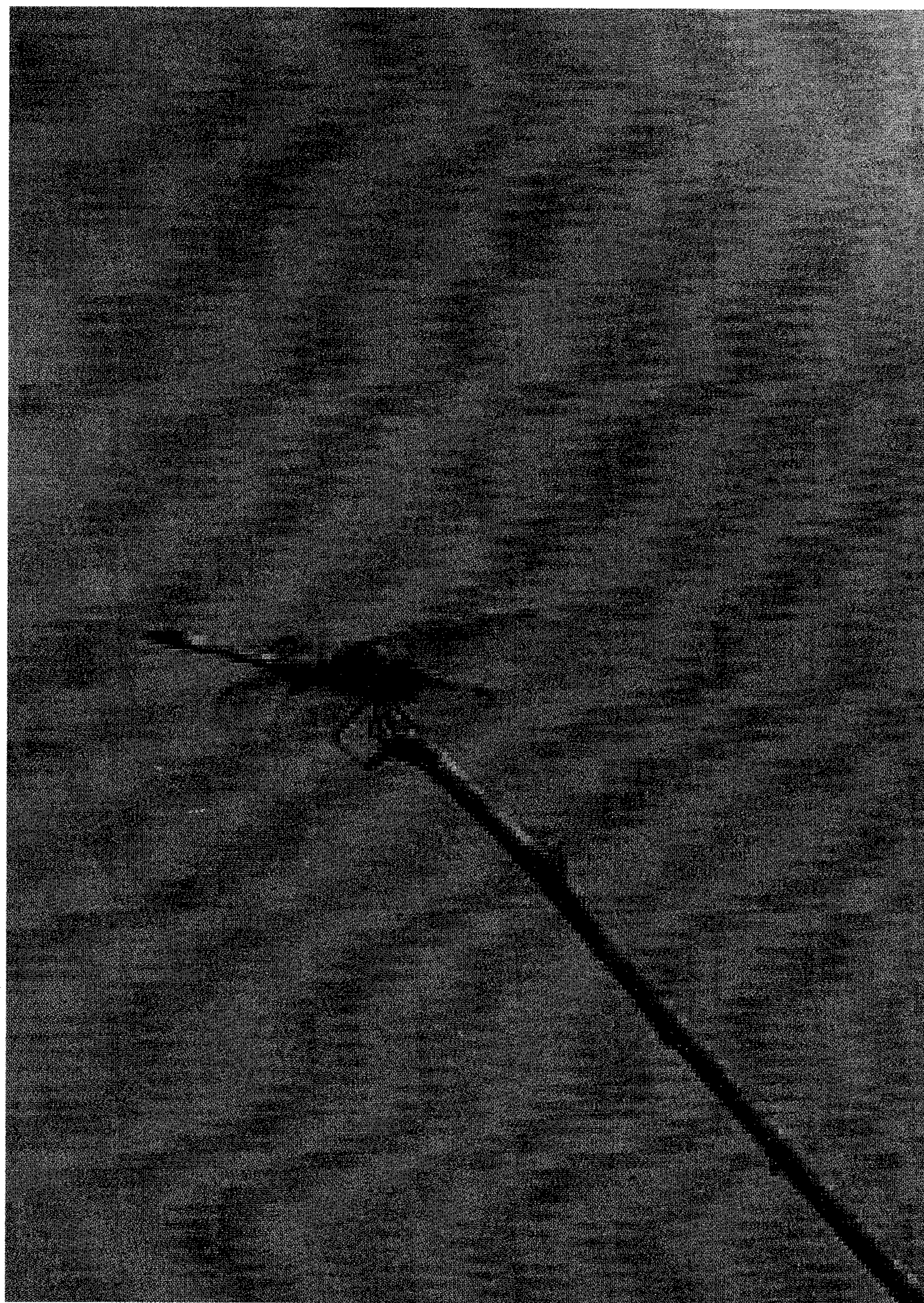
إن إفراد لفظ (بعوضة) وتأنيثه في هذا النص القرآني المعجز يشير إلى عيشة البعوض عيشة فردية سوى في حالة التزاوج وإلى تمايز الأنثى عن الذكر في هذه الحشرة الخطيرة،

وإلى تفرد الأنثى وحدها ـ دون الذكر ـ بهذا الخطر الداهم، وهي حقيقة لم يعرفها الإنسان إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (1897م ـ 1900م).

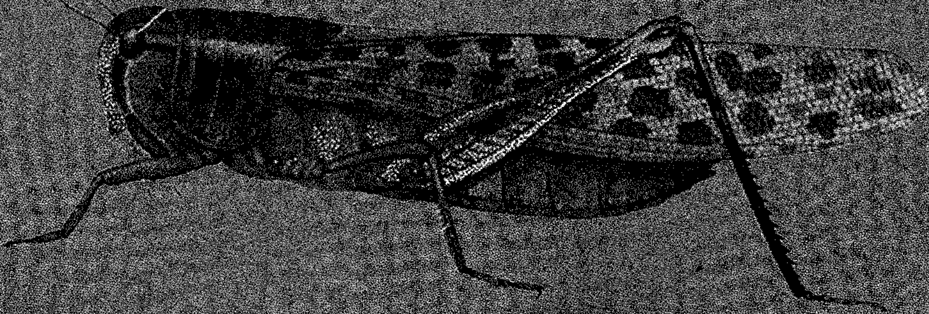
كذلك فإن تنكير لفظ (بعوضة)، وإيراد اسم الموصول (ما) مكرراً مرتين يشير إلى تعدد أنواع البعوض، فضلاً عن شمول كل مما هو دونها حجماً، وما هو أكثر منها ضخامة، وكل ما هو دونها أو أكثر منها ضرراً من مخلوقات الله الأخرى.

وهذه حقائق لم تصل إلى علم الإنسان إلا بعد مجاهدة استغرقت جهود آلاف من العلماء منذ نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولا تزال مستمرة إلى اليوم، وإلى أن يشاء الله، وورودها بهذه الصياغة العلمية الشاملة والدقيقة في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ـ عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لممّا يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٧
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨ ۞ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ٩ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ
١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ١٢
وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٥ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِى وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧

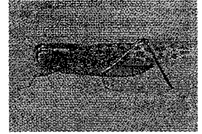


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

«سورة القمر، الآية: 7».

10



هذه الآية الكريمة جاءت في مقدمات «سورة القمر»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (55) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بذكر معجزة انشقاق القمر كرامة لرسول الله ﷺ، ويدور المحور الرئيسي للسورة حول الآخرة وأهوالها، والتحذير من اقتراب وقتها وظهور بعض علاماتها، ومن ثم التحذير من الإعراض عن آيات الله وتكذيبها، ولذلك تحمل هذه السورة الكريمة على المكذبين ببعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وعلى المعرضين عن الآيات التي أيده الله سبحانه وتعالى بها، وفي مقدمتها القرآن الكريم، ذلك الكتاب الخالد الذي أكمل الله ـ تعالى ـ به الدين، وأتم النعمة، ورضي لعباده الإسلام ديناً بعد أن أنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين بلغ عددهم أكثر من مائة وعشرين ألف نبي، تخير الله جل جلاله من بينهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، أوكل إلى كل منهم تبليغ وحيه إلى قومه، وأوكل إلى تلك الأقوام حفظ الوحي المنزل إلى كل منها فضيعوه، وأشبعوا ما بقي من ذكرياته (المنقولة شفاهاً) تحريفاً وتبديلاً وتغييراً، حتى أخرجوا وحي السماء عن إطاره الرباني.

وتصحيحاً لما حرف البشر وبدلوا وغيروا، منّ الله ـ تعالى ـ على الخلق أجمعين بإنزال رسالته الخاتمة على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظها إلى يوم الدين بصفتها رسالته الخاتمة حتى تكون حجة على الناس كافة، وحتى لا يبقى لعبد ذريعة من الذرائع أنه لم يتلقَّ هداية الله، وقد جمعها في قرآنه الكريم وفي سنة رسوله الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ، وحفظها بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وانطلاقاً من هذه الحقائق تحمل سورة «القمر» على المكذبين ببعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وعلى المعرضين عن الآيات التي أيده الله ـ تعالى ـ بها والتي كان في مقدمتها القرآن الكريم، ومنها عدد من المعجزات الحسية المبهرة التي كانت منها حادثة انشقاق القمر، والتي رآها مشركو قريش بأعينهم فكذبوها وأحالوها إلى السحر الدائم المستمر، وهم يعلمون أن الذي جرت له المعجزة معروف عندهم بالصادق الأمين، وأنه ﷺ ما اقترف السحر أو الشعوذة أبداً، فقد نزهه الله ـ تعالى ـ عن ذلك وعن غيره مما نزه جميع أنبيائه ورسله عنه.

ولذلك تطالب سورة «القمر» خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالإعراض عن هؤلاء الكافرين، وإمهالهم إلى يوم البعث العظيم، يوم يخرج الخلق من قبورهم بالبلايين كأنهم جراد منتشر، وهو يوم الفزع الأكبر والهلع الأكبر الذي لا ينجو من أخطاره إلا من أتى الله بقلب سليم، مطمئن بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومنزه لله ـ تعالى ـ عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وقد جاهد في الحياة الدنيا من أجل حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وإقامة عدل الله فيها بأمانة وصدق وتجرد كاملين.

وقد استهلت سورة «القمر» بالتحذير من اقتراب وقت الساعة، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**بعثت أنا والساعة هكذا**» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»[1].

ثم تابعت السورة الكريمة بذكر حادثة انشقاق القمر التي أجراها الله ـ تعالى ـ معجزة تشهد لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة وقد كذب بهما مشركو قريش، وعلى الرغم من وقوع المعجزة التي لم ينكرها أحد منهم فإنهم ـ إمعاناً في تكذيبهم وغطرستهم وكبرهم ـ أحالوها إلى سحر أعينهم تارة وإلى سحر القمر تارة أخرى، والسحر من الكبائر التي جاءت بعثة المصطفى ﷺ بتحريمها ومحاربتها، وهو الذي لم يُشْهَدْ عليه كذبٌ أبداً. وقد كان هذا هو دأب الكفار والمشركين في كل زمان ومكان، أن يعرضوا عن التأمل في الآيات التي أنزلها الله ـ تعالى ـ رفضاً للإيمان بها واستكباراً عليها وإنكاراً لها، تماماً كما أنكر مشركو قريش معجزة انشقاق القمر، فقال فيهم رب العالمين وهو أحكم القائلين: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ «سورة القمر، الآية: 2» أي سحر محكم قوي شديد دائم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق (الحديث: 6504)، ومسلم في كتاب: الفتن (الحديث: 7331).

وتؤكد الآيات كذبهم فيما ذهبوا إليه، واتباعهم أهواءهم بدلاً من توظيف عقولهم في الحكم على هذا الأمر الخارق للعادة فقال ـ تعالى ـ فيهم: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ «سورة القمر، الآية: 3» أي وكل شيء في هذا الوجود من حولهم منضبط في ذاته وعلاقاته، على الرغم من حركة كل شيء إلى الفناء، وتتجلى طلاقة القدرة الإلهية في ضبط علاقات الأجرام في السماء، وانضباط سنن الحياة والموت على الأرض، وكل أمر من هذه الأمور له غاية يستقر عندها لا محالة، ومن ذلك أمر الحق الذي أنزله الله ـ تعالى ـ بعلمه؛ ولذلك فلا بد وأن يكون له النصر الحاسم في النهاية، وأمر الباطل الذي يتشدق به الكفار والمشركون والذي لا بد له من أن ينهزم وينهار في النهاية بإذن الله ـ تعالى ـ.

وتؤكد الآيات في سورة «القمر» أن الخلق قد جاءهم من آيات الله عبر تاريخهم الطويل ما كان كافياً لهم أن يعتبروا به، وقد صور الله ـ تعالى ـ لمشركي قريش ولبقية الكفار والمشركين من بعدهم في آخر كتبه (وهو القرآن الكريم) من أنباء المكذبين من الأمم السابقة ومصارعهم، ومن أهوال الآخرة التي تنتظرهم وفزعها ورهبتها ما كان كافياً لردعهم وزجرهم، وكان في استعراض ذلك ما يوجه القلوب والعقول إلى معرفة الخالق العظيم والخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة، وبالتنزيه عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال، وبالتقرب إليه بحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وبالإكثار من العمل الصالح فيها وفي مقدمته إقامة عدل الله والاستعداد لملاقاته سبحانه وتعالى وللعرض الأكبر أمامه في يوم البعث، ولكن القلوب المظلمة لا ترى النور أبداً، والطبائع المنحرفة المصرة على المعاصي لا تعرف الاستقامة أبداً، والآذان الصم أبداً لا تسمع صوت النذير، ولا نداءات التحذير، ولذلك قال فيهم رب العالمين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ *﴾ «سورة القمر، الآيتان: 4، 5».

وعند هذا الحد من الانصراف عن الحق وصم الآذان دونه، والانغماس في الباطل والتلبس بأدرانه، فإن الآيات في سورة «القمر» تأمر رسول الله ﷺ بالإعراض عن هؤلاء الضالين، وإمهالهم إلى يوم البعث العظيم، يوم يخرج الخلق أجمعون من قبورهم وينتشرون ببلايين البلايين وكأنهم أسراب الجراد المنتشر، في الكثرة والزحام والتموج وهم في الطريق إلى أرض المحشر، وهو مشهد مرعب للذين لم يؤمنوا به في حياتهم الدنيوية، يملأ قلوبهم

بالهلع والفزع والإشفاق على كل شيء، والخوف من كل شيء، ويجبر أبصارهم على الخشوع في ذل وهوان، ويسرع خطاهم إلى الداعي الذي يدعوهم إلى أمور لا يعرفونها ولا تطمئن قلوبهم إليها، لأنها كانت في الدنيا لا تؤمن بها، وتستبعد وقوعها فإذا هي أمام أبصارهم واقع قائم لا هروب منه، ولا انفكاك عنه، فيعترف الكفار والمشركون ومنكرو الدين بمصيبتهم ولا يملكون إلا الاعتراف بقولهم في ذلة ومسكنة:﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، وهو اعتراف الذليل المكروب الذي لم يستعد لهذا اليوم ولا لمواجهة أهواله..!!

ومن قبيل تذكير مشركي قريش وتذكير كل من سار على دربهم ونهج نهجهم إلى يوم القيامة بمصائرهم الحالكة السواد في الدنيا قبل الآخرة، استعرضت سورة القمر مصارع المكذبين من الكفار والمشركين في عدد من الأمم السابقة، منهم أقوام نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وفرعون، وما نالهم من عذاب الله وتنكيله، والله ـ تعالى ـ هو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين. ولذلك فإننا ننقل لإخواننا المظلومين على أرض فلسطين وفي كلٍّ من العراق وأفغانستان، والبلقان والشيشان، وكشمير وأراكان، والصومال، ونيجيريا وجنوب السودان ما أمر به ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عباده المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ «سورة آل عمران، الآية: 200»، ونوصيهم: أن أحسنوا صلتكم بالله القوي العزيز الذي لا يرضى من عباده الظلم، وهو قادر على أن ينتقم لكم من ظالميكم في الدنيا قبل الآخرة إن شاء الله ـ تعالى ـ وما ذلك على الله بعزيز.

فالريح التي دمر الله ـ تعالى ـ بها قوم عاد هي من جند الله التي بجانب دورها المنتظم في هذا الكون، فإن الله ـ تعالى ـ يسخرها على من يشاء من الظالمين المتجبرين على الخلق، والمفسدين في الأرض فيقضي عليهم قضاء مبرماً في لمح من البصر إن شاء الله ـ تعالى ـ، والصيحة الصاعقة التي دمر الله سبحانه وتعالى بها قوم ثمود وجعلهم ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي أعواد النبات الجافة التي تبنى منها الحظيرة، (والمحتظِر هو بانيها)، هذه الصيحة الصاعقة التي لا ندري كنهها هي من جند الله يسخرها على الظالمين من عباده فيقضي فيهم أمراً كان مفعولاً..!!.

والحاصب (أي الريح التي تحمل الحصباء) والتي سخرها الله عقاباً لقوم لوط فقضى عليهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ هي من جند الله يسخرها على من يشاء من المفسدين في الأرض (والمرشحون لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية اليوم يتنافسون على من سيقر

زواج الشواذ أولاً ويقننه ويشرع له بعد أن أقروا هذا المسلك الشائن المعيب، المنحرف عن الفطرة وشرعوا له وبعد أن تبنَّته العديد من الدول الغربية وضمَّنته دساتيرها)، وفي ذلك تقول الآيات في سورة القمر:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ *﴾ «سورة القمر، الآيات: 33 ـ 40».

والأخذ الذي أخذ الله ـ تعالى ـ به قوم فرعون (أخذ عزيز مقتدر) هو من جند الله، والله قادر سبحانه وتعالى على أن يأخذ به كل ظالم جبار في الأرض، مغتر بعدده وعدته، وسلاحه وماله، فالذي يقدر الله ـ تعالى ـ أخذه لا ينفعه عدد ولا عدة، ولا سلاح ولا مال، بل يجعل منه عبرة لمن لا يعتبر، ويرى الخلق فيه عجائب قدرته، والإشارة إلى عزة الله واقتداره في الأخذ فالذي أخذ به فرعون وملئه، فيه تأكيد على الفارق الهائل بين عزة الله واقتداره، وما يتظاهر به بعض الخلق من عزة مزيفة واقتدار هزيل..!!.

وبعد استعراض هذه النماذج الصارخة من عقاب المكذبين من الأمم السابقة في الدنيا تتوجَّه الآيات في الربع الأخير من سورة «القمر» بالحديث إلى كفار ومشركي قريش ـ وإلى جميع الكفار والمشركين من بعدهم إلى يوم القيامة ـ محذِّرة من أهوال الآخرة وعذابها وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ * إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ *﴾ «سورة القمر، الآيات: 43 ـ 48».

وكأن هذه الآيات الكريمة تقول للكفار والمشركين في كل مكان وزمان: تلك كانت مصارع أمثالكم في الأمم السابقة، فما الذي يمنعكم من نفس المصير؟ وأنتم لستم بخير منهم؟ فليس أمامكم إلا نفس المصير المشؤوم الذي لقيه أمثالكم، مهما غرتكم كثرتكم، وأطغتكم قوتكم، ودفعتكم إلى التجبر على غيركم من الخلق، وظلمهم، ومحاولة قهرهم وإذلالهم..!!

وكأنَّ المقصود بهذا الخطاب اليوم القوات الإنجلو/ أمريكية الظالمة على أرض كل من العراق وأفغانستان، والعصابات الصهيونية المجرمة الغاصبة والسارقة لأرض فلسطين، والمغرقة إياها في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار... فهل يعتبرون..!! ودماء الشهداء لا تزال تنزف في كل يوم أنهاراً متدفقة..، وهدم المنازل، وتجريف الأراضي الزراعية، وقطع الأشجار، ومصادرة الآلاف من الأفدنة، وإقامة المستعمرات بالعشرات على أرض مغصوبة ونصب الجدر المحصنة وغير ذلك من جرائم لا تزال تجري على قدم وساق منذ أكثر من نصف قرن...!!

وما تسرب إلى وسائل الإعلام من صور تعذيب المعتقلين في سجون الأمريكان والبريطانيين بوحشية منقطعة النظير ـ وهو غيض من فيض، وقليل من كثير ـ يدين هذه الحضارة الغربية المعاصرة بأقبح ما يمكن أن تدان به الحضارات، وتحذر العالم كله من خطر تفرد تلك العصابات بالاستحواذ على أسلحة الدمار الشامل التي تنوي أن تستذل بها غيرها من شعوب الأرض.. والقرآن الكريم يتحداهم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ «سورة القمر، الآية: 45».

ونحن مؤمنون بذلك وواثقون منه ولكننا نستعجل القصاص، ونلح على الله بالرجاء أن ينزله بهؤلاء الظلمة المتوحشين المفسدين في الأرض، والمتجبرين على الخلق بأسرع وقت ممكن.. اللهم آمين آمين آمين يا رب العالمين.

وتؤكِّد الآيات في سورة «القمر» حتمية القصاص الربّاني وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ *﴾
«سورة القمر، الآيات: 49 ـ 53».

فبأمر من الله ـ تعالى ـ بـ(كن) (فيكون) كان هلاك المكذبين من الكفار والمشركين على مر التاريخ، وهو تهديد من الله ـ تعالى ـ لأمثالهم في كل زمان ومكان، فهل يمكن لطغاة العصر ومفسديه أن يعتبروا، خاصة وأن حساب المفسدين في الأرض لا ينتهي بعقاب الدنيا لأن عقاب الآخرة أدهى وأمر....، وأفعال الناس وحركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وباقي أنشطتهم مسجلة عليهم ومسطورة في كتاب لا يضل ولا ينسى، وسوف يحاسبون على كل صغيرة وكبيرة من ذلك.

وتختتم سورة «القمر» بإقرار جزاء المتقين في الآخرة التي سوف يهان فيها الظالمون ويحاسبون على خطاياهم في الدنيا، ويجرمون عليها حتى يستبين الفارق بين مصائر أهل النار في النار ومصائر أهل الجنة في الجنة، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ *﴾

«سورة القمر، الآيتان: 54، 55».

وفي ذلك من التكريم لعباد الله المتقين في الآخرة ما لا يمكن أن يطاله أي تكريم في الدنيا مهما تعاظم شأنه، فليتنافس الكفار والمشركون في الدنيا كيفما يشاؤون، وليظلموا وليتجبروا، وليفسدوا كيفما يحلو لهم وتدفعهم إليه أطماعهم الحقيرة وشهواتهم الدنيئة، فأعمالهم محصية عليهم، وسوف يحاسبون عليها في الدنيا قبل الآخرة، وحسابهم في الدنيا على شدَّته لا يقارن بحساب الآخرة وعذابها، وهو حساب جدُّ عسير سوف يجعلهم يندمون ساعة لا ينفع الندم، ولذلك استعرضت سورة القمر بين مشهدين من مشاهد الآخرة عقاب المكذبين من كفار ومشركي الأمم السابقة في الدنيا، وتهدَّدتهم بأن عقاب الآخرة أدهى وأمر، وكان كل مشهد من مشاهد العقاب الدنيوي يتبع بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أو قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ حتى يعتبر الناس بما جاء في القرآن الكريم من سير الأولين فلا يكرروا أخطاءهم. وختمت السورة الكريمة ببشرى ثواب المتقين في الآخرة لتقول:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ *﴾

«سورة القمر، الآيتان: 54، 55».

من ركائز العقيدة في سورة «القمر»:

1 ـ التصديق بحادثة انشقاق القمر معجزة إلٰهية، وكرامة لرسول الله ﷺ.

2 ـ الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد؛ والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالوحي المنزل من عنده سبحانه وتعالى هداية لخلقه والذي أنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين، وأتمه وأكمله وحفظه في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

3 ـ التصديق بحتمية البعث وضرورته، وبالآخرة وشواهدها وبالجنة والنار.

4 ـ التسليم بالقصص القرآني كله، والإقرار بضرورة الاستفادة به وأخذ العبرة منه.

5 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ قد خلق كل شيء بقدر، وأن أمره ﷻ لا يحتاج إلى الزمن، لأن الزمن من خلق الله، وعلى ذلك فهو يحد المخلوقين ولا يحد الخالق.

6 ـ الإيمان بأن كلام الإنسان وحركاته وسكناته، وجميع تفاصيل حياته مسطر في كتاب سوف يلقى إليه يوم القيامة ليكون بنفسه حسيباً على نفسه.

7 ـ التسليم بأن المجرمين من الكفار والمشركين ومن العصاة المارقين الظالمين المتجبرين على الخلق سوف يسحبون في النار على وجوههم في الآخرة والملائكة تقول لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ «سورة القمر، الآية: 48»، بينما عباد الله المتقون سوف يرفلون في نعيم الجنان التي تصفها سورة «القمر» بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ *﴾ «سورة القمر، الآيتان: 54، 55».

من الإشارات العلمية في سورة «القمر»:

1 ـ الإشارة إلى حادثة انشقاق القمر، والعلوم المكتسبة تؤيد ذلك.

2 ـ تشبيه بعث الخلائق من قبورهم يوم البعث بانتشار أسراب الجراد.

3 ـ التأكيد على أن السماء بناء محكم يحتاج الداخل إليه أو الخارج منه إلى فتح أبواب فيه.

4 ـ الإشارة إلى طوفان نوح عليه السلام وإلى ترك مركبته من بعده آية للناس لعلهم يذّكرون بها، ويتعلمون درساً من قصة هذا النبي الصالح، وقد اكتشفت سفينة نوح مؤخراً على قمة جبل الجودي في الجزء الجنوبي الغربي من تركيا.

5 ـ ذكر هلاك المكذبين من قوم عاد بريح صرصر عاتية في يوم نحس مستمر ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ ودراسات منطقة الربع الخالي تؤكد ذلك.

6 ـ الإشارة إلى هلاك العاصين من قوم ثمود بالصيحة الصاعقة، وآثارهم تشير إلى شيء من ذلك.

7 ـ وصف هلاك المفسدين من قوم لوط بالريح الحاصب، وبقلب قراهم وجعل عاليها سافلها، ودراسات تتابع الطبقات في المنطقة تؤكد ذلك.

8 ـ ذكر إهلاك قوم فرعون بالإغراق في اليم، وبقايا فرعون موسى تؤكد ذلك.

9 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ (خلق كل شيء بقدر) أي بتقدير محكم دقيق.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على تشبيه بعث الخلائق في الآخرة بالجراد المنتشر، وقبل البدء في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذا التشبيه القرآني المعجز.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ «سورة القمر، الآية: 7».

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ أي ذليلة أبصارهم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي، جراد منتشر في الآفاق...».
- وجاء في ـ الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ما مختصره: «... هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول...».
- وذكر صاحب ـ صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله ما نصه: «﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ ذليلة خاضعة من شدة الهول ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، أي القبور، أذلة أبصارهم من شدة الهول. ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأقطار حين يتوجهون إلى المحشر».
- وجاء في بقية التفاسير شرح مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: مقدمة لازمة:

من ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي لكتاب الله ولسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ما يلي:

1 ـ تجنّب القضايا الغيبية غيبة مطلقة، وعدم الخوض فيها والبعد عنها، وذلك من

مثل الذات الإلهية، العرش، الكرسي، الروح، الملائكة، الجن، حياة البرزخ، حساب القبر، وقت قيام الساعة، البعث، السوق إلى المحشر، والعرض الأكبر أمام الله ﷻ، الحساب، الميزان، الصراط، الجنة، النار وغير ذلك من أمور الغيب المطلق التي يجب أن يتوقف فيها المسلم عند حدود ما أثبته القرآن الكريم، وفسرته السنة النبوية المطهرة.

2 ـ التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا، فلا يجوز القياس على الآخرة بسنن الدنيا أبداً، وإن كان الله ـ تعالى ـ قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يؤكد حتمية فناء الكون، إلا أن الكون لن يفنى بهذه السنن، وإنما بأمر فجائي من الله ـ تعالى ـ لا يعلم وقته إلا هو ﷻ، ولذلك قال في محكم كتابه موجِّهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 187».

وعلى ذلك فإن العلماء الكونيين إذا استخدموا الشواهد الحسية الراهنة على حتمية فناء الكون للتأكيد على حتمية وقوع ذلك فإنهم يفعلون ما يفعلون من قبيل التدليل على حتمية وقوع الآخرة لا على وقت وقوعها؛ ولا على كيفية ذلك.

وعملية البعث وخروج الموتى من الأجداث كأنهم جراد منتشر عملية غيبية غيبة مطلقة لا يمكن للعلم المكتسب أن يقول فيها شيئاً، ولولا أن رسول الله ﷺ قد شرح لنا جانباً من هذه العملية ما كان لي أن أتطرق إليها على الإطلاق، ولكني أستعين هنا بهديه ﷺ لنفهم جانباً من هذا الغيب، ولحكمة التشبيه بالجراد المنتشر.

ثانياً: البعث في أحاديث رسول الله ﷺ:

في عدد من الأحاديث ذكر رسول الله ﷺ أن أصل الإنسان الذي يخلق منه في الدنيا هو عظمة تبقى في أسفل العمود الفقري من هيكله العظمي (العصعص أو عجب الذنب) وأن

هذه العظمة لا تبلى أبداً، ولا تأكلها الأرض التي يدفن فيها الميت، وأن الله تعالى في يوم البعث ينزل من السماء ماء فينبت كل فرد من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها (البخاري، مسلم، أبو داود، النسائي، أحمد، ابن ماجه، ابن حبان، مالك، وغيرهم). ومن هذه الأحاديث الكثيرة نختار ما يلي:

1 ـ «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**»[1].

2 ـ «**إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب يوم القيامة**» قالوا: أي عظم يا رسول الله؟ قال: «**عجب الذنب**»[2].

3 ـ وعنه ﷺ أنه قال: «**تحشرون حفاة، عراة، غرلاً**»[3].

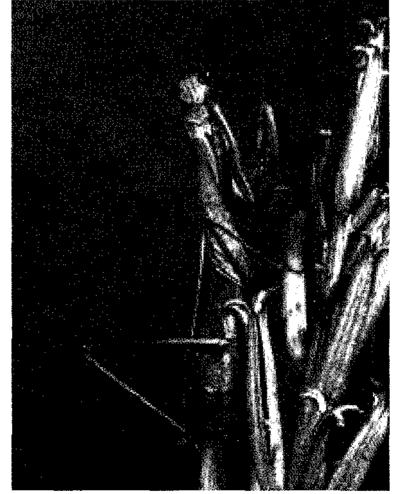
ثالثاً: خلق الجنين:

يخلق الله ـ تعالى ـ الجنين من النطفة الأمشاج؛ أي المختلطة من مني الزوج وبييضة الزوجة، وتعرف علمياً باسم اللقيحة (Zygote)، وتبدأ اللقيحة بالانغراس في بطانة الرحم في اليوم السادس من عمرها بعد أن تكون قد أخذت في الانقسام حتى تتحول إلى قرص مكون من طبقتين من الخلايا: علوية وسفلية (تحتية) لا تتميز فيه أية اتجاهات حتى يظهر في أحد أطراف طبقته العلوية في اليوم الخامس عشر من عمر الجنين خيط دقيق يحدد مؤخرة الجنين ويعرف باسم الخيط البدائي أو الأولي (The Primitive Or Primary Streak)، وهذا الخيط له بداية في وسط القرص صغيرة ومنتفخة قليلاً تعرف باسم العقدة البدائية أو الأولية (The Primitive Or Primary Node)، ومن هذا الخيط والعقدة البدائيين تتكون طبقات جسم الجنين الخارجية والوسطى والداخلية، ومن كل واحدة منها يتكون عدد من أعضاء الجسم بخلاياه وأنسجته المتخصصة في عملية تعرف باسم عملية تكون المُعَيدات (Gastrulation)،

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن (الحديث: 7341)، وأبو داود في كتاب: السنة (الحديث: 4743)، والنسائي في كتاب: الجنائز (الحديث: 2076).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن (الحديث: 7342).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق (الحديث: 6527)، ومسلم في كتاب: الجنة ونعيمها (الحديث: 7127)، والنسائي في كتاب: الجنائز: (الحديث: 2083) والترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 3332) عن ابن عباس رضي الله عنه.



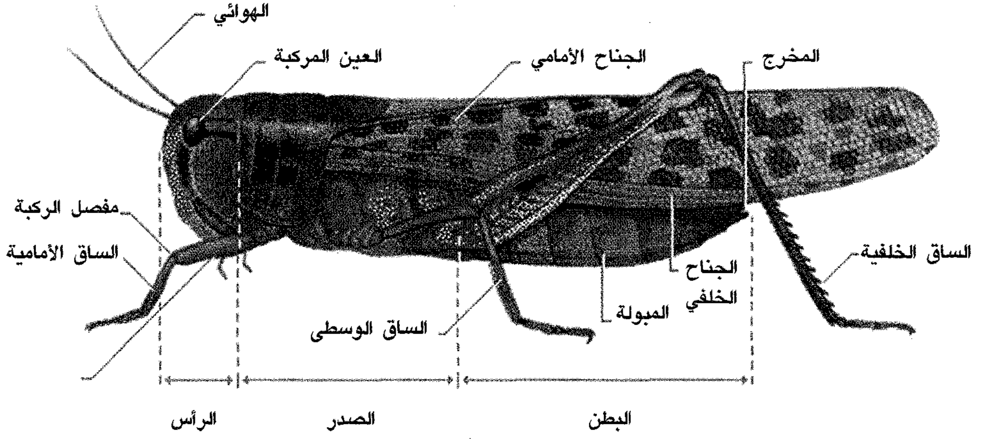
وأول هذه الأجهزة تكوناً هو محور الرأس العصعص، ويتكون فيه بدايات الجهاز العصبي المركزي بما في ذلك من بدايات المخ والجمجمة، والحبل العصبي الشوكي والعمود الفقري، وبذلك تتكون جميع أجهزة الجسم من الخيط والعقدة البدائيين، وتصدق نبوءة المصطفى ﷺ بقوله: «**منه خلق**». وبعد تمام تكوّن أجهزة الجسم المختلفة يتراجع هذا الخيط البدائي بالتدريج إلى مؤخرة جسم الجنين حتى يستقر في نهاية العمود الفقري في منطقة العصعص حيث يبقى على هيئة جنين كامن مثل جنين بذرة النبات يعاد تركيب جسم الإنسان منه يوم البعث بإنزال مطر خاص من السماء كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

رابعاً: كيفية البعث من عجب الذنب:

في رواية للإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل.. وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً، هو عجب الذنب، منه خُلق ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»(1).

وفي تجارب مكررة أثبت العالم الألماني هانس سبيمان (Hans Spemann) ومدرسته العلمية (1931 ـ 1935) أن كلاً من الخيط والعقدة البدائيين (عجب الذنب) هما المسؤولان عن خلق جميع أجهزة الجنين؛ ولذلك سماهما باسم المنظم الأولي أو الأساسي (The Primary Organiser) وقام بقطع هذا المنظم الأولي (عجب الذنب) في عدد من الحيوانات البرمائية، وبزرعه في جنين آخر نما على هيئة جنين ثانوي في داخل الجنين المضيف، كما قام بسحق هذا المنظم الأولي وزرعه مرة أخرى في جنين آخر فنما وكون محوراً جنينياً ثانوياً رغم سحقه، مما أكد أن السحق لا يؤثر فيه، كما قام بغليه ثم زرعه في

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير (الحديث: 4935)، ومسلم في كتاب الفتن (الحديث: 7340).



جنين ثالث فنما وكون محوراً جنينياً جديداً مما يؤكد أن خلايا عجب الذنب لا تتأثر بالغليان، وقد منح سبيمان جائزة نوبل سنة 1935م على اكتشافه لدور عجب الذنب في تخليق جميع أجهزة الجسم، وفي أن خلاياه لا تبلى بالسحق ولا بالغليان، وهو لا يعلم بحديث رسول الله ﷺ.

وفي رمضان 1424هـ قام الدكتور عثمان جيلان بتجربة مماثلة في اليمن أحرق فيها خمساً من عصاعص الأغنام باستخدام مسدس غاز لمدة عشر دقائق حتى احمرت من شدة الحرارة وتفحمت، وبدراستها تبين أن خلايا عظمة العصعص لم تتأثر بالإحراق وبقيت حية تصديقاً لنبوءة المصطفى ﷺ إن عجب الذنب هو أصل الإنسان، والبذرة التي منها نشأ جسده، والتي تبقى بعد أن يموت ويتحلل هذا الجسد فيبعث منها يوم القيامة كما تنبت البقلة من بذرتها وذلك لأنها لا تبلى أبداً فقال: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**»[1].

(1) تقدم تخريجه.

خامساً: في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

يشبّه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ خروج الناس من قبورهم في يوم البعث بهيئة الجراد المنتشر، وتبدأ دورة حياة الجراد بوضع البيض الملقح في أماكن محددة وتقوم الأم برعايته حتى يفقس في حدود شهر مايو (أيار) من كل سنة فتخرج منه الحوريات التي تقوم بعملية الانسلاخ من جلدها عدة مرات حتى تصل إلى حجم الحشرة البالغة التي تحيا في بادىء الأمر حياة فردية ثم تبدأ في تكوين جماعة تنتهي برحلة الهجرة الجماعية التي تقطع فيها أسراب الجراد مسافات شاسعة تمر خلالها بمناطق التكاثر الخريفي والشتوي والربيعي حين تعود إلى مناطق تكاثرها الأولى التي انطلقت منها.

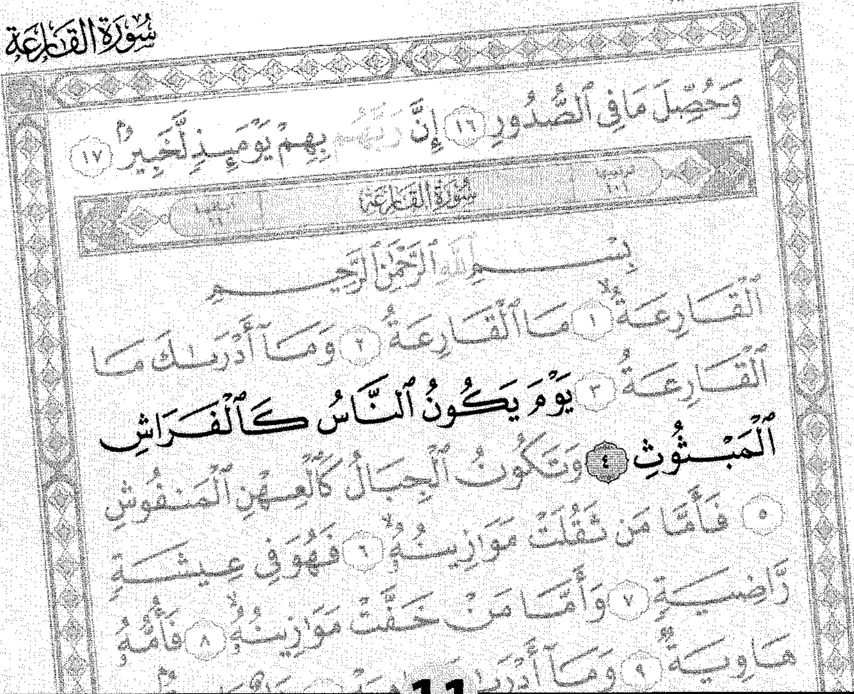
ويصل عدد الجراد المهاجر في السرب الواحد إلى عشرات البلايين ومن هنا كان تشبيه خروج الخلق الذين عمروا الأرض من أول وجودهم عليها إلى آخر لحظة من هذا الوجود والذين يصل عددهم إلى عشرات بل مئات البلايين بالجراد المنتشر وهو تشبيه في غاية الدقة العلمية. لأن سرب الجراد المهاجر يغطي مساحات من الأرض تقدر بأكثر من ألف كيلومتر مربع، ويتراص الجراد المهاجر على ارتفاعات قريبة من سطح الأرض بكثافات تتراوح بين المليون وعشرات الملايين جرادة في الكيلومتر المربع الواحد وتعرف باسم



الأسراب الطباقية وهكذا سوف يتزاحم الناس وهم يساقون إلى أرض المحشر، وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة في مقدمة السرب، وهكذا سيكون الخلق في ساعة الحشر ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ «سورة القمر، الآية: 8».

والجراد يطير عارياً تماماً إلا من رحمة الله ـ تعالى ـ الذي زوده بغطاء قرني رقيق، والناس يحشرون حفاة، عراة، غرلاً، كما قال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: «**لايغطيهم إلا جلودهم**».. وبذلك فإن هذا التشبيه القرآني المعجز ﴿...يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ يبقى شاهداً للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظه فحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وسوف يستمر هذا العهد إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها ليبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى يوم الدين، وناطقاً بنبوة خاتم المرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.





وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ١١

سُورَةُ القَارِعَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
ٱلْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ
ٱلْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ
٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
رَّاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ
هَاوِيَةٌ ٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ

11

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ «سورة القارعة، الآية: 4»

11



هذه الآية الكريمة جاءت في مقدمات سورة «القارعة» وهي سورة مكية وعدد آياتها (11) بعد البسملة وقد سميت بهذا الاسم (القارعة) لأنها تتحدث عن عدد من مشاهد يوم القيامة، والقارعة اسم من أسمائها لأنها تقرع القلوب بأهوالها (من القرع وهو الضرب بشدة مما ينتج عنه أصوات عالية شديدة النبرة).

والمحور الرئيسي للسورة هو استعراض عدد من مشاهد يوم القيامة ومبدؤها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق.

من معاني سورة «القارعة»:

1 ـ القارعة من أسماء يوم القيامة:

تبدأ السورة الكريمة بهذا الاسم المفزع من أسماء يوم القيامة: (القارعة) ومن أسمائها الأخرى في كتاب الله: (الواقعة)، (الطامة)، (الصاخة)، (الحاقة)، (الغاشية)، (الهاوية)، (يوم التناد)، (يوم الحسرة)، (يوم الآزفة)، (يوم البعث)، (يوم الفصل)، (يوم الدين)، (يوم الحساب)، (يوم التلاق)، (يوم الجمع)، (يوم الوعيد)، (يوم الخروج)، (يوم التغابن)، (يوم تبلى السرائر)، (يوم تقوم الساعة)، (يوم يقوم الأشهاد)، (يوم الوقت المعلوم)، (اليوم العظيم)، (اليوم العقيم)، (اليوم الآخر)، (اليوم الموعود)، وغير ذلك من أوصاف تضفي على الحدث الجلل ما يستحق من رهبة واعتبار وأخذ جاد في الحسبان.

تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة إذا وقع بهم أمر جلل خطير فظيع.وقيل في (القارعة) هي صوت النفخة يقرع الأسماع ويصكها ويرعب كل من يسمعه ويذهله.

وهذا الاستهلال المفزع الذي جاء كالقذيفة المدوية أعقبه سؤال لتعظيم الأمر ولإشعار السامع بخطورته: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: أي شيء هي القارعة وهي من الأمور الغيبية عن الإنسان غيبة مطلقة فلا يستطيع الوصول إليها بحسه المحدود ولا بقدرات عقله المحدودة، ولا يملك المسلم حيالها إلا الوقوف عند حدود ما أورده الله ـ تعالى ـ عنها في محكم كتابه أو فصّله لنا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ في حديث من أحاديثه الشريفة. ولذلك أتبع ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذا السؤال التفخيمي التعظيمي التهويلي بسؤال آخر موجه إلى النبي الخاتم ـ عليه من الله السلام ـ وموجه كذلك لكل من يقرأ هذه السورة الكريمة من بعده ﷺ يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ «سورة القارعة، الآية: 3».

بمعنى أنها أكبر من أن يحيط بها إدراك الإنسان أو أن يلم بها تصوره ما دام محبوساً في هذا الجسد الطيني على هذه الأرض، فهي خارجة عن دائرة معلومات المخلوقين، تلك المعلومات المستمدة من عالم الشهادة، والقارعة غيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. ولذلك جاءت الآيات التالية شارحة لبعض مشاهد هذا اليوم الرهيب ومن هذه المشاهد ما يلي:

2 ـ ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ «سورة القارعة، الآية: 4»:

أي يوم يكون الناس في بعثهم من قبورهم واندفاعهم في الخروج منها (حفاة عراة غرلاً) كما أخبر المصطفى ﷺ بأعداد تشمل جميع البشر من أول لحظة عمر فيها أبوانا آدم وحواء عليهما السلام الأرض وحتى قيام الساعة، ويقدرون بمئات البلايين شبهتهم سورة القارعة في اندفاعهم من القبور وفي كثرة أعدادهم وتزاحمهم وانتشارهم وذلتهم وانكسارهم من فجائية وهول الحدث ـ خاصة عند الذين كانوا ينكرون البعث منهم ـ وفي اضطرابهم وحيرتهم وتطايرهم إلى الداعي إذ يدعوهم إلى المحشر، شبهتهم بالفراش المبثوث أي المندفع من شرانقه المنتشر المتفرق هنا وهناك يتحرك على غير هدى في كل مكان جيئة وذهاباً دون ترتيب أو نظام. والمبعوثون من قبورهم يموج بعضهم في بعض من شدة الكرب والحيرة والهم والفزع لا يعرفون لهم هدفاً محدداً وليست لهم أدنى إرادة أو قدرة على الاختيار وكذلك الفراش إذا ثار فإنه لا يتجه إلى جهة واحدة بل تضطرب حركة أفراده كلّ إلى وجهة هو موليها دون تخطيط أو قصد أو اختيار؛ ولذلك شبه القرآن الكريم الخلق وقت البعث هنا بالفراش المبثوث، وفي سورة القمر شبههم بالجراد المنتشر.

وهذه التشبيهات كلها تتعاون في رسم صورة لهذا الحدث الرهيب الذي يهز القلوب ويدك النفوس ويرجف الأوصال من هول القارعة ومخاطرها، ويدعو أصحاب العقول والنهى إلى الاستعداد لملاقاتها بحسن التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بالعبادة والطاعة والأعمال الصالحة.

3 ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ «سورة القارعة، الآية: 5»

أي تتحوَّل الجبال بصخورها الصلبة وببناياتها المعقدة وكتلها الهائلة وامتداداتها الكبيرة إلى هيئة الصوف المندوف المنتثر المتطاير في الهواء من قلة كثافته وخفة وزنه، وإذا حدث ذلك للجبال الراسخات من هول القارعة والجبال من مرسيات الأرض وهن من الخلق غير المكلف فما بال المكلفين من الإنس والجن؟ وكأن السورة الكريمة تشبه حال قلوبهم وتطايرها من صدورهم إلى عنان السماء من شدة الهلع والخوف والفزع بتطاير صخور الجبال في الهواء كالصوف المندوف، وهو وصف تتصاغر معه كل ماديات الحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها وتتضاءل معه مظاهرها وأمجادها وكل حساباتها.

4 ـ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ *﴾ «سورة القارعة، الآيتان: 6، 7»

وهذا المشهد الثالث من مشاهد الآخرة هو الهدف الأسمى من أهداف الحياة الدنيا التي هي فسحة من الزمن يهبها الله ـ تعالى ـ لكل مخلوق ليثبت في نهايتها جدارته بالجنة أو استحقاقه للنار، و﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي رجحت موزوناته وهي أعماله الصالحة المرضية من الله ـ تعالى ـ. وهاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن السعداء من أهل الأرض المكلفين الذين ترجح موازين حسناتهم على موازين أخطائهم وهفواتهم يوم الحساب يوم العرض الأكبر أمام الله الخالق سبحانه وتعالى، فتبيضُّ وجوههم ويدخلون الجنة آمنين مطمئنين يرفلون في نعيمها راضية قلوبهم بتكريم الله ـ تعالى ـ لهم، وهو تكريم لا ينفد. والتعبير القرآني: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا يرضاه أو: هي لكثرة نعيمها أعطت الرضا من نفسها فأصبح صاحبها راضياً عنها وأصبحت هي مرضية له، والعيشة الراضية هي العيشة الهنيئة السعيدة.

5 ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ★ نَارٌ حَامِيَةٌۢ *﴾ «سورة القارعة، الآيات: 8 ـ 11».

وهذا هو المشهد الرابع من مشاهد يوم القيامة: مشهد أهل النار وهم يُدَعُّون إليها دعًّا لكثرة سيئاتهم: من كفرٍ بالله ـ تعالى ـ أو شرك به أو تحريف لدينه وتزييف له إلى إفساد في الأرض واستعلاء على الخلق وإمعان في ظلمهم وتجبر على العباد ومحاولة لقهرهم وإذلالهم كالذي تفعله العصابات الصهيونية المحتلة لأرض فلسطين في أهل البلاد الأصليين اليوم وعلى مدى زاد على خمسين سنة من تهجير بالقوة، إلى القتل العمد بدم بارد للأطفال والنساء والشيوخ والشبان، إلى هدم المساكن وتفجيرها، وتجريف الأراضي الزراعية واقتلاع أشجارها، إلى تدمير المساجد والمدارس والمستشفيات وتخريب البنية الأساسية للبلاد، إلى اعتقال آلاف الشبان وتعريضهم لأقسى صنوف التعذيب حتى الموت، وكل ذلك يتم بدعم معلن من الدول الغربية ويتم زوراً باسم الدين.

وبالمثل فإن ما فعلته الإدارات الإنجلو ـ أمريكية والقوات المتضامنة معها ـ ولا تزال تفعله ـ بأراضي المسلمين في كل من أفغانستان والعراق من احتلال بالقوة وتدمير للمساجد والمنائر والمدارس والمستشفيات، ومن حصار للمدن وضربها بالطائرات والصواريخ والمدافع الثقيلة وبالذخائر والأسلحة المحرمة دولياً.. واعتقال عشرات الآلاف من أبنائها رجالاً ونساء وتعريضهم لأبشع صور التعذيب الوحشي غير الإنساني وغير الأخلاقي المعيب وصور إهدار الكرامة ومحاولات الإذلال بالاعتداء على الأعراض والأجساد، وفعل الفواحش المختلفة مع أسرى لا يملكون دفاعاً عن أنفسهم.. والذي يصم هذه الأمم بأحقر الصفات وبالخلو من كل وازع ديني، أو أخلاقي، أو إنساني، وبالكذب على الله وعلى الناس؛ لأنهم يدعون زوراً أنهم حماة الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، وفظائع جرائمهم في سجون أفغانستان و«جوانتانامو» والعراق من مثل سجن «أبو غريب» وغيره من سجون أرض الرافدين وفي بلدة الفلوجة التي ردتهم عن حياضها مذمومين مدحورين، وفي كل من البصرة والكوفة والنجف يشهد بكذب دعواهم وزيفها وتشهد لهم بالتجرد الكامل من أبسط القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية...!!

ومن معاني ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾؛ أي فمسكنه ومصيره نار جهنم يهوي إلى قاعها. و﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم من أسماء جهنم سميت به لبعد مهواها وعظيم عمقها وأهل النار يهوون

فيها سبعين خريفاً. واعتبرت الآية الكريمة نار جهنم (الهاوية) أمًّا للكفار والمشركين وللطغاة المتجبرين لأنها سوف تأويهم وتضمهم في أحضانها كما تأوي الأم أولادها وتضمهم إليها وشتان ما بين الضمتين...!!

فنار جهنم سوف تأوي هؤلاء المجرمين، وسوف تكويهم بنيرانها جزاء جرائمهم التي اقترفوها في الدنيا. وهذه النيران تصفها الآيات في ختام سورة القارعة بأنها ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ لا تقوى عليها جلود هؤلاء الطغاة المتجبرين فكلما نضجت بدَّلهم الله ـ تعالى ـ جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب وما ذلك على الله بعزيز. وسبق وصف هذه النار الحامية استفهام عن (الهاوية) بصيغة التفخيم والتهويل والتعظيم: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ أي: وما أعلمك ما الهاوية؟ ويأتي جواب السؤال ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي شديدة الحرارة لدرجة أنها خرجت عن الحد المألوف للنار في الدنيا وقد وصفها المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حرِّ جهنم..**»[1].

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: مقدمة لازمة:

كما أشرنا تحت الآية السابقة فإننا نكرر هنا أن من ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة ما يلي:

1 ـ عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة من مثل الذات الإلٰهية، الكرسي، العرش، الملائكة، الروح، الجن، حياة البرزخ، حساب القبر، وقت قيام الساعة، البعث، السوق إلى المحشر، العرض الأكبر أمام الله سبحانه وتعالى، الحساب، الميزان، الصراط، الجنة، النار، وغيرها. وضرورة التوقف في ذلك عند حدود النصوص الواردة في كتاب الله أو في أحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ انطلاقاً من الإيمان الكامل بهما واعترافاً بعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيوب المطلقة بغير هداية ربانية.

2 ـ التأكيد على أن الآخرة بتفاصيلها المختلفة وأحداثها المتتابعة لها من السنن

(1) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق (الحديث: 3265)، ومسلم في كتاب: الجنة ونعيمها (الحديث: 7094)، والترمذي في كتاب: صفة جهنم (الحديث: 2589) بألفاظ متقاربة.

والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وعلى ذلك فإن وقوع الآخرة لا يحتاج إلى أي من سنن الدنيا البطيئة الرتيبة لأن الله ـ تعالى ـ يصف وقوعها بالفجائية الشديدة وذلك بقوله ـ عز من قائل ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 187».

وعلى ذلك فإن المشتغلين بعلوم الكون إذا استخدموا عدداً من الشواهد الحسية التي أبقاها الله ـ تعالى ـ لنا في صخور الأرض أو في صفحة السماء للتدليل على حتمية الآخرة من أجل البرهنة على تلك الحتمية وعلى ضرورتها، فإن ذلك لا يمكن أن يعني قدرتهم على استشراف زمن أو كيفية وقوعها الذي هو من صميم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ.

وعلى ذلك فإن عملية البعث وخروج الموتى من الأجداث على هيئة الفراش المبثوث هي عملية غيبية غيبة مطلقة لا يمكن للعلم المكتسب أن يقول فيها شيئاً على الإطلاق. ولولا ما توافر لنا من هَدْي خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في وصف كيفيات خلق الإنسان وبعثه بعد موته ما كان ممكناً لنا أن نخوض في أمور غائبة عنا غيبة مطلقة كهذه الأمور.

ثانياً: البعث في القرآن الكريم:

جاء الفعل (**بعث**) بمشتقاته في سبعة وستين (67) موضعاً من كتاب الله الخالد، و(البعث) يحمل معنى الإرسال، أو الإيقاظ من المنام أو النهوض للخروج إلى القتال، أو إحياء الموتى ونشرهم من قبورهم بعد طول رقاد فيها وبعد تحلل الأجساد وبلاها.

وأصل (البعث) إثارة الشيء وتوجيهه أي إرساله إلى وجهة محددة و(الانبعاث) إثارة ذاتية للقيام بذلك، والبعث نوعان أساسيان:

أ ـ (بعث) بشري من مثل قولك (بعثت) فلاناً في أمر من الأمور (فانبعث) أو (بعثت) البعير بمعنى: أثرته وسيّرته إلى وجهة محددة، ولفظة (البعث) تطلق على الفرق الخارجة للجهاد في سبيل الله و (الانبعاث) عملها.

ب ـ (بعث) إلٰهي يختص به الله ﷻ وهو على ثلاثة أشكال:

1 ـ (بعث) بمعنى الإرسال كإرسال الرسالات السماوية وإرسال الرسل والأنبياء أو النهوض للخروج إلى القتال مثل (انبعاث) المجاهدين، وجاء ذلك في سبع وعشرين (27) آية قرآنية كريمة.

2 ـ (بعث) بمعنى الإيقاظ من النوم وجاء في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، والنوم من جنس الموت فجعل الله ـ تعالى ـ التوفي فيهما والبعث منهما سواء.

3 ـ (بعث) بمعنى الإحياء من بعد الموت وجاء هذا المعنى الكريم في سبع وثلاثين (37) آية قرآنية كريمة.

ثالثاً: البعث في أقوال رسول الله ﷺ:

على الرغم من مناقشتنا لهذه القضية تحت الآية السابقة إلا أني أرى ضرورة لعرضها مرة أخرى لأهميتها القصوى:

يروى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً**» قالت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «**يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»[1].

وفي عدد من الأحاديث النبوية الشريفة ذكر المصطفى ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ أن في جسم الإنسان عظمة لا تبلى أبداً ولا تأكلها الأرض التي يدفن فيها الميت والتي تأكل بقية الجسد، وقد سمى رسول الله ﷺ تلك العظمة التي لا تبلى أبداً باسم «**عجب الذنب**» ووصفها بأنها مثل حبة الخردل وحدد مكانها بأنها في نهاية العصعص (آخر فقرات العمود الفقري). وأشارت الأحاديث النبوية الشريفة إلى أن الإنسان يخلق في الدنيا من هذه العظمة المتناهية الضآلة في الحجم وأنها تبقى بعد موته وتحلل جسده ليعاد إنشاؤه منها يوم البعث حين يُنزل الله ﷻ ماء خاصاً من السماء فينبت كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة في هذا المعنى قوله ﷺ:

---

(1) تقدم تخريجه.

1 ـ «**يبلى كل عظم من ابن آدم إلا عجب الذنب وفيه يركب الخلق يوم القيامة**».

2 ـ «**يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه**» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**مثل حبة خردل منه تنشأون**».

«**وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً هو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة**».

3 ـ وفي رواية للإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون**» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: ثم أضاف رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[1].

رابعاً: بداية الخلق من عجب الذنب

في أحدث الدراسات لمراحل الجنين المتتالية في خلق الإنسان ثبت أنه بعد إخصاب البييضة وتكوّن النطفة الأمشاج أو اللقيحة، فإن هذه اللقيحة تبدأ في الانقسام على التوالي حتى تتحول إلى ما يعرف باسم التويتة (Morula) ثم إلى ما يعرف باسم الكيسة الأريمية (Blastocyst) التي تبدأ في اليوم السادس من عمر الجنين (Embryo) بالانغراس في بطانة الرحم على هيئة قرص مكون من طبقتين من الخلايا (Bilamellar Embryo): علوية وسفلية (تحتية) وهذا القرص لا تتميز فيه الاتجاهات حتى يظهر في أحد أطراف طبقته العلوية في اليوم الخامس عشر من عمر الجنين خيط دقيق للغاية يحدد بموقعه مؤخرة الجنين وتكون مقدمة الجنين في الجهة المقابلة، ويعرف هذا الخيط باسم الخيط البدائي (The Primitive Streak) أو الخيط الأولي (The Primary Streak) وبعد يوم واحد أي في اليوم السادس عشر من عمر الجنين يخلق الله ـ تعالى ـ نقطة صغيرة ومنتفخة قليلاً في وسط القرص تعرف باسم العقدة البدائية أو الأولية (The Primitive or The Primary Node)

(1) تقدم تخريج هذه الأحاديث.

ويطلق عليها أحياناً اسم زائدة الحبل الظهري (The Notochordal Process) ثم تخلق للقرص المعلق بجدار الرحم (العلقة) طبقة وسطى بين الطبقتين العلوية والتحتية تعرف باسم الطبقة الوسطى للجنين (The Intra-embryonic Mesoderm) ويصبح الجنين ثلاثي الطبقات (Trilamellar Embryo) تعرف باسم الطبقة الخارجية والوسطى والداخلية، ومن كل واحدة من هذه الطبقات الثلاث يتكون عدد من أعضاء جسم الإنسان بخلاياه وأنسجته المتخصصة في عملية تعرف باسم عملية تكون المُعَيْدات (Gastrulation) وأول هذه الأجهزة تكوناً هو محور الرأس العصعص ويتكون فيه بدايات اللوح والانغماد العصبي والحبل الظهري والمخ والتجويف البطني وبذلك تتكون جميع أجهزة الجسم من الخيط والعقدة البدائيين، وتصدق نبوءة المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «**منه خلق**».

وبعد تمام تكون أجهزة الجسم المختلفة يتراجع هذا الخيط البدائي بالتدريج إلى مؤخرة جسم الجنين حتى يستقر في نهايات فقرات العمود الفقري (في نهايات العصعص) حيث يبقى على هيئة جنين بذرة النبات الكامن بداخلها والذي ينتظر المكان والزمان المناسبين والري الكافي لينبت من جديد، ولكن هذا الجنين الإنساني سوف ينبت مرة واحدة فقط في يوم البعث حين ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ماء خاصاً من السماء فينبت به كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها حسب ما أخبر به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

خامساً: العلم المكتسب يثبت عدم فناء عجب الذنب:

في عدد من التجارب المكررة أثبت العالم الألماني هانز سبيمان (Hans Spemann) ورفاقه في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين (1931–1935) أن كلاً من الخيط البدائي ونهايته (العقدة البدائية) واللذان ينسحبان على هيئة عظمة متناهية الضآلة في الحجم بآخر فقرات العصعص (عجب الذنب) هما المسؤولان عن خلق جميع أجهزة الجنين؛ ولذلك أسموهما باسم المنظم الأولي أو الأساسي للجنين (The Primary Organizer). وقد أثبتت هذه المدرسة العلمية ذلك بقطع هذا المنظم الأولي (عجب الذنب) من أجساد عدد من الحيوانات البرمائية وزرعه في جنين من أجنتها، فنما على هيئة جنين إضافي في داخل الجنين المضيف.

كذلك قام فريق العمل نفسه بسحق عجب الذنب (المنظم الأولي) وزرعه مرة أخرى في جنين آخر فنما وكون محوراً جنينياً ثانوياً رغم سحقه مما أكد أن السحق لا يفني خلاياه



الحية، كما قاموا بغلي هذا المنظم الأولي (عجب الذنب) لعدة ساعات ثم زرعه في جنين ثالث فنما وكون محوراً جنينياً جديداً مما أكَّد أن خلاياه لا تتأثر بالغليان. وقد مُنِحَ سبيمان جائزة نوبل للعلوم الحياتية في سنة 1935م تقديراً لاكتشافه للدور العجيب الذي يقوم به هذا المنظم الأساسي (عجب الذنب)، ومنه تخليق جميع أجهزة الجنين، وفي إثبات أن خلايا هذا المنظم الأولي أو الأساسي لا تتأثر لا بالسحق ولا بالغلي.

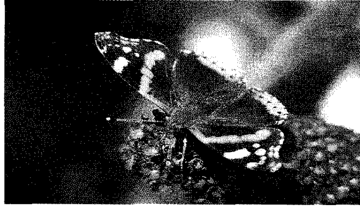
وبعد مضي ثمان وستين سنة قام الدكتور عثمان جيلان ورفاقه في رمضان سنة 1424هـ (نوفمبر2003 م) بإجراء تجربة مماثلة في اليمن أحرقوا فيها خمسة من عصاعص الغنم باستخدام مسدس غاز لمدة عشر دقائق متواصلة حتى احمرت وتفحَّمت وبدراسة ما تبقى منها تبين أن خلايا عجب الذنب (نهايات العصعص) بقيت حية رغم ما تعرضت له من شدة الحرارة. وفي هذه التجارب وأمثالها تصديق عملي لنبوءة المصطفى ﷺ الذي أكد في أحاديث كثيرة أن عجب الذنب هو البذرة التي ينشأ منها جسد جنين الإنسان (وجنين كل مخلوق) والتي تبقى لا تتحلل أبداً بعد أن يموت المخلوق ويتحلل جسده، ثم في يوم البعث يُنزل الله سبحانه وتعالى مطراً خاصاً من السماء فينبت به كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها فقال ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**».

سادساً: في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾
«سورة القارعة، الآية: 4»

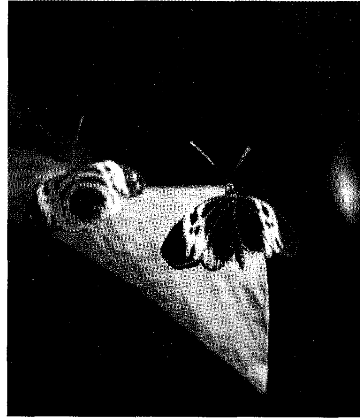
يعجب الإنسان من هذا الوصف القرآني المعجز للناس في لحظة البعث والاندفاع من القبور، وتشبيههم بالفراش المبثوث. والذي له أبسط دراية بالفراش ودورة حياته يلمح جانباً

من الإعجاز العلمي في هذا التشبيه يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الأرض ومن عليها حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الناس كافة إلى يوم الدين وناطقاً بالنبوة وبالرسالة للرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ على الرغم من تنكر الكفار والمشركين والمكذبين المارقين المفسدين في الأرض من الخلق لبعثته الشريفة خاصة في زمن الفتن الذي نعيشه.





والفراش (Butter flies) من الحشرات الحرشفية الأجنحة (Lepidoptera) والتي تتميز **بأربعة أجنحة مغطاة بحراشيف مفلطحة** تلتصق بالأصابع كالبودرة إذا لمسها الإنسان أو أمسك بها مما يمثل صورة من صور الضعف المدرك في الخلق (ومثل الفراش الحشرة المعروفة باسم أبو دقيق).



وذكر الفراش عادة ما يكون أصغر حجماً من الأنثى وأزهى ألوانا وهو دائماً مجنح بينما بعض إناثه غير مجنحة أو تحمل أجنحة ضامرة لا تعينها على الطيران. **ولذلك تعيش في علب تصنعها يرقاتها تشبه**

القبور. وتبدأ دورة حياة الفراش بالبيض المخصب وهو صغير جداً ويتخذ أشكالاً مختلفة وتضعه الأنثى بعد التزاوج فوق النبات المناسب كطعام ليرقاتها بعد الفقس مباشرة. ويفقس البيض بعد حوالي خمسة أيام وتخرج منه يرقة على هيئة الدود الصغير جداً في شكلها. واليرقات لها فكوك قوية وستة أرجل حقيقية بالإضافة إلى عدد من أشباه الأرجل، وتبدأ اليرقات فوراً في تناول الطعام الذي تلتهمه بكميات كبيرة وبشراهة ملحوظة فتنمو في الحجم بسرعة مما يضطرها إلى الانسلاخ عن جلدها لعدة مرات، **فتشبه في عريها خروج الموتى من الأجداث (حفاة عراة غرلاً)** كما وصفهم رسول الله ﷺ.

ثم تتشرنق اليرقات فيما يشبه الكفن أو القبر أو تربط نفسها برباط من حرير إلى النبات الذي تتغذى عليه استعداداً للمرور بمرحلة العذراء (الحورية) أو الخادرة (المستترة في خدرها). وفي هذه المرحلة يعاد خلق الحشرة بأكملها وكأنها عملية بعث لها حيث تذاب اليرقة ذوباناً كاملاً ثم يكون بعثها بعد أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع على هيئة الحشرة الكاملة، وهي تختلف تماماً عن اليرقة التي جاءت منها، وكذلك يبعث الناس في أواسط أعمارهم. وبعض العذارى (الحوريات) قد تمضي فصل الشتاء كله في مرحلة الخادرة (المستترة)ولذلك تؤجل عملية التحول الكيميائي العجيب حتى مطلع الصيف وكأنها في عملية بيات شتوي أو في القبر وذلك لأن بعض يرقات الفراش تغزل لنفسها شرنقة حريرية كثيفة أو وسادة من الحرير تتدلى منها العذراء بواسطة خطافات دقيقة في مؤخرة جسمها.

وبعد تمام تخلق العذراء تستعد للخروج من خدرها (شرنقتها) تماماً كما يستعد الميت للخروج من قبره لحظة بعثه، فيتحوَّل جلد الخادرة إلى حالة نصف شفافة ثم ينشق كما تنشق القبور عن أصحابها والذي يصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ «سورة قٓ، الآية: 44».

وتخرج عذارى الفراش بالملايين في كل لحظة كما سيخرج البشر بمئات البلايين في لحظة البعث، تخرج عذارى الفراش من شرنقاتها ضعيفة هزيلة زاحفة ببطء في اضطراب وحيرة كما سيخرج الناس من قبورهم في ذهول واستغراب واضطراب وحيرة، وتبدأ الحشرة بأجنحة مهيضة تضخ فيها الدم بالتدريج حتى تنفرد وجسمها مبلل بسوائل مرحلة العذراء فتقف قليلاً في الشمس حتى تدفأ وتصبح مستعدة للطيران ولتكرار دورة حياتها من جديد.

والتشبيه القرآني للناس في لحظة البعث بالفراش المبثوث تشبيه معجز لأن دورة حياة الفراش لم تعرف إلا في القرنين الماضيين.. وسبْقُ القرآن الكريم بهذا الوصف العلمي الدقيق الذي جاء به في مقام التشبيه لممّا يشهد لهذا الكتاب الخالد بالدقة والشمول والكمال وبأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وصدقه في كل ما جاء به، كما يشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



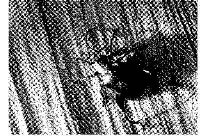
جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ١٠ أَنِ اعْمَلْ
سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ١١ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ
وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ١٢
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ
الشَّكُورُ ١٣ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ**
إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ١٤

سُورَةُ سَبَإٍ



﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ...﴾ «سورة سبإ، الآية: 14»

12



هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع الربع الثاني من سورة «سبإ»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (54) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى قوم «سبإ»، وهم قبيلة من العرب سكنت اليمن وسميت باسم جدهم (سبإ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان).

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها: الإيمان بالله ﷻ، والتوحيد الخالص لجلاله ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، والإيمان بوحيه وبجميع أنبيائه ورسله، وبحتمية الآخرة والبعث والحساب، والجزاء إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وأنه ما من قوة يمكنها أن تعصم العبد من عقاب الله، وما من شفاعة عنده إلا بإذنه. وبأن الإيمان يصدقه العمل الصالح، وكلاهما قوام الحكم والجزاء عند الله الذي ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ «سورة سبإ، الآية: 3».

وترد السورة على المشركين في إنكارهم للآخرة، وعلى تكذيبهم بالبعث بعد الموت بعرض عدد من مشاهد القيامة، ومن صور العذاب الذي يكذبون به، ومن الأدلة على عجز شركائهم الذين يدعون من دون الله، كما ترد على المكذبين لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، والرافضين لرسالته الخاتمة. وتناولت هذه السورة الكريمة أيضاً قصص عدد من أنبياء الله الشاكرين لأنعمه، وعدد من الأمم التي أبطرتها النعم كقوم (سبإ) الذين عاقبهم الله ـ تعالى ـ على بطرهم بإقصاء نعمه عنهم، وتلك سنة الله في خلقه، وهي سنة لا تتوقف، ولا تتخلف أبداً فاعتبروا يا أولي الأبصار...!!

عرض موجز لسورة «سبإ»:

تبدأ سورة «سبإ» بثناء الله ـ تعالى ـ على ذاته العلية بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ *﴾ «سورة سبإ، الآيتان: 1، 2».

ثم انتقلت السورة إلى الرد على منكري البعث بالتأكيد على حتمية وقوعه، والرد على المناوئين لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ * وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ *﴾ «سورة سبإ، الآيتان: 5 ـ 6».

وتستشهد الآيات ببديع صنع الله في السماء والأرض، وتتهدد المكذبين ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والمتطاولين على شخصه الكريم من الكفار والمشركين والمكذبين بالبعث في القديم والحديث وحتى قيام الساعة بأن الله ـ تعالى ـ لو يشاء لخسف بهم الأرض أو أسقط عليهم كسفاً من السماء.

ثم انتقلت السورة بالحديث إلى قصة كل من نبي الله داود وولده النبي سليمان ـ على نبينا وعليهما من الله السلام ـ، وأشارت إلى ما منّ الله ـ تعالى ـ به عليهما من أفضال جزاء شكرهما لأنعمه، وقارنت ذلك ببطر غالبية (قوم سبإ) الذين أعرضوا عن دين الله بعد أن كانت ملكتهم قد أسلمت لرب العالمين مع سليمان عليه السلام، فأزال الله نعمه عنهم، وجعلهم أحاديث، ومزقهم كلَّ ممزق، وجعلت من قصتهم آيات لكل معتبر ولكل صبار شكور.

ثم توجه الآيات الخطاب للمشركين بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ «سورة سبإ، الآية: 22».

والخطاب هنا للتوبيخ والتعجيز إذ يقرر أن كل معبود غير الله لا يملك مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض، لا على سبيل الملك، ولا حتى المشاركة، والله سبحانه وتعالى لا يستعين

بهم في شيء، فما هو في حاجة إلى معين، ولا يشفع عنده إلا من أذن له، وفي ذلك يقول: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ «سورة سبإ، الآية: 23».

وتؤكد الآيات أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يرزق خلقه من السمٰوات والأرض، وأن كل مخلوق مسؤول عن عمله، وأن الله ـ تعالى ـ هو الذي يفصل بين خلقه يوم القيامة، ويستنكر شرك المشركين وهو العزيز الحكيم.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ له: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ «سورة سبإ، الآية: 28».

وتعاود السورة الكريمة الرد على منكري البعث وعلى الذين يرفضون الإيمان بالقرآن الكريم ولا بما أنزل من قبله من كتب، وعلى المشركين بالله ما لم ينزل به سلطاناً فتقول الآيات:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۞﴾ «سورة سبإ، الآيات: 29 ـ 31».

وتفصل السورة الكريمة ضرباً من الحوار بين الذين استكبروا والذين استضعفوا من المشركين في يوم القيامة وتختتم بقول الحق ﷻ:

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ «سورة سبإ، الآية: 33».

وتعرّج الآيات في سورة سبإ على غرور المترفين الذين أفسد الترف فطرتهم، وأغلظ قلوبهم، وأفقدها رقة الخضوع لله ـ تعالى ـ، وملأها بالكبر على الهداية، والإصرار على الباطل، والانغماس في الشهوات؛ والمترفون عادة ما تخدعهم النعمة ويغرهم ما أغدق الله ـ تعالى ـ عليهم من ثراء وقوة فيحسبون ذلك مانعهم من عذاب الله، وهو وهم كاذب لا ظل له

من واقع، ولذلك تقول الآيات فيهم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ*﴾

«سورة سبإ، الآيات: 34 ـ 37».

وتشجع الآيات على الإنفاق في سبيل الله مؤكدة أن الرزق من الله ـ تعالى ـ فتنطق بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ «سورة سبإ، الآية: 39».

وتعاود السورة الكريمة توجيه الخطاب مرة أخرى إلى المشركين ومنهم من عبد الملائكة أو الجن من دون الله فتقول:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ * فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ*﴾

«سورة سبإ، الآيات: 40 ـ 42».

ويكرر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إنذار المكذبين لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بعقاب مماثل لعقاب المكذبين من الأمم السابقة فيقول ـ عز من قائل ـ:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ * وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ*﴾ «سورة سبإ، الآيات: 43 ـ 45».

والمتصفِّح للعديد من المواقع على شبكة المعلومات الدولية، والمستمع إلى العديد من

الإذاعات المحلية والأجنبية، والمشاهد للقنوات الفضائية، والمطلع على الكثير من غير ذلك من الوسائل الإعلامية يدرك أن هذا التطاول على خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ بهذا المنطق المعوج نفسه، وهذا الإسفاف في التعبير لا يزال سائداً، وكأنَّ هذه الآيات الكريمة قد نزلت لكفار ومشركي زماننا كما نزلت للكافرين والمشركين في زمن الوحي، وفي الفترات الفاصلة بين زماننا وزمانهم وحتى قيام الساعة.

ويأتي الرد من الله ـ تعالى ـ بالأمر إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار والمشركين في زمانه، وفي كل زمان من بعده ما نصه:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۞ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۞﴾ «سورة سبإ، الآيات: 46 ـ 49».

وتختتم السورة الكريمة بذكر مصير الكافرين في يوم القيامة وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۞ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۞ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۞﴾ «سورة سبإ، الآيات: 51 ـ 54».

والآيات تمثل الهول الذي يفاجأ به الكفار والمشركون في الآخرة ولقد فوجئوا بما أنذروا به فكذبوه، ورأوا العذاب الذي حذروا منه فاستهانوا به وأنكروه، رأوه رأي العين، وعلموا يومئذ أن لا نجاة ولا مهرب لهم منه، وأخذوا من موقف الحساب مباشرة إلى النار، وأنَّى لهم في الآخرة تناول كفرهم القديم بالإيمان، ومحو معاصيهم السابقة بالتوبة، وقد كان ذلك يعرض عليهم في الدنيا فرفضوه، ويقدم إليهم بين أيديهم فضيعوه، وكانوا يرجمون بالغيب، ويحكمون بالظن والهوى، ويتكلمون بما لم ينزل عليهم فيزعمون لله

ـ تعالى ـ الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وينكرون البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وينكرون ربانية القرآن الكريم، مدعين بأنه من أساطير الأولين، وواصفين إياه بالشعر تارة، وبالسحر المبين تارة أخرى، وواصفين النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ بأوصاف لا تليق بمقامه الشريف، وبما هو بعيد عن الحق والصواب بعد المشرقين، ولذلك يحال بينهم وبين التوبة كما يحال بينهم وبين الإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله في الآخرة، وهو الأمر الذي يشتهون ويتمنون ولكن هيهات هيهات، وذلك تماماً ما فعل بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم السابقة عليهم، فقد كانوا جميعاً في شك مريب من أمر الدين الصحيح وهو الإسلام العظيم الذي علمه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأنزله على فترة من الرسل، وهدى به الخلق بواسطة نفر كثير من الأنبياء ثم أكمله وأتمه وحفظه في رسالته الخاتمة التي بعث بها النبي والرسول الخاتم ﷺ.

وهكذا ختمت سورة «سبأ» بهذا الختام الذي يصف مشهداً عنيفاً من مشاهد يوم القيامة، وهو مشهد لم يقع في حس الناس بعد، ولكن إذا علمنا أن كلاً من الزمان والمكان من خلق الله ـ تعالى ـ، وأن المخلوق لا يحد خالقه أبداً، لأدركنا أن كلاً من الماضي والحاضر والمستقبل حاضر عند الله ـ تعالى ـ، إذا تحدث ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عن أمر مستقبلي قادم تحدث عنه حديث المشاهد البصير، والخبير العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فتبارك الله رب العالمين.

من ركائز العقيدة في سورة «سبإ»:

تطالب سورة «سبإ» كل الخلق بأن يؤمنوا بالقواعد الأساسية التالية:

1 ـ إن الله ـ تعالى ـ هو رب السموات والأرض وما فيهن، وأنه هو سبحانه وتعالى سوف يحمد في الآخرة من جميع خلقه لتحقق كل ما وعد به، وأنه هو العزيز الحكيم، والخبير العليم، والغفور الرحيم، والفتاح الرزاق ذو القوة المتين الذي يرزق عباده في السموات والأرض، وأنه هو ـ سبحانه ـ علام الغيوب وعلى كل شيء شهيد.

2 ـ إن علم الله ـ تعالى ـ هو علم محيط... ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

3 ـ إن البعث حتمي، وأن الآخرة ضرورة لازمة، وإن كذَّب بهما المكذبون، وكفر بحتمية وقوعهما الكافرون.

4 ـ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم من الله ـ تعالى ـ مغفرة ورزق كريم، وإن الذين وقفوا في وجه الدعوة المحمدية المباركة وفي وجه آيات الله المنزلة في قرآنه الكريم معاجزين لهم عذاب من رجز أليم في الدنيا قبل الآخرة.

5 ـ إن المعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ لعدد من أنبيائه من أمثال داود وسليمان ـ عليهما من الله السلام ـ هي حق مطلق لا جدال فيه، وكذلك ألوان العذاب التي أنزلها الله ﷻ بعدد من العصاة السابقين من أمثال قوم «سبإ» هي حق كذلك.

6 ـ إن كل معبود من دون الله لا يملك مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض، وليس له شرك في أيٍّ منهما، وليس له من دون الله من واق، ومن هنا كان الشرك ظلماً عظيماً للنفس، وكان كل من وقع في دنسه خاسراً خسراناً مبيناً.

7 ـ إن الشفاعة عند الله ـ تعالى ـ لا تنفع إلا لمن أذن له ﷻ.

8 ـ إن كل إنسان مسؤول عن أعماله، ولا يسأل عن أعمال غيره، وأن الله ـ تعالى ـ يفصل بين عباده بالعدل والقسطاس المستقيم.

9 ـ إن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ قد أُرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وأن من لم يؤمن به وبرسالته فقد خسر خسراناً مبيناً.

10 ـ إن الله ـ تعالى ـ هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، وأنه ـ سبحانه ـ هو خير الرازقين، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك ولا يؤمنون به.

11 ـ إن... ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ وأن الذين يعارضون القرآن الكريم ويتحدونه سوف تجرهم زبانية جهنم إليها وهم فيها محضرون.

من الإشارات الكونية في سورة «سبإ»:

1 ـ تقرير أن الله ـ تعالى ـ هو خالق السمٰوات والأرض ومالكهما بكل من فيهما وما فيهما، وأنه هو القادر على أن يخسف الأرض أو أن يسقط السماء كسفاً على من يشاء.

2 ـ وصف الحركة في الأرض بالولوج والخروج، وفي السماء بالنزول والعروج وهي دقة علمية بالغة.

3 ـ التأكيد على حتمية النهاية لهذا الكون، وهو ما تدعمه كل المشاهدات الحسية فيه.

4 ـ الإشارة إلى ما هو أصغر من الذرة والذي لم يصل إليه علم الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين.

5 ـ إن المخلوقات غير المكلَّفة من مثل الجبال والطير لها أقدار متفاوتة من الإدراك، والشعور، والإحساس، والعبادة، والتسبيح لله الخالق ﷻ وحده، وهو ما بدأت الدراسات العلمية في تلمّسه أخيراً.

6 ـ إن الريح قد سخِّرت لسليمان غدوُّها شهر ورواحها شهر، ومن ذلك يمكن الوصول إلى عدد من الحسابات العلمية الدقيقة.

7 ـ الإشارة إلى القطر وهو إما القطران (وهو الأرجح) أو النحاس المصهور.

8 ـ ذكر حقيقة أن من دواب الأرض ـ أي حشراتها ـ ما يأكل الخشب.

9 ـ ذكر ما كانت فيه قبيلة «سبإ» من نعيم مقيم، وسد للماء عظيم (سد مأرب)، ثم أبطرتها النعمة فعاقبها الله ﷻ بتسخير سيل العرم عليها فهدم السد، ودمر الزرع، وشتت الجمع، وجعلهم أحاديث في أفواه الناس من حولهم، وكل ذلك مما ثبت في دراسات متأخرة.

10 ـ الإشارة إلى عالمية الدعوة الإسلامية، وهو ما تحقَّق في الماضي القريب ولا يزال يتحقق إلى أن يشاء الله ﷻ.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معاملة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثامنة من القائمة السابقة التي جاءت في الآية الرابعة عشرة من سورة سبإ، وقبل الوصول إلى ذلك أرى لزاماً عَليَّ أن أستعرض أقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة قبل شرح دلالاتها العلمية.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ «سورة سبإ، الآية: 14».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «يذكر تعالى كيفية موت سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكيف عَمَّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته مدة طويلة... فلما أكلتها دابة الأرض وهي (الأرضة) ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه كان قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك...».

- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم ـ قوله: «... وقد روي أنه كان متكئاً على عصاه حين وافاه أجله؛ والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد، فلم تدرك أنه مات حتى جاءت دابة الأرض ـ قيل إنها الأرضة ـ التي تتغذى بالأخشاب، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة، في الأماكن التي تعيش فيها. وفي صعيد مصر قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفاً من هذه الحشرة التي لا تبقي على المادة الخشبية ولا تذر. فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله فخر على الأرض. وحينئذ فقط علمت الجن موته، وعندئذ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس، هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله. وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد!».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى إعادته هنا، وإن كانت الإسرائيليات قد أفاضت في ذكر قصة وفاة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونحن معشر المسلمين علينا الالتزام بأوامر رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا**

تصدقوهم ولا تكذبوهم»[1] لأننا إذا: صدقناهم قد يصادف ذلك أمراً من الأمور التي حرفوها في دياناتهم، وإذا كذبناهم فقد يصادف تكذيبنا لهم أمراً من بقايا الحق القديم الذي بقي فيما توارثوه من ذكريات عن أخبار أنبيائهم، خاصة وأن الكتب الموجودة بين أيديهم اليوم مكتوبة بلغات غير لغات الوحي الذي أوحيت به، ومن هنا تعددت التراجم وكثرت المراجعات وتباينت الأخبار، وكثرت التناقضات مع ضياع الأصول وفقدان المرجعية، ومن هنا أيضاً كان واجب الالتزام بأوامر خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فلا نصدقهم ولا نكذبهم ولا ننقل عنهم، لأن النقل عنهم في تفصيل بعض الأخبار، أو التواريخ، أو الأحداث، أو الأشخاص قد يكون سجلاً من الأخطاء تجمع تحت مسمى «**الإسرائيليات**» التي يجب نبذها والاحتراز من ترديدها، وإدراك مخاطر ذلك وأخطائه العلمية، والتاريخية، والدينية، خاصة وأن اليهود قد برعوا عبر التاريخ في تزييف الحقائق، وطمس الوقائع التي تدينهم، وفي تزوير التاريخ جملة وتفصيلاً حتى يخفوا جرائمهم في حق الإنسانية كلها وهم أعداؤها الألدون لكثرة ما زيفوا من حقائق تصور لهم أنهم وحدهم شعب الله المختار، أبناؤه وأحباؤه، وغيرهم من الخلق حيوانات خلقت في هيئة الآدميين حتى يكونوا في خدمتهم، وانطلاقاً من هذا الوهم الخاطئ والكذب على الله ـ تعالى ـ ملأ الصهاينة الأرض ظلماً وجوراً وإفساداً ولا يزالون يفعلون ذلك على أرض فلسطين الجريحة والتي أغرقوها في بحار من الدماء والأشلاء والدمار والخراب ولا يزالون، والله لهم بالمرصاد، ووعده ـ تعالى ـ بتدميرهم في الدنيا قبل الآخرة لن يخلفه، وما ذلك على الله بعزيز.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾:

ودابة الأرض التي جاء ذكرها في هذا النص القرآني الكريم هي إحدى الحشرات التي تأكل الخشب، وتحفر فيه لتتخذ منه مأوى وطعاماً في آن واحد ولذا تعرف باسم «**ناقرات**

(1) أخرجه الإمام أحمد عن أبي نملة رضي الله عنه، وأورده ابن حجر في «فتح الباري» تعليقاً.



الخشب» (Wood Borers) أو **«القادح»** ومنها **الأرضة (القرضة)، العتة، زنابير الخشب، ويرقات الفراشة الماعز، ويرقات الخنافس (من مثل الخنافس ذات القرون الطويلة، خنفساء المسك اللامعة، الخنفساء الزنبورية، خنفساء الحطاب، خنافس الأثاث، خنافس أعمدة التلغراف، خنفساء قلف الأشجار، والخنفسة المعروفة باسم نذير الموت**، وغيرها)، ومنها بعض سوس الأشجار (مثل **سوس شجرة الصنوبر**)، ومنها ما يعرف تجاوزاً باسم **نمل الخشب** أو **النمل الأبيض** (Termites) وقد جمع القرآن الكريم ذلك كله في تعبير علمي دقيق هو: **دابة الأرض.** وهو وصف معجز لأن أغلب هذه الحشرات تعيش تحت سطح الأرض أو في جذوع الأشجار، أو في داخل أخشاب الأثاث والبناء مختفية عن الضوء، لأنها لا تقوى على التعرض طويلاً لأشعة الشمس ولذا نجدها قبل غزو الخشب تتحرك في أنفاق طينية طويلة تصنعها الشغالات. ثم إن ناخرات الخشب تشكل أعداداً كبيرة من الحشرات توضع في مجموعات تصنيفية مختلفة ومتعددة، وتضمها صفة أنها كلها تعيش على أخشاب الأشجار طعاماً ومأوى، فالنمل الأبيض (نمل الخشب) على سبيل المثال ليس من النمل ولو أنه يعيش عيشة جماعية في مستعمرات شبيهة بمستعمرات النمل، تقوم على الملك والملكة، والشغالات والناسلات المتساوية العدد تماماً مع الذكور، والجنود الذين لا دور لهم إلا حراسة المستعمرة.

وأنواع **النمل الأبيض** (**Termites**) التي تم التعرف عليها في مختلف بقاع الأرض يصل عددها إلى قرابة ثلاثة آلاف نوع، ينتشر أغلبها في المناطق الاستوائية والمدارية وشبه المدارية والمعتدلة، وتتضاءل أعدادها في اتجاه القطبين.

وتحمل هذه الحشرات في جهازها الهضمي عدداً من الطفيليات من مثل البكتيريا والطلائعيات ـ الحيوانات الأولية وحيدة الخلية الحاملة لنواة محددة ـ التي تتعايش معها لتعينها على هضم المواد الخشبية من السيليلوز واللجنين وتحولها إلى مواد صالحة لطعام هذه الحشرة.

أما الخنافس ذات القرون الطويلة فإن أنثاها تضع حوالي خمسين بيضة في المرة الواحدة، وتضعها في أي كسور أو شقوق أو فتحات في الخشب سواء كان حياً (في جذوع وفروع الأشجار والشجيرات) أو كان ميتاً أي واقعاً منها، أو منشوراً عنها، وعندما يفقس هذا البيض تخرج منه اليرقات لتنخر في الخشب الذي تتغذى على ما تنخره منه بواسطة إنزيمات وخمائر خاصة تفرزها عليه، وتهيئ لها سكناً فيه وإن حاولت أن تبقى قريبة من السطح. وتعيش اليرقات في سراديبها التي حفرتها في داخل الخشب لفترات تتراوح بين السنة والثلاث سنوات إذا كان الخشب رطباً، أما إذا كان الخشب جافاً فقد تبقى اليرقات إلى فترات قد تصل إلى عشرين سنة يكتمل فيها نمو اليرقة إلى الحورية ثم إلى الحشرة الكاملة التي لا تخرج مباشرة لتعاود هذه العملية من جديد إلا في فترتي الربيع والصيف بعد أن تكون قد نخرت ثقوباً بيضاوية تتراوح أقطارها بين السنتيمتر وضعف ذلك، مما قد يؤدي إلى أضرار بليغة بالخشب الذي نخرته وعاشت بداخله. وعندما تخرج الحشرة الكاملة من الأنفاق التي حفرتها في الشجرة التي تطفلت عليها، أو الخشب الجاف الذي عاشت فيه، فإنها لا تبتعد كثيراً عنها فإما أن تعيش تحت قلفها، أو في التربة المحيطة بها، أو على الأزهار المتفتحة من حولها، فتتغذى على حبوب اللقاح التي تجمعها منها.

والأشجار التي تتطفل عليها يرقات الخنافس هي عادة من ذوات الأوراق العريضة مثل أشجار البلوط، والصفصاف، والحور وأشباهها. أما زنابير الخشب فإنها تركز على الأشجار المخروطية وتعرض عن الأشجار ذات الأوراق العريضة بصفة عامة. ومن النمل الأبيض ما يعيش في داخل الأخشاب الرطبة والجافة، وما يحيا في داخل تربة الأرض، مع بناء عدد من الأعشاش فوق سطح الأرض.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾:

من حكمة الله البالغة أنه بعث خاتم أنبيائه ورسله ﷺ في أرض صحراوية يندر فيها النبات والحيوان إلا في بعض الواحات المحدودة، حتى تبقى آيات الأحياء في القرآن الكريم وفي أحاديثه النبوية الشريفة من المعجزات الشاهدة بصدق نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ والناطقة بصدق الوحي الموحى به إليه ـ القرآن الكريم ـ. ومن هذه الآيات قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن دابة الأرض أنها كانت تأكل منسأة سليمان عليه السلام أي عصاته التي كان يتوكأ عليها، وكانت من خشب. وسميت العصاة (منسأة) لأنها يزجر بها ويساق،

وتؤخر بها الغنم وتدفع إذا جاوزت حدود المرعى، والكلمة مستمدة من قولهم (نسأ) البعير أي زجره وساقه، أو أخره ودفعه، و(النسيء) تأخير في الوقت عن زمنه، ومثله (النسيئة) و(النِّساء)؛ و(المنسأ) و(المنسأة) عصا (ينسأ) بها الشيء أي يؤخر ويزجر. وعصاة سليمان كانت بالقطع من الخشب لأن الناس ـ في زمانه ـ لم يكونوا يعرفون مصدراً لصناعة العصي غير الخشب.



وربما لاحظ الناس منذ القدم نخر بعض الحشرات للخشب ـ خاصة في البلاد ذات الكساء الخضري الكثيف ـ أما حقيقة أن تلك الحشرات بالفعل تأكل الخشب وتحيا على مادته السيليلوزية واللجنينية الجافة بإفراز بعض الإنزيمات والخمائر الخاصة عليه فلم تدرك إلا بعد تطور علم الحشرات عبر العقود القليلة الماضية حين بدأ الإنسان يعير هذه المخلوقات الدقيقة اهتمامه حتى وصل عدد الأنواع المعروفة منها اليوم إلى قرابة المليون نوع.

وتقسم الحشرات اليوم ـ كما تقسم بقية المخلوقات الحية ـ حسب طرائق اغتذائها إلى **آكلات النبات، وآكلات اللحوم (اللواحم)**، وآكلات كل من النبات واللحوم (**الحشرات المتنوعة الأكل**) بالإضافة إلى ما يعرف باسم **الحشرات المرمرمة** التي تتغذى على المواد النباتية أو الحيوانية الميتة أو المتحللة مما يساعد على تنظيف البيئة من آثارها المدمرة، وذلك بإتمام تحلل تلك الجيف وتفكيكها إلى مواد تخصب التربة وتغذي النباتات.

ومن الحشرات آكلة النباتات ما يعيش على امتصاص العصارات الغذائية التي تجري في خلايا تلك النباتات، ومنها ما يعيش على أكل أوراق النباتات؛ وتعرف باسم الحشرات مجردة النباتات من أوراقها، ومنها ما يعيش داخل أوراق النباتات الحشرات صانعة الأنفاق في أوراق النباتات، ومنها ما يعيش داخل ثمار النباتات ومحاصيلها المختلفة مثل الحبوب وتعرف باسم آكلات الثمار، آكلات البذور، آكلات الفطر، آكلات الدرنات وغيرها. وهناك الحشرات التي تحيا على قلف الأشجار (حشرات القلف)، ومن الحشرات ما يحفر في الخشب ويتغذى على ما فيه من بقايا المواد السكرية والنشوية في الخلايا الخشبية، وعلى

مكونات تلك الخلايا من المواد السيليولوزية واللجنينية بعد تفكيكها إلى مركباتها الأساسية، وتعرف هذه الحشرات باسم **ناخرات الأخشاب** وهي تنخر في كل أخشاب الأشجار والأخشاب الجافة للحصول على كل من الغذاء والمأوى، ولذلك زودها الله ـ تعالى ـ بالأدوات اللازمة للنخر في الخشب، وبالقدرة الفائقة على هضم ما به من مواد سيليولوزية ولجنينية صعبة التحلل، وذلك بإفراز عدد من الإنزيمات والخمائر القادرة على ذلك، أو بالتعايش مع أعداد من البكتيريا والطلائعيات (الأوليات) التي تنتشر في القنوات الهضمية لتلك الحشرات والتي أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على تحليل المواد السيليولوزية واللجنينية وتحويلها إلى مواد صالحة لتغذية تلك الحشرات الناخرة. وأغلب ناخرات الأخشاب هي من اليرقات التي يتحول الكثير منها إلى الحوريات ثم إلى الحشرات البالغة، بعد فترات متباينة لنموها في داخل الخشب تتراوح بين السنة وأكثر من العشرين من الأعوام. وقد زود الله ـ تعالى ـ ناخرات الخشب بالأدوات اللازمة للنخر سواء كان ذلك من الزوائد الفمية أو آلة وضع البيض في أنثى الحشرة.

ففي حالة زنابير الخشب الكبيرة التي تنخر في الأشجار المخروطية نلاحظ أن الأنثى تستخدم آلة وضع بيضها القوية المسننة مثل المنشار في نشر ثقوب في الخشب الصلب لكي تضع بيضها فيه، وبعد فقس البيض تقوم اليرقات بالتغذية على الخشب فتحفر أنفاقاً يزيد طولها على الثلاثين سنتيمتراً في فترة نموها المتراوحة بين سنتين ونصف إلى ثلاث سنوات، وعند تحول اليرقة إلى عذراء تكون اليرقة قد حفرت لها طريقاً في الخشب يقترب من السطح بحوالي السنتيمتر الواحد فتقوم العذراء بنخره لتخرج على هيئة **زنبور الخشب** الذي تعاود أنثاه الكرة من جديد. ويلزم ليرقات ناخرات الأخشاب ابتلاع كميات كبيرة من الخشب لتحصل منها على الغذاء الكافي لنشاطها ولنموها.

ويرقات ناخرات الأخشاب تشكل جزءاً مهماً من غذاء الطيور المعروفة باسم نقار الخشب الذي ينقر في أخشاب الأشجار المصابة فقط لاحتوائها على يرقات غضة من يرقات الحشرات الناخرة للأخشاب، والتي تتعرف عليها مثل تلك الطيور بوجود الثقوب التي تحدثها، وتراب الخشب الذي تقذف به إلى خارج جحورها بعد أن تهضم ما فيه من مواد غذائية.

وإشارة القرآن الكريم في هذا النص المعجز الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿...إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.. هي أول إشارة في تاريخ البشرية إلى حقيقة أن من

الحشرات ما يعيش على أكل الأخشاب، وهو سبق علمي يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، وحفظه حفظاً كاملاً، في نفس لغة وحيه، على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد بذلك إلى أن يشاء الله ـ تعالى ـ، في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة على تنزله للضياع التام ولأقدار من التحريف لما بقي منها من ذكريات نقلت شفاهاً على مدى قرون بعد موت الرسول ﷺ الذي جاء بها أو رفعه إلى الله ـ تعالى ـ وحينما دونت تم ذلك بأيدي مجهولين في أماكن متفرقة، وفي أزمنة متباعدة، وبلغات مغايرة للغات الوحي، وتعرض ما كتب ـ ولا يزال يتعرض ـ للتحريف والتبديل والتغيير، وللمراجعة والتحرير تلو التحرير مما أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها إلى الدين الحق.

والحشرات ناخرة الخشب ومنها النمل الأبيض تعتبر أخطر الآفات الحشرية حيث تحدث خسائر فادحة بسبب تغذيتها على المواد السيليولوزية واللجنينية للأخشاب المكونة لجذوع الأشجار وجذورها، وأسقف وأبواب وشبابيك المنازل الخشبية، وأعمدة التليفونات، والأثاث، والمفروشات والملابس والورق ومنتجاته، والحبوب المخزونة، ومنها ما ينخر في الثمار والمحاصيل النباتية الحية، وهي في نفس الوقت تلعب دوراً مهماً في التخلص من أكداس النفايات التي تحولها إلى سماد للتربة التي تساعد أيضاً على تهويتها وتحسين كلٍّ من صفاتها الكيميائية والميكانيكية وإثرائها بالمواد العضوية.

وإن كان لفظ (الدابة) يدل على كل شيء يدب وهو جمع للفظة (دابّ) مثل (خائنة) جمع (خائن)، فإن (دابة) كلمة عامة في جميع الحيوانات، وتشمل جمع المذكر والمؤنث معاً، إلا أن تاء التأنيث في الفعل «تأكل منسأته» تدل على أن الذي يبدأ النخر في الخشب هي الإناث من تلك الحشرات الناخرة، وهو سبق علمي آخر لم يكن معروفاً في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية. فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة حفظه على مر الدهور والأعوام، والحمد لله على بعثة خير الأنام: سيدنا محمد بن عبد الله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ٥٤ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ
جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ
وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧

سُورَةُ البَقَرَة

13



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ...﴾

«سورة البقرة، الآية: 57».

13



هذا النص القرآني الكريم جاء في أواخر الخمس الأوّل من سورة «البقرة»، وهي سورة مدنية، وآياتها (286) بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التي أجراها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على يد نبيه موسى عليه السلام حين تعرض شخص من قومه للقتل، ولم يعرف قاتله، فأوحى الله ـ تعالى ـ إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله ثم يموت، وذلك إحقاقاً للحق، وشهادة عملية لله ـ تعالى ـ بالقدرة على إحياء الموتى.

وقد سبق لنا استعراض سورة «البقرة» وتلخيص ما حفلت به من قواعد العبادة، وتشريعات المعاملات ومكارم الأخلاق، وركائز العقيدة، وما حوته من قصص عدد من أنبياء الله السابقين وأممهم، وأوضحنا أن الهدف من هذا القصص هو إعطاء الدروس واستخلاص العبر، ولخصنا كذلك ما اشتملت عليه السورة من الإشارات الكونية المختلفة(1)، ولا أرى داعياً إلى تكرار ذلك في هذا المقام الذي يركز على قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ وما فيه من دلالات علمية، وقبل الوصول إلى ذلك أرى لزاماً عَليَّ استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح هذا النص القرآني الكريم.

(1) وذلك عند شرح الآية (26) من سورة البقرة، ص 164 ـ 173.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 57».

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾، جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض. ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس. وقال الحسن وقتادة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾: كان هذا في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس.... ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو؟ فقال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا.... والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن. فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد....، وأما السلوى فقال ابن عباس: السلوى طائر يشبه السماني كانوا يأكلون منه. وقال قتادة: السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب.... وقوله ـ تعالى ـ : ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا.. فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم. هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات».

- وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً في تفسير هذه الآية الكريمة، وفي تفسير الآية رقم (160) من سورة الأعراف والآية رقم (80) من سورة طه وهما تحملان نفس المعنى. ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا خاصة أن عدداً من هؤلاء المفسرين كان قد تأثر ببعض الإسرائيليات في شرحه.

من الدلالات اللغوية للنص الكريم:

أولاً: في قوله ــ تعالى ــ : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾

1 ـ (**الظل**) ضد الضح وجمعه (ظلال)، وهو أعم من الفيء، لأن (الظل) يقال لكل موضع لا تصل إليه الشمس، بينما يقال الفيء لما زالت عنه الشمس، ولذلك يقال «أفياء حول الظلال»؛ لأن الظل عام والفيء خاص؛ وهو من أساليب إضافة الشيء إلى جنسه لتوكيده و(الظلال): ما نتج من ظل عن السحاب ونحوه مما يحول دون وصول أشعة الشمس. ويوصف (الظل) بأنه (ظليل) إذا كان كثيراً وفائضاً عن الحد المطلوب، ويوصف المكان بأنه (ظليل) إذا كان دائم الظل لا تصله أشعة الشمس، وقد يكنى بذلك عن الرفاهية ورغد العيش.

و(الظلة) بالضم هي سحابة (تظل)، وجمعها (ظلل)، و(المظلة) بالكسر هي كل ما يستظل به من أشعة الشمس أو من وابل المطر، والمكان (المظلل) هو المغمور بالظل. ويقال: (استظل) بالشيء أي استدرى به واحتمى من أشعة الشمس، و(ظلني) الشجر و(أظلني) أي غمرني بظله، وكذلك (ظلتني) الشجرة و(أظلتني) أي غمرتني بظلها. وفي النص القرآني الكريم الذي نحن بصدده يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ أي حميناكم بظل الغمام من أشعة الشمس وحرارتها ووهجها.

ويستعار (الظل) للتعبير عن الحماية والمنعة، أو عن الأمن والرفاهية، فيقال: «أظللني فلان بظله» أي: أدخلني في حمايته وحراسته، ومنعته كأنه ألقى ظله عليّ، ويقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في وصف أصحاب اليمين وهم في جنات النعيم: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ *﴾ «سورة الواقعة، الآيات: 28 ـ 30». أي في نعيم مقيم ورفاهية وأمن دائمين.

ويقال لظلمة الليل على وجه الاستعارة: «ظل الليل» وهو في الحقيقة ظل نصف الأرض الذي يعمه نور النهار ملقى على النصف الآخر للأرض، ولكن بسبب انغماسه في ظلمة الكون يفضل تسميته باسم ظلمة الليل، حيث تلتقي ظلمة ليل الأرض بظلمة الكون. وكذلك يقال: (ظلَّ) يعمل كذا إذا عمله بالنهار دون الليل، وذلك لارتباط النهار بتكون الظل أكثر من الليل لشدة ضوء الشمس إذا قوبل بنور القمر، ويجري الفعل (ظل) و(ظللت) مجرى الفعل (صار) و(صرت) بالنهار.

2 ـ (**الغمام**) جمع (غمامة) وهي السحابة الساترة لضوء الشمس، وهي في الأصل خرقة تشد على أعين الحيوانات العاملة في دوائر محددة مثل البقرة أو الثور الذي يدور في تحريك الساقية، أو توضع على أنف الناقة لحمايتها من غبار الصحراء، ثم استعير لفظ (الغمامة) للسحابة الساترة لضوء الشمس.

ولذلك يقال: (أغمت) السماء و(تغيمت) إذا تلبدت بالغيوم، و(الغم) في الأصل هو ستر الشيء وجمعه (غموم) تقول: (غمه)؛ أي: غطاه (فانغم) أو (غمه) فاغتم، ثم استعير للتعبير عن الكرب فيقال: (غم) و(غمة) أي كرب، وكربة، كما استعير للتعبير عن أي مبهم ملتبس، فيقال: (غم) عليه الخبر؛ أي: أخفي عليه أو استعجم عليه، مثل (أغمي) عليه، ومجازه ضيق وظلمة وهم.

ويقال: (غم) يومنا و(أغم) فهو يوم (غم) إذا كان يأخذ بالنفس من شدة الرطوبة والحر، وليلة (غم) أو (غامة) مثله، ويقال فيها أيضاً ليلة (غمة) و(غمى).

كذلك يقال: (غم) الهلال على الناس إذا ستره عنهم غيم أو غيره فلم ير، وفي ذلك قيل: صمنا للغمى ـ بضم الغين وفتحها ـ إذا غم عليهم الهلال، وسميت الليلة باسم (ليلة الغمى).

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿...وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ...﴾

(**المن**) لغة هو: كل ما يمن الله ـ تعالى ـ به على خلقه من نعمه التي لايبذلون جهداً في سبيل الحصول عليها ولا يصيبهم تعب ولا نصب ولا مشقة، وعلى ذلك فإن أصل (المن) هو وهب النعم، مِنْ (منَّ) الله ـ تعالى ـ عليه؛ أي: أنعم عليه، و(المنان) اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ وجميع أسمائه (حسنى). و(المنة) هي: النعمة الثقيلة، ولذلك يقال: (منَّ) الله سبحانه وتعالى على فلان من خلقه أي أثقله بالنعمة، وهذا لا يكون لغير الله ـ تعالى ـ، ولا يكون إلا بالفعل أي تحقيق النعمة، لا مجرد الحديث عنها ويقال: (امتن) فلان من الخلق على فلان من إخوانه أو معارفه، (أو منّ عليه) أي تحدث بفضله عليه، وهو سلوك مستقبح بين الناس إلا عند كفران النعمة، ولقبح مثل هذا السلوك قيل: المنة تهدم الصنيعة، ولحسن ذكرها عند كفران النعمة قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنة.

وفي قوله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ...﴾ قيل: هو المن الذي كان يسقط على قوم نبي الله موسى عليه السلام سهلاً بلا علاج، على الرغم من كفرهم وعصيانهم وتمردهم على الله ـ تعالى ـ وعلى النبي المرسل إليهم.

وكذا الكمأة التي لا مؤونة فيها ببذر ولا سقي، ولذلك قال فيها المصطفى ﷺ: «**الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين**»[1] وقيل في (المن) الذي أنزل على قوم نبي الله موسى أنه شيء كالطل فيه حلاوة يسقط على الشجر، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقيل في السلوى: إنها الطائر المعروف باسم السماني أو ما يشبهه، وقال بعض المفسرين في (المن والسلوى) إنهما شيء واحد يشير إلى ما أنعم الله ـ تعالى ـ به على هؤلاء القوم الجاحدين ابتلاء لهم، وسماه (مناً) ليمتن به عليهم، وسماه (سلوى)، لأنه كان لهم به التسلي عما كانوا فيه من مشاق، وهم في تيه شبه جزيرة سيناء.

المن والسلوى في كتب الأولين

جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر خروج (من العهد القديم) ما ترجمته: «وإذا مجد الرب قد ظهر في السحاب، فكلم الرب موسى قائلاً: سمعت تذمر بني إسرائيل كلمهم قائلاً: في العشية تأكلون لحماً، وفي الصباح تشبعون خبزاً. وتعلمون أني أنا الرب إلٰهكم».

«فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة، وفي الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيق كالجليد على الأرض. فلما رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بعضهم لبعض ما هو؟ لأنهم لم يعرفوا ما هو، فقال لهم موسى هو: الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا. هذا هو الشيء الذي أمر به الرب، التقطوا منه كل واحد على حسب أكله. عمراً للرأس على عدد نفوسكم تأخذون كل واحد للذين في خيمته. ففعل بنو إسرائيل هكذا والتقطوا بين مكثر ومقلل (والصواب هو: ومُقِلٍّ). ولما كالوا (والصواب: إلتالوا) بالعمر لم يفضل المكثر، والمقلل (والصواب هو: المِقُلّ) لم ينقص. كانوا قد التقطوا كل واحد على حسب أكله. وقال لهم موسى: لا يبق أحد منه إلى الصباح. لكنهم لم يسمعوا لموسى بل أبقى منه أناس إلى الصباح فتولد فيه دود وأنتن. فسخط عليهم موسى. وكانوا يلتقطونه صباحاً فصباحاً كل واحد على حسب أكله. وإذا حميت الشمس كان يذوب».

هذا جزء مما جاء على ذكر هذا الأمر في الترجمة العربية للكتاب المقدس (طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط بيروت، 1985).

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: (الطب الحديث: 3453).

وقد سمى العالم الطبيعي الروماني بليني الكبير (Pliny the elder) الذي عاش في القرن الميلادي الأول (23 م ـ 79 م) تلك المادة الحلوة التي تتجمع على بعض النباتات أو التي تفرزها الحشرات التي تتغذى على العصارة الغذائية لبعض تلك النباتات بأسماء عجيبة مثل: عرق السمٰوات أو لعاب النجوم أو إسهال الهواء.

وكتب جلبرت هوايت (Gilbert White) الذي عاش في القرن الثامن عشر الميلادي (1720م ـ 1793م) في كتابه المعنون: (التاريخ الطبيعي لسيلبورن) ما ترجمته: «هذه المادة الحلوة اللزجة من نوع نباتي كما أمكننا أن نتعلم من النحل الذي ندين له بالشكر، ويمكننا أن نتأكد من أن هذه المادة تسقط بالليل لأنها تشاهد دائماً في الصباح الدافىء الساكن».

وذكر كل من كيربي وسبنس (Kirby & Spence) في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي (1815م) أن هذا السائل الحلو الذي سرعان ما يجف بمجرد تعرضه للجو، والذي ينافس كلاً من السكر وعسل النحل في طعمه الحلو وفي نقائه هو براز حشرة المن الذي يعرف باسم **البراز العسلي** أو **الندوة العسلية** ، والذي تفرزه كثير من الحشرات التي تتغذى على العصارة النباتية للعديد من الأشجار والشجيرات.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

في هذا النص القرآني الكريم يخاطب ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الضالين من قوم موسى عليه السلام وهم في التيه الذي عاقبهم به أربعين سنة في قلب شبه جزيرة سيناء لا يجدون لهم منها مخرجاً، يخاطبهم ربنا ـ سبحانه ـ ممتنًّا عليهم بنعمه وهم العصاة المتمردون على أوامره وأوامر نبيه المرسل لهدايتهم، تلك النعم التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عليهم ابتلاء لهم واختباراً لقدر استجابتهم لأوامره سبحانه وتعالى فيقول لهم:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 57».

وكان من تلك النعم جعل الغمام ظلة لهم من أشعة الشمس ووهجها وحرها وهم في هذا التيه الذي استمر أربعين سنة في شعاب شبه جزيرة سيناء الوعرة القاحلة، الشديدة الحرارة في الصيف.

وكان من تلك النعم إنزال ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ عليهم رحمة من الله ـ تعالى ـ بهم وهم



الخارجون على دينه، العاصون لأوامر نبيه ورسوله، المتذمرون المتمردون، الجاحدون.. بعد كل ما أفاء الله ـ تعالى ـ عليهم من النعم وأكرمهم بالمعجزات منذ لحظة خروجهم من مصر حتى عبدوا العجل من دون الله.

و(**المن** = **Manna**) مادة صمغية حلوة لزجة كالعسل الذي يفرزه نحل العسل، تتجمع على الأشجار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ثم تجف فتتحول إلى مادة بيضاء كالدقيق أو رقائقه الصغيرة التي تكشط من فوق جذوع الشجر وفروعه وأوراقه وتؤكل مباشرة أو تذاب في الماء وتشرب على هيئة شراب حلو المذاق، عال في قيمته الغذائية.

أما (**السلوى**) أو الحجل فهي الطائر المعروف باسم السمان (أو السماني = **Quail Coturnix, coturnix**) وهو من طيور الصيد (القنص) التي تم استئناس بعضها كالدجاج والفراخ الرومية وإن كانت السلوى أصغر حجماً كثيراً، ولم يتم استئناسها بعد... وهي من الطيور المهاجرة التي تتحرك في مواسم محددة من السنة عبر مساحات كبيرة من الأرض. وقد سخر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هجرة أسراب منها للمرور على قوم موسى عليه السلام وهم في أرض التيه بشبه جزيرة سيناء حتى يصطادوا منها ويأكلوا، ولحمه من أطيب لحوم الطير على الإطلاق.



وكان ذلك من طيبات رزق الله الذي أفاء به عليهم ابتلاءً لهم، واختباراً لصدق إيمانهم، ولكن هؤلاء العصاة الجاحدين سقطوا في هذا الاختبار الإلٰهي لكفرهم بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم، ورفضهم لها، ومطالبتهم لنبيهم باستبدال تلك النعم بما تعودوا عليه من محاصيل مصر ﴿... مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا...﴾ «سورة البقرة، الآية: 61».

وتؤكد الآية الكريمة أن هذا التمرد والعصيان والكفر لن يضير الله ـ تعالى ـ بشيء لأنه قادر على إفنائهم وإبادتهم وعلى الإتيان بخلق أفضل منهم، ولكنهم يظلمون أنفسهم؛ لأن عاقبة تمردهم وعصيانهم وكفرهم واقعة عليهم لا محالة تدميراً من الله ـ تعالى ـ في الدنيا، وعذاباً شديداً في الآخرة إن شاء الله لهم ولأمثالهم وأنسالهم من العصاة الفاجرين الذين يغرقون الأرض في بحار من الدم والأشلاء والدمار والخراب في كل عصر وفي كل حين، خاصة في زمن الفتن الذي نعيشه في أيامنا الراهنة الحزينة...!!!

ومع تسليمنا الكامل بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادر على أن يقول للشيء كن فيكون، وأن إنزال ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ على العصاة من قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان معجزة من معجزات الله القادر على كل شيء، وأن العلم المكتسب لا يستطيع تفسير المعجزات الإلٰهية لأنها تخرق السنن، وتقطع قوانين الأرض والسماء، إلا أن محاولة فهم النص القرآني الكريم الذي نحن

بصدده في إطار تلك السنن والنواميس الإلٰهية لا تشكل أدنى قدر من الحرج الشرعي، وكذلك إبراز جوانب الإعجاز العلمي في الجمع بين ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰٓ﴾ كغذاء متكامل للإنسان في صحراء شبه جزيرة سيناء يشكل شهادة صدق على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، ولذلك فإن جميع الآيات فيه ـ وفي جملتها الآية التي نحن بصددها ـ تنطق بجلال الربوبية، وبكمال الحكمة الإلٰهية، وبشمول العلم الإلٰهي الذي يتَّضح بمقارنة هذه الآية الكريمة بكل إشارة سابقة أو لاحقة لرواية تلك الحادثة التاريخية التي لم يكن لسيدنا محمد ﷺ وسيلة لمعرفتها غير وحي السماء، وذلك لأن وصف هذه الحادثة في البقايا المتناثرة من الكتابات المنحولة عند أهل الكتاب قد شابها ما توصف به كل الكتابات البشريةِ من النقص والاضطراب والبعد عن الكمال.

(المن) في المعارف الإنسانية:

سبق أن أشرنا إلى أن ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ المعروف للإنسان هو مادة صمغية حلوة المذاق كعسل النحل، تتجمَّع في هيئة الدقيق أو الرقائق الدقيقة على الأجزاء المختلفة من بعض الأشجار مثل أشجار الأثل والطرفة المنتشرة في الصحارى العربية، أو على غير الأشجار من الشجيرات والنباتات المختلفة حتى العشبية منها.

وقد يتكون (المن) نتيجة لعملية نزِّ العصارة الغذائية للنبات إلى أسطحه الخارجية وجفافها بتبخر جزء كبير من محتواها المائي، وقد يكون هذا النزيف للعصارة الغذائية ذاتياً أو ناتجاً عن جروح في جسم النبات تحدثها مجموعات الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارات الغذائية لتلك النباتات.

كذلك قد تتكون هذه المادة الصمغية الحلوة المذاق المعروفة باسم **(منّ السماء)** نتيجة إخراج بعض هذه الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارات الغذائية لبعض النباتات، فتأخذ منها حاجتها وتفرز الباقي على هيئة ما يعرف باسم **(البراز العسلي)** أو **(براز حشرة المن)** أو **(الندوة العسلية)**، وبجفافه يتحول إلى هذه المادة الصمغية الحلوة المذاق والمعروفة باسم **(منّ السماء)** (Manna from Heaven) والتي سميت الحشرة باسمها.

وهناك أعداد كبيرة من الحشرات التي تتغذى على العصارات الغذائية للنباتات، وذلك

باختراق أنسجة تلك النباتات وامتصاص أقدار مختلفة من عصارتها الغذائية، وتتبع معظم هذه الحشرات رتبة تعرف باسم (نصفية الأجنحة) وعائلة تعرف باسم عائلة بق النبات (Family Aphididae) التي منها حشرة المن (Aphid)، وهي حشرة دقيقة الحجم طرية الملمس، تعيش في أسراب تقدر أعدادها بالآلاف، ويتراوح طول الحشرة البالغة منها بين3، 5 مليمترات، ويقدر عدد حشرات المن في المتر المربع من الأرض بنحو مائة ألف حشرة.

وقد زوَّد الله الخالق ﷻ هذه الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارات الغذائية للنباتات بزوائد فمية ثاقبة/ ماصة تتناسب مع طريقة تغذيتها التي تعتمد أساساً على اختراق أنسجة النباتات وامتصاص قدر من عصاراتها الغذائية، وهذه الزوائد الفمية الثاقبة/ الماصة تتكون من أربعة فكوك مزودة بخناجر إبرية دقيقة جداً يستقر كل منها في ميزاب خاص به ولا يبرز منه إلا عند الاستعمال في ثقب أنسجة النباتات وامتصاص عصاراتها الغذائية.

وتعيش أسراب حشرة المنّ عادة على الأسطح السفلى لأوراق وأفرع النباتات التي تتطفل عليها، وتتركز عادة عند القمة النامية للنبات حيث تكون غضة وسهلة الاختراق، فترسل الإبر الثاقبة الدقيقة في فكيها العلويين للقيام بعملية الثقب والاختراق تلك، ثم ترسل الإبر الماصة الدقيقة في فكيها السفليين عبر الثقوب المتكونة للقيام بعملية الامتصاص من العصارة الغذائية للنبات.

وتنتقل الحشرة بعمليات الثقب والامتصاص من نقطة إلى أخرى على أسطح أوراق، وأفرع وسيقان النباتات مما قد يتسبب في أضرار بالغة لتلك النباتات خاصة إذا كانت من النباتات الصغيرة، فتسترخي أوراقها ثم تتجعد، ويتحول لونها إلى الاصفرار ثم إلى السواد، ومن بعد تبدأ بالتساقط، وقد تؤدي هذه العملية إلى ذبول النبتة، ووقف نموها بالكامل حتى تموت، ويحدث ذلك عادة في حالة النباتات الصغيرة، أما الأشجار فقد لا تتأثر بعملية التطفل تلك إلا في بعض الحالات الاستثنائية.

وموت النبات في حالة تعرضه لتطفل الحشرات الماصة لعصارته الغذائية ليس مقصوراً على سحب قدر من تلك العصارة، ولكن بسبب الفيروسات التي يمكن أن تنقلها تلك الحشرات من نبات إلى آخر أثناء قيامها بعملية التطفل على تلك النباتات، خاصة أن هذه الحشرات المتطفلة تنفث جزءاً من لعابها على العصارة الغذائية للنبات قبل امتصاصها وذلك بهدف هضمها، فإذا كانت قطرات اللعاب حاملة لعدد من فيروسات الأمراض فإنها تغرسها

في الحزم الوعائية الحاملة للعصارة الغذائية وتتحرك منها إلى جميع أجزاء النبات فتدمره.

وقد أدت هذه الفيروسات التي تحملها الحشرات الماصة للعصارات الغذائية للنبات - ولا تزال تؤدي - إلى تدمير العديد من المحاصيل الزراعية المهمة مثل قصب السكر، البنجر، البطاطس، وغيرها مما تتهم حشرة المن بنقل فيروسات الأمراض إليها.

وبعد سحب كميات كبيرة من العصارات الغذائية للنباتات المختلفة تقوم حشرة المن باستهلاك جزء مما مصته من تلك العصارات في توليد الطاقة اللازمة لنشاطها، وفي بناء خلايا جسدها وإعادة بناء ما يموت منها، ثم تقوم بإفراز ما يزيد على حاجتها على هيئة تلك المادة البيضاء اللزجة الحلوة المذاق والمعروفة باسم **(منّ السماء)** أو **الندوة العسلية**. وتقوم الحشرات بإسقاط إفرازاتها تلك على أوراق، وفروع وجذوع الأشجار والنباتات الأخرى التي تتطفل عليها بالليل على هيئة قطرات من سائل شمعي أو صمغي رائق سرعان ما يفقد ما به من ماء فيتجمد ويبدو في الصباح الدافئ الساكن على هيئة دقيق أو رقائق المن الجافة، وقد تتساقط قطرات من هذا السائل الحلو على الأرض المحيطة بالنبات الذي يتعرض لتطفل حشرة المنّ فتشكل مصدراً من مصادر الغذاء الميسر للعديد من الحشرات الأخرى مثل النمل والنحل والذباب، مما يجعل تلك الحشرات تتآخى مع حشرة المنّ لكي تنال جزءاً من إفرازها العسلي، كما يمكن أن ينمو على هذا السائل العسلي أيضاً عديد من الفطريات والطحالب فيتغير لونه إلى ظلال داكنة حتى السواد. كذلك قد يؤدي تقاطر العصارة الغذائية على الأرض إلى خصوبة التربة، كما قد تسيل تلك العصارة نتيجة للثقوب الدقيقة والعديدة التي تحدثها حشرات بق النبات (مثل المن) في أنسجة النباتات، وسرعان ما تتجمد تلك القطرات على هيئة رقائق بيضاء جافة نتيجة لفقد بعض محتواها من الماء، وهذه الرقائق الدقيقة التي عرفت تجاوزاً باسم منّ السماء حلوة المذاق لاحتوائها على نسب عالية من السكريات مثل سكر العنب (الجلوكوز)، وسكر الفواكه (الفركتوز) بالإضافة إلى سكر خاص يعرف باسم سكر المن (المانوز) وإلى عدد من الكربوهيدرات الأخرى، وكلها مستساغ الطعم وسهل الهضم والامتصاص، وله قيمة غذائية كبيرة ولذلك يصلح المن غذاءً جيداً للإنسان، كما يصلح لعدد من الأغراض الطبية العلاجية، أو لبعض الصناعات الغذائية الخاصة.

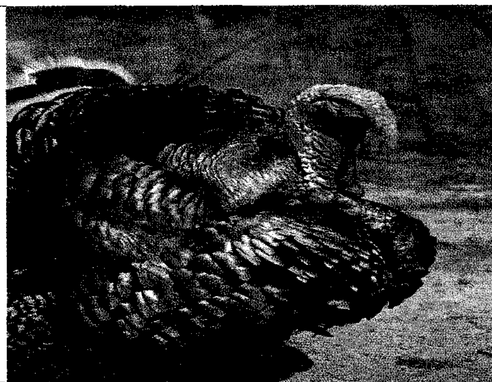
ولسنا ندري إن كان هذا هو المن الذي كان قوم نبي الله موسى عليه السلام يجمعونه من فوق

شجر الأثل المنتشر في شبه جزيرة سيناء أم غيره، خاصة أن رسول الله ﷺ وصف الكمأة في أحد أحاديثه الشريفة على أنها من المن فقال ﷺ: «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين**»[1] و(الكمأة) واحدها (كمء) وهي درنة من الفطريات الجذرية التي تنمو تحت الأرض بالتكافل مع جذور عدد من النباتات الخاصة التي تتعايش معها إلى عمق يصل إلى ثلاثين سنتيمتراً تحت سطح الأرض. وتنمو الكمأة في جماعات مكونة من عشر إلى عشرين درنة في الموقع الواحد من التربة، وهذه الدرنات كروية أو شبه كروية، لحمية الملمس، رخوة ويتدرج لونها من الأبيض إلى الأسود مروراً بألوان الرمادي والبني، وتتميز برائحتها النفاذة وقيمتها الغذائية العالية، وقد سميت بهذا الاسم لاستتارها بالتربة حتى تنفطر عنها، ومعناها «المكتومة» لأن العرب تقول: كمأ فلان الشهادة إذا كتمها. وتنمو (الكمأة) في صحارى الوطنين العربي والإسلامي من موريتانيا غرباً إلى أواسط آسيا شرقاً في بيئات تتراوح بين الرملية، والحصوية، والحجرية، ويزدهر نموها عادة بعد مواسم العواصف الرعدية، ومن هنا أطلق عليها البدو اسم نبات الرعد.

وللكمأة أنواعها المتعددة التي تختلف في أشكال وألوان درناتها، وفي طبيعة الأرض التي تنمو عليها، وأنواع جذور النباتات التي تتعايش معها، والأعماق التي تتواجد فيها. وأكثر أنواعها انتشاراً ينمو في الطبقة السطحية من التربة، ويدرك عن طريق تشققاتها في اتجاهين عموديين وقت نضج الدرنات، فيبادر أهل الصحراء بجمعها. ولكن إذا لم تجمع فإن هذه الدرنات سرعان ما يتكون بداخلها أبواغ ـ واحدها بوغ أو بوغاء ـ على هيئة الدقائق الترابية الناعمة جداً والتي تتطاير في الجو إذا مست لتناهي مكوناتها في الدقة، وبانفجار كيس الأبواغ تنتشر محتوياته في التربة وتكمن فيها إلى موسم المطر (في حدود أواخر شهر أكتوبر/ تشرين الأول الذي يتميز بالأمطار الرعدية المصاحبة للسحب الركامية)، وعند سقوط هذه الأمطار الرعدية الغنية بأكاسيد النيتروجين على التربة فإنها تكوّن العديد من المخصبات للتربة من النترات التي تتغذى عليها الأبواغ بعد أن تستيقظ من سباتها الطويل، وتتحول إلى خيوط فطرية دقيقة تتحرك إلى جذور النباتات الممتدة في داخل التربة التي تتواجد الأبواغ فيها، فتخترقها وتنفذ ـ بتقدير الله تعالى ـ إلى داخل أنسجة تلك الجذور النباتية متطفلة عليها في غذائها حتى يكتمل نموها على هيئة الدرنات الكاملة.

---

(1) تقدَّم تخريجه.





والكمأة مصدر مهم جداً للبروتينات النباتية بين جميع نباتات الصحراء، وتحتوي درناتها على 77٪ من وزنها ماء، 23٪ مواد صلبة منها 13.8٪ كربوهيدرات، 5.75٪ دهون ومواد بروتينية أخرى، والباقي (3.45٪) يبقى على هيئة رماد بعد حرق درنة الكمأة يحتوي على العديد من عناصر الأرض الفلزية واللافلزية. وقد تم التعرف على سبعة عشر حمضاً من الأحماض الأمينية المهمة في بروتينات الكمأة، وعلى عدد من الفيتامينات أهمها فيتامين أ.

وفي وصف رسول الله ﷺ للكمأة بأنها من المن تعبير عن أنها تنبت بفضل من الله ومنّه، لأنها لا تزرع، ولا تستزرع، ولا تحتاج إلى مؤونة بذور وبذرها أو سقي وعزق، ولا تحتاج من الإنسان إلى شيء من الرعاية أو التعب والنصب سوى ما يبذله في جمعها ثمرة غضة ناضجة، ومن هنا كان وصفها بالمن لأنها تنبت بفضل من الله ومنّه. وبالإضافة إلى قيمتها الغذائية العالية فإن رسول الله ﷺ أضاف في وصفها أن ماءها شفاء للعين، وانطلاقاً من هذا الحديث الشريف كان المسلمون يغلونها في الماء ثم يبردونه، ويكتحلون أو يتقطرون به. وقد قام أحد كبار أطباء العيون المسلمين المعاصرين؛ وهو الأخ الكريم الدكتور المعتز المرزوقي بإثبات أن ماء الكمأة يمنع حدوث التليف في حالات أمراض العيون المعروفة باسم التراكوما، والرمد الحبيبي، والرمد الربيعي وكلها قد يفضي إلى فقدان البصر بسبب تليف قرنية العين، ويقلل ماء الكمأة من حدوث مثل هذا التليف بشكل ملحوظ تصديقاً لنبوءة المصطفى ﷺ.

وسواء كان المقصود بالمن تلك الإفرازات الصمغية/ السكرية الحلوة المذاق التي تفرزها بعض النباتات الصحراوية مثل الأثل أو الطرفة، والتي تسيل منها على هيئة قطرات

من عصاراتها الغذائية بطريقة فطرية، أو نتيجة لثقبها بواسطة أنواع خاصة من الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارات الغذائية لتلك النباتات، ثم تجف بعد سيلانها على أسطح الأجزاء النباتية المختلفة بسبب فقدها لمكوناتها المائية متحولة إلى تلك التجمعات الحلوة المعروفة باسم منّ السماء، أو كانت تلك التجمعات السكرية ناتجة عن إفرازات الحشرات التي تتغذى على العصارة النباتية من مثل حشرة المن (أو بق النباتات) فتستهلك جزءاً منها وتفرز ما يزيد على حاجتها على هيئة تلك المادة السكرية، أو أن المقصود بذلك (الكمأة) وما يشبهها من أنواع الرزق الذي يسوقه الله سبحانه وتعالى إلى من يشاء من عباده على غير جهد منه سوى جمعه؛ لأن (المن) هو اسم للعطاء الرباني بصفة عامة، فإن الجمع بين (المن والسلوى) في النص القرآني الكريم الذي نحن بصدده يرجح المعنى الأول على أنه رزق نباتي ساقه الخالق سبحانه وتعالى لقوم موسى وهم الجاحدون لنعمه المرتدون عن عبادته إلى عبادة العجل، والمنكرون لأفضاله وكراماته ومعجزاته، والمتمردون على رسوله إليهم ليجمعوه ويأكلوه وهم في التيه بشبه جزيرة سيناء أقرب إلى الهلاك والضياع من النجاة إلى بر الأمان.

والجمع بين ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ بهذا المعنى هو جمع بين الكربوهيدرات النباتية بما فيها من سكريات ونشويات وغيرها ممثلة في (المن) وبين البروتينات الحيوانية ممثلة في (السلوى)، وكلاهما لازم لإنتاج الطاقة ولبناء خلايا جسم الإنسان. هذا بالإضافة إلى أن البروتينات المستمدة من لحوم الطيور مثل السلوى (طير السمان أو السماني) هي أيسر في الهضم وأفضل لجسم الإنسان من تلك المستمدة من لحوم الأنعام، وهي أيضاً أفضل في ذلك من بروتينات البقول النباتية من حيث سهولة هضمها وتمثيلها واستفادة جسم الإنسان منها. ولذلك جاء قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 61».

وواضح المعنى أن الأدنى هو: البقل، والقثاء والفوم والعدس والبصل، وأن الذي هو

خير هو ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾، والبقل يشمل عدداً من نباتات المحاصيل مثل الفول، البازلاء، الفاصوليا، اللوبيا، الحمص، الفول السوداني، فول الصويا، الحلبة، الترمس، وغيرها، والقثاء ثمرة من العائلة القرعية التي تشمل الخيار، الكوسة، القرع العسلي، البطيخ، الشمام، والقاوون، وغيرها. أما (الفوم) فقد قيل فيه أنه الحنطة (وتشمل غيرها من الحبوب التي تخبز من مثل الذرة والشعير أو أنه الثوم، والقول الأول أصح، والعدس من البقول وخصص بالاسم لقيمته الغذائية وأهميته الخصوصية، والبصل من العائلة الزنبقية وتشمل بالإضافة إلى البصل: الثوم، والكرات البلدي، والكرات أبوشوشة وغيرها.

وفضل البروتينات المستمدة من لحوم الطيور على تلك المستمدة من كل من لحوم الأنعام ومن البقول وكذلك فضل السكريات وغيرها من الكربوهيدرات المستمدة مِنْ منّ السماء على مثيلاتها في المحاصيل النباتية من الأمور التي لم تدرك إلا في القرن العشرين، والإشارة إليها في كتاب الله الذي أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين يعتبر من الأدلة العلمية على صدق القرآن الكريم، وصدق الوحي الذي تلقاه خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ وعلى صدق نبوته ورسالته، هذا فضلاً عن الإنباء بدقة بالغة عن حدث تاريخي لم يكن لأحد من الأميين ولا القادرين على القراءة والكتابة في الجزيرة العربية إلمام به، حتى من كان لديهم شيء من إلمام تضاربت أقوالهم في وصف هذه الواقعة تضارباً كبيراً ولا يزال هذا التضارب واضحاً فيما بقي من آثارهم إلى يومنا الراهن. فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على بعثة خير الأنام، وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله الذي أكمل الله سبحانه وتعالى ببعثته الدين، وأتم نعمه على خلقه والتي كان من أجلِّها تعهد الله الخالق بحفظ رسالته الخاتمة حفظاً كاملاً بنفس لغة وحيها حتى تكون شاهدة على الناس أجمعين إلى يوم الدين، وما ذلك على الله بعزيز، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ
ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ**
ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ
قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن
كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ...﴾

«سورة الأعراف، الآية: 133».

14



هذا النص القرآني الكريم جاء في أوائل الثلث الأخير من سورة الأعراف، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (206) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، وأطول السور المكية على الإطلاق، وأول سور القرآن الكريم تعرضاً بشيء من التفصيل لقصص عدد من الأنبياء والمرسلين السابقين لبعثة خاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ. وقد سميت السورة بهذا الاسم لوجود الإشارة فيها إلى الأعراف، وهي أسوار مضروبة بين الجنة والنار للحيلولة بين أهليهما، تكريماً لأهل الجنة وامتهاناً لأهل النار.

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول العقيدة الإسلامية القائمة على أساس من التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولاصاحبة ولا ولد؛ والتسليم الكامل بعبودية جميع الخلق لله سبحانه وتعالى وحده، والإيمان الصادق بوحي السماء، والطاعة التامة لأوامر الله المنزلة على فترة من الرسل والتي تكاملت في القرآن الكريم وفي سنة النبي الخاتم ﷺ.

وهذه العقيدة الإسلامية التي تشكل صلب الدين الذي يرتضيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده ولا يرتضي منهم ديناً سواه علمها ربنا سبحانه وتعالى لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم أنزلها على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله (120،000 نبي وثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً)، وأكملها وأتمها وحفظها في الرسالة الخاتمة التي أنزلها على خاتم أنبيائه ورسله، ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ ولذلك بعثه شاهداً ومبشراً ونذيراً للناس أجمعين إلى يوم الدين، وتعهد بحفظ رسالته في نفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ فحفظت على مدى أربعة

عشر قرناً أو يزيد، وسوف تبقى محفوظة إلى قيام الساعة تحقيقاً لوعد الله الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9».

وأبرزت سورة «الأعراف» أزلية عقيدة التوحيد في ردود عدد من أنبياء الله ورسله على أقوامهم بالقول السديد: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. والتي ترددت أربع مرات في هذه السورة الكريمة على لسان كلٍّ من نوح، وهود، وصالح، وشعيب ـ على نبينا وعليهم وعلى جميع أنبياء الله السلام ـ، وأتبعت هذه الدعوة المباركة في كل مرة بتحذير أو تقريع شديد، وذلك من مثل قول نوح عليه السلام لقومه:

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 59».

وإلى قول نبي الله هود لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 65».

وإلى قول كلٍّ من صالح وشعيب عليهما السلام إلى قوميهما:... ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «سورة الأعراف: الآيتان: 73 و85».

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «الأعراف»:

1 ـ الإيمان بالقرآن الكريم وحياً خاتماً منزلاً من عند الله ـ تعالى ـ على خاتم أنبيائه ورسله، وضرورة الدعوة إلى الإيمان به، والإنذار من عاقبة التنكر له، أو محاولة إنكاره، وتحمل كل حرج في سبيل ذلك لأنه يمثل مواجهة كل صور الباطل المنتشرة في أرجاء الأرض بالحق الوحيد الذي لا يرتضي ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده ديناً سواه، ومقابلة كل صور الكفر، والشرك، والضلال، والظلم، والفساد، والطغيان، بالتوحيد الخالص لله، وخشيته وتقواه، واستبدال العديد من النظم الجائرة، والأوضاع الفاسدة، والانحرافات عن منهج الله في مجتمعات الناس بإقامة عدل الله في الأرض، وتأسيس القواعد لمراقبته وتقواه.

2 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ منزه عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

3 ـ اليقين بما أنزل الله ـ تعالى ـ بالعاصين من أفراد الأمم السابقة من مختلف صور العقاب المذكورة في محكم كتابه، والتسليم بحتمية مساءلة المرسلين والمرسَل إليهم.

4 ـ التصديق بحتمية البعث والحساب والجزاء في الآخرة، ثم الخلود فيها إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

5 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ مستحق للشكر الدائم على عظيم نعمائه، وأن من صور هذا الشكر الخضوع له بالطاعة وبالعبادة كما أمر.

6 ـ الإيمان بحقيقة الخلق، وبأن الله ـ تعالى ـ هو الخالق البارىء المصور، والتسليم بكرامة الإنسان ما دام مطيعاً لأوامر ربه، واليقين بعداوة الشيطان للإنسان ومحاولة غوايته كما فعل مع كل من أبينا آدم وأمنا حواء، وبأن آدم عليه السلام قد تاب وأناب، وكذلك أمنا حواء وأن الله ـ تعالى ـ قد قبل توبتهما، وبأن أحداً من ذريتهما لا يحمل شيئاً من وزرهما، على الرغم من تخرص المتخرصين، وزعم بعض الجهلة من المشركين، والتأكيد على أن الإنسان مطالب دوماً بمعصية الشيطان وبالحذر من غوايته.

7 ـ اليقين بأن الله سبحانه وتعالى قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، كما حرم الشرك به، وأن يقول العباد على الله ـ تعالى ـ ما لا يعلمون، وحرم الإسراف وغيره من صور الإفساد في الأرض.

8 ـ التسليم بأن الآجال محددة، وأنه لا يستطيع أحد من المخلوقين تغييرها.

9 ـ الإيمان بأنه من اتقى وأصلح من عباد الله المكلفين فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن من كذب منهم بآيات الله واستكبر عنها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، لأن ذلك من أعظم صور الظلم للنفس.

10 ـ الإيمان بما جاء في كتاب الله الخاتم من وصف لأحوال كلٍّ من أهل الجنة وأهل النار.

11 ـ اليقين بأن دعاء الله ـ تعالى ـ تضرعاً وخفية من أعظم العبادات قبولاً من الله.

12 ـ الإيمان بجميع رسل الله ورسالاته دون أدنى تفريق أو تمييز، واليقين بوحدة كل تلك الرسالات التي دعت الخلق إلى توحيد الخالق ﷻ، وإلى الإيمان بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأن العاقبة للمتقين.

13 ـ التسليم بأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مرسل للناس جميعاً، وأن ذكره قد جاء في كتب الأولين من أهل الكتاب، وإن أنكره المنكرون، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞﴾ «سورة الأعراف، الآيتان: 157، 158».

14 ـ الإيمان بأن لله الأسماء الحسنى التي لا يجوز أن يدعى إلا بها، وأن الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون.

15 ـ اليقين بأن الساعة علمها عند الله ـ تعالى ـ وحده، لا يعلمه إلا هو، وأنها ثقلت في السمٰوات والأرض، وأنها لا تأتي الناس إلا بغتة.

16 ـ الإيمان بأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، وأنهم يسبحونه وله يسجدون.

من الإشارات العلمية في النص الكريم:

جاء في سورة «الأعراف» عدد كبير من الآيات الكونية والتاريخية التي يمكن إيجاز دلالاتها فيما يلي:

1 ـ الإشارة إلى فجائية العقاب الإلٰهي (بأس الله) كما يتضح من قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 4».

ويتأكَّد نفس المعنى في الآيات 97، 99 من نفس السورة.

2 ـ التأكيد على عملية التصوير بعد الخلق وفي ذلك يقول ربنا ـ عز من قائل ـ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 11».

3 ـ وصف خلق الجن من نار وخلق الإنس من طين:.. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 12».

4 ـ تأكيد حقيقة العداوة بين كل من الشيطان والإنسان، وإلى مرحلية وجودهما على الأرض وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *﴾ «سورة الأعراف، الآيتان: 24، 25».

5 ـ الإشارة إلى السرعة الفائقة التي كانت الأرض تدور بها حول محورها أمام الشمس في بدء الخلق، وإلى أن جميع أجرام السماء من مثل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله الذي له الخلق والأمر وفي ذلك يقول ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 54».

6 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يرسل الرياح، ويكوّن السحب وينزل المطر، ويخرج النبت والشجر والثمر، وأنه ـ تعالى ـ سوف يخرج الموتى بنفس طريقة إخراج النبت من الأرض وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 57».

7 ـ الإشارة إلى أن البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، وأن الذي خبث لا يخرج إلا نكداً (الآية 58 من سورة الأعراف).

8 ـ ذكر عدد من الأنبياء والمرسلين السابقين على بعثة خاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وعرض خلاصة دعوتهم إلى أقوامهم، وتفاعل هؤلاء الأقوام مع تلك الدعوة، ووصف عدد من المعجزات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها أنبيائه، ورسله، واستعراض عدد من صور العقاب الذي أنزله الله ـ تعالى ـ بالكفار والمشركين من تلك الأقوام، والكشوف الأثرية المتتالية تؤكِّد صدق القرآن الكريم في كل ما جاء به عن ذلك.

9 ـ التأكيد على أن الطبع على القلوب يوقف السمع.

10 ـ وصف العذاب الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فرعون مصر وآله وكان فيه الطوفان والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وهو عذاب لا يقوى أحد من الخلق على مقاومته إلا ما شاء الله ـ تعالى ـ.

11 ـ الإشارة إلى أن للأرض عدداً من المشارق والمغارب.

12 ـ ذكر تظليل قوم موسى بالغمام، وهم في التيه ضائعون في قلب شبه جزيرة سيناء، والإشارة إلى إنزال المن والسلوى عليهم.

13 ـ ذكر معجزة مسخ عدد من منافقي ومشركي وكفار بني إسرائيل إلى قردة وخنازير.

14 ـ الإشارة إلى إذلال عصاة بني إسرائيل عبر التاريخ ـ وإلى يوم القيامة ـ، بواسطة من يسومهم سوء العذاب عقاباً لهم على كفرهم وشركهم وإفسادهم في الأرض والله سريع العقاب وهو الغفور الرحيم لمن تاب وأناب.

15 ـ التأكيد على تحريف اليهود للتوراة التي جاءهم بها موسى عليه السلام وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 169».

16 ـ الإشارة إلى حقيقة من حقائق علم الوراثة وهي خلق جميع البشر من نفس واحدة. وجعل زوجها منها، وتكدس الشيفرات الوراثية للبشرية كلها في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأن الله ـ تعالى ـ قد أشهد تلك الذرية الآدمية وهي في عالم الذر بحقائق الربوبية والألوهية والوحدانية المنزهة عن كل وصف لا يليق بجلال الله.

17 ـ دعوة الناس جميعاً إلى النظر في ملكوت السمٰوات والأرض، والتعرف على خلق الله سبحانه وتعالى واستخلاص العبر من ذلك.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية عشرة والتي جاءت في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة من سورة الأعراف، وقبل التعرض لما جاء فيها من دلالات علمية أرى ضرورة الاستعراض السريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 133».

- ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ عن ابن عباس: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وعنه: هو كثرة الموت، وقال مجاهد: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الماء والطاعون، وأما الجراد فمعروف مشهور.. وأما القُمَّل فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة...».

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره، خاصة وأن أغلبهم كان قد استند في تفسير هذا النص القرآني المعجز على شيء من الإسرائيليات ومن الروايات المنقولة عن أهل الكتاب والتي لا سند لها، ولا أصل ولا دليل يدعمها.

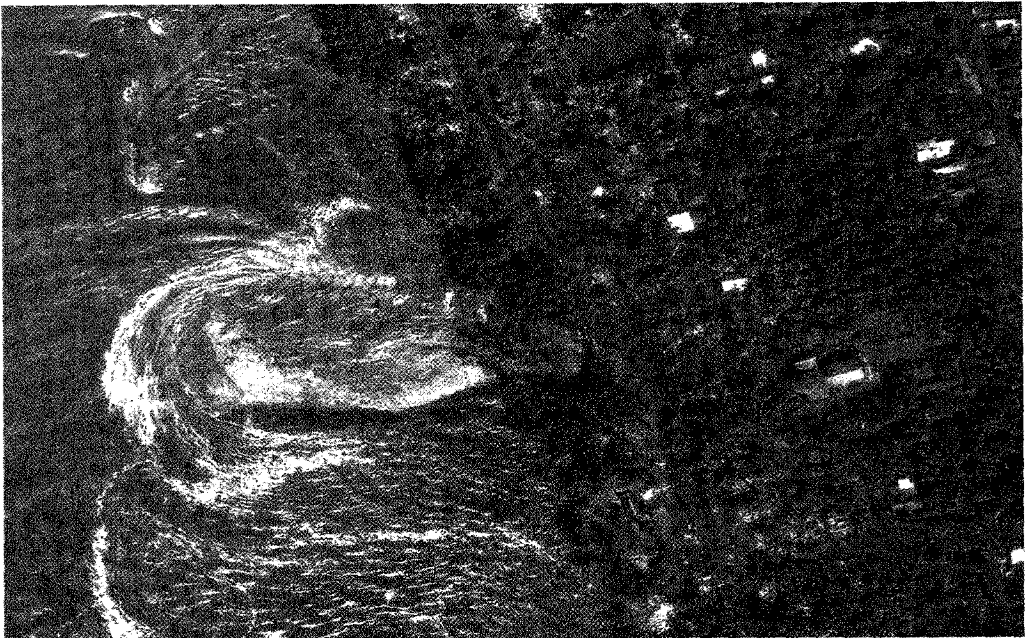
أولاً: الطوفان:

الطوفان كل حادثة تحيط بالإنسان وصار متعارفاً في الماء المتناهي في الكثرة سواء كان هذا الماء بسبب الماء الغالب الذي يغشى كل شيء فيدمره تدميراً كما يحدث في حالات السيول الجارفة أو فيضانات الأنهار المغرقة أو انصهار الجليد، أو تفجر الماء من تحت سطح الأرض أو طغيان البحار؛ وذلك لأن الطوفان الذي أصاب قوم نوح كان بسبب ماء كلٍّ من الأرض والسماء، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 14».

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «سورة هود، الآية: 44».





ولسنا ندري على وجه التحديد أسباب الطوفان الذي أرسله الله ـ تعالى ـ على قوم فرعون، فلم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ شيئاً عنها، ونرى أن من الواجب الوقوف عند حدود النص القرآني ما دمنا لم نجد في السنة المطهرة تفسيراً له، وذلك تجنباً للوقوع في الإسرائيليات التي لا سند لها. وأغلب الظن هنا أن السبب في طوفان قوم فرعون كان كثرة الأمطار المغرقة، والسيول الجارفة التي أتلفت الزروع والأشجار ودمرت المساكن والمنشآت والطرقات، وأدت إلى فيضان النيل الذي ساعد في هذا الإتلاف والتدمير. وذلك لأنه لا يوجد دليل من الصخور الرسوبية أو الرسوبيات يشير إلى طغيان البحر الأبيض المتوسط في ذلك الزمن على أرض مصر، ولا يوجد أثر لتفجر الماء من تحت سطح الأرض، ولم تكن أرض مصر مكسوة بالجليد إلا في أزمنة غابرة تمتد إلى الفترة بين500 مليون سنة مضت، و400 مليون سنة مضت على وجه التقريب (في الفترة الزمنية الفاصلة بين العصرين الأوردوفيشي والسيليوري). وقد وردت روايات شتى في شأن النص القرآني الذي نحن بصدده رواها الإمام الطبري في تفسيره، وفي كتابه عن التاريخ، ولكن يبدو أنه على روعة الجهد الذي بذله قد اعتمد في ذلك على عدد غير قليل من الإسرائيليات.

ثانياً: الجراد (Locusts):

(الجراد) اسم جنس لمجموعة من الحشرات المستقيمة الأجنحة، والتي تجمع في رتبة بهذا الاسم: رتبة مستقيمات الأجنحة = (Orthoptera)، وتضم بالإضافة إلى الجراد مجموعة كبيرة من الحشرات منها **نطاط الحشائش، والحفار، والصرصار (الصرصور)** وغيرها.

وواحدة الجراد (الجرادة) وهو لفظ يطلق على كل من الأنثى والذكر، فيقال أنثى الجرادة، وذكر الجرادة، كما يقال ذكر الجراد وأنثى الجراد.

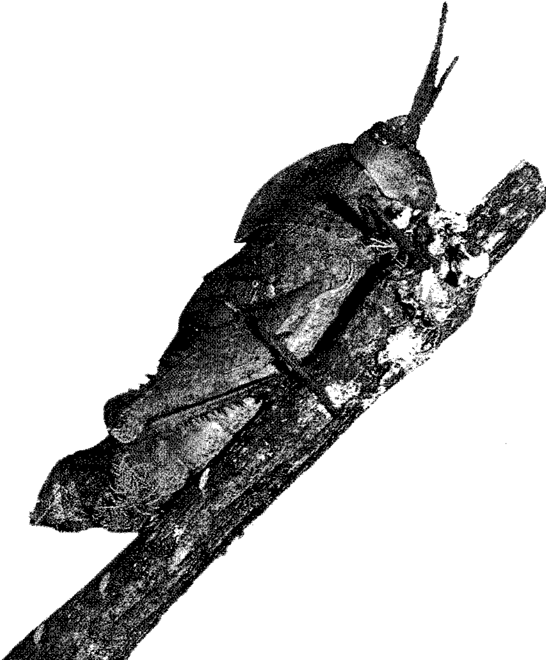
ويوضع **الجراد** مع **نطاط الحشائش** (**Grass Hopper**) في عائلة واحدة تعرف باسم **عائلة الجراديات** (**Family Acrididae**)، وتتميز الحشرات فيها بالفم القارض، والأجنحة

المستقيمة، وبالقدرة الفائقة للحشرة البالغة على التجمّع في أسراب كبيرة، والهجرة عبر مسافات طويلة.

ويتراوح طول الحشرة البالغة من الجراد بين السنتيمتر وعشرة السنتيمترات، ويصل عدد الجراد المهاجر في السرب الواحد إلى عشرات البلايين، مما يجعله يغطي مساحة تقدر بأكثر من ألف كيلومتر مربع، بكتلة تقدر بآلاف الأطنان، ويأكل مثل هذا السرب في اليوم الواحد قدر وزنه من المزروعات، ومن هنا كانت تسمية هذه الحشرة الخطيرة باسم (الجراد) وهو اسم مستمد من الفعل (جرد) بمعنى أزال وكشف، وعرى وقشر، يقال: (جرد الجراد الأرض جرداً) أي أكل جميع ما عليها من نبات حتى تجردت من غطائها الخضري كما يجرد المرء عن ثيابه، و(الجرادة) بضم الجيم ما قشر عن الشيء أي أزيل عنه، و(الجريد) هو السعف الذي (جرد) منه الخوص أي نزع عنه، و(التجريد) هو التعرية من الثياب،و(التجرد) هو التعري من الثياب أو من غيرها.

وتهاجر أسراب الجراد على ارتفاعات مختلفة من سطح الأرض، فمنها ما يطير على ارتفاعات منخفضة لا تتجاوز ثلاثمائة متر فوق مستوى سطح البحر في طبقات مستوية من الجراد المتراص بكثافات تتراوح بين مليون وعشرة ملايين جرادة في الكيلومتر المربع الواحد ـ الأسراب الطباقية ـ ومنها ما يصعد إلى ارتفاعات تصل إلى ألف متر فوق مستوى سطح البحر في هيئة تراكمية يأخذ فيها سرب الجراد شكل السحب الركامية فيسمى باسمها ـ الأسراب الركامية ـ يتوزع فيها الجراد في أكوام منها القمم السامقة، والسفوح الهابطة، والأودية الفاصلة، وبكثافات أقل من كثافة الأسراب الطباقية يتراوح فيها توزيع الجراد بين الألف ومائة الألف جرادة في الكيلومتر المربع، وتساعد تيارات الحمل في الغلاف الغازي للأرض ـ الهواء ـ على إعطاء أسراب الجراد المهاجرة على ارتفاعات عالية هذه الأشكال الركامية؛ ولذلك يختلف شكل سرب الجراد الركامي في هجرته من وقت إلى آخر باختلاف التيارات الهوائية التي تواجهه، وإن كان الجراد بفطرته يقود سربه مع الاتجاه الرئيسي للرياح السائدة أو في اتجاه ممرات الهواء التي يتحرك الريح الرئيسي صوبها. وغالباً ما تهاجر أسراب الجراد في النهار، وتحط في الليل على المزروعات والأشجار تلتهم منها كميات كبيرة تعينها على استئناف الهجرة في الصباح التالي.

وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة، فتتحرك مقدمة السرب قبل مؤخرته باستمرار، وتحط قبلها، حتى تحدد اتجاه السرب ومواقع الهبوط ولحظات الانطلاق في كل يوم. وتبدأ دورة حياة الجراد بوضع البيض في أماكن محددة، ورعايته حتى يفقس في حدود شهر مايو/أيّار من كل سنة لتخرج منه الحوريات التي تقوم بعملية الانسلاخ من جلدها عدة مرات حتى تصل إلى حجم الحشرة البالغة التي تحيا في بادىء الأمر حياة فردية، ثم تمر بمرحلة انتقالية لتكوين جماعة، ثم تنتهي بمرحلة الهجرة الجماعية التي تقطع فيها أسراب الجراد المهاجر مسافات شاسعة تمر خلالها بمناطق التكاثر الصيفي، والشتوي والربيعي حتى تعود إلى مناطق تكاثرها الأولى التي انطلقت منها. وهذه الحشرات تصل إلى مرحلة البلوغ عادة في الفترة من منتصف شهر يوليو/تموز إلى منتصف شهر سبتمبر/أيلول من كل سنة. وعلى الرغم من علمنا بدورة حياة الجراد إلا أن غاراته لا يمكن التنبؤ بها قبل بدئها، فقد يبقى الجراد في منابته الأصلية ويقوم بتكاثر محدود دون هجرة لفترات طويلة ودون الخروج من أسرابه المعتادة، ثم يعاود تسارع تكاثره بشكل ملحوظ وتنظيم أسرابه لمفاجأة البدء بالهجرة الجماعية، وهذا



مما يؤكد على أنه من جند الله التي يسخرها بعلمه وحكمته وإرادته للإغارة على من يشاء من عباده، وقتما يشاء وحيثما يشاء؛ عقاباً للعاصين وابتلاءً للصالحين وعبرة للناجين، شأنه في ذلك شأن العديد من ظواهر الكون وسنن الله فيه من أمثال الهزات الأرضية، والثورات البركانية، والعواصف، والأعاصير والسيول، والطوفانات النهرية والطغيانات البحرية، وموجات الجفاف القاتلة، والشهب والنيازك والأشعات الكونية المختلفة وغيرها.

ومنابت الجراد ليست دائمة باستمرار، بل تتغير من فترة إلى أخرى، وإن كانت هناك أحزمة معروفة لغزوات الجراد كما أن هناك أحزمة محددة تكثر فيها الهزات الأرضية.

وللجرادة قدرة فائقة على الطيران لمسافات طويلة تصل إلى مائة كيلومتر في اليوم، وذلك بما حباها الخالق سبحانه وتعالى به من قوة عضلية فائقة بالنسبة إلى حجمها، وتمكنها هذه القوة العضلية غير العادية من خفق جناحيها لفترات متصلة تتراوح بين الست ساعات والست عشرة ساعة مما يعينها على اجتياز كل العوائق المائية والتضاريسية. والطاقة اللازمة لهذا الجهد الخارق للعادة تُستمد من تمثيل كل من المواد الكربوهيدراتية التي تحصل عليها مما تلتهمه من غذاء أولاً، ثم مما تختزنه في جسمها الناحل من دهون.

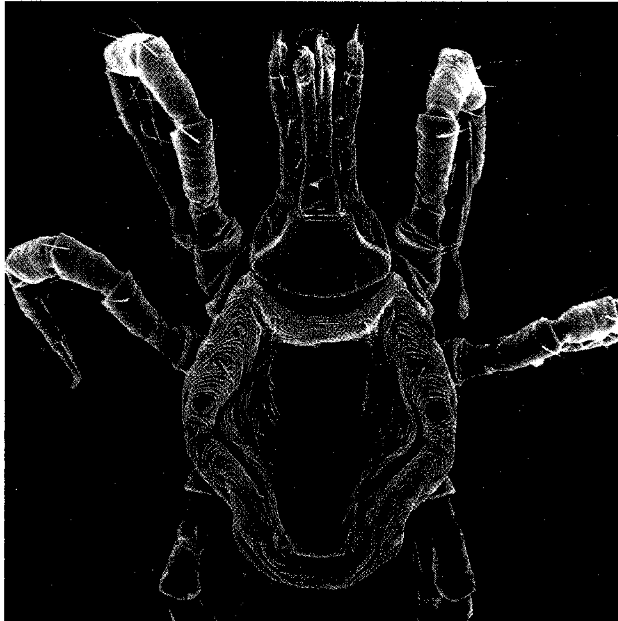
ويقوم الجراد بهضم المواد النباتية التي يقرضها من الزروع والأشجار بنهم شديد، ويستخلص ما بها من مواد سكرية ونشوية وسيليولوزية وزيتية ودهنية، ويحللها إلى مكوناتها الأساسية في عمليات من الهضم والتمثيل ـ الأيض ـ المعقدة، ومن أمثلة ذلك أن الله ـ تعالى ـ قد أعطى للجراد القدرة على استخراج غاز الأيدروجين من الدهون المختزنة في جسده، وعندما يصل ذلك إلى دمه وتتم عملية احتراقه بواسطة الأكسجين الجوي يتكون الماء في داخل جسم الجراد بالقدر الذي يحتاج إليه خلال رحلة طيرانه الطويلة دون الحاجة للنزول إلى الأرض من أجل الارتواء؛ وذلك لأنه يستهلك كميات كبيرة من الماء أثناء طيرانه لا يكفيه فيها ما يأخذه من النباتات الغضة التي يلتقمها بشراهة كبيرة.

ومن هذا الاستعراض الموجز للجراد يتضح أن هذه الحشرة من جند الله التي يسخرها سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده عقاباً للمجرمين من العصاة الفاجرين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾

ثالثاً: القمل (Louse, pl. Lice):

القمل من الحشرات غير المجنحة التي تجمع في طويئفة (تصغير طائفة) تسمى باسم طويئفة الحشرات غير المجنحة، أو طويئفة غير المجنحات (Subclass Apterygota) وتضم هذه الطوَيئفة حشرات صغيرة الحجم، عديمة التحول؛ بمعنى أن الحشرة في مراحلها الأولية تشبه الحشرة البالغة إلى حد كبير على الرغم من ضآلة حجمها وعدم اكتمال أعضائها التناسلية، ويقع القمل من هذه الطويئفة في رتبة خاصة تتميز بعدم وجود قرون شرجية؛ ولذا تسمى باسم رتبة عديمة الذنب (Anoplura). وهذه الحشرات غير مجنحة، وذات قرون استشعار قصيرة وتضم أنواعاً كثيرة من القمل مثل: **قمل الإنسان (Pediculus humanus)**، **قمل الطيور** (Mallophaga)، **قمل النحل**، **قمل النبات**، **قمل الخشب**، **قمل الكتب**، وغيرها، وكلها حشرات ضئيلة الحجم، بنية غامقة أو مصفرة اللون، يصل طول الحشرة البالغة منها إلى ثلاثة مليمترات في المتوسط.

ومن القمل أنواع ماصة للدماء كالتي تحيا على أجساد الثدييات، وأنواع قارضة كالتي تحيا على أجساد الطيور،ولكل حيوان ثديي نوعه الخاص به من القمل الماص للدماء، ولقمل الإنسان ـ وهو من النوع الماص للدماء ـ سلالتان: قمل الرأس وقمل الجسم،



والأخير يمثل آفة شديدة الضراوة في إيذاء الإنسان وشديدة الضرر به لأنها تنقل إليه الجراثيم المسببة للعديد من الأمراض التي من أخطرها مرض التيفوس الوبائي. أما قمل الرأس فيكثر في الصغار عنه في البالغين، وفي رؤوس الفتيات عنه في رؤوس الفتيان.

ويلتصق بيض القمل القارض في الشعر الخاص بكل من الإنسان أو الحيوان، أو في ريش الطيور. ويموت القمل بسرعة إذا أزيل عن عائله، ولكن نظراً لجلده السميك وأرجله القوية، وفكوكه القارضة، ومخالبه الكبيرة التي يستخدمها في التعلق بجسد عائله أو بشعره فإن إزالته عن جسم العائل تستلزم جهداً غير قليل.

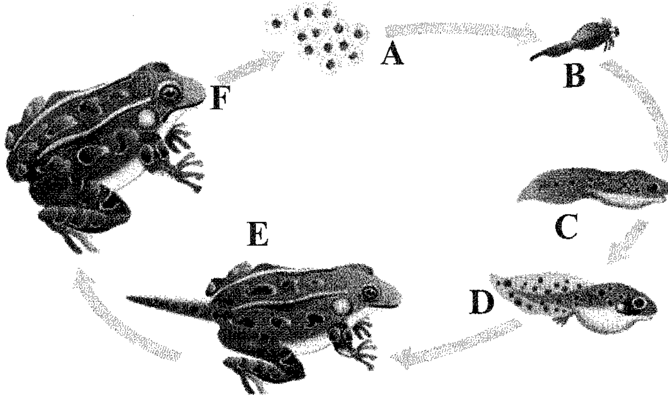
والقمل القارض (Mallophaga) لا يمتص الدم بل يتغذى من نتاج الجلد كالقشور، وأجزاء الشعر أو الريش، ونتيجة لاغتذائه بهذه الطريقة فإنه يسبب تهيجاً شديداً للعائل الذي يتعيش على جسده أو رأسه، وبفعل الاحتكاك الناشىء عن مخالبه فإنه يسقط بعض الريش عن جسم الطائر الذي يتطفل عليه.

والقمل الماص للدماء (Siphuncularta) يعيش على أجسام كلٍّ من الإنسان والحيوان؛ خاصة الحيوانات الثديية ولكل حيوان ثديي نوعه الخاص من القمل الماص.

والقمل كغيره من المخلوقات هو جند من جند الله، يسلطه على من يشاء من عباده، عقاباً للظالمين من الكفرة والمشركين، والغلاة المفسدين في الأرض، والمتجبرين على الخلق، وابتلاء للصالحين واختباراً لصبرهم ولرضائهم بقضاء الله وقدره، واعتباراً للناجين الذين رأوا ذلك رأي العين ولكن لم يصبهم من أذاه شيء.

رابعاً: الضفادع (Frog, Toad, Rana):

الضفادع من البرمائيات عديمة الذيل التي تجمع في طويئفة (تصغير طائفة) تحمل نفس الاسم: طويئفة البرمائيات عديمة الذيل أو للاختصار طويئفة عديمات الذيل (Subclass Anura = Salientia) وتتميز الضفادع بأرجلها الخلفية الطويلة القوية المهيأة للقفز، والأرجل الأمامية القصيرة، والأقدام الجلدية المعدة للسباحة. وبعض الضفادع تحيا حياة بحرية وإن استطاعت العيش على اليابسة والبعض الآخر يحيا أساساً على اليابسة مع إمكانية العيش في الماء والذي يعيش من الضفادع على اليابسة يحيا على الأشجار أو يدفن نفسه في أوحال الأرض. والضفدع له لسان طويل لزج، ومرتبط بمقدمة



الفم ليصطاد به فريسته من الحشرات والديدان وغيرها بمفاجأة وبسهولة مهما كانت بعيدة عنه، ومعظم الضفادع لها أسنان في فكها العلوي.

وتبدأ دورة حياة الضفدع بوضع البيض المخصب في الماء، ورعايته حتى يفقس. وتخرج اليرقات التي تتنفس أولاً بالخياشيم، وهذه اليرقات ليس لها أقدام، ومع نموها تأخذ شكل الضفدع الكامل، وتبدأ في التنفس بواسطة الرئتين وتحصل على الأكسجين اللازم لعملية التنفس عبر كل من الجلد الرطب وبطانة الفم الرطبة.

ونقيق الضفادع من الأصوات المزعجة للإنسان، لأنه يسمع عبر مسافات طويلة تقدر بالأميال، والكيس الصوتي المتضخم للذكر في بعض أنواع الضفادع قد يزيد في طوله على بقية الجسم مما يضاعف من شدة نبرات نقيقه. ليس هذا فقط بل إن بعض الضفادع قد يحمل للإنسان عدداً من الفيروسات التي تصيب كلاً من الكبد والكلى، ولذلك كان من الأخطار التي تهدد حياة الإنسان خاصة أن الضفادع تؤكل في بعض الدول مثل فرنسا!





خامساً: الدم (Blood):

الدم سائل أحمر اللون، غليظ القوام، سريع التخثر، يتكون أساساً من كرات الدم الحمراء والبيضاء بالإضافة إلى العديد من الصفيحات، والجسيمات الأخرى، ويعوم ذلك كله في سائل أصفر باهت يعرف باسم البلازما، ويقوم الدم بنقل كلٍّ من الغذاء والأكسجين والهرمونات إلى مختلف أجزاء الجسم، ويجمع منها الفضلات، كما يقوم بمحاربة كل الجراثيم التي تدخل إلى الجسم، ويساعد على اندمال الجروح وفي المحافظة على درجة حرارة الجسم.

والدم إذا سال خارج الجسم سرعان ما يتعفن وينتن بسبب ما يحمله من فضلات وجراثيم؛ ولذلك حرم طعامه؛ ولذلك أيضاً كان تسليطه كعقاب من الله ـ تعالى ـ على فرعون موسى وآله، الذين لم يؤمنوا برسالة الله ولا برسوله إليهم. ولسنا ندري ماهية هذا الدم الذي عوقبوا به، ولكن في رواية عن سعيد بن جبير جاء فيها: «... لما أتى موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأبى عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئاً، فخافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه حتى أوقف الطوفان،، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. فداسوا؛ أي درسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل ـ وهو السوس الذي يخرج من الحبوب المخزونة ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجربة أي أربعين قفيزاً إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة، والجريب والقفيز مكيالان للحبوب،

والجريب أربعة أقفزة فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق الضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فكشف عنهم فلم يؤمنوا. فأرسل الله عليهم الدم، فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً طرياً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً طرياً؟ فأتوه فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل».

ومع إيماننا الكامل بقدرة الله ـ تعالى ـ على كل شيء، تلك القدرة البالغة غير المحدودة بحدود، ومع وقوفنا أمام هذا الحديث بإجلال كبير إلا أننا لا نقول فيه شيئاً توقيراً لرسول الله ﷺ على الرغم من أن الحديث غير مرفوع إليه.

وهذه الآيات المشتملة على العقاب بالطوفان الذي يؤدي إلى الهدم والغرق، ثم بالجراد الذي يأكل الأخضر واليابس من النباتات والثمار والمحاصيل الغضة، ثم بالقمل الذي يقضي على المخزون من الحبوب والمحاصيل وينقل العديد من الأمراض، ثم بالضفادع التي تزيل النوم من الجفون بنقيقها المزعج وقدرتها على نقل العديد من الأمراض كذلك، وبعد ذلك كله بالدم النتن المليء بالنفايات الجسدية والفيروسات والجراثيم التي تجعل الحياة حقاً مستحيلة هي صورة من صور العذاب الإلهي الشامل لمجموعة من الكفرة والمشركين، والغلاة المتجبرين في الأرض فيها من التسلسل المنطقي، والشمول والإحاطة بأحداث تاريخية وقعت قبل بعثة المصطفى ﷺ بأكثر من ألفي سنة ما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وفيها ما يشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن الكريم بالنبوة وبالرسالة فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

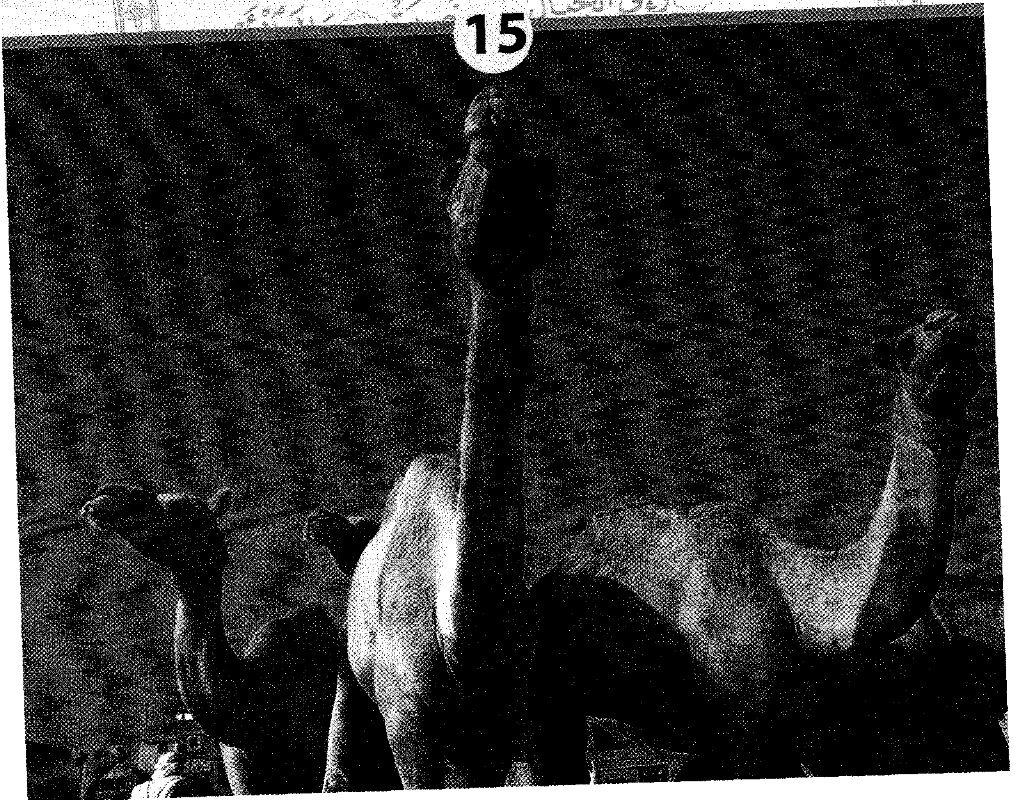
لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨
صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩

سُورَةُ ٱلْغَاشِيَةِ

ترتيبها ٨٨ — آياتها ٢٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢
عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ٥
لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ٧
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠
لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ
كَيْفَ رُفِعَتْ ١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ



﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝﴾ «سورة الغاشية، الآية: 17».

15



هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الثاني من سورة «الغاشية»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها ست وعشرون (26) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسي حول عدد من مشاهد الآخرة، ومآل كلٍّ من الكفار والمشركين، والطغاة المتجبرين فيها من جهة، ومصير عباد الله الصالحين في جنات النعيم من جهة أخرى.

وللتأكيد على حتمية ذلك أوردت السورة الكريمة عدداً من الآيات الكونية الدالة على حقيقة الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة للخالق العظيم الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، وخلق كلاً من الجن والإنس لعبادته بما أمر به ﷻ مع حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها.

وتطالب السورة الكريمة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ بتذكير الخلق أجمعين وتبصيرهم بحقيقة الدين، ومن أصوله فهم رسالة الإنسان في هذه الحياة، والتصديق بحتمية الموت والبعث والحساب، ثم الخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وأن يتم هذا التذكير ـ كما تم على عهد السابقين من أنبياء الله ورسله بغير ضغط ولا إكراه، لأن أصلاً من أصول الإسلام العظيم هو قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ «سورة البقرة، الآية: 256».

وقوله ـ تعالى ـ على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ موجِّهاً الخطاب للكافرين: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ «سورة الكافرون، الآية: 6».

عرض موجز لسورة «الغاشية»

تبدأ السورة الكريمة بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ له: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ «سورة الغاشية، الآية: 1».

و﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ اسم من أسماء القيامة التي تغشي الناس بأهوالها فتنسيهم كل شيء، وتجللهم بأفزاعها فتعميهم وتصرف أنظارهم عن أي شيء آخر، وكان المصطفى ﷺ إذا سمع هذه الآية الكريمة يجيب بقوله الشريف: «**نعم قد جاءني**» مما يؤكد أن الخطاب موجّه في الأصل إلى هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، ومن ثم فهو خطاب إلى الناس جميعاً، فالتحذير من القيامة ـ التي وصفها القرآن الكريم بأسماء عديدة منها: **الغاشية والقارعة، والطامة، والصاخة** ـ هو جزء رئيسي من رسالة القرآن الكريم إلى الخلق أجمعين، وقد كان كذلك في كل رسالة سماوية نزلت قبل نزول القرآن الكريم إنذاراً للناس، وتحذيراً لهم من هول تلك المفاجأة، وإحياء لها في قلوب وعقول وضمائر الناس حتى لا يغفلوا عنها، ويعملوا لها قبل أن يفاجأوا بوقوعها.

ثم تعرض الآيات لمشهد من مشاهد العذاب لأهل النار من الكفار والمشركين، والطغاة المتجبرين، والفسقة المفسدين في الأرض فتقول:

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۞ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۞ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۞ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۞ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۞﴾ «سورة الغاشية، الآيات: 2 ـ 7».

وفي هذه الآيات الست التي عجلت السورة فيها بمشهد العذاب اتساقاً مع جو الغاشية، تصف وجوه المعذبين بأنها سوف تكون خاشعة من الذل، والإرهاق، والتعب، والخزي، والهوان؛ لأن الخشوع فيه تذلل وانكسار وتنكيس للرأس وتخفيض للصوت، سواء كان هذا الخشوع تقرباً إلى الله ـ تعالى ـ أو خشية من سوء العاقبة عنده؛ خاصة عند مواجهة الحق في يوم القيامة. والعمل والنصب اللذان توصف بهما وجوه المعذبين من خلق الله يوم الغاشية قد يكون في الدنيا كما قد يكون في الآخرة، ففي الدنيا يتعب غير الموفقين من الخلق في الجري وراء الدنيا وماديا‌تها وشهواتها، ناسين أو متناسين الآخرة، فتشقيهم وتشقى بهم... ثم تشقيهم أكثر في الآخرة حين يواجهون بعذاب الله فيقفون فيه موقف الخاسر الذليل، الذي خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وعذاب النار فيه من مشاقّ العمل ما

فيه من حمل الأغلال، وجر السلاسل، والاكتواء بالنار الحامية، والخوض في ظلماتها، وما يصاحب ذلك كله من عمل ونصب، والشرب من عين شديدة الحرارة بلغت «أناها» أي غاية حرها، والأكل من الضريع الذي ليس لهم في النار غيره، وهو من نبت جهنم؛ وهو من الغيوب المطلقة التي لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ وإن قربوها في التشبيه بنوع من الشوك اللاطئ بالأرض ترعاه الإبل وهو أخضر غض، ويسمى «الشبرق» فإذا تم جمعه ويبسه صار اسمه «الضريع» وهو مادة سامة، وذلك تقريباً للمعنى في أذهان أهل الدنيا؛ لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وعلى ذلك فإن أطعمة أهل النار من مثل الضريع، والغسلين، والزقوم والغساق وغيرها من صفاتها أن الأكل منها ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ إمعاناً في تقريب لون من ألوان عذاب الآخرة إلى عقول وأذهان أهل الدنيا فيحذرونه قدر الجهد والطاقة.

وفي مقابلة هذا الذل والهوان والعذاب والشقاء لأهل النار تعرض الآيات لشيء من جزاء أهل الإيمان والتوحيد والتقى والصلاح فتقول:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ *﴾

«سورة الغاشية، الآيات: 8 ـ 16».

وفي هذه الآيات التسع تصف سورة الغاشية جانباً من نعيم أهل الجنة فتصف وجوههم بأنها ذات حسن وبهجة من النعومة وذات رضى عن النعيم الذي أكرمها الله ﷻ به في الجنة من التكريم والتنعيم فليس أرضى للعبد من أن يستشعر رضى الله ـ تعالى ـ عنه بمعيته في الدنيا، وبإسباغ نعمه عليه في الآخرة، ومن ثم فإن هذه الآيات الكريمة من سورة «الغاشية» تقدم هذا اللون من السعادة الروحية على النعيم المادي في الآخرة، فتقدم الرضى الروحي والنفسي والقلبي للعبد الصالح عن سعيه في الدنيا على نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن من قبيل تقريب هذا النعيم إلى تصورات أهل الأرض، تصفه الآيات بعلو الجنة في ذاتها، وفي قدرها، وفي تعدد درجاتها ومقاماتها، كما تصفه بهذا القدر الهائل من الشعور بالسلام والاطمئنان، والسكون والهدوء الذي ينعم به أهل الجنة، وفيها من التنزه عن كل لغو مما لا فائدة منه ولا خير فيه من الأقوال والأفعال،

وعن كل باطل وقبيح منهما، مما يجعل العيش فيها من صور النعيم المقيم الذي يفيء الله ـ تعالى ـ به على عباده الصالحين في الجنة، بعد صخب الدنيا وضجيجها، وبعد ما امتلأت به من صور اللغو الباطل القبيح والجدل العقيم العابث، واللجاجة الفارغة، والصراع الدائم، والزحام، والخصام. وفي ذلك من الدعوة لأهل الله في الأرض أن يتشبهوا فيها بأهل الجنة فينأون بأنفسهم عن كل ما لا خير فيه من الأقوال والأفعال حتى يتميزوا على أهل الباطل بمختلف أشكاله وألوانه في الدنيا قبل الآخرة.

ثم تأتي الآيات بعد ذلك بعدد من صور التنعيم الحسي لأهل الجنة في الجنة؛ فتصفها بأن فيها **من العيون والينابيع** المتدفقة الجارية التي تنبض بالحياة، وبالعديد من المتع الحسية والمعنوية ما تحمله المياه لأهل الصحارى الجافة القاحلة وفيها من **السرر المرفوعة** ما يوحي بالنظافة والطهارة، وبرفعة القدر عند الله، ومن **الأكواب الموضوعة** ما يشي بالتكريم والتعظيم لأنها مهيأة لشرابهم، موضوعة بين أيديهم، لا يحتاجون إليها في طلب أو إعداد، وفيها من **النمارق المصفوفة** ـ وهي الوسائد والحشايا التي تصف بعضها إلى جانب بعض للاتكاء والارتياح عليها ـ **والزرابي المبثوثة** ـ وهي الطنافس العراض السميكة الفاخرة أي: السجاجيد والبسط، ذات الخمل أي الهدب الرقيقة التي تبقى فوق النسيج للمزيد من راحة الجالس عليها، وهي مبسوطة أو مفرقة في المجالس للراحة وللزينة سواء، وواحدة «الزرابي» هي «الزربي» أو «الزربية» ـ.

وهذه الأوصاف والنعوت من قبيل تقريب ما في الجنة إلى أذهان أهل الأرض، وإلا فإن للجنة من الصفات والنعوت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وللنار من النعوت أيضاً ما لا تقوى عقول أهل الأرض على إدراكه.

ثم تنتقل الآيات في سورة «الغاشية» من وصف أحوال كل من أهل النار، وأهل الجنة في الآخرة إلى الاستشهاد بعدد من آيات الله ـ تعالى ـ في خلقه للتأكيد على حتمية الآخرة وما فيها من البعث والرجوع إلى الله الخالق ﷻ، والعرض الأكبر، والحساب والجزاء، ثم الخلود في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۞﴾ «سورة الغاشية، الآيات: 17 ـ 20».

وفي هذه الآيات الأربع من الأدلة المادية الملموسة ما ينطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، ويشهد للإله الخالق ﷻ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، كما يشهد له ـ تبارك وتعالى ـ بالقدرة المطلقة على إفناء خلقه وعلى بعثه كما وعد بذلك ﷻ، وكانت قضية البعث عبر التاريخ هي حجة الكافرين والمتشككين الذين أضلهم عن الحق الوقوع في جريمة القياس بمعايير البشر المحدودة على قدرات الله المطلقة، انطلاقاً من تشويه معنى الألوهية في معتقداتهم الفاسدة، وحصره في صنم ينحتونه بأيديهم، أو وثن يتخذونه لعبادتهم، أو بقرة أو كوكب أو نجم أو نار يعبدون أياً منها أو يشركونها في عبادة الله الخالق، أو طفل رضيع يبكي ويضحك، وينام ويصحو، ويأكل ويشرب، وله من باقي صفات البشر ما له، والله ﷻ منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله:

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

وانطلاقاً من الكفر أو الشرك بالله أنكر المنكرون البعث أو تشككوا في إمكانية وقوعه. ولذلك أورد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة «الغاشية» ـ كما أورد في العديد من آيات القرآن الكريم ـ الإشارة إلى إتقان الخلق في كل أمر من أمور الكون ومكوناته مما يشهد لله ـ تعالى ـ بأنه كما أتقن كل شيء خلقه، فهو ـ سبحانه ـ قادر على إفنائه وعلى بعثه.

وهذه الآيات الكونية الأربع التي تعرضها سورة «الغاشية» كانت متوافرة في بيئة الصحراء العربية حيث أُنْزِل القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، ولا يزال ما فيها من إبداع الخلق، وإتقان الصنعة، ومن الإعجاز وطلاقة القدرة شاخصاً أمام أعين أهل العلوم والتقنية في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، وأمام بقية حواسهم وعقولهم، إذا أحسنوا توظيفها في دراسة خلق الله بشيء من الموضوعية والحيدة.

فالإبل كانت ـ ولا تزال ـ من الحيوانات الأساسية في البيئة الصحراوية لأن الله ـ تعالى ـ قد زوّدها بقدر من الصفات التي تميزها عن غيرها من الحيوانات الثديية المشيمية (Placental Mammals)، وعن كلٍّ من الأبقار والغزلان والزرافات التي يضعها علماء تصنيف الحيوان مع الجمال في مجموعة واحدة تعرف باسم مجموعة الحيوانات الثديية المشيمية المجترة (Ruminant Placental Mammals) أو ما يسمى باسم ذوات الحافر مزدوج الأصابع (Even - Toed Ungulates = Artiodactyla) كذلك فإن في رفع السماء

بغير عمد مرئية، أو بعمد غير مرئية ـ قد شغل بال الناس منذ القدم ـ، خاصة أهل الصحارى الذين تساءلوا دوماً عن رفعها، وعن ضرورة أن يكون لها رافع مبدع له من العلم والحكمة والقدرة ما مكنه من تحقيق ذلك، وأن الذي رفعها قادر على هدمها وعلى إعادة بنائها من جديد.

كذلك فإن للجبال في شموخها، وارتفاعها، وانتصابها فوق سطح الأرض ما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة؛ لأن جذورها تطفو في نطاق الضعف الأرضي الموجود تحت الغلاف الصخري للأرض مباشرة، وتحكمها في ذلك قوانين الطفو، فكلما أخذت عوامل التعرية من قممها ارتفعت جذور الجبال إلى أعلى حتى تخرج من نطاق الضعف الأرضي بالكامل فيتوقف الجبل عن الحركة حتى تبريه عوامل التعرية بالكامل وتسويه بسطح الأرض.

وفي هذه العملية من الضوابط المحكمة ما يشهد لله الخالق ﷻ بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق.

ثم تأتي الإشارة إلى كيفية تسطيح الأرض ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الأرض في مرحلة من مراحل بدء خلقها كانت معقدة التضاريس، وذات وعورة شديدة، لا تسمح للحياة أن تزدهر على سطحها، ثم سخر الله ـ تعالى ـ مختلف عوامل التعرية من المياة الجارية، والرياح السافية، والجاذبية الأرضية الحاكمة ما ساعد على شق الفجاج والسبل، وتسوية القمم السامقة إلى السهول المنبسطة، وتشكيل التلال والهضاب، وتكوين التربة، وخزن المياه في صخور الأرض، وتركيز الخامات، وتدفق الأنهار، وغيرها من المجاري المائية إلى البحار والمحيطات، وتكوين الشواطئ والسفوح والمنحدرات، وكلها من وسائل تسوية سطح الأرض؛ أي: تسطيحها، وهي من العمليات اللازمة لجعل الأرض صالحة للعمران، والشاهدة لله الخالق ﷻ بطلاقة القدرة على إبداع الخلق، وعلى إفنائه، وإعادة خلقه من جديد؛ أي بعثه.

وبعد هاتين الجولتين في كل من عالمي الآخرة والدنيا، تختتم سورة «الغاشية» بتوجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ له:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم*﴾

«سورة الغاشية، الآيات: 21 ـ 26».

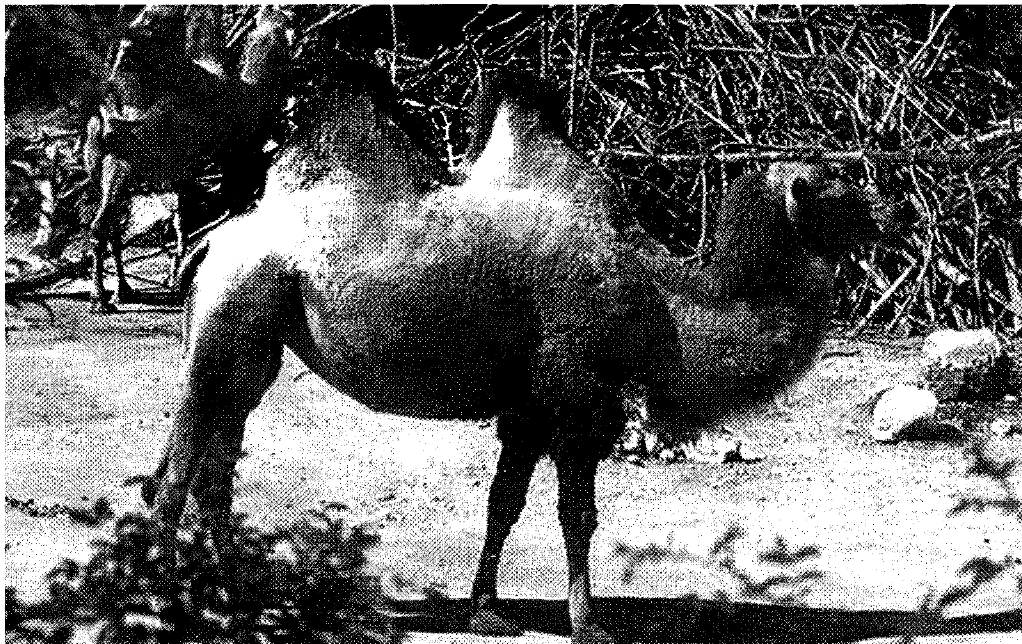
وفي ذلك تحديد لدور الرسول الخاتم ﷺ ـ وهو دور كل نبي وكل رسول جاء قبله ـ ألا وهو التذكير بالله الخالق سبحانه وتعالى وبضرورة الخضوع له بالطاعة والعبادة، والتأكيد على حقيقة الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب، وجنة ونار، والتذكير ببديع صنع الله ـ تعالى ـ في خلقه، والاستدلال بما في عالم الشهادة من آيات الإحكام والإبداع في الخلق على ما في عالم الغيب من حق أنزله الله ـ تعالى ـ في محكم كتابه..

وبذلك يتحدَّد دور أنبياء الله ورسله في تبليغ الخلق بحقيقة الدين الذي يقرر القرآن الكريم بأنه لا إكراه فيه وذلك بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ «سورة البقرة، الآية: 256».

ومن هنا جاء الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾؛ أي أنك لا تملك من أمر القلوب شيئاً فتقهرها على الإيمان بالله، فليس عليك إلا البلاغ المبين، والهداية نعمة من رب العالمين يمنّ بها على من يشاء من عباده بناء على ما يعلمه بعلمه المحيط من خير أو شر في كل عبد من عباده.

وهنا يخلط كثير من الناس بين حقيقة أن الدين لا بد وأن ينبع عن قناعة قلبية وعقلية كاملة دون أدنى إكراه أو إجبار، وبين الجهاد في سبيل الله الذي فرض لرفع الظلم عن المظلومين، ولدفع العدوان على بلاد المسلمين، ولإزالة العقبات من وجه الدعاة إلى الله من أجل تبليغ الناس بدين الله دون إكراه أو إجبار، وبذلك يتحدد دور الأنبياء والمرسلين، ودور خاتمهم أجمعين ـ عليه وعليهم من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ ودور كل داعية إلى دين الله من وبعده ﷺ إلى يوم الدين، ولكن من تولى عن الإيمان دون إعلان الحرب على المسلمين فله ما أراد، وكل من رفض التسليم بأن القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم، وبأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه هو آخر أنبياء الله ورسله، وأنه ليس من بعده ﷺ من نبي ولا من رسول، وأن عدم الإيمان به وببعثته الشريفة، وبرسالته الخاتمة هو كفر بكل رسالات السماء، وبالله الذي أرسلها على فترة من الأنبياء والمرسلين، وأتمّها وأكملها وختمها في رسالته الخاتمة ممثلة في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، كل من كفر بذلك فحسابه



على رب العالمين يعذِّبه العذاب الأصغر في الدنيا، ثم العذاب الأكبر في الآخرة، لأن الرجوع إلى الله ـ تعالى ـ أمر حتمي، لا مفر منه، ولا حيود عنه، وكذلك حساب الله ـ تعالى ـ لخلقه بعد البعث، وجزاؤه لهم بالخلود في الجنة أبداً أو في النار أبداً كما أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ، وبذلك تختتم سورة الغاشية بحقيقة من أعظم حقائق الوجود يقررها الله ـ تعالى ـ بقوله الحق:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم *﴾ «سورة الغاشية، الآيتان: 25، 26».

من الإشارات الكونية في سورة «الغاشية»:

1 ـ الإشارة إلى التميز في خلق الإبل.

2 ـ التنبيه إلى رفع السماء وكيفيات ذلك.

3 ـ الاستشهاد بكيفية انتصاب الجبال فوق سطح الأرض.

4 ـ التذكير بتسوية سطح الأرض حتى يسهل عمرانها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي

هنا على التميز في خلق الإبل والذي جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ «سورة الغاشية، الآية: 17».

وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ «سورة الغاشية، الآية: 17».

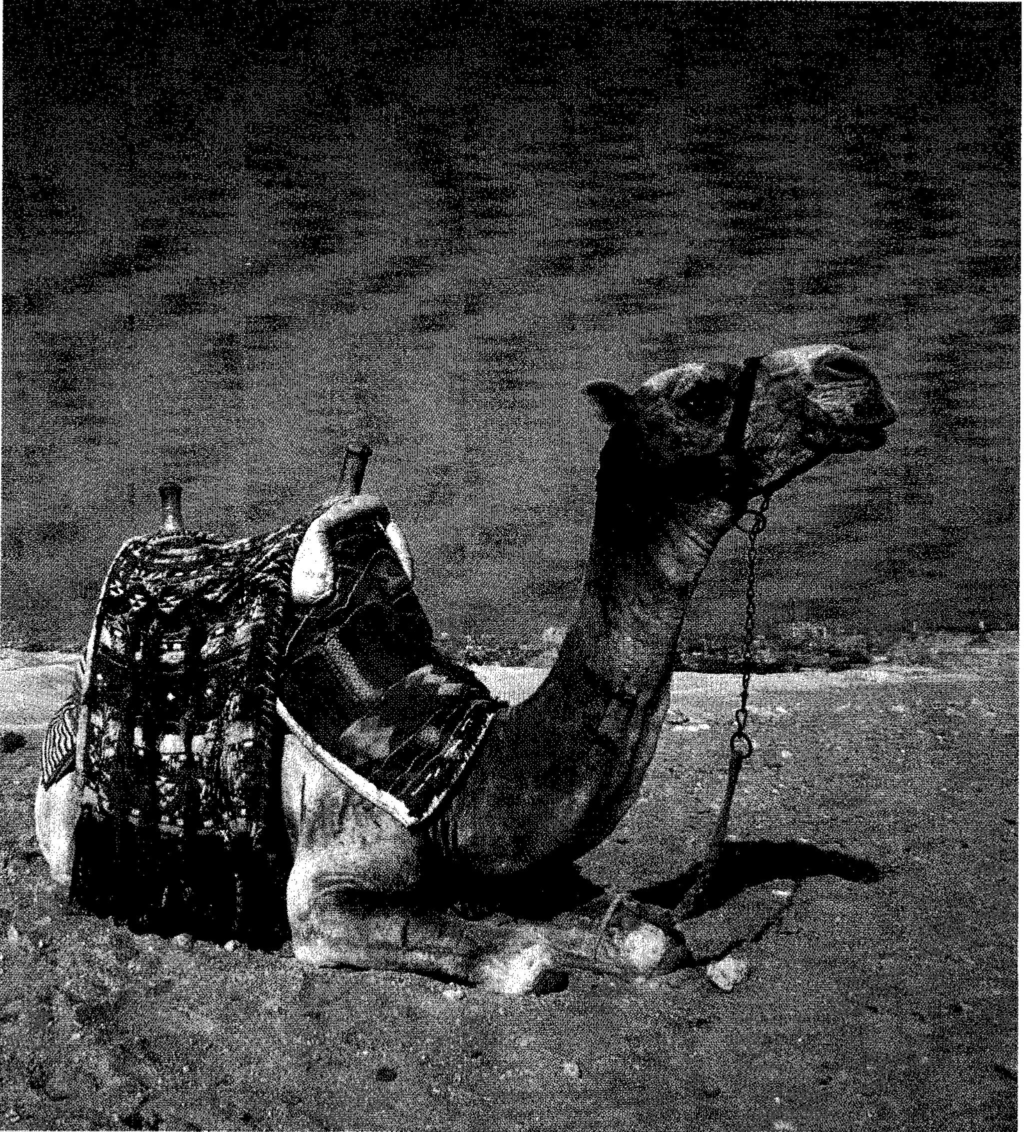
- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فهي في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، ويشرب لبنها، وينتفع بوبرها، ونُبِّهوا إلى ذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل...».
- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما يلي: «... والإبل حيوان العربي الأول، عليها يسافر ويحمل، ومنها يشرب ويأكل ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل. فهي مورده الأول للحياة، ثم إن لها خصائص تفردها من بين الحيوان، فهي على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتنقاد، وهي على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف. مرعاها ميسر، وكلفتها ضئيلة، وهي أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال... لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل، وهي بين أيديهم، لا تحتاج منهم إلى نقلة ولا علم جديد.. أفلا ينظرون إلى خلقتها وتكوينها؟ ثم يتدبرون: كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها، المحقق لغاية خلقها، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعاً!! إنهم لم يخلقوها، وهي لم تخلق نفسها، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته التي تدل عليه، وتقطع بوجوده، كما تشي بتدبيره وتقديره».
- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

- غير أن أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ قد ذكروا ما نصه: «أيهملون التدبر في الآيات، فلا ينظرون إلى الإبل، كيف خلقت خلقاً بديعاً يدل على قدرة الله؟!»

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «في خلق الإبل آيات معجزات دالة على قدرة الله ليتدبر في ذلك المتدبرون، فمن المعروف أن من صفاتها الظاهرة ما يمكنها من أن تكون سفن الصحراء بحق، فالعينان ترتفعان فوق الرأس وترتدان إلى الخلف فضلاً عن طبقتين من الأهداب تقيانها الرمال والقذى، وكذلك المنخران والأذنان يكتنفها الشعر للغرض نفسه، فإذا ما هبت العواصف الرملية انقفل (أي: انغلق) المنخران، وانثنت الأذن ـ على صغرها وقلة بروزها ـ نحو الجسم، أما القوائم فطوال تساعد على سرعة الحركة، مع ما يناسب ذلك من طول العنق، وأما الأقدام فمنبسطة في صورة خفاف تمكن الإبل من السير فوق الرمال الناعمة، وللجمل كلكل تحت صدره، ووسائد قرنية على مفاصل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة، كما أن على جانبي ذيله الطويل شعراً يحمي الأجزاء الخلفية الرقيقة من الأذى. أما مواهب الجمل الوظيفية فأبلغ وأبدع، فهو في الشتاء لا يطلب الماء، بل قد يعرض عنه شهرين متتاليين إذا كان الغذاء غضاً رطباً أو أسبوعين إن كان جافاً. كما أنه قد يتحمل العطش الكامل في قيظ الصيف أسبوعاً أو أسبوعين، يفقد في أثنائهما أكثر من ثلث وزن جسمه، فإذا ما وجد الماء تجرع منه كمية هائلة يستعيد بها وزنه المعتاد في دقائق معدودات. والجمل لا يختزن الماء في كرشه كما كان يظن، بل إنه يحتفظ به في أنسجة جسمه ويقتصد في استهلاكه غاية الاقتصاد، فمن ذلك أنه لا يلهث أبداً ولا يتنفس من فمه ولا يصدر من جلده إلا أدنى العرق؛ وذلك لأن حرارة جسمه تكون شديدة الانخفاض في الصباح المبكر، ثم تأخذ في الارتفاع التدريجي أكثر من ست درجات قبل أن تدعو الحاجة إلى تلطيفها بالعرق والتبخر، وعلى الرغم من كمية الماء الهائلة التي يفقدها الجسم بعد العطش الطويل فإن كثافة دمه لا تتأثر إلا في الحدود المقبولة، ومن ثم لا يقضي العطش عليه. وقد ثبت أن دهن السنام مخزن للطاقة يكفيه غوائل الجوع، ولكنه لا يفيد كثيراً في تدبير الماء اللازم لجسمه. وما زال العلماء يجدون في الجمل كلما بحثوا مصداقاً لحض الله تعالى لهم على النظر في خلقه المعجز».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

تشير هذه الآية القرآنية الكريمة إلى ما في خلق الإبل من إعجاز يشهد للخالق ﷻ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، كما يشهد له ـ سبحانه ـ بالقدرة على إفناء ما قد خلق وعلى إعادة خلقه من جديد (أي بعثه) والإبل تنتمي إلى مجموعة من الحيوانات الثديية المشيمية المجترّة (Ruminant Placental Mammals).





وإلى قسم خاص منها يعرف باسم ذوات الحافر (الخف) مزدوج الأصابع (Even-Toed Ungulates = Artiodactyla).

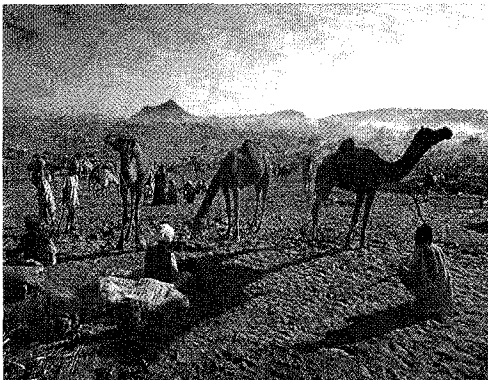
وهي من آكلات العشب التي يجمعها القرآن الكريم تحت مسمى الأنعام لما فيها من نعم الله العظيمة على الإنسان، وتشمل كلاً من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز (الماعز)، وتضم الإبل بالإضافة إلى الجمال مجموعة الغزلان وكلاهما يصنف في عائلة واحدة تعرف باسم عائلة الإبليات أو الجمليات، وبها نوعان متميزان هما: نوع الجمل **(Camelus)** **(Camelides)** ونوع اللاما **(Lama glama)** الذي يشبه الجمل ولكن لا سنام له، ومن الجمال ما له سنام واحد وهو الجمل العربي **(Camelus dromedarius)** وما له سنامان وهو الجمل الآسيوي **(Camelus bactrianus)**. وينتشر في آسيا الوسطى وصولاً إلى منشوريا في بلاد الصين.



والإبل بأنواعها تتميز عن جميع الأنعام بميزات بدنية، وتشريحية، ووظائفية عجيبة ألمح إليها القرآن الكريم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

«سورة الغاشية، الآية: 17».



فالإبل عَمرت الأرض قبل خلق الإنسان بحوالي خمسين مليون سنة، وازدهرت

ازدهاراً هائلاً في عهد «الإيوسين» (The Eocene Epoch) المعروف باسم فجر الحياة الحديثة. والجمل العربي الذي يعيش في المناطق الصحراوية الجافة القاحلة الشديدة الحرارة في نهار الصيف، والشديدة البرودة في ليل الشتاء قد تم استئناسه من قبل خمسة آلاف سنة في شبه الجزيرة العربية من مجموعة برية كانت تعيش فوق هضاب حضرموت.

ومن الجزيرة العربية انتشرت الجمال العربية إلى كل من إفريقيا وآسيا وجنوب أوروبا عبر الوجود الإسلامي في تلك البلاد والذي عمر شبه الجزيرة الأيبيرية (بلاد الأندلس) لأكثر من ثمانية قرون كاملة.

وقد ثبت للدارسين والمراقبين أن الجمل العربي هو بحق سفينة الصحراء، وأنه أصلح الوسائل الفطرية للسفر والحمل والتنقل في الأراضي الصحراوية الجافة، فهو يستطيع قطع مسافة تصل إلى الخمسين ميلاً في اليوم، متحملاً الجوع والعطش لعدة أيام متتالية في شدة حرارة نهار صيف الصحراء، ويستطيع حمل أكثر من نصف طن من المؤن والركاب والسير بهم وبها لأكثر من عشرين ميلاً في اليوم دون طعام أو شراب وذلك لعدة أيام متتالية، بما خصه الله ـ تعالى ـ من ميزات جسدية، وتشريحية، ووظائفية لا تتوافر لغيره من الحيوانات، ومن هذه الميزات ما يمكن إيجازه في النقاط التالية:

أولاً: من الصفات الجسدية للجمل العربي:

1 ـ ضخامة الجسم، وارتفاع القوائم، وطول العنق في تناسق عجيب يمكن الجمل العربي من سرعة الحركة، واتساع مجال الرؤية، ومن اختزان كميات كبيرة من الماء والغذاء والدهون والطاقة تعينه على احتمال الجوع والعطش لفترات لا يقوى عليها حيوان آخر.

2 ـ لرأس الجمل أنف ذو منخارين أعطاهما الله ـ تعالى ـ القدرة على الانغلاق كلياً تحاشياً لرمال الصحراء العاصفة، ومنعاً لجفاف القصبة الهوائية، وله زوج من العيون الحادة الإبصار، ترتفعان فوق رأسه المحمول على عنقه الطويل، وجسده المرتفع عن الأرض مما يوسع مجال الرؤية، ولكل واحدة من هاتين العينين المندفعتين إلى الخلف طبقة من الأهداب تقيانهما من هبوب العواصف الرملية في الصحراء وما تحمله من أذى وقذى. ولفم الجمل شفتان عريضتان، السفلى منهما مشقوقة حتى تمكنه من تناول الأعشاب الشوكية دون أن تؤذيه.

3 ـ وعلى جانبي رأس الجمل أذنان صغيرتان يكتنف كلاً منهما شعر كثيف لوقايتهما من الرمال العاصفة، خاصة وأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاهما القدرة على الانثناء إلى الخلف، والالتصاق بجانبي الرأس لمنع دخول الرمال فيهما.

4 ـ أقدام الجمل منبسطة على هيئة الخف المكون من نسيج دهني سميك، يعين الجمل على السير فوق الرمال الناعمة، وفوق غير ذلك من أنواع التربة الخشنة والصخور الناتئة.

5 ـ ذيل الجمل محاط بشعر كثيف يحمي أجزاء جسده الخلفية من كل أذى، خاصة من الرياح العاصفة المحملة بالرمال.

6 ـ طول سيقان الجمل تبعده عن التأثر بحرارة الأرض، وارتفاع سنامه يبعد غالبية جسده عن التأثر بحرارة الشمس؛ لأن تكتل كمية كبيرة من الدهون في منطقة السنام يحول دون انتشار حرارة الشمس إلى داخل بقية الجسم، خاصة أن الخالق العظيم قد ألهم الجمل بالوقوف متعامداً مع أشعة الشمس قدر الاستطاعة حتى لا يتعرض لها من جسده إلا أقل مساحة ممكنه.

7 ـ خلق الله ـ تعالى ـ للجمل وسادة حرشفية/ قرنية أسفل صدره تعرف باسم «الكلكل»، ووسائد مشابهة فوق كل ركبة من ركبه، وهذه الوسائد تمكن الجمل من الرقود على الأرض مهما كانت قاسية وخشنة دون أذى، كما تعينه على رفع جسده عن الأرض لعزله عن حرارتها وللسماح لتيار من الهواء أن يتحرك بين جسمه وبين الأرض لتهويته وتلطيف درجة حرارته.

8 ـ جعل الله ﷻ للجمل جلداً غليظاً جداً، يجعله قادراً على تحمل العواصف الحارة المحملة بالرمال عند هبوبها، وعلى مقاومة لسعات الحشرات وقرصات غيرها من الحيوانات، خاصة وأن هذا الجلد قليل المرونة يغطيه وبر سميك يدفئ جسم الجمل في الشتاء، ويحفظ حرارته من التصرف إلى الخارج، ويحميه من حرارة الشمس الحارقة في الصيف، خاصة وأنه يعكس أشعتها بلونه الفاتح، كذلك يمتاز جلد الجمل بقلة انتشار الغدد العرقية فيه مما يقلل من فقدان مخزونه المائي عن طريق العرق.

9 ـ يساعد طول عنق الجمل وارتفاع أقدامه على تمكينه من تناول أوراق الأشجار العالية، وتساعد شفته السفلى المشقوقة على تناول الأعشاب الشوكية دون أن تؤذيه، خاصة وأن الله ـ تعالى ـ قد جعل للجمل ميلاً فطرياً للأعشاب المالحة التي تكثر في الصحارى الجافة، وذلك مثل أنواع الحلفاء (**Halophytes**)، وللجمل قدرة فائقة على استيعاب كميات كبيرة من أملاح هذه الأعشاب دون التأثير على درجة ارتوائه أو شعوره بالعطش، وذلك من مثل أملاح الصوديوم، والكالسيوم، والسلينيوم، والفوسفور، والنحاس، وغيرها. وكل واحد من هذه الأملاح يلعب دوراً مهماً في حياة الجمل، وفي تخليق أعداد من الإنزيمات اللازمة لنشاطه الحيوي. والجمل يستهلك من هذه الأملاح ما يحتاجه، ويختزن الباقي في الكبد لاسترجاعه عند الحاجة إليه.

ثانياً: من الصفات التشريحية للجمل:

1 ـ الجمل من الثدييات المشيمية المجترة، ولكنه يختلف عن كثير منها بتضاؤل المعدة الثالثة، وبوجود ما يسمى مجازاً باسم الأكياس المائية في المعدة الأولى، وهذه الأكياس عبارة عن انثناءات تضم الملايين من الخلايا الغددية التي تلعب دوراً رئيسياً في تفعيل عملية الهضم وإنتاج كمٍّ كبير من السوائل.

2 ـ كذلك فإن البلعوم الطويل للجمل يحتوي على عدد هائل من الغدد التي تعمل على ترطيب الوجبة الغذائية الجافة مما يعين على سهولة تحركها إلى باقي أجزاء الجهاز الهضمي، خاصة وأن الجمل يعتمد في غذائه أساساً على الأعشاب الجافة، وأوراق الأشجار الشمعية القاسية.

3 ـ زود الله ﷻ الجهاز الهضمي للجمل بالعديد من الإنزيمات المنتجة فيه، والكائنات الدقيقة المتعايشة معه لتقوم بتحليل المواد السيليولوزية القاسية في معدة الاجترار إلى عدد من المركبات النيتروجينية مثل: الأمونيا واليوريا، ثم بناء عدد من الأحماض الأمينية، والبروتينات والدهون، وفي تجهيز عدد من الفيتامينات اللازمة لحياة الجمل، ومن العجيب أن يصل تركيز أحد الفيتامينات المهمة مثل «فيتامين د» في جسم الجمل إلى خمسة عشر ضعفاً لما هو موجود في أجساد



باقي الحيوانات المجترة، على الرغم من فقر غذاء الجمل بصفة عامة، وذلك لأن هذا الفيتامين يلعب دوراً مهماً في تركيز الكالسيوم في العظام وهو أمر يحتاجه الجمل بهيكله العظمي الضخم.

ثالثاً: من الصفات الوظائفية لأعضاء جسم الجمل:

1 ـ الجمل من ذوات الدم الحار، ولكن الله ـ تعالى ـ قد وهبه القدرة على تغيير حرارة جسده ليتوافق مع درجات الحَرارة المحيطة به صيفاً وشتاءً، ونهاراً وليلاً، دون أن يصاب بأذى، ويتراوح المدى الحراري لدماء الجمل بين 34°م، 42°م، وهو مدى يعتبر قاتلاً للعديد من الأحياء.

2 ـ يؤدي نقصان كمية الماء في أجسام معظم الحيوانات إلى زيادة لزوجة دمائها، مما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الجسم وينتهي بالكائن إلى الوفاة. أما الجمل فتبقى لزوجة دمه ثابتة مهما نقص الماء في جسمه، مما يسمح لعملية النقل الحراري أن تتم بين القلب والأطراف بسهولة ويسر.

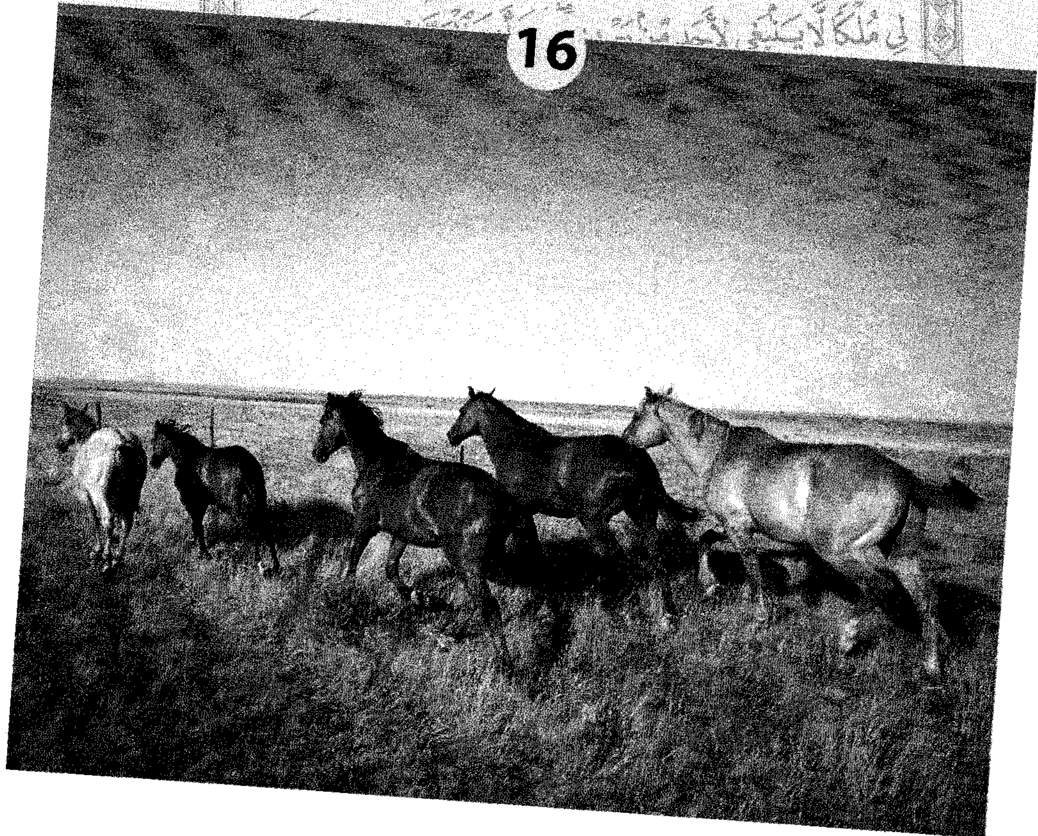
3 ـ الارتفاع في درجة حرارة جسم الجمل يعين على نقص استخدام الأكسجين، ممّا يبطّئ من عملية التمثيل الغذائي في داخل جسمه، وبالتالي يحدّ من ارتفاع درجة حرارته، وهذا بعكس المعروف عند الحيوانات الأخرى.

4 ـ يستطيع الجمل العيش دون شرب الماء لعدة أسابيع، وكمية الماء التي يتناولها ترتبط بنوعية الأكل الذي يأكله، وعلى درجة الحرارة الخارجية حوله، وقدر الماء الذي سبق له تناوله. وفي الجو البارد يستطيع الجمل العيش على كمية الماء الموجودة فيما يتناوله من طعام إذا كان غضاً طرياً، وفي هذه الحالة يمكنه الاستغناء عن شرب الماء لمدة تصل إلى الشهر الكامل، أما في الأجواء الحارة ومع تناول الطعام اليابس فإن الجمل بإمكانه الاستغناء عن شرب الماء لمدة تصل إلى الأسبوع. ولذلك وهب الله ـ تعالى ـ الجمل القدرة على تحمل ندرة كلٍّ من الماء ومصادر الغذاء في الصحراء، وقلة تنوع تلك المصادر، وضعف محتواها الغذائي، كما أعطاه القدرة على شرب كميات كبيرة من الماء عند توافره دون أن يؤذيه ذلك، وأعطاه القدرة كذلك على تحمل إنقاص وزنه بمعدل الثلث، وزيادته بنفس المعدل دون التعرض لأية مخاطر صحية، علماً بأن ذلك قد يودي بحياة غيره من الحيوانات.

هذه الصفات قليل من كثير مما وهب الخالق ﷻ الجمل، وهي لم تدرك إلا في القرن العشرين، والتلميح إليها في الآية التي نحن بصددها لممّا يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ
كَٱلْفُجَّارِ ٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
٣٠ **إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ**
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا
عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ
لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ

16



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝﴾ «سورة ص، الآيات: 31 ـ 33».

16



هذه الآيات القرآنية الكريمة جاءت في بداية الثلث الثاني من سورة «صٓ» وهي سورة مكية، وعدد آياتها (88) بعد البسملة، وكطبيعة السور المكية يدور محورها الرئيسي حول ركائز العقيدة الإسلامية، وفي مقدمتها: توحيد الله الخالق سبحانه وتعالى توحيداً كاملاً لا تداخله أدنى شبهة من شبهات الشرك، وتنزيهه ـ جل شأنه ـ عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

ومن ركائز العقيدة الإسلامية: الإيمان بالوحي إلى سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين بدءاً بآدم عليه السلام وانتهاء بخاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ والذي كمل في بعثته الدين، وتمت نعمة رب العالمين على عباده بحفظ هذا الدين في القرآن الكريم، وفي سنة سيد المرسلين ﷺ.

ومن ركائز العقيدة في الإسلام: الإيمان بالآخرة، وما فيها من بعث، وحساب، وجزاء، وخلود أبدي إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً.

وتبدأ السورة الكريمة بالحرف الهجائي المفرد ﴿صٓ﴾، وهذه الفواتح الهجائية التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم بصيغ شتى مكررة (19 مرة) وغير مكررة (10 مرات) قيل فيها: إنها إما رموز إلى كلمات أو معان أو أعداد في صلب السورة، أو أنها أسماء للسور التي جاءت في مطالعها، أو هي أسلوب من أساليب تحدي العرب ـ وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ـ أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل سور القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم، واستخدم نفس الحروف التي يستخدمونها،

ولكن هيهات هيهات...، أو أنها وسيلة من وسائل قرع الأسماع، وتنبيه القلوب لتلقي كلام الله ﷻ، أو أنها من الأدلة القاطعة على صدق رسول الله ﷺ لنطقه بأسماء الحروف ـ وهو الأمي ـ والأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها، أو هي تشمل ذلك كله وغيره مما لا يعلمه إلا الله ﷻ.

وبعد هذا الاستفتاح يقسم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو الغني عن القسم لعباده ـ بـ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أي ذي الشرف والمكانة، والتذكير والموعظة، والمذكور فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين: أنّ الذين كفروا هم دوماً في استكبار عن اتباع الحق، ودوماً في محاربة لأهله دون أدنى اعتبار بهلاك الأمم الكافرة والباغية من قبلهم.

وفي قراءة أخرى أن جواب القسم محذوف وتقديره صدق ما تضمنه سياق السورة بكاملها، أو أن تقديره هو خطاب موجه من الله ﷻ إلى سيدنا محمد ﷺ يقول له فيه: (إنك بحق لخاتم الأنبياء والمرسلين) وذلك بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد آيتين اثنتين من إطلاق هذا القسم الإلهي العظيم: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾.

ثم تناقش الآيات في سورة «صٓ» قضية استغراب مشركي قريش ـ ومن بعدهم استغراب كل مشرك وكافر في كل زمان ومكان ـ لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، واستنكار دعوته إلى توحيد الله، وإلى تنزيهه ﷻ عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وإصرارهم على الكفر بالله أو الشرك به، أو على إنكارهم لقضية البعث، واستهزائهم بها إلى حد استعجال عذاب الآخرة في الدنيا قبل يوم الحساب، وهي صورة من صور فجر الكافرين وغفلتهم وتعنتهم.

وفي سياق استعراض سير بعض الكافرين والمكذبين من الأمم السابقة جاء ذكر عدد من الأقوام منهم: قوم نوح، وعاد، وفرعون، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وتمت الإشارة إلى ما نزل بهم من عقاب الله في الدنيا وإلى ما ينتظرهم من عذاب في الآخرة.

كذلك جاء ذكر عدد من أنبياء الله هم: آدم، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل، وداود، وسليمان، وأيوب ـ على نبينا وعليهم من الله السلام ـ.

وفي استعراض جانب مما أغدق الله ـ تعالى ـ به من فضل على عبديه: داود وسليمان من النبوة، والملك، والسلطان، وتسخير كلٍّ من الجن، والريح، والجبال، والطير، قضى

ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أن يدرك كلاً منهما شيء من الضعف البشري، ثم تتداركهما رحمة الله فيتوبان إليه، ويقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توبة كل منهما وإنابته إليه، وتتضح حكمة الله البالغة من إظهار ضعفهما البشري حتى لا يفتن أحد من الخلق بما وهبهما الله ـ تعالى ـ من نعم غير عادية فيعبدهما من دون الله، أو يشرك بهما معه كما فعل أتباع عيسى من بعده، ثم جاءت قصة نبي الله داود (على نبينا وعليه من الله السلام) تجسيداً لابتلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصالحين من عباده وتطهيراً لهم، وتكفيراً عن خطاياهم مهما قلّت، وتزكية لنفوسهم، ورفعاً لدرجاتهم عند ربهم، وتجسيداً أيضاً لصبر نبي الله داود على البلاء حتى كشفه عنه رب العالمين برحمته.

وجاء هذا القصص توجيهاً لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به في كل زمان وفي كل مكان بضرورة الصبر على ما يلقاه ويلقونه من تكذيب الكفار والمشركين، ومن عنتهم واضطهادهم وظلمهم، وتأكيداً له ولهم أن التوفيق، والفضل، والرعاية، والهداية، والنصر، والتأييد، والتمكين في الأرض كله من الله ـ تعالى ـ الذي تعهد بنصرة عباده المؤمنين.

وتعاود الآيات تعظيم القرآن الكريم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ «سورة صٓ، الآية: 29».

وتعرض سورة «صٓ» لمشهد من مشاهد الآخرة يصور ما ينتظر المتقين من نعيم مقيم، وما ينتظر الكفار والمشركين من عذاب مهين وتخاصمٌ في النار أياً كانت مكانتهم في الدنيا، ومهما استكبروا وعلوا فيها، وتجبروا على المستضعفين من خلق الله.

وتأييداً لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ تورد سورة «صٓ» جانباً من قصة أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مما يشهد بالنبوة وبالرسالة لسيدنا محمد ﷺ، لأنه لا يمكن له أن يكون قد تلقى هذه المعلومات الدقيقة عن غير الله الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وفي ثنايا تلك القصة ما يؤكد عداوة إبليس اللعين لبني الإنسان أجمعين، وحسده لأبيهم آدم، ومعصيته لرب العالمين مما كان سبباً في طرده من الجنة ولعنته إلى يوم الدين، ولذلك تعهد بمحاولة غواية أبناء آدم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين.

وتختتم سورة «صٓ» بأمر من الله ـ تعالى ـ لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يقول لقومه من أهل الجزيرة العربية، وللبشرية كلها من بعده إلى يوم الدين أنه لا يسأل أحداً الأجر على

دعوته التي لم يتكلفها من عنده، بل هو وحي الله الخالق الذي أنزله بعلمه، وأمره بتبليغه، وحفظه بعهده لكي يكون ذكراً للعالمين إلى يوم الدين، وأن كل ما في القرآن الكريم من حروف، وكلمات، وآيات، وسور، وأوصاف، وتشبيهات وأمثال، وأحكام، وأوامر، ونواه، وقصص هي حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن هذا الحق سوف يتجلى للناس بعد زمن المصطفى ﷺ، كما تجلى لهم بوجوده بينهم، وكما يتجلى لنا في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، ولغيرنا من بعد ذلك إلى يوم الدين بكيفيات ووسائل يعلمها رب العالمين ولذلك اختتمت سورة «صَ» بقول ربنا - تبارك وتعالى - آمراً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۞﴾ «سورة صَ، الآيات: 86 - 88».

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «صَ»:

1 - الإيمان بأنه ما من إلٰه إلا الله الواحد القهار، العزيز الغفار، وأن خزائن رحمته لا تنتهي، وأنه هو الوهاب، وأن توحيده ﷻ حق له على جميع خلقه توحيداً خالصاً، وتنزيهاً كاملاً بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد.

2 - التسليم بأن القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم الذي أكمل به الدين، وأتم النعمة بتعهده - جل شأنه - بحفظه إلى يوم البعث، وأنه كتاب مبارك لا يدرك قدره إلا أولو الألباب.

3 - اليقين بأن الله - تعالى - أنزل هدايته للبشرية بالوحي إلى سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين الذين ختمهم ببعثة سيدنا محمد ﷺ، وأن الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله بغير تمييز ولا تفريق هو من صلب الدين، وأن تكذيب أيٍّ من رسل الله هو تكذيب بهم جميعاً يستوجب العقاب في الدنيا قبل الآخرة.

4 - التصديق بأنه ما على الرسول من رسل الله إلا البلاغ المبين، ولذلك وصف الله - تعالى - خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بأنه (نذير مبين).

5 - التسليم بما أصاب الكفار والمشركين من الأمم السابقة من عذاب وصفه القرآن الكريم.

6 ـ الإيمان بالآخرة وبما فيها من بعث للخلائق، وعرضهم أمام الخالق ﷻ، وحسابهم على ما قدموا في الدنيا من أعمال، ومجازاتهم عليها إما بدخول الجنة أو بدخول النار، وبأنها جنة أبداً أو نار أبداً؛ أي: خلود بلا موت.

7 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ سوف يملأ جهنم بإبليس وبجميع من تبعه من خلق الله الذين سوف يتخاصمون في النار بغير طائل ولا جدوى.

8 ـ التصديق بكل المعجزات التي أجراها الله ﷻ على أيدي أنبيائه ورسله، كما جاء وصفها في القرآن الكريم، والتصديق كذلك بكل ما أورده هذا الكتاب الحكيم من قصص.

9 ـ التسليم بوصف القرآن الكريم لكل من نعيم الجنة، وجحيم النار، وبجميع الأحداث المستقبلية التي أوردها في ذلك الوصف، انطلاقاً من اليقين بأن الله ـ تعالى ـ يرى الماضي والحاضر والمستقبل في وقت واحد؛ لأنه خالق كلٍّ من المكان والزمان الذي يحد بهما حركات الخلائق وسكناتهم، وهما لا يحدان الذات الإلٰهية أبداً؛ لأن المخلوق لا يحد خالقه.

10 ـ اليقين بأن رزق الله ـ تعالى ـ لا ينفد أبداً، وأنه ﷻ هو الرزاق ذو القوة المتين.

11 ـ الإيمان الكامل بقصة الخلق كما أوردها القرآن الكريم، على الرغم من كل تخرصات المتخرصين من القدامى والمعاصرين.

من الإشارات الكونية في سورة «صٓ»:

1 ـ الإشارة إلى وجود حيز فاصل بين السمٰوات والأرض، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الغلاف الغازي للأرض مكوّن جزئياً من غازات أطلقها الله ـ تعالى ـ من داخل الأرض، فاختلطت بالمادة بين أجرام السماء اختلاطاً كاملاً حتى أصبحت تركيباً مغايراً لكل من الأرض والسماء، ولعل ذلك هو المقصود بتعبير: ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ والذي جاء ذكره مرتين في هذه السورة المباركة، وعشرين مرة في القرآن الكريم كله.

2 ـ تأكيد خلق السمٰوات والأرض وما بينهما بالحق أي: بعدد من القوانين المنضبطة،

والسنن الصحيحة التي تعكس شيئاً من صفات الخالق العظيم، وتنفي الادعاءات الباطلة بالعشوائية أو الصدفة.

3 ـ الإشارة إلى خلق الإنسان من طين، والتركيب الكيميائي لجسم الإنسان ونماء جسده بتناول الغذاء المستمد من طين الأرض يؤكد هذه الحقيقة.

4 ـ ذكر تسبيح كلٍّ من الجبال والطير، والعلوم المكتسبة تؤكد أن كل خلق من خلق الله من الجمادات والأحياء له قدر من الإدراك الخاص به، والذي يعينه في قضية التعرف على خالقه سبحانه وتعالى والمداومة على ذكره، والتسبيح بحمده بلغة لا يدركها إلا ذوو القلوب الطاهرة، والنفوس الشفافة، والأرواح العارفة بخالقها.

5 ـ وصف الخيل بوصف ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، والإشارة إلى أن من أفضل وسائل التآلف معها وترويضها هو المسح بكل من سيقانها وأعناقها، وهذه من مواطن الإحساس المرهف فيها كما أثبتت دراسات سلوك الحيوان.

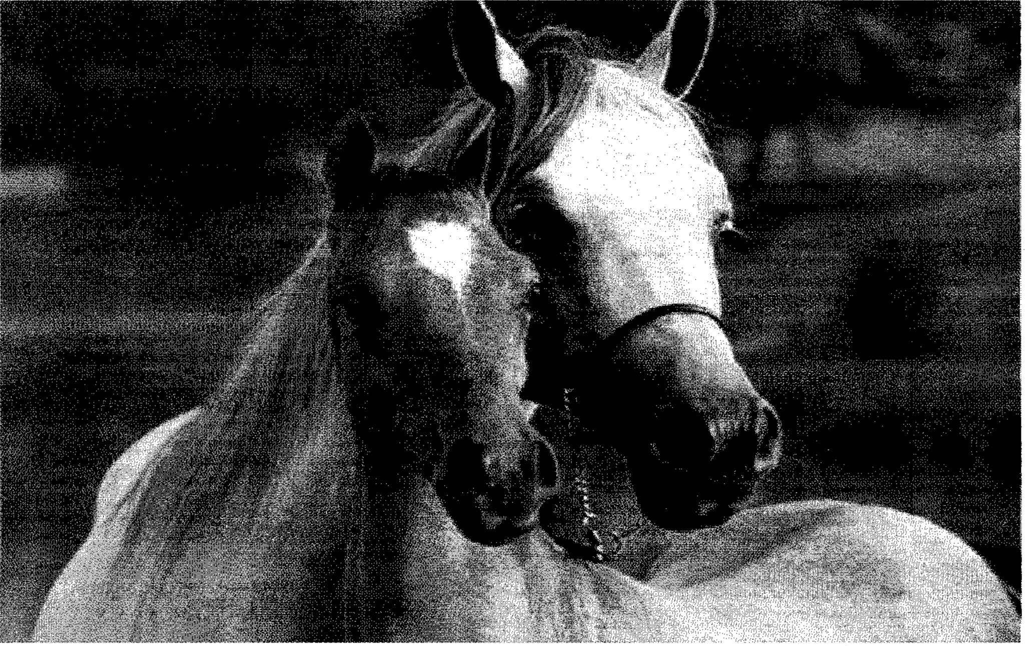
وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولكني سوف أركز هنا على النقطة الأخيرة من القائمة السابقة والتي عرضتها الآيات (31–33) من سورة «صَ»، ولكن قبل البدء في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآيات الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝﴾ «سورة صَ، الآيات: 31 ـ 33».

- ذكر ابن كثير رحمه الله، ما مختصره: «يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود «سليمان» أي نبياً، كما قال عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره... وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان بأنه كان كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾



أي إذ عرض على سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حال مملكته وسلطانه الخيلُ الصافنات، قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع... وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين: أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يُقْطَعُ به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والأول أقرب لأنه قال بعده: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ قال الحسن البصري: كأنه قال: لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف، ولهذا عوضه الله عز وجل ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل».

وأغلب الظن أن هذا التفسير الأخير من الإسرائيليات التي تسربت إلى عدد من كتب التفسير.





- وذكر الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدَّم ـ كلاماً رائعاً نوجزه فيما يلي: «.... والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهي الخيل الكريمة، وعن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان.. كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما، فهي إما إسرائيليات منكرة، وإما تأويلات لا سند لها... أما قصة الخيل فقيل: إن سليمان عليه السلام استعرض خيلاً له بالعشي، ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب، فقال: رُدُّوها عليَّ، فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه. ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً في سبيل الله.. وكلتا الروايتين لا دليل عليها، ويصعب الجزم بشيء عنها. ومن ثم لا يستطيع متثبت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في القرآن الكريم. وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان عليه السلام في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان كما يبتلي الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم، ويبعد خطاهم عن الزلل. وإن سليمان أناب إلى ربه ورجع، وطلب المغفرة، واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام أنه لم يُرِدْ به أثرة، إنما أراد الاختصاص الذي يتجلَّى في صورة معجزة، فقد أراد به النوع، أراد به ملكاً ذا خصوصية تميزه عن كل ملك آخر يأتي بعده، وذا طبيعة معينة، ليست مكررة ولا معهودة في الملك الذي يعرفه الناس. وقد استجاب له ربه، فأعطاه فوق الملك، ملكاً خاصاً لا يتكرر، وصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ❁ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ❁ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ❁ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ❁ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ❁﴾ «سورة صَ، الآيات: 36 ـ 40»».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لما ذكره ابن كثير، وإن تميز بعض المفسرين عن بعض في إيراد عدد من التفاصيل التي لم يذكرها غيره، وبعض الاستنتاجات الخاصة به، وقد ردَّ الشهيد سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك وفنَّده.

من الدلالات اللغوية لألفاظ الآيات القرآنية الثلاث:

﴿إِذْ عُرِضَ﴾: بمعنى أُبْرِزَت له حتى نظر إليها من (عرض) (يعرض) (عرضاً) أي أظهر يظهر ظهوراً، والفعل في الآية الكريمة مبني للمجهول.

﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: العشي = الفترة الزمنية من زوال الشمس إلى غروبها، وصلاتا العشي هما الظهر والعصر، فإذا غابت الشمس فهو العشاء الأول والآخر وإن قال بعض اللغويين إن (العشي) و (العشية) من صلاة المغرب إلى العتمة، و (العشاء) مثل (العشي) (والعشاءان) المغرب والعتمة. وزعم البعض الآخر أن العشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وهو تعريف مبالغ فيه. و(العشا) مقصور مصدر (الأعشى) وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار، والمرأة (عشواء)، ويقال: (أعشاه) الله (فعشي)، (يعشى) (عشاً).

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: (الصافن) من الخيل هو القائم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر. ويقال: (صفن) الفرس (يصفن) (صفوناً) فهو (صافن) أي صفّ أقدامه، وجمعه (صفون) وذلك لأن (الصفن) هو الجمع بين الشيئين ضاماً بعضهما إلى بعض، و(الصفون) صفة دالة على فضيلة في الفرس.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾: جمع (جواد)، وهو الفرس السريع الجري، الجيد الركض، السابق في العدو (ذكراً كان أو أنثى)، يقال: فرس (جواد) أي يجود بمدخر عدوه، ويقال: (جاد) الفرس (يجود) (جودة) فهو (جواد) إذا أسرع في جريه وعدوه، والجمع (جياد). و(الجواد) في الأصل منسوب إلى (الجود) وهو بذل الكثير من المقتنيات مالاً كان أو علماً أو جهداً،

ولذلك يقال: رجل جواد، وفرس جواد، كما يقال فرس (حصان) لكونه حصناً لراكبه، ويطلق على كل ذكر من الخيل، وجمع الحصان (أحصنة). واسم (الخيل) مستمد من الخيلاء لأن (الخيل) تتخايل في سكونها، وفي حركاتها لما تستشعره من فضل الله ـ تعالى ـ عليها من الجمال، والقوة والذكاء، والقدرة على إدراك ما لا يدركه كثير غيرها من الحيوانات. ولفظ (الخيل) كما يطلق على الأفراس فإنه يطلق مجازاً على الفرسان كذلك، تأولاً لما قيل إنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه شيئاً من الخيلاء والزهو والشجاعة والنخوة وذلك من نحو ما قيل: يا خيل الله اركبي، والخطاب هنا للفرسان، وقول المصطفى ﷺ: «**عفوت لكم عن صدقة الخيل**» يعني الأفراس، و(الخيالة) هم أصحاب الخيول. ويقول ـ عز من قائل ـ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 8». وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ «سورة الأنفال، الآية: 60». أي الخيل التي تربط في سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ استعداداً للجهاد دفعاً لعدوان المعتدين ولظلم الظالمين، وتأميناً لعباد الله من المسلمين الذين اختاروا عقيدة التوحيد الخالص لرب العالمين حتى لا يفتنوا عنها، ولا يجبروا على الخروج منها.



من الدلالات العلمية للآيات الكريمة الثلاث:

أولاً: الإشارة إلى فضيلة الخيل في السكون والحركة:

في هذه الآيات القرآنية الكريمة وصفت خيل نبي الله سليمان ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ بوصفين هما ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ وهو مدح لها: واقفة ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، وجارية ﴿ٱلۡجِيَادُ﴾، فإذا وقفت كان ذلك على ثلاثة قوائم وعلى طرف حافر القائم الرابع، وذلك من علامات السكون، والاطمئنان، والثقة، والخيلاء بما أفاء الله ـ تعالى ـ عليها من قوة في البنية، وجمال في المظهر، وقدرات على الحس والإدراك، وإذا جرت كانت في عدوها سباقة راكضة كأحسن ما تكون الجياد، ولذلك فإن نبي الله سليمان من شدة إعجابه بها، وانبهاره بجمالها وحسن مظهرها، لم يدرك مرور الوقت طيلة استعراضه لها حتى فات عليه ذكر خاص له كان يؤديه في ذلك الوقت ولم يتذكره حتى غابت الشمس، واختفت الخيل عن الأنظار، فتأسَّف على ذلك أسفاً شديداً يرويه القرآن الكريم على لسانه فيقول: ﴿...إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ «سورة ص، الآية: 32».

أي آثرت حب الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله، ولم أتذكره حتى توارت الخيل عني باحتجابها، أو توارت الشمس بغروبها، أو حتى حدث الأمران معاً.

والخيل من الحيوانات الثديية المشيمية ذات الحافر(Ungulate Placental Mammals) وتجمع في رتبة خاصة بها تعرف باسم رتبة فردية أصابع الحافر:
(Odd-toed Ungulates = Order **Perissodactyla**) وذلك لتميزها بإصبع واحد كبير عامل في كل قدم، وهو مغطى بالحافر الواقي له من الصدمات من أجل حمايته. والحيوان الحافري إما أن يكون فردي الأصابع من مثل الخيل، والبغال، والحمير، والحمير الوحشية وأشباهها، وإما أن يكون زوجي الأصابع:
(Even-toed Ungulates = Order **Artiodactyla**) من مثل مختلف الأنعام (الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، والغزلان، والزرافات، وأشباهها).

والخيل من الحيوانات آكلة الأعشاب والحبوب النباتية (Herbivorous) ولذلك تتميز بأسنانها الكبيرة، ذات السطوح العريضة، المزودة بعدد من البروزات المناسبة لجرش وطحن هذا النوع من الغذاء (مثل الحشائش، التبن، الدريس، الردة، الفول، الشعير،

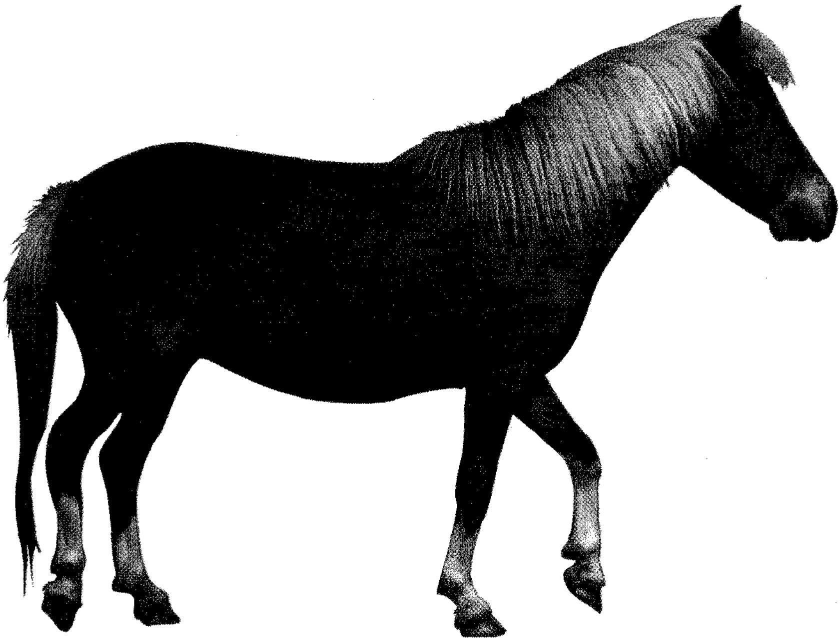
الشوفان وغيرها من الحبوب) وتكثر هذه البروزات على أسطح تيجان طواحين الخيل. ويتبع الحصان (**Equus horse**) فصيلة الأحصنة وأشباهها (Family **Equidae**) التي تشمل كلاً من الحصان، والحمار، والحمار الوحشي (المخطط)، وهي جزء من رتيبة (تصغير رتبة) الأفراس المعروفة باسم (Suborder **Hippomorpha**) والتي تشمل بالإضافة إلى فصيلة الأحصنة عدداً من الفصائل المنقرضة التي عمرت الأرض منذ حوالي خمسين مليون سنة مضت في (عهد الإيوسين)، أما الحصان الذي نعرفه اليوم فلم يعرف قبل المليونين الأخيرين من عمر الأرض المقدر بحوالي خمسة آلاف مليون سنة على أقل تقدير، وهو يحيا عادة في قطعان وذلك من قبل استئناسه، وقد تم استئناس الأحصنة منذ حوالي خمسة آلاف سنة مضت، وذلك لاستخدامها في الركوب، وحمل الأثقال، وجر العربات، وفي غير ذلك من أعمال الانتقال، والزراعة، والحروب، والرياضة، وغيرها.

والحصان حيوان قوي البنية، شديد الذكاء، نبيل الطباع، قوي الذاكرة، له قدرة التعرف على الأشخاص، والحكم على المواقف، كما أن له قدرات فائقة على الشم، والسمع، وعلى معرفة الاتجاهات والطرق والأماكن وتذكرها حتى بالليل وبعد فترات زمنية طويلة من مغادرتها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحصان حيوان هادىء ورصين، ليست له طبيعة عدوانية إلا إذا هوجم بشيء من القسوة، وهو يهرب عادة من المواجهة التي يخافها، ويقلق لأقل سبب لما له من طبيعة رقيقة، ويظهر ذلك عليه بشيء من الوجوم وعدم الحركة، ولكن إذا جوبه بالخطر أو إذا أسيئت معاملته فإنه يستطيع ضرب عدوه برجليه الأماميتين وبرقبته حتى يطرحه أرضاً. والحصان له رأس مستطيل، يحمل أكبر عينين لحيوان معاصر مقارنة إلى حجمه؛ ولذلك فإن الذاكرة البصرية عنده عالية جداً مما يجعله يجفل عند رؤيته لمكان أو لشيء أفزعه من قبل، وكذلك فإن ذاكرته السمعية لا تقل حدة عن ذاكرته البصرية، مما يدفع بالمدربين للجياد إلى استخدام نفس الجمل، ونفس نبرات الصوت في توجيهها، بل إن بعض الجياد يمكنها استقراء رغبات كل من مدربيها وراكبيها قبل أن ينطقوا بها. والجواد فوق ذلك يستشعر الحالة النفسية لراكبه من قلق واضطراب، أو ثقة واطمئنان، ويتصرف على أساس من ذلك، فإذا أساء الراكب معاملته فإن الجواد يستطيع الانتقام منه بطرق متعددة، كما يمكن له أن يعبر عن طاعته لصاحبه، وعن وفائه له وثقته فيه وعاطفته تجاهه

وذلك بتعبيرات وجهه، وحركات أذنيه، وإيماءات رأسه، أو إظهار أسنانه، أو العض عليها، وبصوته ومختلف نبرات صهيله، أو بالركل بأرجله الخلفية في تناغم جميل كما يمكنه الإتيان بالعديد من الأعمال التي تعبر عن ذكائه، من مثل فتح غطاء صندوق العلف المغلق أمامه، أو فتح باب الإصطبل الذي يحتجز فيه إذا أراد الخروج منه. وتتفاوت قدرات الخيل في ذلك تفاوتاً كبيراً حتى ليكاد أن يكون لكل فرد منها شخصيته الخاصة، وصفاته المميزة له. وللخيل قدرات فائقة على التلقي والإدراك، وعلى التعاطف مع من يعتنون بها، أو مع أفراد معينين من أسرة مالكيها، كما أن لها القدرة على كراهية أفراد آخرين والنفور منهم دون سبب واضح. ولشدة الحاسة السمعية عند الخيل فإنها تستشعر الهزات الأرضية عند بدء انبثاقها فتهرب منها، وذلك قبل أن يدركها الإنسان بعدة ساعات. وللحصان ثماني عشرة عضلة لتحريك الأذن في (180) درجة، ولذلك فهو شديد الانتباه إلا في حالات النوم العميق، وهذا لا يحدث إلا على فترات قصيرة جداً في كل يوم.

وبالإضافة إلى ذاكرتيها البصرية والسمعية فإن للخيل حاسة شم قوية يتعرف بها على رفاقه، وعلى أصحابه، كما يمايز بها بين طعام صالح أو فاسد، وماء عذب أو آسن، ووسط



نظيف أو قذر، وذلك لأن الخيل تأنف من الروائح الكريهة، وهذه الصفات كلها (وغيرها كثير) تشير إلى فضائل الخيل بصفة عامة، وإلى خيل سليمان عليه السلام، بصفة خاصة.

ثانياً: الإشارة إلى أن اللمس يلعب دوراً مهماً في حياة الخيل:

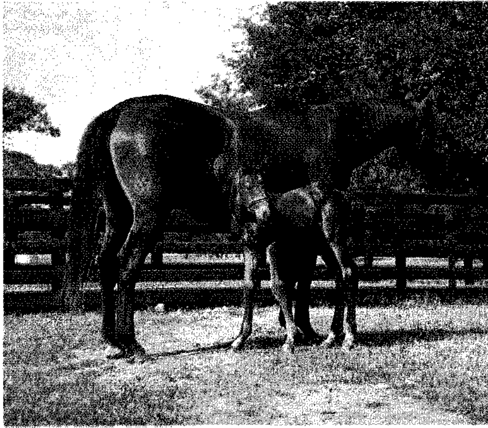
تقول الآيات القرآنية الكريمة التي نحن بصددها في وصف تعامل نبي الله سليمان عليه السلام مع خيله ما نصه: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ «سورة ص، الآية: 33».

والدراسات المتأخرة في علم سلوك الحيوان تؤكد أن المسح لسيقان الخيل وأعناقها يلعب دوراً مهماً في تطمينها وإشعارها بالود والمحبة، فجلد الخيل من أكثر أجزاء جسده حساسية للمس، لدرجة أنها تشعر بالذبابة تحط عليه، وتعمل على طردها بحركة عضلاتها القوية التي تنقبض وتنبسط بسرعة فائقة فتهش الذبابة عن جسمها. وأكثر مناطق جسم الحصان حساسية للمس هي سيقانه وعنقه وما حول رأسه، لأن لكل حصان نقطة توازن في مركز رأسه وخلف كتفيه، ومن هنا كانت الإشارة القرآنية إلى فعل سليمان بخيله والتي يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:.... ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾. سبقاً علمياً ومعجزة حقيقية لأن هذه المعلومات لم تدرك إلا في خلال القرن العشرين بعد تبلور علم سلوك الحيوان (Animal Behaviour).

ومن مناطق الحس المرهف في جسم الحصان كذلك: العين والأذن، فهو لا يحب أن تشد أذنه، ولا يحب أن ينظر إلى عينه مباشرة أحد غير صاحبه، لأنه يشعر أن في ذلك نوعاً من التهديد له، لأن لكل عين من عيني الحصان جهازاً خاصاً لتضخيم كم الضوء الواصل إليها بإعادة عكسه لعدة مرات على شبكية العين مما يعينها على وضوح الرؤية مهما كان الضوء ضعيفاً، وإن كانت الخيل تنزعج من العتمة الكاملة ولذلك تنشط الخيل في الفجر وعند الغسق، وتقلق لرؤية أي عارض ولو من بعيد. والخيل تدرك أبسط الحركات من حولها، لأنها تستطيع الرؤية بكل عين منفردة، كما أن لها رؤية مزدوجة بالعينين معاً في حدود (60) إلى (70) درجة من الأفق أمامها، وبذلك تكاد تغطي الأفق كاملاً بالعينين معاً وبكل عين منفردة في جهتها.

ويمكن لراكب الفرس أن يعبر له أو لها بما يشاء عن طريق اللمس، كذلك يمكن للفرس أن يتفاهم مع غيره من الأفراس عن طريق الأصوات أو عن طريق لمس جسديهما ببعض.







ثالثاً: الإشارة إلى دور أنثى الخيل في تدبير أمر جماعتها:

تثبت الدراسات المتأخرة في علم سلوك الحيوان أن الخيل هي حيوانات اجتماعية بطبيعتها الفطرية، تحيا منطلقة في البراري في قطعان من أربعة إلى عشرة أفراد في المتوسط، وإن كانت بعض قطعانها قد يصل إلى أكثر من ذلك بأضعاف عديدة. وتعتمد كل واحدة من هذه الجماعات على العائلة التي تضم مهرة واحدة أو مهرتين وأنسالهما حتى أعمار سنتين إلى ثلاث سنوات، وعلى مهر واحد أو على أكثر من مهر في المجموعة.

والإناث في جماعة الخيل هي الآمرة، الحاكمة، صاحبة القرار على باقي أفراد القطيع، والمهر الذي يصحبه (أو المهران أو الأمهار إذا كانوا أكثر من اثنين) دوره حراسة القطيع، دون أن يكون له دور في القيادة، ومن هنا كانت الإشارة في الآيات القرآنية المستشهد بها هنا إلى الجياد بالتأنيث (الصافنات الجياد) سبقاً علمياً حقيقياً جاء قبل توصل العلوم المكتسبة في فرع سلوك الحيوان بأكثر من اثني عشر قرناً. ومن العجيب أن تتبادل الإناث في القطيع الواحد قيادة القطيع، الواحدة تلو الأخرى حتى لا تكون السيادة مطلقة لواحدة منهن، بينما في عالم الأناسي من وصل إلى كرسي السلطة لا يريد أن يغادره أبداً إلا بالموت أو الانقلاب العسكري.



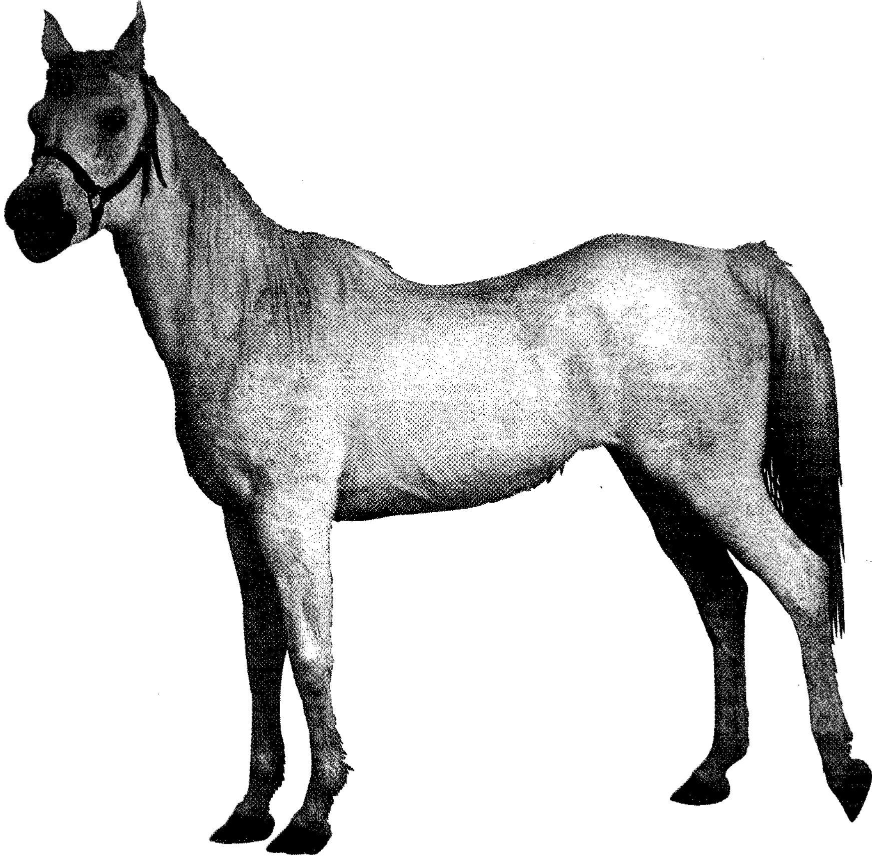
وأنثى الخيل هي الموجهة الفعلية والمربية الحقيقية لصغارها، فإذا أخطأ أحدهم نهرته وعاقبته، ويصل العقاب إلى حد الطرد من مرافقة القطيع لفترات تطول بنسبة تتوافق مع حجم الجرم المقترف، فإذا انتهت مدة العقاب عاد إلى حدود أرض القطيع مستأذناً بعودة الانضمام إليه، فإذا واجهته رئيسة القطيع بأنفها كان في ذلك إذن بعودته للانضمام إلى القطيع، وإن قابلته بمؤخرتها كان ذلك رمزاً لرفض طلبه، واستمراراً للعقوبة عليه فعاد من حيث أتى.

هذه الإشارات إلى فضائل الخيل في كل من السكون والحركة، وإلى خيلائها بما حباها الله ـ تعالى ـ من الذكاء والفطنة والجمال والقدرة على الإدراك، وإلى إحساسها المرهف للمس خاصة حول رأسها وعنقها وسيقانها، وإلى دور الأنثى القيادي في قطعانها، هذه كلها من الحقائق التي لم تصل إلى علم الإنسان إلا بعد اهتمامه بسلوك الحيوان في القرنين الماضيين على أحسن تقدير، ومن هنا كان ورود تلك الحقائق بهذه الدقة والوضوح في القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمِمَّا يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة

بشرية، بل هو كلام الله الخالق ﷻ، ويشهد للنبي الخاتم الذي تلقّاه بالنبوة وبالرسالة، ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه:

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ «سورة الأحزاب، الآية: 4».

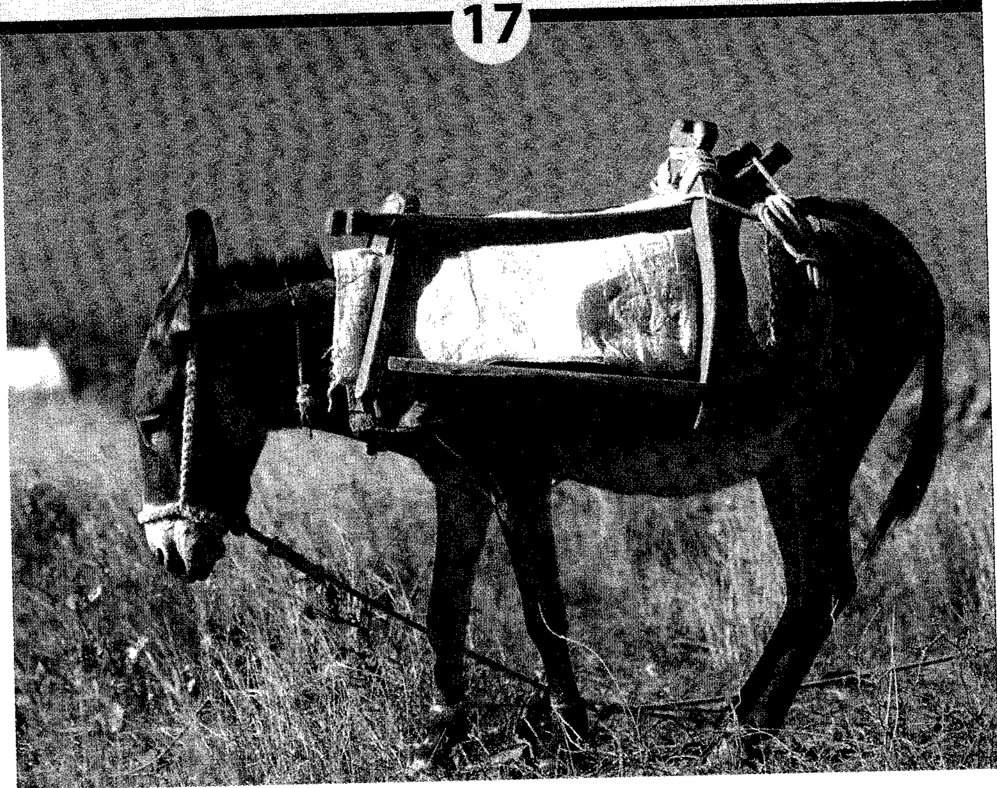
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



ٱلْمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا
ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ
مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩

سُورَةُ لُقْمَانَ

17



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾

«سورة لقمان، الآية: 19».

17



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بدايات النصف الثاني من سورة «لقمان»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها أربع وثلاثون (34) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى لقمان الحكيم، وهو شخصية لا يعرف المؤرخون كثيراً عنها، فقد قيل إنه نوبي، أو سوداني أو حبشي أو عبري، وجمهور الذين ذكروه مجمعون على أنه لم يكن نبياً، وإن كان قليل منهم يرجح نبوته لذكر القرآن الكريم له بالاسم، وإطلاق اسمه على هذه السورة الكريمة، وإن كانوا يجمعون على أنه كان من الأحناف الذين دانوا أنفسهم بالحنيفية السمحة، وذلك لما اشتهر به من التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ، ونبذ الشرك، والحكمة، والدعوة إلى مكارم الأخلاق التي روت سورة «لقمان» طرفاً منها في مقام نصيحة لقمان الحكيم لابنه.

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها: التوحيد الخالص لله تعالى ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وتنزيهه ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله، والإيمان بحقيقة الوحي، والنبوة، والرسالة، واليقين بضرورة البعث، والحساب، والجزاء، والجنة، والنار، والتسليم بملكية الله الخالصة للسمٰوات والأرض وما فيهما، وبشمول علمه ﷻ لكل شيء، وبضرورة الخضوع لأوامره، واجتناب نواهيه في عبودية خاضعة، وعبادة خالصة له وحده ـ سبحانه ـ، والالتزام بمكارم الأخلاق، ومن ألزمِها: بر الوالدين، ومنها النهي عن الغرور الكاذب، والتكبر على الخلق، والاختيال بالجاه والسلطان، والعجب بالنفس، والتفاخر بالمكاسب المادية الزائلة، وكلها من مداخل الشيطان الذي أمرنا بمعصيته ومعاداته، ومنها الاقتصاد في المشي، والغض من الصوت تواضعاً لله ـ تعالى ـ، وشكراً له على نعمه الظاهرة والباطنة، ومنها

إسلام الوجه لله الخالق البارئ المصور، مع الإحسان إلى الخلق، والاستمساك بالعروة الوثقى، واليقين بأن الله ﷻ هو الحق، وأن ما يدعو المشركون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير.

وبشَّرت السورة المحسنين بالنعيم المقيم، وأنذرت الكافرين بالعذاب الأليم، وختمت بما استأثر الله ـ تعالى ـ بعلمه من أمور الغيب التي لا سبيل للإنسان في الوصول إلى علم شيء منها إلا عن طريق وحي السماء، وفي ذلك تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ «سورة لقمان، الآية: 34».

هذا، وقد استشهدت السورة الكريمة في سياق ذلك بعدد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، والشاهدة للخالق ﷻ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، والشاهدة له ـ تبارك اسمه ـ بأنه كما خلق فإنه قادر على إفناء خلقه، وعلى بعثه وحسابه وجزائه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

عرض موجز لسورة «لقمان»:

تبدأ سورة «لقمان» بثلاثة من الحروف الهجائية المقطعة هي ﴿الٓمٓ﴾ التي تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم هي: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، والسجدة، وجاءت هذه الحروف الثلاثة بإضافة الحرف (ص) في مطلع سورة الأعراف ﴿الٓمٓصٓ﴾، وبإضافة الحرف (ر) في مطلع سورة الرعد ﴿الٓمٓرۚ﴾.

وقد قيل في هذه المقطعات أنها قد تكون رموزاً إلى كلمات أو معان أو أعداد معينة، أو أنها أسماء للسور التي جاءت في أوائلها، أو هي من قبيل التحدي للعرب بالقرآن الكريم الذي لم تتجاوز حروفه حروف لغتهم، وعلى الرغم من ذلك فقد عجزوا ـ وسوف يظلون عاجزين ـ عن الإتيان بشيء من مثله. وقيل فيها إنها من وسائل قرع الأسماع والقلوب كي تتنبه لتلقي القرآن الكريم، وقيل إنها من قبيل استهلالات العرب؛ أي إنها مجرد فواتح للسور، أو أن كل حرف منها يدل على كلمة محددة المعنى الذي يستخرج من مضمون السورة، أو إنها من دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ وصدق رسالته، بسبب نطقه بأسماء الحروف ـ وهو الأمي ـ، والأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها. وقد تجمع

بين كل هذه الأقوال وغيرها، أو إنها من أسرار القرآن الكريم التي لم يأذن الله ـ تعالى ـ بعد بالكشف عن مدلولاتها والله ﷻ أعلم بمضمونها.

وبعد هذا الاستهلال مباشرة جاء الثناء على القرآن الكريم وعلى المؤمنين به وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿الٓمٓ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ * هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ *﴾ «سورة لقمان، الآيات: 1 ـ 5».

ثم عرجت الآيات إلى استنكار عمل من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزواً ليضل الناس عن طاعة الله ويصرفهم عن التمسك بآداب دينه.

وقد قيل في لهو الحديث أنه كل ما كان ملهياً عن طاعة الله من وسائل الترفيه الحرام، كالتمثيل الفاضح الذي تكشف فيه العورات، والغناء الماجن الذي تتجاوز فيه حدود الأدب، ومشاهدته أو الاستماع إليه، وما تمتلىء به وسائل الإعلام في أيامنا هذه من أعمال وأقوال تخدش الحياء وتنحط بالذوق السليم، وتصرف الناس عن كل جاد وهادف ومفيد في هذه الحياة، وتدعو إلى الفواحش من القول والرذائل من السلوك والأعمال وقدرت السورة الكريمة أن الواقعين في ذلك لهم عذاب مهين في الدنيا قبل الآخرة.

وفي النهي عن ذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**لا تبيعوا القينات، ولا تشتروهنّ، ولا تعلموهنّ، ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام**»[1] والقينات هنّ المغنيات.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية الكريمة كانت قد نزلت في رجل من كفار قريش اشترى جارية مغنية، وكان حريصاً على أن يصرف أوقات الناس في الاستماع إليها، وكان إذا تليت عليه آيات القرآن الكريم انصرف عنها مستكبراً متعالياً، ومتغطرساً مجافياً كأن أذنيه قد أصيبتا بالصمم الثقيل فلم يسمعها تماماً كما يفعل العديد من الضالين ومن أهل الإعلام الفاسد في زماننا. وتطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ـ كما تطالب كل

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 1282) و(الحديث: 3195)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2168).

متبع لهديه من بعده ـ أن يبشر هؤلاء اللاهين وأشباههم بالعذاب الأليم في الدنيا وبالعذاب المهين في الآخرة.

وفي المقابل تؤكد الآيات الكريمة في سورة «لقمان» أن الذين آمنوا ببعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ وبرسالته، وعملوا الصالحات فإن لهم جنات النعيم خالدين فيها أبداً، وأن هذا هو وعد الله الحق الذي لا يخلف، والله هو العزيز الحكيم.

واستشهدت السورة الكريمة بعدد من آيات الله الكونية الدالة على طلاقة قدرته المبدعة في الخلق، ثم تخاطب الناس جميعاً بقوله (عز من قائل):

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «سورة لقمان، الآية: 11».

ثم أثنت الآيات على عبدٍ من عباد الله آتاه الله الحكمة هو لقمان فعرف باسم لقمان الحكيم، والحكمة تقتضي الوضاءة في الفهم، والفقه في الدين، والإصابة في الحكم، ومن صميمها أن يكون العبد شاكراً لأنعم الله، فبالشكر تدوم النعم، ويُجْزَلُ الثواب من الله ـ تعالى ـ وبالكفر يستحقّ العبد النقم ولذلك يقول ربنا وهو أحكم القائلين:

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ «سورة لقمان، الآية: 12».

ومن سمات حكمة لقمان نهي ابنه ـ وهو يعظه ـ عن الشرك بالله الذي وصفه بأنه من أبلغ صور ظلم الإنسان لنفسه.

وتوصي الآيات الأبناء ببر الوالدين؛ مستشهدة بحمل الأم لجنينها وهناً على وهن لفترة تتراوح بين الستة والتسعة شهور؛ أي: ضعفاً على ضعف طوال فترة الحمل، ثم رعايته حتى يفطم بعد ذلك بعامين، وهذا مما يستوجب الشكر أولاً لله ـ تعالى ـ على الخلقة والرعاية الإلٰهية طيلة مدة الحمل حتى يخرج الحميل حياً من بطن أمه، والشكر للوالدين ثانياً على تحملهما ما رافق ذلك الحمل والوضع والرضاع من مشاق، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ «سورة لقمان، الآية: 14».

وحتى في حالة إيمان الابن وكفر الوالدين أو شركهما بالله ـ تعالى ـ فإن الآيات توصي الابن بعدم طاعتهما في أمر الدين، وبطاعتهما فيما سواه من أمور الدنيا التي لا تُحَمِّله تبعة أو مسؤولية أمام الله ﷻ، وأن يتبع سبيل من تطهر من أدران الكفر والشرك، وقيل إن المقصود بهذا الوصف القرآني هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد عاد إلى ربه في توبة صادقة، وبراءة كاملة من شرك قومه حين آمن بخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وصدقه، وإن كانت العبرة في القرآن الكريم هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

«سورة لقمان، الآية: 15».

وقيل إن هذه الآية الكريمة نزلت في الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وذلك لأنه لما أسلم قالت له أمه «جميلة»، وكان أحب ولدها إليها لأنه كان باراً بها: «يا سعد، ما هذا الدين الذي أحدثت؟ فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح، ولا آكل ولا أشرب حتى تدع دينك هذا وترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت فتُعيَّر بي، ويقال: يا قاتل أمه» فقال لها: «لا تفعلي يا أماه فإني لا أدع ديني هذا لشيء»، وأبى سعد أن يوافقها، وصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل بظل حتى غشي عليها، فلما رأى منها ذلك قال لها: «تعلمين والله يا أماه، لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي»، فلما رأت ذلك منه أكلت، فأنزلت هذه الآية الكريمة في سعد وأمه، وتمام الآية نزل في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وقد كان سبباً في هداية سعد بن أبي وقاص إلى الإسلام.

ثم تعاود الآيات استكمال وصايا لقمان الحكيم لابنه ـ وهو يعظه ـ مؤكداً إحاطة علم الله بكل شيء، وأنه هو اللطيف الخبير، ويوصيه بإقامة الصلاة، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالصبر على المكاره، وبعدم التكبر على الخلق أو الاستعلاء عليهم، أو الزهو والتباهي والافتخار، والخيلاء، والعجب بالذات لأن الله تعالى لا يحب ذلك، ويوصيه بالاقتصاد في المشي، وبغض الصوت، وفي ذلك تقول الآيات على لسانه:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۞ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۞ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۞ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ۞﴾ «سورة لقمان، الآيات: 16 ـ 19».

وتعاود الآيات إلى تذكير الناس بأن الله ـ تعالى ـ قد سخر لهم ما في السمٰوات وما في الأرض، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وعلى الرغم من ذلك فإن منهم من يجادل في وحدانية الله الخالق ﷻ، وفي ضرورة الخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة، من غير علم من الله، ولا برهان منطقي على ما يدعيه من أقوال، وفي ذلك يقول الله ـ وهو أحكم القائلين ـ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۞﴾ «سورة لقمان، الآيتان: 20، 21».

وتؤكد الآيات أن الناجي حقاً من عذاب الله هو الذي يسلم وجهه لربه، مقراً لجلاله بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، متقرباً إليه بالإيمان الكامل، والطاعة التامة، منفذاً لأوامره، ومجتنباً لنواهيه، ومتذللاً إليه بالعبودية الكاملة، مؤمناً بأن نهاية كل شيء إليه، ومصير كل الخلائق إليه وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ «سورة لقمان، الآية: 22».

ثم تتوجَّه الآيات بالخطاب إلى رسول الله ﷺ بألا يحزن لكفر الكافرين؛ لأن الخلق جميعهم راجعون إلى الله ـ تعالى ـ وهو العليم بذات الصدور، وتتوعَّد الآيات الكفار والمشركين والطغاة المتجبرين على خلق الله بأن إمهالهم في الدنيا بمتاعها القليل سوف يتبعه العذاب الشديد في الآخرة، والخطاب موصول لأتباع هذا النبي الخاتم إلى يوم الدين: ألا يحزنوا لكفر الكافرين، ولتطاول خفافيش الظلام الذين يتستَّرون خلف شاشات شبكة المعلومات الدولية (الشبكة العنكبوتية) أو التلفاز، أو ميكروفونات الإذاعات لينفثوا

سمومهم الحاقدة، وجهلهم الفاضح، وشركهم الكريه، وحقدهم على الإسلام وكتابه، وعلى خاتم أنبياء الله ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، فعقاب الله يتهددهم بوعده ووعيده ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وتؤكِّد الآيات لرسول الله ﷺ أنه لو سئل الكافرون عن خالق السمٰوات والأرض لأجابوا بالقطع بأنه هو الله ـ تعالى ـ، وتأمره بحمد الله ـ تعالى ـ على نعمة الإسلام الذي لا يرتضي ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده ديناً سواه، خاصة أن أكثر الناس لا يدركون فضل هذا الدين على غيره من الأديان، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞﴾

«سورة لقمان، الآيات: 23 ـ 25».

وتؤكد الآيات مرة أخرى أن جميع ما في السمٰوات والأرض هو ملك لله ـ تعالى ـ الغني عن جميع خلقه، المحمود في السمٰوات والأرض. وتعظيماً للقرآن الكريم تؤكد الآيات أن كلمات الله فيه لا تنفد أبداً مهما حاول المفسرون، واجتهد الكاتبون، وتقرر أن خلق الناس وموتهم ثم بعثهم من اليسر على الله ـ تعالى ـ كخلق نفس واحدة، وأن من صفات الله ـ تعالى ـ أنه السميع البصير.

وعاودت الآيات الاستشهاد بعدد آخر من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق والإفناء والبعث، وعلى أن الله ـ تعالى ـ خبير بما يعمل كل واحد من خلقه، وأنه ـ تبارك اسمه ـ هو الحق،وأنه هو العلي الكبير، وأن كل ما يدعون من دونه هو الباطل.

وتستعرض الآيات جانباً من طبائع النفس البشرية غير المؤمنة، ومن ذلك أنها عادة ما تلجأ إلى الله ـ تعالى ـ في ساعات الضيق والشدة، وتلهو عن طاعته في أوقات الرخاء والسعة، وضربت لذلك مثلاً بمن يقلعون في المياه المتلاطمة للبحار والمحيطات فتارة ينجون برحمة من الله وفضل، وتارة تغشاهم تلك الأمواج المتلاطمة فيلجأون إلى الله ـ تعالى ـ وحده،

وينسون كل من أشركوهم في عبادته، حتى إذا أنجاهم الله ﷻ إلى البر برحمته وفضله فمنهم من يقر بالفضل لله ـ تعالى ـ، ومنهم من يجحد ذلك كفراً بنعمة الله عليه.

وتختتم سورة «لقمان» بآيتين كريمتين تدعوان الناس جميعاً إلى تقوى الله، وإلى خشية أهوال يوم القيامة حيث لا يغني والد عن ولده، ولا مولود عن والده شيئاً، ووعد الله ـ سبحانه ـ بذلك هو الحق، وعليه فلا يجوز لعاقل أن يغتر بالدنيا الفانية، أو أن يستهويه الشيطان بالانصراف عن طاعة الله الذي عنده علم الغيب كله، ولا يعلمه سواه لأنه ـ تعالى ـ هو العليم بكل شيء، والخبير في كل أمر، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۞﴾

«سورة لقمان، الآيتان: 33، 34».

من ركائز العقيدة في سورة «لقمان»:

1 ـ الإيمان بأن القرآن الكريم هو كلام الله الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وأنه هو الكتاب الحكيم الذي جعله الله ـ تعالى ـ هدى ورحمة للمحسنين؛ وأن كلماته لا تنفد أبداً مهما حاول تفسيرها المفسرون، وكتب عنها الكاتبون.

2 ـ اليقين بأن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على القيام بذلك والدعوة إليه هو من عزائم الأمور، ومن الهداية الربانية التي تقود صاحبها إلى الفلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة، وإلى الاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

3 ـ التصديق بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم، خالدين فيها أبداً، كما وعد رب العالمين، ووعده الحق، وهو العزيز الحكيم، وأن من كفر فعليه كفره، وأن مآله إلى جهنم وبئس المصير، حتى لو تمتع بشيء من زينة الحياة

الدنيا، ومتاعها القليل، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ سوف يضطره إلى عذاب غليظ ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ *﴾ «سورة الشعراء، الآيتان: 88، 89».

4 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، بما في ذلك السمٰوات القائمة بغير عمد مرئية، والأرض التي ألقى فيها رواسي كي لا تميد بما عليها من الخلق، وبث فيها من كل دابة، وأنزل من السماء ماء فأنبت فيها من كل زوج كريم؛ وأن من هم غير الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقُون؛ وأن الله ـ تعالى ـ هو الذي سخر للناس ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنه هو الغني الحميد، واللطيف الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السمٰوات، ومن هنا كان الشكر لله ـ تعالى ـ واجباً على المخلوقين جميعاً.

5 ـ التصديق بأن الشرك بالله ـ تعالى ـ هو من أخطر درجات ظلم النفس لأن مآله وخيم، وأن الشيطان للإنسان عدو مبين، يدعوه دوماً إلى عذاب السعير.

6 ـ اليقين بحتمية الآخرة، بل بضرورتها، وبما فيها من بعث وحساب وخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وأن فيها لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً.

7 ـ اليقين بالغيبيات المطلقة التي لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ، ومنها علم الساعة، ونزول الغيث، وعلم ما في الأرحام، وما تكسب كل نفس في مستقبل عمرها، وبأي أرض تموت.

من مكارم الأخلاق في سورة «لقمان»:

1 ـ تحريم كل صور اللهو الماجن الذي تتجاوز فيه حدود الأدب، والاحتشام، والذوق السليم، فيخدش الحياء، ويدمر الأخلاق، ويفسد سلوكيات الناس، ويضل عن سبيل الله، ويجعل من الناس من يتخذ الحياة لهواً ولعباً، والأصل فيها أن تؤخذ مأخذ الجد.

2 ـ بر الوالدين، وإن كانا كافرين أو مشركين.

3 ـ التأسِّي بالصالحين، والحرص على مصاحبتهم.

4 ـ النهي عن التكبر على الخلق، وعن الاستعلاء في الأرض لأن الله ـ تعالى ـ لا يحب كل

مختال فخور، ومن هنا كانت الدعوة إلى القصد في المشي، والغض من الصوت، والتذكير بأن أنكر الأصوات هي تلك الأصوات الحادة، المرتفعة النبرة كصوت الحمير.

5 ـ التأكيد على قيمة العقل في الحكم على الدين، وهو من الأمور التي لا يجدي فيها مجرد الميراث، واستنكار الخوض في المعاصي في أوقات الرخاء والسعة، واللجوء إلى الله ـ تعالى ـ في ساعات الأزمات والضيق.

من الإشارات الكونية في سورة «لقمان»:

1 ـ الإشارة إلى خلق السمٰوات بغير عمد مرئية.

2 ـ ذكر إلقاء الجبال في الأرض رواسي لها كي لا تميد وتضطرب بما عليها من الخلائق.

3 ـ بث الحياة في الأرض من كل دابة.

4 ـ إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بواسطته حتى تنبت من كل زوج بهيج.

5 ـ تأكيد حقيقة أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأن غيره لا يخلق شيئاً.

6 ـ التوصية بضرورة الاقتصاد في المشي، والغض من الصوت، والإشارة إلى أن أنكر الأصوات هو صوت الحمير، وفي ذلك من القيم البيئية ما فيه للتحذير من التلوث البيئي بالضوضاء والضجيج.

7 ـ الإشارة إلى أن خلق البشر جميعهم، ثم موتهم وبعثهم هو بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ كخلق نفس واحدة وإفنائها ثم بعثها.

8 ـ الإشارة إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بولوج كل من الليل في النهار، والنهار في الليل.

9 ـ الإشارة إلى حتمية فناء الكون بالتأكيد على أن تسخير كل من الشمس والقمر هو إلى أجل مسمى.

10 ـ التأكيد على أن جريان الفلك في البحر هو نعمة من نعم الله، وآية من آياته.

11 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو وحده الذي عنده علم الساعة الأخيرة من عمر الكون، وهو وحده الذي ينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، ويعلم ماذا تكسب كل نفس في غدها وبأي أرض تموت، والأحداث من حولنا تؤكد صدق ذلك وحقيقته.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة السادسة من القائمة السابقة والتي تشير إلى أن أنكر الأصوات هو صوت الحمير.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

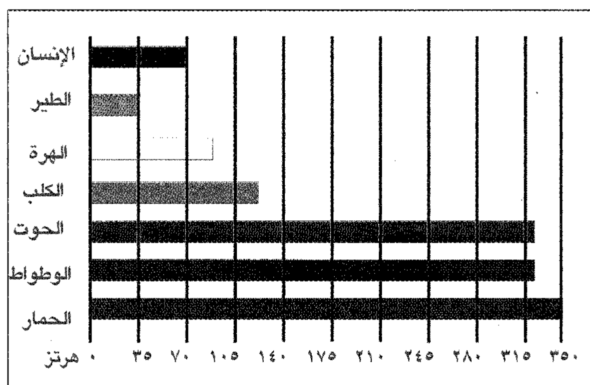
تقول الآية الكريمة التي نحن بصددها على لسان لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه:

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾

«سورة لقمان، الآية: 19».

و«**القصد**» هنا من الاقتصاد أي عدم الإسراف، أو الاتزان بين الإسراف والتقتير، ومدلوله هنا هو التوسط في المشي بين البطء والإسراع في شيء من السكينة والوقار الذي لا يشوبه التبختر والاختيال والعجب بالذات.

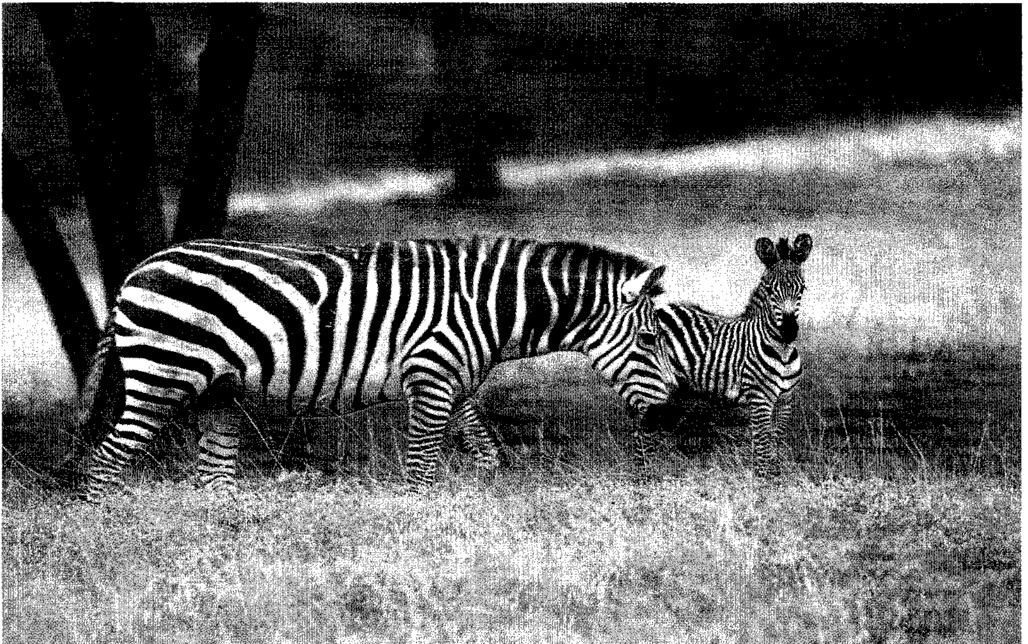
و«**الغض**» من الصوت هو خفضه إلى مستوى الحاجة، وكفه عن إيذاء مسامع الآخرين، وفي ذلك من الأدب، والثقة بالنفس، والاطمئنان إلى صدق الحديث ما يجعل غض الصوت من مكارم الأخلاق، ويجعل أعلاها أقبحها كصوت الحمير أي نهيقها لما فيه من العلو المفرط بين الزفير والشهيق، من الفزع الذي ينتابها عند رؤية الشياطين، وذلك لقول المصطفى ﷺ: «**إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم فإنه رأى شيطاناً**»[1].



شدة الصوت (مقدرة بـ الهيرتز أي بعدد الذبذبات في الثانية)

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3303)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6857)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 3459).

والآية الكريمة فيها نهي واضح عن رفع الأصوات دون ضرورة، والدراسات الحديثة تؤكد أن الضوضاء صورة من صور تلوث البيئة، وإن هناك علاقة وثيقة بين الاستقرار البدني والنفسي للكائن الحي - بل وللجمادات - في وسط ما، وبين مستوى الضجيج السائد في ذلك الوسط. فالضوضاء الصاخبة تؤدي إلى خلل واضح في أنشطة ووظائف الأجهزة المختلفة في جسم الإنسان من مثل زيادة إفراز مادة الأدرينالين مما يؤدي إلى توتره العصبي، ويقظته الزائدة، وشدة انتباهه فوق الطاقة مما يزيد من إرهاقه، وشعوره بالإعياء الفائق عن الحد. فجسم الإنسان - كجسم أي كائن آخر - يستقبل الموجات الصوتية كما يستقبل غيرها من صور الطاقة بدرجات متفاوتة، وينتج عن ذلك فيه قدر من ردود الأفعال المتباينة في مختلف أجهزته خاصة في كلٍّ من جهازه العصبي المركزي، وجهازه الدوري، وجهازه السمعي، وفي أنظمة غدده وإفرازاتها الداخلية؛ وذلك لأن الأصوات تحدث تغيرات في ضغط الهواء بالزيادة (التضاغط) والنقصان (التخلخل) وتندفع هذه التغيرات على هيئة موجات من الذبذبات المنتشرة في كل الاتجاهات من مصدر الصوت بسرعات تقدر بنحو 330 متراً في الثانية في المتوسط. وتعتمد طبقة الصوت على عدد الذبذبات في الثانية التي تؤثر في طبقة الهواء، دون أن تتأثر سرعة الصوت، أما شدة الصوت فتعتمد أساساً على سعة الذبذبة، وتتناقص بالتدريج بالبعد عن مصدر الصوت. وأقل



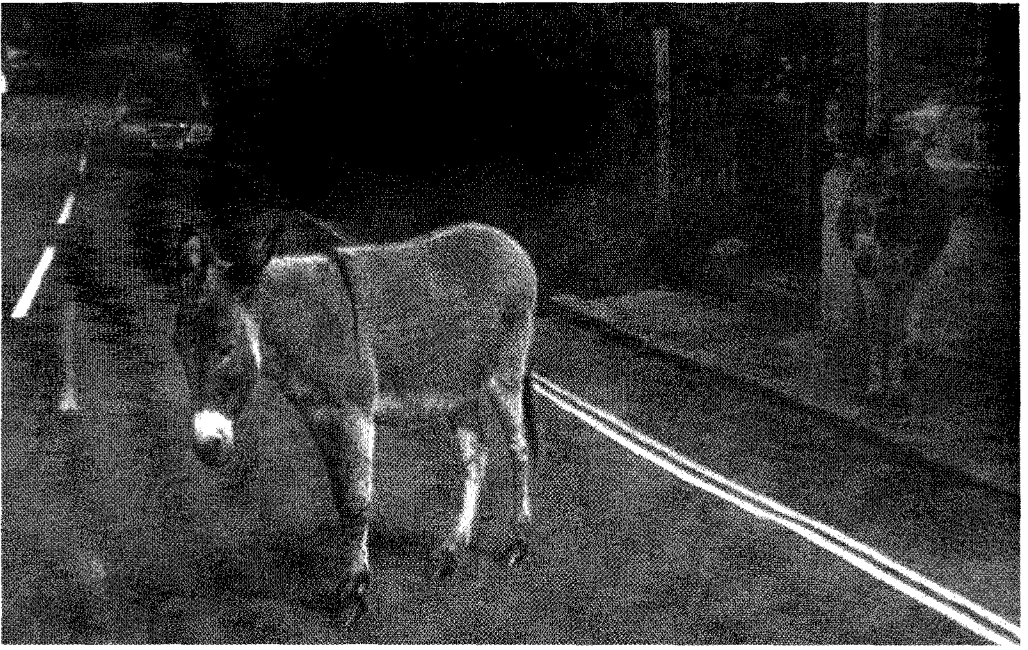
تردد للموجات الصوتية تسمعه أذن الإنسان هو (20) هيرتز (أي عشرين ذبذبة في الثانية) وأعلاه هو (15000 إلى 20000) هيرتز أي15,000 إلى20,000 ذبذبة في الثانية. والموجات الصوتية تنقل الطاقة من المصدر إلى أذن المستمع أو إلى أجهزة الاستقبال. ومن الثابت أن بعض الحيوانات من أمثال الخفافيش، والحيتان الزرقاء، والدلافين وبعض الحشرات لها قدرة استماع فوق صوتية تتراوح بين (30)، (100) كيلو هيرتز. والموجات الصوتية لا تتحرك في الفراغ، فهي تحتاج إلى وسط من الهواء أو السوائل كالماء، أو الجوامد كي تتحرك فيه. وتتحرك الموجات الصوتية في الهواء بسرعة تقدر بنحو (1200) كيلو متر في الساعة عند مستوى سطح البحر، ومع زيادة كثافة الوسط الذي تتحرك فيه الموجات الصوتية فإن سرعتها تزداد بصورة مطردة حتى تصل إلى (4800) كم في الساعة في الأوساط المائية، وإلى أضعاف تلك السرعة في الجوامد.

وعند ارتطامها بأسطح صلدة ملساء كبيرة فإن جزءاً من هذه الموجات الصوتية يرتد محدثاً **الصدى**، بينما ينفذ الجزء الباقي من خلال هذه الأسطح. وفي داخل المباني المغلقة يتكرر انعكاس الموجات الصوتية مرات عديدة بواسطة الأسطح الداخلية لتلك المباني فيزداد الصدى.

وللمقارنة بين شدة موجتين صوتيتين تستخدم وحدة خاصة تسمى البل (Bel) نسبة إلى جراهام بل (Graham Bell) مخترع التليفون، وهذه الوحدة تستخدم كذلك كوحدة لقياس كل من شدة الصوت والقدرة على السمع. ولما كانت هذه الوحدة كبيرة نسبياً فقد اقترح قسمتها على عشرة واستخدام هذه الوحدة العشرية التي عرفت باسم عشر البل أو الديسيبل (Decibel) في المقارنة بين شدة صوتين من الأصوات. أما تردد الصوت فيقاس بوحدة أخرى تسمى الهيرتز Hertz (Hz) وتعبر عن دورة واحدة في الثانية.

وأقل تردد يمكن لأذن الإنسان أن تسمعه وهو (20) هيرتز وأعلى تردد تسمعه هو (70) هيرتز أي سبعين ذبذبة في الثانية الواحدة عندما يصيح الإنسان بأعلى صوته، وإذا تجاوز تردد الصوت هذا الحد فإن أذن الإنسان لا تتحمله. وإذا زادت شدة الصوت عن (160) ديسيبل يمكن أن تتمزق طبلة الأذن بالكامل.

ومن الأضرار التي تنشأ عن الضوضاء الصاخبة حدوث اضطرابات في وظائف الأذن، والأنف والحنجرة، وإمكان فقد حاستي السمع والشم جزئياً أو كلياً، والإصابة بالعديد من أمراض كل من القلب والأوعية الدموية من مثل زيادة نسبة الكوليسترول في الدم، وحدوث الجلطات، وتصلب الشرايين، وارتفاع ضغط الدم، واضطراب إفرازات الغدد الصماء،



واختلال أنشطة بعض وظائف المخ خاصة في حالات التوتر الشديد من الضوضاء الصاخبة، التي قد تؤدي إلى عدم انضباط معدلات إفراز بعض الهرمونات، وما يصاحب ذلك من اضطرابات في وظائف مختلف أعضاء الجسم، وغير ذلك من الاضطرابات العصبية والنفسية المصاحبة بالشعور بالصداع المزمن، والضيق، والشعور بالإجهاد. وقد ينعكس ذلك على كلٍّ من الجهاز العصبي المركزي والجهاز الهضمي فيؤدي إلى عسر الهضم وحدوث القرح المختلفة؛ ولذلك وضعت العديد من دول العالم قوانين صارمة لمكافحة الضوضاء الناتجة عن ضجيج محركات الطائرات خاصة تلك التي تفوق حاجز سرعة الصوت، والضجيج الناتج عن كثافة مختلف وسائل المواصلات، وعن حركة آلات المصانع، وآلات الحفر وغيرها، وعن الموسيقى الصاخبة، وضجيج الناس في مناطق الزحام، وأصوات الحيوانات المستأنسة وغير المستأنسة وأصوات الصواريخ، والمتفجرات، والقنابل وغيرها من وسائل الاقتتال، وكل ذلك يؤثر في الغلاف الغازي للأرض، ويرتد تأثيره على كل شيء من الإنسان، والحيوان، والنبات، والجمادات.

ولذلك وضعت جداول لتحديد أقصى مدة يمكن أن يتعرض لها الإنسان تحت شدة معينة من الضوضاء، فتحْتَ شدة في حدود 45 ديسيبل لا يستطيع الفرد العادي أن ينام في هدوء

واسترخاء، وعند (85) ديسيبل تبدأ آلام الآذان، فإذا وصلت شدة الصوت إلى (90) ديسيبل لا يجوز أن يبقى الإنسان لأكثر من ثماني ساعات، وإذا زادت الضوضاء إلى (100) ديسيبل لا يجوز أن يبقى الإنسان لأكثر من ساعتين، وتحت شدة للصوت تصل إلى (110) ديسيبل لا يمكن التعرض لها بأمان لمدة تزيد على نصف الساعة، فإذا وصلت شدة الصوت إلى (120) ديسيبل تسبب ذلك في آلام شديدة لأذني الإنسان، وإذا وصلت تلك الشدة إلى (160) ديسيبل حدث للإنسان صمم تام، وذلك لأن شدة صوت الطائرة النفاثة لا يتجاوز (140) ديسيبل.

وأثناء استخدام أجهزة فوق صوتية مثل السونار (Sonar) التي تصل شدتها إلى (200) ديسيبل في الأوساط المائية فإنها تؤدي إلى القضاء التام على العديد من الحيوانات البحرية بتمزيق أنسجة جسدها.

وقد ثبت بالقياس أن شدة صوت نهيق الحمار تتجاوز المائة ديسيبل، وأن كثرة التعرض لهذا الصوت قد يصيب الإنسان بالعديد من الأمراض.

ومن الحيوانات المستأنسة ذات النبرة العالية في الصوت أيضاً الكلاب، والأغنام، ولذلك يجب أن تخصص لها أماكن بعيدة عن سكنى الإنسان وسكنى غيرها من الحيوانات المستأنسة. وأعلى شدة لصوت كائن حي هو صوت الحوت الأزرق حيث تصل شدة صوته إلى 188 ديسيبل، ولكن لعيشه في الماء فإن أغلب هذه الشدة في الصوت يمتصها الماء فلا يكاد الإنسان أن يشعر به ولو أنه يسمع على بعد مئات من الأميال.

والإشارة القرآنية التي تقول: ﴿...إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ فيها من السبق العلمي ما لم يكن معروفاً في زمن الوحي بالقرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها في كتاب أنزل على نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، من قبل أربعة عشر قرناً، وإلماحاتها إلى أخطار التلوث البيئي بالضجيج ـ وهي حقائق لم تعرف إلا في أواخر القرن العشرين ـ كل ذلك مما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ حتى يكون حجة على الخلق إلى قيام الساعة.

ومثل هذه الإشارات العلمية في كتاب الله يشهد كذلك للنبي الخاتم الذي تلقى القرآن العظيم بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ «سورة النحل، الآية: 66».

18



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بداية النصف الثاني من سورة النحل وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى النحل، ذلك التجمع لنوع خاص من الحشرات التي تحيا حياة تكافلية رائعة في مستعمرات منظمة تنظيماً دقيقاً، وقد وهب الله ـ تعالى ـ الشغالات من إناثها القدرة على إنتاج عسل النحل وما يصاحبه من منتجات أخرى جعل فيها شفاء للناس.

وفي فصل سابق قمنا باستعراض مفصّل لسورة النحل ولركائز العقيدة ومكارم الأخلاق والإشارات الكونية الواردة فيها ولذلك لا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا، ولكن قبل استعراض الدلالة العلمية للآية (66) منها لا بدّ من الرجوع إلى كلام عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ «سورة النحل، الآية: 66».

- ذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وإن لكم أيها الناس في الإبل والبقر والغنم لموعظة تعتبرون بها، وتنتقلون في هداها من الجهل إلى العلم بالصانع المبدع الحكيم، ونسقيكم من بعض ما في بطونها من بين فضلات الطعام والدم لبناً صافياً لذيذاً سهل التناول للشاربين».

- وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لا أرى ضرورة لتكراره هنا. إلا أن تعليق الخبراء بهامش المنتخب جاء فيه النص التالي: «توجد في ضروع الماشية غدد خاصة لإفراز اللبن تمدها الأوعية الشريانية بخلاصة مكونة من الدم، والكيلوز، وهو خلاصة الغذاء المهضوم، وكلاهما غير مستساغ طعماً، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن من هذين السائلين: الدم والكيلوز، وتفرز عليهما عصارات خاصة تحيلهما إلى لبن يختلف في لونه ومذاقه اختلافاً تاماً عن كلٍّ منهما».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: ماهية الأنعام:

يطلق العرب لفظة (**الأنعام**) أساساً على الإبل، وإن شملت بالإضافة إلى الإبل كلاً من البقر، والغنم، والماعز، ولذا **تعرف بالمال الراعية**، وواحد (الأنعام) (النَّعم) قال الفراء: هو ذكر لا يؤنث لأنهم يقولون: هذا نَعَمٌ وارد، وجمعه (نِعْمان) كحمل وحملان، وجمع الجمع (أنعام) و(أناعيم).

واسم (الأنعام) مستمد من (النعمة) وهي اليد والصنيعة والمنة لأنها من أجلِّ ما (أنعم) الله به على الإنسان من خلائق. و(النعمى) و(النعماء) و(النعيم) مستمدة كذلك من (النعمة). يقال: فلان واسع النعمة أي واسع الرزق ومنه المال.

والأنعام من الحيوانات الثديية (اللبونة)، والثدييات هي طائفة من طوائف الحيوانات اختصها الله ـ تعالى ـ بالقدرة على إفراز اللبن من بين فرث ودم لإرضاع صغارها حتى تكبر، ولذلك ميزها الخالق ﷻ بعدد من الغدد الخارجية القادرة على إفراز اللبن تعرف باسم الأثداء أو الضروع.

وعلى الرغم من قلة عدد أنواع الثدييات المعروفة (حوالي أربعة آلاف نوع فقط) إلا أنها تشكل طائفة خاصة من طوائف الحيوان تتوزع توزعاً فاعلاً في جميع بيئات الأرض، وتلعب دوراً مهماً في تبادل المادة والطاقة بينها وبين تربة الأرض، قل أن تشاركها فيه مجموعة أخرى من مجموعات الحياة الأكثر عدداً مثل الحشرات أو الطيور.



فمن الثدييات ما يعيش على اليابسة مثل الجمال، والأبقار، والغنم، والماعز، والزراف، والغزلان، والأحصنة، والبغال، والحمير، والفيلة، والكلاب، والقطط، والنمور، والأسود، وغيرها. **ومنها ما يعيش في الماء** كالحيتان والدلافين، **ومنها ما يطير في الهواء** كالخفافيش.

وطائفة الثدييات (Class Mammalia) من ذوات الدم الحار التي تتميز بوجود غطاء من الشعر أو الصوف يغطي أجسادها في أغلب الأحوال، كما تتميز بأعداد من الغدد العرقية التي تعمل على حفظ درجة حرارة الجسم في حدود مناسبة، وبأجهزة عصبية معقدة، وبوجود الضلوع في الجزء الصدري فقط حتى تتلاءم مع أجهزتها التنفسية، حيث توجد الرئتان في فراغ خاص بهما مفصول عن فراغ كل من القلب والبطن.

ومعظم الثدييات من الحيوانات الولودة، التي تلد صغارها كاملة النمو، وترضعها الأم من لبنها حتى تفطم.

ويمتد تاريخ الثدييات على الأرض إلى حوالي (185) مليون سنة مضت (من العهد الجوري المبكر) (The Early Jurassic Epoch) وإن كانت أغلب الأنواع المعروفة لنا

اليوم لا يتعدَّى وجودها على الأرض (90) مليون سنة (منذ بدايات العهد الطباشيري المتأخر (The Late Cretaceous Epoch)، ولم يزدهر انتشارها على الأرض إلا منذ حوالي (50) مليون سنة فقط في عهد الأيوسين (The Eocene Period) أو فجر الحياة الحديثة.

ومن الثدييات ما يأكل الأعشاب، ومنها ما يأكل الحشرات، ومنها آكلات اللحوم، ومنها آكلات اللحوم والأعشاب، ولذلك تتمايز أسنانها إلى قواطع وأنياب وضروس.

والأنعام من الثدييات آكلات الأعشاب ذات الحافر مزدوج الأصابع، والتي ميزها الله ـ تعالى ـ بالاجترار، وهيأ لها جهازاً هضمياً خاصاً قادراً على هضم كلٍّ من الأعشاب، وأوراق الأشجار، وغير ذلك من الأعلاف الخشنة، وزودها بقدر من الكائنات الحية المجهرية الدقيقة مثل الميكروبات التي تتعايش معها لتعينها على هضم المواد السيليولوزية المعقدة في معدة الاجترار، وتزيد من القيمة الغذائية لتلك المواد بتحويل النيتروجين العضوي الناتج عن عملية تخمر الطعام إلى عدد من الأحماض الأمينية، كما تقوم على تجهيز أعداد من الفيتامينات المهمة.

أما الثدييات ذات الحافر أحادي الأصابع فتشمل الأحصنة وأشباهها، والفيلة وأشباهها، ولذلك كان في فصل الخيل والبغال والحمير عن الأنعام في مطلع سورة «النحل» إشارة ضمنية لتلك الفوارق، وإلى التشابه التشريحي والوظيفي بينها حيث إن كلها من الثدييات اللبونة.

ثانياً: تكوّن اللبن من بين فرث ودم في ضروع الأنعام:

يتكون اللبن أساساً من الماء والبروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والعديد من العناصر، والفيتامينات. وكل ذلك يستمد من غذاء الحيوان وشرابه ومن دمه ولذلك وصفته هذه الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾، و(الفرث) هو: الأشياء المأكولة والمنهضمة بعض الانهضام في الكرش، ولذا يطلق عليه أحياناً تعبير (ثقل الكرش)، فإذا خرجت من الكرش سميت (روثاً).

ولقد صمم الخالق ﷻ ضروع الأنعام وضروع غيرها من الحيوانات الثدية (اللبونة)

بحكمة بالغة كي يمكنها من إنتاج اللبن لإرضاع صغارها، ولاستفادة الإنسان منه، فضروع الأنعام رباعية التركيب، وتتدلى بأربطة خاصة من الحوض لرفعها عن الأرض، ولامتصاص ما قد تتعرض له من صدمات خاصة عندما تمتلئ باللبن، ويثقل وزنها.

وكل ربع من الضرع يعمل مستقلاً في إنتاج وتخزين اللبن، ويتكون كل ربع من أرباع الضرع من العديد من الغدد اللبنية المبطنة لجداره والمتصلة مع بعضها البعض بالشعيرات الدموية المغذية لها، وينتهي الضرع بالحلمة التي تمثل نهاية قناة اللبن ويحكم شكلها، ووضعها، وطولها، وزاوية ميلها، والعضلات المتحكمة فيها ضوابط وراثية في غاية من الدقة تحكم تدفق اللبن فيها، وتمنع تسربه منها إلا عند الضرورة، كما تضبط إحكام غلقها حتى لا تتسرب إليه البكتيريا وغيرها من الملوثات الحيوية وغير الحية.

والغدد اللبنية المبطنة لضروع الأنعام هي غدد ذات فراغات كبيرة (أسناخ) يتكون فيها اللبن باستخلاصه من الشرايين الحاملة للدم المؤكسد، والأوعية اللمفاوية الحاملة لسوائلها العديمة اللون (الليمف) وما بها من مواد غذائية مستمدة من الفرث المهضوم هضماً جزئياً في معدة الحيوان.



وفي اللبن العديد من المركبات التي تنتج عن تخمر العلف في معدة الاجترار لتكوين عدد من الأحماض الدهنية المتطايرة التي تذهب إلى الكبد لإنتاج سكر العنب (الجلوكوز) الذي يحمله الدم إلى الخلايا المفرزة للبن في الضروع فينتج منه سكر اللبن (اللاكتوز).

أما المواد البروتينية فتنتج في الخلايا المفرزة للبن من الأحماض الأمينية التي يحملها إليها الدم من معدة الاجترار (الفرث)، هذا باستثناء كل من المواد الزلالية، والجلوبينات المناعية (Immunoglobulins) التي ينقلها الدم مباشرة إلى الخلايا المفرزة للبن وكذلك اللبا (Colostrum) الذي يتكون في الفترات المتأخرة من الحمل في أماكن أخرى من جسم الحيوان وينقله الدم مباشرة إلى ضروعه، وغالبية الدهون في اللبن تنتج أصلاً من الزيوت والدهون النباتية المستمدة من العلف والمهضومة هضماً جزئياً في معدة الاجترار (الفرث) حيث تجهز تلك الدهون ثم ينقلها الدم إلى الغدد المفرزة للبن في الضرع، وهنا تتكسر إلى رقائق صغيرة حتى تتمكن من اختراق جدر خلايا تلك الغدد. وعلى ذلك فإن تمام عملية اجترار الأعلاف التي تتناولها الأنعام بكفاءة، وعملية تخمرها في معدة الاجترار بكفاءة كذلك مسؤولان عن زيادة أو نقص كمية الدهون في اللبن.

وفي اللبن العديد من آثار العناصر التي من أهمها: الكالسيوم، والفوسفور، والبوتاسيوم، والمغنيسيوم، ويليها في الأهمية كل من الصوديوم، والكلور وكلها مستخلصة من غذاء الحيوان (العلف) بعد تخمره في معدة الاجترار (**الفرث**)، وتوجد هذه العناصر مرتبطة بالأحماض الأمينية المتولدة من تخمر الطعام، وتنتقل إلى اللبن في المادة المسببة لعمليات تجبن اللبن والمعروفة باسم الجبنين أو الكازين (Casein).

وعند تنشيط خلايا إفراز اللبن فإنه يتدفق منها إلى فراغات الأنساخ التي تتضاغط بواسطة طبقة عضلية محيطة بها فتدفع اللبن إلى عدد من القنوات الرئيسية التي تنتهي إلى قناة الحلمة ومنها إلى الخارج أثناء أي من عمليتي الرضاع أو الحلب.

وحركة الدم بين معدة الاجترار الحاوية على الفرث، وبين باقي أجزاء الجسم حتى يصل اللبن إلى الضرع وهي عملية أساسية في إنتاج اللبن **حيث يتم ضخ حوالي خمسمائة لتر من الدم إلى الغدد اللبنية في ضرع الحيوان من الأنعام الكبيرة، كالإبل والبقر لتوفير المواد**

اللازمة من البروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والعناصر الفلزية وغير الفلزية، والفيتامينات، والهرمونات اللازمة لرضعة أو حلبة واحدة كاملة.

ويستمر تدفق اللبن إلى ضرع الحيوان ما دامت الظروف الصحية له، والبيئية المحيطة به ملائمة من حيث توافر التغذية المناسبة، والماء العذب، والهدوء النسبي، وما دامت عمليتا الحلب والرضاع تتمان بانتظام، وفي غيبة ذلك فإن الغدد المفرزة للبن تبدأ في الانكماش والالتفاف على ذاتها، وتجف تدريجياً حتى يتوقف تدفق اللبن منها.

وهذه الغدد المفرزة للبن والتي تبطن فراغات أسناخ الضرع تتكون من خلايا متخصصة على أعلى درجات التخصص حيث إنها تتحكم بمشيئة الله في كمية اللبن المفرز وتركيبه، وهي في نفس الوقت محكومة بسنن وراثية منضبطة ومن هذه السنن أنه:

عند اقتراب وقت المخاض بالنسبة لأنثى الأنعام الحامل فإن جسمها يفرز عدداً من الهرمونات الخاصة التي تضعف من ارتباط الجنين بجسم الأم عن طريق المشيمة بالتدريج، وتثير في الجسم كله تحرك المركبات اللازمة لإنتاج اللبن، وتصل الإشارة الهرمونية من جسم الجنين إلى الغدة النخامية للأم، وعلى الفور يبدأ في جسدها سلسلة من التغيرات الهرمونية التي تعين في إتمام عملية المخاض والولادة، وتنبه الضرع لإنتاج اللبن.

وكمية اللبن المتدفق في الحالين (الرضاعة أو الحلب) تتأثر بالعديد من التفاعلات العصبية والهرمونية التي يثيرها في جسم الحيوان عدد من حواسه كالنظر، والسمع، واللمس، وهذه تصل إلى الغدة النخامية فتطلق هرموناً خاصاً يعرف باسم هرمون الأكسيتوسين (Oxytocin) في الدم الذي يحمله بدوره إلى الخلايا العضلية المبطنة لجدر أسناخ الضرع فتنقبض حتى يفيض اللبن إلى فراغ كل واحد من أثداء الضرع، وعلى النقيض من ذلك فإن المؤثرات السلبية على الحيوان مثل الضجيج المزعج، واضطراب الظروف البيئية المحيطة، والآلام التي يعانيها قد تشجع على إفراز هرمون الأدرينالين الذي ينقص من نزول اللبن بشكل ملحوظ أو يوقفه تماماً.

ثالثاً: الإشارة إلى الأنعام بالتذكير والتأنيث:

والإشارة القرآنية بالتذكير في لفظة ﴿بُطُونِهِۦ﴾ في الآية الكريمة التي نحن بصددها،

والإشارة إلى نفس اللفظة بالتأنيث في سورة المؤمنون ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ جاءت باعتبار أن الأنعام يذكر ويؤنث.

وذكر بعض المتأخرين أن الضمير في الآية التي نحن بصددها جاء مذكراً ومفرداً للإشارة إلى أن اللبن يتكون بأمر من مورثات الذكورة؛ وذلك لأن الأنثى لا تفرز اللبن إلا إذا تسببت نطفة الذكر في إخصاب البييضة، وتكوّن الجنين، وما يصاحب ذلك من إفراز هرمونات خاصة تعمل على تنشيط الغدد اللبنية حتى تكتمل قدرتها على إفراز اللبن بمجرد الولادة، ومن هنا جاءت الإشارة في التعبير القرآني الكريم هنا بالإفراد والتذكير ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ لتأكيد تلك الحقيقة، وجاءت بالجمع والتأنيث في سورة المؤمنون ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ للإشارة إلى الأنعام بصفة عامة، وإلى إناثها بصفة خاصة حيث يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

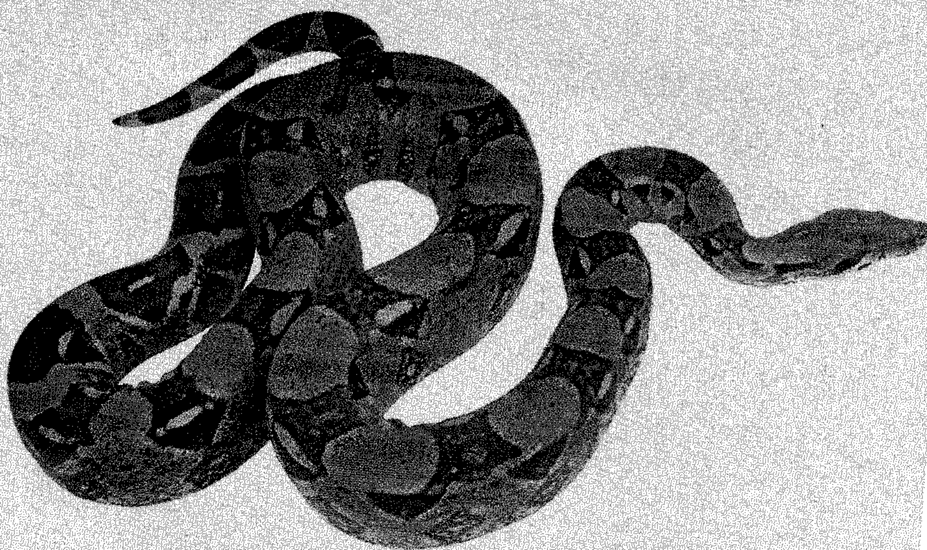
﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ۞﴾ «سورة المؤمنون، الآيتان: 21، 22».

وهذه الحقائق العلمية عن إخراج اللبن في ضروع الأنعام من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها بهذه الإشارات البالغة الدقة والكمال والشمول والإيجاز في كتاب أنزل على نبي أمي ﷺ من قبل أربعة عشر قرناً، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً، وتعهّد بذلك إلى أن يشاء الله حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع خلقه إلى قيام الساعة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله في كل وقت وآن. والصلاة والسلام على خاتم أنبياء الله ورسله أجمعين الذي تلقى هذا القرآن العظيم فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فنسأل الله ـ تعالى ـ أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن تبليغ رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة من الجنة إن ربي لا يخلف الميعاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



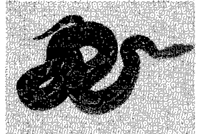
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم
مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا
يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ
مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ

19



﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝﴾ «سورة النور، الآية: 45».

19



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بدايات الثلث الأخير من سورة «النور»، وهي سورة مدنية، وآياتها أربع وستون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أن الله ـ تعالى ـ هو نور السمٰوات والأرض، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يهدي لنوره من يشاء من عباده، وأن كل مخلوق في هذا الوجود لا يهتدي بنور الله فإنه لن يهتدي أبداً.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النور» حول عدد من التشريعات الإلٰهية الضابطة لسلوك المسلم في كل من حياته الخاصة والعامة، والحاكمة لعلاقاته في داخل أسرته ومع غيره من الخلق صوناً لحرمات الناس وكراماتهم، والله يقول الحق، وهو يهدي إلى سواء السبيل.

وتبدأ سورة «النور» بالتأكيد على أنها من جوامع سور القرآن الكريم لأن الله ـ تعالى ـ فرض فيها على عباده فرائض ألزمهم بها، وفي مقدمة ذلك **تحريم الزنا، وتشريع الحدود الرادعة للواقعين فيه،** ووصفه بأنه من أكبر الجرائم في حقوق الناس، ولذلك بشَّعها إلى كل صاحب ضمير حيّ وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ «سورة النور، الآية: 3».

وكما حرمت سورة «النور» الزنا بكل مقدماته فإن هذه السورة الكريمة **تنهى عن الخوض في أعراض الناس،** مؤكدة أن الخائضين في هذا الأمر بغير دليل قاطع هم من الفاسقين الذين يستحقون العقوبات الرادعة، وتعتبرهم من الخارجين على دين الله:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ «سورة النور، الآية: 5».

وتُشَرِّع سورة النور للملاعنة كوسيلة من وسائل درء الشبهات بين الأزواج، وتشير إلى فرية حديث الإفك، وتبرئ المظلومين من دنسه، وتغلظ العقوبة للذين افتروه، وتحذر من العودة إلى افتراء مثله أبداً، كما تحذر من اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وتحض على الإنفاق لذي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وتكرر النهي عن رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، وتغلظ العقوبة على ذلك.

وتنهى سورة النور عن دخول البيوت دون استئذان وسلام على أهلها، وتضع الضوابط الشرعية لذلك، كما تأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، وستر العورات، وبالاحتشام في الملبس والمظهر، كما تنهى عن التبرج بزينة، وتضع ضوابط حجاب المرأة المسلمة، وضوابط الزواج الإسلامي، وتحرم البغاء بكل صوره وأشكاله، وتعتبره من أبشع الجرائم المهدرة لكرامة الإنسان.

وتؤكِّد السورة الكريمة أن الله تعالى هو نور السمٰوات والأرض، وأنه يهدي لنوره من يشاء، وتدعو إلى عتق رقاب الأرقاء، وإلى بناء المساجد والقيام على عمارتها وتطهيرها طمعاً في مرضاة الله ﷻ، وتجنباً لأهوال يوم القيامة.

وتبشِّر سورة «النور» أهل المساجد بأن الله تعالى سوف يجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، وفي المقابل تحذِّر الكفار بأن أعمالهم المفيدة سوف يجزون عليها في الدنيا، ولا رصيد لهم عنها عند الله ﷻ في الآخرة، وتشبه أعمالهم السيئة بأحلك الظلمات المتراكبة فوق قيعان البحار العميقة، مؤكدة أن الذي لا يهتدي بنور الهداية الربانية فلا يصل إلى الهداية أبداً وفي ذلك تقول:

﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ «سورة النور، الآية: 40».

وتؤكِّد السورة الكريمة أن جميع من في السمٰوات والأرض يسبح لله الذي له ملك كل شيء وإليه المصير، وتحذر من النفاق والمنافقين، وتفصح عن شيء من دخائل نفوسهم، وتقارن بين مواقفهم الكافرة، ومواقف المؤمنين الصادقين، وتأمر بطاعة الله ورسوله، جازمة أن ما على الرسول إلا البلاغ المبين، ومؤكدة أن وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات قائم لا يزول ولا يحول.

وتعاود سورة «النور» الأمر بإقامة الصلاه، وإيتاء الزكاة، وطاعة رسول الله ﷺ، كما تعاود الأمر بمزيد من ضوابط السلوك في البيت المسلم خاصة في حضرة رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ومن بعده في حضرة كل مسؤول عن العمل الإسلامي، وتحذر من مخالفة ذلك درءاً للفتن في الدنيا وللعذاب في الآخرة.

وتختتم السورة الكريمة بالتأكيد مرة أخرى أن لله ما في السمٰوات والأرض، وأنه تعالى عليم بخلقه الذين سوف يرجعون جميعاً إليه فينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه.

هذا وقد استعرضت سورة «النور» العديد من الآيات الكونية للتدليل على صدق كل قضية غيبية جاءت فيها، ومن هذه الآيات ما يمكن إيجازه فيما يلي:

من الإشارات الكونية في سورة «النور»:

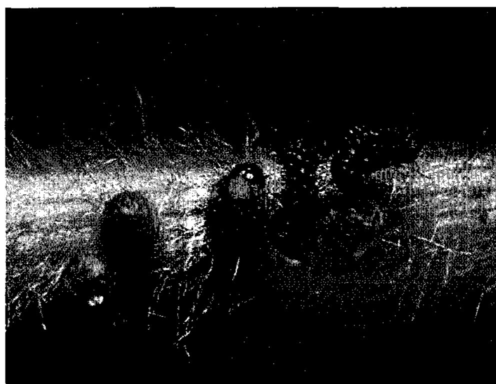
1 - التأكيد على حقيقة أن الله - تعالى - هو نور السمٰوات والأرض، وأنه - سبحانه - هو الذي يهدي لنوره من يشاء، وأن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، والعلوم المكتسبة تؤكد على أن الظلمة هي الأصل في الكون، وأن الاحياء في أعماق البحار قد زودها الله - تعالى - بوسائل إنارة ذاتية ولولا ذلك ما كان بها من نور.

2 - تشبيه أعمال الكافرين السيئة في الدنيا بأنها سوف تكون عليهم في الآخرة كالظلمات المتراكبة فوق أعماق البحار والمحيطات والتي يشارك في إحداثها كل من السحاب، والأمواج السطحية، والأمواج الداخلية التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين.

أما أعمالهم غير السيئة فسوف يجزون عليها في الدنيا، ولا رصيد لها في الآخرة، ولذا شبهت بالسراب الخادع وهو تشبيه علمي دقيق.

3 - الإشارة إلى أن كل ما في السمٰوات والأرض يسبح بحمد الله - تعالى - في عبادة إرادية أو تسخيرية، والعلوم المكتسبة تثبت وجود لغات لمختلف الكائنات وحتى للجمادات.

4 - وصف تكون السحب الركامية على هيئة السلاسل الجبلية، وذلك بإزجاء السحب، ثم التأليف بينها، ثم ركمها، وإنزال كل من المطر والبرد منها، وتكون ظاهرتي البرق والرعد المصاحبتين لتكون البرد، وكل ذلك من الحقائق التي لم تتوصل العلوم المكتسبة إلى كشفها إلا في القرن العشرين.





5 ـ التأكيد على قدرة الله البالغة في تقليب الليل والنهار، وما في ذلك من إشارة ضمنية إلى كروية الارض ودورانها حول محورها أمام الشمس.

6 ـ الجزم بخلق كل دابة من ماء، وهي حقيقة أثبتتها الدراسات العلمية.

7 ـ الإشارة الضمنية إلى إمكانية تصنيف الدواب على أساس من طريقة مشيتها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك سوف أقصر الحديث هنا على النقطة الأخيرة في القائمة السابقة والمتعلِّقة بإمكانية تصنيف الدواب على أساس من طريقة مشيتها كما جاء في الآية الخامسة والأربعين من سورة النور، وقبل البدء في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة النور، الآية: 45».

● ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا

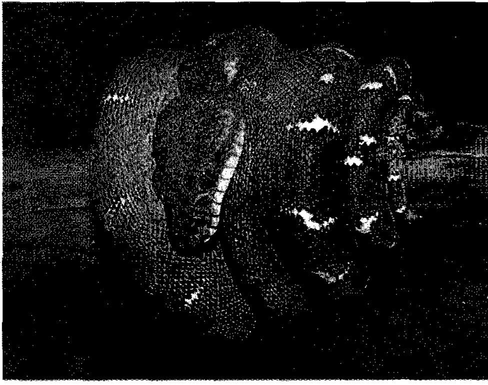
قال: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي بقدرته، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾».

- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما مختصره: «وهذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة، حقيقة أن كل دابة خلقت من ماء، قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعاً، وهو الماء،.. فهي ذات أصل واحد. ثم هي كما ترى العين متنوعة الأشكال. منها الزواحف تمشي على بطنها، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين، ومنها الحيوان يدب على أربع. كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته، لا عن فلتة ولا مصادفة: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ غير مقيد بشكل ولا هيئة. فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «الله خالق كل شيء، وأبدع الأشياء بإرادته، وخلق كل حي يدب من أصل مشترك هو الماء، لذلك لا يخلو الحي منه، ثم خالف بينها في الأنواع والاستعدادات ووجوه الاختلاف الأخرى، فمن الدواب نوع يزحف على بطنه كالأسماك والزواحف، ومنها نوع يمشي على رجليه كالإنسان والطير، ومنها نوع يمشي على أربع كالبهائم، يخلق الله ما يشاء من خلقه على أية كيفية تكون للدلالة على قدرته وعلمه، فهو المريد المختار، وهو القادر على كل شيء».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «الماء في الآية الكريمة هو ماء التناسل....، والآية الكريمة لم تسبق ركب العلم فقط في بيان نشوء الإنسان من النطفة..بل سبقته كذلك في بيان أن كل دابة تدب على الأرض خلقت كذلك بطريق التناسل....، ومما تحتمله الآية من معان علمية أن الماء قوام تكوين كل كائن حي، فمثلاً يحتوي جسم الإنسان على نحو 70٪ من وزنه ماء... ولم يكن تكوين الجسم واحتواءه هذه الكمية الكبيرة من الماء معروفاً مطلقاً قبل نزول القرآن. والماء أكثر ضرورة للإنسان من الغذاء،.. فبينما الإنسان يمكنه أن يعيش (60 يوماً) بدون غذاء، فإنه لا يمكنه أن يعيش بدون الماء إلا لفترة قصيرة تتراوح بين3 و10 أيام على أقصى تقدير. والماء أساس تكوين الدم والسائل





اللمفاوي والسائل النخاعي، وإفرازات الجسم كالبول والعرق والدموع واللعاب والصفراء واللبن والمخاط والسوائل الموجودة في المفاصل، وهو سبب رخاوة الجسم وليونته، ولو فقد الجسم 20٪ من مائه فإن الإنسان يكون معرضاً للموت. والماء يذيب المواد الغذائية بعد هضمها فيمكن امتصاصها، وهو كذلك يذيب الفضلات من عضوية ومعدنية في البول والعرق. وهكذا يكوّن الماء الجزء الأكبر والأهم من الجسم، وعلى ذلك يمكن القول بأن كل كائن حي مخلوق من الماء».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لما ذكره السابقون من المفسرين ولا حاجة إلى تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾:

(الدابة) في اللغة هي كل ما يدب على الأرض أي يمشي عليها بخفة، وجمعها (دواب)، وإن كان من اللغويين من يعتبر لفظة (دابة) جمعاً لكل شيء يدب على الأرض قياساً على خائنة جمع خائن. ولذلك يقال: (دب)، (يدب) (دباً) و(دبيباً) لكل من مشى بخفة على الأرض. وقد قيل إن الفعل يستعمل للتعبير عن حركة الحيوان أكثر من استعماله للإنسان، وللحيوان الذي يحيا على اليابسة بالذات دون الحيوان الذي يحيا في الماء، ولكن الأولى إطلاقه على عموم من مشى على الأرض وذلك لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 61».

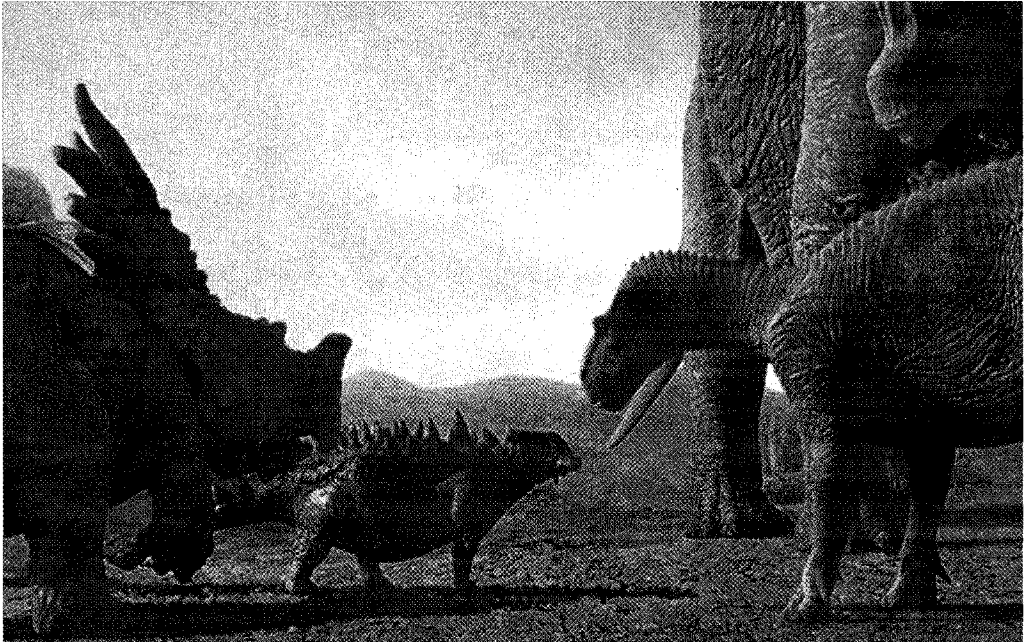
ومن الدلالات العلمية لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ «سورة النور، الآية: 45».

ما يلي:

1 ـ إن خلق الماء سابق لخلق جميع الأحياء، وهو ما أثبتته الدراسات الأرضية.

2 ـ إن الله ـ تعالى ـ خلق كل صور الحياة الباكرة في الماء، والدراسات لبقايا الحياة في صخور قشرة الأرض تشير إلى أن الحياة ظلت مقصورة على الماء لمدة تصل إلى نحو3400 مليون سنة (من3800 مليون سنة مضت إلى نحو400 مليون سنة مضت حين خلقت أول نباتات أرضية على اليابسة)، وأن خلق النبات كان سابقاً لخلق الحيوان في الوسطين المائي واليابس، لأن الحياة الحيوانية على اليابسة لم تعرف قبل365 مليون سنة مضت (في نهاية العصر الديفوني).

3 ـ إن كل صور الحياة (الإنسية، والحيوانية، والنباتية) لا يمكن لها أن تقوم في غيبة الماء



لأنه أعظم مذيب معروف على الأرض، وبذلك يشكِّل الوسيط الناقل لعناصر ومركبات الأرض إلى مختلف أجزاء النبات، ومنها إلى أجساد كلٍّ من الإنسان والحيوان، وذلك بما للماء من صفات طبيعية وكيميائية خاصة من مثل اللزوجة العالية، والتوتر السطحي الشديد، والخاصية الشعرية الفائقة، والقطبية الكهربية المزدوجة.

4 ـ إن الماء يشكِّل العنصر الأساسي في بناء أجساد جميع الأحياء، فيكوِّن ما بين 71٪ من جسم الإنسان البالغ، و93٪ من جسم الجنين ذي الأشهر المعدودة، ويكوّن أكثر من 80٪ من تركيب دم الإنسان، وأكثر من90٪ من تركيب أجساد العديد من النباتات والحيوانات.

5 ـ إن جميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها المتعددة لا تتم في غيبة الماء، من التغذية، إلى الهضم، إلى التمثيل الغذائي، ثم الإخراج والتخلص من سموم الجسم وفضلات الغذاء، ومن التنفس إلى التعرق والنتح، إلى التمثيل الضوئي في النباتات الخضراء، ومن النمو إلى التكاثر، وإلى غير ذلك من الأنشطة الحياتية ومن أهمها حفظ درجتي حرارة الجسم ورطوبته.

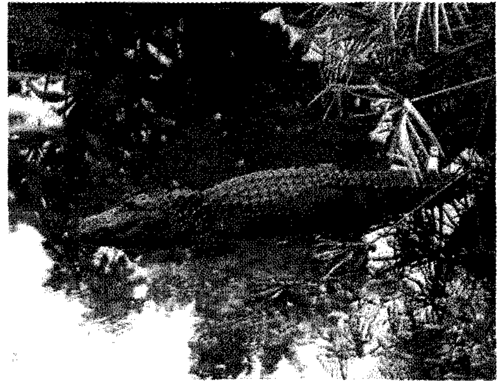
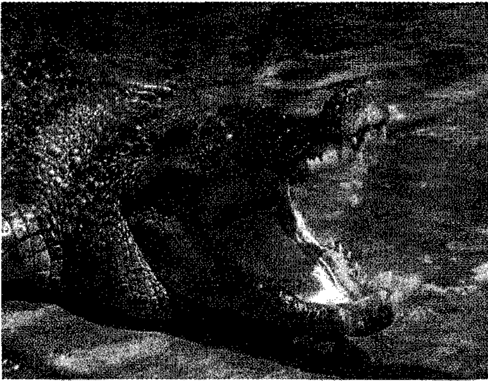
6 ـ إن وحدة مادة خلق الأحياء وهي هنا الماء تؤكد وحدانية الخالق ﷻ، الذي كفر أو أشرك به كثير من الجهال الضالّين في القديم والحديث.

7 ـ إن في البناء المعقَّد لأجساد الكائنات الحية من الماء شهادة لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة المبدعة في الخلق، وشهادة بقدرته ﷻ على إفناء خلقه وعلى بعثه.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿... فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

يوضح هذا النص الكريم أن طرائق تحرك الدواب هي وسيلة من وسائل تصنيفها الجيدة، وحركة الدابة هي انتقالها من مكان إلى آخر سعياً وراء طلب الطعام والشراب، أو للهرب من الأعداء، أو للارتحال عند التغيرات البيئية إلى مكان أنسب.

والطريقة الأولى التي حدَّدتها الآية الكريمة في حركة الدواب هي **المشي على البطن** كما هو شائع في **الديدان** (**Worms**) وهي من اللافقاريات عديمة الأطراف التي تتبع قبائل عدة، وفي العديد من طائفة **الزواحف** (**Class Reptilia**)، وهذه الطائفة الزاحفة زودها الله ﷻ بجلد سميك، خال من الغدد، ومغطى عادة بالعديد من القشور والحراشيف القرنية الجافة،

الصلبة، والتي تحمي جسمها من المؤثرات الخارجية، وتحفظه من الجفاف. وتنتشر هذه الحراشيف على جميع أجزاء جسم الزاحف بما في ذلك الأطراف والذنب.

وتختلف هذه الحراشيف والقشور في أشكالها وأحجامها من نوع إلى آخر فقد تكون صغيرة الحجم ومحببة كالدرنات، أو كبيرة الحجم بيضية الشكل، أو مربعة، أو مستطيلة، أو مثلثة كما هو الحال في **السحالي**، أو على هيئة صندوق يحيط بجميع الجسم كما هو الحال في **السلاحف**. والزواحف عامة من ذوات الدم البارد؛ أي المتغير في درجة حرارته، وغالبيتها تبيض بيضاً ذا قشور صلبة، يلقح في بطن الأنثى، وينمو الجنين في داخل البيضة على اليابسة أو في داخل جسم الأنثى حتى تفقس البيضة ويخرج منها.

والجنين في داخل البيضة يعيش وسط سائل خاص موجود داخل غشاءين، ويتصل الجنين في منطقته البطنية بكيس محي أي: مكون من مح البيضة وبه الغذاء اللازم للجنين أثناء مراحل نموه حتى تكتمل، كما أنه مرتبط بكيس آخر لتخزين المواد الإخراجية. وعلى الرغم من سمك قشرة البيضة إلا أنه يسمح بمرور الغازات اللازمة لتنفس الجنين وهو بداخلها، ولكنه لا يسمح بدخول الماء.

وتاريخ الزواحف على الأرض يرجع إلى ثلاثمائة مليون سنة مضت؛ أي إلى نهايات العصر الفحمي أو الكربوني (The Late Carboniferous Epoch)، وقد سادت حقب الحياة المتوسطة (The Mesozoic Era) سيادة واضحة (من 245 مليون سنة مضت إلى 65 مليون سنة مضت) والذي عرف باسم حقب الزواحف العملاقة، ثم دالت دولة تلك الزواحف العملاقة بانتهاء حقب الحياة المتوسطة، وإن استمرت الطائفة ممثلة بأفراد أقل عدداً وأصغر حجماً من مثل **السحالي أو**

(العظاءات) ومنها: **الضب، والبرص والحرباء والورل**، ومنها رتب **الثعابين والسلاحف والتماسيح** وجنس واحد هو **جنس سفينودون (Sphenodon)** أو **تواتارا (Tuatara)** من رتبة مندثرة من رتب الزواحف القديمة التي وجدت آثارها في صخور نيوزيلنده وتميزت بصف من الأشواك على ظهرها وتعرف باسم (Order Rhynchocephalia)، وجنس تواتارا لا تزال له أفراد حية تعيش على عدد من الجزر الصغيرة في المياه الإقليمية لنيوزيلانده.

والزواحف تضم حيوانات بطيئة الحركة بصفة عامة، لأنها تزحف ببطنها على سطح الأرض، ويعرف منها قرابة ستة آلاف نوع منتشرة في مختلف أرجاء الأرض.

والأرجل في الزواحف إما غائبة تماماً أو موجودة ولكنها ذات أثر ضعيف لا يكاد يدرك كما هو الحال في الثعابين بمختلف أنواعها، وفي بعض أنواع السحالي، وقد تكون الأرجل موجودة ولكنها ضعيفة لا تكاد تقوى على حمل الجسم بعيداً عن سطح الأرض كما هو الحال في رتبتي السلاحف والتماسيح بصفة عامة، أو موجودة وقوية كما هو الحال في بعض السحالي.

وفي الزواحف عديمة الأطراف يرتكز الحيوان ببطنه على الأرض ارتكازاً كاملاً، ويتحرك بالزحف على بطنه فوق مستوى سطح الأرض مستخدماً في ذلك عضلات جسمه القوية التي تدفعه إلى الأمام في حركات متعرجة.

ومن الزواحف ما تدفن جسدها في أنفاق تحفرها تحت سطح التربة، وتعرف باسم **الزواحف الحفارة**.

أما الزواحف ذات الأرجل الأربعة من مثل بعض السحالي (العظاءات) فإنها تستطيع أن تدب على سطح الأرض بأطرافها الأربعة، سيراً أو عدواً، وقد تتحور هذه الأطراف إلى ما يسمى الأطراف القابضة كما هو الحال في **الحرباء** كي تساعدها على تسلق الأشجار، كما قد تتحور إلى زعانف كما هو الحال في **السلاحف المائية** لتساعدها على السباحة في الماء، وقد تتحور إلى أجنحة في بعض أنواع **الزواحف الطائرة**، وهي قليلة في زماننا الراهن ومنها السحالي (العظاءات) المسماة باسم دراكو (Draco).

والزواحف ذات الأرجل الأربعة لها زوج عند مقدمة الجذع، وآخر عند مؤخرته، والزوج الأمامي قد يختصر كثيراً على هيئة زوج من الأيدي القصيرة نسبياً، ويبقى الزوج الخلفي قوياً يحمل الزاحف مهما كان وزنه كما هو الحال في بعض الزواحف العملاقة المنقرضة من رتبة الديناصورات (Dinosauria).

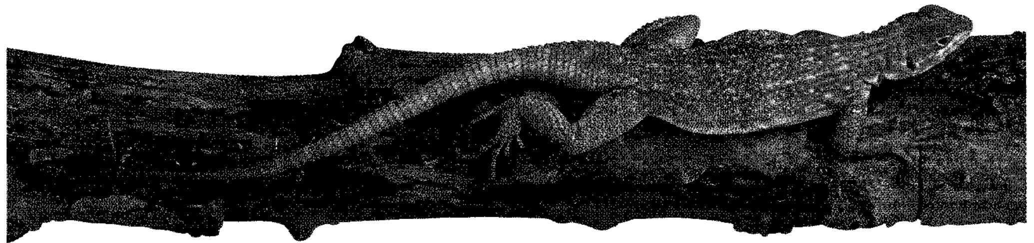
والزواحف من الفقاريات التي قد يصل عدد الفقار في عمودها الفقاري إلى أربعمائة فقرة كما هو الحال في **بعض الثعابين الطويلة**، وتترتب تلك الفقار من خلف الرأس مباشرة إلى نهاية الذنب في تناسق عجيب باتصالات مفصلية متعددة، ودقيقة وشديدة المرونة، وعالية الإتقان تمكن الزاحف من التحرك بسرعة كبيرة وبكفاءة عالية في حركات تموجية عنيفة دون أن تنفصل تلك الفقرات عن بعضها البعض.

وحسب طريقة الحركة يمكن تصنيف الزواحف إلى المجموعات التالية:

أ ـ زواحف تمشي على بطنها:

1 ـ **رتبة الثعابين (Order Ophidia)** ويعرف منها قرابة ثلاثة آلاف نوع، تنتشر في مختلف بيئات الأرض، ولبعضها أجسام مفرطة في الطول (إلى حوالي عشرة أمتار)، وهي عديمة الأرجل، ولذلك تتلوى أجسامها في حركات تموجية متناسقة عند انتقالها ولا تعرف هذه الطريقة في الحركة عند أي حيوان آخر إلا في بعض السحالي (العظاءات) الثعبانية الشكل، وفي بعض الديدان.

وبالإضافة إلى هذه الحركات البطنية التي تدب بها الثعابين على سطح الأرض فإن الله ـ تعالى ـ قد أعطاها القدرة على تسلق كلٍّ من الجدران والأشجار، وعلى القفز من المرتفعات، وعلى السباحة في الماء، فللثعبان القدرة على لف جسمه في لفات عديدة متقاربة بعضها فوق بعض، ثم يندفع بقوة عضلاته الجسدية في قفزة كبيرة يقطع فيها



العديد من الأمتار لينقض على فريسته، أو للهرب من خطر محدق به، وقد يكرر تلك القفزات في نفس الوقت لمرات عديدة. ولحمايته من شدة الاحتكاك بجسده مع الأرض يغطى جسم الثعبان بقشور قرنية صلبة مرتبة على سطح الجسم بأكمله في صفوف منتظمة، ناعمة الملمس في معظم الأحوال.

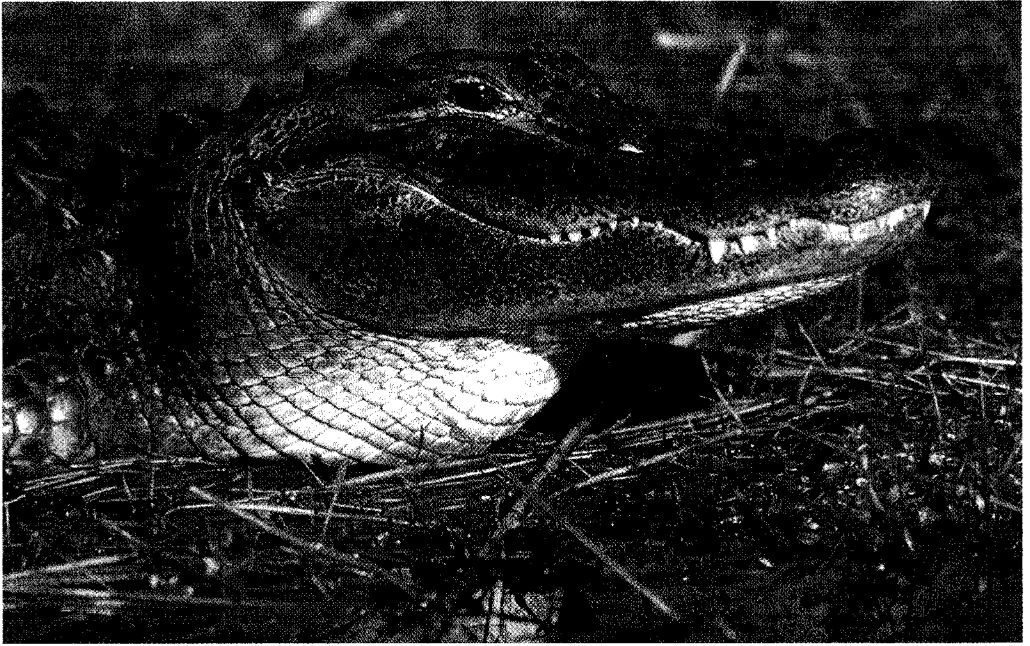
2 ـ **السحالي الثعبانية**: من السحالي ما يعيش تحت الأرض بصورة مستديمة وهذه تضعف أرجلها إلى حد الاختفاء الكامل.

ب ـ زواحف تمشي على أربع أرجل:

1 ـ **رتبة السحالي أو العظاءات (Order Lacertilia)**:

هذه الرتبة هي أكثر الزواحف المعاصرة انتشاراً، حيث يعرف منها أكثر من 2500 نوع في مختلف بيئات الأرض، وإن كان أغلبها يدب على سطح اليابسة، ولكل منها أربع أرجل قوية نسبياً، كاملة التكوين، ولبعضها القدرة على تسلق الأشجار كالحرابي (جمع حرباية) التي هيأ الله ـ تعالى ـ أرجلها بقدرات قابضة، والسحالي الطائرة من جنس دراكو (Draco) التي زودها الله ﷻ بثنيتين على جانبي الجسم تشبهان الأجنحة يعينانها على الطيران لمسافات قصيرة. ويوجد في مصر حوالي أربعين نوعاً من السحالي (Lizards) أكثرها انتشاراً: **البرص، والضب، والحرباء. وللحرباء** زوجان من الأرجل الطويلة خماسية الأصابع في مجموعتين متقابلتين تتكون المجموعة الأولى من ثلاث أصابع يحيط بها غشاء جلدي، وتتكون المجموعة الثانية من إصبعين يحيط بهما غشاء جلدي آخر مما يجعل من الأطراف الأربعة أعضاء قابضة كالكماشة تمسك بفروع الأشجار، كما تستخدم ذنبها عضواً قابضاً كذلك. وتحتوي فصيلة الحرباء على ما يقرب من ثمانين نوعاً، يوجد منهما نوعان فقط في مصر، وهي تتغذى على الحشرات الصغيرة.

أما **البرص** فيوجد منه في مصر ما يقرب من ثلاثة عشر نوعاً، ويحمل جسم البرص أربع أرجل، خماسية الأصابع، وينتهي كل أصبع بوسادة لاصقة تمكِّنه من ارتقاء الجدران بسرعة فائقة، ومن السير على أسقف الحجرات مقلوباً دون أن يقع، ومعظم الأبراص ليلية في طبائعها الغذائية، وقد وهبها الله ـ تعالى ـ القدرة على البقاء حية دون تناول أي شيء من الطعام لفترات طويلة، ومعظم الأبراص من آكلات الحشرات.



أما **الضب** (**Uromastycs**) فأرجله الأربع قصيرة وغليظة مما يساعده على سرعة الجري، ويعرف منه أحد عشر نوعاً منها أربعة في مصر، وهو من آكلي الأعشاب.

2 ـ **رتبة السلاحف (Order Chelonia)**:

للسلاحف أرجل ضعيفة لا تكاد تقوى على حملها بعيداً عن سطح الأرض، ولذلك تمشي بحركة بطيئة يضرب بها المثل في البطء نظراً لثقل جسمها وضعف أقدامها، وهناك ما يقرب من 250 نوعاً من السلاحف منها **السلاحف الأرضية (Tortoises)، والسلاحف البحرية (Turtles)، وسلاحف الماء العذب (Terrapins)**.

ومن مميزات السلاحف: وجود الصندوق العظمي الذي يحيط بجسمها إحاطة كاملة على هيئة غطاءين: ظهري وبطني يتركب كلٌّ منهما من عدة ألواح ملتحمة مع بعضها البعض التحاماً وثيقاً، ومغلفة من الخارج بعدد من القشور القرنية الكبيرة (صدف السلاحف). ولهذا الصندوق العظمي فتحتان إحداهما أمامية يطل منها كل من الرأس والأرجل الأمامية، والثانية خلفية يخرج منها الذنب والأرجل الخلفية.

3 ـ **التماسيح (Order Crocodilia)**:

وتضم أكبر الزواحف المعاصرة، ويعرف منها واحد وعشرون نوعاً تعيش كلها في الماء العذب، ولا تخرج منه إلى اليابسة إلا نادراً لوضع البيض على الشواطىء الرملية للأنهار في مواسم التكاثر. وللتماسيح أرجل قوية معدة للمشي على اليابسة، وتُجذب هذه الأرجل إلى جوار جسم التمساح أثناء سباحته في الماء بواسطة ضربات ذنبه القوية التي يضرب بها يمنة ويسرة. وتحيط بجسم التمساح درع عظمية قوية، تغطى بالأصادف القرنية الخارجية، وهذه الدرع العظمية مكونة من درقة ظهرية وأخرى باطنية متصلتين من الجانبين بنسيج لين، ويغطي ذنب التمساح بحلقات دائرية من الأصداف القشرية.

ج ـ زواحف تمشي على رجلين:

من الزواحف العملاقة المندثرة ما مشى على الرجلين الخلفيتين فقط (Bipedal) لقصر الطرفين الأماميين قصراً شديداً، وتحولهما إلى ما يشبه اليدين، وقد سادت هذه الأجناس حقب الحياة المتوسطة (The Mesozoic Era) الذي امتدّ من 245 مليون سنة مضت إلى65 مليون سنة مضت حين اندثرت هذه الزواحف العملاقة (Gigantic Reptiles) اندثاراً كاملاً.

د ـ طرق مشي الكائنات الأخرى:

1 ـ **البرمائيات (Class Amphibia)**: وقد تميزت بأطراف متطورة أمامية وخلفية بكل منها خمسة أصابع، وتتميز حركتها بأنها تتم على شكل مشي بطيء، أو جري على الأرجل الخلفية مستخدمة الذيل لحفظ توازن الجسم.

3 ـ **أما الطيور (Birds) فكلها ثنائية الأرجل** لتحول طرفيها الأماميين إلى جناحين، وتجمع الطيور في طائفة واحدة (Class Aves) تضم 27 رتبة، وأكثر من 8600 نوع تنتشر في مختلف بيئات الأرض، ولها في كل قدم من قدميها ثلاثة أصابع فقط. والطيور من الفقاريات ذات الدم الحار، التي تتغطى أجسادها بالريش وتحولت فيها الفكوك إلى مناقير خالية من الأسنان، وكلها تبيض، وتحتضن الأنثى بيضها حتى يفقس: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

3 ـ وأما **الثدييات (Class Mammalia)** فلأغلب أفرادها أربعة أطراف تتدلى تحت

الجسم تماماً، ويمكنها أن تتحرك من الأمام إلى الخلف، لأن مفصل الركبة متجه إلى الأمام، ومفصل الكتف متجه إلى الخلف مما يجعل معظم طاقة الحركة موظفاً توظيفاً صحيحاً، وتظهر أهمية ذلك في حيوان كالنمر الذي تصل سرعته إلى 115 كيلومتراً في الساعة، ويستطيع أن يصل في سرعته إلى 75 كيلومتراً في الساعة خلال ثانيتين فقط من انطلاقه في الجري، وهو ما يفوق تسارع أية سيارة سباق صنعها الإنسان.

ومن الثدييات مجموعة الحافريات (Ungulata) التي بلغت الأطراف فيها أحجاماً ضخمة لتساعدها على الجري السريع، وتحولت المخالب إلى حوافر، ويمشي الحيوان الحافري عادة على عدد مفرد قليل من الأصابع، فأصبح منها ما هو فردي الأصابع (Odd-Toed Ungulates) من مثل الخيول، والفيلة ووحيد القرن، والتابير (Tapirs) والتي تناقص عدد الأصابع في حافرها إلى إصبع واحد، ومنها ما هو زوجي الأصابع (Even-Toed Ungulates) وتعرف أيضاً باسم مشقوقات الحافر مثل البقر والغزال.

ومن الثدييات ما يمشي على رجلين فقط مثل **حيوان الكنغر** و**بعض القردة العليا** وذلك لقصر الطرفين الأماميين بشكل ملحوظ، ولذلك يدب الحيوان على سطح الأرض بواسطة طرفيه الخلفيين القويين والذي يقفز أو يدب عليهما باستمرار.



ومن الثدييات ما تقلصت فيه الأقدام تقلصاً ملحوظاً مثل رتبة دقيقة الأقدام (Pinnipedia) ومنها الفقمة (Seal) وحيوان الفظ (Walrus). ومنها ما اقتصرت أطرافه على عدد من الزعانف مثل رتبة الحيتان والدلافين (Whales and Dolphihs = Order Citacea)؛ وذلك لاقتصارها على العيش في مياه البحار.

ومن الثدييات ما يطير في جو السماء مثل **الخفافيش** التي تحولت أطرافها الأمامية إلى أجنحة جلدية لتساعدها على الطيران.

4 - ويأتي **الإنسان** ذلك المخلوق المكرم في قمة ما خلق الله - تعالى - الذي أكرمه بانتصاب القامة، وبالسير على ساقين، وبتناسق أبعاد الجسم، وأطوال الأطراف. وحجم الجمجمة، وبمهارة في اليدين، ونماء في العقل، وقدرة على الاختيار، وعلى إدراك الذات، وعلى الانفعال والشعور، وعلى اكتساب المعارف والمهارات وتعليمهما، وبغير ذلك من الصفات التي ميزه الله - تعالى - بها، وكرَّمه على بقية خلقه، وصدق الله العظيم القائل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝﴾ «سورة الإسراء، الآية: 70».

ثالثاً: في معنى قوله تعالى: .. ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

من أكبر مجموعات الحياة الحيوانية ما يجمع تحت شعبة خاصة تعرف باسم شعبة مفصليات الأقدام (Phylum Arthropoda) والتي تضم أكبر عدد من أفراد وأنواع الحيوانات البحرية والأرضية والطائرة حيث يصل عدد أنواع هذه الشعبة إلى حوالي مليون نوع تمثل طائفة الحشرات (Class Insecta) حوالي 90٪ منها، وتتوزع باقي أنواع هذه الشعبة على طوائف العنكبيات أو العنكبوتيات (Class Arachnida)، والقشريات (Class Crustacea) ومزدوجة الأقدام (Class Diplopoda) وغيرها.. وتتميز الأفراد في شعبة مفصليات الأقدام بأجسامها المقسمة إلى عدد من الحلقات المرتبطة ببعضها البعض بمفاصل تسمح لكل منها بالحركة، وبهياكلها الكيتينية الممفصلة أيضاً، وبأطرافها المقسمة والمفصلية والموجودة في هيئة زوجية على كل حلقة من حلقات الجسم، وهنا تتعدد الأرجل إلى العشرات بل إلى المئات حتى الآلاف ولذلك ختمت الآية الكريمة التي نحن

بصددها بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:.. ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأكيداً على طلاقة القدرة الإلٰهية في الخلق، وقدرته ﷻ على البعث، وتأكيداً على وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه من الأحياء وقد خلقهم في الأصل جميعاً من الماء، وجعل حياتهم قائمة عليه بعلمه وحكمته وإرادته، حتى يكون في تنوع الخلق من منشأ واحد وفي زوجية كاملة ما يشهد له ﷻ بالوحدانية الكاملة فوق جميع خلقه بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، وكلها من صفات المخلوقين والله ـ تعالى ـ منزَّه تنزيهاً كاملاً عن جميع صفات خلقه.

ومن شعبة مفصليات الأقدام ما يلي:

1 ـ تحت شعبة الكلابيات (Subphylum Chelicerata): وتشمل العقارب (Scorpions)، والعناكب (Spiders)، والفاش (Mites)، والقراد (Ticks) والتي تنطوي تحت طائفة العنكبيات أو العنكبوتيات (Arachnids).

2 ـ تحت شعبة الفكيات (Subphylum Mandibulata):

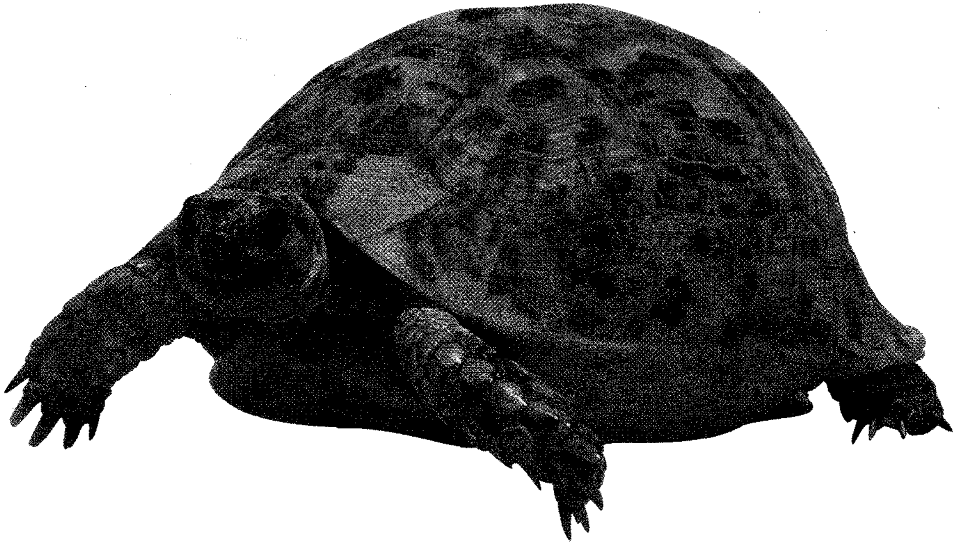
وتشمل كلاً من طائفة القشريات (Crustacea) والحشرات (Insecta) ومن القشريات ذات الأقدام العشرة (Decapoda) الجمبري وسرطان البحر، ومنها طائفة عديدات الأقدام (Myriapoda) وتحتوي كلاً من ذوات المائة قدم (Centipedes)، وذوات الألف قدم (Millipedes).

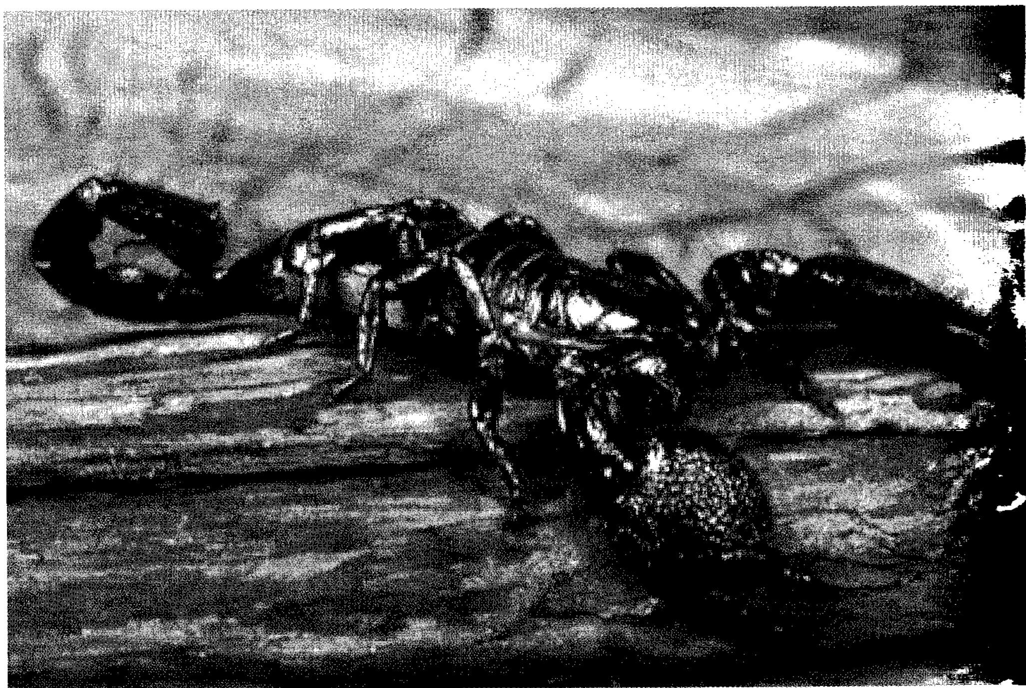
هذه الحقائق التي مؤداها: أن الله تعالى خلق كل دابة من ماء، وأنه يمكن تقسيم دواب الأرض على أساس من طرائق حركتها، ووسائل تلك الحركة لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها كافٍ للشهادة للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد ﷻ بهذا الحفظ إلى ما شاء الله حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى قيام الساعة.

وهذه الحقائق كافية للشهادة بالنبوة وبالرسالة لسيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى

آله وصحبه، وعلى كل من تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ وتبقى هذه الحقائق مؤكِّدة أنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض فلا يمكن للكلام الموحى إليه إلا أن يكون حقاً كاملاً، لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على جميع أفضاله ونعمه التي لا يحصيها عد ولا يجحدها إلا جاحد أو كافر أو مشرك، ونحن نبرأ إلى الله ـ تعالى ـ من أوصافهم أجمعين. والحمد لله الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق:
﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة النور، الآية: 45».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
١٧٤ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا
فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ
بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ **فَمَثَلُهُ**
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ
ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ
الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهْدِ اللَّهُ
فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٧٨

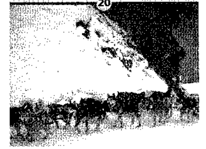


بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿...فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ... ﴾

«سورة الأعراف، الآية: 176»

20



هذا النص القرآني الكريم جاء في بدايات الخمس الأخير من سورة «الأعراف»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (206) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، وأطول السور المكية على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى (الأعراف) وهي أسوار مضروبة بين الجنة والنار للحيلولة بين أهليهما تكريماً لأهل الجنة، وإذلالاً وامتهاناً لأهل النار.

وكطبيعة السور المكية، يدور المحور الرئيسي لسورة «الأعراف» حول العقيدة الإسلامية القائمة على أساس من التوحيد الخالص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعبادته وحده بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، والإيمان الكامل بوحي السماء، والطاعة التامة لأوامر الله المنزلة على فترة من الأنبياء والمرسلين، ثم تكاملت وتمت وحفظت في القرآن العظيم وفي سنة النبي والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

ولقد أبرزت سورة «الأعراف» عقيدة التوحيد الخالص لله في ردود عدد من أنبياء الله ورسله على أقوامهم وذلك بالقول السديد الذي سجله القرآن العظيم لهم حيث قالوا:

﴿...يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ...﴾.

وقد تردد هذا القول الرشيد أربع مرات في هذه السورة المباركة على لسان كل من أنبياء الله: نوح، وهود، وصالح، وشعيب ـ على نبينا وعليهم وعلى جميع أنبياء الله السلام ـ، وأتبعت هذه الدعوة المباركة في كل مرة بتحذير شديد، أو تقريع صاعق وذلك من مثل قول نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ... ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ...﴾ «سورة الأعراف: 59»، وقول نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿...أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ «سورة الأعراف: 65». ومن مثل قول كل

من نبي الله صالح، ونبي الله شعيب ـ عليهما من الله السلام ـ كل إلى قومه: ... ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «سورة الأعراف، الآيتان: 73، 85».

هذا وقد سبق لنا تلخيص سورة الأعراف، ولذلك فسوف أكتفي هنا باستعراض أقوال المفسرين والدلالات العلمية للنص الكريم الذي اخترناه منها عنواناً لهذا المقال.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿...فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث...*﴾

«سورة الأعراف، الآية: 176».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «.. أي فمثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث..».
- وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «.. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ صفته ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ بالطرد والزجر ﴿يَلْهَثْ﴾ يدلع لسانه ﴿أَوْ﴾ إن ﴿تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وليس غيره من الحيوان كذلك، وجملتا الشرط حال، أي: لاهثاً ذليلاً بكل حال، والقصد التشبيه في الوضع والخسة، بقرينة (الفاء) المشعرة بترتيب ما بعدها على ما قبلها من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى، وبقرينة قوله ﴿ذَّٰلِكَ﴾ المثل ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ على اليهود وعلى غيرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتدبرون فيها فيؤمنون».
- وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «.. ذلك مثلهم! فقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم، ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً.. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون من مكان الإنسان إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم من الإيمان جناح يرقون به إلى عليين، وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين!!.. وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى مثلاً؟ وهل أسوأ



من اللصوق بالأرض واتباع الهوى مثلاً؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعريها من الغطاء الواقي والدرع الحامية، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض الحائر القلق، اللهّاث لهاث الكلب أبداً!!.. وبعد.. فهل هو نبأ يتلى؟ أم أنه مثل يضرب في صورة النبأ لأنه يقع كثيراً فهو من هذا الجانب خبر يروى؟ تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين وتروى بالتفصيل الطويل قصة انحرافه وانهياره، على نحو لا يأمنه الذي تمرس بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير أن يكون هذا الخبر واحدة منها، ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التي ورد فيها، ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر...».

ورحم الله صاحب الظلال برحمته الواسعة على هذا الحس النوراني الشفاف، فلقد وجدتُ القصة بتفاصيلها في سفر الأعداد من العهد القديم، وقد أمرنا رسول الله ﷺ ألا نصدق أهل الكتاب، ولا نكذبهم.

وأضاف صاحب الظلال ـ أجزل الله له المثوبة جزاء ما قدم ـ ليقول: «لذلك رأينا ـ على منهجنا في ظلال القرآن ـ ألا ندخل في شيء من هذا كله بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله ﷺ عنه شيء وأن نأخذ من النبأ ما وراءه فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر، ما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به.. هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم في وهمهم عرض الحياة الدنيا.. وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة،

والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل!! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً!!».

ويضيف صاحب الظلال ـ أكرمه الله في مثواه جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين ـ ما نصه: .. إنه مثل لكلّ من آتاه الله من علم الله، فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان، ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان! ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟ إنه ـ في حسّنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده في القرآن ـ ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها، ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً، والذي لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبداً..».

- وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه: «﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ أي إن شددت عليه وأجهدته لهث، وإن تركته على حاله لهث، فهو دائم اللهث في الحالين، لأن اللهث طبيعة فيه، فكذلك حال الحريص على الدنيا، إن وعظته فهو لحرصه لا يقبل الوعظ، وإن تركت وعظه فهو حريص لأن الحرص طبيعة فيه، كما أن اللهث طبيعة في الكلب. واللهث: إدلاع اللسان بالنفس الشديد..».

- وذكر كلٌّ من أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير ـ جزاهم الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً، إلا أن الخبراء أضافوا ما يلي على هامش المنتخب: «أوردت هذه الآية ظاهرة مشاهدة وهي أن الكلب يلهث سواء حملت عليه أو لم تحمل، وقد أثبت العلم أن الكلب لا توجد فيه غدد عرقية إلا القليل في باطن أقدامه، والتي لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك فإنه يستعيض عن نقص وسائل تنظيم الحرارة باللهث وهو ازدياد عدد مرات تنفسه زيادة كبيرة عن الحالة العادية مع تعريض مساحة أكبر من داخل الجهاز التنفسي كاللسان والسطح الخارجي من فمه للهواء الخارجي».



من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

الكلب (Dog = **Canis familiaris**) من الثدييات المشيمية آكلة اللحم (Carnivorous Placental Mammals) التي تتبع رتبة خاصة من رتب طائفة الثدييات (Class Mammalia) تعرف باسم رتبة آكلة اللحوم (Order Carnivora) وتضم ثدييات من آكلة اللحوم مثل الكلب (Dog)، والذئب (Wolf)، والثعلب (Fox)، وابن آوى (Jackal)، والقط (Cat)، والنمر (Tiger)، والأسد (Lion)، والدب (Bear) والفقمة أو عجل البحر (Seal)، وحيوان الفظ (Walrus) وكلها تأكل اللحوم، وإن كان بعضها مثل الدببة تأكل الخضراوات أيضاً.

وتقسم رتبة الثدييات آكلة اللحم إلى عدد من الفصائل التي تشمل فيما تشمل ما يلي:

1 ـ فصيلة الكلاب وأشباهها (Family Canidae)

2 ـ فصيلة الدببة وأشباهها (Family Ursidae)

3 ـ فصيلة القطط وأشباهها (Family Felidae)

4 ـ فصيلة الضباع وأشباهها (Family Hyaenidae)



5 ـ فصيلة الراكون وأشباهه (Family Procyonidae)

وتتميز الثدييات المشيمية آكلة اللحم بأحجامها الكبيرة نسبياً، وبعضلاتها المفتولة القوية، وبتحور أسنانها لتناسب طبيعة الغذاء الذي تعيش عليه، وأغلبه اللحوم والغضاريف والعظام، ولذلك تخصصت أسنانها في القطع والتمزيق، وبالقدرة على الإمساك بالفريسة وحملها إلى مسافات بعيدة، فالقواطع الأمامية تقطع، والأنياب تمزق، والمخالب القوية تمسك بالفريسة وتعين على تمزيقها. وآكلات اللحوم في مجموعها حيوانات لها القدرة على الجري السريع.

والكلاب في الطبيعة تميل إلى العيش في جماعات منظمة، وإلى الخروج إلى الصيد في جماعات منظمة كذلك. وتتميز الكلاب بالفكوك القوية، والعضلات النامية، وبجهاز هضمي مهيأ للتعامل مع اللحوم، وبعدد من الحواس القوية مثل حاستي الشم والسمع، وبغريزة اجتماعية واضحة تنظم حياة وجهود القطيع. وعلى الرغم من الفوارق السطحية الكثيرة فإن الكلاب التي يوجد منها اليوم أكثر من مائة سلالة تنتمي كلها إلى نوع واحد يعرف باسم الكلب المعروف أو المستأنس (Canis familiaris) الذي يتبع كلاً من تحت العائلة الكلبية (Subfamily Canidae)، والعائلة الكلبية (Family Canidae) وفوق العائلة الكلبية التي تعرف باسم (Superfamily Canidae).

وأبرز حواس الكلب نماء هي حاسة الشم التي تحلل الروائح المميزة مثل روائح العرق، الدم، والإفرازات الإنسانية والحيوانية الأخرى، وروائح الأنواع المختلفة من التربة، والحشائش، والمنتجات الزراعية، والمركبات الكيميائية وغيرها. وتنتقل الرائحة من الأنف، والممرات الأنفية المصممة بدقة بالغة إلى مركز الشم في مخ الكلب وهو من أكبر المراكز المخية عنده حجماً ونمواً، حيث تحلل الروائح وتسجل في برمجة محكمة.

وتلي حاسة الشم في الكلب حاسة السمع إذ يمكن لأذن الكلب أن تتلقّى أصواتاً تصل في سرعاتها إلى 35000 ذبذبة في الثانية، مقارنة بحوالي 25000 ذبذبة في الثانية لأذن القط، وأضعف حواس الكلب هي البصر حيث لا تتمكن عين الكلب من تمييز الألوان على الإطلاق.

ويرجع أقدم أثر للكلاب المستأنسة على سطح الأرض إلى الفترة من 12000، إلى 14000 ألف سنة مضت حين بدأ الإنسان في استئناسها، ومنذ ذلك التاريخ لعب الكلب أدواراً مختلفة في عديد من الحضارات القديمة.

لماذا يلهث الكلب؟

يقال: **(لهث)** الكلب (يلهث) (لهاثاً) بضم اللام وفتحها إذا أخرج لسانه من الحر والعطش، أو من التعب والإعياء والإجهاد والمرض، و (اللهثان) بفتح الهاء: العطش، وبسكونها: العطشان، والأنثى: (لهثى).

ويعرف (لهث) الكلب و (لهاثه) (Panting) بأنه الأنفاس السريعة الضحلة التي يأخذها الكلب عن طريق فمه المفتوح، ولسانه المتدلي إلى الخارج، وذلك من أجل تزويد جسمه بقدر كافٍ من الأكسجين، وضبط كل من كمية الماء ودرجة الحرارة فيه، وتهويته في حالات الحر الشديد، والسبب في ذلك هو أن جسم الكلب لا يحمل غدداً عَرَقِيَّة إلا في باطن أقدامه فقط، وهذه لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك فإن الكلب يستعين بعملية (اللهاث) لتعويض غيبة الغدد العرقية في غالبية جسمه، ولوجود الشعر الكثيف الذي يغطي أغلب الجسم فيرفع من درجة حرارته خاصة في غيبة الغدد العرقية التي تقوم بتنظيم درجة حرارة أجساد أغلب الكائنات الحية الأرضية.

واللهث هو زيادة في عدد مرات التنفس السريع والقصير المدى زيادة ملحوظة عن معدلات التنفس العادي مع تعريض مساحة أكبر من داخل الجسم كاللسان والفم ومن الجهاز التنفسي بدءاً من المنخار إلى فراغات كل من الأنف والفم إلى كل من البلعوم والحنجرة، والمريء، والقصبات الهوائية أو الرغامي (Trachea) لتيار مستمر من الهواء يزيد من كم الأكسجين الداخل إلى الجهاز التنفسي، وفي نفس الوقت يقوم بتبخير جزء من الماء الموجود في الأنسجة التي يمر بها فيؤدي إلى تبريد الجسم وخفض درجة حرارته، ويساعد على ذلك ما يقوم به الكلب أحياناً من لحس الأطراف، ولحس بقية ما يطول لسانه من جسمه وتبليله بلعابه حتى يتبخر ذلك ويساعد على خفض درجة حرارة جسمه.

ومن بديع صنع الخالق ﷻ أن لهاث الكلب يؤثر فقط على مقدمات الجهاز التنفسي ولا يقتضي الانتفاخ الكامل للرئتين وأسناخهما (Full Alveolar Inflation)، لإتمام عملية التبادل الكامل بين أكسجين الهواء الداخل وثاني أكسيد الكربون بالرئتين، وذلك لأن أغلب الهواء الداخل بعملية اللهث لا تتجاوز حركته ما يسمى باسم الفراغ الميت من الجهاز التنفسي الذي يمتد من كل من الأنف والفم وفراغاتهما إلى كل من البلعوم، والحنجرة، والمريء، والقصبة الهوائية بتفرعاتها، ولكنه لا يكاد يصل إلى الرئتين، حتى لا يؤدي ذلك إلى زيادة فقد ثاني أكسيد الكربون من الرئتين مما قد يتسبب في مرض يعرف باسم مرض القلاء (Alkalosis).

ومن إحكام الخلق في بناء جسم الكلب أن عملية اللهاث تتم بأقل قدر ممكن من حركة العضلات، وهي أكثر أجزاء جسم الكلب نمواً، ومن أبرزها عضلة اللسان وبحركتها ترتفع درجة حرارة الجسم، ولذلك جعل الله ـ تعالى ـ الجهاز التنفسي للكلب جهازاً شديد المرونة ينتفخ بأقل جهد ممكن أثناء عملية الشهيق، ويعود إلى حجمه الطبيعي دون أي تدخل عضلي أثناء عملية الزفير وذلك في مصاحبة عملية اللهثان. فعندما يبدأ الكلب في هذه العملية تنتقل



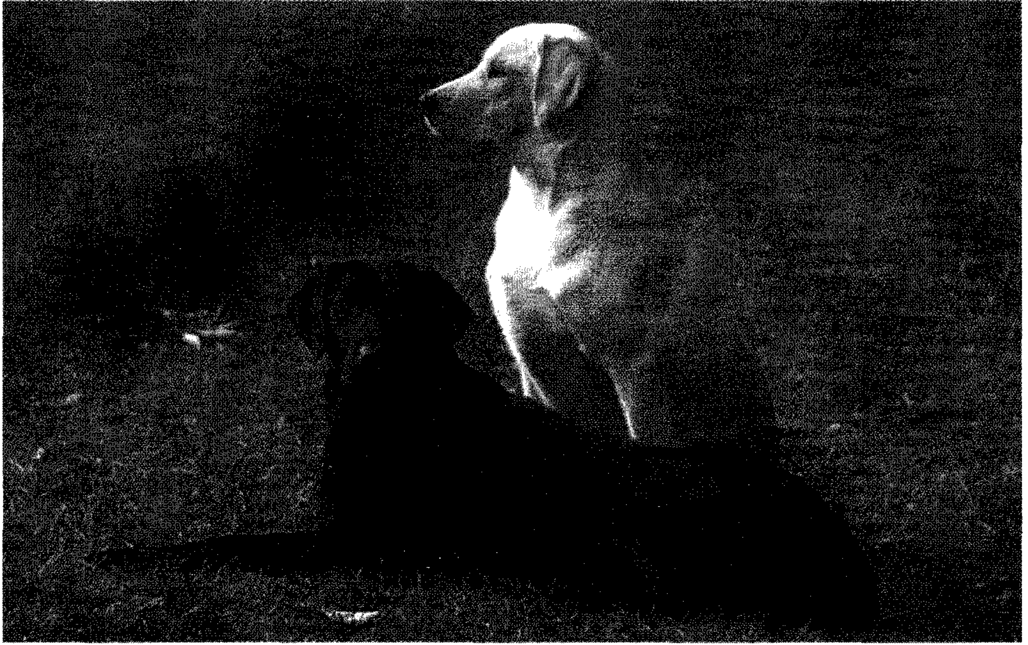
سرعة تنفسه فجأة من30، 40 نفساً بالدقيقة إلى عشرة أضعاف ذلك (أي إلى 300، 400 نفس بالدقيقة). فإذا عطش الكلب أو ارتفعت درجة حرارة جسمه أو حدث الأمران معاً فإنه يبدأ في اللهث بمعدلات سريعة، ثم يعود لتنفسه العادي، ثم يلهث سريعاً، ثم يعود إلى التنفس البطيء حتى يحقق تبريد جسمه وضبط درجة حرارته، ويعين على ذلك قدر الهواء الداخل إلى مقدمات الجهاز التنفسي والخارج منه وما يحمله معه تيار الهواء الخارج من بخار الماء الذي يتصاعد من الأنسجة التي يمر عليها وهو خارج إلى الجو مع عملية الزفير خاصة أن الممرات الأنفية والفمية للكلب مصممة بنظام يسمح بمرور كمية كبيرة من الهواء مع كل نفس. ويعين على تبريد جسم الكلب المرونة الزائدة للجهاز التنفسي الذي يمتد مع الشهيق باستهلاك جزء يسير جداً من طاقة العضلات ويرتد بذاته مع عملية الزفير دون أدنى تدخل عضلي.. وقد قدر أنه لو لم يكن للجهاز التنفسي للكلب هذا القدر من المرونة العالية لكانت الحرارة الناتجة من عملية اللهاث أكبر بكثير من الحرارة المفقودة بتبخير جزء من ماء الأنسجة المبطنة لمقدمات جهازه التنفسي بواسطة تيار الهواء المار بها أثناء عملية الزفير؛ وذلك لأن الطاقة اللازمة لتحريك عضلات الجهاز التنفسي عند غير الكلب من الثدييات آكلة اللحم (اللاحمة) هي طاقة كبيرة، والحرارة الناتجة عنها هي حرارة ذات قيم مرتفعة.

والكلب يلهث عادة عند ارتفاع درجة حرارة جسده بسبب ارتفاع درجة حرارة البيئة التي يحيا فيها، أو بسبب العطش، أو بسببهما معاً، أو عند الإجهاد الشديد، أو الإعياء والمرض العضوي أو النفسي، أو عند الاستثارة والمفاجأة، أو عند الفرح والرضا بصفة عامة.

والكلب له أصوات عدة غير اللهاث (Panting) منها ما يلي:

نباح الكلب (Barking or Yelping)، وعواء الكلب (Howling) وهمهمات الكلب (Growling) وأنين وهرير الكلب (Whining)، وهبهبة الكلب (Hubbubing)، وزمجرة الكلب (Snarling)، وغير ذلك من الأصوات التي لكل منها دلالته وتعبيره، لأن الكلب كغيره من الحيوانات له لغة تخاطب يتفاهم بها مع أفراد قطيعه ومع أمثاله من الحيوانات، وله قدر من الذكاء والانفعال والقدرة على التعبير.

ولكن حقيقة اضطرار الكلب إلى اللهاث المستمر تقريباً من أجل خفض درجة حرارة جسده، أو للتعبير عن شدة عطشه، أو عن الإجهاد الشديد الذي تعرض له، أو عن عارض



عرض له، أو مرض عضوي أو نفسي ألمَّ به، أو فرح انتابه، أو حزن لمس قلبه أو غير ذلك من الانفعالات ووسائل التعبير عنها، وما أكثرها عند هذه العجماوات، كل ذلك لم يعرف إلا في دراسات علم السلوك الحيواني (Animal Behaviour)، وهي دراسات مستحدثة لم تتبلور إلا في القرن العشرين أو في العقود المتأخرة منه على أحسن تقدير، وتشبيه القرآن الكريم من انصرف عن الهداية الربانية إلى الانشغال التام بالدنيا والجري المتواصل من أجل تحصيلها دون التقاط للأنفاس أو توقف للتأمل والمدارسة بحال الكلب اللاهث في أغلب أحواله لتبريد جسده أو إطفاء ظمئه، أو للتعبير عن رغبة عنده. وكل ذلك يعتبر سبقاً علمياً رائعاً يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بهذا الحفظ إلى أن يشاء الله، ولم يتعهد بحفظ رسالة سابقة أبداً، وذلك لأن القرآن الكريم هو آخر الرسالات السماوية، وأتمها وأكملها، وأن سيدنا محمد بن عبد الله هو خاتم الأنبياء والمرسلين فليس من بعده نبي ولا رسول، والله ـ تعالى ـ من عدله المطلق يقول: ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝﴾ «سورة الإسراء، الآية: 15».

وحفظ القرآن الكريم بعهد من الله ـ تعالى ـ يمثل قيام خاتم الأنبياء والمرسلين على ظهر الأرض إلى يوم الدين يدعو الخلق أجمعين إلى الهداية الربانية التي تكاملت في بعثته وحفظت في القرآن الكريم، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله ربّ العالمين.



۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ
فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

«سورة النحل، الآية: 115».

21



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في أوائل العشر الأخير من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم «النحل» لأن الله ـ تعالى ـ قد نحل الشغالات من إناثها القدرة على جمع رحائق الأزهار، وما بها من غبار الطلع (حبوب اللقاح) من العديد من النباتات المزهرة، وهضمه، وتحويله في بطونها إلى ذلك الشراب المختلف الألوان الذي جعل الله ﷻ فيه شفاء للناس والمعروف إجمالاً باسم عسل النحل.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النحل» حول قضيتي العقيدة الإسلامية، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وكلتاهما من ركائز الدين الإسلامي العظيم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على فترة من الأنبياء والمرسلين ثم أكمله وأتمه في بعثة النبي والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ. وفي خلال تأسيسها لقواعد العقيدة الإسلامية استشهدت سورة النحل بالعديد من آيات الله في الكون بصياغة علمية رصينة تتَّسم بالكمال والشمول والإيجاز. وقد سبق لنا استعراض ركائز العقيدة ومكارم الأخلاق والإشارات الكونية التي جاءت في سورة النحل، وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك سوف أقصر الحديث هنا على الدلالات العلمية للآية (115) من هذه السورة المباركة والتي جاء فيها تحريم أكل كلٍّ من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في تحريم أكل الميتة:

إن موت الحيوان قبل تذكيته قد يكون بسبب مرض من الأمراض العضوية أو الفيروسية التي ألمَّت به، أو بسبب شيخوخة أصابته، وهذا سبب كافٍ لتحريم أكل لحمه، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يؤدي إليه الموت دون تذكية؛ أي دون إراقة دمه إلى احتباس كل دمه في جسده اتضحت لنا حكمة تحريم أكل لحم الميتة وذلك لأن الدم هو حامل فضلات الجسم المختلفة من مثل ثاني أكسيد الكربون، واليوريا، وحمض اليوريك، وجراثيم الجسم وطفيلياته، ونواتج عمليات تمثيل الطعام في جسم الحيوان (عمليات الأيض) والتي تنقل عبر الأوردة وتفرعاتها المختلفة، في جسم الحيوان، وأغلبها مواد قابلة للتعفن والتحلل إذا حبست في الجسد الميت للحيوان، خاصة إذا كان قد انقضى على موته وقت يسمح ببدء تحلل جسده وفساد لحمه. ومن هنا تتَّضح الحكمة الإلٰهية من تحريم أكل لحوم الميتة.

ثانياً: في تحريم أكل الدم المسفوح كطعام:

الدم هو هذا السائل الأحمر القاني الذي يتكون من أخلاط عديدة منها الخلايا الحمراء الممتلئة بمادة الهيموجلوبين التي تقوم بنقل الأكسجين إلى مختلف خلايا الجسم، والخلايا البيضاء التي تدافع عن الجسم ضد غزو حاملات الأمراض من الجراثيم والڤيروسات والطفيليات، والصفائح التي تتحطم حول نزيف الدم من أجل تجلطه. وتشكل خلايا الدم الحمراء نحو45٪ من الحجم الكلي للدم (4 إلى 6 ملايين خلية في كل مليمتر مكعب)، ولا يشكل كلٌّ من خلايا الدم البيضاء وصفائحه أكثر من1٪، وباقي الدم (54٪) يتكون من البلازما التي يغلب على تركيبها الماء وبه نحو 7٪ من حجم الدم بروتينات (من مثل الألبيومين، والجلوبيولين، والأجسام المضادة، والبروتينات الناقلة، والدهون، وأيونات مختلفة للصوديوم، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والحديد، والنحاس، والكلور والبيكربونات، وغيرها، والفيتامينات، والهرمونات، والفضلات النيتروجينية التي تفرزها الخلايا مثل الأمونيا، واليوريا، وحمض اليوريك وهي سموم قاتلة يحملها الدم عادة إلى الكلى للتخلص منها إلى خارج الجسم عن طريق البول. هذا بالإضافة إلى العديد من الغازات الحرة والمذابة في بلازما الدم، والفيروسات، والجراثيم، والطفيليات الحية والميتة، وخلايا

متكسرة من خلايا الدم ذاته، وغير ذلك من الخلاصات المفيدة للأغذية والأكسجين التي يدفع بها القلب مرة أخرى، إلى مختلف خلايا الجسم. ومن ذلك يتضح أن الدم سائل ناقل للأمراض الخطيرة مثل مرض نقص المناعة، وهو مرض قاتل، لا علاج له ولا حيلة فيه، وبالإضافة إلى الدم هناك سوائل الجهاز الليمفاوي الذي ينتشر بين الأوعية الدموية أو في أوعية خاصة به بتفرعاتها المختلفة، وتفيض إلى الأوردة الدموية الكبيرة بالقرب من القلب.

والسائل الليمفاوي يتكون أساساً من البلازما وبعض المواد المذابة فيها، والعالقة بها من مثل الخلايا البيضاء، والليمفاويات (Lymphocytes) التي تعتبر من أهم أجهزة الجسم الدفاعية ضد حاملات الأمراض. وبالإضافة إلى ذلك هناك العقد الليمفاوية (Lymph Nodes) وهي كتل من النسيج الليمفاوي توجد على طول الأوعية الليمفاوية بتفرعاتها المختلفة، كما توجد مستقلة عنها في كل من اللوزتين (Tonsils)، وعقد البلعوم الليمفاوية، والغدد الليمفاوية بالقناة الهضمية، والغدد التوتية أو الزعترية (Thymus)، والطحال. وتقوم السوائل الليمفاوية بامتصاص البروتينات المتسربة من كل من الأوعية الدموية والأنسجة البينية، وإعادتها إلى مجرى الدم في الوقت المناسب لتساعد على الاتزان الكيميائي في داخل جسد الكائن الحي وإلا هلك. ويعتبر ذلك من أهم وظائف الجهاز الليمفاوي.

والوظيفة الأساسية للغدد الليمفاوية هي الدفاع عن الجسم وذلك لاحتوائها على مجاميع كبيرة من الخلايا الليمفاوية (الليمفاويات)، وتقوم هذه الخلايا المتجمعة على هيئة الغدد بالعمل كمرشحات للغازات والسوائل التي تدخل الجسم تلتقط منها الملوثات من مثل ذرات الغبار والفيروسات والبكتيريا وغيرها من حاملات الأمراض ويتم خزنها فيها حتى يتم إفراز الأجسام المضادة للقضاء عليها.

ومن العمليات التي يقوم بها الدم في الكبد: نزع مجموعة الأمين (NH_2) من الأحماض الأمينية فينتج عن ذلك فضلات نيتروجينية كالتي سبق ذكرها يحملها دم الأوردة إلى الكلى للتخلص منها. كذلك تقوم الكلى وملحقاتها بتحقيق التوازن الكيميائي للجسم، والتخلص من الفضلات الناتجة عن عمليات التمثيل الغذائي، ويلعب الدم الدور الرئيسي في ذلك.

وانطلاقاً مما سبق نرى أن الدم المسفوح بمكوناته الأساسية، وبما يحمله من نواتج عملية التمثيل الغذائي ومن عوادم وفضلات متجمعة فيه إذا حبس بداخل جسم الحيوان

الميت، أي: الذي لم يذك بالذبح الشرعي فإنه سرعان ما يبدأ في التجلط على ما فيه من سموم كانت في طريقها إلى الأجهزة المختلفة التي تخلص الجسم منها، ثم في التحلل والتعفن مما ينتج كمًّا من السموم المعقدة، والمركبات الكيميائية الأخرى الضارة بصحة الإنسان؛ فإذا أضفنا إلى ذلك أن الدم عادة ما يحمل كمًّا آخر من الفيروسات والجراثيم والطفيليات، وما تفرزه من سموم ونفايات علمنا أن الدم هو حامل فضلات الجسم وجراثيمه وطفيلياته، ومن هنا كانت الحكمة الإلٰهية في تحريم أكل الدم المسفوح كغذاء. أما أكل كل من الكبد والطحال من الحيوان المذكى فهو حلال وذلك لقول رسول الله ﷺ:

«أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»[1].

ثالثاً: في تحريم أكل لحم الخنزير وشحمه:

الخنزير وصفه القرآن الكريم في أكثر من مقام بأنه رجس، (البقره: 173؛ المائده: 3؛ الأنعام: 145؛ والنحل: 115) وهذه كلمة جامعة لكل معاني القذارة والقبح، والنجاسة، والإثم، وذلك لأن الخنزير حيوان كسول، جشع، قذر، رمام، يأكل النبات والحيوان والجيف، والقمامة، كما يأكل فضلاته هو وفضلات غيره من الحيوانات، وهذا من أسباب قيامه بدور كبير في نقل العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان.

والخنزير من الحيوانات الثديية السرية (Placental Mammals) ذات الحافر المشقوق الذي يحمل عدداً زوجياً من الأصابع (أربعة أصابع في حالة الخنازير) ولذلك تعرف باسم الحافريات زوجية الأصابع (Even-Toed Ungulates = Artiodactyla)وهذه الحافريات زوجية الأصابع قد عمرت الأرض خلال خمسين مليون سنة قبل الوقت الحاضر أي: من بدايات عهد فجر الحياة الحديثة إلى اليوم (Early Eocene- Holocene).

والخنازير تنفصل عن بقية هذه المجموعة بكونها رمامة وغير مجترة.

وتضم الخنازير عدداً من الأنواع البرية والمستأنسة والتي تجمع كلها في عائلة واحدة تعرف باسم عائلة الخنازير (Family Suidae)، ويسمى الذكر منها باسم العفر (Boar)،

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة (الحديث: 3314)، والإمام أحمد في مسنده والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً وموقوفاً.

وتسمى الأنثى باسم الخنزيرة (Sow) وهي من النوع الولود. والخنزير المخصي يعرف باسم الحلوف (Hog)، ويستعار اللفظ وصفاً لكل قذر، شره، أناني من البشر، وتستخدم لفظة (Swine) للتعبير عن الخنزير بصفة عامة سواء كان ذكراً أو أنثى، مخصياً أو غير مخصي، مستأنساً أو غير مستأنس وتستعار كذلك لكل حقير النفس، بخيل اليد، قذر المظهر والملبس، متَّصف بأحقر الصفات، أو للمرأة الساقطة المجردة من كل فضيلة.

والخنزير حيوان كريه المنظر، ضخم الجثة، كتلي الشكل، مكتنز اللحم، قصير الأرجل، له جلد سميك، عليه شعر خشن، وله بوز طويل وأنياب قوية، تم استئناسه منذ حوالي11000 سنة مضت، ويعرف منه اليوم أكثر من أربعمائة سلالة.

ونظراً لطبيعته الرمامة، وقذارته الواضحة، وأكله كلاً من النباتات واللحوم والجيف والنفايات وغير ذلك من المستقذرات فإن الخنزير معرض للإصابة بالعديد من الأمراض من أمثال حمرة الخنازير (Swine Erysipelas) التي تتسبب فيها أنواع خاصة من البكتيريا وتنتقل إلى الإنسان، وحمى الخنازير (Swine Fever) وتعرف أحياناً باسم كوليرا الحلاليف (Hog cholera) ويتسبب في هذا المرض فيروس خاص يوجد في الجيف، ومن مثل مرض



حويصلات الخنازير (Swine Vesicular Disease) وهو يشبه مرض الحمى القلاعية (Foot and Mouth Disease) ويمكن انتقاله إلى الإنسان عن طريق أكل لحوم الخنزير ودهونه، ومن مسبباته فيروسات القمامة والجيف والجراثيم المصاحبة لها. هذا بالإضافة إلى العديد من المواد المسببة للسرطان والطفيليات والجراثيم التي تعشش في لحم الخنزير وبعضها يتسبب في أمراض معدية للإنسان وقاتلة له في كثير من الأحيان وذلك لعدم وجود طريقة للتخلص منها على الإطلاق. ومن أخطر مسببات الأمراض في الخنزير ما يلي:

1 ـ **ديدان التريخينا Trichina Worms**: وهي من الديدان الأسطوانية (Nematoda = Round Worms) من أمثال الدودة الشعرية الحلزونية **(Trichinella spiralis)** وهي من أخطر الطفيليات على الإنسان وتتسبب في أمراض روماتيزمية عديدة والتهابات عضلية مؤلمة تؤدي إلى انتفاخ الأنسجة العضلية وتصلبها وتعرف باسم **داء الشعرينات (Trichinellosis)** الذي ينتج عن انتشار يرقات هذه الدودة في عضلات الجسم مما قد يؤدي إلى إقعاد المريض إقعاداً كاملاً ومعاناته من الآلام المبرحة حتى وفاته بعد أن يصاب بالتهاب المخ والنخاع الشوكي والسحايا المحيطة بهما، وبالعديد من الأمراض العصبية والعقلية المترتبة على ذلك. ويصاب حالياً بهذا المرض نحو 47 مليون شخص في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، ونسبة الوفاة بين المصابين به تبلغ نحو 30٪، والخنزير هو المصدر الوحيد لإصابة الإنسان بهذا المرض الخطير.

2 ـ **الدودة الشريطية الوحيدة للخنزير (Pork Tape Worm = Taenia Solium)**: وتتسبب في العديد من الأمراض للإنسان من مثل فقر الدم، واضطرابات الجهاز الهضمي، والمغص، والإسهال، والقيء، والاكتئاب الشديد، والسوداوية، وقد يصل ذلك إلى النوبات الصرعية، والتشنجات العصبية الشديدة. وأخطر ما في هذه الدودة هو دخول يرقاتها إلى مجرى الدم الذي قد يحملها إلى أحد الأعضاء الحيوية في الجسم من مثل المخ، القلب، الكبد، الرئتين أو الحبل العصبي المركزي حيث تنمو وتتحوصل محدثة ضغوطاً كبيرة على الأنظمة من حولها ومسببة عدداً من الأمراض الخطيرة التي تنتهي بوفاة المريض بعد معاناة طويلة.

3 ـ **الديدان الحلقية (Round Worms)**: من مثل دودة الأسكارس (Ascaris)، والديدان

الخطافية (Hook Worms)، والديدان المنشقة اليابانية (Schistosoma japonicum) والتي تؤدي إلى نزيف دموي حاد، يعقبه فقر دم، وإذا وصلت بويضاتها إلى أيٍّ من المخ أو العمود الفقري فإنها تسبب شللاً كاملاً ثم الوفاة. هذا بالإضافة إلى سلسلة طويلة من الديدان والجراثيم والبكتيريا التي تدمر جسد الإنسان تدميراً كاملاً منها التهاب القصبة الهوائية، والسل، والكوليرا، والتيفوئيد، ونزيف الرئتين، وتضخّم الكبد، وتعفن الأقدام، وداء البروسيللات (Brucellosis)، والحمرة (Erysipelas) والأمراض الثلاثة الأخيرة تنقلها بكتيريا الجيف والقاذورات التي تتغذّى عليها الخنازير.

4 ـ **الحيوان الأولي الهدبي المعروف باسم القربية القولونية (Balantidium coli)**: الذي يسبب مرض الزحار الشديد وبعض أمراض عضلة القلب ومصدره الوحيد للإنسان هو الخنزير، وهو مرض معدي ينتشر بين كل من له علاقة بتربية الخنزير أو ذبحه وسلخه.

5 ـ **الديدان المفلطحة (المثقُوبيات أو الوشائع)**: ومنها ما يصيب الأمعاء، أو المعدة، أو الرئة، أو الكبد، ويعمل الخنزير على نشر هذه الديدان في البيئة وعلى نقلها لمن يأكل لحمه من بني الإنسان.

هذا بالإضافة إلى أن لحم الخنزير صعب الهضم لاحتوائه على نسبة من الدهون أعلى من لحم أي حيوان آخر، وكذلك فإن دهن الخنزير عالي التشبع بدرجة تفوق درجة تشبع أي دهن حيواني آخر، ولذلك يصاب آكلوه بأمراض حصى المرارة، وانسداد قنواتها وبتصلب الشرايين، وبالعديد من أمراض القلب والدورة الدموية.

ودهون الخنزير عالية التشبع لا تقوى عصارة البنكرياس في الإنسان على تحويلها إلى مستحلبات دهنية قابلة للامتصاص، ولذلك فهي تبقى على حالتها وتترسب في جسم الإنسان على هيئتها الخنزيرية الضارة ضرراً بليغاً بجسم الإنسان. ومعظم الفقهاء المسلمون يعتبر لفظة لحم الخنزير شاملة كلّاً من لحمه ودهنه.

ولحم الخنزير يفسد بسرعة عن أي لحم آخر، وله رائحة كريهة، ومن عجائب وساوس الشيطان أنه لم يكتف بإغراء غير المسلمين بأكل لحم الخنزير على دنسه، وامتلائه بمسببات الأمراض، بل أغراهم بأكل دمه ودهنه فيما يعرف باسم النقانق السوداء (Black Sausages) وهي

عبارة عن أمعاء الخنزير المملوءة بدمه ودهنه حتى تجمع بين أكثر من مُحَرَّمٍ واحد. وقد ثبت أن لحم الخنزير يحتوي العديد من المواد المسرطنة ومنها المواد المسماة (Nieper وEnderlein)، وإن كثيراً من المواد الحافظة للحم الخنزير والملونة له والمعطية النكهات الخاصة به مثل المركبات النيتروجينية (Nitrites and Nitrates) والبنزولية (Benzol) تتحوَّل في أبدان آكلي هذا اللحم النجس إلى مركبات معقدة تعتبر من أشد العوامل المسرطنة المعروفة. وعلى ذلك فقد ثبت أن كلاً من لحم الخنزير ودهنه ودمه يساعد على انتشار أنواع عديدة من الأمراض السرطانية من مثل سرطان كلٍّ من القولون، والمستقيم، والبروستات والبنكرياس والمرارة، والرحم، والثدي، وإلى العديد من أمراض الحساسية المختلفة، وقرح الجهاز الهضمي، وقرح الساق المزمنة، والتهاب كل من الزائدة الدودية والمرارة، وتليف الكبد، والتهاب كل من الدماغ وعضلة القلب، وأغلب ذلك من الأمراض الفيروسية التي يلعب الخنزير دوراً رئيسياً في نقلها للإنسان.

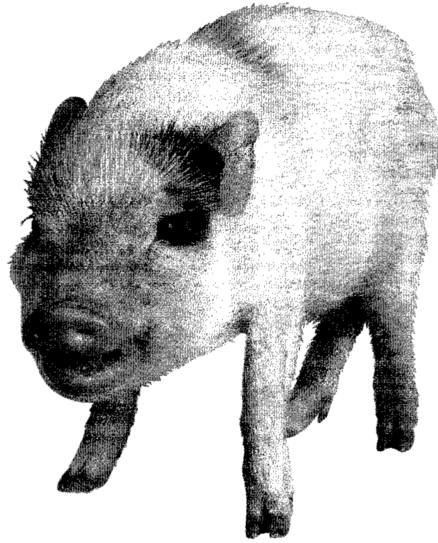
أما أهم الأمراض البكتيرية التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان فتشمل الحمى المالطية، السالمونيللا، الجمرة الخبيثة، الدرن، الدرن الكاذب، والدوسنتاريا (الزحار).

وأغلب هذه الفيروسات، والبكتيريا، والطفيليات التي تتكدس في جسم الخنزير لا يمكن القضاء عليها بمجرد طهو لحمه أو إدخاله في النار.

رابعاً: في تحريم أكل ما أهلَّ لغير الله به:

كان أهل الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى أصنامهم سموا عليها أسماءها، ورفعوا بها أصواتهم، وسمي ذلك إهلالاً، ثم توسع في الإهلال فقيل لكل ذابح: مهل، سواء أهل به أو لم يهل، وسمى أو لم يسم، جهر بالتسمية أو لم يجهر، لأن الأصل في الإهلال هو رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت عند فجائية ظهور أي شيء، ثم أصبح مطلقاً، وعلى ذلك فإن المفهوم من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي ما ذبح لغير الله.

وقد أكد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي أماكن أخرى من القرآن الكريم أهمية ذكر اسم الله على كل ذبيحة من ذبائح المسلمين وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:



1 ـ ﴿... وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ «سورة المائدة، الآية: 4».

2 ـ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ۞﴾ «سورة الأنعام، الآيتان: 118، 119».

3 ـ ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ﴾ «سورة الحج، الآية: 36».

وفي بحث مختبري منهجي أثبت عشرون من كبار علماء الطب والطب البيطري والصيدلة والعلوم في الجامعات السورية أن التسمية والتكبير عند ذبح الحيوان تعمل عملية تعقيم كامل لبدنه وتطهره من الدماء والجراثيم، بعكس الذبائح التي لا يذكر اسم الله عليها.

وفي ذلك ذكر الأخ الكريم الدكتور خالد حلاوة المتحدث باسم فريق البحث أن التجارب المختبرية المكررة على مدى ثلاث سنوات أثبتت مجهرياً أن نسيج اللحم المذبوح بدون تسمية وتكبير كان محتقناً بشيء من بقايا الدم، ومصاباً بمستعمرات عدد من

الجراثيم من مثل المكورات العنقودية والعقدية والعصيات القولونية وغيرها، بينما جاء اللحم المسمى عليه (باسم الله، الله أكبر) زكياً طاهراً، خالياً تماماً من الدماء والجراثيم.

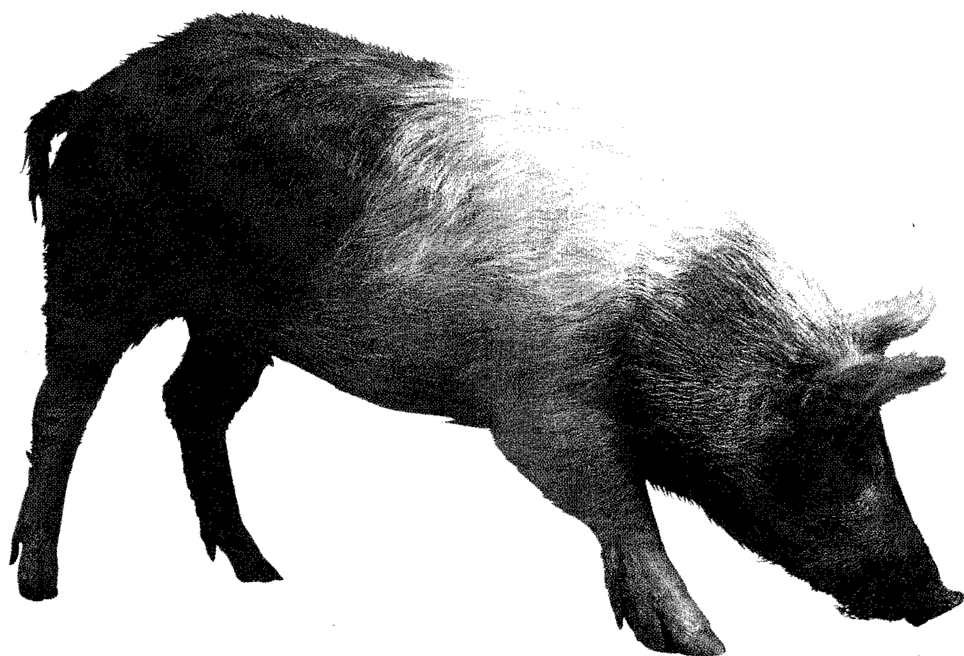
وفسر ذلك الأخ الكريم الدكتور فؤاد نعمة الأستاذ بكلية الطب البيطري بجامعة دمشق بأنه لوحظ شدة اختلاج أعضاء وعضلات الحيوان الذي يذكر عليه اسم الله عند ذبحه، وإن شدة الاختلاج هذه هي التي تقوم باعتصار معظم دم الذبيحة، وبذلك تطهر وتزكو، بينما لا يحدث ذلك في حالات عدم التسمية والتكبير، وإن كانت التذكية بمعنى إراقة الدم المسفوح تخلص بدن الحيوان من معظم هذا السائل القابل للتعفن ومن معظم ما به من جراثيم.

وقد فصَّل الأخ الكريم الدكتور نبيل الشريف العميد السابق لكلية الصيدلة بجامعة دمشق الخطوات المنهجية للبحث حتى توصل إلى هذه النتيجة التي تفوق كل وصف.

من هذا الاستعراض الموجز يتضح لنا بجلاء حكمة تحريم أكل كلٍّ من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، ولو لم يرد في القرآن الكريم غير هذه الحقيقة العلمية لكانت كافية للشهادة على أنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وحقائق القرآن الكريم تشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن المبين بأنه كان موصولاً بالوحي ومعلّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وسبحان الله القائل:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞﴾

«سورة يونس، الآيات: 37 ـ 39».



حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ
بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ
ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ
ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى
وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ
غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ
أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ
مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿...وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ...﴾ «سورة المائدة، الآية: 3».

22



هذا النص القرآني المعجز جاء في مطلع سورة «المائدة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (120) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، ومن أواخرها نزولاً، وسميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى المائدة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ من السماء كرامة لعبده ورسوله: المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول التشريع بعدد من الأحكام اللازمة لإقامة دولة الإسلام، ولتنظيم المجتمع فيها على مختلف المستويات تنظيماً ينطلق من ركائز العقيدة الإسلامية القائمة على توحيد الخالق سبحانه وتعالى، ومراقبته في السر والعلن، والاستعداد لملاقاته بعد هذه الحياة الدنيا بصفحة مليئة بصالح الأعمال علها تكسب مرضاته، والفوز بالجنة، والنجاة من النار. وكان أول بنود هذا التشريع الإسلامي هو عقد الإيمان بالله رباً واحداً أحداً، وبالإسلام ديناً خالصاً، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وكان هذا العقد هو القاعدة التي تقوم عليها سائر العقود في حياة المسلمين، أفراداً وجماعات، ومن هنا نصت سورة «المائدة» على الوفاء بالعقود.

ويتخلل آيات التشريع في هذه السورة المباركة التأكيد على توحيد الله توحيداً كاملاً خالصاً مطلقاً لذاته العلية ـ بغير شريك، ولاشبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ، واستعراض بعض قصص الأولين، وتفنيد عقائد الكفار والمشركين، والدعوة إلى الإيمان ببعثة النبي والرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، وذلك يتكرر عدة مرات لعله أن يستجيش ضمائرهم، مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ «سورة المائدة، الآية: 19».

وتعرج سورة «المائدة» إلى التذكير بيوم القيامة الذي سوف تبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء، ومن بعده تساق إلى الخلود إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً، كما تعرج إلى ذكر عدد من المعجزات التي أيد الله ﷻ بها عبده ورسوله: المسيح عيسى ابن مريم، ومنها إنزال المائدة التي طلبها أتباعه من السماء، وسميت باسمها هذه السورة المباركة التي ختمت بتبرئته وأمه عليهما السلام من دعاوى الألوهية التي افتُرِيَ عليهما بها، وما كان لأيٍّ منهما أن يدعيها مع اعترافهما بالعبودية الكاملة لله ﷻ وحده.

من التشريعات الإسلامية في سورة «المائدة»:

1 ـ الأمر بالوفاء بالعقود، أي العهود المؤكدة بين العباد وخالقهم، وبينهم وبعضهم البعض. ومن العقود المبرمة بين العباد وخالقهم ـ والعباد بعد في عالم الذر ـ: الإيمان بربوبيته ﷻ.

2 ـ تأكيد ضرورة الحكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ، ومن ذلك أحكام القصاص، والردة، والحنث في اليمين، وتأكيد قضية الولاء والبراء، والأمر بالعدل في القضاء، وبتقوى الله ﷻ في السر والعلن، وبالتوكل عليه حق التوكل، وبعدم خشية غيره، وبطاعة الله ورسوله، وبالحرص على عمل الصالحات ومن ذلك الإحسان إلى الخلق.

3 ـ الأمر بالمحافظة على حرمات الدين وشعائره من مثل حرمة الكعبة المشرفة، وحرمة كلٍّ من الحج ومناسكه، والأشهر الحرم، وما يهدى إلى البيت الحرام، وما يقلد به الهدي، وحرمة قاصدي البيت الحرام من الحجاج والمعتمرين، وأمنهم وسلامتهم.

4 ـ الأمر بالتعاون على البر والتقوى، ومن ذلك حسن الخلق وفعل الطاعات، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان، ومنه فعل المنكرات والمنهيات ومجاوزة حدود الله ـ تعالى ـ.

5 ـ الأمر بالجهاد في سبيل الله، طلباً لمرضاته ﷻ.

6 ـ تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وتحديد عقوبة القتل.

7 ـ تحريم قطع الطريق والاعتداء على الخلق، وتحديد عقوبة ذلك.

8 ـ تحريم السرقة، وأكل السحت بمختلف أشكاله وألوانه ومنه الرشوة، والربا، والغش في التجارة، وتطفيف الموازين والمكاييل، وعدم الأمانة في الصنعة والعمل، وتحديد عقوبة كل واحدة من تلك الأعمال السيئة والخاطئة.

9 ـ تحليل أكل لحوم الأنعام وشرب ألبانها، ومن الأنعام كلٍّ من الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وما يماثلها من الثدييات اللبونة المجترة والمقتصرة على أكل الأعشاب كالظباء، والغزلان، والزراف، وبقر الوحش، وأشباهها.

10 ـ تحريم أكل كلٍّ من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع ـ إلا ما أُدْرِكَ ذكاؤه من الأصناف الخمسة الأخيرة أي إتمام ذبحه قبل أن يموت)، وما ذبح على النصب، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

11 ـ تحريم الصيد على المحرم وكفارة ذلك، وهذا التحريم يشمل مجرد الانتفاع بالصيد سواء كان المحرم في الحل أو في الحرم، ويقع في حكم المحرم من كان مقيماً في الحرم وليس محرماً.

12 ـ تحريم كلٍّ من الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، واعتبارها رجساً من عمل الشيطان يجب على المسلم اجتنابه. والاستقسام بالأزلام يشمل كل محاولة لاستشراف الغيب بواسطة القداح، وهي سهام كانت لدى أهل الجاهلية، وذلك من مثل قراءة الطالع، أو الكف، أو الفنجان، أو فتح أوراق اللعب، وغيرها من وسائل الدجل والنصب المتعددة.

13 ـ لا يجوز للمسلم أن يخشى غير الله أبداً، خاصة أهل الكفر والشرك لأنهم أضعف من الضعف لوقوعهم في معاصي الله، ولذلك فالله لا يرضى عنهم أبداً، ويرضى عن المسلمين الذين أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام ديناً. ومن كان في جوار الله كان الله في جواره، ولا يقوى على مواجهة الله أحد من خلقه، بل لا يقوى على ذلك كل خلقه مجتمعين.

14 ـ تحليل طعام أهل الكتاب، وتحليل ذبائحهم إذا ذكروا اسم الله ـ تعالى ـ عليها أثناء الذبح.

15 ـ تحليل صيد البحر وطعامه، وصيد البر المباح بعد ذكر اسم الله على وسيلة الصيد من الجوارح قبل إطلاقها.

16 ـ تحليل زواج المحصنات من المؤمنات؛ أي: العفيفات المترفِّعات عن الرذائل، وزواج المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، بعد دفع مهورهن، ومع عدم الاختلاء بهن قبل الزواج.

17 ـ تفصيل أحكام الطهارة في جميع الحالات.

18 ـ تفصيل أحكام الوصية.

19 ـ الحكم بأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾«سورة المائدة، الآية: 32».

20 ـ الحكم بأن حزب الله هم الغالبون و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «سورة المائدة، الآية: 36».

من ركائز العقيدة في سورة «المائدة»:

1 ـ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبأن إلى الله المصير، وتحريم الشرك بالله تحريماً قاطعاً لقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

«سورة المائدة، الآية: 72».

2 ـ الإيمان ببعثة الرسول الخاتم ﷺ الذي أكمل الله سبحانه وتعالى ببعثه الدين، وأتم النعمة بتعهده ـ جل شأنه ـ بحفظ القرآن الكريم، وبرضاه لعباده الإسلام ديناً.

3 ـ اليقين بأن الرسالة الخاتمة جاءت لتبين لأهل الكتاب كثيراً مما اختلفوا فيه.

4 ـ اليقين بأن الشرك يساوي الكفر بالله وكلاهما من الكبائر.

5 ـ الإيمان بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء الذين بعثهم الله ﷻ جميعاً برسالة واحدة هي الإسلام الذي دعا إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، كما دعى إلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وإلى الاتباع في الدين وعدم الابتداع فيه.

6 ـ اليقين الجازم بأن المسيح عيسى ابن مريم هو عبد الله ورسوله، وأنه قد خلت من قبله الرسل، وأن أمه صديقة، وأنهما كانا يأكلان الطعام، وأنه بشّر بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وإن الإيمان بالمعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ له وعلى يديه كما رواها القرآن الكريم هو جزء لا يتجزأ من إيمان المسلمين، وأن الفضل فيها يعود لله ﷻ وحده.

7 ـ التسليم بالحقيقة القرآنية التي مؤداها أن اليهود قد زيفوا رسالة الله إليهم، وأنهم سمّاعون للكذب، أكّالون للسحت، مسارعون في الإثم والعدوان، ولذلك وصفهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ «سورة المائدة، الآية: 82»

وأن في طبيعة اليهود من غلظة القلوب، وقسوتها، وأمراض النفوس وعداوتها لكل ما هو ليس بيهودي، ما يبرر لهم الجور على الآخرين وظلمهم ما داموا قادرين عليهم، والخضوع والتزلف والتملق والتزيف لهم حتى يغدروا بهم إذا كانوا أضعف منهم، وتاريخهم الأسود يؤكد ذلك.

وصدق الله العظيم الذي يصفهم بقوله الحق:

﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

«سورة المائدة، الآية: 60».

وقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۞ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۞﴾ «سورة المائدة، الآيتان: 78، 79».

8 ـ الإيمان بأنه ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ «سورة المائدة، الآية: 32».

9 ـ الإيمان بأن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ «سورة المائدة، الآية: 36».

من الإشارات العلمية في سورة «المائدة»:

1 ـ تحريم أكل كلٍّ من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما تمت تذكيته من الأنواع الخمسة الأخيرة قبل وفاته، وتحريم ما ذبح على النصب، والتجارب المختبرية والسريرية تؤكد أخطار تناول كل هذه الأطعمة المُحَرَّمة.

2 ـ التأكيد على البينية الفاصلة بين الأرض والسمٰوات، والعلوم المكتسبة قد بدأت في إدراك تلك الحقيقة مع تبين أن الغلاف الغازي للأرض هو خليط بين مادتي الأرض والسماء وليس خالصاً لأي منهما.

3 ـ تأكيد حقيقة تحريف اليهود لكتابهم، وأنهم سمّاعون للكذب أكّالون للسحت، يسارعون في الإثم، والعدوان، وأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، والأحداث الراهنة تؤكد حقيقة ذلك وتدعمه.

4 ـ تحريم كلٍّ من الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، والدراسات العلمية والإنسانية تؤكد حتمية ذلك التحريم من أجل سلامة وأمن كل من الإنسان ومجتمعه.

5 ـ تأكيد كرامة الكعبة المشرفة. والبحوث العلمية تؤكد تميز موقعها، وتفرده بالعديد من الشواهد الحسية التي تشهد بتلك الكرامة.

6 ـ اختيار الغراب دون غيره من الطيور لتعليم قابيل بن آدم كيف يواري سوءة أخيه بعد أن قتله، والدراسات في علم سلوك الحيوان تثبت أن الغراب هو أذكى الطيور على الإطلاق.

7 ـ الإشارة إلى الحقيقة التي عبَّر عنها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ وواقع الحال يؤكِّد ذلك في ظل الفساد الذي ظهر في البر والبحر، وفي ظل كل المظالم السياسية والاجتماعية التي تجتاح الأرض وبحار الدماء والخراب والدمار التي تغرق كثيراً من بلاد المسلمين اليوم من أمثال فلسطين وبلاد البلقان، والعراق وأفغانستان، وبلاد الشيشان وكشمير وأراكان، وجنوب كل من الفلبين والسودان، وغيرها مما يؤكد فسق الغالبية العظمى من أهل الأرض، واستحقاقهم لغضب الله وعقابه، وفي ظل دعاوى الفساد من كل صنف وضرب، من مثل الانتكاس بالإنسانية إلى وحل الشذوذ الجنسي والتشريع له وإباحة زواج الشواذ وتوارثهم، والسماح لهم بتبني الأطفال، في ظل هذا الانحلال البشري والتشجيع عليه من قبل القادة السياسيين الدول الغربية ورؤساء الكنائس والمعابد فيها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على الجزء الأخير من النقطة الأولى في القائمة السابقة وهو ما جاء في الآية الثالثة من سورة المائدة، ولكن قبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لما قاله عدد من المفسرين في شرح هذا النص القرآني الكريم.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ «سورة المائدة، الآية: 3».

- ذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «... وأما المنخنقة: وهي التي تموت خنقاً، والموقوذة: وهي التي تضرب بعصا أو خشبة أو حجر فتموت، والمتردية: وهي التي تتردى من سطح أو جبل أو تتردى في بئر فتموت، والنطيحة: وهي التي تنطحها بهيمة فتموت، وما أكل السبع: وهي الفريسة لأي من الوحوش،... فهي كلها أنواع من الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ فحكمها هو حكم الميتة...، وأما ما ذبح على النصب وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة في الجاهلية،

ومثلها غيرها في أي مكان، فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام حتى لو ذكر اسم الله عليه، لما فيه من معنى الشرك بالله».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه مع اختلاف في تعريف (النصب) بأنها كانت أحجاراً منصوبة حول الكعبة، وكان الجاهليون يذبحون عليها ويعظمونها ويلطخونها بالدماء، وهي غير الأصنام، إنما الأصنام هي الأحجار المصورة المنقوشة.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

أولاً: في حكمة التحريم:

سبق لنا أن ناقشنا حكمة تحريم كل من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، ونناقش هنا الحكمة من تحريم بقية المحرمات العشر المذكورة في الآية الثالثة من سورة المائدة وهي: المنخنقة؛ أي: البهيمة التي ماتت خنقاً، والموقوذة، أي: البهيمة التي ضربت بمثقل غير محدد حتى تموت، والمتردية؛ أي: البهيمة التي تسقط من علو فتموت من التردي أي الهلاك بالسقوط من عَلٍ، والنطيحة؛ أي: البهيمة التي تنطحها أخرى فتموت، وما أكل السبع؛ أي: ما بقي من البهيمة بعد أكل أحد الوحوش المفترسة منها، وقول الله تعالى ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ وهو استثناء من التحريم أي: إلا ما أدركتم ذكاته من الأنواع الخمسة السابقة وفيه بقية حياة. وأضافت الآية الكريمة إلى قائمة المحرمات: ما ذبح على النصب؛ أي ما ذبح لغير الله. وهذه كلها حكمها حكم الميتة، ولذلك يضيف الفقهاء إليها ما قطع من البهيمة وهي حية فحكمه حكم الميتة، وذلك لقول رسول الله ﷺ: **«ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة»**[1].

وأما ما ذبح على النصب فحكمه هو حكم ما أهلَّ لغير الله به سواء بسواء، فكلاهما ذبح لغير الله ـ تعالى ـ، أو أشرك مع الله سبحانه وتعالى غيره في الإهلال بالذبح فأصبح شركاً صراحاً، والشرك بالله ـ تعالى ـ هو كفر به، وكلاهما من أكبر الكبائر، ومن السبع الموبقات المهلكات.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الأطعمة (الحديث: 1480)، وأبو داود في كتاب: الصيد (الحديث: 2858).



وهذه الآية الكريمة كغيرها من آيات التحريم لا تفيد الحصر، فقد حرم رسول الله ﷺ أكل كل ذي مخلب ـ ظفر ـ من الطير وهو ما يعرف باسم الجوارح، وكل ذي ناب من البهائم يسطو به على غيره، وهو ما يعرف باسم اللواحم أو الحيوانات آكلة اللحوم فقط (Carnivorous Animals) من الوحوش المفترسة ـ السباع ـ، ومنها أيضاً آكلات اللحوم والأعشاب معاً (Omnivorous Animals)، وذلك لقول ابن عباس رضي الله عنهما: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»[1].

وحرم رسول الله ﷺ أيضاً أكل (الجلالة) من الطيور والبهائم المباحة، و(الجلالة) هي: الحيوانات التي دأبت على أكل النجاسات والمستقذرات من الأمور، أو التي يفرض عليها من أنواع الطعام غير الذي فطرها الله ـ تعالى ـ عليه من مثل إطعام آكلات الأعشاب بروتينات حيوانية هي غير مهيأة لأكلها كما يفعل أغلب المربين في المجتمعات غير المسلمة وتفعل أحاد من المسلمين الذين انتقلت إليهم عدوى ذلك الانحراف عن الفطرة.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الصيد والذبائح (الحديث: 4970)، وأبو داود في كتاب: الأطعمة (الحديث: 3803).

وقد أوصى رسول الله ﷺ بحبس الحيوان الجلال، وعلفه بالغذاء الطاهر لفترات تتناسب مع حجمه حتى يزول ما ببدنه من النجاسات، ويعود إلى طهره، وحينئذ يحل أكل لحمه، وشرب لبنه إن كان من الحيوانات اللبونة. ويسن في ذلك حبس الإبل أربعين يوماً مع علفها علفاً طاهراً، وحبس البقر ثلاثين يوماً، وكلٍّ من الضأن والماعز سبعة أيام، والطيور الصغيرة مثل البط والأوز والدجاج ثلاثة أيام كما جاء في الحديث الذي رواه ابن عمر ـ رضي الله تبارك وتعالى عنهما ـ.

وحرم رسول الله ﷺ كذلك لحوم كلٍّ من الحمر الأهلية والبغال، والقردة، كما حرم كل خبيث من الطعام، ولذلك وصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

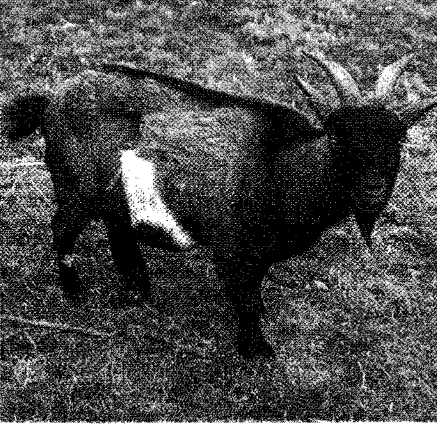
﴿...وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ...﴾ «سورة الأعراف، الآية: 157».

ويدخل في الخبائث كل مستقذر أو ضار أو شاذ من الأمور.

هذا وقد أثبتت الدراسات المختبرية أن لحوم كلٍّ من الجوارح والسباع؛ أي الطيور الجارحة والبهائم المفترسة لها حكم الدم تماماً لكثرة ما تأكل من اللحوم النيئة وهي مليئة بالدماء. ويرى فقهاء المسلمين أن المقصود بالتحريم في الدم هو نجاسته، وفي الميتة هو حبس الدم في اللحم، والبدء في تحللهما أو تعفنهما معاً. أما كل ما عدا اللحم والدم (مثل الجلد، والصوف أو الشعر، والقرون، والأظلاف وغيرها) فهو حلال طاهر يصح الانتفاع به ما لم يطله شيء من لحم الميتة أو دمها.

ومن العجيب أنه تحت دعوى الشفقة بالحيوان فإن جميع المجازر في الدول غير المسلمة، وغير الملتزمة بالقواعد الإسلامية تقوم بصعق الحيوان بالتيار الكهربائي أو بإلقاء إبرة ملتحمة بثقل كبير في مراكز محددة من المخ لإدخاله في دورة من الإغماء قبل ذبحه حتى لا يشعر بألم الذبح، وفي الغالبية الساحقة من هذه الحالات يموت الحيوان قبل أن يذبح، ويتجمد الدم في عروقه بالصعق الكهربائي أو بصدمة إلقاء الإبرة الثقيلة في مخه، وكثيراً ما يغمى على الحيوان فيتردى (المتردية)، أو يصطدم ببعضه البعض (النطيحة) فلا تخرج ذبائح غيرنا عن المحرمات العشر التي نصت عليها الآية الكريمة التي نحن بصددها، وأكَّدتها غير واحدة من آيات القرآن الكريم. وقد بلغت هيمنة الشيطان على غيرنا من أهل الكفر والشرك والضلال على أكل ما يسمى باسم النقانق السوداء أو السجق الأسود (The Black Sausage) وهو عبارة عن أمعاء الخنزير المحشوة بدمه ودهونه، وكأنهم لم يكتفوا بمصيبة واحدة وهي لحم الخنزير فأضافوا





١



إليه دمه ودهنه، وكل واحدة منها تدمر جسد الآدمي تدميراً كاملاً بما تحمله من سموم ومسببات للأمراض.

ويدّعي مسؤولو المجلس الاستشاري البريطاني لرعاية المزارع الحيوانية (The British Farm Welfare Advisory Council) أن طريقة الذبح الإسلامية بقطع عنق الحيوان بسكين حاد وذلك لتخليص جسده من دمه تؤدِّي إلى شيء من تعذيب الحيوان، وهي في الحقيقة أرحم من عمليات الصعق أو الوقذ؛ أي القذف بوزن ثقيل في رأسه التي يقومون بها، وذلك لأنه بمجرد انقطاع تدفق الدم إلى المخ فإن الحيوان لا يشعر بأية آلام على الإطلاق، وفي ذلك من الرأفة بالذبيحة ما لا يتوفر أبداً في عمليات الصعق الكهربائي أو الوقذ التي يستخدمها غيرنا، وفي هذه الطريقة الأخيرة من الغياب عن الوعي ما يمكن أن يقتل الحيوان فوراً، أو يرديه أرضاً مما يؤدي إلى قتله أو إلى اصطدامه بغيره على هيئة النطيحة، وفيها أيضاً من تعذيب الحيوان ما لا يمكن أن يوصف بكلمات إذا لم تصب القذيفة الموضع المحدد في رأسه، بينما بمجرد قطع الأوردة والشرايين الرئيسية بالعنق في عملية النحر الإسلامي يتوقف وصول الدم إلى المخ فيغيب الحيوان عن الوعي في جزء من الثانية، ويصفى دمه في حوالي دقيقتين.

ثانياً: الذي يستذله الشيطان يزين له أكل الخبائث:

بتاريخ 18/ 7/ 2000م وضعت على شبكة المعلومات الدولية (المعروفة باسم الشبكة العنكبوتية) استغاثة من إحدى المنظمات الأمريكية تحمل اسم «المدافعون الدوليون عن حرية الصحة» تطلب من كل الناس **استنكار إباحة بعض الإدارات الأمريكية بيع لحوم الحيوانات المريضة للمستهلكين في الأسواق المحلية والعالمية. وذكرت هذه الاستغاثة أن هناك مشروع قانون أمام هذه الإدارات يخول مفتشي اللحوم بإباحة بيع الذبائح المصابة بأمراض مثل السرطان والأورام المختلفة، والقروح المتعددة للمستهلكين في داخل الولايات المتحدة وخارجها وذلك بعد إزالة الأجزاء المصابة منها وختمها بأختام تشهد بصلاحيتها لاستهلاك الآدميين وإنزالها إلى أسواق المستهلكين المحلية والعالمية.**

وأضافت الاستغاثة بأنهم هناك مقبلون على برنامج مذبحة عامة للأمريكيين ولغيرهم من أبناء الدول المستوردة للحوم الأمريكية، ويقول كاتبو الاستغاثة: نحن نرى هذه المذبحة بأعيننا ونرجو من كل من يقرأ استغاثتنا بذل الطاقة لإيقاف هذه الجريمة المقززة للأبدان...!!

وعلى الرغم من ذلك فإن الأسواق العربية لا تزال مفتوحة على مصاريعها للحوم الأمريكية المصنعة وغير المصنعة، على الرغم من الأمراض المتفشية في الحيوانات المرباة عندهم من مثل: أمراض الحمى القلاعية (Foot and Mouth Disease)، وحمى ضيق التنفس (SARS)، وجنون البقر الذي يهاجم مخ الحيوان فيدمره تدميراً بتحويله إلى حالة إسفنجية مخربة (Mad Cow Disease = Bovine Spongiform Encephalopathy or B.S.E.) وهو مرض مميت يصيب الجهاز العصبي المركزي ويتسبب في موت الخلايا الدماغية ويعرفه الأطباء البيطريون باسم مرض الرجفة أو الدماغ الإسفنجي (SCARIE)، وقد ثبت أن هذا المرض ينتقل إلى آكلي لحوم وشاربي ألبان تلك الحيوانات المصابة بهذا المرض الخطير من بني الإنسان، فيدمر الجهاز العصبي المركزي عندهم فيما يعرف باسم مرض كرتزفلد ـ جاكوب (Creutzfeldt-Jakob Disease) باسم الطبيبين اللذان وصفا أعراضه.

وقد انتشر هذا المرض في العديد من الدول الغربية بسبب استخدام البروتينات الحيوانية في تغذية كلٍّ من الماشية والأغنام والدواجن وهي حيوانات فطرها الله ﷻ على أكل الأعشاب والخضراوات والحبوب (Herbivorous)، ومخالفة الفطرة ولدت فيروسات غير

عادية عند هذه الحيوانات العشبية تقاوم جميع المضادات الحيوية المعروفة، كما تقاوم التسخين إلى درجات الحرارة العالية، ولم يتمكن العلماء من رؤية هذا الميكروب حتى باستخدام المجاهر الإليكترونية والتي يصل تكبيرها إلى مليون ضعف الجسم المفحوص. ولم يمكن تتبع هذا الفيروس الخطير أيضاً عن طريق استخدام الجسيمات المضادة وذلك بسبب أنه لا يثير أية جسيمات مضادة في الأبدان التي يصيبها، وهذه الحقيقة تشهد لحديث رسول الله ﷺ في تحريم أكل لحم الجلالة وشرب ألبانها بالإعجاز العلمي. وقد زاد بعض فقهاء المسلمين القول بتحريم ركوب الجلالة حتى تطهر خشية أن يتعرض راكبها للتلوث بنجاسة عرقها ونتنه، وهذا من منازل الطهارة في الإسلام العظيم.

والذي يأكل لحماً أو لبناً مصاباً بجنون البقر فإن المرض ينتقل إليه على هيئة مرض كرتزفلد ـ جاكوب أو أشباهه، وفيه يهاجم فيروس المرض الجهاز العصبي للإنسان خاصة المخ والحبل الشوكي والغدة النخامية وبعض أجزاء أعصاب العين، كما يهاجم الأنسجة الضامة، والطحال، واللوزتين، والزائدة الدودية في النساء الحوامل ولا يكاد المصاب أن يحيا لسنة واحدة بعد ظهور أعراض المرض عليه، لأن الفيروس الموجود على هيئة بروتينات غير سوية تدعى البريونات (Prions) يهاجم المخ وينخره بثقوب ميكروسكوبية عديدة تحيله إلى ما يشبه قطعة الإسفنج.

ومن أخطار مرض كرتزفلد ـ جاكوب وأشباهه أن الفترة بين الإصابة بفيروس المرض وظهور أعراضه قد تطول إلى ما بين العشر والخمس عشرة سنة أو إلى أكثر من ذلك، ويمكن للمرض أن ينتقل إلى الأصحاء عن طريق تلوث الأجهزة الطبية أو عن طريق نقل الأعضاء، أو نقل الدم، أو بتناول اللحم المصاب.

ومن أعراض أشباه مرض جاكوب (Variant CJD) شعور المصاب بعدد من الأعراض النفسية مثل القلق الشديد (Anxiety)، والاكتئاب (Depression)، والميل إلى العزلة والانسحاب من المجتمعات، وغير ذلك من الاضطرابات السلوكية المختلفة، ثم يتطور المرض إلى سلسلة من الآلام المبرحة في الوجه والأطراف، وشعور غريب في مختلف أجزاء الجسم، ثم يتحول المرض إلى خلل في التحكم بأجهزة الحركة، فيأتي المريض بعدد من التقلصات الشديدة والحركات غير الإرادية، ثم يبدأ الفيروس في مهاجمة المخ حتى يفقد المريض ذاكرته، وتأخذ حالته الصحية في التردي حتى الوفاة. والطريقة الوحيدة

لتشخيص هذا المرض وأشباهه بدقة هو بأخذ عينة من نسيج المخ بعملية جراحية أو في أثناء تشريح الجثة بعد الوفاة لمعرفة أسبابها.

ونظراً لتركز المرض في الجهاز العصبي للحيوان المصاب فإن أجهزة صحة الحيوان تمنع بيع كل من رؤوس الحيوانات وأمخاخها، والمجموعات العصبية المتصلة بالمخ، مثل الحبل الشوكي والأعصاب المرتبطة به، والعيون، اللوزتين وذلك لجميع أنواع الماشية التي تبلغ من العمر ثلاثين شهراً فما فوق ذلك.

من هذا الاستعراض السريع تتَّضح الحكمة من تحريم لحوم الذبائح التي تدخل في نطاق المحرمات التي أوردتها الآية الثالثة من سورة «المائدة»، وأكدتها الآيات في مواضع أخرى من كتاب الله. والذبح عند غيرنا يسبقه صعق الحيوان كهربائياً أو بالضرب في الرأس بثقل كبير في نهايته إبرة حادة (الوقذ)، أو بالخنق، وفي أغلب هذه الحالات يموت الحيوان قبل أن يذبح، ويبقى دمه في لحمه، وتصفية الذبيحة من دمها هي عملية تطهير للحمها من كل من السموم ومسببات الأمراض التي يحملها الدم، ومن هنا كانت تسمية الذبح الشرعي الإسلامي باسم التذكية (أو الذكاة). ومن الغريب حقاً أن يحاول البعض فرض طرائق ذبحهم المعيبة علينا بدعوى الرفق بالحيوان، وهم الذين يساهمون في قتل الملايين من البشر بدم بارد، ثم يتباكون على ما يمكن أن يصيب الحيوان من آلام أثناء الذبح الشرعي الإسلامي له، والله ـ تعالى ـ لا يشرع إلا كل ما فيه الرحمة والخير كل الخير للإنسان وللحيوان ولكل خلق آخر من خلق الله.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ :

يقال في اللغة العربية **(ذكيت)** الشاة أي ذبحتها ذبحاً شرعياً كي تذكو وتطيب، والأصل في **(الذكاة)** التطيب، ومنه رائحة (ذكية) أي طيبة، ولذلك سمي الذبح الشرعي (تذكية) لأن لحم الذبيحة يطهر به مما كان منتشراً فيه من دماء وسوائل أخرى متصلة بتلك الدماء مثل السوائل الليمفاويه، وكلها يحمل أوساخ البدن ومسببات أمراضه، ومن هنا كان من معاني (الذكاة) الشرعية هو التتميم، أي تتميم تصفية بدن الذبيحة مما بها من دماء وملوثات، ويتم ذلك بنحر الحيوان أي بقطع مجرى الطعام والشراب والنفس من الحلق (أي بقطع حلقومه ومريئه) وبذلك يقطع الودجان وهما عرقان غليظان في جانبي

ثغرة النحر فتنهر الدماء والسوائل الليمفاوية بتدفق شديد مع التسمية والتكبير (باسم الله، الله أكبر) مستخدماً في ذلك آلة حادة حتى لا يتألم الحيوان، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»[1].

من هنا كانت حكمة الخالق سبحانه وتعالى في إضافة هذا الاستثناء ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ بعد ذكر الحالات الخمس: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، لأن كلاً من البهيمة أو الطير (من المباحات) إذا مر بحالة من هذه الحالات وأدركها أو أدركه الإنسان قبل أن تموت أو أن يموت فذكّاها أو ذكّاه سال دمها ودمه، وتطهّر لحمها ولحمه وصار حلالاً، ولكن إذا لم يتدارك الحيوان في أيٍّ من هذه الحالات فمات قبل أن يذبح صار في حكم الميتة التي يحرم لحمها، لأن دمها يبقى محتبساً في جسدها، والدم هو حامل فضلات وسموم الجسم المختلفة، وحامل مسببات أمراضه، فضلاً عن كونه مركباً من مواد قابلة للتجلط وللتعفن والتحلل السريع، فإذا حبست في داخل جسم الحيوان بعد موته فإنها تساعد على سرعة تحلل هذا الجسد وفساد لحمه، وهو أيضاً قابل للتحلل والتعفن والفساد خاصة إذا انقضى على موت الحيوان وقت كافٍ يسمح بذلك.

ولكون الدم يحمل نواتج التمثيل الغذائي بما فيها من مواد وسموم قاتلة، تكون في طريقها إلى أجهزة طرحها إلى خارج الجسم، ولكون العديد من الطفيليات تمضي في الدم مراحل من دورة حياتها تطول أو تقصر، وتلقي فيه سمومها، وكذلك الفيروسات والميكروبات المختلفة، فإن الله ـ تعالى ـ قد حرم على عباده الصالحين أكل كلٍّ من الميتة والدم، خاصة الدم المسفوح، أما أكل كلٍّ من الكبد والطحال من الحيوان المباح المذكى فهو حلال لقول رسول الله ﷺ: «**أحل لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال**»[2] كما سبق وأن أشرنا.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الصيد والذبائح (الحديث: 5028)، وأبو داود في كتاب: الأضاحي (الحديث: 2815)، والنسائي في كتاب: الضحايا (الحديث: 4417)، وابن ماجه في كتاب: الذبائح (الحديث: 317).

(2) تقدّم تخريجه ص 359.



من الاستعراض السابق يتضح أن موت الحيوان دون تذكيته (أي دون إراقة دمه) يؤدي إلى احتباس الدم في العروق المنتشرة في جسمه من الأوردة والشرايين وتفرعاتهما إلى مختلف الأنسجة والخلايا. ودم الأوردة يحمل كل نفايات الجسم، وفضلات العمليات الحيوية المختلفة، كما يحمل الدم ـ بصفة عامة ـ الجراثيم والطفيليات المتعايشة مع الحيوان، والدم سائل قابل للتجلط السريع، فإذا مات الحيوان دون أن يصفَّى دمه تجلط هذا الدم مختلطاً باللحم والشحم والعظم، وبدأ في التعفن والتحلل مما يؤدي إلى فساد اللحم خاصة إذا طالت الفترة بعد موت الحيوان، ومن هنا فإن كلاً من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إذا لم تدرك قبل موتها وتذكَّى فإن حكمها هو حكم الميتة، ومن هنا يأتي تحريم أكلها.

رابعاً: وما ذبح على النصب:

(**النصب**) جمع (**نصاب**) وهي أحجار كان مشركو قريش ينصبونها حول الكعبة، وكانوا يذبحون عليها، ويعظمونها، ويلطخونها بالدماء، وهي غير الأصنام المنقوشة المصورة، وبديهي أن الذبح لغير الله هو ضرب من الشرك، ومغايرة للفطرة التي فطر الله ـ تعالى ـ خلقه عليها، وكل مغايرة للفطرة محكوم عليها بالفشل. والحيوان كغيره من مخلوقات الله

متوائم مع الفطرة، ومتنافر مع مغايرتها، ولذلك فإن جسده لا يستطيع أن ينتفض، ولا عضلاته تستطيع أن تتقلص حتى يتخلص من دمائه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا إذا سمع اسم الله وتكبيره. وقد ثبت بالأبحاث المختبرية التي قام بها فريق من كبار العلماء السوريين على مدى ثلاث سنوات كاملة أن نسيج اللحم المذبوح بدون التسمية باسم الله وتكبيره كان محتقناً بشيء من بقايا الدم، ومصاباً بمستعمرات أعداد من الجراثيم، بينما جاء لحم الذبيحة التي سمي عليها (باسم الله والله أكبر) زكياً، طاهراً، خالياً من الدماء والجراثيم وذلك لشدة اختلاج أعضاء وعضلات جسم الحيوان المسمى عليه باسم الله في أثناء ذبحه مما يؤدي إلى اعتصار دمائه، وطرد جراثيمه معها، وبذلك يطهر لحم الذبيحة ويزكو.

ومن هنا كانت حكمة تحريم أكل ما ذبح على النصب أي لغير الله ـ تعالى ـ.

ولو لم يرد في القرآن الكريم سوى هذا التحريم للمحرمات العشر التي جاءت في الآية الثالثة من سورة «المائدة» لكان كافياً للشهادة لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9». فحفظ القرآن الكريم في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بهذا الحفظ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها. فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين، وهداية للخلق أجمعين فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٢٨
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٣٢
وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٣٤
إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ
عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨ وَإِنَّ يُونُسَ
لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١٤٠
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ١٤١ **فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ**
مُلِيمٌ ١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

23

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ «سورة الصافات، الآية: 142».

23



هذه الآية الكريمة جاءت في أوائل العشر الأخير من سورة «الصافات»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (182) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم من الله تعالى ـ وهو الغني عن القسم لعباده ـ وجاء القسم بملائكته الأطهار الذين وصفتهم السورة الكريمة بعدد من صفاتهم التي من أولاها أنهم لا ينفكون عن عبادة ربهم، ويصطفون في طاعته صفوفاً منتظمة بأفضل مما يصطف كثير من عباد الله المكلفين. ويأتي جواب القسم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ * رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾

«سورة الصافات، الآيتان: 4 ـ 5».

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول عدد من الركائز الأساسية للعقيدة الإسلامية وفي مقدمتها توحيد الله سبحانه وتعالى توحيداً كاملاً، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل الادعاءات الباطلة بـ نسبة الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة أو الولد لذاته العلية، وهذه كلها من صفات المخلوقين والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع صفات خلقه:

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

ومن ركائز العقيدة الإسلامية أيضاً الإيمان بملائكة الله، وكتبه ورسله وباليوم الآخر وأهواله، وبالوحي وحقيقته وضرورته، وبالبعث وحتميته، وبالخلود في الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وللتدليل على حقيقة هذه الركائز الإيمانية استشهدت سورة «الصافات» بالعديد من حقائق الكون وظواهره على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، وعلى أن

الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادر على إفناء خلقه، وعلى بعثه من بعد إفنائه، وكانت قضية البعث هي حجة الكافرين والمتشككين والضالين الفاسدين عبر التاريخ:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 16 ـ 18».

كذلك وظّفت سورة «الصافات» هذه الإشارات الكونية في تفنيد دعاوى المبطلين من أهل الكفر والشرك والضلال، وفي تطهير عقولهم المتخلفة، ونفوسهم المريضة من هذا الكم الهائل من الخرافات والأساطير التي عششت في أدمغتهم بغوايات من شياطين الإنس والجن، وبأطماعهم في استلاب شيء من حطام هذه الدنيا الفانية.

واستعرضت سورة «الصافات» سِيَر عدد من الأنبياء والمرسلين الذين بعثوا قبل خاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ منهم نوح، إبراهيم، إسحٰق، موسى، هارون، إلياس، لوط، ويونس ـ على نبينا وعليهم من الله السلام ـ وعرضت لشيء من تفاعل أممهم معهم وكيف كان ثواب المصدقين وعقاب المكذبين من تلك الأمم.

كذلك عرضت السورة الكريمة لشيء من أحداث الآخرة ومواقف كلٍّ من المؤمنين المكرمين في الجنة، والكافرين والمشركين المعذبين في النار.

وتشير سورة «الصافات» إلى محاولات مردة الجن وشياطينهم من أجل استراق السمع على أهل السماء، وأكّدت أن الله ـ تعالى ـ قد سخَّر الشهب الثاقبة لتتبعهم ودحرهم، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد توعَّدهم بعذاب شديد.

ثم توجَّه السورة الكريمة الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالأمر الإلٰهي أن يسأل منكري البعث، المستبعدين لإمكانية وقوعه أن ينظروا في خلقهم من طين لازب، وإلى ضعفهم وحاجتهم إلى رعاية ربهم، وهم محدودون بحدود مكان كل فرد منهم في بقعة محددة من الأرض، وبحدود زمانه (أي عمره)، ومقارنة ذلك بخلق السمٰوات والأرض بأبعادهما المذهلة، وأعمارهما المتطاولة إلى بلايين السنين فيدرك هؤلاء المنكرون للبعث أن الذي خلقهم من طين لازب، وحددهم بحدود المكان والزمان، وخلق الكون بهذا الاتساع الهائل، وتلك الضخامة المذهلة قادر على بعثهم بعد موتهم وعلى بعث آبائهم الأولين وهم أذلاء صاغرون.

ثم تعرض سورة الصافات لوصف موقف من مواقف الآخرة، وقد أطلقت صيحة البعث، والناس يخرجون من قبورهم مشدوهين، مذعورين، فزعين، ومن بينهم الذين كانوا ينكرونه في الدنيا، ويسخرون من إمكانية وقوعه ولسان حالهم يقول:

﴿يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ «سورة الصافات، الآية: 20».

ويأتيهم الجواب الصادع:

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ * وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 21 ـ 24».

وتستطرد الآيات في استكمال عرض هذا المشهد من مشاهد الآخرة: والكفار والمشركون، والعصاة الفاسدون، والظلمة المتجبرون على الخلق عاجزون كل العجز عن مناصرة بعضهم بعضاً، والذين اتَّبعوا والذين اتُّبعوا من المشركين ومن شركائهم يتلاومون، ويتبادلون تهم الضلال والغواية فيما بينهم، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ * إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ * بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ * وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 33 ـ 39».

وفي قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآيات الكريمة عن خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ما نصه: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ «سورة الصافات، الآية: 37» فيه تأكيد من الله ـ تعالى ـ لنبوة سيدنا محمد ﷺ، ولصدق رسالته، وبرهان من خالق السمٰوات والأرض على وحدة رسالة السماء، وعلى أخوة الأنبياء، وهو في الوقت نفسه رد جازم قاطع من الله سبحانه وتعالى على الذين كذَّبوا ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وعلى الذين تطاولوا في الماضي القريب والبعيد، أو يتطاولون اليوم على شخصه الكريم بألسنتهم البذيئة، وأقلامهم المأجورة في محاولة يائسة للنيل من قدره وهو الذي شرفه الله ـ تعالى ـ فوق جميع خلقه، وختم ببعثته الشريفة دعوة جميع أنبيائه ورسله، وجعله مثلاً أعلى

للإنسانية في كمالها البشري، ونموذجاً يحتذى لمن أراد الجنة من إنسه وجنّه. وعلى الذين يقعون في هذه الخطيئة المنكرة، ويتسترون خلف ميكروفونات الإذاعات المأجورة وشاشات التلفاز المشبوهة أو خلف شاشات شبكة المعلومات الدولية أو ما يعرف باسم الشبكة العنكبوتية كخفافيش الظلام، التي تهاب النور، ينفثون من خلال تلك الشبكة أحقادهم الدفينة، وسمومهم البغيضة، وأحكامهم الجائرة المنطلقة من جهلهم الفاضح بالدين كما يفعل عملاء المخابرات الأمريكية والصهيونية العالمية في بلادنا، وعلى هؤلاء العملاء المأجورين، والخبثاء المنافقين، والجهلة بحقيقة الدين، أن يدركوا أن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يشل ألسنتهم، وأن يجمد الدماء في عروقهم، وأن يجعلهم عبرة للمعتبرين كما جعل من أمثالهم السابقين.. وهو سبحانه يمهل ولا يهمل، وهو ربّ ذلك والقادر عليه.

وتقارن الآيات في سورة «الصافات» بين إكرام الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين في الآخرة بتنعيمهم في جنَّات الخلد، وبالفوز العظيم برضاه ﷻ وبين إذلاله للكفار والمشركين في نار جهنم، وهم يصطلون بجحيمها، ويأكلون من زقّومها، ويغرقون في شوبٍ من حميم فيها.

وتستمر الآيات في سورة «الصافات» لتؤكِّد أن أكثر الأمم السابقة قد ضلوا ضلالاً بعيداً على الرغم من إرسال الأنبياء والمرسلين إليهم منذرين من مغبة الكفر بالله أو الشرك به ﷻ، ومن مغبة معصيته والخروج عن المنهج الذي وضعه لاستقامة الحياة على الأرض، وفي إثبات ذلك استعرضت هذه السورة المباركة سير عدد من أنبياء الله ورسله مجلية معية الله ـ تعالى ـ لهم وللذين آمنوا معهم من عباده الصالحين، وموضحة رحمة الله ـ تعالى ـ بهم، ومؤكِّدة تعهده بنصرتهم على أعدائهم، ودحر الكفار والمشركين والتنكيل بهم في الدنيا قبل الآخرة، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۞ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۞﴾ «سورة الصافات، الآيات: 71 ـ 73».

وتعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ ليقوم بالرد على عدد من الخرافات والأساطير التي ابتدعها أهل الزيغ والضلال من الكفار والمشركين، والتي منها الادعاء الباطل بوجود نسب بين الله ﷻ وبين الجن، وأنه بناء على هذه العلاقة المختلقة الكاذبة كانت الملائكة الذين ادعى المبطلون عليهم كذباً بأنهم إناث، وهم ليسوا كذلك....!! وكذلك الادعاء الباطل على الله

ـ تعالى ـ بنسبة الصاحبة أو الولد إليه وهما من صفات المخلوقين، والله ﷻ منزّه عن جميع صفات خلقه ولذلك قال ـ عز من قائل ـ:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 149 ـ 159».

وتكرر السورة الكريمة في خواتيمها وعد الله لأنبيائه ورسله ولجنده المؤمنين بالنصر والتمكين، ووعد الله حق لا يخلف، ولذلك تطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ باعتزال الكفار والمشركين لأنهم يستعجلون نزول عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 171 ـ 179».

وتختتم سورة «الصافات» بخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وإلى كل مؤمن آمن به وبهم، يؤكّد تنزيه الله ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله، كما يؤكد إفراده ـ جل شأنه ـ بالربوبية المطلقة فوق جميع خلقه، ويؤكد كذلك على الأخوة بين جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى ضرورة الحمد لله رب العالمين الذي يقول في ختام هذه السورة المباركة مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله:

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ *﴾ «سورة الصافات، الآيات: 180 ـ 182».

نبي الله يونس في القرآن الكريم:

سمَّى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ باسم عبده ونبيه يونس عليه السلام إحدى سور القرآن الكريم، وذكره ست مرات في هذا الكتاب المجيد: وجاء ذلك باسمه الصريح في أربع منها [(النساء:163؛ الأنعام:86؛ يونس:98؛ والصافات:139)، ومرة بكنيته: ذا النون (الأنبياء:87)، ومرة أخرى بصفته: صاحب الحوت (القلم:48)].

وهذا النبي الكريم عرّفه لنا المصطفى ﷺ باسم «يونس بن متّى» وذلك بقوله الشريف: **«لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى»**[(1)].

ونبي الله «يونس بن متى» بعث إلى أهل نينوى وهي محافظة في الشمال من أرض العراق (التي ندعو الله تعالى أن يطهرها من دنس الغزو الأنجلو أمريكي الصهيوني/ الصليبي الحاقد في أقرب وقت إن شاء الله تعالى). وتعرف هذه المحافظة اليوم باسم محافظة الموصل. ومدينة نينوى كانت عاصمة للإمبراطورية الآشورية بعد مدينة آشور، ويرجع ذلك إلى الألف السادسة قبل الميلاد، وإن لم تصل أوج ازدهارها إلا في النصف الأول من الألف الأخيرة قبل الميلاد ثم دمرت في سنة 612 قبل الميلاد، وبقيت أطلالها على الضفة الشرقية من نهر دجلة في مقابلة مدينة الموصل تقريباً، ولا يفصلهما إلا النهر، وعلى الرغم من تدمير المدينة إلا أن بعض القبائل العربية قد سكنتها حتى العصور الوسطى.

وكان أهل نينوى قد انتكسوا إلى عدد من الوثنيات القديمة فعبدوا الأصنام بعد أن كانوا على التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، فبعث الله إليهم نبيه «يونس بن متّى» عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام، ويردهم إلى التوحيد من جديد، وبعد أن أقام فيهم ردحاً من الزمن يدعوهم، عصوه وكذبوه، فهددهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج غاضباً من بين ظهرانيهم قبل أن يأذن الله ـ تعالى ـ له بالخروج فلامه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على ذلك بقوله ـ عز من قائل ـ:

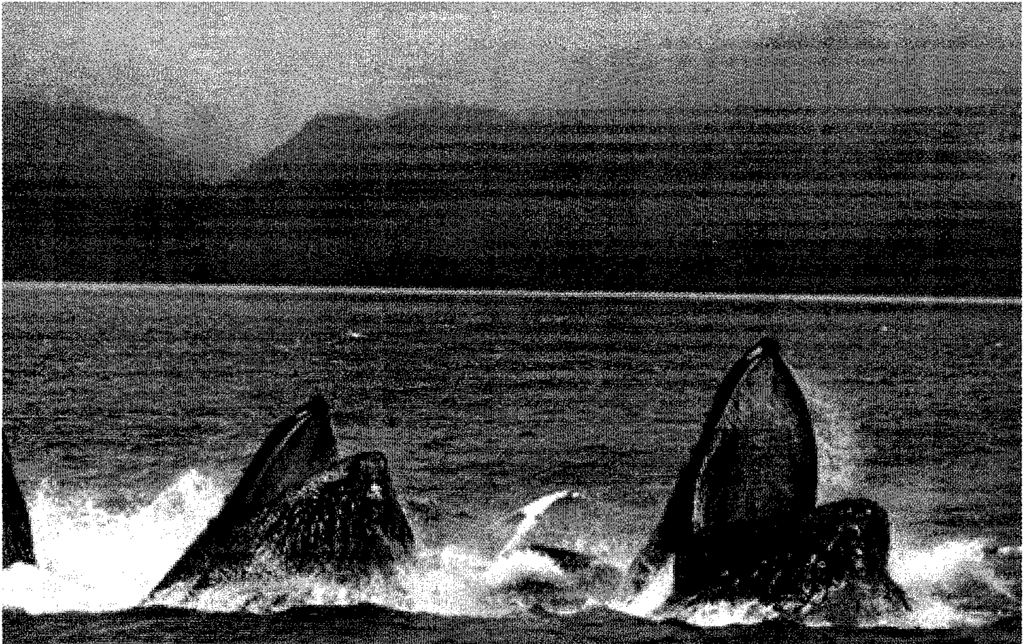
﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ *﴾ «سورة الصافات، الآيات: 139 ـ 148».

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (الحديث: 3412).

ومعنى هذه الآيات المباركات أن يونس عليه السلام حين خرج من نينوى مغاضباً لقومه ركب البحر في محاولة للابتعاد عنهم، ولكن على عادة القرآن الكريم الذي لا يدخل في التفاصيل الدقيقة للحدث حتى لا يصرف القارىء عن العبرة منه لم يذكر لنا اسم البحر، وهنا تساءل المفسرون: هل وقع هذا الحدث التاريخي في إحدى البحيرات القريبة من نينوى مثل بحيرة أرميا في أقصى الشمال الغربي من إيران؟ أو في البحر الأبيض المتوسط؟ أو في أي من بحر قزوين أو البحر الأسود؟ وهي البحار الكبرى من حول نينوى؟ فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم حقيقة هذا البحر الذي التقم أحد حيتانه العملاقة نبي الله يونس عليه السلام الذي مع هول المفاجأة ظل يردد: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاستجاب الله ـ تعالى ـ لاستغاثته، وأمر الحوت أن يلفظه على الشاطىء بعد هذه التجربة القاسية لعله يفهم العظة من الدرس الذي تلقَّاه والتي تتلخَّص في أنه عليه السلام ما كان له أن يتصرف في شأن من شؤون الدعوة التي كلفه الله سبحانه وتعالى بها بغير إذن منه ـ جل وعلا ـ.

وتروي لنا الآيات بعد ذلك أن يونس الذي ألقى الحوت به على الساحل وهو في حالة من الذهول والإعياء والهزال الشديد، أنبت الله ـ تعالى ـ عليه **شجرة من يقطين**، سترته، وأظلته، وربما تناول شيئاً من ثمارها، ولامست جسده أوراقها العريضة فعوفي من سقمه،



وغُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، ثم عاد إلى قومه الذين رأوا أن إرهاصات العذاب الذي توعدهم به نبيهم قد بدأت في الظهور فسارعوا بالتوبة إلى الله ـ تعالى ـ، وبالإنابة إليه حتى كشف عنهم العذاب، وعادوا مسلمين موحدين لله ـ تبارك اسمه ـ، مقيمين لشعائره، نابذين لجميع ما سبق لهم أن عبدوه من أصنام وأوثان، فسعد بهم يونس وسعدوا به، وعاش بينهم داعياً إلى الله على بصيرة حتى لقي ربه راضياً مرضياً بإذن الله.

وعاش أهل «نينوى» على الإسلام الصافي لعدة قرون بعد نبيهم يونس بن متى عليه السلام ولكن بدأت الانحرافات عن منهج الله تجتاح أهل هذه المحافظة بالتدريج حتى عادوا إلى وثنياتهم القديمة فضلوا، وأضلوا، وإن بقي بينهم بعض الأحناف الذين تمسكوا ببقايا الحق القديم، وكان منهم «عداس» مولى ولدي ربيعة الذي لقيه رسول الله ﷺ في طريق عودته من الطائف إلى مكة المكرمة وشهد لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة لمجرد تسميته باسم الله قبل تناول الطعام، وذكره لنبي الله يونس بن متى.

ومع تفشي الشرك بالله، والعودة إلى عبادة الأوثان والأصنام غضب الله على أهل نينوى فسلط عليهم من دمر امبراطوريتهم في حدود سنة 612 ق. م. فأصبحت أثراً بعد عين...، وصارت أحاديث يرويها كل من المؤرخين، والآثاريين، ودروساً يعتبر بها أصحاب البصائر والعقول إلى يومنا الراهن وإلى أن يشاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وفي الترجمة الإنجليزية لسفر يونان من العهد القديم جاء ذكر أن الذي ابتلع يونس سمكة والذي أظله شجرة عنب، وفي الترجمة العربية جاء ذكر الحوت وشجرة اليقطين، والنشرة العربية صادرة عن دار (الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، والإنجليزية صادرة عن:
(Thompson Chain Reference Bible, New International Version, 1978).

من ركائز العقيدة في سورة الصافات:

1 ـ الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبملائكته، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وتوحيده ـ جل شأنه ـ، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من نحو الادعاءات الباطلة بـ نسبة الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة أو الولد للذات الإلٰهية، وكلها من صفات المخلوقين، والله الخالق منزه عن جميع صفات خلقه، فهو رب السمٰوات والأرض وما بينهما ورب كل شيء.

2 ـ التسليم بحتمية البعث بعد الموت وبأهواله، رغم تكذيب المكذبين، وإرهاصات الكافرين، وتشكيك المتشككين ممن انحط مدلول الألوهية عندهم إلى البشرية الهزيلة، فقاسوا على الله ـ تعالى ـ بمقاييس البشر فاستحال عليهم فهم إمكانية البعث استحالة كاملة.

3 ـ التصديق بأن مصير الكفار والمشركين وأعوانهم سوف ينتهي بهم جميعاً إلى نار جهنم، وهم في العذاب مشتركون. ومن هؤلاء الذين يشكلون حطب جهنم من كان يستكبر في الدنيا على كلمة التوحيد، ومن تطاول على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وكفر ببعثته الشريفة على الرغم من وضوح حجته وضوح الشمس في رابعة النهار، ومنهم من تطاول على كتاب الله وهو الحق الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم في قضية الدين.

4 ـ الإيمان بأن عباد الله المخلصين سوف يكرمهم الله سبحانه وتعالى بإدخالهم في جنات النعيم، والتسليم بكل صور التكريم التي وعدهم بها ربهم الكريم.

5 ـ التصديق بكل صور العذاب الذي لحق بالضالين من أبناء الأمم السابقة الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فاستخفوا بهم وبرسالتهم. والتصديق كذلك بكل صور التكريم التي كرم بها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عباده المخلصين من الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان في الدنيا قبل الآخرة، وما جزاء الدنيا في الآخرة إلا قليل.. والإيمان بجميع القصص الذي جاء بالقرآن الكريم.

6 ـ تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل وصف وصفه به أهل الكفر والشرك والضلال ممن جعلوا بينه وبين الجنة نسباً، أو ادَّعوا له صاحبة وولداً، فالله ـ جل شأنه ـ لا يوصف إلا بما وصف به ذاته العلية، ومن ذلك مغايرته لجميع خلقه:

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

7 ـ اليقين بأن النصر في النهاية لعباد الله المخلصين، وإن علا الباطل وزاد، واستعلى وتجبر، فالأمور كلها بيد الله يصرفها حسب مشيئته، وهو سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الظلم، ولا للكافرين أن يسودوا عباده المؤمنين.

من الدلالات العلمية لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

وردت لفظة (**حوت**) بالمفرد والجمع في القرآن الكريم خمس مرات بمعنى صيد البحر، وجاءت في أربع منها بمعنى السمكة أو السمك، وفي مرة واحدة جاءت بمعنى أضخم حيوان بحري، أو أضخم حيوان عمر الأرض على الإطلاق وهو حيوان الحوت عديم الأسنان لكي يكون قادراً على ابتلاع رجل كامل دون أن يؤذيه لضخامة فمه وانعدام أسنانه، وضيق حلقه عن ابتلاعه في جوفه، ووفرة الأكسجين في مجاري تنفسه.

والتعبير (**حوت**) في اللغة العربية يطلق على ما عظم وما قل من صيد البحر لأنه مشتق من الفعل (حاوت) بمعنى راوغ، وأغلب الحياة البحرية تجيد المراوغة في محاولة للنجاة بنفسها من الافتراس أو الصيد، ولذلك يطلق لفظ (الحوت) على أغلب أنواع الحياة المتحركة في الأوساط المائية ومنها الأسماك والحيتان والدلافين وأشباهها.

والحيتان (Whales) حيوانات بحرية، ثديية، لبونة، ذات دم حار، لكل فرد منها رئتان يتنفس بهما الهواء مباشرة وليست لها خياشيم كالأسماك. وأنثى الحيتان تلد وترضع صغارها، وتضم هذه الرتبة من رتب الحيوان الحيتان بمختلف أنواعها، والدلافين (Dolphins) تحت مسمى رتبة الجوتيات أو الحوتيات (Order Cetacea). ومن الحيتان ما له أسنان، ومنها عديم الأسنان، وتتميز الحيتان عموماً بأجسامها الانسيابية التي ترق في اتجاه الذيل وبذلك تشبه أجسام الأسماك حتى تتواءم مع طبيعة حياتها البحرية، وإن كانت أحجامها تفوق أكبر الأسماك حجماً بأضعاف كثيرة. ويساعد على حركة أجسام هذه الحيتان العملاقة ذيل على هيئة زعنفة أفقية (بينما زعانف الأسماك رأسية)، ويغطي أجساد الحيتان طبقة سميكة من الدهن (5 سم ـ 30 سم في السمك) تعمل على حماية جسم الحوت من البرد، وتحفظ له درجة حرارة ثابتة. وجسم الحوت نظيف من الطفيليات بصفة عامة، فإن وجدت فتحيا حياة خارجية على الزعانف والذيل. وعلى الرغم من أن الحوت يسبح قريباً من سطح الماء في البحر حتى يتسنَّى له رفع رأسه فوق سطح الماء للتنفس بالهواء الذي يعلوه كل (10) إلى (15) دقيقة، إلا أن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه القدرة على الغوص إلى أعماق متوسطة من البحار والمحيطات (100 متر) وعميقة (أكثر من500 متر). والحيتان لها قدرة على الحركة حتى في تلك الأعماق من البحار والمحيطات والبقاء فيها



من10 إلى 15 دقيقة وبحد أقصى 50 دقيقة ثم تصعد إلى السطح. ومن أضخم أنواع الحيتان على الإطلاق، بل أضخم حيوان عاش على أرضنا عبر تاريخها الطويل هو نوع من أنواع الحيتان عديمة الأسنان يعرف باسم «الحوت الأزرق» ويتبع رتيبة (تصغير رتبة) خاصة تعرف باسم **رتيبة الحيتان عديمة الأسنان** (**Suborder Mysticeti**)؛ ويتميز هذا الحوت الأزرق العملاق (**The Blue Whale = Balaenoptera musculus**) بلون جلده الأزرق المائل إلى الدكنة (أو اللون الرمادي) والمنقط بعدد من النقاط الأفتح قليلاً في اللون، وهو صاحب أضخم جثة لكائن حي عمر الأرض في القديم والحديث، وصاحب أعلى نبرة صوت لكائن حي، ويصدر عن الحيتان أصوات عميقة ومدوية ذات شدة عالية (تصل إلى 188 ديسيبل)، وتردد منخفض أي: ذبذبات منخفضة في عددها بالثانية ولذلك تنتشر إلى مسافات بعيدة في الوسط المائي مما يمكِّن الحيتان الزرقاء من الاتصال ببعضها بعضاً عبر مئات الأميال. ويتراوح طول الفرد البالغ من الحيتان الزرقاء بين 20 متراً، و33 متراً، ويتراوح وزنه بين 90 طناً، و180 طناً، ويكون رأسه ربع طول جسده، وجسمه الطويل يستدق في اتجاه الذنب. وهذا العملاق ـ الذي وهبه الله تعالى بسطة في الجسم لم يهبها لمخلوق آخر نعرفه ـ يتميز بالهدوء الشديد، وبالحياء والخجل، وهو يسبح على سطح مياه

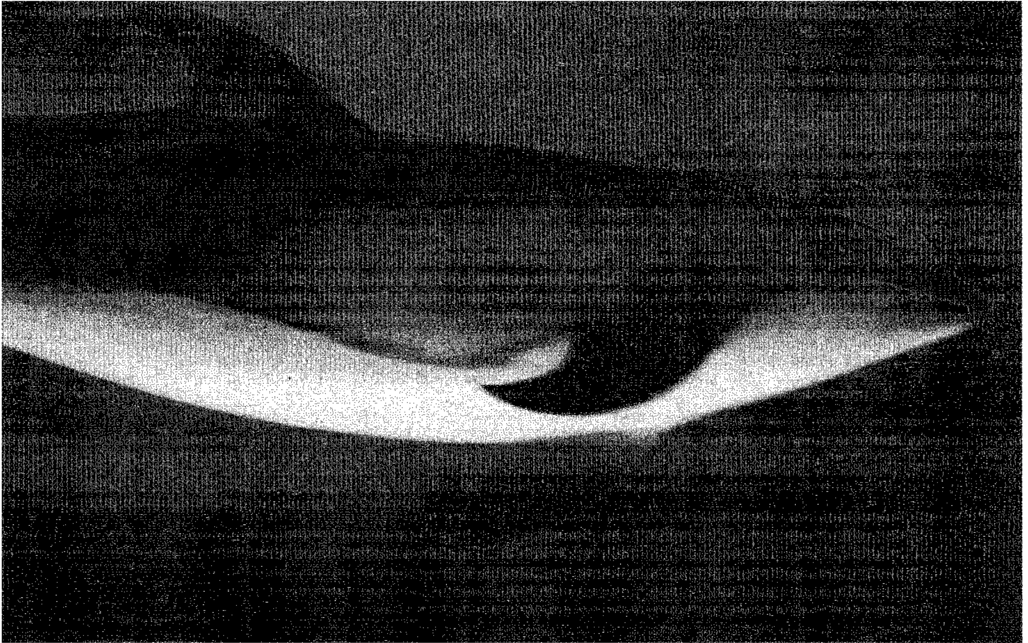
البحار والمحيطات بسرعة تتراوح بين 20 كيلو متر/ ساعة، 50 كم/ ساعة. ويعيش في مجموعات صغيرة أو كبيرة، ويتراوح عمر الفرد من أفراده بين 30 و80 سنة. وأنثى الحوت الأزرق أكبر حجماً من الذكر، مما يعينها على حمل ورعاية صغارها، وتبدأ الإناث في الحمل من سن (5) ـ (10) سنوات، وتضع مولوداً واحداً كل (2) ـ (3) سنوات، بعد فترة حمل تطول من (10) إلى (12) شهراً. وعجل الحوت الأزرق يرضع من أمه أكثر من خمسين جالوناً من اللبن في اليوم الواحد، ويزداد وزنه بمعدل عشرة أرطال في الساعة أي أكثر من 200 رطل في اليوم وذلك في أسابيعه الأولى. وعند مولده يصل طول عجل الحوت الأزرق إلى سبعة أمتار، ووزنه إلى طنّيْن، وبعد سنة من العمر يصل طوله إلى 18 متراً، وتواصل الأم إرضاع صغيرها ما بين (7)، (8) شهور، وبحد أقصى إلى سنة ثم يفطم.

وقد جارت شركات صيد الأسماك على الحوت الأزرق طوال النصف الأول من القرن العشرين حتى كادت تفنيه، ومثل صيده 90٪ من صناعة صيد الحيتان حتى وصل مجموع ما تم صيده في فصل واحد من فصول الصيد في سنة 1931م أكثر من ثلاثين ألفاً من الحيتان الزرقاء فقط، ونتيجة لذلك أخذت أعدادها في التناقص المستمر في مختلف البحار والمحيطات حتى أوشك هذا النوع العملاق على الانقراض، وليس أدل على ذلك من أن الأعداد المتوقعة اليوم من هذا الحيوان العملاق لا تكاد تتعدى الأحد عشر ألفاً من أصل يزيد على المائتي ألف وذلك بفعل كلٍّ من الصيد الجائر والتلوث البيئي.

ويتميز الحوت الأزرق بأنه عديم الأسنان، وعوضاً عنها زوده الله ﷻ بعدد من الألواح القرنية التي تتكون من مادة تعرف باسم الكيراتين (Keratin)، يتراوح بين الثلاثمائة والأربعمائة لوح تعرف باسم البالينات (Baleens) وتتدلى من جانبي الفك العلوي، ويخرج من كل واحدة من تلك الألواح شعيرات دقيقة في نهاياتها الداخلية باتجاه اللسان، وهذه الألواح يبلغ طول الواحد منها أكثر من المتر ويتناقص إلى حوالي نصف المتر في اتجاه مقدمة الفم، ويتّسع فم الحوت الأزرق ليحتوي خمسين طناً من الماء في الرشفة الواحدة لأن الله ـ تعالى ـ قد زود جسمه بحوالي 50 ـ 70 طية تمتد من بداية الفك السفلي إلى منتصف أسفل الجسم (السرة) لتساعد على الانتفاخ عند أخذ هذا الكم الهائل من مياه البحار والمحيطات، وما بها من مختلف صور الحياة الهائمة (الطافية) والسابحة، وفي

مقدمتها صغار القشريات الشبيهة بالجمبري والتي تعرف باسم كريل (Krill). وعند إغلاق الحوت الأزرق لفمه فإن الماء يطرد من خلال ألواح البالينات التي تمسك بما كان فيها من كائنات حية في جهة اللسان من أجل ابتلاعه، ويخرج الماء الصافي من جانبي الفم لأن بوزه عريض جداً ومسطح على هيئة حرف (U) وبداخله حافة وحيدة عند مقدمة الفم. وبذلك يمكن للفرد البالغ من الحيتان الزرقاء أن يأكل ما بين4، 6 أطنان من أحياء البحر الهائمة والسابحة في اليوم الواحد والتي يبلغ عددها في المتوسط أربعين مليوناً من الكائنات الحية.

والحيتان الزرقاء تمضي فصلي الخريف والشتاء في كلٍّ من المناطق المعتدلة وشبه الاستوائية حيث تتكاثر، وتنتقل في كلٍّ من الربيع والصيف إلى المناطق الباردة والقطبية حيث الوفرة في الغذاء الذي تحتاجه. ولا يعرف أحد كيف تتوجَّه الحيتان في مياه البحار والمحيطات لمثل هذه المسافات الطويلة، وربما تستخدم في ذلك المجال المغناطيسي للأرض، أو الموجات الصوتية التي تحدثها في التعرف على طبوغرافية قاع المحيط وتحديد المواقع عليه بدقة بالغة.



وللحوت الأزرق منخران في قمة الرأس يستخدمهما للتنفس فوق سطح الماء، ويندفع منهما الماء بشدة إلى أعلى لحوالي العشرة أمتار أثناء الزفير على هيئة النافورة، ويمكن أن يسمع صوت ذلك لعدة أميال. ولبعض الحيتان منْخَر واحد فقط. والعضلات القوية للحوت الأزرق التي أعطته اسمه العلمي، خاصة عضلات زعانفه الذيلية تعينه على المناورة بجثته الهائلة إلى أعلى أو إلى أسفل، وكائن بهذا الحجم العملاق لو عاش على الأرض لانسحق هيكله العظمي تحت وزنه الكبير، ومن هنا كانت حكمة الله البالغة في جعل الحيتان كائنات بحرية حتى يحملها ماء البحار والمحيطات، ولو قدر لكائن بهذا الحجم العملاق أن يحيا على اليابسة ما كان ممكناً له أن يجد على اليابسة طعاماً يكفيه.

وكل شيء في الحوت الأزرق عملاق فمتوسط طول الفرد البالغ منه (25) متراً للذكر، (29) متراً للأنثى، ومتوسط وزنه يتراوح بين 150 و175 طناً، مما يصل به إلى حجم الطائرة البوينج العملاقة، وقلبه الذي يزن حوالي (45) كيلوجراماً يصل إلى حجم سيارة من السيارات الصغيرة ويضخ (6400) كيلوجرام من الدم إلى مختلف أجزاء الجسم، ولسانه الذي يمتد لأكثر من سبعين متراً في المتوسط يتسع لخمسين رجلاً بالغاً للوقوف عليه، وبلغ من ضخامة عروقه أن رجلاً بالغاً يمكن له أن يزحف في داخل أحد عروق الدم الرئيسية في جسمه مثل الأبهر (الأورطي) بمنتهى السهولة.

من هذا العرض يتضح أن الحوت الذي سخَّره الله ﷻ لابتلاع سيدنا يونس بن متّى عليه السلام ربما كان من نوع الحوت الأزرق الذي كان يملأ بحار ومحيطات الأرض في عهده، وإن كانت هذه معجزة، والمعجزات لا تعلل لأنها خوارق للسنن، إلا أن من رحمة الله بنا أن أبقى لنا الحيتان بصفة عامة والحيتان الزرقاء بصفة خاصة بضخامتها التي نشهدها، وسعة أفواهها التي تتسع لأكثر من خمسين رجلاً، وانعدام أسنانها، ومطاطية حلوقها، وضيق بلاعيمها التي لا تتَّسع لابتلاع أكثر من الكائنات الدقيقة الهائمة أو السابحة في الطبقة العليا من مياه البحار والمحيطات، واضطرارها للارتفاع برؤوسها فوق سطح الماء لكي تتنفس الهواء مرة كل (10) إلى (15) دقيقة، ونظافة أجسادها من الطفيليات بصفة عامة، وغير ذلك من الصفات التي اختصَّ الخالق ﷻ بها الحيتان الزرقاء، لكي ييسِّر على الإنسان فهم إمكانية حدوث تلك المعجزة فلا يستصعب حدوثها، ولو أن الله ـ تعالى ـ لا

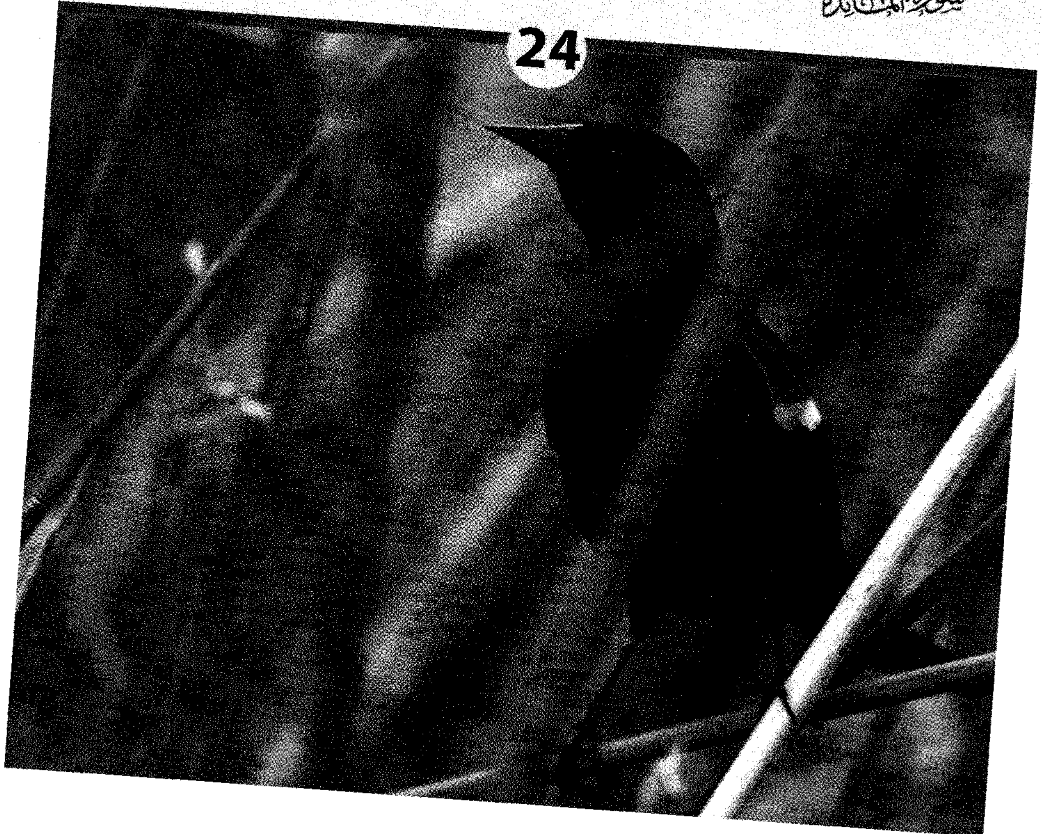
يستعصى شيء على قدرته. ومن الغريب أنه في الترجمة الإنجليزية لسفر يونان جاءت الإشارة إلى أن الذي ابتلع يونس ابن متى سمكة كبيرة، وأن الذي أظلته شجرة عنب، وفي الترجمة العربية ابتلعه حوت وأظلته شجرة من يقطين (يقطينة) ولا نجد تفسيراً لهذا الاختلاف إلا النقل عن القرآن الكريم في الطبعة العربية للعهدين القديم والجديد.

والإشارة في الآية الكريمة التي نحن بصددها إلى الحوت دون غيره من الحيوانات البحرية للقيام بهذه المعجزة لمِمَّا يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بهذا الحفظ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى قيام الساعة.

فالحمد لله الذي أنعم علينا برسالته الخاتمة، والحمد لله الذي أكرمنا ببعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ الذي جعل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ منه مثلاً أعلى للأنبياء، وتجسيداً حياً للبشرية في كمالها الإنساني، حتى تبقى سيرته العطرة على مر التاريخ مثلاً يحتذى، ونوراً يجتلى في فهم حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة، وفي معرفة كيفية تحقيق تلك الرسالة على الوجه الذي يرتضيه الله، فيفوز بخيري الدنيا والآخرة، والحمد لله على حفظ كتابه الخاتم وسنة نبيه الخاتم هذا الحفظ المعجز الذي أبقى تعاليم الدين هادية للخلق أجمعين وكأنه ﷺ لا يزال ماثلاً بين ظهراني الثقلين إلى يوم الدين، يأمر بأوامر الله، وينهى بنواهيه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين حمد العابدين الشاكرين، وهي آخر دعوى المحسنين.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ
إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ
لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتْ
لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٣٠ **فَبَعَثَ**
ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي
سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا
ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١

سورة المائدة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ...﴾ «سورة المائدة، الآية: 31».

24



هذا النص القرآني الكريم جاء في بداية الربع الثاني من سورة «المائدة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (120) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، ومن أواخرها نزولاً، فقد نزلت بعد صلح الحديبية أي في السنة السادسة من الهجرة، وسميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى المائدة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ من السماء كرامة لعبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المائدة» حول التشريع بعدد من الأحكام اللازمة لإقامة الدولة الإسلامية، وتنظيم مجتمعاتها على أساس من الإيمان بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى، وألوهيته، وربوبيته، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولاصاحبة، ولا ولد، وبتفرده بالوحدانية الكاملة وبالحاكمية المطلقة فوق جميع خلقه، ومن ثم كان حقه وحده في التشريع لعباده.. وكانت أول بنود هذا التشريع الإسلامي هو عقد الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وهذا العقد هو القاعدة التي تقوم عليها سائر العقود في حياة الناس، أفراداً وجماعات، ومن هنا نصَّت السورة الكريمة على الوفاء بالعقود، وعلى بيان الحلال والحرام في العديد من القضايا التي منها: الذبائح، الصيد، الإحرام، نكاح الكتابيات، حد كلٍّ من الردة والسرقة، أحكام كلٍّ من الطهارة والإحرام بأي من الحج أو العمرة، وحكم كلٍّ من الخمر والميسر، وكفارة اليمين، وتحريم قتل الصيد في الإحرام، أحكام الوصية عند الموت، وتحريم ترك العمل بشريعة الله، وأحكام البحيرة والسائبة، وأحكام كل من الولاء والبراء، وحدود كلٍّ من البغي، والإفساد في الأرض، وعلاقات المسلمين بغيرهم من أصحاب الملل والنحل الأخرى، والتحذير من الافتتان

بالكافرين، أو من الحيود عن تطبيق العدل الإلٰهي تحت ضغوط أي من المشاعر الشخصية حتى يصل المسلمون إلى الكمال البشري الذي يصفه الله ـ تعالى ـ بقوله العزيز:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «سورة المائدة، الآية: 3».

ويتخلَّل آيات التشريع في سورة «المائدة» تأكيد سمو العقيدة الإسلامية، واستعراض قصص عدد من السابقين لاستخلاص العظة والعبرة، ومنها قصة ولدي آدم: قابيل وهابيل، وقتل الأول منهما أخاه رمزاً للصراع بين الحق والباطل في هذه الحياة.

وتأمر الآيات في سورة «المائدة» المؤمنين أن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط، وتبشرهم بالمغفرة والأجر العظيم، وتتهدد الذين كفروا وكذبوا بآيات الله أن مصيرهم إلى الجحيم، وكذلك مصير المشركين.

وتعرض سورة «المائدة» لعقائد الكفار والمشركين وترد عليها، وقد نسبوا إلى الله ـ تعالى ـ من الأوصاف والنعوت ما لا يليق بجلاله، ونقضوا العهود والمواثيق، ولذلك تنادي عليهم السورة الكريمة بنداء يتكرر عدة مرات وذلك من مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

«سورة المائدة، الآية: 19».

ثم تعرض السورة الكريمة لعدد من الأحكام المتعلقة بحماية النفس، والمال والملكيات الفردية، والمجتمعات الإنسانية، وصيانتها من كل انحراف، كما تعرض للسلطة وحقوقها، وإلى ضرورة الحكم بما أنزل الله، وتجرّم الخروج على ذلك، لأن حق التشريع بالحل والحرمة هو لله ـ تعالى ـ وحده.

وتفصِّل سورة «المائدة» قضية الولاء والبراء، مؤكِّدة دورها في ضبط سلوك الأفراد والجماعات في الدولة المسلمة، وتعرج إلى إقرار عدد من الأحكام الشرعية التي تحرم كلًّا من الخمر، والميسر، والأنصاب والأزلام، وداعية إلى تعظيم كلٍّ من الكعبة المشرفة

والأشهر الحرم، وآمرة بطاعة الله ورسوله وناهية عن مخالفتهما، ومذكرة بحتمية الآخرة، وناصحة بعدم الانبهار بكثرة الباطل وأهله، وبإنكار كل ما بقي من تقاليد الجاهلية وما أكثرها في زمننا الراهن.

وتختتم سورة «المائدة» بالتذكير بيوم القيامة الذي سوف تبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلون، وبالإشارة إلى عدد من المعجزات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم ومنها إنزال المائدة من السماء، وقد سميت السورة باسمها، ومنها تبرئة السيد المسيح وأمه الصديقة مريم ابنة عمران مما افتري عليهما به من دعاوى الألوهية الكاذبة، وكلاهما من عباد الله الصالحين، والله واحد أحد لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا حاجة به إلى الصاحبة أو الولد، لأنها من صفات المخلوقين، والله ـ تعالى ـ منزه عن جميع صفات خلقه:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

وقد سبق لنا استعراض أهمّ التشريعات الإسلامية وركائز العقيدة والإشارات العلمية في سورة المائدة، ولا أرى داعياً لتكرار ذلك هنا، ولكن وقبل الوصول إلى مناقشة الدلالة العلمية للآية (31) من هذه السورة لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرحها.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِۚ...﴾

«سورة المائدة، الآية: 31».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «.. قال السدي: لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له، ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِىۖ﴾ وقال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه، إلا أن مستشاري أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم أضافوا في الهامش ما نصه: «تشير هذه الآية إلى أول دفن في الإنسانية، وكيف أن الدفن في التراب كان وحياً من الله سبحانه وتعالى عن طريق عمل الغراب وحكمة ذلك إرشاد الإنسان إلى أن الدفن يمنع انتشار الأمراض، بجانب ذلك فإنه إكرام للميت».

وقصة ابني آدم جاءت الإشارة إليها باقتضاب شديد في الإصحاح الرابع من سفر التكوين، وإن تبدل اسم قابيل إلى قاين (Cain) وبقي اسم هابيل على حاله، ولكن حرف في الترجمة الإنجليزية إلى أبل (Abel)، وجاءت القصة مقتضبة اقتضاباً شديداً، ومليئة بأسماء عديدة ولكنها لم تشر إلى قصة الغراب أو إلى عملية دفن قابيل جثة أخيه هابيل، وحرصت فقط على رص أسماء الأبناء والزوجات، والأحفاد وأحفاد الأحفاد، ففقدت الهدف من ذكرها، والرمزية إلى الدروس المستفادة منها، ومن أبرزها طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر في هذه الحياة.

وإذا علمنا أن أصول التوراة قد فُقدت وأن ما نقل عنه العهد القديم من روايات ظلت تنقل شفاهاً لعدة قرون لم تُكتب إلا بعد موسى عليه السلام بأكثر من عشرة قرون على أفضل الفروض، أدركنا ضعف حجية ما يسمى الكتب الخمسة على أنها هي التوراة، ويؤكد هذا الضعف ما جاء في دائرة المعارف البريطانية الجزء الثاني ص 882 تحت مسمى «التوراة» ما ترجمته: «يجب التفريق بين عملية تقنين التوراة ككتاب وبين العملية التي تم بواسطتها نمو المكونات المختلفة وغير المتجانسة لهذا الكتاب»... ويضيف المقال: «إن التحرير النهائي لكتاب التوراة، واعتباره كتاباً مقدساً قد تم أثناء النفي البابلي بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد».

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

من الدلالات العلمية المستوحاة من النص القرآني الكريم الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ...﴾

«سورة المائدة، الآية: 31».

أن الغراب طائر شديد الذكاء، ومن أوضح الأدلة على ذلك أنه يدفن موتاه، ولا يتركها نهباً للجوارح من الطيور ولغيرها من الحيوانات المفترسة، أو للتعفن والتحلل في الجو،

صوناً لكرامة الميت وترفقاً بالبيئة والأحياء فيها. وقد ثبت أن الغراب يقوم بحفر الأرض بواسطة كلٍّ من مخالبه ومنقاره ليكون حفرة عميقة فيها ثم يقوم بطي جناحي الغراب الميت وضمهما إلى جنبيه، ورفعه برفق لوضعه في قبره ثم يهيل عليه التراب حتى يخفي جسد الميت تماماً كما يفعل المسلمون بموتاهم احتراماً لهذا الجسد حياً وميتاً.

والغراب (Crow) طائر أسود اللون، خشن الصوت، يأكل الخضراوات واللحوم وإن كان ميله لأكل اللحوم أكبر، ويعرف العلماء اليوم من أنواع الغراب أكثر من خمسة وثلاثين نوعاً تنتشر في مختلف بيئات الأرض، وهو يتبع جنس (**Corvus**) وعائلة (**Corvidae**). وللغربان قدرة فريدة على صناعة الأدوات الحجرية لاستخدامها في الحفر والتنقيب على الحشرات في شقوق الأرض لافتراسها والتغذي عليها، ولاستخدامها أيضاً في حفر قبور موتاه.

وقد ثبت علمياً بالدراسة والملاحظة أن الغراب هو أذكى الطيور وأمكرها على الإطلاق، ولا يدانيه في الذكاء والمكر إلا بعض الببغاوات، ويعلل ذلك بأن الغراب يملك أكبر حجم لنصفي المخ بالنسبة إلى حجم الجسم في كل الطيور المعروفة، التي يقدر عدد أنواعها بأكثر من عشرة آلاف نوع، ويقدر عدد أفرادها بعشرات البلايين. **ولذلك تظهر**



علامات الذكاء المتميز على الغراب من مثل شدة الحذر، حدة الذاكرة، القدرة على الاتصال بغيره، وعلى حل المشكلات، بناء مجتمعات دقيقة التنظيم، القيام بالعديد من الأعمال الجماعية من مثل الصيد الجماعي، والدفاع الجماعي، والرعاية الجماعية للصغار، واللعب الجماعي، والبناء الجماعي للأعشاش، والمحاكاة، والفضول، وحب الاستطلاع، وشدة اليقظة والانتباه، وقوة الملاحظة والقدرة على الإدراك، وعلى التحايل في اختطاف الطعام وفي طرائق إخفائه، وعلى التمييز في التعامل بين القريب والغريب، وفي القدرة على مهاجمة كل من الحيوان والإنسان.

فقد شوهدت الغربان وهي تلقي على الطرق العامة ما لم تستطع فتحه من الثمار والأصداف الصلدة مثل جوز الهند، وأصداف بلح البحر، وبعض الحيوانات الكبيرة الحجم مثل السنجاب كي تقوم السيارات المارة بدهسها وإعدادها لقمة سائغة لها، كما شوهدت الغربان وهي تقلد الصيادين في عمليات صيد السمك بمهارة فائقة، وفي ترطيب الطعام الجاف بالماء.

وقد أثبتت دراسات سلوك الحيوان أن للغربان محاكم تلتزم قوانين العدالة الفطرية، تحاكم الجماعة فيها أي فرد يخرج على نظامها من مثل محاولات التعدي على حرمات غراب آخر من أنثى أو فراخ أو عش أو طعام، ولكل جريمة عند جماعة الغربان عقوبتها الخاصة بها، ففي حالة اغتصاب طعام الفراخ الصغار تقوم جماعة الغربان بنتف ريش الغراب المعتدي حتى يصبح عاجزاً عن الطيران كالفراخ الصغار قبل اكتمال نمو ريشها، وفي حالة اغتصاب العش وتهدمه في مراحل الدفاع عنه تكتفي محكمة الغربان بإلزام المعتدي ببناء عش جديد لصاحب العش المعتدى عليه، وقد يتبع ذلك الطرد من الجماعة إذا تكررت الأخطاء من هذا النوع، وفي حالة اغتصاب أنثى غراب آخر فإن جماعة الغربان تقضي بقتل المعتدي ضرباً بمناقيرها حتى الموت. وتنعقد محاكم الغربان عادة في حقل من الحقول الزراعية أو في أرض فضاء واسعة، تتجمع فيه هيئة المحكمة في الوقت المحدد، وينحى الغراب المتهم تحت حراسة مشددة، وتبدأ محاكمته فينكس رأسه، ويخفض جناحيه، ويمسك عن النعيب اعترافاً بذنبه.

فإذا صدر الحكم بالإعدام، وثبت جماعة الغربان على المذنب توسعه تمزيقاً بمناقيرها الحادة حتى الموت، وحينئذ يحمله أحد الغربان بمنقاره ليحفر له قبراً يتواءم مع حجم جسده، يضع فيه جسد الغراب القتيل ثم يهيل عليه التراب احتراماً لحرمة الموت.

وهكذا تقيم الغربان العدل الإلٰهي في الأرض أفضل مما يقيمه كثير من بني الإنسان، فالعدل في الغربان من الأمور الغريزية الفطرية لأنها لا تشرع لنفسها، ولكنها تتحرك بفطرتها المسلمة بأن الحاكمية لله وحده، ومن أهم بنودها التشريع، فالمشرع هو الله سبحانه وتعالى الذي شرع لكل الخلائق وغرس شريعته في جبلة كل مخلوق غير مكلف حتى أصبح العدل الإلٰهي جزءاً لا يتجزأ من تكوينهم وفطرتهم، أما الإنسان، ذلك المخلوق المكلف وصاحب الإرادة الحرة فيحاول التشريع من عنده بعلمه المحدود، وقدراته المحدودة حتى نسي العدل الإلٰهي، وأراد إقامة عدل نسبي من عنده فظلم نفسه وظلم غيره.

والغربان من الطيور آكلة كل من النبات والحيوان، وإن كان ميلها لأكل الحيوان أكبر، فهي تأكل الحبوب والثمار، والفراشات، والجراد، والضفادع، والفئران، والبيض، وفراخ الطيور الأخرى، كما تأكل النفايات والجيف. وبذلك تلعب دوراً مهما في تنظيف وتطهير البيئة، ففي كل عام تزيل الغربان وأشباهها **من الطيور الجارحة** آلاف الأطنان من الجيف المتجمعة على الأرض، وملايين الحشرات والديدان، خاصة الحشرات الوبائية التي تصيب العديد من المحاصيل الزراعية فتحد من انتشارها.

وعلى الرغم من هذه الميزات العديدة للغربان فقد درج بعض الناس على التشاؤم من رؤيتها، وذلك بسبب نعيقها المفزع وخشونة وفظاظة أصواتها، وبسبب التقاطها البذور المبذورة في الأرض من قبل إنباتها، أو قضائها على بعض المحاصيل الزراعية من قبل جمعها، أو وهي في مراحل الدراس والتذرية، وبسبب افتراسها بعض الحيوانات الأليفة مثل الدجاج وفراخه وبيضه، وبسبب أنها قد تكون مصدراً لإصابة الإنسان بالعديد من الامراض القيروسية، والبكتيرية والطفيلية، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ بقتله في الحل والحرم.

والغربان من طائفة الطيور (Class Aves) وهي طائفة من الحيوانات الفقارية تتميز بالريش الذي يغطي جسمها، وبوجود عدد من أجهزة العزل الحراري الجيد، ويعمل الريش على تجميع الهواء بداخله، وتدفئته ليساعد بذلك على حفظ درجة حرارة الجسم، التي تتميز بالثبات، والارتفاع إلى ما هو أعلى من درجة حرارة جسم الإنسان بعدة درجات، ولتحقيق ذلك جعل الله تعالى للطيور عدداً من الأكياس الهوائية بالإضافة إلى الرئتين،

وتنتشر هذه الأكياس في مختلف أجزاء جسم الطائر بما في ذلك العظام الكبيرة مما يعين على تخفيف وزنه، ومساعدته على الطيران، كما يزيد من حجم الحيز المتوفر لتخزين الهواء إلى عشرة أضعاف حجم الرئتين. ويساعد على الاحتفاظ بدرجة حرارة ثابتة في داخل جسم الطائر. كذلك فإن مرور كميات كبيرة من الأكسجين المصاحب لهذا الهواء يعين على ارتفاع معدل التمثيل الغذائي، وعلى دوران الدم بشكل سريع وفعال في الجسم، ويحفظ الدم المؤكسد بعيداً عن الدم غير المؤكسد، يعين بعض الطيور على الارتفاع في طبقات الجو الباردة وعلى العيش في المناطق الباردة والمتجمدة. وهناك أكثر من عشرة بلايين طائر بري تعيش على مختلف قارات الأرض، بالإضافة إلى بلايين الطيور البحرية التي تعيش على محيطاتها وعلى الجزر المنتشرة في تلك المحيطات.

وتتميز الطيور عموماً بالعيون التي وهبها الله تعالى القدرة على الرؤية من ارتفاعات شاهقة ولمسافات شاسعة، وبعدد من مراكز التنظيم الحركي على درجة كبيرة من الكفاءة، ويتضح ذلك في الغراب بشكل واضح، فهو طائر جارح شديد الحذر.

ويرجع تاريخ الطيور على الأرض إلى نحو 150 مليون سنة مضت في العهد الجوري المتأخر (The Late Jurassic Epoch)، وإن لم تنتشر انتشاراً واسعاً إلا في العهد الطباشيري المتأخر (The Late Cretaceous Epoch) أي: منذ تسعين مليون سنة مضت تقريباً، ولم تخلق الطيور الحديثة إلا منذ ستين 60 مليون سنة مضت تقريباً أي في العهد القديم لفجر الحياة الحديثة (The Paleocene Epoch)، ولم تنتشر انتشاراً واسعاً إلا في عهد الأيوسين (The Eocene Epoch) أي: منذ خمسة وخمسين مليون سنة مضت.

وعلى ذلك فالغراب سابق في وجوده على الأرض للإنسان بأكثر من 55 مليون سنة على أقل تقدير، وبذكائه وملكاته الفطرية التي وهبه إياها الله حق له أن يقف من ابني آدم موقف المعلم الذي علم قابيل قاتل أخيه هابيل كيفية دفن أول قتيل من بني آدم، وإن الدفن في التراب بالإضافة إلى ما فيه من تكريم للميت، يمنع انتشار الكثير من الأمراض والأوبئة، ويحافظ على نظافة البيئة وطهارتها.

.ومن صور ذكاء الطيور ـ بصفة عامة ـ وذكاء الطيور المهاجرة لمسافات طويلة ـ بصفة خاصة ـ تلك القدرة الفائقة في التعرف على أماكن فقسها وتربيتها، والعودة إليها مهما كانت

أبعاد المسافات بينها. وما زالت البحوث العلمية دائبة على دراسة نظم هجرة الطيور، في محاولة لفهم الطرق التي تتعرف بها على الاتجاهات في مثل هذه الرحلات الطويلة. والمراقبون للطيور والدارسون لسلوكها لا يستطيعون حتى اليوم تفسير عملية تحديد أعداد الطيور من نوع معين في مكان محدد، في زمن محدد من أزمنة السنة، وبقاء هذا العدد ثابتاً ثباتاً نسبياً. ولايستطيعون تفسير كيفية تحديد مناطق النفوذ لكل نوع من أنواع الطيور.

ومعظم الطيور ـ ومنها الغربان ـ لها أرض خاصة لجمع الغذاء أو الصيد، غير الأرض التي تعيش فيها. وعادة ما تكون أرضاً مألوفة لها تمتد على مساحة من عشرات إلى مئات الكيلومترات المربعة لا تغيرها إلا مع تغير الظروف البيئية، وانعكاس ذلك على وفرة الطعام.

والطيور في تحركها من أوكارها إلى مناطق صيدها أو رعيها، أو في هجراتها المختلفة غالباً ما تعتمد على اتجاه الرياح، وعلى غير ذلك من الظروف الجوية، وعلى موقع الشمس كدليل ملاحي، وعلى المجالات المغناطيسية للأرض، وهذا يعني وجود ساعة حياتية تعطي للطائر إحساساً بالوقت وبالتغيرات الفصلية، كالتغير النسبي في طول كلٍّ من النهار والليل مع تغير الفصول المناخية، ويبقى هذا التوازن ثابتاً حتى تحت ظروف التجارب المصطنعة كالظلام المستمر أو النور المستمر.

والطيور ـ ومنها الغربان ـ كما تستخدم حواسها المختلفة في التوجيه كالنظر الحاد، والشم لأقل نسب من الروائح، والإحساس بفروق درجات الحرارة، وغير ذلك من المتغيرات المناخية، فإنها لا بد وأن تتأثر بالمجال المغناطيسي للأرض، وبأية تغيرات فيزيائية أو كيميائية أخرى في غلافها الغازي.

والغراب كغيره من الطيور ـ له قدرة فائقة على تحويل وسائل إدراكه من حاسة إلى أخرى بمنتهى السهولة، وذلك بالإلهام والفطرة (Instinct)، وبالتوجيه (Orientation)، وبالتعود (Habitulation) وبالارتباط بالجماعة (Learning By Association)، والتعلم بالتمييز بين الأشياء (Learning By Discrimination)، والتعلم بالتجربة والخطأ (Learning By Trial And Error)، والتعلم بحل المشكلات التي تعترض سبيل حياته (Learning By Problem - Solving)، وبالانطباع في الذاكرة (Memory Imprinting)، أو بتأثير البيئة المثالية للنوع (Effect Of The Species - Typical Enviroment)، وهذا

كله مما يؤكد أن الطيور ومنها الغربان لها عقل، وذاكرة، وقدرات إدراكية واعية تحكم سلوكها الاجتماعي بالتعاون والمنافسة والتأقلم، ولها مهارات اتصال فائقة (Excellent Communication Skills) منها الاتصال الصوتي اللفظي، والسمعي، والبصري، والإشاري، واللوني أي بتغيير الألوان وبالتأثير المتبادل بين مختلف الأفراد (Reciprocal Stimulation).

وبتطبيق هذه المهارات على مدى يزيد على 55 مليون سنة تكونت عند الغربان حصيلة تجربة هائلة تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل حتى جاء خلق الإنسان ذلك المخلوق المكرّم، ولكنه كان قليل الخبرة في بدء الخلق فأرسل الله تعالى إليه غراباً يعلمه كيف يواري سوءة أخيه.

ويقرر القرآن الكريم في آيات عديدة أن الطيور تسبح الله تعالى، وهي ليست وحدها في ذلك، فجميع الكائنات الحية، بل وكل الجمادات، بل الكون بكل ما فيه يعبد الله تعالى ويسبحه ويمجده إلا عصاة كل من الإنس والجن.

كما يقرر القرآن العظيم أن جميع الدواب والطيور وغير ذلك من المخلوقات هي أمم كأمثال الأمم الإنسية لها منطق؛ أي: لغات تتفاهم بها فيما بينها، وتنسق روابطها الفردية والجماعية بواسطتها، وتتمتع بقدر من الشعور والإدراك الخاص الذي تتفاوت فيه الكائنات من كائن إلى آخر، وتعاون الفطرة السليمة، والإلهام والتسخير تلك المخلوقات غير المكلفة في الثبات على منهج الله.

من هنا تتضح روعة الإشارة القرآنية إلى **الغراب، معلم الإنسان الأول كيفية الدفن الصحيح للموتى**، ويأتي العلم في قمة من عطائه ليؤكد لنا أن الغراب قد وهبه الله تعالى من المواهب الحسية والمعنوية ما جعله أذكى الطيور على الإطلاق، وأقدرها على التحايل، وأنه يملك أكبر حجم لنصفي المخ بالنسبة إلى حجم الجسم في جميع الطيور المعروفة لنا، والتي يزيد عدد أنواعها على العشرة آلاف نوع، وأن له من حدة البصر ما يمكنه من التقاط التفصيلات من الارتفاعات الشاهقة على مساحات تقدر بمئات الكيلومترات المربعة، وبتفاصيل تفوق قدرة الإنسان بثلاث إلى أربع مرات.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: إذا كان القرآن الكريم من كتابة سيدنا محمد ﷺ كما يدعي كثير من الجهلة المفسدين في مختلف بقاع الأرض، فمن الذي أعلمه أن الغراب هو أذكى الطيور ليختاره لمهمة تعليم الإنسان الأول كيفية دفن الميت؟ وإذا كان الادعاء الباطل بأنه استمد هذا العلم من بقايا كتب سابقة على رسالته فموضوع الغراب ليس مذكوراً عندهم على الإطلاق فمن أين جاء به هذا النبي الأمي الذي بعث في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين؟!!

إن هذه الإشارة على بساطتها تقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ليبقى حجة على الناس جميعاً إلى قيام الساعة.

فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، والحمد لله على حفظ هذا الإسلام العظيم في صياغته الربانية، وإشراقاته النورانية، وفي كماله وتمامه في القرآن الكريم، وفي سُنَّة خاتم النبيين، بينما ضاعت أصول الرسالات السماوية السابقة كلها، وظل ما بقي من ذكريات عن بعضها، نقلت شفاهاً جيلاً بعد جيل يتعرض للتحريف تلو التحريف، وللتبديل والتغيير، وللإضافة والحذف حتى أخرجت عن إطارها الرباني وأصبحت عاجزة عن هداية أتباعها الذين ملأوا الأرض جوراً وظلماً وفساداً وانحرافاً ولا يزالون، وذلك لجهلهم بالدين الصحيح، وعدائهم لأهله، ولجهلهم بحقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة، وانحرافهم عن هداية الله، واتباعهم لغوايات الشيطان الرجيم فنسأل الله ـ تعالى ـ لهم الهداية أو الأخذ بقدرته إنه رب ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

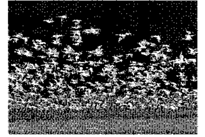
وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ
ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا
هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ **أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا**
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى
هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ «سورة المُلك، الآية: 19».

25



هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الثاني من سورة «المُلْك»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها ثلاثون (30) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالشهادة لله ـ تعالى ـ بأنه هو ﴿...ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ومن أسماء هذه السورة الكريمة **(المانعة)** و**(المنجية)** لأنها تمنع قارئها من عذاب القبر، وتنجيه منه وذلك لقول رسول الله ﷺ فيها: «**هي المانعة، وهي المنجية، تنجيه من عذاب القبر**»[1].

ويدور المحور الرئيسي لسورة «الملك» حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً، بيده ملك كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وبأنه عليم بذات الصدور، وبأن النصر من الله سبحانه وتعالى وحده، وأن الرزق منه وحده، ومن هنا وجبت عبادته وخشيته، والتوكل عليه وحده.

ومن ركائز العقيدة الإسلامية التيقن بأن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً، والإيمان بكل ما وقع بالمكذبين من الأمم السابقة من عقاب، وبأن للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير، وأن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير. والإيمان برسالة الإنسان في هذه الحياة: عبداً مستخلفاً في الأرض يعبد الله ـ تعالى ـ بما أمر، ويقوم بتنفيذ أوامره بالمشي في مناكب الأرض والاجتهاد في عمارتها، وإقامة عدل الله فيها، وهو مؤمن بحتمية العودة إلى الله ـ تعالى ـ يوم البعث

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (الحديث: 2890).

والنشور، وبالآخرة وما فيها من حشر وعرض أكبر أمام الله، وحساب، وجزاء، وخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وتبدأ سورة الملك بقول الحق ﷻ:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة الملك،الآية: 1».

وفي هذا الاستهلال تعظيم لله الخالق ﷻ لأن من معاني **(تبارك)**: تعالى وتعاظم، وكثر خيره، ودام فضله وإحسانه، وثبت إنعامه ثبوتاً لا يزول ولا يحول أبداً، وتنزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

وفي هذا الاستهلال أيضاً تأكيد لتفرد الخالق ﷻ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين والخالق منزه عن جميع صفات خلقه، ولأن من معاني **(الملك)** أنه السلطان والقدرة ونفاذ الأمر، والذي له ذلك لا يشاركه أحد، ولا ينازعه منازع، وليس في حاجة إلى الصاحبة أو الذرية.

وانطلاقاً من تفرده ﷻ بالملك وبالقدرة على كل شيء، كان إثبات ألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، ومن صفاته ﷻ أنه هو **(العزيز)** أي: الغالب الذي لا يقهر، والذي لا يعجزه شيء، وأنه هو **(الغفور)** أي: العفو عن المقصرين من عباده، الغافر لذنوبهم. ومن تفرده ـ سبحانه ـ بالملك والقدرة، وبخلق الموت والحياة، وبالعزة المطلقة فوق جميع خلقه، وبالعفو والمغفرة لهم، فلا يجوز أن يُعبد سواه، أو أن يُقصد غيره بدعاء أو رجاء أو طلب. ومن مبررات ذلك خلقه ﷻ سبع سمٰوات طباقاً؛ أي: متطابقة حول مركز واحد هو الأرض، يغلف الخارج منها الداخل، ولولا هذا البيان الإلٰهي الذي تكرر عشرات المرات في القرآن الكريم ما كان أمام الإنسان من سبيل لإدراك ذلك، لأن كل ما يراه علماء الفلك في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه لا يتعدى جزءاً من السماء الدنيا وهي دائمة الاتساع، بمعنى أنه كلما طور الإنسان أجهزته فلن يلحق بسرعة اتساعها أبداً، وعلى الرغم من ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يدرك ـ بحسه المحدود، وقدراته المحدودة ـ دقة بناء السماء، وإحكام خلق كل صغيرة وكبيرة فيها، فلا خلل ولا نقص، ولا اضطراب، وإلا ما استقام وجود الكون، ولذلك تطالب الآيات كل ذي بصيرة بإعادة النظر في السماء حتى

يتحقق من بديع صنع الله فيها. وتستشهد السورة الكريمة بعدد آخر من الآيات الكونية على صدق ما جاء بها من أمور الغيب ومن ركائز العقيدة الإسلامية. وتختتم بأمر من الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ يقول له فيه:

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ *﴾ «سورة الملك، الآيتان: 29 ـ 30».

من الإشارات الكونية في سورة «المُلك»:

1 ـ الإشارة إلى مرجعية عليا للكون: الله الذي ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وهو ما تنادي به اليوم أحدث الدراسات الفلكية.

2 ـ الإشارة إلى تطابق السمٰوات حول مركز واحد، وإلى بنائها بناءً محكماً بغير فراغات ولا اضطراب، والعلم الكسبي يؤكد أن كوننا كون منحنٍ وذلك لعجز العلماء عن رؤية أبعاد السماء الدنيا كلها، ورؤية جزء منها يثبت ذلك الانحناء ويشير إلى تكور السماء.

3 ـ الإشارة إلى أن النجوم زينة السماء الدنيا، وأن منها رجوم الشياطين أي الشهب والنيازك، والعلم الكسبي يشير إلى وحدة بناء مادة الكون، فالنجوم، والكواكب، والأقمار، والكويكبات، والشهب والنيازك، والمادة بين مختلف أجرام السماء أصلها كلها واحد وهو الدخان الكوني.

4 ـ الإشارة إلى تذليل الأرض للإنسان بحجمها، وكتلتها، وبعدها عن الشمس، وسرعات حركاتها المختلفة، وأنشطتها الداخلية والخارجية المتعددة، ونطق الحماية المهيأة لها، وتشكيل سطحها وضبط تضاريسها، وتكوين صخورها، ومعادنها، وتربتها، وثرواتها، وخلق مختلف صور الحياة عليها، والحكمة البالغة والدقة المتناهية في تحقيق ذلك مما تشهد به العلوم المكتسبة.

5 ـ الإشارة إلى العلاقة بين خسف الأرض ومورانها، وهي علاقة لم تدرك إلا بعد فهم الميكانيكية التي تحدث بها الزلازل.

6 ـ الإشارة إلى الرياح الحاصبة، وهي رياح ذات سرعات عالية تمكنها من حمل الرمال والحصى معها مما يضاعف من قدراتها التدميرية الكبيرة.

7 ـ ذكر طرائق تحليق الطيور في السماء تارة بجناحين مبسوطين ساكنين، وتارة أخرى بجناحين متحركين إلى أعلى وإلى أسفل يضمان ثم يبسطان بسرعات فائقة مما يشهد للخالق ﷻ بطلاقة القدرة في الخلق.

8 ـ تأكيد أن الله ﷻ هو خالق الإنسان، ومبدع جميع حواسه، وفي مقدمتها السمع والأبصار والأفئدة. وتقديم السمع على الأبصار في سورة «الملك»، وفي غيرها من سور القرآن الكريم أثبتت الدراسات العلمية مؤخراً دقته العلمية، وذلك لأن أول الحواس نضجاً في وليد الإنسان هو السمع، وآخرها اكتمالاً هو البصر. كما أن الجنين يسمع وهو في بطن أُمه ولا يرى.

9 ـ الإشارة إلى إمكان غور الماء في الآبار، وهي ملاحظة علمية دقيقة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة السابعة من القائمة السابقة والتي تتعلق بطرائق تحليق الطيور في جو السماء كما تصفها الآية رقم (19) من سورة «المُلْك». وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من العلماء في تفسير هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾

«سورة المُلك، الآية: 19».

- ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي في الجو ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته..».

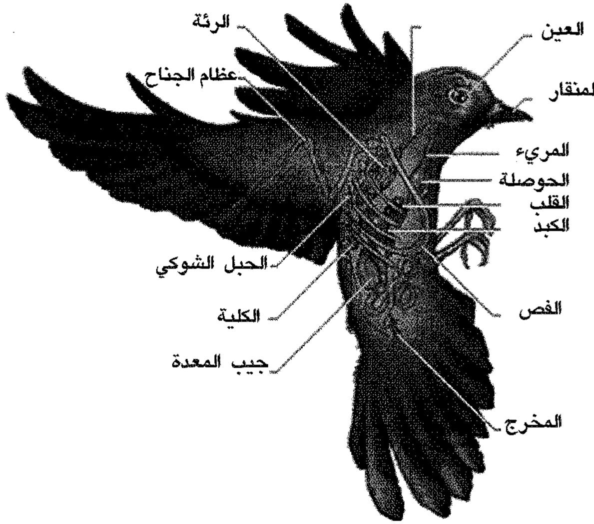
- وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أجنحتهن بعد البسط أي: وقابضات ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن الوقوع حال البسط والقبض ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾

بقدرته ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ المعنى: ألم يستدلوا بثبوت الطير في الهواء على قدرتنا أن نفعل بهم ما تقدم وغيره من العذاب؟».

- وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «... وهذه الخارقة التي تقع في كل لحظة، تنسينا بوقوعها المتكرر، ما تشي به من القدرة والعظمة. ولكن تأمل هذا الطير، وهو يصف جناحيه ويفردهما، ثم يقبضهما ويضمهما، وهو في الحالين: حالة الصف الغالبة، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء، يسبح فيه سباحة في يسر وسهولة، ويأتي بحركات يخيل إلى الناظر أحياناً أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع!.. والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾؟.. ثم يوحي بما وراءه من التدبير والتقدير: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ والرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب، الملحوظ في كل صغيرة وكبيرة، المحسوب فيه حساب الخلية والذرة.. النواميس التي تكفل توافر آلاف الموافقات في الأرض والجو وخلقه الطير، لتتم هذه الخارقة وتتكرر، وتظل تتكرر بانتظام. والرحمٰن يمسكهن بقدرته القادرة التي لا تكل، وعنايته الحاضرة التي لا تغيب، وهي التي تحفظ هذه النواميس أبداً في عمل وفي تناسق وفي انتظام، فلا تفتر ولا تختل ولا تضطرب غمضة عين إلى ما شاء الله: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾.. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ يبصره ويراه، ويبصر أمره ويَخْبره، ومن ثم يهيىء وينسق، ويعطي القدرة، ويرعى كل شيء في كل لحظة، رعاية الخبير البصير..».

- وذكر كلٌّ من صاحب صفوة البيان وصاحب صفوة التفاسير ـ جزاهما الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً، إلا أن الأخير أضاف لمحة لغوية جميلة عن صاحب التسهيل لعلوم التنزيل قال فيها: «... ولما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبر عنه بالاسم ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ وكان القبض متجدداً عبر عنه بالفعل ﴿وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾». قال في التسهيل: «فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل (قابضات) على طريقة ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾؟ فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مد الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ لدوامه وكثرته، وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة، فلذلك ذكره بلفظ الفعل لقلته..».

البنية التشريحية لجسم الطير



- كذلك ذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً، ولكن أضاف الخبراء بالهامش كلاماً علمياً رائعاً جاء فيه: «الصف هو أن يبسط الطائر جناحيه دون أن يحركهما، وفي طيران الطيور آيات معجزات لم نفهم بعضها إلا بعد تقدم علوم الطيران ونظريات الحركة (الديناميكا) الهوائية، ولكن أكثر ما يثير العجب هو أن يمضي الطائر في الجو بجناحين ساكنين حتى يغيب عن الأبصار، وقد كشف العلم أن الطيور الصافة تركب متن التيارات الهوائية المساعدة التي تنشأ إما من اصطدام الهواء بعائق ما، أو من ارتفاع أعمدة من الهواء الساخن، فإذا ما كانت الريح هينة ظلت الأعمدة قائمة وصفت الطيور في أشكال حلزونية، أما إذا اشتدت انقلبت الأعمدة أفقياً فتصف الطيور في خطوط مستقيمة بعيدة المدى. وتتحلى الطيور عامة بخصائص منها خفة الوزن، ومتانة البناء، وعلو كفاءة القلب ودورة الدم وجهاز التنفس، ودقة اتزانها، وانسياب أجسامها، وهي خصائص أودعها فيها العليم البصير لتحفظها في الهواء حين تبسط جناحيها أو تقبضهما، إلا أن الطيور الصافة تتميز على سائر الطيور باختصار حجم عضلات صدورها مع قوة الأوتار والأربطة المتصلة بأجنحتها حتى تستطيع بسطها فترات طوال من دون جهد كبير. أما الطيور صغار الأحجام، التي تعتمد

رسم تفصيلي لقوائم ومخالب الطيور المختلفة



في طيرانها على الدفيف فإنها تضرب بجناحيها إلى أسفل وإلى الأمام لتوفير الدفع والرفع اللازمين لطيرانها ثم تقبض أجنحتها ولكنها تظل طائرة بقوة اندفاعها المكتسبة، وهكذا يتضافر البناء التشريحي والتكوين الهندسي للطيور بجميع أنواعها على طيرانها وحفظ توازنها وتوجيه أجسامها في أثناء الطيران».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ...﴾:

إن في إعطاء الطيور القدرة على ارتقاء الهواء، والسبح فيه بكفاءة عالية، لهو من أعظم الدلالات على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الكون، والتي أعطت لكل كائن حيّ القدرة على التوافق مع البيئة التي أوجده الخالق العظيم فيها، كما أعطت كل بيئة من بيئات الأرض من الظروف الطبيعية والكيميائية ما يتلاءم مع مختلف الكائنات التي أوجدها الله ـ تعالى ـ فيها، ومن هنا كان لفت أنظار المكذبين بالدين إلى هذه الحقيقة الكونية التي يمر عليها كثير من الناس بقلوب غافلة، وعقول شاردة، وأبصار عليها غشاوة لعل ذلك أن يوقظهم من غفلتهم..!!

والطيور من الحيوانات ذات الفقار، والدم الحار، والأجنحة، والريش، والمناقير القرنية التي حلت محل الفكوك بلا أسنان، والتي تمشي على رجلين نظراً لإحلال الجناحين محل الطرفين الأماميين، والتي تبيض إناثها، وتحتضن البيض حتى يفقس، وترعى صغارها حتى تكبر. وتختلف الطيور في أحجامها من بضعة سنتيمترات إلى عدة أمتار، كما تختلف في أشكالها، وأشكال مناقيرها، وأقدامها، وأنواع طعامها، فمنها ما يتغذى على الحبوب، أو الثمار، أو رحائق الأزهار، ومنها ما يأكل اللحوم بدءاً من الحشرات وانتهاء بالثدييات الصغيرة، ومنها ما يأكل الجيف.

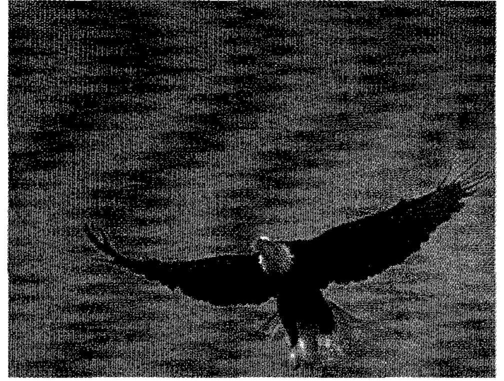
وهذه المجموعة من الفقاريات التي أعطاها الخالق ﷻ القدرة على الطيران (وإن كان القليل منها لا يطير) تضم في طائفة واحدة تعرف باسم طائفة الطيور (Class Aves = Birds) وتحتوي هذه الطائفة على نحو العشرة آلاف نوع (أكثر من 8600 نوع من أنواع الطيور المعروفة اليوم) والتي تصنف في نحو (27) رتبة، ويعتقد أنها تمثل اليوم بأكثر من عشرة بلايين طائر بري يعيش في مختلف بيئات اليابسة، بالإضافة إلى بلايين الأفراد من الطيور البحرية المعروفة وغير المعروفة والتي تزخر بها محيطات الأرض وبحارها التي تغطي مياهها أكثر قليلاً من 71٪ من مساحة الكرة الأرضية.

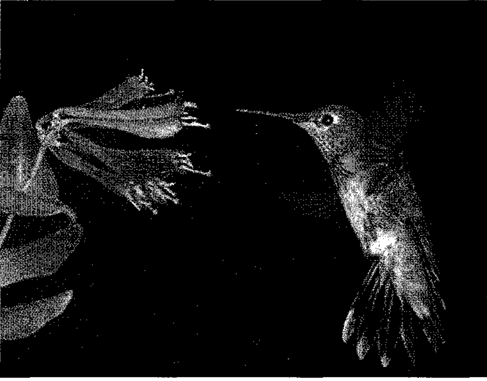
والطيور عمرت الأرض منذ أكثر من تسعين مليون سنة مضت؛ أي: منذ العهد الطباشيري المتأخر (The Late Cretaceous Epoch)، وإن كانت الطيور الحديثة لم تعرف إلا منذ حوالي ستين مليون سنة فقط؛ أي في عهد الباليوسين أو الفجر القديم للحياة الحديثة (The Paleotene Epoch)). وإن كان الصيد الجائر بواسطة الإنسان يتهدد العديد من الطيور اليوم بالانقراض.

وقد وهب الخالق ﷻ الطيور عدداً من الصفات الشكلية والتشريحية من أجل تمكينها من الطيران منها ما يلي:

1 ـ الشكل الخارجي الانسيابي للجسم بصفة عامة حتى يسهل اختراقه لطبقة الهواء.

2 ـ الجناحان المدعومان بعظام الطرفين الأماميين، والمشدودان إلى الجسم بمفاصل





تسهّل حركتهما، وبعدد من الأربطة والأوتار القوية، والمغطيان بالريش بكثافة ملحوظة مما يزيد من مساحة جسم الطائر دون زيادة ملحوظة في وزنه.

3 ـ الريش الذي يغطي الجسم بالكامل ويمتد في الذنب، والذي يعمل على تجميع الهواء بين وحداته المختلفة مما يساعد على تخفيف وزن الطائر، وعلى حفظ درجة حرارة جسمه المرتفعة من مختلف التقلبات الجوية، ويعين الكثير من الطيور على العيش في المناطق المتجمدة والباردة، وعلى تحمل الانخفاض في درجة حرارة الغلاف الجوي للأرض مع الارتفاع فوق مستوى سطح البحر إلى مسافات شاهقة في بعض الأحيان.

4 ـ خفة وزن الهيكل العظمي للطائر، وامتلائه بالهواء خاصة في العظام الطويلة، مع صلابته وشدة تماسكه والتحامه، وامتداد عظمة القص إلى أسفل على هيئة حافة القارب السفلي لكي تعطي مساحة كافية لارتباط عضلات الصدر المحركة للأجنحة (عضلات الطيران) وتعطيها قدراً من المتانة والقوة. ومعظم أجزاء الهيكل العظمي للطيور متراكب وملتحم مع بعضه بعضاً زيادة في قوته ومتانته، فباستثناء الفقرات العنقية فإن بقية الفقرات تلتحم مع الحزام الحوضي مكونة ما يسمى باسم العجز المركب.

5 ـ بالإضافة إلى الرئتين زوّد الخالق ﷻ أجسام الطيور بشبكة من حويصلات الهواء التي تتشعب في مختلف أجزاء الجسم، مما يضاعف الحيز الموجود لتخزين الهواء إلى عشرة أضعاف حجم الرئتين.




6 ـ إعطاء الطيور القدرة على تناول كميات كبيرة من الأطعمة ذات الطاقة الحرارية العالية تفوق بكثير أوزان أجسامها، وتزويد الجهاز الهضمي للطائر بكل من الحوصلة (Crop) كمخزن للغذاء، والقونصة (Gizzard) التي تعمل على طحن الغذاء قبل وصوله إلى المعدة، مما يساعد على إتمام وإسراع عمليات الاحتراق الداخلي للطعام، وإنتاج الطاقة التي تحتاجها الطيور في أثناء عمليات الطيران بسرعات كبيرة ولمدد طويلة.

7 ـ تزويد الطيور برئات لها ممرات خاصة لكلٍّ من الهواء الداخل إليها والخارج منها، وبقدرات فائقة على استخلاص الأكسجين من الهواء مهما قلت نسبته حتى تقاوم نقص هذا الغاز المهم في الارتفاعات الشاهقة.

8 ـ وهب الخالق سُبحانه وتعالى الطيور قلوباً ذات كفاءة عالية، ويتكون قلب الطائر من أربع حجرات منفصلة مما يحفظ الدم المؤكسد بمعزل عن الدم غير المؤكسد، ويعمل على سرعة دوران الدم بشكل فعال وبكفاءة عالية في كل الجسم.

9 ـ جعل درجة حرارة أجسام الطيور عالية نسبياً (في حدود 41 درجة مئوية) مما يعين على إتمام وسرعة إنجاز عمليات الاحتراق الداخلي للطعام، وفي الوقت نفسه يساعد ذلك على مزيد من إنتاج الطاقة التي تحفظ درجة حرارة الجسم ثابتة مهما انخفضت درجات حرارة الجو المحيط.

10 ـ إعطاء الطيور قدرات إبصار ورصد فائقة، ومراكز لتنظيم الحركة على درجة عالية

من التقدم، من أجل الرؤية، وتجميع المعلومات من الارتفاعات الشاهقة التي تصل إليها لرصد الطعام، والمناورة لتحاشي الأعداء.

11 ـ القدرة الفائقة التي وهبها الخالق ﷻ للطيور في التعرف على المواقع والاتجاهات والطرق التي تسلكها في هجراتها وعودتها إلى مواطنها الأصلية مهما تعاظمت المسافات التي تقطعها.

هذه الميزات التي خص الله ﷻ بها الطيور فمكنها من الطيران بسرعات تقارب المائة كيلومتر في الساعة، وإلى ارتفاعات تصل إلى قرابة التسعة كيلومترات فوق مستوى سطح البحر، والتي لم يتمكن الإنسان من تقليدها إلا في القرن العشرين بعد مجاهدة استغرقت الآلاف من العلماء، كأنها هي المقصودة بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ...﴾ وهو سؤال تقريعي، تبكيتي، تقريري موجه إلى كل كافر ومشرك وجاحد لعله يلتفت إلى شيء من قدرة الله المبدعة في خلقه للطيور، وتلك المواهب الفطرية المعجزة التي مكنتها من الطير قبل أن يتمكن الإنسان من تحقيق شيء من ذلك بملايين السنين، هذا فضلاً عن الإعجاز في ألوانها الزاهية، وأصواتها المغردة، وإدراكها المذهل، وقدراتها على التخاطب والتفاهم فيما بينها، وعلى تحديد مناطق نفوذها، واتجاهات هجراتها، وعلى غير ذلك من الصفات التي تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبإحكام الخلق.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿...صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ...﴾:

إن الإعجاز في خلق الطيور لا يتوقف عند حدود الصفات الشكلية والتشريحية المحكمة التي وهبها إياها الله ﷻ، ولكنه يتعدى ذلك إلى القدرات الفائقة التي أعطاها الخالق العظيم لهذه المخلوقات الضعيفة فمكنتها من إتقان المناورة في جو السماء بذكاء ودقة بالغين، وذلك لأن هناك فرقاً بين سرعة الجسم المتحرك في الهواء (Air Speed) وسرعته إذا تحرك على سطح الأرض(Ground speed). فالسرعة في الهواء تعني سرعة كتلة الغاز مروراً فوق الجسم المتحرك، أما سرعته على الأرض فتعني سرعة الجسم المتحرك نفسه في اختراقه للغلاف الغازي المحيط بالأرض والذي تصل سرعته إلى الصفر فوق سطح الأرض أياً كانت سرعاته في مستوياته الأعلى، لذلك يتم طيران الطيور بمناورات بالغة الذكاء والدقة.

ويتم طيران الطيور بعمليتين أساسيتين هما الصف أو التحليق (Gliding or Soaring) والقبض، أو الخفق، أو الرفرفة، أو ضم الجناحين وبسطهما، أو ما يعرف أحياناً باسم التصفيق بالجناحين (Flapping). والصف أو التحليق هو بسط الجناحين إلى أقصى امتداداتهما، دون تحريكهما على هيئة سطح انسياب هوائي (Air foil) حاكاه الإنسان في صنع جناحي الطائرة. وباندفاع الطائر وسط كتلة الهواء يندفع الهواء إلى أسفل الجناحين مما يزيد الضغط عليهما فيساعد ذلك الطائر على الارتفاع إلى أعلى، وعلى التقدم بالانزلاق إلى الأمام. ويتحقق دفع الطائر إلى الأمام بتحكمه في زاوية ميل كل جناح من الجناحين، وفي درجة انحناء كل منهما، وبذلك يتحرك الهواء فوق الجناحين وأمامهما بسرعة تزيد على سرعته أسفل منهما وخلفهما مما يقلل الضغط فوق الجناحين وأمام الطائر باستمرار، فيساعده على الاندفاع في الطيران إلى الأمام وإلى أعلى كلما أراد ذلك. ومن الذكاء الفطري الذي وهبه الله ـ تعالى ـ للطيور ما يمكنها من ركوب متن التيارات الهوائية أو الرياح، في عملية تسمى عملية التزلج الديناميكي (Dynamic gliding or soaring).

وتعرف الرياح بأنها الهواء المتحرك حركة مستقلة عن ارتباطه بجاذبية الأرض، ويلعب الدور الرئيسي في ذلك كل من اختلاف معدلات الضغط الجوي باختلاف درجات الحرارة من منطقة إلى أخرى وباختلاف كم الطاقة الشمسية عبر خطوط العرض المختلفة، ودوران الأرض حول محورها، بالإضافة إلى تباين التضاريس الأرضية.

وتقسم الرياح بالنسبة لارتفاعها إلى **رياح سطحية، ومتوسطة، ومرتفعة.** وبالنسبة لشدتها من صفر **للرياح الساكنة** إلى12 درجة لأعلاها وهي (الأعاصير). ونتيجة لذلك تكونت دورة عامة للرياح شديدة الانتظام حول الأرض وذات عدة دوائر كبيرة بين خط الاستواء وكل واحد من قطبي الأرض مع وجود عدد من الجبهات الهوائية بين تلك الدوائر، ويزيد من تعقيد هذه الصورة التباين بين اليابسة والماء، وفي تضاريس اليابسة، والاختلافات الفصلية، وما ينشأ عن ذلك من حركات أفقية ورأسية للرياح تستغلها الطيور في حركتها في الهواء بذكاء بارع، فإذا كانت الرياح أفقية فإن الطيور تصف في خطوط مستقيمة موازية تماماً لاتجاه هبوب الرياح، وإذا كانت الرياح رأسية استغلتها الطيور الصافة في الارتفاع إلى أعلى في أشكال حلزونية موازية تماماً لحركة دوامات الرياح إلى أعلى.

والطيران بواسطة الصف أي الانزلاق المستمر (Constant Gliding) شائع في الطيور الكبيرة خاصة إذا أرادت التحرك لمسافات بعيدة.

أما القبض أو الخفق أو الرفرفة (Flapping) فهي طريقة الطيران المثلى لمسافات قصيرة، وتنتشر بالأخص بين الطيور الصغيرة الحجم. وهذه الطريقة تستدعي حركتين سريعتين هما الضرب بالجناحين إلى أسفل ثم إلى أعلى، والحركة الأولى تدفع بالطائر إلى الأمام، والثانية تدفع به إلى أعلى، خاصة إذا كانت مقدمة الجناح مائلة إلى الأمام ولو قليلاً مما يدفع بالهواء إلى الخلف ويدفع بالطائر إلى الأمام، بينما يبقى معظم الجناح عمودياً على الجسم فيساعد في ارتفاع الطائر إلى أعلى، وبذلك يتحقق للطائر كلٌّ من الدفع إلى الأمام والرفع إلى أعلى، ويتحكم في ذلك الطائر بتحكمه في حركة أجنحته. وعادة ما تضم الطيور أجنحتها في أثناء الضرب إلى أعلى كي لا تدفع بكميات كبيرة من الهواء في هذا الاتجاه، وإذا وصل الطائر إلى السرعة المناسبة له قبض جناحيه إلى جنبيه ويظل محمولاً بقوة الاندفاع المكتسبة من قبل، وبتغيير درجة ميل أي من الجناحين يستطيع الطائر تغيير اتجاهه في الهواء حيث يشاء، ومهما كانت سرعة الرياح من حوله، ويعينه في ذلك ذنبه الذي يلعب دوراً مهما في تلك المناورات. ويستطيع الطائر أن يحقق رفع جسمه إلى أعلى بسرعة الضرب بجناحيه إلى أعلى وأسفل مستخدماً في ذلك عضلات صدره القوية، **وقد تصل حركة الجناحين إلى سبعين خفقة في الثانية، وتصل سرعة الطائر إلى حوالي المائة كيلو متر في الساعة كما هو الحال في الطائر المعروف باسم الطنان الذي يضرب بجناحيه إلى الأمام والخلف في عملية شبيهة تماماً بعملية التجديف في الماء فيرسم بحركة جناحيه في الهواء الرقم (8) في وضع أفقي بالنسبة إلى جسم الطائر مما يمكنه من تحريك جسمه مع كل ضربة إلى أعلى أو إلى أسفل.**

ومن الإبداع الإلٰهي في خلق الطيور ارتباط جناحي الطائر بجسمه بواسطة نظام دقيق من المفاصل يسمح للطائر بتغيير زاوية ميل كل جناح على حدة بالنسبة لجسمه، ففي الضرب بالجناحين إلى أسفل يكونان مفرودين إلى أقصى امتداداتهما باستقامة كاملة عمودياً على الجسم مما يمكنهما باندفاعهما إلى الأمام من دفع أكبر كمية ممكنة من الهواء إلى أسفل فيرتفع ذلك بالطائر إلى أعلى وإلى الأمام، ولكن في رفع الجناحين إلى أعلى يضمهما الطائر بإلهام من الله الخالق ﷻ كي لا يدفعا إلى أعلى إلا قدراً ضئيلاً من الهواء تماماً كما

يفعل الذي يقوم بالتجديف في الماء بين ضربته الخلفية الشديدة التي تدفعه إلى الأمام، وضربته الأمامية الخفيفة التي تهيئ للضربة الخلفية التالية.

ومن الفطرة التي فطر الله ـ تعالى ـ الطيور عليها البدء بالطيران المنخفض البطيء ثم زيادة كل من السرعة والارتفاع بالتدريج حتى تصل إلى أقصى معدلات ذلك، **والطيور عادة ما تتحرك في الهواء بسرعات تتراوح بين (30) و(50) كيلومتراً في الساعة، وقد يتزايد ذلك إلى (75) كيلومتراً في الساعة، ولكنها إذا طوردت فإن بإمكانها زيادة سرعتها إلى أكثر من 100 كيلومتر في الساعة، ولكن بعض الجوارح من الطيور مثل الصقور لها سرعات أعلى بكثير إذ تتراوح سرعات طيرانها بين (160) و (320) كيلومتراً في الساعة. ويمكن للطائر أن يستمر في الطيران لمدد تتراوح بين (5) و(6) ساعات متصلة بسرعات تتراوح بين (25) و(30) كيلومتراً في الساعة.**

ومعظم الطيور لا تكاد تتعدى في طيرانها ارتفاع (150) متراً فوق مستوى سطح البحر، ولكنها في هجراتها الطويلة ترتفع إلى منسوب (3000) متراً في المتوسط فوق مستوى سطح البحر (بمدى يتراوح بين (1500) متراً، و(6000) متراً) وذلك للاستفادة بالتناقص الشديد في كل من الضغط والحرارة عند تلك الارتفاعات، ولتجنب الجفاف بالبعد عن الهواء الحار الملامس لسطح الأرض والقريب منه في أثناء بذل هذا المجهود المضني في رحلات الهجرة الطويلة. **وأعلى ارتفاع شوهدت عليه هجرة الطيور وصل إلى نحو التسعة كيلومترات حين شوهدت من إحدى الطائرات، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد وهب الطيور قدرات خاصة لاستخلاص أقل قدر ممكن من أكسجين الهواء الذي تتناقص نسبته بالارتفاع وهو ما لا يستطيعه الإنسان وما لا تستطيعه جميع الحيوانات الثدية ومنها الخفافيش.**

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ :

من كل ما سبق يتضح بجلاء لكل ذي بصيرة أن الذي فطر الطير على صفات شكلية وتشريحية محددة أعطته القدرة على الطيران هو الله الخالق ﷻ، والذي زوده بقدر من الذكاء وحسن الإدراك ليمكنه من حسن القيام بالمناورات المعقدة وهو في مهب الريح بصف جناحيه في الوقت المناسب، وخفقهما أو قبضهما في الوقت المناسب، وإمالة جناحيه، أحدهما أو كليهما، بالزوايا المناسبة، فوهبه بذلك القدرة على التحكم في الاتجاه، والارتفاع، والسرعة المناسبة في كل حالة، وعلى الإقلاع والهبوط حيث أراد، وعلى

الانقضاض على الأرض والارتفاع عنها في لمح البصر، والذي وهب الطير كل ذلك هو الله الخالق (جلت قدرته)، وهذا الإلٰه الخالق، المبدع، المصور، الرحمٰن، الرحيم يمسك بالطير في جو السماء بالنواميس التي وضعها بإحكام وقدرة بالغيْن.. في كل من الغلاف الغازي للأرض وجسم الطير، وفي تصريف الرياح، والتوزيع الدقيق لتضاريس الأرض، وتوزيع درجات الحرارة على سطحها، فجاء كل أمر منها في تناسق فريد، وتناغم معجز يشهد لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة، وإبداع الخلق...!! ولم يكن لأحد من الخلق إدراك لتفاصيل حركات الطير في جو السماء إلا في القرنين الماضيين، تلك الحركات المعقدة والدقيقة التي لم يستطع الإنسان محاكاة شيء منها إلا في القرن العشرين، وفي العقود المتأخرة منه على وجه التحديد، وبعد مجاهدات طويلة وعسيرة استغرقت أعمار الآلاف من العلماء، لعشرات، بل لمئات من السنين، حتى أصبحت حركات الطير في جو السماء علماً يدرس في أغلب جامعات العالم تحت مسمى **هندسة الطيران** الذي يشمل **علوم التحرك في الهواء، ديناميكية الهواء، بناء الطائرات والنفاثات والصواريخ، والملاحة في الهواء**)، والمعلم الأول في هذا العلم هو الطير:.. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾

من هنا تأتي هذه الإشارة القرآنية المعجزة سبقاً علمياً بثلاثة عشر قرناً للمعارف الإنسانية كلها التي لم تتمكن من بناء طائرة بدائية جداً إلا في مطلع القرن العشرين (1903 م)، وهذا السبق العلمي لا يمكن لعاقل أن يتخيل له مصدراً غير الله الخالق الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه حفظاً كاملاً في ذات لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بذلك إلى أن يرث ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، والحمد لله الذي حفظ لنا رسالته الخاتمة في صفائها الرباني، وإشراقاتها النورانية في كتابه العزيز، وسنة نبيه المطهرة وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الْفَضْلُ الْمُبِينُ ١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ
نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ
وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ
رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ
الصَّٰلِحِينَ ١٩ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ
أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢

سُورَةُ النَّمْلِ

26



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾

«سورة النمل، الآية: 20».

26



هذه الآية الكريمة جاءت في بداية الخمس الثاني من سورة «النمل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (93) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى وادي النمل الذي مر به نبي الله سليمان وجنوده. فنطقت نملة بلغتها الخاصة بها آمرة بقية النمل بالدخول إلى مساكنهم ومحذِّرة إياهم من إمكانية أن يطأهم سليمان وجنوده بأقدامهم أو بحوافر خيلهم فيحطموهم وهم لا يشعرون، وفي ذلك من الدلالات القاطعة على تملك النمل - كغيره من بقية المخلوقات - لقدر من الإدراك والفهم والنطق؛ والدراسات العلمية في مجال سلوك الحيوان قد بدأت بالفعل في تأكيد ذلك.

وسورة «النمل» - مثلها مثل السورة المتقدمة عليها في المصحف الشريف (سورة الشعراء) والسورة اللاحقة بها (سورة القصص) - تستعرض قصص عدد من الأمم السابقة لاستخلاص العبرة، وتعلم الدرس من تعامل تلك الأمم مع رسالة السماء، ونتائج ذلك التعامل، ومقارنة مواقف الكفار والمشركين في الجزيرة العربية من خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، مع مواقف أمثالهم من رسلهم السابقين ومواقف أمثال أمثالهم مع الدعاة إلى الله من بعد ذلك العصر وحتى يوم الدين.

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول قضية العقيدة الإسلاميّة بركائزها المختلفة. وكنا قد استعرضنا في فصل سابق كلاً من ركائز العقيدة والتشريعات الإسلاميّة والإشارات الكونية التي جاءت في سورة «النمل». وقبل البدء في شرح الدلالة العلمية للآيات (20) إلى رقم (26) من سورة «النمل»، لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآيات القرآنية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۞ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۞﴾ «سورة النمل، الآيات: 20ـ26».

- ذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما مختصره: «... ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه، وتلميح وإيماء أريب... فهو يدرك أن هذه ملكة، وأن هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السمٰوات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم... وما هكذا تدرك الهداهد. إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف». ومع تقديرنا لهذا الكلام الجميل، ولجهاد صاحبه الذي لا ينكر، والذي نسأل الله ـ تعالى ـ أن يكون ثقيلاً في ميزان حسناته ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞﴾ إلا أننا نقرر هنا أن هكذا كل الطيور، وجميع المخلوقات غير المكلفة: تعرف ربها بالفطرة، ولها قدر من المعرفة والذكاء والوعي والإدراك، وعلى ذلك فإن هدهد نبي الله سليمان لم يكن هدهداً خاصاً، ولم يكن مميزاً عن غيره من الهداهد.
- وقال بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للآيات الكريمة:

(الطائر) في اللغة هو كل حيوان من ذوات الفقار له جناحان يمكنانه من السبح في الهواء وإن لم يفعل ذلك، وجمعه **(طير)** وإن أطلق هذا اللفظ على المفرد أيضاً. وجمع الطير **(طيور)** و**(أطيار)**.

يقال (طار) (يطير) (طيرورة) و(طيراناً)، و(أطاره) غيره أو (طيّره) أو (طايره) بمعنى واحد،

و(الطيّار) هو الذي يطير أو يقود طائرة، وأرض (مَطارة) أي كثيرة الطير، و (المطار) مكان انطلاق عمليات الطيران ويقال: (تطاير) الشيء بمعنى تفرق أو طار، و(استطار) بمعنى انتشر، و(استطير) بمعنى طُيِّر. و(طائر) الإنسان عمله الذي قلده أو طار عنه من خير أو شر.

ويقال: كأن على رؤوسهم (الطير) إذا سكتوا من هيبة أو خوف. كما يقال: (تطيّر) فلان و(اطّيّر) بمعنى تشاءم وإن كان أصله التفاؤل بالطير ثم استعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم، وإن غلب استعماله في التشاؤم، و(الطير) و(الطيرة) اسم من التطير أي التشاؤم. وفي الحديث «**أن رسول الله ﷺ كان يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة**»[1].

ولفظة **(الطير)** جاءت في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، وجاء الفعل (يطير) مرة واحدة، وجاءت لفظة (طائر) بمعناها الحيواني مرة واحدة كذلك، ولفظة (طيراً) جاءت ثلاث مرات، وجاء الفعل (تطير) و(اطّير) و(يطّير) بمعنى تشاءم مرة واحدة لكل، وجاء الاسم (طائركم) بمعنى شؤمكم مرتين.

وجاء لفظ **(طائر)** بمعنى العمل مرتين، وجاءت الصفة (مستطيراً) بمعنى فاشياً منتشراً مرة واحدة.

وجاء اسم **طائر (الهدهد)** مرة واحدة في القرآن الكريم، وهو طائر أنيق، يتسم بالذكاء، واليقظة، والحذر وسرعة الملاحظة، وقوة الذاكرة، وسعة الحيلة، والإيمان الفطري، والتسبيح غير الإرادي، والقدرة على التعبير، وتوحيد الله - تعالى - وتسبيحه بصورة تكاد تكون متصلة، والدعوة إلى الخير بلا توقف، وإلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن قتله بما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال فيه: «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد»[2].

و**الهدهد** اسمه العلمي (Upupa epops) واسمه الدارج باللغة الانجليزية (Hoopoe) وينسب إلى فصيلة الهداهد (Family Upupidae) وهي من فصائل الطيور ذات المنقار العظمي (Hornbill) ولا يعرف منها أكثر من سبعة أنواع من الهداهد التي تعتبر من الطيور النادرة في

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب (الحديث: 3536) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب (الحديث: 5258). وابن ماجه في كتاب: الصيد (الحديث: 3224)، والإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنه.



أوروبا والأمريكيتين، وإن انتشرت في كل من المناطق الاستوائية والمعتدلة من القارتين الإفريقية والآسيوية.

والهدهد طائر صغير يبلغ طوله حوالي 30 سنتيمتراً، ويتميز بأرجله القصيرة وأقدامه العريضة، ومخالبه القوية، وتاجه الريشي الجميل وذيله المربع، وريشه المزخرف، ومنقاره الطويل، الرقيق، المعقوف قليلاً إلى الأسفل، وجناحاه العريضان المدوران، وصوته الموسيقي الناعم الذي يتردد مرة كل ثانيتين تقريباً.

والهدهد يمشي على الأرض بخطى سريعة، ويجري بسرعة ملحوظة، ويعيش عادة في المناطق المفتوحة، النائية عن السكان، والمكسوّة بالخضرة إلى مسافات كبيرة، ويُرى أفراداً، وفي بعض الأحيان يُرى أزواجاً، وفي البعض النادر يُرى في جماعات. والهدهد يطير بقوة وبمباشرة فيها شيء من الفجائية، ويحط على الأرض باندفاع وفجائية كذلك. ويتغذَّى أساساً على الحشرات ويرقاتها، وعلى بعض اللافقاريات الصغيرة من مثل العناكب، وذوات المائة قدم، وديدان الأرض، وغيرها.

وبما وهبه الله ـ تعالى ـ من قوى الذكاء الفطري يستطيع الهدهد تخليص ما لا يفيده من طعام من فريسته وذلك من مثل الأصداف، والأجنحة، والأرجل، والزوائد الأخرى، وذلك

بضرب فريسته في الأرض عدة مرات حتى يتخلص من تلك الأجزاء التي لا تفيده، ثم يمزق الفريسة المنظفة بواسطة منقاره، ويبتلعها جزءاً جزءاً.

والهدهد يستخدم الفتحات والفراغات الموجودة في العديد من الأشجار أو في فتحات الصخور أو في أسقف وجدران المباني لاستعمالها عشاً له ولفراخه بعد فرشها بالقش، أو الأعشاب، أو أوراق الشجر، حيث تضع الأنثى بيضها وتحتضنه لمدة (16) إلى (19) يوماً ولا تغادره حتى يفقس، وعلى الذكر أن يوافيها بالطعام طوال هذه المدة. وبعد أن يفقس البيض، وتخرج منه الفراخ الصغار تحتضن الأم صغارها لمدة ثمانية أيام أخرى في المتوسط لأنها قد تزيد على ذلك وقد تقصر، **والهداهد من أكثر الطيور وفاء لأمهاتها، وحناناً على صغارها.**

والعلوم المكتسبة في مجال سلوك الحيوان وإن أدركت مؤخراً **قوة الملاحظة، والتمييز، والقدرة على التعبير** في العديد من الحيوانات (ومنها الطيور) إلا أنها لا تستطيع أن تعرف بدقة قدرات كل كائن حي على إدراك الأحداث التي تمر أمام ناظريه، وعلى الانفعال بها، والتفاعل معها ولا كيفيات عمل المخ في كل واحد من هذه الكائنات الحية، وإن تحققت من قدراتها على السمع والإبصار، والمعرفة، وتخزين المعلومات وتحليلها، وتمييزها، وتبويبها، والانفعال بها، والتعبير عن ذلك بوسائلها المختلفة. وقد صدرت مؤخراً مؤلفات عديدة بعناوين من مثل: ذكاء الحيوان وقدرته على كل من التفكير والسلوك: (Animal Intelligence, Thinking and Behaviour)، وعندما تبكي الفيلة: (When Elephants Weep)، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقائق من قبل أن يصل إليها علم الإنسان بأكثر من ألف وأربعمائة سنة مما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بهذا الحفظ إلى قيام الساعة كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وبكل ما جاء فيه من حق حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع الخلق إلى يوم الدين، وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ
وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ
صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ
كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا
﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ **تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ**
ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ
وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ...﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

27



هذا النص القرآني الكريم جاء في نهاية الثلث الأول من سورة «الإسراء»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (111) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة في مطلعها إلى رحلة الإسراء من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، والتي تلاها المعراج من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى، مروراً بالسمٰوات العلى، وقد كان في هذه الرحلة من التكريم لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ما لم ينله مخلوق من قبل ولا من بعد.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «الإسراء» حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها الأساسية التوحيد الخالص لله تعالى ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والمداومة على ذكره ـ تعالى ـ بالتمجيد والتقديس اللائقين بجلاله، ولذلك بدأت السورة الكريمة بقوله الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الإسراء، الآية: 1».

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن التوراة، ذلك الكتاب السماوي الذي آتاه الله سبحانه وتعالى عبده ونبيه موسى بن عمران لكي يكون هدى لبني إسرائيل فانصرفوا عنه، وحرفوه، وزوّروه واشتروا به ثمناً قليلاً، وتذكرهم الآيات بأنهم من ذرية الذين حملهم الله ـ تعالى ـ مع نبيه نوح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، ولكنهم آثروا الانحراف عن منهج الله، والصد عن سبيله فكتب عليهم الله ـ تعالى ـ النكبة والهلاك والتشريد مرتين عقاباً على إجرامهم وإفسادهم في الأرض مع إنذارهم بتكرار هذه النكبات والهلاك والتشريد كلما

عادوا إلى إفسادهم في الأرض، وذلك بقوله ـ تعالى ـ:

﴿...وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 8».

ثم تمتدح سورة «الإسراء» القرآن الكريم، ذلك الكتاب الخاتم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ إلى قيام الساعة فتقول:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 9».

وتقرر الآيات أن الله ـ تعالى ـ قد أعد للذين لا يؤمنون بالآخرة عذاباً أليماً، وأن الإنسان في طبعه شيء من الاندفاع والعجلة، ومن المبادرة بالدعاء بالشر قبل الدعاء بالخير، علماً بأن الله ـ تعالى ـ قد فصل له كل شيء، كما تقرر الآيات المسؤولية الفردية في الهدى والضلال وأنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وأن الله ﷻ لا يعذب أحداً دون إنذار ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 15».

ومن هنا كانت حكمة الله ـ تعالى ـ باتخاذه العهد على ذاته العلية بحفظ رسالته الخاتمة، لأنه ﷻ كان قد ترك حفظ رسالاته السابقة لأهل كلٍّ منها فضيعوها، وبدلوا ما بقي منها من ذكريات وحرفوه، وزوروه على الله حتى أخرجوه عن إطاره الرباني، وجعلوه عاجزاً عن هداية أتباعه.

كذلك تقرر الآيات في «سورة الإسراء» قاعدة التبعية الجماعية في التصرفات والسلوك، وتحذر من الترف المخل الذي يؤدي إلى الفسوق، ومن ثم إلى التدمير والهلاك، كما تحذر من الإقبال على الدنيا ونسيان الآخرة، ومن العواقب الوخيمة لذلك، وتدعو إلى السعي للآخرة مع الإيمان الكامل، وتؤكد أن الله ـ تعالى ـ يمد بعطائه الدنيوي كلاً من المؤمنين والكافرين، لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأن التفاضل في درجات الآخرة أكبر وأعظم من التفاضل في أمور الدنيا.

ثم تحذِّر الآيات من أخطار الشرك بالله ـ تعالى ـ، وتؤكد أن الواقع في هذه الكبيرة مذموم مخذول، كما تؤكد أن الله ﷻ قد قضى بألا يعبد سواه، وتثني بالحض على بر الوالدين، وإيتاء ذوي القربي، والمساكين، وأبناء السبيل، في غير إسراف ولا تبذير، وتأمر

بتحريم قتل الذرية، وتحريم الاقتراب من جريمة الزنا، وتحريم القتل بغير الحق تحريماً قاطعاً، كما تأمر برعاية مال اليتيم، وبالوفاء بالعهود، وبتوفية كل من الكيل والميزان، وبالمسؤولية عن الحواس، وتنهى عن الخيلاء والكبر، وتكرر التحذير من الشرك، مؤكدة أن جزاء الواقع فيه هو الخلود في جهنم مذموماً مدحوراً. وتستنكر الآيات في سورة «الإسراء» فرية الولد والشريك لله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، وتبين ما فيها من اضطراب وتهافت، وتقرر توحيد الكون كله لله ـ تعالى ـ وخضوع كل من فيه لذات الله العلية بالعبادة والتسبيح والتقديس والتنزيه عن كل وصف لا يليق بجلاله.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله ـ تعالى ـ، وإلى موقف كفار قريش- وموقف الكفار والمشركين من بعدهم في كل زمان ومكان ـ من الاستماع إلى القرآن الكريم، وهم يجاهدون أنفسهم في صم آذانهم عنه، وإغلاق عقولهم عن الإنصات إلى حجيته، وصد قلوبهم عن التحرك بما نزل فيه من الحق، وصرف فطرتهم عن أن تستجيب لندائه الصادق، وهو تماماً موقف الكثيرين من الكفار والمشركين في زماننا الراهن وفي كل عصر سابق.

وبعد ذلك تستعرض الآيات موقف الكفار والمشركين من خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، واستبعادهم لوقوع البعث، وتؤكِّد على نزغ الشيطان بين الناس وأنه عدو مبين لهم، كما تؤكد على أن الله ـ تعالى ـ هو المتصرف في شؤون الخلائق بلا معقب لحكمه، وأنه ـ تعالى ـ أعلم بمن في السمٰوات والأرض، وقد فضل بعض النبيين على بعض، وأن دور الرسول منحصر في التبليغ عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الإنذار والتبشير.

ثم تبين الآيات السبب في أن معجزات الرسول الخاتم ﷺ لم تكن كلها من قبيل الخوارق المادية التي كذب بها الأولون، فمعجزته الخالدة هي القرآن الكريم، والخوارق المادية شهادة على من رآها من الناس، والقرآن باقٍ إلى قيام الساعة، كما تتناول تكذيب المشركين لما رآه رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج، ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس وإعلانه أنه سيكون حرباً على ذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعقب الآيات بتخويف البشر من عذاب الله، وتذكيرهم بنعمه عليهم، وبتكريمه للإنسان، وبمصائرهم في يوم القيامة.

ويأتي في الجزء الأخير من هذه السورة المباركة استعراض كيد المشركين لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه، ومحاولة إخراجه من مكة المكرمة،

ولو أخرجوه قسراً قبل أن يأذن له الله ـ تعالى ـ بذلك لحلّ بهم العذاب والهلاك الذي حلّ بالأمم من قبلهم حين أخرجوا رسلهم أو قاتلوهم أو قتلوهم. وتأمر الآيات هذا النبي الخاتم ﷺ بالاستمرار في طريقه متعبداً لله ـ تعالى ـ بما أمر، داعياً إياه ـ سبحانه ـ أن يحسن مدخله ومخرجه، وأن يعلن مجيء الحق وظهوره، وزهوق الباطل واندحاره، مؤكداً أن هذا القرآن فيه شفاء وهدى للمؤمنين، بينما الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً.

وتختم السورة الكريمة كما بدأت بحمد الله، وبتقرير وحدانيته ـ بلا شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، وتنزهه ﷻ عن الحاجة إلى الولي والنصير، وهو العلي الكبير المتعال فتقول:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا *﴾ «سورة الإسراء، الآيتان: 110، 111».

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «الإسراء»:

1 ـ الإيمان بضرورة تنزيه الله ـ تعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله.

2 ـ اليقين بقدسية كلٍّ من المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وضرورة تطهيرهما من دنس الكفار والمشركين، والمحافظة على وجودهما بأيدي المسلمين، والدفاع عنهما بالنفس والنفيس.

3 ـ التصديق برحلة الإسراء والمعراج، وما اطَّلع عليه المصطفى ﷺ أثناءها من أحداث ومراء عديدة.

4 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ هو رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو قيوم السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو المهيمن على الوجود كله، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والذي يرحم من يشاء ويعذب من يشاء، وأنه ـ تعالى ـ هو السميع البصير، والعليم الخبير، وهو الحليم الودود الغفور الرحيم، وأنه ـ تعالى ـ ما كان معذباً أحداً حتى يبعث رسولاً، وأن الكون بجميع من فيه وما فيه، يخضع لجلاله بالعبادة والطاعة والتسبيح إلا عصاة الإنس والجن من الخلق المكلفين ذوي الإرادة الحرة.

5 ـ الإيمان بأن التوراة أنزلت بالتوحيد الكامل لله ـ تعالى ـ الذي أيد عبده ورسوله موسى عليه السلام بتسع آيات بينات، كفر بها فرعون وملأه فأغرقهم الله أجمعين، ونجَّى عبده موسى والذين آمنوا معه. ولذلك فإن توحيد الله ـ تعالى ـ واجب على كل العباد، نزلت به كل الشرائع، ومن هنا كان الشرك بالله كفراً به، وكان من موجبات الذم والخذلان في الدنيا والآخرة، والإلقاء في جهنم باللوم والدحور، حيث لا يملك الذين أشركوا بهم كشف الضر عنهم أو تحويله.

6 ـ اليقين بأن إفساد بني إسرائيل في الأرض وعلوّهم فيها سوف يحدث في مرتين رئيسيتين، مضت أولاهما بطردهم من جزيرة العرب مذمومين مدحورين، والثانية التي نحن فيها اليوم والتي سوف تنتهي بهزيمتهم المنكرة والقضاء عليهم بإذن الله ـ تعالى ـ، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 7».

7 ـ التصديق بأن جهنم هي مثوى الكافرين الضالين المنكرين للبعث، أو الجاحدين لبعثة النبي والرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم.

8 ـ التسليم بأن القرآن الكريم قد أنزل بالحق، وهو ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 9»، وهو ﴿شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ «سورة الإسراء: 82». وبأن هذا الكتاب معجز لا تقوى قوة على وجه الأرض أن تأتي بشيء من مثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 88».

9 ـ الرضا بأن كل إنسان مسؤول مسؤولية كاملة عن أعماله، وأنه سوف يسلم كتاباً تفصيلياً بتلك الأعمال في يوم القيامة حتى يكون هو حسيباً على نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾.

10 ـ التسليم بأن الترف المسرف كان من موجبات التدمير الذي حدث للعديد من الأمم السابقة، وأن السعي المشكور هو السعي للآخرة، مع عدم إهمال مسؤولية

الفرد في الحياة الدنيا، وأن التفاضل في السعي للآخرة أكبر من التفاضل في ماديات الدنيا؛ وأن البعث بعد الموت حتمي وضروري.

11 ـ التصديق بأن الإنسان مخلوق مكرم، خلقه الله ـ تعالى ـ من طين، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه من عِلْمه، وفضَّله على كثير من خلقه، وأن الشيطان له عدو مبين.

12 ـ اليقين بأن مهمة الأنبياء والمرسلين هي التبليغ عن الله ـ تعالى ـ، والإنذار والتبشير، وأن الله ـ جل شأنه ـ قد فضل بعض النبيين على بعض، وآتى داود كتاباً سماوياً اسمه «الزبور».

13 ـ الإيمان بأن كل أناس سوف يدعون في الآخرة بإمامهم ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ «سورة الإسراء، الآية: 71».

14 ـ التسليم بأن الروح غيب لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ، وعلى ذلك فلا يجوز الخوض فيه.

15 ـ التصديق بأن الله ـ تعالى ـ هو المستحق للحمد والتسبيح والتكبير، وأنه سبحانه وتعالى ﴿...لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ...﴾ «سورة الإسراء، الآية: 111» بأنه ـ جل شأنه ـ منزه عن هذه النقائص وأمثالها تنزيهاً كبيراً.

من التشريعات الإسلامية في سورة «الإسراء»:

1 ـ إن بر الوالدين فريضة إسلامية، ومن أعظم الطاعات لله، ومن موجبات رحمته ومغفرته، وكذلك إيتاء ذي القربى حقه، والمسكين، وابن السبيل، والالتزام بعدم التبذير والإسراف لأن المبذرين هم إخوان الشياطين ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾، وفي نفس الوقت الالتزام بعدم البخل والتقتير وجعل اليد مغلولة إلى العنق.

2 ـ تحريم قتل الأولاد خشية الإملاق (الفقر).

3 ـ النهي القاطع عن الاقتراب من الزنا ومن جميع مقدماته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

4 ـ النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وعن الإسراف في الثأر لذلك.

5 ـ النهي عن أكل مال اليتيم أو الاقتراب منه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

6 ـ الأمر بالوفاء بالعهد وبتأكيد المسؤولية عنه، وبالوفاء بكلٍّ من الكيل والميزان.

7 ـ الأمر بالمحافظة على الحواس مثل السمع والبصر والفؤاد، والتأكيد على مسؤولية الإنسان عن حواسه.

8 ـ النهي عن الاختيال والزهو بالنفس وعن الاستعلاء والاستكبار في الأرض.

9 ـ الأمر بإقامة الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وبتلاوة القرآن والتهجد به نافلة بالليل وتلاوته خاصة في الفجر لأن ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

«سورة الإسراء، الآية: 78».

من الإشارات الكونية في سورة «الإسراء»:

1 ـ الإشارة إلى آيتي الليل والنهار، أي: نورهما، حيث كان الليل ينار بظاهرة بقي منها اليوم ما يعرف باسم «ظاهرة الفجر القطبي»، وكان النهار ينار- كما ينار اليوم- بالحزمة المرئية من ضوء الشمس، فمحا الله ـ تعالى ـ نور الليل بنطق الحماية المتعددة التي خلقها للأرض، وأبقى ظاهرة الفجر القطبي دلالة على ذلك.

2 ـ الإشارة إلى ما وهب الله ﷻ الماء من قدرات تمكِّنه من حمل الفلك في البحر بقانون الطفو.

3 ـ الإشارة إلى تسبيح كل شيء في هذا الوجود لله ﷻ ما عدا عصاة كلٍّ من الجن والإنس وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثالثة من القائمة السابقة، وقبل ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذا النص القرآني الكريم.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

● ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «يقول تعالى: تقدِّسه السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلٰهيته.... كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا۞﴾ «سورة مريم، الآيتان: 90، 91»... وقال أبو القاسم الطبراني:..... إن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى، كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يسراه، فطارا به حتى بلغ السمٰوات السبع، فلما رجع قال: «**سمعت تسبيحاً في السمٰوات العلى مع تسبيح كثير: سبحت السمٰوات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا، سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى**»[1]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[2]، وفي حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كطنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم،[3] وهو حديث مشهور في المسانيد، وقال الإمام أحمد... عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «**اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله تعالى منه**»[4] وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «**نقيقها تسبيح**»[5]، وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه... وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح، يعنون من حيوان أو نبات.....».

---

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (الحديث: 1/ 78).

(2) أخرجه الدارمي في «سننه» (1/ 15).

(3) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 2/ 361).

(4) أخرجه الإمام أحمد في مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه،والطبراني في المعجم الكبير.

(5) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير.

- وجاء في «الظلال» ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه: «..... وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال، وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، وكل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء أو الهواء.. ومعها سكان السماء... كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً، وكلما همت رجله أن تطأ شيئاً.... سمعه يسبح الله، وينبض بالحياة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ يسبح بطريقته ولغته، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين، ولأنكم لم تتسمَّعوا بقلوبكم، ولم توجِّهوها إلى أسرار الوجود الخفية، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتتوجه بها إلى خالق النواميس، ومدبر هذا الكون الكبير، وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح، ويتوجه بالتسبيح، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود، النابضة في كل متحرك وساكن، وفي كل شيء في هذا الوجود».

- وجاء في تفسير الشعراوي رحمه الله ما نصه: «... وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾.... أي: ما من شيء، كل ما يقال له شيء، والشيء هو جنس الأجناس، فالمعنى أن كل ما في الوجود يسبح بحمده تعالى، وقد وقف العلماء أمام هذه الآية وقالوا: أي تسبيح دلالة على عظمة التكوين، وهندسة البناء، وحكمة الخلق، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى منزه ومتعال وقادر، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه، وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ إذن: يوجد تسبيح دلالة فعلاً، لكن ليس هو المقصود، فالمقصود هنا هو التسبيح الحقيقي كل بلغته فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة

الذي آمن بمقتضاه المؤمنون، إنه تسبيح حقيقي ذاتي ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح، فقد قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ «سورة النور، الآية: 41». إذن: كل شيء في الوجود عُلِّم كيف يصلي لله، وكيف يسبح لله، وفي القرآن آيات تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عالم في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لغته، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟...»

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

يقرر النص القرآني الكريم الذي نحن بصدده أن الخلق بمختلف مستوياته وهيئاته وصوره يسبح الله ـ تعالى ـ تسبيحاً لا يفهمه من الناس إلا من أعطاه الله ﷻ القدرة على ذلك فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

وهو تسبيح حقيقي ذاتي ينشأ بلغة كل مخلوق من الأحياء والجمادات ومن مختلف صور المادة والطاقة والظواهر المصاحبة لوجودها.

أولاً: معنى التسبيح في اللغة العربية:

التسبيح لغة: هو الذكر بالتمجيد والتقديس مع التنزيه عن كل نقص، وعلى ذلك فإن تسبيح الله ـ تعالى ـ يقصد به ذكره الدائم، وتمجيده، وتقديسه، وإخلاص العبادة له وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وتنزيهه ـ تعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله.

ولفظة (**التسبيح**) مشتقة من (السبح) و (السباحة) أي: العوم، وهو في اللغة المر السريع للجسم المادي في وسط أقل كثافة منه كالماء أو الهواء، يقال: (سبح) (يسبح) (سبحاً) أي: مر مروراً سريعاً، وقد استعير (السبح) لمرور النجوم في صفحة السماء لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ «سورة يس، الآية: 40».

والفعل (**سبَّح**) بمشتقاته المختلفة جاء سبعاً وثمانين (87) مرة في القرآن الكريم بمعنى الذكر السريع المتكرر لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، في كل وقت، وعلى كل حال، وإن كان التسبيح قد جعل عاماً في مختلف العبادات: قولاً كانت أو فعلاً أو نية، إلا أنه قد خصص بالذكر اللفظي لأسماء الله وصفاته التي أنزلها في محكم كتابه، أو على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ حتى يتَّضح للذاكر معنى تنزيه الله ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله، فعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير (سبحان الله) فقال: «**تنزيه الله تبارك وتعالى من السوء**»[1]. واللفظة (سبحان) في هذا التعبير التعبدي منصوبة على المصدر على نحو (غفران): كأن قائلها يقول: أنزه الله تعالى تنزيهاً يليق بجلاله عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال.

ويقال: (**سُبحات**) وجه الله تعالى أي جلالته، و(**السُبُّوح**) من صفات الله الحسنى ومعناه «الجامع لصفات الكمال المطلق، المنزه عن كل نقص»، والتعبير التعبدي (سبحان الله) معناه التنزيه لله، وهو منصوب على صيغة المصدر كأن قائله يقول: أبرئ الله ـ تعالى ـ من السوء براءة قاطعة، وأنفي كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تأويل، ولا تحريف، ولا تعطيل، وأثبت لجلاله ما وصف به ذاته العلية، وأثبته له خاتم أنبيائه ورسله من صفات الكمال المطلق.

و (**السبح**) أيضاً الفراغ، أو التصرف في المعاش.

والتعبير القرآني: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ «سورة المزمل، الآية: 7» أي فراغاً أو متقلباً طويلاً.. و (السُّبحة) هي خرزات في خيط يسبح بها، وهي أيضاً التطوع من العبادة والذكر، يقال: قضيت (سبحتي) أي أديت نافلتي من صلاة، أو زكاة أو صيام، أو حج، أو دعاء، أو توحيد لله ـ تعالى ـ توحيد الألوهية، والربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وكل ذلك من تسبيح الله جل جلاله، أي تنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من نحو الادعاء الباطل بنسبة الجن أو الصاحبة أو الولد إليه، أو الاعتقاد الخاطئ بوجود شريك له في ملكه، أو منازع له في سلطانه، أو مثيل له في ألوهيته وربوبيته، ووحدانيته، أو في جمعه لصفات الكمال المطلق، أو في طلاقة القدرة التي لا تحدها حدود، والاستعلاء فوق كلٍّ من المادة والطاقة، وكلٍّ من

(1) رواه البزار في مسنده.

حدود المكان والزمان، وقوانين الموت والفناء، فكل ما عدا الله سبحانه وتعالى هو مخلوق فانٍ، تشكله المادة أو الطاقة أو كلاهما، ويحده المكان والزمان، كما تحكمه قوانين الموت والفناء، وعلى ذلك فلا يمكن لأحد من خلق الله ـ تعالى ـ أن يشبهه، أو أن يقترب من صفاته ولذلك أنزل في محكم كتابه قوله الحق:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۭ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

ثانياً: الفرق بين تسبيح التكليف أو الاختيار وتسبيح الفطرة أو التسخير:

تدل الآية الكريمة التي نحن بصددها على أن السمٰوات والأرض ومن فيهن من ملائكة، وجن، وأناسي، وغير ذلك من مختلف الكائنات الحية غير المكلفة من الحيوانات والنباتات، والكائنات غير الحية (أي الجمادات المادية ومختلف صور الطاقة)، وما يرافق ذلك كله من الظواهر والسنن الكونية، كل ذلك خاضع لإرادة الله، ومسخر حسب مشيئته، ومسبح بحمده ومقدس له؛ ونحن نفهم تسبيح العقلاء المكلفين من مؤمني الإنس والجن وهو ما يعرف باسم «تسبيح التكليف» أو «تسبيح الاختيار»، ونسلم بتسبيح الملائكة في عالمهم الغيبي بالنسبة لنا وهو من صور «تسبيح الفطرة أو التسبيح



التسخيري»، أما تسبيح المخلوقات غير المكلفة من الأحياء والجمادات والظواهر والسنن الكونية وهو من نفس نوع تسبيح الملائكة الفطري التسخيري فهو يصدر بصورة لا تستطيع الغالبية العظمى من الناس إدراكها، وبهيئة لا يقوى غالبية البشر على استيعابها، وهو تسبيح تؤكده الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها، وعشرات غيرها من آيات القرآن الكريم، ومن أحاديث الرسول الخاتم ﷺ على أنه تسبيح حقيقي لا مجازي، وليس على مجرد الدلالة فقط.

ثالثاً: من صور التسبيح الفطري التسخيري:

يقدر العلماء أن عدد أنواع الحياة الأرضية المعروفة لنا اليوم يصل إلى حوالي مليون ونصف المليون نوع وأنه بمعدل الاكتشافات السنوية فإن ذلك يتوقع له أن يصل إلى خمسة ملايين نوع، يمثل كل نوع منها بالعديد من الأفراد الذين قد يصل عددهم في بعض هذه الأنواع إلى عدة بلايين، وهذه المخلوقات تتخاطب فيما بينها بلغات وإشارات وتعابير تتفاوت من نوع إلى آخر.

ومنذ فترة والمتخصصون في علم سلوك الحيوان يحاولون إدراك شيء من وسائل التفاهم بين هذه المخلوقات، وأثبتوا ذلك بالملاحظة والتجربة للعديد منها من مثل القردة الكبيرة (Great Apes)، وأسود البحر (Sea-Lions)، والدلافين (Dolphins)، والحيتان (Whales)، والببغاوات (Parrots)، والهداهد (Hoopoes)، والغربان (Crows) وغيرها من الطيور، ومن مثل خلايا النحل (Bees)، ومستعمرات النمل (Ants) وغيرهما من مجموعات الحشرات، والتي ثبت أن لها قدرات متفاوتة على التعبير والإدراك وعلى اكتساب المعارف.

فالبغبغانات ـ على سبيل المثال ـ لها قدرات فائقة على ترديد ما تسمعه من أصوات، وكلمات، وجمل، وقد تم تدريب بعضها على معرفة العديد من الأسماء والأشكال والألوان المختلفة والنطق بها، وعلى الرد المناسب لما يطرح عليها من أسئلة أو ثناء أو عتاب أو تعنيف، وعلى التعبير بالعديد من الإشارات والإيحاءات التي تقترب من لغة الإشارة عند الصم والبكم.

وكذلك ثبت أن الحيتان تغني، وتتواصل متبادلة الأخبار والأفكار والمشاعر عبر مسافات طويلة، وثبت أن كلاً من النمل والنحل ينظم خلاياه بدقة هندسية واجتماعية فائقة،

فالنحل يخبر شغالاته بمواقع أفضل الزهور، وبكيفيات الوصول إليها، ويحدد لها كلاً من المسافات والاتجاهات والصعوبات التي قد تواجهها، وكذلك النمل في ممالكه ينظم حياة أفراده تنظيماً دقيقاً للغاية، وأصبحت لغة التخاطب عند كل من الحيوان والنبات علوماً تدرس اليوم وتجرى فيها البحوث العلمية الميدانية والمختبرية.

والآية التي نحن بصددها تؤكد على أن كل موجود من الأحياء والجمادات يعرف خالقه بالفطرة والإلهام، ويعبده، ويسبح بحمده، ويقدسه تقديساً تسخيرياً، ويتمتع بقدر من الشعور والإدراك تتفاوت فيه هذه المخلوقات تفاوتاً كبيراً، ولكن لا يعلمه أي منهم. والعلوم المكتسبة قد بدأت في تلمس شيء من ذلك، والسبق القرآني بتقريره من قبل ألف وأربعمائة سنة يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ فحفظه حفْظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد سبحانه وتعالى بهذا الحفظ الإلهي إلى أن يرث الأرض ومن عليها حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الناس كافة إلى يوم الدين. كما يشهد ذلك للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن العظيم بالنبوة والرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ
وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ
كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ
وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿...وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

«سورة الإسراء، الآية: 44»

28



هذا النص القرآني الكريم جاء في نهاية الثلث الأول من سورة «الإسراء» وهي سورة مكية وعدد آياتها (111) بعد البسملة وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة في مطلعها إلى رحلة الإسراء من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس الذي ندعو الله ـ تعالى ـ أن يعجِّل بتحريره من دنس اليهود الغاصبين لأنه قدس من أقداس المسلمين لا يجوز التفريط فيه أبداً. وقد تلى رحلة الإسراء المعراج إلى السمٰوات العلى ثم العودة إلى بيت المقدس ومنه إلى مكة المكرمة في جزء من الليل لا يكاد يدرك، وقد كان في هذه الرحلة المباركة من التكريم لرسول الله ﷺ ما لم ينله مخلوق من قبل ولن يناله أحد من بعد إلى قيام الساعة.

وفي الفصل السابق قمنا باستعراض سريع لسورة «الإسراء»، ولركائز العقيدة والتشريعات الإسلامية، والإشارات الكونية الواردة فيها ولأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة الآية الكريمة رقم (44) منها، ولمعنى التسبيح في اللغة، وللفرق بين تسبيح التكليف (الاختياري) وتسبيح الفطرة (التسخيري)، **ولبعض صور التسبيح الفطري عند الأحياء غير المكلفين.** وفي هذا الفصل نعرض لكل من **التسبيح الفطري للملائكة، والتسبيح التكليفي (الإرادي الاختياري) للأحياء المكلفين من الإنس والجن، والتسبيح التسخيري (الفطري) لكل من الأحياء غير المكلفين والجمادات** وهو ما لا تقوى كثير من العقول والقلوب المعزولة عن بارئها على استيعابه أو فهمه على الرغم من وضوح دلالة النص القرآني الذي نحن بصدده، ووضوح غيره من نصوص القرآن الكريم وأقوال الرسول الخاتم ﷺ.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

يؤكد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه وقوله الحق:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

«سورة الإسراء، الآية: 44».

ومعنى ذلك أن جميع ما في الوجود من خلق الله ﷻ بدءاً بالملائكة المطهرين وانتهاء بكل من الجمادات والظواهر الكونية، مروراً بكل من مؤمني الإنس والجن، وبغيرهم من الأحياء ومنها جميع الحيوانات والنباتات وكل موجود من غير ذلك، كل واحد من هؤلاء له قدر من الوعي والإدراك الذي يعينه في التعرف على ذاته، وعلى خالقه، وعلى غيره من المخلوقات في محيطه، وعلى سلوكياتهم وتصرفاتهم، فيتوافق مع كل منضبط بسنن الفطرة ويتنافر مع كل مناقض لها أو متصادم معها، وهذا الوعي والإدراك يجعلان كل ما في الوجود يعبد الله ـ تعالى ـ ويسبح بحمده ويقدس له إلا عصاة الإنس والجن، لأن كلاً من الآدميين والجن من الخلق المكلف صاحب الإرادة الحرة وحامل أمانة التكليف، ولذلك ينقسم تسبيح المخلوقات لخالقها إلى **تسبيح فطري (تسخيري)** للخلق غير المكلف **وتسبيح اختياري (إرادي)** للمكلفين من خلق الله، ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

أولاً: التسبيح الفطري (التسخيري) للملائكة:

الملائكة خلق غيبي من عباد الله المكرمين ومن جنده المقربين، خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور، وفَطَرَهم على الطهر والعصمة، وعلى البراءة من بواعث الشهوة ومن مبررات الغضب ودواعي الحقد والحسد، ولذلك فهم مواظبون على عبادة الله وتسبيحه وحمده وتقديسه وطاعته لا يفترون عن ذلك. وهم كائنات عاقلة ولكنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله ـ تعالى ـ ولذلك فهم لا يسبقون بالقول أبداً ويشهدون لله ﷻ دوماً بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، ويسألونه ـ جل شأنه ـ أن يغفر للذين يشهدون بشهادتهم ويقرون بإقرارهم من توحيد لله ـ تعالى ـ وتنزيه لجلاله عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال.

والملائكة مكلفون بإبلاغ رسالة الله إلى المصطفين من عباده من الأنبياء والمرسلين، ومؤتمنون على ذلك بما فطرهم الله ـ تعالى ـ عليه من براءة وطهر، وما ميزهم به من العقل والنطق، ومن الخضوع التام لله ـ تعالى ـ بالعبادة والطاعة.

وتسبيح الملائكة هو من أمور الغيب التي يعجز الإنسان عن إدراكها، ولا سبيل له إلى معرفتها إلا عن طريق وحي السماء، والقرآن الكريم هو الوحي السماوي الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم بنفس اللغة التي أوحي بها ـ اللغة العربية ـ محفوظاً بحفظ الله ـ تعالى ـ حرفاً حرفاً وكلمة كلمة، وقد حفظه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعهده الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9».

فإذا تحدث القرآن الكريم عن تسبيح الملائكة ـ وقد أورد ذلك في تسع من الآيات البينات ـ فلا بد للمسلم من الإيمان بذلك وإن لم يستطع إدراكه بحسه المحدود وبقدراته المحدودة.

ثانياً: التسبيح الإرادي الاختياري للمكلفين من عقلاء الأحياء من الإنس والجن:

يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ «سورة الذاريات، الآية: 56».

والتسبيح من العبادة، وتسبيح العقلاء المكلفين من الجن والإنس هو تسبيح إرادي اختياري يقوم به الصالحون منهم، ويُحْرَمُه الكفار والمشركون من العصاة المغضوب عليهم ومن الضالين. وهذا التسبيح يشمل ذكر الله ـ تعالى ـ على كل حال بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وبكل نعت يليق بجلاله، ويثبت له من صفات الكمال المطلق ما أثبته ـ تعالى ـ لذاته العلية، وينزهه عن كل وصف لا يليق بمقام الألوهية من مثل ادعاء الشريك أو الشبيه أو المنازع أو الصاحبة أو الولد.

ولا يقتصر العقلاء المكلفون من الإنس والجن في ذكرهم وتسبيحهم لله ـ تعالى ـ على مجرد تحريك اللسان، بل لا بد من موافقة النطق لاتصال القلب بالله ﷻ، وامتلاء هذا القلب بمحبة الله وتقواه ومراقبته؛ ولا بد من التزام الجوارح كلها بأوامر الله واجتناب محارمه، وبالاجتهاد في عبادته، فإقامة أركان الإسلام ذكر لله وتسبيح بحمده، بل في الأثر ما يكاد يخصص الذكر بالصلاة، مع تسليمنا بأن مفهوم ذكر الله ـ تعالى ـ هو أشمل وأعم من أداء الصلاة لأنه يشمل كل عمل أو نطق أو فكر يتذكر فيه العبد ربه، ويستشعر مراقبة

هذا الإله العظيم له، وحتمية الرجوع إليه. ولذلك يربط القرآن الكريم في كثير من آياته بين ذكر الله ـ تعالى ـ وتسبيحه فيقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا *﴾

«سورة الأحزاب، الآيتان: 41 ـ 42».

والأمر بالذكر والتسبيح هنا موجه إلى عقلاء كلٍّ من الجن والإنس، وهم من الخلق المكلفين، وإن كانت الجن من العوالم الخافية علينا، إلا أن مجرد ذكر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لهم يؤكد لنا وجودهم. ويصفهم لنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بأنهم من المخلوقات العاقلة المكلفة ذات الإرادة الحرة، وأن الله ـ تعالى ـ قد خلقهم من نار، بينما خلق الملائكة من نور، وخلق الإنسان من طين. والجن يأكلون ويشربون ويتناسلون ويرون البشر من حيث لا يراهم البشر، وهم مطالبون بعبادة الله ـ تعالى ـ بما أمر بغير إجبار ولا إكراه، وعلى ذلك فمنهم المؤمن الصالح، والكافر الطالح. والكفار منهم هم شياطين الجن الذين يقابلون شياطين الإنس في إفسادهم في الأرض وخروجهم على أوامر الله ـ تعالى ـ ثم يموتون ويبعثون ويحاسبون وإلى جهنم يحشرون. والصالحون منهم يقابلون صالحي الإنس الذين يعبدون الله ـ تعالى ـ بما أمر ويحسنون القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وإقامة عدل الله فيها، ويذكرون الله تعالى ويسبحونه ويمجدونه بإرادتهم الحرة حتى يلقونه فيكون جزاؤهم جنات النعيم بإذن الله ورحمته.

ثالثاً: التسبيح الفطري التسخيري للأحياء غير المكلفين:

منذ فترة قصيرة أدرك المتخصصون في علم سلوك الحيوان أن للعديد من المخلوقات من مثل **القردة** العليا وغيرها من الحيوانات الأرضية، **وأسود البحر والدلافين والحيتان** وغيرها من الحيوانات البحرية، **والطيور من مثل الحمام والببغاوات والهداهد والغربان، والحشرات من مثل ممالك النحل والنمل**، كلٌّ هذه المخلوقات لها قدرات متفاوتة على التعبير بلغات خاصة بكلٍّ منها، وعلى إدراك الذات والغير، وعلى اكتساب قدر من المعارف والقرآن الكريم قد سبق كل المعارف المكتسبة بأربعة عشر قرناً وذلك بالتأكيد على أن كل خلق من خلق الله له قدر من الإدراك الخاص به والذي يعينه على النطق بالكلام والشعور والإحساس، وعلى التفاهم مع أقرانه، وعلى معرفة خالقه ﷻ والخضوع

له ﷻ بالطاعة والعبادة والذكر والتسبيح تسبيحاً فطرياً تسخيرياً لا إرادة له فيه، ولكنه يدركه ويعيه. وإن هذا الإدراك الفطري يعين كل مخلوق أيضاً على التمييز بين العابدين الصالحين والعاصين المقصرين من الخلق المكلفين، فيتعاطف مع صالحي المكلفين، ويتنافر مع عصاتهم المقصرين، وإلا فمن علَّم هدهد سليمان أن عبادة قوم سبأ للشمس كفر بالله ـ تعالى ـ، وانحطاط عن مقام التكريم الذي منَّ الله ـ تعالى ـ به على بني آدم؟ وأن السجود لا يجوز إلا لله رب العالمين فيقول:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ *﴾ «سورة النمل، الآيات: 23 ـ 26».

كذلك من عرّف نملة صغيرة بشخصية نبي الله سليمان عليه السلام؟ ومن علَّم سليمان لغة النمل غير الله الخالق ﷻ وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ *﴾ «سورة النمل، الآيتان: 18 ـ 19».

ولغات كلِّ نوع من أنواع الحيوانات يعلِّمها الله ـ تعالى ـ لمن يشاء من عباده كما فهّمها لعبده ونبيه سليمان عليه السلام معجزة خاصة به وخارقة تخالف مألوف البشر.

وفي التأكيد على هذا الإدراك الفطري عند جميع المخلوقات يقول المصطفى ﷺ: «**إن الله وملائكته وأهل السمٰوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلم الناس الخير**»(1). وفي حديث رواه الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس**»(2).

---

(1) رواه الترمذي في كتاب: العلم (الحديث: 2685).
(2) أخرجه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وعن أبي ذر الغفاري (رضي الله تعالى عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم فاجعلني من أحب أهله وماله إليه**»[1].

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تسبوا الديك فإنه يدعو إلى الصلاة**» وفي رواية أبي دواد: «**فإنه يوقظ للصلاة**»[2].

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**»[3]. وفي هذا المعنى نفسه يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 82».

وهذه معجزة تتحدَّى الناس كافة قرب قيام الساعة بعد أن فتح الله ـ تعالى ـ عليهم أبواب كل شيء، واغتروا بما لديهم من أسباب التقدم العلمي والتقني فيأتي الله ـ تعالى ـ لهم بمعجزة تتحداهم ولا يقدرون على مواجهتها لأنهم بكل ما أوتوا من مفاتيح العلوم والتقنية لا يستطيعون إجبار دابة على الكلام بلغة يفهمونها، فيقرون بعجزهم أمام قدرة الله ـ تعالى ـ.

وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم: «**اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فربّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله تعالى**»[4].

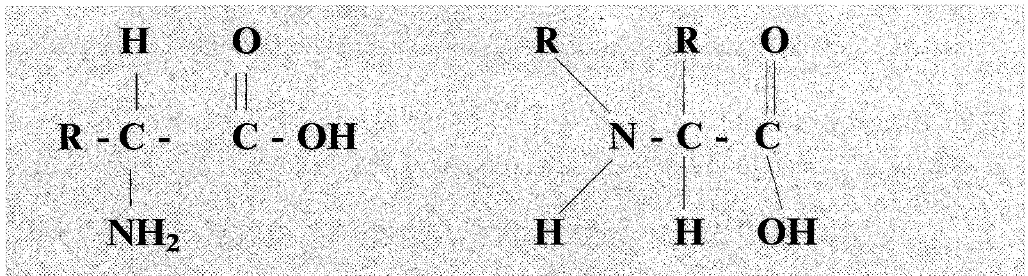
وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال: «**نقيقها تسبيح**»[5].

---

(1) أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، والهندي في «كنز العمال».
(2) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم (الحديث: 5101)، والإمام أحمد في مسنده.
(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن (الحديث: 2181)، والإمام أحمد في مسنده
(4) تقدم تخريجه.
(5) تقدم تخريجه.

رابعاً: تسبيح أجساد الكائنات الحية هو صورة من صور التسبيح الفطري التسخيري للجمادات:

من أعجب الاكتشافات العلمية الحديثة أن الأحماض الأمينية (وهي اللبنات الأساسية لتكوين الجزء البروتيني الذي تنبني منه أجساد الكائنات الحية) لها قدرة على ترتيب ذراتها ترتيباً يمينياً أو يسارياً، وأنها في جميع أجساد الكائنات الحية تترتب ترتيباً يسارياً ولكن الكائن الحي إذا مات فإن الأحماض الأمينية في بقايا جسده تعيد ترتيب ذراتها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة تمكن الدارسين من تقدير لحظة وفاة الكائن الحي بتقدير نسبة الترتيب اليميني إلى اليساري في جزيئات الأحماض الأمينية المكونة لأية فضلة عضوية متبقية عنه من مثل قطعة من الجلد أو الشعر أو العظم أو الصوف أو الخشب أو غير ذلك، وتسمى هذه الظاهرة باسم ظاهرة إعادة ترتيب ذرات الأحماض الأمينية ترتيباً يمينياً (Racimization of the Amino Acids). والأحماض الأمينية هي مركبات كيميائية معقدة من عناصر الكربون والإيدروجين والأكسجين والنيتروجين وقليل من الكبريت والفوسفور وبعض العناصر الأخرى، وتترتَّب هذه العناصر أساساً في مجموعة أمينية من النيتروجين والإيدروجين (NH_2) ومجموعة من الحمض الكربوكسيلي (COOH) ولها الرمز الكيميائي العام التالي:



ويعجب العلماء للسر الخفي الذي يمكن تلك الذرات المتبقية عن الجسد الميت من إعادة ترتيب أوضاعها في داخل كل جزء من جزيئات الحمض الأميني بمعدلات ثابتة لا تتوقف ولا تتخلف مما يشهد بأن المادة التي يصفها الإنسان بأنها صماء جامدة لا إحساس لها ولا شعور ولا إدراك هي في الحقيقة مليئة بالأسرار التي لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ.

كذلك من المكتشفات العلمية المذهلة أن تنبني أجساد كل الكائنات الحية من عشرين حمضاً أمينياً فقط، وأن جميع ذرات هذه الأحماض الأمينية تترتب ترتيباً يسارياً في جزيئاتها

التي ينبني منها أكثر من مائتي ألف جزيء بروتيني مختلف، تترتب أيضاً ترتيباً يسارياً في داخل هذه الجزيئات البروتينية العملاقة أو المبلمرات، وكل ذلك يعيد ترتيب ذرات مكوناته من الأحماض الأمينية ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة بعد وفاة الكائن الحي الذي كان يحملها في جسده.

وقد ثبت أن ترتيب الذرات في جزيئات كل من الأحماض الأمينية والبروتينية له أدوار أساسية في تنظيم وانضباط أنشطة الخلية الحية، ومن هذه الأدوار تحرك الأمر من الحمض النووي (DNA) إلى الحمض النووي الريبي (RNA) بتكوين أكثر من مائتي ألف نوع مختلف من أنواع البروتينات اللازمة لبناء أجساد الكائنات الحية في داخل خلاياها المتناهية في الصغر، وإصدار الأوامر بإرسال كل نوع من هذه البروتينات إلى الجهة التي تحتاجه في جسد الكائن الحي.

ولا تستطيع العلوم المكتسبة مجتمعة ـ في زمن التقدم العلمي الذي نعيشه ـ أن تفسِّر كيفية تحرك جزيئات البروتينات المختلفة إلى الأماكن المحددة لها من الجسم، ولا كيفيات تعرف خلايا كل واحد من الأنسجة المتخصصة على بعضها البعض حتى تبني نسيجاً معيناً في عضو محدد من أعضاء جسم الكائن الحي، ولا كيفيات تعاون تلك الأعضاء في الأجهزة المتخصصة، ولا تعاون تلك الأجهزة من أجل حياة وسلامة جسم الكائن الحي الذي يحتويها، ولا كيفيات انقباض العضلات وانبساطها، أو كيفيات تحكم الهرمونات في تنشيط عمليات نمو الخلايا أو إيقافها، ولا كيفيات تحكم المورثات ـ وهي مركبات كيميائية معقدة ـ في أنشطة كل خلية حية، ولا وسائل إدراك هذا الجسد لأي جسم غريب يدخل إليه، ولا كيفيات تفاعله مع هذا الجسم الغريب بالرفض أو القبول. ونحن لا نعلم حتى اليوم شيئاً عن كيفيات عمل دماغ الإنسان في حالات اليقظة والمنام علماً بأن جميع هذه العمليات تتم بسرعات فائقة لم يستطع علم الإنسان وتقنياته المتقدمة أن تصل إلى شيء منها بعد، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن جسد الإنسان يفقد في كل ثانية من عمره حوالي (125) مليون خلية في المتوسط، ويتجدد غيرها في الحال مع بقاء الإنسان هو هو بذاكرته وعواطفه ومشاعره وشخصيته وقدراته وآماله وطموحاته. علماً بأن جسد الفرد الواحد من بني البشر يحتوي على ألف مليون مليون خلية في المتوسط، وتتكون كل خلية من هذه الخلايا (وقطرها في حدود 0.03 من المليمتر) من مليون جزيء من جزيئات

البروتينات، والأحماض النووية، والدهون، والشحوم، والكربوهيدرات، والفيتامينات، والكهارل (الإليكتروليتات) وغير ذلك من المركبات العضوية وغير العضوية التي تترتب بنسب محددة في كيانات متميزة في داخل الخلية الحية التي تفوق في تعقيدها ودقة بنائها كل ما أنشأ الإنسان من مصانع، بل كل ما فكر في إنشائه ولم يتمكن بعد من تنفيذه.

ومن أعقد أجزاء الخلية الحية نواتها التي تعرف باسم «عقل الخلية» وتحتوي هذه النواة على عدد محدد من الصبغيات (Chromosomes) يعتبر عددها عاملاً محدداً لكل نوع من أنواع الحياة. وهذه الصبغيات هي جسيمات متناهية التعقيد في البناء حيث تتكون من تجمعات للحمض النووي غير المؤكسد على هيئة لفائف حلزونية مزدوجة الجانب (Double Helix) لا يتجاوز سمك الجدار في الواحدة منها واحداً من خمسين مليوناً من المليمتر، ويبلغ طوله إذا فرد حوالي المترين، ويبلغ حجمه وهو مكدس داخل الصبغي واحداً من المليون من المليمتر المكعب، وعلى ذلك فإنه إذا تم فرد الصبغيات الموجودة في جسم فرد واحد من البشر ورصها بجوار بعضها البعض فإن طولها يزيد عدة مرات عن متوسط طول المسافة بين الأرض والشمس وهي مقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون كيلومتراً!

وكل واحد من الصبغيات (حاملات الوراثة) مقسم بعدد من العلامات المميزة إلى وحدات طولية تعرف باسم «المورثات» (Genes) وهي تتحكم في صفات الكائن الحي الذي تحمل خلايا جسده تلك المورثات.

وينقسم كل «مورث» (Gene) إلى عدد من العقد المتناهية في الضآلة تعرف باسم النويدات Nucleotides يتكون كل منها من زوج من القواعد النيتروجينية المستندة في كل جانب إلى زوج من جزيئات السكر والفوسفور تكوّن جداري اللفائف الحلزونية وتنتشر بينها القواعد النيتروجينية على هيئة درجات السلم الخشبي المتوازي الساقين، وكأنها حروف تكتب بها الشيفرة الوراثية التي تتكون من (6.2) بليون من القواعد النيتروجينية التي تستند على (12.4) بليون جزيء من السكر والفوسفات بمجموع (18.6) بليون جزيئاً في الخلية البشرية الواحدة. ولكل جزيء من هذه الجزيئات ولكل ذرة من ذراتة ذبذبات مستمرة تصدر أصواتاً خافتة أمكن تضخيمها وتسجيلها وكأنها تسبيح للخالق سبحانه وتعالى وتمجيد وذكر.

خامساً: تسبيح الذرات والجزيئات والعناصر والمركبات في صخور الأرض وجبالها:

من الجمادات: الجبال وصخورها، والمعادن المكونة لتلك الصخور والجزيئات والذرات المكونة لتلك المعادن، واللبنات الأولية المكونة لتلك الذرات، وكلها يسبح الله - تعالى - بلغته وأسلوبه وطريقته الخاصة به. وقد أمكن الاستماع إلى أصوات ذبذبات اللبنات الأولية للمادة في داخل الذرة.

وقد ورد ذكر تسبيح الجبال في القرآن الكريم ضمنياً مع تسبيح كل شيء ومع تسبيح ما في السموات والأرض، كما ورد محدداً في آيتين كريمتين [الأنبياء: 79، ص: 18] وجاءت الإشارة إلى خشوع الجبل إذا أنزل عليه القرآن الكريم [الحشر: 21] وإلى سجود الجبال لله - تعالى - مع بقية أجزاء الكون، ومع كثير من الناس [الحج: 18]. وأشار القرآن الكريم إلى ترديد الجبال لتسبيح نبي الله داود - على نبينا وعليه من الله السلام - كما جاء في ثلاث من الآيات هي على التوالي: [الأنبياء: 79، ص: 18، سبإ: 10].

والجبال ليست كتلاً هامدة ولكنها تتحرك جانبياً بالتضاغط والتثني والطي، كما تتحرك رأسياً بالتصدع والرفع من أسفل إلى أعلى بواسطة مختلف قوى الأرض الداخلية، وبتأثير عوامل التعرية التي كلما أخذت من قممها ارتفعت إلى أعلى حسب قوانين الطفو، ويستمر هذا الارتفاع إلى أعلى حتى يتم خروج الامتدادات الداخلية للجبل بالكامل من نطاق الضعف الأرضي الموجود تحت الغلاف الصخري للأرض، وحينئذ تتوقف حركة الجبل وتأخذ عوامل التعرية في بريه تدريجيًّا حتى تظهر جذوره التي كانت مدفونة على سطح الأرض. والجبال تمر مع الأرض مر السحاب، وتترنح معها في دورانها حول محورها، وتجري معها في مدارها حول الشمس، ولعل هذه الحركات هي صورة من صور الخضوع بالعبادة، والطاعة، والتسبيح، والذكر، والسجود لله الخالق سبحانه وتعالى.

ويتحدث القرآن الكريم عن تكون الجبال من جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، وهي الألوان الأساسية للمعادن الرئيسية المكونة للجبال ولبقية صخور القشرة الأرضية. وتتكون الصخور من المعادن التي تتكون بدورها من العناصر ومركباتها، وتتكون العناصر من الجزيئات التي تتكون من الذرات، وتتكون الذرات من اللبنات الأولية للمادة المعروفة باسم الكواركات والهيدرونات، وتشكل بدورها كلاً من البروتونات الموجبة الشحنة والنيوترونات المتعادلة الشحنة في نواة الذرة التي يدور حولها عدد مكافئ من

الإليكترونات السالبة الشحنة. ويتحرك الإليكترون حركة مغزلية حول محوره وحركة مدارية حول النواة كما يقفز من مدار إلى آخر بسرعات مذهلة ترجح فناءه في مدار وإعادة خلقه في مدار آخر.

ونواة الذرة تبلغ في الحجم واحداً من مائة ألف مليون من المليمتر، بينما يبلغ حجم الذرة واحداً من عشرة ملايين من المليمتر، وتتركز كتلة الذرة في نواتها 99.95٪ من مجموع كتلة الذرة). وتقدر كتلة الإليكترون بواحد من ألفين من كتلة البروتون، وكل من البروتون والإليكترون يدور حول نفسه ـ أي: حول مركز كتلته ـ في حركة دائرية لا تتوقف ولا تتخلف حتى تفنى الذرة بالكامل. والجزيئات تنشأ عن اتحاد الذرات لتكوّن ما يسمى باسم المادة المكثفة وجسيمات هذه المادة المكثفة ليست فقط نقطاً هندسية ثابتة في صفحة السماء أو في جسم الأرض ولكن لها ذاتية الامتداد في الكون على هيئة موجات من الطاقة لكل منها طول موجي محدد وسرعة تردد محددة.

وللإليكترون في داخل الذرة خاصية الدوران المغزلي حول ذاته، ويشبه ذلك الحركة المغزلية للأرض في دورانها حول محورها، بالإضافة إلى الجري المداري حول النواة الذي يشبه جري الأرض في مدارها حول الشمس، وعلى ذلك فإن الإليكترون يتصرف ككتلة من الطاقة لها حركة مغزلية زاوية وحركة مدارية على هيئة كمية من المغناطيسية ولكلٍّ من هاتين الحركتين ما يصاحبها من طاقة حركة.

وكذلك فإن للجزيئات مستويات من الطاقة مرتبطة بكل من حركة الجزيء الدائرية ككل والحركة الاهتزازية للذرات بداخله، وينتج عن ذلك أطياف تحت حمراء مميزة لكل جزيء.

والأجسام الصلبة المتبلورة تترتب فيها الذرات في أشكال هندسية محددة تميز كل عنصر من العناصر وكل مركب من المركبات الكيميائية. والجزيئات ليست جامدة تماماً، لأن الرابطة بين الذرات المكونة لها هي رابطة متحركة تشبه الزنبرك، وكذلك الإليكترونات الموصلة بين مختلف الذرات فإنها تتحرك بحرية كاملة.

وانطلاقاً من ذلك فإن الجسيمات الأولية للمادة تهتز في داخل الذرة، والذرات تهتز في داخل الجزيئات، والجزيئات تهتز في داخل العناصر والمركبات المكونة للمادة، والمادة بمختلف أشكالها تتحرك في داخل أجساد كل الكائنات الحية وتهتز بترددات منتظمة في

داخل الجمادات، وينتج عن هذه الحركات المتعددة موجات صوتية ذات ترددات تختلف باختلاف تركيبها وتتجمع على هيئة كميات من الطاقة الاهتزازية التي تتذبذب بمقدار مليار ذبذبة في الثانية ـ في المتوسط ـ دون توقف أو تخلف أو انقطاع.

ولكل عنصر من العناصر ولكل مركب من المركبات موجاته الاهتزازية الخاصة به والتي تعتبر بصمة مميزة له ولغة خاصة به يعبر بها عن ذاته ويعبد بها ربه في تسبيح وتمجيد وذكر لا ينقطع. ولا يستطيع أحد في زمن التقدم العلمي والتقني الراهن تفسير مصدر الطاقة المحركة لجسيمات المادة على مختلف مستوياتها والمسببة لاهتزازاتها المنتجة للموجات الصوتية التي تميز كل صورة من صورها، والتي قد تكون لغة لها ووسيلة من وسائل عبادة خالقها وتسبيحه وتمجيده وتقديسه.

وقد ذكر القرآن الكريم تسبيح الرعد بحمد الله، والرعد ظاهرة جوية تنشأ عن تفريغ الشحنات الكهربائية، وهذا التفريغ صورة من صور التقاء اللبنات الأولية للمادة بما تحمله من طاقة وما تصدره من ذبذبات وأصوات، وكأنها تسبيح لله وتمجيد وعبادة وحمد وخضوع له ـ تعالى ـ بالطاعة.

ومن رحمة الله بعباده أن أصوات الجمادات تبلغ من الضعف والخفوت ما يجعلها محجوبة عن آذان الخلق إلا بكرامة من الله ـ تعالى ـ وفضل منه، أو باستخدام تقنيات متقدمة للغاية، وشتان ما بين الوسيلتين، ولذلك جاء في الآية الكريمة التي نحن بصددها ما نصه:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

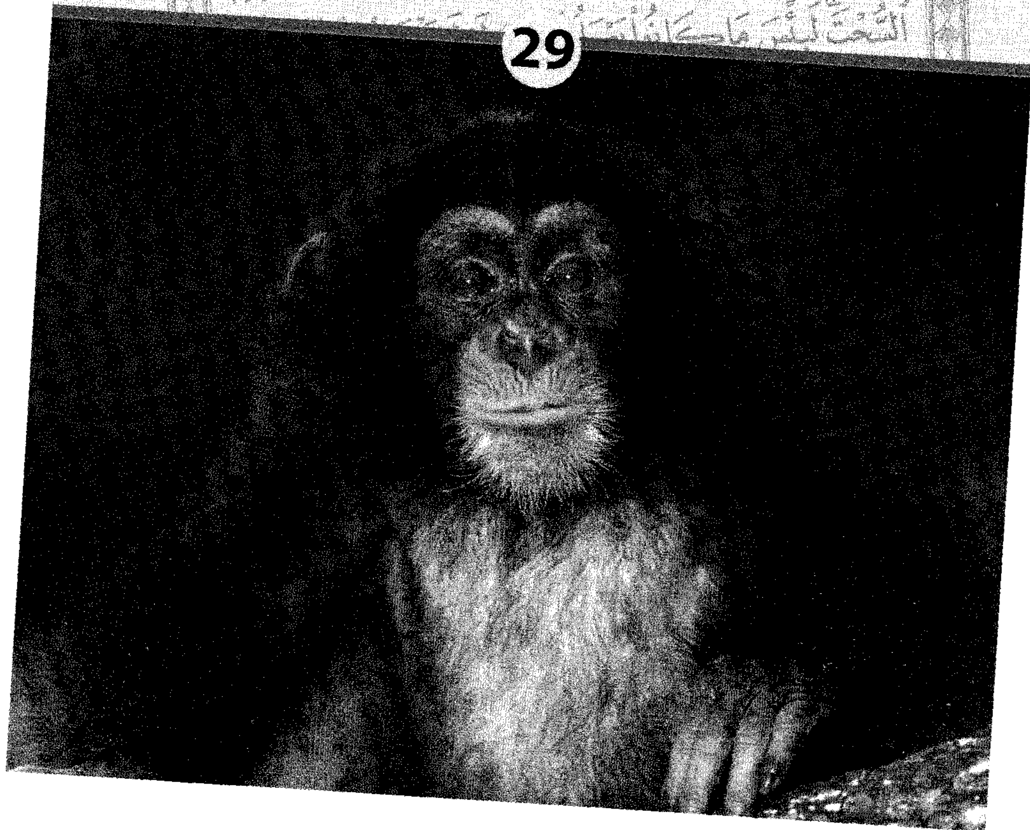
حقاً إنها رحمة من الله ـ تعالى ـ أن حجب عنا تلك الأصوات وإلا لأصبحت الحياة جحيماً لا يطاق إذا تكاثرت الأصوات من حولنا وتداخلت دون توقف أو انقطاع، ولتعطلت قدرات الإنسان عن العمل أو التفكر أو التدبر أو العبادة أو النوم أو الراحة والاستجمام، بل لفقد الإنسان عقله إذا استمع إلى جميع ما في الوجود من حوله وهو يتكلم في وقت واحد: الجبل والحجر، والنبت والشجر، والمدر والوبر، ومختلف الحيوانات والنباتات، ومختلف أنواع والطعام والشراب، واللباس والمداس، والتراب

والغبار، والهواء والماء، والقمر والكواكب، والشمس والنجوم، وغير ذلك من صور الخلق إلى حركة الكون في مجموعه. وقد روى الإمام البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كطنين النحل وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم وعنا أجمعين ـ.

وهذه الحقائق قد بدأت المعارف المكتسبة في الوصول إلى شيء منها، وسبْقُ القرآن الكريم بالإشارة إليها لمِمَّا يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد لرسول الله ﷺ الذي تلقاه بالنبوة والرسالة وبأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ
هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد
دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ «سورة المائدة، الآية: 60».

29



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في منتصف سورة «المائدة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها مائة وعشرون بعد البسملة، وهي من طوال سورة القرآن الكريم، ومن أواخرها نزولاً، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى المائدة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ من السماء كرامة لعبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المائدة» حول التشريع الإسلامي، الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من فوق سبع سمٰوات من أجل إقامة الدولة الإسلامية، وتنظيم مجتمعاتها على أساس من الأخوة الإنسانية المؤمنة بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى، وبوحدة رسالة السماء التي أكملها ربنا ـ تبارك اسمه ـ في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، وتعهد بحفظها إلى يوم الدين، فحفظت حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وسوف تبقى محفوظة بحفظ الله كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في نفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ إلى يوم الدين، بينما تعرضت كل صور الوحي السابقة إلى الضياع التام، وعاش أتباع بعضها على ذكريات نقلت شفاهاً عبر عدة قرون حتى تمت صياغتها بأيدي نفر من الناس ليسوا برسل ولا بأنبياء، فصاغوها صياغة بشرية بكل ما للبشر من النقص والبعد عن الكمال، ولذلك ما زالت تتعرض للحذف والإضافة، والمراجعة تلو المراجعة، وإلى التحرير بعد التحرير، والتغيير بعد التغيير إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها. ومن هنا كانت ضرورة مرجعية كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة لكل مؤمن بالله، وبالبعث والحساب، وبالجنة والنار، وبالخلود في الحياة الآخرة.

وهذا التشريع الإلٰهي المنزل من السماء يؤكِّد حق الله ﷻ وحده في التشريع لعباده، لتفرده بالحاكمية المطلقة فوق جميع خلقه ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، ومن هنا كانت أول بنود هذا التشريع هو عقد الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً. وهذا العقد هو القاعدة التي تقوم عليها سائر العقود في حياة المسلمين أفراداً وجماعات، بين العبد وربه، وبين العباد بعضاً لبعض. ومن هنا نصت السورة الكريمة على الوفاء بالعقود بكل صورها، وأشكالها، وأحجامها لأن الوفاء بها يعتبر وفاء لله ـ تعالى ـ الذي أنزل أوامره بها.

ويتخلَّل آيات التشريع في سورة «المائدة» تأكيد سمو العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد الخالص لله تعالى، وتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، بغير تمييز ولا تفريق، واليقين بالأخوة الإنسانية التي لخصها المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»[1]، والإيمان بالآخرة وما فيها من البعث والحساب والجنة والنار، وبالخلود في أي منهما، كل حسب عمله وحسب رحمة الله ـ تعالى ـ وفضله.

وتستعرض سورة «المائدة» قصص عدد من السابقين من أجل استخلاص الدروس والعبر، وتأمر المؤمنين بأن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وتبشرهم بالمغفرة والأجر العظيم، وتتهدَّد الكفار والمشركين الذين كذبوا بآيات الله وتنكروا لرسالته الخاتمة بأن مصيرهم إلى الجحيم. وتعرض لعقائد الكفار والمشركين، وترد عليها، وقد نسبوا إلى الله ـ تعالى ـ من الأوصاف والنعوت ما لا يليق بجلاله، ونقضوا العهود والمواثيق، وتنادي عليهم بنداءات تتكرر أكثر من مرة وذلك من مثل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة المائدة، الآية: 19».

ثم تعرض السورة الكريمة لعدد من الأحكام المتعلقة بحماية النفس، والمال، والملكيات الفردية، والمجتمعات الإنسانية، وبصيانتها من كل انحراف، وتؤكد قضية الولاء والبراء، وتدعو إلى تعظيم كلٍّ من الكعبة المشرفة، والأشهر الحرم، وإلى إنكار كل ما بقي من تقاليد الجاهلية ـ وما أكثرها في زماننا ـ.

(1) تقدم تخريجه.

وتختتم سورة «المائدة» بالتذكير بيوم القيامة، وبالإشارة إلى عدد من المعجزات التي أجراها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على أيدي عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم، ومنها إنزال المائدة التي سميت السورة باسمها، وانتهت إلى تبرئة كل من السيد المسيح وأمه الصديقة مريم ابنة عمران من فرية ادعاء ألوهيتهما، وكلاهما من عباد الله الصالحين، والله واحد أحد، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، وهو ﷻ منزه عن الصاحبة والولد.

وقد أسلفنا ذكر ما تحويه سورة «المائدة» من تشريعات إسلامية، وركائز في العقيدة، وإشارات علمية في فصل سابق، وسوف أقصر حديثي هنا على الذي جاء من دلالات علمية في الآية رقم (60) من هذه السورة المباركة، وقبل الوصول إلى ذلك أرى لزاماً عليَّ استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالتها اللغوية والمعنوية.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ :

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ «سورة المائدة، الآية: 60».

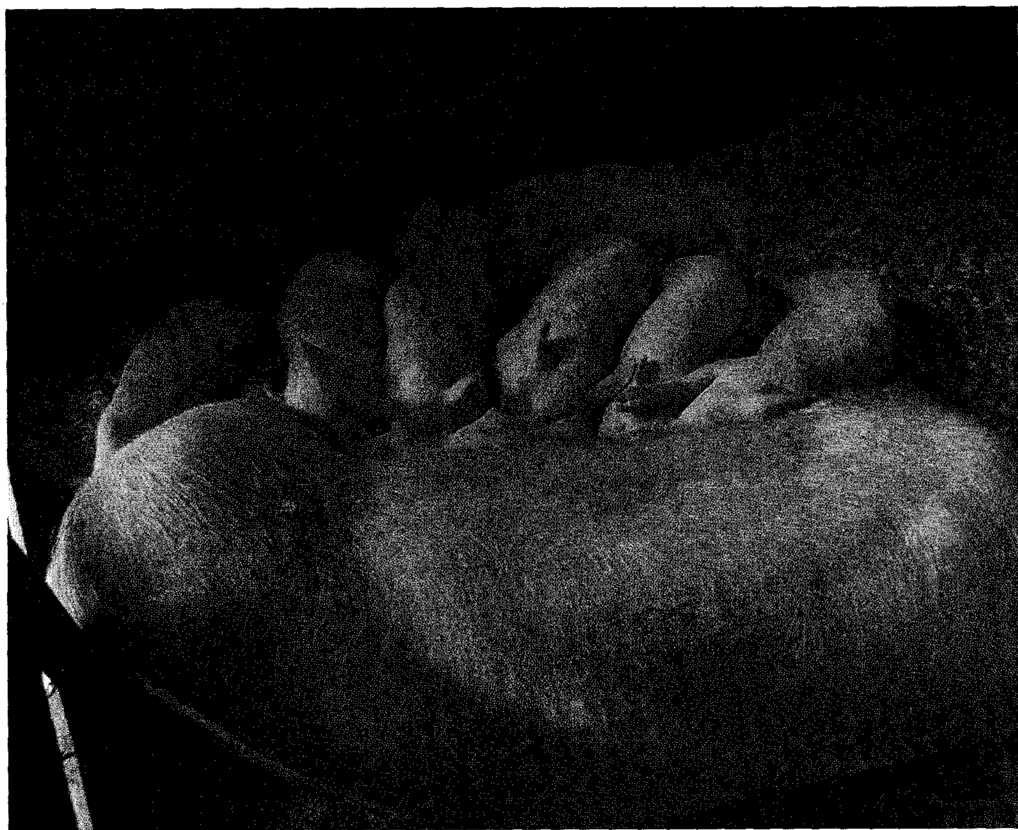
- ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ «سورة المائدة، الآية: 59»... ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعده من رحمته، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾... وقد قال سفيان الثوري عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك**»[1] وقال أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود قال:

---

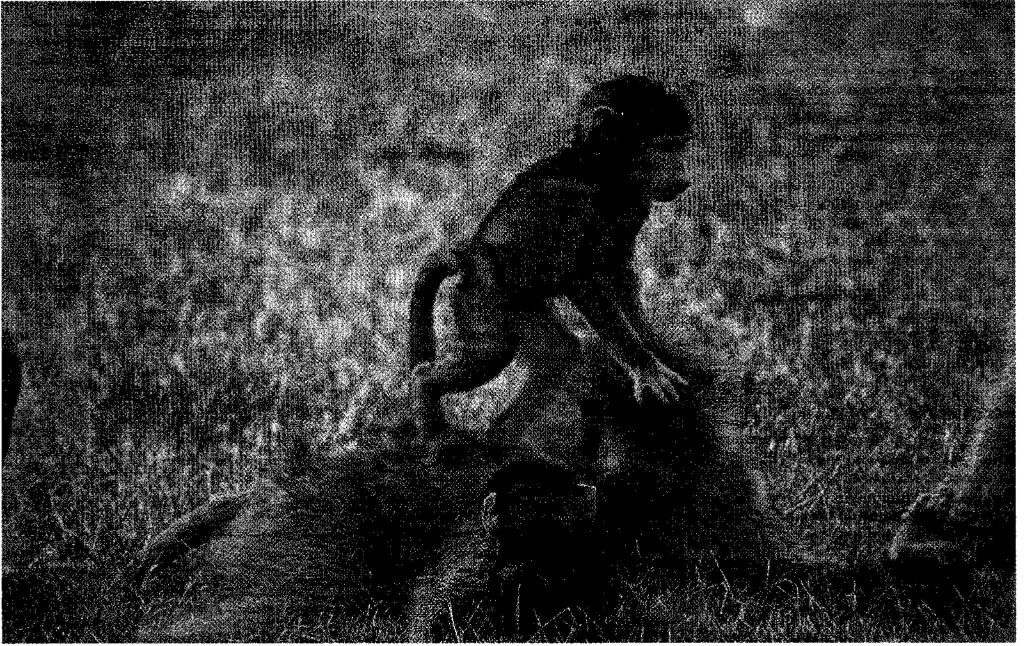
(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر (الحديث: 6712)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه.

سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود؟ فقال: «**إن الله عز وجل لم يلعن قوماً قط فمسخهم فيكون لهم نسلاً حتى يهلكهم، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله عز وجل على اليهود مسخهم فجعلهم مثلهم**»[1]. وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وقرىء ﴿وعَبَدَ الطاغوتِ﴾ بالإضافة، على أن المعنى: وجعل منهم خدم الطاغوت أي خدامه وعبيده، والمعنى: يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي مما يظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة».

- وجاء في بقية التفاسير المتاحة لي كلام مشابه، لا أرى حاجة إلى إعادته.



(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، والطبراني في «المعجم الكبير».



من الدلالات العلمية للنص الكريم

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾:

جاءت الإشارة إلى مسخ العصاة من بني إسرائيل إلى القردة والخنازير في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم [البقرة: 65؛ المائدة: 60؛ الأعراف: 166] والقردة من الثدييات المشيمية التي تنسب إلى رتبة الرئيسيات (Order Primates) وتعيش متسلقة على الأشجار، وإن كان بعضها يحيا على اليابسة، وتتميز بكبر حجم الجمجمة، وتسطح الوجه، وبأقدامها ذات الأصابع الطويلة، وبالقدرة على التسلق بالتشبث بالأطراف، كما تمتاز بزوج من الأعين القوية الإبصار والموجودة في مقدمة الرأس. وأبسط الرئيسيات تركيباً وجدت بقاياها في صخور عهد الباليوسين (The Paleocene Epoch) أي منذ نحو ستين مليون سنة مضت، وتعرف باسم البروسيمات (Prosimii)، وهي حيوانات صغيرة الحجم تشبه القردة إلا في استطالة وجهها، وتبعتها فصيلة الكوبلديات (Tarsiers) في عهد الإيوسين (The Eocene Epoch) أي منذ نحو خمسين مليون سنة مضت، ثم فصيلة الليموريات (Lemurs, Family Lemuridae)، ثم فصيلة زبابات الشجر

(Tree Shrews, Family Tupaiidae)، ثم فصيلة القردة مسترخية الذنب (New world Monkeys, Family Cebidae) وفصيلة السعادين (Old World Monkeys, Family Cercopithecidaẽ) وفصيلة القردة الكبيرة الحجم (Apes, Family Pongidae)، ومنها الجبون (Gibbon)، والشيمبانزي (Chimpanzee)، والغوريللا (Gorilla)، والأورانج أوتان (Orangutan).



والقردة تسير عادة على أربعة أرجل، ولكن البعض منها يستطيع أحياناً السير بشكل شبه معتدل على رجلين فقط مما يعطي الطرفين الأماميين شيئاً من الحرية في الحركة من مثل التسلق على الأشجار، والتقاط الطعام وتناوله.

والقرود من الرئيسيات آكلة الأعشاب واللحوم (Omnivorous)، وتحيا غالباً فوق الأشجار في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية، وهي حيوانات تتمتع بقدر من الذكاء، وبقدرة على التعلم، ولكن القرد حيوان حاد المزاج، يتسم بالأنانية الشديدة، وبالخيانة والغدر، والميل إلى الاستغلال، وحب التملق، وعدم الوفاء وحب الرشوة.

ولذلك كان المسخ من مرحلة الإنسانية إلى مرحلة القردة يعتبر امتهاناً وإذلالاً وعقاباً من الله ـ تعالى ـ للعصاة من بني إسرائيل، كما روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي ذكر أنه لم يعش مسخ من الخلق فوق ثلاثة أيام أبداً، ولم يأكل، ولم يشرب، ولم ينسل. وقال مجاهد رحمه الله إن مسخهم كان مسخاً معنوياً لا صورياً، ولكن استناداً إلى حديث رسول الله ﷺ السابق ذكره فإن المسخ كان معنوياً وصورياً في آنٍ واحد، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وهو ـ سبحانه ـ أعلى وأعلم.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾:

وصف القرآن الكريم الخنزير بأنه رجس، وحرم أكله في أكثر من مقام [البقرة: 173؛

المائدة: 3؛ الأنعام: 145؛ النحل: 115] كما جاءت الإشارة إلى مسخ عصاة اليهود إلى القردة في ثلاث آيات [البقرة: 65؛ المائدة: 60؛ والأعراف: 166] وإلى القردة والخنازير في آية واحدة [المائدة: 60]، وهي الآية الكريمة التي نحن بصددها.

ولفظة (**رجس**) هي لفظة جامعة لكل معاني القذارة والقبح، والنجاسة والإثم، وذلك لأن الخنزير حيوان ضخم الجثة، كتلي الشكل، كريه المنظر، مكتنز اللحم والشحم، قصير الأرجل، طويل البوز، قوي الأنياب، له جلد سميك مغطى بشعر خشن قذر، وهو حيوان جشع، كسول، رمام، يأكل النبات والحيوان والقمامة والجيف، كما يأكل فضلاته وفضلات غيره من الحيوانات، وهذا من أسباب قيامه بدور كبير في نقل العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان. والخنزير من الحيوانات الثديية السرية (Placental Mammals) التي تلد وترضع صغارها، ولها حافر مشقوق يحمل عدداً زوجياً من الأصابع (أربعة أصابع). ولذلك يضم في مجموعة من الثدييات المشيمية تعرف باسم الحافريات زوجية الأصابع (Artiodactyla Or Even-Toed Ungulates)، وقد عمرت الأرض خلال الخمسين مليون سنة الماضية (من بدايات عهد الإيوسين أو فجر الحياة الحديثة إلى اليوم)، والخنازير تنفصل عن هذه المجموعة من الحيوانات لكونها رمامة وغير مجترة وقذرة.

وتضم الخنازير عدداً من الأنواع البرية والمستأنسة، والتي تجمع كلها في فصيلة واحدة تعرف باسم فصيلة الخنازير (Family Suidae)، ويسمى الذكر منها باسم «العفر» (Boar) وتسمى الأنثى باسم الخنزيرة (Sow) ، وهي من النوع الولود، والخنزير المخصي يعرف باسم «الحلوف» (Hog)، ويستعار اللفظ لوصف كل قذر، شره، أناني من البشر؛ وتستخدم لفظة (Swine) في الإنجليزية للتعبير عن الخنزير بصفة عامة ـ سواء كان ذكراً أو أنثى، مخصياً أو غير مخصيّ، مستأنساً أو غير مستأنس ـ، وتستعار هذه الكلمة كذلك لوصف كل فرد من بني البشر حقير النفس، بخيل اليد، قذر المظهر والملبس، متصف بالخيانة والجبن والغدر وبغير ذلك من أحقر الصفات، فإذا أطلقت على الأنثى كان لها من هذه الحقارة حظ وافر بالإضافة إلى وصفها بالمرأة الساقطة المجردة من كل فضيلة. لذلك كان مسخ العصاة من بني إسرائيل من مستوى الآدمية المكرمة إلى مستوى الخنازير القذرة المهانة عقاباً من الله ـ تعالى ـ لهم استحقوه على فجرهم وانغماسهم في المعاصي، وحربهم للإنسانية بالمؤامرات، والخيانات والغدر عبر التاريخ.

وقد جاء ذكر مسخهم في آيتين قرآنيتين أخريين غير الآية التي نحن بصددها يقول فيهما رب العالمين ما نصه:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝﴾

«سورة البقرة، الآية: 65».

- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝﴾

«سورة الأعراف، الآية: 166».

وذكر سفيان الثوري رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي ممّا مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك**»[1] وذكر أبو داود الطيالسي رحمه الله عن ابن مسعود كذلك أنه قال: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود؟ فقال: «**لا، إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم فكان لهم نسلٌ، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم**».



(1) تقدم تخريجه.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ «سورة المائدة، الآية: ٦٠»:

والمقصود بالتعبير القرآني ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ أي عبيده وخدامه، والطاغوت لغة هو كل مجاوز للحد في العصيان لله ـ تعالى ـ بعبادة الشيطان، أو الكاهن، أو عبادة كل رأس في الضلال مفرداً كان أو جمعاً، وإن كانت الكلمة تجمع على «طواغيت»، وكلّ معبود من دون الله طاغوت، وكل سلطان لا يستمد من سلطان الله هو طاغوت، وكلّ حكم لا ينبني على أساس من شريعة الله هو طاغوت، وكل عدوان يتجاوز الحق طاغوت، سواء كان ذلك في حق الله ـ تعالى ـ. بإنكار ألوهيته أو حاكميته أو وحدانيته، أو في حق العباد بالتآمر عليهم أو الغدر بهم، أو خيانة أماناتهم أو الاعتداء على دمائهم، أو أعراضهم، أو أموالهم، أو ممتلكاتهم، أو مقدساتهم أو أراضيهم...!!

ويهود اليوم والمتهودون فيه يمثلون ركازة الكفر عبر التاريخ، وعبادة الطاغوت في أقبح صورها.. لأن اليهود ما كانوا يتبعون أحد أنبيائهم لفترة من الفترات، حتى يكفروا به ويعودوا إلى الشرك بالله، وإلى عبادة الطاغوت، ولذلك حاربوا كل نبي بعث إليهم، وحرّفوا الرسالة التي أنزلت عليهم، ولذلك لعنهم القرآن الكريم، وكما لعنهم من قبل كل من داود وعيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

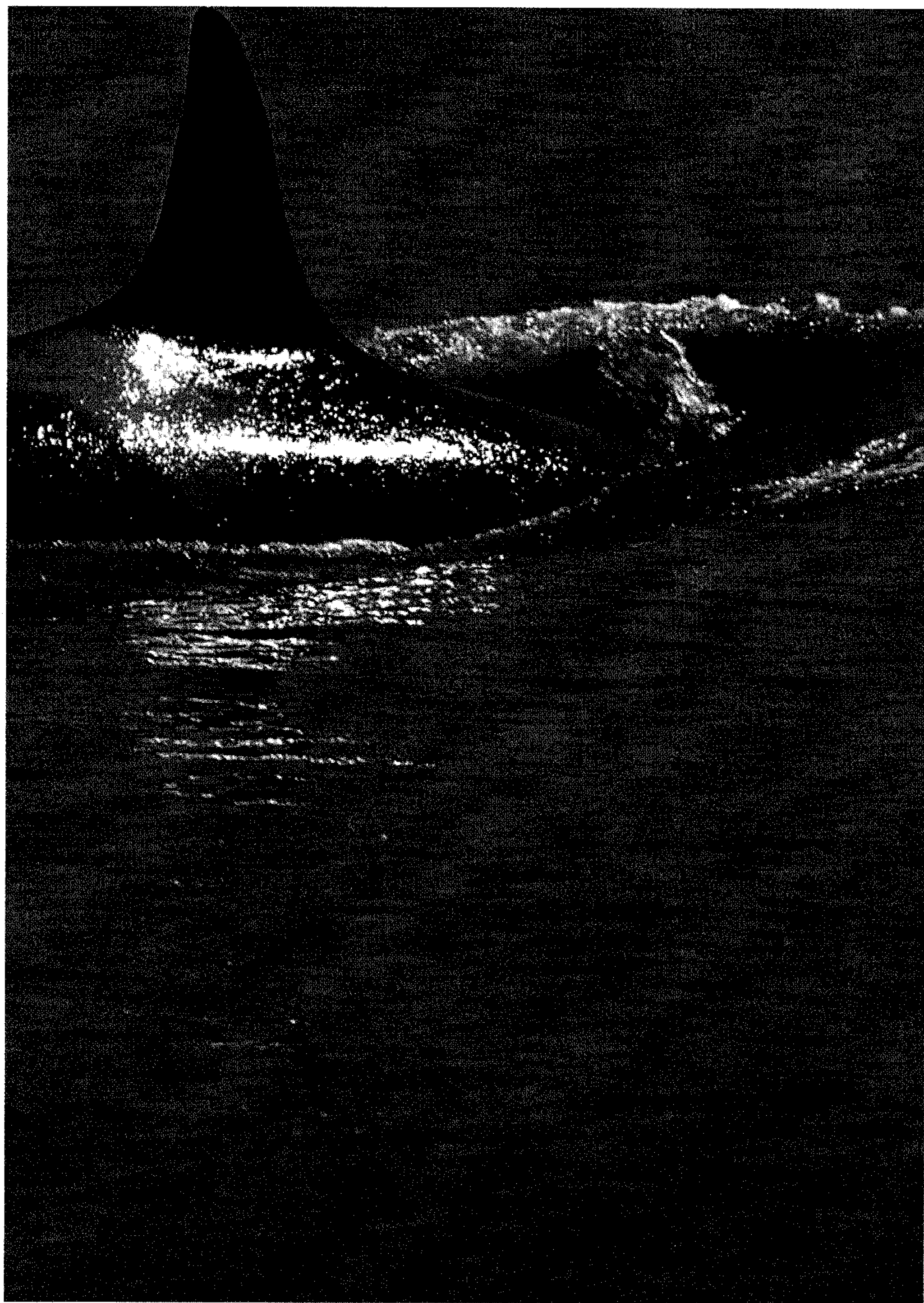
وحتى التوراة المحرفة التي يتداولونها بينهم اليوم، والتي اخترقوا بها كنائس الغرب والشرق تلعنهم، وأسفار العهد القديم تلعنهم وتصفهم بالغطرسة الفارغة، والاستعلاء الكاذب، ومحاربة كل صورة من صور الحق، ونبيهم موسى يلعنهم، وأسفار العهد الجديد تلعنهم، كما جاء القرآن الكريم بلعنهم وتحقيرهم، وذلك لأن اليهود كفروا بالله ـ تعالى ـ زمن نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فعبدوا العجل، وكفروا بالله من بعد موسى فحرفوا التوراة وباعوها قراطيس للناس واشتروا بها ثمناً قليلاً، وكفروا بالله على زمن أنبيائهم العديدين فقاتلوهم وقتلوهم عدواً بغير علم، وكفروا بالله على عهد نبي الله المسيح عيسى ابن مريم، فأنكروا نبوته، وشوهوا سمعته، وخاضوا في عرض أمه (شرفها الله) بكل اختلاق مشين، وأعلنوا عليه حروب الشياطين، ناوءوه وتآمروا عليه، وأغروا الرومان بصلبه لولا أن الله ـ تعالى ـ نجَّاه من بين أيديهم، ثم اندسوا بين حوارييه وأتباعه من أجل تحريف رسالته، وكفروا بالله على عهد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فنقضوا كل العهود والمواثيق التي أبرموها معه،

وألّبوا القبائل ضده، وتآمروا مع الكفار والمشركين عليه، وحاولوا قتله وسمّه، ولكن الله ـ تعالى ـ نجّاه من كل مؤامراتهم الخسيسة، وأغرقوا في الدسّ عليه بالإسرائيليات الكاذبة، ولكن الله تعالى تعهد بحفظ دينه الخاتم فحفظ.

وركازة الكفر هذه من غلاة اليهود والنصارى المتهودين اتخذت من محاربة قضية الإيمان بالله ـ تعالى ـ غاية لها في الحياة، ومن تحريف الدين وسيلة من وسائل الاستعلاء في الأرض، ومن التخطيط الشيطاني تحت الأرض، ومن كلٍّ من الجريمة والرذيلة وسوء الاستغلال حِرَفاً احترفوها عبر التاريخ فكرهتهم كل المجتمعات الإنسانية وأبغضتهم، ونبذتهم، واضطهدتهم، واعتبرتهم جنود الشيطان في الأرض وعبدة الطاغوت.

ولو لم ينزل في القرآن من حقائق الكون غير هذه الآية الكريمة لكانت كافية للشهادة له بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه بكل ما فيه من حق وصدق على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.





خاتمة

جاء ذكر عدد من حيوانات الأرض في حوالي مائة وأربعين آية من آيات القرآن الكريم، تناولنا منها في هذا الكتاب تسعة وعشرين آية بهدف الإشارة إلى ما جاء فيها من سبق علمي، أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه من قبل أربعة عشر قرناً على نبي أُمي ﷺ، بعث في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي فترة من الزمن لم يكن ممكناً لأحد من البشر الوصول إلى معرفة شيء من هذه الحقائق لتقادم الزمن، وبساطة الحياة، وقِلّة أدوات المعرفة العلمية. بل ندرتها في وقت تنزل الوحي بالقرآن الكريم ولقرون متطاولة من بعده.

والآيات التي تناولناها هنا هي ما يلي:

1 ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم... ﴾ «الأنعام: 38»

2 ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ «النحل: 18»

3 ـ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ «النحل: 68»

4 ـ ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا... ﴾ «النحل: 69»

5 ـ ﴿... يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ... ﴾ «النحل: 69»

6 ـ ﴿... فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ «النحل: 69»

7 ـ ﴿... وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ «العنكبوت: 41»

8 ـ ﴿... وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾
«الحج: 73»

9 ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ... ﴾ «البقرة: 26»

10 ـ ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ «القمر: 7»

11 ـ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ «القارعة: 4»

12 ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ... ﴾
«سبإ: 14»

13 ـ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ... ﴾ «البقرة: 57»

14 ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ... ﴾ «الأعراف: 133»

15 ـ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ «الغاشية: 17»

16 ـ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ «ص: 31 ـ 33»

17 ـ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾
«لقمان: 19»

18 ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ «النحل: 66»

19 ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ «النور: 45»

20 ـ ﴿... فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ...﴾
«الأعراف: 176»

21 ـ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ «النحل: 115»

22 ـ ﴿... وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ...﴾ «المائدة: 3»

23 ـ ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ «الصافات: 142»

24 ـ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ...﴾
«المائدة: 31»

25 ـ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾
«الملك: 19»

26 ـ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ «النمل: 20»

27 ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ...﴾ «الإسراء: 44»

28 ـ ﴿... وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾
«الإسراء: 44»

29 ـ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝﴾ «المائدة: 60»

ومن الحقائق العلمية التي سبقت بها هذه الآيات القرآنية الكريمة جميع المعارف المكتسبة بقرون كثيرة ما يلي:

1 ـ التأكيد على حقيقة أن كل نوع من أنواع الحياة يمثّل أمّة من الأمم التي تجمعها صفات خارجية واحدة، وبنية تشريحية داخلية واحدة، ووظائف أعضاء واحدة، وبنية كيميائية حيوية واحدة، وصفات وراثية أساسية واحدة، وظروف بيئية متقاربة ـ وإن باعدت بينها المسافات الأرضية ـ وقدرة على التزاوج فيما بينها وإنتاج سلالة خصبة، وهذا ما توصلت إليه العلوم المكتسبة في القرنين التاسع عشر والعشرين.

2 ـ أن النمل كأمة من الأمم تحيا في جماعات منظمة، لها لغاتها الخاصة بها مع قدر من الذكاء والوعي والإدراك والشعور، وحسن الإدارة والتنظيم، وتوزيع المسؤوليات، ومعرفة الله ـ تعالى ـ والمداومة على تسبيحه، ومعرفة أنبيائه وتوقيرهم.

3 ـ كذلك النحل كأمة من الأمم تعيش في جماعات تقوم الإناث فيها بحمل مسئولية الجماعة فهي التي تبني خلاياها في الجبال أو الشجر أو فيما يعرش لها الناس، وهي التي تأكل من كل الثمرات: من رحائق الأزهار وحبوب اللقاح فيها ومن زيوتها وشموعها، لتفرز ـ بما وهبها الله تعالى من قدرات ـ ذلك الشراب المختلف الألوان الذي جعل الله ﷻ فيه شفاءً للناس. ومن هنا كان الخطاب في الآية الكريمة بالتأنيث والجمع. ويشمل هذا الشراب عسل النحل، غذاء ملكات النحل، شمع النحل، العكبر (صموغ النحل وغذاؤه)، سم النحل، خبز النحل، وغير ذلك من المكوّنات التي لم تكتشف بعد.

وقد أثبتت الدراسات العلمية أن عسل النحل مضاد حيوي قوي ومطهر ناجح في مقاومة البكتيريا، والفطريات والفيروسات، وفي تطهير مختلف أنواع الجروح

والتقرحات، وفي علاج العديد من الأمراض وفي الوقاية منها. وهذه الحقائق لم تكتشف مختبرياً إلا في خلال القرن العشرين.

4 - الإشارة إلى العنكبوت بالإفراد لأنه لا يحيا حياة جماعية، وبالتأنيث لأن أنثى العنكبوت هي التي تبني بيتها، وهي الحاكمة الآمرة فيه، ووصف هذا البيت بأنه ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ ينطبق على بنائه المادي من مجموعة خيوط حريرية متناهية الدقة تفصلها مسافات بينية كبيرة، كما ينطبق على البناء الاجتماعي لهذا البيت الذي تقضي فيه الأنثى على زوجها بمجرد إخصابه لها وذلك بقتله وافتراس جسده، كما أنها تلتهم صغارها في بعض الأحوال، والصغار قد يفترس بعضهم بعضاً في أحوال أخرى.

وهذه الحقائق لم تعرف إلَّا في خلال القرن العشرين. وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها من قبل أربعة عشر قرناً يعتبر صورة من صور الإعجاز العلمي في كتاب الله.

5 - تقرير أن الذباب يختلس ما يأخذه من أشربة وأطعمة اختلاساً، وينتزعه انتزاعاً رغم أنوف أصحابها، ولذلك عبر القرآن الكريم بالتعبير المعجز: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾. ثم قال: ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾ والذبابة المنزلية تمتص الشراب بواسطة خرطومها ليصل إلى جهازها الهضمي مباشرة الذي يقوم على الفور بهضمه وتمثيله تمثيلاً كاملاً ثم تُرسله إلى جهازها الدوري مباشرة، فلا يمكن استنقاذه بأي حال من الأحوال.

أما إذا كان الطعام صلباً فإن الذبابة المنزلية تفرز عليه عدداً من العصائر الهاضمة والإنزيمات مع لعابها الذي يذيبه في الحال وتمتصّه الذبابة في ثوان معدودة ومن ثم فلا يمكن استنقاذه ابداً. ثم أضافت الآية الكريمة قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿... ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ والطالب هنا هو المسلوب الذي سلبه الذباب

شيئاً من شرابه أو طعامه، والمطلوب هو الذباب السالب للشيء، وسواء كان المسلوب هو الفرد من بني الإنسان، أو هو الصنم أو الوثن المعبود من دون الله فكلاهما ضعيف ضعف الذبابة أو أضعف، وعاجز عن خلق خلية حيّة واحدة، فضلاً عن خلق ذبابة كاملة. وهذه الحقائق لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بها هو أمر معجز حقاً.

6 ـ إن ضرب المثل القرآني بالبعوضة وما فوقها يشمل كلاً مما فوقها حجماً، وما هو أقل منها، كما يشمل كلاً مما هو أشد منها خطراً وما هو أهون منها، ويؤكد خطر البعوضة في العديد من الأمراض، كما يؤكد أن أنثى البعوض هي وحدها دون ذكرها الناقلة للأمراض، وهي حقائق مستحدثة على العلوم المكتسبة التي لم تصل إلى معرفة شيء منها إلَّا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها مما يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه كلام الله الخالق.

7 ـ إن تشبيه القرآن الكريم خروج الناس من قبورهم يوم البعث بهيئة الجراد المنتشر هو تشبيه معجز، وذلك لخروج المبعوثين من القبور عرايا كما تخرج حوريات الجراد عارية بعد انسلاخها من جلدها عدة مرات لتصل إلى حجم الحشرة البالغة، التي تتحرك بعد ذلك في أسراب يصل عدد الجراد في الواحد منها إلى عشرات البلايين. ولو تخيلنا بعث بلايين البشر الذين عمروا الأرض من عهد أبينا آدم عليه السلام إلى اليوم، وبعث البلايين التي تعمر الأرض اليوم بعد أن يموتوا وكذلك بعث سلالاتهم إلى قيام الساعة لكان التشبيه بالجراد المنتشر تشبيهاً معجزاً لأنه لم يكن لأحد من الخلق إمكانية تصور ذلك في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده.

8 ـ كذلك فإن تشبيه خروج الموتى من القبور لحظة البعث بالفراش المبثوث الذي يخرج من شرانقه حيث يتحول جلد الشرنقة (الخادرة) إلى حالة نصف شفافة، ثم ينشق لتخرج عذارى الفراش بالبلايين إن لم يكن بمئات البلايين في

الوقت الواحد هو أمر معجز لأنه يشبه تماماً تشقق القبور عن أصحابها وبعث الموتى بمئات البلايين ليخرجوا من قبورهم في ذهول واستغراب واضطراب وحيرة.

9 - الإشارة إلى عدد من الحشرات التي تأكل الخشب تحت مسمى «دابة الأرض» ومنها ما يعرف باسم «ناقرات أو ناقرات الخشب» أو «القادح» ومنها «الأرضة» أو «القرضة»، ومنها «زنابير الخشب»، و«يرقات الخنافس»، و«سوس الأشجار»، و«نحل الخشب» أو «النمل الأبيض» وغيرها من الحشرات التي لم تكن معروفة في زمن الوحي ولا لقرون من بعده. وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها مما يشهد له بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

10 - الإشارة إلى إنزال (المن والسلوى) على نبي الله موسى ومن كانوا معه في تيه شبه جزيرة سيناء، و(المن) مادة صمغية حلوة لزجة كالعسل تتجمع على الأشجار من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، ثم تجف فتتحول إلى مادة كالدقيق تكشط من فوق جذوع الشجر وفروعه وأوراقه، وتؤكل مباشرة، أو تذاب في الماء وتشرب على هيئة شراب حلو المذاق، ذي قيمة غذائية عالية.

وقد يتكون (المن) نتيجة لنزِّ العصارة الغذائية للنبات نزاً ذاتياً إلى أسطحه الخارجية ثم جفافها، أو نتيجة لجروح تحدثها الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارة الغذائية للنبات من مثل حشرة المنِّ، وقد يكون من إخراج تلك الحشرات ذاتها. أما (السلوى) فهي الطائر المعروف باسم (السمان) أو (الحجل) وهو من الطيور المهاجرة التي تتحرك في مواسم محدّدة من السنة، والتي تصطاد لأكل لحمها الذي يعتبر من أطيب لحوم الطير على الإطلاق.

والجمع بين (المن) و(السلوى) هو كذلك أمر معجز لأنه جمع بين الكربوهيدرات النباتية بما فيها من سكريات ونشويات ممثلة في (المنِّ) وبين البروتينات الحيوانية ممثلة في (السلوى) وهي من أخف البروتينات وأيسرها هضماً مما يشكل وجبة غذائية كاملة للإنسان.

وهذه القضايا من المستجدات على العلوم المكتسبة، وهذه القضايا عرضها في القرآن الكريم بهذه الدقة العلمية من الأمور المستحقة للاهتمام والانتباه لأنه لم يكن لأحد من الخلق إلمام بها أو إدراك لها في زمن الوحي، ولا لقرون عديدة من بعده.

11 ـ التأكيد على أن كلاً من الطوفان والجراد والقمل، والضفاع والدم وغيرها من النوازل هي من جند الله التي يسخرها على من يشاء من عباده ـ كما سخرها على قوم فرعون ـ عقاباً للعاصين، وابتلاءً للصالحين، وعبرة للناجين. والطوفان قد يكون هادماً مدمراً ومغرقاً إغراقاً كاملاً، والجراد يتحرك في أسراب تغطي مساحة تزيد على ألف كيلومتر مربع، بكتلة تقدر بآلاف الأطنان، ويأكل مثل هذا السرب في اليوم الواحدة قدر وزنه من المزروعات فيجرد الأرض تجريداً من غطائها الخضري، ويؤدي إلى خسائر في الثمار والمحاصيل الغضة والأشجار بعشرات الملايين من الدنانير. أما (القمل) فهي حشرة ماصة لدماء كل من الإنسان والحيوان، وناقلة لأعداد من مسببات الأمراض من مثل ڤيروسات مرض التيفوس الوبائي، ومنها ما يعيش على قشور الجلد وأجزاء الشعر وريش الطيور ويحمل أيضاً العديد من مسببات الأمراض الأخرى. ومنها ما يدمِّر مخزون الحبوب والمحاصيل وينقل إليها العديد من الأمراض. أما (الضفادع) فنقيقها مزعج غاية الإزعاج لأنه يسمع عبر مسافات تقدر بعدة أميال مما يجعل الحياة معها مستحيلة، كما أنها حاملة لأعداد من الڤيروسات المسبّبة للعديد من الأمراض من مثل أمراض الكبد والكلى، وغيرها.

وكذلك (الدم) المسفوح الذي هو حامل فضلات وجراثيم الجسم، والذي يتعفّن وينتن بسرعة فائقة، ولذا يحرم طعامه، وإذا سلط على قوم أهلكم. والعقاب بهذه النوازل من الأحداث التاريخية القديمة وورودها في القرآن الكريم هو صورة من صور الإعجاز التاريخي لهذا الكتاب العزيز.

12 ـ إن للإبل من ضخامة أجسادها، وارتفاع قوائمها، وطول أعناقها، وارتفاع أسنمتها،

ووبرها السميك وجلدها الغليظ، وذيلها المغطى بالشعر الكثيف، وأخفافها، وكلكلها ما يوفر لها من مجال الرؤية الواسعة، وضخامة المخزون الغذائي والمائي، وغير ذلك من الصفات الشكلية والتشريحية ما يجعلها بحق «سفن الصحراء» التي تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وجميل الصنعة، وإتقان الخلق، ومن هنا كان التوجيه القرآني للنظر في كيفية خلقها من السبق العلمي في كتاب الله.

13 ـ ورد في القرآن الكريم وصف ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ لخيل نبي الله سليمان عليه السلام، وهو مدح للخيل واقفة (الصافنات)، وجارية (الجياد)، فإذا وقفت كان ذلك على ثلاثة قوائم وعلى طرف القائم الرابع، وذلك من علامات السكون والاطمئنان، والثقة بالنفس والخيلاء بما أفاء الله ـ تعالى ـ عليها من قوة، وجمال، وذكاء، وقدرات على الحس والإدراك، وإذا جرت كانت في عدوها سباقة راكضة، وهذه من المعارف التي بدأ البحث في علم سلوك الحيوان في التوصل إليها، كذلك أثبت علم سلوك الحيوان أن المسح بسوق الخيل وأعناقها يلعب دوراً مهماً في ترويضها وتطمينها، وإشعارها بالود والمحبة. من هنا فإن وصف القرآن الكريم لجياد سيدنا سليمان عليه السلام بـ (الصافنات الجياد)، ووصف تعامله معها بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ كان إلهاماً من الله ـ تعالى ـ لنبيّه سليمان ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ وسبقاً علمياً وتاريخياً لم يكن ذلك معروفاً لأحد من الخلق في زمن الوحي بالقرآن الكريم خاصة إذا قورن بما جاء عن هذه الواقعة في العهد القديم.

ثم إن الإشارة في الآيات القرآنية الكريمة التي تصف هذه الواقعة (سورة صٓ، الآيات: 31 ـ 33) بالتأنيث ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ يؤكد دور أنثى الخيل في تدبير أمر جماعتها وهو من حقائق علم سلوك الحيوان التي لم تعرف إلا في أواخر القرن العشرين.

14 ـ التأكيد على ﴿... إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ وهي حقيقة علمية لم يصل إليها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين في سلسلة من

دراسات شدة أصوات الحيوانات المختلفة جاءت بما يؤكد صحة ذلك حيث تصل شدة صوت الحمار إلى ما يتجاوز مائة ديسيبل، ويصل تردده الى 350 هيرتز وهو أعلى تردد لصوت حيوان من الحيوانات التي تحيا على اليابسة، ومن أعلاها شدة. وذلك لأن شدة صوت الحوت الأزرق تصل إلى ضعف شدة صوت الحمار تقريباً (188 ديسيبل)، ولكن تردده أقل بكثير، ونظراً لعيشه في الماء فإن أغلب هذه الشدة يمتصها الماء المحيط به فلا يكاد الإنسان أن يسمع صوته إلا إذا رفع الحوت الأزرق رأسه فوق الماء، وإن كانت الحيتان يسمع بعضها بعضاً على بعد مئات الأميال في داخل كتلة الماء.

15 ـ التأكيد في القرآن الكريم على أن الله ـ تعالى ـ يخرج لنا اللبن في ضروع الحيوانات اللبونة (من بين فرث ودم)، والدراسات العلمية الحديثة أثبتت صدق ذلك حيث اتضح أن حركة الدم بين معدة الاجترار (المحتوية على الفرث) وبين باقي أجزاء جسم الحيوان من النعم حتى يصل اللبن إلى الضرع هي عملية أساسية في إنتاج اللبن، يتم خلالها ضخ حوالي خمسمائة لتر من الدم إلى الغُدد اللبنية في ضرع الحيوان من الأنعام الكبيرة كالإبل والبقر لتوفير المواد اللازمة من البروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والعناصر الفلزية وغير الفلزية، والڤيتامينات، والهرمونات اللازمة لرضعة واحدة أو لحلبة واحدة كاملة. والتي يستخلصها الدم من الفرث.

16 ـ وصف طرائق مشي الحيوانات على البطن، أو على رجلين أو على أربع وهي من وسائل تصنيفها المعتمدة من مختلف نظم التصنيف الحديثة للأحياء.

17 ـ التشبيه بـ (اللهث المستمر للكلب) في عدد من الأنفاس السريعة الضحلة التي يأخذها الكلب عن طريق فمه المفتوح، ولسانه المتدلي إلى الخارج وذلك من أجل تزويد جسمه بقدر كافٍ من الأوكسجين، وضبط كل من كمية الماء ودرجة الحرارة فيه، وتهويته في حالات الحر الشديد، والعطش الشديد، أو التعب والإعياء والإجهاد، أو المرض الشديد. والسبب في ذلك هو أن جسم الكلب لا يحمل غدداً

عرقيّة إلا في باطن أقدامه وهذه لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك يستعين الكلب بعملية (اللهاث) لتعويضه غيبة الغدد العرقية، وهو من الأمور المكتشفة حديثاً.

18 ـ تحريم أكل كل من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، والدراسات العلمية الحديثة تؤكد أضرار ذلك على صحة الإنسان. وكذلك تحريم أكل كل من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما أدركت ذكاته، وتحريم ما ذبح على النصب، والدراسات التحليلية الدقيقة لتلك اللحوم أثبتت خطر أكلها على الإنسان.

19 ـ وصف عملية التقاط الحوت لنبي الله يونس ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ بالتعبير القرآني المعجز ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ وذلك يشير إلى الحوت الأزرق ـ وهو أضخم حيوان عرف على سطح الأرض ـ، وهو عديم الأسنان، ولكن له عدد من الألواح القرنية تعرف باسم البالينات (Baleens) تتدلّى من جانبي فكه العلوي يصطاد بها مختلف صور الحياة الهائمة والسابحة من مثل صغار القشريات من عديدات الخلايا بالإضافة إلى الكائنات وحيدة الخلية والتي تدخل مع تيار الماء الواصل إلى فمه، والذي يخرجه من جانبي فكيه بعد أن يصفى ما فيه من مختلف صور الحياة الدقيقة. والحوت الأزرق يتنفس الهواء برئتيه فيضطر إلى الارتفاع برأسه فوق سطح الماء مرة كل (10) الى (15) دقيقة.

ولسعة فم الحوت الأزرق ومطاطية حلقه فإن ما يأخذه من الماء يصل إلى 50 م3 في المرّة الواحدة، ولضخامة جسده فإن لسانه يتَّسع لأكثر من خمسين رجلاً وقوفاً وفمه مغلق، ولضيق بلاعيمه فإنه لا يأكل إلا الكائنات الدقيقة والصغيرة ومن هنا كان الإعجاز القرآني في استخدام التعبير المحكم (فالتقمه الحوت) أي أنه أخذه لقمة في فمه لم يقضمه، ولم يبلعه، ولم يهضمه، حتى أمر الله ـ تعالى ـ له بالخروج فنبذه الحوت إلى الشاطئ.

والأصل في المعجزات أنها لا تعلل، ولكن يبقى هذا الوصف القرآني معجزاً

خاصة إذا ما قورن بما جاء في العهد القديم باللغتين الإنجليزية والعربية ومضاهاته بما جاء في القرآن الكريم.

20 ـ تقرير أن الله تعالى قال: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليرى قابيل ابن آدم ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ بعد أن قتله، والعلوم المكتسبة في مجال سلوك الحيوان تؤكد أن الغراب طائر شديد الذكاء، شديد الحذر، حاد الذاكرة، قوي الملاحظة، له قدرات على الاتصال بغيره، وعلى حل مشكلاته، وبناء مجتمعاته، وعلى التحايل لاختطاف الطعام، ولإخفائه، وتجهيزه، وعلى مهاجمة كل من الحيوان والإنسان والنبات.

وانطلاقاً من هذه الصفات اختار الله ﷻ الغراب ليكون معلم الإنسان لكيفية دفن موتاه بعد أول جريمة قتل لإنسان تقع على سطح الأرض.

21 ـ وصف طرائق طيران الطيور بكل من (الصف) و(القبض) وهي من أسس هندسة الطيران اليوم، ولم تكن معروفة قبل قرن واحد من الزمان، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها هو من صور الإعجاز العلمي فيه.

22 ـ الإشارة إلى اختيار نبي الله سليمان ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ لطائر (الهدهد) بالذات ليرسله إلى مملكة سبأ، وعلوم الحيوان وسلوكه تؤكد اليوم على مميزات هذا الطائر الكثيرة، والتي منها الذكاء، والأناقة، واليقظة والحذر، وسرعة الملاحظة، وقوة الذاكرة، وسعة الحيلة، والإيمان الفطري بالله ـ تعالى ـ والتسبيح غير الإرادي لجلاله، والقدرة على التعبير والفهم والحوار، وعلى الدعوة إلى توحيد الله الخالق باستمرار، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن قتله.

23 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ قد مسخ الذين اعتدوا في السبت فجعل منهم القردة والخنازير، والعلوم المكتسبة تثبت أن هذين الحيوانين من أقذر وأحقر حيوانات الأرض، وإن كان الممسوخ لا ينسل رحمة من الله ـ تعالى ـ بعباده.

24 ـ القطع بتسبيح جميع المخلوقات لله ـ تعالى ـ والعلوم المكتسبة تثبت وجود أصوات متباينة لكل من الجمادات والنباتات والحيوانات توحي بشيء من ذلك.

هذه الآيات قاربت الثلاثين من بين أكثر من مائة وأربعين آية أشارت إلى عدد من حيوانات الأرض تم اختيارها هنا لتنوّع ما فيها من قضايا الحيوان، وسوف نحاول استكمال مناقشة بقية آيات الحيوان في مجلد آخر إن شاء الله ـ تعالى ـ وكان في العمر بقية.

ومثل هذه الإشارات العلمية في كتاب الله، وما فيها من حق، وصدق، وسبق، جاء منها في هذا الكتاب العزيز ـ القرآن الكريم ـ أكثر من ألف وأربعمائة آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى تقترب دلالاتها من الصراحة لتصف أعداداً من حقائق الكون، ومكوناته، وظواهره، وسنن الله الحاكمة له، وهذه الآيات لم تنزل إلينا من قبيل الإخبار العلمي المباشر وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد ترك مجال الكسب العلمي والتقني لاجتهادات الناس جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة انطلاقاً من محدودية إمكانات الإنسان، وللطبيعة التراكمية للمعارف العلمية والتقنية، ولعجز العقل البشري عن تقبل كليات القضايا العلمية دفعة واحدة لاحتياجه في ذلك الى النظر والاستقراء، وإلى التجربة والملاحظة والاستنتاج حتى يتفهم طبيعة الأشياء تفهماً مؤصلاً تأصيلاً سليماً.

والنظر في الآيات الكونية الواردة في كتاب الله يوضح لكل ذي بصيرة أنها جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، والقادرة على البعث، والشاهدة للخالق ﷻ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه الذين خلقهم جميعاً في زوجية كاملة ـ من اللبنات الأولية لكل من المادة والطاقة إلى الإنسان ـ، كما يشهد له ـ تبارك وتعالى ـ بالمغايرة التامة لجميع خلقه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ «سورة الشّورىٰ، الآية 11».

وتبقى هذه الآيات الكونية في كتاب الله الخالق خطاباً لأهل عصرنا ـ عصر العلم

والتقنية الذي نعيشه ـ والذي فتن أغلب الناس فيه بالعلوم البحتة وتطبيقاتها فتنة كبيرة، خاصة في مجتمعات انحرفت عن منهج الله ـ تعالى ـ بعد أن فقدت صلتها بوحي السماء فتشوهت ركائز الدين في تصورات أفرادها وجماعاتها وقادتها تشوهاً صرفها عن فهم رسالة الإنسان في هذه الحياة: عبداً لله يعبده ـ تعالى ـ بما أمر، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها، وحولهم الى وحوش كاسرة مستعلية بتقنيات الدمار الشامل لابتزاز بعضهم بعضاً وتطبيق شرائع الغاب على أهل الأرض. وهؤلاء الناس الذين وصفهم القرآن الكريم بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞﴾ «سورة الأنعام، الآية: 44».

وعلى الرغم من ذلك فإن إنقاذ هؤلاء الضالين واجب علينا قبل إفناء الحياة على الأرض، وقبل أن ينزل بهم عذاب الله، وهم ـ في ضلالهم ـ ما عادوا يؤمنون بغير ماديات هذه الحياة، فلم يعد يجدي معهم حوار الأديان، والحديث عن حقائق الموت، وحياة القبر، وحساب القبر، وهول البعث، وهول الحساب والميزان والصراط، وعدالة الجزاء في الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

لذلك فإن ربنا ـ المحيط علمه بكل شيء ـ أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة لغة الخطاب مع هؤلاء الضالين ألا وهي لغة العلم، وهي اللغة الوحيدة التي يفهمها أهل عصرنا. ومن هنا كانت ضرورة الاهتمام بالآيات الكونية في كتاب الله وإعادة تفسيرها باستخدام المعارف العلمية الحديثة وذلك من أجل فهمها فهماً صحيحاً في حدود الضوابط التي وضعت لذلك، وذلك لأن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه. وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً في إطار اللغة وحدها، على أهمية ذلك وضرورته.

وانطلاقاً من هذا الفهم الصحيح للآيات الكونية الواردة في كتاب الله يمكن لنا إثبات سبقها بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون التي لم يكن ممكناً لأحد من الناس الوصول

إليها في زمن الوحي بالقرآن الكريم ولا لقرون عديدة من بعده، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذه الحقائق في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي غير الله الخالق ﷻ وإذا وصلنا بعقلاء زماننا إلى هذا الفهم أمكن لنا توصيل الدعوة الإسلامية إليهم - في صفائها الرباني، وإشراقاتها النورانية -، والتي لم تعرض على عاقل باللغة التي يفهمها ورفضها أبداً، فإن لم يُسَلِّم بالإيمان بها أحنى رأسه إجلالاً لها، وتوقيراً للحق الذي تدعو إليه وتحمله.

والتبليغ عن الله ﷻ وعن خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - فريضة علينا نحن معشر المسلمين، قصرنا فيها تقصيراً كبيراً، وتركنا الساحة مفتوحة لغلاة كل من الحركة الصهيونية العالمية والصليبية الدولية ليملأوا صدور الخلق هلعاً من الإسلام والمسلمين، ومن إمكانية قيام أية صحوة أو وحدة إسلامية، وأصبح هَمُّ الإعلام في العالم كله هو الإساءة إلى الإسلام، وتشويه صورة المسلمين، وأصبح هَمُّ القيادات السياسية الكبرى في العالم التخطيط لغزو وإعادة احتلال بلاد المسلمين والتركيز على مختلف صور الاختلافات الدينية، والمذهبية، والعرقية من أجل مزيد من تفتيت المسلمين، والحيلولة دون وحدتهم ودون أية صحوة إسلامية حقيقية. وهذا بالضبط ما تفعله الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها اليوم في المنطقتين العربية والإسلامية، وتفعله كذلك دول الوحدة الأوروبية بمختلف أعضائها. ففي الوقت الذي اتحدوا فيه - على اختلاف أعراقهم، ومعتقداتهم، ومذاهبهم، ولغاتهم وعلى أنقاض تاريخهم المليء بالدماء والأشلاء والحروب انطلاقاً من حقيقة اجتماعية غدت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار لكل ذي بصيرة مؤداها أنه لم يعد هناك مجال لتجمع بشري أقل من ثلاثمائة إلى أربعمائة مليون نسمة أن تكون له بصمة على مجريات الأحداث العالمية، بل عليه أن يحيا تابعاً ذليلاً للقوى الكبرى وما تمليه على مثله من تلك التجمعات البشرية الصغيرة من أوامر، وهذا بالضبط ما تفعله كل من الولايات المتحدة الأمريكية ومنظمة الوحدة الأوروبية في عالم اليوم.

وفوق تحويلنا إلى كنتونات متناثرة ضعيفة هزيلة يهيمن عليها الكيان الصهيوني الغريب الذي زرع بالقوة في قلب المنطقة العربية لإفسادها وتيسير الهيمنة الصهيونية/ الصليبية عليها

وعلى مقدراتها، خططت القوى الكبرى من أجل تخلفنا العلمي والتقني، والاقتصادي والسياسي والعسكري، والاستراتيجي، والإعلامي والتعليمي، وفي كل منحى من مناحي الحياة. وعلى الرغم من ذلك كله بقي بيدنا مفتاح القلوب وهو الدعوة إلى دين الله باللغة التي يفهمها أهل عصرنا وهي لغة العلم لإثبات أن القرآن الكريم بما يحويه من سبق علمي في أكثر من ألف آية قرآنيّة صريحة لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ وحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً: سورة سورة، وآية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بذلك الحفظ الدقيق إلى ما شاء الله ـ تعالى ـ حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى يوم الدين.

من هذا كله كان الاهتمام بكل من التفسير العلمي للآيات الكونية في كتاب الله، وبقضية الإعجاز العلمي لهذا الكتاب العزيز فهما طوق النجاة لأمة الإسلام في الزمن الصعب الذي نعيشه. وعلى الحكومات والمسئولين عن التربية والتعليم في عالمنا العربي والإسلامي، وعلى كل من الإعلاميين ورجال الأعمال إدراك أهمية هذا الأمر والإقبال على دعمه مادياً ومعنوياً، وفرضه على مناهج التعليم في مختلف مستوياتها، وتشجيع البحث العلمي للدرجات الجامعية العليا في هذين المجالين الهامين، وتأسيس المراكز البحثية الخاصة بهما قبل اجتياح بلادنا بجيوش الغزاة والمستعمرين الجدد الذين سرقوا أرض فلسطين ثم أراضي تركستان والشيشان وداغستان، ثم سبتة ومليلية وجزيرة ليلى في المغرب العربي بمؤامرات دولية حقيرة قادتها كل من بريطانيا وفرنسا وإسبانيا، وثبتتها من بعد كل من الاتحاد السوڤيتي السابق والولايات المتحدة الأمريكية. ثم احتلّوا كلاً من أفغانستان، ودول الخليج العربي والعراق ويخططون للمزيد من احتلال أراضي المسلمين انطلاقاً من إنكارهم لحقيقة أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمد ابن عبد الله هو خاتم أنبيائه ورسله، وطمعاً في نهب ثروات المسلمين من جديد. ومن الغريب حقاً أن يجند نفر من المنتسبين الى الأمتين العربية والإسلامية قلمه ولسانه لمهاجمة التفسير العلمي للآيات الكونية في كتاب الله وللطعن في قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة إما جهلاً، أو

خيانة، أو عمالة، حتى أصبح هؤلاء مخلباً لأعداء الله يضاعفون به الطعنات في جسد الأمتين العربية والإسلامية وهم لا يشعرون بذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝﴾ «سورة يوسف، الآية: 21» وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

1 ـ **إبراهيم، محمد إسماعيل**: «القرآن وإعجازه العلمي» دار الفكر العربي ـ القاهرة.

2 ـ **إبراهيم، مدحت حافظ**: «الإشارات العلمية في القرآن الكريم» مكتبة غريب ـ القاهرة (1993).

3 ـ **أحمد، حنفي**: «التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن» ـ دار المعارف بمصر (454 صفحة) (1960م).

4 ـ **الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود شكري (ت 1270 هـ)**: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة (بدون تاريخ)؛ دار الفكر ـ بيروت (1398 هـ/ 1978م)؛ دار إحياء التراث العربي/ الحلبي/ مصر (ط 4) 1405هـ/ 1985م.

5 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ)**: «إعجاز القرآن» ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1398 هـ/ 1978م (89 صفحة).

6 ـ **ابن أبي الإصبع، العدواني المصري**: «بديع القرآن» ـ القاهرة (1377هـ/ 1957م).

7 ـ **ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد بن حزم الظاهري**: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني، المطابع الأميرية ـ القاهرة (1397هـ/ 1977م).

8 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد**: «المقدمة» ـ القاهرة (1322هـ/ 1904م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1419هـ/ 1998م)؛ دار الشعب ـ القاهرة بتحقيق د. علي عبد الواحد وافي (بدون تاريخ).

9 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد**، «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» ـ بيروت (1379هـ/ 1959م) ـ (1381هـ/ 1961م).

10 ـ **ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت 224هـ)**: «فضائل القرآن»؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1411هـ/ 1991م).

11 ـ **ابن عاشور، محمد الطاهر**: «التحرير والتنوير في التفسير»، الدار التونسية للنشر ـ تونس (1391هـ/ 1971م)، (1404هـ/ 1984م).

12 ـ **ابن عبد السلام، العز**: «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز»، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

13 ـ **ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت 543)**: «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ـ (1331هـ/ 1912م).

14 ـ **ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت 546 هـ)**: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ـ الدوحة) (1398هـ/ 1978م)؛ دار الكتب العلمية (1413هـ/ 1993م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

15 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774هـ)**: «تفسير القرآن العظيم» (4 أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة (ط 2)، (1373هـ/ 1954م).

16 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774هـ)**: «فضائل القرآن» ـ مطبعة المنار ـ (القاهرة 1327هـ/ 1909م).

17 ـ **أبو حيان الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن يوسف**: «تفسير البحر المحيط» ـ مطبعة

دار السعادة ـ القاهرة ـ (1328هـ/ 1910م)، دار الفكر ـ بيروت (ط2) (1403هـ/ 1983م).

18 ـ **أبو خليل، شوقي**: «الإنسان بين العلم والدين»، مطبعة الإنشاء بدمشق (1970م) 271 صفحة.

19 ـ **أبو زهرة، محمد**: «المعجزة الكبرى»، دار الفكر العربي ـ القاهرة (1977م).

20 ـ **أبو السعود، محمد بن محمد العماري**: تفسير أبي السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة ـ (1275هـ/ 1858م).

21 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ)**: «إعجاز القرآن» ـ تحقيق السيد أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة 1349 هـ/ 1930م)؛ دار المعارف ـ القاهرة (1391هـ/ 1971م). ومصطفى الحلبي (1398هـ/ 1978م)، وعالم الكتب ـ بيروت (1408هـ/ 1988م).

22 ـ **البغوي، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوي المسمى «معالم التنزيل» ـ تحقيق خالد عبد الرحمٰن العك، ومروان سوار، دار المعرفة ـ بيروت (1406هـ/ 1986م).

23 ـ **البقاعي، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة (ط 2)، (1413هـ/ 1992م)؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1415هـ/ 1994م).

24 ـ **بن نبي، مالك**: الظاهرة القرآنية، دار الفكر ـ بيروت 1968م (364صفحة).

25 ـ **بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمٰن)**: «الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية وبيانية»، دار المعارف (1393هـ/ 1973م)، الطبعة الثانية (1404هـ/ 1984م)، الطبعة الثالثة (1407هـ/ 1987م).

26 ـ **بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمٰن)**: «التفسير البياني للقرآن الكريم» (في جزأين) ـ دار المعارف ـ القاهرة (1382هـ/ 1962م).

27 ـ **بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمٰن)**: «القرآن والتفسير العصري» دار المعارف ـ القاهرة 1390هـ/ 1970م، (175 صفحة).

28 ـ **البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي**: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية ـ القاهرة (1305هـ/ 1910م).

29 ـ **البيومي، محمد رجب**: «البيان القرآني» ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة (1421 هـ/ 2001م).

30 ـ **التجيبي، أبو يحيى محمد بن صمادح**: «مختصر تفسير الإمام الطبري» ـ دار الفجر الإسلامي ـ دمشق (1422هـ/ 2001م).

31 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ دار الرفاعي بالرياض (1403هـ/ 1983م).

32 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبدالسلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ومكتب الهلال ـ بيروت.

33 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن (ت 471هـ)**: «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي ـ القاهرة (ط 2)، مطبعة المنار ـ القاهرة (1331هـ/ 1912م)، أعيدت طباعته بواسطة دار المعرفة ـ بيروت 1398هـ/ 1978م، وبالاتفاق بين مكتبتي الخانجي والأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (1420هـ/ 2000م).

34 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن (ت 471هـ)**: «الرسالة الشافية في إعجاز القرآن» نشرت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله

أحمد، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411هـ/ 1991م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

35 ـ **الجسر، نديم**: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة (1389هـ/ 1969م). منشورات المكتب الإسلامي ـ بيروت (الطبعة الأولى: 1380هـ/ 1961م).

36 ـ **جوهري، طنطاوي (ت 1359هـ/ 1940م)**: «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) ـ (في 26 جزءاً، 13 مجلداً) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ (1340هـ/ 1920م) (الطبعة الثانية: شوال 1350هـ/ 1931م).

37 ـ **الحفني، عبد المنعم محمد (1421هـ)**: «من أوجه الإعجاز العلمي في عالم النحل»؛ هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة، رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة، 75 صفحة.

38 ـ **الحمصي، نعيم**: «فكرة إعجاز القرآن»، مؤسسة الرسالة، بيروت (1980م).

39 ـ **حوى، سعيد**: «الأساس في التفسير» ـ دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (1405هـ/ 1985م).

40 ـ **الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي**: تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل في معاني التنزيل» وبهامشه تفسير البغوي (في 7 أجزاء)، المطبعة الأميرية ـ القاهرة (1231/ 1232هـ) الموافق (1815/ 1816م). أعاد طباعته كل من دار المعرفة، ودار الفكر ـ بيروت.

41 ـ **الخطابي، أبو سلمان حمد محمد بن إبراهيم (ت 388هـ)**: «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، الخطابي، والجرجاني بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (1411هـ/ 1991م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

42 ـ **خليفة، محمد محمد**: «مع آيات الله في كتاب الله» مكتبة النهضة المصرية (1983م).

43 ـ **دراز، محمد عبد الله**: «النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن»، القاهرة (1376هـ/ 1957م)، دار القلم (الكويت) 1405هـ/ 1984م.

44 ـ **الذهبي، محمد حسين**: «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة (الطبعة الثانية: 1396هـ/ 1976م).

45 ـ **الراجحي، عبد الغني**: «الأرض والشمس في منظور الفكر الإسلامي»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر (1981م).

46 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606هـ)** تفسير الرازي أو التفسير الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (في 8 مجلدات)، المطبعة البهية ـ القاهرة (1307/ 1321هـ) الموافق (1889/ 1903م)، أعادت طباعته كلٌّ من دار الكتب العلمية ـ طهران (1411هـ/ 1990م)، ودار الفكر ـ بيروت (1415هـ/ 1995م).

47 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606هـ)**: «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» تحقيق أحمد السقا (1992م) دار الجيل ـ بيروت.

48 ـ **الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر ـ الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (1384هـ/ 1964م).

49 ـ **الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت 503هـ)**: «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» ـ تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي (1392هـ/ 1972م).

50 ـ **الرافعي، مصطفى صادق**: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»؛ المكتبة التجارية ـ مصر (1961،1965م).

51 ـ **رضا، محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» ـ دار المنار/ القاهرة (1373هـ/ 1953م)؛ دار المعرفة ـ بيروت (1414هـ/ 1994م).

52 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386هـ)**: «النكت في إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411هـ/ 1991م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

53 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386هـ)**: «معاني الحروف» تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر ـ القاهرة (1973م).

54 ـ **الزرقاني، محمد بن عبد العظيم (ت 1367هـ)**: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (في جزأين) (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (1362هـ/ 1943م).

55 ـ **الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر (ت 794هـ)**: «البرهان في علوم القرآن» ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (في أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة، (1376هـ/ 1957م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة ـ بيروت (1391هـ/ 1972م).

56 ـ **الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» ـ (في أربعة أجزاء) ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1354هـ/ 1935م)، (1367هـ/ 1948م)، (1393هـ/ 1972م).

57 ـ **الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد عبد الكريم (ت 651هـ)**: «البرهان الكاشف في إعجاز القرآن»، تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب ـ مطبعة العاني ـ بغداد 1394هـ/ 1984م.

58 ـ **السعدي، عبد الرحمٰن بن ناصر**: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (1398هـ/ 1978م).

59 ـ **سعيد، عبد الستار فتح الله**: «المدخل إلى التفسير الموضوعي»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: 1411هـ/ 1991م).

60 ـ **السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت 626هـ)**: «مفتاح العلوم»، 1937م ـ مطبعة الحلبي ـ مصر.

61 ـ **سليمان، أحمد محمود**: «القرآن والعلم» دار المعرفة (1968م)، دار الكتاب العربي ـ طرابلس (1974م) (173 صفحة).

62 ـ **سيد الأهل، عبد العزيز**: «من إشارات العلوم في القرآن الكريم» دار النهضة الحديثة ـ بيروت ـ لبنان 1392هـ/ 1972م (173صفحة).

63 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911هـ)**: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (في ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1314هـ/ 1896م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1403هـ/ 1983م).

64 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911هـ)**: «الإتقان في علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: 1360هـ/ 1941م)، مصطفى الحلبي (الطبعة الرابعة: 1398هـ/ 1978م)، مكتبة دار التراث ـ القاهرة (الطبعة الخامسة: 1405هـ/ 1985م).

65 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911هـ)**: معترك الأقران في إعجاز القرآن» تعليق أحمد شمس الدين (1988م) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

66 ـ **شاكر، محمود**: «فصل في إعجاز القرآن» مقدمة الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي (1987م) دار الفكر ـ دمشق.

67 ـ **شحاته، عبد الله**: «آيات الله في الكون تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (1422هـ/ 2002م).

68 ـ **الشحات، علي أحمد علي، أحمد الوصيف، صادق نعمان (1421هـ)**: «من أوجه الإعجاز العلمي في اللبن ومكوناته»؛ هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة ـ رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة، 56 صفحة.

69 ـ **شرباتي، محمد سليم**: «تعريف التعريف بالتفسير العلمي»، دار المنهل ـ دمشق (2003م). (41 صفحة).

70 ـ **الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني**: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، مطبعة المدني بالرياض (1386هـ/ 1966م).

71 ـ **الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت 1250هـ)**: «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر (1340هـ/ 1920م)، (1349هـ/ 1930م)، دار الفكر ـ بيروت (1393هـ/ 1973م)، (1403هـ/ 1983م).

72 ـ **صالح، عبد المحسن**: «ومن كل شيء خلقنا زوجين»، عكاظ (1404هـ/ 1984م) (207 صفحة).

73 ـ **الصابوني، محمد علي**: «مختصر تفسير ابن كثير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402هـ/ 1981م).

74 ـ **الصابوني، محمد علي**: «صفوة التفاسير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402هـ/ 1981م).

75 ـ **طبارة، عفيف عبد الفتاح**: «روح الدين الإسلامي»، دار العلم للملايين 1397هـ/ 1977م (480 صفحة).

76 ـ **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ)**: تفسير الطبري المعنون «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، تحقيق محمود شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة (في 15 مجلداً)، ودار المعارف ـ القاهرة (1321هـ/ 1903م)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (1358هـ/ 1939م)، (1373هـ/ 1953م)، (1415هـ/ 1995م)، (1420هـ/ 1999م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (1388هـ/ 1968م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (1398هـ/ 1978م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (1407هـ/ 1987م).

77 ـ **الطوبي، محمد رشاد (1989م)**: «... فمنهم من يمشي على بطنه...» سلسلة اقرأ [546] دار المعارف ـ مصر ـ 133 صفحة.

78 ـ **عارف، أبو الفداء محمد عزت محمد (1998م)**: «شجرة المعجزات: التمر وفوائده الطبية»، دار الاعتصام.

79 ـ **عبد الباقي، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب ـ القاهرة (1364هـ/ 1945م).

80 ـ **عبد الجبار، القاضي**: «المغنى» وزارة المعارف المصرية.

81 ـ **عشري، عبد المنعم السيد**: «تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1985م).

82 ـ **العك، خالد عبد الرحمٰن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابي ـ دمشق (1388هـ/ 1968م).

83 ـ **العمري، أحمد جمال**: «مفهوم الإعجاز القرآني (حتى القرن السادس الهجري)» دار المعارف بمصر (1984م).

84 ـ **عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي**: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، دار الكتب العلمية بيروت.

85 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة (1331هـ/ 1912م)؛ دار المعرفة ـ بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1377هـ/ 1957م).

86 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)**:«جواهر القرآن»، مكتبة الجندي ـ القاهرة (1384هـ/ 1964م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (1401هـ/ 1981م).

87 ـ **غنيم، كارم السيد (1989)**: «عجائب العنكبوت: دراسة في القرآن والتراث والعلم الحديث»، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 112 صفحة.

88 ـ **الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت 207هـ)**: «معاني القرآن»، تحقيق النجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية (1374هـ/ 1955م).

89 ـ **القاسمي، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1376هـ/ 1957م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي.

90 ـ **القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671م)**: تفسير القرطبي المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» (في 20 مجلداً) دار الكتب المصرية (1352هـ/ 1933م)، (1358هـ/ 1939م)، (1370هـ/ 1950م)؛ (1387هـ/ 1967م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1415هـ/ 1995م).

91 ـ **القطان، مناع خليل**: «مباحث في علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (1402هـ/ 1982م).

92 ـ **قطب، سيد**: «في ظلال القرآن»، (في ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (1393هـ/ 1973م).

93 ـ **قطب، سيد**: «التصوير الفني في القرآن»، مكتبة وهبة ـ القاهرة (1369هـ/ 1949م).

94 ـ **الكرماني، محمد بن حمزة**: «البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان» تحقيق ناصر بن سليمان العمر ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض.

95 ـ **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق (1404هـ/ 1984م).

96 ـ **لجنة القرآن والسُّنَّة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع**: «المنتخب في تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة 1393هـ/ 1973م). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع. القاهرة.

97 ـ **محمود، مصطفى**: «من أسرار القرآن» مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة (1976م).

98 ـ **محمود، مصطفى**: «القرآن محاولة لفهم عصري»، دار الشروق (303 صفحات).

99 ـ **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعاني القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت الطبعة الثالثة (1407هـ/ 1987م).

100 ـ **المراغي، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغي» ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (1405هـ/ 1985م).

101 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في التفسير الموضوعي» دار القلم ـ دمشق، بيروت ـ الطبعة الأولى (1410هـ/ 1990م).

102 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في إعجاز القرآن» ـ دار المنارة ـ جدة (1408هـ/ 1988م).

103 ـ **المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد:** «خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية» مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ 1413هـ/ 1992م).

104 ـ **النجار، زغلول راغب محمد:** «سلسلة من آيات الإعجاز العلمي» الأجزاء 1 ـ 6 (942 صفحة) ـ دار الشروق الدولية (1422/ 1426هـ / 2001/ 2005م).

105 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز»؛ كليات رسائل النور (5) دار سوزلر للنشر ـ إستانبول 1414هـ/ 1994م تحقيق إحسان قاسم الصالحي، (335 صفحة).

106 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «من الآيات الكونية في القرآن الكريم»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1380هـ/ 1961م) (104 صفحة).

107 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «الدين والعلم»، دار ومطابع الشعب (1964م) (189 صفحة).

108 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «الله والعلم الحديث»، دار الشعب ـ القاهرة ـ (228 صفحة) (1982م).

109 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «الآيات العلمية» مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

110 ـ **نوفل عبد الرزاق (1989م):** «علم وبيان في تفسير القرآن»، أخبار اليوم (191 صفحة).

ثانياً: الكتب الأجنبية المترجمة:

111 ـ **بوكاي، موريس:** «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ـ دار المعارف ـ القاهرة (1398هـ/ 1978م).
(Maurice Bucaille (1976) «La Bible, le Coran et la Science», Editions Seghers, 6, Place Saint-Sulpice, 75006 Paris.

112 ـ **مونسما، چون كلوڤر (مشرف على التحرير)**: «الله يتجلى في عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندي، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة.

(The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monasma; 1958; Published by G.P. Putnam's & Sons, New York).

113 ـ **جولدزبي، ريتشارد أ. (1980م)**: «علم الحياة» ترجمة الدكتور عدنان علاوي وآخرين، مجمع اللغة العربية ـ عمان ـ الأردن.

Goldzbi, Richard A. (1980): Biology.

ثالثاً: الكتب الأجنبية:

- Curtis, H. and Barnes, N.D. (1989): «Biology»; Worth Publishers, New York, 1280p.



الدكتور زغلول راغب محمد النجار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والغربية
زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها
ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة



دار المعرفة

للطباعة والنشر
هاتف 834301 - 834332 - 858830(01) فاكس 835614(01)
ص.ب. 11/7876 بيروت ـ لبنان ـ البريد الإلكتروني info@marefah.com e.mail
http://www.marefah.com

ISBN 9953-85-016-X

